

منتديات ليلاس للثقافة والفن والأبداع
علي مولا

كتابُ الحَيَوان

أبو عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ

أول كتاب وضع في العربية جامع في علم الحيوان ويبحث في طبائع الحيوان وجرانزه وأحواله وعاداته وتناول بعض المعارف الطبيعية والفلسفية وتحدث في سياسة الأفراد والأمم والنزاع بين أهل الكلام وغيرهم من الطوائف الدينية وتحدث عن موضوعات تتعلق بالجغرافيا والطب وعادات الأعراب وبعض مسائل الفقه عدا ما امتلأ به الكتاب من شعر وفكاهة تصل إلى حد المجون بل والفحش.

نُبذة عن الكتاب والكاتب

كتاب الحيوان

فهرس المحتويات -ص 3051

الجاحظ 150-255هـ / 767-869 م

ثقافته

أساتذة الجاحظ

منهجه العلمي

الشك

النقد

التجريب والمعينة

وفاته

كتبه

كتاب البخلاء

كتاب الحيوان

كتاب الحيوان للجاحظ تحدث فيه عن العرب والأعراب، وأحوالهم وعاداتهم ومزاعمهم وعلومهم وبعض مسائل الفقه والدين وصفوة مختارة من الشعر العربي والأمثال والبيان، ونقد الكلام، ويعد أول كتاب جامع وضع في العربية في علم الحيوان.. لأن من كتبوا قبل الجاحظ في هذا المجال أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وابن الكلبي وابن الأعرابي والسجستاني وغيرهم.. كانوا يتناولون حيوانًا واحدًا وكان اهتمامهم لغويًا وليس علميًا، ولكن الجاحظ اهتم إلى جانب اللغة والشعر بالبحث في طبائع الحيوان وغرائزه وأحواله وعاداته.

وعرّفه بقوله: «هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علمي الكتاب والسنة وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، يشتهيهِ الفاتك كما يشتهيهِ الناسك...»

وسماه (الحيوان) لأنه يتتبع ما في حياة الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته النادرة، قال:

«وكانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادير الأشعار، لما ذكرت من عجبك بذلك، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله تعالى) إلى أن قال: (وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا إلا أن تستفيدوا خيراً»

و قد سمي الجاحظ بالجاحظ لبحوظ عينيه و قلبه البارد و تشبهه عيونه عيون هديب

وقد أوضح الجاحظ في "الحيوان" أسلوب تأليفه للكتاب قائلاً: "متى خرج - القارئ- من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر، ومن الشعر إلى النوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس شداد، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل والملا لأسرع حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة وإلى سخف وخرافة ولست أراه سخفاً." والأسلوب أحد المميزات الكبرى التي تمتع بها الجاحظ، فهو سهل واضح فيه عذوبة وفكاهة واستطراد بلا ملل، وفيه موسوعية ونظر ثاقب وإيمان بالعقل لا يتزعزع

الجاحظ 150-255هـ / 767-869 م

بسم الله الرحمن الرحيم
أبو عثمان عمرو بن بحر، أديب وعالم موسوعي اشتهر في القرنين الثاني والثالث الهجريين / التاسع الميلادي. ولقب بالجاحظ لبحوث عينيه وكان إلى ذلك جهم الخلقة. ولد في البصرة وفيها نشأ وترعرع. وكان أول أمره يبيع الخبز والسّمك بسيحان بالقرب من البصرة بالعراق.

لقد شغف الجاحظ منذ نشأته بالقراءة، حتى أنه اعتاد أن يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها ليطالع الكتب، التي لا يقدر على اقتنائها، المؤلفة منها والمترجمة، في مختلف العلوم وفروع

المعرفة، مما ساعده بما وُهب من قوة حفظ وسرعة خاطر، على أن يلم بمختلف العلوم والمعارف ويحصل على ذخيرة وفيرة من ثقافة عصره وأخبار الأولين، والتاريخ والكلام والإلهيات والطبيعيات والفلسفة. كما أخذ الفصاحة من شفاه العرب، ودرس اللغة والأدب والشعر والأخبار على أشهر علماء البصرة منهم أبو عبيد بن المثني، وأبو زيد الأنصاري، والأصمعي، ودرس النحو على الأخفش. أما علم الكلام وأصول المعتزلة فقد درسهما على شيخ المعتزلة أبي إسحاق النظام. ثم انتقل إلى بغداد واتصل بشيوخ اللغة والنحو والأدب والفلسفة والتاريخ وأفاد منهم كثيرا. كما اختلط الجاحظ بمختلف طبقات المجتمع من رجال الدولة وعلمائها وأدبائها، وعامة الناس، واطلع على العديد من الأوضاع الاجتماعية. فوعى كل ذلك وأحسن تسجيله ووصفه، مما أتاح له أن يصنف عددا كبيرا من الكتب والرسائل في شتى العلوم.

ولقد عرف الجاحظ بخفة روحه وميله الفطري إلى الهزل والفكاهة، ومن ثم كانت كتاباته على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والتهكم. كما أنه وُهب روحا فنية كانت تسيطر على ما يكتبه، فكانت أغلب المواضيع التي كتب فيها قريبة إلى حياة الناس وأذواقهم وأفهامهم وتراثهم. كما كان واقعا يعطي لكل مقام مقالا. ولذا فإنه لا يتردد فيما يكتبه عن أخلاق العامة

من استعمال لغتهم وألفاظهم ولو كانت سمجة بذينة أو غير
مستملحة.

وقد أهله كل ذلك أن يتولى رئاسة ديوان الرسائل أيام الخليفة
المأمون، إلا أنه طلب أن يعفى منه فأعفي، ثم اتصل برجال
الدولة في سامراء فكسب صداقتهم ورعايتهم، ولازم الوزير
محمد بن عبد الملك الزيات وهو أديب شاعر، والفتح بن خ
اقان الذي كان كالجاحظ في حبه الكتاب والمطالعة، ولم يكد
يفارقه كتاب حتى في مجلس الخليفة، وإبراهيم بن العباس
الكاتب الشاعر، ثم قاضي القضاة أحمد بن دؤاد كبير المتكلمين
وزعيم الاعتزال. وكان الجاحظ يلازم الوزير ابن الزيات
مختصا به مقربا منه، ومنصرفا عن أحمد بن دؤاد للمنافسة
بين الوزير وقاضي القضاة. ولما قبض الخليفة المتوكل على
ابن الزيات هرب الجاحظ. ولما قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ
مقيدا إلى أحمد بن دؤاد، فنظر إليه أحمد وقال: "والله ما علمتك
إلا متناسيا للنعمة، كفورا للصنيعة، معددا للمساوي وما فتني
باستصلاحي لك ولكن الأيام لا تصلح منك إلا لفساد طويتك
ورداءة داخلتك وسوء اختيارك وتغالب طبعك. فقال الجاحظ:
"خفض عليك أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر علي خير
من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن عنك من أن
أحسن وتسيء، وأن تغفو عني في حال قدرتك أجمل من

الانتقام مني. فقال له ابن دؤاد: قبحك الله، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام... فقال: جيئوا بحداد، فقال أعز الله القاضي ليفك عني أو ليزدني؟ فقال: بل ليفك عنك. فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أمره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة. فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه... ثم قال: يا غلام صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفاء، فلبس ذلك، ثم أتاه فتصدر في مجلسه."

أصيب الجاحظ في أواخر أيامه بالفالج ، فكان نصفه مفلوجا لو نشر بالمناشير ما حسَّ بها، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه. ثم توفي في البصرة في شهر المحرم عام 255هـ / 869 م في عهد المعتز بالله، بعد أن جاوز التسعين من عمره. وقيل في موته إنه توفي بوقوع مجلدات الكتب عليه، إذ اعتاد أن يصف كتبه قائمة محيطة به ويجلس عليها، وكان عليلا فسقط عليه فمات.

ترك الجاحظ مؤلفات عديدة في شتى مجالات المعرفة، كما ترك مؤلفات تمثل مدرستين متميزتين أحدهما أدبية والأخرى

في علم الكلام، فمن مؤلفاته الأدبية: البيان والتبيين ، وكتاب
البخلاء ، والمزاح والجد ، وكتاب المحاسن والأضداد ، وكتاب
عناصر الأدب ، وكتاب الأمثال ، وكتاب التاج في أخلاق
الملوك . ومن مؤلفاته في علم الكلام: الحجة في ثبوت النبوة ،
والرد على اليهود ، والرد على الجهمية ، وكتاب الحيوان وهو
الكتاب الذي انفرد به الجاحظ عن علماء عصره ومن تلوه.
وهذا ما كتب في موقع الوكيبيديا عنه:

أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري،
(159-255 هـ) أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر
العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها.

كان ثمة نتوء واضح في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكن اللقب
الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الأفق هو
الجاحظ، ، عمّر الجاحظ نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة
يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين، كتاب الحيوان،
البخلاء أشهر هذه الكتب. كتب في علم الكلام والأدب
والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة
والنساء وغيرها.

قال ابن خلدون عند الكلام على علم الأدب: «وسمنا من
شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة
كتب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الكامل للمبرد، كتاب

البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها».

ولد في مدينة البصرة نشأ فقيراً، وكان دميماً قبيحاً جاحظ العينين. طلب العلم في سن مبكرة، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، ولكن اليتيم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم، فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الوراقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته.

كانت ولادة الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ووفاته في خلافة المهدي بالله سنة 255 هجرية، فعاصر بذلك 12 خليفة عباسياً هم: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله، وعاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها.

أخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة صاحب عيون الأخبار، والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات وأبي زيد الأنصاري، ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هاتئ النظام البصري.

كان متصلاً -بالإضافة لاتصاله للثقافة العربية- بالثقافات غير العربية كالفارسية واليونانية والهندية، عن طريق قراءة

أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم، كحنين بن إسحق وسلمويه.

توجه إلى بغداد، وفيها تميز وبرز، وتصدّر للتدريس، وتولّى ديوان الرسائل للخليفة المأمون.

ثقافته

كان للجاحظ منذ نعومة أظفاره ميلٌ واضحٌ ونزوعٌ عارمٌ إلى القراءة والمطالعة حتى ضجرت أمه وتبرمت به (8). وظلّ هذا الميل ملازماً له طيلة عمره، حتى إنه فيما اشتهر عنه لم يكن يفتع أو يكتفي بقراءة الكتاب والكتابين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنّظر ويورد ياقوت الحموي قولاً لأبي هفان - وهو من معاصريه ومعاش - يدلُّ على مدى نَهَم الجاحظ بالكتب، يقول فيه: «لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنّه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كأنما ما كان ولا عَجَبَ إذ ذاك في أن يُفرد الصّفحات الطّوال مرّات عدّة في كتبه، للحديث عن فوائد الكتب وفضائلها ومحاسنها. والحقُّ أنّه «كان أشبه بألة مصوِّرة، فليس هناك شيءٌ يقرؤه إلاّ ويرتسم في ذهنه، ويظلُّ في ذاكرته أماداً متطاوله.

ولكن الجاحظ لم يقصر مصادر فكره ومعارفه على الكتب، وخاصةً أنّ ذلك عادةٌ مذمومةٌ فيما أخبرنا هو ذاته وأخبرنا

كثيرون غيره، إذ العلم الحق لا يؤخذ إلا عن معلم، فتتلمذ على أيدي كثير من المعلمين العلماء واغتنى فكره من اتصاله بهم، وهو وإن لم يتفق مع بعضهم أو لم يرض عن فكرهم فإنه أقرّ بفضل الجميع ونقل عنهم وذكرهم مراراً بين طيات كتبه.

لقد تكوّنت لدى الجاحظ ثقافة هائلة ومعارف طائلة عن طريق التحاقه بحلقات العلم المسجديّة التي كانت تجتمع لمناقشة عدد كبير وواسع من الأسئلة، وبمتابعة محاضرات أكثر الرّجال علماً في تلك الأيام، في فقه اللغة وفقه النّحو والشّعر، وسرعان ما حصلّ الأستاذيّة الحقيقيّة في اللغة العربيّة بوصفها ثقافة تقليديّة، وقد مكّنه ذكاؤه الحادّ من ولوج حلقات المعترلة حيث المناقشات الأكثر بريقاً، والمهمّة بالمشكلات التي تواجه المسلمين، وبالوعي الإسلامي في ذلك الوقت».

ونظراً لسعة علمه وكثرة معارفه وصّفه ابن يزداد بقوله: هو نسيج وحده في جميع العلوم؛ علم الكلام، والأخبار، والفتيا، والعربيّة، وتأويل القرآن، وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة.

وإن كان معاصرو الجاحظ من العلماء، على موسوعيّة ثقافتهم، أقرب إلى التّخصّص الظنحاني بالمعنى المعاصر، فإن «تردّد الجاحظ على حلقات التّدرّيس المختلفة قد نجاه من

عيب معاصريه ذوي الاختصاص الضيق. فهو بدرسه العلوم النقلية قد ارتفع فوق مستوى الكتاب ذوي الثقافة الأجنبية في أساسها القليلة النصيب من العربية وغير الإسلامية البتة»، ولذلك «لم يكتف بالتردد على أوساط معينة بغية التعمق في مادة اختارها بل لازم كلّ المجمع، وحضر جميع الدروس، واشترك في مناقشات العلماء المسجدين، وأطال الوقوف في المربد ليستمع إلى كلام الأعراب، ونضيف إلى جانب هذا التكوين، الذي لم يعد له طابع مدرسي محدود، المحادثات التي جرت بينه وبين معاصريه وأساتيده في مختلف المواضيع» وكان من أفضل الكتاب في ذلك الوقت.

أساتذة الجاحظ

أما أساتذة الجاحظ الذين تتلمذ عليهم وروى عنهم في مختلف العلوم والمعارف فهم كثيرون جدًا، وهم معظم علماء البصرة إبان حياته، المظنون أنّ الجاحظ لم ينقطع عن حضور حلقاتهم. ولكنّ مترجميه يكتفون بقائمة صغيرة منهم غالباً ما تقتصر على العلماء الأجلّة المشهورين. ومهما يكن من أمر، وبناءً على بعض المصادر، نستطيع القول: إنّ أهمّ هؤلاء الأساتذة هم:

- في ميدان علوم اللغة والأدب والشعر والرواية: أبو عبيدة معمر

بن المثنى و الأصمعي وأبو زيد بن أوس الأنصاري ومحمد بن زياد بن الأعرابي و خلف الأحمر وأبو عمرو الشيباني وأبو الحسن الأخفش وعلي بن محمد المدائني.

- في علوم الفقه والحديث: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي ويزيد بن هارون والسري بن عبدويه والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمه بالإضافة إلى ثمامة بن الأشرس الذي لازمه الجاحظ في بغداد.

- في الاعتزال وعلم الكلام: أبو الهذيل العلاف والنظام ومويس بن عمران وضرار بن عمر والكندي وبشر بن المعتمر الهلالي و ثمامة بن أشرس النُميري(17).

وثمة علماء ومفكرون آخرون لا تقلُّ أهميتهم عن هؤلاء، والجاحظ ذاته لم يغفل عن ذكر معظمهم. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أصالة الجاحظ ونبوغه وألمعيته واتقاد قريحته، وجيل إسهامه وإبداعاته وجدناه يستحقُّ بجدارةٍ كاملةٍ كلَّ ما قاله فيه مریدوه ومحبوّه والمعجبون به من تقریظاتٍ ساحرةٍ باهرةٍ، تكاد تبدو لمن لم يطلع على آثار الجاحظ وحياته وفكره أنها محض مبالغات. ومما أورده ياقوت الحموي، ويوجز فيه لنا ما سبق بلفظٍ أنيقٍ وتعبيرٍ

رشيق قوله: «أبو عثمان الجاحظ، خطيبُ المسلمين، وشيخُ المتكلمين، ومدرُّه المتقدمين والمتأخرين. إن تكلم حكي سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النُّظام في الجدل، وإن جدَّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزبد، حبيب القلوب، ومزاج الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياضُ زاهرة، ورسائله أفنانٌ مثمرة، ما نازعه منازعٌ إلا رشاه أنفأ، ولا تعرَّض له منقوصٌ إلا أقدم له التواضع استبقاءً. الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلَّم له، والعامَّة تحبُّه. جمَعَ بينَ اللسان والقلم، وبينَ الفطنة والعلم، وبينَ الهأى والأدب، وبينَ النثر والنظم، وبينَ الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه.

منهجه العلمي

انتهج الجاحظ في كتبه ورسائله أسلوباً بحثياً أقلُّ ما يقال فيه إنه منهجٌ بحثٍ علميٍّ مضبوطٌ ودقيقٌ، يبدأ بالشك ليُعْرَضَ على النِّقد، ويمرُّ بالاستقراء على طريق التعميم والشُّمول بنزوع واقعيٍّ وعقلانيٍّ، وهو «في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكِّه وتعليه كان يطلع علينا في صورة العالم الذي يُعملُ عقله في البحث عن الحقيقة، ولكنه استطاع برهافة

حسّه أن يسبغ على بحثه صبغة أدبيّة جماليّة تُضفي على المعارف العلميّة رواءً من الحسن والظرف، يرفُّ بأجنحته المهفهفة رفيف العاطف الحاني على معطيات العلم في قوالبها الجافية، ليسيغها في الأذهان ويحببها إلى القلوب، وهذه ميزة قلّت نظيراتها في التراث الإنساني.

الشك

لم يكتف أبو عثمان بالشك أساساً من أسس منهجه في البحث العلمي بل عرّض لمكانة الشك وأهميته من الناحية النظرية في كثير من مواضع كتبه، ومن أهم ما قاله في ذلك: «واعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه. ثم اعلم أنّ الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أنّ اليقين طبقات في القوة والضعف».

تبيّن لنا من ذلك مجموعة من النقاط المهمّة التي تفصح عن أصالة الجاحظ وتجلو ملمحاً من ملامح عبقريته، فهو لم يرد الشك لمحض الشك، ولا يقبل أن يكون الشك كيفما اتفق ولا في كلّ أمر على حدّ سواءٍ ولا بالطريقة ذاتها؛ إن الشك الجاحظي، بهذا المعنى، لا يختلف البتة عن الشك المنهجيّ

عند الإمام الغزالي والفيلسوف الفرنسي رينه ديكارت -
(Rene Descartes)، فكلُّ منهم أراد الشكَّ طلباً
للحقيقة؛ الحقيقة الجلية الواضحة، التي لا تقبل تفاوتاً في
الدرجات.

النقد

إنَّ تتبُّعَ كتب الجاحظ ورسائله يكشفُ لنا عن عقلية نقدية
بارعة؛ نقدية بالمعنى الاصطلاحي المنهجي وبالمعنى الشائع
للانتقاد، فنقده بالمعنى الشائع يتجلى أكثر ما يتجلى في
تهكمه وتعليقاته الساخرة التي لم يسلم منها جانبٌ من جوانب
المعرفة ولا مخطئٌ أمامه أو واصلٌ إليه خبره، ومن ذلك مثلاً
تهكمه بالخليل بن أحمد الفراهيدي من خلال علم العروض
الذي قال فيه: «العروض علمٌ مردود، ومذهبٌ مرفوض،
وكلامٌ مجهول، يستكذُّ العقول، بمستفعل ومفعول، من غير
فائدة ولا محصول».

أما نقده المنهجيُّ فما أكثر ما تجلَّى في كتبه ورسائله في
تعامله مع مختلف الموضوعات المعرفية؛ العلمية والأدبية،
ومن ذلك نقده لعلماء عصره ومحدثيه ورواته وفقهائه
والعلماء السابقين، والشواهد على ذلك جدُّ كثيرة، تجعلنا حقاً
في حيرة أمام اختيار واحد منها.

انتقد بعضهم اتجاه علماء الكلام نحو الأمور الطبيعية بالعناية
والدراسة فقال: «لو كان بدلُ النظرَ فيهما النظرَ في التوحيد،
وفي نفي التشبيه، وفي الوعد والوعد، وفي التعديل
والتجويد، وفي تصحيح الأخبار، والتفضيل بين علم الطبائع
والاختيار، لكان أصوب. فردَّ عليه الجاحظ ناقداً ادعاه
بقوله: العَجَبُ أنَّك عمدت إلى رجالٍ لا صناعة لهم ولا تجارة
إلا الدُّعَاءُ إلى ما ذُكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلا وضع
الكتب فيه والولاية والعداوة فيه، ولا لهم لذة ولا هم ولا
مذهب ولا مجاز إلا عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يقسّطوا بينَ
الجميع بالحِصص، ويعدّلوا بين الكلِّ بإعطاء كلِّ شيءٍ
نصيبه، حتّى يقع التعديلُ شاملاً، والتقسيتُ جامعاً، ويظهر
بذلك الخفيُّ من الحكم، والمستور من التدبير، اعترضت
بالتعنت والتعجب، وسطرت الكلام، وأطلت الخطب، من غير
أن يكون صوّب رأيك أديباً، وشايحك حكيماً».

وبنظرةٍ عجلَى في آثار الجاحظ «فإنك تراه وهو يطلق العنان
لقلمه في جلِّ كتبه - يزيّف الخرافات والتّرهات في عصره
وقبل عصره، ويورد عليك نقداته ومباحثاته، فيقطع في نفسك
أنّه لو جاء كثيرٌ مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين
من السّخافات، إذ إنّ الجاحظ نفسه يقول: ومما لا أكتبه لك
من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كلُّ وقاح أخبار
ولذلك ما أكثر ما كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو

الأسطورية بقوله زعم فلان، وزعموا، ثُمَّ يُعَقَّبُ بتحليله ونقده
«بعقلٍ راجح، ونظرٍ صائبٍ، وأسلوبٍ سهلٍ عذبٍ متنوّعٍ دقيقٍ
فكه، يَتَّبِعُ المعنى ويقلِّبُه على وجوهه المختلفة، ولا يزال
يولِّده حتَّى لا يترك فيه قولاً لقائل»

التجريب والمعينة

إذا كان النَّقد هو الخطوة اللاحقة على الشَّكِّ فَإِنَّ المعينة
والتَّجْرِبِ هي الخطوة المقترنة بالنَّقد والمتلازمة معه،
وخاصَّةً في مسائل العلم الطَّبِيعِي، والجاحظ لم ينس هذه
الخطوة ولم يتناسها بل جعلها عماداً لازماً من أعمدة منهجه
البحثي، وقد بدا ذلك في اتجاهين؛ أولهما قيامه هو ذاته
بالمعينة والتَّجْرِبِ، وثانيهما نقل تجارب أساتذته
ومعاصريه.

وقد أجرى الجاحظ كما أخبرنا تجارب ومعيناتٍ كثيرةً للتَّثَبُّتِ
من معلومةٍ وصلت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم
يستسغه عقله، والأمثلة على ذلك جدُّ كثيرة نذكر منها تجربته
في زراعة شجرة الآراك وقصَّته الطويلة معها للتَّأَكُّدِ مما قيل
عن تكاثر الدَّرِّ عليها ويصف لنا بُرْنِيَّةَ زجاجٍ وُضِعَ فيها
عشرون فأراً مع عشرين عقرب، وما فعلته العقارب بالفئران
وكذلك عندما أجمع أناس، بينهم طبيبٌ، على أَنَّ الجمَل إذا
نُحِرَ ومات والتمست خصيته وشقشقتة فإنهما لا توجدان،

فأرسل إلى جرّار أن يأتيه بالخصية والشقشقة إذا نحر جملاً، ففعل، فلم يكتف بذلك، فبعث إليه رسولاً يقول: «ليس يشفيني إلا المعينة» ففعل ودحض هذا الادعاء ولجأ أيضاً إلى تجريب بعض المواد الكيماوية في الحيوان ليعلم مبلغ تأثيرها فيها، وليتأكد مما قيل في ذلك ومما أورده من تجارب غيره تجريبه أستاذه النّظام عندما سقى الحيوانات خمراً ليعرف كيف يؤثر الخمر في الحيوان، ولم يكتف بنوع واحد بل جرّب على عدد كبير من الحيوانات كالإبل والبقر والجواميس والخيول والبراذين والظباء والكلاب والسّنائير والحيات وغيرها.

أما عن منهجه في معرفة الحلال والحرام فيقول: "إنما يعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق، وبالسنة المجمع عليها، والعقول الصحيحة، والمقاييس المعينة" رافضاً بذلك أن يكون اتفاق أهل المدينة على شيء دليلاً على حله أو حرمة؛ لأن عظم حق البلدة لا يحل شيئاً ولا يحرمه، ولأن أهل المدينة لم يخرجوا من طباع الإنس إلى طباع الملائكة "وليس كل ما يقولونه حقاً وصواباً".

فقد كان الجاحظ لسان حال المعتزلة في زمانه، فرفع لواء العقل وجعله الحكم الأعلى في كل شيء، ورفض من أسماهم بالنقليين الذين يلغون عقولهم أمام ما ينقلونه ويحفظونه من نصوص القدماء، سواء من ينقلون علم أرسطو، أو بعض من ينقلون الحديث النبوي.

فإذا كان بعض فلاسفة الشرق والغرب قد وقفوا أمام أرسطو موقف التلميذ المصدق لكل ما يقوله الأستاذ فإن الجاحظ وقف أمام أرسطو عقلاً لعقل؛ يقبل منه ما يقبله عقله، ويرد عليه ما يرفضه عقله، حتى إنه كان يسخر منه أحياناً. ففي كتابه الحيوان يقول الجاحظ عن أرسطو وهو يسميه صاحب المنطق: "وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية "طبقون"، حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أنها تُعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك، ولم أفهم هذا ولم كان ذلك؟!"

ويقول الجاحظ: "زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان، فسألته أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعي فلا تسعى؛ ولكنها تسعى على حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فإنها تتعشى بقم وتتغذى بقم، وأما العض فإنها تعض برأسها معاً. فإذا هو أكذب البرية".

وفاته

ويتحدث كتاب السير عن نهايته في عام 868 م الموافق لسنة (255) هـ وقد نيف على التسعين سنة. وله مقالة في أصول الدين وإليه تنسب الجاحظية. وقد هدّه شلل أقعده

وشيخوخة صالحة، عندما كان جالسا في مكتبته يطالع بعض الكتب المحببة إليه، فوق عليه صف من الكتب اردته ميتاً، لقد مات الجاحظ مدفوناً بالكتب، مخلفاً وراءه كتباً ومقالات وافكاراً ما زالت خالدة حتى الان.

كتبه

البيان والتبيين أربعة أجزاء كتاب الحيوان ثمانية أجزاء
البخلاء المحاسن والأضداد العديد من الرسائل التي حقق
بعضاً منها الدكتور عبد السلام هارون وطبعت تحت
عنوان (رسائل الجاحظ)

كتاب البخلاء

كتاب البخلاء، وهو كتاب ادب وعلم وفكاهة. وهو من أنفس الكتب التي يتنافس فيها الادباء والمؤرخون. فلا نعرف كتاباً يفوقه للجاحظ، ظهرت فيه روحه الخفيفة تهز الارواح، وتجذب النفوس. ولا نعرف كتاباً يفوقه للجاحظ، تجلى فيه اسلوبه الفياض، وبيانه الجزل الرصين، وقدرته النادرة، على صياغة النادرة، في اوضح بيان، وادق تعبير، وابرع وصف. ولا نعرف كتاباً غيره للجاحظ او لغيره، وصف الحياة الاجتماعية في صدر الدولة العباسية كما وصف: فقد اطلعنا على اسرار الاسر، ودخائل المنازل، واسمعنا حديث القوم في

شؤونهم الخاصة والعامة، وكشف لنا عن كثير من عاداتهم وصفاتهم واحوالهم.

وقد كان الذي يغلب على الظن ان يكون الجاحظ قد كتب (كتاب البخلاء) وهو في سن الشباب، وابان الفتوة، لان هذه السن في الغالب سن العبث والسخرية، والتندر والدعابة، والتفكه بعيوب الناس. ولكننا نقرأ في كتاب البخلاء من الاخبار ما يحملنا على انه كتب الكتاب او جمعه وهو هرم، يحمل فوق كتفيه اعباء السنين.

والجاحظ يشير في طليعة كتاب البخلاء انه قدمه إلى عظيم من عظماء الدولة، ولكنه لم يبيح باسمه. واننا نرجح ان يكون الكتاب كتب لواحد من ثلاثة، هم: محمد ابن عبد الملك الزيات، وزير المعتصم والواثق، لما كان بينه وبين الجاحظ من وثيق الصلة، والفتح بن خاقان وزير المتوكل، لما اثر عن الفتح من الاعجاب بكتب الجاحظ، وحثه على التأليف في مختلف الشؤون، وابن المدبر، وقد كان للجاحظ صديقا حميما.

وقد صور الجاحظ في كتابه البخلاء الذين قابلهم وتعرفهم في بيئته الخاصة خاصة في بلدة مرو عاصمة خراسان ، وقد صور الجاحظ البخلاء تصويراً واقعياً حسيماً نفسياً فكاهياً ، فأبرز لنا حركاتهم ونظراتهم القلقة أو المطمئنة ونزواتهم النفسية، وفضح أسرارهم وخفايا منازلهم واطلعنا على

مختلف أحاديثهم، وأرانا نفسياتهم وأحوالهم جميعاً، ولكنه لا يكرهنا بهم لأنه لا يترك لهم أثراً سيئاً في نفوسنا.

- وقصص الكتاب مواقف هزلية تربوية قصيرة.

- والكتاب دراسة اجتماعية تربوية نفسية اقتصادية لهذا الصنف من الناس وهم البخلاء.

و لكتاب البخلاء أهمية علمية حيث يكشف لنا عن نفوس البشر وطبائعهم وسلوكهم علاوة على احتوائه على العديد من أسماء الأعلام والمشاهير والمغمورين وكذلك أسماء البلدان والأماكن وصفات أهلها والعديد من أبيات الشعر والأحاديث والآثار فالكتاب موسوعة علمية أدبية اجتماعية جغرافية تاريخية

خطبة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وبه ثقني

جَنَّبَكَ اللَّهُ الشُّبُهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزَيَّن
في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزَّ
الحقِّ، وأودعَ صدرَكَ بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس،
وعرَّفَكَ ما في الباطل من الذلَّة، وما في الجهل من القلَّة،
ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرِكَ، وأدلَّ على
مقدار وزنِكَ، وعلى الحال التي وضعتَ نفسك فيها، ووسَّمتَ
عرضَكَ بها، ورضيتها لدينِكَ حظاً، ولمروءتِكَ شكلاً، فقد
انتهى إليَّ مِيلُكَ على أبي إسحاق، وحمَلُكَ عليه، وطعنُكَ على
مَعْبِدٍ، وتنقصُكَ له في الذي كان جرى بينهما في مساوي
الديك ومحاسنِهِ، وفي ذكر منافع الكلب ومضارِّه، والذي
خرجاً إليه من استقصاءِ ذلك وجمعه، ومن تتبَّعه ونظمه،
ومن الموازنةِ بينهما، وألْحَمَ فيهما، ثم عبتني بكتاب حيل
اللصوص، وكتلب غشَّ الصناعات، وعبتني بكتاب المُلح
والطُرف، وما حرَّ من النوارد وبرُد، وما عاد بارده حاراً
لفرط برده حتى أمتعَ بأكثر من إمتاع الحارِّ، وعبتني بكتاب
احتجاجات البخلاء، ومناقضتِهِم للسُّمحاء، والقول في الفرق
بين الصدق إذا كان ضاراً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً
في الآجل، ولمْ جُعِلَ الصدقُ أبداً محموداً، والكذبُ أبداً
مذموماً، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط
في الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلَّة

الاكتراث لسوء القالة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزُّيد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحرية، وحقيقة الجوهرية، ما كانت العقول سليمة، والآفات منفية والأخلاق معتدلة، وعبتني بكتاب الصِّرحاء والهَجَناء، ومفاخرة السُّودان والحرمان، وموازنة ما بين حق الجنولة والعمومة، وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعنان، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضع يغلبن ويفضُلن، وفي أيِّ موضع يكنَّ المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفر، وفي أيِّ موضع يكون حقهنَّ أوجب، وأيِّ عملٍ هو بهنَّ أليق، وأيِّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ، وعبتني بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الردِّ على القحطانية، وزعمت أنني تجاوزت الحمية إلى حدِّ العصبية، وأنِّي لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتقصُّ القحطانية، وعبتني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنني بخست الموالى حقوقهم، كما أنني أعطيت العرب ما ليس لهم، وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم، هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المعاد من الخطل، وحمل الناس المؤمن، وعبتني بكتاب الأصنام، وبذكر

اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلة مع اتّفاقيهما على جملة الديانة، وكيف صار عبّاد البِدَّة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الديانين إلفاً لما دانوا به، وشغفاً بما تعبّدوا له، وأظهرهم جدّاً، وأشدّهم على من خالفهم ضيغناً، وبما دانوا ضيغناً، وما الفرق بين البُدِّ والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُمّية والجنّة، ولم صوّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صوّرَ عظمائهم ورجال دعوتهم، ولم تأنّقوا في التصوير، وتجوّدوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوليّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النحل، ومن أيّ شكل كانت خُدع تلك السدنة، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة، وعبّنتي بكتاب المعادن، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفلزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها، ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف، وعبّنتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القول في معرفة الهدد واستطاعة العفريت، وفي الذي كان

عنده عِلْمٌ من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان
عنده اسم الله الأعظم، وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات،
وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات وكيف أسباب التثمير
والترقيح، وكيف يجتلب التجار الحُرَفَاءَ، وكيف الاحتيال
للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم
حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا
غشَّ الصناعات والتجارات، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد
ستروا وكشف ما مَوْهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من
أهله، وعبتني برسائلي، وبكلِّ ما كتبت به إلى إخواني
وخلطائي، من مَزْحٍ وِجْدٍ، ومن إفصاحٍ وتعريضٍ، ومن تغافلٍ
وتوقيفٍ، ومن هجاءٍ لا يزال ميسمه باقياً، ومديحٍ لا يزال
أثره نامياً ومن مُلِحٍ تُضحِكُ، ومواعظٍ تُبكي.

وعبتني برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي
معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهارها لها في
أتم حلية، وزعمت أنني قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى
حدِّ الزيدية، ومن حدِّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه، إلى
حدِّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة
مقالة الرافضة، وأن مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية،
وزعمت أن في أصل القضية والذي جرَّت عليه العادة، أن كلَّ
كبير فأوله صغير، وأن كلَّ كثير فإنما هو قليل جمع من قليل،
وأنشدت قول الراجز:

وإنما القَرْمُ من
الأفيل
من الفسيل

وفي البُحور تَغْرَق
البحورُ

بالعلم ينتفع العلم
مما يهيج له العظيم

رب جدٍ ساقه
اللعب

تقضي الأمور
حتى تظل له الدماء
تصب

بني مازن أن سب

قد يَلْحَقُ الصغِيرُ
بالجليل
وسُحِقُ النخل
وأنشدت قول الشاعر:

ربّ كبير هاجه
صغِيرُ

وقلت: وقال يزيد بن الحكم:

فاعلم بني فإنه
إن الأمور دقيقتها
وقلت: وقال الآخر:

صار جداً ما مزحت
به

وأنشدت قول الآخر:

ما تنظرون بحق
وردة فيكم
قد يبعث الأمر الكبير
صغيرة

وقالت كنبشة بنت معد يكرب:

جدعتم بعبد الله

أنف قومه

راعي المحزم

وقال الآخر:

أية نار قدح القادح

وأى جد بلغ المازح

وتقول العرب: العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحَيَّة الإحْيَّة.
وعبت كتابي في خُلُق القرآن، كما عبت كتابي في الرَّدِّ على
المشبهة؛ وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام،
كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه
وبديع تركيبه، وعبت معارضتي للزيدية وتفضيلي الاعتزال
على كلِّ نحلة، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي
على النصارى واليهود ثمَّ عبت جملة كتبي في المعرفة
والتمسث تهجينها بكلِّ حيلة، وصغرت من شأنها، وحطّطت
من قدرها، واعترضت على ناسخها والمنتفعين بها، فعبت
كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتاب أصحاب الإلهام،
وكتاب الحجّة في تثبيت النبوة، وكتاب الأخبار، ثمَّ عبت
إنكاري بصيرة غنام المرتدِّ، وبصيرة كلِّ جاحد وملحد،
وتفريقي بين اعتراض العُمر، وبين استبصار المحقِّ، وعبت
كتاب الرَّدِّ على الجهمية في الإدراك، وفي قولهم في
الجهالات، وكتاب الفرق ما بين النبيِّ والمثبي، والفرق ما
بين الحيل والمخاريق، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام
الباهرة، ثمَّ قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين
لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقيق لمعانيه، فزريت

على نَحْتِهِ وَسَبْكِهِ، كما زَرَيْتَ على معناه ولفظه، ثم طعنت في الغرض الذي إليه نزغنا، والغاية التي إليها قَصَدْنَا، على أنه كتابٌ معناه أَنبَهُ من اسمه، وحقيقته أَتَقُّ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّطُ العامي، كما يحتاجُ إليه العالمُ الخاصي، ويحتاجُ إليه الرِّيِّضُ كما يحتاجُ إليه الحاذقُ: أما الرِّيِّضُ فللتعلُّمِ والدَّرْبَةِ، وللترتيبِ والرياضةِ، وللتمرينِ وتمكينِ العادةِ، إذ كان جليلُهُ يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزلةً، وأما الحاذقُ فللكفايةِ المؤنَّةِ، لأنَّ كلَّ من التقطَ كتاباً جامعاً، وباباً من أمَّهاتِ العلمِ مجموعاً، كان له عُنْمُه، وعلى مؤلِّفه عُرْمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحبه كَدُه، مع تعرُّضِهِ لمطاعِنِ البُعَاةِ، ولاعتراضِ المنافِسِينَ، ومع عرْضِهِ عقله المكدودَ على العقولِ الفارغةِ، ومعانيه على الجهاذةِ، وتحكيمةِ فيه المتأولِّينِ والحسدةِ، ومتى ظَفِرَ بمثله صاحبُ علمٍ، أو هَجَمَ عليه طالبُ فقهٍ، وهو وادِعٌ رافِهِ ونَشِيطٌ جَامٍ، ومؤلِّفه مُتَعَبٌ مكدودٌ، فقد كُفِيَ مؤوَنَةُ جمعه وخزِنِه، وطلبه وتتبعُه، وأغناه ذلك عن طولِ التفكيرِ، واستفادِ العمرِ وفلَّ الحدِّ، وأدركَ أقصى حاجتِه وهو مجتمعُ القُوَّةِ، وعلى أنَّ له عند ذلك أن يجعلَ هُجوماً عليه من التوفيقِ، وظفره به بابلٌ من التسديدِ.

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأممِ، وتتشابهُ فيه العُرْبُ والعَجَمُ، لأنه وإن كانَ عَرَبِيًّا أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد

أَخَذَ مِنْ طَرَفِ الْفَلَسَفَةِ، وَجَمَعَ بَيْنَ مَعْرِفَةِ السَّمَاعِ وَعِلْمِ
التَّجْرِبَةِ، وَأَشْرَكَ بَيْنَ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَبَيْنَ وَجْدَانِ
الْحَاسَةِ، وَإِحْسَاسِ الْغَرِيزَةِ، وَيَشْتَهِيهِ الْفَتْيَانُ كَمَا تَشْتَهِيهِ
الشُّيُوخُ، وَيَشْتَهِيهِ الْفَاتِكُ كَمَا يَشْتَهِيهِ النَّاسِكُ، وَيَشْتَهِيهِ
اللَّاعِبُ ذُو اللَّهْوِ كَمَا يَشْتَهِيهِ الْمَجْدُ ذُو الْحَزْمِ، وَيَشْتَهِيهِ الْعُفْلُ
كَمَا يَشْتَهِيهِ الْأَرِيبُ، وَيَشْتَهِيهِ الْغَبِيُّ كَمَا يَشْتَهِيهِ الْفَطْنُ.

وَعَبَّئِي بِحِكَايَةِ قَوْلِ الْعُثْمَانِيِّ وَالضَّرَّارِيَّةِ، وَأَنْتِ تَسْمَعْنِي
أَقُولُ فِي أَوَّلِ كِتَابِي: وَقَالَتِ الْعُثْمَانِيَّةُ وَالضَّرَّارِيَّةُ، كَمَا
سَمِعْتَنِي أَقُولُ: قَالَتِ الرَّافِضَةُ وَالزَّيْدِيَّةُ، فَحَكَمْتَ عَلَيَّ بِالنَّصَبِ
لِحِكَايَتِي قَوْلِ الْعُثْمَانِيَّةِ، فَهَلَّا حَكَمْتَ عَلَيَّ بِالتَّشْيِيعِ لِحِكَايَتِي
قَوْلِ الرَّافِضَةِ وَهَلَا كُنْتُ عِنْدَكَ مِنَ الْغَالِيَةِ لِحِكَايَتِي حُجَجِ
الْغَالِيَةِ، كَمَا كُنْتُ عِنْدَكَ مِنَ النَّاصِبَةِ لِحِكَايَتِي قَوْلِ النَّاصِبَةِ وَقَدْ
حَكِينَا فِي كِتَابِنَا قَوْلِ الْإِبَاضِيَّةِ وَالصُّفْرِيَّةِ، كَمَا حَكِينَا قَوْلَ
الْأَزَارِقَةِ وَالزَّيْدِيَّةِ، وَعَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ بُنِيَتْ
الْخَارِجِيَّةُ، وَكُلُّ اسْمٍ سِوَاهَا فَانَمَا هُوَ فِرْعٌ وَنَتِيجَةٌ، وَاشْتِقَاقٌ
مِنْهَا، وَمَحْمُولٌ عَلَيْهَا، وَإِلَّا لَثُمَّا عِنْدَكَ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ، كَمَا
صَرْنَا عِنْدَكَ مِنَ الضَّرَّارِيَّةِ وَالنَّاصِبَةِ، فَكَيْفَ رَضِيَتْ بِأَنْ تَكُونَ
أَسْرَعُ مِنَ الشِّيْعَةِ، أَسْرَعُ إِلَى إِعْرَاضِ النَّاسِ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ،
اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ وَجَدْتَ حِكَايَتِي عَنِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَالضَّرَّارِيَّةِ
أَشْبَعَ وَأَجْمَعَ، وَأَتَمَّ وَأَحْكَمَ، وَأَجُودَ صِنْعَةً، وَأَبْعَدَ غَايَةً،

ورأيي قد وهنت حق أوليائك، بقدر ما قويت باطل أعدائك
ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك
على ما ادعيت واضحاً.

وعبتي بكتاب العباسية، فهلاً عبتي بحكاية مقالة من أبي
وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين
زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم، وهماً بلا راع
أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل،
وغنيمة الآجل، وأن تركهم نشرًا لا نظام لهم، أبعد من
المفاسد، وأجمع لهم على المرشد بل ليس ذلك بك، ولكنّه
بهرك ما سمعت، وملاً صدرك الذي قرأت، وأبعك وأبطرك،
فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك
بادية، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل، ولم
تعرف المصادر إذ جهلت الموارد.

رأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ في شفاء سقمك،
ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة، وأبعد من النصب، ومن
إطالة الفكرة ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة.
ولو كنت فطنت لعجزك، ووصلت نقصك بتمام غيرك،
واستكفيت من هو موقف على كفاية مثلك، وحبيس على
تقويم أشباهك كان ذلك أزين في العاجل، وأحق بالمتوبة في
الآجل، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تخطك السلامة، وقد سلم
عليك المخالف بقدر ما ابتلي به منك الموافق، وعلى أنه لم

يُبَيِّنُ مِنْكَ إِلَّا بِقُدْرٍ مَا أَلْزَمْتَهُ مِنْ مُؤْنَةٍ تَثْقِفُكَ، وَالتَّشَاغُلُ
بِتَقْوِيمِكَ، وَهَلْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمَا قَالَ الْعَرَبِيُّ: هَلْ يَضُرُّ
السَّحَابُ نَبَاحَ الْكَلَابِ، وَإِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

هَلْ يَضُرُّ الْبَحْرَ
أَمْسَى زَاخِرًا
أَنْ رَمَى فِيهِ عَلَامَ
بَحَجْرٍ

وَهَلْ حَالُنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا ضُرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ
أَهْجُوتَهَا
أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ
الْبَحْرَانِ

وَكَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

مَا أَبَالِي أَنْبَّ
بِالْحَزْنِ تَيْسُ
أَمْ لِحَايِي بظَهْرٍ غَيْبٍ
لِنَيْمٍ

وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ طُولَ إِعْرَاضِنَا عَنْكَ مَطِيَّةً لَكَ، وَوَجَّهْتَ
حِلْمَنَا عَنْكَ إِلَى الْخَوْفِ مِنْكَ، وَقَدْ قَالَ زُفَرٌ بْنُ الْحَارِثِ لِبَعْضِ
مَنْ لَمْ يَرِ حَقَّ الصَّفْحِ، فَجَعَلَ الْعَفْوَ سَبَبًا إِلَى سُوءِ الْقَوْلِ:

فَإِنْ عَدْتَ وَاللَّهِ الَّذِي
فَوْقَ عَرْشِهِ
مَنْحَتِكَ مَسْنُونٍ
الْغِرَارِينَ أَرْقَا
وَأَنْ يُعْمَسَ
الْعَرِيضُ حَتَّى يَغْرَقَا
فَإِنْ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ
تُضْرَبَ الطُّلَى

وَقَالَ الْأَوَّلُ:

وَضَعَانِ دَاوِيَّتَهَا
حَتَّى شَفَيْتُ وَبِالْحُقُودِ

بضغائن

وقال الآخر:

وما نفى عنك قوماً أنت
خائفهم

فأفعن إذا حدبوا

واحدب إذا قعسوا

كمثل وقمك جهالاً
بجهال

ووازن الشر

مثقلاً بمثقال

فأنا وإن لم يكن عندنا سنان زفر بن الحارث، ولا معارضة
هؤلاء الشر بالشر، والجهل بالجهل، والحقد بالحقد، فإن
عندي ما قال المسعودي:

فمسا تراب الأرض

منه خلقتما

ولا تأنفا أن ترجعا

فتسلما

وفيه المعاد والمصير

إلى الحشر

فما كسى الأفواه شراً

من الكبر

فلو شئت أدلى فيكما

غير واحد

فإن أنا لم أمر ولم

أنه عنكما

علانية أو قال عندي

في السر

ضحكت له كيما يلج

ويستشري

وقال النمر بن توب:

جزى الله عني جمره

جزاء مغل بالأمانة

ابنة نوفل

بما خَبَرْتُ عَنِّي

الوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا

كاذب

عليّ وقد أوليتها

في النوائب

يقول: أخرجتُ خَبرها، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عندها
ولو شئتُ أن نعارضك لعارضناك في القول بما هو أقبحُ أثراً
وأبقى وَسْماً، وأصدقُ قَيْلاً، وأعدلُ شاهداً، وليس كلُّ من تَرَكَ
المعارضةَ فقد صفح، كما أنَّه ليس من عارضَ فقد انتصر،
وقد قال الشاعر قولاً، إن فهمته فقد كَفَيْتَنَا مئونةَ المُعارضةِ،
وكفيتَ نفسَكَ لزوم العارِ، وهو قوله:

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ

ذَمِّي لِمَا

فَاخْشَ سُكُوتِي إِذْ

أَنَا مَنْصَتٌ

فَالسَّامِعُ الدَّمَّ

شَرِيكَ لَهُ

مَقَالَةَ السُّوءِ إِلَى

أَهْلِهَا

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ

إِلَى ذَمِّهِ

فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ

تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي

عَنِ الْجَاهِلِ

فِيكَ لِمَسْمُوعِ حَنَا

الْقَائِلِ

وَمُطْعَمِ الْمَأْكُولِ

كَالْأَكْلِ

أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ

سَائِلِ

ذَمُّهُ بِالْحَقِّ

وَبِالْبَاطِلِ

حَرْبَ أَخِي التَّجْرِبَةِ

العاقل
هجتَ به ذا خَيْلٍ
خابل
عليك غِبَّ الضررِ
الأجلِ

ذا إربَةٍ
فإنَّ ذا العَقلِ إذا
هَجَّتْهُ
تُبْصِرُ في عاجلِ
شَدَّاتِهِ

وقد يقال: إنَّ العفو يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم،
وقد قال الشاعر:

وبعضه لسفيهِ
القوم تدريبُ

والعفو عند لبيبِ
القوم موعظة

فإن كُنَّا أسأنا في هذا التقرُّيع والتوقيفِ، فالذي لم يأخذ فينا
بحُكم القرآن ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم
يَفْرَع إلى ما في الفِطْنِ الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ
المطرَّدة، والأمثالُ المضرُوبة، والأشعارُ السائرة، أولى
بالإساءة وأحقُّ باللائمة

الكتاب الأول

أخذ البريء بذنب المذنب

قتل لقمان بن عاد لفسانه وابنته

عناية العلماء بالملح والفكاهات

أقسام الكائنات

تقسيم النامي

تقسيم الطير

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

وسائل البيان

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

مزج الهزل بالجد في الكتاب

مدح الكتب

كون الاجتماع ضرورياً

البيان ضروري للاجتماع

خطوط الهند

نفع الحساب

فضل الكتابة

فضل القلم

فضل اليد

فضل الكتاب

السمع والكتابة

فضل التعلم

جمع الكتب وفضلها

منفعة الخط

أقوال الشعراء في الخط

الكتابات القديمة

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالقات

الرقوم والخطوط

الخط والحضارة

تاريخ الشعر العربي

صعوبة ترجمة الشعر العربي

قيمة الترجمة

ترجمة كتب الدين

مشقة تصحيح الكتب

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

الجمازات

الترغيب في اصطناع الكتاب

الكتاب قد يفضل صاحبه

أفضل الكتب

مواصلة السير في خدمة العلم

كتب أبي حنيفة

تداعي المعاني في التأليف

مقايسة بين الولد والكتاب

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

قول صحار العبدى فى الإيجاز

حقيقة الإيجاز

مواضع الإسهاب

ما يعتري الإنسان بعد الخفاء

وكيف ما كان قبل الخفاء

من طرائف عبد الأعلى القاصّ

طلب النسل

قوله فى الغرائز وبيان سبب شره الخصى

تفوق رغبة الإناث على الذكور فى الطعام

صوت الخصى

شعر الخصى

ذوات الحى والشوارب

مشى الخصى

أثر الخصاء فى الذكاء

خصيان السند

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

علقمة الفحل وعلقمة الخصى

نسل منزوع البيضة اليسرى

خصاء الروم

خصاء الصابنة

استئذان عثمان بن مظعون فى الخصاء

خصاء الجلب وقسوته

خصاء البهائم

خصاء الناس

خصاء البهائم والديكة

خصاء العرب لفحولة الإبل

خصاء العرب للخيل

أخذ البريء بذنب المذنب

قال الله عزَّ وجل: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "لَا يَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ"، وهذا حكمُ الله تعالى وآدابُ رسوله والذي أنزلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَجِ العقول.

فأمَّا ما قالوا في المثل المضروب رَمَنْتِي بِدَائِهَا وَاَنْسَلَّتْ، وأمَّا قولُ الشعراءِ، وذمُّ الخطباءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وما ضَرَبُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ
وهو رَاتِع

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ
أَمْرِي وَتَرَكْتِ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرَّ كَوُوا السليمَ ليدفعه عن السقيم، فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبرئوا السقيم.

وكانوا إذا كثرتْ إبلُ أحدهم فَبَلَّغَتْ الألفَ، فقتلوا عَيْنَ الفحلِّ،

فإن زادت الإبلُ على الألف فقتلوا العينَ الأخرى، وذلك المفقأً
والمعنى اللذان سمعتَ في أشعارهم.
قال الفرزدق:

وبيتِ المُحْتَبِي
والخافقاتِ

غلبتك بالمفقئ
والمعنى

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف
والغار، فقال الأول:

وفيهن رَعْلَاءُ
المسامع والحامي

فقات لها عَيْنٌ
الفحيل عِيَاةً

الرَعْلَاءُ: التي تشقُّ أذنها وتترك مدلاةً، لكرمها،- يذبح
العتيرة وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنيّة، كقول
الرجل: إذا بلغتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنمي، دُبِحْتُ عند
الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة من نُسك الرّجبيّة والجمع
عتائر والعتائر من الظباء فإذا بلغتْ إبلٌ أحدهم أو غنمه ذلك
العدد، استعمل التأويل وقال: إنّما قلتُ إنّي أدبُحُ كذا وكذا شاة،
والظباء شاء كما أنّ الغنم شاء، فيجعل ذلك القربان شاءً كلّهُ

مَمَّا يَصِيدُ مِنَ الظَّبَاءِ، فَلذَلِكَ يَقُولُ الحَارِثُ ابْنَ حِزَّةَ َ
الْيَشْكُرِيُّ:

تَرُّ عَنْ حَجْرَةِ الرَّبِيبِ
الظَّبَاءَ َ

عَنَّا بَاطِلًا وَظَلْمًا
كَمَا تُع

بَعْدَ أَنْ قَالَ:

نَمَّ غَازِيَهُمْ وَمِنَّا
الْجَزَاءُ

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ
أَنْ يَغ

وَكَانُوا إِذَا أوردُوا البَقْرَ فَلَمْ تَشْرَبْ، إِمَّا لَكَدْرِ المَاءِ، أَوْ لِقَلَّةِ
العَطَشِ، ضَرَبُوا الثَّورَ لِيَقْتَحِمَ المَاءِ، لِأَنَّ البَقْرَ تَتَّبَعُهُ كَمَا تَتَّبَعُ
الشَّوْلُ الفَحْلَ، وَكَمَا تَتَّبَعُ أُنْ الوَحْشَ الحِمَارَ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ
عَوْفُ بْنُ الخَرَعِ:

وَقد خَالَيْتَهُمْ فَأَبَوْا
خَلَائِي

تَمَنَّتْ طَيِّبٌ جَهْلًا
وَجُبْنًا

كضرب الثور للبقر
الظماء

هَجَوْنِي أَنْ هَجَوْتُ
جِبَالَ سَلْمَى

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكة في قتله سُلَيْك بنِ السُّلَكَة:

كالثور يُضْرَب لَمَّا
عَافَتِ الْبَقْرُ

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا تَمَّ
أَعْقِلُهُ

وَأَنْ يُشَدَّ عَلَى
وَجْعَاتِهَا التَّفْرُ

أَنْفَتُ لِلْمَرْءِ إِذْ
نَيْكَتْ حَلِيلَتُهُ

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ:

وَمَا دَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ
الْمَاءَ بَاقِرُ

كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ
أَنْ عَافَ بَاقِرُ

ولمَّا كَانَ الثَّورُ أَمِيرَ الْبَقْرِ، وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إِنَاثِ النَّحْلِ
لِلْيَعْسُوبِ، سَمَّاهُ بِاسْمِ أَمِيرِ النَّحْلِ.
وَكَانُوا يَزْعَمُونَ أَنَّ الْجَنَّ هِيَ الَّتِي تَصُدُّ النَّيِّرَانَ عَنِ الْمَاءِ
حَتَّى تُمْسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ حَتَّى تَهْلِكَ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ
الْأَعَشَى:

لَأَعْلَمَنَّ مِنْ أَمْسَى أَعَقَّ
وَأَحْرَبَا

وَمَا ذُنْبُهُ أَنْ عَافَتْ
الْمَاءَ مَشْرَبًا

وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ
إِلَّا لِيُضْرَبَا

كأته قال: إذا كان يُضْرَبُ أبداً لأنها عافت الماء، فكأنها إنما عافت الماء ليُضْرَب، وقال يحيى بن منصور الدهلي في ذلك:

وَمَا ذُنْبُهُ إِنْ كَانَتْ
الْجَنُّ ظَالِمَةً

وَتَغْرَمَ دَارِمٌ وَهُمْ
بِرَاءُ

إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقْرُ

فَأِنِّي وَمَا كَلَّفْتُمُونِي
وَرَبِّكُمْ

لِكَالْتُّورِ وَالْجَنِّيِّ
يَضْرَبُ ظَهْرَهُ

وَمَا ذُنْبُهُ أَنْ عَافَتْ
الْمَاءَ بَاقِرًا

لِكَالْتُّورِ وَالْجَنِّيِّ
يَضْرَبُ وَجْهَهُ

وَقَالَ نَهْشَلُ بْنُ حَرْبٍ:

أَتْتَرَكُ عَارِضًا وَبَنُو
عَدِيٍّ

كَدَابِ الْتُّورِ يُضْرَبُ

بِالْهَرَاوِي

الظَّمَاءُ

وَكَيْفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى
سُهَيْلاً

وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ
وَالسَّمَاءُ

وقال أبو نُؤيرة بن الحِصين، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بدُنْبِ
العَطْرَقِ:

أَبَا يُوسُفٍ لَوْ كُنْتُ
تَعَلَّمْتُ طَاعَتِي

وَنَصَحِي إِذْنُ مَا
بِعَتَّنِي بِالْمَحَلَّقِ

وَلَا سَاقَ سَرَاقِ
العِرَافَةَ صَالِحِ

بَنِيَّ وَلَا كَلَّفْتُ دُنْبَ
العَطْرَقِ

وقال خِدَاشُ بن زُهَيْرٍ حين أخذ بدماء بني محارب:

أَكَلْتُ قَتْلَى مَعْشَرِ
لَسْتُ مِنْهُمْ

وَلَا دَارُهُمْ دَارِي وَلَا
نَصْرُهُمْ نَصْرِي

أَكَلْتُ قَتْلَى العَيْصِ
عَيْصِ شَوَاحِطِ

وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ تُثَفِّ
لَهُ قِدْرِي

وقال الآخر:

عَرَكْنَا بِتِيمِ اللاتِ ذَنْبَ
بَنِي عَجَلِ

إِذَا عَرَكْتَ عَجَلًا بِنَا
ذَنْبَ طِيٍّ

ولما وَجَدَ اليهودِيُّ أَخَا حَنْبُضِ الضَّبَابِيِّ فِي مَنْزِلِهِ فَخَصَّاهُ
فَمَاتَ، وَأَخَذَ حَنْبُضُ بَنِي عَبْسٍ بِجَنَايَةِ الْيَهُودِيِّ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ
رُهَيْيرٍ: أَتَأْخُذُنَا بِذَنْبِ غَيْرِنَا، وَتَسْأَلُنَا الْعَقْلَ وَالْقَاتِلُ يَهُودِيٍّ مِنْ
أَهْلِ تَيْمَاءَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ أَنْ لَوْ قَتَلْتَهُ الرِّيحُ، لَوَدَيْتُمُوهُ فَقَالَ
قَيْسُ لِبَنِي عَبْسٍ: الْمَوْتُ فِي بَنِي ذُبْيَانَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ فِي
بَنِي عَامِرٍ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا
وَإِنْ كُنْتُ شَاطِنًا

أَكَلْتُ ذَا الْخُصِيِّينَ
إِنْ كَانَ ظَالِمًا

وَلَا يَعْذُرُ الْإِنْسِيَّ
وَالجِنَّ كَانِنًا

خَصَّاهُ امْرُؤٌ مِنْ آلِ
تَيْمَاءَ طَائِرٍ

رَهْنَتَ بَغِيفِ الرِّيحِ
إِنْ كُنْتَ رَاهِنًا

فَهَلَّا بَنِي ذُبْيَانَ
أُمَّكَ هَابِلٌ

أتاني بأخري شره
مُتَبَاطِنَا

كما تجتوي سوق
العِضَاهِ الكِرَازِنَا

إذا قُلْتُ َ قد أَقُلْتُ
من شَرِّ حَبِض

فقد جَعَلْتُ أَكْبَادُنَا
تَجْتَوِيكُمُ

قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته

ولما قَتَلَ لُقْمَانُ بِنُ عَادِ ابْنَتَهُ - وَهِيَ صُحْرُ أُخْتِ لُقَيْمٍ - قَالَ
حِينَ قَتَلَهَا: أَلَسْتُ امْرَأَةً وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَزُوجَ عِدَّةَ نِسَاءٍ،
كُلُّهُنَّ خُنَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ، فَلَمَّا قَتَلَ أَخْرَاهَنَّ وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ،
كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّاهُ صُحْرُ ابْنَتِهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا وَقَالَ:
وَأَنْتِ أَيْضاً امْرَأَةٌ وَكَانَ قَدْ ابْتُلِيَ بِأَنَّ أُخْتَهُ كَانَتْ مُحْمِقَةً وَكَذَلِكَ
كَانَ زَوْجُهَا، فَقَالَتْ لِأَحَدَى نِسَائِ لُقْمَانَ: هَذِهِ لَيْلَةُ طُهُرِي وَهِيَ
لَيْلَتُكَ، فَدَعِينِي أَنْأَمُ فِي مَضْجَعِكَ، فَإِنَّ لُقْمَانَ رَجُلٌ مُنْجِبٌ،
فَعَسَى أَنْ يَقَعَ عَلَيَّ فَأُنْجِبَ، فَوَقَعَ عَلَى أُخْتِهِ فَحَمَلَتْ بِلُقَيْمٍ،
فَهُوَ قَوْلُ النَّمْرِ بْنِ تَوْلَبٍ:

فَكَانَ ابْنُ أُخْتٍ لَهُ
وَإِبْنَمَا

عَلَيْهِ فَعُورٌ بِهَا مُظْلِمًا

فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا
مُحْكَمًا

فَضْرَبْتَ الْعَرَبُ فِي ذَلِكَ الْمَثَلِ بِقَتْلِ لُقْمَانَ ابْنَتَهُ صُحْرَاءً، فَقَالَ
خُفَّافُ بْنُ نَدْبَةَ فِي ذَلِكَ:

وَمَا أُذْنِبْتُ إِلَّا ذَنْبَ
صُحْرٍ

وَهَجْرَانَهَا ظُلْمًا كَمَا
ظَلِمْتُ صُحْرُورًا

لَقِيمُ بْنُ لُقْمَانَ مِنْ
أُخْتِهِ

لِيَالِي حَمَقٍ
فَاسْتَحْصَنْتُ

فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ

وَعَبَّاسُ يُدِبُّ لِي
الْمَنَايَا

وَقَالَ فِي ذَلِكَ ابْنُ أُذَيْنَةَ:

أَتَجَمَعُ تَهْيِيمًا
بِلَيْلَى إِذَا نَأَتْ

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ عُبَادٍ:

قَرَّبَا مَرَبَطَ النِّعَامَةِ
مِنِّي

لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ
عَنْ حِيَالٍ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا
عَلِمَ الل

هُ وَإِنِّي بَحَرَّهَا الْيَوْمَ
صَالِي

وقال الشاعر، وأظنه ابن المقفع:

فَلَا تَلَمَّ الْمَرْءَ فِي
شَأْنِهِ

فَرَبَّ مَلُومٍ وَلَمْ
يُذْنِبِ

وقال آخر:

لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ
تَلُومُ

وَكَمْ لَائِمٍ قَدْ لَامَ وَهُوَ
مُلِيمٌ

حديث سنمَّار وقال بعض العرب، في قتل بعض الملوك
لسنمَّار الرومي؛ فإنه لما علا الخورنق ورأى بُنياناً لم ير
مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن
يموت فيبني مثل ذلك البنيان لرجلٍ آخر من الملوك، رمى به

من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبِي في شيءٍ كان بينه وبين
بعض الملوك:

جَزَائِ سِنْمَارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ	جَزَائِي جَزَاهُ النَّهْ شَرَّ جَزَائِهِ
يُعَلِّي عَلَيْهِ بِالْقَرَامِيدِ وَالسَّكْبِ	سَوَى رَصَّهِ الْبُنْيَانِ سَبْعِينَ حِجَّةً
وَآضَ كَمِثْلِ الطَّوْدِ ذِي الْبَادِيهِ الصَّعْبِ	فَلَمَا رَأَى الْبُنْيَانَ تَمَّ سُحُوقَهُ
وَفَازَ لَدَيْهِ بِالْمَوَدَّةِ وَالقُرْبِ	وَوَظْنَ سِنْمَارًا بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ
فَذَاكَ لَعَمَرَ اللهُ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطْبِ	قَالَ اقْدِفُوا بِالْعِجِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ

وجاء المسلمون، يروي خَلْفٌ عن سلف، وتابَعٌ عن سابق،
وَأَخْرَجَ عَنْ أَوَّلِ، أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي عَيْبِ قَوْلِ زِيَادٍ: لَا أُخَذَنَّ

الْوَلِيِّ بِالْوَلِيِّ، وَالسَّمِيِّ بِالسَّمِيِّ، وَالجَارَ بِالجَارِ، وَلَمْ يَخْتَلَفُوا
فِي لَعْنِ شَاعِرِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ:

تَجَنَّبَ مَا يُحَاذِرُهُ
السَّقِيمُ

إِذَا أَخَذَ الْبَرِيءُ بِغَيْرِ
ذَنْبٍ

قال: وَقِيلَ لِعَمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ: إِنَّ فَلاناً لَمَّا قَدَّمَ رَجُلًا لِيُضْرَبَ
عُنُقَهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ الْمَجْنُونَ يَلِدُ عَاقِلًا
لَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: فَقَالَ عَمْرُو: مَا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَمَّا قَالَتِ التَّغْلِبِيَّةُ لِلجَحَّافِ، فِي وَقْعَةِ الْبِشْرِ: فَضَّ اللَّهُ فَانَكَ
وَأَعْمَاكَ، وَأَطَالَ سُهَادَكَ، وَأَقَلَّ رُقَادَكَ، فَوَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتِ إِلَّا نِسَاءً
أَعَالِيَهُنَّ تُدِي، وَأَسَافِلَهُنَّ دُمِّي فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: لَوْلَا أَنْ تَلِدِ
هَذِهِ مِثْلَهَا لَخَلَّيْتُ سَبِيلَهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنُ فَقَالَ: أَمَّا الْجَحَّافُ
فَجَدُوَةٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ.

قال: وَذَمَّ رَجُلٌ عِنْدَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسِ الْكَمَاةِ بِالسَّمَنِ، فَقَالَ عِنْدَ
ذَلِكَ الْأَحْنَفِ: رَبِّ مَلُومٌ لَا ذَنْبَ لَهُ.
فَبِهَذِهِ السِّيْرَةِ سَرَّتْ فِينَا.

وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن:

مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا
جَنَى لَسَعِيدُ

وَإِنَّ أَمْرًا أَمْسَى
وَأَصْبَحَ سَالِمًا

عناية العلماء بالملح والفكاهات

وقلت: وما بال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر،
وأرباب النحل، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل، وورثة
الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء،
وكتب الفراغ والخلعا، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب
أصحاب الخصومات، وكتب أصحاب المراء، وكتب أصحاب
العصبية وحمية الجاهلية لأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا
يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولا
لائمة الأرباب، وشنف الأكفاء، ومشنأة الجلساء؟ فهلاً
أمسكت - يرحمك الله - عن عيبيها والطعن عليها، وعن
المشورة والموعظة، وعن تخويف ما في سوء العاقبة، إلى
أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء؟ فأما كتابنا هذا،
فسنذكر جملة المذاهب فيه، وسنأتي بعد ذلك على التفسير،

وَلَعَلَّ رَأْيِكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، وَقَوْلُكَ أَنْ يَتَبَدَّلَ، فَتُثْبِتَ أَوْ تَكُونَ قَدْ أَخَذْتَ مِنَ التَّوَقُّفِ بِنَصِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

أقسام الكائنات

وأقول: إنّ العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متَّفَقٌ، ومختلفٌ، ومتضادٌّ؛ وكلُّها في جملة القول جمادٍ ونامٍ، وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة، أن يقال: نامٌ وغير نامٍ، ولو أنّ الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسماً، كما وضعوا للنامي اسماً، لاتبّعنا أثرهم؛ وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا، وما أكثر ما تكون دلالة قولهم جمادٍ، كدلالة قولهم مواتٍ، وقد يفترقان في مواضع بعض الافتراق، وإذا أخرجت من العالم الأفلاك والبروج والنجوم والشمس والقمر، وجدتها غير نامية، ولم تجدهم يسمون شيئاً منها بجمادٍ ولا مواتٍ، وليس لأنها تتحرّك من تلقاء أنفسها لم تُسمَّ مواتاً ولا جماداً، وناسٌ يجعلونها مدبرة غير مدبّية، ويجعلونها مسخرة غير مسخرة، ويجعلونها أحياء من الحيوان؛ إذ كان الحيوان إنّما يحيا بإحيائها له، وبما تُعطيه وتُعيّره، وإنما هذا منهم رأي، والأئمّ في هذا كلّ على خلافهم، ونحن في هذا الموضع إنّما

نَعْبَرُ عَنْ لُغَتِنَا، وَلَيْسَ فِي لُغَتِنَا إِلَّا مَا ذَكَرْنَا.
وَالنَّاسُ يَسْمُونُ الْأَرْضَ جَمَادًا، وَرَبَّمَا يَجْعَلُونَهَا مَوَاتًا إِذَا
كَانَتْ لَمْ تُنْبِتْ قَدِيمًا، وَهِيَ مَوَاتُ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ: مَنْ
أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا فَهِيَ لَهُ.
وَهُمْ لَا يَجْعَلُونَ الْمَاءَ وَالنَّارَ وَالْهَوَاءَ، جَمَادًا وَلَا مَوَاتًا، وَلَا
يَسْمُونَهَا حَيَوَانًا مَا دَامَتْ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَضَافُ إِلَى
النَّمَاءِ وَالْحَسَنِ.
وَالْأَرْضُ هِيَ أَحَدُ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ، الَّتِي هِيَ الْمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَالْهَوَاءُ وَالنَّارُ، وَالْأَسْمَانُ لَا يَتَعَاوَرَانِ عِنْدَهُمْ إِلَّا الْأَرْضُ.

تقسيم النامي

ثُمَّ النَّامِي عَلَى قَسْمَيْنِ: حَيَوَانٌ وَنَبَاتٌ، وَالْحَيَوَانُ عَلَى أَرْبَعَةِ
أَقْسَامٍ: شَيْءٌ يَمْشِي، وَشَيْءٌ يَطِيرُ، وَشَيْءٌ يَسْبُخُ، وَشَيْءٌ
يَنْسَاحُ، إِلَّا أَنَّ كُلَّ طَائِرٍ يَمْشِي، وَلَيْسَ الَّذِي يَمْشِي وَلَا يَطِيرُ
يَسْمَى طَائِرًا، وَالنَّوْعُ الَّذِي يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: نَاسٌ،
وَبِهَائِمٌ، وَسَبَاعٌ، وَحَشْرَاتٌ، عَلَى أَنَّ الْحَشْرَاتِ رَاجِعَةٌ فِي
الْمَعْنَى إِلَى مَشَاكِلَةِ طَبَاعِ الْبِهَائِمِ وَالسَّبَاعِ، إِلَّا أَنَّنَا فِي هَذَا كُلِّهِ
نَتَّبِعُ الْأَسْمَاءَ الْقَائِمَةَ الْمَعْرُوفَةَ، الْبَائِنَاتِ بِأَنْفُسِهَا، الْمَتَمَيِّزَاتِ

عند سامعيها، مِنْ أَهْلِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَأَصْحَابِ هَذَا اللِّسَانِ، وَإِنَّمَا
نُفِرِدُ مَا أَفْرَدُوا، وَنَجْمَعُ مَا جَمَعُوا.

تقسيم الطير

والطيرُ كلُّ سَبْعٍ وَبَهِيمَةٍ وَهَمَجٍ، والسباعُ من الطيرِ على
ضَرْبَيْنِ: فَمِنْهَا الْعِتَاقُ وَالْأَحْرَارُ وَالْجَوَارِحُ، وَمِنْهَا الْبِغَاثُ
وَهُوَ كُلُّ مَا عَظَّمَ مِنَ الطَّيْرِ: سَبْعاً كَانَ أَوْ بَهِيمَةً، إِذَا لَمْ يَكُنْ
مِنْ ذَوَاتِ السِّلَاحِ وَالْمَخَالِبِ الْمَعْقَفَةِ، كَالنُّسُورِ وَالرَّخَمِ
وَالغُرْبَانِ، وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ لِنَامِ السَّبَاعِ، ثُمَّ الْخَشَاشُ، وَهُوَ مَا
لَطْفَ جَرْمُهُ وَصَغُرَ شَخْصُهُ، وَكَانَ عَدِيمَ السِّلَاحِ وَلَا يَكُونُ
كَالنُّرَّقِ وَالْيُؤْيُؤِ وَالْبَادَنْجَانِ.

فَأَمَّا الْهَمَجُ فَلَيْسَ مِنَ الطَّيْرِ، وَلَكِنَّهُ مِمَّا يَطِيرُ، وَالْهَمَجُ فِيمَا
يَطِيرُ، كَالْحَشْرَاتِ فِيمَا يَمْشِي، وَالْحَيَّاتُ مِنَ الْحَشْرَاتِ، وَأَيُّ
سَبْعٍ أَدْخَلَ فِي مَعْنَى السَّبْعِيَّةِ مِنَ الْأَفَاعِي وَالتَّعَابِينِ؟ وَلَكِنْ
لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهَا، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ ذَوَاتِ الْأَنْيَابِ وَأَكَّالَةِ
اللُّحُومِ وَأَعْدَاءِ الْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْبِهَائِمِ، وَلِذَلِكَ تَأْكُلُهَا الْأَوْعَالُ
وَالْخَنَازِيرُ وَالْقَنَافِدُ وَالْعِقْبَانُ وَالشَّاهْمُرُكَ وَالسَّنَانِيرُ، وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِنَ الْبِهَائِمِ، وَالسَّبَاعِ، فَمَنْ جَعَلَ الْحَيَّاتِ سَبَاعاً، وَسَمَّاهَا

بذلك عند بعض القول والسبب فقد أصاب، ومن جعل ذلك لها
كالاسم الذي هو العلامة كالكلب والذئب والأسد فقد أخطأ.
ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما
أشبهها، وشيء يكون سلاحه المناقير كالنُّسور والرحم
والغربان، وإنما جعلناها سباعاً لأنها أكلة لحوم.
ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكرابي وما
أشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الأسنان كالبوم والوطواط وما
أشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة، ومنه ما
يكون سلاحه السَّح كالحباري والثعلب أيضاً كذلك.
والسريع من الطير: ما أكل اللحم خالصاً، والبهيمة: ما أكلت
الحبَّ خالصاً، وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركب
والطبع المشترك، كلام سنأتي عليه في موضعه إن شاء الله
تعالى، والمشترك عندهم كالعصفور؛ فإنه ليس بذي مخبأ،
معقف ولا منسر وهو يلقط الحب، وهو مع هذا يصيد النمل
إذا طار، ويصيد الجراد، ويأكل اللحم، ولا يزق فراخه كما
ترق الحمام، بل يُلقمها كما تُلقم السباع من الطير فراخها،
وأشباه العصافير من المشترك كثير، وسنذكر ذلك في موضعه
إن شاء الله تعالى.

وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير؛ قد يطير الجعلان

وَالْجَحْلُ وَالْيَعَاسِيْبُ وَالذَّبَابُ وَالزَّنَابِيرُ وَالْجَرَادُ وَالنَّمْلُ
 وَالْفَرَاشُ وَالْبَعُوضُ وَالْأَرْضَةُ وَالنَّحْلُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَا يُسَمَّى
 بِالطَّيْرِ، وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ لَهَا عِنْدَ بَعْضِ الذَّكَرِ وَالسَّبَبِ، وَقَدْ
 يُسَمُّونَ الدِّجَاجَ طَيْرًا وَلَا يُسَمُّونَ بِذَلِكَ الْجَرَادَ، وَالْجَرَادُ أَطَّيْرٌ،
 وَالْمِثْلُ الْمَضْرُوبُ بِهِ أَشْهَرُ، وَالْمَلَائِكَةُ تَطِيرُ، وَلَهَا أَجْنَحَةٌ
 وَلَيْسَتْ مِنَ الطَّيْرِ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو جَنَاحِينَ يَطِيرُ
 بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ، وَلَيْسَ جَعْفَرٌ مِنَ الطَّيْرِ.
 وَاسْمُ طَائِرٍ يَقَعُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: صُورَةٌ، وَطَبِيعَةٌ، وَجَنَاحٌ،
 وَلَيْسَ بِالرِّيشِ وَالْقَوَادِمِ وَالْأَبَاهِرِ وَالْخَوَافِي، يُسَمَّى طَائِرًا، وَلَا
 بَعْدَمَهُ يَسْقُطُ ذَلِكَ عَنْهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْخَفَّاشَ وَالْوَطَّوِاطَ مِنَ
 الطَّيْرِ، وَإِنْ كَانَا أَمْرَطَيْنِ لَيْسَ لَهُمَا رِيشٌ وَلَا زَعْبٌ وَلَا شَكِيرٌ
 وَلَا قَصَبٌ وَهُمَا مَشْهُورَانِ بِالْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ، وَبِالرِّضَاعِ،
 وَبِظُهُورِ حَجْمِ الْأَذَانِ، وَبِكَثْرَةِ الْأَسْنَانِ، وَالنَّعَامَةُ ذَاتُ رِيشٍ
 وَمِنْقَارٍ وَبَيْضٍ وَجَنَاحِينَ، وَلَيْسَتْ مِنَ الطَّيْرِ.
 وَلَيْسَ أَيْضًا كُلُّ عَائِمٍ سَمَكَةً، وَإِنْ كَانَ مَنَاسِبًا لِلسَّمَكِ فِي كَثِيرٍ
 مِنْ مَعَانِيهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ فِي الْمَاءِ كَلْبَ الْمَاءِ، وَعَنْزَ الْمَاءِ،
 وَخِنْزِيرَ الْمَاءِ؛ وَفِيهِ الرَّقُّ وَالسَّلْخَفَاةُ، وَفِيهِ الضَّفْدَعُ وَفِيهِ
 السَّرَطَانُ، وَالْبَيْنَبِيُّ، وَالتَّمْسَاحُ وَالدُّخْسُ وَالدُّفَيْنُ وَاللَّحْمُ
 وَالبُنْبُكُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَصْنَافِ، وَالْكَوَسَجُ وَالِدُ اللَّحْمِ،

وليس للكوسج أبٌ يُعرَف، وعامةُ ذا يعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطِّ ويبيضُ بيضاً له صُفرةٌ، وقَيْضٌ وغِرْقِيٌّ، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يصنع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لما لم يتكلَّم قطُّ، فيحملون ما يرغو، ويثغو، وينهق، ويصهل، ويشحج، ويخور، ويبغم، ويعوي، وينبح، ويذفؤ، ويضغو، ويهدر، ويصفر، ويصوصي، ويُفوقي، وينعب، ويزار، وينزب، ويكش، ويعج، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض، ولذلك أشباه، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالعير التي تسمى لطيمة، وكالظعن؛ فإنَّ هذه الأشياء إذا وجد بعضها إلى بعض، أو أخذ بعضها من بعض، سميت بأنبه النوعين ذكراً، وبأقواهما، والفصيح هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوتٍ لا يفهم إرادته إلا ما لثان من جنسه، ولعمري إنا نفهم عن الفرس والحمار والكلب والسَّور والبعير، كثيراً من إرادته

وحوائجه وقصوره، كما نفهم إرادة الصبيّ في مهده ونعلم - وهو من جليل العلم - أنّ بكاءه يدلُّ على خلاف ما يدلُّ عليه ضحكُه، وحممته الفرس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حممته عند رؤية الحجر، ودعاء الهرة الهرّ خلاف دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسان فصيح، وإن عبّر عن نفسه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيّ أسوأ فهماً لطمّمة الروميّ من الرومي لبيان لسان العربيّ، فكلُّ إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنّما يعنون أنّه لا يتكلم بالعربيّة، وأنّ العرب لا تفهم عنه، وقال كثيّر:

وصامت ما أعطى ابنُ
ليلي وناطقه

فبورك ما أعطى
ابن ليلي بنيّة

ويقال جاء بما صأى وصمت، فالصامت مثل الذهب والفضّة، وقوله صأى يعني الحيوان كلّه، ومعناه نطق وسكت؛ فالصامت في كلّ شيء سوى الحيوان. ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على

ضربين: شيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعْقِلُ الحكمةَ ولا عاقبةَ
الحكمةَ، وشيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو يَعْقِلُ الحكمةَ وعاقبةَ
الحكمةَ، فاستوى بذلك الشيءُ العاقلُ وغير العاقلِ في جهةِ
الدَّلالةِ على أَنَّهُ حكمةٌ؛ واختلفا من جهةِ أَنَّ أحدهما دَلِيلٌ لَّا
يَسْتَدِلُّ، والآخِرُ دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُسْتَدِلٍّ دليلٌ وليس كلُّ دليلٍ
مستدلاً، فشارك كل حيوانٍ سوى الإنسانِ، جميعَ الجمادِ في
الدَّلالةِ، وفي عدم الاستدلالِ، واجْتَمَعَ للإنسانِ أَنْ كان دليلاً
مستدلاً، ثُمَّ جُعِلَ للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله،
ووجوهِ ما نتج له الاستدلالِ، وسمَّوا ذلك بياناً.

وسائل البيان

وجُعِلَ البيانُ على أربعةِ أقسامٍ

لفظ، وخط، وعقد، وإشارة، وجُعِلَ بيانُ الدليلِ الذي لا يستدلُّ
تَمَكِينَهُ المستدِلُّ من نفسه، واقتياده كلَّ من فكَّر فيه إلى
معرفةِ ما استُخِرَ من البرهانِ، وحُشِيَ من الدَّلالةِ، وأودِعَ
من عَجيبِ الحكمةِ، فالأجسامُ الخُرسُ الصامتةُ، ناطقةٌ من
جهةِ الدَّلالةِ، ومُعَرِّبةٌ من جهةِ صحَّةِ الشهادةِ، على أَنَّ الذي

فيها من التدبير والحكمة، مخبرٌ لمن استخبره، وناطقٌ لمن استنطقه، كما خبر الهزال وكسوف اللون، عن سوء الحال، وكما ينطق السمُّ وحسن النضرة، عن حسن الحال، وقد قال الشاعر وهو نصيب:

ولو سكتوا أثنت
عليك الحقايب

فعاजूوا فأتتوا بالذي
أنت أهله

وقال آخر:

تخبرك العيون عن
القلوب

متى تك في عدو أو
صديق

وقد قال العُكَلِيُّ في صدق شمِّ الذئب وفي شدة حسه
واسترواحه:

بمثل مقراع الصفا
الموقع

يستخبرُ الريح إذا لم
يسمع

وقال عنتره، هو يصف نعيب غراب:

حَرْقُ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ

جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعٌ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَلَ الْأَرْضَ،
فَقُلْتُ: مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكَ، وَعَرَسَ أَشْجَارَكَ، وَجَنَى ثِمَارَكَ؛ فَإِنْ
لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا، أَجَابَتَكَ اعْتِبَارًا. فموضوعُ الجسمِ ونصبتَه،
دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه، ومنبهةٌ عليه، فالجمادُ الأَبْكُمُ
الأخْرَسُ من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسانَ الحيَّ
الناطق، فمَنْ جَعَلَ أَقْسَامَ الْبَيَانِ خَمْسَةً، فَقَدْ ذَهَبَ أَيْضًا مَذْهَبًا
لَهُ جَوَازٌ فِي اللَّغَةِ، وشاهدٌ في العقل، فهذا أَحَدُ قِسْمَي الْحِكْمَةِ،
وَأَحَدُ مَعْنَيَيْ مَا اسْتَخْرَنَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْوَدِيعَةِ.

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان، مِنْ
ضُرُوبِ الْمَعَارِفِ، وفَطَرَهَا عَلَيْهِ مِنْ غَرِيبِ الْهَدَايَاتِ، وَسَخَّرَ
حَنَاجِرَهَا لَهُ مِنْ ضُرُوبِ النَّعْمِ الْموزونة، والأصواتِ الملحنة،
والمخارجِ الشجِيَّةِ، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إِنَّ جَمِيعَ
أصواتها معدلة، وموزونة موقَّعة، ثمَّ الَّذِي سَهَّلَ لَهَا مِنْ
الرفقِ العجيبِ فِي الصنعة، مما ذلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنَاقِيرِهَا
وأكفِّها، وكيف فَتَحَ لَهَا مِنْ بَابِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى قَدْرِ مَا هَيَّأَ لَهَا

من الآلة، وكيف أعطى كثيراً منها من الحسّ اللطيف،
والصنعة البديعة، من غير تأديبٍ وثقيف، ومن غير تقويمٍ
وتلقين، ومن غير تدريجٍ وتمارين، فبلّغت بعفوها وبمقدار
قوى فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداءِ
والاقتضاب، ما لا يقدرُ عليه حُذاقُ رجالِ الرأي، وفلاسفةُ
علماءِ البشر، بيدي ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناسِ أكملهم
خصالاً وأتمهم خلالاً، لا من جهة الاقتضاب والارتجال ولا من
جهة التعسّف والاعتدال، ولا من جهة التقدّم فيه، والتأني فيه،
والتأني له، والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسبابِ المُعينةِ
عليه، فصار جهد الإنسان الثاقبِ الحسّ، الجامعِ القوى،
المتصرّفِ في الوجوه، المقدم في الأمور، يعجز عن عفو
كثير منها، وهو ينظرُ إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت
العنكبوت، وكما أعطيت السُرّفة، وكما علّم النحل، بل وعرّف
التنوّط من بديع المعرفة، ومن غريبِ الصنعة، في غير ذلك
من أصناف الخلق، ثم لم يوجب لهم العجز في أنفسهم في
أكثر ذلك، إلا بما قوي عليه الهمجُ والخشاشُ وصغارُ
الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقلِ والتمكين، والاستطاعة
والتصرّف، وذا التكلّفِ والتجربة، وذا التأني والمنافسة،
وصاحبَ الفهمِ والمسابقة، والمتبصّرَ شأنِ العاقبة، متى

أَحْسَنَ شَيْئاً كَانَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ فِي الْعُمُوضِ عَلَيْهِ أَسْهَلُ،
وَجَعَلَ سَائِرَ الْحَيَوَانِ، وَإِنْ كَانَ يَحْسُنُ أَحَدُهَا مَا لَا يَحْسُنُ
أَحَدُ الْقَوْمِ مَا أَحْسَنَ شَيْئاً عَجِيباً، لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يُحْسِنَ مَا
هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ فِي الظَّنِّ، وَأَسْهَلُ مِنْهُ فِي الرَّأْيِ، بَلْ لَا يَحْسِنُ
مَا هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَلَا الْإِنْسَانُ جَعَلَ نَفْسَهُ كَذَلِكَ،
وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ اخْتَارَ ذَلِكَ، فَأَحْسَنَتْ هَذِهِ الْأَجْنَاسُ بِلَا
تَعَلُّمٍ، مَا يَمْتَنِعُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَإِنْ تَعَلَّمَ، فَصَارَ لَا يَحَاوِلُهُ؛ إِذْ
كَانَ لَا يَطْمَعُ فِيهِ، وَلَا يَحْسُدُهَا؛ إِذَا لَا يَوْمِلُ اللَّحَاقَ بِهَا، ثُمَّ
جَعَلَ تَعَالَى وَعَزَّ، هَاتَيْنِ الْحَكْمَتَيْنِ بِإِزَاءِ عُيُونِ النَّاطِرِينَ،
وَتُجَاهِ أَسْمَاعِ الْمُعْتَبِرِينَ، ثُمَّ حَثَّ عَلَى التَّفْكِيرِ وَالِاعْتِبَارِ،
وَعَلَى الْإِتْعَازِ وَالِازْدِجَارِ، وَعَلَى التَّعَرُّفِ وَالتَّبَيُّنِ، وَعَلَى
التَّوَقُّفِ وَالتَّذَكُّرِ، فَجَعَلَهَا مَذْكَرَةً مَنبَهُةً، وَجَعَلَ الْفِطْرَةَ تُنْشِئُ
الْخَوَاطِرَ، وَتُجَوِّلُ بِأَهْلِهَا فِي الْمَذَاهِبِ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.
"فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ".

مزج الهزل بالجد في الكتاب

وهذا كتابٌ موعظةٌ وتعريفٌ وتفقهٌ وتنبيهٌ، وأراك قد عبته
قبل أن تقفَ على حدوده، وتتفكَّرَ في فصوله، وتعتبرَ آخره
بأوله، ومصادره بموارده، وقد غلَّطك فيه بعضُ ما رأيتَ في

أثنائه من مزح لا تعرف معناه، ومن بَطَالَةٍ لم تَطَّلِعْ على
عُورِهَا؛ ولم تَدْرِ لم اجْتَلَبْتَ، ولا لِأَيِّ عِلَّةٍ تُكَلِّفْتُ، وأَيِّ شَيْءٍ
أُرِيغُ بِهَا، ولأَيِّ جِدِّ احْتَمَلِ ذلك الهزل، ولأَيِّ رِيَاضَةٍ تُجَسِّمْتُ
تلك البَطَالَةَ؛ ولم تَدْرِ أَنَّ المِزَاحَ جِدٌّ إذا اجْتَلَبَ لِيكون عِلَّةً
للجِدِّ، وَأَنَّ البَطَالَةَ وَقَارٌ وَرِزَانَةٌ، إذا تُكَلِّفْتُ لَتلك العافية، ولَمَّا
قال الخليلُ بنُ أحمد: لا يصلُ أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ
إليه، حَتَّى يتعلَّم ما لا يحتاجُ إليه، قال أبو شمِر: إذا كان لا
يُتوصَّلُ إلى ما يحتاجُ إليه إلا بما لا يحتاجُ إليه، فقد صار ما
لا يُحتاجُ إليه يُحتاجُ إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنَّه إن حَمَلْنَا
جميعَ من يتكلَّفُ قراءةَ هذا الكتابِ على مُرِّ الحقِّ، وصُعوبَةِ
الجِدِّ، وثِقَلِ المؤونةِ، وحِلِيَةِ الوقارِ، لم يصبر عليه مع طولِهِ
إلا من تجرَّدَ للعلمِ، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر
قلبه من عزِّهِ، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من
الكَدِّ، والكثرةِ من السَّامةِ، وما أكثرَ مَنْ يُقَادُ إلى حَظِّهِ
بالسواجيرِ، وبالسوقِ العنيفِ، وبالإخافةِ الشديدةِ.

مدح الكتب

ثم لم أركَ رَضِيَّتَ بالطعنِ على كلِّ كتابٍ لي بعينه، حَتَّى
تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبتِ وَضَعَ الكُتُبِ كيفما دارتِ بها الحالُ،

وكيفَ تصرَّفَتْ بها الوجوه، وقد كنتُ أعجَبُ من عيبك البعضَ
بلا علم، حتَّى عبتَ الكلَّ بلا علم، ثم تجاوزتَ ذلك إلى
التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكتابَ؛
ونعم الذخر والعُقودَةُ هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة
والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة
الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية ونعم القرين والدخيل،
ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاءٌ مُلئٌ علماً، وظرفٌ حُشي
ظرفاً، وإناءٌ شُحنَ مُزاحاً وجِدّاً؛ إن شئتَ كان أبيينَ من
سَحبانٍ وائل، وإن شئتَ كان أعياناً من باقل، وإن شئتَ ضحكتَ
من نوادرِهِ، وإن شئتَ عَجبتَ من غرائبِ فرائده، وإن شئتَ
ألهمتَ طرائفه، وإن شئتَ أشجنتَ مواعظه، ومن لكِ بواعظِ
مُله، وبزاجرِ مُعر، وبناسكِ فاتك، وبناطقِ أخرس، وبباردِ
حار، وفي الباردِ الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

أَقْلِيلٌ أَوْ أَكْثَرُ فَأَنْتَ
مِهْدَارُ

قَلْ لَزْهِيرٌ إِذَا انْتَحَى
وَشَدَا

تِي صِرْتَ عِنْدِي
كَأَنَّكَ النَّارُ

سَخْنَتْ مِنْ شِدَّةِ
الْبُرُودَةِ ح

لَا يَعْجَبِ السَّامِعُونَ
مِنْ صِفَتِي

كَذَلِكَ الثَّلْجُ بَارِدٌ
حَارٌ

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبِ أَعْرَابِيٍّ، وَمَنْ لَكَ بِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ، وَبِفَارِسِيٍّ
يُونَانِيٍّ، وَبِقَدِيمِ مَوْلَدٍ، وَبِمَيِّتِ مَمْتَعٍ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ
الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ،
وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ، وَالْعَتَّ وَالسَّمِينِ،
وَالشُّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضَدَّهُ.
وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحْمَلُ فِي رُذْنٍ، وَرَوْضَةً تُقَلُّ فِي
حِجْرٍ، وَنَاطِقاً يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيُتْرَجَّمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ وَمَنْ لَكَ
بِمَوْنَسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى؛ أَمِنْ مِنْ
الْأَرْضِ، وَأَكْتَمُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَأَحْفَظُ لِلوَدِيعَةِ مِنْ
أَرْبَابِ الوَدِيعَةِ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتُحْفِظُ مِنَ الْإِدْمِيَّينَ، وَمِنْ
الْأَعْرَابِ الْمَعْرَبِينَ، بَلْ مِنْ الصَّبِيَّانِ قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْإِسْتِغَالِ،
وَمِنْ الْعُمِيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمْيِيزِ الْأَشْخَاصِ، حِينَ الْعَنَاءُ تَامَةً
لَمْ تَنْقُصْ، وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَنْقَسِمْ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ
تَتَشَعَّبْ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ، فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّبَائِعِ، وَالْقَضِيبُ
رَطْبٌ، فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ

يَخْلُقُ جَدِيدَهَا، وَلَمْ يُوهَنْ عَرْبُهَا، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قَوَاهَا، وَكَانَتْ
كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا
فَتَمَكَّنَا

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ
أَعْرِفَ الْهَوَى

وَقَالَ عَبْدُ بِنِ الطَّبِيبِ:

بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ
يُنْشَعُ

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشِبُّ
صَبِيَّهُمْ

وَمِنْ كَلَامِهِمْ: التَّعَلُّمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، وَقَدْ قَالَ
جِرَانُ الْعَوْدِ:

تَنَكَّرَتِ الدِّيَارُ عَلَى
الْبَصِيرِ

تَرَكَّنَ بِرَجْلَةِ الرُّوحَاءِ
حَتَّى

بِأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةَ
النُّوُورِ

كَوَحْيِ فِي الْحِجَارَةِ أَوْ
وَشُومِ

وَقَالَ آخَرُ، وَهُوَ صَالِحُ بِنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي
عَرْسِهِ

بَعْدَ الَّذِي قَدْ كَانَ فِي
يُبْسِهِ

وَإِنَّ مَنْ أَدْبَتَهُ فِي
الصَّبِيِّ

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقاً
نَاصِراً

وقال آخر:

وَلَا يَنْفَعُ التَّادِيبُ
وَالرَّأْسُ أَشْيَبُ

يُقَوِّمُ مِنْ مَيْلِ الْغَلَامِ
الْمُؤَدَّبُ

وقال آخر:

وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةٌ
الْهَرَمِ

وَتَلَوُّمُ عَرْسِكَ بَعْدَ مَا
هَرَمْتَ

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر: اكتب شعري؛ فالكتاب أحب إلي من الحفظ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام. وعبت الكتاب، ولا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا

رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفايةً، ولا
 أقلَّ جنائيةً، ولا أقلَّ إملالاً وإبراماً، ولا أحفلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ
 خلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهه، ولا أكثرَ
 أعجوبةً وتصرفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلفاً، ولا أبعدَ من مراءٍ،
 ولا أترك لشغب، ولا أزهدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من
 كتاب، ولا أعلمُ قريناً أحسنَ موافاةً، ولا أعجلَ مكافاةً، ولا
 أحضرَ معونةً، ولا أخفَّ مؤونةً، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا
 أجمعَ أمراً، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتنىً، ولا أسرعَ
 إدراكاً، ولا أوجدَ في كلِّ إبانٍ، من كتاب، ولا أعلمُ نتاجاً في
 حداثةِ سنِّه وقربِ ميلاده، ورخصِ ثمنه، وإمكانِ وجوده،
 يجمعُ من التدابيرِ العجيبةِ والعلومِ الغريبةِ، ومن آثارِ العقولِ
 الصحيحةِ، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفةِ، ومن الحكَمِ الرفيعةِ،
 والمذاهبِ القويمةِ، والتجاربِ الحكيمةِ، ومن الإخبارِ عن
 القرونِ الماضيةِ، والبلادِ المتنازحةِ، والأمثالِ السائرةِ، والأممِ
 البائدةِ، ما يجمعُ لك الكتابُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّه عليه
 الصلاة والسلام (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) فَوَصَفَ
 نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنَّ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، كما وصفَ نَفْسَهُ
 بِالكَرَمِ، واعتدَّ بذلك في نِعْمه العِظامِ، وفي أياديه الجِسامِ، وقد
 قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانينِ، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعْمَةَ في

بيان اللسان، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف، ثم جعل هذا الأمر قرآناً، ثم جعله في أول التنزيل ومستفتح الكتاب.

كون الاجتماع ضرورياً

ثم اعلم، رحمك الله تعالى، أن حاجة بعض الناس إلى بعض، صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزائلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشملة على أديانهم وأقصادهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم - مما يعيشهم ويحييهم، ويمسك بأرماقهم، ويصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، والتوازر عليه - كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى، معان متضمنة، وأسباب متصلة، وحبال منعقدة، وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدمت في كتب الله البشارات بالرسل، ولم يسخر لهم جميع خلقه، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه، وجعل الحاجة حاجتين:

إحداهما قِوَامٌ وَقُوَّةٌ، وَالْأُخْرَى لَذَّةٌ وَإِمْتَاعٌ وَازْدِيَادٌ فِي الْآلَةِ،
وَفِي كُلِّ مَا أُجْدَلَ النُّفُوسَ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْعِتَادَ، وَذَلِكَ الْمَقْدَارُ
مِنْ جَمِيعِ الصَّنْفَيْنِ وَفَقَّ لِكثْرَةِ حَاجَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَعَلَى
قَدْرِ اتِّسَاعِ مَعْرِفَتِهِمْ وَبُعْدِ عَوْرِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ احْتِمَالِ طَبَعِ
الْبَشَرِيَّةِ وَفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، ثُمَّ لَمْ يَقْطَعْ الزِّيَادَةَ إِلَّا لِعَجْزِ خَلْقِهِمْ
عَنْ احْتِمَالِهَا، وَلَمْ يَجْزِ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَجْزِ، إِلَّا بَعْدَ
الْأَعْيَانِ، إِذْ كَانَ الْعَجْزُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، وَنَعْتًا مِنْ
نُعُوتِ الْعَبِيدِ.

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدًا يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ دُونَ
الِاسْتِعَانَةِ بِبَعْضِ مَنْ سَخَّرَ لَهُ، فَأَدْنَاهُمْ مَسَخَّرٌ لِأَقْصَاهُمْ،
وَأَجْلُهُمْ مَيَسَّرٌ لِأَدْقِهِمْ، وَعَلَى ذَلِكَ أَحْوَجَ الْمُلُوكُ إِلَى السُّوقَةِ
فِي بَابِ، وَأَحْوَجَ السُّوقَةُ إِلَى الْمُلُوكِ فِي بَابِ، وَكَذَلِكَ الْغَنِيُّ
وَالْفَقِيرُ، وَالْعَبْدُ وَسَيِّدُهُ، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ
خَوَلًا، وَفِي يَدِهِ مُدَلَّلًا مَيَسَّرًا إِمَّا بِالِاحْتِيَالِ لَهُ وَالتَّلَطُّفِ فِي
إِرَاعَتِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ، وَإِمَّا بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ، وَالفَتْكِ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ
يَأْتِيَ سَهْوًا وَرَهْوًا، عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ لَا حَاجَتُهُ إِلَيْهَا، لَمَا
احْتَالَ لَهَا، وَلَا صَالَ عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ تَفْتَرِقُ فِي الْجِنْسِ
وَالْجِهَةِ وَالْجِبِلَّةِ، وَفِي الْحِظِّ وَالتَّقْدِيرِ.
ثُمَّ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِهَا، وَالِاعْتِبَارِ

بما يَرَى، وَوَصَلَ بَيْنَ عُقُولِهِمْ وَبَيَّنَ مَعْرِفَةَ تِلْكَ الْحَكْمِ الشَّرِيفَةِ، وَتِلْكَ الْحَاجَاتِ اللَّازِمَةِ، بِالنَّظَرِ وَالتَّفْكِيرِ، وَبِالتَّنْقِيبِ وَالتَّنْقِيرِ، وَالتَّثَبُّتِ وَالتَّوَقُّفِ؛ وَوَصَلَ مَعَارِفَهُمْ بِمَوَاقِعِ حَاجَاتِهِمْ إِلَيْهَا، وَتَشَاعَرَهُمْ بِمَوَاضِعِ الْحَكْمِ فِيهَا بِالْبَيَانِ عَنْهَا.

البيان ضروري للاجتماع

وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفاً لمواضع سدّ الخلة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة، ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة، التي لا يُتعرّف ما فيها من دقائق الحكمة وكُنُوزِ الآداب، وينابيع العلم، إلّا بالعقل الثاقب اللطيف، وبالنظر التامّ النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع، والتحفّظ من دواعي الهوى؛ ولأنّ الشكّل أفهم عن شكله، وأسكن إليه وأصبّ به، وذلك موجودٌ في أجناس البهائم، وضروب السباع، والصبّي عن الصبيّ أفهم له، وله آلف وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا" لأنّ الإنسان عن

الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس؛ وعلى قدر ذلك يكون
موقع ما يسمع منه. ثم لم يرضَ لهم من البنيان بصنّفٍ
واحد، بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يقلل، وأظهر ولم
يُخف، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم،
والترّجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم؛ في أربعة
أشياء؛ وفي خصلة خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه
الأربعة في جهاتها، فقد تبدّل بجنسها الذي وضعت له
وصُرفت إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة،
والعقد؛ والخصلة الخامسة ما أوجد من صحّة الدلالة، وصدق
الشهادة ووضوح البرهان، في الأجرام الجامدة والصامته،
والساكنة التي لا تتبيّن ولا تحسّ، ولا تفهم ولا تتحرّك إلا
بداخلٍ يدخل عليها، أو عند ممسكٍ خلي عنها، بعد أن كان
تقييده لها.

ثم قسّم الأقسام ورتّب المحسوسات، وحصرّ الموجودات،
فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر
واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر
في ذلك على قدر نصيب اللامس، وجعل الخطّ دليلاً على ما
غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛
وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، ممّا قد أحصاه وحفظه،

وأَتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام والذائق نصيباً.

خطوط الهند

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط، ولبطلت معرفة التضاعيف، ولعدموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة، وتنتقض المئة، ولصاروا في حال معجزة وحسور، وإلى حال مضيعة وكلال حد، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أربح لهم، وأرد عليهم، أن يُصرف ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا.

نفع الحساب

ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقده معروفة، قال الله تعالى: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"، ثم قال: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ"، وبالبيان عرف الناس القرآن، وقال الله تبارك وتعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ" فَأَجْرَى الْحِسَابَ مُجْرَى الْبَيَانِ بِالْقُرْآنِ، وَبِحُسْبَانِ
مَنَازِلِ الْقَمَرِ، عَرَفْنَا حَالَاتِ الْمَدِّ وَالْجُزْرِ، وَكَيْفَ تَكُونُ الزِّيَادَةُ
فِي الْأَهْلَةِ وَأَنْصَافِ الشُّهُورِ، وَكَيْفَ يَكُونُ النِّقْصَانُ فِي خِلَالِ
ذَلِكَ، وَكَيْفَ تَكُنُ الْمَرَاتِبُ وَتَكُنُ الْأَقْدَارُ.

فضل الكتابة

ولولا الكتبُ المدوّنة والأخبارُ المخلّدة، والحكمُ المخطوطة
التي تُحصّنُ الحسابَ وغيرَ الحسابِ، لبطلَ أكثرُ العلمِ، ولغلبَ
سُلْطَانُ النَّسِيَانِ سُلْطَانَ الذِّكْرِ، وَلَمَّا كَانَ لِلنَّاسِ مَفْرَعٌ إِلَى
مَوْضِعِ اسْتِذْكَارِ، وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لِحُرْمَانَا أَكْثَرَ النِّفْعِ؛ إِذْ كُنَّا قَدْ
عَلِمْنَا أَنَّ مَقْدَارَ حِفْظِ النَّاسِ لِعَوَاجِلِ حَاجَاتِهِمْ وَأَوَائِلِهَا، لَا يَبْلُغُ
مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا مَذْكَورًا وَلَا يُغْنِي فِيهِ غَنَاءٌ مَحْمُودًا، وَلَوْ كُفِّ
عَامَّةٌ مَنِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَيَصْطَنِعُ الْكُتُبَ، إِلَّا يَزَالُ حَافِظًا
لِفِهْرَسْتِ كُتُبِهِ لِأَعْجَازِهِ ذَلِكَ، وَلِكُلِّفَ شَطَطًا، وَلَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ
كَثِيرٍ مِمَّا هُوَ أَوْلَى بِهِ، وَفَهْمُكَ لِمَعَانِي كَلَامِ النَّاسِ، يَنْقَطِعُ قَبْلَ
انْقِطَاعِ فَهْمِ عَيْنِ الصَّوْتِ مَجْرَدًا، وَأَبْعَدُ فَهْمُكَ لِصَوْتِ صَاحِبِكَ
وَمُعَامِلِكَ وَالْمَعَاوِنِ لَكَ، مَا كَانَ صِيَاحًا صَرَفًا، وَصَوْتًا مَصْمَتًا
وَنِدَاءً خَالصًا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْمَفَاهِمَةِ،
وَعُطْلٌ مِنَ الدَّلَالَةِ، فَجَعَلَ اللَّفْظَ لِأَقْرَبِ الْحَاجَاتِ، وَالصَّوْتِ

لأنفسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنازح من الحاجاتِ، فأما الإشارةُ فأقربُ المفهوم منها: رَفُعُ الحواجِبِ، وكسْرُ الأَجْفَانِ، وليُّ الشَّفَاهِ وتحريكُ الأعْناقِ، وقَبْضُ جِلْدَةِ الوَجْهِ؛ وأبْعُدُهَا أن تلوَى بثوبٍ على مقطعِ جبلٍ، تُجَاهَ عَيْنِ الناظرِ، ثمَّ يَنْقُطِعُ عملُها ويدْرُسُ أثرُها، ويموتُ ذكْرُها، ويصيرُ بعدُ كلُّ شيءٍ فَضْلٌ عن انتهاءِ مَدَى الصوتِ ومنتَهَى الطرفِ، إلى الحاجةِ وإلى التفاهمِ بالخطوطِ والكتبِ، فأَيُّ نَفْعٍ أعْظَمُ، وأَيُّ مِرْفَقٍ أَعْوَنُ من الخَطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا وليس للعقدِ حظُّ الإشارةِ في بُعدِ الغايةِ.

فضل القلم

فلذلك وضع اللهُ عزَّ وجلَّ القلمَ في المكانِ الرفيعِ، ونوّهَ بذكره في المنصبِ الشريفِ حين قال "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" فأقْسَمَ بِالْقَلَمِ كما أقْسَمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوه، ولا يشقُّ غباره ولا يجري في حلبته، ولا يتكلفُ بَعْدَ غايته، لكنْ لما أن كانت حاجاتُ الناسِ بالحضرةِ أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائرِ الأماكنِ، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائمةً واکدةً، وراهنةً ثابتةً، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ القلمِ أمراً يكونُ في الغيبةِ وعندِ النائبةِ، إلا ما خُصَّتْ به

الدواوين؛ فإنَّ لسانَ القلمِ هناك أبسَطُ، وأثرُهُ أعمُّ، فذلِكَ
قَدَّموا اللسانَ على القلمِ.

فَضْلُ اليَدِ

فاللسانُ الآنَ إنّما هو في منافع اليَدِ والمرافقِ التي فيها،
والحاجاتِ التي تبلُغُها، فمن ذلك حَظُّها وقِسْطُها من منافع
الإشارة، ثم نَصيبُها في تقويمِ القلمِ، ثم حَظُّها في التصويرِ،
ثم حَظُّها في الصناعاتِ، ثم حَظُّها في العَقْدِ، ثم حَظُّها في
الدَّفْعِ عن النفسِ، ثمَّ حَظُّها في إيصالِ الطعامِ والشرابِ إلى
الفمِ، ثم التوضُّؤِ والامتساحِ، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدراهمِ
ولبسِ الثيابِ، وفي الدَفْعِ عن النفسِ، وَأَصْنَافِ الرَّمْيِ،
وأصنافِ الضَرْبِ، وأصنافِ الطَّعْنِ، ثم النَّقْرِ بالعودِ وتحريكِ
الوترِ؛ ولولا ذلك لَبْطَلُ الضَرْبُ كُلُّهُ أو عامَّتُهُ، وكيف لا يكون
ذلِكَ كذلك ولها ضَرْبُ الطَّبْلِ والدَّفْعِ، وتحريكِ الصَّفَاقَتَيْنِ،
وتحريكِ مخارقِ خروقِ المزاميرِ، وما في ذلك من الإِطلاقِ
والحبسِ، ولو لم يَكُنْ في اليَدِ إلاَّ إمساكُ العِنانِ والزِّمامِ
والخِطامِ، لكانَ من أعظمِ الحِظوظِ، وقد اضطرَبوا في الحُكْمِ
بين العَقْدِ والإشارة، ولولا أنَّ مَغْزانا في هذا الكتابِ سوى هذا
البابِ، لقد كانَ هذا ممَّا أَحَبُّ أن يَعرِفَهُ إخواننا وخطاؤنا، فلا

ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلا بعد الفراغ ممّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازِعني، ولم تَعَبْ كتبي، من طريقِ فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنما قَصَدنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

فضل الكتاب

والكتابُ هو الذي يُوَدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خَفّة نقله، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكته، وبلغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتدئك في حالِ شُغلك، ويدعوك في أوقاتِ نشاطك، ولا يُحوجك إلى التجمل له والتدّمُّ منه، ومَن لك بزائرٍ إن شئتَ جعلَ زيارته غيباً، ووروده خُمساً، وإن شئتَ لزمك لزومَ ظلك، وكان منك مكانَ بعضك.

والقلمُ مكتفٍ بنفسه، لا يحتاج إلى ما عند غيره؛ ولا بدّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصَّ الخاصِّ قد يدخل في بلب العامِّ، إلا أنه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصِّ باللفظ عمّا أداه، كما اكتفى عامُّ العامِّ والطبقات التي بينه وبين أخصَّ الخاصِّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يملكك، والمستمّيح الذي لا يسترئُك، والجارُّ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ

الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطلت إمتاعك، وشحذ طباغك، وبسط لسانك، وجود بنانك، وفحم الفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصدقة الملوك، وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم منه عرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء. والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك، وإن قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة، وإن غزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل، كان لك فيه غنى من غيره، ولم تضطرّك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعينك، ومن ملابس صغار الناس، وحضور أفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديّة، وجهالاتهم المذمومة، كان في ذلك السلامة، ثم الغنيمّة، وإحراز الأصل، مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سُخف المنى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلّ ما

أشبهه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنّة.
وقد علمنا أنّ أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات
ليلهم، الكتاب، وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثر في ازدياد
تجربة ولا عقل ولا مروءة، ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دين، ولا
في تثمير مال، ولا في ربّ صنعة ولا في ابتداء إنعام.

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب وقال أبو عبيدة، قال المهلب لبنيه في
وصيته: يا بني لا تقوموا في الأسواق إلا على زرادٍ أو وراق.
وحدثني صديق لي قال: قرأت على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه من مآثر غطفان
فقال: ذهبّت المكارمُ إلا من الكتب.

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غبرتُ أربعين عاماً ما قلتُ ولا بتُّ ولا اتكأتُ
إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري.

وقال ابن الجهم: إذا غشيني النعاس في غير وقت نوم - وبئس الشيء النومُ
الفاضلُ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحنم،
فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة،
والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبیین أشدَّ إيقاظاً من نهيق
الحمير وهدّة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنْتُ الكتابَ واستجدّته، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ
ذلك فيه - فلو تراني وأنا ساعةً بعد ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقه مخافةً
استنفاده، وانقطاع المادّة من قلبه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير

الورق، كثير العدد - فقد تمَّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرة ورقه لنسخته، فقال ابن الجهم: لكنِّي ما رَعَبَنِي فِيهِ إِلَّا الَّذِي زَهَّدَكَ فِيهِ؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يوم لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ نَظَرَ في كتاب الإقليدس مع جارية سَلَمَوِيهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وساعة واحدة، فقد فرغتِ الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحَكِّمْ مَقَالَةً وَاحِدَةً، على أَنَّهُ حُرٌّ مَخِيرٌ، وتلك أُمَّةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءة الكتاب من سَلَمَوِيهِ على تعليم جارية، قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أَنَّهُ لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأراك تزعم أَنَّهُ قد فرغ من مقالة قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدبٍ؟ قال: لأنِّي سمعته يقول لابنه: كم أنفقتَ على كتاب كذا؟ قال: أنفقتُ عليه كذا، قال: إِنَّمَا رَعَبَنِي فِي الْعِلْمِ أَنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي أَنْفَقْتُ عَلَيْهِ قَلِيلاً وَأَكْتَسِبْتُ كَثِيراً، فأما إذا صرتُ أنفقَ الكثيرَ، وليس في يدي إلا المواعيدُ، فإنِّي لا أريد العلمَ بشيءٍ.

السمع والكتابة

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثرَ سماعه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبه أكثرَ من سَمَاعِهِ؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَفُ إِلَيْهِ،

حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألدَّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه، ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب، ألدَّ عنده من إنفاق عُشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً، وليس يَنفَعُ بإنفاقه، حتَّى يؤثر اتِّخاذاً الكتب إيثار الأعرابي فرسه بالبن على عياله، وحتَّى يؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابي في فرسه، - حرص الزنادقة على تحسين كتبهم. وقال إبراهيم بن السُّنْدِيِّ مرة: ودِدْتُ أَنْ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرقِ البراق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطُّ، فإني لم أرَ كورق كتبهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطأ، وإذا غرمتُ مالاً عظيماً - مع حبي للمال وبُغضِ الغُرم - كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيمِ العلم، وتعظيمِ العلم دليل على شرفِ النفس، وعلى السلامة من سُكر الآفات، قلت لإبراهيم: إنَّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيل الكتب، كإنفاقِ النصارى على البيع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكم وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُننٍ وتبيينٍ وتبيين، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرِّفُ الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التَّكسُّبِ والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن

والآداب - وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مائمه -
كانوا ممن قد يجوز أن يُظنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في
التبئ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة، وعلى طريقِ تعظيم
الملة، فإتّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار،
وإنفاق النصارى على صُلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على
سدنة البددة، ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً،
وكتبُ الحكمة لهم مذبولةً، والطرقُ إليها سهلةً معروفةً، فما
بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياناتهم، كما يزخرف
النصارى بيوتَ عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند
المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ
على الخشوع، لبلغوا في ذلك بعفوهم، ما لا تبلغه النصارى
بغاية الجهد.

مسجد دمشق وقد رأيتُ مسجدَ دمشق، حين استجاز هذا
السبيل ملكٌ من ملوكها، ومن رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه،
وأنّ الروم لا تسخوا أنفسهم به، فلما قام عمرُ بن عبد
العزیز، جلّله بالجلال، وعطاه بالكرابيس، وطبخ سلاسل
القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق؛ وذهب إلى أنّ
ذلك الصنيعَ مجانبٌ لسنة الإسلام، وأنّ ذلك الحُسن الرائع
والمحاسن الدّاق، مذهلةٌ للقلوب، ومشغلةٌ دون الخشوع،

وَأَنَّ الْبَالَ لَا يَكُونُ مَجْتَمِعاً وَهَنَّاك شَيْءٌ يَفْرَقُهُ وَيَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.
صفة كتب الزنادقة والذي يدلُّ على ما قلنا، أنه ليس في
كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طريف، ولا صنعةٌ أدب، ولا حكمةٌ
غريبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميةٌ، ولا تعريفٌ صناعة،
ولا استخراجُ آلة، ولا تعليمُ فِلاحةٍ، ولا تدبيرُ حرب، ولا
مقارعة عن دين، ولا مناظلة عن نِحلة، وِجُلُّ ما فيها ذِكر
النور والظلمة، وتناكُحُ الشياطين، وتساؤُدُ العفاريت، وذكر
الصنديد، والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شقْلون، وعن
الهامة والهمامة، وكلُّهُ هَذُرٌ وَعِيٌّ وَخُرَافَةٌ، وَسُخْرِيَةٌ وَتَكْذُوبٌ،
لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونِقاً، ولا تدبيرَ
مَعاشٍ، ولا سياسةً عامة، ولا ترتيبَ خاصَّة، فأبى كتابِ
أجهل، وأبى تدبيرِ أفسد من كتابِ يوجب على الناس الإطاعة،
والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس
فيه صلاحُ مَعاشٍ ولا تصحيحُ دين؟ والناسُ لا يحبُّون إلا ديناً
أو دنيا: فأما الدِّنيا فإقامة سوقها وإحضار نفعها، وأما الدِّين
فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصة، أن
يصوِّر في صورةٍ مغلَّطة، ويموِّه تموية الدينارِ البُهْرَجِ،
والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته
القليل، فليس إنفاقهم عليها من حيثُ ظننت، وكلُّ دين يُلون

أظهر اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتعليظ فيه إلى أكثر، وقد علمنا أنّ النصرانيّة أشدّ انتشاراً من اليهوديّة تعبدًا، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعليمه.

فضل التعلم

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدعُ بعضاً، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإنَّ أحسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.
وقال الخليل بن أحمد: تكثّر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ.
وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر. وأنشد قول ابن يسير:

وأحفظ من ذاك ما
أجمع

أما لو أعى كل ما
أسمع

ت لَقِيلَ هُوَ الْعَالِمِ المِصْقَعِ	ولم أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قد جمع
ع من العلم تسمعه تَنْزِعُ	ولكنَّ نفسي إلى كلِّ نو
تُ ولا أنا من جمعه أشْبِعُ	فلا أنا أحفظ ما قد جَمَعُ
وعلمي في الكتبِ مستودعُ	وأحصَرَ بالعِيِّ في مجلسي
يكنُّ دهره القهقري يرجعُ	فمن يكُ في علمه هكذا
فجمعك للكتبِ لا ينفع	إذا لم تكن حافظاً واعياً

التخصص بضروب من العلم وقال أبو إسحاق: كَلَّفَ ابْنُ يَسِيرٍ
الكتبَ ما ليس عليها، إن الكتبَ لا تحيي الموتى، ولا تحوّل
الأحمقَ عاقلاً، ولا البليدَ ذكياً، ولكنَّ الطبيعة إذا كان فيها

أدنى قبُول، فالكتبُ تشحذُ وتفتقُ، وتُرهِفُ وتَشْفِي، ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيءٍ، فينبغي لأهله أن يداووه فإن ذلك إنما تصوّر له بشيءٍ اعتراه فَمَنْ كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصِّ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائر ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلاّ نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعـد.

جمع الكتب وفضلها

وحدّثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدارسه كتاب إلاّ وله ثلاث نسخ. وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلتُ على رجل قطّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفتر وجليسه فارغ اليد، إلاّ اعتقدتُ أنّه أفضلُ منه وأعقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا يوماً: إنّ في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة، وهم جلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طنبُورٌ، فتسوّرنا عليهم في جماعةٍ من رجال الحيّ، فإذا فتى جالسٌ في وسط الدار،

وأصحابه حوله، وإذا هم بيض اللّحي، وإذا هو يقرأ عليهم
 دفتراً فيه شعر، فقال الذي سعى بهم: السّوءة في ذلك البيت،
 وإن دخلتموه عثرتم عليها فقلت: والله لا أكشف فتى أصحابه
 شيوخ، وفي يده دفتراً علم، ولو كان في ثوبه دم يحيى بن
 زكرياء وأنشد رجلٌ يونسَ النحويّ:

فَبُنْسَ مَسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ
 الْقِرَاطِيسُ

اَسْتَوْدَعُ الْعِلْمَ
 قِرْطَاساً فَضِيْعَهُ

قال، فقال يونس: قاتله الله، ما أشدّ ضنّانته بالعلم، وأحسن
 صيانته له، إنّ علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك
 بمكان الرّوح، وضع مالك بمكان البدن!.

وقيل لابن داحة - وأخرج كتاب أبي الشمقمق، وإذا هو في
 جلود كوفيّة، ودفتين طائفيتين، بخطّ عجيب - ف قيل له: لقد
 أضيع من تجوّد بشعر أبي الشمقمق فقال: لا جرم والله إنّ
 العلم ليُعطيكم على حساب ما تعطونه، ولو استطعت أن أودعه
 سويداء قلبي، أو أجعله محفوظاً على ناظري، لفعلت.
 ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته، فرأيتُ
 السّمّاطين والرجالَ مُثولاً كأنّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ
 فرشتَه وبزّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت

كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر
والمساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخم ولا أنبل، ولا أهيَب
ولا أجزلُّ منه في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمع مع المهابة المحبَّة،
ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة.
وقال ابن داحة: كان عبدُ الله بنُ عبد العزيز بن عبد الله بن
عمر بن الخطَّاب، لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مقبِرةً من المقابر،
وكان لا يكادُ يرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسئل عن ذلك،
وعن نزوله المقبرة فقال: لم أرَ أوعظ من قبر، ولا أمتنع من
كتاب، ولا أسلم من الوحدة، ف قيل له: قد جاء في الوحدة ما
جاء فقال: ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل.

منفعة الخط

وضروب من الخطوط بعد ذلك، تدلُّ على قدر منفعة الخط. قال
الله تبارك وتعالى "كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ" وقال
الله عز وجل "فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي
سَفَرَةٍ" وقال "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ" وقال "وَأَمَّا مَنْ
أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ" وقال "أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا".

ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظ

نسياناً، ولكنّه تعالى وعزّاً، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخه،
أوكد وأبلغ في الإنذار والتحذير، وأهيبُّ في الصدور.
وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرّاف والزّاجر. وكان فيهم
حليّس الخطّاط الأسيديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم:

فأنتم عصاريط
الخَميس إذا غزوا
عناؤكم تلك
الأخاطيط في التّرب

وخطوطُ آخر، تكون مستراحاً للأسيرِ والمهموم والمفكّر، كما
يعتري المفكر من قرع السنّ، والغضبان من تصفيق اليد
وتجحيظ العين. وقال تائبُ شرّاً:

لتقرعنّ عليّ السنّ
من ندمٍ
إذا تذكرت يوماً بعضَ
أخلاقي

وفي خطِّ الحزين في الأرض يقول ذو الرّمة:

عشيّة ما لي حيلة
غير أنني
بلقطِ الحصى والخطّ
في الدارِ مولع

أخطُّ وأمحو
بكفّي والغربانُ في

الدارِ وَقَعُ

الخطّ ثم أعيدَه

وذكر النابغة صنيع النساء، وفزعهنّ إلى ذلك، إذا سُبِين
واغتربن وفكرن، فقال:

ويخبّان رُمانَ الثدي
النواهدِ

ويخططن بالعيدانِ في
كلّ منزلٍ

وقد يفزع إلى ذلك الخجلُ والمتعلُّ، كما يفزع إليه المهمومُ
وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصلت:

لا

لتلمسِ العِلّاتِ بالعيدانِ

ينقرون الأرضَ عند سؤالهم

بل يبسطون وجوههم

عند اللقاء كاحسنِ الألوانِ

فترى لها

وقال الحارث بن الكندي، وذكر رجلاً سأله حاجةً فاعتراه
العبثُ بأسنانه، فقال:

يرينا أنه وجعٌ
بضرسٍ

وأضَ بكفه يحتكُ
ضرساً

وربما اعتري هولاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى،
ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس:

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ
رَأْسِي قَاعِدًا
أَعَدُّ الْحَصَى مَا
تَنْقُضِي حَسْرَاتِي

وقال أمية بن أبي الصلت:

نَهْرًا جَارِيًا وَبَيْتًا
عَلِيًّا
يَعْتَرِي الْمَعْتَفِينَ فَضْلُ
نَدَاكَ

في تراخ من
المكارمِ جَزَلِ
لم تعللهم بلقظ
حصاكا

وقال الآخر، وهو يصف امرأة قُتِلَ زوجها، فهي محزونة تلقظ
الحصى:

وبيضاء مكسال كأنَّ
وشاحها
عَقَلْتُ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا
مع الصُّبْحِ أَوْ فِي
عَلَى أُمَّ أَحْوَى
الْمُقَاتِلِينَ خُدُولِ

عَدَدَ الحصى

جُنْحَ كُلِّ أَصِيلٍ

يقول: لم أُعْطِهَا عَقْلاً عن زوجها، ولم أُوْرثها إلاّ الهَمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى، يخبر أنّه لمَنْعَتِهِ، لا يُوصَل منه إلى عقلٍ ولا قُوْد.

أقوال الشعراء في الخط

ومّا قالوا في الخطّ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبى قال: قال المقتنع الكنديُّ في قصيدةٍ له مدح فيها الوليد بن يزيد:

بمداده، وأسَدَّ من
أقلامه

كالخطِّ في كُتُب
الغلام أجاده

مُسْتَحْفَظٌ للعلم من
علامه

قلمٌ كخرطوم
الحمامة مائلٌ

لبيانها بالنَّقْط من
أرسامه

يسم الحروف إذا
يشاءُ بناءًها

حتى تغيَّرَ لونها

من صوفةٍ نَفَث

المداد سُخَامِه

بِسُخَامِه

يَخْفَى فَيُقْصَمُ مِنْ
شَعِيرَةِ أَنْفِهِ

كَقَلَامَةِ الْأُظْفُورِ مِنْ
قَلَامِهِ

وَبَأَنْفِهِ شَقَّ تِلَاعَمَ
فَاسْتَوَى

سُقِيَ الْمَدَادَ، فَزَادَ فِي
تَلَامِهِ

مُسْتَعْجِمٌ وَهُوَ
الْفَصِيحُ بِكُلِّ مَا

نَطَقَ اللِّسَانُ بِهِ عَلَى
اسْتِعْجَامِهِ

وَلَهُ تَرَاجِمَةٌ
بِالْأَسْنَةِ لَهُمْ

تَبْيَانٌ مَا يَتَلَوْنَ مِنْ
تَرْجَامِهِ

مَا خَطَّ مِنْ شَيْءٍ بِهِ
كَتَّابِهِ

مَا إِنْ يَبُوحُ بِهِ عَلَى
اسْتِكْتَامِهِ

وَهَجَاؤُهُ قَافٍ وَوَلَامٍ
بَعْدَهَا

مِيمٍ مَعْلَقَةٌ بِأَسْفَلِ
لَامِهِ

ثم قال:

قالت لجارتها
الغزِيلُ إذ رأت

وجهَ المقتع من
وراءِ لِثامِهِ

قد كان أبيضَ
فاعتراه أدمَةٌ

فالعينُ تنكره من
أدهيمامِهِ

كم من بُويزِلِ عامِها
مهرية

سُرحِ اليدينِ ومن
بُويزِلِ عامِهِ

وهبَ الوليدُ برَحْلِها
وزمامها

وكذاك ذاكَ برَحْلِهِ،
وزمامه

وقويرحِ عتدِ أَعْدَّ
لِنِيَّهِ

لبنِ اللقوحِ فعادَ مِلءَ
حِزامِهِ

وهبَ الوليدُ
بسَرَجِها ولجامها

وكذاك ذاكَ بسَرَجِهِ،
ولجامه

أهدى المقتعَ للوليدِ
قصيدَةً

كالسيفِ أرهفَ حدَّهُ
بِحُسامِهِ

وله الخِلافة بعد
موتِ هشامِه

وله المآثرُ في
قريشٍ كلِّها

وقال الحسن بن جماعة الجذاميُّ في الخطِّ:

أصمُّ الصدى
مُحرورِفُ السنِّ طائِعُ
لسانٌ ولا أدنُّ بها هَوَ
سامعُ

إليكِ بِسِرِّي بَاتَ
يُرِقِلُ عالِمٌ
بَصِيرٌ بما يُوحَى
إليه وما لَهُ

لديه، إذا ما حَثَّحَتْهُ
الأصابعُ

كانَ ضميرَ القلبِ
باحِ بِسِرِّه

ولا مِنْ ضلوعِ
صَفَّقَتِها الأضالِعُ

له رِيقَةٌ من غيرِ
فَرثٍ تَمُدُّه

وقال الطائيُّ، يمدح محمدَ بن عبد الملك الزيات:

وما بِرِحا
لكَ القلَمُ

أَعَنَّتْها مُدُّ راسَلتِكَ الرِسايلِ
يُصابُ من الأمرِ الكَلَى والمفاصلُ

لُعَابُ الْأَفَاعِي

وَأَرِي الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلُ
الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ

لَهُ رِيْقَةٌ طُلُّ

بِأَثَارِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ
وَلَكِنَّ وَقَعَهَا

فَصِيْحٌ إِذَا

وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ
اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبُ

إِذَا مَا امْتَطَى

عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ
الْخَمْسِ اللَّطَافِ وَأُفْرَغْتَ

أَطَاعَتُهُ أَطْرَافُ

لِنَجْوَاهِ تَقْوِيضَ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ
الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ

إِذَا اسْتَعَزَّرَ الذَّهْنَ

أَعَالِيهِ فِي الْقِرْطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلُ
الْجَلِيِّ وَأَقْبَلَتْ

وَقَدْ رَفَدْتَهُ

ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ
الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ

رضى وسميناً خطبه وهو ناحلُ
رأيتَ جليلاً شأنه
وهو مُرَهَفٌ

فدانٍ وأمّا الحكمُ فيه فعادلُ
أرى ابنَ أبي
مروانَ أمّا لِقاؤه

وقد ذكر البُحْثِيُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن
أنبلِ أبناءِ كتابهم الجِلَّةِ فوال:

وإذا دجّت أقلامه ثم
برقت مصابيحُ الدجى
انتحت
في كتبه

الكتابات القديمة

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في
الحجارة، وخلقة مُرَكَّبَةً في البُنْيَانِ، فربّما كان الكتابُ هو
الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر
جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نفعها، أو
إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا
على قُبَّةِ عُمْدَانِ، وعلى باب القَيْرُوانِ، وعلى باب سَمَرْقَنْدِ،
وعلى عمود مَأْرِبِ، وعلى ركن المشقَرِ، وعلى الأبلق الفردِ،
وعلى باب الرُّها، يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع

المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعِدِ المواضع من الدُّثور،
وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أَنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى
على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالقات

وأقول: لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات
والصِّكّات، وكلُّ إقطاع، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلِّ عهدٍ
وعقدٍ، وكلِّ جوارٍ وحلفٍ، ولتعظيم ذلك، والثقة به والاستناد
إليه، كانوا يدعون في الجاهليّة مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحلفِ
والهُدنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال
الحارثُ بن حلزة، في شأن بكرٍ وتغلب:

دَمَ فِيهِ الْعُهُودُ
وَالْكَفَلَاءُ

قَضَ مَا فِي
الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي
الْمَجَازِ وَمَا قُ

حَدَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعْدِي
وَهَلْ يَنْ

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مهارقٌ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهدٍ، وميثاقٍ، وأمان.

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقُومِ والخطوطِ فَرْقٌ، ولولا الرقوم لهلك أصحابُ البزِّ والغزول، وأصحابُ الساجِ وعمامة المتاجر، وليسَ بينِ الوُسُومِ التي تكون على الحافرِ كلِّه والخفِّ كلِّه والظلفِ كلِّه، وبين الرقومِ فرق، ولا بينِ العقودِ والرقومِ فرق، ولا بينِ الخطوطِ والرقومِ كلُّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروفِ المجموعةِ والمصوِّرةِ من الصوتِ المقطَّعِ في الهواء، ومن الحروفِ المجموعةِ المصوِّرةِ من السوادِ في القرطاسِ فرق واللسان: يصنع في جُوبَةِ الفمِ وهوائه الذي في جوفِ الفمِ وفي خارجه، وفي لَهاتِهِ، وباطنِ أسنانه، مثل ما يصنع القلمُ في المدادِ واللَّيْقَةِ والهوائِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخلقٌ موائل، ودلالات، فيعرف منها ما كان في تلك الصُّورِ لكثرةِ ترددها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوِّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضحك على السرور، وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلك

عرفوا معاني الصوت، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ
جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لُقبه، والكلبَ اسمَه،
وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون
الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدابة مع رفع
الصوت، حتَّى إذا رأى سائسَه محم، وإذا رأى الحمامَ القيمَّ
عليه انحطَّ للقطِّ الحبِّ، قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه، ولولا
الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير،
وعلى خزائنِ الناسِ الضررُ الشديد.

الخط والحضارة

وليس في الأرض أمةٌ بها طرُق أو لها مُسكّة، ولا جيلٌ لهم
قبضٌ وبسطٌ، إلاّ ولهم خطٌّ، فأما أصحاب الملك والمملكة،
والسلطانِ والجباية، والديانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقن،
والحساب المحكم، ولا يخرج الخطُّ من الجزم والمسند المنمنم
والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثمُ بن عدي، وابن الكلبي.
تخليد الأمم لمآثرها قال: فكلُّ أمةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها،
وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من
الأشكال.

تخليد العرب لمآثرها وكانت العربُ في جاهليّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ، على الشاعرِ الراغب، والمادح، وفضيلةَ المأثرة، على السيّدِ المرغوبِ إليه، والممدوحِ به، وذهبت العجمُ على أن تقيّد مآثرها بالبُنيانِ، فبنوا مثلَ كرد بیداد، وبنى أردشير بيضاءِ إصطخر، وبيضاءِ المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس، قال: ثمَّ إنّ العربَ أحبّت أن تشارك العجمَ في البناءِ، وتنفرد بالشعر، فبنوا عُمدان، وكعبةَ نجران، وقصرَ مارد، وقصرَ مأرب، وقصرَ شعوب والأبلىق الفرد، وفيه وفي مارد، قالوا تمرّد ماردٌ وعزّ الأبلىق وغيرَ ذلك من البُنيانِ، قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيانِ، كما لا تبيح شريفَ الأسماءِ، إلاّ لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمامات والقباب الخضر، والشُرْف على حيطان الدار، وكالعقد على الدهليز وما أشبه ذلك، فقال بعض من حضر: كُتِبَ الحكماءِ وما دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصناعات، والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيّةٌ ومن لا بقيّةَ له، أبقي ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثرُ رداً، لأنّ الحكمة

أنفع لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسن في الأحداث،
لمن أحبّ الذكر الجميل.
طمس الملوك والأمراء آثار من قبلهم والكتب بذلك أولى من
بُنيان الحجارة وحيطان المدر؛ لأنّ من شأن الملوك أن
يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يُميتوا ذكراً أعدائهم، فقد
هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا
أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما
هدم عثمان صومعة عمدان، وكما هدم الأطم التي كانت
بالمدينة، وكما هدم زياداً كلّ قصر ومصنع كان لابن عامر،
وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان.

تاريخ الشعر العربي

وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد، صغير السنّ، أولُ من نهج سبيله،
وسهل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهل بن
ربيعة، وكتب أرسطاطاليس، ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس،
وديمقراطس، وفلان وفلان، قبل بدء الشعر بالدهور قبل
الدهور، والأحقاب قبل الأحقاب.
ويدلُّ على حداثة الشعر، قول امرئ القيس بن حجر:

ضِيَعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ عَدَرُوا

!

نَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنُوا حَسَنًا

وَلَمْ يَضِعْ بِالْمَغِيبِ مَنْ نَصَرُوا

أ

دَّوَا إِلَى جَارِهِمْ خِفَارَتِهِ

وَلَا اسْتَعِيرَ يَحْكُمُهَا الثَّفَرُ لَا حِمِيرِيٍّ
وَفِي وَلَا عُدَسٌ

لَكِنْ عَوِيرٌ وَفِي بَدْمَتِهِ لَا قِصْرَ عَابَةٍ وَلَا عَوْرُ

فانظر، كم كان عمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارةَ ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام؟ فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمأتي عام.

قال: وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب. والشعر لا يُستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور، والكلام المنثور

المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحوّل من
موزون الشعر.

قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في
الصناعات، وإلى كلّ ما أقام لهم المعاش ويوّب لهم أبواب
الفطن، وعرفهم وجوه المرافق؛ حديثهم كقديمهم، وأسودهم
كأحمرهم، وبعيذهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملة لهم.

صعوبة ترجمة الشعر العربي

وقد نُقِلت كتبُ الهند، وتُرجمت حكم اليونانية، وحوّلت آدابُ
الفرس، فبعضها ازدادَ حُسنًا، وبعضها ما انتقص شيئًا، ولو
حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع
أنّهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئًا لم تذكره العجم في
كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم، وقد نُقِلت
هذه الكتب من أمةٍ إلى أمةٍ، ومن قرنٍ إلى قرنٍ، ومن لسانٍ
إلى لسانٍ، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر مَنْ ورثها ونظر فيها،
فقد صحَّ أنّ الكتبَ أبلغُ في تقييد المآثر، من البُنيان والشعر.
ثم قال بعض مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إنّ
التّرجمان لا يؤدّي أبدًا ما قال الحكيمُ، على خصائص معانيه،

وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته، وخفيايت حدوده، ولا
يقدر أن يوفيهها حقوقها، ويؤدّي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم
الوكيل ويحبّ على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم
معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في
العلم بمعانيها، واستعمال تصارييف أفاضها، وتأويلات
مخارجها، ومثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله
تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قرّة، وابن فهريز،
وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثل أرسطاطاليس؟
ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟

قيمة الترجمة

ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في
وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس
باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتّى يكون فيهما سواءً
وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد
أدخل الضيم عليهما، لأنّ لكل واحد من اللغتين جذب الأخرى
وتأخذ منها، وتعرض عليها، وكيف يكون تمكّن اللسان
منهما مجتمعين فيه، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوّة
واحدة، فإنّ تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوّة عليهما،

وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعم وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد البتة مترجماً يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

ترجمة كتب الدين

هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحن، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه ممّا لا يجوز عليه، حتّى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه، ويكون ذلك متضمناً بما يجوز على الله تعالى، ممّا لا يجوز، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز، وحتّى يعلم مستقرّ العامّ والخاصّ، والمقابلات التي تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية، وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر، ممّا يخصه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصه العقل مما تخصه العادة أو الحال الرادة له عن العموم، وحتّى يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً، وما لا يجوز أن يسمّى بصدق

ولا كذب؛ وحتّى يعرف اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيّ معنى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحال من الصحيح، وأيّ شيءٍ تأويلُ المُحال؛ وهل يسمّى المُحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ: المُحال أم الكذب، وفي أيّ موضع يكون المُحالُ أفضَحُ، والكذب أشنعُ؛ وحتّى يعرف المثلّ والبديع، والوحي والكناية، وفصل ما بين الخطلّ والهذّر، والمقصور والمبسوط والاختصار، وحتّى يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، والذي ذكرنا قليلاً من كثير، ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين، والخطأ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال، وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ وقد علمنا أنّ المقدمات لا بدّ أن تكون اضطرارية، ولا بدّ أن تكون مرتبةً، وكالخيط الممدود، وابنُ البطريق وابن قرّة لا يفهمان

هذا موصوفاً منزلاً، ومرتباً مفصلاً، من معلّم رفيق، ومن حاذق طبّ فكيف بكتابٍ قد تداولته اللغات وأختلاف الأقالم، وأجناس خطوط الملل والأمم؟! ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربيّة، ثم كان العربيّ مقصراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يجد اليونانيّ الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربيّة بدأً من الاغتفار والتجاوز، ثمّ يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ، ثمّ ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثمّ لا ينقص منه؛ ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته.

مشقة تصحيح الكتب

ولربّما أراد مؤلّف الكتاب أن يصلح تصحيحاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام، فكيف يطبق ذلك المعرض المستأجر، والحكيم

نفسه قد أعجزه هذا الباب وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين:
قد أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحاً، ثم يصير هذا الكتاب
بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثاني سيرة
الوراق الأول؛ ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية،
والأعراض المفسدة، حتى يصير غلطاً صرفاً، وكذباً مصمتاً،
فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره
الخطاط بشر من ذلك أو بمثله، كتاب متقايم الميلاد، دهرى
الصنعة.

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

قالوا: فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى؟
قال الآخر: إذا كان الأمر على ما قلتم، والشأن على ما
نزلتم، أليس معلوماً أنّ شيئاً هذه بقيته وفضلته وسوره
وصبايته، وهذا مظهر حاله على شدة الضيم، وثبات قوته
على ذلك الفساد وتداول النقص، حري بالتعظيم، وحقيق
بالتفضيل على البنيان، والتقديم على شعر إن هو حوّل
تهافت، ونفعه مقصور على أهله، وهو يعد من الأدب
المقصور، وليس بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحية

وليست بحقيقة بيّنة ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات
والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دون
الأشعار، وها هنا كتبٌ هي بيّننا وبينكم، مثل كتاب أقليدس،
ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي، ممّا تولاه الحجاج،
وكتبٌ كثيرةٌ لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة
ومنقوصة مظلومة ومغيّرة، فالباقي كافٍ شافٍ، والغائب منها
كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الكاملة.
فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعه إلى حيث
انتهى بنا القول.

وحسبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ،
والمنطق، والهندسة، ومعرفة اللُّحون، والفلاحة، والتجارة،
وأبواب الأصباغ، والعطر، والأطعمة، والآلات، وهم أتوكم
بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمّامات وفي الأصطرلابات
والقرسطونات وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج
والفُسَيْفِساء، والأسرنج والزنجفور واللازورد والأشربة،
والأنبجّات، والأيارجات وللكم المينا، والنشادر والشبّه وتعليق
الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم، ولهم
صبُّ الزردج، واستخراج النَّشَاسْتَج، وتعليق الخيش، واتخاذ

الجَمَّازَات، وعمل الحَرَاقَات، واستخراج شراب الدَائِيّ وعمل
الدَّيَابَات.

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

وكان الحجاجُ أوَّلَ مَنْ أَجْرَى فِي البَحْرِ السَّفْنَ المَقْيِرَةَ
المَسْمَرَةَ غَيْرَ المَخْرَزَةَ، والمدهُونَةَ والمسطَّحة، وغيرَ ذواتِ
الجَوْجُو، وكان أوَّلَ مَنْ عَمِلَ المَحَامِلَ، ولذا قال بعضُ رُجَّازِ
الأَكْرِيَاءِ:

أخزأه ربِّي عاجلاً
وأجلاً

أوَّلَ خَلَقِ عَمَلِ
المَحَامِلَا

وقال آخر:

مَحَامِلٌ لِقَدِّهَا
نَقِيضُ

شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهَنَّ
بِيضُ

وقال آخر:

مَحَامِلٌ فِيهَا رِجَالٌ
قَبَّضُ

شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهَنَّ
بِيضُ

لو يتكون سنة لم يغرضوا

وقال القوم: لولا ما عرّفوكم من أبواب الحُمْلانات لم تعرفوا
صنعة الشبّه، ولولا عَضارُ الصين على وجه الأرض لم
تعرفوا العَضار، على أنّ الذي عمِلْتُم ظاهرٌ فيه التوليد،
منقوصُ المنفعة عن تمام الصّينيّ، وعلى أن الشبّه لم
تستخرجوه، وإنّما ذلك من الأمور التي وقعت اتّفاقاً، لسقوط
الناطف من يد الأجير في الصّفْر الذائب، فخفتم إفساده، فلمّا
رأيتم ما أعطاه من اللون عمِلْتُم في الزيادة والنقصان، وكذلك
جميعُ ما تهيأ لكم، ولستم تخرّجون في ذلك من أحدٍ أمرين:
إمّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ما أورثوكم، وإمّا
أن يكون ذلك تهيأً لكم من طريق الاتّفاق!

الجمازات

وقد علمتم أنّ أوّل شأن الجمّازات، أنّ أمّ جعفر أمرت
الرحّالين أن يزيدوا في سير النجبية التي كانت عليها، وخافت
فوت الرشيد، فلما حرّكت مشّت ضروباً من المشي، وصنوفاً

من السير، فجَمَزت في خلال ذلك، ووافقت امرأةً تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمزِ راحةً، ومع الراحة لذةً، فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السيرة، فما زالوا يقربون ويبعدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كل ذلك تصوبهم وتخطئهم على قدر ما عرفت، حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدوا، ثم إنها فرغتهم لإتمام ذلك حتى تم واستوى، وكذلك لا يخلو جميع أمركم، من أن يكون اتفاقاً، أو اتباع أثر.

الترغيب في اصطناع الكتاب

ثم رجع بنا القول إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على من زرى على واضع الكتب، فأقول: إن من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومرآشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن يحتمل ثقل مؤونتهم في تقويمهم، وأن يتوحي إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم، فلن يسان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره، على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع، ويكثر التظالم، وتفرط العصبية، وتقوى الحمية، وعند المواجهة والمقابلة، يشتد حب الغلبة، وشهوة

المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التباين، وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من التعرف، وعميت عن مواضع الدلالة، وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجة، لأن المتوحد بذرسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب.

الكتاب قد يفضل صاحبه

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب، ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب

عَنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قلوبنا
كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حَسُنَ حظُّنا من
الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر
قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا،
وتشاهده نفوسنا، لقلَّت المعرفة، وسَقَطت الهمة، وارتفعت
العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخاطر فاسداً، ولكلَّ الحدَّ وتبلَّد
العقل.

أفضل الكتب

وأكثرُ من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسنُ موقعاً،
كُتِبَ اللهُ تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة،
وتعريفُ كلِّ سيئةٍ وحسنة، وما زالت كتبُ الله تعالى في
الألواح والصحف، والمهارق والمصاحف، وقال الله عزَّ وجلَّ
"المَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ"، وقال: "مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ
مِنْ شَيْءٍ"، ويقال لأهل التَّوراة والإنجيل: أهل الكتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أن يكونَ سبيلنا لمنْ بعدنا، كسبيلِ مَنْ كانَ قبلنا
فيْنا، على أنَّا وقد وجدنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا، كما أنَّ
منْ بعدنا يجدُ من العبرة أكثرَ ممَّا وجدنا، فما ينتظر العالمُ
بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصرَ للحقِّ من القيام بما يلزمه،
وقد أمكن القولُ وصلح الدهرُ وخوى نجم التقيَّة، وهبَّت ريحُ
العلماء، وكسدَ العيِّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم؟!
وليس يجدُ الإنسانُ في كل حينٍ إنساناً يدرِّبه، ومقوماً يثقِّفه،
والصبرُ على إفهام الرِيضِ شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة
العالمِ أشدُّ منه، والمتعلِّمُ يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما
يحتاج إليه قائماً وما أكثرَ مَنْ فرَّطَ في التعليمِ أيامِ خُمول
ذكره، وأيامِ حداثةِ سنِّه ولولا جياذُ الكتبِ وحسنُها، ومُبَيَّنُها
ومختصرُها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى
حبِّ الأدب، وأنفَت من حال الجهل، وأن تكون في غمار
الحشو، ولُدخل على هؤلاء من الخللِ والمضرة، ومن الجهل
وسوء الحال، وما عسى ألا يهكُن الإخبارُ عن مقداره، إلا
بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي اللهُ تعالى عنه: "تفقهوا
قبل أن تسودوا"

كتب أبي حنيفة

وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء
خمسين عاماً، وهو لا يعدُّ فقيهاً، ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا
أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب
الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه
من باب بعض العمال، وبالحرَّ إلا يمرَّ عليه من الأيام إلا
اليسير، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار، أو بلد من
البلدان، وجوب العناية بتنقيح المؤلفات وينبغي لمن كتب
كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم
بالأمور، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه
غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنَّ لابتداء الكتاب فتنةً
وعجباً، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت
الأخلاق، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف
عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص
من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر:

حَتَّى يَلِجَ بِهِمْ عِيٌّ
وَإِكْثَارُ

إِنَّ الْحَدِيثَ تَعَرَّ الْقَوْمَ
خُلُوتُهُ

ويقف عند قولهم في المثل: كلُّ مُجْرٍ في الخَلَاءِ يُسَرُّ فيخاف
أن يعتريه ما اعتري مَنْ أُحرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه
عند فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أنّ صاحبَ القلمِ يعتريه ما يعترى المؤدّب عند ضربه
وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة؟
لأنّه ابتداء الضرب وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكون أنّ
الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرّك دمه، فأشاع فيه
الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأي في الإكثار،
وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد
مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو
مع الإكثار أبعد.

مقايسة بين الولد والكتاب

واعلم أنّ العاقل إن لم يكن بالمتتبع، فكثيراً ما يعتريه من
ولده، أنّ يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره، فليعلم
أنّ لفظه أقرب نسباً منه من ابنه، وحركته أمسُّ به رَحماً من
ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين
جوهره فصلت، ومن نفسه كانت؛ وإنّما الولد كالمخطئة

يتمخّطها، والنّخامة يقذفها، ولا سواهُ إخراجك من جزئك
شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركةً لم تكن حتّى كانت منك،
ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق
فتنته بجميع نعمته.

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتاب إلى شيءٍ أحوَجَ منه إلى إفهام معانيه، حتّى لا
يحتاج السامع لما فيه من الرويّة، ويحتاج من اللفظ إلى
مقدار يرتفع به عن ألفاظ السّفلة والحشو، ويحطّه من غريب
الأعراب ووحشيّ الكلام، وليس له أن يهدّبهُ جدّاً، وينقّحه
ويصفيّه ويروّقه، حتّى لا ينطق إلاّ بلبّب اللبّ، وباللفظ الذي قد
حذف فُضولُه، وأسقط زوائدُه، حتّى عاد خالصاً لا شوب فيه؛
فإنّه إن فعل ذلك، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً
وتكراراً، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام،
وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها
ويؤخذ بها، ألا ترى أنّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا
الاسم، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب،
لما فهموا أكثره، وفي كتاب إقليدس كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ
وقد صُفي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن

يفهّمه من يريد تعليمه، لأنّه يحتاج إلى أن يكون قد عرّف
جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقيّ الذي استُخرج من جميع
الكلام.

قول صحار العبدى في الإيجاز

قال معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، لصحار العبدى:
ما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، قال
معاوية: أو كذلك تقول قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين لا
تخطئ ولا تبطئ. فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز، فقلت: لا
تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بن صفوان، لما عرّف
بالبيهة وعند أول وهلة، أن قولك لا تخطئ متضمّن بالقول،
وقولك لا تبطئ متضمّن بالجواب، وهذا حديث كما ترى آثروه
ورضوه، ولو أن قائلًا قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه
يقول: الاختصار.

حقيقة الإيجاز

والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون
الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومارٍ فقد
أوجز، وكذلك الإطالة، وإنّما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا
يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره،

فَمَا فَضَّلَ عَنِ الْمَقْدَارِ فَهُوَ الْخَطْلُ.

استغلق كتب الأَخْفَشِ وقلتُ لأبي الحسن الأَخْفَشِ: أَنْتَ أَعْلَمُ
النَّاسَ بِالنَّحْوِ، فَلَمْ لَا تَجْعَلُ كِتَابَكَ مَفْهُومَةً كُلَّهَا، وَمَا بَالُنَا نَفْهَمُ
بَعْضَهَا وَلَا نَفْهَمُ أَكْثَرَهَا، وَمَا بَالُكَ تَقْدِمُ بَعْضَ الْعَوِيصِ وَتَوَخَّرَ
بَعْضَ الْمَفْهُومِ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ لَمْ أَضَعْ كِتَابِي هَذِهِ لِلَّهِ، وَلَيْسَتْ
هِيَ مِنْ كِتَابِ الدِّينِ، وَلَوْ وَضَعْتُهَا هَذَا الْوَضْعَ الَّذِي تَدْعُونِي
إِلَيْهِ، قَلَّتْ حَاجَاتُهُمْ إِلَيَّ فِيهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَتِي الْمَنَالَةَ، فَأَنَا
أَضَعُ بَعْضَهَا هَذَا الْوَضْعَ الْمَفْهُومَ، لِتَدْعَوْهُمْ حَلَاوَةً مَا فَهَمُوا
إِلَى التَّمَاسِ فَهَمُ مَا لَمْ يَفْهَمُوا، وَإِنَّمَا قَدْ كَسَبْتُ فِي هَذَا
التَّدْبِيرِ، إِذْ كُنْتُ إِلَى التَّكْسَبِ ذَهَبْتُ، وَلَكِنْ مَا بَالُ إِبْرَاهِيمَ
النَّظَّامِ، وَفُلَانِ وَفُلَانِ، يَكْتُبُونَ الْكُتُبَ لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا
مِثْلِي فِي مَوَاقِفَتِهِ، وَحُسْنِ نَظَرِهِ، وَشِدَّةِ عَنَايَتِهِ، وَلَا يَفْهَمُ
أَكْثَرَهَا؟ وَأَقُولُ: لَوْ أَنَّ يُوسُفَ السَّمْتِيَّ، كَتَبَ هَذِهِ الشَّرُوطَ،
أَيَّامَ جَلَسَ سَلْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ شَهْرَيْنَ لِلْقَضَاءِ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ
رَجُلَانِ، وَالْقُلُوبُ سَلِيمَةٌ وَالْحَقُوقُ عَلَى أَهْلِهَا مَوْفَرَةٌ، لَكَانَ
ذَلِكَ خَطْلًا وَلِغَوَا؛ وَلَوْ كَتَبَ فِي دَهْرِهِ شُرُوطَ سَلْمَانَ، لَكَانَ ذَلِكَ
عَرَارَةً وَنَقْصًا، وَجَهْلًا بِالسِّيَاسَةِ، وَبِمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ دَهْرٍ.

مواضع الإسهاب

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلحِ بين العشائرِ أطالوا، وإذا
أنشدوا الشعرَ بين السَّماطينِ في مديحِ الملوكِ أطالوا،
وللإطالةِ موضعٌ وليس ذلك بخطئ، وللإقلالِ موضعٌ وليس
ذلك من عَجْز.

ولولا أَنِّي أتكل على أَنك لا تملُّ بابَ القولِ في البعيرِ حتَّى
تخرجَ إلى الفيلِ، وفي الدَّرَّةِ حتَّى تخرجَ إلى البعوضةِ، وفي
العقربِ حتَّى تخرجَ إلى الحيَّةِ، وفي الرجلِ حتَّى تخرجَ إلى
المرأةِ، وفي الذِّبانِ والنحلِ حتَّى تخرجَ إلى الغِربانِ والعِقبانِ،
وفي الكلبِ حتَّى تخرجَ إلى الديكِ، وفي الذئبِ حتَّى تخرجَ إلى
السُّبعِ، وفي الظلفِ حتَّى تخرجَ إلى الحافرِ، وفي الحافرِ حتَّى
تخرجَ إلى الخُفِّ، وفي الخُفِّ حتَّى تخرجَ إلى البُرثنِ، وفي
البُرثنِ حتَّى تخرجَ إلى المِخْلَبِ، وكذلك القولُ في الطيرِ
وعامَّةِ الأصنافِ، لرأيتُ أنَّ جملةَ الكتابِ، وإنْ كثرَ عددُ
ورقهِ، أنَّ ذلك ليس مما يُملُّ، ويُعتدُّ عليَّ فيه بالإطالةِ، لأنَّه
وإنْ كان كتاباً واحداً فإنَّه كتبَ كثيرةً، وكلُّ مُصحفٍ منها فهو
أمٌّ على حِدَةٍ، فإنْ أرادَ قراءةَ الجميعِ لم يَطلْ عليه البابُ الأوَّلُ
حتَّى يهجمَ على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجمَ على الثالثِ،
فهو أبداً مستفيدٌ ومستطرفٌ، وبعضُه يكونُ جَماماً لبعضِ، ولا
يزالُ نشاطُه زائداً، ومتى خرجَ منْ آي القرآنِ صارَ إلى الأثرِ،

ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعله أن يكون أثقل، والملا ل إليه أسرع، حتّى يفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخرافة، ولست أراه سُخْفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سيرة الحكماء، وآداب العلماء.

مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام، فأصوب العمل اتِّباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة.

أقوال بعض الشعراء في صفة الكتب قال ابن يسير في صفة الكتب، في كلمة له:

في الأرض منهم فلم يُحصني الهرب
أقبلت أهرب لا
ألو مُباعدة

ولا النواويسُ فالماخورُ فالخرب
بقصر أوسٍ
فما والت خنادقه

فَمِنْ وَرَائِي حَثِيثًا مِنْهُمْ الطَّلَبُ
مِنْهَا اعْتَصَمْتُ بِهِ

فَوْتًا وَلَا هَرَبًا، قَرَّبْتُ أَحْتَجِبُ
بَأَنِّي لَسْتُ مَعْجَزَهُمْ

جَارَ الْبِرَاءَةِ لَا شَكْوَى وَلَا شَغْبُ
الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِمْ جَذَلًا

عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي

فَلَيْسَ لِي فِي أَنْيْسٍ غَيْرِهِمْ أَرَبُ
وَأَلَّافٍ عَنَيْتُ بِهِمْ

وَلَا عَشِيرُهُمْ لِلسُّوءِ مَرْتَقِبُ
جُؤَسَاءٍ لَا جَلِيْسَهُمْ

وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ دَرْبُ
الْأَدَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ

أُخْرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَانْشَعَبُوا
حِكْمًا تَبْقَى مَنَافِعُهَا

إليه فهو قريبٌ من يدي كَتَبُ
فأَيُّما آدبٍ
منهم مددتُ يدي

إلى النبيِّ ثِقَاتٌ خَيْرَةٌ نُجُبُ
إن شئتُ من
مُحَكِّمِ الأَثَارِ يَرْفَعُهَا

في الجاهليَّةِ أنبتني به العرب
أو شئتُ من
عَرَبِ عِلْمًا بأوْلِهِم

تُنْبِي وتُخْبِرُ كيف الرأْيُ والأدبُ
أو شئتُ مِنْ
سَيْرِ الأَمَلِكِ مِنْ عَجَمِ

وقد مضتْ دونهم من دهرهم حَقْبُ
حتَّى كَأني قد
شاهدتُ عصرَهُم

أمسى إلى الجهل فيما قال يَنْتَسِبُ
يا قائلًا
قَصُرَتْ في العلم نُهْيَتُهُ

خلاف قولك قد بانوا وقد ذهبوا
إنَّ الأوائلَ قد
بانوا بعلمهم

نكون منه إذا ما مات نَكْتَسِبُ
ما مات منا
امرو أبقَى لنا أدبًا

وقال أبو وَجْزَة وهو يصف صحيفةً كُتِبَ له فيها بَسْتَيْنَ
وَسَقًا:

رَاحَتْ بَسْتَيْنَ وَسَقًا
فِي حَقِيبَتِهِ
مَا حُمِّلَتْ حِمْلَهَا
الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا

مَا إِنْ رَأَيْتُ قَلُوصًا
قَبْلِهَا حَمَلَتْ
سِتَيْنَ وَسَقًا وَمَا
جَابَتْ بِهِ بِلْدًا

وقال الراجز:

تَعَلَّمَنْ أَنَّ الدَّوَاةَ
وَالْقَلَمَ
تَبْقَى وَيُفْنِي حَادِثَ
الدَّهْرِ العَنَمَ

يقول: كتابك الذي تكتبه عليّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنمي
فيما يذهب.

نشر الأخبار في العراق ومما يدلُّ على نفع الكتاب، أنه لولا
الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط،
ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتى
تكون الحادثة بالكوفة غُدوة، فتعلم بها أهل البصرة قبل
المساء.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهدى، إذا جُعِلت بُرداً، قال الله جلَّ
 وعزَّ وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يوت أحداً مثله فقال
 "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ" إلى قوله: "أَوْ
 لِأَدْبَجْتَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ" فلم يلبث أن قال الهدود:
 "جِنَّتْكَ مِنْ سَبَأَ بَنَابِأَ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأَوْتَيْتُ
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" قال سليمان: "أَذْهَبُ
 بكتابي هذا فَأَلْقُهُ إِلَيْهِمْ" وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على
 تمامها. من عفریت، ومن بعض من عنده علمٌ من الكتاب،
 فرأى أن الكتاب أبهى وأنبل، وأكرم وأفخم من الرسالة عن
 ظهر لسان، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب، وقالت ملكة سبأ
 "يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ"، فهذا مما يدل على
 قدر اختيار الكتب استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا وقد
 يريد بعض الجلَّة الكبار، وبعض الأدباء والحكماء، أن يدعو
 بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب، إلى مآذبة أو
 ندام، أو خروج إلى متنزه، أو بعض ما يشبه ذلك، فلو شاء
 أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه، لأصاب من يحسن الأداء،
 ويصدق في الإبلاغ، فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنبه
 وأبلغ. ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم، ألا يكتب الكتب
 إلى كسرى، وقنصر، والنجاشي، والمقوقس، وإلى ابني

الجُنْدَى، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هودّة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلّغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه عليه الصلاة والسلام، علم أنّ الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمّ وأكمل، وأجمع وأنبّل.

وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتى يخزمه ويختمه، وربّما لم يرض بذلك حتى يُعَنُونه ويعظمه، قال الله جلّ وعز: "أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ" فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدار النفع، والمصلحة في الكتب.

نظام التوريت عند فلاسفة اليونانية قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العين، وتورث البنين الدين: وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال، إلا ما يكون عوناً له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم، واطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير

جَمَعَ العِلْمَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنْ جَمْعِ المَالِ، وَلِيَرَى أَنَّهُ العُدَّةُ
وَالعِتَادُ، وَأَنَّهُ أَكْرَمُ مُسْتَفَادٍ.

وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة،
ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛
فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان
صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقّيته له من الكفاية، ما
يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنَّ المَالَ لم يَزَلْ
تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول
بِعَرَضِ فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع
القوة، فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة
التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط
بأصول المنفعة، وعَجَّلَ لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحدوثة
الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.
وليس يجمع ذلك إلا كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على
ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفة الصناعات،
وفوائد الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح
برهانه، تسكن النفوس، وتتلعج الصدور، ويعود القلب
معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه
وتصلحه، وتهذبه، وتنفي الخَبْث عنه، وتفيدك العلم ،
وتصادق بينك وبين الحجة، وتعودك الأخذ بالثقة، وتجلب
الحال، وتكسب المال.

وراثه الكتب ووراثه الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة
للمورث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة،
ولا حقُّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ
منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها
المورث مذكوراً في الحكماء ومنوهاً باسمه في الأسماء،
وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً،
ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبة نامية، ما
كانت تلك الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت
الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما
كان من فوائدها على الناس أثر، وقالوا: من ورثته كتاباً،
وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغَل ولا يَسْتَعِلّ، وقد ورثته
الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى
إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكار، ولا إلى أن
تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرَج، وسواء
أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءً دفَعك إليه الكفاية، أو

ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب، ولم يجب عليه إحضار المسبب، فكُتِبَ الآباء، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى. وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه، ويرى تركه خطأً، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدر أن يسري إليه عرقٌ من نَجَلِه، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب، النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة، وإنما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدّث الغرير، والمنقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب، فخير ميراثٍ ورث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرّق،، ويبصر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حقّ، والرّكاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجّة، ولا على

الجار فيه مؤونة.

قول ديمقراط في تأليف كتب العلم وأما ديمقراط فإنه قال:
ينبغي أن يعرف أنه لا بدّ من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه
أحد من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة،
والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير،
فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة،
وأن يكون له نسبة يُنسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن
يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون
مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من
وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.
فذاكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب،
وهو كتابه الذي يسمى أفوريسموا تفسيره كتاب الفصول.
مقابلة في شأن الكلب وقولك: وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم
أصله، وخبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة
خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه،
واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلّ به، ومع حاله
التي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السباع واقتدارها،
وعن تمنّعها وتشرّفها، وتوحّشها وقلة إسماعها، وعن
مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها

والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها،
ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من
المواضع المخوفة، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة
تامة، حتى كأنه من الخلق المركَّب والطبائع الملقَّعة،
والأخلاق المجتلبة، كالبغل المتلَوَّن في أخلاقه، الكثير العيوب
المتولِّدة عن مزاجه.

وشرَّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادَّة، والأخلاق
المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالرابعيِّ من الحمام، الذي
ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه،
وبطل عنه عمر الورشان، وقوَّة جناحه وشدة عصبه، وحسنُ
صوته، وشخو حلقه، وشكل لحونه، وشدَّة إطرابه، واحتماله
لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الرابعي أنَّه مُسرَّوَل
مثقل، وحدث له عِظْمُ بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمِّه.
وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما،
ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس
بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة، فلو كان البغل
عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيد في قوتها، وأتمَّ
لشدتها، فمع البغل من الشَّيق والنَّعظ ما ليس مع أبيه، ومع
البغلة من السَّوس، وطلب السِّفاد، ما ليس مع أمِّها، وذلك

كُلُّهُ قَدَحٌ فِي الْقُوَّةِ، وَنَقْصٌ فِي الْبُنْيَةِ، وَخَرَجَ غَرْمُولُهُ أَعْظَمَ
مَنْ غَرَامِيلُ أَعْمَامِهِ وَأَخْوَالِهِ، فَتَرَكَ شَبِيهَهُمَا، وَنَزَعَ إِلَى شَيْءٍ
لَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ أَصْلٌ، وَخَرَجَ أَطْوَلَ عَمراً مِنْ أَبِيهِ،
وَأَصْبَرَ عَلَى الْأَثْقَالِ مِنْ أَبِيهِ.

أَوْ كَابِنِ الْمَذْكَرَةِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالْمُوْنِثِ مِنَ الرِّجَالِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ
أَخْبَثَ نَتَاجِئاً مِنَ الْبَغْلِ، وَأَفْسَدَ أَعْرَاقاً مِنَ السَّمْعِ، وَأَكْثَرَ عَيُوباً
مِنَ الْعِسْبَارِ، وَمَنْ كُلِّ خَلْقٍ خَلَقَ إِذَا تَرَكَبَ مِنْ ضَدِّ، وَمِنْ كُلِّ
شَجَرَةٍ مُطْعَمَةٍ بِخِلَافٍ.

وَلَيْسَ يَعْتَرِي مِثْلُ ذَلِكَ الْخِلَاسِيَّ مِنَ الدِّجَاجِ، وَلَا الْوَرْدَانِيَّ مِنَ
الْحَمَامِ.

وَكُلُّ ضَعْفٍ دَخَلَ عَلَى الْخَلْقَةِ، وَكُلُّ رَقَّةٍ عَرَضَتْ لِلْحَيَوَانِ،
فَعَلَى قَدْرِ جِنْسِهِ، وَعَلَى وَزْنِ مِقْدَارِهِ وَتَمَكُّنِهِ، يَظْهَرُ الْعَجْزُ
وَالْعَيْبُ. وَزَعَمَ الْأَصْمَعِيُّ، أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقِ الْحَلْبَةَ فَرَسٌ أَهْضَمَ
قَطٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ: لَمْ يَسْبِقِ الْحَلْبَةَ أَبْلَقُ قَطٍ وَلَا بَلْقَاءُ.
وَالْهَدَايَةُ فِي الْحَمَامِ، وَالْقُوَّةُ عَلَى بَعْدِ الْغَايَةِ، إِنَّمَا هِيَ
لِلْمَصْمُتَةِ مِنَ الْخَضْرِ.

الشَّيَاتُ فِي الْحَيَوَانِ ضَعْفٌ وَنَقْصٌ.
وَزَعَمُوا أَنَّ الشَّيَاتِ كُلَّهَا ضَعْفٌ وَنَقْصٌ وَالشَّيَّةُ: كُلُّ لَوْنٍ دَخَلَ

على لون - وقال الله جلّ وعزّ: "إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا سِيَةَ فِيهَا".

ابن المذكرة من المونث وزعم عثمان بن الحكم أنّ ابن المذكرة من المونث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي، وأنّه إذا خرج كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يطمع في علاجه طبيب، وأنّه رأى في دور ثقيف، فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم، إلا وهم يتحدثون عنه بشيء، يصغر في جنبه أكبر ذنب كان يُنسب إليه.

وزعمت أنّ الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قُطع منه ما صار به الذكر فحلاً، خرج من حدّ كمال الذكر بفقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقية الجوهرية.

وزعمت أنّه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحرّ، فيخرجه من حدّ الخل، ولا يدخله في حدّ النبيذ.

وقال مرداس بن خدام:

فمالت بلبّ الكاهلي
عقال

سقيناً عقلاً بالنووية
شربة

هي الخمرُ خَيْلنا لها
بِخَيْالِ

فلم ينتعش منها
ثلاثَ لِيالِ

فَقَلْتُ اصطَبِخْها يا
عِقَالُ فَإِنَّمَا

رَمَيْتُ بِأَمِّ الخَلِّ حَبَّةَ
قَلْبِهِ

فجعل الخمرُ أمَّ الخَلِّ قد يتولد عنها، وقد يتولّد عن الخل - إذ
كان خمراً مرة - الخمرُ.
وقال سعيد بن وهب:

رَوَدَ الشَّبَابِ قَلِيلَ
شَعْرِ العَارِضِ

ذَهَبَتْ بِمَلْحِكِ مِثْلِ
كَفِّ القَابِضِ

بَعْدَ اللَّذَاذَةِ خَلِّ خَمْرٍ
حَامِضٍ

هَلَّا وَأَنْتِ بِمَاءِ
وَجْهِكَ تُشْتَهَى

فَالآنَ حِينَ بَدَتْ
بِخَدِّكَ لِحِيَةَ

مِثْلَ السَّلَافَةِ عَادَ
خَمْرُ عَصِيرِهَا

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة
الفاترة، التي لم تخرج من الحرِّ إلى البرد فتضحك السنن، ولم
تخرج من البرد إلى الحر فتضحك السنن.

ما يعترى الإنسان بعد الخصاء

وكيف ما كان قبل الخصاء
قالوا: كلُّ ذي رِيح مُنْتِنَةٍ، وكلُّ ذي دَفْرِ وصُنَانٍ كَرِيهِ المَشَمَّةِ،
كالنَّسْر وما أشبهه، فَإِنَّهُ متى خُصِيَ نَقَصَ نَتْنُهُ وَذَهَبَ
صُنَانُهُ، غَيْرَ الإِنْسَانِ، فَإِنَّ الخُصِيَّ يَكُونُ أَنْتَنًا، وَصِنَانُهُ أَحَدًا،
وَيَعَمُّ أَيْضًا خَبَثُ العَرَقِ سَائِرَ جَسَدِهِ، حَتَّى لَتَوْجَدَ لِأَجْسَادِهِمْ
رَائِحَةً لَا تَكُونُ لِغَيْرِهِمْ، فَهَذَا هَذَا.

وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخْصَى فَإِنَّ عَظْمَهُ يَدِقُّ، فَإِذَا دَقَّ
عَظْمُهُ اسْتَرَخَى لِحْمُهُ، وَتَبَرَّأَ مِنْ عَظْمِهِ، وَعَادَ رَخْصًا رَطْبًا،
بَعْدَ أَنْ كَانَ عَضَلًا صُلْبًا، وَالإِنْسَانُ إِذَا خُصِيَ طَالَ عَظْمُهُ
وَعَرُضَ، فَخَالَفَ أَيْضًا جَمِيعَ الحَيْوَانِ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدام، واعوجاج في أصابع
اليد، والتواء في أصابع الرِّجْلِ، وَذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ طَعْنِهِمْ فِي
السِّنِّ، وَتَعَرَّضَ لَهُمْ سُرْعَةُ التَّغْيِيرِ وَالتَّبَدُّلِ، وَانْقِلَابِ مِنْ حَدِّ

الرتوبة والبضاضة وملاسة الجلد، وصفاءِ اللون ورقته،
وكثرة الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض
والتخدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال، فهذا الباب يعرض
للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة من أهل
الزرع والنخل، لأنَّك ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع في
لونه، وكأنَّه مرآةٌ صينيَّة، وكأنَّه وذيلةٌ مجلَّوة، وكأنَّه جُمَّارةٌ
رطبة، وكأنَّه قضيبٌ فضةٌ قد مسَّه ذهب، وكأنَّ في وجناته
الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيَّاتٍ يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك
ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خصب، وفي عيش رَعْد، وفي
فراغ بالٍ، وقلةٍ نصَب.

من طرائف عبد الأعلى القاصِّ

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصِّ، قوله في
الخصي، وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهم عليه الغفلة، وهو
الذي ذكر الفقير مرة في قصصه فقال: الفقير مرقتة سُلقة،
ورداؤه علقة، وجردقته فلقة، وسمكته شلقة، وإزاره خرقة.
قالوا: ثمَّ ذكر الخصيَّ فقال: إذا فُطعتُ خصيته، فَوَيْتَ شَهْوَتَهُ
وسخنت معدته، ولائتُ جلدته، وانجردت شعرتة، واتَّسعت
فُفْحَتُهُ، وكثرت دمعته.

وقالوا، الخصيُّ لا يصلَع كما لا تصلَع المرأة، وإذا قطع العضو الذي كان به فحلاً تاماً، أخرجَه ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجَه من ذلك الكمال، صيِّره كالْبِغْل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصيرُ طباعُه مقسومةً على طباعِ الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُص له الخلق ولم يَصْفُ، حتَّى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكِنَّه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وربما خرجت النتيجة وما يولِّده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البِغْلِ عمرَ أبويه، وكذلك ما عدنا في صدر هذا الكلام.

طلب النسل

وقالوا: وللإنسان قوَى معروفةٌ المِقدار، وشهواتٌ مصروفةٌ في وجوه حاجاتِ النفوس، مقسومةٌ عليها، لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالِها ما كانت النفوسُ قائمةً بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها، وبابُ المنكحِ من أكبرها، وأقواها، وأعمّها. ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلبِ الولد، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنُّصرة،

وللحاجة إلى العدد والقوة، ولذلك استلظت العرب الرجال،
وأغضت على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمه
بأنه من الزوج الأول، قال الأشهب بن رَميلة:

قال الأقارب لا تغررك كثرتنا	وأغن نفسك عنا أيها الرجلُ
علّ بني يشدّ الله كثرتهم	والنَّبْعُ يَنْبُتُ قَضباناً فيكتهل

وقال الآخر:

إنّ بني صبيّة صيفيون	أفلح من كان له ربعيون
-------------------------	--------------------------

يشكو كما ترى صغر البنين، وضعف الأسر.
وما أكثر ما يطلب الرجل الولد نفاساً بماله على بني عمّه،
ولإشفاقه من أن تليه القضاة وترتع فيه الأماناء، فيصير ملكاً
للأولياء، ويقضي به القاضي الدمام ويصطنع به الرجال.
وربما همّ الرجل بطلب الولد لبقاء الذكر، وللرغبة في العقب،
أو على جهة طلب الثواب في مباحاة المشركين، والزيادة في

عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنصرة،
وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع الله تعالى بني
آدم عليه، من حبِّ الدريّة وكثرة النسل، كما طبع الله تعالى
الحمّام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في
همّه ونصبه، وفي جُبْنِه وبخله، وقد قال النبي: "الوَلَدُ مَجْبَنَةٌ
مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ فيحتمل في الولد المؤمن المعروفة، والهموم
الموجودة لغير شيء قصد له، وليس في ذلك أكثر من طلب
الطباع، ونزوع النفس إلى ذلك.
وذكر أبو الأخرز الحمّاني غير العانة بخلاف ما عليه أصحاب
الزّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سفاده:

لا مُبتَغِي الذرء ولا بالعازل

لأنّ الإنسان من بين الحيوان المزاوج، إذا كره الولد عزل،
والمزاوج من أصناف الحيوانات إنّما غايتها طلبُ الذرء
والولد، لذلك سُخّرت، وله هيئت، لما أراد الله تعالى من إتمام
حوائج الإنسان، والحمّار لا يطلبُ الولد، فيكون إفراغه في
الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولد عزل كما يعزل الإنسان،
غير أنّ غايته قضاء الشهوة فقط، ليس يخطر على باله أنّ
ذلك الماء يُخلق منه شيء.

وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبدة قال: ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار. وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمهم وتصنعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلا التتمص والتطيب والتطؤس والتعرّس والتخضب، والذي يُعدُّ لها من الطيب والصبغ، والحلي، والكساء، والفُرش، والآنية، كان في ذلك ما كفى، ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها، وخوف العار من جنائتها والجنابة عليها، كان في ذلك المؤنة العظيمة، والمشقة الشديدة.

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

فإذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذة والألم، فباضطرار أن تعلم أن تلك القوى لم تبطل من التركيب، ولم تعدمها الخلقة، وإنما سُدَّ دونها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودة من عمل، لأنَّ عمل كلِّ جوهر لا يُعدم إلا بعدم ذاته، فإذا صُرِّفت من وجهٍ فاضت من وجه، ولا سيما إذا جمَّت ونازعت، ولا بدَّ إذا زحرت وعُزرت، وطغت وطمت، من أن

تفيضُ أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعٌ كموقع المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوّة التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوّتان في بابٍ واحد كان أبلغ في حكمه، وأبعد غايةً في سبيله، ولذلك صارَ الخَصِيُّ آكَلًا من أخيه لأُمّه وأبيه، وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه، وعلى قدر حاجة طبعه وحركة نفسه والحرارة المتولّدة عن الحركة يكون الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

ودوامُ الأكل في الإناثِ أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحِجْرُ دون الفرس، وكذلك الرّمكة دون البردّون، وكذلك النعجة دون الكباش، وكذلك النساءُ في البيوت دون الرجال، وما أشكُّ أنّ الرجلَ يأكلُ في المجلسِ الواحد ما لا تأكل المرأة، ولكنّها تستوفي ذلك المقدارَ وتُرَبِّي عليه مقطّعاً غيرَ منظوم، وهي بدوام ذلك منها، يكون حاصلُ طعامها أكثرَ، وهنَّ يُناسِبُن الصبيانَ في هذا الوجه، لأنّ طبعَ الصبيّ سريعُ الهضم، سريعُ الكلب، قصيرُ مدّةِ الأكل، قليلُ مقدارِ الطّعم، فللمرأة كثرةٌ

معاودتها، ثم تَبِينُ بكثرة مقدار المأكول، فيصير للخَصِيّ نصيبان: نصيبه من شبه النساء، ثم اجتماع قوى شهوته في باب واحد، أعني شهوة المنكح التي تحولت، وشهوة المطعم. قال، وقيل لبعض الأعراب: أي شيء آكل؟ قال: برذونة رَعُوث.

ولشدة نهم الإناث، صارت اللبوة أشدَّ غراماً وأنزق، إذا طلبت الإنسان لتأكله، وكذلك صارت إناث الأجناس الصائدة أصيد، كالإناث من الكلاب والبزاة وما أشبه ذلك، وأحرص ما تكون عند ارتضاع جرائها من أطبائها، حتى صار ذلك منها سبباً للحرص والنهم في ذلك.

صوت الخصي

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت، حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبه أنه خَصِيٌّ، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابن عمه، أو بعض أترابه من فحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخصيان الصقالبة أكثر مما يعرض للخراسانية، وللسودان من السند والحبشان، وما أقل من تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلا وله بيضة أو عرق، فليس يحتاج في صحة تمييز ذلك، ولا في دقة الحس

فيه، إلى حذق بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السفلة
والعُثْرَاءِ، وفي أجناس الصَّبِيان والنساء.

شعر الخصي

ومتى خُصِيَ قَبْلَ الإنباتِ لم يُنبِتْ، وإذا خُصِيَ بعد استحكام
نباتِ الشعرِ في مواضعه، تساقط كُله إلاَّ شعرَ العانة، فاته
وإنْ نَقَصَ من غَلْظِه ومقدارِ عَدَدِه فإنَّ الباقيَ كثير، ولا
يعرِضُ ذلكَ لشعرِ الرأسِ، فإنَّ شعرَ الرأسِ والحاجبين
وأشْفارِ العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من
فضولِ البدن.

وقد زعم ناسٌ أنَّ حَكمَ شعرِ الرأسِ خلافُ حَكمِ أشْفارِ العينين،
وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه
الخصال من أماكن شعر النساء، والخصيان والفحولة فيه
سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادث الأصول،
الزائد في النبات، ألا ترى أن المرأة لا تصلح، فناسبها
الخصي من هذا الوجه، فإن عرض له عارضٌ فإنما هو من
القرع، لا من جهة النَّزَعِ والجَلْحِ، والجَلْهِ والصَّلَعِ وكذلك
النساء في جميع ذلك.

والمرأة ربّما كان في قِصاصِ مقاديمِ شعرِ رأسِها ارتفاع،

وليس ذلك بنزَع ولا جَلَح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنّ. وتكونُ مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها، وليس شعرها كلما دنا من موضع المِلاسة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلّ، ولكنه ينبُت في مقدار ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً، والمرأة ربّما كانت سبلاءً، وتكون لها شعراتٌ رقيقة زَعْبِيَّةٌ كالعذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخُصي إلا من علة في الخُصاء، ولا يرى أبداً بعد مقطَع من صُدْغِيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه

نوات اللحي والشوارب

وقد توجد المرأة ذات لحية، وقد رأيت ذلك، وأكثر ما رأيتَه في عجائز الدّهاقين، وكذلك العُجَب والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً، وهي ليست في رأي العين بخُنْثى، بل نجدُها أنثى تامّة ، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى، حتى يظهر في غير ذلك المكان، ولا تعرض اللحي للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخُصي.

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنّه كان لابنةٍ من بناتِ محمّد بنِ راشدٍ

الْخَنَاقُ، لَحِيَّةٌ وَافِرَةٌ، وَأَنَّهَا دَخَلَتْ مَعَ نِسَاءٍ مَتَنَّقِبَاتٍ إِلَى بَعْضِ
الْأَعْرَاسِ لِتَرَى الْعُرْسَ وَجَلْوَةَ الْعُرُوسِ، فَفَطِنَتْ لَهَا امْرَأَةٌ
فَصَاحَتْ: رَجُلٌ وَاللَّهِ وَأَحَالِ الْخَدَمِ وَالنِّسَاءِ عَلَيْهَا بِالضَّرْبِ، فَلَمْ
تَكُنْ لَهَا حِيلَةٌ إِلَّا الْكَشْفَ عَنْ فَرْجِهَا، فَزَعَنَ عَنْهَا وَقَدْ كَادَتْ
تَمُوتُ.

وَيُفْضَلُ أَيْضاً الْخَصِيُّ الْمَرَأَةَ فِي الْإِنْجِرَادِ وَالزَّرْعِ، بَأَنَّ تَجَدَّ
الْمَرَأَةَ زَبَاءَ الذَّرَاعِينَ وَالسَّاقِينَ، وَتَجَدَّ رَكَبَ الْمَرَأَةَ فِي الشَّعْرِ
كَأَنَّهُ عَانَةُ الرَّجْلِ، وَيَعْرُضُ لَهَا الشَّعْرُ فِي إِبْطِئِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ،
وَلَا يَعْضُ لِلْخَصِيِّ مَا يَعْضُ لِلدِّيكِ إِذَا خُصِيَ: أَنْ يَذْبُلَ
عُضْرُوفُ عُرْفِهِ وَلَحِيَّتِهِ.

وَالْخِصَاءُ يَنْقُصُ مِنْ شِدَّةِ الْأَسْرِ، وَيَنْقُضُ مُبْرَمَ الْقُوَى،
وَيُزْخِي مَعَاقِدَ الْعَصَبِ، وَيَقْرُبُ مِنَ الْهَرَمِ وَالْبُلَى

مشي الخصي

وَيَعْرُضُ لِلْخَصِيِّ أَنْ يَشْتَدَّ وَقَعَ رِجْلُهُ عَلَى أَرْضِ السَّطْحِ، حَتَّى
لَوْ تَفَقَّدَتْ وَقَعَ قَدَمُهُ وَقَدَّمَ أَخِيهِ الْفَحْلَ الَّذِي هُوَ أَعْبَلُ مِنْهُ
لَوَجَدَتْ لَوْعَهُ وَوَطْئَهُ شَيْئاً لَا تَجِدُهُ لِصَاحِبِهِ، وَكَأَنَّ الْعَضْوَ
الَّذِي كَانَ يَشُدُّ تَوْتِيرَ النَّسَاءِ، وَمَعَاقِدَ الْوَرَكِينَ وَمَعَالِيْقَ الْعَصَبِ،

لَمَّا بَطَلَ وَذَهَبَ الَّذِي كَانَ يُمْسِكُهُ وَيَرْفَعُهُ، فَيُخَفِّفُ لَذَلِكَ وَقَعُ رِجْلِهِ، صَارَ كَالَّذِي لَا يَتَمَسَّكَ وَلَا يَحْمِلُ بَعْضَهُ بَعْضًا.

أثر الخصاص في الذكاء

ويعرض له أَنَّ أَخْوِينَ صَقَلِيَّيْنِ مِنْ أُمَّ وَأَبِي، لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا تَوْعَمَ أَخِيهِ، أَنَّهُ مَتَى خُصِيَ أَحَدُهُمَا خَرَجَ الْخُصِيُّ مِنْهُمَا أَجْوَدَ خِدْمَةً، وَأَفْطَنَ لِأَبْوَابِ الْمَعَاوَةِ وَالْمُنَاوَلَةِ، وَهُوَ لَهَا أَتَقَنُ وَبِهَا أَلْيَقُ، وَتَجِدُهُ أَيْضًا أَذْكَى عَقْلًا عِنْدَ الْمَخَاطَبَةِ، فَيُخَصُّ بِذَلِكَ كَلَّهُ، وَيَبْقَى أَخُوهُ عَلَى غَثَارَةِ فِطْرَتِهِ، وَعَلَى غِبَاوَةِ غَرِيزَتِهِ، وَعَلَى بِلَاهَةِ الصَّقَلِيَّةِ، وَعَلَى سُوءِ فَهْمِ الْعَجْمِيَّةِ.

وَيُذِ الْإِنْسَانَ لَا تَكُونُ أَبْدًا إِلَّا خَرْقَاءً، وَلَا تَصِيرُ صِنَاعًا مَا لَمْ تَكُنْ الْمَعْرِفَةُ ثِقَافًا لَهَا، وَاللِّسَانُ لَا يَكُونُ أَبْرَأَ، ذَاهِبًا فِي طَرِيقِ الْبَيَانِ، مُتَصَرِّفًا فِي الْأَلْفَاظِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَكُونَ الْمَعْرِفَةُ مُتَخَلِّلَةً بِهِ، مُنْقَلَةً لَهُ، وَاضِعَةً لَهُ فِي مَوَاضِعِ حَقْوِقِهِ، وَعَلَى أَمَاكِنِ حِظْوِظِهِ، وَهُوَ عَلَّةٌ لَهُ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَمِيقَةِ، وَمَصْرَفَةٌ لَهُ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُخْتَلِفَةِ.

فَأَوَّلُ مَا صَنَعَ الْخِصَاءُ بِالصَّقَلِيِّ تَرْكِيَّةَ عَقْلِهِ، وَإِرْهَافُ حِدِّهِ، وَشَحْدُ طَبْعِهِ، وَتَحْرِيكُ نَفْسِهِ، فَلَمَّا عَرَفَ كَانَتْ حَرَكَتُهُ تَابِعَةً لِمَعْرِفَتِهِ، وَقَوَّتَهُ عَلَى قَدْرِ مَا هَيَّجَهُ.

فَأَمَّا نِسَاءُ الصَّقَالِبَةِ وَصَبِيَانِهِمْ، فَلَيْسَ إِلَى تَحْوِيلِ طِبَاعِهِمْ،
وَنَقَلَ خَلْقَهُمْ إِلَى الْفِطْنَةِ الثَّاقِبَةِ، وَإِلَى الْحَرَكَةِ الْموزُونَةِ، وَإِلَى
الْخِدْمَةِ الثَّابِتَةِ الْوَاقِعَةِ بِالْمَوْافَقَةِ، سَبِيلٌ، وَعَلَى حَسَبِ الْجَهْلِ
يَكُونُ الْخُرْقُ، وَعَلَى حَسَبِ الْمَعْرِفَةِ يَكُونُ الْحِذْقُ، وَهَذَا جَمَلَةٌ
الْقَوْلِ فِي نِسَائِهِمْ، وَعَلَى أَنَّهُنَّ لَا حِظْوْظَ لَهُنَّ عِنْدَ الْخُلُوةِ، وَلَا
نِفَادَ لَهُنَّ فِي صِنَاعَةٍ؛ إِذْ كُنَّ قَدْ مُنِعْنَ فَهَمَّ الْمَعَاظَةِ وَمَعْرِفَةِ
الْمِنَاوَلَةِ. وَالْخِصْيَانُ مَعَ جُودَةِ آلَاتِهِمْ وَوَفَارَةِ طِبَاعِهِمْ فِي
مَعْرِفَةِ أَبْوَابِ الْخِدْمَةِ، وَفِي اسْتَوَاءِ حَالِهِمْ فِي بَلْبِ الْمَعَاظَةِ،
لَمْ تَرَ أَحَدًا مِنْهُمْ قَطُّ نَفَذَ فِي صِنَاعَةٍ تُنْسَبُ إِلَى بَعْضِ الْمَشَقَّةِ،
وَتُضَافُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، مِمَّا يُعْرَفُ بِبُعْدِ الرَّوِيَّةِ،
وَالْغَوْصِ بِإِدَامَةِ الْفِكْرَةِ، إِلَّا مَا ذَكَرُوا مِنْ نِفَادِ ثَقْفٍ فِي
التَّحْرِيكِ لِلْأُوتَارِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ مَقْدَمًا، وَبِهِ مَذْكَورًا، إِلَّا أَنَّ
الْخِصْيَّ مِنْ صِبَاهِ، يُحْسِنُ صِنْعَةَ الدَّابُوقِ، وَيُجِيدُ دُعَاءَ الْحَمَامِ
الطُّورِيِّ، وَمَا شِئْتَ مِنْ صِغَارِ الصِّنَاعَاتِ.

وَقَدْ زَعَمَ الْبَصْرِيُّونَ أَنَّ حَدِيحًا الْخِصْيَّ، خَادِمَ الْمُتَنِّيِّ بْنِ
رُهَيْرٍ، كَانَ يُجَارِي الْمُتَنِّيَّ فِي الْبَصْرِ بِالْحَمَامِ، وَفِي صِحَّةِ
الْفِرَاسَةِ، وَإِتْقَانِ الْمَعْرِفَةِ، وَجُودَةِ الرِّيَاضَةِ، وَسَنَدُكْرَ حَالِهِ فِي
بَابِ الْقَوْلِ فِي الْحَمَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.
هَذَا قَوْلُهُمْ فِيمَنْ خُصِيَ مِنَ الصَّقَالِبَةِ، وَمَلُوكُنَا لِعُقُولِ خِصْيَانِ

خُرَاسَانَ أَحْمَدَ، وَهَم قَلِيلٌ، وَلِذَلِكَ لَمْ نَأْتِ مِنْ أَمْرِهِمْ بِشَيْءٍ
مَشْهُورٍ، وَأَمْرٌ مَذْكُورٌ.

خَصِيَانُ السُّنْدِ

وَأَمَّا السُّنْدُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَيْضاً مِنَ الْخَصِيَانِ إِلَّا الرَّقْرُ الَّذِينَ
كَانَ خَصَاهُمْ مُوسَى بْنُ كَعْبٍ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا بَعْضَهُمْ، وَزَعَمَ لِي
أَنَّهُ خَصَى أَرْبَعَةً هُوَ أَحَدُهُمْ، وَرَأَيْتُ الْخِصَاءَ، قَدْ جَذَبَهُ إِلَى
حَبِّ الْحَمَامِ، وَعَمَلَ التَّكْكَ، وَالْهَرَاشَ بِالْدِيُوكِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ
يُجْرِ مِنْهُ عَلَى عِرْقٍ، وَإِنَّمَا قَادَهُ إِلَيْهِ قَطْعُ ذَلِكَ الْعَضْوِ.

خَصِيَانُ الْحَبِشَةِ وَالنُّوبَةِ وَالسُّودَانِ

فَأَمَّا الْخَصِيَانُ مِنَ الْحُبْشَانِ وَالنُّوبَةِ وَأَصْنَافِ السُّودَانِ، فَإِنَّ
الْخِصَاءَ يَأْخُذُ مِنْهُمْ وَلَا يُعْطِيهِمْ، وَيَنْقُصُهُمْ وَلَا يَزِيدُهُمْ،
وَيَحِطُّهُمْ عَنْ مَقَادِيرِ إِخْوَانِهِمْ، كَمَا يَزِيدُ الصَّقَالِبَةَ عَنْ مَقَادِيرِ
إِخْوَتِهِمْ، لِأَنَّ الْحَبِشِيَّ مَتَى خُصِيَ سَقَطَتْ نَفْسُهُ، وَثَقُلَتْ
حَرَكَتُهُ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَلَا بَدَأَ أَنْ يُعْرَضَ لَهُ فُسَادٌ، لِأَنَّهُ مَتَى
اسْتُنْقَصِيَ جِبَابُهُ لَمْ يَتِمَّاسِكْ بُولُهُ، وَسُلُسَ مَخْرَجُهُ، وَاسْتَرَخَى
الْمَمْسِكُ لَهُ، فَإِنَّ هُمْ لَمْ يَسْتَقْصُوا جِبَابَهُ، فَإِنَّمَا يُدْخِلُ الرَّجُلُ
مَنْزِلَهُ مَنْ لَهُ نِصْفُ ذَلِكَ الْعَضْوِ، وَعَلَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ مِنْهُمْ
خَصِيّاً أَبَداً، إِلَّا وَبِسُرَّتِهِ بُجْرَةٌ، وَنَفْخَةٌ شَنِيعَةٌ، وَذَلِكَ عَيْبٌ

شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبْحِه في العين، وشُنْعته في
الدُّكْر، وكلُّ ما قُبِحَ في العين فهو مؤلم، وكل ما شُنِعَ في
النفْس فهو مؤذٍ، وما أَكْثَرَ ما تجد فيهم الأُلْطَع، وذلك فاش
في باطن شفاههم، ومتى كانت الشفاه هُدُلاً، وكانت المشافِرُ
منقلبة، كانت أظهر للَطَّع، وهو ضرب من البرص، والبياض
الذي يعرض لغراميل الخيل وخصاها، ضربٌ أيضاً من
البرص، وربما عَرَضَ مثل ذلك لحشفة قضيب المختون، إمَّا
لَطَّبَع الحديد، وإمَّا لقرب عهده بالإحداد وسقي الماء، إلا أنَّ
ذلك لا يعدو مكانه، وكلما عظمت الحشفة انبسط ذلك البياضُ
على قدر الزيادة فيها، وإمَّا ذلك كالبياض الذي يعرض من
حرق النار وتشبيطها، وكالذي يعرض للصقالبة من التَّعَالُجِ
بالكي، وربَّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحشَ ويُرْدِيه، إلا أنه لا
يفشو ولا ينتشر، إلا بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحوَّل صاحبه
رجلاً، بعد أن كان صبيّاً، وليس كالذي يعرض من البلغم ومن
المِرَّة، وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضُه لا
يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه،
ولا يذهب إلا بأنَّ يذهب به نبي، فيكون ذلك علامة له، ومن
البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبرص، ولكن الذي هوَّ ن أمره
الذي ترون من كثرة بُرءِ الناس منه.

ثمَّ الخِصَاءُ يَكُونُ عَلَى ضُرُوبٍ، وَيَكُونُ فِي ضُرُوبٍ، فَمَنْ ذَلِكَ
مَا يَعْرِضُ بَعْدَ الْكَبِيرِ لِلأَحْرَارِ، كَمَا يَعْرِضُ لِلْعَبِيدِ، وَلِلْعَرَبِ كَمَا
يَعْرِضُ لِلْعَجَمِ، كَمَا خَصَى بَعْضُ عِبَاهِلَةِ الْيَمَنِ عُلْقَمَةَ بِنَ سَهْلٍ
الْخَصِيِّ

علقمة الفحل وعلقمة الخصي

وإنما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل، حين وقع على هذا اسمُ
الخصي، وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَنَبَ الجَدِيلِ وداعراً،
الفحلين الكريمين، إلى عمان، وكان من نازليها، وهو كان
أحدَ الشهودِ على قُدامة بن مَطْعُونِ في شرب الخمر، وهو
الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أَتَقْبَلُ شَهَادَةَ
الْخَصِيِّ؟ قال: أما شهادتك فأقبل، وهو علقمة بن سهل بن
عمارة، فلما سمّوه الخصي، قالوا لعلقمة ابن عبدة: الفحل،
وعلقمة الخصي، الذي يقول:

ولن يعدم الميراث مني المواليا

فل

ن يَعدَمُ الباقون قَبراً لِحَبَّتِي

هَنِيئاً لَهُمْ جَمْعِي وَمَا كُنْتُ وَالِيَا
حِرَاصٌ عَلَيَّ مَا
كُنْتُ أَجْمَعُ قَبْلَهُمْ

لشأنهم قَدْ أَفْرَدُونِي وَشَانِيَا
وَدُلِّيتُ فِي
زُورَاءَ ثُمَّتَ أَعْنَقُوا

لغيري وكانَ المالُ بالأمسَ ماليَا
فأصبحَ مالي من
طريفٍ وتالدٍ

وكما عَرَضَ لِلدَّلَالِ وَنَوْمَةِ الضُّحَى، مِنْ خِصَاءِ عُثْمَانَ بْنِ
حَيَّانِ المَرِّيِّ وَالِيِ المَدِينَةِ لهُمَا، بِكِتَابِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ.
أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فَمِنْ بَنِي مَرْوَانَ مِنْ
يَدَّعِي أَنَّ عَامِلَ المَدِينَةِ صَحَّفَ، لِأَنَّهُ رَأَى فِي الكِتَابِ: أَحْصِ
مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المَخْنَثِينَ فقرأها: أَحْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المَخْنَثِينَ،
وذكر الهيثم عن الكاتب الذي تولى قراءة ذلك الكتاب، أَنَّهُ
قال: وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطة، كأنها
سُهَيْلٌ أَوْ تَمْرَةٌ صِيحَانِيَّةٌ؟ فقال اليعقوبي: ما وجهُ كتابِ هِشَامِ
فِي إِحْصَاءِ عَدَدِ المَخْنَثِينَ؟ وهذا لا معنى له، وما كان الكتابُ
إِلَّا بِالْخَاءِ المَعْجَمَةِ دُونَ الخَاءِ المَهْمَلَةِ.
وذكر عن مشايخ من أهل المدينة أنهم حكوا عنهما أنهما

قالا: الآن صرنا نساءً بالحق كأنَّ الأمر لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين قال: وذكر أنهما خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث، من فتور الكلام ولين المفاصل والعظام، ومن التفكك والتثني، إلى مقدار لم يروا أحداً بلغه، لا من مخنثات النساء، ولا من مؤنثي الرجال أبو همام السنوط وكما عرض لأبي همام السنوط من امتلاخ اللُّحم مذاكيره وخصييه، أصابه ذلك في البحر في بعض المغازي، فسقطت لحيته، ولقّب بالسنوط، وخرج لذلك زهماً وشراً.

وقال ذات يوم: لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب، وبعضه لا يحمل إلا التمر، وبعضه لا يحمل إلا المجزّع، وبعضه لا يحمل إلا البسر، وبعضه لا يحمل إلا الخلال، وكنا متى تناولنا من الشّمراخ بسرةً، خلق الله مكانها بسرتين، لما كان بذلك بأس ثم قال: أستغفر الله لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب!! ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين، حتى ربما امتلخهما طبيباً، وربما قطع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاء أنفسهما

نسل منزوع البيضة اليسرى

والعوام يزعمون أنّ الولد إنّما يكون من البيضة اليسرى، وقد زعم ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم، أنّ ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزليّ، إنّما وُلِدَ له بعد أن نُزِعَت بيضتُه اليسرى، لأمر كان عرض له.

والخصيُّ الطيّان، الذي كان في مسجد ابن رغبان، وُلِدَ له غلام، وكان ليس له إلاّ البيضة اليمنى، فجاء أشبه به من الدُّباب بالذُّباب والغراب بالغراب، ولو أبصره أجهلُ خلقِ الله تعالى بفراسته، وأبعدُهم من قِيافةٍ، ومن مخالطةِ النّخاسين، أو من مجالسةِ الأعراب، لعلمَ أنّه سُلّاتُه وخلصته، لا يحتاج فيه إلى مجرّز المُدلجِيّ، ولا إلى ابن كريس الخزاعي

خصاء الروم

ومن أهل الملل من يَخْصي ابنَه ويقفه على بيت العبادة، ويجعله سادناً، كصنيع الرُّوم، إلاّ أنهم لا يُحدثون في القضيب حدثاً، ولا يتعرضون إلاّ للأنثيين، كأنهم إنّما كرهوا لأولادهم إحبالَ نسائهم ورواهبهم فقط فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل، كأنهم يزعمون أنه يستقصي جميع ما عندها ويستجلبه، لفرط قوّته على المطاولة.

الروم أول من ابتدع الخصاء وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدعون من الرأفة والرحمة، ورقَّة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالخصاء مُثَلَّةٌ وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخصيان، من طَب الطوائل وتذكَّر الأحقاد، ما لم يظنَّوه عندهم، ولا خافوه من قِبَلهم، فلا هم ينزعون، ولا الخصيان ينكَلون، لأنَّ الرَّمايةَ فيهم فاشية، وإن كان الخصيُّ أسواراً بلغ منهم، وإن كان جمع مع الرماية الثروة، واتخذ بطرسوس، وأدنة، الضياع واصطنع الرجال، واتخذ العُدَّة المِغَلَّة فمضرة كلِّ واحدٍ منهم عليهم، تفي بمضرة قائدٍ ضخم، ولم ترَ عداوةً قطَّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فرط الرغبة في النساء، وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحداث

خصاء الصابئة

فأما الصابنون، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفسه، فهو في هذا الموضع قد تقدم الرومي، فيما أظهر من حُسن النية،

وانتحل من الديانة والعبادة، بخصاء الولد التام، وبإدخاله
النقص على النسل، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي، وما
زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويسمر
عندهم، للذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطرف
الأخبار، ونوادير الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمع
قطُّ بأغزلَ منه، وإن كان يصدّق عن نفسه فما في الأرض
أزنى منه حديث أبي المبارك الصابي حدّثني محمد بن عباد
قال: سمعته يقول وجرى ذكرُ النساء ومحلّهن من قلوب
الرجال، حتّى زعموا أنّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان
ذلك أدلَّ على تمام الفحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية
التي هي في خلقته ومعناه وطبعه، إذ كان قد جعل رجلاً ولم
يجعل امرأة قال ابن عباد، فقال لنا: أستم تعلمون أنّي قد
أربيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهنُّ
الكبير، ونفاذُ الذكّر، وموتُ الشهوة، وانقطاعُ ينبوع النطفة،
قد أمت حنينه إلى النساء وتفكيره في الغزل؟ قال: قلنا:
صدقت، قال: وينبغي أن يكون من عود نفسه تركهنّ مُدداً،
وتخلى عنهن سنين ودهراً، أن تكون العادة وتمرين الطبيعة،
وتوطئ النفس، قد حطّ من ثقل منازعة الشهوة، ودواعي
الباءة، وقد علمتم أنّ العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد

تستحکم ببعض عمدٍ هَجْرٍ لَمَلَمَسَةِ النِّسَاءِ، قال: قلنا: صدقت،
قال: وينبغي أن يكونَ مَنْ لم يَدُقْ طعمَ الخَلْوَةِ بهنَّ ولم
يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمَعْ حديثهنَّ وخِلَابَتهنَّ للقلوبِ،
واستِمالتهنَّ للأهواءِ، ولم يَرَهُنَّ منكَشَفَاتِ عَارِيَاتِ، إذا تقدم
له ذلكَ معَ طولِ التَّركِ، ألا يكونَ بقي معه من دواعيهِن
شيءٌ؟ قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكونَ لِمَنْ قد عِلِمَ
أنه محبوبٌ، وأنَّ سببه إلى خِلَاطهنَّ محسومٌ، أن يكونَ اليأسُ
من أمتن أسبابه إلى الزهدِ والسلوةِ، وإلى موتِ الخواطرِ،
قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكونَ من دعاةِ الزُّهدِ في
الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ النِّسَاءِ بهنَّ،
واتخاذِ الأنبياءِ لهنَّ، إلى أن خَصَى نفسه، ولم يُكرِّهه عليه
أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سبأه سَابٌ، أن يكونَ مقدارُ ذلكَ الزهدِ هو
المقدارِ الذي يُميتُ الذَّكَرَ لهنَّ، ويُسرِّي عنه ألمَ فقدِ وجودهنَّ،
وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئَ العزمَ ويختارَ الإرادةَ
التي يصير بها إلى قطعِ ذلكَ العضوِ الجامعِ لكبارِ اللذاتِ،
وإلى ما فيه من الألمِ، ومع ما فيه من الخطرِ، وإلى ما فيه
من المثلثةِ والنَّقْصِ الداخِلِ على الخلقةِ، أن تكونَ الوسائسُ
في هذا البابِ لا تعرُّوه، والدواعي لا تقرُّوه، قال: قلنا:
صدقت، قال: وينبغي لِمَنْ سَخَّتْ نفسه عن السَّكَنِ وعن الوَلَدِ،

وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح، أن يكون قد نسيَ هذا الباب، إن كان قد مرَّ منه على دُكْرِ، هذا وأنتم تعلمون أنني سَمَلْتُ عيني يومَ خَصَّيت نفسي، فقد نسيْتُ كيفية الصُّورِ وكيف تَرُوع، وَجَهَلت المراد منها، وكيف تُراد، أفما كان مَنْ كان كذلك حَرِيًّا أن تكون نفسه ساهيةً لاهيةً مشغولةً بالباب الذي أحتمل له هذه المكاره؟ قال: قلنا: صدقت، قال: أو لو لم أكن هَرَمًا، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ، وكانت الآلة قائمةً أليس في أنني لم أدقُ حيواناً منذُ ثمانينَ سنةً ولم تمتلِ عُروقي من الشرابِ مخافةَ الزيادة في الشهوة، والنقصانِ من العزم - أليسَ في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسكِن الحركة إن هاجت؟ قال: قلنا: صدقت، قال: فأني بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، لأَسْمَعُ نعمةَ المرأةِ فأظنُّ مرَّةً أن كَبِدِي قد ذابت، وأظنُّ مرَّةً أنها قد انصدعت، وأظنُّ مرَّةً أن عَقْلِي قد اختلَس، وربَّما اضطرب فُؤادِي عند ضحكِ إحداهنَّ، حتَّى أظنُّ أنه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهنَّ غيري؟ فإن كان - حفظك الله تعالى - قد صدقَ على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستين سنةً أو سبعين سنةً؟ وما ظنُّك به قبل الخصاء بساعة؟ وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان، أن يحتجز عن

إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهنّ والشهوة لهنّ هذا المقدارُ اللهُ تعالى أرحمُ بخلقه، وأعدلُ على عباده، من أن يكلفهم هجرانَ شيءٍ، قد وصله بقلوبهم هذا الوصل، وأكّده هذا التأكيد.

وقد خصى نفسه من الصابئين رجالاً، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم، وفي الذي ذكرنا كفايةً إن شاء اللهُ تعالى

استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء

وقد ذكر أنّ عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ، اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السِّيَاحَةِ فَقَالَ: سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجَمَاعَةِ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْخِصَاءِ فَقَالَ: خِصَاءُ أُمَّتِي الصُّوْمِ، وَالصُّوْمُ وَجَاءَ، فَهَذَا خِصَاءُ الدِّيَانَةِ.

خصاء الجلب وقسوته

فأما من خصى الجلب على جهة التجارة، فإنه يجبُ القضب، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلصت إحداهما من فرط الفرع، فتصيرُ إلى موضع لا يمكن ردها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلم لا يفي به ظلم، وظلم يُرَبِّي على كلِّ ظلم، لأنّه عند ذلك لا يحفل بفوت المتقلص، ويقطع ما ظهر له، فإن

برئ محبوبَ القضيبِ أو دأ بيضةٍ واحدة، فقد تركه لا امرأةً
ولا رجلاً ولا خَصِيًّا، وهو حينئذٍ ممَّن تخرُجُ لحيته، وممَّن لا
يدعه الناسُ في دُورهم ومواضع الخُصوص من بيوتهم، فلا
يكونُ مع الخصيان مقرباً ومكرماً، وخَصِيبَ العيش منعماً،
ولا هو إذا رُمي به في الفحول، كان له ما للفحول من لذةٍ
غشيان النساء، ومِن لذةِ النسل والتمتعِ بشم الأولاد؛ فلم يزل
عند الفحول مستضعفاً محتقراً، وعند الخصيان مجرّحاً
مطرحاً، فهو أسوأ حالاً من السِّدمِ المعنى فلا أعلم قتله إذا
كان القتلُ قِتلةً صريحةً مُريحةً إلا أصغر عند الله تعالى،
وأسهل على هذا المظلوم من طول التعذيب، والله تعالى
بالمِصاد.

خصاء البهائم

وأما خصاءُ البهائم، فمنه الوجاءُ، وهو أن يشدَّ عصبُ مجامع
الخُصية من أصل القضيب، حتّى إذا ندرت البيضة، وجَحَظت
الخُصية، وجأها حتى يرضّها، فهي عند ذلك تدبّل وتنخسف،
وتدوي وتستدقّ، حتى تذهب فُواها، وتنسدّ المجاري إليها،
ويسري ذلك الفسادُ إلى موضع تربية النُّطفة، فيمنعها من أن
تكثر أو تعذب أو تخثر.

ومنها ما يكون بالشدِّ والعصب، وشدَّة التحزيق، والعقدُ
بالخيط الشديد الوتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عمل
فيه وحزٌّ، أو أَكَلَّ ومنعه من أن يجزي إليه الغذاء، فلا يلبثُ
أن ينقطع ويسقط.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين

خصاء الناس

فأما خصاءُ الناس، فإنَّ للخاصي حديدةً مرهفةً مُحَمَّاة، وهي
الحاسمة، وهي القاطعة، قال أبو زيد: يقال خصيت الدابة
أخصبها خصاءً، ووجأتها أجؤها وجاءً، ويقال: برئت إليك
من الخصاء أو الوجاء، ولا يقال ذلك إلا لما كان قريب العهد
لم يبرأ منه، فإذا برئ لم يُقل له.

وأما الخصاءُ فهو أن يسلَّ الخُصيتين، والوجاء أن توجأ
العرقُ والخُصيتان على حالهما، والمعسوب من التيوس الذي
تُعصبُ خُصيتاه حتى تسقطا، والواحد من الخُصيان خُصِيٌّ
ومخصيٌّ، ويقال ملست الخُصيتين أمسهما مُسأً، ومَتَنَّتُهُمَا
أمتنهما متناً، وذلك أن تشقَّ عنهما الصَّفَن فتسلُّهُمَا
بعروقهما، والصَّفَن: جلدة الخُصيتين.

خصاء البهائم والديكة

والخِصَاءُ فِي أَحْدَاثِ الْبَهَائِمِ، وَفِي الْغَنَمِ خَاصَّةً، يَدْعُ اللَّحْمَ رَخْصًا وَنَدِيًّا عَذْبًا، فَإِنْ خَصَّاهُ بَعْدَ الْكَبْرِ، لَمْ يَقَوْ خِصَاؤُهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْقُوَّةِ عَلَى قَلْبِ طَبَاعِهِ، وَأَجُودُ الْخِصَاءِ مَا كَانَ فِي الصَّغَرِ، وَهُوَ يُسَمَّى بِالْفَارَسِيَّةِ ثَرَبْتَ يُعْنَى بِذَلِكَ أَنَّهُ خُصِيَ رَطْبًا، وَالْخُصِيُّ مَنْ فَحَوْلَهَا أَحْمَلُ لِلشَّحْمِ، لِعَدَمِ الْهَيْجِ وَالنَّعْظِ، وَخُرُوجِ قِوَاهُ مَعَ مَاءِ الْفِخْلَةِ، وَكَثْرَةِ السَّفَادِ تَوْرَثَ الضَّعْفَ وَالْهُزَالَ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ، وَقَدْ ذُكِرَ لِمَعَاوِيَةَ كَثْرَةُ الْجَمَاعِ فَقَالَ: مَا اسْتَهْتِرَ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ فِي مُنْتَهَى، وَالذِّيكِ يُخْصَى لِيَرْتَبَ لِحْمَهُ وَيَطِيبَ وَيَحْمِلُ الشَّحْمَ.

خصاء العرب لفحولة الإبل

وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَخْصِي فُحُولَةَ الْإِبِلِ لِنَلِّأَ يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَسْتَبْقِي مَا كَانَ أَجُودَ ضِرَابًا، وَأَكْثَرَ نَسْلًا، وَكُلَّ مَا كَانَ مِثْنَاتًا وَكَانَ شَابًا وَلَمْ يَكُنْ مَذْكَارًا، وَهُمْ يَسْمُونُ الْإِذْكَارَ الْمَحْقَ الْخَفِيَّ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَيَايَاءَ طَبَاقَاءَ، فَمِنْهَا مَا يَجْعَلُ السَّدِمَ الْمَعْنَى، وَإِذَا كَانَ الْفَحْلُ لَا يُتَّخَذُ لِلضَّرَابِ، شَدُّوا ثِيْلَهُ شَدًّا شَدِيدًا، وَتَرَكَوهُ يَهْدِرُ وَيُقَبِّبُ فِي الْهَجْمَةِ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِنَّ وَإِنْ أَرَدْنَهُ، فَإِذَا طَلَبْنَ الْفَحْلَ جِيءَ لِهِنَّ بِفَحْلٍ قَعْسَرِيٍّ وَيَقُولُونَ: لَقُوَّةٌ لَأَقْتُ قَبِيْسًا، وَالْقَبِيْسُ مِنَ الْجَمَالِ: السَّرِيْعُ

الإلقاء، واللقوة: السريعة القبول لماء الفحل.
وشكت امرأة زوجها، وأخبرت عن جهله بإتيان النساء،
وعيه وعجزه، وأنه إذا سقط عليها أطبق صدره - والنساء
يكرهن وقوع صدور الرجال على صدورهن فقالت: زوجي
عَيَاءُ طَبَاقَاءِ، وكلُّ داءٍ لَهُ داءٌ وقال الشاعر:

رِكَاباً إِلَى أَكْوَارِهَا
حِينَ تَعَكْفُ

طَبَاقَاءُ لَمْ يَشْهَدْ
خُصُوماً وَلَمْ يَقْدُ

خصاء العرب للخيل

وكانوا يخصون الخيل لشبيهه بذلك، ولعلها سهيلها ليلة
البيات، وإذا أكمناوا الكمناء أو كانوا هراًباً.
القول في كلمة خنذيذ ويزعم من لا علم له، أن الخنذيذ في
الخيل هو الخصي، وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَاف
بن نُدْبَةَ:

وخناذيذ خصية وفحولا

وقال بشر بن أبي خازم:

كَطِيَّ البُرْدِ يَطْوِيهِ
التَّجَارُ

وَخَنْذِيذٍ تَرَى
الْغُرْمُولَ مِنْهُ

وليس هذا أرادَ بِشَرٍ، وإِنَّمَا أرادَ زَمَانَ الغَزْوِ، والحَالُ التي
يعتري الخَيْلَ فيها هذا المعنى ، كما قال جد الأحيمر:

بِ وَلَا أُغِيرُ عَلَى
مُضْرَ

لَا لَا أَعَقُّ وَلَا
أُحُو

ضَجَّ المَطِيَّ مِنَ الدَّبْرِ

لَكِنَّمَا غَزَوِي إِذَا

وإِنَّمَا فخر بالغزو في ذلك الزمان.
وأما الخَنْذِيذُ فهو الكريم التامُّ، وربَّما وصفوا به الرجل، وقال
كثير:

وَخَيْفَانَةٍ قَدْ هَدَبَ
الجريُّ أَلَهَا

على كل خَنْذِيذٍ
الضُّحَى مَتَمَطَّرَ

وقال القطامي:

تَخَنَّتْ مِنْهُ لَحْمُهُ

على كلِّ خَنْذِيذٍ

السَّراةُ مُقْلَصِ

المتكاوسُ

ومن الدليل على أنهم ربما جعلوا الرجل إذا ما مدحوه خنديذاً،
قول بعض القيسيين، من قيس بن ثعلبة:

دعوتُ بني سعدٍ
إليَّ فشمَّرتُ

خنديذٌ من سعدٍ طوالُ
السواعد

عبد الله بن الحارث وعبد الملك بن مروان وقال عبد الله بن
الحارث، وكتب بها إلى عبد الملك بن مروان حين فارق
مُصعباً:

بأيِّ بلاءٍ أم بآيةٍ
علَّةٍ

يُقدِّم قبلي مُسَلِّمٌ
والمهتَّبُ

وَيُدْعَى ابنُ منجوفٍ
أمامي كأنه

خَصِيٌّ دنا للماءِ من
غيرِ مشربٍ

فقلت ليونس: أقوى فقال: الإقواءُ أحسنُ من هذا قال: فلماً
أخذته قيسٌ نصبوه، فجعلوا يرمونه بالنبل ويقولون: أذات
مغازل ترى؟ يريدون بيت ابن الحر:

لِحَاهَا وَبَاعَتْ نَبْلَهَا
بِالْمَغَازِلِ

أَلَمْ تَرِ قَيْسًا قَيْسَ
عَيْلَانَ بَرَقَعْتَ

فلما أتى مُصعبٌ برأسه، قال لسويد: يا أبا المنهال كيف ترى؟ قال: أيها الأمير هو والله الذي أتى الماء من غير مشرب.

وقال أعشى همدان:

فِينَا أَدْلُ مِنَ الْخَصِيِّ
الدَّيْزِجِ

وَأَبُو بُرَيْدَةَ الَّذِي
حُدَّتْهُ

وتعرض للخصي سرعة الدمعة، وذلك من عادة طبائع الصبيان ثم النساء، فإنه ليس بعد الصبيان أغزر دمعة من النساء، وكفاك بالشيوخ الهرمين أخلاق الخصي ويعرض للخصي العبتُ واللعبُ بالطير، وما أشبه ذلك من أخلاق النساء، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً. ويعرض له الشره عند الطعام، والبخل عليه، والشح العام في كل شيء، وذلك من أخلاق الصبيان ثم النساء. وقال الشاعر:

خَصِيٌّ بَرَادِينِ يُقَاد
رَهِيصُ

كَأَنَّ أَبَا رُومَانَ قَيْسًا
إِذَا غَدَا

وَخَنَجْرَةٌ بِالدُّورِقِينَ
قَمُوصُ

لَهُ مَعْدَةٌ لَا يَشْتَكِي
الدَّهْرَ ضَعْفَهَا

ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له حب النميمة، وضيق الصدر بما أودع من السر، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له دون أخيه لأمه وأبيه، ودون ابن عمه وجميع رهطه، البصر بالرفع والوضع، والكنس والرش، والطرح والبسط، والصبر على الخدمة، وذلك يعرض للنساء، ويعرض له الصبر على الركوب، والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج، ومتى دفع إليه موله دابته ودخل إلى الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعود مريضاً، لم يترك أن يجري تلك الدابة ذاهباً وجائياً، إلى رجوع موله إليه.

ويعرض له حب الرمي بالنشاب، للذي يدور في نفسه من حب غزو الروم، ويعرض له حب أن تملكه الملوك، على ألا تقيم له إلا القوت، ويكون ذلك أحب إليه من أن تملكه

السُّوقَةُ، وَإِنِ الْحَقَّتْهُ بَعِيشُ الْمُلُوكِ.
ومن العجب أَنَّهُم مَعَ خُرُوجِهِمْ مِنْ شَطْرِ طَبَائِعِ الرِّجَالِ، إِلَى
طَبَائِعِ النِّسَاءِ، لَا يَعْضُ لِهِمِ التَّخْنِيثُ، وَقَدْ رَأَيْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ
مِنَ الْأَعْرَابِ مَخْنَثًا مَتَفَكِّكًا، وَمُوْنَثًا يَسِيلُ سَيْلًا، وَرَأَيْتُ عِدَّةَ
مَجَانِينَ مَخْنَثِينَ، وَرَأَيْتُ ذَلِكَ فِي الزَّجِّ الْأَقْحَاحِ، وَقَدْ خَبَّرَنِي
مَنْ رَأَى كُرْدِيًّا مَخْنَثًا، وَلَمْ أَرِ خَصِيًّا قَطُّ مَخْنَثًا، وَلَا سَمِعْتُ بِهِ؛
وَلَا أَدْرِي كَيْفَ ذَلِكَ وَلَا أَعْرِفُ الْمَانِعَ مِنْهُ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي
ذَلِكَ إِلَى ظَاهِرِ الرَّأْيِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِهِمْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيهِمْ
عَامًّا.

ومما يَزِيدُنِي فِي التَّعَجُّبِ مِنْ هَذَا الْبَابِ، كَثْرَةُ مَا يَعْضُ لِهِمْ
مِنَ الْخُلَاقِ، مَعَ قَلَّةِ مَا يَعْضُ لِهِمْ مِنَ التَّخْنِيثِ، مَعَ مَفَارِقَتِهِمْ
لشَطْرِ مَعَانِي الرِّجَالِ إِلَى شِبْهِ النِّسَاءِ.
ويزعم كثير من الشيوخ المعمّرين؛ وأهل التجربة المميّزين،
أَنَّهُمْ اخْتَبَرُوا أَعْمَارَ ضُرُوبِ النَّاسِ، فَوَجَدُوا طُولَ الْأَعْمَارِ فِي
الْخَصِيَانِ أَعَمَّ مِنْهُ فِي مِثْلِ أَعْدَادِهِمْ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الرِّجَالِ،
وَأَنَّهُمْ تَفَقَّدُوا أَعْمَارَهُمْ وَأَعْمَارَ إِخْوَتِهِمْ وَبَنِي أَعْمَامِهِمُ الَّذِينَ
لَمْ يُخْصَوْا، فَوَجَدُوا طُولَ الْعُمُرِ فِي الْخَصِيَانِ أَعَمَّ، وَلَمْ يَجِدُوا
فِي عُمُومِ طَوَالِ الْعُمُرِ فِيهِمْ وَاحِدًا نَادِرًا، كِفْلَانٍ وَفِلَانٍ مِنَ
الْفَحُولِ.

وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارهم علةً إلاّ عدم النّكاح،
وقلة استفراغ النّطف لقوى أصلابهم.
قالوا: وكذلك لم نجد فيما يعايشُ الناسَ في دُورهم، من الخيل
والإبل، والحمير، والبقر، والغنم، والكلاب، والدجاج،
والحمام، والذّيكة، والعصافير، أطول أعماراً من البغال.
وكذلك قالوا: وجدنا أقلّها أعماراً العصافير، وليس ذلك إلاّ
لكثرة سفادِ العصافير وقلة سفادِ البغال.
وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمر أبويه دليلاً
على أنّ قول الناسِ: لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر أبويه خطأ،
وأولئك إنما عنوا الناسَ دونَ جميع الحيوان

الكتاب الثاني

النتاج المركب

الحرر الوحشية

لهج ملوك فارس بالصيد

الحكمة في تخالف النزعات والميول

خضوع النتاج المركب للطبيعة

زعم في الزرافة

النتاج المركب في الطيور

زعم بعض الأعراب في الحرباء

ولد الثعلب من الهرة الوحشية

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

شهره سعد القرقرة

زواج الأجناس المتباينة من الناس

مما زعموا في الخلق المركب

مطر الضفادع والشبابيط

غرور أبي وائلة والخليل بن أحمد

بيض الشبوط وتناسله

رد على ما زعموا في الزرافة

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

زعم في الإبل

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

الإبل الوحشية

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

بعض ما يعرض للخصيان

منع خصاء الإنسان وإباحته

ذكر محاسن الخصي ومساويه

أثر التكرار في خلق الإنسان

زهة الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

عقيل بن علفة وبناته

بعض ميول الخصيان

نسك طوائف من الناس

أقوال في النتاج المركب

حوار في الكلب والديك

التين والزيتون

التأمل في جناح البعوضة

كلمات الله

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

ما ذكر صاحبُ الديك من ذمّ الكلابِ وتعدد أصناف معانيها

ما قيل من الشعر في الجعل

ثروة المحلول من الشعر

عصبية سلمويه وابن ماسويه

ما قيل في الظربان

أشعار العرب في هجاء الكلب

الفلحس والأرشم

بين جرير والراعي

قتيل الكبش وقتيل العنز

أكل لحوم الناس وما قيل في ذلك من شعر

قتيل الكلاب

أمثال أخرى في الكلب

رؤيا الكلب وتأويلها

شعر في وصف الناقة

لؤم الكلب

جبن الكلب

مما حدث للنظام

النتاج المركب

وقالوا: قد وجدنا غُرمولَ البغلِ أطولَ من غُرمولِ الحمارِ
والفرسِ والبرذونِ، وهؤلاءُ أعمامُه وأخواله، فقد وجدنا
بعضَ النَّتَاجِ المركَّبِ، وبعضَ الفروعِ المستخرجة، أعظمَ من
الأصل؛ ووجدنا الحمامَ الرَّاعبيَ أعظمَ من الوَرشَانِ الذي هو
أبوه، ومِنَ الحمامةِ التي هي أمُّه، ولمَ نجدُه أخذَ من عمر

الْوَرشَان شَيْئاً، وَخَرَجَ صَوْتُهُ مِنْ تَقْدِيرِ أَصْوَاتِهِمَا، كَمَا خَرَجَ
شَحِيحَ الْبُغْلِ مِنْ نَهْيَقِ الْحَمَارِ وَصَهِيلِ الْفَرَسِ، وَخَرَجَ
الرَّاعِبِي مُسْرَوِلاً، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي أَبْوِيهِ؛ وَخَرَجَ مُثْقَلاً سَيِّءَ
الْهُدَايَةِ، وَلِلْوَرشَانِ هُدَايَةٌ، وَإِنْ كَانَ دُونَ الْحَمَامِ؛ وَجَاءَ أَعْظَمَ
جُثَّةً مِنْ أَبْوِيهِ، وَمَقْدَارُ النَّفْسِ مِنْ ابْتِدَاءِ هَدْيِهِ إِلَى مَنْقَطِعِهِ،
أَضْعَافُ مَقْدَارِ هَدْيِ أَبْوِيهِ. وَفَوَالِجُ الْبُخْتِ إِذَا ضَرَبَتْ فِي إِنْثَاءِ
الْبُخْتِ، وَلَمْ يَخْرُجِ الْحَوَارُ إِلَّا أَدْنَى قَصِيرِ الْعُنُقِ، لَا يِنَالُ كَلاً وَلَا
مَاءً إِلَّا بِأَنْ يُرْفَعَا إِلَيْهِ، فَيَصِيرُ لِمَكَانِ نَقْصَانِ خَلْقِهِ جَزُورَ
لَحْمٍ، وَلَا يَكُونُ مِنَ الْيَعْمَلَاتِ وَلَا مِنْ السَّابِقَةِ، وَلَوْ عَالُوهُ
وَكَفَوهُ مُؤْنَةٌ تَكْلِفُ الْمَأْكُولَ وَالْمَشْرُوبَ، ثُمَّ بَلَغَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ
جَمَلاً يُمْكِنُهُ الضَّرَابُ، وَكَذَلِكَ الْأَنْثَى الَّتِي هِيَ الْحَائِلُ إِلَى أَنْ
تَصِيرَ نَاقَةً؛ فَلَوْ أَلْقَاهَا الْفَحْلُ لَجَاءَ وَلَدُهَا أَقْصَرَ عُنْقاً مِنْ
الْفَيْلِ، الَّذِي لَوْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ خَرْطُوماً يَتَنَاوَلُ بِهِ
طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، لَمَاتَ جُوعاً وَهَزَالاً؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْعَرَابُ،
وَإِذَا ضَرَبَتْ الْفَوَالِجُ فِي الْعَرَابِ جَاءَتْ هَذِهِ الْجَوَامِزُ وَالْبُخْتُ
الْكُرَيْمَةُ الَّتِي تَجْمَعُ عَامَّةَ خِصَالِ الْعَرَابِ وَخِصَالِ الْبُخْتِ،
فَيَكُونُ مَا يُخْرِجُ التَّرْكِيْبُ مِنْ هَذَيْنِ الْجَنْسَيْنِ أَكْرَمَ وَأَفْخَمَ
وَأَنْفَسَ وَأَثْمَنَ، وَمَتَى ضَرَبَتْ فُحُولُ الْعَرَابِ فِي إِنْثَاءِ الْبُخْتِ

جاءت هذه الإبل البهونِيَّة والصَّرصَرانية فتخرج أقبح منظراً
من أبويها، وأشدَّ أسراً من أبويها، وقال الراجز:

ولا بهونيٍّ من الأباغرِ

وبعد؛ فإنَّ هذه الشُّهُرِيَّة الخُراسانية، يخرج لها أبدانٌ
فوق أبدانِ أمهاتها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من
عُنُق الخيل، ومن وثاجة البراذين، وليس نتاجها كنتاج
البرذونِ خالصاً والفرس خالصاً.
وما أشبه قرابة الحمار بالرمكة والحجر، من قرابة الجمل
الفالج البُختيِّ بقرابة القلوص الأعرابيَّة.

الحمرة الوحشية

ويقال إن الحمرة الوحشيَّة، وبخاصَّة الأخرِيَّة، أطولُ الحمير
أعماراً وإنما هي من نتاج الأخر، فرس كان لأردشير بن
بابك صار وحشياً فحمى عدَّة عاناتٍ فضرب فيها، فجاء أولاده
منها أعظم من سائر الحمرة وأحسن، وخرجت أعمارها عن
أعمار الخيل وسائر الحُمُر أعني حمر الوحش فإنَّ أعمارها
تزيد على الأهليَّة مراراً عدَّة.
غير أبي سيارة ولا يعرفون حماراً وحشياً عاشَ أكثر وعُمُر

أطول من عير أبي سيّارة عُميّلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكّون
أنّه دَفَع عليه بأهلِ الموسم أربعين عاماً!! قال الأصمعيّ: لم
يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

لهج ملوك فارس بالصيد

وزعموا وكذلك هو في كتبهم أنّ ملوك فارس، كانت لهجة
بالصيد؛ إلا أنّ بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام.
وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباد الملك الفارسيّ، ألحّ في طلب
حمار أخدري؛ وقد ذكر له ووُصف؛ فطاوَله عند طلبه
والتماسه، وجدّ في ذلك فلجّ به عند طلبه الاغترام، وأخرجته
الحفيظة إلى أن ألى الأياخذة إلا أسراً، ولا يطارده إلا فرداً،
فحمل فرسه عليه، فحطّاه في خبار فجمع جراميزه وهو
على فرسه ووثب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمص به، فضم
فخذه فحطّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس،
وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.
قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذ عيراً أخدرياً وغير ذلك؛ فإذا
وجدّه فتياً وسمّه باسمه وأرّخ في وسمه يوم صيده وخلقى
سبيله، وكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم به بعده،

سار فيه مثله تلك السيرة وخلق سبيله، فعرف آخرهم صنيع أولهم؛ وعرفوا مقدار مقادير أعمارها.

الحكمة في تخالف النزعات والميول

ولولا أنّ ناساً من كلّ جيل، وخصائص من كلّ أمة، يلهجون ويكلفون بتعرّف معاني آخرين لدرست، ولعلّ كثيراً من هؤلاء يُزري على أولئك، ويعجّب الناس من تفرّغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغل بما يُجدي، فالذي حبّب لهذا أن يرصد عمر حمار أو ورشان أو حية أو ضبّ، هو الذي حبّب إلى الآخر أن يكون صياداً للأفاعي والحيات، يتتبّعها ويطلبها في كلّ واد وموضع وجبل للترياقات، وسخر هذا ليكون سائس الأسد والفهود والنمور والبيور، وترك من تلقاء نفسه أن يكون راعي غنم.

والذي فرّق هذه الأقسام، وسخر هذه النفوس، وصرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافنها، وهذه المعاني من مخابيتها، هو الذي سخر بطليموس مع ملكه، وفلاناً وفلاناً للتفرّغ للأمور السماوية، ولرعاية النجوم واختلاف مسير الكواكب، وكلّ ميسرّ لما خلق له، لتتمّ النعمة وتكتمل المعرفة، وإنما تأبى التيسير للمعاصي. فأما الصناعات فقد

تَقْصُرُ الْأَسْبَابَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى أَنْ يَصِيرَ حَائِكًا، وَتَقْصُرُ
بَعْضَهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ صَيِّرَفِيًّا، فَهِيَ وَإِنْ قَصَرْتَهُ عَلَى
الْحَيَاكَةِ، فَلَمْ تَقْصُرْهُ عَلَى خُلْفِ الْمَوَاعِيدِ وَعَلَى إِبْدَالِ الْغُرُوزِ،
وَعَلَى تَشْقِيقِ الْعَمَلِ دُونَ الْإِحْكَامِ وَالصَّدَقِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَلَمْ
تَقْصُرِ الصَّيْرِفِيَّ عَلَى التَّطْفِيفِ فِي الْوِزْنِ وَالتَّغْلِيطِ فِي
الْحِسَابِ، وَعَلَى دَسِّ الْمَمُوءِ؛ تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ
عُلُوًّا كَبِيرًا.

خضوع النتاج المركب للطبيعة

ولو كان أمرُ النَّتَاجِ وما يحدث بالتراكيب ويخرج من
التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظنِّ، لكانت
الأظلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أنَّ قرابة
الضأن من الماعز، كقرابة البخت من العراب، والخيل من
الحمير!! وسبيل نتائج الظَّف على خلاف ذلك؛ لأنَّ التيسَ
على شدة غلتمته لا يعرض للنعجة إلا بالقليل الذي لا يُذكر،
وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إمَّا ألا يتمَّ خلقه، وإمَّا
ألا يعيش؛ وكذلك الكبش والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما
نتاج؛ لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه، ولا
يكون اللقاح إلا بعد ضراب.

وطلبَ التيسَ للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش
للعنز، وأقلُّ من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة.
وقد تجاسرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا
أموراً، ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان.

زعم في الزرافة

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين
البقرة الوحشية، وبين الدَّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنهم لما
رَأَوْا أنَّ اسمها بالفارسية أشرتْ كاو بلنك؛ وتأويل أشرتْ
بعير، وتأويل كاو بقرة، وتأويل بلنك الضبع؛ لأن الضباعَ
عُرِّج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُماع؛ كما عرض
للذئب القزل - وكلُّ ذئبٍ أقزل - وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجل كما
يحجل المقيّد من الناس؛ وكما أنَّ العصفورَ لا يمشي؛ ومشيّه
أن يجمعَ رجليه أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكون، وقولهم
للزرافة أشرتْ كاو بلنك اسم فارسيّ، والفرس تسمي الأشياءَ
بالاشتقاق؛ كما تقول للنعامة: اشتر مرغ، وكأنَّهم في
التقدير قالوا: هو طائرٌ وجمل؛ فلم نجد هذا الاسمَ أوجبَ أن
تكون النعامةُ نتاجَ ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما
شبهوها بشريين متقاربين؛ سمَّوها بدينك الشينين، وهم

يسمون الشيء المرّ الحلو ترش شيرين وهو في التفسير حلو
حامض، فجسر القوم فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً؛
وجعلوا الخلفة ضرباً من الترايب؛ فقالوا: قد يعرض الذئخ
في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولدٍ يجيء
خلقه ما بين خلق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض
لها الثور الوحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان
ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها فتلد زرافة، فمنهم من
حجر البتة أن تكون الزرافة الأنثى تلحق من الزرافة الذكر،
وزعموا أنّ كلّ زرافة في الأرض، فإنما هي من النتاج الذي
ركبوا؛ وزعموا أنّ ذلك مشهور في بلاد الحبشة، وأقاصي
اليمن، وقال آخرون: ليس كلّ خلقٍ مركّب ولا ينسل ولا يبقى
نجله ولا يتلاقح نسله، على ما حكينا من شأن الورشان
والرّاعي، وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون
الكتب، وتغرهم كثرة أتباعهم ممّن تجده مستهتراً بسماع
الغريب، ومغرماً بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا مع هذا
الاستهتار نصيباً من التثبّت، وحظاً من التوقي، لسلمت الكتب
من كثير من الفساد.

النتاج المركب في الطيور

وأنا رأيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب
الطيور: إنّه من نِتاج ما بين القُمريِّ والفاختة.
وقنّاص الطير، ومن يأتي كلَّ أوقه وغيضةٍ في التماس
الصيد، يزعمون أنّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي
على المياه فتتسافد؛ وأنّهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها
قطُّ، فيقدّرون أنّها من تلاقح تلك المختلفة.

زعم بعض الأعراب في الحرباء

وقال أبو زيدٍ النحويّ، وذكر عمّن لقي من الأعراب أنّهم
زعموا أنّ ذكراً أمّ حُبِين هو الحرباء، قال: وسمعتُ أعرابياً
من قيسٍ يقول لأمّ حُبِين حُبِينة، والحُبِينة هو اسمها، قال:
وقيسٌ تسمّي ذكر العظاءة العَضْرْفوط. وقال يحيى الأغر:
سمعتُ أعرابياً يقول: لا خيرَ في العظاءة، وإن كان ضَبّاً
مَكُوناً، قال: فإذا سأمَّ أبرص، والورل، والوحر، والضّبّ
والحلّكاء، كلّها عنده عَظاءة.

ولد الثعلب من الهرة الوحشية

وزعم يحيى بن نُجيم أنّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج
بينهما ولدٌ، وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

فَبَيْسَ الْبُنْيَى وَبَيْسَ
الْأَبُ

أَبُوكَ أَبُوكَ وَأَنْتَ
ابْنُهُ

كَأَنَّ أَنْامِلَهَا الْعَنْظَبُ

وَأُمَّكَ سَوْدَاءُ
نُوبِيَّةٌ

كَمَا سَاوَرَ الْهَرَّةَ
الثَّعْلَبُ

يَبِيتُ أَبُوكَ بِهَا
مَعْرَساً

وَأَنْشُدُ أَبُو عَبِيدَةَ قَوْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ:

مُغْلَغَلَةٌ عَنِ الرَّجُلِ
الْيَمَانِي

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ
حَرْبٍ

وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ
أَبُوكَ زَانِي

أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ
أَبُوكَ عَفٌّ

كَرَّحِمِ الْفَيْلِ مِنْ وَدِدِ
الْأَتَانِ

فَأَشْهَدُ أَنَّ رَحِمَكَ
مِنْ قُرَيْشٍ

قال كيسان: ولاي شي قال:

كرحم الفيل من ولد الأتان

إنما كان ينبغي أن يقول: كَرِحِمِ الْفِيلِ مِنَ الْخَنْزِيرِ، قَالَ أَبُو عبيدة: أَرَادَهَا هُوَ التَّبَعِيدَ بَعَيْنِهِ؛ وَأَنْتَ تُرِيدُ مَا هُوَ أَقْرَبُ.

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار: أَنَّ أَهْلَ سَفِينَةِ نُوحٍ كَانُوا تَأْدُوا بِالْفَأْرِ، فَعَطَسَ الْأَسَدُ عَطْسَةً فَرَمَى مِنْ مِخْرِيهِ بَزُوجِ سَنَانِيرٍ، فَلِذَلِكَ السَّنُّورُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَسَدِ، وَسَلَحَ الْفِيلُ زَوْجَ خَنْزِيرٍ؛ فَلِذَلِكَ الْخَنْزِيرُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْفِيلِ، قَالَ كَيْسَانَ: فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ السَّنُّورُ آدَمَ السَّنَانِيرِ، وَتِلْكَ السَّنُّورَةُ حَوَاءُهَا، قَالَ أَبُو عبيدة لكيسان: أَوْلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ جِنْسٍ مِنَ الْحَيَوَانِ آدَمَ وَحَوَاءً؟ وَضَحَكَ فَضَحَكَ الْقَوْمُ.

شره سعد القرقرة

ولمَّا رَأَى أَبُو قُرْدُودَةَ سَعْدَ الْقُرْقُرَةِ، أَكَلَ عِنْدَ النَّعْمَانِ مَسْلُوحًا بَعْظَامَهُ قَالَ:

وفي الذئب له ظنر
وأخوال

بين النعام وبين
الكلب مَنبئة

يقول: إِنَّ سَعْدًا ضَرَبَ فِي أَعْرَاقِهِ نَجْرَ النِّعَامِ الَّذِي يَلْتَهُمُ
 الْجَمْرُ، وَيَلْتَقِمُ الْحَجَارَةَ، فَيَطْفِئُ الْجَمْرَ وَيَمِيعُ الصَّخْرَ، وَضَرَبَ
 فِي أَعْرَاقِهِ نَجْرَ الْكَلْبِ الَّذِي يَرْضُ كُلَّ عَظْمٍ، وَلَا يَقْبِضُ عَلَيْهِ
 بِكَفِّهِ إِلَّا هُوَ وَاتَّقِ بَفْتَهُ، وَلَا يَسِيغُهُ إِلَّا وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ
 اسْتِمْرَانِهِ، فَأَمَّا الذَّنْبُ فَإِنَّهُ لَا يَرُومُ بِفَكِّيهِ شَيْئاً إِلَّا ابْتَلَعَهُ بغير
 مَعَانَاةٍ، عَظْماً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ، مَصْمُتاً كَانَ أَوْ أَجُوفاً.
 ولذلك قال الراجز:

في فمه شَفْرَتُهُ
 ونارُهُ

أَطْلَسُ يُخْفِي شَخْصَهُ
 عُبارُهُ

فأبو قردودة لم يرد أن الذئب والكلب خالاه، وأن النعام نجَّله،
 وإنما قال ذلك على المثل والتشبيه، ولم يرد أن له ظنراً من
 الكلاب، وخالاً من الذئاب.

وشبيه ذلك قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس: يا
 نُطْفَ الخَمَّارين، ونزاع الظَّوْرة، وأشباه الخَوْلَة.
 وعلى شبيه ذلك قال سلم بن قُتَيْبَة لبعض من ذكره، وهو
 عند سليمان بن عليٍّ: أَيُّهَا الأمير، إِنَّ آلَ فلانٍ أَعْلَجُ خَلْقِ اللَّهِ
 وَأَوْبَاشُهُ، لِنَامِ عُدْرٍ، شَرَّابُونَ بِأَنْقَعٍ، ثُمَّ هَذَا بَعْدُ فِي نَفْسِهِ،
 نُطْفَةُ خَمَّارٍ فِي رَحِمِ صَنَاجَةٍ.

زواج الأجناس المتباينة من الناس

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس وأبو العباس هذا كان ختن إبراهيم على أخته، وكان رجلاً يدين بالنجوم، ولا يقرُّ بشيءٍ من الحوادث إلا بما يجري على الطباع، قال أبو إسحاق: وقال لي مرّة: أتعرفُ موضعَ الحُظوةِ من خُلوّةِ النساءِ؟، قُلْتُ: لا والله لا أعرفُه، قال: بل اعلم أن لا يكونَ الحظُّ إلا في نتاجِ شكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدّي إلى الخلاص: وهو أن تزوج بين هنديةٍ وخراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلا الذهبَ الإبريز، ولكن احرس ولدها، إن كان الولدُ أنثى فاحذر عليها من شدّة لواطِ رجالِ خراسان وزناء نساء الهند، واعلم أن شهوتها للرجال على قدرِ حظوتها عندهم، واعلم أنها ستساقق النساء على أعراقِ الخراسانيّة، وتزني بالرجال على أعراقِ الهند، واعلم أنه ممّا يزيد في زناها ومساحقتها معرفتها بالحُظوة عند الزناة، وبالحظ عند السحاقيات.

مما زعموا في الخلق المركب

وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحقّ والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطل زعمهم أن الشبّوط ولد الزجر

من البُنِّيِّ، وأنَّ الشَّبَّوطَ لا يُخْلَقُ من الشَّبَّوطِ، وأنَّه كالْبِغْلِ في تركيبه وإنساله، ورووا ذلك عن أبي واثلة إياس بن معاوية بن قرّة.

وزعموا أنّ أمّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصرت في حوض لها ضخّم أو بركة كبيرة عدداً كثيراً من الزجر والبُنِّيِّ، وأنها لم تخلط بهما غيرهما، فمات أكثره وبقيت بقية كانت الصميم في القوّة، وفي احتمال تغير المكان فلم تحمل البيض حيناً، ثمّ إنها حملت بالشبابيط.

مطر الضفادع والشبابيط

وزعم حريث أنّه كان بأيّج، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسّ الأرض، وتكاد تمسّ قمم رؤوسهم، وأنهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق، وكهدير الفحول في الأشوال، ثمّ إنّها دفعت بأشدّ مطر رُئي أو سُمع به، حتى استسلموا للغرق، ثمّ اندفعت بالضفادع العظام، ثمّ اندفعت بالشبابيط السمان الخدال فطبخوا واشتووا، وملّحوا وأدّخروا.

غرور أبي واثلة والخليل بن أحمد

وروا عن أبي واثلة أنّه زعم أنّ من الدليل على أنّ الشَّبَّوطَ كالْبِغْلِ، أنّ الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في

جوفها بيضاً قط، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور
بشدة العقل، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً،
فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون
صحيحاً، وذلك أنني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان
وأقسام الأجناس، يدلُّ على أنَّ الرجل حين أحسن في أشياء
وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه.
وغرّه من نفسه الذي غرَّ الخليل بن أحمد، حين أحسن في
النحو والعروض، فظنَّ أنه يحسن الكلام وتأليف اللحن،
فكتبَ فيهما كتابين لا يَشِيرُ بهما ولا يدلُّ عليهما إلا المرّة
المحترقة، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى،
فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُعجزه شيء.

بيض الشبوط وتناسله

والشبوط حفظك الله تعالى جنسٌ كثيرٌ الذكور قليلُ الإناث، فلا
يكون إناثه أيضاً يجمعن البيض، وإذا جمعن فلو جمعت بيضَ
عشرٍ منهنَّ لما كان كشطُ بيضِ بُنْيَةٍ واحدةٍ، وقد رأيتُ بيضَ
الشبوط وذقته للتعرف فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجِبٍ، وكلُّ
صيادٍ تسأله فهو يُنبئك أن له بيضاً، ولكنَّه إذا كان يكونُ
ضئيلاً قليلاً، لأنَّ الشبايط في أصلِ العدد من أقلِّ السمك،

وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مذكراً.
مواطن الشبوط على أنه رُبَّ نهر يكونُ أكثرُ سَمَكه الشَّبُوطُ،
وذلك قليل، كنهر رَامَهْرُمَز، والشَّبُوط لا يترَبَّى في البحار، ولا
يسكن إلا في الأودية والأَنْهَار، ويكره الماء المَلْح ويطلبُ
الأَعذَبَ فالأَعذَب، ويكون في الماء الجاري، ولا يكون في
الساكن، وسنذكر شأنه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء
الله تعالى.

رد على ما زعموا في الزرافة

ولم يصب أبو وائلة، وكذبوا على أمِّ جعفر، فإذا قالوا في
الزَّرَافَةِ ما قالوا فلا تَأْمَنُهم على ما هو دونه، وإن كان مَنْ
كَذَبَ على الموتى واستشهد العُيُبَ أَحَدُقَ، فصاحبُ الزرافة قد
استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحبُ الشَّبُوط يكذب على
الأحياء، ويستشهد الحضور، وإن كان الذي دعا إلى القول
في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق،
فالجاموس بالفارسية كاوماش، وتأويله ضائي بقري، لأنهم
وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس
أن الكِبَاشَ ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

وزعم الفرسُ أنّ الحيوان كلّهُ الذي يلد حيواناً مثله ممّا
يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن،
والجواميسُ عندهم ضأن البقر، والبُحْتُ عندهم ضأن الإبل،
والبراذين عندهم ضأن الخيل

زعم في الإبل

والناس يقولون في الإبل أقاويلَ عجيبةً: فمنهم من يزعمُ أن
فيها عرقاً من سيفاد الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما
كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خُلقت من أعناق
الشياطين فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته، وقال ابن
ميّادة:

تَغَتَّتْ شَيَاطِينُ وَجُنِّ
جُنُوتِهَا

فلما أتاني ما تقول
مُحَارِبٌ

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال: إنّ الجنّ
عملته.

وهم يسمّون الكبر والخنزوانة والنَّعْرَةَ التي تضاف إلى أنف
المتكبر شيطاناً، قال عمر: حتّى أنزِعَ شيطانَه، كما قال: حتى

أَنْزَعِ النَّعْرَةَ الَّتِي فِي أَنْفِهِ، وَيَسْمُونَ الْحَيَّةَ إِذَا كَانَتْ دَاهِيَةً
مِنْهَا شَيْطَانًا، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: شَيْطَانُ الْحَمَاطَةِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَعَمَّجُ شَيْطَانٌ بِذِي
خُرُوعٍ قَفْرِ

تَعَالَجُ مَنَى
حَضْرَمِيٌّ كَأَنَّهُ

شَبَّهَ الزَّمَامَ بِالْحَيَّةِ، وَعَلَى مِثْلِ ذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

حَبَابُ بَكْفِ الشَّأْوِ مِنْ
أَسْطَعِ حَشْرٍ

شَنَاحِيَةٌ فِيهَا
شَنَاحٌ كَأَنَّهَا

وَالْحَبَابُ: الْحَيَّةُ الذَّكَرُ، وَكَذَلِكَ الْأَيْمُ، وَقَدْ نُهِيَ عَنِ الصَّلَاةِ عِنْدَ
غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ، وَعِنْدَ طُلُوعِ الْقُرْصِ إِلَى أَنْ يَتَتَمَّ ذَلِكَ، وَفِي
الْحَدِيثِ: إِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ.

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

فَلْعَرَبُ أَمْثَالٌ وَاشْتِقَاقَاتٌ وَأَبْنِيَّةٌ، وَمَوْضِعُ كَلَامٍ يُدَلُّ عَلَيْهِمْ
عَلَى مَعَانِيهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، وَلِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَوَاضِعٌ أُخْرَى، وَلَهَا
حِينَئِذٍ دَلَالَاتٌ أُخْرَى، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا جَهْلٌ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،
وَالشَّاهِدِ وَالْمَثَلِ، فَإِذَا نَظَرَ فِي الْكَلَامِ وَفِي ضُرُوبِ مِنَ الْعِلْمِ،
وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ، هَلِكٌ وَأَهْلِكُ.

الإبل الوحشية

وزعم ناسٌ أنّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك، فزعموا أنّ تلك الإبل تسكن أرض وبار، لأنها غير مسكونة، ولأنّ الحيوان كلّما اشتدّت وحشيّته كان للخلاء أطلب، قالوا: وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هجمة من الإبل الأهلية، قالوا: فالمهريّة من ذلك النّتاج.

وقال آخرون: هذه الإبل الوحشيّة هي الحوش، وهي التي من بقايا إبل وبار، فلمّا أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عادٍ وثمودٍ والعمالقة وطسّم وجديسٍ وجاسم، بقيت إبلهم في أماكنهم التي لا يطورها إنسيٌّ فإن سقط إلى تلك الجزيرة بعض الخلاء، أو بعضٌ من أضلّ الطريق حتّت الجنُّ في وجهه، فإنّ ألحّ خبلته، فضربت هذه الحوش في العمانية، فجاءت هذه المهريّة، وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية. وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميث قول الراجز:

جُلودُها مثلُ طَواويسِ
الذَّهَبِ

ما ذمَّ إبلي عجمٌ
ولا عربٌ

وقال الآخر:

تلاقى العسجدية
واللّطيم

إذا اصطكت بضيق
حجرتها

والعسجد من أسماء الذهب.

قالوا: وإنما سميت صاحبة يزيد بن الطثيرة حوشية على
هذا المعنى.

وقال روبة:

جرت رحانا من بلاد الحوش

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

وأما الذي زعم أنهم مطّروا الشبّوط، فإنه لما ظنّ أنّ
الضفادع التي تُصابُ بعقبِ المطر، بحيث لا ماء ولا وحل ولا
عين ولا شريعة - فإنهم ربّما رأوها وسط الدوّ والدهناء
والصّمان - ولم يشكّ أنّها كانت في السحاب وعلم أنّها تكون
في الأنهار ومنابع المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاسَ
على ذلك الظنّ السمك، ثم جسَرَ فجعل السمك شبّوطاً، وتلك
الضفادع إنما هي شيءٌ يُخلَقُ تلك الساعة، من طباع الماء

والهواء والزمان وتلك التربة، على مقادير ومقابلات، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق.

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

وقد تُعرف القرابة التي تكون في رأي العين بين الشكليين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافدٌ ولا تلاقح، كالبضآن والمعز، وكالفأر والجُرذَان، فليس بالعَجَب في البقر والجواميس أن تكون كذلك، وقد رأينا الخِلاسيَّ من الدجاج والديكة، وهو الذي تَخَلَّقَ من بين المولِّدات والهنديَّات، وهي تحمل اللحم والشحم. وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مسعدة، دجاجة ووزن فيها سبعة عشر رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخَلَّقُ بين الحبشيِّ والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمريه، ورأينا البيسريَّ من الناس، وهو الذي يُخَلَّقُ من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النَّتَاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما، ولثنه يجيء أحسن وأملح، وهم يسمُّون الماء إذا خالطته الملحوة ببسراً قياساً على هذا

التركيب الذي حكينا عن البيض والهنديات، ورأينا الخِلاسيَّ
من الكلاب، وهو الذي يُخلَق بين السُّلوقيِّ وقلب الراعي، ولا
يكون ذلك من الزَّني والقلطي، ومن كلاب الدُّور والحراس،
وسنقول في السَّمع والعسبار، وفي غيرهما من الخَلقِ
المركَّب إن شاء الله تعالى.

أطول الناس أعماراً وذكرُوا أَنَّهُم وجدوا أطولَ أعمار الناس
في ثلاثة مواضع: أولها سرُّوحمير، ثم فرغانة، ثم اليمامة،
وإنَّ في الأعراب لأعماراً أطول، على أَنَّ لهم في ذلك كِدْباً
كثيراً، والهند تُربي عليهم في هذا المعنى، هكذا يقول علماء
العرب.

أثر النبيذ في عمر الإنسان وكان عثمانُ ماش ويزال
وجذعان، يذكرون أَنَّهُم عدُّوا أربعينَ فتيً من فتيان قريش
وثقيف أعمارَ عام واحد فأحصوا عشرينَ من قريش،
وعشرين من ثقيف، وتوخَّوا المتجاورين في المحلَّة
والمتقاربين في الدُّور من الموقِّرين على النبيذ، والمقصورين
على التناؤم، وأَنَّهُم أحصوا مثلَ ذلك العدد وأشباه أولئك في
السِّن ممن لا يذوق النبيذ ولا يعرفُ شراباً إلا الماء، فذكروا
أَنَّهُم وجدوا بعدَ مرورِ دهرِ عامَّة من كان يشربُ النبيذَ حياً،
ومن لا يشربه قد مات عامَّتْهم، وكانوا قد بلغوا في السِّن، أما

عثمان ويزال فكانا من المعمّرين، وقد رأيتهما جميعاً ولم
أسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا الباب في موضعه من ذكر
المعمّرين، ونميّز الصدقَ فيه من الكذب، وما يجوز وما لا
يجوز إن شاء الله تعالى

بعض ما يعرض للخصيان

وما أكثر ما يعرض للخصيان البولُ في الفراش وغير ذلك،
ولا سيّما إذا بات أحدهم ممتلئاً من النبيذ.
ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدة
النّهم.
ويعرض لهم أيضاً إثثار المخفس وحبُّ الصّرف، وذلك أيضاً
مما يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنّ وشدة الهمة لهنّ
والغيرة عليهنّ، ويحتلمون، ويجنبون ويغتسلون، ويرون
الماء غير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفحال.
ويعرض للخصيّ شدة الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان
عظيم أو مال كثير أو جاهٍ عريض، حتّى ربّما كان عند مولاه
بعض من عسى أن يتقدّم هؤلاء المذكورين الذين يكون
الخصيّ كلفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرماً بخدمتهم، في الأدب
والحسب، وفي بُعدِ الهمة وكرم الشّيمة، فيعمد عند دخول ذلك

الرجل الذي له السلطانُ والجاهُ والمالُ إلى متكا هذا الأديب
الكريم، والحسيب الشريف، فينزعه من تحت مِرْفَقِهِ، غيرَ
محتفلٍ بذلك ولا مكترثٍ لما فيه، ويضعه له من غير أن يكونَ
موضعَ المرافقِ بعيداً، أو كان ذلك ممَّا يفوت بعضَ الفوت،
ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على
يقين أنه لا يرى ذلك الموسرَ وصاحبَ الجاهِ أبداً.
أقوال في خصاء الخيل وقد حرّم بعضهم خصاء الخيل خاصةً،
وبعضهم زاد على ذلك حتى حرّم خصاء البهائم، وقال
بعضهم: إذا كان الخصاء إنما اجتلبه فاعله أو تكلفه صاحبه
على جهة التماس المنفعة، أو على طريق التجارة، فذلك
جائز، وسبيله سبيل الميسم، فإن الميسم نار، و ألمه يجوزُ
كلَّ ألم وقد رأينا إبل الصدقة موسومة، ووسمت العربُ الخيلَ
وجميع أصناف النعم في الإسلام، على مثل صنيعها في
الجاهلية، وقد كانت القسواء ناقة النبي صلى الله عليه وسلم
موسومة، وكذلك العضباء.

أقوال في وسم الحيوان وقال آخرون: الخصاء غيرُ شبيهه
بالميسم، لأنَّ في الخصاء من شدة الألم، ومن المثلة، ومن
قطع النسل، ومن إدخال النقص على الأعضاء، والنقص
لمواد القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الألية

أشبهه، والسَّمَّةُ إِنَّمَا هِيَ لُدَّةٌ، والخِصَاءُ مجاوزٌ لكلِّ شديدة. قال القوم: ولا بأسَ بقطع الألية إذا منعت بثقلها أو عظمها الشاة من اللحاقِ بالقطيع وخيف عليها من الذنب، وقطع الألية في جواز العقول أشبهه من الميسم، لأنَّ الميسم ليس للبعير فيه حظ، وإنما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطع الألية من شكل الختان، ومن شكل البَطِّ والفُصد، ومن جنس الوجور والبيطرة، ومن جنس اللدود والحجامة، ومن جنس الكيِّ عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خيف عليها الأكلة وسم الإبل قال الأولون: بل لعمرى إنَّ للإبل في السمات لأعظم المنافع، لأنها قد تشرب بسماتها ولا تُدَاد عن الحوض إكراماً لأربابها، وقد تضلُّ فتؤوى، وتصاب في الهواشات فترد.

قالوا: فإننا لا نسألکم إلا عن سمات الخيل والبغال والحمير والغنم، وبعد فكيف نستجيز أن نَعَمَّها بالإحراق بالنار، لأمر عسى ألاَّ يحتاج إليه من ألفِ بعير واحد، ثم عسى ألاَّ يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلا إلى شربة واحدة. وقال القوم: إنَّما المياسم في النعم السائمة كالرقوم في ثياب البزاز، ومتى ارتفعت الرقوم ومُنعت المياسم، اختلطت الأموال، وإذا اختلطت أمكن فيها الظلم، والمظلوم باذل نفسه دون المعيشة والهزيمة.

وقالوا: ليس قطع الألية كالمجئمة وكالشيء المصبور، وقد
نُهينا عن إحراق الهوام، وقيل لنا: لا تعذبوا بعذاب الله تعالى،
والميسم نار، وقطع الألية من شكل قطع العروق، وصاحب
المجئمة يقدر أن يرمي - إن كان به تعلم الرماية - شيئاً لا
يألم ولم يُنه عن تعذيبه، فَمَا يَرُدُّ الشيء المصبور من العذاب
مَرَدّاً بوجه من الوجوه القول في نقص بعض أجزاء الحيوان
أو نقصها أو إيلاؤها وقال آخرون: ليس لك أن تُحدث في
جميع الحيوان حدثاً من نقص أو إيلام، لأنك لا تملك
النشأة، ولا يمكنك التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل
مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو الله عزَّ
وجلَّ، حلَّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ، وليس لك في حُجَّة
العقل أن تصنع بها إلا ما كان به مصلحة، كعلاج الدَّبر
وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنع كلَّ ما كان يُصنع على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وبعده، ممَّا لم يكن مدفوعاً عند
بعضهم، إلا أن يكون نَهْيُ ذلك البعض من جماعتهم، في
طريق الخلاف والردِّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من
الأقاويل، فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلف يَعْرِفُ
وجه الملام، والمذهب في ذلك معروف وإن كان خارجاً من

ذلك الحدّ، فقد علمنا أنّه أبيض من طريق التعبّد والمحنة، كما جعل الله تعالى لنا ما أحلّ ذبحه من البهائم، وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض، وإن لم يكن منها إلاّ مقدار الأذى فقط، والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لما أباح لنا خالق الشيء والقادر على تعويضه قتله، كان قتله أسوئاً في العقل مع الأذى، من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى. قال: وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم الله تعالى فيه بإباحة القتل، والله عزّ وجلّ، بمقادير الأمور وبحكم المختلف والمتّفق، والقليل من ذلك والكثير، أحكم وأعلم. وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالد وطوع الولد.

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظام، وأكثر المتكلمين يعترضون عليه فيه.

منع خصاء الإنسان وإباحته

ولا يزال - يرحمك الله تعالى - بعض الملحدين من المعاندين، أو بعض الموحّدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعن في ملك الخصى وبيعه وابتياعه، ويذكرون الخصى الذي كان

المقوقس عظيم القبط أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم
وعلى آله، مع مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام، قالوا:
فقد ملك عليه الصلاة والسلام خصياً بعد أن عرفه وأحاط
علمه بأنه خصي، وأنتم تزعمون أن الخصاء حرام، وأن من
اشترى من الخاصي خصياً ثم زاد على قيمته وهو فعل، فقد
أعان على الخصاء وحث عليه، ورغب فيه، وأنه من أفحش
الظلم وأشد القسوة، وزعمتم أن من فعل ذلك فهو شريك
الخاصي في الإثم، وأن حاله كحال المعروفين بالابتیاع من
اللصوص، وقتلتم: وكذلك من شهد القمار وهراش الكلاب،
ونطاح الكباش وقتال الديوك، وأصحاب المجارحات وحرب
الفئتين الضاليتين، وقتلتم: لأن هذه المواضع لو لم تحضرها
النظارة لما عملوا تلك الأعمال، ولو فعلوها ما بلغوا مقدار
الشطر، لغلبة الرياء والسُّمعة على قلوب الناس، فكذلك
الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاء
متعاونون، وخُطأ مترادفون، وإذا كان المبتاع يزيد في
السُّلعة لهذه العلة، والبائع يزيد في السُّوم لهذا السبب، وقد
أقررتم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل له من
المقوقس، كما قبل مارية، واستخدمه، وجرى عليه ملكه
وأمره، فافهم فهمك الله تعالى ما أنا مجيب به في هذه

المسألة، واللّه الموقّف، وعلى الله قصد السبيل.

أقول: قبل كلّ شيء لا يخلو هذا الحديث الذي روّيته من أن يكون مرضيَّ الإسناد، صحيح المخرج، أو يكون مسخوط الإسناد، فاسد المخرج، فإن كان مسخوطاً، فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيَّاً، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنّه قبله منه بعد أن علم أنّه خصيٌّ، وعلى أنّ قبول الهدية خلاف الابتياح، لأنّ بائع الخصيِّ إنّما يحرم عليه التماس الزيادة، وكذلك المبتاع إنّما يحرم عليه دفع الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجمل منه وأشبَّ وأخدم منه لم يزدّه، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سومه بالخصي، وقبول الهدية، وقبول الهبة، وسبيلُ البيع والابتياح لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنّما هديّة الخصيِّ كهديّة الثوب والعطر، والدابّة والفاكهة، ولأنّ الخصيِّ لا يحرم ملكه ولا استخدامه، بل لا يحلُّ طرده ونفيه، وعتقه جائز، وجواز العتق يوجب الملك، ولو باعه المالك على غير طلب الزيادة، أو لو تاب من الخصاص أو استحلّه مما أتى إليه، لمّا حرم على الخاصي نفسه استخدامه، والخصيُّ مالٌ ومك، واستخدامه حسنٌ جميل، ولأنّ خصاءه إياه لا يعتقه عليه، ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وجب به ملكه.

وأخرى: أن في قبول هديّة ذلك الملك، وتلقّي كرامته بالإكرام تدبيراً وحكمة، فقد بطلت المسألة، والحمد لله كما هو أهله. وقد رووا مع ذلك أيضاً: أن زنباعاً الجُدَامِيّ، خصى عبداً له، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أعتقه عليه فيما بلغنا، والله أعلم.

وربّما سألوا عن الشيء وليس القول فيه يقع في نسق القول في الخصي، وفي الخلق المركّب، ولكن إذ قد أجبنا في مسألة كلاميّة من مسائل الطعن في النبوة، فلا بأس أن نُضيف إليها أخرى، ولا سيّما إذا لم تطل فتزيد في طول الكتاب. وقد لا يزال الطاعن يقول: قد علمنا أنّ العرب لم يسموا حروب أيام الفجار بالفجور وقريش خاصّة، إلا أنّ القتال في البلد الحرام، في الشهر الحرام كان عندهم فجوراً، وتلك حروب قد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وهو ابن أربع عشر سنة، وابن أربع عشرة سنة يكون بالغاً، وقال: شهدت الفجار فكنْتُ أنبلُ على عمومتي. وجوابنا في ذلك: أنّ بني عامر بن صعصعة، طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة، بجريرة البرّاض بن قيس، في قتله عروة الرّحال، وقد علموا أنّهم يطالبون من لم يجن ومن لم يعاون، وأنّ البرّاض بن قيس كان قبل ذلك خليعاً مطروداً، فأتوهم إلى

حَرَمَهُمْ يُلْزِمُونَهُمْ ذَنْبَ غَيْرِهِمْ، فِدَافَعُوا عَنِ أَنْفُسِهِمْ، وَعَنِ
أَمْوَالِهِمْ، وَعَنِ ذُرَارِيهِمْ، وَالْفَاجِرُ لَا يَكُونُ الْمُسْعِيَّ عَلَيْهِ،
وَلِذَلِكَ أَشْهَدُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ
الْمَوْقِفُ، وَبِهِ نُصِرُوا كَمَا نُصِرَتِ الْعَرَبُ عَلَى فَارَسَ يَوْمِ ذِي
قَارٍ، بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبِمُخْرَجِهِ، وَهَذَانِ جَوَابَانِ
وَإِضْحَانِ قَرِيبَانِ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ
وَالْمَآبُ.

ذِكْرُ مَحَاسِنِ الْخَصِيِّ وَمَسَاوِيهِ

ثُمَّ رَجَعَ بِنَا الْقَوْلِ إِلَى ذِكْرِ مَحَاسِنِ الْخَصِيِّ وَمَسَاوِيهِ.
الْخَصِيُّ يَنْكِحُ وَيَتَّخِذُ الْجَوَارِي وَيَشْتَدُّ شَغْفَهُ بِالنِّسَاءِ، وَشَغْفُهُنَّ
بِهِ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مَجْبُوبَ الْعَضْوِ فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ مَا عَسَى أَنْ
يَكُونَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ أَعْجَبُ إِلَيْهِنَّ، وَقَدْ يَحْتَلِمُ وَيَخْرُجُ مِنْهُ
عِنْدَ الْوُطْءِ مَاءٌ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ مُتَغَيِّرُ الرِّيحِ، رَفِيقٌ ضَعِيفٌ، وَهُوَ
يَبَاشِرُ بِمَشَقَّةٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْمَعَاوِدَةِ الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ
إِذْ كَانَ قَلِيلَ الْمِقْدَارِ لَا يَخْرُجُهُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ، مِثْلُ
الَّذِي يَعْتَرِي مَنْ يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ يَكُونُ مِنْ إِنْسَانٍ، وَهُوَ
أَخْتَرُ، وَأَكْثَرُ، وَأَحَدٌ رِيحًا، وَأَصْحٌ جَوْهَرًا، وَالْخَصِيُّ يَجْتَمِعُ
فِيهِ أُمْنِيَّةُ الْمَرَأَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَبْغِضُ كُلَّ سَرِيعِ الْإِرَاقَةِ، بَطِيءِ

الإفاقة، كما تكره كلَّ ثَقِيلِ الصدر، وخَفِيفِ العَجْزِ، والخصيِّ
هو السريعُ الإفاقة، البطيءُ الإراقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ
المرأةُ معه، وهي أمانة العار الأكبر، فهذا أشدُّ لتوفير لذتها
وشهوتها، وإذا ابتذلن الخِيسانَ، وحقَّرن العبيدَ، وذهبت
الهيبةُ من قلوبهنَّ، وتعظيمُ البعولِ، والتصنُّعُ لذوي الأقدارِ
باجتلاب الحياءِ وتكلفِ الخجلِ، ظهر كلُّ شيءٍ في قوى
طبائعهنَّ وشهواتهنَّ، فأمكنها النَّخيرُ والصِّياحُ، وأن تكون
مرَّةً من فوقُ، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونها،
وأظهرت أقصى ما عندها.

وقد تجد في النساءِ مَنْ تُؤثر النساءُ، وتجدُ فيهنَّ من تُؤثر
الرجالُ، وتجدُ فيهنَّ مَنْ تُؤثرُ الخِيسانَ، وتجدُ فيهنَّ من تجمعُ
ولا تفرِّقُ، وتعمُّ ولا تخصُّ، وكذلك شأنُ الرجالِ في الرجالِ،
وفي النساءِ والخِيسانِ فالمرأةُ تنازعُ إلى الخصيِّ لأنَّ أمره
أسترٌ وعاقبته أسلم، وتحرصُ عليه لأنَّه ممنوعٌ منها، ولأنَّ
ذلك حرامٌ عليها، فلها جاذبان: جاذبٌ حرصٍ كما يُحرصُ على
الممنوعِ، وجاذبٌ أمنٍ كما يُرغبُ في السلامة، وقال
الأصمعيُّ: قال يونسُ بنُ عبِيد: لو أخذنا بالجرعِ لصبرنا، قال
الشاعر:

وزادها كَلْفًا بِالْحَبِّ
أَنْ مَنَعَتْ

وَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى
الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا

والحرصُ على الممنوعِ بابٌ لا يَقْدِرُ على الاحتجازِ منه،
والاحتراسِ من خُدَعِهِ، إِلَّا كُلُّ مَبْرَزٍ فِي الْفِطْنَةِ وَمَتَمَهِّلٌ فِي
العزيمة، طَوِيلِ التَّجَارِبِ، فَاضِلِ الْعَقْلِ عَلَى قُوَى الشَّهَوَاتِ،
وَبئْسَ الشَّيْءُ الْقَرِينُ السُّوءِ، وَقَالُوا: صَاحِبِ السُّوءِ قِطْعَةٌ
مِنَ النَّارِ.

وبابٌ من هذا الشكل، فَبِكُمْ أَعْظَمُ حَاجَةٌ إِلَى أَنْ تَعْرِفُوهُ وَتَقْفُوا
عِنْدَهُ، وَهُوَ مَا يَصْنَعُ الْخَبِيرُ السَّابِقُ إِلَى السَّمْعِ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا
صَادَفَ مِنَ السَّامِعِ قَلَّةَ تَجْرِبَةٍ، فَإِنْ قَرَنَ بَيْنَ قَلَّةِ التَّجْرِبَةِ وَقَلَّةِ
التَّحْفُظِ، دَخَلَ ذَلِكَ الْخَبِيرُ السَّابِقُ إِلَى مَسْتَقَرِّهِ دُخُولًا سَهْلًا،
وَصَادَفَ مَوْضِعًا وَطِينًا، وَطَبِيعَةً قَابِلَةً، وَنَفْسًا سَاكِنَةً؛ وَمَتَى
صَادَفَ الْقَلْبَ كَذَلِكَ، رَسَخَ رَسُوخًا لَا حِيلَةَ فِي إِزَالَتِهِ، وَمَتَى
أُلْقِيَ إِلَى الْفَتِيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الْفَتِيَاتِ، فِي وَقْتِ الْغَرَارَةِ،
وَعِنْدَ غَلْبَةِ الطَّبِيعَةِ، وَشَبَابِ الشَّهْوَةِ، وَقَلَّةِ التَّشَاغُلِ؛ وَكَذَلِكَ
مَتَى أُلْقِيَ إِلَى الْفَتِيَانِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِنَّ وَأُمُورِ الْغُلَّامِ،
وَهُنَاكَ سُكْرُ الشَّبَابِ، فَكَذَلِكَ تَكُونُ حَالُهُمْ، وَإِنَّ الشُّطَّارَ لِيَخْلُو
أَحَدُهُم بِالْغُلَامِ الْغَرِيرِ فَيَقُولُ لَهُ: لَا يَكُونُ الْغُلَامُ فَتَى أَبَدًا حَتَّى

يَصَادِقَ فَتًى وَإِلَّا فَهُوَ تَكْشُ، وَالتَّكْشُ عِنْدَهُمَ الَّذِي لَمْ يُوَدِّبْهُ
فَتًى وَلَمْ يَخْرُجْهُ، فَمَا الْمَاءُ الْعَذْبُ الْبَارِدُ، بِأَسْرَعٍ فِي طَبَاعِ
الْعَطْشَانِ، مِنْ كَلِمَتِهِ، إِذَا كَانَ لِلْغُلَامِ أَدْنَى هَوًى فِي الْفِتْوَةِ،
وَأَدْنَى دَاعِيَةٍ إِلَى الْمَنَالَةِ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَلَّتِ الْعَجُوزُ الْمَدْرِبَةَ
بِالْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةَ كَيْفَ تَخْلِبُهَا، وَأُنشِدُنَا:

تَخْلَطُ الْجِدَّ بِأَصْنَافِ
اللَّعْبِ

فَأَتَتْهَا طَبَّةٌ
عَالِمَةٌ

وَتَنَاهَى عِنْدَ سَوَارَاتِ
الْغَضَبِ

تَرْفَعُ الصَّوْتِ إِذَا
لَانَتْ لَهَا

وَقَالَ الشَّاعِرُ فِيمَا يَشْبَهُ وَقُوعَ الْخَبْرِ السَّابِقِ إِلَى الْقَلْبِ:

مَا الْحُبُّ إِلَّا
لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ

نَقَلَ فُؤَادَكَ حَيْثُ شَنَّتْ
مِنْ الْهَوَى

وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ
مَنْزِلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ
يَأْلَفُهُ الْفَتَى

وَقَالَ مَجْنُونُ بَنِي عَامِرٍ:

أتاني هواها قبل أن
أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً
فتمكنا

أثر التكرار في خلق الإنسان

وباب آخر مما يدعو إلى الفساد، وهو طول وقوع البصر على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابل، وأدنى حركة عند مثله، وطول التداني، وكثرة الرؤية هما أصل البلاء، كما قيل لابنة الخس: لم زني بعبدك ولم تزني بحر، وما أعراك به؟ قالت: طول السواد، وقرب الوساد.

ولو أن أقبح الناس وجهاً، وأنتهم ريحاً، وأظهرهم فقراً، وأسقطهم نفساً، وأوضعهم حسباً، قال لامرأة قد تمكّن من كلامها، ومكّنته من سمعها: والله يا مولاتي وسيدتي، لقد أسهرت ليلي، وأرقت عيني، وشغلّنتني عن مهمّ أمري، فما أعقل أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنقض طباعها، وفسخ عقدها، ولو كانت أبرع الخلق جمالاً، وأكملهم كمالاً، وأملحهم ملحاً، فإن تهياً مع ذلك من هذا المتعشّق، أن تدمع عينه، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء، ومُعَاذَةُ العَدُوِيَّة، ورابعة القيسيّة، والشجاء الخارجيّ.

زهّد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

وإنّما قال عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه: اضربوهنّ بالعرزي لأنّ الثياب هي المدعاة إلى الخروج في الأعراس، والقيام في المناحات، والظهور في الأعياد، ومتى كثر خروجها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها، ولو كان بعلمها أتمّ حسناً، والذي رأته أنقص حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرف ممّا تملكه، ولكان ما لم تنله، ولم تستكثر منه، أشدّ لها اشتغالاً وأشدّ لها اجتذاباً، ولذلك قال الشاعر:

هوى النفس شيءٌ

كاقتياد الطرائف

وللعين ملهى

بالتلاد ولم يقْد

وقال سعيد بن مسلم: لأن يرى حرمتي ألف رجل على حالٍ تكشف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إليّ من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف.

وقال الأوّل: لا يضرُّك حُسْنُ من لم تعرف؛ لأنّك إذا أتبعته بصرك، وقد نقضت طبعك، فعلمت أنّك لا تصل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمنّي، فإذا انقضى ما هو فيه من المنى، ورجعت

نفسه إلى مكانها الأوّل، لم يكن عليه من فقدها إلاّ مثلُ فقد ما
راه في النوم، أو مثّلته له الأمانيّ.

عقيل بن علفة وبناته

وقيل لعقيل بن علفة: لو زوّجتَ بناتِكَ فإنّ النساءَ لحمٌ على
وَضَمَّ إذا لم يكن غانيات قال: كلا، إنّي أُجِيعُهُنَّ فلا يَأْشُرْنَ،
وأُعْرِيَهُنَّ فلا يظهَرْنَ فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي صلى
الله عليه وسلم ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأنّ
النبي صلى الله عليه وسلم قال: الصَّوْمُ وِجَاءٌ، وقال عمر:
استعِينُوا عليهنّ بالعُرْي، وقد جاء في الحديث: وقرّوا
أشعارهن فإنّ ترك الشعر مَجْفَرَةٌ، وقد أتينا على هذا الباب في
الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأوّل الفساد، وكيف
ينبّت، وكيف يُحصَد.

بعض ميول الخصيان

وقد رأيتُ غيرَ خَصِيٍّ يتلَوِّط، ويطلب الغلمان في المواضع،
ويخلو بهم ويأخذهم على جهة الصداقة، ويحمل في ذلك
الحديد، ويقا تل دون السخول، ويتمشى مع الشطّار. وقد كان
في قطيعة الربيع خَصِيٌّ أثيرٌ عند مولاه، عظيم المنزلة عنده؛
وكان يثق به في ملكِ يمينه، وفي حُرْمه من بنتِ زوجةٍ

وأختي، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيءٍ، فأشرفَ ذاتَ يومٍ على
مرَبِّدٍ له، وفي المرَبِدِ غنمٌ صفايا، وقد شدَّ يدي شاةً وركبها
من مؤخرها يكومُها، فلَمَّا أبصره برِقَ وبِعِلَّ وسُقِطَ في يديه،
وهجم عليه أمرٌ لو يكونَ رآه من خصيٍّ لعدوُّ له لَمَّا فارقَ
ذلك الهولُ أبداً قلبه، فكيف وإتَمَّ عاينَ الذي عاينَ فيمَن كان
يخلفُه في نسائه من حُرْمه ومِلكِ يمينه، فبينما الرجلُ وهو
واجم حزين، وهو ينظرُ إليه وقد تحرَّقَ عليه غيظاً إذ رَفَعَ
الخصيُّ رأسه، فلَمَّا أثبتَ مولاهُ مرَّ مُسرِعاً نحوَ بابِ الدارِ
ليركبَ رأسه، وكان المولى أقربَ إلى البابِ منه، فسبقه إليه،
وكان الموضعُ الذي رآه منه موضعاً لا يُصعدُ إليه، فحدَّثَ
لشقاياهُ أمرٌ لم يجدَ مولاهُ معه بدءاً من صرْعوده، فلبثَ الخصيُّ
ساعةً ينتفضُ من حُمى ركبته ثم فاض، ولم يُمسِ إلا وهو في
القبرِ.

ولفرطِ إرادتهم النساءِ، وبالחסرة التي نالتهم، وبالأسف الذي
دخلهم، أبغضوا الفحولَ بأشدَّ من تباغضِ الأعداءِ فيما بينهم،
حتى ليس بين الحاسدِ الباغي وبين أصحابِ النعمِ المتظاهرة،
ولا بين الماشي المعنى وبين راكبِ الهِملاجِ الفاره، ولا بين
ملوكِ صاروا سُوقَةً، وبين سُوقَةٍ صاروا ملوكاً، ولا بين بني
الأعمامِ مع وقوعِ التنافسِ، أو وقوعِ الحربِ، ولا بين الجيرانِ

والمتشاكليين في الصناعات، من الشنف والبغضاء، بقدر ما يلتحف عليه الخصيان للفحول.
ويُبغضُ الخصيُّ للفحل من شكل بُغضِ الحاسدِ لذي النعمة،
وليس من شكل ما يولده التنافسُ وتلحقه الجنايات.

نسك طوائف من الناس

ولرجالٍ كلٌّ فنٌّ وضربٌ من الناس، ضربٌ من النسك، إذ لا بدَّ لأحدهم من النزوع، ومن تركِ طريقته الأولى: فنسك الخصيِّ غزو الروم، لِمَا أن كانوا هم الذين خصَّوهم، ولزومُ أدنة والرباط بطرسوسَ وأشباهها، فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسة أنَّ سببَ ذلك إنما كان لأنَّ الرومَ لما كانوا هم الذين خصَّوهم، كانوا مغتاضين عليهم، وكانت متطلبَّةً إلى التشفيِّ منهم، فأخرج لهم حبَّ التشفيِّ شدَّةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاقِ في كلِّ شيءٍ يبلغُ منهم، ونسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ: ونسكُ البنوي أن يدع الديوان، ونسكُ المغني: أن يُكثر التسبيحُ وهو يشربُ النبيذ، والصلاةُ على النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاةُ في جماعة، ونسكُ الرافضيِّ: إظهارُ تركِ النبيذ، ونسكُ السَّواديِّ تركُ شربِ المطبوخِ فقط، ونسكُ اليهوديِّ: إقامة السبت، ونسكُ المتكلمِّ: التسرُّعُ إلى إكفارِ أهل

المعاصي، وأن يرمي الناسَ بالجبر، أو بالتعطيل، أو بالزندقة، يريد أن يوهم أموراً: منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين، والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نطفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليّة، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميهم إلا للعرّ الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذلّ الرّيبة شيء لقطعه ذلك عن التعرّض لهم، أو التنبيه على ما عسى إن حرّكهم له أن يتحرّكوا، ولم نجد في المتكلمين أنطفَ ولا أكثرَ عيوباً، ممّن يرمي خصومه بالكفر.

الجماز وجارية آل جعفر وكان أبو عبد الله الجمّاز، وهو محمد بن عمرو، يتعشّق جاريةً لآل جعفر يقال لها طُغيان، وكان لهم خصيٌّ يحفظها إذا أرادت بيوت المغنّين، وكان الخصيُّ أشدّ عشقاً لها من الجمّاز، وكان قد حال بينه وبين كلامها، والدنوُّ منها، فقال الجمّاز وكان اسم الخادم سناناً:

وَلِلظَبَاءِ الْمِلَاحِ

مَا لِلْمَقِيَتِ سِنَانِ

غَازٍ بِغَيْرِ سِلَاحِ

لِبَيْسَ زَانٍ خَصِيٍّ

وقال فيه أيضاً وفيها:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لظَبِي

يَحِبُّنِي وَأَحِبُّهُ

نَ أَجَلِ ذَاكَ سِنَانٌ

إِذَا رَأَى يَسْبُهُ

بِهِ أَجَابَ سِنَاناً

يَنِيكُهُ أَيْنَ زُبُّهُ

وقال أيضاً فيهما:

ظَبِي سِنَانُ شَرِيكِي

فِيهِ فَبَسَّ الشَّرِيكُ

أَيْنِيكَ سِنَانٌ

وَلَا يَدْعُنَا نَنِيكَ

ما قيل من الشعر في الخصاء وقال الباخري يذکر محاسن
خِصَالِ الْخِصِيَانِ:

وَنِسَاءٌ لِمُطْمَنِّ

وَرَجَالٌ إِنْ كَانَتْ

مُقِيمٍ

الْأَسْفَارُ

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته:

جُلْبَانَةٌ وَرَهَاءُ

بِفِيٍّ مِنْ بَغْيٍ خَيْرًا

تَخْصِي حَمَارَهَا

إِلَيْهَا الْجَلَامُ

وقال مزرد بن ضرار:

فجاءت كخاصي العير
لم تحل عاجة

ولا جاجة منها
تلوخ على وشم

وقال عمرو الخاركي:

إذا لام على
المرد

نصيح زاذني حرصا

ولا والله ما
أق

لع ما عمّرت أو أخصي

وقال آخر:

رماك الله من أير
بأفعي

ولا عافاك من جهد
البلاء

جزاك الله شراً من
رفيقي

إذا بلغت بي ركب
النساء

أجنباً في الكريهة

وما تنفك تُنعظ في

حين نلقى

الخلَاءِ

فلا والله ما أمسى

ولولا البولُ عُوجلِ

رفيقي

بالخصاء

وقال بعض عبد القيس:

ما كان قحذمُ ابنُ

يرجو المناكح في

واهصة الخصى

بني الجارودِ

ومن انتكاس الدهرِ

ولكلِّ دهرٍ عثرةٌ

أن زوجتها

بجدود

لو كان منذرٌ إذ

حيّاً لكان خصاك

خطبت إليهم

بالمغمود

وقال أبو عبيدة: حدّثني أبو الخطاب قال: كان عندنا رجلٌ

أحدبٌ فسقط في بئرٍ فذهبت حدّبتُه وصار آدرٌ فقيل له: كيف

تجدك؟ فقال: الذي جاء شرّاً من الذي ذهب.

وأبو الحسن عن بعض رجاله قال: خرج معاوية ذات يومٍ

يمشي ومعه خصيٌّ له، إذ دخل على ميسونَ ابنة بحدل وهي

أم يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنما هو مثل المرأة؟ قالت: أترى أن المثلة به تحل ما حرم الله تعالى. ذكر ما جاء في خصاء الدواب ذكر آدم بن سليمان عن الشعبي قال: قرأت كتاب عمر رضي الله تعالى عنه إلى سعد، ينهى عن حذف أذنان الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يجري من رأس المائتين، وهو أربعة فراسخ. وسفيان الثوري عن عاصم بن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه كان ينهى عن خصاء البهائم ويقول: هل الإنماء إلا في الذكور.

وشريك بن عبد الله، قال: أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النخعي أن عمر رضي الله تعالى عنه نهى عن خصاء الخيل.

وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لبعض عماله: لا تجرين فرساً إلا من المائتين، ولا تخصين فرساً. وقال: وسمعت نافعاً يقول: كان عبد الله بن عمر يكره خصاء الذكور من الإبل، والبقر، والغنم.

وعبيد الله بن عمر عن نافع: أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا نامية خلق الله

تعالى.

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تُخصَى ذكور الخيل، والإبل، والبقر، والغنم، يقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلا بالذكور.

ومحمد بن أبي ذئب قال: سألت الزُّهريَّ: هل بخصاء البهائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، نهى عن صَبْرِ الروح، قال الزُّهريُّ: والخصاء صبرٌ شديد. وأبو جعفر الرّازي قال: حدّثنا الرّبيع بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: "وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُعَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ" قال: هو الخصاء.

وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس نحوه. أبو بكر الهذلي قال: سألت الحسن عن خصاء الدواب فقال: تسألني عن هذا؟ لعن الله من خصى الرجال. أبو بكر الهذلي عن عكرمة في قوله تعالى: "وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُعَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ" قال: خصاء الدواب، قال: وقال سعيد بن جبیر: أخطأ عكرمة، هو دين الله.

نصر بن طريف قال: حدّثنا قتادة عن عكرمة في قوله تعالى:

"فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ" قال: خصاء البهائم، فبلغ مجاهداً فقال:
كذَّبَ هو دين الله. فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو
الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له:
كذبت، والناس لا يضعون هذه الكلمة في موضع خطأ الرأي
ممن يُظنُّ به الاجتهاد، وكان ممن له أن يقول، ولو أن إنساناً
سمع قولَ الله تبارك وتعالى: "فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ" قال: إنما
يعني الخصاء، لم يقبل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ
على شيءٍ دونَ شيءٍ، وإذا كان اللفظ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن
يقصد به إلى شيءٍ بعينه إلا أن يكون النبي صلى الله عليه
وسلم قال ذلك مع تلاوة الآية، أو يكون جبريلُ عليه السلام
قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لا
يضمر ولا ينوي، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد؛ وإنما الدلالةُ في
بنية الكلام نفسه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد،
وليس بينه وبين الله تعالى عملٌ آخر كالذي يكون من الناس،
تعالى الله عن قول المشبهة علواً كبيراً.
أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أن ابن عباس قال في قوله
تعالى: "وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ" قال: هو الخصاء.
وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس مثله.
أبو داود النَّحَعِيّ، عن محمد بن سعيد عن عبادة بن نسيّ،

عن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحبَّ الخيلِ إلى سَلَفِ المسلمين، في عهد عمر، وعثمان، ومعاوية، رضي الله تعالى عنهم، الخَصِيَان؛ فَإِنَّهَا أَخْفَى لِلرَّكْمِينِ وَالطَّلَائِعِ، وَأَبْقَى عَلَى الْجَهْدِ.

أبو جرير قال: أخبرني ابن جُريج عن عطاء أَنَّهُ لم يَرِ بِأَسَاءَ بخصاء الدواب.

وأبو جرير عن أَيُّوبَ عن ابن سيرين، أَنَّهُ لم يكن يرى بِأَسَاءَ بالخصاء، ويقول: لو تُرِكَتُ الفحولةُ لِأَكُلَ بعضها بعضاً. وعمر ويونس عن الحسن: أَنَّهُ لم يكن يرى بِأَسَاءَ بخصاء الدواب.

سفيان بن عُيينة عن ابن طاوس عن أبيه: أَنَّهُ خَصَى بغيراً. وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغُولٍ عن عطاء، أَنَّهُ سئل عن خصاء البغل فقال: إِذَا خَفَتِ عِضاضُهُ.

أقوال في النتاج المركب

وَلِنَصِلَ هَذَا الْكَلَامَ بِالْكَلامِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا فِي الْخَلْقِ الْمَرْكَبِ وَفِي تَلَاقِحِ الْأَجْنَاسِ الْمَخْتَلِفَةِ، زَعَمُوا أَنَّ الْعَسْبَارَ وَلَدَ الضَّبِيعِ مِنَ الذَّنْبِ، وَجَمَعَهُ عَسَابِرٌ، وَقَالَ الْكَمِيتُ:

وتجمّع
المتفرّقو

نَ من الفراعِل العَسابِرِ

يرميهم بأنهم أخلاطٌ ومُعْلَهَجُونَ.
السمع ولد الذئب من الضبع وزعموا أنّ السّمع ولد الذئب من
الضبع، ويزعمون أنّ السّمع كالحية لا تعرف العِلل، ولا
تموت حتّى أنفها، ولا تموت إلاّ بعرض يعرض لها،
ويزعمون أنّه لا يعدو شيءٌ كعدو السّمع، وأنّه أسرع من
الريح والطير.
وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه:

بذي شبيبٍ يُقاسي
ليلاً حَبَباً

ولم يدجّه ولم
يعجز له عَصَباً

فاغص العواذل وارم
الليل في عرض

كالسمّ لم ينقب
البيطار سرّته

وقال ابن كُناسة يصف فرساً:

لٌ وقد صوّبت على

كالعقاب الطلوب

يَضْرِبُهَا الطَّ

عِسْبَار

وقال سؤر الذئب:

هُوَ سَمِعَ إِذَا تَمَطَّرَ
شَيْئاً

وَعُقَابٌ يَحْتَهَا
عِسْبَارُ

يقول: إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهاربِ من الطالبِ الجادِّ، فهو أحت للطالب، وإذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ في معنى من يحثُّ الطلب، إذ صار إفراط سرعته سبباً لإفراط طلب العقاب.

وقال تأبط شراً، أو أبو محرز خلف بن حيَّان الأحمر:

مُسْبِلٌ بِالْحِيِّ أَحْوَى
رِفْلٌ

وَإِذَا يَغْدُو فِسْمَعٌ
أَزْلٌ

وإنما قال أزْل وجعله عادياً ووصفه بذلك، لأنَّه ابن الذئب، وقال الأصمعي:

يدير عيني لمظة عِسْبَارِهِ

وقال في موضع آخر:

كأن منها طرفه استعاره

وقال آخر:

تلقى بها السَّمْعَ الأزلَّ الأطلَسَا

وزعموا أنّ ولد الذئب من الكلبة الدَّيسَم، ورووا لبشار بن
بُرد في دَيْسَمِ العَنْزِيّ أنّه قال:

أَتزوي هِجائي
سادرًا عَيْرَ مُقَصِرٍ

أدَيْسَمُ يا ابنَ الذئبِ
مِنْ نسلِ زارعٍ

وزارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارع.
زعم لأرسطو في النتاج المركب وزعم صاحب المنطق أنّ
أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف
الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئب التي تسفد
الكلاب في أرض رومية: قال: وتتولد أيضاً كلاب سلوقية من
ثعالب وكلاب، قال: وبين الحيوان الذي يسمّى باليونانية
طاغريس وبين الكلب، تحدث هذه الكلاب الهندية، قال: وليس
يكون ذلك من الولادة الأولى.
قال أبو عثمان: عن بعض البصريين عن أصحابه قال:

وزعموا أنّ نتاج الأولى يخرجُ صعباً وحشياً لا يلقن ولا
يؤلف.

تلاقح السبع والكلبة وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل
الكوفة من بني تميم أنّ الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلقح،
ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليل
الصعوبة يقبلُ التلقين، وأنهم يأخذون إناث الكلاب،
ويربطونها في تلك البراري، فتجيء هذه السباع وتسفدها،
وليس في الأرض أنثى يجتمع على حبّ سفادها، ولا ذكر
يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناس المختلفة، أكثر في
ذلك من الكلب والكلبة.

قال: وإذا ربطوا هذه الكلاب الإناث في تلك البراري، فإن
كانت هذه السباع هائجةً سفدتها، وإن لم يكن السبع هائجاً
فالكلبة مأكولة، وقال أبو عدنان:

تَرُودُ بِهَا عَيْنُ الْمَهَا
وَالجَادِرُ

وسنداوة فضفاضة
وحضاجرُ

أيا باكي الأطلال في
رسم دمنة

وعانات جوال وهيق
سفنَج

وَسَمِعَ خَفِيَّ الرَّزِّ
ثَلْبٌ وَدَوْبَلٌ

وَتَرْمَلَةٌ تَعْتَادُهَا
وَعَسَابِرُ

وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن
يخُدُّ على نفسه في الكتبِ شهاداتٍ لا يحقُّها الامتحان، ولا
يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما
ادَّعى إلا هذا القول.

وأما الذين ذكروا في أشعارهم السَّمْعَ والعِسابِرَ، فليس في
ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم النَّاسُ من هذا
التركيب المختلف، فأدبنا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة، إذ
لم نجد عليها بُرْهاناً.

ولاد السَّعْلَةَ وللنَّاسِ في هذا الضَّرْبِ ضروبٌ من الدعوى،
وعلماءُ السَّوءِ يُظهرون تجويزها وتحقيقها، كالذي يدَّعون
من أولاد السَّعَالِيِّ من النَّاسِ، كما ذكروا عن عمرو بن
يربوع، وكما يروي أبو زيدٍ النُّحَويُّ عن السَّعْلَةَ التي أقامت
في بني تميم حتى وُلِدَتْ فيهم، فلَمَّا رأتُ برقاً يلمَعُ من شقِّ
بلاد السَّعَالِيِّ، حنَّتُ وطارَتْ إليهم، فقال شاعرهم:

رَأَى بَرَقاً فَأَوْضَعَ

فَلَا بِكَ مَا أَسَالَ وَمَا

فَوْقَ بَحْرِ

أَغَامَا

وَأَنْشَدَنِي أَنْ الْجِنَّ طَرَقُوا بَعْضَهُمْ فَقَالَ:

أَتُوا نَارِي فَقَلَّتْ

فَقَالُوا الْجِنَّ قَلْتُ

مَنْوَنَ أَنْتُمْ

عَمُوا ظَلَامًا

فَقَلْتُ إِلَى الطَّعَامِ

زَعِيمٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ

فَقَالَ مِنْهُمْ

الطَّعَامَا

ولم أعب الرواية، وإنما عبتُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها،
فما أكثرَ من يروي هذا الضربَ على التعجبِ منه، وعلى أن
يجعلَ الروايةَ له سبباً لتعريفِ النَّاسِ حقَّ ذلك من باطله،
وأبو زيدٍ وأشباهه مأمونون على النَّاسِ؛ إلاَّ أنَّ كلَّ من لم
يكن متكلِّماً حاذقاً، وكان عند العلماءِ قدوةً وإماماً، فما أقربَ
إفساده لهم من إفسادِ المتعمِّدِ لإفسادهم وأنشدوا في تثبيتِ
أولادِ السعلاةِ:

تَقُولُ جَمْعَ مَنْ

وَحَسَنٌ أَنْ كَلَّفْتَنِي مَا

بُؤَانَ وَوَيْدٌ

أَجِدُ

أَوْ وِلْدِ السَّعْلَةِ أَوْ
جِرِوِ الْأَسَدِ

وَلَمْ تَقْلِ جِيءَ
بِأَبَانٍ أَوْ أَحَدُ

أَوْ مَلِكِ الْأَعْجَامِ
مَأْسُورًا بَقْدَ

وَقَالَ آخِرُ:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ بَنِي السَّعْلَةِ عَمْرًا وَقَابُوسًا شِرَارَ النَّاتِ

ما زعموا في جرهم وذكروا أَنَّ جُرْهُمًا كَانَ مِنْ نِتَاجِ مَا بَيْنَ
الْمَلَائِكَةِ وَبَنَاتِ آدَمَ، وَكَانَ الْمَلِكُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِذَا عَصَى رَبَّهُ
فِي السَّمَاءِ أَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَفِي طَبِيعَتِهِ،
كَمَا صَنَعَ بِهَارُوتَ وَمَارُوتَ حِينَ كَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا وَشَأْنِ
الزُّهْرَةِ، وَهِيَ أَنَاهِيدُ مَا كَانَ، فَلَمَّا عَصَى اللَّهُ تَعَالَى بَعْضُ
الْمَلَائِكَةِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، تَزَوَّجَ أُمَّ جُرْهُمِ
فَوَلَدَتْ لَهُ جُرْهُمًا، وَلِذَلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ:

النَّاسِ طَرَفٌ وَهُمْ
تِلَادُكَا

لَا هُمْ إِنْ جُرْهُمًا
عِبَادُكَا

ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بلقيس ملكة سبأ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمه فيرى آدمية وأبوه عبري من الملائكة، ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي: يا ذا القرنين، فقال: أفرعتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟.

وروى المختار بن أبي عبيد أن علياً كان إذا ذكر ذا القرنين قال: ذلك الملك الأموط.

ما زعموا من تلاقح الجن والإنس وزعموا أن التناح والتلايح قد يقع بين الجن والإنس، لقوله تعالى: "وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ"، وذلك أن الجنيات إنما تعرض لصراع رجال الإنس على جهة التعشق وطلب السفاد، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال، والنساء للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.

ومن زعم أن الصرع من المرة، ردّ قوله تعالى: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ" وقال تعالى: "لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ أُنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"، فلو كان الجان لا يفتض الآدميات، ولم يكن ذلك قط، وليس ذلك في تركيبه، لما قال الله تعالى هذا القول.

ما زعموا في النسناس وغيره وزعموا أنّ النسناس تركيب
ما بين الشقّ والإنسان، ويزعمون أنّ خلقاً من وراء السدّ
تركيب من النسناس، والناس، والشقّ، ويأجوج ومأجوج،
وذكروا عن الواق واق والدوال باي أنهم نتاج ما بين بعض
النبات والحيوان، وذكروا أنّ أمّة كانت في الأرض، فأمر الله
تعالى الملائكة فأجلّوهم؛ وإياهم عنوا بقولهم: "أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ
لَكَ"، ولذلك قال الله عزّ وجلّ لآدم وحواء: "وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"، فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظلماً
قد كان في الأرض.

قال الأصمعيّ - أو خلف - في أرجوزة مشهورة، ذكر فيها
طولَ عمر الحيّة:

حَسِبْتَ وَرْساً خَالِطَ
الْيَرْنَآ

أَرْقَشُ إِنْ أَسْبَطَ أَوْ
تَنَّى

إِذَا تَرَاءَاهُ الْحَوَاةُ
اسْتَنَّا

خَالِطُهُ مِنْ هَاهُنَا
وَهَنَّا

قال: وكان يقال لتلك الأمة مهنا.
قول المجوس في بدء الخلق وزعم المجوس أن الناس من
ولد مهنة ومهينة، وأنهما تولدا فيما بين أرحام الأرضين،
ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هُرْمُز حين قتله هرمر،
وحماقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب، ولولا أنني
أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام، ومبلغ الرأي، لتحدثت لله
تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرت كثيراً من هذا الجنس.
عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه وزعم ابن هيثم أنه
رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميري، صديق
إبليس وختنه، وأنهم كانوا لا يشكون أن إبليس جدّه من قبل
أمّهاته، وسنقول في ذلك بالذي يجب إن شاء الله تعالى،
وصلة هذا الكلام تجيء بعد هذا إن شاء الله تعالى.

حوار في الكلب والديك

وقلت: ولو تمّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما ألف الإنسان،
واستوحش من السبع، وكره الغياض، وألف الدُّور،
واستوحش من البراري وجانب القفار، وألف المجالس
والدِّيار، ولو تمّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء،
لما أكل الحيوان، وكلب على الناس، نعم حتى ربّما كلب

وَوَثَبَ عَلَى صَاحِبِهِ وَكَلَبَ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ طَرَفَةٌ
فَقَالَ:

تَقْتُلُ حَالَ النَّعِيمِ
بِالْبُؤْسِ

كُنْتُ لَنَا وَالذَّهْوَرِ
أَوْنَةً

يَعْلَهُ بِالْحَلِيبِ فِي
الْعَسِ

كَكَلَبِ طَسْمٍ وَقَدْ
تَرَبَّبَهُ

إِلَّا يَلِغُ فِي الدَّمَاءِ
يَنْتَهِسِ

ظَلَّ عَلَيْهِ يَوْمًا
يُفْرِفِرُهُ

وقال حاجب بن دينار المازني في مثل ذلك:

بِمَالٍ وَسُلْطَانٍ إِذَا
سَلِمَ الْحَبْلُ

وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ
أَعْنَتُمْ عَلَيْكُمْ

بِأَحْدَى الدَّوَاهِي حِينَ
فَارَقَهُ الْجَهْلُ

كَذِي الْكَلْبِ لَمَّا
أَسْمَنَ الْكَلْبَ رَابَهُ

وقال عوف بن الأحوص:

تَخَدِّشُهُ أُنْيَابُهُ
وَأَظْفِرُهُ

فَأِنِّي وَقِيصاً كَالْمَسْمَنِ
كَلْبُهُ

وَأَنشُدُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ لِبَعْضِهِمْ:

وَلَوْ ظَفَرُوا بِالْحَزْمِ مَا
سُمِّنَ الْكَلْبُ

وَهُمْ سَمَّنُوا كَلْباً
لِيَأْكُلَ بَعْضَهُمْ

وفي المثل: سَمَّنَ كَلْبَكَ يَاكُلُكَ.

وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف، وكان
يحضُرُ طعامه، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من
الخُصْبِ، وأنه قد سَمِنَ فكتبت إليه امرأته:

وَأَنْتَ عَلِيٌّ بَابِ
الْأَمِيرِ بَطِينُ

أَتَهْدِي لِي الْقِرْطَاسَ
وَالْخُبْزَ حَاجَتِي

فَأَنْتَ عَلِيٌّ مَا فِي
يَدَيْكَ ضَنْيُنُ

إِذَا غَبْتَ لَمْ تَذْكَرْ
صَدِيقاً وَإِنْ تَقُمْ

فِيَهْزَلُ أَهْلُ الْكَلْبِ
وَهُوَ سَمِينُ

فَأَنْتَ كَكَلْبِ السَّوْءِ فِي
جُوعِ أَهْلِهِ

وفي المثل: سمن كلب في جوع أهله، وذلك أنه عند السؤاف
يصيب المال، والإخداج يعرض للنوق، يأكل الجيف فيسمن،
وعلى أنه حارسٌ مُحترَسٌ منه، ومونسٌ شديد الإيحاء من
نفسه، وأليفٌ كثير الخيانة على إلفه، وإنما اقتنوه على أن
ينذروهم بموضع السارق، وتركوا طرده لينبهم على مكان
المبيت، وهو أسرقٌ من كل سارق، وأدومٌ جنايةً من ذلك
المبيت، ويدلُّ على أنه سروقٌ عندهم، قولُ الشاعر:

وَجَبَّجَةَ لِلْوَطْبِ
لَيْلَى تَطْلُقُ

أَفِي أَنْ سَرَى كَلْبٌ
فَبَيَّتْ جُلَّةً

فهو سَرَّاقٌ، وصاحب بيات، وهو نَبَّاشٌ، وآكلٌ لحومِ النَّاسِ،
ألا إنه يجمعُ سرقة الليل مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبداً
يمشي في خزانة، أو مطبخ، أو عَرَصَةِ دار، أو في طريق، أو
في بَراري، أو في ظهرِ جبل، أو في بطنِ وادٍ، إلا وخطمه في
الأرض يتشمم ويستروح، وإن كانت الأرضُ بيضاءَ حِصَاءَ
ودويَّةَ مِلساءَ، أو صخرةَ خِلقاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرهاً
وظمعاً، نعم حتى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلا اشتَمَّ استه، ولا
يتشمم غيرها منه، ولا تراه يُرمي بحجر أيضاً أبداً إلا رَجَعَ
إليه فعضَّ عليه؛ لأنه لما كان لا يكاد يأكل إلا شيئاً رموا به

إليه صار ينسى لِفِرْطِ شَرِّهِهِ وَغَلْبَةِ الْجَشَعِ عَلَى طَبْعِهِ، أَنَّ
الرَّامِيَ إِنَّمَا أَرَادَ عَقْرَهُ أَوْ قَتْلَهُ، فَيُظَنُّ لِذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ
إِطْعَامَهُ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، كَذَلِكَ يَخِيلُ إِلَيْهِ فِرْطُ النَّهْمِ وَتَوْهْمُهُ
غَلْبَةُ الشَّرِّهِهِ، وَلَكِنَّهُ رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى النَّاسِ عَجْزاً وَلَوْماً،
وَفُسُولَةً وَنَقْصاً، وَخَافَ السَّبَاعَ وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الصَّحَارَى.
وَلَمَّا سَمِعُوا بَعْضَ الْمَفْسَّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَالَّذِينَ
فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" إِنَّ الْمَحْرُومَ هُوَ
الْكَلْبُ؛ وَسَمِعُوا فِي الْمَثَلِ: اصْنَعُوا الْمَعْرُوفَ وَلَوْ إِلَى الْكَلْبِ
عَطْفُوا عَلَيْهِ وَاتَّخَذُوهُ فِي الدُّورِ، وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا
مَنْ سِفَلْتَهُمْ وَأَغْبِيَاءَهُمْ، وَمَنْ قَلَّ تَقَرُّرُهُ وَكَثُرَ جَهْلُهُ، وَرَدَّ
الْآثَارَ إِمَّا جَهْلاً وَإِمَّا مَعَانِدَةً.

وَأَمَّا الدِّيكُ فَمِنْ بَهَائِمِ الطَّيْرِ وَبِغَاثِهَا، وَمَنْ كَلَوَلَهَا وَالْعِيَالُ
عَلَى أَرْبَابِهَا، وَلَيْسَ مِنْ أَحْرَارِهَا وَلَا مِنْ عِتَاقِهَا وَجَوَارِحِهَا،
وَلَا مِمَّا يَطْرِبُ بِصَوْتِهِ وَيُشْجِي بِلِحْنِهِ، كَالْقَمَارِيِّ وَالذَّبَّاسِيِّ
وَالشَّفَّانِينَ وَالْوَرَّاشِينَ وَالْبَلَابِلَ وَالْفَوَاخِتَ، وَلَا مِمَّا يُونِقُ
بِمَنْظَرِهِ وَيَمْتَعُ الْأَبْصَارَ حَسَنُهُ، كَالطَّوَاوِيسِ وَالتَّدَارِجِ، وَلَا مِمَّا
يَعْجِبُ بِهَدَايَتِهِ وَيُعْقِدُ الذَّمَامَ بِأَلْفِهِ وَنِزَاعِهِ، وَشِدَّةِ أُنْسِهِ
وَحَنِينِهِ، وَتُرِيدُهُ بِإِرَادَتِهِ لَكَ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ لِحْبِهِ إِيَّاكَ،
كَالْحَمَامِ، وَلَا هُوَ أَيْضاً مِنْ ذَوَاتِ الطَّيْرِانِ مِنْهَا، فَهُوَ طَائِرٌ لَا

يطير، وبهيمة لا يصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمتع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللذة.

والخفّاش أمرط، وهو جيّد الطيران، والدّيك كاسٍ وهو لا يطير، وأيُّ شيءٍ أعجبٌ من ذي ريشٍ أرضيّ، ومن ذي جلدةٍ هوائيٍّ. وأجمعُ الخلقِ لخصالِ الخيرِ الإنسان، وليس الزّواجُ إلّا في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثمّ كان ممن لا يزواج، لقد كان قد مُنع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكلة الغريبة، وحُرّم هذا السّبب الكريم والشّبّه المحمود، فكيف وهو لا يزواج، وهو من الطير الذي ليس الزّواجُ والإلفُ وثباتُ العهد، وطلبُ الذرءِ وحبُّ النّسل، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن - إلّا له وللإنسان، وكلُّ شيءٍ لا يزواج فإنّما دخله النقصُ وخسر هذه الفضيلة من جهةٍ واحدة، وقد دخل الديكُ النقصُ من جهتين، ووصف أبو الأخرز الحِمانيّ الحِمَارَ وعَيّر العانةَ خاصّةً، فإنّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهليّ، فذكر كيف يضرب في الأثن، ووصف استبهامه عن طلب الولد، وجهله بموضعِ الذرءِ، وأنّ الولدَ لم يجئ منه عن طلبٍ له، ولكن النّطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئة من الأسقام حدّث النّتاج على الخلقة، وعلى ما سوّيت عليه البنية، وذكر أنّ نزوه على الأتان، من

شكل نَزْوِه على العير، وَإِنَّمَا ذَلِكَ على قَدْر ما يحضُرُه من الشَّبَق، ثُمَّ لا يَلْتَفِت إلى دُبُرٍ من قَبْل، وإلى ما يَلْقَحُ من مثله مِمَّا لا يُلْقَحُ فقال:

لا مُبْتَغِي الضَّنِّ ولا بالعازلِ

يقول: هو لا يريد الولد ولا يعزل.
والأشياء التي تألفُ الناسَ ولا تريدُ سِوَاهُم، ولا تحنُّ إلى غيرهم، كالعصفور والخُطَّاف والكلب والسَّنور، والديك لا يألفُ منزله ولا رَبْعَه ولا يُنَازِع إلى دِجَاجتِه ولا طُرُوقتِه، ولا يحنُّ إلى ولده، بل لم يَدِرِ قَطُّ أَنَّ له ولداً؛ ولو دَرَى لكان على دِرايتِه دليل، فإذا قد وجدناه لبيضِه وفراريجِه الكائنةِ منه، كما نجدُه لما لم يلدُه ولِمَا ليسَ من شكلِه ولا يرجع إلى نسبه، فكيف تُعرَفُ الأمورُ إلاَّ بهذا وشبهه، وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهلَ دارِه، ومبهوتٌ لا يُثَبِّتُ وَجَهَ صاحِبِه، وهو لم يُخَلِّقُ إلاَّ عنده وفي ظلِّه، وفي طعامِه وشرابِه، وتحت جناحِه. والكلبُ على ما فيه يعرف صاحِبَه، وهو والسَّنور يعرفان أسماءهما، ويألفان موضعهما، وإن طُرِدا رجعا، وإن أُجِيعا صَبَرا، وإن أهينا احتملا.
والديك يكون في الدار من لُدُنْ كان فَرُوجاً صغيراً إلى أن

صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرج من باب الدار، أو سقط على
 حائط من حيطان الجيران، أو على موضع من المواضع، لم
 يعرف كيف الرجوع، وإن كان يرى منزله قريباً، وسهل
 المطلب يسيراً، ولا يذكر ولا يتذكر، ولا يهتدي ولا يتصور له
 كيف يكون الاهتداء، ولو حنَّ لطلب، ولو احتاج للتمس، ولو
 كان هذا الخبُر في طباعه لظهر، ولكنَّها طبيعةٌ بلهاءٌ
 مستبهمة، طامحةٌ وذاهلة، ثمَّ يسفدُ الدجاجةُ ولا يعرفها، هذا
 مع شدَّة حاجته إليهنَّ وحرصه على السِّفاد، والحاجةُ تفتقُ
 الحيلة، وتدلُّ على المعرفة، إلا ما عليه الديك؛ فإنه مع
 حرصه على السِّفاد، لا يعرفُ التي يسفدُ، ولا يقصدُ إلى ولدٍ،
 ولا يحضنُ بيضاً ولا يعطفه رَحِمٌ، فهو من ها هنا أحمقُ من
 الحُبَّارَى وأعقُّ من الضَّبِّ، وقال عثمان بن عفَّان رضي الله
 تعالى عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولده حتى الحُبَّارَى، فضرَبَ بها
 المثلَ كما ترى في الموقِ والغفلة، وفي الجهل والبله، وتقول
 العرب: أعقُّ من الضَّبِّ؛ لأنَّه يأكلُ حُسُوله.
 أكل الهرة أولادها وكرَمَ عند العرب حظُّ الهرة، لقولهم: أبرُّ
 من هرة، وأعقُّ من ضبِّ، فوجَّهوا أكل الهرة أولادها على
 شدَّة الحبِّ لها، ووجَّهوا أكل الضبِّ لها على شدَّة البغضِ لها،
 وليس ينجو منه شيءٌ منها إلا بشغله بأكل إخوته عنه،

وليس يحرسها ممّا يأكلها إلاّ ليأكلها، ولذلك قال العمّسُ بن
عقيل، لأبيه عقيل بن علفّة:

وَجَدتَّ مَرارةَ الكَلأِ
الوَبيلِ

أَكَلتَ بَنِيكَ أَكَلِ الضَّبِّ
حَتَّى

مَنَعتَ فِئاءَ بَيْتِكَ مِنْ
بَجيلِ

فَلو أَنَّ الأَلى كانوا
شهُوداً

وقال أيضاً:

تَرَكتَ بَنِيكَ لَيْسَ لَهُمُ
عَدِيدِ

أَكَلتَ بَنِيكَ أَكَلِ
الضَّبِّ حَتَّى

وشبّه السيّد بن محمّد الحميريّ، عائشة رضي الله تعالى عنها
في نصبها الحرب يوم الجمل لقتال بنيتها، بالهرة حين تأكل
أولادها، فقال:

تُرْجِي إلى البَصْرَةِ
أَجنادَها

جاءتْ معَ الأشْقيينَ
في هُودِجِ

كَأَنَّمَا فِي فِعْلِهَا
هَرَّةٌ

تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ
أَوْلَادَهَا

رعاية الذئبة لولد الضبع وتقول العرب أيضاً: أحمق من
جَهِيْزَة، وهي عرس الذئب؛ لأنها تدعُ ولدها وترضع ولد
الضبع.

قال: وهذا معنى قول ابن جدل الطعان.

كَمُرْضِعَةٍ أَوْلَادٍ أُخْرَى
وَضِيْعَتٌ

بَنِيهَا فَلَمْ تَرْقِعْ بِذَلِكَ
مَرْقَعًا

رعاية الذئب لولد الضبع ويقولون: إنَّ الضبع إذا صيدت أو
قُتلت، فإنَّ الذئب يأتي أولادها باللحم، وأنشد الكُميت:

كَمَا خَامَرَتْ فِي
حِضْنِهَا أُمَّ عَامِرٍ

لِذِي الْحَبْلِ حَتَّى عَالَ
أَوْسٌ عِيَالَهَا

وأوس هو الذئب، وقال في ذلك:

فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ
ذُؤَالِهِ

ضِعْتُ يَزِيدٌ عَلَى إِبَالِهِ

أوساً أويسُ من
الهباله

فلاخشانك
مشقّصاً

الأوس: الإعطاء، وأويس هو الذئب، وقال في ذلك الهذلي:

ما فعلَ اليومَ أويسُ
في الغنمِ

يا ليتَ شعري عنك
والأمرُ أممٌ

وقال أميةُ بن أبي الصلت:

ويُحوظهم في كلِّ
عامٍ جامدٍ

وأبو اليتامى كانَ
يُحسِنُ أوسهم

حمق النعامة ويقولون: أحمق من نعامة كما يقولون: أشرد من نعامة قالوا ذلك لأنها تدع الحزن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيضاً أخرى قد خرجت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعلّ تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها بالعراء حتى تهلك، قالوا: ولذلك قال ابن هرمة:

وقدحي بكفي زنداً

فإني وتركي ندى

الأكرمين

كتاركة بيضها
بالعرء

شأحا

وملبسة بيض أخرى
جناحا

وقد تحضن الحمام على بيض الدجاج، وتحضن الدجاجة بيض الطاوس، فأما أن يدع بيضه ويحضن بيض الدجاجة، أو تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاوس فلا، فأما فرج الدجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنه يكون أكيس، وأما الطاوس الذي يخرج من تحت الدجاجة فيكون أقل حسناً وأبغض صوتاً.

الفرخ والفروج وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ، إلا بيض الدجاج فإنه يسمى فرجاً، ولا يسمى فرخاً، إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام، ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر، قال الشاعر:

لعمري لأصوات
المكاي بالضحى

وسود تداعي
بالعشي نواعبه

وَمِنْ دِيكَ أَنْبَاطٍ
تَنْوَسُ غِبَاغِبُهُ

أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ فِرَاحِ
دَجَاجَةٍ

وقال الشَّمَّاحُ بنُ ضِرَارٍ:

تَأَمَّلْ حِينَ يَضْرِبُكَ
الشِّتَاءُ

أَلَا مَنْ مَبْلَغَ خَاقَانَ
عَنِّي

وَمِنْ شَيْخٍ أَضَرَ بِهِ
الْفَنَاءُ

فَتَجْعَلُ فِي جَنَابِكَ مِنْ
صَغِيرٍ

يَلْدُنَ بِهِ إِذَا حَمَسَ
الْوَعَاءُ

فِرَاحِ دَجَاجَةٍ يَتَّبَعْنَ
دِيكَ

فإن قلت: وأيُّ شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنوية بذكرهما، شيخان من علية المتكلمين، ومن الجلة المتقدمين، وعلى أنهما متى أبرما هذا الحكم وأفصحا بهذه القضية، صار بهذا التدبير بهما حظ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدهما كلُّ من هو دونهما، وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذبان وبنات وردان، وبين الخنافس

والجعلان، وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات،
والخشاش، حتى البعوض والفراش والديدان والقردان فإن
جاز هذا في الرأي وتمّ عليه العمل، صار هذا الضرب من
النظر عوضاً من النظر في التوحيد، وصار هذا الشكل من
التمييز خلفاً من التعديل والتجوير، وسقط القول في الوعد
والوعيد، ونسي القياس والحكم في الاسم، وبطل الرد على
أهل الملل، والموازنة بين جميع النحل، والنظر في مرشد
الناس ومصالحهم، وفي منافعهم ومرافقهم؛ لأنّ قلوبهم لا
تسع للجميع، وأسنتهم لا تنطق بالكلّ، وإنما الرأي أن تبدأ
من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.

وقلت: وهذا باب من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرف
وطريق من طرق المزاح، وسبيل من سبل المضاحك، ورجال
الجدّ غير رجال الهزل، وقد يحسن بالشباب ويقبح مثله من
الشيوخ، ولولا التحصيل والموازنة، والإبقاء على الأدب،
والديانة بشدة المحاسبة، لما قالوا: لكلّ مقام مقال، ولكلّ
زمان رجال، ولكلّ ساقطة لاقطة، ولكلّ طعام أكلة.

تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها قد زعم أناس أنّ كلّ
إنسان فيه آلة لمرفق من المرافق، وأداة لمنفعة من المنافع،
ولا بدّ لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت، ولا بدّ لذلك الكامن

من ظهور، فإن أمكنه ذلك بعثه، وإلا سرى إليه كما يسري
السم في البدن، ونمى كما ينمي العرق، كما أن البزور البرية،
والحبة الوحشية الكامنة في أرحام الأرضين، لا بد لها من
حركة عند زمان الحركة، ومن التفق والانتشار في إبان
الانتشار، وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالرطوبة، وكان
بعض الأرض كالأم الغاذية فلا بد لكل ثدي قوي أن يظهر
قوته، كما قال الأول:

ولا بد للمصدور يوماً من النفث

وقال: ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبراً ولذلك صار طلب
الحساب أخف على بعضهم، وطلب الطب أحب إلى بعضهم،
وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم،
وكذلك أيضاً ربما تحرك له بعد الكبرة، وصرف رغبته إليه
بعد الكهولة، على قدر قرة العرق في بدنه، وعلى قدر
الشواغل له وما يعترض عليه، فتجد واحداً يلهج بطلب الغناء
واللحون، وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يكتتب مع الجند،
وآخر يختار أن يكون وراقاً، وآخر يختار طلب الملك، وتجد
حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم، نعم لا تدري
كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول،

ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصناعات على بعضٍ يَعْلَمُ لم
اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذ كان لم يَجْرِ منه على
عِرْقٍ، ولا اختاره على إرث.

من سار على غير طبعه وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه
سببٌ يَصِلُ بينه وبين بعض الأمور ويحرِّكه في بعض
الجهات، ولكنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّياً وهو لا طبعَ له في
معرفة الوزن، وليس له جرْمٌ حسنٌ، فيكون إن فاته أن يكون
معلماً ومغنِّياً خاصَّةً أن يكون مُطرباً ومغنِّياً عامَّةً، وآخر قد
مات أن يُذكَرَ بالجوْد، وأن يسخَى على الطعام، وهو أبخلُ
الخلق طبعاً، فتراه كلفاً باتِّخاذ الطيِّبات ومستتهتراً بالتكثير
منها، ثم هو أبدأً مُفتَضِحٌ وأبدأً منتقض الطباع، ظاهرُ الخطأ،
سيئُ الجزع عند مؤاكلةٍ من كان هو الداعي له، والمرسلُ
إليه، والعارفِ مقدارَ لُقْمه ونهايةَ أكله، فإن زعمتم أن كلَّ
واحدٍ من هؤلاء إنما هو رهنٌ بأسبابه، وأسيرٌ في أيدي
عِلِّه، عذرتم جميعَ اللئام وجميعَ المقصِّرين، وجميعَ الفاسقين
والضالِّين، وإن كان الأمر إلى التمكين دون التسخير، أفليس
من أعجب العجبِ ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الدِّيكة
والكلاب.

قَدْ عَرَفْنَا قَوْلَكَ، وَفَهَمْنَا مَذْهَبَكَ.

فأما قولك: وما بلغ من خَطَر الديك وقدر الكلب فإنَّ هذا ونحوه كلامٌ عبدي لم يفهم عن ربِّه، ولم يعقل عن سيِّده، إلاَّ بقدر فهم العامَّة أو الطبقة التي تلي العامَّة، كأنَّك، فهَمَّك اللهُ تعالى، تظنُّ أنَّ خَلْقَ الحيَّة والعقرب، والتدبيرَ في خلقِ الفَراشِ والذباب، والحكمةَ في خلقِ الذناب والأسدِ وكلِّ مَبْغُضٍ إليك أو محقَّرٍ عندك، أو مسخَّرٍ لك أو واثبٍ عليك، أنَّ التدبيرَ فيه مختلفٌ أو ناقص، وأنَّ الحكمةَ فيه صغيرةٌ أو ممزوجة.

مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر اعلم أنَّ المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاءٍ مُدَّتْها امتزاجُ الخير بالشرِّ، والضارُّ بالنافع، والمكروه بالسارِّ، والضَّعة بالرفعة، والكثرة بالقلَّة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلكَ الخلق، أو كان الخيرُ محضاً سقطت المِخْنَةُ وتقطَّعت أسبابُ الفِكرة، ومع عَدَمِ الفِكرة يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبُّتٌ وتوقُّفٌ وتعلُّمٌ، ولم يكن علم، ولا يُعرف بابُ التبيين، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة، ولا صَبْرٌ على مكروهٍ ولا شُكْرٌ على محبوب، ولا تفاضُلٌ في بيان، ولا تَنَافُسٌ في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبطِلٌ يجد ذلَّةَ الباطل، وموقنٌ يجد

بَرَدَ اليَقِينِ، وشَاكٌ يَجِدُ نَقْصَ الحَايِرَةِ وَكَرَبَ الوُجُومِ؛ ولم تكن
للنَّفُوسِ آمَالٌ ولم تَتَشَعَّبْهَا الأَطْمَاعُ، وَمَنْ لم يَعْرِفْ كَيْفَ
الطَّمَعُ لم يَعْرِفِ اليَأْسَ، وَمَنْ جَهَلَ اليَأْسَ جَهَلَ الأَمْنَ، وَعَادَتِ
الحَالُ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُم صَفْوَةُ الخَلْقِ، وَمَنِ الإِنْسِ الَّذِينَ
فِيهِمُ الأنْبِيَاءُ والأَوْلِيَاءُ، إِلَى حَالِ السَّبْعِ والبَهِيمَةِ، وَإِلَى حَالِ
الغِبَاوَةِ والبَلَادَةِ، وَإِلَى حَالِ النُّجُومِ فِي السُّخْرَةِ؛ فَإِنَّهَا أَنْقَصَ
مِنْ حَالِ البَهَائِمِ فِي الرَّتْعَةِ، وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ
الشَّمْسَ والقَمَرَ والنَّارَ وَالثَّلْجَ، أَوْ بَرَجاً مِنَ البُرُوجِ أَوْ قِطْعَةً
مِنَ الغَيْمِ؛ أَوْ يَكُونُ المَجْرَةَ بِأَسْرَهَا، أَوْ مَكْيَالاً مِنَ المَاءِ أَوْ
مِقْدَاراً مِنَ الهَوَاءِ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي العَالَمِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلإِنْسَانِ
وَلِكُلِّ مَخْتَبَرٍ وَمُخْتَارٍ، وَلِأَهْلِ العُقُولِ وَالاسْتِطَاعَةِ، وَلِأَهْلِ
التَّبَيُّنِ وَالرَّوِيَّةِ.

وَأَيْنَ تَقَعُ لُدَّةُ البَهِيمَةِ بِالعُلُوفَةِ، وَلُدَّةُ السَّبْعِ بِلَطْعِ الدَّمِ وَأَكْلِ
اللَّحْمِ - مِنْ سُرُورِ الظَّفَرِ بِالأَعْدَاءِ؛ وَمِنْ انْفِتَاحِ بَابِ العِلْمِ بَعْدَ
إِدْمَانِ القَرَعِ؟ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ سُرُورِ السُّودِّ وَمِنْ عَزِّ
الرِّيَاسَةِ؟ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ حَالِ النُّبُوءَةِ وَالخِلَافَةِ، وَمِنْ عَزِّهِمَا
وَسَاطِعِ نَوْرِهِمَا، وَأَيْنَ تَقَعُ لُدَّةُ دَرْكِ الحَوَاسِّ الَّذِي هُوَ مَلَاقَاةُ
المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ، وَمَلَاقَاةُ الصَّوْتِ المُطْرَبِ وَالتَّوْنِ المُونِقِ،
وَالْمَلْمَسَةِ اللِّينَةِ - مِنْ السُّرُورِ بِنَفَازِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَبِجَوَازِ

التوقيع، وبما يُوجب الخاتم من الطاعة ويُلزم من الحجّة؟،
 ولو استوت الأمور بطلَ التمييزُ، وإذا لم تكن كلفةً لم تكن
 مَثُوبَةً، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على الله تعالى،
 واليقينِ بأنّه الوَزْرُ والحافظُ، والكالئِ والدافعِ، وأنّ الذي
 يحاسبُك أجودُ الأجودينِ، وأرحمُ الراحمينِ، وأنه الذي يقبلُ
 اليسيرَ ويهبُ الكثيرَ، ولا يهلكُ عليه إلا هالكَ، ولو كان الأمرُ
 على ما يشتهيهِ الغريرُ والجاهلُ بعواقبِ الأمور، لبطلَ النَّظْرُ
 وما يشحذُ عليه، وما يدعو إليه، ولتعتلتْ الأرواحُ من
 معانيها، والعقولُ من شمارها، ولعدمتْ الأشياءُ حظوظها
 وحقوقها. فسبحان من جعل منافعها نعمةً، ومضارها ترجع
 إلى أعظم المنافع، وقسمها بين مُلِدٍّ ومُؤلمٍ، وبين مؤنسٍ
 ومُوحشٍ، وبين صغيرٍ حقيرٍ وجليلٍ كبيرٍ، وبين عدوٍّ يرضدُك
 وبين عقيلاً يحرسك، وبين مُسالمٍ يَمْنَعُك، وبين مُعِينٍ يعضدُك،
 وجعل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة،
 وفي بطلانِ واحدٍ منها بطلانُ الجميعِ، قياساً قائماً وبرهاناً
 واضحاً، فإنّ الجميعِ إنّما هو واحدٌ ضمُّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضمُّ
 إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا
 جَوِّزَتْ رُفِعَ واحدٌ والآخِرُ مثله في الوزن وله مثلُ علته
 وحظّه ونصيبه، فقد جَوِّزَتْ رُفِعَ الجميعُ؛ لأنّه ليس الأولُ

بأحقّ من الثاني في الوقت الذي رجوت فيه إبطال الأوّل،
والثاني كذلك والثالث والرابع، حتّى تأتي على الكلّ وتستفرغ
الجميع، كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيدة؛ ألا ترى أنّ
الجبَل ليس بأدلّ على الله تعالى من الحِصاة، وليس الطاوسُ
المستحسنُ بأدلّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح، والنارُ
والثلج وإن اختلفا في جهة البرودة والسخونة، فإنهما لم
يختلفا في جهة البرهان والدلالة.

وأظنك ممّن يرى أنّ الطاوسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب،
وأنّ التُّدرجَ أعزُّ على الله تعالى من الحِداة، وأنّ الغزالَ أحبُّ
إلى الله تعالى من الذئب، فإنّما هذه أمور فرّقها الله تعالى في
عيون الناس، وميّزها في طبائع العباد، فجعل بعضها بهم
أقربَ شبيهاً، وجعل بعضها إنسيّاً، وجعل بعضها وحشياً،
وبعضها غادياً، وبعضها قاتلاً، وكذلك الدرّة و الخرزة والتمرة
والجمرة.

فلا تذهب إلى ما تريك العينُ واذهب إلى ما يريك العقل.
الاعتماد على العقل دون الحواس وللأمر حكمان: حكم ظاهرٌ
للحواس، وحكم باطنٌ للعقول، والعقل هو الحجّة، وقد علمنا
أنّ خزنة النار من الملائكة، ليسوا بدون خزنة الجنة؛ وأنّ
ملك الموت ليس بدون ملك السحاب، وإن أتانا بالغيث وجلب

الحياء؛ وجبريلُ الذي يَنْزِلُ بالعذاب، ليسَ بدونِ ميكائيل الذي ينزلُ بالرحمة؛ وإنما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقات ذلك ومواضعه، والاختلاف بين أصحابنا أنهم إذا استتوا في المعاصي استتوا في العقاب، وإذا استتوا في الطاعة استتوا في الثواب، وإذا استتوا في عدم الطاعة والمعصية استتوا في التفضل، هذا هو أصل المقالة، والقُطب الذي تدورُ عليه الرحي.

التين والزيتون

وقد قال الله عزّ وجلّ: "والتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ" فزعم زيدُ بنُ أسلم أنّ التَّينَ دمشق، والزيتون فلسطين، وللغالية في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعترة عنه وذكره، وقد أخرجَ اللهُ تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم، وما تُعرَفُ دِمَشقُ إلاّ بِدِمَشق، ولا فِلَسطينَ إلاّ بفلسطين، فإن كنتَ إنما تقف من ذكرِ التين على مقدارِ طعمِ يابسِهِ ورطْبِهِ، وعلى الاكتنانِ بورقِهِ وأغصانه، والوقودِ بعيدانه، وأنه نافعٌ لصاحبِ السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلحُ في مواضعٍ من الدواء، وفي الأضمدَةِ، وأنه ليسَ شيءٌ حلوٌ إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيرِه، وأنه عند أهلِ الكتابِ الشجرةُ التي أكلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها سترَ السّوءَةَ عند نزولِ

العقوبة، وأنَّ صاحبَ البواسيرِ يأكله لِيُزْلِقَ عنه الثفل،
ويسهلَ عليه مخرجَ الزَّبَلِ؛ وتقف من الزيتون على زيتِه
والاصطباح به، وعلى التأدّم بهما والوقود بشجرهما، وما
أشبه ذلك من أمرهما - فقدَّ أسأتَ ظَنًّا بالقرآن، وجهلتَ فضلَ
التأويل، وليس لهذا المقدارِ عَظْمَها اللهُ عزَّ وجلَّ، وأقسَمَ
بهما ونوّه بذكرهما.

التأمل في جناح البعوضة

ولو وقفتَ على جِنَاحِ بَعوضَةٍ وَقُوفَ معتبر، وتأمّلتَه تأمُّلًا
متفكّرًا بعد أن تكونَ ثاقِبَ النَّظَرِ سَلِيمَ الآلَةِ، غَوَاصًّا على
المعاني، لا يعتريك من الخواطرِ إلّا على حسبِ صِحَّةِ عقلِكَ،
ولا من الشواغلِ إلّا ما زاد في نشاطِكَ، لمألتَ ممّا تُوجِدُكَ
العِبْرَةُ من غرائبِ الطواميرِ الطّوالِ، والجلودِ الواسعةِ الكِبَارِ،
ولرأيتَ أنّ له من كثرةِ التصرّفِ في الأعاجيب، ومن تقلُّبه
في طبقاتِ الحكمة، ولرأيتَ له من الغررِ والرَّيعِ، ومن الحَلَبِ
والدَّرِّ ولتَبَجَّسَ عليك من كوامِنِ المعاني ودفائِنِها، ومن
خَفِيَّاتِ الحكمِ وينابيعِ العلمِ، ما لا يشتدُّ معه تعجُّبُكَ ممَّنْ وَقَفَ
على ما في الدَّيْكَ من الخصالِ العجيبَةِ، وفي الكلبِ من الأمورِ
الغريبةِ، ومن أصنافِ المنافعِ، وفنونِ المرافِقِ؛ وما فيهما من

المِحَن الشَّدَاد، ومع ما أودِعَا من المعرفة، التي متى تجلَّت لك
تصاعَرَ عندك كَبِيرُ ما تستعظم، وقلَّ في عينك كثير ما
تستكثر، كَأَنَّكَ تظنُّ أَنَّ شَيْئاً وإنَّ حَسُنَ عِرْكَ في ثَمَنِهِ
ومنظره، أَنَّ الحِكْمَةَ التي هي في خُلُقِهِ إِنَّمَا هي على مقدارِ
ثَمَنِهِ ومنظره.

كلمات الله

وقد قال الله تعالى: "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ
وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ"
والكلماتُ في هذا الموضع، ليس يُريدُ بها القولَ والكلامَ
المؤلَّفَ من الحروف، وإِنَّمَا يريدُ النِّعَمَ والأعاجيب، والصفات
وما أشبه ذلك، فَإِنَّ كلاً من هذه الفنون لو وقَّفَ عليه رجلٌ
رقيقُ اللسان صافي الذهن، صحيحُ الفِكر تامُّ الأداة، لما بَرِحَ
أن تحسره المعاني وتَغْمِرَهُ الحِكمَ.
وقد قال المتكلمون والرؤساء والجلَّةُ العُظماءُ في التمثيل بين
الملائكةِ والمؤمنين، وفي فرقٍ ما بين الجنِّ والإنس، وطباعِ
الجنِّ أبعَدُ من طباعِ الإنس، ومن طباعِ الديك، ومن طباعِ
الكلب، وإِنَّمَا ذهبوا إلى الطاعةِ والمعصية، ويخيَّلُ إليَّ أَنَّكَ لو
كنت سمعتَهما يمثِّلان ما بين التُّدرُجِ والطاؤُس، لَمَا اشتدَّ

تَعْجُبُكَ، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ تَمَثِيلَ مَا بَيْنَ خِصَالِ الدَّرَّةِ وَالْحَمَامَةِ،
وَالْفِيلِ وَالْبَعِيرِ، وَالثُّعْلَبِ وَالذَّيْبِ أَعْجَبَ، وَلَسْنَا نَعْنِي أَنَّ لِلدَّرَّةِ
مَا لِلطَّائِسِ مِنْ حَسَنِ ذَلِكَ الرِّيشِ وَتَلَاوِينِهِ وَتَعَارِيْجِهِ، وَلَا أَنَّ
لَهَا عَنَاءَ الْفَرَسِ فِي الْحَرْبِ وَالذَّفْعِ عَنِ الْحَرِيمِ؛ لَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا
مَوَاضِعَ التَّدْبِيرِ الْعَجِيبِ مِنَ الْخَلْقِ الْخَسِيسِ، وَالْحَسَنِ اللَّطِيفِ
مِنَ الشَّيْءِ السَّخِيفِ، وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ مِنَ الْخَلْقِ الْخَارِجِ
مِنَ حُدُودِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، لَمْ نَذْهَبْ إِلَى ضِحْمِ الْبَدَنِ
وَعِظْمِ الْحِجْمِ، وَلَا إِلَى الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ وَلَا إِلَى كَثْرَةِ الثَّمَنِ،
وَفِي الْقَرْدِ أَعْجِيبٌ وَفِي الذَّبِّ أَعْجِيبٌ، وَلَيْسَ فِيهِمَا كَبِيرٌ
مَرْفُوقٌ إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَتَكَسَّبُ بِهِ أَصْحَابُ الْقَرْدَةِ، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا إِلَى
شَيْئَيْنِ يَشِيْعُ الْقَوْلُ فِيهِمَا، وَيَكْثُرُ الْإِعْتِبَارُ مِمَّا يَسْتَخْرِجُ
الْعُلَمَاءُ مِنْ خَفِيِّ أَمْرِهِمَا، وَلَوْ جَمَعْنَا بَيْنَ الْهَيْكِ وَبَيْنَ بَعْضِ مَا
ذَكَرْتَ، وَبَيْنَ الْكَلْبِ وَبَيْنَ بَعْضِ مَا وَصَفْتَ، لَانْقَطَعَ الْقَوْلُ قَبْلَ
أَنْ يَبْلُغَ حَدَّ الْمَوَازِنَةِ وَالْمَقَابَلَةِ.

وَقَدْ ذَكَرْتَ أَنَّ بَعْضَ مَا دَعَاكَ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْ
أَمْرِهِمَا، سَقُوطُ قَدْرِ الْكَلْبِ وَنِذَالَتُهُ، وَبَلَاءُ الذِّئْبِ وَغِبَاوَتُهُ، وَأَنَّ
الْكَلبَ لَا بِهَيْمَةً تَامَّةً وَلَا سَبْعَ تَامًّا، وَمَا كَانَ لِيُخْرِجَهُ مِنْ شَيْءٍ
مِنَ حُدُودِ الْكِلَابِ إِلَى حُدُودِ النَّاسِ، مَقْدَارًا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ
الْأَنْسِ بِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ بَعْضُ الشَّبهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا

يكون ذلك مُخْرَجاً لهما من أحكامهما وحدودهما .
تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما وقد يشبّه الشعراء
والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر،
وبالأسد والسيف، وبالحيّة وبالنجم، ولا يخرجونه بهذه
المعاني إلى حدّ الإنسان، وإذا ذمّوا قالوا: هو الكلب
والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور، وهو التيس، وهو
الذئب، وهو العقرب، وهو الجعل، وهو القرني؛ ثم لا يدخلون
هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك
الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء، وسمّوا الجارية
غزلاً، وسمّوها أيضاً خشفاً، ومُهْرَةً، وفاختةً، وحمامةً،
وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى، وصنعوا مثل
ذلك بالبروج والكواكب، فذكروا الأسد والثور، والحمل
والجدي، والعقرب والحوت، وسمّوها بالقوس والسنبلة
والميزان، وغيرها، وقال في ذلك ابن عسلة الشيباني:

عَمَّ السَّمَاءِ وَخَالَةَ
النَّجْمِ

فَصَحَوْتَ وَالنَّمْرِيَّ
يَحْسَبُهَا

ويروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: نِعْمَتِ الْعَمَةِ
لَكُمْ النَّخْلَةُ خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ وَهَذَا الْكَلَامُ صَحِيحٌ

المعنى، لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام، وليس هذا ممّا يطرد لنا أن نقيسه، وإنما نُقدِّم على ما أقدموا، ونُحجم عمّا أحجموا، وننتهي إلى حيث انتهوا.

ونراهم يسمّون الرجلَ جملاً ولا يسمّونه بعيراً، ولا يسمّون المرأةَ ناقةً؛ ويسمّون الرجلَ ثوراً ولا يسمّون المرأةَ بقرةً، ويسمّون الرجلَ حماراً ولا يسمون المرأةَ أتاناً؛ ويسمّون المرأةَ نعجةً ولا يسمّونها شاةً، وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون ذلك علامةً مثلَ زيد وعمرو، ويسمّون المرأةَ عنزاً.

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

أو ما علمت أنّ الإنسان الذي خلقت السموات والأرض وما بينهما من أجله كما قال عز وجل: "سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ" إنما سمّوه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتات به البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصّفرّد، وجمع الدّرة،

وصنعة السُرْفَةِ وجُودَ الدَّيْكِ، وإِنْفَ الكلبِ، واهْتِدَاءَ الحمامِ،
وربَّما وجدوا فيه ممَّا في البهائم والسباع خُلُقَيْنِ أو ثلاثة،
ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهْتِدَاؤُهُ وعَيرَتُهُ،
وصَوْلَتُهُ وحِقْدُهُ، وصبرُهُ على حَمْلِ الثَّقَلِ، ولا يلزمُ شَبَهُ
الدُّنْبِ بقَدْرِ ما يَتَهَيَّأُ فيه من مِثْلِ غَدْرِه ومَكْرِهِ، واسترواحِهِ
وتوحُّشِهِ، وشِدَّةِ نُكْرِهِ، كما أن الرجلَ يَصِيبُ الرَّأْيَ الغامِضَ
المَرَّةَ والمَرَّتَيْنِ والثَّلَاثَ، ولا يبلغُ ذلكَ المَقْدَارُ أن يُقالَ له
دَاهِيَةٌ وذو نِكرَاءٍ أو صاحبُ بَزْلَاءٍ، وكما يخطئُ الرجلُ
فيفحُشُ خَطَاؤُهُ في المَرَّةِ والمَرَّتَيْنِ والثَّلَاثِ، فلا يبلغُ الأمرُ به
أن يُقالَ له غِيبِيٌّ وأَبْلُهُ ومنقوص. وَسَمَّوهُ العالَمَ الصَّغِيرَ لأنَّهُم
وجدُوهُ يَصوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ، ويحكي كُلَّ صَوْتٍ بِفَمِهِ، وقالوا:
ولأنَّ أَعْضَاءَهُ مَقسُومَةٌ على البروجِ الاثني عشرِ والنجومِ
السبعة، وفيه الصَّفراءُ وهي من نِتاجِ النارِ، وفيه السَّوداءُ
وهي من نِتاجِ الأرضِ، وفيه الدَّمُّ وهو من نِتاجِ الهِواءِ، وفيه
البَلْغَمُ وهو من نِتاجِ الماءِ، وعلى طَبائِعِهِ الأربَعُ وضعت
الأوتادُ الأربعة، فجعلُوهُ العالَمَ الصَّغِيرَ، إذ كانَ فيه جَمِيعُ
أجْزائِهِ وأخْلاطِهِ وطَبائِعِهِ، ألا تَرى أنَّ فيه طَبائِعَ الغُضبِ
والرِّضا، وآلةَ اليقينِ والشكِّ، والاعتقادِ والوقفِ وفيه طَبائِعُ
الفِطْنَةِ والعَبَاوَةِ، والسَّلامَةِ والمَكْرِ، والنَّصِيحَةِ والغِشِّ،

وَالْوَفَاءَ وَالغَدْرَ، وَالرِّيَاءَ وَالْإِخْلَاصَ، وَالْحَبَّ وَالْبُغْضَ، وَالْجِدِّ
وَالهَزْلَ، وَالْبُخْلَ وَالْجُودَ، وَالْاِقْتِصَادَ وَالسَّرْفَ، وَالتَّوَاضِعَ
وَالكِبْرَ، وَالْأُنْسَ وَالوَحْشَةَ، وَالْفِكْرَةَ وَالْإِمْهَالَ، وَالتَّمْيِيزَ
وَالخُبْطَ، وَالْجَبْنَ وَالشَّجَاعَةَ، وَالْحَزْمَ وَالْإِضَاعَةَ، وَالتَّبْذِيرَ
وَالتَّقْتِيرَ، وَالتَّبْذَلَ وَالتَّعَزُّزَ، وَالْإِدْخَارَ وَالتَّوَكُّلَ، وَالقَّنَاعَةَ
وَالْحَرِصَ، وَالرَّغْبَةَ وَالزُّهْدَ، وَالسُّخْطَ وَالرِّضَا، وَالصَّبْرَ
وَالجَزَعَ، وَالدُّكْرَ وَالنَّسِيَانَ، وَالخَوْفَ وَالرَّجَاءَ، وَالطَّمَعَ
وَاليَأْسَ، وَالتَّنَزُّهَ وَالطَّبَعَ، وَالشُّكَّ وَالْيَقِينَ، وَالْحَيَاءَ وَالقِحَّةَ،
وَالكِثْمَانَ وَالْإِشَاعَةَ، وَالْإِقْرَارَ وَالْإِنْكَارَ، وَالْعِلْمَ وَالْجَهْلَ،
وَالظُّلْمَ وَالْإِنْصَافَ، وَالطَّلِبَ وَالهِرَبَ، وَالْحِقْدَ وَسُرْعَةَ الرِّضَا،
وَالْحِدَّةَ وَبُعْدَ الغَضَبِ، وَالسَّرُورَ وَالهِمَّ، وَاللَّذَّةَ وَالْأَلَمَ، وَالتَّأْمِيلَ
وَالتَّمَنِّيَ، وَالْإِصْرَارَ وَالنَّدَمَ، وَالْجَمَاحَ وَالْبِدَوَاتَ، وَالْعِيَّ
وَالْبَلَاعَةَ، وَالنُّطْقَ وَالخَرَسَ، وَالتَّصْمِيمَ وَالتَّوَقُّفَ، وَالتَّغَافُلَ
وَالتَّفَاطُنَ، وَالْعَفْوَ وَالْمَكَافَأَةَ، وَالْإِسْتِطَاعَةَ وَالطَّبِيعَةَ، وَمَا لَا
يَحْصِي عَدَدَهُ، وَلَا يُعْرَفُ حَدُّهُ.

فَالكَلْبُ سَبْعٌ وَإِنْ كَانَ بِالنَّاسِ أُنَيْسًا، وَلَا تَخْرِجُهُ الْخِصْلَةُ
وَالْخِصْلَتَانِ مِمَّا قَارِبَ بَعْضَ طَبَائِعِ النَّاسِ، إِلَى أَنْ يَخْرِجَهُ مِنْ
الْكَئْبِيَّةِ، قَالَ: وَكَذَلِكَ الْجَمِيعُ، وَقَدْ عَرَفْتَ شَبَهَ بَاطِنِ الْكَلْبِ
بِبَاطِنِ الْإِنْسَانِ، وَشَبَهَ ظَاهِرِ الْقَرْدِ بِظَاهِرِ الْإِنْسَانِ: تَرَى ذَلِكَ

في طَرْفِهِ وتغميضِ عَيْنِهِ، وفي ضِحْكَه وفي حكايتِهِ، وفي كَفِّهِ
وأصابعِهِ، وفي رَفْعِهَا ووضْعِهَا، وكيف يتناولُ بِهَا، وكيف
يجهز اللُّقْمَةَ إلى فِيهِ وكيف يكسِر الجَوْزَ ويستخرج لَبَّهُ وكيف
يَلْقَنُ كلَّ مَا أُخِذَ بِهِ وَأُعِيدَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ من بَيْنَ جميعِ الحيوانِ
إذا سقط في الماء غرق مثلَ الإنسانِ، ومع اجتماعِ أسبابِ
المعرفة فيه يغرق، إلا أن يكتسب معرفة السباحة، وإن كان
طَبْعُهُ أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلٌّ، وكلُّ شيءٍ فهو
يسبَح من جميع الحيوانات، ممَّا يوصف بالمعرفة والفطنة،
وممَّا يوصفُ بالغبَاوة والبلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك
المقدار من المقارَبَةِ إلى أن يخرج من بعض حدود القروء إلى
حدود الإنسانِ.

عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك وزعمت أن ممَّا يمنع
من التمثيل بين الديك والكلب أنه حارسٌ محترسٌ منه، وكلُّ
حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونٍ تَبَدُّلُهُ.
ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا:
بَلَجُ بنِ نُشْبَةَ الجُشَمِيِّ، فقال:

ومحترسٍ من مثله
وهو حارس

وساعٍ مع السلطانِ
يسعى عليهمُ

ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعر في الفلاس النهشلي، حين
ولي شرطة الحارث بن عبد الله فقال:

وذمّي زماناً ساد فيه
الفلاس

أقلي عليّ اللوم يا
ابنة مالك

ومُحترسٍ من مثله
وهو حارس

وساعٍ مع السلطان
يسعى عليهم

وليس يحكم لصغار المضارّ على كبارها بل الحكم للغامر على
المغمور والقاهر على المقهور، ولو قد حكينا ما ذكر هذا
الشيخ من خصال الكلب وذكر صاحبه من خصال الديك،
أيقنت أنّ العجلة من عمل الشيطان، وأنّ العجب بنس
الصاحب.

وقلت: وما يبلغ من قدر الكلب ومن مقدار الديك، أن يتفرغ
لهما شيخان من جلة المعتزلة، وهم أشراف أهل الحكمة؛ فأبي
شيء بلغ، غفر الله تعالى لك، من قدر جزء لا يتجزأ من رمل
عالج، والجزء الأقل من أول قطع الدرّة للمكان السحيق،
والصحيفة التي لا عمق لها، ولأبي شيء يعنون بذلك، وما
يبلغ من ثمنه وقدر حجمه، حتى يتفرغ للجدال فيه الشيوخ

الجِلَّة، والكهولُ العَلِيَّة، وحتَّى يختاروا النَّظَرَ فيه على
 التسبيح والتهلِيل، وقراءة القرآن وطول الانتصاب في
 الصلاة؛ وحتَّى يزعم أهله أَنَّهُ فوق الحجِّ والجهاد، وفوق كلِّ
 برٍّ واجتهاد، فَإِنْ زعمتَ أَنَّ ذلك كلُّه سِوَاءٍ، طالت الخُصومةُ
 معَكَ، وشغلَّتنا بهما عمَّا هو أولى بنا فيكَ، على أَنَّكَ إِذَا
 عممتَ ذلك كلُّه بالذمِّ، وجلَّلتَه بالعيب، صارت المصيبةُ فيكَ
 أَجَلًا، والعزاءُ عنها أَعسر، وإن زعمتَ أَنَّ ذلك إِنَّمَا جاز لآئِهِم
 لم يذهبوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم،
 وإلى ما يروق العينَ ويلائم النفس، وأنَّهم إِنَّمَا ذهبوا إلى
 عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجته، وما يتولَّد عنه من علم
 النِّهايات، ومن باب الكلِّ والبعض، وكان ويكون، ومن باب ما
 يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فرقٍ ما بين مذاهب
 الدُّهريةِ ومذاهب الموحِّدين، فَإِنْ كان هذا العُذرُ مقبولاً، وهذا
 الحكم صحيحاً، فكذلك نقول في الكلب، لأنَّ الكلبَ ليس له
 خطرٌ ثمين ولا قَدْر في الصدرِ جليل؛ لأنَّه إن كان كلبَ صيد
 فديتهُ أربعون درهماً، وإن كان كلبَ ضَرع فديتهُ شاة، وإن
 كان كلبَ دار فديتهُ زنبيلٌ من ترابٍ، حُقَّ على القاتل أن
 يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهر
 حاله ومُفتشِه، وكوامنُ خِصاله، ودفائنُ الحكمةِ فيه،

والبرهاناتُ على عَجيبِ تدبيرِ الربِّ تعالى ذكْرُه فيه، على خلاف ذلك؛ فذلك استجازوا النَّظْرَ في شأنه، والتمثيلَ بيْنَه وبين نظيره، وتعلم أيضاً مع ذلك أن الكلبَ إذا كانَ فيه، مع حُموله وسقوطه، من عَجيبِ التدبيرِ والنعمةِ السابِغةِ والحكمةِ البالِغةِ، مثلُ هذا الإنسانِ الذي له خلق اللهُ السمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، أحقُّ بأن يُفكرَ فيه، ويُحَمَدَ اللهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبَةِ، والنعمةِ السابِغةِ.

وقلت: ولو كان بدلُ النظرِ فيهما النظرَ في التوحيدِ، وفي نفي التشبيهِ، وفي الوعدِ والوعيدِ، وفي التعديلِ والتجويرِ، وفي تصحيحِ الأخبارِ، والتفضيلِ بين علمِ الطبائعِ والاختيارِ، لكان أصوبَ.

دفاع عن المتكلمين والعجبُ أنَّكَ عَمَدْتَ إلى رجالٍ لا صناعةَ لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاءِ إلى ما ذكرتَ، والاحتجاجُ لما وصفتَ، وإلاَّ وُضِعَ الكُتُبُ فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهم لَدَّةٌ ولا هَمٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلاَّ عليه وإليه؛ فحين أرادوا أن يُقَسِّطُوا بينَ الجميعِ بالحِصصِ، ويَعْدِلُوا بينَ الكلِّ بإعطاءِ كلِّ شيءٍ نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيمُ جامعاً، ويظهرَ بذلك الخفيُّ من الحِكمِ، والمستورُ من التدبيرِ، اعترضتَ بالتعنُّتِ والتعجُّبِ، وسطّرتَ الكلامَ، وأطلتَ الخطبَ،

من غير أن يكون صَوَّبَ رأيكَ أديبًا، وشايَعَكَ حكيمًا.
نسك طوائف من الناس وسأضرب لك مثلاً قد استوجبت أغلظ
منه، وتعرَّضت لأشدَّ منه ولكنَّا نستأني بك وننتظرُ أوبتَكَ،
وَجَدْنَا لجميعِ أهلِ النَّقْصِ، ولأهلِ كلِّ صِنْفٍ منهم نُسكًا
يعتمدون عليه في الجَمَالِ، ويحتسبون به في الطاعة وطلب
المثوبة، ويفزعون إليه، على قدرِ فسادِ الطَّبَاعِ، وضعفِ
الأصلِ، واضطرابِ الفرعِ، مع خُبثِ المنشأ، وقلةِ التثبُّتِ
والتوقُّفِ، ومع كثرةِ التقلُّبِ والإقدامِ معَ أوَّلِ خاطرٍ: فنُسكُ
المَرِيْبِ المرتابِ من المتكلمين أن يتحلَّى برميِ الناسِ
بالرَّيبةِ، ويتزيَّن بإضافةِ ما يجدُ في نفسه إلى خصمه، خوفًا
من أن يكونَ قد فطنَ له، فهو يستُرُّ ذلكَ الداءَ برميِ الناسِ
به.

ونُسكُ الخارجيِّ الذي يتحلَّى به ويتزيَّن بجماله، إظهارُ
استعظامِ المعاصي، ثم لا يلتفتُ إلى مجاوزةِ المقدارِ وإلى ظلمِ
العبادِ، ولا يقفُ على أنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ أن يظلمَ أظلمَ
الظَّالمينِ، وأنَّ في الحقِّ ما وسعَ الجميعِ. ونُسكُ الخُراسانيِّ
أن يُحجَّ وينامَ على قفاه، ويعقدُ الرِّياسةَ، ويتهيأ للشَّهادةِ،
ويبسُطُ لسانَه بالحسبةِ، وقد قالوا: إذا نسكُ الشَّريفُ تواضعَ،
وإذا نسكُ الوضيعُ تكبَّرَ، وتفسيرُه قريبٌ واضحٌ، ونُسكُ

البنوي والجنديّ طرح الديوان، والزراية على السلطان،
ونسك دهاقين السّواد ترك شرب المطبوخ، ونسك الخصيّ
لُزوم طرسوس وإظهار مجاهدة الروم، ونسك الرافضيّ ترك
النبيد، ونسك البستانيّ ترك سرقة الثمر، ونسك المغني
الصلاة في الجماعة وكثرة التسبيح، والصلاة على النبيّ
صلى الله عليه وسلم.

ونسك اليهوديّ التشدّد في السّبت وإقامته.
والصوفيّ المظهر النسك من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغيض
العمل تطرف وأظهر تحريم المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل
مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له.
وإذا كان النصرانيّ فسلاً ندلاً مبعضاً للعمل، وترهب ولبس
الصّوف؛ لأنّه واثق أنّه متى لبس وتزيّاً بذلك الزيّ وتحلّى
بذلك اللباس، وأظهر تلك السيما، أنّه قد وجب على أهل اليسر
والثروة منهم أن يعولوه ويكفّوه، ثمّ لا يرضى بأن ربح
الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة.

فإذا رمى المتكلّم المريب أهل البراعة، ظنّ أنّه قد حوّل ريبته
إلى خصمه، وحوّل براءة خصمه إليه، وإذا صار كلُّ واحدٍ من
هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمنيّة، ووقف على
النهائية، فاحذر أن تكون منهم واعلم أنّك قد أشبهتهم في هذا

الوجه، وضارعتهم في هذا المذهب.
 مما قدّمنا ذكره، وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق.
 يقال: أجزأ من الليث، وأجبن من الصّفرد، وأسحى من لافطة،
 وأصبر على الهون من كلب، وأحذر من عقق، وأزهى من
 غراب، وأصنع من سرفعة وأظلم من حية، وأعذر من الذئب،
 وأخبث من ذئب الحمز وأشدّ عداوة من عقرب، وأروغ من
 ثعلب، وأحمق من حبارى، وأهدى من قطة، وأكذب من
 فاخنة، والأم من كلب على جيفة، وأجمع من ذرة، وأضلّ من
 حمار أهلي، وأعق من ضبّ، وأبر من هرة، وأنفر من
 الظليم، وأضلّ من ورل وأضلّ من ضبّ، وأظلم من الحية.
 فيعبّرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس، في
 مواضع الإحسان والإساءة، حتى كأنهم من الملوّمين
 والمشكورين، ثم يعبّرون في هذا الباب الآخر بدون هذا
 التعبير، ويجعلون خبرهم مقصوراً على ما في الخلقة من
 الغريزة والقوى فيقولون: أبصر من عقاب، وأسمع من
 فرس، وأطول نماءً من ضبّ، وأصح من الظليم.
 والثاني يشبه العبارة عن الحمد والذمّ، والأوّل يشبه العبارة
 عن اللائمة والشكر، وإنما قلنا ذلك، لأنّ كلّ مشكورٍ محمود،
 وليس كلّ محمودٍ مشكوراً؛ وكلّ ملومٍ مذموم وليس كلّ

مذموم ملوماً، وقد يحمدون البلدة ويذمون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللوم ولا على جهة الشكر؛ لأنَّ الأجر لا يقع إلا على جهة التخير والتكف، وإلا على ما لا يُنال إلا بالاستطاعة والأول إنما يُنال بالخلقة وبمقدار من المعرفة، ولا يبلغ أن يسمى عقلاً، كما أنه ليس كلُّ قوَّةٍ تسمى استطاعة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب وتعدد أصناف معانيها

وتعداد أصناف معايها ومثالبها، من لؤمها وجبنها وضعفها وشرها، وغدرها وبدائها، وجهلها وتسرعها، ونثها وقدرها، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإساکها، ومن الأمر بقتلها وطردها، ومن كثرة جنایاتها وقلة ردها ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها، وقبحها وقبح معاظلتها ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها، وتقدر المسلمين من دنوها، وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخلق المركب والحيوان الملقق: كالبعغل في الدوابِّ والراعي في الحمام، وأنها لا سبغ ولا بهيمة، ولا إنسيَّة ولا جنِّيَّة، وأنها من الجنِّ دون الجنِّ، وأنها مطايا الجنِّ ونوع من المسخ، وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وأنها يعترئها الكلب من أكل لحوم

الناس. فإذا حكينا ذلك حكينا قولَ من عدَّ محاسنها، وصنّف مناقبها، وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها وأعرافها، وتفدية الرجال إيّاها واستهتارهم بها، وذكر كسبها وحراستها، ووفائها وإفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحسّ اللطيف والأدب المحمود، وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشّم، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها للنّام، وذكر صبرها على الجفاء، واحتمالها للجوع، وذكر ذمامها وشدّة منعتها معاقدة الدّمار منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها وبُعد أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها وإلقاحها وتصرف أرحامها في ذلك، مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرة أعمامها وأخوالها، وتردّها في أصناف السّباع، وسلامتها من أعراف البهائم، وذكر لقتها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومهنتها وخدمتها، وجدّها ولعبها وجميع أمورها؛ بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكُتب المنزلة والأمثال السائرة، وعن تجربة النّاس لها وِفراسَتهم فيها، وما عاينوا منها؛ وكيف قال أصحاب الفأل فيها، وبإخبار المتطيرين عنها، وعن أسنانها

ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدّة حملها، وعن أسمائها
وألقابها، وسِماتها وشيئاتها، وعن دوائها وأدوائها
وسياستها، وعن اللاتي لا تلقنّ منها وعن أعراقها والخارجيّ
منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.
وذكر صاحبُ الديك ما يحفظ من أكلِ الكلابِ للحومِ النَّاسِ
فقال: قال الجارود بن أبي سبرة في ذلك:

ألم تر أنّ الله
ربّي بحوله
وقوّته أخزى ابن
عمرة مالكا

فمن كانَ عنه
بالمغيّبِ سائلاً
فقد صارَ في أرض
الرّصافةِ هالكا

تظلُّ الكلابُ
العاديّاتُ يئُشنه
إذا اجتنبن مُسودّاً من
الليلِ حالكا

وقال نُفيع بن صفار المحاربي من ولد مُحارب بن خُصّفة في
حرب قيسٍ وتغلب:

أفنتُ بني جُشم بن
حتى تعادلَ ميلُ تغلب

بَكَرَ حَرْبُنَا

فَاسْتَوَى

أَكَلَ الْكَلَابُ أَنْوْفَهُمْ
وَأَخْصَاهُمْ

فَلْتَبِكِ تَغْلِبُ لِلْأَنْوْفِ
وَاللَّخْصَى

وقال أبو يعقوب الخُرَيْمِي، وهو إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانِ بْنِ قَوْهِي
فِي قَتْلَى حَرْبِ بَغْدَادِ:

وَهَلْ رَأَيْتَ الْفَتْيَانَ
فِي بَاحَةِ

الْمَعْتَرِكِ مَعْفُورَةَ
مَنَّاخِرُهَا

كَلَّ فَتَى مَانِعٍ
حَقِيقَتَهُ

يَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَى
مَسَاعِرُهَا

بَاتَتْ عَلَيْهِ الْكَلَابُ
تَنْهَشُهُ

مَخْضُوبَةٌ مِنْ دَمٍ
أَظْفِرُهَا

وقال أبو الشَّمَقْمَقِ وَهُوَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ، مَوْلَى مَرْوَانَ بْنِ
مُحَمَّدٍ، وَيَكْنَى أَبَا مُحَمَّدٍ:

يُوسُفُ الشَّاعِرُ فَرَّخُ

وَجَدَّوهُ بِالْأُبُلَّةِ

حَقِيٌّ قَدْ تَلَقَى

كأمناً في جوف جُلّه

خِيَطُهَا خَشِيَّةُ الْكَلِّ

بِ عَلَيْهِ بِمِسَلِّهِ

وذكر لي عن أبي بكر الهُدَلِيِّ، قال: كُنَّا عِنْدَ الْحَسَنِ إِذْ أَقْبَلَ
وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ فَجَلَسَ، فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ: مَا تَقُولُ فِي دَمِ
الْبِرَاغِيثِ يُصِيبُ الثُّوبَ: أَيُصَلِّي فِيهِ؟ فَقَالَ: يَا عَجَباً مِمَّنْ يَلْبَسُ
فِي دَمِ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ كَلْبٌ، ثُمَّ يَسْأَلُ عَنِ دَمِ الْبِرَاغِيثِ فَقَامَ
وَكَيْعٌ يَتَخَلَّجُ فِي مِشِيَّتِهِ كَتَخَلَّجِ الْمَجْنُونِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ لِلَّهِ
فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ نِعْمَةً فَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، اللَّهُمَّ لَا
تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَنْقَوِي بِنِعْمَتِكَ عَلَى مَعْصِيَتِكَ.

ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة وقال صاحب الديك:
أشياء من الحيوان تُضَافُ إِلَى نَتْنِ الْجُلُودِ وَخُبْثِ الرَّائِحَةِ،
كريح أبدان الحيات، وكنتن الثيوس وصنان عرقها، وكنتن
جلد الكلاب إذا أصابه مطر، وضروب من النتن في سوى
ذلك، نحن ذاكروها إن شاء الله تعالى.

وقال رَوَحُ بْنُ زَنْبَاعِ الْجُدَامِيِّ فِي امْرَأَتِهِ، وَضَرَبَ بِالْكَلْبِ
الْمِثْلُ:

ورِيحُهَا رِيحُ كَلْبٍ
مَسَّهُ مَطَرٌ

ريح الكرائمِ معروفٌ
لَهُ أَرْجٌ

قال: وكانت امرأة رَوْح بن زِنْبَاعِ أُمِّ جَعْفَرِ بِنْتِ النُّعْمَانِ بن
بشِير، وكان عبدُ الملكِ زَوَّجَهُ إِيَّاهَا، وقال: إِنَّهَا جَارِيَةٌ
حَسَنَاءُ، فاصْبِرْ عَلَيَّ بَدَاءِ لِسَانِيهَا.
وقال الآخر:

ورِيحِ كَلْبٍ فِي عَدَاةٍ
طَلَّهُ

ورِيحُ مَجْرُوبٍ وريح
جُلَّةٍ

وأنشد أبو زيد في ذلك:

ريحُ الكلابِ إذا ما
بَلَّهَا المَطَرُ

كَأَنَّ رِيحَهُمْ مِنْ
حُبَّتِ طُعْمَتِهِمْ

ومما ذُكِرَ بِهِ الكَلْبُ فِي أَكْلِهِ العَدْرَةَ، قولُ الرَّاجِزِ:

أَحْرَصُ مِنْ كَلْبٍ عَلَيَّ عَقِي صَبِي

وقال مثل ذلك حَنْظَلَةُ بن عَرَادَةَ فِي ذِكْرِهِ لِابْنِهِ السَّرْنَدِي:

خَلَى أَبَاهُ بِقَفْرِ الْبَيْدِ
وَأَدْلَجَا

وإن رأى غفلة من
جاره ولجا

والكلبُ يلحسُ من
تحتِ استِه الرِّدْجَا

ما للسرندى أطلَّ
اللّه أيمته

مَجْعٌ خَبِيثٌ يُعَاطِي
الكلبَ طُعْمَتَه

رَبَّيْتَه وهو مثلُ
الفرخِ أصْرُبُهُ

يقال للذي يخرج من بطن الصبي حين يخرج من بطن أمه
عقي بكسر العين، ويقال عقى الصبي يعقي عقياً، فإذا شدَّ
بطنه للسنن قيل قد صُربَ ليسمن، والعقي وهو العقية الغيبة،
وإياه عنى ابنُ عمر حين قيل له: هلاً بايعت أخاك ابن
الزُّبير؟ فقال: إنَّ أخي وضعَ يده في عَقِيَّةٍ ودعا إلى البيعة،
إنِّي لا أنزع يدي من جماعةٍ وأضعها في فرقة.
وفي الحديث المرفوع: الراجعُ في هبته كالرَّاجعِ في قِيئه،
وهذا المثلُ في الكلب.

ويقال: أبخلُ من كلبٍ على حيفة، وقال بعضهم في الكلب:
الحيفة أحبُّ إليه من اللحم الغريض، ويأكل العذرة ويرجع في
قيئه، ويشعر ببوله فيصير في جوف فيه وأنفه، ويحذفه تلقاءً

حَيْشُومِهِ.

وقال صاحب الكلب: إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَسْتَسْقِطُونَ الْكَلْبَ
وَتَسْتَسْفَلُونَهُ بِهَذَا وَأَشْبَاهِهِ، فَالْجِيْفَةُ أَنْتُنْ مِنَ الْعَذْرَةِ، وَالْعَذْرَةُ
شَرٌّ مِنَ الْقِيءِ، وَالْجِيْفَةُ أَحَبُّ إِلَى أَشْرَافِ السَّبَاعِ وَرُؤْسَائِهَا
مِنَ اللَّحْمِ الْعَبِيْطِ الْغَرِيْضِ الْغَضِّ.

مَأْكُلُ السَّبْعِ وَالْأَسَدِ سَيِّدُ السَّبَاعِ، وَهُوَ يَأْكُلُ الْجِيْفَةَ، وَلَا
يَعْرِضُ لِشَرَائِعِ الْوَحْشِ وَافْتِرَاسِ الْبِهَائِمِ، وَلَا لِلْسَابِلَةِ مِنَ
النَّاسِ، مَا وَجَدَ فِي فَرِيْسَتِهِ فَضْلَةً، وَيَبْدَأُ بَعْدَ شُرْبِ الدَّمِّ فَيَبْقُرُ
بَطْنَهُ وَيَأْكُلُ مَا فِيهِ مِنَ الْغَثِيْثَةِ وَالثَّقْلِ وَالْحَشْوَةِ وَالزَّبْلِ، وَهُوَ
يَرْجِعُ فِي قِيئِهِ، وَعَنْهُ وَرِثَ السَّنُّورُ ذَلِكَ.

مَا قِيلَ فِي السَّبْعِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَهُوَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي
النَّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ، وَفِي شِدَّةِ الْإِقْدَامِ وَالصَّوْلَةِ، فَيَقَالُ: مَا هُوَ إِلَّا
الْأَسَدُ عَلَى بَرَائْتِهِ وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْأَسَدِ وَهُوَ أَجْرًا مِنَ اللَّيْثِ
الْعَادِي وَفُلَانُ أَسَدُ الْبِلَادِ وَهُوَ الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ، وَقِيلَ لِحَمْزَةِ بَن
عَبْدِ الْمَطَّلَبِ أَسَدُ اللَّهِ، فَكَفَّكَ مِنْ نُبْلِ الْأَسَدِ أَنَّهُ اشْتَقَّ لِحَمْزَةِ
بَنِ عَبْدِ الْمَطَّلَبِ مِنْ اسْمِهِ، وَيَقَالُ لِلْمَلِكِ أَصِيْدٌ إِذَا أَرَادُوا أَنْ
يَصِفُوهُ بِالْكِبَرِ وَبِقَلَّةِ الْإِلْتِفَاتِ، وَبِأَنَّ أَنْفَهُ فِيهِ أَسْلُوبٌ وَلِأَنَّ
الْأَسَدَ يَلْتَفِتُ مَعًا لِأَنَّ عُنُقَهُ مِنْ عَظْمٍ وَاحِدٍ، وَقَالَ حَاتِمٌ:

هَلَّا إِذَا مَطَرَ
السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ

وَرَفَعْتَ رَأْسَكَ مِثْلَ
رَأْسِ الْأَصْيَدِ

وقال الآخر:

يَدُودُونَ كَلْبًا
بِالرَّمَّاحِ وَطَيِّبًا

وَتَغْلِبَ وَالصَّيْدَ
النَّوَظِرِ مِنْ بَكْرٍ

وقال الآخر :

وَكَمْ لِي بِهَا مِنْ أَبِي
أَصْيَدٍ

نَمَاهُ أَبِي مَا جَدُّ
أَصْيَدٍ

وبعد فإنّ الذي يأكل الجيفة لم يبعد من طبع كثير من الناس؛ لأنّ من الناس من يشتهي اللحم الغائب، ومنهم من يشتهي النّمكسود، وليس بين النّمكسود، وبين المصلوب اليابس كبير فرق، وإنما يذبحون الديكة والبَطّ والدجاج والدراج من أوّل الليل، ليسترخي لحمها، وذلك أول التّجفيف. فالأسد أجمع لهذه الخصال من الكلب، فهلاًّ ذكرتم بذلك الأسد وهو أنبه ذكراً وأبعد صيتاً. وأمّا ما ذكرتم من نثن الجلد ومن استنشاق البول، فإنّ للتيس

في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذف ببوله تلقاء
أنفه، وباينَ بشدة الصنّان؛ فإنّ الأمثال له أكثرُ ذكراً، وفي
العنز أيضاً عيوب.
وفي توجيه التيس ببوله إلى حاقّ حيشومه قال الشاعر
لبعض من يهجوّه:

فَعَادَ لَكَ الْمُسْمِي فَاسْمَاكَ بِالْقَحْرِ

دُع

يَتَّ يَزِيدَ كِي تَزِيدَ فَلَمْ تَزِدْ

وَمَا الْقَحْرُ إِلَّا

عَلَيْهِ فِيمِذِي فِي لَبَانٍ وَفِي نَحْرِ
التيسُ يَعْتَكُ بَوْلُهُ

وقال آخر في مثل ذلك:

عَتَوْدُ فِي مَفَارِقِهِ

يَبُولُ

أَعْتَمَانُ بِنُ حَيَّانَ بِنِ

لَوْمُ

نَعَامَتُهُ وَيَفْهَمُ مَا

يَقُولُ

وَلَوْ أَنِّي أَشَافِيهِهُ

لَشَالَتْ

وبعد: فما يُعلم من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من
خلفها إلا أقبح.
وقال ابن أحمَرَ الباهليُّ في ذلك:

إنا وجدنا بني سَهْمٍ كالعنز تعطفُ رُوقِها
وجاملهم وتَرْتَضِعُ

وقلتم: هَجَا ابْنُ غاديةِ السلمي بعضَ الكِرامِ، حينَ عَزَلَ عن
يَنْبُعِ، فقال لمن ظنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَزَلَ لمكانه:

رَكِبوكَ مُرْتَحَلًا دَبِرَ الحِراقِ
فظهرُكَ منهمُ والفَقارِ مَوْقِعُ

كالكلبِ يَنْبُعُ خانِقِيهِ نحوَ الذينَ بهم يَعْزُّ
وينتحي ويمنعُ

وقال ابن هَرَمَةَ الفِهريِّ:

فما عادت لذي يمينِ ولا ضَرَّتْ بفرقتها
رؤوساً نِزاراً

وَتَرَأْمُ مَنْ يُحِدُّ لَهَا
الشَّفَارَا

كَعَنْزِ السَّوِّءِ تَنْطَحُ
مَنْ خَلَاهَا

وما نعلم الرجوع في الجرّة، وإعادة الفرث إلى الفم ليستقصى مضغه إلاّ أسمع وأقدر من الرجوع في القيء، وقد اختار الله عزّ وجلّ تلك الطبيعة للأنعام، وجعل الناس ليسوا لشيء من اللّحمان أشدّ أكلاً ولا أشدّ عجباً به منكم، ولا أصلح لأبدانهم ولا أعدى لهم من لحوم هذه الأنعام أفتائها ومسائها. وقال صاحب الديك: ما يشبه عود الماشية في الجرّة، ورجوعها في الفرث تطحنه وتسيغه، الرجوع في القيء، وقد زعمتم أنّ جرّة البعير أنتن من قيء الكلاب لطول غبوبها في الجوف، وانقلابها إلى طباع الزبل، وأنها أنتن من التلث، وإنما مثل الجرّة مثل الرّيق الذي ذكره ابنُ أحمر فقال:

وقد يدوم ريق
الطامع الأمل

هذا الثناء وأجدر أن
أصاحبه

فإنّما مثل القيء مثل العذرة؛ لأنّ الرّيق الذي زعمتم، ما دام في فم صاحبه، ألدّ من السلوى، وأمتع من النسيم، وأحسن موقعا من الماء البارد من العطاش المسهوم، والرّيق كذلك ما

لم يزايل موضعه، ومتى زایل فَمَ صاحبه إلى بعض جِده اشتدَّ
نُتْه وعادَ في سبيل القِيءِ.

فالرِّيق والجِرَّة في سبيل واحد، كما أنَّ القِيء والعذرة في
سبيل واحد، ولو أنَّ الكلبَ قَلَسَ حَتَّى يمتلئ منه فمه، ثم رجع
فيه من غير مباينة له، لكان في ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام
في جِرَّتِها، وحشِيَّتِها وأهليَّتِها، وإنَّ الأرانِبَ لَتَحِيضُ حِيضاً
نَتْناً، فما عاف لحمها أصحابُ التَّقَدُّرِ لمشاركتِها الأنعامَ في
الجِرَّةِ.

فقال صاحب الكلب: أمَّا ما عبتموه من أكلِ العذرة، فإنَّ ذلك
عامٌّ في الماشية المتخَيَّر لحمها على اللُّحمان، لأنَّ الإبل
والشياه كلُّها جَلَّالة وهُنَّ على يابسٍ ما يخرُج من الناسِ
أحرصُ؛ وعلى أنَّها إذا تَعَوَّدت أكل ما قد جَفَّ ظاهره وداخله
رطبً، رَجَعَ أمرها إلى ما عليه الكلب، ثم الدَّجاج لا تَرْضَى
بالعذرة، وبما يَبْقَى من الحبوبِ التي لم يأتِ عليها الاستمراء
والهضم، حَتَّى تلتَمِس الديدانَ التي فيها، فتجمع روعين من
العذرة لأنها إذا أكلت ديدان العذرة فقد أتت على النُّوعين
جميعاً، ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَم في هجائه الأنصار
بخبيث الطعام، فضرب المثل بالدَّجاج من بين جميع الحيوان،
وترك ذكر الكلاب وهي له مُعْرِضة فقال:

لِخُبْثِ الْأَطْعِمَاتِ مِنْ
الدَّجَاجِ

وَلِلْأَنْصَارِ أَكَلُ فِي
فُرَاهَا

ولو قال:

لِخُبْثِ الْأَطْعِمَاتِ مِنْ
الْكِلَابِ

وَلِلْأَنْصَارِ أَكَلُ فِي
فُرَاهَا

لكان الشَّعرُ صحيحاً مُرضياً.

وعلى أَنَّ الكلابَ متى شُبِعت، لم تعرض للَعْدرة، والأنعامُ
الجلالةُ وكذلك الحافر، قد جعلت ذلك كالحَمَضِ إذا كانت لها
خَلَّةٌ؛ فهي مرَّةً تتغذى به ومرةً تتحمَّض، وقد جاء في لحوم
الجلالة ما جاء.

رغبة الملوك والأشراف في الدجاج
وملوكنَا وأهل العيشِ مِنَّا، لا يرغبون في شيءٍ من اللُّحمانِ
رغبتهم في الدَّجاج، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض،
والقَبَجِ والدَّرَاجِ، نعم وعلى الجِدَاءِ والأعْنَقِ الحُمْرِ من بَنَاتِ
الصَّفَايا، وهم يعرفون طبعها وسوء قوتها، وهم مع ذلك
يأكلون الرِّواعِي كما يأكلون المسمَّاتِ.
الشبوط أجود السمك وأطيب ما في الأنهار من السمك،

وأحسنها قُدوداً وخرطاً، وأسببها سبوطاً، وأرفعها ثمناً
وأكثرها تصرفاً في المالح والطري، وفي القريس والنشوط
الشبوط، وليس في الماء سمكة رفيعة الذكر ولا ذات خمول،
إلا وهي أحرص على أكل العذرة منها، وإنها في ذلك لأشدُّ
طلباً لها من الخنزير في البر، والجري في البحر.
لحم الخنزير وقد علم الناس كيف استطابة أكل لحوم
الخنزير، وأكل الخنازير لها، وكيف كانت الأكاسرة
والقيصرة يقدمونها ويفضّلونها، ولولا التعبُدُ لجرى عندنا
مجرّاه عند غيرنا.

وقد علم الناس كيف استطابة أكل الجري لأذناها.
ما قيل في الجري وفي الجري قال أبو كعدة: هو أدم العميان،
وجيد في الكوشان ودواء للكليتين، وصالح لوجع الظهر
وعجب الذنب، وخلاف على اليهود، وغيط على الروافض؛
وفي أكله إحياء لبعض السنن، وإماتة بعض البدع، ولم يفلج
عليه أكثر من قط، وهو محنة بين المبتدع والسني، هلك فيه
فئتان مذ كانت الدنيا: محلل ومحرم.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص
الدماغ، يلتهم العذرة ويأكل الجردان صحاحاً والفار، وزهم لا
يُستطاع أكله إلا محسباً ولا يتصرف بصرف السمك، وقد وقع

عليه اسم المِسْخ، لا يَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً، ولا يؤكل
كباباً، ولا يُختار مطبوخاً، ويُرمى كله إلا ذنبه.
والأصناف التي تعرض للعذرة كثيرة، وقد ذكرنا الجلالات من
الأنعام والجريّ والشبوط من السمك، ويعرض لها من الطير
الدجاج والرحم والهداهد.
الأنوق وما سمي بهذا الاسم وقد بلغ من شهوة الرّحمة لذلك،
أن سمّوها الأنوق، حتى سمّوا كلّ شيء من الحيوان يعرض
للعذرة بأنوق، وهو قول الشاعر:

لجارتيه ثم ولى
فمثل

حتى إذا أضحي تدرى
واكتحل

رزق الأنوقين القرنبي
والجعل

ما قيل من الشعر في الجعل
ولشدّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر:

كأنه شرطيّ بات
في حرس

يبيت في مجلس
الأقوام يربوهم

وكذلك قال الآخر:

بَاتَ يَعِشِي وَحَدَهَ أَلْفِي
جُعَل

إِذَا أَتَوْهُ بِطَعَامٍ
وَأَكَلْنَ

هذا البيت يدلُّ على عِظَمِ مقدار النَّجْوِ، فهجاه بذلك، وعلى أَنَّ الجُعَلَ يفتات البراز.
وفي مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأنَّ الشعر يَرتفع عنه، والشعر قوله:

ثِي إِذَا مَا غَدَا أَبُو
كَلْثُومِ

نِعْمَ جَارُ الخَنْزِيرَةِ
المرضِعُ العَرِ

مَنْ ثَرِيدٍ مَلْبَقِي
مَأْدُومِ

ثَاوِيًا قَدْ أَصَابَ عِنْدَ
صَدِيقِ

سِ فَأَلْقَى كَالْمِغْلَفِ
الْمَهْدُومِ

ثُمَّ أَنحَى بِجَعْرِهِ حَاجِبَ
الشَّمِ

عَامِدَاتِ لِتَلِّهِ
المَرْكُومِ

بِضَرْيَطٍ تَرَى
الخَنَازِيرِ مِنْهُ

وقال الراجز في مثل ذلك:

ثُمَّتَ الْبَانَ الْبَخَاتِي	قَدْ دَقَّهُ تَارِدُهُ
جَعَجَعَا	وَصَوْمَعَا
ثُمَّتَ خَوَى بَارِكَا	جَعَجَعَةَ الْعَوْدِ ابْتَعَى
وَاسْتَرْجَعَا	أَنْ يَنْجَعَا
	عَنْ جَائِمٍ يُحْسَبُ كَلْبًا
	أَبْقَعَا

وفي طلب الجعل للزَّيْبِلِ قال الراجز وهو أبو العُصْنِ الأَسَدِي:

مِنْ كُلِّ ذَاتِ بُخْنِقٍ	مَاذَا تَلَاقِي طَلْحَاتُ
عَمَلَّجَهُ	الْحَرَجَهُ
مِنْ الضَّرَاطِ وَالْفَسَاءِ	ظَلَّ لَهَا بَيْنَ الْحَلَالِ
السَّمَجَهُ	أَرْجَهُ
تَعْطِيهِ عَنْهَا جَعَلًا	فَجَبَّتْهَا قَاعِدَةً
مُدْحَرَجَهُ	مَنْشَجَهُ

وقال يحيى الأعرى: تقول العرب سَدَكَ به جُعَلُه، وقال الشاعر:

إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِي يُعْرَى
بِهِ الْجُعْلُ

إِذَا أَتَيْتُ سُلَيْمَى
شَبَّ لِي جُعْلُ

يضرب هذا المثلُ للرجل إذا لَصِقَ به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهْرُبُ منه، قال يحيى: وكان أصلُه ملازمةَ الجُعْلِ لمن بات في الصحراء، فكلَّمَا قام لحاجةٍ تبعه؛ لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائطُ.
القرنبي وفي القرنبي يقول ابنُ مقبل:

قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ
أَخْلَفْتَهُ مَجَاعِرَهُ

وَلَا أَطْرُقُ الْجَارَاتِ
بِالْيَلِّ قَابِعاً

والقبوع: الاجتماع والتقبض، والقرنبي: دويبةٌ فوق الخُنْفَسَاءِ ودونَ الجعل، وهو والجعل يتبعان الرجلَ إلى الغائطِ.

الهدهد وخبث رِيحه ومن الطَّيْرِ الَّذِي يُضَارِعُ الرَّخْمَةَ فِي ذَلِكَ الْهَدَّهِدُ، مَنْتَنُ الْبَدَنِ وَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ مَلْطَخاً بِشَيْءٍ مِنَ الْعَدْرَةِ؛ لِأَنَّه يُبْنِي بَيْتَهُ وَيَصْنَعُ أَفْحُوصَه مِنَ الزَّبْلِ، وَلَيْسَ اقْتِيَاثَه مِنْهُ إِلَّا عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ وَحَاجَتِهِ فِي الْآلِ يَتَّخِذُ بَيْتاً وَلَا أَفْحُوصاً إِلَّا

منه، فخامرَه ذلك النَّتْنُ فَعَلِقَ ببدنه وجرى في أعراق أبويه؛
إذ كان هذا الصنيع عامًّا في جنسه.
وتعتري هذه الشَّهْوَةُ الدَّبَانُ، حتَّى إنَّها لو رأت عسلاً وقدرًا،
لكانت إلى القدر أسرع، وقال الشاعر:

قفا مالِكٍ يُقْصِي
الهُمومَ على بَثْقِ

قَفَا خَلْفَ وَجْهِ قَدْ
أطِيلَ كَأَنَّهُ

وأبخلُ من كَلْبِ
عَقُورٍ على عَرْقِ

وأعظمُ زهواً من
ذُبَابٍ على خِرِّ

ويزعمون أنَّ الزُّنْبُورَ لهجٌّ بصيد الدَّبَانِ، ولا يكاد يصيده إلاَّ
وهو ساقطٌ على عذرة لفرط شَهْوَتِهِ لها ولاستفراغها، فيعرف
الزُّنْبُورُ ذلك، فيجعل عَفَلَتَهُ فُرْصَةً ونُهْزَةً، قالوا: وإنَّما قلنا
ذلك لأنَّا لم نجدُه يرومُ صيده وهو ساقطٌ على ثمرَةٍ، فما دونها
في الحلاوة.
شعر في الهجاء وقال أبو الشَّمَمَقِ في ذلك:

مقُ رأسِ الأنتانِ
والقَدْرِه

الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ
جاءكم الأح

وَابْنُ عَمِّ الْحَمَارِ فِي
صُورَةِ الْفِي

لِ وَخَالِ الْجَامُوسِ
وَالْبَقْرَةِ

يَمْشِي رُوَيْدًا يَرِيدُ
حَلَقَتَكُمْ

كَمْشِي خِنْزِيرَةٍ
إِلَى عَذْرَةٍ

وَقَالَ حَمَادُ عَجْرَدٍ فِي بَشَارِ بْنِ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ:

مَا صَوَّرَ اللَّهُ شَيْئًا
لَهُ

مِنْ كُلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ
صَوَّرًا

أَشْبَهَ بِالْخِنْزِيرِ
وَجْهًا وَلَا

بِالْكَلْبِ أَعْرَاقًا وَلَا
مَكْسِرًا

وَلَا رَأَيْنَا أَحَدًا
مِثْلَهُ

أَنْجَسَ أَوْ أَطْفَسَ أَوْ
أَقْذَرَا

لَوْ طَلَيْتُ جِلْدَتَهُ
عَنْبِرًا لَنْتَنَّتْ

جِلْدَتُهُ الْعَنْبِرَا

أَوْ طَلَيْتُ مِسْكَاً دُكِيًّا

تَحَوَّلَ الْمِسْكَُ عَلَيْهِ

إِدْنُ

خِرَا

وقال أبو نُوَاسٍ فِي هِجَاءِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ:

إِذَا مَا مَدَحْتُ فَتَى

أَلَيْسَ جَزَائِي أَنْ

مِنْ خِرَا

أَعْطَى الْخِرَا

وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جُلْمُودُ بْنُ أَوْسٍ، كان مُنْتَنَ العرق:

إِنِّي إِذَا مَا عَارِضِي

وَرَعَدْتِ

تَأَلَّقَا

حَافْتِهِ

وَبَرَقَا

أَهْلَكْتُ جُلْمُودَ بْنَ

كَانَ لِحَمَقَاءَ

أَوْسٍ عَرَقَا

فَصَارَ أَحْمَقَا

أَخْبِثْ شَيْءٍ عَرَقَا

وَوَخِرَقَا

وقال حَمَّادُ عَجْرَدٍ فِي

بشار:

كَلَبِ فِي الْخَلْقِ
أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ

يَا ابْنَ بُرْدٍ اخْسَأْ إِلَيْكَ
فَمَثَلُ آلِ

بِ وَأَوْلَى مِنْهُ
بِكُلِّ هَوَانٍ

بَلْ لَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرٌّ
مِنَ الْكَلِّ

حِكِّ يَا ابْنَ
الطَّيَّانِ ذِي
الثَّبَّانِ

وَلرَّيْحُ الْخَنْزِيرِ
أَطْيَبُ مِنْ رِي

وقال بعض الشعراء في
عبد الله بن عمير:

ثَنَاءَ كَرِيحِ
الْجَوْرَبِ
الْمَتَخْرِقِ

عَزَا ابْنُ عُمَيْرٍ عَزْوَةً
تَرَكَتْ لَهُ

وقال حمادُ عَجْرَدٍ في بشار:

قَلْ لَشَقِيِّ الْجَدِّ
فِي رَمْسِهِ

لِلْقِرْدِ بَشَارِ
بُنِ بُرْدٍ وَلَا

لِلْقِرْدِ بِاللَّيْثِ
اِغْتِرَارٌ بِهِ

يَا ابْنَ اسْتِهَا
فَاصْبِرْ عَلَى
ضَعْمَةٍ

وَمَنْ يَفِرُّ النَّاسُ
مِنْ رَجْسِهِ

تَخْفِلُ بِرَعْمِ الْقِرْدِ
أَوْ تَعْسِهِ

فَمَا الَّذِي أَدْنَاكَ
مِنْ مَسِّهِ

بَنَابِهِ يَا قِرْدُ أَوْ
ضِرْسِهِ

وَيَوْمُهُ
أَخْبْتُ مِنْ
أَمْسِهِ

حَتَّى يُدَلِّي
الْقِرْدُ فِي
رَمْسِهِ

نَهَارُهُ
أَخْبْتُ مِنْ
لَيْلِهِ

وَلَيْسَ
بِالْمُقْلَعِ
عَنْ غِيَّهِ

مَا خَلَقَ اللَّهُ
شَبِيهَا لَهُ

مَنْ جِنِّهِ
طَرًّا وَمَنْ
إِنْسِيهِ

وَاللَّهُ مَا
الْخَنْزِيرُ فِي
نَتْنِهِ

مَنْ رُبْعِهِ
بِالْعُشْرِ أَوْ
خَمْسِيهِ

بِلِ رِيحِهِ
أَطْيَبُ مِنْ
رِيحِهِ

وَمُسَّهُ أَلْيَنُ
مِنْ مَسِّهِ

وَوَجْهُهُ
أَحْسَنُ مِنْ
وَجْهِهِ

وَنَفْسُهُ
أَنْبَلُ مِنْ
نَفْسِهِ

وَعُودُهُ
أَكْرَمُ مِنْ
عُودِهِ

وَجِنْسُهُ
أَكْرَمُ مِنْ
جِنْسِهِ

وأنا حفظك الله تعالى أستظرف وضعه الخنزير بهذا المكان
وفي هذا الموضع، حين يقول: وعوده أكرم من عوده.
وأى عود للخنزير؟ قبحه الله تعالى، وقبح من يشتهي أكله،
وقال حمادُ عجرد في بشارِ بن بُرد:

بلا مَشُورَة إنسانِ
ولا أثرِ

عليه، إذ كان
مكفوفاً عن النَّظْرِ

قد كان بُردٌ أبِي في
الضِّيقِ والعُسْرِ

إمّا أجيراً وإمّا غيرَ
مؤتَجِرِ

قصابِ شاءِ شَقِيَّ
الجَدِّ أو بَقْرِ

إنَّ ابنَ بُردٍ رأى
رُويًا فأولَّها

رأى العمى نعمة
لله سابعة

وقال: لو لم أكن
أعمى لكنتُ كما

ألذُّ نفسي
بالتطيين
مجتهداً

أو كنتُ إن أنا لم
أقتع بفعلِ أبي

كأخوتي دائباً
أشقى شقاءهم

فقد كفاني العمى من
كلّ مكسبةٍ

فصرتُ ذا نَسَبٍ من
غير ما طلب

أضُمُّ شيئاً إلى
شيءٍ فأدخره

مَنْ كان يعرفني لو
لم أكن زَمِناً

فقلّ له لا هداه الله
من رجلٍ

لقد فطنتَ إلى
شيءٍ تعيش به

في الحرِّ والبردِ
والإدلاجِ وَ الْبُكْرِ

والرِّزْقُ يَأْتِي
بأسبابٍ من القَدْرِ

إِلَّا بِمَسْأَلَتِي إِذْ كُنْتُ
فِي صِغَرِي

مَمَّا أَجْمَعُ مِنْ تَمَرٍ
وَمِنْ كِسْرٍ

أَوْ كَانَ يَبْدُلُ لِي شَيْئاً
سِوَى الْحَجَرِ

فإنّها عرّةٌ تُربّي
على العُرَرِ

يا ابنَ الخبيثةِ قد
أدققتَ في النظرِ

يا ابنَ التي نَشَرْتَ
عن شيخِ صِبْيَتِها

أما يَكْفَكَ عن شَتْمِي
ومنْقَصَتِي

نَفَتَكَ عنها عُقِيلٌ
وهي صادقة

يا عبدَ أمِّ الطِّباءِ
المستطبِّ بها

بل أنتَ كالكلبِ ذُلاًّ
أو أدلُّ وفي

وأنتَ كالقردِ في
تشويهِ منظره

لأيرِ ثوبانَ ذي
الهاماتِ والعُجَرِ

ما في حِرامِكَ من
نَتْنٍ ومن دَفَرٍ

فسل أسيداً وسل
عنها أبا زُفَرٍ

من اللّوى، لستَ
مولى العُرِّ من مُضِرِّ

نَدالةِ النفسِ
كالخنزيرِ واليَعْرِ

بل صورةُ القردِ أبهى
منك في الصُّورِ

ووصف ابن كريمة حشاً له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه
فقال:

ولي كَنيفَ بِحَمْدِ الله
يطرقني

أرواح وادي خبال
غير فتّار

له بدائعُ نَتْنٌ ليس
يَعْرِفُهَا

من البريّةِ إِلَّا خازِنُ
النَّارِ

إذا أتاني دَخيلٌ
زادني بِدَعاءِ

كَأَنَّهُ لَهَجٌ عَمْداً
بإِضْرارِي

قد اجتواني له
الْخُلانُ كُلُّهُم

وباعَ مَسْكَنَهُ مِنْ
قُرْبِهِ جاري

فمن أرادَ من
البِرسامِ أَقتَلَهُ

أو الصَّداعِ فمرّه
يدخُلُنْ داري

استكثفَ النتنُ في
أنفي لكثرته

فليس يوجِدُنِيهِ غيرُ
إِضْمارِي

ثروة المحلول من الشعر

وقيل للمحلول: ويلك، ما حفظت بيت شعر قط؟ فقال: بيتاً واحداً اشتهيته فحفظته، ف قيل له: فهاته، قال: أما إنني لا أحفظُ

إِلَّا بَيْتاً وَاحِداً، قِيلَ: فَكَيْفَ رَزَقَ مِنْكَ هَذَا الْبَيْتَ؟ فَأَنْشَدَهُ،
فَأَنْشَدَهُمْ:

كَأَنَّمَا نَكَّهَتْهَا مِدَّةَ تَسِيلِ مِنْ مَخْطَةِ مَجْدُومٍ

وزعم أصحابنا أنّ رجلاً من بني سعد - وكان أنتنّ الناس إبطاً -
بلغه أن ناساً من عبد القيس يتحدثونه برجلٍ منهم، فمضى
إليهم شداً، فوافاهم وقد أزدب إبطاه، وهو يقول:

بِذِي حُطَاطٍ يُعْطِسُ
الْمَخُونَا

أَقْبَلْتُ مِنْ جَلْهَةٍ
نَاعَتِينَا

حَتَّى تَرَى لَوَجْهَهُ
عُضُونَا

يَزُوي لَهُ مِنْ نَنْتِهِ
الْجَبِينَا

نُبِّتَ عَبْدَ الْقَيْسِ
يَأْبُطُونَا

قال: ومتح أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول:

كَأَنِّي جَانِي عُبَيْثِرَانَ

يَا رِيَّهَا إِذَا بَدَا

صُنَائِي

وقال آخر:

نَفْحَةٌ خُرْءٍ مِنْ
كَوَامِيخِ الْقَرَى

كَأَنَّ إِبْطِيَّ وَقَدْ طَالَ
الْمَدَى

ويقال إنه ليس في الأرض رائحة أنتن، ولا أشدُّ على النفس،
من بخر فم أو نتن حر، ولا في الأرض رائحة أعصم لروح
من رائحة التفاح.

وقال صاحب الكلب: فما نرى النَّاسَ يَعَافُونَ تَسْمِيدَ بُقُولِهِمْ
قبل نُجُومِهَا وَتَفْتَقُ بِزُورِهَا وَلَا بَعْدَ انْتِشَارِ وَرْقِهَا وَظُهُورِ
مَوْضِعِ اللَّبِّ مِنْهَا حَتَّى رُبَّمَا دَرُّوا عَلَيْهَا السَّمَادَ دَرًّا، ثُمَّ يُرْسَلُ
عَلَيْهَا الْمَاءُ حَتَّى يَشْرَبَ اللَّبُّ قُوَى الْعَذْرَةِ، بَلْ مَنْ لَهُمْ
بِالْعَذْرَةِ؟ وَعَلَى أَنَّهُمْ مَا يَصِيبُونَهَا إِلَّا مَعْشُوشَةٌ مُفْسَدَةٌ،
وَكَذَلِكَ صَنِيعُهُمْ فِي الرِّيحَانِ، فَأَمَّا النَّخْلُ فَلَوْ اسْتَطَاعُوا أَنْ
يَطْلُوا بِهَا الْأَجْدَاعَ طَلِيًّا لَفَعَلُوا، وَإِنَّهُمْ لَيُوقِدُونَ بِهَا الْحَمَامَاتِ
وَأَتَاتِينَ الْمِلَالِ، وَتَنَائِيرِ الْخَبِزِ، وَمَنْ أَكْرَمَ سَمَادِهِمُ الْأَبْعَارُ كُلُّهَا
وَالْأَخْتَاءُ إِذَا جَفَّتْ، وَمَا بَيْنَ الثَّلْثِ جَافًا وَالْخَتَاءِ يَابِسًا، وَبَيْنَ
الْعَذْرَةِ جَافَّةً وَيَابِسَةً فَرَقَ، وَعَلَى أَنَّهُمْ يَعَالِجُونَ بِالْعَذْرَةِ

وبخرءِ الكلب، من الدُّبحة والخائوق في أقصى مواضع التقرُّز وهو أقصى الحلق، ومواضع اللهاة، ويضعونها على مواضع الشوكة، ويعالجون بها عُيون الدَّوابِّ.

أقولُ لمسبِّحِ الكناسِ وقال مسبِّحِ الكناسِ: إِنَّمَا اشْتَقَّ الخَيْرُ مِنَ الخُرْءِ، والخُرْءِ في النومِ خَيْرٌ، وَسَلْحَةٌ مُدْرِكَةٌ الذُّمِّنِ كَوْمِ العَرُوسِ لَيْلَةَ العُرْسِ، ولقد دخلتُ على بَعْضِ الملوكِ لبعضِ الأسبابِ، وإذا به قُعاصٌ وزكامٌ وثِقَلُ رَأْسٍ، وإذا ذلك قد طاوله، وقد كان بلغني أَنَّهُ كان هَجَرَ الجُلُوسِ على المقعدةِ وإتيانِ الخلاءِ، فأمرتهُ بالعودِ إلى عادتهِ، فما مرَّتْ به أَيامٌ حتى ذهب ذلك عنه.

وزعم أَنَّ الدنيا مُنْتِنَةٌ الحِيْطَانِ وَالتُّرْبَةِ، والأَنْهَارِ والأودِيَةِ، إلَّا أَنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك النتنُ المحيطُ بهم، وقد مَحَقَ حِسَّهم له طَوْلُ مُكْتَهٍ في خياشيمهم، قال: فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّلِ ما يخرجُ إلى الدنيا، عَنَ بَيْتِ مطيِّبٍ؛ وليتشمَّ تشمُّ المتشبَّثِ، عَلى أن البقاعَ تتفاوت في النتنِ، فهذا قولُ مسبِّحِ الكناسِ.

عصبية سلمويه وابن ماسويه

وزعم لي سَمَوِيه وابن مَسَوِيه مُتَطَبِّبَا الخلفاء، أَنَّهُ ليس
على الأرض جِيفَةً أَنْتَنُ نُنْنَا وَلَا أَثَقُبُ نُقُوباً مِنْ جِيفَةِ بَعِيرٍ،
فَظَنَنْتُ أَنَّ الَّذِي وَهَمَّهُمَا ذَلِكَ عَصَبِيَّتُهُمَا عَلَيْهِ، وَبِغَضُّهُمَا
لَأَرْبَابِهِ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ، هُوَ
المذکورُ فِي الكُتُبِ بِرَاكِبِ البَعِيرِ، وَيُقَالُ إِنَّ الحَجَّاجَ قَالَ لَهُمْ:
أَيُّ الجِيفِ أَنْتَنُ؟ فِقِيلُ: جِيفُ الكَلَابِ، فَامْتَحِنْتُ فِقِيلَ لَهُ: أَنْتَنُ
مِنْهَا جِيفُ السَّنَانِيرِ، وَأَنْتَنُ جِيفُهَا الذُّكُورُ مِنْهَا، فَصَلَبَ ابْنَ
الزُّبَيْرِ بَيْنَ جِيفَتَيْ سَنُورَيْنِ ذَكَرَيْنِ.

أَطِيبِ الْأَشْيَاءَ رَائِحَةٌ وَأَنْتِنُهَا
وَأَنَا أَقُولُ فِي النَّتْنِ وَالطَّيِّبِ شَيْئاً، لِعَلَّكَ إِنْ تَفَقَّدْتَهُ أَنْ تَوَافَقْتَنِي
عَلَيْهِ وَتَرْضَى قَوْلِي، أَمَّا النَّتْنُ فَإِنِّي لَمْ أَشَمَّ شَيْئاً أَنْتَنُ مِنْ رِيحِ
حُشٍّ مَقْيَّرٍ، يَبُولُ فِيهِ الخِصْيَانُ وَلَا يُصَبُّ عَلَيْهِ المَاءُ؛ فَإِنَّ
لِأَبْوَالِهِمُ المِترَادِفَةَ المِترَاكِبَةَ وَلرِيحِ القَارِ وَرِيحِ هَوَاءِ الحُشِّ
وَمَا يَنْفَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ رِيحِ البَالُوعَةِ - جِهَةً مِنَ النَّتْنِ وَمَذْهَباً
فِي المَكْرُوهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَبْدَانِ عَمَلٌ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ إِلَى
عَيْنِ الرُّوحِ وَصَمِيمِ القَلْبِ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا كَانَ الخَلَاءُ غَيْرَ
مَكْشُوفٍ، وَكَانَ مَغْمُوماً غَيْرَ مَفْتُوحٍ، فَأَمَّا الطَّيِّبُ فَإِنِّي لَمْ
أَشَمَّ رَائِحَةَ قَطُّ أَحْيَا لِلنَّفْسِ وَلَا أَعْصَمَ لِلرُّوحِ، وَلَا أَفْتَقَّ وَلَا
أَغْنَجُ، وَلَا أَطِيبُ خِمْرَةَ مِنْ رِيحِ عَرُوسٍ، إِذَا أَحْكَمْتَ تِلْكَ

الأخلاق، وكان عَرَفَ بَدَنَهَا ورَأْسَهَا وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فَإِنَّكَ ستجد ريحاً تَعْلَمُ أَنَّهُ ليس فوقها إلا رِيحُ الجنة.

ما قيل في الظربان

ومما قالوا في النَّتْنِ، وفي رِيحِ جُحْرِ الظَّرْبَانِ خاصَّةً، قول الحكم بن عَبدل:

ولحصد أنفك

بالمناجل أهون

جمّ وقللنا هناك

الدنن

بالبرّ واللفظ الذي

لا يخزن

حتى يداوي ما

بأنفك أهرن

فلجحر أنفك يا

أقيت نفسك في

عروض مشقة

أنت امرؤ في أرض

أمك فلفل

فبحق أمك وهي منك

حقيقة

لا تدن فاك من الأمير

ونحه

إن كان للظربان جحر

مُنْتِنُ

محمَّدُ أَنْتِنُ

وقال الربيع بن أبي الحقيق - وذكر الظربان - حين رمى قوماً
بأنهم يفسون في مجالسهم، لأن الظربان أنتن خلق الله تعالى
فسوةً، وقد عرف الظربان ذلك فجعله من أشدّ سلاحه، كما
عرفت الحباري ما في سلاحها من الآلة، إذا قرب الصقر
منها، والظربان يدخل على الضبّ جحره وفيه حسوله أو
بيضه، فيأتي أضيق موضع في الجحر فيسده بيديه، ويحوّل
استه فلا يفسو ثلاث فسواتٍ حتى يدار بالضبّ فيخرّ سكران
مفشيّاً عليه، فيأكله، ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر
حسوله.

وتقول العرب: إنه ربّما دخل في خلال الهجمة فيفسو، فلا تتمّ
له ثلاث فسواتٍ حتى تتفرّق الإبل عن المبرك، تتركه وفيه
قردان فلا يردّها الراعي، إلا بالجهد الشديد.
فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح التيوس:

إِذَا مَا تَنَادَوْا لِأَمْرِ
شَدِيدِ

قَلِيلِ عَنَّاوَهُمْ فِي
الهِجَاغِ

تهرُّ هَرِيرَ الْعَقُورِ
الرَّصُودِ

وَأَنْتُمْ كِلَابٌ لَدَى
دُورِكُمْ

وَمَا إِنْ لَنَا فِيكُمْ مِنْ
نَدِيدٍ

وَأَنْتُمْ ظُرَابِيٌّ إِذَا
تَجَلَسُونَ

بَرِيحِ التَّيُوسِ وَقَبْحِ
الْخُدُودِ

وَأَنْتُمْ تَيُوسٌ وَقَدْ
تُعْرَفُونَ

قال: ويقال: أفسى من الظربان ويسمى مفرق النعم، يريدون من نتن ریح فُسائِه، ويقال في المثل - إذا وقع بين الرجلين شرٌّ فتباينا وتقاطعا -: فسا بينهما ظربان، ويقال: أنتن من ظربان لأن الضب إنما يخدع في جحره ويوغل في سربه لشدة طلب الظربان له، وقال الفرزدق في ذلك:

ظُرَابِيٌّ مِنْ حِمَّانٍ
عَنِّي تَثِيرُهَا

وَلَوْ كُنْتُ فِي نَارِ
الْجَحِيمِ لِأَصْبَحْتُ

وكان أبو عبيدة يُسمي الحِمَّانِيَّ صَاحِبَ الْأَصَمِّ: الظربان، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانِيٍّ ظُرْبَانًا. وقال ابن عبدل:

حَتَّى يَدَاوِيَ مَا بَأْنَفِكَ
أَهْرُنْ

فَلْجُحْرِ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّد
أَنْتَن

لَا تُدْنِ فَاكَ مِنْ
الْأَمِيرِ وَنَحْه

إِنْ كَانَ لِلظَّرِبَانِ
جُحْرٌ مُنْتِنٌ

في شعره الذي يقول:

مَنْ كَلَّ مَنْ يُكْفِي الْقَصِيدَ وَيَلْحَنُ

لي

تَ الْأَمِيرَ أَطَاعَنِي فَشَفِيئْتَهُ

بَاتَتْ مَنَاخِرُهُ بِدُهْنٍ تُعْرَنُ

م

تَكْوَرُّ يَخْتُو الْكَلَامَ كَأَنَّمَا

زَمْنَا فَأَضْرَبُ مَنْ أَشَاءُ وَأَسْجُنُ

و

بَنِي لَهُمْ سِجْنًا فَكُنْتُ أَمِيرَهُمْ

إِنْ كُنْتَ مِنْ حُبِّ التَّقَرُّبِ تَجِبُنُ

ق

لِ لَابِنِ آكِلَةِ الْعِفَاصِ مُحَمَّدٍ

وَلَحَصْدُ أَنْفِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ
أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي
عَرُوضِ مَشَقَّةٍ

جَمٌّ وَفَلَفْنَا هُنَاكَ الدُّنَيْنِ
أَنْتَ امْرُؤٌ فِي
أَرْضِ أُمَّكَ فُلْفُلٌ

بِالْبِرِّ وَاللِّطْفِ الَّذِي لَا يُخْزَنُ
فَبِحَقِّ أُمَّكَ وَهِيَ
مِنْكَ حَقِيقَةٌ

حَتَّى يُدَاوِيَ مَا بِأَنْفِكَ أَهْرَنُ
لَا تُدْنِ فَاكَ مِنْ
الْأَمِيرِ وَنَحَّه

فَلْجُرْ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ
إِنْ كَانَ لِلظَّرِبَانِ
جُرٌّ مِنتَنُ

وَبْنُو أَبِيهِ لِلْفَصَاحَةِ مَعْدِنُ
فَسَلِ الْأَمِيرَ
غَيْرُ مَوْفِقِي

وسلّ ابن دُكوانٍ

بسليقة العُرب التي لا تحزنُ
تجدّه عالماً

إذ أنت تجعلُ كلَّ

فتجيدُ ما عملت يداك وتحسينُ
يوم عفاةً

أشبهت أمك

أن قد خُبتِ وأنها لا تُختنُ
غير بابٍ واحدٍ

فلئن أصبت

وفتت فيها، وابنُ آدم يُفتنُ
دراهماً فدفتها

فبما أراك وأنت

إذ ذاك تقصيف في القيان وتزفُنُ
غير مدرهم

إذ رأسُ مالك

بيضاء مغربةً عليها السوسنُ
لُعبةً بصريّة

وقال ابن عبدل أيضاً:

كريح الجعر فوق
عطين جد

نجوت محمداً
ودخان فيه

كريم يطلبُ
المعروفَ عندي

وذلكَ بعدَ تقريظي
وحمدي

أكلّمُ صخرةً في
رأسِ صمَدٍ

فما يزدادُ مني
غيرَ بُعْدٍ

أبا بخرٍ لتتخمننَّ
ردي

لخفتَ ملامتي
ورجوتَ حمدي

ركبتُ إليه في
رجلِ أتاني

فقلتُ له ولم
أعجلَ عليه،

فأعرضَ
مُحمّماً عني
كأني

أقربُ كل
أصيرةٍ ليدنو

فأقسِمُ غيرَ
مستنٍ
يميناً

فلو كنتَ
المهدّبَ من
تميم

كريح الكلبِ ماتَ
قريبَ عهدِ

سيبلغ إن سلّمنا
أهلَ نجدِ

قرنتُ دونوه مني
ببُعدِ

بخلفتها ولم ترجع
بزندِ

وكانتُ عنده
كأسيرٍ قدِّ

قتلتُ بذاك نفسي
غيرَ عمدِ

ولو طليتُ مشافره

نَجوتُ محمداً
فوجدتُ ريحاً

وقد أَدعيتني
ثعبانَ نتنِ

وأدنى خَطمه
فوددتُ أُنِّي

كما افتدتِ
المعاذةَ من
جواه

وفارقها جواه
فاستراحتُ

وقد أدنيتُ
فاه إليَّ
حتَّى

وما يدنو إليَّ

فيه ذبابٌ

يَذُقْنَ حَلَاوَةَ
وَيَخْفَنُ مَوْتاً

فلما فاح فوه
عليّ فَوْحاً

فقلت له: تنحّ
بفِيكَ عَنِّي

وما هذا بريح
طِلاً وَلَكِنْ

فحدّثني فإنّ
الصّدقَ أدنى

أباتَ يجولُ
في عَفَجِ
طحور

بقنْد

زعافاً إن هممَنَ
له بورِد

بمثل غَثِيئَةِ الدَّبرِ
المُعَدِّ

فما هذا بريح
قُتَارِ رِنْدِ

يفوحُ خِرَاكُ منه
غيرَ سَرْدِ

لبابِ الحقِّ من
كذبِ وجحدِ

فأعلمُ أم أتاكُ به
مُعَدِّي

نَكِهتَ عَلَيَّ
نَكِهَةً
أَخْدَرِيَّ

فَإِنِ أَهْدَيْتَ لِي
مِنَ فَيْكٍ
حَتْفِي

لَكُمْ شُرُوداً
يَسِرْنَ
مَغْنِيَاتٍ

أَمَا تَخْزِي
خَزِيَّتَ لَهَا إِذَا
مَا

لَأَرْجُوَ إِنْ
نَجَوْتَ وَلَمْ
يُصَبِّبْنِي

شَتِيمِ أَعْصَلِ
الْأَنْيَابِ وَرَدِ

فَأَيُّ كَالِذِي أَهْدَيْتَ
أَهْدِي

تَكُونُ فَنُونُهَا مِنْ
كُلِّ فِنْدٍ

رَوَاهَا النَّاسُ مِنْ
شَيْبِ وَمُرْدٍ

جَوَى إِيَّيْ إِنْ
لَسَعِيدٍ جَدِّ

وقلتُ له: متى
استطُرفتَ هذا

فقال أصابني من
جوفِ مَهْدِي

فقلت له: أما
دأويتَ هذا

فتعذر فيه آمالا
بجَهْدِ

فقال: أما
علمت له
رِقَاءً

فتسديه لنا فيما
ستُسْدي

فقلت له: ولا
آلوه عيا

له فيما أسرُّ له
وأبدي

عليك بقيئة
وبجعرِ كَلْبِ

ومثلي ذاك
من نونِ
كَنْعِدِ

وحلتيتِ
وكُراتِ
وثُومِ

وعُودِي
حَرْمَلِ
وِدِمَاغِ فَهْدِ

وَحَنْجَرَةَ ابْنِ
أَوَى وَابْنِ
عَرَسٍ

ووزنِ
شَعِيرَةَ مِنْ
بَزْرٍ فَقَدِ

وَكَفَّ ذُرْحُوحٍ
وَلِسَانِ صَقْرٍ

وَمِثْقَالَيْنِ
مِنْ صَوَّانٍ
رَفْدٍ

يُدَقُّ وَيُعْجَنُ
الْمِنْخُولِ
مِنْهُ

بِبَوْلِ آجِنٍ
وَبِجَعْرِ
قِرْدٍ

وَتَدْفِنُهُ زَمَانًا
فِي شَعِيرٍ

وَتَرْقُبُهُ فَلَا
يَبْدُو لِبَرْدٍ

فَدَخَّنَ فَاكًا مَا
عَتَّقَتْ مِنْهُ

وَلَا يَعْجَنُ
بِأُظْفَارِ
وَنَدٍّ

فَإِنْ حَضَرَ
الشَّتَاءُ وَأَنْتَ

أَرَاكَ اللَّهُ
عَيْتَكَ أَمْرًا

حيّ،

فَدَخَرِجْهَا

بِنَادِقٍ

وَأَزِدْ رِدْهَا

فَتَقْدِفْ

بِالْمِصَلِّ عَلَى

مِصَلِّ

وَوَيْلَكَ مَا

لِبَطْنِكَ مَدُّ

قَعْدُنَا

فَإِنَّ لِحِجَّةِ

النَّاسِ

عِنْدِي

يُمِيتُ الدُّوْدَ

عَنْكَ

رشدِ

مَتَى رُمْتَ

التَّكْلَمِ أَيِّ

زَرَدِ

بِبَلْعُومِ

وَشِدْقِ

مُسْمَعِدِّ

كَأَنَّ دَوِيَّهَ

إِرْزَامِ

رَعْدِ

دَوَاءِ إِنْ

صَبَرْتَ لَهُ

سَيُجِدِي

إِنْ أَنْتِ

سَنَنْتَهُ سَنِّ

وتشّهيّه

المقَدّي

به، وظليّته

وشيءٍ من

بأصولِ

جَنَى لَصَفٍ

دِفْلَى

وَرَنْدٍ

أَظْنِي مَيِّتًا

أهانَ اللهُ

مِنْ نَتْنٍ فِيهِ

من نَاجَاهُ

بَعْدِي

أشعار العرب في هجاء الكلب

وقال صاحب الديك: سنذكر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرداً على وجهه، ثم نذكر ما ذموا من خلاله وأصناف أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكر هجائه في الجملة، قال بشر بن بُرد:

عددت سويداً إذ

وللكلب خير من

فخرت وتولباً

سويدٍ وتولب

وقال بشرٌ أو غيره:

أَتَذَكَّرُ إِذْ تَرَعَى عَلَى
الْحَيِّ شَاءَهُمْ

وَتَلَحَّسُ مَا فِي الْقَعْبِ
مَنْ فَضَّلِ سُورَهُ

وقال ابن الذئبة:

مَنْ يَجْمَعُ الْمَالَ وَلَا
يُتَبُّ بِهِ

يَهُنُّ عَلَى النَّاسِ هَوَانٌ
كَلْبِيهِ

وقال آخر:

إِنَّ شَرِيْبِي لَا يَغْبُ
بِوَجْهِهِ

وَلَا أَفْسِمُ الْأَعْطَانَ

وَأَنْتَ شَرِيْكُ الْكَلْبِ
فِي كُلِّ مَطْعَمٍ

وَقَدْ عَاتَتْ فِيهِ
بِالْيَدَيْنِ وَبِالْفَمِ

وَيَتْرِكُ الْمَالَ لِعَامٍ
جَذْبِهِ

كُلُّومِي كَأَنَّ
كَلْبًا يُهَارِشُ
أَكْلُبَا

وَلَا أَتَوَقَّاهُ وَإِنْ

بيني وبينه

هجا الأحوص ابناً له
فشبهه بجزو كلبٍ فقال:

كان مُجرباً

ثل جُريِّ
الكلب لم
يُفّقح

قبّح به من ولدٍ وأشفق

بالباب عند
حاجة
المستفتح

إن يرَ سوءاً ما يَقم
فينبّح

وقال أبو حُرّابة:

أنت لغيرِ طلحة
الفداء

يا ابنَ عليٍّ برح
الخفاء

أنك أنت الناقصُ
اللفاء

قد علمَ الأشرافُ
والأكفاء

حَبَّقَ جَدَّعَهُ الرَّعَاءُ

يَعْمَهُ الْمِنْزَرُ
وَالرِّدَاءُ

بَنُو عَلِيٍّ كَلَّهْمُ
سَوَاءُ

كَأَنَّهُمْ زَيْنِيَّةٌ جِرَاءُ

وقال عبد بني الحساس، وذكر قبح وجهه فقال:

أَتَيْتُ نِسَاءَ

بُوجِهِ بَرَأَهُ اللَّهُ غَيْرِ
جَمِيلِ

الْحَارِثِيِّنَ عُذْوَةَ

فَشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ
بِفَوْقِهِ

وَلَا دُونَهُ إِنْ كَانَ
غَيْرَ قَلِيلِ

وقال أبو ذباب السعدي في هوان الكلب:

لِكِسْرَى كَانَ أَعْقَلَ

لِيَالِي فَرٍّ مِنْ أَرْضِ
الضَّبَابِ

مِنْ تَمِيمٍ

وَأَسْكَنَ أَهْلَهُ بِبِلَادِ

وَأَشْجَارِ وَأَنْهَارِ
عِدَابِ

رَيْفِ

فصار بنو بنيها
مُلوَكاً

وَصرنا نحنُ أمثالَ
الكلابِ

فلا رَحَمَ الإلهُ صدى
تميم

فقد أزرى بنا في كلِّ
باب

وأراد اللعين هجاء جرير - وجرير من بني كليب - فاشتق
هجاءه من نسبه فقال:

وبين القينِ قينِ بني عقال
وإنَّ القينَ يَعْمَلُ في سَفالِ

سأقضي بـ
فإنَّ الكلبِ

كِلَا العبدینِ قد علمتُ مَعْدُنِیْمُ الأصلِ من عَمِّ وخالِ

ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النبالِ
تركُمانی
فما بقیَا عليَّ

وقال رجلٌ من همدان، يقال له الضحَّاک بن سعد، يهجو
مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقَّ له اسماً من
الكلب فجعله كلباً فقال:

عادَ الظُّلومَ ظليماً
همُّهُ الهَرَبُ

منك الهَوَيْنِي فلا
دينٌ ولا أدبُ

يُطَلِّبُ نَدَاهُ فَكَلْبُ
دُونَهُ كَلْبُ

لَجَّ الْفِرَارُ بِمَرْوَانَ
فَقُلْتُ لَهُ

أَيْنَ الْفِرَارُ وَتَرَكُ
الْمَلِكُ إِنْ قَبِلْتُ

فَرَأَشَةَ الْحِلْمِ فِرْعَوْنَ
العَذَابِ، وَإِنْ

وقال آخر وجعل الكلب مثلاً في التُّوم:

على رجلٍ بالعَرَجِ
أَلَامٌ مِنْ كَلْبِ

سَرَتْ مَا سَرَتْ مِنْ
لَيْلِهَا ثُمَّ عَرَّسَتْ

وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنه قال:

تُحْفُونَ قُبَّتَهُ بِالْقَبَابِ

ويقتلكم مثل قتل
الكلاب

فإنَّ امرأَ أنتم
حوْلَهُ

يُهينُ سَرَاتِكُمْ
جَاهِداً

وقال سحيمة بن نعيم:

لها عند أطناب البيوت
هَرِيرُ

أستَ كليبياً لكلبِ
وكلبة

وقال النجراني في ذلك:

تهرُّ في وجهي
هَرِيرِ الكلبة

من منزلي قد
أخرجتني زوجتي

قلت لها لما أراقت
جرتي

زوجتها فقيرة من
حرفتي

وأبشري منك بقرب
الضرة

أم هلالٍ أبشري
بالحسرة

الفلحس والأرشم

ويقال للكلب فلحس وهو من صفات الحرص والإلاح،
ويقال: فلان أسأل من فلحس، وفلحس: رجل من بني شيبان
كان حريصاً رغبياً، ومُلحفاً مُلحاً، وكلُّ طفيليٍّ فهو عندهم
فلحسٌ.

والأرشم: الكلب والذئب، وقد اشتق منه للإنسان إذا كان
يتشمم الطعام ويتبع مواضعه، قال جرير في بعضهم:

لَقِيَ حَمَلَتَهُ أُمَّهُ
وَهِيَ ضَيْفَةٌ
فَجَاءَتْ بَيْتِنِ لِلضَّيْفَةِ
أَرشَمَا

وقال جرير في استرواح الطعام:

وَبَنُو الْهَجِيمِ سَخِيفَةٌ
أَحْلَامُهُمْ
نَطَّ اللَّحَى مُتَشَابَهُو
الْأَلْوَانِ

لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ
شَرِبَةٍ
بُعْمَانَ أَضْحَى
جَمْعُهُمْ بُعْمَانِ

مَتَابِطِينَ بَنِيهِمْ
وَبَنَاتِهِمْ
صُعَرَ الْخُدُودِ لَرِيحِ
كَلِّ دُخَانِ

وقال سهرم بن حنظلة الغنوي في ذلك:

وَأَمَّا كِلَابٌ فَمِثْلُ
الْكِلَا
ب لَا يُحْسِنُ الْكَلْبُ إِلَّا
هَرِيرًا

لِأَشْبَهَنَ آبَاءَهُنَّ
الْحَمِيرَا

تَبِيعَ كِبَاءً وَعِطْرًا
كَثِيرَا

وَأَمَّا نُمَيْرٌ فَمَثَلُ
الْبِغَا

وَأَمَّا هِلَالٌ
فَعَطَّارَةٌ

بين جرير والراعي

ومرّ جرير يوماً بالمرَبَدِ، فوقف عليه الراعي وابنه جندل،
فقال له ابنه جندل: إنّه قد طال وقوفك على هذا الكلب
الكُلبِيِّ، فإلى متى؟ وضرب بغلته، فمضى الراعي وابنه
جندل، فقال جرير: والله لأتقلنّ رواحك فلما أمسى أخذ في
هجائه، فلم يأت ما يريد، فلما كان مع الصبح انفتح له القولُ
فقال:

فلا كعباً بلغت ولا
كلابا

على خبث الحديد إذا
لأبابا

فغضّ الطرف إنك
من نُميرٍ

ولو جعلت فقاخ بني
نُميرٍ

ثم وقف في موقفه، فلما مرَّ به جنْدَلٌ قبض على عنان فرسه،
فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت:

إذا ما الأيرُ في استِ
أبيك غابا

أجنْدَلُ ما تقول
بنو نميرٍ

قال: فادبَرَ وهو يقول: يقولون والله شرّاً.
وقال الشاعر - وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه -:

فذكرتُ حين
تبرقت ضبَّاراً

سَفَرْتُ فقلتُ لها هَجٍ
فَتَبَرَّقَتْ

وضبَّار: اسم كلب له.

أمثال في الكلاب وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفراً: إن لكلِّ
رُفْقَةٍ كلباً، فلا تكن كلبَ أصحابك. وتقول العرب: أحبُّ أهلي
إليَّ كلبهم الظاعن، ومن الأمثال وقع الكلبُ على الذئب ليأخذ،
منه مثل ما أخذ، ومن أمثالهم: الكلاب على البقر، ومن
أمثالهم في الشؤم قولهم: على أهلها دلتُ براقش، وبراقتش:
كلبة قوم نبحت علي جيش مرّوا ليلاً وهم لا يشعرون بالحيّ،
فاستباحوهم واستدلّوا على مواضعهم بنباحها.
قال الشاعر:

ألم ترَ أن سيِّدَ آلِ
ثورٍ

نباتة عضَّه كلبٌ
فماتا

قتيل الكبش وقتيل العنز

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناسُ بكلِّ شيءٍ، وقد قال عبد
الملك بن مروان: ألا تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب
الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبصٌ ولا نبص، وقال
عَرفجة بن شريك يهجو أسلمَ بن زُرعة - ووطئتُ أباه عنزٌ
بالمربد فمات - فقال:

مكانَ قتيلِ العنز أن
أكلَّما

ولم أستطع إذ بان
مني معشري

بزرعة تيساً في
الزَّريبةِ أزنما

فيما ابن قتيلِ العنز
هل أنت ثائرٌ

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى:

في طلبِ العُرفِ إلى
الكلبِ

أصبحتُ محتاجاً إلى
الضَّربِ

فصار لا ينحاش
للسَّبِّ

قال له مالي
وللصَّبِّ

يَشِبُّ مَعَهُ خَشْبُ
الصُّبِّ

قد وقح السَّبِّ له
وجهه

إذا شكَا صبُّ إليه
الهوى

أعني فتى يطعن في
دينه

قال: وقلت لأبي عبدة: أليس بُقُع الكلاب أمثلها؟ قال: لا،
قلت: ولم قال:

كخوفِ الذئبِ من بُقُعِ
الكلابِ؟

وخفتُ هجاءهم لما
تواصوا

قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

خَوْفِ الذئبِ من سُودِ الكلابِ

ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال:

تخوضُ غُموره بُقُعُ

كأنك بالمبارك بعد

شهر

الكلاب

ويدل على ذلك قول الجدلي:

لعمرى لجو من

جواء سويقة

أحبُّ إلينا أن

نجاورَ أهله

من الجوسقِ ملعونِ

بالرِّيِّ لا يني

يقولون لي صبراً

فقلتُ: لَطَّالَمَا

فليتَ عطائي كانَ

قُسَمٌ بَيْنَهُمْ

وكان لهم أجري

هنيئاً وأصبحتُ

أسافله ميث

وأعلاه أجزع

ويصبحُ منّا وهو

مرأى ومسمعُ

على رأسه داعي

المنيّةِ يلمعُ

صَبَرْتُ ولكنْ لا أرى

الصَّبَرَ ينفَعُ

وكان لي الصَّمَانِ

والحزنُ أجمعُ

بي البازلُ الكوماءِ

بالرملِ تَضْبَعُ

يموتُ به كلبٌ إذا
ماتَ أبَقَعُ

أَجَعَلُ نَفْسِي عِدَلًا
عَلَجَ كَأَنَّمَا

قال: فقد بين كما ترى أن الأبقع شرُّها، قال: وقلت: فلم قال
الشاعر:

أمسى شريدهم في
الأرض فلألاً

أرسلت أسداً على
بُقَعِ الكلابِ فقد

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغر شأن من
هزموا فقد صغر شأن الممدوح، بل إنما قال: أرسلت أسداً
على سود الكلاب.
قال: وإنما جاء الحديث في قتل سود الكلاب، لأنَّ عُقرها أكثر
ما تكون سوداً، وذلك من غلبة أنفسها.
وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحمارٍ وفرسٍ وكلبٍ
وإنسان، إلا والسود أشدُّها أسراً وعصباً، وأظهرها قوَّةً
وصبراً.
وقال أبو سعد المخزومي في هجائه دعبلاً:

دَوْلٌ وَأَخْرِبَهَا بِأَنْ

يَا ثَابِتَ بْنَ أَبِي

سعيدِ إنَّها

هلاً جعلتَ لها
كحُرْمَةِ دِعْبِلِ

وقال ابن نوفل:

وجئتَ على قِصَواءِ
تتقلُّ سَوَاءً

وتزعمُ أنْ لم تخزِ
سَلْمُ بنُ جندَلِ

تتنقلا

في است أمّ كلبٍ لا
يساوي دِعْبِلَا

إلينا وكم من سوءِ
لا تهابُها

وقد خزيتَ بعدَ
الرَّجالِ كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفر بن يحيى:

قفاً خلف وجه قد
أطيل كأنه

وأعظم زهواً من
ذباب على خراً

قفا مالك يقضي
الهموم على بثق

وأبخل من كلبٍ
عقورٍ على عرق

وقال أبو الشمقمق:

أهلُ جودٍ
ونائلٍ وفَعَالٍ

عَلَّبُوا الناسَ
بالنَّدَى والعَطِيَّةِ

جَنَّتْهُ زائِراً
فَأَدْنَى
مَكَانِي

وتَلَقَى
بِمَرْحَبٍ
وتَحِيَّةِ

لا كَمِثْلِ
الأَصَمِّ
حارِثَةِ اللُّؤ

مِ شَبِيهِ
الْكَلْبِيَّةِ
القَلْطِيَّةِ

جَنَّتْهُ زائِراً
فَأَعْرَضَ
عَنِّي

مِثْلَ
إِعْرَاضِ
قَحْبَةِ
سُوسِيَّةِ

وتَوَلَّى كائِنَهُ
أَيْرَ بَغْلٍ

غَابَ فِي
دُبُرِ بَغْلَةٍ
مِصْرِيَّةِ

وقال أيضاً:

ألا قولاً لسرّان
المخازي

ووجه الكلب والتيس
الضروط

له بطن يضلُّ
الفيل فيه

ودبرٌ مثل راقود
النشوط

وأيرٌ عارمٌ لا خيرَ
فيه

كدور سفينة في بثق
رُوط

ولحية حائكٍ من
باب قلب

موصلة الجوانب
بالخيوط

له وجهٌ عليه
الفقرُ بادٍ

مُرقة جوائبه
بقوط

إذا نهض الكرام إلى
المعالي

ترى سرّان يسفلُ في
هبوط

وقال أيضاً في ذلك: من البسيط

يا رازق الكلب

والطير والوحش في

والخنزير في سعة

يهماء دويّة

لو شئت صيرته في
حال فاقتة

حتى تُقرّ بتلك الحال
عينيّه

وقال جرير بن عطية، يهجو الصّلتان العبديّ:

أقول لها والدمع
يغسل كحلّها

متى كان حكم الله في
كرب النخل

فأجابه الصّلتانُ فقال:

تُعيرنا أن كانت
النّخلُ مالنا

وودّ أبوك الكلبُ لو
كان ذا نخل

يعيره جريرُ بأنّه كان هو وأبوه من أصحاب النّخل.
وقال وضّاح اليمّ:

وأكتم السرّ غضباناً
وفي سكري

حتى يكون له وجه
ومستمعُ

وأتركُ القولُ عن

حتى يكون لذاك

علمٍ ومقدرةٍ

النَّجْدِ مُطَّلَعُ

لا قوتي قوة الراعي
ركائبه

يبيتُ يأوي إليه
الكلب والرَّبع

ولا العسيف الذي
تشتدُّ عُقبته

حتى يثوبَ وباقي
نعله قطع

وقال محمد بن عباد الكاتب مولي بحيلة، وأبوه من سبى دابق
وكاتب زهير، وصديق ثمامة، يهجو أبا سعد دعي بني
مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي:

فعلت نزارُ بك الذي
اس

تأهنته نفياً وضرباً

فهجوت قحطانا
لأه

جؤهم مكيدةً وإربا

وأردت كيما
تشتفي

بهجائهم منهم
فترباً

ووثقت أنك ما
سبب
ت، حماك لؤمك أن
تُسبًا

كالكلب إن ينبح
فلي
س جوابه إلا أخس
كلبا

خفض عليك وقر
مكا
نك لا تطف شرقاً
وغربا

واكشف قناع أبيك
فال
آباء ليس ثنال
غصبا

وقال آخر يصف كلباً:

وَأَدْ كَطْعَم
الصَّرْخَدِيَّ تَرْكُتْه
بأرض العدا من
خشية الحدّان

ومُبدٍ لي الشّحناء
بيني وبينه
دعوتُ وقد طال
السُّرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنّه يبدي له البغضاء.

وقال آخر:

عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرَجِ
الْأَمَّ مِنْ كَلْبٍ

سَرَتْ مَا سَرَتْ مِنْ
لَيْلِهَا ثُمَّ عَرَّسَتْ

وقال راشد بن شهاب اليشكريُّ:

بَكَلْبٍ عَلَى لَحْمِ
الْجَزُورِ وَلَا بَرَمٍ

فَلَسْتُ إِذَا هَبَّتْ
شَمَالٌ عَرِيَّةٌ

وقال كُثَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ يَصِفُ نَعْلًا مِنْ نِعَالِ الْكِرَامِ:

وَإِنْ وُضِعَتْ فِي
مَجْلِسِ الْقَوْمِ شُمَّتِ

إِذَا طَرِحَتْ لَمْ يَطِبْ
الْكَلْبَ رِيحُهَا

وقال اللَّعِينُ فِي بَعْضِ أَضْيَافِهِ، يَخْبِرُ أَنَّهُ قَرَأَ لَحْمَ كَلْبٍ، وَقَدْ
قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: إِنَّمَا وَصَفَ تَيْسًا:

وَأَعْفَاجِهِ اللَّائِي
لِهِنَّ زَوَائِدُ

فَقُلْتُ لِعَبْدِي أَقْتَلَا
دَاءَ بَطْنِهِ

كَرَادِيْسُ مِنْ أَوْصَالِ
أَعْقَدَ سَافِدِ

فَجَاءَا بِخِرْشَاوِي
شَعِيرِ عَلَيْهِمَا

وقال خُلَيْدٌ عَيْنَيْنِ وَهُوَ يَهْجُو جَرِيرَ بْنَ عَطِيَّةٍ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ:

وودَّ أبوك الكلب لو
كان ذا نخل

وعيرتنا بالنخل أن
كان مالنا

وقال دِعْبَلُ بْنُ عَلِيٍّ:

لما نال كفاً من
التُّرْبِ

ولو يُرْزَقُ النَّاسُ
عن حيلةٍ

ف لما نال من مائهم
شَرِبَهُ

ولو يشربُ الماءَ
أهلُ العفا

يعمُّ به الكلبَ
والكلبِ

ولكنه رزقُ مَنْ
رِزْقُهُ

من هُجِيََ بِأَكْلِ لَحْمِ الْكِلَابِ وَلَحْمِ النَّاسِ
قال سالم بن دارة الغطفانيُّ:

لو خافَكَ اللهُ عليه
حرَّمه

يا فَعَسِيَّ لِمَ أَكَلْتَهُ
لِمَهُ

فما أكلت لحمه ولا دمه وقال الفرزدق في ذلك:

إذا أسديّ جاع يوماً
ببلدة
وكان سميناً كلبه فهو
آكله

وقال مساور بن هند:

إذا أسديّة ولدت
غلاماً
فبشّرها بلوّم في
الغلام
يخرّسها نساء بني
دُبَيْر
ترى أظفارَ أعقد
مُلقياتٍ
برائثها. على وَصَم
الثَّمَامِ

فهذا الشعر وما أشبهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنّما قراهم كلباً ولم
يقرهم تيساً، وأنَّ الصوابَ خلافُ ما قال ابنُ الأعرابيِّ.
وقال مُساور بن هند أيضاً:

بني أسدٍ أن تمحل
فهذا إنن دهرُ الكلاب

العام فقعس

وعامها

وقال شريح بن أوس يهجو أبا المهوش الأسيدي:

وعيرتنا تمر

وزأدك أير الكلب

العراق وبره

شيّطه الجمر

أكل لحوم الناس وما قيل في ذلك من شعر

وقال معروف الدبيري في أكلهم لحوم الناس:

إذا ما ضفت يوماً

فلا تطعم له أبداً

فقعسياً

طعاما

فإنّ اللحم إنسان

وخير الزاد ما منع

فدعه

الحراما

وقد هجيت هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس، قال
حسان بن ثابت يذكر هذيلاً:

إن سرّك الغدر

فأت الرجيع وسل

صرفاً لا مزاج له

عن دار لحيان

فالكلبُ والشاةُ
والإنسانُ سيّانِ

قومٌ تواصلوا بأكلِ
الجارِ بينهم

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل:

زباب فلا يأمنكم أحدٌ
بعدُ

وأنتم أكلتم شحمة
بن مخدّم

وقد نصل الأظفارُ
وانسبأ الجُدُ

تداعوا له من بين
خمسٍ وأربعٍ

مُعاوية الفلحاء يالكُ
ماشكُدِ

ورفعتم جردانه
لرئيسكم

وقال الشاعر في ذلك في باهلة:

تمششوا عظامه
وكاهله

إنَّ غفاقاً أكلته
باهله

وأصبحتُ أم غفاق
ثاكله

وهجا شاعر آخر بلُعنبر، وهو يريد ثوبَ بن شحمة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير، فأما مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبري فعير الشاعرُ ثوبَ بن شحمة بأكل الرجلِ العنبريِّ لحمَ المرأةِ إلى أن أتى ثوبٌ من الجبل فقال:

من العُنوقِ ومن
النعاجِ

عجلتُم ما صادقكم
علاجِ

حتى أكلتُم طفلة
كالعاجِ

فلما عيره قال ثوب:

إذ لا تجنُّ خبيثَ
الزادِ أضلاعي

يا بنتَ عمِّي ما
أدراكِ ما حسبي

عند الصَّياحِ بنصلِ
السَّيفِ قرَّاعِ

إني لذو مرَّةٍ
تُخشَى بواديره

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان:

فما كلبه سوداءً
تفري بنايها
غراقاً من الموتى
مِراراً وتكدمُ
أتيح لها كلبٌ
فضنَّت بعرقها
فهارشها وهي على
العرقِ تَعْدِمُ

فقف على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا.
وقال سنيح بن رباح شار الزنجي:

مَا بِالْ كَلْبِ بَنِي
كُلَيْبِ سَبْنَا
أَنْ لَمْ يُوَارِزْ حَاجِباً
وَعِقَال

قتيل الكلاب

وتنازع مالك بن مسمع وشقيق بن ثور، فقال له مالك: إنما
رفعك قبرٌ بتُسْتَرُ فقال شقيق: حينَ وضَعَك قبرٌ بالمشقَر، يا
ابن قتيلِ النساءِ وقتيلِ الكلابِ.
قال: وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلابِ، وذلكَ أنَّه لجأ
في الردة إلى قوم من عبد القيس، فكان كلبهم ينبخ عليه
فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتله فقتل به.

أمثال أخرى في الكلب

قال: والعرب تقول: أسرع من لَحْسَةِ كلبِ أنفه، ويقال: أحرص من لَعْوَةِ وهي الكلبة، وجمعها لِعَاء، وفي المثل: الأم من كلبٍ على عَرَقٍ، ونَعِمَ كلبٌ في بؤس أهله، وفي المثل: اصنع المعروف ولو مَعَ الكلب.

رؤيا الكلب وتأويلها

وقال ابن سيرين: الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقعَ فهو عجميٌّ.
وقال الأصمعيُّ عن حماد بن سلمة عن ابنِ أختِ أبي بلالِ مرداسِ بن أدية قال: رأيتُ أبا بلالٍ في النومِ كلباً تذرِفُ عيناه، وقال: إنا حوّلنا بعدكم كلاباً من كلابِ النار.
قال: ولما خرج شمر بن ذي الجوشن الضَّبَّابي لقتالِ الحسينِ بنِ علي رضي الله تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أن كلباً أبقعَ يلغُ في دمائهم، فأولَ ذلك أن يقتلهم شمر بن ذي الجوشن، وكان مُنسلخاً برصاً.
قال: والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ: كلابَ النار.
شعر في تشبيهِ الفرسِ بضروبِ من الحيوانِ ليس بينها الكلبُ وقال صاحبُ الديك: صاحبُ الكلبِ يصفُه بالسُّرعةِ في الحُضر، وبالصبرِ على طولِ العَدُو، وبسعةِ الإهاب، وأنَّه إذا

عَدَا ضَبَعَ وَبَسَطَ يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ حَتَّى يَمَسَّ قَصَصُهُ الْأَرْضَ،
وَحَتَّى يَشْرَطَ أذْنِيَهُ بِشَبَابِ أَظْفَارِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتِشِي رِيحاً مَعَ مَا
يَصِيبُ الْكَلَابَ مِنَ اللَّهْثِ، فَإِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُونَ فَلَمْ وَصَفْتَ
الشُّعْرَاءُ الْفَرَسَ وَشَبَّهْتَهُ بِضُرُوبِ مِنَ الْخَلْقِ، وَكَذَلِكَ الْأَعْضَاءُ
وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنسأ لا يلتفت أحدٌ
لِفَتْنِهِ؟ وَقَالَ أَبُو دُوَادٍ الْإِيَادِيُّ فِي ذَلِكَ:

مَرَّ مَجَّ النَّدَى
عَلَيْهِ
الْعَرَارُ

عَنْ لِسَانِ كَجْتَّةَ
الْوَرَلِ الْأَحِ

وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي شَيْءٍ، وَقَالَ
خَالِدُ بْنُ عَجْرَةَ الْكَلَابِيُّ:

بِدَارِ مَضِيَّةٍ
مَجَّ
الْعَرَارِ

كَأَنَّ لِسَانَهُ وَرَلٌّ عَلَيْهِ

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

وَخَذَّ أَسِيلًا كَالْمِسَنِّ
وَبِرْكَةً

كَجُوجُو هَيْقٍ دَفَهٍ قَدْ
تَمُورًا

ولم يذكره في شيء، وقال عُقْبَةُ بن سابق:

عَرِيضُ الْخَدِّ
وَالجَبِّ

هَةٌ وَالصَّهْوَةُ وَالجَنبِ

ولم يذكره في شيء، وقال امرؤ القيس:

وَسَامِعَتَانِ تَعْرِفُ
الْعَتَقَ فِيهِمَا

كَسَامِعَتَي مَذْعُورَةٍ
وَسَطَ رَبْرَبِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

وَلَهَا بَرَكَةٌ كَجُوجُو
هَيْقٍ

وَلَبَانٌ مَضْرَجٌ
بِالْخِصَابِ

ولم يذكره في شيء، وقال خُفَافُ بن نَدْبَةَ:

عَبِلَ الدَّرَاعِينَ سَلِيمِ
الشَّظَا

كَالسَّيْدِ يَوْمَ القِرَّةِ
الصَّارِدِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

سليم الشَّظَا عَيْلٌ أقبَّ كَتَيْسِ
الشَّوَى شَنْجِ النَّسَا الحُلبِ العَدَوَانِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

وأرساغ كأعناقٍ ظبَاءٍ أربَعِ عُلْبِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الجعدِيُّ:

كأن تماثيلَ رِقَابُ وُعُولِ لَدَى
أرساغِهِ مَشْرَبِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

لها مَتْنَتَانِ حَظَاتَا أكبَّ عَلَى سَاعِدِيهِ
كَمَا النَّمْرِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال أبو ذؤاد:

يمشي كمشي تُتَابِعَانِ أَشَقَّ

نَعَامَتَيْنِ

شَاخِصٌ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال ابن الصَّعِقِ:

بِمَحَبِّ مِثْلِ الْعُقَا

بِ تَخَالِهِ لِلضَّمْرِ قَدْحَا

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال رَبِيعَةُ بْنُ جُشَمِ النَّمْرِيِّ،
ويروى لامرئ القيس:

وَسَاقَانِ كَعْبَاهُمَا

نِ لَحْمِ حَمَاتَيْهِمَا

أَصْمَعَا

مَنْبِتْرُ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عبد الرحمن بن حسان بن
ثابت الأنصاري:

كَأَنَّ حَمَاتَيْهِمَا أَرْنَابَانِ

تَقَبَّضَتَا خَيْفَةَ الْأَجْدَلِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال خالد بن عبد الرحمن في
مثل ذلك:

كَأَنَّ حَمَاتَهَا كَرْدُوسٌ

مَقْلَصَةٌ عَلَى سَاقِي

فَحْلٍ

ظَلِيمِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الأعشى:

جُدُعُ سَمَا فَوْقَ
النَّخِيلِ مَشْدَبُ

أَمَا إِذَا
اسْتَقْبَلْتَهُ
فَكَأَنَّهُ

فَتَقُولُ سِرْحَانُ
الْعَضَا الْمَتَصَوِّبُ

وَإِذَا تَصَفَّحَهُ
الْفَوَارِسُ
مَعْرُضاً

سَاقٌ يَقْمِّصُهَا
وِظِيفٌ أَحَدَبُ

أَمَا إِذَا
اسْتَدْبِرْتَهُ
فَتَسْوِقُهُ

لَمَا كَشَفْتَ
الْجُلَّ عَنْهُ
أَرْنَبَ

مَنْهُ
وَجَاعِرَةٌ
كَأَنَّ
حَمَاتَهَا

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الأسعر الجعفي:

باز يكفیف أن يطير
وقد رأى

فتقول هذا مثل
سرحان الغضا

ساق قموص الوقع
عارية النساء

أما إذا استقبلته
فكأته

أما إذا استعرضته
متمطراً

أما إذا استدبرته
فتسوقه

ولم يذكره في شيء، وقال أبو داود:

ولى تقول مللم
ضرب

متتابعاً ما خانه
عقب

أخرى إذا هي راعها
خطب

السيد ما استقبلته
وإذا

لأم إذا استعرضته
ومشى

يمشي كمشي نعامة
تبع

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

وإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ
وتَقْرِيْبُ تَتْفُلٍ

له أَيِطْلَأُ ظَبِي
وسَاقًا نَعَامَةً

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال ابن سنان العبدِيّ:

كالجِدْعِ شَدْبَهُ نَفِيٍّ
المِنْجَلِ

أما إذا ما أَقْبَلْتُ
فُطْرَةَ

ضَخْمٌ مَكَانُ حِرَامِهَا
والمِرْكَلِ

أما إذا ما أَعْرَضْتُ
فَنَبِيْلَةَ

تَنْفِي سَنَابِكِهَا صِلَابِ
الجَنْدَلِ

أما إذا تَشَدَّدَ فَهِيَ
نَعَامَةٌ

قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان قال
أبو عبيدة: ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طولٌ وظيفها
وقصر ساقها وعُري نسيها، ومما يشبه من خلقه خلق
الأرنب صغر كعبيها، ومما يشبه من خلقه خلق الحمار
الوحشي غلظ لحمه، وظمأ فصوصه وسرّاته، وتمحص
عصبه، وتمكّن أرساغه، وعرض صهوته.
قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إنّ مما يشبه من خلقه

خُلِقَ الكلب هَرَّتْ شِدْقِهِ، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار
قَصِّه، وسبوغ ضلوعه، وطول ذراعيه، ورُحْب جِلده، ولحوق
بطنه، وقال طُفَيْل العَنَوِيُّ، يصف الخيل:

ضِرَاءٌ أَحَسَّتْ نِبَاءَهُ
من مَكْلَبٍ

تَبَارِي مَرَاخِيهَا
الزَّجَاجُ كَأَنَّهَا

وقال طُفَيْلُ أَيضاً:

وإن يَلِقُ كَلْبَ بَيْنِ
لِحْيِيهِ يَذْهَبُ

كَأَنَّ عَلَى أَعْطَافِهِ
ثَوْبَ مَائِحٍ

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة، من
جميع أشعار العرب؟ وقال صاحب الكلب: لعنَّا إن تتبَّعنا ذلك
وجدناه كثيراً، ولكنك تقدَّمت في أمر ولم تُشعر بالذي تعني،
فَنَلْتَقِطُ من الجميع أكثرَ مما التقتت، والإنسان شريف
الأعضاء وقد تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق،
وما حضرنا من الأشعار إلاَّ قوله:

وكأنه رجلٌ مُغَاصِبٌ

وترى الكميَّةَ أمامه

وقال الشاعر في ذلك:

فَعَلَ الضَّرَاءِ
تَرَاخَ لِلْكَلابِ

خُوصٌ تَرَاخَ إِلَى
الصَّرَاخِ إِذَا غَدَتِ

وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيءٍ وكان اسم فرس عامر بن
الطفيل، الكلب، والمزنوق، والورد.

شعر في وصف الناقة

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقة
ونشاطها والذي يهيجها فقال:

والتفَّ ديكٌ برجليها
وخنزيرُ

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيبًا عِنْدَ
مَعْرِضِهَا

فهلاً قال: والتف كلبٌ كما قال: والتفَّ ديكٌ وقال أبو حية:

هَرًّا يَنْشَبُ ضَبْعَهَا
بِالْأظْفَرِ

وَتَزَاوَرَتْ عَنْهُ كَأَنَّ
بَدَقَّهَا

وقال الأعشى:

هَرًّا إِذَا انْتَعَلَ الْمَطْيِ

بِجُلَالَةِ سُرْحِ كَأَنَّ

بَدَفَهَا

ظَلالَهَا

وقال عنتره بن شداد العَبَسِي:

وكأنا ينادى بجانب

وحشيٍّ من هَزَجٍ

دَقَّها ال

العشيِّ مؤمِّمٍ

هرَّ جَنِيبٌ كَلِّما

عَضَبِي اتقاها باليدين

عَطَفَتْ لَه

وبالفمِ

وقال المثقَّب العَبْدِيُّ:

فسلِّ الهمَّ عنك بذاتِ

عُدائِرَةٍ كَمِطْرَقَةٍ

لَوْثِ

الْقُيُونِ

بصاِدِقَةٍ الوَجِيفِ كَأَنَّ

يُبَارِيها ويأخُذُ

هَرًّا

بالوَضِينِ

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السَّبَاعَ المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار، كما ذكر الهمَّ وابن آوى، والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أَنَّ الهمَّ أقوى منه، ألا ترى أوسَ بن حجرٍ قال في ذلك:

كَأَنَّ هَرّاً جَنِيْباً عِنْدَ مَغْرَضِهَا

فذكر الموضع الذي يوصف بالخُبِّ والخذش والخمش والتظفير، فلما أراد أن يفرّعها ويثوّرَها حتى تذهب جافلة في وجهها، أو نأدة، أو كأنها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال:

والتفّ ديكٌ برجليها وخنزير

وقال أبو النجم:

من شهوة الماءِ ورزاً
معضل

لو جرّ شنّ وسطها
لم تحفيل

ولو قال أوس:

والتفّ شنّ برجليها وخنزير

لكان جائزاً، لولا يُبَسُّ الشنّ وقحوله، وأنه ليس مما يلتوي على رجليها، وقال آخر:

إذا هو لم يكلم

كأنّ ابن آوى مؤثّق

تحت غزرها

بنابيه ظفرا

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يحلُّ لرجلٍ أن يُعطيَ عَطِيَّةً ويرجع فيها، إلاّ الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يُعطي العَطِيَّةَ ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل، حتى إذا شبع قاءَ ثم عاد في قيئه.

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يرجع في هبته إلاّ الوالد من ولده، والعاقد في هبته كالعائد في قيئه.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر، أنّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلب، قال عبد الله بن جعفر: وكانت أمي تحت أبي بكر، وكان جرو لي تحت سريره فقلت له: يا أبت، وكلبي أيضاً؟ فقال: لا تقتلوا كلب ابني، ثم أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خذوه من تحت السرير - وأنا لا أدري، فقتل.

وإسماعيل بن أمية قال: أمّتان من الجنّ مُسِختا، وهما الكلاب والحيات.

ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدرَ نفسه صار عند نفسه أدلّ من الكلب.

لؤم الكلب

قال صاحب الديك - وذَكَرَ الكلب فقال -: من لؤمِه أَنه إِذا
أسمنَّته أَكلك، وإِن أَجعَّته أنكرك، ومن لؤمه اتبَّاعه لمن
أهانَه، وإلفه لمن أَجاعَه؛ لأنَّه أَجهلٌ من أَن يأنس بما يؤنس
به وأشره وأنهم وأحرصُ وألجُّ من أَن يذهب بمطعمته ما
يذهب بمطامع السباع.

ومن جهله أيضاً أَنَّا لم نجدَه يحرسُ المحسنين إليه بنباحه،
وأربابَه الذين ربَّوه وتبَّئوه إلا كحراسته لمن عرفه ساعةً
واحدة، بل لمن أذَّله وأجاعَه وأعطشه، بل ليس ذلك منه
حراسةً، وإنَّما هو فيه من فضل البداء أو الفحش، وشدَّة
التحرُّش والتسرُّع، وقد قال الشاعر في ذلك:

ثم كسرت العين من
غير عور

إذا تخازرت وما بي
من خزر

أسود قزاح يعوي في
السحر

أبذى إذا بؤذيت من
كلب ذكر

وإنَّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعترى نساء السفلة
من الصخب.

جبن الكلب

والكلب جبانٌ وفيه جرأةٌ ولؤمٌ، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيّب كان أمثل، ومن فرط الجبن أنّه يفزع من كلّ شيء وينبّه.

والبردون ربّما رمح البردون مبتدئاً، وقلق وصهل صهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضل قوّة يجدها في نفسه على المرموح، ولكنّه يكون جباناً، فإذا رأى البردون الذي يظنُّ أنّه يعجز عنه أراه الجبنُ أنّه واقّع به، فعندها يقلق وإذا قلق رمح، وهذه العلة تعرض للمجنون؛ فإنّ المجنون الذي تستولي عليه السّوداء، ربما وثب على من لا يعرفه، وليس ذلك إلّا لأنّ المرّة أوهمته أنّه يريد بسوء، وأنّ الرأي أن يبدأ بالضرب، وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماء والنار.

مما حدث للنظام

فأمّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيّار النّظام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبلّة، وتقدّمته شيئاً، وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرّعاء، وكره أن يعدو فيغريه ويضريه، وأنف أيضاً من ذلك - وكان أنفاً شديد الشكيمة أباء للهزيمة - وكره أن يجلس مخافة أن يشغّر عليه أو لعله أن

يَعْضُّهُ فَيَهْرِتَ ثَوْبَهُ، وَأَلْحَّ عَلَيْهِ فَلَمْ يَنْلِهِ بِسَوْءٍ، فَلَمَّا جُزْنَا
حَدَّهُ وَتَخَلَّصْنَا مِنْهُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي كَلَامٍ لَهُ كَثِيرٍ، يَعَدُّ خِصَالَهُ
الْمَذْمُومَةَ، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ أَنْ قَالَ: إِنْ كُنْتُ سَبَعٌ فَازْهَبْ مَعَ
السَّبَاعِ، وَعَلَيْكَ بِالْبِرَارِيِّ وَالْغِيَاضِ، وَإِنْ كُنْتُ بَهِيمَةً فَاسْكُتْ
عَنَّا سَكُوتَ الْبَهَائِمِ وَلَا تَنْكُرْ قَوْلِي وَحَيَاتِي عَنْهُ بِقَوْلٍ مَلْحُونٍ،
مَنْ قَوْلِي: إِنْ كُنْتُ سَبَعٌ وَلَمْ أَقُلْ إِنْ كُنْتُ سَبْعًا.

الكتاب الثالث

إفساد الإعراب لنوادير المولدين

سبب اختيار الليل للنوم

نوم الملوك

تلهي المحزون بالسماع

نوادير ديسيموس الهوناني

أمثال أخرى في الكلب

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

طائفة من المسائل

أصناف الكلاب

ما اشتق من اسم الكلب

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

ما قيل من الشعر في كليب

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

ألفاظ القرآن الكريم

ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه

الشرف والخمول في القبائل

بكل وإد بنو سعد

الحنف عند العرب

أثر الشعر في نباهة القبيلة

قصص تتعلق بالكلاب

جنايات الديك

نفع الكلب

العواء وما قيل من الشعر فيه

ما قالوا في أنس الكلب وإفنه

هجو الناس بهجو كلابهم

إفساد الإعراب لنوادير المولدين

وأنا أقول: إنّ الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أنّ اللحن يُفسد كلام الأعراب؛ لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجميّة التي فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدّلت صورته. ثم قال أبو إسحاق: إنّ أطمعه اللصّ بالنهار كسرة خُبزٍ خلاه، ودار حوله ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتشٍ وأكلٌ سُحتٍ؛ وهو مع ذلك أسمعُ الخلقِ صوتاً، وأحمقُ الخلقِ يقظةً ونوماً، وينام النهار كله على نفس الجادّة، وعلى مدقّ الحوافر، وفي

كل سوقٍ وملتقى طريق، وعلى سبيل الحمولة وقد سهر الليل
كله بالصياح والصخب، والنصب والتعب، والغيب والغضب،
وبالمجيء والذهاب، فيركبه من حبّ النوم على حسب حاجته
إليه، فإن وطنته دابةً فأسوأ الخلق جزعاً وألمه لوماً، وأكثره
نباحاً وعواءً، فإن سلم ولم تطأه دابةٌ ولا وطنه إنسان،
فليست تتم له السلامة؛ لأنه في حال متوقع للبلية، ومتوقع
البلية في بليّة، فإن لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ
حالاً منه؛ لأنه أسوأهم جزعاً، وأقلهم صبراً، ولأنه الجاني
ذلك على نفسه، وقد كانت الطرق الخالية له معرضة، وأصول
الحيطان مباحة.

وبعد فإن كل خلقٍ فارق أخلاق الناس فإنه مذموم، والناس
ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً، وينتشرون بالنهار
الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحاً.
قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إن سهره بالليل ونومه
بالنهار خصلةٌ ملوكيةٌ لقلنا، ولو كان خلاف ذلك أذ كانت
الملوك بذلك أولى، وأمّا الذي أشرت به من النوم في الطرق
الخالية، وعبثم به من نومه على شوارع الطرق والسكك
العامة وفي الأسواق الجامعة، فكل أمرئ أعلم بشأنه، ولولا
أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان

الكتّاب، من رضّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً في طريق
خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يُهابون، ومشِيخةٌ يرحمون
ويزجرون السفهاء، وأنّ ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق -
لقلّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق، وعلى أنّ هذا الخُلُق
إنّما يعترى كلاب الحُرّاس، وهي التي في الأسواق مأواها
ومنازلها.

وبعد فمن أخطأ وأظلم ممّن يكلف السباع أخلاق الناس
وعادات البهائم وقد علمنا أنّ سباع الأرض عن آخرها إنّما
تهيج وتسرّح وتلتمس المعيشة وتتلاقى على السفاد والعظام
ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

سبب اختيار الليل للنوم

وإنما نام الناس بالليل عن حوائجهم، لأنّ التمييز والتفصيل
والتبيين لا يمكنهم إلاّ نهاراً، وليس للمتعب المتحرّك بدٌّ من
سكون يكون جَماماً له، ولولا صرفُهم التماسَ الجَمام إلى
الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقتُ مانع من التمييز
والتبيين، لكانت الطبائع تنتقض، فجعلوا النّوم بالليل لضربين:
أحدهما لأنّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرّكود والخُثورة،
كان ذلك أنزَع إلى النوم وما دعا إليه، لأنّه من شكله، وأمّا

الوجه الآخر فلأنَّ الليلَ موحِشٌ مخُوف الجوانب من الهوامِّ والسباع، ولأنَّ الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدرهم، والحبوب، والبزور، والجواهر، وأخلاط العطر، والبرِّبهار، وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبائِعهم وساقَتهم غرائزهم إلى وضعِ النوم في موضعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قَدَّر اللهُ تعالى من ذلك وأحبَّه، وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليل، ولها أيضاً علٌّ أخرى يطول ذكرُها.

نوم الملوك

وأما ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنَّ الملوك لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركة بالنهار، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلت حوائجها عن مقدار النهار ولم يتسع لها، فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون، وجمعت المقدارَ الفاضل عن اتِّساع النهار إلى المقدارِ الذي لا بدُّ للخلوة بالأسرار منه؛ أخذت من الليل صدرًا صالحًا، فلمَّا طال ذلك عليها أعانتها المِران، وخفت ذلك عليها بالدَّربة.

وناسٌ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سماع

الصوت الحسن مما يزيد في المنة، ويكون مادة للقوة،
وعلموا أنّ العوامّ إذا كانت لا تتناول الشراب ولا تتكلف
السمع على هذا المعنى، أن ظنّها سيئاً، وقولها سيكثر؛
فأروا أنّ الليل أستر وأجدر أن يتمّ به التدبير، وقال الراجز:

الليل أخفى والنهار أفضح

وقالوا في المثل: الليل أخفى للويل.

تلهي المحزون بالسمع

وما زالت ملوك العجم تلهي المحزون بالسمع، وتعلّل
المريض، وتشغله عن التفكير، حتّى أخذت ذلك ملوك العرب
عن ملوك العجم، ولذلك قال ابن عسلة الشيباني:

حتى ننام ننام تناوم
العجم

وسماع مدجنة
تعللنا

عمّ السمك وخالة
النجم

فصحت والنمري
يحسبها

النجم: واحد وجمع، وإنما يعني في البيت الثرياً، ومدجنة:
يعني سحابة دائمة.

قول أم تأبط شراً في ولدها وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء
نساء العرب - وإذا كان نساء العرب في الجملة أ عقل من
رجال العجم، فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدّمة فيهم -
فرووا جميعاً أنّ أمّ تأبط شراً قالت: والله ما ولدتُه يئناً، ولا
سقيته عُيلاً ولا أبته على مآفة.

فأمّا اليتن فخرج رجل المولود قبل رأسه، وذلك علامة
سوء، ودليل على الفساد، وأما سقى الغيل، فارتضاع لبن
الحبلى، وذلك فساد شديد.

ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه وأما قولها في
المآفة، فإنّ الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت
الأم جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدوار، أو نومه
بأن تضرب يدها على جنبه، ومتى نام الصبي وتلك الفرعة أو
اللوعة أو المكروه قائم في جوفه، ولم يعلل ببعض ما يلهيه
ويضحكه ويسرّه، حتى يكون نومه على سرور، فيسري فيه
ويعمل في طباعه، ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم؛
فإنّ ذلك ممّا يعمل في الفساد، والأمّ الجاهلة والمرقصة
الخرقاء، إذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين، كثر منها
ذلك الفساد، وترادف، وأعان الثاني الأوّل والثالث الثاني حتى
يخرج الصبي مانقاً، وفي المثل: صاحبي منق وأنا تنق،

يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرّفيق والزّميل، وقد استفرغه الضّجر لطول السفو فقلّبه ملآن، فأولُّ شيءٍ يكون في ذلك المنق من المكروه لم يحتمله بل يفيض ضجره عليه، لامتلأه من طول ما قاسى من مكروه السفر.

ما يحتاج إليه الملوك فاحتاج حُذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة، أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن، ويشدّوا من منّهم بالشرب، الذي إذا وقع في الجوف حرّك الدّم، وإذا حرّك الدّم حرّك طباع السرور، ثمّ لا يزال زائداً في مكيال الدم، زائداً في الحركة المولّدة للسرور، هذه صفة الملوك، وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله، وعلمه من علمه.

وقال صاحب الكلب: أمّا تركه الاعتراض على اللصّ الذي أطعمه أيّاماً وأحسن إليه مراراً، فإنّما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه، وتعاهدهم له، فإذا كان عهده ببرّ اللصّ أحدث من عهده ببرّ أهله، لم يكفّ الكلب النظر في العواقب، وموازنة الأمور، والذي أضمر اللصّ من البيات غيبّ قد ستر عنه؛ وهو لا يدري أجاؤ ليأخذ أم جاء ليعطي، أو هم أمره أو هو المتكلّف لذلك؛ ولعلّ أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقّوا ذلك منه بالضرب والإجاعة، وبالسبّ والإهانة. وأمّا سماجة الصّوت فالبغل أسمع صوتاً منه، كذلك الطاوس على أنّهم

يتشَاءَمون به، وليس الصَّوت الحسنُ إلا لأصناف الحمام من القَمَارِيِّ والدَّبَاسِيِّ، وأصناف الشَّفَانِين والورَاشِين، فأما الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميع الطير والسباع والبهائم فكَذَلِكَ، وإِنَّمَا لك أن تَدَمَّ الكلبَ في الشيء الذي لا يعمُّ، والناس يقولون: ليس في الناس شيءٌ أقلُّ من ثلاثة أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة الحسنة؛ ثمَّ النَّاسُ بعدُ مختلِطون ممتزجون، وربَّما كان من النَّاسِ بل كثيراً ما تجدُّه وصوته أقبحُ من صوت الكلب، فلم تخصَّصون الكلبَ بشيءٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب؟ وأما غواؤه من وطء الدَّابةِ وسوء جزعه من ضرب الصَّبيان، فجزعُ الفرس من وقع عذبة السَّوط، أسوأ من جزعه من وقع حافر برذون، وهو في هذا الموضع للفرس أشدُّ مناسبةً منه للحمار.

على أن الدَّيْكَ لا يُذَكَّر بصبرٍ ولا جزع.

نوادِر ديسيموس اليوناني

قال صاحب الديك: حدَّثني العُتْبِيُّ قال: كان في اليونانيِّين ممرور له نوادرٌ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس، قال: والحكماء يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة ما منها إلا وهي

عُرَّةٌ؛ وعينٌ من عُيون النواذر: فمنها أَنَّهُ كان كلِّما خرَجَ من بيته مع الفجر إلى شاطئِ الفرات للغائطِ والظهور، ألقى في أصل باب داره وفي دُوارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلِّما رجع من حاجته، فكان كلِّما رجع لم يجد الحجرَ في موضعه، ووجد البابَ منصفقاً، فكمن له في بعض الأيام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع، فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجلٌ حتَّى تناوَلَ الحجرَ، فلَمَّا نَحَّاه عن مكانه انصفق البابُ، فقال له: ما لك ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال لم أعلم أَنَّهُ لك، قال: فقد علمت أَنَّهُ ليس لك.

قال: وقال بعضهم: ما بال ديسيموس يعلم الناسَ الشَّعرَ ولا يقول الشعرَ؟ قال: ديسيموس كالمسنِّ الذي يشحذ ولا يقطع. وراه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أتأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكلَ من السوق. قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطاً عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقيل له: ما منعك من مكافأته وهو لك مُعرض؟ قال: رأيت لو رمحك حمارٌ أكنت ترمحه؟ قال: لا، قال: فإن ينجح عليك كلب تنبح عليه؟ قال: لا، قال: فإن السفية إما أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنَّه لا

يخلو من شرارة تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه.

أمثال أخرى في الكلب

وقال صاحب الديك: يقال للسفيه إنَّما هو كلب، وإنَّما أنت كلبٌ نَبَّاح، وما زال ينبِّح علينا منذُ اليوم، وكلبٌ مَنْ هذا؟ ويا كلب ابن الكلب، وأخساً كلباً.

وقالوا في المثل: احتاج إلى الصَّوف مَنْ جَزَّ كلبه، و أجع كلبك يتبعك، وأحبُّ شيء إلى الكلبِ خانقهُ، وسمَّن كلبك يأكلك، وأجوع من كلبه حومل، وكالكلب يربض في الأريِّ فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعلف.

براقش وفي أمثالهم في الشوم: على أهلها دلت براقش. وبراقش: كلبة نبحت على جيش مرؤا في جوف الليل وهم لا يشعرون بموضع الحي، فاستدلوا عليهم بنباح الكلبة فاستباحوهم.

الجنّ والحنّ وقال صاحب الديك: روى إسماعيلُ المكي عن أبي عطاء العطاردي قال: سمعت ابن عباس يقول: السُّود من الكلاب الجنّ، والبُقع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنّ ضَعْفَةُ الجنّ، كما أنَّ الجنّي إذا كفر وظلم وتعذّى وأفسد، قيل شيطان؛ وإن

قوي على البنيان والحمل الثقيل، وعلى استراق السمع قيل
مارد، فإن زاد فهو عفرية، فإن زاد فهو عبقرية، كما أن
الرجل إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن
زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بهمة، فإن زاد قالوا: أليس،
فهذا قول أبي عبيدة.

وبعض الناس يزعم أن الحنّ والجنّ صنفان مختلفان، وذهبوا
إلى قول الأعرابي حين أتى بعض الملوك ليكتب في الزماني،
فقال في ذلك:

مِن ظَاهِرِ الدَّاءِ وَدَاءِ
مُسْتَكْرَبِ

إِنْ تَكْتَبُوا الزَّمَانِي
فَأَنْتِي لَزَمِي

مَخْتَلَفِ نَجَارِهِمْ حِنَّ
وَجَنَّ

أَبَيْتُ أَهْوِي فِي
شَيَاطِينِ تُرِّي

ما ورد من الحديث والخبر في- قتل الكلاب وعن أبي عنبسة
عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من
البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم
ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان.

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، فكننا نقتلها كلها حتى قال: إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان، وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقتل الكلاب، فكُنَّا نقتلُها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قريبا إنسان فقالت: ارجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أن هذا الكلب يُؤنسي، وليس قربي أحد، فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتل كلبها فقتله، وقال في حديث آخر: إنه لما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال: الآن استرخت، قالوا: فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب، ثم صحَّ الخبرُ بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنَّها من الجنِّ والحنَّ، وأنَّ أُمَّتَيْنِ مُسَخَّتَا، وهما الحيَّات والكلاب.

ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطب عثمانُ خطبةً إلا أمرَ بقتل الكلاب وذبح الحمام، وعن الحسن قال: سمعت عثمانَ بن عفَّان يقول: اقتلوا الكلابَ واذبحوا الحمام.

قال: وقال عطاء: في قتل كلب الصيد إذا كان صائداً أربعون درهماً، وفي كلب الزرع شاة.

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاء عن إسماعيل بن حسان عن عبد الله بن عمر قال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلب الصَّيْدِ بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفرق من طعام، وفي كلب الدار بفرق من تراب، حقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه.

قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفرق. وفي قوله: وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليلٌ على أنه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه، ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكره على قبضه أحد، وكان العفو أفضل.

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

قال: وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار من هو له كاره.

ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي الحكم: أن ابن عمر سئل عن ذلك فقال: المأثم على ربِّ الدار الذي يملكها.

وعن ابن عمر قال: من اتخذ كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا صيد نقص من أجره كل يوم قيراط، فقال رجل: فإن اتخذه رجلاً وهو كاره؟ قال: إنما إثمه على صاحب الدار. وصدقة بن طيسلة المازني قال: سألت الحسن قلت: إن دورنا في الجبان وهي مغورة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتخذ فيها كلاباً؟ قال: لا لا.

وعن ابن أبي أنيسة عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو كلب ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: من اقتنى كلباً فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط.

ويونس عن أبيه عن إسحاق قال: حدثنا هنيذة بن خالد الخزاعي قال: انطلقت مع نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، نعود رجلاً من الأنصار، فلما انتهوا إلى باب الدار ثارت أكبب في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض: ما يبقي هؤلاء من عمل فلان شيئاً، كل كلب منها ينقص قيراطاً في كل يوم.

هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من اتخذ كلباً ليس بكلب صيد ولا زرع ولا ضرع،

فإنه ينقص من أجره كلَّ يوم قيراط، والقيراط مثلُ جبل أُحد.
يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال: أقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مَكَّة، وكانت امرأة عمِّ له تهاديه، فلما كانت ذات يوم قالت له: لو أرسلت إليَّ الغنم فاستأنستُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية فقال: لولا كلابها لفعلتُ؛ إنَّ الملائكة لا تدخلُ داراً فيها كلب. الثوريُّ عن سماك بن حرب، أنَّ ابنَ عباس قال على منبر البصرة: إنَّ الكلاب من الحنِّ وإنَّ الحنَّ من ضَعْفَةِ الجَن، فإذا غَشِيكم منها شيءٌ فألقوا إليها شيئاً أو اطرده، فإنَّ لها أنفُسَ سوء، وهُشِيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان إلا الكلاب.

قال صاحب الديك: روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي، عن محمد بن المنكدر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: تقامر رجلان على عهد عمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقتل فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال: أمرت بقتل أمةٍ من الأمم تسبِّح الله تعالى؟ فأمر بتركها.

وعن قتادة أنَّ أبا موسى قال: لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى: "أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ

نَائِمُونَ".

وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس، لأن تأويله هذا ليس على وجه، ولكنّه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذ الفلاح وأصحاب التعيش، مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهب الفرسان وفي ذربة رجال الحرب، فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه.

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والديكة تدخل في هذا الاسم، واسم الدجاج يجمعها جميعاً، ورويت في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويت أن الحمام مسخ، ولا أن بعضه من الجن وبعضه من الجن، ولا أن أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام، وزعمتم أن عمر إنما أمر بقتل الديكة حين كره الهراش بها والقمار بها، فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور وأكثر أهلها من الهراش بها والقمار فيها، وقد علمتم أن ولاية المدينة ربما دمرُوا على صاحب الحمام إذا خيف قبله القمار وظنوا أنه الشرف، وذكروا عن الرمي بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ،

فما بالكم لم تُخرِّجوا للكلاب من التأويل والعذر، مثل الذي
خرَّجتم للحمام والديكة.

المسوخ من الحيوان ورويتم في الجرِّي والضَّبَاب أنهما كانتا
أُمَّتَيْن مُسَخَّتَا، وروى بعضهم في الإربِيَانة أَنَّهَا كَانَتْ خِيَابَةَ
تَسْرِقُ السُّلُوكَ، وَأَنَّهَا مُسِخَتْ وَتَرَكَ عَلَيْهَا بَعْضُ خِيُوطِهَا
لِتَكُونَ عَلَامَةً لَهَا وَدَلِيلًا عَلَى جِنْسِ سَرِقَتِهَا، وَرُوِيَتْ فِي
الْفَأْرَةِ أَنَّهَا كَانَتْ طَحَّانَةً، وَفِي سُهَيْلٍ أَنَّهُ كَانَ عَشَّارًا بِالْيَمَنِ
وَفِي الْحَيَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ فِي صُورَةِ جَمَلٍ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاقَبَهَا
حَتَّى لَاطَهَا بِالْأَرْضِ، وَقَسَمَ عَقَابَهَا عَلَى عَشْرَةِ أَقْسَامٍ، حِينَ
احْتَمَلَتْ دُخُولَ إِبْلِيسَ فِي جُوفِهَا حَتَّى وَسَّوَسَ إِلَى آدَمَ مِنْ
فِيهَا، وَقَلْتُمْ فِي الْوَزْغَةِ وَفِي الْحِكَاةِ مَا قَلْتُمْ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّ الْإِبِلَ
خُلِقَتْ مِنْ أَعْنَانِ الشَّيَاطِينِ، وَتَأَوَّلْتُمْ فِي ذَلِكَ أَقْبَحَ التَّأْوِيلِ،
وَزَعَمْتُمْ أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْجِنِّ مُسَخَّتَا، وَالذَّنْبُ أَحَقُّ بِأَنْ
يَكُونَ شَيْطَانًا مِنَ الْكَلْبِ، لِأَنَّهُ وَحْشِيٌّ وَصَاحِبُ قِفَارٍ، وَبِهِ
يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي التَّعَدِّيِّ، وَالْكَلْبُ أَلُوفٌ وَصَاحِبُ دِيَارٍ، وَبِهِ
يُضْرَبُ الْمَثَلُ، وَالذَّنْبُ خَتُورٌ غَدَّارٌ، وَالْكَلْبُ وَفِي مَنَاصِحٍ، وَقَدْ
أَقَامَ النَّاسُ فِي الدَّيَارِ الْكِلَابَ مَقَامَ السِّنَانِيرِ لِلْفَأْرِ، وَالذَّنْبُ
مُضَرَّةٌ كُلُّهُ، وَالْكَلْبُ مَنَافِعُهُ فَاضِلَةٌ عَلَى مُضَارِّهِ، بَلْ هِيَ غَالِبَةٌ
عَلَيْهَا وَغَامِرَةٌ لَهَا، وَهَذِهِ صِفَةٌ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ.

والناس لم يُطبّقوا على اتّخاذها عبثاً ولا جهلاً، والقضاة
والفقهاء والعُباد والوُلاة والنّسّاك، الذين يأمرّون بالمعروف
وينهّون عن المنكر، والمحتسّبة وأصحاب التّكفّف والتّسليم
جميعاً، لم يطبقوا على ترك النّكير على ما يشاهدونه منها في
دور مَنْ لا يعصيههم ولا يمتنع عليهم إلاّ وقد علّموا أنّه قد كان
لقتل الكلاب بأعيانها في ذلك الدّهر، معنى، وإلاّ فالنّاس في
جميع أقطار الأرض لا يُجمعون على مسالمة أصحاب
المعاصي، الذين قد خلعوا عُذرهم وأبرزوا صَفحتهم، بل ما
ترى خصماً يطعن على شاهدٍ عند قاضٍ بأنّ في داره كلباً، ولا
ترى حكماً يردُّ بذلك شهادة، بل لو كان اتّخاذ الكلاب مأموراً
به، لما كان إلاّ كذلك. ولو أنّكم حملتم حكم جميع الهدّاهد على
حكم هدهد سليمان، وجميع الغربان على حكم غراب نوح،
وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة، وجميع الذّئاب على
حكم ذئب أهبان بن أوس، وجميع الحمير على حكم حمار
عزير - لكان ذلك حكماً مردوداً.

أمور حدثت في دهر الأنبياء وقد نعرض لخصائص الأمور
أسباب في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلها في
غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض
على صورة دحية الكلبي، وكان إبليس يتراءى في السّكك في

صورة سُرَاقَة المُدلجِي، وظهر في صورة الشيخ النَّجدي،
ومثل هذا كثير.

ما يسمى شيطاناً وليس به فإن زعمتم أن النبي صلى الله
عليه وسلم نظرَ إلى رجلٍ يتبع حماماً طياراً فقال: "شيطانٌ
يتبع شيطاناً"، فخبّرنا عن يتخذ الحمام من بين جميع
سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرميّين والبصريّين ومن
بني هاشم إلى من دونهم، أتزعمون أنّهم شياطينٌ على
الحقيقة، وأنهم من رِجل الشياطين؛ أو تزعمون أنّهم كانوا
إنساً فمُسِّخوا بعدُ جنّاً؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان،
على مثل قوله "شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" وعلى قول عمر:
لَأَنْزِعَنَّ شَيْطَانَهُ مِنْ نُعْرَتِهِ، وعلى قول منظور بن راحة:

شياطينُ رأسي
وانتَشَيْنَ من الخمرِ

فلما أتاني ما
تقولُ ترَقَّصتُ

وقد قال مرّةً أبو الوجيه العُكلي: وكان ذلك حين ركبني
شيطاني قيل له: وأيّ الشياطين تعني؟ قال: الغضب.
والعرب تسمي كلّ حيّة شيطاناً، وأنشد الأصمعي:

تَعَمَّجَ شَيْطَانٌ بِذِي
خِرْوَعٍ قَفْرٍ

تَلَاعَبَ مَثَى
حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ

وقالت العرب: ما هو إلا شيطان الحَمَاطة، ويقولون: ما هو
إلا شيطان يريدون القبح؛ وما هو إلا شيطان، يريدون الفِطنة
وشدَّة العارضة.

وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت: والله ما قتلنا إلا
شَيْطَانَ بَرِصاً، لأنَّ الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان،
وكان به برص.

وفي بني سعد بنو شيطان، قال طفيلٌ الغنوي:

وشيطان إذ يدعوهم ويُنوَّب

وقال ابن ميادة:

تَعَنَّتْ شَيْطَانِي وَجُنَّ
جُنُونُهَا

فلما أتاني ما نَقُولُ
مَحَارِبُ

وقال الراجز:

وكانَ في العينِ نُبوٌّ

إنِّي وإن كنتُ حديثَ

السِّنِّ

عَنِّي

فإنَّ شيطاني كبيرُ
الجنِّ

وقال أبو النّجم:

شَيْطَانُهُ أَنْتِي
وَشَيْطَانِي دُكْرُ

إِنِّي وَكَلَّ شَاعِرٍ مِنْ
الْبَشَرِ

وهذا كلُّه منهم على وجه المثل، وعلى قول منظور بن
رواحة:

مَسْبٌ عُوَيْفِ اللُّومِ حَيٍّ
بَنِي بَدْرِ

أتاني وأهلي
بالدَّمَاحِ فَعَمْرَةَ

شَيْطَانِي رَأْسِي
وَأَنْتَشِينِ مِنَ الْخَمْرِ

فلما أتاني ما يقولُ
تَرْقِصْتُ

خرافة العذرى وقد رويت عن عبد الله بن فايد بإسناد له
يرفعه قال: خرافة رجل من بني عذرة استهوته الشياطين،
فتحدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بحديث فقالت

امراً من نسايه: هذا من حديث خُرَافَة قال: لا وَخُرَافَة حقّ.
حديث عمر مع الذي استهوته الجن ورويتم أنّ شريك بن
خُبَاسَة دَخَلَ الْجَنَّةَ وخرَجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِهَا، وأنّ
عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجن فقال: ما كان
طعامهم؟ قال: الفول والرّمّة، وسأل عن شرابهم فقال:
الجذف، وقال الأعشى:

لأَعْلَمُ من أَمَسَى أَعَقَّ
وأخوَّبَا

وإني وما كلفتموني
وربّكم

وما ذنبه أنّ عَافَتْ
الماءَ مَشْرَبَا

لكالثورِ والجنيّ
يضرب ظَهْرُهُ

من خنقته الجن، ثم عود إلى الحوار وزعمتم أنّ الجنّ خنقت
حزبَ بن أمية، وخنقت مرداسَ بن أبي عامر، وخنقت
الغريض المغنّي، وأنها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو
بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أملياء بالخرافات
أقوياء على ردّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردّ تأويل الحديث
المشهور إلى أهوائكم، وقد عارضناكم وقابلناكم وقارضناكم.
وقالوا: في الحديث أنّ من اقتنى كلباً ليس بكنب زرع ولا

ضُرْعٌ وَلَا قَنْصٌ فَقَدْ أَثِمَ، فَهَاتُوا شَيْئاً مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ
يُصَلِحُ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَالقَنْصِ، وَبَعْدَ فَهَلْ اتَّخَذُوا كَلْبَ
الضَّرْعِ إِلَّا لِيَحْرَسَ الْمَاشِيَةَ وَأَوْلَادَهَا مِنَ السَّبَاعِ؟ وَهَلْ عِنْدَ
الْكَلْبِ عِنْدَ طُرُوقِ الْأَسَدِ وَالنَّمْرِ وَالذَّنَابِ وَجَمِيعِ مَا يَقْتَاتُ
اللُّحْمَانَ مِنْ رُؤْسَاءِ السَّبَاعِ، إِلَّا صِيَاحَهُ وَنَبَاحَهُ وَإِنذارَهُ
وَدَلالَتَهُ، وَأَنْ يَشغَلَهَا بَعْضَ الشَّغْلِ، وَيَهْجِجَ بِهَا بَعْضَ
الهِجْجَةِ، إِلَى أَنْ يَلْحَقَ بِهَا مِنْ يَحْمِيهَا، وَيَتَوافى إِلَيْهَا مِنْ
يُذودُ عَنْهَا، إِذْ لَيْسَ فِي هَذَا الْقِياسِ أَنَا مَتَى وَجَدْنَا دَهْرًا تَكْثُرُ
فِيهِ اللَّصُوصُ وَيَفْشُو فِيهِ السَّرَّاقُ، وَتَظْهَرُ فِيهِ النُّقُوبُ،
وَيَشِيعُ فِيهِ التَّسَلُّقُ، مَمَّنْ إِذَا أَفْضَى إِلَى مَنْزِلِ الْقَوْمِ لَمْ يَرْضَ
إِلَّا بِالْحَرِيبَةِ لَيْسَ دُونَهَا شَيْءٌ، أَوْ يَأْتِي عَلَى الْأَنْفَسِ، وَهُوَ لَا
يُصَلُّ إِلَى مَا يَرِيدُ حَتَّى يَمُرَّ عَلَى النِّسَاءِ مَكشَّفاتٍ، وَمَنْ عَسَى
إِذَا أَخَذَ الْمَرْأَةَ أَخَذَ يَدَ الْأَ يَرْضَى أَنْ يَتَوَعَّدَ بِذَبْحِ الْأَوْلَادِ وَأَنْ
يُتَّقَى بِالْمَالِ، حَتَّى يَذْبَحَ، وَمَنْ عَسَى إِنْ تَمَكَّنَ شَيْئاً أَوْ أَمَّنَ
قَلِيلاً، أَنْ يَرْكَبَ الْحَرَمَ بِالسَّوَةِ الْعَظْمَى وَبِالْتِي لَا شَوَى لَهَا،
فَهَذَا الْحَالُ أَحَقُّ بِالْحِرَاسَةِ مِنْ تِلْكَ الْأَحْوالِ.

وَبَعْدَ فَلِمَ صَارَ نِسَاءُ الْحَرَمِينَ يَتَزَاوَرْنَ لَيْلاً، وَنِسَاءُ الْمَصْرِيِّينَ
يَتَزَاوَرْنَ نَهَاراً، وَنِسَاءُ الْحَرَمِيِّينَ لَا يَرِينُ نَهَاراً، وَنِسَاءُ
الْمَصْرِيِّينَ لَا يُرِينُ لَيْلاً؛ إِلَّا لِلْمَكابِرَاتِ وَلِمَكَانِ كَثْرَةِ مَنْ

يستقفي ويتحوّب للنقب والتسلُّق، وإذا كان الأمر كذلك فأبى
الأمر أحقّ بالتحصين والحيطة، وأيهما أشبه بالتغريب
والإضاعة: اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب
نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقظة السُّراق على قدر
المسروقين.

وعلى أنا لو حُلنا بين حرس الأسواق وما تشتمل عليه من
حرائب الناس، وبين اتّخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضمان
الحراسة، ولا تمتنع كلُّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة،
ولو جَد اللصوصُ ذلك من أعظم الغنم وأجود الفرص، أو ما
تعلمون أنّ هذا الحريم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من
الأموال، أحقُّ بالمنع والحراسة والدَّفْع عنها بكلِّ حيلة، من
حفظ الغنم وحريمِ الراعي وحرمة الأجير؟ وبعد فإنّ الذئب لا
تجتمع على قطيع واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة
والخطفة، والاستلاب والاختلاس، والأموال التي في حوانيت
التجار وفي منازل أهل اليسار يأتيها من العدد والعُدَّة، ومن
نُجِب أصحاب النجدة، من يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها
وعظم حجمها، ثمَّ يجالدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأندرع
الطوال، وهم من بين جميع الخليقة لولا أنّهم قد أحسُّوا من
أنفسهم الجراءة وثبات العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا

كغيرهم، ولولا أنّ قلوبهم أشدّ من قلوب الأسد لما حَرَجُوا،
على أنّ جميع الخلق يطالبونهم، وعلى أنّ السلطان لم يُؤَلَّ إلاّ
لمكانهم، والكلاب لم تُتَّخَذْ إلاّ لِلإِنذارِ بهم، وعلى أنّهم إذا
أخذوا ماتوا كراماً.

ولعلّ المدينة قد كانت في ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل
الفساد وكان أكثرُ كلابها عَقوراً، وأكثرُ فِتْيَانِها من بين
مُهارشٍ أو مقامرٍ، والكلبُ العَقورُ والكلبُ الكلبُ أشدُّ مضرّةً
من الذئب المأمورِ بقتله.

وقد يعرض للكلاب الكلبُ والجنون لأُمورٍ: منها أن تأكلَ لحوم
الناس، ومنها كالجنون الذي يعرض لسائر الحيوان.
قتل العامة للوزغ وجُهَّالُ النَّاسِ اليوم يقتلون الوَزْغَ، على أنّ
آباءها وأمّهاتها كانت تنفُخ على نار إبراهيم، وتنقل إليها
الحطب، فأحسب أنّ آباءها وأمّهاتها قد كنَّ يعرفن فصل ما
بين النبيّ والمنتبّي، وأنَّهن اعتقدن عداوة إبراهيم، على
تقصير في أصل النظر، أو عن معاندة بعد الاستبانة حتّى
فعلن ذلك - كيف جاز لنا أن تزرّ وازرةً وِزرَ أخرى؟ إلاّ أن
تدعوا أنّ هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدة للنبوة، والكافرة
بالربوبية، وأنّها لا تتناكح ولا تتوالد.

وقد يستقيم في بعض الأمرِ أن تقتلَ أكثر هذه الأجناس، إمّا

من طريق المحنة والتعبُّد وإمّا إذ كان الله عزّ وجلّ قد قضى على جماعتها الموتَ، أن يجري ذلك المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت. وبعد فلعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال هذا القول إن كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم، ولعلّ ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فترك الرّسُ العِلّة ورووا الخبر سالماً من العِلل، مجرداً غير مضمّن.

ولعلّ مَنْ سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوّلَه، ولعلّه عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام إلى ناسٍ من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء، وكلُّ ذلك ممكناً سائغٌ غير مستنكر ولا مدفوع.

وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في الحيّة والحدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم في الكلب العقور، وكيف يُقتلن في الحِل والحرم، فإن كنتم فُقهاءً فقد علمتم أنّ تسمية الغراب بالفِسق، والفأرة بالفُوسِقة؛ أنّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس، وقد قالوا: ما فجرها إلاّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه، وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث، وقد قال صلى الله عليه وسلم: من أكل من هذه الشجرة الحبيثة فلا يقربنّ مُصلاناً

وهو على غير قوله عزّ وجلّ "الْحَيَّاتُ لِلْحَبِيثِينَ"، وقد قال بعضُ الرُّجَّازِ وذكرُ نُبَأًا:

أما أتاك عني
الحديثُ
إدّ أنا بالعائِطِ
أستغيبُ

والذنبُ وسَطُ عَنمي
يعيبُ
وصحّتُ بالعائِطِ يا
حَبِيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم.
وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلّاه، فإذا كان كذلك فإنّما يعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذنين عُنوا بالكلام، وهذه جملةٌ، وتفسيرها يطول.
القتل والقصاص وقالوا: قد أمرنا بقتل الحيّة والعقرب، والذنب والأسد، على معنى ينتظم معنيين: أحدهما الامتحان والتعبّد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة، وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العصى لا تُغني فيه على جهة الدَّفْعِ وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمَر

بالقصد إلى قتله، وإنما الغاية في دفع بأسه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارقٍ ماتَ من قطع يده، وقاذفٍ ماتَ عن جلد ظهره، وقد أمرنا بالقصد إلى قتل الحيات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأنَّ جنسها الجنسُ المتلف متى همَّ بذلك، وليس لئلا أن نضربَ الباغي بالسيف إلا وهو مقبلٌ غيرُ مدبر، ولنا أن نقتل الحية مقبلةً ومدبرةً، كما يُقتل الكافر مقبلاً ومدبراً؛ إلا أنَّ قتل الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلا الامتحان، وقد كان يجوز أن تمتحن بحبسها والاحتياط لمنعها، دون قتلها، وإذا ولى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يُؤنسَ منه النزوعُ، وسبيل الأحناسِ والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات، القتلُ مقبلةً ومدبرةً، وقد أبيع لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عندما يبلغ من جنائياتها علينا الخدش، فضلاً من الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل. والبعيرُ قتلُهُ فسادٌ، فإن صال على الناس كان قتلُهُ صلاحاً، والإنسان قتلُهُ حرام، فإن خيفَ منه كان قتلُهُ حلالاً.

طائفة من المسائل

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجَرِّيِّ، وعن مسخ الكلاب
والحُكَاةِ وَأَنَّ الحَمَامَ شَيْطَانٌ، من جنس المَزَاح الذي كُنَّا كَتَبْنَا
به إلى بعض إخواننا مَمَّنْ يَدَّعي عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ، فَجَعَلْنَا هَذِهِ
الْخِرَافَاتِ وَهَذِهِ الْفِطْنَ الصَّغَارَ، من باب المسائل. فقلنا له: ما
السَّنِقْنَاقُ والشَّيْصَبَانُ وتنكوير ودركاذاب وَمَنْ قَاتَلَ امْرَأَةَ ابْنِ
مِقْبَلٍ؟ وَمَنْ خَانِقَ الْغَرِيضِ؟ وَمَنْ هَاتَفَ سَعْدًا؟ وَخَبَّرَنَا عَنْ
بَنِي أُقَيْشٍ وَعَنْ بَنِي لُبْنَى، وَمَنْ زَوَّجَهَا؟ وَعَنْ بَنِي عَزْوَانَ
وَمَنْ امْرَأَتُهُ؟ وَعَنْ سَمْلَقَةَ وَزَوْبَعَةَ، وَالْمِيدَعَانَ، وَعَنْ النَّقَارِ
ذِي الرِّقْبَةِ وَعَنْ آصَفٍ، وَمَنْ مِنْهُمْ أَشَارَ بِأَصْفَرِ سَلِيمٍ، وَعَنْ
أَطِيقَسِ اسْمِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكُهْفِ، وَكَيْفَ صَارَتِ الْكِلَابُ لَا
تَتَبَّحُ مِنْ سَمَاءِهَا؟ وَأَيْنَ بَلَغَ كِتَابُ شَرْطِهِمْ؟ وَكَيْفَ حَدَّثُوا عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْفَأْرِ وَالْقَرْدِ وَالْخَنْزِيرِ وَالْفِيلِ وَالْأَرْنَبِ
وَالْعَنْكَبُوتِ وَالْجَرِّيِّ، أَنَّهُنَّ كُلُّهُنَّ مَسْخٌ؛ وَكَيْفَ خُصَّتْ هَذِهِ
بِالْمَسْخِ؟ وَهَلْ يَحِلُّ لَنَا أَنْ نُصَدِّقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ؟ وَكَيْفَ صَارَتِ الظُّبَاءُ مَاشِيَةً الْجَنِّ؟ وَكَيْفَ صَارَتِ
الْغِيْلَانُ تُغَيِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا حَوَافِرَهَا؟ وَلَمْ مَاتَتْ مِنْ ضَرْبَةٍ
وَعَاشَتْ مِنْ ضَرْبَتَيْنِ؟ وَلَمْ صَارَتِ الْأَرَانِبُ وَالْكِلابُ وَالنَّعَامُ
مَرَاقِبَ الْغِيْلَانِ؟ وَلَمْ صَارَتِ الرُّوَاقِيدُ مَطَايَا السَّوَاخِرِ؟ وَبِأَيِّ
شَيْءٍ زَوَّجَ أَهْلُ السَّعْلَةِ ابْنَ يَرْبُوعٍ؟ وَمَا فَرْقُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ

عبد الله بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر
على يد حرمي وأبي منصور؟ ولم غضب من ذلك المذهب؟
ولم مضى على وجهه شفشف؟ وما الفرق بين الغيلان
والسّعالِي، وبين شيطان الخضراء وشيطان الحماطة؟ ولم
عُلق السمك المالح بأذنايه والطريّ بأذانه، وما بالُ الفراخ
تُحمَل بأجنحتها والفراريح بأرجلها؟ وما بال كل شيء أصل
لسانه ممّا يلي الحلق وطرفه ممّا يلي الهواء، إلا لسان
الفيل؟ ولم قالت الهند: لولا أنّ لسانه مقلوب لتكلم؟ ولم
صار كلُّ ماضغٍ واكلٍ يُحرّك فكّه الأسفل، إلا التماسح فإنه
يحرّك فكّه الأعلى؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس
ذلك للدواب إلا في الأجفان العالية؟ وما بال عين الجرادة
وعين الأفعى لا تدوران؟ وما بيضة العُقر وما بيضة الديك؟
ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكون الأبلق العقوق؟ وما بال
لسان سمك البحر عديماً؟ وما بال الغريق من الرّجال يطفو
على قفاه، ومن النساء على وجهه؟ ولم صار القتل إذا قُتل
يسقط على وجهه ثم يقلبه ذكّره؛ وأين تذهب شِقشِقة البعير
وعُرمول الحمار والبغل وكبُد الكوسج بالنهار، ودم الميت؟
ولم انتصب خُلُق الإنسان من بين سائر الحيوان؟ وخبرني
عن الضفادع، لم صارت تنقُّ بالليل وإذا أوقدت النارُ

أَمَسَّكَتْ؟

وقالوا: قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة،
لنردَّكم إلى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر.
فإن أعجبتك هذه المسائل، واستطرقتَ هذا المذهب، فاقرأ
رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعةٌ
هناك.

أصناف الكلاب

والكلاب أصنافٌ لا يحيط بها إلا من أطالَ الكلام، وجملة ذلك
أنَّ ما كان منها للصيد فهي الضَّراء، وواحدُها ضِرورة، وهي
الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلا السَّلوقِيَّة؛ وهي من
أحرار الكلاب وعتاقها، والخلاسية هجتها ومقاريفها، وكلابُ
الرعاء من زينيَّها وكردِيها فهي كرادتها.
وقد تصيد الكلابُ غيرَ السَّلوقِيَّة، ولكنَّها تقصِّر عن السَّلوقِيَّة
بعيداً، وسلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم
العنصر حرُّ الجوهر، وقد قال النابغة:

وتوقد بالصِّفاح نارَ
الحبابِ

تَقَدَّ السَّلوقِيَّ
المضاعفَ نَسْجَه

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلبٍ
وقد دنا حَظمه من عَجَبِ ذنبِ الطّبي وهو يقول: إيه فدتك
نفسِي!! وأنشد لبعض الرّجاز:

مفديّات وملعّات

قال صاحب الديك: فلما صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤمِ
والنَّذالة، والحرصِ والشَّره، والبذاء والتسرّع وأشباه ذلك،
صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجّوه بهذه الخصال، وقال
بشّار:

لم يبقَ قبلكَ لامرئٍ
دَهْبُهُ

واستغنٍ بالوجبات
عن دَهْبِ

والليثُ يبعثُ حينه
كَلْبُهُ

يردُّ الحريصُ على
متالفه

ما اشتق من اسم الكلب

قال صاحب الكلب: لما اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودّة
أكثر؛ قال عامر بن الطفيل:

ومدجّ يسعى
بشكّته

محمرة عيناه كالكلب

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة،
ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار، وفيهم من
السباع أسد، وضبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر
رجلاً؛ ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقة
من اسم الكلب، ومن هذا الباب كليب بن يربوع، وكلاب بن
ربيعة، وكلب بن وبرة، ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر:

سَيْكُفِيكَ مِنْ ابْنِي
نِزَارٍ لِرَاعِبِ

بنو الكلبة الشّم
الطوال الأشاجع

والكلبة لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبري، وبنوها بنو
الكلبة الذين سمعت بهم - تزوجها خزيمة بن النعمان من بني
ضبيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمهم، وفيها يقول شُبَيْل بن
عزرة الضبّعي صاحب الغريب - وكان شبيعيّاً من الغالية،
فصار خارجياً من الصقرية -:

بنو كلبه هرة

خزيمة عبد خامل

الأصل أوكسُ

وأبوهمُ

وفي مِية الكلبة يقول أبوها، وهو علاج بن شحمة:

فقد كان ممّا لا يملُّ
مزارها

إن تكُ قد بانت
بمِية غربة

وما كان يُشكى في
المحول جوارها

دعتها رجالٌ من
ضبيعة كلبه

ومما اشتقَّ له من اسم الكلب من القرى والبُلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقعة التي كانت بإرم الكلبة، ومن ذلك قولهم: حين نزلنا من السّراة صرنا إلى نجد الكلبة. وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوءة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبه لجاره، وكانوا أعدّ منه فغضب ومضى، فسَمّي ذلك النجد الذي هبط منه نجد الكلبة.

وَبَطْسُوجُ بِأدوريا نهر يقال له: نهر الكلبة ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب، ومن ذلك قولهم: عبّاد بن أنف الكلب، ومن ذلك أبو عمّر الكلبُ الجرْميّ النحوي، وكان رجلاً

من العلية عالماً، عروضياً نحوياً فرضياً، وعلويه كلب
المطبخ، وكان أشرب الناس للنبيد، وقد راهنوا بينه وبين
محمد بن علي.

والكلب: كلب الماء، وكلب الرحي والضبة التي يقال لها
الكلب، وكذلك الكلبة والكلبتان، والكلاب والكلوب.
وقال راشد بن شهاب في ذلك المعنى:

وأخضب ما يبدو من
استاهها بدم

أمكن كلاب القنا
من ثغورها

وقال:

إذا كلبتا قين
ومقراضه أزم

فسوف يرى الأقوام
ديني ودينكم

وقال الراجز:

له على العير إكاف
وتفر

ما زال مذ كان غلاماً
يستتر

والكلبتان والعلاة

وَالْوَتْرُ

وقال أشهب بن رُميلة، وكان أولَ من رمى بني مجاشع بأنهم
فُيون:

وَعَرَقُ الْقَيْنِ عَلَى
الْخَيْلِ نَجَسٌ

يا عجباً هل يركبُ
الْقَيْنُ الْفَرَسَ

الكلبتان والعلاة
والقَبَسُ

وإنما أدواته إذا
جَلَسَ

وكان اسم المزنوق فَرَسِ عامر بن الطفيل: الكلب.
وقد زعمت العلماء أنّ حرب أيام هَراميت إنّما كان سببه كلب.
قال صاحب الديك: قد قيل للخوارج: كلاب النار، وللنوائح:
كلاب النار.

وقد قال جندلُ بن الراعي لأبيه في وقوفه على جرير: ما لك
تُطيل الوقوفَ على كلبِ بني لُثيب؟! وقال زفر بن الحارث:

وأصابكم مِنّا عذابٌ
مُرسلٌ

يا كلبُ قد كَلَبَ
الزَّمانُ عَلَيْكُمْ

بمَنَابِتِ الزَّيْتُونِ
وَابْنِي بَحْدَلُ

أَرْضٌ تَذُوبُ بِهَا
اللَّقَّاحُ وَتُهْزَلُ

إِنَّ السَّمَاءَ لَا
سَمَاءَ فَالْحَقِي

وَبَارِضِ عَكَ فِي
السَّوَاهِلِ إِنَّهَا

وقال حُصَيْنُ بْنُ الْقَعْقَاعِ يَرِثِي عُتَيْبَةَ بْنَ الْحَارِثِ:

بُعْتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ
بِ بْنِ شِهَابِ

فَشَفَى الْغَلِيلَ وَرِيْبَةَ
الْمَرْتَابِ

كَلْبٌ بِضَرْبِ جَمَاجِمِ
وَرِقَابِ

بَكَرَ النَّعْيِ بِخَيْرِ
خُنْدِفِ كَلِّهَا

قَتَلُوا دُؤَابًا بَعْدَ مَقْتَلِ
سَبْعَةٍ

يَوْمَ الْحَلِيسِ بِذِي
الْفَقَارِ كَأَنَّهُ

وقال آخر:

وَكُلُّ جَارٍ عَلَيَّ
جِيرَانُهُ كَلْبُ

لِللَّهِ دَرُّ بَنِي الْحَدَّاءِ
مِنْ نَفَرٍ

كَمَا تَنْصَبُ وَسَطَ
الْبَيْعَةِ الصُّبْبِ

إِذَا عَدُوا وَعَصِيَّ
الطَّلْحِ أَرْجُلُهُمْ

وإذا كان العود سريع العُلوق في كلِّ زمانٍ أو كلِّ أرضٍ، أو في عامَّة ذلك قالوا: ما هو إلاَّ كلب.
وقالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم في وزيرِ بن جابر حين خرج من عنده واستأذنه إلى أهله: نعم إن لم تدرِّكه أمُّ كلبية يعني الحمى.
وممَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال روبة:

لَاقَيْتَ مَطْلًا كَنْعَاسِ الْكَلْبِ

يقول: مطلاً مُقَرَّمَطاً دائماً، وقال الشاعر في ذلك:

كَعَيْنِ الْكَلْبِ فِي هُبِّي
قِبَاعِ

يَكُونُ بِهَا دَلِيلَ الْقَوْمِ
نَجْمٌ

قال: هذه أرض ذات غبرة من الجذب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يُهتدى به إلا وهو كأنه عين الكلب، لأنَّ الكلب أبدأ

مُغْمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها، والهَبْيُ: الظلّة
واحدُها هابٍ، والجمع هَبْيٌ مثل غازٍ وعُزَّى، والقِبَاع: التي
قَبِعَت في القتام، واحدُها قابِع، كما يَقْبَع القنفذ وما أشبهه في
جُحره، وأنشد لابن مقبل:

قُبُوعُ القَرْنَبِي
أخلفته مجاعره

ولا أطرقُ الجاراتِ
بالليلِ قابِعاً

والقُبُوع: الاجتماع والتقبُّض، والقَرْنَبِي: دُوَيْبَّةٌ أعظم من
الخُنْفَساءِ.

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب:

أم بُلَّتْ حيثَ تناطَحَ
البحرانِ

ما ضَرَّ تغلبَ وائلٍ
أهجوتهَا

كلبٌ عَوَى متهمٌ
الأسنانِ

إنَّ الأرقامَ لا ينالُ
قديمَهَا

وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان:

في الأمهات عجانُ
الكلب منظرُ

لبئس ما خلف
الآباء بعدهم

ومن هذا الضرب قول الأعرابي:

لصغري فتى من
أهلها لا يزيناها

لقد شان صغري
واليها وزينا

يعدب فيها نفسه
ويهيئها

كلاب لعاب الكلب إن
ساق هجمة

وقال عمرو بن معد يكرب:

وجوه كلاب هارشت
فازبارت

لحا الله جرماً كلما
در شارق

وقال أبو سفيان بن حرب:

ولم أجعل النعماء
لابن شعوب

ولو شنت نجتي
كُميت طميرة

لذن غدوة حتى

وما زال مهري مزجر

الكلبِ مِنْهُمْ

دَنَتْ لِغُرُوبِ

وقال عبد الرحمن بن زياد:

دَعْتَهُ بِمَسْرُوقِ
الْحَدِيثِ وَظَالِحِ

من الطرف حتى خاف
بَصْبَصَةَ الْكَلْبِ

وقال شريح بن أوس:

وَعَيَّرْتَنَا تَمْرَ
العراقِ وَنُحْلَه

وزادك أير الكلب
شَيْطَه الْجَمْرُ

وقال آخر وهو يهجو قوماً:

فجاءا بخرشأوي
شعيرِ عَلَيْهِمَا

كراديسُ من أوصالِ
أَعْقَدَ سَافِدِ

وقال الحارث بن الوليد:

ذهب الذين إذا
رأوني مُقْبِلًا

هَشَّوْا وَقَالُوا: مَرْحَبًا
بِالْمُقْبِلِ

وَبَقِيْتُ فِي خَلْفٍ كَأَنَّ
حَدِيثَهُمْ

وَلَعَّ الْكِلَابَ تَهَارَشَتْ
فِي مَنْهَلٍ

وقال سبّرة بن عمرو الفقعسيّ، حين ارتشى ضمرة النهشلي،
ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداويّ فقال سبّرة:

يَا ضَمْرُ كَيْفَ حَكَمْتَ
أَمْكَ هَابِلٌ

وَالْحَكْمُ مَسْئُولٌ بِهِ
الْمَتَعَمِّدُ

أَحْفَظْتَ عَهْدًا أَمْ
رَعَيْتَ أَمَانَةً

أَمْ هَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهَا
لَا يُنْشَدُ

شَنْعَاءَ فَاقِرَةٍ تَجَلُّ
نَهْشَلًا

تَعُورُ بِهِ الرِّفَاقُ
وَتُنْجَدُ

إِنَّ الرِّفَاقَ أَمَالٌ
حَكَمَكَ حُبُّهَا

فَلَكَ اللِّقَاءُ وَرَاكِبٌ
مَتَجَرِّدٌ

فَضَحَ الْعَشِيرَةَ
وَاسْتَمَرَ كَأَنَّهُ

كَلْبٌ يَبْصِبُ لِلْعِظَالِ
وَيَطْرُدُ

لَا شَيْءَ يَعدِلُهَا وَلَكِنْ
دُونَهَا

خَرَطَ القَتَادِ تَهَابُ
شوكَتَهَا اليَدُ

جَوْعَانُ يَلْحَسُ
أَسْكَنًا زَيْفِيَّةَ

عَلِمَ يثُورُ عَلَيَّ
البرائِنِ أَعْقَدُ

وقال مزرد بن ضرار:

وإنَّ كِنازَ اللَّحْمِ مِنْ
بَكْرَاتِكُمْ

تَهَرُّ عَلَيْهَا أُمَّكُمْ
وَتُكَالِبُ

وليتَ الَّذِي ألقى
فناؤك رَحْلَهُ

لِتَقْرِيهِ بِالتِّ عَلَيْهِ
التَّعَالِبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذكر
الأعضاء، وقال:

يا سَبْرُ يا عَبدَ بَنِي
كِلابِ

يا أيرَ كَلبِ مُوثِقِ
بِبابِ

أكانَ هَذا أَوَّلُ

يا وَرَلاً رَفَرَقَ في

الثَّوَابِ

سَرَابِ

لَا يَغْلِقَنَّكُمْ ظَفَرِي

وَنَابِي

وقال الآخر:

كَأَنَّ بَنِي طَهْيَةَ رَهْطٌ
سَلْمَى

حِجَارَةٌ خَارِيٌّ يَرْمِي
الْكِلَابَا

وقال صاحب الكلب: ومما اشتقَّ من اسم الكلب في موضع
النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائل، ويقال إنَّه قيل في
رجلين من بني ربيعة ما لم يُقَلَّ في أحدٍ من العرب، حتَّى
ضُربَ بهما المثل، وهو قولهم: أَعَزُّ من كليبِ وائل، والآخر:
لا حرَّ بوادي عَوْفٍ.

قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوِّضْ
حوضاً، وكان يحمي الكلاً ولا يُتَكَلَّمُ عنده إلاَّ خفصاً، ويجير
الصيد ويقول: صيدُ أرضِ كذا وكذا في جوارِي لا يباح، وكان
له جرو كلب قد كَتَعَه فربما قَذَفَ به في الروضة تعجُّبه،
فيحميها إلى منتهى عوائج، ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده
بعير حتَّى تصدَّرَ إبله.

ما قيل من الشعر في كليب

وفي ذلك يقول معبد بن شعبة التميمي:

وأني سأعطيه الذي
كنت أمنعُ

أظنَّ ضِرارًا أنِّي
سأطيعه

وقد كادَ غيظاً
وجهه يتبضعُ

إذِ اغرورقت عيناه
واحمرَّ وجهه

ذراعاً إذا ما قدّمتُ
لك إصبع

تقدّم في الظلم المبيّن
عامداً

يخلط أكلاء المِياه
ويمنعُ

كفعلِ كُليبٍ كنت
أنبتتُ أنه

أرانب ضاح
والظباء فترتعُ

يُجير على أفناء بكرِ
بن وائل

وقال دريد بن الصمة:

بحبلِ كلبه فيمن

لعمرك ما كُليبٌ حين

دَلَى

يَمِيحُ

بأعظم من بني سفيان
بَغِيًّا

وكلُّ عدوّهم منهم
مَرِيحٌ

وقال العباس بن مرداس:

كما كان يبغيتها كليبٌ
بظلمه

من العزّ حتى طاح
وهو قَتِيلُهَا

على وائل إذ يُنزل
الكلب مائحاً

وإذ يُمنع الأكلاء
منها حلولُهَا

وقال عباس أيضاً لكليب بن عهمة الظفريّ:

أَكْلِبُ إِنَّكَ كُلَّ يَوْمٍ
ظالمٌ

والظلمُ أنكُدُ وجْههُ
ملعونٌ

تبغى بقومك ما أراد
بوائل

يومَ الغديرِ سَمِيكَ
المطعونُ

وإخالُ أنكُ سوفَ

في صَفْحَتَيْكَ سنانهُ

تَلَقَى مِثْلَهَا

المسنونُ

وقال النابغة الجعدي:

كَلِيبٌ لَعْمَرِي كَانَ

وَأَيْسَرَ ذَنْباً مِنْكَ

أَكْثَرَ نَاصِراً

ضُرِّجَ بِالدَّمِ

رَمَى ضَرْعَ نَابِ

كحاشية البُردِ

فَاسْتَمَرَ بِطَعْنَةٍ

اليمني المسهم

وقال قَطْران العبشمي، ويقال العبشي:

أَلَمْ تَرِ جَسَّاسَ بِنِ

حِمَى وَأَنْلِي حَتَّى

مُرَّةً لَمْ يَرِدْ

أَحْتِدَاهُ جَهْلُهَا

أَجَرَ كَلِيباً إِذْ رَمَى

جَدَّتْ وَأَنْلَا حَتَّى

النَّابَ طَعْنَةً

اسْتَخَفَّتْ عَقُولَهَا

بأهون مما قلت إذ

وللذهرِ والأيامِ والِ

أنت سادِرٌ

يُدِيلُهَا

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة:

بقتل كليبٍ إذ طعى
وتخيلاً

فأصبحَ موطوءَ
الحمى متذلاً

نحن أبسنا تغلبَ
ابنةً وائلٍ

أبناه بالنابِ التي
شقَّ ضرعها

وقال رجل من بني سدوس:

لها حولَ أطنابٍ
البيوتِ هَريرُ

وأنت كليبِي لكليبٍ
وكلبةٍ

وقال ابن مقبل العجلاني:

وَأَنْ أَصْبَحُوا مِنْهُمْ شَرِيذٌ وَهَالِكٌ
بَكَتْ أُمَّ
بَكَرٍ إِذْ تَبَدَّدَ رَهْطُهَا

لَوْ أَنَّ الْمَنِيَا حَالَهَا مَتَمَّاسِكُ
وَأَنَّ كَلَا
حَيِّكَ فِيهِمْ بِقِيَّة

كلاب وكعب لا يبيتأخوه مذليلاً ولا تُعِي عليه المسالكُ

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي
سفيان:

قد سِرَتَ سَيْرَ كَلْبٍ
في عشيرته

لو كان فيهم غلامٌ
مثلُ جَسَّاسِ

الطاعن الطعنة
النجلاء عاندها

كطرة البرد أعياء
فتقها الآسي

هون من تبالة على الحجاج وقال أبو اليقظان في مثل هذا
الاشتقاق: كان أول عمل وليه الحجاج بن يوسف تبالة، فلما
سار إليها وقرب منها قال للدليل: أين هي، وعلى أي سمت
هي؟ قال: تسترك عنها هذه الأكمة، قال: لا أراني أميراً إلا
على موضع تسترني منه أكمة، أهون بها عليّ؟ وكرّ راجعاً،
ف قيل في المثل: أهون من تبالة على الحجاج.
والعامّة تقول: لهو أهون عليّ من الاعراب على عركوك.

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

قال: ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد وليّ قبل ذلك ما وليّ،
وافتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجم: هل ترى ملكاً
يموت؟ قال: نعم ولست به، أرى ملكاً يموتُ اسمه كليب،
وأنت اسمك الحجاج قال: فأنا والله كليب، أمي سمّنتني به وأنا
صبيّ، فمات، وكان استخلفَ على الخراج يزيد بن أبي مسلم،

وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة.
ما كان العرب يسمون به أولادهم قال: والعرب إنما كانت
تسمي بـكلب، وحمار، وحجر، وجعل، وحنظلة، وقرد، على
التفاوت بذلك، وكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لـزجر
الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً
سمى ابنه به وتفاعل فيه الشدة والصلابة، والبقاء والصبر،
وأنه يحطم ما لقي، وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذنباً أو رأى
ذنباً، تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب، وإن كان
حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد، وإن كان
كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعده الصوت، والكسب وغير
ذلك.

ولذلك صور عبید الله بن زياد في دهليزه كلباً وأسدأ، وقال:
كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح، فتطير إلى ذلك فطارت
عليه.

وقال آخر: لو كان الرجل منهم إنما كان يسمي ابنه بحجر
وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجعل، على هذا
المعنى فهلاً سمي ببرذون، وبغل، وعقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه
الأسماء من لغتهم.

قال الأول: إنما لم يكن ذلك، لأنه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً،

ولعلّه لا يكون رأهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة
لأمرٍ لعلهم يحتاجون إليها يوماً ما.

قالوا: فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار
وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقّ منهما اشتقاقاً محمودة،
بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمّى بنجم ولا يسمّى
بكوكب إلا أن بعضهم قد سمّى بذلك عبداً له، وفيه يقول:

لا مُتَّ إلا هَرِماً يا
كُوكِبُ

كُوكِبُ إنَّ مُتَّ فَهِيَ
مِيتَتِي

ووجدناهم يسمون بجبل وسند، وطود، ولا يسمّون بأحد ولا
بثبير وأجا وسلمى ورَضوى، وصنّيد وحميم، وهو تلقاء
عيونهم متى أطلعوا رؤوسهم من خيامهم، ويمسون ببُرج ولا
يسمون بفلك، ويسمون بقمر وشمس على جهة اللقب أو على
جهة المديح، ولم يسمّوا بأرض وسماء، وهواءٍ وماء، إلا
على ما وصفنا، وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أن جبلاً
أبلغ من حجر، وطوداً أجمع من صخر، وتركوا أسماءً جبالهم
المعروفة.

وقد سمّوا بأسد وليث وأسامةً وضرغامة، وتركوا أن يسمّوا
بسبع وسبعة، وسبع هو الاسم الجامع لكلّ ذي ناب ومخلب.

قال الأوّل: قد تسمّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمّوا بأبان
وسلمى.

قال آخرون: إنّما هذه أسماء ناس سمّوا بها هذه الجبال، وقد
كانت لها أسماء تركت لثقلها، أو لعلّة من العُل؛ وإلّا فكيف
سمّوا بسلمى وتركوا أجأ ورصوى. وقال بعضهم: قد كانوا
ربّما فعلوا ذلك على أن يتفق لواحدٍ ولودٍ ولمعظم جليل، أن
يسمع أو يرى حماراً، فيسمّى ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب
والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذكر فرس ولا
حجرٍ أو هواءٍ أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسم
رجل معظم، تتابعت عليه العرب تطيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في
ولده خاصّةً بعده، وعلى ذلك سمّت الرعية بنيتها وبناتها
بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليّ يكنى
بأبي الحسن، وكلُّ عمّر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك،
فالأسماء ضروب، منها شيء أصليّ كالسماء والأرض
والهواء والماء والنار، وأسماءٍ آخرُ مشتقاتٌ منها على جهة
القال، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى
ابنه عميراً، ويسمّى عميرٌ ابنه عمران، ويسمّى عمرانُ ابنه
معمراً، وربّما كانت الأسماء بأسماء الله عزّ وجلّ مثل ما
سمى الله عزّ وجلّ أبا إبراهيم آزر، وسمّى إبليس بفاسق،

وربما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدثُ في الأسماء؛
مثل يوم العروبة سمّيت في الإسلام يوم الجمعة، واشتقَّ له
ذلك من صلاة يوم الجمعة.

الألفاظ الجاهلية المهجورة وسنقول في المتروك من هذا
الجنس ومن غيره، ثم نعودُ إلى موضعنا الأوّل إن شاء الله
تعالى.

ترك النَّاسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن
ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه
السُّلطان: الحُمْلان والمكس، وقال جابر ابن حنيّ:

وفي كلّ ما باع امرؤ
مكسُ دِرْهَمٍ

أفي كلّ أسواق
العراقِ إتاوةٌ

وكما قال العبديّ في الجارود:

صَرَارِيّ نَعْطِي
الماكسينِ مَكُوسَا

أيا ابن المعلى خِلْتَنَا
أم حسبْنَا

وكما تركوا انعم صباحاً، وانعم ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف
أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟ وقال قيس بن زهير بن جذيمة،
ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: انعم ظلاماً أبا ضمرة قال:

نعمتَ فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير.
وعلى ذلك قال امرؤ القيس:

وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي
العُصْرِ الخَالِي

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا
الطَّلُّ البَالِي

وعلى ذلك قال الأول:

سَرَاةِ الجِنَّ قَلْتُ
عِمُّوا ظَلَاماً

أَتَوْا نَارِي فَقَلْتُ
مُنُونٌ قَالُوا

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيّد المطاع: أبيت اللعن،
كما قيل:

مَهْلًا أَبَيْتَ اللّٰعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ

وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يُحيّا بتحيّة الملوك ويقال
له: أبيت اللعن، وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون
كفرًا.

وقد ترك العبد أن يقول لسيده ربّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ
البيت، وكذلك حاشية السيّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا، كما
قال الحارث بن حلّزة:

شِي وَمَنْ دُونَ مَا
لَدَيْهِ الثَّنَاءُ

رَبُّنَا وَابْنَنَا وَأَفْضَلُ
مَنْ يَم

وكما قال لبيد حين ذكر حُدَيْفَةَ بن بدر:

وَرَبَّ مَعَدٍّ بَيْنَ خَبْتِ
وَعَزْرَعِرٍ

وَأَهْلَكَنَّ يَوْمًا رَبًّا
كُنْدَةَ وَابْنَهُ

وكما عيّر زيدُ الخَيْلِ حاتمًا الطائيَّ في خروجه من طيءٍ ومن
حرب الفساد، إلى بني بدر، حيث يقول:

بِهَا حَاتِمٌ طَبَّاءٌ وَلَا
مُتَطَبِّبًا

وَفَرَّ مِنَ الْحَرْبِ
الْعَوَانِ وَلَمْ يَكُنْ

أَبْوَةٌ حِصْنٍ فَاسْتَقَالَ
وَأَعْتَبَا

وَرِيبٌ حِصْنًا بَعْدَ أَنْ
كَانَ أَبِيًّا

إِذَا مَا تَقَضَّتْ حَرْبُنَا
أَنْ تَطْرِبَا

أَقِمِّ فِي بَنِي بَدْرِ وَلَا
مَا يَهْمُنَا

وقال عوف بن محمّم، حين رأى الملك: إنّه ربي وربّ الكعبة،
وزوجه أمّ أناس بنت عوف، وكما تركوا أن يقولوا لِقَوْمِ

الملوك السدنة وقالوا الحجة.
وقال أبو عبيدة مَعمر بن المثنى عن أبي عبد الرحمن يونس
بن حبيب النحوي حين أنشده شعر الأسدي:

تُهَان لها الغلامه
والغلامُ

ومركضة صريحي
أبوها

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلامه؟ قال: لا، هذا من
الكلام المتروك وأسماءه زالت مع زوال معانيها، كالمرباع
والنشيطة وبقي الصفايا؛ فالمرباع: رُبْع جميع الغنيمه الذي
كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنّه
الله تعالى، وأما النشيطة فإنه كان للرئيس أن ينشط عند
قسمة المتاع العلق النفيس يراه إذا استحلاه، وبقي الصفيّ
وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كل مغنم، وهو
كالسيف اللهدم والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء
النادر.

وقال ابن عَنمة الضبي حليف بني شيبان، في مرثيته بسطام
بن قيس:

لك المرباع منها
والصفايا

وحكمك والنشيطه
والفضول

والفضول: فضول المقاسم، كالشيء إذا قسم وفضلت فضلة
استهلكت، كاللؤلؤة، والسيف، والدَّرْع، والبيضة، والجارية،
وغير ذلك.

كلمات إسلامية محدثة وأسماء حدثت ولم تكن، وإنما اشتقت
لهم من أسماء متقدمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك
الجاهلية والإسلام مُحْضَرَم كَأبي رَجَاءِ العُطَارِدِيِّ، بن سالمه،
وشقيق بن سالمه؛ ومن الشعراء النابغة الجعدي وابن مقبل،
وأشباهم من الفقهاء والشعراء، ويدلُّ على أن هذا الاسم
أحدث في الإسلام، أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن
ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية، ولا كانوا يعلمون أن
الإسلام يكون.

ويقال إنَّ أَوَّلَ من سَمَّى الأَرْضَ التي لم تُحْفَرْ قَطُّ ولم تحرث
إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغة حيث يقول:

إلا الأوراري لآياً
ما أبيئها

والنوي كالحوض
بالمظلومة الجلد

ومنه قيل سقاءً مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه، وقال
الحادرة:

فصفا النطاف له
بُعِيدَ المَقْلَعِ

ظلم البطاح له انهلالُ
حَرِيصَةٍ

وقال آخر:

لو ما تَزُورُنَا إذا
الشعْبُ أَلَمَ

قالت له ميِّ بأعلى
ذِي سَلَمِ

ألا بلى يا ميِّ واليومُ
ظَلَمَ

يقول ظلم حين وضع الشيء في غير موضعه، وقال الآخر:

أنا أبو زينب واليومُ ظَلَمَ

وقال ابن مقبل:

هُرَّتْ الشَّقَاشِقُ
ظَلَامُونَ للجُرِّ

عاد الأذلة في دارٍ
وكان بها

وقال آخر:

ظَلَمْتُ وَفِي ظَلَمِي لَهُ
عَامِداً أَجْرُ

وصاحبِ صدقٍ لم
تَنَلْنِي أَدَاتِهِ

وقال آخر:

وهم لجودهم في
جُزِرَهم ظَلَمٌ

لا يَظَلِمُونَ إِذَا
ضِيفُوا وَطَابَهُمْ

وظلم الجزور: أن يعرقبوها، وكان في الحق أن تنحر نحراً، وظلمهم الجزر أيضاً أن ينحروها صحاحاً سماناً لا علة بها. قال: ومن ذلك قولهم: الحرب عشوم؛ وإنما سميت بهذا لأنها تنال غير الجاني.

قال: ومن ذلك قولهم: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ، يقول: قد وضع الشبه في موضعه.

ومن المحدث المشتق، اسم منافق لمن راعى بالإسلام واستسر بالكفر أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمم، قال الله تعالى: "فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً" أي تحرّوا ذلك وتوخّوه، وقال: "فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ" فكثُر هذا في الكلام حتى صار التيمم

هو المسح نفسه، وكذلك عاداتهم وصنيعهم في الشيء إذا
طالت صُحبتهم وملايستهم له، وكما سمَّوا رَجِيع الإنسان
الغانط، وإِنَّمَا الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا
أرادوا قضاء الحاجة للستر.

ومنه العذرة، وإِنَّمَا العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات،
ولكن لما طال إلقاءهم النَّجْو والنَّجْل في أفنيتهم، سمَّيت تلك
الأشياء التي رَمَوْا بها، باسم المكان الذي رميت به، وفي
الحديث: أَنْقُوا عَذْرَاتِكُمْ.
وقال ابن الرقيّات:

بِسِجِسْتَانِ طَلْحَةٍ
الطَّلْحَاتِ

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظَمًا
دَفَنُوهَا

تَلَّ بِالْبَخْلِ طَيِّبِ
العَذْرَاتِ

كَانَ لَا يَحْجُبُ الصَّدِيقَ
وَلَا يَعْ

ولكنَّهم لكثرة ما كانوا يُلقون نجوهم في أفنيتهم سموها
باسمها.

ومنه النَّجْو: وذلك أَنَّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تسترَّ
بنجوة. والنَّجْو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب

يَنْجُو، كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر،
ثمّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى.
وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضّأ، وإلى المذهب،
وإلى الخَلَاءِ، وإلى الحُشِّ، وإِنَّمَا الحُشُّ القِطْعَةُ مِنَ النَّخْلِ
وهي الحِشَّان، وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا
النخل؛ لأنّ ذلك أستر، فسموا المتوضّأ الحشّ، وإن كان بعيداً
من النخل؛ كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخرء، لأنّ الاسم
الخرء، وكل شيءٍ سواه من ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله
كناية، ومن هذا الباب المَلَّةُ، والمَلَّةُ موضع الخُبْزة، فسموا
الخُبْزة باسم موضعها، وهذا عند الأصمعيّ خطأ.
ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو
حامل المزايدة فسمّيت المزايدة باسم حامل المزايدة، ولهذا
المعنى سمّوا حاملَ الشعر والحديث راوية.
ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صدّاقها، قالوا: وإنّما كان يقال
ذلك حين كانوا يدفعون في الصّدّاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها
النافجة، وقال شاعرهم:

ولا شاد مالي
مُستفاد النوافج

وليس تلامي من
وراثه والدي

وكانوا يقولون: تَهْنِيكَ النافجة، قال: فإذا كانوا يدفَعون
الصَّدَاقَ عِيناً وَوَرَقاً فلا يقال ساق إليها الصَّدَاق.
ومن ذلك أَنَّهُم كانوا يضربون على العروس البناء، كالقَبَّةِ
والحَيَّةِ والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً
من البناء، ولا يقال ذلك اليوم، والعروس إمَّا أن تكون مقيمةً
في مكانها أو تتحوَّل إلى مكان أقدم من بنائها.
قال: ومن ذلك قولهم في البَغِيِّ المكتسبة بالفجور: قَحْبَةٌ،
وإنَّما القَحَابُ السعال، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنتُ
وتكسَّبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية، وقال الشاعر:

إِنَّ السَّعَالَ هُوَ الْقَحَابُ

وقال:

جاوبَ المبعِذُ منها
فَحَضَفُ

وإذا ما قَحَبْتَ
واحدةً

وكذلك كان كنايةهم في انكشاف عورة الرجل، يقال: كشف
علينا متاعه وعورته وشواره، والشَّوار: المتاع، وكذلك
الفرج وإنما يعنون الأير والحِرَّ والاسْتِ.

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

وكلمات النبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد: من ذلك قوله: إذا لا ينتطح فيها عَنزان، ومن ذلك قوله: مات حَتْفَ أنفه، ومن ذلك قوله: يا خيلَ الله اركبي ومن ذلك قوله: كلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا، وقوله: لا يُلَسَعُ المؤمنُ من جُحْرِ مرتين.

شُنْشَنَةٌ أعرِفها من أخزم وقال عُمر رضي الله تعالى عنه: شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أخزم، يعني شبه ابن العَبَّاسِ بالعبَّاسِ، وأخزم: فحل معروف بالكرم.

ما يكره من الكلام وأما الكلام الذي جاءت به كراهية من طريق الروايات، فروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يقولنَّ أحدكم خَبِثتَ نَفسي ولكن ليقُلْ لِقِسْتِ نَفسي، كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخُبْث والفساد بوجه من الوجوه.

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل: استأثر الله بفلان، بل يقال مات فلان، ويقال استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا.

قال النَّخعي: كانوا يكرهون أن يقال: قراءة عبد الله، وقراءة سالم، وقراءة أبي، وقراءة زيد، وكانوا يكرهون أن يقولوا

سَنَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، بَلْ يُقَالُ سَنَّةُ اللَّهِ وَسَنَّةُ رَسُولِهِ، وَيُقَالُ
فُلَانٌ يَقْرَأُ بِوَجْهِ كَذَا، وَفُلَانٌ يَقْرَأُ بِوَجْهِ كَذَا.
وَكَرِهَ مُجَاهِدٌ أَنْ يَقُولُوا مُسَيِّجِدٌ وَمُصَيِّحِفٌ، لِلْمَسْجِدِ الْقَلِيلِ
الدَّرْعِ، وَالْمَصْحَفِ الْقَلِيلِ الْوَرَقِ، وَيَقُولُ: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَرِيدُوا
التَّصْغِيرَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ شَبِيهٌ.

وَجَوَهَ تَصْغِيرَ الْكَلَامِ وَرَبَّمَا صَغَّرُوا الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ الشَّفَقَةِ
وَالرَّقَّةِ، كَقَوْلِ عَمْرٍ: أَخَافُ عَلَى هَذَا الْعَرِيبِ، وَلَيْسَ التَّصْغِيرُ
بِهِمْ يَرِيدُ، وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ: إِنَّمَا فُلَانٌ أَخِيَّ وَصُدَيْقِي؛ وَلَيْسَ
التَّصْغِيرُ لَهُ يَرِيدُ، وَذَكَرَ عَمْرُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ: كُنَيْفٌ مُلَى
عِلْمًا، وَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ: أَنَا جُدَيْلُهَا
الْمَحْكُوكُ، وَغُدَيْقُهَا الْمَرْجَبُ، وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لِعَانِشَةَ: الْحُمِيرَاءُ، وَكَقَوْلِهِمْ لِأَبِي قَابُوسَ الْمَلِكِ: أَبُو
قُبَيْسٍ، وَكَقَوْلِهِمْ: دَبَّتْ إِلَيْهِ دَوِيهِيَّةُ الدَّهْرِ، وَذَلِكَ حِينَ أَرَادُوا
لَطَافَةَ الْمَدْخَلِ وَدَقَّةَ الْمَسْلُوكِ.

وَيُقَالُ إِنَّ كُلَّ فَعِيلٍ فِي أَسْمَاءِ الْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ عَلَى هَذَا
الْمَعْنَى، كَقَوْلِهِمُ الْمُعَيِّيَّ، وَكُنْحُو: سُلَيْمٌ، وَضَمَيْرٌ، وَكَلِيبٌ،
وَعُقَيْرٌ، وَجُعِيلٌ، وَحُمَيْدٌ، وَسُعَيْدٌ، وَجُبَيْرٌ؛ وَكُنْحُو عُبَيْدٌ، وَعُبَيْدُ
اللَّهِ، وَعُبَيْدُ الرَّمَاحِ، وَطَرِيقُ التَّحْقِيرِ وَالتَّصْغِيرِ إِنَّمَا هُوَ
كَقَوْلِهِمْ: نُجَيْلٌ وَنُذَيْلٌ، قَالُوا: وَرُبَّ اسْمٍ إِذَا صَغَّرْتَهُ كَانَ أَمْلًا

لِلصَّدرِ، مثل قولك أبو عبيد الله، هو أئبر في السماع من أبي عبد الله، وكعب بن جُعيل، هو أفخم من كعب بن جعل، وربّما كان التصغير خِلقَة وبنية، لا يتغيّر، ك نحو الحُميا والسُكيتِ، وجُنيدة، والقطيعا، والمريطاء، والسُميراء، والمليساء - وليس هو كقولهم القصيرى، وفي كبيدات السماء والثريا. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: دَققت الباب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: أنا كأنه كره قولي أنا.

وحدّثني أبو عليّ الأنصاري، وعبد الكريم الغفاريّ قالا: حدّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عُبيد يجلس في داره، وكان لا يدع بابَه مفتوحاً، فإذا قرعه إنسان قام بنفسه حتّى يفتحه له، فأتيتُ الباب يوماً فقرعته فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: ما أعرف أحداً يسمّى أنا، فلم أقلّ شيئاً وقمتُ خلف الباب، إذ جاء رجلٌ من أهل خراسان فقرع الباب، فقال عمرو: من هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدِم عليك، يلتمس العلم، فقام له ففتح له الباب، فلما وجدتُ فرجةً أردت أن ألج الباب، فدفع الباب في وجهي بعنف، فأقمتُ عنده أياماً ثم قلت في نفسي: والله إنّي يوم أتغضب على عمرو بن عُبيد، لغير رشيد الرأي، فأتيتُ الباب فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت:

عيسى بن حاضر، فقام ففتح لي الباب.

وقال رجل عند الشَّعْبِيِّ: أليس الله قال كذا وكذا قال: وما عَلمك؟ وقال الربيع بن خُثَيْم: اتَّقُوا تَكْذِيبَ اللَّهِ، لِيَتَّقَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولَ اللَّهُ كَذَبْتَ لَمْ أَقُلْهُ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقل أحدكم أهريقُ الماء ولكن يقول أبول.

وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال: الله أعلم، فقال عمر: قد خَزينَا إن كُنَّا لا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ؛ إِذَا سُئِلَ أَحَدُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ كَانَ يَعْلَمُهُ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُهُ قَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِذَلِكَ.

وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْأَقْلِيْنَ قَالَ: مَا هَذَا الدُّعَاءُ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: "وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" وَقَالَ: "وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ"، قَالَ عمر: عليك من الدعاء بما يُعرَف.

وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه: ضَعُهُ تَحْتَ إِبْطِكَ، وَقَالَ: هَلَّا قَلَّتْ تَحْتَ يَدِكَ وَتَحْتَ مَنْكِبِكَ وَقَالَ مَرَّةً - وَرَأَتْ فَرَسًا بِحَضْرَةِ سُلَيْمَانَ - فَقَالَ: ارْفَعُوا ذَلِكَ النَّثِيلَ، وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ الرَّوْثَ.

وقال الحجاجُ لأمِّ عبد الرحمن بن الأشعث: عَمَدْتِ إِلَى مَالِ اللَّهِ فَوَضَعْتَهُ تَحْتَ، كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ عَلَى عَادَةِ النَّاسِ: تَحْتَ

استك، فتلجج خوفاً من أن يقول قَدْعاً أو رَفْتاً، ثم قال: تحت
ذيلك.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يقولنَّ أحدكم لمملوكه
عَبْدِي وَأَمْتِي، ولكنْ يقول: فَتَايَ وَفَتَاتِي، ولا يقول المملوكُ
رَبِّي وَرَبَّتِي، ولكن يقول سيِّدي وسيِّدتي.

وكره مُطَرِّف بن عبد الله، قولَ القائل للكلب: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ.
وكره عمران بن الحُصَيْن، أن يقولَ الرَّجُلُ لصاحبه: أَنْعَمَ اللَّهُ
بِكَ عِيناً؛ ولا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عِيناً، وقد كرهوا أشياءً ممَّا جاءت
في الروايات لا تُعْرَف وجوهها، فرأى أصحابنا: لا يئورونها،
ولا نستطيع الردَّ عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من
الكراهة، ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت
المؤنة، ولكنَّ أكثرَ الروايات مجردة، وقد اقتصروا على ظاهر
اللفظ دونَ حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان، وإن
كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدةً، قال ابن مسعود
وأبو هريرة: لا تسمُّوا العنَبَ الكَرَمَ؛ فَإِنَّ الكَرَمَ هو الرجلُ
المسلم.

وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
وأما قوله: لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هو الله فما أحسن ما
فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهدي قال: وجهُ هذا عندنا، أنَّ

القوم قالوا: "وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ" فلما قال القوم ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ذلك الله، يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل، فتوهم منه المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسان: قُلْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ فُقالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان: قُلْ وَمَعَكَ جِبْرِيْلُ؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماء جبريل، ألا ترى أن موسى قال: لَيْتَ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ مع كلِّ أحد، وهو يريد العصمة والتوفيق، والنصارى تقول للمتنبّي: معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت، وتقول اليهود: معه روح بعلزبول، يريدون شيطاناً، فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح الله، وقال الله عز وجل: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا"، يعني القرآن. وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل، فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحرّاً ولا ببرد قط، ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كره الحسن كما ترى.

وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية،

احتاطوا في أمورهم، فمنعواهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق.

وروا أن ابن عباس قال: لا تقولوا والذي حاتمته على فمي، فإنما يختم الله عز وجل على فم الكافر، وكره قولهم: قوس قزح، وقال: قزح شيطان، وإنما ذهبوا إلى التعرّيج والتلوين، كآته كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكان أحب أن يقال قوس الله، فيرفع من قدره، كما يقال بيت الله، وزوار الله، وأرض الله، وسماء الله، وأسد الله.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبي بعده فالأ تكُنْ ذهبَتْ إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلا أن تكون قالت لا تعيروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفظوا بمثله سواء.

وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله عز وجل، وهذا الكلام مجازُه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك. وكره ابن عباس رضي الله عنهما قول القائل: أنا كسلان. وقال عمر: لا تسموا الطريق السكّة.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جنازة، وقال: قل تبع

جنازة، كأنه ذهب إلى أنه عنى أنه كان في جوفها، وقال قل
تبع جنازة، والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم،
وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهة بقول من كره أن
يقول: أعطاني فلان نصف درهم، وقال: إذا قلت: كيف تكيل
الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القفيز بدئينير، ولكن يتناول
القفيز ثم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة وهذا من القول
مسخوط .

وكره ابن عباس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من
الصلاة، قال بل قولوا: قد قَضُوا الصلاة، وقد فرغوا من
الصلاة، وقد صلُّوا؛ لقوله: "ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ"،
قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد
انصرفوا من السُّوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفة
الناس من الدار اليوم بخير، وكنت في أول المنصرفين، وقد
كرهه ابن عباس، ولو أخبرونا بعَلَّتِهِ انتفعنا بذلك. وكره
حبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامث، وكره مجاهد
قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر
رمضان، فلعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى.
قال أبو إسحاق: إنما أتى من قبل قوله تعالى: "شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" فقد قال الناس يوم التَّروية،

ويوم عَرَفَةَ ولم يقولوا عرفة.
رأي النظم في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم.
كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين،
وإن نصبوا أنفسهم للعامّة، وأجابوا في كلّ مسألة؛ فإن كثيراً
منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلّما كان المفسر
أغربَ عندهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي،
والسدي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم، في
سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد
قالوا في قوله عزّ وجلّ: "وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ": إن الله عزّ وجلّ
لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنّما عنى
الجباه وكل ما سجد الناس عليه: من يدٍ ورجلٍ، وجبهةٍ وأنفٍ
وثفنة، وقالوا في قوله تعالى: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ": إنه ليس يعنى الجمال والنوق، وإنّما يعنى السحاب.
وإذا سئلوا عن قوله: "وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" قالوا: الطلح هو
الموز.

وجعلوا الدليل على أنّ شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع
الأمم وأنّ الناس غيروه، قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ".
وقالوا في قوله تعالى: "رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ

بَصِيرًا" قالوا: يعني أَنَّهُ حَشْرُهُ بِلَا حِجَّةٍ.
 وقالوا في قوله تعالى: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ": الويل وادٍ في
 جهنم، ثم قَعَدُوا يَصِفُونَ ذَلِكَ الْوَادِي، ومعنى الويل في كلام
 العرب معروف، وكيف كان في الجاهليَّة قبل الإسلام، وهو
 من أشهر كلامهم.
 وسئلوا عن قوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" قالوا: الْفَلَقُ:
 وادٍ في جهنم، ثمَّ قعدوا يصفونه، وقال آخرون: الْفَلَقُ:
 المِقْطَرَةُ بلغة اليمن.
 وقال آخرون في قوله تعالى: "عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا"
 قالوا: أخطأ من وصلَ بعض هذه الكلمة ببعض، قالوا: وإنما
 هي: سَلَّ سَبِيلًا إليها يا محمد، فإن كان كما قالوا فأين معنى
 تسمَّى، وعلى أيِّ شيءٍ وقع قوله تسمَّى فتسمَّى ماذا، وما
 ذلك الشيء؟ وقالوا في قوله تعالى: "وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ
 شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا" قالوا الجلود كناية عن الفروج، كأنه كان لا
 يرى أن كلام الجلد من أعجب العجب.
 وقالوا في قوله تعالى: "كَأَنَّا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ": إنَّ هذا إنما كان
 كنايةً عن الغائط، كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله
 من الدلَّة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء -
 ما يُكْتَفَى بِهِ في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتَّى يدَّعي على

الكلام ويدّعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه.
وقالوا في قوله تعالى: "وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ": إنه إنما عنى قلبه.
ومن أعجب التأويل قول اللّحياني: الجبار من الرجال يكون
على وجوه: يكون جباراً في الضّم والقوة، فتأول قوله
تعالى: "إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ" قال: ويكون جباراً على معنى
قتالاً، وتأول في ذلك: "وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ"، وقوله
لموسى عليه السلام: "إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي
الْأَرْضِ" أي قتالاً بغير حق، والجبار: المتكبر عن عبادة الله
تعالى، وتأول قوله عز وجل: "وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا"، وتأول
في ذلك قول عيسى: "وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا" أي لم يجعلني
متكبراً عن عبادته، قال: الجبار: المسلّط القاهر، وقال: وهو
قوله: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" أي مسلّط فتقهرهم على
الإسلام، والجبار: الله.

وتأول أيضاً الخوف على وجوه، ولو وجدّه في ألف مكان
لقال: والخوف على ألف وجه، وكذلك الجبار، وهذا كلّه يرجع
إلى معنى واحد؛ إلا أنه لا يجوز أن يوصف به إلا الله عز
وجلّ.

تكلف بعض القضاة في أحكامهم وقال رجل لعبيد الله بن
الحسن القاضي: إن أبي أوصى بثلث ماله في الحصون، قال:

أذهب فاشتر به خيلاً، فقال الرجل: إنه إنما ذكر الحصون قال:
أما سمعت قول الأسعر الجعفي:

أن الحصون الخيل لا
مدر القرى

ولقد علمت على
تجنبي الردى

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنه ما قيل
للمدن والحصون حصون إلا على التشبيه بالخيـل.
وخبّرني النوشرواني قال: قلت للحسن القاضي: أوصي جدّي
بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده، قال: ليس لك شيء، قلت:
ولم؟ قال: أو ما سمعت قول الشاعر:

بنوهن أبناء الرجال
الأباعد

بنونا بنو أبنائنا
وبنائنا

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شراً.
وقالوا في قوله: ما ساءك وناءك: ناءك، أبعذك، قالوا:
وساءك أبرصك، قال: لقوله تعالى: "تخرج بيضاء من غير
سوء"، وبئس التكلف.
وقال ابن قميئة:

وَحَمَّالٌ أَثْقَالٌ إِذَا
هِيَ أَعْرَضَتْ

عَلَى الْأَصْلِ لَا
يَسْطِيعُهَا الْمُتَكَلِّفُ

وقال الله وهو يخبر عن نبيه صلى الله عليه وسلم: "وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ".
وليس يُؤْتَى القوم إلا من الطمع، ومن شدة إعجابهم بالغريب
من التأويل.

رأى في أبي حنيفة وسئل حفص بن غياث، عن فقه أبي
حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكن، وأجهل الناس بما كان.
وقالوا في قوله تعالى: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" قالوا:
النعيم: الماء الحار في الشتاء، والبارد في الصيف.
الصَّرورة ومن الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء
الجاهلية، قولهم في الإسلام لمن لم يحج: صرورة.
وأنت إذا قرأت أشعار الجاهلية وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم
على خلاف هذا الموضع، قال ابن مقروم الضبِّي:

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ
لَأَشْمَطَ رَاهِبٍ

عَبْدَ الْإِلَهِ صَرُورَةٍ
مُتَبَتِّلٍ

لَدُنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ
حَدِيثِهَا

وَلَهُمْ مِنْ تَأْمُورِهِ
بِتَنْزِيلِ

والصَّوْرَةُ عِنْدَهُمْ إِذَا كَانَ أَرْفَعَ النَّاسِ فِي مَرَاتِبِ الْعِبَادَةِ،
وَهُوَ الْيَوْمَ اسْمٌ لِلَّذِي لَمْ يَحْجَّ إِمَّا لِعَجْزٍ، وَإِمَّا لِتَضْيِيعٍ، وَإِمَّا
لِإِنْكَارٍ، فَهَمَا مُخْتَلِفَانِ كَمَا تَرَى.

أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

فَإِذَا كَانَتْ الْعَرَبُ يَشْتَقُّونَ كَلَامًا مِنْ كَلَامِهِمْ وَأَسْمَاءً مِنْ
أَسْمَائِهِمْ، وَاللُّغَةُ عَارِيَّةٌ فِي أَيْدِيهِمْ مِمَّنْ خَلَقَهُمْ وَمَكَّنَهُمْ
وَأَلْهَمَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ صَوَابًا عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ؛
فَالَّذِي أَعَارَهُمْ هَذِهِ النِّعْمَةَ أَحَقُّ بِالِاشْتِقَاقِ وَأَوْجِبُ طَاعَةً،
وَكَمَا أَنَّ لَهُ أَنْ يَبْتَدِئَ الْأَسْمَاءَ؛ فَكَذَلِكَ لَهُ أَنْ يَبْتَدِئَهَا مِمَّا
أَحَبَّ،، قَدْ سَمِيَ كِتَابُهُ الْمَنْزِلَ قِرْآنًا، وَهَذَا الْاسْمُ لَمْ يَكُنْ حَتَّى
كَانَ، وَجَعَلَ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ كُفْرًا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
السُّجُودُ لَهَا كُفْرًا إِلَّا وَتَرَكَ ذَلِكَ السُّجُودَ بَعِينَهُ يَكُونُ إِيمَانًا،
وَالتَّرِكَ لِلشَّيْءِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْجَارِحَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا الشَّيْءُ،
وَفِي مَقْدَارِهِ مِنَ الزَّمَانِ، وَتَكُونُ بَدَلًا مِنْهُ وَعَقِبًا، فَوَاحِدَةٌ أَنْ
يَسْمَى السُّجُودَ كُفْرًا، وَإِذَا كَانَ كُفْرًا كَانَ جُحُودًا وَإِذَا كَانَ

جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجحد، والجحد ليس
بإشراك إلا أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه
وقال طفيل الغنوي:

ولم تر ناراً تمّ حولِ
مجرّم

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعِ
نُبُوحَ مَقَامَةٍ

وإنما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.
وذكروا أن الظبي إذا أسنّ ونبتت لقرونه شُعبٌ نبح، وهو
قول أبي ذؤاد:

عِ نَبَاحِ مِنَ الشَّعْبِ

وَقَصْرَى شَنْجِ
الْأَنْسَا

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم:

نَبَاحُ سَلُوقٍ أَبْصَرَتْ
مَا يُرِيبُهَا

وَيَنْبَحُ بَيْنَ الشَّعْبِ
نَبْحاً كَأَنَّهُ

كما ابيضّ عن حمض
المراحم نيبها

وبيضها الهزل
المسودّ غيرها

لأنّ الطّبيّ إذا هزل ابيضّ، والبعير يشيب وجهه من أكل
الحمض، وكذلك قال ابن لجأ:

شابت ولما تدن من دكائها

كما قال الآخر:

شربن حتى نرح
القليب

أكلن حمضاً فالوجوه
شيب

وقد تصير الناقة الحمراء إذا أتمت حبشيّة، ولذلك قال
الشاعر:

حمراء لا حبشيّة الإتمام

وما أشبه ذلك بقول العديّ:

كانّ عليها سندساً
وسدوساً

وداويتها حتى شنت
حبشيّة

والدَّواء: اللبِن، فلذلك تصير الفرس إذا أَلقت شعرها وطرَّت،
تستديل هذا اللون.
وقال خالد بن الصقعب النهديّ:

تَظَلُّ حَمَامُهُ مِثْلَ
الْخُصُومِ

به جَمَعانٍ من نَبَطِ
وَرُومِ

كَنَبِحِ الكَلْبِ في الأَنسِ
المَقِيمِ

هَبَطْنَا بَعْدَ عَهْدِكَ
بَطْنِ حَبْتِ

كأنَّ عَرِينَ أَيْكَتِهِ
تَلَأقَى

نُبأِحِ الهُدْهِدِ
الحَوَلِيِّ فِيهِ

ويقال إنَّ الهدهد ينبحُ، وربَّما جعلوا الهدُّهدُ، الذي ينبحُ،
الحمامَ الذكْرَ، قال الشاعر - وهو يصف الحمامَ الذكْرَ كيف
يصنع فيها:

مِثْلُ المَدَاكِ حَضْبَتُهُ
بِجِسادِ

وإذا استترن أَرَنَّ
فِيها هُدْهُدُ

وقال طُفيل في النُّبوحِ والمِجاعاتِ:

وَأَشَعَتْ تَزْهَاهُ
النُّبُوحُ مُدَقِّعٍ

وقال الجعدي:

عَنِ الزَّادِ مِمَّا جَلَّفَ
الدَّهْرُ مُحْتَلٍ

فَلَمَّا دَنَوْنَا لَصَوْتِ
النُّبَّاحِ

وقال ابن عبدل:

وَلَا نُبْصِرُ الْحَيَّ إِلَّا
التَّماسَا

آلَيْتُ إِذْ آلَيْتُ
مَجْتَهَدًا

وَرَفَعْتُ صَوْتًا مَا بِهِ
بَحْحُ

لَا يُدْرِكُ الشُّعْرَاءُ
مَنْزَلَتِي

فِي الشُّعْرِ إِنْ سَكَّتُوا
وَإِنْ نَبَّحُوا

وقال عمرو بن كلثوم:

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَيِّ
مِنَّا

وَشَدَّ بِنَا قَتَادَةَ مَنْ
يَلِينَا

وقال بعض العلماء: كلاب الحي شعراؤهم، وهم الذين ينبحون
دونهم، ويحمون أعراضهم، وقال آخرون: إن كلاب الحي كلُّ
عقور، وكلُّ ذي عُيون أربع.
وأما قوله:

رِمَاحُ بَنِي مَقِيدَةَ
الْحِمَارِ

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ
عَلَى أَبِيِّ

رِمَاحُ الْجَنِّ أَوْ إِيَّاكَ
حَارِ

وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى
أَبِيِّ

فالطَّواعين هي عند العرب رماح الجن، وفي الحديث: إنَّ
الطَّاعونَ وَخَزَ مِنَ الشَّيْطَانِ.
وقال أبو سلمى:

وَمَنْ سَفِيهٍ دَائِمِ
النُّبَاحِ

لَا بَدَّ لِلسُّودِّدِ مِنْ
أَرْمَاحِ

وَمَنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى
بِالرَّاحِ

وقال الأعشى:

هَرَّ كَلْبُ النَّاسِ فِيهَا
وَنَبَّخَ

كَلَّمَا كَلَّبَ مِنَ النَّاسِ
نَبَّخَ

مِثْلَ أَيَّامِ لَنَا
نَعْرِفُهَا

رُزْنُ الْأَخْلَامِ فِي
مَجْلِسِهِمْ

وقال:

وَأَغْنِي عَنَّا عِنَّمُ
أَنْ أُؤْتَبَا

سَيَنْبِخُ كَلْبِي جَاهِدًا
مِنْ وَرَائِكُمْ

وقال أبو ذؤيب:

وَلَوْ نَبَّحْتَنِي بِالشَّكَاةِ
كَلَابِهَا

وَلَا هَرَّهَا كَلْبِي لِيُبْعِدَ
تَعْرِهَا

كلابها: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم:

كَذَاتِ الضَّغْنِ تَمْشِي فِي
الرَّفَاقِ

وَإِنِّي وَالشَّكَاةَ
لَالِ لَأَمٍ

وقال أبو زبيد:

ألم تَرَنِي سَكَنْتُ
لأَيَّ كلابِهِمْ

وكففت عنكم أكلبي
وهي عُقْرُ

هجااء ضروب من الحيوان

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنكم تتبّعتم على الكلب كلَّ شيءٍ هُجِي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراء قد هَجَّوا الأصناف كلَّها، فلم يُفَلت منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا هَمَج ولا حشرة، ولا رفيع من الناس ولا ضيع، إلا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دِقَّةً ولؤماً وقِلَّةً ونَذالةً، وقال أمية بن أبي عائذ لإياس بن سهم:

فأبْلَغَ إياساً أنَّ
عَرَضَ ابنِ أُخْتِكُمْ

رِداؤُك فاصطَنُ
حَسَنه أو تَبَدَّلِ

فإن تَكُ ذا طَوْلِ
فإنِّي ابنُ أُخْتِكُمْ

وكلُّ ابنِ أُخْتِ من
نَدَى الخالِ مَعْتَلِي

فكنْ أسداً أو ثعلباً
أو شبيهِه

فمهما تَكُنْ أنسَبُ
إليكَ وأشْكلُ

وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيْثِ
رِيبَالُ أَشْبُلِ

إذا كانت الهيجا تَلوُدُ
بمدخلِ

فما ثعلبٌ إلا ابن
أختِ تُعَالَةِ

ولن تجد الآسادَ
أحوالَ ثعلبِ

فهذا من الثعلب، وقال مزرد بن ضرار:

تهرُّ عليها أمُّكم
وتكالب

وإنَّ كِنازَ اللَّحْمِ
من بَكَراتِكُم

لَتَقْرِيهِ
بالتَّ عليه
الثعلبُ

وليتَ الذي
ألقي فناؤك
رحله

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به ندالة،
قال ابن هرمة:

ولا ضَرَّتْ لفرقتها
نِزاراً

فما عادت بذِي يَمَنِ
رُؤوساً

وتَرَأْمُ من يُحَدِّ لها
الشَّفَارَا

كعَنْزِ السَّوِّ تَنْطَحُ
من خَلاهَا

وهذا قول الشاعر في العنز، وقال ابن أحرمر:

كالعَنْزِ تَعْطِفُ رَوقيها
فترتَضِعُ

إنا وجدْنَا بني سَهْمٍ
وجامِلَهُم

وقال الفرزدق:

ولا نابجاً إلا
استقرَّ عَفُورها

على حينَ لم أتركُ على
الأرضِ حَيَّةً

كباحثةٍ عن مُدِيَّةٍ
تستثيرُها

وكان نَفِيعٌ إذ هجاني
لأهلِهِ

فهذا قولهم في العنز، ولا نعلم في الأرض أقلَّ شراً ولا أكثرَ
خيراً من شاة.
وقال الخُرَيْمِيُّ:

أرى جوارَهُمُ إحدى

يا للرجالِ لقومٍ قد

مَلَّتْهُمْ

الْبَلِيَّاتِ

ذَنْبٌ رَضِيعٌ وَخَنْزِيرٌ
تُعَارِضُهَا

عَقَارِبٌ وَجِنَّتٌ وَجِنًّا
بِحَيَّاتِ

مَا ظَنِّكُم بِأَنَاسٍ خَيْرُ
كَسْبِهِمْ

مُصْرَحِ السَّحْتِ
سَمَوِهِ الْأَمَانَاتِ

فهذا قولهم في العقارب والحيات والضباع والخنازير.
وقال حماد عجرد في بشار:

قَدْ كَانَ فِي حُبِّي
غَزَالَةً شَاغِلٌ

لِلْقَرْدِ عَنْ شَتْمِي
وَفِي ثُوبَانِ

أَوْ فِي سَمِيعَةِ أُخْتِهَا
وَشِرَادِهَا

لِمَجُونِهَا مَعَ سِفْلَةِ
الْمُجَانِ

أَوْ بَيْتِ ضَيْقِ عَرْسِهِ
وَرَكُوبِهَا

شَرِّ الْبِغَاءِ بِأَوْكَسِ
الْأَثْمَانِ

هذا قول حماد في القرد، وقال حماد في بشار بن برد أيضاً:

ولكن معاذ الله لستُ
بقادفٍ

وما قلتُ في الأعمى
لجهلٍ وأمه

سأعرضُ صحفاً عن
حُصينٍ لأمه

وقال الآخر:

لما أتيت ابني يزيد
بن خنعمٍ

أمام بيوتِ القومِ من
آل خنعم

وقال العتّابي:

اسجدُ لقرْدِ السوءِ في
زمانه

بريئاً لسواقِ لقومٍ
نواحٍ

ولكنُ بأمرٍ بيني لي
واضح

ولست عن القرد ابن
بردٍ بصافح

أرى القردَ والخنزيرَ
مُحتَبيانِ

وراءَ قبِيحاتِ الوجوه
بطانٍ

وإن تلقاك
بخنزوانه

لا سيّما ما دام في
سلطانه

وقال أبو الشمقمق:

لا يطمع الخنزير في
سُنْحِه

إن رياح اللّوم من
شَحّه

قد يئس الحدّاد من
فَتْحِه

كفاه قفل ضلّ
مِفْتاحُه

وقال خلف بن خليفة:

يَعُمُّ به القِرْدُ
والقِرْدَةُ

فسبحان من رزقه
واسع

وهذا كثير، ولعمري لو جُمع كلُّه لكان مثل هجاء الناس
للكلب، وكذلك لو جمع جميع ما مُدِح به الأسد فما دُونه،
والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حَمْد هذه الأشياء، لَمَا كانتْ
كلُّها في مقدارِ مديح الكلب، فهذه حُجَّتُنَا في مَرْتَبَةِ الكلبِ على
جميع السباع والبهائم. ولما قال معبّد في قتل الكلب، وتلا

قول الله عزّ وجلّ: "وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ"، قال أبو إسحاق: وإن كنت إنما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة، فقد قال على نسق هذا الكلام: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"، فالذي قال في الإبل والبقرة والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام، وأدنى ذلك أن تُشرك بين الجميع في الذمّ فإنك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنصفها في تتبّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبعت ما عليها.

الشرف والخمبول في القبائل

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات في العشائر، وكثير الرؤساء في الأرحاء وكان الآخر

قليل الذرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير،
خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وعرقوا في معظم الناس،
وكانوا من المغمورين ومن المنسيين، فسلموا من ضروب
الهجاء ومن أكثر ذلك، وسلموا من أن يضربَ بهم المثل في
قلّة ونذالة إذا لم يكن شرّاً، وكان محلّهم من القلوب محلّ من
لا يغبط الشعراء، ولا يحسدهم الأكفاء؛ وكانوا كما قال حميد
بن ثور:

وجاوزتما الحيين
نهذاً وختعماً

أبوا أن يريقوا في
الهزاهز محجماً

وقولا إذا جاوزتما
أرض عامرٍ

نزيعان من جزم بن
ربان إنهم

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرء وكان فيهم خير كثير وشر
كثير، ومثالب ومناقب، ولم يسلموا من أن يهجوا ويضربَ
بهم المثل، ولعلّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة
الرواة، وأمثال تسير على أسنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ من لا
خير فيه ولا شرّاً، أمثالَ حالاً في العامّة، ممّن فيه الفضل الكثيرُ
وبعضُ النقص، ولا سيّما إذا جاؤروا من يأكلهم وحالفوا من

لا ينصفهم، كما لقيت عنيّ أو باهلة.
ولو أنّ عبساً أقامت في بني عامر ضعفاً ما أقامت؛ لذهب
شطرُ شرفها؛ ولكنّ قيسَ بن زهيرَ لمّا رأى دلائل الشرِّ قال
لأصحابه: الذلُّ في بني عطفان خير من العزِّ في بني عامر.
وقد يكون القوم حُلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضلهم
عليهم حسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك
عليهم وتعاضمهم، بأكثر من قدره، فدعاهم ذلك إلى الخروج
منهم إلى أعدائهم، فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا
عليهم، فوقّ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدعُوهم
ذلك إلى النَّدَم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرُّجوع، حميةً
واتقاءً، ومخافةً أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه،
وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومن شدّة
الصرّولة عليهم.

بكل وادِ بنو سعد

وقد خرج الأضبِط بن فُريع السَّعديّ من بني سعد، فجاوزَ
ناساً، فلما رأى مذهبهم وظلمهم ونهكهم، قال: بكلِّ وادِ بنو
سعد، فأرسلها مثلاً.

وقد كان عبّاس بن ريطة الرّعلي سيّد بني سُلَيم، وقد ناله

ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيم، فلما حاولَ مفارقتهم إلى
بني عَنَمَ عَزَّ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي كَلِمَةٍ لَهُ:

وَأُمُّ أَحْيِكُمْ كَزَّةَ الرَّحْمِ
عَاقِرُ

وَأُمُّكُمْ تُرْجِي التَّوَامِ
لِبَعْطِهَا

وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبر عن هذه القصة
في يوم من أيامه، فدمعت عينه، فحلف شُبَيْلُ بْنُ عَزْرَةَ
بِالطَّلَاقِ: إِنَّهُ لَعَرَبِيٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لَعْنَةً أَوْ لِرِشْدَةِ 6 -! قبائل في
شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة فمن
القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير، وفي
الشطر الآخر شرف وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان،
ومثل فزارة ومرة وثعلبة، ومثل عبس وعبد الله بن غطفان،
ثم غني وباهلة، واليعسوب والطفافة فالشرف والخطر في
عبس وذبيان، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم، مثل
باهلة وغني، مما لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتى
كأنهم آله لمدارج الأقدام، ينكب فيها كلُّ ساع، ويعثر بها كلُّ
ماش، وربما ذكروا اليعسوب والطفافة، وهاربة البقعا
وأشجع الخنثى ببعض الذكر، وذلك مشهور في خصائص
العلماء ولا يجوز ذلك صدورهم، وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاَّ

بغنيّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب،
حتى صار من لاخير فيه ولا شرّ عنده أحسن حالاً ممّن فيه
الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر:

بِبُخْلِ أَشْعَثَ
وَاسْتَنْبَتِ وَكُنْ حَكْمًا

وَلَا تُعَدِّ لَهَا لَوْمًا
وَلَا كَرْمًا

اضرب ندى ظلحة
الطنحات مبتدئا

تخرج خزاعة من
لوم ومن كرمٍ

وقد ظرف في شعره فظلم خزاعة ظلماً عبقرياً.
وقال في مثل ذلك الأشعر الرّقبان الأسديّ:

بَأْتِكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ
مُضِرٌّ

فَلَا أَنْتَ حُلْوٌ وَلَا
أَنْتَ مُرٌّ

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ
يَعْلَمُوا

وَأَنْتَ مَلِيخٌ كَلْحَمِ
الْحَوَارِ

وكما قال الشاعر في علباء بن حبيب حيث يقول:

أرى العلباء كالعلباءِ

لا حلو ولا مرُّ

شَيْخٌ من بني الجارو

د لا خير ولا شرُّ

فهذا ونحوه من أشدّ الهجاءِ.
والخمول اسمٌ لجميع أصناف النَّقْصِ كُلِّها أو عامَّتْها، ولكنَّه
كالسَّرْو عند العلماء، وليس ينفَعُ العامَّةُ إذا ضرتك الخاصَّةُ.
ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وُعْكل، وتيم ومزينة،
ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور،
وقد سلِمَ ثور إلا من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلا العلماء،
ثم حَلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ، والتحف الهجاء على عُكل وتيم،
وقد شَعَثوا بين مزينة شيئا، ولكنَّهم حَبَّبهم إلى المسلمين
قاطبةً ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلَّ حظُّ تيم فيه، وقد نالوا
من ضبَّة، مع ما في ضبَّة من الخصال الشريفة؛ لأنَّ الأبَّ
متى نقص ولده في العدد عن ولد أخيه فقد ركبهم الآخرون
بكلِّ عزيمة، حتى يروا تسليم المرباع إليهم حظًّا، والسير
تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ حتَّى ربَّما
كانوا كالعضاريط والعُسفاء، والأتباع، وفي الأتباع والدخلاء،
ثم لا يجدون من ذلك بدًّا؛ كأنهم متى امتنعوا خذلوهم،
فاستباحوهم، فرأوا أن النعمة أربح لهم.

وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهليّة، أتباعٌ في الإسلام، فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمهم حكم من درج، وحكم أبيهم كحكم من لم يُعقب، وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

الحِمْفُ عند العرب

والحِمْفُ ضربان: فأحدهما كانضمام عيس وضبّة، وأسد وغطفان فإنّ هؤلاء أقوياء لم يُنْهكوا كما نُهكت باهلة وغيّ، لحاجة القوم إليهم، ولخشونة مسّهم إن تذكروا على حال؛ فقد لقيت ضبّة من سعدٍ، وعيسٌ من عامر، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما لقوا.

وقد رأيت مشقّة ذلك على النابغة، وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان.

وعيينة بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنّ النابغة كان أحزم وأعقل.

وقد سلمت ثور وابتليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خُثيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامّة أنّ في العرب قبيلة يُقال لها ثور، ولشريفٌ واحدٌ ممّن قبّلت تيم أكثر من ثور وما ولد.

وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من
الفرسان والشُعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة
والوُلاة، ومن نواذر الرِّجال إسلاميين وجاهليين.
وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلاَّ
الخمش والنُّتف. وربَّ قومٍ قد رضوا بخمولهم مع السلامة
على العامَّة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ اللهُ تعالى على قمم
رؤوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيرها شاعر، وسوطٌ عذابٍ
يسير به الراكبُ والمثل، كما قال الشاعر:

كما الظليمُ ففحةً
البراجم

إن مَنافاً ففحةً
لدارم

وقال الشاعر:

كما الحَبِطَاتُ شرٌّ
بني تميم

وجَدْنَا الحُمَرَ مِنْ شرِّ
المطايا

فما الميسم في جلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

أثر الشعر في نباهة القبيلة

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد
والفَعَال، مثل نُمير، يصير أهله إلى ما صارت إليه نُمير وغير
نمير، فما ظنُّكَ بالظُّلُم وبمناف وبالْحَبِطَات، وقد بلغ مضرَّة
جرير عليهم حيثُ قال:

فلا كعباً بلغت ولا
كلاباً

فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنْكَ مِنْ
نُمير

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قوماً آخرين:

كما وضع الهجاء
بني نُمير

وسوف يزيدكم ضعة
هَجَائِي

وحتى قال أبو الرُّدَيْنِي:

متى قتلت نُمير من
هَجَائِي

أتو عُدِّي لِتَقْتُلْنِي
نُمير

بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك ولأمر
ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول
كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن
علاثة، وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيت لخداش بن

زهير، وما زال يهجوّه من غير أن يكون رآه، ولو كان رآه
 ورأى جماله وبهاءه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله
 ومحبته ومن إجلاله والرقّة عليه أمسك، ألا ترى أن النّبيت
 وغسّان بن مالك بن عمرو بن تميم، ليس يعرفهم بالعجز
 والقلة إلاّ دغفل بن حنظلة، وإلاّ النخار العذريّ وإلاّ ابن
 الكيس النمريّ، وإلاّ صُحار العبدي، وإلاّ ابن شريّة وأبو
 السّطّاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والافتباس من
 مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب
 فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حقّ القوم في الجملة
 ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة، والحرمان
 أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.
 ما تبتلّى به القبائل فيصيبها الخمول وبلية أخرى: أن يكون
 القبيل متقادماً الميلاد، قليل الذلّة قليل السيادة، وتهياً أن يصير
 في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام، فيستبين لمكانهم
 منهم من قتلهم وضعفهم لكلّ من رآهم أو سمع بهم، أضعاف
 الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم.
 ومن شؤم الإخوة أن شرفهم ضعة إخوتهم، ومن يمين الأولاد
 أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من
 أولادهم: كعبد الله بن دارم وجرير بن دارم، فلو أن الفقيم لم

يناسب عبد الله بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.
ولقد ضعفت قريش - لما جاءت به من الخصال الشريفة
التامة؛ من أركان كنانة - سنام الأرض وجبلها وعينها التي
تبصر بها، وأنفها التي بها تعطس، فما ظنك بمن أبصر بني
زيد بن عبد الله بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع
بن دارم، ثم رأى بني فقيم بن جرير بن دارم؟ وكذلك كل
أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال؛ في الجود
والإفضال، أو في الفروسة أو في البيان، فإن كان الآخر
وسطاً من الرجال، قصدوا بحسن مآثره في الطبقة السفلى
لتبين البراعة في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي
التي بلغت به أسفل السافلين، وكذلك عنزة بن أسد في ربيعة،
ولو كان سودد ربيعة مرة في عنزة ومرة في ضبيعة أضجم،
لكان خيراً لهم اليوم، ولو د كثير من هؤلاء القبائل التي سلمت
على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شطر ما للعزيبين
من الشرف، ولو أن الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل
خيرها وشرها لكانوا سواً.

وقال صاحب الكلب: ذكرت عيوب الكلب فقلت: الكلب إذا كان
في الدار محق أجور أهل الدار حتى يأتي على أقصاها، لأن
الأجور إذ أخذ منها كل يوم وزن قيراط، والقيراط مثل أحد، لم

يلبث على ذلك أن يأتي على آخرها، وقلت: في الكلب أشدُّ
الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه النوم ليلاً والقائلة
نهاراً، وأن يسمع الحديث، ثم الذي على سامع النباح من
المؤنة من الصوت الشديد.
ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدة صوته إلا بإدامة مجاوبة
الكلاب لكان في ذلك مما ينغص العيش، ويمنع من الكلام
والحديث.
شعر في النباح والاستنباح وقال أرطاة بن سهية في بعض
افتخاره:

وإني لَقَوَامٌ إِلَى	إِذَا أَعْدَفَ السِّتْرَ
الضَّيْفِ مَوْهِنَا	الْبَخِيلِ الْمَوَاكِلُ
دَعَا فَأَجَابَتْهُ كِلَابٌ	عَلَى ثِقَةٍ مَنِي بِمَا أَنَا
كَثِيرَةٌ	فَاعِلٌ
وَمَا دُونَ ضَيْفِي مِنْ	يُدُّ الضَّيْفِ إِلَّا أَنْ
تَلَادٍ تَحْوِزُهُ	تُصَانُ الْحَلَائِلُ

وقال ابن هرمة:

ومستبح نبهتُ كَلْبِي
لصَوْتِهِ

فجاءَ خَفِيّ الصوتِ قد
مسَّهُ الضَّوَى

فرحبتُ واستبشرت
حتّى بسطتهُ

وقال آخر:

هجمنا عليه وهو
يُكعمُ كلبهُ

وقال مزرد بن ضرار:

نشأتُ غلاماً أتقى
الذمَّ بالقرى

فإنَّ أبَّ سارَ أسمعَ
الكلبَ صوتَه

وقلتُ له قم في
اليفاعِ فجأوبِ

بضربةٍ مسنونِ
الغرارينِ قاضبِ

وتلك التي ألقى
بها كلَّ أئبِ

دع الكلبَ ينبُحُ إنما
الكلبُ نابحُ

إذا ضاف ضيف من
فزاره راعبُ

أتى دون نبحِ الكلبِ
والكلبُ دائبُ

وقال بشر بن برد:

وبالشرقيين أيام
القباب

سقى الله القباب بتلّ
عدي

على فرعان نائمة
الكلاب

وأياماً لنا قصرت
وطالت

وقال رجل من بني عبد الله بن عطفان:

على دخن أكثرت بثّ
المعائب

إذا أنت لم تستبق
وَدَّ صحابة

لعدوة عريض من
الناس جانب

وإني لأستبقي امراً
السوء عدّة

إذا لم تجاوبها كلاب
الأقارب

أخاف كلاب الأبعدين
ونبجها

وقال أحيحة بن الجلاح:

بّات إذ زانها

ما أحسن الجيد من

مليكة وال

ترائبها

يا ليتني ليلة إذا

نأس ونام الكلاب

هجع ال

صاحبها

وقلت: وفي الكلب قذارة في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سلاحه وبوله، على أنه لا يرضى بالسلاح على السطوح، حتى يحفر ببرائته وينقب بأظفاره، وفي ذلك التخريب.

ولو لم يكن إلا أنه يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النوم ومن إفساد حرّ المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضّ الصبيان وتفزع الولدان، وشقّ الثياب، والتعرّض للزّوار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجمه وتهيجه بالعبث، ويكون سبباً لعقرهم والوثوب عليهم.

وقلت: وبنس الشيء هو في الدار، وفيها الحرّم والأزواج، والسّراريّ والحظيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكره أيرّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقْبَع وإما قائم، وليس معه ما يواريه، وربما أشطّ وأنعظ بحضرتهنّ، ولعلهنّ يكنّ مُعِيباتٍ أو محتاجاتٍ إلى ما يحتاج إليه النساء عند غيبة فحلهنّ، وإذا عجز عن أن يعمهنّ.

وفد قرحان وقد رمى ضابئ بن الحارث البُرْجُمِيُّ أم أناس من
العرب، أن الكلب الذي كان يسمَّى قُرْحَانَ، لكان يأتي أمهم،
حتى استعدوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بن عفان رضي
الله تعالى عنه، ولولا أن المعنى الذي رماهم به كان مما يكون
ويجوز ويُخافُ مثله، لما بلغ منه عثمان ما بلغ، حتى مات
في حبسه، وفي ذلك يقول ضابئ ابن الحارث:

تَظَلُّ بِهَا الْوَجَنَاءُ
وهي حَسِيرُ

حَبَاهِم بَتَاجِ
الهرمزان أميرُ

فإنَّ عَفُوقَ
الوالداتِ كَبِيرُ

يبيت له
فوقَ

تَجَشَّمُ نَحْوِي
وَفَدُّ قُرْحَانَ
شُقَّةً

فزودتهم كلباً
فراحوا كأنما

فأمكم لا
تتركوها
وكلبكم

إذا عثنت من
آخر الليل

قصص تتعلق بالكلاب

وزعم اليقطريُّ أَنَّهُ أَبْصَرَ رَجُلًا يَكُومُ كَلْبَةً مِنْ كِلَابِ الرِّعَاءِ،
وَمَرَّ بِذَلِكَ الزُّبِّ الْعَظِيمِ فِي ثَفْرِهَا - وَالثَّفْرُ مِنْهَا وَمِنَ السَّبْعِ،
كَالْحَرِّ مِنَ الْمَرَاةِ وَالظَّبْيَةِ مِنَ الْأَتَانِ وَالْحَجَرِ، وَالْحَيَاءِ مِنْ
النَّاقَةِ وَالشَّاةِ - فزعم أَنَّهُا لَمْ تَعْقِدْ عَلَيْهِ، وَلَا نَدْرِي أَمْكَنَتْهُ أَمْ
اِغْتَصَبَهَا نَفْسَهَا.

وَأَمَّا النَّاسُ ففِي مُلْحِ أَحَادِيثِهِمْ: أَنَّ رَجُلًا أَشْرَفَ عَلَى رَجُلٍ
وَقَدْ نَاكَ كَلْبَةً فَعَقَدَتْ عَلَيْهِ، فَبَقِيَ أَسِيرًا مُسْتَخْزِيًا يَدُورُ مَعَهَا
حَيْثُ دَارَتْ، قَالَ: فَصَاحَ بِهِ الرَّجُلُ: اضْرِبْ جَنْبَيْهَا، فَأَطْلَقْتَهُ،
فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَخْزَاهُ اللَّهُ أَيُّ نِيَّاكَ كَلْبَاتٍ هُوَ.

وَخَبِيرُونِي مِنْ لَا أَرُدُّ خَبْرَهُ، أَنَّهُ أَشْرَفَ مِنْ سَطْحٍ لَهُ قَصِيرِ
الْحَائِطِ، فَإِذَا هُوَ بِسَوَادٍ فِي ظِلِّ الْقَمَرِ فِي أَصْلِ حَائِطٍ، وَإِذَا
أُنِينُ كَلْبَةٍ، فَرَأَى رَأْسَ إِنْسَانٍ يَدْخُلُ فِي الْقَمَرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى
مَوْضِعِهِ مِنْ ظِلِّ الْقَمَرِ، فَتَأَمَّلَ فِي ذَلِكَ فَإِذَا هُوَ بِحَارِسٍ يَنْيُوكُ
كَلْبَةً، قَالَ: فَرَجَمْتُهُ وَأَعْلَمْتُهُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ، فَصَبَّحَنِي مِنَ الْغَدِ
يَقْرَعُ الْبَابَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ وَمَا جَاءَ بِكَ؟ فَلَقَدَ

ظننتُ أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري،
قال: جُعِلتُ فِدَاك، أسألك أن تستر عليّ، سترَ الله عليك، وأنا
أتوب على يدك قال: قلت ويَلِك، فما اشتهيت من كلبه؟ قال:
جُعِلتُ فِدَاك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو
ينيك إنَّ الكلابَ إذ كنَّ عِظَامَ الأجسام، قال: فقلت: فما يخاف
أن تعضه؟ قال: لو رامَ ذلكَ منها غيرُ الحارسِ التي هي له
وقد باتت معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما
تركته، وعلى أنه إن أراد أن يوعبه كلّه لم تستقرّ له، قال:
ونسيتُ أن أسأله: فهل تعقد على أيور الناسِ كما تعقد على
أيور الكلاب؟ ففقيته بعد ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلها لا
تعقد عليه، لأنّه لا يُدخِلُه فيها إلى أصله، لعلّ ذلكَ أيضاً إنّما
هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع
الالتحام، قال: فقلتُ: فَطَيِّبٌ هو؟ قال: قد نكّت عامّة إنَّات
الحيوانات فوجدتُهِنَّ كلَّهنَّ أطيبَ من النساء، قلتُ: وكيف
ذلك؟ قال: ما ذاك إلا لشدّة الحرارة، قال: فطال الحديث حتى
أنس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلبك وقرب الفراغ؟ قال:
فربّما التزمتُ الكلبه وأهويت إلى تقبيلها، ثم قال: أما إنَّ
الكلابَ أطيبُ شيءٍ أفواهاً، وأعدبُ شيءٍ ريقاً؛ ولكن لا يمكن
أن أنيكها من قُدّام، ولو ذهبَ أن أنيكها من خلف وتنييتُ

رأسها إلى أن أقبلها، لم آمن أن تظن بي أني أريد غير ذلك فتكدم فمي ووجهي، قال فقلت: فإني أسألك بالذي يستر عليك، هل نزع عن هذا العمل منذ أعطيتني صفقة يدك بالتوبة؟ قال: ربما حننت إلى ذلك فأحتبس بعهدك.
قال: وقلت: وإنك لتحن إليها؟ قال: والله إنني لأحن إليها، ولقد تزوجت بعدك امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعود شيئاً لم يكديصبر عنه قال: فقلت له: هل تعرف اليوم في الحراس من ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محمويه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحمامي فإن فارساً كان حارساً وكان قيم حمّام، وكان خقياً، فرعم أنه ناك الكلاب خمسين سنة، وشاخ وهزل وقبح وتشنج، حتى كان لا ينيكه أحد، قال: فلم يزل يحتال لكلب عنده حتى ناكه، قال: وكان معه بخير حتى قتله اللصوص، ثم أشرف على فارس، هذا المحتسب الأهدب، وهو ينيك كلبة فرماه بحجر فدمغه، قال: فالكلاب كما ترى تُتهم بالنساء، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيء أحق بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها، ونحن من السباع العادية الوحشية في راحة، إلا في الفرط فإن لها غراماً على بعض الماشية، وجناية على شرار العامة وكذلك البهائم، وما عسى

أن يبلغ من وطءٍ بعير ونطح كبش، أو خمش سنور أو رمح حمار، ولعل ذلك يكون في الدهر المرّة والمرتين، ولعل ذلك أيضاً لا ينال إلا عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتمل، فالكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس في دورهم وأهاليهم. قال صاحب الكلب: إن كنتم إلى الأذى بالسلاح تذهبون، وإلى قشر طين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السلاح وقدر المأكول والمشروب تقصدون، فالسنور أكثر في ذلك، وقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أنه قال: هُنَّ مِنَ الطَّوْافَاتِ عَلَيْكُمْ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي السَّنَائِرِ مَغْتَفَرًا، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثر، وهي بالاعتقاد أحق، وفي إطلاق ذلك في السنور دليل على أنه في الكلاب أجوز.

وأما ما ذكرتم من إنعاضه، فلعمري إنه ما ينبغي للغيور أن يُقيم الفرس ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتيسَ في المواضع التي تراها النساءُ، والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً، وقد كره ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والديكةَ والدجاجَ والبطَّ خاصة؛ لأنَّ له عند السفاد قضيماً يظهر، وكذلك التيس من الظباء، فضلاً عن تْيوس الصفايا، فهذا المعنى الذي ذكرتم يجري في وجوه كثيرة وعلى أن للحمام خاصة من

الاستشارة، والكسَم بالذئب، والتقبيل الذي ليس للناس مثله،
ثم التقبيل والتغزل والتنفُّس، والابتهاج بما يكون منه بعد
الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما
يكون أهيج للنساء ممَّا ذكرتم، فلم أفردتم الكلب بالذكر دون
هذه الأمور، التي إذا عاينت المرأة عُرمُولَ واحدٍ منها، حقرت
بعُلهَا أو سيِّدهَا، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها في
النوم، وينبِّهها ساعة الغفلة، ويُحدِّث لها التمنيَّ لما لا تقدر
عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ
وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغرُ؟ فإن كنتم تذهبون في
التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العَبث والتعرُّض،
والتحكك والتهييج والتحريش، فلو أن الذي يأتي صبيانكم إلى
الكلب، من الإلحاح بأصناف العَبث - والصَّبيان أفسى الخلقِ
وأقلهم رحمةً - أنزلوه بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم،
بل بحاجب بن زرارة وحِصن بن حُديفة، لخرَجوا إلى أقبح
ممَّا يخرج إليه الكلب، ومَن ترك منهم الأخذَ فوق يدِ ابنه،
فهو أحقُّ باللائمة.

وبعد فما وجدنا كلباً وثبَّ على صبيٍّ فعقره من تلقاء نفسه،
وإنه ليتردَّد عليه وهو في المهد، وهو لحمٌ على وضم، فلا
يشمُّه ولا يدنو منه، وهو أكثرُ خلقِ الله تعالى تشمُّماً

واسترواحاً؛ وما في الأرض كلبٌ يلقي كلباً غريباً إلا شمَّ كلُّ واحدٍ منهما است صاحبه، ولا في الأرض مجوسيٌّ يموت فيُحزَن على موته ويحمل إلى الناؤوس إلا بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشمُّه، فإنه لا يخفى عليه في شمِّه عندهم، أحيٌّ هو أم ميّتٌ؛ للطافةِ حسِّه، وأنه لا يأكل الأحياء، فأما اليهود فإنهم يتعرَّفون ذلك من الميت، بأن يدهنوا استه، ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية:

بُدْهِنْ وَحَفَّوْا
حَوْلَهُ بِقَرَامِ

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ
مَسَّحُوا اسْتَهُ

جنايات الديك

وقالوا: فإذا ذكرتم جنايات الكلاب، فواحدٌ من جنايات الديكة أعظم من جنايات الكلاب؛ لأنَّ عبد الله بن عثمان بن عفان، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما مات من نقر ديك في دار عثمان، نقر عينه فكان سبب موته، فقتل الديك لعثرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعظم من كثيرٍ ممَّا تستعظمونه من جنايات الكلاب. وقد نقر ديك عين ابن حسكة بن عتاب، أو عين ابن أخته.

وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعور، ثم ضربته الحُمرة فمات، ووثبَ ديك فطعن بصيصته عين بنتٍ لثمامة بن أشرس، قال ثمامة: فأتاني الصرّيح، فو الله ما وصلتُ إليها حتى كمد وجهها كُلَّهُ واسودَّ الأنفُ والوجنتان وغارت العينان، وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجباً من العجب: ذكر أنّ رجلاً ذكر أنّ ديكاً عند بَقَالٍ لهم، يقاتل به الكلاب، قال: فأتيتُ البَقَالَ الذي عنده فسألته عن الديك، فزعم أنّه قد وجّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك، فلم أبرح حتى اشتريته؛ وكنْتُ أصونه وجعلته في مكّنة، فخرجت يوماً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتتظر إليه، فكان هذا جزائي منه. قال: وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن علي، حتى وطئ في ذوابته ثم أقبل ينقر دماغه وعينه، فقال رجل من قريش، لمن حضر ذلك من الخدم:

طالما كان لا تطأه
الدجاج

اطردوا الديك عن
ذوابة زيد

نفع الكلب

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسو، بل ما يدفَع الله بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثر وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول، والديك يفتأ العيونَ وينقر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشجُّ ولا يأسو؛ فشره صرف وخيره ممزوج، إلا أن يزعموا أنه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان، ومن عارض منافع الكلاب وحراستها أموال الناس من اللصوص، ومنع السباع من الماشية، وموضع نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌ وخطبه عظيم - بما يدعى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازن ولم يعرف المقايسة، ولا وقف قطُّ على معنى المقابلة ودلَّ بذلك على أن مبلغ رأيه لا يجوز رأي النساء.

العواء وما قيل من الشعر فيه

ويكون العواء للكلب والذئب والفصيل، وقال النابغة:

لكلبي في دياركم
عواءٌ

ألم أك جاركم
فتركتموني

وقال الشاعر:

وإني امرؤ لا
تقشعرُّ ذوابتي

من الذئب يعوي
والغراب المحجل

وقال الشاعر:

ومستنبح تستكشط
الريح ثوبه

ليسقط عنه وهو
بالثوب معصم

عوى في سواد الليل
بعد اعتسافه

لينبح كلب أو
ليفزع نوم

فجاوبه مستسمع
الصوت للقري

له مع إتيان
المهيين مطعم

يكاد إذا ما أبصر
الضيف مقبلاً

يكلمه من حبه
وهو أعجم

وقال ذو الرمة:

به الذئب محزوناً
كأن عواءه

عواءً فصيل آخر
الليل محتل

وقال آخر:

يَعْوِي بِهِ الذُّبُّ وَتَرْقُو
هَامُهُ

وَمَنْهَلٍ طَامَسَةِ
أَعْلَامُهُ

وقال عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ يَهْجُو زَبَانَ بْنَ مَنْظُورٍ:

ذُنْبٌ عَوَى وَهُوَ
مَشْدُودٌ عَلَى كُورِ
فَوْقَ الْحَصَى حَوْلَ
زَبَانَ بْنِ مَنْظُورِ

لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي
قَوْمٍ يَسْوَدُهُمْ
لَمْ يَبْقَ مِنْ مَازِنِ
إِلَّا شَرَارُهُمْ

وقال غَيْلَانُ بْنُ سَلْمَةَ:

الْحَبْسُ فَالْأَنْوَاءُ
فَالْعَقْلُ

وَمَعْرَسَ حَيْنِ
الْعِشَاءِ بِهِ

ذُنْبُ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ
جَذْلٌ

قَدْ بَثَّهُ وَهَنًا
وَأَرْقَنِي

وَلِكُلِّ صَاحِبِ قَفْرَةٍ

فَتَرَكْتَهُ يَعْوِي

بَقْفَرْتِه

شَكْلُ

بَتْنُوفَةٍ جَرْدَاءِ

لِحَبِّ يَلُوحُ كَأَنَّهُ

يَجْزَعُهَا

سَخْلُ

وقال مغلّس بن لقيط:

عوى منهم ذئبٌ

على فعليات مُسْتَثَارٍ

فَطَرَّبَ عَادِيًّا

سَخِيمَهَا

إِذَا هُنَّ لَمْ يَلْحَسْنَ مِنْ

دَمًا هُلِسَتْ أَحْسَادُهَا

ذِي قَرَابَةٍ

وَلِحُومِهَا

وقال الأحيمرُ السعديُّ:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى

وصوتَ إنسانٍ فكدتُ أطيّرُ وقال آخر:

وعاوى عوى والليلُ

وقد زحفتُ للغور

مستحلّس الندى

تالية النجم

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممّن يَلمَس
القرى، ولم ير بالليل نارا، عوى ونبح، لتجيبه الكلاب،
فيهدي بذلك إلى موضع الناس.
وقال الشاعر:

إلينا وممساها من
الأرض نازح

ومُستَبِحَ أهلَ الثرى
يَلمَسُ القرى

وقال عمرو بن الأَهم:

وقد حانَ من ساري
الشّتاءِ طروق

ومستَبِحَ بعد
الهُدُوِّ دعوته

فهذا من عواءِ الفصيلِ والذئبِ والكلبِ.

ما قالوا في أنس الكلب وإفاه

وقال صاحب الكلب: ومما قالوا في أنس الكلب وإفاه، وحبّه
لأهله ولمن أحسنَ إليه قول ابن الطّريّة:

وارعِي بذاكِ أمانة
وعُهودا

يا أمّ عمرو أنجزي
الموعودا

حَتَّى تَرَكْتُ
عُقُورَهُنَّ رُقُوداً

مَتَوَسِّدَاتٍ أَدْرَعاً
وَخُدُوداً

لَمْ يُنْكَرِ الْكَلْبُ أَنِّي
صَاحِبُ الدَّارِ

وَالعَنْبِرُ الْوَرْدُ أَذْكَيه
عَلَى النَّارِ

وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ
الزَّقِّ وَالقَارِ

وَقَالَ أَبُو الطَّمَّحَانِ الْقَيْنِيُّ فِي الْإِلْفِ، وَهُوَ يَمْدَحُ مَالِكَ بْنَ
حِمَارِ الشَّمْخِيِّ:

لَقَيْتَهُمْ وَأَتْرَكُ كُلَّ

وَلَقَدْ طَرَقْتُ كِلَابَ
أَهْلِكَ بِالضُّحَى

يَضْرِبْنَ بِالْأَذْنَابِ مِنْ
فَرَحِ بِنَا

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمِراً
يَوْمَ زَرْتُمْ

لَكُنْ أَتَيْتُ وَرِيحُ
المِسْكِ يَفْعَمُنِي

فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ رِيحِي
حِينَ أَبْصَرَنِي

سَأْمَدَحُ مَالِكاً فِي كُلِّ

رَكِبَ

فَمَا أَنَا وَالْبَكَارَةَ مِنْ
مَخَاضٍ

وَقَدْ عَرَفْتُ كِلَابَهُمْ
ثِيَابِي

نَمَتْ بِكَ مِنْ بَنِي
شَمَخٍ زِنَادٍ

وقال الشاعر في أنس الكلاب وإفها، يذكر رجلاً:

عَنيفٌ بَتَسْوَاقِ الْعِشَارِ
وَرَعِيهَا

سَنِيدٌ يَظَلُّ الْكَلْبَ
يَمِضُغُ ثَوْبَهُ

وقال الآخر:

بَاتَ الْحَوِيرُثُ

رَدَّلِ

عِظَامِ جِلَّةٍ سُدْسٍ
وَبُزْلِ

كَأَنِّي مِنْهُمْ وَنَسِيتُ
أَهْلِي

لَهَا مَا شَتَّتَ مِنْ فِرْعٍ
وَأَصْلِ

وَلَكِنْ بَتَلْقَامِ الثَّرِيدِ
رَفِيقُ

لَهُ فِي دِيَارِ
الْغَانِيَاتِ طَرِيقُ

وَسَرَتْ بِأَبْيَضَ كَالْهَلَالِ

والكلاب تَشْمُهُ

على الطوى

وقال ذو الرمة:

رَأْتِي كِلابُ الحِي

حَتَّى الْفَنَنِ

ومدَّت نُسُوج

العنكبوت على رحلي

وقال حسان بن ثابت:

أولاد جَفَنَةَ حَوْلَ قَبْرِ

أبيهم

قبر ابن مارية الكريمة

المُفْضِلِ

بِبيضِ الوجوهِ نَقِيَّةِ

حُجْرَاتِهِمْ

شَمُّ الأَنْوْفِ مِنْ

الطَّرَازِ الأَوَّلِ

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَيَّرَ

كلابهم

لا يَسْأَلُونَ عَنْ

السَّوَادِ المُقْبِلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وبَوَّاتِ بَيْتِكَ فِي

مَعْلَمِ

رَحِيبِ المَبَاعةِ

والمسرحِ

وَنَبَّحَ الْكَلَابَ
لِمَسْتَنْبِحِ

أَخَادِيدَ كَاللَّقَمِ
الْأَفِيحِ

لَكُنْتُ عَلَى الشَّرِكِ
الْأَوْضَحِ

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكنّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أميَّة بنُ أبي الصَّلت:

فِي ذَرَى مُشْرِفِ
الْقُصُورِ ذَرَاكَ

لَا الْغِيَابَاتُ
مُنْتَوَاكَ وَلَكِنْ

وقال البزَّار الحليّ، في المعنى الأول:

مِنْ أَسِيفٍ يَبْتَغِي الْخَيْرَ
وَحُرّاً

أَلِفَ النَّاسِ فَمَا
يَنْبَحُهُمْ

وقال عمران بن عصام:

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى
قَوْمِهِ

وغيرهم ممن عامره

فبابك ألين
أبوابهم

ودارك أهلة عامره

وكلبك آنس
بالمعتفين

من الأم بابنتها
الزائرة

وكفك حين ترى
السائلي

ن أذى من الليلة
الماطرة

فمنك العطاء ومنا
التناء

بكل محبرة سائره

وقال هلال بن خثعم:

إني لعف عن زيارة
جارتني

وإني لمشئوء إلي
اغتيابها

إذا غاب عنها بعلمها

زوراً ولم تأسن إلي

لم أكن لها

كلابها

وما أنا بالداري

ولا عالم من أي

أحاديث سرها

حوك ثيابها

وإن قراب البطن

ويكفيك سوءات

يكفيك ملوهُ

الأمور اجتنابها

وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد الله، ويكنى أبا سَفَّانة،
وكان أسره ثوب ابن شحمة العنبري مجير الطير:

إذا ما بخيلُ الناس

وشقَّ علي الضيف

هرت كلابه

الغريب عقورها

فإني جبانُ الكلب

جواد إذا ما النفس

بيتي موطاً

شح ضميرها

ولكن كلابي قد

قليل على من يعتريها

أقرت وعودت

هريرها

هجو الناس بهجو كلابهم

وقال صاحب الكلب: إنَّ كثيراً من هجاءِ الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنما يراد به هجاءُ رجلٍ، فيجعل الكلبُ وُصلةً في الكلام ليبلغ ما يريدُ من شتمه، وهذا أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب، ولذلك قال الشاعر:

وَحَفِيفٌ نَافِجَةٌ
وَكَلْبٌ مُوسِدٌ

مِنْ دُونَ سَيْبِكَ لَوْنُ
لَيْلٍ مَظْلَمٍ

وَمُسَيْفٌ قَوْمِكَ لَائِمٌ
لَا يَحْمَدُ

وَأُخْوِكَ مُحْتَمَلٌ عَلَيْكَ
ضَغِينَةٌ

لَا بَلٌّ أَحْبَبُهُمَا إِلَيْكَ
الْأَسْوَدُ

وَالضَّيْفُ عِنْدَكَ مِثْلُ
أَسْوَدٍ سَالِحٍ

فهذا قول الشاعر، وقال الآخر:

جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ
الْفَصِيلِ

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ
عَيْبٍ فَإِنِّي

فهو لم يرد مدح الكلب بالجبن، وإنما أراد نفسه حين قال:

وحفيف نافجة وكلب موسد

فإن كان الكلبُ إنما أسرَه أهله، فإنما اللوم على من أسرَه،
وإنما هذا الضرب كقوله:

قالوا لأُمَّهُم بُولي
على النَّارِ

قوم إذا استنبح
الأضيافُ كلبهم

ومعلوم أن هذا لا يكون، ولكن حقر أمرهم وصغرهم.
وقال ابن هرمة:

نبحتُ فدأته عليّ
كلابي

وإذا تنورَ طارق
مستنبح

وقال ابن مهية:

حوافرُها الدوابرُ
والنُسورا

جلبنا الخيلَ من
شُعبي تشكّي

وأهل الجوف أن
قتلوا غرورا

فلما أن طلّعن بعين
جعدِي

ولم يكُ كلبُهُم ليفيق
حتى

يُهارشَ كلبُهُم كلباً
عَقوراً

ومعلوم أنّ هذا لا يكون، إنما هو مثل، وقال أعرابي:

أخو ثقةٍ قدّ يحسبُ
المجدَ فُرصةً

إلى أهله أو ذمّة لا
تُخفّرُ

حبيبٌ إلى كلبٍ
الكريمِ نبأه

كريمةٌ إلى الكوماءِ
والكلبُ أبصرُ

وقال ابن هرمة:

وفرحة من كلابٍ
الحيّ يتبعُها

شحمٌ يزفُّ به الداعي
وترعيبُ

فهذا قول هولاء، وقال الآخر:

هجمنا عليه وهو
يكعمُ كلبه

دع الكلبَ ينبحُ إنّما
الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

وَتَكْعَمُ كَلْبَ الْحَيِّ مِنْ
خَشِيَةِ الْقَرَى

وَنَارُكَ كَالْعَذْرَاءِ مِنْ
دُونِهَا سِتْرُ

وقال أعشى بني تغلب:

إِذَا احْتَلَّتْ مَعَاوِيَةَ بْنَ
عَمْرُو

عَلَى الْأَطْوَاءِ خَنَقَتْ
الْكَلَابَا

فالكلب مرّة مكعوم، ومرّة مخنوق، ومرّة مؤسد
ومحرّش، ومرّة يجعله جباناً، ومرّة وثاباً، كما قال الراعي في
الخطبة:

أَلَا قَبَّحَ اللَّهُ
الْحَطِيئَةَ إِنَّهُ

عَلَى كُلِّ ضَيْفٍ ضَافَهُ
فَهُوَ سَالِحٌ

وقعنا إليه وهو
يَخْنُقُ كَلْبَهُ

دَعِ الْكَلْبَ يَنْبِخُ إِنَّمَا
الْكَلْبُ نَابِحٌ

وقال أعشى بني تغلب:

بَكَيْتَ عَلَى زَادٍ

أَلَا كُلُّ عَبْسِيٍّ عَلَى

خَبِيثٌ قَرِيئَةٌ

الزَادِ نَابِحٌ

وقال الفرزدق:

ولا تنزع الأضياف

إذا ما أبى أن ينبح

إلا إلى فتى

الكلب أوقدا

وقال الآخر:

دَعِ الْكَلْبَ يَنْبِحُ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَابِحٌ

وقال الآخر:

أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحٌ

وقال الفرزدق:

إذا ما أبى أن ينبح الكلب أوقدا

ومتى صار الكلب يأبى النباح؟ فهذا على أنهم يتشفون بذكر

الكلب، ويرتفعون به، لا على أن هذا الأمر الذي ذكروه قد

كان على الحقيقة: وقال الآخر، وهو جرير:

ولو كنت في نَجْرَانَ
أو بَعْمَايَةَ

إذن لأتاني من
رَبِيعَةَ رَاكِبُ

يُثير الكلابَ آخرَ اللَّيْلِ
وَطَوُّهُ

كضَبِّ العَرَادِ خَطْوُهُ
مِتقَارِبُ

فباتَ يُمْنِيًا الرِّبِيعَ
وصَوْبَهُ

ويُنْظَرُ من لَقَاعَةِ
وهو كاذب

فذكر تقاربَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنه مع ذلك قد أثار
الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ
على تيقُّظها ودِقَّةَ حسِّها.
وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي
يلقى، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة:

وأَجَرَ الكلبَ مُبَيِّضُ
الصَّقِيعِ بِهِ

وألجأ الحيَّ من
تنفاحه الحَجْرُ

وقال الحطيئة:

إذا أَجَرَ الكلبَ

بأثباجٍ لا خُورٍ ولا

الصَّقِيحُ اتَّقَيْنَهُ

وقال ابن هرمة:

وسل الجار

والمعصب

والأض

كيف يلقونني

إذا نبَحَ الكل

ومشى

الحالب

المُبِسُّ إلى

النَّا

لم تكن

خارجية من

تراث

وقال الأعشى:

قفرات

ياف وهنا إذا

تحببوا لديا

ب وراء الكسور

نبحاً خفياً

ب فلم يقر

أصفر

الحي رياً

حادث، بل

ورثت

ذاك علياً

س في الصَّيْفِ رَقْرَقَتْ
فيه العبيراً

عُ نَباحاً بها الكلب إلا
هريراً

يختصُّ بالثَّقْرِ
المُثْرَيْنَ داعيها

من الشَّتَاءِ ولا تسري
أفاعيها

كُسُورَ بَيوتِ الحَيِّ
نُكْبَاءُ حَرْجَفُ

يَزِفُ وجاءتْ خَلْفَهُ
وهي زُحْفُ

وتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ
العَرَوِ

وتسخن ليلة لا
يستطي

وليلةٍ يصطلي
بالفَرثِ جازرها

لا ينبحُ الكلبُ فيها
غيرَ واحدةٍ

وقال الفرزدق:

إذا احمرَّ آفاقُ
السَّماءِ وهتكت

وجاءَ قريعُ الشَّوْلِ
قبلَ إفالها

وَهتَكَتِ الْأَطْنَابَ
كُلُّ ذِفْرَةٍ

وَبأَشَرَ رَاعِيهَا
الصَّلَى بَلْبَانَهُ

وَقَاتَلَ كَلْبُ الْحَيِّ
عَنْ نَارِ أَهْلِهِ

وَأَصْبَحَ مَبِيضٌ
الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ

لَهَا تَامِكٌ مِنْ عَاتِقِ
النَّبِيِّ أَعْرَفُ

وَكَفَّ لِحْرَ النَّارِ مَا
يَتَحَرَّفُ

لِيَرِيضَ فِيهَا وَالصَّلَا
مَتَكَنَّفُ

عَلَى سَرَواتِ النَّيْبِ
قُطْنٌ مُنَدَّفُ

الكتاب الرابع

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

طباع الكلب العجيبة

أسرة تتوارث دواء الكلب

أعراض الكلب

ردّ على ما زعموا من أعراض الكلب

مما قيل في الكلب الكلب

مسألة كلامية

كرم الكلاب

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب والبقر في شعرهم

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

أحرص الكلاب

تخريق الكلب أذنيه

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

طرديات أبي نواس

أمارات البلوغ في الجواري والغلمان

شعر في نعت سرعة القوم

صفة أبي نواس لثعلب أفلت منه مراراً

صفة ما يستدلُّ به على فراهية الكلاب

وشياتها وسياستها

خير غذاء للكلب

تذليل الفيل والبعير

الفيل والسنور

الشاة والذئب

الحمام والشاهين

أعداء الفأرة

الثعلب والدجاجة

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

ما أشبه الكلب الأسود والأنسان

عظام الكلاب

إسماعيل بن غزوان وجارية موسى بن عمران

من أعاجيب الكلاب

تأويل الظالع في شعر الحطينة

طردية ثامنة لأبي نواس

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

نبح الكلاب السحاب
قول أبي حيّة النميري في الكلب
تعصّب فهد الأحزم للكلب
مما قيل في نباح الكلاب
فراصة إياس بن معاوية في الكلاب
خير الكلاب والسنانير
مما قيل من الشعر في نفع الكلاب
من دلائل كرم الكلب
حكم الأسباب في همم الناس
سلطان الحظ في نباهة القبيلة
سلطان الحظ على الآثار الأدبية
أثر الحظ في نباهة الفرسان

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

جود حاتم وكعب بن مامة

كلف العامة بمآثر الجاهلية

دلالة الخلق على الخالق

تأويل الآية الكريمة: "ويخلق ما لا تعلمون".

ديدان الخل والملح

فأرة البيش والسمندل

الجعل والورد

حصول الخلد على رزقه

الطائران العجيبان

اختلاف بين الحيوان في الطباع

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

خبرة الكلب في الصيد

ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

الانتباه الغريزي في الكلب

قصة في وفاء الكلب

طلب الأسد للكلب

سلاح الكلب وسلاح الدّيك

دفاع عن الكلب

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

قصة في وفاء كلب

أدب الكلب

العين التي أصابت سهل بن حنيف

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة،
وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجارب منها من
أصناف المنافع والمرافق، وعن مواضع أخلاقها المحمودة
وأفعالها المرادة.

ونبدأ بقول العرب: إِنَّ دِمَاءَ الْمَلُوكِ شِفَاءٌ مِنْ دَاءِ الْكَلْبِ، ثُمَّ
نذكر الأبواب لما قَدَّمْنَا فِي صَدْرِ كَلَامِنَا هَذَا، قَالَ بَعْضُ
الْمُرِّيِّينَ:

بِحَجْرٍ فِي لِقَائِهِمْ
جَفَاءً

أَرَى الْخَلَانَ بَعْدَ
أَبِي عَمِيرٍ

لَوْ أَنَّكَ تَسْتَضِيئُ
بِهِمْ أَضَاءُوا

مَنْ الْبَيْضُ الْوُجُوهِ
بَنِي سَنَانٍ

وَنُورٌ مَا يَغِيْبُهُ
الْعَمَاءُ

لَهُمْ شَمْسُ النَّهَارِ
إِذَا اسْتَقَلَّتْ

دِمَاؤُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ

بُنَاءُ مَكَارِمٍ وَأَسَاءُ

كَلِمٍ

وقال الفرزدق:

مِنَ الدارمِيِّينَ
الَّذِينَ دِمَاؤُهُمْ

وقال عبدُ الله بنُ قيسِ الرَّقِيَّاتِ:

عَاوَدَنِي النَّكْسُ
فَأَشْتَفَيْتُ كَمَا

تَشْفِي دِمَاءَ المَلُوكِ
مِنَ كَلْبٍ

وقال ابن عِيَّاش الكنديُّ لِبني أسَدٍ في قتلهم حُجْرَ بنِ عمرو:

عَبِيدُ العِصَا جِئْتُمْ
بِقَتْلِ رِئِيسِكُمْ

تُرِيقُونَ تَامُوراً
شِفَاءً مِنَ الكَلْبِ

وقال الفرزدق:

وَلَوْ تَشْرَبُ الكَلْبِي
المِرَاضُ دِمَاعَنَا

شَفَتْهَا وَذُو الحَبْلِ
الَّذِي هُوَ أَدْنَفُ

وذاك أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ دِمَاءَ الْأَشْرَافِ وَالْمُلُوكِ تَشْفِي مِنْ
عَضَّةِ الْكَلْبِ الْكَلْبِ، وَتَشْفِي مِنَ الْجُنُونِ أَيْضاً، كَمَا قَالَ
الْفَرَزْدَقُ:

ولو تشربُ الكَلْبِي المِرَاضُ
دماءنا
شفتها
لـ

ثم قال: وَذُو الْخَبْلِ الَّذِي هُوَ أَدْنَفُ وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ عَاصِمُ بْنُ
الْقَرِيَّةِ، وَهُوَ جَاهِلِيٌّ:

وداويتهُ مما بهِ
من مَجْنَةٍ
دم ابن كَهالٍ
والنَّطَاسِيِّ واقِفُ
وقلَّدته دهرأ
تميمة جَدّه
وليس لِشيءِ كادُهُ
اللَّهُ صَارِفُ

وكان أصحابنا يزعمون أَنَّ قولهم: دماء الملوك شفاء من
الكلب، على معنى أَنَّ الدَّمَّ الكَرِيمَ هُوَ النَّارُ المُنِيمُ، وَأَنَّ داء
الكلب على معنى قول الشاعر:

كَلْبٌ مِنْ حَسٍّ مَا قَدْ
وأفانين فُوَادٍ

مَسَّهُ

مُخْتَبِلٌ

وعلى معنى قوله:

كَلْبٌ بِضَرْبِ جَمَاجِمٍ وَرِقَابٍ

فإذا كَلِبَ من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب، وليس أن هناك دماً في الحقيقة يُشربُ ولولا قول عاصم بن القرية: والنطاسي واقف، لكان ذلك التأويل جائزاً، وقول عوف بن الأحوص:

دِمَاءُ الْقَوْمِ لِلْكَأْبِي
شِفَاءٌ

ولا العنقاء ثعلبة بن
عمرو

وفي الكلب يقول الأعشى:

فلم يبق إلا أن
يُجَنَّ وأكلبا

أراني وعمراً بيننا
دَقُّ مَنْشِمٍ

ألا ترى أنه فرَّق بينهما، ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة:

على الحمالة هل

يسعى خزيمة في

قوم ليهلكهم

بالمرء من كلب

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً، وقال الآخر:

وأمر أميري قد

كواه بنار بين

أطعمم فإنَّ ما

عينيه مكلب

وهذا عندي لا يدخل في الباب الأوّل، وقد جعلوه منه.

طباع الكلب العجيبة

قال صاحب الكلب: وزعمتم أنّه يبلغ من فضل قوّة طباع الديك في الإلقاح، أنّه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغراً من نتاج الرّيح والتراب، قلبها كلّها حيواناً ولو لم يكن سفدها إلاّ مرّة واحدة، وجعلتموه في ذلك بغاية الفحلة، فطباع الكلب أعجب إلقاحاً وأثقب، وأقوى وأبعد، لأنّ الكلب إذا عضّ إنساناً، فأول ذلك أنّ يحيله نباحاً مثله، وينقله إلى طباعه، فصار ينبح، ثمّ يحبله ويلقحه بأجراء صغار يبولها علقاً في صور الكلاب، على بُعد ما بين العنصرين والطبعين والجنسين، والذي يتولّد في أرحام الدجاج، أقرب مشاكلة إلى طباع الديك، فالكلب هو العجب العجيب، لأنّه أحبّل ذكراً من خلاف جنسه، ولأنّه مع الإحبال والإلقاح، أحاله نباحاً

مثله، فتلك الأدراس وتلك الكلاب الصغار، أولادٌ ونتاجٌ، وإن كان لا يبقى.

وقد تعلمون أنّ أولادَ البُعَلات من البغال لا تبقى، وأن اللّقاح قد يقع، وإنما مُنع البغل من البغلة بهذه العلة.

أسرة تتوارث دواء الكلب

قال أبو اليقظان وغيره: كان الأسود بن أوس بن الحُمرة، أتى النّجاشيّ ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشيّ: لأعطيتك شيئاً يشرفي من داء الكلب، فأقبلَ حتّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوَّج ابنة قدامة بن الأسود، وأن تعلمه دواء الكلب، ولا يخرج ذلك منهم إلى أحد، فتزوَّجته نكاح مَقْت، وعلمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم فيهم.

فولدَ الأسود قدامة وولد قدامة المحلّ وأمه بنت الحارث فكان المحلّ يُداوي من الكلب، فولد المحلّ عُقبَةَ وعمراً، فداوى ابنُ المحلّ عُتيبة بن مرداس، وهو ابن فسوة الشاعر، فبال مثلَ أجراء الكلب علقاً، ومثل صور النمل والأدراس فقال ابن فسوة حين برئ:

هَرَرْتُ إِذَا مَا النَّاسُ
هَرَّ كَلَابِهَا

مَوْلَعَةً أَكْتَفَاهَا
وَجَنُوبُهَا

ولولا دواءُ ابنِ
المُحِلِّ وعلمُه

وأخرج عبد الله
أولاد زارعٍ

وأولاد زارع: الكلاب.
وأما قوله:

ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه هَرَرْتُ

فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الذي يَعَضُّهُ الكَلْبُ الكَلْبُ، ينبج نباح
الكلاب ويَهْرُ هريرها.

أعراض الكَلْب

وقال محمد بن حفص، وهو أبو عبيد الله بن محمد، ابن
عائشة: عضَّ رجلاً من بني العنبرِ كلبٌ كلب فأصابه داءُ
الكلب، فبال علقاً في صورة الكلاب، فقالت بنت المستنثر:

وتلكَ لعمرى نُهية
المتعجبِ

أبا لك أدراصاً
وأولاد زارعٍ

وحدَّثني أبو الصَّهْبَاءِ عن رجالٍ من بني سعد، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عضَّ سنجيرَ الكلبِ الكلبُ، فكان يعطشُ ويطلبُ الماءَ بأشدَّ الطلبِ، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد، وهكذا يصيب صاحبَ تلك العَصَّةِ، وذلك أنَّه يعطش عنها أشدَّ العطش ويطلب الماءَ أشدَّ الطلبِ، فإذا أتوه به هربَ منه أشدَّ الهربِ، فقال دَلَمَ وهو عبدُ لبني سعد:

لقد جئت يا سنجير
أجلو ملقة
إباؤك للشيء الذي
أنت طالب

وهي أبياتٌ لم أحفظ منها إلا هذا البيتِ.
وذكر مسَلَمَةُ بن محارب، وعليُّ بن محمَّد عن رجاله، أنَّ زياداً كتب دواء الكلب، وعلَّقه على باب المسجد الأعظم، ليعرفه جميع الناس.

ردّ على ما زعموا من أعراض الكلب

وأنا، حفظك الله تعالى، رأيتُ كلباً مرّةً في الحَيِّ ونحنُ في الكتاب، فعرض له صبيٌّ يسمّى مهديّاً من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه فعضَّ وجهه فنقع ثنَّيته دون موضع

الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شِدْقِهِ؟ وترك مُقْلَتَهُ صحيحة، وخرج منه من الدّم ما ظننتُ أَنَّهُ لا يعيش معه، وبقي الغلامُ مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفرع وبقي طائر القلب، ثمّ خيط ذلك الموضع، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكُتّاب، وليس في وجهه من الشُّتر إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هَرَّ، ولا دعا بماءٍ، حتّى إذا رآه صاح: رُدُّوه ولا بال جرواً ولا علقاً، ولا أصابه ممّا يقولون قليل ولا كثير، ولم أجد أحداً من تلك المشايخ، يشكُّ أَنَّهُم لم يروا كلباً قطُّ أكلب ولا أفسد طبعاً منه، فهذا الذي عاينت.

وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتُه لك.

مما قيل في الكلب الكلب

وفي الكلب الكلب أنشد الأعرابي:

وإنما الشاعر
مجنون كلب

حيّاكم الله فاني
منقلب

أكثر ما يأتي على
فيه الكذب

إما أن يكون الشعر لهميان وإما أن يكون للزفیان،
وأنشدني:

فإن كنتم كلبى
فإن كنتم كلبى
فعدني شفاؤكم
وفي الجن إن كان
اعتراك جنون

وأنشدني:

وما أدري إذا
لاقيت عمراً
أكلبى آل عمرو أم
صباح

قال: فأما المكلب الذي يصيب كلابه داءً في رؤوسها يسمّى
الجحام فتكوى بين أعينها،

مسألة كلامية

وسنذكر مسألة كلامية، وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في
هذا ممن ليس له علم بالكلام، ولو كان أعلم الناس باللغة،
لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام، وقد
اعترض معترضون في قوله عزّ وجل: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ
ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا" فَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ لَا
يَجُوزُ أَنْ يُضْرَبَ لِهَذَا الْمَذْكُورِ فِي صَدْرِ هَذَا الْكَلَامِ، لِأَنَّهُ
قَالَ: "وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا"، فَمَا
يُشَبِّهُ حَالُ مَنْ أُعْطِيَ شَيْئًا فَلَمْ يَقْبَلْهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ ذَلِكَ -
بِالْكَلْبِ الَّذِي إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ نَبْحَ وَوَلَّى ذَاهِبًا، وَإِنْ تَرَكْتَهُ شَدَّ
عَلَيْكَ وَنَبَحَ، مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ: يَلْهَثُ، لَمْ يَقَعْ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِنَّمَا
يَلْهَثُ الْكَلْبُ مِنْ عَطَشٍ شَدِيدٍ وَحَرٍّ شَدِيدٍ، وَمَنْ تَعَبَ، وَأَمَّا
النَّبَاحُ وَالصِّيَاحُ فَمِنْ شَيْءٍ آخَرَ، قُلْنَا لَهُ: إِنْ قَالَ "ذَلِكَ مَثَلُ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا"، فَقَدْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ الرَّادُّ لَا
يَسْمَى مَكْذِبًا، وَلَا يُقَالُ لَهُمْ كَذَّبُوا إِلَّا وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ
مَرَارًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يُشَبِّهَ الَّذِي أُوتِيَ
الْآيَاتِ وَالْأَعَاجِيبِ وَالْبُرْهَانَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، فِي بَدءِ حَرْصِهِ
عَلَيْهَا وَطَلْبِهِ لَهَا، بِالْكَلْبِ فِي حَرْصِهِ وَطَلْبِهِ، فَإِنَّ الْكَلْبَ
يُعْطَى الْجِدَّ وَالْجُهْدَ مِنْ نَفْسِهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ،
وَشَبَّهَ رَفْضَهُ وَقَذْفَهُ لَهَا مِنْ يَدَيْهِ، وَرَدَّهُ لَهَا بَعْدَ الْحَرْصِ
عَلَيْهَا وَفَرَطِ الرَّغْبَةِ فِيهَا، بِالْكَلْبِ إِذَا رَجَعَ يَنْبَحُ بَعْدَ إِطْرَادِكَ

له، وواجبٌ أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرص عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش، وعلى أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضةٌ وادعة، إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طُبعت عليه من شأنها، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين.

كرم الكلاب

وقال صاحب الكلب: ليس الدِّيك من الكلب في شيء، فمن الكلاب نواتُ الأسماء المعروفة والألقاب المشهورة، ولكرامها وجوارحها وكواسبها، وأحرارها وعتاقها، أنسابٌ قائمةٌ ودواوينٌ مخلّدة، وأعراقٌ محفوظة، ومواليدٌ مُحصاة، مثل كلب جذعان، وهو السَّلْهُبُ بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفر بن مُحارِش.

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

وقد ذكر العرب أسماءها وأنسابها، قال مزرد بن ضرار:

فإن غزير الشعر

فعدّ قريضَ الشعر

إِنْ كُنْتَ مُغْزَرًا

لِنَعْتِ صُبْحِيَّ
طَوِيلَ شِقَاوَهُ

بَقِيْنَ لَهُ مِمَّا
يَبْرِي وَأَكْلِبِ

سُخَامًا، وَمِقْلَاءَ
الْقَتِيصِ، وَسُلْهَبٍ

بَنَاتِ سُلُوقِيَّيْنِ
كَانَا حَيَاتَهُ

وَأَيُّقْنَ إِذْ مَاتَا
بِجُوعٍ وَخَلَّةٍ

فَطَوَّفَ فِي أَصْحَابِهِ
يَسْتَثْبِيهِمْ

مَا شَاءَ قَائِلُ

لَهُ رَقَمِيَّاتٍ
وَصَفْرَاءُ ذَابِلِ

تَقَلَّقُلُ فِي أَعْنَاقِهِنَّ
السَّلَاسِلُ

وَجَذَلَاءُ،
وَالسَّرْحَانَ،
وَالْمَتَنَاوُلُ

فَمَاتَا فَأَوْدَى
شَخْصُهُ فَهُوَ
خَامِلٌ

وَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ:
إِنَّكَ عَائِلٌ

فَأَبَ وَقَدْ أَكَّدْتُ
عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ

إلى صبيةٍ مثلِ	رَوَادٍ، وَمِنْ شَرِّ
المغاليِ وخِرمِلِ	النساءِ الخِرامِلُ
فقال لها: هَلْ مِنْ	أذَمُّ إِلَيْكَ النَّاسَ،
طعامٍ فَإِنِّي	أُمَّكَ هَابِلُ
فَقالتُ: نَعَمْ، هَذَا	وَمُحْتَرَقٌ مِنْ حائلِ
الطَّويِّ وَماؤه	الجلدِ قاحِلُ
فلما تناهتْ نَفْسُهُ	وَأَمسى طليحاً ما
مِنْ طعامِهِ	يُعانيهِ باطلُ
تَغشى، يريذُ النَّومِ،	فَأعيا على العينِ
فضلِ رِداءِهِ	الرُّقادِ البِلابِلُ

فَفَكَّرُ فِي هَذَا الشَّعْرِ وَقَفَّ عَلَى فِصولِهِ، حَتَّى تَعْرِفَ غِناءَ
الكلابِ عِندَهُم، وَكسبها عَلَيْهِم، وَموقِعها مِنْهُم، وَقَالَ لبيدُ
فِي ذِكرها وَذِكر أَسْماءِها:

لَتذودهنَّ وَأيقنتُ	أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنْ
إِنْ لَمْ تَدُدْ	الحتوفِ حِمامُها

بدم وعودر في
المكر سخامها

فتقصدت منها
كساب وضرجت

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب والبقر في شعرهم

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثيةً أو موعظةً، أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربّما جرحت الكلاب وربّما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنّها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم،

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

وقال لبيد في هذا القول الثاني غير القول الأول، وذلك على معنى ما فسرت لك، فقال في ذلك وذكر أسماءها:

أخو قفرة يشلى
ركاحاً وسائلا

فأصبح وانشق
الضباب وهاجه

يرين دماء

عوابس كالنشاب

تدمى نحورها

الهاديات نوافلا

ومن أسمائها قولهم: على أهلها جنتُ براقش، ومن أسمائها
قول الآخر: ضبّار:

سفرتُ فقلتُ لها

فذكرتُ حينَ

هَجٍ فتبرّقتُ

تبرّقتُ ضبّارا

وقال الكُميت الأسدّي:

فبات وباتت عليه

ءُ من كلِّ حابيةٍ

السّما

تَهْطُلُ

مُكِبًّا كما اجتَح

على النَّصْلِ إذ طَبِع

الهالكيّ

المنصّلُ

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال:

وفي ضِبْنِ حِقْفِ

خَطَافٍ وَسِرْحَةِ

يرى حِقْفَهُ

والأحدلُ

وأربعةٌ كقداح

ء لا عانياتٌ ولا

السَّرا

عُبَّلُ

وقال الآخر:

بتنا وباتَ جليد

بينَ البيوتِ قرانا

اللَّيْلُ يَضْرِبُنَا

نُبْحِ درواسِ

إذا مَلَأَ بطنه

بأَتْتَ تَغْيِيهَ وِضْرِي

ألبانها حَلْباً

ذاتُ إجراسِ

ودرواس: اسم كلب، والوضرى: استه، وغناؤها: الضُّراط،
وقال ضابئ بن الحارث في ذلك:

فترمَّلتِ بدمٍ

أوفى اللّحاقُ وِحانَ

قَدامِ وَقْدٍ

مصرعه

وقال الآخر:

ولو هَيَّا له اللّٰه

من التوفيق أسبابا

لسمي نفسه عمراً

وسمى الكلبَ وثابا

ومثل هذا كثير.

أحرص الكلاب

والكلبُ أشدُّ ما يكون حرصاً إذا كان خطمه يمسّ عجبَ ذنب
الظبي والأرنب والثور وغير ذلك، مما هو من صيده، ولذلك
قال الشاعر:

طالباً للصيد في صحبي	ربّما أغدو معي كلبي
فدفعناه إلى أظب	فسمونا للقيص معاً
يَلْطُمُ الرَّفْعِينَ بِالتُّرْبِ	فاستدرته فدرّها
في جميع الحاج والغرب قدّ مخلولان	فأدراها وهي لاهيّة ففرى جُماعهنّ

كما

ثم قال:

غير يعفورٍ أهلّ
به

ضمّ لخبّيه
بمخْطِمْه

وانتحي للباقياتِ
كما

فتعايا التّيسُ حين
كبا

ظلّ بالوعساء
ينفضّه

تلك لذاتي وكنتُ
فتّى

من عَصَبِ

جاف دَفِيهٍ عن
القَلْبِ

ضَمَّكَ الكسرينِ
بالشعبِ

كَسَرْتُ شَعْوَاءُ من
لهبِ

ودنا فوهُ من
العَجَبِ

أرماً منه على
الصُّلْبِ

لم أقلّ من لذةِ
حسبي

الإهلال والاستهلال وأما قوله: غير يعفور أهلَّ به، فالإهلال الذي ذكر هو شيءٌ يعتريه في ذلك الوقت، يخرج من جوفه صوتٌ شبيه بالعواء الخفيف، وهو ما بين العواء والأنين، وذلك من حاق الحرص، وشدة الطلب، وخوف الفوات، ويقال: أهلت السماء، إذا صبَّت، واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها، ومنه الإهلال بالحج، وقال ابن أحرر:

كما يهَلُّ الراكبُ
المعتمِرُ

يُهَلُّ بالفرقد
رُكبائها

ومنه استهلال الصبي، ولذلك قال الأعرابيُّ: رأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس ذلك يُطلُّ ؟

تخريق الكلب أذنيه

وإذا ضبع الكلب، وهو أن يمدَّ ضبعه كلَّه، ولا يكون كالحمار الضيق الإبطين - والكلبُ في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتَّى يصيب قصَّه الأرض، أكثر من الفرس- وعند ذلك ما يَنشَطُ أذنيه حتَّى يدميها ولذلك قال الحسن بن هانئ، وقد طال ما نعتَ بهما:

فانصاع كالكوكب في
انحداره

لَفَتَ المشير
مُوهناً بناره

شَدًّا إِذَا أَحْصَفَ فِي
إِحْضَارِهِ

خَرَقَ أذْنِيهِ شَبَا
أَظْفَارِهِ

وأول هذه الأرجوزة:

لِما عَدَا الثَّعْلُبُ مِنْ
وِجَارِهِ

يَلْتَمِسُ الكَسْبَ عَلَي
صِغَارِهِ

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب، لأنَّه كان عالماً راوية،
وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه
الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة
في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحدق
بالصنعة، وإن تأملتَ شعره فضلتَهُ، إلا أن تعترض عليك فيه
العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبدأ أشعر، وأنَّ المؤلِّدين لا
يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا
تبصر الحقَّ من الباطل، مادمتَ مغلوباً

طرديات أبي نواس

قال الحسن بن هانئ:

لما غدا الثعلبُ من
وجاره

عارضته في سنن
امتياره

في حلق الصفر
وفي أسياره

قد نحت التسهيمُ
من أقطاره

غضاً غذته الجورُ
من عشاره

وهو طلاً لم يدنُ
من إشغاره

يلتمس الكسبَ
على صغاره

مضمراً يموجُ في
صداره

منضمة قصرأه
من إضماره

من بعد ما كان
إلى أصباره

أيام لا يحجبُ عن
أظاره

في منزلٍ يحجبُ
عن زواره

حَتَّى إِذَا أَحْمَدَ فِي
اِخْتِبَارِهِ

كَأَنَّ خَلْفَ مَلْتَقَى
أَشْفَارِهِ

كَأَنَّ لَحْيَيْهِ لَدَى
اِفْتِرَارِهِ

يَضُمُّ قَطْرِيهِ مِنْ
اضْطِبَارِهِ

عَشْرٌ إِذَا قَدَّرَ فِي
اِقْتِدَارِهِ

إِلَّا بَأْنَ يُطْلَقَ مِنْ
عِدَارِهِ

لَفَتَ الْمَشِيرِ
مُوَهِنًا بِنَارِهِ

يُسَاسُ فِيهِ طَرْفِي
نَهَارِهِ

وَآضَ مِثْلَ الْقَلْبِ
مِنْ نُضَارِهِ

جَمَرَ غَضَى يَدْمِنُ
فِي اسْتِعَارِهِ

شَكَ مَسَامِيرَ عَلَى
طَوَارِهِ

وَإِنْ تَمَطَّى تَمَّ فِي
أَشْبَارِهِ

سَمِعَ إِذَا اسْتَرَوَحَ
لَمْ تُمَارِهِ

فَانصَاعَ كَالْكُوكِبِ
فِي انْحِدَارِهِ

شَدًّا إِذَا أَحْصَفَ فِي
إِحْضَارِهِ
خَرَّقَ أذْنِيهِ شَبَا
أَظْفَارِهِ
حَتَّى إِذَا مَا انْسَابَ
فِي غِبَارِهِ
فَتَلَّتَ الْمَفْصِلَ مِنْ
فَقَارِهِ
مَا خَيْرَ لِلثَّعْلَبِ فِي
ابْتِكَارِهِ
وَشَقَّ عَنْهُ جَانِبِي
صِدَارِهِ
عَافَرُهُ أَخْرَقُ فِي
عِفَارِهِ

طردية ثانية لأبي النواس وقال في كلب سليمان بن داود
الهاشمي - وكان الكلبُ يسمى زُبورا:

إِذَا الشَّيَاطِينُ رَأَتْ
زُبُورًا
قَدْ قَلَدَ الْحَلَقَةَ
وَالسُّيُورًا
دَعَتْ لِخِزَّانِ الْفِلا
ثُبُورًا
أَدْفَى تَرَى فِي
شِدْقِهِ تَأْخِيرًا

خَنَاجِرًا قَدْ نَبَتَتْ
سُطُورًا

أَحْسِنَ فِي تَأْدِيبِهِ
صَغِيرًا

مَنْ سِنَّهُ وَبَلَغَ
الشُّغُورًا

وَالْكَفَّ أَنْ تَوْمِي
أَوْ تَشِيرًا

شَدًّا تَرَى مِنْ
هَمْزِهِ الْأُظْفُورًا

فَمَا يَزَالُ وَالْغَاءُ
تَامُورًا

أَوْ أَرْنَبِ كَوَّرَهَا
تَكْوِيرًا

تَرَى إِذَا عَارِضَتْهُ
مَفْرُورًا

مُشْتَبِكَاتٍ تَنْظِمُ
السُّحُورًا

حَتَّى تَوْفَى السَّبْعَةَ
الشُّهُورًا

وَعَرَفَ الْإِيحَاءَ
وَالصَّفِيرًا

يُعْطِيكَ أَقْصَى
حُضْرِهِ الْمَذْخُورًا

مُنْتَشِطًا مِنْ أَدْنَاهُ
سُيُورًا

مِنْ ثَعْلَبِ غَادِرِهِ
مَجْزُورًا

أَوْ ظَبِيَّةٍ تَقْرُو رَشَاءً
غَرِيرًا

غَادَرَهَا دُونَ الطَّلَا
عَقِيرًا

فَأَمَّتْ اللّٰهَ بِهِ
الْأَمِيرًا

رَبِّي، وَلَا زَالَ بِهِ
مَسْرُورًا

وَقَدْ قَالَ كَمَا تَرَى:

شَدًّا تَرَى مِنْ هَمَزِهِ
الْأَظْفُورًا

مُنْتَشِطًا مِنْ أَدْنَاهُ
سَيُورًا

بِإِثْرِ قَوْلِهِ:

حَتَّى تَوْفَى السَّبْعَةَ
الشُّهُورًا

مِنْ سِنِّهِ وَبَلَغَ
الشُّغُورًا

فَإِنَّ الْكَلْبَ إِذَا شَغَرَ بِرِجْلِهِ وَبَالَ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَمَامِ بَلُوغِهِ
لِلْإِلْقَاحِ، وَهُوَ مِنَ الْحَيَوَانَ الَّذِي يَحْتَلِمُ.

أَمَارَاتُ الْبَلُوغِ فِي الْجَوَارِي وَالْغُلَمَانِ

وَأَمَّا احْتِلَامُ الْغُلَامِ فَيَعْرِفُ بِأُمُورٍ: مِنْهَا انْفِرَاقُ طَرَفِ
الْأُرْنَبَةِ، وَمِنْهَا تَغْيِيرُ رِيحِ إِبْطِيهِ، وَمِنْهَا الْأَنْيَابُ، وَمِنْهَا غَلْظُ

الصوت، ومن الغلمان من لا يحتلم، وفي الجوّاري جوارٍ لا
يحضن، وذلك في النساء عيب، وليس مثله من الرجال
عيباً، وقد رأيت رجالاً يوصفون بلقوة على النساء،
وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم
البتة، طردية ثالثة لأبي نواس قد قال الحسن بن هانئ مثل
ذلك، في أرجوزة أخرى:

برائنا سُحْمَ
الأثافي مُطَا

يَمْرِي إِذَا كَانَ
الْجِرَاءُ عَبْطَا

يَنْشِطُ أذْنِيهِ بِهِنَّ
نَشْطَا

وهذه الأجوزة أولها:

مَقْلَدًا قَلَانِدًا
وَمَقْطَا

عَدَدَتْ كَلْبًا
لِلطَّرَادِ سَلْطَا

تَرَى لَهُ شِدْقَيْنِ
خُطَّوًّا خَطَّا

فَهُوَ الْجَمِيلُ
وَالْحَسِيبُ رَهْطَا

برائناً سُحْمَ الأثافي
مُنْطاً

يمري إذا كان
الجِرَاءَ عَبْطاً

تخالُ ما دَمِينِ منها
شرطاً

ينشِطُ أَدْنِيهِ بهنَّ
نشِطاً

كأنما يُعَجِّلِنَ شيئاً
لِقُطاً

ما إنْ يَقَعْنَ
الأرضَ إِلا فَرُطاً

فاجتاحَ خِرَّانَ
الصحارى الرُّقُطاً

أعَجَلَ من قول
قُطاة قُطاً

للِعَظْمِ حَطْماً والأديمِ
عَطاً

يَلْقَيْنِ مِنْهُ حَكْماً
مَشْتِطاً

شعر في نعت سرعة القوم

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال:

ومسَّهن إذا أقبلن
تحليل

يخفي التراب
بأظلاف ثمانية

وقال الآخر:

أَنْ لَا تَمَسَّ الْأَرْضَ
أَرْبَعَهُ

وَكأَمَّا جَهَدَتْ
أَلَيْتُهُ

فأفرط المولّدون في صفة السرعة وليس ذلك بأجود فقال
شاعرٌ منهم يصف كلبة بسرعة العَدُو:

كأَمَّا تَرَفَعُ مَا لَمْ يُوضِعِ

وقال الحسن بن هانئ:

مَا إِنْ يَقَعَنَّ الْأَرْضَ إِلَّا فَرَطَا

وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب:

قَدْ سَعِدَتْ جَدُودُهُمْ
بِجَدِّهِ

يَظِلُّ مَوْلَاهُ لَهُ
كَعَبْدِهِ

وَإِنْ عَرِيَ جَلَّتْهُ
بُيْرِدُهُ

أُنَعِتُ كَلْبًا أَهْلُهُ
فِي كَدِّهِ

فَكُلُّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ
مَنْ عِنْدَهُ

يَبِيْتُ أَدْنَى صَاحِبِ
مَنْ مَهْدُهُ

ذو عَرَّةٍ مَحَجَّلٍ
بِزَنْدِهِ

تَلَدَّ مِنْهُ الْعَيْنُ
حُسْنَ قَدِّهِ

يَا حُسْنَ شِدْقِيهِ
وَطُولَ خَدِّهِ

تَلَقَى الطَّبَاءَ عِنْتاً
مِنْ طَرْدِهِ

يَشْرَبُ كَأْساً شَدَّهَا
فِي شَدِّهِ

يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ
نَسِيحٍ وَخَدِّهِ

طردية خامسة لأبي النواس وقال في صفاتها، وأسمائها
وسماتها، وأنسابها، وألقابها، وتفدية أربابها لها كما ذكرنا
قبل ذلك:

قَدْ أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ
فِي مَثْوَاتِهَا

لَمْ تُعْرَبِ الْأَفْوَاهُ
عَنْ لُغَاتِهَا

بِأَكْلِبِ تَمَرُحُ فِي
قِدَاتِهَا

تَعُدُّ عَيْنَ الْوَحْشِ
مِنْ أَقْوَاتِهَا

قَدْ نَحَتَ التَّقْرِيحُ
وَأَرِيَاتِهَا

مِنْ شِدَّةِ التَّسْهِيمِ
وَاقْتِنِيَاتِهَا

وقلتُ قد أحكمتها
فهايتها

وارفع لنا نسبة
أمهاتها

شمَّ العراقيب
مؤنَّفاتها

مُشرفة الأكنافِ
مُوفياتها

سوداً وصُفراً
وخلنجياتها

حُمراً وبيضاً
ومطوَّقاتها

كانَّ أقماراً على
لبَّاتها

وأشفقَ القانصُ
من حُفاتِها

وأذن للصَّيد
مُعلماتِها

فجاء يُزجِها على
شياتِها

عُرَّ الوجوه
ومحجَّلاتِها

قود الخراطيم
مُخرطَماتِها

مُسَمَّياتِ
ومُلَقَّباتِها

مختبرات من
سلوقيَّاتِها

تَرَى عَلَى أَفْخَاذِهَا
سِمَاتِهَا

مَفْرُوشَةَ الْأَيْدِي
شَرَنْبُثَاتِهَا

حَيْدَ الْأُظْفِيرِ
مُكْغَبِرَاتِهَا

تَسْمَعُ فِي الْآثَارِ
مِنْ وَحَاتِهَا

مَنْ نَهَمَ الْحَرِصُ
وَمِنْ خَوَاتِهَا

إِنَّ حَيَاةَ الْكَلْبِ فِي
وَفَاتِهَا

كَثِيرَةُ الضِّيْفَانِ مِنْ
عُفَاتِهَا

فَقَدْ قَالَ كَمَا تَرَى:

مُفَدِّيَاتِ
وَمُحَمِّيَاتِهَا

شَمَّ الْعَرَاقِيبِ
مَوْلَفَاتِهَا

زُلَّ الْمَآخِرِ
عَمَلَّسَاتِهَا

لَتَفْتَأُ الْأَرْنَبَ عَنْ
حَيَاتِهَا

حَتَّى تَرَى الْقَدْرَ
عَلَى مَنَفَاتِهَا

تَقْدِفُ جَالَاهَا
بِجَوَزِي شَاتِهَا

من نهم الحرص
ومن خواتها

تسمع في الآثار
من وحاتها

وهذا هو معناها الأول، وأما قوله:

تعد عين الوحش من أقواتها

فعلى قول أبي النجم:

تعد عانات اللوى من مالها

وزعموا أن قوله:

كطلعة الأشمط من جلبابه

هو قول الأول:

كطلعة الأشمط من كسائه

وهو كما قال الآخر:

كطلعة الأشمط من بُرد سَمَلْ

طرديّة سادسة لأبي النّوّاس وقال الحسن بن هانئ:

كَطَّلَعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ
جَلْبَابِهِ

هَجْنَا بِكَلْبٍ طَالَمَا
هَجْنَا بِهِ

يَعْزُهُ طَوْرًا عَلَى
اسْتِصْعَابِهِ

فَانْصَاعَ لِلصَّوْتِ
الَّذِي يَعْنِي بِهِ

فَصًّا عَقِيقٍ ٍ قَدْ
تَقَابَلَا بِهِ

بَابًا بِهِ يَا بَعْدَ مَا
بَابًا بِهِ

لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ
مِنْ حِجَابِهِ

وَانْعَدَلَ اللَّيْلُ إِلَى
مَأْبِهِ

خَرَّطَهُ الْقَانِصُ
وَاعْتَدَى بِهِ

وَتَارَةً يَنْصَبُّ
لَانْصِبَابِهِ

كَلَمَعَانَ الْبَرْقِ مِنْ
سَحَابِهِ

كَأَنَّ عَيْنِيهِ لَدَى
ارْتِيَابِهِ

حَتَّى إِذَا عَفَّرَهُ
هَاهَا بِهِ

مِنْ مَرَحٍ يَغْلُو إِذَا اغْلَوَى بِهِ	يُنْتَسَفُ الْمِقْوَدُ مِنْ جِذَابِهِ
كَأَنَّ مَثْنِيهِ لَدَى انْسِلَابِهِ	وَمِيعَةٌ تُعْرَفُ مِنْ شَبَابِهِ
كَأَنَّمَا الْأَظْفُورُ فِي قِنَابِهِ	مَتَنَا شُجَاعٍ لَجَّ فِي انْسِيَابِهِ
يَثْرُدُ وَجْهَ الْأَرْضِ فِي ذَهَابِهِ	مُوسَى صِنَاعٍ رُدُّ فِي نِصَابِهِ
يَعْفُو عَلَى مَا جَرَّ مِنْ ثِيَابِهِ	كَأَنَّ نَسْرًا مَا تَوَكَّلْنَا بِهِ
تَرَى سَوَامَ الْوَحْشِ يُخْتَوَى بِهِ	إِلَّا الَّذِي أَثَرَ مِنْ هُدَابِهِ
	يَرُحْنَ أَسْرَى ظُفْرِهِ وَنَابِهِ

صفة أبي نواس لشعيب أفلت منه مراراً

وقال في ثعلب كان قد أفلت منه مراراً:

وطالما وطالما وطالما	قد طالما أفلتت يا ثعالا
ما طلت من لا يسأم المطالا	جئت بكلي يومك الأجوالا
أتاك حين يقدم الآجالا	حتى إذا اليوم حدا الآصالا

طردية سابعة لأبي نواس وقال أبو نواس أيضاً:

بَعِيدَ بَيْنِ السَّمَكِ وَالْمَطْنَبِ	يَارَبَّ بَيْتٍ بِفَضَاءٍ سَبَسَبِ
قد أدبوا أحسن التأدي	لِفَتِيَةٍ قَدْ بَكَرُوا بِأَكْلِبِ

مِنْ كُلِّ أَدْفَى
مَيْسَانٍ
الْمُنْكَبِ

يَشْبُ فِي الْقَوْدِ
شِبَابَ الْمُقْرَبِ ۝

فَمَا تَنِي
وَشَيْقَةَ
مَنْ
أَرْنَبِ

يَنْشِطُ
أَدْنِيَهُ بَجْدٍ
الْمِخْلَبِ

مَقْلُوبَةٍ
الْفُرُوعِ أَوْ
لَمْ تُقْلَبِ

وَجِلْدَةٍ
مَسْلُوبَةٍ
مَنْ
ثَعْلَبِ

وَمِرْجَلٍ
يَهْدِرُ هَدْرًا
الْمُصْعَبِ

وَعَيْرُ
عَانَاتٍ وَأُمَّ
التَّوَلَّبِ

يَقْدَفُ
جَالَاهُ

بجوز القرهَب

صفة ما يستدلُّ به على فراهية الكلابِ

وشياتها وسياستها

قال بعض من خبر ذلك: إنَّ طول ما بين يدي الكلب ورجليه

- بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السُرعة، قال:

ويصفونه بأن يكون صغير الرأس، طويل العُنُقُ غليظها،

وأن يشبه بعضُ خلقه بعضاً، وأن يكون أغضف الأذنين

مُفرط الغضف، ويكون بعيد ما بينهما، ويكون أزرق

العينين، طويل المقلتين، ناتئ الحدقة، طويل الخطم، واسع

الشَّدقين، ناتئ الجبهة عريضها، وأن يكون الشعر الذي

تحت حنكه كأنه طاقة ويكون غليظاً، وكذلك شعرُ خديهِ،

ويكون قصير اليدين، طويل الرجلين، لأنه إذا كان كذلك كان

أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب، قالوا: ولا يكاد يلحق

الأرنب في الصَّعود، إلاَّ كلُّ كلبٍ قصيرِ اليدين، طويل

الرَّجلين، وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً، ويكون ما

يلي الأرض من صدره عريضاً، وأن يكون غليظ العُضدين،

مستقيم اليدين، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا

مشى أو عدا، وهو أجدرُّ ألاَّ يصير بينها من الطَّين وغير ذلك ما يفسدُها، ويكون ذكيَّ الفؤاد نشيطاً، ويكون عريض الظَّهر، عريض ما بين مفاصل عظامه، عريض ما بين عظمي أصلِ الفخذين اللذين يصيبان أصل الذنب، وطويل الفخذين غليظهما شديد لحمهما، ويكون رزين المحزم، رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، ومستقيم الرجلين، ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقهما، كأنَّهما خشبة من صلابتهما، وليس يكره أن تكون الإناث طوال الأذنان، ويكره ذلك للذكور، ولينُّ شعرهما يدلُّ على القوة، وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الأربع، من لين الرِّيش لذوات الرِّيش، ولينُّ الشَّعر لذوات الشعر من عتاق الخيل علامةٌ صالحة، قال: وينبغي أن يكون الكلبُ شديد المنازعة للمقود والسَّلسلة، وأن يكون العظم الذي يلي الجنبين من عظام الجنبين صغيراً في قدر ثلاث أصابع، وزعم أنَّهم يقولون: إنَّ السُّود منها أقلُّها صبراً على البرد والحر، وإنَّ البيض أفره إذا كنَّ سُوْدَ العيون، قال: ومن علامة الفَره التي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحداهما أو على

رأس الذئب مخلب، وينبغي أن يُقطع من السَّاقين، لئلا
يمنعه من العدو،

خير غذاء للكلب

وذكرَ أنَّ خير الأشياء التي تُطعمُها للكلب الخبزُ الذي قد
يَبَس، ويكُون عداوةً لبعض الحيوان لبعض وزعم صاحب
المنطق أنَّ العُقابَ تأكلُ الحياتِ، وأنَّ بينهما عداوةً؛ لأنَّ
الحيَّةَ أيضاً تطلبُ بيضَها وفراخها، قال: والغُدافُ يقاتلُ
البومةَ، لأنَّ الغُدافَ يَخطفُ بيضَ البومةَ نهاراً، وتشدُّ
البومةُ على بيض الغُداف ليلاً فتأكله؛ لأنَّ البومةَ ذليَّةٌ
بالنهار رديَّة النظر، وإذا كان اللَّيلُ لم يَقوَ عليها شيءٌ من
الطير، والطير كُلُّها تعرف البومةَ بذلك وصنيعها بالليل،
فهي تطير حولَ البومةِ وتضربُها وتنتفِ ريشها، ومن أجلِ
ذلك صارَ الصيَّادون يَنصرونها للطير، والغُدافُ يقاتلُ ابنَ
عرس؛ لأنه يأكل بيضَه وفراخَه، قال: وبين الحِدَاة والغُدافِ
قتالٌ؛ لأنَّ الحِدَاة تَخطفُ بيضَ الغُداف؛ لأنها أشدُّ مخالِبَ
وأسرَعُ طيراناً، وبين الأَطْرُغَّة والشَّقْراق قتالٌ؛ لأنَّه يقتل
الأَطْرُغَّةَ ويُطالبها، وبين العنكبوت والعظاية عداوة،
والعظاية تأكل العنكبوت، وعصفور الشوك يعبثُ بالحمار،

وعبَّه ذلك قتال له؛ لأنَّ الحمارَ إذا مرَّ بالشَّوكِ وكانت به
دبَّرة أو جربٌ تحكَّك به، ولذلك متى نهق الحمار سقط بيضُ
عصفور الشوك، وجعلت فرائخه تخرج من عشها، ولهذه
العلة يطيرُ العصفورُ وراءَ الحمارِ وينقرُ رأسه، والذئب
مخالفٌ للثورِ والحمارِ والثعلبِ جميعاً، لأنَّه يأكل اللحم النَّيءَ
ولذلك يقع على البقرِ والحميرِ والثعالبِ، وبين الثعالبِ
والزُّرَقِ خلافٌ لهذه العلة؛ لأنَّهما جميعاً يأكلان اللحم،
والغراب يُخالف الثورَ؛ ويُخالف الحمارَ جميعاً، ويطير
حولهما، وربَّما نقرَ عيونهما، وقال الشاعر:

عَدَاوَةُ الْحِمَارِ
لِلْغَرَابِ

عَادِيَّتَنَا لَا زَلَّتْ فِي
تَبَابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق؛ لأنَّ الثعلبَ لا يجوزُ
أن يُعادي من بين أحرار الطير وجوارحها الزُّرَقِ وحده،
وغير الزُّرَقِ أكل اللحم، وإن كان سببُ عداوته له
اجتماعهما على أكل اللحم، فليُبغض العقاب من الطير،
والذئب من نوات الأربع؛ فإنها أكل اللحم، والثعلب إلى أن
يحسد ما هو كذلك أقرب، وأولى في القياس، فلو زعم أنه
يُعَمُّ أكلة اللحم بالعداوة، حتى يُعطى الزُّرَقِ من ذلك

نصيبه، كان ذلك أجوزَ، ولعلَّ المترجم قد أساء في الإخبار عنه، قال: والحيَّة تقاتل الخنزيرَ، وتقاتل ابنَ عرسٍ، وإنما تقاتلُ ابنَ عرسٍ إذ كان مأواهما في بيتٍ واحد، وتقاتلُ الخنزيرَ لأنَّ الخنزيرَ يأكلُ الحياتَ، ويزعمون أنَّ الذي يأكلُ الحياتِ القنأذُ، والأوعالُ، والخنازيرُ، والعقبانُ، قال: فالحيَّة تعرف هذا من الخنزير، فهي تُطالبه.

قال: والغراب مصادقٌ للثعلب، والثعلبُ مصادقٌ للحيَّة، والأسد والنمر مختلفان، قال: وبين الفيلة اختلافٌ شديد، وكذلك ذكورها وإناثها، وهي تستعملُ الأنيابَ إذا قاتل بعضها بعضاً، وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها، وترحمُ النَّخلةَ بجانبها فتصرعها،

تذليل الفيل والبعير

وإذا صعّب من ذكورتها شيء احتالوا له حتى يكومه ذكرٌ آخر، فإذا كامه خضع أبدأً، وإذا اشتدَّ خُلُقُه وصعّب عصبوا رجله فسكن، ويقال إنَّ البعيرَ إذا صعّب وخافه القوم، استعانوا عليه فأبركوه وعقلوه حتى يكومه فحل آخر، فإذا فعل ذلك به دلَّ

الفيل والسنور

وأما أصحابنا فحكوا وجوه العداوة التي بين الفيل والسنور - وهذا أعجب - وذهبوا إلى فزع الفيل من السنور، ولم يروه يفرع ممّا هو أشدّ وأضخم، وهذا الباب على خلاف الأوّل، كأنّ أكثر ذلك الباب بُني على عداوة الأكلفاء.

الشاة والذئب

والشاة من الذئب أشدّ فرقاً منها من الأسد، وإن كانت تعلم أنّ الأسد يأكلها،

الحمّام والشاهين

وكذلك الحمّام يعتريه من الشاهين ما لا يعتريه من العقاب والبازي والصقر،

أعداء الفأرة

وكذلك الفأرة من السنور، وقد يأكلها ابنُ عرس، وأكثر ذلك أن يقتلها ولا يأكلها، وهي من السنور أشدّ فرقاً،

الثعلب والدجاجة

والدجاجة تأكلها أصناف من السباع، والثعلب يطالبها مُطالبَةً شديدة، ولو أنّ دجاجاً على رفٍّ مرتفع، أو كُنَّ على أغصان شجرة شاهقة، ثمّ مرَّ تحتها كلُّ صنفٍ ممّا يأكلها،

فإنَّهَا تَكُونُ مُسْتَمْسِكَةً بِهَا مَعْتَصِمَةً بِالْأَعْصَانِ الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا، فَإِذَا مَرَّتْ تَحْتَهَا ابْنُ آوَى وَهُنَّ أَلْفٌ، لَمْ تَبْقَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ إِلَّا رَمَتْ بِنَفْسِهَا إِلَيْهِ،

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

والسبع لا يأكل الحارَّ، والسَّنور لا يذوق الحموضة، ويَجْزَع من الطَّعام الحارَّ، والله تعالى أعلم،

ما أشبه الكلب الأسود والأنسان

ثُمَّ رَجَعَ بِنَا الْقَوْلِ إِلَى مَفَاخِرِ الْكَلْبِ، وَنَبَدَأُ بِكُلِّ مَا أَشْبَهَ فِيهِ الْكَلْبُ الْأَسْوَدَ وَالْإِنْسَانَ؛ وَبشْيءٍ من صفات العظال، قال صاحب المنطق في كتابه الذي يقال له الحيوان، في موضعٍ ذَكَرَ فِيهِ الْأَسَدُ قَالَ: إِذَا ضَرَبَ الْأَسَدُ بِمَخَالِبِهِ، رَأَيْتَ مَوْضِعَ آثَارِ مَخَالِبِهِ فِي أَقْدَارِ شَرَطِ الْحَجَّامِ أَوْ أَزِيدَ قَلِيلًا، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ دَاخِلٍ أَوْسَعُ خَرْزَاءً، كَأَنَّ الْجِلْدَ يَنْضَمُّ عَلَى سَمِّ مَخَالِبِهِ، فَيَأْكُلُ مَا هُنَاكَ، فَأَمَّا عَضَّتُهُ فَإِنَّ دَوَاءَهَا دَوَاءُ عَضَّةِ الْكَلْبِ، قَالَ: وَمِمَّا أَشْبَهَ فِيهِ الْكَلْبُ الْأَسَدُ انْطَبَاقُ أَسْنَانِهِ، وَمِمَّا أَشْبَهَ فِيهِ الْكَلْبُ الْأَسَدَ النَّهْمُ، فَإِنَّ الْأَسَدَ يَأْكُلُ أَكْلًا شَدِيدًا، وَيَمْضَغُ مَضْغًا مُتَدَارِكًا، وَيَبْتَلِعُ الْبَضْعَ الْكِبَارَ، مِنْ حَاقِّ الرِّغْبَةِ وَمِنْ الْحَرِصِ، وَكَالَّذِي يَخَافُ الْفُوتَ، وَلِذَا نَازَعَ السَّنُورَ مِنْ

شَبَّهَ صَارَ إِذَا أَلْقَيْتَ لَهُ قِطْعَةَ لَحْمٍ فَمَا أَنْ يَحْمِلَهَا أَوْ يَأْكُلَهَا
حَيْثُ لَا تَرَاهُ؛ وَإِمَّا أَنْ يَأْكُلَهَا وَهُوَ يَكْثُرُ التَّلَفُّتُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
بِحَضْرَتِهِ سَنُورٌ يِنَازِعُهُ، وَالْكَلْبُ يَعْضُ عَلَى الْعَظْمِ لِيَرْضَهُ،
فَإِنْ مَانَعَهُ شَيْءٌ وَكَانَ مِمَّا يُسَيِّغُهُ، ابْتَلَعَهُ وَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ
يَسْتَهْرِيهِ وَيُسَيِّغُهُ، وَالنَّهْمُ يَعْرِضُ لِلْحَيَّاتِ، وَالْحَيَّةُ لَا تَمَضُّعُ،
وَإِنَّمَا تَبْتَلَعُ ذَوَاتُ الرَّأْسَاتِ، وَهِيَ غَيْرُ ذَوَاتِ الْأَنْيَابِ، فَاتَّهَا
تَمَضُّعُ الْمَضْغَةِ وَالْمَضْغَتَيْنِ وَإِنْ ابْتَلَعَتْ شَيْئاً فِيهِ عَظْمٌ أَتَتْ
عُوداً شَاخِصاً فَالْتَوَتْ عَلَيْهِ، فَحَطَمَتْ الْعَظْمَ، وَالْحَيَّةُ قَوِيَّةٌ
جِداً، قَالَ: وَالْأَسَدُ وَإِنْ كَانَ مَمًّا لَا يَفَارِقُ الْغِيَاضَ وَلَا يَفَارِقُ
الْمَاءَ فَإِنَّهُ قَلِيلُ الشَّرْبِ لِلْمَاءِ، وَلَيْسَ يُلْقَى رَجْعُهُ إِلَّا مَرَّةً فِي
الْيَوْمِ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ، وَرَجْعُهُ يَابَسٌ شَدِيدٌ
الْيَبْسُ مَتَعَلِّقٌ، شَبِيهِ بَرَجِيعِ الْكَلْبِ، وَيَشْبَهُهُ أَيْضاً مِنْ جِهَةِ
أُخْرَى وَذَلِكَ أَنَّهُمَا جَمِيعاً إِذَا بَالَ شَغْرًا، وَالْكَلْبُ مِنْ أَسْمَاءِ
الْأَسَدِ، لِقَرَابَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلْبِ، وَالْكَلْبُ يُشْبَهُ الْخَنْزِيرَ،
فَإِنَّ الْخَنْزِيرَ يَسْمَنُ فِي أَسْبُوعٍ، وَإِنْ جَاعَ أَيَّاماً ثُمَّ شَبِعَ شَبْعَةً
تَبَيَّنَ ذَلِكَ تَبَيُّناً ظَاهِراً، أَلَا تَرَاهُ يَنْزِعُ إِلَى مُحَاسِنِ الْحَيْوَانِ،
وَيُشْبَهُ أَشْرَافَ السَّبَاعِ وَكَرَائِمَ الْبَهَائِمِ؟

عِظَالُ الْكَلَابِ

ويقال: ليس في الأرض فحلّ من جميع أجناس الحيوان
لذَكَرِهِ حَجْمٌ ظَاهِرٌ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَالْكَلْبَ، وليس في الأرض
شَيْئَانِ يَتَشَابِكَانِ مِنْ فَرْطِ إِرَادَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَطْبَاعِ
صَاحِبِهِ، حَتَّى يَلْتَحِمَ عَضُوَ الذَّكَرِ بَعْضُو الْأُنْثَى حَتَّى يَصِيرَ
التَّحَامُهُمَا التَّحَامَ الْخَلْقَةَ وَالْبُنْيَةَ، لَا كَالْتِحَامِ الْمَلَامَسَةِ
وَالْمَلَازِمَةِ، إِلَّا كَمَا يُوجَدُ مِنَ التَّحَامِ قَضِيبِ الْكَلْبِ بِثَقْرِ
الْكَلْبَةِ.

وقد يلزق القُراد، وَيَغْمِسُ الْعَلَسُ مَقَادِيمَهُ فِي جَوْفِ اللَّحْمِ،
حَتَّى يُرَى صَاحِبُ الْقُرَادِ كَأَنَّهُ صَاحِبُ ثُوْلُولٍ، وَمَا الْقُرَادُ
الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الْإِلْتِحَامِ إِلَّا دُونَ التَّحَامِ الْكَلْبِيِّ،
وَلِذَلِكَ إِذَا ضَرَبُوا الْمِثْلَ لِلْمِتْبَاضِعِينَ بِالسُّيُوفِ، وَالْمَلْتَقِيَيْنِ
لِلصَّرَاعِ، فَالْتَفَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، قَالُوا: كَأَنَّهُمُ الْكِلَابُ
الْمِتْعَاطِلَةُ، وَلَيْسَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّفَادِ إِلَّا لِلْكِلَابِ وَزَعَمَ
صَاحِبُ الْمَنْطِقِ وَغَيْرُهُ، أَنَّ الدُّبَابَ فِي ذَلِكَ كَالْكَلْبِ،

إسماعيل بن غزوان وجارية موسى بن عمران

وكان إسماعيل بن غزوان قد تعشّق جاريةً كانت لمويس بن
عمران، وكانت إذا وقعت وقعةً إليه لم تمكث عنده إلا بقدر
ما يقع عليها، فإذا فرغ لبست حُفّها وطارَت، وكان إسماعيلُ

يشتهي المعاودة وأن يطيل الحديث، ويريد القرص والشم
والتقبيل والتجريد، ويعلم أنه في الكوم الثاني والثالث أجد
أن يُنظر، وأجد أن يشتفي فكان ربما ضجر ويذكرها بقلبه
وهو في المجلس، فيقول: يارب امسخني وإياها كلبين
ساعة من الليل أو النهار، حتى يشغلها الالتحام عن التفكير
في غضب مولاتها إن احتبست!

من أعاجيب الكلاب

وفي الكلبة أعجوبة أخرى: وذلك أنه يسفدها كلب أبقع
وكلب أسود وكلب أبيض وكلب أصفر، فتؤدي إلى كل سافد
شكله وشبهه، في أكثر ما يكون ذلك،

تأويل الظالع في شعر الحطيئة

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة:

كلاب وأخبي ناره
كل موقد

تسديتها من بعد ما
نام ظالع ال

قال الأصمعي: يظلع الكلب لبعض ما يعرض للكلاب، فلا
يمنعه ذلك من أن يهيج في زمن هيج الكلاب، فإذا رأى
الكلبة المستحرة لم يطمع في معاظلتها والكلاب منتبهة

تَنبَحُ، فَلَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ وَقْتَ فِتْرَةِ الْكَلَابِ وَنَوْمِهَا، وَذَلِكَ مِنْ
آخِرِ اللَّيْلِ، وَقَالَ أَحْيَحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ:

يَا لَيْتَنِي لَيْلَةٌ إِذَا نَاسٌ وَنَامَ الْكَلَابُ
هَجَعَ ال صَاحِبُهَا

طردية ثامنة لأبي نواس

وَمِمَّا قِيلَ فِي الْكَلَابِ: مِنَ الرَّجْزِ قَوْلُ أَبُو نَوَاسٍ:

وفتية

مِنَ الرَّقَاشِيِّينَ فِي أَعْلَى الْعُلَا

بَاتُوا يَسِيرُونَ إِلَى صُوحِ الْلُوى
بِهَالِيلِ كِرَامِ الْمُنتَمَى

إِلَّا غَشَّاشاً بَعْدَ مَا طَالَ السُّرَى
أَعْيُنُهُمْ طَيْبَ الْكَرَى

حَتَّى إِذَا مَا كَوَّكَبُ الصُّبْحِ بَدَا
الْفَتَى عَلَى الْفَتَى

ثَلَاثَةٌ يَقْطَعْنَ حُرَّانَ الصُّوَى
بِغُضْفٍ كَالْيَعَاسِيْبِ خَسَا

تَلْوِي بِأَذْنَابِ قَلِيلَاتِ اللَّحَا
رُحِيْبَةٍ
الْأَشْدَاقِ غَضْفٍ فِي دَفَا

مِنْ كُلِّ مَضْبُورِ الْقَرَا عَارِي النَّسَا
سَمَعَمَعَاتِ
الضُّمْرِ مِنْ طُولِ الطَّوَى

شَرَنْبِثِ الْبُرْتَنِ خَفَاقِ الْحَشَا
مُحَمَلِجِ
الْمَتْنَيْنِ مَنْحُوضِ الشَّوَى

مَسَنَّتَا صَفْوَاءِ فِي حَيْدِي صَفَا
تَخَالُ مِنْهُ
الْقَصِّ مِنْ غَيْرِ جَنَّا

يُقَادِحِ الْمُرُوَ وَشَدَّانِ الْحَصَا
يَلْتَهَبِ
الْغَايِطُ مِنْهُ إِنْ عَدَا

بِمَرْبَا أَوْفَى بِهِ عَلَى الرَّبَا
حَتَّى إِذَا
اسْتَسَحَرَ فِي رَأْدِ الضُّحَى

نَوَاشِرَا مِنْ أَنْسٍ إِلَى خَلَا
أَرَانِبَا مِنْ
دُونَهَا سِرْبَا ظِبَا

لَعَلَعَنَ وَاسْتَلْهَثَنَ مِنْ غَيْرِ ظَمَا
فَوْضَى
يُدْعُثِرْنَ أَفَاحِيصَ الْقَطَا

مبالغاتِ كأنما أعيُنُها جمر العَضَى
 في نَهيمٍ وصأى

ثُمَّ تَطَّلَعْنَ في الأرضِ يَهوينَ ولا لوح الهوا
 معاً كالبرقِ لا

كأنها في كواكبٌ يُرمَى الشَّيَاطِينُ بها
 شَرطها لما انبرى

يُذْمَرْنَ حتى إذا ما كُنَّ منهنَّ كها
 بالإيسادِ ذَمراً وأياً

دارتُ تجذبهنَّ بحديداتِ الشَّبا
 عليهنَّ من الموتِ رَحى

شَوامِذُ بين خَلِيعِ الزَّورِ مرضُوضِ الصَّلَا
 يَلْعَطُنَ مَعْبُوطِ الدِّمَا

وبينَ مَفْرِيٍّ كأنه مبتهلٌ إذا دَعَا
 النِّيَاطِ قَدِ شَصَا

ومائلِ يُقْفِينِ بِالْأَكْبَادِ مِنْهَا وَالْكُلَى
 الفَوْدَيْنِ مَجْلُوزِ الْقَفَا

وبالقلوب وكرايس الطلى

طردية تاسعة لأبي النواس وقال أيضاً:

وانعدل الليلُ إلى مآبه	لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ حِجَابِهِ
في مقود يردعُ من جذابه	خرَّطه القانصُ واغتدى به
وتارة ينصبُّ لانصبابه	يُعْزِّه طوراً على استصعابه
عن مرهفات السِّنِّ من حِرابه	كأثما يفتَرُّ من أنيابه
حتى إذا أشرفَ من حِدابِه	يَرْتَمُ أَنْفَ الْأَرْضِ فِي ذَهَابِهِ
بروضة القاعِ إلى أعجابه	بعد انحدار الطرف وانقلابه

يَكَادُ أَنْ يَنْسَلَ	أَرْسَلَهُ كَالسَّهْمِ إِذْ
مِنْ إِيَابِهِ	غَالِي بِهِ
حَتَّى إِذَا مَا كَادَ أَوْ	كَلَمَعَانَ الْبَرْقِ فِي
حَدَا بِهِ	سَحَابِهِ
كَأَنَّمَا أَدْمَجَ فِي	وَانصَاتَ لِلصَّوْتِ
خِضَابِهِ	الَّذِي يُدْعَى بِهِ
مَشَهَّرَ الْعُدُوَّ فِي	مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ إِلَى
إِيَابِهِ	أَقْرَابِهِ

طردية عاشرة لأبي النواس وقال أيضاً:

وَلَا انْقِضَاضِ	مَا الْبَرْقِ
الْكَوَاكِبِ الْمَنْصَاحِ	عَارِضِ لِمَاحِ
وَلَا انْسِيَابِ الْخُوتِ	وَلَا انبِتَاتِ الدَّلْوِ
بِالْمُنْدَاحِ	بِالْمَتَّاحِ
أَجَدَّ فِي السَّرْعَةِ مِنْ	حِينَ دَنَا مِنْ

رَاحَةُ السَّبَّاحِ

يَكَادُ عِنْدَ ثَمَلِ

الْمِرَاحِ

يَطِيرُ فِي الْجَوِّ

بِلا جَنَاحِ

فَكَمْ وَكَمْ ذِي

جُدَّةَ لِيَاحِ

غَادِرُهُ مَضْرَجِ

الصِّفَاحِ

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

قال طفيل الغنوي:

أناس إذا ما أنكر

الكلب أهله

سِرِيَا حِ

إِذَا سَمَا الْخَاتِلُ

لِلْأَشْبَاحِ

يَفْتَرُّ عَنِ مِثْلِ شَبَا

الرَّمَّاحِ

وَنَازِبِ أَعْفَرَ ذِي

طِمَاحِ

حَمَوًا جَارَهُمْ مِنْ كَلِّ

شَنْعَاءَ مُظْلَعِ

يقول: إذا تكفروا في السّلاح لم تعرّفهم كلابهم، ولم يدع جميع أصحاب المعارف إلاّ أنّ الكلب أشدّ ثباتاً، وأصدق حسّاً، وفي ذلك يقول الآخر:

إذا ثوبَ الدّاعي
وأكرني كَلبي

فلا ترّفعي صوتاً
وكُوني قصيّةً

يقول: إياك والصّراخ إذا عاينت الجيش، وقوله: أكرني كَلبي، يخبر أنّ سلاحه تامّ من الدّرع والمغفر والبيضة، فإذا تكفّر بسلاحه أنكره كَلبه فنبّحه، وأما قوله:

وصاح الكلابُ
وعُقّ الولدُ

إذا خرسَ الفحلُ
وسطَ الحُجورِ

فأمّا قوله: إذا خرسَ الفحل، فإنّ الفحل إذا عاين الجيش وبوارق السيوف، لم يلتفت لفت الحُجور، وأمّا قوله: وصاح الكلاب، فإنّ الكلاب في تلك الحالة تنبح أربابها كما تنبح سرعان الخيل إليهم؛ لأنّها لا تعرفهم من عدوّهم، وأمّا قوله: وعُقّ الولد، فإنّ المرأة إذا صبّحتهم الخيل، ونادى الرجال يا صباحاه ذهلت عن ولدها، وشغلها الرعب عن كلّ شيء، فجعل تركها احتمال ولدها والعطف عليه في تلك

الحالة، عقوقاً منها، وهو قولهم: نزلت بهم أمور لا يُنادى
وليدها، وإنما استعاروا هذه الكلمة فصيّروها في هذا
الموضع من هذا المكان، وقد ذكر ذلك مزرد بن ضرارٍ
وغيره، فقال:

إلى الله منى لا
يُنَادى وَلِيْدُهَا

تَبَرَّأتُ مِنْ شَتَمِ
الرِّجَالِ بِتَوْبَةٍ

وقال الآخر:

وَشِقْوَةَ عَيْشٍ لَا
يُنَادى وَلِيْدُهَا

ظَهَرْتُمْ عَلَى
الأحرارِ مِنْ بَعْدِ ذَلَّةٍ

والذي يُخرسه إفراطُ البرد، وإحاحُ المطر، كما قال الهذلي:

يَخْتَصُّ بِالنَّقْرِى
المُثْرَيْنِ دَاعِيَهَا

وليلةٍ يَصْطَلِي
بِالْفَرْتِ جَازِرُهَا

من الصَّقِيعِ، ولا
تَسْرِي أفاعِيَهَا

لا يَنْبَحُ الكلبُ فِيهَا
غَيْرَ وَاحِدَةٍ

وقال ابن هرمة:

واسألِ الجارَ
والمعصَّبَ والأضيا

ف وهنأ إذا
تحيوأ لديأ
بُ وراءَ الكسورِ
نبحأ خفياً

كيف يلقونني إذا
نبح الكلب

وقال آخر:

وأخرسه الله من
غير صرّ

إذا عمي الكلبُ
في ديمة

يقول: الكلبُ وإن أخرسه البردُ الذي يكون مع المطر والريح
التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فتبردُ، فإنَّ الكلبَ وإن ناله ذلك
فإنَّ ذلك من خصبٍ، وليس ذلك من صرّ،

نبح الكلاب السحاب

والكلب إذا ألحت عليه السحاب بالأمطار في أيام الشتاء
لقي جنة فمتى أبصره غيماً نبجه، لأنَّه قد عرف ما يُلقى من
مثله، وفي المثل: لا يضُرُّ السَّحابُ نُبأُ الكلابِ فقال
الشاعر:

وقد نَبَحْتُ نحوَ
السماءِ كلابها

وما لي لا أعزُّو
وللدَّهرِ كَرَّة

يقول: قد كنت أدعُ الغزو مخافة العطش على الخيل
والأنفس، فما عُدري اليوم والغدران كثيرة، ومناقع المياه
موفورة، والكلابُ لا تنبَحُ السحاب إلا من إلاح المطر
وترادفه، وقال الأفوه الأودي، في نبج الكلاب السحاب،
وذلك من وصف الغيم:

وبرق تراه ساطعاً
يتبلَّجُ

له هَيْدَبٌ دان
ورعدٌ ولجَّةٌ

وأضحتْ بناتُ الماء
فيها تعمَّجُ

فباتت كلاب الحيِّ
ينبَحُن مُزْنَهُ

قول أبي حية النميري في الكلب

وقال أبو خالد النميري: وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي
حية النميري، فقال أبو حية: الكلبُ خير منه وأحزم قال:
فقل له كيف خصصت الكلبَ بذلك؟ قال: لأنَّ الشاعر يقول:

وما لي لا أعزو
وللدهر كرة

وقد نبحت نحو
السماء كلابها

وقال الفرزدق:

فإنك إن تهجو
حنيفةً سادراً

وقبلك قد فاتوا يدَ
المتناول

كفرعونَ إذ يرمي
السماءَ بسهمه

فردَّ عليه السهم
أفوقَ ناصلي

فهذا يرمى السماءَ بجهله، وهذا ينبح السحابَ من جودة
فطنته.

تعصّب فهد الأحزم للكلب

وزعم فهد الأحزم أنّ الكلبَ إنّما عرّف مخرج ذلك الشيء
المؤذي له حتّى نبحه بالقياس، لأنّه إنّما نبحه بعد أن توالى
عليه الأذى من تلك الجهة، وكان فهد يتعصّب للكلب، فقلت
له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السّوط مرّاً من تحتك مرّاً
حثيثاً، فالقياس علّمه أنّ السّوط متى رُفِع حطّ، ومتى حطّ

أصابه، ومتى أصابه ألم، فما فضلُ الكلبِ في هذا الموضع
على الحمار، والحمارُ هو الموصوفُ بالجهل؟

مما قيل في نباح الكلاب

قال الفرزدق:

مَهَامُهُ تَعْشِي
نُظْرَةَ الْمُتَأَمِّلِ

وَقَدْ نَبَحَ الْكَلْبُ
السَّحَابَ وَدُونَهَا

وقال الآخر:

قَدْ كُنْتَ نَبَّاحاً فَمَا
بَالُ الْيَوْمِ

مَا لَكَ لَا تَنْبِحُ يَا
كَلْبَ الدَّوْمِ

قال: كان هذا رجلٌ ينتظر عيراً له تقدّم، فكان إذا جاءت
العيرُ نبح، فاحتبست عليه العيرُ، فقال كالتمنّي وكالمنتظر
المستبطن: ما لك لا تنبح؟ أي ما للعيرِ لا تأتي،

فراصة إياس بن معاوية في الكلاب

وقال: خرج إياس بن معاوية، فسمع نباح كلب فقال: هذا
كلبٌ مشدود، ثم سمع نباحه فقال: قد أرسل، فأنتهوا إلى
الماء فسألوهم فكان كما قال، فقال له غيلان أبو مروان:

كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَوْثِقٌ وَأَنَّهُ أُطْلِقُ؟ قَالَ: كَانَ نَبَاحُهُ وَهُوَ
 مَوْثِقٌ يُسْمَعُ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا أُطْلِقَ سَمِعْتَهُ يَقْرُبُ مَرَّةً
 وَيَبْعُدُ مَرَّةً، وَيَتَصَرَّفُ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: مَرَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَعَاوِيَةَ
 ذَاتَ لَيْلَةٍ بِمَاءٍ، فَقَالَ: أَسْمَعُ صَوْتَ كَلْبٍ غَرِيبٍ، قِيلَ لَهُ:
 كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: بِخُضُوعِ صَوْتِهِ وَشِدَّةِ نُبَاحِ الْآخَرِ،
 فَسَأَلُوا فَإِذَا هُوَ غَرِيبٌ مَرْبُوطٌ وَالْكَلابُ تَنْبَحُهُ، اسْتَطْرَادَ
 لُغَوِيٍّ وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كَلْبٌ أَبْقَعٌ، وَفَرَسٌ أَبْلَقٌ، وَكَبْشٌ
 أَمْلَحٌ، وَتَيْسٌ أَبْرَقٌ، وَثَوْرٌ أَشْيَهٌ، وَيُقَالُ كَلْبٌ وَكَلَابٌ وَكَلِيبٌ،
 وَمَعَزٌ وَمَاعِزٌ وَمَعِيزٌ، وَقَالَ لُبَيْدٌ:

عَلَى جَسَدَاءَ تَنْبَحُنَا
 الْكَلِيبُ

فَبِتْنَا حَيْثُ أَمْسَيْنَا
 قَرِيبًا

وَقَالَ عُلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ:

مَوْلَعَةٌ تَخْشَى
 الْقَتِيبِصَ شَبُوبُ

وَتَصْبِحُ عَنْ غِيبٍ
 السَّرَى وَكَأَنَّهَا

رَجَالٌ فَبَدَّتْ نَبْلَهُمْ
 وَكَلِيبُ

تَعَفَّقَ بِالْأَرْضِ لَهَا
 وَأَرَادَهَا

وقال عبادة بن مُحرّر السعدي:

فَمَنْ لِلخَيْلِ بَعْدَ أَبِي سَرَّاجِ
إِذَا مَا أَشْنَجَ الصَّرَّ الكَلْبِيَا

وهؤلاء كلهم جاهليّون، رأى لحموية الخريبي في بقع الكلاب وسوادها وقال حمويّه الخريبي وأنشدوه:

كَأَنَّكَ بِالمُبَارَكِ بَعْدَ حِينِ
تَخُوضِ عِمَارِهِ بُقَعِ الكَلَابِ

وأنشدوه:

أرسلت أسدًا على سُودِ الكلابِ فَقَدْ
أَمْسَى شَرِيذُهُمْ فِي الأَرْضِ فُلَّالًا

فقال: لا خير في بُقع الكلابِ البتة، وسُود الكلابِ أكثرها عَقُورًا،

خير الكلاب والسنانير

وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى ألوان الأسد من الصُّفرة والحُمرة، والتبقيع هُجْنة، وخير السنانير الخانجِيَّة،

وخير كلاب الصَّيد البِيض، قالوا: إِنَّ الأَسَدَّ لِلِهَرَّاشِ الحُمْرِ
 والصُّفْرِ، والسُّودُ لِلدَّنَابِ، وهي شُرُّها، وقال النبي صلى الله
 عليه وسلم: "لَوْلَا أَنَّ الكلابَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَّةِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِها،
 ولكن اقتلوا منها كلَّ أَسودَ بهيمٍ"، وكلُّ شيءٍ مِنَ الحيوانِ
 إذا اسودَّ شعرُهُ أو جلدُهُ، أو صوفُهُ، كان أقوى لبدنه ولم
 تكن معرفته بالمحمودة، خير الحمام وزعم أَنَّ الحمامَ الهُدَّاءَ
 إنما هو في الخُضْرِ والنمرِ، فإذا اسودَّ الحمامَ حتَّى يدخل في
 الاحتراقِ صارَ مثلَ الزَّنَجِيِّ الشَّدِيدِ البَطْشِ، القليلُ المعرفة،
 والأسودُّ لا يجيء من البعد، لسود هدايته، والأبيض وما
 ضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية، لضعف قواه، وعلى
 قدر ما يعتريه من البياض يعتريه من الضعف، فالكلب هو
 الأصفر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأحمر، والسَّنور
 هو الخَلنجِيُّ العَسَّالُ، وسائر الألوان عيب، وقد يكون فيها
 ومنها الخارجيُّ كما يكون من الخيل، ولكنَّه لا يكادُ ينجب،
 ولا تعدو الأمورُ المحمودَة منه رأسه، وقد يكون ربَّما أشبهَ
 وقرب من النَّجابة، فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات والآباء
 المُنجبة، إلاَّ أَنَّ ذلك لا يتمُّ منها إلا بَعْدَ بطونِ عِدَّةٍ.
 استطرد لغوي وقال أبو زيد: قال رَدَّاد: أقول للرجل الَّذي
 إذا ركب الإبلَ فَعَقَرَ ظُهُورَها من إِتعا به، هذا رجلٌ مِعَقَّرٌ،

وكذلك السَّرَج والقَتَب، ولا يقال للكلب إلا عَقُور، ويقال هو
ضَرُو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا
ضراءٌ كثيرة، وكلب ضار، وكلاب ضَوَارٍ، وقد ضَرِيتُ أشدَّ
الضراوة، وقال ذو الرِّمَّة:

إلا الضراءُ وإلا
صيدها نَشَب

مقرع أطلس
الأطمار ليس له

وقال طفيل الغنوي:

ضراءٌ أحست نِباءةً
من مكلِّب

تباري مَرَاخيها
الزجاج كأنها

ومنه قيل: إناء ضار وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه:
إِيَّكُمْ وَهَذِهِ الْمَجَازِرَ فَإِنَّ لَهَا ضَرَاوَةَ كضراوة الخمر، وقال
الأصمعيّ: كلب أبقع وكلبة بقعاء، وفرس أبلق وفرس
بلقاء، وتيس أبرق وعنزُ برقاء، وكذلك جبل أبرق وكساءٌ
أبرق وكلب أبرق.

الغلام الشاعر وقال ابن داحية: نزل عندنا أعرابيٌّ ومعه
ابنان له صغيران، وكان أحدهما مُستهتراً باللعب بالكلاب،

وكان الآخر مُسْتَهْتَرًا بِالْحُمْلَانِ، فقال الأعرابيُّ لصاحب
الكلب:

وَأَرَى أَخَاكَ جَنْبِيَّةَ
الْحُمْلَانِ

مَا لِي أَرَاكَ مَعَ
الْكَلَابِ جَنْبِيَّةً

قال: فرَدَّ عليه الغلام:

كَانَ الْوَقِيرُ
فَرِيْسَةَ الدُّوْبَانِ

لَوْلَا الْكَلَابُ وَهَرَشُهَا
مَنْ دُونَهَا

والوقير: اسم للغنم الكثيرة السائمة مع ما فيها من الحمير
وغير ذلك، وقال الشماخُ بنُ ضَرَارٍ:

شَرَّاعَ لَمْ يَكْدُرْهَا
الْوَقِيرُ

فَأَوْرَدَهُنَّ تَقْرِيْبًا
وَشَدًّا

مما قيل من الشعر في نفع الكلاب
وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام:

وَتَتَّقِي صَوْلَةَ

تَعْدُو الدَّنَابُ عَلَيَّ

مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ

المُسْتَأْسِدِ الضَّارِي

وقال الآخر:

إِنَّ الذَّنَابَ تَرَى مَنْ

وَتَتَّقِي حَوْزَةَ

لَا كِلَابَ لَهُ

المُسْتَتْفِرِ الحَامِي

عَفَّةُ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَابْنَ أَبِي عَتِيقٍ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ
إِبْرَاهِيمَ: قَدِمَتِ امْرَأَةٌ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَعَفَافٍ
وَبِرَاعَةٍ وَشَارَةَ، فَأَعْجَبَتْ ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا
فَخَافَتْ شِعْرَهُ، فَلَمَّا أَرَادَتِ الطَّوَافَ قَالَتْ لِأَخِيهَا: أَخْرِجْ مَعِيَ،
فَخَرَجَ مَعَهَا، وَعَرَضَ لَهَا عُمْرٌ فَلَمَّا رَأَى أَخَاهَا أَعْرَضَ
عنها، فَأَنشَدَتْ قَوْلَ جَرِيرٍ:

تَعْدُو الذَّنَابَ عَلَيَّ

وَتَتَّقِي حَوْزَةَ

مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ

المُسْتَأْسِدِ الضَّارِي

هذا حديثُ أبي الحسن، وأما بنو مَخْرُومٍ فيزعمون أنَّ ابنَ
أبي رَبِيعَةَ لم يَحُلْ إِزَارَةَ عَلَيَّ حَرَامَ قَطُّ، وَإِنَّمَا كَانَ يَذْهَبُ فِي
نَسَبِهِ إِلَى أَخْلَاقِ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، فَإِنَّ ابْنَ أَبِي عَتِيقٍ كَانَ مِنْ
أَهْلِ الطَّهَارَةِ وَالْعِفَافِ، وَكَانَ مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُ تَوَهُّمَ أَنَّهُ مِنْ

أَجْرًا النَّاسَ عَلَى فَاحِشَةٍ، وَمَا يُشْبِهَ الَّذِي يَقُولُ بَنُو مَخْرُومٍ
مَا ذَكَرُوا عَنْ قَرِيْشٍ وَالْمَهَاجِرِينَ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ عَمْرَ
بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ إِنَّمَا سُمِّيَ بِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَإِنَّهُ
وُلِدَ لَيْلَةً مَاتَ عَمْرٌ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ ذَكَرُوا فَسَادَ هَذَا
وَصَلَحَ ذَلِكَ فَقَالُوا: أَيُّ بَاطِلٍ وُضِعَ، وَأَيُّ حَقٍّ رُفِعَ وَمِثْلُ
هَذَا الْكَلَامِ لَا يُقَالُ لِمَنْ يُوصَفُ بِالْعَفَّةِ الثَّابِتَةِ، وَصِيَّةُ شَرِيحٍ
لِمُعَلِّمٍ وَوَلَدِهِ وَلِبَعْضِ الْمُزَاحِ فِي لَعِبِ الصَّبِيَّانِ بِالْكَلابِ
وَاسْتَهْتَرَهُمْ بِهَا، كَتَبَ شَرِيحٌ إِلَى مُعَلِّمِ وَلَدِهِ لَهُ كَانَ يَدَعُ
الْكِتَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكَلابِ:

طَلَبَ الْهَرَّاشِ مَعَ
الْغَوَاةِ الرَّجَسِ

يَغْدُو بِهَا كَصَحِيفَةٍ
الْمُتَلَمَّسِ

أَوْ عِظَةً مَوْعِظَةً
الْأَدِيبِ الْأَكْبَسِ

وَإِذَا ضَرَبْتَ بِهَا

تَرَكَ الصَّلَاةَ

لَأَكْلِبِ يَلْهُو بِهَا

وَلِيَأْتِيَنَّكَ غَادِيًا
بِصَحِيفَةٍ

فَإِذَا خَلَوْتَ
فَعَضَّهُ بِمَلَامَةٍ

وَإِذَا هَمَمْتَ

بضربه فبدرّة

ثلاثاً فاحبس

واعلم بأنك ما

مع ما يُجرّ عني أعزّ

فعلت فإنه

الأنفس

وهذا الشعر عندنا لأعشى بني سليم في ابن له، وقد رأيتُ
ابنه هذا شيخاً كبيراً، وهو يقول الشعر؛ وله أحاديث كثيرةٌ
ظريفة،

من دلائل كرم الكلب

وقال صاحب الكلب: ومما يدلُّ على قَدْرِ الكلب كثرةُ ما
يجري على ألسنةِ النَّاسِ من مَدْحِهِ بِالخَيْرِ والشرِّ، وبالحمد
وبالذمِّ، حتَّى ذكر في القرآن مرّةً بالحمد ومرّةً بالذمِّ، وبمثل
ذلك ذكر في الحديث، وكذلك في الأشعار والأمثال، حتى
استعمل في الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطَّيرة،
وفي ذكر الرؤيا والأحلام، ومع الجنِّ والجنِّ والسَّباع
والبهائم، فإن كنتم قضيتُم عليه بالشرِّ وبالنقص، وباللوم
وبالسقوط لأنَّ ذلك كلُّه قد قيلَ فيه، فالذي قيلَ فيه من الخير
أكثرُ، ومن الخصال المحمودة أشهر، وليسَ شيءٌ أجمع
لخصال النقص من الخمول، لأنَّ تلك الخصال المخالفة لذلك،

تُعطي من النَّبَاهَةِ وتُقيم من الذكر على قَدْرِ المذْكَورِ من ذلك، وكما لا تكون الخِصَالُ التي تُورث الخُمُولَ مورثةً للنَّبَاهَةِ، فَكَذَلِكَ خِصَالُ النَّبَاهَةِ في مِجَانِبَةِ الخُمُولِ، لِأَنَّ المَلُومَ أَفْضَلُ مِنَ الخَامِلِ، التَّرْجَمَانُ بنُ هَرِيمٍ والحَارِثُ بنُ شَرِيحٍ وَسَمِعَ التَّرْجَمَانُ بنُ هَرِيمٍ عِنْدَ يَزِيدِ بنِ عَمْرِو بنِ هُبَيْرَةَ، رَجُلًا يَقُولُ: مَا جَاءَ الحَارِثُ ابْنَ شَرِيحٍ بِيَوْمِ خَيْرٍ قَطٌّ، قَالَ التَّرْجَمَانُ: إِلَّا يَكُنْ جَاءَ بِيَوْمِ خَيْرٍ فَقَدْ جَاءَ بِيَوْمِ شَرٍّ، سِيَاسَةُ الحَزْمِ وَبَعْدُ فَأَيُّ رَئِيسٍ كَانَ خَيْرُهُ مُحْضًا عَدِمَ الهَيْبَةَ، وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِإِقَامَةِ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ والحَسَنَةِ، وَقَتْلَ فِي مَوْضِعِ القِتْلِ، وَأَحْيَا فِي مَوْضِعِ الإِحْيَاءِ، وَعَفَا فِي مَوْضِعِ العَفْوِ، وَعَاقَبَ فِي مَوْضِعِ العَقُوبَةِ، وَمَنَعَ سَاعَةَ المَنعِ، وَأَعْطَى سَاعَةَ الإِعْطَاءِ، خَالَفَ الرَّبَّ فِي تَدْبِيرِهِ، وَظَنَّ أَنَّ رَحْمَتَهُ فَوْقَ رَحْمَةِ رَبِّهِ، وَقَدْ قَالُوا: بَعْضُ القِتْلِ إِحْيَاءٌ لِجَمِيعٍ، وَبَعْضُ العَفْوِ إِغْرَاءٌ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ المَنعِ إِعْطَاءٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ خَيْرُهُ مُحْضًا، وَشَرُّ مَنْ كَانَ شَرُّهُ صَرَفًا، وَلَكِنْ اخْلَطَ الوَعْدَ بِالوَعِيدِ، وَالبَشَرَ بِالعَبُوسِ، وَالإِعْطَاءَ بِالمَنعِ، وَالحِلْمَ بِالإِيقَاعِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَهَابُونَ وَلَا يَصْلُحُونَ إِلَّا عَلَى الثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَالإِطْمَاعِ وَالإِخَافَةِ، وَمَنْ أَخَافَ وَلَمْ يُوقِعْ وَغَرِفَ بِذَلِكَ، كَانَ كَمَنْ أَطْمَعَ وَلَمْ يُنْجِزِ

وَعُرِفَ بِذَلِكَ، وَمَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ مَا عُرِفَ
 مِنْهُ، فَخَيْرِ الْخَيْرِ مَا كَانَ مَمْرُوجًا، وَشَرُّ الشَّرِّ مَا كَانَ صَرَفًا،
 وَلَوْ كَانَ النَّاسُ يَصْلِحُونَ عَلَى الْخَيْرِ وَحْدَهُ لَكَانَ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ أَوْلَى بِذَلِكَ الْحَكْمِ، وَفِي إِطْبَاقِ جَمِيعِ الْمُلُوكِ وَجَمِيعِ
 الْأُمَمِ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ وَفِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ عَلَى اسْتِعْمَالِ
 الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّوَابَ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ،
 وَإِذَا كَانَ النَّاسُ إِنَّمَا يَصْلِحُونَ عَلَى الشَّدَّةِ وَاللِّينِ، وَعَلَى
 الْعَفْوِ وَالْإِنْتِقَامِ وَعَلَى الْبَدْلِ وَالْمَنْعِ، وَعَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ،
 عَادَ بِذَلِكَ الشَّرُّ خَيْرًا وَذَلِكَ الْمَنْعُ إِعْطَاءً وَذَلِكَ الْمَكْرُوهُ
 مَحْبُوبًا، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْعَوَاقِبِ، وَفِيمَا يَدُومُ وَلَا يَنْقَطِعُ
 وَفِيمَا هُوَ أَدْوَمُ، وَمَنْ الْإِنْقِطَاعَ أَبْعَدُ، وَقَالَ الشَّاعِرُ،
 وَهُوَ يَمْدَحُ قَوْمًا:

فَالْجُهْدُ يُخْرِجُ
 مِنْهُمْ طَيْبَ أَخْبَارِ

كَشَفَتِ أَدْمَارَ
 حَرْبٍ غَيْرِ أَعْمَارِ

إِنْ يُسْأَلُوا الْخَيْرَ
 يُعْطُوهُ وَإِنْ جُهِدُوا

وَإِنْ تَوَدَّدْتَهُمْ لِأَنُوا
 وَإِنْ شَهِمُوا

وَقَالَ الْعَتَبِيُّ:

جميعاً ومَعروفِ الْمَمِّ
وَمَنْكِرِ

ولكن بنو خيرٍ
وشر كليهما

وقال بَعْضُ من ارتجز يوم جَبَلَةَ:

الخيرُ فيِّ والشرُّ

أنا الغَلامُ الأَعسرُ

والشرُّ فيِّ أكثرُ

وقال عبدُ الملكِ بن مروان لزُفَر بن الحارث؛ وقد دخل عليه في رجالاتِ قيس: ألسَتِ امرأً من كندة؟ قال: وما خيرٌ من لا يُتَّقَى حَسداً، ويُدعى رغبة، وقال ثمامة: الشُّهرة بالشرِّ خيرٌ من أن لا تُعرفَ بخير ولا شرِّ، أمارات النباهة وكان يُقال: يُسْتَدَلُّ على نباهة الرَّجُل من الماضين بتبأين الناس فيه، وقال: ألا ترى أن علياً رضي الله تعالى عنه قال: يهلك فيَّ فنتان: محبُّ مُفرط، ومبغض مُفرط، وهذه صفة أنبه الناس، وأبعدهم غايةً في مراتب الدِّين وشرَف الدنيا، ألا ترى أن الشاعر يقول:

ءِ لا حُلُوٌّ ولا مرٌّ

أرى العلباء كالعلبا

شَيْخٌ مِنْ بَنِي
الْجَارِو

دِلا خَيْرٌ وَلَا
شَرٌّ

وقال الآخر:

عَيَّرْتَنِي يَا ثَكَلْتَنِي
أُمِّي

أَسْوَدٌ مِثْلُ الْجَعَلِ
الْأَحْمِّ

يَنْطُحُ عُرْضَ
الْجَبَلِ الْأَصَمِّ

لَيْسَ بَذِي الْقَرْنِ
وَلَا الْأَجَمِّ

وإذا كان الرجلُ أبرعَ الناسِ براعةً، وأظهرهم فضلاً،
وأجمعهم لخصال الشرف، ثمَّ كانت كلُّ خصلةٍ مساويةً
لأختها في التمام، ولم تغلب عليه خصلة واحدة، فإنَّ هذا
الرجل لا يكاد يوصف إلا بالسيادة والرياسة خاصة إذا لم
يكن له مسندٌ عما يكون هو الغالب عليه، وقالوا فيما يشبهه
ما ذكرنا، وإن لم يكن هو بعينه، قال الشاعر:

هَيْنُونَ لَيْئُونَ
أَيْسَارٌ ذُووُ يُسْرِ

سُوَاسٌ مَكْرَمَةٌ
أَبْنَاءُ أَيْسَارِ

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ
لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ

مثلُ النُّجُومِ التي
يسري بها الساري

وقد قال مثل الذي وصَفنا جعفر الضبِّيَّ في الفضل بن سهل:
أيُّها الأمير أسكنتني عن وصفك تساوي أفعالك في السُّودد،
وحيرني فيها كثرةٌ عددها، فليس إلى ذكر جميعها سبيل،
وإن أردتُ وصفَ واحدةٍ اعترضتُ أختها، إذ لم تكن الأولى
أحقَّ بالذكر، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها،
ولذلك قالوا: أحلم من الأحنف، وما هو إلا في حلم معاوية
وأحلم من قيس بن عاصم، ولم يقولوا: أحلم من عبد
المطلب، ولا هو أحلم من هاشم، لأنَّ الحلم خصلةٌ من
خصاله كتمام حلمه، فلمَّا كانت خصاله متساويةً، وخلالُه
مشرفة متوازيةً، وكلُّها كان غالباً ظاهراً، وقاهراً غامراً،
سمِّي بأجمع الأشياء ولم يُسمَّ بالخصلة الواحدة، فيستدلُّ
بذلك على أنَّها كانت أغلب خصال الخير عليه.
هجاء السفهاء للأشراف وإذا بلغ السيِّدُ في السُّودد الكمال،
حسده من الأشراف من يُظنُّ أنَّه الأحقُّ به، وفخرت به
عشيرته، فلا يزال سفيهً من شعراء تلك القبائل قد غاظه
ارتفاعه على مرتبة سيِّد عشيرته فهجاه، ومن طلب عيباً

وَجَدَهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ عَيْباً وَجَدَ بَعْضَ مَا إِذَا ذَكَرَهُ، وَجَدَ مَنْ
 يَغْلُظُ فِيهِ وَيَحْمِلُهُ عَنْهُ، وَلِذَلِكَ هُجِيَ حِصْنُ بْنُ حَذِيفَةَ،
 وَهُجِيَ زُرَّارَةُ ابْنِ عُدَسٍ، وَهُجِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ، وَهُجِيَ
 حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ لَكَ هَؤُلَاءَ لِأَنَّهُمْ مِنْ سُؤْدَدِهِمْ
 وَطَاعَةِ الْقَبِيلَةِ لَهُمْ، لَمْ يَذْهَبُوا فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ،
 وَمِنْ حَلْفَائِهِمْ وَجِيرَانِهِمْ، مَذْهَبَ كُلِّيبِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَلَا مَذْهَبَ
 حَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ، وَلَا مَذْهَبَ عَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَلَا مَذْهَبَ لَقِيْطِ
 بْنِ زُرَّارَةَ، وَلَئِنَّ لَقِيْطاً لَمْ يُأْمَرْ بِسُحْبِ ضَمْرَةَ بْنِ ضَمْرَةَ إِلَّا
 وَهُوَ لَوْ بَقِيَ لَجَاوَزَ ظَلَمَ كُلِّيبٍ وَتَهَكَّمَ عَيْنَةَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءَ وَإِنْ
 كَانُوا سَادَةً فَقَدْ كَانُوا يَظْلَمُونَ، وَكَانُوا بَيْنَ أَنْ يَظْلَمُوا وَبَيْنَ
 أَنْ يَحْتَمَلُوا ظَلَمًا مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، وَلَا بَدَّ مِنَ الْإِحْتِمَالِ كَمَا لَا بَدَّ
 مِنَ الْإِنْتِصَارِ، وَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
 حَيَاةٌ"، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى رَجَعَ قَوْلُ الْحَكِيمِ الْأَوَّلِ: بَعْضُ
 الْقَتْلِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ، حَزَمَ السَّادَةَ وَعَامَّةَ هَؤُلَاءِ السَّادَةَ لَمْ
 يَكُنْ شَأْنُهُمْ أَنْ يَرْتُدُّوا النَّاسَ إِلَى أَهْوَائِهِمْ، وَإِلَى الْإِنْسِيَاقِ لَهُمْ
 بَعْنُفُ السَّوْقِ، وَبِالْحَرْبِ فِي الْقَوْدِ، بَلْ كَانُوا لَا يُوَثِّرُونَ
 التَّرْهِيْبَ عَلَى التَّرْغِيْبِ، وَالْخَشَوْنَةَ عَلَى التَّلْيِيْنِ، وَهُمْ مَعَ
 ذَلِكَ قَدْ هُجُوا بِأَقْبَحِ الْهَجَاءِ، وَمَتَى أَحَبَّ السَّيِّدُ الْجَامِعَ،
 وَالرَّئِيْسُ الْكَامِلُ قَوْمَهُ أَشَدَّ الْحَبِّ وَحَاطَهُمْ عَلَى حَسَبِ حَبِّهِ

لهم، كان بُغْضُ أَعْدَائِهِمْ لَهُ عَلَى حَسَبِ حُبِّ قَوْمِهِ لَهُ، هَذَا إِذَا لَمْ يَتَوَثَّبْ إِلَيْهِ وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي عَمِّهِ وَإِخْوَتِهِ مَنْ قَدْ أَطْمَعْتَهُ الْحَالَ بِاللَّحَاقِ بِهِ، وَحَسَدُ الْأَقْرَابِ أَشَدُّ، وَعِدَاوَتُهُمْ عَلَى حَسَبِ حَسَدِهِمْ، وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُونَ: رِضَا النَّاسِ شَيْءٌ لَا يِنَالُ، وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْعَرَبِ: مَنْ السَّيِّدُ فَيْكَمْ؟ قَالَ الَّذِي إِذَا أَقْبَلَ هِبْنَاهُ، وَإِذَا أَدْبَرَ اغْتَبْنَاهُ وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ: بَعْضَاءُ السَّرُّوقِ مَوْصُولَةٌ بِالْمُلُوكِ وَالسَّادَةِ، وَتَجْرِي فِي الْحَاشِيَةِ مَجْرَى الْمُلُوكِ، صَعُوبَةُ سِيَاسَةِ الْعَوَامِ وَليْسَ فِي الْأَرْضِ عَمَلٌ أَكْثَرُ لِأَهْلِهِ مِنْ سِيَاسَةِ الْعَوَامِ، وَقَدْ قَالَ الْهَذَلِيُّ يَصِفُ صُعُوبَةَ السِّيَاسَةِ:

لَهَا صَعْدَاءُ مَطْلِبُهَا
طَوِيلٌ

وَإِنْ سِيَاسَةُ الْأَقْوَامِ
فَاعِلَمُ

وَقَالَ آخَرُ فِي شَبِيهِ بِهَذَا الْمَعْنَى:

لَهَا مَصْعَدٌ حَزَنٌ
وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ

وَدُونَ النَّدَى فِي
كُلِّ قَلْبٍ تَنْيِيَةٌ

إِذَا مَا انْقَضَى، لَوْ

وَوَدَّ الْفَتَى فِي كُلِّ

نِيلٌ يُنِيلُهُ

أَنَّ نَائِلَهُ جَزَلٌ

وقال عامر بن الطَّفِيل:

وفارسها المشهور في كلِّ مَوْكِبِ

وإني وإن

أبي الله أن أسمو بأمّ ولا أب
عامر من وراثة

فما سوّدتني

أذاها وأرّمي من رماها بِمَنْكِبِ
حماها وأتقي

ولكنني أحمي

وقال زياد بن ظبيان لابنه عُبيد الله بن زياد وزيادٌ يُغرِغِرُ
بنفسه: ألا أوصي بك الأمير؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: إذا
لم يكن للحي إلا وصية الميّت، فالحيُّ هو الميّت، وقال آخر
في هذا المعنى:

والعزّ لا يأتي بغير تطلب

وقال بشامة بن الغدير في خلاف ذلك، وأن يثبت أن يكون
منه كان:

وَجَدْتُ أَبِي فِيهِمْ
وَجَدِّي كِلَيْهِمَا

يُطَاعُ وَيُؤْتَى أَمْرُهُ
وَهُوَ مُخْتَبَى

فَلَمْ أَتَعَمَلْ لِلسِّيَادَةِ
فِيهِمْ

وَلَكِنْ أَتَيْتَنِي طَائِعاً
غَيْرَ مُتَعَبٍ

بحث في السعادة ومن الناس من يقول: إن العيش كله في كثرة المال، وصحة البدن، وخمول الذكر، وقال من يخالفه: لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير، من أن يكون بالأمر عالماً، أو يكون بها جاهلاً، فإن كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه، لأن المعرفة لا تكون كعدمها، لأنها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجب النباهة، وأدنى حالاته أن تخرجه من حدّ الخمول، ومتى أخرجته من حدّ الخمول فقد صار معرّضاً لمن يقدر على سلبه، وكما أن المعرفة لا بد لها من عمل، ولا بد للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً، والقول لا يكون قولاً إلا وهناك مقول له، والفعل لا يكون فعلاً إلا وهناك مفعول له، وفي ذلك ما أخرج من الخمول وعُرف به الفاعل، وإذا كانت المعرفة هذا عملها في الثبويه على نفسها، فالمال

الكثيرُ أحقُّ بأنَّ عمله الدَّلالةُ على مكانه، والسَّعايةُ على
أهله، والمالُ أحقُّ بالنميمة، وأولى بالشكر، وأخذع
لصاحبه، بل يكون له أشدُّ قهراً، ولحيه أشدَّ فساداً، وإن
كانت معرفته ناقصةً فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة،
وإن كانت تامَّةً فبقدر تمامها يُنفَى الخمول ويُجلبُ الذِّكر،
وبعدُ فليس يفهم فضيلة السلامة، وحقائق رُشدِ العافية،
الذين ليس لهم من المعرفة إلا الشَّدو، وإلا خلاق أوساطِ
الناس، ومتى كان ذلك كذلك، لم يُعرَف المدخل الذي من
أجله يكره ذو المال الشُّهرة، ومن عَرَفَ ذلك على حقِّه
وصدقِه، لم يدعَّه فهمه لذلك حتى يدلَّ على فهمه، وعلى أنه
لا يفهم هذا الموضعَ حتى يفهم كلَّ ما كان في طبقتَه من
العلم، وفي أقلِّ من ذلك ما يبين به حاله من حال الخامل،
وشروط الأمانِي غيرُ شروط جواز الأفعال وإمكانِ الأمور،
وليس شيءٌ ألدُّ ولا أسرُّ من عزِّ الأمر والنهي، ومن الظَّفِرِ
بالأعداء، ومن عقْد المنن في أعناق الرجال، والسُّرورِ
بالرِّياسة وبثمرة السيادة، لأنَّ هذه الأمور هي نصيبُ
الرُّوح، وحظُّ الذهن، وقِسْمُ النَّفس، فأما المطعم والمشرب
والمنكح والمشمة، وكلُّ ما كان من نصيب الحواسِّ، فقد
علمنا أنَّ كلَّ ما كان أشدَّ نهماً وأرغب، كان أتمَّ لوجدانه

الطعم، وذلك قياساً على مواقع الطُّعْم من الجائع، والشراب من العطشان، ولكننا إذا ميَّنا بين الفضيلة التي مع السُّرور، وبين لذة الطعام، وما يُحدث الشَّرَه له من ألم السهر والالتهاب والقلق وشدة الكلب، رأينا أنَّ صاحبه مفضولٌ غيرُ فاضلٍ، هذا مع ما يُسبُّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أنَّ نعمته متى زالت لم يكن أحدٌ أشقى منه، هذا مع سرور العالم بما وهبَ اللهُ له من السلامة من آفة الشَّرَه، ومن فسادِ الأخلاق.

وبعدُ فلا يخلو صاحبُ الثروة والصامتِ الكثيرِ، الخاملُ الذكر من أن يكونَ ممَّن يَرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة، والمطعم الطيب، أو يكون ممن لا يرغب في شيءٍ من ذلك، فإن كان لا يرغب في هذا النوع كلاً، ولا يعمل في ماله للدار الآخرة، ولا يُعجب بالأحدوثة الحسنة، ويكونُ ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت، فإنَّ هذا حمارٌ أو أفسدُ طبعاً من الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضي أن يكونَ في ماله أسوأ حالاً من الوكيل، وبعدُ فلا بُدَّ للمال الكثير من الحراسة الشديدة، ومن الخوف عليه، فإنَّ أعمل الحراسة له، وتعب في حفظه وحسب الخوف، خرج عليه فضلٌ، فإن هو لم يخف عليه ولا

يكون ذلك في سبيل التوكُّل فهو في طباع الحمار وفي جهله، والذي أوجب له الخمول ليؤدِّيه إلى سلامة المال له، قَدْ أَعْطَاهُ مِنَ الْجَهْلِ مَا لَا يَكُونُ مَعَهُ إِلَّا مِثْلُ مَقْدَارِ لَذَةِ الْبَهِيمَةِ فِي أَكْلِ الْخَبْطِ، وَإِنْ هُوَ ابْتَاعَ فُرَّةَ الدَّوَابِّ، وَفُرَّةَ الْخَدَمِ وَالْجَوَارِي، وَاتَّخَذَ الدَّارَ الْجَيِّدَةَ، وَالطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالثُّوبَ اللَّيِّنَ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، فَقَدْ دَلَّ عَلَى مَالِهِ، وَمَنْ كَانَ لِنَفْسِهِ نَمَّ ظَهَرَ لَهُ ضَيْعَةٌ فَاشِيَةٌ، أَوْ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَحْتَمِلُ مِثْلَ ذَلِكَ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ نَفَقَتِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ سَيُوجَدُ فِي اللُّصُوصِ عِنْدَ أَوَّلِ مَنْ يَقْطَعُ عَلَيْهِ، أَوْ مَكَابِرَةَ تَكُونُ، أَوْ تَعْبُ يُوْخَذُ لِأَهْلِهِ الْمَالِ الْعَظِيمِ، وَلَوْ عَنَى بِقَوْلِهِ الْخُمُولُ وَصِحَّةَ الْبَدَنِ وَالْمَالِ، فَذَهَبَ إِلَى مَقْدَارِ مِنَ الْمَالِ مَقْبُولًا وَلَكِنْ مَا لِمَنْ كَانَ مَالُهُ لَا يَجَاوِزُ هَذَا الْمَقْدَارَ يَتَهَيَّأُ الْخُمُولُ، طَبَقَاتِ الْخُمُولِ وَلِعَمْرِي إِنَّ الْخُمُولَ لَيَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ، قَالَ أَبُو نُخَيْلَةَ:

وَمَا كُلُّ مَنْ
أَفْرَضْتَهُ نِعْمَةً
يَقْضِي

شَكَرْتِكَ إِنَّ الشُّكْرَ
حَبْلٌ مِنَ التَّقَى

وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ

فَأَحْيَيْتَ مِنْ ذِكْرِي

وما كان حاملاً

أنبه من بعض

قالوا: ولسقوط الخامل من عيون الناس، قالت الأعرابية لابنها: إذا جلست مع الناس فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل، وإلا فخالف تذكّر وأما الأصمعي فزعم أنها قالت: فخالف ولو بأن تعلق في عنقك أير حمار، وليس يقول هذا القول إلا من ليس يعرف شكر الغنى، وتقلب الأموال إلى ما خلقت له، وقطعها عقلاً، وخلعها عذرها، وتية أصحابها، وكثرة خطاهم في حفظها وسترها، وعجزهم عن إماتة حركتها ومنعها من جميع ما تنازع إليه وتحمل عليه، ملححة من الملح وقد رويها في الملح أن رجلاً قال لصاحب له: أبوك الذي جهل قدره، وتعدى طوره، فشقق العصا، وفارق الجماعة، لا جرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب قال له صاحبه: دغني من ذكر هزيمة أبي، ومن أسره وقتله وصلبه، أبوك هل حدثت نفسه بشيء من هذا قط؟

حكم الأسباب في همم الناس

وليس إلى الناس بعد الهمم وقصرها، وإنما تجري الهمم بأهلها إلى الغايات، على قدر ما يعرض لهم من الأسباب، ألا ترى أن أبعدهم الناس همّة في نفسه، وأشدّهم تلفتاً إلى

المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاج إلى نسب، أو إلى أمر قد وُطئ له بسبب، كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب، فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب، أكدي أم نجح، وقد زعم ناس من العلماء أن رجلاً خُطبت للسيادة والنباهاة والطاعة في العشيرة.

سلطان الحظ في نباهاة القبيلة

وكذلك القبيلة ربّما سَعِدت بالخطّ، وربّما حظيت بالجدّ، وإنّما ذلك على قدر الاتفاق، وإنّما هو كالمعافى والمبتلى، وإنّما ذلك كما قال زهير:

وَجَدْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبْتُمْتُهُ وَمَنْ تُحْطَى
يَعْمَرُ فِيهِمْ

سلطان الحظ على الآثار الأدبية

وكما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال، وبعض الألفاظ دون غيرها، ودون ما يجرى مجراها أو يكون أرفع منها، قالوا: وذلك موجود في المرزوق والمحروم، وفي المحارف والذي تجوز عليه الصدقة، وكم من حاذق بصناعته، وكثير

الجَوْلَانِ فِي تِجَارَتِهِ، وَقَدْ بَلَغَ فَرَاغَةَ مَرَّةً، وَالْأَنْدَلُسَ مَرَّةً،
وَنَقَبَ فِي الْبِلَادِ، وَرَبَعَ فِي الْآفَاقِ، وَمَنْ حَازِقٍ يُشَاوِرُ وَلَا
يُسْتَعْمَلُ، ثُمَّ لَا تَجِدُهُمَا يَسْتَبِينَانِ، مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَكَثْرَةِ
الدَّيْنِ، وَمَنْ صَاحِبَ حَرْبٍ مَنكُوبٍ، وَهُوَ اللَّيْثُ عَلَى بَرَائِثِهِ،
مَعَ تَمَامِ الْعَزِيمَةِ وَشِدَّةِ الشُّكِيمَةِ، وَنَفَازِ الْبَصِيرَةِ، وَمَعَ
الْمَعْرِفَةِ بِالْمَكِيدَةِ وَالصَّبْرِ الدَّائِمِ عَلَى الشَّدَّةِ، وَبَعْدُ؛ فَكَمْ مِنْ
بَيْتٍ شَعَرَ قَدْ سَارَ، وَأَجُودٌ مِنْهُ مَقِيمٌ فِي بَطُونِ الدَّفَاتِرِ، لَا
تَزِيدُهُ الْإَيَّامُ إِلَّا خُمُولًا، كَمَا لَا تَزِيدُ الَّذِي دُونَهُ إِلَّا شُهْرَةً
وَرِفْعَةً، وَكَمْ مِنْ مَثَلٍ قَدْ طَارَ بِهِ الْحِظُّ حَتَّى عَرَفْتَهُ الْإِمَاءُ،
وَرَوَاهُ الصَّبِيَانُ وَالنِّسَاءُ،

أثر الحظ في نباهة الفرسان

وَكَذَلِكَ حِظُوظُ الْفَرَسَانِ، وَقَدْ عُرِفَتْ شُهْرَةٌ عَنْتَرَةٌ فِي الْعَامَّةِ،
وَنِبَاهَةٌ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ، وَضَرَبَ النَّاسُ الْمَثَلَ بِعَبِيدِ اللَّهِ
بِالْحُرِّ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ، بَلْ لَمْ يَسْمَعُوا قَطُّ بِعُتَيْبَةَ بْنِ
الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ، وَلَا بِبِسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ عَامِرُ بْنُ
الطُّفَيْلِ أَدْكَرَ مِنْهُمَا نَسَبًا، وَيَذْكَرُونَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ الْحُرِّ، وَلَا
يَعْرِفُونَ شُعْبَةَ بْنَ ظُهَيْرٍ وَلَا زُهَيْرَ بْنَ دُؤَيْبٍ، وَلَا عَبَادَ بْنَ
الْحَصِينِ، وَيَذْكَرُونَ اللَّسْنَ وَالْبِيَانَ وَالْخَطِيبَ ابْنَ الْقَرِيَّةِ وَلَا

يعرفون سَحْبَانَ وائل، والعامَّة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلاّ
من قِبَل الخاصَّة، والخاصَّة لم تَذُكر هؤلاء دون أولئك،
فتركَت تحصيلَ الأمورِ والموازنةَ بين الرجالِ وحكمتُ
بالسَّابِقِ إلى القلبِ، على قدر طباع القلب وهينته، ثمَّ استوت
عِللُ العامَّةِ في ذلك وتشابهت، والعامَّةُ والباعةُ والأغنياءُ
والسَّفلةُ كأثمِّ أَعذارِ عامٍ واحدٍ، وهم في باطنهم أشدُّ
تشابهاً من التوأمين في ظاهرها، وكذلك هم في مقادير
العقولِ وفي الاعتراضِ والتسرُّعِ، وإن اختلفت الصُّور
والنَّعمُ، والأسنانُ والبلدانُ، تشابهه طباع العامَّةِ في كلِّ بلدةٍ
وفي كلِّ عصرٍ وذكر الله عزَّ وجلَّ ردَّ قريشٍ ومُشركي
العَرَبِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم قوله، فذكر أفاظهم،
وجهد معانيهم، ومقادير همهم التي كانت في وزن ما
يكون من جميع الأممِ إلى أنبيائهم، فقال: "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ"
وقال: "أَتَوَاصَوْا بِهِ" ثم قال: "وَحُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا"،
ومثلُ هذا كثير، ألا ترى أَنَّكَ لا تجدُ بُدًّا في كلِّ بلدةٍ وفي
كلِّ عصرٍ للحاكة من أن يكونوا على مقدارٍ واحدٍ وجهةً
واحدةً، من السَّخَطِ والحمقِ، والغباوةِ والظلمِ، وكذلك
النَّخَّاسون على طبقاتهم، من أصناف ما يبيعون، وكذلك
السماكون والقلائسون وكذلك أصحابُ الخُلُقَانِ كلُّهم، في كلِّ

دهر وفي كلِّ بلدٍ، على مثال واحد، وعلى جهةٍ واحدةٍ.
وكلُّ حَجَّامٍ في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنيبذ، وإن
اختلفوا في البلدان والأجناس والأسنان، ولا ترى مسجوناً
ولا مَضْرُوباً عند السُّلطان إلاَّ وهو يقول: إني مظلوم، ولذلك
قال الشاعر:

ما بالُ سِجْنِكَ إلاَّ
قالَ مَظْلُومٌ

لم يَخْلُقِ اللهُ
مَسْجُوناً تَسَائُلُهُ

وليس في الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم، إلاَّ كلُّ واحدٍ
منهما يدَّعي عدم الإنصاف والظلم على صاحبه.

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

وليس في الأرض إنساناً إلاَّ وهو يطرب من صوت نفسه،
ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده، إلاَّ أنَّ الناسَ في ذلك
على طبقاتٍ من الغلط: فمنهم الغرق المغمور، ومنهم من قد
نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه
مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يمتحن
بالكشف، ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده، وفي

استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقى، ومن إعادة النظر والتَّهْمَة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك

جود حاتم وكعب بن مامة

والعامّة تحكم أنّ حاتماً أجودُ العرب، ولو قدَّمته على هَرَمِ الجَوَادِ لما اعترَضْتَه عليهم، ولكنَّ الذي يُحَدِّثُ به عن حاتم، لا يبلغ مقدارَ ما رَوَوْهُ عن كعبِ بن مامة، لأنَّ كعباً بذلَّ نفسه في أعطية الكرم وبذلَّ المجهود فساوى حاتماً من هذه الوجهة، وبليته ببذلِّ المُهْجَة ، ونحن نقول: إنّ الأشعارَ الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجبُ اليقين بأنَّ كعباً كان كما وصفوا، فلو لم يكن الأمرُ في هذا إلى الجُدود والحظوظ والاتِّفَاقَات، وإلى عللِ باطنةٍ تجري الأمورُ عليها، وفي الغوصِ عليها وفي مَعْرِفَتِهَا بأعيانها عَسْر، لَمَا جرتِ الأمورُ على هذه المجاري، ولو كان الأمرُ فيها مفوضاً إلى تقديرِ الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعة أن يكونَ من المشهورين بالجود، دون هَرَمٍ وحاتم

كلف العامة بآثر الجاهلية

فإن زعمتَ أنّ غالباً كان إسلامياً وكان حاتمٌ في الجاهلية، والناسُ بآثر العرب في الجاهليّة أشدُّ كلفاً، فقد صدقتُ،

وهذا أيضاً يُنبئك أنّ الأمور في هذا على خلاف تقدير الرأي،
وإنّما تجري في الباطن على نسق قائم، وعلى نظر صحيح،
وعلى تقدير محكم، فقد تقدّم في تَعْبِيتهما وتسويتهما مَنْ لا
تخفى عليه خافية، ولا يفوته شيءٌ ولا يُعجزه، وإلاّ فما بال
أيامِ الإسلام ورجالها، لم تكن أكبرَ في النفوس، وأحلّ في
الصدور من رجال الجاهليّة، مع قرب العهد وعِظَمِ حَظِّ ما
ملكوا، وكثرة ما جادت به أنفسهم، ومع الإسلام الذي
شملهم، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم.
ولو أنّ جميعَ مآثر الجاهليّة وُزنت به، وبما كان في
الجماعات اليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت
هذه عليها، أو لكانت مثلها.

دلالة الخلق على الخالق

فليس لَقْدَرِ الكلب والذئب في أنفسهما وأثمانهما ومناظرهما
ومحلّهما من صدور العامّة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا
القول، ولسنا نقف على أثمانهما من الفضة والذهب، ولا
إلى أقدارهما عند الناس، وإنما ننتظرُ فيما وضع الله عزَّ
وجلّ فيهما من الدّلالة عليه، وعلى إتقان صنّعه، وعلى
عجيب تدبيره، وعلى لطيفِ حكّمته، وفيما استخزنهما من

عجائب المعارف، وأودعهما من غوامض الأحساس، وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودلَّ بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير، وأودعهما تلك الحكم، يجب أن يفكر فيهما؛ ويعتبر بهما، ويسبح الله عزَّ وجلَّ عندهما، فعشَى ظاهرهما بالبرهان، وعمَّ باطنهما بالحكم، وهيج على النظر فيهما والاعتبار بهما؛ ليعلم كلُّ ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سُدىً؛ ولم يترك الصُّور هَملاً؛ وليعلموا أن الله عزَّ وجلَّ لم يدع شيئاً عُفلاً غير موسوم، ونثراً غير منظوم، وسُدىً غير محفوظ؛ وأنه لا يخطئه من عجيب تقديره، ولا يعطله من حليّ تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان، ثمَّ عمَّ ذلك بين الصُّوابة والفراشة، إلى الأفلاك السبعة وما دونها من الأقاليم السبعة.

تأويل الآية الكريمة: "ويخلق ما لا تعلمون".

وقد قال تعالى: "وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، وقد يتَّجه هذا الكلام في وجوه: أحدها أن تكون ها هنا ضروبٌ من الخلق لا يعلم بمكانهم كثيرٌ من الناس، ولا بدَّ أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه، أو يعلمه صفوة جنود الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرفه بعضُ الناس، لا يجوز إلا ذلك، أو يكون

الله عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا عَنِ أَنَّهُ خَلَقَ أَسْبَاباً، وَوَهَبَ عَلَلاً، وَجَعَلَ ذَلِكَ رِفْداً لِمَا يَظْهَرُ لَنَا وَنِظَاماً، وَكَانَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ مَعْنَى قَوْلِهِ: "وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" فَلْيُوقِدْ نَاراً فِي وَسْطِ غَيْضِهِ، أَوْ فِي صَحْرَاءِ بَرِيَّةٍ ثُمَّ يَنْظُرْ إِلَى مَا يَغْشَى النَّارَ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ مِنَ الْحَشْرَاتِ وَالْهَمَجِ فَإِنَّهُ سِيرَى صُهُرَاءً، وَيَتَعَرَّفُ خَلْقاً لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ، وَعَلَى أَنَّ الْخَلْقَ الَّذِي يَغْشَى نَارَهُ يَخْتَلِفُ عَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِ مَوَاضِعِ الْغِيَاظِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَكْثَرُ وَأَعْجَبُ، وَمَا أَرَدُ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّهُ لَيَدْخُلُ عِنْدِي فِي جُمْلَةٍ مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَمَنْ لَمْ يَقْلُ ذَلِكَ لَمْ يَفْهَمْ عَنِ رَبِّهِ وَلَمْ يَفْقَهُ فِي دِينِهِ.

ديان الخل والملح

كَأَنَّكَ لَا تَرَى أَنَّ فِي دِيَانَ الْخَلِّ وَالْمَلْحِ، وَالْدِيَانَ الَّتِي تَتَوْلَدُ فِي السُّمُومِ إِذَا عَتَقْتَ وَعَرَضَ لَهَا الْعَفْنُ وَهِيَ بَعْدَ قَوَاتِلِ عِبْرَةٍ وَأَعْجُوبَةٍ، وَأَنَّ التَّفَكَّرَ فِيهَا مَشْحُذَةٌ لِلْأَذْهَانِ، وَمَنْبَهَةٌ لِدَوِي الْعَقْلَةِ، وَتَحْلِيلٌ لِعَقْدَةِ الْبُلْدَةِ، وَسَبَبٌ لِاعْتِيَادِ الرُّوِيَّةِ وَانْفِسَاحِ الصَّدُورِ، وَعَزٌّ فِي النُّفُوسِ، وَحِلَاوَةٌ تُتَقَاتَتَا

الرُّوح، وثمرَةٌ تَعَدِّي العَقل، وتَرَقُّ في الغايات الشريفة،
وتَشْرُفُ إلى معرفة الغايات البعيدة،

فأرة البيش والسمندل

وكأنك لا ترى أن في فأرة البيش وفي السمندل آيةً غريبةً،
وصفةً عجيبةً، وداعيةً إلى التفكُّر، وسبباً إلى التعجُّب
والتعجيب.

الجعل والورد

وكأنك لا ترى أن في الجعل، الذي متى دفنته في الورد
سكنت حركته وبطلت في رأي العين رُوْحُه، ومتى أعدته
إلى الرُّوث انحلت عُقدته، وعادت حركته، ورجع حسُّه
أعجب العجب، وأحكم الحكم.

حصول الخلد على رزقه

وأى شيء أعجب من الخلد وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيئ
الله له ما يقوته وهو أعمى لا يبصر، وأصم لا يسمع، وبليد
لا يتصرف، وأبله لا يعرف، ومع ذلك أنه لا يجوز باب
جُحره، ولا يتكلف سوى ما يجلبُ إليه رازقه ورازق غيره،

وأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ طَائِرٍ لَيْسَ لَهُ رِزْقٌ إِلَّا أَنْ يَخْلُلَ
أَسْنَانَ التَّمْسَاحِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لَهُ.

الطائران العجيبان

وأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ طَائِرَيْنِ، يَرَاهُمَا النَّاسُ مِنْ أَدْنَى جُدُودِ
الْبَحْرِ مِنْ شِيقِ الْبَصْرَةِ، إِلَى غَايَةِ الْبَحْرِ مِنْ شِيقِ السَّنَدِ،
أَحَدُهُمَا كَبِيرُ الْجُبَّةِ يَرْتَفِعُ فِي الْهَوَاءِ صُعْدًا، وَالْآخَرُ صَغِيرُ
الْجُبَّةِ يَتَقَلَّبُ عَلَيْهِ وَيَعْبَثُ بِهِ، فَلَا يَزَالُ مَرَّةً يَرْفِرُ حَوْلَهُ
وَيَرْتَقِي عَلَى رَأْسِهِ، وَمَرَّةً يَطِيرُ عِنْدَ دُنَابَاهُ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ
جَنَاحِهِ وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يُعْمَهُ وَيَكْرُبُهُ حَتَّى
يَتَّقِيهِ بِذَرْقِهِ، فَإِذَا ذَرَقَ شَحَا لَهُ فَاهُ فَلَا يَخْطِي أَقْصَى حَلْقِهِ
حَتَّى كَأَنَّهُ دَحَا بِهِ فِي بئرٍ، وَحَتَّى كَأَنَّ ذَرْقَهُ مِدْحَاةٌ بِيَدِ
أُسْوَارٍ، فَلَا الطَّائِرُ الصَّغِيرُ يَخْطِي فِي التَّلْقِي، وَفِي مَعْرِفَتِهِ
أَنَّهُ لَا رِزْقَ لَهُ إِلَّا الَّذِي فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ؛ وَلَا الْكَبِيرُ يَخْطِي
التَّسْدِيدِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْجِيهِ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَّقِيَهُ بِذَرْقِهِ، فَإِذَا
أَوْعَى ذَلِكَ الدَّرْقَ، وَاسْتَوْفَى ذَلِكَ الرِّزْقَ، رَجَعَ شَبَعَانِ رِيَانٍ
بِقُوَّةِ يَوْمِهِ، وَمَضَى الطَّائِرُ الْكَبِيرُ لِطَيْبَتِهِ، وَأَمْرُهُمَا مَشْهُورٌ
وَشَأْنُهُمَا ظَاهِرٌ، لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ وَلَا تَهْمَةُ الْمُخْبِرِينَ عَنْهُ.

اختلاف بين الحيوان في الطباع

فجعل تعالى وعزَّ بعضَ الوحوشِ كَسُوباً محتالاً، وبعضَ
الوحوشِ متوكِّلاً غيرَ محتالٍ، وبعضَ الحشراتِ يدَّخرُ لنفسه
رِزْقَ سنَّتِهِ؛ وبعضاً يتكلُّ على الثَّقَةِ بأنَّ له كلَّ يومٍ قَدْرَ
كِفَايَتِهِ، رِزْقاً معدّاً وأمراً مقطوعاً، وجعلَ بعضَ الهمجِ
يدَّخرُ، وبعضه يتكسَّب، وبعضَ الذكورِ يعولُ ولده، وبعضَ
الذكورة لا يعرف ولده، وبعضَ الإناثِ تُخرِّج ولدها، وبعضَ
الإناثِ تضيِّع ولدها وتكفلُ ولدَ غيرها، وبعضَ الأجناسِ
معطوفةٌ على كلِّ ولدٍ من جنسها، وبعضَ الإناثِ لا تعرف
ولدها بعد استغنائِه عنها، وبعضَ الإناثِ لا تزال تعرفُه
وتعطفُ عليه، وبعضَ الإناثِ تأكلُ ولدها، وكذلك بعضُ
الذكورة، وبعضَ الأجناسِ يُعادي كلَّ ما يكسر بيضها أو
يأكل أولادها، وجعل يُتمُّ بعضَ الحيوانِ من قِبَلِ أمهاتها،
وجعل يُتمُّ بعضها من قِبَلِ آبائها، وجعل بعضها لا يلتصق
الولدُ وإن أتاه الولدُ، وجعل بعضها مستفرغَ الهمِّ في حُبِّ
الدَّرِّ والتماسِ الولدِ؛ وجعل بعضها يُزاوجُ وبعضها لا
يزاوجُ ليكون للمتوكل من الناسِ جهةٌ في توكله، وللمتكسِّبِ
جهةٌ في تكسُّبه وليُحضرَ على بالهم أسبابَ البرِّ والعقوقِ،
وأسبابَ الحظرِّ والتربيَةِ، وأسبابَ الوحشةِ من الأرحامِ
الماسَّةِ، افتراقِ المعاني واختلافِ العللِ ولمكانِ افتراقِ

المعاني واختلافِ العُلل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: اعقلها وتوكل، وقال لبلال: "أنفق بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً".

فافهموا هذا التدبير، وتعلموا هذه الحكم، واعرفوا مداخلها ومخارجها ومفرقها ومجموعها؛ فإن الله عز وجل لم يرد في كتابه ذكر الاعتبار، والحث على التفكير، والترغيب في النظر وفي التثبت والتعرف والتوقف، إلا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماً من هذه التعبئة.

المعرفة والاستدلال ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى، لولا تمييز المضار من المنافع، والردى من الجيد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعل الله عز وجل العيون المدركة، والإنسان الحساس إذا كانت الأمور المميّزة عنده، أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يضرّ أخذه، فiaخذ ما يحبّ ويدع ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكر بالمكروه كيفية العقاب ويذكر بالمحبوب كيفية الثواب، ويعرف بذلك كيفية التضاعيف، ويكون ما يغمه رادعاً له، وممتحناً بالصبر عليه، وما يسره باسطاً له وممتحناً بالشكر عليه، وللعقل في خلال ذلك

مجال، وللرأي تقلب، وتنشَقُّ للخواطر أسبابٌ، ويتهيأ
لصواب الرأي أبواب، ولتكون المعارف الحسّية والوجدانات
الغريزية، وتمييز الأمور بها، إلى ما يميز عند العقول
وتحصره المقاييس، وليكون عملُ الدُّنيا سلماً إلى عمل
الآخرة، وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول،
ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية؛ حتى لا يرضى من
العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم، ونجّاه من العقاب
الآليم،

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

سندُكُ طُرفاً ممّا أودعَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكلبَ ممّا لا تحسنه أنت
أيُّها الإنسان، مع احتقارك له وظلمك إيّاه، وكيف لا تكون
تلك الحكم لطيفةً، وتلك المعاني غريبةً، وتلك الأحساسُ
دقيقةً، ونحن نعلم أنّ أدقَّ الناس حسّاً وأرقَّهم ذهناً
وأحضرهم فهماً، وأصحَّهم خاطراً وأكملهم تجربةً وعلماً، لو
رأى الشيء الذي يحسنه الكلب في كثير من حالات الكلب
لظَّهر له من عجزه وخرقه، وكلال حدّه وفَساد حسّه، ما لا
يعرف بدونه إنّ الأمور لم تُقسَم على مقدار رأيه، ولا على
مبلغ عقله وتقديره، ولا على محبّته وشهوته؛ وأنّ الذي

قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاورة والمعاونة، وإلى مكانفةٍ ومُرافدة، ولا إلى تجربةٍ ورويةٍ، ونحن ذاكرون من ذلك جملاً إن شاء الله تعالى.

خبوة الكلب في الصيد

اعلم أنّ الكلب إذا عاين الطّباء، قريبةً كانت أو بعيدةً، عرف المعتلّ وغير المعتلّ وعرف العنز من التّيس، وهو إذا أبصر القطيع لم يقصد إلاّ قصد التّيس وإن علم أنّه أشدُّ حُضراً، وأطولُ وثبةً، وأبعدُ شوطاً ويَدعُ العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حُضرها وقصر قابِ خَطوها، ولكنه يعلم أنّ التّيس إذا عدا شوطاً أو شوطين حَقَبَ ببوله.

ما يعرض للحيوان عند الفرع وكلّ حيوانٍ إذا اشتدّ فرعه، فإنّه يعرض له إمّا سَلَسَ البول والتقطير، وإمّا الأُسْرُ والحَقَب، وكذلك المضروب بالسياط على الأكتاف، وبالعصيّ على الأستاه، وما أكثر ما يعترهم البول والغائط، وكذلك صار بعضُ الفرّسان الأبطال إذا عاين العدوَّ قطّر إلى أن يذهب عنه، لهول الجنان، وإذا حَقَبَ التّيس لم يستطع البول مع شدّة الحُضر، ومع النَّفْرِ والنَّزَم، ووضع القوائم معاً ورفعها معاً، في أسرع من الطّرف فيثقل عدوّه، ويقصر

مَدَى خُطَاهُ، وَيَعْتَرِيهِ الْبُهِرُ حَتَّى يَلْحَقَهُ الْكَلْبُ فَيَأْخُذُهُ، وَالْعَنْزُ
مِنَ الظُّبَاءِ إِذَا اعْتَرَاهَا الْبَوْلُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْعِ لَمْ تَجْمَعَهُ،
وَحَذَفَتْ بِهِ كَايزَاغَ الْمَخَاضِ الصَّوَارِبِ، لَسَعَةِ السَّيْلِ
وَسَهْوَةِ الْمَخْرَجِ، فَتَصِيرُ لَذِكِ أَدْوَمَ شَدًّا، وَأَصْبَرَ عَلَى
الْمَطَاوِلَةِ.

فَهَذَا شَيْءٌ فِي طَبِيعِ الْكَلْبِ مَعْرِفَتُهُ، دُونَ سَائِرِ الْحَيَوَانَ.
وَالْكَلبُ الْمَجْرَّبُ لَا يَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى مُعَانَاةٍ، وَلَا إِلَى تَعَلُّمٍ،
وَلَا إِلَى رَوِيَّةٍ وَلَا إِلَى تَكْلِفٍ، قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ الْعَقْلَ
وَالْعَاقِلَ وَالْمَعْقُولَ، وَالِدَاءَ وَالِدَوَاءَ وَالْمَدَاوِةَ وَالْمَدَاوِيَّ،
وَقَسَمَ الْأُمُورَ عَلَى الْحِكْمَةِ، وَعَلَى تَمَامِ مَصْلَحَةِ الْخَلِيقَةِ.

نكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

وَمِنَ مَعْرِفَةِ الْكَلْبِ، أَنَّ الْمُكَلَّبَ يُخْرِجُهُ إِلَى الْصَيْدِ فِي يَوْمٍ،
الْأَرْضُ فِيهِ مَلْبَسَةٌ مِنَ الْجَلِيدِ، وَمَغْشَاةٌ بِالنَّجِجِ، قَدْ تَرَاكَمَ
عَلَيْهَا طَبَقًا عَلَى طَبَقٍ، حَتَّى طَبَّقَهَا وَاسْتَفَاضَ فِيهَا، حَتَّى
رَبَّمَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ بِبَرْدِهَا، فَيَعُودُ كُلُّ طَبَقٍ مِنْهَا وَكَأَنَّهُ صِفَاةٌ
مَلْسَاءٌ، أَوْ صَخْرَةٌ خُلُقَاءٌ، حَتَّى لَا يَثْبِتَ عَلَيْهَا قَدَمٌ وَلَا خُفٌّ،
وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ، إِلَّا بِالتَّثْبِيتِ الشَّدِيدِ، أَوْ بِالْجَهْدِ وَالتَّفْرِيقِ
فَيَمِضِي الْكَلَابُ بِالْكَلبِ، وَهُوَ إِنْسَانٌ عَاقِلٌ، وَصَيَّادٌ مَجْرَّبٌ،

وهو مع ذلك لا يدري أين جحر الأرنب من جميع بسائط الأرض، ولا موضع كُناس طبي، ولا مَكْوِ ثعلب، ولا غير ذلك من موالج وحوش الأرض؛ فيتخرق الكلب بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر، فلا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الجحرة، وحتى يُثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبُخار أجوافها وأبدانها، وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الأرض مما يُذيب ما لاقاها من فم الجحر، من الثلج الجامد، حتى يرق ويكاد أن يثقبه وذلك خفيّ غامض، لا يقع عليه قانص ولا راع، ولا قائف ولا فلاح، وليس يقع عليه إلا الكلب الصائد الماهر، وعلى أن للكلب في تتبّع الدراج والإصعاد خلف الأرانب في الجبل الشاهق، من الرفق وحسن الاهتداء والتأني ما يخفي مكانه على البيازرة والكلابين.

الانتباه الغريزي في الكلب

وقد خبرني صديق لي أنه حبس كلباً له في بيتٍ وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طبّاخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثمّ أحدّ سكيناً بسكين، فنبح الكلب وقلق، ورام فتح الباب؛ لتوهمه أن الطّباخ قد رجّع من السوق بالوظيفة،

وهو يحد السُّكَّين ليقطع اللحم ، قال: فلما كان العشيُّ صنَعْنَا به مثلَ ذلك، لنتعرَّف حاله في معرفة الوقت، فلم يتحرَّك، قال: وصنعتُ ذلك بكلِّ لي آخر فلم يَقْلُقْ إِلَّا قَلْقاً يسيراً، فلم يلبث أن رجَعَ الطَّبَّاح فصنَع بالسُّكَّين مثل صنيعي، فقلق حتى رام فتح الباب، قال فقلت: والله لئن كان عرفَ الوقت بالرَّصد فتحرَّك له، فلما لم يشمَّ ريحَ اللحم عرفَ أنَّه ليس بشيء، ثمَّ لما سمع صوتَ السُّكَّين والوقتُ بَعْدَ لم يذهب، وقد جيءَ باللحم فشَمَّ ريحَ اللحم من المطبخ وهو في البيت، أو عرفَ فصلُ ما بين إحدادي السُّكَّين وإحدادِ الطَّبَّاح، إنَّ هذا أيضاً لَعَجَب، وإنَّ اللحمَ ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الأذرع، فما أجْدُ ريحَه إِلَّا بَعْدَ أن أُدْنِيه من أنفي، وكلُّ ذلك عجب.

ولم أجْدُ أهلَ سَكَّةِ أَصْطَفَانُوس، ودار جارية، وباعة مُرَبَّعة بني منقَر يشكُّون أن كلباً كان يكون في أعلى السكَّة، وكان لايجوز مَحْرَس الحارس أيامَ الأسبوع كَلَّه، حتَّى إذا كان يومُ الجمعة أقبلَ قَبْلَ صلاةِ الغداة، من موضعه ذلك إلى باب جارية، فلا يزال هناك مادام على مِغْلَاقِ الجُزَّار شيءٌ من لحم، وباب جارية تُنحر عنده الجُزْر في جميع أيَّام الجمع خاصة، فكان ذلك لهذا الكلب عادةً، ولم يره أحدٌ منهم في

ذلك الموضوع في سائر الأيام، حتَّى إذا كان غداة الجمعة
أقبل. فليس يكون مثلُ هذا إلاّ عن مقداريّة بمقدار ما بين
الوقتَيْن، ولعلَّ كثيراً من الناس ينتابون بعض هذه المواضع
في يوم الجمعة، إمّا لصلاة، وإمّا لغير ذلك، فلا يَعدِمُهُم
النسيان من أنفسهم، والاستذكار بغيرهم، وهذا الكلب لم
ينسَ من نفسه، ولا يستذكر بغيره، وزعم هؤلاء بأجمعهم
أنهم تفقدوا شأنَ هذا الكلب منذ انتبهوا لصنيعه هذا، فلم
يجدوه غادرَ ذلك يوماً واحداً، فهذا هذا.

قصة في وفاء الكلب

وأشَدُّ أبو الحسن بن خالويه عن أبي عبيدة لبعض
الشعراء:

وينبش عنه كلبه
وهو ضاربه

يُعدُّ عنه جاره
وشقيقه

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأنَّ رجلاً خرج إلى الجبان ينتظر
ركابه فأتبعه كلبٌ كان له، فضرب الكلبَ وطرده، وكره أن
يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلبُ إلاّ أن يذهب معه، فلما
صار إلى الموضوع الذي يريد فيه الانتظار، ربض الكلبُ

قريباً منه، فبينما هو كذلك إذ أتاه أعداءٌ له يطلبونه بطائلةٍ
لهم عنده، وكان معه جارٌ له وأخوه دنياً، فأسلماه وهربا
عنه، فجرح جراحاتٍ ورُمي به في بئرٍ غير بعيدة القعر، ثم
حَثُّوا عليه من التراب حتى غَطَّى رأسه ثم كُمَّم فوق رأسه
منه، والكلبُ في ذلك يَزْجُم وَيَهْرُ، فلَمَّا انصرفوا أتى رأسَ
البئر؛ فما زال يَعوِي وينبث عنه ويحثو التُّرابَ بيده ويكشف
عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفَّسَ ورُدَّتْ إليه الرُّوح؛ وقد
كاد يموتُ ولم يبق منه إلا حُشاشة، فبينما هو كذلك إذ مرَّ
ناسٌ فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا
فإذا هم بالرجُل في تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حياً،
وحملوه حتى أدَّوه إلى أهله، فزعم أن ذلك الموضع يُدعى
ببئر الكلب، وهو مُتَيَّامِنٌ عن النَّجف، وهذا العملُ يدلُّ على
وَفَاءٍ طَبِيعِيٍّ وَإِلْفٍ غَرِيزِيٍّ وَمَحَامَاةٍ شَدِيدَةٍ، وعلى معرفةٍ
وصبر، وعلى كرمٍ وشكر، وعلى غِنَاءٍ عَجِيبٍ وَمُنْفَعَةٍ تَفُوقِ
الْمَنَافِعِ، لأنَّ ذلك كلُّه كان من غير تكلف ولا تصنُّع.
مؤمن بن خاقان والأعرابي وقال مؤمِّل بن خاقان، لأعرابيٍّ
من بني أسد، وقد أَكَلَ جَرَوْ كَلْبٍ: أَتَأْكُلُ لَحْمَ الْكَلْبِ وَقَدْ قَالَ
الشاعر:

وكان سميناً كلبه
فهو آكله

إذا أسديّ جاع
يوماً ببدة

أكلَ هذا قرماً إلى اللحم؟ قال: فأنشأ الأسدُ يقول:

فسائل أخا الحلفاءِ
إن كنت لا تدري

وصباً بحظّ الليثِ
طُعماً وشهوة

طلب الأسد للكلب

قال: وذلك لأنّ الأسدَ لا يحرص على شيءٍ من اللّحمانِ
حرصه على لحم الكلب، وأمّا العامّة فتزعّم أنّ لحوم الشاءِ
أحبُّ اللّحمانِ إليه، قالوا: ولذلك يُطيف الأسدُ بجَنَباتِ
القرى، طلباً لاغترار الكلب؛ لأنّ وثبة الأسد تُعجل الكلب عن
القيام وهو رابض، حتّى ربّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب
من قراهم؛ إلاّ أن يكون بقرب ضياعهم خنازير، فليس حينئذٍ
شيءٌ أحبّ إليهم من أن تكثر الأسد عندهم، وإنّما يُخرجون
عنه في تلك الحالات الكلاب، لأنّهم يخافونها على ما هو
عندهم أنفس من الكلب، وهذه مصلحةٌ في الكلب، ولا يكون
ذلك إلاّ في القرى التي بقرب العيّضة أو المأسدة.
علة طلب الأسد للكلب فزعم لي بعض الدّهاقين قولاً لا أدري

كيف هو، ذكر أنهم لا يشكّون أنه إنما يطلب الكلب لحنقه عليه، لا من طريق أن لحمه أحب اللّحمان إليه، وإنّ الأسد ليأتي مناقع المياه، وشطوط الأنهار، فيأكل السّراطين والضفادع، والرّق والسلاحف، وإنه أشره من أن يختار لحمًا على لحم، قال: وإنما يكون ذلك منه إذا أراد المتطرّف من حمير القرية وشائها وسائر دوابّها، فإذا لجّ الكلب في النّباح انتبهوا ونذروا بالأسد، فكانوا بيّن أن يحصّنوا أموالهم وبيّن أن يهجهجوا به، فيرجع خائباً، فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب؛ لأنّ يأمّن بذلك الإنذار، ثمّ يستولي على القرية بما فيها، فإنّما يطالب الأسد الكلاب لهذه العلة.

من حيل الأسد في الصيد وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحى الموصل وأنا هائب له ورأيت الحديث يدور بينهم، ويتقبله جميعهم، وزعموا أنّ الأسد ربّما جاء إلى قلّس السفينة، فيتشبّث به ليلاً، والملاحون يمدّون السفينة فلا يشكّون أنّ القلّس قد التفت على صخرة، أو تعلق بجذم شجرة، ومن عاداتهم أن يبعثوا الأوّل من المدّادين ليحلّه، فإذا رجع إليه الملاح ليمدّه تمدّد الأسد بالأرض، ولزق بها وغمّض عينيه كي لا يبصر وبيصّهما بالليل، فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين همّ إلاّ الإلقاء أنفسهم في الماء

وعبورهم إليه، وربما أكله إلا ما بقي منه، وربما جرَّ
فريسته إلى عريسه وعرينه، وإلى أجرائه وأشباليه، وإن
كان ذلك على أميال،

سلاح الكلب وسلاح الديك

قالوا: فليس الديك من بابة الكلب؛ لأنه إن ساوره قهره
قهرًا ذريعاً، وسلاح الكلب الذي هو في فيه، أقوى من
صبيصة الديك التي في رجله، وصوته أندى وأبعد مدى
وعينه أيقظ.

دفاع عن الكلب

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره، ويعول أهله، فيكون
لصاحبه غنمه وليس عليه غرمه، ولما يرمح الدواب من
الناس، ولما يحرن ويجمع، وتنطح وتقتل أهلها في يوم
واحد، أكثر مما يكون من جميع الكلاب في عام، والكبش
ينطح فيعقر ويقتل، من غير أن يُهاج ويُعبث به، والبرذون
يعض ويرمح من غير أن يُهاج به ويُعبث، وأنت لا تكاد
تري كلباً يعض أحداً إلا من تهيج شديد، وأكثر ذلك أيضاً
إنما هو النباح والوعيد.

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

والكلب يعرف وجه ربه من وجه عبده وأمهته، ووجه الزائر، حتى ربما غاب صاحب الدار حولاً مجرماً، فإذا أبصره قادماً اعتراه من الفرح والبصبة، والعواء الذي يدل على السرور، وعلى شدة الحنين ما لا يكون فيه شيء فوقه.

قصة في وفاء كلب

وخبّرني صديق لي قال: كان عندنا جرؤ كلب، وكان لي خادمٌ لهجٌ بتقريبه، مولعٌ بالإحسان إليه، كثيرُ المعاينة له، فغاب عن البصرة أشهراً، فقلت لبعض من عندي: أتظنون أنّ فلاناً يعني الكلب يُثبت اليوم صورة فلان يعني خادمه الغائب وقد فارقه وهو جرو، وقد صار كلباً يشغّر ببوله؟ قالوا: ما نشكُّ أنّه قد نسي صورته وجميع برّه كان به، قال: فبينما أنا جالسٌ في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه، فلم أرَ شكلاً نباحه من التأب والتعثيث والتوعد، ورأيت فيه بصببة السرور، وحنين الألف، ثمّ لم ألبث أن رأيت الخادم طالعا علينا، وإنّ الكلب ليلتفّ على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحاً يستبين فيه الفرخ، ولقد بلغ من إفراط سروره أنّي ظننت أنّه عرض، ثمّ

كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة، أو يمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة، وبذلك النوع من النباح، أن الخادم قدم، حتى قلت لبعض من عندي: ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب، وزعم لي أنه ربما ألقى لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تاماً، بعض الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم يمضي بالباقي فيخبؤه، وربما ألقى إليه الشيء وهو شبعان فيحتمله، حتى يأتي به بعض المخابئ فيضعه هناك، حتى إذا جاع رجع إليه فأكله.

أدب الكلب

وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب، أنه كان ينجح على كل ركب يدخل الدرب إلى عراقيب بردونه، سائساً كان أو صاحب دابة إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه، لم ينبخ البتة، لا عليه ولا على دابته، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق، ولكنّه يدخل الدهليز سريعاً، فسألت عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاح به الخادم، وأهوى له بالضرب، فيدخل الدهليز، وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرار، حتى

صار إذا رأى محمد بن عبد الملك، دخل الدهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكريّة، ورأيت هذا الخبر عندهم مشهوراً، قال: وكُنَّا إذا تَعَدَّيْنَا دنا من الخوان فزجرناه مرّةً أو مرّتين، فكان لا يقربنا، لمكان الزجر، ولا يبعُد عن الخوان لعلّة الطمع، فإن ألقينا إليه شيئاً أكله ثمّ، ودنا من أجل ذلك بعض الدنوّ، فكُنَّا نستظهِرُ عليه، فنرمي باللُّقمة فوق مَرَبِضِهِ بأذرع، فإذا أكلها ازداد في الطمَع، فقربه ذلك من الخوان، ثمّ يجوز موضعه الذي كان فيه، ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عنده، ليصير ما يظهر لنا حديثاً، لكان إطعام الكلب والسّئور من الخوان خطأ من وجوه: أوّلها أن يكون يصير له به دربة، حتّى إنّ منها ما يمدُّ يده إلى ما على المائدة حتّى ربما تناول بفيه ما عليها، وربّما قاء الذي يأكل وهم يرونه، وربّما لم يرضَ بذلك حتّى يعودَ في قبئه، وهذا كله ممّا لا ينبغي أن يحضُرهُ الرئيس، ويشهده ربُّ الدار، وهو على الحاشية أجوز.

الأكل بين أيدي السباع فأما علماء الفرس والهند، وأطباء اليونانيين ودُهاة العرب، وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُدّاق المتكلمين، فإنهم يكرهون الأكل بين أيدي السّباع،

يخافون نفوسها وأعينها، لِذِي فِيهَا مِنَ الشَّرِّهِ وَالْحِرْصِ،
وَالطَّلْبِ وَالْكَلْبِ، وَلَمَّا يَتَحَلَّلُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ أَجْوَاهَا مِنَ الْبَخَارِ
الرَّدِيِّ، وَيَنْفَصِلُ مِنْ عَيُونِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَفْسُودَةِ، الَّتِي إِذَا
خَالَطَتْ طِبَاعَ الْإِنْسَانِ نَقَضَتْهُ، وَقَدْ رُوِيَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ
الثَّوْرِيِّ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ عَلَى
مَنْبَرِ الْبَصْرَةِ: إِنَّ الْكَلَابَ مِنَ الْحِنِّ، وَإِنَّ الْحِنَّ مِنَ ضَعْفَةِ
الْحِنِّ، فَإِذَا غَشِيَكُمْ مِنْهَا شَيْءٌ فَأَلْقُوا إِلَيْهِ شَيْئاً وَاطْرُدُوهَا،
فَإِنَّ لَهَا أَنْفَسَ سَوْءٍ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَكْرَهُونَ قِيَامَ الْخَدَمِ
بِالْمَذَابِّ وَالْأَشْرِبَةِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُمْ يَأْكُلُونَ؛ مَخَافَةَ النَّفْسِ
وَالْعَيْنِ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَ بِإِشْبَاعِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلُوا، وَكَانُوا
يَقُولُونَ فِي السَّنُورِ وَالْكَلْبِ: إِمَّا أَنْ تَطْرُدَهُ قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ وَإِمَّا
أَنْ تَشْغَلَهُ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ، وَلَوْ بَعْضُ، وَرَأَيْتُ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ
وَقَدْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ لَقْمَةٌ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا عَيْنُ غُلَامٍ لَهُ
تَحَدَّقَتْ نَحْوَ لَقْمَتِهِ، وَإِذَا الْغُلَامُ يَزْدَرِدُ رِيقَهُ لَتَحَلَّبَ فَمَهُ مِنْ
الشَّهْوَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْحَكِيمُ جَيِّدَ اللَّقْمِ، طَيِّبَ الطَّعَامِ، وَيَضِيقُ
عَلَى غُلْمَانِهِ، فَيَزْعَمُونَ أَنَّ نَفُوسَ السَّبَاعِ وَأَعْيُنَهَا فِي هَذَا
الْبَابِ أَرْدَأُ وَأَخْبَثُ وَبَيْنَ هَذَا الْمَعْنَى وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ فِي إِصَابَةِ
الْعَيْنِ الشَّيْءِ الْعَجِيبِ الْمُسْتَحْسَنِ شِرْكَةً وَقَرَابَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
قَالُوا: قَدْ رَأَيْنَا رِجَالاً يَنْسَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَرَأَيْنَاهُمْ، وَفِيهِمْ مِنْ

إصابة العين مقداراً من العدد، لا نستطيع أن نجعل ذلك
النسق من باب الاتّفاق، وليس إلى ردّ الخبر سبيل؛ لتواتره
وترادّفه، ولأنّ العيان قد حقّقه، والتجربة قد ضمّت إليه،

العين التي أصابت سهل بن حنيف

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سهل بن حنيف
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بالذي أمر،
وذلك مشهور.

الكتاب الخامس

كلام في العين والحسد

القول في إصابة العين ونحوها

من أثر العين الحاسدة

دفاع عن الكلب

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العققلين

الإلهام في الحيوان

أسمح من لافظة

دفاع عن الكلب

رضيْعٌ مُلْهم

أنفة الكلب

تقدير مطرف للكلب

هراش الكلاب

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

باب ما يُشَبَّه بالكَلْبِ وليس هو منه

جواب صبي

ما يستحبّ في ذنب كلب الصيد

طيب لحم أجراء الكلاب

كرم الكلاب

نوم الكلب

لاقيت مَطْلًا كُنْعاسِ الكَلْبِ

علاج الكلب واحتماله

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قوة فكّ الكلب وأنيابه

إلف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

الحاجة إلى الكلاب

الكلب الزيّنيّ

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

حديث أكلك كلب الله

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

التسمية بمشتقات الكلب

دفاع عن الكلب

أطباء الكلبة والخنزيرة والفهدة

واقية الكلاب

بعض من كني بالكلاب

صفة عيون الكلاب

رجيع الكلاب

دفع عن الكلب

ما يقال له: جرو

من قول الكلب

قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب

مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد

لقاح الكلاب والخنزير

تناسل الكلاب

أعمار الكلاب

أمراض الكلاب

بين عروة بن مرثد وكلب حسبه لصاً

بعض خصال الديك

استطراد لغوي

بعض من تقتل عضته

استطراد لغوي

بعض مزايا الديك

تفضيل الديك على الثعلب

قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

لحم الدجاج

حوار في صياح الديكة

تفضيل صاحب الكلب الحمار على الديك

أحاديث في الديك

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

ذبح الديك الأفرق

كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

طعن صاحب الكلب في الديك

كلام في العين والحسد

قالوا: ولولا فاصل ينفصل من عين المستحسن إلى بدن المستحسن، حتى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقض لقواه لما جاز أن يلقي مكروهاً البتة، وكيف يلقي المكروه من انساق في حيزه وموضعه، والذي أصابته العين في حيزه أيضاً وموضعه، من غير تماس ولا تصادم، ولا فاصل ولا عامل لاقى معمولاً فيه، ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحته يعتل من غير معنى بدنه، ولا تنتقض الأخلاط ولا تترايل إلا لأمر يعرض، لأنه حينئذ يكون ليس بأولى بالانتقاض من جسم آخر، وإن جاز للصحيح أن يعتل من غير حادث، جاز للمعتل أن يبرأ من غير حادث، وكذلك القول في الحركة والسكون، وإذا جاز ذلك كان الغائب قياساً

على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسن له،
فإذا كان لا بد من معنى قد عمل فيه، فليس لذلك المعنى وجه
إلا أن يكون انفصل إليه شيء عمل فيه، وإلا فكيف يجوز
أن يعتل من ذات نفسه، وهو على سلامته وتمام قوته، ولم
يتغير ولم يحدث عليه ما يغيره، فهو وجسم غائب في
السلامة من الأعراض سواء، وهذا جواب المتكلمين الذين
يصدقون بالعين، ويثبتون الرؤيا.

صفة المتكلمين وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام
متمكناً في الصنعة، يصلح للرئاسة، حتى يكون الذي
يُحسن من كلام الدين في وزن الذي يُحسن من كلام
الفلسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والصيب هو
الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من
الأعمال، ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق
الطبائع، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد، وكذلك إذا
زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنتها بالتوحيد، ومن قال فقد
حمل عجزه على الكلام في الطبائع.

وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى
بخس حقوق الطبائع؛ لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها،
وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل، فقد

أبطلت المدلول عليه، ولعمري إنّ في الجمع بينهما لبعض
الشدة. وأنا أعودُ بالله تعالى أن أكون كلما عمز قناتي باب
من الكلام صعب المدخل، نقضتُ ركناً من أركان مقالتي
ومن كان كذلك لم يُنتفع به.

القول في إصابة العين ونحوها

فإن قال قائل: وما بلغ من أمر هذا الفاصل الذي لا يشعر به
القوم الحضور ولا الذي انفصل منه، ولا المارّ بينهما، ولا
المتلقي له ببديهِ وليس دونه شيء، وكيف لم يعمل في
الأقرب دون الأبعد، والأقرب إنسان مثله، ولعله أن يكون
طبعه أشدّ اجتذاباً للآفات، وبعد، فكيف يكون شيء يصرع
الصحيح ويضع القائم، وينقض القوى، ويمرض الأصحاء،
ويصدع الصخر ويهشم العظم، ويقتل الثور، ويهدد الحمار،
ويجري في الجَماد مجراه في النبات، ويجري في النَّبات
مجراه في الحيوان، ويجري في الصلابة والملاسة جريه في
الأشياء السخيفة الرخوة؛ وهو ممّا ليس له صدم كصدم
الحجر، أو عَرَب كعَرَب السَّيف، أو حدُّ كحدِّ السَّنان؛ وليس
من جنس السمّ، فيحمل على نفوذ السمّ؛ وليس من جنس
الغذاء فيحمل على نفوذ الغذاء، وليس من جنس السحر

فيقال إِنَّ العُمَّارَ عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم، فلعلَّ
 ذلك إِنَّمَا كان شيئاً وافق شيئاً، قيل لهم: قد تعلمون كيف
 مقدارُ سَمِّ الجرَّارةِ أو سَمِّ الأفعى، وكيف لو وزنتم الجرَّارةِ
 قبل لسعها وبعده لوجدتموها على حالٍ واحدة، وأنت ترى
 كيف تفسخ عَقْدَ بدن الفيل، وكيف تنقض قوى البعير، من
 غير صدم كصدم الحجر، وغرب كغرب السيف، وحدَّ كحدَّ
 السنان، فإن قلت: فهل نابُ الأفعى وإبرةُ العقرب إلا في
 سبيل حدِّ السنان؟ قلنا: إِنَّ البعيرَ لو كان إنما يَتَفَسَّخُ لَطَعْنِ
 العَقْرِبِ بإبرتها لما كان ذلك يبلغ منها مقدار النّخس فقط،
 ولكنّه لأبَدٌ أن يكون ذلك لأحد أمرين: إمّا أن تكون العقربُ
 تمجّ فيه شيئاً من إبرتها، فيكون طبع ذلك وإن قلَّ يفسخ
 الفيلَ والزَّندبيلَ، وإمّا أن يكون طبعُ ذلك الدَّمِ إذا لاقاه طبعُ
 ذلك الناب وتلك الإبرة أن يُجمد فيقتل بالإجماد، أو يذيب
 فيقتل بالإذابة، فأيهما كان فإنَّ الأمرَ فيه على خلاف ما
 صدرتم به المسألة.

ولا تنازع بين الأعراب والأعراب ناس إنما وضعوا بيوتهم
 وأبنيتهم وسط السَّبَاعِ والأحناش والهمج، فهم ليس يعبرون
 إلا بها، وليس يعرفون سواها وقد أجمعوا على أن الأفعى
 إذا هرمت فلم تطعم ولم يبق في فمها دم أنها تنكز بأنفها،

وتطعن به، ولا تعضُّ بفيها، فيبلغ النَّكْرُ لها ما كان يبلغ لها
قبل ذلك اللَّدْعُ، وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبهم أو الرجوعُ
إلى الفاصل الذي أنكرتموه، لأنَّ أحداً لا يموت من تلك
النَّخْسة، إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمزة، وقال
العجاج، أو ابنه روبة:

فأخطأ الأفعى ولاقى
الأسودا

كنتم كمن أدخل في
جحرٍ يداً

ثم قال:

بالشمِّ لا بالسَّمِّ منه أقصدا

وقال الآخر:

أو مسَّ من حجرٍ
أوهاهُ فانصدعا

أصمَّ ما شمَّ من
خضراءٍ أيبسها

وقد حدَّثني الأصمعيُّ بفرق ما بين النَّكْرِ وغيره عند
الأعراب، وههنا أمثال نضِرُها، وأمور قد عايَنتموها، يذللُّ
بها هذا المعنى عندكم ويسهلُّ بها المدخل، قولوا لنا: ما بالُ
العجينِ يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان ببطيخة في أدنى

الدار، فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر؟ فما ذلك
الفاصل؟ وكيف تقولون بصدمة كان ذلك كصدمة الحجر، أو
بغرب كغرب السيف وكيف لم يعرض ذلك الفساد في كلِّ
معجون هو أقرب إليه من ذلك العجين، وعلى أن نكز الحية
التي يصفه الشعراء بأن المنكور ميت لا محالة، في سبيل
ما حدثني به حاذق من حذاق الأطباء، أن رجلاً يضرب
الحية من دواهي الحيات بعصاه فيموت الضارب، لأنهم
يرون أن شيئاً فصل من الحية فجرى فيها حتى داخل
الضارب فقتله، والأطباء أيضاً والنصارى أجراً على دفع
الرؤيا والعين، وهذه الغرائب التي تحكى عن الحيات وصرع
الشیطان الإنسان، من غيرهم.
فأما الدهرية فمنكرة للشياطين والجن والملائكة والرؤيا
والرقى، وهم يرون أن أمرهم لا يتم لهم إلا بمشاركة
أصحاب الجهالات.
وقد نجد الرجل ينقف شحم الحنظل، وبينه وبين صاحبه
مسافة صالحة، فيجد في حلقه مرارة الحنظل، وكذلك
السوس إذا عولج به وبينه وبين الإنسان مسافة متوسطة
البعد، يجد في حلقه حلاوة السوس، وناقف الحنظل لا تزال

عينه تهمل مادام ينقفه، ولذلك قال ابن حُدام، قال أبو
عبدة: وهو الذي يقول:

كأني غداة البين لَدَى سَمَرَاتِ الحَيِّ
يومَ تحمّلوا ناقفُ حنظل

يخبر عن بكائه، ويصف دُرورَ دَمَعَتِهِ في إثرِ الحمول، فشبهه
نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس في قوله:

عوجًا على الطللِ نَبْكي الدِّيَارِ كما
القديم لعننا بكى ابن حمام

ويزعمون أنه أول من بكى في الديار، وقد نجد الرجل يقطع
البصل، أو يُوخِفُ الخردل فتدمع عيناه، وينظر الإنسان
فيديم النظر في العين المحمرة فتعتري عينه حمرة، والعرب
تقول: لهُو أَعْدَى من التُّوبَاءِ، كما تقول: لهُو أَعْدَى من
الجرب، وذلك أن من تتأب مراراً، وهو تجاه عين إنسان،
اعتري ذلك الإنسان التثؤب، ورأيت ناساً من الأطباء وهم
فلاسفة المتكلمين، منهم مَعمر، ومحمد بن الجهم، وإبراهيم
بن السُّندي، يكرهون دُنُو الطامثِ من إناءِ اللبن لتسوطه أو
تعالج منه شيئاً، فكأنهم يرون أن لبدنها ما دام ذلك العرضُ

يعرض لها، رائحة لها حِدَّةٌ وبخار غليظ، يكون لذلك
المسُوطُ مُفسِداً.

من أثر العين الحاسدة

ولا تُبْعَدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعوك إلى إنكاره، وإلى
تكذيب أهله، فإنَّ أبيتَ إلاَّ إنكارَ ذلك، فما تقول في فرسٍ
تحصَّن تحت صاحبه، وهو في وسط موكبه، وغبار الموكب
قد حالَ بين استبانة بعضهم لبعض، وليس في الموكب حجرٌ
ولا رمكة، فيلتفتُ صاحبُ الحصان فيرى حجراً أو رمكة،
على قابِ غرضٍ أو غرضين، أو غلوة أو غلوتين، حدَّثني،
كيف شمَّ هذا الفرس ريحَ تلك الفرسِ الأنثى، وما باله يدخل
داراً من الدُّورِ، وفي الدَّارِ الأخرى حجرٌ، فيتحصَّن مع
دخوله من غير معاينة وسماعٍ سهيل وهذا الباب سيقع في
موضعه إن شاء الله تعالى، وقال أبو سعيد عبد الملك بن
قريب: كان عندنا رجلان يعينان الناس، فمرَّ أحدهما بحوضٍ
من حجارة، فقال: تالله ما رأيتَ لكاليوم قطَّ فتطاير الحوض
فلقين، فأخذه أهله فضببوه بالحديد، فمرَّ عليه ثانيةً فقال:
وأبيك لقلَّما أضرتُ أهلك فيك فتطاير أربعَ فلق.

قال: وأما الآخر، فإنه سمع صوتَ بولٍ من وراء حائط

فقال: إِنَّكَ لَشَرُّ الشَّخْبِ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ فَلَانٌ ابْنُكَ، قَالَ:
وانقطع ظهراه قالوا: إِنَّهُ لَا بَأْسَ عَلَيْهِ، قَالَ: لَا يَبُولُ وَاللَّهِ
بَعْدَهَا أَبَدًا قَالَ: فَمَا بِالِ حَتَّى مَاتَ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَرَأَيْتُ أَنَا
رَجُلًا عَيْونًا فَدَعِيَ عَلَيْهِ فَعَوَرَ، قَالَ: إِذَا رَأَيْتُ الشَّيْءَ
يُعْجِبُنِي، وَجَدْتُ حَرَارَةً تَخْرُجُ مِنْ عَيْنِي، قَالَ: وَسَمِعَ رَجُلٌ
بَقْرَةً تُحَلِّبُ فَأَعْجَبَهُ صَوْتُ شَخْبِهَا، فَقَالَ: أَيَّتَهُنَّ هَذِهِ، فَخَافُوا
عَيْنَهُ فَقَالُوا: الْفَلَانِيَّةُ لِأُخْرَى وَرَوَّاهَا بِهَا عَنْهَا فَهَلَكْتَ جَمِيعًا:
الْمُورِيُّ بِهَا وَالْمُورِيُّ عَنْهَا، وَقَدْ حَمَلَ النَّاسُ كَمَا تَرَى عَلَى
الْعَيْنِ مَا لَا يَجُوزُ، وَمَا لَا يَسُوعُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَجَازَاتِ،
وَقَوْلُ الَّذِي اعْوَرَ: إِذَا رَأَيْتُ الشَّيْءَ يَعْجِبُنِي وَجَدْتُ حَرَارَةً
تَخْرُجُ مِنْ عَيْنِي، مِنْ أَعْظَمِ الْحُجَجِ فِي الْفَاصِلِ مِنْ صَاحِبِ
الْعَيْنِ إِلَى الْمَعِينِ، اسْتَطْرَادَ لُغَوِيًّا: وَيُقَالُ إِنَّ فُلَانًا لَعَيْونٌ:
إِذَا كَانَ يَتَشَوَّفُ لِلنَّاسِ لِيَصِيبَهُمْ بَعِينٌ، وَيُقَالُ عِنْتُ فُلَانًا
أَعَيْنَهُ عَيْنًا: إِذَا أَصَبَتْهُ بَعِينٌ، وَرَجُلٌ مَعِينٌ وَمَعْيُونٌ: إِذَا
أَصِيبَ بِالْعَيْنِ، وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

وَإِخَالُ أَنْكَ سَيِّدٌ
مَعْيُونٌ

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ
يَحْسِبُونَكَ سَيِّدًا

ويقال للعيون: إِنَّهُ لَنَفُوسٌ، وما أنفَسَه، أي ما أشدَّ عينه،
وقد أصابته نفس أو عين.

دفاع عن الكلب

وأما قول القائل: إِنَّ مِنْ لَوْمِ الكلبِ وغدرِه أَنَّ اللصَّ إذا أراد
دارَ أهله أطعمَ الكلبَ الذي يحرسهم قَبْلَ ذلك مِراراً ليلاً
ونهاراً، ودنا منه ومسح ظهره، حتى يُثبت صورته، فإذا
أتاه ليلاً أسلمَ إليه الدارَ بما فيها فإن هذا التأويل لا يكون إلا
من نتيجة سوء الرأي، فإنَّ سوءَ الرأي يصوِّر لأهله الباطلَ
في صورة الحقِّ، وفيه بعضُ الظلم للكلب وبعض المعاندة
للمحتج عن الكلب، وقد ثبت للكلب استحقاقُ المدح من حيث
أراد أن يهجوَه منه، فإن كان الكلبُ يفرطُ إلفه وشكره كفَّ
عن اللصِّ عندَ ذِكرِ إحسانه، وإثبات صورته، فما أكثرَ مَنْ
يُفرطُ عليه الحياءُ حتَّى ينسب إلى الضَّعف والكرم وحتَّى
ينسب إلى الغفلة، ورُبَّما شاب الرَّجُلُ بعضَ الفطنة ببعض
التَّغافل، ليكون أتمَّ لكرمه، فإنَّ الفطنة إذا تمَّت منعت من
أمور كثيرة، ما لم يكن الخيمُ كريماً والعرقُ سلهماً. وإنك
أيها المتأوِّل، حينَ تكلف الكلبَ مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصُّ
من اللطْف والإحسان أن يتذكَّرَ نعمةً سالفةً، وأن يحترس

من خديعة المحسن إليه، مخافة أن يكون يُريغُ بإكرامه
سوءاً لحسنُ الرأي فيه، بعيدُ الغاية في تفضيله، ولو كان
للكلب آلة يعرف بها عواقب الأمور وحوادث الدهور، وكان
يوازن بين عواجلها وأوجلها، وكان يعرف مصادرها
ومواردَها، ويختار أنقص الشرين وأتمَّ الخيرين، ويتثبت في
الأمور، ويخاف العيب ويأخذ بحجةٍ ويُعطي بحجةٍ، ويعرف
الحجة من الشبهة، والثقة من الريبة، ويتثبت في العلة،
ويخاف زيغ الهوى وسرف الطبيعة، لكان من كبار المكلفين
ومن رؤوس الممتحنين.

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العاقلين

والعادة القائمة، والنسق الذي لا يتخفى ولا يغادر، والنظام
الذي لا ينقطع ولا يختلط، في ذوي التمكين والاستطاعة،
وفي ذوي العقول والمعرفة، أن أبدانهم متى أحست بأصناف
المكروه والمحبوب، وازنوا وقابلوا، وعأيروا وميزوا بين
أتمَّ الخيرين وأنقص الشرين، ووصلوا كلَّ مضرّة ومنفعة
في العاجل بكلَّ مضرّة ومنفعة في الآجل وتتبعوا مواقعها،
وتدبّروا مساقطها، كما يتعرّفون مقاديرها وأوزانها،
واختاروا بعد ذلك أتمَّ الخيرين وأنقص الشرين، فأما الشر

صرفاً والخير محضاً فإنهم لا يتوقفون عندهما، ولا يتكفون
الموازنة بينهما، وإنما ينظرون في الممزوج وفي بعض ما
يخشى في معارضته، ولا يوثق بمعراه ومكشفه، فيحملونه
على خلاص الدهن، كما يحمل الذهب على الكير، وأما ذوات
الطباع المسخرة والغريزة المحبولة فإنما تعمل من جهة
التسخير والتنبية، كالسم الذي يقتل بالكمية ولا يغذو،
وكالغذاء الذي يغذو ويقتل بالمجاورة لمقدار الاحتمال، وإن
هي الله عز وجل أصناف الحيوان المسخرة لدرك ما لا تبلغه
العقول اللطيفة، بلغته بغير معاناة ولا روية ولا توقف، ولا
خوف من عاقبة، ومتى تقدمت إلى الأمور التي يعالجها
أهل العقول المبسوطة، المتمكنة بطبائعها، المقصورة غير
المبسوطة، لم يمكنها أن تعرف من تلك الطبيعة ما كان
موازياً لتلك الأمور ببديهة ولا فكرة، وإذا كانت كذلك فليس
بواجب أن تكون كلما أحسنت أمراً أمكنها أن تحسن ما كان
في وزنه في الغموض والإلطاف، وفي الصنعة التي لا
تمكن، إلا بحسن التأتّي ويبعد الروية، وبمقابلة الأمور
بعضها ببعض، وهذا الفن لا يُصاب إلا عند من جهته العقل،
ويمكنه الاستدلال، والكف عنه والقطع له إذا شاء، وإتمامه
إذا شاء، وبلوغ غايته، والانصراف عنه إلى عقيبته من

الأفعال، وَمَنْ جَهْتُهُ تَعَرَّفُ الْعِلْلَ، وَيُمْكِنُهُ إِكْرَاهُ نَفْسِهِ عَلَى
المقاييس والتكلف والتأني، ومتى كانت الآلة موجودةً فإنها
تُنبئك على مكانها، وإلا كان وجودها كعدمها، وبالْحَسِّ
الغريزي تُشعر صاحبها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقين
وإشارة، وإلى تعليم وتأديب، وإن كان صاحب الآلة أَحْمَقَ
من الحبارى، وأجهل من العقرب،

الإلهام في الحيوان

والعاقِلُ الممكِنُ لا يفضَلُ في هذا المكان على الأشياء
المسخرّة، ولا ينفصل منها في هذا الباب.
وليس عند البهائم والسباع إلا ما صنعت له، ونصبت عليه،
وألهمت معرفته وكيفية تكلف أسبابها والتعلم لها من تلقاء
أنفسها، فإذا أحسن العنكبوت نسج ثويّه وهو من أعجب
العجب، لم يحسن عمل بيت الزنبور، وإذا صنع النحل
خلياه مع عجيب القسمة التي فيها، لم يحسن أن يعمل مثل
بيت العنكبوت، والسُرْفَةُ التي يقال: أصنع من سُرْفَةٍ لا
تُحسن أن تبني مثل بيت الأَرْضَةِ، على جفاء هذا العمل
وغلظه، ودقة ذلك العمل ولطافته، وليس كذلك العاقِلُ
وصاحب التمييز، وَمَنْ مَلَكَ التصرّفَ، وَخُوِّلَ الاستطاعةَ،

لأنه يكون ليس بنجار فيتعلم النجارة، ثم يبدو له بعد الحذق الانتقال إلى الفلاحة، ثم ربما ملها بعد أن حذقها، وصار إلى التجارة.

أسمح من لافظة

وقال صاحب الكلب: وزعمت أن قولهم أسمح من لافظة أن اللافظة الديك، لأنه يعضُّ على الحبة بطرفي منقاره، ثم يحذف بها قدام الدجاجة، وما رأينا أحداً من العلماء ومن الذين رَووا هذا المثل يقول ذلك، والناس في هذا المثل رجلان: زعم أحدهما أن اللافظة العنز؛ لأن العنز ترعى في روضةٍ وتأكل من مَعْلَفها وهي جائعة، فيدعوها الراعي وصاحبها باسمها إلى الحلب، فتترك ما هي فيه حتى تُنْهَك حلباً، وقال الآخر: اللافظة الرَّحَى، لأنها لا تمسك في جوفها شيئاً مما صار في بطنها، وكيف تكون اللافظة الديك وليس لنا أن نلحق في هذه الكلمة تاء التانيث في الأسماء المدكَّرة، واللافظة مع هاء التانيث أشبه بالعنز والرَّحَى، وإنما سمينا الجمل راويةً، وحامل العلم راويةً، وعلامةً، حين احتجَّ أهل اللغة على ذلك ولم يختلفوا فيه، وكيف ولا اختلاف بينهم أن الديك خارج من هذا التأويل، وإن اختلافهم

بين العُزْرِ والرَّحَى، وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس رحمه
الله تعالى: أَنَّ دِيكَةَ مَرَوْ تَطْرُدُ الدَّجَاجَ عَنِ الحَبِّ، وَتَنْزِعُ
الحَبَّ مِنْ أَفْوَاهِ الدَّجَاجِ، وَقَالَ صَاحِبُ الدِّيَكِ: قَوْلُهُمْ: أَسْمَحُ
مِنْ لَافِظَةِ لَا يَلِيْقُ بِالرَّحَى، لِأَنَّ الرَّحَى صَخْرَةٌ صَمَاءٌ،
وَالَّذِي يُخْرِجُ مَا فِي بَطْنِهَا المُدِيرُ لَهَا، وَالعَرَبُ إِنَّمَا تَمْدَحُ
بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ الإِنْسَانَ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ فِي الوُجُوهِ الكَثِيرَةِ،
لِيَكُونَ ذَلِكَ مَشْحَدَةً لِلأَذْهَانِ، وَدَاعِيَةً إِلَى السَّبَاقِ وَبَلُوغِ
الغَايَاتِ وَأَمَّا تَرْكُ الشَّاةِ لِلعَلْفِ فَلَيْسَ بِلَفْظِ اللِّعْفِ، إِلاَّ أَنْ
يَحْمَلُوا ذَلِكَ عَلَى المَجَازَاتِ البَعِيدَةِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ
بَعْضِ الضَّرُورَةِ، وَالشَّاةُ تَرْضَعُ مِنْ خَلْفِهَا حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى
أَقْصَى لَبَنِ فِي ضَرْعِهَا، وَتَنْثُرُ العَلْفَ، وَتَقْلِبُ المِحْلَبَ،
وَتَنْطَحُ مِنْ قَامِ عَلَيْهَا وَأَتَاهَا بَغْدَائِهَا، وَهِيَ مِنْ أَمْوَقِ
البَهَائِمِ، وَزَوْجُهَا شَتِيمُ المَحْيِ، مِنْتِنُ الرِّيحِ، يَبُولُ فِي جَوْفِ
فِيهِ وَفِي حَاقِّ خِيَاشِيمِهِ، وَتَقُولُ العَرَبُ: مَا هُوَ إِلاَّ تَيْسٌ فِي
سَفِينَةٍ، إِذَا أَرَادُوا بِهِ العَبَاوَةَ وَمَا هُوَ إِلاَّ تَيْسٌ، إِذَا أَرَادُوا بِهِ
نَتْنُ الرِّيحِ، وَالعُزْرُ خَرَقَاءٌ، وَأَبُوهَا وَهُوَ التَّيْسُ أُخْرَقَ مِنْهَا،
وَأَمْرُ الدِّيَكِ وَشَأْنُهُ، وَكَيْفَ يَلْفِظُ مَا قَدْ صَارَ فِي مَنقَارِهِ،
وَكَيفَ يُؤَثِّرُ بِهِ طُرُوقَتَهُ مِنْ دَاتِ نَفْسِهِ شَيْءٌ يَرَاهُ النَّاسُ،
وَيَرَاهُ جَمِيعُ العِبَادِ، وَهَذِهِ المَكْرَمَةُ، وَهَذَا العُزْلُ، وَهَذَا

الإيثار، شيء يراه الناس لم يكن في ذكرٍ قطٍّ ممَّن يزواج إلاَّ
الديك، والديكُ أحقُّ بهذا المثل، فإن كنتم قد صدقتم على
العرب في تأويل هذا المثل فهذا غلطٌ من العرب وعصبيةٌ
للبن، وعشقٌ للدقيق، والمثلُ إنما يلفظ به رجلٌ من
الأعراب، وليس الأعرابيُّ بقُدوةٍ إلاَّ في الجرِّ والنصب
والرفع وفي الأسماء، وأمَّا غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب
فالديكُ أحقُّ بهذا المثل الذي ذكرنا، وسائر خصاله الشريفة،
والذي يدلُّ على أنَّ هذا الفعلُ في الديك، إنما هو من جهة
الغزل لا غير، أنه لا يفعلُ ذلك إذا هرم وعجز عن السِّفاد،
وانصرفت رغبته عنهنَّ وهو في أيام شبابه أنهم وأحرص
على المأكول، وأضنَّ على الحبِّ، فما له لم يُؤثرهنَّ به عند
زهده، ويُؤثرهنَّ عند رغبته؟ وما باله لم يفعل ذلك وهو
فروج صغير، وصنع ذلك حين أطاق السِّفاد؟ فتركه لذلك
في العجز عنهنَّ، وبذله في أوقات القوة عليهنَّ دليل على
الذي قلنا، وهذا بيِّن لا يردُّه إلاَّ جاهل أو معاند.

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب: لسنا نُنكر خِصالَ الديك ومناقبه من
الأخبارِ المحمودة، ولولا ذلك ما ميَّنا بينه وبين الكلب،

وَمَنْ يَمِيلُ بَيْنَ الْعَسَلِ وَالْخَلِّ فِي وَجْهِ الْحَلَاوَةِ وَالْحَمُوضَةِ؟
وكيف يفضل شيءٌ على شيءٍ وليس في المفضول شيءٌ
من الفضل؟ والذي قُلْتُمْ من قُدِّحِهِ الْحَبِّ قُدَّامَ الدَّجَاجِ صَحِيحٌ،
وليس هذا الذي أَنْكَرْنَا، وَإِنَّمَا أَنْكَرْنَا مَوْضِعَ الْمِثْلِ الَّذِي
صَرَفْتُمُوهُ إِلَى حَجَّتِكُمْ، وَتَرَكْتُمْ الَّذِينَ مَا زَالَ النَّاسُ يَقْلُدُونَهُمْ
فِي الشَّاهِدِ وَالْمِثْلِ، وَإِنْ جَازَ لَكُمْ أَنْ تَرْتَدُّوا عَلَيْهِمْ هَذَا الْمِثْلَ
جَازَ لِكُلِّ مَنْ كَرِهَ مِثْلًا أَوْ شَاهِدًا أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ كَمَا رَدَدْتُمْ،
وَفِي ذَلِكَ إِفْسَادُ أَمْرِ الْعَرَبِ كُلِّهِ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ الدِّيكَ، كَانَ
أَحَقَّ بِهِ، فَخُصُومُكَ كَثِيرٌ وَلِسْنَا نَحِيظُ بِأَوَائِلِ كَلَامِهِمْ، عَلَى
أَيِّ مَقَادِيرَ كَانُوا يَضْعُونَهَا، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ اشْتَقُّوْهَا، وَكَيْفَ
كَانَ السَّبَبُ، وَرُبَّ شَيْءٍ أَنْكَرْنَاهُ فَإِذَا عَرَفْنَا سَبَبَهُ أَقْرَرْنَا بِهِ،
وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ: مَرَّ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بِدِيكٍ يَنْقُرُ حَبًّا وَلَا
يَفْرُقُهُ، فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا هَرِمًا، فَإِنَّ الْهَرِمَ إِذَا أُلْقِيَ
لَهُ الْحَبُّ لَمْ يَفْرُقُهُ لِيَجْتَمَعَ الدَّجَاجُ حَوْلَهُ، وَالْهَرِمُ قَدْ فَنِيَتْ
رَغْبَتُهُ فِيهِنَّ، فَلَيْسَ هَمَّهُ إِلَّا نَفْسَهُ.

وروا عنه أنه قال: اللافظة الديك الشابُّ، وإنه يأخذ
الحبة يؤثر بها الدجاج، والهرم لا يفعل ذلك، وإنما هو
لافظةٌ مادام شابًا، وقال صاحب الكلب: وذكر ابن سيرين
عن أبي هريرة: أن كلباً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهثُ عند بئرٍ،

فنزعت حُقْفَهَا فسقته، فَعَفَرَ اللهُ تعالى لها، وعنه قال: غفر
 اللهُ لِبَغْيِي ٍ أو لمؤمنة مرَّ بها كلبٌ فنزعت حُقْفَهَا فسقته،
 وقال صاحب الكلب: وقال ابن دَاحَةَ: ضرب ناسٌ من
 السُّلْطَاءِ جَاراً لهم، ولَبَّبُوهُ وسحبوه وجرُّوه،، وله كلبٌ قد
 ربَّاه، فلم يزل ينبُحُ عليهم ويشقُّ ثيابهم، ولولا أن
 المضروبَ المسحوبَ لكان يكفه ويزجره، لقد كان عقر
 بعضهم أو منعه منهم. قال إبراهيم النَّظَّام: قدَّمتم السَّنُورَ
 على الكلب، ورويتم أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم أمرَ بقتل
 الكلابِ واستحياءِ السنانيرِ وتقريبها وتربيتها، كقوله عند
 مسألته عنها: إِنَّهُنَّ مِنَ الطَّوَافَاتِ عَلَيْكُمْ، وكلُّ منفعةٍ عند
 السَّنُورِ إنما هي أكلُ الفأرِ فقط، وعلى أنكم قلما تجدون
 سنوراً يطلبُ الفأرَ، فإن كان مما يطلبُ ويأكلُ الفأرَ، لم
 يعدمكم أن يأكلَ حَمَامَكُمْ وفِرَاخَكُمْ والعصافيرَ التي يتلَهَّى بها
 أولادُكُمْ، والطائرَ يَتَّخِذُ لِحُسْنِهِ وحُسْنِ صَوْتِهِ، والذي لا بُدَّ
 منه الوثوبُ على صغارِ الفَرَارِيحِ، فإن هو عَفَّ عن أموالكم
 لم يَعمَفَ عن أموال جيرانكم، ومنافع الكلب لا يحصيها
 الطَّواميرُ، والسَّنُورُ مع ذلك يأكلُ الأوزاعَ والعقاربَ،
 والخنافيسَ، وبناتِ وِرْدَانَ، والحياتِ، ودخالاتِ الآذانِ والفأرِ
 والجُرذَانِ، وكلَّ خبيثةٍ وكلَّ ذاتِ سَمٍّ، وكلَّ شيءٍ تعافه

النفس، ثم قلتم في سور السنور وسور الكلب ما قلتم، ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم. أطيّب البهائم أفواها ولا يشكُّ الناس أن ليس في السباع أطيّب أفواهاً من الكلاب، وكذلك كلُّ إنسانٍ سائلِ الريقِ سائلِ اللعاب، والخُلوْف لا يعرض للمجانين الذين تسيلُ أفواههم، ومن كان لا يعتريه الخُلوْف فهو من البخرِ أبعدُ، وكما أن طولَ انطباقِ الفم يُورث الخُلوْف، فكثرةُ تحلُبِ الأفواه بالريق تنفي الخُلوْف، وحتى إن من سال فوه من اللعاب فإنما قضا له بالسلامة من فيه، وإن استنكّهوه مع أشباهه وجدّوه طيباً، وإن كان لا يقربُ سواكاً على الريق، وكذلك يقال، إن أطيّب الناس أفواهاً الزنج، وإن كانت لا تعرفُ سنوناً ولا سواكاً.

على أن الكلب سُبُع، وسباع الطيرِ وذوات الأربع موصوفةٌ بالبخر، والذي يضرب به في ذلك المثل الأسد، وقد ذكره الحكم بن عبدل في هجائه محمد بن حسان فقال:

شتيم شابك الأنياب
وردي

فنعته كنعته
أخدري

وقال بشار:

وأفسَى من
الظَّربانِ في ليلةِ
الكرى

وأخلف من صقر
وإن كان قد طعم

يهجو بها حمادَ عَجْرَدَ، ويقال: ليس في البهائم أطيبُ أفواهاً
من الظباء.

رضيْعٌ مُلْهم

وزعم علماء البصريين، وذكر أبو عبيدة النحوي، وأبو
اليقظان سحيم بن حفص، وأبو الحسن المدائني، وذكر ذلك
عن محمد بن حفص عن مسلمة بن محارب، وهو حديثٌ
مشهورٌ في مشيخة أصحابنا من البصريين، أن طاعوناً
جارفاً جاء على أهل دار، فلم يشكَّ أهلُ تلكِ المحلَّةِ أنه لم
يَبْقَ فيها صَغِيرٌ ولا كبير، وقد كان فيها صَبِيٌّ يرتضع،
ويحبو ولا يقوم على رجلية، فعمد من بقي من المطعونين
من أهل تلكِ المحلَّةِ إلى باب تلكِ الدار فسدَّه، فلما كان بعد
ذلك بأشهرٍ تحوَّل فيها بعضُ ورثةِ القوم، ففتح الباب، فلما
أفضى إلى عَرِصَةِ الدار إذا هو بصَبِيٍّ يلعبُ مع أجراءِ كلبَةٍ،
وقد كانت لأهل الدار، فراعَهُ ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبَةٌ
كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبيُّ حبا إليها، فأمكنته من

أطبائها فمصّها، فَظَنُّوا أَنَّ الصَّبِيَّ لَمَّا بَقِيَ فِي الدَّارِ وَصَارَ
مَنَسِيًّا وَاشْتَدَّ جَوْعُهُ، وَرَأَى أَجْرَاءَهَا تَسْتَقِي مِنْ أَطْبَائِهَا،
حَبَا إِلَيْهَا فَعَطَفَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَقَتْهُ مَرَّةً أَدَامَتْ ذَلِكَ لَهُ، وَأَدَامَ
هُوَ الطَّب.

وَالَّذِي أَلْهَمَ هَذَا الْمَوْلُودَ مَصَّ إِبْهَامِهِ سَاعَةً يُوَلَّدُ مِنْ بَطْنِ
أُمِّهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفِيَّةَ الْارْتِضَاعِ، هُوَ الَّذِي هَدَاهُ إِلَى
الْارْتِضَاعِ مِنْ أَطْبَاءِ الْكَلْبَةِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْهَدَايَةُ شَيْئًا مَجْعُولًا
فِي طَبِيعَتِهِ، لَمَّا مَصَّ الْإِبْهَامَ وَحَلَمَةَ النَّدْيِ، فَلَمَّا أَفْرَطَ
عَلَيْهِ الْجَوْعُ وَاشْتَدَّتْ حَالُهُ، وَطَلَبَتْ نَفْسُهُ وَتَلَّتْ الطَّبِيعَةُ فِيهِ،
دَعَتْهُ تِلْكَ الطَّبِيعَةُ وَتِلْكَ الْمَعْرِفَةُ إِلَى الطَّبِّ وَالذَّنْوِ، فَسَبَحَانَ
مَنْ دَبَّرَ هَذَا وَأَلْهَمَهُ وَسَوَّاهُ وَدَلَّ عَلَيْهِ إِبْهَامَ الْحَمَامِ وَمِثْلُ
هَذَا الْحَدِيثِ مَا خُبِّرَ بِهِ عَنْ بَابُوِيهِ صَاحِبِ الْحَمَامِ، وَلَوْ
سَمِعْتَ قِصَصَهُ فِي كِتَابِ النُّصُوصِ، عَلِمْتَ أَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ
الْكَذْبِ وَالتَّزْيِيدِ، وَقَدْ رَأَيْتَهُ وَجَالَسْتَهُ وَلَمْ أَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ
مِنْهُ، وَلَكِنْ حَدَّثَنِي بِهِ شَيْخٌ مِنْ مَشَايخِ الْبَصْرَةِ، وَمِنْ النُّزُولِ
بِحَضْرَةِ مَسْجِدِ مُحَمَّدِ بْنِ رَغْبَانَ، وَقَالَ بَابُوِيهِ: كَانَ عِنْدِي
زَوْجٌ حَمَامٌ مَقْصُوصٌ، وَزَوْجٌ حَمَامٌ طَيَّارٌ، وَفَرَخَانٌ مِنْ فَرَاخِ
الزَّوْجِ الطَّيَّارِ، قَالَ: وَكَانَ فِي الْغُرْفَةِ ثَقْبٌ فِي أَعْلَاهَا وَقَدْ
كَانَتْ جَعَلَتْ قُدَّامَ الْكُوَّةِ رَفًّا لِيَكُونَ مَسْقُطًا لَمَّا يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ

من الحمام، فتقدّمتُ في ذلك مخافةً أن يعرض لي عارضٌ
فلا يكون للطَّيَّار منفذٌ للتكسُّب ولورود الماء، فبينما أنا كذلك
إذ جاءني رسولُ السلطان، فوضَّعني في الحبس، فنسيت
قدْر الزَّوج الطَّيَّار والفرخين، وما لهما من الثمن، وما فيهما
من الكرم، ومثُّ من رَحمةِ الزَّوجِ المقصوص، وشغلني
الاهتمامُ بهما عن كثير مما أنا فيه، فقلت: أمَّا الزَّوجُ الطَّيَّارُ
فإنَّهما يخرجان ويرجعان ويَزُقَّان، ولعلَّهما أن يَسْلَمَا
ولعلَّهما أن يذهبا وقد كنتُ ربَّيتهما حتى تحصَّنا وورِّدنا فإذا
شبَّ الفرخان ونهضا مع أبويهما، وسقطا على المعلاة، فإمَّا
أن يثبَّتا وإمَّا أن يذهبا، ولكنَّ كيف يكونُ حالُ المقصوصين،
ومن أسوأ حالاً منهما؟ فخلِّي سبيلي بَعْدَ شهر، فلم يكن لي
همٌّ إلا النَّظَرُ إلى ما خلفت خلفي من الحمام، وإذا الفرخان
قد ثبَّتا وإذا الزَّوجانِ قد ثبَّتا، وإذا الزَّوجانِ الطَّيَّارانِ ثبَّتا
على حالهما، إلا أنني رأيتهما زاقَّين، إذ علامةُ ذلك في
موضعِ الغَبِّ، وفي القرطمتين، وفي أصولِ المناقير، وفي
عيونهما، فقلت: فكيف يكونان زاقَّين مع استغناء فرخيها
عنهما؟ ولا أشكُّ في موت المقصوصين، ثمَّ دخلتُ الغرفةَ
فإذا هما على أفضلِ حال، فاشتدَّ تعجُّبي من ذلك، فلم ألْبَثُ
أن دنوا إلى أفواه الزَّوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرخ

في طلب الزَّقِّ، ورأيتهما حين زَقَّاهما، فإذا هما لما اشتدَّ
جوُعُهما، وكانا يريانها يزقان الفرخين ويريان الفرخين
كيف يستطعمان ويستزقان، حملهما الجوع وحبُّ العيش،
وتلَّهَّبُ العطش، وما في طبيعتهما من الهداية، على أن طلبا
ما يطلب الفرخ، فزَقَّاهما ثم صار الزَّقُّ عادةً في الطيَّار،
والاستطعامُ عادةً في المقصوص.

من عجائب الحمام ومن الحمام حمامٌ يزُقُّ فراخه ولا يزُقُّ
شيئاً من فراخ غيره، وإن دنا منه مع فراخه فرخٌ من فراخ
غيره، وشاكل فرخيه في السنِّ واللون طردهما ولم يزقَّهما،
ومن الحمام ما يزُقُّ كلَّ فرخٍ دنا منه، كما أن من الحمام
حماماً لا يزُقُّ فراخه البتَّةَ حتَّى يموت، وإنما تعظم البليَّةُ
على الفرخ إذا كان الأب هو الذي لا يزُقُّ، لأنَّ الولادةَ
وعامَّةَ الحضنِّ والكفل على الأمِّ، فإذا ظهر الولد فعامَّةُ الزَّقِّ
على الأب، كأنه صاحب العيال والكاسب عليهم، وكالأم التي
تلد وترضع.

الطائر العجيب: كاسر العظام وأعجب من هذا، الطائر الذي
يقال له كاسر العظام، فإنه يبلغ من برِّ الفراخ كلَّها بعد القيامِ
بشأن فراخ نفسه، أنه يتعاهد فرخ العقب الثالث، الذي
تخرجه من عَشَّها، لأنها أشْرهُ وأرْعَبُ بطناً، وأقسى قلباً

وأسوأ خُلُقاً مِنْ أَنْ تَحْتَمِلَ إِطْعَامَ ثَلَاثَةِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعَةُ
الْجَزَعِ، فَتَخْرُجُ مَا فَضَلَ عَنْ فَرَخَيْنِ، فَإِذَا أَخْرَجْتَهُ قَبْلَهُ كَاسِرُ
الْعِظَامِ وَأَطْعَمَهُ، لِأَنَّ الْعُقَابَ مِنَ اللَّائِي تَبْيِضُ ثَلَاثَ بَيِّضَاتٍ
فِي أَكْثَرِ حَالَاتِهَا.

دفاع أسدي عن أكل قومه لحوم الكلاب قال: وَعُيِّرَ رَجُلٌ مِنْ
بَنِي أَسَدٍ بِأَكْلِ لَحُومِ الْكِلَابِ، وَذَهَبَ إِلَى قَوْلِهِ:

يَا فِقْعَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ لِمَهُ

لَوْ خَافَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرَمَهُ

فَمَا أَكَلْتَ لَحْمَهُ وَلَا دَمَهُ

قال: فقال الأعرابي: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّدَّةَ وَالشَّجَاعَةَ،
وَالْبَأْسَ وَالْقُوَّةَ مِنَ الْحَيَوَانِ، فِي ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: الْعُقَابُ فِي
الْهَوَاءِ، وَالتَّمْسَاحُ فِي سَاكِنِ الْمَاءِ، وَالْأَسَدُ فِي سَاكِنِ
الْغِيَاضِ، وَليْسَ فِي الْأَرْضِ لَحْمٌ أَشْهَى إِلَى التَّمْسَاحِ وَلَا إِلَى
الْأَسَدِ مِنْ لَحْمِ الْكَلْبِ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَعُدُّوهُ عُدُّوَا لَهُمَا، فَإِنَّهُمَا
يَأْكُلَانِهِ مِنْ طَرِيقِ الْغَيْظِ وَطَلَبِ الثَّأْرِ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَقُولُوا
غَيْرَ ذَلِكَ.

الطبيعة الأَسَدِيَّةُ فِي بَنِي الْأَسَدِ وَبَنُو أَسَدٍ أَسَدُ الْغِيَاضِ،

وأشبهه شيء بالأسد، فلذلك تشتهي من اللحمان أشهاها إلى
الأسد، والدليل على أنهم أسد، وفي طباع الأسد، أنك لو
أحصيت جميع القتلى من سادات العرب ومن فرسانهم،
لوجدت شطرها أو قريباً من شطرها لبني أسد.

أنفة الكلب

قالوا: ثم بعد ذلك كله أن الكلب لا يرضى بالنوم والرُبوض
على بياض الطريق، وعلى غفر التراب، وهو يرى ظُهر
البساط، ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة، ولا يرضى
بالمطرح دون مرافق المطرح فمن نُبله في نفسه أن يتخير
أبداً أنبل موضع في المجلس، وحيث يدعه ربُّ المجلس
صيانه له وإبقاء عليه إلا أن يتصدّر فيه من لا يجوز إلا أن
يكون صدراً، فلا يقصر الكلب دون أن يرقى عليه، وقد كان
في حُجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك إياه
بالسيف، أنه أبصر كلباً على منبره.

هذا على ما طبع عليه من إكرام الرَّجُل الجميل اللباس، حتى
لا ينبح عليه إن دنا من باب أهله، مع الوثوب على كل
أسود، وعلى كل رث الهيئة، وعلى كل سفیه تشبه حاله
حال أهل الرّيبة، ومن كبره وشدة تجبره، وفرط حميته

وأنفته واحتقاره، أنه متى نبح على رجلٍ في الليل، ولم
يمنعه حارسٌ ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند الرجل أنه لا
ينجيه منه إلا أن يقعد بين يديه مستخزياً مستسلماً، وأنه إذا
رآه في تلك الحال دنا منه فشغَرَ عليه؛ ولم يهجه، كأنه حينَ
ظفر به، ورآه تحت قدرته، رأى أن يسمه بميسمٍ ذلٍّ، كما
كانت العربُ تجزُّ نواصي الأسرى من الفُرسان، إذا رامت
أن تخلِّي سبيلها وتمنَّ عليها، ولو كفَّ العربيُّ عن جزِّ
ناصيته، لوسمه الأسيرُ من الشعر والقوافي الخالداتِ
البواقِي، التي هي أبقى من الميسم، بما هو أضرُّ عليه من
جزِّ ناصيته، ولعلُّه لا يبلغُ أهله حتى تستوي مع سائر شعرِ
رأسه، ولكنَّ ذلَّ الجزِّ لا يزال يلوح في وجهه، ولا يزال له
أثرٌ في قلبه.

تقدير مطرف للكلب

وذكر أن مُطَرِّف بن عبد الله كان يكره أن يقال للكلب اخساً،
وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان
أربابه لا يمنعونه من دخول مُصَلَّاه، قال: اللهم امنعهم بركة
صيده دليل على حسنِ رأيه فيه.
من أقوال المسيح عليه السلام قالوا: ومراً المسيح بن مريم

في الحَوَارِيِّينَ بِحِيْفَةِ كَلْبٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أَشَدَّ نَتْنَ رِيحِهِ
قَالَ: فَهَلَّا قَلْتِ: مَا أَشَدَّ بِيَاضَ أَسْنَانِهِ. قَالُوا: وَقَالَ رَجُلٌ
لِكَلْبٍ: اخْسَأْ، وَيْلَكَ فَقَالَ هَمَّامُ بْنُ الْحَارِثِ: الْوَيْلُ لِأَهْلِ النَّارِ.

هراش الكلاب

والهراش الذي يجري بينها وهو شرٌّ، يكون بين جميع
الأجناس المتَّفِقَةِ، كالبرذون والبرذون، والبعير والبعير،
والحمار والحمار، وكذلك جميع الأجناس، فأما الذي يفرط
ويتمُّ ذلك فيه، ويتمتع ناس من الناس، ويقع فيه القمار،
ويتخذ لذلك، وينفق عليه، ويُغالي به، فالكلب والكلب،
والكباش والكباش، والديك والديك، والسُّمَانِي والسُّمَانِي،
التحريش بين الجرذان فأما الجرذ فإنه لا يقاتل الجرذ حتى
يشدَّ رجل أحدهما في طرف خيط، ويشدَّ الجرذ الآخر
بالطرف الآخر، ويكون بينهما من المساواة والالتقاء،
والعضّ والخمش، وإراقة الدَّمِ وفَرْي الجلود، ما لا يكون
بين شيئين من الأنواع التي يُهَارَشُ بها. والذي يحدث
للجرذان طبيعة القتال، الرِّبَاطُ نَفْسُهُ، فَإِنْ انْقَطَعَ الْخِيْطُ
وَانْحَلَّ الْعَقْدُ، أَخَذَ هَذَا شَرْقًا وَهَذَا غَرْبًا، وَلَمْ يَلْتَقِيَا أَبَدًا، وَإِذَا
تَقَابَلَتَا جِحْرَةَ الْفَأْرِ، وَخَلَا لَهَا الْمَوْضِعُ، فَبَيْنَهَا شَرٌّ طَوِيلٌ،

ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب، ولا يلتقي منهما اثنان أبداً.
قصة ثمامة فيما شاهده من الفأر وحدثني ثمامة بن أشرس
قال: كان بقي في الحبس جحر فأر، وتلقاه جحر آخر،
فیری لكل واحدٍ منهما وعيداً وصياحاً ووثوباً، حتى يُظنَّ
أنَّهُما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتى يقتل كل واحدٍ منهما
صاحبَه، فبينما كل واحدٍ منهما في غاية الوعيد، إذ مرَّ هارباً
حتى دخل جحره، فما زال كذلك، حتى أتى الله تعالى بالفرج
وخلى سبيلي.

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

وزعم أن السلوقيَّة الطويلة المناخر أجود شمّاً، والشمُّ
العجيب والحسُّ اللطيف من ذلك، إلا أن ذلك في طلب الذكور
للإناث والإناث للذكور خاصة، وأمّا شمُّ المأكول، واسترواحُ
الطعم، فللسباع في ذلك ما ليس لغيرها، وإنَّ الفأر ليشمُّ،
وإنَّ الدَّر والنمل ليشمُّ، وإنَّ السنانير لتشمُّ، وكذلك الكلب،
وله في ذلك فضيلة، ولا يبلغ ما يبلغ الذئب وقال أعرابي:

صَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ
مِنْ ذُنَابِهَا

كَانَ أَبُو الصَّحِيمِ مِنْ
أَرْبَابِهَا

أُطْلِسَ لَا يَنْحَاشُ مِنْ
كَلَابِهَا

يَلْتَهُمُ الطَّائِرَ فِي
دَهَابِهَا

فِي الْجَرِيَةِ الْأُولَى
فَلَا مَشَى بِهَا

أَلَا تَرَاهُ يَجْتَهِدُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا بِذَنْبٍ لَا يَنْحَاشُ مِنَ الْكَلَابِ.

بَاب مَا يُشَبَّه بِالْكَلْبِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْهُ

وَإِذَا جَرَى الْفَرَسَ الْمَحْجَّلَ شَبَّهُوا قَوَائِمَهُ بِقَوَائِمِ الْكَلْبِ إِذَا
ارْتَفَعَتْ فِي بَطْنِهِ، فَيَصِيرُ تَحْجِيلُهَا كَأَنَّهُ أَكْلَبٌ صَغَارٌ تَعْدُو،
كَمَا قَالَ الْعُمَانِيُّ:

كَأَنَّ تَحْتَ الْبَطْنِ
مِنْهُ أَكْلَبًا

بِيضًا صِغَارًا
يَنْتَهَشُنَ الْمَنْقَبَا

وَقَالَ الْبَدْرِيُّ:

كَأَنَّ أَجْرَاءَ كَلَابٍ
بِيضٍ

دُونَ صِفَاقِيهِ إِلَى
التَّغْرِيبِ

وَقَالَ الْآخَرُ:

دون صِفاقِيه إذا ما
ضَبَعَا

كَأَنَّ قِطًّا أَوْ كِلَابًا
أَرْبَعَا

ويصفون الطَّنَعِ أَوَّلَ ما يبدو صغارا بآذانِ الكلابِ البِيضِ،
وقال في ذلك الرَّاجِزُ:

يَخْرِجُ بَعْدَ النَّجْمِ
والتَّبَعِيضِ

أَنْعَتُ جُمَارًا عَلَيَّ
سَحِيضِ

طَلَعًا كَأَذَانِ الكِلَابِ
البِيضِ

ويُوصَفُ صَوْتُ الشَّخْبِ في الإِنَاءِ بِهَرِيرِ هِرَاشِ الكِلَابِ، قال
أعرابيٌّ:

جَرَوْا كِلَابِ هُورِشَا
فَهَرَا

كَأَنَّ خَلْفِيهَا إِذَا مَا
هَرَا

وقال الآخرُ:

بَيْنَ الأَبَاهِيمِ وَبَيْنِ

كَأَنَّ صَوْتَ شَخْبِهَا

المسحُفِر

الخِئَصِرِ

هَرَّاشٌ أَجْرَاءٍ وَلَمَّا
تُتْعِرِ

وقال أبو ذؤاد:

طويل طامح الطرفِ

إلى وهوهة الكلب.

جواب صبي

وزعم الهيثم بن عدي قال: كان رجل يُسمَّى كلباً، وكان له
بُنَيٌّ يلعبُ في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن مَنْ؟ فقال: ابن
وَوُ وَوُ وَوُ

ما يستحبُّ في ذنب كلب الصيد

ويحبُّون أن يكون ذنب الكلبِ الصَّائِدِ يابساً، ليس له من
اللحم قليل ولا كثير، ولذلك قال:

تلوي بذيئابِ قلياتِ اللَّحَا

وقال الشاعر:

كالغابط الكلب يبغي
الطَّرَقَ في الذَّنْبِ

إني وطلبَ ابنِ
غلاقٍ ليقريني

الطَّرَقُ: الشحم اليسير، يقال: ليس به طَّرَقٌ.

طيب لحم أجراء الكلاب

ويقال: ليس في الأرض فَرُخٌ ولا جَرُوقٌ ولا شيءٌ من
الحيوان أسمنٌ ولا أرطبٌ ولا أطيّبٌ من أجراء الكلب، وهي
أشبهُ شيءٍ بالحمام، فإنَّ فِرَاحَ الحمام أسمنٌ شيءٌ مادامت
صغاراً من غير أن تسمنَ، فإذا بلغتْ لم تقبلِ الشحم، وكذلك
أولادُ الكلاب. وقال الآخر:

لَوْ هَوَّهَ رَذِمُ
الْخَيْشُومِ
هَرَّارِ

وأغضفِ الأذن طاوي
البطنِ مُضْطَمِرِ

الأصمعيّ قال: قال أعرابيٌّ: أصابتنا سنةٌ شديدة، ثم أعقبتهَا
سنةٌ تتابعٌ فيها الأمطارُ فسمِنَتِ الماشية، وكثرتِ الألبانُ
والأسمانُ، فسمِنَ وُلدانُ الحيِّ، حتَّى كأنَّ استَ أحدهم جرو
يتمطى.

طلب أبي دلامة أبو الحسن قال: قال أبو العباس أميرُ

المؤمنين لأبي دلامة: سَلْ قال: كلباً، قال: ويلك ما تصنع بالكلب؟ قال: قلت أصيدُ به، قال: فلك كلب، قال: ودابَّةً، قال: ودابَّة، قال: وغلاماً يركب الدابة ويصيد، قال: وغلاماً، قال: وجارية، قال: وجارية، قال: يا أمير المؤمنين كلبٌ وغلامٌ وجارية ودابَّة، هؤلاء عيال، ولا بدَّ من دار، قال: ودار، قال: ولا بدَّ لهؤلاء من غلَّةٍ ضيعة، قال: أقطعناك مائةً جريبٍ عامرةً ومائةً جريبٍ عامرة، قال: وأيُّ شيء الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات، قال: أنا أقطعك خمسمائةً جريب من فيافي بني أسدٍ عامرةً، قال: قد جعلنا لك المائتين عامرتين كُلِّها، ثمَّ قال: أبقِيَ لك شيء؟ قال: نعم، أقبَل يدك، قال: أمَّا هذه فدعها، قال: ما منعت عيالي شيئاً أهون عليهم فقدأ منه؟ .

علمه حيلة فوقع في أسرها

أبو الحسن عن أبي مريم قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدَّين حتَّى توارى من غرمانه، ولزم منزله، فأتاه غريم له عليه شيءٌ يسير، فتلطفَ حتَّى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إنَّ أنا دالتك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهورِ والسَّلامةِ من غرمانك؟ قال: أقضيك حقَّك، وأزيدك

مَمَّا عِنْدِي مَمَّا تَقْرُؤُ بِهِ عَيْنِكَ، فَتَوَثَّقُ مِنْهُ بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ لَهُ:
إِذَا كَانَ غَدًا قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرُّ خَادِمِكَ يَكْنُسُ بِأَبْكَ وَفِنَاءَكَ
وَيُرِشُّ، وَيَبْسُطُ عَلَى دَعَانِكَ حُصْرًا، وَيَضَعُ لَكَ مَتَكًا، ثُمَّ أَمْهَلْ
حَتَّى تَصْبِحَ وَيَمُرَّ النَّاسُ، ثُمَّ تَجْلِسْ، وَكُلْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْكَ
وَيَسَلِّمُ انْبِحْ لَهُ فِي وَجْهِهِ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى النَّبَاحِ أَحَدًا كَائِنًا
مَنْ كَانَ، وَمَنْ كَلَّمَكَ مِنْ أَهْلِكَ أَوْ خَدَمِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوْ
غَرِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الْوَالِي فَإِذَا كَلَّمَكَ فَانْبِحْ لَهُ،
وَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيدَهُ أَوْ غَيْرَهُ عَلَى النَّبَاحِ؛ فَإِنَّ الْوَالِيَّ إِذَا أُيُونَنَّ أَنَّ
ذَلِكَ مِنْكَ جِدُّ لَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَكَ عَارِضٌ مِنْ مَسٍّ
فِيخْلِي عَنكَ، وَلَا يَغْرِي عَلَيْكَ، قَالَ: ففَعَلَ، فَمَرَّ بِهِ بَعْضُ
جِيرَانِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَانْبَحَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَرَّ آخِرُ ففَعَلَ مِثْلَ
ذَلِكَ، حَتَّى تَسَامِعَ غَرْمَاؤَهُ فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْهُ
عَلَى النَّبَاحِ، ثُمَّ آخِرُ، فَتَعَلَّقُوا بِهِ فَرَفَعُوهُ إِلَى الْوَالِي، فَسَأَلَهُ
الْوَالِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ، فَرَفَعَهُ مَعَهُمْ إِلَى الْقَاضِي، فَلَمْ
يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ أَيَّامًا وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْعْيُونَ، وَمَلَكَ
نَفْسَهُ وَجَعَلَ لَا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ سِوَى النَّبَاحِ، فَلَمَّا رَأَى الْقَاضِي
ذَلِكَ أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَوَضَعَ عَلَيْهِ الْعْيُونَ فِي مَنْزِلِهِ، وَجَعَلَ لَا
يَنْطِقُ بِحَرْفٍ إِلَّا النَّبَاحَ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَ الْقَاضِي أَمَرَ
غَرْمَاءَهُ بِالْكَفِّ عَنْهُ، وَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ بِهِ لَمَمٌ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ

اللَّهُ تعالى، ثُمَّ إِنَّ غَرِيمَهُ الَّذِي كَانَ عَلَّمَهُ الْحِيلَةَ، أَتَاهُ
مُتَقَاضِيًا لِعِدَّتِهِ فَلَمَّا كَلَّمَهُ جَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى النَّبَاحِ، فَقَالَ لَهُ
وَيْلَكَ يَا فُلَانُ وَعَلِيٌّ أَيْضًا، وَأَنَا عَلَّمْتُكَ هَذِهِ الْحِيلَةَ؟ فَجَعَلَ لَا
يَزِيدُهُ عَلَى النَّبَاحِ، فَلَمَّا يَأْسُ مِنْهُ انصَرَفَ يَأْسًا مِمَّا يَطَالِبُهُ
بِهِ.

اتحاد المتعاضدين في وجه عدوِّهما المشترك قال أبو الحسن
عن سلمة بن خطاب الأزديّ، قال: لَمَّا تَشَاغَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ
مَرْوَانَ بِمُحَارَبَةِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، اجْتَمَعَ وَجُوهُ الرُّومِ إِلَى
مَلِكِهِمْ فَقَالُوا لَهُ: قَدْ أَمَكَّنْتُكَ الْفُرْصَةَ مِنَ الْعَرَبِ، بَتَشَاغُلِ
بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، لَوْ قَوَّعَ بِأَسْمِهِمْ بَيْنَهُمْ، فَالرَّأْيُ لَكَ أَنْ
تَغزُوهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِهِمْ نَلْتَ حَاجَتَكَ، فَلَا
تَدْعُهُمْ حَتَّى تَنْقُضِيَ الْحَرْبَ الْقِيَّ بَيْنَهُمْ فَيَجْتَمِعُوا عَلَيْكَ
فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَخَطَّأَ رَأْيَهُمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَغزُوا الْعَرَبَ
فِي بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَمَرَ بِكَلْبَيْنِ فَحَرَّشَ بَيْنَهُمَا،
فَاقْتَتَلَا قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ دَعَا بِنُحَيْلٍ فَخَلَّاهُ، فَلَمَّا رَأَى الْكَلْبَانِ
الثُّغْلِبَ، تَرَكَمَا مَا كَانَا فِيهِ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلَاهُ، فَقَالَ مَلِكُ
الرُّومِ: كَيْفَ تَرُونَ؟ هَكَذَا الْعَرَبُ، تَقْتَتِلُ بَيْنَهَا، فَإِذَا رَأَوْنَا
تَرَكَوْنَا ذَلِكَ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْنَا فَعَرَفُوا صَدَقَةَ، وَرَجَعُوا عَنْ
رَأْيِهِمْ.

كرم الكلاب

قال: وقال المغيرةُ لرجلٍ خاصم إليه صديقاً له، وكان الصديقُ توعدّه بصدّاقة المغيرة، فأعلمه الرجلُ ذلك، وقال: إنّ هذا يتوعّدني بمعرفتك إِيّاه، وزعم أنّها تنفعه عندك، قال: أجلّ إنّها والله لتنفع، وإنّها لتنفعُ عند الكلبِ العقور. فإذا كان الكلبُ العقورُ كذلك، فما ظنُّك بغيره؟ وأنت لا تصيب من الناس من تنفع عنده المعرفةُ من ألفٍ واحداً. وهذا الكرمُ في الكلابِ عامٌّ، والكلبُ يحرسُ ربّه، ويحمي حريمه شاهداً وغائباً، وذاكراً وغافلاً، ونائماً ويقظان، ولا يقصر عن ذلك وإن جفوه، ولا يخذلهم وإن خذلوه.

نوم الكلب

والكلبُ أيقظُ الحيوانِ عيناً في وقتِ حاجتهم إلى النوم، وإنّما نومه نهاراً، عند استغنائهم عن حراسةٍ، ثمّ لا ينام إلاّ غراراً وإلاّ غشاشاً، وأغلبُ ما يكوم النّومُ عليه وأشدُّ ما يكون إسكاراً له أن يكونَ كما قال رؤبة:

لاقيت مطلاً كنعاس الكلب

يعني بذلك القرمطة في المواعيد، وكذلك فإنّه أنوم ما يكون أن يفتح عينه بقدر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعة، وهو

في هذا كَلِّه وأَسْمَعُ من فَرَسٍ، وأَحْدَرُ من عَفَقٍ، مع بُعْدِ
صوته.

قول رجل من العرب في الجمال

وقيلَ لرجُلٍ من العرب: ما الجمال؟ فقال: عُورُ العَيْنَيْنِ،
وإِشْرَافُ الحَاجِبَيْنِ، ورُحْبُ الأَشْدَاقِ، وبُعْدُ الصَوْتِ.

علاج الكلب واحتماله

هذا مع قلة السامة، والصَّبْرِ على الجفوة، واحتمالِ
الجراحات الشَّدَادِ، وجوائف الطعان ونوافذ السهام، وإذا ناله
ذلك لم يَزَلْ يَنْظِّفُه بِرِيقِه؛ لمعرفته بأنَّ ذلك هو دواؤه حتَّى
يبوأ، لا يحتاج إلى طبيب، ولا إلى مرهم ولا إلى علاج.

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

وتقول العرب: الضبُّ أطولُ شيءٍ ذَمَاءً، والكلبُ أعجبُ في
ذلك منه، وإنما عجبوا من الضَّبِّ، لأنَّه يَغْبُرُ ليلته مذبوحةً
مفريِّ الأوداج، ساكنَ الحركة، حتَّى إذا قَرَّبَ من النار
تحرَّك، كأنَّهم يظنُّون أنَّه قد كان حياً، وإن كان في العين
ميتاً، والأفعى تبقى أياماً تتحرَّك ما يعتريه الاختلاج بعد
الموت فأما الذي يعتريه الاختلاج بعد جموده ليلةً، فلحُمُّ

البقر والجُرر، تختلج وهي على المعاليق اختلاجاً شديداً،
والحيّة يُقَطَّعُ بثثها الأسفل، فتعيش وينبت ذلك المقطوع.

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قال: والكلب أشدّ الأشياء التي تعيش على الجراح، التي لا
يعيش عليها شيء إلا الكلب، والخنزير، والخُنْفَسَاء.

قوة فكّ الكلب وأنيابه

والكلب أشدّ الأشياء فكاً، وأرْهفها ناباً، وأطيبها فماً،
وأكثرها ريقاً، يُرمَى بالعظم المدمج، فيعلم بالغريزة أنه إن
عضّه رضه، وإن بلعه استمرأه.

الف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

وهو أوفّ للناس، مشارك من هذا الموضع العصافير
والخطاطيف والحمام والسنائير، بل يزيد على ذلك في باب
الخاصّ وفي باب العامّ، فأما باب الخاصّ، فإن من الحمام ما
هو طورانيّ وحشيّ، ومنه ما هو آلف أهليّ، والخُطَّاف من
القواطع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يبن بيتّه إلا في
أبعد المواضع، من حيث لا تتاله أيديهم، فهو مقسوم على
بلاد وبلاد من اضطرّته إليه الحاجة، والعصافير تكون في

القرب حيثُ تمتنع منهم في أنفسها، والكلاب مخالطةٌ لها ملابسة، ليس منها وحشي، وكلُّها أهلي، وليس من القواطع ولا من الأوابد ما يكون أنس بالناس من كثير ممَّا يوصف بالأنس والإلف من الكلاب دون سواها، وفي السننير الوحشيَّة والأهليَّة.

وعلى أنَّ إلف الكلب فوق إلف الإنسان الألوف، وهو في الكلب أغربُ منه في الحمام والعصفور؛ لأنَّه سبع، والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه، فتركها ولم يناسبها، ورغب عنها، وكيف، وهو يصيد الوحوشَ ويمنع جميعَ السباع من الإفساد؟ فذلك أحمدُ له وأوجبُ لشكره، ثمَّ يصيرُ في كثير من حالاته، أنسَ بالناس منه بالكلابِ دنيَّةً وقصرةً، ولا تراه يلاعبُ كلباً ما دام إنسانٌ يلاعبه، ثمَّ لم يرُضَ بهذه القرابة وهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طباع الخُطاف والحمام والعصفور، وبمقدار ما فضَّلها الله تعالى به من الأنس، حتَّى صار إلى غاية المنافع سلماً، وإلى أكثر المرافق.

الحاجة إلى الكلاب

وليس لحارس الناس ولحارس أموالهم بُدُّ من كلب، وكلِّما كان أكبرَ كان أحبَّ إليه، ولا بدُّ لأقاطيع المواشي من

الكلاب، وإلا فإنها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثم كلاب الصيد، حتى كان أكثر أهل البيت عيالاً على كل كلب مقلدات الإنسان من الحيوان وقد صار اليوم عند الكلب من الحكايات وقبول التلقين، وحسن التصريف في أصناف اللعب، وفي فطن الحكايات ما ليس في الجوارح المذلة لذاك، المصرفة فيه، وما ليس عند الدب والقرد والفيل، والغنم المكّية، والبيغاء،

الكلب الزيني

والكلب الزيني الصيني يسرج على رأسه ساعات كثيرة من اللؤلؤ فلا يتحرك، وقد كان في بني ضبة كلب زيني صيني، يسرج على رأسه، فلا ينبض فيه نابض، ويدعونه باسمه ويرمى إليه ببضعة لحم والمسرجة على رأسه، فلا يميل ولا يتحرك، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فإذا زايل رأسه وثب على اللحم فأكله، درّب فدرّب وثقف فتقف، وأدب فقبل، وتعلق في رقبتة الزنبلة والدوخلة وتوضع فيها رقة، ثم يمضي إلى البقال ويجيء بالحوائج. تعليم الكلب والقرد

ثم صار القرد وصاحب الرباح من ثم يستخرج فيما بين الكلب والقرد ضروباً من العمل، وأشكالاً من الفطن، حتى

صاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضوا به إلى
المُتمَعِّك، فِيمَعِّك كما يُمَعِّك حمار المُكَارِي وبغلُ الطَّحَّانِ،
وقرابةٌ أخرى بينه وبين الإنسان: أنه ليس شيءٌ من
الحيوان لذكره حجْمٌ بادٍ إلا الكلبُ والإنسان.

ما يسبح من الحيوان وما لا يسبح والكلبُ بعد هذا أسبَحُ من
حيّة، ولا يتعلَّقُ بهِ في ذلك الثَّور، وذلك فضيلةٌ له على
القرْد، مع كثرةِ فِطْنِ القِرْدِ وتشبُّهه بالإنسان؛ لأنَّ كلَّ حيوانٍ
في الأرض فإنه إذا ألقى في الماء الغمر سبَح، إلا القردَ
والفرسَ الأعسر، والكلبُ أسبَحها كلُّها، حتَّى إنَّه ليُقَدِّم في
ذلك على البقرة والحيّة.

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

وفي طباع أرحام الكلاب أعجوبة؛ لأنها تَلْقَح من أجناس
غير الكلاب، ويُلقحها كما يلقح منها، وتلقح من كلابٍ
مختلفة الألوان، فتودِّي شَبَه كلِّ كلب، وتمتلئ أرحامها
أجراً من سفاد كلب، ومن مرةٍ واحدة، كما تمتلئ من عدَّة
كلابٍ ومن كلبٍ واحد، وليست هذه الفضيلة إلا لأرحام
الكلاب.

فخر قبيلتين زنجيتين قالوا: والزنج صِنْفان، قبيلة زنجية

فوق قبيلة، وهما صنفان: النمل والكلاب، فقبيلة هم الكلاب،
وقبيلة هم النمل، فخر هؤلاء بالكثرة، وفخر هؤلاء بالشدة،
وهذان الاسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يُكرها
عليهما.

حديث أكلك كلب الله

قال: ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعُتْبة بن أبي
لهب: أكلك كلبُ الله فأكله الأسد، فواحدةٌ: قد ثبت بذلك أنَّ
الأسد كلبُ الله، والثانية: أنَّ الله تبارك وتعالى لا يُضَاف إليه
إلاَّ العظيم، من جميع الخير والشرِّ، فأما الخير فقولك: بيت
الله، وأهل الله، وزوّار الله، وكتاب الله، وسماء الله، وأرض
الله، وخليئ الله، وكليم الله، وروح الله، وما أشبه ذلك، وأما
الشرُّ فقولهم: دغّه في لعنة الله وسخط الله، ودغّه في نار
الله وسعيره، وما أشبه ذلك، وقد يسمّي المسلمون والنّاس
كلباً.

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

وقد زعم آخرون: أنَّ بنات آوى، والثعالب والضباع،
والكلاب كلّها كلاب، ولذلك تسأفد وتلاقح، وقال آخرون:
لعمري إنّها الكلاب إذا أردتم أن تشبّهوها، فأما أن تكون

كلاباً لِعَلَّةٍ أو عِلَّتَيْنِ والوجوهُ التي تخالف فيها الكلاب أكثر
فإنَّ هذا ممَّا لا يجوز، وقول مَنْ زعم أنَّ الجواميس بقرةٌ وأنَّ
الخيْلَ حُمْرٌ، أقربُ إلى الحقِّ من قولكم، وقولٍ من زعم أنَّ
الجواميس ضأنُ البقر، والبقرُ ضأنٌ أيضاً، ولذلك سمَّوا بقرَ
الوحشِ نِعاِجاً، كأنهم إنما ابتغوا اتِّفاقَ الأسماء، ومابالُ من
زعم أنَّ الأسدَ والذئبَ والضبعَ والثعلبَ وابنَ آوى كلابٌ
أحقُّ بالصرابِ ممَّن زعم أنَّ الجواميس ضأنٌ والبقرُ ضأنٌ
والماعزُ كلها شيءٌ واحد، وهذا أقربُ إلى الإمكان؛
لتشابهها في الظلفِ والقرونِ والكروشِ وأنها تجترُّ،
والسنُّورُ والفهدُ والنمرُ والبيْرُ والأسدُ والذئبُ والضبعُ
والثعلبُ إلى أن تكونَ شيئاً واحداً أقرب، وعلى أننا لم نتبينُ
إلى الساعة أنَّ الضَّبَّاعَ والكلابَ وبناتِ آوى والذئبَ تتلاقحُ؛
وما رأينا على هذا قط سِمْعاً ولا عِساباً، ولا كلَّ ما
يعدُّون، وما ذكَّروهم لذلك إلا من طريق الإخبار عن
السُّرعة، أو عن بعض ما يُشبهه ذلك، فأما التلاقحُ والتركيبُ
العجيبُ الغريب، فالأعرابُ أفطنُ والكلامُ عندهم أرخصُ من
أن يكونوا وصفوا كلَّ شيءٍ يكون في الوحش، وكلَّ شيءٍ
يكون في السَّهلِ والجبلِ، مما إذا جمع جميعَ أعاجيبه لم يكن
أظرفَ ولا أكثرَ ممَّا يدَّعون من هذا التَّسأفِ والتَّلاقحِ

والتراكيب في الامتزازات، فكيف يدعون ما هو أظرف،
والذي هو أعجب وأرغب، إلى ما يستوي في معرفته جميع
الناس؟ تتمّة القول في حديث السابق وقال آخرون: ليس
الكلب من أسماء الأسد، كما أن ليس الأسد من أسماء
الكلب، إلا على أن تمدحوا كلبكم فيقول قائلكم: ما هو إلا
الأسد؛ وكذلك القول في الأسد إذا سمّيتهوه كلباً، وذلك عند
إرادة التصغير والتحقير، والتأنيب والتقريع؛ كما يقال ذلك
للإنسان على جهة التشبيه، فإن كان النبي صلى الله عليه
وسلم قال "ذلك فإنّ ذلك على بعض ما وصفنا لك، ويقول
أهل حمص: إنهم لا يُغلبون؛ لأن فيها نور الله في الأرض،
وما كلب الله إلا نُفُور الله. والله، تبارك وتعالى علوّاً كبيراً، لا
تضاف إليه الكلابُ والسنانيرُ والضَّبَّاعُ والثعالبُ، والنبي
صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قطُّ، وإن كان قاله فعلى
صلة كلام أو على حكاية كلام.
وقال صاحب الكلب: قد وضّح الأمر، وتلقاه الناس بالقبول،
في أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: أكلك كلبُ الله وهو
يعني الأسد، ومن دفع هذا الحديث فقد أنكرَ علاماتِ الرسول
صلى الله عليه وسلم.

التسمية بمشتقات الكلب

والنَّاسُ قد سَمَّوا النَّاسَ بِكَلْبٍ وَكَلْبِيبٍ وَكِلَابٍ وَأَكْلَبُ وَمَكَالِيبٍ وَمَكَالِبَةُ بنو ربيعة، وكليب بن ربيعة بن عامر، وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلبة، وبنو كلاب، وأكلب بن ربيعة بن نزار عِمارة ضخمة، وكلب بن وبرة جَدُّمٌ من الأجدام وهم نَفَرٌ جُمُعة، وكلّ سادات فهو يكنى أبا كليب، ومن ذلك عمرو ذو الكلب وأبو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي، وكيف لا يجوز مع ذلك أن يسمّى الأسد بالكلب، وكلُّ هَوْلَاءٍ أَرَفَعُ من الأسد؟ وقد قالوا: كلب الماء، وكلب الرحي، والضَّبَّةُ التي في الرحل يقال لها الكلب، والكلب: الخشبة التي تمنع الحائط من السَّقُوط، وتُشَخَّصُ في القناطر والمسنيات، والكلب الذي في السماء ذو الصَّوَر، ويقال: داء الكلب، وقد اعتراه في الطعام كلب، وقد كلب عليهم في الحرب، وِدْمَاءُ القوم للكَلْبِي شفاء، ومنه الكلبة والكلبتان والكلاب والكلوب ثمَّ المكلَّب والمكلب وهذا مختلف مشتقٌّ من ذلك الأصل، ومنه عَلْوِيَّةُ كلب المطبخ، وحمويه كلب الجن.

بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله ولما شهد أبو علقمة المُرَنيَّ عند سوار بن عبد الله أو غيره من القضاة و

توقَّفَ في قبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقَّفتَ في
إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنك تلعب بالكلاب والصقور،
قال: مَنْ خَبَّرَكَ أَنِّي أَلْعَبُ فَقَدْ أَبْطَلُ، وَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي أَصْطَادُ
بِهَا فَقَدْ صَدَقَكَ مَنْ أَبْلَغَكَ، وَإِنِّي أَخْبَرْتُكَ أَنِّي جَادٌّ فِي
الاصطياد بها غيرُ لاعبٍ ولا هازئٍ، فقد وقَّفَ المبلغ على
فرقٍ ما بينَ الجدِّ واللَّعبِ، قال: ما وقَّفَ ولا وقَّفته عليه،
فأجازَ شهادته قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ وَقَدْ قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ" فقال لِنَبِيِّهِ: "قُلْ أَحَلَّ
لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ"، فاشتقَّ لكلِّ
صائدٍ وجارحٍ كاسبٍ مِنْ بَازٍ، وصقْرِ، وعُقَابٍ، وفَهْدٍ،
وشاهين، وزرَّقٍ، ويؤيؤٍ، وباشقٍ، وعَنَاقِ الأَرْضِ، من اسم
الكلب، وهذا يدلُّ على أَنَّهُ أَعْمَهَا نَفْعًا، وَأَبْعَدَهَا صِيئًا،
وأنبها ذكرًا، ثمَّ قال: "تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" فذكر تعليمهم لها إذ
أضافَ ذلك إلى نفسه، ثمَّ أخبَرَ عن أدبها وأنها تُمَسِّكُ على
أربابها لا على أنفسها، وزعم أصحاب الصَّيْدِ أَنَّ لَيْسَ فِي
الجوارح شيءٌ أَجْدَرُ أَنْ يُمَسِّكَ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا يُمَسِّكَ عَلَى
نَفْسِهِ مِنَ الكلبِ تَأْوِيلُ آيَةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ

وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
 فَقَالُوا: رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا"،
 فخبّر كما ترى عن دعائهم وإخلاصهم، ثم قال جلّ وعزّ:
 "فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ
 أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا"، ثم قال عزّ وجلّ: "تَحْنُ
 نَقْصٌ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ
 هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبَّنَا رَبِّ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مَنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا
 شَطَطًا" ثم قال: "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ
 رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا
 طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ
 ذَاتَ الشَّمَالِ" ثم قال بعد هذه الصّفة لحالهم، والتمكين لهم
 من قلوب السّامعين، والأعجوبة التي أتاهم بها: "وَكَلْبُهُمْ
 بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" ثم قال: "لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَئِيتَ
 مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلتَ مِنْهُمْ رُعبًا" فخبّر أنّهم لم يستصبحوا
 من جميع من يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه،
 شيئاً غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس ويرتفقون به،
 ويسكنون إليه، شيئاً غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس
 ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرس والبعير والحمار

والبغل، والثور والشاة، والحمام والديكة، كل ذلك مما
 يرتفق به ويستصحب في الأسفار، وينقل من بلد إلى بلد.
 والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة،
 فخبّر عنهم بعد أن جعلهم خياراً أبراراً، أنهم لم يختاروا
 استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من
 الموفقين المعصومين المؤيدين، إلا بخاصة في الكلب
 لا تكون في غيره، ثم أعاد ذكر الكلب، ونبأ عن حاله، بأن
 قال عز وجل: "إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم
 بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن
 عليهم مسجداً، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون
 خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم
 كلبهم قل ربي أعلم بعبادتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم
 إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً" وفي قولهم في
 الآية "ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم
 كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم" دليل
 على أن الكلب رفيع الحال، نبيه الذكر، إذ جعل رابعهم،
 وعطف ذكره على ذكرهم، واشتق ذكره من أصل ذكرهم،
 حتى كأنه واحد منهم، ومن أكفائهم أو أشباههم أو ممّا
 يقاربهم، ولولا ذلك لقال: سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم،

وبين قول القائل معهم كلبٌ لهم، وبين قوله (رابعُهُم كَلْبُهُم) فرقٌ بين وطريق واضح، فإن قلتُم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنما حكاه عن غيره، وحيث يقول: "ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ" وَقَدْ صَدَقْتُمْ، والصفة على ما ذكرتم؛ لأنَّ الكلام لو كان منكرًا لأنكره الله تعالى، ولو كان معيبًا لعابه الله، فإذا حكاه ولم يعبه، وجعله قرآنًا وعظمه بذلك المعنى، ممَّا لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله؛ إذ كان الله عزَّ وجلَّ المنزل له الاستطاعة قبل الفعل ومثَّل ذلك مثل بعض المخالفين في القدر، فإنه سأل بعض أصحابنا فقال: هل تعرف في كتاب الله تعالى أنه يُخبر عن الاستطاعة، أنها قبل الفعل؟ قال: نعم، أتى كثير، من ذلك قوله تعالى "قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ"، قال المخالف: سألتك أن تخبرني عن الله، فأخبرتني عن عفرية لو كان بين يدي لبرقت في وجهه قال صاحبنا: أما سليمان النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ترك النكير عليه، ولو كان مثل هذا القول كفرًا وافتراءً على الله، ومغالبةً وتفويضًا للمشيمة إلى النفس، لكان سليمان ومن حضره من المسلمين من الجن والإنس أحق

بالإنكار، بل لم يكن العفريتُ في هذا الموضع هو الذي يسرع فيه ويذكر الطاعة، ولا يتقرب فيه بذكر سرعة النفوذ، ويبشر فيه بأنَّ معه من القوة المَجعولة ما يتهياً لمثله قضاءً حاجته، فيكذب ثمَّ لا يرضى بالكذب حتَّى يقول قولاً مستنكراً، ويدَّعي قوَّة لا تُجَعَل له، ثمَّ يستقبل بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه، والاستغناء عنه نبياً قد ملك الجنَّ والإنس والرياحَ والطيْر، وتسييرَ الجبال، ونطقَ كلِّ شيءٍ، ثمَّ لا يزجره فضلاً عن أن يضرَّبه، ويسجنه فضلاً عن أن يقتله.

وبعدُ، فإنَّ الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآناً، ويترك التنبيه على ما فيه من العيب، إلّا والقول كان صدقاً مقبولاً، وبعد، فإنَّ هذا القولَ قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلاه على الناس، وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاربيهم، أفما كان في جميع هؤلاء واحداً يعرف معرفتك، أو يغضبُ لله تعالى غضبك؟.

دفاع عن الكلب

قال صاحب الكلب: لو اعترضت جميع أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض، أن تُصيبَ أهلَ خيمةٍ واحدة، ليس

عندهم كلبٌ واحد فما فوق الواحد لَمَّا وجدته، وكذلك كانوا في الجاهليَّة، وعلى ذلك هم في الإسلام، فمن رجَعَ بالتخطئة على جميع طوائف الأمم، والتأنيب والاعتراض على جميع اختيارات الناس، فليتَّهم رأيُه؛ فإنَّ رأيَ الفردِ ولاسيما الحسودُ، لا يفي برأي واحد، ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأن يفي بجميع أهل البدو من العرب والعجم، والدليل على أنَّ البَدُوَّ قد يكون في اللُّغة لهما جميعاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: " وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي"، ولو ابتلي صاحبُ هذا القول بأن ينزل البادية، لتحول رأيُه، واستبدلَ به رأي من قد جرَّب تقريب الكلب وإبعاده، وقد قال أبو عَبَادٍ النميري: لا يكون البُنْيَانُ قَرْيَةً حتى ينبَحَ فيه كلبٌ، ويزقو فيه ديك، ولمَّا قال أحمد بنُ الخَارِكي: لا تصير القريةُ قَرْيَةً حتَّى يصيرَ فيها حائِكٌ ومعلِّمٌ، قال أبو عَبَادٍ: يا مجنونُ إذا صارتُ إلى هذا فقد صارت مدينةً.

وللكلب إثباته وجهٌ صاحبه، ونظره في عينيه وفي وجهه، وحبُّه له، ودُّنُوهُ منه، حتَّى ربَّما لاعبه ولاعب صبيانه بالعضِّ الذي لا يؤثر ولا يوجع، وهي الأضراسُ التي لو نشبها في الصخر لنشبت، والأنيابُ التي لو أنحى بها على

الحصى لرضّها، وقد تراه وما يصنع بالعظم المدمج،
وبالفقرة من الصلب القاسي الذي ليس بالنخر البالي، ولا
بالحديث العهد بالودك الذي يلين معه بالمضغ ويطيب، فتراه
كيف يرضّه ويفتته، ثم إن مانعه بعض الممانعة، ووافق منه
بعض الجوع، كيف يبتلعه وهو واثق باستمرائه وهضمه،
أو بإذابته وحلّه. وله ضروبٌ من النعم، وأشكال من
الأصوات، وله نوح وتطريب، ودعاء وخوار، وهريز
وعواء، وبصبصة، وشيء يصنعه عند الفرح، وله صوت
شبيهة بالأنين إذا كان يغشى الصيد، وله إذا لاعب أشكاله في
غدوات الصيف شيء بين العواء والأنين، وله وطء للحصى
مثله بأن لو وطئ الحصى على أرض السطوح لا يكون مثله
وطء الكلب يربى على وزنه مراراً، وإذا مرّ على وادٍ جامدٍ
ظاهر الماء، تنكّب مواضع الخريز في أسفله.
قال الشاعر ورأى رجلاً اسمه وثاب واسم كلبه عمرو فقال:

مِن التّوفيق
أسبابا

ولو هيّا له
الله

وسمّى

لسمّى

الكلب
وَتَّابَا

نفسه
عَمْرًا

أطباء الكلبة والخنزيرة والفهدة

قال: والكلبة كثيرة الأطباء، وكذلك الخنزيرة، والفهدة أربعة أطباء من لَدُنْ صدرها وقرب إبطيها إلى رفغيها، وللليل حلمتان تصغران عن جثته، وهما مما يلي الصدر مثل الإنسان، والذُكر في ذلك يشبه بالرجل؛ لأن للرجل تديين صغيرين عن جثته.

واقية الكلاب

ويقال: إنَّ على الكلاب واقيةً من عبث السُّفهاء والصِّبيان بها، قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ، حين ضرب امرأته بالسيف ولم يقتلها:

وما إن يُعصبان
على خِصَابِ

وواقية كواقية
الكلاب

أقرَّ العَيْنَ أَنْ
عُصِبَتْ يَدَاهَا

فأبقاهنَّ أَنْ
لهنَّ َّجَدًّا

وقال الآخر:

فإنَّ الكلابَ لها
واقيةٌ

إنَّ يَقتنا اللهَ مِن
شرِّها

ويروى:

سَيُنْجِيهِ مِن شَرِّها شَرُّه

وقال غيره:

إن الكلاب طويِّلة
الأعمارِ

ولقد قتلتك بالهجاء
فلم تمُتْ

وقال بشر بن المعتمر:

فكلهم من شأنه
الخرُّ

الناسُ دأباً في طلاب
الثِّرا

لها عواءٌ ولها
زفرٌ

كأدوبٍ تنهَشها
أدوبٌ

استطرد لغوي قال: ويقال قَرَح الكلب ببوله يقزح قزحاً، إذا
بال، قال: وقال أبو الصَّقر: يقزح ببوله حين يبول، وشعر
الكلب يشعُر إذا رَفَع رِجْلَهُ، بال أو لم يبيل، ويقال شعرتُ
بالمرأة أشعُرُها شِعْراً إذا رفعت رِجْلَهَا لِلنَّكاح، قال: ويقال
عَظَل الكلبُ مُعَاطِلَةً، يعني السَّفَاد، قال أبو الزحف:

يَبْغِي العِظَالَ مُصْحِراً
بِالسَّوْءِ

كَمِشِيَّةِ الكلبِ
مَشَى لِلْكَلْبَةِ

قال: ويقال كلبٌ عَظِلٌ وكلابٌ عُظْلٌ وَعَظَالِي، وقال حسان
بن ثابت الأنصاري:

ولست بخير من
معاظلة الكلب

ولست بخير من
يزيد وخالد

قال مالك بن عبد الله الجعدي، يوم فيفِ الرِّيح: حدَّثني أبي،
لقد نظرتُ يَوْمَئِذٍ إلى بني عبد الحارث بن نمير، فما شبَّهتهم
إلا بالكلاب المتعاطلة حَوْلَ اللِّوَاءِ.
وقال أبو براء عامر بن مالك ملاعبُ الأَسِنَّةِ لآعبه الحارث
واليوم قال فقال منذ يومئذ، قال: والسُّكُوفِيَّةُ منسوبةٌ إلى

سَلُوقَ من بلاد اليمَن، لها سلاحٌ جيّدٌ وكلابٌ فُرّه، وقال
القَطاميُّ:

طُوراً تُعَانِدُهُ
وتتفَعه

معه ضَوَارٍ مِنْ
سَلُوقٍ لَهُ

تعفير البهائم والسباع أولادها قالوا: وليس في الأرض
بهيمةٌ ولا سبعٌ أنثى تريد فِطامَ ولدها وإخراجَه من اللَّبَنِ
إلى اللحم، أو من اللَّبَنِ إلى العُشْبِ، إن كانت بهيمةً إلاّ وهي
تعفر ولدها، والتعفير: أن ترضعه وتمنعه حتى يجوع
ويطلب اللحمَ إن كان سبعاً، والعُشْبُ إن كان بهيمةً، فلا
تزالُ تنوّله وتماطله وكلما مرّت عليه الأيام كان وقتٌ منعها
له أطول، حتّى إذا قوي على أكل اللحمِ أو العُشْبِ فطمته،
قال لبيدٌ في مثل ذلك:

خَذَلْتُ وَهَادِيَةَ
الصَّوَارِ قِوَامِهَا

أَفْتَيْتُكَ أُمَّ وَحْشِيَّةٍ
مَسْبُوعَةٍ

عُرْضَ الشَّقَائِقِ
طَوْفُهَا وَبُعَامِهَا

خَنَسَاءُ ضَيَّعَتْ
الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ

لَمُعْفَرٍ قَهْدٍ
تَنَازَعٍ شِلْوَةٍ

عُغْبَسٍ كَوَاسِبٍ لَأٍ
يُمَنُّ طَعَامُهَا

صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةً
فَأَصْبَنَهَا

إِنَّ الْمَنِيَا لَا تَطِيْشُ
سِهَامُهَا

لأنَّ البقرة إذا كانت بحضرة ولدها لم تضيِّعه ومَنعت السِّباع منه، وقاتلت دونه بقرونها أشدَّ القتال، حتَّى تُتجِّيه أو تعطب.

بعض من كني بالكلاب

قال: وكان ابنُ لِسَانِ الحُمَّرَةِ يكنى أبا كلابٍ، وكان زوجُ حُبِّي المَدَنِيَّةِ يقال له ابن أمِّ كلاب، وقال الشَّاعِرُ يذُكُرُها:

وَمَا وَجَدْتُ وَجْدِي
بِهِ أُمَّ وَاحِدٍ

وَلَا وَجَدُ حُبِّي
بِابْنِ أُمَّ كِلَابٍ

رَأَتْهُ طَوِيلَ
السَّاعِدِينَ شَمْرَدَلًا

كَمَا انْبَعَثَتْ مِنْ
قُوَّةِ وَشَبَابِ

صفة عيون الكلاب

وقال آخر يَصِفُ عِيُونَ الْكَلَابِ إِذَا أَبْصَرَتِ الصَّيْدَ:

مَجْزَعَةٌ عَضْفٌ
كَأَنَّ عِيُونَهَا
إِذَا آدَنَ الْقَنَاصُ
بِالصَّيْدِ عَضْرَسُ

مَجْزَعَةٌ: فِي أَعْنَاقِهَا جَزْعٌ، وَهُوَ الْوَدَعُ يُجْعَلُ فِي الْقَلَانِدِ،
يَقُولُ: تَبْيَضُ عِيُونُهَا حِينَ تَخْتَلُ الصَّيْدَ، وَالْعَضْرَسُ هَاهُنَا:
الْبَرْدُ، وَقَالَ الْآخَرُ:

خُوصٌ تَرَّاحَ إِلَى
الصَّرَاحِ إِذَا عَدَّتْ
فَعَلَ الضَّرَاءُ
تَرَّاحَ لِلْكَالِبِ

وقال آخر وذكر الضَّرَاءُ، وَهُوَ يَصِفُ الشَّيْخَ وَضَعْفَهُ:

وَمِنْهَا أَنْ يُقَادَ بِهِ
بَعِيرٌ
ذُلُولٌ حِينَ تَهْتَرِسُ
الْكَالِبُ

قال: وَهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ يُعَدُّونَ الْكَلْبَ وَالْمَطِيَّةَ، وَأَنْشَدَ:

فَأَعْقَبَ خَيْرًا كُلَّ
أَهْوَاجِ مِهْرَجِ
وَكُلِّ مُفْدَاةِ الْعَلَالَةِ
صَلْدِمِ

وقال الآخر:

مُفَدَّياتٌ وَمَلَقَبَاتٌ

وَأَنشُدْ قَوْلَ أَبِي ذُوَيْبٍ فِي شَبِيهِهِ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ:

فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ
المُصَدِّقَ يَفْزَعُ

شَغَفَ الْكِلَابُ
الضَّارِيَاتُ بِهِ

يقول: هذه النِّيران لما قد لُقِّينَ مع الصبح والإشراق من الكلاب، صار أحدها حين يَرَى ساطع الصبح يَفْزَعُ، وذلك أَنَّهَا تَمَطَّرُ لَيْلَتَهَا فَتَشْرَقُ فِي الشَّمْسِ، فَعِنْدَهَا تُرْسَلُ عَلَيْهَا الْكِلَابُ صَوْلَةَ الذَّنْبِ عَلَى الْغَنَمِ مَعَ الصُّبْحِ وَيُقَالُ إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَعْضُ الذَّنْبُ لِلْغَنَمِ مَعَ الصُّبْحِ، وَإِنَّمَا رَقِبَ فِتْرَةَ الْكَلْبِ وَكِلَالَهُ، لِأَنَّهُ بَاتَ لَيْلَتَهُ دَائِبًا يَحْرَسُ، وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَكَسَرَ ذَنْبَ شَاةٍ لَهُ مَعَ الصُّبْحِ، فَقَالَ:

مِنَ الذَّنَابِ إِذَا مَا
رَاحَ أَوْ بَكَرَا

أُودَى بَوْرِدَةَ أُمَّ
الْوَرْدِ ذُو عَسَلٍ

مَا انْفَكَّتِ الْعَيْنُ
تُدْرِي دَمْعَهَا دِرْرًا

لَوْلَا ابْنُهَا
وَسَلِيَّاتٌ لَهَا

غَرَّر

كَأَنَّمَا الدَّئِبُ إِذْ
يَعْدُو عَلَى
غَنَمِي

فِي الصُّبْحِ طَالِبُ
وَتَرِ كَانِ فَاتَّارَا

مِنَ الضَّوَارِي
اللَّوَاتِي تَقْصِمُ
الْقَصْرَا

اعْتَامَهَا اعْتَامَهُ
شَتْنُ بَرَاثِنِهِ

مسألة زيد الخيل للرسول الكريم ولما قال النبي عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل من الخير ما قال، وسمّاه زيد الخير، ما سأله زيد شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلا أنه قال: يا رسول الله، فينا رجلان يقال لأحدهما دريح، والآخر يكنى أبا دجانة، ولهما أكلب خمسة تصيد الطباء، فما ترى في صيدهم؟ فأنزل الله عز وجل: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ"، فأول شيء يعظم في عينك شأن الكلب، أن هذا الوافد الكريم الذي قيل له ما قيل، وسمّي بما لم يسمّ به أحد لم يسأل إلا

عن شأن الكلب، وثانية وهي أعظمها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ آيَةً مُحْكَمَةً فَقَالَ: "أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ" فَسَمِيَ صَيْدَهَا طَيِّبًا، ثُمَّ قَالَ: "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ" مُخْبِرًا عَنْ قَبُولِهَا لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّادِيْبِ، ثُمَّ قَالَ: "مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ" وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ مَرَضِيٌّ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَمَا أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: "فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَعْظُمُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِمْسَاكُهُ عَلَيْكَ، وَهَكَذَا يَقُولُ أَصْحَابُ الصَّيْدِ، إِنَّ كُلَّ صَائِدٍ فَإِنَّمَا يُمَسِّكُ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الْكَلْبَ فَإِنَّهُ يُمَسِّكُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَوْ كَانَ الْجَوَابُ لَزِيدِ الْخَيْلِ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الرَّفْعَةُ، فَكَيْفَ وَالْكِتَابُ فَوْقَ السُّنَّةِ، وَقَدْ رَوَى هِشَامُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَمَّى كِلَابَ ذُرَيْحٍ هَذِهِ وَكِلَابَ أَبِي دُجَانَةَ فَقَالَ: الْمُخْتَلِسُ، وَغَلَّابٌ، وَالْقَنْيِصُ، وَسَلْهَبٌ، وَسِرْحَانٌ، وَالْمَتْعَاطِسُ.

دواء الذبحة والخانوق وزعم الأطباء أَنَّ مِنْ أَجْوَدِ أَدْوِيَةِ الذُّبْحَةِ وَالْخَانُوقِ أَنْ يَنْفَحَ فِي حَلْقِ مَنْ كَانَ ذَلِكَ بِهِ، مَا جَفَّ مِنْ رَجِيْعِ الْكِلَابِ، وَأَجْوَدُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ يَتَغَرَّغُ بِهِ وَرَبَّمَا طَلَّوهُ عَلَى جِلْدِ الْمُحْمُومِ الْحَدِيدِ الْحُمَّى.

رجيع الكلاب

وأجود رجيع الكلاب أن يشتد بياضه، وليس يعتريه البياض إلا عن أكل الطعام، وذلك رديء للقانص منها. والجور قد تبيض إذا كان قوت صاحبها اللبن، ولذلك قال أبو كلاب وهو ابن لسان الحمرة ومر به رجل من بني أسد فقال: قد علمت العرب يا معشر بني أسد أنكم أشدّها بياض جُجور، فعكف عليه فضربه بالسيف حتى برد، وذلك أنه عيره بأنهم لا يعرفون البقل، ولا يعرفون إلا اللبن، وقال الشاعر يهجو ناساً منهم:

بمنعرج الغيطان
شهب العنكب

عراجلة ببيض
الجُجور كأنهم

والعرب تقول: اللحم أقلّ الطعام بحرّاً

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب: وما للديك وللكلاب، والكلاب ينزل فيها القرآن ويحدث فيها السنن، ويشتق من أسمائها للناس وللأسد، ولها أسماء معروفة وأعراف منسوبة، وبلدان مشهورة، وألقاب وسمات، ومناقب ومقامات وما للديك إلا

ما تقول العوام: إنه إذا كان في الدار ديكٌ أبيض أفرقٍ لم يدخله شيطان، وليس يقومُ خَيْرٌ ذلك، ولو كان ذلك حقاً، بشؤمه؛ لأنَّ العوامَ تقضي على مَنْ كان في داره ديكٌ أبيض أفرق بالزندقة.

والذين يقولون إنَّ الدار إذا كان فيها ديكٌ أفرقٌ لم يدخلها شيطان، هم الذين يقولون مَنْ أكلَ لحمِ سنَّورٍ أسودٍ لم يضره سحر، وإذا دُخنت الدار بالدُّخنة التي سمَّوها بدُّخنة مريم، أو باللُّبان، لم يكن عليها لُعَمَّار الدَّار سبيل، فإن مرَّت ساحرة تطير سقطت، وهم الذين لا يشكُّون أنَّ مَنْ نام بين البابين تخبَّطه العُمَّارُ وخبَلته الجنُّ

ما يقال له: جرو

قال: ويقال لولد الكلب والدِّئب والسنَّور أشباه ذلك: جرو، ويقال للصغير من الحنظل على مثل ذلك: جرو، وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب:

مِنَ الْحَنْظَلِ الْعَامِيِّ
جَرَوْ مَفْلَقُ.

بَجَرَوْ يُلْقَى فِي
سِقَاءِ كَأَنَّهُ

من قول الكلب

وممّا زادَ في ذِكرِ الكلبِ قولُ السيّدِ بنِ محمدٍ في شأنِ عائِشةَ في الحديثِ الذي رَوَّهَ وكانَ السيّدُ رافِضِيًّا غاليًّا، وليسَ في ذكره شَرَفٌ، ولكنّه أجمَعُ للفنِّ:

بَعْدَ الْهُدُوِّ كِلَابَ
أَهْلِ الْهُدُوءِ كِلَابَ

تَهْوِي مِنَ الْبَلَدِ
الْحَرَامِ فَنَبَّهْتُ

قال: ويقال صرّفت الكلبة صرّافاً وصرّوفاً، وظلّعت تظّلَعُ ظُلُوعاً

قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب

قال: ومن الأمثال في ذلك: لا أفعلُ حتّى ينامَ ظالعُ الكلابِ، قال الأصمعيُّ: هذا باطل، إنّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظّلَعُ منه لم يُطِقْ سِفادَ الكلبة حتّى تهدأ الرّجلُ، وحتّى تملّ الكلابُ النُّباحَ وتفتريقَ، وتحتاج إلى النّومِ لطولِ التعبِ، وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورامَ سِفادَ الكلبة، لم يعرف ظلّعه إلاّ الكلبة، وأنشد فقال:

كِلَابٍ وَأَخْبَى نَارَهُ
كُلُّ مُوقِدٍ

تَسَدَّيْتُهَا مِنْ بَعْدِ مَا
نَامَ ظَالِعُ الْ

وأنشد غيره لجران العود:

حَمَائِمُ وَرُقٍ
بِالْمَدَائِنِ هُتَفُ

وَكَانَ فَوَادِي قَدْ
صَحَا نَمَّ هَاجِه

مِنَ الْبَغِيِّ شَرِيبٍ
يُعَرِّدُ مُتَرَفُ

كَأَنَّ الْهَدِيلَ الظَّالِعَ
الرَّجْلَ وَسَطَهَا

ما قيل من الشعر في إشلاء الكلب على الضيوف وقالوا
أبياتاً في غير هذا الباب، قال الأعرابي:

عَلَيْنَا فَكِدْنَا بَيْنَ
بَابِيهِ نُؤَكَلُ

نَزَلْنَا بَعَادَ
فَأَشْلَى كَلَابَه

أَدَا الْيَوْمُ أَوْ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ أَطُولُ

فَقَلَّتْ لِأَصْحَابِي
أُسْرٌ إِلَيْهِمْ

وقال آخر:

عِنْدِي وَفَضْلَ هِرَاوَةٍ
مِنْ أَرْزَنِ

أَعَدَدْتُ لِلضَّيْفَانِ
كَلْبًا ضَارِيًا

وقال في خلاف ذلك مالكُ بن حريم الهمدانيُّ:

وواحدةٌ إلاّ أبيتَ
بغرةٍ
إذا ما سَوَامَ الحيِّ
بات مصرّعا

وثانيةٌ إلاّ
تفرّرع
إذا كان جارُ القوم
فيهم مفرّعا
جارتِي

وثالثةٌ إلاّ أصمّت
كلبنا
إذا نزل الأضيافُ
حِرصاً لتوزّعا

استطرد لغوي قال: ويقال لِحَزِ الكلبِ الإناءُ، فهو يلحزه
لِحزاً، ولحسه فهو يلحسه لحساً، قال أبو يزيد: وذلك إذا
لحس الإناء من باطنه، والقرو: ميلغة الكلب، فإذا كان
للكلب فإنما هو من أسفل كوز أو ما أشبه ذلك، وإلاّ فالقرو
أسفل نخلة يُنجر ويقوب ويُنبذ فيه.
وقال الأعشى:

أرمي بها البيد إذا
وأنت بين القرو

أَعْرَضَتْ

وَالْعَاصِرِ

فِي مَجْدَلٍ شَدِيدٍ
بُنْيَانُهُ

يَزِلُّ عَنْهُ ظَفَرُ
الطَّائِرِ

أَحْبَبِيَّةٌ فِي الْكَلْبِ وَمِمَّا يُحَاجِي بِهِ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَقُولُوا: أَتَعْرِفُونَ شَيْئًا إِذَا قَامَ كَانَ أَقْصَرَ مِنْهُ إِذَا قَعَدَ؟ يَرِيدُونَ الْكَلْبَ، لِأَنَّ الْكَلْبَ قَعُودُهُ إِقْعَاؤُهُ، وَهُوَ إِذَا أَقْعَى كَانَ أَرْفَعَ لِسْمَكِهِ، وَأَرْفَعَ فِي الْهَوَاءِ طَوْلًا مِنْهُ إِذَا قَامَ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

عَلَيْهِ حِنْوًا قَتَبٍ
مُسْتَقْدِمٍ

مُقْعٍ كِإِقْعَاءِ الْكَلْبِ
الْمَعْصِمِ

وَيُقَالُ أَقْعَى الْكَلْبُ إِقْعَاءً، وَلَا يُقَالُ قَعَدَ وَلَا جَلَسَ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقْعِيَ أَحَدُهُمْ فِي الصَّلَاةِ إِقْعَاءَ الْكَلْبِ.

مَعْرِفَةُ سَنِّ الْكَلْبِ

قَالَ صَاحِبُ الْكَلْبِ: يُعْرَفُ فِتَاءُ الْكَلْبِ وَهَرْمُهُ بِالْأَسْنَانِ، فَإِذَا كَانَتْ سَوْدَاءَ كَانَتْ دَلِيلًا عَلَى كِبَرِهِ، وَإِذَا كَانَتْ بَيْضًا حَادَّةً

دلت على الفتاء والحداثة، وقال: أسنان الذكر أكثر.
 أصناف الحيوان المشقوقة الأفواه وأصناف الحيوان
 المشقوقة الأفواه كالكلب والأسد والفهد موصوفات بشدة
 المماضيغ والفك والخراطيم، كالكلب والخنزير والذئب،
 فأشبه الكلب الأسد في شحو الفم واتساعه، وعلى أن شحو
 فمه على مقدار جسمه، وأشبه الذئب والخنزير في طول
 الحظم وامتداد الخرطوم، ولذلك كان شديد القلب، جيد
 الاسترواح، فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلح للرض
 والحطم، كما جمع ما يصلح للابتلاع والالتهام والحطم
 والاستمراء بعض ما قيل في الأسد والأسد حريص واسع
 الشحو، فهو يبتلع البضعة التي لو رآها الإنسان لم يظن أن
 حلقة يتسع لمرور ذلك، ويقال إن عنقه عظم واحد واللحم لا
 تجول فيه، وهو في ذلك قليل الرقيق، فلا يسلس في حلقة ما
 يمر فيه، بل يبتلع لفرط نهمه وشحو لحييه ضعفي ذلك
 المقدار، وقد زعم ناس أن الذي يدل على أن عنق السبع
 عظم واحد، ضعفه عن تصريفه عنقه، فلا يلتفت إلا معاً،
 فيسمى الأصيد، وقال جران العود في الذئب:

وفي الذراعين

شدّ المماضيغ

منه كلَّ مُلْتَفِتٍ والخُرطومِ تسهيلُ

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحياتِ بأنَّها
مَمْطُولَةٌ في الفَكِّينَ، يُذْهَبُ إلى أَنَّهُ عَظْمٌ مَخْلُوقٌ في الفَكِّ،
وَأَنَّهُ لَا يُثْغِرُ، وَأَنْشَدُوا:

مُطِنَنَ فِي اللَّحْيَيْنِ رَأْسِ وَأَشْدَاقِ
مَطْلًا إِلَى رَحِيْبَاتِ

وَالْحَيَّاتُ تَوْصَفُ بِسَعَةِ الْأَشْدَاقِ، وَالْأَفَاعِي خَاصَّةٌ هِيَ
الْمَنْعُوتَةُ بِذَلِكَ، وَقَالَ الشَّاعِرُ وَهُوَ جَاهِلِيٌّ:

خُلِقَتْ لَهَا زِمَةٌ كَالْقِرْصِ فَلَطَحَ مِنْ
عَزِيْنٍ وَرَأْسُهُ طَحِيْنِ شَعِيْرٍ
وَيَدِيْرُ عَيْنًا سَمْرَاءُ طَاحَتْ مِنْ
لِلْوِقَاعِ كَأَنَّهَا نَفِيْضِ بَرِيْرٍ
وَكَأَنَّ شِدْقِيْهِ إِذَا شِدْقًا عَجُوزِ
اسْتَعْرَضَتْهُ مَضْمُضَتْ لَطْهُورِ

مما أشبه فيه الكلبُ الإنسانَ والأسدَ

وممّا أشبهه فيه الكلبُ الإنسان والأسد، أنّ كلّ واحدٍ من هذه الأجناسِ إنّما له بطنٌ واحد، وبعدَ البطنِ المعى، إلا أنّ بعضَ بطنها أعظمُ من بعض، ويناسبها في الذي ذكرنا الذئبُ والذئبُ، فما أكثرَ ما يناسبان الكلب، فذلك صاراً يتناكحان ويتلاقحان، وهذا قول صاحب المنطق، قال: وأمعاء الكلب أشبهُ شيءٍ بأمعاء الحيّة، وهذا أيضاً مما يزيدُ في قدره، لأنّه إمّا أن يشبه الإنسان، وإمّا أن يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات، وكلّما كانت هذه المعاني فيه أكثرَ كان قدره أكبر ما يحتلم من الحيوان وما يحتلم قال: والكلب يحلم ويحتلم، وكذلك الفرس والحمار، والصبّي يحلم ولا يحتلم، والثور في هذا كله كالصبيّ، ويعرف ذلك في الكلب إذا تفرّغ وأنعظ، وزعم أنّ الاحتلام قد عُوين من الفرس والبرذون والحمار بعض الأمور التناسلية لدى الحيوان. قالوا: وليس العظام والتحام الفرجين إلا في الكلب والذئب، ومن أراد أن يُفرّق بين الكلاب إذا تعاطلت وتساافت رامَ أمراً عسيراً. قالوا: والحيوان الذي يطاول عند السّفاد معروف، مثل الكلب والذئب والعنكبوت والجمل، وإن لم يكن هناك التحام، وإذا أراد العنكبوت السّفادَ جلبت الأنثى بعض خيوط نسجها من الوسط، فإذا فعلت ذلك فعَل الذكّر مثل ذلك، فلا يزالان

يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذَّكرِ قُبالةَ بطنِ الأُنثى،
وذلك شَبِيهٌ بَعاداتِ الضفادع.

وقال أبو الحسن عن بعض الأعراب، قال: إذا هَجَمَ الرَّجُلُ
على الذَّنْبِ والذَّنْبَةِ وهما يتسافدان، وقد التَحَمَ الفَرْجانُ،
قتلَهُما ذلك الهاجم عليهما كيف شاء، لأنَّهُما قليلاً ما
يُوجدان كذلك، لأنَّ الذَّنْبَ وحشيٌّ جدًّا وشهيٌّ جدًّا، صاحبُ
قفرةٍ وخلوةٍ، وانفرادٍ وتباعدٍ، وإذا أراد الذَّنْبَةُ توخَّى موضعاً
من القفار لا يطؤه الأنيس، خوفاً على نفسه، وضناً بالذي
يُجد في المطاولة من اللذة.

حديث أحمد بن المثنى وحدثني أحمد بن المثنى قال: خرجتُ
إلى صحراءِ خوخٍ لجنائيةٍ جنيتها وخفتُ الطلب، وأنا شابٌّ،
إذ عرض لي ذئبٌ فكنتُ كلما دُرْتُ من شِقِّ استدارِ بي، فإذا
دُرْتُ له دارٌ من خلفي، وأنا وسطُ بريةٍ لا أجدُ مُعيناً إلا
بشيءٍ أسند إليه ظهري، وأصابني الدُّوار، وأيقنتُ بالهلكة،
فبينما أنا كذلك وقد أصابني ما أصابني وذلك هو الذي أرادهُ
الذَّنْبُ وقدره إذا ذئبةٌ قد عرَضت، وكان من الصَّنْعِ وتأخيرِ
الأجلِ أن ذلك كان في زمنِ اهتياجها وتسافدها، فلما عاينها
تركني وقصدَ نحوها، فما تلَعَّثمُ أن ركبها، وقد كنتُ قرأتُ
في بعض الكتب أنها تلتحم، ففَوَّقتُ سهمي وهما ينظران

إليّ، فلمّا لم أرَ عندهما نكيراً حقّقَ ذلكَ عندي ما كان في الكتاب من تلاخُمِهِما، فمَشَيْتُ إليهما بسيفي حتّى قتلتَهُما.

لقاح الكلاب والخنزير

قال: ومما يُعدُّ للكلاب أنّها كثيراً ما تُلقح وتلقح لحال الدّفء أو الخِصب، والكلبُ والخنزير في ذلكَ سواء، ولا يكاد غيرُهُما من الأصناف يتلاقح في ذلكَ الزمان، فالكلبُ كما ترى يِنازع أيضاً مواضع الإساءة والمحاسن في جميع الحيوان.

أسوأ ما يكون الحيوان خلقاً قال: وإناثُ الكلاب تصعبُ أخلاقُها إذا كانَ لها جِراء، وكلُّ شيءٍ له بيضٌ أو جِراء أو فِراخٌ فأسوأ ما يكونُ خلقاً وأنزقُ وأكثرُ ما يكونُ أدّى وأعْرَمُ إذا كان كذلك، إلاّ إناثُ البقر. والكلب كلما كان أسنّ كان صوتُهُ أجهرَ وأغلظ.

تناسل الكلاب

قال: والكلب يَنزُو إذا تمّت له ستّةُ أشهر، وربّما كان ذلكَ منه وهو ابن ثمانية أشهر، والكلبةُ الأنثى تحمِلُ واحداً وستين يوماً، أطولَ ما يكون، ولا تضعُ قبل أن يتمّ لحملها ستون يوماً، ولا يبقى الجِرو ولا يثرَبى إذا قصرَ عن ذلكَ،

والأنثى تصلح أن يُنزى عليها بعد ستة أشهر.
ولد البكر من الحيوان والإنسان والكلبة والحجر والمرأة
وغير ذلك، يكون أولُ نتاجها أصغر جثة، وكذلك البيض إذا
كان بكرةً، وكذلك ما يخرج منه من فرج أو فرخ بقية
القول في تناسل الكلاب وذكور الكلاب تهيج قبل الإناث في
السّن، والإناث تهيج قبلها في وقت حركتها، وكلما تأخر
وقت الحدث إلى تمام الشباب كان أقوى لولده، والكلاب لا
تريد السّفاد عُمرها كله، بل إلى وقت معلوم، وهي تلقح إلى
أن تبلغ ثماني عشرة سنة، وربما انتدّرت الكلبة فبلغت
العشرين، والكلابُ أجناسٌ كثيرة: الكلب السلوقيّ يسفد إذا
كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك
عند شغور الذكر ببوله، والكلبة تحمل من نزو واحد، وقد
عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلك، قال:
والكلبة السلوقيّة تحمل سدس السنة ستين يوماً، وربّما
زادت على ذلك يوماً أو يومين، والجرو إذا وُضع يكون
أعمى اثني عشر يوماً ثم يبصر، والكلبة تسفد بعد وضعها
في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك. ومن إناث الكلاب ما
تحمل خمس السنة، يعنى اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت
الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوماً. ومن أصناف

الكلاب ما يحمل رُبْع السنة، أعني ثلاثة أشهر، وتضع جِراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً، ثم تُرضع جِراءها على عدد أَيامها التي لا تبصر فيها. وزعم أَنَّ إناث الكلاب تحيضُ في كلِّ سبعة أيام، وعلامة ذلك وَرَم أَثْفارِها، ولا تقبلُ السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة التي بعدها ليكون ذلك تمامَ أربعة عشر يوماً أكثرَ ما يكون، وربما كان كذلك لتمام ستَّة عشر يوماً.

قالوا: وإناث الكلاب تُلقِي بَعْدَ وَضْع الجِراءِ رُطوبَةً غليظةً بلغميَّة، وإذا وَضَعَتْها بَعْدَ الجِراءِ اعترأها هُزال، وكذلك عامَّةُ الإناث، ولبنها يظهرُ في أطبائها قبل أن تَضَع بخمسة أيام أكثرَ ذلك، وربما كَثُر اللبْنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربما كان ذلك في مقدارِ أربعة أيام، ولبنها يظهرُ ويجود إذا وَضَعَتْ من ساعتها، قال: فأما السلوقيَّة فيظهرُ لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكونُ لبنها أوَّلَ ما تَضَعُ غليظاً، فلذا أزمَن رِقَّ ودقَّ، ولبنُ الكلابِ يخالفُ لبنَ سائرِ الحيوانِ بالغلظ، بعد لبن الخنازير والأرانب.

وقد تكون علامة مبلَغُ سِفادها مثلَ ما يعرضُ للنساءِ من ارتفاع التَّديين، ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علامات تَظهرُ لإناث الكلاب، وذكورةُ الكلاب ترفعُ أرجلها وتبولُ لتمام ستَّة

أشهر، ومنها ما لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر،
ومنها ما يعجل قبل ذلك، قال: ونقول بقول عام إن الذكور
تفعل ذلك إذا قويت، فأما الإناث فهي تبول مُقعية، ومنها ما
تشعر، وأكثر ما تضع الكلبة اثنا عشر جرواً، وذلك في
الفرط، وأكثر ذلك الخمسة والستة، وربما وضعت واحداً،
فأما إناث السلوقية فهي تضع ثمانية أجراء، وإناثها
وذكورها تسفد ما بقيت، ويعرض للكلاب السلوقية عرض
خاص: وهي أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد

أعمار الكلاب

وذكورة السلوقية تعيش عشر سنين، والإناث تعيش اثنتي
عشرة سنة، وأكثر أجناس الكلاب تعيش أربع عشرة سنة،
وبعض الأجناس تبقى عشرين سنة. قال: وإناث الكلاب
أطول أعماراً من الذكور، وكذلك هي في الجملة، وليس
يلقي الكلب من أسنانه سنّاً ما خلا النّابين، وإنما يلقيهما إذا
كان ابن أربعة أشهر. قال: ومن أجل أن الكلاب لا تلقي غير
هذين النّابين يشك بعض الناس أنها لا تلقي سنّاً البتّة

أمراض الكلاب

قال: وللكلاب ثلاثة أصنافٍ من المرض، وأسمائها: الكلب
بفتح اللام، والذبحّة، والنقرس، والكلبُ جنون، فإنَّ عرض
لشيءٍ من الحيوان كلبٌ أيضاً أماته، ما خلا الإنسان، وهو
داءٌ يقتل الكلاب، وتقتل به الكلابُ كلَّ شيءٍ عضته، إلا
الإنسان فإنه يعالج فيسلم، أدواء بعض الحيوان قال: وداء
الكلب يعرض للحمار، فأما الجنون وذهابُ العقل فإنه يصيبُ
كلَّ شيءٍ، فمن ذلك ما يصيب الدوابَّ، فإنَّ منها ما يُصرعُ
كما يُصرع المجنون، والسائس من الدواب: الذاهب العقل.
صرع أعين الطبيب وقد كان شأن أعين الطبيب عجباً، وذلك
أنه كان يُصرع، واتفق أنه كان له بغلٌ يصرع، فكان ربّما
اتفق أن يُصرعاً جميعاً وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا
البصريين الصرغ عند الحيوان والصرع عامٌ في الحيوان،
ليس يسلم منه صنف منها حتى لا يعرض له منه شيء،
والإنسان فوق جميع الحيوان تعديباً، وكذلك هو في العقل
والمعرفة والاحتيال له، مع دفع المضرة واجتلاب المنفعة،
وما أكثر ما يعترهم ذلك، ومن ذلك ما يذهب، ومن ذلك ما
لا يذهب بعض من عرض لهم الصرع من الفضلاء وقد كان
بختيشوع المتطبّب عرض له ذلك، وقد كان عرض لعبد
الملك بن قُريب فذهب عنه، وربّما عرض للرجل الذي لا

يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ فِي بَيَانٍ وَلَا تَبْيِينٍ، وَلَا فِي أَدَبٍ، وَلَا فِي اعْتِدَالٍ
مِنَ الْأَخْلَاطِ، وَالصَّحَّةِ مِنَ الْمَزَاجِ، ثُمَّ لَا يَعْرِضُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا
مَا لَا حِيلَةَ لَهُ فِيهِ، كَمَا كَانَ يَعْرِضُ لِبِشْرِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ
الْعَلَاءِ النَّحْوِيِّ الْمَازِنِيِّ وَكَمَا عَرَضَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَمَنْصُورِ
الْأَسَدِيِّينَ، فَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَا، وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّهُمَا صُرْعَا.
الْمُوتَةُ وَالْمُوتَةُ جِنْسٌ مِنَ الصَّرْعِ، إِلَّا أَنَّ صَاحِبَهُ إِذَا أَفَاقَ
عَادَ إِلَى كَمَالِ عَقْلِهِ كَالنَّائِمِ وَالسَّكَرَانَ وَالْمَغْشَى عَلَيْهِ، وَإِنْ
عَاشَ صَاحِبُ الْمُوتَةِ فِي ذَلِكَ مِائَةَ عَامٍ. وَلَيْسَ يَلْقَى شَيْءًا
مِنَ الْحَيَوَانَ فِي هَذَا الْبَابِ كَمَا يَلْقَى الْوَرَشَانَ اخْتِلَافَ
دَرَجَاتِ السُّكَّرِ لَدَى الْحَيَوَانَ كَتَبْيَانِهَا لَدَى الْإِنْسَانِ وَأَمَّا
السُّكَّرُ فَلَيْسَ شَيْءًا مِنَ الْحَيَوَانَ إِلَّا وَهُوَ يَسْكُرُ، وَاخْتِلَافَ
سُكْرِهِ كاخْتِلَافِ سُكْرِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ
يَتَحَدَّثُ وَهُوَ يَشْرَبُ فَلَا تَنْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا، حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ نَوْمُ
السُّكَّرِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَاهُ وَالنَّبِيذُ يَأْخُذُ مِنْهُ الْأَوَّلَ
فَالأَوَّلَ، وَتَرَاهُ كَيْفَ تَتَقَلُّ حَرَكَتَهُ، وَيَغْلُظُ حَسَّهُ وَيَتَمَحَّقُ، حَتَّى
يَطْبِشُ عَلَيْهِ السُّكَّرُ بِالْعَيْثِ، وَيَطْبِقُ عَلَيْهِ النَّوْمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ
يَأْخُذُهُ بِالْعَيْثِ لَا يَعْدُوهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرْضَى بِدُونَ السَّيْفِ،
وَإِلَّا بَانَ يَضْرِبُ أُمَّهُ وَيَطْلُقُ امْرَأَتَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ
الْبُكَاءُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الضَّحِكُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الْمَلَقُ

والتَّفْدِيَّةُ، والتَّسْلِيمُ على المجالس، والتَّقْبِيلُ لرؤوس الناس،
ومنهم من يرقصُ ويثب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما
من العَرَضِ وفضل الأثر، والآخر تحريك المرارة، وهي
علَّةُ الفساد وهيجان الآفة.

وكلُّ هذه الحالات والصُّور، والنعوت، والأجناس، والتوليد،
الذي يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع
البلدان والأزمان والأسنان، وعلى قدر الأعراق والأخلاق،
وعلى قدر القلَّة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد
وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلا أنَّ في الناس
واحدة لم تُوجد في سائر الحيوان قطُّ، فإنَّ في الناس من
لا يسكر البتَّة، كان محمد بن الجهم وأبو عبد الله العمِّيُّ،
وكان بين عقل زبيد بن حميد إذا شرب عشرة أرطال، وبين
عقله إذا ابتداء الشرب، مقدارٌ صالح.

سكرُ العمِّيِّ وإمَّا العمِّيِّ فإنَّ بني عبد الملك الزياديين دعوني
مرَّةً ليعجبوني منه، ولم ينبهوني على هذه الخاصَّة التي
فيه، لأكون أنا الذي أنتبه عليه، فدخلت على رجلٍ ضخم فدم
غليظ اللسان، غليظ المعاني، عليه من الكلام أشل المونَّة،
وفي معانيه اختلافٌ، ليس منها شيءٌ يواتي صاحبه ولا
يعاونه ولا يشاركه ولا يناسبه، وحتى ترى أنَّ أذنه في شِقِّ

ولسانه في شقٍّ، وحتّى تظنّ أنّ كلامه كلامٌ محمودٍ أو
مجنون، وأنّ كلّ واحدٍ منهما يقطع نظام المعاني، ويخلط
بين الأسافل والأعالي، فشرب القوم شربَ الهيم، وكانت لهم
أجسادٌ مذبرة، وأجوافٌ منكّرة، وكنتُ كأني رجلٌ من
النّظّارة، فما زال العمّي يشرب رطلاً، ويرقُّ لسانه، وينحلُّ
عقده، ويصفو ذهنه، ويذهب كدره، ولو قلتُ إنّي لم أر مثله
حسناً نفس كنتُ صادقاً، فالتفت إليّ القومُ أجمعهم فقالوا:
لولا هذا العَجَبُ ما عَجَبْنَاكَ اليومَ معَ حداثَةِ عهدنا بكِ.
وزعم العمّي وكان كثيرَ المنازعة عند القضاة، أنّه كان إذا
قارب العشرة الأرتالِ ثمّ نازعَ الخصومَ، كان ذلك اليومُ الذي
يفوت فيه ذرْعُ الخصومِ لِلْحَنِّ بحجّته، ويستميل فيه رأيَ
القاضي المنعقد في مجلسه الطويل، القطوب في وجه من
نازع إليه، وقال الشاعر:

أقلّهم عقلاً إذا

كان صاحياً

وتترك أخلاق

الرجال كما هيا

وجدتُ أقلّ الناس

عقلاً إذا انتشى

تزيدُ حُسى الكاس

السّفيه سفاهةً

قال: وهذا شعر بعض المولّدين، والأعاريب لا تُخطئ هذا الخطأ؛ قد رأينا أسفَه الناس صاحياً أحلم الناس سكران؛ وهو مرداسٌ صاحب زهير، ورأينا أحسن الناس خلقاً وأوزنهم حلماً، حتّى إذا صار في رأسه رطلٌ كان أخفّ من فَرَاشَة، وأكثر نزواً من جَرَادَة رَمِضَة، فإنّ المثل بها يُضرب.

سبب ما له عَرَفَ المعتزلة سكرَ البهائم وكان سبب ما له عَرَفَ أصحابنا سكرَ البهائم، أنّ محمّد بن عليّ بن سليمان الهاشميّ لما شرب على علويه كلب المطبخ، وعلى الدُّهمان، وعلى شرّاب البصريين، وعلى كلّ من نزع إليه من الأقطار، وتحداه من الشرّاب الجوادّ من الشرّاب، أحبّ أن يشرب على الإبل من البخاتيّ والعراب، ثمّ على الظلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العتاق والبرّادين، فلما فرغ من كلّ عظيم الجثة واسع الجفرة، صار إلى الشاء والظباء، ثم صار إلى النُّسور والكلب وإلى ابن عرس، وحتّى أتاهم حاو فأرغبوه، فكان يحتال لأفواه الحيّات حتّى يصبّ في حاقّ أجوافها بالأقماع المدنيّة، وبالمساعط، ويتخذ لكلّ شيء شركله، وكان ملكاً تواتيه الأمور، وتطيعه الرجال، فأبصروا تلك الاختلافات في هذه الأجناس المختلفة.

نعت النَّظَامَ فخرني أبو إسحاق إبراهيم النَّظَامَ، وقد كان جالسَهُ حيناً وكان إبراهيم مأمونَ اللِّسَانِ، قَلِيلَ الزَّلَلِ والزَّيغِ في باب الصدق والكذب، ولم أزعَم أَنَّهُ قَلِيلُ الزَّيغِ والزَّلَلِ على أَنَّ ذلك قد كان يكونُ منه وإن كان قليلاً، بل إِنَّمَا قُلْتُ على مثل قولك: فلانٌ قَلِيلُ الحياءِ، وأنتَ لستَ تريدُ هناك حياءً البتة، وذلك أَنهم ربَّما وَضعوا القليلَ في موضعِ ليس، وإِنما كان عيبُهُ الذي لا يفارقه سوءَ ظنِّهِ، وجودةَ قياسِهِ على العارضِ والخاطرِ والسابقِ الذي لا يوثقُ بمثله، فلو كان بدَلَ تصحيحِهِ القياسَ التمسَ تصحيحَ الأصلِ الذي كان قاسَ عليه أمرَهُ على الخلاصِ، ولكنَّهُ كان يظنُّ ثمَّ يقيسُ عليه وينسى أَنَّ بدءَ أمرِهِ كان ظناً فإذا اتقنَ ذلك وأيقنَ، جَزَمَ عليه، وحكاهُ عن صاحبه حكايةَ المستبصرِ في صحَّةِ معناه، ولكنَّهُ كان لا يقولُ سمعت، ولا رأيت، وكان كلامُهُ إذا خرج مخرجَ الشَّهادةِ القاطعةِ لم يشكَّ السامعُ أَنَّهُ إِنَّمَا حكى ذلك عن سماعٍ قد امتحنه، أو عن معاينةٍ قد بهرته.

حديث البهائم في تجربة إسكار البهائم والسباع فحدَّثني إبراهيم قال: شهدتُ أكثرَ هذه التَّجربةِ التي كانت منهم في إسكار البهائمِ وَأصنافِ السباعِ، ولقد احتالَ لأسدٍ مقلِّم الأظفار يُنادى عليه: العَجَبُ العَجَبُ حتَّى سقاهُ وعرفَ

مقداره في الاحتمال، فزعم، أنه لم يجد في جميع الحيوان
أملح سُئوراً من الطَّيِّبِ، ولولا أنه من الترفه لَكُنْتُ لا يزال
عندي الطَّيِّبُ حَتَّى أُسْكِرَهُ وَأَرَى طَرَائِفَ مَا يَكُونُ مِنْهُ.
القول في سرعة التعليم والجرأة عند بعض الحيوان قال:
وإنَّ الكلابَ السَّوْقِيَّةَ أُسْرِعَ تَعَلُّماً مِنَ الذُّكُورَةِ، قال:
وجميع أصناف السباع ذُكُورَتُهَا أَجْرَأُ وَأَمْضَى وَأَقْوَى، إِلَّا
الْفَهْدَةَ وَالذَّبَّيَّةَ، وَالْعَامَّةَ تَزْعَمُ أَنَّ اللَّبَّؤَةَ أَجْرَأُ مِنَ الْأَسَدِ،
وليس ذلك بشيء، وهو أَنْزَقُ وَأَحَدُّ، وَأَفْرَقُ مِنَ الْهَجْجَةِ،
وَأَبْعَدُ مِنَ التَّصْمِيمِ وَشِدَّةِ الصَّوْلَةِ.

بين عروة بن مرثد وکلب حسبه لصاً

قال بشر بن سعيد: كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال
له عروة بن مرثد، نزل ببني أخت له في سكة بني مازن،
وبنو أخته من فريش، فخرج رجالهم إلى ضياعهم وذلك في
شهر رمضان، وبقيت النساء يصلين في مسجدهم، فلم يبق
في الدار إلا كلب يعس، فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب،
فسمع الحركة بعض الإمام فظنوا أن لصاً دخل الدار فذهبت
إحداهن إلى أبي الأعز، وليس في الحي رجل غيره،
فأخبرته فقال أبو الأعز: ما يبتغي اللص منا؟ ثم أخذ عصاه

وجاء حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَقَالَ: إِيهِ يَا مَلَأْمَانَ أَمَا
 وَاللَّهِ إِنَّكَ بِي لِعَارِفٍ، وَإِنِّي بِكَ أَيْضاً لِعَارِفٍ، فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا مِنْ
 لُصُوصِ بَنِي مَازَنٍ، شَرِبْتَ حَامِضاً خَبِيثاً، حَتَّى إِذَا دَارَتْ
 الْأَقْدَاحُ فِي رَأْسِكَ مَنَّكَ نَفْسُكَ الْأَمَانِيَّ، وَقَلْتَ دُورَ بَنِي
 عَمْرٍو، وَالرَّجَالَ خُلُوفٍ، وَالنِّسَاءَ يَصَلِّينَ فِي مَسْجِدِهِنَّ،
 فَأَسْرَقِهِنَّ سَوْءَةً وَاللَّهِ، مَا يَفْعَلُ هَذَا الْأَحْرَارُ لِبَنَسٍ وَاللَّهِ مَا
 مَنَّكَ نَفْسُكَ فَاخْرُجْ وَإِلَّا دَخَلْتُ عَلَيْكَ فَصَرَمْتُكَ مِنِّي الْعُقُوبَةَ
 لَا يَمُ اللَّهُ لِتَخْرُجَنَّ أَوْ لِأَهْتَفَنَّ هَتْفَةً مَشْوُومَةً عَلَيْكَ، يَلْتَقِي فِيهَا
 الْحَيَّانُ: عَمْرٍو وَحَنْظَلَةٌ، وَيَصِيرُ أَمْرُكَ إِلَى تَالٍ، وَيَجِيءُ سَعْدٌ
 بَعْدَ الْحَصِيِّ، وَيَسِيلُ عَلَيْكَ الرَّجَالُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَلَنْ
 فَعَلْتَ لِتَكُونَنَّ أَشَامَ مَوْلُودٍ فِي بَنِي تَمِيمٍ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا
 يَجِيبُهُ أَخَذَهُ بِاللَّيْنِ وَقَالَ: اخْرُجْ يَا بُنَيَّ وَأَنْتَ مُسْتَوْرٍ، إِنِّي
 وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ تَعْرِفُنِي، وَلَوْ عَرَفْتَنِي لَقَدْ قَنَعْتَ بِقَوْلِي
 وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيَّ، أَنَا عُرُوةُ بَنِ مَرْتَدِ أَبُو الْأَعَزِّ الْمَرْتَدِيُّ، وَأَنَا
 خَالُ الْقَوْمِ وَجِلْدَةٌ مَا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ لَا يَعْصُونَنِي فِي أَمْرٍ، وَأَنَا
 لَكَ بِالذِّمَّةِ كَفِيلٌ خَفِيرٌ، أَصِيرُكَ بَيْنَ شَحْمَةِ أَدْنِي وَعَاتِقِي لَا
 تُضَارُّ، فَاخْرُجْ فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِي، وَإِلَّا فَإِنَّ عِنْدِي قَوْصَرَتَيْنِ
 إِحْدَاهُمَا إِلَى ابْنِ أُخْتِي الْبَارِ الْوَصُولِ، فَخُذْ إِحْدَاهُمَا فَانْتَبِذْهَا
 حَلَالاً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ

الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ، وإذا سكتَ وثبَ يُرِيغُ المخرجَ،
فتهافت الأعرابيُّ، أي تساقط، ثم قال: يا ألامَ الناسِ
وأوضَعهم، ألا يَأني لك أنا منذُ الليلةِ في وادٍ وأنتَ في آخرِ،
إذا قلتُ لك السَّوداءَ والبيضاءَ تسكتُ وتطرقُ، فإذا سكتُ
عنكَ تَرِيغُ المخرجَ؟ والله لتخرُجَنَّ بالعفو عنكَ أو لألجَنَّ
عليك البيتَ بالعقوبةِ فلما طال وقوفُه جَاءتْ جاريةٌ من إماءِ
الحيِّ فقالت: أعرابيٌّ مجنونٌ والله ما أرى في البيتِ شيئاً
ودفعت البابَ فخرجَ الكلبُ شداً، وحادَ عنه أبو الأعزِّ
مستلقياً، وقال: الحمدُ لله الذي مَسَخَكَ كلباً، وكفاني منك
حرباً ثم قال: تالله ما رأيتُ كالثَّيْلَةَ، ما أراه إلا كلباً أما والله
لو علمتُ بحاله لولجتُ عليه.

بعض خصال الديك

قال صاحب الديك: في الدِّيكِ الشَّجَاعَةُ، وفي الديكِ الصَّبْرُ
عند اللِّقَاءِ، وهم لا يجدون الصَّبْرَ تحت السَّيَاطِ والعصا، إلا
أن يكون ذلك موصولاً بالصَّبْرِ في الحربِ على وقع السِّلَاحِ،
وفي الدِّيكِ الجَوْلَانِ، وهو ضربٌ من الرَّوَغانِ، وجنسٌ من
تدبير الحربِ، وفيه التَّقَافَةُ والتسديد؛ وذلك أنه يقدر إيقاع
صِصِيَّتِهِ بعين الديك الآخر ويتقرَّب إلى المذبح فلا يخطئ،

وهم يتعجبون من الجزار، ويضربون به المثل إذ كان
 لا يخطئ اللبّة، ومن اللحام إذا كان لا يخطئ المفصل، ولذلك
 قالوا في المثل: يطبق المحرّ ولا يخطئ المفصل، وهذا القول
 يذمّون به ويمدحون، والديك في ذلك أعجب، وله مع الطعنة
 سرعة الوثبة، والارتفاع في الهواء، وسلاحه طرير، وفي
 موضع عجيب، وليس ذلك إلا له، وبه سمى قرن الثور
 صيصية، ثم سموا الأظام التي كانت بالمدينة للامتناع بها
 من الأعداء صياصي، قال الله عزّ وجلّ: "وَأَنْزَلَ الَّذِينَ
 ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ"، والعرب تسمي
 الدارع وذا الجئة صاحب سلاح، فلما كان اسم سلاح الديك
 وما يمتنع به صيصية، سموا قرن الثور الذي يجرح
 صيصية، وعلى أنه يشبه في صورته بصيصية الديك وإن
 كان أعظم، ثم لما وجدوا تلك الأظام معاقلهم وحصونهم
 وجنتهم، وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة،
 أجروها مجرى السلاح، ثم سموها صياصي، ثم أسموا
 شوكة الحائك التي بها تهيا السداة واللحمة صيصية إذ كانت
 مشبهة بها في الصورة، وإن كانت أطول شيئاً؛ ولأنها
 مانعة من فساد الحوك والغزل؛ ولأنه في يده كالسلاح،
 متى شاء أن يجأ بها إنساناً وجاء به، وقال دريد بن الصمة:

نَظَرْتُ إِلَيْهِ
وَالرَّمَّاحُ
تَنُوشُهُ

كَوَفَّعِ الصَّيَّاصِي فِي
النَّسِيجِ الْمُمَدَّدِ

استنطراد لغوي

وقد تسمي العربُ إبرة العقرب شوكة، كما تسمي صيصية
الديك شوكة، وهي من هذا الوجه شبيهةً بشوك النَّخْلِ،
ويقال لمن ضربته الحُمْرة، قَدْ ضربته الشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكةَ
إذا ضربت إنساناً، فما أكثرَ ما تعتريه من ذلك الحمرة، وقد
قال القَطاميُّ في تسمية إبرة العقرب شوكة:

تخزم بالأطراف
شوك العقارب

سرى في جليد
الأرض حتى كأنما

وتُوصف الحِجْر وتُشَبَّه بالشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكة غليظةُ
الْمَآخِرِ، لطيفة المَقَادِمِ، والشَّوْكُ والسَّلَاءُ سِوَاءٌ، وقال في
ذلك عَاقِمَةُ بن عبدِة يصف الحِجْر:

ذو فيئةٍ من نوى
قران معجوم

سلاءة كعصا
النَّهْدِيَّ غلَّ لها

ومن سمى إبرة العقرب حُمة فقد أخطأ، وإنما الحُمة سمومٌ
ذوات الشعر كالدَّبر والزَّنابير، وذوات الأنياب والأسنان
كالأفاعي وسائر الحيات، وسموم ذوات الإبر من العقارب،
فأما البيشُ وما أشبهه من السُّموم، فليس يقال له حُمة،
وها هنا أمور لها سمومٌ في خراطيمها، كالذَّبَّان والبَعوض
وأشياء من الحشرات تَعَضُّ وربما قتلت، كالشَّبَثِ وسامِّ
أبرص، والطَّبَّوعُ شديد الأذى، والرَّتِيلاءُ ربما قتلت،
والضَّمج دون ذلك، وعقارب طيَّارة: ولم نرهم يسمون
جميع السُّموم بالحُمة، فقلنا مثل ما قالوا، وانتهينا إلى حيثُ
انتهوا.

بعض من تقتل عضته

وقد يُعرفُ بعضُ النَّاسِ بأنَّه متى عضَّ قَتَلَ، كان منهم
صفوان أبو جشم الثَّقَفِيّ، وداودُ القَرَّاد، وسيقع هذا البابُ
في موضعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى.

استطراد لغوي

والناس يسمون الرَّجُلَ إذا بلغ من حرصه ألا يدع ذكراً،
غلاماً كان أو رجلاً، وخصياً كان أو فحلاً، إلا نكحه من فرط
عُلمته، ومن قوَّة فحلتِه: صِصِيَّة، ويقولون: ما فلانُ إلا

صِصِيَّة، وهو عندهم اسمٌ لمن اشتدَّ لواطه؛ تشبيهاً منهم
بصِصِيَّة الديك في الحدة والصَّلابَة.

بعض مزايا الديك

وللديك انتصابه إذا قام، ومباينته صورةً في العين لصورة
الدجاجة، وليس هذا الفرق الواضح من جميع الإناث
والذكور موجوداً إلا فيه، وليس ذلك للحمام والحمامة، ولا
للحمار والحمارة، ولا للبردون والرَمكة ولا للفرس
والحجر، ولا للجمل والناقة؛ وليس ذلك إلا لهذه الفحولة
لأنها كالرجل والمرأة، والتيس والظبية، والديك والدجاجة
وكالفحل والنخلة المطعمة، ألا ترى أنك لو رأيت ناقةً مقبلة
لم تدر أناقة هي أم جمل، حتى تنظر إلى موضع الثيل
والضرع، وإلى موضع الحيا، وكذلك العنز، وكذلك جميع ما
وصفت، إلا أن يدعوا أن للعامة أو لبعض الخاصة في ذلك
خصوصية، ولذلك ضربوا المثل بالتيس والنخلة والفحل،
فاشتقوا من هذا الفحل، وهذا أيضاً من خصال الديك، ثم
للديك لحية ظاهرة، وليست تكون اللحي إلا للجمل فإنه
يوصف بالعثون، وإلا للتيس وإلا للرجل، وقال الراجز في
الجمل:

سام كأنَّ رأسه
فيه وَذَم

مختلط العُثُونِ
كالتَّيسِ الْأَحَمِّ

إِذْ ضَمَّ مِنْ قَطْرِيهِ
هِيَاجَ قَطْمٍ

ثمَّ الديك بعدُ صاحب اللّحية والفرق، وقالت امرأة في ولدها
وزوجها:

أشهبَ ذي رأسٍ كِراسِ الديكِ

أما قولها أشهب، فإنها تريد أن شعرَ جسده قد ابيضَّ من
الكِبَر، وإنما جعلتُ شعرَ رأسه كِراسِ الديك لأنه كان
مخضوبَ الرأس واللّحية بالحُمْرة، ثمَّ لم ترضَ له بشبه
الرجال من هذا الوجه حتَّى جعلتُ رأسه أفرق، وذلك شيءٌ
من الجمال والوقار والفضل، لا يتهيأ للناس مع كمالهم
وتمامهم إلا بالتكلف والاحتيال فيه، ثمَّ يبلغ من شدّة تعجله
ومن قوّته على السّفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان
إذا كان ذا حظٍّ منه وهو ممّا يُذكي النّفس كنعو ما ذكر عن
التّيس المراطيّ، وكنحو ما تراهم يُبركون للُبْحَتِي الفالَج

عَدَّة قِلاص، فَإِذَا ضَرَبَ الْأُولَى فَخَافُوا عَلَيْهَا أَنْ يَحِطِمَهَا
وَهُوَ فِي ذَلِكَ قَدْ رَمَى بِمَانِهِ مِرَاراً أَفْلَتَهُ الرَّجَالُ عَلَى الَّتِي
تَلِيهِ فِي الْقَرَبِ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى الثَّلَاثِ وَالْأَرْبَعِ عَلَى ذَلِكَ
الْمِثَالِ، وَمَا دَعَاهُمْ إِلَى تَحْوِيلِهِ عَنِ الثَّلَاثَةِ إِلَى الرَّابِعَةِ إِلَّا
تَخَوَّفَهُمْ مِنَ الْعَجْزِ مِنْهُ، وَزَعَمَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَبْرَصُ الْعَمِّيُّ،
وَكَانَ مِنَ الْمُعْتَزَلِينَ، أَنَّ التَّيْسَ الْمِرَاطِيَّ قَرَعَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ
مِنْ أَوَّلِ هَيْجَةٍ نَيْقًا وَثَمَانِينَ قَرَعَةً، وَالنَّاسُ يَحْكُونُ مَا يَكُونُ
مِنَ الْعُصْفُورِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ، وَالنَّاسُ
يُدْخِلُونَ هَذَا الشَّكْلَ فِي بَابِ الْفَضْلِ، وَفِي بَابِ شِدَّةِ الْعِجْلةِ
وَتِظَاهِرِ الْقُوَّةِ، وَالِدِيكَ يَكُونُ لَهُ وَحْدَهُ الدَّجَاجُ الْكَثِيرُ،
فِي وَسْعِهَا قَمْطًا وَسَفَادًا، وَقَدْ قَلْنَا فِي حَالَةِ الْبَيْضِ الْكَثِيرِ
الثَّرَابِي وَقَلْبِهِ إِيَّاهُ بِسَفَادٍ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ، وَعَلَى أَنَّ الَّذِي
يَخْصِيهِ إِنَّمَا يُخْرَجُ لَهُ مِنْ بَيْنِ الزَّمَكِيِّ وَمَوْضِعِ الْقِطَاةِ
بَيْضَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مَعْرُوفَتَيْنِ.

وَأَنَا رَأَيْتُ دِيكًا هِنْدِيًّا تَسْمُ دَجَاجَةً هِنْدِيَّةً فَلَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْهَا،
فَرَأَيْتُ نَطْفَتَهُ حِينَ مَجَّهَا وَقَدْ زَلِقَ عَنْ ظَهْرِهَا عَلَى مَدْرَةٍ،
وَكَانَتْ الدَّارُ مُثَارَةً لَتُجْعَلَ بُسْتَانًا، فَإِذَا تَلَّتْ الْمَجَّةُ كَالْبُرْقَةِ
الْبَيْضَاءِ، فَأَخَذَهَا بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَنَا فَشَمَّهَا حِينَ رَأَى
بَيَاضَهَا وَخَثُورَتَهَا وَكَدْرَتَهَا، لِيَعْلَمَ هَلْ تَنَاسَبَ رِيحُهَا رِيحَ

نُطفة الإنسان، وريحَ طَلَعِ الْفُحَّالِ، فلم يجد ذلك.
ثمَّ معرفةُ الدَّيْكِ بِاللَّيْلِ وساعاته، وارتفاقُ بني آدم بمعرفته
وصوته: يعرفُ آناءَ الليلِ وعددَ الليلِ وعددَ السَّاعاتِ،
ومقاديرَ الأوقاتِ، ثمَّ يقسِّطُ أصواته على ذلك تقسيطاً
موزوناً لا يُغادرُ منه شيئاً، ثمَّ قد علمنا أنَّ اللَّيْلَ إذا كان
خمسَ عشرةَ ساعةً أنه يقسِّطُ أصواته المعروفةَ بالعددِ
عليها، كما يقسطها والليل تسعُ ساعات، ثمَّ يصنع فيما بين
ذلك من القسمة وإعطاءِ الحصصِ على حساب ذلك، فليعلم
الحكماءُ أنه فوقَ الأسطرلابِ، وفوقَ مقدارِ الجُزْرِ والمدِّ
على منازلِ القمرِ، وحتَّى كأنَّ طَبَعَهُ فَلَكَ على حِدَةٍ، فجمَعَ
المعرفةَ العجيبةَ والرَّعايةَ العجيبةَ. وربَّ معرفةٍ تكونُ نبيلةً
وأخرى لا تكونُ في طريقِ النَّبالةِ، وإنَّ كانتِ المعارفُ كُلُّها
مفصَّلةً مقدَّرةً، إلاَّ أنَّها في منازلٍ ومراتبٍ، وليس في
الأرضِ معرفةً بدقيقٍ ولا جليلٍ وهي في نفسها شريفةً
كريمةً، والمعرفةُ كُلُّها بَصْرٌ، والجهلُ كُلُّه عَمَى، والعمى كُلُّه
شَيْنٌ ونقصٌ، والاستبانةُ كُلُّها خيرٌ وفضلٌ، ثمَّ له بعد ذلك
ارتفاقُ الناسِ بهذا المعنى منه، ومن ذلك بُعدُ صوته، وأنَّه
يدلُّ على أنَّ موضعه مَأْهُولٌ مَأْنوسٌ، ولذلك قالوا: لا يكون
البُنيانُ قريةً حتَّى يصقَعُ فيها ديكٌ. وليس في الأرضِ طائرٌ

أَمْلَحٌ مِلْحًا مِنْ فَرْوَجٍ، وَلَيْسَ ذَلِكَ الْإِسْمُ إِلَّا لَوْلَدِ الدِّيكِ، وَإِلَّا
فَكُلُّ شَيْءٍ يَخْرُجُ مِنَ البَيْضِ فَإِنَّمَا هُوَ فَرْخٌ وَالْفَرْوَجُ حِينَ
تَتَصَدَّعُ عَنْهُ البَيْضَةُ، يَخْرُجُ كَاسِبًا عَارِفًا بِمَوْضِعِ لِقَطِ الحَبِّ
وَسَدِّ الخَلَّةِ، وَهُوَ أَصِيدٌ لِلذُّبَابِ مِنَ السُّودَانِيِّ، وَيَدْرُجُ مَعَ
الوِلَادَةِ بِلا فِصْلٍ، وَهَذَا مَعَ مَا أُعْطِيَ مِنَ مَحَبَّةِ النِّسَاءِ،
وَرَحْمَةِ الرِّجَالِ، وَحُسْنِ الرَّأْيِ مِنْ جَمِيعِ الدَّارِ، ثُمَّ اتَّبَعَهُ
لِمَنْ دَعَاهُ، وَإِلْفَهُ لِمَنْ قَرَّبَهُ، ثُمَّ مَلَا حَهُ صَوْتَهُ وَحُسْنَ قَدِّهِ، ثُمَّ
الَّذِي فِيهِ مِمَّا يَصِحُّ لَهُ الفَرْوَجُ وَيَتَفَرَّجُ فِيهِ.

تفضيل الديك على الثعلب

قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ سَعِيدٍ، يَزْعُمُ أَنَّ الدِّيكَ أَحْمَدُ مِنَ الطَّائِسِ،
وَأَنَّهُ مَعَ جَمَالِهِ وَانْتِصَابِهِ وَاعْتِدَالِهِ وَتَقَلُّعِهِ إِذَا مَشَى، سَلِيمٌ
مِنْ مَقَابِحِ الطَّائِسِ وَمِنْ مَوْقِهِ وَقَبْحِ صَوْرَتِهِ، وَمِنْ تَشَاوُمِ
أَهْلِ الدَّارِ بِهِ وَمِنْ قُبْحِ رِجْلِيهِ، وَنَدَالَةِ مَرَّاتِهِ، وَزَعَمُ أَنَّهُ لَوْ
مَلِكٌ طَائِسًا لَأَلْبَسَ رِجْلِيَهُ خَفًّا، وَكَانَ يَقُولُ: وَإِنَّمَا يُفَخَّرُ لَهُ
بِالتَّلَاوِينِ، وَبِتِلْكَ التَّعَارِيجِ الَّتِي لِأَلْوَانِ رِيَشِهِ، وَرَبَّمَا رَأَيْتَ
الدِّيكَ النَّبْطِيَّ وَفِيهِ شَبِيهَةٌ بِذَلِكَ، إِلَّا إِنَّ الدِّيكَ أَجْمَلُ مِنَ
التُّدْرُجِ؛ لِمَكَانِ الِاعْتِدَالِ وَالِانْتِصَابِ وَالِإِشْرَافِ، وَأَسْلَمُ مِنَ

العيوب من الطاوس، وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسنَ
من الدَّيْكَ النَّبْطِي فِي تَلَاوِين رِيْشِهِ فَقَطْ لَكَانَ فَضْلُ الدَّيْكَ
عَلَيْهِ بِفَضْلِ الْقَدِّ وَالْحَرْطِ، وَبِفَضْلِ حُسْنِ الْإِنْتِصَابِ وَجُودَةِ
الإِشْرَافِ أَكْثَرَ مِنْ مَقْدَارِ فَضْلِ حُسْنِ أَلْوَانِهِ عَلَى أَلْوَانِ
الدَّيْكَ، وَلَكَانَ السَّلِيمُ مِنَ الْعُيُوبِ فِي الْعَيْنِ أَجْمَلَ لِعَتْرَاضِ
تِلْكَ الْخِصَالِ الْقَبِيحَةِ عَلَى حَسَنِ الطَّائِوسِ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ
إِلَيْهِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْحَمْدِ السَّلَامَةِ مِنَ الدَّمِّ، وَكَانَ يَزْعَمُ أَنَّ
قَوْلَ النَّاسِ فَلَانٌ أَحْسَنُ مِنَ الطَّائِوسِ، وَمَا فَلَانٌ إِلَّا طَّائِوسٌ،
وَأَنَّ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

جَلُودُهَا مِثْلُ طَوَائِيسِ الذَّهَبِ

وَأَنَّهُمْ لَمَّا سَمَّوْا جَيْشَ ابْنِ الْأَشْعَثِ الطَّوَائِيسَ لِكَثْرَةِ مَنْ كَانَ
يَجْتَمِعُ فِيهِ مِنَ الْفَتَيَانِ الْمَنْعُوتِينَ بِالْجَمَالِ، إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ
لَأَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَبْصُرُ الْجَمَالَ، وَلَفَرَسٌ رَائِعٌ كَرِيمٌ أَحْسَنُ مِنْ
كُلِّ طَائِوسٍ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَإِنَّمَا ذَهَبُوا
مِنْ حَسَنِهِ إِلَى حَسَنِ رِيْشِهِ فَقَطْ، وَلَمْ يَذْهَبُوا إِلَى حَسَنِ
تَرْكِيْبِهِ وَتَنْصِبِهِ، كَحَسَنِ الْبَازِيِّ وَانْتِصَابِهِ، وَلَمْ يَذْهَبُوا إِلَى
الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ وَإِلَى الشَّيْئَاتِ وَالْهَيْئَةِ، وَالرَّأْسِ وَالْوَجْهِ
الَّذِي فِيهِ.

وكان جعفر يقول: لَمَّا لم يكن في الطاوس إلاَّ حسنه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسن ما يبرحُ ذلك ويجاذبه وينازعه ويشغل عنه، دُكِرَ وتبيّن وظهر، وخصال الديك كثيرة، وهي متكافئة في الجمال، ونقول: لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، وكما أنه ليس للعرب في النَّاسِ نظير؛ وذلك حين لم تكن فيه خصلةٌ أغلب من أختها، وتكاملت فيه وتساوت، وتوافقت إليه فكان الطبع في وزن المعرفة، فقالوا عند ذلك: سيّد الأبطح وسيّد الوادي وسيّد قريش، وإذا قالوا سيّد قريش فقد قالوا سيّد العرب، وإذا قالوا سيّد العرب فقد قالوا سيّد الناس، ولو كان مثل الأحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكروه بالحلم؛ ولذلك ذكر قيس بن زهير في الدّهاء، والحارث بن ظالم في الوفاء، وعتيبة ابن الحارث في النّجدة والثّقافة، ولو أنّ الأحنف بن قيس رأى حاجب بن زرارة، أو زرارة بن عدس، أو حصن بن حذيفة، لقدّمهم على نفسه، وهؤلاء عيونُ أهلِ الوبر لا يُذكرون بشيءٍ دون شيءٍ لاستواءِ خصال الخير فيهم، وفي منحول شعر النابغة:

كذلك كان نوح لا

فألفت الأمانة لم

وليس لهذا الكلام وجه، وإنما ذلك كقولهم كان داود لا يخون، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام، وهم وإن لم يكونوا في حالٍ من الحالات أصحابَ خيانةٍ ولا تجوزُ عليهم، فإنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يضربون المثلَ بالشيءِ النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم، كما قالوا: عيسى ابن مريم رُوح الله، وموسى كلِّيم الله، وإبراهيم خليلُ الرحمن، صلى الله عليهم وسلم، ولو ذكر ذاكرُ الصبرِ على البلاءِ فقال: كذلك كان أيُّوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً، ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها، ولو ذكر الاحتمال وتجرُّع الغيظ فقال: وكذلك كان معاوية لا يسهفُ، وكان حاتم لا يفحش، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعه، وإن كان حاتم لا يُعرَف بقلَّة الاحتمال وبالتسرُّع إلى المكافأة، ولو قال: سألتك فمَنعتني وقد كان الشَّعْبِيُّ لا يمنع، وكان النَّخَعِيُّ لا يقول لا، لكان غيرَ محمودٍ في جهة البيان، وإن كان ممَّن يُعطي ويختار نعم على لا، ولكنَّ لَمَّا لم يكن ذلك هو المشهور من

أمرهما لم تُصَرَفِ الأُمثال إليهما، ولم تضرب بهما، قال
جعفر: وكذلك القول في الديك وجماله؛ لكثرة خصاله،
وتوازن خلاله، ولأنَّ جمال الديك لا يلَهجُ بذكره إلاَّ البُصراءُ
بمقادير الجمال والتوسطِ في ذلك، والاختلاط والقصد، وما
يكون ممزوجاً وما يكون خالصاً، وحُسن الطاوس حسناً لا
تعرف العوامُ غيرَه، فلذلك لهجت بذكره، ومن الدجاج
الخلاسي والهندي، ومن الدجاج الزنجي ومنها الكسكري،
ومن الديكة ما يُخصى فلا يبلغه في الطيب والسمن شيء
وإن اشتد لحمه، وإن كان غيرِ خصيٍّ فقد يُمدح ذلك من
وجهٍ هو أَرَدُّ عليه في باب الفخر، من رَخاوة اللحم
واستطابة الأكل، وعلى أنه لو كان أدناه من بعض سباع
الطير، أو عدا خَلْفَه إنسانٌ، فكان يريد أخذه حتى إذا فسخه
البحر ارتدَّ في موضعه لا يبرحُه، ثم ذبحه على المكان،
لجمَع به الخصال كلها، ولو علَّقَ في عنقه حَجْرٌ ليلته بعد
أن ذبحه، أو أولج بطنه شيئاً من حلتيت لجمَع به الخصال؛
فإنه أَعْمَلُ فيه من البورق وقشور البطيخ في اللحم
المفصّل، وهو بعدُ غيورٌ يحمي دجاجَه، وقال الرَّاجز:

يغارُ والغيرةُ خُلِقَ في الذَّكَرِ

وقال الآخر:

الفحل يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقُولًا

لحم الدجاج

ولحم الدجاج فوق جميع اللُّحمان في الطَّيب والبياض، وفي الحسن، والملوك تقدّمه على جميع الفراخ والنواهض، والبطّ، والدُّرَّاج، وهم للدُّرَّاج آكلٌ منهم للجِدَاء الرُّضَع، وللْعُنُق الحُمَر من أولاد الصَّفَايا. والدِّجَاجُ أَكْثَرُ اللُّحومِ تصرُّفاً، لأنّها تطيب شِواءً، ثم حارّاً وبارداً، ثمّ تطيب في اليَوْمَاوَرْد، ثم تطيب في الهَرَايس، ويحدث لها به نفحةٌ لا تُصاب مع غيرها، وتطيب طبيخاً، وتطيب فُصُوصها، وإنّ قَطَّعتها مع اللحم دَسِمَ ذلك اللحم، وتصلح للحشاوى، وللملاقسطي، وتصلح في الاسفِرْجَات وسمينها يقدّم في السَّكْبَاجَة على البطّ، إلاّ أنّها تُطَعَمُ المَفْصُودَ وليس ذلك للبطّ.

لفظ: الدجاج قال: والدَّيْكة دَجَاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلب فيه الإناث على الذكور، وقال آخرون: لا، ولكنّ الدَّيْكَ نفسه دَجَاجَة، إلاّ أنّهم أرادوا إبانته

بأنه ذكرٌ فقالوا: ديك، كما يسمُّون الذكر والأُنثى فرساً بلا هاء، فإذا أرادوا أن يُثبتوا إناثها قالوا حجر، وإن كانت حجرًا فهي فرس، وقال الأخطل:

صاح الدجاجُ
وحانتَ وقفةُ
السَّاري

نازعتَه في الدجى
الراحَ الشَّمولَ وقد

وقد بيَّن ذلك القرشيُّ حيث يقول:

كانَ ما كانَ لا تطأهُ
الدَّجاجُ

اطرُدوا الدَّيكَ عن
ذوابةِ زيدٍ

وذلك أنه كان رأى رأسَ زيد بن علي في دار يوسف بن عمر، فجاء ديكٌ فوطئ شَعْرَه ونقره في لحمه ليأكله.

حوار في صياح الديكة

قالوا: قد أخطأ من زعم أن الديكة إنما تتجاوب، بل إنما ذلك منها شيءٌ يتوافق في وقت، وليس ذلك بتجاوبٍ كنباح الكلاب؛ لأنَّ الكلب لا وقت له، وإنما هو صامتٌ ساكت ما لم يحسَّ بشيءٍ يفزع منه، فإذا أحسَّ به نبح، وإذا سمع نباح

كَلْبٍ آخِرٍ أَجَابَ ثُمَّ أَجَابَ ذَلِكَ آخِرٌ، ثُمَّ أَجَابَهُمَا الْكَلْبُ الْأَوَّلُ،
وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمَجَاوِبُ جَمِيعَ الْكِلَابِ، وَالذَّيْكَ لَيْسَ إِذَا مِنْ أَجْلِ
أَنَّهُ أَنْكَرَ شَيْئاً اسْتَجَابَ، أَوْ سَمِعَ صَوْتاً صَقَعَ، وَإِنَّمَا يَصْقَعُ
لشَيْءٍ فِي طَبْعِهِ، إِذَا قَابَلَ ذَلِكَ الْوَقْتَ مِنَ اللَّيْلِ هَيَّجَهُ، فَعَدَّدَ
أَصْوَاتِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ تَتَجَاوَبُ فِيهِ الدَّيْكَةُ، كَعَدَدِ
أَصْوَاتِهِ فِي الْقَرْيَةِ وَلَيْسَ فِي الْقَرْيَةِ دَيْكٌ غَيْرُهُ، وَذَلِكَ هُوَ
فِي الْمَوَاقِيتِ، وَالْعَلَّةُ الَّتِي لَهَا يَصْقَعُ فِي وَقْتِ بَعِينِهِ شَائِعَةٌ
فِيهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْكِلَابُ قَدْ تَنَبَّحَ الْكِلَابُ فِي
الْخُرَيْبَةِ وَكِلَابٌ فِي بَنِي سَعْدٍ غَيْرِ نَابِحَةٍ، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ
تَكُونَ دَيْكَةٌ الْمَهَالِبَةُ تَصْقَعُ، وَدَيْكَةُ الْمَسَامِعَةِ سَاكِنَةٌ، فَإِنْ
أَرَادَ مَرِيضٌ بِقَوْلِهِ إِنَّ الدَّيْكَةَ تَتَجَاوَبُ، وَعَلَى مِثْلِ قَوْلِ الْعَرَبِ:
هَذِهِ الْجِبَالُ تَتَنَاطَرُ، إِذَا كَانَ بَعْضُهَا قُبَالَةَ بَعْضٍ، وَإِذَا كَانَ
الْجَبَلُ مِنْ صَاحِبِهِ بِالْمَكَانِ الَّذِي لَوْ كَانَ إِنْسَانٌ رَأَى جَارَ ذَلِكَ،
وَعَلَى هَذَا الْمِثَالِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَارِ
الْمَشْرِكِينَ مَا قَالَ، حَيْثُ قَالَ: لَا تَتَرَاعَى نَارَاهُمَا، وَمَعَ قَوْلِ
الشَّاعِرِ:

لَا تَتَرَاعَى قُبُورَهُمَا

وَقَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ الْعَجْلَانِيُّ:

سَلِ الدَّارَ مِنْ
جَنبِي حَبْرٌ
فَوَاهِبٌ

وَحَيْثُ يَرَى هَضْبَ
الْقَلْبِ الْمَضِيحِ

وتقول العرب: إذا كانت بمكان كذا وكذا، حيث ينظر إليك
الجبل فخذ عن يسارك أو عن يمينك، وقال الرَّاجز:

وكما يرى شيخ الجبال ثبيراً

وشيوخ الجبال عنده أبو قبيس، وقال النبي صلى الله عليه
وسلم وعلى آله الأخيار: أنا بريء من كل مسلم مع كل
مشرِك، قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: لا تتراعى ناراهما،
وقال الكسائي: تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان،
ودورنا تتناظر، وقال الله تبارك وتعالى: "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، وإنما قال القوم في تجاوب الديكة
ببيت شعر سمعوه للطِّرِمَّاح، جهلوا معناه، وهو:

فيا صبح كمش
غبر الليل
مصعداً

ببم ونبه العفاء
الموشح

حماش الشوى
يصدحن من كل
صداح

إذا صاح لم يخذل
وجاوب صوته

وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب:

إلى الصباح وهم
قوم معازيل

إذا صفق الديك
يدعو بعض أسرته

وإنما أراد توافي ذلك منها معاً؛ فجعلها دعاء وتجاوبا على ما فسرناه.

تفضيل صاحب الكلب الحمار على الديك

قال صاحب الكلب: لولا أنا وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل، يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة، لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود، ولو أن متفقداً يتفقّد ذلك من الحمار لوجدّه منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم؛ ولو جَدَّ ذلك مقسوماً على ساعات الليل، وكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوب، إنما ذلك شيء يتوافى معاً، لاستواء العلة، ولم تكن للديك الموصوفِ بأنه فوق الأسطربلاب فضيلةً ليست

للحمار، وعلى أنّ الحمار أبعد صوتاً، وقد بلغ من شدة
صوته ما إن حَلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز: إنّ الحمار ما ينام
قيل له: وما ذاك؟ قال: لأنّي أجدُ صياحه ليس بصياح شيءٍ
انتبه تلك الساعة، ولا هو صياحٌ من يريد أن ينام بعد
انقضاء صياحه، هذا والحمارُ هو الذي ضَرَبَ به القرآنُ
المثَلُ في بُعد الصوت، وضَرَبَ به المثلُ في الجَهْل، فقال:
"كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا"، فلو كان شيءٌ من الحيوان
أجهلَ بما في بطون الأسفار من الحمار، لضَرَبَ الله المثلَ به
دونه، عشرة أمثال في شأن الحمار وعلى أنّ فيه من
الخصال ما ليس في الديك، وذلك أنّ العربَ وضعتَه من
الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: "كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا" وكفاك به مثلاً
إذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تفضيل هداية
أبي سفيان، وقال العرب: أَنْكَحُ مِنَ الْفَرَا، وَالْفَرَا مَهْمُوزُ
مفتوحة الفاء مجموعُهُ فِرَاءٌ، قال الشاعر:

وَطَعْنَ كَابِزَاغِ
المَخَاصِ تَبُورُهَا

بِضَرْبِ كَادَانَ
الْفِرَاءِ فُضُونُهُ

وتقول العرب: العَيْرُ أَوْقَى لِدَمِهِ، وقولهم: مَنْ بَيْنَكَ العَيْرُ بَيْنَكَ نِيَاكًا، وقالوا: الجَحْشَ إِذَا فَاتَتْكَ الأَعْيَارُ وقالوا: أَصْبَرَ مَنْ عَيْرَ أَبِي سَيَّارَةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ دَفَعَ بِأَهْلِ المَوْسَمِ عَلَى ذَلِكَ الحِمَارِ أَرْبَعِينَ عَامًا، وقالوا: إِنْ ذَهَبَ عَيْرٌ فَعَيْرٌ فِي الرِّبَاطِ، وقالوا فِي المَدِيحِ لِصَاحِبِ الرَّأْيِ: جُحَيْشٌ وَحَدِهِ، وَ عَيْرٌ وَحَدِهِ، وَ العَيْرُ يَضْرِبُ وَالمِكْوَاةُ فِي النَّارِ؛ وقالوا: حِمَارٌ يَحْمَلُ أَسْفَارًا، وَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ، وَ أَخْزَى اللّهِ الحِمَارَ مَا لَّا لَا يُزَكَّى وَ لَا يَذَكَّى، وَ قَدْ حِيلَ بَيْنَ العَيْرِ وَ النَّزْوَانِ، فَالذِّي مُدِحَ بِهِ أَكْثَرَ؛ فَقَدْ وَجَدْنَا الحِمَارَ أَبْعَدَ صَوْتًا، وَ وَجَدْنَاهُ يَعْرِفُ مِنْ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ وَ يَمَيِّزُ عَدَدًا مَعْلُومًا إِلَى الصَّبْحِ، إِلاَّ أَنَّهُ لَهْ فِي الأَسْحَارِ فَضِيلَةٌ، وَ الحِمَارُ أَجْهَلُ الخَلْقِ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلذَّيْكَ أَنْ يُقْضَى لَهُ بِالمَعْرِفَةِ وَ الحِمَارُ قَدْ سَاوَاهُ فِي يَسِيرِ عِلْمِهِ، ثُمَّ بَايَنَهُ أَنَّ الحِمَارَ أَحْسَنُ هِدَايَةٍ، وَ الذَّيْكَ إِنْ سَقَطَ عَلَى حَائِطِ جَارِهِ لَمْ يُحْسَنَ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى دَارِهِ، وَإِنْ خَرَجَ مِنْ بَابِ الدَّارِ ضَلًّا، وَ ضَلَّاهُ مِنْ أَسْفَلِ كضلالِهِ مِنْ فَوْقِ.

أحاديث في الديك

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

قال صاحب الديك: حدّثونا عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، قال: صرّخ ديكٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم فسبّه بعض أصحابه، فقال: لا تسبّه فإنه يدعو إلى الصلاة، وعن ابن الماجشون، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، عن يزيد بن خالد الجهني: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سبّ الديك وقال: إنه يؤذّن للصلاة.

الحسن بن عمارة، عن عمرو بن مرّة، وعن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنّ مما خلق الله تعالى لديقاً عرفه تحت العرش وبرائته في الأرض السفلى، وجناحاه في الهواء، فإذا ذهب ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحه ثم قال: سبّحوا الملك القدوس، سُبّوح قُدّوس - أي أنّه لا شريك له - فعند ذلك تضرب الطير بأجنحتها وتصيح الديكة، وأبو العلاء عن كعب: إنّ لله تعالى ديكاً عُنفه تحت العرش، وبرائته في أسفل الأرضين، فإذا صاحت الديكة يقول: سبحان الملك القدوس الملك الرحمن، لا إله غيره، قال: والديكة أكيس شيء، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنّ الديك الأبيض صديقي، وعدوّ عدوّ الله، يحرس دار صاحبه وسبع دور، وكان رسول الله صلى

الله عليه وسلم يبيته معه في البيت. وروى أن أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسافرون بالديكة.

ذبح الديك الأفرق

وزعم أصحاب التجربة أنه كثيراً ما يرون الرجل إذا ذبح
الديك الأبيض الأفرق، أنه لا يزال يُنكب في أهله وماله.

كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً

ومما في المحاجة أن يقال: كيف تعرف الديك من الدجاجة
إذا كان صغيراً حين يخرج من البيضة؟ فقالوا: يعلق
بمنقاره، فإن تحرك فهو ديك وإن لم يتحرك فهو دجاجة.

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

قال الشاعر في حسن الدجاجة ونبل الديك:

أبا الدهناء من حلب
العصير

نرى العصفور
أعظم من بعير

عدوت بشربة من
ذات عرق

وأخرى بالعنقل
ثم رُحنا

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
السَّرِيرِ

بَنَاتُ الرُّومِ فِي
فُصِّ الحَرِيرِ

يَنْلَنُ أُنَامِلَ الرَّجْلِ
القَصِيرِ

وَأَمْسَحُ جَانِبَ القَمَرِ
الْمَنِيرِ

كَأَنَّ الدَّيْكَ دِيكَ
بَنِي نُمَيْرِ

كَأَنَّ دَجَاجَهُمْ فِي
الدَّارِ رُقْطاً

فَبِتَّ أَرَى الكَوَاكِبِ
دَانِيَاتِ

أَدَافِعُهُنَّ بِالكَفَيْنِ
عَنِّي

طعن صاحب الكلب في الديك

وقال صاحب الكلب: الأشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور، والديك مما يتخذها الناس، وليس مما يحن إليهم فيقطع البلاد نزاعاً، فيكون كالقواطع من الطير التي تريد كخطاف، ولا هو من الأوباد كالعصفور الذي حيثما دار رجع إليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهلي من السنابير التي متى ألفتهم لم تفارقهم، وتعس بالليل، وتطوف في

القبائل من دار إلى دار ثم لا يكون مرجعها إلا إليهم، والذئك في خلاف ذلك كله، ثم لا يألف منزله ولا يعرف ربه، ثم لا يحن إلى دجاجه، ثم لا تتوق نفسه إلى طروقتة، ولا يشفق إلى ولده، ولا يعرف الذين غدوه وربّوه، بل لم يدر قط أن له ولداً، ولو كان درى لكان على درايته دليل، فأذ قد وجدناه لفراريجه وبيضه المخلوقة منه ومن نجله، كما نجده لما لم يلد ولما ليس من شكله أيضاً ولا يرجع إلى نسبه، فكيف لا نقضي عليه بالنقص، إذ كانت الأمور لا تعرف إلا بهذا وشبهه.

وهو لا يعرف أهل داره، ولا يثبت وجه صاحبه الذي لم يخلق إلا عنده، وفي ظلّه وتحت جناحه، ولم يزل في رزقه وعياله، والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ، ويصطاد فيتحول عن وطنه عشر حجج، ثم هو على ثبات عهده وقوة عقده، وعلى حفاظه وإفاه، والنزاع إلى وطنه، فإن وجد فرجة ووافق جناحه وافياً وافاه وصار إليه، وإن كان جناحه مقصوفاً جدف إلى أهله، وتكف المضي إلى سكنه، فإما بلغ وإما أعدر.

والخطاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر، ولا يطؤه صاحب سفر؛ على أنا لا نراه يتخذ وكره إذا صار إليهم إلا

في أحسن موضع، ولا يحملة الأُنس بهم على ترك التَّحَرُّزِ
منهم، والحزم في مُلابِستهم، ولا يحملة الخوف منهم على
مَنع نفسه لِدَّةِ السُّكُونِ إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم حظَّه،
والعصافير لا تقيم في دار إلا وهي مسكونة، فإن هجرها
الناسُ لم تُقَمَ فيها العصافير.

قول صاحب الكلب في السنور والهرة والسَّنُور يعرف رَبَّةَ
المنزل، ويألف فرخ الحمام، ويُعَابِثُ فرايج الدار، إن سُرِقَ
ورُبِطَ شهراً عاد عند انفلاته، وانحلال رباطه، والهرة تُعرف
ولدها وإن صار مثلها، وإن أُطِعِمَت شيئاً حملته إليه وآثرته
به، وربما ألقى إليها الشيء فتدنو لتأكله، ويُقبَلُ ولدها
فتمسك عنه، وترضه له، وربما طُرح لها الشيء وولدها
غائب عنها ولها ضروبٌ من النعم، وأشكالٌ من الصَّيَّاح
فتصيح ضرباً من الصَّيَّاح يعرف أهل الدار أنه صياحُ الدُّعاء
لا غير ذلك، ويقال: أبرُّ من هرة، ومتى أرادت ما يريدُ
صاحبُ الغائط، أتت مواضع ترابٍ في زاويةٍ من زوايا الدار
فتبَحِثُه، حتَّى إذا جعلت له مكاناً كهيئة الحفرة جعلته فيها ثم
غطته من ذلك التراب، ثم تشممت أعلى ذلك التراب وما
ظهر منه، فإن وجدت شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً،
فلا تزال كذلك حتَّى تعلم أنها قد أخفت المرئي والمشموم

جميعاً، فإن هي لم تجد تراباً حُمشت وجه الأرض، أو ظهر
السّطح، حتّى تبلغ في الحفر المبلّغ، ومن ستر ذلك
المجهود.

وزعم ناس من الأطباء أن السنور يعرف وحده ريح رجعه،
فإنما يستره لمكان شمّ الفأر له، فإنها تفر من تلك الرائحة،
أو يُعطيه لما يكون فيه من خلق من أخلاق الأسد، و ما
يشاكل فيه الأسد في الخلق، على قدر ما يشاكله في الخلق،
وتعداد ذلك كثير.

الكتاب السادس

سُلّاح الديك

استخدام الخناقين للكلب

بعض الخبر والشعر في الخناقين

باب ما يحتاج إلى معرفته

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

بدء الإبصار عند أولاد السباع

خبث الثعلب

مقايسة بين الثعلب والكلب

قتل الحيات والكلاب

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

هديل الحمام

ما يصيح من الطير مع الفجر

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

طيور الليل

شعر في الدجاج

شعر في هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها

كلب الرفقة

احتقار العرب للصيد

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

فرار الكلب الكلب من الماء

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

ألوان الغربان

أنواع الغربان

التشاؤم بالغرباب

التعاير بأكل لحم الغرباب

فسق الغرباب وتأويل رؤياه

غراب نوح

قبح فرخ الغرباب وفرخ العقاب

دهاء أمية بن أبي الصلت

حديث العرب في الغرباب

والديك وطوق الحمام

شعر أمية في الديك والغراب والحمامة

ما يلقم فراخه وما يزقها

ما له طبيعة مشتركة من الطير

هداية العصفور

سُبُعِيَّة الرَّخْمِ وَالنَّسْرِ

القول في سماجة صوت الديك

صغر قدر الدجاج

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريجها

رعي الدجاج في مصر

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

شرط أبي عباد في الخمر

الونام

استطراد لغوي

السفاد والضراب ونحوهما

خصى ذكور الطير

شعر في صفة الديك

بيض الطاوس

ستطراد لغوي

ريش جناح الطائر

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

أسنان الإنسان

سُلَّاحُ الدِّيكِ

وَالدِّيكُ لَا تَرَاهُ إِلَّا سَالِحًا، ثُمَّ لَا يَتَوَقَّى ثَوْبَ رَبِّ الدَّارِ وَلَا فِرَاشَهُ وَلَا بَسَاطَهُ، هَذَا، وَحَيَاتُهُ التُّرَابَ، وَلِذَا يَدْفَنُ نَفْسَهُ فِيهِ، وَيُدْخِلُهُ فِي أَصُولِ رِيشِهِ، ثُمَّ لَا تَرَى سُلَّاحًا أَنْتَنَ مِنْ سُلَّاحِهِ، وَلَا يَشْبَهُ دَرْقَ الْحَمَامِ، وَصَوْمَ النَّعَامِ، وَجَعْرَ الْكَلْبِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا تَرَاهُ إِلَّا سَائِلًا رَقِيقًا، وَلَوْ كَانَ مُدْحَرَجًا كَأَبْعَارِ الشَّاءِ وَالْإِبِلِ وَالظَّبَاءِ، أَوْ مُتَعَلِّقًا يَابَسًا كَجَعْرِ الْكَلْبِ وَالْأَسَدِ،

ثُمَّ لَوْ كَانَ عَلَى مِقْدَارِ نَتْنِهِ لَكَانَ أَهْوَنَ فِي الْجُمْلَةِ، وَقَالَ أَبُو
نُوَاسٍ فِي دِيكَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ:

فَنَجَّنَا مِنْ مُنْتِنِ
الْأُرُوحِ.

أَدَيْتَنَا بِدِيكَ
السَّلَاحِ

استخدام الخناقين للكلب

وقال صاحب الكلب: ومن مرافق الكلب أن الخناقين يظهر بعضهم بعضاً، فلا يكونون في البلاد إلا معاً، ولا يسافرون إلا معاً؛ فربما استولوا على درب بأسره، أو على طريق بأسره، ولا ينزلون إلا في طريق نافذ، ويكون خلف دُورهم: إما صحارى وإما بساتين، وإما مزابِلُ وأشباهُ ذلك، وفي كلِّ دار كلابٌ مربوطة، ودُفوفٌ وطُبول، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلّمَ كتابٍ منهم، فإذا خنق أهلُ دارٍ منهم إنساناً ضربَ النساءُ بالدُفوف، وضربَ بعضهم الكلابَ فسمع المعلمُ فصاح بالصريّان: انبُحُوا وأجابهم أهلُ كلِّ دارٍ بالدُفوف والصنوج، كما يفعل نساءُ أهلِ القرى، وهيجوا الكلاب، فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرقّة.

وانظر كيف أخذوا أهلَ دَرْبِ بأسره وذلك أنّ بعضهم رغب
في ثُوبٍ كان على حَمّالٍ، وفيه دريهمات معه، فألقى الوَهَقَ
في عنقه فَعُشِيَ عليه ولم يمت، وتحرك بطنه فأتى المتوضّأً
وتحرك الحَمّالُ والسَّاجورُ في عنقه، فرجعت نفس الحمال،
فلما لم يحسّ بأحدٍ عنده، قَصَدَ نحوَ بابِ الدارِ، وخرج
وزياره في عنقه، وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر، وتصايح
النَّاسُ فأخذوا عن آخرهم.

بعض الخبر والشعر في الخناقين

وقد كان بالكوفة شبيهةً بذلك، وفي غيرها من البلدان، فقال
حمادُ الرَّاوية، وذكر المرميين بالخنق من القبائل وأصحاب
القبائل والنحل، وكيف يصنع الخناق، وسمّى بعضهم فقال:

وَكِنْدَةٌ فَلخَذْرُهَا
حِذَارِكُ لِلخَسْفِ

وَقَشْبٌ وإِعْمَالٌ
لِجَنْدَلَةِ القُدْفِ

حَمِيدَةٌ وإِمِيلَاءُ

إِذَا سَرَتَ فِي عَجَلٍ
فَسِرْ فِي صَحَابَةٍ

وَفِي شَيْعَةِ الأَعْمَى
زِيَارٌ وَغَيْلَةٌ

وَكُلُّهُمْ شَرٌّ عَلَيَّ

أَنَّ رَأْسَهُم

حَاضِنَةَ الْكِسْفِ

مَتَى كُنْتَ فِي حَيِّي
بَجِيلَةَ فَاسْتَمِعْ

فَإِنَّ لَهُمْ قَصْفاً يَدُلُّ
عَلَى حَتْفِ

إِذَا اعْتَزَمُوا يَوْمًا
عَلَى خَنْقِ زَائِرٍ

تَدَاعَوْا عَلَيْهِ
بِالْنَّبَاحِ
وَبِالْعَرْفِ

وَأَمَّا ذِكْرُهُ لِبَنِي عَجَلٍ فَلَمَكَانَ ذِي الضَّفْرَتَيْنِ وَغَيْرِهِ مِنْ بَنِي عَجَلٍ، وَأَمَّا ذِكْرُهُ كِنْدَةَ، فَقَدْ أَنْشَدْنَا سُفْيَانَ بْنَ عَيِّنَةَ، وَأَبُو عَبِيدَةَ النَّحْوِيُّ:

إِذَا مَا سَرَّكَ الْعَيْشُ

فَلَا تَأْخُذْ عَلَيَّ كِنْدَهُ

وَمِنْ كِنْدَةَ أَبُو قَصْبَةَ أُخِذَ بِالْكَوْفَةِ وَقُتِلَ وَصُلِبَ، وَكَانَ بِالْكَوْفَةِ مَمَّنْ يَأْكُلُ لِحُومَ النَّاسِ عَدِيَّةَ الْمَدْنِيَّةِ الصَّفْرَاءِ، وَكَانَ بِالْبَصْرَةِ رَادَوِيهَ صَاحِبَ قِصَابِ رَادَوِيهَ، وَأَمَّا الْأَعْمَى فِي بَنِي ضَبَّةَ الَّذِي ذَكَرَهُ فَهُوَ الْمُغِيرَةُ بْنُ سَعِيدِ صَاحِبِ الْمُغِيرِيَّةِ، وَهُمْ صِنْفٌ مَمَّنْ يَعْمَلُ فِي الْخَنْقِ بِطَرِيقِ الْمَنْصُورِيَّةِ، وَالْمَغِيرَةُ هَذَا مِنْ مَوَالِي بَجِيلَةَ، وَهُوَ الْخَارِجُ

على خالد بن عبد الله القسريّ، وعند ذلك قال خالد وهو
على المنبر: أطعموني ماءً وفي ذلك يقول يحيى بن نوفل:

وقلت لما أصابك
أطعموني
شراباً ثمّ بُلّت على
السّريّ

لأعلاج ثمانية
وشَيْخٍ
كَبِيرِ السِّنِّ ذِي
بَصْرِ ضَرِيرٍ

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالية، وهي ممّن
استجاب لليلي السبائية الناعظية، والميلاء حاضنة أبي
منصور صاحب المنصورية، وهو الكسّف، قالت الغالية:
إِيَّاهُ عَنَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى "وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ"، وقد ذكّره أبو السريّ معدانُ
الأعمى الشّميطيّ في قصيدته التي صنّف فيها الرّافضة ثم
الغالية، وقدم الشّميطيّة على جميع أصناف الشيعة، فقال:

إِنَّ ذَا الْكِسْفِ صَدَّ
أَلْ كُمَيْلِ
وَكُمَيْلٌ رَدَلٌ مِنْ
الْأُرْدَالِ

ضلّ فيه تلطفُ المحتالِ	تركا بالعراق داءً دويّاً
وفريقٌ يرضُ زُنْدُ الشَّمَالِ	منهم جاعلُ العَسِيبِ إماماً
من عَلِيٍّ وجُنْدِ وبِلَالِ	وفريقٌ يقولُ إنّا براءٌ
ر على قدرةٍ بغيرِ قتالِ	وبراءٌ من الذي سَلَّمَ الأَمَّ
وفريقٌ يدينُ بالإهمالِ	وفريقٌ يدينُ بالنصِّ حَتْمًا

لأنّ الكميّية لا تجيز الوكّالة في الإمامة، وتقول لأبَد من
إمام صامتٍ أو ناطقٍ، ولأبَد من عَلم يمدُّ الناسُ إليه
أعناقهم، وأبو منصُورٍ يقولُ بخلاف ذلك، وأمّا قوله:

وقشب وإعمالٌ لجندلةِ القَدْفِ	وفي شِيعَةِ الأعمى زيارٌ وغيلةٌ
----------------------------------	------------------------------------

فقد قال مَعْدَانُ:

حَرْبِيٌّ وَنَاسِخٌ
قَتَّالٌ

حَبَشِيٌّ وَكَافِرٌ
سَبِيَانِيٌّ

ثُمَّ دِينَ الْمَغِيرَةَ
الْمَغْتَالِ

تِلْكَ تَيْمِيَّةٌ وَهَاتِيكَ
صَمْتٌ

ثُمَّ رَضَخَ بِالْجَنْدَلِ
الْمَتَوَالِي

خَنَقَ مَرَّةً وَشَمَّ
بِخَارِ

لَأَنَّ مِنَ الْخَنَاقِينَ مَنْ يَكُونُ جَامِعًا، وَبِذَلِكَ يَسْمُونَهُ إِذَا جَمَعَ
الْخَنَقَ وَالتَّشْمِيمَ، وَحَمَلَ مَعَهُ فِي سَفَرِهِ حَجَرَيْنِ مُسْتَدِيرَيْنِ
مُدْمَلَكَيْنِ وَمَلْمَلَمَيْنِ فَإِذَا خَلَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الرَّفْقَةِ اسْتَدْبَرَهُ
فَرَمَى بِأَحَدِهِمَا فَمَحْدُوتَهُ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ سَاجِدًا، فَإِنْ دَمَعَهُ
الْأَوَّلُ سَلَبَهُ، وَإِنْ هُوَ رَفَعَ رَأْسَهُ طَبَّقَ بِالْآخِرِ وَجْهَهُ، وَكَذَلِكَ
إِنْ أَلْفَاهُ نَائِمًا أَوْ غَافِلًا، وَلَقَدْ صَحِبَ مِنْهُمْ نَاسٌ رَجُلًا خَرَجَ
مِنَ الرَّيِّ، وَفِي حَقْوِهِ هِمِيَانٌ، فَكَانَ لَا يَفَارِقُ مُعْظَمَ النَّاسِ،
فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدِ قَرَّبَ مِنْ مَفْرِقِ الطَّرِيقَيْنِ وَرَأَوْا احْتِرَاسَهُ، وَهُمْ
نَزُولٌ إِمَّا فِي صَحْرَاءَ وَإِمَّا فِي بَعْضِ سَطُوحِ الْخَاتَاتِ،
وَالنَّاسُ مُتَشَاغِلُونَ بِأُمُورِهِمْ، فَلَمْ يَشْعُرْ صَاحِبُ الْهِمِيَانِ

نهاراً والناس حَوْلَهُ إِلَّا وَالْوَهْقُ فِي عُنُقِهِ، وَطَرَحَهُ الْآخِرُ
حِينَ أَلْقَاهُ فِي عُنُقِهِ، وَوَثَبَ إِلَيْهِ وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ، وَمَدَّ
الْآخِرُ بَرَجْلِيهِ وَأَلْقَى عَلَيْهِ ثَوْباً وَأَدْنَى فِي أَدْنِيهِ فَقَامَ إِلَيْهِمْ
بَعْضُ أَهْلِ الرُّفْقَةِ كَالْمَعِينِ وَالْمَتَفَجِّعِ، فَقَالُوا لَهُ: مَكَانَكَ؛ فَإِنَّهُ
إِنْ رَأَى خَجَلٌ وَاسْتَحَى، فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ عَنْهُمْ، وَارْتَحَلَ الْقَوْمُ،
وَأَعْجَلُوا بِصَاحِبِهِمْ، فَلَمَّا خَلَوْا بِهِ أَخَذُوا مَا أَحْبَبُوا، وَتَرَكَوْا مَا
أَحْبَبُوا، ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، حَتَّى إِذَا بَرَزُوا رَمَوْهُ فِي
بَعْضِ الْأَوْدِيَةِ.

شعر أعشى همدان في السبئية وقد ذكر أعشى همدان
السبئية وشأنهم في كرسي المختار:

وَأَيُّكُمْ يَا
شُرْطَةُ الْكُفْرِ
عَارِفٌ

شهدتُ عليكم أنكم
سبئية

وَأِنْ كَانَ قَدْ لَفَّتْ
عَلَيْهِ اللَّفَائِفُ

وأقسم ما كرسيكم
بسكينة

حمام حواليه

وَأَنْ لُبْسَ التَّابُوتِ

فُنْتَا وَإِنْ سَمَتْ

وفيكُم زخارف

وإني امرؤٌ أحببتُ

وآثرتُ وحيًا

آلَ مُحَمَّدٍ

ضُمَّنْتُهُ الْمَصَاحِفُ

وإن شاكراً طافتُ به

بأعوادِ ذَاوِ دَبْرَتِ

وتمسَّحتُ

لا تساعف

ودانتُ بهِ لابنِ

ولا عَبنَ فيها أو

الزُّبيرِ رِقَابِنَا

تُحَرُّ السَّوَالِفُ

وأحسبُ عَقبَها لآلِ

فَيُنَصِّرُ مَظْلُومٌ

مُحَمَّدٍ

ويأمنُ خائفٌ

ويجمَعُ ربي أمةً قد

وهاجتُ حروباً

تَشْتَتَّتْ

بينَهُمُ وحسائفُ

أبو عبيدة: الحسيفة الضغينة، وجمعها حسائف.

من قتل نفسه بيده وما أكثر من قتل نفسه بيده، إمّا لخوف
المُتلة، وإمّا لخوف التعذيب والهوان وطول الأسر، وقد كان
الحكمُ بن الطُّفيل، أخو عامر بن الطُّفيل، وأصحابه خنقوا

أنفسهم في بعض الأيام، فعُيروا بذلك تعبيراً شديداً، فقال
حُرَاشَةُ بنِ عامرِ بنِ الطفيلِ:

وقَدَّتْهُمُ لِلْمَوْتِ ثُمَّ
حَدَّلَتْهُمُ
فَلَا وَأَلَتْ نَفْسُ
عَلَيْكَ تَحَاذِرُ

فَهَلْ تَبْلَغَنِي عَامراً
إِنْ لَقِيْتَهُ
أَسَلَيْتَ عَنْ سَلْمَانَ
أَمْ أَنْتَ ذَاكِرُ

فَإِنَّ وَرَاءَ الْحَيِّ
عُزْلَانَ أَيْكَةٍ
مُضَمَّخَةَ آذَانِهَا
وَالْغَدَائِرُ

وَإِنَّكُمْ إِذْ تَخْنُقُونَ
نَفُوسَكُمْ
لَكُمْ تَحْتَ أَظْلَالِ
الْعِضَاهِ جِرَائِرُ

وقال عُرْوَةُ بنُ الوَرْدِ في يَوْمِ سَاحِقٍ، وَيَذَكُرُ خَنْقَ الْحَكَمِ
بِبنِ الطُّفَيْلِ وَأَصْحَابِهِ أَنْفُسَهُمْ، فَقَالَ:

وَنَحْنُ صَبَحْنَا
عَامراً فِي
دِيَارِهَا
عَلَالَةَ أَرْمَاحِ
وَعَضْبَا مُدْكَرَا

بكلِّ رقيقٍ
الشَّفرتين
مُهَنِّدٍ

ولَذنَّ من الخَطِيِّ
قد طرَّ أَسْمَرَا

عجبت لهم إذ
يخنقون
نفوسهم

ومقتلهم عند
الوعى كان
أعدرا

يَشُدُّ

الحليمُ

منهم عَقْدٌ

حبله

ألا إنما

يأتي

الذي كان

حُدْرًا

رثاء أبي زبيد الطائي كلباً له وقال أبو زبيد في كلب له، كان
يُساور الأسدَ ويمنعه من الفساد، حين حطمه الأسد، وكان
اسمه أكَدَر، فقال:

أخال أكَدَرُ

مختلاً كعادته

حتى إذا كان بينَ

الحَوْضِ والعَطْنِ

أسرت وأكدرت تحت
الليل في قرن

حتى تنأهى إلى
الأهوال في سنن

فوق السراة كذفرى
القارح الغضن

كالبغل خط به
العجلان في سكن

إلى عرين كعش
الأرمل اليفن

وظن أكدر غير
الأفن والحتن

لجسه أم أجر
سته شرن

لاقى لدى ثلل
الأضواء داهية

حطت به سنة
ورهاء تطرده

إلى مقارب خطو
الساعدين له

ريبال ظلماء لا
قحم ولا صرع

فأسريا وهما سنا
همومهما

هذا بما علقت
أظفاره بهم

حتى إذا ورد
العرزال
وانتبهت

لهن يبهرن تعبيراً
على سدن

أن قد تجلّ أهلُ
البيت باليمنِ

فخاص أكرّ مشفياً
من الوسنِ

عُضفٍ عليهنَّ
ضافي اللحم واللبن

وكان بالليل ولأجاً
إلى الجننِ

رثاء أعرابي شاة له أكلها ذئب وقال صاحب الكلب: قال
أعرابيٌّ وأكل ذئبٌ شاةً له تسمى وردة، وكُنيتُها أم الورد:

من الذئاب إذا ما
راح أو بكرًا

بادِ جناجها
حصاءً قد أفلت

وظنّ أكرُّ أن
تموا ثمانية

فخاف عزّتهم
لما دنالهم

بأربع كلّها في
الخلق داهية

ألفاه متّخذ
الأنيابِ جنّته

أودى بوردّة أمّ
الوردِ ذو عسل

لولا ابنها
وسليلات لها
غرر

ما انفكت العين
تدري دمعها دررا

كأنا الذئب إذ
يعدو على
عنمي

في الصبح طالب
وتر كان فاترا

من الضواري
اللواتي تقصم
القصر

اعتامها اعتامه
شئن برائنه

قال: في هذا الشعر دليل أن الذئب إنما يعدو عليها مع الصبح، عند فتور الكلب عن النباح؛ لأنه بات ليلته كلها دائبا يقظان يحرس، فلما جاء الصبح جاء وقت نوم الكلاب، وما يعترئها من النعاس، ثم لم يدع الله على الذئب بأن يأكله الأسد حتى يختاره ويعتامه، إلا والأسد يأكل الذئب، ويختار ذلك، وإن ما استطاب لحم الذئب بفضل شهوته لحم الكلب. قول صاحب الديك في إجازة الشعراء الدجاج وقال صاحب الديك: لم نر شريفا قط أجاز شاعرا بكنب، ولا حبا به زائرا،

وقد رأيتهم يجيزون الشعراء بالدجاج، وأعظم من ذلك أن لقيم الدجاج، لما قال في افتتاح خبير، وهو يعني النبي صلى الله عليه وسلم:

شهباء ذات
مناكب وفقار

رُميت نطاة من
النبي بفيلقي

وهب له دجاج خبير عن آخرها، رواه أبو عمرو، والمدائني عن صالح بن كيسان، ولتلك الدجاج قيل: لقيم الدجاج. إياس بن معاوية وأخوه وقال صاحب الكلب: قال أبو الحسن: كان إياس بن معاوية وهو صغير، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكان له أخ أشد حركته منه وأقوى، فكان معاوية أبوه يقدمه على إياس، فقال له إياس يوماً يا أبت إنك تقدم أخي علي، وسأضرب لك مثلي ومثله: هو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيضة، يخرج كاسياً كافياً نفسه، يلتقط، ويستخفه الناس، وكلما كبر انتقص، حتى إذا تم فصار دجاجة، لم يصلح إلا للذبح، وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة، فأبواه يغذوانه حتى يقوى ويثبت ريشه، ثم يحسن بعد ذلك ويطير، فيجد به الناس ويكرمونه، ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء،

فِيصَان لَذِكْ وَيُكْرَمُ، وَيُشْتَرَى بِالْأَثْمَانِ الْغَالِيَةِ، فَقَالَ أَبُوهُ:
لَقَدْ أَحْسَنْتَ الْمِثْلَ فَقَدَّمَهُ عَلَيَّ أَخِيهِ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَكْثَرَ مِمَّا
كَانَ يَظُنُّ فِيهِ.

قَالَ صَاحِبُ الْكَلْبِ: وَقَدْ أَغْفَلَ إِيَّاسٌ فِي هَذَا الْقَوْلِ بَعْضَ
مَصَالِحِ الدَّجَاجِ، وَذَلِكَ أَنَّ الدَّجَاجَ مِنْ لُدُنٍ يَخْرُجُ مِنْ حَدِّ
الصَّغْرِ وَالْكَيْسِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي حَدِّ الْكَبْرِ وَاحْتِمَالِ اللَّحْمِ
وَالشَّحْمِ، يَكُونُ أَخْبَثَ حَالًا لِأَنَّهُ لَا يَصْلِحُ فِيهِ لِلذَّبْحِ، وَقَدْ
خَرَجَ مِنْ حَدِّ الْكَيْسِ وَالِاسْتِمْلَاحِ، وَإِيَّاسٌ هُوَ الَّذِي يَقُولُ:
لَسْتُ بِخَبِّ وَالْخَبِّ لَا يَخْدَعُنِي، وَلَا يَخْدَعُ ابْنَ سِيرِينَ وَهُوَ
يَخْدَعُ أَبِي وَيَخْدَعُ الْحَسَنَ.

بَاب مَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ

يُقَالُ فَرَجُ الْمَرَاةِ وَالْجَمْعُ فُرُوجٌ، وَهُوَ الْقُبْلُ، وَالْفَرْجُ كِنَايَةٌ،
وَ الْاسْمُ الْحِرُّ، وَجَمْعُهُ أَحْرَاحٌ، وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

فِي قَبَّةٍ مُوقِرَةٍ
أَحْرَاحًا

إِنِّي أَقْوَدُ جَمَلًا
مَمْرَاحًا

قَالُوا: وَإِنَّمَا جَمَعُوهُ عَلَى أَحْرَاحٍ، لِأَنَّ الْوَاحِدَ حِرْحٌ، هَكَذَا
كَانَ أَصْلُهُ، وَقَدْ يَسْتَعَارُ ذَلِكَ وَهُوَ قَلِيلٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

جَرَاهِمَةٌ لَهَا حِرَّةٌ
وَتِيلٌ

تَرَاهَا الضَّبْعَ
أَعْظَمَهُنَّ رَأْسًا

فلم يرض الاستعارة حتى ألحق فيها الهاء، وهو الكَعْتَبُ،
وقال الفرزدق:

بثديين مع نحر
كريم وكعْتَبٍ

إذا بطحت فوق
الأثافي رفعتها

وقال الأغلِب:

حَيَّاکة عن كَعْتَبٍ لم يَمْصَحِ

وهو الأجم، وقال الرَّاجِز:

قد سمَّنتها
بالسَّويق أمُّها

جارية أعظمها
أجمُّها

بائنة الرَّجُلِ فما
تضمُّها

وقال: وقد يسمّى الشُّكْر، بفتح الشَّينِ وإسكان الكاف،
وأنشدوا:

وكنْتَ كليلَةً وبمَنعِ الشُّكْرِ أتاَمَها
الشَّيباءَ هَبَّتْ القَبيلُ

أتاَمَها: أفضاها، وأما قوله:

قد أَقبَلتْ عَمْرَةَ من مُلصِّقَةَ السَّرَجِ
عِراقِها بَخاقِ باقِها

قال: وهو إن أرادَ الحِرَّ فليس ذلك من أسمائه، ولكنه سَمَّاه
بذلك على المزاح، قالوا: والظَّبِّيَّةُ اسمُ الفَرَجِ من الحافر،
والجمع الظَّبَّيات، وقد استعاره أبو الأخرز فجعله للخُفِّ
فقال:

ساوَرها عِنْدَ في الأَرْضِ ذاتِ
القُرُوءِ الوَحْمِ الظَّبَّياتِ الجَحْمِ

وقد قال الأوَّل:

فَحَرَّقَ ظَنَبِيَّهَا
الْحِصَانُ الْمُشَبَّقُ

فَجَاءَ بَغْرَمُولٍ
وَفَلَكُ مَدْمَلِكٍ

وهو من الظَّنْفِ والخُفِّ الحيا، والجمع أحيية، وهو من السبع تَفْرُ، وقد استعاره الأَخْطَلُ للظَّنْفِ فقال:

وعبلة تَفْرُ الثَّوْرَةِ
الْمِتْصَاجِمِ

جَزَى اللهُ عَنَّا
الْأَعْوَرَيْنِ مَلَامَةً

فلم يرضَ أن استعاره من السَّبْعِ للبقرة حتَّى جعل البقرة ثورة، وقد استعاره النَّابِعَةُ الجَعْدِيُّ للحافر، كما استعاره الأَخْطَلُ للظَّنْفِ، فقال:

وقد شَرَبْتُ مِنْ آخِرِ
اللَّيْلِ أُيَّالًا

بُرَيْدَةَ بَلَّ
الْبَرَادِينَ تَفْرَهَا

وقد قالوا بِرِدُونَةَ، وقال الرَّاجِزُ:

إِنَّ الْبَرَادِينَ إِذَا
جَرَيْنَهُ

تَزَحْزَحِي إِلَيْكَ يَا
بِرْدُونَهُ

مَعَ الْجِيَادِ سَاعَةً
أَعْيَنَهُ

وقد استعاره آخرُ فَجَعَلَهُ لِلنَّعْجَةِ فَقَالَ:

وَمَا عَمْرُو إِلَّا
نَعْجَةٌ سَاجِسِيَّةٌ
تَحْرَكُ تَحْتَ الْكَبْشِ
وَالثَّقْرِ وَارِمُ

وَالسَّاجِسِيَّةُ: ضَانٌ فِي تَغْلِبِ، وَقَدْ اسْتَعَارَهُ آخِرٌ فَجَعَلَهُ لِلْمَرْأَةِ
فَقَالَ:

نَحْنُ بَنُو عَمْرَةَ فِي
انْتِسَابِ
بِنْتُ سُؤَيْدِ أَكْرَمِ
الضَّبَابِ

جَلَدْنَا مِنْ ثَقْرِهَا
الْمُنْجَابِ

ويقال لجردان الحمار غرمول، وقد يقال ذلك للإنسان
وقضيب البعير، وهو لكل شيء، ومقلم الجمل فقط، ومن
السباع العقدة، وأصله للكلب والدُّبِّ، وقال جرير:

إِذَا رَوَيْنَ عَلَيَّ
الْخَنْزِيرَ مِنْ سَكْرٍ

نَادَيْنَ يَا أَعْظَمَ
الْقَسَّيْنَ جُرْدَانَا

ويقال: صرفت الكلبة صرافاً وصِروفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً، وقالوا في الأمثال: لا أَفْعَلُ حَتَّى يَنَامَ ظَالِعُ الْكَلَابِ أَيِ الصَّارِفِ، ولم يعرف الأصمعيُّ ظلعت الكلبة بمعنى صرّفت، واستحرمت، وأجّعت واستجّعت، واستطارت، والذئبة في ذلك كالكلبة، قال: ويقال في السَّبَاعِ: قد وَضَعَتْ، وولدت، ورمصت مثل ما يقال للنَّاسِ والغنمِ.

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب وبرذون وبرذونة، وأنشد:

أرَيْتَ إِذَا مَا جَالَتْ
الْخَيْلُ جَوْلَةً

وَأنتَ عَلَيَّ بِرِذْوَنَةٍ
غَيْرِ طَائِلِ

ويقال رجل ورجال، وامرأة ونساء، وليس لها جمعٌ من واحدها، ويقال بعير وناقة وجمل، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة، ويقال كبش ونعجة،

ولا يقال كبشة، كما لا يقال أسدة، ويقال أسد ولبوة ولبوات،
ويقال ذنبة وذنّب، وقال الشاعر:

وَذَنْبَةُ مَخْلٍ أُمَّ
جِرْوَيْنِ تَعْسَلُ

كَاتَهُمَا ضِبْعَانَةٌ
فِي مَفَازَةٍ

ويقال إنسان وإنسانة، وسبع وسبعة، وحمّام وحمّامة،
وحمار وحمارة، وسرحان وسرحانة، وسيدّ وسيدة، وهقل
وهقلة، وإلق وإلقة، وقال روبة:

جَدَّ وَجَدَّتْ إِلْقَةٌ مِنَ الْإِلْقِ

وزعم أنّه يقال ضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة، وأصحابنا لا
يقولون هذا ويضحكون ممن يقولون ضبّعة عرجاء، ويقال
ثرْملة، ويقال من الفراخ فرخ وفرخة، ومن النمر نمر
ونمرة، قال: ويقال ذبيح وذبيخة، وضبعان وضبّعانة، وجيال
وجيالة، ويقال عقرب وعقربة، والعقربان الذكّر وحده، وقال
الشاعر:

عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا

كَأَنَّ مَرَعَى أُمَّكُمْ إِذْ

عَدَتْ

عُقْرُبَانُ

ومن الضفادع ضفدع وِضْفَدَاعَةٌ، ومن القنابذ قُنْفُذٌ وقُنْفُذَةٌ،
وشَيْهَمٌ وشَيْهَمَةٌ، ومن القروذ قرد وقردة، ويقال إلقة و
قَشَّةٌ، ولا يقال إلق وقش، ويقال لولد القرد رُبَّاحٌ والأُنثى
إلقة، وقال الشَّاعِرُ:

وإلقة ترغث

والسهل والنوفل

رُبَّاحَهَا

والنَّضْرُ

وَمِنَ النِّعَامِ هِقْلٌ وَهِقْلَةٌ، وَهَيْقٌ وَهَيْقَةٌ، وَصَعْلٌ وَصَعْلَةٌ،
وَسَفَنَجٌ وَسَفَنَجَةٌ، وَنِعَامٌ وَنِعَامَةٌ، وَالوَاحِدُ مِنْ فِرَاحِهَا الرَّألُ
وَالْجَمْعُ رِئَالٌ وَرِئَالَانٌ وَأِرَالٌ وَأِرْوَالٌ، وَالْأُنْثَى رَائِلَةٌ، وَحَفَانَةٌ
وَالْجَمْعُ حَفَانٌ، وَقَدْ يَكُونُ الْحَفَانُ أَيْضاً لِلوَاحِدِ، وَيُقَالُ لَهَا
قِلَاصٌ وَالوَاحِدَةُ قِلْوَصٌ وَلَا يُقَالُ قِلْوَصَةٌ، وَيُقَالُ ظَلِيمٌ وَلَا
يُقَالُ ظَلِيمَةٌ، وَيُقَالُ نِقْتِيقٌ وَلَا يُقَالُ نِقْتِيقَةٌ، وَيُقَالُ مِنَ الْأَرَانِبِ
أَرْنَبٌ وَلَا يُقَالُ أَرْنَبَةٌ، وَالذَّكَرُ حُرْزٌ، وَيُقَالُ لِلْأُنْثَى عِكْرِيشَةٌ
وَلَوْلِدُهَا حَرْنِيقٌ، وَيُقَالُ هَذِهِ أَرْنَبٌ وَهَذِهِ عِقَابٌ، وَلَا يُقَالُ هَذَا
الْأَرْنَبُ وَلَا هَذَا الْعِقَابُ، وَقَالَ الشَّمَّاحُ:

تَجَرَّ بِرَأْسِ عِكْرِشَةٍ
زَمُوعٍ

فَمَا تَنفَكَ بَيْنَ
غُورِضَاتٍ

قال ويقال لولد الكلب جرؤ والأنثى جروة، وهو درص والجمع أدراص، ويقال لمن عضه الكلب الكلب: بال كأدراص الكلاب.

بدء الإبصار عند أولاد السباع

وجرو الكلب يكون أعمى عشرة أيام وأكثر، وقد يعرض شبيهة بذلك لكثير من السباع. استطراد لغوي ويقال بصبص الجرؤ وفقح وجصص، إذا فتح عينيه شيئاً، وصأصاً إذا لم يفتح عينيه، ولذلك قال عبيد الله بن جحش، والسكران بن عمرو، للمسلمين ببلاد الحبشة: إِنَّا فَقَّحْنَا وَصَأَصَاتُمْ، قال بعض الرُّجَازِ فِي بَعْضِ الصَّبِيَّانِ:

مِثْلَ جُرِّيِّ الْكَلْبِ لَمْ
يَفْقَحْ

أَقْبَحَ بِهِ مِنْ وُلْدٍ
وَأَشْقَحِ

بِالْبَابِ عِنْدَ حَاجَةٍ

إِنْ يَسِرَّ سَارٍ لَمْ

يَقْمُ فَيَنْبَحُ

المستفتح

ويقال لولد الأسد جرو وأجراء وجراء، وهي لجميع السباع،
ويقال له خاصّةً: شِبْلٌ، والجمع أشبال وشُبُولٌ، وقَالَ زُهَيْرٌ:

أبطالٌ مِنْ لَيْثِ أَبِي
أَجْرٍ.

ولأنت أشجع حين
تتجه ال

خبث الثعلب

وحدّثني صديقٌ لي قال: تعجّبَ أخٌ لنا من خُبثِ الثَّعلبِ،
وكان صاحبَ قَنصٍ، وقالَ لي ما أعجب أمر الثَّعلبِ يفصل
بين الكلبِ والكلَّابِ، فيحتالُ للكلَّابِ بما يعلمُ أنّه يجوزُ عليه،
ولا يحتالُ مثل تلك الحيلة للكلبِ، لأنَّ الكلبَ لا يخفى عليه
الميتُ من المغشيِّ عليه، ولا ينفعُ عنده التَّماوتُ، ولذلك لا
يُحملُ من مات من المجوسِ إلى النارِ حتى يُدْنَى منه كلبٌ،
لأنَّه لا يخفى عليه مغمُور الحِسِّ حيٌّ هو أو ميت، وللكلبِ
عند ذلك عملٌ يستدلُّ به المجوسُ، قال: وذلك أنّي هَجَمْتُ
على ثعلبٍ في مضيقٍ، ومعِي بُنيٌّ لِي، فإذا هو ميتٌ منتفخٌ،
فصدّدتُ عنه، فلم ألبثُ أن لحقتني الكلابُ، فلمّا أحسَّ بها
وثب كالبرقِ، بعد أن تحايّدَ عن السننِ، فسألتُ عن ذلك فإذا

ذلك من فعله معروفٌ، وهو أن يستلقي وينفخ خواصره ويرفع قوائمه، فلا يشكُّ من رآه من الناس أنه ميت منذ دهر، وقد تزكَّر بالانتفاخ بدنه، فكنتُ أتعجب من ذلك، إذ مررتُ في الرُّقاق الذي في أصل دار العباسية ومنفذه إلى مازن، فإذا جرو كلبٍ مهزولٍ سيئٍ الغذاء، قد ضربه الصبيان وعقروه ففرَّ منهم ودخل الرُّقاق، فرمى بنفسه في أصل أسطوانة وتبعوه حتى هجموا عليه، فإذا هو قد تماوت فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه، فلما جاوزوا تأملت عينه فإذا هو يفتحها ويغمضها، فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا، وأخذ في غير طريقهم فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب، إذا كان الثعلب ليس فيه إلاَّ الهوغان والمكر، وقد ساواه الكلبُ في أجود حيله.

مقايسة بين الثعلب والكلب

ومع الكلب بعد ما ليس معه، إلاَّ أن يفخر بفروته في موضع انتفاع الناس به، فجعر الكلب للدُّبحة أنفع منه، إذ كان في الدُّبحة الموت وليس يقوم مقامه شيءٌ، وجلد الثعلب منه عَوْض.

قول صاحب الديك في الكلاب قال صاحب الديك: شرار عباد

اللَّهُ مَنْ قَتَلَ أَوْلَادَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ نَجِدْ
شِعْرَاءَ النَّاسِ شَبَّهُوا أَوْلَادَكَ الْقَاتِلِينَ بِشَيْءٍ سِوَى الْكَلَابِ،
قال أبو نضلة الأَبَار، في قتل سلم بن أحوز المازني، صاحب
شرطة نصر بن سيار الليثي، يحيى بن زيد وأصحابه، فقال:

لها الويلُ في
سُلطانها المتخاذلِ

ألم تر لبيثاً ما الذي
خَتَمَتْ بِهِ

فجاءتْ بصيْدٍ لا
يحلُّ لآكلِ

كلابٌ تعاوَتْ لا هدى
اللهُ سُبُلها

زَمَانَ عَمَى مِنْ
أَمَّةٍ وَتخاذلِ

بنفسي وأهلي
فاطمي تَقَنَّصُوا

و غابَ قبيلُ الحقِّ
دُونَ القبائلِ

لقد كشفت للناس
ليثاً عَنْ استها

قال صاحب الديك: وروى هشيم عن المغيرة عن إبراهيم
قال: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا
الكلاب.

التقامر بالبيض وذكر محمد بن عجلان المدني عن زيد بن

أسلم، أنه كان لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر به الفتیان،
أن يهدى إليه منه شيء أو يشتريه فيأكله.
وهشام بن حسان قال: سئل الحسن عن البيض يلعب به
الصبيان يشتريه الرجل فيأكله، فلم ير به بأساً وإن أطموه
أن يأكل منه، والجوز الذي يلعب به الصبيان.
وحاتم بن إسماعيل الكوفي قال: حدثنا عبد الرحمن بن
حرمة، عن سعيد بن المسيب، أنه لم يكن يرى بأساً
بالبيض الذي يلعب به الصبيان.

قتل الحيات والكلاب

قال: وحدثني ابن جريج قال، وأخبرني عبد الله بن عبيد بن
عمير قال: أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب
يقول: اقتلوا من الحيات ذا الطفتين، والكلب الأسود البهيم
ذا الغرتين.
قال: والغرة: حوة تكون بعينه.

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

قال صاحب الكلب: قد أخبرني أبو حرب عن منصور
القصّاب، قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به،
فكرهه. وما رأينا قط أحداً يريد الأدلاج ينتظر صقاع الديك.

وإنما يوالي الديك بين صياحه قبيل الفجر ثم مع الفجر إلى أن ينبسط النهار؛ وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس إلى الاستدلال بأن يصوت الديك. ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصريحة والصيحتان، وكذلك الحمار. على أن الحمار أبعد صوتاً، وأجدر أن ينبه كل نائم لحاجة إن كانت له. وما رأينا صاحب سحور يستعمله، وكذلك صاحب الأذان، وما رأيناه يتكل في وقت أذانه على صياح الديك، لأن صورة صوته ومقدار مخرجه في السرح الأكبر كصياحه قبل الفجر. وصياحه قبل الفجر؛ كصياحه وقد نور الفجر وقد أضاء النهار. ولو كان بين الصيحتين فرق وعلامة كان لعمرى ذلك دليلاً. ولكنّه من سمع هُتافه وصُقاعه فإتما يفرع إلى مواضع الكواكب، وإلى مطلع الفجر الكاذب والصادق.

والديك له عدّة أصواتٍ بالنهار لا يغادر منها شيئاً؛ ولتلك أوقات لا يحتاج فيها الناس إليه. وملوكنا وعلماؤنا يستعملون بالنهار الأسطرلابات وبالليل البنكومات، ولهم بالنهار سوى الأسطرلابات خطوط وظل يعرفون به ما مضى من النهار وما بقي. ورأيناهم يتفقّدون المطالع والمجاري. ورأينا أصحاب البساتين وكل من كان بقرب الرياض،

يعرفون ذلك بريح الأزهار. ورأينا الرومَ وَنَصَارَى الْقَرْيِ
يَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِحَرَكَاتِ الْخَنَازِيرِ وَبِبُكُورِهَا وَغَدْوَهَا
وَأَصْوَاتِهَا؛ وَلِذَلِكَ قَالُوا فِي وَصْفِ الرَّجُلِ: لَهُ وَثْبَةٌ الْأَسَدِ،
وَرَوْعَانُ الثَّعْلَبِ، وَانْسِلَابُ الدُّنْبِ وَجَمْعُ الذَّرَّةِ وَبُكُورُ
الْخَنَزِيرِ. وَالرَّاعِي يَعْرِفُ ذَلِكَ فِي بُكُورِ الْإِبِلِ وَفِي حَنِينِهَا
وغير ذلك من أمرها.
وَاللَّحْمَامُ أَوْقَاتُ صِيَاخٍ وَدُعَاءٍ مَعَ الصُّبْحِ وَقَبِيلَ ذَلِكَ عَلَى
نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي الدَّيْكِ وَالْحَمَارِ،
لَا مَتَدَادَ أَصْوَاتِهِمَا.

هديل الحمام

وهديلُ الحمامِ ودعاؤه لَا يَجُوزُ بَعِيداً، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ
الْوَرَّاشِينَ وَالْفَوَاحِثِ فِي رُغُوسِ النَّخْلِ وَأَعَالِي الْأَشْجَارِ،
فَلَعَمْرِي إِنَّ ذَلِكَ لَمَا يُسْمَعُ مِنْ مَوْضِعٍ صَالِحِ الْبَعْدِ.

ما يصيح من الطير مع الفجر

وَاللَّعِصَافِيرُ وَالْخَطَاطِيفُ وَعَامَّةُ الطَّيْرِ، مِمَّا يَصْفِرُ أَوْ
يُصْرِصِرُ، وَمِمَّا يَهْدِلُ مَعَ الْفَجْرِ إِلَى بُعِيدِ ذَلِكَ - صِيَاخٌ كَثِيرٌ.
ثُمَّ الَّذِي لَا يَدْعُ الصِّيَاخَ فِي الْأَسْحَارِ مَعَ الصُّبْحِ أَبَدًا الضُّوْعُ،
وَالصَّدَى، وَالْهَامَّةُ، وَالْبُومَةُ وَهَذَا الشَّكْلُ مِنَ الطَّيْرِ. وَقَدْ

كتبنا في غير هذا الموضع الأشعارَ في ذلك.
قال: وقد يصيح مع الصُّبحِ البُوم، والصدى والهام، والضُّوع
والخطاطيف، والعصافير، والحُمُرُ في ذلك الوقت أكثرَ من
الدِّيكة. قال الوليدُ بن يزيد في ذلك:

قفي إن شئتِ أو
سيري

سُلَيْمى تيكَ في
العير

بأصواتِ العَصَافيرِ

فلما أن دنا
الصُّبحُ

وقال كلثوم بن عمرو العتّابي:

حتّى تكلمَ في الصُّبحِ
العَصَافيرُ

يا ليلةُ بحوَّارينَ
سَاهرة

فالعصافير والخطاطيف والحُمُر والحمام والضُّوعان
وأصناف البوم كلها تقوم مقام الديك. وقال ثعلبة بن صعير
المازني:

بيضِ الوجوهِ ذوي

أعميرَ ما يُدريكِ

أَنْ رُبَّ فِتْيَةٍ

نَدَىٍّ وَمَا ثَرِ

حَسَنِي الْفِكَاهَةِ لَا

سَبَطِي الْأَكْفَّ لَدَى

تَدْمٌ لِحَامِهِمْ

الْحُرُوبِ مَسَاعِرِ

بَاكَرْتُهُمْ بِسِبَاءِ

قَبْلِ الصَّبَاحِ وَقَبْلِ

جَوْنِ مُتْرَعِ

لِغَوِ الطَّائِرِ

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

قال: ويقال لصوت الدِّيكة الدُّعاء، والزقاع، والهتاف،
والصُّراخ، والصُّقاع. وهو يهتف ويصقَع ويذُقُو ويصرُخ.
وقال جرّان العود:

تميلُ بك الدنيا

كَمَا مَالَ خَوَّارُ النَّقَا

وَيَغْلُبُكَ الْهَوَى

الْمُتَقَصِّفِ

وَنَلَعَى كَأَنَّا مَغْنَمٌ

وَتَرَعَبُ عَنْ جَزْلِ

قَدْ حُوبَتَهُ

الْعَطَاءِ وَتَصَدَّفُ

فَمَوْعِدُكَ الشُّطُّ

وَأَهْلِكَ حَتَّى تَسْمَعَ

الذي بين أهلنا

وقال الممزق العبدى:

الديك يهتفُ

نسيفاً كأفحوص

القطة المطرق

وبأت بقاع كادئ

النبت سملق

وقد تخذت رجلاي

في جنب عرزا

أنيخت بجو يصرخ

الديك عندها

وقال لبيد:

لذن أن دعا ديك

الصباح بسحرة

إلى قدر ورد

الخامس المتأوب

طيور الليل

ويقال للطائر الذي يخرج من وكره بالليل البومة والصدى
والهامة والضوع والوطواط والخفاش، وغراب الليل،
ويصيد بعضها الفأر وسام أبرص والقطا وصغار الحشرات،
وبعضها يصيد البعوض والفراس وما أشبه ذلك. واليوم
يدخل بالليل على كل طائر في بيته، ويخرجه منه ويأكل

فِرَاخُهُ وَبَيْضُهُ. وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ مَشْتَرَكَةٌ.
مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ فِي الْهَامَةِ وَالصَّدَى وَقَالَ خَزِيمَةُ بْنُ أَسْلَمَ:

فَلَا تَزْقُونَ لِي هَامَةً
فَإِنْ زُقَاءَ الْهَامِ
فَوْقَ مَرَقِبٍ
أَخْبَثُ خَابِثٍ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمٍ أَوْ غَيْرُهُ:

فَإِنْ تَكُ هَامَةً
فَقَدْ أَرْقَيْتَ
بِهَرَاةٍ تَزْقُو
بِالْمَرَوَيْنِ هَامَا

وَقَالَ تَوْبَةُ بْنُ الْحَمِيرِ:

وَلَوْ أَنَّ لَيْلِي
الْأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ
عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدَلٌ
وَصَفَائِحُ

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ
إِلَيْهَا صَدَى مِنْ
الْبَشَاشَةِ أَوْزَقَا
جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

وَقَالَ الرَّاجِزُ:

وَمَنْهَلُ طَامِسَةٍ
يَعْوِي بِهِ الذَّنْبُ

أعلامه

ويزقو هامه

وأنشدني في الصدى:

تجشمت من جرّك

والبوم والصدى

له صائح أن كنت

أسريت من أجلي

وقال سويد بن أبي كاهل في الضّوع:

لن يضرنني غير

أن يحسدني

فهو يزقو مثل ما

يزقو الضّوع

قال: في قراءة ابن مسعود: " إن كانت إلا زقية واحدة " "

ونفخ في الزّقية " يريد الصّور.

وصوت الدجاجة القوقاة، تقول هي تقوقى.

شعر في الدجاج

وقال أعرابي:

أليس يرى عيني

جُبيرة زوجها

ومحجرها، قامت

عليه النوائح

رُمِيصَاءُ قَدْ شَابَتْ
عَلَيْهَا الْمَسَائِحُ

وَرُؤَيْتَهَا تَرَحُّ مِنْ
الْعَيْشِ تَارِحُ

تَتَجَبَّهَا لَا أَكْثَرَ
اللَّهِ خَيْرُهُ

لَهَا أَنْفٌ خَنْزِيرٍ
وَسَاقًا دِجَاجَةٍ

وَقَالَ الْعُجَيْرُ السَّلُولِيُّ:

حَتَّى أَصِيبَ بَغِيظٍ
أَلَّ مَطْلُوبٍ

ذُرِقَ الدِّجَاجُ بِحَفَازٍ
الْيَعَاقِبِ

لَا نَوْمَ إِلَّا غِرَارُ
الْعَيْنِ سَاهِرَةٌ

إِنْ تَهْجُرُونِي فَقَدْ
بَدَّلْتُ أَيْكُتْكُمْ

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّنَلِيُّ:

أَعَشُّ إِذَا مَا النَّصْحُ
لَمْ يُتَقَبَّلِ

أَلَمْ تَعْلَمَا يَا ابْنَِي
دِجَاجَةٌ أَنَّنِي

شعر في هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها

وقال صاحب الكلب: وسنروي في الدجاج ونذكر كلَّ من
هجاها وهجا من اتَّخذها وأشبهها في وجه من الوجوه، قال
الراجز:

بالحيِّ قد ملَّ من
الإدلاجِ

يمشون أفواجاً إلى
أفواج

أقبلن من نيرٍ ومن
سُواجِ

فهم رجاجٍ وعلى
رَجَاجِ

مشي الفراريجِ إلى
الدجاجِ

وقال عبد الله بن الحجاج:

ويركب بي عروضا
عن عروض

ويُبغضني فإني من
بَغِيضِ

فإن يُعرض أبو
العباسِ عني

ويجعل ودّه يوماً
لغيري

فَنَصْرُ اللَّهِ يَأْسُو
كُلَّ جُرْحٍ

وَيَجْبُرُ كَسْرَ ذِي
العَظْمِ المَهِيبِ

فَدَى لَكَ مِنْ إِذَا
مَا جِئْتُ يَوْمًا

تَلْقَانِي بِجَامِعَةٍ
رَبُوضِ

لَدَى جَنْبِ الحَوَانِ
وَذَاكَ فُحْشٌ

وَبِئْسَتْ خُبْرَةَ الشَّيْخِ
المَرِيضِ

كَأَنِّي إِذَا فَرَعْتُ
إِلَى أَحْيِحِ

فَرَعْتُ إِلَى مُقَوِّقِيَةٍ
بِيَوْضِ

إِوْرَةَ غَيْضَةٍ
لَقِحْتُ كَشَافًا

لِفَقَحَتِهَا إِذَا بَرَكْتُ
نَقِيضُ

وَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِي زَوْجِهَا وَهِيَ تَرْقُصُ ابْنًا لَهَا مِنْهُ:

وُهَيْبَتُهُ مِنْ سَلْفِعِ
أَفُوكِ

وَمِنْ هَيْبَلٍ قَدْ
عَسَا حَنْيَكِ

أَشْهَبَ ذِي رَأْسِ

كرأس الديك

تريد بقولها " أشهب " أنه شيخ وشعر جسده أبيض وأن
لحيته حمراء.
وقد قال الشاعر، وهو الأعشى:

رة يمشون عُدوة
كالسيف

وبني المنذر
الأشاهب بالحي

وإنما أراد الأعشى أن يعظّم ويفخّم أمرهم وشأنهم، بأن
يجعلهم شيوخا. وأما قولها: " ذي رأس كراس الديك "
فإنما تعني أنه مخضوبُ الرأس واللحية.
وقال الآخر:

أهل المدائن فيها
الديك والفيل

حلت خويلة
في حي
مجاورة

منهم
فوارس
لا عزل

يقارعون
رؤوس
العجم

ضاحية

قال ابن أحرمر:

في رأس خلقاء من
عنقاء مُشْرِفَةٍ

إلا كمثلك فينا
غير أن لنا

هيهات حيّ غدوا
من تجرّ منزلهم

وقال:

أبعد حلولٍ بالرّكاء
وجاملٍ

تبدلت إصطبلا
وتلاً وجرّةً

وبستان ذي ثورين

ولا ميلُ

لا يبتغي دونها
سهلاً ولا جبلُ

شوقاً وذلك مما
كلفت جَلَلُ

حيّ بنجرانَ صاح
الديك فاحتملوا

غداً سارحاً من
حولنا وتَنَشَّرَا

وديكاً إذا ما أنس
الفجر فرفرا

إذا ما طغى

لا لِينْ عِنْدَهُ

نَاطورُهُ وَتَغْشَمِرَا

وقال أوس بن حجر:

كَأَنَّ هِرَاءَ جَنِيْباً عِنْدَ

والتفّ ديكٌ برجليها

مَعْرِضِهَا

وَخَنْزِيرُ

وقال الحكم بن عبدل:

مَرَرْتُ عَلَيَّ بِغَلِي

كَأَنَّكَ دَيْكٌ مَائِلُ

تَرْفُكُ تَسْعَةً

الرَّأْسِ أَعْوُرُ

تَخَيَّرْتُ أَثْوَاباً

وَأَنْتِ إِلَى وَجْهِ

لِزِينَةِ مَنْظَرٍ

يَزِينُكَ أَفْقَرُ

وقال النَّمِرُ بن تَوَلَّب:

أَعِذْنِي رَبِّ مَنْ

وَمَنْ نَفْسٍ

حَصَرَ وَعَيَّ

أُعَالِجُهَا عِلاجاً

وَمَنْ حَاجَاتِ نَفْسِي

فَإِنْ لِمَضْمَرَاتِ

فَاعْصِمْنِي

النَّفْسِ حَاجَا

إليك وما قضيت فلا
خِلاجاً

أرجي النّسل منها
والنّتاجا

لأشريها وأقتني
الدّجاجا

وليس بنافعي إلا
نضاجا

مرار الطعن
والضرب الشّجاجا

على الأعداء تختلج
اختلاجاً

تخال بياض عُرتها
سراجاً

وأنت وليّها
وبرئتُ منها

وأنت وهبتها
كوماً جِلاداً

وتأمرني ربّعة
كلّ يومٍ

وما تُغني الدجاج
الضّيف عني

أهلكها وقد
لاقيتُ فيها

وتذهب باطلاً
غدوات صُهبي

جموم الشدّ شائلة
الدّنّابي

إذا الأصوات
خالطت العجاجا

وشدّي في
الكريهة كل يوم

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

لخُبث الأَطعماتِ من
الدجاج

وللأنصار آكل في
قُراها

وقال الآخر لصاحبه:

فنجنا من مُنتنِ
الأرواح

آديتنا بديك
السَّلاحِ

وقالوا: " هو أسلح من حُبارى " ساعة الخوف، ومن " دجاجة " ساعة الأمن.
وقال عقيل بن علفة:

بأسفلِ علكد دواخنُ
تنضُب

وهل أشهدن خيالاً
كأن عُبارها

فِقأحُ الدجاج في

تبيتُ على رَمضِ

كَانَ عُيُونُهُمْ

الْوَدِيِّ الْمَعْصَبِ

كَلْبُ الرَّفْقَةِ

وقال صاحب الديك: حَدَّثَ الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْعَلَاءُ بْنُ
أَسْلَمٍ قَالَ: أُرِدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى مَكَّةَ الْمَعْظَمَةِ، شَرَّفَهَا اللَّهُ
تَعَالَى، فَجَاءَنِي هِشَامُ بْنُ عَقْبَةَ - وَهُوَ أَخُو ذِي الرُّمَّةِ - فَقَالَ
لِي: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ تَرِيدُ سَفْرًا يَحْضُرُ الشَّيْطَانُ فِيهِ
حُضُورًا لَا يَحْضُرُهُ فِي غَيْرِهِ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ
لِوَقْتِهَا فَإِنَّكَ مَصْلِيهَا لَا مَحَالَةَ، فَصَلِّهَا وَهِيَ تَنْفَعُكَ، وَاعْلَمْ
أَنَّ كُلَّ رُفْقَةٍ كَلْبًا يَنْبَغُ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ نَهَبٌ شَرِكُوهُ فِيهِ،
وَإِنْ كَانَ عَارٌّ تَقَلَّدَهُ دُونَهُمْ فَلَا تَكُنْ كَلْبُ الرَّفْقَةِ !! وَقَدْ رَوَوْا
شَبِيهًا بِذَلِكَ عَنْ تَبِيْعِ بْنِ كَعْبٍ.
أَمْ كَلْبَةٌ وَقَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ:

يَا نَصْرَ نَصْرِ بَنِي

أَنْتُمْ إِمَاءٌ يَتَّبِعُنَ

قَعِينٍ إِنَّمَا

الْأَشْتَرَا

يَتَّبِعُنَ فَضْلَةَ أَيْبَرِ

عَضَّ الْكَلَابِ بِعَجْبِهِ

كَلْبٍ مَنَعَطٍ

فَاسْتَنْفَرَا

قال: فلما قدم زيد من عند النبي صلى الله عليه وسلم قال " أبرح فتى إن لم تدركه أم كلبية، يعني الحمى. الكلب بين الهجاء والفخر وقال جرير في البعيث:

إذا أنت لاقيت أشحَّ على الزاد
البعيث وجدته الخبيث من الكلب

وقال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن معد يكرب:

وقد كنت إذا ما يُّ يوماً كرهوا
الح صلحي
ألف الخيل وأكفي النَّبَحِ بالنَّبَحِ
بالخيل

استعارات من اسم الكلب قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم، إن أوطن نفسه على شيء: قد ضربت جروتي، وضربت عليه. وقال أبو النجم:

حتى إذا ما ابيضَّ وبُدَّلت والدهر
جرو التنفل ذو تبدل

وقال:

من الحنظل العامي جرؤ مفلق

وقال عُتْبة الأَعور:

ذهب الذين
أحبهم

وبقيت فيمن لا أحبه

إذ لا يزال كريم
قو

مي فيهم كلب يسبّه

احتقار العرب للصيد

قال صاحب الديك: فخرتم علينا بصيد الكلب، وهجوتم الديك
إذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به، وقد وجدنا العرب
يستذلُّون الصيد ويحقرُّون الصياد، فمن ذلك قول عمرو بن
معد يكرب:

نتم في قومكم

ذنب ونحن فروع أهد

س إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مربق ومكلب

و طليحة حربنا

معروفٍ سعيٍ أبيهم

بعد شيبٍ شامل

سوق الحمير بحانةٍ فـ

طلبُ الوُعول بوفضةٍ

ترحاً له من كاهن مـ

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

وأما قول زهير:

وكانوا قديماً من

مناياهم القتلُ

وإن يُقتلو

فيُشتفى بدمائهم

فهذا البيت نفسه ليس يدلُّ على قولهم أن كل من كان به جنونٌ أو كلبٌ ثم حساً من دم ملكٍ أو سيدٍ كريمٍ أفاق وبرى.

فرار الكلب الكلب من الماء

وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثالاً في شدة طلبه الماء، وفي شدة فراره منه إذا عاينه.

وقالوا وقتلتم: فالماء المطلوب إذا عاينه من غير أن يمسه، وهو الطالب له ولم يحرص عليه إلا من حاجة إليه. فكيف صار إذا رآه صاح ؟ ! قالوا: وقد يعترى الناظر إلى الماء،

والذي يديم التَّحْدِيقَ إليه وهو يمشي على قنطرةٍ أو جُرْفٍ
أو جسر الدُّوَارِ؛ فإنه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه إلى
الماء، وإن كان لا يحسن السباحة. وذلك إنما يكون على
قدر ما يصادف ذلك من المرار، ومن الطَّبَّاعِ.
فمن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجاه محمد بن مسعود، فكاد
يموت حتى استُخْرِجَ. ومنهم منصور بن إسماعيل التَّمَّارِ،
وجماعة قد عرفت حالهم.

ما يعتري المختنق والممرور وهذا كما يعتري الذي يصيبه
الأسُّ من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها؛ فإنه ربما
استقي واستخرج وقد تغيَّرَ عقله. وأصحاب الرِّكَايَا يرون أن
دواءه أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً، وأن يزلّ تزميلاً وإن كان
في تمّوز وآب، ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر؛
فإنه إن لم يُحَلَّ بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر، أتاها
سعيّاً في أوّل ما يفتح عينه ويرجع إليه اليسيرُ من عقله، ثم
يُكْفِي نفسه فيها من ذات نفسه، في الموضع الذي لقي منه
ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أنّ القوم لو تركوه طرفةً
عينٍ لهلك. هكذا كان عنده أيام صحة عقله، فلما فسد أراه
الفساد أن الرّأي في العود إلى ذلك الموضع.
وكما يعتري المروِّرَ حتى يرجم الناس؛ فإن المرّة تصوّر له

أن الذي رَجَمَهُ قد كان يريد رجمه، فيرى أن الصواب يبدأ
بالرَّجْمِ وعلى مثل ذلك تُريه المِرَّةُ أن طرحه نفسه في النَّارِ
أجودٌ وأحزم.

وليس في الأرض إنسانٌ يذبح نفسه أو يختنق أو يتردَّى في
بئر، أو يرمي نفسه من حالي، إلا من خوف المثلة أو
التعذيب أو العيير وتقرير الشامتين، أو لأن به وجعاً شديداً
فيحرك عليه المِرَّةُ فيحمي لذلك بدنه ويسخن جوفه، فيطير
من ذلك شيءٌ إلى دماغه أو قلبه، فيوهمه ذلك أن الصواب
في قتل نفسه، وأن ذلك هو الرَّاحة، وأن الحزم مع الرَّاحة.
ولا يختار الخنق الوادع الرابع ابلرافه، السليم العقل
والطباع. وللغيظ ربما رمى بنفسه في هذه المهالك، وقذف
بها في هذه المهاوي.

وقد يعترى الذي يصعد على مثل سنسيرة أو عقرقوف أو
خضراء زوج، فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه،
فيرون عند ذلك أن يصعد إليه بعض المعاودين المجربين،
ولا يصنع شيئاً حتى يشدَّ عينيه، ويحتال لإنزاله. فهذا
المعنى عامٌ فيمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلة. وما
أكثر كمن لا يعتريه ذلك.

وقد قال الناسُ في عذر هؤلاء ولأن فيهم ضروباً من

الأقويل.

وإنما تكلمنا على المغلوب. فأما من كانت هذه العوارض لا تُفسد عقله، ولا تنقُضُ استطاعته، فليس بيننا اختلافٌ في أنه ملوم. على أن إلزامه اللائمة لا يكون إلا من بعد خصومةٍ طويلة، لا يصلح ذكرها في هذا الباب.

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

وقال صاحب الكلب: الغربا من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغائها وليس من أحرارها، ومن ذوات البرائن الضعيفة والأظفار الكليّة، وليس من ذوات المخالب المعقّفة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناكير وليس من ذوات المناسر. وهو مع أنه قويُّ النَّظر. لا يتعاطى الصيد. وربما راوغ العصفور، ولا يصيد الجرادة إلا أن يلقاها في سدٍّ من الجراد. وهو فسلٌّ إذا أصاب جيفةً نال منها وإلا مات هُزالاً، ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمةٍ لمكان أكّله الجيف، وليس بسبعٍ لعجزه عن الصيد.

ألوان الغربان

وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزنج فإنهم شرارُ الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلادُه فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقتَه الأرحام. وإنما صارت عقولُ أهلِ بابل وإقليمِها فوقَ العقول، وجمالهم فوقَ الجمال لعة الاعتدال. وللغرباب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفة ولا جمال، وإما أن يكون أبقع فيكون اختلافُ تركيبه وتضادُ أعضائه دليلاً على فسادِ أمره. والبُقَع الأمُّ من السود وأضعف.

أنواع الغربان

ومن الغربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبَّه بأخلاق البوم. ومنها غرابُ البين. وغراب البين نوعان: أحدهما غربانٌ صغارٌ معروفةٌ بالضعف واللؤم، والآخر " كُلُّ غرابٍ يُتَشَاءَمُ به. وإنما لزمه هذا الإسم لأن الغراب إذا بان أهلُ الدار للنُّجعة، وقع في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقَمَّم، فيتشَاءمون به ويتطيرون منه؛ إذا كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا، فسَمَّوه غراب البين. ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم

له مخالفة الزجر والطيرة، و علموا انه نافذ البصر صافي العين - حتى قالوا أصفى من عين الغراب، كما قالوا: أصفى من عين الديك - فسموه الأعور كنايةً، كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير. وبها اكتني الأعمى بعد أن عمي. ولذلك سموا الملوغ والمنهوش سليماً، وقالوا للمهاك من الفيافي: المفاوز. وهذا كثير. والغدقان جنس من الغربان، وهي لنام جداً.

التشاوم بالغراب

ومن أجل تشاومهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربية، والاعتراب، والغريب. وليس فغي الأرض بارح ولا نطيح، ولا فعيد، ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكذ منه، يرون أن صياحه أكثر أخباراً، وأن الزجر فيه أعم. وقال عنتره:

جَلْمَان، بِالْأَخْبَارِ
هَشُّ مَوْلَعٍ

حَرَقَ الْجَنَاحَ كَأَنَّ
لِحْيَيْ رَأْسِهِ

التعاير بأكل لحم الغراب

وهو عندهم عار، وهم يتعايرون بأكل لحمه. ولو كان ذلك منهم لأنه يأكل اللحوم، ولأنه سبيع، لكانت الضواري والجوارح أحقّ بذلك عندهم. وقد قال وَعَلَّةُ الْجَرْمِي:

شِوَاءَ النَّاهِضَاتِ مَعَ
الْخَبِيصِ

فَمَا بِالْعَارِ مَا
عَيَّرَ تُمُونَا

وَلَا سَرَطَانُ أَنْهَارِ
الْبَرِيصِ

فَمَا لَحْمُ الْغَرَابِ
لَنَا بَزَادِ

فسق الغراب وتأويل رؤياه

قال: والغربان جنسٌ من الأجناس التي أمر بقتلها في الحلِّ والحرم، وسمّيت بالفسق وهي فواسق، اشتقَّ لها من اسم إبليس. وقالوا: رأى فلان فيما يرى النائم أنه يسقطُ أعظمَ صومعةٍ بالمدينة غراباً. فقال سعيدُ بن المسيّب: يتزوح أفسقُ الفاسقين امرأةً من أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أياماً حتى كان ذلك.

غراب نوح

وقالوا في المثل: لا يرجع فلانٌ حتى يرجع غرابُ نوح،
وأهل البصرة يقولون: حتى يرجع نشيطٌ من مرو، وأهل
الكوفة يقولون: حتى يرجع مصقلة من سجستان". فهو
مثلٌ في كل موضعٍ من المكروه.

قبح فرخ الغراب وفرخ العقاب

وزعم الأصمعيُّ عن خلفِ الأحمر، أنه قال: رأيت فرخ
غراب فلم أر صورة أقبِح ولا أسمع ولا أبغض ولا أقدر ولا
أنتن منه. وزعم أن فراخ الغربان أنتن من الهدهد - على أن
الهدهد مثلٌ في النتن - فذكر عظم رأسٍ وصغرَ بدن، وطولَ
منقارٍ وقصرَ جناح، وأنه أمرط أسود، وساقط النفس،
ومنتن الريح.

وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمرٌ صعب،
وشيءٌ عسير. ولست أحسن أن أقضيَ بينهما.

والغربان عندنا بالبصرة أو أبدأ غير قواطع، وهي تفرخ
عندنا في رعوس الهخل الشامخة، والأشجار العالية.

أسطورة خداع الغراب للديك

فالغرابُ عند العرب مع هذا كله، قد خدع الديك وتلعب به،
ورهنه عند الحمار وتخلص من الغرم، وأغلقه عند الحمار،

فصار له الغنم وعلى الديك الغرم، ثم تركه تركاً ضرب به
المثل.

فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه، فالديك هو المغبون
والمخدوع والمسخور به، ثم كان المتلعب به أنذل الطير
والأمه.

وإن كان هذا القول منهم يجري مجرى الأمثال المضروبة،
فلولا أن علياً الديك في قلوبهم دون محلّ الغراب - على لؤم
الغراب ونذالته وموقه وقلة معرفته - لما وضعوه في هذا
الموضع.

دهاء أمية بن أبي الصلت

فإن أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة،
وأخبارهم الصحيحة ثم ابدعوا بقول أمية بن أبي الصلت؛
فقد كان داهيةً من دوهي ثقيف، وثقيفٌ من دُهاة العرب،
وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه كان قد همَّ بادّعاء النبوة،
وهو يعلم كيف الخصال التي يكون بها الرجل نبياً أو متنبياً
إذا اجتمعت له. نعم وحتى ترشّح لذلك بطلب الروايات،
ودرس الكتب. وقد بان عند العرب علامةً، ومعروفاً
بالجولان في البلاد، راويةً.

حديث العرب في الغراب

والديك وطوق الحمام

وفي كثير من الروايات من أحاديث العرب، أن الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمّارٍ ولم يعطياه شيئاً وذهب الغرابُ ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك، فحاس به، فبقي محبوساً.

وأن نوحاً صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللّجة أياماً بعث الغراب، فوقع على جيفةٍ ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً، واستجّلت على نوح الطوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك، أي فجعل ذلك جُعلاً لها. وفي جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت.

وخان أمانة الديك

الغرابُ

بآيةٍ قام ينطق كلُّ

شيءٍ

يقول: حين تركه في أيديهم وذهب وتركه.
والعامّة تضرب به المثل وتقول: ما هو إلا غرابُ نوح.
ثم قال:

تدلُّ على المهالك
لا تهابُ

وغايته من الماء
العُبابُ

عليه الثَّأطُ
والطينُ الكُبابُ

لها طوقاً كما عَقَدَ
السَّخَابُ

وإن تُقتل فليس
لها استلاب

وذي الجَنِّيِّ
أرسله يتابُ

ولا الجَنِّيُّ أصبح
يُستتابُ

وأرسلتِ الحمامة
بعد سبعِ

تلمس هل ترى في
الأرضِ عيناً

فجاءت بعدما
ركضت بِقُطْفِ

فلما فرَّسوا الآياتِ
صاغوا

إذا ماتت تورَّثه
بنيها

كذي الأفعى يربِّيها
لديه

فلا ربُّ المنية
بأمنها

الجَنِّي: إبليس؛ لذنوبه. والأفعى هي الحية التي كلم إبليس
آدم من جوفها. ومن لا علم عنده يروي أيضاً أن إبليس قد
دخل جوف الحمار مرّة؛ وذلك أن نوحاً لمّا دخل السفينة
تمنّع الحمار بعسره وتكّده، وكان إبليس قد أخذ بدنّبه. وقال
آخرون: بل كان في جوفه فلما قال إبليس للحمار: ادخل يا
ملعون ! ودخل الحمار، دخل إبليس معه؛ إذ كان في جوفه.
قال: فلما رآه نوحٌ في السفينة قال: يا ملعون من أدخلك
السفينة ؟ قال: أنت أمرتني. قال: ومتى أمرتك ؟ قال: حين
قلت، ادخل يا ملعون، ولم يكن ثمَّ ملعون غيري

شعر أمية في الديك والغراب والحمامة

قال أمية بن أبي الصلت:

س أمائيلَ باقياتِ
سُفورا

تقصف اليبساتِ
والخضورا

يّل شتّى والرّيمَ

هو أبدى من كلّ
ما يَأثرُ النا

خلق النّخل
مصعداتِ تراها

والتماسيح

والتماثيل والأ

واليعفورا

وصواراً من

ونعاماً خواضباً

النواشطِ عِيناً

وحميرا

وأسوداً عوادياً

وذياباً والوحشَ

وفيولاً

والخنزيرا

وديوكاً تدعو

وإوزينَ أخرجت

الغرابِ لصلحِ

وصقورا

قال: ثم ذكر الحمامة فقال:

سمع الله لابنِ آدم

ربُّنا ذو الجلال

نوحِ

والإفضالِ

حين أوفى بذِي

س جميعاً في

الحمامة والننا

فُكِّه كالعِيالِ

فأنته بالصدقِ لَمَّا

وبقِطِفِ لَمَّا غدا

رشاها

عِشْكالِ

ووصف في هذه القصيدة أمر لحمامة والغراب صفةً ثانية،
وغير ذلك، وبدأ بذكر السفينة فقال:

صريف مَحَالٍ تستعيد الدَّوَالِيَا	تَرْفَعُ فِي جَرِي كَأَنَّ أَطْيَطَهُ
سَراهِ وَعَيمِ الْبَسِ الماءِ دَاجِيَا	عَلَى ظَهْرِ جُونٍ لَمْ يُعَدِّ لِرَاكِبٍ
وَسَتْ لِيَالٍ دَائِبَاتٍ غَوَاطِيَا	فَصَارَتْ بِهَا أَيَامَهَا ثُمَّ سَبْعَةً
كَأَنَّ عَلَيْهَا هَادِيَا وَنَوَاتِيَا	تَشَقُّ بِهِمْ تَهْوِي بِأَحْسَنِ إِمْرَةٍ
وَأَصْبَحَ عَنْهُ مَوْجُهُ مُتْرَاخِيَا	وَكَانَ لَهَا الْجُودِيُّ نَهِيَاً وَغَايَةً

ثم قال:

وما كان أصحاب
غداةً غَدَّتْ مِنْهُمْ

الحمامة خيفة

رسولاً لهم والله
يُحْكِمُ أَمْرَهُ

فجاءت بِقِطْفِ آيَةٍ
مستبينةً

على خطمِها
واستوهبت نَمَّ
طوقها

ولا ذهباً، إني
أخافُ نبالهم

وزدني على طريقي
من الحلي زينةً

وزدني لطرف

تضم الخوافيا

يبين لهم هل
يونسُ الثوب
باديا

فأصبح منها
موضع الطين
جاديا

وقالت ألا لا تجعل
الطوق حاليا

يخالونه مالي
وليس بماليا

تُصيب إذا أتبت
طوقي خضابيا

وأرث إذا ما متُّ

العين منك بنعمةٍ

طوقس حماميا

يكون لأولادي

ويهوين زيني

جمالاً وزينةً

زين أن يرانيا

ثم عاد أيضاً في ذكر الديك فقال:

ولا غرو إلا الديك

نديم غرابٍ لا يمل

مدمن خمره

الحوانيا

ومرهنه عن

فأوفيت مرهوناً

الغراب حبيبه

وخلفاً مسابيا

أدل علي الديك

فأقبل على شاني

إنبي كما ترى

وهاك ردائيا

أمنتك لا تلبث من

ولا نصفها حتى

الدهر ساعةً

تنوب مآبيا

ولا تدركك

فأعلق فيهم أو

الشمس عند

يطول ثوائيا

طلوعها

إلى الديك وعداً كاذباً وأمانياً	فردّ الغراب والرداء يحوزه
أدعك فلا تدعو علي ولا ليا	بأية ذنبٍ أو بأية حُجّةٍ
فلا تدعو بي مرة من ورائيا	فإني نذرت حَجَّةً لن أعوقها
وأزمت حَجاً أن أطير أماميا	تطيرت منها والدعاء يعوقني
أوفي غداً نحو الحجيج الغواديا	فلا تياسن إني مع الصُّبح باكراً
وآثرت عمداً شائي قبل شانيا	لحبّ امرئٍ فاكهته قبل حَجَّتِي
وطال عليه الليل	هنالك ظن الجديدك

إذ زال زوئلهُ

ألا مفاديا

فلما أضاء الصُّبحُ
طرَّبَ صرخةً

ألا يا غرابُ هل
سمعتِ ندائيا

على وده لو كان
ثم مجيبه

وكان له ندمان
صدقٍ مواتيا

وأمسى الغراب
يضرب الأرض
كلَّها

عتيقاً وأضحى
الديك في القِدِّ
عانيا

فذلك مما أسهب
الخمير لَبَّه

ونادم ندماناً من
الطير عاديا

ما يلقم فراخه وما يزقها

قال: ومن الطير ما يُلقم فراخه مثل العصفور؛ لأنَّ العصفور لا يزق. وكذلك أشباه العصفور.

ومن الطير ما يزق فراخه، مثل الحمام ومتا أشبه ذلك كبهائم الطير الخالصة؛ لأن الدجاجة تأكل اللحم، وتلغ في الدم، وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً مليحاً،

كيساً بصيراً بما يُعيشه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع
الطيرِ والعصافير لأولادها؛ لأن أولادها إذ لم ترضع ولم
تلقط الحَبَّ كالفراريح أول ما تخرج من البيض ولم تزقها
الآباء ولا الأمهات كأجناس الحمام، فلا بد لها من تلقيم.

ما له طبيعة مشتركة من الطير

والفروج مشترك الطبيعة، قد أخذ من طبائع الجوارح
نصيياً، وهو أكله للحم، وحسوه للدم، وأكله للديدان وما هو
أقدر من الذباب. والعصفور أيضاً مشارك الطباع؛ لأنه يجمع
بين أكل الحبوب واللحمان، وبين لقط الحبوب وأجناس
كثيرة من الحيوان، كالنمل إذا طار، وكالجراد، وغير ذلك.
وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من العصفورة.

هداية العصفور

والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب. ولقد بلغني
أنه قد رجع من قريب من فرسخ. وهي تكون عندنا بالبصرة
في الدور، فإذا أمكنت الثمار لم تجد منها إلا اليسير، فتصير
من القواطع إلى قاصي النخل؛ وذلك أنها إذا مرت بعصافير
القرى وقد سبقت إلى ما هو إليها أقرب، جاوزتها إلى ما
هو أبعد، ثم تقرب الأيام الكثيرة إلى ما هو أبعد، ثم تقرب

الأيام الكثيرة المقدار، في المسافة إلى أكثر مما ذكرت من
الفرسخ أضعافاً.

تحنن العصافير وعطفها والعصافير لا تقيم في دور الأمصار
إذا شخص أهلها عنها، إلا ما كان مقيماً منها على بيض أو
فراخ؛ فإنه ليس بالأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشدُّ
تعطفاً من عصفور. والذي يدلُّ على أن في طبعها من ذلك
ما ليس في طبع سواها من الطير، الذي تجد من إسعاد
بعضهنَّ لبعض، إذا دخلت الحية إلى حُجر بعضهن لتأكل
فرخاً، أو تبتلع بيضاً؛ فإن لأبوى الفرخ عند ذلك صياحاً
وقلقاً وطيранاً، وتدفيفاً وترنيقاً فوق الحُجر ودونه
وحواليه، فلا يبقى عصفورٌ من حيث يسمع صياحهما أو
يسمع أصواتهما إلا جنن أرسالاً مسعداتٍ، يصنعن معهما
كما يصنعان.

حذر العصفور وليس في الأرض أصدق حذراً منه. ويقال
إنه في ذلك لأكثر من العَقَق والغراب.

وخبَّرني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً
على حائطٍ سطحٍ بحذائي، فيغمُني صياحُه وحدةً صوته،
فأصيح وأومئ إليه بيدي، وأشير كأي أرميه، فما يطير.
حتى ربما أهويت إلى الأرض كأي أتناول شيئاً، كل ذلك لا

يتحرك له. فإن مسّت يدي أدنى حصة أو نواة وأنا أريد رميها، طار قبل أن تستمكن منها يدي.
سفاج العصفور وأثره في عمره وليس في الطير أكثر عدد سفاد من العصافير، ولذلك يقال إنّها أقصر الطير أعماراً. فيقال إنّه ليس شيء مما يألف الناس ويعايشهم في دورهم أقصر عمراً منها. يعنون: من الخيل والبغال والحمير، والبقر والغنم، والكلاب والسّننير، والخطاطيف والزرزير، والحمام والدجاج.

نقران العصفور ولا يقدر العصفور على المشي، وليس عنده إلا النقران، ولذلك يسمّى النّقاز، وإنما يجمع رجله ثم يثب، وذلك في جميع حركاته، وفي جميع ذهابه ومجيئه. فهي الصّعو، والعصافير، والنقايز. وإن هو مشى هذه المشية - التي هي نقران - على سطح وإن ارتفع سمكه، فكأنك تسمع لوطئه وقع حجر؛ لشدة وطئه، ولصلابة مشيه. وهو ضدّ الفيل؛ لأن إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لما شعر به، لخفة وقع قوائمه، مه سرعة مشي وتمكين في الخطا.

سبعية الرّخم والنسر

والرَّحْم والنَّسْر سباع، وإنما قصَّرَ بها عدم السلاح. فأما
البدن والقوَّة ففوق جميع الجوارح، ولكنها في معنى
الدَّجاج، لمكان البراثن ولعدم المخالب.
وفاء العصافير ولقد رأيت سنوراً وثب على فرخ عصفور
فأخطأه فتناول الفرخ بعض الغلمان فوضعه في البيت، فكان
أبوه يجيء حتى يطعمه، فلما قوي وكاد يطير جعله في
قفص، فرأيت أباه يجيء يتخرق السنانير وهي تهمَّ به، حتى
يدخل إليه من أعلى فتح الباب، وهي تهمُّ بالوثوب
والاختطاف له، حتى يسقط على القفص فينازعه ساعة، فإذا
لم يجد إلى الوصول سبيلاً طار فسقط خارجاً من البيت، ثم
لا يصبر حتى لا يعود. فكان ذلك دأبه. فلما قوي فرخه
أرسلوه معه فطارا جميعاً.
وعرفنا أنه الأبُّ دون الأمِّ لسواد اللحية.

القول في سماجة صوت الديك

قال: والدليل على أن صوت الديك كرية في السَّماع، غير
مطرب، قول الشاعر:

وأملَّه ديك

ذكر الصَّبوح بسُحرةٍ

فارتاحا

الصَّبَاحِ صِيَاحَا

أوفى على شَرْفِ
الجدار بسُدْفَةٍ

غرداً يصفق
بالجَنَاحِ جناحا

صغر قدر الدجاج

قال: ويدلُّ على صِغَرِ قدرِ الدجاجِ عندهم قولُ بشارِ بنِ بردٍ
الأعمى:

بجدِّك يا ابنِ أقرعٍ
نلت مالاً

ألا إن اللئام لهم
جدود

فمن نذر الزيادة في
الهدايا

أقمت دجاجة
فيمن يزيد

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريجها

قال: وإذا كثرت الدجاج في دارٍ أو إصطبلٍ أو قرية، لم يكن
عدد بيضها و فراريجها على حسب ما كان يبيض القليل
منهنَّ ويفرخه. يعرف ذلك تجار الدجاج ومن اتخذها للغلَّة.

رعي الدجاج في مصر

بِمِصرَ تَرعى كما يَرعى الغنم، ولها راعٍ وقيم.

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

والموتُ إلى الدجاج سريعٌ جداً، والعادة في صغار فراريجها خلاف ما عليها نتو فراخ الحمام؛ لأنَّ الفروج تتصدع عنه البيضة في كَيْسٍ ظريف، مليح مقبول، مُحَبَّبٌ، غنيٌّ بنفسه، مكتفٍ بمعرفته، بصيرٌ بموضع معيشته من لقط الحب، ومن صيد الذباب وصغار الطير من الهوام. ويخرج كاسياً حتى كأنه من أولاد ذوات الأربع. ويخرج سريع الحركة شديداً الصوت حديده، يُدعى بالنَّقْر فيُجيب، ولا يقال له: قر، قر، ثلاث مرّات - حتى يلقنه. فإن استدبره مستدبراً ودعاه عطفاً عليه، وتتبع الذي يطعمه ويلعبه، وإن تباعد من مكانه الأوّل. فهو آف شيء. ثمّ كلما مرت عليه الأيام ماق وحمق، ونقص كيسه، وأقبل قبْحه وأدبر ملْحه. فلا يزال كذلك حتى ينسلخ من جميع ما كان يُحَبُّ له إلى ضدِّ ذلك، ويصير من حالة إلى حال لم يبلغ الانتفاع بذبحه وبيضه وفراريجه، وذهب عنهم الاستمتاع بكيسه. ولا يكاد يقبل الشَّحم حتى يلحق بأبيه، وكذلك إن كانت أنثى، لا تقبل السَّمْن، ولا تحمل اللَّحْمَ حتّى تكاد تلحقُ بأُمِّها في الجثَّة.

والفرخ يخرج حارصاً ساقطاً، أنقصَ من أن يقالَ له مائق،
وأقبحَ شيء. وهو في ذلك عاري الجلد مختلف الأوصال
متفاوت الأعضاء، ضعيفُ الحوصلة، عظيم المنقار. فكَلَّمَا
مرَّت به الأيام زادت في لحمه وشحمه، وفي معرفته
وبصره، حتى إذا بلغَ خرجَ منه من الأمور المحمودَةِ ما
عسى لو أنَّ واصفاً تتبَّع ذلك لملأَ منه الأجلاد الكثيرة. ثم إذا
جَاز حدَّ الفِراخ إلى حدِّ النواهض، إلى حدِّ العُتق والمخالب،
قلَّ لحمه وذهب شحمه على حساب ذلك ينقص. فإذا تمَّ
وانتهى لم تكن في الأرض دابَّةً ولا طائرٌ أقلَّ شحمًا ولا
أخبثَ لحمًا منه، ولا أجدرَ ألاَّ يقبلَ شيئاً من السَّمَن ولو
تخيروا له فؤارة المسمينات وما يسمَن به - ما سمن.
علة قلة البيض إذا كثر الدجاج وسألت عن السَّبب الذي
صار له الدَّجَاجُ إذا كثرن قلَّ بيضهنَّ وفراخهنَّ، فزعموا
أنَّها في طباع النَّخل، فإن النَّخلة إذا زَحمت أختها، بل إذا
مسَّ طرفُ سَعفِها طرفَ سَعفِ الأخرى وجاورتها، وضيقت
عليها في الهواء، وكذلك أطراف العروق في الأرض - كان
ذلك كرباً عليها وغمماً.
قالوا: فتدانيها وتضاغُطها، وأنفاسها وأنفاسُ أبدانها، يحدث
لها فساداً.

قال: وكما أنّ الحمامَ إذا كثُرَت في الكُنَّة والشريحة احتاجت إلى شمس وإلى ماء تغتسل فيه في بعض الأحيان، وإلى أن تكون بيوتها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، وإلاّ لم يكن لها كبيرُ بيض. على أنّه إذا كان لها في الصمّيين الدَّفءُ في الشتاءِ والكنُّ في الصيف، لم تُغادرِ الدهرَ كلّه أن تبيض.

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

قال صاحب الديك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتقّ للأشياء من اسم الكلب، وقد اشتقّ لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقلانس الحديد بيض، وقالوا: فلأن يدفع عن بيضة الإسلام، وقالوا: قال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: أنا بيضةُ البلد. وفي موضع الذمّ من قولهم:

وابننا نزار وأنتم
بيضةُ البلد

تأبى قضاة أن
تدري لكم نسباً

ويسمى رأس الصّومعة والقبة بيضة. ويقال للمجلس إذا كان معموراً غير مطّول بيض جاثمة، ويقال للوعاء الذي

يكون فيه الحبن والخراج وهو الذي يجتمع فيه القيح -
بيضة. وقال الأشتر بن عبادة:

يَكْفُ غُرُوبَهَا
وَيَعْضُ مِنْهَا
مُظَاهِرُ بَيِّضَتَيْنِ
عَلَى دِلَاصٍ
وَقَالَ النَّابِغَةُ:

فَصَبَّحَهُمْ مُلَمَّمَةً
رَدَا حَاً
كَأَنَّ رُؤُوسَهُمْ بَيِّضُ
النَّعَامِ
وَقَالَ الْعُجَيْرُ السَّلُولِيُّ:

إِذَا الْبَيْضَةُ الصَّمَاءُ
عَضَّتْ صَفِيحَةً
بِحِرْبَانِهَا صَا حَتْ
صِيَا حَاً وَصَلَّتْ

شرط أبي عباد في الخمر

ولما أنشدوا أبا عباد النَّمْرِيَّ قولَ ابنِ مَيَّادَةَ، وهو الرَّمَّاحُ:

ولقد غَدَوْتُ
على الفَتَى في
رحله

قبل الصَّبَاحِ
بمُتَرَعِ نَشَّاجِ

حمرَاءِ
مثل
سخينة
الأوداجِ

قوراءِ
بَيْنَ
جَوَازِلِ
وَدَجَاجِ

مَلِكُ
يعصَّبُ
رأسُهُ
بالتَّجِ

نُجَبِ

جَادَ القَلَالُ
له بَدْرٌ
صباية

حُبِسَتْ
ثَلَاثَةٌ
أحْرُسِ في
دَارَةٍ

تَدَعُ الغَوِيَّ
كأنَّه في
نفسه

ويظَلُّ

العراق
نزَلْنَ
بالأحْداجِ

يَحْسِبُ كُلَّ
شَيْءٍ
حَوْلَهُ

فحين سمعه أبو عباد يقول:

قَوْرَاءَ بَيْنَ جَوَازِلِ
وَدَجَاجِ

حُبْسَتْ ثَلَاثَةَ أَحْرُسٍ
فِي دَارَةٍ

قال: لو وجدتُ خمرًا زيتيةً ذهبية، أصفى من عين الديك،
وعين الغراب، ولعاب الجُندب وماء المفاصل، وأحسن
حمرةً من النار، ومن نجيع غزال، ومن فؤة الصَّبَاغ - لما
شربتها حتَّى أعلم أنّها من عصير الأرجل، وأنّها من نبات
القرى؛ وما لم تكدر في الزَّقَاقِ، وأنَّ العنكبوت قد نسجت
عليها، وأنّها لم تصر كذلك إلاّ وسط دَسْكَرَةٍ، وفي قرية
سَوَادِيَّةٍ وحولها دَجَاجٌ وفراريج. وإن لم تكن رِقْطَاءَ أو فيها
رُقْط فإِنَّهَا لم تتمّ كما أريد. وأعجب من هذا أنّي لا أنتفع
بشربها حتَّى يكون بأنعها على غير الإسلام، ويكون شيخاً لا
يُفصح بالعربيّة، ويكون قميصُهُ متقطّعاً بالقار. وأعجب من
هذا أنّ الذي لا بدّ منه أن يكون اسمه إن كان مجوسياً

شهر يار، ومازيار، وما أشبه ذلك، مثل أدير، واردان،
ويازان. فإن كان يهودياً فاسمه مانشا، وأشلوما، وأشباه
ذلك. وإن كان نصرانياً فاسمه يوشع وشمعون وأشباه ذلك.
استطرد لغوي ويقال حمس الشر وأحمس إذا اشتد. ويقال
قد احتمس الديكان احتماساً، إذا اقتتلا اقتتالاً شديداً. ويقال
وقع الطائر يقع وقوعاً. وكلُّ واقع فمصدره الوقوع، ومكانه
موقعةً، والجمع مواقع. وقال الرَّاجز:

مواقع الطير على
الصفي

كأن متنيه من
النفي

يقال صفاً وصفيً. والنفي: ما نفى الرشاء من الماء، وما
تنفيه مشافر الإبل من الماء المدير. فشبه مكانه على ظهر
الساقى والمستقي بذرق الطير على الصفا.
ويقال " وقع الشيء من يدي وقوعاً، وسقط من يدي
سقوطاً ". ويقال وقع الربيع بالأرض، ويقال سقط. وقال
الراعي:

ورأى بعقوته أزل

وقع الربيع وقد

لؤم الفروج قال: وكان عِنْدَنَا فُرُوجٌ، وفي الدار سنانيِرُ
تُعابث الحمامَ وفراخه، وكان الفُرُوج يهْرُبُ منها إلى
الحمام، فجاءُونَا بِدُرَّاجٍ، فترك الحمامَ وصار مع الدُرَّاجِ، ثم
اشترينا فُرُوجاً كَسَكْرِيّاً لِلدَّبْحِ فجعلناه في قفص، فترك
الدُرَّاجِ ولزم قُرْبَ القفصِ، فجئنا بِدَجَاجَةٍ فترك الدِّيكَ وصار
مع الدَّجَاجَةِ، فَذَكَرْتُ قولَ الفِرَزِ عبدِ بني فَزَارَةَ - وكانت
بأذنيه خُرْبَةٌ -: إِنَّ الوئامَ يَتَبَرَّعُ في جميعِ الطَّمَشِ، لا يقرب
العنزُ الضَّانَ ما وجدت المعز، وتنفر من المِخْلَبِ ولا تتأَسُّ
بالحَفِّ. فجعلها كما ترى تنفر ولا تأَسُّ منزله.
وكذلك حَدَّثَنَا الأَصْمَعِيُّ قال: قلتُ للمنتَجِعِ بنِ نبهان - وكانت
بأذنيه خُرْبَةٌ - أَكانَ تَمِيمٌ مُسْلِماً ؟ قال: إن كان هو الذي
سَمَّى ابْنَهُ زَيْدَ مَنَاءَ فما كان مُسْلِماً، وإلَّا يَكُنْ هو الذي سَمَّاهُ
فلا أدري. ولم يقل: وإلَّا يَكُنْ هو سَمَّاهُ فقد كان مُسْلِماً.

الوئام

والوئام: المشاكلة. وقالوا: تقول العرب: " لولا الوئام لهلك
الأنام " وقال بعضهم: تأويلُ ذلك: لولا أَنَّ بعضَ الناسِ إِذا
رأى صاحبه قد صنعَ خيراً فتشَبَّهَ بِهِ لهلك الناس. وقال

الآخرون: إِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَسٍ بَعْضُ النَّاسِ بِيَعُضٍ، كَأَنَّهُ
قال: إِنَّمَا يَتَعَايَشُونَ عَلَيَّ مَقَادِيرِ الْأُنْسِ الَّذِي بَيْنَهُمْ؛ وَلَوْ
عَمَّتْهُمُ الْوَحْشَةُ عَمَّتْهُمُ الْهَلَكَةُ. وقال قوم بن مالك، في
الونام:

فأقعد لا أُرورُ ولا
أزارُ

عَلَامَ أَوَائِمِ الْبِخْلَاءِ
فِيهَا

وقال الأخطل:

صاحِ الدَّجَاجِ
وحانت وقفة
السَّارِي

نازعته في الدجى
الراحِ الشَّمُولِ وقد

وقال جرير:

صَوْتُ الدَّجَاجِ
وقرَعُ بالنواقيسِ

لَمَّا مَرَرْتُ عَلَى
الدَّيْرَيْنِ أَرَقَّنِي

شعر في الديكة والدجاج قالوا: وقد وجدنا الدِّيكَةَ والدَّجَاجَ
وأفعالها، مذكوراتٍ في مواضع كثيرة، قال ذو الرُّمة:

أواخرِ الميسِ
أصواتُ الفراريجِ

كأنَّ أصواتَ من
إيغالهنَّ بنا

وقال الهذلي:

ومن شحم أثباجها
الهابط

ومن أينها بعد
إبدانها

صياح المساميرِ في
الواسط

تصيحُ جنادبُه
رُكَّداً

سقوط الدجاجِ على
الحائط

فهو على كلِّ
مستوفز

وقال مروان بن محمد:

من كيلةِ الأكداسِ
في صفه

ضيّع ما ورّثه
راشداً

كالديك إذ يعلو على
رّفه

فربّ كدسٍ قد علا
رمسه

بيضة الديك وبيضة العقر ويقال في المثل للذي يعطي عطيةً
لا يعودُ في مثلها: " كَأَنْتَ بَيْضَةُ الدَّيْكَ ". فَإِنْ كَانَ مَعْرُوفَ
لَهُ قِيلَ: " بَيْضَةُ الْعُقْرِ ".

استطراد لغوي

ويقال دَجَاجَةٌ بَيُوضُ فِي دَجَاجٍ بَيْضٍ وَبُيُضُ، بِإِسْكَانِ
مَوْضِعِ الْعَيْنِ مِنَ الْفِعْلِ مِنْ لُغَةِ سَفَلَى مَضْرُ، وَضَمِّ مَوْضِعِ
الْعَيْنِ مِنْ نَظِيرِهِ مِنَ الْفِعْلِ مَعَ الْفَاءِ مِنْ لُغَةِ أَهْلِ الْحِجَازِ.
وَيُقَالُ عَمَدُ الْجَرْحِ يَعْمَدُ عَمْدًا، إِذَا عَصَرَ قَبْلَ أَنْ يَنْضَجَ فُورِمَ
وَلَمْ يُخْرَجْ بَيْضَتَهُ، وَذَلِكَ الْوِعَاءُ وَالْغِلَافُ الَّذِي يَجْمَعُ الْمِدَّةَ
يَسْمَى بَيْضَةً. وَإِذَا خَرَجَ ذَلِكَ بِالْعَصْرِ مِنْ مَوْضِعِ الْعَيْنِ فَقَدْ
أَفَاقَ صَاحِبُهُ.
وَيُقَالُ حَضَنَ الطَّائِرُ فَهُوَ يَحْضُنُ حِضَانًا.

السفاد والضراب ونحوهما

وَيُقَالُ هُوَ التَّسَافِدُ مِنَ الطَّيْرِ، وَالتَّعَاضُلُ مِنَ السَّبَاعِ: وَيُقَالُ
قَمَطَ الْحَمَامُ الْحَمَامَةَ وَسَفَدَهَا. وَيُقَالُ قَعَا الْفَحْلُ يَقَعُو قَعَوًا،
وَهُوَ إِرْسَالُهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهَا فِي ضْرَابِهِ. وَالْفَحْلُ مِنَ الْحَفِّ
يَضْرِبُ، وَهُوَ الْقَعْوُ وَالضَّرَابُ. وَمِنَ الظُّلْفِ وَالْحَافِرِ يَنْزُو
نَزْوًا، وَكَذَلِكَ السَّنَانِيرُ. وَالظِّلْمُ يَقَعُو، وَكُلُّ الطَّيْرِ يَقَعُو قَعَوًا.

وأما الحفّ والظلف فإنّه يقعو بعد التسنم. وهو ضرابٌ كلُّه ما خلا التسنم. وأما الظلف خاصّة فهو قافط، يقال قفط يقفط قفطاً. أو القفط نزوة واحدة. وليس في الحافر إلاّ النزو. حضن الدجاج بيض الطاوس قال: ويوضع بيض الطاوس تحت الدجاجة، وأكثر ذلك لأنّ الذكر يعبث بالأنثى إذا حضنت. قال: ولهذه العلّة كثيرٌ من إناث طير الوحش يهرّبن بيضهنّ من ذكورتها، ثمّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهنّ. قال: ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك. على أنّهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

خصى ذكور الطير

قال: وخصى ذكور أجناس الطير تكون في أوان أولّ السفاد أعظم. وكلّما كان الطير أعظم سفاداً، كانت خصيته أعظم، مثل الديك، والقبج، والحجل. وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه في الجثة مرتين.

بيض الدجاج قال: وكلّ ما كان من الدجاج أصغر جثة يكون

أكبر لبيضه. وبعض الدجاج يكون يبيض بيضاً كثيراً، وربما
باض بيضتين في يومٍ واحد؛ وإذا عرض له ذلك كان من
أسباب موته.

شعر في صفة الديك

وقال آخر في صفة الديك:

من صوتِ ذي
رَعَاتِ ساكِنِ الدَّارِ

من آخر الليل قد
هَمَّتْ بِإِثْمَارِ

ماذا يورقني
والنومُ يُعجِبُنِي

كأنَّ حُمَاةً في
رأسه نَبَتَتْ

وقال الطرمّاح:

ببمّ ونبّه ذا العفاءِ
الموشحِ

حماشُ الشّوى
يصدحن من كلّ

فيا صبحُ كمّش
عُبرَ اللّيلِ
مُصعداً

إذا صاح لم يُخذل
وجاوبَ صوتهُ

مَصَدَح

حضن الحمام بيض الدجاج قال: والفروج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام، كان أكيس له.

بيض الطاوس

وبيض الطاوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أقماً وأصغر.

بيض الدجاج قال: وإذا أهرمت الدجاجة فليس لأواخر ما تبيض صفرة. وقد عاينوا للبيضة الواحدة مُحَّتَيْن، خبرني بذلك جماعة ممن يتعرّف الأمور. وإذا لم يكن للبيضة مُحٌّ لم يُخلق من البيضة فروج ولا فرخ؛ لأنه ليس له طعام يغذوه ويُربيه. والبيض إذا كان فيه مُحَّتَان وكان البياض وافراً - ولا يكون ذلك للمسنّات - فإذا كان ذلك خلق الله تعالى من البياض فرّوجين، وتربّى الفروجان، وتمّ الخلق؛ لأنّ الفرخ إنّما يخلق من البياض، والصفرة غذاء الفروج.

ستطراد لغوي

قال: ويقال قفط الطائر يقفط قفطاً، وسفد يسفد سفاداً وهما واحد. ويكون السفاد للكلب والشاة. ويقال قمط الحمام يقمط

قمطاً.

ويقال ذرق الطائر يذرق ذرقاً، وخزق يخزق خزقاً، ويقال ذلك للإنسان. فإذا اشتق له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل خريء، وهو الخُرء والخِرَاء. ويقال للحافر راث يروث، وللمعز والشاء: بعير يبعر. ويقال للنعام: صام يصوم، وللطير نجا ينجو، واسم نجو النعام الصوم، واسم نجو الطير العرة. وقال الطرمّاح:

عُرّة الطيرِ كَصومِ
النَّعامِ

في سَنَاظِي أَقْنِ
بَيْنَهَا

ويقال للصبى عقى، مأخوذ من العقى. ويقال لحمت الطير. ويقال لحم طائرك إحاماً، أي أطعمه لحماً واتخذ له. ويقال هي لحمة النسب. ويقال ألحمت الثوب إحاماً، وألحمت الطائر إحاماً، وهي لحمة الثوب، ولحمة، بالفتح والضمّ.

صفاء عين الديك ومن خصال الديك المحمودّة قولهم في الشراب: "أصفى من عين الديك" وإذا وصفوا عين الحمام الفقيع بالحمرة، أو عين الجراد قالوا: كأنها عين الديك. وإذا قالوا: "أصفى من عين الغراب" فإتما يريدون

حَدَّثَهُ وَنَفَادَ الْبَصْرِ.

ما قيل في عين الديك وفي عين الديك يقول الأعشى:

بغرتهما إذ غاب
عنها بُغَاتُهَا

وكأس كعين الدِّيكِ
بأكرت حدها

وقال آخر:

بفتيانِ صدق
والتواقيسِ تُضربُ

وكأس كعين الديك
بأكرت حدها

وقال آخر:

ك صفى زلالها
الراووقُ

قدَّمته على عُقارٍ
كعين الدِّي

وقال الآخر:

تضى كعين العُترُفانِ
المجاوبِ

ثلاثة أحوال
وشهراً مُجَرَّماً

والعُترُفانِ من أسماء الدِّيكِ، وسماه بالمجاوب كما سماه
بالعُترُفانِ.

وصف الماء الصافي وإذا وصفوا الماءَ والشَّرَابَ بالصَّافِي
قالوا، كَأَنَّهُ الدَّمْعُ، وكَأَنَّهُ ماءَ قَطْرٍ، وكَأَنَّهُ ماءَ مَفْصِلٍ، وكَأَنَّهُ
لعاب الجندب. إِلَّا أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ قَالَ:

كَأَنَّ حُمَيَّاهَا عُيُونُ
الْجَنَادِبِ

مَطْبَقَةٌ مَلَائَةٌ
بَابِلِيَّةٌ

وقال آخر:

إِذَا سَكَبْتَ مِنْ دَنِّهَا
مَاءً مَفْصِلٌ

وَمَا قَرَقَفْتُ مِنْ
أَذْرِعَاتِ كَأَنَّهُ

المفاصل وماء المفاصل والمفاصل: ماءٌ بين السَّهْلِ وَالْجَبَلِ.
وقال أبو ذؤيب:

تَشَابُ بِمَاءٍ مِثْلِ مَاءِ
الْمَفَاصِلِ

مَطَافِيلَ أَبْكَارِ
حَدِيثٍ نِتَاجُهَا

وقال ابن نجيم: إِنَّمَا عَنُوا مَفَاصِلَ فَقَارِ الْجَمَلِ؛ لِأَنَّ لِكُلِّ
مَفْصِلٍ حُقًّا، فَيَسْتَنْقِعُ فِيهِ مَاءً لَا تَجِدُ مَاءً أَبَدًا أَصْفَى وَلَا
أَحْسَنَ مِنْهُ وَإِنْ رَقَّ.
ثَقُوبَ بَصْرِ الْكَلْبِ وَسَمِعَهُ وَقَالَ مَرَّةً قَطْرَبُّ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ

المستنير النحويُّ: " والله لفلان أبصرُ من كلب، وأسمعُ من كلب، وأشمُّ من كلب " !. ف قيل له: أنشدنا في ذلك ما يُشبه قولك. فأنشد قوله:

حُطِّي إِلَيْكَ رِحَالِ
الْقَوْمِ فَالْقُرْبَا

يَا رَبَّةَ الْبَيْتِ
قَوْمِي غَيْرِ
صَاغِرَةَ

لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ
ظَلْمَائِهَا الطُّبَا

فِي لَيْلَةٍ مِنْ
جُمَادَى ذَاتِ
أَنْدِيَةِ

حَتَّى يَجْرَّ عَلَى
حَيْشُومِهِ الدَّنْبَا

لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا
غَيْرَ وَاحِدَةٍ

وأنشد هذا البيت في ثُقُوبِ بصره، والشعر لمرّة بن محكان السعديّ. ثمّ أنشد في ثُقُوبِ السَّمْعِ:

أَتَى دُونَ نَبْحِ
الْكَلْبِ وَالْكَلْبُ دَابِب

خَفِيَ السَّرَى لَا
يَسْمَعُ الْكَلْبُ وَطَاهُ

خصال القائد التركي قال أبو الحسن: قال نصر بن سيار
اللّيثي: كان عظماءُ التُّركِ يقولون للقائد العظيم القيادة: لا
بدَّ أن تكونَ فيه عشرُ خصالٍ من أخلاق الحيوان: سخاء
الديك، وتحنُّن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير،
وروغان الثعلب، وختل الذئب، وصبر الكلب على الجراحة،
وحذر الغراب، وحراسة الكُرقي، وهداية الحمام.
وقد كتبتُ هذا في باب ما للدجاج والديك؛ لأنَّ صاحبَ هذا
الكلامِ قسّم هذه الخصال، فأعطى كلَّ جنسٍ منها خصلةً
واحدةً وأعطى جنس الدجاج خصلتين.

بعض ما ورد من الحديث والخبر في الديك وعباد بن
إبراهيم عن عبد الرحمن بن زيد قال: كان مكحولٌ يسافر
بالديك. وعنه في هذا الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "الديكُ صديقي، وصديق صديقي، وعدوُّ عدوِّ الله،
يحفظ داره وأربعُ دُور من حواليه".

والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم، قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدبَّحوا الديك؛ فإنَّ
الشَّيطان يُفرِّحُ به".

ريش جناح الطائر

قال: وليس جناح إلا وفيه عشرون ريشة: فأربعُ قوادم، وأربعُ مناقب، وأربعُ أباهر، وأربعُ كلَى، وأربعُ خَوَافٍ، ويقال: سبعُ قوادم، وسبعُ خَوَافٍ، وسائرُه لقب.

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

قال: وكلُّ شيء من ذوات الأربع فركبته في يديه، وركبته الإنسان في رجليه، قال: والإنسان كفه في يده، والطائر كفه في رجله.

أسنان الإنسان

قال: وفي الفم ثنيتان ورباعيتان ونابان وضاحكان وأربعةُ أرحاءٍ سوى ضرس الحُكْم، والنَّواجذ والعوارض سواء، ومثلها أسفل.

التفاؤل بالدجاجة قال صاحب الديك: والدَّجاجةُ يُتفَاعَلُ بِذِكْرِهَا، ولذلك لما ولد لسعيد بن العاص عَنبَسَهُ بن سعيد، قال لابنه يحيى: أَيَّ شَيْءٍ تَنَحَّلُهُ؟ قال: دَجَاجَةٌ بِفِرَارِجِهَا يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابنَ أمةٍ ولم يكن ابنَ حرّة، فقال سعيد -أو قيل له -: إن صدق الطَّيرُ لَيَكُونَنَّ أَكْثَرُهُمْ وِلْدَاناً فَهَمُ الْيَوْمَ أَكْثَرُهُمْ وِلْدَاناً، وهم بالكوفة والمدينة. شعر في الدجاج وقال الشاعر:

إِبا الدَّهْنَاءِ مِنْ حَلْبِ
العَصِيرِ

نَرَى العُصْفُورَ
أَعْظَمَ مِنْ بَعِيرِ

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
السَّرِيرِ

بَنَاتُ الرُّومِ فِي
قُصَصِ الحَرِيرِ

يَنْلُنُ أَنَامِلُ الرَّجُلِ
القَصِيرِ

وَأَمْسَحُ جَانِبَ القَمَرِ
المُنِيرِ

غَدَوْتُ بِشَرْبَةٍ مِنْ
ذَاتِ عِرْقِ

وَأُخْرَى بِالْعَقَنْقَلِ
ثُمَّ سِرْنَا

كَأَنَّ الدَّيْكَ دِيكَ
بَنِي نُمَيْرِ

كَأَنَّ دَجَاجَهُمْ فِي
الدَّارِ رُقْطاً

فَبِتُّ أَرَى الكَوَاكِبَ
دَانِيَاتِ

أَدَافِعُهُنَّ بِالكَافِينَ
عَنِّي

نطق الدجاج قال: ويوصف بالدُّعاء وبالمنطق، قال لبيد بن
ربيعة:

وَصَدَّهُمْ مَنطِقُ
الدَّجَاجِ عَنِ الْقَصِّ

د وَضَرَبُ
النَّاقُوسِ
فَاجْتَنَبَا

وقال:

لُدُنْ أَنْ دَعَا دِيكَ
الصَّبَاحَ بِسُحْرَةٍ

إلى قدر ورد
الخامس المتأوب

دعابة أعرابي، وقسمته للدجاج قال أبو الحسن: حدّثني أعرابيٌّ كان ينزل بالبصرة قال: قدِم أعرابيٌّ من البادية فأنزَلته، وكان عندي دَجَاج كثير، ولي امرأةٌ وابنان وابنتان منها، فقلب لامرأتي: بادري واشوي لنا دَجَاجَةً وقدميها إلينا نتغذّاهَا فلَمَّا حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامراتي وابنائي وابنتاي والأعرابي، قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: اقسِمها بيننا - نريد بذلك أن نضحك منه - فقال: لا أحسنُ القِسمة، فإن رضيتم بقسمتي قسّمْتُها بينكم، قلنا: فإنَّا نرُضِي، فأخذ رأسَ الدَجَاجَةِ فقطعه فناولنيهِ وقال: الرّأس للرّأس، وقطّع الجناحين وقال: الجناحان للابنين، ثمّ قطع السّاقين فقال: السّاقان للابنتين، ثمّ قطع الزمكي وقال:

العُجْزُ لِلْعُجْزِ، وَقَالَ: الزُّورُ لِلزَّائِرِ: قَالَ فَأَخَذَ الدَّجَاجَةَ
بِأَسْرَهَا وَسَخِرَ بِنَا، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَلْتُ لِامْرَأَتِي:
أَشْوِي لَنَا خَمْسَ دَجَاجَاتٍ، فَلَمَّا حَضَرَ الْغَدَاءُ، قَلْتُ: أَقْسِمُ
بَيْنَا، قَالَ: إِنِّي أَظُنُّ أَنَّكُمْ وَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ قَلْنَا: لَا لَمْ نَجِدْ
فِي أَنْفُسِنَا فَأَقْسِمُ، قَالَ: أَقْسِمُ شَفْعاً أَوْ وَتِراً، قَلْنَا: أَقْسِمُ وَتِراً
قَالَ: أَنْتِ وَامْرَأَتُكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْنَا بِدَجَاجَةٍ، ثُمَّ
قَالَ: وَابْنُكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِمَا بِدَجَاجَةٍ، ثُمَّ قَالَ:
وَابْنَتَاكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِمَا بِدَجَاجَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا
وَدَجَاجَتَانِ ثَلَاثَةٌ، وَأَخَذَ دَجَاجَتَيْنِ وَسَخِرَ بِنَا، قَالَ: فَرَأَانَا
وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى دَجَاجَتَيْهِ فَقَالَ: مَا تَنْظُرُونَ لِعَلَّكُمْ كَرِهْتُمْ
قَسْمَتِي الْوَتَرَ لَا يَجِيءُ إِلَّا هَكَذَا، فَهَلْ لَكُمْ فِي قِسْمَةِ الشَّفْعِ؟
قَلْنَا: نَعَمْ، فَضَمَّهِنَّ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتِ وَابْنَاكَ وَدَجَاجَةٌ أَرْبَعَةٌ،
وَرَمَى إِلَيْنَا بِدَجَاجَةٍ، ثُمَّ قَالَ: وَالْعَجُوزُ وَابْنَتَاهَا وَدَجَاجَةٌ
أَرْبَعَةٌ، وَرَمَى إِلَيْهِنَّ بِدَجَاجَةٍ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَثَلَاثَ دَجَاجَاتٍ
أَرْبَعَةٌ، وَضَمَّ إِلَيْهِ الثَّلَاثَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ
الْحَمْدُ، أَنْتَ فَهَمَّتْنِيهَا.

قَوْلُ صَاحِبِ الْكَلْبِ عَلَى كَيْسِ الْفُرُوجِ قَالَ صَاحِبُ الْكَلْبِ: أَمَّا
قَوْلُهُمْ: مِنْ أَعْظَمِ مَفَاخِرِ الدِّيَكِ وَالدَّجَاجِ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانَ،
إِنَّ الْفُرُوجَ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ كَاسِيَا يَكْفِي نَفْسَهُ، ثُمَّ يَجْمَعُ

كَيْسُ الْخَلِيقَةِ وَكَيْسُ الْمَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مَعَ خُرُوجِهِ مِنْ
 الْبَيْضَةِ فَقَدْ زَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ وَلَدَ الْعَنْكَبُوتِ يَأْخُذُ فِي
 النَّسِجِ سَاعَةً يُوَلِّدُ، وَعَمَلُ الْعَنْكَبُوتِ عَمَلُ شَاقٍ وَلَطِيفٌ
 دَقِيقٌ، لَا يَبْلُغُهُ الْفَرْوُجُ وَلَا أَبُو الْفَرْوُجِ عَلَى أَنَّ مَا مَدَحُوا
 الْفَرْوُجَ بِهِ مِنْ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْضَةِ كَاسِيًّا، قَدْ شَرِكَهُ فِي
 حَالِهِ غَيْرُ جِنْسِهِ، وَكَذَلِكَ ذَوَاتُ الْأَرْبَعِ كُلِّهَا تُلِدُ كَوَاسِيَّ
 كَوَاسِبٍ، كَوَلَدِ الشَّاءِ، وَفِرَاحِ الْقَبِجِ وَالذَّرَّاجِ، وَفِرَاحِ الْبَطِّ
 الصَّيْنِيِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَاحِقَةٌ بِالْفَرَارِيحِ، وَتَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهَا
 تَزِدَادُ حُسْنًا كُلَّمَا كَبُرَتْ، فَقَدْ سَقَطَ هَذَا الْفَخْرُ.
 شَعْرٌ هَزَلِيٌّ فِي الدِّيكِ وَمِنْ الشَّعْرِ الَّذِي قِيلَ فِي الدِّيكِ، مَمَّا
 يُكْتَبُ لِلْهَزْلِ وَلَيْسَ لِلْجِدِّ وَالْفَائِدَةِ، قَوْلُ أَبِي الشَّمَقْمَقِ:

ثُمَّ قَالَتْ: مَنْ يَنْبِكُ

هَتَفَتْ أُمَّ حُصَيْنِ

مِثْلَ صَحْرَاءِ الْعَتِيكِ

فَتَحَتْ فَرْجًا رَحِيْبًا

فِيهِ دُرَّاجٌ وَدِيكٌ

فِيهِ وَزٌّ فِيهِ بَطٌّ

حَدِيثُ صَاحِبِ الْأَهْوَازِ عَنِ الْعَرَبِ قَالَ: وَمِمَّا فِيهِ ذِكْرُ الدَّجَاجِ
 وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ مَا بَنَيْنَا كَلَامَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُكْتَبُ لِمَا فِيهِ
 مِنَ الْعَجَبِ، قَالَ: قَالَ الْهَامِرُزِيُّ، قَالَ صَاحِبُ الْأَهْوَازِ: مَا رَأَيْنَا

قوماً أعجب من العَرَبِ أتيتُ الأحنفَ بنَ قيسٍ فكلَّمتَه في حاجةٍ لي إلى ابنِ زياد، وكنتُ قد ظلمتُ في الخَراج، فكلَّمَه فأحسَنَ إليَّ وخطَّ عَنِّي، فأهديتُ إليه هدايا كثيرةً فعُضِب وقال: إِنَّا لَا نأخُذُ على مَعُونَتِنَا أجراً فلَمَّا كُنتُ في بعضِ الطريقِ سقطتُ من رِداي دَجاجةٌ فلحقتني رجلٌ منهم فقال: هذه سقطتُ من رِداك، فأمرتُ له بِدِرْهم، ثمَّ لحقتني بالأُبلة فقال: أَنَا صاحبُ الدَّجاجةِ فأمرتُ له بِدِرْاهم؛ ثمَّ لحقتني بالأهواز فقال: أَنَا صاحبُ الدَّجاجةِ فقلتُ له: إِن رأيتُ زادي بعد هذا كلَّه قد سقط فلا تُعلميني، وهو لك.

جرو البطحاء قال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخيه كنانة بن الربيع: جزؤ البطحاء.

المورياني أسطورة البازي والديك قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لك المثل الذي ضربه المورياني للديك والبازي: وذلك أن خلاد بن يزيد الأرقط قال: بينما أبو أيوب المورياني جالس في أمره ونهيه، إذ أتاه رسول أبي جعفر فانتقع لونه، وطار عصفير رأسه، وأذن بيوم بأسه، وذعر ذعراً نقض حُبوته، واستطار فؤاده، ثم عاد

طلق الوجه، فتعجبنا من حاله وقلنا له: إنك لطيفُ الخاصَّة
 قريبُ المنزلة، فلم ذهب بك الدُّعْر واستفرغك الوجل؟ فقال:
 سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس. زعموا أنَّ البازي قال
 لديك: ما في الأرض شيءٌ أقلُّ وفاءً منك قال: وكيف؟ قال:
 أخذك أهلك بيضةً فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم
 فأطعموك على أكفهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صرت
 لا يدنو منك أحدٌ إلا طرت هاهنا وهاهنا وضججت وصحت،
 وأخذت أنا من الجبال مسناً فعلموني وألفوني، ثم يخلى عني
 فأخذ صيدي في الهواء فأجيء به إلى صاحبي، فقال له
 الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفليدهم مثل ما رأيت
 من الدُّيوك لكنت أنفرت مني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم، لم
 تتعجبوا من خوفي، مع ما ترون من تمكُّن حالي.
 استجادة الخيل والكلاب قال صاحب الكلب: ذكر محمد بن
 سلام عن سعيد بن صخر قال: أرسل مسلم بن عمرو، ابن
 عمِّ له إلى الشام ومصر يشتري له خيلاً، فقال له: لا علم لي
 بالخيـل - وكان صاحب قنص - قال: ألسـت صاحبـ كلاب؟
 قال: بلى، قال فأنظر كلَّ شيءٍ تستحسنه في الكلب فاستعمله
 في الفرس، فقدم بخيلٍ لم يكن في العرب مثلهـا.
 حاجة أديك إلى الدجاجة قال محمد بن سلام: استأذن رجلٌ

عَلَى امْرَأَةٍ فَقَالَتْ لَهُ: مَالَهُ مِنْ حَاجَةٍ، قَالَتْ الْجَارِيَةُ: يَرِيدُ أَنْ
يَذْكَرَ حَاجَةً، قَالَتْ: لَعَلَّهَا حَاجَةٌ الدَّجَاجَةَ.
هَرَبَ الْكَمَيْتُ مِنَ السَّجْنِ مَتَنَكِرًا بِثِيَابِ زَوْجِهِ مُحَمَّدَ بْنَ سَلَامٍ
عَنْ سَلَامٍ أَبِي الْمُنْذِرِ قَالَ: حَبَسَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكَمَيْتَ بْنَ
زَيْدٍ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ فِي ثِيَابٍ وَهَيْئَةٍ حَتَّى عَرَفَهَا
الْبَوَابُونَ، فَلَبَسَ يَوْمًا ثِيَابَهَا وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَسَمَّى فِي شِعْرِهِ
الْبَوَابِينَ النَّوَابِحَ، وَسَمَّى خَالِدًا الْمُشْلِيَّ:

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تِلْكَ
النَّوَابِحِ وَالْمُشْلِيِّ

خَرَجْتَ خُرُوجَ
الْقَدْحِ قَدْحِ ابْنِ
مُقْبِلٍ

صَرِيمَةَ عَزْمٍ
أَشْبَهَتْ سَلَّةَ
النَّصْلِ.

عَلَى ثِيَابِ
الْغَايَاتِ
وَتَحْتَهَا

فَتِيَا الْحَسَنَ فِي اسْتِبْدَالِ الْبَيْضِ قَالَ: وَأَخْبَرْنَا خَشْرَمَ قَالَ:
سَمِعْتُ فَلَانًا الْبِقَالَ يَسْأَلُ الْحَسَنَ قَالَ: إِنَّ الصَّبِيَانَ يَأْتُونَنِي
ببَيْضَتَيْنِ مَكْسُورَتَيْنِ، يَأْخُذُونَ مِنِّي صَحِيحَةً وَاحِدَةً، قَالَ:
لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ أَرْحَامُ الْكَلَابِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ عَنْ بَعْضِ

أشياخه قال: قال مُصَعَبُ بن الزُّبَيْرِ على منبر مسجد
 البصرة، لبعض بني أبي بكره: إنما كانت أمكم مثل الكلبة،
 ينزُّو عليها الأعرى والأسود والأبقع، فتؤدي إلى كلِّ كلب
 شَبَهه، هذا في هذا الموضع هجاء، وأصحاب الكلاب يرون
 هذا من باب النَّجَابَةِ، وأنَّ ذلك من صِحَّةِ طِبَاعِ الأرحام، حين
 لا تختلط النُّطْفُ فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة.
 من وصية عثمان الخياط للشار وقال صاحب الكلب: في
 وصية عثمان الخياط للشار اللصوص: إياكم إياكم وحبَّ
 النساءِ وسماع ضرب العود، وشرب الزَّبيب المطبوخ،
 وعليكم باتخاذ الغلمان؛ فإنَّ غلامك هذا أنفع لك من أخيك،
 وأعونُ لك من ابن عمك، وعليكم بنبذ التمر، وضرب
 الطُّنبور، وما كان عليه السلف واجعلوا النُّقل باقلاء، وإن
 قدتم على الفستق، والرَّيحان شاهسفرم، وإن قدرتم على
 الياسمين، ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقتاع، والقلنسوة
 كُفْر، والخف شرك، واجعل لهوك الحمام، وهارش الكلاب
 وإيَّك والكباش واللَّعب بالصُّقورة والشواهين، وإيَّكم
 والفهود، فلما انتهى إلى الديك قال: والديك فإنَّ له صبراً
 ونجدة، وروغاناً وتدبيراً، وإعمالاً للسلاح، وهو يبهر بهر
 الشُّجاع. ثم قال: وعليكم بالنرد ودعوا الشُّطرنج لأهلها، ولا

تلعبوا في النرد إلا بالطويلتين، والودع رأس مال كبير،
وأول منافعه الحذق باللقف. ثم حدثهم بحديث يزيد بن
مسعود القيسي.

كراهية الكلب الأسود البهيم وقال صاحب الديك: ذكر محمد
بن سلام عن يحيى بن النضر، عن أبي أمية عبد الكريم
المعلم قال: كان الحسن بن إبراهيم يكره صيد الكلب
الأسود البهيم.

قصيدة ابن أبي كريمة في الكلب والفهد وأنشد صاحب الكلب
قول أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صيد الكلب،
قصيدة طويلة أولها:

شاميّة حصاءً
جون السحائب

تذأوب أرواح
الصبا والجنائب

لغرة مشهور من
الصبح ثاقب

وغب غمام مزقت
عن سمائه

مواجه طلق لم
يردد جهامه

بعثت وأثواب
الدجى قد تقلصت

قد لاح ناعي الليل
حتى كأنه

لساري الدجى في
الفجر قنديل راهب

هاليل لا يثنيهم
عن عزيمة

وإن كان جمَّ
الرشد، نوم
القرائب

تجنيب غضفٍ
كالقداح لطيفةٍ

مشرطه آذانها
بالمخالب

تخال سياتاً في
صلاها منوطة

طوال الهوادي
كالقداح الشواذب

إذا افترشت خبتاً
أثارت بمتنه

عجاجاً وبالكدان
نار الحباب

يفوت خطاها
الطرف سبقاً
كأنها

سهام مغال أو
رجوم الكواكب

طراد الهوادي

بطامسة الأرجاء

لَا حَهَا كَلَّ شَتْوَةَ

تَكَادُ مِنَ الْأَحْرَاجِ

تَنْسَلُ كُلَّمَا

تَسُوفُ وَتُوفِي كَلَّ

نَشْرٌ وَقَدْفِدِ

كَأَنَّ بِهَا ذَعْرَاءَ،

يُطِيرُ قُلُوبَهَا

تَدِيرُ عِيوناً رُكِّبَتْ

فِي بَرَاطِلِ

إِذَا مَا اسْتَحِثَّتْ لَمْ

يُجِنُّ طَرِيدَهَا

وَإِنْ بَاصَهَا صَلَّتْ

مَدَى الطَّرْفِ

أَمْسَكَتْ

مَرَّتِ الْمَسَارِبِ

رَأَتْ شَبَحاً لَوْلَا

اعْتَرَاضُ الْمَنَاقِبِ

مَرَابِضِ أبنَاءِ

النَّفَاقِ الْأَرَانِبِ

أَنِينُ الْمَكَائِي أَوْ

صَرِيرُ الْجَنَادِبِ

كَجَمْرِ الْعُضَى

خُزْراً ذِرَابُ

الْأَنْابِ

لَهْنَ ضَرَاءُ أَوْ

مَجَارِي الْمَدَانِبِ

عَلَيْهِ بِذُونَ الْجُهْدِ

سُبُلَ الْمَذَاهِبِ

تَكَادُ تَفَرِّي الأَهْبُ
عنها إِذا انتحت

لنَبْأةِ شَخْتِ الجِزْمِ
عاري الرّواجِبِ

كأنّ غصون
الخيزرانِ مُتُونُها

إِذا هي جَالت في
طِرادِ الثَّعالِبِ

كواشِرُ عن
أنيابهنَّ كوالِحِّ

مُذَلِّقةِ الأَذانِ
شوسِ الحواجِبِ

كأنّ بناتِ القَفْرِ
حينَ تفرَّقَت

عَدَوْنَ عليها
بالمنايا
الشّواعبِ

ثم وصف الفهود:

بمُخْطَفَةِ الأَكْفالِ رُحْبِ التَّرابِ
مخْطَطَةِ الأَماقِ غُلبِ الغوارِبِ
حواجِلُ تَسْتَدْمِي متونَ الرّواكِبِ
سَنا ضَرَمِ في ظُلْمَةِ اللَّيلِ ثاقِبِ

بذلك أبغي
مرققة الأذن
مدنرة ورن
إذا قلبتها

تخالُ على أشداقِها خطَّ كاتبِ
مَداهنَ، للإجراسِ من كلِّ جانبِ
نَوَافِدٍ في صَمِّ الصُّخُورِ نَواشِبِ
تَعقِربُ أصداعِ المِلاحِ الكِواعِبِ
إِذا أَنَسَتْ بِالبيدِ شُهَبَ الكِتابِ
لَهَنَ بِذي الأَسرابِ في كلِّ لاجِبِ
عُيُونٌ لَدَى الصَّرَاتِ غيرِ كِواذِبِ

حِراسٌ يَفوت

ضِراءٌ مِبَلَّاتٌ بِطولِ التَّجاربِ
البرقِ أَمَكْتُ جَرِيها

تُوسِّدُ أَجِيادَ

مَرَمَلَةٌ تَحكى عِناقِ الحَبائِبِ
الْفَرَائِسِ أذْرَعاً

سهل بن هارون وديكه قال دِغْبَلُ الشاعِرِ: أَقْمنا عِندَ سَهْلِ
بنِ هارونَ فلمْ نَبْرُحْ، حَتَّى كدنا نَموتُ مِنَ الجِوعِ، فلما
اضطَررناهِ قال: يا غِلامَ، وَيْلَكَ غَدنا قال: فَأَتينا بِقِصْعَةٍ فيهِ
مَرَقٌ فيهِ لَحْمٌ ديكِ عاسِ هَرَمِ لَيسَ قَبْلَها ولا بَعْدَها غَيرُها لا

تحزُّ فيه السكين، ولا تؤثر فيه الأضراس، فاطَّلع في
القصة وقلَّب بصره فيها، ثم أخذ قطعة خبز يابس فقلَّب
جميع مافي القصة حتَّى فقد الرأس من الديك وحده، فبقي
مطرقاً ساعةً ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟
فقال: رميتُ به، قال: ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله
قال: ولأبي شيءٍ ظننت أني لا آكله؟ فوالله إنني لأمقتُ من
يرمي بوجليه فكيف من يرمي برأسه؟ ثم قال له: لو لم
أكره ما صنعت إلا للطيرة والفال، لكرهته الرأس رئيس
وفيه الحواس، ومنه يصدح الديك، ولولا صوته ما أريد؛
وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل،
يقال: شراب كعين الديك، ودماعه عجيب لوجع الكلية، ولم
أر عظماً قطُّ أهشَّ تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلاً إذ
ظننت أني لا آكله، ظننت أن العيال يأكلونه؟ وإن كان بلغ
من نُبلك أنك لا تأكله، فإن عندنا من يأكله، أو ما علمت أنه
خير من طرف الجناح، ومن الساق والعنق انظر أين هو؟
قال: والله ما أدري أين رميتُ به قال: لكني أدري أنك رميت
به في بطنك، والله حسيبك.

الكتاب السابع

استنشاط القارئ ببعض الهزل

ادعاء عبد الله الكرخي الفقه

جواب أبي عبد الله المروزي

جواب شيخ كندي

جواب ختن أبي بكر بن بريرة

جواب هشام بن الحكم

سؤال مرور لأبي يوسف القاضي

جواب الحجاج العبسي

جواب نوفل عريف الكناسين

احتجاج مدني وكوفي

جواب رجل من وجوه أهل الشام

احتجاج رجل من أهل الجاهلية

الأعمش وجليسه

رأي حفص بن غياث في فقه أبي حنيفة

علة حشنام بن هند

حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة

حيللة أبي كعب القاص

احتجاج كوفي للتسمية بمحمد

جواب أحمد بن رباح الجوهري

جواب حارس يكنى أبا خزيمة

جواب الزياتي

أمنية أبي عتاب الجرّار

تعزية طريفة لأبي عتاب الجرّار

داود بن المعتز وبعض النساء

تناسب الألفاظ مع الأغراض

الورع الزائف

تسمُّح بعض الأئمة في ذكر ألفاظ

لكلِّ مقام مقال

صورة من الوقار المتكلف

بعض نواذر الشعر

صدق الظنَّ وجودة الفِراسة

من مختار الشعر

أبياتٌ للمحدثين حسانٌ

شعر لبنت عدي بن الرقاع

أشعار في معانٍ مختلفة

من شعر الإيجاز

شعر في الاعتاظ والزهد

شعر في العزّو

شعر في السيادة

شعر في هجاء السادة

شعر في المجد والسيادة

أبو الحارث جمين والبرذون

بين العقل والحظ

هجو الخُلف

عبد العين

من إيجاز القرآن

رأي أعرابي في تثمير المال

شعر في الهجاء

شعر حكيم

مرثية في محمد المخلوع

من نعت النساء

شعر رثاء

المديح بالجَمالِ وَغَيره

خير قصار القصائد

شعر مختار

شعر في قوله يريد أن يعرّبه فيعجمه

بكل وادِ بنو سعد

الغضب والجنون في المواضع التي يكون فيها محموداً

إبراهيم بن هانئ والشعر

جواب أعرابي

مقطعات شتى

شعر في الخصب والجذب

أقوال مأثورة

السواد والبياض في البادية

وقل في أثر الريح في المطر

شعر في الخصب

الفتن وفهم الرطانات..

والكنايات والفهم والإفهام

حديث المرأة التي طرقها اللصوص

قصة الممهوراة الشياه والخمر

قصة العنبريّ الأسير

قصة العطاردي

شعر في صفة الخيل والجيش

مقطعات شتى

شعر العرب والمولدين

القول في المعنى واللفظ

شعر ابن المقفع

خصال الحرم

خصال المدينة

بعض البلدان الرديئة

استنشاط القارئ ببعض الهزل

وإن كنا قد أمَلْنَاكَ بِالْجِدِّ وبالاحتجاجاتِ الصَّحِيحَةِ
والمَرْوَجَةِ؛ لتكثُر الخواطر، وتشحَدُ العقول - فإنا سننشِطُكَ
ببعض البَطَالَاتِ، وبذكر العُللِ الظَّرِيفَةِ، والاحتجاجاتِ
الغَرِيبَةِ؛ فربَّ شعرٍ يبلُغُ بفرطِ غباوةِ صاحبه من السرور
والضحك والاستطرافِ، ما لا يبلغه حشدُ أحرِّ النواذرِ،
وأجمَعِ المعاني.

وأنا أستظرفُ أمرين استظرافاً شديداً: أحدهما استماعُ
حديثِ الأعرابِ، والأمرِ الآخَرَ احتجاجُ متنازِعِينَ في الكلامِ،

وهما لا يحسنان منه شيئاً؛ فإِنَّهما يُثيرانِ من عَرِيبِ الطَّيِّبِ
ما يُضْحِكُ كلَّ تَكْلانٍ وإنَّ تشدَّدَ، وكلَّ غُضبانٍ وإنَّ أحرَقَه
لَهَيْبُ الغُضْبِ، ولو أنَّ ذلك لا يحلَّ لكان في باب اللُّهُو
والضَّحِكِ والسُّرورِ والبَطالةِ والتشاغُلِ، ما يجوز في كلِّ فن.

وسنذكر من هذا الشكلِ عللاً، ونُورِدُ عليك من احتجاجات
الأغبياءِ حُججاً، فإنَّ كنتَ ممَّن يستعملِ الملالَةَ، وتَعَجَّلُ إليه
السَّامةُ، كان هذا البابُ تنشيطاً لقلْبِكَ، وجَماماً لقوَّتِكَ،
ولنبتدئِ النَّظَرَ في باب الحمامِ وقد ذهب عنك الكلالُ وحدثَ
النشاطُ.

وإنَّ كنتَ صاحبَ علمٍ وجدِّ، وكنتَ ممرَّناً موقَّحاً، وكنتَ إلفَ
تفكيرٍ وتنقيرٍ، ودراسةٍ كُتُبٍ، وحِلْفَ تبيُّنٍ، وكان ذلك عادةً
لك لم يضرِّك مكانه من الكتابِ، وتَحَطَّيه إلى ما هو أولى
بك، ضرورة التنويعِ في التاليفِ وعلى أنَّي قد عزمْتُ - واللَّهِ
الموقِّقُ - أنَّي أوشَّحَ هذا الكتابَ وأفصَّلُ أبوابه، بنوادرٍ من
ضُرُوبِ الشُّعرِ، وضُرُوبِ الأحاديثِ، ليخرجَ قارئُ هذا الكتابِ
من بابٍ إلى بابٍ، ومن شكلٍ إلى شكلٍ؛ فإنَّي رأيتُ الأسماعَ

تملُّ الأصواتَ المطرِبَةَ والأغانيَّ الحسنةَ والأوتارَ الفصيحةَ،
إذا طال ذلكَ عليها، وما ذلكَ إلا في طريقِ الراحةِ، التي إذا
طالت أورثت الغفلةَ.

وإذا كانت الأوائِلُ قد سارت في صغارِ الكتبِ هذه السريرةَ،
كان هذا التدبيرُ لِمَا طالَ وكثُرَ أصلحُ، وما غايِتنا من ذلكَ
كلُّه إلا أن تستفيدوا خيراً.
وقال أبو الدرداء: إني لأجمُّ نفسي ببعضِ الباطلِ، كراهةً أن
أحملَ عليها من الحق ما يملؤها!.

ادعاء عبد الله الكرخي الفقه

فمن الاحتجاجات الطيبة، ومن العُللِ الملهية، ما حدّثني به
ابن المديني قال: تحوّل أبو عبد الله الكرخي اللّحائي إلى
الحربيّة فادّعى أنّه فقيه، وظنّ أنّ ذلكَ يجوزُ له؛ لمكانِ
لحيتهقال: فألقى على باب داره البواري، وجلس وجلس
إليه بعضُ الجيران، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله رجلٌ
أدخل إصبعه في أنفه فخرجَ عليها دمٌ، أيّ شيءٍ يصنع؟
قال: يحتجم، قال: قعدتَ طبيباً أو قعدتَ فقيهاً؟

جواب أبي عبد الله المروزيّ

وحدّثني شمعون الطبيب قال: كنت يوماً عند ذي اليمّينين طاهر بن الحسين فدخل عليه أبو عبد الله المروزيّ فقال طاهر: يا أبا عبد الله مدّ كم دخلت العراق؟ قال: منذ عشرين سنةً، وأنا صائم منذ ثلاثين سنةً، قال: يا أبا عبد الله، سألتك عن مسألة فأجبنا عن مسألتين

جواب شيخ كندي

وحدّثني أبو الجهجاه قال: ادّعى شيخٌ عندنا أنّه من كندة، قبل أن ينظر في شيءٍ من نسب كندة، فقلت له يوماً وهو عندي: ممن أنت يا أبا فلان؟ قال: من كندة، قلت: من أيّهم أنت؟ قال: ليس هذا موضع هذا الكلام، عافاك الله.

جواب ختن أبي بكر بن بريرة

ودخلت على ختن أبي بكر بن بريرة، وكان شيخاً ينتحل قول الإباضيّة، فسمعتّه يقول: العجبُ ممن يأخذه النّوم وهو لا يزعم أنّ الاستطاعة مع الفعل قلت: ما الدليل على ذلك؟ قال: الأشعار الصحيحة، قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

مَا إِنْ يَقَعَنَّ الْأَرْضَ إِلَّا وَفَقَا

ومثل قوله:

يَهْوِينَ شَتَّى وَيَقَعْنَ وَفَقَا

ومثل قولهم في المثل: وَقَعَا كَعِكْمَي عَيْرِ.

وكقوله أيضاً:

كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه
السَّيْلُ مِنْ عَلِ

مَكَرَّ مِفْرًا مُقْبِلِ
مُذْبِرٍ مَعَا

وكقوله:

إِذَا نَحْنُ أَهْوَيْنَا
وَحَاجَتْنَا مَعَا

أَكْفُ يَدِي عَنْ أَنْ
تَمَسَّ أَكْفَهُمْ

ثم أقبل عليّ فقال: أما في هذا مقنع؟ قلت: بلى، وفي دون هذا!

جواب هشام بن الحكم

وذكر محمد بن سلام عن أبان بن عثمان قال: قال رجل من أهل الكوفة لهشام ابن الحكم: أترى الله عز وجل في عدله وفضله كلّفنا ما لا نطيق ثمّ يعذبنا؟ قال: قد والله فعل، وكنا لا نستطيع أن نتكلم به.

سؤال ممرور لأبي يوسف القاضي

وحدّثني محمد بن الصباح قال: بينا أبو يوسف القاضي يسيرُ بظَهْر الكوفة - وذلك بعد أن كتبَ كتابَ الحيل - إذ عرضَ له ممرورٌ عندنا أطيّب الخلق، فقال له: يا أبا يوسف، قد أحسنت في كتاب الحيل، وقد بقيتُ عليك مسائلُ في الفِطن، فإنْ أدّنت لي سألتك عنها، قال: قد أدّنتُ لك فسَل، قال: أخبرني عن الحرِّ كافرٍ هو أو مؤمن؟ فقال أبو يوسف: دينُ الحرِّ دينُ المرأةِ ودينُ صاحبةِ الحرِّ: إن كانت كافرةً فهو كافر، وإن كانت مؤمنةً فهو مؤمن، قال: ما صنعت شيئاً، قال: فقل أنتِ إدْن؛ إذ لم ترض بقولي، فقال: الحرُّ كافر، قال: وكيف علمت ذلك؟ قال لأنَّ المرأة إذا ركعت أو سجّدت استدبر الحرَّ القبلة واستقبلت هي القبلة، ولو كان دينه دين المرأة لصنع كما تصنع، هذه واحدةٌ يا أبا يوسف، قال: صدقت.

قال: فتأذن لي في أخرى؟ قال: نعم، قال: أخبرني عنك إذا أتيت صحراءً فهجمت على بول وخرأ كيف تعرف أبول امرأة هو أم بول رجل؟ قال: والله ما أدري قال أجل والله ما تدري قال: أفتعرف أنت ذاك؟ قال: نعم، إذا رأيت البول قد سال على الخراء وبين يديه فهو بول امرأة، وخرأ امرأة، وإذا رأيت البول بعيداً من الخراء فهو بول رجل وخرأ رجل، قال: صدقت.

قال: وحكى لي جواب مسائل فنسيت منها مسألة، فعاودته فإذا هو لا يحفظها.

جواب الحجاج العبسي

وحدثني أيوب الأعور، قال قائل للحجاج العبسي: ما بال شعر الاست إذا نبت أسرع والتفت؟ قال: لقربه من السماد والماء هطل عليه .

جواب نوفل عريف الكناسين

وحدثني محمد بن حسان قال: وقفت على نوفل عريف الكناسين، وإذا موسوس قد وقف عليه، وعنده كل كناس بالكرخ، فقال له الموسوس: ما بال بنت وردان تدع قعر البئر وفيه كُر خراء وهو لها مُسلمٌ وعليها موفر، وتجيء

تطلب اللطافة التي في است أحدنا وهو قاعدٌ على المقعدة، فتلزم نفسها الكلفة الغليظة، وتتعرض للقتل، وإنما هذا الذي في أستاذنا قيراط من ذلك الدرهم، وقد دفعنا إليها الدرهم وافيًا وافرًا، قال: فضحك القوم، فحرك نوفلٌ رأسه ثم قال: أتضحكون؟ قد والله سأل الرجل فأجيبوا وأما أنا فقد - والله - فكّرت فيها منذ ستين سنة، ولكنكم لا تنظرون في شيء من أمر صناعتكم، لا جرّم أنكم لا ترتفعون أبدًا قال له الموسوس: قل - يرحمك الله - فأنت زعيم القوم، فقال نوفل: قد علمنا أنّ الرطب أطيب من التمر، والحديث أطرف من العتيق، والشيء من معدنه أطيب، والفاكهة من أشجارها أطرف، قال: فغضب شريكه مسبّح الكناس ثم قال: والله لقد وبّختنا، وهوّلت علينا، حتى ظننا أنّك ستجيب بجواب لا يحسنه أحد، ما الأمر عندنا وعند أصحابنا هكذا، قال: فقال لنا الموسوس: ما الجواب عافاكم الله، فإني ما نمت البارحة من الفكرة في هذه المسألة؟ قال مسبّح: لو أنّ لرجل ألف جارية حسناء ثم عتقن عنده لبردت شهوته عنهنّ وفترت، ثم إن رأى واحدة دون أحسنهن في الحسن صبا إليها ومات من شهوتها، فبنت وردان تستظرف تلك اللطافة وقد ملّت الأولى؛ وبعض الناس الفطير أحب إليهم

من الخمير، وأيضاً إن الكثير يمنع الشهوة، ويورث
الصدود، قال: فقال الموسوس - واستحسن جواب مسبح،
بعد أن كان لا يرى جواباً إلا جواب نوفل -: لا تعرف مقدار
العالم حتى تجلس إلى غيره أنتم أعلم أهل هذه المدرة، ولقد
سألت علماءها عنه منذ عشرين سنةً فما تخلص أحد منهم
إلى مثل ما تخلصتم إليه، وقد والله - أنتم عيني، وطاب بكم
عيشي وقد علمنا أن كل شيءٍ يُستلب استلاباً أنه أذ
وأطيب، ولذلك صار الدبيب إلى الغلمان ونيكهم على جهة
القهر أذ وأطيب، وكل شيءٍ يصيبه الرجل فهو أعز عليه
من المال الذي يرثه أو يوهب له.

علة الحجاج بن يوسف قال: وحدثني أبان بن عثمان قال:
قال الحجاج بن يوسف: والله لطاعتي أوجب من طاعة الله؛
لأن الله تعالى يقول: "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" فجعل فيها
مثنوية؛ وقال: "وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا" ولم يجعل فيها مثنوية
ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب، فلم يدخل، حل لي دمه

احتجاج مدني وكوفي

قال: وأخبرني محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال:
قال رجلٌ من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة: نحن أشدُّ
حبًّا لرسولِ الله - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - منكم يا
أهل المدينة فقال المدني: فما بلغ من حبِّك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم وعلى آله؟ قال: وددت أني وقيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم - وأنه لم يكن وصل إليه يوم أُحدٍ، ولا
في غيره من الأيام شيء من المكروه يكرهه إلا كان بي
دونه فقال المدني: أفعدك غير هذا؟ قال: وما يكون غير
هذا؟ قال: وددت أن أبا طالب كان آمن فسرَّ به النبي صلى
الله عليه وسلم وأنِّي كافر

جواب رجل من وجوه أهل الشام

وحدَّثني أبا بن عثمان قال: قال ابن أبي ليلى: إنِّي لأسائرُ
رجلاً من وجوه أهل الشام، إذ مرَّ بحمَّالٍ معه رُمان، فتناول
منه رُمَّانةً فجعلها في كُفِّه، فعجبتُ من ذلك، ثم رجعت إلى
نفسي وكذبت بصري، حتَّى مرَّ بسائلٍ فقير، فأخرجها فناوله
إياها، قال: فعلمتُ أني رأيتها فقلتُ له: رأيتك قد فعلتَ
عجباً، قال: وما هو؟ قلت: رأيتك أخذتَ رُمَّانةً من حمَّالٍ
وأعطيتها سائلاً؟ قال: وإنك ممَّن يقول هذا القول؟ أما

عَلِمْتَ أَنِّي أَخَذْتُهَا وَكَانَتْ سَيِّئَةً وَأَعْطَيْتَهَا فَكَانَتْ عَشْرَ
حَسَنَاتٍ؟ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ أَخَذْتُهَا
فَكَانَتْ سَيِّئَةً وَأَعْطَيْتَهَا فَلَمْ تُقْبَلْ مِنْكَ؟ جَهْلُ الْأَعْرَابِ بِالنَّحْوِ
وَقَالَ الرَّبِيعُ: قُلْتَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتَهْمَزُ إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: إِنِّي إِذَا
لَرَجُلٍ سَوْءٍ؟ قُلْتَ: أَتَجْرُ فِلَسْطِينَ؟ قَالَ: إِنِّي إِذَا لَقَوِيَّ.

احتجاج رجل من أهل الجاهلية

قَالَ: وَحَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَعَهُ
مِخْجَنٌ يَتَنَاوَلُ بِهِ مَتَاعَ الْحَاجِّ سَرِقَةً، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: سَرَقْتَ
قَالَ: لَمْ أُسْرِقْ، إِنَّمَا سَرَقَ مِخْجَنِي قَالَ: فَقَالَ حَمَادُ: لَوْ كَانَ
هَذَا الْيَوْمَ حَيًّا لَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفٍ.

الأعمش وجليسه

قَالَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ قَالَ: قَالَ الْأَعْمَشُ لَجَلِيسٍ لَهُ:
أَمَا تَشْتَهِي بِنَانِي زُرْقَ الْعُيُونِ نَقِيَّةَ الْبَطُونِ، سُودَ الظُّهُورِ،
وَأَرْغَفَةَ حَارَةَ لَيْئَةِ، وَخَلًّا حَادِقًا؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَانْهَضَ بِنَا،
قَالَ الرَّجُلُ: فَانْهَضْتُ مَعَهُ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، قُلْتُ: فَأَوْمَأَ إِلَيَّ: أَنْ
حُدِّثْكَ السَّلَّةَ، قَالَ: فَكَشَفَهَا فَإِذَا بِرَغِيفَيْنِ يَابَسَيْنِ وَسُكَّرَجَةٍ

كَامَخَ شَبِيثٌ، قَالَ: فَجَعَلَ يَأْكُلُ، قَالَ: فَقَالَ لِي تَعَالَ كُلُّ، فَقُلْتُ:
وَأَيْنَ السَّمَكِ؟ قَالَ: مَا عِنْدِي، سَمَكٌ، إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: تَشْتَهِي.

رَأْيُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ فِي فَهْمِ أَبِي حَنِيفَةَ

قَالَ: وَسُئِلَ حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ عَنِ فَهْمِ أَبِي حَنِيفَةَ، قَالَ: كَانَ
أَجْهَلَ النَّاسِ بِمَا يَكُونُ، وَأَعْرَفَهُمْ بِمَا لَا يَكُونُ.

عَلَّةُ خُشْنَامِ بْنِ هِنْدٍ

وَأَمَّا عَلَّةُ خُشْنَامِ بْنِ هِنْدٍ، فَإِنَّ خُشْنَامَ بْنَ هِنْدٍ لَكَانَ شَيْخًا مِنْ
الْغَالِيَةِ، وَكَانَ مَمَّنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْمِيَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ قَالَ:
الْجَبْتُ وَالطَّاغُوتُ، وَمُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، وَأَفٌّ وَتُفٌّ، وَكُسَيْرٌ
وَعُؤِيرٌ، وَكَانَ لَا يَزَالُ يُدْخِلُ دَارَهُ حِمَارَ كَسَّاحٍ وَيَضْرِبُهُ مَائَةً
عَصًا عَلَى أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فِي جَوْفِهِ، وَلَمْ أَرِ قَطُّ أَشَدَّ
احْتِرَافًا مِنْهُ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ نَبِيذِيًّا وَصَاحِبَ حَمَامٍ، وَيُشْبِهُ فِي
الْقَدِّ وَالْخَرَطِ شَيْوَخَ الْحَرَبِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ بَنِي عُبَيْرٍ مِنْ
صَمِيمِهِمْ، وَكَانَ لَهُ بَنِيٌّ يَتَّبِعُهُ، فَكَانَ يَزْنِي أُمَّهُ عِنْدَ كُلِّ حَقٍّ
وَبَاطِلٍ، وَعِنْدَ كُلِّ جَدٍّ وَهَزْلٍ، قُلْتُ لَهُ يَوْمًا - وَنَحْنُ عِنْدَ بَنِي
رُبَيْعِي: وَيَحْكُ، بَلِيٍّ شَيْءٍ تَسْتَحِلُّ أَنْ تَقْدِفَ أُمَّهُ بِالزَّنَا؟
فَقَالَ: لَوْ كَانَ عَلِيٌّ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ لَمَا قَدَفْتُهَا: فَلَمْ تَزَوِّجْ
امْرَأَةً لَيْسَ فِي قَدْفِهَا حَرَجٌ؟ قَالَ: إِنِّي قَدْ احْتَلْتُ حِيلَةً حَتَّى

حلّ لي من أجلها ما كان يحرم، قلت: وما تلك الحيلة؟ قال:
أنا رجلٌ حديدٌ، وهذا غلامٌ عارمٌ، وقد كنت طَلقتُ أمّه فكنْتُ
إذا افتريتُ عليها أثمت، فقلت في نفسي إن أرغتها
وخذعتها حتّى أنيكها مرّةً واحدةً حلّ لي بعد ذلك افترائي
عليها، بل لا يكونُ قولي حينئذٍ فريةً، وعلمتُ أنّ زنيّةً
واحدةً لا تعدلُ عشرة آلافِ فريةٍ، فأنا اليومُ أصدُقُ ولستُ
أكذبُ، والصّادِقُ مأجورٌ، إني والله ما أشكُّ أنّ الله إذا علم
أنّي لم أزن بها تلك المرّة إلا من خوف الإثم إذا قذفتها - أنّه
سيجعلُ تلك الزنيّة له طاعة فقلت: أنت الآن على يقين أنّ
زناكَ طاعةٌ لله تعالى؟ قال: نعم.

حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة

قال الشيخُ الإباضي وقد ذهب عني اسمه وكنيته وهو ختن
أبي بكر بن بريرة - وجرى يوماً شيءٌ من ذكر التشيع
والشيعة، فأنكر ذلك واشتدَّ غضبه عليهم، فتوهّمْتُ أنّ ذلك
إنما اعتراه للإباضيّة التي فيه، وقلت: وما عليّ إن سألته؟
فإنّه يُقال: إنّ السائل لا يعدمه أن يسمَعَ في الجواب حُجّةً أو
حيلةً أو مُلحة - فقلتُ: وما أنكرت من التشيع ومن ذكر
الشيعة؟ قال: أنكرتُ منه مكان الشين التي في أول الكلمة؛

لأنني لم أجد الشَّين في أوَّل كلمةٍ قطُّ إلاَّ وهي مسخوطة مثل: شوم، وشرد، وشيطان، وشغب، وشح، وشمال، وشجن، وشيب، وشين، وشراسة، وشنج، وشك، وشوكة، وشبث، وشرك، وشارب، وشطير، وشطور، وشعرة، وشاني، وشتم، وشتم، وشيطرج، وشنعة، وشناعة، وشامة، وشوصة، وشتر وشجوب وشجّة، وشطون، وشاطن، وشن، وشلل، وشييص، وشاطر، وشاطرة، وشاحب. قلت له: ما سمعتُ متكلماً قطُّ يقول هذا ولا يبلغه، ولا يقوم لهؤلاء القوم قائمةً بعد هذا.

حيلة أبي كعب القاص

قال: وتعشَّى أبو كعب القاصُّ بطفشيل كثير اللُّوبيا، وأكثر منه، وشرب نبيذَ تمر، وغلَّس إلى بعض المساجد ليقصَّ على أهله، إذ انفتل الإمام من الصلاة فصادف زحاما كثيراً، ومسجداً مستوراً بالبوارى من البرد والريح والمطر، وإذا محرابٌ غائرٌ في الحائط، وإذا الإمام شيخٌ ضعيف؛ فلما صلى استدبر المحراب وجلس في زاوية منه يسبح، وقام أبو كعب فجعل ظهره إلى وجه الإمام ووجهه إلى وجوه القوم، وطبق وجه المحراب بجسمه وفروته وعمامته

وكسائه، ولم يكن بين فقحته وبين أنف الإمام كبير شيء،
وقصّ وتحرك بطنه، فأراد أن يتفرّج بفسوةٍ وخاف أن
تصير ضراطاً، فقال في قصصه: قولوا جميعاً: لا إله إلا الله
وارفعوا بها أصواتكم، وفسا فسوةً في المحراب فدارت فيه
وجثمت على أنف الشيخ واحتملها، ثم كده بطنه فاحتاج إلى
أخرى فقال: قولوا: لا إله إلا الله وارفعوا بها أصواتكم،
فأرسل فسوةً أخرى فلم تُخطئ أنف الشيخ، واختنقت في
المحراب، فخمّر الشيخ أنفه، فصار لا يدري ما يصنع، إن
هو تنفس قتلته الرائحة، وإن هو لم يتنفس مات كرباً، فما
زال يُداري ذلك، وأبو كعب يقصّ، فلم يلبث أبو كعب أن
احتاج إلى أخرى، وكلما طال لبثه تولد في بطنه من النفخ
على حسب ذلك، فقال: قولوا جميعاً: لا إله إلا الله وارفعوا
بها أصواتكم، فقال الشيخ من المحراب - وأطلع رأسه وقال
-: لا تقولوا لا تقولوا قد قتلني إنما يريد أن يفسو ثم جذب
إليه ثوب أبي كعب وقال: جنت إلى ها هنا لتفسو أو تقصّ؟
فقال: جئنا لنقص، فإذا نزلت بليّة فلا بدّ لنا ولكم من الصبر
فضحك الناس، واختلط المجلس.

جواب أبي كعب القاصّ وأبو كعب هذا هو الذي كان يقصّ
في مسجد عتاب كلَّ أربعاً فاحتبس عليهم في بعض الأيام

وطال انتظارهم له، فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال:
يقول لكم أبو كعب: انصرفوا؛ فإنني قد أصبحت اليوم
مخموراً علة عبد العزيز وأما علة عبد العزيز بشكست فإن
عبد العزيز كان له مالٌ، وكان إذا جاء وقت الزكاة وجاء
القوادُّ بسلامٍ مؤجرٍ، قال: يا غلام ألك أم؟ ألك خالات؟
فيقول الغلام: نعم، فيقول: خذ هذه العشرة الدراهم - أو خذ
هذه الدنانير - من زكاة مالي، فادفعها إليهن، وإن شئت أن
تبركني بعد ذلك على جهة المكارمة، فافعل، وإن شئت أن
تنصرف فانصرف، فيقول ذلك وهو واثقٌ أن الغلام لا يمنعه
بعد أخذ الدراهم، وهو يعلم أنه لن يبلغ من صلاح طباع
المؤجرين أن يؤدوا الأمانات، فغير بذلك ثلاثين سنة وليس
له زكاة إلا عند أمهات المؤجرين وأخواتهم وخالاتهم.

احتجاج كوفي للتسمية بمحمد

وحدثني محمد بن عباد بن كاسب قال: قال لي الفضل بن
مروان شيخ من طيِّب الكوفيِّين وأغبيائهم: إن ولدك مائة
ذكر فسمهم كلهم محمداً، وكنهم بمحمد؛ فإنك ستري فيهم
البركة، أو تدري لأي شيءٍ كثر مالي؟ قلت: لا والله ما
أدري، قال: إنما كثر مالي لأنني سميت نفسي فيما بيني

وَبَيَّنَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَإِذَا كَانَ اسْمِي عِنْدَ اللَّهِ مُحَمَّدًا فَمَا أُبَالِي مَا
قَالَ النَّاسُ

جواب أحمد بن رباح الجوهري

وشبه هذا الحديث قول المرؤزي: قلت: لأحمد بن رباح
الجوهري اشتريت كساءً أبيضَ طبرياً بأربعمائة درهم، وهو
عند الناس - فيما ترى عيونهم قومسي يساوي مائة درهم
قال: علم الله أنه طبريٌّ فما عليّ ممّا قال الناس؟

جواب حارس يكنى أبا خزيمة

وكان عندنا حارسٌ يكنى أبا خزيمة، فقلت يوماً - وقد خطر
على بالي - : كيف اكنى هذا العلج الألكن بأبي خزيمة؟ ثم
رأيتُه فقلت له: خبرني عنك، أكان أبوك يسمّى خزيمة؟
قال: لا، قلت: فجدك أو عمك أو خالك؟ قال: لا، قلت: فلك
ابن يسمّى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فكان لك مولى يسمّى
خزيمة؟ قال: لا، قلت: فكان في قربتك رجلٌ صالح أو فقيهٌ
يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فلم اكنيت بأبي خزيمة،
وأنت علج ألكن، وأنت فقيرٌ، وأنت حارس؟ قال: هكذا
اشتھيت، قلت: فلأي شيءٍ اشتھيت هذه الكنية من بين
جميع الكنى؟ قال: ما يُدريني، قلت: فتبّعها الساعةً بدينارٍ،

وَتَسَكَّنِي بِأَيِّ كِنِيَةٍ شِئْتَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَا بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

جواب الزيادي

وحدثني مَسْعَدَةُ بْنُ طَارِقٍ، قُلْتُ لِلزِّيَادِيِّ - وَمَرَرْتُ بِهِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي يَوْمِ غَمَقِ حَارٍّ وَمِدٍّ، عَلَى بَابِ دَارِهِ فِي شَرْوَعِ نَهْرِ الْجُوبَارِ بِأَرْدِيَةِ، وَإِذَا ذَلِكَ الْبَحْرُ يَبْخُرُ فِي أَنْفِهِ - قَالَ فَقُلْتُ لَهُ بَعْتَ دَارَكَ وَحِظَّكَ مِنْ دَارِ جَدِّكَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، وَتَرَكْتَ مَجْلِسَكَ فِي سَابِاطِ غَيْثٍ، وَإِشْرَافِكَ عَلَى رَحْبَةِ بَنِي هَاشِمٍ، وَمَجْلِسَكَ فِي الْأَبْوَابِ الَّتِي تَلِي رَحْبَةَ بَنِي سَلِيمٍ، وَجَلَسْتَ عَلَى هَذَا النَّهْرِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ، وَرَضِيتَ بِهِ جَاراً؟ قَالَ، نَلْتُ أَطْوَلَ أَمَالِي فِي قَرْبِ هَوْلَاءِ الْبَرَازِينِ، قُلْتُ لَهُ لَوْ كُنْتَ بِقُرْبِ الْمَقَابِرِ فَقُلْتَ نَزَلْتَ هَذَا الْمَوْضِعَ لِلتَّعَاضِ بِهَ وَالْإِعْتِبَارِ كَانَ ذَلِكَ وَجْهًا، وَلَوْ كُنْتَ بِقُرْبِ الْحَدَّادِينَ فَقُلْتَ لِأَتَذَكَّرَ بِهَذِهِ النَّيْرَانِ وَالْكَيْرَانِ نَارِ جَهَنَّمَ، كَانَ ذَلِكَ قَوْلًا، وَلَوْ كُنْتُ اشْتَرَيْتُ دَارًا بِقُرْبِ الْعَطَّارِينَ فَاعْتَلَلْتُ بِطَلْبِ رَائِحَةِ الطَّيِّبِ كَانَ ذَلِكَ وَجْهًا فَأَمَّا قُرْبُ الْبَرَازِينِ فَقَطُّ فَهَذَا مَا لَا أَعْرِفُهُ، أَفَلَاكَ فِيهِمْ دَارٌ عُلَّةٌ، أَوْ هَلْ لَكَ عَلَيْهِمْ دُيُونٌ حَالَّةٌ، أَوْ هَلْ لَكَ فِيهِمْ أَوْ عِنْدَهُمْ غِلْمَانٌ يُؤَدُّونَ الضَّرْبِيَّةَ، أَوْ هَلْ لَكَ

مَعَهُمْ شِرْكَةٌ مُضَارِبَةٌ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَمَا تَرْجُو إِذَا مِنْ قُرْبِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا: نَلْتُ آمَالِي بِقُرْبِ الْبَزَازِينِ.
حِكَايَةُ ثَمَامَةَ عَنْ مَمْرُورٍ وَحَدَّثَنِي ثَمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مَمْرُورٌ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ فَيَأْتِي دَالِيَةَ لِقُومٍ، وَلَا يَزَالُ يَمْشِي مَعَ رِجَالِ الدَالِيَةِ عَلَى ذَلِكَ الْجَذَعِ ذَاهِباً وَجَائِياً، فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، حَتَّى إِذَا أَمْسَى نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا مِنْ هَذَا فَرْجاً وَمَخْرَجاً ثُمَّ انصرف إلى بيته، فكان كذلك حتى مات.

بَيْنَ أَعْمَى وَقَائِدِهِ وَحَدَّثَنِي الْمَكِّيُّ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقُودُ أَعْمَى بِكَرَاءٍ، وَكَانَ الْأَعْمَى رَبَّماً عَثَرَ الْعَثْرَةَ وَنَكِبَ النَّكْبَةَ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْ لِي بِهِ قَائِداً خَيْراً مِنْهُ قَالَ: فَقَالَ الْقَائِدُ: اللَّهُمَّ أَبْدِلْ لِي بِهِ أَعْمَى خَيْراً لِي مِنْهُ، حِمَاقَةَ مَمْرُورٍ وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ مَوْلَى إِسْحَاقَ بْنِ عَيْسَى قَالَ كُنَّا فِي مَنْزِلٍ صَاحِبِ لَنَا، إِذْ خَرَجَ وَاحِداً مِنْ جَمَاعَتِنَا لِيَقِيلَ فِي الْبَيْتِ الْآخِرِ، فَلَمْ يَلْبِثْ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى سَمِعْنَاهُ يَصِيحُ: أَوْهٍ أَوْهٍ قَالَ: فَنَهَضْنَا بِأَجْمَعِنَا إِلَيْهِ فَرَعَيْنَ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا لَكَ؟ وَإِذَا هُوَ نَائِمٌ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْسَرِ، وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى خُصِيَّتِهِ بِيَدِهِ فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ صَحْتَ؟ قَالَ: إِذَا غَمَزْتُ خُصِيَّتِي اشْتَكَيْتُهَا، وَإِذَا اشْتَكَيْتُهَا صَحْتُ، قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: لَا تَغْمِزْهَا بَعْدُ حَتَّى لَا تَشْتَكِيَ قَالَ: نَعَمْ إِنْ

شاء الله تعالى.

حماقة مولاة عيسى بن علي قال يزيد: وكانت لعيسى بن علي مولاة عجوز خراسانية تصرخ بالليل من ضربان ضرس لها، فكانت قد أرقت الأمير إسحاق، فقلت له: إنها مع ذلك لا تدع أكل التمر قال: فبعث إليها بالغداة فقال لها: أتأكلين التمر بالنهار وتصبحين بالليل؟ فقالت: إذا اشتهيتُ أكلت وإذا أوجعني صحت.

حكاية ثمامة عن مرور وحدثني ثمامة قال: مررتُ في غب مطر والأرض نديّة، والسَّماءُ متغيّمة، والريّح شماليّ، وإذا شيخٌ أصفرٌ كأنّه جَرادة، قد جلسَ على قارعة الطّريق، وحجّامٌ زنجيٌّ يحجمُهُ، وقد وضع على كاهله وأخذَ عِيَهُ مَحاجِمَ، كل مِحْمَةٍ كأنّها قَعْب، وقد مَصَّ دَمَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَسْتَفْرِغَهُ، قال: فوَقَفْتُ عليه فقلت: يا شيخُ لِمَ تَحْتَجِمُ في هذا البرد؟ قال لِمَكَانِ هذا الصُّفَارِ الذي بي.

صنيع مرور وحدثني ثمامة قال: حدّثني سعيد بن مسلم قال: كُنَّا بِخُرَاسَانَ في منزلٍ بعض الدّهاقين ونحن شَبَابٌ، وفينا شيخ، قال: فَأَتَانَا رَبُّ الْمَنْزِلِ بِدُهْنٍ طَيِّبٍ فَدَهَنَ بَعْضُنَا رَأْسَهُ، وبعضنا لحيته، وبعضنا مَسَحَ شَارِبَهُ، وبعضنا مَسَحَ يَدَيْهِ وَأَمَرَهُمَا عَلَى وَجْهِهِ، وبعضنا أَخَذَ بِطَرْفِ إِصْبَعِهِ

فَادْخَلَ فِي أَنْفِهِ وَمَسَحَ بِهِ شَارِبَهُ، فَعَمَدَ الشَّيْخُ إِلَى بَقِيَّةِ
الدُّهْنِ فَصَبَّهَا فِي أُذُنِهِ، فَقَلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ، خَالَفتَ أَصْحَابَكَ
كُلَّهُمْ هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا إِذَا أَتَوْهُ بِدُهْنٍ طَيِّبٍ صَبَّهَ فِي أُذُنِهِ؟ قَالَ:
فَاتَهُ مَعَ هَذَا يَضْرُنِي؟ أَمْرٌ عَيْصٍ، سَيِّدُ بَنِي تَمِيمٍ وَحَدَّثَنِي
مَسْعَدَةُ بْنُ طَارِقِ الدَّرَّاعِ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّا لَوُقُوفٌ عَلَى حُدُودِ
دَارِ فُلَانٍ لِلْقِسْمَةِ، وَنَحْنُ فِي خِصُومَةٍ، إِذْ أَقْبَلَ عَيْصُ سَيِّدِ
بَنِي تَمِيمٍ وَمُوسِرُهُمُ وَالَّذِي يَصَلِّي عَلَى جَنَائِزِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ
مَقْبِلًا إِلَيْنَا أَمْسَكْنَا عَنِ الْكَلَامِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: حَدَّثُونِي عَنِ
هَذِهِ الدَّارِ، هَلْ ضَمَّ مِنْهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ أَحَدٌ؟ قَالَ
مَسْعَدَةُ: فَأَنَا مُنْذُ سَتَيْنِ سَنَةٍ أَفَكَّرْتُ فِي كَلَامِهِ مَا أُدْرِي مَا عَنَى
بِهِ، قَالَ: وَقَالَ لِي مَرَّةً: مَا مِنْ شَرٍّ مِنْ ذَيْنِ قَلْتِ: وَلَمْ ذَاكَ؟
قَالَ: مِنْ جَرَا يَتَعَلَّقُونَ.

وَحَدَّثَنِي الْخَلِيلُ بْنُ يَحْيَى السَّلُولِيُّ قَالَ: نَارَعَ التَّمِيمِيَّ بَعْضَ
بَنِي عَمِّهِ فِي حَائِطٍ، فَبَعَثَ إِلَيْنَا لِنَشْهَدَ عَلَى شَهَادَتِهِ، فَأَتَاهُ
جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْحَمِيرِيُّ وَالزَّهْرِيُّ، وَالزِّيَادِيُّ، وَالْبُكَرَاوِيُّ،
فَلَمَّا صَرْنَا إِلَيْهِ وَقَفَ بِنَا عَلَى الْحَائِطِ وَقَالَ: أَشْهَدُكُمْ جَمِيعًا
أَنَّ نِصْفَ هَذَا الْحَائِطِ لِي.

جَوَابَ مَمْرُورٍ قَالَ: وَقَدِمَ ابْنُ عَمِّ لَهْ إِلَى عَمْرِ بْنِ حَبِيبٍ،
وَادَّعَى عَلَيْهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَقَالَ ابْنُ عَمِّهِ: مَا أَعْرِفُ مِمَّا قَالَ

قليلًا ولا كثيرًا، ولا له عليّ شيء قال: أصلحك الله تعالى
فاكتبْ بإنكاره، قال: فقال عمر: الإنكار لا يفوتك، متى أردته
فهو بين يديك.

أمنية أبي عتاب الجرّار

قال: وقلت لأبي عتاب الجرّار: ألا ترى عبد العزيز الغزّال
وما يتكلم به في قصصه؟ قال: وأيُّ شيء قاله؟ قلت: قال:
ليت الله تعالى لم يكن خلقتي وأنا الساعة أعور قال أبو
عتّاب: وقد قصرَ في القول، وأساءَ في التمني، ولكنّي أقول:
ليت الله تعالى لم يكن خلقتي وأنا الساعة أعمى مقطوع
اليدين والرجلين.

تعزية طريفة لأبي عتاب الجرّار

ودخل أبو عتاب على عمرو بن هذّاب وقد كُفَّ بصره،
والناس يُعزّونُه، فمَثَلَ بين يديه، وكان كالجمال المحجّوم،
وله صوتٌ جهير، فقال: يا أبا أسيد، لا يسوءُكَ ذهابُهما،
فلو رأيت ثوابهما في ميزانِك تمنّيت أنّ الله تعالى قد قَطَعَ
يديك ورجليكَ، ودَقَّ ظَهْرَكَ، وأدْمَى ضِلْعَكَ.

داود بن المعتمر وبعض النساء

وبينما داودُ بنُ المعتمرِ الصُّبَيْرِيِّ جالسٌ معي، إذ مرّت به
 امرأةٌ جميلة لها قَوامٌ وحُسنٌ، وعينان عجيبتان، وعليها
 ثيابٌ بيضٌ، فنَهَضَ داودُ فلم أشكَّ أَنه قام لِيَتَّبِعَهَا، فبعثتُ
 غلامي لِيَعْرِفَ ذلكَ، فلَمَّا رجع قلت له: قد علمت أَنك إنما
 قُمتَ لتكلمَها؛ فليس ينفَعُكَ إلا الصِّدْقُ، ولا يُنجيك مِنِّي
 الجُحودُ، وإنما غايتي أَن أعرف كيفَ ابتدأتَ القولَ، وأي
 شيءٍ قلتَ لها - وعلمت أَنه سيأتي بآبدة، وكان مَلِيًّا بالأوابد
 - قال: ابتدأتُ القولَ بأن قلتُ لها: لولا ما رأيتُ عليكِ من
 سيماءِ الخَيْرِ لَم أَتَبَعُكَ، قال: فضحكتُ حتى استندتُ إلى
 الحائطِ، ثمَّ قالت: إنما يمنعُ مثلكَ من اتِّباعِ مثلي والطَّمَعِ
 فيها، ما يَرى من سيماءِ الخيرِ فأما إِذ قد صار سيماءُ الخيرِ
 هو الذي يُطمعُ في النساءِ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.
 وتبع داودُ بنُ المعتمرِ امرأةً، فلم يزل يُطريها حتى أجابت،
 ودلَّها على المنزل الذي يمكنها فيه ما يريد، فتقدمت الفاجرة
 وعرض له رجلٌ فشغَلَهُ، وجاء إلى المنزل وقد قضى القَومُ
 حوائجَهُم وأخذت حاجتها، فلم تنتظره، فلما أتاهم ولم يَرها
 قال: أين هي؟ قالوا: والله قد فرغنا ودَهَبت قال: فأَيَّ طريقِ
 أخذت؟ قالوا: لا والله ما ندري؟ قال فإن عدوتُ في إثرها
 حتى أقومَ على مجامعِ الطُّرق أتروني أَلحقها؟ قالوا: لا

والله ما تلحقها قال: فقد فاتت الآن؟ قالوا: نعم، قال: فعسى أن يكون خيراً فلم أسمع قط بإنسان يشك أن السلامة من الذنوب خير غيره. قول أبي لقمان الممرور في الجزء الذي لا يتجزأ

وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ: ما هو؟ قال: الجزء الذي لا يتجزأ هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له أبو العيناء محمد: أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره؟ قال: بلى حمزة جزء لا يتجزأ، وجعفر جزء لا يتجزأ قال فما تقول في العباس؟ قال: جزء لا يتجزأ، قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزأ، وعمر يتجزأ، قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزأ مرتين، والزبير يتجزأ مرتين، قال: فأية شيء تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزأ ولا لا يتجزأ.

فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الإمام جزءاً لا يتجزأ إلى أي شيء ذهب، فلم نقع عليه إلا أن يكون كان أبو لقمان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ، هاله ذلك وكبر في صدره، وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة، وأن الشيء إذا عظم خطرُه سموه بالجزء الذي لا

يتجزأ.

وقد تسخّفنا في هذه الأحاديث، واستجزنا ذلك بما تقدّم من العذر، وسنذكر قَبْلَ ذِكْرِنَا الْقَوْلِ فِي الْحَمَامِ جَمَلًا مِنْ عُرْرِ وَنَوَادِرَ وَأَشْعَارٍ وَنُتْفٍ وَفَقْرٍ مِنْ قِصَائِدِ قِصَارٍ وَشَوَارِدِ وَأَبْيَاتٍ، لِنُعْطِيَ قَارِئَ الْكِتَابِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ تَذَهَبُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ نَصِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

تناسب الألفاظ مع الأغراض

ولكلّ ضربٍ من الحديث ضربٌ من اللفظ، ولكلّ نوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسّخيفُ للسّخيف، والخفيفُ للخفيف، والجزلُ للجزل، والإفصاحُ في موضع الإفصاح، والكنايةُ في موضع الكناية، والاسترسالُ في موضع الاسترسال.

وإذا كان موضعُ الحديثِ على أنّه مُضْحِكٌ ومُلهٍ، وداخلٌ في باب المزاح والطّيب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلبت عن جهته، وإن كان في لفظه سُخْفٌ وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديثُ الذي وَضِعَ على أن يُسرَّ النُّفُوسَ يُكرُّ بها، ويأخذُ بِأَكْظَامِهَا.

الورع الزائف

وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحر والأير والنيك ارتدع وأظهر التقزز، واستعمل باب التورع، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم، والنبل والوقار، إلا بقدر هذا الشكل من التصنع، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق، إلا عن لؤم مسعمل، ونذالة متمكنة.

تسمح بعض الأئمة في ذكر ألفاظ

وقد كان لهم في عبد الله بن عباس مقنع، حين سَمِعَهُ بعضُ الناس يُنشد في المسجد الحرام:

إِنْ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نَبِيَّكَ
لَمَيْسَا

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا
هَمَيْسَا

ف قيل له في ذلك، فقال: إنما الرفت ما كان عند النساء. وقال الضحاک: لو كان ذلك القول رفثاً لكان قطع لسانه أحب إليه من أن يقول هجراً، قال شبيب بن يزيد الشيباني، لئلة بيته عتاب بن ورقاء:

مَنْ يَنْكِ الْعَيْرَ يَنْكِ نَيْيَاكَ

وقال عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - حينَ دَخَلَ عليَ بعضَ الأُمراءِ فقال له: مَنْ في هذه البيوتِ؟ فلما قيل له: عقائلٌ من عقائلِ العرب، قال عليٌّ: مَنْ يَظُلُّ أَيْرُ أَبِيهِ يَنْتَظِقُ بِهِ.

فَعَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - يِعْوَلُ فِي تَنْزِيهِ اللَّفْظِ وَتَشْرِيفِ الْمَعَانِي.

وقال أبو بكر - رضي الله عنه - حينَ قال بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْنَا بِعَجْرَانِكَ وَسُودَانِكَ، وَلَوْ قَدْ مَسَّ هَوْلَاءُ وَخَزُّ السَّلَاحِ لَقَدْ أَسْلَمُواكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: عَضِضْتَ بِبِظْرِ اللَّاتِ. وَقَدْ رَوَوْا مَرْفُوعاً قَوْلَهُ: مَنْ يُعْذِرُنِي مِنْ ابْنِ أُمِّ سَبَاعٍ مُقَطَّعَةَ الْبُظُورِ؟.

لكلِّ مقام مقال

ولو كان ذلك الموضع موضع كناية هي المستعملة، وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأي الأيلفظُ بها، لم يكن لأوّل، كونها معني إلا على وجه الخطأ، وكان في الحزم والصون لهذه اللغة أن تُرْفَعَ

هذه الأسماء منها.
وقد أصاب كلَّ الصَّوابِ الذي قال: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

صورة من الوقار المتكلف

ولقد دخل علينا فتى حَدَثٌ كان قد وَقَعَ إلى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحن عند موسى بن عمران، فدار الحديثُ إلى أن قال الفتى: أفطرتُ البارحةَ على رغيفٍ وزيتونةٍ ونصف، أو زيتونةٍ وثلاث، أو زيتونةٍ وثلاثي زيتونة، أو ما أشبه ذلك، بل أقول: أكلت زيتونةً، وما علم الله من أخرى، فقال موسى: إنَّ مِنَ الورع ما يُبَغِضُهُ اللهُ، علمَ اللهُ؛ وأظُنُّ ورَعَكَ هذا من ذلك الورع.

وكان العُتبي ربّما قال: فقال لي المأمون كذا وكذا، حين صار التَّجْمُ على قِمّةِ الرأس، أو حين جازني شيئاً، أو قبل أن يوازي هامتي، هكذا هو عندي، وفي أغلب ظنّي، وأكره أن أجزم على شيءٍ وهو كما قلت إن شاء الله تعالى، وقريباً ممّا نقلت، فيتوقف في الوقت الذي ليس من الحديث في شيء، وذلك الحديث إن كان مَعَ طلوعِ الشمسِ لم يَزِدْهُ ذلك خيراً، وإن كان مَعَ غروبها لم ينقُصْهُ ذلك شيئاً، هذا ولعلَّ الحديثَ في نفسه لم يكن قَطُّ ولم يصلْ هو في تلك الليلة

البتّة، وهو مع ذلك زعم أنّه دخل على أصحاب الكهف
فَعَرَفَ عَدَدَهُمْ، وكانت عليهم ثيابٌ سَبْنِيَّةٌ وكلّهم ممّ عَط
الجلد، وقد قال الله عزّ وجلّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم: "لَوْ
اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَأَيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُعْباً".

بعض نواذر الشعر

وسنذكر من نواذر الشعر جملةً، فإن نشطت لحفظها
فاحفظها؛ فإنها من أشعار المذاكرة، قال الثَّقَفِي:

إِن الدَّيْلِلَ الَّذِي
لَيْسَتْ لَهُ عَضْدُ

مَنْ كَانَ ذَا عَضْدٍ
يُدْرِكُ ظُلَامَتَهُ

وَيَأْنِفُ الضَّيْمَ إِنْ
أَثْرَى لَهُ عَدْدُ

تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ
نَاصِرُهُ

وقال أبو قيس بن الأسلت:

لِلدَّهْرِ جِدٌّ غَيْرِ
مِجْزَاعِ

بِزِّ امْرِئٍ مُسْتَبْسِلٍ
حَادِرٍ

إشفاقٍ والفهية

الكيسُ والقوّة خيرٌ

مِنْ أَل

وَالهَاعِ

وقال عَبْدُهُ بِنُ الطَّبَّيبِ:

رَبِّ حَبَاتَا بِأَمْوَالٍ
مُخَوَّلَةٍ

وَكُلِّ شَيْءٍ حَبَاهُ
اللَّهُ تَخْوِيلُ

وَالمرءُ سَاعٍ لِأمرٍ
لَيْسَ يُدرِكُهُ

وَالعَيْشُ شُحٌّ
وَإشْفَاقٌ وَ تَأْمِيلُ

وكان عمرُ بِنُ الخَطَّابِ - رضي اللهُ تعالى عنه - يردّد هذا
النصفَ الآخرَ، وَيَعجَبُ مِنْ جَوَدَةِ ما قَسَمَ.
وقال المِتمَلِّسُ:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّ
عَيْرِ ظَنِّ

وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ
العَتَادِ

لَحِفظُ المالِ أيسرُ
مِنْ بُعْأهِ

وَضربُ فِي البِلادِ
بِعَيْرِ زادِ

وَإِصلاحُ القليلِ

وَلَا يَبقى الكثيرُ مَعَ

يزيدُ فيه

الفسادِ

وقال آخر:

وحِفْظَكَ مَالاً قَدْ

أشدَّ من الجَمْعِ الذي
أنت طالِبُه

عُنيتَ بجمعه

وقال حميد بن ثور الهلالي:

أَتَشْغَلُ عَنَّا يَا بِنَّ عَمَّ

البخلُ إلَّا سوف
يعتَلُّ بالشغل

فلن ترى أخا

وقال ابن أحرمر:

هذا التَّناء وأجدرُ

وقد يدوم ريقَ
الطامعِ الأملِ

أنَّ أصحابه

وقال ابن مقبل:

هَلِ الدَّهْرُ إلَّا

أموت وأخرى أبتغي
العيشَ أكدحُ

تارتان فمِنهما

فلا المَوْتُ أهْوَى لي
ولا العيشُ أروحُ

وكلتاها قد خُطَّ
لي في صحيفة

وقال عمرو بن هند:

يُنَاغِي نِسَاءَ الْحَيِّ
فِي طُرَّةِ الْبُرْدِ

وإن الذي يُنْهَكُمُ
عن طلابِها

كما تنقصُ النَّيرانُ
من طرفِ الزَّندِ

يُعَلِّلُ وَالْأَيَّامُ
تَنْقُصُ عُمُرَهُ

وقال أمية - إن كان قالها-:

ر لهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ
الْعِقَالِ

رُبَّمَا تَجَزَعُ النَّفُوسُ
مِنَ الْأَمِّ

شعر في الغزل وقال آخر:

عَشِيَّةَ آرَامِ
الْكِنَاسِ رَمِيمِ

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللَّهِ
بَيْنِي وَبَيْنَهَا

ولكنَّ عَهْدِي

أَلَا رَبِّ يَوْمِ لَوْ

رَمْتِي رَمَيْتَهَا

بِالنَّضَالِ قَدِيمُ

رَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ

ضَمِنْتَ لَكُمْ أَنْ لَا

لَجَارَاتِ بَنَيْتَهَا

يَزَالُ يَهِيمُ

وقال آخر:

لَمْ أُعْطَهَا بِيَدِي إِذْ

إِلَّا تَطَاوَلَ عُصْنُ

بِتُّ أَرْشُفَهَا

الْجَيْدِ لِلْجَيْدِ

كَمَا تَطَاعَمَ فِي

مَطْوَقَانِ أَصَاخًا بَعْدَ

خَضْرَاءِ نَاعِمَةٍ

تَغْرِيدِ

فَإِنْ سَمِعْتَ بِهِكَ

بُعْدًا وَسُحْقًا لَهُ مِنْ

لِلْبَخِيلِ فَقُلْ

هَالِكِ مُودِي

شعر في الحكم وقال أبو الأسود الدؤلي:

المرءُ يَسْعَى ثَمَّ

حَتَّى يُزَيِّنَ بِالَّذِي

يُذْرِكُ مَجْدُهُ

لَمْ يَفْعَلِ

وَتَرَى الشَّقِيَّ إِذَا

يُرْمَى وَيَقْدَفُ بِالَّذِي

تَكَامَلَ عَيْه

لَمْ يَعْمَلِ

رئيسُ حروبٍ لا
يزالُ ربيئةً

مشيخٌ على
محقوقف الصُّلبِ
مُلبِدِ

صَبورٍ على رزءِ
المصائبِ حافظُ

من اليومِ أعقابِ
الأحاديثِ في غدِ

وهوّنٌ وجدِي أني
لم أقلْ له

كذبتَ ولم أبخلْ بما
ملكْتُ يدي

وقال سعيدُ بن عبد الرحمن:

وإنَّ امرأَ يُمسي
ويُصبحُ سالماً

مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا
جَنَى لَسَعِيدُ

وقال أكتُمُ بنُ صيفي:

نُرَبِّي وَيَهْلِكُ
آبَاؤُنَا

وَبَيْنَا نُرَبِّي بَنِينَا
فُنِينَا

وقال بعضُ المحدثين:

يُلْفَى فَوَادِي مِنْ
حَادِثٍ يَجِبُ

فَالآنَ أَسْمَحْتُ
لِلْخَطُوبِ فَلَا

وَكُلُّ شَيْءٍ لِيَوْمِهِ
سَبَبٌ

قَلْبِي الدَّهْرُ فِي
قِوَالِبِهِ

وقال آخر:

فَكَلَّمُ يَصِيرُ إِلَى
ذَهَابٍ

لِدُورِ الْمَوْتِ وَابْنُوا
لِلْحَرَابِ

أَبَيْتَ فَمَا تَحِيفُ وَلَا
تُحَابِي

أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرَ
مِنْكَ بُدًّا

كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبِ
عَلَى شَبَابِي

كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ
عَلَى مَشِيبِي

وقال آخر:

فَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ

يَا نَفْسِ خَوْضِي

بَحَارَ الْعِلْمِ أَوْ
غُوصِي

مَعْمُومٍ
وَمَخْصُوصِ

لَا شَيْءَ فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا يُحَاطُ بِهِ

إِلَّا إِحَاطَةٌ مَنقُوصَةٌ
بِمَنقُوصِ

شعر في التشبيه وأنشدنا للأحيمر:

بِأَقْبَ مَنْطَلِقِ
اللَّبَانِ كَأَنَّهُ

سَيِّدٌ تَنَصَّلَ مِنْ
حُجُورِ سَعَالِي

وقال الآخر:

أَرَأَيْتَ لِمَحَاً مِنْ
سَهِيلٍ كَأَنَّهُ

إِذَا مَا بَدَأَ مِنْ دُجِيَّةِ
اللَّيْلِ يَطْرَفُ

وقالوا: قال خلف الأحمر: لم أرَ أجمعَ من بيتٍ لامرئ
القيس، وهو قوله:

أَفَادَ وَجَادَ وَسَادَ
وَزَادَ

وقاد وذاد وعادَ
وأفضل

ولا أجمع من قوله:

وإرخاء سرحان
وتقريب تفل

له أيطلاً ظني
وساقاً نعاماً

وقالوا: ولم نر في التشبيه كقوله، حين شبه شينين بشينين
في حالتين مختلفين في بيت واحد، وهو قوله:

لدى وكرها العناب و
الحشف البالي

كان قلوب الطير
رطباً ويابساً

قطعة من أشعار النساء وسنذكر قطعة من أشعار النساء،
قالت أعرابية:

على نضو أسفار
فجن جنونها

رأت نضو أسفار
أميمة شاحباً

فإنك مولى فرقة
لا تزيئها

فقلت من أي الناس
أنت ومن تكن

وقالت امرأة من خثعم:

أَحَبُّ وَبَيْتِ اللَّهِ كَعَبٍ
بُنَّ طَارِقِ

عَلَى النَّاسِ مُعْتَاداً
لِضَرْبِ الْمَفَارِقِ

وَأَقْبَحَهَا لَمَّا
تَجَهَّزَ غَادِيَا

تَحَدَّرَ مِنْ عُرٍّ
طَوَالَ الدَّوَابِّ

عَلَيْهِ رِيَا حِ الصَّيْفِ
مِنْ كُلِّ جَانِبِ

فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ
يَكُونُ لِعَائِبِ

فَإِنْ تَسْأَلُونِي مَنْ
أَحَبُّ فَإِنِّي

أَحَبُّ الْفَتَى الْجَعْدِ
السَّلُولِيِّ نَاضِلَا

وَقَالَتْ أُخْرَى:

وَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَفِي
الدَّارِ خَالِدِ

وَقَالَتْ أُمُّ فَرُوةَ الْغَطْفَانِيَّةُ:

فَمَا مَاءُ مَزْنِ أَيٍّ
مَاءِ تَقُولُهُ

بِمُنْعَرَجِ أَوْ بَطْنِ
وَادٍ تَحَدَّرَتْ

نَفَى نَسَمِ الرِّيحِ
الْقَدَا عَنْ مَتُونِهِ

تُقَى اللهُ وَاسْتَحْيَاءُ
بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

وَجُونَ الْقَطَا
بِالْجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ

وَقَرَّحَتْ قَرَحَ
الْقَلْبِ وَهُوَ كَلِيمُ

بَعِيدُ الرِّضَا دَانِي
الصَّدُودِ كَظِيمُ

وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ
كَانَ فِيكَ يَلُومُ

لَهُمْ عَرَضاً أَرْمَى
وَأَنْتَ سَلِيمُ

بِأَطْيَبِ مِمَّنْ يَقْصُرُ
الطَّرْفَ دُونَهُ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُشَاقِ:

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَفْتِنِي
دَلَجَ السَّرَى

وَأَنْتِ الَّتِي أَوْرَثْتِ
قَلْبِي حَرَارَةً

وَأَنْتِ الَّتِي أَسْخَطْتِ
قَوْمِي فَكَلَّهُمْ

فَقَالَتْ الْمَعْشُوقَةُ:

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتِنِي
مَا وَعَدْتِنِي

وَأَبْرَزْتِنِي لِلنَّاسِ
حَتَّى تَرَكْتِنِي

فَلَوْ أَنَّ قَوْلًا يَكْلِمُ
الْجِسْمَ قَدْ بَدَأَ

بِجَدِّي مِنْ قَوْلِ
الْوَشَاةِ كُلُّومُ

وقال آخر:

شَهَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ
أَنَّكَ عَادَةٌ

رَدَاخٌ وَأَنَّ الْوَجْهَ
مِنْكَ عَتِيقُ

وَأَنَّكَ لَا تَجْزِينَنِي
بِمَوْدَةٍ

وَلَا أَنَا لِلْهَجْرَانِ
مِنْكَ مُطِيقُ

شَهَدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ
أَنَّكَ بَارِدُ الْ

ثَنَائِيَا وَأَنَّ الْخَصْرَ
مِنْكَ رَقِيقُ

وَأَنَّكَ مَشْبُوحُ
الدَّرَاعِينَ خَلَجَمُ

وَأَنَّكَ إِذْ تَخْلُو بَهَنً
رَفِيقُ

شعر مختار وقال آخر:

اللَّهُ يَعْلَمُ يَا
مَغِيرَةَ أَنِّي

قَدْ دُسَّتْهَا دَوْسُ
الْحِصَانِ الْهَيْكَلِ

فَأَخَذَتْهَا أَخْذُ
الْمَقْصَبِ شَاتَهُ

عَجَلَانَ يَشْوِيهَا
لِقَوْمِ نُزَلِّ

وقال كعبُ بنُ سعدِ الغنوي:

وَحَدَّثْتُمَانِي أَنَّمَا
الْمَوْتُ بِالْفَرَى

فَكَيفَ وَهَاتَا هَضْبَةَ
وَقَلْبِيبُ

وَمَاءُ سَمَاءٍ كَانَ
غَيْرَ مَجْمَعَةٍ

بِبَرِّيَّةٍ تَجْرِي عَلَيْهِ
جَنُوبُ

وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ
صَدَقٍ وَغِبْطَةٍ

وَمَا اقْتَالَ فِي حُكْمِ
عَلِيٍّ طَبِيبُ

وقال دُرَيْدُ بنُ الصَّمَّةِ

رئيسُ حُرُوبٍ لَا
يَزَالُ رَبِيبَةً

مشيح على
مُحَقَّوقِ الصُّلْبِ
مُلْبِدِ

صبورٌ على رُزءِ

مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابِ

المصائب حافظاً

الأحاديث في عَدِّ

وهَوْنٌ وَجَدِي أَنِّي
لَمْ أَقْلَ لَهُ

كَذَّبْتَ وَلَمْ أَبْخَلْ بِمَا
مَلَكَتْ يَدِي

قطع من البديع وقطعة من البديع قوله:

إِذَا حَدَّاهَا صَاحِبِي
وَرَجَّعَا

وَصَاحٍ فِي آثَارِهَا
فَأَسْمَعَا

يَتْبَعْنَ مِنْهُمْ جُلَّالاً
أَتْلَعَا

أَدْمَكُ فِي مَاءِ
الْمَهَاوِي مُنْقَعَا

وقال الراجز في البديع المحمود:

قَدْ كُنْتُ إِذْ حَبْلُ
صِبَاكَ مُدْمَشُ

وَإِذْ أَهَاضِيبُ
الشَّبَابِ تَبْعَشُ

ومن هذا البديع المستحسن منه، قولُ حُجْرِ بْنِ خَالِدِ بْنِ
مرثد:

سَمِعْتُ بِفِعْلِ

كَفَعَلِ أَبِي قَابُوسَ

الفاعلين فلم
أجد

حزماً ونائلاً

يُساقُ الغمامُ الغرُّ
من كلِّ بلدةٍ

إليك فأضحى حَوْلَ
بيتِكَ نازلاً

فأصبحَ منه كلُّ
وادي حلتته

وإن كان قد خَوَّى
المرابيعُ سائلاً

فإن أنتَ تهلك
يهلك الباعُ
والنداءُ

وتُضحى قلوبُ
الحمدِ جرباءِ حائلاً

فلا ملكٌ ما
يبلغنك سعيه

ولا سوقة ما
يمدحنك باطلا

صدق الظنُّ وجودة الفِراسة
قال أوس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يظنُّ

نَّ كأنَّ قد رأى وقد

بك الظ

سمعا

وقال عمر بن الخطّاب: إنك لا تَنْتَفِعُ بعقل الرَّجُلِ حتّى تعرفَ
صدقَ فطنته.
وقال أوس بن حجر:

مليحٌ نجيحٌ أخو
مأزقٍ

نقابٌ يُحدّث
بالغائبِ

وقال أبو الفضة، قاتلَ أحمرَ بن شميطة:

فإلّا يأتكمُ خبرٌ
يقينٌ

فإنّ الظنَّ ينقصُ أو
يزيدُ

وقيل لأبي الهذيل: إنك إذا راوَعْتَ واعتَلتَ - وأنتَ تكلمَ
النظامَ وقمتَ - فأحسنُ حالاتِك أن يشكَّ الناسُ فيك وفيه
قال: حَمْسُونُ شكّاً خيرٌ من يقينٍ واحدٍ وقال كُنَيْرٌ في عبد
الملك:

به شيبٌ وما فقدَ الشَّبَابَا

إذا شابَتْ لِذاتِ المرءِ شابَا

رأيتُ أبا الو
فقلتُ له ولا

إذا ما قال أمرضَ أو أصابا
الشيبِ حزمٌ

ولكن تحتَ ذاك

وليس في جودة الظنِّ بيتُ شعرٍ أحسن من بيتِ بلعاء بنِ
قيس:

وأبغى صواب
الظن أعلم أنه
إذا طاش ظن المرء
طاشت مقادره

وقال الله عزَّ وجلَّ: "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ".

وقال ابن أبي ربيعة في الظنِّ :

ودعاني إلى
الرشادِ فؤادُ
كان للغيِّ مرّةً قد
دعاني

اك دهرٌ لو كنتَ
فيه قريني
غير شكَّ عرفتَ لي
عصيانِي

وتقلبتُ في
الفراشِ ولا تع
لم إلا الظنونَ أين
مكاني

من مختار الشعر

وقال ابنُ أبي ربيعة في غير هذا الباب:

وَخِلُّ كُنْتُ عَيْنَ النُّصْحِ مِنْهُ	إِذَا نَظَرْتُ وَمَسْتَمِعاً مَطِيعاً
أَطَافَ بَغِيَّةٍ فَنَهَيْتُ عنها	وَقَلْتُ لَهُ أَرَى أَمراً شَنِيعاً
أَرَدْتُ رَشَادَهُ جَهْدِي، فَلَمَّا	أَبَى وَعَصَى أَتَيْنَاهَا جَمِيعاً

وقال معقّر بن حمار البارقي:

الشَّعْرُ لُبُّ المَرءِ يَعْرِضُهُ	وَالقَوْلُ مِثْلُ مَوَاقِعِ النَّبْلِ
منها المقصّر عن رَمِيَّتِهِ	وَنَوَافِدُ يَذْهَبْنَ بِالْخِصْلِ

أبياتٌ للمحدثينِ حسانٌ

وأبياتٌ للمحدثينِ حسان، قال العتّابي:

وَكَم نِعْمَةٌ آتَاهَا
اللَّهُ جَزَلَةً

فَسَلَطَتْ أَخْلَاقًا
عَلَيْهَا ذَمِيمَةً

وَلَوْعًا وَإِشْفَاقًا
وَنَطْقًا مِنَ الْخَنَا

وَكَنتَ امْرَأًا لَوْ
شِئْتَ أَنْ تَبْلُغَ
الْمَدَى

وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ
أَعْسَرَ مَحْمَلًا

وقال أيضاً:

وَكَنتُ امْرَأً هَيَّابَةً
تَسْتَفِرِّزْنِي

مُبْرَأَةً مِنْ كُلِّ
خُلُقٍ يَذِيمُهَا

تَعَاوَرْنَاهَا حَتَّى
تَفَرَّى أَدِيمُهَا

بَعَوْرَاءَ يَجْرِي فِي
الرِّجَالِ نَمِيمُهَا

بَلَغْتَ بَأْدَنِي نِعْمَةً
تَسْتَدِيمُهَا

مِنَ الصَّخْرَةِ
الصَّمَاءِ حِينَ
تَرُومُهَا

رِضَاعِي بَأْدَنِي
ضَجَعَةً أَسْتَلِيئُهَا

تَوَقَّلُ فِي نَيْلِ
الْمَعَالِي فَنُونُهَا

وَأَدَى إِلَيْهَا الْحَقَّ
فَهُوَ أَمِينُهَا

تَغْلَعَلْ فِي حَيْثُ
اسْتَقَرَّ جَنِينُهَا

وَلَا كُلَّ مَنْ أَمَّ
الصُّوَى يَسْتَبِينُهَا

طَوَارِفُ أَبْكَارِ
الْخُطُوبِ وَعُونُهَا

عِنْدَ احْتِفَالِ الْمَجْلِسِ
الْحَاشِدِ

أَخْلَى لَهُ وَجْهَكَ مِنْ

أَوْافِي أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ بِهَمَّةِ

رَعَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ
فَهُوَ إِمَامُهَا

وَيَسْتَنْتِجُ الْعُقْمَاءَ
حَتَّى كَانَمَا

وَمَا كُلُّ مَوْصُوفٍ
لَهُ يَهْتَدِي

مُقِيمٌ بِمَسْتَنِّ الْعُلَا،
حَيْثُ تَلْتَقِي

وقال الحسن بن هانئ:

قَوْلًا لِهَارُونَ إِمَامِ
الْهَدَى

نَصِيحَةُ الْفَضْلِ

وإشفاقه

حاسد

بصادق الطاعة

وواحد الغائب

ديانها

والشاهد

أنت على ما بك

ما أنت مثل الفضل

من فؤدة

بالواجد

أوحده الله فما

لطالب ذاك ولا

مثلُه

ناشد

وليس على الله

أن يجمع العالم في

بمستكر

واحد

وقال عدي بن الرقاع العاملي:

وقصيدة قد بت

حتى أقوم ميلها

أجمع بينها

وسنادها

نظر المثقف في

حتى يُقيم ثقافه

كعوب قناته

مُنادها

عَنْ حَرْفٍ وَاحِدَةٍ
لَكِي أَرْدَادَهَا

وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ
وَزَادَهَا

وَعَلِمْتُ حَتَّى لَسْتُ
أَسْأَلُ عَالِمًا

صَلَّى إِلَاهُ عَلَيَّ
أَمْرِي وَدَعْتَهُ

شعر لبنت عدي بن الرقاع

قال: واجتمع ناسٌ من الشُّعْرَاءِ ببابِ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاعِ
يُرِيدُونَ مُمَاتِنَتَهُ وَمُسَاجَلَتَهُ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ بِنْتُ لَهُ صَغِيرَةٌ،
فَقَالَتْ:

عَلَى وَاحِدٍ لَا زَلْتُمْ
قِرْنَ وَاحِدًا

تَجَمَّعْتُمْ مِنْ كُلِّ
أَوْبٍ وَمَنْزَلٍ

وقال عبد الرحمن بن حسان الأنصاري، وهو صغير:

فِي دَارِ حَسَّانٍ
أَصْطَادُ الْيَعَاسِييَا

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ
مُشْتِغَلًا

وقال لأبيه وهو صبي - ورجع إليه وهو يبكي ويقول:
لسعني طائر قال: فصفه لي يا بني قال كأنه ثوبٌ حبرة قال

حَسَّانُ: قال ابني الشُّعْرَ وَرَبَّ الكعبةِ وكان الذي لَسَعَهُ
زنبوراً.

وقال سَهْلُ بن هارون، وهو يختلف إلى الكُتَّابِ لجارِ لهم:

نُبِّيتَ بِعَلِّكَ مَبْطُوناً فهل تَمَاتِلُ أو نَأْتِيهِ
فَقَلْتِ لَهُ عُوَادَا

وقال طرفة وهو صبيٌّ صغير:

يا لَكَ مِنْ قَبْرَةٍ خلا لِكَ الجَوْ فَبِيضِي
بِمَعْمَرٍ واصفِرِي

وقال بعض الشعراء:

إذا ما ماتَ مَيِّتٌ فسَرَكَ أن يَعِيشَ
مِنْ تَمِيمٍ فَجِيَّ بَزَادِ
بخبزٍ أو بِلَحْمٍ أو أو الشَّيْءِ المَلْفِ
بِسَمْنٍ في البِجَادِ

تراه يَطُوفُ لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ

بالآفاق حِرْصاً

بنِ عادٍ

وقال الأصمعي: الشيء الملفف في البجاد: الوطْب.
وقال أعرابي:

أَلَا بَكَرَتْ تَلْحَى
قَتِيلَةً بَعْدَمَا

بدا في سوادِ الرَّأسِ
أبيض واضح

لَتُدْرِكَ بِالْإِمْسَاكِ
وَالْمَنْعِ ثَرْوَةً

مِنَ الْمَالِ أَفْتَنَهَا
السَّنُونَ الْجَوَائِحُ

فقلت لها: لا
تعدُّليني فإنما

بِذِكْرِ النَّدى تَبْكِي
عَلَيَّ النِّوَايحُ

أشعار في معانٍ مختلفة

وقال بشارٌ أبياتاً تجوز في المذاكرة، في باب المنى، وفي
باب الحزم، وفي باب المشورة، وناسٌ يجعلونها للجعجاع
الأزدي، وناسٌ يجعلونها لغيره، وهي قوله:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ
الْمَشْورَةَ فَاسْتَعِنْ

بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ
نَصِيحَةِ حَازِمٍ

وَلَا تَحْسَبِ الشُّورَى
عَلَيْكَ غَضَاةً

وَأَذِنَ مِنَ الْقُرْبَى
الْمَقْرَبَ نَفْسَهُ

وَمَا خَيْرُ كَفِّ أَمْسَاكَ
الْغَلُّ أُخْتَهَا

فَأِنَّكَ لَا تَسْتَطِرِدُ
الْهَمَّ بِالْمَنَى

وقال بعض الأنصار:

وَبَعْضُ خَلَائِقِ
الْأَقْوَامِ دَاءٌ

وَبَعْضُ الْقَوْلِ لَيْسَ
لَهُ عِنَاجٌ

وقال تأبط شرّاً - إن كان قالها:-

مَكَانُ الْخَوَافِي
رَافِدٌ لِلْقَوَادِمِ

وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى
أَمْرًا غَيْرَ كَاتِمٍ

وَمَا خَيْرُ نَصْلِ لَمْ
يُؤَيِّدْ بِقَائِمِ

وَلَا تَبْلُغِ الْعَلِيَا
بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ

كَدَاءِ الشَّيْخِ لَيْسَ
لَهُ شِفَاءٌ

كَمْخُضُ الْمَاءِ لَيْسَ
لَهُ إِتَاءٌ

ذَكَتِ الشَّعْرَى فَبَرِدٌ
وِظَلٌّ

وِكِلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ
ذَاقَ كُلُّ

وَإِذَا يَغْدُو فَسِمْعٌ
أَزَلٌّ

مَصِيعٌ عُقَدَتْهُ مَا
تُحَلُّ

أَطْرَقَ أَفْعَى يَنْفَتْ
الَسَمَّ صِلُّ

جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ
الْأَجَلُّ

كَسَنَا الْبَرْقِ إِذَا مَا
يُسَلُّ

شَامِسٌ فِي الْقَرِّ
حَتَّى إِذَا مَا

وَلَهُ طَعْمَانٍ: أَرِيَّ
وَشَرِيَّ

مُسْبِلٌ فِي الْحَيِّ
أَحْوَى رِفْلٌ

وَوَرَاءَ الثَّارِ مِنْهُ
ابْنُ أُخْتِ

مُطْرِقٌ يَرِشَحُ سَمًّا،
كَمَا

خَبَرٌ مَا نَابَنَا
مُصْمِلٌ

كُلُّ مَاضٍ قَدْ تَرَدَّى
بِمَاضٍ

فَاسْقِنِيهَا يَا سَوَادَ
بْنَ عَمْرٍو

إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ
خَالِي لَخَلٌّ

وقال سلامة بن جندل:

سأجزيك بالوَدِّ
الذي كان بيننا

أصعصعُ إنِّي سوف
أجزيك صَعَصَعَا

سأهدي وإن كنا
بتثليثٍ مدحةً

إليك وإن حلت
بئوتك لعلعا

فإن يك محموداً
أبوك فإنا

وجدناك محمود
الخلّاق أروعا

فإن شئت أهدينا
ثناءً ومدحةً

وإن شئت أهدينا
لكم مائةً معا

فقال صعصعة بن محمود بن بشر بن عمرو بن مرثد: التّناء
والمدحة أحبُّ إلينا، وكان أحمر بن جندل أسيراً في يده،
فخلّى سبيلَه من غير فداء.

وقال أوسُ بن حَجْر، في هذا الشَّكْل من الشَّعر - وهو يقع
في باب الشُّكر والحمد :-

حَلِيمَةٌ إِذْ ألقى مِرَاسِي مُقَعِدِ

لَعَمْرُ

وَلَكِنْ

وَحَلَّ بِفَلَجٍ فَالْقِنَافِذِ عُوْدِي
تَلَقَّتْ بِالْيَدَيْنِ ضَمَانَتِي

وَقَدْ

بَحَمَلِ الْبَلَايَا وَالْخِبَاءِ الْمَمْدَدِ
عَبَّرْتَ شَهْرِي رَبِيعِ كَلَيْهِمَا

وَلَمْ

كَمَا شِئْتَ مِنْ أَكْرُومَةٍ وَتَخَرَّدِ
تُلْهَهَا تِلْكَ التَّكَالِيفُ؛ إِنَّهَا

سَأَجْزِيكَ

وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكَ وَتُحْمَدِي
أَوْ يَجْزِيكَ عَنِي مَثُوبٌ

وقال أبو يعقوب الأعرور :

وَحَسْبُكَ مِنِّي أَنْ أَوَدَّ
وَأَجْهَدَا

فَلَمْ أَجْزِهِ إِلَّا
الْمُودَّةَ جَاهِدًا

من شعر الإيجاز

وأبيات تضافُ إلى الإيجاز وحَدَّف الفضول، قال بعضهم
ووصف كلاباً في حال شدِّها وعَدْوِها، وفي سرعةِ رفعِ
قوائمها ووضعها - فقال:

كأَما تَرَفُّعُ ما لَم يُوضِعِ

ووصف آخرُ ناقةً بالنشاط والقوَّة فقال:

خرقاءُ إلاَّ أَنها صَناعِ

وقال الآخر:

الليلُ أخفى والنَّهارُ أَفْضَحُ

ووصف الآخر قَوْساً فقال:

في كَفِّهِ مُعْطِيَةٌ مَنْوَعُ

وقال الآخر:

كَأَما دَليْلُهُ
مَطَوِّحُ

وَمَهْمَهُ فِيهِ السَّرَابُ
يَسْبَحُ

يَذَابُ فِيهِ الْقَوْمُ حَتَّى
يَطْلُحُوا

كَأَنَّمَا بَاتُوا بِحَيْثُ
أَصْبَحُوا

ومثل هذا البيت الأخير قوله:

وَكأَنَّمَا بَدْرٌ وَصَيْلٌ
كُتَيْفَةٌ

وَكأَنَّمَا مِنْ عَاقِلٍ
أَرْمَامٌ

ومثله:

تَجَاوَزْتُ حُمْرَانَ
فِي لَيْلَةٍ

وَقَلْتُ قَسَاسٍ مِنْ
الْحَرَمَلِ

ومن الباب الأول قوله:

عَادَنِي الِهْمُّ فَاعْتَلَجْ

كُلُّ هَمٍّ إِلَى فَرَجٍ

وهذا الشعر لجعيفران الموسوس.
وقال الآخر:

لَمْ أَقْضِ مِنْ صَحْبَةٍ
زَيْدِ أَرَبِي

فَتَى إِذَا نَبَّهْتَهُ لَمْ
يَغْضَبِ

ولا يضمن بالمتاع
المحقب

أقصى رفيقيه له
كالأقرب

أبيض بَسَامَ وإن لم
يعجب

مُوَكَّلُ النَّفْسِ بِحِفْظِ
الغُيِّبِ

وقال دُكَيْنُ:

بالسَّوْطِ فِي
دَيْمُومَةٍ كَالْتَّرْسِ

وَقَدْ تَعَلَّتْ دُمَيْلَ
العَنَسِ

إِذْ عَرَجَ اللَّيْلَ بَرُوجَ
الشَّمْسِ

وقال دُكَيْنُ أَيضاً:

بِمَوْطِنٍ يُنْبِطُ فِيهِ الْمُحْتَسِي بِالْمَشْرِفِيَّاتِ نِطَافَ الْأَنْفَسِ

وقال الراجز:

وَالنَّصُّ فِي حِينِ
الهِجِيرِ وَالضَّحَى

طَالَ عَلَيْهِنَّ
تَكَالِيفَ السَّرَى

رَوَاعِفَ يَخْضِبْنَ
مُبَيِّضَ الْحَصَى

حَتَّى عُجَاهُنَّ فَمَا
تَحْتَ الْعُجَى

في هذه الأرجوزة يقول:

وَضَحِكَ الْمَزْنُ بِهَا تَمَّ بَكَى

ومن الإيجاز المحذوف قولُ الراجز، ووصف سَهمه حين
رَمَى عَيْراً كَيْفَ نَفَذَ سَهْمَهُ، وكَيْفَ صرَعَهُ، وهو قوله:

حَتَّى نَجَا مِنْ جَوْفِهِ وَمَا نَجَا

شعر في الاتعاظ والزهد

ومما يجوز في باب الاتعاظ قولُ المرأة وهي تطوف بالبيت:

وَهَجْمَةٌ يَحَارُ فِيهَا
الطَّالِبُ

أَنْتِ وَهَبْتَ الْفَتِيَّةَ
السَّلَاهِبُ

مَتَاعَ أَيَّامٍ وَكُلُّ
دَاهِبٍ

وَعَنَمًا مِثْلَ الْجَرَادِ
السَّارِبِ

ومثله قولُ المسعودي:

ع زعزعته الريح
ذاهب

أخلف وأنطف كل
شي

وقال القدار وكان سيّد عنزة في الجاهلية:

ومن اللّجاجة ما
يضرُّ وينفع

أهلكت مهري في
الرّهان لّجاجة

قال: وسمعت عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ينشد - وكان فصيحاً:

يرجى الفتى كيما
يضرّ وينفعا

إذا أنت لم تنفع
فضرّ فإنما

وقال الأخطل:

وأعظم الناس
أحلاماً إذا قدروا

شمس العداوة حتى
يُستفاد لهم

وقال حارثة بن بدر:

سفاهاً وقد جرّبت

طربت بفائور وما

كدت أطربُ

فيمَن يجربُ

وجربتُ ماذا العيشُ
إلا تَعَلَّةُ

وما الدهرُ إلا
مَنْجَنُونُ يقلبُ

وما اليومُ إلا مثلُ
أمس الذي مضى

ومثلُ غدِ الجاني
وكلُّ سيذهبُ

وقال حارثة بن بدر الغداني أيضاً:

وَأَسْتَبْمُضِيهِ وَأَنْتَ تَعَادِلُهُ

إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقْتُهُ عَوَائِلُهُ
تُنزِلُنَّ أَمْرَ الشَّدِيدَةِ بِأَمْرِي

فلا

مِنَ الرَّوْعِ أَفْرَحُ أَكْثَرَ الرَّوْعِ بَاطِلُهُ
لِلْفَوَادِ إِنْ نَزَا بِكَ نَزْوَةٌ

وَقُلْ

شعر في الغزو

وقال الحارث بن يزيد وهو جدُّ الأَحِمِرِ السَّعْدِيِّ وهو يقع
في باب الغزو وتمدحهم ببعده المغزى:

لا لا أَعُقَّ ولا
أُحُو

ب ولا أُغِيرَ عَلَيَّ
مُضْرُ

لَكُنَّمَا غَزَوِي
إِذَا

ضَجَّ الْمَطِيَّ مِنْ
الدَّبْرِ

وقال ابن محفّض المازني:

إِنْ تَكْ دِرْعِي يَوْمَ
صَحْرَاءِ كُتَيْبَةٍ

أَصِيبَتْ فَمَا دَأَكُمُ
عَلَيَّ بِعَارِ

أَلَمْ تَكْ مِنْ أَسْلَابِكُمْ
قَبْلَ دَأَكُمُ

عَلَيَّ وَقَبِي يَوْمًا
وَيَوْمَ سَفَارِ

فَتَلَكْ سَرَابِيلِ ابْنِ
دَاوُدَ بَيْنِنَا

عَوَارِيَّ وَالْأَيَّامِ
وغير قصارِ

وَنَحْنُ طَرَدْنَا الْحَيَّ
بَكْرَ بْنَ وَائِلِ

إِلَى سَنَةِ مِثْلِ
الشَّهَابِ وَنَارِ

وَمُومٍ وَطَاعُونَ

وَذِي لِبَدٍ يَغْشَى

وَحُمَى وَحَصْبَةٍ

وَحَكْمِ عَدُوٍّ لَا

هَوَادَةَ عِنْدَهُ

وقال آخر:

خُذُوا الْعَقْلَ ۖ إِن

أَعْطَاكُمْ الْقَوْمَ عَقْلَكُمْ

وَلَا تُكْثِرُوا فِيهَا

الضِّجَاجَ فَإِنَّهُ

وقال أبو ليلى:

كَأَنَّ قَطَاتِهَا

كُرْدُوسُ فَحُلِّ

شعر في السيادة

وقال أبو سلمى:

لَا بَدَّ لِلسُّودِّ مِنْ

المهَجِّجِ ضَارِي

وَمَنْزِلِ ذَلٍّ فِي

الحياة وَعَارِ

وَكُونُوا كَمَنْ سِيَمِ

الهِوَانِ فَأَرْتَعَا

مَحَا السَّيْفِ مَا قَالَ

ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعَا

مَقْلَصَةٌ عَلَى سَاقِي

ظَلِيمِ

وَمِنْ سَفِيهِ دَائِمِ

النَّبَاحِ

أرماحِ

ومَنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى
بِالرَّاحِ

وقال الهذلي:

لها صَعْدَاءُ مَطْلِبُهَا
طَوِيلٌ

وإنَّ سِيَادَةَ الْأَقْوَامِ
فَاعْلَمُ

وقال حارثة بن بدر، وأنشده سفيان بن عُيينة:

وَمِنَ الشَّقَاءِ
تَفَرَّدِي بِالسُّودِ

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَسُدَّتْ
غَيْرَ مُسَوِّدِ

شعر في هجاء السادة

وقال أبو نخيلة:

إِلَى سَيِّدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ
بِسَيِّدِ

وإنَّ بِقَوْمِ سَوِّدٍ
نَفَاقَةً

وقال إياس بن قتادة، في الأحنف بن قيس:

وإِنَّ مِنَ السَّادَاتِ
مَنْ لَوْ أَطْعَمْتَهُ

دَعَاكَ إِلَى نَارٍ
يَفُورُ سَعِيرَهَا

وقال حُمَيْضَةُ بْنُ حَذِيفَةَ:

أَيْظَلِّمُهُمْ قَسْرًا فَتَبًّا
لِسَعْيِهِ

وَكُلُّ مَطَاعٍ لَّا أَبَالِكَ
يَظْلِمُ

وقال آخر:

فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ الْحَلْمِ
فِي الْحَيِّ ظَالِمًا

تَحَمَّطَ فِيهِمْ
وَالْمَسْوَدُ يَظْلِمُ

وكان أنس بن مدركة الخثعمي يقول:

عزمت على إقامة
ذي صباحٍ

لأمر ما يسودُ
من يسودُ

وقال الآخر:

كما قال الحمار
لسهم رامٍ

لقد جمعت من
شيءٍ لأمر

وقال أبو حية:

إِذَا قَلَنْ كَلًّا قَالَ
وَالنَّقَّعَ سَاطِعٌ

بلى وهو واهٍ
بالجرائِ أباجله

وقال آخر:

إِنِّي رَأَيْتُ أَبَا
العوراء مرتفقاً

بشط دجلة يشري
التمر والسمكا

كشدة الخيل تبقى
عند مذودها

والموت أعلم إذ
قفى بمن تركا

هذه مساعيك في
آثار سادتنا

ومن تكن أنت
ساعيه فقد هلكا

وقال شتيم بن خويلد، أحد بني غراب بن فزارة:

وقلت لسيدنا يا
حليم

إنك لم تأس أسوأ
رفيقاً

أعنت عدياً على

تُعادي فريقاً وتُبقي

شأوها

زحرت بها ليلة
كلها

وقال ابن ميادة:

أتيت ابن قشراء
العجان فلم أجد

وإن الذي ولّك
أمر جماعة

شعر في المجد والسيادة

وقال آخر:

ورثنا المجد عن
آباء صدق

إذا المجد الرفيع
تعاورته

فريقا

فجئت بها مؤيدا
خنفقيا

لدى بابهِ إذنا
يسيراً ولا نُزلاً
لأنقص من يمشي
على قدم عقلا

أسأنا في ديارهم
الصنيعا

بُناة السوء أو شك
أن يضيعا

وقال الآخر:

أنا السَّيِّدُ الْمُفْضَى
إليه المعَمَّمُ

وهانَ عليهم
رَعْمُهُ وهو أَظْلَمُ

إذا المرءُ أَثْرَى ثمَّ
قال لقومِهِ

ولم يَعْطِهِمْ خيراً
أَبَوْا أَنْ يَسُودَهُمْ

وقال الآخر:

لِيَدْفَعَنَّ عَنِّي خَلَّتِي
دِرْهَمًا بِحَرِّ

وَأَنْفَقَهُمَا فِي غَيْرِ
حَمْدٍ وَلَا أَجْرِ

تَسَمَّيْتَ بِحَرًّا
وَأَكْنَيْتَ أَبَا الْعَمْرِ

تَرَكْتُ لِبَحْرِ
دِرْهَمِيهِ وَلَمْ يَكُنْ

فَقُلْتُ لِبَحْرِ خَدُّهُمَا
وَاصْطَرَفَهُمَا

أَتَمَنَعُ سُؤَالَ
الْعَشِيرَةِ بَعْدَ مَا

وقال الهذليُّ:

أَقُولُ شَوَى مَا لَمْ

وَكُنْتُ إِذَا مَا الدَّهْرُ

أَحَدَتْ نَكْبَةَ

يُصِبْنَ صَمِيمِي

وقال آخر في غير هذا الباب:

سقى الله أرضاً

بعيداً من الأدوية

يَعْلَمُ الضَّبُّ أَنَّهَا

طَيِّبَةُ البَقْلِ

بنى بيته في

وكلُّ امرئٍ في حِرْفَةٍ

رأس نَشْرٍ

العَيْشِ دُو عَقْلٍ

وَكُدْيَةٍ

أبو الحارث جمين والبرذون

وحدّثني المكيُّ قال: نظر أبو الحارث جُمَيْن إلى برذون
يُسْتَقَى عليه ماءً، فقال: المرء حيث يضع نفسه! هذا لو قد
همجج لم يبتل بما ترى!

بين العقل والحظ

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي:

وما لبَّ اللَّبِيبِ

بأغنى في المعيشة

بغير حَظٍّ

من فَتِيلِ

رَأَيْتَ الْحَظَّ يَسْتُرُ
كُلَّ عَيْبٍ

وَهَيْهَاتَ الْحُظُوظَ
مِنَ الْعُقُولِ

هجو الخلف

وقال الآخر:

زَهَبَ الَّذِينَ أَحَبَّهُمْ
سَلْفًا

وَبَقِيَتْ كَالْمَقْهُورِ
فِي خَلْفٍ

مِنَ كُلِّ مَطْوِيٍّ
عَلَى حَنْقٍ

مُتَضَجِّعٍ يُكْفَى وَلَا
يَكْفِي

عبد العين

وقال آخر:

وَمَوْلَى كَعْبِدِ الْعَيْنِ
أَمَّا لِقَاؤُهُ

فَيُرِضِي وَأَمَّا غَيْبُهُ
فَيُظْنُونُ

ويقال للمرائي، ولمن إذا رأى صاحبه تحرك له وأراه
الخدمة والسرعة في طاعته فإذا غاب عنه وعن عينه
خالف ذلك: إنما هو عبدُ عين.

وقال الله عزَّ وجلَّ: "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ" وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا".

من إيجاز القرآن

وقد ذكرنا أبياتاً تُضاف إلى الإيجاز وقِلةُ الفُصول، ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن؛ لتَعْرِفَ بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفُصول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبتُه لك في باب الإيجاز وترك الفُصول، فمنها قوله حين وصفَ خمرَ أهلِ الجَنَّةِ: "لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ" وهاتان الكلمتان قد جَمَعْتَا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ الدُّنيا.

وقوله عزَّ وجل حين ذكر فاكهة أهلِ الجَنَّةِ فقال: "لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ". جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني.

وهذا كثيرٌ قد دَلَلْتُكَ عليه، فإن أردته فموضعه مشهور.

رأي أعرابي في تثمير المال

وقال أعرابي من بني أسد:

يَقُولُونَ ثَمَرٌ مَا
اسْتَطَعْتَ وَإِنَّمَا

لِوَارِثِهِ مَا ثَمَرَ
الْمَالِ كَاسِبُهُ

فَكَلَّهُ وَأَطْعَمَهُ
وَخَالِسُهُ وَارِثاً

شَحِيحاً وَدِهْرًا
تَعْتَرِيكَ نَوَائِبُهُ

شعر في الهجاء

وقال رجلٌ من بني عَبَسَ:

لَا يَعْرِفُ النَّصْفَ بَلْ قَدْ جَاوَزَ النَّصْفَا أَبْلَغُ قُرَادًا لَقَدْ
حَكَّمْتُمْ رَجُلًا

فَجَانِبَ السَّهْلِ سَهْلَ الْحَقِّ وَاعْتَسَفَا كَانَ امْرَأً ثَائِرًا
وَالْحَقُّ يَغْلِبُهُ

وَأَنَّ أَنْفَكُمْ لَا يَعْرِفُ الْأَنْفَا وَذَاكُمْ أَنَّ ذُلَّ الْجَارِ
حَالْفَكُمْ

أَوْ يَرْهَبِ السَّيْفِ أَوْ حَدَّ الْقَنَا جَنَفَا إِنَّ الْمَحَكَّمَ مَا لَمْ
يَرْتَقِبْ حَسَبًا

موتاً على عَجَلٍ أو عاش مُنْتَصِفاً مَنْ لاذ بالسَّيْفِ لاقى
قَرْضَه عَجبا

إمَّا رَواحاً وإما مِتَّةً أَنفا بِيَعُوا الحِياةَ بها إِذ سام
طالِبُها

هاتِكِ أَجسادٍ عادٍ أَصِبتُ جِيفاً ليس امرؤُ خالداً
والموتُ يَطْلُبُه

أَنَّ الَّذي بيننا قد مات أو دِيفا أَبِغِ
لَدِيكِ أبا كعبٍ مَغْلُغَلَة

تَوَبَّ العَرِيمَة حَتَّى انجاب وانكشفاً كانت
أَموراً فَجابت عن حُلومكم

عَنِّي، وَأَعْلَمُ أَنِّي أَكَلْتُ الكَتفا إِنِّي
لَأَعْلَمُ ظَهَرَ الضَّغْنِ أَعدِله

شعر حكيم

وقال أسقف نجران:

مَنَعَ البقاءَ تَصَرَّفُ الشَّمسِ وطلوعُها مِنْ حَيْثُ لا تَمسي

وطلوؤها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس
اليوم أعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس

وقال عبيد بن الأبرص:

وغائب الموت
لا يؤوب

وكُلُّ ذي عَيبَةٍ
يؤوبُ

وسائلُ الله لا
يخبُّ

من يسألُ النَّاسَ
يخرمُوه

وغانمٌ مثلُ من
يخبُّ

وعاقرٌ مثلُ ذاتِ
رَحْمٍ

غفٌ وقد يُخدعُ
الأريبُ

أفلحُ بما شئتَ فقد
يُبَلِّغُ بالضَّ

طولُ الحياة له
تَعذِيبُ

المرءُ ما عاش في
تَكْذِيبِ

وقال آخر:

واضطربت من كبر
أعضاها

فهي زروع قد دنا
حصاها

إذا الرجال ولدت
أولادها

وجعلت أوصابها
تعتادها

مرثية في محمد المخلوع

وقال بنت عيسى بن جعفر وكان مُملَكَةً لمحمد المخلوع حين
قتل:

بل للمعالي والرمح
والفرس

أرملني قبل ليلة
العرس

أبكىك لا للنعم
والأنس

أبكي على فارس
فجعت به

من نعت النساء

وقال سلم الخاسر:

بجيد نقي اللون من

تبدت فقلت
الشمس عند

طَلَّوْعِهَا

فَلَمَّا كَرَّرْتُ
الطَّرْفَ قَلْتُ
لصَّاحِبِي

شعر رثاء

وقال الآخر:

كفَى حَزْناً بَدْفِنِكَ
ثُمَّ أَنِّي

وكانت في حياتك
لي عِظَاتٌ

المديح بالجمال وغيره
قال مزاحم العقبلي:

يزين سنا الماويِّ
كلَّ عَشِيَّةٍ

أثر الورس

على مريّة: ما
هاهنا مطلع الشمس

نَفَضْتُ تُرابَ قَبْرِكَ
عَنْ يَدَيَا

وأنت اليوم أو عِظْ
مَنْكَ حَيًّا

على غَفَلَاتِ الزَّيْنِ
والمتجمل

وجوهٌ لو أنّ
المذلّجينَ اعتشوا
بها

وقال الشّمردل:

صدغن الدّجى حتّى
ترى اللّيلَ ينجلي

راخوا كأنهم
مرضى من الكرم

وطول أنضية
الأعناق والأمم

إذا جرى المسكُ
يئدى في مفارقهم

يشبهون ملوكاً من
تجلّتهم

النضى: السهم الذي لم يرش، يعني أن أعناقهم ملس
مستوية، والأمم: القامات.
وقال القتال الكلابي:

لمالكٍ أو لحصنٍ
أو لسيارٍ

ريح الإماء إذا
راحت بأزفار

يا لئنني والمنى
ليست بنافعةٍ

طوال أنضية
الأعناق لم يجدوا

لم يرَضَعُوا الدَّهْرَ إِلَّا
تَذَنِيَّ وَاضِحَةً

لِوَاضِحِ الْوَجْهِ
يَحْمِي بِأَحَاةِ الدَّارِ

وقال آخر:

إِذَا كَانَ عَقْلٌ قَلْتُمْ
إِنَّ عَقْلَنَا

إِلَى الشَّاءِ لَمْ تَحُلُنْ
عَلَيْنَا الْأَبَاعِرُ

وَإِنَّ امْرَأَ بَعْدِي
يُبَادِلُ وَدَّكُمْ

بُودَّ بَنِي ذُبْيَانَ
مَوْلَى لِحَاسِرُ

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ لَا
يُهَانُ هَدْيِهِمْ

إِذَا صَرَّحَتْ كَحَلٌّ
وَهَبَّتْ أَعَاصِرُ

مَذَالِقٍ بِالْخَيْلِ
الْعِتَاقِ إِذَا عَدَّوَا

بِأَيْدِيهِمْ خَطِيئَةً
وَبَوَاتِرُ

وقال أبو الطَّمَحَانَ الْقَيْنِيَّ فِي الْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرْنَا:

كَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ
وَابْنِ سَيِّدٍ

وَفِيَّ بَعْدَ الْجَارِ،
حِينَ يُفَارِقُهُ

يَكَادُ الْغَمَامُ الْغَرُّ
يُرْعَدُ أَنْ رَأَى

وَجُوهَ بَنِي لَأْمٍ
وَيُنْهَلُّ بَارِقُهُ

وقال لَقِيْطُ بن زرارَةَ:

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ
الَّذِينَ عَرَفْتُمْ

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ

بَدَا كَوَكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ
سَمَاءٍ كُلَّمَا غَارَ كَوَكَبٌ

نَجُومٌ

دُجِيَ اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَاقِبَهُ
لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

أَضَاعَتْ

وقال بعض التميميين، يمدح عوفَ بنَ القَعْقَاعِ بنِ مَعْبَدِ بنِ
زرارة:

بِحَقِّ امْرِئٍ سَرُو
عَتِيْبَةَ خَالِهِ

وَأَنْتَ لِقَعْقَاعٍ
وَعَمَّكَ حَاجِبُ

دراري نجوم كلما
انقضَّ كوكبٌ

بدا كوكب ترفضُّ
عنه الكواكبُ

وقال طفيلُ الغنويُّ:

وَعَمَرُوا وَمِنْ أَسْمَاءَ	وَكَانَ هُرَيْمٌ مِنْ
لَمَّا تَعَيَّبُوا	سِنَانَ حَلِيفَةً
بَدَا سَاطِعًا فِي	نَجُومِ ظَلَامِ كَلِمَا
حِنْدِسِ اللَّيْلِ كَوْكَبِ	غَابِ كَوْكَبِ

وقال الخريمي، يمدح بني خريم من آل سنان بن أبي حارثة:

لَظَلَّتْ مَعَدَّ فِي	بَقِيَّةِ أَقْمَارِ مِنْ
الدَّجَى تَتَكَسَّعُ	العُرِّ لَوْ حَبَّتْ
بَدَا قَمْرٌ فِي جَانِبِ	إِذَا قَمْرٌ مِنْهُمْ تَعَوَّرَ
الليلِ يَلْمَعُ	أَوْ حَبَا

وقال بعضُ غنيِّ وهو يمدح جماعة إخوة، أنشدنيها أبو
قطن الذي يقال له شهيد الكرم:

أولو فضولٍ وأنفالٍ وأخطارٍ حَبَّرَ ثَنَاءَ بَنِي
عَمَرُوا فَإِنَّهُمْ إِنْ يُسْأَلُوا الْخَيْرَ يُعْطُوهُ، وَإِنْ جُهِدُوا
فَالْجُهْدُ يُخْرِجُ مِنْهُمْ طَيْبَ أَخْبَارِ

وَإِنْ تَوَدَدْتَهُمْ لِأَنْوَاءِ، وَإِنْ شُهِمُوا كَشَفْتَ أَدْمَارَ حَرْبٍ غَيْرِ
أَعْمَارِ

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقْلًا لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النَّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا
السَّارِي

وقال رجلٌ من بني نهشل:

إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرِ أَفْنَى قِيلُ الْكِمَاةِ إِلَّا أَيْنَ
أُوَانِلَهُمْ المحامونا

لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مَنَّا مَنْ فَارَسٌ خَالَهُمْ
وَاحِدًا فَدَعَوْا إِيَّاهُ يَعْنُونَا

وَلَيْسَ يَذْهَبُ مِنَّا إِلَّا افْتَلَيْنَا عَلَامًا
سَيِّدًا أَبَدًا سَيِّدًا فِينَا

وفي المعنى الأول يقول النابغة الذبياني:

وَذَاكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَرَى كُلَّ مُلْكٍ دُونَهَا
أَعْطَاكَ سُورَةً يَتَدَبَّبُ

بأنك شمسٌ
والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبدُ
منهنّ كوكبٌ

وفي غير ذلك من المديح يقول الشاعر:

وأتيت حياً في
الحروب محلهم

والجيشُ باسم
أبيهم يُستهزَمُ

وفي ذلك يقول الفرزدق:

لتبك وكيعاً خيلُ
ليلٍ مُغيرةٌ

تساقى السّمامُ
بالرّدينيّة السّمري

لقوا مثلهم
فاستهزَموهم
بدعوةٍ

دعوها وكيعاً
والرّماحُ بهم تجري

وأما قول الشاعر:

تخامل المحتد أو هزام

فَإِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِذَا قَامَ بِهَا خَامِلُ الذَّكْرِ وَالنَّسَبِ
فَلَا يَحْسُدُهُ مِنْ أَكْفَانِهِ أَحَدٌ وَأَمَّا إِذَا قَامَ بِهَا مَذْكُورٌ بِيَمِينِ
النَّقِيبَةِ، وَبِالظَّفَرِ الْمَتَابِعِ، فَذَلِكَ أَجُودُ مَا يَكُونُ، وَأَقْرَبُ إِلَى
تَمَامِ الْأَمْرِ.
وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وَمَا كَانَ وُدِّي
عَنْهُمْ يَتَصَرَّمُ

وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ
الْأَنْعَاءَ فَيُفَعِّمُ

تَصَرَّمُ مِنِّي وُدَّ بَكْرِ
بِنِ وَائِلِ

قَوَارِصُ تَأْتِينِي
وَيَحْتَقِرُونَهَا

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

يَوْمَلَهُ فِي الْوَارِثِينَ
الْأَبَاعُدُ

بَنِي حَوَالِي الْأَسْوَدِ
الْحَوَارِدُ

أَقَامَ زَمَانًا وَهُوَ فِي

وَقَالَتْ أَرَاهُ وَاحِدًا
لَا أَحَالَهُ

لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ
تَرِينِي كَأَنَّمَا

فَإِنَّ تَمِيمًا قَبْلَ أَنْ

يُد الحصى

الناس واحدُ

وقال الفرزدق أيضاً:

فإن كان سيفَ خان
أو قَدْرُ أتي

لميقاتِ يومِ حتْفه
غيرِ شاهدٍ

فسيفُ بني عَنسٍ
وقد ضَرَبُوا بِهِ

نبا بيدي وِرْقَاءَ
عن رأسِ خالدٍ

كذاك سُيوفُ الهِنْدِ
تنبُو ظُبَاتُهَا

ويقَطُّنَ أحياناً
مَنَاطَ القَلَادِ

خير قصار القصائد

وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يُسمع
بمثله، فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق؛ فإنك لم تر
شاعراً قطُّ يجمعُ التَّجويدَ في القصار والطَّوالِ عَيرَ. وقد قيل
للكُميت: إنَّ النَّاسَ يَزُعمون أنَّكَ لا تقدر على القصار قال:
مَنْ قال الطَّوالِ فهو على القصار أقدر.
هذا الكلام يَخرج في ظاهر الرأْي والظَّن، ولم نجد ذلك عند
التَّحصيل على ما قال.

وقيل لعقيل بن علفة: لم لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من
القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لجرير: إلى كم تهجو الناس؟ قال: إنني لا أبتدي،
ولكنني أعتدي.

وقيل له: لم لا تقصر؟ قال: إن الجماع يمنع الأذى.

شعر مختار

قال عبيد بن الأبرص:

نَبَّئْتُ أَنَّ بَنِي جَدِيلَةَ
أَوْعَبُوا

وَلَقَدْ جَرَى لَهُمْ فِلم
يَتَعَيَّفُوا

وَأَبُو الْفِرَاحِ عَلَى
خَشَاشِ هَشِيمَةٍ

فَتَجَاوَزُوا ذَاكُمْ
إِلَيْنَا كُلَّهُ

نُفِرَاءَ مِنْ سَلْمَى
لَنَا وَتَكْتَبُوا

تَيْسٌ قَعِيدٌ
كَالْهَرَاوَةِ أَعْضَبُ

مَتَنَكَّبٌ إِبْطُ
الشَّمَانِلِ يُنْعَبُ

عَدَوًا وَقَرْطِبَةً
فَلَمَّا قَرَّبُوا

خَلْفَ الْأَسِنَّةِ غَيْرَ
عَرَقٍ يَشْخَبُ

صَنَمًا فَفِرُّوا يَا
جَدِيلَ وَأَعَذِّبُوا

طَعِنُوا بِمُرَّانٍ
الْوَشِيحِ فَمَا تَرَى

وَتَبَدَّلُوا الْيَعُوبَ بَعْدَ
إِلَهُمُ

وقال آخر:

بِجُوحَى إِلَى جِيرَانِهِ
كَيْفَ يَصْنَعُ

إِلَيْهِ سِرَاعًا
يَحْصُدُونَ وَيَزْرَعُ

أَلَمْ تَرَ حَسَّانَ بِنَ
مَيْسِرَةَ الَّذِي

مَتَارِيْبُ مَا تَنْفَكَّ
مِنْهُمْ عِصَابَةٌ

شعر في قوله يريد أن يعرِّبه فيعجمه
وباب آخر مثل قوله:

يريد أن يُعَرِّبَهُ فَيُعْجِمَهُ

وقال آخر:

كَأَنَّ مَنْ يَحْفَظُهَا يُضِيعُهَا

وقال آخر:

أَهْوَجُ لَا يَنْفَعُهُ التَّثْقِيفُ

وقال بعض المحدثين في هذا المعنى:

مَعَ الشَّعْبِ لَا تَزْدَادُ
إِلَّا تَدَاعِيَا

إِذَا حَاوَلُوا أَنْ
يَشْعُبُوهَا رَأَيْتَهَا

وقال صالح بن عبد القدوس:

حَتَّى يُوَارَى فِي
ثَرَى رَمْسِهِ

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ
أَخْلَاقَهُ

كَذِي الضَّنَا عَادَ إِلَى
نُكْسِهِ

إِذَا ارْزَعَوَى عَادَ
إِلَى جَهْلِهِ

ومثل هذا قوله:

وَمِنَ العَنَاءِ

وَتَرَوْضُ عِرْسِكَ بَعْدَ

ما هَرِمَتْ

رياضة الهَرِمِ

وقال حُسَيْلُ بْنُ عُرْفُطَةَ:

لِيَهْنِكَ بَغْضٌ فِي
الصَّدِيقِ وَظَنَّةٌ

وتحديثك الشَّيءِ
الذي أنت كاذِبُهُ

وَأَنْكَ مَشْنُوءٌ إِلَى
كُلِّ صَاحِبٍ

قَلَاكِ وَمِثْلُ الشَّرِّ
يُحَرِّهُ جَانِبُهُ

وَأَنَّكَ مِهْدَاءُ الْخَنَا
نَطْفُ النِّثَا

شَدِيدِ السَّبَابِ رَافِعِ
الصَّوْتِ غَالِبِهِ

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْجَهْلِ
يَدْعُو إِلَى الرَّدَى

وَلَا مِثْلَ بَغْضِ
النَّاسِ عَمَّضِ
صَاحِبِهِ

كلمة للزُّبَيْرَانَ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قَالَ الزُّبَيْرَانُ بْنُ بَدْرِ:
خَصَلْتَانِ كَبِيرَتَانِ فِي أَمْرِ السَّوْءِ: شِدَّةُ السَّبَابِ، وَكَثْرَةُ
اللُّطَامِ.

تمجيد الأَقَارِبِ وَقَالَ خَالِدُ بْنُ نَضْلَةَ:

عَلَيْهِ وَلَوْ عَالُوا
بِهِ كُلَّ مَرْكَبٍ

كَثِيرٌ وَلَا يُنْبِئُكَ
مِثْلُ الْمَجْرَبِ

فَكُلُّ مَا عُلِفَتْ مِنْ
خَبِيثٍ وَطَيِّبٍ

وَإِنْ كُنْتُ ذَا ذَنْبٍ
وَإِنْ غَيْرَ مُذْنِبٍ

لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرِّ
خَيْرٌ بَقِيَّةً

مَنْ الْجَانِبِ الْأَقْصَى
وَإِنْ كَانَ ذَا نَدَى

إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ عِدَاً
لَسْتَ مِنْهُمْ

فَإِنْ تَلْتَبَسَ بِي
خَيْلٌ دُودَانَ لَا أَرْمُ

بكل وادِ بنو سعد

قال: ولَمَّا تَأَدَّى الْأَضْبَطُ بَنُ قَرِيْعٍ فِي بَنِي سَعْدٍ تَحَوَّلَ عَنْهُمْ
إِلَى آخَرِينَ فَأَدَّوهُ فَقَالَ: بَكْلٌ وَادِ بَنُو سَعْدِ.
مَقْطَعَاتٍ شَتَّى وَقَالَ سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ:

وَلَكِنَّ زَيْنَ الرَّحْلِ
يَا مَيِّ رَاكِبُهُ

أَلَا لَيْسَ زَيْنَ الرَّحْلِ
قِطْعٌ وَنُمْرُقٌ

وقال أعرابي:

فما وجد ملواح
من الهيم خنت

عن الماء حتى
جوفها يتصلصل

تحوم وتغشاها
العصي وحولها

أقاطيع أنعام تعل
وتنهل

بأكثر مني غلة
وتعطفا

إلى الورد إلا أني
أجمل

وقال خالد بن علقمة ابن الطيفان، في عيب أخذ العقل
والرضا بشيء دون الدم، فقال:

وإن الذي أصبختم
تحلبونه

دم غير أن اللون
ليس بأحمرا

فلا توعدوا أولاد
حيان بعدما

رضيتم وزوجتم
سيالة مسهرا

وأعجب قرد يقصم
القمل خالقا

إذا عب في
البقية بربرا

رأوا لَوْنَه فِي
القَعْبِ وَرَدًا
وأشقرا

إذا سَكَبُوا فِي
القَعْبِ مِنْ ذِي
إنانهم

الغضب والجنون في المواضع التي يكون فيها محموداً
قال الأشهبُ بن رُميلة:

واعصَوْصَبَ السَّيْرُ
وارتَدَّ المساكينُ

هرَّ المَقَادَةَ مِنْ لَا
يستقيدُ لها

كأنه مِنْ ضِرارِ
الضَّيْمِ مَجْنُونِ

مِنْ كُلِّ أَشْعَثَ قَدْ
مَالَتْ عِمَامَتُهُ

وقال في شبيه ذلك أبو الغول الطَّهَوِيُّ: فَدَتَّ نَفْسِي وَمَا
مَلَكَتْ يَمِينِي مَعَاشِرَ صُدِّقَتْ فِيهِمْ ظُنُونِي مَعَاشِرَ لَا يَمْلُونُ
المنايا إذا دَارَتْ رَحَى الحَرْبِ الطَّحُونِ وَلَا يَجْزُونَ مِنْ خَيْرِ
بِشْرٍ وَلَا يَجْزُونَ مِنْ غَلْظِ بَلِينٍ وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ
صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ هُمْ أَحْمَوُا حِمَى الوَقْبَى بِضَرْبِ
يُؤَلَّفَ بَيْنَ أَشْتَاتِ المُنُونِ فَتَكَبَّ عَنْهُمْ دَرَعُ الأَعَادِي وَدَاوُوا
بِالجُنُونِ مِنَ الجَنُونِ وَقَالَ ابْنُ الطَّرِيَّةِ:

لو أنّي لم أنل
منكم معاقبةً

إلا السنّان لذاق
الموت مظعونُ

أو لاخطبتُ فإني
قد هممت به

بالسيف إن خطيب
السيفِ مجنونُ

وقال آخر:

حمراءُ تامكة
السنّانِ كأنّها

جملٌ بهودجِ أهله
مظعونُ

جادتُ بها يومَ
الوداعِ يمينه

كلتأ يدي عمرو
الغداة يمينُ

ما إن وجود بمثلها
في مثله

إلا كريمُ الخيمِ أو
مجنونُ

وفي هذا المعنى يقول حسّان، أو ابنه عبد الرحمن بن
حسّان:

إنَّ شرخَ الشَّبابِ

ودّ ما لم يُعاصَ

وَالشَّعَرَ الْأَسْنَ

كَانَ جُنُونًا

إِنْ يَكُنْ عَثَّ مِنْ
رَقَاشِ حَدِيثٍ

فَبِمَا نَأْكُلُ الْحَدِيثَ
سَمِينًا

وفي شبيهه بذلك قول الشَّنْفَرَى:

فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ
وَاسْبَكَرَّتْ وَأُكْمِلَتْ

فَوَلَّ جُنَّ إِنْسَانٍ مِنْ
الْحُسْنِ جُنَّتِ

وقال القُطَامِيُّ - حين وصف إفراط نأقته في المرح
والنَّشَاطِ:

يَتَّبَعْنَ سَامِيَةَ
الْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا

مَجْنُونَةَ أَوْ تَرَى مَا
لَا تَرَى الْإِبِلُ

وقال ابنُ أَحْمَرَ، في معنى التشبيه والاشتقاق:

بِهَجَلٍ مِنْ قَسَا دَفِرِ
الْخُرَامِي

تَدَاعَى الْجَرِيَاءُ بِهِ
الْحَنِينَا

تَفَقَّأَ فَوْقَهُ الْقَلْعُ

وَجُنَّ الْخَارِبَازِ بِهِ

السَّوَارِي

جُنُونًا

وفي مثل ذلك يقول الأعشى:

وَإِذَا الْغَيْثُ صَوَّبَهُ

حَ وَجُنَّ التَّلَاعُ

وَضَعُ الْقِدِّ

وَالْأَفَاقُ

لَمْ يَزِدْهُمْ سَفَاهَةً

رِ وَلَا اللَّهُ فِيهِمْ

نَشْوَةَ الْخَمِّ

وَالسَّبَاقُ

وقال آخر في باب المزاح والبطالة، مما أنشدني أبو الأصبع

بن ربي:

أَتُونِي بِمَجْنُونٍ

وَمَا صَاحِبِي إِلَّا

يَسِيلُ لُعَابِهِ

الصَّحِيحُ الْمَسَلَّمُ

وأنشدني إبراهيم بن هاني، وعبد الرحمن بن منصور:

جَنُونُكَ مَجْنُونٌ

طَبِيبًا يَدَاوِي مَنْ

وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ

جَنُونِ جَنُونٍ

إبراهيم بن هاني والشعر

وكان إبراهيم بن هانئ لا يقيم شعراً ولا أدري كيف أقام هذا البيت.

وكان يدعى بحضرة أبي إسحاق علم الحساب، والكلام، والهندسة، واللحون، وأنه يقول الشعر؛ فقال أبو إسحاق: نحن لم نمتحنك في هذه الأمور، فلك أن تدعيها عندنا، كيف صرت تدعي قول الشعر، وأنت إذا رويته لغيرك كسرته؟ قال: فإني هكذا طبعت، أن أقيمه إذا قلت، وأكسره إذا أنشدت قال أبو إسحاق: ما بعد هذا الكلام كلام.

جواب أعرابي

وقلت لأعرابي، أيما أشد غلماً: المرأة أو الرجل؟ فأنشد:

أأليز أدنى
للفجور أو الحر

وأقبل هذا فاتحاً
فاه يهدر

فوالله ما أدري وإني
لأسائل

وقد جاء هذا مريحياً
من عنانه

مقطعات شتى

وأنشد بعضهم:

واكتسى الرأس من
بياض قناعا

ثم يأبى القليل إلا
نزاعا

أصبح الشيب في
المفارق شاعا

ثم ولّى الشباب إلا
سقليلاً

وأشد محمد بن يسير:

خَوْدٌ تَأْطُرُ نَاعِمٌ
بِخُرِّ

في كل مبلغ لذة
عُدْرُ

قامت تُخاصرني
لِقَبَّتِهَا

كلُّ يَرَى أَنَّ الشَّبَابَ
لَهُ

وقال الآخر في خلاف ذلك، أنشدني محمد بن هشام
السّدي:

أشْرُ الرِّجَالِ مَنْ
يَسِيءُ فَيُعَدَّرُ

فلا تعدراني في
الإساءة إنّه

وقال ابن فسوة:

إلى حَسَنَ في داره
وابن جعفر

فَأَيْتَ قَلُوصِي
عُرِّيتَ أَوْ رَحَلْتَهَا

وَلَا يَلْبَسُونَ السَّبْتِ
مَا لَمْ يُحْضَرَ

إلى مَعَشَرَ لَا
يَخْصِفُونَ نِعَالَهُمْ

وقال الطَّرِمَّاحُ بْنُ حَكِيمٍ، وَهُوَ أَبُو نَفْرٍ:

بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ
أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلِ

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا
لنَفْسِي أَنَّنِي

وَبَيْنِي فِعْلَ الْعَارِفِ
الْمُتْجَاهِلِ

إِذَا مَا رَأَيْ قَطَعَ
الطَّرْفَ بَيْنَهُ

مِنَ الضَّيِّقِ فِي
عَيْنِيهِ كِفَّةً حَابِلِ

مَلَأْتُ عَلَيْهِ الْأَرْضَ
حَتَّى كَانَتْهَا

وقال آخر:

كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ
قَبْلِي تَدُورُ

إِذَا أَبْصَرْتَنِي
أَعْرَضْتَ عَنِّي

وقال الخُرَيْمِي وَذَكَرَ عَمَاهُ:

أصغي إلى قاندي
ليخبرني

أريد أن أعدل
السَّلامَ وأن

اسمَعُ ما لا أرى
فأكره أن

لِلَّهِ عيني التي
فجعتُ بها

لو كنتُ خيِّرتُ ما
أخذتُ بها

وقال بعضُ القَدَماءِ:

ألم ترَ حوشباً
أضحى يُبني

إذا التقينا عمن
يحييني

أفصلَ بينَ الشَّرِيفِ
والدُّونِ

أخطئُ، والسَّمْعُ
غيرُ مأمونٍ

لو أنَّ دَهراً بها
يواتيني

تعميرَ نُوحٍ في مُلكِ
قارون

قصوراً نفعها لبني
بُقيله

وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ
كُلَّ لَيْلَةٍ

يُؤَمِّلُ أَنْ يُعَمَّرَ عُمَرَ
نُوحٍ

وقال ابن عباسٍ بعد ما ذهب بصره:

فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي
مِنْهُمَا نُورٌ

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ
عَيْنِي نُورَهُمَا

وَفِي فَمِي صَارَمٌ
كَالسَّيْفِ مَأْثُورٌ

قَلْبِي ذِكِّي وَعَقْلِي
عَيْرُ ذِي دَخَلٍ

وقال حسانٌ يذكرُ بيانَ ابنِ عباسٍ:

لِعِيٍّ وَلَمْ يَثْنِ
اللِّسَانَ عَلَى هُجْرٍ

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرِكْ
مَقَالاً وَلَمْ يَقِفْ

وَيَنْظُرُ فِي أَعْطَافِهِ
نَظَرَ الصَّقْرِ

يَصْرَفُ بِالْقَوْلِ
اللِّسَانَ إِذَا انْتَحَى

شعر في الخصب والجذب

وقال بعضُ الأعرابِ يُذَكِّرُ الخِصْبَ والجَدْبَ:

مُطِرْنَا فَلَمَّا أَنْ رَوِينَا
تَهَادَرَتْ

ورابت رجالاً مِنْ
رجال ظُلَامَةٍ

وَنصَّتْ رِكَابٌ لِلصَّبَا
فَتَرَوَحَتْ

وَطَنَّ فَنَاءُ الحَيِّ
حَتَّى كَأَنَّهُ

بني عَمَّنَا لَا تَعَجَّلُوا،
يَنْضُبُ الثَّرَى

فَلَوْ قَدْ تَوَلَّى النَّبْتُ
وَامْتِيرَتْ القُرَى

وَصَارَ غُبُوقَ الخُودِ
وهي كَرِيمَةٌ

شَقَاشِقُ فِيهَا
رَائِبٌ وَحَلِيبٌ

وَعَدَّتْ دُحُولٌ
بَيْنَهُمْ وَذُنُوبٌ

لَهْنَ بِمَا هَاجَ
الحَبِيبَ خَبِيبٌ

رَحَى مَنْهَلٍ مِنْ
كَرَّهِنَ نَحِيبٌ

قَلِيلًا وَيَشْفَى
المُتَرْفِينَ طَبِيبٌ

وَحَنَّتْ رِكَابٌ
الحَيِّ حِينَ تَثُوبٌ

على أَهْلِهَا، ذُو
جُدَّتَيْنِ مَشُوبٌ

وصار الذي في أنفه
خنزوانة

ينادي إلى هادي
الرحى فيجيب

أولئك أيام تبين ما
الفتى

أكاب سكتت أم
أشم نجيب

وقال: ولما ولي حارثة بن بدر سرق، كتب إليه أنس بن أبي
إياس الديلي:

فكن جرداً فيها تخون وتسرق

لساناً به المرء الهيوبه ينطق

فحظك من ملك العراقين سرق

يا حار شيئاً ملكته

يقول بما يهوى، وإما صدق

الناس إما مكذب

ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

أقوالاً ولا يعرفونها

وقال بعض الأعراب:

ولا تحقرن

فإن جميع

يقولون

أحار بر

وباه تم

فَلَمَّا رَأَيْنَا الْقَوْمَ
ثَارُوا بَجَمْعِهِمْ

رَعَيْنَا الْحَدِيثَ وَهُوَ
فِيهِمْ مُضَيِّعٌ

وَأَدْرَكْنَا مِنْ عِزِّ
قَيْسٍ حَفِيظَةً

وَلَاخِيرَ فَيَمَنْ لَا
يُضِرُّ وَيَنْفَعُ

أقوال مأثورة

ويقال إنَّ رجلاً قال لبعض السَّلاطين: الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا حَدِيثٌ،
فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَحْسَنِهَا حَدِيثًا فافْعَلْ.
وقال حُدَيْفَةُ بْنُ بَدْرِ لِمُصَاحِبِهِ يَوْمَ جَفْرِ الْهَبَاءِ، حِينَ أَعْطَاهُمْ
بِلِسَانِهِ مَا أُعْطِيَ: إِيَّاكَ وَالْكَلامَ الْمَأْثُورَ.
وَأَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ:

كُلُّ يَوْمٍ كَأَنَّهُ يَوْمٌ
أَضْحَى

عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْ
يَوْمُ فِطْرِ

وقال: وذكر لي بعضُ البَغْدَادِيِّينَ أَنَّهُ سَمِعَ مَدَنِيًّا مَرَّ بَبَابِ
الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى - وَعَلَى بَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ - فَقَالَ:

مَا لَقِينَا مِنْ جُودٍ

تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ

وقال الأصمعي: قال لي خَلْفُ الأَحْمَرِ: الفَارِسِيُّ إِذَا تَطَرَّفَ تَسَاكَتَ، وَالنَّبْطِيُّ إِذَا تَطَرَّفَ أَكْثَرَ الْكَلَامِ.
 وقال الأصمعي: قَالَ رَجُلٌ لَأَعْرَابِيٍّ: كَيْفَ فَلَانٌ فَيْكُمْ؟ قَالَ: مَرْزُوقٌ أَحْمَقٌ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ الْكَامِلُ.
 قَالَ: وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ: كَيْفَ فَلَانٌ فَيْكُمْ؟ قَالَ: غَنِيٌّ حَظِيٌّ، قَالَ: هَذَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ

السَّوَادُ وَالْبَيَاضُ فِي الْبَادِيَةِ

الأَصْمَعِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَوْسِقٌ قَالَ: كَانَ يُقَالُ بِالْبَدْوِ: إِذَا ظَهَرَ الْبَيَاضُ قَلَّ السَّوَادُ، وَإِذَا ظَهَرَ السَّوَادُ قَلَّ الْبَيَاضُ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يَعْنِي بِالسَّوَادِ التَّمْرَ، وَبِالْبَيَاضِ اللَّبْنَ وَالْأَقِطَ، يَقُولُ: إِذَا كَانَتِ السَّنَةُ مَجْدِبَةً كَثُرَ التَّمْرُ وَقَلَّ اللَّبْنُ وَالْأَقِطُ، وَقَالَ: إِذَا كَانَ الْعَامُ خَصِيْبًا ظَهَرَ فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ الْبَيَاضُ يَعْنِي الْإِقِطَ وَإِذَا كَانَ جَدْبِيًّا ظَهَرَ السَّوَادُ، يَعْنِي التَّمْرَ. وَتَقُولُ الْفَرَسُ: إِذَا زَحَرَتِ الْأَوْدِيَةُ بِالْمَاءِ كَثُرَ التَّمْرُ، وَإِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيحُ كَثُرَ الْحَبُّ.

وَقَلُّ فِي أَثَرِ الرِّيحِ فِي الْمَطَرِ

وحدَّثني محمد بن سلام، عن شعيب بن حجر قال: جاء رجلٌ
على فرسٍ فوقفَ بماءٍ من مياه العرب فقال: أعندكم الرِّيحُ
الَّتِي تُكَبُّ البعير؟ قالوا: لا، قال: فتدري الفارس؟ قالوا: لا،
قال: فكما تكون يكون مطركم.

وحدَّثني العُتْبِيُّ قال: هَجَمْتُ على بطنِ بينَ جبليْنِ، فلم أرَ
واديّاً أخصبَ منه، وإذا رجالٌ يتركَّون على مساحيهم، وإذا
وجوهٌ مهجَّنة، وألوانٌ فاسِدةٌ فقلتُ: واديكمُ أخصبُ وادٍ،
وأنتم لا تشبهون المخاصيبَ قال: فقال شيخٌ منهم: ليس لنا
ريح.

شعر في الخصب

وقال النمر بن توبل:

كأنَّ حَمْدَةَ، أو	في العين يوماً
عزَّت لها شَبَها	تلاقينا بأرمامٍ
ميثاءُ جاد عليها	فأمرعت لاحتيالٍ
وابِلٌ هَطِلٌ	فَرَطُ أعوامٍ
إذا يَجِفُّ ثراها	من كوكبٍ بزل

بَلَّهَا دِيمٌ

بِالْمَاءِ سَجَامٍ

لَمْ يَرَعَهَا أَحَدٌ
وَارْبَتَهَا زَمْنًا

فَأَوَّ مِنْ الْأَرْضِ
مَحْفُوفٍ بِأَعْلَامٍ

تَسْمَعُ لِلطَّيْرِ فِي
حَافَاتِهَا زَجَلًا

كَأَنَّ أَصْوَاتَهَا
أَصْوَاتُ جُرَّامٍ

كَأَنَّ رِيحَ خُرَامَاهَا
وَحْنُوتَهَا

بِاللَّيْلِ رِيحٌ يَنْجُوجٍ
وَأَهْضَامٍ

قال: فلم يدع معنى من أجله يخصب الوادي ويعتم نبتة إلا ذكره وصدق النمر.

وقال الأسدي في ذكر الخصب ورطوبة الأشجار ولدونة الأغصان وكثرة الماء:

وَكَأَنَّ أَرْحُلَنَا بِجَوْ
مُحَصَّبٍ

بِلَوَى غُنَيْزَةٍ مِنْ
مَقِيلِ التَّرْمُسِ

فِي حَيْثُ خَالَطَتْ
الْخُرَامَى عَرْفَجًا

يَأْتِيكَ قَابِسُ أَهْلِهِ
لَمْ يُقْبَسِ

ذهب إلى أنه قد بلغ من الرطوبة في أغصانه وعيدانه، أنها
إذا حُكَّ بعضها ببعض لم يقدح، وفي شبيهه بذلك يقول
الآخر، وذهب إلى كثرة الألوان والأزهار والأنوار:

كانت لنا من غ

والحلي حلي

كانها من دبل وشاره

مدفع ميثاء إلى قراره
التبر والحجاره

ثم قال:

إياك أعني واسمعي يا جاره

وقال بشار :

ض وفيه الحمراء
والصفراء

وحديث كانه
قطع الرو

الظن وفهم الرطانات..

والكنايات والفهم والإفهام

حديث المرأة التي طرقها اللصوص

الأصمعي قال: كانت امرأة تنزل متنجية من الحي، وتحبُّ العزلة وكان لها غنمٌ، فطرقها اللصوص فقالت لأمتها: اخرجي من هاهنا؟ قالت: هاهنا حيانٌ، والحمارس، وعامرٌ والحارثُ، ورأسُ عنزٍ وشادنٌ، وراعيًا بهمنا: فنحن ما أولئك، أي: فنحن أولئك، فلما سمعوا ذلك ظنوا أن عندها بنيتها، وقال الأصمعي مرة: فلما سمعت حسهم قالت لأمتها: اخرجي سلح بني من هاهن.
قال: وسلح جمع سلاح، وحيان والحمارس: أسماء تيويس لها.

قصة الممهورة الشياه والخمر

قال الأصمعي: تزوج رجل امرأة فساق إليها مهرها ثلاثين شاة، وبعث بها رسولاً، وبعث بزق خمر، فعمد الرسول فذبح شاة في الطريق فأكلها، وشرب بعض الزق، فلما أتى المرأة نظرت إلى تسع وعشرين ورأت الزق ناقصاً، فعلمت أن الرجل لا يبعث إلا بثلاثين وزق مملوء فقالت للرسول: قل لصاحبك: إن سحيماً قد رثم، وإن رسولك جاءنا في المحاق فلما أتاه الرسول بالرسالة: قال يا عدو الله، أكلت

مِنَ الثَّلَاثِينَ شَاءَ شَاءَةً، وَشَرِبْتَ مِنْ رَأْسِ الزَّقِّ فَاعْتَرَفَ
بِذَلِكَ.

قصة العنبري الأسير

الأصمعيُّ قال: أخبرني شيخٌ من بني العنبر قال: أسر بنو
شيبان رجلاً من بني العنبر، قال: دعوني حتى أرسل إلى
أهلي ليفدوني، قالوا: على ألا تكلم الرسول إلا بين أيدينا،
قال: نعم، قال: فقال للرسول، انتِ أهلي فقل: إنَّ الشجر قد
أورق، وقل: إنَّ النساء قد اشتكت وخرزت القرب، ثم قال
له: أتعقل؟ قال: نعم، قال: إن كنت تعقل فما هذا؟ قال:
الليل، قال: أراك تعقل انطلق إلى أهلي فقل لهم: عروا جملي
الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري -
وكان حارث صديقاً له - فذهب الرسول فأخبرهم، فدعوا
حارثاً فقصَّ عليه الرسول القصة، فقال أمّا قوله: إنَّ الشجر
قد أورق فقد تسلح القوم، وأمّا قوله: إن النساء قد اشتكت
وخرزت القرب فيقول: قد اتخذت الشكا وخرزت القرب
للغزو، وأمّا قوله: هذا الليل فإنه يقول: أتاكم جيشٌ مثل
الليل، وأمّا قوله: عروا جملي الأصهب فيقول: ارتحلوا عن
الصمان، وأمّا قوله: اركبوا ناقتي الحمراء فيقول انزلوا

الدَّهْنَاءِ .

وكان القوم قد تهيَّؤوا لِعَزْوِهِمْ، فخافوا أن يُنذِرَهُمْ، فأنذَرَهُمْ
وهم لا يشعرون فجاء القومُ يطلبونهم فلم يجدوهم.

قصة العطاردي

وكذلك صنع العطاردي في شأن شعب جبلة، وهو كرب بن
صفوان؛ وذلك أنه حين لم يرجع لهم قولاً حين سأله أن
يقول، ورَمَى بَصُرَتَيْنِ فِي إِحْدَاهُمَا شَوْكًا، والأخرى تراب،
فقال قيس بن زهير: هذا رجلٌ مأخوذٌ عليه ألا يتكلم، وهو
ينذركم عدداً وشوكاً.

قال الله عزَّ وجلَّ: "وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ
لَكُمْ".

شعر في صفة الخيل والجيش

قال أبو نخيلة:

وَأَمَسَتْ الْقَبَةَ لَا
تَسْتَمْسِكُ

لَمَا رَأَيْتُ الدِّينَ
دِيناً يُؤْفِكُ

سرت من الباب

يُفْتَقُ مِنْ أَعْرَاضِهَا

ويُهتِك

فَطَارَ الدَّكْدَكُ

مِنْهَا الدَّجُوجِيّ

كَاللَّيْلِ إِلَّا أَنهَا

وَمِنْهَا الْأَرْمَكُ

تَحَرَّكَ

وقال مَنْصُورُ النَّمِرِيّ:

لَيْلٌ مِنَ النَّقْعِ لَا

إِلَّا جَبِينُكَ

وَالْمَذْرُوبَةُ

شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ

الشَّرْعُ

وقال آخَرُ:

كَأَنَّهُمْ لَيْلٌ إِذَا

أَوْ لَجَّةٌ لَيْسَ لَهَا

اسْتَنْفَرُوا

سَاحِلٌ

وقال العجاج:

كَأَنَّمَا زُهَاوَهُ إِذَا

لَيْلٌ وَرَزَّ وَغَرِهِ

جُهِزُ

إِذَا وَغَرُ

سَارِ سَرَى مِنْ قَبْلِ

العَيْنِ فِجْر

وفي هذا الباب وليس منه يقول بشار:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقَعِ فَوْقَ
رُؤُوسِهِمْ
وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ
تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وقال كلثوم بن عمرو:

تَبَنِي سَنَابِكُهُمْ مِنْ
فَوْقِ أَرْوُسِهِمْ
سَقَفَا كَوَاكِبَهُ
الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

وهذا المعنى قد غلب عليه بشار، كما غلب عنتره على قوله:

فَتَرَى الدَّبَابَ بِهَا
يُعْنِي وَحَدَهُ
هَزَجًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ
الْمَتَرْنَمِ

عَرْدًا يُحَكُّ ذِرَاعَهُ
بِذِرَاعِهِ
فِعْلُ الْمُكَبِّ عَلَى
الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

فلو أن امرأ القيس عرضَ في هذا المعنى لعنتره لافتضح.

مقطعات شتى

وقال بعضهم في غير هذا المعنى:

وفلاة كائما اشتمل
اللي
لُ على ركبها
بأبناءٍ حامٍ
خضتُ فيها إلى
الْخليفة بالرّ
قَهْ بِحَرَيِّ ظَهيرةٍ
وظلام

وقال العرّجى:

سميتني خلقاً بخلةٍ
قدّمتُ
ولا جديداً إذا لم
يُلبس الخلقُ
يا أيها المتحلي غير
شيمته
إن التّخلق يأتي
دونه الخلقُ

وقال آخر:

أودى الخيار من
المعاشرِ كلهم

واستبَّ بعَدك يا
كُئيبُ المجلسُ

وتنازَعوا في كلِّ
أمرٍ عَظيمةٍ

لو قد تكونُ
شهدتَهُم لم ينبسُوا

وأبياتُ أبي نواسٍ على أنه مولدٌ شاطرٌ، أشعرَ من شعرِ
مهلهل في إطراقِ النَّاسِ في مجلسِ كليب، وهو قوله:

على خبزِ
إسماعيلَ واقيةِ
البُخْلِ

وقد حلَّ في دارِ
الأمانِ مِنَ الأكلِ

وما خبزُهُ إلا
كأوى يرى
ابنها

ولم ترَ أوى في
الحزونِ ولا
السَّهْلِ

وما خبزُهُ إلا
كعَنقاءِ مُغربِ

تُصوِّرُ في بسْطِ
الملوكِ وفي المثلِ

يحدثُ عنها

سوى صورةٍ ما أن

النَّاسِ مِنْ غَيْرِ
رُؤْيَةٍ

تَمَرُّ وَلَا تُحْلِي

وَمَا خَبَزَهُ إِلَّا
كَلِيبُ بْنُ وَائِلٍ

لَيَالِي يَحْمِي عَزَّهُ
مُنَّبَتِ الْبَقْلِ

وَأَدُّهُ لَا يَسْتَبُّ
خَصْمَانِ عِنْدَهُ

وَلَا الْقَوْلُ مَرْفُوعٌ
بِجِدِّ وَلَا هَزْلٍ

فَإِنْ خَبَزُ
إِسْمَاعِيلَ حَلَّ بِهِ
الَّذِي

أَصَابَ كَلِيبًا لَمْ يَكُنْ
ذَاقَ عَنِ بَدَلٍ

وَلَكِنْ قِضَاءٌ
لَيْسَ يُسْطَاعُ
دَفْعُهُ

بِحِيلَةٍ ذِي دَهْيٍ وَلَا
فِكْرٍ ذِي عَقْلِ

شعر العرب والمولدين

والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها: أن
عامّة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب،
أشعر من عامّة شعراء الأمصار والقرى، من المولدة

والنابذة، وليس ذلك بواجبٍ لهم في كلِّ ما قالوه.
وقد رأيت ناساً منه يبهرجون أشعارَ المولدين،
ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قطُّ إلا في راويةٍ للشعرِ
غيرِ بصيرِ بجوهر ما يروى، ولو كان له بصراً لعرف
موضعَ الجيدِ ممَّن كان. وفي أيِّ زمان كان.
وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانيَّ وقد بلغ من استجادته لهذين
البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلف رجلاً حتى
أحضره دواةً وقرطاساً حتى كتبهما له، وأنا أزعم أن صاحب
هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخلَ في الحكم
بعض الفتك؛ لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أبداً، وهما قوله:

فَأَيُّ الْمَوْتِ سُؤَالُ
الرَّجَالِ

لَا تَحْسِبَنَّ الْمَوْتَ
مَوْتَ الْبَلَى

أَفْطَعُ مِنْ ذَاكَ لَذَلَّ
السُّؤَالِ

كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ
ذَا

القول في المعنى واللفظ

وذهب الشيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في
الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرويُّ،

والمدنيّ، وإنّما الشأنُ في إقامةِ الوزن، وتخييرِ اللفظ،
وسهولةِ المخرج، وكثرةِ الماء، وفي صحّةِ الطبع وجوّدَ
السّبك، فإنّما الشعرُ صناعةٌ، وضربٌ من النّسج، وجنسٌ من
التّصوير.

وقد قيل للخليل بن أحمد: ما لك لا تقول الشعر؟ قال: الذي
يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني.
فأنا أستحسن هذا الكلام، كما أستحسن جوابَ الأعرابيِّ حين
قيل له: كيف تجدك؟ قال: أجدي أجد ما لا أشتهي،
وأشتهي ما لا أجد.

شعر ابن المقفع

وقيل لابن المقفع: ما لك لا تجوز البيت والبيتين والثلاثة
قال: إنّ جزئها عرفوا صاحبها، فقال له السائل: وما عليك
أن تُعرف بالطّوال الجياد؟ فعلم أنّه لم يفهم عنه.
الفرق بين المولد والأعرابي ونقول: إنّ الفرق بين المولّد
والأعرابي: أنّ المولّد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات
اللاحقة بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلت قوّته،
واضطرب كلامه.

شعر في تعظيم الأشراف وفي شبيهه بمعنى مهلهل وأبي

نُؤاس، في التَّعْظِيمِ وَالْإِطْرَاقِ عِنْدَ السَّادَةِ، يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي
بَعْضِ بَنِي مِرْوَانَ:

فِي كَفِّ أَرْوَعٍ فِي
عَرْنِينِهِ شَمْمُ

فِي كَفِّهِ حَايِرَانُ
رِيحُهُ عَبِقُ

فَمَا يَكَلِّمُ إِلَّا حِينَ
يَبْتَسِمُ

يَغْضِي حَيَاءً
وَيَغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ

وَإِنْ تَكَلَّمَ يَوْمًا
سَاخَتْ الْكَلِمُ

إِنْ قَالَ قَالَ بِمَا
يَهْوَى جَمِيعُهُمْ

يَدْعُوكَ يَا قُتْمُ
الْخَيْرَاتِ يَا قُتْمُ

كَمْ هَاتِفِ بِكَ مِنْ
دَاعٍ وَهَاتِفَةٍ

وَقَالَ أَبُو نُؤَاسٍ فِي مِثْلِ ذَلِكَ:

لِسَلِيلِ الشَّمْسِ مِنْ
قَمَرَةٍ

فَتَرَى السَّادَاتِ
مَائِلَةً

حَذَرَ الْمَطْوِيِّ مِنْ

فَهُمْ شَتَّى

ظَنُونَهُمْ

خَبْرَهُ

وقال إبراهيم بن هَرَمَةَ في مديح المنصور، وهو شبيهة بهذا
وليس منه:

له لحظات عن

إذا كَرَّها فيها

حِفافِي سِريره

عقابٌ ونائلٌ

فأَمُّ الذي أَمَّنت أَمِنَة

وأُمُّ الذي أوعدت

الرَدَى

بالتَّكَلُّ تاكلُ

شعر في الحلف والعقد وقال مهلهل، وهو يقع في باب
الحلف وكَّد بعقد:

ملنا على وائل

يَوْماً عديّ جُرَيْعَة

وأفَلَّتْنا

الدَّقْنِ

عتُّ عنه الرِّمَاح

حِفْظاً لِحِلفِي وحلف

مجتهداً

ذي يَمَن

أذكرُ من عهدنا

عهداً وثيقاً بمنحَر

وَعَهْدِهِمْ	الْبُدْنَ
مَا بَلَّ بَحْرٌ كَفَاءً	وَمَا أَنَافَ الْهَضَابُ
بصوفتها	من حَصْنِ
يزيده اللَّيْلُ	شَدًّا، خِرَاطُ الْجَمُوحِ
وَالنَّهَارُ مَعًا	فِي الشَّطْنِ

شعر في مصرع عمرو بن هند وقال جابر بن حنيّ التغلبيّ:

ولسنا كأقوامٍ قريبٍ	ولسنا كمن
محلهم	يرضيكم بالتملق
فسائل شَرَحَبِيلاً بنا	غداة نكَّرُ الخَيْلَ في
ومحلماً	كلَّ خُنْدَقِ
لعمرك ما عمرو	لتخدمَ ليلي أُمَّهُ
بنُ هِنْدٍ وَقَدْ دَعَا	بموفقٍ
فقام ابنُ كُلتومِ إلى	فأمسَكَ مِنْ نُدْمَانِهِ
السَّيفِ مُغْضَباً	بالمخنَّقِ

بِذِي شَطْبٍ صَافِي
الْحَدِيدَةِ مَخْفَقٍ

وَعَمَمَهُ عَمْدًا عَلِي
الرَّأْسِ ضَرْبَةً

شعر في الأقارب وقال المتلمس:

فزحزح عن الأدنين
أن يتصدعوا

على كلهم آسى
وللأصل زلفة

ولكن أصل العود
من حيث يُنزعُ

وقد كان إخواني
كريمًا جوارهم

وقال المتلمس:

جعلت لهم فوق
العرائن ميسما

ولو غير أخوالي
أرادوا نقيصتي

بكف له أخرى
فأصبح أجدا

وما كنت إلا مثل
قاطع كفه

فلم تجد الأخرى
عليها مقدما

يداه أصابت هذه
حتف هذه

فَاطَرَقَ إِطْرَاقَ
الشَّجَاعِ وَلَوْ يَرَى

مَسَاغًا لِنَابِيهِ
الشَّجَاعُ لَصَمَّمَا

أَحَارَثَ إِنَا لَوْ
تَسَاطَ دِمَاؤُنَا

تَزَايَلْنَ حَتَّى لَا
يَمَسَّ دَمٌ دِمَا

تفسير كلمة لعمر قال: وسألتُ عن قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: واللهِ لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدم قال: لأنَّ الدَّم الجاري من كلِّ شيءٍ بيِّن، لا يغيضُ في الأرض؛ ومتى جفَّ وتجلَّب ففرقته رأيتَ مكانه أبيض.

إلَّا إِنَّ صَاحِبَ الْمَنْطِقِ قَالَ فِي كِتَابِهِ فِي الْحَيَوَانَ: كَذَلِكَ الدَّمَاءُ، إِلَّا دَمَ الْبَعِيرِ.
أشعار شتى وقال النمرُ بنُ تولب:

إِذَا كُنْتَ فِي سَعْدٍ
وَأُمَّكَ مِنْهُمْ

غَرِيبًا فَلَا تَغْرُوكِ
أُمَّكَ مِنْ سَعْدٍ

وقال:

إِذَا لَمْ يُزَاحِمِ
خَالَهُ بِأَبِ جَلْدِ

وَإِنَّ ابْنَ أَخْتِ الْقَوْمِ
مُصَغًى إِنَاؤُهُ

وقال آخر:

عَلَى عِلْمِهِ وَاللَّهِ
بِالْعِلْمِ أَفْرَسُ

تَخَيْرَهُ اللَّهُ
الْغَدَاةَ لِدِينِهِ

وقال آخر:

مَصْحَاً وَلَكِنِّي
أَرَى مُتْرَقَعَا

وَمَا تَرَكَ الْهَاجُونَ لِي
فِي أَدِيمِكُمْ

وقال العجليّ، أو العكليّ، لنوح بن جرير:

وَأَسْبَبَ جَدَّكُمْ بِسَبِّ
أَبِينَا

أَتَسْبِئُنِي فَأَرَاكَ مِثْلِي
سُبَّةً

يَا نُوحُ أَنْ أَبَاكَ لَا
يُوفِينَا

وَلَقَدْ أَرَى
وَالْمَقْتَضَى مُتَجَوِّزٌ

وقال عمرو بن معد يكرب:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ
شَيْئاً فَدَعِهِ

وَجَاوِزِهِ إِلَى مَا
تَسْتَطِيعُ

وَصِلَّهُ بِالزَّمَاعِ
فَكُلُّ أَمْرٍ

سَمَا لَكَ أَوْ سَمَوْتَ
لَهُ وَلَوْعُ

وقال المقتنع الكندي:

مَا أَرْقَضَ فِي الْجَوْفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا

وصاح

بِ السُّوءِ كَالدَّاءِ الْعِيَاءِ إِذَا

يُنْبِي

وَمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ صَالِحٍ دَفَنَّا
وَيُخْبِرُ عَنْ عَوْرَاتِ صَاحِبِهِ

كمهر

رَامَ الْجَمَاحَ وَإِنْ خَفَّضْتَهُ حَرْنَا
سَوْءٍ إِذَا رَفَعْتَ سَيْرَتَهُ

إن

أَوْ مَاتَ ذَاكَ فَلَا تَعْرِفْ لَهُ جَنَّنَا
يَحْيَى ذَاكَ فَكُنْ مِنْهُ بِمَعْرَلَةٍ

خصال الحرم

فمن خصاله: أَنْ الدُّبَّ يَصِيدُ الظَّبْيَ وَيُرِيغُهُ وَيَعَارِضُهُ، فَإِذَا دَخَلَ الحَرَمَ كَفَّ عَنْهُ.

ومن خصاله: أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَلَى الكَعْبَةِ حَمَامٌ إِلَّا وَهُوَ عَلِيلٌ، يُعْرِفُ ذَلِكَ مَتَى امْتَحَنَ وَتَعَرَّفَتْ حَالُهُ، وَلَا يَسْقُطُ عَلَيْهَا مَا دَامَ صَحِيحاً.

ومن خصاله: أَنَّهُ إِذَا حَادَى أَعْلَى الكَعْبَةِ عَرَقَةً مِنَ الطَّيْرِ كَاليَمَامِ وَغَيْرِهِ، انْفَرَقَتْ فِرْقَتَيْنِ وَلَمْ يَعْلَهَا طَائِرٌ مِنْهَا.

ومن خصاله: أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ المَطْرُ البَابَ الَّذِي مِنْ شِقِّ العِرَاقِ، كَانَ الخِصْبُ وَالمَطْرُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي شِقِّ العِرَاقِ، وَإِذَا أَصَابَ الَّذِي مِنْ شِقِّ الشَّامِ كَانَ الخِصْبُ وَالمَطْرُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي شِقِّ الشَّامِ، وَإِذَا عَمَّ جَوَانِبَ البَيْتِ كَانَ المَطْرُ وَالخِصْبُ عَاماً فِي سَائِرِ البُلْدَانِ.

ومن خصال الحَرَمِ: أَنَّ حَصَى الجَمَارِ يُرْمَى بِهَا فِي ذَلِكَ المَرْمَى، مُدُّ يَوْمَ حَجِّ النَّاسِ البَيْتَ عَلَى طَوَالِ الدَّهْرِ، ثُمَّ كَانَتْ عَلَى مَقْدَارٍ وَاحِدٍ، وَلَوْلَا مَوْضِعُ الآيَةِ وَالعَلَامَةِ وَالأَعْجُوبَةِ الَّتِي فِيهَا، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ كَالجِبَالِ، هَذَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكْسَحَهُ السُّيُولُ، وَيَأْخُذَ مِنْهُ النَّاسُ.

ومن سُنَّتِهِمْ: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَا الكَعْبَةَ مِنَ العَبِيدِ فَهُوَ حُرٌّ، لَا يَرُونَ المَلِكَ عَلَى مَنْ عَلاهَا، وَلَا يَجْمَعُونَ بَيْنَ عَزِّ عُلُوِّهَا

وذلة الملك.

وبمكة رجالٌ من الصُّلحاء لم يدخلوا الكعبة قطّ.
وكانوا في الجاهليّة لا يبْنون بيتاً مربّعاً؛ تعظيماً للكعبة،
والعربُ تسمّي كلَّ بيتٍ مربّع كعبة، ومنه: كعبة نجران،
وَكان أوّلُ مَنْ بنى بيتاً مربّعاً حميد بن زهير، أحد بني أسد
بن عبد العزّى.

ثمّ البركة والشفاء الذي يجده مَنْ شرب من ماء زمزم على
وجه الدهر وكثرة من يُقيم عليه يجد فيه الشفاء، بعد أن لم
يدع في الأرض حمة إلاّ أتاها، وأقام عندها، وشرب منها،
واستنقع فيها.

هذا مع شأن الفيل، والطير الأبايل، والحجارة السّجيل،
وأنها لم تزل أمناً ولقاحاً، لا تؤدّي إتاوة، ولا تدين للملوك،
ولذلك سمّي البيت العتيق؛ لأنّه لم يزل حراً لم يملكه أحد.
وقال حرب بن أمية في ذلك:

فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ
قَرِيشٍ

أبا مَطَرٍ هَلَمَّ إِلَى
صَلَاحٍ

أبا مَطَرٍ هُدَيْتَ

فَتَأْمَنَ وَسَطَهُمْ

وتعيش فيهم

لخير عيش

وتنزل بلدة عزت
قديماً

وتأمن أن يزروك
رب جيش

وقال الله عز وجل: "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى" وقال عز وجل، حكايةً
عن إبراهيم: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيْتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ".

خصال المدينة

والمدينة هي طيبة، ولطيبها قيل تَلْفَطُ حَبْثُهَا وَيَنْصَعُ طَيْبُهَا،
وفي رِيحِ تَرَابِهَا وَبِنَّةِ تَرْبَتِهَا، وَعَرَفَ تَرَابَهَا وَنَسِيمَ هَوَائِهَا،
وَالنَّعْمَةَ الَّتِي تَوْجِدُ فِي سِكَكِهَا وَفِي حَيْطَانِهَا - دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا
جُعِلَتْ آيَةً حِينَ جُعِلَتْ حَرَامًا.

وكلُّ من خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِ مَطْيَبٍ إِلَى اسْتِنشَاقِ رِيحِ الْهَوَاءِ
وَالتُّرْبَةِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ عِنْدَ الْاسْتِنشَاقِ وَالتُّثْبِتِ مِنْ أَنْ
يَجِدَهَا مَنْتَنَةً، فَذَلِكَ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْ شَأْنِ الْبُلْدَانِ، إِلَّا مَا كَانَ
فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ، رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَللصِّيَّاحِ وَالعِطْرِ وَالْبَخُورِ وَالنَّضُوحِ، مِنَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ -
إِذَا كَانَ فِيهَا - أضعافُ ما يوجد له في غيرها من البلدان،
وَإِنْ كَانَ الصِّيَّاحُ أَجْوَدَ، وَالعِطْرُ أَفْخَرَ، وَالْبَخُورُ أَثْمَنَ.

بعضُ البلدانِ الرديئةِ

وَرُبَّتْ بِلدَةٌ يَسْتَحِيلُ فِيهَا العِطْرُ وَتَذْهَبُ رائحتهُ، كقِصْبَةِ
الأهوازِ.

وَقَدْ كَانَ الرَّشِيدُ هَمًّا بِالْإِقَامَةِ بِأَنْطَاكِيَّةِ، وَكَرِهَ أَهْلُهَا ذَلِكَ، فَقَالَ
شَيْخٌ مِنْهُمْ، وَصَدَقَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَتْ مِنْ بِلَادِكَ،
وَلَا بِلَادِ مِثْلِكَ، لِأَنَّ الطَّيِّبَ الْفَاخَرَ يَتَغَيَّرُ فِيهَا حَتَّى لَا يُنْتَفَعُ
مِنْهُ بِكَثِيرِ شَيْءٍ، وَالسَّلَاحَ يَصْدَأُ فِيهَا وَلَوْ كَانَ مِنْ قَلْعَةِ
الهِندِ، وَمِنْ طَبَعِ اليَمَنِ، وَمَطَرُهَا رَبَّمَا أَقَامَ شَهْرَيْنِ، لَيْسَ
فِيهِ سَكُونٌ، فَلَمْ يُقِمِ بِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ: وَإِنَّ الْجُؤَيْرِيَّةَ السُّودَاءَ، لَتَجْعَلُ فِي
رَأْسِهَا شَيْئًا مِنْ بَلْحٍ، وَشَيْئًا مِنْ نَصُوحٍ، مِمَّا لَا قِيَمَةَ لَهُ؛
لِهَوَانِهِ عَلَى أَهْلِهِ، فَتَجِدُ لَذَلِكَ خُمْرَةً طَيِّبَةً وَطَيِّبَ رَائِحَةٍ لَا
يَعْدِلُهَا بَيْتُ عَرُوسٍ مِنْ ذَوِي الْأَقْدَارِ، حَتَّى إِنْ النَّوَى الْمُنْقَعُ،
الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِرَاقِ فِي غَايَةِ النَّتْنِ، إِذَا طَالَ إِنْقَاعُهُ،
يَكُونُ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الطَّيِّبِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

الكتاب الثامن

ذكر الحمام

أجناسه

مناقب الحمام

شرب الحمام

صدق رغبة الحمام في النسل

حالات الطعم الذي يصير في أجواف الحيوان

زق الحمام

القوة التناسلية لدى الحمام

من عجيب أمر الحمام

مما أشبه فيه الحمام الناس

خبرة مثنى بن زهير بالحمام

المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج

هديل الحمام

ما يعتري الحمام والإوز بعد السفاد

احتباس بيض الحمامة

تقبيل الحمام

تكوّن الفرخ في البيضة

صيد البُزاة للحمام

بلاهة الحمام وخرقه

رغبة عثمان في ذبح الحمام

أمن حمام مكة وغزّلائها

حمامة نوح

شعر في طوق الحمامة

ما وصف به الحمام من الإسعاد..

وحسن الغناء والنوح

أنساب الحمام

مما أشبه فيه الحمام الناس

مبلغ ثمن الحمام وغيره

عناية الناس بالحمام

خصائص الحمام

الغمر والمجرب من الحمام

سرعة طيران الحمام

غايات الحمام

كرم الحمام..

الإلف والأنس والنزاع والشوق

قص جناح الحمام

أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان

تشبيه رماد الأثافي بالحمام

شعر في نوح الحمام وفي بيوتها

شيات الحمام

نظافة الحمام ونفع ذرقه

الحمام طائرٌ لثيمٌ قاسي القلب

التلهّي بالحمام

مشابهة هداية الحمام لهداية الرخم

هداية السمك والحمام

حمام النساء وحمام الفراخ

انتخاب الحمام

أدواء الحمام وعلاجها

تعليم الحمام وتدريبه

حوار مع نجار

قص الحَمَام ومنتفه

زجَل الحمام

حديث أفليمون عن نفع الحمام

الخوف على النساء من الحمام

عقاب خصي

أجناس الدَّبَّان

دلالة الدقيق من الخلق على الله

أمثال في الفراش والذباب

احتيال الجمالين على السلطان

نفور الدَّبَّان من الكمأة
الخوف على المكلوب من الدَّبَّان
ضروب الدَّبَّان
شعر ومثل في طنين الذباب
سفاد الذباب وأعمارها
علة شدة عض الذباب
ذوات الخراطيم
أمثال من الشعر في الذباب
خصلتان محمودتان في الذباب
الحكمة في الذباب
قصة في عمر الدُّباب
معارف في الدُّباب

الأصوات المكروهة
تقليد الحيوان للحيوان
تعليم البراذين والطيور
ما يخترع الأصوات واللحون من الطيور
اللجوج من الحيوان
لجاج الخنفساء واعتقاد المفاليس فيها
حديث أبي سيف حول حلاوة الخراء
تخلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى
استطراد لغوي بشواهد من الشعر
ما تستنكره العامة من القول
حظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس

ذكر الحمام

أجناسه

قال صاحب الحمام: الحمام وحشيٌّ، وأهليٌّ، وبيوتيٌّ، وطوراني، وكلُّ طائر يعرف بالزَّواج، وبحسن الصَّوت، والهديل، والدُّعاء، والترجيع فهو حمام، وإن خالف بعضه بعضاً في بعض الصَّوت واللَّون، وفي بعض القَدِّ، ولحن الهديل، وكذلك تختلف أجناس الدَّجاج على مثل ذلك ولا يخرجها ذلك من أن تكون دَجَاجاً: كالديك الهندي والخِلاسيِّ والنَّبْطيِّ، وكالدَّجاج السَّنْديِّ والزنجيِّ وغير ذلك، وكذلك الإبل: كالعراب والبُختِ، والفوالج، والبهُونيَّات والصَّرْصَرَانِيَّات، والحُوش، والنَّجْب، وغير ذلك من فحول الإبل؛ ولا يخرجها ذلك من أن تكون إبلاً. وما ذاك إلا مخالفة الجرذان والفأر، والنَّمْلِ والذَّر، وكاختلاف الضَّأن والمعزِّ، وأجناس البقر الأهلية والبقر الوحشيَّة، وكقراة ما بينهما وبين الجواميس. وقد تختلف الحيات والعقارب بضروب الاختلاف، ولا يخرجها ذلك من أن تكون عقارب وحياتٍ، وكذلك الكلاب، والغربان.

وحسبُك بتفاوت ما بين النَّاس: كالزَّنج والصقالبة، في الشُّعور والألوان، وكياجوج ومأجوج، وعاد وشمود، ومثل

الكنعانيين والعمالقة.

فقد تخالف الماعزة الضائنة حتى لا يقع بينهما تسافد ولا تلاقح، وهي في ذلك غنم وشاء.

قال: والقمرى حمام، والفاخته حمام، والورشان حمام، والشفنين حمام، وكذلك اليمام واليعقوب، وضروب أخرى كلها حمام، ومفاخرها التي فيها ترجع إلى الحمام التي لا تُعرف إلا بهذا الاسم.

قال: وقد زعم أفليمون صاحب الفراسة أن الحمام يتخذ لضروب: منها ما يتخذ للأنس والنساء والبُيوت، ومنا ما يتخذ للزجال والسباق.

والزجال: إرسال الحمام الهوادي

مناقب الحمام

ومن مناقب الحمام حبه للناس، وأنس الناس به، وأنتك لم تر حيواناً قط أعدل موضعاً، ولا أقصد مرتبة من الحمام، وأسفل الناس لا يكون دون أن يتخذها، وأرفع الناس لا يكون فوق أن يتخذها، وهي شيء يتخذ ما بين الحجام إلى الملك الهمام.

والحمام مع عموم شهوة الناس له، ليس شيء مما

يَتَّخِذُونَهُ هُمْ أَشَدُّ شَغْفًا بِهِ وَلَا أَشَدُّ صَبَابَةً مِنْهُمْ بِالْحَمَامِ، ثُمَّ
تَجِدُ ذَلِكَ فِي الْخَصِيَّانِ كَمَا تَجِدُهُ فِي الْفَحُولِ، وَتَجِدُهُ فِي
الصَّبِيَّانِ كَمَا تَجِدُهُ فِي الرِّجَالِ، وَتَجِدُهُ فِي الْفَتِيَّانِ كَمَا تَجِدُهُ
فِي الشَّبَابِ، وَتَجِدُهُ فِي النِّسَاءِ كَمَا تَجِدُهُ فِي الرِّجَالِ.
وَالْحَمَامُ مِنَ الطَّيْرِ الْمِيَامِيْنَ، وَلَيْسَ مِنَ الْحَيَوَانَ الَّذِي تَظْهَرُ
لَهُ عَوْرَةٌ وَحَجْمٌ قَضِيْبٌ كَالْكَلْبِ وَالْحَمَارِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، فَيَكُونُ
ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ يَجِبُ عَلَى الرِّجَالِ أَلَّا يُدْخِلُوهُ دَوْرَهُمْ.
كَلِمَةٌ لِمِثْنِي فِي الْحَمَامِ قَالَ مِثْنِي بْنُ زَهَيْرٍ: وَمَنْ الْعَجَبُ أَنَّ
الْحَمَامَ مُلْقَى، وَالسَّكْرَانَ مُوقَى، فَأَنْشَدَهُ ابْنُ يَسِيرٍ بَيْتَ
الْخَرِيْمِيِّ:

وَسَهْمُ الْمَنِيَا
بِالدَّخَائِرِ مُوَلِّعٌ

وَأَعْدَدْتُهُ دُخْرًا
لِكُلِّ مُلِمَّةٍ

شرب الحمام

ومتى رأى إنسان عطشان الديك والدجاجة يشربان الماء،
ورأى ذئباً وكلباً يلطعان الماء لطعاً، ذهب عطشه من قُبْحِ
حسنو الديك نغبة نغبة ومن لُطْعِ الكلب، وإنه ليرى الحمام

وهو يشرب الماء وهو رِيَان فيشتهي أن يَكَرَع في ذلك الماء معه.

صدق رغبة الحمام في النسل

والدَّيْكَ والكلبُ في طلب السِّنِّ ِفَاد وفي طلب الذَّرْع كما قال أبو الأخرز الحِمَّاني:

لَا مُبْتَغِي الضَّنِّ وَلَا بِالْعَازِلِ

والحمام أكثر معانيه الذَّرْع وطلبُ الولد، فإذا علم الذَّكَرُ أَنَّهُ قد أودع رحمَ الأنثى ما يكون منه الولد تقدَّما في إعداده العشِّ، ونقل القصب وشقق الخوص، وأشباه ذلك من العيدان الخوَّارة الدَّقَّاق حتى يعملوا أفحوصة وينسجوها نسجاً مداخلًا، وفي الموضع الذي قد رضياه اتخذاه واصطنعاه، بقدر جثمان الحمامة، ثمَّ أشخصاً لتلك الأفحوصة حُرُوفاً غير مرتفعة؛ لتحفظ البيض وتمنعه من التدرج، ولتلتزم كنفى الجوجو ولتكون رِفداً لصاحب الحَضن، وسداً للبيض، ثمَّ يتعاوران ذلك المكان ويتعاقبان ذلك القرموص وتلك الأفحوصة، يسخَّنانها ويدفئانها ويطيِّبانها، وينفیان عنها طباعها الأوَّل، ويُحدثان لها طبيعةً أخرى مشتقةً من

طبائعهما، ومستخرجةً من رائحة أبدانهما وقواهما الفاصلة
منهما؛ لكي تقع البيضة إذا وقعت، في موضع أشبه
المواضع طباعاً بأرحام الحمام، مع الحضانة والوثارة؛ لكي
لا تنكسر البيضة ببسّ الموضع، ولئلا ينكر طباعها طباع
المكان، وليكون على مقدار من البرد و السخانة والرّخاوة
والصلابة، ثم إن ضَرَبَها المخاض وطرقت ببيضتها،
بَدَرَت إلى الموضع الذي قد أعدته، وتحاملت إلى المكان
الذي اتَّخَذَتْه وصنعتُه، إلا أن يقرَّعها رعدٌ قاصف، أو ريحٌ
عاصفٌ فإنَّها ربَّما رَمَتْ بها دون كِنِّها وظلِّ عَشِها، وبغير
موضعها الذي اختارته، والرَّعْدُ ربما مرَّقَ عنده البيض
وفسد، كالمرأة التي تُسْقِطُ من الفرع، ويموتُ جنينُها من
الرَّوع.

عناية الحمام وأنثاه بلبيض وإذا وضعت البيض في ذلك
المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاوران، حتى إذا بلغ
ذلك البيض مداه وانتهت أيامه، وتمَّ ميقاته الذي وظَّفه
خالقه، ودبَّره صاحبه، انصدع البيض عن الفرخ، فخرج
عاري الجلد، صغير الجناح، قليل الحيلة، منسد الحلقوم،
فيعينانه على خلاصه من قيضه وترويحاه من ضيق هَوْتِه.
عنايتهما بالفراخ وهما يعلمان أن الفرخين لا تتسع

حلوَقهما وحواصلهما للغذاء، فلا يكون لهما عند ذلك همٌّ إلاّ
أنْ ينفخا في حلوَقهما الريح، لتتسع الحوصلة بعد التحامها،
وتنفق بعد ارتفاقها، ثم يعلمان أنّ الفرخ وإن اتسعت
حوصلته شيئاً، أنّه لا يحتمل في أول اغتذائه أن يزقّ
بالطعم، فيزقّ عند ذلك باللُّعاب المختلط بقواهما وقوى
الطعم - وهم يسمّون ذلك اللُّعاب اللُّبَاء - ثم يعلمان أنّ طبع
حوصلته يرق عن استمراء الغذاء وهضم الطعم، وأنّ
الحوصلة تحتاج إلى دَبغ وتقوية، وتحتاج إلى أن يكون لها
بعض المتانة والصلابة، فيأكلن من شَوْرج أصول الحيطان،
وهو شيءٌ بين الملح الخالص وبين التراب الملح، فيزقان
الفرخ حتى إذا علما أنّه قد اندبغ واشتد زقاؤه بالحبّ الذي قد
غبّ في حواصلهما ثم زقاؤه بعد ذلك بالحبّ الذي هو أقوى
وأطرى، فلا يزلان يزقانه بالحبّ والماء على مقدار قوّته
ومبلغ طاقته، وهو يطلب ذلك منهما، ويبضنّ نحوهما؛ حتى
إذا علما أنّه قد أطاق اللقظ منعه بعض المنع، ليحتاج إلى
اللقظ فيتعوده، حتى إذا علما أن أداته قد تمت، وأن أسبابه
قد اجتمعت وأنهما إن فطماه فطماً مقطوعاً مجزوداً قوياً
على اللقظ، وبلغ لنفسه منتهى حاجته - ضرباه إذا سألهما
الكفاية، ونفياه متى رجع إليهما ثم تنزع عنهما تلك الرحمة

العجيبة منهما له، وينسيان ذلك العطف المتمكّن عليه،
ويذهلان عن تلك الأثرة له، والكّد المضي من الغدوّ عليه،
والرّواح إليه، ثم يبتديان العمل ابتداءً ثانياً، على ذلك النظام
وعلى تلك المقدمات.

فسبحان من عرفهما وألهمهما، وهداهما، وجعلهما دلالة
لمن استدلّ، ومُخبراً صادقاً لمن استخبر، ذكّم الله رب
العالمين.

حالات الطّعم الذي يصير في أجواف الحيوان

وما أعجب حالاتِ الطّعمِ الذي يصير في أجواف الحيوان،
وكيف تتصرّف به الحالاتُ، وتختلف في أجناسه الوجوه:
فمنها ما يكون مثل زق الحمام لفرخه، والزقّ في معنى
القيء أو في معنى التقيؤ وليس بهما؛ وجرة البعير والشاة
والبقرة في معنى ذلك، وليس به، والبعير يريد أن يعود في
خضمه الأوّل واستقصاء طعمه، وربّما كانت الجرّة رجيعاً،
والرجيع: أن يعود على ما قد أعاد عليه مرّةً حتّى ينزعه
من جوفه، ويقلّبه عن جهته.

زقّ الحمام

والحمام يُخرجه من حوصلته ومن مُسْتَكَنَّهُ وقراره،
وموضع حاجته واستمرائه، بالأثرة والبرِّ، إلى حوصلة
ولده، قد ملك ذلك وطابت به نفسه ولم تَعْتُ عليه نفسه ولم
يَنَقْدِر من صنيعه، ولم تَحْبُثْ نفسه، ولم تتغيّر شهوته، ولعلَّ
لذّته في إخراجِه أن تكون كلدّته في إدخاله، وإنما اللذة في
مثل هذا بالمجاري، كنحو ما يعتري مجرى النّطفة من
استلذاذ مرور النّطفة، فهذا شأن قلب الحمام ما في جوفه،
وإخراجه بعد إدخاله، والتمساح يخرجه على أنه رجعه
ونجوه الذي لا مخرج له ولا فرج له في سواه.
تصرف طبيعة الإنسان والحيوان في الطعام وقد يعتري ذلك
الإنسان لما يعرض من الداء، فلا يعرف إلا الأكل والقيء،
ولا يعرف النّجوّ إلا في الحين على بعض الشّدّة، وليس ما
عرّض بسبب آفة كالذي يخرج على أصل تركيب الطبيعة.
والسنّور والكلب على خلاف ذلك كلّهما، لأنهما يُخرجان
بعارضٍ يعرضُ لهما من خُبث النّفس، ومن الفساد، ومن
التّثوير والانقباض ثمّ يعودان بعد ذلك فيه من ساعتها،
مشتهيين له، حريصين عليه.
والإنسان إذا دَرَعه ذلك لم يكن شيء أبغض إليه منه، وربّما
استقاء وتكلّف ذلك لبعض الأمر، وليس التكلّف في هذا

الباب إلا له.

وذوات الكروش كلها تقص بجرّتها، فإذا أجدت مضغه
أعادته، والجرّة هي الفرث، وأشدّ من ذلك أن تكون رجيعةً،
فهي تجيد مضغها وإعادتها إلى مكانها، إلا أن ذلك ممّا لا
يجوز أفواهاها، وليس عند الحافر من ذلك قليل ولا كثير،
بوجه من الوجوه. وقد يعتري سباع الطير شبيهة بالقيء،
وهو الذي يسمونه الزمّج، وبعض السمك يقيء قيئاً ذريعاً،
كالبال، فإنّه ربّما دسّع الدّسعة، فتلقى بعض المراكب،
فيلقون من ذلك شدّة، والناقة الضجور ربّما دسعت بجرّتها
في وجه الذي يرحلها أو يعالجها، فيلقى من ذلك أشدّ الأذى،
ومعلوم أنّها تفعل ذلك على عمد.

فذوات الأقدام في ذلك مذهب، وذوات الكروش من الظلف
والخفّ في ذلك مذهب، وذوات الأنياب في ذلك مذهب،
وللسمك والتمساح الذي يشبه السمك في ذلك مذهب.
ويزعمون أن جوف التمساح إن هو إلا معاليق فيه، وأنه
في صورة الجراب، مفتوح الفم، مسدود الدبر، ولم أحقّ
ذلك، وما أكثر من لا يعرف الحال فيه.

الرجوع إلى طلب النسل عند الحمام ثم رجع بنا القول في
الحمام بعد أن استغنى ولده عنه، وبعد أن نزع الرحمة

منه، وذلك أنه يبتدئ الذكر الدعاء والطرْد، وتبتدئ الأنثى بالتأتي والاستدعاء، ثم تزيّف وتتشكّل، ثمّ تمكّن وتمنع، وتجيّب وتصدفُ بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدث لهما من التغزّل والتفطّل ومن السّوف والقبّل، ومن المصّ والرّشف، ومن التنفّخ والتنفّج، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في الفم، وذلك من التّطاعُم، وهي المطاعمة، وقال الشاعر:

إلّا تطاولَ غصنُ
الجيد بالجيدِ

لم أعطها بيدي إذ
بتّ أرففها

مطوّقان أصاخا
بعد تغريد

كما تطاعَمَ في
خضراء ناعمة

هذا مع إرسالها جناحيها وكفّيها على الأرض، ومع تدّرعها وتبعّلها ومع تصاوله وتطاؤله، ومع تنفّجه وتنفّخه، مع ما يعتريه مع الحكمة والتفلي والتنفّش حتّى تراه وقد رمى فيه بمثله.

ثمّ الذي ترى من كسّحه بذنبه، وارتفاعه بصدّره، ومن ضربه بجناحه، ومن فرحه ومرّحه بعد قمْطه والفرّاغ من

شهوته، ثم يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكح
النَّاسِ.

القوة التناسلية لدى الحمام

وتلك الخصلة يفوق بها جميع الحيوان، لأنَّ الإنسان الذي
هو أكثر الخلق في قوَّة الشهوة، وفي دوامها في جميع
السنة، وأرغبُ الحيوان في التصنُّع و التغزل، والتشكُّل
والتفتُّل أفتر ما يكونُ إذا فرغ، وَعندها يركبُه الفتور، ويحبُّ
فراق الزوج، إلى أن يعودَ إلى نشاطه، وترجع إليه قوَّته.
والحمامُ أنشط ما يكون وأفرح، وأقوى ما يكون وأمرح، مع
الزَّهو والشكل، واللَّهُو والجذل، أبرد ما يكون الإنسانُ
وأفتره، وأقطع ما يكون وأقصره.
هذا، وفي الإنسان ضروبٌ من القوى: أحدها فضلُ الشهوةِ،
والأخرى دوام الشهوة في جميع الدَّهر، والأخرى قوة
التصنُّع والتكلف، وأنت إذا جمعت خصاله كلها كانت دونَ
قوَّة الحمام عند فراغه من حاجته وهذه فضيلةٌ لا يُنكرها
أحدٌ، ومزِيَّة لا يجدها أحد.
البغال ونشاطها ويقال: إنَّ النَّاسَ لم يجدوا مثلَ نشاط الحمام
في وقت فتره الإنسان إلا ما وجدوه في البغال؛ فإنَّ البغال

تحمل أثقالاً عشية، فتسيرُ بقيَّة يومها وسواد ليلتها، وصدَرَ
نهارِ غَدِها، حتَّى إذا حطَّوا عن جميع ما كان محملاً من
أصناف الدوابِّ أحمالها، لم يكنْ لشيء منها همَّةٌ، ولا لِمَنْ
رَكِبها من النَّاسِ إلَّا المَرَاغَة والماء والعلف، وللإنسان
الاستلقاء ورفع الرِّجْلين والغمز والتأوُّه، إلَّا البغال فإنها في
وقت إعياء جميعِ الدوابِّ وشدَّة كلالها، وشغْلها بأنفسها ممَّا
مرَّ عليها، ليس عليها عملٌ إلَّا أنْ تدلي أيورها وتشظَّ
وتضربَ بها بطونها؛ وتحطها وترفعها، وفي ذلك الوقت لو
رأى المكاري امرأة حسناء لما انتشرَ لها ولا همٌّ بها، ولو
كان مُنعظاً ثم اعتراه بعض ذلك الإعياء لنسي الإنعاظ.
وهذه خصلة تخالف فيها البغالُ جميعَ الحيوان، وتزعم
العَمَلَة أنَّها تلتمس بذلك الرَّاحة وتتداوى به، فليس العجبُ -
إن كان ذلك حقاً - إلَّا في إمكان ذلك لها في ذلك الوقت،
وذلك لا يكون إلَّا عن شهوة وشبقٍ مُفرط.
النشاط العجيب لدى الأتراك وشبَّة آخرُ وشكلٌ من ذلك،
كالذي يُوجدُ عند الأتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل
كلِّه وبعْض النَّهار، فإنَّ الهَّاسَ في ذلك الوقتِ ليس لهم إلَّا
أن يتمددوا ويقيدوا دوابِّهم، والتركي في ذلك الوقت إذا
عابن ظبياً أو بعضَ الصَّيد، ابتدأ الرِّكْضَ بمثل نشاطه قبل

أن يسيرَ ذلك السير، وذلك وقتَ يَهْمُ فيه الخارِجِيّ والخَصِيّ
أنفُسُهُمَا؛ فَإِنَّهُمَا المذكوران بالصَّبْرِ على ظَهْرِ الدَّابَّةِ فطام
البهائم أولادها وليس في الأرض بهيمةٌ تَفْطُمُ ولَدَها عن
اللَّبَنِ دَفْعَةً واحدةً، بل تجِدُ الطَّبِيَّةَ أو البقرة أو الأتان أو
الناقة، إذا ظنت أن ولَدَها قد أطاق الأكل مَنَعْتَهُ بعض المنع،
ثم لا تنزل تُنَزِّلُ ذلك المنع وترتبه وتدرّجه، حتّى إذا علمت
أنّ به غنى عنها إن هي فطمته فطاماً لا رجعة فيه، مَنَعْتَهُ
كلَّ المنع.

والعرب تسمي هذا التَّدْبِيرَ من البهائم التَّعْفِيرَ، ولذلك قال
لبيد:

غَبَسَ كَوَاسِبُ مَا
يُمَنُّ طَعَامُهَا

لمعفر قَهْدٍ
تَنَازَعُ شِلْوَهُ

وعلى مثل هذه السّيرة والعادة يكون عملُ الحمام في
فراخه.

من عجيب أمر الحمام

ومن عجيب أمر الحمام أنّه يقلب بيضه، حتى يصير الذي
كان منه يَلِي الأرض يَلِي بدن الحمام من بطنه وباطنِ

جَنَاحِهِ، حَتَّى يُعْطِيَ جَمِيعَ الْبَيْضَةِ نَصِيبَهَا مِنَ الْحُضَنِ، وَمَنْ
مَسَّ الْأَرْضِ، لَعَلَّهَا أَنْ خَلَّافَ ذَلِكَ الْعَمَلُ يَفْسُدُهُ.
وَخَصَلَةٌ أُخْرَى مَحْمُودَةٌ فِي الْحَمَامِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبُعْلَ الْمُتَوَلِّدَ
بَيْنَ الْحَمَارِ وَالرَّمَكَةِ لَا يَبْقَى لَهُ نَسْلٌ، وَالرَّاعِبِي الْمُتَوَلِّدَ فِيمَا
بَيْنَ الْحَمَامِ وَالْوَرَشَانَ، يَكْثُرُ نَسْلُهُ وَيَطْوِلُ عَمْرُ وِلْدَانِهِ،
وَالْبُخْتُ وَالْفَوَالِجُ، إِنْ ضَرَبَ بَعْضُهَا بَعْضًا خَرَجَ الْوَلَدُ
مَنْقُوصَ الْخَلْقِ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَالْحَمَامُ كَيْفَمَا أَدْرَتَهُ، وَكَيْفَمَا
زَاوَجْتَ بَيْنَ مَتَّفِقِيهَا وَمَخْتَلِفِيهَا، يَكُونُ الْوَلَدُ تَامًا الْخَلْقُ، مَأْمُولُ
الْخَيْرِ، فَمَنْ نَتَاجَ الْحَمَامِ إِذَا كَانَ مَرْكِبًا مَشْتَرِكًا مَا هُوَ
كَالرَّاعِبِيِّ وَالْوَرْدَانِيِّ، وَعَلَى أَنْ لِلْوَرْدَانِيِّ غَرَابَةَ لَوْنِ
وِظْرَافَةٍ قَدِّ، لِلرَّاعِبِيِّ فَضِيلَةً فِي عِظَمِ الْبَدَنِ وَالْفِرَاحِ، وَلَهُ
مِنَ الْهَدِيلِ وَالْقَرْقَرَةِ مَا لَيْسَ لِأَبُوِيهِ، حَتَّى صَارَ ذَلِكَ سَبَبًا
لِلزِّيَادَةِ فِي ثَمَنِهِ، وَعِلَّةٌ لِلْحِرْصِ عَلَى اتِّخَاذِهِ.
وَالْغَنَمُ عَلَى قَسْمَيْنِ: ضَانٌ وَمَعَزٌ، وَالْبَقَرُ عَلَى قَسْمَيْنِ:
أَحَدُهُمَا الْجَوَامِيسُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ، وَالظَّنْفُ إِذَا
اِخْتَلَفَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا تَسْرُفٌ وَلَا تَلَاقِحٌ، فَهَذِهِ فَضِيلَةٌ لِلْحَمَامِ
فِي جِهَةِ الْإِنْسَالِ وَالْإِلْقَاحِ، وَاتِّسَاعِ الْأَرْحَامِ لِأَصْنَافِ الْقَبُولِ،
وَعَلَى أَنْ بَيْنَ سَائِرِ أَجْنَاسِ الْحَمَامِ مِنَ الْوَرَشَانِيِّينَ،
وَالْقَمَارِيِّ، وَالْفَوَاحِثِ، تَسَافِدًا وَتَلَاقِحًا.

مما أشبه فيه الحمام الناس

ومما أشبه فيه الحمام النَّاسَ، أنّ ساعاتِ الحَضْنِ أكثرها على الأنثى، وإنّما يحضن الذكرُ في صدرِ النهارِ حَضْنًا يسيرًا، والأنثى كالمرأة التي تكفلُ الصبيَّ فتَقْطِمْه وتمرّضه، وتتعهده بالتمهيد والتّحريك، حتّى إذا ذهب الحَضْنُ وانصرم وقته، وصار البيضُ فراخاً كالعيال في البيت، يحتاجون إلى الطّعام والشّراب، صار أكثرُ ساعات الرِّقِّ على الذكر كما كان أكثرُ ساعاتِ الحَضْنِ على الأنثى.

ومما أشبه فيه الحمام النَّاس ما قال مثنى بن زهير وهو إمام النَّاس في البصرة بالحمام وكان جيّد الفِراسة، حاذقاً بالعلاج، عارفاً بتدبير الخارجيّ إذا ظهرت فيه مخيلة الخير - واسم الخارجيّ عندهم: المجهول - وعالماً بتدبير العريق المنسوب إذا ظهرت فيه علاماتُ الفسولة وسوء الهداية، وقد يمكن أن يخلف ابن قرشيّين ويندب ابن خوزيّ من نبطيّة، وإنما فضلنا نتاج العلية على نتاج السفلة لأنّ نتاج النّجابة فيهم أكثر، والسّقوط في أولاد السفلة أعمّ، فليس بواجب أن يكون السفلة لا تلد إلا السفلة والعلية لا تلد إلا العلية، وقد يلد المجنون العاقل والسخيّ البخيل، والجميل القبيح.

وقد زعم الأصمعي أنّ رجلاً من العرب قال لصاحب له: إذا
تَزَوَّجْتَ امرأةً من العَرَبِ فَاَنْظُرْ إِلَى أحوالها، وأعامها،
وإخوتها، فإنها لا تخطئ الشبّهة بواحدٍ منهم وإن كان هذا
المَوْصِي والحكيم، جعل ذلك حُكماً عاماً فقد أسرفَ في
القول، وإن كان ذهبَ إلى التَّخْوِيفِ والزَّجْرِ والترهيب كي
يختارَ لنفسِهِ، ولأنَّ المتخَيَّرَ أكثرُ نجابةً فقد أحسن .
وقال مثنى بنُ زهير: لم أر قطُّ في رجلٍ وامرأةٍ إلا وقد رأيتُ
مثله في الذَّكَرِ والأنثى من الحمام: رأيت حمامة لا تريد إلا
ذكَرَها، كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها، ورأيت حمامة لا
تمنع شيئاً من الذُّكُورِ، ورأيت امرأة لا تمنع يدَ لأمس،
ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعدَ طَرْدٍ شديدٍ وشدة طلبٍ،
ورأيتها تزيف لأوَّلِ ذَكَرٍ يُريدُها ساعة يقصد إليها، ورأيتُ
من النساء كذلك، ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكن ذكراً
آخرَ لا تُعَدُّهُ، ورأيت مثل ذلك من النساء، ورأيتها تزيف
لغير ذكرها وذكَرَها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلا وذكَرَها
يطيرُ أو يحضنُ، ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور،
ورأيت الحمامة تقمط الحمامة، ورأيت أنثى كانت لي لا
تقمط إلا الإناث، ورأيت أخرى تقمط الإناث فقط، ولا تدع
أنثى تقمطها.

قال: ورأيت ذكراً يَقمُطُ الذُّكُورَةَ وتَقمُطُه؛ ورأيت ذكراً يَقمُطُها ولا يدعُها تَقمُطُه، ورأيت أنثى تَزيِفُ للذُّكُورَةِ ولا تدعُ شيئاً منها يَقمُطُها.

قال: ورأيت هذه الأصنافَ كُلَّها في السَّحَّاقَاتِ مِنَ المَذَكَّرَاتِ والمؤنثات، وفي الرِّجَالِ الحَلَقِيِّينَ واللُّوطِيِّينَ، وفي الرِّجَالِ مِنَ لا يريدُ النساءَ، وفي النساءِ مِنَ لا يريدُ الرِّجَالِ.

قال: وامتنعتُ عليَّ خِصْلَةٌ، فو الله لقد رأيتُ مِنَ النساءِ مِنَ تَزنِي أبدأً وتَسَاقِقُ أبدأً ولا تَتَزَوِّجُ أبدأً، وَمِنَ الرِّجَالِ مِنَ يَلُوطُ أبدأً، وَيَزنِي أبدأً ولا يَتَزَوِّجُ، ورأيتُ حَماماً ذَكَراً يَقمُطُ ما لَقيَ ولا يَزَواجُ، ورأيتُ حَمامَةً تَمَكِّنُ كُلَّ حَمامٍ أَرادَها مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَقمُطُ الذُّكُورَةَ وَالإِناثَ، ولا تَزَواجُ، ورأيتُها تَزَواجُ ولا تَبيضُ، وتَبيضُ فيفَسُدُ بَيضُها؛ كالمِراةِ تَتَزَوِّجُ وَهي عاقِرٌ، وَكالمِراةِ تَلدُ وتكونُ خرقاءَ ورُهاةً، وَيَعرضُ لَها الغِلظةُ والعقوقُ للأولادِ، كما يَعتري ذلكُ العُقابِ.

وأما أنا فقد رأيتُ الجِفاءَ للأولادِ شائعاً في اللواتي حَمَلْنَ مِنَ الحِرامِ ولربَّما ولدتُ مِنَ زَوجِها، فيكونُ عَطفُها وتَحَنُّنُها كَتَحَننِ العَفِيفاتِ السَّتيراتِ، فما هو إلا أن تَزنِي أو تَقُوبَ فَكَأَنَّ اللهَ لَم يَضْرِبْ بَينَها وَبَينَ ذلكِ الوالدِ بِشِبكةِ رَحِمٍ، وَكَأَنَّها لَم تَلِدْهُ.

قال مثنى بن زهير: ورأيت ذكراً له أنثيان وقد باصتا منه،
وهو يحضن مع هذه ومع تلك، ويزق مع هذه ومع تلك،
ورأيت أنثى تبيض بيضة، ورأيت أنثى تبيض في أكثر
حالاتها ثلاث بيضات.

وزعم أنه إنما جزم بذلك فيها ولم يظنه بالذكر، لأنها قد
كانت قبل ذلك عند ذكر آخر، وكانت تبيض كذلك.
ورأيت أنا حمامة في المنزل لم يعرض لها ذكر إلا اشتدت
نحوه بحدّة ونزقٍ وتسرع، حتى تنقر أين صادفت منه، حتى
يصد عنها كالهارب منها، وكان زوجها جميلاً في العين
رائعاً، وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين وبنات وبنات
بنات، وكان في العين كأنه أشب من جميعهن، وقد بلغ من
حظوته أني قلما رأيتُه أراد واحدة من عرض تلك الإناث
فامتعت عليه، وقد كن يمتنعن من غيره، فبينما أنا ذات يوم
جالسٌ بحيث أراهن إذ رأيتُ تلك الأنثى قد زافت لبعض
بنيتها فقلت لخادمي: ما الذي غيرها عن ذلك الخلق الكريم؟
فقال: إني رحلت زوجها من القاطول فذهب، ولهذا شهر،
فقلت: هذا عذر.

قال مثنى بن زهير: وقد رأيت الحمامة تزوج هذا الحمام،
ثم تتحول منه إلى آخر، ورأيت ذكراً فعل مثل ذلك في

الإناث، ورأيت الذكرَ كثيرَ النسلِ قوياً على القمط، ثمَّ يُصفي
كما يُصفي الرجلُ إذا أكثر من النُّهْل والجماع.
ثمَّ عدَّ مُثْنَى أبواباً غيرَ ما حَفِظت ممَّا يُصابُ مثله في
الناس.

خبرة مثنى بن زهير بالحمام

وزعموا أنَّ مثنى كان ينظر إلى العاتق والمخلف، فيظنُّ أنه
يجيء من الغاية فلا يكاد ظنه يخطئ، وكان إذا أظهر ابتياع
حمامٍ أغلوه عليه، وقالوا: لم يطلُّبه إلا وقد رأى فيه علامة
المجيء من الغاية، وكان يدسُّ في ذلك ففطنوا له وتحفظوا
منه، فربَّما اشترى نصفه وثلثه، فلا يقصر عند الرجال من
الغاية.

وكان له خصيُّ يقال له خديج، يجري مجراه، فكانا إذا
تناظرا في شأنٍ طائرٍ لم تخلف فراستهما.

المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج

قال: والحمام تبيض عشرة أشهر من السنَّة، فإذا صانوه
وحفظوه، وأقاموا له الكفاية وأحسنوا تعهُّده، باضَ في
جميع السنَّة.

قالوا: والدَّجاجة تبيض في كلِّ السنَّة خلا شهرين.

ضروب من الدجاج ومن الدجاج ما هو عظيم الجثة، يبيض
بيضاً كبيراً، وما أقل ما يحضن، ومن الدجاج ما يبيض
سنتين بيضة، وأكثر الدجاج العظيم الجثة يبيض أكثر من
الصغير الجثة.

قال: أما الدجاج التي نسبت إلى أبي ريانوس الملك، فهو
طويل البدن ويبيض في كل يوم، وهي صعبة الخلق وتقتل
فراريجها.

ومن الدجاج الذي يربى في المنازل ما يبيض مرتين في
اليوم، ومن الدجاج ما إذا باض كثيراً مات سريعاً، لذلك
العرض.

عدد مرات البيض عند الطيور قال: والخُطاف تبيض مرتين
في السنة، وتبني بيتها في أوثق مكان وأعلى.
فأما الحمام والفواخت، والأطرغلات والحمام البري، فإنها
تبيض مرتين في السنة، والحمام الأهلي يبيض عشر مرات،
وأما القبج والدراج فهما يبيضان بين العشب، ولا سيما فيما
طال شياً والتوى.

خروج البيضة وإذا باض الطير بيضاً لم تخرج البيضة من
حدّ التحديد والتلطيف، بل يكون الذي يبدأ بالخروج الجانب
الأعظم، وكان الظن يسرع إلى أن الرأس المحدد هو الذي

يخرج أولاً.

قال: وما كان من البيض مستطيلاً محدّد الأطراف فهو
للإناث، وما كان مستديراً عريضاً الأطراف فهو للذكور.
قال: والبيضة عند خروجها ليئة القشر، غير جاسية ولا
يابسة ولا جامدة.

بيض الريح والتراب قال: والبيض الذي يتولد من الريح
والتراب أصغر وأطف، وهو في الطيب دون الآخر، ويكون
بيض الريح من الدجاج والقبج، والحمام، والطاوس،
والإوز.

أثر حضن الطائر قال: وحضن الطائر وجثومه على البيض
صلاح لبدن الطائر، كما يكون صلاحاً لبدن البيض، ولا كذلك
الحضن على الفراخ والفراريح فربما هلك الطائر عن ذلك
السبب.

تكون بيض الريح وزعم ناس أن بيض الريح إنما تكون من
سفاد متقدّم، وذلك خطأ من وجهين: أمّا أحدهما فإن ذلك قد
عُرف من فراريح لم يرين ديكاً قط، والوجه الآخر: أن بيض
الريح لم يكن منه فرّوج قطّ إلا أن يسفد الدجاجة ديك، بعد
أن يمضي أيضاً خلق البيض.

معارف شتى في البيض قال: وبيض الصيف المحضون

أسرغ خروجاً منه في الشتاء ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصيف خمس عشرة ليلة.

قال: وربما عرّض غيم في الهواء أو رعد، في وقت حضن الطائر، فيفسد البيض، وعلى كل حال ففساده في الصيف أكثر، والموت فيها في ذلك الزمان أعم، وأكثر ما يكون فساد البيض في الجنائب، ولذلك كان ابن الجهم لا يطلب من نسائه الولد إلا والرياح شمال، وهذا عندي تعرّض للبلاء، وتحكك بالشر، واستدعاء للعقوبة.

وقال: وبعضهم يسمي بيض الرياح: البيض الجنوبي، لأن أصناف الطير تقبل الريح في أجوافها.

وربما أفرخ بيض الريح بسفاد كان، ولكن لونه يكون متغيراً وإن سفد الأنثى طائر من غير جنسها، غير خلق ذلك المخلوق الذي كان من الذكر المتقدم، وهو في الديكة أعم. ويقولون: إن البيض يكون من أربعة أشياء: فمنه ما يكون من التراب، ومنه ما يكون من السفاد، ومنه ما يكون من النسيم إذا وصل إلى أرحامهن وفي بعض الزمان، ومنه شيء يعتري الحجل وما شاكلة في الطبيعة، فإن الأنثى ربما كانت على سفالة الريح التي تهب من شق الذكر في بعض الزمان فتحتشي من ذلك بيضاً، ولم أرهم يشكون أن

النَّخْلَةُ الْمُطْلَعَةُ تَكُونُ بِقَرَبِ الْفَحَّالِ وَتَحْتَ رِيحِهِ، فَتَلْقَحُ بِتَلْكِ
الرِّيحِ وَتَكْتَفِي بِذَلِكَ، قَالَ: وَبِيضُ أَبْكَارِ الطَّيْرِ أَصْغَرُ، وَكَذَلِكَ
أَوْلَادُ النِّسَاءِ، إِلَى أَنْ تَتَسَّعَ الْأَرْحَامُ وَتَتَنَفَّخَ الْجَنُوبُ.

هديل الحمام

وَيَكُونُ هَدِيلُ الْحَمَامِ الْفَتِيَّ ضَنْبِيلاً فَإِذَا زَقَّ مِرَاراً فَتَحَ الزَّقُّ
جِلْدَةَ غُيْبِهِ وَحَوصلَتِهِ، فَخَرَجَ الصَّوْتُ أَغْلَظَ وَأَجْهَرَ.
حَيَاةُ الْبَكْرِ وَهَمٌّ لَا يَثِقُونَ بِحَيَاةِ الْبَكْرِ مِنَ النَّاسِ كَمَا يَثِقُونَ
بِحَيَاةِ الثَّانِي، وَيُرُونَ أَنَّ طَبِيعَةَ الشَّبَابِ وَالْإِبْتِدَاءِ لَا يُعْطِيَانِهِ
شَيْئاً إِلَّا أَخَذَهُ تَضَائِقُ مَكَانِهِ مِنَ الرَّحْمِ، وَيَحْبُبُونَ أَنْ تَبْكُرَ
بِجَارِيَةٍ وَأَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ عَلَى الذَّكَرِ، وَفِي
الْجَمَلَةِ لَا يَتَيَمَّنُونَ بِالْبَكْرِ الذَّكَرِ، فَإِنْ كَانَ الْبَكْرُ ابْنَ بَكْرٍ
تَشَاءُ مَوَا بِهِ، فَإِنْ كَانَ الْبَكْرُ ابْنَ بَكْرَيْنِ فَهُوَ فِي الشُّؤْمِ مِثْلُ
قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ، وَالْبَسُوسِ، فَإِنْ قَيْساً كَانَ أَزْرَقَ وَبَكراً ابْنَ
بَكْرَيْنِ، وَلَا أَحْفَظُ شَأْنَ الْبَسُوسِ حَفْظاً أَجْزَمُ عَلَيْهِ.

ما يعترى الحمام والإوز بعد السفاد

قَالَ: وَأَمَّا الْحَمَامُ فَإِنَّهُ إِذَا قَمَطَ تَنَفَّشَ وَتَكَبَّرَ وَنَفَضَ ذَنْبَهُ
وَضَرَبَ بِجَنَاحِهِ، وَأَمَّا الْإِوَزُ فَإِنَّهُ إِذَا سَفِدَ أَكْثَرَ مِنَ السَّبَاحَةِ،
اعْتَرَاهُ فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَرَحِ مِثْلُ مَا يَعْتَرِي الْحَمَامَ فِي

الهواء.

قال: وبيضُ الدجاج يتمُّ خلقه في عشرة أيام وأكثرَ شيئاً،
وأما بيض الحمام ففي أقلّ من ذلك.

احتباس بيض الحمامة

والحمامة ربّما احتبسَ البيضُ في جوفها بعدَ الوقتِ لأمرٍ
تعرضُ لها: إمّا لأمرٍ عرضَ لُعشّها وأفحوصها، وإمّا لتنفّ
ريشها، وإمّا لعلّةٍ وجعٍ من أوجاعها وإمّا لصوتِ رعد؛ فإنّ
الرّعد إذا اشتدّ لم يبقَ طائرٌ على الأرض واقع إلاّ عدّاً فزعاً،
وإن كان يطيرُ رمى بنفسه إلى الأرض، قال علقمة بن
عبدّة:

بشكّته لم
يُستلبُ
وسليبُ

رغاً فوقهم سقبُ
السّماءِ فداحضُ

صواعقها
لطيرهنّ ديببُ

كأنهم صابت عليهم
سحابةٌ

تقبيل الحمام

قال: وليس التَّقْبِيلُ إِلَّا لِلْحَمَامِ وَالْإِنْسَانِ، وَلَا يَدْعُ ذَلِكَ ذَكَرَ
الْحَمَامِ إِلَّا بَعْدَ الْهَرَمِ، وَكَانَ فِي أَكْثَرِ الظَّنِّ أَنَّهُ أَحْوَجُ مَا
يَكُونُ إِلَى ذَلِكَ التَّهْيِيجِ بِهِ عِنْدَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ.
وَتَزَعُمُ الْعَوَامُّ أَنَّ تَسَافِدَ الْغُرَبَانِ هُوَ تَطَاعُمُهَا بِالْمَنَاقِيرِ، وَأَنَّ
إِلْقَاهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَلَمْ أَرَ الْعُلَمَاءَ يَعْرِفُونَ
هَذَا.

قال: وَإِنَاثُ الْحَمَامِ إِذَا تَسَافَدَتْ أَيْضاً قَبْلَ بَعْضُهُنَّ بَعْضاً،
وَيَقَالُ إِنَّهَا تَبْيِضُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ عَنْ ذَلِكَ الْبَيْضِ
فِرَاحَ، وَإِنَّهُ فِي سَبِيلِ بَيْضِ الرِّيحِ.

تَكُونُ الْفِرَاحُ فِي الْبَيْضَةِ

قال: وَيَسْتَبِينُ خَلْقُ الْفِرَاحِ إِذَا مَضَتْ لَهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَلِيَالِهَا
وَذَلِكَ فِي شَبَابِ الدَّجَاجِ، وَأَمَّا فِي الْمَسَانِّ مِنْهَا فَهُوَ أَكْثَرُ،
وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تُوجَدُ الصُّفْرَةُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْبَيْضَةِ،
عِنْدَ الطَّرْفِ الْمَحْدَدِ وَحَيْثُ يَكُونُ أَوَّلُ نَقْرِهَا، فَتَمَّ يَسْتَبِينُ فِي
بِيَاضِ الْبَيْضَةِ مِثْلُ نَقْطَةٍ مِنْ دَمٍ، وَهِيَ تَخْتَلِجُ وَتَتَحَرَّكُ،
وَالْفِرَاحُ إِنَّمَا يُخْلَقُ مِنَ الْبِيَاضِ، وَيَغْتَذِي الصُّفْرَةَ، وَيَتَمُّ خَلْقُهُ
لِعَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَالرَّأْسُ وَحَدَّهُ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ سَائِرِ الْبَدَنِ.
الْبَيْضِ الْعَجِيبِ قَالَ: وَمِنَ الدَّجَاجِ مَا يَبْيِضُ بَيْضاً لَهُ

صُفْرَتَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، خَبَّرَنِي بِذَلِكَ كَمَا شِئْتَ مِنْ ثِقَاتِ
أَصْحَابِنَا.

وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ: وَقَدْ بَاضَتْ فِيهَا مَضَى دَجَاجَةٌ ثَمَانِي
عَشْرَةَ بَيْضَةً، لِكُلِّ بَيْضَةٍ مَحْتَانِ، ثُمَّ سَخَّنَتْ وَحُضِنَتْ، فَخَرَجَ
مِنْ كُلِّ بَيْضَةٍ فَرُوجَانِ، مَا خَلَا الْبَيْضَ الَّذِي كَانَ فَاسِدًا فِي
الْأَصْلِ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ فَرُوجَانِ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا
أَعْظَمَ جِنَّةً، وَكَذَلِكَ الْحَمَامُ، وَمَا أَقَلَّ مَا يَغَادِرُ الْحَمَامُ أَنْ يَكُونَ
أَحَدُ الْفَرَخَيْنِ ذَكَرًا وَالْآخَرُ أُنْثَى.

مَعَارَفُ فِي الْبَيْضِ قَالَ: وَرَبَّمَا بَاضَتْ الْحَمَامَةُ وَأَشْبَاهُهَا
مِنَ الْفَوَاحِثِ ثَلَاثَ بَيْضَاتٍ، فَأَمَّا الْأَطْرُغَلَاتُ وَالْفَوَاحِثُ فَإِنَّهَا
تَبْيِضُ بَيْضَتَيْنِ، وَرَبَّمَا بَاضَتْ ثَلَاثَ بَيْضَاتٍ وَلَكِنْ لَا يَخْرُجُ
مِنْهَا أَكْثَرُ مِنْ فَرَخَيْنِ، وَرَبَّمَا كَانَ وَاحِدًا فَقَطْر.

قَالَ: وَبَعْضُ الطَّيْرِ لَا يَبْيِضُ إِلَّا بَعْدَ مُرُورِ الْحَوْلِ عَلَيْهِ كَامِلًا،
وَالْحَمَامَةُ فِي أَكْثَرِ أَمْرِهَا يَكُونُ أَحَدُ فَرَخَيْهَا ذَكَرًا وَالْآخَرُ
أُنْثَى، وَهِيَ تَبْيِضُ أَوَّلًا الْبَيْضَةَ الَّتِي فِيهَا الذَّكَرُ، ثُمَّ تَقِيمُ يَوْمًا
وَلَيْلَةً، ثُمَّ تَبْيِضُ الْآخَرَى، وَتَحْضُنُ مَا بَيْنَ السَّبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا
إِلَى الْعِشْرِينَ، عَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِ طَبَاعِ الزَّمَانِ، وَالَّذِي يَعْضُرُ
لَهَا مِنَ الْعِلَلِ، وَالْحَمَامَةُ أَبْرُ بِالْبَيْضِ، وَالْحَمَامُ أَبْرُ بِالْفَرَاخِ.
قَالَ: وَأَمَّا جَمِيعُ أَجْنَاسِ الطَّيْرِ مِمَّا يَأْكُلُ اللَّحْمَ، فَلَمْ يَظْهَرِ

لنا أنه يبيض ويُفرخ أكثر من مرة واحدة، ما خلا الخُطاف
فإنه يبيض مرتين.

تربية الطيور فراخها والعقاب تبيض ثلاث بيضات، فيخرج
لها فرخان، واختلفوا فقال بعضهم: لأنها لا تحضن إلا
بيضتين، وقال آخرون: قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفرار،
ولكنها ترمي بواحدٍ استثقلاً للتكسب على ثلاثة، وقال
آخرون: ليس ذلك إلا بما يعتريها من الضعف عن الصيد،
كما يعتري النُفساء من الوهن والضعف، وقال آخرون:
العقاب طائر سيء الخلق، رديء التربية، وليس يُستعان
على تربية الأولاد إلا بالصبر، وقال آخرون: لا، ولكنها
شديدة النهم والشره، وإذا لم تكن أم الفراع ذات أثر لها،
ضاعت.

وكذلك قالوا في العقق، عند إضاعتها لفراخها، حتى قالوا:
أحمق من عقق، كما قالوا: أحذر من عقق.
وقالوا: وأما الفرخ الذي يُخرجه العقاب، فإن المكلفة، وهي
طائرٌ يقال لها كاسر العظام، تقبله وتربيته.
والعقاب تحضن ثلاثين يوماً، وكذلك كل طائرٍ عظيم الجثة،
مثل الإوز وأشباه ذلك، فأما الوسط فهو يحضن عشرين
يوماً، مثل الحدأ ومثل أصناف البزاة كالبواشق واليأي.

والحدأة تبيضُ بيضتين، وربما باضت ثلاث بيضات وخرج
منهن ثلاثة فراخ.

قالوا: وأما العقبان السودُ الألوان، فإنها تربي وتحضن.
وجميع الطير المعقف المخالب تطردُ فراخها من أعشاشها
عند قوتها على الطيران، وكذلك سائر الأصناف من الطير،
فإنها تطردُ الفِراخ ثم لا تعرفها، ما عدا الغداف، فإنها لا
تزال لولدها قابلة، ولحالهِ متفقدة.

أجناس العقبان وقال قوم: إن العقبان والبزاة التامة،
والجهازرانك، والسمنان، والزمامج والزرارقة إنها كلها
عقبان، وأما الشواهين والصقورة واليوايى، فإنها أجناس
أخر.

حضن الطير قال: وقالوا: فراخ البزاة سميئة طيبة جداً،
وأما الإوزة فإنها التي تحضن دون الذكر، وأما الغربان
فعلى الإناث الحضن، والذكورة تأتي الإناث بالطعمة.
وأما الحجل فإن الزوج منها يهيئان للبيض عشن وثيقين
مقسومين عليهما، فيحضن أحدهما الذكر، والآخر الأنثى،
وكذلك هما في التربية، وكل واحدٍ منهما يعيشُ خمساً
وعشرين سنة، ولا تلحق الأنثى بالبيض ولا يلحق الذكر إلا
بعد ثلاث سنين.

الطاوس قال: وأما الطّاوس فأول ما تبيضُ ثماني بيضات،
وتبيض أيضاً بيضَ الريح، والطاوس يُلقي ريشه في زمن
الخريف إذا بدأ أولُ ورقِ الشجر يسقط، وإذا بدأ الشجرُ
يكتسي ورقاً، بدأ الطاوس فلكتسي ريشاً.

ما ليس له عشٌّ من الطير قال: وما كان من الطير الثَّقيل
الجثة فليس يهيئ لبيضه عُشاً؛ من أجل أنه لا يُجيد
الطيران، ويثقل عليه النهوض ولا يتحلّق، مثل الدَّراج
والقَبج، وإنما يبيض على التراب، وفراخ هذه الأجناس
كفراريج الدجاج، وكذلك فراريج البطِّ الصّيني، فإنّ هذه كلّها
تخرج من البيض كاسية كاسية تلقط من ساعتها، وتكفي
نفسها.

القبجة قال: وإذا دنا الصّياد من عُشِّ القبجة ولها فراخ،
مرّت بين يديه مرّاً غير مفيت، وأطمعته في نفسها ليتبعها،
فتمرّ الفراخ في رجوعها إلى موضع عُشّها، والفراخ ليس
معها من الهداية ما مع أمها، وعلى أن القبجة سيئة الدلالة
والهداية، وكذلك كلُّ طائر يعجلُّ له الكيس والكسوة، ويعجلُّ
له الكسبُ في صغره.

وهذا إنّما اعترأها لقراية ما بينها وبين الدّيك.
قال: فإذا أمعن الصّائد خلفها وقد خرجت الفراخ من

موضِعِها، طارت وقد نَحَّتْهُ إِلَى حَيْثُ لَا يَهْتَدِي الرَّجُوعُ مِنْهُ
إِلَى مَوْضِعِ عَشَّهَا، إِذَا سَقَطَتْ قَرِيباً دَعَتْهَا بِأَصْوَاتٍ لَهَا،
حَتَّى يَجْتَمِعَنَّ إِلَيْهَا.

قال: وإناثُ القَبِجِ تبيضُ حَمَسَ عَشْرَةَ بَيْضَةً إِلَى سِتِّ عَشْرَةَ
بَيْضَةً، قال: والقَبِجُ طَيْرٌ مَنْكُرٌ وَهِيَ تَفْرُ بِبَيْضِهَا مِنَ الذَّكَرِ؛
لأنَّ الأُنثى تَشْتَغَلُ بِالْحَضْنِ عَنِ طَاعَةِ الذَّكَرِ فِي طَلَبِ السَّفَادِ،
وَالقَبِجُ الذَّكَرُ يُوصَفُ بِالقُوَّةِ عَلَى السَّفَادِ، كَمَا يُوصَفُ الذَّيْكُ
وَالْحَجَلُ وَالْعُصْفُورُ.

قال: إِذَا شُغِلَتْ عَنْهُ بِالْحَضْنِ، ظَلَبَ مَوَاضِعَ بَيْضِهَا حَتَّى
يُفْسِدَهُ فَذَلِكَ تَرْتَادُ الأُنثى عَشَّهَا فِي مَخَابِئِ إِذَا أَحْسَتْ بِوَقْتِ
البَيْضِ.

وثوب الذكور على الذكور وإذا قاتل بعض ذكور القَبِجِ
بَعْضاً فَالْمَغْلُوبُ مِنْهَا مَسْفُودٌ وَالغالبُ سافِدٌ، وَهَذَا العَرَضُ
يَعْرِضُ لِلذَّيْكَةِ وَلِذُكُورِ الدَّرَارِيجِ، إِذَا دَخَلَ بَيْنَ الذَّيْكَةِ دَيْكٌ
غَرِيبٌ، فَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ حَتَّى تَسْفِدَهُ، وَسَفَادُ ذُكُورَةِ
هَذِهِ الأَجْنَاسِ إِنَّمَا يَعْرِضُ لَهَا لِهَذِهِ الأَسْبَابِ، فَأَمَّا ذُكُورَةُ
الْحَمِيرِ وَالخَنَازِيرِ وَالْحَمَامِ، فَإِنَّ ذُكُورَهَا تَثْبُ عَلَى بَعْضِ مِنَ
جَهَةِ الشَّهْوَةِ.

وكان عند يعقوب بن صباح الأشعني، هَرَّانُ ضُخْمَانُ،

أحدهما يكوم الآخر متى أرادهُ، مِنْ غيرِ إكراهٍ، وَمِنْ غيرِ أنْ
يكونَ المسْفُودُ يريدُ مِنَ السَّافِدِ مِثْلَ ما يريدُ مِنْهُ السَّافِدُ،
وهذا البابُ شائعٌ في كثيرٍ مِنَ الأجناسِ، إلاَّ أَنَّهُ في هذه
الأجناسِ أَوْجَدُ.

صيد البُزاة للحمام

ثُمَّ رَجَعَ بنا القَوْلُ إلى ذِكرِ الحمامِ، مِنْ غيرِ أنْ يشابَ بِذِكرِ
غيرِهِ.

زعم صاحبُ المنطقِ أَنَّ البُزاةَ عشرةَ أجناسِ، فمنها ما
يضربُ الحمامةَ والحمامةَ جائمةً، ومنها ما لا يضربُ
الحمامَ إلاَّ وهو يطيرُ، ومنها ما لا يضربُ الحمامَ في حالِ
طَيْرانِهِ ولا في حالِ جِثومِهِ، ولا يعرضُ لَهُ إلاَّ أَنْ يجدهُ في
بَعْضِ الأَغْصانِ، أو على بَعْضِ الأنشازِ والأشجارِ، فَعَدَّدَ
أجناسَ صيدها، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الحمامَ لا يخفى عليه في أوَّلِ ما
يرى البازيَ في الهواءِ أيُّ البُزاةِ هُوَ، وأيُّ نوعِ صَيْدِهِ،
فيخالفُ ذلكَ، ولمعرفةِ الحمامِ بذلكِ مِنَ البازيِ أشكالٌ: أوَّلُ
ذلكِ أَنَّ الحمامَ في أوَّلِ نُهوِضِهِ يفصلُ بَيْنَ النَّسرِ والعُقابِ،
وبَيْنَ الرَّخمةِ والبازيِ، وبَيْنَ الغرابِ والصَّقرِ؛ فهو يَرى
الكركيَّ والطَّبْرزينِ ولا يستوحِشُ مِنْهُما ويرى الزَّرَقَ

فيتضاءل، فإن رأى الشّاهين فقد رأى السمّ الذعاف الناقع.
إحساس الحيوان بعدوّه والنّجعة ترى الفيل والزّنبيل
والجاموسَ والبعير، فلا يهزّها ذلك، وترى السّبع وهي لم
تره قبل ذلك، وعضو من أعضاء تلك البهائم أعظم وهي
أهولُ في العين وأشنع، ثمّ ترى الأسد فتخافه، وكذلك الببر
والنمر، فإن رأت الذئب وحده اعتراها منه وحده مثل ما
اعتراها من تلك الأجناس لو كانت مجموعةً في مكان واحد،
وليس ذلك عن تجربةٍ، ولا لأنّ منظره أشنع وأعظم، وليس
في ذلك علةٌ إلا ما طبعت عليه من تمييز الحيوان عندها،
فليس بمستنكر أن تفصل الحمامة بين البازي والبازي، كما
فصلت بين البازي والكركيّ.

فإن زعمت أنّها تعرف بالمخالب فمنقار الكركيّ أشنع
وأعظم وأفظع، وأطول وأعرض، فأما طرف منقار الأبعث
فما كان كلُّ سنان وإن كان مذبباً ليبلغه.

بلاهة الحمام وخرقه

قال صاحب الديك: وكيف يكون للحمام من المعرفة والفطنة
ما تذكرون، وقد جاء في الأثر: كُونُوا بُلْهًا كَالْحَمَامِ.

وقال صاحب الـديك: تقول العرب: أـخـرق من حمامة، ومما يدل على ذلك قول عبيد بن الأبرص:

عَيُوا بِأَمْرِهِمْ عَيَّتْ بَبَيْضَتِهَا
كَمَا الْحَمَامَةُ

جَعَلَتْ لَهَا عُودِينَ نَشِمَ وَأَخَرَ مِنْ
مِنْ ثَمَامَهُ

فإن كان عبيدٌ إنما عني حمامةً من حمامكم هذا الذي أنتم به تفخرون، فقد أكثرتم في ذكر تدبيرها لمواقع بيضها، وإحكامها لصنعة عشاشها وأفاحيصها. وإن قلت: إنه إنما عني بعض أجناس الحمام الوحشي والبرّي، فقد أخرجتم بعض الحمام من حسن التدبير، وعبيدٌ لم يخصّ حماماً دون حمام.

رغبة عثمان في ذبح الحمام

وحدّث أسامة بن زيد قال: سمعتُ بعضَ أشياخنا منذُ زمان، يحدثُ أنّ عثمانَ ابنَ عفّانَ - رضي اللهُ تعالى عنه - أراد أنْ يذبحَ الحمامَ ثمّ قال: لولا أنّها أمةٌ من الأمم لأمرت بذبهن، ولكنّ فُصُوهُنَّ، فدَلَّ بقوله: فُصُوهُنَّ على أنّها إنما تُذبحُ

لرغبة مَنْ يَتَّخِذُهُنَّ، وَيَلْعَبُ بِهِنَّ مِنَ الْفَتَيَانِ وَالْأَحْدَاثِ
وَالشُّطَّارِ، وَأَصْحَابِ الْمِرَاهِنَةِ وَالْقِمَارِ، وَالَّذِينَ يَتَشَرَّفُونَ
عَلَى حُرْمِ النَّاسِ وَالْجِيرَانِ، وَيَخْتَدِعُونَ بِفِرَاحِ الْحَمَامِ أَوْلَادِ
النَّاسِ، وَيَرْمُونَ بِالْجُلَاهِقِ وَمَا أَكْثَرَ مَنْ قَدْ فَقَأَ عَيْنًا وَهَشَّمَ
أَنْفًا، وَهَتَمَ فَمًا، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ، وَلَا يَقِفُ عَلَى مِقْدَارِ
مَا رَكِبَ بِهِ الْقَوْمَ، ثُمَّ تَذْهَبُ جِنَايَتُهُ هَدْرًا؛ وَيَعُودُ ذَلِكَ الدَّمُّ
مَطْلُولًا بِلَا عَقْلٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا قِصَاصٍ وَلَا أَرْشٍ؛ إِذْ كَانَ
صَاحِبُهُ مَجْهُولًا.

وَعَلَى شَبِيهِ بِذَلِكَ كَانَ عَمْرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَمْرٌ بِذَبْحِ
الدَّيْكَةِ وَأَمْرٌ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْكَلَابِ.
قَالُوا: فَفِيمَا ذَكَرْنَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ أَكْلَ لَحْمِ الْكَلَابِ لَمْ يَكُنْ مِنْ
دِينِهِمْ وَلَا أَخْلَاقِهِمْ، وَلَا مِنْ دَوَاعِي شَهْوَاتِهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا
جَاءَ الْأَثَرُ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ
- رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا بِذَبْحِ الدَّيْكَةِ وَالْحَمَامِ، وَقَتْلِ الْكَلَابِ،
وَلَوْلَا أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا قُلْنَا، لَقَالُوا: اقْتُلُوا الدُّيُوكَ وَالْحَمَامَ
كَمَا قَالَ: اقْتُلُوا الْكَلَابَ، وَفِي تَفْرِيقِهِمْ بَيْنَهَا دَلِيلٌ عَلَى افْتِرَاقِ
الْحَالَاتِ عِنْدَهُمْ.

قَالَ: حَدَّثَنِي أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي يَحْيَى، أَنَّ
عُثْمَانَ شَكَوَا إِلَيْهِ الْحَمَامَ، وَأَنَّهُ قَالَ: مَنْ أَخَذَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَهُوَ

له، وقد علمنا أنّ اللفظ وإن كان قد وقع على شكاية الحمام، فإن المعنى إنّما هو على شكاية أصحاب الحمام؛ لأنه ليس في الحمام معنى يدعو إلى شكاية.

قال: وحدثنا عثمان قال: سئل الحسن عن الحمام الذي يصطاده الناس، قال: لا تأكله، فإنه من أموال الناس فجعله مالاً، ونهى عن أكله بغير إذن أهله، وكلُّ ما كان مالاً فبيعه حسنً وابتياغه حسن، فكيف يجوزُ لشيء هذه صفته أن يُذبح، إلا أن يكون ذلك على طريق العقاب والزجر لمن اتَّخذه لما لا يحلّ.

قال: ورووا عن الزُّهري عن سعيد بن المسيّب قال: نهى عثمان عن اللعب بالحمام، وعن رمي الجُلاهق، فهذا يدلُّ على ما قلنا.

أمن حمام مكة وعزّ لانها

والناس يقولون: آمن من حمام مكة، ومن عزّ لان مكة، وهذا شائع على جميع الألسنة، لا يردُّ أحدٌ ممن يعرف الأمثال والشواهد، قال عقيبة الأسيدي لابن الزبير:

في حيثُ يأمنُ

ما زلتَ مذ حججٍ

بمكة محرماً

طائرٌ وحمّامٌ

فَأَنْتَهَضَنَّ الْعَيْسُ

يَجْتَبِنَ عَرْضَ

تَنْفُخُ فِي الْبُرَا

مَخَارِمِ الْأَعْلَامِ

أَبْنُو الْمَغِيرَةِ مِثْلُ آلِ

يَا لِلرِّجَالِ لِحِفَةِ

خُوَيْلِدٍ؟

الْأَحْلَامِ

وقال النابغة في الغزلان وأمنها، كقول جميع الشعراء في الحمام:

والمؤمن العائداتِ

رُكبانَ مَكَّةَ بَيْنَ

الطَيْرِ تَمَسَّحُهَا

الغِيلِ وَالسَّعَدِ

ولو أنّ الطّباء ابتليت ممن يتخذها بمثل الذي ابتليت به الحمام ثمّ ركبوا المسلمين في الغزلان بمثل ما ركبوهم به في الحمام، لساوا في دُبْحِ الغزلان كسيرتهم في دُبْحِ الحمام.

وقالوا: إنّهُ لَيَبْلُغُ مَنْ تَعْظِيمِ الْحَمَامِ لِحُرْمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، أنّ أهل مكة يشهدون عن آخرهم أنّهم لم يروا حماماً قطّ سقط على ظهر الكعبة، إلاّ من علةٍ عرضت له، فإن كانت

هذه المعرفة اكتساباً من الحمام فالحمام فوق جميع الطير
وكلّ ذي أربع، وإن كان هذا إنّما كان من طريق الإلهام،
فليس ما يُلهمّ كما لا يلهم. وقال الشاعر في أمن الحمام:

تفرّع في الدوائب
والسنام

لقد علم القبائل أنّ
بَيْتِي

بمكّتها البيوت مع
الحمام

وأنا نحن أول من
تبني

وقال كثير - أو غيره من بني سهم - في أمن الحمام:

وحسيناً من سوقة
وإمام

لَعَنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ
عَلِيّاً

والكرام الأخوال
والأعمام

أيسبّ المطيبون
جدوداً

من آل الرسول عند
المقام

يا من الطبي
والحمام ولا يا

رحمة الله والسَّلامُ
عليهم

كلما قامَ قائمٌ
بسلامٍ

وذكر شأنَ ابنِ الزبيرِ وشأنَ ابنِ الحنفِيَّةِ، فقال:

ومن يرَ هذا الشَّيخَ
بالخيفِ من منى

مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ
أَنَّهُ غَيْرُ ظالِمٍ

سَمِيَ النَّبِيِّ
المصطفى وابنِ
عمِّه

وفَكَكُ أَعْلالٍ
ونَفَّاعُ غارِمِ

أبى فهو لا يشرى
هُدى بضلالةٍ

ولا يَتَّقِي في اللَّهِ
لَوْمَةَ لائمٍ

ونحن بحمْدِ اللَّهِ
نتلُو كتابَهُ

حُلُولاً بهذا الخَيْفِ
خَيْفِ المَحارِمِ

بحيثَ الحَمَامِ
آمَناتٌ سواكنُ

وتَلَقَى العُدُوَّ
كالوَلِيِّ المَسالِمِ

حمامة نوح

قال صاحب الحَمَام: أمَّا العرب والأعرابُ والشُعراء، فقد
أطبَقوا على أنّ الحَمَامَةَ هي التي كانت دليلَ نوح ورائده،
وهي التي استجَعَلَتْ عليه الطُّوقَ الذي في عنقها، وعند ذلك
أعطاها الله تعالى تلك الحَلِيَّة؛ ومَنَحَهَا تلك الزَّيْنَةَ، بدعاء
نوح عليه السلام، حينَ رجَعَتْ إليه ومعها من الكَرَم ما
مَعَهَا، وفي رجليها من الطَّيْن والحَمَاء ما برجليها، فعَوَّضَتْ
من ذلك الطَّيْن خِضَابَ الرَّجْلَيْن، ومن حُسْن الدَّلَالَةِ والطَّاعَةِ
طُوقَ العنق.

شعر في طوق الحمامة

وفي طوقها يقول الفرزدق:

فقد أَمِنَ الهِجَاءَ
بنو حَرَامٍ

فمن يكُ خائفًا
لأداةٍ شِعري

قلائدٌ مثلَ أطواقِ
الحمامِ

هم قَادُوا سفيهِهْمُ
وخافُوا

وقال في ذلك بَكر بن النَّطَّاح:

وإن شئت غنّاني
الحَمَامُ المطوّق

ويزعُ حديدٍ أو
قميصٌ مخلّق

إذا شئتُ غنّنتي
بِبَعْدَادَ قَيْنَةَ

لباسي الحسامُ أو
إزارٌ مُعصفرٌ

فذكر الطّوق، ووصفها بالغناء والإطراب، وكذلك قال حميد
بن ثور:

ولا الجيرة
الأذنين إلاّ
تجشّما

أمام بيوت
الحيّ إنّ وإنّما

رَقودُ الضّحي لا
تعرف الجيرة القسا

وليسَتْ مِنَ اللّائي
يكونُ حديثها

ثمّ قال:

دَعَتْ ساقَ حُرٍّ
تَرْحَةً وتَرَنُّمًا

وما هاج هذا
الشّوقَ إلاّ حمامةً

مطوّقة خطباء
تصدّح كلما

دنا الصيّف وانجاب
الربيع فأنجما

ثمّ قال بعد ذكر الطوق:

إذا شئتُ غنّتي
بأجزاءٍ بيّشةٍ

أو النّخلِ من تثلّيثٍ
أو بيلمما

عجبتُ لها أنى
يكونُ غناؤها

فصيحاً ولم تفرّز
بمنطقها فما

ولم أرَ محزوناً له
مثلُ صوتها

ولا عربياً شاقه
صوتُ أعجمَا

وقال في ذكر الطّوق - وأنّ الحمّامة نواحةٌ - عبدُ الله بن
أبي بكر وهو شهيد يوم الطائف، وهو صاحبُ ابن صاحب:

فلم أرَ مثلي طلق
اليومَ مثلها

ولا مثلها في غير
جرمٍ تطلقُ

أعاتكُ لا أنساكُ ما

وما ناحَ قمرِيُّ

هَبَّتِ الصَّبَا

الْحَمَامِ الْمَطَوَّقُ

وقال جهم بن خلف، وذكرها بالنَّوح، والغناء، والطَّوق،
ودعوة نوح؛ وهو قَوْلُهُ:

طُرُوبِ الْعَشِيِّ هَتُوفِ الضُّحَى وقد شاقني نَوْحُ قَمْرِيَّةِ
عَسِيبِ أَشَاءِ بَدَاتِ الْغَضَامِنِ الْوُرُقِ نَوَاحِةٍ بَاكَرَتْ
يُهِيجُ لِلصَّبِّ مَا قَدْ مَضَتْ عَلَيهِ بِلْحَنِ لَهَا
بِدْعُوَةِ نُوحٍ لَهَا إِذْ دَعَا مَطَوَّقَةً كُسِبَتْ زِينَةً

تَبْكِي وَدَمَعَتَهَا لَا تُرَى
بَاكِئَةً مِثْلَهَا
فلم أرَ

وقد عَلِقَتْهُ حَبَالُ الرَّدَى
فُرِيخًا فَطَافَتْ لَهُ
أضَلَّتْ

عَلَيْهِ، وَمَا ذَا يَرُدُّ الْبُكَاءِ
الْيَأْسُ مِنْهُ بَكَتْ
فلما بدا

خَفُوقِ الْجَنَاحِ حَثِيثِ النَّجَا
ضَرِمٌ مُلْحِمٌ
وقد صادهُ

فِ ضَارٍ مِنَ الْوُرُقِ فِيهِ قَنَا
المخَالِبِ عَارِي الْوِظِي

حديد

جوامزَ منه إذا ما اغتدى
والوَحْشَ مِنْ خَوْفه

تَرَى الطَّيْرَ

نزاع صاحب الدَّيْكَ في الفخر بالطوق قال صاحب الديك:
وأما قوله:

مطوّقة كساها
الله طوقاً

ولم يَخْصُصْ به طيراً
سِوَاهَا

كيف لم يخصص بالأطواق غَيْرَ الحَمَامِ، والتَّدَارِجُ أَحَقُّ
بِالأطواقِ وأحسَنُ أطواقاً منها، وهي في ذُكُورِهَا أعمّ؟
وعلى أَنّه لم يصف بالطّوق الحَمَامَةَ التي فاخرتم بها الدَّيْكَ؛
لأنَّ الحَمَامَةَ ليست بمطوّقة، وإنما الأطواقُ لذكورة
الوارشين وأشباه الوارشين، من نوائح الطَّيْرِ وهواتفها
ومغنياتها، ولذلك قال شاعرُكم، حيث يقول:

أَعَاتِكَ لَا أَنْسَاكِ مَا
هَبَّتِ الصَّبَا

وما نأح قمرِي
الحَمَامِ المَطُوقِ

وقال الآخر:

طروبِ العشيِّ هتوفِ
الضحى

وقد شاقني نوح
قمرية

ووصفها فقال:

بدعوة نوح لها إذ
دعا

مطوقةً كسيت
زينة

فإن زعمتم أن الحمامَ والقمرِيَّ واليَمَامَ والفواخِيتَ والدَّباسِيَّ
والشَّفانِيْنَ والوارشِينِ حمامٌ كلُّهُ، قلنا: إننا نزعم أن ذكورةَ
التَّدارِجِ وذكورةَ القَبَجِ، وذكورةَ الحَجَلِ ديوكٌ كلها، فإن كان
ذلك كذلك، فالفخرُ بالطوقِ نحن أولى به.

قال صاحب الحمام: العرب تسمي هذه الأجناسَ كلها حماماً،
فجمعوها بالاسم العامِّ، وفرَّقوها بالاسم الخاصِّ، ورأينا
صُورَها متشابهةً، وإن كان في الأجسامِ بعضُ الاختلافِ،
وفي الجُثِّ بعضُ الائتلافِ وكذلك المناقيرِ، ووجدناها
تتشابه من طريقِ الزَّواجِ، ومن طريقِ الدُّعاءِ والغناءِ
والنَّوحِ، وكذلك هي في القدودِ وصُورِ الأعناقِ، وقصبِ
الريشِ، وصيغَةِ الرُّؤوسِ والأرجلِ والسُّوقِ والبرائِثِ.

والأجناسُ التي عددتُم ليس يجمعها اسمٌ ولا بلدةٌ، ولا صورةٌ ولا زواجٌ، وليس بين الدِّيكة وبين تلك الذُّكورة نسبٌ إلاَّ أنَّها من الطَّير الموصوفة بكثرة السَّفاد، وأنَّ فراخها وفراريجها تخرُج من بيضها كاسية كاسبة، والبطُّ طائرٌ مثقلٌ، وقد ينبغي أن تجعلوا فرخَ البطة فرُّوجاً، والأنثى دجاجةٌ والذُّكر ديكاً، ونحنُ نجد الحَمَامَ، ونجد الوراشرين، تتسافد وتتلاقح، ويجيء منها الراعيُّ والوردانيُّ؛ ونجد الفواخيت والقماريَّ تتسافد وتتلاقح، مع ما ذكرنا من التشابه في تلك الوجوه، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ بعضها مع بعضٍ كالْبُخْتِ والعرابِ ونتائج ما بينهما، وكالبراذين والعِتاقِ، وكلها خيلٌ، وتلك كلها إبلٌ، وليس بين التَّدارج والقَبجِ والحَجَلِ والدَّجاجِ هذه الأمورُ التي ذكرنا.

وعلى أنَّنا قد وجدنا الأطواقَ عامَّةً في ذوات الأوضاحِ مِنَ الحَمَامِ، لأنَّ فيها من الألوان، ولها من الشَّياتِ وأشكالِ وألوانِ الريشِ ما ليس لغيرها من الطَّيرِ، ولو احتججنا بالتَّسافِدِ دون التَّلاقِحِ، لكان لِقائلِ مقال، ولكنَّا وجدناها تجمع الخصلتين، لأنَّنا قد نجدُ سفهاء النَّاسِ، ومن لا يتقدَّر من النَّاسِ والأحداثِ ومن تشتدُّ غلمته عند احتلامه، ويقلُّ طرُوقه، وتطول عُزْبته؛ كالمعزبِ من الرِّعاء فإنَّ هذه

الطَّبَقَةَ مِنَ النَّاسِ، لَمْ يَدْعُوا نَاقَةً، وَلَا بَقْرَةً، وَلَا شَاةً، وَلَا
أَتَانًا، وَلَا رَمَكَةً، وَلَا حَجْرًا، وَلَا كَلْبَةً، إِلَّا وَقَدِ وَقَعُوا عَلَيْهَا.
وَلَوْلَا أَنَّ فِي نَفُوسِ النَّاسِ وَشَهَوَاتِهِمْ مَا يَدْعُو إِلَى هَذِهِ
الْقَادُورَةَ، لَمَا وَجَدْتَ هَذَا الْعَمَلَ شَائِعًا فِي أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ،
وَلَوْ جَمَعْتَهُمْ لَجَمَعْتَ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةَ، ثُمَّ لَمْ
يُلْقَاحْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ
الْأَجْنَاسِ يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالشَّهْوَةِ الْمَفْرُطَةِ. وَلَقَدْ خَبَّرَنِي مِنْ
إِخْوَانِي مَنْ لَا أَتَّهُمْ خَبْرَهُ أَنَّ مَمْلُوكًا كَانَ لِبَعْضِ أَهْلِ الْقَطِيعَةِ
- أَعْنِي قَطِيعَةَ الرَّبِيعِ - وَكَانَ ذَلِكَ الْمَمْلُوكُ يَكُومُ بَغْلَةً وَأَنَّهَا
كَانَتْ تُوَدِّقُ وَتَتَلَمَّظُ وَأَنَّهَا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْوَقَعَاتِ تَأَخَّرَتْ
وَهُوَ مَوْعَبٌ فِيهَا ذَكَرَهُ تَطَلُّبُ الزِّيَادَةِ، فَلَمْ يَزَلْ الْمَمْلُوكُ
يَتَأَخَّرُ وَتَتَأَخَّرُ الْبَغْلَةُ حَتَّى أَسْنَدَتْهُ إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا
الْإِصْطَبِلِ، فَاصْغَطَتْهُ حَتَّى بَرَدَ، فَدَخَلَ بَعْضٌ مِنْ دَخَلِ فَرَاهِ
عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَصَاحَ بِهَا فَتَنَحَّتْ وَخَرَّ الْغَلَامُ مَيِّتًا.
وَأَخْبَرَنِي صَدِيقٌ لِي قَالَ: بَلَّغَنِي عَنْ بَرْدُونَ لَزُرْقَانَ الْمُتَكَلِّمِ،
أَنَّهُ كَانَ يَدْرِبُخَ لِلْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ وَالْبِرَادِينَ حَتَّى تَكُومَهُ، قَالَ:
فَأَقْبَلْتُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ الْإِصْطَبِلِ، فَتَنَاولْتُ الْمَجْرَفَةَ، فَوَضَعْتُ
رَأْسَ عَوْدِ الْمَجْرَفَةِ عَلَى مَرَاتِهِ وَإِنَّهُ لَأَكْثَرُ مِنْ ذِرَاعِ
وَنَصْفِ، وَإِنَّهُ لَخَشِينٌ غَلِيظٌ غَيْرَ مُحَكَّوكِ الرَّأْسِ وَلَا مَمْلَسِهِ،

فدفعته حتى بلغ أقصى العود، وامتنع من الدُّخول ببدن
المِجْرَفَةِ، فحَلَفَ أَنَّهُ ما رآه تَأَطَّرَ ولا انْتَهَى.
قال صاحب الحمام: فهذا فرق ما بيننا وبينكم.

ما وصف به الحمام من الإسعاد..

وحسن الغناء والنوح

ونُذَكِرُ ما وُصِفَ به الحمامُ من الإسعاد، ومن حُسْنِ الغُناء
والإطراب والنُّوح والشَّجَا، قال الحسن بن هانئ:

فَيْنانُ ما في أديمه
جُوبُ

إِذا ثَنَّتْهُ الغصون
جَلَّني

كما تُرِنُّ الفواقِدُ
السُّلْبُ

تَبَيْتُ في مَأْتِمِ
حمامه

كأَما يَسْتَحْفِنَا
طرب

يَهَبُ شوقي
وشوقهُنَّ معاً

وقال آخر:

على فَنِّ وهنَّ

لقد هَتَفَتْ في جُنحِ

وَإِنِّي لَنَائِمٌ

لِنَفْسِي مِمَّا قَدْ
سَمِعْتُ لَلَّائِمٌ

لَمَّا سَبَقْتَنِي
بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

بِسُعْدِي شَفِيتُ
النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

بُكَاهَا فُكَلْتُ الْفَضْلُ
لِلْمُتَقَدِّمِ

عَلَى أَنْ قَلْبِي
لِلْفِرَاقِ كَلِيمٌ

وَإِنْ هَبَّ يَوْمًا

لَيْلَ حَمَامَةٍ

فَقُلْتُ اعْتِذَارًا عِنْدَ
ذَلِكَ وَإِنِّي

كَذَبْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ لَوْ
كُنْتُ عَاشِقًا

وَقَالَ نَصِيبٌ:

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا
بَكَيتُ صَبَابَةً

وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي
فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ

وَقَالَ أَعْرَابِي:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ
قَاطِعَةَ الْقُوَى

قَرِيحٌ بَتَغْرِيدِ

الْحَمَامِ إِذَا بَكَتِ

لِلجَنُوبِ نَسِيمِ

وقال المجنون، أو غيره:

ولو لم يَهْجَنِي
الرائحون لَهَاجَنِي

حمامٌ ورقٌ في
الدَّيارِ وَقُوعُ

تجاوَبْنَ فاستَبْكَيْنَ
من كان ذا هوى

نواحٍ لا تجري
لهنَّ دُمُوعُ

وقال الآخر:

ألا يا سَيَّالَاتِ
الدَّحَائِلِ بِاللَّوَى

عليكَنَّ من بَيْنِ
السَّيَّالِ سَلامُ

أرى الوَحْشَ آجالاً
إليكَنَّ بالضحى

لهنَّ إلى
أفيائِكَنَّ بَغامُ

وإني لمجلوبٌ لي
الشَّوقُ كلما

ترنَّم في
أفنائِكَنَّ حَمَامُ

وقال عمرو بن الوليد:

حَالٍ مِنْ دُونِ أَنْ
أَحْلَّ بِهِ النَّأ

يُ وَصَرَفُ النَّوَى
وَحَرْبُ عِقَامُ

فَتَبَدَّلَتْ مِنْ
مَسَاكِينِ قَوْمِي

وَالْقُصُورِ الَّتِي بِهَا
الْأَطَامُ

كَلَّ قَصْرٍ مَشِيدٍ
ذِي أَوَاسٍ

تَتَغَيَّ عَلَى ذِرَاهِ
الْحَمَامُ

وقال آخر:

فَقَدْ هَاجَ لِي مَسْرَاكٌ وَجِدًّا عَلَى وَجَدٍ
صَبَا نَجْدٍ مَتَى هَجَّتْ مِنْ نَجْدٍ

ألا يا

عَلَى غُصْنِ غُضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ
هَتَفَتْ وَرِقَاءً فِي رَوْنِقِ الضُّحَى

أأن

جَلِيدًا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تُبْدِي
كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدَ وَلَمْ تَكُنْ

بكيت

يُمَلُّ، وَأَنَّ النَّأِيَّ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
زَعَمُوا أَنَّ الْمَحَبَّ إِذَا دَنَا

وقد

بكلِّ

عَلَى أَنْ قَرَبَ الدَّارَ خَيْرٌ مِنَ البُعْدِ
تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يَشْفِ مَا بَنَا

أنساب الحمام

وقال صاحب الحَمَامِ: للحمام مجاهيل، ومعروفات،
وخاصيات، ومنسوبات، والذي يشتملُ عليه دواوينُ أصحاب
الحمام أكثرُ من كتب النسب التي تضاف إلى ابن الكلبيِّ،
والشَّرْقِيِّ بن القطاميِّ، وأبي اليقظان، وأبي عُبَيْدَةَ النُّحَويِّ،
بل إلى دَعْفَلِ ابن حنظلة، وابن لسان الحُمَّرَةِ، بل إلى صُحَّارِ
العبدِيِّ، وإلى أبي السَّطَّاحِ اللَّخْمِيِّ، بل إلى النَّخَّارِ العذريِّ،
وصُبحِ الطائيِّ، بل إلى مَثْجورِ بن غيلان الضُّبِّيِّ، وإلى
سَطِيحِ الذُّبِّيِّ، بل ابن شَرِيَّةِ الجُرْهميِّ، وإلى زيدِ بن الكَيْسِ
النَّمْرِيِّ؛ وإلى كلِّ نَسَابَةِ رَاوِيَةٍ، وكلِّ مَتَفَنَّ عِلَامَةٍ.
ووصف الهديل المازنيِّ، مثنى بن زُهَيْرِ وحفظه لأنساب
الحمام، فقال: والله لهو أنسب من سعيد بن المسيَّب، وقَتَادَةَ
بن دِعَامَةَ للنَّاسِ، بل هو أنسبُ من أبي بكر الصَّدِّيقِ رضي
الله عنه لقد دخلت على رجلٍ أعرفَ بالأمَّهَاتِ المُنْجِبَاتِ من
سُحَيْمِ ابنِ حفص، وأعرفَ بما دخلها من الهُجْنَةِ والإقْرَافِ،
من يُونُسَ بنِ حبيب.

مما أشبه فيه الحمام الناس

قال: ومما أشبه فيه الحمام النَّاسَ في الصُّورِ والشَّمائِلِ وورقة الطباع، وسُرعة القبول والانتقال، أنك إذا كنت صاحبَ فِرَاسَةٍ، فمرَّ بك رجالٌ بعضهم كوفيٌّ، وبعضهم بصريٌّ، وبعضهم شاميٌّ وبعضهم يمنيٌّ، لم يخفَ عليك أمورهم في الصُّورِ والشَّمائِلِ والقُدودِ والنَّعمِ أيهم بصريٌّ، وأيهم كوفيٌّ، وأيهم يمنيٌّ، وأيهم مدنيٌّ وكذلك الحمام؛ لا ترى صاحبَ حمامٍ تخفى عليه نسب الحمام وجنسها وبلادها إذا رآها.

مبلغ ثمن الحمام وغيره

والحمام من الفضيلة والفخر، أن الحمام الواحد يباع بخسمائة دينار، ولا يبلغ ذلك بازٍ ولا شاهينٌ، ولا صقرٌ ولا عُقاب، ولا طاوس، ولا تدرجٌ ولا ديكٌ، ولا بغيرٌ ولا حمارٌ، ولا بغلٌ، ولو أردنا أن نحقق الخبرَ بأنَّ بردوناً أو فرساً يبيع بخمسمائة دينار، لما قدرنا عليه إلا في حديث السَّمْرِ. وأنت إذا أردت أن تتعرفَ مبلغَ ثمنِ الحمام الذي جاء من الغاية، ثمَّ دخلتَ بغدادَ والبصرةَ وجدتَ ذلك بلا معاناة، وفيه أنَّ الحمام إذا جاء من الغاية يبيع الفرخُ الذَّكرُ من فراخ

بعشرين ديناراً أو أكثر، وبيعت الأنثى بعشرة دنانير أو أكثر، وبيعت البيضة بخمسة دنانير، فيقوم الزوج منها في الغلّة مقام ضيعة، وحتى ينهض بمؤنة العيال، ويقضي الدين، وتبنى من غلاته وأثمان رقابه الدور الجياد، وتتباع الحوانيت المغلّة، هذا؛ وهي في ذلك الوقت ملهى عجيب، ومنظر أنيق، ومعتبر لمن فكر، ودليل لمن نظر.

عناية الناس بالحمام

ومن دخل الحجر ورأى قصورها المبنية لها بالشامات وكيف اختزان تلك الغلات، وحفظ تلك المؤونات؛ ومن شهد أرباب الحمام، وأصحاب الهدى وما يحتملون فيها من الكلف الغلاظ أيام الرّجل، في حملانها على ظهور الرّجال، وقبل ذلك في بطون السفن، وكيف تُفرد في البيوت، وتجمع إذا كان الجمع أمثل، وتفرق إذا كانت التفرقة أمثل وكيف تُنقل الإناث عن ذكورتها، وكيف تُنقل الذكورة عن إناثها إلى غيرها، وكيف يُخاف عليها الضوى إذا تقاربت أنسابها، وكيف يُخاف على أعراقها من دخول الخارجيات فيها، وكيف يحتاط في صحّة طرّقها ونجلها؛ لأنّه لا يؤمن أن يقمط الأنثى ذكراً من عرض الحمام، فيضرب في النّجل

بنصيب، فتعتريه الهُجنة - والبيضة عند ذلك تنسب إلى
طَرَقها، وهم لا يحوِّطون أرحام نسائهم كما يُحوِّطون أرحام
المُنْجِبَات من إناثِ الحمام، ومن شهد أصحاب الحمام عند
زَجَلها من الغاية، والذين يَعْلَمون الحمامَ كيف يختارون
لصاحب العلامات، وكيف يتخيَّرُون الثِّقَّة وموضع الصِّدْقِ
والأمانة، والبُعدِ من الكِذْب والرِّشوة، وكيف يتوَحَّون ذا
التَّجربة والمعرفة اللطيفة، وكيف تسخو أنفسهم بالجمالة
الرَّفِيعَة، وكيف يختارون لحملها من رجال الأمانة والجِدِّ
والشَّفَقَة والبَصْر وحُسْنِ المعرفة - لعلم عند ذلك صاحب
الدِّيك والكلب أنهما لا يجريان في هذه الحلبة، ولا يتعاطيان
هذه الفضيلة.

خصائص الحمام

قال: وللحمام من حسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثبات
الحِفْظِ والدُّكْر، وقوة النَّزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه، ما
ليس لشيء، وكفاك اهتداءً ونزاعاً أن يكون طائرٌ من بهائم
الطير، يجيء من بَرَعَمَة، لا بِلَ من العليق، أو من خَرشنة
أو من الصفصاف، لا بِلَ من البُعْراس، ومن لؤلؤة.
ثمَّ الدَّلِيلُ على أنه يَسْتدلُّ بالعقلِ والمعرفة، والفكرة والعناية

أنه إنما يجيء من الغاية على تدرّج وتدرّيب وتنزيل،
والدليل على علم أربابه بأنّ تلك المقدمات قد نجعن فيه،
وعملن في طباعه، أنه إذا بلغ الرقّة غمروا به بكرّة إلى
الدرب وما فوق الدرب من بلاد الرّوم، بل لا يجعلون ذلك
تعميراً؛ لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عملت فيه
وحّدقته وممرّنته.

ولو كان الحمام ممّا يُرسل بالليل، لكان ممّا يستدلّ بالنجوم؛
لأنّ رأينا يلزم بطن الفرات، أو بطن دجلة، أو بطون
الأودية التي قد مرّ بها، وهو يرى ويُبصر ويفهم انحدار
الماء، ويعلم بعد طول الجولان وبعْد الزّجال، إذا هو أشرف
على الفرات أو دجلة، أنّ طريقه وطريق الماء واحد، وأنه
ينبغي أن ينحدر معه.

وما أكثر ما يستدلّ بالجوادّ من الطّرق إذا أعيته بطون
الأودية، فإذا لم يدر أمّصعد أمّ منحدر، تعرّف ذلك بالريّح،
ومواضع قرص الشمس في السماء، وإنّما يحتاج إلى ذلك
كلّه إذا لم يكن وقّع بعد على رسم يعملّ عليه فربّما كرّ حين
يزجل به يميناً وشمالاً، وجنوباً وشمالاً، وصباً ودبوراً -
الفراسخ الكثيرة وفوق الكثيرة.

الْغُمْرُ وَالْمَجْرَبُ مِنَ الْحَمَامِ

وفي الحمام الغُمْرُ والمَجْرَبُ، وهم لا يُخاطِرُونَ بالأعمار لوجهين: أحدهما أن يكون الغُمْرُ عريفاً فصاحبُه يَضُنُّ به، فهو يريدُ أن يدرِّبه ويمرِّنه ثمَّ يكلفه بعد الشيء الذي اتَّخذه له، وبسببه اصطنعه واتَّخذه، وإمَّا أن يكونَ الغُمْرُ مجهولاً، فهو لا يتعنَّى ويُشقي نفسه، ويتوقَّع الهِـدَايَةَ من الأعمار المجاهيل.

وخصلةٌ أخرى: أنَّ المجهولَ إذا رَجَعَ مع الهدى المعروفاتِ، فحملةٌ معها إلى الغاية فجاء سابقاً، لم يكنْ له كبيرُ ثمنٍ حتَّى تتلاحق به الأولاد، فإنَّ أنجَبَ فيهنَّ صارَ أباً مذكوراً وصارَ نَسَباً يرجعُ إليه، وزاد ذلك في ثمنه.

فأمَّا المَجْرَبُ غير الغمر، فهو الذي قد عرَّفوه الورودَ والتحصُّب؛ لأنَّه متى لم يقدرْ على أن ينقضَّ حتَّى يشربَ الماء من بطون الأوديةِ والأنهار والغُدْران، ومناقع المياه، ولم يتحصَّب بطلبِ بُزورِ البراري، وجاعَ وعطشَ - التمسَ مواضعَ الناس، وإذا مرَّ بالقرى والعُمران سقط، وإذا سقط أخذَ بالبأيكير وبالقفاعة، وبالملقفِ وبالتدبيق وبالُدشاح، ورمى أيضاً بالجلهق وبغير ذلك من أسباب الصَّيد. والحمام طائرٌ مُلقى غير موقى، وأعداؤه كثير، وسباع

الطير تطلبه أشدّ الطلب، وقد يترقّع مع الشاهين، وهو للشاهين أخوف، فالحمام أظير منه ومن جميع سباع الطير، ولكنه يُدعّر فيجهلُ باب المخلص ويعتريه ما يعتري الحمار من الأسد إذا رآه، والشاة إذا رأت الذئب والفارة إذا رأت السنور.

سرعة طيران الحمام

والحمام أشدُّ طيراناً من جميع سباع الطير، إلا في انقضاض وانحدار؛ فإنّ تلك تنحطّ انحطاط الصخور و متى التقت أمّة من سباع الطير أو جفالة من بهائم الطير، أو طرنّ على عرقةٍ وخيطٍ ممدود، فكُلّها يعتريها عند ذلك التّقصير عما ما كانت عليه، إذا طارت في غير جماعة، ولن ترى جماعة طير أكثر طيراناً إذا كثرن من الحمام؛ فإنهنّ كلما التفنن وضاق موضعهنّ كان أشدّ لطيرانهنّ، وقد ذكر ذلك النابغة الدّيباني في قوله:

إلى حمامٍ شراعٍ واردِ الثّمَدِ

مثلُ الرُّجاجةِ لم تُكحلّ من الرّمَدِ

إلى حمامتا ونصفه فُقدِ

تِسْعًا وَتَسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ
فَأَلْفَوْهُ كَمَا حَسَبَتْ

فَحَسَبُوهُ

وَأَسْرَعَتْ حَسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ
فِيهَا حَمَامَتُهَا

فَكَمَلَتْ مَائَةً

قال الأصمعيُّ: لما أراد مَدِيحَ الحاسبِ وسرعةَ إصابته، شَدَّدَ الأمرَ وضيِّقه عليه؛ ليكونَ أحمدَ له إذا أصاب؛ فجَعَلَهُ حَزْرَ طيراً، والطَّيرُ أخفُّ من غيره، ثمَّ جعله حماماً والحمامُ أسرعُ الطَّيرِ، وأكثرُها اجتهاداً في السرعةِ إذا كثرَ عددهنَّ؛ وذلكَ أَنَّهُ يَشْتَدُّ طيرَانُهُ عندَ المسابِقةِ والمنافسةِ، وقال: يحفُّه جانباً نيقٍ ويتبعه، فأراد أَنَّ الحمامَ إذا كان في مضيقٍ من الهواءِ كان أسرعَ منه إذا اتَّسعَ عليه الفضاءُ.

غَايَاتِ الْحَمَامِ

وصاحبُ الحَمَامِ قد كان يدرِّبُ ويمرِّنُ ويُنزِلُ في الزَّجالِ، والغَايَةُ يومئذٍ واسطُ، فكيف يصنَعُ اليومَ بتعريفه الطَّرِيقَ وتعريفه الوُرودَ والتحصُّبَ، مع بُعد الغاية؟! ما يختار للزَّجْلِ من الحَمَامِ والبغداديين يختارون للزَّجالِ من الغَايَةِ الإناثَ، والبصريُّون يختارون الذُّكورَ فحجَّةُ البغداديين أَن

الذَّكَرُ إِذَا سَافَرَ وَبَعْدَ عَهْدِهِ بِقَمَطِ الْإِنَاثِ، وَتَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى السَّفَادِ، وَرَأَى أَنْثَاهُ فِي طَرِيقِهِ، تَرَكَ الطَّلَبَ إِنْ كَانَ بَعْدَ فِي الْجَوْلَانِ؛ أَوْ تَرَكَ السَّيْرَ إِنْ كَانَ وَقَعَ عَلَى الْقَصْدِ، وَمَالَ إِلَى الْأُنْثَى وَفِي ذَلِكَ الْفَسَادُ كُلُّهُ.

وَقَالَ الْبَصْرِيُّ: الذَّكَرُ أَحْنُ إِلَى بَيْتِهِ لِمَكَانِ أَنْثَاهُ، وَهُوَ أَشَدُّ مَتْنًا وَأَقْوَى بَدْنًا، وَهُوَ أَحْسَنُ اهْتِدَاءً، فَحُنُّ لَا نَدْعَ تَقْدِيمَ الشَّيْءِ الْقَائِمِ إِلَى مَعْنَى قَدْ يَعْرِضُ وَقَدْ لَا يَعْرِضُ.

نَصِيحَةُ شَدَفُويِهِ فِي تَرْبِيَةِ الْحَمَامِ وَسَمِعْتُ شَدَفُويِهِ

السَّلَانِحِي مِنْ نَحْوِ خَمْسِينَ سَنَةً، وَهُوَ يَقُولُ لِعَبْدِ السَّلَامِ بْنِ أَبِي عِمَارٍ: اجْعَلْ كَعْبَةَ حَمَامِكَ فِي صَحْنٍ دَارِكٍ، فَإِنَّ الْحَمَامَ إِذَا كَانَ مَتَى خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَعْلَاةِ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَعْلَاتِهِ إِلَّا بِجَمْعِ النَّفْسِ وَالْجَنَاحَيْنِ، وَبِالنَّهْوِضِ وَمَكَابِدَةِ الصُّعُودِ - اشْتَدَّ مَتْنُهُ، وَقَوِيَ جَنَاحُهُ وَلَحْمُهُ، وَمَتَى أَرَادَ بَيْتَهُ فَاحْتِاجَ إِلَى أَنْ يَنْتَكِسَ وَيَجِيءَ مَنْقُضًا كَانَ أَقْوَى عَلَى الِارْتِفَاعِ فِي الْهَوَاءِ بَعْدَ أَنْ يَرُوى، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْبَاطِنِيِّينَ أَشَدَّ مَتْنًا مِنَ الظَّاهِرِيِّينَ، وَأَنَّ النَّقْرَسَ لَا يُصِيبُ الْبَاطِنِيَّ فِي رِجْلِهِ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ يَصْعَدُ إِلَى الْعَلَالِي فَوْقَ الْكِنَادِيحِ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَكَذَلِكَ نَزُولُهُ، فَلَوْ دَرَبْتُمُ الْحَمَامَ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ كَانَ أَصُوبَ، وَلَا يَعْجَبُنِي تَدْرِيبُ الْعَاتِقِ وَمَا فَوْقَ الْعَاتِقِ إِلَّا

من الأماكن القريبة؛ لأن العاتق كالفتاة العاتق، وكالصبي
الغريز، فهو لا يَعدُّه ضعفُ البدن، وقلَّةُ المعرفة، وسوء
الإلف، ولا يُعجبني أن تتركوا الحمام حتَّى إذا صار في عدد
المسانِّ والتَّهْل، وولَدَ البطونَ بَعْدَ البطون، وأخذ ذلك من
قوَّةِ شبابه، حملتموه على الرِّجْلِ، وعلى التَّمْرين، ثمَّ رميت
به أقصى غايةٍ لآ، ولكنَّ التَّدريب مع الشباب، وانتهاء
الحِدَّة، وكمال القوَّة، من قبل أن تأخذ القوَّة في النُّقصان،
فهو يلقن بقربه من الحداثة، ويُعرِّف بخروجه من حدِّ
الحداثة، فابتدِئوا به التَّعليمَ والتَّمْرينَ في هذه المنزلة
الوسطى.

الوقت الملائم لتمرين فراخ الحمام وهُمْ إذا أرادوا أن يمرنوا
الفراخَ أخرجوها وهي جائعة، حتى إذا ألقوا إليها الحبَّ
أسرعت النزول، ولا تُخرَجُ والرِّيح عاصف، فتخرج قبل
المغربِ وانتصاف النهار، وخذاقهم لا يخرجونها مع ذكورة
الحمام؛ فإنَّ الذُّكورة يعترها النَّشاط والطَّيران والتَّبَاعُدُ
ومجاوزة القبيلة، فإن طارت الفراخُ معها سقطت على دور
الناس، فرياضتها شديدة، وتحتاج إلى معرفة وعناية، وإلى
صبرٍ ومُطابَلة؛ لأنَّ الذي يُراد منها إذا احتيج إليه بعد هذه
المقدمات كان أيضاً من العجب العجيب.

حوار في اختيار الحمام حوار يعقوب بن داود مع رجل في اختيار الحمام وحدثني بعض من أثق به أن يعقوب بن داود، قال لبعض من دخل عليه - وقد ذهب عني اسمه ونسيته، بعد أن كنت عرفته -: أما ترى كي أخلف ظننا وأخطأ رأينا، حتى عم ذلك ولم يخص؟ أما كان في جميع من اصطنعناه واخترناه، وتفرسنا فيه الخير وأردناه به - واحد تكفينا معرفته مؤنة الاحتجاج عنه، حتى صرت لا أقرع إلا بهم، ولا أعاب إلا باختيارهم قال: فقال له رجل إن الحمام يختار من جهة النسب، ومن جهة الخلقة، ثم لا يرضى له أربابه بذلك حتى ترتبه وتنزله وتدرجه، ثم تحمل الجماعة منه بعد ذلك الترتيب والتدريب إلى الغاية، فيذهب الشطر ويرجع الشطر، أو شبيهة بذلك أو قريب من ذلك، وأنت عمدت إلى حمام لم تنظر في أنسابها ولم تتأمل مخيلة الخير في خلقها ثم لم ترض حتى ضربت بها بكرّة واحدة إلى الغاية، فليس بعجب ولا منكر ألا يرجع إليك واحد منها، وإنما كان العجب في الرجوع، فأما في الضلال فليس في ذلك عجب، وعلى أنه لو رجع منها واحد أو أكثر من الواحد لكان خطوك موقراً عليك، ولم ينتقصه خطأ من أخطأ؛ لأنه

ليس من الصواب أن يجيء طائراً من الغاية على غير عِرْقٍ
وعلى غير تدريب.

كرم الحَمَامِ..

الإلف والأنس والنزاع والشوق

وذلك يدلُّ على ثبات العهد، وحفظ ما ينبغي أن يُحفظ،
وصون ما ينبغي أن يَصان وإنه لخلق صدق في بني آدم
فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير.
وقد قالوا: عمَّرَ اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان.
قال ابن الزُّبير: ليس النَّاسُ بشيءٍ مِنْ أقسامهم أقتَعَ منهم
بأوطانهم.

وأخبر الله عزَّ وجلَّ عن طبائع النَّاس في حبِّ الأوطان،
فقال: "قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ
دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا" وقال: "وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ".
وقال الشاعر:

فَسُرَّ أَنْ جَمَعَ
الأوطانَ والمطرًا

وكنت فيهم
كممطورٍ ببليدته

فتجدُهُ يُرْسَلُ مِنْ مَوْضِعٍ فَيَجِيءُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى
أَضْيَاقِ مَوْضِعٍ وَإِلَى رِخَامٍ وَنِقَانٍ فَيُرْسَلُ مِنْ أَعْبَدٍ مِنْ ذَلِكَ
فَيَجِيءُ، ثُمَّ يَصْنَعُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْمَرَارِ الْكَثِيرَةِ، وَيَزِيدُ فِي
الْفِرَاسِخِ، ثُمَّ يَكُونُ جَزَاؤُهُ أَنْ يَغْمَرَ بِهِ مِنَ الرَّقَّةِ إِلَى لَوْلُؤَةِ
فَيَجِيءُ وَيَسْتَرْقُ مِنْ مَنْزِلِ صَاحِبِهِ فَيَقْصُ، وَيَغْبُرُ هُنَاكَ حَوْلًا
وَأَكْثَرَ مِنَ الْحَوْلِ، فَحِينَ يَنْبِتُ جَنَاحَهُ يَحْنُ إِلَى الْفَهِّ وَيَنْزِعُ
إِلَى وَطْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الْمَوْضِعُ الثَّانِي أَنْفَعَ لَهُ، وَأَنْعَمَ لِبَالِهِ،
فِيهِبُ فَضْلًا مَا بَيْنَهُمَا لِمَوْضِعِ تَرْبِيَتِهِ وَسُكْنِهِ، كَالْإِنْسَانِ الَّذِي
لَوْ أَصَابَ فِي غَيْرِ بِلَادِهِ الرَّيْفَ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ
يَعَالِجُهُمْ عَلَى أَنْ يُعْطَى عَشْرَ مَا هُوَ فِيهِ فِي وَطْنِهِ.
ثُمَّ رَبَّمَا بَاعَهُ صَاحِبُهُ، فَإِذَا وَجَدَ مَخْلُصًا رَجَعَ إِلَيْهِ، حَتَّى
رَبَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا، وَرَبَّمَا طَارَ دَهْرَهُ وَجَالَ فِي الْبِلَادِ،
وَأَلْفَ الطَّيْرَانَ وَالتَّقَلُّبَ فِي الْهَوَاءِ، وَالنَّظَرَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَبْدُو
لصَاحِبِهِ فَيَقْصُ جَنَاحَهُ وَيُلْقِيهِ فِي دِيمَاسٍ، فَيَنْبِتُ جَنَاحَهُ، فَلَا
يَذُوبُ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ لَهُ، نَعَمْ، حَتَّى رَبَّمَا جَدَّفَ وَهُوَ
مَقْصُوصٌ، فِيمَا صَارَ إِلَيْهِ، وَإِمَّا بَلَغَ عِزْرًا.

قص جناح الحمام

ومتى قصَّ أحد جناحيه كان أعجزَ له عن الطيران، ومتى قصَّهما جميعاً كان أقوى له عليه، ولكنه لا يبعد، لأنه إذا كان مقصوصاً من شِقِّ واحدٍ اختلفَ خلقه، ولم يعتدل وزنه، وصارَ أحدهما هوائياً والآخرُ أرضياً فإذا قصَّ الجناحان جميعاً طار، وإن كان مقصوصاً فقد بلغَ بذلك التعديل من جناحيه أكثر مما كان يبلغُ بهما إذا كان أحدهما وافياً والآخرُ مبتوراً.

فالكلبُ الذي تدَّعون له الإلف وثبات العهد، لا يبلغُ هذا، وصاحبُ الدِّيكِ الذي لا يفخرُ للدِّيكِ بشيءٍ من الوفاء والحفاظ والإلف، أحقُّ بالأيعرض في هذا الباب.

قال: وقد يكون الإنسان شديدَ الحُضْر، فإذا قُطِعَتْ إحدى يديه فأراد العدوُّ أن يخطوه أقصر، وكان عن ذلك القصد والسَّنن أذهب، وكانت غايةً مجهوده أقرب.

حديث نباتة الأقطع وخبرني كم شئت، أن نباتة الأقطع وكان من أشدِّاء الفتيان وكانت يده قطعت من دوين المنكب، وكان ذلك في شقه الأيسر؛ فكان إذا صار إلى القتال وضرب بسيفه، فإن أصاب الضريبة ثبَّت، وإن أخطأ سقط لوجهه؛ إذ لم يكن جناحه الأيسر يُمسكه ويثقله حتى يعتدل بدنه. أجنحة الملائكة وقد طعن قومٌ في أجنحة الملائكة، وقد قال

اللَّهِ تَعَالَى: " الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي
الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ". وزعموا أَنَّ الجناحين كالليدين، وإذا كان
الجناح اثنين أو أربعة كانت معتدلة، وإذا كانت ثلاثة كان
صاحبُ الثلاثة كالجأف من الطير، الذي أخذ جناحيه
مقصوص، فلا يستطيع الطيران لعدم التعديل، وإذا كان أحدُ
جناحيه وافيًا والآخر مقصوصًا، اختلف خلقه وصار بعضه
يذهب إلى أسفل والآخر إلى فوق.

وقالوا: إنما الجناح مثل اليد، ووجدنا الأيدي والأرجل في
جميع الحيوان لا تكون إلا أزواجًا، فلو جعلتم لكل واحدٍ
منهم مائة جناح لم تُنكر ذلك، وإن جعلتموها أنقص بواحدٍ
أو أكثر بواحدٍ لم نجوزها.
قيل لهم: قد رأينا من ذوات الأربع ما ليس له قرن، ورأينا
ما له قرنان أملسان، ورأينا ما له قرنان لهما شعب في
مقاديم القرون، ورأينا بعضها جمًّا ولأخواتها قرون، ورأينا
منها ما لا يقال لها جمٌّ لأنها ليست لها شكل ذوات القرون،
ورأينا لبعض الشاء عدَّة قرون نابتة في عظم الرأس أزواجًا
وأفرادًا، ورأينا قرونًا جوفًا فيها قرون، ورأينا قرونًا لا
قرون فيها، ورأيناها مُصمّتة، ورأينا بعضها يتصل قرنه

في كلِّ سنة، كما تسلخ الحيَّة جلدها، وتنفضُ الأشجارُ ورقها، وهي قرون الأيائل، وقد زعموا أنَّ للحمار الهندي قرناً واحداً.

وقد رأينا طائراً شديداً الطيران بلا ريش كالخُفَّاش، ورأينا طائراً لا يطير وهو وافي الجناح، ورأينا طائراً لا يمشي وهو الزرزور، ونحن نُؤمن بأنَّ جعفرًا الطيارَ ابنَ أبي طالب، له جناحان يطير بهما في الجنان، جُعلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين في يوم مؤتة، وغير ذلك من أعاجيب أصناف الخلق.

فقد يستقيم - وهو سهلٌ جائزٌ شائعٌ مفهوم، ومعقول قريبٌ غير بعيد أن يكون إذا وُضع طباع الطائر على هذا الوضع الذي تراه ألا يطير إلا بالأزواج، فإذا وُضع على غير هذا الوضع، وركب غير هذا التركيب صارت ثلاثة أجنحة وفوق تلك الطبيعة، ولو كان الوطواط في وضع أخلاطه وأعضائه وامتزاجاته كسائر الطير، لما طار بلا ريش.

الطير الدائم الطيران وقد زعم البحريون أنهم يعرفون طائراً لم يسقط قط، وإنما يكون سقوطه من لدن خروجِه من بيضه إلى أن يتمَّ قصبُ ريشه، ثمَّ يطير فليس له رزق إلا من بعوض الهواء وأشباه البعوض؛ إلا أنَّ قصيرَ العمر سريعٌ

الانحطام.

بقية الحديث في أجنحة الملائكة وليس بمستنكر أن يُمزج الطائر ويُعجن غير عجنه الأول فيعيش ضعف ذلك العمر، وقد يجوز أيضاً أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين، فيكون الثالث للثاني والثاني للأول، وتكون كل واحدة من ريشة عاملة في التي تليها من ذلك الجسم فتستوي في القوى وفي الحصص.

ولعلَّ الجناح الذي أنكره الملحد الضيق العطن أن يكون مركز قوادمه في حاق الصلب.

ولعلَّ ذلك الجناح أن تكون الريشة الأولى منه معينة للجناح الأيمن والثانية معينة للجناح الأيسر، وهذا مما لا يضيِّق عنه الوهم، ولا يعجز عنه الجواز.

فإذا كان ذلك ممكناً في معرفة العبد بما أعاره الربُّ جلَّ وعزَّ، كان ذلك في قدرة الله أجوز، وما أكثر من يضيِّق صدره لقلَّة علمه.

أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان

وقد علموا أن كل ذي أربع فإنه إذا مشى قدم إحدى يديه، ولا يجوز أن يستعمل اليد الأخرى ويقدمها بعد الأولى حتى

يستعمل الرَّجُلُ المخالفة لتلك اليد: إِنْ كانت اليدُ المتقدِّمة اليمنى حَرَكَ الرَّجُلِ اليسرى، وإذا حَرَكَ الرَّجُلُ اليسرى لم يحرك الرَّجُلَ اليمنى - وهو أَقْرَبُ إليها وأشبهه بها - حَتَّى يحركَ اليَدَ اليسرى، وهذا كثير.

وفي طريقٍ أُخرى فقد يقال: إِنْ كَلَّ إِنسانٍ فَإِنما رُكِبته في رِجْلِه، وجميع ذوات الأربَعِ فَإِنما رُكِبها في أيديها، وكلُّ شيء ذي كَفٍّ وبنانٍ كالإنسان، والقرد، والأسد، والضَّبِّ، والدَّبِّ، فكفُّه في يده، والطائر لُفُّه في رِجْلِه.

استعمال الإنسان رِجْلِيه فيما يعملُه في العادة بيديه وما رأيتُ أحداً ليس له يَدٌ إلا وهو يعمل برِجْلِيه ما كان يعمل بيديه، وما أقف على شيء من عمل الأيدي إلا وأنا قد رأيتُ قوماً يتكفونُه بأرجلهم.

ولقد رأيتُ واحداً منهم راهنَ على أن يُفرِّغَ برِجْلِيه ما في دَسْتِيجة نبيذٍ في قناني رِطْلِيّاتٍ وفَقَّاعِيّاتٍ فراهنوه، وأزعجني أمرٌ فتركته عند ثقات لا أشك في خبرهم، فزعموا أَنه وَفَى وزاد، قلت: قد عرَفْتُ قولكم وفي فما معنى قولكم زاد قالوا: هو أَنه لو صبَّ من رأس الدَسْتِيجة حوالي أفواه القناني كما يعجز عن ضبطه جميع أصحاب الكمال في الجوارح، لما أنكرنا ذلك، ولقد فرَّغ ما فيها في جميع

القناني فما ضيِّع أوقيةً واحدة.

قيام بعض الناس بعمل دقيق في الظلام وخبرني الحزامي عن خليل أخيه، أنه متى شاء أن يدخُل في بيت ليلاً بلا مصباح، ويفرغ قربة في قناني فلا يصبُّ إستاراً واحداً فعله.

ولو حكى لي الحزامي هذا الصنيع عن رجل وُلِدَ أعمى أو عمي في صباه، كان يعجبني منه أقلُّ، فأما من تعود أن يفعل مثل ذلك وهو يبصر فما أشدَّ عليه أن يفعله وهو مغمض العينين، فإن كان أخوه قد كان يقدر على ذلك إذا غمض عينيه فهو عندي عجب، وإن كان يبصر في الظلمة فهو قد أشبه في هذا الوجه السُّتورَ والفأر، فإنَّ هذا عندي عجبٌ آخر وغرائب الدنيا كثيرة عند كلِّ من كان كلفاً بتعرافها، وكان له في العلم أصلٌ، وكان بينه وبين التبيين نَسَب.

اختلاف أحوال الناس عند سماعهم للغرائب وأكثر الناس لا تجدُّهم إلا في حالتين: إمَّا في حال إعراض عن التبيين وإهمال للنفس، وإمَّا في حال تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب، والرغبة في الفوائد، ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فضيلةً، وأن ذلك بابٌ من

التوقّي، وجنسٌ من استعظام الكذب، وأنه لم يكن كذلك إلاّ
من حاقّ الرّغبة في الصّدق، وبئس الشيء عادة الإقرار
والقبول، والحقّ الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه، وحثّ
عليه أن ننكر من الخبر ضربين: أحدهما ما تناقضَ
واستحال، والآخر ما امتنع في الطّبيعة، وخرج من طاقة
الخلقة، فإذا خرج الخبر من هذين البابين، وجرى عليه حكم
الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت وأن يكون الحقّ في ذلك هو
ضالتك، والصّدق هو بُغيتك، كائناً ما كان، وقع منك
بالموافقة أم وقع منك بالمكروه، ومتى لم تعلم أنّ ثواب
الحقّ وثمرّة الصّدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقَع
على أن تعطي التثبت حقّه.

تشبيه رماد الأثافي بالحمام

قال: وهم يصفون الرّماد الذي بين الأثافي بالحمامة،
ويجعلون الأثافي أظاراً لها، للانحناء الذي في أعالي تلك
الأحجار، ولأنّها كانت معطّفات عليها وحانيات على أولادها،
قال ذو الرّمّة:

على خرق بين

كأنّ الحمام الورق

فِي الدَّارِ جَثَمَتْ

الأثافي جَوَازِلُهُ

شَبَّهَ الرَّمَادَ بِالفِرَاحِ قَبْلَ أَنْ تَنْهَضَ وَالجُثُومَ فِي الطَّيْرِ مِثْلَ
الرُّبُوضِ فِي العَنَمِ، وَقَالَ الشَّمَاخُ:

وإِثْرُ رَمَادٍ

وَنُؤْيَيْنَ فِي

كَالْحَمَامَةِ مِثْلَ

مَظْلُومَتَيْنِ كُدَاهِمَا

وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ:

كَبَاقِي الوَحْيِ خُطَّ عَلَى إِمَامٍ مِنَ العَرَصَاتِ غَيْرِ
مَخَدِّ نُؤْيٍ

وغيرِ خِوَالِدٍ لُوَّخُنَ حَتَبَهُنَّ عِلَامَةً مِنْ غَيْرِ شَامِ

مَثَلُنَ وَلَمْ يَطْرُنَ مَعَ الحَمَامِ

وَقَالَ العَرَجِيُّ:

وَمَرَّبَطُ أَفْرَاسٍ

وَهَابِ كَجُثْمَانِ

وَخَيْمِ مُصَرَّعٍ

الحَمَامَةِ هَامِدُ

وَقَالَ البَعِيثُ:

وَسَخَقَ رَمَادٍ
كَالنَّصِيفِ مِنْ
العَصَبِ

وَيَسْفَعُ ثَوَيْنَ العَامِ
والعَامَ قَبْلَهُ

شعر في نوح الحمام وفي بيوتها

وقالوا في نوح الحمام، قال جرّان العود:

كأنّه صوتُ أنباطٍ
مَثَاكِيلِ

واستقبلوا وادياً نوحُ
الحمامِ بِهِ

وقالوا في ارتفاع مواضع بيوتها وأعشاشها، وقال الأعشى:

خيلاً وزرعاً نابتاً
وفصافصاً

ألم تر أن العرُضُ
أصبحَ بطنهُ

ترى للحمام الورقِ
فيه قرامصاً

وذا شُرُفاتٍ يقصرُ
الطرفِ دونهُ

وقال عمرو بن الوليد:

والقُصور التي بها

فتبدلتُ من مساكنِ

قومي

الآطامُ

كلَّ قصرٍ مشيّدٍ ذي
أواسٍ

تتغنى على ذراه
الحمائم

والحمام أيضاً ربما سكن أجواف الرّكايا، ولا يكون ذلك إلاّ
للّوحشيّ منها، وفي البير التي لا تُورد، قال الشاعر:

بدلو غير مُكربّة
أصابت

حماماً في مساكنه
فطّاراً

يقول: استقى بسفّرتّه من هذه البئر، ولم يستقِ بدلو، وهذه
بئر قد سكنها الحمام لأنّها لا تُوردُ، وقال جهم بن خلف:

وقد هاج شوقي أن
تغنت حمامة

مطوّقة ورقاء
تصدح في الفجر

هتوف تبكي ساق
حرّ ولن ترى

لها دَمعة يوماً على
خدّها تجري

تغنت بلحن
فاستجابت

نوائح بالأصياف

لصوتها

في فَنِّ السِّدْرِ

إِذَا فَتَرَتْ كَرَّتْ
بِلَحْنٍ شَجِّ لَهَا

يُهِيجُ لِلصَّبِّ
الْحَزِينَ جَوَى
الصِّدْرِ

دَعْتَهُنَّ مِطْرَابُ
العَشِيَّاتِ وَالضُّحَى

بصوتِ يَهِيحُ
المستهامِ على
الدُّكْرِ

فلم أرَ ذا وجدٍ
يزيدُ صِبابَةً

عليها، ولا تكلِي
تُبْكِي على بَحْرِ

فأُسْعَدْنَهَا بِالنُّوحِ
حَتَّى كَأَنَّما

شَرِبْنَ سُلَافًا مِنْ
مَعْتَقَةِ الخَمْرِ

تجاوَبْنَ لِحْنًا فِي
العُصُونِ كَأَنَّها

نواحُ مَيِّتٍ يَلْتَدِمْنَ
لدى قَبْرِ

بِسُرَّةِ وادٍ مِنْ
تَبَالَةِ مُونِقِ

كسا جانبيه الطَّلْحُ
واعتمَّ بالزَّهْرِ

استطرد لغوي ويقال: هدر الحمام يهدر، قال: ويقال في الحمام الوحشي من القماريِّ والفواخت والدَّباسي وما أشبه ذلك: قد هدل يهدل هديلاً، فإذا طَرَب قيل غَرَد يغرد تغريداً، والتغريد يكون للحمام والإنسان، وأصله من الطير. وأمَّا أصحابنا فيقولون: إنَّ الجمل يهدر، ولا يكون باللام، والحمام يهدل وربما كان بالراء. وبعضهم يزعم أنَّ الهديلَ من أسماء الحمام الذَّكر، قال الرَّاعي واسمه عبيد بن الحصين:

يدعُو بقارِعَةٍ
الطَّرِيقِ هديلاً

كهداهِ كَسَرَ
الرَّمَاءُ جَنَاحَهُ

ساق حُرٌّ وزعم الأصمعيُّ أنَّ قوله: هتوفُ تبكي ساق حُرٌّ إنما هو حكاية صوت وحشيِّ الطير من هذه النَّوَاحات، وبعضهم يزعم أنَّ ساق حُرَّ هو الذَّكر، وذهب إلى قول الطَّرْمَاح في تشبيهه الرَّماد بالحمام، فقال:

كسَراةِ السَّاقِ ساقِ
الحمامِ

بين أظَارِ
بمظلومةِ

صفة فرس وقال آخر يصف فرساً:

يُنْجِيهِ مِنْ مِثْلِ حَمَامِ
الْأُغْلَالِ

رَفَعُ يَدِ عَجَلَى
وَرَجُلِ شِمَالًا

تَظْمَأُ مِنْ تَحْتُ
وَتُرْوَى مِنْ عَالٍ

الأغلال: جمع غَلَلٍ، وهو الماء الذي يجري بين ظهري الشجر قال: والمعنى أن الحمام إذا كان يريد الماء فهو أسرع لها، وقوله: شمال أي خفيفة. ليس في الأرض جنس يعتريه الأوضاح والشيات، ويكون فيها المصمت والبهيمة أكثر ألواناً، و من أصناف التّحاسين ما يكون في الحمام، فمنها ما يكون أخضر مصمتاً، وأحمر مصمتاً وأسود مصمتاً، وأبيض مصمتاً، وضروباً من ذلك، كلها مصمتة، إلا أن الهداية للخضر النمر، فإذا ابيض الحمام كالفقيع فمثله من الناس الصّقلابي، فإن الصّقلابي فطيرٌ خامٌ لم تُنضجْه الأرحام؛ إذ كانت الأرحام في البلاد التي شمسها ضعيفة. وإن اسودّ الحمام فإنما ذلك احتراق، ومجازرة لحدّ النّضج، ومثلُ سود الحمام من الناس الزّنج؛ فإن أرحامهم جاوزت حدّ الإنضاح إلى الإحراق، وشيّطت الشمس شعورهم فتقبّضت.

والشَّعر إذا أدنَيْته من النَّار تجعَّد، فإنْ زدته تفلَّفل، فإنْ زدته
احترق.

وكما أنَّ عقول سُودانِ النَّاسِ وحُمرانهم دونَ عقول السُّمر،
كذلك بيضُ الحمامِ وسودُها دونَ الحُضْر في المعرفة
والهدايةِ.

استطراد لغوي وأصل الخضرة إنما هو لون الرِّيحان
والبقول، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضر، والسماءَ خضراء،
حتى سمَّوا بذلك الكُحلَّ والليل.
قال الشَّمَّاخ بنُ ضرار:

زُبالةٌ جلباباً من
الليلِ أخضرا

ورُحْنٌ رَواحاً مَنْ
زَرُودٌ فنازعت

وقال الرَّاجز:

مثل انتضاء البطلِ
السَّيفِ الذَّكْرُ

حتى انتضاء الصُّبحِ
من ليلِ خُضِرِ

نضو هوى بالِ على
نضو سَفَرِ

وقال الله عز وجل: "ومن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَمَّتَانِ" قال: خضراوان من الرِّي سوداوان.
ويقال: إن العراقَ إِنَّمَا سَمِّي سواداً بِلَوْنِ السَّعْفِ الَّذِي فِي النَّخْلِ، وَمَائِهِ.

والأسودان: الماء والتمر، والأبيضان: الماء واللبن، والماء أسودٌ إذا كان مع التمر، وأبيض إذا كان مع اللبِن.
ويقولون: سُودُ البَطُونِ وَحَمْرُ الكُلَى، ويقولون: سَودُ الأَكْبَادِ يريدون العداوة، وأن الأحقاد قد أحرقت أكبادهم، ويقال للحافر أسود البطن؛ لأن الحافر لا يكون في بطونها شحم.
ويقولون: نحن بخير ما رأينا سواد فلان بين أظهرنا، يريدون شخصه، وقالوا: بل يريدون ظله.
فأما خضْرُ مُحَارِبٍ، فإنما يريدون السُّودَ وكذلك: خُضْرُ غَسَّانٍ.

ولذلك قال الشاعرُ:

أهلَ البَرِيصِ ثَمَانٍ
منهُمُ الحَكْمُ

إنَّ الخَضارِمَةَ
الخُضْرُ الَّذينَ غَدَوْا

ومن هذا المعنى قول القرشي في مديح نفسه:

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ
يَعْرِفُنِي

أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي
بَيْتِ الْعَرَبِ

وَإِذَا قَالُوا: فَلَانَ أَخْضَرَ الْقَفَا، فَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ قَدْ وَلِدَتْهُ
سُودَاءٌ، وَإِذَا قَالُوا: فَلَانَ أَخْضَرَ الْبَطْنَ، فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ أَنَّهُ
حَائِكٌ، لِأَنَّ الْحَائِكَ بَطْنُهُ لَطُولُ التَّرَاقِيقِ بِالْخَشْبَةِ الَّتِي يَطْوِي
عَلَيْهَا الثَّوْبَ يَسْوَدُّ.

عِدَاوَةُ الْعَرُوضِيِّ لِلنِّزَامِ وَكَانَ سَبَبُ عِدَاوَةِ الْعَرُوضِيِّ
لِإِبْرَاهِيمِ النِّزَامِ، أَنَّهُ كَانَ يَسْمِيهِ الْأَخْضَرَ الْبَطْنَ، وَالْأَسْوَدَ
الْبَطْنَ؛ فَكَانَ يَكْشِفُ بَطْنَهُ لِلنَّاسِ - يَرِيدُ بِذَلِكَ تَكْذِيبَ أَبِي
إِسْحَاقَ - حَتَّى قَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَزْوَانَ: إِنَّمَا يَرِيدُ أَنَّكَ
مِنْ أَبْنَاءِ الْحَاكَةِ فَعَادَاهُ لِذَلِكَ.

اسْتِطْرَادَ لِعُيُوبٍ فَإِذَا قِيلَ أَخْضَرَ النَّوْاجِذَ، فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ أَنَّهُ
مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، مِمَّنْ يَأْكُلُ الْكُرَّاثَ وَالْبَصْلَ.
وَإِذَا قِيلَ لِلثَّوْرِ: خَاضَبٌ؛ فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ أَنَّ الْبَقْلَ قَدْ خَضَبَ
أَظْلَافَهُ بِالْخَضْرَاءِ، وَإِذَا قِيلَ لِلظَّلِيمِ: خَاضَبٌ، فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ
حَمْرَةً وَظَلِيمِيَّةً فَإِنَّمَا يَحْمَرُّانِ فِي الْقَيْظِ، وَإِذَا قِيلَ لِلرَّجُلِ
خَاضَبٌ، فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ الْحِنَاءَ فَإِذَا كَانَ خَضَابُهُ بغيرِ الْحِنَاءِ
قَالُوا: صَبَغَ وَلَا يُقَالُ خَضَبٌ.

ويقولون في شبيهه بالباب الأول: الأحمران: الذهب
والزعفران، والأبيضان: الماء واللبن، والأسودان: الماء
والتمر.

ويقولون: أهلك النساء الأحمران: الذهب والزعفران،
وأهلك الناس الأحمر: الذهب، والزعفران، واللحم، والخمر.
والجديدان: الليل والنهار، وهما الملوان.
والعصر: الدهر، والعصران: صلاة الفجر وصلاة العشي،
والعصران: الغداة والعشي، قال الشاعر:

وَيَرْضَى بِنِصْفِ
الدَّيْنِ وَالْأَنْفِ رَاغِمٌ

وَأَمْطَلَهُ الْعَصْرَيْنِ
حَتَّى يَمَلَّنِي

ويقال: البائع بالخيار وإنما هو البائع والمشتري، فدخل
المبتاع في البائع.
وقال الله عز وجل: "وَلَأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا
تَرَكَ"، دخلت الأم في اسم الأبوة، كأنهم يجمعون على أبنه
الاسمين وكقولهم: ثبيرين، والبصرتين، وليس ذلك
بالواجب؛ وقد قالوا: سيرة العمرين، وأبو بلو فوق عمر،
قال الفرزدق:

لنا قمرًاها والنَّجْمُ
الطَّوَالِغُ

أخذنا بآفاقِ
السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ

وأما قولُ ذي الرُّمَّةِ:

بأربعةٍ والشَّخْصُ
في العَيْنِ وَاحِدٌ

وليلٍ كجلبابِ
العَرُوسِ أدرَعْتُهُ

فإنه ليس يريد لونَ الجلبابِ، ولكنَّه يريد سُبُوغَهُ.
جواب أعرابيِّ قال: وكذلك قول الأعرابيِّ حين قيل له: بأيِّ
شيءٍ تعرفُ حَمَلَ شاتِكِ؟ قال: إذا استفاضتْ خاصرتُها،
ودَجَّتْ شَعْرَتُها، فالدَّاجي هاهنا اللابسُ.
قال الأصمعي ومسعود بن فيد الفزاري: ألا ترونه يقول:
كان ذلك وثوبُ الإسلامِ داج، وأما لفظ الأصمعيِّ فإنَّه قال:
كان ذلك منذُ دَجَا الإسلامُ، يعني أنه ألبس كلَّ شيءٍ.

شِيَاتِ الحَمَامِ

ثمَّ رجع بنا القولُ إلى ذكر شِيَاتِ الحَمَامِ.
وزعموا أنَّ الأوضاحَ كُلَّها ضَعْفٌ، قليلها وكثيرها، إلا أنَّ
ذلك بالحِصصِ على قدرِ الكثرةِ والقلَّةِ، كذلك هي في جميع
الحيوانِ سِوَاةٍ مستقبُلُها ومستدبرُها، وذلك ليس بالواجبِ

حتى لا يغادر شيئاً البتة؛ لأنَّ الكَلْبَةَ السَّلَوَقِيَّةَ البِيضَاءَ أَكْرَمُ
وأصِيدُ، وأصْبِرُ مِنَ السَّوْدَاءِ.

والبياضُ فِي النَّاسِ عَلَى ضُرُوبٍ: فالْمَعِيبُ مِنْهُ بِيَاضُ
الْمُغْرَبِ وَالْأَشْقَرُ وَالْأَحْمَرُ أَقْلٌ فِي الضَّعْفِ وَالْفَسَادِ، إِذَا كَانَ
مَشْتَقًّا مِنْ بِيَاضِ الْبَهَقِ وَالْبَرَصِ وَالْبَرَشِ وَالشَّيْبِ.
وَالْمُغْرَبُ عِنْدَ الْعَرَبِ لَا خَيْرَ فِيهِ الْبِتَّةِ، وَالْفَقِيعُ لَا يُنْجِبُ،
وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا حَسَنُ بِيَاضِهِ، عِنْدَ مَنْ اشْتَهَى ذَلِكَ.
سَوَابِقُ الْخَيْلِ وَزَعَمَ ابْنُ سَلَامٍ الْجَمْحِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَرَ قَطُّ بَلْقَاءَ
وَلَا أَبْلَقَ جَاءَ سَابِقًا، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمْ يَسْبِقِ الْحَلْبَةَ أَهْضَمُ
قَطُّ؛ لِأَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ الْمُجْفَرَ مِنَ الْخَيْلِ، كَمَا قَالَ:

يَرْجِعُ إِلَى دِقَّةٍ وَلَا
هَضْمٍ

خَيْطٌ عَلَى زَفْرَةٍ
فَتَمَّ وَلَمْ

وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْفَرَسَ بَعُنْقِهِ وَبَطْنِهِ.
وَخَبَّرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا، أَنَّهُ رَأَى فَرَسًا لِلْمَأْمُونِ بَلْقَاءَ
سَبَقَتِ الْحَلْبَةَ، وَهَذِهِ نَادِرَةٌ غَرِيبَةٌ.

نِظَافَةُ الْحَمَامِ وَنَفْعُ ذَرْقِهِ

والحمام طائر أوفّ مألوف ومحَبَّب، موصوفٌ بالنّظافة، حتى إنّ ذرّقه لا يعاف ولا نتن له، كسُلاح الدّجاج والدّيكة، وقد يُعالج بذرّقه صاحبُ الحِصاة، والفلاحون يجدون فيه أكثرَ المنافع، والخبّاز يُلقي الشيء منه في الخمير لينتفخ العجينُ ويعظّم الرغيف، ثمّ لا يستبينُ ذلك فيه، ولذرّقه غلاتٌ، يعرف ذلك أصحاب الحُجر، وهو يصلحُ في بعض وُجوه الدّبغ.

الحمامُ طائرٌ لئيمٌ قاسي القلب

وقال صاحبُ الدّيكَ: الحمامُ طائرٌ لئيمٌ قاسي القلب، وإن برّ بزعمكم ولدَ غيره، وصنّع به كما يصنع بفرخه؛ وذلك أنهما يحضنان كلَّ بيض، ويُرْقان كلَّ فرخ، وما ذاك منهما إلّا في الفرط.

لؤم الحمام فأما لؤمه فمن طريق الغيرة، فإنّه يرى بعينه الدّكر الذي هو أضعف منه، وهو يطردُ أنثاه ويكسحُ بدنبه حولها، ويتطوّس لها ويستميلها، وهو يرى ذلك بعينه - ثمّ لم نر قط ذكراً واثبَ ذكراً عند مثل ذلك.

فإذا قلت: إنّه يشتدُّ عليه ويمنعه إذا جثمت له وأراد أن يعلوها؛ فكلُّ ذكر وأنثى هنالك يفعل ذلك، وليس ذلك من

الذكر الغريب من طريق الغيرة، ولكنّه ضربٌ من البُخل ومن النَّفاسة، وإذا لم يكن من ذكْرِها إلاّ مثلُ ما يكون من جميع الحمام علم أنّ ذلك منه ليس من طريق الغيرة، وأنا رأيت النواهض تفعل ذلك، وتقطع على الذكر بعد أن يعلو على الأنثى.

قال: وأمّا ما ذكرتم من أن الحمام معطوفٌ على فراخه ما دامت محتاجةً إلى الرِّقّ، فإذا استغنت نُزعت منها الرحمة، فليس ذلك كما قلتم، الحمام طائرٌ ليس له عهد؛ وذلك أنّ الذَّكر ربما كانت معه الأنثى السَّنين، ثمّ تُنقل عنه وتواري عنه شهراً واحداً، ثم تظهر له مع زوج أضعف منه، فيراها طولَ دهره وهي إلى جنب بيته وتماريدَه فكأنه لا يعرفها بعد معرفتها الدَّهرَ الطويل، وإنما غابت عنه الأيام اليسيرة، فليس يوجّه ذلك الجهلُ الذي يُعامل به فراخه بعد أن كبرت، إلاّ على الغباوة وسوءِ الذَّكر، وأنّ الفرخ حين استوى ريشه وأشبهه غيره من الحمام جهلِ الفصل الذي بينهما.

فإن كان يعرف أنثاه وهو يجدها مع ذكْرٍ ضعيف وهو مسلمٌ لذلك وقانعٌ به، وقليلُ الاكتراثِ به، فهو من لؤمٍ في أصل الطبيعة.

قسوة الحمام قال: وبابٌ آخر من لؤمه: القسوة، وهي الأُمُّ

اللَّوْم؛ وذلك أن الدَّكْر ربَّما كان في البيت طائرٌ ذكرٌ قد اشتدَّ
ضعفه، فينقرُّ رأسه والآخِرُ مستخذي له، قد أمكَّنه من رأسه
خاضعاً له، شديد الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمه لضعفه
وعجزه عنه، ولا هو يرحمه لخضوعه، ولا هو يملُّ وليس
له عنده وتر، ثم ينقرُّ يافوخه حتى ينقب عنه، ثم لا يزال
ينقرُّ ذلك المكانَ بعد النَّقْب حتى يُخرِج دِمَاعَهُ فيموت بين
يَدَيْهِ.

فلو كان ممَّا يأكل اللَّحْمَ واشتهى الدماغ كان ذلك له عذراً؛
إذ لم يعد ما طَبَعَ اللهُ عليه سِبَاعِ الطيرِ.

فإذا رأينا من بعض بهائم الطيرِ من القسوة ما لا نرى من
سِبَاعِ الطيرِ لم يكن لنا إلا أن نقضيَ عليه من اللوْمِ على
حسب مباينته لشكل البهيمة، ويزيد في ذلك على ما في
جوارح الطيرِ من السَّبُعِيَّةِ.

أقوال لصاحب الديك في الحمام وقال صاحب الديك: زعم أبو
الأصبغ بن ربي قال: كان رَوْحٌ أبو همام صاحب المعمى،
عند مثنى ابن زهير، فبينما هو يوماً وهو معه في السطح إذ
جاء جماعة فصعدوا، فلم يلبث أن جاء آخرون، ثم لم يلبث
أن جاء مثلهم، فأقبل عليهم فقال: أيُّ شيءٍ جاء بكم؟ وما
الذي جمَعكم اليوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي يرجع فيه مزاجيل

الحمّام من الغايّة، قال: ثمّ ماذا؟ قالوا: ثمّ نتمتّع بالنظر إليها إذا أقبلت، قال: لكنني أتمتّع بتغميض العين إذا أقبلت، وترك النظر إليها ثمّ نزل وجلس وحده.

التلّهّي بالحمّام

وقال مثنى بن زهير ذات يوم: ما تلّهّي الناسُ بشيءٍ مثل الحمّام، ولا وجدنا شيئاً مما يتخذُه الناس ويلعبُ به ويُلّهّي به، يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجدّ - كالحمام - وأبو إسحاق حاضر - فغاظه ذلك، وكظم على غيظه، فلمّا رأى مثنى سكوته عن الردّ عليه طمع فيه فقال: يبلغ والله من كرم الحمّام ووفائه، وثبات عهده، وحنينه إلى أهله، أنّي ربّما قصصت الطائر وبعد أن طار عندي دهراً، فمتى نبت جناحه كنباته الأوّل، لم يدعه سوءٌ صنعِي إليه إلى الدّهاب عني، ولربّما بعته فيقصّه المبتاع حيناً، فما هو إلّا أن يجد في جناحه قوّة على النهوض حتّى أراه أتاني جادفاً أو غير جادف، وربّما فعلت ذلك به مراراً كثيرة، كلّ ذلك لا يزداد إلّا وفاءً.

قال أبو إسحاق: أمّا أنت فأراك دائماً تحمده وتذمّ نفسك، ولننّ كان رجوعه إليك من الكرم إنّ إخراجك له من اللّوم

وما يُعجبني من الرّجال مَنْ يَفْطَعُ نَفْسَهُ لصلّةِ طائر، وينسى ما عليه في جنب ما للبهيمة، ثم قال: خبّرني عنك حين تقول: رَجَعَ إِلَيَّ مرّةً بعد مرّة، وكلما زهدتُ فيه كان فيّ أرغب، وكلما باعدتُه كان لي أطلب؛ إليك جاء، وإليك حنّ أم إلى عُشّه الذي درج منه، وإلى وكره الذي رُبّي فيه؟ رأيت أن لو رَجَعَ إلى وكره وبيته ثمّ لم يجدك، وأفاك غائباً أو ميّتاً، أكان يرجعُ إلى موضعه الذي خلفه؟ وعلى أنك تتعجّب من هدايته، وما لك فيه مقالٌ غيره، فأما شكرك على إرادته لك، فقد تبينَ خطاؤك فيه، وإنما بقي الآن حسنُ الاهتداء، والحنينُ إلى الوطن.

مشابهة هداية الحمام لهداية الرخم

وقد أجمعوا على أنّ الرّخَمَ من لئام الطير وبغائها، وليست من عتاقها وأحرارها، وهي من قواطع الطير، ومن موضع مَقْطَعها إلينا ثمّ مرجعها إليه من عندنا، أكثرُ وأطول من مقدار أبعد غايات حمامكم، فإن كانت وقت خُروجها من أوطانها إلينا خرجت تقطع الصّحارى والبراريّ والجزائر والغياض والبحار والجبال، حتّى تصير إلينا في كلّ عام - فإن قلت إنّها ليست تخرج إلينا على سمتٍ ولا على هداية

ولا دَلَالَةٍ، ولا على أَمَارَةٍ وَعَلَامَةٍ، وإنما هَرَبْتُ مِنَ الثَّلُوجِ
وَالْبَرْدِ الشَّدِيدِ، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى الطَّعْمِ، وَأَنَّ الثَّلَجَ قَدْ
أَلْبَسَ ذَلِكَ الْعَالَمَ، فَخَرَجْتُ هَارِبَةً فَلَا تَزَالُ فِي هَرَبِهَا إِلَى أَنْ
تَصَادِفَ أَرْضاً خِصْباً دَفْنًا، فَتَقِيمُ عِنْدَ أَدْنَى مَا تَجِدُ - فَمَا
تَقُولُ فِيهَا عِنْدَ رَجُوعِهَا وَمَعْرِفَتِهَا بِانْحِسَارِ الثَّلُوجِ عَنِ
بِلَادِهَا؟ أَلَيْسَتْ قَدْ اهْتَدَتْ طَرِيقَ الرُّجُوعِ؟ وَمَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ
تِلْكَ الْأَطْرَافِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ التَّجَارِبِ وَعِنْدَ الْقَانِصِ، أَنَّ
طَيْرَ كُلِّ جِهَةٍ إِذَا قَطَعَتْ رَجَعَتْ إِلَى بِلَادِهَا وَجِبَالِهَا
وَأَوْكَارِهَا، وَإِلَى غِيَاضِهَا وَأَعَشَّتِهَا، فَتَجِدُ هَذِهِ الصَّفَةَ فِي
جَمِيعِ الْقَوَاطِعِ مِنَ الطَّيْرِ، كِرَامِهَا كِلْنَامِهَا، وَبِهَائِمِهَا
كِسْبَاعِهَا، ثُمَّ لَا يَكُونُ اهْتِدَاؤُهَا عَلَى تَمْرِينَ وَتَوْطِينِ، وَلَا
عَنْ تَدْرِيبٍ وَتَجْرِيْبٍ، وَلَمْ تَلْقَنَّ بِالتَّعْلِيمِ، وَلَمْ تَنْبِتْ بِالتَّدْبِيرِ
وَالْتَقْوِيمِ، فَالْقَوَاطِعُ لِأَنْفُسِهَا تَصِيرُ إِلَيْنَا، وَلِأَنْفُسِهَا تَعُودُ إِلَى
أَوْكَارِهَا.

وكذلك الأوابد من الحمام، لأنفسها ترجع، وإفها للوطن إلفاً
مشاركاً مقساماً على جميع الطير، فقد بطل جميع ما ذكرت.
قواطع السمك ثم قال: وأعجب من جميع قواطع الطير
قواطع السمك، كالأسبور والجواف والبرستوج، فإن هذه
الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار، تستعذب الماء

في ذلك الإبان، كأنها تتحمّضُ بحلاوة الماء وعذوبته، بعدَ
مُلوحةِ البحر؛ كما تتحمّضُ الإبلُ فتتطلب الحمضَ - وهو
ملحٌ - بعدَ الخلة - وهو ما حلا وعذب.
طلب الأسد للملح والأسد إذا كثرت من حسو الدماء -
والدماء حلوة - وأكل اللحم واللحم حلو - طلبت الملح
لتملح به، وتجعله كالحمض بعد الخلة.
ولولا حسن موقع الملح لم يدخله الناس في أكثر طعامهم.
والأسد يخرج للتملح فلا يزال يسير حتى يجد ملاحه، وربما
اعتاد الأسد مكاناً فيجده ممنوعاً، فلا يزال يقطع الفراسخ
الكثيرة بعد ذلك فلذا تملح رجوع إلى موضعه وغيبته
وعرينه، وغابه وعريسته، وإن كان الذي قطع خمسين
فرسخاً.

قواطع السمك ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التي يقبل إلينا
فيها هذه الأصناف وهي تقبل مرتين في كل سنة، ثم نجدُها
في إحداهما أسمن الجنس، فيقيم كلُّ جنس منها عندنا
شهرين إلى ثلاثة أشهر، فإذا مضى ذلك الأجل، وانقضت
عدة ذلك الجنس، أقبل الجنس الآخر، فهم في جميع أقسام
شهور السنة من الشتاء والربيع، والصيف والخريف، في
نوع من السمك غير النوع الآخر، إلا أن البرستوج يقبل

إلينا قاطعاً من بلاد الزنج، يستعذب الماء من دجلة البصرة،
يعرف ذلك جميع الزنج والبحريين.
بُعد بلاد الزنج والصين عن البصرة وهم يزعمون أنّ الذي
بين البصرة والزنج، أبعد مما بين الصين وبينها.
وإنما غلط ناسٌ فزعموا أنّ الصين أبعد، لأن بحر الزنج
حفرةٌ واحدة عميقة واسعة، وأمواجها عظام، ولذلك البحر
ريحٌ تهبُّ من عُمان إلى جهة الزنج شهرين، وريحٌ تهبُّ من
بلاد الزنج تريدُ جهة عُمان شهرين، على مقدارٍ واحدٍ فيما
بين الشدة واللين، إلا أنها إلى الشدة أقرب، فلما كان البحرُ
عميقاً والريحُ قويّةً، والأمواجُ عظيمةً، وكان الشراغُ لا
يحطُّ، وكان سيرهم مع الوتر ولم يكن مع القوس، ولا
يعرفون الخبِّ والمكلاّ، صارت الأيام التي تسير فيها
السفن إلى الزنج أقل.
البرستوج قال: والبرستوج سمكٌ يقطعُ أمواج الماء،
ويسيح إلى البصرة من الزنج، ثم يعودُ ما فضلَ عن صيد
الناس إلى بلاده وبحره، وذلك أبعدُ ممّا بين البصرة إلى
العليق المرار الكثيرة، وهم لا يصيدون من البحر فيما بين
البصرة إلى الزنج من البرستوج شيئاً إلا في إبان مجئها
إلينا ورجوعها عنّا، وإلا فالبحر منها فارغٌ خالٍ.

فَعَامَةُ الطَّيْرِ أَعْجَبُ مِنْ حَمَامِكُمْ، وَعَامَّةُ السَّمَكِ أَعْجَبُ مِنْ
الطَّيْرِ.

هداية السمك والحمام

والطَّيْرُ ذُو جَنَاحِينَ، يَحْتَقُّ فِي الْهَوَاءِ، فَلَهُ سُرْعَةُ الدَّرَكِ
وَبَلُوغِ الْغَايَةِ بِالطَّيْرَانِ، وَلَهُ إِدْرَاكُ الْعَالَمِ بِمَا فِيهِ بِعَلَامَاتِ
وَأَمَارَاتِ إِذَا هُوَ حَلَّقَ فِي الْهَوَاءِ، وَعَلَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ،
وَالسَّمَكَةُ تَسْبَحُ فِي عَمْرِ الْبَحْرِ وَالْمَاءِ، وَلَا تَسْبَحُ فِي أَعْلَاهِ،
وَنَسِيمُ الْهَوَاءِ الَّذِي يَعِيشُ بِهِ الطَّيْرُ لَوْ دَامَ عَلَى السَّمَكِ
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ لَقَتَلَهُ.
وَقَالَ أَبُو الْعَنْبَرِ: قَالَ أَبُو نُخَيْلَةَ الرَّاجِزُ وَذَكَرَ السَّمَكُ:

فَلَا يَزَالُ مُغْرَقًا
يَعُومُ

وَأُمَّهُ الْوَالِدَةَ
الرُّوومُ

تَعْمَهُ النُّشْرَةَ
وَالنَّسِيمَ

فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ لَهُ
تَخْمِيمُ

تَلْهَمُهُ جَهْلًا وَمَا
يَرِيمُ

يقول: النشرة والنسيم الذي يحيي جميع الحيوانات، إذا طال عليه الخُموم واللّخُن والعَفَن، والرُّطوبات الغليظة، فذلك يغمّ السمك ويكرُّبه، وأمّه التي ولدته تأكله؛ لأنّ السمك يأكل بعضه بعضاً، وهو في ذلك لا يريمُ هذا الموضع. وقال رؤبة:

يُصْبِحُ عَطْشَانَ
وفي الماءِ فَمُهُ

والحوت لا يكفيه
شيءٌ يلهمه

يصف طباعه واتّصاله بالماء، وأنّه شديد الحاجة إليه، وإن كان غرقاً فيه أبداً. شعر في الهجاء وأنشدني محمّد بنُ يسير لبعض المدنيّين، يهجو رجلاً، وهو قوله:

لنزا حتّى يموتاً

لو رأى في السقفِ
فرجاً

صار فيه الدهر
حوتاً

أو رآه وسط بحرٍ

قال: يقول في العَوْصِ في البَحْرِ، وفي طُول اللَّبْثِ فيه.
شعر في الضفدع وقال الذكواني، وهو يصف الضفدع:

كَيْمَا يَنْقُ وَالنَّقِيقُ
يُتْلِفُهُ

يُدْخِلُ فِي الْأَشْدَاقِ
مَاءً يَنْصُفُهُ

قال: يقول: الضفدع لا يصوت، ولا يتهيأ له ذلك حتى يكون
في فيه ماء، وإذا أراد ذلك أدخل فكه الأسفل في الماء،
وترك الأعلى حتى يبلغ الماء نصفه.
والمثل الذي يَتَمَثَّلُ بِهِ النَّاسُ: فلان لا يستطيع أن يجيب
خُصومَه لأنَّ فاهُ مَلانَ ماءً، وقال شاعرهم:

يا مَنْ هَوِيْتُ وَلَكِنْ
في فَمِي ماءً

وما نسيت مكان
الأمريكِ بذا

وإنما جعلوا ذلك مثلاً، حينَ وجدوا الإنسانَ إذا كان في فمه
ماءً على الحقيقة لم يَسْتَطِعِ الكلامَ، فهو تأويلُ قولِ
الذكواني:

يُدْخِلُ فِي الْأَشْدَاقِ مَاءً يَنْصُفُهُ

بفتح الياءِ وضمِّ الصادِ، فإنَّه ذهبَ إلى قولِ الشاعر:

أشمرّ حتى ينصفَ
الساقَ منزري

وكنت إذا جاري
دعا لمضوفةٍ

المضوفة: الأمر الذي يشفقُ منه.
وكقول الآخر:

فإنَّ الظنَّ ينصفُ أو يزيدُ

وهذا ليس من الإنصاف الذي هو العدل، وإنما هو من بلوغ
نصف الساق.
وأما قوله:

كيما ينقّ والنقيقُ يتلفهُ

فإنه ذهب إلى قول الشاعر:

فدلَّ عليها صوتها
حياة البحر

ضفادع في ظلماء
ليل تجاوبت

معرفة العرب والأعراب بالحيوان وقلَّ معنى سمعناه في باب
معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء
والمتكلمين - إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار

العرب والأعراب، وفي معرفة أهل لغتنا ومِلَّتنا، ولولا أن يطول الكتابُ لذكرتُ ذلكَ أجمع، وعلى أنني قد تركتُ تفسيرَ أشعار كثيرة، وشواهد عديدة مما لا يعرفه إلا الراويةُ النَّحرير؛ من خوف التّطويل.

حمام النساء وحمام الفراخ

وقال أفليمون صاحبُ الفِراسة: اجعل حمامَ النساءِ المسرّواتِ العِظامَ الحِسانَ، ذواتِ الاختيالِ والتَّبخرِ والهدير؛ واجعل حمامَ الفِراخِ ذواتِ الأنسابِ الشريفةِ والأعراقِ الكريمة، فإنَّ الفِراخَ إنّما تكثُر عن حُسنِ التَّعهدِ، ونظافةِ القراميصِ والبُروجِ، واتَّخذُ لهنَّ بيتاً محفوراً على خِلقةِ الصَّومعة، محفوراً من أسفلهِ إلى مقدارِ ثلثي حيطانِهِ بالتماريد، ولتلكُ واسعةٌ وليكنَ بينها حَجاز، وأجودُ ذلكَ أن تكونَ تماريدُها محفورةٌ في الحائطِ على ذلكَ المِثالِ، وتعهّدُ البُرجَ بالكنسِ والرَّشِّ في زمانِ الرِّشِّ، وليكنَ مخرُجُهُنَّ من كَوِّ في أعلى الصَّومعة، وليكنَ مقتصداً في السَّعةِ والضَّيقِ، بقدر ما يدخُلُ منه ويخرُجُ منه الواحدُ بعدَ الواحدِ، وإن استطعتَ أن يكونَ البيتُ بقُربِ مزرعةٍ فافعلْ، فإنَّ أعجزَكَ المنسوبُ منها فالتمسْ ذلكَ بالفِراسةِ التي لا تخطئُ وقلمًا

يُخْطَى، المتفرّس.

قال: وليس كلُّ الهدى تَقْوَى على الرجعة من حيثُ أرسلتُ؛ لأنَّ منها ما تفضل قوّته على هدايته، ومنها البطيء وإن كان قوياً، ومنها السّريع وإن كان ضعيفاً، على قدر الحنين والاعتزام، ولا بدّ لجميعها من الصّرامة، ومن التّعليم أوّلاً والتّوطين آخراً.

انتخاب الحمام

وقال: جماع الفِرَاسَةِ لا يَخْرُج من أربعة أوجه: أوّلها التقطيع، الثاني المجسّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة. فالتقطيع: انتصاب العنق والخِلْقة، واستدارة الرأس من غير عِظْم ولا صِغَر، مع عظم القرطمتين، واتّساع المنخرين، وانهرات الشدقين وهدان من أعلام الكرم في الخيل؛ للاسترواح وغير ذلك، ثمّ حُسْنُ خِلْقة العينين، وقصر المنقار في غير دِقّة ثمّ اتّساع الصّدر وامتلاء الجوّ، وطول العنق، وإشراف المنكبين، وطول القوادم في غير إفراط، ولحوق بعض الخوافي ببعض، وصلابة العصب في غير انتفاخ ولا يَبس واجتماع الخلق في غير الجعودة والكزّارة، وعِظْمُ الفخذين، وقصر الساقين والوظيفين،

وافترق الأصابع، وقصر الذنب وخفته، من غير تفنين
وتفرق، ثم توفد الحذقتين، وصفاء اللون، فهذه أعلام
الفراسة في التقطيع.

وأما أعلام المجسة، فوثاقة الخلق، وشدة اللحم، ومثانة
العصب، وصلابة القصب، ولين الريش في غير رقة
وصلابة المنقار في غير دقة.

وأما أعلام الشمائل، فقلة الأختيال، وصفاء البصر وثبات
النظر وشدة الحذر، وحسن التلفت، وقلة الرعدة عند الفرع،
وخفة النهوض إذا طار، وترك المبادرة إذا لقط.
وأما أعلام الحركة، فالطيران في علو، ومد العنق في سمو،
وقلة الاضطراب في جو السماء، وضم الجناحين في
الهواء، وتدافع الركض في غير اختلاط، وحسن القصد في
غير دوران، وشدة المد في الطيران، فإذا أصبته جامعاً لهذه
الخصال فهو الطائر الكامل، وإلا فبقدر ما فرغ من المحاسن
تكون هدايته وفرأته.

أدواء الحمام وعلاجها

قال: فاعلموا أن الحمام من الطير الرقيق، الذي تسرع إليه
الآفة، وتغروه الأدوية، وطبيعته الحرارة واليبس، وأكثر

أدوائه الخُنان والكباد، والعُطاش، والسل، والقمل، فهو
يحتاج إلى المكان البارد والنظيف، وإلى الحبوب الباردة
كالعدس والماش والشعير المنخول، والقرطم له بمنزلة
اللحم للإنسان؛ لما فيه من قوة الدسم.

فمما يعالج به الكباد: الزعفران والسكر الطبرزد، وماء
الهندباء يجعل في سكرجة، ثم يُوجر ذلك أو يمج في حلقه
مجاً وهو على الرقيق.

ومما يعالج به الخُنان: أن يلين لسانه يوماً أو يومين بدهن
البنفسج، ثم بالرماد والملح، يُدلك بها حتى تنسلخ الجلدة
العليا التي غشيت لسانه، ثم يطلى بعسل ودهن ورد، حتى
يببرأ.

ومما يعالج به السل: أن يطعم الماش المقشور، ويمج في
حلقه من اللبن الحليب، ويقطع من وظيفه عرقان ظاهران
في أسفل ذلك، مما يلي المفصل من باطن. ومما يعالج به
القمل: أن يطلى أصول ريشه بالزبيق المحلل بدهن
البنفسج، يفعل به ذلك مرّات حتى يسقط قملُه؛ ويُكنس
مكانه الذي يكون فيه كنساً نظيفاً.

تعليم الحمام وتدريبه

وقال: اعلم أنّ الحمامَ والطيرَ كلّها لا يصلحُ التّغْمِيرُ بهِ من البُعدِ، وهدايته على قدرِ التّعليمِ، وعلى قدرِ التّوطينِ، فأوّلُ ذلك أن يخرج إلى ظهرِ سطحٍ يعطو عليه، ويُنصَبَ عليه علَمٌ يعرفُه، ويكونَ طيرانه لا يجاوزُ محلّته، وأن يكونَ علفُه بالغداةِ والعشيّ، يُلقى له فوقَ ذلك السّطحِ، قريباً من علَمِه المنصوبِ له، حتّى يألَفَ المكانَ ويتعوّدَ الرّجوعَ إليه، ولكن ليُنظَرُ مِنْ أيّ شيءٍ يتخذُ العَلَمَ؟ فإنّه لا ينبغي أن يكونَ أسوداً، ولا يكونَ شيئاً تراه من البُعدِ أسوداً، وكلما كانَ أعظمَ كانَ أدلّ.

ولا ينبغي أن يطيره وزوجته معاً، ولكن يَنْتَفُ أحدهما ويطيرُ الآخرَ، ويُخرِجانِ إلى السّطحِ جميعاً، ثمّ يطيرُ الوافي الجناح؛ فإنّه يِنازِعُ إلى زوجته، وإذا عَرَفَ المكانَ، ودَارَ ورجعَ، وألَفَ ذلكَ الموضعَ، ونبتَ ريشُ الآخرِ، صنَعَ بهِ كذلك.

وأجود من ذلك أن يُخرِجا إلى السّطحِ وهما مقصوصان، حتّى يألُفا ذلكَ الموضعَ، ثمّ يطيرَ أحدهما قبلَ صاحبه، ويُصنَعُ بالثّاني كما صنَعَ بالأوّلِ. وما أشبه قولهُ هذا بقول ماسرجويه؛ فإنّه وصفَ في كتابه، طباعَ جميعِ الألبانِ، وشربها للدّواءِ، فلَمّا فرغَ من الصّفةِ

قال: وقد وصفت لك حال الألبان في أنفسها، ولكن انظرُ إلى من يسقيك اللبن؛ فإنَّك بدءاً تحتاجُ إلى تنظيفِ جوفك، وتحتاجُ إلى مَنْ يعرفُ مقدارَ علَّتكَ من قدرِ اللبن، وجنسِ علَّتكَ من جنسِ اللبن.

حوار مع نجار

ومثلُ ذلك قول نجارٍ كان عندي، دعوته لتعليقِ بابٍ ثمينٍ كريمٍ فقلت له: إنَّ إحكامَ تعليقِ البابِ شديداً ولا يحسنه من مائةِ نجارٍ نجارٌ واحد، وقد يُذكرُ بالحدِّق في نجارةِ السُّقوفِ والقِبابِ، وهو لا يكملُ لتعليقِ بابٍ على تمامِ الأحكامِ فيه، والسُّقوفِ، والقِبابِ عندِ العامَّةِ أصعبُ.

ولهذا أمثال: فمن ذلك أنَّ الغلامَ والجاريةَ يشويانِ الجدِّيَ والحملَ ويحكمانِ الشَّيَّ، وهما لا يُحكمانِ شَيَّْ جنبٍ، ومَنْ لا عِلْمَ له يظنُّ أنَّ شَيَّْ البَعْضِ أهونُ من شَيَّْ الجميعِ.

فقال لي: قد أحسنتَ حينَ أعلمتني أنَّكَ تُبصرُ العملَ، فإنَّ معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشفيقِ، فَعَلَّقَهُ فَأَحْكَمَ تَعْلِيْقَهُ؛ ثمَّ لم يكنْ عندي حَلْقَةٌ لوجهِ البابِ إذا أردتُ إصفاقه، فقلت له: أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الغلامُ إلى السوقِ ويرجع، ولكن اثقب لي موضعها، فلما ثقبهُ وأخذ حقه ولآتي ظهره

للانصراف، والنفث إليّ فقال: قد جودت الثقب، ولكن انظر
أي نجار يدق فيه الزرة؛ فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق
الباب - والشق عيب - فعلت أنه يفهم صناعته فهماً تاماً.

قص الحمام ومنتفه

وبعض الناس إذا أراد أن يعلم زوجاً قصهما ولم ينتفهما،
وبين النتف والقص بون بعيد، والقص كثير القص لا يوجع
ولا يقرح مغارز قصب الريش، والنتف يوهن المنكبين، فإذا
نتف الطائر مراراً لم يقو على الغاية، ولم يزل واهن
المنكبين، ومتى أبطأ عليه فنتفه وقد جفت أصوله وقربت
من الطرح لئان أهون عليه، وكلما كان النبات أطراً كان
أضر عليه، وإنه ليبلغ من مضرته، وأن الذكر لا يجيد
الإلقاح، والأنثى لا تجيد القبول، وربما نتفت الأنثى وقد
احتشت بيضاً، وقد قاربت أن تبيض، فتبطئ بعد وقتها
الأيام؛ وربما أضر ذلك بالبيض.

زجل الحمام

قال: وإذا بلغ الثاني مبلغ الأول في استواء الريش،
والاهتداء إلى العلم، طيراً جميعاً، ومنعاً من الاستقرار؛ إلا
أن يظن بهما الإعياء والكلال، ثم يوطن لهما المراجل براً

وبخراً، من حيث يبصران إذا هما ارتفعا في الهواء السّمت
ونفس العَلم، وأقاصي ما كانا يريانها منها عند التّباعد في
الدّوران والجّولان، فإذا رجعا من ذلك المكان مرّات زُجلا
من أبعد منه - وقد كانوا مرّةً يعجبهم أن يزجلوا من جميع
التّوطينات، ما لم تبعّد، مرّتين مرّتين - فلا يزالان كذلك حتّى
يبلغا الغاية، ويكون أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه؛
ليتذكّره فيرجع إليه، فإن خيف عليه أن يكون قد ملّ زوجته،
عرضت عليه زوجةً أخرى قبل الزّجل؛ فإذا تسنّمت مرّةً
حيلَ بينه وبينها يومه ذلك، ثمّ عرضوها عليه قبل أن
يُحمل، فإذا أطاف بها نُحيت عنه، ثمّ حمل إلى الزّاجل؛ فإنّ
ذلك أسرع له.

وقال: اعلموا أنّ أشدّ المزاجل ما قلّت أعلامه، كالصّحارى
والبحار.

قال: والطير تختلف في الطّباع اختلافاً شديداً: فمنها القويّ،
ومنها الضعيف، ومنها البطيء، ومنها السّريع، ومنها
الدّهول، ومنها الدّكور، ومنها القليل الصّبر على العطش،
ومنها الصّبور، وذلك لا يخفى فيهنّ عند التّعليم والتّوطين،
في سرعة الإجابة والإبطاء، فلا تبعدنّ غاية الضّعيف
والدّهول والقليل الصّبر على العطش، ولا تزجلنّ ما كان

منشؤه في بلا الحرّ في بلاد البرد، ولا ما كان منشؤه في بلاد البرد في بلاد الحرّ؛ إلا ما كان بعد الاعتیاد، ولا یصبرُ على طول الطيران في غير هوائه وأجوائه طائرٌ إلا بطول الإقامة في ذلك المكان، ولا تستوي حاله وحال من لا يعدو هوائه والهواء الذي يقرب من طباع هوائه.

تعليّم الحمام ورود الماء قال: ولا بدّ أن يُعلّم الورود، فإذا أردت به ذلك فأوردّه العيون والغدران والأنهار، ثمّ حلّ بينه وبين النّظر إلى الماء، حتى تكفّ بصره بأصابعك عن جهة الماء واتّسع المورد، إلا بقدر ما كان يشرب فيه من المساقى، ثمّ أوسع له إذا عبّ قليلاً بقدر ما لا يرّوعه ذلك المنظر وليكن معطشاً؛ فإنه أجدر أن يشرب، تفعل به ذلك مراراً، ثمّ تفسح له المنظر أولاً أولاً، حتى لا ينكر ما هو فيه، فلا تزال به حتى يعتاد الشرب بغير سترة.

استئناسه واستيحاشه قال: واعلم أنّ الحمام الأهلّي الذي عايش النّاس، وشرب من المساقى ولقظ في البيوت يختلّ بالوحدة، ويستوحش بالعربة.

قال: واعلم أنّ الوحشيّ يستأنس، والأهلّي يستوحش.
قال: واعلم أنّه ينسى التّأديب إذا أهمل، كما يتأدّب بعد الإهمال.

ترتيب الزجل وإذا زجَلت فلا تُخَطِّف به من نصف الغاية إلى الغاية، ولكن رتَّب ذلك؛ فإنه ربَّما اعتاد المجيء من ذلك البُعد، فمتى أرسلته من أقرب منه تحيِّر، وأراد أن يبتدئ أمره ابتداءً، وهم اليوم لا يفعلون ذلك؛ لأنَّه إذا بلغ الرِّقَّة أو فوق ذلك شيئاً فقد صار عُقْدَةً، وصار له ثمنٌ وعَلَّة، فهو لا يرى أن يُخاطر بشيءٍ له قدر، ولكنه إن جاء من هيت أدرب به؛ لأنَّه إن ذهب لم يذهب شيءٌ له ثمن، ولا طائر له رياسة؛ وليس له اسم ولا ذِكر؛ وإن جاء جاء شيء كبير وخطير، وإن جاء من الغاية فقد حوى به ملكاً، على هذا هم اليوم.

وقال: لا ترسل الزَّاق حتى تستأنف به الرِّياضة ولا تدع ما تُعده للزَّجال أن يحصن بيضاً، ولا يجثم عليه، فإن ذلك ممَّا ينقضه ويفتِّحه، ويعظم له رأسه، لأنَّه عند ذلك يسمن وتكثر رطوبته فتقذف الحرارة تلك الرُّطوبة الحادَّة العارضة إلى رأسه، فإن ثقب البيض وزق وحضن، احتجت إلى تضميره واستئناف سياسته، ولكن إن بدا لك أن تستفرخه فانقل بيضه إلى غيره، بعد أن تُعلمه بعلامة تعرفه بها إذا انصدع. علاج الحمام الفرع وإن أصاب الحمام أيضاً فرغ ودُعِر؛ عن طلب شيء من الجوارح له، فأياك أن تُعيده إلى الزجل حتى

ترضمه وتستفرخه؛ فإن ذلك الدُّعْرَ لا يفارقه ولا يسكن
حتى تستأنفَ به التَّوطين. طريقة استكثار الحمام وإن أردتَ
أن تستكثرَ من الفِراخِ فاعزِلِ الذُّكُورَةَ عن الإناثِ شهراً أو
نحوه، حتى يصلِ بعضها على بعض، ثم اجمع بينها؛ فإنَّ
بيضها سيكثرُ ويقلُّ سقطهٌ ومُرُوقه، وكذلك كلُّ أرضٍ
أثيرت، وكذلك الحِيَالُ لما كان من الحيوان حائلاً، قال
الأعشى:

ضٌّ وَرَعِي الحِمَى
وَطُولُ الحِيَالِ

مِنْ سَرَاةِ الهِجَانِ
صَلَّبَهَا العُ

وقال الحارث بن عبادٍ وجَعَلَ ذلك مثلاً:

لَقِحَتْ حَرْبٌ وائلَ
عن حِيَالِ

قَرَّباً مَرْبِطَ
النَّعَامَةِ مِنِّي

حديث أفليمون عن نفع الحمام

وقال أفليمون صاحب الفِرَاسَةِ، لصاحبه: وأنا محدِّثك عن
نفع الحمام بحديثٍ يزيدك رغبةً فيها: وذلك أنَّ مَلِكِينَ طلب
أحدهما مُلْكَ صاحبه، وكان المطلوبُ أكثرَ مالا وأقلَّ رجالاً،

وأخصب بلاداً، وكانت بينهما مسافة من الأرض بعيدة، فلما بلغه ذلك دعا خاصته فشاورهم في أمره وشكا إليهم خوفه على ملكه، فقال له بعضهم: دامت لك أيها الملك السلامة، ووقيت المكروه إن الذي تآقت له نفسك قد يُحتال له باليسير من الطمع، وليس من شأن العاقل التَّغْرِيرُ، وليس بعد المناجزة بقيّة، والمناجز لا يدري لمن تكون الغلبة، والتمسك بالثقة خير من الإقدام على الغرر، وقال بعضهم: دام لك العز، ومدد لك في البقاء ليس في الدلّ درك ولا في الرضا بالضيم بقيّة، فالرأي اتخاذ الحصون وإنكاء العيون، والاستعداد للقتال؛ فإن الموت في عز خير من الحياة في ذل.

وقال بعضهم: وقيت وكفيت، وأعطيت فضل المزيد الرأي طلب المصاهرة له والخطبة إليه؛ فإن الصهر سبب ألفة تقع به الحرمة، وتثبت به المودة، ويحلّ به صاحبه المحل الأدنى، ومن حلّ من صاحبه هذا المحلّ لم يخلّه مما عراه، ولم يمتنع من مناوأة من ناواه، فالتمس خلطته؛ فإنه ليس بعد الخلطة عداوة، ولا مع الشركة مباينة.

فقال لهم الملك: كلّ قد أشار برأي، ولكلّ مدة، وأنا ناظر في قولكم، وبالله العصمة، وبشكره تتمّ النعمة، وأظهر الخطبة

إلى الملك الذي فوقه، وأرسل رُسلًا، وأهدى هدايا، وأمرهم بمصانعة جميع من يصل إليه، ودسَّ رجالاً من ثقاته، وأمرهم باتخاذ الحمام في بلاده وتوطينهنَّ، واتخذ أيضاً عند نفسه مثلهنَّ، فرفعهن من غاية إلى غاية، فجعل هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم، وجعل من عند الملك يرسلون من بلاد الملك، وأمرهم بمكاتبتِه بخبر كلِّ يوم، وتعليق الكتب في أصولِ أجنحة الحمام، فصار لا يخفى عليه شيء من أمره، وأطمعه الملك في التزويج واستفردَه وطاوله، وتابع بين الهدايا، ودسَّ لحرسه رجالاً يلاطفونهم حتى صاروا يبيتون بأبوابه معهم، فلما كتب أصحابه إليه بغرَّتهم وصل الخبر إليه من يومه، فسار إليه في جندٍ قد انتخبهم، حتى إذا كان على ليلةٍ أو بعض ليلة، أخذ بمجامع الطُّرق، ثم بيَّتَهُمْ ووثبَ أصحابه من داخل المدينة وهو وجنده من خارج، ففتحوا الأبوابَ وقتلوا الملك، وأصبح قد غلبَ على تلك المدينة، وعلى تلك المملكة، فعظَّم شأنه، وأعظَّمته الملوك، ودكر فيهم بالحزم والكيد.

وإنما كان سبب ذلك كله الحمام.

حديث آخر في نفع الحمام قال: وأحدِّثك عن الحمام أيضاً بحديثٍ آخر في أمر النساء والرجال وما يصاب من اللدَّة

فِيهِنَّ، وَالصَّوَابُ فِي مَعَامِلَتِهِنَّ، قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا أَتَانِي
مَرَّةً فَشَكَا إِلَيَّ حَالَهُ فِي فَتَاةٍ عُلِقَها فَتَزَوَّجَهَا، وَكَاتِ جَارِيَّةً
غِرًّا حَسَنَاءَ، وَكَانَتْ بَكَرًا ذَاتَ عَقْلِ وَحِيَاءَ، وَكَانَتْ غَرِيرَةً
فِي مَا يَحْسِنُ النِّسَاءُ مِنْ اسْتِمَالَةِ أَهْوَاءِ الرِّجَالِ، وَمِنْ أَخْذِهَا
بِنَصِيبِهَا مِنْ لَذَّةِ النِّسَاءِ فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا امْتَمَعْتُ عَلَيْهِ، وَدَافَعْتَهُ
عَنْ نَفْسِهَا، فَزَاوَلَهَا بِكُلِّ ضَرْبٍ كَانَ يَحْسَنُهُ مِنْ لُطْفٍ،
وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا مِنْ نِسَائِهِ وَنِسَائِهَا مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا تَقْبَلُ مِنْهُنَّ،
فَأَعْيَتْهُنَّ، حَتَّى هَمَّ بِرَفْضِهَا مَعَ شِدَّةِ وَجْدِهِ بِهَا، فَاتَّانِي فَشَكَا
ذَلِكَ إِلَيَّ مَرَّةً، فَأَمَرْتَهُ أَنْ يُفْرِدَهَا وَيَخْلِيَهَا مِنَ النَّاسِ، فَلَا
يَصِلُ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَأَنْ يَضَعَفَ لَهَا الْكِرَامَةَ فِي اللَّطْفِ وَالْإِقَامَةِ
لَمَّا يُصَلِحُهَا مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ وَطِيبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
مِمَّا تَلْهُو بِهِ امْرَأَةٌ وَتَعْجَبُ بِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ خَادِمَهَا أَعْجَمِيَّةً لَا
تَفْهَمُ عَنْهَا، وَهِيَ فِي ذَلِكَ عَاقِلَةٌ، وَلَا تَفْهَمُهَا إِلَّا بِالْإِيمَاءِ؛
حَتَّى تَسْتَوْحِشَ إِلَيْهَا وَإِلَى كُلِّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنَ النِّسَاءِ
وَحَتَّى تَشْتَهِيَ أَنْ تَجِدَ مَنْ يَرَاغِبُهَا الْكَلَامَ وَتَشْكُو إِلَيْهِ وَخَشَةَ
الْوَحْدَةِ، وَأَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا أَزْوَاجًا مِنَ الْحَمَامِ، ذَوَاتِ صُورَةٍ
حَسَنَةٍ، وَتَخِيلُ وَهْدِيرَ فَيُصَيِّرُهُنَّ فِي بَيْتٍ نَظِيفٍ، وَيَجْعَلُ لَهُنَّ
فِي الْبَيْتِ تَمَارِيدَ وَبَيْنَ يَدَيِ الْبَيْتِ حَجْرَةَ نَظِيفَةً، وَيَفْتَحُ لَهَا
مِنْ بَيْتِهَا بَابًا فَيَصْرُنُ نُصَبَ عَيْنِهَا فَتَلْهُو بِهِنَّ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ،

ويجعل دخوله عليها في اليوم دَفْعَةً إلى تلك الحمام،
والتسلي بهنّ، والاستدعاء لهنّ إلى الهدير ساعة، ثم
يخرج، فإنّها لا تلبث أن تتفكّر في صنيعهنّ إذا رأت حالهنّ؛
فإنّ الطّبيعة لا تلبثُ حتى تحرّكها، ويكون أوفق المقاعد لها
الدنوّ منهنّ، وأغلب الملاهي عليها النّظر إليهنّ؛ لأنّ
الحواس لا تؤدي إلى النّفس شيئاً من قبل السمع، والبصر،
والذوق، والشمّ والمجسة إلاّ تحرّك من العقل قي قبول ذلك
أو ردّه، والاحتياي في إصابته أو دفعه، والكراهية له أو
السّرور به بقدر ما حرّك النّفس منه، فإذا رأيت الغالب
عليها الدنوّ منهنّ، والتأمّل لهنّ، فأدخل عليها امرأة مجرّبة
عزلة تأنس بها، وتفطنها لصنيعهنّ، وتعجّبها منهنّ،
وتستميل فكرتها إليهنّ، وتصف لها موقع اللذة على قدر ما
ترى من تحريك الشهوة، ثمّ أخرج المرأة عنها، وحاول
الدنوّ منها، فإنّ رأيت كراهيةً أمسكت وأعدت المرأة إليها،
فإنها لا تلبث أن تمكّنك، فإن فعلت ما تحبّ وأمكنك بعض
الإمكان، ولم تبّلغ ما تريد فأخبرني بذلك.
قال: وقلت له: مرّ المرأة فلتسألها عن حالها في نفسها،
وحالك عندها، فلعلّ فيها طبيعةً من الحياء تمنعها من
الانبساط، ولعلّها عرّت لا يلتمس ما قبلها من الخرق، ففعل،

وأمر المرأة أن تكشفها عن ذات نفسها، فشكت إليها
الخرق، فأشارت عليها بالمتابعة، وقالت: اعتبري بما ترين
من هذا الحمام؛ فقد ترين الزوجين كيف يصنعان قالت: قد
تأملت ذلك فعجبتُ منه، ولستُ أحسنُه فقالت لها: لا تمنعي
يدهُ ولا تحملي علي نفسك الهيبة، وإن وجدتِ من نفسك
شيئاً تدعوكِ إليه لذةً فاصنعيه؛ فإنَّ ذلك يأخذُ بقلبه، ويزيدُ
في محبتك، ويحرِّك ذلك منه أكثرَ مما أعطاك، فلم يلبث أن
نال حاجته وذهبت الحشمة، وسقطت المداراة فكان سببُ
الصنع لهما، والخروج من الوحشة إلى الأُس، ومن الحال
الداعية إلى مفارقتها إلى الحال الداعية إلى ملازمتها،
والضنُّ بها - الحمام.

الخوف على النساء من الحمام

وما أكثرَ من الرجال، من ليسَ يمنعه من إدخال الحمام إلى
نساءه إلا هذا الشيء الذي حثَّ عليه صاحبُ الفراسة؛ وذلك
أنَّ تلك الرؤية قد تدكّر وتشهي وتمحن، وأكثرُ النساء بين
ثلاثة أحوال: إمَّا امرأة قد مات زوجها، فتحريك طباعها
خطر بأمانتها وعفافها، والمغيبة في مثل هذا المعنى،
والثالثة: امرأة قد طال لبثها مع زوجها؛ فقد ذهب

الاستطراف، وماتت الشهوة، وإذا رأت ذلك تحرك منها كلُّ
ساكن وذكّرت ما كانت عنه بمندوحة.
والمرأة سليمة الدين والعرض والقلب، ما لم تهجس في
صدرها الخواطر، ولم تتوهم حالات اللذة وتحرك الشهوة،
فأما إذا وقع ذلك فعزمها أضعف العزم، وعزمها على ركوب
الهوى أقوى العزم.
فأما الأبقار الغريرات فهنّ إلى أن يؤخذن بالقراءة في
المصحف، ويحتال لهن حتى يصرن إلى حال التشيخ
والجبن والكزازة وحتى لا يسمعن من أحاديث الباه والغزل
قليلاً ولا كثيراً - أحوج.
نادرة لعجوز سندية ولقد ركبت عجوزٌ سنديةً ظهر بعير،
فلما أقبلي بها هذا البعير وأدبر وطمر، فمخضها مرّةً
مخض السقاء، وجعلها مرّةً كأنها ترهز فقالت بلسانها -
وهي سندية أعجمية - أخزى الله هذا الذمل؛ فإنه يذكر
بالسرّ تريد: أخزى الله هذا الجمل، فإنه يذكر بالشر، حدثنا
بهذه النادرة محمد بن عبّاد بن كاسب نادرة لعجوز من
الأعراب وحدثنا ربعي الأنصاري: أن عجوزاً من الأعراب
جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً لهم، فسقوها
قدحاً فطابت نفسها، وتبسمت؛ ثم سقوها قدحاً آخر فاحمر

وجَهِهَا وَضَحِكَتْ، فَسَقَوْهَا قَدْحًا ثَالِثًا فَقَالَتْ: خَبَّرُونِي عَنْ
نِسَائِكُمْ بِالْعِرَاقِ، أَيَشْرَبِينَ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ،
فَقَالَتْ: زَيْنَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ.

عقاب خصي

وزعم إبراهيم الأنصاري المعتزلي أنَّ عباس بن يزيد بن
جرير دَخَلَ مَقْصُورَةً لِبَعْضِ حَوَارِيهِ، فَأَبْصَرَ حَمَامًا قَدْ قَمَطَ
حَمَامَةً، ثُمَّ كَسَحَ بِذَنْبِهِ وَنَفَسَ رِيْشَهُ، فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا
الْحَمَامُ؟ فَقَالُوا: لِفُلَانِ خَادِمِكَ - يَغْنُونَ خَصِيًّا لَهُ - فَقَدَّمَهُ
فَضْرَبَ عُنُقَهُ.

قول الحطيئة في الغناء وقد قال الحطيئة لفتيان من بني
قُريِيع - وقد كانوا ربَّما جَلَسُوا بِقُرْبِ خَيْمَتِهِ، فَتَغَنَّى بَعْضُهُمْ
غِنَاءَ الرِّكْبَانِ - فقال: يا بني قريِيع إِيَّايَ وَالْغِنَاءَ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ
الزَّانَا.

أبو أحمد التمار وصاحب حمام وأما أبو أحمد التمار المتكلم،
فإنَّه شَاهَدَ صَاحِبَ حَمَامٍ فِي يَوْمٍ مَجِيءِ حَمَامِهِ مِنْ وَاسِطٍ،
وَكَانَتْ وَاسِطٌ يَوْمَئِذٍ الْغَايَةَ، فَرَأَاهُ كَلِمًا أَقْبَلَ طَائِرٌ مِنْ حَمَامِهِ
نَعْرَ وَرَقَصَ، فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى مِنْكَ عَجَبًا؛ أَرَأَيْكَ تَفْرَحُ
بِأَنْ جَاءَكَ حَمَامٌ مِنْ وَاسِطٍ، وَهُوَ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ، وَهُوَ الَّذِي

جاء، وهو الذي اهتدى؛ وأنتَ لم تجئ ولم تهتد؛ وحين جاء
 من واسط، لم يجئ معه بشيءٍ من خبر أبي حمزة، ولا
 بشيءٍ من مقاريض واسط، وبزيون واسط، ولا جاء معه
 أيضاً بشيءٍ من خَطْمِيٍّ، ولا بشيءٍ من جوز ولا بشيءٍ من
 زبيب، وقد مرَّ بكسكَرَ فأين كان عن جداء كسكَر، ودجاج
 كسكَر، وسمك كسكَر، وصحناة كسكَر، ورُبَيْثاء كسكَر
 وشعير كسكَر؟ وذهب صحيحاً نشيطاً، ورجع مريضاً
 كسلان، وقد غرمت ما غرمت فقل لي: ما وجه فرحك؟
 فقال: فرحي أنني أرجو أن أبيعَه بخمسين ديناراً، قال: ومَنْ
 يشتريه منك بخمسين ديناراً؟ قال: فلان، وفلان، فقام
 ومضى إلى فلان فقال: زعم فلان أنك تشتري منه حماماً
 جاء من واسط بخمسين ديناراً؟ قال: صدق، قال: فقل لي
 لم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنه جاء من واسط، قال:
 فإذا جاء من واسط فلم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنِّي
 أبيع الفرخ منه بثلاثة دنائير، والبيضة بدينارين، قال: ومن
 يشتري منك؟ قال: مثل فلان وفلان، فأخذ نَعْلَه ومضى إلى
 فلان، فقال: زعم فلان أنك تشتري منه فرخاً من طائر جاء
 من واسط بثلاثة دنائير، والبيضة بدينارين، قال: صدق،
 قال: فقل لي: لم تشتري فرخة بثلاثة دنائير؟ قال: لأنَّ أباه

جاء من واسط، قال: ولم تشتريه بثلاثة دنانير إذا جاء أبوه
 من واسط؟ قال: لأنني أرجو أن يجيء من واسط، قال: وإذا
 جاء من واسط فأبي شيء يكون؟ قال: يكون أن أبيعَه
 بخمسين ديناراً، قال: ومن يشتريه منك بخمسين ديناراً؟
 قال: فلان، فتركه ومضى إلى فلان، فقال: زعم فلان أن
 فرخاً من فراخه إذا جاء أبوه من واسط اشتريته أنت منه
 بخمسين ديناراً، قال: صدق، قال: ولم تشتريه بخمسين
 ديناراً قال: لأنه جاء من واسط، قال: وإذا جاء من واسط لم
 تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: فأعاد عليه مثل قول الأول،
 فقل: لا رزق الله من يشتري حماماً جاء من واسط بخمسين
 ديناراً، ولا رزق الله إلا من لا يشتريه بقليل ولا بكثير.
 نوادر لأبي أحمد التمار وأبو أحمد هذا هو الذي قال - وهو
 يعظ بعض المسرفين - لو أن رجلاً كانت عنده ألف ألف
 دينار ثم أنفقها كلها لذهبت لظها، وإنما سمع قول القائل: لو
 أن رجلاً عنده ألف ألف دينار فأخذ منها ولم يضع عليها
 لكان خليقاً أن يأتي عليها.
 وهو القائل في قصصه: ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه
 وسلم حق الجار، وقال فيه قولاً أستحيي والله من ذكره.
 وهو الذي قال لبعضهم: بلغني أن في بستانك أشياء تهمني،

فأحبُّ أن تَهَبَ لي منه أمراً من أمرِ الله العظيم.
وكان زَجَّالاً قبل أن يكون تماراً.
وزعم سليمان الزَجَّال وأخوه ثابت، أنه قبل أن يكون تماراً
قال يوماً - وذكر الحمام، حين زَهْد في بيع الحمام؛ وذكر
بعض الملوك - فقال: أمَّا فلان فإنه لما بلغني أنه يلعب
بالحمام سقط من عيني.
والله سبحانه وتعالى أعلم.
تمَّ القولُ في الحمام، والحمد لله وحده.

أجناس الدُّبَّان

بِسْمِ اللَّهِ، وبِاللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَصَلَّى
اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ،
وعلى أبرار عِثْرَتِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ.
أوصيك أيُّها القارئ المتفهم، وأيُّها المستمع المنصت
المصيخ، ألا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته، ولا تستصغر قدره
لقلَّةِ ثمن.

دلالة الدقيق من الخلق على الله

ثمَّ اعلم أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على الله من الحصاة، ولا الفلَّكُ
المشتمل على عالمنا هذا بأدلَّ على الله من بدن الإنسان،

وَأَنَّ صَغِيرَ ذَلِكَ وَدَقِيقَهُ كِعَظِيمِهِ وَجَلِيلِهِ، وَلَمْ تَفْتَرِقِ الْأُمُورُ فِي حَقَائِقِهَا، وَإِنَّمَا افْتَرَقَ الْمَفْكَرُونَ فِيهَا، وَمَنْ أَهْمَلَ النَّظَرَ، وَأَغْفَلَ مَوَاضِعَ الْفَرْقِ، وَأَفْصُولَ الْحُدُودِ.

فَمَنْ قَبِلَ تَرْكَ النَّظَرَ، وَمَنْ قَبِلَ قَطْعَ النَّظَرَ، وَمَنْ قَبِلَ النَّظَرَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ النَّظَرَ، وَمَنْ قَبِلَ الْإِخْلَالَ بِبَعْضِ الْمَقْدَمَاتِ، وَمَنْ قَبِلَ ابْتِدَاءَ النَّظَرِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ، وَاسْتَتَمَّ النَّظَرَ مَعَ انْتِظَامِ الْمَقْدَمَاتِ - ااخْتَلَفُوا.

فَهَذِهِ الْخِصَالُ هِيَ جُمَاعُ هَذَا الْبَابِ، إِلَّا مَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنْ بَابِ الْعِجْزِ وَالنَّقْصِ، فَإِنَّ الَّذِي امْتَنَعَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ قَبْلِ النُّقْصَانِ الَّذِي فِي الْخَلْقَةِ بَابٌ عَلَى حِدَةٍ.

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا بَابَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ، وَالتَّقْصِيرِ وَالتَّكْمِيلِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسِيءَ الظَّنَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ لِاضْطِرَابِ الْخَلْقِ، وَلِتَفَاوُتِ التَّرْكِيبِ، وَلِأَنَّهُ مَشْنُوءٌ فِي الْعَيْنِ، أَوْ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ النَّفْعِ وَالرَّدِّ؛ فَإِنَّ الَّذِي تَظُنُّ أَنَّهُ أَقْلُهُ نَفْعاً لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَهَا رَدًّا، فَإِلَّا يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ عَاجِلِ أَمْرِ الدُّنْيَا، كَانَ ذَلِكَ فِي آجِلِ أَمْرِ الدِّينِ، وَثَوَابُ الدِّينِ وَعِقَابُهُ بَاقِيَانِ، وَمَنَافِعُ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ؛ فَلِذَلِكَ قَدِّمْتَ الْآخِرَةَ عَلَى الْأُولَى.

فَإِذَا رَأَيْتَ شَيْئاً مِنَ الْحَيَوَانِ بَعِيداً مِنَ الْمَعَاوَنَةِ، وَجَاهِلاً بِسَبَبِ الْمَكَانِفَةِ، أَوْ كَانَ مِمَّا يَشْتَدُّ ضَرَرُهُ، وَتَشْتَدُّ الْحِرَاسَةُ

منه، كذوات الأنبياء من الحيّات والذئاب وذوات المخالب من
الأسد والنمور، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدّبر،
فاعلم أنّ مواقع منافعها من جهة الامتحان، والبَلوى، ومن
جهة ما أعد الله عزّ وجلّ للصّابرين، ولمن فهم عنه، ولمن
علم أنّ الاختيار والاختبار لا يكونان والدنيا كلّها شرّاً صرفاً
أو خيراً محضاً؛ فإنّ ذلك لا يكون إلّا بالمزوجة بين المكروه
والمحبوب، والمؤلم والمليّد، والمحقر والمعظم، والمأمون
والمخوف، فإذا كان الحظّ الأوفّر في الاختبار والاختيار،
وبهما يتوسل إلى ولاية الله عزّ وجلّ، وأبد كرامته، وكان
ذلك إنما يكون في الدار الممزوجة من الخير والشرّ،
والمشتركة والمركبة بالنّفع والضرّ، المشوبة باليسر
والعسر- فليعلم موضع النّفع في خلق العقرب، ومكان
الصنّع في خلق الحيّة، فلا يحقرنّ الجرّجس والفرّاش والذرّ
والدّبان ولتقف حتى تتفكّر في الباب الذي رميت إليك
بجمليته، فإنّك ستختبر حمداً لله عزّ وجلّ على خلق الهمج
والحشرات وذوات السّموم والأنبياء، كما تحمده على خلق
الأغذية من الماء والنّسيم. فإنّ أردت الزّراية والتحقير،
والعداوة والتّصغير، فاصرف ذلك كلّهُ إلى الجنّ والإنس،
واحقرّ منهم كلّ من عمل عملاً من جهة الاختيار يستوجب

به الاحتقار، ويستحقُّ به غايةً المقت من وجهٍ، والتصغيرَ من وجهٍ.

فإن أنت أبغضت من جهة الطبيعة، واستثقلت من جهة الفطرة ضربين من الحيوان: ضرباً يقتلك بسمه، وضرباً يقتلك بشدة أسره لم تلم، إلا أن عليك أن تعلم أن خالقهما لم يخلقهما لأذاك، وإنما خلقهما لتصبر على أذاهما، ولأن تنال بالصبر الدرجة التي يستحيل أن تنالها إلا بالصبر، والصبر لا يكون إلا على حالٍ مكروه، فسواءً عليك أكان المكروه سبباً وثاباً، أو كان مرصاً قاتلاً، وعلى أنك لا تدري لعلَّ النزع، والعزَّ والحشرجة، أن يكون أشدَّ من لدغ حية، وضغمة سبع، فالأ تكُن له حُرقة كحرق النار وألم كالم الدهق، فلعلَّ هناك من الكرب ما يكون موقعه من النفس فوق ذلك.

وقد عمنا أن الناس يُسمون الانتظار لوقع السيف على صليف العنق جهذ البلاء؛ وليس ذلك الجهد من شكل لدع النار، ولا من شكل ألم الضرب بالعصا، فافهم فهمك الله مواقع النفع كما يعرفها أهل الحكمة وأصحاب الأحساس الصحيحة.

ولا تذهب في الأمور مذهب العامة، وقد جعلك الله تعالى من

الخاصة، فإنك مسؤول عن هذه الفضيلة، لأنها لم تجعل لعباً، ولم تترك هملاً، واصرف بُغضك إلى مُريد ظلمك، لا يراقب فيك إلا ولا ذمّة، ولا مودة، ولا كتاباً ولا سنّة، وكلما زادك الله عزّ وجلّ نعمة ازداد عليك حنقاً، ولك بُغضاً، وفرّ كلّ الفرار واهرب كلّ الهرب، واحترس كلّ الاحتراس، ممن لا يراقب الله عزّ وجلّ؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين، إمّا أن يكون لا يعرف ربّه مع ظهور آياته ودلالاته، وسبوغ آلائه، وتتابع نعمائه، ومع برهانات رُسله، وبيان كتبه؛ وإمّا أن يكون به عارفاً وبدينه موقناً، وعليه مجترناً، وبحرّماته مستخفاً، فإن كان بحقه جاهلاً فهو بحقك أجهل، وله أنكر، وإن كان به عارفاً وعليه مجترناً فهو عليك أجراً، ولحقوقك أضيع ولأياديك أكفر.

فأمّا خلق البعوضة والنملة والفرّاشة والذرة والذبان والجعلان، واليعاسيب والجراد - فإياك أن تنهون بشأن هذا الجند، وتستخف بالآلة التي في هذا الدرّء؛ فربّت أمة قد أجلاها عن بلادها النمل، ونقلها عن مساقط رؤوسها الدرّ، وأهلكت بالفأر، وجردت بالجراد، وعُدّبت بالبعوض، وأفسد عيشها الذبان، فهي جندٌ إن أراد الله عزّ وجلّ أن يهلك بها قوماً بعد طغيانهم وتجبرهم وعتوهم؛ ليعرفوا أو ليعرف بهم

أَنَّ كَثِيرَ أَمْرِهِمْ، لَا يَقُومُ بِالْقَلِيلِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيهَا
بَعْدُ مُعْتَبَرٌ لِمَنْ اِعْتَبَرَ، وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ فَكَّرَ، وَصَلَاحٌ لِمَنْ
اسْتَبَصَرَ، وَبَلَوَى وَمَحْنَةٌ، وَعَذَابٌ وَنِقْمَةٌ، وَحُجَّةٌ صَادِقَةٌ،
وَآيَةٌ وَاضِحَةٌ، وَسَبَبٌ إِلَى الصِّرَاطِ وَالْفِكْرَةِ، وَهَمَّا جَمَاعُ الْخَيْرِ
فِي بَابِ الْمَعْرِفَةِ وَالِاسْتِبَانَةِ، وَفِي بَابِ الْأَجْرِ وَعِظِمِ الْمَثُوبَةِ.
وَسَنَذَكُرُ جَمَلَةً مِنْ حَالِ الذَّبَّانِ، ثُمَّ نَقُولُ فِي جَمَلَةٍ مَا يَحْضُرُنَا
مِنْ شَأْنِ الْغَرْبَانِ وَالْجَعْلَانِ

أمثال في الفراش والذباب

ويقال في موضع الذمّ والهجاء: ما هُم إِلَّا فَرَّاشُ نَارٍ وَذَبَّانُ
طَمَعٍ، وَيُقَالُ: أَطْيِشُ مِنْ فَرَّاشَةٍ، وَأَزْهَى مِنْ ذَبَّانٍ.
وقال الشاعر:

فَرَّاشٌ حَوْلِ نَارٍ
يَصْطَلِينَا

كَأَنَّ بَنِي ذُوَيْبَةَ رَهْطٌ
سَلَمَى

وَلَا يَذْرِيْنَ مَاذَا
يَتَّقِينَا

يُطْفَنُ بَحْرَهَا وَيَقَعْنَ
فِيهَا

والعرب تجعل الفراش والنحل والزنابير والدبر كلها من
الذبان، وأما قولهم: أزهى من ذباب فلان الذباب يسقط على

أنف الملك الجبار، وعلى موق عينيه ليأكله، ثم يطرده فلا ينطرد.

معان وأمثال في الأنف والأنف هو النخوة وموضع التجبر. وكان من شأن البطارقة وقواد الملوك إذا أنفوا من شيء أن ينخروا كما ينخر الثور عند الذبح، والبرذون عند النشاط. والأنف هو موضع الخنزوانة والنعرة، وإذا تكبرت الناقة بعد أن تلحق فإنها تزم بأنفها.

والأصيد: الملك الذي تراه أبدأ من كبره مائل الوجه، وشبهه بالأسد فقيل أصيد؛ لأن عنق الأسد من عظم واحد، فهو لا يلتفت إلا بكفه، فلذلك يقال للمتكبر: إنما أنفه في أسلوب، ويقال: أرغم الله أنفه وأذل معطسه ويقال: ستفعل ذلك وأنفك راغم والرغام: التراب، ولولا كذا وكذا لهشمت أنفك، فإنما يخصون بذلك الأنف؛ لأن الكبر إليه يضاف قال الشاعر:

رُحْنٌ عَلَى بَعْضَائِهِ
وَاعْتَدِينَ

يَا رَبِّ مَنْ يُبِغِضُ
أُدْوَانَا

لرُحْنٍ مِنْهُ أَصْلًا قَدْ

لَوْ نَبَتَ الْبَقْلُ

ويقال بغير مذبوب إذا عرض له ما يدعو الذَّبَّانَ إلى السَّقُوطِ عليه، وهم يعرفون الغُدَّةَ إذا فَشَتْ أو أَصَابَتْ بغيراً بسُقُوطِ الذَّبَّانِ عليه.

احتيال الجمالين على السلطان

وبسقوط الذَّبَّانِ على البعير يحتال الجَمَّال للسلطان، إذا كان قد تسخَّرَ إبلَهُ وهو لذلك كاره، وإذا كان في جماله الجملُ النفيسُ أو الناقةُ الكريمة؛ فإنه يعمد إلى الحَضَخاض فيصبُّ فيه شيئاً من دبس ثم يَطْلِي به ذلك البعير، فإذا وجد الذَّبَّانُ ريحَ الدَّبْسِ تساقطنَّ عليه، فيدَّعي عند ذلك أنَّ به غُدَّةً ويجعلُ الشاهدَ له عندَ السلطان ما يُوجد عليه من الذَّبَّانِ فما أكثر ما يتخلصون بكرائم أموالهم بالحيل من أيدي السلطان ولا يظنُّ ذلك السلطانُ إلا أنه متى شاء أن يبيعَ مائةَ أعرابي بدرهم فَعَلَ، والغُدَّةُ عندهم تُعَدِّي، وطباع الإبل أقبلُ شيءٍ للأدواء التي تُعَدِّي، فيقول الجمالُ عندَ ذلك للسلطان: لو لم أخف على الإبل إلا بعيري هذا المغدِّ أن يُعَدِّي لم أبال، ولكنِّي أخاف إعداء الغُدَّةِ ومضرتَّها في سائر مالي فلا يزال يستعطفهُ بذلك، ويحتالُ له به حتَّى يخرِّبَ سبيلَهُ،

نفور الذَّبَّانِ مِنَ الْكَمَاءِ

ويقال إِنَّ الذَّبَّانَ لَا يَقْرَبُ قَدْرًا فِيهِ كَمَاءٌ، كَمَا لَا يَدْخُلُ سَائِمٌ
أَبْرَصٌ بَيْتًا فِيهِ زَعْفَرَانٌ.

الخوف على المكلوب من الذَّبَّانِ

ومن أصابه عض الكلب الكلبِ حَمَوَا وَجْهَهُ مِنْ سَقُوطِ
الذَّبَّانِ عَلَيْهِ، قَالُوا: وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ دَبِيبِ النَّبْرِ عَلَى
الْبَعِيرِ.

النَّبْرُ وَالنَّبْرُ دَوِيبَةٌ إِذَا دَبَّتْ عَلَى الْبَعِيرِ، تَوَرَّمَ، وَرَبَّمَا كَانَ
ذَلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِ.

قال الشاعرُ وَهُوَ يَصِفُ سِمْنَ إِبِلِهِ، وَعِظَمَ أَبْدَانِهَا:

بجلودهنَّ مدارجُ
الأنبارِ

حمر تحقنت النجيل
كأنما

مميزات خلقية لبعض
الحيوان

وليس في الأرض ذبابٌ إلا وهو أقرح، ولا في الأرض بعيرٌ
إلا وهو أعلم، كما أنه ليس في الأرض ثورٌ إلا وهو أفتس.
وفي أن كلَّ بعير أعلم يقولُ عنترَةَ:

تمكو فريصته
كشِدقِ الأَعلمِ

وحَليلِ غانيةٍ
تركتُ مجدلاً

كأنه قال: كشِدقِ البعير؛ إذ كان كله بعيرٍ أعلم.
والشعراء يشبّهون الضربة بشِدقِ البعير، ولذلك قال
الشاعر:

من المصاعبِ في
أشداقهِ شَنعُ

كمْ ضربةٍ لكِ
تحكي فأفراسيةٍ

وقال الكميت:

مَشافِرَ قَرَحِي أَكلنَ البريرَا

وإذا قيل الأَعلمُ، عُلِمَ أَنَّهُ البعير، كما أَنَّهُ إذا قيل الأقرح علم
أَنَّهُ الذَّبَّانُ، قال الشاعر:

حذر الطعانِ مِنِ
القُدوحِ الأقرحِ

ولأنتِ أَطيشُ حينَ
تَعْدُو سادراً

يعني الذَّبَّانُ لأنَّهُ أقرح، ولأنَّهُ أبدأً يحكُّ بإحدى ذراعيه على
الأخرى كأنه يقدح بعودي مَرخٍ وِعَفَارٍ، أو عرجون، أو غير

ذلك مما يقدر به.

أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض ولا يعلم في الأرض شاعر تقدّم في تشبيهه مُصيّب تامّ، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مُخترع، إلا وكلّ مَنْ جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدٌ منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعله أن يجد أنه سمع بذلك المعنى قطّ، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأوّل، هذا إذا قرّعه به، إلا ما كان من عنتره في صفة الذباب؛ فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحدٌ منهم، ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر، قال عنتره:

فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ
كَالدَّرْهِمِ

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ
عَيْنٍ ثَرَّةٍ

هَزَجًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ
الْمُتَرَنِّمِ

فَعَلَ الْمَكْبَّ عَلَى
الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ

فَتَرَى الدُّبَابَ بِهَا
يَغْنَى وَحَدَهُ

عَرْدًا يُحَكُّ ذِرَاعَهُ
بِذِرَاعِهِ

قال: يريد فعل الأَفْطَعِ المَكْبَّ عَلَى الزَّنَادِ، والأَجْذَمِ: المَقْطُوعِ اليدين، فوصف الدُّبَابَ إِذَا كَانَ واقِعًا ثَمَّ حَكَّ إِحْدَى يَدَيْهِ بِالْأُخْرَى، فَشَبَّهَهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِرَجُلٍ مَقْطُوعِ اليدين، يَقْدَحُ بَعُودِينَ، وَمَتَى سَقَطَ الدُّبَابُ فَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

وَلَمْ أَسْمَعْ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِشَعْرٍ أَرْضَاهُ غَيْرَ شَعْرِ عَنْتَرَةٍ.
قَوْلٌ فِي حَدِيثٍ وَقَدْ كَانَ عِنْدَنَا فِي بَنِي الْعَدَوِيَّةِ شَيْخٌ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ، شَدِيدُ الْعَارِضَةِ فِيهِ تَوْضِيحٌ، فَسَمِعَنِي أَقُولُ: قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ تَحْتَ جَنَاحِ الدُّبَابِ الْيَمِينِ شِفَاءً وَتَحْتَ جَنَاحِهِ الْأَيْسَرِ سَمًّا، فَإِذَا سَقَطَ فِي إِنَاءٍ أَوْ فِي شَرَابٍ أَوْ فِي مَرَقٍ فَاعْمَسُوهُ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَرْفَعُ عِنْدَ ذَلِكَ الْجَنَاحَ الَّذِي تَحْتَهُ الشِّفَاءَ، وَيَحِطُّ الْجَنَاحَ الَّذِي تَحْتَهُ السَّمَّ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي هَذَا يَجْمَعُ الْعِدَاوَةَ وَالْمَكِيدَةَ.

قِصَّةٌ لِتَمِيمٍ مَعَ أَنَاسٍ مِنَ الْأَزْدِ وَقَدْ كَانَ عِنْدَنَا أَنَاسٌ مِنَ الْأَزْدِ، وَمَعَهُمْ ابْنُ حَزْنٍ، وَابْنُ حَزْنٍ هَذَا عَدَوِيٌّ مِنْ آلِ

عموج، وكان يتعصب لأصحابه من بني تميم وكانوا على
نبيذ، فسقط ذبابٌ في قدح بعضهم، فقال له الآخر: غطّ
التميمي، ثم سقط آخر في قدح بعضهم، فقال الباقيون: غطّ
التميمي فلما كان في الثالثة قال ابن حزن: غطّه فإن كان
تميمياً رسب، وإن كان أزدياً طفاً، فقال صاحب المنزل: ما
يسرني أنه كان نقصكم حرفاً، وإنما عني أن أزد عُمان
ملاحون.

ضروب الذبان

والذبان ضروبٌ سوى ما ذكرناه من الفراش والنحل
والزنابير، فمنها الشعراء، وقال الراجز:

ذبان شعراء وبيت ماذل

وللكلاب ذبابٌ على حدة يتخلق منها ولا يُريد سواها، ومنها
ذبان الكلا والرياض، وكلّ نوعٍ منها يالف ما خلق منه، قال
أبو الهجَم:

يقلن للرائدِ أعشبت
انزل

مستأيد ذبانه في
عَيْطِل

شعر ومثل في طنين الذباب

والعربُ تسمي طنينَ الذَّبَّانِ والبعوضَ غناءً، وقال الأخطلُ
في صفة الثَّور:

فرداً تغنيه دَبَّانُ عَنَى الغواةَ بِصَنْجِ
الرِّياضِ كما عند أسوارِ

وقال حَضْرَمِيُّ بنِ عامرٍ في طنينِ الذباب:

ما زال إهداءً شَتَمَ الصَّدِيقِ وكَثْرَةَ
القَصائدِ بَيْنَنَا الألقابِ
حتَّى تركتُ كأنَّ في كلِّ مَجْمَعَةٍ
أمرِكُ بَيْنَهُم طنينُ دُبَابِ

ويقال: ما قولي هذا عندك إلا طنينُ دُبَابِ.

سفاد الذباب وأعمارها

وللذباب وقتٌ تهيج فيه للسِّفاد مع قصر أعمارها، وفي
الحديث: أنَّ عُمَرَ الذبابَ أربعون يوماً ولها أيضاً وقت هَيْجٍ
في أكلِ النَّاسِ وعضِّهم، وشُرْبِ دمائهم، وإنما يعرض هذا

الدَّبَّانِ فِي الْبُيُوتِ عِنْدَ قُرْبِ أَيَّامِهَا؛ فَإِنَّ هَلَاكَهَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ وَشَيْكَاً، وَالدَّبَّانِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مِنْ حَتُوفِ الْإِبِلِ وَالدَّوَابِّ.

علة شدة عض الذباب

والذباب والبعوض من ذوات الخراطيم، ولذلك اشتدَّ عضُّها وقويت على خرق الجلود الغلاظ، وقال الراجز في وصف البعوضة:

رَكَّبَ فِي خِرْطُومِهَا
سِكِّينُهَا

مِثْلَ السَّفَاةِ دَائِمٍ
طَنِيئِهَا

ذوات الخراطيم

وقالوا: ذوات الخراطيم من كلِّ شيءٍ أقوى عضاً وناباً وفكاً؛ كالذئب والخنزير، والكلب، وأما الفيل فإنَّ خرطومَه هو أنفه، كما أنَّ لكلِّ شيءٍ من الحيوان أنفاً، وهو يده، ومنه يُعْنَى وفيه يجري الصَّوت، كما يُجْرِي الزَّامِرُ الصَّوتَ فِي الْقِصْبَةِ بِالنَّفْخِ، وَمَتَى نَضَاعَطَ الْهَوَاءُ صَوْتًا عَلَى قَدْرِ الضَّغْطِ، أَوْ عَلَى قَدْرِ الثَّقْبِ.

أمثال من الشعر في الذباب

والذباب: اسم الواحد، والذَّبَّان: اسم الجماعة، وإذا أرادوا التَّصْغِيرَ والتَّقْلِيلَ ضربوا بالذَّبَّانِ المثل، قال الشاعر:

حَسَبْتُ الخُبْزَ فِي جوِّ
السَّحَابِ

رَأَيْتُ الخُبْزَ عَزَّ
لَدَيْكَ حَتَّى

وَلَكِنْ خِفَتَ مَرزِيَّةُ
الذُّبَابِ

وَمَا رَوَّخْتَنَا
لِتُدْبَّ عَنَا

وقال آخر:

وَتَعَلَّقْتُ هَمْدَانَ
بِالْأَسْبَابِ

لَمَّا رَأَيْتُ القَصْرَ
أُعْلِقَ بَابَهُ

لَمْ يَبْقَ مِنْهَا قَيْسُ
أَيْرِ ذَبَابِ

أَيَقْنْتُ أَنَّ إِمَارَةَ ابْنِ
مَضَارِبِ

قال بعضهم: لم يذهب إلى مقدار أيّره وإنما ذهب إلى مثل قول ابن أحرمر:

لو أنّ معصياً له
أمرُ

ما كنت عن قومي
بمهتم

أقصرت لا نجح
ولا عذرُ

كلفتني مَخَّ البعوضِ
فقدُ

ما يَلْغُ من الحيوان وما لا يَلْغُ قال: وليس شيء مما يطير يَلْغُ في الدّم، وإنما يَلْغُ في الدماء من السَّبَاعِ ذواتُ الأربَع، وأما الطَّيْرُ فَإِنَّهَا تَشْرَبُ حَسَوًّا، أو عَبَّةً بعد عَبَّةً، ونُغْبَةً بعد نُغْبَةٍ، وسبَاعِ الطَّيْرِ قَلِيلَةٌ الشُّرْبِ للماء، والأسد كذلك، قال أبو زُبَيْدٍ الطَّائِي:

طيراً عكوفاً كزورِ
العُرسِ

تذُبُّ عنه كَفَّ بها
رَمَقُ

فهنَّ من والغِ
ومُنْتَهِسِ

إذا ونى ونية
دَلْفَنَ له

قال: والطَّيْرُ لا تَلْغُ، وإنما يَلْغُ الذباب، وجعله من الطَّيْرِ، وهو وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه، فإذا قد جاز أن

يستعير له اسم الطائر، جاز أن يستعير للطير ونغ السباع
فيجعل حسوها ونغاً، وقال الشاعر:

وفي الحرب
والهيجاء أسدٌ
ضراغِمٌ

سراع إلى ونغ
الدماء رماحم

خصلتان محمودتان في الذباب

قال وفي الذباب خصلتان من الخصال المحمودة.
أما إحدهما: فقرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها؛
فمن أراد إخراجها من البيت فليس بينه وبين أن يكون
البيت على المقدار الأول من الضياء والكين بعد إخراجها مع
السّلامة من التأدي بالذبان - إلا أن يُغلق الباب، فإنّهنّ
يتبادرن إلى الخروج، ويتسابقن في طلب الضوء والهرب
من الظلمة، فإذا أرخي السّتر وفتح الباب عاد الضوء وسلم
أهله من مكروه الذباب، فإن كان في الباب شقّ، وإلا جافى
المغلق أحد البابين عن صاحبه ولم يطبقه عليه إطباقاً،
وربّما خرجن من الفتح الذي يكون بين أسفل الباب والعتبة،
والحيلة في إخراجها والسّلامة من أذاها يسيرة، وليس

كذلك البعوض؛ لأنَّ البعوض إنما يشتدُّ أذاه، ويقوى سلطانه، ويشتدُّ كَلْبُه في الظلمة، كما يقوى سلطان الذبان في الضياء، وليس يمكنُ النَّاسَ أَنْ يُدْخِلُوا منازلهم من الضِّياء ما يمنعُ عملَ البعوض؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلا بإدخال الشَّمسِ، والبعوض لا يكون إلا في الصَّيْفِ، وشمسُ الصَّيْفِ لا صَبْرَ عليها، وليس في الأرضِ ضياءٌ انفصلَ من الشمس إلا ومعه نصيبه من الحرِّ، وقد يفارق الحرُّ الضياء في بعض المواضع، والضِّياء لا يفارقُ الحرَّ في مكانٍ من الأماكن.

فإمكان الحيلة في الذباب يسير، وفي البعوض عسير. والفضيلة الأخرى: أنه لولا أن الدَّبابة تأكل البعوضة و تطلبها وتلتمسها على وجوه حيطان البيوت، وفي الزوايا، لما كان لأهلها فيها قرار.

الحكمة في الذباب

وذكر محمد بن الجهم - فيما خبَّرني عنه بعضُ الثقات - أنه قال لهم ذات يوم: هل تعرفون الحكمة التي استفدناها في الدُّباب؟ قالوا: لا.
قال: بلى، إنها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتفنيه: وذلك

أني كنت أريد القائلة، فأمرت بإخراج الدباب وطرح الستر وإغلاق الباب قبل ذلك بساعة، فإذا خرجن حصل في البيت البعوض، في سلطان البعوض وموضع قوته، فكنت أدخل إلى القائلة فيأكلني البعوض أكلاً شديداً، فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائلة، فإذا ذلك البيت مفتوح، والستر مرفوع، وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك في يومهم، فلما اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً وقد كان غضبي اشتد على الغلمان، فنمت في عافية، فما كان من الغد عادوا إلى إغلاق الباب وإخراج الدباب، فدخلت ألتمس القائلة، فإذا البعوض كثير، ثم أغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر، فلما رأته مفتوحاً شتمتهم فلما صرت إلى القائلة لم أجد بعوضة واحدة، فقلت في نفسي عند ذلك: أراني قد نمت في يومي الإغفال والتضييع وامتنع مني النوم في أيام التحفظ والاحتراس، فلم لا أجرب ترك إغلاق الباب في يومي هذا، فإن نمت ثلاثة أيام لا ألقى من البعوض أدنى مع فتح الباب، علمت أن الصواب في الجمع بين الدبان وبين البعوض؛ فإن الدبان هي التي تُفنيه، وأن صلاح أمرنا في تقريب ما كنا نباعد، ففعلت ذلك، فإذا الأمر قد تم، فصرنا إذا أردنا إخراج الدبان أخرجناها بأيسر حيلة، وإذا أردنا إفناء البعوض

أفنيها على أيدي الدَّبَّان بأيسر حيلة.
فهاتان حَصَلَتان من مناقب الدَّبَّان.

طبَّ القوابل والعجائز وكان محمد بن الجهم يقول: لا
تتهاونوا بكثير ممَّا ترُونَ من علاج القوابل والعجائز، فإنَّ
كثيراً من ذلك إنما وقع إليهنَّ من قدماء الأطباء؛ كالذَّبَّان
يُلْقَى في الإثمد ويسحق معه، فيزيد ذلك في نور البصر،
ونفاذ النظر، وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافات
الجفون نفع دوام النظر إلى الخضرة وقلتُ له مرَّة: قيل
لماسرجويه: ما بال الأكرَّة وسُكَّان البساتين، مع أكلهم
الكرَّاث والتمر، وشروبهم ماء السَّواقي على المالح أقلَّ
النَّاس خُفْشاناً وعمياناً وعمُشاناً وعوراً؟ قال: إني فُكَّرت
في ذلك فلم أجد له علَّة إلاَّ طولَ وقوع أبصارهم على
الخُضرة.

من لا يتقرَّز من الدَّبَّان والزنابير والدَّود قال ابن الجهم:
ومن أهل السُّفالة ناسٌ يأكلون الدَّبَّان، وهُم لا يرمدون،
وليس لذلك أكلوه وإنما هُم كأهل خُراسان الذي يأكلون فراخ
الزَّنابير، والزَّنابير ذبان، وأصحاب الجبن الرُّطب يأخذون
الجبنة التي قد نَعَلت دوداً، فينكتها أحدهم حتَّى يخرج ما
فيها من الدَّود في راحته، ثم يقمُّها كما يقمُّح السَّويق،

وكان الفرزدق يقول: ليت أنهم دفعوا إلي نصيبي من الذبان
ضربة واحدة، بشرط أن آكله لراحة الأبد منها، وكان كما
زعموا شديد التقدر لها والتقزز منها.
دعوتان طريفتان لأحد القصاص وقال ثمامة: تساقط الذبان
في مرق بعض القصاص وعلى وجهه فقال: كثر الله بكن
القبور وحكى ثمامة عن هذا القاص أنه سمعه بعبدان يقول
في قصصه: اللهم من علينا بالشهادة، وعلى جميع
المسلمين.

قصة في عمر الذباب

وقال لي المكي مرة: إنما عمر الذبان أربعون يوماً، قلت:
هكذا جاء في الأثر، وكنا يوماً بواسط في أيام العسكر
وليس بعد أرض الهند أكثر ذباباً من واسط، ولربما رأيت
الحائط وكان عليه مسحاً شديد السواد من كثرة ما عليه من
الذبان، فقلت للمكي: أحسب الذبان يموت في كل أربعين
يوماً، وإن شئت ففي أكثر، وإن شئت ففي أقل، ونحن كما
تري ندوسها بأرجلنا، ونحن ها هنا مقيمون من أكثر من
أربعين يوماً، بل منذ أشهر وأشهر، وما رأينا ذباباً واحداً
ميتاً، فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا

الأحياء، قال: إِنَّ الدَّبَابَةَ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَمُوتَ ذَهَبَتْ إِلَى
بعض الخربات، قلت: فَإِنَّا قَدْ دَخَلْنَا كُلَّ حَرْبَةٍ فِي الدُّنْيَا، مَا
رَأَيْنَا فِيهَا قَطُّ ذَبَاباً مَيِّتاً.

للمئي وكان المكيّ طبيباً طيّب الحُجَج، ظريف الحيل، عجيب
العلل وكان يدّعي كلَّ شيءٍ على غاية الإحكام، ولم يُحْكَمْ
شيئاً قطُّ، لا من الجليل ولا من الدقيق، وإذ قد جرى ذكره
فسأحدتكَ ببعض أحاديثه، وأخبرك عن بعض علله، لتلّهي
بها ساعةً، ثم نعود إلى بقية ذكر الدّبان.

نوادِر للمكي ادّعى هذا المكيّ البصرَ بالبرانين، ونظرَ إلى
برذون واقف، قد ألقى صاحبه في فيه اللّجام، فرأى فأس
اللّجام وأين بلغ منه، فقال لي: العجب كيف لا يدُرّعه
القيء، وأنا لو أدخلت إصبعي الصغرى في حلقي لما بقي
في جوفي شيءٌ إلا خرج؟ قلت: الآن علمتُ أنّك تُبصر ثمّ
مكث البرذون ساعةً يلوك لجامه، فأقبل عليّ فقال لي: كيف
لا يبرُد أسنانه؟ قلت: إنما يكون علم هذا عند البصراءِ مثلك
ثمّ رأى البرذون كلّما لآك اللّجام والحديدة سال لعابه على
الأرض فأقبل عليّ وقال: لولا أنّ البرذون أفسد الخلق
عقلاً لكان ذهنه قد صفا قلت له: قد كنت أشك في بصرك
بالذواب، فأما بعد هذا فلست أشك فيه.

وقلت له مرّة ونحن في طريق بغداد: مَا بَالُ الْفَرَسَخِ فِي
هَذِهِ الطَّرِيقِ يَكُونُ فَرَسَخِينَ، وَالْفَرَسَخُ يَكُونُ أَقَلَّ مِنْ مَقْدَارِ
نِصْفِ فَرَسَخٍ؟ فَفَكَّرَ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: كَانَ كِسْرَى يُقَطِّعُ لِلنَّاسِ
الْفَرَسَخَ، فَإِذَا صَانَعَ صَاحِبَ القَطِيعَةِ زَادُوهُ، وَإِذَا لَمْ يَصَانِعْ
نَقَصُوهُ.

وقلت له مرّة: عَلِمْتُ أَنَّ الشَّارِي حَدَّثَنِي أَنَّ المَخْلُوعَ بَعَثَ
إِلَى المَأْمُونِ بِجَرَابٍ فِيهِ سَمْسَمٌ؛ كَأَنَّهُ يَخْبِرُ أَنَّ عِنْدَهُ مِنْ
الجَنْدِ بَعْدَ ذَلِكَ الحَبِّ وَأَنَّ المَأْمُونِ بَعَثَ إِلَيْهِ بِدِيكٍ أَعْوَرَ،
يُرِيدُ أَنَّ طَاهِرَ بِنِ الحُسَيْنِ يَقْتُلُ هُوَ لَاءِ كَلِّهِمْ، كَمَا يَلْقُطُ الدَّيْكَ
الحَبَّ قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ أَنَا وَوَلَدَتُهُ، وَلَكِنْ انظُرْ كَيْفَ سَارَ
فِي الآفَقِ؟ وَأَحَادِيثُهُ وَأَعَاجِيبُهُ كَثِيرَةٌ.

معارف في الذباب

ثُمَّ رَجَعَ بِنَا القَوْلِ إِلَى صِلَةِ كَلَامِنَا فِي الإِخْبَارِ عَنِ الذَّبَابِ.
فَأَمَّا سَكَّانُ بِلَادِ الهِنْدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَطْبُخُونَ قَدْرًا، وَلَا يَعْمَلُونَ
حَلْوَى وَلَا يَكَادُونَ يَأْكُلُونَ إِلَّا لَيْلًا؛ لِمَا يَتَهَافَتُ مِنَ الذَّبَابِ فِي
طَعَامِهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَفْنِ التُّرْبَةِ وَلَخْنِ الهَوَاءِ.
وَالذَّبَابُ يَعَاسِبُ وَجُحْلَانٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا قَائِدٌ وَلَا أَمِيرٌ، وَلَوْ
كَانَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ الَّتِي يَحْرُسُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَتَّخِذُ رِئِيسًا

يدبرها ويحوطها، إنما أخرج ذلك منها العقل دون الطبع،
وكالشيء يخص به البعض دون الكل لكان الذر والنمل أحق
بذلك من الكراكي والغرائيق والثيران، ولكان الفيل أحق به
من البعير؛ لأنه ليس للذر قائد ولا حارس، ولا يعسوب
يجمعها ويحميها بعض المواضع، ويوردها بعضاً.
وكلُّ قائدٍ فهو يعسوبٌ ذلك الجنس المقود، وهذا الاسم
مستعارٌ من فحل النحل وأمير العسالات، وقال الشاعر وهو
يعني الثور:

وما ذنبه إذ عافت
الماء باقر

كما ضربَ اليعسوبُ
إذ عاف باقر

وكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في صلاح
الزَّمان وفساده: فإذا كان ذلك ضربَ يعسوبِ الدِّينِ بذنِّبه.
وعلى ذلك المعنى قال حين مرَّ بعبد الرحمن بن عتاب بن
أسيد قتيلاً يوم الجمل: لهفي عليك يعسوب قريش جدعت
أنفي وشفيت نفسي.

قالوا: وعلى هذا المعنى قيل: يعسوب الطفاوة.
أقدر الحيوان وزعم بعض الحكماء أنه لا ينبغي أن يكون
في الأرض شيءٌ من الأشياء أنتنُّ من العذرة، فكذا لا

شيء أقدر من الدِّبَان والقمل، وأمَّا العذرة فلولا أنَّها كذلك
لكان الإنسان مع طول رؤيته لها، وكثرة شمِّه لها من نفسه
في كلِّ يوم صباحاً ومساءً، لقد كان ينبغي أن يكون قد ذهب
تقدُّره له على الأيام، أو تمحَّق، أو دخله النَّقص، فثباتها
ستين عاماً وأكثرَ وأقلَّ على مقدار واحد من النتن في أنفِ
الرَّجل ومنهم من وجدناه بعد مائة عام كذلك، وقد رأينا
المِران والعدادات وصنيعها في الطِّبائع، وكيف تهوَّن الشديد،
وتقلَّ الكثير، فلولا أنا فوق كلِّ شيءٍ من النتن، لما ثبتت
هذا الثبات، ولعرض لها ما يعرض لسائر النتن، وبعد فلو
كان إنَّما يشمُّ شيئاً خرج من جوفٍ غيره ولم يخرج من
جوفِ نفسه، لكان ذلك أشبهه، فإذا قد ثبت في أنفه على هذا
المقدار، وهو منه دون غيره، وحتى صار يجده أنتن من
رَجيع جميع الأجناس - فليس ذلك إلا لما قد خصَّ به من
المكروه.

وكذلك القول في القمل الذي إنَّما يُخلق من عرق الإنسان،
ومن رائحته ووسخِ جلده، وبخار بدنه، وكذلك الدِّبَان
المخالطة لهم في جميع الحالات، والملابسة لهم دون جميع
الهوامِّ والهمج والطير والبهائم والسباع حتى تكون ألزم من
كلِّ ملازم، وأقرب من كلِّ قريب؛ حتى ما يمتنع عليه شيء

من بدن الإنسان، ولا من ثوبه، ولا من طعامه، ولا من شرابه، حتى لزمه لزوماً لم يلزمه شيء قط كلزومه، حتى إنه يسافر السفر البعيد من مواضع الخصب، فيقطع البراري والقفار التي ليس فيها ولا بقربها نبات ولا ماء ولا حيوان، ثم مع ذلك يتوحي عند الحاجة إلى الغائط في تلك البرية أن يفارق أصحابه، فيتباعد في الأرض، وفي صحراء خلعاء، فإذا تبرز فمتى وقع بصره على برازه رأى الذبان ساقطاً عليه، فقبل ذلك ما كان يراه، فإن كان الذباب شيئاً يتخلق له في تلك الساعة فهذه أعجب مما رآه ومما أردنا وأكثر مما قلنا، وإن كان قد كان ساقطاً على الصخور الملس، والبقاع الجرد، في اليوم القائظ، وفي الهاجرة التي تشوي كل شيء، وينتظر مجيئه - فهذا أعجب مما قلنا، وإن كانت قد تبعته من الأمصار، إما طائرة معه، وإما ساقطة عليه، فلما تبرز انتقلت عنه إلى برازه، فهذا تحقيق لقولنا إنه لا يلزم الإنسان شيء لزوم الذباب؛ لأن العصافير، والخطاطيف، والزرزير، والسنانير، والكلاب وكل شيء يألف الناس، فهو يقيم مع الناس، فإذا مضى الإنسان في سفره، فصار كالمستوحش، وكانازل بالقفار، فكل شيء أهلي يألف الناس فإنما هو مقيم على مثل ما كان من إلفه لهم، لا

يتبعهم من دورِ النَّاسِ إلى منازلِ الوحش؛ إلاَّ الذَّبَّانِ.
قال: فإذا كان الإنسانُ يستقْدِرُ الذَّبَّانَ في مَرَقِهِ وفي طعامه
هذا الاستقْدَار، ويستقْدِرُ القَمْلَ مع محلِّه من القَرَابَةِ والنَّسْبَةِ
هذا الاستقْدَارُ فمعلومٌ أنَّ ذلك لم يكن إلاَّ لما خص به من
القدر، وإلاَّ فبدون هذه القَرَابَةِ وهذه الملايسَةِ، تطيبُ
الأنفُسَ عن كثيرٍ من المحبوب.

إلحاح الذَّبَابِ قال: وفي الذَّبَّانِ خُبْرٌ آخَر: وذلك أَنَّهُنَّ رَبَّما
تَعَوَّدْنَ المَبِيتَ على خُوصِ فَسِيلَةٍ وأَقْلَابِها من فَسائِلِ الدُّورِ،
أو شَجَرَةٍ، أو كِلَّةٍ، أو بَابٍ، أو سَقْفِ بَيْتٍ، فَيُطْرَدْنَ إذا
اجتمعن لوقتهنَّ عند المساءِ ليلتين أو ثلاث لِيالٍ، فيتفرَّقْنَ
أو يهْجُرْنَ ذلك المَكانَ في المُسْتَقْبَلِ، وَإِنْ كانَ ذلك المَكانُ
قريباً، وهو لهنَّ مَعْرَضٌ، ثُمَّ لا يدَعْنَ أن يَلْتَمِسْنَ مَبِيتاً
غَيرَهُ، ولا يعرض لهنَّ من اللِّجَاجِ في مثل ذلك، مثلُ الذي
يعرض لهنَّ من كثرة الرُّجُوعِ إلى العَينينِ والأنفِ بعدَ
الذَّبِّ والطَّرْدِ، وبعد الاجتهادِ في ذلك.

أذى الذَّبَابِ ونحوها وقال مُحَمَّدُ بنُ حَرَبٍ: ينبغي أن يكونَ
الذَّبَّانُ سُمّاً نَاقِعاً؛ لأنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَشْتَدُّ أذاهُ باللمسِ من غَيرِهِ،
فهو بالمداخلةِ والملايسَةِ أَجْدَرُ أن يُوذِيَ، وهذه الأفاعي
والثعابينُ والجَرَّاراتُ قد تمسُّ جلودَها ناساً فلا تضرُّهم إلاَّ

بأن تلابس إبرة العقرب وناب الأفعى الدّم ونحن قد نجد
الرجل يدخل في حرق أنفه ذباب، فيجول في أوله من غير
أن يجاوز ما حاذى روثة أنفه وأرنته فيخرجه الإنسان من
جوف أنفه بالنفخ وشدة النفس ولم يكن له هناك لبث، ولا
كان منه عض، وليس إلا ما مس بقوائمه وأطراف جناحيه،
فيقع في ذلك المكان من أنفه، من الدغدة والأكال والحكة،
ما لا يصنع الخردل وبصل النرجس، ولبن الثين، فليس
يكون ذلك منه إلا وفي طبعه من مضادة طباع الإنسان ما لا
يبلغه مضادة شيء وإن أفرط.

قال: وليس الشأن في أنه لم ينخس، ولم يجرح، ولم يخز
ولم يعض، ولم يغمز، ولم يخدش، وإنما هو على قدر
منافرة الطباع للطباع، وعلى قدر القرابة والمشاكلة.

الأصوات المكروهة

وقد نجد الإنسان يغمم بتنقض الفتيلة وصوتها عند قرب
انطفاء النار، أو لبعض البلل يكون قد خالط الفتيلة، ولا
يكون الصوت بالشديد، ولكن الاغتمام به، والتكره له
ويكون في مقدار ما يعتريه من أشد الأصوات، ومن ذلك
المكروه الذي يدخل على الإنسان من عطيط النائم، وليست

تلك الكراهة لعلّة الشدّة والصلابة، ولكن من قبل الصّورة
والمقدار، وإن لم يكن من قبل الجنس، وكذلك صوت احتكاك
الآجر الجديد ببعضه ببعض، وكذلك شجر الآجام على
الأجراف؛ فإنّ النفس تكرهه كما تكره صوت الصّاعقة، ولو
كان على ثقة من السّلامة من الاحتراق، لما احتفل
بالصّاعقة ذلك الاحتفال، ولعلّ ذلك الصّوت وحده الآ يقتله.
فأمّا الذي نشاهد اليوم الأمر عليه، فإنّه متى قرب منه قتله،
ولعلّ ذلك إنّما هو لأنّ الشّي إذا اشتدّ صدمه فسحّ القوّة أو
لعلّ الهواء الذي فيه الإنسان والمحيط به أن يحمى
ويستحيل ناراً للذي قد شارك ذلك الصّوت من النار، وهم لم
يجدوا الصّوت شديداً جدّاً إلاّ ما خالط منه النّار.
ما يقتات بالذّبّاب وقال ابن حرب: الذّبّان قوت خلق كثير من
خلق الله عزّ وجلّ، وهو قوت الفراريج، والخفافيش،
والعنكبوت، والخلد، وضروب كثيرة من الهمج، همج الطير،
وحشرات السّباع، فأمّا الطير والسّودانيّات، والحصانيّات،
والشاهمركات، وغير ذلك من أصناف الطير؛ وأمّا الضّبّاع -
فإنّها تأكل الجيف، وتدع في أفواهاها فضولاً، وتفتح أفواهاها
للذّبّان، فإذا احتشّت ضمتّ عليها، فهذه إنّما تصيد الذّبّان
بنوع واحد، وهو الاختطاف والاختلاس، وإعجالها عن

الوثوب إذا تَلَقَّطته بأطراف المناقير، أو كبعض ما ذكرنا من
إطباق الفم عليها.

فَأَمَّا الصَّيْدُ الَّذِي لَيْسَ لِلْكَلبِ، وَلَا لِعَنَاقِ الأَرْضِ، وَلَا لِلْفَهْدِ،
وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ ذَوَاتِ الأَرْبَعِ مِثْلُهُ فِي الحِدْقِ وَالْحَنْتِلِ
وَالمداراةِ، وَفِي صَوَابِ الوَثْبَةِ، وَفِي التَّسَدُّدِ وَسُرْعَةِ
الْخُطْفِ، فَلَيْسَ مِثْلَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ اللَّيْثُ، وَهُوَ الصَّنْفُ
المَعْرُوفُ مِنَ العَنَاقِبِ بِصَيْدِ الدَّبَّانِ؛ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ إِذَا عَينَ
الدَّبَّانِ سَاقِطاً، كَيْفَ يَلْطَأُ بالأَرْضِ، وَكَيْفَ يَسْكُنُ جَمِيعَ
جَوَارِحِ الوَثْبَةِ، وَكَيْفَ يُؤَخَّرُ ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ العِرَّةِ، وَكَيْفَ
يَرِيهَا أَنَّهُ عَنْهَا لَاهٍ؛ فَإِنَّكَ تَرَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً لَمْ تَرِ مِثْلَهُ مِنْ
فَهْدٍ قَطُّ، وَإِنْ كَانَ الفَهْدُ مَوْصُوفاً مَنعُوتاً.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ فِي الأَرْضِ شَيْءٌ أَصِيدُ مِنْهُ؛
لأنَّهُ لَا يَطِيرُ، وَلَا يَصِيدُ إِلاَّ مَا يَطِيرُ وَيَصِيدُ طَائِراً شَدِيدَ
الحذرِ، ثُمَّ يَصِيدُ صَيَّاداً لِأَنَّ الدَّبَّابَ يَصِيدُ البَعُوضَ،
وَخَدِيعَتَكَ لِلخَدَّاعِ أَعْجَبُ، وَمَكْرُكَ بِالْمَاكِرِ أَغْرَبُ فَكَذَلِكَ يَكُونُ
صَيْدُ هَذَا الفَنِّ مِنَ العَنَكِبُوتِ.

وَزَعَمَ الجَرْدَانِيُّ أَنَّ الوَزْعَ تَحْتِلُ الدَّبَّانَ، وَتَصِيدُهَا صَيْداً
حَسِناً شَبِيهاً بِصَيْدِ اللَّيْثِ.

قال: وَالزُّنْبُورُ حَرِيصٌ عَلَى صَيْدِ الدَّبَّانِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَطْمَعُ فِيهَا

إلا أن تكون ساقطةً على خَرْءٍ، دونَ كلِّ تمرٍ وعسلٍ؛ لشدَّةِ
عجبها بالخَرْءِ، وتشاغلها به فعند ذلك يطمعُ فيه الزنبور
ويصيده، وزعم الجرداني وتابعه لئيسان: أنَّ الفهدَ إنما أخذَ
ذلكَ عن اللَّيْثِ، ومتى رآه الفهدُ يصيدُ الدَّبَّانَ حتى تَعَلَّمَ
منه؟ فظننتُ أنَّهما قلَّداً في ذلك بعضَ مَنْ إذا مدَّحَ شيئاً
أسرف فيه.

تقليد الحيوان للحيوان

ويزعمون أنَّ السَّبَّعَ الصَّيَّودَ إذا كان مع سبعٍ هو أصيْدُ منه،
تعلَّم منه وأخذَ عنه، وهذا لم أحقَّه، فأما الذي لا أشكُّ فيه
فأنَّ الطَّائِرَ الحَسَنَ الصَّوْتِ المَلْحَنَ، إذا كان مع نواحِ الطَّيْرِ
ومغنياتها، فكان بقربِ الطَّائِرِ من شكله، وهو أحذقُ منه
وأكرزُ وأمهر، جاوبه وحكاه، وتعلَّم منه، أو صنعَ شيئاً يقوم
مقامَ التعلُّمِ.

تعلُّم البراذين والطيور

والبرذونُ يُراضُ فيعرفُ ما يراد منه، فيعين على نفسه،
وربَّما استأجروا للطَّيْرَ رجلاً يعلمها، فأما الذي رأيتُه أنا في
البلابل، فقد رأيتُ رجلاً يُدعى لها فيطارحُها من شكل
أصواتها.

ما يخترع الأصوات واللحون من الطير

وفي الطير ما يخترع الأصوات واللحون التي لم يُسمع
بمثلها قط من المؤلف للحون من الناس؛ فإنه ربّما أنشأ
لحناً لم يمرّ على أسمع المغنّين قط.
وأكثر ما يجدون ذلك من الطير في القماري، وفي
السودانيات، ثم في الكرارزة، وهي تأكل الذبان أكلاً ذريعاً.

النجوج من الحيوان

ويقال إن اللجّاح في ثلاثة أجناسٍ من بين جميع الحيوان:
الخنفساء، والذباب، والدودة الحمراء؛ فإنها في إبان ذلك
تروم الصعود إلى السقف، وتمرّ على الحائط الأملس شيئاً
قليلاً فتسقط وتعود، ثم لا تزال تزداد شيئاً ثم تسقط، إلى أن
تمضي إلى باطن السقف، وربما سقطت ولم يبق عليها إلا
مقدار إصبع، ثم تعود.

والخنفساء تُقبّل قبل الإنسان فيدفعها، فتبعد بقدر تلك الطردة
والدّفعة ثم تعود أيضاً، فيصنع بها أشدّ من تلك ثم تعود،
حتى ربما كان ذلك سبباً لغضبه، ويكون غضبه سبباً لقتلها.

لجاج الخنفساء واعتقاد المفاليس فيها

وما زالوا كذلك، وما زالت كذلك، حتّى سقط إلى المفاليس
أنّ الخنافس تجلب الرّزق، وأنّ دنوّها دليلٌ على رزق
حاضر: من صلّة، أو جائزة، أو ربح، أو هديّة، أو حظّ،
فصارت الخنافس إنّ دخلت في قمصهم ثمّ نفذت إلى
سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً، وأكثر ما عندهم
اليوم الدّفْع لها ببعض الرّفق، ويظنّ بعضهم أنّه إذا دافعها
فعدت، ثمّ دافعها، فعدت، ثمّ دافعها فعدت - أنّ ذلك كلما
كان أكثر، كان حظّه من المال الذي يؤمّله عند مجيئها
أجزل.

فانظر، آية واقية وآية حافظة، وأيّ حارس، وأيّ حصن
أنشأه لها هذا القول وأيّ حظّ كان لها حين صدّقوا بهذا
الخبر هذا التصديق والطّمع هو الذي أثار هذا الأمر من
مدافنه، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطّمع واجتلبه، ولكن
الويل لها إنّ ألحّت على غنيّ عالم، وخاصّة إن كان مع
جدّته وعلمه حديثاً عجولاً.

اعتقاد العامة في أمير الدّبّان وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير
الشديد الطنين الملحّ في ذلك، الجهير الصوت، الذي تسميه
العوام: أمير الدّبّان، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده
وقتله، إذا أكرّبهم بكثرة طنينه وزجّله وهماهما فانه لا

يفتر، فلَمَّا سقط إليهم أَنه مبشَّرٌ بقُدومِ غائبٍ وُبرءِ سقيمٍ، صاروا إِذا دخل المنزلَ وأوسَعَهُم شَرّاً، لم يَهْجِه أَحَدٌ منهم. وَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنْسِيَ فِي أَجْلِ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ هَيَأَ لَذَلِكَ سَبَباً، كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْصُرَ عَمْرُهُ وَيَحِينَ يَوْمُهُ هَيَأَ لَذَلِكَ سَبَباً، فَتَعَالَى اللهُ عُلُوّاً كَبِيراً.

ثُمَّ رَجَعَ بِنَا الْقَوْلِ إِلَى الْإِحَاحِ الذَّبَّانِ. عَبْدُ اللهِ بْنِ سَوَارٍ وَالْإِحَاحِ الذَّبَابِ كَانَ لَنَا بِالْبَصْرَةِ قَاضٍ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَوَارٍ، لَمْ يَرَ النَّاسُ حَاكِمًا قَطُّ وَلَا زَمِيئًا وَلَا رَكِينًا، وَلَا وَقُورًا حَلِيمًا، ضَبَطَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكٍ مِنْ حَرَكَتِهِ مِثْلَ الَّذِي ضَبَطَ وَمَلَكٍ، كَانَ يَصَلِّيُ الْغَدَاةَ فِي مَنْزِلِهِ، وَهُوَ قَرِيبُ الدَّارِ مِنْ مَسْجِدِهِ، فَيَأْتِي مَجْلِسَهُ فَيَحْتَبِي وَلَا يَتَكَيُّ، فَلَا يَزَالُ مُنْتَصِبًا وَلَا يَتَحَرَّكُ لَهُ عَضْوٌ، وَلَا يَلْتَفِتُ، وَلَا يَحِلُّ حُبُوتَهُ، وَلَا يَحْوَلُ رَجُلًا عَنْ رَجُلٍ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى أَحَدٍ شَقِيهٍ، حَتَّى كَأَنَّهُ بِنَاءٌ مَبْنِيٌّ، أَوْ صَخْرَةٌ مَنْصُوبَةٌ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَقُومُ إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَجْلِسِهِ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَقُومَ إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ لِمَجْلِسِهِ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَقُومَ لَصَلَاةِ الْمَغْرَبِ، ثُمَّ رُبَّمَا عَادَ إِلَى مَحَلِّهِ، بَلْ كَثِيرًا مَا كَانَ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ قِرَاءَةِ الْعَهُودِ وَالشُّرُوطِ وَالْوَثَائِقِ، ثُمَّ يُصَلِّيُ الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ وَيَنْصَرِفُ، فَالْحَقُّ يُقَالُ:

لَمْ يُقَمْ فِي طَوْلِ تِلْكَ الْمَدَّةِ وَالْوَلَايَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الْوَضُوءِ،
وَلَا احْتِاجَ إِلَيْهِ، وَلَا شَرِبَ مَاءً وَلَا غَيْرَهُ مِنَ الشَّرَابِ، كَذَلِكَ
كَانَ شَأْنُهُ فِي طَوَالِ الْأَيَّامِ وَفِي قِصَارِهَا، وَفِي صَيْفِهَا وَفِي
شِتَائِهَا، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَحْرُكُ يَدَهُ، وَلَا يُشِيرُ بِرَأْسِهِ،
وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ ثُمَّ يَوْجِزُ، وَيَبْلُغُ بِالْكَلَامِ الْيَسِيرِ الْمَعْنَى
الْكَثِيرَةَ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَصْحَابُهُ حَوْلَيْهِ، وَفِي
السَّمَاطِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، إِذْ سَقَطَ عَلَى أَنْفِهِ ذُبَابٌ فَأَطَالَ الْمَكْثَ،
ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى مُوقٍ عَيْنِهِ، فَرَامَ الصَّبْرَ فِي سَقُوطِهِ عَلَى
المُوقِ، وَعَلَى عَضِّهِ وَنَفَاذِ خِرطُومِهِ كَمَا رَامَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
سَقُوطِهِ عَلَى أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْرُكَ أَرْنَبَتَهُ، أَوْ يَغْضُنَّ
وَجْهَهُ، أَوْ يَذَّبَ بِإصْبَعِهِ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّلْبِ
وَشَغْلِهِ وَأَوْجَعِهِ وَأَحْرَقَهُ، وَقَصَدَ إِلَى مَكَانٍ لَا يَحْتَمِلُ التَّغَافُلَ،
أَطْبَقَ جَفْنَهُ الْأَعْلَى عَلَى جَفْنِهِ الْأَسْفَلِ فَلَمْ يَنْهَضْ، فَدَعَاهُ ذَلِكَ
إِلَى أَنْ وَالَى بَيْنَ الْإِطْبَاقِ وَالْفَتْحِ، فَتَنَحَّى رِيثَمَا سَكَنَ جَفْنُهُ،
ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْقِهِ بِأَشَدِّ مِنْ مَرَّتِهِ الْأُولَى فَغَمَسَ خِرطُومَهُ فِي
مَكَانٍ كَانَ قَدْ أَوْهَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَكَانَ احْتِمَالُهُ لَهُ أضعْفَ،
وَعَجَزُهُ عَنِ الصَّبْرِ فِي الثَّانِيَةِ أَقْوَى، فَحْرَكَ أَجْفَانَهُ وَزَادَ فِي
شِدَّةِ الْحَرَكَةِ وَفِي فَتْحِ الْعَيْنِ، وَفِي تَتَابُعِ الْفَتْحِ وَالْإِطْبَاقِ،
فَتَنَحَّى عَنْهُ بِقَدْرِ مَا سَكَنَتْ حَرَكَتُهُ ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَمَا

زالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صَبْوَهُ وبلغَ مجهوده، فلم يجدْ
بُداً من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه
ترمقه، وكأنهم لا يروونه، فتَنَحَّى عنه بقدر ما رَدَّ يده
وسكنت حركته ثم عاد إلى موضعه، ثم أَلْجَأَ إلى أن ذبَّ عن
وَجْهه بطرف كفه، ثم أَلْجَأَ إلى أن تابعَ بين ذلك، وعلم أن
فِعْلَهُ كَلَهُ بعين مَنْ حَضَرَهُ من أَمَنائه وجلسائه، فلَمَّا نظروا
إليه قال: أشهد أنَّ الذبابَ ألحَّ من الخنفساء، وأزهى من
الغراب وأستغفر الله فما أكثرَ مَنْ أعجبته نفسه فأراد الله عزَّ
وجلَّ أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت
أني عند الناس من أزمَتِ الناس، فقد غلبني وفضخني
أضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى: "وَأِنْ يَسْتَنْبِهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً
لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ".
وكان بين اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيباً في
أصحابه، وكان أحدَ مَنْ لم يطعن عليه في نفسه، ولا في
تعريض أصحابه للمنالة.

قصة في إلحاح الذباب فأما الذي أصابني أنا من الدَّبان،
فإني خَرَجْتُ أمشي في المبارك أريد دَيْرَ الربيع، ولم أقدِرْ
على دابة، فمررتُ في عشبٍ أشبَّ ونباتٍ ملتفٍّ كثيرِ الدَّبان،
فسقط ذباب من تلك الدَّبان على أنفي، فطرده، فتحوَّلَ إلى

عيني فطردته، فعاد إلى موقِ عيني، فزدتُ في تحريكِ يديّ
ففتحني عني بقدرِ شدةِ حركتي وذبي عن عيني - ولذبان
الكلابِ والغياضِ والرياضِ وقَع ليس لغيرها - ثم عاد إليّ
فعدتُ عليه ثم عاد إليّ فعدتُ بأشدّ من ذلك، فلما عاد
استعملتُ كمّي فذبتُ به عن وجهي، ثم عاد، وأنا في ذلك
أحثُّ السَّير، أوَمِّل بسرعتي انقطاعه عني فلما عاد نزعْتُ
طيلسانِي من عنقي فذبتُ به عني بدلَ كمّي؛ فلما عاودَ ولم
أجد له حيلةً استعملتُ العدو، فعدوتُ منه شوطاً تاماً لم
أتكلفُ مثله مذ كنتُ صبيّاً، فتلقاني الأندلسيُّ فقال لي: ما لك
يا أبا عثمان هل منْ حادثة؟ قلتُ: نعم أكبر الحوادث، أريد
أن أخرج من موضعٍ للذَّبانِ عليّ فيه سلطانٌ فضحك حتى
جلس، وانقطع عني، وما صدقتُ بانقطاعه عني حتى تباعد
جداً.

ذبان العساكر والعساكر أبدأ كثيرة الذَّبان، فإذا ارتحلوا لم يرَ
المقيمُ بعد الظَّاعن منها إلا اليسير.

وزعم بعضُ النَّاسِ أنَّهنَّ يتبعن العساكرَ، ويسقطنَ على
المتاع، وعلى جلالِ الدوابِّ، وأعجاز البرادين التي عليها
أسبابها حتى تؤدِّي إلى المنزل الآخر.

وقال المكيُّ: يتبعوننا ليؤذونا، ثم لا يركبون إلا أعناقنا

ودوابنا.

تخلّق الذباب ويقول بعضهم: بل إنما يتخلّق من تلك العفونات والأبخرّة والأنفاس، فإذا ذهبت فنيت مع ذهابها، ويزعمون أنّهم يعرفون ذلك بكثرتها في الجنائب، وبقلتها في الشمائل.

قالوا: وربّما سدّدنا فمّ الآنية التي فيها الشرّاب بالصّمامة، فإذا نزعناها وجدنا هناك ذباباً صغراً. وقال ذو الرّمّة:

فَرَأَسًا وَأَنَّ الْبَقْلَ
ذَاوٍ وَيَابِسُ

وَأَيْقَنَ أَنَّ الْقَنْعَ
صَارَتْ نِطَافَهُ

القنّع: الموضع الذي يجتمع فيه نقران الماء، والفراش: الماء الرقيق الذي يبقى في أسفل الحياض. وأخبرني رجلٌ من ثقيف، من أصحاب النّبذ أنّهم ربّما فلقوا السّفرجلة أيام السّفرجل للنقل والأكل، وليس هناك من صغار الذّبان شيء البتّة ولا يُعدهم أنّ يروا على مقاطع السّفرجل ذباباً صغراً، وربّما رصّوها وتأمّلوها، فيجدونها تعظم حتّى تلحق بالكبار في السّاعة الواحدة. حياة الذّباب بعد موته قال: وفي الذّبان طبع كطبع الجعلان،

فهو طبعٌ غريبٌ عجيبٌ، ولولا أنّ العيانَ قهرَ أهلهُ لكانوا
خلقاءً أن يدفعوا الخبرَ عنه؛ فإنّ الجعلَ إذا دُفِنَ في الوردِ
ماتَ في العينِ، وفنيت حركاته كلّها، وعاد جامداً تارزاً ولم
يفصل الناظرُ إليه بينه وبين الجعلِ الميّتِ، ما أقام على
تأمله، فإذا أعيد إلى الروثِ عادت إليه حركة الحياة من
ساعته.

وجرّبتُ أنا مثلَ ذلك في الخنفساءِ، فوجدتُ الأمرَ فيها قريباً
من صفةِ الجعلِ، ولم يبلغْ كلَّ ذلك إلاّ لقراءةٍ ما بينَ
الخنفساءِ والجعلِ.

ودخلت يوماً على ابنِ أبي كريمة، وإذا هو قد أخرجَ إجانةً
كان فيها ماءٌ من غسالةِ أوساخِ الثيابِ، وإذا ذبّانٌ كثيرةٌ قد
تساقطنَ فيه من الليلِ فمَوّتُن، هكذا كُنَّ في رأيِ العينِ،
فغَبَرْنَ كذلك عَشِيَّتَهُنَّ وليلتَهُنَّ، والغَدَّ إلى انتصافِ النهارِ،
حتى انتفخنَ وعفنَ واسترخينَ؛ وإذا ابنِ أبي كريمة قد أعدَّ
أجرّةً جديدةً، وفُتاتَ أجرٍ جديدٍ، وإذا هو يأخذُ الخمسَ منهنَّ
والستَ، ثم يضعهنَّ على ظهرِ الأجرّةِ الجديدةِ، ويذرُّ عليهنَّ
من دقاقِ ذلك الأجرِّ الجديدِ المدقوقِ بقدرِ ما يغمُرُها فلا
تلبثُ أن يراها قد تحرّكتْ، ثمّ مشت، ثمّ طارت؛ إلاّ أنّه
طيرانٌ ضعيفٌ.

ابن أبي كريمة وعود الحياة إلى غلامه وكان ابن أبي كريمة يقول: لا والله، لا دفنت ميتاً أبداً حتى ينشق قلت: وكيف ذاك؟ قال: إن غلامي هذا نُصيراً مات، فأخرتُ دفنه لبعض الأمر، فقدم أخوه تلك الليلة فقال: ما أظنُّ أخي مات ثم أخذ فتيلتين ضخمتين، فرواهما دهنًا ثم أشعل فيها النار، ثم أطفأهما وقربهما إلى منخريه، فلم يلبث أن تحرك، وها هو ذا قد تراه قلت له: إن أصحاب الحروب والذين يغسلون الموتى، والأطباء، عندهم في هذا دلالات وعلامات فلا تحمل على نفسك في واحدٍ من أولئك ألا تستره بالدفن حتى يجيف.

والمجوس يقربون الميت من أنف الكلب، ويستدلون بذلك على أمره فعلمت أن الذي عايناه من الدبان قد زاد في عزمه.

النعر والنعر: ضرب من الدبان، والواحدة نعة، وربما دخلت في أنف البعير أو السبع، فيزّم بأنفه؛ للذي يلقي من المكروه بسببه، فالعرب تشبهه ذا الكبر من الرجال إذا صعر خده، وزّم أنفه - بذلك البعير في تلك الحال، فيقال عند ذلك: فلان في أنفه نعة، وفي أنفه خنزوانة، وقال عمر: والله لا

أقلع عنه أو أطير نعرته.
ومنها القمّع، وهو ضربٌ من ذبّان الكلاء، وقال أوس:

وعفرَ الطّبائِ في
الكناسِ تَقَمَّعُ

ألم ترَ أن الله
أنزلَ مُزْنَه

وذلك مما يكون في الصيف وفي الحرّ.
أذى الذبّان للدوابّ والذبّان جند من جند الله شديد الأذى،
وربّما كان أضرّ من الدبّير في بعض الزمان، وربما أتت على
القافلة بما فيها؛ وذلك أنّها تغشى الدوابّ حتى تضرب
بأنفسها الأرض - وهي في المفاوز - وتسقط، فيهلك أهل
القافلة؛ لأنهم لا يخرجون من تلك المفاوز على دوابهم -
وكذلك تضرب الرّعاء بإبلهم، والجمالون بجمالهم عن تلك
الناحية، ولا يسألونها صاحب دابّة، ويقول بعضهم لبعض:
بادرُوا قبلَ حركةِ الذبّان، وقبل أن تتحرك ذبّان الرّياض
والكلاء.

والزّنابير لا تكاد تدمي إذا لسعت بأذنابها، والذبّان تغمس
خراطيمها في جوف لحوم الدوابّ، وتخرق الجلود الغلاظ
حتى تنزف الدّم نزفاً، ولها مع شدّة الوقع سمومٌ، وكذلك
البعوضة ذات سمّ، ولو زيد في بدن البعوضة وزيد في

حرقة لسعها إلى أن يصير بدنها كبدن الجرارة - فإنها
أصغر العقارب - لما قام له شيء، وكان أعظم بليّة من
الجرارة النصبية أضعافاً كثيرة، وربما رأيت الحمار وكأته
مُمَغَّر أو معصفر، وإنهم مع ذلك ليجلّلون حمّهم
ويبرقعونها، وما يدعون موضعاً إلا استروه بجهدهم، فربما
رأيت الحمير وعليها الوجل فيما بين عبّسي والمذار
بأيديهم المناخس والمذاب، وقد ضربت بأنفسها الأرض
واستسلمت للموت، وربما رأيت صاحب الحمير إذا كان
أجيراً يضربها بالعصا بكلّ جهده، فلا تتبعث.
وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر، ولقد رأيت
دُباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي، فضرب بأذنيه،
وحرّك رأسه بكلّ جهده، وأنا أتأمّله وما يقلع عنه، فعمدت
بالسوط لأنحيه به فنزاه عنه، ورأيت مع نزوه عنه الدّم وقد
انفجر؛ كأنه كان يشرب الدّم وقد سدّ المخرج بفيه، فلما
نحاه طلع.
ونيم الدّباب وتزعمُ العامّة أنّ الدّبان يخراً على ما شاء
قالوا: لأننا نراه يخراً على الشيء الأسود أبيض، وعلى
الأبيض أسود.

ويقال قد ونمَّ الذُّباب - في معنى خرى الإنسان - وعرَّ
الطائر، وصام النَّعام، وذَرَقَ الحمام، قال الشاعر:

كَأَنَّ وَنَيْمَهُ نَقَطَ
الْمِدَادِ

وَقَدْ وَنَمَّ الذُّبَابُ عَلَيْهِ
حَتَّى

وليس طولُ كُومِ البعير إذا ركب النَّاقَةَ، والخنزير إذا ركب
الخنزيرة، بأطول ساعة من لُبثِ ذكورة الذَّبَّانِ عَلَى ظهور
الإناثِ عِنْدَ السَّفَادِ.
تخلق الذُّباب والذُّباب من الخلق الذي يكونُ مرَّةً من السَّفَادِ
والوِلادِ، ومرَّةً من تعفُّنِ الأجسامِ والفسادِ الحادثِ في
الأجرامِ.
والباقلاءُ إذا عتَقَ شيئاً في الأنبار استحال كُلهُ ذُبَاباً، فربَّما
أغفلوه في تلك الأنبار فيعودون إلى الأنبار وقد تطاير من
الكوى والخروقِ فلا يجدون في الأنبار إلاَّ القشورِ.
والذُّباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً، ثمَّ يعود ذُبَاباً،
وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقَّباً في داخله شيءٌ كأنَّه
مسحوق، إذا كان الله قد خلق منه الذَّبَّانِ وصيَّره، وما أكثر
ما تجده فيه تامَّ الخلق، ولو تمَّ جناحاه لقد كان طارِ.
حديث شيخ عن تخلق الذُّباب وحدثني بعض أصحابنا عن

شيخ من أهل الخريبة قال: كنت أحبُّ الباقلاء، وأردت، إمَّا البصرة وإمَّا بغداد - ذهب عني حفظه - فصرتُ في سفينةٍ حملها باقلاء، فقلت في نفسي: هذا والله من الحظِّ وسعادة الجَدِّ، ومن التَّوفيق والتَّسديد، ولقد أربح من وَقَع له مثل هذا الذي قد وقع لي: أجلسُ في هذه السفينة على هذا الباقلاء، فأكلُ منه نِيًّا ومطبوخاً ومقلّوًّا، وأرضُ بعضه وأطحنه، وأجعلُه مرقاً وإداماً، وهو يَغذو غذاءً صالحاً، ويُسْمِنُ، ويزيد في الباه، فابتدأت فيما أمَّلته، ودفَعنا السفينة، فأنَّكرتُ كثرة الذَّبَّان، فلما كان الغدُّ جاء منه ما لم أقدر معه على الأكل والشرب، وذهبت القائلة وذهب الحديث، وشُعِلت بالذَّبِّ، على أنَّهنَّ لم يكنَّ يبرحنَّ بالذَّبِّ، وكنَّ أكثرَ من أنْ أكونَ أقوى عليهنَّ؛ لأنِّي كنتُ لا أطرُدُ مائةً حتى يخلفها مائة مكانها، وهُنَّ في أولِ ما يخرجنَّ من الباقلاء كأنَّ بهنَّ زمانةً فلما كان طيرانهنَّ أسوأ كان أسوأ لحالي، فقلت للملاح: ويلك أيُّ شيءٍ معك حتى صار الذبان يتبعك قدَّ والله أكلتُ وشربتُ قال: أو ليس تعرف القصة؟ قلت: لا والله قال: هي والله من هذه الباقلاء، ولولا هذه البليَّة لجاؤنا من الرُّكاب كما يجيئون إلى جميع أصحاب الحمولات، وما ظننته إلا ممن قد اغتفر هذا للين الكراء،

وحبّ التفرد بالسفينة، فسألتُهُ أن يقربني إلى بعض الفُرص،
حتى أكتري من هناك إلى حيث أريد، فقال لي: أتحبُّ أن
أزوّدك منه؟ قلت: ما أحبُّ أن ألتقيَ أنا والباقلاء في طريقٍ
أبداً من ثره الباقلاء ولذلك كان أبو شمر لا يأكل الباقلاء،
وكان أخذ ذلك عن معلّمه معمرَ أبي الأشعث، وكذلك كان
عبد الله بن مسلمة بن محارب والوكيعي ومُعمر، وأبو
الحسن المدائني، برهةً من دهرهم.

وكان يقول: لولا أنّ الباقلاء عفن فاسد الطبع، رديءٌ يختر
الدّم ويغلّظه ويورث السّوداء وكلّ بلاء - لما ولدّ الدّبان،
والدّبان أقدرُ ما طار ومشى وكان يقول: كلُّ شيءٍ ينبت
منكوساً فهو رديءٌ للدّهن، كالباقلاء والبادنجان.

وكان يزعم أنّ رجلاً هرب من غرمانه فدّخل في غابةٍ
باقلاء، فتستّر عنهم بها، فأراد بعضهم إخراجَه والدخول
فيها لطلبه، فقال: أحكمهُم وأعلمهم كفاكم له بموضعه شرّاً.
وكان يقول: سمعت ناساً من أهل التجربة يحلفون بالله: إنّه
ما أقام أحدٌ أربعين يوماً في منبت باقلاءٍ وخرج منه إلّا وقد
أسقمه سُقماً لا يزايلُ جسمه.

وزعم أنّ الذي منع أصحاب الأذهان والتربية بالسمسم من
أن يربّوا السّماسم بنور الباقلاء، الذي يعرفون من فسادٍ

طبعه، وأنه غير مأمون على الدماغ وعلى الخيشوم
والصَّمَاخ، ويزعمون أنّ عمله الذي عمله هو القصد إلى
الأذهان بالفساد.

وكان يزعم أنّ كلّ شيء يكون رديئاً للعصب فإنه يكون
رديئاً للدّهْن، وأنّ البصل إنما كان يفسد الذهن؛ إذ كان رديئاً
للعصب، وأنّ البلاذُر إنما صار يُصلح العقلَ ويورثُ الحفظ؛
لأنّه صالح للعصب.

وكان يقول: سواءً عليّ أكلت الدُّبَان أو أكلت شيئاً لا يولّد إلاّ
الدُّبَان، وهو لا يولّده إلاّ هو، والشّيء لا يلد الشّيء إلاّ وهو
أولى الأشياء به، وأقربها إلى طبعه، وكذلك جميع الأرحام،
وفيما ينتج أرحام الأرض وأرحام الحيوان، وأرحام
الأشجار، وأرحام الثَّمَار، فيما يتولّد منها وفيها.

حديث أبي سيف حول حلاوة الخرز

وبينما أنا جالسٌ يوماً في المسجد مع فتیان من المسجديين
مما يلي أبواب بني سليم، وأنا يومئذٍ حدّث السنن إذ أقبل أبو
سيف الممرور - وكان لا يؤذي أحداً، وكان كثير الظرف من
قوم سراة - حتى وقف علينا، ونحن نرى في وجهه أثر
الجُدِّ، ثم قال مجتهداً: والله الذي لا إله إلاّ هو إن الخرز

لحلو، ثمَّ والله الذي لا إله إلا هو إنَّ الخرع لحلو، ثمَّ والله الذي لا إله إلا هو إنَّ الخرع لحلو، يميناً بآتة يسألني الله عنها يوم القيامة فقلت له: أشهد أنك لا تأكله ولا تذوقه، فمن أين علمت ذلك؟ فإن كنتِ علمتِ أمراً فعلمنا مما علمك الله، قال: رأيت الذبان يسقط على التبيذ الحلو، ولا يسقط على الحازر، ويقع على العسل ولا يقع على الخل، وأراه على الخرع أكثر منه على التمر، أفتريدون حجةً أبين من هذه؟ فقلت: يا أبا سيفٍ بهذا وشبهه يُعرف فضلُ الشيخِ على الشاب.

تخلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ثمَّ رجَعَ بنا القول إلى ذكر خلق الذبان من الباقلاء، وقد أنكر ناسٌ من العوامِّ وأشباهِ العوامِّ أن يكونَ شيءٌ من الخلق كان من غير ذكرٍ وأنثى، وهذا جهلٌ بشأنِ العالم، وبأقسامِ الحيوان، وهم يظنون أنَّ على الدِّين من الإقرار بهذا القولِ مضرَّةٌ، وليس الأمر كما قالوا، وكلُّ قولٍ يكذبُه العيان فهو أفحشُ خطأ، وأسخفُ مذهباً، وأدلُّ على معاندةٍ شديدةٍ أو غفلةٍ مفرطةٍ.

وإنَّ ذهبَ الدَّاهِبِ إلى أن يقيس ذلك على مجازِ ظاهرِ الرأْيِ،

دون القطع على غيب حقائق العِلل، فأجرَاه في كلِّ شيء -
قال قولاً يدفعه العيانُ أيضاً، مع إنكار الدّين له.
وقد علمنا أنّ الإنسانَ يأكلُ الطَّعامَ ويشربُ الشَّرَابَ، وليس
فيهما حيَّةٌ ولا دودةٌ، فيُخلَق منها في جوفه ألوان من
الحَيَّات، وأشكالٌ من الدَّيدان من غير ذكْرٍ ولا أنثى، ولكن
لابدَّ لذلك الولادِ واللِّقاحِ من أن يكون عن تناكحِ طباع،
وملاقةِ أشياء تشبه بطباعها الأرحامَ وأشياء تشبه في
طبائعها ملقحات الأرحام.

استطرد لغوي بشواهد من الشعر

وقد قال الشاعر:

عن هَيْجِه
واستنتجت أحلاما

فاستنكح اللؤلؤ
البهيم فألقحت

وقال الآخر:

فالجود أكرمها
نتاجا

وإذا الأمور
تناكحت

وقال ذو الرُّمّة:

مَعَ اللَّيْلِ أَحْلَامُ
الْهَدَانِ الْمَثَلِ

وَإِنِّي لِمِدْلَاجٍ إِذَا
مَا تَنَاحَتْ

وقال عليُّ بن مُعَاذٍ:

مُسْتَرْزِقٌ مِنْ رَحِمِ
الشَّمْسِ

لَلْبَدْرِ طِفْلٌ فِي
حِضَانِ الْهَوَا

وقال دُكَيْنُ الرَّاجِزِ، أو أبو محمد الفَقْعَسِيِّ:

بِالسَّوِطِ فِي
دِيمُومَةٍ كَالْتَّرَسِ

وَقَدْ تَعَلَّتْ ذَمِيلِ
العُنْسِ

إِذَا عَرَّجَ اللَّيْلُ
بِرُجِّ الشَّمْسِ

وقال أمية بن أبي الصَّلْتِ:

لِلْمَاءِ حَتَّى كُلُّ زَنْدٍ
مُسْفَدٌ

وَالْأَرْضُ نَوَّحَهَا
الإِلَهُ طَرُوقَةً

فِيهَا مَقَابِرُنَا

وَالْأَرْضُ مَعْقِلَنَا

وكانت أمنا

وفيها نولد

وذكر أمية الأرض فقال:

والطوط نزرعه

والصوف نجتزه ما

فيها فنلبسه

أردف الوبر

هي القرار فما

ما أرحم الأرض إلا

نبغي بها بدلاً

أننا كفر

وطعنة الله في

تعي الأطباء لا

الأعداء نافذة

تنوى لها السبر

ثم رجع إليها

فقال:

منها خلقنا وكانت

ونحن أبناءها لو

أما خلقت

أننا شكر

ما تستنكره العامة من القول

وتقول العرب: الشمس أرحم بنا فإذا سمع السامع منهم أن جالينوس قال: عليكم بالبقلة الرحيمة - السلق - استشنع

السامع، وإذا سمع قولَ العرب: الشمسُ أرحمُ بنا، وقولَ
أميَّة:

ما أرحمَ الأرضَ إلا أننا كُفَرُ

لم يستشنعهُ، وهما سِوَاءِ. فإذا سمع أهل الكتاب يقولون: إِنَّ
عيسى ابن مريم أخذَ في يده اليمنى عُرقَةً، وفي اليسرى
كِسْرَةَ خبز، ثم قال: هذا أبي، للماءِ، وهذه أمِّي، لكِسْرَةِ
الخبزِ، استشنعهُ، فإذا سمع قولَ أميَّة:

للماءِ حتَّى كل زَنْدٍ
مُسْفَدٌ

والأرضُ نَوَّخَهَا
الإله طُرُوقَةً

لم يستشنعهُ، والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحابُ ألفاظٍ في
كتبهم، وأصحابُ تهويل؛ لأنهم حينَ عدِمُوا المعاني ولم يكن
عندهم فيها طائل، مألوا إلى تكلف ما هو أخضرٌ وأيسرُ
وأوجزٌ كثيرًا.

حُظُوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس

ولكلِّ قَوْمٍ ألفاظٌ حظيتَ عندهم، وكذلك كلُّ بليغٍ في الأرضِ
وصاحبِ كلامٍ منثور، وكلُّ شاعرٍ في الأرضِ وصاحبِ كلامٍ

موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها؛
ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير
اللفظ..

فصار حظُّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم،
واتصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم التناكح، والنتائج،
والمزاج والنور والظلمة، والدفاع والمناع، والساتر
والغامر، والمنحل، والبطلان، والوجدان، والأثير والصديق
وعمود السبح، وأشكالاً من هذا الكلام، فصار وإن كان
غريباً مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا، وكذلك هو
عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخواصُّ والإلَّا
المتكلمون.

الكتاب التاسع

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام

خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ضعف اطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية

ضروب التخيل

شعر فيه هجاء بالذباب

شعر في أصوات الذباب وغنائها

ألوان الذبان

ما يسمّى بالذبان

جهل الذبان وما قيل فيها من الشعر

قصة في الهرب من الذباب

قصة في سفاذ الذباب

قصة آكل الذبان

تحقير شأن الذبابة

أعجوبة في ذبان البصرة

العجبية في نوم الذبان

الغربان

الاستثناء في الحلف

تسمية الغراب ابن دأية

غربان الإبل

أمثال في الغراب

أمثال من الشعر والنثر في الغراب

استطراد لغوي

غراب البين

الوليد بن عقبة وعبد الله بن الزبير

القواطع والأوابد

صوت الغراب

أسماء الغراب

مراعاة التفاؤل في التسمية

ضروب من الطيرة

قاعدة في الطيرة

التشاؤم بالغراب

منقار الغراب

حوار في نفور الغربان من النخل

ما يتفائل به من الطير والنبات

عداوة الحمار للغراب

أمثال في الغراب

معرفة في الغرابان

حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان

نوادير وبلاغات

شعر في الزهد والحكمة

من يهجى ويذكر بالشؤم

شعر في مديح وهجاء

عين الرضا وعين السخط

شعر وخبر

من ه ام على وجهه فلم يوجد

مديح الصّالحين والفقهاء

شعر مختار

الجعلان والخنافس

استطراد لغوي

طلب الحيات البيض

عداوة الحمار للغراب

أمثال

طول ذماء الخنفساء

أعاجيب الجعل

تطور الدعاميص

عادة الجعل

معرفة في الجعل

أبو الخنفس وأبو العقارب

طول نماء الخنفساء

الهدهد

معرفة الهدهد بمواضع المياه

سؤال ومثل في الهدهد

بيت الهدهد

وفاء الشفنين

من عجائب الطي

قول أبي الشيص في الهدهد

الرخم

أسطورة الرخم

الغراب والرخمة

ما يطلب العذرة

الخفاش

من أعاجيب الخفاش

علاقة الأذن بنتاج الحيوان

ما يحيض من الحيوان

معارف في الخفاش

من أعاجيب الخفافيش

طول عمر الخفاش

القدرة التناسلية لدى بعض الحيوان

قول النساء في أشباههن في الخفافيش

ضعف البصر لدى بعض الحيوان

لغز في الخفاش

النهي عن قتل الضفادع والخفافيش

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام

وأنا أقولُ في هذا قولاً، وأرجو أن يكون مرضياً، ولم أقلُ أرجو لأنني أعلمُ فيه خلاً، ولكني أخذتُ بآدابِ وجوهِ أهلِ دعوتي وملّتي، ولغتي، وجزيرتي، وجيرتي؛ وهم العرب، وذلك أنه قيل لصحار العبدية: الرجل يقول لصاحبه، عند تذكيره أيديهِ وإخسانه: أما نحنُ فإننا نرجو أن نكونَ قد بلغنا من أداءِ ما يجبُ علينا مبلغاً مرضياً، وهو يعلمُ أنه قد وفاه حقه الواجب، وتفضل عليه بما لا يجب، قال صحار: كانوا يستحبون أن يدعوا للقول متنقساً، وأن يترثوا فيه فضلاً، وأن يتجافوا عن حقِّ إن أرادوه لم يمنعوا منه. فلذلك قلت أرجو، فافهم فهمك الله تعالى.

فإن رأيت في هذا الضرب من هذا اللفظ، أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها، والعادة فيها، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة. وأرى أن ألفظ بالألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة

الكلام مع خواصّ أهل الكلام؛ فإن ذلك أفهم لهم عني،
وأخفّ لمؤنّتهم عليّ.
ولكل صناعةٍ ألفاظٌ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم
تُزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مُشاكلاً بينها وبين تلك
الصناعة.

وقبيحٌ بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خُطبةٍ، أو
رسالةٍ، أو في مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله
وعبيده وأمته، أو في حديثه إذا تحدث، أو خبره إذا أخبر.
وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ
العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكلّ مقامٍ مقال، ولكلّ
صناعة شكل.

خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ثم رجع بنا القول إلى ما يحدث الله عزّ وجلّ من خلقه من
غير ذكرٍ ولا أنثى، فقلنا: إنّه لا بدّ في ذلك من تلاقي أمرين
يقومان مقام الذكر والأنثى، ومقام الأرض والمطر، وقد
تقرب الطّبائع من الطّبائع، وإن لم تتحوّل في جميع معانيها،
كالنطفة والدّم، وكاللبن والدّم.

وقد قال صاحب المنطق: أقول بقولٍ عامّ: لا بدّ لجميع

الحيوان من دم، أو من شيء يشاكل الدّم، ونحن قد نجد الجيفَ يخلق منها الديدان، وكذلك العذرة، ولذلك المجوسيّ كلما تبرّز ذرّاً على بُرازه شيئاً من التراب؛ لنلا يخلق منها ديدان، والمجوسيّ لا يتغوّط في الآبار والبلاليع لأنّه بزعمه يُكرم بطنَ الأرض عن ذلك، ويزعم أنّ الأرضَ أخذَ الأركان التي بُيّتَ العوالمُ الخمسةُ عليها بزعمهم: أبرسارس وأبرمارس وأبردس وكارس وحريرة أمنة، وبعضهم يجعل العوالم ستة ويزيد أسرس، ولذلك لا يدفنون موتاهم ولا يحفرون لهم القبور، ويضعونهم في التّواويس وضِعاً. قالوا: ولو استطعنا أن نخرج تلك الجيف من ظهور الأرضين وأجواف الأحراز، كما أخرجناها من بطون الأرضين لفعلنا، وهم يسمّون يوم القيامة روزرستهار، كأنّه يوم تقوم الجيف، فمن بُغضهم لأبدان الموتى سمّوها بأسمج أسمائهم.

قالوا: وعلى هذا المثال أعظّمنا النّار والماء، وليسا بأحقّ بالتعظيم من الأرض. وبعد فنحن ننزع الصّمامة من رؤوس الآنية التي يكونُ فيها بعضُ الشراب، فنجد هنالك من الفراش ما لم يكن عن ذكر ولا أنثى، وإنما ذلك لاستحالة

بعض أجزاء الهواء وذلك الشراب إذا انضمَّ عليه ذلك
الوعاء، وهذا قولُ ذي الرِّمَّةِ وتأويلُ شعره، حيث يقول:

فَرَأَشاً وَأَنَّ الْبَقْلَ
ذَاوٍ وَيَابِسُ

وَأَبْصَرْنَ أَنْ الْقِنَعُ
صَارَتْ نِطَافُهُ

وكذلك كلُّ ما تخلق من جُمَارِ النَّخْلَةِ وفيها، من ضروب
الخلِّقِ والطَّيرِ، وأشباه الطير، وأشباه بناتِ وَرْدَانَ، والذي
يسمَّى بالفارسية فاذو، وكالسُّوس، والقوادح، والأرضة،
وَبَنَاتِ وَرْدَانَ اللاتي يخلقن من الأجداع والخشب
والحشوش، وقد نجد الأزج الذي يكبس فيه اليخُّ بخراسان،
كيف يستحيل كله ضفادع، وما الضفدع بأدلَّ عَلَى اللَّهِ من
الفراش.

وإنما يستحيل ذلك التَّلْجُ إذا انفتح فيه كقدر منخر الثور،
حَتَّى تَدْخُلَهُ الرِّيحُ التي هي اللاقحة، كما قال الله عزَّ وجلَّ:
(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ) فجعلها لاقحةً ولم يجعلها ملقحة.
ونجد وسط الدهناء - وهي أوسع من الدوِّ ومن الصَّمَّان -
وعلى ظهر مسجد الجامع في غبِّ المطر من الضفادع ما لا
يُحصى عدده، وليس أن ذلك كان عن ذكرٍ وأنثى، ولكنَّ الله
خَلَقَهَا تلك الساعة من طباع تلك التُّرْبَةِ وذلك المطر وذلك

الهواء المحيط بهما، وتلك الرياح المتحركة، وإن زعموا أن تلك الضفادع كانت في السحاب، فالذي أقروا به أعجب من الذي أنكروه، وإنما تقيم الضفادع وتترى وتتوالد في مناقع المياه، في أرض تلاقي ماءً، والسحاب لا يوصف بهذه الصفة، قد نجد الماء يزيد في دجلة والفرات فتنز البطون والحفائر التي تليها من الأرض، فيخلق من ذلك الماء السمك الكثير، ولم يكن في تلك الحفائر الحدث، ولا في بحر تلك الأرضين شيء من بيض السمك.

ولم نجد أهل القاطول يشكون في أن الفأر تخلق من أرضهم، وأنهم ربما أبصروا الفأرة من قبل أن يتم خلقها، فنسبوا بأجمعهم خلق الفأر إلى الذكر والأنثى، وإلى بعض المياه والترب والأجواء والزمان، كما قالوا في السمك، والضفادع، والعقارب.

ضعف اطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية

فإن قاس ذلك قانس فقال: ليس بين الدبان وبنات وردان وبين الزنابير فرق، ولا بين الزنابير والدبر والخنافس فرق، ولا بين الزراير والخفافيش ولا بين العصافير والزراير فرق فإذا فرغوا من خشاش الأرض صاروا إلى

بغاؤها ثم إلى أحرارها، ثم إلى الطواويس والتدارج
والزمامج حتى يصعدوا إلى الناس، قيل لهم: ليس ذلك
كذلك، وينبغي لكم بدياً أن تعرفوا الطبيعة والعادة، والطبيعة
الغريبة من الطبيعة العامية، والممكن من الممتنع، وَانَّ
المُمْكِنَ عَلَى ضَرَبَيْنِ: فَمِنَهُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَكُونُ، وَمِنَهُ الَّذِي
لَا يَكَادُ يَكُونُ، وَمَا عِلَّةُ الْكَثْرَةِ وَالْقَلَّةِ، وَتَعْرِفُوا أَنَّ الْمَمْتَنَعَ
أَيْضاً عَلَى ضَرَبَيْنِ: فَمِنَهُ مَا يَكُونُ لِعِلَّةٍ مَوْضُوعَةً يَجُوزُ
دَفْعُهَا، وَمَا كَانَ مِنْهُ لِعِلَّةٍ لَا يَجُوزُ دَفْعُهَا، وَفَصَلَ مَا بَيْنَ
الْعِلَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ دَفْعُهَا وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عِلَّةٌ، وَبَيْنَ
الْإِمْتِنَاعِ الَّذِي لَا عِلَّةَ لَهُ إِلَّا عَيْنُ الشَّيْءِ وَجِنْسُهُ.
وينبغي أن تعرفوا فَرْقَ مَا بَيْنَ الْمَحَالِّ وَالْمَمْتَنَعِ، وَمَا
يَسْتَحِيلُ كَوْنَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَمَا يَسْتَحِيلُ كَوْنَهُ مِنَ
الْخَلْقِ.

وإذا عرفتم الجواهرَ وحظوظها من القوى، فعند ذلك
فتعاطوا الإنكارَ والإقرارَ، وإلّا فكونوا في سبيل المتعلم، أو
في سبيل من أثر الرّاحة ساعةً على ما يورث كدّ التعلّم من
راحة الأبد، قد يكون أن يجيء على جهة التوليد شيءٌ يبعد
في الوهم مجيئه، ويمتنع شيءٌ هو أقرب في الوهم من
غيره؛ لأنّ حقائق الأمور ومغيّبات الأشياء، لا تُردُّ إلى ظاهر

الرَّأْيِ، وَإِنَّمَا يَرُدُّ إِلَى الرَّأْيِ مَا دَخَلَ فِي بَابِ الْحَزْمِ
وَالِإِضَاعَةِ وَمَا هُوَ أَصَوْبٌ وَأَقْرَبُ إِلَى نَيْلِ الْحَاجَةِ، وَلَيْسَ
عِنْدَ الرَّأْيِ عِلْمٌ بِالنُّجُحِ وَالْإِكْدَاءِ؛ كَنَحْوِ مَجِيءِ الزُّجَاجِ مِنْ
الرَّمْلِ، وَامْتِنَاعِ الشَّبَهِ وَالزَّبِقِ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ فِي طَبَعِ
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالزَّبِقِ أَشْبَهُ بِالْفِضَّةِ الْمَائِعَةِ مِنَ الرَّمْلِ
بِالزُّجَاجِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَالشَّبَهَ الدَّمَشْقِيَّ بِالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِيِّ أَشْبَهُ
مِنَ الرَّمْلِ بِفِلَقِ الزُّجَاجِ النَّقِيِّ الْخَالِصِ الصَّافِي. وَمِنْ الْعَجَبِ
أَنَّ الزُّجَاجَ - وَهُوَ مَوْلَدٌ - قَدْ يَجْرِي مَعَ الذَّهَبِ فِي كَثِيرٍ
مِفَاخِرِ الذَّهَبِ؛ إِذْ كَانَ لَا يَغْيِرُ طَبْعَهُ مَاءً وَلَا أَرْضًا؛ وَالْفِضَّةُ
الَّتِي لَيْسَتْ بِمَوْلُودَةٍ إِذَا دَفِنَتْ زَمَانًا غَيْرَ طَوِيلٍ اسْتَحَالَتْ
أَرْضًا، فَأَمَّا الْحَدِيدُ فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ سَرِيعٌ غَيْرُ بَطِيءٍ.
وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الْفَرْقَ الَّذِي بَيْنَهُمَا إِنَّمَا هُوَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ
لَهُ فِي الْعَالَمِ أَصْلٌ وَخَمِيرَةٌ، لَمْ يَكُنْ كَالشَّيْءِ الَّذِي يَكْتَسِبُ
وَيَجْتَلِبُ وَيَلْفَقُ وَيَلزَقُ، وَأَنَّ الذَّهَبَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ
رَكْنًا مِنَ الْأَرْكَانِ قَائِمًا مِنْذُ كَانَ الْهَوَاءُ وَالْمَاءُ وَالنَّارُ
وَالْأَرْضُ، فَإِنَّ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْ أَنْ يُوَلِّدَ النَّاسُ
مِثْلَهُ، وَإِنْ كَانَ الذَّهَبُ إِنَّمَا حَدَثَ فِي عَمَقِ الْأَرْضِ، بِأَنْ
يَصَادِفُ مِنَ الْأَرْضِ جَوْهَرًا، وَمِنَ الْهَوَاءِ الَّذِي فِي خِلَالِهَا
جَوْهَرًا، وَمِنَ الْمَاءِ الْمَلَابِسِ لَهَا جَوْهَرًا، وَمِنَ النَّارِ

المحصورة فيها جوهراً، مع مقدار من طول مُرور الزمان،
ومقدار من مُقابلات البروج، فإن كان الذهب إنما هو نتيجة
هذه الجواهرِ عَلَى هذه الأسباب، فواجب ألا يكون الذهب أبداً
إلا كذلك.

فيقال لهؤلاء: أرايتم الفأرة التي خُلِقَتْ من صُنْب جُرْدٍ ورحم
فأرة، وزعتم أنها فأرة على مقابلة من الأمور السَّمَاوِيَّةِ
والهوائِيَّةِ والأرضِيَّةِ وكانت نتيجة هذه الخصال، مع استيفاء
هذه الصِّفَاتِ؟ ألسنا قَدْ وجدنا فأرة أخرى تهيأ لها من
أرحام الأَرْضِيَّين، ومن حَضَانَةِ الهَوَاءِ، ومن تَلْقِيحِ المَاءِ،
ومن مُقابلاتِ السَّمَاوِيَّاتِ والهوائِيَّاتِ، فالزَّمانَ أَصَارَ جميع
ذلك سبباً لفأرة أخرى مثلها، وكذلك كُلُّ ما عددناه فمن أين
يستحيل أن يخلط الإنسانُ بينَ مائِيَّةِ طَبِيعِيَّةِ ومائِيَّةِ جَوْهَرٍ؟
إمَّا من طريقِ التَّبَعِيدِ والتَّقْرِيبِ، ومن طريقِ الظُّنُونِ
والتَّجْرِيبِ، أو من طريقِ أنْ يَقَعَ ذلك اتفاقاً، كما صنع
النَّاطِفُ السَّاقِطُ من يدِ الأَجِيرِ في مُدَابِ الصُّفْرِ حتى أعطاه
ذلك اللَّوْنَ، وجَلَبَ ذلك النَّفْعَ، ثم إنَّ الرَّجَالَ دَبَّرْتَهُ وَزَادَتْ
وَنَقَصَتْ، حتى صَارَ شَبَهًا ذَهَبِيًّا، هذا مع النَّوْشَانِزِ المَوْلَدِ
من الحَجَارَةِ السُّودِ.

فلو قَلْتُمْ: إنَّ ذلك قائمُ الجَوَازِ في العَقْلِ مَطْرَدٌ في الرَّأْيِ،

غير مستحيل في النَّظَر، ولكنَّا وجدنا العالم بما فيه من
النَّاس منذ كانوا فإنَّ النَّاس يَلْتَمِسُونَ هذا وينتصبون له،
ويكفون به، فلو كان هذا الأمرُ يَجِيءُ من وجه الجمع
والتوليد والتركيب والتجريب، أو من وجه الاتفاق، لقد كان
ينبغي أن يكونَ ذلك قد ظهر من الوَفِّ سنينَ وألوف؛ إذ كان
هذا المقدارُ أقلَّ ما تورَّخ به الأمم، وكان هذا مقبولاً غيرَ
مردود، وعلى أنه لم يتبيَّن لنا منه أنه يستحيل أن يكون
الذَّهَبُ إلَّا من حيث وجد، وليس قُرْبُ كَوْنِ الشَّيْءِ في الوهم
بموجب لكونه، ولا بعُدُه في الوهم بموجب لامتناعه.
ولو أنَّ قائلًا قال: إنَّ هذا الأمرَ إذ قد يحتاج إلى أن تتهيَّأ له
طباع الأرض، وطباع الماء، وطباع الهواء، وطباع النار،
ومقادير حركات الفلك، ومقدارٌ من طول الزمان، فمتي لم
تجتمع هذه الخصالُ وتكتملُ هذه الأمور لم يتمَّ خلقُ الذَّهَبِ،
وكذلك قد يستقيم أن يكون قد تهيَّأ لواحدٍ أن يجمع بين
مائتي شكل من الجواهر، فمزجها على مقادير، وطبخها
على مقادير، وأغبها مقداراً من الزمان، وقابلت مقداراً من
حركات الأجرام السماويَّة، وصادفت العالم بما فيه على
هيئة، وكان بعضُ ما جرى على يده اتفاقاً وبعضه قصداً،
فلما اجتمعت جاء منها ذهبٌ فوقَ ذلك في خمسة آلاف سنة

مرّة، ثمّ أراد صاحبه المعاودة فلم يقدرْ على أمثال مقادير
طبائع تلك الجواهر، ولم يضبط مقاديرَ ما كان قصدَ إليه في
تلك المرّة، وأخطأ ما كان وقعَ له اتّفاقاً، ولم يقابل من الفلك
مثل تلك الحركات، ولا من العالم مثل تلك الهيئة، فلم يُعدْ له
ذلك. فإن قال لنا هذا القول قائل وقال: بيّنوا لي موضع
إحالاته، ولا تحتجّوا بتباعد اجتماع الأمور به، فإنّا نقر لكم
بتباعدها، هل كان عندنا في ذلك قولٌ مقنع، والدليل الذي
تتلجّ به الصدور؟ وهل عندنا في استطاعة الناس أن يولدوا
مثل ذلك، إلاّ بأن يُعرض هذا القول على العقول السليمة،
والأفهام التامة وتردّه إلى الرسل والكتب؟ فإذا وجدنا هذه
الأمور كلها نافية له، كان ذلك عندنا هو المقنع، وليس
الشأن فيما يظهر اللسان من الشكّ فيه والتجويز له، ولكن
ليردّه إلى العقل؛ فإنه سيجدّه منكراً وناقياً له، إذا كان العقل
سليماً من آفة المرض، ومن آفة التخبيل.

ضروب التخبيل

والتخبيل ضروب: تخبيلٌ من المرار، وتخبيلٌ من الشيطان،
وتخبيلٌ آخر كالرجل يعمد إلى قلبٍ رطبٍ لم يتوقّع، وذهن لم
يستمرّ، فيحمّله على الدقيق وهو بعدُ لا يفِي بالجليل،

ويتخطى المقدمات متسكعاً بلا أمانة، فرجع حسيراً بلا يقين، وعبر زماناً لا يعرف إلا الشكوك والخواطر الفاسدة، التي متى لاقى القلب على هذه الهيئة، كانت ثمرتها الحيرة، والقلب الذي يفسد في يوم لا يداوى في سنة، والبناء الذي يُنقض في ساعة لا يبني مثله في شهر.

قولهم: نبيذٌ يمنع جانبه ثم رجع بنا القول إلى ذكر الذَّبَّانِ. قيل لِعَلَّوِيهِ كَلْبِ الْمَطْبِخِ: أيُّ شَيْءٍ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: هَذَا نَبِيذٌ يَمْنَعُ جَانِبَهُ؟ قَالَ: يَرِيدُونَ أَنَّ الذَّبَّانَ لَا يَدْنُو مِنْهُ، وَكَانَ الرَّقَاشِي حَاضِراً فَأَنْشَدَ قَوْلَ ابْنِ عَبْدِ:

إِنَّ ذَا مِنْ رَزِيَّتِي
لِعَظِيمِ

أَبْصَرَ الْعَنْكَبُوتَ
فِيهِ يَعْوَمُ

زَبْدٌ فَوْقَ رَأْسِهِ
مَرْكُومٌ

أَنْ أَغْتَنِي فَإِنِّي

عَشَّشَ الْعَنْكَبُوتَ فِي
قَعْرِ دَنِّي

لَيْتَنِي قَدْ عَمَرْتُ دَنِي
حَتَّى

غَرَقَا لَا يُغِيثُهُ
الدَّهْرُ إِلَّا

مَخْرَجًا كَفَّهُ يَنَادِي

ذُبَابًا

مَغْمُومٌ

قال: دَعْنِي فَالَنْ
أَطِيقَ دُنُوءًا

من شرابٍ يشمه
المزكوم

قال: والذَّبَّانُ يضربُ به المثلُ في القَدْرِ وفي استطابة النَّتَنِ،
فإذا عَجَزَ الذُّبابُ عن شَمِّ شيءٍ فهو الذي لا يكون أنتنُ منه.
ولذلك حينَ رمى ابنُ عبدِ محمدَ بنِ حَسَّانِ بنِ سَعْدٍ بالبخرِ،
قال:

وما يدنو إلى فيه
ذبابٌ

ولو طليت مشافره
بقند

يرين حلاوة
ويخفن موتاً

وشيكاً إن هممن له
بورذ

أبو ذبَّانٍ ويقال لكلِّ أبخر: أبو ذبَّانٍ، وكانت فيما زعموا كنية
عبدِ الملكِ بنِ مروانٍ وأنشدوا قولَ أبي حُزابة:

أمسى أبو ذبَّانٍ
مخلوع الرِّسَنِ

خلعَ عنانِ قارحٍ
من الحُصنِ

وقد صفت بيَعَتنا
لابن حسن

شعر فيه هجاء بالذباب

قال رجل يهجو هلالَ بن عبد الملك الهُنائيَّ:

ألا مَنْ يَشْتري
مَنِّي هِلالاً
مَوَدَّتَه وَخَلَّتَه
بِفُلْسٍ

وأبرأ للذي يبتاعُ
مَنِّي
هلالاً مِنْ خِصالٍ فِيهِ
خَمْسٍ

فمنهنَّ النِّعانِغُ
والمكاوي
وآثارُ الجِروحِ وأكلُ
ضُرْسٍ

ومن أخذِ الذِّبابِ
بِإصْبَعِيهِ
وإنْ كانَ الذِّبابُ
بِرأسِ جَعْسٍ

القول في آية قالوا: وضرب الله عز وجل لضعف الناس وعجزهم مثلاً، فقال: "يا أيها الناس ضرب مثلاً فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو

اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْوِيهِ مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ". فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَدْ سَوَى بَيْنَ الذُّبَابِ
وَالنَّاسِ فِي الْعُجْزِ: وَقَالُوا: فَقَدْ يُولَدُ النَّاسُ مِنَ التَّعْفِينِ
الْفَرَاشِ وَغَيْرِ الْفَرَاشِ وَهَذَا خَلْقٌ، عَلَى قَوْلِهِ: "وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ" وَعَلَى قَوْلِهِ: "أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"
وَعَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

ض الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ
لَا يُفْرِى

وَأَرَاكَ تَفْرِى مَا
خَلَقْتَ وَبَع

قِيلَ لَهُمْ: إِنَّمَا أَرَادَ الْإِخْتِرَاعَ، وَلَمْ يَرِدِ التَّقْدِيرُ.
قَوْلٌ فِي شِعْرِ وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ مِيَادَةَ:

وَلَسْنَا نُبَالِي أَنْ
يَطَنَّ ذُبَابُهَا

أَلَا لَا نُبَالِي أَنْ
تُخْنِدَفَ خِنْدِفٌ

فَإِنَّمَا جَعَلَ الذُّبَابَ هَاهُنَا مَثَلًا، وَقَدْ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ
تَحْقِيرٍ لَهُ وَمَوْضِعٍ تَصْغِيرٍ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ:

مَوَالِي ذَلَّتْ

بَنِي أَسَدٍ كَوْنُوا لِمَنْ

قد علمتم

للّهوانِ رقابها

فلو حاربنا الجنّ لم

عن الجنّ حتى لا

نرفع العصا

تهرّ كلابها

وليس يريد تحقير الكلاب.

ويقال: هو ذباب العين، وذباب السيف، ويقال تلك أرض مذبّة أي كثيرة الدباب.

وقال أبو الشّمقمق في هجائه لبعض من ابتلي به:

أسمح الناس جميعاً

كذباب ساقط في

كلّهم

مرّقه

ويقال إن اللبن إذا ضرب بالكندس ونضح به بيت لم يدخله ذبان.

أبو حكيم وثمامة بن أشرس وسمعت أبا حكيم الكيمائي وهو يقول لثمامة بن أشرس: قلنا لكم إنّنا ندلكم على الإكسير، فاستثقلتم العُرم، وأردتم العُثم بلا عرم، وقلنا لكم: دَعُونَا نَصنع هذه الجسور صنعةً لا تنتقض أبداً، فأبيتكم، وقلنا لكم: ما ترجون من هذه المستنجات التي تهدمها المُدود، وتخرّبها

المراديّ؟ نحنُ نعملُ لكم مسنّياتٍ بنصفِ هذه المؤونةِ،
فتبقى لكم أبدأً، ثم قولوا للمُدود أن تجتهد جهدها، وللمراديّ
أن تبلغ غايتها فأبيتم، وقولوا لي: الدُّباب ما ترجون منها؟
وما تشتهون من البعوض؟ وما رغبتكم في الجرجس؟ لم
لا تدعوني أخرجها من بيوتكم بالمؤونة اليسيرة؟ وهو
يقول هذا القولَ وأصحابنا يضحكون، وابن سافري جالسٌ
يسمع.

فلما نزلنا أخذ بيده ومضى به إلى منزله، فعذاه وكساه
وسقاه، ثم قال له: أحببتُ أن تخرج البعوضَ من داري، فأما
الدُّباب فإني أحتمله، قال: ولم تحتمل الأذى وقد أتاك الله
بالفرج؟ قال: فافعل، قال: لا بدّ لي من أن أخلط أدوية
وأشتري أدوية قال: فكم تريد؟ قال: أريد شيئاً يسيراً، قال:
وكم ذلك؟ قال: خمسون ديناراً، قال: ويحك خمسون يقال
لها يسير؟ قال: أنت ليس تشتهي الراحة من قدر الدُّبان
ولسع البعوض ثمّ لبس نعليه وقام على رجليه، فقال له:
اقعد، قال: إن قعدتُ قبل أن أخذها ثمّ اشتريت دواءً بمائة
دينار لم تنتفع به؛ فإني لست أدخن هذه الدُّخنة، إلا للذين إذا
أمرتهم بإخراجهنّ أخرجوهن، ولا أكتمك ما أريد؛ إني لست
أقصد إلا إلى العمار، فما هو إلا أن سمع بذكر العمار حتى

ذهب عقله، ودعا له بالكيس وذهب ليزن الدنانير، فقال له:
لا تشقّ علي نفسك هاتها بلا وزنٍ عدداً، وإنما خاف أن
تحدث حادثَةً، أو يقع شغل، فتفوت، فعدها وهو زَمِعٌ فغلط
بعشرة دنانير، فلما انصرف وزنها وعدّها فوجدَ دنانيره
تنقص، فبكرَ عليه يقتضيه الفضل، فضحك أبو حكيم حتى
كاد يموت، ثمَّ قال: تسألني عن الفرع وقد استهلك الأصل؟
ولم يزل يختلف إليه ويدافعُه حتى قال له ثمامة: ويك
أمجنونٌ أنت؟ قد ذهب المالُ والسُّخريّة مستورة، فإن
نافرته فضحتَ نفسك، وربحتَ عداوةَ شيطانٍ هو واللهِ أضرُّ
عليك من عُمارِ بيتك، الذي ليسَ يخرجون عنك الذبابَ
والبعوض بلا كُلفة، مع حقِّ الجوار، قال: هم سگاني
وجيراني، قالوا: لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة
لكانت الخمسون ديناراً مائةً ديناراً!!

شعر في أصوات الذباب وغنائها

ومما قيل في أصوات الذباب وغنائها، قال المثقّب العبديّ:

كتغريد الحمامِ على
الغصون

وتسمع للذباب إذا
تغنى

وقال آخر:

حَوْ مَسَارِبُهُ

وقال أبو النجم:

أَنْفٌ تَرَى ذَبَابَهَا
تَعَلَّهُ

وقال أيضاً:

والشيخ تهديه إلى
طحمانه

مختلفَ الألوان في
أسمائه

مكثلاً بالورد من
صفرائه

صوتُ ذباب
العُشْبِ في دَرْمَانِهِ

تَغْنَى فِي عَيَاطِلِهِ ذَبَابُهُ

من زهر الرّوض
الذي يكلُّه

فالرّوضُ قد نور
في عزّائه

نوراً تخال الشّمسَ
في حمرائه

يجابوب المكاء من
مكّائه

يَدْعُو كَأَنَّ الْعَقَبَ
مِنْ دُعَائِهِ

صوتٌ مُعَنَّ مَدَّ فِي
غِنَائِهِ

وقال الشَّمَاخ:

يكلفها أَلَا

أَهَازِيحُ ذِبَّانٍ عَلَى عُودِ عَوْسَجِ
سَحِيلٍ وَأَعْلَاهُ نَشِيحُ الْمُحْشَرَجِ
التطريبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ
بعيدٌ مَدَى

المغنَّيات من الحيوان والأجناس التي توصف بالغناء أجناسُ
الحمَّام والبعوض، وأصنف الذَّبَّان من الدَّبَّير، والنَّحْلِ،
والشَّعْرَاء، والقَمَع والنُّعْر، وليس لذبَّان الكلب غِنَاء، ولا لما
يخرُج من الباقلاء، قال الشاعر:

ذِبَّانُ شَعْرَاءٍ وَصَيْفٍ
مَازِلٍ

تذبَّ عنها
بأثيثِ ذائلٍ

ألوان الذَّبَّان
وذِبَّانُ الشَّعْرَاءِ حُمْرٌ، قال: والذَّبَّانُ التي تُهْلِكُ الإِبِلَ زُرْقٌ.
قال الشاعر:

حَالِيَةَ بَدِي سَبِيْبِ
مَوْنِقِ

تَرْبَعَتْ وَالذَّهْرُ ذُو
تَصْفُقُ

أَوْ مِنْ نَقَانِقِ الْفَلَا
الْمَنْقِنِقِ

إِلَّا مِنْ أَصْوَاتِ
الدُّبَابِ الْأَزْرَقِ

وَالذَّبَّانَ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَى الدَّوَابِّ صُفْرًا.
وَقَالَ أَرْطَاةُ بْنُ سُهَيْبَةَ، لَزْمِيلُ بْنُ أُمِّ دِينَارٍ:

أَعَكْرُ عَلَيْكَ وَإِنْ
تَرُخْ لَا تَسْبِقِ

أَزْمِيلُ إِنِّي إِنْ أَكُنْ
لَكَ جَازِيًا

وَجَدَ الرَّكَّابَ مِنْ
الدُّبَابِ الْأَزْرَقِ

إِنِّي أَمْرٌ تَجِدُ
الرَّجَالَ عَدَاوَتِي

وَإِذَا مَرَّ بِكَ الشَّعْرُ الَّذِي يَصْلِحُ لِلْمَثَلِ وَالْحِفْظِ، فَلَا تَنْسَ
حِفْظَكَ مِنْ حِفْظِهِ.
وَقَالَ الْمُتَمَلِّسُ:

زَنَايِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ
الْمُتَمَلِّسُ

فَهَذَا أَوَانُ الْعِرْضِ
جُنَّ دُبَابُهُ

وبه سمِّي المتلمّس.
وقال ابن ميادة:

إذا تغرّد حادٍ
خلفها طرب

بعنّتريسٍ كأنّ الدّبرِ
يلسّعها

ما يسمّى بالدّبان

والدليل على أنّ أجناس النحل والدّبر كلّها دبان، ما حدث به عبّاد بن صهيب، وإسماعيل المكي عن الأعمش، عن عطية بن سعيد العوفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلُّ دبابٍ في النارِ إلا النّحلة.

وقال سليمان: سمعت مجاهداً يكره قتل النّحل وإحراق العظام، يعني في الغزو.

وحدثنا عنبسة قال: حدثنا حنظلة السدوسيّ قال: أنبأنا أنس بن مالك، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عمر الدّباب أربعون يوماً، والدّباب في النار.

بحث كلامي في عذاب الحيوان والأطفال وقد اختلف الناس في تأويل قوله: والدّباب في النار وقال قوم: الدّباب خلقُ خلق للنّار، كما خلق الله تعالى ناساً كثيراً للنّار، وخلق

أطفالاً للنار، فهؤلاء قومٌ خلعوا عُذرَهم فصار أحدهم إذا قال: ذلك عدلٌ من الله عزَّ وجلَّ؛ فقد بلغ أقصى العذر، ورأى أنه إذا أضاف إليه عذاب الأطفال فقد مجَّده، ولو وجد سبيلاً إلى أن يقول إنَّ ذلك ظلم لقاله ولو وجد سبيلاً إلى أن يزعم أن الله تعالى يخبر عن شيءٍ أنه يكون وهو لا يكون، ثم يقول إلا أن ذلك صدق لقاله، إلا أنه يخاف السيف عند هذه، ولا يخاف السيف عند تلك، وإن كانت تلك أعظم في الفرية من هذه.

وبعض يزعم أن الله عزَّ وجلَّ إنما عذبَ أطفال المشركين ليغمَّ بهم آباءهم، ثم قال المتعاقلون منهم: بل عذبهم لأنه هكذا شاء، ولأنَّ هذا له، فليت شعري أيجتسب بهذا القول في باب التمجيد لله تعالى؛ لأنَّ كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود، وكل من لم يخف سوط أمير فأتى قبيحاً فالذي يحسن ذلك القبيح أن صاحبه كان في موضع أمن، أو لأنه آمنٌ يمتنع من مطالبة السلطان، فكيف وكون الكذب والظلم والعبث واللغو والبخل كلُّه محال ممَّن لا يحتاج إليه، ولا تدعوه إليه الدواعي.

وزعم أبو إسحاق أن الطاعات إذا استوتت استوى أهلها في الثواب، وأن المعاصي إذا استوتت استوى أهلها في العقاب،

وإذا لم يكن منهم طاعةٌ ولا معصية استوتوا في التفضّل.
وزعم أنّ أجناس الحيوان وكلّ شيءٍ يحسُّ ويألم، في
التفضّل سواء.

وزعم أنّ أطفال المشركين والمسلمين كلّهم في الجنّة،
وزعم أنّه ليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق،
ولا بين السّباع في ذلك وبين البهائم فرق.

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السّبعية والبهيمية لا تدخل
الجنّة، ولكنّ الله عزّ وجلّ ينقلّ تلك الأرواح خالصةً من تلك
الآفات؛ فيركبها في أيّ الصّور أحبّ. وكان أبو كلدّة،
ومعمر، وأبو الهذيل وصحّاح، يكرهون هذا الجواب،
ويقولون: سواءٌ عند خواصّنا وعوامّنا، أقلّنا: إنّ أرواح
كلابنا تصير إلى الجنّة، أم قلّنا: إنّ كلابنا تدخل الجنّة ومتى
ما اتّصل كلابنا بذكر الكلب على أيّ وجهٍ كان؛ فكأنّ عندهم
قد زعمنا أنّ الجنّة فيها كلاب، ولكنّا نزعّم أنّ جميع ما خلق
الله تعالى من السّباع والبهائم والحشرات والهمج فهو قبيح
المنظرة مؤلم، أو حسن المنظرة مُلذّب؛ فما كان كالخيل
والظباء، والطواويس، والتّدارج فإنّ تلك في الجنّة، ويؤدّ
أولياء الله عزّ وجلّ بمنّاظرها، وما كان منها قبيحاً في الدّنيا
مؤلم النظر جعله الله عذاباً إلى عذاب أعدائه في النّار فإذا

جاء في الأثر: أَنَّ الدُّبَابَ فِي النَّارِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْخَلْقِ،
فَإِنَّمَا يَرَادُ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى.

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النَّارِ، وتلذُّ ذلك، كما أن
حَزَنَةَ جَهَنَّمَ وَالَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ التَّعْذِيبَ، يَلْدُونَ
مَوْضِعَهُمْ مِنَ النَّارِ.

وذهب بعضهم إلى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْبَعُهُمْ عَلَى اسْتِلْذَاقِ النَّارِ
وَالْعَيْشِ فِيهَا، كَمَا طَبَعَ دِيدَانَ الثَّلْجِ وَالْخَلِّ عَلَى الْعَيْشِ فِي
أَمَاكِنِهَا.

وذهب آخرون إلى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْدِثُ لِأَبْدَانِهِمَا عِلَّةً لَا
تَصِلُ النَّارَ إِلَيْهَا، وَتَنَعَمُ قُلُوبُهُمَا وَأَبْدَانُهُمَا مِنْ وَجْهِ آخِرٍ
كَيْفَ شَاءَ، وَقَالُوا: وَقَدْ وَجَدْنَا النَّاسَ يَحْتَالُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي
الدُّنْيَا حِيَلًا، حَتَّى يَدْخُلَ أَحَدُهُمْ بَعْضَ الْأَتَاتِينَ بِذَلِكَ الطَّلَاءِ،
وَلَا تَضُرُّهُ النَّارُ، وَهُوَ فِي مَعْظَمِهَا، وَمَوْضِعِ الْجَاحِمِ مِنْهَا،
فَفَضْلٌ مَا بَيْنَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَقُدْرَةِ عِبَادِهِ أَكْثَرَ مِنْ فَضْلِ مَا بَيْنَ
حَرِّ نَارِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وذهب بعضهم إلى أَنَّ سَبِيلَهَا فِيهَا كَسَبِيلِ نَارِ إِبْرَاهِيمَ؛ فَإِنَّهُ
لَمَّا قُذِفَ فِيهَا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا يَقَالُ لَهُ مَلِكُ الظِّلِّ،
فَكَانَ يَحْدِثُهُ وَيُؤْنِسُهُ؛ فَلَمْ تَصِلِ النَّارُ إِلَى أَدَاهِ، مَعَ قُرْبِهِ مِنْ
طَبَاعِ ذَلِكَ الْمَلِكِ.

وكيفَما دار الأمرُ في هذه الجَوَابات؛ فإن أحسَّها وأشنعها
أحسنُ من قولٍ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ تعالى يُعَذِّبُ بنارِ جهنَّمَ من
لم يسخطه ولا يعقلُ كيف يكون السخط، ومن العَجَبُ أَنَّ
بعضهم يزعمُ أَنَّ اللهَ تعالى إنما عَذِّبَهُ ليغُمَّ أباهُ، وإنما يفعل
ذلك من لا يقدر على أن يُوصِلَ إليهم ضعف الاغتمام،
وضعف الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم، فأما مَنْ يقدرُ على
إيصال ذلك المقدار إلى من يستحقه، فكيف يوصله ويصرفه
إلى من لا يستحقه؟ وكيف يصرِّفه عَمَّن أسخطه إلى من لم
يُسخطه؟ هذا وقد سمعوا قولَ الله عزَّ وجلَّ: (يَوَدُّ الْمُجْرِمُ
لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِنِذٍ بِبَنِيهِ، وصاحِبَتِهِ وأخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ
الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنَّهَا
لِظَى، نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى) وكيف يقولُ هذا القولَ مَنْ يتلو
القرآن؟ ثم رجع بنا القولُ إلى الذَّبَانِ وأصنافِ الذَّبَانِ.

جهل الذبان وما قيل فيها من الشعر

والذَّبَانُ أجهلُ الخلق؛ لأنها تَغشى النَّارَ من ذاتِ أنفسها حتى
تحترق، وقال الشاعر:

كَذَاكَ الصَّحِيفَةُ

حَتَمَتِ الْفُؤَادَ عَلَى

حُبِّهَا

بِالْخَاتَمِ

هُوتَ بِي إِلَى حَبِّهَا
نَظْرَةً

هُوِيَّ الْفَرَّاشَةَ
لِلْجَاحِمِ

وقال آخر:

كَأَنَّ مَشَافِرَ

إِذَا مَا مَسَّهَا قَمْعُ
الدُّبَابِ

النَّجْدَاتِ مِنْهَا

بِأَيْدِي مَا تَمَّ

نَعَالُ السَّبْتِ أَوْ عَدَبِ
النَّيَابِ

مَتَسَاعِدَاتِ

نقد بيت من الشعر وقال بعض الشعراء، يهجو حارثة بن
بدر الغداني:

زَعَمْتَ غَدَانَةَ أَنْ

ضَخْمًا يُوَارِيهِ
جَنَاحُ الْجُنْدُبِ

فِيهَا سَيِّدًا

وزعم ناس أنه قال:

يُرْوِيهِ مَا يُرْوِي

سُكْرًا، وَتُشْبِعُهُ

قالوا: لا يجوز أن يقول: يرويه ما يروي الدباب ويواريه
جَنَاحُ الجندب ثم يقول: ويشبعه كراع الأرنب.
وإنما ذكر كُراع الأرنب؛ لأنَّ يد الأرنب قصيرة، ولذلك
تسرع في الصُّعود، ولا يلحقها من الكلاب إلاَّ كلُّ قصير اليد،
وذلك محمودٌ من الكلب، والفرس تُوصَف بقصر الدَّرَاع.

قصة في الهرب من الدَّبَاب

وحدَّثني الحسنُ بن إبراهيم العلويُّ قال: مررتُ بخالي، وإذا
هو وحده يضحك، فأنكرتُ ضحكه؛ لأنِّي رأيتُه وحده،
وأنكرته، لأنَّه كان رجلاً زَمَيْتاً رَكِيناً، قَلِيلَ الضَّحِكِ، فسألته
عن ذلك فقال: أتاني فلانٌ يعني شيخاً مدينيّاً - وهو مذعور
فقلتُ له: ما وراءك؟ فقال: أنا والله هاربٌ من بيتي قلت
ولم؟ قال: في بيتي ذبابٌ أزرق، كلما دخلتُ ثارَ في وجهي،
وطار حولي وطنَّ عند أذني، فإذا وجد مني غفلةً لم يُخطئ
موقَ عيني، هذا والله دأبه ودأبي دهرأً معه، قلتُ له: إنَّ
شبهه الدباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب؛ فلعنَّ الذي آذاك
اليومَ أن يكونَ غيرَ الذي آذاك أمس، ولعنَّ الذي آذاك أمسِ
غيرَ الذي آذاك أوَّلَ من أمس، فقال: أعتق ما أملك إن لم

أكن أعرفه بعينه منذ خمس عشرة سنة، فهذا هو الذي
أضحكني.

قصة في سفاد الذباب

وقال الخليلُ بن يحيى: قد رأيت الخنزير يركبُ الخنزيرة
عامّة نهاره، ورأيتُ الجمل يركبُ الناقة ساعةً من نهاره،
وكنت قبل ذلك أغبط العصفور والعصم - فإنّ الذكْر وإن كان
سريعَ النُّزول عن ظهر الأنثى فاتّه لسُرعة العودَة، ولكثرة
العدد، كأنّه في معنى الخنزير والجمل وحتى رأيت الذّبابَ
وفطنت له، فإذا هو يركب الذّبابَة عامّة نهاره، فقال له
محمد بن عمر البكراوي: ليس ذلك هو السّفاد، قال: أمّا
الذي رأيت العينان فهذا حكمه، فإن كنت تريد أن تطيب نفسك
بإنكار ما تعرف ممّا قسم اللّٰه عزّ وجلّ بين خلقه، من
فضول اللدّة، فدونك..
سفاد الورل ويزعمون أنّ للورل في ذلك ما ليس عند غيره.

قصة أكل الذّبان

وأشَدّ ابن داحة في مجلس أبي عبيدة، قول السيّد
الحميريّ:

أترى ضهاكاً وابنها
وابن ابنها

وأبا قحافة آكل
الدَّبَّان

كانوا يَرون وفي
الأمور عجائب

يأتي بهنَّ
تصرِّفُ الأزمانِ

أنَّ الخِلافةَ في ذِوَابَةِ
هاشمٍ

فيهم تصير وهَيْبَةَ
السُّلطانِ

وكان ابن داحة رافضياً، وكان أبو عبيدة خارجياً صُفْرياً، فقال له: ما معناه في قوله: آكل الدَّبَّان؟ فقال: لأنَّه كان يذُبُّ عن عطر ابن جُدعان، قال: ومتى احتاج العطارون إلى المذاب؟ قال: غلظت إنَّما كان يذُبُّ عن حَيْسَةِ ابن جدعان، قال: فابن جُدعان وهشامُ بن المغيرة، كان يُحاسُّ لأحدهما الحَيْسَةَ على عدَّة أنطاع، فكان يأكلُ منها الراكبُ والقائمُ والقاعدُ فأين كانت تقعُ مَدْبَةُ أبي قُحافة من هذا الجبل؟ قال: كان يذُبُّ عنها ويدورُ حوالَيْها، فضحكوا منه، فهجر مجلسهم سنةً.

تحقير شأن الدُّبابة

قال: وفي باب تحقير شأن الذبابة وتصغير قدرها، يقول الرسول: لو كانت الدنيا تُساوي عند الله تعالى جناح ذبابة ما أعطى الكافر منها شيئاً.

أعجوبة في ذبان البصرة

وعندنا بالبصرة في الذبان أعجوبة، لو كانت بالشامات أو بمصر لأدخلوها في باب الطلسم؛ وذلك أن التمر يكون مصبواً في بيارد التمر في شقّ البساتين، فلا ترى على شيء منها ذبابة لا في الليل، ولا في النهار، ولا في البردين ولا في أنصاف النهار، نعم وتكون هناك المعاصر، ولأصحاب المعاصر ظلال، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظلّ، وإنما تلك المعاصر بين تمرّة ورطوبة، ودبس وثجير، ثمّ لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر، في انتصاف النهار، ولا في وقت طلب الذبان الكنّ، إلا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذبان.

وهذا شيء يكون موجوداً في جميع الشقّ الذي فيه البساتين، فإن تحوّل شيء من تمر تلك الناحية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة، غشيه من الذبان ما عسى ألا يكون بأرض الهند أكثر منه وليس بين جزيرة نهر ديبس،

وبين موضع الذبان إلا فيض البصرة، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبان ممّا يقابله، إلا سيحان، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئاً أو أنقص شيئاً.

نوم عجيب لضروب من الحيوان وأعجوبة أخرى، وهي عندي أعجب من كلّ شيء صدرنا به جملة القول في الذباب، فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينأى كالصافر والتنوط؛ فإتھما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلّى من غصن الشجرة، ويضمّ عليه رجليه، وينكس رأسه، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور، والآخر لا يزال يتنقل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار، خوفاً على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتف قبل ذلك ممّا على ظهور الأشجار مما يشبه الليف فنفسه، ثم قتل منه حبلاً، ثم عمل منه كهية القفة، ثم جعله مدلىً بذلك الحبل، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان؛ إلا أن ذلك بترصيع ونسج، ومداخله عجيبه؛ ثم يتخذ عشه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه.

والأعراب يزعمون أن الدب شديد الاحتراس، وأنه يرواح بين عينيه، فتكون واحدة مطبقة نائمة وتكون الأخرى مفتوحة حارسة ولا يشكون أن الأرنب تنام مفتوحة العينين.

وأما الدجاج والكلاب فإنما تعزب عقولهما في النوم، ثم ترجع إليهما بمقدار رجوع الأنفاس، فأما الدجاج فإنها تفعل ذلك من الجبن وأما الكلب فإنه يفعل ذلك من شدة الاحتراس.

وجاؤوا كلهم يخبرون أن الغرائيق والكرائي لا تنام أبداً إلا في أبعاد المواضع من الناس، وأحرزها من صغار سباع الأرض، كالثعلب وابن آوى، وأنها لا تنام حتى تقلد أمرها رئيساً وقائداً، وحافظاً وحارساً، وأن الرئيس إذا أعيأ رفع إحدى رجلية، ليكون أيقظ له.

سلطان النوم وسلطان النوم معروف، وإن الرجل ممن يغزو في البحر، ليعتصم بالشراع وبالعود وبغير ذلك، وهو يعلم أن النوم متى خالط عينيه استرخت يده، ومتى استرخت يده باينه الشيء الذي كان يركبه ويستعصم به، وأنه متى باينه لم يقدر عليه، ومتى عجز عن اللحاق به فقد عطب، ثم هو في ذلك لا يخلو، إذا سهر ليلة أو ليلتين، من أن يغلبه النوم ويقهره، وإما أن يحتاج إليه الحاجة التي يريه الرأي الخوان، وفساد العقل المغمور بالعلة الحادثة، أنه قد يمكن أن يُغفَى وينتبه في أسرع الأوقات، وقبل أن تسترخي يده كل الاسترخاء، وقبل أن تباينه الخشبة إن كانت خشبة.

العجيبه في نوم الذبان

وليس في جميع ما رأينا وروينا، في ضروب نوم الحيوان، أعجب من نوم الذبان، وذلك أنها ربما جعلت مأواها بالليل دَرُونْد الباب وقد غشّوه ببطانة ساج أملس كأنه صفاة، فإذا كان الليل لزقت به، وجعلت قوائمها مما يليه، وعلقت أبدانها إلى الهواء، فإن كانت لا تنام البتة ولا يخالطها عزوب المعرفة فهذا أعجب: أن تكون أمة من أمم الحيوان لا تعرف النوم، ولا تحتاج إليه، وإن كانت تنام ويعزب عنها ما يعزب عن جميع الحيوان سوى ما ذكرنا، فما تخلو من أن تكون قابضة على مواضع قوائمها، ممسكة بها، أو تكون مرسله لها مخلية عنها، فإن كانت مرسله لها فكيف لم تسقط وهي أثقل من الهواء؟ وإن كانت ممسكة لها فكيف يجامع التشدد والتثبيت النوم؟.

بعض ما يعترى النائم ونحن نرى كل من كان في يده كيس أو درهماً و حبل، أو عصا فإنه متى خالط عينيه النوم استرخت يده وانفتحت أصابعه، ولذلك يتشاءب المحتال للعبد الذي في يده عنان دابة مولاه، ويتناوم له وهو جالس؛ لأن من عادة الإنسان إذا لم يكن بحضرته من يشغله، ورأى إنساناً قبالة يَنوُدُ أو ينعس، أن يتشاءب وينعس مثله،

فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان، وقد خامره
سُكْرُ النَّوْمِ، ومتى صار إلى هذه الحال - ركب المحتال الدابة
ومرّ بها.

الغربان

اللهم جنبنا التكلف، وأعدنا من الخطأ، واحمنا العجب بما
يكون منه، والثقة بما عندنا، واجعلنا من المحسنين.
نذكر على اسم الله جمل القول في الغربان، والإخبار عنها،
وعن غريب ما أودعت من الدلالة، واستخزنت من عجيب
الهداية. وقد كنا قدّمنا ما تقول العرب في شأن منادمة
الغراب والديك وصداقته له، وكيف رهنه عند الخمّار،
وكيف خاس به وسخر منه وخدعه وكيف خرج سالماً غير
غارم، وغانماً غير خائب، وكيف ضربت به العرب الأمثال،
وقالت فيه الأشعار، وأدخلته في الاشتقاق لزجرها عند
عيافتها وقيافتها، وكيف كان السبب في ذلك.
ذكر الغراب في القرآن فهذا إلى ما حكى الله عز وجل من
خبر ابني آدم، حين قربا قرباناً فحسد الذي لم يتقبل منه
المتقبل منه، فقال عندما همّ به من قتله، وعند إمساكه
عنه، والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه: "إني أريد أن

تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ"، ثُمَّ قَالَ: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ
لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ" حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ، وَهُوَ أَحَدُ
ابْنِي آدَمَ مَا قَالَ: فَلَوْلَا أَنَّ لِلْغُرَابِ فَضِيلَةً وَأُمُورًا مَحْمُودَةً،
وَاللَّهِ وَسَببًا لَيْسَ لغيره من جميع الطَّيْرِ لَمَا وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى
فِي مَوْضِعٍ تَأْدِيبِ النَّاسِ، وَلَمَا جَعَلَهُ الْوَاعِظُ وَالْمَذَكِّرُ بِذَلِكَ،
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ
لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ"، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَأَنَّهُ
هُوَ اخْتَارَهُ لِذَلِكَ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الطَّيْرِ.

قال صاحب الدَّيْكَ: جعلت الدَّلِيلَ على سوء حاله وسقوطِهِ
الدَّلِيلَ على حُسْنِ حاله وارتفاع مكانه، وكلما كان ذلك
المقرَّعُ به أسفلَ كانت الموعظةُ في ذلك أبلغَ، ألا تَرَاهُ يَقُولُ:
"يَا وَيْلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِي سَوْءَةَ
أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ".

ولو كان في موضعِ الغُرَابِ رَجُلٌ صَالِحٌ، أَوْ إِنْسَانٌ عَاقِلٌ،
لَمَا حَسُنَ بِهِ أَنْ يَقُولَ: يَا وَيْلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
العَاقِلِ الْفَاضِلِ الْكَرِيمِ الشَّرِيفِ، وَإِذَا كَانَ دُونَاً وَحَقِيرًا فَقَالَ:
أَعْجَزْتُ وَأَنَا إِنْسَانٌ أَنْ أَحْسِنَ مَا يَحْسِنُهُ هَذَا الطَّائِرُ، ثُمَّ

طائرٌ من شرار الطير، وإذا أراه ذلك في طائرٍ أسودٍ
محترقٍ، قبيحِ الشَّمائلِ، رديءِ المشيئةِ، ليس من بهائم
الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو بعدُ طائرٌ
يتنكّد به ويتطيّر منه، آكلٌ جيف، رديءُ الصيّد، وكلما كان
أجهلَ وأندلَ كان أبلغَ في التّوبيخ والتّقريع.

وأما قوله: "فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" فلم يكن به على جهة
الإخبار أنّه كان قتله ليلاً، وإنما هو كقوله: "وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ
يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ"، ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللفظ دون
المستعمل في الكلام من عادات الناس، كان من فرّ من
الرّحف ليلاً لم يلزمه وعيد، وإنما وقع الكلام على ما عليه
الأغلب من ساعات أعمال الناس، وذلك هو النهار دون
الليل.

وعلى ذلك المعنى قال صالح بن عبد الرحمن، حين دفعوا
إليه جواباً الخارجيّ ليقنته، وقالوا: إن قتله برئت الخوارج
منه، وإن ترك قتله فقد أبدى لنا صفحته، فتأول صالح عند
ذلك تأويلاً مستكراً: وذلك أنّه قال: قد نجدُ التّقيّة تسبيغ
الكفر، والكفر باللسان أعظم من القتل والقذف بالجارحة،
فإذا جازت التّقيّة في الأعظم كانت في الأصغر أجوز، فلما

رأى هذا التأويل يطرد له، ووجد على حال بصيرته ناقصة،
 وأحسن بأنه إنما التمس عُذراً ولزق الحجّة تلزيقاً فلماً عزم
 على قتل جَوَاب، وهو عنده واحد الصُّفْرِيَّة في النَّسِك
 والفضل قال: إني يومَ أَقْتَلُ جَوَاباً على هذا الضَّرْبِ من
 التأويل لحريصٌ على الحياة ولو كان حين قال إني يومَ أَقْتَلُ
 جَوَاباً إنما عنى النهارَ دون اللَّيْلِ، كان عند نفسه إذا قتلهُ
 تلك القتلة ليلاً لم يَأْتِم به، وهذا أيضاً كقوله تعالى: "ولا
 تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذلكَ غَداً إلا أن يشاءَ اللهُ". ولو كان
 هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين
 الناس، لكان إذا قال من أوّل الليل: إني فاعِلٌ ذلكَ غَداً في
 السَّحَر، أو مع الفجر أو قال الغداة: إني فاعِلٌ يومي كلّه،
 وليلتني كلها، لم يكن عليه حِنث، ولم يكن مخالفاً إذا لم
 يستثن، وكان إذن لا يكون مخالفاً إلا فيما وقع عليه اسمُ
 غَد، فأما كلُّ ما خالف ذلكَ في اللَّفْظ فلا، وليس التأويل كذلك
 لأنّه جلٌّ وعلا إنما ألزم عبده أن يقول: إن شاء اللهُ، ليتَّقَى
 عَادَةَ التَّأْيِي وَلئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبدِّ
 والمستغني، وعلى أن يكون عند ذلكَ ذاكِرَ اللهُ، لأنه عبدٌ
 مدبِّرٌ، ومقلِّبٌ ميسرٌ، ومصرفٌ مسخَّرٌ.

وإذا كان المعنى فيه، والغاية التي جرى إليها اللفظ، إنما هو

على ما وصفنا، فليس بين أن يقول أفعَلُ ذلك بعدَ طرفَةٍ،
وبين أن يقولَ أفعَلُ ذلك بعدَ سنةٍ فرقٍ.
وأما قوله: "فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" فليس أنه كان هناك
ناسٌ قتلوا إخوانَهُمْ وَندَموا فصارَ هذا القاتلُ واحداً منهم؛
وإنما ذلك على قوله لآدمَ وَحَوَاءَ عليهما السلام: "ولا تقربا
هذه الشَّجَرَةَ فتكونا مِنَ الظَّالِمِينَ"، على معنى أن كلَّ من
صنع صنيعكما فهو ظالم.

الاستثناء في الحلف

وعجبت من ناسٍ ينكرون قولنا في الاستثناء، وقد سمعوا
اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ
أَقْسَمُوا لِيَصْرَمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَتِنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا
طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ"، مع قوله
عزَّ وجلَّ: "وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللهُ".

تسمية الغراب ابن دأية

والعربُ تسمي الغرابَ ابنَ دأية، لأنَّه إذا وجد دَبْرَةً في ظهر
البعير، أو في عنقه قرحة سقط عليها، ونقره وأكله، حتَّى
يبلغ الدَّيَّات، قال الشاعر:

بيثرب حتى نبيها
متظاهر

نجيبة قرم شادها
القت والنوى

سنامك ملموم
ونابك فاطر

فقلت لها سيري فما
بك علة

تقلب عينيها إذا
مر طائر

فمئتك أو خيراً
تركت رذية

ومثله قول الراعي:

صقوري َ غربان
البعير المقيد

فلو كنت معذوراً
بنصرك طيرت

هذا البيت لعنترة، في قصيدة له، ضرب ذلك مثلاً للبعير
المقيد ذي الدبر، إذا وقعت عليه الغربان.
غرز الريش والخرق في سنام البعير وإذا كان بظهر البعير
دبيرة غرزوا في سنامه إما قوادم ريش أسود وإما خرقاً
سوداً، لتفزع الغربان منه، ولا تسقط عليه، قال الشاعر،
وهو ذو الخرق الطهوي:

لما رأت إبلي
حطت حملتها
هزلى عجاناً عليها
الریشُ والخرقُ
قالت ألا تبغي
عيشاً نعيشُ به
عمّا نلاقي فشرُّ
العيشة الرنقُ

الرنق، بالراء المهملة، وبالنون، هو الكدرُ غير الصافي
وقال آخر:

كأنها ريشة في
غارِبِ جَرَزٍ
في حيثما صرفته
الريح ينصرف

جَرَز: عظيم، قال روبة:

عن جَرَزٍ منه وجوزِ عارِ

غرز الريش وجوز عاره وقد توضع الريش في أسنمتها
وتغرز فيها لغير ذلك، وذلك أن الملوك كانت تجعل الريش
علامة لحبائ الملك، تحميها بذلك وتشرف صاحبها.
قال الشاعر:

كَاللَّيْلِ قَبْلَ صَبَاحِهِ
الْمَتَّبِعِ

يَهْبُ الْهَجَانَ بِرَيْشِهَا
وَرِعَانِهَا

ولذلك قالوا في الحديث: فرجع النَّابِغَةُ من عند النُّعْمَانِ وقد
وهبَ له مائةٌ من عَصَافِيرِهِ بِرَيْشِهَا وَلرَّيْشِ مَكَانِ آخِرِ:
وهو أَنَّ الملوِكِ إِذَا جَاءَتْهَا الخِرَائِطُ بِالظَّفَرِ غرِزَتْ فِيهَا
قَوَادِمَ رَيْشِ سُوْدٍ،

غَرِبَانَ الْإِبِلِ

وقال الشاعر:

تَطِيرُ بِهِ الْغَرِبَانَ
شَطْرَ الْمَوَاسِمِ

سَأْرَفُعُ قَوْلًا
لِلْحُصَيْنِ وَمَالِكِ

بِأَمْثَالِهِ الْغَازِيْنَ
سَجْعُ الْحَمَائِمِ

وَتَرَوِي بِهِ الْهَيْمِ
الظَّمَاءُ وَيَطْبِي

يعني غَرِبَانَ اللَّيْلِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَتَرَوِي بِهِ الْهَيْمِ الظَّمَاءُ فَمَثَلُ
قَوْلِ الْمَاتِحِ:

بِجَانِذِ لَا رِفْلِ

عَلِقَتْ يَا حَارِثَ عِنْدَ

التَّرْدِي

الْوَرْدِ

ولا عِيَّ بابتناء
المجد

شعر في تعرض الغربان للإبل وقالوا في البعير إذا كان
عليه حملٌ من تمر أو حبٍّ، فتقدّم الإبلَ بفضل قُوّته
ونشاطه، فعرض ما عليه للغربان، قال الرَّاجز:

عليك بالقود
المسانيف الأول

قد قلتُ قولاً
للغرابِ إذ حَجَلْ

تَغَدَّ ما شئتُ على
غير عَجَلْ

ومثله:

حمراءَ من مُعْرَضَاتِ
الغُرْبَانِ

يقدّمها كلُّ علاة
مذعان

أمثال في الغراب

ويقال: أصحُّ بدنًا من غراب، و أبصرُ من غراب، و أصفى
عيناً من غراب.
وقال ابن ميادة:

حِرَاجٌ مِنَ الظُّلْمَاءِ
يَعِشِي غُرَابُهَا

أَلَا طَرَقْتَنَا أُمَّ
أَوْسٍ وَدُونَهَا

مِنَ الْمِسْكِ أَوْ دَارِيَّةٍ
وَعِيَابُهَا

فَبِتْنَا كَأَنَّا بَيْنَنَا
لَطْمِيَّةٌ

يقول: إذا كان الغراب لا يبصر في حراج الظلماء، وواحد
الحراج حرجة، وهي هاهنا مثلٌ، حيث جعل كلَّ شيءٍ التفَّ
وكتفَّ من الظلام حراجاً، وإنما الحراجُ من السِّدرِ وأشباه
السِّدرِ.

يقول: فإذا لم يبصر فيها الغرابُ مع حدَّةِ بصره، وصفاء
مُقلته فما ظنُّك بغيره؟ وقال أبو الطمحان القينيُّ:

كعِينِ الغرابِ
صَفُوها لَمْ يَكْدِرِ

إِذَا شَاءَ رَاعِيهَا
اسْتَقَى مِنْ وَقِيْعَةٍ

والوقية: المكان الصلب الذي يُمسك الماء، والجمع
الوقائع.
استطرد لغوي قال: وأنشدنا أبو عمرو بن العلاء، في
الوقائع:

وقائع للأبوال
والماء أبردُ

إذا ما استبالوا الخيل
كانت أكفهم

يقول: كانوا في فلاةٍ فاستبالوا الخيل في أكفهم، فشربوا
أبوالها من العطش.
ويقال شهد الوقية والوقُعة بمعنى واحد، قال الشاعر:

على زفر داءٍ من
الشرِّ باقياً

لعمري لقد أبقتُ
وقيةً راهطِ

وقال زفر بنُ الحارث:

لمروان صدعاً
بيننا متنايياً

لعمري لقد أبقتُ
وقيةً راهطِ

وقال الأخطل:

إلى الله منها
المشكى والمعول

لقد أوقع الجحاف
بالبشرِ وقعةً

أمثال من الشعر والنثر في الغراب
وفي صحّة بدن الغراب يقول الآخر:

قد ضجّ من طول
عمره الأبد

إنّ معاذ بن مسلم
رجلٌ

ر وأثواب
عمره جدُّ

قد شاب رأس
الزمانِ واكتهل الدّه

تسحب ذيل
الحياة يا لبد

يا نسر لقمان كم
تعيش وكم

وأنت فيها
كأنك الوتد

قد أصبحت دار آدم
خربت

كيف يكون
الصداغ والرمد

تسأل غرباتها إذا
حجبت

ويقال: أرض لا يطير غرابها، قال النابغة:

وَلِرَهْطِ حَرَابٍ
وَقَدْ سَوَّرَةٌ

في المجد ليس
غرابها بمطارٍ

جعله مثلاً، يعني أنّ هذه الأرض تبلغ من خصبها أنّه إذا دخلها الغراب لم يخرج منها، لأنّ كلّ شيءٍ يريدُه فيها. وفي زهو الغراب يقول حسان، في بعضٍ قریش:

إنّ الفرافصة بن
الأحوصِ عنده

شجنٌ لأمك من
بناتِ عُقاب

أجمعتَ أنّك أنت
الأمّ من مشى

في فحش مومسةٍ
وزهو غرابٍ

ويقال: وجد فلان تمرّة الغراب، كأنّه يتبع عندهم أطيب التمر ويقال: إنّهُ لأحدرٌ من غراب و: أشد سواداً من غراب وقد مدحوا بسوادِ الغراب، قال عنتره:

فيها اثنتان
وأربعون حلوبة

سوداً كخافية
الغرابِ الأسحمِ

وقال أبو دؤاد:

نَفِيَّ الْغَرَابِ
بِأَعْلَى أَنْفِهِ
الْغَرْدَا

تَنْفِي الْحَصَى صُعْدًا
شَرْقِيَّ مَنْسِمِهَا

والمغاريذ: كَمْءٌ، صِغَارٌ، وأنشد:

فَاسْتُ الطَّبِيبِ قِذَاهَا
كَالْمَغَارِيزِ

يَحُجُّ مَأْمُومَةً فِي
قَعْرِهَا لَجَفًا

وقد ذكرنا شدة منقاره، وحدة بصره في غير هذا المكان.
شعر في مديح السواد وقالوا في مديح السواد، قال امرؤ
القيس:

وَالْأَذْنَ مَصْغِيَّةً
وَاللَّوْنَ غَرِيبُ

الْعَيْنُ قَادِحَةٌ
وَالْيَدُ سَابِحَةٌ

وفي السّواد يقول ربّعة أبو ذؤاب الأسدي، قاتل عتيبة بن
الحارث بن شهاب:

خَلَقَ كَسْحَقِ الْيُمْنَةِ الْمَنْجَابِ

إن المو

إِلَّا بِجَيْشٍ

سُودِ الْجُلُودِ مِنَ الْحَدِيدِ غَضَابٍ
لَا يَكْتُ عَدِيدُهُ

شعر ومثل في شيب الغراب وفي المثل: لا يكون ذلك حتى
يشيب الغراب، وقال العرجي:

أبدأً أو يحول لون
الغراب

لا يحولُ الفؤادُ
عنه بوْدٌ

وقال ساعدة بن جُوَيَّة:

عَهْدَ الْغُضُوبِ وَلَا
عَتَابُكَ يُعْتَبُ

شَابَ الْغُرَابِ وَلَا
فُؤَادُكَ تَارِكُ

معاوية وأبو هوذة الباهلي ومما يذكر للغراب ما حدث به
أبو الحسن، عن أبي سليم، أن معاوية قال لأبي هوذة بن
شماس الباهلي: لقد هممت أن أحمل جمعاً من باهلة في
سفينة ثم أغرقهم فقال أبو هوذة: إذن لا ترضى باهلة
بعديهم من بني أمية قال: اسكت أيها الغراب الأبقع وكان به
برص، فقال أبو هوذة: إن الغراب الأبقع ربّما درج إلى
الرّحمة حتى ينقر دماغها، ويقلع عينيها فقال يزيد بن

معاوية: ألا تقتله يا أمير المؤمنين؟ فقال: مَهْ ونهض
معاوية، ثمَّ وجهه بعدُ في سرِّيَّة فقتل، فقال معاوية ليزيد:
هذا أخفى وأصوب.
شعرفي نقر الغراب العيون وقال آخر في نقر الغراب
العيون:

يُرِيغُ سِوَادَ عَيْنِيهِ
الْغُرَابُ

أَتُوْعِدُ أَسْرَتِي
وَتَرَكْتَ حُجْرًا

رَضِيَتْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ
بِالْإِيَابِ

وَلَوْ لَاقَيْتِ عِلْبَاءَ
بْنِ جَحْشٍ

وقال أبو حيَّة - في أنّ الغراب يسمُّونه الأعور تطيرًا منه :-

مَرَّتْ تَلِيحٌ مِنْ
الْغُرَابِ الْأَعْوَرِ

وَإِذَا تَحَلَّتْ قَتُودَهَا
بِتَنُوفَةٍ

لأنها تخاف من الغربان، لما تعلم من وقوعها على الدُّبْرِ
شعر فيه مدح لون الغراب ومما يمدح به الشعراء بلون
الغراب قال أبو حيَّة:

غرابٌ كانَ أسودَ
حالكياً

وقال أبو حية:

ألا سقياً لذلك من
غراب

زمانَ عليّ
غرابٌ غدافٌ

فطيره الدهرُ عني
فطارا

فلا يُبعدُ الله ذاك
الغدافَ

وإن كان لا هو إلاّ
الذكارا

فأصبح موضعه
بائضاً

مُحيطاً خطاماً
مُحيطاً عذارا

وقال أبو حية في غير ذلك ، وهو مما يُعدّ للغراب:

كانَ عصيم
الورس منهم
جاسدٌ

بما سال من
غربانهنّ من
الخطر

استطراد لغوي

والغراب ضروب، ويقع هذا الاسم في أماكن، فالغراب حدُّ
السكين والفأس، يقال فأسٌ حديدة الغراب، وقال الشّماخ:

فأنحى عليها ذات
حدَّ غرابها
عدوّ لأوساط
العِضاهِ مُشارِرُ

المشارزة: المعادة والمخاشنة.

والغراب: حدُّ الورك ورأسه الذي يلي الظهر، ويبدأ من
مؤخر الرِّدف، والجمع غِربان، قال ذو الرُّمّة:

وقرّين بالزرق
الحمائل بعد ما
تقوّب من غِربان
أوراكها الخطرُ

تقوّب: تقشر ما على أوراكها من سلحها وبولها، من
ضربها بأذنانها.

غراب البين

وكلّ غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم، أمّا
غراب البين نفسه، فإنه غرابٌ صغير، وإنّما قيل لكلّ غراب
غراب البين، لسقوطها في مواضع منازلهم إذا بانوا عنها،
قال أبو خولة الرّياحي:

فليس بربوعٍ إلى
العقل فاقه

ولا دَس يسودُّ
منه ثيابها

فكيف بنوكي مالك
إن كفرتم

لهم هذه أم كيف
بعدُ خطابها

مَشائم ليسوا
مُصلحين عشيرةً

ولا ناعبٍ إلاّ ببين
غرابها

الوليد بن عقبة وعبد الله بن الزبير

ومن الدليل على أنّ الغراب من شرار الطير، ما رواه أبو الحسن قال: كان ابنُ الزبير يقعد مع معاوية على سريره، فلا يقدر معاوية أن يمتنع منه، فقال ذات يوم: أما أحدٌ يكفيني ابن الزبير؟ فقال الوليد بن عقبة: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين، فسبق فقعد في مقعده على السرير، وجاء ابن الزبير فقعد دون السرير، ثمّ أنشد ابن الزبير:

تسمّى أباناً بعد ما
كان نافعاً

وقد كان دكوانً
تكنّى أبا عمرو

فانحدرَ الوليدُ حتى صار معه، ثم قال:

صَفِيَّةٌ مَا عُدَّتُمْ فِي النَّفِيرِ

وَلَا جَلْسَ الزَّبِيرِ عَلَى السَّرِيرِ

فَكُنْتُمْ شَرَّ طَيْرٍ فِي الطِّيُورِ

غَرَابِ

وَدَدْنَا أَنْ أَمَّكُمْ

القواطع والأوابد

قال أبو زيد: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان، أي جاءت بلادنا، فهي قواطع إلينا، فإذا كان الصيف فهي رواجع، والطيور التي تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبداً فهي الأوابد، والأوابد أيضاً هي الدواهي، يقال جاءنا بآبدة، ومنها أوابد الوحش، ومنها أوابد الأشعار، والأوابد أيضاً: الإبل إذا توحش منها شيء فلم يُقدَر عليه إلا بعقر، وأنشد أبو زيد في الأوابد:

طام فلم ألقَ به
فُرَّاطاً

ومنهل وَرَدته
التقاطا

إلا القطا أوابداً
غطاطا

صوت الغراب

ويقال نغق الغراب ينغق نغيقاً، بغين معجمة، ونعت ينعب نعباً بعين غير معجمة، فإذا مرّت عليه السنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحج يشحج شحجاً، وقال ذو الرمة:

مُتَاكِلٌ مِنْ صَيَابَةِ
النُّوبِ نُوحٍ

وَمُسْتَشْحَاتٍ
بِالْفِرَاقِ كَأَنَّهَا

والنوبة توصف بالجزع.

أثر البادية في رجال الروم والسند وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والرّوم للإبل، يرون أنهم يصلحون على معاشها، وتصلح على قيامهم عليها.

ومن العجب أنّ رجال الرّوم تصلح في البدو مع الإبل، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها، فأما السند؛ فإنّ السنديّ صاحب الخربة إذا صار إلى البدو، وهو طفل، خرج أفصح من أبي مهديّة، ومن أبي مطرف الغويّ، ولهم طبيعة في الصّرف، لا ترى بالبصرة صيرفيّاً إلا وصاحب كيسه سِنديّ. نبوغ أهل السند واشترى محمّد بن السّكن، أبا رُوح فرجاً السّندي، فكسب له المال العظيم، فقلّ صيدلانيّ عندنا إلا وله غلام سنديّ، فبلغوا أيضاً في البرّهار والمعرفة بالعقاقير،

وفي صحّة المعاملة، واجتلاب الحُرْفاء مبلغاً حسناً.
وللسَّنْدِ في الطبخ طبيعة، ما أكثر ما ينجبون فيه.
وقد كان يحيى بن خالد أراد أن يحوّل إجراء الخيل عن
صبيان الحبشان والنُّوبة، إلى صبيان السند، فلم يفلحوا فيه،
وأراد تحويل رجال السند إلى موضع الفرّاشين من
الرُّوم، فلم يفلحوا فيه، وفي السند حلوق جياد، وكذلك بنات
السند.
استطرد لغوي والغراب يسمّى أيضاً حاتماً، وقال عوف بن
الخرع:

ولكنّما أهجّو صفّي
بن ثابت
مَثْبِجَةٌ لَاقَتْ مِنْ
الطَّيْرِ حَاتِماً

وقال المرقّش، من بني سدوس:

ولقد عَدَوْتُ وَكُنْتُ
لا
أَعْدُو عَلَى وَاقٍ
وَحَاتِمٍ

فإذا الأشائِمُ
كالأيا
مِنِ الْإِيَامِ
كَالْأَشَائِمِ

وكذاك لا خيرٌ
ولا

شرٌّ على أحدٍ بدائمٍ

وأشُدُّ لُخْثِيمِ بنِ عَدِيِّ:

يقولُ عداني اليوم
واق وحاتمٌ

وليس بهيَّابٍ إذا
شدَّ رَحْلَهُ

إذا صدَّ عنْ تلكِ
الهَنَاتِ الخُثَارُمُ

ولكنَّه يمضي على
ذاك مُقدِّمًا

والخُثَارُمُ: هو المتطير من الرِّجال، وأما قوله: واق وحاتمٌ فحاتم هو الغراب، والواقى هو الصَّرد، كأنَّه يرى أن الرِّجر بالغراب إذا اشتقَّ من اسمه العَرَبِيَّة، والاعتراب، والغريب، فإنَّ ذلك حتم، ويشتق من الصَّرد التصريد، والصَّرد وهو البرد، ويدلك على ذلك قوله:

وصاح بذاتِ البينِ
منها غرائبها

دعا صردٌ يوماً على
غصنٍ شوَّحَطِ

فهذا لعمرى نأيها

فقلتُ: أتصريدٌ

وشحط وغربة

واغترابها

فاشتقَّ التَّصْرِيدَ مِنَ الصُّرْدِ، وَالْغُرْبَةَ مِنَ الْغُرَابِ، وَالشَّحَطَ مِنَ الشَّوْحَطِ.

ويقال أُغْرِبَ الرَّجُلُ: إِذَا اشْتَدَّ مَرَضُهُ، فَهُوَ مُغْرَبٌ.
قال: وَالْعَنْقَاءُ الْمَغْرِبُ، الْعِقَابُ، لِأَنَّهَا تَجِيءُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.
أصل التطير في اللغة قال: وأصل التطير إنما كان من الطير
ومن جهة الطير، إذا مرَّ بارحاً أو سائحاً، أو رآه يتفلى
وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعورَ من النَّاسِ أو
البهائم، أو الأعصب أو الأبتَر، زجروا عند ذلك وتطيروا
عندها، كما تطيروا من الطير إذا رآها على تلك الحال،
فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم
استعملوا ذلك في كلِّ شيء.

أسماء الغراب

والغراب لسواده إن كان أسود، ولاختلاف لونه إن كان
أبقع، ولأنه غريب يقطع إليهم، ولأنه لا يوجد في موضع
خيامهم يتقمم، إلا عند مباينتهم لمساكنهم، ومزايلتهم
لدورهم، ولأنه ليس شيء من الطير أشدَّ على ذوات الدَّبر
من إبلهم من الغربان، ولأنه حديدُ البصر فقالوا عند خوفهم

من عينه الأعور، كما قالوا: غراب لا غترابه وغربته
وغراب البين، لأنه عند بينونتهم يوجد في دُورهم.
ويسمونه ابن داية، لأنه ينقب عن الدبر حتى يبلغ إلى دايات
العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلب، وفقار الظهر.

مراعاة التفاؤل في التسمية

وللطيرة سمّت العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة،
وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسمّوا
الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزجر به على الأمور، فصار
تطيّرهم من القعيد والنطيح ومن جرد الجراد، ومن أن
الجرادة ذات ألوان، وجميع ذلك - دون التطيّر بالغراب،

ضروب من الطيرة

ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرّثائم، وعشّروا
إذا دخلوا القرى تعشير الحمار، واستعملوا في القداح الأمر،
والناهي، والمتربّص، وهنّ غيرُ قَداح الأيسار.

قاعدة في الطيرة

ويدلُّ على أنهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون
ويسمعون، قولُ سَوّار ابن المضرب:

تغنى الطائران
ببين ليلي
على غصنين من
غُزْبِ وبانٍ
فكان البانُ أن
بانَتْ سُليمي
فاشتقَّ كما ترى الاغتراب من الغُرب، والبيئونة من البان.
وقال جرّان العود:

جرى يوم رُحنا
بالجمال نُزفها
عُقابٌ وشحّاج من
البين يبرحُ
فأمّا العُقاب فهي
منها عقوبة
وأما الغُراب
فالغريب المطوّحُ

فلم يجد في العُقاب إلاّ العقوبة، وجعل الشحّاج هو الغراب
البارح وصاحب البين، واشتقّ منه الغريب المطوّح.
ورأى السّمهريُّ غراباً على بانه ينفث ريشه، فلم يجد في
البان إلاّ البيئونة، ووجد في الغراب جميع معاني المكروه،
فقال:

رَأَيْتُ غَرَابًا وَقَعًا
فَوْقَ بَانَةٍ

يُنْتَفِ أَعْلَى رَيْشِهِ
وَيُطَايِرُهُ

فَقُلْتُ وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ
زَجَرْتُهُ

بِنَفْسِي لِلنَّهْدِيِّ:
هَلْ أَنْتَ زَاجِرُهُ

فَقَالَ: غَرَابُ
بَاغْتِرَابٍ مِنَ النَّوَى

وَبِالْبَانِ بَيْنَ مَنْ
حَبِيبِ تَعَاشَرُهُ

فَذَكَرَ الْغَرَابَ بِأَكْثَرِ مِمَّا ذُكِرَ بِهِ غَيْرُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ شَأْنِ
الرَّيْشِ وَتَطَايِرِهِ، وَقَالَ الْأَعَشِيُّ:

مَا تَعَيْفَ الْيَوْمَ فِي
الطَّيْرِ الرَّوْحِ

مِنْ غَرَابِ الْبَيْنِ
أَوْ تَيْسِ بَرَحِ

فَجَعَلَ التَّيْسَ مِنَ الطَّيْرِ، إِذْ تَقْدَمُ ذِكْرُ الطَّيْرِ، وَجَعَلَهُ مِنَ الطَّيْرِ
فِي مَعْنَى التَّطْيِيرِ.
وَقَالَ النَّابِغَةُ:

زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ
رَحَلْنَا عَدَا

وَبِذَاكَ خَبَرْنَا
الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ

وقال عنتره:

وجرى بينهم
الغراب الأبقع

ظعن الذين
فراقهم أتوقع

جلمان بالأخبار
هش مؤلع

حرق الجناح كأن
لحي رأسه

أبدأ ويصبح خائفاً
يتفجع

فزجرته ألا يفرخ
بيضه

هم أسهروا ليلى
التمام فأوجعوا

إن الذين نعب لي
بفراقهم

فقال: وجرى بينهم الغراب لأنه غريب، ولأنه غراب البين،
ولأنه أبقع، ثم قال: حرق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك، ثم
جعل لحي رأسه جلمين، والجلم يقطع، وجعله بالأخبار هشاً
مؤلعاً، وجعل نعيه وشحيجه كالخبر المفهوم.

التشاؤم بالغراب

قال: فالغراب أكثر من جميع ما يُتطيرُ به في باب الشؤم، ألا
تراهم كلما ذكروا ممّا يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب

معه.

وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره، ثم إذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لا يمكنهم أن يتطيروا منه إلا من وجه واحد، والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدم في الشؤم، دفاع صاحب الغراب قال صاحب الغراب: الغراب وغير الغراب في ذلك سواءً، والأعرابي إن شاء اشتق من الكلمة، وتوهم فيها الخير، وإن شاء اشتق منها الشر، وكل كلمة تحتمل وجوهاً.
ولذلك قال الشاعر:

ضُحِيًّا وَقَدْ أَفْضَى
إِلَى اللَّبِّ الْحَبْلُ

يجاذبها الأفتان ذو
جُدَدِ طِفْلِ

تجدد من سلماك
وانصرم الحبل

نظرتُ وأصحابي
ببطن طويلع

إلى ظبية تعطو
سيالاً تصورهُ

فقلتُ وعفتُ:
الحبلُ حبلُ
وصالها

وقلت: سيال قد
تسلت مودتي

تصور عُصوناً
صار جثمانها يعلو

وعفت الغرير
الطفل طفلاً أتت به

فقلت لأصحابي:
مضيكم جهل

رُجوعي حزم
وامترائي ضلّة

كذلك كان الزجر
يصدقني قبل

وقال ابن قيس الرقيّات:

بشر الظبي والغراب
بسعدى

مرحباً بالذي يقول
الغراب

وقال آخر:

بدا إذ قصدنا
عامدين لأرضنا

سنيح فقال القوم:
مرّ سنيح

وهاب رجال أن
يقولوا وجمجموا

فقلت لهم: جار
إليّ ربيح

مضت نيّة لا
تستطاع طرُوحُ

وعاد لنا غض
الشباب صريحُ

هدى وبيان في
الطريق يلوحُ

وظلحّ فنيلت
والمطيّ طليحُ

قالوا: فهو إذا شاء جعل الحمام من الحمام والحميم
والحمى، وإن شاء قال: وقالوا حمامات فحمّ لقاؤها وإذا
شاء اشتق البين من البان، وإذا شاء اشتقّ منه البيان.
وقال آخر:

دنت بعد هجر
منهم ونزوحُ

وعاد لنا خلُو

عقابٌ بإعقاب من
الدار بعد ما

وقالوا: دمّ دامت
مودّة بيننا

وقال صحابي:
هدهدٌ فوق بانه

وقالوا: حمامات
فحمّ لقاؤها

وقالوا: عقابٌ قلتُ
عُقبى من الهوى

وقالوا: حمامات فحمّ

لِقَاؤُهَا

الشَّبَابِ رَبِيحُ

وَقَالُوا: تَغْنَى هَدَهْدٌ
فَوْقَ بَانَةَ

فَقُلْتُ: هُدَى
نَعْدُو بِهِ
وَنَرُوحُ

ولو شاء الأعرابي أن يقول إذا رأى سواد الغراب: سواد
سودد، وسواد الإنسان: شخصه، وسواد العراق: سعف
نخله، والأسودان: الماء والتمر، وأشباه ذلك - لقاله.
قال: وهؤلاء بأعيانهم الذين يصرفون الزجر كيف شاؤوا،
وإذا لم يجدوا من وقوع شيء بعد الزجر بدأ - هم الذين إذا
بدا لهم في ذلك بداء أنكروا الطيرة والزجر البتة.
تطير النابغة وما قيل فيه من الشعر وقد زعم الأصمعي أن
النابغة خرج مع زبان بن سيار يريدان الغزو، فبينما هما
يريدان الرحلة إذ نظر النابغة وإذا على ثوبه جرادة تجرد
ذات ألوان، فتطير وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه
فلما رجع زبان من تلك الغزوة سالماً غانماً، قال:

تَخْبَرُ طَيْرَهُ فِيهَا

لِتَخْبِرَهُ وَمَا فِيهَا

زيادُ

خبيرُ

أقام كأنَّ لقمان بن
عادٍ

أشار له بحكمته
مُشيرُ

تعلمُ أنَّه لا طير إلاَّ

على متطيرٍ وهو
الثُّبور

بلى شيءٌ يوافق
بعض شيءٍ

أحايينا وباطله
كثيرُ

فرغم كما ترى زَبان - وهو من دهاة العرب وساداتهم - أن
الذي يجدونه إنما هو شيءٌ من طريق الاتفاق، وقال:

تعلمُ أنَّه لا طيرَ
إلاَّ

على متطيرٍ وهو
الثُّبور

وهذا لا ينقض الأول من قوله: أما واحدة فإنه إن جعل ذلك
من طريق العقاب للمتطير لم ينقض قوله في الاتفاق، وإن
ذهب إلى أن مثل ذلك قد يكون ولا يشعر به اللاهي عن ذلك
والذي لا يؤمن بالطيرة، فإنَّ المتوقع فهو في بلاء مادام

متوقعاً، وإن وافق بعضُ المكروه جعله من ذلك.
تطير ابن الزبير ويقال إن ابن الزبير لما خرج مع أهله من
المدينة إلى مكة، سمع بعض إخوته ينشد:

وكلُّ بني أمِّ
سَيَمْسُون لَيْلَةً
ولم يَبْقَ من أَعْيَانِهِمْ
غَيْرُ وَاحِدٍ

فقال لأخيه: ما دعاك إلى هذا؟ قال: أما إنني ما أردته قال:
ذلك أشدُّ له.

وهذا منه إيمان شديد بالطيرة كما ترى، بعض من أنكر
الطيرة وممن كان لا يرى الطيرة شيئاً المرقش، من بني
سدوس، حيث قال:

أغدو على واقٍ وحاتمٍ
غدوت وكنت لا
إني

من والأيمانُ كالأشائمِ
الأشائمُ كالأيا
فإذا

شرُّ على أحد بدائمٍ
قال سلامة بن جندل:
فكذلك لا خير ولا

ومن تعرّض
للغربان يزجرها

على سلامته لا بدّ
مشووم

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك، الحارث بن حلزة،
وهو قوله - قال أبو عبيدة: أنشدنيها أبو عمرو، وليست إلا
هذه الأبيات، وسائر القصيدة مصنوع مولد - وهو قوله:

يا أيها المزمع ثم
انثنى

لا يئنك الحازي ولا
الشاحج

ولا قعيد أغضب
قرنه

هاج له من مزبج
هاجج

بيننا الفتى يسعى
ويُسعى له

تأخ له من أمره
خالج

يترك ما رَقح من
عيشه

يعيث فيه همج
هامج

لا تكسع الشول
بأغبارها

إنك لا تدري من
الناج

وقال الأصمعي: قال سلم بن قتيبة: أضللت ناقة لي عشراء، وأنا بالبدو، فخرجت في طلبها، فتلقاني رجلٌ بوجهه شينٌ من حرق النار، ثم تلقاني رجلٌ أخذ بخطام بعيره، وإذا هو ينشد:

ة فما البغاة
بواجدينا

فلئن بغيت لها
البغا

ثم من بعد هذا كله، سألت عنها بعض من لقيته، فقال لي: التمسها عند تلك النار، فأتيتهم فإذا هم قد نتجوها حواراً، وقد أوقدوا لها ناراً فأخذت بخطامها وانصرفت. عدم إيمان النّظام بالطيرة وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام قال: جعت حتى أكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبي أتذكر: هل بها رجلٌ أصيبُ عنده غداءً أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان عليّ جبةٌ وقميصان، فنزعتُ القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدتُ إلى فرضة الأهواز، أريد قصبه الأهواز، وما أعرف بها أحداً، وما كان ذلك إلا شيئاً أخرجهُ الضّجر وبعض التعرّض، فوافيتُ الفرضة فلم أصب فيها سفينة، فتطيرتُ من ذلك، ثم إنني رأيت سفينة في صدرها خرقٌ وهشم فتطيرتُ من ذلك أيضاً،

وإذا فيها حمولة، فقلت للملاح: تحملني؟ قال: نعم، قلت: ما اسمك؟ قال: داوداذ وهو بالفارسية الشيطان، فتطيرت من ذلك، ثم ركبت معه، تصكّ الشمال وجّهي، وتُثير بالليل الصقيع على رأسي، فلما قربنا من الفرصة صحت: يا حمّال معي لحافّ لي سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بدّ لمثلي منه، فكان أول حمّال أجنبي أعور فقلت لبقار كان واقفاً: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه من متاعي إذا الثور أعضبُ القرن، فازددت طيرة إلى طيرة، فقلت في نفسي: الرجوع أسلم لي، ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين فقلت: ومن لي بالموت؟ فلما صرت في الخان وأنا جالس فيه، ومتاعي بين يديّ وأنا أقول: إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه فُشّ البابُ وسرق، وإن جلست أحفظه لم يكن لم جيئي إلى الأهواز وجه، فبينما أنا جالس إذ سمعت قرع الباب، قلت: من هذا عافاك الله تعالى؟ قال: رجلٌ يريدك، قلت: ومن أنا؟ قال: أنت إبراهيم، فقلت: ومن إبراهيم؟ قال: إبراهيم النّظام، قلت: هذا خنّاق، أو عدوّ، أو رسولُ سلطان ثمّ إنني تحاملتُ وفتحتُ الباب، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول: نحن وإن كُنّا اختلفنا في بعض المقالة، فإنّا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوقِ الإخلاق

والحرِّيَّة، وقد رأيتك حين مررت بي على حال كرهتها منك،
وما عرفتك حتى خبّرني عنك بعضُ من كان معي وقال:
ينبغي أن يكون قد نزعَتْ بك حاجة، فإن شئت فأقم بمكانك
شهرًا أو شهرين، فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زماناً
من دهرك، وإن اشتهيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالاً، فخذها
وانصرف، وأنت أحقُّ من عذر.

قال: فهجم والله عليّ أمرٌ كاد ينقضني، أما واحدة: فأني لم
أكن ملكتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري، والثانية:
أنه لم يطلع مقامي وغيبتي عن وطني، وعن أصحابي الذين
هم على حال أشكل بي وأفهم عني، والثالثة: ما بين لي من
أن الطيرة باطل؛ وذلك أنه قد تتابع عليّ منها ضروب،
والواحدة منها كانت عندهم مُعطبة.

قال: وعلى مثل ذلك الاشتقاق يعملُ الذين يعبرون الرؤيا.

عجوبة الغربان بالبصرة

وبالبصرة من شأن الغربان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك
بمصر أو ببعض الشامات: لكان عندهم من أجود الطَّسَم،
وذلك أن الغربان تقطع إلينا في الخريف، فتري النَّخْلَ
وبعضها مصرومة، وعلى كلِّ نخلة عددٌ كثيرٌ من الغربان،
وليس منها شيءٌ يقرب نخلةً واحدةً من النَّخْل الذي لم

يُصرم، ولو لم يبق عليها إلا عذقٌ واحد، وإنما أوكار جميع
الطير المصوّت في أقلاب تلك النخل، والغراب أطيّر وأقوى
منها ثم لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها، بعد أن يكون
قد بقي عليها عذق واحد.

منقار الغراب

ومنقار الغراب معول، وهو شديد النقر، وإنه ليصل إلى
الكمأة المندفنة في الأرض بنقرة واحدة حتى يشخصها،
ولهو أبصر بمواضع الكمأة من أعرابي يطلبها في منبت
الإجرد والقصيص، في يوم له شمس حارة، وإن الأعرابي
ليحتاج إلى أن يرى ما فوقها من الأرض فيه بعض الانتفاخ
والانصداع، وما يحتاج الغراب إلى دليل، وقال أبو دؤاد
الإيادي:

نفي الغراب
بأعلى أنفه
الغردا

تنفي الحصى صعداً
شريقي منسما

ولو أن الله عز وجل أذن للغراب أن يسقط على النخلة
وعليها الثمرة لذهبت، وفي ذلك الوقت لو أن إنساناً نقر

العِدْقُ نَقْرَةٌ وَاحِدَةٌ لَانْتَثَرَتْ عَامَّةً مَا فِيهِ، وَلَهَلَكَتْ غَلَاتُ
النَّاسِ، وَلَكِنَّكَ تَرَى مِنْهَا عَلَى كُلِّ نَخْلَةٍ مَصْرُومَةَ الْغُرْبَانِ
الكثيرة، وَلَا تَرَى عَلَى الَّتِي تَلِيهَا غُرَابًا وَاحِدًا، حَتَّى إِذَا
صَرَمُوا مَا عَلَيْهَا تَسَابِقُنَ إِلَى مَا سَقَطَ مِنَ التَّمْرِ فِي جَوْفِ
الليْفِ وَأَصُولِ الْكَرْبِ لِتَسْتَخْرِجَهُ كَمَا يَسْتَخْرِجُ الْمُنْتَاخُ
الشُّوكَ.

حوار في نفور الغربان من النخل

فإن قال قائل: إنما أشباح تلك الأعذاق المدلاة كالخِرقِ
السُّودِ التي تُفزعُ الطيرَ أنْ يقعَ على البزور، وكالقودامِ
السُّودِ تغرُزُ في أسنمةِ ذواتِ الدبرِ من الإبل، لكيلا تسقط
عليها الغربان، فكأنها إذا رأت سواد الأعذاق فزعت كما
يفزع الطير من الخِرقِ السُّودِ.
قال الآخر: قد نجدُ جميعَ الطيرِ الذمي يفزعُ بالخِرقِ السُّودِ
فلا يسقط على البزور، يقع كله على النخل وعلى الحمل،
وهل لعامةِ الطيرِ وكورِ إلا في أقلابِ النَّخْلِ ذواتِ الحملِ.
قال الآخر: يشبه أن تكون الغربان قطعت إيلينا من مواضع
ليس فيها نخلٌ ولا أعذاق، وهذا الطير الذي يفزع بالخِرقِ
السُّودِ إنما خلقت ونشأت في المواضع التي لم تزل ترى

فِيهَا النَّخِيلُ وَالْأَعْدَاقُ، وَلَا نَعْرِفُ لَذَلِكَ عِلَّةَ سِوَى هَذَا.
قَالَ الْآخَرُ: وَكَيْفَ يَكُونُ الشَّأْنُ كَذَلِكَ وَمِنَ الْغَرِبَانِ غَرِبَانٌ
أَوْأَبْدُ بِالْعِرَاقِ فَلَا تَبْرَحُ تَعَشُّشٌ فِي رُؤُوسِ النَّخْلِ، وَتَبْيِضُ
وَتَفْرُخُ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَقْرُبُ النَّخْلَةَ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْحَمْلُ.
وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا تَعَشُّشٌ فِي نَخْلِ الْبَصْرَةِ، وَفِي رُؤُوسِ
أَشْجَارِ الْهَادِيَةِ قَوْلُ الْأَصْمَعِيِّ:

يُنَاوِحُ عِيدَانَهُ
السِّيمَكَانَ

وَمِنَ زَرْدَكَ مِثْلَ
مَكْنِ الضَّبَابِ

وَمِنَ جَيْسِرَانِ
وَبُنْدَانِجَانِ

وَمِنَ شَكَرٍ فِيهِ عَشُّ
الْغَرَابِ

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْفَقْعَسِيُّ وَهُوَ يَصِفُ فِجْلَ هَجْمَةَ:

أَكْلَفُ مَرَبْدٌ
هَصُورٌ هَائِضٌ

يَتْبَعُهَا عَدَبَسٌ
جُرَائِضٌ

بِحَيْثُ يَعْتَشُ الْغَرَابُ
الْبَائِضُ

ما يتفائل به من الطير والنبات

والعامّة تتطيّر من الغراب إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنى
تفائلت به.

والبوم عند أهل الرّيّ وأهل مَرَوْ يُتفاعل به، وأهل البصرة
يتطيرون منه، والعربيّ يتطيّر من الخلاف، والفارسي
يتفاعل إليه، لأنّ اسمه بالفارسية بادامك أي يبقى،
وبالعربية خلاف، والخلاف غير الوفاق.

والريحان يُتفاعل به، لأنه مشتقّ من الرّوح، ويتطيّر منه
لأن طعمه مُرٌّ، وإن كان في العين والأنف مقبولاً.
وقال شاعرٌ من المحدثين:

فبكى وأشفق من
عيافة زاجر

أهدى له
أحبّابه أُترجّة

لونان باطنه خلافُ
الظاهر

متطيّراً ممّا أتاه
فطعمه

والفرس تحبّ الآس وتكره الورد، لأن الورد لا يدوم،
والآس دائم.

قال: وإذا صاح الغرابُ مرتين فهو شرٌّ، وإذا صاح ثلاث
مرّات فهو خير، على قدر عدد الحروف.

عداوة الحمار للغراب

ويقال: إنّ بين الغراب والحمار عداوةً، كذا قال صاحب
المنطق.

وأنشدني بعض النحويين:

عداوة الحمار
لـلغراب

عاديتنا لا زلت في
تباب

أمثال في الغراب

ويقال: أصحُّ من غراب، وأنشد ابن أبي كريمة لبعضهم،
وهو يهجو صريع الغواني مسلم بن الوليد:

إلى الحياتِ منك إلى
الغواني

فما ريحُ السّداب
أشدُّ بُغْضاً

وأنشد:

وُدون صداعه حُمى

وأصلب هامةً من

ذِي حَيْوُدٍ

الغراب

وزعم لي داهيةٌ من دهاة العرب الحوائين، أنّ الأفاعي
وأجناس الأحناش، تأتي أصول الشَّيْح والحِزْمَل، تستظل به،
وتستريح إليه.

ويقال: أغربُ من غراب، وأنشد قول مضرّس بن لقيط:

على كلّ حال من
نشاط ومن سأم

كأني وأصحابي
وكرّي عليهم

رأين لحاماً
بالعراص على وضم

غرابٌ من
الغربانِ أيامِ قرّة

حديث الطيرة وقد اعترض قومٌ علينا في الحديث الذي جاء
في تفرقة ما بين الطيرة والفأل، وزعموا أنّه ليس لقوله:
كان يعجبه الفألُ الحسن ويكره الطيرة معنى، وقالوا: إن
كان ليس لقول القائل: يا هالك، وأنت باغ، وجهٌ ولا تحقيق،
فكذلك إذا قال: يا واجد، ليس له تحقيق، وليس قوله يا
مضلُّ ويا مهلك، أحقُّ بأن يكون لا يوجب ضلالاً ولا هلاكاً
من قوله يا واجد، ويا ظافر، من ألا يكون يوجب ظفراً ولا

وجوداً، فإمّا أن يكونا جميعاً يوجبان، وإما أن يكونا جيمعاً
لا يوجبان، قيل لهم: ليس التأويل ما إليه ذهبتم، لو أن
النّاس أمّلوا فائدة الله عزّ وجلّ ورجوا عائدته، عند كلّ سبب
ضعيف وقويّ، لكانوا على خير، ولو غلطوا في جهة
الرجاء لكان لهم بنفس ذلك الرجاء خير، ولو أنهم بدل ذلك
قطعوا أملهم ورجاءهم من الله تعالى، لكان ذلك من الشرّ
والفأل، أن يسمع كلمةً في نفسها مستحسنة، ثمّ إن أحبّ بعد
ذلك أو عند ذلك أن يحدث طمعاً فيما عند الله تعالى، كان
نفس الطمع خلاف اليأس، وإنما خبر أنه كان يعجبه، وهذا
إخبار عن الفطرة كيف هي، وعن الطبيعة إلى أيّ شيء
تتقلب.

وقد قيل لبعض الفقهاء: ما الفأل؟ قال: أن تسمع وأنت
مُضِلٌّ: يا واجد، وأنت خائف: يا سالم، ولم يقل إنّ الفأل
يوجب لنفسه السلامة، ولكنهم يحبّون له إخراج اليأس
وسوء الظن وتوقّع البلاء من قلبه على كل حال - وحال
الطيرة حال من تلك الحالات - ويحبّون أن يكون لله راجياً،
وأن يكون حسن الظن، فإن ظنّ أن ذلك المرجوّ يوافق بتلك
الكلمة ففرح بذلك فلا بأس، تطير بعض البصريين وقال
الأصمعيّ: هرب بعض البصريين من بعض الطّواعين،

فركب ومضى بأهله نحو سَفَوَان، فسمع غلاماً له أسود
يحدو خلفه، وهو يقول:

ولا على ذي مَيْعَةٍ
مَطَّارٍ

لن يُسْبِقَ اللهُ على
حِمَارٍ

قد يصبحُ اللهُ أمام
السَّارِي

أو يأتِي الحِينُ
على مَقْدَارٍ

فلما سمع ذلك رجع بهم.

معرفة في الغربان

قال: والغربان تسقط في الصحارى تلتمس الطعم، ولا تزال
كذلك، فإذا وجبت الشمس نهضت إلى أوكارها معاً، و ما أقلَّ
ما تختلط البُقْع بالسُّود المصمتة.

الأنواع الغريبة من الغربان قال: ومنها أجناس كثيرة عظام
كأمثال الحداء السُّود، ومنها صغارٌ، وفي مناقيرها اختلاف
في الألوان والصور، ومنها غربان تحكي كلَّ شيء سمعته،
حتى إنها في ذلك أعجب من البيغاء، وما أكثر ما يتخلف
منها عندنا بالبصرة في الصيف، فإذا جاء القيظ قلتُ، وأكثر
المتخلفات منها البقع، فإذا جاء الخريف رجعت إلى

البساتين، لتنال مما يسقط من التمر في كرب النخل وفي الأرض، ولا تقرب النخلة إذا كان عليها عذق واحد، وأكثر هذه الغربان سود، ولا تكاد ترى فيهنّ أبقع، قبح فرخ الغراب وقال الأصمعيّ: قال خلف: لم أر قط أبقح من فرخ الغراب رأيتَه مرّةً فإذا هو صغير الجسم، عظيم الرأس، عظيم المنقار، أجرد أسودّ الجلد، ساقط النفس، متفاوت الأعضاء.

غربان البصرة قال: وبعضها يقيم عندنا في القيظ، فأما في الصّيف فكثير، وأما في الخريف فالدهم، وأكثر ما تراه في أعالي سطوحنا في القيظ والصيف البقع، وأكثر ما تراه في الخريف في النخل وفي الشتاء في البيوت السود. وفي جبل تكريت في تلك الأيام، غربان سودّ كأمثال الحداء السود عظماً.

تسافد الغربان وناس يزعمون أنّ تسافدها على غير تسافد الطير، وأنها تراقق بالمناقي، وتلقح من هناك. نوادير وأشعار نذكر شيئاً من نوادير وأشعار وشيئاً من أحاديث، من حارّها وباردها.

قال ابن نجيم: كان ابن ميّادة يستحسن هذا البيت لأرطاة بن سُهية:

هُرَيْقٌ شَبَابِي
وَاسْتَشَنَّ أَدِيمِي

فَقَلْتُ لَهَا يَا أُمَّ
بِيضَاءَ إِنَّهُ

صَارَ شَنَّأً.

وكان الأصمعي يستحسن قولَ الطَّرْمَاحِ بنِ حَكِيمٍ، في صفة
الظَّليمِ:

قَدْرًا وَأَسْلَمَ مَا
سِوَاهُ الْبَرْجُدِ

مَجْتَابِ شَمْلَةٍ
بُرْجُدٍ لِسِرَاتِهِ

ويستحسن قوله في صفة الثَّورِ:

سَيْفٌ عَلَى شَرَفِ
يُسَلُّ وَيُعْمَدُ

يَبْدُو وَتَضْمُرُهُ
الْبِلَادُ كَأَنَّهُ

وكان أبو نُوَاسٍ يستحسنُ قولَ الطَّرْمَاحِ:

عُرَى الْمَجْدِ
وَاسْتَرَخَى عَنَانَ
الْقَصَائِدِ

إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُ
الطَّرْمَاحِ أَخْلَقَتْ

وقال كثير:

صَنِيعَةٌ بِرٌّ أَوْ
خَلِيلٍ تَوَامِقُهُ

إِذَا الْمَالُ يُوجِبُ
عَلَيْكَ عَطَاؤَهُ

فَلَمْ يَفْتَلِكِ الْمَالَ
إِلَّا حَقَائِقَهُ

مَنْعَتَ وَبَعْضُ الْمَنْعِ
حَزْمٌ وَقُوَّةٌ

وقال سهل بن هارون؛ يمدح يحيى بن خالد:

مَنْوعٌ إِذَا مَا مَنْعَهُ
كَانَ أَحْزَمًا

عَدُوٌّ تِلَادِ الْمَالِ
فِي مَا يَنْوِبُهُ

قال: وكان ربعي بن الجارود يستحسن قوله:

وَخَيْرُ مَنْ زِيَارَتِكَ
الْقَعُودُ

فَخَيْرُ مَنْكَ مَنْ لَا
خَيْرَ فِيهِ

وقال الأعشى:

وَقَدْ يَشِيْطُ عَلَيَّ
أُرْمَا حُنَا الْبَطْلُ

قَدْ نَطَعْنَ الْعَيْرَ فِي
مَكْنُونِ فَائِلِهِ

كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ

لَا تَنْتَهُونَ وَلَنْ

يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ

الزَّيْتُ وَالْفَتْلُ

وقال العلاء بن الجارود:

أظهروا للنَّاسِ
نِسْكَاً

وعلى المنقوش
دارُوا

وَلَهُ صَامُوا
وَصَلَّوْا

وَلَهُ حَجُّوا وَزَارُوا

وله قاموا
وقالوا

وله حلَّوا وساروا

لو غدا فوق
الثريا

ولهم ريش لطاروا

وقال الآخر في مثل ذلك:

شمر ثيابك واستعدَّ
لقابلٍ

واحكك جبينك
للقضاء بثومٍ

وامشِ الدَّيْبَ إِذَا

حتى تصيبَ

مَشَيْتَ لِحَاجَةٍ

وَدِيْعَةٌ لِيَتِيْمٍ

وقال أبو الحسن: كان يقال: من رَقَّ وجهُه رَقَّ عِلْمُه.
وقال عمر: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسْوَدُوا.
وقال الأصمعي: وُصِلتْ بِالْعِلْمِ، وَكَسِبَتْ بِالْمَلْحِ.
ومن الأشعار الطيبة قول الشاعر في السمك والخادم:

مَقْبَلِ مَدْبَرِ خَفِيْفٍ

دَسْمِ الثَّوْبِ قَدْ شَوَى

دَفِيْفٍ

سَمَكَتِ

مِنْ شَبَابِيْطِ لِحَةٍ

حُدْبٍ مِنْ شَحُوْمِهَا

ذَاتِ عَمْرٍ

زَهْمَاتِ

فَفَكَّرَ فِيهِمَا فَإِنَّهُمَا سَيَمْتَعَانِكَ سَاعَةً.
وقال الشاعر:

إِنْ أَجَزِ عُلْقَمَةُ بِنُ

لَا أَجْزُهُ بِيْلَاءِ

سَيْفِ سَعِيَّةٍ

يَوْمٍ وَاحِدٍ

لَأَحْبَبَنِي حُبَّ الصَّبِيِّ

رَمَّ الْهَدْيِ إِلَى

وَرَمَّنِي

الْغَنِيِّ الْوَاجِدِ

ولقد شفيت غيلتي
ونفعتها

من آل مسعود
بماء بارد

وقال رجل من جرم:

نبئت أحوالي
أرادوا عمومتي

بشنعاء فيها تأمل
السّم مُنقعا

سأركبها فيكم
وأدعى مفرّقا

وإن شئتم من بعد
كنت مجمعا

وقال يونس بن حبيب: ما أكلت في شتاءٍ شيئا قط إلا وقد برد، ولا أكلت في صيفٍ شيئا إلا وقد سخن.

وقال أبو عمرو المديني: لو كانت البلايا بالحِصص، ما نالني كما نالني: اختلفت الجارية بالشاة إلى التّياس اختلافاً كثيراً، فرجعت الجارية حاملاً والشاة حائل.

وقال جعفر بن سعيد: الخلف موكل بكلّ شيء يكون، حتى القذاة في الماء في رأس الكوز، فإن أردت أن تشرب الماء جاءت إلى فيك، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت.

حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان

وقال إسماعيل بن غزوان: بَكَرْتُ اليوم إلى أبي عمران، فَلَزِمْتُ الجَادَّةَ، فاستقبلني واحدٌ فَلَزِمَ الجَادَّةَ التي أنا عليها، فلما غَشِيَنِي انحرَفْتُ عنه يَمَنَةً فانحَرَفَ معي، فَعُدْتُ إلى سَمْتِي فَعَادَ، فَعُدْتَ فَعَادَ ثُمَّ عُدْتَ فَعَادَ، فَلَوْلَا أَنَّ صَاحِبَ بَرْدُونَ فَرَّقَ بَيْنَنَا لكَانَ إلى السَّاعَةِ يَكُدُّنِي، فَدَخَلْتَ على أبي عمران فَدَعَا بَعْدَانَهُ، فَأَهْوَيْتُ بِلِقْمَتِي إلى الصَّبَاغِ فَأَهْوَى إليه بَعْضُهُمْ، فَنَحَّيْتُ يَدِي فَنَحَّى يَدَهُ، ثُمَّ عُدْتُ فَعَادَ، ثُمَّ نَحَيْتُ فَنَحَّى، فَقُلْتُ لأبي عمران: أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ قَالَ سَأَحَدُّكَ بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا، أَنَا مِنْذُ أَكْثَرِ مِنْ سَنَةٍ أَشْفَقُ أَن يِرَانِي ابن أبي عون الخياط، فلم يَتَّفِقْ لي أَن يِرَانِي مرَّةً واحدةً، فلما أَن كَانَ أَمْسٍ ذَكَرْتُ لأبي الحارث الصَّنْعَ في السَّلَامَةِ مِنْ رُؤْيَيْتِهِ، فاستقبلني أَمْسٍ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

نوادِر وبلَغات

وذكر محمد بن سلام، عن محمد بن القاسم قال: قال جرير:
أنا لا أبتدي ولكني أعتدي.

وقال أبو عبيدة: قال الحجاج: أنا حديدٌ حَقُودٌ حَسُودٌ! قال:
وقال قديد بن منيع، لجُدع بن عليٍّ: لَكَ حَكْمُ الصَّبِيِّ على

أهله! وقال أبو إسحاق - وذكر إنساناً -: هو والله أترَف من ربيب ملك، وأخرق من امرأة، وأظلم من صبي.
وقال لي أبو عبيدة: ما ينبغي أن يكون كان في الدنيا مثل هذا النّظام، قلت: وكيف؟ قال: مرّ بي يوماً فقلت: والله لأمتحنّه، ولأسمعنّ كلامه؛ فقلت له: ما عيبُ الزُّجاج - قال: يُسرِع إليه الكسر، ولا يقبل الجبر - من غير أن يكون فُكّر أو ارتدع.

قال: وقال جَبَّار بن سُلمى بن مالك - وذكر عامر بن الطفيل فقال: كان لا يضلُّ حتّى يضلَّ النّجم، ولا يعطشُ حتّى يعطشُ البعير ولا يهاب حتّى يهاب السيل، كان والله خيراً ما يكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً.

وقال ابن الأعرابي: قال أعرابي: اللهم لا تنزلي ماءً سوءٍ فأكونُ امرأ سوءٍ يقول: يدعوني قلتهُ إلى منعه.

وقال محمّد بن سلام، عن حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس: إنّ الأحنف كان يكره الصلّاة في المقصورة، فقال له بعضُ القوم: يا أبا بحر، لم لا تصلي في المقصورة؟ قال: وأنت لم لا تصلي فيها؟ قال: لا أترك.

وهذا الكلام يدل على ضروب من الخير كثيرة.
ودخل عبد الله بن الحسن على هشام في ثياب سفره، فقال:

اذكر حوائجك، فقالَ عبدُ الله: ركابي مُناخَةٌ، وَعَلَيَّ ثيابُ
سفري فقال: إِنَّكَ لا تجدني خيراً مِنِّي لك الساعةِ.
قال أبو عبيدة: بلغَ عمرَ بن عبد العزيزَ قدومُ عبدِ الله بن
الحسن، فأرسل إليه: إني أخاف عليك طواعينَ الشام، وإِنَّكَ
لا تُغْنِمُ أهْلَكَ خيراً لهم منك فالحقُّ بهم، فَإِنَّ حوائجهم
ستسبقك.

وكان ظاهر ما يكلمونه به ويُرُونه إياه جميلاً مذكوراً، وكان
معناهم الكراهة لمقامه بالشام، وكانوا يرون جماله،
ويعرفون بيانه وكماله فكان ذلك العمل من أجود التدبير فيه
عند نفسه.

شعر في الزهد والحكمة

وأنشد:

وللموتِ بابٌ أنتِ
لابدَّ داخله

تُليح من الموتِ
الذي هو واقعٌ

وقال آخر:

عشْزَرَةٍ مقلِّدةٍ

أكلُكُمْ أقام على

عجوزٍ

وقال آخر:

الموتُ بابٌ وكلُّ
الناسِ داخله

لو كنتُ أعلمُ منْ
يدري فيخبرني

وقال آخر:

اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ
وتجلّدِ

فإذا ذكرتَ مصيبةَ
تشجى بها

وقال آخر:

والشمسُ تنعى
ساكنِ ال

سِخابا

فليتَ شعري بعدَ
البابِ ما الدَّارُ

أجنّةُ الخُلْدِ ما وانا
أم النّارُ

واعلمْ بأنّ المرءَ
غيرُ مخلّدِ

فاذكرْ مصابكُ
بالنبيِّ محمدِ

دُنيا ويُسعدُها
القَمَرُ

أَيْنَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ

رَكْمَ الْجَنَائِدِ
وَالْمَدَرِ

أَفَنَاهُمْ غَلَسَ الْعِشَا

ءِ يَهْرًا أَجْنَحَةً
السَّحَرِ

مَا لِلْقُلُوبِ رَقِيقَةً

وَكَأَنَّ قَلْبَكَ مِنْ
حَجَرِ

وَلَقَلَّمَا تَبْقَى وَعَو

ذَكَ كُلَّ يَوْمٍ
يُهْتَصَرُ

وقال زهير:

إِلَى مَطْمِنِ الْبِرِّ لَا يَتَجَمَّعُ

ومن يُ

وَمَنْ لَا يَكْرُمُ نَفْسَهُ لَا يَكْرُمِ

ومن ي

وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

ومهما

تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ

ومن لا

وَلَا يُعْفِيهَا يَوْمًا مِنْ الدَّمِّ يَنْدَمُ

يَزُلُّ يَسْتَرْحِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ

وقال زهير أيضاً:

ضارب حتى إذا ما
ضاربوا اعتنقا

يطعنهم ما ارتموا
حتى إذا طعنوا

وقال:

أمام الحيّ
عقدّهما سواء

وجار البيت والرجل
المنادي

وسيان الكفالة
والنلاء

جوار شاهد عدل
عليكم

يمين أو نفار أو
جلاء

فإن الحق مقطعه
ثلاث:

فتفهّم هذه الأقسام الثلاثة، كيف فصلها هذا الأعرابي. وقال
أيضاً:

ولكنّ حمد المرء
ليس بمُخلد

فلو كان حمد يُخلد
الناس لم تمت

ولكنَّ منه باقياتٍ
وراثَةٌ

فأورثَ بنيك
بعضَها وتزوّد

تزوّد إلى يوم
المماتِ فإنّه

وإن كرهته
النفسُ آخرُ معهدِ

وقال الأسديُّ:

فإني أحبُّ الخلدَ
لو أستطيعُ

وكالخدِ عندي أن
أموت ولم أَلَمْ

وقال الحادرة:

فأنتوا علينا لا أبا
لأبيكم

بإحساننا إنَّ الثناءَ
هو الخلد

وقال الغنوي:

فإذا بلغتُم أهلكم
فتحدّثوا

ومن الحديث مهالك
وخلودُ

وقال آخر:

فقتلاً بتقتيل
وعقراً بعقرِكم

جزاء العُطاس لا
يموت من اتَّأزَّ

وقال زهير:

والإثمُ من شرِّ ما
تصولِ به

والبرُّ كالغيثِ
نبتهُ أمرٌ

أي كثير، ولو شاء أن يقول:

والبرُّ كالماءِ نبتهُ أمرٌ

استقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنى، وإنما أراد أن
النبات يكون على الغيث أجود، ثم قال:

قد أشهدُ الشاربَ
المعدَّلَ لا

معروفهُ مُنكرَ ولا
حصرُ

في فتيةٍ ليني
المازِرِ لا

ينسونَ أحلامهم
إذا سَكروا

يشؤون للضيف

فون قضاءً إذا همُّ

والعُفَاةِ وَيُو

نَذَرُوا

يمدحُ كما ترى أهلَ الجاهليّةِ بالوفاءِ بالنذورِ أنشدني حَبَّانُ
بن عَتْبَانَ، عن أبي عبيدة، من الشَّوَارِدِ التي لا أربابَ لها،
قوله:

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ

أَوْ يَبْخَلُوا لَمْ

يَفْجُرُوا

يَحْفَلُوا

يَعْدُوا عَلَيْكَ مَرَجَلِي

نَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبِي بَرَأِقَشَ كُلَّ يَوْمٍ

مِ لَوْنَهُ يَتَخَيَّلُ

وقال الصَّلْتَانُ السَّعْدِيُّ، وهو غير الصَّلْتَانِ العَبْدِيِّ:

أَشَابَ الصَّغِيرَ

رَكَرَّ الغَدَاةِ وَمَرُّ

وَأَفْنَى الكَبِي

العَشِي

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ

أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٍ

يَوْمِهَا

فَتِي

نَرُوحُ وَنَعْدُو

وَحَاجَةٌ مِنْ عَاشٍ لَا

لحاجاتنا

تنقضي

تموت مع المرء
حاجاته

وتبقى له حاجة ما
بقي

إذا قلت يوماً لدى
مَعَشِرٍ

أروني السَّرِّيَّ أَرُوكَ
الغني

ألم ترَ لقمان
أوصى بني

ه وأوصيت عمراً
فنعَم الوصي

وسِرِّك ما كان
عندَ امرئٍ

وسرُّ الثلاثةِ غيرُ
الخفي

أنشدني محمد بن زياد الأعرابي:

ولا تلبث الأطماعُ
من ليس عنده

من الدين شيءٌ أن
تميل به النفسُ

ولا يلبث الدَّخَسُ
الإهاب تحوزه

بجمْعِك أن ينهَاهُ
عن غيرك الترس

وأشدني أبو زيدٍ النحويُّ لبعض القدماء:

أرى قمر اللّيلِ المعدّرَ كالفَتَى	وَمَهْمَا يَكُنْ رَيْبِ الْمُنُونِ فَإِنِّي
ويعظم حتّى قيل قد ثاب واستوى	يعودُ ضئيلاً ثم يرجعُ دائماً
وتكرّره في إثره بعَدَ ما مضى	كذلك زيّد المرء ثمّ انتقاصه

وقال أبو النّجم:

مرّ اللّيايِ أبطني وأسرعي	مَيَّرَ عَنْهُ قَنْزَعاً مِنْ قَنْزَعِ
ثمّ إذا واركِ أفق فارجعي	أفناه قيلُ الله للشّمسِ اطلعي

وقال عمرو بن هند:

يُنَاغِي نِسَاءَ الْحَيِّ	وإن الذي ينهاكم
---------------------------	-----------------

عن طلابها

يَعْلُ وَالْأَيَّامُ
تَنْقُصُ عَمْرَهُ

وقال ابن ميادة:

هل ينطقُ الرَّبْعُ
بالعَلْيَاءِ غَيْرَهُ

وقال أبو العتاهية:

أَسْرَعُ فِي نَقْصِ أَمْرِي تَمَامُهُ

وقال:

ولمَرَّ الفَنَاءُ فِي كُلِّ
شَيْءٍ

وقال ابن ميادة:

أَشَاقِكُ بِالْقِنَعِ

فِي طَرَّةِ الْبُرْدِ

كَمَا تَنْقُصُ النَّيْرَانُ
مِنْ طَرْفِ الزَّيْدِ

سَافِي الرِّيَّاحِ
وَمَسْتَنٌّ لَهُ طُنْبٌ

دَوَارِسِ أَدْنَى

الغداة رُسومٌ

عهدهن قديمٌ

يلحنَ وقد جرَّمنَ
عشرين حجَّةً

كما لاح في ظهر
البنانِ وشومِ

وقال آخر:

في مرفقيها إذا ما
عُونِقتُ جَمَمَ

على الضَّجيعِ وفي
أنيابها شَنَبَ

وقال ابن ميادة في جعفر ومحمد ابني سليمان، وهو يعني
أمير المؤمنين المنصور:

وفي لكما يا ابني
سليمان قاسم

بجدِّ النهي إذ يقسم
الخير قاسمُهُ

فبيتكم بيتٌ رفيع
بناؤه

متى يلق شيئاً
مُحدثاً فهو هادمُهُ

لكم كبش صدق
شدَّب الشَّولَ عنكم

وكسَّرَ قرني كلِّ
كبشٍ يصادمُهُ

من يهجي ويذكر بالشؤم

قال دِعبِل بن عليّ، في صالح الأفقم - وكان لا يصحبُ رجلاً
إلاّ مات أو قُتِل، أو سقطت منزلته :-

قول امرئٍ شفيقٍ
عليه محامٍ

قل للأمينِ أمينِ آلِ
محمدٍ

في صالحِ بن عطية
الحجّامِ

إياك أن تُغترَّ عنك
صنيعة

لكنهنَّ طوائفُ
الإسلامِ

ليس الصنائعُ
عنده بصنائعِ

جيشٌ من الطاعونِ
والبرسامِ

اضربْ به نحرَ
العدوّ فإنّه

وقال محمد بن عبد الله في محمد بن عائشة:

أبدأ في كلّ عامٍ

للِهالبيّ قتيلٍ

وعليّ بن هشامِ

قتلَ الفضلَ بن سهلِ

وعجيفاً آخر القو
مِ بِأَكْنَفِ الشَّامِ
وغدا يطلب من يق
تَلِّ بِالسَّيْفِ الحُسَامِ
فَاعَاذَ اللّهُ مِنْهُ
أَحْمَدًا خَيْرَ الْأَنَامِ

يعني أحمد بن أبي دؤاد.
وقال عيسى بن زينب في الصخري، وكان مشؤوماً:

يا قوم مَنْ كَانَ
لَهُ وَالِدٌ
يَأْكُلُ مَا جَمَعَ مِنْ
وَفُرٍ
فَإِنَّ عِنْدِي لِابْنِهِ
حِيلَةٌ
كَأَنَّمَا فِي كَفِّهِ
مَبْرَدٌ
يَبْرُدُ مَا طَالَ مِنْ
العُمُرِ

شعر في مديح وهجاء

وقال الأعشى:

فَمَا إِنَّ عَلَى قَلْبِهِ
عَمْرَةٌ

وَمَا إِنَّ بَعْظِمَ لَهُ مِنْ
وَهْنٍ

وقال الكميت:

وَلَمْ يَقُلْ عِنْدَ زَلَّةٍ
لَهُمْ

كُرُّوا الْمَعَاذِيرَ إِنَّمَا
حَسَبُوا

وقال آخر:

فَلَا تَعْذِرَانِي فِي
الْإِسَاءَةِ إِنَّهُ

شِرَارُ الرَّجَالِ مِنْ
يَسِيءُ فَيُعْذِرُ

وقال كلثوم بن عمر العتّابي:

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ
مَعْتَرِبًا

حُشِدْتُ عَلَيْهِ نَوَائِبُ
الدَّهْرِ

رَدَّتْ عَلَيْكَ نِدَامَتِي
أَمَلِي

وَتَنَى إِلَيْكَ عَنَانَهُ
شُكْرِي

وَجَعَلْتَ عَثْبَكَ

وَرَجَاءَ عَفْوِكَ

عُتِبَ مَوْعِظَةً

مُنْتَهَى عُذْرِي

وَقَالَ أَعْشَى بَكَرٍ:

قَدَدْتُكَ الشَّعْرَ يَا

الإِفْضَالَ وَالشَّيْءُ

سَلَامَةٌ ذَا

حَيْثُ مَا جُعِلَا

وَالشَّعْرَ يَسْتَنْزِلُ

تَنْزَلَ رَعْدُ السَّحَابَةِ

الكَرِيمَ كَمَا اسُنُ

السَّبِيلَا

لَوْ كُنْتُ مَاءً عِدًّا

مَا وَرَدَ الْقَوْمَ لَمْ

جَمَعْتَ إِذَا

تَكُنُ وَشَلَا

أَنْجَبَ آبَاؤُهُ

إِذْ نَجَلَاهُ فَنِعَمَ مَا

الكَرَامُ بِهِ

نَجَلَا

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْبَقَاءِ

دِوَالِي الْمَلَامَةِ

وَبِالْحَمِّ

الرَّجَلَا

وَقَالَ الْكُذَّابُ الْحَرَمَازِيُّ لِقَوْمِهِ، أَوْ لغيرِهِمْ:

لَوْ كُنْتُمْ شَاءً لَكُنْتُمْ

أَوْ كُنْتُمْ مَاءً لَكُنْتُمْ

نقدا

ثمدا

أَوْ كُنْتُمْ قَوْلًا لَكُمْ
فَنَدَا

وقال الأعشى في الثياب:

س إذا شطَّ بالحبیب الفِرَاقُ

سَوِّءٍ حَتَّى إِذَا أَفَاقَ أَفَاقُوا

لِي وَصَارَتْ لَخِيمِهَا الْأَخْلَاقُ
الْفُضُولُ ضَنَّ عَلَى الْمَوِ

حَى وَأَعْيَا الْمُسِيمِ أَيْنُ الْمَسَاقِ
الْقَوْمُ بِالْعِمَادِ إِلَى الرَّزِّ

رِي عَلَى عِرْقِهَا الْكِرَامُ الْعِتَاقُ
فُضْلُهُمْ هُنَاكَ وَقَدْ تَج

حَ وَجَنَّ التَّلَاعُ وَالْآفَاقُ
صَوْبُهُ وَضَعُ الْقِدِّ

وإذا ذو

ومشى

أخذوا

وإذا الغيث

فعلی
المهین

رِ وَلَا اللَّهُ فِيهِمْ وَالسَّبَّاقَ
سَفَاهَةً شَرِبُ الخَمِّ
لَمْ يَزِدْهُمْ
وَاضِعاً فِي
نَاعِماً غَيْرَ أَنِّي مُشْتَاقٌ
سِرَاةً نَجْرَانَ رَحْلِي
فِي مَطَايَا
عَنْ نَوَاءٍ وَهَمُّنَّ العِرَاقُ
أَرْبَابُهُنَّ عَجَالَ
دَرَمَكُ
وَصَبُوحُ مَبَاكِرُ وَاعْتَبَاقُ
عُدُوةً لَنَا وَنَشِيلُ
وَنَدَامِي
رَبِّ مِنْهُمْ مَصَاعِبُ أَفْنَاقُ
بِيضُ الوجُوةِ كَأَنَّ الشَّ
فِيهِمْ
دَةً جَمْعاً وَالخَاطِبُ المَسْلَاقُ
الْخِصْبُ وَالسَّمَاحةُ وَالنَّجْ
وَأَبْيُونُ لَا
وَمَكِيثُونَ وَالْحَلُومُ وَثَاقُ
يُسَامُونَ ضَيْمًا
وَتَرَى
رَابُ بِالْقَوْمِ وَالثِّيَابُ رِقَاقُ
مَجْلِسًا يَعْصُ بِهِ المَح

وقال أيضاً في الثياب:

وقيساً هم خيرُ
أربابها

أزور يزيدَ وعبدَ
المسيحِ

كِ حَتَّى تُنَاحِي
بأبوابها

وكعبة نجران حتم
علي

وجرؤوا أسافلَ
هُدَابِهَا

إذا الحبرأتُ تَلَوْتُ
بِهِمْ

وفي الثياب يقول الآخر:

لَعَيْنِ تُرَجِّي أَوْ
لَأَذُنٍ تَسْمَعُ

أَسَيْلِمُ ذَاكُمُ لَا خَفَا
بِمَكَانِهِ

وهابَ الرَّجَالِ
حَلَقَةَ الْبَابِ
قَعَقَعُوا

من النَّفْرِ الْبَيْضِ
الَّذِينَ إِذَا انْتَمَوْا

وطيبَ الدَّهَانِ

جلا الأذفر الأحوى

رأسه فهو أنزع

له حوك برديه
أجادوا وأوسعوا

من المسك فرقه

إذا النفر السود
اليماون حاولوا

وقال كثير:

سبي هلال لم تفتق
شرانقه

يجرر سربالاً
عليه كانه

وقال الجعدي:

بلادهم بأرض
الخيزران

أتاني نصرهم وهم
بعيد

يريد أرض الخصب والأغصان اللينة.
وقال الشاعر:

بكف أروع في
عرنيه شمم

في كفه خيزران
ريحها عبق

لأن الملك لا يختصر إلا بعود لذن ناعم، وقال آخر:

يكاد يدينها من
الأرض لينها

تجاوبها أخرى
على خيزرانة

وقال آخر:

حديثاً متى ما يأتك
الخير ينفع

نبتت نبات
الخيزراني في
الثرى

وقال المسيب بن علس:

كان وطابهم موسى
الضباب

قصار الهم إلا في
صديق

عين الرضا وعين السخط

وقال المسيب بن علس:

حسن برأي العين
ما تمق

تامت فؤادك إذ
عرضت لها

وقال ابن أبي ربيعة:

حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَن تَوَدَّ

وقال عبد الله بن معاوية:

ولكنَّ عَيْنَ السَّخَطِ
تُبْدِي المَسَاوِيَا

وعين الرِّضَا عن
كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وقال رَوْحُ أَبُو هَمَّامٍ:

وعينُ أَخِي الرِّضَا
عن ذَاكَ تَعْمَى

وعينُ السَّخَطِ
تَبْصِرُ كُلَّ عَيْبٍ

شعر وخبر

وقال الفرزدق:

سَأَلْتُ وَمَنْ يَسْأَلُ
عن العِلْمِ يَعْلَمُ

أَلَا خَبَّرُونِي أَيَّهَا
النَّاسُ إِنَّمَا

وما السائل الواعي
الأحاديث كالعَمِي

سؤال امرئٍ لم
يُغْفَلِ العِلْمُ
صَدْرُهُ

وقيل لِذَعْفِلٍ: أَنَّى لك هذا العلم؟ قال: لسانٌ سَوُولٌ، وقلبٌ
عقول وقال النابغة:

فَأَبَ مُضْلُوهُ
بعين جليّةٍ
وَعُودِرَ بِالْجَوْلَانِ
حَزْمٌ وَنَائِلُ

مُضْلُوهُ: دافنوه، على حدّ قوله تعالى: "إِذَا ضَلَلْنَا فِي
الْأَرْضِ".
وقال المخبل:

أَضَلَّتْ بَنُو قَيْسِ
بنِ سَعْدِ عَمِيدِهَا
وفارسها في الدَّهْرِ
قيس بن عاصم

قوال زهيرٍ - أو غيره - في سِنانِ بنِ أَبِي حارثة:

إِن الرِّزِيَّةَ لَا
رِزِيَّةَ مِثْلَهَا
ما تبتغي غطفانُ
يومَ أَضَلَّتْ

ولذلك زعم بعضُ النَّاسِ أَنَّ سِنانَ بنِ أَبِي حارثة خَرَفَ
فذهب على وجهه، فلم يُوجد.

من هام على وجهه فلم يوجد

ويزعمون أنّ ثلاثة نفرٍ هأموا على وجوههم فلم يُوجدوا:
طالب بن أبي طالب، وسان بن أبي حارثة، ومرداس بن
أبي عامر.
وقال جرير:

عليّ من الفضلِ
الذي لا يرى ليا

وإني لأستحيي
أخي أن أرى له

وقال امرؤ القيس:

قليلُ الهمومِ ما يببئُ
بأوجالٍ

وهل يعمنُ إلا
خليّ منعمٌ

وقال الأصمعي: هو كقولهم: استراح من لا عقل له.
وقال ابن أبي ربيعة:

وريانٌ مُنتفٌ
الحدائقُ أخضرٌ

وأعجبها من
عيشها ظلُّ غرفةٍ

فليستْ لشيءٍ آخرَ
اللَّيلُ تسهرُ

ووالٍ كفاها كلَّ
شيءٍ يهْمُها

مدیح الصَّالِحین والفُقهاء
قال ابنُ الخِياط، يمدح مالك بن أنس:

والسائلون	يأبى الجوابَ فما
نواكسُ الأذقان	يراجعُ هيبَةَ
فهو المطاعُ وليس	هدىُّ التقيِّ وعز
ذا سُلطانِ	سلطانِ التقيِّ

وقال ابن الخياط في بعضهم:

ولم يقتبس من	فتى لم يجالس
علمه فهو جاهلٌ	مالكا منذ أن نشأ

وقال آخر:

وبالنهارِ على سمتِ	فأنت بالليلِ ذئبٌ
ابن سيرين	لا حريمَ له

وقال الخليل بن أحمد وذكروا عنده الحظَّ والجدَّ، فقال: أمَّا
الجدُّ فلا أقول فيه شيئاً، وأمَّا الحظُّ فأخزى الله الحظَّ، فإنه
يبئد الطالبَ إذا اتكل عليه ويبعد المطلوب إليه من مذمةٍ

الطالب.

وقال ابن شبرمة:

أو كابن طارق حول
البيت والحرم

لو شئت كنت
ككرز في تعبده

وسارعا في طلاب
العز والكرم

قد حال دون لذيذ
العيش خوفهما

وقال آخر يرثي الأصمعي:

بالأصمعي لقد
أبقت لنا أسفا

لا درّ درّ خطوب
الدهر إذ فجعت

في الدهر منه ولا
من علمه خلفا

عش ما بدا لك في
الدنيا فلست ترى

وقال الحسن بن هانئ، في مرثية خلف الأحمر:

لوائت شغواء في
أعلى الشعف

لو كان حي وائلاً
من التلف

أُمَّ فَرِيخٍ أَحْرَزْتَهُ
فِي لَجْفٍ

مُزْعَبِ الْأَلْغَادِ لَمْ
يَأْكُلْ بِكَفٍّ

هَاتِيكَ أُمَّ عَصْمَاءَ
فِي أَعْلَى الشَّرْفِ

تَظَلُّ فِي الطَّبَاقِ
وَالنَّزْعِ الْأَلْفِ

أُودَى جَمَاعُ الْعِلْمِ مَدَى
أُودَى خَلْفِ

قَلْبِيذَمٌ مِنَ الْعِيَالِمِ
الْخَسْفِ

وقال يرثيه في كلمة له:

بَتَّ أَعْرَبِي الْفُؤَادِ
عَنْ خَلْفِ

وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا
يَفِضُ يَكْفِ

أَنْسَى الرَّزَايَا مَيِّتٌ
فَجَعْتُ بِهِ

أَضْحَى رَهِيناً
لِلتُّرْبِ فِي جَدْفِ

كَانَ يَسْتَنِي بِرَفْقِهِ
غَلِقُ الْ

أَفْهَامِ فِي لَا خَرِقِ
وَلَا عُنْفِ

يَجُوبُ عَنْكَ الَّتِي

حَيْرَانَ، حَتَّى

عشيتَ لها

يشفيك في لطفِ

لا يهْمُ الحاءُ في
القراءةِ بالخا

ء ولا لامها مع
الألف

ولا مضلاً سُبُلَ
الكلامِ ولا

يكونُ إسناده عن
الصُّحُفِ

وكان ممن مضى
لنا خلفاً

فليس إذ مات عنه
من خلفِ

وقال آخر في ابن شبرمة:

إذا سألت الناس
أين المكرمهُ

والعزَّ والجُرثومة
المقدِّمهُ

وأين فاروقُ
الأمورِ المحكمهُ

تتابع الناسُ على
ابن شبرمة

شعر مختار

وقال ابن عرفة:

ليهنيك بغير
للصديق وظنة

وتحديثك الشيء
الذي أنت كاذبه

وانك مشنوء الى
كل صاحب

بلاك، ومثل الشر
يكره جانبه

وانك مهذاء الخنا
نطف النسا

شديد السباب رافع
الصوت غالبه

وقال النابغة الجعدي:

أبي لي البلاء وأني
امرؤ

إذا ما تبينت لم
أرتب

وليس يريد أنه في حال تبينه غير مرتاب، وإنما يعني أن
بصيرته لا تتغير.

وقال ابن الجهم، ذات يوم: أنا لا أشك قال له المكي: وأنا لا
أكاد أوقن وقال طرفة:

وكرّي إذا نادى
المُضاف مُحَبَّباً

كسيد الغضى في
الطخية المتورّد

وتقصيرُ يوم
الدَّجَنِ والدَّجَنِ
معجب

ببهكنةٍ تحت
الخباءِ الممددِ

أرى قبرِ نَحَامٍ
بخيلٍ بماله

كقبرِ غويٍّ في
البطالةِ مُفسدِ

لعمرك إنَّ الموت
ما أخطأ الفتى

لكالطَّولِ المُرْخَى
وثنياه باليد

أرى الموت أعداد
النفوس ولا أرى

بعيداً غداً، ما أقرب
اليوم من غد

وظلم ذوي القربى
أشد مضاضة

على المرء من
وقع الحسام المهدد

وفي كثرة الأيدي
عن الظلم زاجرٌ

إذا خطرَت أيدي
الرجالِ بمشهد

الجعلان والخنافس

وسنقولُ في هذه المحقرات من حشرات الأرض، وفي
المذكور من بغاث الطير وخشاشه، ممَّا يقتات العذرة
ويُوصف باللوم، ويُتَقَرَّرُ من لمسِه وأكلِ لحمه، كالخنفساء
والجعل، والهداهدِ والرَّخم، فإنَّ هذه الأجناس أطلبُ للعذرة
من الخنازير.

فأول ما نذكر من أعاجيبها صداقة ما بين الخنافس
والعقارب، وصداقة ما بين الحيات والوزغ، وتزعُمُ الأعراب
أنَّ بين ذكورة الخنافس وإناث الجعلان تسافداً وأنهما
ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً.
وأشدَّ حَسَنًا الأعراب النحويُّ عن سيبويه النَّحويِّ، عن
بعض الأعراب في هجائه عدواً له كان شديد السَّواد:

عاديتنا يا خُنفساً	عداوة الأوعالِ
كامُ جُعلُ	حياتِ الجبلِ
من كلِّ عودٍ مُرهِفِ	يخرقُ إنَّ مسِّ
النَّابِ عُتْلُ	وإنَّ شمَّ قتلِ

ويثبت أكل الأوعال للحيات الشَّعْرُ المشهور، الذي في أيدي
أصحابنا، وهو:

في التماس بعض
حياتِ الجبلِ

ليس من حياتِ حُجرِ
والقللِ

رَبْدَى الخُطفَةِ
كالقِدْحِ المُوَلِّ

كشعاعِ الشَّمْسِ
لاحَتْ في طَفَلٍ

ونفى الحياتِ عن
بيضِ الحَجَلِ

عَلَّ زِيداً أَنْ
يُلاقِي مَرَّةً

غَايِرِ العَيْنينِ
مَفْطُوحِ القَفَا

يتوارى في
صُدُوعِ مَرَّةٍ

وترى السَّمَّ على
أشداقه

طرد الأروى فما
تقربُهُ

وإنما ذكر الأروى من بين جميع ما يسكن الجبال من
أصناف الوحش، لأنَّ الأروى من بينها تأكلُ الحيات، للعداوة
التي بينها وبين الحيات.

استطراد لغوي

والأروى: إناث الأوعال، واحدها أروية، والناس يُسمون
بناتهم باسم الجماعة، ولا يسمون البنت الواحدة باسم
الواحدة منها: لا يسمون بأروية، ويسمّون بأروى، وقال
شماخ بن ضرار:

بأدنى من موقفةٍ
حرون

فما أروى وإن
كرمت علينا

وأشد أبو زيد في جماعة الأورية:

ولاقيت كلاباً
مُطلاً ورامياً

فما لك من أروى
تعاديت بالعمى

يقال: تعادى القوم وتفاقدوا: إذا مات بعضهم على إثر
بعض.

وقالت في ذلك ضباعة بنت قُرط، في مرثية زوجها هشام
بن المغيرة:

وإن صمتاً عن بكاه
لحوب

إن أبا عثمان لم
أنسه

أَيَّ ذُنُوبٍ صَوَّبُوا
فِي الْقَلْبِ

تَفَاقَدُوا مِنْ مَعَشِرٍ
مَا لَهُمْ

طلب الحيات البيض
وأما قوله:

ونفى الحيات عن بيض الحجل

فإنَّ الحياتَ تطلبُ بيضَ كلِّ طائرٍ وفراخه، وبيضُ كلِّ طائرٍ
مما يبيض على الأرض أحبُّ إليها، فما أعرف لذلك علةً إلا
سهولة المطلبِ.
والأيائل تأكل الحياتِ، والخنازيرُ تأكل الحياتِ وتعاديهما.

عداوة الحمار للغراب

وزعم صاحبُ المنطق أن بين الحمار والغراب عداوة،
وأشدني بعضُ النحويين:

عَدَاوَةُ الْحَمَارِ
لِلْغُرَابِ

عَادَيْتَنَا لَا زِلْتَ فِي
تَبَابِ

وأشُدُّ ابْنُ أَبِي كَرِيمَةَ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ فِي صَرِيحِ الْغَوَانِي:

إلى الحياتِ منك إلى
الغواني

فما ريح السذاب
أشدَّ بُغضاً

أمثال

ويقال: ألجُ من الخنفساء، وأفحشُ من فاسية وهي
الخنفساء وأفحش من فالية الأفاعي.
والفساء يُوصف بن ضربان من الخلق: الخنفساء،
والظربان.
وفي لجاج الخنفساء يقول خلف الأحمر:

كثيرُ الخطاءِ قليلُ
الصوابِ

لنا صاحبٌ مَوْلَعٌ
بالخلافِ

وأزهى إذا ما مشى
من غرابِ

ألجُ لجاجاً من
الخنفساء

طول ذمء الخنفساء

وقال الرقاشي: ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في
جنبه، فقال لي أعرابيٌّ: الخنفساء أصبر منه، ولقد رأيت
صبيّاً من صبيانكم البارحة وأخذ شوكة وجعل في رأسها

فتيلةً، ثم أوقد نهاراً، ثم غرزها في ظهر الخنفساء، حتى
أنفذ الشوكة، فغبرنا ليلتين وإنها لتجول في الدار وتصبح
لنا، والله إنني لأظنها كانت مُقرباً، لانتفاخ بطنها.
قال: وقال القناني: العواساء: الحامل من الخنافس، وأنشد:

بِحراً عواساء تفاسا مُقرباً

أعاجيب الجعل

قال: ومن أعاجيب الجعل أنه يموت من ريح الورد، ويعيش
إذا أعيد إلى الرّوث، ويضرب بشدّة سواد لونه المثل، قال
الرّاجز وهو يصف أسود سالخاً:

كأئما قمص من
ليط جعلن

مُهرّت الأشداق عود
قد كملن

والجعل يظلّ دهرأ لا جناح له، ثم ينبت له جناحان، كالنمل
الذي يغبر دهرأ لا جناح له، ثم ينبت له جناحان، وذلك عند
هَلَكْتِه.

تطور الدعاميص

والدعاميص قد تغبر حيناً بلا أجنحة، ثم تصير فراشاً
وبعوضاً، وليس كذلك الجراد والدَّبَّان، لأنَّ أجنحتها تنبت
على مقدار من العمر ومرور من الأيام.
وزعم ثمامة، عن يحيى بن خالد: أنَّ البرغوث قد يستحيل
بعوضة.

عادة الجعل

والجعل يحرسُ النَّام، فكلما قام منهم قائمٌ فمضى لحاجته
تبعه، طمعاً في أنه إنما يريد الغائط، وأنشد بعضهم قول
الشاعر:

كأنه شرطيٌّ باتَ
في حَرَسِ

يبيتُ في مجلس
الأقوامِ يربوُّهم

وأنشد بعضهم لبعض الأعراب في هجائه رجلاً بالفسولة،
وبكثرة الأكل، وبعظم حَجْم النَّجْو:

لجارتيه ثمَّ
ولَّى فنثلُ

حتى إذا أضحي تدرى
واكتحل

رُزِقَ الْأُنُوقِينَ الْقَرْنَبِيَّ
وَالجَعَلَ

سمى القرنبي والجعل - إذ كانا يقتاتان الزَّيْل - أنوقين،
والأنوق: الرَّخْمَة، وهي أحد ما يقتات العذرة، وقال
الأعشى:

يا رَحْمًا قَاطِئًا عَلَيَّ
يُنْحَوِبُ
يُعْجِلُ كَفَّ الْخَارِيَّ
المُطِيبِ

المطيب: الذي يستطيب بالحجارة، أي يتمسح بها، وهم
يسمَّون بالأنوق كلَّ شيءٍ يقتات النَّجْو والزَّيْل، إلَّا أنَّ ذلك
على التشبيه لها بالرَّحْم في هذا المعنى وحده، وقال آخر:

يا أيُّهَذَا النَّابِحِي نَبَّحَ
القَبْلَ
يَدْعُو عَلَيَّ كَلِمًا
قَامَ يُصَلِّ

رافِعَ كَفَيْهِ كَمَا يَفْرِي
الجُعْلُ
وقد ملأتُ بطنه
حتى أتل

غَيْظًا فَأَمْسَى ضَغْنُهُ

قد اعتدل

والقبل: ما أقبل عليك من الجبل، وقوله أتل، أي امتلأ عليك
غَيْظاً فَقَصَّرَ فِي مَشِيَّتِهِ، وَقَالَ الْجَعْدِيُّ:

مَنْعَ الْغَدْرِ فَلَمْ وَأَخُو الْغَدْرِ إِذَا هَمَّ
أَهَمَّ بِهِ فَعَلْ

خَشِيَةَ اللَّهِ وَأَنِّي إِنَّمَا ذَكَرِي كِنَارٌ
رَجُلٌ بِقَبْلِ

وقال الرَّاجِزُ - وهو يهجو بعضهم بالفُسُولَةَ، وبكثرة الأكل،
وَعِظَمَ حَجْمِ النَّجْوِ:

بَاتَ يَعْشَى وَحْدَهُ أَلْفِي جُعَلْ

وقال عنتره:

إِذَا لَاقَيْتَ جَمْعَ بَنِي فَإِنِّي لَأَنَّمٌ لِلْجَعْدِ
أَبَانٍ لَاحِي

كسوتُ الجعد جَعْدٌ ردائي بعد عُرِّي

بني أبان

وافتضح

ثم شبّهه بالجعل فقال:

كأنّ مؤشّر

هُدُوجاً بين أَلْقَبَةِ

العُضْدَيْنِ جَحْلاً

مِلَاحٍ

تضمن نعمتي فغدا

بُكُوراً أو تهجّر في

عليها

الرَّوَّاحِ

وقال الشّمّاخ:

وإن يُلقيا شأواً

مفرضُ أطراف

بأرضٍ هوى له

الدّراعينِ أفلج

استطرد لغوي والشأو هاهنا: الرّوث، كأنه كثره حتّى ألحقه
بالشأو الذي يخرج من البئر، كما يقول أحدهم إذا أراد أن
يُنقي البئر: أخرج من تلك البئر شأواً أو شأوين، يعني من
التراب الذي قد سقط فيها، وهو شيءٌ كهينة الزبيل الصّغير.
والشأو: الطلق، والشأو: الفوت.

والمفرض الأفلج الذي عنى، هو الجعل، لأنَّ الجعل في قوائمه تحزير، وفيها تفرّج.

معرفة في الجعل

وللجعل جناحان لا يكادان يُريانِ إلاَّ عند الطَّيران، لشدة سوادهما، وشبههما بجلده، ولشدة تمكنهما في ظهره. قال الشاعر، حيثُ عدَّ الخونة، وحثَّ الأمير على محاسبتهم:

واشَفِ الأرامِل من
نُحْرُوجَةِ الجُعْلِ

واشُدُّ يديكَ بزيْدٍ
إن ظفِرتُ به

والجعل لا يدحرج إلاَّ جعراً يابساً، أو بعرة. وقال سعد بن طريف، يهجو بلال بن رباح مولى أبي بكر:

كأنَّه جُعْلٌ يمشي
بِقِرْوِاحِ

وذاك أسودُ نوبِيٍّ
له ذَفْرٌ

وسنذكر شأنه وشأن بلالٍ في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

أبو الخنافس وأبو العقارب

وكان بالكوفة رجلاً من ولد عبد الجبار بن وائل بن حُجر
الحضرمي يكنى أبا الخنافس راضياً بذلك، ولم تكن الكنية
لقباً ولا نُبزاً، وكان من الفقهاء، وله هيئة ورواء، وسألته:
هل كان في آباءه من يكنى أبا الخنافس؟ فإن أبا العقارب
في آل سلم مولى بني العباس كثيرٌ على أتباع أثر، وكان أبو
الخنافس هذا اكتنى به ابتداءً.

طول ذمء الخنفساء

وقال لي أبو الفضل العنبري: يقولون: الضبُّ أطول شيءٍ
ذمء، والخنفساء أطول منه ذمء، وذلك أنه يُغرز في
ظهرها شوكةٌ ثاقبة، وفيها ذبالةٌ تستوقدُ وتُصبحُ لأهل
الدار، وهي تدبُّ بها وتجول وربما كانت في تضاعيف حبل
قت، أو في بعض الحشيش والعُشب والخلا، فتصيرُ في فم
الجمل فيبتلعها من غير أن يَضغم الخنفساء، فإذا وصلت إلى
جوفه وهي حيَّةٌ جالت فيه، فلا تموت حتى تقتله.
فأصحاب الإبل يتعاورون تلك الأوارِي والعُوفاتِ، خوفاً من
الخنافس.

هَجاء جواس لحسان بن بحدل وقال جواس بن القعطل في
حسان بن بحدل:

دَنِسُ الثِّيَابِ كطَابِحِ
الْقَدْرِ

هَلْ يُهْلِكُنِي لَا
أَبَالِكُمْ

زَمِرُ المَرْوَةِ نَاقِصُ
الشَّبْرِ

جُعَلْ تَمَطَّى فِي
عَمَائِهِ

وَالعَاجِزُ التَّدْبِيرِ
كَالْوَبْرِ

لِزِبَابَةِ سِوَدَاءِ
حَنْظَلَةٍ

فَأَمَّا الهجاء والمدح، ومفاخرة السودان و الحمران، فإنَّ ذلك كله مجموع في كتاب الهجاء والصرحاء. وقد قدّمنا في صدر هذا الكتاب جملةً في القول في الجعلان وغير ذلك من الأجناس اللئيمة والمستنقذرة، في باب النتن والطيب، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

الهدد

وأما القول في الهدد، فإنَّ العرب والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من الله تعالى على ما كان من برِّه لأُمَّه لأنَّ أمّه لما ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوهدة.

والهدهد طائرٌ مُنتنٌ الریحِ والبدنِ، من جوهره وذاته، فربَّ
شيءٍ يكونُ مُنتنًا من نفسه، من غيرِ عَرَضٍ يعرِضُ له،
كالتیوس والحیّاتِ وغير ذلك من أجناس الحیوان.
فأمّا الأعراب فيجعلون ذلك النُّتنَ شيئاً خامره بسبب تلك
الجيفةِ التي كانت مدفونةً في رأسه، وقد قال في ذلك أمیّة
أو غیره من شعرائهم، فأمّا أمیّة فهو الذي یقول:

صنیعٌ ولا یخفی
على الله ملحدٌ

تَعَلَّمَ بِأَنَّ الله لیس
كصنُعهِ

أخرى على عینِ
بما یتمدّد

وبكلّ منكرةٍ لهُ
مَعْرُوفَةٌ

وخزائنٌ مفتوحة لا
تنفدُ

جُدُّ وتوشیم
ورسْمُ علامةٍ

لا یستقیم لخالق
یتزیدُ

عمن أراد بها
وجاب عیانه

أزمانٌ کفنٌ واسترادُ

غیم وظلماء

الهدُّدُ	وغيث سحابةٍ
فبنى عليها في قفاه يُمهدُ	يبغي القرارَ لأمه ليُجنَّها
في الطيرِ يحملها ولا يتأوِّد	مهداً وطياً فاستقلَّ بحمله
ولداً، وكلف ظهره ما تفقد	من أمه فجُزي بصالح حملها
فيها وما اختلف الجديد المسند	فتراه يذلُّح ما مشى بجزازةٍ

معرفة الهدد بمواضع المياه

ويزعمون أنَّ الهدد هو الذي كان يدلُّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها.

سؤال ومثل في الهدد

ويروون أن نجدة الحروريّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس: إنك تقول إن الهدد إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء، والهدد لا يبصر الفخّ دوين التراب، حتى إذا نقر التمرة انضم عليه الفخّ فقال: ابن عباس إذا جاء القدر عمى البصر.

ومن أمثالهم: إذا جاء الحين غطى العين.
وابن عباس إن كان قال ذلك فإتما عنى ههد سليمان عليه السلام بعينه؛ فإنّ القول فيه خلاف القول في سائر الهداهد. وسنأتي على ذكر هذا الباب من شأنه في موضعه إن شاء الله تعالى

وقد قال الناس في ههد سليمان، وخراب نوح، وجمار عذير، وذئب أهبان بن أوس، وغير ذلك من هذا الفن، أقاويل، وسنقول في ذلك بجملة من القول في موضعه إن شاء الله.

بيت الهدد

وقد قال صاحب المنطق وزعم في كتاب الحيوان، أن لكل طائر يعيش شكلاً يتخذ عشه منه، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص

والأفاحيص، وزعم أنّ الهدد من بينها يطلب الزبل، حتى إذا وجده نقل منه، كما تنقل الأرضة من التّواب، ويبنى منه بيتاً، كما تبني الأرضة، ويضع جزءاً على جزء، فإذا طال مُكثه في ذلك البيت، وفيه أيضاً ولد، أو في مثله، وتربّي ريشه وبدنه بتلك الرائحة، فأخلق به أيضاً أن يُورث ابنه النّتن الذي علقه، كما أورث جدّه أباه، وكما أورثه أبوه، قال: ولذلك يكون منتبأً.

وهذا وجهٌ أن كان معلوماً أنّه لا يتخذ عشّه إلا من الزبل. فأما ناسٌ كثير، فيزعمون أن ربّ بدن يكون طيب الرائحة، كفأرة المسك التي ربما كانت في البيوت، ومن ذلك ما يكون مُنتن البدن، كالذي يحكى عن الحيّات والأفاعي والثعابين، ويوجد عليه الثّيوس.

اغتيولس وذكر صاحب المنطق أنّ الطير الكبير، الذي يسمى باليونانية اغتيولس، يحكم عُشّه ويتقنّه، ويجعله مستديراً مُداخلاً كأنه كرة معمولة، وروى أنّهم يزعمون أنّ هذا الطائر يجلب الدارصينيّ من موضعه، فيفرش به عشّه، ولا يعيش إلا في أعالي الشّجر المرتفعة المواضع، قال: وربّما عمد الناس إلى سهام يشدّون عليها رصاصاً، ثمّ يرمون بها أعشّتها، فيسقط عليهم الدارصينيّ، فيلتقطونه

ويأخذونه.

من زعم البحرئين في الطير ويزعمُ البحرئون أنّ طائرين
يكونان ببلاد السُّفالة، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن إليهم،
وقبل أن يُمكنَ البحرَ من نفسه، لخروجهم في متاجرهم
فيقول الطائر: قرب أمّ، فيعلمون بذلك أنّ الوقت قد دنا،
وأنّ الإمكان قد قرب.

قالوا: ويجيء به طائرٌ آخر، وشكل آخر، فيقول: سمارو،
وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم، فيسمون هذين
الجنسين من الطير: قرب، وسمارو، كأنهم سمّوهما
بقولهما، وتقطع أصواتهما، كما سمّت العربُ ضرباً من
الطير القطا، لأن القطا كذلك تصيح، وتقطع أصواتها قطا،
وكما سمّوا الببغاء بتقطع الصّوت الذي ظهر منه.
فيزعم أهل البحر أنّ ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلّا
في إناث، وأنّ الآخر لا يطير أبداً إلّا في ذكورة.

وفاء الشفنين

وزعم لي بعضُ الأطباء ممن صدّق خبره، أنّ الشفنين إذا
هلكت أنثاه لم يتزوج وإن طال عليه التعرّب، وإن هاج سفد
ولم يطلب الزواج.

من عجائب الطير

وحكوا أنّ عندهم طائرين، أحدهما وافي الجناحين وهو لم يطر قطّ، والآخر وافي الجناحين، ولكنه من لدنّ ينهض للطيران فلا يزال يطير ويقتات من الفراش وأشباه الفراش، وأنه لا يسقط إلاّ ميّتاً، إلاّ أنهم ذكروا أنه قصير العمر.

كلام في قول أرسطو ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أنّ طائراً ينهض من وكره في الجبال، أو بفارس أو باليمن، فيومّ ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه، وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع، وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصّحاحان الأملس وبطون الأودية، وأهضام الجبال بالتدويم في الأجواء، وبالمضيّ على السّمت، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يدقه، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه، ما يصير فراشاً له ومهاداً، إلا بالاختلاف الطويل، وبعد فإنه ليس بالوطيء الوثير، ولا هو له بطعام.

فأنا وإن كنت لا أعرف العلة بعينها فلست أنكر الأمور من هذه الجهة، فاذكر هذا.

قول أبي الشَّيْص في الهدد
وقال أبو الشَّيْص في الهدد:

غيري وغيرك أو طيّ القراطيسِ	لا تأمننَّ على سرِّي وسرِّكم
ما زال صاحبَ تنقير وتدسيسِ	أو طائر سَاحِلِيهِ وأنعته
صُفر حمالِقَه في الحسنِ مَغْمُوسِ	سودِ برائِنه ميلِ ذوائِبُه
لولا سِعايْتَه في ملك بلقيسِ	قد كان همَّ سليمانَ ليذبحه

وقد قدّمنا في هذا الكتاب في تضاعيفه، عدّة مقطّعات في أخبار الهدد.

الرخم
و يقال: إنّ لئام الطير ثلاثة: الغربان، والبوم، والرّخم

أسطورة الرخم

ويقال: إنّه قيل للرّخمة: ما أحمقك قالت: وما حُمقي، وأنا
أقطع في أوّل القواطع، وأرجع في أوّل الرّواجع، ولا أطيّر
في التّحسير، ولا أختّر بالشّكير، ولا أسقط على الجفير.
وقد ذكرنا تفسير هذا، وقال الكميت:

في الطّير إنك شرٌّ
طائرٌ

إذ قيل يا رَحَمَ
انطقي

بعض الملوك العجم والجلندي الزدي وقال أبو الحسن
المدائني: أمر بعض ملوك العجم الجُلندي بن عبد العزيز
الأزديّ، وكان يقال له في الجاهلية عرجدة، فقال له: صد
لي شرّ الطير، واشوه بشرّ الحطب، وأطعمه شرّ الناس،
فصاد رخمةً وشواها ببعر، وقربها إلى خوزي، فقال له
الخوزي: أخطأت في كلّ شيء أمرك به الملك: ليس الرّخمة
شرّ الطير، وليس البعرة شرّ الحطب، وليس الخوزي شرّ
الناس، ولكن اذهب فصد بومة، واشوها بدفلى، وأطعمها
نبطيّاً ولد زني، ففعل، وأتى الملك فأخبره، فقال: ليس
يحتاج إلى ولد زني يكفيه أن يكون نبطياً.

الغراب والرّخمة

والغراب يقوى على الرّخمة، والرّخمة أعظم من الغراب
وأشدُّ، والرّخمة تلتمس لبيضها المواضع البعيدة، والأماكن
الوحشيّة، والجبال الشامخة، وصدوع الصّخر، فذلك يقال
في بيض الأنوق ما يقال.
ما قيل في بيض الأنوق وقال عُتْبة بن شماس:

ثمّ أولى أن يكون
حقيقاً

إنّ أولى بالحقّ في
كلّ حقّ

نَ ومن كان جدّه
الفاروقاً

من أبوه عبد
العزیز بن مروا

في ذرى شاهقٍ
تفوت الأنوقا

ردّ أموالنا علينا
وكانت

وطلب رجلٌ من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاد له بها،
فسأل لولده، فأبى، فسأله لعشيرته، فقال معاوية:

لم يجدّه أراد بيضَ
الأنوق

طلب الأبلق
العقوق فلما

وليس يكون العَفُوقُ إلا من الإناث، فإذا كانت من البُلُقِ كانت بِلِقَاءِ، وإنما هذا كقولهم: زَلَّ في سَلَى جَمَلٍ، والجمل لا يكون له سَلَى.

وقد يرون بيض الأنوق، ولكن ذلك قليلاً ما يكون، وأقلّ من القليل، لأنّ بيضها في المواضع الممتنعة، وليست فيها منافع فيتعرض في طلبها للمكروه.

وأنا أظنّ أن معاوية لم يقل كما قالوا: ولكنّه قدم في اللفظ بيض الأنوق، فقال: طلب بيض الأنوق، فلما لم يجده طلب الأبلق العفوق.

ما يسمّى بالهدهد وأما قول ابن أحرر:

شَمَّ السَنَابِكُ لا تَقِي
بِالْجَدِجِ

يَمْشِي بِأَوْظِفَةٍ
شَدِيدِ أَسْرُهَا

وَفَوَادُهُ زَجَلٌ كَعَزْفِ
الْهَدِيدِ

إِذْ صَبَّحَتْهُ طَاوِيًا
ذَا شِرَّةٍ

فقد يكون ألا يكون عنى بهذا الهدهد، لأنّ ذكورة الحمام وكلّ شيء غنى من الطير وهدر ودعا، فهو هُدُهد، ومن

روى كَعَزَفِ الهدهدِ فليس من هذا في شيء.
وقد قال الشاعر في صفة الحمام:

وإذا استُتِشِرْنَ أرْنَ مِثْلُ المِداكِ
فيها هدهدٌ خضبته بجسادِ

قصة في ميل بعض النساء إلى المال وخطب رجل جميل
امرأة، وخطبها معه رجل دميم فتزوجت الّدميم لماله،
وتركته، فقال:

ألا يا عبادَ الله ما بأحسن من صلّى
تأمروني وأقبحهم بعلاً

يدبّ على دبيبَ القرْنبيّ بات
أحشائها كلَّ يقرّو نقاً سهلاً
ليلة

ما يطلب العذرة

والأجناس التي تريد العذرة وتطلبها كثيرة، كالخنازير،
والدجاج، والكلاب، والجراد، وغير ذلك، ولكنها لا تبلغ مبلغ
الجعل والرّخمة.

بعض ما يأكل الأعراب من الحيوان وقال ابن أبي كريمة:
كنتُ عند أبي مالك عمرو بن كِرْكِرَة، وعنده أعرابيٌّ، فجرى
ذكر القرنبي، قال: فقلت له: أتعرف القرنبي؟ قال: وما لي
لا أعرف القرنبي؟ فوالله لربّما لم يكن غدائي إلا القرنبي
يُحسُّسُ لي، قال: فقلت له: إنها دويبة تأكل العذرة، قال:
ودجاجكم تأكل العذرة.

وقال: قال بعض المدنيّين لبعض الأعراب: أتأكلون الحياتِ
والعقاربَ والجعلانَ والخنافسَ؟ فقال: نأكل كلَّ شيءٍ إلا أمَّ
حُبّين، قال: فقال المدنيّ: لتَهْنِ أمَّ الحُبّين العافية.
قال: وحدثنا ابن جريج، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن
عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أنّ رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: من الدوابِّ أربعٌ لا يُقْتَلن: النملة، والنحلة،
والصرد، والهدد.

الخفاش

فأول ذلك أنّ الخفاش طائر، وهو مع أنّه طائرٌ من عَرَضِ
الطير فإنّه شديد الطيران، كثير التكفي في الهواء، سريع
التقلّب فيه، ولا يجوز أن يكون طعمه إلا من البعوض،
وقوته إلا من الفراشِ وأشباه الفراش، نعم لا يصيده إلا في

وقت طيرانه في الهواء، وفي وقت سلطانه، لأنَّ البعوض
إنَّما يتسلط بالليل، ولا يجوز أن يبلغ ذلك إلاَّ بسرعة
اختطافٍ واختلاس، وشدة طيران، ولين أعطاف وشدة متن،
وحسن تأتٍ، ورفقٍ في الصَّيد، وهو مع ذلك كله ليس بذئ
ريش، وإنما هو لحم وجلد، فطيرانه بلا ريش عجب، وكلما
كان أشدَّ كان أعجب.

من أعاجيب الخفاش

ومن أعاجيبه أنَّه لا يطير في ضوءٍ ولا في ظلمة، وهو
طائر ضعيفُ قوَى البصر، قليلُ شعاع العين الفاصلِ من
النَّظر، ولذلك لا يظهر في الظُّلمة، لأنَّها تكون غامرة
لضياء بصره، غالباً لمقدار قوَى شعاع ناظره، ولا يظهر
نهاراً، لأنَّ بصره لضعف ناظره يلتصع في شدة بياض
النهار، ولأنَّ الشيء المتلألئ ضارٌّ لعيون الموصوفين بحدَّة
البصر، ولأن شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه،
يكون رادعاً لشعاع ناظره، ومفرقاً له، فهو لا يبصر ليلاً ولا
نهاراً، فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطَّعم، التمس
الوقت الذي لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً،
وعالياً غالباً، ولا من الضياء ما يكون مُعشياً رادعاً، ومفرقاً

قَامِعاً، فَالْتَمَسَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ غُرُوبِ الْقُرْصِ، وَبَقِيَّةِ الشَّفَقِ،
لِأَنَّهُ وَقْتُ هَيْجِ الْبَعُوضِ وَأَشْبَاهِ الْبَعُوضِ، وَارْتِفَاعِهَا فِي
الْهَوَاءِ، وَوَقْتُ انْتِشَارِهَا فِي طَلَبِ أَرْزَاقِهَا، فَالْبَعُوضُ يَخْرُجُ
لِلطَّعْمِ، وَطَعْمُهُ دِمَاءَ الْحَيَوَانِ، وَتَخْرُجُ الْخَفَافِيشُ لَطَلَبِ
الطَّعْمِ، فَيَقَعُ طَالِبُ رِزْقٍ عَلَى طَالِبِ رِزْقٍ، فَيَصِيرُ ذَلِكَ هُوَ
رِزْقُهُ، وَهَذَا أَيْضاً مِمَّا جَعَلَ اللَّهُ فِي الْخَفَافِيشِ مِنَ الْأَعَاجِيبِ.

علاقة الأذن بنتاج الحيوان

ويزعمون أن السُّكَّ الْآذَانَ وَالْمَمْسُوحَةَ، مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ،
أَنَّهَا تَبْيِضُ بَيْضاً، وَأَنَّ كُلَّ أَشْرَفِ الْآذَانَ فَهُوَ يَلِدُ وَلَا يَبْيِضُ،
وَلَا نَدْرِي لِمَ كَانَ الْحَيَوَانُ إِذَا كَانَ أَشْرَفُ الْآذَانَ وَلِدًا، وَإِذَا
كَانَ مَمْسُوحاً بَاضًا.

وَالْآذَانَ الْخَفَافِيشِ حَجْمٌ ظَاهِرٌ، وَشَخُوصٌ بَيْنٌ، وَهِيَ وَإِنْ
كَانَتْ مِنَ الطَّيْرِ فَإِنَّ هَذَا لَهَا، وَهِيَ تَحْبِلُ وَتَلِدُ، وَتَحْيِضُ،
وَتَرْضِعُ.

ما يحيض من الحيوان

وَالنَّاسُ يَتَقَرَّرُونَ مِنَ الْأَرَانِبِ وَالضَّبَّاعِ، لِمَكَانِ الْحَيْضِ.
وَقد زَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ كُلَّهَا تَحْيِضُ، عَلَى
اِخْتِلَافٍ فِي الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ، وَالزَّمَانِ، وَالْحَمْرَةِ وَالصَّفْرَةِ،

والرقة والغلظ، قال: ويبلغ من ضنّ أنثى الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه، أنها تحمله تحت جناحها، وربّما قبضت عليه بفيها، وربّما أرضعته وهي تطير، وتقوى من ذلك، ويقوى ولدها على ما لا يقوى عليه الحمام والشاهمرك، وسباع الطير.

معارف في الخفاش

وقال معمر أبو الأشعث: ربّما أتامت الخفافيش فتحمل معها الولدين جميعاً، فإن عظماً عاقبت بينهما.

والخفاش من الطير، وليس له منقار مخروط، وله فمّ فيما بين مناسر السّباع وأفواه البوم، وفيه أسنان حداد صلاب مرصوفة من أطراف الحنك، إلى أصول الفك، إلا ما كان في نفس الخطم، وإذا قبضت على الفرخ وعضت عليه لتطير به، عرفت دُرب أسنانها، فعرفت أي نوع ينبغي أن يكون ذلك العض، فتجعله أزماً ولا تجعله عضاً ولا تنيباً ولا ضغماً، كما تفعل الهرة بولدها، فإنها مع دُرب أنيابها، وحدة أظفارها ودقّتها، لا تخذش لها جلداً، إلا أنها تمسكها ضرباً من الإمساك، وتأزم عليها ضرباً من الأزم قد عرفته.

ولكل شيء حدّ به يصلح، وبمجاوزته والتقصير دونه يفسد.

وقد نرى الطائر يغوص في الماء نهاره، ثم يخرج منه
كالشعرة سلّتها من العيجن، غير مبتلّ الرّيش، ولا لثق
الجنّاحين، ولو أنّ أرفق الناس رفقا، راهن على أن يغمس
طائراً منها في الماء غمسةً واحدة ثمّ خلّى سربه ليكون هو
الخارج منه، لخرج وهو متعجّن الرّيش، مُفسد النظم،
منقوض التّأليف، ولكان أجود ما يكون طيراناً أن يكون
كالجادف، فهذا أيضاً من أعاجيب الخفاش.

من أعاجيب الخفافيش

ومن أعاجيبها تركها ذرى الجبال وبسيط الفيافي، وأقلام
النخل، وأعالي الأغصان، ودغل الغياض والرياض،
وصدوع الصّخر، وجزائر البحر، ومجيئها تطلب مساكن
الناس وقربهم، ثمّ إذا صارت إلى بيوتهم وقربهم، قصدت
إلى أرفع مكان وأحصنه، وإلى أبعد المواضع من مواضع
الاجتياز، وأعرض الحوائج.

طول عمر الخفاش

ثمّ الخفاش بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر،
حتى يجوز في ذلك العقاب والورشان إلى النسر، ويجوز حد
الفيلة والأسد وحمير الوحش، إلى أعمار الحيات.

ومن أعاجيب الخفافيش أنّ أبصارها تصلح على طول العمر، ولها صبرٌ على طول فقد الطعم، فيقال إنّ اللواتي يظهرن في القمر من الخفافيش المسنّات المعمّرات، وإنّ أولادهن إذا بلغن لم تقو أبصارهنّ على ضياء القمر. ومن أعاجيبها أنها تضخم وتجسم وتقبل الشحم على الكبر وعلى السنّ.

القدرة التناسلية لدى بعض الحيوان

وقد زعم صاحب المنطق أنّ الكلاب السلوقيّة كلما دخلت في السنّ كان أقوى لها على المعازلة. وهذا غريبٌ جداً، وقد علمنا أنّ الغلام أحد ما يكون وأشبق وأنكح وأحرص، عند أول بلوغه، ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر أو إصفاء أو تعرض له آفة. ولا تزال الجارية من لدن إدراكها وبلوغها وحركة شهوتها على شبيهه بمقدار واحد من ضعف الإرادة، وكذلك عامّتهنّ، فإذا اكتهلن وبلغت المرأة حدّ النّصف فعند ذلك يقوى عليها سلطان الشهوة والحرص على الباه، فإنما تهيج الكهلة عند سكون هيج الكهل وعند إدبار شهوته، وكلال حدّه.

قول النساء في أشباهن في الخفافيش

وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عضَّ الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشيٍّ، فما أنسى فزعي من سنِّ الخفاش، ووحشتي من قربه إيماناً بذلك القول، إلى أن بلغت.

وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافاتٌ، عسى أن نذكر منها شيئاً إذا بلغنا إلى موضعه إن شاء الله.

ضعف البصر لدى بعض الحيوان

ومن الطير وذوات الأربع ما يكون فاقد البصر بالليل، ومنها ما يكون سيِّء البصر، فأما قولهم: إنَّه الفأرة والسنور وأشياء أخر أبصر بالليل، فهذا باطل.

والإنسان رديء البصر بالليل، والذي لا يبصر منهم بالليل تسميه الفرس شهكور وتأويله أنه أعمى ليلٍ، وليس له في لغة العرب اسم أكثر من أنه يقال لمن لا يبصر بالليل بعينه: هُدب، ما سمعت إلا بهذا، فأما الأغطش فإنه السيِّء البصر بالليل والنهار جميعاً.

وإذا كانت المرأة مُعْرَبَةً العَيْنِ فكانت رديئة البصر، قيل لها: جَهْرَاء، وأنشد الأصمعي في الشاء:

بصراً ولا من
عيلة تُغيني

جهاء لا تألو إذا
هي أظهرت

وذكروا أنّ الأجر الذي لا يبصر في الشمس، وقوله لا تألو
أي لا تستطيع، وقوله: أظهرت صارت في الظهيرة،
والعيلة: الفقر، قال: يعني به شاة. وقال يحيى بن منصور،
في هجاء بعض آل الصّعق:

كيف اقتصاصك من
ثأر الأحابيش

يا ليتني والمني
ليست بمغنية

أم تغمضون
كأغماض الخفافيش

أتكحون مواليهم
كما فعلوا

وقال أبو الشمقمق، وهو مروان بن محمد:

نّ وبالْبصرة
داري

أنا بالأهواز محزو

حيث أهلي
وقراري

في بني سعدٍ
وسعد

صِرُّ فِي ضَوْءِ
النَّهَارِ

صِرْتُ كَالْخَفَاشِ لَا
أُبُّ

وقال الأخطل التغلبي:

على الزّاد ألقته
الوليدة في الكسرِ

وقد غبر العجلان
حيناً إذا بكى

فقبّح من وجهٍ لئيمٍ
ومن حجرٍ

فيصبح كالخفّاش
يدلك عينه

وقالوا: السحاة مقصورة: اسم الخفّاش، والجمع سحاً كما ترى.

لغز في الخفّاش

وقالوا في اللُّغز، وهم يعنون الخفّاش:

وقد ذهبوا في
الشّعْر في كلِّ مذهبٍ

أبى شعراءُ النَّاسِ
لا يُخبرونني

وأظفارٍ يربوعٍ

بجلدةٍ إنسانٍ

النهي عن قتل الضفادع والخفافيش

هشامُ الدَّسْتَوَائِي قال: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: لَا تَقْتُلُوا الضَّفَادِعَ فَإِنَّ نَقِيْقَهُنَّ تَسْبِيْحٌ، وَلَا تَقْتُلُوا الْخَفَّاشَ فَإِنَّهُ إِذَا خَرَبَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ قَالَ: يَا رَبِّ سَلِّطْنِي عَلَى الْبَحْرِ حَتَّى أُغْرِقَهُمْ.

حماد بن سلمة قال: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَا تَقْتُلُوا الْخَفَّاشَ، فَإِنَّهُ اسْتَأْذَنَ فِي الْبَحْرِ: أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَائِهِ فَيَطْفِئُ نَارَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ حَيْثُ حُرِقَ، وَلَا تَقْتُلُوا الضَّفَادِعَ فَإِنَّ نَقِيْقَهَا تَسْبِيْحٌ.

قال: وَحَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ الْقُرَشِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ الْوَطُوطِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْأَوْزَاعِ.

قال: وَالْخَفَّاشُ يَأْتِي الرُّمَّانَةَ وَهِيَ عَلَى شَجَرَتِهَا، فَيَنْقَبُ عَنْهَا، فَيَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا حَتَّى لَا يَدَعُ إِلَّا الْقَشْرَ وَحَدَّهُ، وَهُمْ يَحْفَظُونَ الرُّمَّانَ مِنَ الْخَفَّاشِ بِكُلِّ حِيلَةٍ.

قال: وَلِحُومِ الْخَفَّاشِ مُوَافَقَةٌ لِلشَّوَاهِيْنِ وَالصُّقُورَةِ وَالْبُوزَائِي، وَلَكَثِيرٍ مِنْ جِوَارِحِ الطَّيْرِ، وَهِيَ تَسْمَنُ عَنْهَا،

وتصحّ أبدانها عليها، ولها في ذلك عملٌ محمودٌ نافعٌ عظيمٌ
النَّفْع، بيِّنُ الأثر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الكتاب العاشر

خصائص النملة

كلام النمل

شعر فيه ذكر النمل

شعر في التعذيب بالنمل

النبي سليمان والنملة

أمثال في النمل

أحاديث وآثار في النمل

سادة النمل

التسمية بالنمل

أشعار في صفة السيف

بعض ما قيل في النمل

لغز في النمل

ما يدخر قوته من الحيوان

أكل الدرّ والضباع للنمل

أكل النمل للأرضة

مئ في النمل

أجنحة النمل

وسيلة لقتل النمل

جملة القول في القرْدِ والخنزير

هوان شأن القرْدِ والخنزير

الخنزير

زعم المجوس في المنخنة ونحوها

القرْد

شنة الخنزير والقرد

القول في الحيات

احتيال الحيات للصيد

رضاع الحية وإعجابها باللبن

ما تعجب به الحيات

قوة بدن الحية

الاحتيال لناب الأفعى

خصائص الأفعى

النمس والثعابين

القواتل من الحيات

الترياق وانقلاب الأفعى

شرب المسموم للّبن

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

الحيات المائية

ما أشبه الحيات من السمك

شمّ الظليم

بعض ضروب الحيات

عيون الحيات والخطاطيف

نادرة تتعلق بالحيات

عداوة الورل والحية

شعر في ظلم الحية

فم الأفعى

شراة الحية والأسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
نَبْدَأُ فِي هَذَا الْجِزْءِ، بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ، بِالْقَوْلِ فِي جُمْلَةِ
الدَّرَّةِ وَالنَّمْلَةِ، كَمَا شَرَطْنَا بِهِ آخِرَ الْمَصْحَفِ، الثَّلَاثِ، وَلَا
حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

خصائص النملة

قد علمنا أن ليس عند الدَّرَّةِ عَنَاءُ الفَرَسِ فِي الحَرْبِ،
وَالدَّفْعُ عَنِ الحَرِيمِ، وَلَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا مَوْضِعَ العَجَبِ
وَالتَّعْجِيبِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى التَّدْبِيرِ، ذَكَرْنَا الخَسِيسَ القَلِيلَ،
وَالسَّخِيفَ المَهِينِ، فَأَرَيْنَاكَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الحِسِّ اللطيفِ،
وَالتَّقْدِيرِ الغريبِ، وَمِنَ النِّظَرِ فِي العَوَاقِبِ، وَمَشَاكِلَةِ
الإِنْسَانِ وَمَزَا حِمَّتِهِ.
وَالإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَهُ هَذَا الفَلَكُ بِمَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ.

وقد علمنا أن الدَّرَّةَ تَدَّخِرُ لِلشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَتَتَقَدَّمُ فِي
حَالِ المُهْلَةِ، وَلَا تُضَيِّعُ أَوْقَاتَ إِمْكَانِ الحَزْمِ، ثُمَّ يَبْلُغُ مِنْ

تَفَقُّدُهَا وَحُسْنِ خَبَرِهَا وَالنَّظَرَ فِي عَوَاقِبِ أَمْرِهَا، أَنَّهَا
تَخَافُ عَلَى الْحُبُوبِ الَّتِي ادَّخَرَتْهَا لِلشَّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، أَنْ
تَعْفَنَ وَتُسْوَسَ ، يَقْبَلُهَا بَطْنُ الْأَرْضِ، فَتَخْرِجُهَا إِلَى
ظَهْرِهَا، لِتُبَيِّسَهَا وَتُعِيدَ إِلَيْهَا جُفُوفَهَا، وَلِيضْرِبَهَا النَّسِيمُ،
وَيَنْفَى عَنْهَا اللَّحْنَ وَالْفَسَادَ، ثُمَّ رَّبَّمَا كَانَ، بَلْ يَكُونُ، أَكْثَرَ
- مَكَائِهَا نَدِيًّا وَإِنْ خَافَتْ أَنْ تَنْبِتَ نَقَرَتْ مَوْضِعَ الْقَطْمِيرِ،
مِنْ وَسْطِ الْحَبَّةِ، وَتَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ تَبْتَدِئُ
وَتَنْبِتُ وَتَنْقُلُ، فَهِيَ تَفْلُقُ الْحَبَّ كُلَّهُ أَنْصَافًا، فَأَمَّا إِذَا كَانَ
الْحَبُّ مِنْ حَبِّ الْكُزْبُرَةِ، فَلَقْتَهُ أَرْبَاعًا، لِأَنَّ أَنْصَافَ حَبِّ
الْكُزْبُرَةِ يَنْبِتُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحُبُوبِ، فَهِيَ عَلَى هَذَا
الْوَجْهِ مَجَاوِزَةٌ لِفِطْنَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَ، حَتَّى رَّبَّمَا كَانَتْ فِي
ذَلِكَ أَحْزَمَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَا، مَعَ لَطَافَةِ شَخْصِهَا
وَخِفَّةِ زَنْهَا، وَفِي الشَّمِّ وَالِاسْتِرَاوِحِ مَا لَيْسَ لِشَيْءٍ.
وَرَبَّمَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ الْجِرَادَ أَوْ بَعْضَ مَا يَشْبَهُ الْجِرَادَ،
فَتَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ الْوَاحِدَةُ أَوْ صَدْرُ الْوَاحِدَةِ، وَلَيْسَ يَرَى
بِقُرْبِهِ دَرَّةً وَلَا لَهُ بِالذَّرِّ عَهْدٌ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ، فَلَا يَلْبِثُ أَنْ
تُقْبَلَ دَرَّةٌ قَاصِدَةٌ إِلَى تِلْكَ الْجِرَادَةِ، فَتُرْوَمُهَا وَتَحَاوُلُ قَلْبُهَا
وَنَقْلُهَا، وَسَحَبُهَا وَجَرُّهَا، فَإِذَا أَعْجَزَتْهَا بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ
عُدْرًا، مَضَتْ إِلَى جُحْرِهَا رَاجِعَةً، فَلَا يَلْبِثُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ

أن يراها قد أقبلت، وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود، حتى يتعاون عليها فيحملنها، فأول ذلك صدق الشَّمَّ لما لا يشمه الإنسان الجائع، ثمَّ بعد الهمة، والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة، وأكثر من مائة مرّة، وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غيرَها، وعلى أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف، إلا بعد انقطاع الأنفاس،

كلام النمل

فإن قلت: وما علم الرَّجُلَ أَنَّ التي حاولت نقل الجرادِ فعجزت، هي التي أُخبرت صويحباتها من الدرّ، وأنها كانت على مقدّمتهن؟ قلنا: لطول التجربة، ولأننا لم نر دُرّة قط حاولت نقل جرادِ فعجزت عنها، ثم رأيناها راجعةً، إلا رأينا معها مثل ذلك، وإن كنا لا نفصل في العين بينها وبين أخواتها، فإنه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا، وعلى أننا لم نر دُرّة قط حملت شيئاً أو مضت إلى جحرها فارغةً، فتلقاها دُرّة، إلا واقفتها ساعة وخبرتها بشيء، فدل ذلك على أنها في رجوعها عن

الجرادة، إِنَّمَا كَانَتْ لِأَشْبَاهِهَا كَالرَّائِدِ لَا يَكْذِبُ أَهْلُهُ وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّكَ تُنْكِرُ أَنَّهَا تُوْحِي إِلَى أَخْتِهَا بِشَيْءٍ، وَالْقِرَآنُ قَدْ نَطَقَ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَوْعَافًا، وَقَالَ رُوْبِيَّةُ بْنُ الْعَبَّاجِ:

عِلْمَ سُلَيْمَانَ
كَلَامَ النَّمْلِ

لَوْ كُنْتُ عُلِمْتُ
كَلَامَ الْحُكْلِ

وقال الله عز وجل: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ" فَقَدْ أَخْبَرَ الْقِرَآنُ أَنَّهَا قَدْ عَرَفَتْ سُلَيْمَانَ وَأَثْبَتَتْ عَيْنَهُ، وَأَنَّ عِلْمَ مَنْطِقِهَا عِنْدَهُ، وَأَنَّهَا أَمَرَتْ صُويِحْبَاتِهَا بِمَا هُوَ أَحْزَمُ وَأَسْلَمُ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهَا تَعْرِفُ الْجُنُودَ مِنْ غَيْرِ الْجُنُودِ، وَقَدْ قَالَتْ: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، وَنَخَالُكَ أَيُّهَا الْمَنْكِرُ تَبَسَّمَ بِحَالِهَا، أَنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَبَعْدَهُ، شَيْئًا مِنْ هَذَا الشَّكْلِ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَا تَدْبِيرًا فِي هَذَا الْمَقْدَارِ، وَأَمَّا مَا فَوْقَ ذَلِكَ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَهُ، وَلَكِنْ، مَا تُنْكِرُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَأَشْبَاهِهِ وَمَا دُونَ ذَلِكَ، وَالْقِرَآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهَا بَيَانًا،

وقولاً، ومنطقاً يفصلُ بين المعاني التي هي بسبيلها؟
فلعلها مكلفة، وأمورةٌ منهيةٌ، ومُطِيعَةٌ عاصيةٌ، فأولُ
ذلك أن المسألة من مسائل الجهالات، وإنَّ مَنْ دَخَلَتْ
عليه الشُّبهة من هذا المكانِ لناقصِ الرُّويَّةِ، رَدِيٌّ
الفكرة.

وقد علمنا، وهم ناسٌ ولهم بذلك فضيلةٌ في الغريزة وفي
الجنسِ والطَّبيعة، وهم ناسٌ إلى أن ينتهوا إلى وقت
البلوغ ونزول الفرض حتى لو وَرَدَتْ ذرَّةٌ لشربتْ مِنْ
أعلاه.

شعر فيه ذكر النمل

استطرد لغوي قال أبو زيد: الحمكة القملة، وجمعه
حَمَك، وقد ينقاسُ ذلك في الذَّرَّةِ.
قال أبو عبيدة: قرية النمل من التُّراب وهي أيضاً
جرثومة النمل، وقال غيره: قرية النمل ذلك التراب
والجُحرُ بما فيه من الذرِّ والحبِّ والمازنِ، والمازنُ هو
البيض، وبه سمَّوا مازن.
قال أبو عمرو: الزِّبال ما حملت النملة بفيها، وهو قول
ابن مُقبل :

فلم يُرْتَرَأ
بِرُكُوبِ زَبَالَا

كريم النَّجَارِ
حَمَى ظَهْرَهُ

شعر في التعذيب بالنمل
وأشُد ابن نُجَيْمٍ:

ثمَّ بالنَّحْسِ
والضَّبَابِ
الدُّكُورِ

هَلَكُوا بِالرُّعَافِ
وَالنَّمْلِ طَوْرًا

وقال الأصمعيّ في تسليط الله الذرّ على بعض الأمم:

لا ترى عُقْرَ دارهم بالمبينِ

ن فجازاهمُ بدارِ شَطُونِ

يتبعُ

تحت ظلّ الهدى بذات العُصُونِ

القارّ والمسافرَ مِنْهُمْ

فازر، وعقيفان: صنفان من الذرّ، وكذلك ذكروه عن
دغفل بن حنظلة الناسب، ويقال: إنّ أهل تهامة هلكوا
بالرّعافِ مرتين، قال: وكان آخرُ من مات بالرّعافِ من

سادة قريش، هشام ابن المغيرة.
قال أمية بن أبي الصلت في ذلك:

وأراه العذاب
والتدميرا

نزع الذر في
الحياة وغنا

وسينياً
فأهلكتهم
ومورا

أرسل الدر
والجراد عليهم

ر وإن الجراد
كان ثبورا

ذكر الدر إنه
يفعل الشر

النبى سليمان والنملة

وقرأ أبو إسحاق قوله عز وجل: "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ"، حتى إذا أتوا
على وادي النمل، فقال: كان ذلك الوادي معروفاً بوادي
النمل، فكأنه كان حمى، وكيف نُكِرُ أن يكون حمى؟
والنمل ربما أجلت أمة من الأمم عن بلادهم.
ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شعيركم عجب، وأرزكم

عَجَبٌ، وسمككم عجب، وجدأؤكُم عجب، وبطُّكم عَجَبٌ،
ودَجَّجُكم عجب، فلو كانت لكم أعناب فقالوا: كلُّ أرضٍ
كثيرة النَّمْلِ لا تصلح فيها الأعناب، ثمَّ قرأ: قالت نَمْلَةٌ يا
أيها النَّمْلُ ادْخُلُوا مساكنكمُ فجعل تلك الجِحرَةَ مساكن،
والعربُ تسميها كذلك ثمَّ قال: لا يخطمَنكُم سُليمانُ
وَجنودهُ فجمعتُ من اسمه وعينه، وعرفت الجنْدَ من قائد
الجنْد، ثم قالت: "وَهُمْ لا يشْعُرُونَ" فكانوا معذورين،
وكنتم ملومين، وكان أشدَّ عليكم، فلذلك قال: فتبسَّم
ضاحِكاً مِنْ قولِها لما رأى مِنْ بُعْدِ غُورها وتسديدها،
ومعرفتها، فعند ذلك قال: رَبِّ أوزعني أن أشكرَ نِعْمَتِكَ
الَّتِي أنعمتَ عليَّ وعلى والديِّ وأن أعملَ صالحاً ترضاهُ
وأدخلني برحمتِكَ في عبادِكَ الصَّالحينَ،

أمثال في النمل

قال: ويقال: أطف من دَرَّةٍ و: أضبطُ من نملة، قال:
والنملة أيضاً: فُرْحَةٌ تعرضُ للِسَّاقِ، وهي معروفةٌ في
جزيرة العرب، قال: ويقال: أنسبُ من دَرِّ قول في بيت
من الشعر فأما قولُهُ:

رَّ عَلَيْهَا
لَأَنْدَبَتْهَا
الْكَلُومُ

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ
مِنْ وَلِهَ الذُّ

فإنَّ الحوليَّ منها لا يُعرفُ من مَسائِها، وإنما هو كما قال
الشاعر:

من الحيِّ أَمَسَتْ
بالحبيبين بُلُوعاً

تَلَقَطُ حَوْلِيَّ
الحصى في
منازلِ

قال: وحوليُّ الحصى: صغارها، فشَبَّهه بالحوليِّ من
ذوات الأربع،

أحاديث وآثار في النمل

ابن جريج، عن ابن شهاب، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبدِ اللَّهِ بن
عتبة، عن ابن عباس، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم قال: مِنَ الدَّوَابِّ أَرْبَعٌ لَا يُقْتَلْنَ: النَّمْلَةُ، والنَّحْلَةُ،
والصُّرْدُ، والهُدُودُ، و حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
المسعودي، قال: حَدَّثَنَا الحسن بن سعد، مولى علي بن
عبد الرحمن بن عبد اللَّهِ قال: نزل رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم منزلاً فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجلٌ
على قرية نملٍ، إمّا في شجرةٍ وإمّا في أرض، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ أَطْفَنَهَا
أَطْفَنَهَا، ويحيى بن أئيب، عن أبي زرعة بن جرير، قال
أنبأنا أبو زرعة عن أبي هريرة قال: نزل نبيٌّ من الأنبياء
تحت شجرةٍ، فعصَّته نملةٌ، فقام إلى نملٍ كثيرٍ تحت
شجرةٍ فقتلهنَّ، فقيل له: أفلا نملةٌ واحدةٌ؟.

وعبد الله بن زياد المدنيُّ، قال: أخبرني ابنُ شهابٍ، عن
أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: سمعتُ
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: نَزَلَ نَبِيٌّ مِنْ
الأنبياء تحت شجرةٍ، فقرصته نملةٌ، فأمرَ بجهازه فأخرج
مِن تحتها، ثمَّ أمرَ بقرية النمل فأحرقته، فأوحى الله إليه:
أفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهَلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ يَسْبَحُونَ اللَّهَ
تعالى؟ فهلاً نملةٌ واحدةٌ، يحيى بن كثير، قال: حدثنا

عمر بن المغيرة بن الحارث الزماني، عن هشام
الدستوائي قال: إِنَّ النَّمْلَ وَالذَّرَّ إِذَا كَانَا فِي الصَّيْفِ كُلَّهُ
يَنْقُلْنَ الْحَبَّ، فَإِذَا كَانَ الشِّتَاءُ وَخَفِنَ أَنْ يَنْبِتَ فَلَقْنَهُ،
هشام بن حسان، أَنَّ أَهْلَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ لَقُوا مِنْ
النَّمْلِ أَدَى، فَأَمَرَ الْأَحْنَفُ بِكُرْسِيِّ فَوَضَعَ عِنْدَ جُحْرِهِنَّ،

فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَشَهَّدَ فَقَالَ: لَتَنْتَهَنَّ أَوْ لَنُحَرِّقَنَّ عَلَيْكَ، أَوْ
لَنُفَعَلَنَّ أَوْ لَنُفَعَلَنَّ قَالَ: فذهبن، وعوف بن أبي جميلة عن
قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إِنَّ لِكُلِّ
شَيْءٍ سَادَةً، حَتَّى إِنَّ لِلنَّمْلِ سَادَةً، عبد الله بن زياد
المدني، قال: أنبأنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد
الرحمن، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: خَرَجَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْهَاسِ
يَسْتَسْقُونَ، فَإِذَا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ
ذَلِكَ النَّبِيُّ: ارْجِعُوا فَقَدْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا النَّمْلِ،
مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ الْقَمِيِّ، عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ
النَّاجِي قَالَ: خَرَجَ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - يَسْتَسْقِي فَرَأَى نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا،
رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ
خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غَنَى عَنْ سَقْيِكَ، فِيمَا أَنْ تَسْقِينَا وَتَرْزُقَنَا،
وَإِنَّمَا أَنْ تَمِيتَنَا وَتُهْلِكَنَا فَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ
غَيْرِكُمْ.

تأويل آية وحدثني أبو الجهجاه قال: سأل أبو عمرو
المكفوف عن قوله تعالى: (حتى إذا أتوا على وادي
النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا

يُخْطِمْكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ، فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ نَذِيرًا يَعُجِبُ مِنْهُ نَبِيٌّ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ يَعْظُمُ خَطْرُهُ حَتَّى يُضْحِكَهُ لَعَجِيبٌ قَالَ: فَقَالَ:
لَيْسَ التَّأْوِيلُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ يَضْحَكُ النَّبِيُّ،
عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كَلَامِ الصَّبِيِّ، وَمِنْ نَادِرَةِ
غَرِيبَةٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ، كَالنَّادِرَةِ تُسْمَعُ
مِنَ الْمَجْنُونِ، فَهُوَ يُضْحِكُ، فَتَبَسَّمَ سُلَيْمَانٌ عِنْدِي عَلَى
أَنَّهُ اسْتَظَرَفَ ذَلِكَ الْمَقْدَارَ مِنَ النَّمْلَةِ، فَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ

سادة النمل

وَقَالَ أَبُو الْجَهَّاهِ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ أَبِي مُوسَى: إِنَّ لِكُلِّ
شَيْءٍ سَادَةً حَتَّى الدَّرُّ، قَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّ سَادَتَهَا
اللَّوَاتِي يَخْرُجْنَ مِنَ الجُّحْرِ، يَرْتَدْنَ بِجَمَاعَتِهَا، وَيَسْتَبِقْنَ
إِلَى شِمِّ الذِّي هُوَ مِنْ طَعَامِهِنَّ، تَأْوِيلُ شَعْرِ لَزْهِيرٍ وَقَالَ
زَهِيرٌ:

عَدُوِّي بَأْنْفٍ مِنْ
وَرَائِي مُلْجَمٍ

وَقَالَ سَأْقِصِي
حَاجَّتِي ثُمَّ
أَتَّقِي

فَشَدَّ وَلَمْ تَفْرَع
بُيُوتَ كَثِيرَةً

لدى حيث أَلَقَتْ
رَحْلَهَا أَمْ قَشَعِمِ

قال بعض العلماء: قرية النمل استطراد لغوي قال: ويقال في لسانه حُبْسَةٌ: إذا كان في لسانه ثِقْلٌ يَمْنَعُهُ من البيان، فإذا كان الثَّقْلُ الذي في لسانه من قِبَلِ العُجْمَةِ قيل: في لسانه حُكْلَةٌ، والحُكْلُ من الحيوان كَلَّةٌ ما لم يكن له صوتٌ يُسْتَبَانُ باختلاف مخارجه، عند حَرَجِهِ وضَجْرِهِ، وطلبه ما يَغْدُوهُ، أو عند هِياجِهِ إذا أراد السَّفَادَ، أو عند وعيدٍ لِقِتالٍ، وغير ذلك من أمره. رأي الهند في سبب اختلاف كلام الناس وتزعّم الهند أنّ سبب ماله كثر كلامُ الناس واختلّفت صُورُ ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقادير أصواتهم في اللين والشدة، وفي المدّ والقطع كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريق ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم، قالوا: فحوائج السنانير لا تعدو خمسة أوجه: منها صياحها إذا ضربت، ولذلك صورة، وصياحها إذا دعت أخواتها وآلها، ولذلك صورة، وصياحها إذا دعت أولادها للطعم، ولذلك صورة، وصياحها إذا جاءت،

ولذلك صورة، فلما قَلَّتْ وجوهُ المعرفةِ ووجوهُ الحاجاتِ،
قَلَّتْ وجوهُ مخارجِ الأصواتِ، وأصواتها تلك فيما بينها
هو كلامها، وقالوا: ثمَّ من الأشياءِ ما يكونُ صوتها خفياً
فلا يفهمه عنها إلا ما كان من شكلها، ومنها ما يفهم
صاحبه بضروبِ الحركاتِ والإشاراتِ والشرائلِ،
وحاجاتها ظاهرةٌ جليّةٌ، وقليلةٌ العددِ يسيرةٌ، ومعها من
المعرفةِ ما لا يقصّرُ عن ذلك المقدارِ، ولا يجوزُه، ورأضةُ
الإبلِ، والرّعاءُ، ورؤاضُ الدّوابِّ في المروجِ،
والسّوّاسُ، وأصحابُ القنصِ بالكلابِ والفهودِ، يعرفون
باختلافِ الأصواتِ والهيئاتِ والتشوّفِ، واستحالةِ
البصرِ، والاضطرابِ، ضروباً من هذه الأصنافِ، ما لا
يعرف مثله من هو أَعْقَلُ منهم، إذا لم يكن له من مُعَايِنَةِ
أصنافِ الحيوانِ ما لهم، فالْحُكْلُ من الحيوانِ من هذا
الشكلِ، وقد ذكرناه مرّةً قال رُوبَةُ:

أَوْ أَنَّنِي أوتَيْتُ
عِلْمَ الحُكْلِ

لَوْ أَنَّنِي عُمِّرْتُ
عُمَرَ الحِيسْلِ

عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ تَأْوِيلُ بَيْتِ اللِّعْمَانِي وَقَالَ أَبُو
الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ دُوَيْبِ القُفَيْمِيِّ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ

العُمانيُّ في بعض قصائده في عبد الملك بن صالح،
والعُمانيُّ ممن يُعدُّ ممن جمع الرَّجَزَ والقصيدَ، كعُمَرَ بن
لجأ، وجريِر بن الخطفي، وأبي النَّجم وغيرهم.
قال العُمانيُّ:

تُساوِدُ أُخْرَى لِم
يَفْتُهُ سِوَاؤُهَا

وَيَعْلَمُ قَوْلَ
الْحُكْلِ لَوْ أَنَّ
ذَرَّةَ

يقول: الذَّرُّ الذي لا يُسمع لمناجاته صوت، لو كان بينها
سِوَاؤٌ لفهمه، والسَّوَادُ هو السَّرَارُ، قال النبيُّ صلى الله
عليه وسلم لابن مسعود: أذُنكَ حَتَّى أَسَاوِدُكَ أَي تَسْمَعُ
سِوَادِي، وقالت ابنةُ الحُسَّ: قُرْبُ الوَسَادِ وَطَوَّلُ السَّوَادِ
قال أبو كبير الهُدَليُّ:

حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى
السَّمَاكِ الْأَعْزَلِ

ساودت عنها
الطَّالِبِينَ فَلَمْ
أَنْمِ

وقال النمرُ بنُ تَوَلِّ:

وشهدتُ عند
الليلِ مُوقِدِ
نارها

ولقد شهدتُ إذا
القداحُ تَوَحَّدَتْ

وكانَ لَوْنُ الملحِ
تحت شفارها

عن ذاتِ أوليةٍ
أساودُ رَبِّها

وقد فسّرنا شأن الحُكْلِ، وقال التيميُّ الشاعرُ المتكلم
وأشُدُّ لِنَفْسِهِ وهو يهجو ناساً من بني تغلبَ معروفين:

عبادةُ أعلاجِ
عليها البرانسُ

عُجْمٌ وحُكْلٌ لا
تُبينُ، ودينها

ففصل بين الحُكْلِ والعُجْمِ فجعل العجم مثل ذواتِ الحافر
والظلفِ والخفِّ، وجعل الحُكْلَ كالذرِّ والنملِ والخنافسِ،
والأشكالِ التي ليست تصيحُ من أفواهاها، فقال لي يومئذُ
حفصُ الفرْدُ: أشهدُ أن الذي يقال فيه حقٌّ، كان والله
نصرانياً، ثم صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن
الأعرابِ بين الأصمعيِّ والمفضَّلِ وقال الأصمعيُّ

للمفضَّل، لما أنشد المفضَّلُ جعفرَ بنَ سليمانَ قولَ أوسِ
بن حجر:

تُصِمْتُ بِالماءِ
تَوَلِّباً جَدِعا

وذا تُهدِمُ عارٍ
نواشِرُها

فجعل الدَّالَ معجمةً، وفتحها، وصحَّف، وذهب إلى
الأجذاع، قال الأصمعيّ: إنما هي: تَوَلِّباً جَدِعا الدَّالُ
مكسورة، وفي الجَدِعا يقول أبو زُبَيْد:

عن التَضْبِيبِ لا
عَبْلٌ ولا جَدِعا

ثمَّ استقاها فلم
يقطع نظائرها

وإنما ذلك كقول ابن حَبْناء الأشجعي:

ولا جَدِعا النَّباتِ
ولا جَدِيبِ

وأرسلَ مُهَمَّلاً
جَدِعاً وخُفَّاً

فنفخ المفضَّلُ، ورفع بها صوته، وتكلَّم وهو يصيح، فقال
الأصمعيّ: لو نفخت بالشَّبُّور لم ينفحك تكلَّم بكلام النَّمْلِ
وأصِبُ والشَّبُّور: شيء مثل البوق، والكلمة بالفارسية،
وهو شيء يكون لليهود، إذا أراد رأسُ الجالوت أن يحرِّم

كلام رَجُلٍ مِنْهُمْ نَفَخُوا عَلَيْهِ بِالشَّبُورِ.
حريم الكلام لدى اليهود والنصارى وليس تحريمُ الكلام
من الحدود القائمة في كتبهم، ولكنَّ الجائليقَ ورأس
الجالوتِ، لا يمكنُهُما في دار الإسلام حسبٌ ولا ضربٌ،
فليس عندهما إلا أن يغرَّما المال، ويُحرِّما الكلام، على
أنَّ الجائليق كثيراً ما يتغافل عن الرَّجُلِ العَظِيمِ القَدْرِ،
الذي له من السُّلطانِ ناحيةٌ، وكان طيمانو رئيس
الجائليق، قد همَّ بتحريم كلام عَوْنِ العباديِّ، عندما بلغه
من اتخاذ السَّراري، فتوعَّده وحلف: لئن فعل لِيُسَلِمَنَّ
وكما ترك الأشقيلى وميخاييل وتوفيل، سَمَلَ عَيْنِ مَنْوِيلِ
وفي حكمهم أنَّ من أعان المسلمين على الرُّومِ يقتل؛
وإن كان ذا رأي سَمَلوا عينيه ولم يقتلوه فتركوا سُنَّتَهُمْ
فيه، وقد ذكرنا شأنهم في غير ذلك، في كتابنا على
النَّصَارَى فَإِنْ أَرَدْتَهُ فَاطْلِبْهُ هُنَاكَ مَعْنَى بَيْتِ لَابِنِ أَبِي
رَبِيعَةَ وَقَالَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

لَأَبَانَ مِنْ
آثَارِهِنَّ
حُدُورُ

لَوْ دَبَّ دُرٌّ فَوْقَ
ضَاحِي جِدِّهَا

والْحَدْرُ: الورم والأثرُ يكون عن الضَّرْبِ.

التسمية بالنمل

وقد يسمَّى بِنَمْلَةٍ وَنَمَيْلَةٍ، ويكتنون بها، وتسمَّوا بِذُرٍّ،
واكتنوا بأبي ذرٍّ، ويقال: سيفٌ في مَنتهِ ذرٌّ، وهو ذرِّيُّ
السَّيفِ

أشعار في صفة السيف

قال أوسُ بنُ حجرٍ، في صفةِ السَّيفِ:

ومَدْرَجِ ذرٍّ خافَ
بَرْدًا فأسهلاً

كأن مدبَّ النملِ
يتبَّعُ الرِّبَا

كفى بالذي أبلى
وأنتَ مُنْصَلًا

على صفحتيه
بعد حين جلانه

انتقام عقيل بن علفة ممن خطب إحدى بناته قال: وخطب
إلى عقيل بن علفة بعض بناته رجلٌ من الحُرقة من
جُهينة، فأخذه فشدَّه قِماطًا، ودهن استه برُبِّ وقمطه
وقرَّبه من قرية النمل، فأكل النملُ حُشوةَ بطنه.
شعر فيه ذكر النمل وقال ذو الرمة:

مُدَاخَلَةٌ أَبْوَابِهَا
بُنِيَتْ شَزْرًا

وَلَكِنَّهَا كَانَتْ
لِمَنْزَلِنَا قَدْرًا

جَثَلُ الْفُرُوعِ
كَثِيرَةٌ شُعْبُهُ

لِبِقْدَرٍ مَا تَعْلُو
بِهِ رُتْبُهُ

حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ
دَنَا عَطْبُهُ

لِمَوْلَاهُ إِلَّا
سَعْيُهُ

وَقَرْيَةٌ لَا جِنَّ
وَلَا أُنْسِيَّةٍ

نَزَلْنَا بِهَا مَا
نَبْتَغِي عِنْدَهَا
الْقَرَى

وقال أبو العتاهية:

أُحِبُّ بَدَارَ هَمُّهَا
أَسِبُّ

إِنَّ اسْتَهَانَتَهَا
بِمَنْ صرَعَتْ

وَإِذَا اسْتَوَتْ
لِلنَّمْلِ أَجْنَحَةٌ

وقال البعيث:

ومولَى كَبَيْتِ النَّمْلِ

لَا خَيْرَ عِنْدَهُ

بِنَمِيمٍ

بعض ما قيل في النمل

قال: وقد سمعت بعض الأعراب يقول: إنه لنمامٌ نمليٌّ،
على قولهم: كذبَ عليَّ نملٌ إذا أرادوا أن يخبروا أنه
نمام، وقال حميد بن ثور، في تهوين قوّة الدّرّ:

على جلدِها
بضّت مدارجُه
دما

منعمّة، لو
يُصبحُ الدّرّ
سارياً

وقال الله عز وجل: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" قال: وقيل لعائشة -
رضي الله تعالى عنها، وقد تصدّقت بحبّة عنب: أتصدّقين
بحبّة عنب؟ قالت: إن فيها لمثاقيل دُرّ.

لغز في النمل

ومما قيل في الشّعْر من اللُّغز:

وليس يضُرُّ ولا

فما ذو جناحٍ له

حافر

ينفخ

يعني النَّمْل، فزعم أن للنَّمْل حافراً، وإنما يحفر جُحره،
وليس يحفره بفمه، التعذيب بالنمل وعبَّ عُمَرُ بن
هُبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشِيِّ بأنواع العذاب فقيل له:
إن أردت ألا يُفْلِحَ أبداً فمُرْهُمْ أن ينفخُوا في دُبُرِهِ النَّمْل،
ففعلوا فلم يفلح بعدها.

ما يدخر قوته من الحيوان

قالوا: وأجناسٌ من الحيوان تَدَّخِرُ، وتُشَبِّهُ في ذلك
بالإنسان ذي العقل والرَّوِيَّةِ، وصاحب النَّظْرِ في العواقب،
والتفكير في الأمور: مثلُ الدَّرِّ، والنَّمْل، والفأر،
والجرذان، والعنكبوت، والنحل، إلا أن النحل لا يدَّخر من
الطعام إلا جنساً واحداً، وهو العسل.

أكل الدَّرِّ والضَّبَاعِ للنمل

وزعم اليقطري أنك لو أدخلت نملةً في جُحر ذرٍّ لأكلتها،
حتى تأتي على عامتها، وذكر أنه قد جرَّب ذلك، وقال
صاحب المنطق: إنَّ الضَّبَاعِ تَأْكُلُ النمل أكلاً ذريعاً، وذلك

أن الضَّبَاع تأتي قرية النَّمْلِ في وقتِ اجتماعِ النَّمْلِ،
فتلحَس ذلك النَّمْلَ بلسانِها، بشهوةٍ شديدةٍ، وإرادةٍ قويّةٍ.

أكل النمل للأرضة

قالوا: وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم،
وأكلت كلَّ شيءٍ لهم، ولا تزالُ كذلك حتى يَنشُوَ في تلك
القرى النَّمْل، فيسلُط الله ذلك النَّمْل على تلك الأرضة،
حتى تأتي على آخرها، وعلى أنَّ النَّمْل بعد ذلك سيكونُ
له أذى، إلاَّ أنه دونَ الأرضةِ تعدياً، وما أكثرَ ما يذهبُ
النَّمْل أيضاً من تلك القرى، حتى تتمَّ لأهلها السَّلامةُ من
النوعينِ جميعاً، وزعم بعضهم أنَّ تلك الأرضة بأعيانها
تستحيلُ نملاً، وليسَ فناؤها لأكلِ النَّمْلِ لها، ولكنَّ
الأرضةَ نفسَها تستحيلُ نملاً، فعلى قدرِ ما يستحيلُ منها
يرى النقص في عددها، ومضرتَها على الأيام.

مثل في النمل

قال: وبالنَّمْلِ يُضرب المثل؛ يقال: جاؤوا مثلَ النَّمْلِ.
والزُّنْج نوعان: أحدهما يفخرُ بالعدد، وهم يسمَّون النَّمْل،
والآخر يفخرُ بالصَّبرِ وعظمِ الأبدان، وهم يسمَّون

الكلاب، وأحدهما يخبو والآخر ينبو، فالكلابُ تخبو،
والنملُ تنبو.

أجنحة النمل

قال: ومن أسبابِ هلاكِ النملِ نباتُ الأجنحة له، وقد قال
الشاعرُ:

حتى يطيرَ فقدَ
دنا عَطْبُه

وإذا استوتَ
للنملِ أجنحةٌ

وإذا صارَ النملُ كذلكِ أخصبتِ العصافيرُ؛ لأنها تصطادها
في حال طيرانها.

وسيلة لقتل النمل

قالوا: وتُقْتَلُ بأنْ يصبَّ في أفواه بيوتها القِطْران
والكبريتُ الأصفر، ويُدَسَّ في أفواهها الشَّعر، وقد جَرَّبْنَا
ذلك فوجدناه باطلاً، انتهى.

جملة القول في القردِ والخنزيرِ

وفي تأويل المسخ، وكيف كان، وكيف يُمسَخُ الناسُ على
خلقتهم دون كلِّ شيء، وما فيهما من العبرة والمحنة؛

وفي خصالهما المذمومة، وما فيهما من الأمور
المحمودة؛ وما الفصل الذي بينهما في النقص، وفي
الفضل، وفي الذمّ وفي الحمد.

ما ذكر في القرآن من الحيوان وقد ذكر الله عزّ وجلّ في
القرآن العنكبوت، والذّرّ والنمل، والكلب، والحمار،
والنحل، والهدد، والغراب، والذئب، والفيل والخيل،
والبغال، والحمير، والبقر، والبعوض، والمعز، والضأن،
والبقرة، والنعجة، والحوت، والثون، فذكر منها أجناساً،
فجعلها مثلاً في الذلّة والضعف، وفي الوهن، وفي
البداء، والجهل.

هوان شأن القرود والخنزير

وقال الله عزّ وجلّ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا
بِعُوضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا" فقلّ لها كما ترى وحقرها، وضرب بها
المثل، وهو مع ذلك جلّ وعلا، لم يمسح أحداً من حشو
أعدائه وعظمائهم بعوضة. وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ
ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا
يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"، إِنَّمَا قرع

الطالب في هذا الموضع بإنكاره وضعفه، إذ عجز ضعفه
عن ضعفٍ مطلوبٍ لا شيءَ أضعفُ منه، وهو الذئلب، ثم
مع ذلك لم نجدَه جلَّ وعلا، ذَكَرَ أَنَّهُ مَسَخَ أَحَدًا
ذُبَابًا. وَقَالَ: "وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ" فَدَلَّ
بِوَهْنِ بَيْتِهِ عَلَى وَهْنِ خَلْقِهِ، فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ دَلِيلًا عَلَى
التَّصْغِيرِ وَالتَّقْلِيلِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ
أَعْدَائِي عَنْكَبُوتًا.

وقال تعالى: "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ
تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ" فَكَانَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى ذَمِّ طَبَاعِهِ،
وَالْإِخْبَارِ عَنِ تَسَرُّعِهِ وَبَدَائِهِ، وَعَنِ جَهْلِهِ فِي تَدْبِيرِهِ،
وَتَرْكِهِ وَأَخْذِهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِي
كَلْبًا. وَذَكَرَ الدَّرَّةَ فَقَالَ: فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،
وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ
مِنَ الْغَايَاتِ فِي الصَّغَرِ وَالْقِلَّةِ، وَفِي خِفَّةِ الْوِزْنِ وَقِلَّةِ
الرَّجْحَانِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ مَسَخَ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِهِ ذَرَّةً، وَذَكَرَ
الْحِمَارَ فَقَالَ: كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا فَجَعَلَهُ مِثْلًا فِي
الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَفِي قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَغِلْظِ الطَّبِيعَةِ، وَلَمْ يَقُلْ
إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِي حِمَارًا، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا
خَلَقَ وَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيْوَانِ بِالذَّمِّ وَالْحَمْدِ.

فأمّا غير ذلك ممّا ذكر من أصناف الحيوان، فإنّه لم يذكره بذمّ ولا نقص، بل قد ذكر أكثرهنّ بالأمر المحمودة، حتّى صار إلى ذكر القرد فقال: وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ حَالٌ، ولو لم يكن جعل لهما في صدور العامّة والخاصّة من الفُحْبِ والتشويه، ونذالة النّفس، ما لم يجعله لشيءٍ غيرهما من الحيوان، لما خصّهما الله تعالى بذلك، وقد علمنا أنّ العقرب أشدّ عداوةً وأذىً، وأفسدًا، وأنّ الأفعى والثّعبان وعامّة الأحناش، أبغضُ إليهم وأقتلُ لهم، وأنّ الأسدَ أشدّ صولةً، وأنّهم عن دفعهم له أعجز، وبغضهم له على حسب قوته عليهم، وعجزهم عنه، وعلى حسب سوء أثره فيهم، ولم نره تعالى مسحَ أحدًا من أعدائه على صورة شيءٍ من هذه الأصناف، ولو كان الاستبدال والاستتقال والاستسقاط أراد، لكان المسخ على صورة بناتِ وردانٍ أولى وأحقّ، ولو كان التّحقير والتّصغير أراد، لكانت الصّوابة والجرّسة أولى بذلك، ولو كان إلى الاستصغار ذهبَ لكان الدّر والقمل والدُّبابُ أولى بذلك، والدّليل على قولنا قوله تبارك وتعالى: "إنّها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيم، طلّعها كأنه رؤوسُ

الشَّيَاطِينِ" وَلَيْسَ أَنَّ النَّاسَ رَأَوْا شَيْطَانًا قَطُّ عَلَى
صُورَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ فِي طِبَاعِ جَمِيعِ
الْأُمَّمِ اسْتِقْبَاحَ جَمِيعِ صُورِ الشَّيَاطِينِ، وَاسْتِسْمَاجَهُ
وَكَرَاهَتَهُ، وَأَجْرَى عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِهِمْ ضَرْبَ الْمَثَلِ فِي
ذَلِكَ رَجْعَ بِالْإِيحَاشِ وَالتَّنْفِيرِ، وَبِالإِخَافَةِ وَالتَّقْرِيعِ، إِلَى مَا
قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ فِي طِبَاعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَعِنْدَ جَمِيعِ
الْأُمَّمِ عَلَى خِلَافِ طِبَاعِ جَمِيعِ الْأُمَّمِ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَشْبَهُ
مِنْ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ، أَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ
نَبَاتٌ نَبَتَ بِالْيَمَنِ.

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ: " قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ
مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"
فَذَكَرَ أَنَّهُ رِجْسٌ، وَذَكَرَ الْخَنْزِيرَ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَسْخُوحِ، وَلَمْ
يَذَكَرْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أَحْصَى فِيهَا أَنْصَافَ الْحَرَامِ،
وَأَبَاحَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ الْقَرْدَ. وَصَارَ بَعْضُهُمْ إِلَى تَحْرِيمِهِ مِنْ
جِهَةِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ يَحْتَمِلُ الْمَعَارِضَةَ.

الخنزير

مساوي الخنزير فلولا أنّ في الخنزير معني متقدماً سوى
المسخ، وسوى ما فيه من قبح المنظر وسماجة التمثيل،
وقبح الصوت، وأكل العذرة، مع الخلاف الشديد واللواط
المفرط والأخلاق السمجة، ما ليس في القرد الذي هو
شريكه في المسخ لما ذكره دونه تحريم الخنزير في
القرآن دون القرد وقد زعم ناس أنّ العرب لم تكن تأكل
القرود، وكان من تنصر من كبار القبائل وملوكها يأكل
الخنزير، فأظهر لذلك تحريمه؛ إذ كان هناك عالم من
الناس، وكثير من الأشراف والوضعاء، و الملوك
والسوقة، يأكلونه أشد الأكل، ويرغبون في لحمه أشد
الرغبة، قالوا: ولأنّ لحم القرد ينهي عن نفسه، ويكفي
الطباع في الزجر عنه غنثه، ولحم الخنزير مما يستطاب
ويتواصف، وسبيل لحم القرد كسبيل لحم الكلب، بل هو
شر منه وأخبث، وقد قال الشاعر للأسدي الذي ليم بأكل
لحم الكلب:

لو خافك الله
عليه حرمة

يا فقسي لم
أكلته لمة

فما أَكَلْتَ لحمه وَلَا دَمَهُ وليس يريد بقوله: لو خافك الله عليه أَنَّ الله يخافه على شيءٍ أو يخافه من شيء، ولكنَّه لَمَّا كَانَ الكلبُ عندهُ مما لا يأكله أحدٌ وَلَا يُخَافُ عَلى أَكْلِهِ إِلَّا المضطَّرُّ، جعل بدل قوله: أَمِنَ الكلبُ على أَكل لحمه، أَنَّ الله هو الذي لم يخف ذلك فيحرِّمه، وهذا ممَّا لا تقف الأعرابُ عليه، وَلَا تَتَّبِعُ الوهمُ مواضعه؛ لأنَّ هذا بابٌ يدخل في باب الدِّين، فيما يُعرَفُ بالنَّظر.

ما قيل في جودة لحوم الكلاب وقد يأكل أجراء الكلاب ناسٌ، ويستطيبونها فيما يزعمون، ويقولون: إنَّ جرو الكلب أسمنُ شيءٍ صغيراً، فإذا شبَّ استحال لحمه، كأنَّه يشبَّه بفرخ الحمام مادام فرخاً وناهضاً، إلى أن يستحکم ويشتدَّ ذكر من يأكل السنانير وما أكثر من يأكل السنانير، والذين يأكلونها صنفان من الناس: أحدهما الفتى

المغرور، الذي يقال له أنت مسحور، ويقال له: من أكل سنوراً أسودَ بهيماً لم يعمل فيه السحر، فيأكله لذلك، فإذا أكله لهذه العلة، وقد غسل ذلك وعصره، أذهب الماء زهُومته، ولم يكن ذلك المخدوع بمستقذر ما استطابه، ولعلَّه أيضاً أن يكون عليه ضربٌ من الطَّعام فوق الذي هو فيه، فإذا أكله على هذا الشرط، ودبر هذا التدبير،

ولم ينكره، عاوده، فإذا عاوده صار ذلك ضراوةً له.
 والصَّنْف الآخر أصحاب الحمام؛ فما أكثر ما ينصبون
 المصائد للسنانير، التي يُلقون منها في حمامهم، وربما
 صادف غيظ أحدهم وحنقه وعضبه عليه، أن يكون
 السَّنور مُفْرطَ السَّمْن، فيدع قتله ويذبحه، فإذا فعل ذلك
 مرّةً أو مرتين، صار ضراوةً عليها، وقد يتقرّز الرجلُ
 من أكل الضَّبِّ والورل والأرنب، فما هو إلا أن يأكله مرّةً
 لبعض التجربة، أو لبعض الحاجة، حتى صار ذلك سبباً
 إلى أكلها، حتى يصير بهم الحال إلى أن يصيروا أرغب
 فيها من أهلها، طيب لحم الجراد وها هنا قوم لا يأكلون
 الجراد الأعرابيّ السمين، ونحن لا نعرف طعاماً أطيّب
 منه، والأعراب إنما يأكلون الحيات على شبيهه بهذا
 الترتيب ولهذه العوارض، أكل الأفاعي والحيات وزعم
 بعض الأطباء والفلاسفة، أن الحيات والأفاعي تؤكل نيئةً
 ومطبوخة، ومشوية، وأنها تغذو غذاءً حسناً، روبة وأكل
 الجرادن وزعم أبو زيد، أنه دخل على روبة، وعنده
 جردان قد شواهن، فإذا هو يأكلهن، فأنكر ذلك عليه،
 فقال روبة: هُنَّ خيرٌ من اليرابيع والضباب وأطيّب؛ لأنها
 عندكم تأكلُ الخبزَ والتمرَ وأشباه ذلك، وكفاك بأكل

الجرذان، ولولا هول الحيات في الصدور من جهة
السُّموم، لكانت جهة التقدر أسهلَ أمراً من الجرذان، أكل
الذبان والزنابير وناسٌ من السفالة يأكلون الذبان، وأهلُ
خُراسانَ يُعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير،
ويعافون أذنبَ الجرادِ الأعرابيِّ السمين، وليسَ بين ريح
الجرادِ إذا كانت مشويّةً وبينَ ريح العقاربِ مشويّةً فرق،
والطعمُ تبعٌ للرائحة: خبيثها لخبثها، وطيبها لطيبها، وقد
زعم ناسٌ، ممن يأكلون العقاربَ مشويّةً ونيئةً، أنها
كالجرادِ السّمان، وكان الفضلُ بنُ يحيى يوجّه خدمه في
طلب فراخ الزنابير ليأكلها، وفراخها ضربٌ من الذبان.
أكل لحوم البرادين فأما لحوم البرادين فقد كثر علينا
وفينا، حتى أنسنا به، وزعم بعضهم أنه لم يأكلَ أطيّبَ
من رأسِ برذونٍ وسرته، فأما السرّةُ والمعرفةُ فإنهم
يزاحمون بها الجداءَ والدجاج، ويقدمون الأسرامَ
المحشوة، أكل السراطين ونحوها ومن أصحابنا من
يأكل السراطين أكلاً ذريعاً، فأما الرق والكوسج فهو من
أعجب طعام البحرين، وأهل البحر يأكلون البلبل فهو
اللحم الذي في جوف الأصداف، والأعرابيُّ إذا وجد أسوداً
سالخاً، رأى فيه ما لا يرى صاحب الكسمير في كسميره.

أكل ديدان الجبن وخَبَّرني كم شئتَ من الناس، أنه رأى أصحابَ الجُبْنِ الرَّطْبِ بالأهوازِ وقراها، يأخذون القِطعةَ الضَّخمةَ من الجُبْنِ الرَّطْبِ، وفيها ككواء الزنابير، وقد تولدَ فيها الدِّيدان، فينفضها وسطَ راحته، ثمَّ يقمحها في فيه، كما يقمحُ السَّويق والسُّكَّر، أو ما هو أطيَّبُ منه. ذكر بعض أنواع العذاب وقد خبَّر الله تعالى عن أصحاب النِّقم، وما أنزل الله من العذاب، وما أخذ من الشكل والمقابلات، فقال: "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا"، وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ" وليس من هذه الأصنافِ شيءٌ أبلغُ في المثلة والشُّنعة، ممَّن جعلَ منهم القردة والخنازير ما يقبل الأدب من الحيوان فالخنزير يكون أهلياً ووحشياً، كالحمير والسنانير، مما يعايش النَّاس، وكلها لا تقبل الآداب، وإنَّ الفهودَ وهي وحشيَّةٌ تقبل كلها، كما تقبلُ البوازي، والشَّواهين، والصقورة، والزُّرَّق، واليُويو، والعقاب، وعناق الأرض، وجميعُ الجوارحِ الوحشيَّات، ثمَّ يفضُّها الفهدُ بخصلةٍ

غريبة وذلك أن كبارها ومسانها أقبل للآداب، وإن
تقادت في الوحش، من أولادها الصغار، وإن كانت تقبل
الآداب؛ لأن الصغير إذا أدب فبلغ، خرج جبيناً مواكلاً،
والمسنّ الوحشي يخلص لك كله، حتى يصير أصيد
وأنفع، وصغار سباع الطير وكبارها على خلاف ذلك،
وإن كان الجميع يقبل الأدب، والخنزير وإن كان أهلياً
فإنه لا يقبل الأدب على حال، حتى كأنه وإن كان بهيمة
في طباع ذئب، وذلك أن أعرابياً أخذ جرو ذئب وكان
التقطه التقاطاً، فقال: أخذته وهو لا يعرف أبويه ولا
عملهما، وهو غر لم يصد شيئاً، فهو إذا ربيناه وألفناه،
أنفع لنا من الكلب، فلما شبّ عدا على شاة له فقتلها
وأكل لحمها، فقال الأعرابي:

فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنْ
أَبَاكَ ذَيْبٌ

أَكَلْتَ شَوْيَهْتِي
وَرُبَيْتَ فِينَا

فالدئب وجرو الذئب إذا كانا سبعين وخشيين كانا ثم من
أشدّ الوحش توحشاً وأزمها للفقار، وأبعدها من
العمران، والدئب أغدر من الخنزير والخنوص وهما
بهيمتان.

ضرر الخنزير وأما ضرره وإفساده، فما ظنك بشيء
يُتمنى له الأسد؟ وذلك أن الخنازير إذا كانت بقرب
ضِياع قوم، هلكت تلك الضياع، وفسدت تلك الغلات،
وربما طلب الخنزير بعض العروق المدفونة في الأرض
فيخرب مائة جريب، ونابه ليس يغلبه معول، فإذا اشتدَّ
عليهم البلاء تمنوا أن يصير في جنبهم أسد، ولربما
صار في ضياعهم الأسد فلا يهيجونه، ولا يؤذونه، ولو
ذهب إنسان ليحفر له زبية منعه أشد المنع؛ إذ كان
ربما حمى جانبهم من الخنازير فقط، فما ظنك بإفسادها،
وما ظنك ببهيمة يُتمنى أن يكون بدلها أسد؟ ثم مع ذلك
إذا اجتمعوا للخنازير بالسلاح، وبالآلات والأدوات التي
تقتل بها، فربما قتل الرجل منهم، أو عقره العقر الذي لا
يندمل؛ لأنه لا يضرب بنابه شيئاً إلا قطعه، كائناً ما كان،
فلو قتلوا في كل يوم منها مائة وقتلت في كل يوم إنساناً
واحداً، لما كان في ذلك عوض. والخنازير تطلب العذرة،
وليست كالجلالة؛ لأنها تطلب أحرها وأرطبها وأنتنها،
وأقربها عهداً بالخروج، فهي في القرى تعرف أوقات
الصبح والفجر، وقبل ذلك وبعده؛ لبروز الناس للغائط،
فيعرف من كان في بيته نائماً في الأسفار ومع الصبح،

أنَّه قد أسْحَرَ وأصْبَحَ، بأصواتها ومرورها، ووقَّعَ أرجلها
في تلك الغيطان، وتلك المتبرَّزات، وبذلك ضربوا المثلَ
ببكور الخنزير، كما ضربوا المثلَ بحذر الغراب وروغان
الثَّعلب، على أنَّ الثَّعلبَ ليس بأرْوَعَ من الخنزير، ولا أكْدَّ
للفارس، ولا أشدَّ إْتعاباً لصاحبه.

بعض أسباب مسخ الإنسان فأما قُبْحُ وجهه فلو أنَّ القُبْحَ
والإفلاس، والغدر والكذب، تجسَّدتْ ثمَّ تصوَّرتْ لَمَا زادتْ
على قُبْحِ الخنزير، وكلَّ ذلك بعضُ الأسباب التي مُسَخِ
لها الإنسان خنزيراً، وإنَّ القردَ لَسَمِجُ الوجه، قبيحٌ كلُّ
شيءٍ، وكفاك به أنَّه للمثل المضروب ولكنَّه في وجهِ
آخرٍ مليحٍ، فمُلْحُه يعترض على قُبْحِه فيمازجُه ويُصلِحُ
منه، والخنزيرُ أقبحُ منه لأنَّه ضربٌ مُصمَّتٌ بهيم، فصار
أسمجَ ببعيدٍ.

وثب الذكورة على الذكورة وحدثني بعضُ أهل العلم،
ممنَّ طال ثواؤه في أرض الجزيرة، وكان صاحبَ أخبارٍ
وتجربة، وكان كلفاً يحبُّ التبيين، معترضاً للأمور، يحبُّ
أنَّ يُفضِي إلى حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز
أجناسها، وتعرِّف مقادير قواها وتصرف أعمالها، وتنقلُّ
حالاتها؛ وكان يعرفُ للعلم قدره، وللبيان فضله، قال:

رَبِّمَا رَأَيْتِ الْخَنْزِيرَ الذَّكَرَ وَقَدْ أَلْجَأَهُ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ
خَنْزِيرًا إِلَى مَضِيقٍ، وَإِلَى زَاوِيَةٍ، فَيَنْزُونَ عَلَيْهِ وَاحِدًا
وَاحِدًا، حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَهُمْ، وَخَبَّرَنِي هَذَا الرَّجُلُ وَغَيْرُهُ مِنْ
أَهْلِ النَّظَرِ وَأَصْحَابِ الْفِكْرِ، أَنَّهُمْ رَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ
الْحَمِيرِ، وَذَكَرُوا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا تَأَنَّثَتْ فِي طَبْعِهِ، وَإِنَّمَا أَنْ
يَكُونَ لَهُ فِي أَعْيُنِهَا مِنَ الْإِسْتِحْسَانِ شَبِيهَةٌ بِالَّذِي يَعْتَرِي
عَيُونَ بَعْضِ الرِّجَالِ فِي الْغُلْمَانِ، وَالْأَحْدَاثِ الشَّبَابِ. وَقَدْ
يَكُونُ هَذَا بَيْنَ الْغَزَانِقِ وَالْكَرَاكِيِّ، وَالْتَسَافُدِ بَيْنَ الذَّكَرِ
وَالْأُنْثَى، وَالسَّافُدِ وَالْمَسْفُودِ إِذَا كَانَا مِنْ جَمِيعِ الذُّكُورَةِ،
كَثِيرٌ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي جَمِيعِ
الْخَنَازِيرِ وَالْحَمِيرِ أَفْشَى، وَأَمَّا تَسَافُدُ الْحَمَامِ الذَّكَرِ
وَالْأُنْثَى لِلذَّكَرِ، فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَنَازُعٌ.
مَعَارَفٌ فِي الْخَنْزِيرِ وَبَابٌ آخَرٌ مِمَّا ذَكَرَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ،
فَزَعَمَ أَنَّ مِنَ الْخَنَازِيرِ مَا لَهُ ظِلْفٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ لَشَيْءٍ
مِنْ ذَوَاتِ الْأَنْبِيَابِ فِي نَابِهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالذَّرْبِ مَا لِلْخَنْزِيرِ
الذَّكَرِ، وَاللِّجْمَلِ، وَالْفَهْدِ، وَالْكَلْبِ، قَالَ: وَالْإِنْسَانُ يَلْقَى
أَسْنَانَهُ، وَكَذَلِكَ الْحَافِرُ وَالْخَفْتُ، قَالَ: وَالْخَنْزِيرُ لَا يَلْقَى
أَسْنَانَهُ الْبَيْتَةَ.

مَنْ لَمْ يَثْغُرْ وَيُقَالُ: إِنَّ عَبْدَ الصَّمَدِ بْنِ عَلِيٍّ لَمْ يَثْغُرْ قَطُّ،

وأنه دخل قبره بأسنان الصِّبَا.
أسنان الذئب والحية وزعم بعضهم أن أسنان الذئب
مخلوقة في الفك، ممطولة في نفس العظم، وذلك ممَّا
توصف به أسنان الحيَّة، قال الشَّاعرُ:

الرَّاسِ
وَأَشْدَاقِ
رَحِيَّاتِ

مُطْلَنَ فِي
اللَّحْيَيْنِ مَطْلًا إِلَى

والشَّاعرُ يمدحُ الشَّيءَ فيشدُّ أمره، ويقوي شأنه، وربَّما
زاد فيه، ولعلَّ الذي قال في الذئب ما قال، هذا أراد، ولا
يشكُّون أن الضَّبَّ كذلك.

مرق لحم الحيوان قال وليس يجمدُ مرق لحم الحيوان
السَّمين، مثل الخنزير والفرس، وأمَّا ما كان كثير الثرب
فمرقته تجمد، مثل مرق لحم المعز.
طباع الخنزير قال: والخنزير الذكر يقاتل في زمن الهيج،
فلا يدعُ خنزيراً إلا قتله، ويدنو من الشَّجرة ويدلُّكُ جلده،
ثمَّ يذهب إلى الطين والحماة فيتلطح به، فإذا تساقط عاد
فيه.

قال: وذكورة الخنازير تطرد الذُّكورة عن الإناث، وربَّما

قتل أحدهما صاحبه وربما هلكا جميعاً، وكذلك الثيران
والكباشُ والتّيوسُ في أقاطيعها، وهي قبل ذلك الزّمان
متسالمة.

ما يعرض لبعض الحيوان عند الهيج والجمل في تلك
الحالة لا يدعُ جملاً ولا إنساناً يدنو من هجمته، والجمل
خاصّة يكره قربَ الفرس، ويقاتله أبدأً. ومثل هذا يعرض
للذئبة والذئب، والأسد ليس ذلك من صفاتها؛ لأنّ بعضها
لا يأوي إلى بعض، بل ينفرد كلُّ واحدٍ بلبوته، وإذا كان
للذئبة الأنثى جرّاء ساءت أخلاقها وصعبت، وكذلك إناث
الخيّل والفيل: يسوء خلقها في ذلك الزّمان، والفّيالون
يحمونها النّزو؛ لأنها إذا نزت جهلت جهلاً شديداً،
واعتراها هيّجٌ لا يُقام له، وإذا كان ذلك الزّمان أجادوا
عقله، وأرسلوه في الفيلة الوحشيّة، فأما الخنزير والكلبُ
فإنهما لا يجهلان على النّاس؛ لمكان الألفة، قال: وزعم
بعضُ النّاس أنّ إناث الخيّل تمتلئ ريحاً في زمان هيّجها،
فلا يباعدون الذكورة عنها، وإذا اعترأها ذلك ركضتُ
ركضاً شديداً، ثمّ لا تأخذ غرباً ولا شرقاً، بل تأخذ في
الشّماليّ والجنوبيّ، ويعرض مثل هذا العرّض لإناث
الخنزير، فإذا كان زمنٌ هيّج الخنازير، تطأطي

رؤوسها، وتحرك أذناها تحريكاً متتابعاً، وتتغير
أصواتها إذا طلبت السفاد، وإذا طلبت الخنزيرة السفاد
بالت بولاً متتابعاً.

تناسل الخنازير قال: وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهر،
وأكثر ما تحمل عشرون خنوصاً وإذا وضعت أجراً
كثيرة لم تقو على رضاعها وتربيتها.

قال: وإناث الخنازير تحمل من نزوة واحدة، وربما كان
من أكثر، وإذا طلبت الذكر لم تنزع حتى تطاوع وتسامح،
وترخي أذناها، فإذا فعلت ذلك تكتفي بنزوة
واحدة، ويعلف الذكر الشعير في أوان النزو، ويصلح
للأنثى.

مدد الحمل للحيوان والخنزيرة تضع في أربعة أشهر،
والشاة في خمسة، والمرأة والبقرة في تسعة أشهر،
والحافر كله في سنة خصائص الخنزير قال: ومتى قلعت
العين الواحدة من الخنزير هلك، وكثير من الخنازير تبقى
خمسة عشر عاماً، والخنزير ينزو إذا تم له ثمانية
أشهر، والأنثى تريد الذكر إذا تمت لها ستة أشهر، وفي
بعض البلدان ينزو إذا تم له أربعة أشهر، والخنزيرة إذا
تمت لها ستة أشهر، ولكن أولادهما لا تجيء كما

يريدون، وأجود النَّزْو أن يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين، وإذا كانت الخنزيرة بكرًا ولدت جِراءً ضعافاً وكذلك البكر من كل شيء، الحلال .
وقال الله تبارك وتعالى: "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" ثم ذكر غير الطيبات فقال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ، ذَلِكَ فِسْقٌ" ثم قال: "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ".

استطرد لغوى وقوله تعالى: طيبات تحتمل وجوهاً كثيرة، يقولون: هذا ماءً طيب، يريدون العذوبة، وإذا قالوا للبرِّ والشعيرِ والأرز طيب، فإنما يريدون أنه وسَط، وأنه فوق الدُّون، ويقولون: فَمَّ طيب الرِّيح، وكذلك البرِّ، يريدون أنه سليم من النَّتن، ليس أن هناك ريحاً طيبة ولا

ريحاً منتنة، ويقولون: حلالٌ طيبٌ، وهذا لا يحل لك، ولا يطيب لك، وقد طاب لك أي حل لك، كقول: "فَأَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا".
 قال طُوَيْسُ المَغْنِي لِبَعْضِ ولدِ عثمانَ بنِ عفانَ: لقد شَهِدْتُ زفافَ أمِّك المَبَارَكَةِ إلى أبيك الطَّيِّبِ، يريد الطَّهَارَةَ، ولو قال: شهدت زفافَ أمِّك الطَّيِّبَةَ إلى أبيك المَبَارَكِ، لم يحسُنْ ذلك؛ لأنَّ قولك طَيِّبٌ إِنَّمَا يدلُّ على قدر ما اتَّصلَ به من الكلام.
 وقد قال الشَّاعِرُ:

والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأَزْرِ

وقد يخلو الرَّجُلُ بالمرأة فيقول: وجدتها طيِّبةً، يريد طيِّبة الكَوْمِ، لذيذة نفس الوطاء، وإذا قالوا: فلان طيِّب الخُلُقِ، فإنما يريدون الظَّرْفَ والمِلْحَ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: "حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ" يريد ريحاً ليست بالضعيفة ولا القويَّة.

ويقال: لا يحلُّ مال امرئٍ مسلمٍ إلَّا عن طيبِ نفسٍ منه، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: "فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا" وقال: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ

جَنَّتَانِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ
بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ" وذلك إذ كانت طيبة الهواء
والفواكه، خصيبة، وقال: "إِنَّا لَذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ
الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ" ثم قال: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
وَالتَّيِّبَاتُ لِلتَّيِّبِينَ وَالتَّيِّبُونَ لِلتَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ".

وفي هذا دليلٌ على أنّ التَّأْوِيلَ فِي امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ
لُوطٍ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى غَيْرِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ
أَصْحَابِ التَّفْسِيرِ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ سَمِعُوا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ:
"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنهُمَا" فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْزِ الْخِيَانَةَ فِي الْفَرْجِ، وَقَدْ
يَقَعُ اسْمُ الْخِيَانَةِ عَلَى ضُرُوبٍ: أَوْلَاهَا الْمَالُ، ثُمَّ يَشْتَقُّ مِنْ
الْخِيَانَةِ فِي الْمَالِ الْغَشُّ فِي النَّصِيحَةِ وَالْمَشَاوِرَةِ، وَلَيْسَ
لِأَحَدٍ أَنْ يُوَجَّهَ الْخَبْرُ إِذَا نَزَلَ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَرَّمَ الرَّسُلُ، عَلَى أَسْمَاجِ الْوُجُوهِ، إِذَا كَانَ
لِلْخَبْرِ مَذْهَبٌ فِي السَّلَامَةِ، أَوْ فِي الْقُصُورِ عَلَى أَدْنَى
الْعِيُوبِ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْخِيَانَةَ لَا تَتَخَطَّى إِلَى الْفَرْجِ حَتَّى

تبتدئ بالمال، وقد يستقيم أن يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة، ولا تكون نساؤهم زواني، فيلزمهم أسماءٌ قبيحة، وقال الله عز وجل: "إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" وقال: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا" وقال: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً" وقال تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" وقال: "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ" و "مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" وقال: "وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" فقولته: "طَيِّبٌ"، يقع في مواضع كثيرة، وقد فصلنا بعض ذلك في هذا الباب.

ثم رجع بنا القول إلى موضعنا من ذكر الخنزير ثم قال: "قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ" ألا تراه قد ذكر أصنافاً ما حرم ولم يذكرها بأكثر من التحريم، فلما ذكر الخنزير قال: فَإِنَّهُ رِجْسٌ فجعل الخنزير وإن كان غير ميتة أو ذكر

الدَّابِحِ عَلَيْهِ اسْمُ اللَّهِ، أَنَّهُ رَجَسٌ، وَلَا نَعْلَمُ لِهَذَا الْوَجْهِ إِلَّا
 الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَسْخِ، فَأَرَادَ تَعْظِيمَ شَأْنِ
 الْعِقَابِ وَنَزُولِ الْغَضَبِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَيْسَ مِمَّا يَضُرُّ
 الْخَنْزِيرَ، وَفِيهِ الزَّجْرُ عَنْ مَحَارِمِهِ، وَالتَّخْوِيفُ مِنْ
 مَوَاضِعِ عَذَابِهِ، وَإِنْ قِيلَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَسْخٌ صَوْرَةَ
 الْقَرْدِ، فَهَلَّا ذَكَرَهُ فِي التَّحْرِيمِ مَعَ أَصْنَافِ مَا حَرَّمَ، ثُمَّ
 خَصَّهُ أَيْضاً أَنَّهُ مِنْ بَيْنِهَا رَجَسٌ، وَهُوَ يَرِيدُ مَذْهَبَهُ
 وَصِفَتَهُ؟ قُلْنَا، إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَكُنْ تَأْكُلُ الْقُرُودَ، وَلَا تَلْتَمِسُ
 صَيْدَهَا لِلْأَكْلِ، وَكُلُّ مَنْ تَنْصَرَ مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ وَالْحَبَشَةِ
 وَالصِّينِ، وَكُلُّ مَنْ تَمَجَّسَ مِنْ مَلِكٍ أَوْ سُوقَةٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا
 يَرُونَ لِلْحَمِّ الْخَنْزِيرَ فَضِيلَةً، وَأَنَّ لِحُومَهَا مِمَّا تَقُومُ إِلَيْهِ
 النُّفُوسُ، وَتَنَازِعُ إِلَيْهِ الشَّهَوَاتُ، وَكَانَ فِي طَبَاعِ النَّاسِ
 مِنَ التَّكْرَهُ لِلْحُومِ الْقَرْدَةِ، وَالتَّقَدُّرِ مِنْهَا مَا يُغْنِي عَنْ
 ذِكْرِهَا، فَذَكَرَ الْخَنْزِيرَ إِذْ كَانَ بَيْنَهُمَا هَذَا الْفَرْقُ، وَلَوْ ذَكَرَ
 ذَلِكَ وَالْحَقُّ الْقَرْدَ بِالْخَنْزِيرِ لِمَوْضِعِ التَّحْرِيمِ، لَكَانَ ذَلِكَ
 إِنَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّوَكِيدِ لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي
 طَبَائِعِهِمْ مِنَ التَّكْرَهُ وَالتَّقَدُّرِ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ.
 وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي
 ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ
جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ".

وجوه التحريم وقد أنبأك كما ترى عن التحريم أنه يكون
من وجوه: فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغشم
والغدر؛ وهذه أمور لا تحلُّ على وجه من الوجوه، ومنها
ما يحرم في العقل من ذبح الإنسانِ الطِّفْلِ، وجعلَ في
العقول التَّبَيُّنَ بِأَنَّ خَالِقَ الْحَيَوَانِ أَوْ الْمَالِكَ لَهُ، وَالْقَادِرَ
عَلَى تَعْوِيضِهِ، يَقْبَحُ ذَلِكَ فِي السَّمَاعِ عَلَى أَسْنَةِ رَسَلِهِ،
وَهَذَا مِمَّا يَحْرَمُ بَعِيْنِهِ وَبذاته لا أنه حرّم لعله قد يجوز
دفعها، والظلم نفسه هو الحرام، ولم يحرم لعله غير
نفسه.

وهو ما جاء من طريق التعبد، وما يعرف بالجملة،
ويعرف بالتفسير.

ومنه ما يكون عقاباً، ويكون مع أنه عقابٌ امتحاناً
واختباراً، كنحو ما ذكر من قوله: "ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْغِيهِمْ"
وكنحو أصحاب البقرة الذين قيلَ لَهُمْ: ادْبَحُوا بَقْرَةَ فَاِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أَضْرِبَ بِهَا الْقَتِيلَ ثُمَّ أَحْيِيَهُمَا جَمِيعاً، وَلَوْ
اعترضوا من جميع البقر بقرة فذبوها، لكنوا غير
مخالفين، فلما ذهبوا مذهب التلكؤ والتعلل، ثم التعرض،

والتعنت في طريق التعنت، صار ذلك سبب تغليظ الفرض
 وقد قال الله عز وجل: "مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي
 إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
 فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا" وقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
 التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
 إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" ومثله: "رَبَّنَا وَلَا
 تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا" يجوز أن يكون إنما
 يريدون صرف العذاب، ويجوز أن يكون إنما يريدون
 تخفيف الفرائض، وقد يجوز أن يكون على قول من قال:
 لا أستطيع النظر إلى فلان، على معنى الاستقبال.
 وباب آخر من التحريم، وهو قوله: "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا
 لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ" شعر في الخنزير وقال مروان بن محمد:

كمشي خنزيرة
 إلى عذرة

يمشي رويداً
 يريد ختلكم

وقال آخر:

ثَى إِذَا مَا غَدَا،
أَبُو كَلْثُومِ

مِنْ ثَرِيدٍ
مُلبَّدٍ مَأْدُومِ

سِ فَالْقَى
كَالمِغْلَفِ
المِهْدُومِ

نِعْمَ جَارُ
الْخَنْزِيرَةِ
الْمَرْضِعِ الْغَرِّ

طَاوِيأَ قَدْ أَصَابَ
عِنْدَ صَدِيقِ

ثُمَّ أَنَحَى بِجَعْرِهِ
حَاجِبَ الشَّمِّ

جرير والحضرمي وقال أبو الحسن: وفد جريرٌ على هشام، فقال الحضرمي: أَيُّكُمْ يَشْتَمُهُ؟ فقالوا: ما أحدٌ يَقْدُمُ عَلَيْهِ قال: فأنا أَشْتَمُهُ وَيَرْضَى وَيَضْحَكُ قال: فقام إِلَيْهِ فقال: أنت جرير؟ قال: نعم، قال: فلا قَرَبَ اللهُ دَارَكَ وَلَا حَيًّا مَزَارَكَ يا كَلْبُ فجعَلْ جَرِيرٌ يَنْتَفِخُ، ثُمَّ قال لَهُ: رَضِيتَ فِي شَرْفِكَ وَفَضْلِكَ وَعَفَافِكَ أَنْ تُهَاجِيَ الْقَرَدَ العَاجِزُ؟ يعني الفرزدق، فضحك. فحدَّثَ صَدِيقٌ لِي أبا الصَّلَعِ السَّنْدِيِّ بِهَذَا الحَدِيثِ، قال:

فَشِعْرِي أَعْجَبُ مِنْ هَذَا لِأَنِّي شَتَمْتُ الْبُخْلَاءَ، فَشَتَمْتُ
نَفْسِي بِأَشَدِّ مِمَّا شَتَمْتَهُمْ، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ قَوْلِي:

لَا تَرَى بَيْتَ
هَجَاءٍ
أَبْدًا يُسْمَعُ مِنِّي
الهِجَا أَرْفَعُ
مِمَّنْ
قَدْرُهُ يَصْعَرُ
عَنِّي

طريفة قال أبو الحسن: كان واحدٌ يسخرُ بالنَّاسِ، ويَدَّعي
أَنَّهُ يَرقي من الضَّرْسِ إذا ضربَ على صاحبه، فكان إذا
أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقاها: إِيَّاكَ أَنْ تَذكر إذا
صِرْتَ إلى فِرَاشِكَ القَرْدَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ ذَكَرْتَهُ بَطَلْتَ الرُّقِيَّةَ
فكان إذا أوى إلى فراشه أَوَّلَ شيءٍ يخطر على باله ذِكْرُ
القردِ، ويبيت على حاله من ذلك الوَجَعِ، فيغدو إلى الذي
رقاها فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: بَتُّ وَجِعاً
فيقول: لعلَّكَ ذَكَرْتَ القردَ فيقول: نعم فيقول: مِنْ تَمَّ لَمْ
تنفع بالرُّقِيَّةِ شعرَ لبعض ظرفاء الكوفيين وقال بعضُ
ظُرَفَاءِ الكوفيين:

وَإِنْ كَانَتْ
مَعْتَقَةً عُقَارًا

وَإِنْ كَانَتْ
خَنَائِصًا
صِغَارًا

فَإِنْ يَشْرَبَ أَبُو
فَرُوحَ أَشْرَبَ

وَإِنْ يَأْكُلُ أَبُو
فَرُوحَ أَكُلَ

قرد يزيد بن معاوية وقال يزيد بن معاوية:

جِيَادَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ
أَتَانُ

فَلَيْسَ عَلَيْهَا إِنْ
هَلَكْتَ ضَمَانُ

فَمَنْ مَبْلُغُ الْقَرْدِ
الَّذِي سَبَقَتْ بِهِ

تَعَلَّقَ أبا قَيْسٍ
بِهَا إِنْ أَطَعْتَنِي

جزع بشار من شعر الحماد وزعم الجرداني، أن بشاراً
الأعمى، لم يجزَع من هجاءٍ قطُّ كجزَعِه من بيتِ حمادِ
عَجْرِدِ، حيث يقول:

إِذَا مَا عَمِي

وَيَا أَقْبَحَ مِنْ

قرد

القرد

شعر في الهجاء وقال بشير بن أبي جذيمة العبسي:

وهل يستعدُّ

القردُ

للخَطَرانِ

ولؤمُ قردٍ

وسَطُ كلِّ

مكانِ

وأحسابكم في

الحيِّ غيرُ

سِمانِ

أَتَخْطِرُ لِأَشْرَافِ

حَدِيمِ كَبْرَةِ

أَبِي قِصْرُ

الْأُدْنَابِ أَنْ

يَخْطِرُوا بِهَا

لَقَدْ سَمِنَتْ

قِرْدَانُكُمْ آلَ

حَدِيمِ

الأصمعيُّ عن أبي الأشهب عن أبي السليل قال: ما أبالي
أخنزيراً رأيتُ يُجَرُّ برجله، أو مثل عبيد ينادي: يالَ فلانِ
استطراد لغوي الأصمعيُّ عن أبي ظبيان قال: الخوز هم
البناة الذين بنوا الصَّرحَ واسمُهم مشتقٌّ من الخنزير،
ذهب إلى اسمه بالفارسية خوك، فجعلت العرب خوك

خُوزاً، إلى هذا ذهب.

تناسل المسخ وقد قال الناسُ في المسخ بأقاويلَ مختلفة: فمنهم من زعم أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى إلا بقدر ما يكون موعظةً وعبرة، فقطعوا على ذلك الشهادة، ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل، حتى جعل الضبَّ والجريَّ، والأرانب، والكلاب وغير ذلك، من أولاد تلك الأمم التي مسخت في هذه الصور، وكذلك قولهم في الحيات، وقالوا في الوزغ: إن أباه، لما صنع في نار إبراهيم وبيت المقدس ما صنع، أصمَّه الله وأبرصه، فقيل: سام أبرص، فهذا الذي روى هو من ولده؛ حتى صار في قتله الأجر العظيم، ليس على أن الذي يقتله كالذي يقتل الأسد والذئب، إذا خافها على المسلمين، وقالوا في سهيل، وفي الزهرة، وفي هاروت وماروت، وفي قيرى وعيرى أبوي ذي القرنين، وجُرهم، ما قالوا.

القول في المسخ فأما القول في نفس المسخ فإنَّ الناس اختلفوا في ذلك: فأما الدهريَّة فهم في ذلك صنفان: فمنهم من جحد المسخ وأقرَّ بالخسف والريح والطوفان، وجعل الخسف كالزلازل، وزعم أنه يقرُّ من القذف بما كان من البرد الكبار؛ فأما الحجارة فإنها لا تجيء من

جهة السماء، وقال: لست أجوز إلا ما اجتمعت عليه
الأمّة أنّه قد يحدث في العالم، فأنكر المسخّ البتّة.
أثر البيّنة وقال الصّنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء
في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم،
فيعمل ذلك في طباعهم على الأيّم، كما عمل ذلك في
طباع الزّنج، وطباع الصّقالبة، وطباع بلاد ياجوج
وماجوج، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا
خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى
طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدّوابّ وجميع
ماشيتهم: من سبّع وبهيمة، على طبائعهم، وترى جراد
البقول والرياحين وديدانها خضراء، وتراها في غير
الخضرة على غير ذلك، وترى القملة في رأس الشابّ
الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشّيخ الأبيض
الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاءً، وفي
لون الجمّل الأورق، فإذا كانت في رأس الخضيب
بالحمرة تراها حمراء، فإنّ نصلّ خضابه صار فيها
شكّلة، من بين بيض وحمّر، وقد نرى حرّة بني سليم،
وما اشتملت عليه من إنسان، وسبع، وبهيمة، وطائر،
وحشرة فتراها كلّها سوداء، وقد خبرنا من لا يحصى من

النَّاسُ أَنَّهُمْ قَدْ أَدْرَكُوا رَجَالًا مِنْ نَبَطِ بَيْسَانَ، وَلَهُمْ أذْنَابٌ
إِلَّا تَكُنْ كَأَذْنَابِ التَّمَّاسِيحِ وَالْأَسَدِ وَالْبَقْرِ وَالْخَيْلِ؛ وَإِلَّا
كَأَذْنَابِ السَّلَاحِفِ وَالْجِرْدَانِ، فَقَدْ كَانَ لَهُمْ عُجُوبٌ طَوَالَّ
كَالْأَذْنَابِ، وَرَبَّمَا رَأَيْنَا الْمَلَّاحَ النَّبْطِيَّ فِي بَعْضِ
الْجَعْفَرِيَّاتِ عَلَى وَجْهِهِ شَبَهُ الْقِرْدِ، وَرَبَّمَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ مِنْ
الْمَغْرِبِ فَلَا نَجِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمِسْخِ، إِلَّا الْقَلِيلَ، وَقَدْ يَجُوزُ
أَنْ يَصَادَفَ ذَلِكَ الْهَوَاءَ الْفَاسِدُ، وَالْمَاءُ الْخَبِيثُ، وَالتُّرْبَةُ
الرَّدِيَّةُ، نَاسًا فِي صِفَةِ هَؤُلَاءِ الْمَغْرَبِيِّينَ وَالْأَنْبَاطِ،
وَيَكُونُونَ جُهَالًا، فَلَا يَرْتَحِلُونَ؛ ضَنَّانَةً بِمَسَاكِنِهِمْ
وَأَوْطَانِهِمْ، وَلَا يَنْتَقِلُونَ، فَإِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ زَادَ فِي تِلْكَ
الشُّعُورِ، وَفِي تِلْكَ الْأَذْنَابِ، وَفِي تِلْكَ الْأَلْوَانِ الشُّقْرِ، وَفِي
تِلْكَ الصُّورِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْقُرُودِ، قَالُوا: وَلَمْ نَعْرِفْ، وَلَمْ يَثْبُتْ
عِنْدَنَا بِالْخَبْرِ الَّذِي لَا يِعَارِضُ، أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي قَلْبُ
صُورِ قَوْمٍ إِلَى صُورِ الْخَنَازِيرِ، هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي نَقَلَ
صُورَ قَوْمٍ إِلَى صُورِ الْقُرُودِ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ
الصُّورُ انْقَلَبَتْ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ الشَّمَالِيِّ، وَالْأُخْرَى فِي
مَهَبِّ الْجَنُوبِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَانَ فِي دَهْرٍ وَاحِدٍ؛
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا دَهْرٌ وَدَهْرٌ، قَالُوا: فَلَسْنَا نُنْكِرُ
الْمِسْخَ إِنْ كَانَ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَلَى

مجرى الطَّبَائِعِ، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقضٍ لقولنا، ولا مثبتٍ لقولكم، قال أبو إسحاق: الذي قُلتُم ليس بمُحالٍ، ولا يُنكَرُ أن يحدثَ في العالمِ برهاناتٌ، وذلك المِسْخُ كان على مجرى ما أعطوا من سائرِ الأعاجيب، والدلائلِ والآياتِ، ونحن إنما عرفنا ذلك من قِبَلِهِمْ، ولولا ذلك لكان الذي قُلتُم غيرُ ممتنعٍ، ولو كان ذلك المِسْخُ في هذا الموضعِ على ما ذكرتم، ثمَّ خبر بذلك نبيٌّ، أو دَعَا بِهِ نبيٌّ، لكان ذلك أعظمَ الحُجَّةِ، فأما أبو بكر الأصمُّ، وهشام بن الحكم، فإنَّهُما كانا يقولانِ بالقلبِ، ويقولانِ: إنَّهُ إذا جاز أن يقلبَ اللهُ خَرْدَلَةً من غيرِ أن يزيدَ فيها جسماً وطولاً أو عرضاً جاز أن يقلبَ ابنَ آدمَ قِرْدًا من غيرِ أن ينقصَ من جسمه طولاً أو عرضاً.

وأما أبو إسحاق فقد كان لولا ما صحَّ عنده من قول الأنبياءِ وإجماعِ المسلمين على أنَّه قد كان، وأنَّه قد كان حُجَّةً وبرهاناً في وقته لكان لا ينكرُ مذهبهم في هذا الموضعِ، وقوله هذا قولُ جميعِ من قال بالطَّبائِعِ، ولم يذهبْ مذهبَ جهمٍ، وحفصِ القُرْدِ.

وقال ابنُ العنسيِّ يذكرُ القردَ:

فَهَلَّا عَدَاةَ
الرَّمْلِ يَا قِرْدَ
حَدِيمٍ

تَوَامِرُهَا فِي
نَفْسِهَا
تَسْتَشِيرُهَا

القول في تحريم الخنزير قال: وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألة؛ فمنهم من أراد الطعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم من أحب أن يعرف ذلك من جهة الفتيا؛ إذ كان قوله خلاف قولنا.

قالوا: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ"، فذكر اللَّحْمَ دُونَ الشَّحْمِ، ودُونَ الرَّأْسِ، ودُونَ الْمَخِّ، ودُونَ الْعَصَبِ، ودُونَ سَائِرِ أَجْزَائِهِ؛ ولم يذكره كما ذكر الْمَيْتَةَ بِأَسْرَها، وَكَذَلِكَ الدَّمُّ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ وَقَعَ عَلَى جَمَلْتَهُمَا، فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ خِصَالِهِمَا بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْعُمُومُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْخِنْزِيرِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ اللَّحْمَ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَلَيْسَ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّحْمِ وَالْعِظْمِ فَرْقٌ، وَلَا بَيْنَ اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ فَرْقٌ، وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي فِي قِيَاسِكُمْ هَذَا لَوْ قَالَ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَشَحْمُ الْخِنْزِيرِ، أَنْ تَحَرَّمُوا الشَّحْمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّحْمَ، فَلِمَ حَرَّمْتُمُ الشَّحْمَ؛ وَمَا بِالْكُفِّ؛ تَحَرَّمُونَ الشَّحْمَ عِنْدَ ذِكْرِ غَيْرِ الشَّحْمِ فَهَلَّا حَرَّمْتُمُ

اللَّحْمَ بِالْكِتَابِ، وَحَرَّمَ مَا سِوَاهُ بِالْخَبْرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ؟
فَإِنْ بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَوْ خَصْلَتَانِ مِمَّا لَمْ تُصِيبُوا ذِكْرَهُ فِي
كِتَابٍ مَنْزَّلٍ، وَفِي أَثَرٍ لَا يُدْفَعُ، رَدَدْتُمُوهُ إِلَى جِهَةِ الْعَقْلِ،
قُلْنَا: إِنَّ النَّاسَ عَادَاتٍ، وَكَلَامًا يَعْرِفُ كُلُّ شَيْءٍ بِمَوْضِعِهِ،
وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ اسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ، وَانْتِفَاعِهِمْ بِهِ، وَقَدْ
يَقُولُ الرَّجُلُ لَوَكِيلِهِ: اشْتَرِ لِي بِهَذَا الدِّينَارِ لَحْمًا، أَوْ بِهَذِهِ
الدِّرَاهِمِ، فَيَأْتِيهِ بِاللَّحْمِ فِيهِ الشَّحْمُ وَالْعَظْمُ، وَالْعِرْقُ
وَالعَصَبُ وَالغُضْرُوفُ، وَالْفُؤَادُ وَالطَّحَالُ، وَالرَّئَةَ،
وَببَعْضِ أَسْقَاطِ الشَّاةِ وَحَشْوِ الْبَطْنِ، وَالرَّأْسِ لَحْمًا،
وَالسَّمَكِ أَيْضًا لَحْمًا، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ
الْبَحْرَ لِيَتَأْكَلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً
تَلْبَسُونَهَا"، فَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ ذَهَبَ إِلَى الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ
ذَلِكَ، وَتَرَكَ بَعْضَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ لَحْمٍ، فَقَدْ أَخَذَ بِمَا
عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، فَإِذَا قَالَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ لَحْمًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ:
لَحْمِ الشَّاةِ وَالْبَقْرَةِ وَالْجُزُورِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: أَكَلْتُ
لَحْمًا وَإِنَّمَا أَكَلْتُ رَأْسًا أَوْ كَبِدًا أَوْ سَمَكًا لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا،
وَلِلنَّاسِ أَنْ يَضَعُوا كَلَامَهُمْ حَيْثُ أَحَبُّوا، إِذَا كَانَ لَهُمْ
مَجَازٌ؛ إِلَّا فِي الْمَعَامَلَاتِ، فَإِنْ قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِي الْجِلْدِ؟
فَلَيْسَ لِلْخَنزِيرِ جِلْدٌ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ جِلْدٌ إِلَّا بِقِطْعِ

ما ظهر لك منه بما تحته، وإنما الجلد ما يُسْلَخُ ويُدَحَسُ
فيتبرأ ممّا كان به مُلتزقاً ولم يكن مُلتحماً، كفرق ما بين
جلد الحَوْصَلَة والعَرَقِين.

فإن سألْتَ عن الشَّعر، وعن جلد المُنْحَنِقَة والمَوْقُودَة
والمتردِّية والنَّطِيحة وما أكل السَّبُع، فإني أزعم أن جلده
لا يُدْبَعُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا الْأَسَاكِفَة، والقول في ذلك أن كلَّه
محرّم، وإنما ذلك كقوله تعالى: "وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُوهُ" وكقوله عَزَّ وَجَلَّ: "وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ
ذلكَ عَدَاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" والعربُ تقول للرجل الصانع
نَجَّاراً، إن كان لا يعمل بالمثقبِ والمنشارِ ونحوه ولا
يضرب بالمضلعِ ونحو ذلك، وتسميه خبَّازاً إذا كان يطبخ
ويعجن، وتسمي العيرَ لطيمة، وإن لم يكن فيها ما يحمل
العِطْرَ إِلَّا واحد، وتقول: هذه ظُعنُ فلانٍ؛ للهوداج إذا
كانت فيها امرأةٌ واحدة، ويقال: هولاء بنو فلان؛ وإن
كانت نساؤهم أكثرَ من الرجال، فلما كان اللحم هو العمود
الذي إليه يُقصد، وصار في أعظم الأجزاء قنراً، دَخَلَ
سائرُ تلك الأجزاء في اسمه، ولو كان الشَّحمُ معتزلاً من
اللحمِ ومفرداً في جميع الشَّحام، كشحوم الكلى والثُّروب،
لم يجز ذلك، وإذا تكلمت على المفردات لم يكن المخُّ

لحماً، لا الدِّماغ، ولا العظم، ولا الشَّحم، ولا العُضروف،
ولا الكروش، ولا ما أشبه ذلك، فلما قال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ" وكانت هذه الأشياء المشبَّهة
باللَّحْم تدخل في باب العموم في اسم اللحم، كان القولُ
واقعاً على الجميع.
وقال الشاعر:

فَالهَامُ مَنْضَجَةٌ
لَدَى الشَّحَامِ

مَنْ يَأْتِيَنَّ صُبْحاً
يُرِيدُ عَدَاءَنَا

يُؤْتِي بِهِ مِنْ قَبْلِ
كُلِّ طَعَامٍ

لَحْمٌ نَضِيجٌ لَا
يُعْنِي طَبْخاً

مسألة الهدد وإذ قد ذكرنا بعض الكلام، والمسائل في
بعض الكلام، فسنذكر شأن الهدد والمسألة في ذلك، قال
الله عزَّ وجلَّ: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ
كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً أَوْ لَأُدْبِجَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ" ثم قال: "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ" يعني الهدد،
فقال لسليمان المتوعد له بالدَّبْحِ عُقُوبَةً لَهُ وَالْعُقُوبَةُ لَا
تَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمَعْصِيَةِ لِبَشَرِيٍّ آدَمِيٍّ لَمْ تَكُنْ عُقُوبَتَهُ

الدَّبْح، فدلّ ذلك على أنّ المعصية إنما كانت له، ولا يكون المعصية لله إلاّ ممّن يعرف الله، أو ممّن كان يمكنه أن يعرف الله تعالى فتَرَكَ ما يجبُ عليه من المعرفة وفي قوله لسليمان: "أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجَنَّتْكَ مِنْ سَبَأَ نَبِيًّا يَقِين، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"، ثمّ قال بعد أن عرفَ فصل ما بين الملوك والسُّوقَة، وما بين النساء والرجال، وعرفَ عِظَمَ عرشِها، وكثرة ما أُوتيت في ملكها، قال: وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ فَعَرَفَ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ وَأَنكَرَ المَعَاصِي، ثمّ قال: "أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ" ويتعجّب من سجودهم لغير الله، ثمّ علم أنّ الله يعلم غيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ويعلم السِّرَّ والعلانية، ثمّ قال: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ" وهذا يدلُّ على أنّه أعلمُ من ناسٍ كثيرٍ من المميّزين المستدلّين الناظرين.

قال سليمان: سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ ثمّ قال: "أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا

يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ
مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ
وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ". "فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونِي بِمَالٍ
فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ".
وذلك أنها قالت: إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذًى وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَاظْرَبْ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ
لِلْهَدُودِ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذًى وَهُمْ صَاغِرُونَ وَقَالَ: "يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عَفْرَيْتُ
مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ
لِقَوِيٍّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا
مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ" فطعن في
جميع ذلك طاعنون، فقال بعضهم: قد ثبت أن الهدد
يحتمل العقاب والعتاب، والتكليف والثواب، والولاية،
ودخول الجنة بالطاعة، ودخول النار بالمعصية؛ لأن
المعرفة تُوجب الأمر والنهي، والأمر والنهي يوجبان

الطاعة والمعصية، والطاعة والمعصية يوجبان الولاية
والعداوة، فينبغي للهادد أن يكون فيها العدو والولي،
والكافر والمسلم، والزنديق والدّهري. وإذا كان حكم
الجنس حكماً واحداً لزم الجميع ذلك، وإن كان الهدد لا
يبلغ عند جميع الناس في المعرفة مبلغ الذرة، والنملة،
والقملة، والفيل، والقرد، والخنزير، والحمام وجميع هذه
الأمم، تُقدّمها عليه في المعرفة فينبغي أن تكون هذه
الأصناف المتقدّمة عليه، في عقول هذه الأمة والأنبياء،
وقد رأينا العلماء يتعجبون من خرافات العرب والأعراب
في الجاهليّة ومن قولهم في الديك والغراب، ويتعجبون
من الرواية في طوق الحمام فإن الحمام كان رائد نوح
على نبينا وعليه السلام، وهذا القول الذي تؤمنون به في
الهدد، من هذا النوع، قلنا: إن الله تعالى لم يقل: وتفقّد
الطير فقال ما لي لا أرى ههدداً من عرض الهداد، فلم
يوقع قوله على الهداد جملة، ولا على واحد منها غير
مقصود إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامّة، ولكنه قال:
"وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهدد" فأدخل في
الاسم الألف واللام، فجعله معرفة فدلّ بذلك القصد على
أنه ذلك الهدد بعينه، وكذلك غراب نوح، وكذلك حمام

عزير، وكذلك ذنب أهبان بن أوس؛ فقد كان لله فيه
وفيها تدبيرٌ، وليجعل ذلك آيةً لأنبيائه، وبرهاناً
لرسله، ولا يستطيع عقلُ الناس أن يعملَ عملَ أجرِ
النَّاسِ، كما لا يستطيع أجرُ النَّاسِ أن يعملَ أعمالَ عقلِ
النَّاسِ، فبأعمال المجانينِ والعُقلاءِ عرفنا مقدارهما من
صحة أذهانهما وفسادها، وباختلاف أعمالِ الأطفالِ
والكهول عرفنا مقدارهما في الضعف والقوة، وفي
الجهل والمعرفة، وبمثل ذلك فصلنا بين الجماد
والحيوان، والعالمِ وأعلمَ منه، والجاهلِ وأجهلَ منه، ولو
كان عند السَّباعِ والبهائم ما عند الحكماء والأدباء،
والوزراء والخلفاء والأممِ والأنبياء، لأثمرت تلك العقول،
باضطرار، إثمار تلك العقول، وهذا بابٌ لا يخطئ فيه إلا
المانيةُ وأصحابُ الجهالات فقط، فأما عوامُ الأمم، فضلاً
عن خواصهم، فهم يعلمون من ذلك مثل ما نعلم، وإنما
يُتفاضل بالبيان والحفظ، وبنسق المحفوظ، فأما المعرفة
فنحن فيها سواء، ولم نعرف العقلَ وعدامه ونقصانه،
وإفادته، وأقدارَ معارفِ الحيوانِ إلا بما يظهر منها،
وبتلك الأدلة عرفنا فرقَ ما بين الحيِّ والميت، وبين
الجماد والحيوان، فإن قال الخصم: ما نعرف كلامَ الذئب،

ولا معرفة الغراب، ولا علم الهدد، قلنا: نحن ناسٌ
نؤمن بأنَّ عيسى عليه السلام خُلِقَ من غير ذكرٍ وإنما
خُلِقَ من أنثى؛ وأنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ خُلِقَا من غير ذكرٍ وأنثى،
وأنَّ عيسى تكلم في المهد، وأنَّ يحيى بن زكريَّا نطق
بالحكمة في الصِّبا، وأنَّ عقيماً ألقح، وأنَّ عاقراً ولدت؛
وبأشياء كثيرة خرجت خارجةً من نسقِ العادة، فالسبب
الذي به عرفنا أنه قد كان لذلك الهدد مقدارٌ من
المعرفة، دون ما توهمتم وفوق ما مع الهدد، ومتى
سألتمونا عن الحجَّة فالسبيل واحدة، ونحن نقرُّ بأنَّ مَنْ
دخل الجنة من المجانين والأطفال يدخلون عقلاءً كاملين،
من غير تجاربٍ وتمارين وترتيب، فمسألتكم عما ألهم
الهدد، هي المسألة عمَّا ألهم الطفل في الجنة، فإن قال
قائل: فإنَّ كان ذلك القول كُله، الذي كان من الهدد، إنما
كان على الإلهام والتسخير، ولم يكن ذلك عن معرفة
منه، فلم قال: "لأعدبته عذاباً شديداً أو لأدبخته"؟ قلنا:
فإنه قد يتوعد الرجل ابنه وهو بعد لم يجر عليه الأحكام
بالضرب الوجيع، إن هو لم يأت السوق، أو يحفظ سورة
كذاً وكذا؛ فلا يعنفه أحدٌ على ذلك الوعيد، ويكذب
فيضربه على الكذب، ويضرب صبيّاً فيضربه لأنه ضربه،

وهو في ذلك قد حَسُنَ خَطُّه، وجاد حسابُه، وشَدَا من
النَّحو والعروض والفرائض شَدْوًا حَسَنًا، ونفع أهله،
وتَعَلَّمَ أعمالًا، وتكَلَّمَ بِلُغَامٍ، و أجاب في الفتيا بكلامٍ فَوْقَ
معاني الهدهد في اللطافة وَالْغَمُوضِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ
يَكْمُلْ لِاحْتِمَالِ الْفَرَضِ وَالْوَلَايَةِ وَالْعِدَاوَةِ، فَإِنْ قَالَ: فَهَلْ
يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ لِابْنِهِ: إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِ السُّوقَ ذَبْحَتِكَ؛
وَهُوَ جَادٌ؟ قُلْنَا: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا جاز ذلك في
الهدهد لأنَّ سليمانَ وَمَنْ هُوَ دُونَ سليمانَ مِنْ جَمِيعِ
العالم له أن يذبح الهدهد والحمامَ والديك، والعنَّاق
والجدِّي، والذَّبْحُ سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ مَنَائِمِهِمْ، فَلَوْ ذَبَحَهُ
سليمانُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَدْرِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَإِلَّا
بِقَدْرِ صَرَفٍ مَا بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ حَتْفَ أَرْغَمِهِ، أَوْ يَمُوتَ
بِالذَّبْحِ، وَلَعَلَّ صَرَفًا مَا بَيْنَهُمَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَقْدَارِ أَلْمِ
عِشْرِينَ دِرَّةً، وَلَعَلَّ نَتْفَ جَنَاحِهِ يَفِي بِذَلِكَ الضَّرْبِ، وَإِذَا
قُلْنَا ذَلِكَ فَقَدْ أَعْطَيْنَا ذَلِكَ الْهَدَّهِدَ بَعِينَهُ حَقًّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ
الآيَةُ، وَلَمْ نَجْزُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْهَدَاهِدِ، وَلَمْ نَكُنْ كَمَنْ
يُنْكَرُ قَدْرَةَ اللَّهِ عَلَى أَنْ يُرَكَّبَ عَصْفُورًا مِنَ الْعَصَافِيرِ
ضَرْبًا مِنَ التَّرَاكِيِبِ يَكُونُ أَدْهَى مِنْ قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ، وَلَوْ
كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالْعَصَافِيرِ لَظَهَرَتْ كَذَلِكَ دَلَائِلُ،

على أنَّا لو تأوَّلنا الدَّبْحَ على مثالِ تأويلِ قولنا في ذُبْحِ
إبراهيمَ إسماعيلَ عليهما السلام - وإنما كان ذلك ذبْحاً
في المعنى لغيره أو على معنى قول القائل: أمَّا أنا فقد
ذبحتُه وضربت عنقه، ولكن السيف خانني، أو على
قولهم: المِسْكُ الدَّبِيحُ، أو على قولهم: فجئت وقد ذَبَحَنِي
العطش لكان ذلك مجازاً، ولو أنَّ صَبِيّاً مِنْ صَبِياننا سُنل،
قبل أن يبلُغَ فرضَ البلوغِ بساعة، وكان رأى مَلِكَةٍ سَبِيّاً
في جميعِ حالاتها، لما كان بعيداً ولا ممتنعاً أن يقول:
رأيتُ امرأةً مَلِكَةً، ورأيتها تسجُدُ للشَّمْسِ من دونِ الله،
ورأيتها تُطِيعُ الشَّيْطَانَ وتَعْصِي الرَّحْمَنَ، ولا سيما إنَّ
كانَ من صَبِيانِ الخلفاءِ والوزراءِ، أو مِنْ صَبِيانِ
الأعرابِ، والدَّلِيلُ على أنَّ ذلك الهدهدُ كان مسخراً
وميسراً، مَضِيَّهُ إلى اليمنِ، ورجوعُه من ساعته، ولم
يكن من الطَّيرِ القواطعِ فرجع إلى وكره، والدَّلِيلُ على
ذلك أنَّ سليمانَ عليه السلام لم يقل: نعم قد رأيت كلَّ ما
ذُكِرَتْ، وأنت لم تعلم حين مضيت بطلاً هارباً من العملِ،
أَتُكْذِبُ أم تنجح، أو ترى أعجوبةً أو لا تراها، ولكنَّهُ
توعَّدُه على ظاهر الرأْيِ، ونافره القول؛ ليُظْهِرَ الآيَةَ
والأعجوبةَ. ناق والجذْيِ، والدَّبْحُ سبيلٌ من سُبُلِ منايهم،

فلو ذبحة سليمان لم يكن في ذلك إلا بقدر التّقديم
والتأخير، وإلا بقدر صرف ما بين أن يموت حتف أنفه،
أو يموت بالدبح، ولعلّ صرف ما بينهما لا يكون إلا
بمقدار ألم عشرين درّة، ولعلّ نتف جناحه يفى بذلك
الضرب، وإذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدد بعينه حقّ
ما دلّت عليه الآية، ولم نجز ذلك في جميع الهداهد، ولم
نكن كمن ينكر قدرة الله على أن يركب عصفوراً من
العصافير ضرباً من التراكيب يكون أدهى من قيس بن
زهير، ولو كان الله تعالى قد فعل ذلك بالعصافير لظهرت
كذلك دلائل، على أننا لو تأولنا الدبح على مثال تأويل
قولنا في ذبح إبراهيم إسماعيل عليهما السلام - وإنما
كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره أو على معنى قول القائل:
أما أنا فقد ذبحته وضربت عنقه، ولكن السيف خانني، أو
على قولهم: المسك الدبّيح، أو على قولهم: فجئت وقد
ذبّني العطش لكان ذلك مجازاً، ولو أنّ صبيّاً من
صبياننا سئل، قبل أن يبلغ فرض البلوغ بساعة، وكان
رأى ملكة سبياً في جميع حالاتها، لما كان بعيداً ولا
ممتعاً أن يقول: رأيت امرأة ملكة، ورأيتها تسجد
للشمس من دون الله، ورأيتها تطيع الشيطان وتعصي

الرَّحْمَن، وَلَا سِيْمَا إِنْ كَانَ مِنْ صِبْيَانِ الْخُلَفَاءِ وَالْوُزَرَاءِ،
أَوْ مِنْ صِبْيَانِ الْأَعْرَابِ، وَالذَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْهَدَاهُ كَانَ
مَسْحَرًا وَمَيْسَّرًا، مَضِيَّهُ إِلَى الْيَمَنِ، وَرَجُوعُهُ مِنْ سَاعَتِهِ،
وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الطَّيْرِ الْقَوَاعِجِ فَرَجَعَ إِلَى وَكْرِهِ، وَالذَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ: نَعَمْ قَدْ رَأَيْتُ
كُلَّ مَا ذَكَرْتِ، وَأَنْتِ لَمْ تَعْلَمْ حِينَ مَضَيْتِ بَطَّالًا هَارِبًا مِنْ
الْعَمَلِ، أَتُكْذِبِي أَمْ تَنْجِحِي، أَوْ تَرَى أُعْجُوبَةً أَوْ لَا تَرَاهَا،
وَلَكِنَّهُ تَوَعَّدُهُ عَلَى ظَاهِرِ الرَّأْيِ، وَنَافِرِهِ الْقَوْلِ؛ لِيُظْهِرَ
الآيَةَ وَالْأَعْجُوبَةَ.

طَعَنَ الدَّهْرِيَّةَ فِي مَلِكِ سُلَيْمَانَ ثُمَّ طَعَنَ فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ
وَمَلِكَةِ سَبَا، نَاسٌ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ، وَقَالُوا: زَعَمْتُمْ أَنَّ سُلَيْمَانَ
سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي
لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي" وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ ذَلِكَ، فَمَلَّكَهُ عَلَى
الْجِنِّ فَضْلًا عَنِ الْإِنْسِ، وَعَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسَخَّرَ لَهُ
الرِّيْحَ، فَكَانَتْ الْجِنُّ لَهُ خَوْلًا، وَالرِّيْحُ لَهُ مَسْحَرَةٌ ثُمَّ
زَعَمْتُمْ وَهُوَ إِمَّا بِالشَّرْمِ وَإِمَّا بِسَوَادِ الْعِرَاقِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ
بِالْيَمَنِ مَلِكَةً هَذِهِ صِفَتُهَا، وَمَلُوكُنَا الْيَوْمَ دُونَ سُلَيْمَانَ فِي
الْقُدْرَةِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ صَاحِبُ الْخَزْرِ، وَلَا صَاحِبُ
الرُّومِ، وَلَا صَاحِبُ التُّرْكِ، وَلَا صَاحِبُ النُّوبَةِ، وَكَيْفَ

يجهل سليمان موضع هذه الملكة، مع قرب دارها
وأتصال بلادها وليس دونها بحار ولا أوعار؛ والطريق
نهج للخف والحافر والقدم، فكيف والجن والإنس طوع
يمينه، ولو كان، حين خبره الهدد بمكانها، أضرب عنها
صفحاً، لكان لقائل أن يقول: ما أتاه الهدد إلا بأمر
يعرفه، فهذا وما أشبهه دليل على فساد أخباركم.
قلنا: إن الدنيا إذا خلاها الله وتدبير أهلها، ومجاري
أمورها وعاداتها كان لعمرى كما تقولون، ونحن نزعم
أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان أئمة أهل زمانه؛
لأنه نبي ابن نبي، وكان يوسف وزير ملك مصر من
النباهة بالموضع الذي لا يدفع، وله البرد، وإليه يرجع
جواب الأخبار، ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف، ولا
يوسف مكان يعقوب عليهما السلام - دهرًا من الدهور،
مع النباهة، والقدرة، وأتصال الدار وكذلك القول في
موسى بن عمران ومن كان معه في التيه، فقد كانوا أمّة
من الأمم يتكسعون أربعين عاماً، في مقدار فراسخ
يسيرة ولا يهتدون إلى المخرج، وما كانت بلاد التيه إلا
من ملاعبهم ومُنْتَرَهاتهم، ولا يعدم مثل ذلك العسكر
الأدلاء والجمالين، والمكارين، والفيوج، والرسل،

والتَّجَارِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ صَرَفَ أَوْهَامَهُمْ، وَرَفَعَ ذَلِكَ الْفُصْلَ
مِنْ صُدُورِهِمْ. وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ
السَّمْعَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، فَنَقُولُ: إِنَّهُمْ لَوْ كَانَ كَلِمَا أَرَادَ مُرِيدٌ
مِنْهُمْ أَنْ يَصْعَدَ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ رُجِمَ صَاحِبُهُ، وَأَنَّهُ كَذَلِكَ مَنْذُ
كَانَ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ أَحَدٌ إِلَى اسْتِرَاقِ السَّرْعِ، كَانَ مُحَالًا أَنْ
يُرِوَمَ ذَلِكَ أَحَدًا مِنْهُمْ مَعَ الذِّكْرِ وَالْعِيَانِ.

وَمِثْلَ ذَلِكَ أَنَا قَدْ عَلَّمْنَا أَنَّ إِبْلِيسَ لَا يَزَالُ عَاصِيًا إِلَى يَوْمِ
الْبَعْثِ، وَلَوْ كَانَ إِبْلِيسُ فِي حَالِ الْمَعْصِيَةِ ذَاكِرًا لِإِخْبَارِ اللَّهِ
تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَزَالُ عَاصِيًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ خَبْرَهُ صِدْقٌ، كَانَ
مُحَالًا أَنْ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْإِيمَانِ، وَيَطْمَعُ فِي ذَلِكَ، مَعَ
تَصَدِيقِهِ بِأَنَّهُ لَا يَخْتَارُ الْإِيمَانَ أَبَدًا.

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ وُجُودِ الْإِسْتِطَاعَةِ وَعَدَمِ
الدَّوَاعِي وَجَوَازِ الْفِعْلِ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَا
يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ، كَانَ مُحَالًا أَنْ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى
الْخُرُوجِ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، وَلَكِنْ إِبْلِيسُ لَمَّا كَانَ
مُصْرُوفَ الْقَلْبِ عَنِ ذِكْرِ ذَلِكَ الْخَبْرِ، دَخَلَ فِي حَدِّ
الْمُسْتَطِيعِينَ، وَمِثْلَ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لَمَّا بَشَرَهُ اللَّهُ بِالظَّفْرِ وَتَمَامِ الْأَمْرِ بِشَرِّ أَصْحَابِهِ بِالنَّصْرِ،
وَنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ كَانُوا لِذَلِكَ ذَاكِرِينَ فِي كُلِّ حَالٍ، لَمْ

يكن عليهم من المحاربة مؤونة، وإذا لم يتكلفوا المؤونة
لم يؤجروا، ولكن الله تعالى بنظره إليهم رفع ذلك في
كثير من الحالات عن أوهامهم؛ ليحتملوا مشقة القتال،
وهم لا يعلمون: أيغلبون أم يُغلبون؛ أو يقتلون أم
يُقتلون، ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف
نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم الرسول
بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه
لتكلفه، ولوتكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة
لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء
وأشباه النساء، ولألقي ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا
المحاكمة والتراخي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال،
فقد رأيت أصحاب مسيلمة، وأصحاب ابن النواحة إنما
تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام، الذي يعلم كل
من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه،
وتعاطى أن يقارنه، فكان لله ذلك التدبير، الذي لا يبلغه
العباد ولو اجتمعوا له، فإن كان الدهري يريد من
أصحاب العبادات والرسل، ما يريد من الدهري الصرف،
الذي لا يقدر إلا بما أوجده العيان، وما يجري مجرى
العيان فقد ظلم. وقد علم الدهري أننا نعتقد أن لنا رباً

يخترع الأجسام اختراعاً وأنه حي لا بحياة، وعالم لا
بعلم، وأنه شيء لا ينقسم، وليس بذى طول ولا عرض
ولا عمق، وأن الأنبياء تحيي الموتى، وهذا كله عند
الدهري مستنكر، وإنما كان يكون له علينا سبيل لو لم
يكن الذي ذكرنا جائزاً في القياس، واحتجنا إلى تثبيت
الرُّبوبيّة وتصديق الرّسالة، فإذا كان ذلك جائزاً، وكان
كوّنه غير مستنكر، ولا محال، ولا ظلم، ولا عيب، فلم
يبق له إلا أن يسألنا عن الأصل الذي دعا إلى التّوحيد،
وإلى تثبيت الرسل، وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنّه
صدّق، نظّمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما
سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به، وفيه
مسطور أنّ سليمان بن داود غبر حيناً وهو ميت معتمداً
على عصاه، في الموضع الذي لا يحجب عنه إنسي ولا
جني، والشياطين هم المكذوب بالعمل الشديد، ومنهم
المحبوس والمستعبد، وكانوا كما قال الله تعالى:
"يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ
كَالْجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" وقال "وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بِنَاءٍ
وَعَوَاصٍ، وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"، وأنه غبر كذلك
حيناً وهو تجاه أعينهم، فلا هم عرفوا سجيّة وجوه

الموتى، ولا هو إذ كان ميّتا سقط سقوط الموتى، وثبت
قائماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتة قائمة في يده،
وهو قابضٌ عليها، وليست هذه الصفة صفة موتانا،
وقال: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا
دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" ونحن
دون الشياطين والجن في صدق الحسن، ونفوذ البصر،
ولو كنا من بعض الموتى بهذا المكان، لما خفي علينا
أمره وكان أدنى ذلك أن نظنّ ورتاب، ومتى ارتاب قومٌ
وظنّوا وماجوا وتكلموا وشاوروا، لقتوا وثبتوا، ولا
سيّما إذا كانوا في العذاب ورأوا تباشير الفرج، ولولا
الصّرفة، التي يُلقيها الله تعالى على قلب من أحبّ، ولولا
أن الله يقدر على أن يشغل الأوهام كيف شاء، ويذكر بما
يشاء، ويبيّن ما يشاء، لما اجتمع أهل داره وقصره،
وسوره وربّضه، وخاصّته، ومن يخدمه من الجنّ
والإنس والشياطين، على الإطباق بأنّه حيّ، كذلك كان
عندهم، فحدث ما حدث من موته، فلمّا لم يشعروا به
كانوا على ما لم يزالوا عليه، فعلمنا أنّ الجنّ والشياطين
كانت تُوهم الأغبياء والعوامّ والحشوة والسفلة، أنّ

عندهما شيئاً من عِلْمِ الغيب والشياطين لا تعلم ذلك فأراد
الله أَنْ يَكْشِفَ مِنْ أَمْرِهِمَ لِلْجُهَّالِ مَا كَانَ كَشَفَهُ لِلْعُلَمَاءِ،
فبهذا وأشباهه من الأمور نحنُ إلى الإقرار به مضطرون
بالحجج الاضطراريَّةِ فليس لخصومنا حيلةٌ إلاَّ أَنْ
يوافقُونَا، وينظروا في العلة التي اضطرتنا إلى هذا
القول؛ فإن كانت صحيحةً فالصَّحِيحُ لا يُوجِبُ إلا
الصحيح، وإن كانت سقيمةً عَلِمْنَا أَنَّمَا أُتِينَا مِنْ تَأْوِيلِنَا،
وأما قوله: "لَأُعَذِّبَنَّه" فَإِنَّ التعذيبَ يكونُ بالحبس، كما
قال الله عزَّ وجلَّ: "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ"، وَإِنَّمَا كَانُوا مُخَيِّسِينَ، وقد يقول العاشق
لمعشوقته: يَا مَعْدَبْتِي وَقَدْ عَذَّبْتِي وَمِنَ الْعَذَابِ مَا يَكُونُ
طَوِيلًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ قَصِيرَ الْوَقْتِ، وَلَوْ خَسَفَ اللَّهُ
تَعَالَى بِقَوْمٍ فِي أَقَلِّ مِنْ عَشْرِ سَاعَةٍ لَجَازَ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ:
كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ أَحَلَّ اللَّهُ عَذَابَهُ وَنَقَمَتَهُ بِبِلَادِ كَذَا وَكَذَا.
يُخْذِمُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ، عَلَى الْإِطْبَاقِ بِأَنَّهُ
حَيٌّ، كَذَلِكَ كَانَ عِنْدَهُمْ، فَحَدَّثَ مَا حَدَّثَ مِنْ مَوْتِهِ، فَلَمَّا لَمْ
يَشْعُرُوا بِهِ كَانُوا عَلَى مَا لَمْ يَزَالُوا عَلَيْهِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْجِنَّ
وَالشَّيَاطِينِ كَانَتْ تُوهِمُ الْأَعْبِيَاءَ وَالْعَوَامَّ وَالْحُسُوءَةَ
وَالسَّفَلَةَ، أَنَّ عِنْدَهُمَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّيَاطِينِ لَا

تعلم ذلك فأراد الله أَنْ يكشف من أمرهم للجُهال ما كان
كشّفه للعلماء، فهذا وأشباهه من الأمور نحنُ إلى
الإقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية فليس
لخصومنا حيلةٌ إلا أن يواقفوناً، وينظروا في العلة التي
اضطرتنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحةً فالصحيح لا
يوجب إلا الصحيح، وإن كانت سقيمةً علمنا أننا أتينا من
تأويلنا، وأما قوله: "لأعدبته" فليّن التعذيب يكون
بالحبس، كما قال الله عزّ وجلّ: "لو كانوا يعلمون الغيب
ما لبثوا في العذاب المهين"، وإنما كانوا مخيّسين، وقد
يقول العاشق لمعشوقته: يا معدّبتى وقد عدّبتني ومن
العذاب ما يكون طويلاً، ومنه ما يكون قصيراً الوقت، ولو
خسّف الله تعالى بقوم في أقلّ من عشر ساعة لجاز لقائل
أن يقول: كان ذلك يوم أحلّ الله عذابه ونقمته ببلاد كذا
وكذا.

قوة الخنزير وشدة احتماله وقال أبو ناصرة: الخنزير
ربّما قتل الأسد، وما أكثر ما يلحق بصاحب السيف
والرمح، فيضربه بنابه، فيقطع كلّ ما لقيه من جسده:
من عظم وعصب، حتى يقتله، وربّما احتال أن ينبطح
على وجهه على الأرض، فلا يغني ذلك عنه شيئاً: وليس

لشيءٍ من الحيوان كاحتمال بدنه لوقوع السهام، ونفوذها فيه.

بعض طباع الخنزير وهو مع ذلك أروغ من ثعلب، إذا أراده الفارس، وإذا عدا أطمع في نفسه كل شيء، وإذا طوبأ أعياء الخيل العتاق، والخنزير مع ذلك أنسل الخلق؛ لأن الخنزيرة تصنع عشرين خنوصاً، وهو مع كثرة إنساله من أقوى الفحول على السفاد، ومع القوة على السفاد هو أطولها مكنأ في سفاده، فهو بذلك أجمع للفحولة، وإذا كان الكلب والذئب موصوفين بشدة القلب؛ لطول الخطم، فالخنزير أولى بذلك، وللليل ناب عجيب، ولكنة لقصر عنقه لا يبلغ الناب مبلغاً، وإنما يستعين بخرطوميه، وخرطوميه هو أنفه، والخطم غير الخرطوم. ما قيل في طيب لحمه وإهالته قال أبو ناصرة: وله طيب، وهو طيب لحمه ولحم أولاده، وإذا أرادوا وصف اختلاط ودك الكركي في مرق طبيخ، قالوا كأن إهالته إهالة خنزير؛ لأنه لا يسرع إليها الجمود، وسرعة جمود إهالة الماعز في الشتاء عيب، وللضأن في ذلك بعض الفضيلة على الماعز؛ ولا يلحق بالخنزير.

قبول عظم الخنزير للالتحام بعظم الانسان وإذا نقص من

الإنسان عَظْمٌ وَاحْتِيجَ إِلَى صَلْتِهِ فِي بَعْضِ الْأَمْرَاضِ لَمْ
يَلْتَحِمَ بِهِ إِلَّا عَظْمُ الْخَنْزِيرِ. صَوْتُ الْخَنْزِيرِ وَإِذَا ضُرِبَ
فَصَاحَ لَمْ يَكُنِ السَّمَاعُ يَفْصِلُ بَيْنَ صَوْتِهِ وَبَيْنَ صَوْتِ
صَبِيٍّ مَضْرُوبٍ.

طِيبَ لَحْمِهِ وَفِي إِطْبَاقِ جَمِيعِ الْأُمَمِ عَلَى شَهْوَةِ أَكْلِهِ
وَاسْتِطَابَةِ لَحْمِهِ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ لغيرِهِ.

زعم المجوس في المنخنقة ونحوها

والمجوس تزعم أَنَّ الْمُنْخَنِقَةَ وَالْمَوْقُودَةَ وَالْمُتَرَدِّيَةَ، وَكُلَّ
مَا اغْتَبَطَ وَلَمْ يَمِتْ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَهُوَ أَطِيبٌ لَحْمًا وَأَحْلَى؛
لَأَنَّ دَمَهُ فِيهِ، وَالدَّمُ حُلُوٌّ دَسِيمٌ، وَإِنَّمَا عَافَهُ مَنْ عَافَهُ مِنْ
طَرِيقِ الْعَادَةِ وَالذَّيَانَةِ، لَا مِنْ طَرِيقِ الْإِسْتِقْدَارِ وَالزُّهْدِ
الَّذِي يَكُونُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ.

اِخْتِلَافَ مِيلِ النَّاسِ إِلَى الطَّعَامِ وَقَدْ عَافَ قَوْمٌ الْجَرِيَّ
وَالضَّبَّابَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَشَغِفَ بِهِ آخَرُونَ، وَقَدْ كَانَتْ
الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَأْكُلُ دَمَ الْفِصْدِ، وَتَفْضَلُ طَعْمَهُ،
وَتُخْبِرُ عَمَّا يورثُ مِنَ الْقُوَّةِ، قَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَحْسَنُ مِنَ
الدَّمِ، وَهَلِ اللَّحْمُ إِلَّا دَمٌ اسْتَحَالَ كَمَا يَسْتَحِيلُ اللَّحْمُ
شَحْمًا؟ وَلَكِنَّ النَّاسَ إِذَا ذَكَرُوا مَعْنَاهُ، وَمَنْ أَيْنَ يَخْرُجُ

وكيف يخرج، كان ذلك كاسراً لهم، ومانعاً من شهوته.
بعض ما يغير نظر الإنسان إلى الأشياء وكيف حال النار
في حسنها، فإنه ليس في الأرض جسم لم يصبغ أحسن
منه، ولولا معرفتهم بقتلها وإحراقها وإتلافها، والألم
والحرقة المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحسن عندهم،
وإنهم ليرَوْنَهَا في الشتاءِ بغير العيون التي يرونها بها
في الصيف، ليس ذلك إلا بقدر ما حدث من الاستغناء
عنها، وكذلك جلاء السيف؛ فإن الإنسان يستحسن قد
السيف وخرطه، وطبعه وبريقه، وإذا ذكر صنيعة والذي
هبي له، بدا له في أكثر ذلك، وتبدل في عينه، وشغله
ذلك عن تأمل محاسنه، ولولا علم الناس بعبادة الحيات
لهم، وأنهما وحشية لا تأنس ولا تقبل أدباً، ولا ترعى
حق تربية، ثم رأوا شيئاً من هذه الحيات، البيض،
المنقشة الظهر لَمَّا بَيَّتُوها ونوموها إلا في المهد، مع
صبيانهم.

ردُّ على من طعن في تحريم الخنزير فيقال لصاحب هذه
المقالة: تحريم الأغذية إنما يكون من طريق العبادة
والمحنة، وليس أنه جوهر شيء من المأكول يوجب
ذلك، وإنما قلنا: إننا وجدنا الله تعالى قد مسح عبادة من

عباده في صُورِ الخنزيرِ دونَ بقيةِ الأجناسِ، فعلمنا أنه
لم يفعلْ ذلكَ إلاّ لأُمورِ اجتمعتْ في الخنزيرِ، فكان المسخ
على صورته أبلغَ من التَّنكيلِ، لم نقلْ إلاّ هذا.

القرد

طباع القرد والقرد يضحك ويطرب، ويقعي ويحكي،
ويتناول الطعامَ بيديه ويضعه في فيه، وله أصابعُ
وأظفار، وينقي الجوز، ويأنس الأُنسَ الشَّدِيدَ، ويلقنُ
بالتلقين الكثير، وإذا سقط في الماء غرق ولم يسبح؛
كالإنسانِ قبلَ أن يتعلَّم السَّباحةَ، فلم تجد النَّاسُ للذي
اعترى القردَ من ذلكَ دونَ جميعِ الحيوانِ علةً إلاّ هذه
المعاني التي ذكرتها، من مناسبةِ الإنسانِ من
قبليها، ويحكي عنه من شدةِ الزَّواجِ، والغيرةِ على
الأزواجِ، ما لا يحكى مثله إلاّ عن الإنسانِ؛ لأنَّ الخنزيرَ
يغارُ، وكذلك الجملُ والفرسُ، إلاّ أنها لا تزواجُ، والحمارُ
يغارُ ويحكي عانتَهُ الدهرُ كُلَّهُ، ويضربُ فيها كضربه لو
أصابَ أتانا من غيرها، وأجناسُ الحمامِ تزواجُ ولا تغارُ،
واجتمعَ في القردِ الزَّواجُ والغيرةُ، وهما خصلتانِ
كريمتانِ، واجتماغهما من مفاخرِ الإنسانِ على سائرِ

الحيوان، ونحن لم نرَ وجهَ شيءٍ غيرِ الإنسانِ أشبهَ
صورةً وشبهاً، على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبهَ فماً
ووجهاً بالإنسان من القرد، ورُبّما رأينا وجهَ بعضِ
الحمير إذا كان ذا خَطْمٍ، فلا نجدُ بينَهُ وبينِ القردِ إلاَّ
اليسيرَ.

أمثال في القرد وتقول الناس: أكيسُ من قِشَّةٍ وأملحُ من
رُبّاحٍ ولم يقل أحد: أكيس من خنزير، وأملحُ من
خنوص، وهو قول العامة: القرد قبيحٌ ولكنه مليح.
كف القرد وأصابعه وقال النَّاسُ في الضَّبِّ: إنه مسخٌ،
وقالوا: أنظر إلى كفه وأصابعه، فكفَّ القرد وأصابعه
أشبههُ وأصنعُ، فقَدِّمَتِ القردَ على الخنزير من هذا الوجه.
علة تحريم لحم الخنزير وأما القولُ في لحمه، فإننا لم
نزعَمْ أنَّ الخنزيرَ هو ذلك الإنسانُ الذي مُسخ، ولا هو
من نسله، ولم ندعْ لحمهُ من جهة الاستقدارِ لشهوته في
العذرة، ونحن نجد الشبوط والجري، والدجاج، والجراد،
يشاركُنه في ذلك ولكن للخصال التي عددنا من أسباب
العبادات، وكيف صار أحقَّ بأن تمسح الأعداءُ على
صورته في خلقته.

حديث عبيد الكلابي قال: وقلت مرّةً لعبيد الكلابي وأظهرَ

مِنْ حُبِّ الْإِبْلِ وَالشَّعْفِ بِهَا مَا دَعَانِي إِلَى أَنْ قُلْتُ لَهُ:
أَبِينَهَا وَبَيْنَكُمْ قَرَابَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، لَهَا فِينَا حُؤُولَةٌ، إِنِّي وَاللَّهِ
مَا أَعْنِي الْبَخَاتِيَّ، وَلَكِنِّي أَعْنِي الْعَرَابَ، الَّتِي هِيَ أَعْرَبُ
قُلْتُ لَهُ: مَسَّحَكَ اللَّهُ تَعَالَى بَعِيرًا قَالَ: اللَّهُ لَا يَمَسُّحُ
الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَةٍ كَرِيمٍ، وَإِنَّمَا يَمَسُّحُهُ عَلَى صُورَةِ
لَيْئِمٍ، مِثْلَ الْخَنْزِيرِ ثُمَّ الْقَرْدِ، فَهَذَا قَوْلُ أَعْرَابِيٍّ جِئْفٍ تَكَلَّمَ
عَلَى فِطْرَتِهِ.

قول في آية وقد تكلم المخفون في قوله تعالى:
"وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ
فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" وقد
طعن ناسٌ في تأويل هذه الآية، بغير علم ولا بيان،
فقالوا: وكيف يكون ذلك وليس بين أن تجيء في كلِّ
هلال فرق، ولا بينها إذا جاءت في رأس الهلال فرق،
ولا بينها إذا جاءت في رأس السنة فرق.
هجرة السمك وهذا بحر البصرة والأبلة، يأتيهم ثلاثة
أشهر معلومة معروفة من السنة السمك الأسبور،
فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت
انقطاعه ومجيء غيره، فلا يمكث بهم الحال إلا قليلاً

حَتَّى يُقْبَلَ السَّمَكُ مِنْ ذَلِكَ الْبَحْرِ، فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ، فَلَا
يَزَالُونَ فِي صَيْدِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مَعْلُومَةٍ مِنَ السَّنَةِ، وَذَلِكَ فِي
كُلِّ سَنَةٍ مَرَّتَيْنِ لِكُلِّ جِنْسٍ، وَمَعْلُومٌ عَنْهُمْ أَنَّهُ يَكُونُ فِي
أَحَدِ الزَّمَانَيْنِ أَسْمَنَ، وَهُوَ الْجَوَافِ، ثُمَّ يَأْتِيهِمُ الْأَسْبُورُ،
عَلَى حِسَابِ مَجِيءِ الْأَسْبُورِ وَالْجَوَافِ، فَأَمَّا الْأَسْبُورُ فَهُوَ
يَقْطَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِ الزَّنْجِ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبَحْرِيِّينَ،
وَأَنَّ الْأَسْبُورَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقْطَعُ إِلَى دِجْلَةِ الْبَصْرَةِ لَا
يُوجَدُ فِي الزَّنْجِ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُوجَدُ فِي الزَّنْجِ لَا
يُوجَدُ فِي دِجْلَةِ، وَرَبَّمَا اصْطَادُوا مِنْهَا شَيْئاً فِي الطَّرِيقِ
فِي وَقْتِ قَطْعِهَا الْمَعْرُوفِ، وَفِي وَقْتِ رَجُوعِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ
أَصْنَافٌ مِنَ السَّمَكِ كَالْإِرْبِيَانِ، وَالرَّقِّ، وَالْكَوَسَجِ، وَالْبَرْدِ،
وَالْبَرَسْتُوجِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ الزَّمَانِ، مَتَوَقَّعٌ
الْمَخْرَجِ، وَفِي السَّمَكِ أَوَابِدٌ وَقَوَاطِعُ، وَفِيهَا سَيَّارَةٌ لَا تَقِيمُ،
وَذَلِكَ الشَّبَهُ يُصَابُ، وَذَلِكَ صَارُوا يَتَكَلَّمُونَ بِخَمْسَةِ
السَّنَةِ، يَهْدُونَهَا، سِوَى مَا تَعَلَّقُوا بِهِ مِنْ غَيْرِهَا، ثُمَّ
الْقَوَاطِعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ تَأْتِيْنَا إِلَى الْعِرَاقِ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ
الْإِبَانِ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، تَقْطَعُ إِلَيْنَا ثُمَّ تَعُودُ فِي وَقْتِهَا.
رَدَّ عَلَيَّ الْمَعْتَرِضُ قُلْنَا لَهُوَلَاءِ الْقَوْمِ: لَقَدْ أَصَبْتُمْ فِي
بَعْضِ مَا وَصَفْتُمْ، وَأَخْطَأْتُمْ فِي بَعْضٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِيَتَانَهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ" ويوم السبت يدور مع الأسابيع، والأسابيع تدور مع شهور القمر، وهذا لا يكون مع استواء من الزمان، وقد يكون السبت في الشتاء والصيف والخريف، وفيما بين ذلك، وليس هذا من باب أزمان قواطع السمك وهيج الحيوان وطلب السفاد، وأزمان الفلاحة، وأوقات الجزر والمد؛ وفي سبيل الأنواء، والشجر كيف ينفض الورق والثمار؛ والحيات كيف تسلخ، والأيايل كيف تُلقي قرونها، والطيور كيف تنطق ومتى تسكت، ولو قال لنا قائل: إني نبي وقلنا له: وما آيتك؟ وعلامتك؟ فقال: إذا كان في آخر تشرين الآخر أقبل إليكم الأسبور من جهة البحر، ضحكوا منه وسخروا به، ولو قال: إذا كان يوم الجمعة أو يوم الأحد أقبل إليكم الأسبور، حتى لا يزال يصنع ذلك في كل جمعة علمنا اضطراراً إذا عايننا الذي ذكر على نسقه أنه صادق، وأنه لم يعلم ذلك إلا من قبل خالق ذلك، تعالى الله عن ذلك، وقد أقررنا بعجيب ما نرى من مطالع النجوم، ومن تناهي المد والجزر على قدر امتلاء القمر، ونقصاته وزيادته، ومحاقه واستراره، وكل شيء يأتي على هذا النسق من المجاري، فإنما الآية فيه

لِلَّهِ وَحْدَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ لِأَهْلِ شَرِيعَةٍ
وَلِأَهْلِ مُرْسَى، مِنْ أَصْحَابِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ أَوْ وادٍ، أَوْ عَيْنٍ،
أَوْ جَدْوَلٍ: تَأْتِيكُمْ الْحَيْتَانُ فِي كُلِّ سَبْتٍ، أَوْ قَالَ: فِي كُلِّ
رَمَضَانَ، وَرَمَضَانُ مَتَحَوَّلُ الْأَزْمَانِ فِي الشُّتَاءِ وَالصَّيْفِ
وَالرَّبِيعِ وَالخَرِيفِ، وَالسَّبْتُ يَتَحَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ،
فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْجُوبَةُ فِيهِ دَالَّةً عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ
تَعَالَى، وَعَلَى صِدْقِ صَاحِبِ الْخَبَرِ، وَأَنَّهُ رَسُولُ ذَلِكَ
الْمَسْحُورِ لِذَلِكَ الصَّنْفِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجِيءُ خَارِجاً مِنْ
النَّسْقِ الْقَائِمِ، وَالْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ، وَهَذَا الْفَرْقُ بِذَلِكَ بَيِّنٌ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

شِنَعَةُ الْخَنْزِيرِ وَالْقَرْدِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" وَفِي الْمَوْضِعِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ مَسْحُ
نَاساً خَنْزِيرٍ قَدْ ذَكَرَ الْقُرُودَ، وَلَمْ يَذْكَرْ أَنَّهُ مَسْحُ قَهْرَمًا
خَنْزِيرٍ، وَلَمْ يَمَسْحُ مِنْهُمْ قُرُوداً، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
فَالْمَسْحُ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ أَشْنَعُ؛ إِذْ كَانَ الْمَسْحُ عَلَى
صُورَتِهَا أَعْظَمَ، وَكَانَ الْعِقَابُ بِهِ أَكْبَرَ، وَإِنَّ الْوَقْتَ الَّذِي
قَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ مَسْحَ نَاساً قُرُوداً فَقَدْ كَانَ مَسْحُ نَاساً

خنازير، فلم يدع ذكر الخنازير وذكر القروء؛ إلا والقروء في هذا الباب أوجع وأشنع وأعظم في العقوبة، وأدل على شدة السخطة، هذا قول بعضهم.

استطرد لغوي قال: ويقال لموضع الأنف من السباع الخطم، والخرطوم وقد يقال ذلك للخنزير والفنطيسة، والجمع الفناطيس، وقال الأعرابي: كأن فناطيسها كراكر الإبل.

خصائص بعض البلدان وقال صاحب المنطق: لا يكون خنزير ولا أيل بحرياً، وذكر أن خنازير بعض البلدان يكون لها ظلف واحد، ولا يكون بأرض نهاوند حماراً؛ لشدة برد الموضع، ولأن الحمار صرد.

وقال: في أرض كذا وكذا لا يكون بها شيء من الخلد، وإن نقله إنسان إليها لم يحفر، ولم يتخذ بها بيتاً، وفي الجزيرة التي تسمى صقلية لا يكون بها صنف من النمل، الذي يسمى أقرشا.

قول أهل الكتابين في المسخ وأهل الكتابين ينكرون أن يكون الله تعالى مسخ الناس قروءاً وخنازير، وإنما مسخ امرأة لوط حجراً، كذلك يقولون.

القول في الحيات

اللهم جنبنا التكلف، وأعدنا من الخطل، واحمنا من
العُجْبِ بما يكونُ منا، والثقة بما عندنا، واجعلنا من
المحسنين.

احتيال الحيات للصيد

حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي العنبري، وأخوه روح
الكاتب ورجال من بني العنبر، أن عندهم في رمال بلعنبر
حيّة تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد، زعموا
أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال بلعنبر،
وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورمض الجندب،
غمست هذه الحيّة ذنبها في الرمل، ثم انتصبت كأنها
رمح مركوز، أو عود ثابت، فيجىء الطائر الصغير أو
الجرادة، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل
لشدة حره، وقع على رأس الحيّة، على أنها عود، فإذا
وقع على رأسها قبضت عليه، فإن كان جرادة أو جعلاً أو
بعض ما لا يُشبعها مثله، ابتلعته وبقيت على انتصابها،
وإن كان الواقع على رأسها طائراً يُشبعها مثله أكلته
وانصرفت، وأن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبها في

الصَّيْفِ وَالْقَيْظِ، فِي انْتِصَافِ النَّهَارِ وَالْهَاجِرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ
الطَّائِرَ لَا يَشْكُ أَنَّ الْحَيَّةَ عَوْدٌ، وَأَنَّهُ سَيَقُومُ لَهُ مَقَامُ الْجِدْلِ
لِلْحَرْبَاءِ، إِلَى أَنَّ يَسْكُنَ الْحَرَّ وَوَهْجَ الرَّمْلِ، وَفِي هَذَا
الْحَدِيثِ مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ تَكُونُ هَذِهِ الْحَيَّةُ تَهْتَدِي لِمِثْلِ هَذِهِ
الْحَيْلَةِ، وَفِيهِ جَهْلُ الطَّائِرِ بِفَرْقِ مَا بَيْنَ الْحَيَوَانِ وَالْعُودِ،
وَفِيهِ قَلَّةُ اكْتِرَافِ الْحَيَّةِ بِالرَّمْلِ الَّذِي عَادَ كَالْجَمْرِ، وَصَلَحَ
أَنَّ يَكُونَ مَلَّةً وَمَوْضِعًا لِلخَبْزَةِ، ثُمَّ أَنَّ يَشْتَمِلَ ذَلِكَ الرَّمْلُ
عَلَى ثَلَاثِ الْحَيَّةِ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، وَالرَّمْلُ عَلَى هَذِهِ
الصِّفَةِ، فَهَذِهِ أَعْجُوبَةٌ مِنْ أَعْجَابِ مَا فِي الْحَيَاتِ.

رضاع الحية وإعجابها باللبن

وَزَعِمَ لِي رِجَالٌ مِنَ الصَّقَالِبَةِ، خَصِيَانٌ وَفَحُولٌ، أَنَّ الْحَيَّةَ
فِي بِلَادِهِمْ تَأْتِي الْبَقْرَةَ الْمُحَقَّلَةَ فَتَنْطَوِي عَلَى فَخْذَيْهَا
وَرُكْبَتَيْهَا إِلَى عِرَاقِيبِهَا، ثُمَّ تُشْخَصُ صَدْرَهَا نَحْوَ أَخْلَافِ
ضَرْعِهَا، حَتَّى تَلْتَقِمَ الْخَلْفَ؛ فَلَا تَسْتَطِيعُ الْبَقْرَةُ مَعَ قَوَّتِهَا
أَنَّ تَتَرَمَّرَمَّ، فَلَا تَزَالُ تَمصُّ اللَّبْنَ، وَكَلَّمَا مَصَّتْ
اسْتَرَخَتْ، فَإِذَا كَادَتْ تَتَلَفُ أَرْسَلَتْهَا، وَزَعَمُوا أَنَّ تِلْكَ
الْبَقْرَةَ إِذَا أُنْ تَمُوتَ، وَإِنَّمَا أَنَّ يَصِيبُهَا فِي ضَرْعِهَا فَسَادٌ
شَدِيدٌ تَعَسَّرُ مَدَاوَاتِهِ، وَالْحَيَّةُ تُعْجَبُ بِاللَّبَنِ، وَإِذَا وَجَدَتْ

الأفاعي الإناء غير مخمّر كرعت فيه، ورُبمًا مجّت فيه ما صار في جوفها، فيصيبُ شاربَ ذلك اللبنِ أدَى ومكروهُ كثير، ويقال إنَّ اللبنِ محتَضِر، وقد ذهب ناسٌ إلى العَمَّار، على قولهم إنَّ الثوبَ المعصُفَر محتَضِر، فظنَّ كثيرٌ من العلماء أنَّ المعنى في اللبنِ إنما رَجَعَ إلى الحَيَّاتِ.

ما تعجب به الحيات

والحيَّة تُعَجَّبُ بالْفَاحِ والبَطِيخِ، وبالْحُرْفِ، والخردل المرخوف؛ وتكره رِيحَ السذاب والشَّيخِ، كما تكره الوَزْغِ رِيحَ الزَّعْفَرانِ.

قوة بدن الحية

وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثلُ جسمِ الحِيَّةِ، إلا والحيَّةُ أقوى بدناً منه أضعافاً، ومن قوَّتها أنها إذا أدخَلتْ رأسها في جُحْرِها، أو في صدعٍ إلى صدرها، لم يستطع أقوى الناس وهو قابضٌ على دُنْبِها بكتلتا يديه أن يخرجها؛ لشدَّةِ اعتمادها، وتعاونِ أجزائها، وليست بذاتِ قوائم لها أظفارٌ أو مخالبٌ أو أظلاف، تُنْشِبُها في الأرض، وتتشبث بها، وتعتمد عليها، وربما انقطعت في

يدي الجاذب لها، مَعَ أنها لد نةً ملساءً علكةً فيحتاج
الرفيق في أمرها عند ذلك، أن يُرسلها من يديه بعضَ
الإرسال، ثم ينشطها كالمختطف والمختلس، وربما انقطع
ذنبها في يد الجاذب لها، فأما أذنبُ الأفاعي فإنها
تنبت، ومن عجيب ما فيها من هذا الباب، أن نابهَا يُقطعُ
بالكاز، فينبت حتى يتم نباته في أقلَّ من ثلاث ليالٍ.
نزع عين الخطاف والخطاف في هذا الباب خلافُ
الخنزير؛ لأنَّ الخطاف إذا قلمت إحدى عينيه رجعت،
وعينُ البرذونِ يركبها البياضُ، فيذهب في أيامٍ يسيرةً.

الاحتتيال لناب الأفعى

وناب الأفعى يُحتالُ له بأن يُدخلَ في فيها حُمَاضُ أترجٍ،
ويطبق لحيها الأعلى على الأسفل، فلا تقتل بعَضَتها أياماً
صالحةً، والمغناطيس الجاذب للحديد، إذا حُكَّ عليه
الثوم، لم يجذب الحديد.

خصائص الأفعى

والأفعى لا تدورُ عينها في رأسها، وهي تلد وتبيض،
وذلك أنها إذا طرقت ببيضها تحطمَ في جوفها، فترمي
بفراخها أولاداً، حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً

مثله، وفي الأفاعي من العجب أنها تُذبح حتى يُفري منها كلُّ ودج، فتبقى كذلك أياماً لا تموت، وأمرت الحاوي فقبض على حَرَزَة عنقها، فقلت له: اقبضها من الحَرَزَة التي تليها قبضاً رقيقاً، فما فَتَحَ بينها بقدر سمِّ الإبرة حتى بَرَدَتْ مَيْتَةً، وزعم أنه قد ذبح غيرها من الحياتِ فعاشت على شبيهه بذلك، ثم إنه فَصَلَ تلك الحَرَزَة على مثال ما صنع بالأفعى، فماتت بأسرع من الطَّرْفِ.

قوة بدن الممسوح وكلُّ شيءٍ ممسوحِ البدن، ليس بِذِي أَيْدٍ وَلَا أَرْجُلٍ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شَدِيدَ الْبَدَنِ، كَالسَّمَكَةِ وَالْحَيَّةِ، حديث في سم الأفعى وزعم أحمد بن غالب قال: باعني حَوَاءٌ ثَلَاثِينَ أَفْعَى بَدِينَارِينَ، وَأَهْدِي إِلَيَّ خَمْسًا اصْطَادَهَا مِنْ قُبَالَةِ الْقَلْبِ، فِي تِلْكَ الصَّحَارَى عَلَى شَاطِئِ دَجَلَةَ، قال: وَأَرَدْتَهَا لِلتَّوْبِاقِ، قال: فَقَالَ لِي حِينَ جَاءَنِي بِهَا: قُلْ لِي: مَنْ يِعَالِجُهَا؟ قال: فَقُلْتُ لَهُ: فَلَانَ الصِّيدْلَانِيَّ، فَقَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ، قُلْ لِي: مَنْ يَذْبَحُهَا وَيَسْلُخُهَا؟ قال: قُلْتُ: هَذَا الصِّيدْلَانِيُّ بَعِينُهُ، قال: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَغْرُورًا مِنْ نَفْسِهِ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ أَخْطَأَ مَوْضِعَ الْمَفْصِلِ مِنْ قَفَاهُ، وَحَرَكَتُهُ أَسْرَعُ مِنَ الْبَرْقِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَحْسُنُ وَلَا يَدْرِي كَيْفَ يَتَغَفَّلُهُ، فَيَنْقُرُهُ نَفْرَةً، لَمْ يُفْلِحْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنِّي

سَأَتَطَوَّعُ لَكَ بِأَنْ أَعْمَلَ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَبَعَثْتَ إِلَيْهِ،
وَكَانَ رَأْسُهُ إِلَى الْجَوْنَةِ، فَيُغْفَلُ الْوَاحِدَةَ فَيَقْبِضُ عَلَى
قَفَاهَا بِأَسْرَعٍ مِنَ الطَّرْفِ، ثُمَّ يَذْبَحُهَا، فَإِذَا ذَبَحَهَا سَالَ مِنْ
أَفْوَاهِهَا لُعَابٌ أَبْيَضٌ، فَيَقُولُ: هَذَا هُوَ السَّمُّ الَّذِي يَقْتُلُ
قَالَ: فَجَالَتْ يَدُهُ جَوْلَةً، وَقَطَرَتْ مِنْ ذَلِكَ اللَّعَابِ قَطْرَةً
عَلَى طَرْفِ قَمِيصِ الصَّيْدَلَانِيِّ، قَالَ: فَتَفَشَّى ذَلِكَ الْقَاطِرُ
حَتَّى صَارَ فِي قَدْرِ الدَّرْهِمِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ إِنَّ الْحَوَاءَ امْتَحَنَ
ذَلِكَ الْمَوْضِعَ فَتَهَافَتَ فِي يَدِهِ، وَبَقِيَتِ الْأَفَاعِي مُذَبَّحَةً
تَجُولُ فِي الطُّسْتِ وَيَكْدُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى أَمْسَيْنَا، قَالَ:
وَبَكَرْتُ عَلَى أَبِي رَجَاءٍ إِلَى بَابِ الْجِسْرِ، أَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ،
فَقَالَ لِي وَدِدْتُ أَنْيَ رَأَيْتُ مَوْضِعَ الْقَطْرَةِ مِنْ قَمِيصِ
الصَّيْدَلَانِيِّ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَارِمْتُ حَتَّى مَرَّ مَعِيَ إِلَى
الصَّيْدَلَانِيِّ، فَأَرَيْتُهُ مَوْضِعَهُ، وَأَصْحَابُنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ لِعَابَ
الْأَفَاعِي لَا يَعْمَلُ فِي الدَّمِّ، إِلَّا أَنْ أَحْمَدَ ابْنَ الْمُثَنَّى زَعَمَ أَنَّ
مِنَ الْأَفَاعِي جِنْسًا لَا يُضِرُّ الْفَرَارِيحَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْيَاءِ، وَلَا
أَدْرِي أَيُّ الْخَبْرَيْنِ أْبَعَدُ: أَخْبَرَ ابْنَ غَالِبٍ فِي تَفْسِيحِ
الثَّوْبِ، أَوْ خَبَرَ ابْنَ الْمُثَنَّى فِي سَلَامَةِ الْفَرُوجِ عَلَى الْأَفْعَى
مَا تَضِيءُ عَيْنُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَزَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ أَنَّ
الْعَيُونَ الَّتِي تَضِيءُ بِاللَّيْلِ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ، عِيُونُ الْأَسَدِ

والنمور، والسنانير والأفاعي، فبينما نحن عنده إذ دخل
عليه بعض من يجلب الأفاعي من سجستان، ويعمل
الترياقات، ويبيعها أحياءً ومقتولة، فقال له: حدثهم
بالذي حدثتني به من عين الأفعى، قال: نعم، كنت في
منزلي نائماً في ظلمة، وقد كنت جمعت رؤوس أفاع كن
عندي، لأرمي بها، وأغفلت تحت السرير رأساً واحداً،
ففتحت عيني تجاه السرير في الظلمة، فرأيت ضياءً إلا
أنه ضئيل ضعيف رقيق، فقلت: عين غول أو بعض أولاء
السعالى، وذهبت نفسي في ألوان من المعاني، فقامت
فقدت نارا، وأخذت المصباح معي، ومضيت نحو
السرير فلم أجد تحته إلا رأس أفعى، فأطفأت السراج
ونمت وفتحت عيني، فإذا ذلك الضوء على حاله،
فنهضت فصنعت كصنعي الأول، حتى فعلت ذلك مراراً،
قال: فقلت آخر مرة: ما أرى شيئاً إلا رأس أفعى، فلو
نحيته فنحيته وأطفأت السراج، ثم رجعت إلى منامي،
ففتحت عيني فلم أَرَ الضوء، فعلمت أنه من عين
الأفعى، ثم سألت عن ذلك، فإذا الأمر حق، وإذا هو
مشهور في أهل هذه الصناعة علة قوة بدن الحية قال:
وربما قبض الرجل الشديد الأسر والقوة القبضة على قفا

الحيّة فتلتفت عليه فتصرعُهُ، وفي صُعودِها وفي سعيها
خلفَ الرَّجُلِ الشَّدِيدِ الحُضْر، أو عند هربِها حتَّى تفوتَ
وتسبق، وليست بذاتِ قوائم، وإنما تنسابُ على بطنها،
وفي تدافعِ أجزائها وتعاونها، وفي حَرَكَةِ الكلِّ من ذاتِ
نفسها، دليلٌ على إفراطِ قُوَّةِ بدنِها، ومن ذلك أنها لا
تمضغ، وإنما تبتلع، فربَّما كان في البَضْعَةِ أو في الشيءِ
الذي ابتلعته عَظْمٌ، فتأتي جِذْمَ شجرةٍ، أو حَجْرًا شاخِصًا
فتطوي عليه انطواءً شديداً فيتحطِّم ذلك العَظْمُ حتَّى
يَصِيرَ رُفَاتًا، ثمَّ يُقَطَّعُ ذنبُها فينبت، ثمَّ تعيشُ في الماءِ،
إن صارت في الماءِ، بعدَ أنْ كانتَ بريَّةً، وتعيشُ في البرِّ
بعدَ أنْ طال مُكثُّها في الماءِ وصارت مائيةً، قال: وَ إِنَّمَا
أنتها هذه القُوَّةُ، واشتدَّت فِقْرُ ظهْرِها هذه الشَّدَّةُ؛ لكثرةِ
أضلاعِها، وذلك أنْ لها من الأضلاعِ عددَ أيَّامِ الشَّهرِ،
وهي مع ذلك أطولُ الحيوانِ عمراً، موتَ الحيةِ
ويزعمون أنَّ الحيةَ لا تموتُ حَتْفَ أنفِها، وإنَّما تموتُ
بِعَرَضٍ يَعْرضُ لها، ومع ذلك فإنه ليس في الحيوانِ
شيءٌ هُوَ أصْبَرُ على جوعٍ من حيةٍ؛ لأنَّها إنْ كانتْ شَابَةً
فَدَخَلَتْ في حائطِ صخرٍ، فتتبعوا موضعَ مَدْخَلِها بوْتِدٍ أو
بحجرٍ، ثمَّ هدموا هذا الحائطَ، وجدوها هناك منطوية

وهي حَيَّةٌ، فالشَّابَةُ تُذكَرُ بِالصَّبِيِّ عِنْدَ هَذِهِ الْعَلَّةِ، فَإِن
هَرَمَتْ صَغُرَتْ فِي بَدْنِهَا، وَأَقْنَعَهَا النَّسِيمُ، وَلَمْ تَشْتَه
الطَّعْمَ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: وَهُوَ جَاهِلِيٌّ:

فَابَعَتْ لَهُ مِنْ
بَعْضِ أَعْرَاضِ
اللَّمَمِ
لَمِيمَةً مِنْ
حَنْشِ أَعْمَى
أَصْمٍ

قَدْ عَاشَ حَتَّى هُوَ
لَا يَمْشِي بِدَمٍ
فَكَلَّمَا أَقْصَدَا
مِنْهُ الْجُوعُ
شَمِّ

وهذا القولُ لهذا المعنى، وفي هذا الوجه يقول الشاعرُ:

دَاهِيَةٌ قَدْ
صَغُرَتْ مِنْ
الْكِبَرِ
صِلِّ صَفَا مَا
يَنْطَوِي مِنْ
الْقِصْرِ
طَوِيلَةَ الْإِطْرَاقِ
مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ
كَمَطْرِقٍ قَدْ ذَهَبَتْ
بِهِ الْفِكْرُ

جاء بها الطوفان أيام زح صبر الحية على فقد الطعم
ومن أعاجيبها أنها وإن كانت موصوفة بالشره والنهم،
وسرعة الابتلاع، فلها في الصبر في أيام الشتاء ما ليس
للزهد، ثم هي بعد مما يصير بها الحال إلى أن تستغني
عن الطعم،

النمس والثعابين

ثم قد يزعمون أن بمصر دويبة يقال لها النمس يتخذها
الناطور إذا اشتد خوفه من الثعابين؛ لأن هذه الدابة
تنقبض وتنضم، تتضاءل وتستدق، حتى كأنها قديدة أو
قطعة حبل، فإذا عضها الثعبان وانطوى عليها زفرت،
وأخذت بنفسها وزخرت جوفها فانتفخ، فتفعل ذلك وقد
انطوى عليها، فتقطعه قطعاً من شدة الزخرة، وهذا من
أعجب الأحاديث

القواتل من الحيات

والثعابين إحدى القواتل، ويزعمون أنها ثلاثة أجناس لا
ينجع فيها رقية ولا حيلة، كالثعبان، والأفعى، والهندية،
ويقال: إن ما سواها وإنما يقتل مع ما يمدّها من الفرع؛
فقد يفعل الفرع وحده؛ فكيف إذا قارن سُمّها؟ وسُمّها إن

لم يقتلَ أمرضَ.

ما يفعل الفرع في المسموم ويزعمون أنّ رجلاً قال تحت شجرة، فتدلت عليه حيّةٌ منها فعضت رأسه، فانتبه محمراً الوجه، فحكّ رأسه، وتلفّت، فلم يرَ شيئاً، فوضع رأسه ينام، وأقام مدّةً طويلةً لا يرى بأساً، فقال له بعضُ مَنْ كان رأى تدليها عليه ثمّ تقلصها عنه وهروبها منه: هل علمت من أيّ شيءٍ كان انتباهك تحت الشجرة؟ قال: لا والله، ما علمت، قال: بلوى، فإنّ الحيّة الفلانيّة نزلت عليك حتى عضت رأسك، فلما جلست فزعاً تقلصت عنك وتراجعت، ففزع فزعةً وصرخ صرخةً كانت فيها نفسه، وكأنهم توهّموا أنّه لما فزع واضطرب، وقد كان ذلك السمّ مغموراً ممنوعاً فزال مانعُه، وأوغله ذلك الفرع، حين تفتحت منافسه، إلى موضع الصّميم والدماغ وعمقِ البدن، فأنحلّ موضعُ العقد الذي انعقدت عليه أجزاؤه وأخلطه. وأنشد الأصمعيّ:

نكيئة تنهشه بمنبذ

وأنشد لأبي دؤاد الإياديّ:

فَاتَانِي تَقْحِيمٌ
كَعَبٍ لِي مِنَ

طَقَ إِنْ النَّكِيثَةَ
الْإَفْحَامُ

أثر الفرع في فعل السم قال: فالفرع إما أن يكون يُوصل
السمَّ إلى المقاتل، وإما أن يكون معيناً له، كتعاون
الرجلين على نزع وتد، فهم لا يجزمون على أن الحيَّة
من القواطل البتَّة، إلا أن تقتل إذا عضت النائم والمغشي
عليه، والطفل الغرير، والمجنون الذي لا يعقل، وحتى
تجرَّب عليه الأدوية.

الترياق وانقلاب الأفعى

وكنت يوماً عند أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد، وكان
عنده سَلْمويه وابن ماسويه، وبختيشوع بن جبريل،
فقال: هل ينفع التَّرياق من نهشة أفعى؟ فقال بعضهم:
إذا عضت الأفعى فأدركت قبل أن تنقلب نفع الترياق، وإن
لم تُدرَك لم ينفع؛ لأنهم إن قَللوا من التَّرياق قتله السمُّ،
وإن كثروا منه قتله الفاضل عن مقدار الحاجة، قلت: فإنَّ
ابن أبي العجوز خبَّرني بأنها ليست تنقلب لمجَّ السمِّ
وإفراغهِ، ولكنَّ الأفعى في نابها عَصَل، وإذا عضت
استفرغت إدخال النَّاب كلَّهُ، وهو أَحْجَنُ أَغْصَل، فيه

مشابه من الشصّ، فإذا انقلبت كان أسهل لنزعه وسلّه،
فأمّا لسبب السّم وإفراغه فلا، قال: والله لعلّه ما قلت
قلت: ما أسرع ما شككت ثم قلت له: فكأنما وضعوا
الترياق واجتلبوا الأفاعي وضنّوا وعزموا على أنه لا
ينفع إلا بدرك الأفعى قبل أن تنقلب وكيف صار الترياق
بعد الانقلاب لا يكون إلا في إحدى منزلتين: إما أن يقتل
بكثرته، وإما ألا ينفع بقلته فكان الترياق ليس نفعه إلا
في المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة
ولكني أقول لك: كيف يكون نفعه إذا كان الترياق جيّداً
قويّاً، ووجل فسقي المقدار الأوسط، قبل أن يبلغ
الصّميم، ويغوص في العمق، وعلى هذا وضع، وهم
كانوا أحزم وأحذق من أن يتكلّفوا شيئاً، ومقداره من
النفع لا يوصل إلى معرفته.

ويقول بعض الحذاق: إن سقي الترياق بعد النهش
بساعة أو ساعتين موت المنهوش، ثم قلت له: وما
علمك؟ وبأيّ سبب أيقنت أنها تمجّ من جوف نابها
شيئاً؟ ولعله ليس هنالك إلا مخالطة جوهر ذلك الناب
لدم الإنسان أو لسنا قد نجد من الإنسان من يعض صاحبهُ
فيقتلُهُ، ويكون معروفاً بذلك؟ وقد تقرّون أن الهندية

وَالثُّعْبَانَ يَقْتُلَانِ، إِمَّا بِمَخَالَطَةِ الرَّيْقِ الدَّمِ، وَإِمَّا بِمَخَالَطَةِ
 السِّنِّ الدَّمِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدَّعُوا أَنَّ أَسْنَانَهُمَا مَجْوُوفَةٌ، وَقَدْ
 أَجْمَعَ جَمِيعُ أَصْحَابِ التَّجَارِبِ أَنَّ الْحَيَّةَ تُضْرَبُ بِقُصْبَةِ
 فَتَكُونُ أَشَدَّ عَلَيْهَا مِنَ الْعَصَا، وَقَدْ يَضْرَبُ الرَّجُلُ عَلَى
 جَسَدِهِ بِقُضْبَانِ اللَّوْزِ وَ قُضْبَانِ الرُّمَانِ، وَقُضْبَانِ اللَّوْزِ
 أَعْلَى وَأَلْدَنُ، وَلَكِنَّهَا أَسْلَمُ، وَقُضْبَانِ الرُّمَانِ أَخْفَى
 وَأَسْخَفُ وَلَكِنَّهَا أَعْطَبُ، وَقَدْ يَطَأُ الْإِنْسَانُ عَلَى عَظْمِ حَيَّةٍ
 أَوْ إِبْرَةٍ عَقْرَبٍ، وَهُمَا مَيِّتَتَانِ، فَيَلْقَى الْجَهْدَ، وَقَدْ يُخْرَجُ
 السَّكِينُ مِنَ الْكَبِيرِ وَهُوَ مُحَمَّى، فَيُعْمَسُ فِي اللَّبَنِ فَمَتَى
 خَالَطَ الدَّمَ قَامَ مَقَامَ السَّمِّ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مَجَّ فِي الدَّمِ
 رَطُوبَةً غَلِيظَةً أَوْ رَقِيقَةً.

وَبَعْضُ الْحَجَارَةِ يُكْوَى بِهَا وَهُوَ رِخْوُ الْأَوْرَامِ حَتَّى يَفْرَقَهَا
 وَيُحْمِصَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ نَفَذَ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْهُ، وَلَيْسَ
 إِلَّا الْمَلَاقَاةَ، قُلْتُ: وَلَعَلَّ قُوَى قَدْ انْفَصَلَتْ مِنْ أَنْيَابِ
 الْأَفَاعِي إِلَى دِمَاءِ النَّاسِ، وَقَدْ رَوَوْا أَنَّهُ قِيلَ لَجَالِينُوسَ:
 إِنَّ هُنَا رَجُلًا يَرْقِي الْعَقَارِبَ فَتَمُوتُ، أَوْ تَنْحَلُّ فَلَا
 تَعْمَلُ، فَرَأَاهُ يَرْقِيهَا وَيَتَقَلُّ عَلَيْهَا، فَدَعَا بِهِ بِحَضْرَةِ جَمَاعَةٍ
 وَهُوَ عَلَى الرَّيْقِ، وَدَعَا بِغَدَانِهِ فَتَغْدَى مَعَهُ، ثُمَّ دَعِيَ لَهُ
 بِالْعَقَارِبِ فَتَقَلُّ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَجِدْ لِعَابِهِ يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ

يكون ريقاً، وهو حديثٌ يدورُ بينَ أهلِ الطبِّ، وأنتَ طبيب، فلم أره في يومه ذلك قال شيئاً إلا من طريق الحَزْر والحَدْس، والبلاغات.

السموم وسمومُ الحياتِ ذواتِ الأنياب، والعقاربِ ذواتِ الإبر، إنما تَعْمَلُ في الدَّمِ بالإجمادِ والإذابة، وكذا سمومُ ذواتِ الشعرِ والقُرُونِ والجُمَّ، إنما تَعْمَلُ في العصب، ومنها ما يعملُ في الدم.

شرب المسموم للبن

وحدَّثني بعضُ أصحابنا قال: كنتُ إمّا برماي وإما بباري وهما بلادُ حياتٍ وأفاعٍ، ونحن في عُرْسٍ، إذ أدخلوا الخِذْرَ العروسَ فأبطؤوا عليه شيئاً، فأغفى وتلوتُ على ذراعه أفعى، فذهبَ ينفُضُها وَحَجَمَتْ على ذراعه وقد يقال ذلك إذا كانت العضةُ في صورةِ شَرَطِ الحِجَامِ فَصَرَخَ وجاءوا يتعادون فوجدوها فقتلوها، وسقوه في تلك اللَّيْلَةِ لَبَنٍ أربعينَ عنزاً، كُلَّمَا استقرَّ في جوفه قَعَبٌ من ذلك اللَّبَنِ قَاءَ فَيَخْرُجُ مِنْهُ كَأَمْثَالِ طَلْعِ الفُحَّالِ الأبيضِ، فيه طرائق من دَسَمٍ تعلوه خُضرةٌ، حتى استوفى ذلك اللَّبَنُ كُلَّهُ، قال: فعندها قال شيخٌ من أهل القرية: إن كنتم

أَخْرَجْتُمْ ذَلِكَ السَّمَّ فَقَدْ أَخْرَجْتُمْ نَفْسَهُ مَعَهُ قَالَ: فَغَبِرَ أَيَّاماً
بِأَسْوَأِ حَالٍ ثُمَّ مَاتَ، قَالَ: وَكُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ سُرْعَةِ
اسْتِحَالَةِ اللَّبَنِ وَجُمُودِهِ.

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

قُلْتُ: وَالْحَيَّاتُ الْبَرِّيَّةُ إِذَا هَرِمَتْ تَنْسَمِتُ النَّسِيمَ فَارْتَفَتَتْ
بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الضُّبَابُ إِذَا هَرِمَتْ، قَالَ: وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ
لِلْمَائِيَّةِ مِنْ حَيَّاتِ الْغِيَاضِ وَشَطُوطِ الْأَنْهَارِ، وَمَنَاقِعِ
الْمِيَاهِ.

الحيات المائية

قَالَ: وَالْحَيَّاتُ الْمَائِيَّةُ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ بَرِّيَّةً أَوْ جَبَلِيَّةً،
فَاكْتَسَحَتْهَا السُّيُولُ وَاحْتَمَلَتْهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَصْنَافِ
الْحَشْرَاتِ وَالذَّوَابِّ وَالسَّبَاعِ، فَتَوَالَدَتْ تِلْكَ الْحَيَّاتُ
وَتَلَاقَحَتْ هُنَاكَ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ أُمَّهَاتُهَا وَأَبَاؤُهَا فِي
حَيَّاتِ الْمَاءِ، وَكَيْفَ دَارَتْ الْأُمُورُ فَإِنَّ الْحَيَّاتِ فِي أَصْلِ
الطَّبَعِ مَائِيَّةٌ، وَهِيَ تَعِيشُ فِي النَّدَى، وَفِي الْمَاءِ، وَفِي
الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ، وَفِي الصَّخْرِ وَالرَّمْلِ، وَمَنْ طَبَاعَهَا أَنْ
تَرْقَ وَتَلْطَفَ عَلَى شَكْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا لَطُولُ الْعَمْرِ، وَالْآخَرُ

للُّبُعد من الرِّيف، وعلى حسب ذلك تعظُم في المياه
والغياض.

ما أشبه الحيات من السمك

قال: وكلُّ شيء في الماء ممّا يعايش السمك، مما أشبه
الحيّات كالمارماهي والأنكليس فإنها كلها على ضربين:
فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من
طباع البلد والماء، والآخر من نسل سمك وحيات
تلاقحت؛ إذ كان طباع السمك قريباً من طباع تلك
الحيّات، والحيّات في الأصل مائيّة، وكلّها كانت حيّات.
قراية بعض النبات لبعض وقد زعم أهل البصرة أنّ
مُشّان الكوفة قريبٌ من بُرنّي البصرة، قلبته
البلدة، ويزعم أهل الحجاز أنّ نخل النارجيل هو نخل
المُقل، ولكنّه انقلب لطباع البلدة، وأشباه ذلك
كثير، ويزعمون أنّ الفيلة مائيّة الطباع بالجاموسيّة
والخنزيريّة التي فيهاب والنسيم قال: والدُّنْبُ أيضاً، وإن
كان عندهم ممّا لا يجتزي بالنسيم، فإنّه من الحيوان
الذي يفتح فاه للنسيم؛ ليبرد جوفه من اللهب الذي
يعتري السباع؛ ولأنّ ذلك يمدّ قوّته، ويقطع عنه ببرودته

ولطافته الرّيق، فإن كان ذا سُرٍ إذا عدا احتشى ريحاً.
اختلاف صبر الذئب والأسد على الطعام وربما جاع الأسد
ففعل فعلَ الذئب، فالأسد والذئب يختلفان في الجوع
والصبر؛ لأنّ الأسد شديد النّهم، رغيّب حريص شرّة؛
وهو مع ذلك يحتمل أن يبقى أياماً لا يأكل شيئاً، والذئب
وإن كان أقفر منزلاً، وأقلّ خصباً، وأكثر كدّاً وإخفاقاً، فلا
بدّ له من شيء يُلقيه في جوفه، فإذا لم يجد شيئاً استعار
النسيم .

حيلة بعض الجائعين والنّاس إذا جاعوا واشتدّ جوّعهم
شدّوا على بطونهم العمائم، فإن استقلوا، وإلا شدّوا
الحجر شعر في الذئب وأنشد:

على شرفِ
مُستقبلِ الرّيحِ
يلحِبُّ

كسيدِ الغضا
العادي أضلّ
جراؤه

كأنه يجمع استِدخالَ الرّيحِ والنّسيم، فلعله أن يجد ريح
جرائه.
وقال الرّاجز:

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ
إِذَا لَمْ يَسْمَعْ

بِمِثْلِ مِقْرَاعِ
الصَّفَا الْمُوقِعِ

شَمُّ الظَّلِيمِ

والظَّلِيمُ يَكُونُ عَلَى بَيْضِهِ فَيَشْمُ رِيحَ الْقَانِصِ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ
عُلُوَّةٍ، وَيَبْعُدُ عَنْ رِئَالِهِ فَيَشْمُ رِيحَهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.
وَأَنْشَدَنِي يَحْيَى بْنُ نُجَيْمٍ بْنِ زَمْعَةَ قَالَ:

أَشْمُ مِنْ هَيْقٍ وَأَهْدَى مِنْ جَمَلٍ

وَأَنْشَدَنِي عَمْرُو بْنُ كِرْكِرَةَ:

مَا زَالَ يَشْتَمُّ اشْتِمَامَ الْهَيْقِ

قَالَ: وَإِنَّمَا جَعَلَهُ ذَنْبَ غَضًا لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ذَنْبُ الْخَمْرِ
أَخْبَثٌ، وَيَقُولُونَ: شَيْطَانُ الْحَمَاطَةِ: يَرِيدُونَ الْحَيَّةَ.

بَعْضُ ضُرُوبِ الْحَيَّاتِ

وَكُلُّ حَيَّةٍ خَفِيفَةٌ الْجِسْمِ فَهِيَ شَيْطَانٌ، وَالثَّقَالُ لَا تَنْشُطُ مِنْ
أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَتَثْقُلُ عَمَّا تَبْلُغُهُ الْمَسْتَطِيلَاتُ الْخِفَافُ،
وَقَالَ طَرْفَةُ:

تَعَمَّجُ شَيْطَانُ
بِذِي خِرُوعٍ قَفْرٍ

تَلَاعِبُ مَثْنَى
حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ

الكَرْمَانِي عَنْ أُنْسٍ وَلَا أُدْرِي مَنْ أُنْسٌ هَذَا فِي صِفَةِ نَاقَةٍ:

حَبَابٌ بِكَفِّ الشَّوْ
مِنْ أَسْطَعِ حَشْرِ

شَنَاحِيَّةٍ فِيهَا
شَنَاحٌ
كَأَنَّهَا

وَالْحَبَابُ: الْحَيَّةُ الذَّكَرُ.

بَعْضُ الْمُضَافِ إِلَى النِّبَاتِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَكَمَا يَقُولُونَ:
ذَيْبُ الْحَمْرِ، يَقُولُونَ: أَرْنَبُ الْخَلَّةِ، وَتَيْسُ الرَّبْلِ، وَضَبُّ
السَّحَا، وَالسَّحَا بَقْلَةٌ تَحْسُنُ حَالَهُ مَنْ أَكَلَهَا، وَكَذَلِكَ
يَقُولُونَ: مَا هُوَ إِلَّا قُنْفُذٌ بُرْقَةٌ لِأَنَّهُ يَكُونُ أَخْبَثَ لَهُ، وَذَلِكَ
كُلُّهُ عَلِيقِدْرُ طَبَائِعِ الْبُلْدَانِ وَالْأَغْذِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي طَبَائِعِ
الْحَيَوَانِ.

بَعْضُ طَبَائِعِ الْبُلْدَانِ أَلَّا تَرَى أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ دَخَلَ
أَرْضَ تَبَّتْ لَمْ يَزَلْ ضَاحِكًا مَسْرُورًا، مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ حَتَّى
يَخْرُجَ مِنْهَا، وَمَنْ أَقَامَ بِالْمَوْصِلِ حَوْلًا ثُمَّ تَفَقَّدَ قُوَّتَهُ وَجَدَ
فِيهَا فُضْلًا، وَمَنْ أَقَامَ بِالْأَهْوَازِ حَوْلًا فَتَفَقَّدَ عَقْلَهُ دُونَ

فِرَاسَةٌ وَجَدَ النُّقْصَانَ فِيهِ بَيْنًا، كَمَا يُقَالُ فِي حُمَى خَيْبَرَ،
وَطِحَالِ الْبَحْرَيْنِ، وَدِمَامِيلِ الْجَزِيرَةِ، وَجَرَبِ الزَّنْجِ، وَقَالَ
الشَّمَاخُ:

بَكُورَ الْوَرْدِ رِيثَةٌ
الْقُلُوعِ

كَأَنَّ نَطَاةَ خَيْبَرَ
زَوَدَتْهُ

وقال أوسُ بنُ جَرِّ:

يَعُودُ عَلَيْهِ
وَرْدُهَا وَقَلَالُهَا

كَأَنَّ بِهِ إِدَّ
جِنَّتُهُ خَيْبَرِيَّةٌ

وقال آخر:

كَأَنَّ حُمَى خَيْبَرَ تَمَلَّهُ

وكذلك القول في وادي جُحْفَةَ، وفي مَهْيَعَةَ، وفي أصول
النخل حيث كان. وقال عبد الله بن همام السَّلُولِيُّ في
دماميل الجزيرة:

عَلِيْظُ الْقُصَيْرَى

أَتِيحَ لَهُ مِنْ
شَرْطَةِ الْحَيِّ

جَانِبٌ

لَحْمُهُ مُتَكَوِسٌ

تَرَاهُ إِذَا يَمْضِي

بِهِ مِنْ دَمَامِيلٍ

يَحْكُ كَأَنَّمَا

الْجَزِيرَةَ نَاخِسٌ

فحدّثني أبو زُفَرٍ الضَّرَّارِي قال: مات ضِرَار بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدَّمَامِيل، قلت: والله إنَّ هذا لعجب قال: كلاً، إِنَّمَا احتملها من الجزيرة، وكذلك القولُ في طَوَاعِينِ الشَّامِ، قال أحدُ بني المغيرة، فيمن مات منهم بِطَوَاعِينِ الشَّامِ، ومن مات منهم بِطَعْنِ الرَّمَاحِ أَيَّامَ تَلِكِ المَغَازِي:

مَنْ يَنْزِلِ الشَّامَ

فَالشَّامُ إِنْ لَمْ

وَ يَغْرَسَ بِهِ

يُفْنِيهِ كَأَذْبُ

أَفْنَى بَنِي رَيْطَةَ

عِشْرِينَ لَمْ

فُرْسَانَهُمْ

يُقْصَصُ لَهُمْ

شَارِبٌ

وَمِنْ بَنِي

لِمِثْلِ هَذَا عَجَبٌ

أَعْمَامِهِمْ

مَثَلُهُمْ

العاجِبُ

طَعْنٌ وَطَاعُونَ

ذَلِكَ مَا خَطَّ لَنَا

مَنَائِهِمْ

الكاتبُ

قدوم عبد الله بن الحسن علي عمر بن عبد العزيز
وهشام قال: ولما قدم عبد الله بن الحسن بن الحسن
رضي الله عنهم، على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
في حوائج له، فلما رأى مكانه بالشام، وعرف سنه
وسمته وعقله، ولسانه، وصلاته وصيامه، فلم يكن
شيء أحب إليه من ألا يراه أحد من أهل الشام، فقال له:
إني أخاف عليك طواعين الشام؛ فإنك لن تُغنم أهلك أكثر
منك، فالحق بهم؛ فإن حوائجك ستسبِقك إليهم، ثم قدم
على هشام، فكره عبد الله أن يدخل منزل له حتى يأتيه
في ثياب سفره؛ مخافة سوء ظنه، فلما أعلمه الحاجب
مكانه، ودخل عليه وعينه، كره أن يقيم بها طرفة عين،
قال: اذكر حوائجك، قال: أحط رجلي وأضع ثياب سفري،
وأذكرك حوائجي، قال: إنك لن تجدني في حال خير لك
منّي الساعة يريد أن القلوب أرق ما تكون إذا تلاقى

العيون عن بُعد عهد، وليس ذلك أراد.
طحال البحرين والعامّة تنشد:

مَنْ يَسْكُن
الْبَحْرَيْنِ يَعِظُمُ
طِحَالُهُ
وَ يُعْبِطُ بِمَا فِي
بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ

ونظر دُكَيْنُ الرَّاجِزُ، إلى أبي العباسِ مُحَمَّدِ بْنِ دُويِبِ
الْفُقَيْمِيِّ الرَّاجِزِ، وهو عُليُّمٌ مصفّرٌ مَطْحُولٌ، وهو يمتَحُ
على بَكَرَةِ ويرتجز، فقال: من هذا العُمانيّ؟ فلزمته هذه
النسبة.

جرب الزنج وحدثني يوسفُ الزنجي أنّه لا بدّ لكلِّ مَنْ قَدِمَ
من شِقِّ العراقِ إلى بلادِ الزنجِ ألاّ يزالَ جَرِباً، ما أقامَ
بها، وإنّ أكثرَ من شَرِبَ نبيذها، أو شَرابَ النَّارَجِيلِ،
طَمَسَ الخَمَارُ على عقله، حتّى لا يكونَ بينه وبين
المعتوه إلاّ الشّيء اليسير.

طبيعة المصيصة وخبرني كم شئتَ من الغزاة، أن مَنْ
أطالَ الصَّوْمَ بالمصيصة في أيّام الصَّيفِ، هاج به الهَرارُ،
وأنّ كثيراً منهم قد جُنُّوا عن ذلك الاحتراق.
طبيعة قسبة الأهواز فأما قسبة الأهواز، فإنّها قلبت كلَّ

مَنْ نَزَلَهَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ طِبَاعِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ،
وَلَا بَدَّ لِلْهَاشِمِيِّ، قَبِيحَ الْوَجْهِ كَانَ أَوْ حَسَنًا، أَوْ دَمِيمًا كَانَ
أَوْ بَارِعًا رَائِعًا، مِنْ أَنْ يَكُونَ لَوَجْهِهِ وَشَمَائِلِهِ طِبَاعٌ يَبِينُ
بِهَا مِنْ جَمِيعِ قَرِيشٍ وَجَمِيعِ الْعَرَبِ، فَلَقَدْ كَادَتْ الْبُلْدَةُ أَنْ
تَنْقُلَ ذَلِكَ فَتَبَدَّلَهُ، وَلَقَدْ تَخَيَّفَتْهُ وَأَدْخَلَتْ الضَّيْمَ عَلَيْهِ،
وَبَيَّنَتْ أَثَرَهَا فِيهِ فَمَا ظَنُّكَ بِصَنِيْعِهَا فِي سَائِرِ الْأَجْنَاسِ؟
وَلِفْسَادِ عُقُولِهِمْ، وَلَوْمْ طَبَعَ بِلَادِهِمْ، لَا تَرَاهُمْ مَعَ تِلْكَ
الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ، وَالضِّيَاعِ الْفَاشِيَةِ، يَحْبُونَ مِنَ الْبَنِينِ
وَالْبَنَاتِ مَا يَحِبُّهُ أَوْسَاطُ أَهْلِ الْأَمْصَارِ عَلَى الثَّرْوَةِ
وَالْيَسَارِ، وَإِنْ طَالَ ذَلِكَ، وَالْمَالُ مَنبَهَةٌ كَمَا تَعْلَمُونَ، وَقَدْ
يَكْتَسِبُ الرَّجُلُ، مِنْ غَيْرِهِمْ، الْمُوَيْلَ الْيَسِيرَ، فَلَا يَرْضَى
لَوْلَادِهِ حَتَّى يَفْرُضَ لَهُ الْمُوَدَّبِينَ، وَلَا يَرْضَى لِنِسَائِهِ مِثْلَ
الَّذِي كَانَ يَرْضَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ صِنَاعَةٌ
مَذْكُورَةٌ، وَلَا أَدَبٌ شَرِيفٌ؛ وَلَا مَذْهَبٌ مَحْمُودٌ، لَهُمْ فِي
شَيْءٍ مِنْهُ نَصِيبٌ وَإِنْ خَسَّ، وَلَمْ أَرْ بِهَا وَجَنَةً حَمْرَاءَ
لِصَبِيٍّ وَلَا صَبِيَّةٍ، وَلَا دَمًا ظَاهِرًا وَلَا قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ
قِتَالَةٌ لِلْغُرَبَاءِ، وَعَلَى أَنْ حُمَاهَا خَاصَّةٌ لَيْسَتْ لِلْغَرِيبِ
بِأَسْرَعِ مِنْهَا إِلَى الْقَرِيبِ، وَوَبَاؤُهَا وَحُمَاهَا، فِي وَقْتِ
انْكَشَافِ الْوَبَاءِ وَنُزُوعِ الْحَمَى عَنِ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ، وَكُلُّ

محموم في الأرض فإنَّ حُمَاه لا تنزع عنه، ولا تفارقه
وفي بدنه منها بقيّة، فإذا نَزَعَتْ عنه فقد أخذَ منها عن
نفسه البراءة، إلى أن يعود إلى الخُط، وأنَّ يجمع في
جوفه الفساد، وليست كذلك الأهواز لأنها تُعاود من نَزَعَتْ
عنه من غير حدّث، كما تعاود أصحاب الحدّث؛ لأنَّهم
ليسوا يُوتون من قبل النَّهَم، ومن قِبَل الخُط والإكثار،
وإنما يُوتون من عين البلدة، وكذلك جمعت سوقُ الأهوازِ
الأفاعي في جبلها الطّاعن في منازلها، المظِلُّ عليها؛
والجَرّاراتِ في بيوتها ومقابرها ومنابرها، ولو كان في
العالم شيءٌ هو شرٌّ من الأفعى والجَرّارة، لما قصرت
قصبه الأهواز عن توليده وتلقيحه، وبليتها أنّها من
ورائها سباحٌ ومناقع مياهٍ غليظةٍ وفيها أنهارٌ تشقها
مَسَايلُ كُنْفِهِمْ، ومياهُ أمطارهم ومُتَوَضّاتِهِمْ، فإذا طلعت
الشَّمْسُ فَطَالَ مُقَامُهَا، وطالت مقابلتها لذلك الجبل، قبل
بالصَّخْرِيَّة التي فيه تلك الجَرّارات، فإذا امتلأت بيبساً
وحرارةً، وعادت جمرَةً واحدةً، قذفت ما قَبِلت من ذلك
عليهم، وقد تُحدِث تلك السِّبَاخ وتلك الأنهار بُخاراً فاسداً،
فإذا التقى عليهم ما تُحدِث السِّبَاخ وما قذفه ذلك الجبلُ،
فسدَ الهواء، وبفساد الهواء يفسد كلُّ شيءٍ يشتملُ عليه

ذلك الهواء. وحدثني إبراهيم بن عباس بن محمد بن منصور، عن مَشِيخة من أهل الأهواز، عن القوابل، أنهم رُبَمَا قَبْلَنَ الطِّفْلَ المولودَ، فيجذُّنُهُ في تلك السَّاعَةِ محمومًا، يَعْرِفُنَ ذلك ويتحدَّثُنَ به.

عيون الحيات والخطاطيف

قال: ويعرض لفراخ الحيات مثل الذي يعرض لفراخ الخطاطيف؛ فإن نازعاً لو نزع عيون فراخ الخطاطيف، وفراخ الحيات، لعادت بصيرةً.

مفارقة السلحفاة والرق والضفدع للماء وزعم أن السلحفاة والرق، والضفدع، مما لا بد له من التنفس، ولا بد لها من مفارقة الماء، وأنها تبيض وتكتسب الطعم وهي خارجة من الماء، وذلك للنسب الذي بينها وبين الضب، وإن كان هذا برياً وهذا بحرياً. شبه بعض الحيوان البري بنظيره من البحري ويزعمون أن ما كان في البر من الضب والورل والحرباء، والحلكاء، وشخمة الأرض، والوزغ والعطاء مثل الذي في البحر من السلحفاة والرق، والتمساح، والضفدع، وأن تلك الأجناس البرية وإن اختلفت في أمورها، فإنها قد تتشابه

في أمور، وأنّ هذه الأجناسَ البحرية من تلك، ككلب الماء من كلب الأرض.

صوم بعض الحيوان وقد زعم صاحبُ المنطق أنّ الحية وسامَ أبرص من العطاء، والتَّمساح، تسكنُ في أعشّتها الأربعة أشهرَ الشديدة البرد، لا تطعم شيئاً، وأنّ سائر الحياتِ تسكنُ بطنَ الأرض، فأما الأفاعي فإنّها تسكن في صدوع الصّخر، وليس لشيءٍ من الحيوان من الصّبر عن الطّعم ما لهذه الأجناس، وإنّ الفيل ليناسبها من وجهين: أحدهما من طول العمر، فإنّ منها ما قد عاش أربعمائة سنة، والوجه الآخر أنّ الفيلة مائيّة وهذه الأجناس مائيّة وإن كان بعضها لا يسكن الماء.

داهية الغبر قال: وسمعتُ يونس بن حبيب يقول: داهية الغبر قال: وقيل ذلك لأنها ربّما سكنتُ بقرب ماءٍ، إمّا غدير وإما عين، فتحمي ذلك الموضع، وربما غبر ذلك الماء في المنقَع حيناً وقد حمته، وقال الكدّاب الحرمازي:

دَاهِيَةُ الدَّهْرِ
وصَمَاءُ الغَبْرِ

يا ابنَ المعلّى
نزلتُ إحدى الكُبرى

قال: وسأل الحكم بن مروان بن زنباع، عن بني عبد الله بن عطفان، قال: أفعى إن أيقظتها لسعتك، وإن تركتها لم تضرّك.

نادرة تتعلق بالحيات

وذكر عن سعيد بن صخر قال: نُهِشَ رجلٌ من أهل البادية كثيراً المال، فأشفي على الموت، فأتاهم رجلٌ فقال: أنا أرقيه، فما تُعطوني؟ فشارطوه على ثلاثين درهماً، فرقاه وسقاه أشياء ببعض الأخلاط، فلما أفاق قال الرّاقى والمداوي: حقي قال المدوغ: وما حقه، قالوا: ثلاثون درهماً، قال أعطيه من مالي ثلاثين درهماً في نفثاتٍ نفثها، وحمضٍ سقاه لا تُعطوه شيئاً.

حديث سكر الشطرنجي وحدثني بعض أصحابنا عن سكر الشطرنجي، وكان أحق القاصين، وأحدقهم بلعب الشطرنج، وسألته عن خرق كان في خرمة أنفه فقلت له: ما كان هذا الخرق؟ فذكر أنه خرج إلى جبل يتكسب بالشطرنج، فقدم البلدة وليس معه إلا درهم واحد، وليس يدرى أينجح أم يخفق، ويجد صاحبه الذي اعتمده أم لا يجده؟ فورد على حواءٍ وبين يديه جون عظامٍ فيها

حياتٌ جليلةٌ .

والحيّة إذا عَضَّتْ لم تكنْ غايَتُها النَّهشُ أو العَضُّ، وأنْ ترضى بالنَّهشِ، ولكنَّها لا تعضُّ إلاَّ للأكلِ والابتلاعِ، وربَّما كانت الحياتُ عِظامًا جدًّا ولا سمومَ لها، ولا تَعْقِرُ بالعضِّ، كحياتِ الجَوْلانِ، وفي البادية حيةٌ يقال لها الحُفَّاتُ، والحُفَّاتُ من الحياتِ تأكلُ الفأرَ وأشباهَ الفأرِ، ولها وعيدٌ مُنكرٌ، ونفخٌ وإظهارٌ للصَّولة، وليس وراءَ ذلك شيءٌ، والجاهلُ ربَّما مات من الفرعِ منها، وربَّما جمعت الحيةُ السَّمَّ وشدَّةَ الجَرَحِ، والعضُّ والابتلاعُ، وحَطَمَ العِظَمِ، فوقفَ سُكْرٌ على الحوَاءِ وقد أخرج من جوفه أعظمَ حياتٍ في الأرضِ، وادَّعى نفوذَ الرُّقيةِ وجودةَ التَّرياقِ، فقال له سُكْرٌ: خذْ مِنِّي هذا الدَّرهمَ، وارقني رُقِيَةً لا تضرني معها حيةٌ أبدًا قال: فَإني أفعلُ، قال: فأرسلْ قبل ذلك حيةً، حتَّى ترقيني بعد أن تعضني، فإنْ أفقتُ علمتُ أنَّ رُقيتك صحيحةٌ، قال: فَإني أفعلُ، فاخترُ أيَّتَهِنَّ شئتَ، فأشار إلى واحدةٍ ممَّا تعضُّ للأكلِ دونَ السَّمِّ، فقال: دَعُ هذه، فإنَّ هذه إن قبضتُ على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك قال: فَإني لا أريد غيرها، وظنَّ أنَّه إنما زوَّاهَا عنه لفضيلةٍ فيها، قال: أمَّا إذُ أبيتَ إلاَّ

هذه فاخترَ موضعاً من جسدك حَتَّى أرسَلها عليه، فاختارَ
أنفه، فناشده وخوِّفه، فأبى إلا ذلك أو يردَّ عليه درهمه،
فأخذها الحوَاء وطواها على يده، كي لا يدعها تتكز
فتقطع أنفه من أصله، ثمَّ أرسَلها عليه، فلما أنشبت أحد
نابئها في شِقِّ أنفه صرَّخ عليه صرَّخةً جمعت عليه أهل
تلك البلدة، ثمَّ عُشي عليه، فأخذ الحوَاء فوضع في
السَّجن، وقتلوا تلك الحيات، وتركوه حتى أفاق كأنه أجنُّ
الخلق، فتطوَّعوا بحمله فحملوه مع المُكاري، وردَّوه إلى
البصرة، وبقي أثرُ نابها في أنفه إلى أن مات.

ما يغتصب بيت غيره من الحيوان قال: وأشياء من
الحشرات لا تتخذ لنفسها ولا لبيضاها ولا أولادها بيوتا،
بل تظلم كلَّ ذي جُحر جُحره، فتخرجه منه، أو تأكله إن
ثبت لها، والعربُ تقول للمُسيء: أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ لَأَنَّ،
الحيَّة لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكلُّ بيتٍ قصدت نحوه هرب
أهله منه، وأخلَّوه لها.

عداوة الورل والحية

والورل يقوى على الحيات ويأكلها أكلاً ذريعاً، وكلُّ شِدَّةٍ
يلقاها ذو جُحر منها فهي تلقى مثل ذلك من الورل،

والورلُ أظفُ جرماً من الضبِّ، وزعم أنهم يقولون: أظلمُ
من ورل كما يقولون: أظلمُ من حية، وكما يقولون: أظلمُ
من ذئبٍ ويقولون: من استرعى الذئبَ ظلم .
الورل والضبُّ وبراثن الورل أقوى من براثن الضبِّ،
والضبابُ تحفر جحرتها في الكدى، والورل لا يحفرُ
لنفسه بل يُخرج الضبَّ من بيته، فتزعم الأعرابُ أنه إنما
صار لا يحفر لنفسه إبقاءً على براثنه، ويمنع الحية أن
تحفر بيتها أن أسنانها أكلُ من أسنان الفأر ومن التي
تحفر بالأفواه والأيدي، كالنمل والذرّ وما أشبه ذلك،
والحياة لا ترى أن تعاني ذلك، وحفرُ غيرها ومعاناته
يكفيها

شعر في ظلم الحية

وفي. ضرب المثل بظلم الحية، يقول مضرّس بن لقيط:

إلى فقّس ما
أنصفتني فقّس

سعى حاطب
منهم لآخر

لعمرك إني لو
أخاصم حية

إذا قلت مات
الداء بيني

وبينهم

يقبس

فما لكم طلساً
إلى كأنكم

ذئاب الغضا
والذئب بالليل
أطلس

وجعله أطلس؛ لأنه حين تشتدُّ ظُلمة اللَّيل فهو أخفى له،
ويكون حينئذٍ أخبث له وأضرى.
وقال حَرِيْزُ بنِ نُشْبَةَ العَدَوِيِّ، لبني جعفر بن كلاب،
وضربَ جَوْر الحَيَّةِ والذَّئبِ في الحُكْمِ مثلاً، فقال:

كأنني حين
أحبو جعفرأ
مدحى

أسقيهم طرق
ماء غير
مشروب

ولو أخاصم
أفعى نابها
لثق

أو الأسود من
صم الأهاضيب

لكنتم معها ألبأ

ناب بأسفل ساقٍ

وكان لها

أو بعرقوب

ولو أخاصم
ذئباً في
أكليلته

لجاءني جمعكم
يسعى مع الذئب

فم الأفعى

قال: والحيّة واسعة الشّحوِ والفم، لها خطم، ولذلك ينفذ
نابها، وكذلك كلُّ ذئبٍ فم واسع الشّحو، كفم الأسد، فإذا
اجتمع له سعة الشّحو وطول اللّحيين، وكان ذا خطم
وخرطوم فهو أشدُّ له؛ كالخنزير، والدّئب والكلب، ولو
كان لرأس الحيّة عظمٌ كان أشدَّ لعضتها، ولكنّه جلدٌ قد
أطبّق على عظمين رقيقين مستطيلين بفكّها الأعلى
والأسفل، ولذلك إذا أهوى الرّجلُ بحجرٍ أو عصيّ، رأيتها
تلوّي رأسها وتحتال في ذلك، وتمنعه بكلِّ حيلة، لأنّها
تعلم وتحسُّ بضعف ذلك الموضع منها، وهو مَقْتَلٌ،
وما أكثر ما يكون في أعناقها تخصيراً، ولصدورها
أغباب، وذلك في الأفاعي أعمُّ، وذلك الموضع المستدق
إنّما هو شيءٌ كههيئة الخريطة، وكهيئة فم الجراب،

مُنْضَمُّ الأَثْنَاءِ، مُتْنَى الغُضُونِ، فإذا شئت أن تفتح انفتح
لك فَمٌ واسع، ولذلك قال إبراهيم بن هانئ: كان فَتْحُ فَمِ
الجِرابِ يَحْتَاجُ إلى ثلاثة أَيْدٍ، ولولا أَنَّ الحَمالين قد جعلوا
أَفْواههم بدل اليدِ الثَّالِثَةِ لَقَد كان ذلك مَمْتَعًا حَتَّى يَسْتَعِينُوا
بِيدِ إنسان. وهذا مِمَّا يَعدُّ في مجون ابن هانئ، وكذلك
حُلُوقُ الحَيَّاتِ وأَعناقها وصدورُها، قد تراها فتراها في
العين دَقيقَةً، ولا سَيِّما إذا أفرطت في الطُّولِ.

شِراة الحية والأسد

وهي تبتلعُ فِراخَ الحمام، والحيةُ أَنهمُ وأشره من الأسد،
والأسدُ يبلعُ البَضْعَةَ العَظيمةَ من غير مَضْعٍ، وذلك لما
فيه من فَضْلِ الشَّرِّه، وكذلك الحية، وهما واثقان بسهولةِ
وسَعَةِ المَخرِجِ.

تَتَّيْنُ أنطاكية ومِمَّا عَظَّمها وزادَ في فِوَعِ النَّاسِ منها،
الذي يرويه أهلُ الشَّامِ، وأهلُ البَحْرَيْنِ، وأهلُ أنطاكية،
وذلك أَنِّي رأيتُ التُّلثَ الأعلى من منارة مسجد أنطاكية
أَظْهَرَ جِدَّةً من التُّلثينِ الأسفلينِ، فقلتُ لهم: ما بالُ هذا
التُّلثِ الأعلى أَجَدَّ وأَطْرَى؟ قالوا: لأنَّ تَتَّيْنًا تَرَفَّعَ مِنْ
بَحْرِنَا هذا، فكان لا يَمُرُّ بشيءٍ إلاَّ أَهلَكَه، فَمَرَّ على

المدينة في الهواء، محاذياً لرأس هذه المنارة، وكان
أعلى ممّا هي عليه، فضربه بذنبه ضربةً، حذفت من
الجميع أكثر من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك
اختلف في المنظر.

الخلاف في التنين ولم يزل أهل البقاع يتدافعون أمر
التنين، ومن العجب أنّك تكون في مجلس وفيه عشرون
رجلاً، فيجري ذكر التنين فينكره بعضهم، وأصحاب
التثبت يدعون العيان، والموضع قريب، ومن يعاينه
كثير، وهذا اختلاف شديد.

الكتاب الحادي عشر

قول الأعراب في الأصله

الأجدهاني

الحية ذات الرأسين

فزع الناس من الحية

طول عمر الحية

ضروب الحيات

علة الفزع من الحية

لسان الحية

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

أسماء ما يأكل الحيات

أكل القنفذ للحية

بيض الحيات

سفاد الحيات

آثار الحيات والعضاء في الرمال

روعة جلد الحية

صمم النعام والأفعى

رقى الحيات

ريح الأفعى

تأثير الأصوات

قول لأبي الوجيه العكلي

دعابة لجعفر بن سعيد

أثر الصوت في الحية

شعر في الروح وهيكلها

قول في شعر لأمية بن أبي الصلت

عقاب حواء وآدم والحية

ظلم الحية وكذبها

مرويات كعب الأحبار

نطق الحية

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

مسالمة الأفعى للقانص والراعي

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

أصل الأسروع

انسلاخ البرغوث

انسلاخ الجراد

أصوات خشاش الأرض

ضرب المثل للرجل الداهية ولحي الممتنع بالحيّة

قولهم جاء بأم الربيق على أريق

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

شعر للأخطل في ذكر الحية

حيّة الماء

علة وجود الحيات في بعض البيوت

معرفة في الحية

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

جلد الحية

ما يشبه بلسان الحية

نفع الحية

استطراد لغوي

شعر في الحيات الأفاعي

ضرب المثل بسمّ الأسود

حيات الجبل

خبران في الحيات

شعر في سلخ الحية

تأويل رؤيا الحية

ما جاء في الحيات من الحديث

زعم زرادشت في العظايا وسوام أبرص

أكل الأعراب للحيات

جملة القول في الظليم

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة

إذابة جوف الظليم للحجارة

قول الأعراب في الأصله

والأعراب تقول في الأصله قولاً عجيباً: تزعم أن الحية التي يقال لها الأصله لا تمرّ بشيء إلا احترق، مع تهاويل كثيرة، وأحاديث شنيعة.

الأجدهاني

وتزعم الفرس أن الأجدهاني أعظم من البعير، وأن لها سبعة رؤوس، وربما لقيت ناساً فتبتلع من كل جهة فم ورأس إنساناً، وهو من أحاديث الباعة والعجائز.

الحية ذات الرأسين

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعي فلا تسعى، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب، كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فلنفسها

تتعشى بقم وتتغدى بقم، وأما العَضُّ فإنها تعضُّ برأسِها
معاً فإذا به أكلُ البريَّة، وهذه الأحاديثُ كلها، ممَّا يزيد
في الرعب منها، وفي تهويل أمرها.
فُرائق الأسد ومِثْلُ شَأْنِ النَّيْنِ مِثْلُ أَمْرِ فُرائقِ الأسد، فإنَّ
ذكره يجري في المجلس، فيقول بعضهم: أنا رأيتُه
وسَمِعْتُهُ!

فزع الناس من الحية

وربما زاد في الرعب منها والاستهالة لمنظرها قولُ
جميع المحدثين: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْحَيَّةَ
وَالسَّرَطَانَ وَالسَّمَكَ!

طول عمر الحية

وتقول الأعراب: إِنَّ الْحَيَّةَ أَطْوَلُ عَمْرًا مِنَ النَّسْرِ، وَإِنْ
النَّاسَ لَمْ يَجِدُوا حَيَّةً قَطُّ مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا، وَإِنَّمَا تَمُوتُ
بِالْأَمْرِ يَعْضُ لَهَا، وَذَلِكَ لِأُمُورٍ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ: إِنَّ فِيهَا
شَيَاطِينَ، وَإِنَّ فِيهَا مِنْ مَسْخٍ، وَإِنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا وَسَّوسَ
إِلَى آدَمَ وَإِلَى حَوَاءَ مِنْ جَوْفِهَا.
زعم الفضل بن إسحاق وزعم لي الفضل بن إسحاق،
أنه كان لأبيه نُحَّانٍ، وأنَّ طَوْلَ كُلِّ نَحَّ تِسْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعاً

ضروب الحيات

ومن الحيات الجُرد والزرغر، وذلك فيها من الغالب، ومنها ذوات شعر، ومنها ذوات قرون، وإنما يتخلق لها في كل عام قشراً وغلاف فأما مقادير أجسامها فقط.
انسلاخ جلد الإنسان وأما الجلود فإنَّ الأرمينيَّ زعم أنه كان عندهم رجلٌ ينقشِر من جلده وينسلخُ في كلِّ شهر مرَّةً، قال فجمع ذلك فوجد فيه ملء جراب أو قال: أكثر.

علة الفرع من الحية

وأما الذي لا أشك في أنه قد زاد في أقدارها في النفوس، وعظم من أخطارها، وهول من أمرها، ونبه على ما فيها من الآيات العجيبة والبرهان النير، والحجة الظاهرة، فما في قلب العصا حية، وفي ابتلاعها ما هول به القوم وسحروا من أعين الناس، وجأؤوا به من الإفك، قال الله عز وجل: "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنَّ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ" إلى قوله: "فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ

وَعَصِيَّتُهُمْ" فَإِنْ قُلْتُمْ: إِنَّهُ إِنَّمَا حَوَّلَ الْعَصَا ثُعْبَانًا لِأَنَّهُمْ
 جَاؤُوا بِحِبَالٍ وَعِصِيٍّ؛ فَحَوَّلُوهَا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ كُلِّهَا
 حَيَاتٍ، فَلِذَلِكَ قَلَّبَ اللَّهُ الْعَصَا حَيَّةً عَلَى هَذِهِ الْمَعَارِضَةِ،
 وَلَوْ كَانُوا حِينَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ جَعَلُوا حِبَالَهُمْ
 وَعَصِيَّتَهُمْ ذُنَابًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَنُمُورًا، لَجَعَلَ اللَّهُ عَصَا
 مُوسَى ذُنْبًا أَوْ نَمْرًا، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَخَاصَّةٍ فِي بَدَنِ الْحَيَّةِ،
 قُلْنَا: الدَّلِيلُ عَلَى بَاطِلِ مَا قُلْتُمْ، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: "وَمَا تِلْكَ
 بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا
 عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى" قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى
 فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "إِذْ قَالَ
 مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا" إِلَى قَوْلِهِ: "وَأَلْقِ عَصَاكَ
 فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى
 لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَوِيَّ الْمُرْسَلُونَ" فَقَلَّبَتِ الْعَصَا جَانًّا،
 وَلَيْسَ هُنَاكَ حِبَالٌ وَلَا عِصِيٌّ، وَقَالَ اللَّهُ: "قَالَ لئنِ اتَّخَذْتَ
 إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أُولُو جُنُودِكَ
 بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى
 عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ" فَقَلَّبُ الْعَصَا حَيَّةً كَانَ فِي
 حَالَاتٍ شَتَّى، فَكَانَ هَذَا مِمَّا زَادَ فِي قَدْرِ الْحَيَّةِ، وَقَدْ وَرَدَ
 أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي دَعَائِهِ أَنْ لَا يَمِيتَهُ اللَّهُ

لَدِيغًا، وتَأْوِيلُ ذَلِكَ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اسْتَعَادَ
بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَمُوتَ لَدِيغًا، وَأَنْ تَكُونَ مِيتَتَهُ بِأَكْلِي هَذَا
الْعَدُوِّ، إِلَّا وَهُوَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، بَلْ مِنْ أَشَدِّهِمْ عِدَاوَةً وَقَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ كَأَنَّهُ كَانَ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ لَا
يُقْتَلُ أَحَدًا، وَلَا يَتَفَقَّ ذَلِكَ إِلَّا فِي أَشْرَارِ الْخَلْقِ، وَيَدُلُّ عَلَى
ذَلِكَ، الَّذِي اتَّفَقَ مِنْ قَتْلِ أَبِي بِنِ خَلْفٍ بِيَدِهِ، وَالنَّضْرِ بْنِ
الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَمَعَاوِيَةَ بْنِ الْمَغِيرَةَ بْنِ
أَبِي الْعَاصِي صَبْرًا. وَحَدَّثَتْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي هَنْدٍ، قَالَ:
حَدَّثَنِي صَيْفِيُّ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَشِيرٍ
الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ
مِنْ هَوْلَاءِ السَّبْعِ: كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ
الْهَذْمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرْدِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَمِّ وَالْغَرَقِ،
وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَرَقِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي
الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ
مُذْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا. وَطَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو
قَالَ: حَدَّثَنِي عَطَاءٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَسَدِ وَالْأَسْوَدِ، وَأَعُوذُ
بِكَ مِنَ الْهَذْمِ.

استطرد لغوي قال: ويقال للحية: صَفَرَتْ تَصْفِرُ صغيراً،
والرجل يصفر بالطير للتنفير، وبالذوَابَّ وبيعض الطير
للتعليم، وتتخذ الصَّفارة يُصْفِرُ بها للحمام وللطير في
المزارع، قال أعشى همدان يهجو رجلاً:

قَطَعَ النَّهَارَ
تَأْوَهَا وَصَفِيرَا

وإذا جثا للزَّرع
يوم حَصَادِهِ

لسان الحية

والحِية مشقوقة اللسانِ سوداؤه، وزعم بعضهم أن
لبعض الحياتِ لسانين، وهذا عندي غلطٌ، وأظنُّ أنَّه لما
رأى افتراقَ طرف اللسانِ قضى بأنَّ له لسانين.
عجيبه للضب ويقال: إن للضبَّ أيرين، ويسمى أير
الضبَّ نَزْكَاءً، قال الشاعر:

على كلِّ حافٍ
في الأنامِ وناعِلِ

كَضَبَّ لَهُ
نَزْكَانَ كَانَا
فَضِيلَةَ

قَالَ أَبُو خَلْفٍ النَّمِرِيُّ: سَأَلَ أَبُو حَيَّةَ النَّمِيرِيَّ عَنْ أَيْرِ الضَّبِّ، فَرَزَعَمَ أَنَّ أَيْرَ الضَّبِّ كَلْسَانَ الْحَيَّةِ: الْأَصْلُ وَاحِدٌ، الْفَرْعُ اثْنَانُ

زَعَمَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ فِي عِقَابِ الْحَيَّةِ

وَبَعْضُ أَصْحَابِ التَّفْسِيرِ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ عَاقَبَ الْحَيَّةَ حِينَ أَدْخَلْتَ إِبْلِيسَ فِي جَوْفِهَا، حَتَّى كَلَّمَ آدَمَ وَحَوَاءَ وَخَدَعَهُمَا عَلَى لِسَانِهَا، بَعِشْرَ خِصَالٍ: مِنْهَا شَقُّ اللِّسَانِ، قَالُوا: فَذَلِكَ تَرَى الْحَيَّةَ إِذَا ضُرِبَتْ لِلْقَتْلِ كَيْفَ تَخْرُجُ لِسَانَهَا لِتُرِي الضَّارِبَ عَقُوبَةَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا تَسْتَرْحِمُ، وَصَاحِبُ هَذَا التَّفْسِيرِ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِلَّا لِحَيَّةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ تَتَكَلَّمُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَنْكَرَ آدَمُ كَلَامِهَا، وَإِنْ كَانَ إِبْلِيسُ لَا يَحْتَالُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْحَيَّةِ، وَلَا يَحْتَالُ بِشَيْءٍ غَيْرِ مَمُوهٍ وَلَا مَشْبَهٍ. اسْتَطْرَادَ لَغْوِي قَالَ: وَيُقَالُ: أَرْضٌ مَخَوَاةٌ وَمَخْيَاةٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، كَمَا يُقَالُ أَرْضٌ مَضَبَّةٌ وَضَبِيَّةٌ مِنَ الضَّبَابِ، وَفَائِرَةٌ مِنَ الْفَارِ.

قَوْلُهُمْ: هَذَا أَجَلٌ مِنَ الْحَرَشِ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ: هَذَا أَجَلٌ مِنَ الْحَرَشِ: إِنَّ الضَّبَّ قَالَ لِابْنِهِ: إِذَا سَمِعْتَ صَوْتَ الْحَرَشِ فَلَا تَخْرُجَنَّ قَالَ: وَذَلِكَ

أَنَّهُمْ يُزَعَمُونَ أَنَّ الْحَرَشَ تَحْرِيكَ الْيَدِ عِنْدَ جُرْحِ الضَّبِّ،
لِيُخْرَجَ إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ حَيَّةٌ قَالَ: وَسَمِعَ ابْنَهُ صَوْتَ الْحَفْرِ
فَقَالَ: يَا أَبَاهُ هَذَا الْحَرَشُ؟ قَالَ: يَا بَنِيَّ، هَذَا أَجَلٌ مِنْ
الْحَرَشِ فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا.

أَسْمَاءُ مَا يَأْكُلُ الْحَيَاتِ

بَيْنَ الْحَيَاتِ وَبَيْنَ الْخَنَازِيرِ عَدَاوَةٌ، وَالْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهَا أَكْلًا
ذَرِيعًا، وَسَمُومُ ذَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْحَيَاتِ، وَذَوَاتِ الْإِبْرِ،
سَرِيعَةٌ فِي الْخَنَازِيرِ، وَهِيَ تَهْلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ هَلَاكًا وَشِيكًا،
فَذَلِكَ لَا تَرْضَى بِقَتْلِهَا حَتَّى تَأْكُلَهَا، وَتَأْكُلُ الْحَيَاتِ
الْعُقْبَانَ، وَالْأَيَائِلُ، وَالْأَرَاوِيَّ، وَالْأَوْعَالَ، وَالسَّنَانِيرَ
وَالشَّاهْمُرَكَ، وَالْقَنْفَذُ، إِلَّا أَنَّ الْقَنْفَذَ أَكْثَرُ مَا يَقْصِدُ إِلَى
الْأَفَاعِي، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِاللَّيْلِ، قَالَ الرَّاجِزُ:

قَنْفَذُ لَيْلٍ دَائِمِ التَّجَابِ

وَهَذَا الرَّاجِزُ هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْفَقْعَسِيُّ الْقَوْلُ فِي الْقَنْفَذِ
وَكَذَلِكَ يَشْبَهُ النَّمَامُ، وَالْمُدَاخِلُ، وَالْدَّسِيسُ، بِالْقَنْفَذِ،
لِخُرُوجِهِ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ، وَلاَحْتِيَالِهِ لِلْأَفَاعِي، قَالَ عَبْدُ
بْنِ الطَّبِيبِ:

متنصحاً وهو السمام الأنقع	اعصوا الذي يلقى القنافذ بينكم
حرباً كما بعث العروق الأخدع	يزجي عقاربه ليبعث بينكم
عسلٌ بماء في الإناء مشعشع	حران لا يشفي غليل فواده
بين القوايل بالعداوة ينشع	لا تأمنوا قوماً يشب صبيهم

وهذا البيت الآخر يضم إلى قول مجنون بني عامر:

فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَمَكَّنَا	أتاني هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أُعْرِفَ الْهَوَى
---	---

ويضم إليه قول ابن أود: الطينة تَقْبَلُ الطباع ما كانت
لَيِّنَةً.

ثم قال عبدة بن الطبيب، في صلة الأبيات التي ذكر فيها
القنفذ والنميمة:

يَشْفِي صَدَاعَ
رُؤُوسِهِمْ أَنْ
تُصْرَعُوا

إِنَّ الَّذِينَ
تُرُونَهُمْ
خُلَانَكُمْ

جَذَعُوا قَنَافِدَ
بِالنَّمِيمَةِ تَمْرَعُ

قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ
الظَّلَامُ
عَلَيْهِمْ

وهذا الشعر من غرر الأشعار، وهو مما يحفظ.
وقال الأودي:

خَبٌّ إِذَا نَامَ عَنْهُ
النَّاسُ لَمْ يَنِمِ

كَقَنْفَذِ الْقَنَّ لَا
تَخْفَى مَدَارِجُهُ

عهد آل سجستان على العرب وفي عهد آل سجستان
على العرب حين افتحوها: لا تقتلوا قنفذا ولا ورلا ولا

تَصِيدُوا، لَأَنهَا بِلَادُ أَفَاعٍ، وَأَكْثَرُ مَا يَجْتَلِبُ أَصْحَابُ صِنْعَةِ
التَّرِياقِ وَالْحَوَاوِينِ الْأَفَاعِي مِنْ سَجِسْتَانَ، وَذَلِكَ كَسَبٌ
لَهُمْ وَحِرْفَةٌ وَمَتَجَرٌّ، وَلَوْ لَا كَثْرَةُ قَنَافِذِهَا لَمَا كَانَ لَهُمْ بِهَا
قَرَارٌ.

أكل القنفذ للحية

والقنفذ لا يبالي أي موضع قبض من الأفعى، وذلك أنه
إن قبض على رأسها أو على قفاها فهي مأكولة على
أسهل الوجوه، وإن قبض على وسطها أو على ذنبها،
جذب ما قبض عليه، فاستدار وتجمع، ومنحه سائر
بذنه، فمتى فتحت فاهها لتقبض على شيء منه، لم تصل
إلى جلده مع شوكة النّابت فيه، والأفعى تهرب منه،
وطلبه لها وجراءته عليها، على حسب هربها منه
وضعها عنه.

أمثال في الحية والورل والضبّ وأما قولهم: أضل من
حية؛ وأضل من ورل؛ وأضل من ضبّ، فأما الحية فإنها
لا تتخذ لنفسها بيتاً، والذكر لا يقيم في الموضع، وإنما
يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على
الكسب والتماس الطعام، ثم تصير الأنثى سيّارة، فمتى

وَجَدتْ جُحْرًا دَخَلتْ وَاثِقَةً بِأَنَّ السَّاكِنَ فِيهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا
أَقَامَ فَصَارَ طُعْمًا لَهَا، وَإِمَّا هَرَبَ فَصَارَ الْبَيْتُ لَهَا مَا
أَقَامتْ فِيهِ سَاعَةً، كَانَ ذَلِكَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ.

بيض الحيات

وقد رأيتُ بيض الحيات وكسرتها لأتعرّف ما فيها، فإذا
هو بيضٌ مستطيلٌ أكَدُّ اللونِ أخضر، وفي بعضه نَمَشٌ
ولَمَعٌ، فأَمَّا دَاخِلُهُ فَلَمْ أَرَ قَيْحًا قَطُّ، وَلَا صَدِيدًا خَرَجَ مِنْ
جُرْحٍ فَاسِدٍ، إِلَّا وَالَّذِي فِي بَيْضِهَا أَسْمَجٌ مِنْهُ وَأَقْدَرُ،
ويزعمون أنها كثيرة البيض جدًا، وأنّ السلامة في
بيضها على دون ذلك، وأنّ بيضها يكون منضدًا في
جوفها طولًا على غرار واحد، وعلى خيط واحد، وهي
طويلة البطن والأرحام، وعدد أضلاعها عدد أيام الشهر،
وكان ذلك بعض ما زاد في شدّة بدنها.

أكثر الحيوانات نسلًا والخلق الكثير الذرء الدجاج، والضبُّ
أكثر بيضًا من الدجاجة، والخنزيرة تضع عشرين
خنوصًا.

ويخرج من أجواف العقارب عقارب صغار، كثيرة العدد
جدًا، وعامة العقارب إذا حبلت كان حنّفها في ولادها،

لأنَّ أولادها إذا استوى خَلْقُها أَكَلَتْ بطونَ الأمَّهاتِ حتَّى
تثقبها، وتكونُ الولادَةُ من ذلك الثَّقب، فتخرج والأمَّهاتُ
ميتةً.

وأكثرُ من ذلك كله ذرءُ السمك، لأنَّ الإنسان لو زعمَ أنَّ
بيضة واحدة من بعضِ الأسبور عشرة آلاف بيضة، لكان
ذلك لعظم ما تحمل، ولدقة حبه وصغره، ولكن يعترها
أمران: أحدهما الفساد، والآخر أنَّ الذكورة في أوان
ولادة الإناث تتبَّعُ أُنابها، فكلُّما زحرت بشيء التقمته
والتهمته.

ثمَّ السمك بعد ذلك في الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضها
بعضاً.

علة كثرة الأولاد ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما
تكون من العفن واللخن، وعلى قدر كثرة المائيَّة وقلَّتِها،
فذهبوا إلى أنَّ أرحامَ الرُّوميَّاتِ والنَّصرانيَّاتِ أكثرُ لخنًا
ورطوبة، لأنَّ عَسَلَ الفُروجِ بالماء البارد مرارًا في
اليوم، ممَّا يطيب الأرحامَ، وينفي اللخنَ والعفنَ،
ويزعمون أنَّ المرأة إذا كان فرجها نظيفاً، وكانت مُعطرَةً
قويَّة المنة قلَّ حملها، فإنَّ أفرطت في السمنِ عادتُ
عاقراً، وسمنُ الرجال لا يكاد يعترهم ذلك.

وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم والنَّخْل، إذا
قويت النَّخْلَة وكانت شَابَّةً، وَسَمِنَ جُمَارُهَا، صارت عاقراً
لا تحمل، فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها.
اعتراض على التعليل السابق وقد طعن في ذلك ناسٌ
فقالوا: إنَّ في الضَّبِّ على خلاف ما ذكرتم، قد تبيضُ
الأنثى سبعين بيضةً فيها سبعون حسلاً، ولولا أنَّ الضَّبَّ
يأكلُ ولده لانتفشت الصحارى ضباباً، والضب لا يحفر إلاَّ
في كُذْيَة وفي بلادِ العَرَادِ، وإذا هرمت تبلَّغت بالتَّسِيمِ،
وهذا كله ممَّا يستدلُّ به على بُعْدِ طبعها من اللَّخْنِ
والعفن.

وقيل لهم: قد يمكنُ أن يكون ذلك كذلك في جميع صفاتها
إلاَّ في أرحامها فقط.

سفاد الحيات

وليس للحياتِ سفادٌ معروفٌ يَنْتَهِي إليه علمٌ، ويقف عليه
عيان، وليس عند الناس في ذلك إلاَّ الذي يَرَوْنَ من
ملاقة الحيَّة للحية، والتواءِ كلِّ منهما على صاحبه، حتى
كأنهما زوجٌ خيزرانٍ مفتولٍ، أو خَلْخَالٍ مفتولٍ، فأما أن
يقفوا على عضوٍ يدخل أو فرجٍ يدخل فيه فلا.

شعر في الأيم والجرادة الذكر والعرب تذكرُ الحياتِ
بأسمائها وأجناسها، فإذا قالوا: أيم، فإنما يريدون الذَّكَرَ
دونَ الأنثى، ويذكرونه عندَ جودةِ الانسيابِ، وخِفَّةِ البدنِ،
كما تذكرُ الشُّعراءُ في صفةِ الخيلِ الجرادةَ الذَّكَرَ، دونَ
الأنثى، فهم وإن ألقوا لها فإنما يريدون الذَّكَرَ، قال بِشْرُ
بن أبي خازم :

جَرَادَةٌ هَبْوَةٌ فِيهَا اصْفِرَارٌ

لأنَّ الأنثى لا تكون صفراء، وإنما الموصوفُ بالصُّفْرَةِ
الذَّكَرَ، لأنَّ الأنثى تكون بين حالتين: إمَّا أنَّ تكون حُبْلَى
ببيضها فهي مُثْقَلَةٌ، وإمَّا أن تكون قد سرأت وقذفت
بيضها، فهي أضعفُ ما تكون.
قال الشاعر:

وفي اللَّيْلِ أَيْمٌ
حيثُ شاءَ
يسيبُ

أتذهبُ سَلْمَى
في اللَّمَامِ وَلَا
تُرى

آثار الحيات والعطاء في الرمال

وإذا انسابت في الكُثبانِ والرَّمْلِ، يبيِّنُ مواضعَ مَزاحِفِها،
وعُرِفَتْ آثارُها.
وقال آخر:

قَبِيلَ الصَّبْحِ
آثارُ السَّيِّطِ

كَأَنَّ مَزاحِفَ
الحَيَّاتِ فِيها

وكذلك يعرفون آثار العِظاءِ، وأنشد ابن الأعرابي:

مَلاعِبُ وِلْدانِ
تَحْطُ وتمصَعُ

بها ضَرَبُ أذْنابِ
العِظاءِ كَأَنَّها

وقال الآخر، وهو يصف حَيَّاتٍ:

جُرْرانَ فَرادى
ومَنائِها

كَأَنَّ مَزاحِفِها
أُنسَعُ

وقال ثمامة الكلبِيُّ:

خُدودُ رِصائِعِ
جُدلتُ تَواما

كَأَنَّ مَزاحِفَ
الهَزَلَى صباحاً

والهَزَلَى من الحَيَّاتِ، قال جرير أو غيره :

مَزَاحِفُ هَزَلَى
بَيْنَهَا مَتَبَاعِدُ

وَمِنْ ذَاتِ أَصْفَاءِ
سُهُوبِ كَأَنَّهَا

وقال بعضُ المحدثين، وذكر حال البرامكةِ كيف كانت،
وإلى أيِّ شيءٍ صارت:

قَلَّتْ : الشجاعُ
ثوى بها
والأرقمُ

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى
التّرى بِعِرَاصِهِمْ

وقال البعيث:

فجاءتُ بيّتنِ
للضيافةِ أرشماً

لَقِيَ حَمَلَتَهُ أُمَّةٌ
وَهِيَ ضَيْفَةٌ

مَسَارِبُ حَيَّاتِ
تَسْرَبْنَ سَمْسَمَا

مُدَامِنُ جَوْعَاتِ
كَأَنَّ عَرَوْقَهُ

روعة جلد الحية

ولا ثوب، ولا جناح، ولا سترَ عنكبوتٍ، إلا وَقَشِرُ الحيةِ
أَحْسَنُ مِنْهُ وَأَرْقُ، وَأَخْفُ وَأَنْعَمُ، وَأَعْجَبُ صِنْعَةً وَتَرْكِيبًا.

ولذلك وصف كُثِيرٌ قَمِيصٌ مَلِكٍ، فَشَبَّهَهُ بِسَلْخِ الْحَيَّةِ،
حيث يقول:

إِذَا مَا أَفَادَ	حَقُوقٌ، فَكُرُهُ
الْمَالَ أَوْدَى	العَازِلَاتِ يُوَافِقُهُ
بِفَضْلِهِ	
يَجْرُرُ سِرْبَالاً	سَبِيءٌ لَهْزَلَى لَمْ
عَلَيْهِ كَأَنَّهُ	تُقَطَّعُ شَرَانِقُهُ

والسَّبِيءُ: السَّلْخُ والجِلْدُ، قال الشاعر:

وقد نصل الأظفارُ وانسباً الجلدُ

صمم النعام والأفعى

وتزعمُ العربُ أَنَّ النَّعَامَ والأَفْعَى صُمَّ لا تسمعُ، وكذلك
هما من بين جميع الخلقِ، وسنذكرُ من ذلك في هذا
الموضع طرفاً، ونؤخر الباقي إلى الموضع الذي نذكر
فيه جملة القول في النعام، أصحاب الدعوى الكبيرة وقد
ابتُلينا بضربين من الناس، ودعواهما كبيرة، أحدهما
يبلغ من حبه للغرائب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد

الكذابين، وقلبه قراراً لغرائب الزُّور، ولكَفِّهِ بالغريب،
وشَعْفِهِ بالطَّرْفِ، لا يقفُ على التَّصحيح والتمييز، فهو
يدخل الغتَّ في السمين، والممكن في الممتع، ويتعلَّقُ
بأدنى سببٍ ثمَّ يدفع عنه كلَّ الدَّفْعِ.

والصَّنْفُ الآخر، وهو أنَّ بعضهم يرى أنَّ ذلك لا يكون
منه عند من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقرُّز من الكذب.
قول في صمم الأفعى وعماه فزعم ناسٌ أنَّ الدَّليلَ على
أنَّ الأفاعي صُمٌّ، قولُ الشاعر:

أصمَّ لا يسمعُ
للرُّقاة

أنعت نضاضاً من
الحياتِ

قد ذكروا بالصَّمِّ أجناساً من خبيثات الحيات، وذهبوا إلى
امتناعها من الخروج عند رُقِيَةِ الرَّاقِي عند رأس الجُحر،
فقال بعضهم:

صمَّاء لا تسمعُ
صوتَ الدَّاعي

وذاتِ قرنينِ
من الأفاعي

ويزعمون أنَّ كلَّ نضاضٍ أفعى، وقال آخر:

ة أَرْقَشَ ذِي حُمَةٍ
كالرَّشَا

وَمِنْ حَنْشٍ لَا
يُجِيبُ الرُّقَا

تِ مِنْهَرَتِ الشَّدَقِ
عَارِي النِّسَا

أَصَمَّ سَمِيعٍ
طَوِيلِ السَّبَا

فَزَعَمَ أَنَّهُ أَصَمُّ سَمِيعٌ، فَجَازَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَصَمَّ بِقَوْلِهِ:
وَمِنْ حَنْشٍ لَا يُجِيبُ الرُّقَاةَ وَقَالَ الْآخَرُ:

يَفْتَرُّ عَنِ عُصْلِ
حَدِيدَاتِ

أَصَمَّ أَعْمَى لَا
يُجِيبُ الرُّقَى

وَالْأَفْعَى لَيْسَ بِأَعْمَى، وَعَيْنُهُ لَا تَنْطَبِقُ، وَإِنْ قُلِعَتْ عَيْنُهُ
عَادَتْ، وَهُوَ قَائِمُ الْعَيْنِ كَعَيْنِ الْجَرَادَةِ، كَأَنَّهَا مِسْمَارٌ
مَضْرُوبٌ، وَلَهَا بِاللَّيْلِ شُعَاعٌ خَفِيٌّ، قَالَ الرَّاعِي يَصِفُ
الْأَفْعَى:

إِلَى رَأْسِ صِلِّ
قَائِمِ الْعَيْنِ أَسْفَعِ

وَيُدْنِي ذِرَاعِيهِ
إِذَا مَا تَبَادَرَا

وهذه صفة سَلِيمِ الأَفْعَى، فيجوز أن يكون الشاعِرُ
وصفها بالتمنع من الخروج بالصَّمَمِ، كما وصفها
بالعمى، لمكان السُّبَاتِ وطُولِ الإطراقِ.
قال الشاعِرُ:

مُنَهْرَتِ الشَّدَقِ
عَارِي القَرَا

أَصَمَّ سَمِيعِ
طَوِيلِ السُّبَاتِ

وقال آخر:

سار طُمُورِ
بالدُّجُنَاتِ

منهْرَتِ الشَّدَقِ
رَقُودِ الضُّحَى

من طُولِ
إِطْرَاقِ
وَإِخْبَاتِ

وتارَةً تَحْسَبُهُ
مَيِّتاً

نَفْخِ وَنَفْثِ
فِي
المَغَارَاتِ

يُسَبِّتُهُ الصُّبْحُ
وَطُوراً لَهُ

وَيُعْلَمُ أَنَّهُ وَصَفَ
أَفْعَى بِقَوْلِهِ:

يَفْتَرُّ عَنْ
عُصْلِ
حَدِيدَاتٍ

أَصَمَّ أَعْمَى لَا
يُجِيبُ الرَّقِيَّ

مُنَهَرَتِ الشَّدَقِ
رَفُودِ الضُّحَى
"الخ"

ثم ذكر أنبياءه، فقال:

إِلَى صِمَاخَيْنِ
وَلَهَوَاتٍ

قَدَّمْنَ عَنِّ
ضِرْسِيهِ
وَاسْتَأَخَّرَا

فجعله أعصل الأنبياء، منهرت الأشداق، ثم وصفها
بالسُّبَاتِ وطول الإطراق، وبسرعة النشطة، وخفة
الحركة، إذا همت بذلك وكانت تعظم.
شعر امرأة جمع صفة الحية وقد وصفتها امرأة جاهليَّة

بجميع هذه الصِّفةِ، إلا أنها زادت شيئاً، والشَّعرُ صحيح،
وليس في أيدي أصحابنا من صِفةِ الأفاعي مثله.
وقد رأيتُ عند داودَ بنِ محمَّدِ الهاشميِّ كتاباً في الحياتِ،
أكثرَ من عشرةِ أجادٍ، ما يصحُّ منها مقدارُ جلدٍ ونصفِ.
ولقد ولَّدوا على لسانِ خلفِ الأحمرِ، والأصمعيِّ، أرجازاً
كثيرةً، فما ظنُّكَ بتوليدهم على السِّنةِ القُدما.
ولقد ولَّدوا على لسانِ جَحْشَوِيهِ في الحلاقِ أشعاراً ما
قالها جَحْشَوِيهِ قط، فلو تقدَّروا من شيءٍ تقدَّروا من هذا
البابِ.

والشَّعرُ الذي في الأفعى:

من حُبِّكُمْ
والخطبُ غيرُ
كبيرِ

كالقرصِ فطَحَ
من دقيقي شعيرِ

سمراءُ طاحتُ

قدَّ كادِ يقتلني
أصمُّ مرقشُ

خلقتُ لهازمه
عزيرَ ورأسه

ويديرُ عيناً

لِلْوَقَاعِ كَأَنَّهَا

مِنْ نَفِيضِ بَرِيرٍ

وَكَأَنَّ مَلْقَاهُ

مَلْقَاكَ كِفَّةَ مَنْخَلٍ

بِكُلِّ تَنُوفَةٍ

مَأْطُورٍ

وَكَأَنَّ شِدْقِيهِ

شِدْقَا عَجُوزٍ

إِذَا

مَضْمَضَتْ

اسْتَعْرَضَتْهُ

لِطَهُورٍ

فقد زعمت كما ترى أنها تدير عيناً، وزعم الأول أنها قائمة العين، إلا أن تزعم أنها لم تُرد بالإدارة أن مقلتها تزول عن موضعها، ولكنها أرادت أنها جواله في إدراك الأشخاص، البعيدة والقريبة، والتميامنة والتمياسرة. وقد يجوز أن يكون إنما جعلها سمیعةً لدقة الحس، وكثرة الاكتراث وجودة الشم، لا جودة السمع؛ فإن الذين زعموا أن النعامة صماء زعموا أنها تُدرك من جهة الشم والعين، جميع الأمور التي كانت تعرفها من قبل السمع لو كانت سمیعة، وقد قال الشاعر في صفة الحية:

تَهْوِي إِلَى

تَعْرُدُ السَّيْلِ

الصَّوْتِ وَالظُّلْمَاءِ
عَاكِفَةً

هذا بعد أن قال:

لَأَقِي الْحَيْدَ
فَاطَّلَعَا

صَيْدًا وَمَا نَالَ
مِنْهُ الرَّيِّ
وَالشَّبْعَا

إِنِّي وَمَا تَبْتَغِي
مَنِّي كَمَلْتِمَسِ

مِثْلُ الْعَسِيبِ
تَرَى فِي رَأْسِهِ
نَزْعَا

أَهْوَى إِلَى بَابِ
جُحْرِ فِي
مَقْدَمِهِ

عُصْلٌ تَرَى السَّمَّ
يَجْرِي بَيْنَهَا
قِطْعَا

اللَّوْنُ أَرَبْدُ
وَالْأَنْيَابُ
شَابِكَةٌ

أَوْ شَمَّ مِنْ حَجَرٍ
أَوْ هَاهُ فَانْصَدَعَا

أَصَمَّ مَا شَمَّ
مِنْ حَضْرَاءِ

أبيسها

فقد جعلَ لها أنياباً عُصلاً، ووصفها بغاية الخُبثِ، وزعم أنها تسمع، فهؤلاء ثلاثة شعراء.

الثقة بالعلماء فإن قلت: إن المولّد لا يؤمن عليه الخطأ، إذ كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابي الذي إنما يحكي الموجودَ الظاهر له، الذي عليه نشأ، وبمعرفة غذي، فالعلماء الذين اتّسعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم، هم الذين نقلوا إلينا، وسواءً علينا جعلوه كلاماً وحديثاً منثوراً، أو جعلوه رجزاً وقصيداً موزوناً.

ومتى أخبرني بعض هؤلاء بخبر لم أستظهر عليه بمسألة الأعراب، ولكنه إن تكلم وتحدّث، فأنكرت في كلامه بعض الإعراب، لم أجعل ذلك قُدوةً حتى أوقفه عليه، لأنه ممّن لا يؤمنُ عليه اللحنُ الخفيّ قبل التفكير، فهذا وما أشبهه حكمه خلافُ الأول.

الرُّقية والرُّقية تكونُ على ضروب: فمنها الذي يدّعيه الحوَّاءُ والرِّقَّاءُ؛ وذلك يُشبهه بالذي يدّعي ناسٌ من العزائم على الشياطين والجن، وذلك أنهم يزعمون أن

في تلك الرقية عزيمة لا يمتنع منها الشيطان، فكيف
العامر؟ وأن العامر إذا سئل بها أجاب، فيكون هو الذي
يتولى إخراج الحيات من الصخر، فإن كان الأمر على ما
قالوا فما ينبغي أن يكون بين خروج الأفاعي الصمّ
وغيرها فرق، إذا كانت العزائم والرقى والنفت ليس شيئاً
يعمل في نفس الحية، وإنما هو شيء يعمل في الذي
يُخرج الحية، وإذا كان ذلك كذلك فالسميع والأصم فيه
سواء.

وكذلك يقولون في التحبيب والتبغيض، وفي النشرة وحلّ
العقدة، وفي التعقيد والتحليل.

العزيمة ويزعمون أن الجن لا تجيب صاحب العزيمة
حتى يتوحش ويأتي الخرابات والبراري، ولا يأنس
بالناس، ويتشبه بالجن، ويغسل بالماء القراح، ويتبخّر
باللبان الذكر، ويراعي المشتري فإذا دق ولطف،
وتوحش وعزم، أجابته الجن، وذلك بعد أن يكون بدنه
يصلح هيكلها، وحتى يلد دخوله وادي منازلها، والأ
يكره ملابسته والكون فيه، فإن هو ألح عليها بالعزائم،
ولم يأخذ لذلك أهبة خبلته، وربما قتلته، لأنها تظن أنه
متى توحش لها، واحتمى، وتنظف فقد فرغ، وهي لا

تُجِيبُ بِذَلِكَ فَقَطُّ، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْرَمُ مُشَاكِلًا لَهَا فِي
الطَّبَاعِ.

فِيزَعْمُونَ أَنَّ الْحَيَّاتِ إِنَّمَا تُخْرَجُ إِخْرَاجًا، وَأَنَّ الَّذِي
يَخْرُجُهَا هُوَ الَّذِي يَخْرِجُ سَمُومَهَا مِنْ أَجْسَادِ النَّاسِ، إِذَا
عَزَمَ عَلَيْهَا.

?التعويد والرُقِيَّةُ الأخرى بما يُعْرَفُ مِنَ التَّعْوِيدِ، قَالَ أَبُو
عُبَيْدَةَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: قَدْ جَاءَكُمْ أَحَدُكُمْ يَسْتَرْقِيكُمْ
فَارْقُوهُ، قَالَ: فَعَوَّدُوهُ بِبَعْضِ الْعَوَائِدِ.

وَالْوَجْهَ الْآخَرَ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذَا وَمَحْمُولٌ عَلَيْهِ، كَالرَّجُلِ
يَقُولُ: مَا زَالَ فُلَانٌ يَرْقِي فُلَانًا حَتَّى لَانَ وَأَجَابَ.

رقى الحيات

وَقَدْ قَالَتِ الشُّعْرَاءُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ فِي رُقَى
الْحَيَّاتِ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ وَيَصَدِّقُونَ بِهِ، وَسَنَخِبِرُ
بِأَقْوَابِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي ذَلِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِخْرَاجَ الْحَيَّةِ مِنْ جُحْرِهَا إِلَى الرَّاقِي،
إِنَّمَا كَانَ لِلْعَزِيمَةِ وَالْإِفْسَامِ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهَا إِذَا فَهَمَتْ ذَلِكَ
أَجَابَتْ وَلَمْ تَمْتَنِعَ.

وَكَانَ أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّرْتِ، لَا يَعْرِفُ قَوْلَهُمْ فِي أَنَّ الْعَمَّارَ

هم الذين يُجيبون العزائم بإخراج الحيّات من بيوتها،
وفي ذلك يقول :

من جحرها أمنات الله والقسم	والحية الذكر الرقشاء أخرجها
ذات الإله بدا في مشيها رزم	إذا دعا باسمها الإنسان أو سمعت
قد كان ثبتها في جحرها الحمم	من خلفها حمة لولا الذي سمعت
والخلق مختلفٌ في القول والشيم	نابٌ حديدٌ وكفٌ غير وادةٍ

لنافثٍ يعتديه الله والكلم

إذا دعين بأسماء أجبن لها
عرجاء تطلع في أنيابها عسم

لولا مخافة ربِّ كان عذبها
فليس في سمعها، من رهبةٍ صمم

وقد بلته فذاقت بعض مصدقه
وليس بينهما قربي ولا رحم

فكيف يأمنها أم كيف تألفه

يقول: لو أنّها أخرجت حين استُحْلِفَتْ بالله لما خرجت، إذ
ليس بينهما قُربى ولا رَحِم، ثمَّ ذَكَرَ الحُمَّةَ والنَّابِ.
وقال آخرون: إنما الحَيَّةُ مثل الضبِّ والضَّبِّع، إذا سمع

بالله والهدم والصّوت خرج ينظر، والحواء إذا دنا من
الجحر رفع صوته وصفقَ بيديه، وأكثر من ذلك، حتى
يخرج الحيّة، كما يُخرج الضب والضبع.
وقال كثير:

أنيّ إذا الحاوي دنا فصدّ لها

وسوداء مطراق إليّ من الصفا

والتصدية، التصفيق، قال الله تعالى: "وما كان صلاتهم
عند البيت إلاّ مكاءً وتصديّةً" الآية، فالمكاء: صوتٌ بين
النفخ والصفير، والتصدية: تصفيق اليد باليد.
فكان الحواء يحتالُ بذلك للحيّة، ويوهم من حضر أنّهُ
بالرّقية أخرجها، وهو في ذلك يتكلم ويعرض، إلاّ أنّ ذلك
صوتٌ رفيع، وهو لو رفعَ صوته ببيت شعر أو بخرافة،
لكان ذلك والذي يظهر من العزيمة عند الحيّة سواً،
وإنما ينكر الصّوت، كما ينكره الضبُّ وغير ذلك من
الوحش.
ثم قال:

من القول حتى صدقت ما وعى لها

كففت يداً عنها وأرضيت سمعها
وقد جعلت أن ترعني النفث بالها

وأشعرتها نفثاً بليغاً فلو ترى
إلى الكف لما سالمت وانسلالها

تسللتها من حيث أدركها الرقى

فقال كما ترى: كففت يداً عنها وأرضيت سمعها ثم قال:

وأشعرتها نفثاً بليغاً فلو ترى

وقال الأعشى:

بنى لي عزاً مَوْتُها وحياتها

أَبَا مِسْمَعٍ إِنِّي أَمْرٌ مِنْ قَبِيلَةٍ
إِذَا مَا سَعَتْ يَوْمًا إِلَيْهَا سَفَاتُهَا

فَلَا تُلْمِسِ الْأَفْعَى يَدِيكَ تَرِيدُهَا
وَقَالَ آخِرُ:

فَإِنْ أَبِي شَمَّ سَفَا وَجَارِهِ

يَدْعُو بِهِ الْحَيَّةَ فِي أَقْطَارِهِ

وَالسَّفَا: التراب اليابس بين التربين، يقال سَفَاً وسفَاةً.
تمويه الحواء والراقي والحَوَاءَ وَ الرَّاقِي يُرِي النَّاسَ أَنَّهُ
إِذَا رَأَى جَحْرًا لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ: أَجْر حَيَّةٍ هُوَ أَمْ جُحْرُ
شَيْءٍ غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ جُحْر حَيَّةٍ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَهِيَ فِيهِ
أَمْ لَا، ثُمَّ إِذَا رَقِيَ وَعَزَّم فَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ، وَخَافَ أَنْ
تَكُونَ أَفْعَى صَمَاءً لَا تَسْمَعُ، وَإِذَا أَرَاغَهَا لِيَأْخُذَهَا فَأَخْطَأَ،

لم يأمن من أن تنقره نَفْرَةً؛ لا يُفْلِحُ بعدها أبداً، فهو عند ذلك يستبري بأن يشمَّ من تراب الجُحر، فلا يخفى عَلَيْهِ: أهي أفعى أم حَيَّةٌ من سائر الحيات، فذلك قال:

يدعو به الحية في أقطاره

والوجار: الجُحر.

ريح الأفعى

وزعم لي بعضُ الحوائين أن للحيات نَتْنًا وسهكاً، وأن ريح الأفعى معروفةٌ، وليس شيءٌ أغلق، ولا أعنق، ولا أسرع أخذاً لرائحةٍ من طينٍ أو تراب، وأنه إذا شمَّ من طينة الجُحر لم يخفَ عليه، وقال: اعتبر ذلك بهذا الطين السداني والراهطي إذا ألقى في الزعفران والكافور، أو غيره ذلك من الطيب، فإنه متى وُضع إلى جنب روثَةٍ أو عذرة، قبل ذلك الجسم، والرقاء يوهم الناس إذا دخل دورهم لاستخراج الحيات أنه يعرف أماكنها براحتها، فذلك يأخذُ قصبَةً ويشعب رأسها، ثم يطعن بها في سقف البيت والزوايا، ثم يشمها ويقول مرة: فيها حيات؛

ويقول مرّةً: بلى فيها حَيّات، على قدر الطمع في القوم،
وفي عقولهم.

تأثير الأصوات

وَأَمْرُ الصَّوْتِ عَجِيبٌ، وَتَصَرُّفُهُ فِي الْوَجْهِ عَجَبٌ، فَمَنْ
ذَلِكَ أَنْ مِنْهُ مَا يَقْتُلُ، كَصَوْتِ الصَّاعِقَةِ، وَمِنْهَا مَا يَسْرُّ
النَّفْسَ حَتَّى يُفْرِطَ عَلَيْهَا السُّرُورُ؛ فَتَقْلَقَ حَتَّى تَرْقُصَ،
وَحَتَّى رُبَّمَا رَمَى الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ مِنْ حَالِقٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ هَذِهِ
الْأَغَانِي الْمَطْرَبَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْمَدُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَزِيلُ
العَقْلَ حَتَّى يُغْشَى عَلَى صَاحِبِهِ، كَنَحْوِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ
الشَّجِيَّةِ، وَالْقِرَاءَاتِ الْمَلْحَنَةِ، وَلَيْسَ يَعْتَرِيهِمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ
المَعَانِي؛ لِأَنَّهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَفْهَمُونَ مَعَانِي

كَلَامَهُمْ، وَقَدْ بَكَى مَاسِرْجُوِيَهُ مِنْ قِرَاءَةِ أَبِي الْخَوْخِ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ بَكَيْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا تَصَدِّقُ بِهِ؟ قَالَ: إِنَّمَا أَبْكَانِي الشَّجَا.

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال.
أثر الصوت في الحيوان والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى، والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادي، وتزداد نشاطاً، وتزيد في مشيها، ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له، وذلك أنهم يضربون بعصي معهم، ويعططون، فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار مصغية إلى تلك الأصوات، حتى تدخل في الحظيرة ويضرب بالطساس للطير، وتصاد بها، ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت، فتروغها تلك الأصوات.

وقال صاحب المنطق: الأيائل تُصَادُ بالصَّفِيرِ والغناء، وهي لا تنام مادامت تسمع ذلك من حادق الصوت، فيشغلونها بذلك ويأتون من خلفها فإن رأوها مسترخية الآذان وثبوا عليها، وإن كانت قائمة الأذنين فليس إليها سبيل.

والصفير تُسقى به الدواب الماء، وتنقر به الطير عن

البذور.

وزعم صاحب المنطق أَنَّ الرَّعْدَ الشَّدِيدَ إِذَا وَافَقَ سِبَاحَةَ
السَّمَكِ فِي أَعْلَى الْمَاءِ رَمَتْ بِبَيْضِهَا قَبْلَ انْتِهَاءِ الْأَجْلِ،
وَرَبَّمَا تَمَّ الْأَجْلُ فَتَسْمَعُ الرَّعْدَ الشَّدِيدَ، فَيَتَعَطَّلُ عَلَيْهَا أَيَّامًا
بَعْدَ الْوَقْتِ.

قول لأبي الوجيه العكلي

وقال أبو الوجيه العُكْلِيُّ: أَحَبُّ السَّحَابَةِ الْخَرَسَاءَ وَلَا
أُحِبُّهَا فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهَا لَا تَخْرَسُ حَتَّى
تَمْتَلَى مَاءً وَتَصْبُ صَبًّا كَثِيرًا، وَيَكُونُ غَيْثًا طَبَقًا، وَفِي
ذَلِكَ الْحَيَاةِ، إِلَّا أَنَّ الْكَمَاءَ لَا تَكُونُ عَلَى قَدْرِ الْغَيْثِ، ذَهَبَ
إِلَى أَنَّ لِلرَّعْدِ فِي الْكَمَاءِ عَمَلًا.

دعابة لجعفر بن سعيد

وقال جعفر بن سعيد: سأل كسرى عن الكَمَاءِ فَقِيلَ لَهُ: لَا
تَكُونُ بِالْمَطَرِ دُونَ الرَّعْدِ، وَلَا بِالرَّعْدِ دُونَ الْمَطَرِ، قَالَ:
فَقَالَ كَسْرَى: رَشُّوا بِالْمَاءِ وَاضْرِبُوا بِالطَّبُولِ وَكَانَ مِنْ
جَعْفَرٍ عَلَى التَّمْلِيحِ، وَقَدْ عَلِمَ جَعْفَرٌ أَنَّ كَسْرَى لَا يَجْهَلُ
هَذَا الْمَقْدَارَ.

أثر الصوت في الحية

فالحية واحدة من جميع أجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل، فإذا دنا الحوَاء وصفق بيديه، وتكلم رافعاً صوته حتى يزيد، خرج إليه كلُّ شيء كان في الجُحْر، فلا يشكُّ من لا علم له أن من لا علم له أن الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية، وأن العامر أخرجها تعظيماً للعزيمة، ولأن المعتزم مُطاع في العمار، والعامّة أسرع شيء إلى التصديق.

شعر في الروح وهيكلها

وفي الروح، وفي أن البدن هيكل لها، يقول سليمان الأعمى؛ وكان أخا مسلم ابن الوليد الأنصاري، وكانوا لا يشكون بأن سليمان هذا الأعمى، كان من مُستجيبى بشار الأعمى، وأنه كان يختلف إليه وهو غلام فقبل عنه ذلك الدين، وهو الذي يقول:

لَطْلُوبِ الْعِلْمِ
مُقْتَبِسِهِ

إِنَّ فِي ذَا
الْجِسْمِ مُعْتَبَرًا

عِرْقَهُ وَالصَّوْتُ
مِنْ نَفْسِهِ

يُعَدَلُ الضَّلْعُ عَلَى
قَوْسِهِ

فَقَدَّتْهُ كَفًّا
مُغْتَرِسِهِ

أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ
مِنْ عُرْسِهِ

هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ
يَنْطِقُهُ

لَا تَعْظُ إِلَّا
الْأَلْيَبَ فَمَا

رُبَّ مَغْرُوسٍ
يُعَاشُ بِهِ

وَكَذَاكَ الدَّهْرُ
مَأْتَمُهُ

قول في شعر لأمية بن أبي الصلت

وكانت العربُ تقول: كان ذلك إذ كان كلُّ شيءٍ ينطق،
وكان ذلك والحجارةُ رَطْبَةً، قال أُمَيَّةُ:

وإذ صم السلام لهم رطاب

وخان أمانة الديك الغراب

تدل على المهالك لا تهاب
الحمامة بعد سبعٍ

وأرسلت

تلمس هل

وعاينة بها الماء العباب
ترى في الأرض عيناً

فجاءت بعد

عليها التأت والطين الكباب
مار كضت بقطفٍ

فلما

لها طوقاً كما عقد السخاب
فرسوا الآيات صاغوا

إذا ماتت

وإن تقتل فلي له انسلاب
تورثه بنيها

فذكر رطوبة الحجارة، وأن كل شيء قد كان ينطق، ثم
خبر عن منادمة الديك الغراب، واشترط الحمامة على
نوح، وغير ذلك مما يدل على ما قلنا، ثم ذكر الحية،
وشأن إبليس وشأنها، فقال:

وذي الجنّي
أرسلها تساب

كذي الأفعى
ترببها لديّه

ولا الجنّي أصبح

فلا ربّ البرية

يَأْمَنُهَا

يُسْتَتَابُ

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ أُمَّةً كَانَتْ أَعْرَابِيًّا، وَكَانَ بَدْوِيًّا، وَهَذَا مِنْ خِرَافَاتِ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَزَعَمْتَ أَنَّ أُمَّةً لَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنِّي سَأَشْذُكَ لِعَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا دِيَانًا، وَتَرْجُمَانًا، وَصَاحِبَ كِتَابٍ، وَكَانَ مِنْ دُهَاهِ أَهْلِ ذَلِكَ الدَّهْرِ.

قَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ، يَذْكَرُ شَأْنَ آدَمَ وَمَعْصِيَّتِهِ، وَكَيْفَ أَغْوَاهُ، وَكَيْفَ دَخَلَ فِي الْحَيَةِ، وَأَنَّ الْحَيَّةَ كَانَتْ فِي صُورَةِ جَمَلٍ فَمَسَخَهَا اللَّهُ عَقُوبَةً لَهَا، حِينَ طَاوَعَتْ عَدُوَّهُ عَلَى وُلِيِّهِ، فَقَالَ:

وَكَانَ آخِرُهَا
أَنَّ صُورَ
الرَّجُلِ

قَضَى لِسْتَةَ
أَيَّامِ خَلِيقَتِهِ

بِنَفْخَةِ الرُّوحِ
فِي الْجِسْمِ
الَّذِي جَبَلَا

دَعَا آدَمَ صَوْتًا
فَاسْتَجَابَ لَهُ

ثمت أورثه
الفردوس
يعمرها

لم ينهه ربه
عن غير
واحدةٍ

فكانت الحية
الرقشاء إذ
خلقت

فعمدا للتي عن
أكلها نهيا

كلاهما خاط إذ
بزا لبوسهما

وزوجه صنعة
من ضلعه
جعلها

من شجر
طيب أن شم
أو أكلا

كما ترى ناقة
في الخلق أو
جملا

بأمر حواء لم
تأخذ له
الدغلا

من ورق التين
ثوباً لم يكن
غزلا

فلاطها الله إذ
أغوت خليقته

طول الليالي
ولم يجعل لها
أجلا

تمشي على
بطنها في الدهر
ما عمرت

والترب تأكله
حزنا وإن
سهلا

فأتعبا أبوانا
في حياتهما

وأوجدا الجوع
والأوصاب
والعللا

وأوتيا الملك
والإنجيل
نقرؤه

نشفى بحكمته
أحلامنا
عللا

من غير ما
حاجة إلا
ليجعلنا

فوق البرية
أرباباً كما
فعلا

عقاب حواء وآدم والحية

فَرَوُوا أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوَارَةِ أَنَّ حَوَاءَ
عِنْدَ ذَلِكَ عُوقِبَتْ بِعَشْرِ خِصَالٍ، وَأَنَّ آدَمَ لَمَّا أَطَاعَ حَوَاءَ
وَعَصَى رَبَّهُ عُوقِبَ بِعَشْرِ خِصَالٍ، وَأَنَّ الْحَيَّةَ الَّتِي دَخَلَ
فِيهَا إِبْلِيسُ عُوقِبَتْ أَيْضاً بِعَشْرِ خِصَالٍ.

وَأَوَّلُ خِصَالِ حَوَاءَ الَّتِي عُوقِبَتْ بِهَا وَجَعَ الْإِفْتِضَاضِ، ثُمَّ
الطَّلَقِ، ثُمَّ النَّزْعِ، ثُمَّ بَقْنَاعِ الرَّأْسِ، وَمَا يَصِيبُ الْوَحْمَى
وَالنَّفْسَاءَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَالْقَصْرُ فِي الْبَيْوتِ، وَالْحِيْضُ،
وَأَنَّ الرَّجَالَ هُمُ الْقَوَّامُونَ عَلَيْهِنَّ، أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْجَمَاعِ
هِيَ الْأَسْفَلُ.

وَأَمَّا خِصَالُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَالَّذِي انْتَقَصَ مِنْ طَوْلِهِ،
وَبِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ يَخَافُ مِنَ الْهُوَامِّ وَالسَّبَّاعِ، وَنَكَدَ الْعَيْشِ،
وَبِتَوَقُّعِ الْمَوْتِ، وَبِسُكْنَى الْأَرْضِ، وَبِالْعُرْيِ مِنْ ثِيَابِ
الْجَنَّةِ، وَبِأَوْجَاعِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَبِمُقَاسَاةِ التَّحْفِظِ مِنْ إِبْلِيسَ،
وَبِالْمَحَاسِبَةِ بِالطَّرْفِ، وَبِمَا شَاعَ عَلَيْهِ مِنْ اسْمِ الْعِصَاةِ،
وَأَمَّا الْحَيَّةُ فَإِنَّهَا عُوقِبَتْ بِنَقْصِ جَنَاحِهَا، وَقَطْعِ أَرْجُلِهَا،
وَالْمَشْيِ عَلَى بَطْنِهَا، وَبِإِعْرَاءِ جِلْدِهَا - حَتَّى يُقَالَ: أَعْرَى
مِنْ حَيَّةٍ وَبَشَقَّ لِسَانَهَا - لِذَلِكَ كَلَّمَا خَافَتْ مِنَ الْقَتْلِ
أَخْرَجَتْ لِسَانَهَا لِتُرِيَهُمُ الْعُقُوبَةَ - وَبِمَا أَلْقَى عَلَيْهَا مِنْ

عداوة النَّاسِ، وبمخافة النَّاسِ، وبجعلها لها أوَّلَ ملعونٍ
من اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وبالذي يُنسب إليها من الكذب والظلم.

ظلم الحية وكذبها

فأمَّا الظلم فقولهم: أظلم من حيَّةٍ وأما الكذب فإنها
تنطوي في الرَّمْلِ على الطَّرِيقِ وتُدخِلُ بعضَ جسديها في
الرَّمْلِ، فتظهر كأنها طبقُ خيْزُرانٍ، ومنها حَيَّاتٌ بيضٌ
قِصارٌ تجمعُ بين أطرافها على طُرُقِ النَّاسِ، وتستديرُ
كأنها طَوْقٌ أو خلخالٌ، أو سوارٌ ذهبٍ أو فضةٍ - ولما
تلقي على نفسها من السُّبَّاتِ، ولما تُظهر من الهَرَبِ من
النَّاسِ، وكلَّ ذلك إنما تغرُّهُمُ وتصطادُهُمُ بتلك الحيلة،
فذلك هو كِذْبُها.

عقاب الأرض قال: وعوقبت الأرض حين شربت دم ابن
آدم بعشر خصال: أنبت فيها الشوك، وصير فيها الفياض،
وخرق فيها البحار، وملح أكثر مائها، وخلق فيها الهوامَّ
والسُّباع، وجعلها فراراً لإبليس والعاصين، وجعل جهنم
فيها، وجعلها لا تُربي ثمرتها، إلا في الحرِّ، وهي تعذب
بهم إلى يوم القيامة، وجعلها توطأ بالأخفاف، والحوافر،
والأظلاف، والأقدام، وجعلها مالحة الطعم.

شراب الأرض للدم ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد
من ولده، ولا من غير ولده، قال: وَلِذَلِكَ قَالَ عَمْرُ بْنُ
الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: لَأَنَا أَشَدُّ
لَكَ بُغْضًا مِنَ الْأَرْضِ لِلدَّمِ.

وزعم صاحب المنطق أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَشْرَبُ الدَّمَ، إِلَّا
يسيراً من دماء الإبل خاصة.

اختبار العسل وإذا أرادوا أن يمتحنوا جَوْدَةَ العسل من
رداءته، قَطَرُوا عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ قَطْرَةً، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ
كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ زَبِيقٍ، وَلَمْ تَأْخُذْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَمْ تُعْطِهَا فَهُوَ
المادِّي الخالصُ الذَّهَبِيُّ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ عُشُوشَةٌ نَفَسَتْ
القَطْرَةَ عَلَى قَدَرِ مَا فِيهَا، وَأَخَذَتْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْطَتْهَا،
وإن لم يَقْدِرُوا عَلَى اللَّحْمِ الغَرِيضِ دَفَنُوهُ وَغَرَّقُوهُ فِي
العسل، فَإِنَّهُمْ مَتَى رَجَعُوا فغسلوه عنه وَجَدُوهُ غَضًّا
طرياً، لِأَنَّهُ ذَهَبِيٌّ الطَّبَاعُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْأَجْرَامِ
شيءٌ، فَهُوَ لَا يُعْطِيهِ شَيْئاً وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ الذَّهَبُ
إِذَا كَانَ مَدْفُوناً.

زمن الفطحل وهذه الأحاديثُ، وهذه الأشعارُ، تدلُّ على
أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الصُّخُورَ كَانَتْ رَطْبَةً لَيْتَةً، وَإِنَّ

كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَانَ يَعْرِفُ وَيَنْطِقُ، وَإِنَّ الْأَشْجَارَ وَالنَّخْلَ لَمْ
يَكُنْ عَلَيْهَا شَوْكٌ، وَقَدْ قَالَ الْعَجَّاجُ، أَوْ رُوْبِيَّةُ:

وَالصَّخْرُ مُبْتَلًى
كَطَيْنِ الْوَحْلِ

أَوْ عُمَرَ نُوحٍ
زَمَنَ الْفِطْحِ

مرويات كعب الأخبار

وأنا أظنُّ أن كثيراً ممَّا يُحكى عن كعبٍ أنَّه قال: مكتوبٌ
في التوراة أنَّه إنَّما قال: نجدُ في الكتب، وهو إنَّما يعني
كتب الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان؛ وما في
كتبهم من مثل كتب إشعياء وغيره، والذين يروون عنه
في صفة عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه، وأشباه ذلك،
فإن كانوا صدَّقوا عليه وكان الشيخ لا يضعُ الأخبارَ فما
كان وجهُ كلامه عندنا إلاَّ على ما قلتُ لك.

نطق الحية

وفي أنَّ الحيةَ قد كانت تسمعُ وتنطقُ، يقول النَّابِغَةُ في
المثل الذي ضَرَبَهُ، وهو قوله:

فيعذرنا من مرة المتناصره

أليس

محل عبیدان المحلّ باقره
بلا عثره والنفس لا بد عاثره
وما انفكت الأمثال في الناس سائره
ولا تغشيني منك للظلم بادره
فكانت تديه الجزع خفياً وظاهره
وجارت به نفسٌ عن الخير جائره
فيصبح ذا مالٍ ويقتل واتره
ليقتلها والنفس للقتل حادره
ولله عينٌ لا تغمض ساهره
على العقل حتى تنجزى لي آخره
رأيتك ختاراً يمينك فاجره
وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره
لك قبرٌ لا يزال مواجهاً

أبي

فذهب النَّابِغَةُ فِي الْحَيَّاتِ مَذْهَبَ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ،
وَعَدِيَّ بْنِ زَيْدٍ، وَغَيْرَهُمَا مِنَ الشُّعْرَاءِ.
الصُّخُورِ وَالْأَشْجَارِ فِي مَاضِي الزَّمَانِ وَأَنْشَدَنِي عَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنِ كَيْسَانَ:

وَكَانَ خَضِيداً
طَلْحُهَا وَسَيَالُهَا

فَكَانَ رَطِيباً يَوْمَ
ذَلِكَ صَخْرُهَا

فَزَعَمَ كَمَا تَرَى أَنَّ الصُّخُورَ كَانَتْ لَيْئَةً، وَأَنَّ الْأَشْجَارَ:
الطَّلْحَ وَالسَّيَالَ كَانَتْ خَضِيداً لَا شَوْكَ عَلَيْهَا.
وَزَعَمَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَأَصْحَابُ الْأَخْبَارِ، أَنَّ الشُّوْكَ إِنَّمَا
اعْتَرَاهَا فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الَّذِي زَعَمَتِ النَّصَارَى فِيهِ أَنَّ
الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ.

أَثَرُ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ مَقَاتِلٌ يَقُولُ - حَدَّثَنَا
بِذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَقِيلِ السَّوَّاقِ، وَكَمَا أَحَدَ رَوَاتِهِ وَالْحَامِلِينَ
عَنْهُ - إِنَّ الصُّخُورَ كَانَتْ لَيْئَةً، وَإِنَّ قَدَمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ أَثَرَتْ فِي تِلْكَ الصَّخْرَةِ، كَتَأْثِيرِ أَقْدَامِ النَّاسِ فِي
ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَقَّى تِلْكَ الْآثَارَ، وَعَفَى
عَلَيْهَا، وَمَسَحَهَا وَمَحَاَهَا، وَتَرَكَ أَثَرَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامِ، وَالْحَجَّةُ إِنَّمَا هِيَ فِي إِفْرَادِهِ بِذَلِكَ وَمَحْوُ مَا سِوَاهُ

من آثار أقدام الناس، ليس أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاء يابسة فأنثر فيها. فضل المتكلمين والمعتزلة وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة، ونعوذ بالله من الهذر والتكلف وانتحال ما لا أقوم به، أقول: إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سُبُلًا، وفتق لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة.

ما يحتاج إليه الناس وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بدياً إلى طبيعة ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأول ما ينبغي أن يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ألا يعطى نفسه فوق حقاها، وألا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين؛ فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابق إلى القلب - والله الموفق.

حديث عن تأليف هذا الكتاب وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطبابي في القول، بيت ابن هرمة، حيث يقول:

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغْر الْقَوْمَ خَلَوْتُهُ

حَتَّى يَلِجَ بِهِم عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وقولهم في المثل: كل مُجْرٍ فِي الْخَلَاءِ يُسَرُّ.
وأنا أعودُ بالله أن أُعَرَّ من نفسي، عند غَيْبَةِ خَصْمِي،
وتصفح العلماء لكلامي، فإني أعلم أن فِتْنَةَ اللِّسَانِ
والقلم، أشدَّ من فِتْنَةِ النِّسَاءِ، والحرص على المال.
وقد صادف هذا الكتابُ مني حالاتٍ تمنعُ من بلوغِ الإرادةِ
فيه، أوَّلُ ذلك العلةُ الشديدة، والثانية قلةُ الأعوانِ،
والثالثة طولُ الكتابِ، والرابعة أني لو تكلفتُ كتاباً في
طوله، وعددِ ألفاظِهِ ومعانيهِ، ثمَّ كان من كُتُبِ العَرَضِ
والجوهرِ، والطَّفرةِ، والتولدِ، والمداخلةِ، والغرائزِ،
والتماسِ لكان أسهلاً وأقصرَ أياماً، وأسرعَ فراغاً؛ لأنني
كنت لا أفرغُ فيه إلى تلقُّطِ الأشعارِ، وتتبعِ الأمثالِ،
واستخراجِ الآيِ من القرآنِ، والحججِ من الروايةِ، مع
تفرُّقِ هذه الأمورِ في الكتبِ. وتباعدِ ما بين الأشكالِ، فإن
وجدتَ فيه خللاً من اضطرابِ لفظٍ، ومن سوءِ تأليفٍ، أو
من تقطيعِ نظامٍ، ومن وقوعِ الشيءِ في غيرِ موضعه -
فلا تنكِرْ، بعدَ أن صوّرتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها

كتابي.

ولولا ما أرجو من عونِ الله على إتمامه؛ إذ كنت لم
ألتصمُ به إلاّ إفهامك مواقع الحُججِ لله، وتصاريَف
تدبيره، والذي أودع أصنافَ خلقه من أصنافِ حكمته لَمَّا
تعرّضتُ لهذا المكروه، فإنّ نظرتُ في هذا الكتاب فانظرُ
فيه نظرَ مَنْ يلتصمُ لصاحبه المخارج، ولا يذهبُ مذهبَ
التعنتِ، ومذهبَ مَنْ إذا رأى خيراً كتّمه، وإذا رأى شراً
أذاعه. وليعلم مَنْ فعَلَ ذلك أنّه قد تعرّض لبابٍ إن أخذَ
بمثله، وتعرّض له في قوله وكتبه، أن ليس ذلك إلاّ من
سبيل العقوبة، والأخذ منه بالظلامة، فليُنظر فيه على
مثال ما أدب الله به، وعرف كيف يكون النظر والتفكير
والاعتبار والتعليم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: "وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ".

الحكمة الجليلة في دقيق الأشياء فينبغي أن تكون إذا
مررتَ بذكر الآية والأعجوبة، في الفراشة والجرجسة،
ألاّ تحقرَ تلك الآية، وتصغرَ تلك الأعجوبة؛ لصغر قدرهما
عندك، ولقلة معرفتهما عند معرفتك، لصغر أجسامهما
عند جسمك، ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم،

ومن ذلك التدبير، كما قال الله عز وجل: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ" ثم
قال: "فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا" ثم قال
الله تعالى: "وَإِذْ نُنزِّلُ الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ
وَأَقْعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ"، وقد قال
عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت
في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.
حث على الإخلاص والتنبه عند النظر وأنا أعيد نفسي
بالله أن أقول إلا له، وأعيدك بالله أن تسمع إلا له، وقد
قال الله عز وجل: "وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَهْتَدُوا
وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" فأحذر من أن
تكون منهم، وممن ينظر إلى حكمة الله وهو لا يبصرها،
وممن يبصرها بفتح العين واستماع الآذان؛ ولكن
بالتوقف من القلب، والتثبت من العقل، وبتحفيظه
وتمكينه من اليقين، والحجة الظاهرة، ولا يراها من
يعرض عنها.

وقد قال الله عز وجل: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" وقال: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّةُ
الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ" ولو كانوا صمًا بكما وكانوا هم لا

يعقلون، لَمَا عَيَّرَهُم بِذَلِكَ، كَمَا لَمْ يَعَيِّرْ مَنْ خَلَقَهُ مَعْتَوْهَا
كَيْفَ لَمْ يَعْقِلْ، وَمَنْ خَلَقَهُ أَعْمَى كَيْفَ لَمْ يَبْصُرَ، وَكَمَا لَمْ
يَلْمِ الدَّوَابَّ، وَلَمْ يَعَاقِبِ السَّبَاعَ، وَلَكِنَّهُ سَمَّى الْبَصِيرَ
الْمَتَعَامِيَ أَعْمَى، وَالسَّمِيعَ الْمَتَصَامِمَ أَصَمًّا، وَالْعَاقِلَ
الْمَتَجَاهِلَ جَاهِلًا.

وقد قال الله عز وجل: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ
يُخِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فَانظُرْ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ، وَانظُرْ مِنَ الْجِهَةِ
الَّتِي دَلَّكَ مِنْهَا، وَخُذْ ذَلِكَ بِقُوَّةٍ، قَالَ تَعَالَى: "خُذُوا مَا
آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ".

عود إلى الحيات ثم رَجَعَ بنا القولُ إلى ما في الحيات من
العِلْمِ وَالْعِبْرَةِ، وَالْفَائِدَةِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو ذَرٍّ
الْغِفَارِيُّ: لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا
يَمُرُّ بِنَا طَائِرٌ إِلَّا وَعِنْدَنَا مِنْ شَأْنِهِ عِلْمٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ
صَحِيحٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَلَمْ يَخْصَّ أَبُو ذَرٍّ خَشَاشَ الطَّيْرِ مِنْ
بُغَاثِهَا وَأَحْرَارِهَا، وَلَا مَا يَدْخُلُ فِي بَابَةِ الْهَمَجِ، وَقَدْ
أَرَيْنَاكَ مِنْ تَحْقِيقِ قَوْلِهِ طَرْفًا، وَلِعَلَّكَ إِنْ جَمَعْتَ نَظْرَكَ
إِلَى نَظْرِنَا، أَنْ تَسْتَمَّ هَذَا الْبَابَ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

خَلِيلِي لَيْسَ
الرَّأْيُ فِي رَأْيِ
وَاحِدٍ

أَشِيرًا عَلَيَّ
الْيَوْمَ مَا
تَرِيَانِ

وقال الأحنف: ما من الناس أحدٌ إلا وقد تعلّمت منه شيئاً،
حتى من الأمةِ الزورهاءِ والعبدِ الأورهِ.
والحياتِ مختلفاتِ الجهاتِ جدّاً، وهي من الأمم التي يكثر
اختلافُ أجناسِها في الضّررِ والسّم، وفي الصّغرِ والعِظَم،
وفي التّعريضِ للنّاسِ، وفي الهربِ منهم، فمنها ما لا
يؤذي إلا أن يكونَ الناسَ قد أدّوها مرّةً، وأمّا الأسودُ
فإنّه يحقّدُ ويطلبُ، ويكْمَنُ في المتاعِ حتى يدرك
بطائنته، وله زمانٌ يقتلُ فيه كلّ شيءٍ نهشه. وأمّا الأفعى
فليس ذلك عندها، ولكنها تظهر في الصّيفِ مع أوّل
الليل، إذا سكّنَ وهجُ الرّمْلِ وظاهرُ الأرض؛ فتأتي قارعةً
الطّريقِ حتى تستديرَ وتطحنَ كأنّها رحي، ثمّ تُلصِقُ بدنها
بالأرضِ وتُشخِصُ رأسها؛ لنلاً يدركها السّبات،
معرضة؛ لنلاً يطأها إنسانٌ أو دابةٌ فتنهشه، كأنّها تريد
الأتنهشَ إلا بأن يُتعرّضَ لها، وهي قد تعرّضت لنهشه

باعتراضها في الطَّرِيقِ وتناوَمها عليه وهي من الحَيَّات
التي ترصد وتوصف بذلك، قال مَعْقِلُ بنِ حُوَيْلِدٍ:

رُؤوسَ الأفاعيِ
في مَراصِدِها
العُرمِ

أبا مَعْقِلٍ لا
تُوطِنُكُمْ
بِغاضَتِي

يريد: الأفاعي في مراصدها، وكلُّ منقطةٍ فهي عَرْماءُ،
مِنْ شاةٍ أو غير ذلك.
وقال آخر:

للسَّفْرِ في أعلى
البياتِ قاصِدِ

وكم طَوَتْ من
حَنَشٍ وراصِدِ

والأفعى تقتلُ في كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمانٍ، والشُّجاع يواثِبُ
ويقوم على ذنبه، وربَّما بَلَغَ رأسُه رأسَ الفارسِ.

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

وليس يقتلها - إذا تطوقت على الطَّرِيق وفي المناهج، أو
اعترضتها لتقطعها عابرةً إلى الجانب الآخر - شيءٌ
كأقاطيع الشَّيَاهِ إذا مرَّت بها، وكذلك الإبلُ الكثيرةُ إذا

مرّت، فإنّ الحيّة إذا وقّعت بين أرجلها كان همّتها
نفسها، ولم يكن لها همة إلاّ التخلّص بنفسها؛ لئلاّ
تعجلها بالوطف، فإنّ نجت من وطء أيديها، لم تنج من
وطء أرجلها، وإنّ سلّمت من واحدة لم تسلّم من التي
تليها، إلى آخرها.
وقال عمر بن لُجأ، وهو يصف إبّله:

تعرّضُ الحيّاتِ في غشاشها

وقال ذو الأهدام:

تُعجلها عن نهشها والنكز

ومن ذلك أنّ العقرب تَقَعُ في يد السنّور، فيلعب بها
ساعة من الليل وهي في ذلك مسترخيةٌ مستخذيّةٌ لا
تضربه، والسنّانير من الخلق الذي لا تسرع السموم فيه.

مسالمة الأفعى للقائص والراعي

وربّما باتت الأفعى عند رأس الرّجل وعلى فراشه فلا
تنهشهُ، وأكثرُ ما يُوجدُ ذلك من القائص والراعي، قال
الشاعر:

تَبَيْتُ الْحَيَّةَ
النُّضْنَاضُ مِنْهُ

مَكَانَ الْحَبِّ
مَسْتَمِعَ السَّرَارِ

قال: الحَبُّ: الحبيب، والنضناض من الحيات: الذي يحرك لسانه، وعن عيسى بن عمر قال: قلت لذي الرمة: ما النضناض؟ فأخرج لسانه يحركه.
وإنما يصف القانص وأنه يبیت بالقفر، ومثله قول أبي النجم:

تَحْكِي لَنَا
الْقَرْنَاءُ فِي
عِرْزِهَا

جَزِي الرَّحَى
تَجْرِي عَلَى
ثِقَالِهَا

العِرْزَال: المكان وفي ذلك يقول أبو وَجْزَةَ:

تَبَيْتُ جَارَتَهُ
الْأَفْعَى وَسَامِرَهُ

رُبْدٌ بِهِ عَادِرٌ
مَنْهَنٌ كَالْجَرَبِ

وقوله: رُبْدٌ، يريد البعوض، وعادر: أثر.
قصة في مسالمة الأفعى قال: وبات يحيى بن مناقش مع دارم الدارمي، فلما أصبح يحيى رأى بينهما أفعى

مستويةً، فوثب يحيى ليقتلها، فقال له دارم، قد اعتقتها
وحررتها ولم تقتلها وهي ضجعتي من أول الليل؟ فقال
يحيى:

يُطِيفُ بِنَا
لِيلاً مُحَرَّرَ
دَارِمِ

أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ
تُرَى لِي صَحْبَتِي

وَإِنْ كَانَ
مَعْقُوداً بِحُلِي
الْتِمَائِمِ

مِنَ الْخُرْسِ لَا
يَنْجُو صَاحِباً
سَلِيمُهَا

مسالمة العقارب للناس والعقارب في ذلك دون الحيات،
إلا الجرارات، فإنها ربما باتت في لحاف الرجل الليلة
بأسرها، وتكون في قميصه عامّة يومها، فلا تلسعه،
فهي بالأفعى أشبه.
فأما سائر العقارب فإنها تقصد إلى الصّوت، فإذا ضربت
إنساناً فرّت كما يصنع المسيء الخائف للعقاب.
والعقرب لا تضرب الميت ولا المغشي عليه، ولا النائم
إلا أن يحرك شيئاً من جسده، فإنها عند ذلك تضربه.

مسالمة الخنافس للعقارب والحيات ويقال إنها تأوي مع
الخنافس وتسالمها، ولا تصادق من الحيات إلا كلَّ أسود
سالخ.

عقارب نصر بن الحجاج وحدث أبو إسحاق المكي قال:
كان في دار نصر بن الحجاج السلمي عقارب إذا لسعت
قتلت، فذب ضيف لهم على بعض أهل الدار فضربته
عقرب على مذاكيره، فقال نصر يعرض به:

أقامَ الحُدودَ بِهَا
العُقربُ

وَدَارِي إِذَا نَامَ
سَكَّانُهَا

فإن عقاربها
تضرب

إذا غفلَ الناسُ
عن دينهم

قال: فأدخل الناسُ بها حواءً، وحكوا له شأن تلك
العقارب، فقال: إن هذه العقارب تستقي من أسود سالخ،
ونظر إلى موضع في الدار فقال: احفروا هاهنا، فحفروا
عن أسودين: ذكر وأنثى، وللذكر خصيتان ورأوا حول
الذكر عقارب كثيرة فقتلواها.

قال: وقال الفضل بن عباس حين راهنه عقرب بالشعر،

وقيل لكل واحدٍ منهما: لستَ في شيءٍ حتَّى تغلبَ
صاحبك، فقال الفضل:

لا مرحباً بالعقرب التاجرهِ	قد تجر العقرب في سوقنا
وعقرب تخشى من الدابره	كل عدو يتقي مقبلاً
فغير ذي أيدٍ ولا ضائره	كل عدو كيدهِ في استهِ
بأن لا دنيا ولا آخرهِ	قد ضاقت العقرب واستيقنت
وكانت النعل لها حاضرهِ	إن عادت العقرب عدنا لها

من سمي بعقرب واسم أم حارثة بن بدر، عقرب، وآل
أبي موسى يكتنون بأبي العقارب، ومن هؤلاء الذين
يكتنون بالعقرب: ابن أبي العقرب الليثي الخطيب
الفصيح، الراوية.

وَرَوَوْا أَنَّ عَقْرَبًا لَسَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:
لَعَنَهَا اللَّهُ، فَإِنَّهَا لَا تُبَالِي مَنْ ضَرَبَتْ! وَقَالَ الضَّبِّي: أَنَا
عَقْرَبٌ، أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ.

الجرارات وكان الرَّجُلُ تَلْسَعُهُ الْجَرَّارَةُ بِعَسْكَرٍ مُكْرَمٍ، أَوْ
بِجَنْدِ يَسَابُورٍ، فَتَقْتَلُهُ؛ وَرَبَّمَا تَنَاثَرَ لِحْمُهُ، وَرَبَّمَا تَعَفَّنَ
وَأَنْتَنَ، حَتَّى لَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُخَمَّرٌ أَنْفَهُ، مَخَافَةَ
إِعْدَائِهِ، وَلَا سِيْمَا إِنْ كَانَ قَدْ نَالَ مِنَ اللَّحْمِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ
أَنَّ الْوُخْزَةَ الَّتِي وَخَزَهَا كَانَتْ مِنْ جَرَّارَةٍ.

وكانوا إذا شعروا بها دعوا حجاماً، يحجم ذلك الموضع
ويمصُّه، قبل أن يتفشى فيه السم ويدخل تلك المداخل،
فكان الحجام لا يجيئهم حتى يقبض دنائير كثيرة، وإنما
كانوا يجودون له بذلك؛ لما كان لأصاحبهم في ذلك من
الفرج، وما على الحجام في ذلك من ضرر، وذلك أن
وجهه ربما اسمراراً واربداً، وربما عطلت مقادير أسنانه
وتوجعت عليه، فيلقى من ذلك الجهد، وذلك لما كان

يَصِلُ إِلَى فِيهِ مِنْ بُخَارِ الدَّمِّ، وَمِنْ ذَلِكَ السَّمِّ الْمَخَالِطُ
لِذَلِكَ الدَّمِّ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ حَشَوْا أَدْنَابَ الْمَحَاكِمِ بِالْقَطْنِ،
فَصَارَ الْقَطْنُ لَا يَمْنَعُ قُوَّةَ الْمَصِّ وَالْجُدْبِ، وَلَمْ يَدْعُهُ يَصِلُ
إِلَى فَمِ الْحَجَامِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ مَدَّةِ سُنِّيَّاتٍ أَصَابُوا نَبْتَةً فِي
بَعْضِ الشُّعْبِ، فَإِذَا عَالَجُوا الْمَلْسُوعَ بِهَا حَسُنَتْ حَالُهُ.
وَالْجَرَّارَاتُ تَأْلَفُ الْأَخْوَاءَ الَّتِي تَكُونُ بِحَضْرَةِ الْأَتَاتِينَ،
وَتَأْلَفُ الْحَشُوشَ وَالْمَوَاضِعَ النَّارِيَّةَ، وَسَمُّهَا نَارُ.
قَوْلُ مَاسِرْجُويهِ فِي الْعَقْرِبِ وَقِيلَ لِمَاسِرْجُويهِ: قَدْ نَجِدُ
الْعَقْرِبَ تَلَسُّعَ رَجُلَيْنِ فَتَقْتُلُ أَحَدَهُمَا وَيَقْتُلُهَا الْآخَرَ، وَرَبَّمَا
نَجَتْ وَلَمْ تَمُتْ، كَمَا أَنَّهُ رَبَّمَا عُقِرَتْ وَلَمْ تَفُتْ، وَنَجِدُهَا
تَضْرِبُ رَجُلَيْنِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَخْتَلِفَانِ فِي سَوْءِ
الْحَالِ، وَنَجِدُهَا تَخْتَلِفُ مَوَاضِعَ ضَرَرِهَا عَلَى قَدْرِ
الْأَغْذِيَّةِ، وَعَلَى قَدْرِ الْأَزْمَانِ، وَعَلَى قَدْرِ مَوَاضِعِ الْجَسَدِ،
وَنَجِدُ وَاحِدًا يَتَعَالَجُ بِالْمَسُوسِ فَيَحْمَدُهُ، وَنَجِدُ آخَرَ يَدْخُلُ
يَدِهِ فِي مَدْخَلٍ حَارٍّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَاءٌ فَيَحْمَدُهُ،
وَنَجِدُ آخَرَ يَعَالِجُهُ بِالنَّخَالَةِ الْحَارَّةِ فَيَحْمَدُهَا، وَنَجِدُ آخَرَ
يَحْجِمُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ فَيَحْمَدُهُ، وَنَجِدُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ
يَشْكُو خِلَافَ مَا يُوَافِقُهُ، ثُمَّ إِنَّا نَجِدُهُ يَعَاوِدُ ذَلِكَ الْعِلَاجَ
عِنْدَ لِسْعَةٍ أُخْرَى فَلَا يَحْمَدُهُ.

قال ماسرجويح: لما اختلفت السُّمومُ في أنفسها بالجنس
والقدر، وفي الزَّمان، باختلاف ما لاقاهُ اختلفَ الذي
وافقه على حسب اختلافه.

وكان يقول: إِنَّ قولَ القائلِ في العقرب: شرُّ ما تكون
حين تخرج من جُحرها، ليس يعنُون من ليلتها - إذ كان
لا بدَّ من أن يكون لها نصيبٌ من الشدَّة - ولكنَّهُم إنما
يعنُون: في أوَّل ما تخرج من جُحرها عند استقبال
الصَّيف، بعدَ طولِ مُكثِّها في غير عالمنا وغدائنا
وأفاسنا ومعاشنا.

زعم العامة في العقرب والعامة تزعم أنها شرُّ ما تكون
إذا ضربت الإنسانَ وقد خرج من الحمام؛ لتفتح المسامِّ،
وسعة المجاري، وسخونة البدن، ولذلك صار سمها في
الصيف أشدَّ، هذا قولُ أبي إسحاق، كأنَّهُ كان يرى أنَّ
الهواءَ كلما كان أحرَّ، وكان البدنُ أسخنَ كان شرًّا.
ونحن نجدهم يصرخون من لسعتها اللَّيْلَ كلَّه، وإذا طلعت
الشمسُ سكن ما بهم، فإذا بقيت فضلةً من تلك الجارحة
في الشمس فما أكثر ما يسكن، وسمومها بالليل أشدَّ، إلاَّ
أن يزعم أنَّ أجوافَ الناس في برد الليل أسخن وفي حرِّ
النهار أفتَر.

الدّساس وزعم لي بعضُ العلماء ممّن قد روى الكُتُب،
وهو في إرثٍ منها، أنّ الحية التي يقال لها: الدّساس،
تلد ولا تبيض؛ وأنّ أنثى النّمور لم تضع نمرًا قط إلاّ
ومعه أفعى.

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

والأعرابُ تزعم أنّ الكمأة تبقى في الأرض فتُمطر مطرًا
صيفيًّا، فيستحيل بعضها أفاعي، فسمع هذا الحديث مني
بعضُ الرّؤساء الطّائيين، فزعم لي أنّه عاينَ كمأةً ضخمةً
فتأمّلها، فإذا هي تتحرّك، فهض إليها فقلّعها، فإذا هي
أفعى، هذا ما حدّثته عن الأعراب، حتّى برئت إلى الله من
عيب الحديث.

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

وزعم صاحبُ المنطق أنّ الوزغة والحيّات تأكلُ اللّحم
والعُشب، وزعم أنّ الحيات أظهرُ كلبًا من جميع الحيوان،
مع قلة شرب الماء، وأنّ الأسد مع نهمه قليلُ شرب
الماء، قال: ولا تضبطُ الحياتُ أنفسها إذا شمّت ريح
السّذاب، وربّما اصطيّدتُ به وإذا أصابوها كذلك وجدوها
وقد سكرت.

قال: والحيات تبتلع البيض، والفراخ، والعُشب.
سلخ الحيوان وزعم أن الحيات تسلخ جلودها في أول الربيع، عند خروجها من أعشيتها وفي أول الخريف، وزعم أن السلخ يبتدىء من ناحية عيونها أولاً، قال:
ولذلك يظنُّ بعض من يُعانيها أنها عمياء، وهي تسلخ من جلودها في يومٍ وليلةٍ من الرأس إلى الذنب، ويصيرُ داخل الجلد هو الخارج، كما يُسلخ الجنين من المشيمة، وكذلك جميع الحيوان المحرّز الجسد، وكلُّ طائر لجناحه غِلافٌ مثل الجعل والذبر وكذلك السرطان، يسلم أيضاً، فيضعف عند ذلك من المشي.
وتسلخ جلودها مراراً.

والسلخ يصيب عامّة الحيوان: أمّا الطير فسلخها تحسيرها، وأمّا ذوات الحوافر فسلخها عقائقتها، وسلخ الإبل طرح أوبرها، وسلخ الجراد انسلاخ جلودها، وسلخ الأيائل إلقاء قرونها، وسلخ الأشجار إسقاط ورقها.

أصل الأسروع

والأسروع: دويبة تنسلخ فتصير فراشة، وقال الطرمح شعراً:

وجرت بجاليها
الحذاب القردد

وتجرد
الأسروع
واطرده السفا

ورق الفراش
لما يشب الموقد

وانساب حيات
الكثيب وأقبلت

يصف الزمان.

والدعموص ينسلخ، فيصير إما بعوضة وإما فراشة.

انسلاخ البرغوث

وزعم ثمامة عن يحيى بن برمك أن البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة، وأنه البعوضة التي من سلخ دعموص ربما انسلخت برغوثاً.

والنمل تحدث لها أجنحة ويتغير خلقها، وذلك هو سلخها، وهلكها يحين عند طيرانها.

انسلاخ الجراد

والجراد ينسلخ على غير هذا النوع، قال الرَّاجز:

مَلْعُونَةٌ تَسْلَخُ لُونًا لُونَيْنِ

أثر البلدان في ضرر الأفاعي ونحوها قال: وعضُّ السَّباعِ ذواتِ الأربَعِ، ولدغُ الهوامِّ، يختلفُ بقدر اختلافِ البُلدانِ؛ كالذي يبلغنا عن أفاعي الرَّمْلِ، وعن جَرَّاراتِ قري الأهواز، وعقارب نَصِيبين، وثعابين مصر، وهنديات الخرابات.

وفي الشَّبثان، والزَّنابير، والرَّتِيَلات ما يقتل، فأما الطَّبَّوع فإِنَّهُ شَدِيدُ الأذى، وللضَّمجِ أذى لا يبلغ ذلك.

أقوال لصاحب المنطق وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية: طبقون حيَّةً صغيرةً شديدة اللدغ، إلا أن تُعالج بحجر، يُخَرَج من بعض قبور قدماء الملوك، ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك.

وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسد بعضها، كانت أردأ ما تكون سمًا، مثل العقارب والأفاعي.

قال: والأيلُ إذا ألقى قُرُونَهُ علم أَنَّهُ قد ألقى سلاحه فهو لا يظهر، وكذلك إن سمن أَنَّهُ يُطَلَّب، فلا يظهر، وكذلك أوَّل ما ينبت قَرْنُهُ يعرِّضُهُ للشمس؛ ليصلب

ويجفّ، وإن لدغت الأيّل حيّة أكل السّراطين؛ فلذلك نظنّ
أنّ السّراطين صالحة للديغ من الناس.

قال: وإذا وضعت أنثى الأيّل ولداً أكلت مشيمتها، فيظنّ
أنّ المشيمة شيء يتداوى به من علة النفاس.

قال: والدّبة إذا هربت دفعت جِراءها بين يديها، وإن
خافت على أولادها غيّبتها، وإذا لحقت صعّدت في الشجر
وحملت معها جِراءها.

قال: والفهد إذا عراه الداء الذي يقال له: خانق الفهود
أكل العذرة فبرئ منه.

قال: والسّباع تشتهي رائحة الفهود، والفهد يتغيّب عنها،
وربّما فرّ بعضها منه فيطعم في نفسه، فإذا أراد السّبع
وثب عليه الفهد فأكله.

قال: والتمساح يفتح فاه إذا غمّه ما قد تعلق بأسنانه،
حتى يأتي طائر فيأكل ذلك، فيكون طعاماً له وراحة
للمّساح.

قال: وأما السّلحفاة فإنّها إذا أكلت الأفعى أكلت صعّراً
جبلياً، وقد فعلت ذلك مراراً، فربما عادت فأكلت منها ثمّ
أكلت من الصّعتر مراراً كثيرة، فإذا أكثرت من ذلك
هلكت.

قال: وأما ابن عرس، فإنه إذا قاتَلَ الحَيَّةَ بدأ بأكلِ
السَّدَابِ، لأنَّ رائحةَ السَّدَابِ مخالفةٌ للحَيَّةِ، كما أن ساءَ
أبرصَ لا يدخلُ بيتاً فيه زعفران.

قال: والكلاب إذا كان في أجوافها دودٌ أكلت سُنبل القمح.

قال: ونظنُّ أن ابنَ عرس يحتالُ للطيرِ بحيلةِ الذئبِ
للغنم؛ فإنه يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة، قال: وتتقاتل
الحيات المشتركة في الطعم.

وزعم أنَّ القنافذ لا يخفى عليها شيءٌ من جهةِ الرِّيحِ
وتحوُّلها وهبوبها، وأنه كان بقسطنطينية رجلٌ يُقدِّمُ
ويُعظِّمُ؛ لأنه كان يعرفُ هبوبَ الرِّيحِ ويخبرهم بذلك
وإنما كان يعرف الحالَ فيها بما يرى من هيئةِ القنافذ.
العيون الحمر العيُونُ الحمرُ للعرضِ المفارق، كعين
الغضبان، وعينِ السكران، وعينِ الكلبِ، وعينِ الرَّمْدِ.
العيون الذهبية والعيُونُ الذهبيةُ، عيونُ أصنافِ البزاة
من بين العقاب إلى الزُّرْقِ.

العيون التي تسرج بالليل والعيون التي تسرج بالليل،
عيون الأسد، وعيون النمر، وعيون السنابير، وعيون
الأفاعي، قال أبو حية: خبر وشعر في العين

كَجَمَرِ الْغَضَا
دَكَّيْتُهُ فَتَوَقَّدَا

غَضَابٌ يُثِيرُونَ
الدُّحُولَ عُيُونُهُمْ

وقال آخر:

محمرة عيناه
كالكلب

وَمَدَجَّجَ يَسْعَى
بشكته

رجع بالكلب إلى صفة المدجج.
وقال معاوية لصُحارِ العبدِيّ: يا أحمر قال: والذهب أحمر
قال يا أزرق قال: والبازي أزرق وأنشدوا:

كذاك عتاقُ
الطيرِ سُكُلُ
عُيُونِهَا

ولا عيبَ فيها
غيرِ سُكُلَةِ
عينها

وقال آخر:

لكنت مكانَ
العَيْنِ مَرَأَى
وَمَسْمَعَا

وشكلة عينِ لَو
حُبَيْتِ بِبَعْضِهَا

ومن العيون المغرب، والأزرق، والأشكلى، والأسجر،
والأشهل، والأخيف، وذلك إذا اختلفا، وعين الفارة
كحلاء، وهي أبصر بالليل من الفرس والعقاب.
وفي حمرة العينين وضياهما يقول محمد بن ذؤيب
العماني، في صفة الأسد:

عَضَنَفِرٍ مَضَبِّرٍ
رَهَّاسٍ

أَجْرًا مِنْ ذِي لِبْدَةٍ
هَمَّاسٍ

كَأَنَّمَا عَيْنَاهُ
فِي مِرَاسٍ

مَنَاعِ أَحْيَاسٍ إِلَى
أَحْيَاسٍ

شِعَاعِ مِقْبَاسٍ إِلَى
مِقْبَاسٍ

وقال المرار:

كَأَنَّمَا وَقَدْ عَيْنِيهِ النَّمِرُ

أصوات خشاش الأرض

نحو الضبّ، والورل، والحيّة، والقنفذ، وما أشبه ذلك.
يقال للضبّ والحيّة والورل: فَحَّ يَفْحُ فحياً، وقال روبة:

وَأَنْ تُرْحِي
كَرْحَى المَرْحَى

فَحِي فلا أَفْرَقُ
أَنْ تَفْحِي

يُحْكِي سُعالَ
النَّشْرِ الأَبْحَ

أَصْبَحَ مِنْ
نَحْنَحَةٍ وَأَحَّ

قال: الفحيح: صوتُ الحيّةِ مِنْ فيها، والكشيش
والنشيش: صوتُ جِلدها إذا حَكَّتْ بَعْضَهُ ببعض، قال
الراجز في صفة الشَّخْبِ والحُلبِ:

حَمراءَ مِنْها
شُخْبَةٌ بِالمُخَضِّ

حَلَبْتُ لِلأَبْرَشِ
وَهُوَ مُغْضٍ

كَأَنَّ صَوْتَ
شُخْبِها المَرْفُضِّ

لَيْسَتْ بِذاتِ
وَبَرٍ مَبْيُضِّ

كشيشُ أَفْعَى
أَجْمَعَتْ لِعَضِّ

ويقال للضبِّ والورل: كش يكش كشيئاً، وأنشد أبو الجراح:

تَرَى الضَّبَّ إِن لَّمْ	يَكِشُّ لَهُ
يَرْهَبُ الضَّبُّ	مَسْتَنكِرًا
غَيْرَهُ	وَيُطَاوِلُهُ

ضرب المثل للرجلِ الداهيةِ ولحيِّ الممتنعِ بالحيَّةِ
قال ذو الإصبع العَدوانيُّ:

عَذِيرَ الحَيِّ مِنْ	نَ كَانُوا حَيَّةَ
عَدَا	الأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ	فَلَمْ يُزْعَ عَلَى
ظُلْمًا	بَعْضِ
وَفِيهِمْ كَانَتْ	تُ وَالْمَوْفُونَ
السَّادَا	بِالْقَرْضِ

يقال: فلان حية الوادي، وما هو إلا صلُّ أصلال، والصلُّ:
الداهية والحيَّة، قال النابغة:

نَضْنَاضَةٌ
بِالرَّزَايَا صِلَّ
أَصْلًا

مَادَا رُزْنًا بِهِ
مِنْ حَيَّةٍ دَكْرٍ

وقال آخر:

سِمَامٌ ذِيْفَانٍ
مَجِيرَاتٍ

صِلَّ صَفًا تَنْطِفُ
أَنْيَابُهُ

وقال آخر:

أَطْرَقَ أَفْعَى يَنْفَثُ
السَّمَّ صِلُّ

مُطْرَقٌ يَرْشَحُ
سَمًّا كَمَا

ومن أمثالهم: صَمِّي صَمَامٍ، وَصَمِّي ابْنَةَ الْجَبَلِ، وَهِيَ
الْحَيَّةُ.

قال الكميت:

بِهَا: صَمِّي ابْنَةَ
الْجَبَلِ السَّفِيرُ

إِذَا لَقِيَ السَّفِيرَ
لَهَا وَنَادَى

قولهم جاء بأمر الربيق على أريق

ومن أمثالهم: جاءَ بأمِّ الرُّبِيقِ على أَرِيقٍ، أمُّ الرُّبِيقِ:
إحدى الحيات، وأَرِيقٌ: أمُّ الطَّبَقِ، ضربوا به مثلاً في
الدواهي، وأصلها من الحَيَّاتِ قال:

فأَذْهَبَ وَدَعْنِي
أُمَارِسَ حَيَّةَ
الوادي

إِذَا وَجَدْتَ
بِوَادِ حَيَّةً
ذَكَرًا

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

وفي المثل: أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة يعني الصبي
الذي يدرج ويتناول كلَّ شيءٍ سَنَحَ له، ويهوي به إلى
فيه، كأنه قال لأمه: أدركيه لا تأكله الهامة وهي الحية،
وهو قوله في التعويد: ومن كلِّ شيطانٍ وهامةٍ، ونفسٍ
وعينٍ لامةٍ.

شعر للأخطل في ذكر الحية

وقال الأخطل، في جعلهم الرِّجْلَ الشُّجَاعَ وذا الرّأي
الدَّاهية حية - وكذلك يجعلون إذا أرادوا تعظيم شأنها،
وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحية ذكراً، قال
الأخطل:

أنبت كلباً
تمنى أن
يسافهننا

وظالما سافهونا
ثم ما ظفروا

كلفتمونا رجالاتنا
قاطعي قرن

مستحلقين كما
يستلحق اليسر

ليست عليهم
إذا عدت
خصالهم

خصلٌ وليس لهم
إيجاب ما قمرؤا

قد أنذروا حية
في رأس
هضبتة

وقد أنتهم به
الأنباء والنذر

باتوا رقوداً
على الأمهاد
ليلهم

وليلهم ساهرٌ
فيها وما
شعروا

ثمت قالوا
أمات الماء

وما يكاد ينام

حيته

الحية الذكر

حيّة الماء

وما أكثر ما يذكرون حيّة الماء؛ لأنّ حَيَاتِ المَاءِ فيها
تفاوت، إمّا أن تكونَ لا تضرُّ كبيرَ ضررٍ، وإمّا أن تكونَ
أقتلَ من الحَيَاتِ والأفاعي.
الهنديّات ويقال إنّ الهنديّات إنّما تصير في البيوت
والدُّور، والإصطبلات، والخرابات؛ لأنّها تُحمَلُ في
القُضْبِ وفي أشباه ذلك.

علة وجود الحيات في بعض البيوت

والحيّاتُ تأكل الجرادَ أكلاً شديداً، فربّما فتحَ رأسَ كُرْزِهِ
وجرابه وجوالقه، الذي يأتي الجراد، وقد ضربَه برْدُ
السَّحَرِ، وقد تراكم بعضُه على بعض؛ لأنّها موصوفةٌ
بالصَّرْدِ.
والحيّاتُ توصفُ بالصَّرْدِ، كذلك الحمير، والماعزُ من
الغنم، ولذلك قال الشاعرُ:

جَنَاباً وَلَا
أَكْنافَ ذرّوة

بليت كما يبلى

الوكاء ولا أرى

تخلق

ألوي حيازيمي
بهن صباية

كما تتلوى
الحيّة
المشرّق

وإنما تشرّق إذا أدركها برد السحر ولم تصر بعد إلى
صلاحها، وإذا خرجت بالليل تكتسب الطعم كما يفعل ذلك
سائر السباع، فربما اجترف صاحب الكرز الجراد،
فأدخله كرزّه، وفيه الأفعى وأسود سالح، حتى يُنقل ذلك
إلى الدور، فربما لقي الناس منها جهداً.
وقال بشر بن المعتمر، في شعره المزوج:

يا عجباً
والدهر ذو
عجائب

من شاهد قلبه
كالغائب

وحاطب يحطّب
في بجاده

في ظلمة الليل
وفي سواده

وَالْأَسْوَدَ السَّالِحَ
مَكْرُوهَ النَّظَرِ

يَخْطُبُ فِي
بِجَادِهِ الْأَيْمِ
الذِّكْرِ

شعر في حية الماء فمن ذكر حية الماء، عبد الله بن
هَمَّامِ السُّلُوكِيِّ فَقَالَ:

صُنْبُ الْمِرَاسِ
إِذَا مَا حُتَّتْ
النُّطْقُ

كَحَيَّةِ الْمَاءِ لَا
تَنْحَاشُ مِنْ
أَحَدٍ

وَقَالَ الشَّمَاخُ بْنُ ضِرَارٍ:

إِذَا تَفَصَّدَنَّ مِنْ
حَرِّ الصَّيَاحِيدِ

خُوصُ الْعَيُونِ
تُبَارَى فِي أَرْمَتِهَا

كحياة الماء
وَلَى غَيْرِ
مَطْرُودِ

وَكُلَّهِنَّ تُبَارَى
بِثِي مَطْرِدِ

وَقَالَ الْأَخْطَلُ:

فدل عليها
صوتها حية
البحر

ضفادع في
ظلماء ليل
تجاوبت

ما يشبهه بالأيم، فالأيم الحية الذكر يشبهون به الزمام،
وربما شبهوا الجارية المجدولة الخميصة الخواصر، في
مشيها، بالأيم؛ لأن الحية الذكر ليس له عيب، وموضع
بطنه مجدول غير متراخ، وقال ابن ميادة:

وتجذب مثل
الأيم في بلد
قفر

قعدت على
السعلاة تنفض
مسحها

وتحمل حاجات
تضمنها
صدري

تيمم خير الناس
من آل حاضر

شعر في حمرة عين الأفعى وقال الآخر في حمرة عين
الأفعى:

لولا الهراوة
والكفّاتُ
أوردني

حَوْضَ المنيّةِ
فَتَالَ لِمَنْ عَلِقَا

أصمُّ منهرتُ
الشّدقين ملتبّدُ

لم يُغدِّ إلا
المنايا من لدنْ
خُلِقَا

كأنَّ عينيه
مِسْمَارَانِ مِنْ
دَهَبِ

جلاهما مِدوسُ
التَّلَاقِ فائتَقَا

شعر في حمرة عيون الناس وقال في حمرة عيون النَّاسِ
في الحَرْبِ وفي الغضب، ابنُ مِيّادة:

وعند الفزاري
العراقي
عارض

كأنَّ عيونَ القَوْمِ
في نبضةِ الجمرِ

وفي حمرة العين من جهة الخُلُقَةِ، يقول أبو فَرْدُودة، في
ابنِ عمارٍ حينَ قتله النُّعمانُ:

لَا تَأْمَنَنَّ أَحْمَرَ
الْعَيْنَيْنِ
وَالشَّعْرَةَ

إِنِّي نَهَيْتُ ابْنَ
عَمَّارٍ وَقَلْتُ لَهُ:

تَطِرْ بِنَارِكَ مِنْ
نِيرَانِهِمْ شَرَّرَهُ

إِنَّ الْمُلُوكَ مَتَى
تَنْزِلُ بِسَاحَتِهِمْ

وَمَنْطِقًا مِثْلَ
وَشْيِ الْيَمْنَةِ
الْحَبْرَةَ

يَا جَفْنَةَ كِزَاءِ
الْحَوْضِ قَدْ
هُدِمَتْ

معرفة في الحياة

وأكثر ما يذكرون من الحيات بأسمائها دون صفاتها:
الأفعى، والأسود، والشجاع، والأرقم، قال عمر بن لجا:

يلزق بالصخر لزوق الأرقم

وقال آخر:

ووقع نبال مثل

ورفع أولى
القوم وقع

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

وفي بعض كتب الأنبياء، أنّ الله تبارك وتعالى قال لبني إسرائيل: يا أولاد الأفاعي. مثل وشعر في الحية ويقال: رماه الله بأفعى حارية وهي التي تحري، وكلما كبرت في السن صغرت في الجسم، وأنشد الأصمعي في شدة اسوداد أسود صالح:

كأنما قيّظ من
ليط جعل

مهرت الأشداق
عود قد كمل

وقال جرير في صفة عروق بطن الشبّعان:

فأعمى وأما ليله
فبصير

وأعور من
نهبان أما
نهاره

يكاد سناها في
السماء يطير

رفعت له
مشبوبة يلتوي

بها

فلما استَوَى

جنباه لَاعَبَ

ظَلَّهُ

عريضُ أفاعي

الحالِبِينَ ضَرِيرُ

قال: ويقال: أَبْصَرَ من حَيَّةٍ، كما يقال: أَسْمَعُ من فرس،
و أَسْمَعُ من عُقَابٍ، وقال الراجز:

أَسْمَعُ من فَرْخِ العُقَابِ الأشْجَعِ

وقال آخر:

أَسْوَدُ شَرَى

لَأَقْتُ أَسْوَدَ

خَفِيَّةٍ

تساقفوا عَلَى

حَرْدِ دِمَاءٍ

الأسَاوِدِ

ضَرَبَ المِثْلَ بجنسِينِ من الأَسْوَدِ، إِذْ كانا عِنْدَه الغايَةَ في
الشَّدَّةِ والهَوْلِ، فلم يَقنع بِذلك حَتى رَدَّ ذلك كُلَّهُ إِلى سَموم
الحَيَّاتِ.

ما يشبهه بالأسود وفي هؤل منظر الأسود يقول الشاعر:

مِنْ دُونِ سَنِيكَ
لُونُ لَيْلٍ مُظْلِمٍ
وَالضَّيْفُ عِنْدَكَ
مِثْلُ أَسْوَدٍ سَالِحٍ
وَحَفِيفٌ نَافِجَةٌ
وَكَلْبٌ مُوسَدٌ
لَا بَلَّ أَحَبُّهُمَا
إِلَيْكَ الْأَسْوَدُ

ويصفون ذوائب الناس، فإذا بلغوا الغاية شبهوها
بالأساود، قال جرّان العود:

أَلَا لَا تَعَرَّنْ
امرأً نُوفَلِيَّةً
وَلَا فَاحِمٌ
يُسْقَى الدَّهَانَ
عَلَى الرَّأْسِ مِنْهَا
وَالْتَرَائِبُ وَضَحٌ
أَسَاوِدُ يَزْهَاهَا
لَعَيْنِكَ أَبْطَحُ
كَأَنَّهُ

استطرد لغوي قال: والخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن
تنقب فيخرج ما فيها، وجماعه الخراشي، غير مهموز،
قال: وخرشاء الحية: سلخها حين تسلخ، وقال: هذا

أسود سالخ، وهذان أسودان سالخان.
وأساود سالخة، وقال مرَّقش:

يُنْسَلُّ عَنْ
خِرْسَائِهِ
الْأَرْقَمِ

إِنْ يَغْضَبُوا
يَغْضَبُ لِذَاكُمْ كَمَا

تعليق الحلي والخلاخيل على السليم وكانوا يَرُونَ أَنَّ
تعليقَ الحَلِيِّ، وَخَشْخَشَةَ الخِلاخِيلِ على السَّلِيمِ، مِمَّا لَا
يفيق ولا يَبْرَأُ إِلَّا بِهِ، وَقَالَ زَيْدُ الخَيْلِ:

كَمَا عُلِّقَتْ فَوْقَ
السَّلِيمِ الْخَلَاحِلُ

أَيُّمَ يَكُونُ النِّعْلُ
مِنْهُ ضَجِيعةً

وخبَّرني خالد بن عقبة، من بني سلمة بن الأكوع، وهو
من بني المسبيع، أَنَّ رجُلًا من حَزْنِ، من بني عنزة،
يسمى أسباط، قال في تعليقهم الحَلِيِّ على السَّلِيمِ:

وَبِتَّ كَمَا بَاتَ
السَّلِيمُ مُقَرَّرًا

أَرِقْتُ فَلَمْ تَطْعَمْ
لِي الْعَيْنُ مَهْجَعًا

تَرَى حَوْلَهُ حَلِيَّ
النِّسَاءِ مُرْصَعًا

كَأَنِّي سَلِيمٌ نَالُهُ
كَلْمٌ حَيَّةٌ

وقال الأبياني:

من الرُّفْشِ فِي
أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعٌ

فَبِتَّ كَأَنِّي
سَاوِرْتَنِي
ضَنْبِلَةٌ

لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي
يَدَيْهِ قَعَاقِعٌ

يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلٍ
التَّمَامِ
سَلِيمُهَا

استطرد فيه لغة وشعر قال: ويقال لسان طلق ذلق، يقال
للسليم إذا لدغ: قد طلق، وذلك حين ترجع إليه نفسه،
وهو قول النابغة:

تَطَلَّقَهُ طَوْرًا
وَطَوْرًا
تُرَاجِعُ

تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ
مِنْ سُوءِ سَمِّهَا

وقال العبدى - إن كان قاله - :

تَبَيْتُ الْهُمُومَ الطَّارِقَاتُ يُعِدُّنِيكَمَا تَعْتَرِي الْأَهْوَالُ رَأْسَ
المَطَّقِ

وأنشد:

تَلَاقِي مِنْ
تَذَكَّرِ آلِ لَيْلَى
كَمَا يَلْقَى السَّلِيمُ
مِنْ الْعِدَادِ

والعِدَادُ: الوقت، يقال: إِنَّ تِلْكَ اللَّسْعَةَ لَتُعَادُهُ: إِذَا عَادَهُ
الْوَجَعُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لُسِعَ فِيهِ.
حديث الحمل المصلي وذكر النبي صلى الله عليه وسلم
السَّمَّ الَّذِي كَانَ فِي الْحَمَلِ الْمَصْلِيِّ، الَّذِي كَانَتْ الْيَهُودِيَّةُ
قَدَّمَتْهُ إِلَيْهِ فَنَالَ مِنْهُ، فَقَالَ: إِنَّ تِلْكَ الْأَكْلَةَ لَتُعَادُنِي.

جلد الحية

وفي الحية قشرها، وهو أحسن من كل ورقة وثوب،
وجناح، وطائر؛ وأعجب من سنن العنكبوت، وغرقى
البيض.

ما يشبهه بلسان الحية

ويقال في مثل، إذا مدحوا الخُفَّ اللطيف، والقدم اللطيفة
قالوا: كأنه لسان حية.

نفع الحية

وبالحية يتداوى من سم الحية، وللدغ الأفاعي يؤخذ
الترياق الذي لا يوجد إلا بمتون الأفاعي، قال كثير:

وتُخْرِجُ مِنْ
مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

وما زالت رُفَاكُ
تَسَلُّ ضِغْنِي

أَجَابَكَ حِيَّةٌ تَحْتَ
الْحِجَابِ

وَتَرَقِينِي لَكَ
الْحَاوُونَ حَتَّى

قصة امرأة لدغتها حية جوير بن إسماعيل، عن عمه،
قال: حجبتُ فاتًا لفي وَقَعَةٍ مَعَ قَوْمٍ نَزَلُوا مِنْزَلَنَا، وَمَعَنَا
امرأة، فنامت فانتبهت وحيةً منطوية عليها، قد جمعت
رأسها مع ذنبها بين ثدييها، فها لها ذلك وأزعجنا، فلم
تزل منطوية عليها لا تضرُّها بشيء، حتى دخلنا أنصاب
الحرم، فانسابت فدخلت مكة، فقضينا نسكنا وانصرفنا،
حتى إذ كنا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحية، وهو
المنزل الذي نزلناه، نزلت فنامت واستيقظت، فإذا الحية

منطويةً عليها، ثم صَفَرَت الحَيَّةُ فإذا الوادي يسيلُ حَيَّاتٍ عليها، فنهشتُها حتَّى نَقَتَ عظامَها، فقلتُ لجاريةٍ كانت لها: وَيْحَكَ! أخبرينا عن هذه المرأة، قالت: بَعْتُ ثلاثَ مرَّاتٍ، كلَّ مرَّةٍ تأتي بولدٍ، فإذا وضعته سَجَرَت النَّوْرَ، ثمَّ ألقته فيه.

قول امرأة في عليٍّ والزُّبيرِ وطلحة قال ونظرت امرأةً إلى عليٍّ، والزُّبيرِ، وطلحة، رضي الله تعالى عنهم، وقد اختلفت أَعناقُ دوابِّهم حين التقوا، فقالت: من هذا الذي كأنه أرقمٌ يتلمَّظ؟ قيل لها: الزُّبيرِ، قالت: فمن هذا الذي كأنه كُسرٌ ثمَّ جُبِر؟ قيل لها: عليٌّ، قالت: فمن هذا الذي كأنَّ وجهه دينارٌ هِرْقَلِيّ؟ قيل لها: طلحة.

استطراد لغوي

وقال أبو زيد: نهشت أنهشُ نهشاً، والنَّهشُ: هو تناولك الشيءَ بفيك، فتمضَّغُه فتؤثر فيه ولا تجرحه، وكذلك نهش الحَيَّةُ، وأمَّا نهش السَّبُع فتناوله من الدَّابَّةِ بفيه، ثمَّ يقطع ما أخذ منه فوه، ويقال نهشت اللحم أنهشهُ نهشاً، وهو انتزاع اللحم بالهُنْيا؛ للأكل، ويقال نشطت العَقْدُ نشطاً: إذا عقدته بأنشوطه، ونشطت الإبلُ تنشيطاً نشطاً:

إذا ذهبت على هدى أو غير هدى، نزعاً أو غير نزع،
ونشطته الحية فهي تنشطه نشطاً، وهو أن تعضه عضاً،
ونكزته الحية تنكزه نكزاً، وهو طعنها الإنسان بأنفها،
فالنكز من كل دابة سوى الحية العض، ويقال: نشطته
شعوب نشطاً وهي المنية.

قال: وتقول العرب، نشطته الشعوب، فتدخل عليها
التعريف.

علة تسمية النهيش بالسليم ويسمون النهيش سليماً على
الطيرة، قال ابن ميادة:

قتيلٌ لدى أيدي
الرقاة سليم

كأني بها لما
عرفت رسومها

شعر في الحية ومما يضربون به المثل بالحيات في
دواهي الأمر، كقول الأقبيل القيني:

أن انطلاقي إلى
الحجاج تغريز

لقد علمت وخير
القول أنفعه

إني لأحمق من

لئن ذهبت إلى

تُحَدَى بِهِ الْعَيْرُ

وَفِي الصَّحَائِفِ
حَيَاتٌ مَنَاقِيرُ

الْحَجَّاجُ يَقْتَتِنِي

مُسْتَحَقَبًا صُحْفًا
تَدْمَى طَوَابِعَهَا

استطرد لغوي وقال الأصمعيّ: يقال للحية الذكر أيم
وأيم، مثقل ومخفف، نحو ليين ولين، وهين وهين، قال
الشاعر:

سَوَّاسٌ مَكْرَمَةٌ
أَبْنَاءُ أُيَسَارِ

هَيْنُونَ لَيْنُونَ
أَيَسَارٌ دُوُوُ يَسِرُ

وأنشد في تخفيف الأيم وتشديده:

زَمَنَ الرَّبِيعِ إِلَى
شُهُورِ الصَّيْفِ

بِاللَّيْلِ مَوْرِدَ أَيْمٍ
مَتَغَضِّفٍ

وَلَقَدْ وَرَدَتْ
الْمَاءَ لَمْ تَشْرَبْ
بِهِ

إِلَّا عَوَاسِرُ
كَالْمِرَاطِ
مُعِيدَةٌ

الصَّيْفُ، يعني مَطَرَ الصَّيْفِ، والعواسر: يعني ذئاباً رافعة
أذناها.

والمِرْاطُ: السهام التي قد تَمَرَّطَ ريشها، ومُعَيْدَةٌ: يعني
معاودة اللورد، يقول هو مكانٌ لَخَلَّاهُ يكون فيه الحياتُ،
وتَرْدُهُ الذَّابُّ، ومتغضِّفٌ يريد بعضُهُ على بعض، يريد
تثني الحية.
وأنشد لابن هند:

كحِيَّةٍ مُنْطَوٍ مِنْ
بَيْنِ أَحْجَارِ

أودى بأمِّ
سُلَيْمَى لاطِيٍّ
لَبْدٍ

وقال محمد بن سعيد:

تُورِدُ عِرَاكاً وَلَمْ
تَعَصِرْ عَلَى كَدْرِ

قريحة لم
تُدنيها السَّيِّطِ
ولم

في الصِّدْرِ مَا لَمْ
يَهَيِّجْهَا عَلَى

كمنطوى الحية
النَّضاضِ

مكمنها

زَوْرٍ

الليث للبيث

والحيّة الصلّ

منسوب

نجلّ الحيّة

أظافرُهُ

الدّكرِ

وقال ذو الرّمة:

وأخوى كأيّم

حَبَا تَحْتَ فِينَانَ

الضّالِ أطرقَ

من الظّلِّ وارْفِ

بَعْدَمَا

قال: ويقال انبستّ الحيات: إذا تفرقت وكثرت، وذلك عند إقبال الصّيف، قال أبو النّجم:

وانبسَ حَيَاتُ الكَثِيبِ الأَهْلِيلِ

وقال الطّرمّاح:

وَجَرَتْ بِجَالِيهَا

وَتَجَرَّدَ

الحِدَابُ القَرْدُدُ

الأسروعُ

وَاطْرَدَ السَّفَا

وانساب حَيَّاتُ الكَثِيبِ وَأَقْبَلَتْ وُرُقَ الفَرَّاشِ لَمَّا يَشْبُ المُوَقْدُ.

قال: ويقال جباً عليه الأسودُ من حجره: إذا فاجأه، وهو
يجبأ جباً وجَبُوأً.
وقال رجلٌ من بني شيبان:

وَمَا أَنَا مِنْ
سَيِّبِ الإِلهِ
بِيَأْسِ

وَمَا أَنَا مِنْ
رَيْبِ المُنُونِ
جُبْأً

ما يشرع في اللَّبَنِ قال: ويقال: اللَّبْنُ مُحْتَضِرٌ فَعَطَّ
إِنَاءَكَ، كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الجِنَّ تَشْرَعُ فِيهِ، عَلَى تصديق
الحديث في قول المفقود لعمر، حين سألَه وقد استَهْوَتْهُ
الجان: ما كان طعامهم؟ قال الرِّمَّةُ، يريد العظم البالي،
قال: فما شرابهم؟ قال: الجَدَفُ، قال: وهو كلُّ شراب لا
يُحْمَرُ.

وتقول الأعراب: ليس ذلك إلا في اللَّبَنِ، وأما النَّاسُ
فيذهبون إلى أَنَّ الحَيَّاتِ تشرع في اللَّبَنِ، وكذلك ساءٌ

أبرص، كذلك الحيّات تشرع في كثير من المرق.
حديث في المعصفر وجاء في الحديث: لا تَبَيْتُوا فِي
المَعْصَفِرِ؛ فَإِنهَا مُحْتَضِرَةٌ أَي يحضرها الجنُّ والعُمَار.
وقال الشاعر فيما يمجنون به، من ذكر الأفعى:

ولا عافاك من
جهدِ البلاءِ

رَمَاكَ اللهُ مِنْ
أيرِ بِأَفْعَى

وَنَعِظًا مَا تَفْتَرُ
فِي الخَلَاءِ

أَجْبِنًا فِي
الكرِيهَةِ حِينَ
تَلْقَى

ولولا البولُ
عُوجِلَ بالخِصَاءِ

فلولا اللهُ ما
أَمْسَى رَفِيقِي

وقال أبو النجم:

من حُسْنِهَا
وَنظَرْتُ فِي
سِرْبَالِيَا

نظَرْتُ فَأَعْجَبَهَا
الذِي فِي دِرْعِهَا

وعثا روادقهُ
وأخْثَمَ ناتيا

رُخْوَاً حمانلُهُ
وَجُدّاً باليا

أدني إليه
عقارباً
وأفاعيا

فَرَأَتْ لَهَا كَفْلاً
ينوء بِخَصْرِها

ورأيتُ منتشرَ
العِجانِ مُقَبَّضاً

أُدْنِي لهُ الرِّكَبَ
الحَلِيقَ كَأَنَّمَا

وقال آخر:

تخافُ على
أحشائها أنْ
تَقَطَّعا

يرفع من
أطرافه ما
ترفَعاً

مريضةُ أثناءِ
التَّهادي كَأَنَّمَا

تسيب انسيابَ
الأيمِ أخصره
النَّدَى

شعر في العقربان وقال إياسُ بن الأرت:

عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا
عُقْرُبَانُ

وَخَزَّ حَدِيدٌ مِثْلُ
وَخَزِ السِّنَانِ

وَأَمُّكُمْ قَدْ تَتَّقَى
بِالْعِجَانِ

كَأَنَّ مَرَعَى
أَمُّكُمْ سَوْءَةٌ

إِكْلِيلُهَا زَوْلٌ
وَفِي شَوْلِهَا

كُلُّ امْرِئٍ قَدْ
يُتَّقَى مُقْبَلًا

وقال آخر لمضيفه:

كَأَنَّكَ عِنْدَ رَأْسِي
عُقْرُبَانُ

شَكَرْتُكَ وَالطَّعَامُ
لَهُ مَكَانُ

تَبَيْتُ تَدَاهِدُهُ
الْقِدَّانَ حَوْلِي

فَلَوْ أَطْعَمْتَنِي
حَمَلًا سَمِينًا

شعر في الحيات الأفاعي

وقال النابغة:

مَذَاكِي الْأَفَاعِي

فَلَوْ يَسْتَطِيعُونَ

دَبَّتْ لَنَا

وَأَطْفَالُهَا

وقال رجلٌ من قريش:

مَا زَالَ أَمْرُ

حَتَّى أَظَلَّ

وُلَاةِ السُّوءِ

عَلَيْهِمْ حَيَّةٌ

مُنْتَشِرًا

ذَكَرُ

ذُو مِرَّةٍ تَفَرَّقُ

عَفَّ الشَّمَائِلِ قَدْ

الْحَيَّاتِ صَوْلَتُهُ

شُدَّتْ لَهُ الْمِرْرُ

لَمْ يَأْتِهِمْ خَبْرٌ

حَتَّى أَتَاهُمْ بِهِ

عَنْهُ يَلِينُ لَهُ

عَنْ نَفْسِهِ الْخَبْرُ

وقال بشار:

تَزَلُّ الْقَوَافِي

حُمَاتِ الْأَفَاعِي

عَنْ لِسَانِي

رِيقَهُنَّ قِضَاءُ

كَأَنَّهَا

وقال:

فكم من أخٍ قد
كان يأملُ
نفعكم

شجاع له نابٌ
حديدٌ ومخلَبٌ

أخ لو شكرتم
فعله لو
عضضتم

رؤوس الأفاعي
عَضَّ لا يتهيبُ

وقال الحارث دعي الوليد، في ذكر الأسود بالسّم من بين
الحيّات:

فإن أنت
أقررت الغداة
بنسبتي

عرفت وإلا كنت
فقعاً بقردد

ويشمت أعداء
ويجدل كاشح

عمرت لهم سمّاً
على رأس أسود

وقال آخر:

ومعشرٍ منقِعِ

سمُّ الأسودِ

لي في صُدُورِهِمْ

يغلي في
المواعيدِ

وَسَمْتَهُمْ

بالقوافي فَوْقَ

أعينهم

وَسَمَ المعيديِّ
أعناقَ المقاحيدِ

وقال أبو الأسود:

لَيْتَكَ أَذْنَتِي

بواحدةٍ

جَعَلْتَهَا مِنْكَ

آخِرَ الأَبَدِ

تَخَلَّفُ أَلَا

تَبَرَّنِي أبدأً

فإنَّ فيها بَرْدًا

على كَبِدِي

إن كان رزقي

إليك فارم به

في ناظِرِي حَيَّةٍ

على رَصَدِ

وقال أبو السَّفَّاح يرثي أخاه يحيى بن عميرة ويسمّيه

بالشجاع:

يَعْدُو فِلا
تَكْذِبُ
شِدَاتُهُ

كَمَا عدا اللَّيْثُ
بِوادي السَّبَّاعِ

يَجْمَعُ عَزْمًا
وَأَنَاةً مَعًا

ثَمَّتَ يَنْبَاعُ أَنْبِياعِ
الشَّجَاعِ

وقال المتلمس:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ
الشَّجَاعِ وَلَوْ
يَرَى

مَسَاغًا لِنَائِيهِ
الشَّجَاعِ
لَصَمَّمَا

وقال معمر بن لقيط أو ابن ذي القروح:

شَمُوسٌ يَظِلُّ
القَوْمَ مَعْتَصِمًا
بِهِ

وَإِنْ كَانَ ذَا
حَزْمٍ مِنَ الْقَوْمِ
عَادِيًا

أَبِيْتِ كَمَا بَاتِ
الشَّجَاعِ إِلَى

وَأَعْدُو عَلَى
هَمِّي وَإِنْ بَتُّ

الذرى

طاويا

وإني أهضُّ
الضيم مني
بصارم

رهيفٍ وشيخٍ
ماجدٍ قد بنى
ليا

وهكذا صفة الأفعى؛ لأنها أبداً نابتةً مستوية، فإن أنكرتُ
شيئاً فنشطتها كالبرق الخاطف، ووصف آخر أفعى،
فقال:

وقد أراني
بطويي الحس

وذات قرنين
طحون الضرس

نضاضة مثل
انتاء المرس

تدير عيناً
كشهاب القبس

لما التقينا
بمضيق
شكس

حتى قنصتُ
قرنها بخمس

وهم يتهاجون بأكل الأفاعي والحيات، قال الشاعر:

فإياكم والرِّيفَ
لا تَقْرُبَنَّه

فإن لديه الموتَ
والحتمَ قاضيا

همُ طردوكم
عن بلادِ أبيكمُ

وأنتم حُلولُ
تشتون الأفاعيا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ولمَّا فَقدْتُ

مصابيحُ شَبَّتْ

الصَّوتَ منهم

بالعِشاءِ

وأُطفِئْتُ

وأنورُ

وغابَ قَميرٌ كنتُ

ورَّوحَ رُعيانُ

أرجو مَعِيبَه

وهوَمَ سُمَرُ

ونفَضت عَنِّي

حُبَابِ ورُكني

اللَّيْلَ أَقبِلْتُ

خِيفَةَ القومِ

مِشِيَةَ الـ

أزورُ

ضرب المثل بسم الأسود

وضربَ كلثومُ بن عمرو، المثلَ بسمِ الأسود، فقال:

طوى الدَّهْرُ
عنها كلَّ طَرْفٍ
وتالدِ

مقلّدةً
أجياؤها
بالقلائدِ

من الملكِ أو
ما نال يحيى
بنُ خالدِ

مَعْضَّهَما
بالمَرْهَفَاتِ
البَوَارِدِ

ولم اتَّقَحَّ هَوْلَ
تلكِ المَوَارِدِ

بمستودعاتِ
في بطونِ

تلوم على تَرَكَ
الغنى باهليّة

رأت حولها
النَّسْوَانِ يرفُئْنَ
في الكُسا

يسرُّكِ أنِّي نلتُ
ما نالَ جعفرُ

وَأَنَّ أميرَ
المؤمنينِ
أَعْضَنِي

ذريني تجنني
ميتتي مُطمِنَّةً

فإن كريماتِ
المعالي

مَشْوَبَةٌ

الأساودِ

حيات الجبل

وفي التشنيع لحيات الجبل، يقول اللعين المنقري، لرؤية
بن العجاج:

يا رُوبَ والحياة
الصَّماءِ في
الجَبَلِ

إني أنا ابن جلا
إن كنت
تعرفني

وفي الأراجيز
جَبُّ اللومِ
والكسَلِ

أبا الأراجيزِ يا
ابنَ اللومِ
تُعدني

خبران في الحيات

الأصمعي، قال: حدّثني ابن أبي طرفة، قال: مرّ قومٌ
حُجاجٌ من أهل اليمن مع المساء، برجلٍ من هُذيل، يقال
له أبو خِراش، فسألوه القرى، فقال لهم: هذه قدرٌ، وهذه
مِسْقَاءٌ، وبذلك الشَّعب ماء فقالوا: ما وفيتنا حقَّ قِرانا
فأخذ القرية فتقلدّها يسقيهم، فنهشته حية.

قال أبو إسحاق: بلغني وأنا حدث، أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اخْتِنَاتِ فَمِ الْقَرْبَةِ، والشربِ منه، قال: فكنت أقولُ إنَّ لهذا الحديثِ لَشَأْنًا، وما في الشربِ من فَمِ قَرْبَةٍ حَتَّى يَجِيءَ فِيهَا هَذَا النِّهْيُ؟ حَتَّى قِيلَ: إِنَّ رَجُلًا شَرِبَ مِنْ فَمِ قَرْبَةٍ، فَوَكَعَتْهُ حَيَّةٌ فَمَاتَ، وَإِنَّ الْحَيَّاتِ تَدْخُلُ فِي أَفْوَاهِ الْقَرَبِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا أَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ مِنَ الْحَدِيثِ، أَنَّ لَهُ مَذْهَبًا وَإِنْ جَهَلْتُهُ.

شعر في سلخ الحية

وقال الشاعرُ في سلخِ الحيةِ:

وَعَادَ كَالْمَيْسَمِ
أَحْمَاهُ الْقَيْنُ

حَتَّى إِذَا تَابَعَ
بَيْنَ سَلْخَيْنِ

بِسْمِهِ الرَّأْسِ
وَنَهَشِ الرَّجْلَيْنِ

أَقْبَلَ وَهُوَ
وَاثِقٌ
بِثَنَّتَيْنِ:

قال: كأنه ذهب إلى أن سمّه لا يكون قاتلاً مُجهزاً حتى تأتي عليه سنتان.

وزعم بعضهم أن السلخَ للحية مثلُ البرزولِ والقروحِ

للخف والحافر، قال: وليس ينسلخ إلا بعد سنين كثيرة،
ولم يقفوا من السنين على حدّ.
قول في سلخ الحية وزعم بعضهم أنّ الحية تسلخ في كلّ
عام مرّتين، والسلخ في الحيات كالتّحسير من الطير،
وأنّ الطير لا تجتمع قويّة إلا بعد التحسير وتماّم نبات
الرّيش، وكذلك الحية، تضعف في أيام السّلخ ثمّ تشتدّ
بعد.

تأويل رؤيا الحية

قال الأصمعيّ: أخبرني أبو رفاعة، شيخ من أهل البادية،
قال: رأيتُ في المنام كاني أتخطّي حيات، فمطرت
السماء، فجعلت أتخطّي سيولاً.
وحكى الأصمعيّ أنّ رجلاً رأى في المنام في بيوته
حياتٍ، فسأل عن ذلك ابن سيرين أو غيره، فقال: هذا
رجلٌ يدخل منزله أعداء المسلمين، وكانت الخوارجُ
تجتمع في بيته.
شعر للعرجي والشماخ في الحيات قال العرجي، في ديبب
السّم في المنهوش:

كَمْشِي حُمَيَّا
الكَاسِ فِي جِدِّ
شَارِبِ

كَمَا دَبَّ فِي
الْمَلْسُوعِ سَمُّ
الْعَقَارِبِ

وَأَشْرَبَ جِدِّي
حُبَّهَا وَمَشَى
بِهِ

يَدِبُّ هَوَاهَا فِي
عِظَامِي
وَحِبَّهَا

وقال العرجيُّ في العرماءِ من الأفاعي، وكونها في
صُدُوعِ الصَّخْرِ، فقال:

بِهَا حَافِظُ هَادٍ
وَلَمْ أَرْقِ سَلْمًا

إِذَا الرِّيحُ هَبَتْ
مِنْ مَكَانٍ
تَضَرَّمَا

حِمَاهُ مَحَامَاةٌ
مِنَ النَّاسِ

تَأْتِي بَلِيلِ دُو
سَعَاةٍ فَسَلَّهَا

كَمِثْلِ شِهَابِ
النَّارِ فِي كَفِّ
قَابِسِ

أَبْرَ عَلَى الحَوَاءِ
حَتَّى تَنَادَرُوا

فاحتَمَى

يَظَلُّ مُشِيحًا
سَامِعًا نَمَّ
إِنهَا
إِذَا بُعِثَتْ لَمْ تَأَلُ
إِلَّا تَقَدُّمًا

قال: ويقال: تطوّت الحَيَّة، وأنشد العرجيُّ:

ذَكَرْتَنِي إِذْ حَيَّةٌ
قَدْ تَطَوَّتْ
فَرَقَا عِنْدَ عَرْسِهِ
فِي الثِّيَابِ

وقال الشَّمَاخ، أو البَعِيث:

وَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ
الشَّجَاعِ وَقَدْ
جَرَى
عَلَى حَدِّ نَابِيهِ
الدُّعَافُ
المَسْمَمُ

ما ينبج من الحيوان والأجناس التي تُذَكَّرُ بالنَّبَاح: الكلب،
والحَيَّة، والظَّبْيُ إذا أَسَنَّ، والهُدْهُدُ، وقد كتبنا ذلك مرة
ثمَّ، قال أبو النِّجَم:

والأسد قد
تَسْمَعُ مِنْ
زئيرها

وباتت الأفعى
على مَحْفُورِها

تأسيرُها يَحْتَكُّ
في تأسيرها

مرَّ الرَّحَى
تجري على
شعيرها

كَرَعَدَةَ الْجِرَاءِ
أو هديرها

تَضْرَمُ الْقَصَبَاءُ
في تَنُّورِها

توقر النَّفْسِ
على توقيرها

تَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ فِي
تنقيرها

في عاجل
النَّفْسِ وفي
تأخيرها

قول في آية وسنذكر مسألة وجوابها، وذلك أَنَّ ناساً
زعموا أَنَّ جميع الحيوان على أربعة أقسام، شيء يطير،
وشيء يمشي، وشيء يعوم، وشيء ينساح.

وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ،
فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى
رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ".

وقد وَضَعَ الكلامَ على قسمة أجناس الحيوان، وعلى
تصنيف ضروب الخلق، ثمَّ قَصَرَ عن الشيء الذي وضع
عليه كلامه، فلم يذكر ما يطير وما يعوم، ثمَّ جعل ما
ينساح، مثلُ الحياتِ والديدان، ممَّا يمشي؛ والمشي لا
يكون إلاَّ برجل، كما أنَّ العَضَّ لا يكون إلاَّ بفم، والرَّمْحُ لا
يكون إلاَّ بحافر؛ وذكر ما يمشي على أربع، وها هنا
دوابُّ كثيرةٌ تمشي على ثمانِ قوائمٍ، وعلى ستٍّ، وعلى
أكثرَ من ثمانٍ، ومن تفقَّدَ قوائمَ السَّرطانِ وبناتِ وَرْدانٍ،
وأصنافَ العناكبِ عَرَفَ ذلك.

قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التَّأويلِ وَحَدِّهِ، فما الدَّلِيلُ
على أنَّه وضع كلامه في استقصاءِ أصنافِ القوائمِ؟
وبأيِّ حُجةٍ جَرَمْتُمْ على ذلك؟ وقد قال الله عزَّ وجلَّ:
"وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" وتَرَكَ ذِكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارِ
لَهُمْ آكَلٌ، وعذابهم بها أشدُّ، فَتَرَكَ ذِكْرَهُمْ من غير
نسيان، وعلى أنَّ ذلك معلومٌ عند المخاطب، وقد قال الله

عَزَّ وَجَلَّ: " خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَاجاً " أخرج من هذا العموم عيسى ابن مريم، وقد
قصد في مخرج هذا الكلام إلى جميع ولد آدم، وقال: " هَلْ
أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً "
أَدْخَلَ فِيهَا آدَمَ وَحَوَّاءَ، ثُمَّ قَالَ عَلَى صِلَةِ الْكَلَامِ: " إِنَّا
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ " أخرج منها آدم
وحوَاءَ وعيسى ابن مريم.

وَحَسُنُ ذَلِكَ إِذْ كَانَ الْكَلَامُ لَمْ يُوضَعِ عَلَى جَمِيعِ مَا تَعْرِفُهُ
النُّفُوسُ مِنْ جِهَةِ اسْتِقْصَاءِ اللَّفْظِ، فَقَوْلُهُ: " فَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ " كَانَ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ الَّذِي ذَكَرْنَا،
وَعَلَى أَنْ كُلَّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ فَهُوَ مِمَّا يَمْشِي عَلَى
رِجْلَيْنِ، وَالَّذِي يَمْشِي عَلَى ثَمَانٍ هُوَ مِمَّا يَمْشِي عَلَى
أَرْبَعٍ، وَعَلَى رِجْلَيْنِ وَإِذَا قُلْتَ: لِي عَلَى فُلَانٍ عَشْرَةَ آلَافٍ
دِرْهَمٍ، فَقَدْ خَبَّرْتَ أَنَّ لَكَ عَلَيْهِ مَا بَيْنَ دِرْهَمٍ إِلَى عَشْرَةِ
آلَافٍ.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْمَشِيَّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَرْجْلِ، فَيَنْبَغِي أَيْضاً
أَنْ تَقُولُوا " فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " إِنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ؛ لِأَنَّ
السَّعْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَرْجْلِ.

وفي هذا الذي جهلتموه ضروباً من الجواب: أما وجهه
منه: فهو قولُ القائلِ وقولُ الشَّاعرِ: ما هُوَ إِلَّا كَأَنَّهُ حَيَّةٌ
وكانَّ مِشِيته مِشِيَّةَ حَيَّةٍ يَصِفُونَ ذلكَ، ويذكرونَ عِنْدَهُ
مِشِيَّةَ الأَيمِ والحُبَّابِ، وذكورِ الحَيَّاتِ، وَمَنْ جَعَلَ لِلحَيَّاتِ
مِشِيَّةً مِنَ الشَّعْرَاءِ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهِمُ، وَلَوْ كَانُوا لَا
يَسْمُونَ انْسِيَابَهَا وانْسِيَاحَهَا مِشِيَّةً وَسَعِيَّةً، لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا
يَجُوزُ عَلَى التَّشْبِيهِ والبَدَلِ، وَأَنْ قَامَ الشَّيْءُ مَقَامَ الشَّيْءِ
أَوْ مَقَامَ صاحِبِهِ؛ فَمِنْ عَادَةِ العَرَبِ أَنْ تَشَبَّهُ بِهِ فِي حَالَاتِ
كثيرةٍ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: "هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ" والعَذَابِ
لَا يَكُونُ نَزْلاً، وَلَكِنَّهُ أَجْرَاهُ مُجْرَى كَلَامِهِمُ، كَقَوْلِ حَاتِمِ
حِينَ أَمْرُوهُ بِفِصْدِ بَعِيرٍ، وَطَعَنَهُ فِي سَنَامِهِ، وَقَالَ: هَذَا
فِصْدُهُ.

وقال الآخر:

فكان تمرى
كَهَرَّةً وَزَبْرًا

فقلتُ يا عمرو
اطعمني تمرًا

وذمَّ بعضهم الفأرَ، وَذَكَرَ سَوْءَ أَثْرِهَا فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ:

يا عَجَلَ الرَّحْمَنُ
بالعقاب

لِعَامراتِ البَيْتِ
بالخراب

يقول: هذا هو عمارتها، كما يقول الرَّجُلُ، ما نَرَى مِنْ
خَيْرِكَ وَرَفْدِكَ إِلَّا ما يَبْلُغُنَا مِنْ حَطْبِكَ عَلَيْنَا، وَفَتَّكَ فِي
أَعْضادِنَا.

وقال النَّابِغَةُ فِي شَبِيهِ بِهَذَا، وَلَيْسَ بِهِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ
غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ

بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ
قِرَاعِ الكُتَابِ

ووجهٌ آخَرُ: أَنَّ الأعرابَ تَزْعُمُ - وَكَذَلِكَ قالَ ناسٌ مِنْ
الحوَّائِنِ والرَّقائِنِ - إِنَّ للحَيَّةَ حَزُوزاً فِي بطنِها، فَإِذا
مَشَى قامَت حُزُوزُها، وَإِذا تَرَكَ المَشى تَراجَعَت إلى
مكانِها، وَعادَت تلكَ المَواضِعَ مُلْساً، وَلم تُوجَد بِعَينٍ وَلَا
لَمَسٍ، وَلَا يَبْلُغُها إِلَّا كُلُّ حَوَّاءٍ دَقِيقِ الحِصِّ. وَلَيْسَ ذلكَ
بأعجَبَ مِنْ شِقْشِقَةِ الجَمَلِ العَرَبِيِّ؛ فَإِنَّه يَظْهَرُها كالدَّلْوِ،
فإِذا هُوَ أَعادها إلى لَهاتِهِ تَراجَعَ ذلكَ الجِلْدُ إلى مَوضِعِها،
فلا يَقدِرُ أَحَدٌ عَلَيهِ بِلَمَسٍ وَلَا عَينٍ، وَكَذلكَ عروقُ الكُلَى
إلى المِثانَةِ التي يَجْري فِيها الحِصَى المَتولَّةُ فِي الكُلَى إِذا

قَدَفَتْهُ تِلْكَ الْعُرُوقُ إِلَى الْمِثَانَةِ، فَإِذَا بَالِ الْإِنْسَانِ انْضَمَّتِ
الْعُرُوقُ وَاتَّصَلَتْ بِأَمَاكِنِهَا، وَالتَّحَمَّتْ حَتَّى كَانَ مَوْضِعُهَا
كَسَائِرِ مَا جَاوَزَ تِلْكَ الْأَمَاكِنَ.

ووجهٌ آخر: وهو أنَّ هذا الكلامَ عربيٌّ فصيحٌ؛ إذ كانَ
الذي جاءَ به عربيًّا فصيحاً، ولو لم يكنْ قرآناً من عند
الله تبارك وتعالى، ثمَّ كانَ كلامَ الذي جاءَ به، وكان ممَّن
يجهل اللُّحْنَ ولا يعرفُ مواضعَ الأسماءِ في لغته، لكانَ
هذا - خاصَّةً - ممَّا لا يجهُلُه.

فلو أنَّنا لم نجعلْ لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فضيلةً في
نُبُوَّةٍ، ولا مزيَّةً في البيانِ والفصاحةِ، لكنَّا لا نجدُ بدءاً من
أن نعلمَ أنَّه كواحدٍ من الفصحاءِ، فهل يجوزُ عندكم أن
يخطئَ أحدٌ منهم في مثلِ هذا في حديثٍ، أو وصفٍ أو
خُطبةٍ، أو رسالةٍ، فيزعمَ أن كذا وكذا يمشي أو يسعى أو
يطير، وذلك الذي قال ليس من لغته ولا من لغةِ أهله؟
فمعلومٌ عندَ هذا الجوابِ، وعند ما قبله، أنَّ تأويلكم هذا
خطأ.

وقال الله عزَّ وجلَّ: "إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَاكِهِونَ" وأصحابُ الجنَّةِ لا يوصفون بالشُّغْلِ، وإنما ذلك
جوابٌ لقول القائل: خبرني عن أهل الجنَّةِ، بأيِّ شيءٍ

يتشاغلون؟ أم لهم فراغٌ أبداً؟ فيقول المجيب: لا، ما
شُغِّلهم إلا في افتضاض الأبقار، وأكلِ فواكه الجنة،
وزيارة الإخوانِ على نجائب الياقوت .
وهذا على مثالِ جوابِ عامر بنِ عبد قيس، حين قيل له
وقد أقبل من جهة الحلبه، وهو بالشام: مَنْ سَبَقَ؟ قال:
رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل: فَمَنْ صَلَّى؟ قال:
أبو بكر قال: إِنَّمَا أسألك عن الخيل قال: وأنا أجيبك عن
الخير.

وهو كقول المفسر حين سُئل عن قوله: "لَهُمْ رِزْقُهُمْ
فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" فقال: ليس فيها بُكْرَةٌ وَعَشِيٌّ، وقد
صَدَقَ القرآن، وصدَّقَ المفسر، ولم يتناكرا، ولم يتنافيا؛
لأنَّ القرآن ذهب إلى المقادير، والمفسر ذهب إلى
الموجود، من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها.
وعلى ذلك المعنى رُوِيَ عن عمر أنه قال: مُتَعَتَانِ كَانَتَا
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا أنهي
عنهما وأضربُ عليهما.

قد كان المسلمون يتكلمون في الصَّلَاةِ وَيَطْبِقُونَ إِذَا
رَكَعُوا، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ إِمَامٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَضَرَبَ عَلَيْهِ، بَعْدَ
أَنْ أَظْهَرَ النَّسْخَ، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْسُوخِ، فَكَأَنَّ

قائلاً قال: أتنهانا عن شيءٍ، وقد كان على عهد النبيّ
صلى الله عليه وسلم، فيقول: نعم، وقد قدّم الاحتجاج في
النّاسخ والمنسوخ.

ومن العَجَب أنّ ناساً جعلوا هذا القولَ على المنبرِ من
عيوبه، فإن لم يكن المعنى فيه على ما وصفنا، فما في
الأرضِ أَجهلُ من عُمَرَ حين يُظهِرُ الكُفْرَ في الإسلامِ على
منبر الجماعة، وهو إنّما علاه بالإسلام، ثمّ في شيءٍ
ليس له حُجَّةٌ فيه ولا عِلَّةٌ، وأعجبُ منه تلك الأُمَّة، وتلك
الجماعة التي لم تُنكِرْ تلك الكلمةَ في حياته، ولا بعدَ
موته؛ ثمّ تَرَكَ ذلك جميعُ التّابعين وأتباعِ التّابعين، حتّى
أفضى الأمرُ إلى أهلِ دهرنا هذا.

وتلك الجماعة هم الذين قتلوا عثمانَ على أن سيّر رجلاً،
وهذا لا يقوله إلا جاهلٌ أو معاند، وعلى تأويل قوله:
"هَذَا نُزِلَ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ" قال: "جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبُئْسَ
المَهَادُ" وقال تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ
كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ" فجعل للنارِ خزائن، وجعل
لها خزنة، كما جعل في الجنّةِ خزائن وجعل لها خزنة.

ولو أنّ جهنّم فُتحتْ أبوابها، ونُحي عنها الخَزَنَة، ثمّ قيل لكلِّ لَصٍّ في الأرض، ولكلِّ خائن في الأرض: دونك؛ فقد أُبيحتْ لكلّما دنا منها، وقد جُعِل لها خزائنٌ وخَزَنَة، وإنّما هذا على مثال ما ذكرنا، وهذا كثيرٌ في كلام العرب. والآي التي ذكرنا في صدق هذا الجواب، كلها حُججٌ على الخوارج في إنكارهم المنزلة بين المنزلتين. شعر لخلف الأحمر في الحيات وقال خَلْفَ الأحمر في ذكر الحيات:

يرون الموت	وصلّ صفاً
دونى أن	لنابيه ذباب
رأوني	
من المتحرمات	حرام ما يرام
بكهف طودٍ	له جناب
أبى الحاوون	ولا تسرى
أن يطنوا حماه	بعقوته الذئاب
كان دماً أمير	وقطراناً أمير

على قراه
إذا ما استجرس
الأصوات أبدى
به كباب
لساناً دونه
الموت الضباب
سرى أصمى
تصيح له
الشعاب
إذا ما الليل
ألبسته دحاه

فقلت لحيان بن عتبي: لم قال موسى بن جابر الحنفي:

طرد الأروى
فما تقرُّبه
ونفى الحيات عن
بيض الحجله

قال: لأنَّ الدَّباب تَأْكُلُ الحَيَّات، قلت: فلم قال خلف الأحمر:

ولا تسري بعقوته الدباب

قال: لأنَّ الدَّباب تَأْكُلُ الحَيَّات، فَظَنَنْت أَنَّهُ حَدَسَ ولم يَقُلْ
بعلم.

وقال الزَّيَادِيُّ في يحيى بن أبي حفصة:

إني ويحيى وما
يبغي كملتَمِسِ

أهوى إلى باب
جُحْرٍ في
مقدّمه

اللّونُ أربدُ
والأنيابُ
شابكةٌ

يهوي إلى
الصّوتِ
والظلماءُ عاكفةٌ

لو نالَ كَفَكَ آبَتِ
منه مخضبةٌ

بيعتُ بوَكْسِ
قليلِ فاستقلّ

صَيْدًا وما نال
منه الرّيّ
والشّبعَا

مِثْلُ العَسِيبِ
تَرَى في رأسه
قَزَعَا

عُصْلُ تَرَى
السّمَّ يجري
بينها قِطْعَا

تَعْرَدُ السَّيْلِ
لاقي الحَيْدِ
فاطْلَعَا

بَيْضَاءُ قد جللت
أنيابها قزعا

من الهُزَالِ
أبوها بعد ما

بها

ركعا

فردّ عليه يحيى فقال:

كم حيّة ترهبُ
الحيّاتُ
صوّلتَهُ

يَحْمَى لِرَيْدِيهِ قَدْ
غَادَرْتُهُ قِطْعَا

يَلْقَيْنَ حَيَّةَ
قَفًّا ذَا
مُسَاوَرَةٍ

يُسْقَى بِهِ الْقِرْنُ
مِنْ كَأْسِ الرَّدَى
جُرْعَا

تَكَادُ تَسْقُطُ
مِنْهُنَّ
الْجُلُودُ لِمَا

يَعْلَمَنَّ مِنْهُ إِذَا
عَايَنَهُ قَزَعَا

أَصَمَّ مَا شَمَّ
مِنْ خَضْرَاءَ
أَيْبِسَهَا

أَوْ مَسَّ مِنْ حَجَرٍ
أَوْهَاهُ فَأَنْصَدَعَا

شعر في الحيات وقال آخر:

للسفر في
أعلى الثنيات

يفتر عن
عصلي
حديدات

سار طمور
في الدجنات

من الدواهي
الجبليات

سام ذيفان
مجيرات

رأس وأشداق
رحيبات

إلى سماخين
ولهوات

وكم طوت من
حنشٍ راصدٍ

أصم أعمى لا
يجيب الرقى

منهت الشدق
رقود الضحى

ذي هامة رقطاع
مفطوحة

صل صفاً تنطف
أنيابه

مظن في اللحين
مظلاً إلى

قدم عن
ضرسين

واستأخرا

يسبته الصبح
وطوراً له

نفخ ونفت في
المغارات

من طول
إطراق
وإخبات

وتارةً تحسبه
ميتاً

قال آخر، وهو جاهليٌّ:

وخانني في علمه وقد علم
لميمةً من حنشٍ أعمى أصم
قد عاش حتى هو لا يمشي بدم
حتى إذا أمسى أبو عمرو ولم
قام وود بعدها أن لم يقم
ولا لخوفٍ راعه ولا لهم
فخاضه بين الشرك والقدم

لاهم إن كان
فابعث له في
أسمر زحافاً
فكلما أقصد
يمس منه م
ولم يقم لإب
حتى دنا من

بمذرب

كأن وخز نابه إذا انتظم

أخرجه من جوف كم

ومخالب الأسد وأشباه الأسد من السباع، تكون في عُلفٍ،
إذا وطئت على بطون أكفها ترفعت المخالب ودخلت في
أكمام لها، وهو قول أبي زبيد:

يقيها قِضَّة
الأرض الدَّخِيسُ

بجُجْنٍ
كالمحاجن في
فتوخ

وكذلك أنياب الأفاعي، هي ما لم تعضَّ فمِصُونَةٌ في
أكمام، ألا تراه يقول:

بمذربٍ أخرجهُ
من جوفِ كمٍ

فخاضهُ بينَ
الشِّراكِ والقَدَمِ

رجز وشعر في لعاب الحية وقال آخر:

مولده كمولِدِ
ابن الدَّهْرِ

أنعتَ نضناضاً
كثيرَ الصَّفْرِ

يَظِلُّ فِي مَرَأَى
بَعِيدِ الْقَعْرِ

كَانَا جَمِيعاً وُلْدَا
فِي شَهْرٍ

بَيْنَ حَوَافِي
سَدْرِ وَصَخْرِ

وقال:

عِنَاداً لِنَابِي
حَيَّةٌ قَدْ تَرَبَّدَا

وَكَيْفَ وَقَدْ
أَسْهَرْتَ عَيْنَكَ
تَبْتَغِي

وَمَا عَادَ إِلَّا كَانَ
فِي الْعَوْدِ أَحْمَدَا

مِنَ الصَّمِّ يَكْفِي
مَرَّةً مِنْ لُعَابِهِ

شعر لخلف في الأفعى وقال خلف الأحمر وهي مخلوطة
فيها شيء، وله شيء، من الغبرة وما علمت أن وصف
عين الأفعى على معرفة واختبار غيره وهو قوله:

داهية قد
صغرت من

أفعى رُخُوف
العين مِطْرَاق

البُكَرُ

صِلَّ صَفَاً مَا

يَنْطَوِي مِنْ

الْقِصْرِ طَوِيلَةً

الكِبْرُ

الإِطْرَاقِ مِنْ

غَيْرِ حَسْرٍ

شُقَّتْ لَهُ

العَيْنَانِ طُولاً

فِي شَتْرِ

كَأَنَّمَا قَدْ ذَهَبَتْ

بِهِ الْفِكْرُ

جَاءَ بِهَا

الطُّوفَانُ

أَيَّامَ زَخْرٍ

مَهْرُوتَةَ الشَّدَقِينَ

حَوْلَاءِ النَّظْرِ

نِشْيَشُ جَمْرٍ

عِنْدَ طَاهٍ

مُقْتَدِرٍ

كَأَنَّ صَوْتَ

جَلْدِهَا إِذَا

اسْتَدْرَّ

أَحَادِيثُ فِي الْوَزْعِ هِشَامِ بْنِ عَرُوةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقْتُلُ الْأَوْزَاعَ، يَحْيَى بْنُ أَبِي أُبَيْسَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَرُوةَ، عَنِ

عائشة قالت: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ: "فويسق".
قالت: "ولم أسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرَ بقتله".

قال: قالت عائشة رضي الله عنها: "سمعت سعداً" يقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله.
عبد الرحمن بن زياد قال: أخبرني هشام عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ: "الفويسق" أبو بكر الهذلي، عن معاذ عن عائشة قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ وفي يدي عَكَازٌ فيه رُجٌّ، فقال: يا عائشة ما تصنعين بهذا؟ قلت: أقتلُ به الوزغَ في بيتي، قال: إن تفعلين فإن الدوابَّ كلها، حين ألقى إبراهيم صلى الله عليه وسلم في النار، كانت تُطفئُ عنه، وإن هذا كان ينفخُ عليه، فصمَّ وبرص.
وهذه الأحاديثُ كلها يحتجُّ بها أصحابُ الجهالات، ومَن زعمَ أن الأشياءَ كلها كانت ناطقةً، وأنها أممٌ مجراها مجرى الناس.

تأول آيات من الكتاب وتأولوا قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا

فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ" ، وقالوا: قال الله عز وجل:
"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا" وقال تعالى: "يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ"
وقال: "وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ".

فذهبت الجهمية ومن أنكر إيجاد الطبائع مذهباً، وذهب
ابن حابطٍ ومن لفَّ لفَّه من أصحاب الجهالات مذهباً،
وذهب ناسٌ من غير المتكلمين، واتبعوا ظاهر الحديث
وظاهر الأشعار، وزعموا أنَّ الحجارَةَ كانت تعقلُ وتَنطقُ،
وإنما سُلِبَت المنطقُ فقط، فأما الطير والسباع فعلى ما
كانت عليه.

قالوا: والوَطواطُ، والصُّرْدُ، والضفدعُ، مطيعاتٌ ومُثابِتاتٌ
والعقربُ، والحَيَّةُ والحِدَاةُ، والغرابُ، والوَزَعُ، والكلبُ، و
أشباهُ ذلك، عاصياتٌ معاقباتُ.

ولم أقف على واحدٍ منهم فأقول له: إنَّ الوَزَعَةَ التي
تقتلها على أنَّها كانت تُضرمُ النَّارَ على إبراهيمِ أهي هذه
أم هي من أولادها فمأخوذة هي بدنب غيرها؟ أم تزعم

أَنَّهُ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّ تَكُونَ تِلْكَ الْوَزْعُ لَا تَلْدُ وَلَا تَبْيِضُ وَلَا
تُفْرُخُ إِلَّا مِنْ ثَيِّدِينَ بَدِينِهَا، وَيَذْهَبُ مَذْهَبُهَا؟ وَلَيْسَ
هُوَ لَأَمْ مِمَّنْ يَفْهَمُ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ، وَأَيَّ ضَرْبٍ مِنْهَا،
يَكُونُ مَرْدُوداً، وَأَيَّ ضَرْبٍ مِنْهَا يَكُونُ مَتَأَوِّلاً، وَأَيَّ ضَرْبٍ
مِنْهَا يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ حِكَايَةٌ عَنْ بَعْضِ الْقِبَائِلِ.
وَلِذَلِكَ أَقُولُ: لَوْلَا مَكَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ لَهَلَكْتَ الْعَوَامُّ،
وَاخْتِطَفَتْ وَاسْتَرْقَتْ، وَلَوْلَا الْمَعْتَزِلَةُ لَهَلَكَ الْمُتَكَلِّمُونَ.
أَحَادِيثٌ فِي قَتْلِ الْوَزْعِ شَرِيكَ عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ
نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عَمَرَ كَانَ يَقْتُلُ الْوَزْعَ فِي بَيْتِهِ وَيَقُولُ هُوَ
شَيْطَانٌ.

هَشَامُ بْنُ حَسَّانٍ، عَنْ خَالِدِ الرَّبْعِيِّ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ
مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ إِلَّا كَانَ يُطْفِئُ النَّارَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، إِلَّا
الْوَزْعَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَيْهِ.

حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ
يَقُولُ إِنَّ الْأَوَازِعَ كَانَتْ يَوْمَ حَرْقِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَنْفُخُهُ
وَالْوَطَاوِطَ بِأَجْنِحَتِهَا.

شَرِيكَ عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:
الْوَزْعُ شَرِيكَ الشَّيْطَانِ.

أَبُو دَاوُدَ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو هَاشِمٍ، قَالَ: مَنْ قَتَلَ

وزغة حطَّ الله عنه سبعين خَطيئةً، ومن قتل سبعاً كان
كَعْتَقِ رَقَبَةٍ.

هشامُ بن حسان، عن واصل مولى أبي عيينة، عن
عقيل، عن يحيى بن يعمر، قال: لَأَنْ أَقْتَلَ مائَةً مِنَ الْوَزْغِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ مائَةً رَقَبَةٍ.
وهذا الحديث ليس من شكل الأول، لأنَّ يحيى بن يعمر لم
يزعم أنَّه يقتله لكفره أو لكفر أبيه، ولكنها دابةٌ تُطاعمُ
الحياتِ وتُراقُّها وتقاربُها، وربَّما قتلتُ بعَضَّتِها، وتكرَع
في المرقِ واللبنِ ثُمَّ تمجُّه في الإناء فينالُ النَّاسَ بذلك
مكروهٌ كبيرٌ، من حيث لا يعلمون، وقتلُه في سبيلِ قتلِ
الحياتِ والعقاربِ.

صنع السم من الأوزاغ وأهل السَّجَنِ يعملون منها
سموماً أنفذَ من سمِّ البَيْشِ، ومن ريق الأفاعي، وذلك
أنَّهم يُدخلون الوزغَ قارورةً، ثُمَّ يصبُّون فيها من الزيتِ
ما يغمُرُها، ويضعونها في الشَّمْسِ أربعين يوماً، حتَّى
تختلطُ بالزَّيتِ وتصيرَ شيئاً واحداً، فإنَّ مسحَ السَّجِّينِ
منه على رغيْفٍ مَسْحَةً يسيرةً فأكلَ منه عشرةٌ أنفسٍ
ماتوا، ولا أدري لِمَ تَوَخَّوا من مواضع الدَّفْنِ عَتَبَ
الأبوابِ.

حديث فيه نصائح يحيى بن أبي أنيسة، عن أبي الزبير،
عن جابر بن عبد الله، قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعٍ وَنَهَانَا عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَنَا أَنْ نُجِيفَ
أَبْوَابَنَا، وَأَنْ نَحْمَرَ آبِيتَنَا، وَأَنْ نُوَكِّيَ أَسْقِيَتَنَا، وَأَنْ نُطْفِئَ
سُرُجَنَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا وَجَدَ بَاباً مُجَافاً لَمْ يَفْتَحْهُ، وَإِنَاءً
مَحْمَراً لَمْ يَكْشِفْهُ، وَسِقَاءً مُوَكَّى لَمْ يَحِلَّهُ، وَإِنَّ الْفُؤَيْسِقَةَ
تَأْتِي الْمَصْبَاحَ فَتُضْرِمُهُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ، وَنَهَانَا عَنْ
أَرْبَعٍ: نَهَانَا عَنْ اشْتِمَالِ الصَّمَاءِ، وَأَنْ يَمْشِيَ أَحَدُنَا فِي
النَّعْلِ الْوَاحِدَةِ أَوْ الْخُفِّ الْوَاحِدِ، وَأَنْ يَخْتَبِيَ الرَّجُلُ مِنَّا فِي
الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَأَنْ يَسْتَلْقِيَ أَحَدُنَا عَلَى
ظَهْرِهِ وَيَرْفَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى.
وهذا الحديث ليس هذا موضعه، وهو يقع في باب جملة
القول في النار، وهو يقع بعد هذا الذي يلي القول في
النعام.

ما جاء في الحيات من الحديث

شعبة أبو بسطام، قال أخبرني أبو قيس، قال: جلست إلى
علقمة بن قيس، وربيع بن خثيم فقال ربيع: قولوا
وافعلوا خيراً تجزوا خيراً، وقال علقمة: مَنْ اسْتَطَاعَ

مِنْكُمْ أَلَّا يَرَى الْحَيَّةَ، إِلَّا قَتَلَهَا إِلَّا الَّتِي مِثْلَ الْمِيلِ؛ فَإِنَّهَا
جَانٌّ، وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ قَتْلُ حَيَّةٍ أَوْ كَافِرٍ.

إِسْمَاعِيلُ الْمَكِّيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: قَالَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَقَتَلَ كَافِرًا.

ثُمَّ سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ
عَقْرَبًا قَتَلَ كَافِرًا. وَهَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَصْحَابُ ابْنِ حَائِطٍ،
وَتَأْوِيلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ.

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ الْقَاسِمَ
بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ
عَقْرَبًا فَكَأَنَّمَا قَتَلَ كَافِرًا، فَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ تَأْلِيفُ
الْحَدِيثِ.

سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا سَأَلْنَا هُنَّ مُدَّ حَارِبِنَاهُنَّ".

سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: "مَنْ تَرَكَ
قَتَلَ حَيَّةً مَخَافَةَ أَثَارِهَا فَعَلِيهِ لِرِغْنَةِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ".

الرَّبِيعُ بْنُ صَبِيحٍ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَاسَانِيِّ قَالَ: كَانَ فِيمَا
أُخِذَ عَلَى الْحَيَّاتِ أَلَّا يَظْهَرْنَ، فَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُنَّ حَلَّ قَتْلُهُ،
وَقِتَالُهُنَّ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَتْرُكُ قَتْلَهُنَّ إِلَّا شَاكًّا.

وَهَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ أَصْحَابُ ابْنِ حَائِطٍ.

محمد بن عَجَلَانَ قَالَ: سمعت أبي يحدث عن أبي هريرة
قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما سَأَلْنَاهُنَّ
مُدَّ حَارَبْنَاهُنَّ".

ابن جُرَيْجٍ قَالَ: أخبرني عبد الله بن عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ قَالَ:
أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب رضي
الله عنه يقول: اقتلوا من الحيات ذا الطفيتين، والكلب
الأسود البهيم ذا الغرتين.
قال: والغرة: حوة تكون بعينه.

طعام بعض الحيوان قال صاحب المنطق: الطير على
ضربين: أوابد وقواطع، ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيره
وإن لم يكن ذا سلاح، فأما ذو السلاح فواجب أن يكون
طعامه اللحم، ومن الطير ما يأكل الحبوب لا يعدوها،
ومنه المشترك الطباع، كالعصفور والدجاج والغراب،
فإنها تأكل النوعين جميعاً، وكطير الماء، يأكل السمك
ويلقط الحب، ومنه ما يأكل شيئاً خاصاً، مثل جنس النحل
المعسل الذي غذاؤه شيء واحد، وجنس العنكبوت، فإن
طعم النحل المعسل العسل، والعنكبوت يعيش من صيد
الذباب.

ما له مسكن من الحيوان ومن الحيوان ما له مسكن

ومأوى، كالحُذد، والفأر، والنَّمَل، والنَّحْل، والضَّبّ، ومنه ما لا يتَّخَذُ شيئاً يرجع إليه كالحَيَّاتِ لِأَنَّ ذُكُورَةَ الحَيَّاتِ سَيَّارَةٌ، وإنَّهَا إِنَّمَا تُقِيمُ فِي المَكَانِ إِلَى تَمَامِ خُرُوجِ الفِرَّاحِ مِنَ البَيْضِ، وَاسْتِغْنَاءِ الفِرَّاحِ بِأَنْفُسِهَا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ يَأْوِي إِلَى شُقُوقِ الصُّخُورِ وَالحِيطَانِ ، وَالمَدَاخِلِ الضَّيِّقَةِ، مِثْلَ سَامِّ أْبْرَصِ.

قال: وَالحَيَّاتِ تَأَلَّفُهَا كَمَا تَأَلَّفُ العَقَارِبُ الخِنَافِسَ، وَالعَظَايَا تَأَلَّفُ المَزَابِلَ وَالخَرَابَاتِ، وَالوَزَعُ قَرِيبَةٌ مِنَ النَّاسِ.

زعم زرادشت في العظايا وسوام أبرص

وزعم زَرَادَشْتُ أَنَّ العَظَايَا لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ السُّمُومِ، وَأَنَّ سَامَّ أْبْرَصَ مِنَ ذَوَاتِ السُّمُومِ، وَأَنَّ أَهْرَمَانَ لَمَّا قَعَدَ لِيَقْسِمَ السُّمُومَ، كَانَ الحِظُّ الأَوْفَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَقَ إِلَى طَلْبِهِ، كالأَفَاعِي، وَالثَّعَابِينَ وَالجَرَّارَاتِ، وَأَنَّ نَصِيبَ الوَزَعِ نَصِيبٌ وَسَطٌ قَصْدٌ، لَا يَكْمَلُ أَنْ يَقْتُلَ، وَلَكِنَّهُ يَزَاقُ الحَيَّةَ، فَتَمِيرُهُ مِمَّا عِنْدَهَا، وَمَتَى دَبَرَ الوَزَعُ جَاءَ مِنْهُ السَّمُّ القَاتِلُ، أَسْرَعُ مِنَ سَمِّ البَيْشِ، وَمِنْ لُعَابِ الأَفَاعِي، فَأَمَّا العَظَايَا فَإنَّهَا احْتَبَسَتْ عَنِ الطَّلْبِ حَتَّى نَفَدَ السَّمُّ، وَأَخَذَ

كلُّ شيءٍ قَسِطُهُ، على قَدْرِ السَّبْقِ والبُكُورِ، فلما جاءت العظاية وقد فَنِيَ السَّمُّ، دخلها من الحسرة، ومما علاها من الكَرْبِ، حتى جعلت وجهها إلى الخرابات والمزابل، فإذا رأيت العظاية تمشي مشياً سريعاً ثمَّ تَقِفُ، فليق تلك الوقفة إنَّما هي لما يعرضُ لها من التذكُّرِ والحسرة على ما فاتها مِنْ نصيبها من السَّمِّ.

رد عليه ولا أعلم العظاية في هذا القياس إلا أكثر شُوراً من الوزغ؛ لأنها لولا إفراط طباعها في الشَّرارة، لم يدخلها من قوَّة الهمِّ مثلُ الذي دخلها ولم يستتب للنَّاس من اغتباط الوزغ بنصيبه من السَّمِّ، بقدر ما استبان من ثكل العظاية، وتسألها وإحضارها وبكائها وحزنها، وأسفها على ما فاتها من السَّمِّ.

زعم زرادشت في خلق الفأرة والسَّنور ويزعم زَرادشت، وهو مذهبُ المجوس، أنَّ الفأرة مِنْ خلقِ الله، وأنَّ السَّنورَ مِنْ خَلْقِ الشَّيْطَانِ، وهو إبليس، وهو أَهرَمَن، فإذا قيل له: كيف تقول ذلك والفأرة مُفسدةٌ، تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة، والمدن العظام، والأرباض الواسعة، بما فيها من النَّاسِ والحيوانِ والأموال، وتقرضُ دفلتر العلم،

وكتبَ اللهُ ، ودقائق الحساب، والصَّكَّاءَ، والشُّرُوطَ؛
وتقرضُ الثَّيَابَ، وربَّما طلبت القُطْنَ لتأكلَ بزُرَّهُ فتدعُ
اللِّحَافَ غِرْبَالاً، وتقرضُ الجُرْبَ، وأوكيةَ الأسيقيةِ
والأزقاقِ والقرب فتخرجُ جميعَ ما فيها؛ وتقع في الآنيةِ
وفي البئرِ، فتموت فيه وتُحَوِّجُ النَّاسَ إلى مُوْنٍ عظامٍ؛
وربَّما عضت رَجُلَ النَّائمِ، وربَّما قتلت الإنسانَ بعضتها،
والفأرُ بخراسانَ ربَّما قَطَعَتْ أذنَ الرَّجُلِ، وجرذانُ
أنطاكيةَ تَعْجِزُ عنها السَّنَانِيرُ، وقد جلا عنها قومٌ وكرهها
آخرونَ لمكانِ جِرْدَانِها، وهي التي فجرت المسنَّاةَ، حتى
كان ذلك سببَ الحَسْرِ بأرضِ سبأ؛ وهي المضروبُ بها
المثَلُ، وسيلُ العَرَمِ ممَّا تَوَرَّخُ بزمانه العَرَبُ، والعَرَمُ:
المسنَّاةُ، وإنما كان جُرْدَاناً.

وتقتل النَّخْلَ والفَسِيلَ، وتخرَّبُ الضَّيِّعةَ، وتأتي على أزمَّةِ
الركابِ والخُطْمِ، وغير ذلك من الأموالِ.

والنَّاسُ ربما اجتلبوا السَّنَانِيرَ ليدفعوا بها بوائقَ الفأرِ
فكيف صار خَلْقُ الضَّارِّ المفسدِ من الله، وخلقُ النَّافعِ من
الضَّرِّ مَنْ خَلَقَ الشَّيْطَانَ؟ والسَّنُورُ يُعدى به على كلِّ
شيءٍ خَلَقَهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الحَيَّاتِ، والعقاربِ، والجعلانِ،
وبناتِ وِردانِ، والفأرةُ لا نَفْعَ لها، وموْنُها عظيمةٌ.

قال: لأنَّ السَّنَّورَ لو بَالَ في البحر لَقَتَلَ عَشْرَةَ آلافِ
سمكةٍ.

فَهَلْ سَمِعْتَ بِحُجَّةٍ قَطُّ، أو بِحِيلَةٍ، أو بِأُضْحُوكَةٍ، أو بِكَلَامٍ
ظَهَرَ عَلَى تَلْفِيحِ هَرَّةٍ، يَبْلُغُ مُؤَنَ هَذَا الِاعْتِلَالِ؟ فَالْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي كَانَ هَذَا مِقْدَارَ عَقُولِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ.
وَأَنشُدُ أَبُو زَيْدٍ:

لَكُنْتُ عَبْدًا آكُلُ
الْأَبْرَصَا

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ
لِهَذَا خَالِصًا

يعني جماع سَامٍ أَبْرَصٍ: أَبْرَصٌ.
أثر أكل سَامٍ أَبْرَصٍ وَنَحْوَهُ وَسَامٌ أَبْرَصٌ رَبَّمَا قَتَلَ أَكْلَهُ،
وَلَيْسَ يُؤْكَلُ إِلَّا مِنَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ، وَرَبَّمَا قَتَلَ السَّنَانِيرَ
وَبَنَاتِ عِرْسٍ، وَالشَّاهْمُرُكَ، وَجَمِيعَ اللَّقَاطَاتِ.
وَقَالَ آخَرُ:

فَهُمْ نَعِجُونَ قَدْ
مَالَتْ طَلَاهِمُ

كَأَنَّ الْقَوْمَ
عَشُّوا لَحْمَ
ضَانٍ

وهو شيءٌ يُعرض عن أكلِ دَسَمِ الضَّانِ، وهو أيضاً
يلقى على دسمة النَّعاسِ، وقد يفعل ذلك الحُبِقُ،
والخَشْخَاشُ.

والخَشْخَاشُ يسمَّى بالفارسيَّة أَنَارُ كَبُوبُ وتَأويله رَمَانُ
الْحَسِّ، وإنما اشتقَّ له ذلك إذ كان يورثُ النَّعاسَ، كما
يورثه الخس.

أكل السماني وأكلُ الطَّعامِ الذي فيه سَمَانٌ يُورثُ الدُّوَارَ،
وزعموا أنَّ صبيّاً من الأعراب فيما مضى من الدَّهرِ،
صادَ هامةً على قبر، فظنها سُمَاناً، فأكلها فغثتْ نفسه،
فقال:

نَفْسِي تَمَقَّسُ مِنْ سُمَانِ الأَقْبَرِ

استطرد لغوي ويقال: غَثَّتْ نَفْسَهُ غَثَّاناً وَغَثَّيًّا ، وَلَقِسَتْ
تَلْقَسُ لَقْساً، وَتَمَقَّسَتْ تَتَمَقَّسُ تَمَقَّساً: إِذَا غَثَّيْتَ.

أكل الأعراب للحيات

وأخبرني صباح بن خاقان، قال: كنتُ بالبادية، فرأيت
ناساً حَوْلَ نَارٍ فسألتُ عنهم، فقالوا: قد صادوا حياتٍ فهم
يشؤونها ويأكلونها؛ إِذْ نَظَرْتُ إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ يَنْهَشُ حَيَّةً

قد أخرجها من الجمر، فرأيته إذا امتنعت عليه يمدُّها كما
يُمدُّ عصبٌ لم ينضج، فما صرفتُ بصري عنه حتى لُبِّطَ
به، فما لبثتُ أن مات، فسألتُ عن شأنه، فقيلَ لي: عَجَلَ
عليها قبلَ أن تنضج وتعملَ النَّارَ في مَنَتِها.
وقد كان قد بَغَدَادَ وفي البَصْرَةَ جماعةً من الحوَّائين،
يأكلُ أحدهم أيَّ حيةٍ أشرتَ إليها في جَوْنَتِهِ، غير
مشوية، وربما أخذَ المرارةَ وسطَ راحِته، فأطعها بلسانه،
ويأكلُ عشرين عقربانة نِيَّةً بدرهم، وأما المشويُّ فإنَّ
ذلك عنده عُرْسٌ.
شعر في الحيات وقال كُثَيِّرٌ:

فَتُخْرِجُ مِنْ
مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

أَجَابَتْ حِيَّةٌ
خَلْفَ الْحِجَابِ

وَمَا زَالَتْ رُقَاكَ
تَسَلُّ ضِغْنِي

وَتَرْقِيَنِي لَكَ
الْحَاوُونَ حَتَّى

وقال أبو عدنان، وذكر ابنُ ثُرَوَانَ الخارجيَّ، حين كان
صار إلى ظَهْرِ البصرة، وخرج إليه مَنْ خرج من بني
نُمَيْرٍ:

حَسِبْتَ نُميراً
يا ابن ثَرْوَانَ
كالألى

كما ظَنَّ صَيَّادُ
العَصَافِيرِ أَنَّ
في

فَأَدْخَلَ يَوْمًا
كَفَّهُ جُحْرَ
أَسْوَدٍ

أراد قول ربيعة:

كُنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ
في حُجْرٍ يَدَا

لو مَسَّ حَرْفِي
حَجْرٍ تَقَصَّدَا

لَقَبْتَهُمْ بِالْأَمْسِ:
دُهلاً وَيَشْكُرَا

جَمِيعِ الْكُؤَى
جَهلاً فَرِاحاً
وأطيراً

فَشَرَّ شَرَّهُ
بِالنَّهْشِ حَتَّى
تَشَرَّ شَرَا

فَأَخْطَأَ الْأَفْعَى
وَلَأَقَى الْأَسْوَدَا

بِالشَّمِّ لَا بِالسَّمِّ
منه قَصْدَا

فَقَدَّمَ الْأَسْوَدَ عَلَى الْأَفْعَى، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ مَنْ يَعْرِفُ مِقْدَارَ
سَمِّ الْحَيَاتِ.
وَقَالَ عَنْتَرَةُ:

نَزَايِلَكُمْ حَتَّى
تَهْرُؤُوا الْعَوَالِيَا

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْخَيْلُ
تَرْدِي بِنَا مَعًا

هَرِيرِ الْكَلَابِ
يَتَّقِينَ الْأَفَاعِيَا

عَوَالِي سُمْرٍ مِنْ
رِمَاحِ رُدَيْنَةَ

حَدِيثٌ فِي الْحَيَّةِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقُوا
ذَا الطُّفَيْتَيْنِ وَالْأَبْتَرَ".
شَبَّهَ الْخَيْطَيْنِ عَلَى ظَهْرِهِ بِخُوصِ الْمَقْلِ، وَأَنْشَدْتُ لِأَبِي
ذُؤَيْبٍ:

وَأَقْطَاعِ طُفْيِ قَدْ
عَفْتُ فِي الْمَعَاقِلِ

عَفْتُ غَيْرَ نُؤْيِ
الدَّارِ لِأَيَّ
أَبِيئِهِ

وَالطُّفِي: حُوصِ المَقْل.

وهم يَصْفونَ بَطْنَ المرأَةِ الهيفاءِ الخميصةِ البَطْن، ببطن
الحيَّة، وهي الأيم، وقال العجاج:

وَبَطْنَ أيمٍ وَقَواماً عُسْجَجا

مناقضة شعرية وقال أدھمُ بنُ أبي الزَّعْراءِ، وشبَّه نفسه
بحيَّة:

وما أسودَّ
بالبأس ترتاح
نفسه
إذا حلبةً جاءت
ويطرق للحس

به نقطُ حمرٍ
وسودَّ كأنما
تنضح نضحاً
بالكحيل
وبالورس

أصم قطارئ
يكون
خروجه
قبيل غروب
الشمس مختلط
الدمس

به السم لم يظهر
نهارا إلى
الشمس

تزل العقاب عن
نقاتفها الملس

إذا الحرب دبت
أو لبست لها
لبسى

بأرقم يُسقى
السم من كل
منظف

وقد علقت

له منزل أنف
ابن قنرة
يغتذى

يقيل إذا ما
قال بين
شواهي

بأجراً مني يا
ابنة القوم
مقدماً

فأجابه عنترَةُ الطائي، فقال:

عسأك تمنى
من أراقم
أرضنا

وقال عنترَةُ:

أترجو حياةً يا

رجلاك في ناب
أسودا

تزايل عنه
جلده فنبدا

إذا ما رآه
صاحب اليم
أرعدا

وسائره عن
متنه قد تقددا

إذا سمع
الإجراس
مكحال أرمدا

وابن أبرق
الحاوي عليه

ابن بشر بن
مسهر

أصم جبالي إذا
غض عضه

بسلع صفا لم
يبد للشمس
قبلها

له ربة في
عنقه من
قميصه

رقود ضحيات
كأن لسانه

يفيت النفوس
قبل أن يقع

الرقى

وأرعدا

شعر في الحية وقال آخر:

لا ينبت العشب
في وادٍ تكون
به

ولا يجاورها
وحشٌ ولا شجر

ربداء شابكة
الأنياب ذابطة

ينبو من اليبس
عن يافوخها
الحجر

لو سرحت
بالندى ما
مسها بللٌ

ولو تكنفها
الحاوون ما
قدروا

قد حاوروها
فما قام الرقاة
لها

وخاتلوها فما
نالوا ولا ظفروا

تقصر الورل

نكزاً ويهرب

عنها الحية
الذكر

العادي
بضربتها

جملة القول في الظليم

فمما فيه من الأعاجيب أنه يغذي الصخر، وبيتلع
الحجارة، ويعمد إلى المرو، والمرو من الحجارة التي
توصف بالملاسة، وبيتلع الحصى، والحصى أصلب من
الصخر، ثم يُمِيعه ويذيبه في قانصته، حتى يجعله كالماء
الجاري، ويقصد إليه وهو واثق باستمرائه وهضمه،
وأنه له غذاء وقوام.
وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التَّغْذِي بما لا يُتَغَذَى به،
والأخرى استمراؤه وهضمه للشيء الذي لو ألقى في
شيء ثم طبخ أبداً ما انحل ولا لان، والحجارة هو المثل
المضروب في الشدة، قال الشاعر:

حتى يَلِينَ لِضَرْسِ الماضِغِ الحَجْرُ

وقال آخر:

تنبو الحوادثُ

مَا أَطْيَبَ العَيْشَ

لو أَنَّ الْفَتَى
حَجَرَ

عنه وهو
ملمومٌ

ووصف الله قلوب قوم بالشدة والقسوة، فقال: "فهي
كالحجارة أو أشد قسوة"، وقال في التشديد: "ناراً
وقودها الناس والحجارة"، لأنه حين حذر الناس أعلمهم
أنه يلقي العصاة في نار تاكل الحجارة.
ومن الحجارة ما يتخذه الصقارون علاة دون الحديد؛
لأنه أصبر على دق عظام المطارق والفطيسات. فجوف
النعامة يذيب هذا الجوهر الذي هذه صفته.

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة
وقال ذو الرمة:

أذاك أم
خاضبٌ
بالسي مرتعه

أبو ثلاثين أمسى
وهو منقلب

شخت الجزيرة
مثل البيت

من المسوح
خذب شوقب

سائره

كأنّ رجليه
مِسْمَاكَانِ مِنْ
عُشْرِ

الهَاءِ آءٍ
وَتَنُومٍ
وَعُقْبَتُهُ

وقال أبو النّجم:

والمرو يُقِيهِ
إلى أمعائه

يَمُورُ فِي الْحَلْقِ
عَلَى عِلْبَائِهِ

هَادٍ وَلَوْ حَارَ
بِحَوَاصِلِهِ

خشب

صَقْبَانِ لَمْ
يَتَقَشَّرَنَّ عَنْهُمَا
النَّجْبُ

مِنْ لَائِحِ الْمَرْوِ
وَالْمَرْعَى لَهُ
عُقْبُ

فِي سَرَطْمِ مَادٍ
عَلَى التَّوَانِهِ

تَمَعَّجَ الْحَيَّةُ فِي
غَشَائِهِ

إذابة جوف الظليم للحجارة

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ جَوْفَ الظَّلِيمِ إِنَّمَا يُذِيبُ الحِجَارَةَ بِقَيْظِ
الحرارة فقد أخطأ، ولكن لا بدَّ من مقدار للحرارة و نحو
غرائز أحر، وخاصِّيات أحر، ألا ترى أَنَّ القُدُورَ التي
يُوقَدُ تحتها الأيَّامَ واللَّياليَ، لا تذوب.

الكتاب الثاني عشر

القول في الخاصِّيات والمقابلات والغرائز

باب آخر وهو أعجب من الأول

شبه النعامة بالبعير وبالطائر

قصة أذني النعامة

عظام النعامة

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

تشبيه القدر الضخمة بالنعامة

الذئب والنعام

جُبْن الظليم ونفاره

ضرر النعامة

شعر في تشبيه الفرس بالظليم

الحصول على بيض النعام

تشبيه الغيوم بالنعام

مسكن النعام

النعامة فرس خالد بن نضلة

النعامة فرس الحارث بن عباد

شعر في النعامة

رؤيا النعامة

الصُّمُّ من الحيوان

شاهد من الشعر لسمع الناقة

ذكر الصُّمِّ في القرآن الكريم

شعر في معنى الصمم

مثل وحديث في الصمم

صمت السيف

شعر في مجاز الصمم

قول منكر صمم النعام

قول المتكلمين في صمم الأخرس

السحابة الخرساء

الصخرة الصماء

الزبابة

شعر لحمد عجرد

حمد عجرد وبشار

القول في النيران وأقسامها

نار القربان

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

نار الاستمطار

نار التحالف والحلف

نار الحرب

نار الحرّتين

عبادة النار وتعظيمها

نار السعالي والجن والغيلان

نار الاحتيال

نار الصيد والبيض

نار الحباب

نار البرق

نار اليراعة

نار الخلاء والهَرَاب

نار الوشم

القول في الخاصيّات والمقابلات والغرائز

وسأدلك على أنّ القولَ في الخاصيّاتِ والمقابلاتِ
والغرائزِ حقٌّ، ألا ترى أنّ جوفَ الكلبِ والذئبِ يذبيان
العظام ولا يذبيان نوى التمر، ونوى التمر أرخى وألين
وأضعفُ من العظامِ المصمتة، وما أكثر ما يهضم العظم،
وقد يهضم العظمَ جوفُ الأسدِ وجوفُ الحيّة، إذا ازدردت
بضع اللحمِ بالشرِّه والنَّهَم، وفيها بعضُ العظامِ.
والبراذين التي يُحيلُ أجوافُها القَتَّ والتَّبَن روثاً، لا

تستمرى الشعير.

والإبلُ تقبضُ بأسنانها على أغصانِ أمِّ عَنَلان، وله شوكٌ
كصياصي البقر، والقُضبانُ علكة يابسةٌ جرد، وصلاب
متينة، فتستمرنُها وتجعلُها ثَلْطاً، ولا تقوى على هضم
الشَّعِيرِ المُنْقَع، وليس ذلك إلا بالخصائص والمقابلات.
وقد قُدِّر كلُّ شيءٍ لشيءٍ، ولولا ذلك لما نفذ خرطومُ
البعوضةِ والجرجسةِ في جلد الفيلِ والجاموسِ، ولَمَّا
رأيتَ الجاموسَ يهربُ إلى الانغماسِ في الماءِ مرَّةً،
ومرَّةً يتلَطَّحُ بالطَّينِ، ومرَّةً يجعله أهله على ربيث
الدكان، ولو دفعوا إليك مِسْلَةً شديدةَ المَتْنِ، لَمَّا أدخلتها
في جلدِ الجاموسِ إلا بعدَ التكلُّفِ، وإلا ببعضِ الاعتمادِ.
والذي سَخَّرَ جلدَ الجاموسِ حتَّى انفرى وانصدع لَطْعَنَةُ
البعوضة، وسَخَّرَ جلدَ الحمارِ لَطْعَنَةُ الدُّبابِ، وسَخَّرَ
الحجارةَ لجوفِ الظليمِ، والعَظْمَ لجوفِ الكلبِ هو الذي
سَخَّرَ الصَّخْرَ الصُّلْبَ لأذنانِ الجرادِ، إذا أرادتُ أن تُلقَى
بيضها؛ فإنَّها في تلكِ الحالِ متى عقدتُ ذنبها في ضاحي
صخرةٍ انصدعتُ لها، ولو كان انصداعُها من جهةِ
الأسرِّ، ومن قوَّةِ الآلةِ، ومن الصَّدْمِ وقوَّةِ الغمزِ،
لانصدعتُ لما هو في الحسِّ أشدُّ وأقوى، ولكنَّه على

جهة التّسخير، والمقابلات، والخصائص.
ولذلك عود الحلفاء، مع دِقَّتِه ورخاوته ولين انعطافه،
إذا نبتَ في عمق الأرض، وتلقاه الأجرُ والخزفُ الغليظ،
ثَقَبَ ذلك، عند نباته وشبابه، وهو في ذلك عبقرٌ نضير.
وزعم لي ناسٌ من أهل الأردنّ، أنّهم وجدوا الحلفاء قد
خَرَقَ جوف القار.

وزعم لي أبو عتاب الجرّار، أنّه سمع الأكرة يُخبرون
أنّهم وجدوه قد خَرَقَ فُلْساً بصريّاً.
وليس ذلك لشدّة الغمزِ وحِدّة الرأس، ولكنه يكون على
قَدْر ملاقاته الطباع.

ويزعمون أنّ الصّاعقة تسقطُ في حانوت الصّيقل فتُذيب
السّيوفَ بطبعها، وتدع الأعمادَ على شبيهِ بحالها،
وتسقطُ على الرّجلِ ومعه الدراهمُ فتُسبِك الدّراهم، ولا
يصيبُ الرّجلَ أكثرُ من الموت.

والبحريّون عندنا بالبصرة والأبلة التي تكون فيها
الصّواعق، لا يدعون في صحون دُورهم وأعالى
سُطوحهم، شيئاً من الصّفَر إلاّ رَفَعوه؛ لأنّها عندهم
تنقضُ من أصل مخرجها، على مقدار من محاذاة
الأرض، ومقابلة المكان، فإذا كان الصّفَر لها صاحياً،

عَدَلْتُ إِلَيْهِ عَنْ سَنَنِهَا.

وما أنكر ما قالوا، وقد رأيتهم يستعملون ذلك.
وقد يَسْقُطُ النَّوَى فِي تُرَابِ الْمَتَوَضَّأِ، فَإِذَا صَهْرَجَ نَبَتَ،
فَإِذَا انْتَهَى إِلَى الصَّارُوجِ أَمْسَكَ، وَإِنْ كَانَ الصَّارُوجُ
رَقِيقًا فَإِنَّ قَبِيرَ، وَجُعِلَ غِلْظُهُ بِقَدْرِ طَوْلِ الْإِبْهَامِ، نَبَتَ ذَلِكَ
النَّوَى حَتَّى يَخْرِقَ ذَلِكَ الْقَارِ.
ولو رام رَجُلٌ خَرْقَهُ بِمَسْمَارٍ أَوْ سِكَّةٍ، لَمَا بَلَغَ إِرَادَتَهُ حَتَّى
يَشُقَّ عَلَى نَفْسِهِ.

والذي سَخَّرَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْقَوِيَّةَ فِي مَذْهَبِ الرَّأْيِ
وَإِحْسَاسِ النَّاسِ، هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْقُمَّمَ، وَالطَّيْجَنَ،
وَالْمِرْجَلَ، وَالطَّسْتِ، لِابْرَةِ الْعَقْرَبِ، فَمَا أَحْصَى عَدَدَ مَنْ
أَخْبَرَنِي مِنَ الْحَوَائِنِ، مِنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ، أَنَّهَا رَبَّمَا
خَرَجَتْ مِنْ جُحْرِهَا فِي اللَّيْلِ لَطَبَّ الطَّعْمَ، وَلَهَا نَشَاطٌ
وَعُرَامٌ، فَتَضْرِبُ كُلَّ مَا لَقِيَتْ وَلَقِيَهَا: مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ
نَبَاتٍ، أَوْ جَمَادٍ.

وزعم لي خاقان بن صبيح واستشهد المثني بن بشر،
وما كان يحتاج خبره إلى شاهد؛ لصدقه أنه سمع في
داره نقرَةً وقعت على قُمَّمٍ وقد كان سمع بهذا الحديث
فنهض نحو الصَّوْتِ، فَإِذَا هُوَ بِعَقْرَبٍ فَتَعَاوَرَهَا هُوَ

والمثني بنعالهما حتى قتلاها، ثمَّ دَعَوَا بِمَاءِ فَصْبَلَهُ فِي
الْقُمْقُمِ فِي عَشِيَّتَيْهِمَا، وَهُوَ صَحِيحٌ لَا يَسِيلُ مِنْهُ شَيْءٌ.
فَمَنْ تَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَصْرِفْ بَدِيًّا تَعَجُّبَهُ إِلَى الشَّيْءِ
الَّذِي تَقْذِفُهُ بِذَنْبِهَا الْعَقْرُبُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ وَالْحَمِيرِ
وَالْبَعَالِ، فَلْيَفَكِّرْ فِي مِقْدَارِ ذَلِكَ مِنَ الْقَلَّةِ وَالْكَثْرَةِ، فَقَدْ
زَعَمَ لِي نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعَسْكَرِ أَنَّهُمْ وَزَنُوا جَرَّارَةً بَعْدَ
أَنْ أُلْسَعُوهَا فَوَجَدُوا وَزْنَهَا عَلَى تَحْقِيقِ الْوِزْنِ عَلَى
مِقْدَارٍ وَاحِدٍ، فَإِنْ كَانَ الشَّيْءُ الْمَقْدُوفُ مِنْ شَكْلِ الشَّيْءِ
الْحَارِّ، فَلَمْ قَصَّرَتِ النَّارُ عَنْ مَبْلَغِ عَمَلِهِ؟ وَإِنْ كَانَ مِنْ
شَكْلِ الشَّيْءِ الْبَارِدِ فَلَمْ قَصَّرَ الثَّلْجُ عَنْ مَبْلَغِ عَمَلِهِ؟ فَقَدْ
وَجَبَ الْآنَ أَنْ السَّمُّ لَيْسَ يَقْتُلُ بِالْحَرَارَةِ، وَلَا بِالْبُرُودَةِ إِذَا
كَانَ بَارِدًا، وَلَوْ وَجَدْنَا فِيمَا أَرَدْنَا شَيْئًا بَلَغَ مَبْلَغَ الثَّلْجِ
وَالنَّارِ لَذَكَّرْنَا بِهِ.

فَقَدْ دَلَّ مَا ذَكَرْنَا عَلَى أَنَّ جَوْفَ النَّعَامَةِ لَيْسَ يُدْبِئُ
الصَّخْرَ الْأَمْلَسَ بِالْحَرَارَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ
مِقْدَارِ مِنَ الْحَرَارَةِ، مَعَ خَاصِيَّاتِ أُخْرَى، لَيْسَتْ بِذَاتِ
أَسْمَاءٍ، وَلَا تَعْرِفُ إِلَّا بِالْوَهْمِ فِي الْجُمْلَةِ.
عِلَّةُ قَتْلِ السَّمِّ وَالسَّمِّ يَقْتُلُ بِالْكَفِّ وَالْكَفِّ وَالْجِنْسِ، وَالْكَفُّ
الْمِقْدَارُ، وَالْكَفِّ: الْحَدُّ، وَالْجِنْسُ: عَيْنُ الْجَوْهَرِ وَذَاتُهُ،

وتزعمُ الهنْدُ أنّ السمَّ إنما يقتلُ بالغرابة، وأنّ كلَّ شيءٍ
غريبٍ خالطَ جَوْفَ حَيَوَانٍ قَتَلَهُ، وقد أبى ذلك ناسٌ
فقالوا: وما بأله يكون غريباً إذا لاقى العصبَ واللحمَ،
وربّما كان عاملاً فيهما جميعاً، بل ليس يقتل إلا بالجنس،
وليس تُحسُّ النَّفْسُ إلا بالجنس، ولو كان الذي يميت
حِسَّه إنما يميته لأتته غريباً، جاز أيضاً أن يكون
الحساس إنما حسّ لأنه غريب، ولو كان هذا جائزاً لقل
في كلِّ شيءٍ.

وقال ابن الجهم: لولا أنّ الذهب المائع، والفضة المائعة،
يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان، وإذا جمدا لم
يجاوزا مكانهما لكانا من القواتل بالغرابة.

وهذا القول دغوى في النفس، والنفس تضيق جداً، وما
قرأت للقدماء في النفس الأجلاد الكثيرة، وإنما يستدلُّ
ببقاء تلك الكتب على وجه الدهر إلى يومنا هذا، ونسخ
الرجال لها أمة بعد أمة، وعمراً بعد عمر، على جهل
أكثر الناس بالكلام، والمتكلمون يريدون أن يعلموا كلَّ
شيءٍ، ويأبى الله ذلك، فهذا بابٌ من أعاجيب الظليم.

باب آخر وهو أعجب من الأول

وهو ابتلاؤه الجمر حتى ينفذ إلى جوفه، فيكون جوفه هو العامل في إطفائه، ولا يكون الجمر هو العامل في إحراقه. وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النّظام وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان أنه شهد محمد بن عبد الله يلقي الحجر في النار، فإذا عاد كالجمر قذف به قدامه، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر، كنت قلت له: إن الجمر سخيّف سريع الانطفاء إذا لقي الرطوبات، ومتى أطبق عليه شيء يحول بينه وبين التسيم خمد، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلاً، وألّزق لزوقاً وأبطأ انطفاءً، فلو أحميت الحجارة فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتبت به، فلما ثنى وثلث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقى الحديد، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأول والثاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمرى الحديد كما يستمرى الحجارة؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرف ذلك على الأيام، وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته، ففعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعض ندمائه

إلى سَكِينٍ فَأُحْمِي، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى
حلقة حتى طلع طرفُ السكين من موضع مَذْبَحِهِ، ثم خرَّ
مَيِّتًا، فَمَنَعْنَا بِحُرْقِهِ من استقصاء ما أردن.

شبه النعامة بالبعير وبالطائر

وفي النعامة أنها لا طائر ولا بعير، وفيها من جهة
المنسم والوظيف والخرمة، والشق الذي في أنفه، ما
للبعير، وفيها من الريش والجناحين والذنب والمنقار، ما
للطائر، وما كان فيها من شكل الطائر أخرجها ونقلها إلى
البيض، وما كان فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم
ينقلها إلى الولد، وسماها أهل فارس: أَشْتَرْمُرْغ، كأنهم
قالوا: هو طائر وبعير.
وقال يحيى بن نوفل:

تصير إلى
الخبث من
المصير

فأنت كساقط
بين الحشايا

تعاظمها إذا ما

ومثل نعامة

تُدْعَى بَعِيرًا

قِيلَ طَيْرِي

فَإِنْ قِيلَ

مِنَ الطَّيْرِ المُرَبَّةِ
بِالْوُكُورِ

أَحْمَلِي قَالَتْ
فَأَنِّي

ثُمَّ هَجَا خَالِدًا فَقَالَ:

وَكُنْتَ لَدَى

تَصُولُ مِنْ
المَخَافَةِ لِلزَّنِيرِ

المُعِيرَةِ عَيْرَ
سَوْءٍ

لِأَعْلَاجِ ثَمَانِيَةٍ
وَعِنَجٍ

كَبِيرِ السِّنِّ ذِي
بَصَرٍ ضَرِيرِ

هَتَفْتَ بِكُلِّ

شَرَابًا ثُمَّ بُلْتِ
عَلَى السَّرِيرِ

صَوْتِكَ:

أَطْعَمُونِي

وإنما قيل ذلك في النعام؛ لأنَّ النَّاسَ يَضْرِبُونَ بِهَا المِثْلَ
لِلرَّجْلِ إِذَا كَانَ مِمَّنْ يَعْتَلُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَكْلِفُونَهُ بَعْلَةً، وَإِنْ

اِخْتَلَفَ ذَلِكَ التَّكْلِيفُ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: إِنَّمَا أَنْتَ نَعَامَةٌ، إِذَا قِيلَ لَهَا احْمَلِي قَالَتْ: أَنَا طَائِرٌ، وَإِذَا قِيلَ لَهَا طِيرِي قَالَتْ: أَنَا بَعِيرٌ.

قصة أذني النعامة

وتزعمُ الأعرابُ أنَّ النِّعَامَةَ ذَهَبَتْ تَطَلُّبُ قَرْنَيْنِ، فَرَجَعَتْ مَقْطُوعَةً الْأَذْنَيْنِ؛ فَلِذَلِكَ يَسْمُونَهُ الظِّلْمِ، وَيَصِفُونَهُ بِذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْعِيَالِ الْهَذَلِيُّ ذَلِكَ، فَقَالَ:

إِذَا جَاءَكُمْ
بِتَعْطُفٍ
وَسَكُونٍ

وَإِخَالَ أَنْ
أَخَاكُم
وَعِتَابَهُ

صَفْرٍ وَوَجْهِ
سَاهِمٍ مَذْهُونٍ

يُمْسِي إِذَا
يُمْسِي بِبَطْنٍ
جَائِعٍ

مِثْقَالُ حَبَّةٍ
خَرْدَلٍ مَوْزُونٍ

فَعَدَا يُمْتُ وَلَا
يُرَى فِي بَطْنِهِ

لِيُصَاغَ قَرْنَاهَا
بِغَيْرِ أَدِينِ

صَلَمَاءَ لَيْسَتْ
مِنْ دَوَاتِ فُرُونِ

أَوْ كَالنَّعَامَةِ إِذْ
غَدَتْ مِنْ بَيْتِهَا

فَاجْتَنَّتِ الْأَدْنَانَ
مِنْهَا فَأَنْثَنَتْ

تقليد الغراب للعصفور ويقولون: ذهب الغراب يتعلم
مشية العصفور، فلم يتعلمها، ونسي مشيته، لذلك صار
يحجل ولا يقفز ففران العصفور.
مشي طوائف من الحيوان والبرغوث والجرادة ذات قفز،
ولا تمشي مشية الديك والصدقر والبازي، ولكن تمشي
مشية المقيد أو المحجل خلقه.
قال أبو عمران الأعمى، في تحوّل قُضاعة إلى قحطان
عن نزار:

الْخَلِيْطُ فَلَا عَزَّ
الَّذِيْنَ تَحَمَّلُوا

لأخرى ففاته

كَمَا اسْتَوْحَشَ
الْحَيُّ الْمَقِيْمُ
فَفَارَقُوا

كتارك يوماً مشية

مِنْ سَجِيَّةٍ

فَأَصْبَحَ
يَحْجُلُ

عظام النعامة

ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها، وشدة عدوها، لا
مخّ فيها.
وفي ذلك يقول الأعمى الهذلي:

عَلَى حَتِّ الْبُرَايَةِ
زَمَخْرِيَّ السِّ

وَاعِدِ ظَلِّ فِي
شَرِّي طِوَالِ

يعني ظليماً شبه به عدو فرسه، والحثّ: السريع،
والشري: الحنظل، وبرايته: قوته على ما يبديه من
السّير، والسّواعد: مجاري مخّه في العظم وكذلك مجاري
عروق الصّرع، يقال لها السّواعد.
قال: ونظنّ إنّما قيل لها ذلك لأنّ بعضها يسعدُ بعضاً،
كأنه من التّعاون أو من المواساة.
قال: والزّمخريّ: الأجوف، ويقال: إنّ قصبَ عظم الظّليم
لا مخّ له، وقال أبو النّجم:

هاو يظلُّ المَخَّ في هَوَائِهِ

وواحد السَّوَاعِدِ: سَاعِدٍ.

وقال صاحب المنطق: ليس المَخُّ إلَّا في المَجْوَفَةِ، مثل عَظْمِ الأَسَدِ.

وفي بعض عظامه مَخٌّ يسير، وكذلك المَخُّ قَلِيلٌ في عِظَامِ الخَنَازِيرِ، وليس في بعضها منه شيءٌ البتَّةِ.

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

وَمِنْ أَعَاجِيبِهَا أَنَّهَا مَعَ عِظْمِ بَيْضِهَا تَكْتَثُرُ عَدَدَ البَيْضِ، ثُمَّ تَضَعُ بَيْضَهَا طَوَّالًا، حَتَّى لَوْ مَدَدْتَ عَلَيْهَا خَيْطًا لَمَا وَجَدْتَ لَهَا مِنْهُ خُرُوجًا عَنِ الأُخْرَى، تُعْطِي كُلَّ بَيْضَةٍ مِنْ ذَلِكَ قَسْطَهُ، ثُمَّ هِيَ مَعَ ذَلِكَ رَبَّمَا تَرَكْتَ بَيْضَهَا وَذَهَبْتَ تَلْتَمِسُ الطَّعَامَ، فَتَجِدُ بَيْضَ أُخْرَى فَتَحْضُنُهُ، وَرَبَّمَا حَضَنْتَ هَذِهِ بَيْضَ تِلْكَ، وَرَبَّمَا ضَاعَ البَيْضُ بَيْنَهُمَا. وَأَمَّا عَدَدُ بَيْضِهَا وَرِئَالِهَا فَقَدْ قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

أبو ثلاثين
أُمسَى وهو

أذاك أم خاضبٍ
بالسِّيِّ مرتعُهُ

مُنْقَلَب

وفي وضعها له طولاً و عرضاً على خطٍّ و سَطْرٍ، يقول:

سُقَيْنَ بِرَاجِلِ
حَتَّى رَوِينَا

هَجَانُ اللَّوْنِ لَمْ
تَقْرَعِ جَنِينَا

وَيَلْحَفُهُنَّ هَفَاهَاً
ثَخِينَا

وَمَا بَيِّضَاتُ
ذِي لَبْدٍ هَجَفَتْ

وُضِعْنَ فَكَلَّهِنَّ
عَلَى غِرَارٍ

يَبِيْتُ يَحْفَهُنَّ
بِمَرْفَقِيهِ

وقال الآخر:

فَتَلُّ صِلَابٍ
مِيَاسِيرٍ مَعَاجِيلِ

كَأَنَّهُ مِنْ جِنَاهِ
الشَّرَى مَخْلُولِ

تَهْوَى بِهَا
مَكْرِبَاتٌ فِي
مِرَافِقِهَا

يَدَا مَهَاةٍ وَرَجَلَا
خَاضِبِ سِنَقِ

زعراء ريش
جناحيها
هراميل

من العفاء
بليتيها ثآليل

إلى القنان التي
فيها المداخل

بما أصابا من
الأرض الأفاعيل

منها الرثال لها
منها سراويل

كأنها ورق
البسباس

هيق هجف
وزفانية مرطى

كأنما مننتى
أقماع ما
هصرت

تروحا من سنام
العرق فالتبطا

إذا استهلا
بشؤبوب فقد
فعلت

فصادفا البيض
قد أبدت مناكبها

فنكبا يبقفان
البيض عن

مغسول

بشِرٍ

تشبيهه القدر الضخمة بالنعامة

والشُعراء يشبّهون القَدْرَ الضَّخْمَةَ التي تكون بمنزِلِ
العَظِيمِ وأشباهه من الأجواد، بالنعامة، قال الرَّمَّاحُ، ابنُ
مَيَّادة:

كذلك تقري
الشوك ما لم
تردد

وقلت لها لا
تعجلي

عوازيه
فوق

إلى جامع مثل
النَّعامة يَلْتَقِي

جامع: يعني القدر، وجعلها مثل النعامة.
وقال ابن ميادة يمدح الوليد بن يزيد:

روابدها مثل
النعام العواطفِ

نتاج العِشَارِ
المُنْقِيَاتِ إِذَا
شَنَّتْ

وقال الفرزدق:

بأجْدالِ حُشْبٍ
زالَ عَنْهَا
هشيمها

وقدر كحيزوم
النَّعْمَة
أُحْمِشَتْ

الذئب والنعام

وضحك أبو كُدَّة حين أنشد شعر ابن النُّطَّاح، وهو قوله:

والذئب يلعب بالنَّعام الشَّارد

قال: وكيف يلعب بالنَّعام، والذئب لا يَعْرِضُ لبيض النَّعام
وفراخه حين لا يكونان حاضرين، أو يكون أحدهما،
لأنَّهُما متى ناهضاه ركضه الذكر فرماه إلى الأنثى،
وأعجلته الأنثى فركضته ركضه تلقيه إلى الذكر فلا
يزالان كذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وإذا حاولَ
ذلك منه أحدهما لم يقوَ عليه، قال: فكيف يقول:

والذئب يلعب بالنَّعام الشَّارد

وهذه حاله مع النعام.

وزعم أنّ نعامتين اعتورتا ذنباً فهزمتاه، وصعد شجرةً ،
فجالدهما، فنقره أحدهما، فتناول الذئب رأسه فقطعه، ثم
نزل إلى الآخر فساوره فهزّمه.

جُبِن الظليم ونفاره

والظليم يُوصَف بالجُبِن، ويوصف بالنَّفار والتَّوْحُش.
وقال سَهْم بن حنْظَلَة، في هجائه بني عامر:

رَأَيْتَ جَفَاءً وَنُوكًا كَثِيرًا

إِذَا مَا رَأَيْتَ بَنِي عَامِرٍ

وَيَمْنَعُهَا نُوكَهَا أَنْ تَطِيرَا

نَعَامٌ تَجُرُّ بِأَعْنَاقِهَا

ضُرر النعامَة

والنعامة تتخذها النَّاسُ في الدُّورِ، وضرُّها شديدٌ، لأنَّها
ربَّما رأتُ في أذن الجارية أو الصبيَّةِ قُرطاً فيه حجرٌ، أو
حبةً لؤلؤً، فَتَحَطِّفُهُ لتأكله، فكم أذن قد خرقتُها وربَّما
رأتُ ذلكَ في لَبَّةِ الصبيِّ أو الصبيَّةِ، فتضربه بمنقارها،
فربَّما خرقت ذلك المكانَ.

شعر في تشبيه الفرس بالظليم

وممَّا يشبَّه به الفرسُ ممَّا في الظليم، قولُ امرئ القيس
بن حُجر:

كَجُوجُوِّ هَيْقٍ دَقُّهُ قَدِ تَمُورًا

وَحَدُّ أَسِيلٍ كَالْمِسْنِ وَبِرَكَّةً

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ سَابِقٍ:

وَلِبَانٌ مُضْرَجٌ بِالْخِضَابِ

وَلَهُ بَرَكَةٌ كَجُوجُؤِ هَيْقٍ

وقال أبو داؤد الإيادي:
ين يُتَابِعَانِ أَشَقَّ شَاخِصُ

يَمْشِي كَمْشِي نَعَامَتَ

وقال آخر:

مَقْلَصَةٌ عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ

كَأَنَّ حَمَاتِهِ كُرْدُوسُ فَحَلِي

وقال أبو داؤد الإيادي:

وَلَيْ تَقُولُ مُلْمَلَمٌ ضَرْبُ

كَالسَّيِّدِ مَا اسْتَقْبَلْتَهُ وَإِذَا

مَتَابِعاً مَا خَانَهُ عَقْبُ

لَأُمَّ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ وَمَشَى
أُخْرَى إِذَا مَا رَاعَهَا خَطْبُ

يَمْشِي كَمْشِي نَعَامَةٍ تَبِعَتْ

القولُ فيما اشتقَّ له من البَيْضِ اسم قال العَدَبَسُ الكِنَانِيّ:
باضت البُهْمَى: أي سقطت نصالها وباض الصَّيْفُ،
وباض القَيْظُ: اشتدَّ الحرُّ وخرج كلُّ ما فيه من ذلك.
وقال الأَسَدِيّ:

فَتَى مِنْ غُيُوبِ الْمُقْرِفِينَ مُسَلَّمًا

فَجِنَا وَقَدْ بَاضَ الْكَرَى فِي عُيُونِنَا

وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

لَمْ يُحْسُوا مِنْهَا سِوَاهَا نَذِيرًا

رَكِبَتْ بَيْضَةَ الْبَيَّاتِ عَلَيْهِم

وقال الرَّاعِي، يهجو ابنَ الرَّقَّاعِ:

يا ابنَ الرَّقَّاعِ ولكنْ لستَ مِنْ أَحَدِ

لو كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ يُهَجَى هَجَوْتُكُمْ

وابنًا نِزارٍ فأنتم بَيْضَةُ الْبَلَدِ

تَأبَى قُضَاعَةٌ لَمْ تَقْبَلْ لَكُمْ نَسَبًا

وفي المديح قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: أنا
بَيْضَةُ الْبَلَدِ، ومنه بَيْضَةُ الْإِسْلَامِ، وبَيْضَةُ الْقَبَّةِ: أعلاها،
وكذلك الصَّوْمَعَةُ، والبَيْضُ: قلانس الحديد.

وقال أبو حِيَّةِ النَّمِيرِيُّ:

وما إنْ كانَ ذلكَ عن تَقَالِي

وَصَدَّ الْغَانِيَاتُ الْبَيْضُ عَنِّي
وَأَفْسَدَ مَا عَلَيَّ مِنَ الْجَمَالِ

رَأَيْنَ الشَّيْبَ بَاضَ عَلَى لِدَاتِي

وَبَيْضُ الْجُرْحِ وَالْخُرَاجِ وَالْحَبْنِ: الْوَعَاءُ الَّذِي يُجْمَعُ فِيهِ
الصَّدِيدُ، إِذَا خَرَجَ بَرِيٌّ وَصَلِحَ، وَقَدْ يُسَمُّونَ مَا فِي بَطُونِ
إِنَاثِ السَّمَكِ بَيْضًا، وَمَا فِي بَطُونِ الْجَرَادِ بَيْضًا، وَإِنْ
كَانُوا لَا يَرَوْنَ قَشْرًا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، وَلَا قَيْضًا يَكُونُ لِمَا فِيهِ
حِضْنًا.

وَالْخِرْشَاءُ: قَشْرَةُ الْبَيْضِ إِذَا خَرَجَ مَا فِيهِ، وَسَلَخَ الْحَيَّةُ
يَقَالُ لَهُ الْخِرْشَاءُ.
شَعْرٌ فِي التَّشْبِيهِ بِالْبَيْضِ وَقَالَ الْأَعَشَى فِي تَشْبِيهِ اللَّفَاءِ
الْحَسَنَاءِ بِالْبَيْضَةِ:

أَوْ دُرَّةٌ سَيَقَتْ إِلَى تَاجِرٍ

أَوْ بِيضَةٍ فِي الدَّعِصِ مَكْنُونَةٍ

وَقَالَ فِي بَيْضِ الْحَدِيدِ:

إِذَا شَامَ يَوْمًا لِلصَّرِيخِ المُنْدَدِ

كَأَنَّ نَعَامَ الدَّوِّ بَاضَ عَلَيْهِمْ

وَقَالَ الْأَعشى:

وَقَدْ رُفِعَتْ نِيرَانُهَا فَاسْتَقَلَّتْ

أَتَيْنَا مِنَ البَطْحَاءِ يَبْرِقُ بَيْضُهَا

وَقَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ:

فَأَحْدَاقُهُمْ تَحْتَ الْحَدِيدِ خَوَازِرُ

كَأَنَّ نَعَامَ الدَّوِّ بَاضَ عَلَيْهِمْ

قال: ويقال تَقَيَّضَت البيضةُ، والإِنَاءُ، والقارورة، تَقْيُضًا: إذا انكسرت فِلَقًا، فإذا هي لم تَتَفَلَّقْ فِلَقًا وهي متلازقةٌ، فهي مُنْقَاضَةٌ انْقِياضًا، وقِيض البيضة: قشرتها اليابسة، وغَرَقْنِهَا: القشرة الرَّقِيْقَةُ التي بين اللَّحْم وبين الصَّمِيمِ، قال: والصَّمِيمِ: الجلدة.

قال: ويقال غَرَقَات البيضةُ: إذا خَرَجَتْ وليس لها قشرٌ ظاهر غير الغَرِقَةِ.

قال الرَّدَادُ: غَرَقَات الدَّجَاغَةُ بيضها، فالبيضة مُغَرَقَاةٌ، والخِرْشَاءُ: القشرة الغليظة من البيضة، بعد أن تنقَب فيخرج ما فيها من البِل؛ وجماعها الخِرَاشِيّ، غير

مهموز.

قال: وقال ردّاد: خرشأء الحية: سلخها حين تتسلخ.
قال: وتغدى أعرابي عند بعض الملوك، فدبت على حلقة
قملة، فتناولها فقصعها بإبهامه وسبّابته، ثم قتلها، فقالوا
له: ويلك ما صنعت؟ فقال: بأبي أنتم وأمي، ما بقي إلا
خرشاؤها.
وقال المرقش:

يَنسَلُّ من
خرشائه
الأرقم

إن تغضبوا
نغضب لذاكم كما

وقال دريد بن الصمة في بيض الحديد: قال: ويقال في
الحافر نزا ينزو، وأما الظليم فيقال: قعا يقعو، مثل
البعير، يقال: قاع يقوع قوعاً وقياًعاً، وقعا يقعو قعواً،
فهذا ما يسوون فيه بينه وبين البعير، ويقال: خف
البعير، والجمع أخفاف، ومنسب البعير، والجمع مناسب؛
وكذلك يقال للنعامة.
وقال الراعي:

وَوَظِيفٌ عَلَى خُفٍّ
النَّعَامَةِ أَرْوْحُ

وَرَجُلٌ كَرَجُلٍ
الْأَخْدَرِيِّ
يُشِيلُهَا

وقال جرّان العود:

أَرْجٌ كَظَنْبُوبٍ
النَّعَامَةِ أَرْوْحُ

لَهَا مِثْلُ أَظْفَارِ
الْعُقَابِ وَمَنْسَمٍ

قال: والزّاجل: ماء الظّليم؛ وهو كالكرّاض من ماء
الفحل، وأنشد لابن أحرمر:

سُقَيْنَ بِزَاجِلٍ
حَتَّى رَوِينَا

وَمَا بِيضَاتُ ذِي
لَبْدٍ هِجَفًا

وقال الطّرمّاح:

هَ أَمَارَتٌ بِالْبَوْلِ
مَاءَ الْكَرَّاضِ

سَوْفَ تُدْنِيكَ مِنْ
لَمِيسَ سَبْنَدَا

وربّما استعاروا المناسم، قال الشاعر:

إِذَا عَدَّتْ
تَأْظَبَتْ أَدَاتُ

تُوَعِدُنِي بِالسَّجْنِ
وَالْأَدَاتِ

تُرَبِّطُ بِالْحَبْلِ
أَكْبَرِ عَاتٍ

قال: ويقال لولد النَّعَامِ: الرَّأل، والجمع رِئَال ورِئَالان؛
وَحَفَّانٌ، وَحَفَّانَةٌ لِلوَاحِدَةِ، وَالْجَمْعُ حَفَّانٌ؛ وَحِسْكَلٌ،
ويقال: هَذَا خَيْطُ نَعَامٍ وَخَيْطَانٌ، وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يُعْفَرُ:

لِعِبِّ الرَّئَالِ بِهَا
وَخَيْطُ نَعَامٍ

وَكَأَنَّ مَرَجَعَهُمْ
مَنَاقِفُ حَنْظَلٍ

ويقال: قَطِيعٌ مِنْ نَعَامٍ، وَرَعْلَةٌ مِنْ نَعَامٍ.
وقال الأصمعيُّ: الرَّعْلَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ النَّعَامِ، وَالسَّرْبُ مِنْ
الظَّبَّاءِ وَالْقَطَا، وَالْإِجْلُ مِنَ الظَّلْفِ، وَقَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ
فِي بَيْضَةِ الْحَيِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ:

أَدَاعَتْ بِرَيْعَانَ
السَّوَامِ الْمَعْرَبِ

ضَوَابِعُ تَنْوِي
بَيْضَةِ الْحَيِّ

بعدهما

قال: ويقال: للظلم إذا رعى في هذا النبات ساعة وفي هذا ساعة قد عَقَبَ يُعَقِّبُ تعقيباً، وأنشدني لذي الرِّمَّة:

مِن لَائِحِ المَرَوِ
والمَرَعَى لَهُ عَقَبُ

أَلِهَاءِ
وَتَنُومٍ
وَعُقْبَتِهِ

قال: ويقال للرجل، إذا كان صغير الأذنين لاصقتين بالرَّأس: أصم؛ وامرأة صَمَعَاء، ويقال: خَرَجَ السهمُ متصمماً: إذا ابتلَّت قُدُّهُ من الدَّم وانضمت، وقال أبو ذؤيب:

سَهْمًا فَخَرَّ وَرَيْشُهُ مُتصمِّعٌ

ويقال: أتانا بثريرة مُصمَّعة: إذا دَقَّقَهَا وَحَدَّدَ رَأْسَهَا، وصومعة الرَّاهِبِ منه؛ لأنها دقيقة الرأس، وفلانٌ أصم القلب: إذا كان ذكياً حديداً ماضياً، وقال طرفة:

وَمَرَّ قُبَيْلَ

لَعْمَرِي لَقَدْ مَرَّتْ

عواطسُ جَمَّة

الصَّبْحُ ظَبِيٌّ
مصمَّعٌ

أراد: ماضياً.

شعر في البيض وقال الشاعر في بيضة البَلَدِ:

أَقْبَلْتَ تَوَضُّعُ
بِكْرًا لَا خِطَامَ
لَهَا

حَسِبْتَ رَهْطَكَ
عِنْدِي بَيْضَةَ
الْبَلَدِ

ويُشَبِّهه عظامُ جماجمِ الرؤوسِ ببيضِ النِّعَامِ، وقال
الأعرجُ القَيْنِيُّ:

بَكِينًا بِالرَّمَاحِ
غِدَاةَ طَرَقِ

عَلَى قَتْلِي
بِنَاصِفَةِ كِرَامِ

جَمَاجِمَ عُودِرَتِ
بِحَمَامِ عِرْقِ

كَأَنَّ فَرَاشَهَا
بَيْضُ النِّعَامِ

وقال مقاتل بن طَلَبَةَ:

تَنِيكَ بِأَيْدِيهَا
وَتَأْبَى أُيُورُهَا

رَأَيْتُ سَحِيمًا
فَأَقَدَ اللَّهُ بَيْنَهَا

وقال السحيمي يردّ عليه:

وإن لم تبشّرْها
فأنتَ أميرُها

مُقَاتِلُ بَشْرَهَا
بَبِيضِ نَعَامَةٍ

وقال أبو الشَّيْصِ الخُزَاعِي فِي بِيضَةِ الخِذْرِ:

وَأَعَجَلَ الرَّوْعُ
نَصَلَ السَّيْفِ
يُخْتَرَطُ

وَأَبْرَزَ الخِذْرُ
مَنْ تَنِيَّه
بَبِيضَتَهُ

وَالشَّيْخُ يَفْدِيكَ
وَالوِلْدَانُ
وَالشَّمُطُ

فَنَمَّ تَفْدِيكَ
مِنَّا كُلُّ
غَانِيَةٍ

وقال جحشُ بنُ نصيب:

خَدَارِيفُ بَبِيضِ
عَجَلِ النَّقْفِ

كَأَنَّ فَلَاقَ
الْهَامِ تَحْتَ

سُيُوفِنَا

طَائِرُهُ

وقال مهلهلٌ في بيضة الخدر:

وتجولُ بيضاتُ

يمسحنَ فضلَ

الخدورِ حواسراً

دوائِبِ الأيتامِ

وهو وما قبله يدلان على أنهم لا يُشَبَّهون ببيض النعام
إلا الأبقار.

قال الشاعرُ:

وَبَيْضِ أَفْقَانَا

سَمَاوَةِ بَيْضِ

بِالضُّحَى مِنْ

كَالْخَبَاءِ

مُتُونَهَا

الْمَقْوُوضِ

هَجُومٍ عَلَيْهَا

مَتَى يُرْمَى فِي

نَفْسَهُ عَيْرَ

عَيْنَيْهِ بِالشَّخْصِ

أَنَّهُ

يُنْهَضُ

يعني بالبيضِ بَيْضِ النَّعَامِ، وَسَمَاوَةِ الشَّيْءِ: شَخْصَهُ،
لأنَّ الظِّلْمَ لما رَأَاهُمْ فَرَزَعِ وَنَهَضَ، وَهَذَا الْبَيْتُ أَيْضاً يَدلُّ

على أنه فَرْوَقَةٌ.
وقال ذو الرُّمَّة في بيض النِّعَام:

غرابيبُ من
بيضِ هَجَائِنِ
دَرْدَقُ

تراه إذا هَبَّ
الصَّبَا دَرَجَتْ
به

قال: والصَّبَا والجنوبُ تهَبَانِ في أيامِ يُبَسِ البَقْلِ، وهو الوقتُ الذي يثَقُبُ النِّعَامُ فيه البيضَ، يقول: درجت به رِئْلَانٌ سوَدٌ غرابيبُ، وهي من بيضِ هجائن: أي بيضُ، والدَّرْدَقُ: الصَّغَارُ، وهو من صُغَرِ الرِّئْلَانِ.

الحصول على بيض النعام

قال طُفَيْلُ بنِ عَوْفِ الغَنَوِيِّ، وذكر كيف يأخذون بيضَ النِّعَامِ:

ولم تر ناراً تمَّ
حَوْلِ مجرِّمِ

عوازبُ لم
تسمعُ نُبُوحِ
مَقَامَةٍ

أَعَنَّ مِنَ الْخُنْسِ
الْمَنَاخِرِ تَوْعَمٍ

سَوَى نَارِ بَيْضٍ
أَوْ غَزَالٍ مُعْفَرٍ

هذه إبلُ راعٍ معزِبٍ صاحبِ بوادٍ وبدوةٍ لا يأتي المحاضرَ
والمياهَ حيثُ تكونُ النَّيرانُ، وهو صاحبُ لبنٍ وليس
صاحبَ بقلٍ، فإبله لا ترى ناراً سوى نارِ بَيْضٍ أو غزالٍ.
نار الصَّيْدِ وهذه النَّارُ هي النَّارُ التي يُصطادُ بها الطِّبَاءُ
والرَّيْلَانُ وَبَيْضُ النَّعَامِ لِأَنَّ هذه كُلُّها تعشى إذا رأت ناراً،
ويحدثُ لها فكرةٌ فيها ونظرٌ، والصَّبِيُّ الصغيرُ كذلك،
وأوَّلُ ما يعابِثُ الرَّضِيعُ، أوَّلَ ما يناغي، المصباحُ.
وقد يعتري مثلُ ذلك الأسدُ، ويعتري الضَّفدَعُ؛ لِأَنَّ
الضَّفدَعَ يَنقُ، فإذا رأى ناراً سَكَتَ، وهذه الأجناسُ قد
تُغترُّ بالنَّارِ، ويُحْتالُ لها بها.

تشبيهه الغيوم بالنعام

وتوصف الغيومُ المترامية بأنَّ عليها نعاماً، قال الشاعر:

بِ نَعَامٍ تَعَلَّقَ
بِالأرْجُلِ

كَأَنَّ الرَّبَابَ دُؤِينَ
السَّحَا

وقال آخر:

خَلِيلِي لَا
تَسْتَسْلِمَا
وَادْعُوا الَّذِي

لَهُ كُلُّ أَمْرٍ أَنْ
يَصُوبَ رَبِيعُ

حَيًّا لِبِلَادِ أَبْعَدَ
الْمَخْلُ أَهْلِهَا

وَفِي الْعَظْمِ شَيْءٌ
فِي شَطَاهُ
صُدُوعُ

بِمَنْتَضِكِ غَرِّ
النَّشَاصِ
كَأَنَّهَا

جِبَالٌ عَلَيْهِنَّ
النُّسُورُ وَفُوعُ

استطرد لغوي وقال آخر:

وَضَعَ النَّعَامَاتِ
الرِّجَالُ بَرِيدَهَا

مَنْ بَيْنَ
مَخْفُوضٍ وَبَيْنِ
مَظَلِّ

والنعائم في السماء، والنعائم والنعامتان من آلات البئر،
والنعامة: بيت الصائد.
وقال في مثل ذلك عروة بن مُرَّة الهذلي:

وَذَاتِ رَيْدٍ كَزَنْقِ
الْفَأْسِ مُشْرِفَةٍ

طريقها سَرَبٌ
بِالنَّاسِ مَجْبُوبٌ

لَمْ يَبْقَ مِنْ
عَرْشِهَا إِلَّا
نِعَامَتُهَا

حَالَانَ مِنْهَزَمٌ
مِنْهَا وَمَنْصُوبٌ

مسكن النعام

وفي المثل: مَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْأَرْوَى وَالنَّعَامِ لِأَنَّ الْأَرْوَى
تَسْكُنُ الْجِبَالَ وَلَا تُسْهَلُ، وَالنَّعَامَ تَسْكُنُ السَّهْلَ وَلَا تَرْقَى
فِي الْجِبَالِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَخَيْلٍ تَكْرَدِسُ
بِالْدَّارِ عَيْنَ

كَمْشِي الْوُعُولِ
عَلَى الظَّاهِرَةِ

وقال كثير:

يَهْدِي مَطَايَا
كَالْحَنِيِّ ضَوَامِرًا

بِنِيَاظِ أُغْبَرَ
شَاخِصِ الْأَمْيَالِ

فَكَانَهُ إِذْ يَغْتَدِي
مُتَسَنِّمًا

وَهَدَاً فَوْهَدًا
نَاعِقٌ بَرْنَالٍ

شعر في تشبيه النعام وقال الأعشى، في تشبيه النعام بما
يتدلّى من السحاب من قطع الرباب:

يا هَلْ تَرَى بَرَقًا
على ال

جَبَلَيْنِ يُعْجِبُنِي
انجِيأه

مِنْ سَاقِطِ
الْأَكْنَفِ ذِي

زَجَلِ أَرَبِّ بِهِ
سَحَابُهُ

مِثْلِ النَّعَامِ
مُعَلَّقًا

لَمَّا زَقَا وَدَنَا
رَبَابُهُ

وقال وشبهه ناقته بالظليم:

وَإِذَا أَطَافَ

وَمَسَافِرًا وَلَجَا

لِبَابِهِ بِسَدِيسِهِ

بِهِ وَتَزَيَّدَا

شَبَّهَتْهُ هَقْلًا

رَبْدَاءَ فِي خَيْطِ

يُبَارِي هِقْلَةَ

نَقَاتِقَ أَرْبَدَا

وذكر زهيرَ الظَّلِيمِ وأولاده، حتَّى شبَّهَ ناقتهَ بالظَّلِيمِ:

كأني وردفي

على خاضب

والقراب

الساقين أرعن

ونمرقي

نقتق

ترامى به حب

سماوة قشراء

الصحارى وقد

الوظيفين

رأى

عوهق

تحن إلى ميل

لدى سكنٍ من

الجناحين جثمٍ

بيضا

المتفلق

تحطم عنها عن

وعن حدق

خراطم أسيح

كالسبج لم

يتفلق

السَّبَّجِ: الخَرْزُ.

النعامه فرس خالد بن نضلة

وكان اسم فرس خالد بن نضلة: النعامه، قال:

تَدَارَكَ إِرْحَاءُ
النَّعَامَةَ حَنْثَرًا
وَدُودَانَ أَدَّتَهُ
إِلَى مُكَبَّلَا

تشبيهه مشي الشيخ بمشي الرئال وقال عروة بن الورد:

أليس ورائي أن
أدب على العصا
فيأمن أعدائي
ويسأمني أهلي

رَهِينَةَ قَعْرِ الْبَيْتِ
كَلَّ عَشِيَّةٍ
يُطِيفُ بِي
الْوِلْدَانَ أَهْدِجُ
كَالرَّالِ

شبهه هَدَجَانَ الشَّيْخِ الضَّعِيفِ فِي مَشِيَّتِهِ بِهَدَجَانَ الرَّالِ.
وقال أبو الزَّحْفِ:

أشكو إليك وَجَعاً
بركبتني
وَهَدَجَانًا لَمْ يَكُنْ
فِي مِشْيَتِي

كَهْدَجَانَ الرَّالِ حَوْلَ الْهَيْقَتِ

وقال آخر، ولست أدري أيُّهما حَمَلَ على صاحبه:

أَشْكُو إِلَيْكَ وَجَعاً
بِمَرْفَقِي
وَهَدَجَاناً لَمْ يَكُنْ
فِي خُلُقِي

كَهْدَجَانَ الرَّالِ حَوْلَ النَّقْتِقِ

ولم يفضحه إلا قوله:

أَشْكُو إِلَيْكَ وَجَعاً بِمَرْفَقِي

لأنَّ الأوَّلَ حَكَى أَنَّ وَجَعَهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُصِيبُ
الشُّيُوخَ، وَوَجَعُ الْمَرْفَقِ مِثْلُ وَجَعِ الْأُذُنِ، وَضَرْبَانِ
الضَّرْسِ لَيْسَ مِنْ أَوْجَاعِ الْكِبَرِ فِي شَيْءٍ.
شعر فيه ذكر النعامه وقال ابن ميادة، وذكر بني نعامه
من بني أسد - وقد كان قَطْرِيُّ بْنُ الْفَجَاءَةِ يَكْنَى أبا نعامه
:-

فهل يَمْنَعَنِي أَنْ
أَسِيرَ بِبَلَدَةٍ

نَعَامَةٌ مِفْتَاحُ
المخازي وبابها

وهجا دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ رَجُلًا فَجَعَلَ البَيْضَةَ الفَاسِدَةَ مِثْلًا
لَهُ، ثُمَّ أَحَقَّ النَّسْرَ بِأَحْرَارِ الطَّيْرِ وَكِرَامِهَا - وَمَا رَأَيْتُهُمْ
يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لِنَسْرِ - فَقَالَ:

فإني على رَعْمِ
العَدُولِ لَنَازِلٌ

بِحيثِ التَّقَى
عَيْطٌ وَبَيْضٌ
بني بذر

أيا حَكَمَ
السَّوَّاتِ لَا
تَهْجُ وَاضْطَجِعْ

فهل أنت إن
هاجيت إلا من
الخُضْرِ

وهل أنت إلا
بَيْضَةٌ مات
فَرَحُهَا

ثَوْتُ فِي سُلُوخِ
الطَّيْرِ فِي بَلَدِ
قَفْرِ

حَوَاهَا بَغَاتٌ:
شَرُّ طَيْرِ

وَسَلَاءٌ لَيْسَتْ
مِنْ عُقَابٍ وَلَا

علمتها

نسر

استطرد لغوي ويقال للأنثى من ولد النعام: قلوص؛
على التشبيه بالنعام من الإبل، وهذا الجمع إلى ما جعلوه
له من اسم البعير، وإلى ما جعلوا له من الخف والمنسم،
والخرمة، وغير ذلك.
قال عنتره:

تأوي له قَلْصُ

حِزْقُ يَمَانِيَةٍ

النَّعَامِ كَمَا أُوتِ

لَأَعْجَمَ طَمْطَمِ

وقال شماخ بن ضرار:

قلوص نعام زفها قد تمورا

وصف الرنال ووصف لبيد الرنال فقال:

فأضحت قد حلت

وعزفاً بعد

إلا عراراً

أحياء جلال

وخيطة من

كان رنالها

خَوَاصِبَ مَزَلَفَاتٍ

وَرُقُ الْإِفَالِ

وقال حسانُ بنُ ثابتٍ، رضي الله عنه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ

كَيْلَ السَّقَبِ مِنْ

فِي قُرَيْشٍ

رَأَى النِّعَامِ

وقد عاب عَلَيْهِ هذا البيتَ ناسٌ، وَظَنُّوا أَنَّهُ أرادَ التبَعِيدَ، فذكرَ شَيْئِينَ قد يَتشَابَهُانِ من وجوهٍ، وحسانٌ لم يردْ هذا، وإنما أرادَ ضَعْفَ نَسَبِهِ فِي قُرَيْشٍ، وَأَنَّهُ حِينَ وَجَدَ أَدْنَى نَسَبٍ انتحلَ ذَلِكَ النِّسَبِ.

النعمامة فرس الحارث بن عباد

وقال الفرزدقُ - وذكرَ الفرسَ الذي يقال له: النعمامة وهو فرسُ الحارث بن عُبَاد، التي يقول فيها:

قَرَّبَا مَرْبِطَ

لَقِحَتْ حَرْبُ وَايِلِ

النَّعَامَةِ مِنِّي

عَنْ حِيَالِ

وقولُ الفرزدقِ:

ثُرَيْكِ نَجُومٍ
اللَّيْلِ وَالشَّمْسِ
حَيَّةِ

كِرَامِ بَنَاتِ
الْحَارِثِ بْنِ
عُبَادِ

نِسَاءً أَبُوهنَّ
الْأَعْرَى، وَلَمْ
تَكُنْ

مِنَ الْحَتِّ فِي
أَجْبَالِهَا وَهَدَادِ

أَبُوهَا الَّذِي آوَى
النَّعَامَةَ بَعْدَمَا

أَبَتْ وَائِلٌ فِي
الْحَرْبِ عَيْرَ
تَمَادِ

وقد مدحوا بنات الحارث بن عباد هذا، فمن ذلك قوله:

جَاؤُوا بِحَارِشَةَ
الضَّبَابِ كَأَنَّهُمْ

جَاؤُوا بِبِنْتِ
الْحَارِثِ بْنِ
عُبَادِ

ويلحق هذا البيت بموضعه، من قولهم، باض الصَّيْفُ،
وباض القَيْظُ.
وقال مضرّس:

بَلْمَاعَةَ قَدْ بَاكَرَ
الصَّيْفُ مَاءَهَا

وباضت عليها
شمسه وحرأيره

ابن النعمامة، فرس خرز بن لوذان وابن النعمامة: فرس
خُرَز بن لُوذَانَ، وهو الذي يقول لامرأته حين أنكرت
عليه إيثاره فرسه باللبن:

كَذَبَ الْعَتِيقُ
وَمَاءُ شَنْ بَارِدٌ

إِنْ كُنْتُ سَائِلَتِي
عَبُوقًا فَادْهَبِي

إِنِّي لِأَخْشَى أَنْ
تَقُولَ خَلِيلَتِي

هَذَا غَبَارٌ سَاطِعٌ
فَتَلَبَّبِي

إِنَّ الْعَدُوَّ لَهُمْ
إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

إِنْ يَأْخُذُوكِ
تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي

ويكون مركبك
القعود وحده

وابن النعمامة
يوم ذلك مركبي

شعر في النعمامة

وقال أبو بكر الهذلي:

وَضَعَ النَّعَامَاتِ
الرِّجَالَ بِرِيدِهَا

يُرْفَعْنَ بَيْنَ
مُشَعَّعٍ
وَمُهَلَّلٍ

وقال ذو الإصبع العدواني:

ولي ابن عمّ علي
ما كان من خُلُقٍ

مخالفٌ لي
أقلّيه
ويقلّيني

أزرى بنا أننا
شالت نعامتنا

فخالني دونه
بل خلتُهُ
دوني

وقال أبو داود الإيادي في ذكر الصّيد، وذكر فرسه:

وأخذنا به
الصّرارَ وقلنا

بحقير بنانه
أضمارُ

وأتى يبتغي
تفرّس أمّ البّي

ض شدّاً وقد
تعالى النهارُ

عَيْرِ جُعْفٍ
أوابِدٍ وِنَعامِ

وِنَعامِ خِلالِها
أُتوارُ

في حوال
العقاربِ العِمرِ
فيها

حينَ يَنهَضنَ
بالصِّباحِ عِذارُ

ثم قال:

يَتكشَّفنَ عَن
صِرائِعِ سَتِّ

قَسَمَتْ بَينَهُنَّ
كأَسُّ عُقارُ

بَينَ رِبداءِ
كالْمِظَلَّةِ أَفقِ

وِظَلِيمِ مَعِ
الظَّلِيمِ حِمارُ

ومِهاَتينِ
حِربينِ وِرنالِ

وِسيوبِ كَأَنه
أوتارُ

ووصف علقمة بن عبدة ناقته، وشبها بأشياء منها، ثم
أطرب في تشبيهه إياها بالظليم:

كما توجس طاوى الكشح موشوم

تلاحظ

أجنى له باللوى شرىً وتنوم
وما استطف من التنوم مخنوم
أسك ما يسمع الأصوات مصلوم
كأنه حاذرٌ للنخس مشهوم
يوم رذاذٍ عليه الريح مغيوم
ولا الزفيف دوين الشد مسنوم
كأنهن إذا بركن جرثوم
كأنه بتناهي الروض علجوم
أدحى عرسين فيه البيض مركوم
كما تراطن في أفدانها الروم
بيتٌ أطافت به خرقاءٌ مهجوم
كان جناحيه وجوؤه
تجيبه بزمارٍ فيه ترنيم
هقلّةٌ سطعاءٌ خاضبةٌ

صعلٌ

تحفه

رؤيا النعامة

الأصمعيّ قال: أخبرني رجلٌ من أهل البصرة قال: أرسل شيخٌ من ثقيفِ ابنه فلاناً - ولم يحفظ اسمه - إلى ابن سيرين، فكلّمه بكلام، وأمُّ ابنه هذا قاعدةٌ، ولا يظنُّ أنّها تفتنُّ، فقال له: يا بنيّ اذهب إلى ابن سيرين، فقل له: رجلٌ رأى أنّ له نعامةً تطحن، قال: فقلت له؛ فقال: هذا رجلٌ اشترى جاريةً فحبَّأها في بني حنيفة، قال: فجنّت أبي فأخبرته، فنافرته أمّي، وما زالت به حتى اعترف أنّ له جارية في بني حنيفة.

وما أعرفُ هذا التأويل، ولولا أنّه من حديث الأصمعي مشهورٌ ما ذكرته في كتابي.

مسيلمة الكذاب وأما قول الشاعر الهذليّ في مسيلمة الكذاب، في احتياله وتمويهه وتشبيهه ما يحتال به من أعلام الأنبياء، بقوله:

وتوصيل
مَقْصُوصٍ مِنْ
الطيرِ جادِفِ

ببَيضَةٍ
قَارُورٍ
وَرَايَةٍ

شَادِن

قال: هذا شعرٌ أنشدناه أبو الزرقاء سَهْمُ الخثعمي، هذا منذُ أكثرَ من أربعينَ سنة، والبيتُ من قصيدةٍ قد كان أنشدنيها فلم أحفظُ منها إلا هذا البيت.

فذكر أن مسيلمة طاف قبلَ التنبِّي، في الأسواق التي كانت بين دُور العجم والعرب، يلتقون فيها للتسوق والبياعات، كنحو سوق الأُبلة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الحيرة.

قال: وكان يلتمس تعلُّم الحيل والنيرجات، واختيارات النجوم والمنتبئين، وقد كان أحكم حيل السدنة والحوآء وأصحاب الزجر والخط ومذهب الكاهن والعياف والساحر، وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه.

قال: فخرَج وقد أحكم من ذلك أموراً، فمن ذلك أنه صب على بيضةٍ من خلٍّ قاطع - والبيضُ إذا أطيل إنقاعه في الخلِّ لان قشره الأعلى، حتَّى إذا مددته استطال واستدقَّ وامتدَّ كما يمتدُّ العلكُ، أو على قريبٍ من ذلك - قال: فلما تمَّ له فيها ما طاول وأمل، طولها ثم أدخلها قارورةً ضيقةَ الرأسِ، وتركها حتَّى جفَّت ويبست، فلما جفَّت

انضمت، وكلما انضمت استدارت، حتى عادت كهيتها الأولى، فأخرجها إلى مُجَاعَة، وأهل بيته، وهم أعراب، وادّعى بها أعجوبةً، وأنها جُعِلت له آية، فأمن به في ذلك المجلس مُجَاعَة، وكان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواج حمام، وقد كان يراهاً في منزل مُجَاعَة مقاصيص، فالتفت، بعد أن أراها الآية في البيض، إلى الحمام فقال لمُجَاعَة: إلى كم تعذب خلق الله بالقص؟ ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحةً، وقد حرّمت عليكم قصّ أجنحة الحمام فقال له مُجَاعَة كالمتعنت: فسأل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن يُنبئ لك جناح هذا الطائر الذكّر الساعة.

فقلت لسهم: أما كان أجود من هذا وأشبهه أن يقول: فسأل الذي أدخل لك هذه البيضة فم هذه القارورة أن يخرجها كما أدخلها، قال، فقال: كأنّ القوم كانوا أعراباً، ومثل هذا الامتحان من مُجَاعَة كثير، ولعمري إن المتنبئ ليخدع ألفاً مثل قيس ابن زهير، قبل أن يخدع واحداً من آخر المتكلمين، وإن كان ذلك المتكلم لا يشقُّ غبار قيس فيما قيس بسبيله.

قال مسيلمة: فإن أنا سألت الله ذلك، فانتبه له حتى يطير

وأنتم ترونه، أتعلمون أني رسول الله إليكم؟ قالوا: نعم، قال: فإني أريد أن أناجي ربي، وللمناجاة خلوة، فانهضوا عني، وإن شئتم فادخلوه هذا البيت وأدخلوني معه، حتى أخرجهم إليكم الساعة في الجناحين يطير، وأنتم ترونه، ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام، ولا كان عندهم باب الاحتياط في أمر المحتالين، وذلك أن عبداً الكيس، فإنه المقدم في هذه الصناعة، لو منعه الستر والاختفاء، لما وصل إلى شيء من عمله جل ولا نَق؛ ولكان واحداً من الناس. فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه، فأدخل طرف كل ريشة ممّا كان معه، في جوف ريش الحمام المقصوص، من عند المقطع والقص، وقصب الريش أجوف، وأكثر الأصول حداً وصلاب، فلما وقى الطائر ريشه صار في العين كأنه برذون موصول الذنب، لا يعرف ذلك إلا من ارتاب به، والحمام بنفسه قد كان له أصول ريش، فلما عُرِزَت تمت فلما أرسله من يده طار، وينبغي ألا يكون فعل ذلك بطائر قد كانوا قطوه بعد أن ثبت عندهم، فلما فعل ذلك ازداد من كان آمن به بصيرة، وآمن به آخرون لم يكونوا آمنوا به، ونزع منهم في أمره كل من كان مستبصراً في

تكذيبه.

قال: ثمَّ إِنَّه قال لهم - وذلك في مثل ليلةٍ مُنكَرَةِ الرِّيحِ مُظْلَمَةٍ، في بعض زمان البوارح - إِنَّ المَلَكَ عَلَيَّ أَن يَنْزِلَ إِلَيَّ، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة، ولمجيء المَلِكِ رَجُلٌ وَخَشْخَشَةٌ وَقَعْقَعَةٌ، فَمَن كَانَ مِنْكُمْ ظَاهِرًا فَلْيَدْخُلْ مَنْزِلَهُ؛ فَإِنَّ مَن تَأَمَّلَ اخْتِطَفَ بَصْرَهُ.

ثمَّ صَنَعَ رَايَةً مِّن رَّايَاتِ الصَّبِيَّانِ الَّتِي تَعْمَلُ مِنَ الْوَرَقِ الصَّيْنِيِّ، وَمِنِ الْكَاعْدِ، وَتُجْعَلُ لَهَا الْأَذْنَابُ وَالْأَجْنَحَةُ، وَتَعْلَقُ فِي صَدُورِهَا الْجَلَّجِلُ، وَتُرْسَلُ يَوْمَ الرِّيحِ بِالْخِيُوطِ الطَّوَالِ الصَّلَابِ، قال: فَبَاتَ الْقَوْمُ يَتَوَقَّعُونَ نَزُولَ المَلِكِ، وَيَلْحَظُونَ السَّمَاءَ، وَأَبْطَأَ عَنْهُمْ حَتَّى قَامَ جُلٌّ أَهْلِ الْيَمَامَةِ؛ وَأَطْنَبَتِ الرِّيحُ وَقَوِيَتْ، فَأَرْسَلَهَا، وَهَمَّ لَا يَرُونَ الْخِيُوطَ، وَاللَّيْلُ لَا يُبِينُ عَن صُورَةِ الرِّقِّ، وَعَن دَقَّةِ الْكَاعْدِ، وَقَدْ تَوَهَّمُوا قَبْلَ ذَلِكَ الْمَلَائِكَةَ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ وَرَأَوْه تَصَارَخُوا وَصَاحَ: مَن صَرَفَ بَصْرَهُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَقَدْ أَطْبَقُوا عَلَيَّ نَصْرَتِهِ وَالدَّفْعِ عَنْهُ، فَهُوَ قَوْلُهُ:

وتوصيل

ببيضة

قَارُورٌ
وَرَايَةٌ
شَادِنٌ

مَقْصُوصٌ مِنْ
الطَّيْرِ جَادِفٍ

فَقُلْتُ لِسَهْمٍ: يَكُونُ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الْعَجِيبِ، فَلَا يَقُولُ فِيهِ
شَاعِرٌ، وَلَا يَشِيْعُ بِهِ خَبْرٌ؟ قَالَ: أَوْكَلَمَا كَانَ فِي الْأَرْضِ
عَجَبٌ، أَوْ شَيْءٌ غَرِيبٌ، فَقَدْ وَجَبَ أَنْ يَشِيْعَ ذِكْرُهُ، وَيُقَالَ
فِيهِ الشَّعْرُ، وَيَجْعَلُ زَمَانُهُ تَارِيخًا أَلْسِنًا مَعَشَرَ الْعَرَبِ
نَزَعُمُ أَنْ كَسْرَى أَبْرُويز، وَهُوَ مِنْ أَحْرَارِ فَارِسَ، مِنْ
الْمُلُوكِ الْأَعَاطِمِ، وَسَلِيلُ مُلُوكِ، وَأَبُو مُلُوكِ، مَعَ حَزْمِهِ
وَرَأْيِهِ وَكَمَالِهِ، خَطَبَ إِلَى النُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ، وَإِلَى رَجُلٍ
يَرْضَى أَنْ تَكُونَ امْرَأَتُهُ ظَنْرًا لِبَعْضِ وُلْدِ كَسْرَى، وَهُوَ
عَامِلُهُ، وَيَسْمِيهِ كَسْرَى عَبْدًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَحْيِمِرُ
أَقْيَشِيرُ، إِمَّا مِنْ أَشْلَاءِ قَصِيِّ بْنِ مَعَدٍ، وَإِمَّا مِنْ عُرْضِ
لَحْمٍ، وَهُوَ الَّذِي قَالُوا: تَزَوَّجَ مَوْمَسَةً - وَهِيَ الْفَاجِرَةُ؛
وَلَا يُقَالُ لَهَا مَوْمَسَةٌ إِلَّا وَهِيَ بِذَلِكَ مَشْهُورَةٌ - وَعَرَفَهَا
بِذَلِكَ، وَأَقَامَ عَلَيْهَا، وَهَجِيَ بِهَا وَلَمْ يَحْفَلْ بِهَجَائِهِمْ، وَمِمَّا
زَادَ فِي شَهْرَتِهَا قِصَّةُ الْمَرْقَشِ، وَنَاكَهَا قُرَّةُ بْنُ هُبَيْرَةَ
حِينَ سَبَاهَا، فَعَلِمَ بِذَلِكَ وَأَقَامَ عَلَيْهَا، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ حَتَّى قَالَ

لها: هل مَسَّكَ؟ قالت: وأنت والله لو قَدَّرَ عليك لَمَسَّكَفلم
يَرْضَ بها حتى قال لها: صِفِيهِ لي، فوصَفَتْهُ حَتَّى قالت:
كَأَنَّ شَعْرَ حَدْيِهِ حَلَقُ الدَّرْعِ وبال على رأسه خلف ابن
نوالَةَ اللثاني عامَ حَجِّ، وَنَصَّرَهُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ بِأَحْمَقِ
سَبَبٍ، وَخَطَبَ أَخُوهُ المَنْذُرُ إلى عبيدة بن همام، فرَدَّهُ
أَقْبَحَ الرَّدِّ، وقال:

وقد طَرَقُونِي
بأَمْرٍ نَكْرٍ

أَتَوْنِي ولم
أَرْضَ ما بَيَّنُّوا

وهل يُنَكِّحُ العَبْدُ
حُرًّا لِحُرِّ

لأنكحَ أَيْمَهُم
مُنْذِرًا

ثمَّ مع ذلك خطب إليه كسرى بعضَ بناتِهِ فرغِبَ بها عنه،
حَتَّى كان ذلك سببَ هربِهِ وَعِلَّةً لقتله فهل رَأَيْتَ شاعراً
في ذلك الزَّمان مع كثرة الشعراء فيه، ومع افتخارهم
بالذي كان منهم في يومِ جَلُولِي ويومِ ذِي قارِ، وفي
وقائع المثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص - فهل
سَمِعْتَ في ذلك بشعرٍ صحيحٍ طريفٍ المخرج، كما سمعته
في جميع مفاخرهم ممَّا لا يداني هذا المَفْخَرُ؟.

ولقد حَظَبَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ إِلَى رِجَالٍ مِنْ نِزَارٍ، مِنْ غَيْرِ
أَهْلِ الْبَيْوَاتِ، فَرَعَبُوا عَنْهُمْ. وَأُمُّ النِّعْمَانِ سَلَمَى بِنْتُ
الصَّائِغِ: يَهُودِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ، ثُمَّ لَكَانَ نَجْلُهُ لِفِعْلِ غَيْرِ
محمود.

وقد قال جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ، لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: قَدْ دَخَلْتَ عَلَيَّ
وَرَأَيْتَنِي، فَأَيْنَ أَنَا مِنَ النِّعْمَانِ؟ قَالَ: وَاللَّهِ...

فالنِّعْمَانُ مَعَ هَذِهِ الْمَثَالِبِ كُلِّهَا قَدْ رَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنِ
مِصَاهِرَةِ كِسْرَى، وَهُوَ مِنْ أَنْبَاءِ الْأَكَاسِرَةِ، وَكَمَا كَانَ
أَبْرَوِيْزُ أَعْظَمَ خَطْرًا، كَانَتْ أَنْفَتُهُ أَفْخَرَ لِلْعَرَبِ، وَأَدْلَى عَلَى
مَا يَدْعُونَ مِنَ الْعَلْوِ فِي النِّسْبِ وَكَانَ الْأَمْرُ مَشْهُودًا
ظَاهِرًا، وَمُرَدَّدًا عَلَى الْأَسْمَاعِ مُسْتَفِيضًا، فَإِذَا قَدْ تَهَيَّأَ أَنْ
يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ، وَالْمَفْخَرِ الْعَظِيمِ، وَالْعَرَبُ
أَفْخَرُ الْأُمَمِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَدْ أَغْفَلُوهُ - فَشَأْنُ مَسِيلِمَةَ أَحَقُّ
بِأَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَأَنْشَدَنِي يَوْسُفُ لِبَعْضِ شِعْرَاءِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَانَ يُسَمَّى
مُسَيْلِمَةَ وَيُكْنَى أَبُو ثَمَامَةَ:

لهفي على رُكْنِي
شمامة

لهفي عَلَيْكَ
أبا ثَمَامَةَ

كَم آيَةٍ
لَأَبِيهِمْ

كَالشَّمْسِ تَطَلُّعُ
مِنْ غَمَامَةٍ

وقد كتبنا قصته وقصة ابن النّوَّاحَة في كتابنا الذي ذكرنا فيه فصل ما بين النبيّ والمنتبي ودكرنا جميع المنتبين، وشأن كل واحد منهم على حدّته، وبأبيّ ضرب كان يحْتال، ودكرنا جملة احتيالاتهم، والأبواب التي تدور عليها مخاريقهم، فإن أردت أن تعرف هذا الباب فاطلب هذا الكتاب؛ فإنه موجود.

هجا عن النعمان وقد هجا عبد القيس بن خُفافِ البرجمي، النُّعْمَانُ بن المنذر، في الجاهليّة، وذكر ولادة الصّانغ له فقال:

لَعَنَ اللهُ ثُمَّ ثَنَى
بِلَعْنِ

ابن ذَا الصّانغِ
الظُّلُومِ الجُهولِ

يجمعُ الجيشَ ذَا
الألوفِ ويغزُو

ثمَّ لا يِرْزَا
العُدُوَّ فتيلا

سَهْمُ الحنفي وكان سَهْمُ الحنفي يلي طبرستان، لمعن بن زائدة، مع حداثة سنه يومئذ، وكان له مروءة وقدر في

نفسه.

كثرة الشعر وقلته في بعض قبائل العرب وبنو حنيفة مع
كثرة عددهم، وشدة بأسهم، وكثرة وقائعهم، وحسد
العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم، حتى
كانهم وحدهم يعدلون بكرأ كلها - ومع ذلك لم تر قبيلة
قط أقل شعراً منهم، وفي إختهم عجل قصيد ورجز،
وشعراء ورجازون، وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل
مدر، وأكألو تمر؛ لأن الأوس والخزرج كذلك، وهم في
الشعر كما قد علمت، وكذلك عبد القيس النازلة قري
البحرين، فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل
اليمامة.

وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً، وهم وإن كان
شعرهم أقل، فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر
عجيب، وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء، ولا من قلة
الخصب الشاغل والغنى عن الناس؛ وإنما ذلك عن قدر
ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق
مكاتها.

وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف، يجزون مجاري
ملوك اليمن، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ولم يكن

لهم في الجاهلية كبير حَظٌّ في الشعر، ولهم في الإسلام شعراء مفلقون.

وبنو بَدْر كانوا مَفَحِّمِينَ، وكان ما أطلق الله به السنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم.

وقد يحظى بالشعر ناسٌ ويخرج آخرون، وإن كانوا

مثلهم أو فوقهم، ولم تَمْدَحْ قبيلةٌ في الجاهلية، من

قريش، كما مُدحت مخزوم، ولم يتهياً من الشاهد والمثل لمادح في أحدٍ من العرب، ما تهياً لبني بدر.

وقد كان في ولد زُرارة لصلبه، شعر كثير، كشعر لقيط

وحاجب وغيرهما من ولده، ولم يكن لحديفة ولا حصن،

ولا عيينة بن حصن، ولا لحمل بن بدر شعراً مذكور.

حظوة الخلفاء الولاة بالشعر وقد كان عبد العزيز بن

مَرْوَانَ أَحْظَى في الشعر من كثير من خلفائهم، ولم يكن

أحدٌ من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أَحْظَى في الشعر

من الرّشيد، وقد كان يزيد ابن مَزِيدَ وَعَمَّهُ، مَمَّنْ أَحْظَاهُ

الشُّعْرُ.

وما أعلم في الأرض نعمة بَعْدَ وَايَةِ اللَّهِ، أَعْظَمَ من أن

يكونَ الرَّجُلُ ممدوحاً.

الصَّمُّ مِنَ الْحَيَوَانِ

تقول العرب: ضربان من الحيوان لا يسمعان الأصوات،
وذلك عامٌّ في الأفاعي والنعام، واعتد من ادعى للنعام
الصَّمَّ بقول علقمة:

فوه كَشَقِّ
العَصَا لَأَيًّا
تَبَيَّنَه
أَسَكُّ مَا يَسْمَعُ
الأصَوَاتَ مَصْلُومُ

قال: ولا يصلح أن تكون ما في الموضع الذي ذَكَرَ؛ لأنَّ
ذلك يصير كقول القائل: التمر حلو، والثَّلج بارد، والنَّار
حارَّة، ولا يحتاج إلى أن يُخبر أنَّ الذي يُسْمَعُ هذا
الصَّوت؛ لأنه لا مسموع إلا الصَّوت.
قال خصمه: فقد قال علقمة بن عبدة:

حَتَّى تَلَا فِي
وَقَرْنُ الشَّمْسِ
مَرْتَفَعُ
أُنْحِي عِرْسَيْنِ
فِيهِ الْبَيْضُ
مَرَكُومُ
يُوحِي إِلَيْهَا
كَمَا تَرَاظَنُ فِي

أفدائها الرُّومُ

بِإِنْقَاضِ
وَنَقْنَقَةٍ

ثم قال:

تجيبُهُ بِزِمَارٍ
فِيهِ تَرْنِيمٌ

تَحْفَهُ هِقْلَةٌ
سَفْعَاءُ خَاذِلَةٌ

واحتجّ من زعم أنها تسمع، بقوله:

وَبَيِّضِ تَوَامٍ
بَيْنَ مَيْثٍ
وَمَذْنَبٍ

وَصُحْمِ صِيَامٍ
بَيْنَ صَمْدٍ
وَرِجْلَةٍ

يُجِيبُ زِمَاراً
كَالْيِرَاعِ الْمُتَّقِبِ

مَتَى مَا تَشَأْ
تَسْمَعُ عِرَاراً
بِقَفْرَةٍ

وقال الطَّرِمَّاحُ:

أَلَمْ تَجَاوِبْهُ

يَدْعُو الْعِرَارُ بِهَا

الزَّمارَ كائنه

النِّساءُ العُودُ

قال: وَصَوْتُ النِّعامةِ الذَّكر: العِرارُ، وصوت الأُنثى:
الزَّمار.

وأنشدَ الذي زَعَمَ أَنَّها لا تسمع، قولَ أسامةَ بنِ الحارثِ
الهدليِّ:

تذكَّرتُ إِخواني
فَبِتُّ مُسَهِّداً

كما ذكَّرتُ بَوًّا
من اللَّيلِ فَاقِدُ

لعمرى لقد
أَمَهَلْتُ في نَهْيِ
خالِدِ

عَنِ الشَّامِ إِمَّا
يَعصِيكَ خالِدُ

وَأَمَهَلْتُ في
إِخوانه فَكائِنا

تَسَمَّعَ بالنَّهْيِ
النِّعَامُ المُشَرَّدُ

وقال الذي زعم أنها تسمع: فقد قال الله عزَّ وجلَّ:
"أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصارَهُمْ" ولو
عنى أَنَّ عَماهم كعمى العُميان، وصممهم كصمم الصَّمَّان،
لما قال: "أَفْلا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَي قُلُوبِ أَقْفالِها"

وإنما ذلك كقوله: "إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" وكيف تسمع المدبر عنك ولذلك
يقال: إِنَّ الْحَبَّ يُعْمِي وَيُصِمُّ، وقد قال الهذلي:

تَسْمَعُ بِالنَّهْيِ النَّعَامُ الْمُشَرَّدُ

والشارد النافر عنك لا يوصف بالفهم، ولو قال: تسمع
بالتنهي، وسكت - كان أبلغ فيما يريد، وهو كما قال الله
تعالى: "وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ"، قال
الراجز:

كُدْرِيَّةٌ أَعْجَبَهَا
بَرْدُ الْمَا

رِدِي رِدِي وَرِد
قَطَاةٌ صَمًّا

أي لأنها لا تسمع صوتاً يثنيها ويردّها.
وأنشد قول الشاعر:

دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ
الطَّوْدِ أَوْ هُوَ
أَسْرَعُ

دَعَوْتُ خَلِيداً
دَعْوَةً
فَكَأَنَّمَا

والطّود: الجبل، وابنه: الحجر الذي يتدهده منه، كقوله:

كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

وقال الرَّاجزُ:

بَصِيرٍ أُخْرَى
وَأَصَمَّ الْأُدُنَيْنِ

وَمَنْهَلٍ أَعْوَرَ
إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ

كأنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَنْهَلِ بَيْرَانٍ، وَالْأَبَارُ أَعِينٌ، فَغَوَّرَتْ إِحْدَى الْبَيْرَيْنِ وَتُرِكَتِ الْأُخْرَى وَقَوْلُهُ: أَصَمَّ الْأُدُنَيْنِ لِمَا أَنْ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْأَرْضِ فُضَاءً وَخَلَاءً، حَيْثُ لَا يَسْمَعُ فِيهِ صَوْتٌ، جَعَلَهُ أَنْ كَانَ لَا يَسْمَعُ صَوْتاً أَصَمًّا؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِفَقْدِ الْأَصْوَاتِ.

شاهد من الشعر لسمع الناقة

قال: وقد قال الحارثُ بنُ حلزةَ قولاً يدلُّ على أنَّها تسمع،
حيث قال:

مَّ إِذَا خَفَّ
بِالْتَّوِيِّ النَّوَاءُ

وَلَقَدْ أَسْتَعِينُ
يَوْمًا عَلَى إِلَهٍ

مَّ رِنَالٍ دَوِيَّةٌ

بِرَفُوفٍ كَأَنَّهَا

هَقْلَةٌ أ

سَفْعَاءُ

ثم قال:

أَنَسَتْ نَبَأَةً
وَأَفْرَعَهَا الْقُنَّ

اص عَصْرًا
وقد دنا
الإمساء

فَتَرَى خَلْفَهُنَّ مِنْ
سُرْعَةِ الْمَشِّ

ي مَنِبَأً كَأَنَّهُ
أَهْبَاءُ

ولو قال: أَفْرَعَهَا الْقُنَّاصُ ولم يقل: أَنَسَتْ نَبَأَةً - وَالنَّبَأَةُ
الصَّوْتُ - لكان لَكُمْ فِي ذَلِكَ مَقَالٌ، وَقَالَ امْرؤُ الْقَيْسِ:

وَصَمُّ صِلَابٍ مَا
يَقِينُ مِنَ الْوَجَى

كَأَنَّ مَكَانَ
الرَّدْفِ مِنْهُ عَلَى
رَالٍ

وإنما يعني أنها مُصَمَّتَةٌ غير جَوْفَاءٍ، وَقَالَ الْآخَرُ:

قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ

حِطْمِي أَصَمُّ
وَأُذُنِي غَيْرُ

زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ

صَمَاءٍ

يريد أن حلمه ليس بسخيف متخلخل، وليس بخفيف سار، ولكنه مصمت، قال الشاعر:

وَأَسْأَلُ مِنْ صَمَاءِ ذَاتِ صَلِيلٍ

وإنما يريد أرضاً يابسة، ورملةً نشافةً، تسأل الماء: أي تريده وتبتلعه؛ وهي في ذلك صماء،

ذكر الصمّ في القرآن الكريم

وقد قال الله لناسٍ يسمعون: "صُمُّ بَكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" ذلك على المثل، وقال: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"، وذلك كله على ما فسّرنا، وقال: "وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا" وقال أيضاً: "إِنَّمَا أَنْذَرَكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ".

شعر في معنى الصمم

وقال عنتره:

وَأُخْرَصَانَ صُمَّ
السَّمْهَرِيِّ الْمُثَقَفِ

ظَلَّلْنَا نَكَرُ
الْمَشْرِفِيَّةَ
فِيهِمْ

وقال العَجِيرُ السَّلُولِيُّ:

فَفِيهِنَّ عَنْ
صُلْعِ الرَّجَالِ
حُسُورُ

وقد جَدَّبَ الْقَوْمُ
العَصَائِبَ مُؤَخَّرًا

سَلَى فَرَسٍ
تَحْتَ الرَّجَالِ
عَقُورُ

فَظَلَّ نِدَاءُ الْعَصَبِ
مُلْقَى كَأَنَّهُ

لَرُحْنٍ وَفِي
أَعْرَاضِهِنَّ
فُطُورُ

لو ان الصُّخُورَ
الصَّمَّ يَسْمَعْنَ
صَلَقْنَا

وقال زهير:

صَخْرَةٌ صَمَاءَ

لِيَتَّي خُلِقْتُ

لِلأَبِدِ

فِي كَبِدِ

لَا تَشْكِي شَرًّا

خَلَقْتَ غَلِيظَةً

جَارَتِهَا

الكَبِدِ

وَقَالَتْ جُمْلُ بِنْتُ جَعْفَرٍ:

بَنِي جَعْفَرٍ لَا سَلْمَ

بِكُلِّ رُدِينِيٍّ

حَتَّى نَزُورَكُمْ

وَأَبْيَضَ ذِي

أَثَرِ

؟ وَحَتَّى تَرَوْا وَسْطَ الْبُيُوتِ مُغِيرَةً تُصْمِكُمْ بِالضَّرْبِ

حَاشِيَةَ الدُّعْرِ

تَبِينُ لِذِي الشَّكِّ

وَيُبْصِرُهَا

الَّذِي لَمْ يَكُنْ

الْأَعْمَى وَيَسْمَعُ

دَرَى

ذُو الْوَقْرِ

وَقَالَ دَرِيدٌ:

مَتَى كَانَ

عَلَيَّ وَلايَةٌ

الملوك قطيناً

صمّاء مني

مثل وحديث في الصمم

ومن الأمثال قولهم: صمّت حَصَاةٌ بِدَمٍ قَالَ: فأصله أنْ
يكثرَ القَتْلُ وسفكُ الدَّماءِ، حتَّى لو وَقَعَتْ حَصَاةٌ على
الأرضِ لم يُسْمَعْ لها صوتٌ؛ لأنَّها لا تَلْقَى صلابَةَ
الأرضِ.

وقد جاء في بعض الحديث: إذا كانت تلك الملاحم بلغت
الدَّماءُ الثُّننَ يعني ثُننَ الخيل، وهو الشَّعر الذي خلف
الحافر.

صمت السيف

وقال الزُّبير بن عبد المطلب:

عَنِّي جُرَازُ الحَدِّ
ضَرَبْتُهُ صَمُوتُ

وَيُنْبِي
نَحْوَةَ
المخْتَالِ

لأنَّ السَّيْفَ إذا مرَّ في العِظْمِ مرًّا سريعاَ فلم يكن له
صوت - كان في معنى الصامت.

شعر في مجاز الصمم

وقال ابن ميادة:

إلى فزع
تُرَكَّبُ إِلَيَّ
خُيُولُهَا

متى أدعُ في
قيسِ بنِ عِيْلَانَ
خَائِفًا

رَدَّاحِ يَصْمُ
السَّامِعِينَ
صَلِيْلُهَا

بملمومة كالطَّودِ
شُهْبَاءِ فَيَلْقِ

لأنَّ الصَّوْتِ إِذَا اشْتَدَّ جَدًّا لَمْ يُفْهَمَ مَعْنَاهُ، إِنْ كَانَ صَاحِبُهُ
أَرَادَ أَنْ يَخْبِرَ عَنْ شَيْءٍ، وَمَتَى كَثُرَتْ الْأَصْوَاتُ صَارَتْ
وَعْيً، وَمَنْعَ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنَ الْفَهْمِ، فَإِذَا لَمْ يَفْهَمْهَا صَارَ
فِي مَعْنَى الْأَصْمِّ، فَجَازَ أَنْ يُسَمَّى بِاسْمِ الْأَصْمِّ.
وَعَلَى ذَلِكَ قَالَ الْأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ، حِينَ آدَوْهُ بَنُو سَعْدِ
فَتَحَوَّلَ مِنْ جَوَارِهِمْ فِي آخِرِينَ فَاذَوْهُ، فَقَالَ: بِكُلِّ وَاذِ بَنُو
سَعْدِ.

وقال جرَّانُ العودِ:

وَأَخْفَاهَا
بِالْجَنْدَلِ الصَّمِّ
تَقْذِفُ

وَقَالَتْ لَنَا
وَالْعَيْسُ صُعْرٌ
مِنَ الْبُرَى

قول منكر صمم النعام

وقال الذي ينكر صمم شيءٍ من الخلق: اعتلتم في صمم
النعام بقول زهير:

لَهُ بِالسِّيِّ
تَنُومٌ وَآءٌ

أَصَكَ مُصَلِّمٌ
الْأُدْنَيْنِ أَجْنَى

وبقول أوس بن حجر:

وَأَرْفَعُ صَوْتِي
لِلنَّعَامِ
الْمُخْرَمِ

وَيَنْهَى دُوي
الْأَحْلَامِ عَنِّي
حُلُومُهُمْ

يريد حَرْقَ أَنْفِهِ، وهو في موضعِ الْخَرَمَةِ مِنَ الْبَعِيرِ.
وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلنَّعَامِ فَإِنَّمَا خَصَّ بِذَلِكَ النَّعَامَ
لِأَنَّهَا تَجْمَعُ الشَّرُودَ وَالنَّفَارَ، إِلَى الْمَوْقِ وَسَوْءِ الْفَهْمِ،
وَلَوْ قَالَ: وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلْحَمِيرِ وَالذَّوَابِّ لَكَانَ كَذَلِكَ،

والمصلّمة: السكّ التي ليس لأذنها حجم.
 رد عليه قال: قولُ الذي زعم أنها ليست بصماء لا يجوز؛
 لأنّ الدواب تسمع وتفهم الرّجر، وتجيب الدّعاء، بل لو
 قال: وأرفع صوتي للصخور والحجارة، كان صواباً،
 وكان ليرفع صوته معنّى؛ إذ كان الرّفْع والوضْع عند
 الصّخور سَوَاءً، وليس كذلك الدوابُّ، ولو كان إنما جعله
 مصلّماً، وجعلَ آذانَ النّعام مصلومةً، لأنه ليس لأذنها
 حجم فالطير كله كذلك إلا الخفاش، وكلُّ شيءٍ يبيض من
 الحيوان فليس لها حجم آذان، ففي قَصدهم بهذه الكلمة
 إلى النّعام، بين جميع ما ليس لأذنيه حجم، دليلٌ على أنّ
 تأويلكم خطأ، قال علقمة بن عبدة:

أَسْكُ مَا يَسْمَعُ
 الْأَصْوَاتِ مَصْلُومُ

فَوهُ كَشَقِّ
 الْعَصَا لِأَيَّ
 تَبَيَّنُهُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْدٍ يَكْرِبُ:

إِلَى قَوْمِهِ الْآ
 تَغْلُوا لَهُمْ دَمِي

وَأَرْسَلَ عَبْدُ
 اللَّهِ إِذْ حَانَ

يَوْمُهُ

وَلَا تَأْخُذُوا
مِنْهُمْ إِفَالًا
وَأَبْكَرًا

وَأُتْرِكَ فِي بَيْتٍ
بِصَعْدَةِ مُظْلِمٍ

جَدَعْتُمْ بَعْدَ
اللَّهِ أَنْفَ
قَوْمِكُمْ

بَنِي مَازِنٍ أَنْ
سُبَّ رَاعِي
الْمُخْرَمِ

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ
تَثَارُوا
لِأَخِيكُمْ

فَمَشُّوا بِأَذَانِ
النَّعَامِ الْمَصَلِّمِ

فلو كانت إنما تريد أنه ليس لمسامعها حجم، كانت الدنيا
لها معرضة، وقال عنتره:

بِقَرِيبٍ بَيْنَ
الْمُنْسِمِينَ
مُصَلِّمِ

وَكأَنَّمَا أَقْصُ
الإِكَامِ عَشِيَّةُ

تَأْوِي لَهُ حِرْقُ
النَّعَامِ كَمَا أُوتِ

حِرْقُ يَمَانِيَّةٍ
لِأَعْجَمَ طَمْطَمٍ

ولو كان عنتره إنمّا أراد عدم الحجم، لقد كانت الدنيا له
مُعرضة.
وقال زهير:

بَارِزَةُ الْفَقَارَةِ
لَمْ يَخُنْهَا

قَطَافٍ فِي
الرِّكَابِ وَلَا
خِلَاءٍ

كَأَنَّ الرَّحْلَ
مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ

مِنَ الظُّلْمَانِ
جُوجُوهَ هَوَاءٍ

أَصَكَ مُصَلِّمَ
الْأُذُنَيْنِ أَجْنَى

لَهُ بِالسِّيِّ
تَنُومٍ وَآءٍ

رد منكر صمم النعام قال القوم: فإنّا لا نقول ذلك، ولكنّ
العربَ في أمثالها تقول: إِنَّ النَّعَامَةَ ذَهَبَتْ تَطْلُبُ قَرْنَيْنِ
فَقَطَعُوا أُذُنَيْهَا، لِيَجْعَلُوهَا مِثْلًا فِي الْمَوْقِ وَسُوءِ التَّدْبِيرِ،
فَإِذَا ذَكَرَ الشَّاعِرُ الظَّلِيمَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مُصَلِّمُ الْأُذُنَيْنِ، فَإِنَّمَا

يريد هذا المعنى، فكثُرَ ذلك حتى صار قولهم: مسلم الأذنين، مثل قولهم صَكَاء، وسواءً قال صَكَاء، أو قال نعامة، كما أنه سواء قال خُنْساء أو قال مهاةً وَنَعْجَةً وبقرةً وظبيةً؛ لأنَّ الطَّبَّاءَ والبقرَ كلها فُطُسٌ خُنْسٌ وإذا سَمَّوا امْرَأَةً خُنْساءً فليسَ الخَنْسَ وَالْفَطْسَ يُريدون، بل كأنهم قالوا: مَهَاءٌ وَظَبِيَّةٌ، ولذلك قال المسيَّبُ بنُ عَلسٍ، في صفة النَّاقَةِ:

حَرَجٌ إِذَا
اسْتَدْبَرَتْهَا
هَلْوَاعٌ

صَكَاءٌ ذِعْلِبَةٌ إِذَا
اسْتَقْبَلَتْهَا

فتفهَّمْ هذا البيت، فإنه قد أحسنَ فيه جدًّا. وَالصَّكَاءُ في الناس، والاصطكاكُ في رجلي الناقة عيب، فهو لم يكن ليصِفها بما فيه عيب، ولكنَّه لا يفرق بين قوله صَكَاء، وبين قَوْلِهِ نَعَامَةٌ، وكذلك لا يفرقون بين قولهم أعلم، وبين قولهم: بَعِيرٌ، قال الراجز:

أخو حَنائيرَ

إني لمن أنكروا أو

يَقُودُ الْأَعْلَمَا

تَوَسَّما

كأنه يقول: يقودُ بعيراً، وهو كقول عنتره:

تَمَكُّو فَرِيصَتَهُ

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ

كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ

تَرَكَتْ مُجَدَّلاً

ردّ مدعي الصّم فقال من ادّعى للنّعام الصّم: أمّا قولكم: من الدّليل على أن النّعام تسمع قول الشاعر:

تدعو النّعام به العرار

وقوله:

يَجِيبُ زِمَاراً

مَتَى مَا تَشَأْ

كَالْيِرَاعِ

تَسْمَعُ عِرَاراً

الْمُثَقَّبِ

بِقَفْرَةٍ

وقوله:

الْقَنَاصُ عَصْرًا وَقَدْ

أَنَسَتْ نَبَأَهُ

دَنَا الْإِمْسَاءُ

وَأَفْزَعَهَا

فليس ذلك أراد، وقد يراك الأخرسُ من النَّاسِ -
والأخرس أصمٌ - فيعرف ما تقول، بما يرى من صورة
حَرَكَتِكَ، كما يعرف معانيك من إشارتك، ويدعوك ويطلبُ
إليك بصوتٍ؛ وهو لم يسمع صوتك قط فيقصد إليه،
ولكنه يريد تلك الحركة، وتلك الحركة تولد الصوت،
أراده هو أو لم يردده، وَيُضْرَبَ فيصيح، وهو لم يقصد
إلى الصَّيْحِ، ولكنّه متى أدار لسانه في جَوْبَةِ الفم
بالهواء الذي فيه، والنَّفْس الذي يُحْضِرُه جُمَاعِ الفم،
حَدَثَ الصَّوْتِ، وهذا إنما غايته الحركة فيعرف صورة
تلك الحركة.

والأخرس يرى النَّاسِ يصفقون بأيديهم، عند دعاءِ
إنسان، أو عند الغضب والحدِّ، فيعرف صورة تلك
الحركة؛ لطول تردادها على عينيه، كما يعرف سائر
الإشارات، وإذا تعجَّبَ ضربَ بيديه كما يضربون.
فالتَّعامَة تعرفُ صورةَ إشارة الرِّئْلان وإرادتها، فتعقل
ذلك، وتجاوبها بما تعقل عنها من الإشارة والحركة،
وغدت لحركتها أصواتٌ، ولو كانا يسمعان لم تزد حالهما
في الفَهاْمِ على ذلك.

شم النعاما والعرب تقول: أَشَمُّ مِنْ نَعَامَةٍ وَأَشَمُّ مِنْ ذَرَّةٍ،
قال الرَّاجِزُ:

أَشَمُّ مِنْ هَيْقٍ وَأَهْدَى مِنْ جَمَلٍ

وقال الحرّمازيُّ، في أرجوزته:

وهو يَشْتَمُّ اشْتِمَامَ الْهَيْقِ

قال: وأخبرنا ابن الأعرابي أنّ أعرابياً كلم صاحبه، فراه
لا يفهم عنه ولا يسمع فقال: أَصْلَحَ كَصَلَحَ النَّعَامَةِ.
شم الفرس والذئب والذر وقد يكون الفرسُ في الموكب
وخلفه، على قاب غلوتين، حَجْرٌ أو رَمَكَةٌ، فَيَتَحَصَّنُ تحتَ
راكبه، من غير أن تكونَ صهلتُ.
والذئب يشتمُّ ويستروح من ميلٍ، والذرة تشتمُّ ما ليس له
ريحٌ، ممّا لو وضعتُه على أنفك ما وجدتَ له رائحة وإن
أجدتَ التشمّمَ، كرجل الجرادَة تنبذها من يدك في موضعٍ
لم تر فيه ذرّة قطّ، فلا تلبث أن ترى الذرّ إليها كالخيط
الأسود الممدود.

وقال الشاعر، وهو يصف استرواح الناس:

وَجَاءَ كَمِثْلِ
الرَّالِ يَتَّبِعُ
أَنْفَهُ

لِعَقْبِيهِ مِنْ وَفَعِ
الصُّخُورِ قَعَاقِعُ

فَإِنَّ الرَّالَ يَشْتَمُ رَائِحَةَ أَبِيهِ وَأُمَّهُ وَالسَّبْعُ وَالْإِنْسَانِ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَشَبَّهَ بِهِ رَجُلًا جَاءَ يَتَّبِعُ الرِّيحَ فَيَشْتَمُ.
استطرد لغوي وقال الآخر:

والمرء لم
يغضب لمطلب
أنفه

أو عرسه
لكريهة لم
يغضب

ومطلب أنفه: فرج أمه؛ لأنَّ الولد إذا تمتَّ أيَّامه في
الرَّحِمِ، قَلَا مَكَانَهُ وَكَرِهَهُ، وَضَاقَ بِهِ مَوْضِعُهُ، فَطَلَبَ
بِأَنْفِهِ مَوْضِعَ الْمَخْرَجِ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكَرْبِ، حَتَّى يَصِيرَ
أَنْفُهُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَمِ الرَّحِمِ، تَلْقَاءَ فَمِ الْمَخْرَجِ، فَالْأَنْاءُ
وَالْمَكَانُ يَرْفَعَانِهِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ، وَالْوَلَدُ يَلْتَمِسُ تِلْكَ
الْجِهَةَ بِأَنْفِهِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ يَطْلُبُ الْهَوَاءَ مِنْ ذَاتِهِ، وَيَكْرَهُ
مَكَانَهُ مِنْ ذَاتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ خِلَافِ عَالَمِهِ الَّذِي
رُبِّيَ فِيهِ، لَمَاتَ؛ كَمَا يَمُوتُ السَّمَكُ إِذَا فَارَقَهُ الْمَاءَ، وَلَكِنَّ

الماءَ لَمَّا كَانَ قَابِلًا لَطِبَاعِ السَّمَكِ غَازِيًا لَهَا، وَالسَّمَكُ
مَرِيدًا لَهُ، كَانَ فِي مَفَارِقَتِهِ لَهُ عَطْبُهُ، وَكَانَ فِي مَفَارِقَةِ
الْوَلَدِ لَجُوفِ الْبَطْنِ وَاعْتِدَانِهِ فَضَلَاتِ الدَّمِ، مَا لَا يَنْقُصُ
شَيْئًا مِنْ طِبَاعِهِ وَطِبَاعِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ لَهُ مَرَّةً مَسْكِنًا،
فَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ:

أَوْ عِرْسَهُ
لَكْرِيهَةِ لَمْ
يَغْضَبُ

وَالْمَرْءُ لَمْ
يَغْضَبُ لَمْ طَلَبِ
أَنْفَهُ

يقول: متى لم يَحْمِ فرجَ أمِّه وامرأته، فليس مِمَّنْ يغضب
من شيءٍ يُؤُولُ إليه.

قول المتكلمين في صمم الأخرس

وزعم المتكلمون أنَّ الأخرسَ أصمُّ، وأنَّه لم يُوتَ من
العجزِ عن المنطقِ لشيءٍ في لسانه، ولكنَّه إنما أتى في
ذلك؛ لأنَّه حين لم يسمع صوتاً قطُّ، مؤلفاً أو غير مؤلف،
لم يعرف كيفيته فيقصد إليه، وأنَّ جميع الصمِّ ليس فيهم
مُصمَّت، وإنما يتفاوتون في الشدَّةِ واللَّينِ؛ فبعضهم
يسمع الهدَّةَ والصَّاعقةَ، ونهيق الحمار إذا كان قريباً

منه، والرَّعد الشَّدِيدَ، لا يسمَعُ غير ذلك، ومنهم من
يسمع السرار، وإذا رفعت له الصَّوت لم يسمَع، ومتى
كلَّمته وقرت الشكاية في أذنه، فهم عنك كلَّ الفهم، وإن
تكلَّمت على ذلك المقدار في الهواء، ولم يكن ينفذ في
قناة تحصره وتجمعه، حتَّى تُؤدِّيهِ إلى دماغه - لم يفهمه.
فالأصمُّ في الحقيقة إمَّا هو الأخرس، والأخرس إمَّا
سمي بذلك على التشبيه والقرابة، ومتى ضرب الأصمُّ
من النَّاس إنساناً أو شيئاً غيره، ظنَّ أنَّه لم يبالغ، حتَّى
يسمع صوت الضربة، قال الشَّاعر:

عَرَانِينَ، لآيَاتِهِ
لِلنَّصْرِ مُحَلِّبُ

أشَارَ بِهِمْ لَمَعَ
الأصمِّ فأقبلوا

وقال الأَسَدِيُّ:

فَقَدْ تَعْلَمُونَ
بأن لا خُلُوداً

وَأوصِيكُمْ بِطَعَانِ
الْكُمَاةِ

حَنَظَلَ شَابَةَ
يَجْنِي الهبيدا

وَضَرَبِ الجماجِمِ
ضَرَبَ الأصمِّ

وقال الهذلي:

فَالطَّعْنُ شَغْشَعَةٌ وَالضَّرْبُ مَعْمَعَةٌ ضَرْبَ الْمُعْوَلِ تَحْتَ
الدَّيْمَةِ العَضْدَا

وإنما جعله تحت الدَّيْمَةِ؛ لأنَّ الأَعْصَانَ والأشجارَ تصير
أَلْدَنَ وَأَعْلَكَ، فيحتاج الذي يضربُ تلكَ الأصولَ قبل
المطر، إلى عشرِ ضَرْبَاتٍ حَتَّى يَقْطَعَ ذلكَ المضروب؛
فإذا أصابه المطرُ احتاج إلى أكثرَ من ذلكِ.
تحقيق معنى شعري وأنشدني يحيى الأغر:

دِ يَوْمَ الجَنَابِ
ضَرْباً وَكَيْدَا

كَضَرْبِ القِيُونِ
سَبِيكَ الحَدِي

فلم أعرفه؛ فسألتُ بعضَ الصَّيَاقِلَةِ فقال: نعم، هذا بَيْنُ
معروف، إذا أَخْرَجْنَا الحَدِيدَةَ مِنَ الكِيرِ فِي يَوْمِ شَمَالٍ،
واحتاجت في القُطْعِ إلى مائةِ ضَرْبَةٍ، احتاجت في قُطْعِهَا
يَوْمَ الجَنُوبِ إلى أكثرَ من ذلك، وإلى أشدَّ من ذلكِ
الضَّرْبِ؛ لأنَّ الشَّمَالَ يُبَيِّسُ وَيَقْصِفُ، والجَنُوبُ يَرْطَّبُ
ويَلْدَنُ.

الأخرس والإنسان أبداً أخرس، إذا كان لا يسمع ولا

يتبيّن الأصوات التي تخرج من فيه، على معناه، ويقال
في غير الإنسان، على غير ذلك، قال كثير:

سَلِمَتْ وَأَسْقَاكَ
السَّحَابُ
البوارقُ

ألم تَسْأَلِي يَا أُمَّ
عَمْرٍو فَتُخْبِرِي

ونعق ولم يُسْمَعِ
لهن صواع

بِكَيًّا لِيَصَوْتِ
الرَّعْدِ خرس
روائح

وتقول العرب: ما زلت تحت عين خرساء، والعين:
السحابة تبقى أياماً تمطر، وإذا كثرت ماؤها وكثفت، ولم
يكن فيها مخارق تُمدح ببرق.

سرعة الضوء وسرعة الصوت ومتى رأيت البرق
سَمِعْتَ الرَّعْدَ بَعْدُ، والرَّعْدُ يكون في الأصل قبله، ولكنَّ
الصَّوْتُ لا يصل إليك في سرعة البرق؛ لأنَّ البارِقَ
والبصر أشدُّ تقارباً من الصَّوْتِ والسَّمْعِ، وقد ترى
الإنسان، وبينك وبينه رَحْلُهُ فيضرب بعصاً إمّا حجراً،

وإِمَّا دَابَّةً، وَإِمَّا ثَوْبًا، فَتَرَى الضَّرْبَ، ثُمَّ تَمَكُّتُ وَقْتًا إِلَى
أَنْ يَأْتِيكَ الصَّوْتُ.

السحابة الخرساء

فَإِذَا لَمْ تَصَوِّتِ السَّحَابَةُ لَمْ تَبَشِّرْ بِشَيْءٍ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا
رِزٌّ سَمَّيْتَ حَرْسَاءَ.

الصخرة الصماء

وَإِذَا كَانَتِ الصَّخْرَةُ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ سَمَّيْتَ صَمَاءً، قَالَ
الْأَعَشَى:

مَكْرُوهَةٌ يَخْشَى
الْكُمَاةُ نِزَالَهَا

وَإِذَا تَجِيءُ
كَنْبِيَّةٌ مَلْمُومَةٌ

وَعَلَى غَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى قَالَ كَثِيرٌ:

مَنْ الصَّمُّ لَوْ
تَمَشَى بِهَا
الْعَصْمُ زَلَّتْ

كَأَنِّي أَنَادِي
صَخْرَةً حِينَ
أَعْرَضْتُ

وَمِنْ هَذَا الشَّكْلِ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وَتَنُوفَةٌ عَمِيَاءَ لَا
يَجْتَازُهَا

إِلَّا الْمَشِيْعُ ذُو
الْفُؤَادِ الْهَادِي
وَذِرَاعٌ مُلْقِيَةٌ
الْجِرَانَ وَسَادِي

قَفَرٌ هَجَعْتُ بِهَا
وَلَسْتُ بِنَائِمٍ

لِحَاظَةِ طَفَلٍ
العَشِيِّ سِنَادٍ

وَوَقَعْتُ بَيْنَ
قُتُودِ عُنُسٍ
ضَامِرٍ

فَجَعَلَ التَّنُوفَةَ عَمِيَاءَ، حِينَ لَمْ تَكُنْ بِهَا أَمَارَاتٍ.

الزبابة

وَدَابَّةٌ يُقَالُ لَهَا الزَّبَابَةُ، عَمِيَاءٌ صَمَاءٌ، تُشْبِهُ الْفَأْرَةَ؛
وَلَيْسَتْ بِالْخُذِّ؛ لِأَنَّ الْخُذَّ أَعْمَى وَلَيْسَ بِأَصَمٍّ، وَالزَّبَابُ
يَكُونُ فِي الرَّمْلِ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَسْمَعُ الْأَدَانُ
رَعْدًا

وَهُمْ زَبَابٌ
حَائِرٌ

وكلُّ مولودٍ في الأرض يُولد أعمى، إن كان تأويل العمى
أنَّهُ لا يُبصر إلَّا بعد أيام، فمنه ما يفتح عينيه بعد أيام
كالجرِّو؛ إلَّا أولاد الدجاج؛ فإنَّ فراريها تخرُج كاسية
كاسية.

شعر فيه مجون وقال أبو الشمقمق - وجعل الأير أعمى
أصمَّ على التشبيه - فقال:

وصوت له
بالحارث بن
عباد

فسلم عليه فاتر
الطرف ضاحكاً

معاود طعن
جائف وسناد

بأصنع مثل
الجرؤ جهم
عصفور

يسير على ميل
بغير قياد

أصم وأعمى
يُنغضُ الدهر
رأسه

قول لمن زعم أن النعامة تسمع وقال من زعم أن النعامة
تسمع: يدلُّ على ذلك قول طرفة:

هَلْ بِالْدِّيَارِ
الْغَدَاةَ مِنْ
خَرَسِ

أَمْ هَلْ بِرُبْعِ
الْجَمِيعِ مِنْ
أَنْسِ

سَوَى مَهَاةٍ
تَقْرُو أَسْرَتَهُ

وَجُودٌ يُرْتَعِي
عَلَى كَنْسِ

أَوْ خَضَابٍ
يُرْتَعِي بِهِ قَلْتَهُ

مَتَى تَرُعُهُ
الْأَصْوَاتُ
يَهْتَجِسُ

فَقَدْ قَالَ طَرْفَةٌ
كَمَا تَرَى:

مَتَى تَرُعُهُ
الْأَصْوَاتُ
يَهْتَجِسُ

وقال الآخر: جوابنا في هذا هو جوابنا فيما قبله.
فكاهة وروى الهيثم بن عدي، وسمعه بعض أصحابنا من
أبي عبيدة، قال: تضارط أعرابيان عند خالد بن عبد الله،

أحدهما تميمي والآخر أزدِيٌّ فضرط الأزدِيُّ ضرطَةً
ضئيلة، فقال التميمي:

حَبَقْتُ لِأَسْمَعْتُ
النَّعَامَ الْمَشْرَدَا

حَبَقْتُ عَجِيفاً
مُحْتَلّاً وَلَوْ
أَنْنِي

يَبْدُ هَزِيمِ الرَّعْدِ
بِدَعَا عَمْرَدَا

فَمَرَّ كَمَّر
الْمُنْجَبِقِ
وَصَوْتُهُ

من لقبه: نعامة وزعم أبو عمرو الشَّيبانيُّ عن بعض
العرب، أن كلَّ عربيٍّ وأعرابيٍّ كان يلقَّبُ نَعَامَةً، فإنما
يلقَّبُ بذلك لشِدَّةِ صَمَمِهِ، وأنه سأله عن الظليم: هل
يسمع؟ فقال: يَعْرِفُ بِأَنْفِهِ وَعَيْنِهِ، ولا يحتاج معهما إلى
سَمْعٍ، وَأَنْشَدَنِي:

ولا عَرَفَ إِلَّا
سَوْفَهَا وَشَمِيمُهَا

فَجَنَّتْكَ مِثْلَ
الْهَقْلِ يَشْتَمُّ
رَأْلَهُ

وزعم أن لَقَبَ بيهس نَعَامَةٌ، وأنه لَقَّبَ بذلك لأنه كان في
حُلُقِ نَعَامَةٍ، وكان شديد الصَّمَمِ مائِقًا، فأَنشَدَ لعدِيّ بن
زَيْد:

قَصِيرٌ وَخَاضَ
المَوْتَ بالسَّيْفِ
بِيَهْسُ

وَمِنْ حَذْرٍ
الأيامَ مَا حَزَّ
أَنفَهُ

تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ
كَيْفَ يَلْبَسُ

نَعَامَةٌ لَمَّا
صَرَّعَ القَوْمُ
رَهْطَهُ

وقال المتنخل الهذلي وذكر سيفاً:

حَذْبَاءُ كَالعَطِّ مِنْ
الخِذْعِ

مُنْتَخَبُ اللَّبِّ
لَهُ ضَرْبَةٌ

يقول: هذا السَّيْفُ أهْوَجُ لا عَقْلَ لَهُ، والخَذْبُ فِي هَذَا
المَوْضُوعِ: الهَوْجُ، وَتَهَاوَى الشَّيْءُ لا يَتَمَالِكُ، وَيُقَالُ
لِلسَّيْفِ لا يُبَالِي مَا لَقِيَ.

شعر في النعام والتشبيه به وقال الأعشى في غير هذا
الباب:

كَحَوْصَلَةِ الرَّأْلِ
فِي جَرِيهَا
إِذَا جُلَيْتَ بَعْدَ
إِقْعَادِهَا

كحوصلة الرأل يصف الخمر بالحمرة، جليت: أخرجت؛
وهو مأخوذ من جلوة العروس القاعدة، إذا قعدت عن
الطلب، ومثله في غير الخمر قول علقمة:

تَأْوِي إِلَى حِسْكِ
حُمُرٍ حَوَاصِلُهُ
كَأْتِهِنَّ إِذَا
بَرَكَنَ
جُرْثُومُ

وقال الأخنس بن شهاب:

تَظَلُّ بِهَا رُبْدُ
النَّعَامِ كَأَنَّهَا
إِمَاءٌ تَرْجِي
بِالْمَسَاءِ حَوَاطِبُ

ترجي: تدفع؛ وذلك أنه يثقل حملها فتمشي مشية
النعام، وقال الراجز:

رَتَكَ النَّعَامُ إِلَى
كَثِيفِ الْعَرْفَجِ

وَإِذَا الرِّيحُ
تَرَوَّحَتْ بِعَشِيَّتِهِ

والرَّتَكَ: مشيٌّ سريع، يقول تبادِرُ إلى الكثيف تستتر به
من البرد، وقال:

رَتَكَ النَّعَامَةِ فِي طَرِيقِ حَامٍ

استقبال الظليم للريح وليس لِقَوْلٍ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الظليم إذا
عدا استقبالَ الرِّيحِ، وإِنَّمَا ذَلِكَ مَخَافَةٌ أَنْ تَكُونَ الرِّيحُ مِنْ
خَلْفِهِ فَتَكْبِتَهُ - معنى؛ لَأَنَّا نَجِدُهُمْ يَصِفُونَ جَمِيعَ مَا
يَسْتَدْعُونَهُ بِاسْتِقْبَالِ الرِّيحِ، قَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ، يَصِفُ
النُّورَ:

لِسَانُهُ عَنُ
شِمَالِ الشَّدَقِ
مَعْدُولُ

مَسْتَقْبِلِ الرِّيحِ
يَهْفُو وَهُوَ
مُبْتَرِكٌ

ووصف الأديب طفيل الغنوي، فقال:

عَلَى شَرَفِ

كسيد العضا

مُسْتَقْبَلِ الرِّيحِ
يَلْحَبُ

العَادِي أَضَلَّ
جِرَاءَهُ

استطرد ويلحق بموضع ذكر الضرب الشديد، قولهم في
المثل: ضَرَبْنَاَهُمْ ضَرْبَ غَرَابِ الإِبِلِ، قال أبو حية:

جَدِيرُونَ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْ يَخْضِبُوا الْقَتَاوَانَ يَتْرُكُوا الْكَبْشَ
المدجج ثاويا

غرائب تغشاه جراراً ضواريا

ضَرَبْنَاَهُمْ ضَرْبَ الْجَنَابِي عَلَى جَبِي

وإذا جاءت عطاشاً قد بلغ منها العطش واليبس، قيل:
جاءت تصل أجوافها صليلاً، قال الراعي:

لِلْمَاءِ فِي
أَجَوَافِهِنَّ
صَلِيلاً

فَسَقُوا صَوَادِي
يَسْمَعُونَ عَشِيَّةً

قال: وأنشدنا أبو مَهْدِيَّة، لمزاحم العُقَيْلِي:

عَدْتُ مِنْ عَلَيْهِ
بَعْدَ مَا تَمَّ
ظَمُوهَا

تَصِلُ وَعَنْ قَيْضِ
بِرِّيزَاءِ مَجْهَلِ

قال الزبيراء: المكان الغليظ.
وقال آخر:

أَلَمْ تَعَلَّمِي يَا أُمَّ
حَسَانَ أَنَّنِي

إِذَا عَبْرَةٌ
نَهْنَهْتُهَا
فَتَجَلَّتِ

رَجَعْتُ إِلَى
صَدْرِ كَجَرَّةٍ
حَنْتِ

إِذَا فُرِعَتْ صِفْرًا
مِنَ الْمَاءِ صَلَّتِ

اختبار أمير المؤمنين المنصور لأحد الحواء وزعم ابن
أبي العجوز الحوَاء، أَنَّ الْأَفَاعِي صُمَّ، فَلذَلِكَ لَا تُجِيب
الرُّقَى، ثُمَّ زَعَمَ لِي فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
الْمَنْصُورَ، أَرَادَ امْتِحَانَ رُقَى حَيَّةٍ وَأَنْ يَتَعَرَّفَ صِحَّتَهَا مِنْ
سُقْمِهَا، وَأَنَّهُ أَمَرَ فِصَاغُوا لَهُ أَفْعَى مِنْ رِصَاصِ، فَجَاءَتْ

ولا يشكُّ الناظر فيها؛ وأِنَّهُ أمرٌ بالزاقها في موضعٍ من
السَّقْفِ؛ وَأِنَّهُ أَحْضَرُهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْأَفْعَى قَدْ صَارَتْ
فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَقَدْ كَرِهْتُهَا لِمَكَانِهَا؛ فَإِنْ احْتَلَّتْ لِي
بِرُقْيَةٍ، أَوْ بِمَا أَحْبَبْتَ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ، قَالَ: إِنْ أَرَدْتُ أَنْ
أَخْذَهَا هَرَبْتُ، وَلَكِنْ أَرْقِيهَا حَتَّى تَنْزِلَ فِرْقَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا لَا
تَتَحَرَّكَ زَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ وَأَلْقَى قِنَاعَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا
تَتَحَرَّكَ نَزَعَ عِمَامَتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا
تَتَحَرَّكَ نَزَعَ قَلَنْسُوتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا
تَتَحَرَّكَ نَزَعَ ثِيَابَهُ، وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، حَتَّى أَزْبَدَ،
وَتَمَرَّعَ فِي الْأَرْضِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ سَالَ ذَلِكَ الرَّصَاصُ
وَذَابَ، حَتَّى صَارَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَأَقْرَعَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَنْصُورُ
بِجُودَةِ رُقْيَتِهِ.

فَقُلْتُ لَهُ: وَيْلَكَ زَعَمْتَ قُبَيْلُ أَنْ الْأَفَاعِي لَا تُجِيبُ الرُّقَى؛
لَأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ، وَهِيَ حَيَوَانٌ، ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّهَا أَجَابَتْ، وَهِيَ
جَمَادٌ.

شعر وخبر في نفار النعامة وقال الشاعرُ:

سَوَى الرَّبْدِ مِنْ
أَنْسٍ بِتَلِكِ

وَرِبْدَاءِ يَكْفِيهَا
الشَّمِيمُ وَمَا

لَهَا

المجاهل

يخبر أنّ النّعمة لا تستأنسُ بشيءٍ من الوحش، وأنّ الشّمّ يغنيها في فهم ما تحتاج إليه، وهي مع ذلك إذا صارت إلى دور النّاس، فليس معها من الوحشة منهم، على قدر ما يذكرون، وفي الوحش ما يأنس، وفيها ما لا يأنس، وقال كثير:

وإن شحطت
دارً وشطّ
مزارها

فأفسمتُ لا أنسأك
ما عشتُ لئيلةً

ببيض الرُّبا
أنسيها
ونوارها

وما استنّ رراقُ
السّرابِ وما
جرتُ

ووصف بلاداً قفاراً غيرَ مأنوسة فقال:

قربها غير
رابتات

ما ترى العين
حولها من أنيسٍ

الرَّئَال

خَصَّهَا بِالذَّكْرِ؛ لَأَنَّهَا أَنْفَرُ وَأَشْرَدُ، وَأَقَلُّ أَنْسَاءً مِنْ جَمِيعِ
الْوَحْشِ.

وقال الأحيمر: كُنْتُ آتِيَ الظَّنْبِيَّ حَتَّى أَخَذَ بِذِرَاعِيهِ؛ وَمَا
كَانَ شَيْءٌ مِنْ بَهَائِمِ الْوَحْشِ يَنْكُرُنِي إِلَّا النَّعَامَ، وَأَنْشَدَ
قَوْلَ ذِي الرُّمَّةِ:

أخو الإنسِ من
طُولِ الخَلَاءِ المَغْفَلِ

وكلَّ أَحَمَّ
المَقْلَتَيْنِ
كَأَنَّهُ

يَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَدْرِ مَا شَاهَدْنَا أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إِلَى
الصَّحَارَى الْأَعْفَالِ، الَّتِي لَمْ يُدْعَرْ صَيْدُهَا، وَلَا يَطُوقُهَا
النَّاسُ، فَيَأْتُونَ الْوَحْشَ فَوْضَى هَمَلًا، وَمَعَهُمْ كِلَابُهُمْ
وَفَهْوُدُهُمْ تَتَلَوَى بِأَيْدِيهِمْ، فَيَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَوْ
كَانُوا ابْتَدَؤُوا الصَّيْدَ مِنْ جِهَتِهَا لَأَخَذُوا مَا أَخَذُوا فَإِذَا
نَفَرَتْ وَحُوشُ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَمَرَّتْ بِالْأَرْضِ الْمَجَاوِرَةِ
لَهَا، نَفَرَتْ سَكَانُ تِلْكَ الْأَرْضِ مَعَ هَذِهِ النَّوَافِرِ، وَلَا تَعُودُ
تِلْكَ الصَّحَارَى إِلَى مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، مِنْ كَثْرَةِ الْوَحْشِ

حيناً.

ومتى لم تنفّرْها الأعرابُ بالكلابِ والقسيِّ، ونصب
الحيائل، رتعتْ بقربهم، ثم دنتْ منهم أولاً فأولاً، حتى تطأ
أكنافَ بيوتهم، وهي اليوم في حَيْرِ المعتصم بالله والوائق
بالله على هذه الصّفة.

هجرة الطباء إلى الناس وخبرني إبراهيم بن السندي قال
خبرني عبد الملك بن صالح، وإسحاق بن عيسى،
وصالح صاحب الموصل، أنّ خالد بن برمك، بينا هو
على سطح من سطوح القرى مع قحطبة، وهم يتغدّون،
وذلك في بعض منازلهم، حين فصلوا من خراسان إلى
الجبل، قال: وبين قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيام
وليال، قال: فبيننا خالد يتغدّى معه وذلك حين نزلوا وبهم
كلال السير، وحين علّقوا على دوابّهم، ونصبوا فدورهم،
وقربوا سفرهم.

قال فنظر خالد إلى الصحراء، فرأى أفاطيع الطباء قد
أقبلت من جهة الصحارى، حتى كادت تخالط العسكر،
فقال لقحطبة: أيّها الأمير ناد في الناس: يا خيل الله
اركبي؛ فإن العدو قد حثّ إليك السير، وغاية أصحابك أن
يسرجوا ويُلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل، فقام

قحطبة مدُعوراً، فلما لم ير شيئاً يرُوعه، وَلَمْ يَرَ غُبَاراً
قال لخالد: ما هذا الرَّأْيُ قال: أَيُّها الأمير لا تتشاغل بي
وبكلامي، وَنَادِ فِي النَّاسِ، أما تَرَى أَقَاطِيعَ الوَحْشِ قد
أقبلت، فارقت مواضعها حتَّى خالطت الناس؟ إِنَّ وَرَاءَهَا
جَمْعاً عَظِماً، قال: فوالله ما أَلْجَمُوا وَأَسْرَجُوا حتَّى رَأَوْا
سَاطِعَ الغُبَارِ، ولا تَلَبَّسُوا وتسلَّحُوا حتَّى رَأَوْا الطليعة،
فما التأموا حتَّى استوى أصحابُ قحطبة على ظُهورِ
خيولهم، ولولا نَظْرَةُ خالدِ بنِ برمكٍ وَفِرَاسَتُهُ، لقد كان
ذلك الجيش اصطَلَمَ.

قصة في قوة الشَّمِّ وكان إبراهيم بنُ السَّنْدِيِّ يُحَدِّثُنَا مِنْ
صَدَقِ حِسِّ أَبِيهِ فِي الشَّمِّ، بشيءٍ ما يُحْكِي مِثْلَهُ إِلَّا عَنِ
السَّبَاعِ وَالذَّرِّ وَالنَّعَامِ، وزعم أن أباه قال ذات يوم: أجد
ريحَ بولِ فأرةٍ ثَمَّ تَشَمَّمُ وَأَجَالَ أَنْفَهُ فِي المَجْلِسِ، فقال:
هو في تلك الزاوية فنظروا فإذا على طرف البساط من
البَلَلِ بقدرِ الذَّرِّهم، أو أَوْسَعُ شيئاً، فقضوا أَنَّهُ بولُ فأرةٍ.
قال: وَشَهِدْتُهُ مَرَّةً وَأَشْرَاطُهُ قِيَامٌ عَلَى رَأْسِهِ فِي
السَّمَّاطِينَ، فقال: أجد رِيحَ جَوْرِبٍ عَفِنٍ مُنْتِنٍ فَتَشَمَّمْنَا
بأجمعنا، فلم نجد شيئاً، ثَمَّ تَشَمَّمْ وقال: انزعوا خُفَّ ذَاكِ،
فزعوا خُفَّهُ، فكلَّمَا مَدَّ النَّازِعُ لَهُ شيئاً بدا من لِفَافَتِهِ، فما

زَالَ النَّتْنُ يَكْتَفُ وَيَزْدَادُ، حَتَّى خَلَعَ خُفَّهُ وَنَزَعَهُ مِنْ رِجْلِهِ، فَظَهَرَ مِنْ نَتْنِ لِفَافَتِهِ مَا عُرِفَ بِهِ صِدْقَ حَسِّهِ، ثُمَّ قَالَ: انزَعُوا الْآنَ أَخْفَافَكُمْ بِأَجْمَعِكُمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَلَّا يَكُونَ فِي جَمِيعِ اللَّفَافِ مُنْتِنٌ غَيْرُ لِفَافَتِهِ، أَوْ تَكُونَ لِفَافَتُهُ أَنْتَهَا؛ فَتَزَعُوا، فَلَمْ يَجِدُوا فِي جَمِيعِهَا لِفَافَةً مُنْتِنَةً غَيْرَهَا.
وَأَنْشَدُوا:

ثَنَاءً كُنْتِنِ
الْجُورِبِ
الْمُتَخَرِّقِ

غَزَا ابْنُ عُمَيْرٍ
غَزْوَةً تَرَكْتَ لَنَا

أَقْوَى دَرَجَاتِ التَّشَمُّمِ وَلَيْسَ الَّذِي يُحْكَى مِنْ صِدْقِ الْحَسِّ فِي الشَّمِّ - عَنِ بَعْضِ النَّاسِ، وَعَنِ النَّعَامِ وَالسَّبَّاعِ، وَالْفَأْرِ وَالذَّرِّ، وَضُرُوبِ مِنَ الْحَشْرَاتِ - مِنْ شَكْلِ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، مِنْ شَأْنِ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ يَقُولُ تَعَالَى: "قَالَ أَبُوهُمُ إِنَّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ"، وَكَانَ هَذَا مِنْ يَعْقُوبَ بَعْدَ أَنْ قَالَ يُوسُفُ: "أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا"

وَأُتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ" ، ولذلك قال: "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ" ثم قال: "فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا".

وإنما هذا علامة ظهرت له خاصة؛ إذ كان الناس لا يشتُمون أرواح أولادهم إذا تباعدوا عن أنوفهم، وما في طاقة الحصان الذي يجد ريح الحجر ممَّا يجوز الغلوتين والثلاث، فكيف يجد الإنسان وهو بالشَّام ريح ابنه في قميصه، ساعة فصل من أرض مصر؟ ولذلك قال: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

بعض المجاعات وقد غبر موسى وهو يسير أربعين عاماً، لا يذوق ذواقاً، وجاع أهل المدينة في تلك الحطمة ، حتى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدُّون الحجرَ على بطونهم، من الجوع والجهد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين يقول: إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ، إِنِّي أَبِيْتُ عِنْدَ رَبِّي، يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي.

حجاج في ذبح الحيوان وقتله ورجال ممَّن ينتحل الإسلام، يُظهرون التقدر من الصيد، ويرون أنَّ ذلك من القسوة، وأنَّ أصحاب الصيد لتؤدِّيهم الضراوة التي

اعترتهم من طُروقِ الطَّيرِ في الأوكار، وَنَصَبِ الحبائل
للظُّبَاءِ، التي تنقطع عن الخشْفَانِ حتى تموت هُزْلاً
وجُوعاً، وإشلاء السِّبَاعِ على بهائم الوحش وَسْتُسْلِمُ
أهلها إلى القسوة، وإلى التهاون بدماء النَّاسِ.
والرَّحْمَةُ شَكْلٌ واحد، وَمَنْ لم يَرْحَمْ الكَلْبَ لم يَرْحَمْ
الظُّبِيَّ، وَمَنْ لم يَرْحَمْ الظُّبِيَّ لم يَرْحَمْ الجَدْيَ، وَمَنْ لم
يَرْحَمْ العُصْفُورَ لم يَرْحَمْ الصَّبِيَّ، وصِغَارُ الأمور توَدِّي
إلى كبارها.

وليس ينبغي لأحد أن يتهاون بشيءٍ ممَّا يؤدي إلى
القسوة يوماً مآ، وأكثرُ ما سمعت هذا الباب، مِنْ نَاسٍ
من الصُّوفِيَّةِ، ومن النَّصَارَى؛ لمضاهاة النَّصَارَى سبيلَ
الزَّنَادِقَةِ، في رفضِ الذبائح، وَالبُغْضِ لإراقة الدِّمَاءِ،
وَالزُّهْدِ في أكل اللُّحْمَانِ.

وقد - كان يرحمك الله - على الزنديق ألا يأتي ذلك في
سَبَاعِ الطَّيرِ، وذوات الأربع من السِّبَاعِ، فأما قتلُ الحَيَّةِ
والعقرب، فما كان ينبغي لهم البتَّة أن يَقْفُوا في قتلها
طَرْفَةً عَيْنٍ؛ لأنَّ هذه الأمور لا تخلو من أن تكون شراً
صِرْفاً، أو يكون ما فيها من الخير مغموراً بما فيها من
الشرِّ، والشرُّ شيطانٌ، والظُّلْمَةُ عدُوُّ النُّورِ، فاستحياءُ

الظلمة وأنتَ قادرٌ على إِمَاتَتِهَا، لا يكونُ من عملِ النُّورِ،
بل قد ينبغي أن تكونَ رحمةُ النُّورِ لجميعِ الخلائقِ
والنَّاسِ، إلى استنقاذهما من سُورِ الظُّلْمَةِ.
وكما ينبغي أن يكونَ حَسَنًا في العقلِ استحياءُ النُّورِ
والعَمَلُ في تَخْلِيصِهِ وَالذَّفْعُ عَنْهُ - فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
قَتْلُ الظُّلْمَةِ وَإِمَاتَتُهَا، وَالْعَوْنُ عَلَى إِهْلَاكِهَا، وَتَوْهِينِ
أَمْرِهَا - حَسَنًا.

والبهيمة التي يَرَوْنَ أن يدفَعُوا عنها أيضاً ممزوجة، إلّا
أنَّ شَرَّهَا أَقْلٌ، فهم إذا استَبَقَوْهَا فقد استَبَقُوا الشُّرُورَ
المخالطةَ لها.

فإن زعموا أنَّ ذلك إنما جاز لهم؛ لأنَّ الأغلِبَ على
طباعها النُّورِ فليُغْتَفَرُوا في هذا الموضعِ إدخالَ الأذى
على قليل ما فيها من أجزاءِ الشَّرِّ كما اغتفروا ما في
إدخالِ الروحِ والسُّرورِ على ما في البهيمة من أجزاءِ
الظُّلْمَةِ لدفعهم عن البهيمة؛ إذ كان أكثرُ أجزائها من
النُّورِ.

وإنما ذكرتُ ما ذكرتُ؛ لأنَّهم قالوا: الدَّليلُ على أنَّ الذي
أنتم فيه، من أكلِ الحيوانِ كلِّ يومٍ من الذبائحِ، مكروهٌ
عندَ اللَّهِ، أَنْكُمْ لَمْ تَرَوْا قَطُّ ذَبَاحِي الْحَيَوَانِ وَلَا قَتْلِي

الإنسان، ولا الذين لا يقتاتون إلا اللحمان يفلحون أبداً،
ويستغنون؛ كنعو صيَّادي السمك وصيَّادي الوحش
وأصناف الجزَّارين والقصابين، والشَّوائين والطهَّانين
والفهادين والبيازرة والصقَّارين والكلابين؛ لا ترى أحداً
منهم صار إلى غرَى وَيُسْر، ولا تراه أبداً إلا فقيراً
مُحَارِفاً، وعلى حالٍ مشبَّهةٍ بحاله الأولى.
وكذلك الجلادون، ومن يضربُ الأعناقَ بين يدي المُلوكِ،
وكذلك أصحابُ الاستخراجِ والعذابِ، وإن أصابوا
الإصابات، وجميع أهل هذه الأصناف.

نَعَمْ؛ وَحَتَّى ترى بعضهم وإن خَرَجَ نَادِراً خَارِجِيًّا، ونال
منهم ثروةً وَجَاهاً وَسُلْطَاناً، فإمَّا أن يُقْتَلَ، وإمَّا يُغْتَصَبَ
نَفْسُهُ بِمِيتَةٍ عَاجِلَةٍ، عِنْدَ سُرُورِهِ بِالثَّرْوَةِ، أو يبعث الله
عليه المحق فلا يَنُمُو له شيء، وإمَّا ألا يجعل من نسلهم
عقباً مذكوراً، ولا ذكراً نبيهاً وَدُرِّيَّ طَيِّبَةً، مثل الحجاج
بن يوسف، وأبي مسلم، ويزيد بن أبي مسلم ومثل أبي
الوعد، ومثل رجالٍ ذكروهم لا نحبُّ أن نسميهم.
قال: فَإِنَّ هَؤُلَاءِ، مع كثرة الطَّرُوفَةِ وَظُهُورِ القُدْرَةِ، ومع
كثرة الإنسال، قد قَبِحَ اللهُ أمرهم، وأخْمَلَ أولادهم، فهم
بين من لم يُعْقِبْ، أو بَيْنَ مَنْ هُوَ فِي مَعْنَى مَنْ لَمْ يُعْقِبْ.

فقلت للنَّصَارَى بدياً: كيف كان النَّاسُ أَيَّامَ الْحُكْمِ بما في
النُّورَةِ أَيَّامَ مُوسَى وَدَاوُدَ، وهما صاحبا حُرُوبٍ وَقَتْلٍ،
وَسِبَاءٍ وَذَبَائِحٍ؟ نعم حتى كان القربان كله أو عامته
حيواناً مذبوحاً، لذلك سَمَّيْتُم بيت المذبح.
وَلَسْنَا نَسْأَلُكُمْ عَن سِيرَةِ النَّصَارَى الْيَوْمَ، وَلَكِنَّا نَسْأَلُكُمْ
عَنْ دِينِ مُوسَى وَحُكْمِ التُّورَةِ، وَحُكْمِ صَاحِبِ الزَّبُورِ،
وما زالوا عندكم إلى أن أنكروا رُبُوبِيَّةَ الْمَسِيحِ، عَلَى
أَكْثَرِ مَنْ حَالِنَا الْيَوْمَ فِي الذَّبَائِحِ، وَأَنْتُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنْ
حَالَاتِكُمْ تُغْلُونَ عَلَيْنَا السَّمَكَ، حَتَّى نَتَوَخَّى أَيَّاماً بِأَعْيَانِهَا،
فَلَا نَشْتَرِي السَّمَكَ إِلَّا فِيهَا؛ طَلَباً لِلإِمْكَانِ وَالِاسْتِرْخَاصِ،
وَهِيَ يَوْمُ الْخَمِيسِ، وَيَوْمُ السَّبْتِ، وَيَوْمُ الثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّ
شِرَاعَكُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقِلُّ، عَلَى أَنْكُمْ تُكْثِرُونَ مِنَ الذَّبَائِحِ
فِي أَيَّامِ الْفِصْحِ، وَهَلْ تَدْعُونَ أَكْلَ الْحَيَوَانِ إِلَّا أَيَّاماً
مَعْدُودَةً، وَسَاعَاتٍ مَّعْلُومَةً؟.

فَإِذَا كَانَتْ الْحِرْفَةُ وَالْمَحَنُ إِنَّمَا لَزِمَا الْقَصَابِينَ وَالْجَزَارِينَ
وَالشَّوَانِينَ، وَأَصْنَافَ الصِّيَادِينَ، مِنْ جِهَةِ الْعُقُوبَةِ - فَأَنْتُمْ
شُرَكَاءُ صِيَادِي السَّمَكِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّكُمْ أَكَلُ الْخَلْقِ لَهُ، وَأَنْتُمْ
أَيْضاً شُرَكَاءُ الْقَصَابِينَ فِي عَامَّةِ الدَّهْرِ، فَلَا أَنْتُمْ تَدِينُونَ
لِلْإِسْلَامِ فَتَعْرِفُوا مَا عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ، وَفَصَلْ مَا بَيْنَ الرَّحْمَةِ

والقسوة، وما الرحمة، وفي أي موضع يكون ذلك
القتل رحمة؟ فقد أجمعوا على أن قتل البعض إحياءً
لجميع، وأن إصلاح الناس، في إقامة جزاء الحسنه
والسيئة، "ولكم في القصص حياة".

والقود حياة، وهذا شيء تعمل به الأمم كلها، غير
الزنادقة، والزنادقة لم تكن قط أمّة، ولا كان لها ملك
ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق، فلا أنتم
زنادقة، ولا ينكر لمن كان ذلك مذهباً أن يقول هذا
القول.

فأنتم لا دهرية، ولا زنادقة، ولا مسلمون؛ ولا أنتم
راضون بحكم الله أيام التوراة.
فإن كان هذا الحكم قد أمر الله به - وهو عدل - فليس
بين الزمانين فرق.

وبعد فإنا نجدكم تأكلون السمك أكلاً ذريعاً، وتتقدرون
من اللحم أفلان السمك لا يألّم القتل، أم لأن السمك لما
قتلتموه بلا سكين لم يحسّ قتله؟ فالجميع حيوان، وكل
مقتول يألّم، وكلّ يحسّ، فكيف صار أكل اللحم قسوة،
وأكل السمك ليس بقسوة؟، وكيف صار ذبح البهائم
قسوة ولا تكون تفرقة ما بين السمك والماء حتى تموت

قسوة وكيف صار ذبح الشاة قسوةً وصيد السمك
بالسنانير المدربة المعققة ليس لها شعائر تخالف العقاف
المنصوص في جهاتها، وكيف وهي وإن لم تنشب في
أجوافها، وتقبض على مجامع أرواحها، لم تقدر على
أخذها؟.

وكيف صار وجمء اللبنة من الجزور أقسى من ضرب
النبائل؟ أم كيف صار طعن العير بالرمح، ونصب
الحبائل للظباء، وإرسال الكلاب عليها أشد من وقع
النبائل في ظهر السمك؟.

ولأنكم تكثرون قولكم: لا نأكل شيئاً فيه دم أيام صومنا،
فلسمك دم، ولا بد لجميع الحيوان من دم أو شيء
يشاكل الدم، فما وجه اعتلاككم بالدم؟ لأن كل شيء فيه
دم فهو أشد أماً؟ فكيف نعلم ذلك؟ وما الدليل عليه؟.
فإن زعمتم أن ذلك داخل في باب التعبد والمصلحة، لا
في باب القياس والرحمة والقسوة، فهذا باب آخر، إلا أن
تدعوا أن دوات الدماء أقوى للأبدان، وأشر للنفوس،
فأردتم بذلك قلة الأشر وضعف البدن، فإن كان ذلك كذلك
فقد ينبغي أن يكون هذا المعنى مستبيناً في آكلي السمك
من البحرين.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مُلَازِمَةِ الْحِرْفَةِ لِهَوْلَاءِ الْأَصْنَافِ، فَإِنَّ
كُلَّ مَنْ نَزَلَتْ صِنَاعَتُهُ، وَدَقَّ حَظْرُ تِجَارَتِهِ، كَذَلِكَ سَبِيلُهُ.
وَأَحَلُّ الرِّسْبِ كُلُّهُ وَأَطْيَبُهُ عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ سَقْيُ الْمَاءِ،
إِمَّا عَلَى الظَّهْرِ، وَإِمَّا عَلَى دَابَّةٍ، وَلَمْ أَرَ سَقَاءً قَطُّ بَلَغَ
حَالَ الْيَسَارِ وَالثَّرْوَةِ وَكَذَلِكَ ضَرَابُ اللَّبَنِ، وَالطَّيَّانُ،
وَالْحَرَائِثُ، وَكَذَلِكَ مَا صَغُرَ مِنَ التِّجَارَاتِ وَالصَّنَاعَاتِ.
أَلَا تَرُونَ أَنَّ الْأَمْوَالَ كَثِيرًا مَا تَكُونُ عِنْدَ الْكُتَّابِ، وَعِنْدَ
أَصْحَابِ الْجَوْهَرِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِ الْوَشْيِ وَالْأَنْمَاطِ، وَعِنْدَ
الصَّيَارِفَةِ وَالْحَنَاطِينَ، وَعِنْدَ الْبَحْرِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ،
وَالْجُلَّابِ أَيْدَاءً، وَالْبِيَازِرَةَ أَيْسَرُ مَمَّنْ يَبْتَاعُ مِنْهُمْ.
وَجُمْلُ الْأَمْوَالِ حَقٌّ بِأَنْ تُرْبِحَ الْجُمْلَ مِنْ تَفَارِيقِ الْأَمْوَالِ،
وَكَذَلِكَ سَبِيلُ الْقَصَابِ وَالْجَزَّارِ، وَالشَّوَاءِ، وَالْبَازِيَارِ،
وَالْفَهَّادِ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ انْقِطَاعِ نَسْلِ الْقُسَاةِ، وَخُمُولِ أَوْلَادِهِمْ،
كَانْقِطَاعِ نَسْلِ فِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَنَمْرُودَ، وَبُخْتَ نَصْرَ،
وَأَشْبَاهِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى".
وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَعْدُوا مِنَ الْمَذْكُورِينَ بِالصَّلَاحِ أَكْثَرَ مِنْ
هَوْلَاءِ مَمَّنْ كَانَ عَقِيمًا أَوْ كَانَ مِينَاثًا، أَوْ يَكُونُ مَمَّنْ نَبَتَ
لَهُمْ أَوْلَادٌ سَوَاءً عَقَوْهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، وَعَرَضَوْهُمْ لِلْسَبِّ

بعد موتهم - لوجدتموهم.

وعلى أني لم أنصب نفسي حرباً للحجاج بن يوسف،
ويزيد بن أبي مسلم، أتحرى بهما، وهما عندي من أهل
النار، ولكني عرفت مغزاكم، وعلى أنكم ليس القصابين
أردنتم، ولكنكم أردنتم دين المسلمين.

وقد خرج الحجاج من الدنيا سليماً في بدنه، وظاهر
نعمته، وعلي مرتبته من الملك، ومكانه من جواز الأمر
والنهي.

فإن كان الله عندكم سلمه وعاقب أولاده، وكان ذلك دينكم
فإن هذا قول إن خاطبتم به الجبرية فعسى أن تتعلقوا
منهم بسبب فأما من صحح القول بالعدل فإن هذا القول
عنده من الخطأ الفاحش الذي لا شبهة فيه.
شعر في القانص و فقره وكان مما أنشدوا من الدليل على
أن القانص لا يزال فقيراً - قول ذي الرمة:

حَتَّى إِذَا مَا لَهَا فِي الْجَدْرِ وَاتَّخَذَتْ شَمْسُ النَّهَارِ شُعَاعاً
بَيْنَهَا طَبَبُ

كَأَنَّهُ حِينَ يَعْلُو عَاقِرًا هَبُّ

وَلَا حَ َ أَزْهَرُ مَشْهُورٌ بِنُقْبَتِهِ
شَوَازِبٌ لِأَحْهَا التَّغْرِِيثُ وَالْجَنْبُ

هَاجَتْ بِهِ جُوعٌ طُنْسٌ مُخَصَّرَةٌ
مِثْلُ السَّرَاحِينِ فِي أَعْنَاقِهَا الْعَدْبُ

جُرْدٌ مَهْرَتُهُ الْأَشْدَاقِ ضَارِيَةٌ
أَلْفَى أَبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يَكْتَسِبُ

وَمُطْعَمُ الصَّيْدِ هَبَالٌ لِبُغْيَتِهِ
إِلَّا الضِرَاءَ وَإِلَّا صَيْدَهَا نَشَبُ

مَقْرَعٌ أَطْلَسُ الْأَطْمَارِ لَيْسَ لَهُ
يَلْحَبْنَ لَا يَأْتِي الْمَطْلُوبُ وَالطَّلَبُ

فَانصَاعَ جَانِبَهُ الْوَحْشِيِّ وَأَنْكَدَرَتْ

قال: فجعله كما ترى مقرّعاً أطلسَ الأطمار، وخبرَ أنّ
كَلابَهُ نَشْبُهُ، وَأَنَّهُ أَلْفَى أَبَاهُ كَذَلِكَ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ
الْآخِرِ:

رعى النبع
والظيان في
شاهقٍ وعر

وأعصم أنسته
المنية
نفسه

بنيقٍ مزلٍ غير
كدرٍ ولا نزر

موارده قلتُ
تصفقه
الصبا

عليه غصونٌ
دانياتٌ من

قرته السحاب
ماؤها

وتهدلت

أتيح له

طلح إزاه

بكفه

أو صبية لا

يستدر إذا

شتا

له زوجة

شمطاء يدرج

حولها

مشوهة لم

تعب طيباً ولم

تبت

محددة

العرقوب ثلم

السمر

هتوف وأشباه

تخيرن من حجر

لقوحاً ولا عنزاً

وليس بذئ وفر

فطيم تناجيه

وآخر في

الحجر

تقتري هنديةً بليلاً

على جمر

تعرقها الأوذار

من فقر الحمر

نابها

مسفعة

الخدین سود

درعها

تقدرها باللیل
والأخذ بالقدر

كغول الفلاة لم

تخضب

بنانها

ولم تدر ما زي
الخرائد بالمصر

فأرسل سهماً

أرهف القين

حده

فأنفذ حصينه
فخر على النحر

مسألة المنانية كان أبو إسحاق يسأل المنانيّة، عن
مسألة قريبة المأخذ قاطعة، وكان يزعم أنّها ليست له.
وذلك أنّ المنانيّة تزعم أنّ العالم بما فيه، من عشرة
أجناس: خمسة منها خيرٌ ونورٌ، وخمسة منها شرٌّ
وظلمة، وكلّها حاسّةٌ وحارّةٌ.

وأنّ الإنسان مركّبٌ من جميعها على قدر ما يكون في كلّ

إنسانٍ من رُجْحَانِ أَجْناسِ الخَيْرِ على أَجْناسِ الشَّرِّ،
وَرُجْحَانِ أَجْناسِ الشَّرِّ على أَجْناسِ الخَيْرِ.
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ ذَا حَوَاسِّ خَمْسَةٍ، فَإِنَّ فِي لُثَى
حَاسَّةٍ مَتُونًا مِنْ ضِدِّهِ مِنَ الْأَجْناسِ الخَمْسَةِ، فَمَتَى نَظَرَ
الْإِنْسَانُ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ فَتَكَ النَّظْرَةَ مِنَ النُّورِ، وَمِنَ الخَيْرِ،
وَمَتَى نَظَرَ نَظْرَةَ وَعِيدٍ، فَتَكَ النَّظْرَةَ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَكَذَلِكَ
جَمِيعِ الحَوَاسِّ.

وَأَنَّ حَاسَّةَ السَّمْعِ جِنْسٌ عَلَى حَدِّهِ، وَأَنَّ الَّذِي فِي حَاسَّةِ
البَصَرِ مِنَ الخَيْرِ وَالنُّورِ، لَا يَعِينُ الَّذِي فِي حَاسَّةِ السَّمْعِ
مِنَ الخَيْرِ وَلَكِنَّهُ لَا يَضَادُّهُ، وَلَا يُفَاسِدُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ، فَهُوَ
لَا يَعِينُهُ لِمَكَانِ الخِلَافِ وَالجِنْسِ، وَلَا يَعِينُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ
لَيْسَ ضِدًّا.

وَأَنَّ أَجْناسَ الشَّرِّ خِلَافٌ لِأَجْناسِ الشَّرِّ، ضِدٌّ لِأَجْناسِ
الخَيْرِ، وَأَجْناسَ الخَيْرِ يَخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَلَا يَضَادُّ،
وَأَنَّ التَّعَاوُنَ وَالتَّادِيَّ لَا يَقَعُ بَيْنَ مُخْتَلِفِهَا، وَلَا بَيْنَ
مُتَضَادِّهَا، وَإِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مُتَّفَقِهَا.
قال: فيقال للمنانى: ما تقول في رجلٍ قال لرجلٍ: يا فلان،
هل رأيت فلاناً؟ فقال المسؤول: نعم قد رأيته، أليس
السَّامِعُ قَدْ أَدَّى إِلَى النَّاطِرِ، وَالنَّاطِرُ قَدْ أَدَّى إِلَى الدَّائِقِ؟

وَالْأَفْلَمَ قَالَ اللِّسَانُ: نَعَمْ إِلَّا وَقَدْ سَمِعَ الصَّوْتَ صَاحِبُ
اللِّسَانِ؟ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَصِيرَةٌ كَمَا تَرَى، وَلَا حِيلَةَ لَهُ
بِأَنْ يَدْفَعَ قَوْلَهُ.

مُسْأَلَةٌ زَنْدِيقٍ وَمَسْأَلَةٌ أُخْرَى، سَأَلَ عَنْهَا أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ الزُّنْدِيقَ الَّذِي كَانَ يَكْنَى بِأَبِي عَلِيٍّ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا
رَأَى مِنْ تَطْوِيلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ وَعَجْزِ الْعُتْبِيِّ وَسَوْءِ
فَهْمِ الْقَاسِمِ بْنِ سَيَّارٍ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: أَسَأَلُكَ عَنْ
حَرْفَيْنِ فَقَطْ، خَبَّرْنِي: هَلْ نَدِمَ مُسِيءٌ قَطَّ عَلَى إِسَاءَتِهِ، أَوْ
نَكُونُ نَحْنُ لَمْ نَنْدَمْ عَلَى شَيْءٍ كَانَ مَنَا قَطُّ؟ قَالَ: بَلْ نَدِمَ
كَثِيرٌ مِنَ الْمَسِيئِينَ عَلَى إِسَاءَتِهِمْ، قَالَ: فَخَبَّرْنِي عَنِ النَّدَمِ
عَلَى الْإِسَاءَةِ، إِسَاءَةٌ أَوْ إِحْسَانٌ؟ قَالَ: إِحْسَانٌ، قَالَ:
فَالَّذِي نَدِمَ هُوَ الَّذِي أَسَاءَ أَوْ غَيْرُهُ؟ قَالَ: الَّذِي نَدِمَ هُوَ
الَّذِي أَسَاءَ، قَالَ: فَأَرِي صَاحِبَ الْخَيْرِ هُوَ صَاحِبُ الشَّرِّ،
وَقَدْ بَطَلَ قَوْلُكُمْ: إِنَّ الَّذِي يَنْظُرُ نَظْرَ الْوَعِيدِ غَيْرُ الَّذِي
يَنْظُرُ نَظْرَ الرَّحْمَةِ، قَالَ: فَإِنِّي أَزْعَمُ أَنَّ الَّذِي أَسَاءَ غَيْرُ
الَّذِي نَدِمَ، قَالَ: فَندِمَ عَلَى شَيْءٍ كَانَ مِنْهُ أَوْ عَلَى شَيْءٍ
كَانَ مِنْ غَيْرِهِ؟ فَقَطَّعَهُ بِمَسْأَلَتِهِ، وَلَمْ يَتُبْ وَلَمْ يَرْجِعْ،
حَتَّى مَاتَ، وَأَصْلَاهُ اللَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ.

شعر في هجو الزنادقة وقد ذكروا حمّاداً عجرد ناساً في
هجائه لبشار، فقال:

لو كنت زنديقاً عمار حبوتني	أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتي	كالنضر أو ألفيت كابن المقعد
أو كابن حمادٍ ربيئة دينكم	جبل وما جبل الغوى بمرشد
لكني وحدت ربي مخلصاً	فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت	والأرض خالقها لها لم يمهد
والنسيم مثل	منه الحصيد

ومنه ما لم
يحصد

الزرع آن
حصاده

وحمادٌ هذا أشهر بالزُّندقةِ من عُمارَةَ بنِ حربية، الذي
هجاه بهذه الأبيات.
وأما قوله:

وَحَبَوْتَ مَنْ زَعَمَ السَّمَاءَ تَكَوَّنَتْ

فليس يقول أحدٌ: إِنَّ الفلَكَ بما فيه من التَّدبير، تَكَوَّنَ
بنفسه ومن نفسه فَجَهْلُ حمادٍ بهذا المقدارِ من مقالةِ
القَوْمِ، كأنَّهُ عندي ممَّا يعرفه من براءته الساحة، فإن
كان قد أجابَهُمُ فإنما هو من مقلِّدِيهم.
وهجا حمادُ بنَ الزُّبرقان، حماداً الراوية فقال:

ويقيمُ وقتَ
صلاتِهِ حمادُ

نِعَمَ الفتى لو كانَ
يَعْرِفُ رَبَّهُ

مِثْلُ القُدومِ
يَسْنُها

هدأتْ مَشافِرَهُ
الدَّانُ فَأَنفُهُ

الحدّادُ

فبِأَيُّهُ يَوْمُ
الْحِسَابِ
سَوَادُ

وَأَبْيَضٌ مِنْ
شُرْبِ الْمُدَامَةِ
وَجْهُهُ

فقد كان كما ترى:

مثلُ
القدومِ

هدَلْتُ مَشَافِرَهُ
الدَّانُ فَانْفَهُ

...

فقد رأيتُ جماعةً ممَّنْ يُعَاقِرُونَ الشَّرَابَ، قد عظمت
أَنْفُهُمْ، وصارتْ لهم خراطيمٌ، مِنْهُمْ رَوْحُ الصَّانِعِ، وعبدُ
الواحدِ صاحبِ اللؤلؤِ وجماعةٌ من نَدْمَانِ حَمَادِ بْنِ
الصَّبَاحِ، وعبدُ اللَّهِ أخو نهرِ ابنِ عسْكَرٍ وناسٌ كثيرٌ.
ويدلُّ على ذلك من المَنَافِرَةِ قولُ جَرِيرٍ للأخطلِ:

سَكَرَ الدَّانُ
كَأَنَّ أَنْفَكَ دُمْلُ

وشربتَ بعد أبي
ظهيرِ وابنه

وكان منهم يُونس بن فروة، وفي يونس يقول حمّادُ
عجراً:

من كبره أير الحمار القائم	أما ابن فروة يونس فكأنه
والخلق عندك ما خلاك بهائم	ما الناس عندك غير نفسك وجدها
سيزول عنك وأنف جارك راغم	إن الذي أصبحت مفتوناً به
فرطت فيه كما يعض النادم	فتعض من ندم يديك على الذي
وإخاهم لك بالمعرة لازم	فلقد رضيت بعصبةٍ آخيتهم
أني لعرض في	فعلت حين

جعلتهم لك دخلة

إخائك ظالم

ذكر بعض الزنادقة وكان حمّادُ عجرد، وحمّادُ الرّاوية، وحمّادُ بن الزّبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل، ويزيد بن الفيض، وعُبادَة وجميل بن محفوظ، وقاسم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبان بن عبد الحميد، وعمارة بن حربية، يتواصلون، وكانهم نفس واحدة وكان بشّارٌ ينكر عليهم.

ويونس الذي زعم حمّادُ عجردُ أنّه قد عرّ نفسه بهؤلاء، كان أشهرَ بهذا الرّأي منهم، وقد كان كتبَ كتاباً لملك الرّوم في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، بزعمه. هجاء في أبان والزنادقة وذكر أبو نواس أبان بن عبد الحميد اللّاحقي، وبعض هؤلاء، ذكّر إنسان يري لهم قدراً وخطراً، في هجائيّة لأبان، وهو قوله:

جالست يوماً أباناً

لادر در أبان

أمير
بالنهروان

ولى أمت
لأذان

فصاحة
وبيان

إلى انقضاء
الأذان

بذا بغير
عيان

تعاين
العينان

فقال سبحان
ماني

ونحن حضر
رواق ال

حتى إذا ما صلاة
الأ

فقام ثم بها ذو

فكل ما قال قلنا

فقال كيف
شهدتم

لا أشهد الدهر
حتى

فقلت سبحان
ربي

فقلت عيسى
رسولاً

فقلت موسى
كليم ال

فقال ربك ذو
مق

فنفسه خلقته

عن كافرٍ
يتمرى

يريد أن
يتسوى

بعجردس
وعبادٍ

فقال من
شيطان

مهيمن
المنان

له إذاً
ولسان

أم من فقت
مكاني

بالكفر
بالرحمن

بالعصبة
المجان

والوالي
الهبان

وقاسم
ومطيعس

ريحانة
الندمان

وتعجبي من أبي نواس، وقد كان جالس المتكلمين أشد
من تعجبي من حماد، حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً
لا يقوله أحد، وهذه قرّة عين المهجّو، والذي يقول:
سبحان ماني يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول:
إنّه من قبيل شيطان؟.

وأما قوله: فرفسه خلقتّه أم من فإنّ هذه مسألة نجدّها
ظاهرة على ألسن العوام، والمتكلمون لا يحكّون هذا عن
أحد.

وفي قوله: والواليّ الهجان دليل على أنّه من شكلهم.
والعجب أنّه يقول في أبان: إنّه ممّن يتشبه بعجرد
ومطيع، ووالبة بن الحباب، وعلي بن الخليل، وأصبع
وأبان فوق ملء الأرض من هؤلاء، ولقد كان أبان، وهو
سكران، أصحّ عقلاً من هؤلاء وهم صحاة، فأما اعتقاده
فلا أدري ما أقول لك فيه: لأنّ الناس لم يؤتوا في
اعتقادهم الخطأ المكشوف، من جهة النظر، ولكنّ للناس
تأسّ وعادات، وتقليد للآباء والكبراء، ويعملون على

الهُوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب، ويستثقلون
التَّحصيلَ، ويُهْمِلون النَّظَرَ، حتى يصيروا في حالٍ متى
عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصارٍ كليلَةٍ، وأذهانٍ مدخولةٍ،
ومع سوءِ عادةٍ، والنَّفْسُ لا تجيبُ وهي مُسْتَكْرَهَةٌ، وكان
يقال: العَقْلُ إذا أكره عَمِي، ومتى عَمِيَ الطَّبَّاعُ وجَسَا
وغلظ وأهمل، حتَّى يألَفَ الجَهِلَ، لم يكِدُ يفهم ما عليه
وله، فلَهِذا وأشباهه قاموا على الإلَفِ، والسَّابِقِ إلى
القلبِ.

شعر لحمامد عجرد

وقال حمادُ عَجْرَدُ:

ثَمناً عِنْدِي
ثَمِيناً

قَدْ أَرَاكُمْ
تَحْكُمُونَا

نَ وَأَنْتُمْ
تَأْخُذُونَا

اعْلَمُوا أَنَّ
لِوَدِّي

لَيْتَ شِعْرِي أَيَّ
حُكْمٍ

أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ
مُعْطِي

ابن لَقْمَانَ بنِ
عَادٍ

في اسْتِ هذا
الدِّينِ دينا

وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع،
غيره.

وقال حماد عجرد في بشار:

اعلموا أن
لودي

ثمناً عندي
ثمينا

ليت شعري أي
حكم

قد أراكم
تحكمونا

أن تكونوا غير
معطي

ن وأنتم
تأخذونا

ابن لقمان بن
عادٍ

في است هذا
الدين دينا

وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع،
غيره! وقال حماد عجرد في بشار:

يا ابن الخبيثة
إن أم

ك لم تكن ذات
اكتنام

وتبدلت ثوبان
ذا ال

أير المضبر
والعرام

ثوبان دقاق
الأزر

بأرواث حسام

عرد كقائمة
السر

ير يبيلها عند
الرطام

وأنت سمیعة
بعدها

بالمصنلات
العظام

أخت لهم كانت
تكابر

أن تسافح من
قيام

وقال حمّاد يذكر بشاراً:

غزالة الرجسة

سُمیعة الناعية

أو بنتها

الفهرا

وقال وذكر أمه:

أَبْنِي عَزَّالَةَ يَا
بَنِي جُشَمِ اسْتَهَا

لِيَحْقِكُمْ أَنْ
تَفْرَحُوا لَا
تَجْرَعُوا

حماد عجرد وبشار

وما كان ينبغي لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر
وما يتعلّق بالشعر، لأنّ حماداً في الحَضِيضِ، وبشاراً مع
العَيُوقِ، وليس في الأرض مولد قرويٍّ يُعدُّ شعره في
المحدث إلاّ وبشارٌ أشعرُ منه.
شعر في هجو بعض الزنادقة وقال أبو الشمقمق في
جميل بن محفوظ:

وهذا جميلٌ
على بغله

وقد كان يعدو
على رجله

يزوح ويغدو

ويرجع صفرأ

إلى أهله

كأير الحمار

وَأَنَّ التَّزْنُدُقَ
مِنْ شَكْلِهِ

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ
كَافِرٌ

وَأَذِنَ رَبُّكَ فِي
قَتْلِهِ

كَأَنِّي بِهِ قَدْ
دَعَاهُ الْإِمَامُ

غلو أبي النواس في شعره وأما أبو نواس فقد كان
يتعرّضُ للقتلِ بجهدِهِ، وقد كانوا يعجبون من قوله:

مَنْ رَسُولُ اللَّهِ
مِنْ نَفَرِهِ

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ
مِنْ أَمَلٍ

فلما قال:

واشكر لها
الجزل من
مواهبها

فأحبب فريشاً
لحب أحمدها

جاء بشيء غطى على الأول.
وأنكروا عليه قوله:

لو أكثر التَّسْبِيح ما نَجَّاه

فلما قال:

فَمُ سَيِّدِي نَعَصِ
جَبَّارَ السَّمَوَاتِ

يا أَحْمَدَ
الْمُرْتَجَى فِي
كُلِّ نَائِبَةٍ

عَطَى هذا على الأَوَّل، وهذا البيت مع كفره مَقِيَّتٌ جَدًّا،
وكان يُكثِرُ في هذا الباب.
وأما سوى هذا الفنِّ فلم يَعْرِفُوا له من الخطأِ إلا قولَه:

أنا مكان الدار
لا أنطقُ

أستخبرَ الدارِ
هل تنطقُ

بين ذوي
تَفْنِيدِهِ مُطْرِقُ

كأنها إذ خَرَسَتْ
جَارِمٌ

فعابوه بذلك، وقالوا: لا يقول أحد: لقد سكت هذا الحَجَرُ،
كأنَّه إنسانٌ ساكت، وإنما يُوصَفُ حَرَسُ الإنسانِ بِحَرَسِ

الدَّارِ، وَيَشْبَهُ صَمَمِ الصَّخْرِ.
وعابوه بقوله، حين وصف عينَ الأسد بالجُحوظِ، فقال:

كَأَنَّ عَيْنَهُ إِذَا
التَّهَبَتْ
بَارِزَةً الْجَفْنِ عَيْنُ
مَخْنُوقِ

وَهُمْ يَصِفُونَ عَيْنَ الْأَسَدِ بِالغُورِ، قَالَ الرَّاجِزُ:

كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ جَوْفِ حَجَرٍ

وقال أبو زُبَيْدٍ:

كَأَنَّ عَيْنِيهِ فِي
وَقُبَيْنِ مِنْ حَجَرٍ
قِيضًا اقْتِيَاضًا
بِأَطْرَافِ الْمَنَاقِيرِ

ومع هذا فإِنَّا لَا نَعْرِفُ بَعْدَ بَشَارِ أَشْعَرَ مِنْهُ.
وقال أبو زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ
فِي مَلءِ صَخْرَةٍ
تَرَى فِيهِمَا
كَالْجَمْرَتَيْنِ
تَسَعَّرُ

قصة راهبين من الزنادقة وحدثني أبو شعيب القائل،
وهو صُفْرِيٌّ، قال: رهبانُ الزنادقة سيّاحون؛ كأنهم
جعلوا السّياحة بدلَ تعلقِ النّسطوري في المطامير.
ومُقامُ المُلكانيّ في الصّوامع، ومُقامُ النّسطوريّ في
المطامير.

قال: ولا يسيحون إلا أزواجاً، ومتى رأيتَ منهم واحداً
فالتفتَ رأيتَ صاحبه، والسّياحة عندهم الأبييت أحدهم
في منزلٍ ليلتين، قال: ويسيحون على أربع خصال: على
القدس، والطهر، والصدق، والمسكنة، فأما المسكنة،
فأن يأكلَ من المسألة، ومما طابت به أنفسُ الناس له
حتّى لا يأكلُ إلا من كسبِ غيره الذي عليه غُرمُه
ومأثمه، وأما الطهر فترك الجَماع، وأما الصدق فعلى الأ
يكذب، وأما القدس فعلى أن يكتُمَ ذنبه، وإن سئل عنه.
قال: فدخل الأهوازَ منهم رجلان، فمضى أحدهما نحو
المقابرِ للغائط، وجلس الآخرُ بقربِ حانوتِ صائغ،
وخرجت امرأةٌ من بعض تلك القُصور ومعها حُقٌّ فيه
أحجارٌ رقيسة، فلما صعدت من الطّريق إلى دكان الصّائغ
زلقت فسقطَ الحُقُّ من يدها، وظلّم لِبعضِ أهل تلك الدُّور
يتردّدُ فلما سقطَ الحُقُّ وباينهُ الطّبّاق، تبدّد ما فيه من

الأحجار، فالتقّم ذلك الظلّم أعظم حَجْر فيه وأنفسه،
وذلك بعين السّائح؛ ووثب الصّائغ وغلّماته فجمّعوا تلك
الأحجار، ونحووا النّاس وصاحوا بهم فلم يذُن منهم أحد،
وفقدوا ذلك الحَجْر، فصرخت المرأة، فكشفت القوم
وتناحوا، فلم يصيبوا الحَجْر، فقال بعضهم: والله ما كان
بقربنا إلاّ هذا الرّاهب الجالس، وما يرغى أن يكون إلاّ
معه فسألوه عن الحَجْر؛ فكّره أن يخبرهم أنه في جوف
الظلّم فيذبح الظلّم، فيكون قد شارك في دم بعض
الحيوان، فقال ما أخذت شيئاً وبحثوه وفتشوا كلّ شيء
معه وألحوا عليه بالضرب، وأقبل صاحبه وقال: اتّقوا الله
فأخذوه وقالوا: دفعته إلى هذا حتّى غيّبه فقال: ما دفعت
إليه شيئاً فضربوهما ليموتا، فبينما هما كذلك إذ مرّ رجل
يعقل، ففهم عنهم القصة، ورأى ظلماً يتردّد فقال لهم:
أكان هذا الظلّم يتردّد في الطريق حين سقط الحجر؟
قالوا: نعم، قال: فهو صاحبكم، فعوضوا أصحاب الظلّم،
وذبحوه وشقّوا عن قانصته، فوجدوا الحَجْر وقد نقص
في ذلك المقدار من الزّمان شبيهاً بشطره، إلاّ أنها أعطته
لونها صار الذي استفادوه من جهة اللّون أربح لهم من

وَزِنَ ذَلِكَ الشَّطْرَ أَنْ لَوْ كَانَ لَمْ يَذْهَبْ .
وَنَارُ الْقَانِصَةِ غَيْرُ نَارِ الْحَجَرِ .

القول في النيران وأقسامها

ونحنُ ذاكرونُ جُملاً من القول في النيرانِ وأجناسها،
ومواضعها، وأيِّ شيءٍ منها يضافُ إلى العجم، وأيِّ
شيءٍ منها يضافُ إلى العرب، ونُخبِرُ عن نيرانِ
الدِّيانات، وغيرِ الدِّيانات، وعمَّنِ عَظَمَها وعمَّنِ استهانَ
بها، وعمَّنِ أفرطَ في تعظيمها حتَّى عبَّدها، ونُخبِرُ عن
المواضع التي عَظَمَ فيها مِنْ شأنِ النَّارِ .

نار القربان

فمن مواضعها التي عَظَمَتْ بها أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلها
لبنِي إِسْرَائِيلَ في موضعِ امتحانِ إِخْلَاصِهِمْ، وَتَعَرَّفِ
صِدْقِ نِيَاتِهِمْ ، فَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِالْقُرْبَانِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ
مُخْلِصاً نَزَلَتْ نَارٌ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ حَتَّى تُحِيطَ بِهِ فَتَأْكُلَهُ،
فَإِذَا فَعَلَتْ ذَلِكَ كَانَ صِرَاحُ الْقُرْبَانِ مُخْلِصاً فِي تَقَرُّبِهِ،
وَمَتَى لَمْ يَرَوْهَا وَبَقِيَ الْقُرْبَانُ عَلَى حَالِهِ، فَضَوُّوا بِأَنَّهُ كَانَ
مَدْخُولَ الْقَلْبِ فَاسِدَ النِّيَّةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ:
"الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى

يَأْتِينَا بِقُرْبَانَ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ".
والدليل على أن ذلك قد كان معلوماً، قولُ الله عزَّ وجلَّ:
"قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ" ثمَّ إنَّ
اللهَ سَتَرَ عَلَى عِبَادِهِ، وَجَعَلَ بَيَانَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَكَانَ
ذَلِكَ التَّدْبِيرَ مَصْلِحَةً ذَلِكَ الزَّمَانَ، وَوَفَّقَ طِبَاعَهُمْ وَعَلْلَهُمْ،
وَقَدْ كَانَ الْقَوْمَ مِنَ الْمَعَانِدَةِ وَالْعِبَاوَةِ عَلَى مِقْدَارٍ لَمْ يَكُنْ
لِيَنْجَعَ فِيهِمْ وَيَكْمُلَ لِمَصْلِحَتِهِمْ إِلَّا مَا كَانَ فِي هَذَا الْوِزْنِ،
فَهَذَا بَابٌ مِنْ عِظَمِ شَأْنِ النَّارِ فِي صُدُورِ النَّاسِ. وَمِمَّا
زَادَ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ النَّارِ فِي صُدُورِ النَّاسِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى
النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى"، وَقَالَ عَزَّ
وَجَلَّ: "إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا
بِخَبْرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا جَاءَهَا
نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وكان ذلك مما زاد في قدرِ النارِ في صدورِ الناسِ.

ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقال الله عز وجل: "قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ" ثم قال: "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" فلما قال الله عز وجل: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ" كان ذلك ممَّا زاد في نباهة النار وقدرها في صدور الناس.

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

وهو قوله عز وجل: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ".
والنار من أكبر الماعون، وأعظم المنافع المرافقي في هذه الدنيا على عباده، ولو لم يكن فيها إلا أن الله عز وجل قد جعلها الزاجرة عن المعاصي، لكان ذلك ممَّا يزيد في قدرها، وفي نباهة ذكرها.
وقال تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ". ثم قال: "نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ"، فقف عند قوله: "نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعًا" فإن كنت بهذا القول مؤمناً فتذكر ما فيها

من النعمة أولاً ثم آخرأ، ثم توهّم مقادير النعم
وتصاريها.

وقد علمنا أنّ الله عذب الأمم بالغرق، والرياح،
وبالحاصب، والرّجم، وبالصّواعق، وبالخسف، والمسح،
وبالجوع، وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم ناراً،
كما بعث عليهم ماءً وريحاً وحجارة، وإنما جعلها من
عقاب الآخرة وعذاب العقبي، ونهى أن يحرق بها شيء
من الهوام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا
تُعذبوا بعذاب الله، فقدّ عظّمها كما ترى".

فتفهّم رحمتك الله فقد أراد الله إفهامك.

وقال الله تعالى للثقلين: "يُرسلُ عَلَيْكُمْ سُوطًا مِنْ نَارٍ
وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ، فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تُكذِّبَانِ"، فجعل
السُّوطَ والنَّحَاسَ، وهما النارُ والدُّخانُ، من الآية، ولذلك
قال على نسق الكلام: "فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تُكذِّبَانِ" ولم يعبّر
أنّ التعذيب بالنار نعمة يوم القيامة، ولكنّه أراد التحذير
بالخوفِ والوعيدِ بها، غير إدخال الناس فيها، وإحراقهم
بها.

شعر في بعض النبات وقال المرّار بن منقذ:

بِلَوَى عُنَيْزَةَ
مِنْ مَقِيلِ
التُّرْمُسِ

وَكَأَنَّ أَرْحُنَا
بَجَوْ مُخْصِبِ

يَأْتِيكَ قَابِسُ
أَهْلَهَا لَمْ
يُقْبَسِ

فِي حَيْثُ خَالَطْتَ
الْخَزَامِي عَرْفَجَا

أراد خصبَ الوادي ورطوبته، وإذا كان كذلك لم تقدح
عيدانه، فإن دخلها مستقبس لم يُور ناراً، وقال كُنَيْر:

عَفَارٌ وَمَرْخٌ حَتَّهُ
الْوَرِي عَاجِلُ

لَهُ حَسْبٌ فِي
الْحِيِّ وَارِ
زِنَادُهُ

والعفار والمرخ، من بين جميع العيدان التي تُقدح،
أكثرها في ذلك وأسرعها.
قال: ومن أمثالهم: في كُلِّ الشَّجَرِ نَارٌ، واستمجد المرخ
والعفار.

نار الاستمطار

وناراً أخرى، وهي النار التي كانوا يَسْتَمْطِرُونَ بها في
الجاهليَّة الأولى؛ فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزْمام
وركدَّ عليهم البلاء، واشتدَّ الجذب، واحتاجوا إلى
الاستمطار، استجمعوا وجمَّعوا ما قدروا عليه من البقر،
ثم عقدوا في أذناها وبين عراقيبها، السَّعَّ والعُشْر، ثمَّ
صعدوا بها في جبلٍ وعرٍ، وأشعلوا فيها النيران، وضجُّوا
بالدُّعاء والتضرُّع، فكانوا يَرَوْنَ أن ذلك من أسباب
الشُّقيا، ولذلك قال أميَّة:

س ترى للعضاه
فيها صريرا

سنة أزمة
تخيل بالننا

قبل لا يأكلون
شيئاً فطيرا

إذ يسفون
بالدقيق
وكانوا

ل مهازيل خشية
أن يبورا

ويسوقون باقراً
يطرد السه

ناب عمداً كيما

عاقدين النيران

تهيج البحورا	في شكر الأذ
ثم هاجت إلى	فاشتوت كلها
صبير صبرا	فهاج عليهم
ر وأمسى	فراها الإله
جنابهم ممطور	ترشم بالقط
ث منه إذ	فسقاها نشاصه
رادعوه الكبيراً	واكف الغي
عائل ما وعالت	سلع ما ومثله
البنقورا	عشر ما

هكذا كان الأصمعيّ ينشدُ هذه الكلمة، فقال له علماء
بغداد: صحفت، إنما هي البيقور، مأخوذة من البقر.
وأنشد القحذمي للورل الطائي:

يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى	لَا دَرَّ دَرٌّ
الْأَزْمَاتِ بِالْعُشْرِ	رِجَالِ خَابِ
	سَعِيهِمْ

دَّرِيْعَةٌ لَكَ بَيْنَ اللَّهِ
وَالْمَطَرِ

أَجَاعِلُ أَنْتَ
بِيقُورًا
مُسَلَّعَةً

استطرد لغوي قال: ويقال بقر، وبَقِير، وبَيَقُور، وبَاقِر،
ويقال للجماعة منها قطع ، وإِجْل، وكَوْر، وأنشد:

بِوَأَقِرِّ جُلْحٍ
أَسَكَنْتَهَا الْمِرَاتِعُ

فَسَكَنْتَهُمْ بِالْقَوْلِ
حَتَّى كَانَتْهُمْ

وأنشد:

عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةٌ
الإِعْرَاءِ وَالطَّرْدُ

وَلَا شَبُوبٌ مِنْ
النَّيْرَانِ أَفْرَدَهُ

نار التحالف والحلف

ونار أخرى، هي التي توقد عند التَّحَالُفِ؛ فلا يعقدون
حلفهم إلاَّ عندها، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويذعنون
إلى الله عزَّ وجلَّ، بالحرمان والمنع من منافعها، على
الذي يَنْقُضُ عَهْدَ الحِلفِ، وَيَخِيْسُ بالعهد.
ويقولون في الحلف: الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، يحركون

الدَّالَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لَا يَزِيدُهُ طُلُوعُ الشَّمْسِ إِلَّا شَدًّا ،
وَطُولُ اللَّيَالِي إِلَّا مَدًّا ، مَا بَلَّ الْبَحْرَ صَوْفَةً ، وَمَا أَقَامَ
رَضْوَى فِي مَكَانِهِ ، إِنْ كَانَ جِبَلُهُمْ رَضْوَى .
وَكُلُّ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ جِبَلَهُمْ ، وَالْمَشْهُورَ مِنْ جِبَالِهِمْ .
وَرَبِّمَا دَنُّوا مِنْهَا حَتَّى تَكَادَ تَحْرِقُهُمْ ، وَيَهْوَلُونَ عَلَى مَنْ
يُخَافُ عَلَيْهِ الْغَدْرُ ، بِحَقُوقِهَا وَمَنَافِعِهَا ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ
حِرْمَانِ مَنْفَعَتِهَا ، وَقَالَ الْكُمَيْتُ :

نَ لِلْحَالِفِينَ وَمَا
هَوَّلُوا

كَهَوْلَةَ مَا أُوْقِدَ
الْمَحْلُفُو

وَأَصْلُ الْحَلْفِ وَالتَّحَالْفِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْحَلْفِ وَالْإِيمَانِ ،
وَلَقَدْ تَحَالَفَتْ قَبَائِلُ مِنْ قَبَائِلِ مُرَّةَ بْنِ عَوْفٍ ، فَتَحَالَفُوا عِنْدَ
نَارٍ فَدَنُّوا مِنْهَا ، وَعَشُّوا بِهَا ، حَتَّى مَحَشَتَهُمْ ، فَسُمُّوا :
الْمَحَاشِ .

وَكَانَ سَيِّدُهُمُ وَالْمَطَاعَ فِيهِمْ ، أَبُو ضَمْرَةَ يَزِيدُ بْنُ سَنَانَ
بْنِ أَبِي حَارِثَةَ ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ النَّابِغَةُ :

جَمَعْتُ يَرْبُوعًا
لَكُمْ وَتَمِيمًا

جَمَعَ مَحَاشِكَ يَا
يَزِيدُ فَإِنِّي

وتركت أصلاً
يا يزيدُ دميماً

ولحقتُ بالنَّسبِ
الذي عَيَّرتني

وقوله: تميم يريد: تميمه، فحذف الهاء.
التحالف والتعاقد على الملح وربما تحالفوا وتعاقدوا على
الملح، والملحُ شينان: أحدهما المرقّة، والأخرى اللّبن،
وأنشدوا لشتيم بن حُوَيْدِ الفَزَارِيِّ:

والمِلْحُ ما وُلِدَتْ
خَالِدَةٌ

لا يبعد الله رَبُّ
العباد

وأنشدوا فيه قول أبي الطَّمْحَانِ:

وما بَسَطْتُ مِنْ
جِلْدٍ أَشَعَّتْ أَغْبَرًا

وإني لأَرْجُو
مِلْحَهَا فِي
بَطُونِكُمْ

وذلك أنَّه كان جاورهم، فكان يسقيهم اللّبن؛ فقال: أرجو
أن تشكروا لي رَدًّا إبلي، على ما شربتم من ألبانها، وما
بَسَطْتُ مِنْ جِلْدٍ أَشَعَّتْ أَغْبَرًا، كأنه يقول: كنتم مهازيل

والمهزول يتقشّف جِدُهُ وينقبض فَبَسَطَ ذلك من جُلودكم.
نار المسافر

ونار أخرى، وهي النَّار التي كانوا ربّما أوقدوها خَلْفَ
المسافر، وَخَلَفَ الزَّائِرِ الَّذِي لَا يَحِبُّونَ رُجُوعَهُ، وكانوا
يقولون في الدُّعَاءِ: أَبْعِدْهُ اللَّهُ وَأَسْحَقْهُ، وَأَوْقِدْ نَاراً خَلْفَهُ،
وفي إثره وهو معنى قولِ بشار - وَضَرَبَهُ مَثَلًا:

وَرَدَّ عَلَيْكَ

الصَّبَا مَا

اسْتَعَارَا

صَحَوْتُ

وَأَوْقَدْتُ لِلْجَهْلِ

نَارًا

وأنشدوا:

لَتَوْقِدَ نَارًا
إِثْرَهُمَ لِلتَّنَدِّمِ

وَجَمَّةٍ أَقْوَامِ
حَمَلْتُ وَلَمْ تَكُنْ

وَالْجَمَّةُ: الْجَمَاعَةُ يَمْشُونَ فِي الصَّلْحِ، وَقَالَ الرَّاجِزُ فِي
إِبْنِهِ:

تَقَسَّمُ فِي الْحَقِّ وَتُعْطَى فِي الْجَمَمِ

يقول: لا تندم على ما أعطيت في الحمالة، عند كلام
الجماعة فتوقد خلفهم ناراً كي لا يعودوا،

نار الحرب

ونار أخرى وهي النار التي كانوا إذا أرادوا حرباً،
وتوقعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على
جبلهم ناراً؛ ليبلغ الخبر أصحابهم.
وقد قال عمرو بن كلثوم:

رَفَدْنَا فُوقَ
رَفِدِ الرَّافِدِيْنَا

وَنَحْنُ عُدَاةُ
أَوْقَدِ فِي خَزَائِ

وإذا جدوا في جمعٍ عشانهم إليهم أوقدوا نارين، وهو
قول الفرزدق:

سَدَّ الْعُدُوَّ
عَلَيْكَ كُلَّ
مَكَانٍ

لَوْلَا فَوَارِسُ
تَغْلِبَ ابْنَةُ وَايِلِ

نَارَيْنَ أَشْرَفَتَا

ضَرَبُوا الصَّنَائِعَ

نار الحرتين

ونار أخرى، وهي نار الحرتين، وهي نار خالد بن سنان، أحد بني مخزوم، من بني فُطَيْعَةَ بْنِ عَبْسٍ، ولم يكن في بني إسماعيل نبياً قبله، وهو الذي أطفأ الله به نار الحرتين، وكانت ببلاد بني عبس، فإذا كان الليلُ فهي نارٌ تسطعُ في السماء، وكانت طيئاً بنفُسُ بها إبلها من مسيرة ثلاث، وربما ندرت منها العنق فتأتي على كل شيء فتحرقه، وإذا كان النهارُ فإنما هي دخانٌ يفور، فبعث الله خالد بن سنان فاحتفر لها بئراً، ثم أدخلها فيها، والناس ينظرون؛ ثم اقتحم فيها حتى غيَّبها، وسمع بعض القوم وهو يقول: هَلْكَ الرَّجُلُ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ سِنَانَ: كَذَبَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمُعْزِ، لِأَخْرَجَنَّا مِنْهَا وَجِبِينِي يَنْدَى فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، قَالَ لِقَوْمِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ ثُمَّ دَفَنْتُمُونِي، فَاحْضُرُونِي بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ عَيْرًا أَبْتَرًا يَطُوفُ بِقَبْرِي، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَانْبِشُونِي؛ فَإِنِّي أَخْبَرْتُكُمْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَاجْتَمِعُوا لَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ، فَلَمَّا رَأَوْا الْعَيْرَ وَذَهَبُوا يَنْبِشُونَهُ، اخْتَلَفُوا، فَصَارُوا

فرقتين، وابنه عبد الله في الفرقة التي أبت أن تنبشه،
وهو يقول: لا أفعلُ إني إذا أُدعى ابنَ المنبوش فتركوه.
وقد قَدِمَتْ ابنتُهُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَبَسَطَ
لها رِداءَهُ وقال: هذه ابنةُ نبيِّ ضيِّعهُ قومُهُ.
قال: وَسَمِعْتُ سُوْرَةَ: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" فقالت: قد كان
أبي يتلو هذه السورة.

نبوة خالد بن سنان والمتكلمون لا يؤمنون بهذا،
ويزعمون أنَّ خالداً هذا كان أعرابياً وبرياً، من أهل
شَرْجِ وَنَاظِرَةَ، ولم يبعث اللهُ نبيّاً قطُّ من الأعراب ولا من
الفدَّادِينِ أهلِ الوَبْرِ، وإنما بعثهم من أهلِ القرى، وسُكَّانِ
المُدُنِ.
وقال خُلَيْدٌ عَيْنِينَ:

وَهَلْ كَانَ حُكْمُ
اللهِ إِلَّا مَعَ النَّخْلِ

وَأَيُّ نَبِيٍّ كَانَ
فِي غَيْرِ قَوْمِهِ

وَأَنشُدُوا:

يُصِمُّ مَسَامِعَ

كَنَّارِ الْحَرَّتَيْنِ

عبادة النار وتعظيمها

وما زالَ النَّاسُ كَافَّةً، وَالْأُمَّمُ قَاطِبَةً حَتَّى جَاءَ اللهُ بِالْحَقِّ مُوَلَّعِينَ بِتَعْظِيمِ النَّارِ؛ حَتَّى ضَلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لِإِفْرَاطِهِمْ فِيهَا، أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا.

فَأَمَّا النَّارُ الْعُلُويَّةُ، كَالشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ، فَقَدْ عُبِدَتْ الْبَيْتَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: "وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ".

وَقَدْ يَجِيءُ فِي الْأَثَرِ وَفِي سُنَّةِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، تَعْظِيمُهَا عَلَى جِهَةِ التَّعْبُدِ وَالْمَحْنَةِ، وَعَلَى إِجْبَابِ الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ بِهَا وَفِيهَا، فَيَغْلُظُ لَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَجُوزُونَ الْحَدَّ. وَيَزْعَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ اللهُ تَعَالَى أَوْصَاهُمْ بِهَا، وَقَالَ: لَا تُطْفِنُوا النَّيِّرَانَ مِنْ بُيُوتِي، فَلِذَلِكَ لَا تَجِدُ الْكِنَانِسَ وَالْبَيْعَ، وَبُيُوتَ الْعِبَادَاتِ، إِلَّا وَهِيَ لَا تَخْلُو مِنْ نَارٍ أَبَدًا، لَيْلًا وَلَا نَهَارًا؛ حَتَّى اتَّخَذَتْ لِلنَّيِّرَانِ الْبُيُوتَ وَالسَّدَنَةَ، وَوَقَّفُوا عَلَيْهَا الْغَلَاتِ الْكَثِيرَةَ.

إِطْفَاءُ نَيْرَانَ الْمَجُوسِ أَبُو الْحَسَنِ عَنْ مُسْلِمَةَ وَقَحْدَمَ، أَنَّ زِيَادًا بَعَثَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي بَكْرَةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَطْفِئُ

النيران، فأراد عبد اللّٰه أن يبداً بنارِ جُورِ فيطْفئها،
ف قيل له: ليست للمجوس نارٌ أعظَمُ من نار الكاريانِ من
دار الحارث، فإن أطفأتها لم يمتنع عَ لَيْكَ أَحَدٌ، وإن
أطفأت سافلتها استعدّوا للحرب وامتنعوا، فابداً بها،
فخرج إلى الكاريان فتحصن أهلها في القلعة، وكان رجلاً
من الفرس من أهل تلك البلاد معروف بالشدة، لا يقدر
عليه أحد، وكان يمرُّ كلَّ عشيّةٍ بباب منزله استخفافاً
وإذلاً بنفسه، فغمّ ذلك عبد الله، فقال: أما لهذا أحد؟
وكان مع عبد الله بن أبي بكرة رجلٌ من عبد القيس، من
أشدّ الناس بطشاً، وكان جباناً، فقالوا له: هذا العبدى،
هو شديد جبان، وإن أمرته به خاف القتال فلم يعرض
له، فاحتل له حيلةً، فقال: نعم.
قال: فبينما هو في مجلسه إذ مرَّ الفارسيُّ، فقال عبد الله:
مارأيتُ مثل خلقٍ هذا، وما في الأرض كما زعموا أشدُّ
منه بطشاً ما يقوى عليه أحد فقال العبدى: ما تجعلون
لي إن احتملته حتى أدخله الدارَ وأكتفه؟ فقال له عبد
الله: لك أربعة آلاف درهم، فقال: تفون لي بألفٍ؟ قال:
نعم فلما كان الغد مرَّ الفارسيُّ، فقام إليه العبدى فاحتمله
فيما امتنع ولا قدر أن يتحرك، حتى أدخله الدارَ وضرب

به الأرض ووثبَ عليه الرَّسُ فقتلوه، وعُشِيَ على
العبدي حين قتلوه، فلما قُتِلَ أُعْطِيَ أهلُ القلعة بأيديهم،
فقتل ابنُ أبي بكرةَ الهراذةَ ، وأطفأ النَّارَ، ومضى يُطفئُ
النَّيرانَ حتَّى بَلَغَ سِجِسْتَانَ.
تعظيم المجوس للنار والمجوسُ تقدّم النَّارَ في التَّعْظِيمِ
على الماء، وتقدّم الماءُ في التَّعْظِيمِ على الأرض، ولا
تكاد تذكر الهواء.

نار السعالي والجن والغيلان

ونار أخرى، التي يحكونها من نيران السَّعَالِي والجنِّ
وهي غيرُ نارِ الغيلان، وأنشد أبو زيد لسهم بن الحارث:

وَنَارٍ قَدْ	بَدَارُ لَا أَرِيدُ بِهَا
حَضَاتُ بُعِيدِ	مُقَامًا
هُدًى	
سَوَى تَحْلِيلِ	أَكَائِهَا مَخَافَةَ
رَاحِلَةٍ وَعَيْنِ	أَنْ تَنَامَا
أَتَوْا نَارِي	فَقَالُوا :الْجِنُّ

فَقُلْتُ مَنْون
أَنْتُمْ

قُلْتُ: عَمُوا
ظَلَامًا

فَقُلْتُ: إِلَى
الطَّعَامِ فَقَالَ
مِنْهُمْ

زَعِيمٍ: نَحْسُدُ
الْإِنْسَانَ الطَّعَامًا

وهذا غلط وليس من هذا الباب، وسنضعه في موضعه
إن شاء الله تعالى، بل الذي يقع ههنا قول أبي المطراب
عُبَيْدِ بْنِ أَيُّوبَ:

فَلَلَهُ دَرُّ الْعَوْلِ
أَيُّ رَفِيقَةٍ

لصاحب قفر
خائف متقفر

أرنت بلحن بعد
لحن وأوقدت

حوالي نيراناً
تبوخ وتزهر

نار الاحتيال

وما زالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع
الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة ببيت المقدس
بمصايحها، وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نار،

في بعض ليالي أعيادهم.

قال: وبمثل احتيال السّادن لخالد بن الوليد، حين رماه بالشرر؛ ليوهمه أنّ ذلك من الأوثان، أو عقوبةً على ترك عبادتها وإنكارها، والتعرّض لها؛ حتى قال:

إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ
قَدْ أَهَانَكَ ُ

يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ
لَا سُبْحَانَكَ

حتى كشف الله ذلك الغطاء، من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نار الصيد والبيض

ونار أخرى، وهي النّار التي تُوقد للظباء وصيدها، لتعشى إذا أدامت النّظر، وتُختل من ورائها، ويطلب بها بيض النعام في أفاحيصها ومكناها. ولذلك قال طفيل الغنوي:

وَلَمْ تَرَ نَاراً تَمَّ حَوْلِ مُجْرَمٍ

سِوَى نَارِ

أَعَنَّ مِنَ الْخُنْسِ الْمَنَاخِرِ تَوَامٍ
بَيْضٍ أَوْ عَزَالٍ بِقَفْرَةٍ

وقد يُوقدون النَّيرانَ يُهَوِّلونَ بها على الأسدِ إذا خافوها،
والأسدُ إذا عاينَ النَّارَ حدقَ إليها وتأمَّلها، فما أكثرَ ما
تَشغلهُ عن السَّابِلةِ.

قصة أبي ثعلب الأعرج وَمرَّ أبو ثعلب الأعرج، على
وادي السَّبَّاع، فَعَرَضَ له سبع، فقال له المُكاري: لو
أمرت غِلْمائِكَ فأوقدوا ناراً، وضربوا على الطَّساس الذي
معهم ففعلوا فأحجَمَ عنها، فأنشدني له ابن أبي كريمة،
في حُبِّه بعد ذلك للنَّار، وَمَدَحِهِ لها وللصوتِ الشَّدِيدِ، بعد
بُغْضِهِ لهما وهو قوله:

فأحْبَبْتُها حُبًّا
هويتُ
خِلَاطَها
ولو في صَمِيمِ
النَّارِ نارَ جَهَنَّمَ

وَصِرْتُ أَلْدُ
الصَّوتِ لو كان
صاعِقاً
وأطربُ من
صَوْتِ الحمارِ
المرقمُ

وروي أَنَّ أعرابياً اشتدَّ عليه البردُ، فأصاب ناراً، فدنا
منها ليصطلي بها، وهو يقول: اللَّهُمَّ لا تَحْرَمْنِيها في

الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

حيرة الضفدع عند رؤية النار وممّا إذا أبصر النار
اعتزته الحيرة، الضفدع،؛ فإنه لا يزال ينيقُ فإذا أبصر
النار سكّت.

نار الحباب

ومن النيران نار الحباب وهي أيضاً نار أبي الحباب،
وقال أبو حية:

عليهنّ في قفّ
أرنت جنادله

يُعَشَّرُ فِي تَقْرِيْبِهِ
فَإِذَا انْحَنَى

عُضّاً تَتْرَاقِي
بَيْنَهُنَّ وَلَاوِلُهُ

وَأَوْقَدْنَ نِيرَانَ
الْحُبَابِ وَالتَّقَى

وقال القطامي في نار أبي الحباب:

تَصَوَّبَتِ
الْجَوَزَاءُ قَصْدَ
الْمَغَارِبِ

تُخَوِّدُ تَخْوِيدَ
النَّعَامَةِ بَعْدَمَا

ألا إنما نيرانُ
قيسٍ إذا
اشتوت

لطارقٍ ليلٍ مثلُ
نارِ الحبابِ

ويصفون ناراً أخرى، وهي قريبةٌ من نار أبي الحباب،
وكلُّ نار تراها العينُ ولا حقيقة لها عند التماسها، فهي
نار أبي الحباب، ولم أسمع في أبي حباب نفسه شيئاً.

نار البرق

وقال الأعرابيُّ، وذَكَرَ البرقُ:

والنَّارُ تُشْعِلُ
نيراناً فتَحْتَرِقُ

نارٌ تُعودُ به
للعودِ جدُّته

يقول: كلُّ نار في الدُّنيا فهي تحرق العِيدانَ وتُبْطِئُها
وتُهْلِكُها، إلا نار البرق، فإنَّها تجيء بالغيث، وإذا غيَّثتِ
الأرضَ ومُطِرَتْ أَدَّتْ اللهُ للعِيدانِ جدَّةً، وللأشجارِ
أغصاناً لم تكن.

نار اليراعة

ونارٌ أخرى، وهي شبيهةٌ بنار البرق، ونار أبي حباب،
وهي نار اليراعة، واليراعة: طائرٌ صغير، إن طار
بالنَّهار كان كبعض الطَّير، وإن طار بالليل كان كأنَّه
شهابٌ قَذَفَ أو مصباحٌ يطير.

الدفء بروية النار وفي الأحاديث السَّائرة المذكورة في
الكتب، أنَّ رَجُلًا أُلْقِيَ في ماء رَاكِدٍ في شتاء بارد، في
ليلةٍ من الحنَّاس، لا قمر ولا ساهور وإنما ذكر ذلك، لأنَّ
ليلة العَشْرِ والبدر والطُّوق الذي يستدير حول القمر،
يكون كاسيراً من بَرْد تلك الليلة قالوا: فما زال الرجل حياً
وهو في ذلك تارزٌ جامد، ما دام ينظر إلى نار، كانت تُجاهَ
وجهه في القرية، أو مصباحٍ، فلما طَفَّتْ انْتَفَضَ.

نار الخلعاء والهَرَّاب

وقال الشَّاعر:

وَنَارِ قَبِيلٍ
أَوْقَدْتُهَا
لِلْمَسَافِرِ

وَنَارِ قَبِيلٍ
الصُّبْحِ بَادَرْتُ
قَدَحَهَا

يقول: بادرت اللّيل، لأنّ النّارَ لا تُرى بالنهار، كأنه كان
خليعاً أو مطلوباً.
وقال آخر:

وَتَضْحِي بِهَا
الْوَجْنَاءَ وَهِيَ
لَهَيْدُ

وَدَوِّيَّةٍ لَا يَثْقُبُ
النَّارَ سَفْرُهَا

كأنهم كانوا هُرَاباً، فَمِنْ حَثَمِ السَّيْرِ لَا يُوقِدُونَ لِبُرْمَةٍ وَلَا
مَلَّةً؛ لأنّ ذلك لا يكون إلاّ بالنزول والتمكث، وإنما
يجتازون بالبسيّسة، أو بأدنى عُلقَة، وقال بعض
النُّصُوص:

نَبَّهْتُ عَنْهُنَّ
غُلَاماً غُسّاً

مَلْساً بِذُودٍ
الْحَدْسِيِّ مَلْساً

مِنْ غُدْوَةٍ حَتَّى
كَانَ الشَّمْسَا

لَمَّا تَغَشَّى فَرْوَةً
وَحَلْسَا

لَا تَخْبِزَا خَبْزاً

بِالْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ

تَكْسَى وَرَسَا

وَبُسَا بَسَا

وَلَا تُطِيلَا

وَجَنَّبَاهَا أَسَدَاً

بِمُنَاخٍ حَبْسَا

وَعَبْسَا

قال: والبسيصة: أن يبيلَ الدَّقِيقَ بشيء حتى يجتمع ويؤكل.

نار الوشم

ونار أخرى، وهي نار الوشمِ والميسمِ يقال للرجل: ما نار إبلِك؟ فيقول: علاط، أو خباط، أو حَلْقَة أو كذا وكذا. رجز لبعض اللصوص وقرب بعض اللصوص إبلاً من الهواشة، وقد أغار عليها من كلِّ جانب، وجمعتها من قبائل شتى، فقربها إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التجار: ما نارك؟ وإنما يسأله عن ذلك؛ لأنهم يعرفون بميسم كل قوم كرامٍ إبلهم من لؤمها، فقال:

تَسْأَلُنِي الْبَاعَةَ

إِذْ زَعَرُوهَا

مَا نِجَارُهَا

فَسَمَّتْ أَبْصَارُهَا

وَكُلُّ نَارٍ
الْعَالَمِينَ نَارَهَا

فَكُلُّ دَارٍ
لِلنَّاسِ دَارُهَا

وقال الكردوس المرادي:

وَذَلِكَ عَلَّمَ لَا
يُحِيطُ بِهِ الطَّمْشُ

تَسَائِلُنِي عَنْ
نَارِهَا وَنِتَاجِهَا

والطَّمْشُ: الخلق، وَالْوَرَى: النَّاسُ خَاصَّةً.

الكتاب الثالث عشر

نيران العرب والعجم

الكلام على النار

قول النظام في النار

ردّ على منكري الكمون

المجاز والتشبيه الأكل

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

باب آخر في مجاز الذوق

تأويل النظام لقولهم النار يابسة

استخراج الأشياء الكامنة

الأضواء والألوان

جملة القول في الضد والخلاف والوفاق

إن الصفرة متى اشتدت صارت حُمْرة

تعظيم زرادشت لشأن النار

بعض ما قيل في صفة الحر

احتجاج النظام للكمون

الصواعق وما قيل فيها

ألوان الماء

ما قيل في حسن النار

تعظيم الله شأن النار

معارف في النار

ما قالت العرب في الشمس

نار الزحفتين

شبه ما بين النار والإنسان

ثمّ رجع بنا القول إلى ذكر النار

سقوط الجمرّة

استطراد لغوي

استطراد لغوي

استطراد لغوي

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

سرد منهج سائر الكتاب

مدح النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس

من أراد أن يمدح فهجا

خطأ الكميت في المدح

غلط بعض الشعراء في المدح والفخر

في السُّخْفِ والباطلِ

مما قالوا في السرِّ

شعر في حفظ السرِّ

اعتذار شيخ

نيران العرب والعجم

نبدأ في هذا الجزء بتمام القول في نيران العرب والعجم،
ونيران الديانة ومبلغ أقدارها عند أهل كلِّ ملةٍ وما يكون منها
مفخرًا، وما يكون منها مذمومًا، وما يكون صاحبها بذلك
مهجورًا.

ونبدأ بالإخبار عنها وبدئها، وعن نفس جوهرها، وكيف القولُ
في كُمونها وظهورها، إن كانت النارُ قد كانت موجودةً العينِ

قبل ظهورها، وعن كونها، على المجاورة كان ذلك أم على
المداخلّة، وفي حدوث عيناها إن كانت غيرَ كامنة، وفي إحالة
الهواء لها والعودِ جَمراً، إن كانت الاستحالةُ جائزة، وكانت
الحجّة في تثبيت الأعراض صحيحة، وكيف القولُ في الضّرام
الذي يظهر من الشجر، وفي الشّرر الذي يظهر من الحجر، وما
القولُ في لون النار في حقيقتها، وهل يختلفُ الشّرار في
طبائعها، أم لا اختلافَ بين جميع جواهرها، أم يكون اختلافها
على قدر اختلافِ مخرجها ومدخلها، وعلى قدر اختلافِ ما
لاقاها وهيّجها؟

الكلام على النار

قول النظام في النار

ونبدأ، باسم الله وتأييده، بقول أبي إسحاق.

قال أبو إسحاق: الناس اسمٌ للحرّ والضيء، فإذا قالوا: أحرقتُ
أو سخّنتُ، فإنما الإحراقُ والتسخينُ لأحدِ هذينَ الجنسين
المتداخلين، وهو الحرُّ دون الضياء.
وزعمَ أن الحرَّ جوهرٌ صَعَادٌ، وإنما اختلفا، ولم يكن اتّفاقهما

على الصعود موافقاً بين جواهرهما؛ لأنهما متى صارا من العالم العلويّ إلى مكانٍ صار أحدهما فوق صاحبه.

وكان يجزم القول ويبرم الحكم بأن الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد، ولا يعلو.

قال: ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نار الأتون وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارة، ولم نجدها مضيئة، لأن في الأرض، وفي الماء الذي قد لابس الأرض، حراً كثيراً، وتداخلاً متشابكاً؛ وليس فيهما ضياء، وقد كان حرّ النار هيج تلك الحرارة فأظهرها، ولم يكن هناك ضياء من ملابس فهيج الضياء وأظهره، كما اتصل الحرّ بالحرّ فأزاله من موضعه، وأبرزه من مكانه، فلذلك وجدنا أرض الأتون، وحيطانها، وهواها حارة، ولم نجدها مضيئة. وزعم أبو إسحاق أنّ الدليل على أن في الحجر والعود ناراً مع اختلاف الجهات، أنه يلزم من أنكر ذلك أن يزعم أن ليس في السّمسم دهنٌ ولا في الزّيتون زيت.

ومن قال ذلك لزمه أن يقول: أن ليس في الإنسان دم، وأنّ الدّم إنّما تخلّق عند البط، وكان ليس بين من أنكر أن يكون الصّبر

مرّ الجوهر، والعسلُ حُلُوّ الجوهر قبل ألاّ يذاقا، وبين السمسم
والزيتون قبل أن يُعصرا - فَرَق.

وإن زَعَم الزاعم أنّ الحلاوة والمرارة عَرَضَانِ، والزيتَ والخلَّ
جوهر، وإذا لزم مَنْ قال ذلك في حلاوة العسل، وحموضة
الخلِّ، وهما طعمان - لزمه مثلُ ذلك في ألوانهما، فيزعم أنّ
سوادَ السَّبَجِ، وبياضَ الثلجِ، وحمرةَ العُصْفُرِ، وصُفرةَ الذهبِ،
وَحُضْرَةَ البَقْلِ، إنما تحدث عند رؤية الإنسان، وإن كانت
المعاينةُ والمقابلةُ غيرَ عاملتين في تلك الجواهر. قال: فإذا
قاسَ ذلك المتكلم في لَوْنِ الجسم بعد طعمه، وفي طوله
وعرضه وصورته بعد رائحته، وفي خفته وثقل وزنه، كما
قاس في رخاوته وصلابته - فقد دخل في باب الجهالات، ولحق
بالذين زعموا أن القربة ليس فيها ماء، وإن وجدوها باللمس
ثقيلةً مزكورةً وإنما تخلق عند حلِّ رباطها، وكذلك فليقولوا في
الشمس والقمر، والكواكب، والجبال، إذا غابت عن أبصارهم

قال: فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات، لئان الذي هرب
إليه أشدَّ عليه.

وكان يضربُ لهما مثلاً ذكرتَه لِنظَرِ افْتِه: حُكِي عن رجلٍ أُحْدِبَ
سَقَطَ في بئرٍ، فاستوت حَدْبَتُهُ وَحَدَّثَتْ له أُدْرَةً في حُصِيْتِه،
فَهَنَّاه رجلٌ عن ذهابِ حَدْبَتِه، فقال: الذي جاءَ شرًّا من الذي
ذهبِ.

رد النظام على ضرار في إنكار الكمون وكان أبو إسحاق يزعم
أن ضرارَ بنَ عمرو قد جمعَ في إنكاره القولَ بالكُمونِ الكفرَ
والمعادنة؛ لأنه كان يزعمُ أن التوحيدَ لا يصحُّ إلا مع إنكارِ
الكمونِ، وأن القولَ بالكُمونِ لا يصحُّ إلا بأن يكونَ في الإنسانِ
دمٌ، وإنما هو شيءٌ تَخَلَّقَ عندَ الرُّويَةِ.
قال: وهو قد كان يعلمُ يقيناً أنَّ جوفَ الإنسانِ لا يخلو من دمٍ.

قال: ومن زعمَ أن شيئاً من الحيوانِ يعيشُ بغيرِ الدمِ، أو شيءٍ
يشبهُ الدمَ، فواجبٌ عليه أن يقولَ بإنكارِ الطبائعِ؛ ويدفعُ
الحقائقَ بقولِ جَهْمِ في تسخينِ النارِ وتبريدِ الثلجِ، وفي الإدراكِ
والحسِّ، والغذاءِ والسَّمِّ، وذلكَ بابٌ آخرٌ في الجهالاتِ.
ومن زعمَ أن التوحيدَ لا يصلحُ إلا بالألِّ يكونَ في الإنسانِ دمٌ،

وإلا بأن تكون النار لا توجب الإحراق، والبصرُ الصحيح لا يوجب الإدراك - فقد دلَّ على أنه في غاية النقص والغباوة، أو في غاية التكذيب والمعاندة.

وقال أبو إسحاق: وجدنا الحطب عند انحلال أجزائه، وتفرَّق أركانه التي بُني عليها، ومجموعاته التي رُكِّبَ منها وهي أربع: نارٌ، ودخانٌ، وماءٌ، ورَمَادٌ، ووجدنا للنار حرّاً وضياءً، ووجدنا للماء صوتاً، ووجدنا للدُّخان طعماً ولوناً ورائحةً، ووجدنا للرَّمَادِ طعماً ولوناً ويُبْساً، ووجدنا للماء السائل من كل واحد من أصحابه، ثمَّ وجدناه ذا أجناس رُكِّبَتْ من المفردات. ووجدنا الحطب رُكِّبَ على ما وصفنا، فزعمنا أنه رُكِّبَ من المُرْدَوِجَاتِ، ولم يُرَكِّبَ من المفردات.

قال أبو إسحاق: فإذا كان المتكلم لا يعرف القياسَ ويُعطيه حقه فرأى أنَّ العود حين احتكَّ بالعودِ أحدث النارَ فإنه يلزمه في الدخان مثلُ ذلك، ويلزمه في الماء السائل مثلُ ذلك، وإنَّ قاس قال في الرَّمَادِ مثلَ قوله في الدخان والماء، وإلا فهو إما جاهلٌ، وإمَّا متحكّم.

وإن زعمَ أنه إنما أنكرَ أن تكون النارُ كانت في العودِ، لأنَّ وِجْدَ النارِ أعظم من العودِ، ولا يجوز أن يكون الكبيرُ في الصغيرِ، وكذلك الدخان - فليزعمُ أن الدخانَ لم يكن في الحطبِ، وفي

الزَّيْتِ وَفِي النَّقْطِ.

فإن زعم أنهما سواءً، وأنه إنما قال بذلك لأن بَدَنَ ذلك الحطب لم يكن يسعُ الذي عاين من بَدَنِ النارِ والدخان، فليس ينبغي لمن أنكر كُموئها من هذه الجهة أن يزعمَ أن شَرَرَ القَدَّاحَةِ والحَجَرِ لم يكونا كامينين في الحَجَرِ والقَدَّاحَةِ. وليس ينبغي أن يُنكَرَ كُمونَ الدمِ في الإنسان، وكُمونَ الدُّهْنِ في السمسم، وكُمونَ الزيتِ في الزيتون، ولا ينبغي أن يُنكَرَ من ذلك إلا ما لا يكون الجسمُ يسعُه في العين. فكيف وهم قد أجروا هذا الإنكارَ في كلِّ ما غابَ عن حواسِّهم من الأجسامِ المستترةِ بالأجسامِ حتى يعود بذلك إلى إبطالِ الأعراضِ؟ كنحو حموضةِ الخلِّ، وحلاوةِ العسلِ، وعضوبةِ الماءِ، ومَرارةِ الصبرِ.

قال: فإن قاسوا قولهم وزعموا أن الرمادَ حادثٌ، كما قالوا في النارِ والدُّخانِ، فقد وجبَ عليهم أن يقولوا في جميعِ الأجسامِ مثلَ ذلك كالدقيقِ المخالفِ للبرِّ في لونه، وفي صلابته، وفي مساحته، وفي أمورٍ غير ذلك منه، فقد ينبغي أن يزعمَ أن الدقيقَ حادثٌ، وأن البرَّ قد بطلَ.

وإذا زعم ذلك زعم أن الزُّبْدَ الحادثَ بعد المَخْضِ لم يكن في اللبنِ، وأن جُبْنَ اللبنِ حادثٌ، وقاسَ ماءَ الجُبْنِ على الجبنِ،

وليس اللبن إلا الجُبْنُ والماء. وإذا زعم أنهما حادثان، وأن اللبن قد بَطَل، لزمه أن يكون كذلك الفَخَّارُ، الذي لم نجدَه حتى عَجْنَا الترابَ اليابسَ المتهافتَ على حدِّته، بالماءِ الرُّطْبِ السَّيَالِ على حدِّته، ثم شَوِينَاهُ بالنارِ الحارَّةِ الصَّعَادَةِ على حدِّتها، ووجدنا الفخارَ في العينِ واللمسِ والدُّوقِ والشَّمِّ، وعند النَّقْرِ والصَّكِّ - على خلاف ما وجدنا عليه النارَ وحدها، والماءَ وحده، والْتِرابَ وَحْدَهُ؛ فإنَّ ذلك الفخارُ هو تلك الأشياءُ، والحطبُ هو تلك الأشياءُ، إلا أن أحدها من تركيب العباد، والآخَرَ من تركيب الله.

والعبد لا يقلبُ المَرَكَّبَاتِ عن جواهرها بتركيبه ما ركب منها. والحجرُ متى صَكَّ بيضةً كسَرَهَا، وكيف دارَ الأمرُ، سواءً كانت الرِّيحُ تقلبه أو إنسان.

فإن زعموا أن الفخارَ ليس ذلك التُّرابَ، وذلك الماءَ، وتلك النارَ، وقالوا مثل ذلك في جميع الأخبصة والأنبذة، كان آخرُ قياسهم أن يُجيبوا بجواب أبي الجهجاه؛ فإنه زعم أن القائم غيرُ القاعد، والعجينُ غيرُ الدقيق، وزعم - ولو أنه لم يقل ذلك - أن الحَبَّةَ متى فُلقت فقد بطل الصحيح، وحدث جِسْمَانِ في هيئةِ نصفَي الحَبَّةِ، وكذلك إذا فُلقت بأربع فلق، إلى أن تصيرَ سَوِيْقًا، ثم تصيرَ دَقِيقًا، ثم تصيرَ عَجِينًا، ثم تصيرَ حُبْرًا، ثم

تعود رجيعاً وزبلاً، ثم تعود ریحاناً وبَقلاً، ثم يعود الرجيع أيضاً
لبناً وزبداً؛ لأن الجلالة من البهائم تأكله، فيعود لحماً ودماً.
وقال: فليس القول إلا ما قال أصحاب الكُمون، أو قول هذا.
رد النظام على أصحاب الأعراض قال أبو إسحاق: فإن اعترض
علينا مُعترضٌ من أصحاب الأعراض فزعم أن النار لم تكن
كامنةً، وكيف تكمنُ فيه وهي أعظم منه؟ ولكن العود إذا احتكَّ
بالعود حمي العودان، وحمي من الهواء المحيط بهما الجزء
الذي بينهما، ثم الذي يلي ذلك منهما، فإذا احتدم رق، ثم جفَّ
والتهب، فإنما النار هواءً استحال.
والهواء في أصل جوهره حارٌّ رقيق، وهو جسم رقيق، وهو
جسمٌ خَوَّارٌ، جيّد القبول، سريع الانقلاب.
والنار التي تراها أكثر من الحطب، إنما هي ذلك الهواء
المستحيل، وانطفأؤها بطلان تلك الأعراض الحادثة من النارية
فيه، فالهواء سريع الاستحالة إلى النار، سريع الرجوع إلى
طبعه الأول، وليس أنها إذا عُدِمَتْ فقد انقطعت إلى شكل له
عُلويٌّ واتصلت، وصارت إلى تلادها، ولا أن أجزاءها أيضاً
تفرقت في الهواء، ولا أنها كانت كامنةً في الحطب، متداخلةً
منقبضةً فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهبُ
هواءً استحال ناراً؛ لأن الهواء قريب القرابة من النار، والماء

هو حجازٌ بينهما، لأنَّ النارَ يابسةٌ حارة، والماءَ رطبٌ بارد،
والهواءَ حارٌّ رطب، فهو يُشبه الماءَ من جهة الرطوبة
والصفاء، ويُشبه النارَ بالحرارةِ والخفة فهو يخالفهما
ويوافقهما؛ فلذلك جازَ أن ينقلبَ إليهما انقلاباً سريعاً، كما
ينعصر الهواءَ إذا استحال رطباً وحدث له كثافة، إلى أن تعود
أجزاؤه مطراً، فالماءُ ضدُّ النار، والهواءُ خلافٌ لهما، وليس
بضدٍّ، ولا يجوز أن ينقلبَ الجوهر إلى ضده حتى ينقلبَ بدياً إلى
خلافه، فقد يستقيم أن ينقلبَ الماءُ هواءً، ثم ينقلبَ الهواءُ ناراً،
وينقلبَ الهواءُ ماءً، ثم ينقلبَ الماءُ أرضاً، فلا بدّ في الانقلاب
من الترتيبِ والتدرج، وكلُّ جوهرٍ فله مقدمات؛ لأن الماءَ قد
يحيل الطينَ صخراً، وكذلك في العكس، فلا يستحيل الصخرُ
هواءً، والهواءُ صخراً، إلا على هذا التنزيل والترتيب.
وقال أبو إسحاق لمن قال بذلك من حُذاق أصحاب الأعراس: قد
زعمتم أن النار التي عاينّاها لم تخرج من الحطب، ولكنَّ
الهواءَ المحيطَ بهما احتدَمَ واستحالَ ناراً، فلعلَّ الحطب الذي
يسيل منه الماءُ الكثيرُ، أن يكون ذلك الماءُ لم يكن في الحطب،
ولكنَّ ذلك المكان من الهواءِ استحالَ ماءً، وليس ذلك المكان
من الهواءِ أحقُّ بأن يستحيل ماءً من أن يكون سبيلُ الدخان في
الاستحالةِ سبيلَ النار والماء.

فإن قاسَ القومُ ذلك، فزعموا أن النار التي عاينّاها، وذلك الماء
والدخان في كثافة الدخان وسواده، والذي يتراكم منه في
أسافل القدور وسُقْف المطابخ إنما ذلك هواء استحال، فلعلَّ
الرماد أيضاً، هواءً استحالَ رماداً. فإن قلتُم: الدخان في أول
ثقله المتراكم على أسافل القدور، وفي بطن سُقْفِ مواقدِ
الحمامات، الذي إذا دُبِّرَ ببعض التدبير جاء منه الأنقاسُ
العجيبةُ أحق بأن استحالَ أرضياً، فإن قاسَ صاحب العَرَضِ،
وزعم أن الحطب انحلَّ بأسره، فاستحال بعضه رماداً كما قد
كان بعضُه رماداً مرةً، واستحال بعضه ماءً كما كان بعضه ماءً
مرة، وبعضه استحالَ أرضاً، كما كان بعضه أرضاً مرة، ولم
يقلْ إن الهواءَ المحيطَ به استحالَ رماداً، ولكنَّ بعضَ أخلاطِ
الحطبِ استحالَ رماداً ودُخاناً، وبعض الهواء المتصل به
استحال ماءً وبعضه استحالَ ناراً، على قدرِ العوامل، وعلى
المقابلات له، وإذا قال صاحبُ العَرَضِ ذلك كان قد أجاب في
هذه الساعةِ على حدِّ ما نزلتُه لك.
وهذا باب من القول في النار، وعلينا أن نستقصيَ للفريقين
والله المعين.

ردُّ على منكري الكُمون

وبابٍ آخَرُ، وهو أن بعض من ينكرُ كُمونَ النارِ في الحطبِ قالوا: إن هذا الحرَّ الذي رأيناه قد ظهرَ من الحطبِ، لو كان في الحطبِ لكان واجباً أن يجده مَنْ مَسَّه كالجمرِ المتوقدِ، إذا لم يكن دونه مانعٌ منه، ولو كان هناك مانعٌ لم يكن ذلك المانعُ إلا البردَ؛ لأنَّ اللونَ والطعمَ والرائحةَ لا يفسدُ الحرُّ، ولا يُمانعه إلا الذي يُضادُّه، دون الذي يخالفه ولا يضاده.

فإن زعم زاعمٌ أنه قد كان هناك من أجزاء البردِ ما يعادلُ ذلك الحرَّ ويُطاوله، ويكافيه ويوازيه؛ فلذلك صرنا إذا مَسَسْنَا الحطبَ لم نجدَه مؤذياً، وإنما يظهر الحرقُ ويُحرقُ لزوال البردِ، إذا قام في مكانه وظهر الحرُّ وحده فظهر عمله، ولو كان البردُ المعادلُ لذلك الحرَّ مقيماً في العودِ على أصلِ كُمونه فيه، لكان ينبغي لمن مَسَّ الرَّمادَ بيده أن يجده أبرد من الثلجِ، فإذا كان مسه كمسِّ غيره، فقد علمنا أنه ليس هناك من البردِ ما يعادلُ هذا الحرَّ الذي يُحرق كلَّ شيءٍ لَقِيهِ.

فإن زعم أنهما خرجا جميعاً من العودِ، فلا يخلو البردُ أن يكونَ أخذَ في جهته، فلمَ وجدنا الحرَّ وحده وليس هو بأحق أن نجدَه من ضده، وإن كان البردُ أخذَ شمالاً، وأخذَ الحرُّ جنوباً، فقد كان ينبغي أن يجمدَ ويُهْلِك ما لاقاه، كما أهلك الحرُّ وأحرق وأذاب كلَّ ما لاقاه.

قالوا: فلما وجدنا جميع أقسام هذا الباب، علمنا أن النار لم تكن
كامنة في الحطب.

قال أبو إسحاق: والجواب عن ذلك أنا نزع من أن الغالب على
العالم السفلي الماء والأرض، وهما جميعاً بارداً، وفي
أعماقهما وأضعافهما من الحر ما يكون مغموراً ولا يكون
غامراً، ويكون مقموحاً ولا يكون قامعاً؛ لأنه هناك قليل،
والقليل دليل، والدليل غريب، والغريب محقور، فلما كان العالم
السفلي كذلك، اجتذب ما فيه من قوة البرد وذلك البرد الذي كان
في العود عند زوال مانعه؛ لأن العود مقيم في هذا العالم، ثم لم
ينقطع ذلك البرد إلى برد الأرض، الذي هو كالقرص له، إلا
بالطفرة والتخفيف، لا بالمرور على الأماكن والمحاذاة لها وقام
برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذي يدخل البيت
للخرق الذي يكون فيه، فإذا سد فمع السد ينقطع إلى قرصه،
وأصل جوهره.

فإذا أجاب بذلك أبو إسحاق لم يجد خصمه بدءاً من أن يبتدئ
مسألة في إفساد القول بالطفرة والتخفيف.

ولولا ما اعترض به أبو إسحاق من الجواب بالطفرة في هذا
الموضع، لكان هذا مما يقع في باب الاستدلال على حدوث
العالم.

قول النظام في الكمون وكان أبو إسحاق يزعم أن احتراق الثوب والحطب والقطن، إنما هو خروج نيرانه منه، وهذا هو تأويل الاحتراق، وليس أن ناراً جاءت من مكان فعملت في الحطب، ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفي ضدها عنها، فلما اتصلت بنار أخرى، واستمدت منها، قويتنا جميعاً على نفي ذلك المانع، فلما زال المانع ظهرت، فعند ظهورها تجزأ الحطب وتجفف وتهافت؛ لمكان عملها فيه، فأحراقك للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه.

وكان يزعم أن حرارة الشمس، إنما تحرق في هذا العالم بإخراج نيرانها منه، وهي لا تحرق ما عقد العرض وكثف تلك الندوة؛ لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس لا تحترق، كاللون والطعم والرائحة، والصوت، والاحتراق إنما هو ظهور النار عند زوال مانعها فقط.

وكان يزعم أن سم الأفعى مقيماً في بدن الأفعى، ليس يقتل، وأنه متى مازج بدناً لا سم فيه لم يقتل ولم يتلف، وإنما يتلف الأبدان التي فيها سموم ممنوعة مما يضادها، فإذا دخل عليها سم الأفعى، عاون السم الكامن ذلك السم الممنوع على مانعه، فإذا زال المانع تلف البدن، فكان المنهوش عند أبي إسحاق، إنما كان أكثر ما أتلفه السم الذي معه.

وكذلك كان يقول في حرِّ الحمام، والحر الكامن في الإنسان: أنَّ العَشْيَ الذي يعتريه في الحمام ليس من الحر القريب، ولكن من الحر الغريب، حرَّ الحرِّ الكامن في الإنسان، وأمَّده ببعض أجزائه، فلما قوِيَ عند ذلك على مانِعِه فأزاله، صار ذلك العملُ الذي كان يُوقعه بالمانع واقِعاً به، وإنما ذلك كماءٍ حارٍ يحرقُ اليَدَ، صُبَّ عليه ماءً بارداً، فلما دخل عليه الماء البارد صار شُغْلُه بالداخل، وصار من وُضِعَ يده فيه ووضع يده في شيء قد شُغِلَ فيه بغيره، فلما دفع الله، عزَّ وجلَّ، عنه ذلك الجسم الذي هو مشغولٌ به، صار ذلك الشُّغْلُ مصروفاً إلى من وضع يده فيه؛ إذ كان لا ينفكُ من عمله.

وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأت نارَ الأثون لم تجد شيئاً من الضوء، ووجدت الكثير من الحر؛ لأن الضياء لما لم يكن له في الأرض أصلٌ ينسب إليه، وكان له في العلوِّ أصلٌ، كان أولى به. وفي الحقيقة أنهما جميعاً قد اتصلا بجوهرهما من العالم العلويِّ، وهذا الحر الذي تجده في الأرض، إنما هو الحرُّ الكامن الذي زال مانعه.

هكذا كان ينبغي أن يقول، وهو قياسه.

وكان يزعم أنك إن أبصرت مصباحاً قائماً إلى الصُّبح أن الذي رأيته في أول وهلةٍ قد بطلَ من هذا العالم، وظفر من الدهن

بشيء من وزنه وقدره بلا فضل، ثم كذلك الثالث والرابع والتاسع، فأنت إن ظننت أن هذا المصباح ذلك، فليس به، ولكن ذلك المكان لما كان لا يخلو من أقسامٍ متقاربةٍ متشابهةٍ، و لم يكن في الأول شيةً ولا علامة، وقع عندك أن المصباح الذي رأيته مع طلوع الفجر، هو الذي رأيته مع غروب الشفق. وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدهن ولم تشربه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين، اللذين كانا فيه، وإذا خرج كلُّ شيء فهو بطلانه.

المجاز والتشبيه الأكل

وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل، وعلى الاشتقاق، وعلى التشبيه.

فإن قلتم: فقد قال الله عزّ وجلّ في الكتاب: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ" عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ، عزّ وجلّ، إنما كلمهم بلغتهم. وقد قال أوسُ بنُ حَجَرٍ :

وألقى بأسبابٍ له

فأشرط فيها نفسه

وهو مُعَصِمٌ

وتوكَّلاً

وقد أَكَلَتْ أَظْفَارُهُ

تَعَايَا عَلَيْهِ طَوْلٌ مَرَقَى

الصَّخْرُ كُلَّمَا

تَوَصَّلَا

فَجَعَلَ النَّحْتِ وَالتَّنْقُصَ أَكْلًا.

وقال خَفَافُ بنِ نَدْبَةَ:

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَا كُنْتَ

فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ

دَا نَفَرٍ

الضَّبُعُ

والضَّبُعُ: السَّنَّةُ، فَجَعَلَ تَنَقُّصَ الْجَذْبِ، وَالْأَزْمَةَ، أَكْلًا.

باب آخر مما يسمونه أَكْلًا. وقال مِرْدَاسُ بنِ أُدِيَّةَ:

وَأَدَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي مِثْلَ

وَقَرَّبُوا لِحِسَابِ الْقِسْطِ

مَا أَكَلْتُ

أَعْمَالِي

وَأَكَلُ الْأَرْضَ لَمَّا صَارَ فِي بَطْنِهَا: إِحَالَتُهَا لَهُ إِلَى جَوْهَرِهَا.

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا"

وقوله تعالى، عَزَّ اسْمُهُ: "أَكَّالُونَ لِلْسُّخْتِ"، وقد يقال لهم ذلك

وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحُللَ، وركبوا
الدوابَّ، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل.
وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا"، وهذا
مجازٌ آخر.

وقال الشاعر في أخذ السنين من أجزاء الخمر:

وتَبَقَى مُصَاصَهَا
المكنونا

أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّم
منها

وقال الشاعر:

يَأْكُلُ مِنْهَا بَعْضُهَا
بعضاً

مَرَّتْ بِنَا تَخْتَالُ فِي
أَرْبَعِ

وهل قوله: وقد أَكَلَتْ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ، إلا كقوله:

كضَبَّ الكَدَى أَفْنَى بِرَائِتِهِ الحَفْرُ

وإذا قالوا: أَكَلَهُ الأَسَدُ، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا
قالوا: أَكَلَهُ الأَسْوَدُ، فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدَغَ والعضَّ فقط.
وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا"،
ويقال: هم لحوم الناس.

وقال قائلٌ لإسماعيل بن حماد: أيُّ اللُّحْمَانِ أطيب؟ قال: لحومُ
الناس، هي واللهِ أطيبُ من الدجاج، ومن الفراخ، والعُنُوزِ
الحُمْرِ.

ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس، وإن لم يأكل من
طعامهم شيئاً.

وأما قولُ أوس بن حَجْر:

له رَوْنَقٌ ذَرِيَّةٌ
يَتَأَكَّلُ

وذو شَطْبَاتٍ قَدَّهُ ابْنُ
مَجْدَعٍ

فهذا على خلاف الأول، وكذلك قول دُهْمَانَ النهري:

شَرَبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ
وَأَكَلُ

سَأَلْتَنِي عَنْ أَنَسٍ
أَكَلُوا

فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز.

باب آخر في مجاز الذوق

وهو قول الرَّجُلِ إذا بالغ في عقوبة عبده: ذُقْ و: كيف ذقته؟
و: كيف وجدتَ طعامه! وقال عز وجل: "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْكَرِيمُ".

وأما قولهم: ما ذقت اليوم ذواقاً، فإنه يعني: ما أكلت اليوم طعاماً، ولا شربت شراباً، وإنما أراد القليل والكثير، وأنه لم يذقه، فضلاً عن غير ذلك.

وقال بعض طبقات الفقهاء، ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلماً: ما ذقت اليوم ذواقاً على وجه من الوجوه، ولا على معنى من المعاني، ولا على سبب من الأسباب، ولا على جهة من الجهات، ولا على لون من الألوان. وهذا من عجيب الكلام.

قال: ويقول الرجل لوكيله: إيت فلاناً فذُق ما عنده. وقال شَمَاح بن ضِرار:

كَفَى وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

فَذَا

ق فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللَّيْنِ جَانِباً

وقال ابن مُقْبِل:

أَيْدِي التَّجَارِ فَرَادُوا
مَتْنَهُ لَيْنَا

أَوْ كَاهْتِرَازِ رُدَيْنِيَّ
تَدَاوَقَهُ

وقال نَهْشَلُ بن حَرِّي:

وَعَهْدُ الْغَانِيَاتِ كَعَهْدِ
قَيْنِ

وَنَتْ عَنْهُ الْجَعَائِلُ
مُسْتَذَاقِ

الجعائلُ: من الجُعَلِ.

وتجاوزوا ذلك إلى أن قال يزيد بن الصَّعِقِ، لبني سُلَيْمِ حِينَ
صنعوا بسيدِّهم العباسِ ما صنعوا، وقد كانوا تَوَجَّوه وَمَلَّكوه،
فلما خالفهم في بعض الأمر وثبوا عليه، وكان سبب ذلك قلة
رَهْطِهِ، وقال يزيد بن الصَّعِقِ:

وإن الله ذاق حُلُومِ
قَيْسِ

فلما ذاق خِفَّتْهَا قَلَاهَا

فخَلَّاهَا تَرَدَّدُ فِي
خَلَّاهَا

رَأَاهَا لَا تَطِيعُ لَهَا أَمِيرًا

فزعم أن الله، عزَّ وجلَّ، يذوق.

وعند ذلك قال عباس الرَّعْلِي يَخْبِرُ عَنْ قَلَّتِهِ وَكَثْرَتِهِمْ، فَقَالَ:

وَأُمَّ أَحْيِكُمْ كَزَّةَ الرَّحِمِ
عَاقِرُ

وَأُمَّكُمْ تُرْجِي النَّوَامِ
لِبُعْلِهَا

وزعم يونس أن أسلم بن زرعة لما أنشد هذا البيت اغرورقت
عيناه.

وجعل عباس أمه عاقراً إذ كانت نزوراً، وقد قال الغنوي:

وتحدثوا ملاً لتصبح
أمنا
عذراء لا كهلاً ولا
مولوداً

جعلها إذ قلّ ولدها كالعذراء التي لم تلد قط، لما كانت كالعذراء
جعلها عذراء.

وللعرب إقدام على الكلام، ثقةً بفهم أصحابهم عنهم، وهذه
أيضاً فضيلة أخرى.

وكما جوّزوا لقولهم أكل وإنما عضّ، وأكل وإنما أفنى، وأكل
وإنما أحاله، وأكل وإنما أبطل عينه - جوّزوا أيضاً أن يقولوا:
دُقّت ما ليس بطعم، ثم قالوا: طعمت، لغير الطعام، وقال
العرجي:

وإن شئت لم أطمع نقاخاً ولا برداً

و

إن شئت حرمت النساء سواكم

وقال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي"، يريد: لم يذُق طعامه.
وقال علقمة بن عبدة:

حُمْرُ الْمَزَادِ وَلَحْمٌ فِيهِ
تَنْشِيمٌ

وقد أصاحبُ فتياناً
طعامُهُمُ

يقول: هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية، وفي الصيف الذي يُغَيَّرُ الطعام والشراب، والغزو على هذه الصفة من المفاخر؛ ولذلك قال الأول:

بُ وَلَا أُغِيرُ عَلَى مُضَرَ

لَكِنَّمَا

ضَجَّ الْمَطِيُّ مِنَ الدَّبْرِ

عَزُوي إذا

وعلى المعنى الأول قول الشاعر:

وكان تمرِي كهرة
وزبرا

قالت ألا فاطمِمْ عُميراً
تمرا

وعلى المعنى الأول قال حاتم: هذا فُصْدِي أَنَّهُ! ولذلك قال
الراجز:

لعامرات البيت بالخراب

يقول: هذا هو عمارتها.

تأويل النظام لقولهم النار يابسة

وكان أبو إسحاق يتعجب من قولهم: النار يابسة، قال: أما قولهم: الماء رطب، فيصح؛ لأننا نراه سيّالاً، وإذا قال الأرض يابسة، فإنما يريد التراب المتهافت فقط، فإن لم يُرد إلا بدن الأرض الملازم بعضه لبعض؛ لما فيها من اللدونة فقط، فقد أخطأ، لأن أجزاء الأرض مخالطة لأجزاء الماء، فامتنعت من التهافت على أقدار ذلك.

ومتى حفرنا ودخلنا في عمق الأرض، وجدنا الأرض طيناً؛ بل لا تزال تجذ الطين أرطب حتى تصير إلى الماء، والأرض اليوم كلها أرض وماء، والماء ماءً وأرض، وإنما يلزمها من الاسم على قدر الكثرة والقلّة، فأما النار فليست بيابسة البدن، ولو كانت يابسة البدن لتهافتت تهافت التراب، ولتبرأ بعضها من بعض، كما أن الماء لما كان رطباً كان سيّالاً.

ولكن القوم لما وجدوا النار تستخرج كل شيء في العود من النار فظهرت الرطوبات لذلك السبب، ووجدوا العود تتميز أخلاطه عند خروج نيرانه التي كانت إحدى مراتعها من التمييز فوجدوا العود قد صار رماداً يابساً مُتَهافتاً - ظنوا أن يُبسَهُ إنما هو مما أعطته النار وولدت فيه.

والنار لم تُعْطِه شيئاً، ولكن نار العود لما فارقت رطوبات العود، ظهرت تلك الرطوبات الكامنة والمائعة، فبقي من العود الجزء الذي هو الرماد، وهو جزء الأرض وجوهرها؛ لأن العود فيه جزء أرضي، وجزء مائي، وجزء ناري، وجزء هوائي، فلما خرجت النار واعتزلت الرطوبة بقي الجزء الأرضي فقولهم: النار يابسة، غلط، وإنما ذهبوا إلى ما تراه العيون، ولم يغوصوا على مُغَيَّبَاتِ العِلل، وكان يقول: ليس القوم في طريق خُلص المتكلمين، ولا في طريق الجهابذة المتقدمين. قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس وكان يقول: إن الأمة التي لم تنضجها الأرحام، ويخالفون في ألوان أبدانهم، وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم، سبيل الاعتدال - لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم، وشمائلهم، وتصرف همهم في لؤمهم وكرمهم، لاختلاف السبب وطبقات الطبخ، وتفاوت ما بين الفطير

والخمير، والمقصرّ والمجاوز - وموضع العقل عضو من الأعضاء، وجزء من تلك الأجزاء - كالتفاوت الذي بين الصّقالبة والزنج.

وكذلك القول في الصور ومواضع الأعضاء، ألا ترى أن أهل الصين والتبت، حذّاق الصناعات، لها فيها الرفق والحذق، ولطف المداخل، والاتساع في ذلك، والغوص على غامضه وبعيده، وليس عندهم إلا ذلك؛ فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك.

تخطئة من زعم أن الحرارة تورث اليبس قال: وكان يخطئهم في قولهم: إن الحرارة تورث اليبس، لأن الحرارة إنما ينبغي أن تورث السخونة، وتولد ما يشاكلها، ولا تولد ضرباً آخر مما ليس منها في شيء، ولو جاز أن تولد من الأجناس التي تخالفها شكلاً واحداً لم يكن ذلك الخلاف بأحق من خلاف آخر، إلا أن يذهبوا إلى سبيل المجاز: فقد يقول الرجل: إنما رأيتك لأنني التفتت، وهو إنما رآه لطبع في البصر الدراك، عند ذلك الالتفات. وكذلك يقول: قد نجد النار تداخل ماء القمقم بالإيقاد من تحته، فإذا صارت النار في الماء لا بسسته، واتصلت بما فيه من الحرارة، والنار صعادة - فيحدث عند ذلك للماء غليان؛ لحركة النار التي قد صارت في أضعافه، وحركتها تصعد، فإذا

تَرَفَّتْ أَجْزَاءُ النَّارِ رَفَعَتْ مَعَهَا لَطَائِفَ مِنْ تِلْكَ الرُّطُوبَاتِ الَّتِي
قَدْ لَابَسَتْهَا؛ فَإِذَا دَامَ ذَلِكَ الْإِيقَادُ مِنَ النَّارِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمَاءِ،
صَعِدَتْ أَجْزَاءُ الرُّطُوبَاتِ الْمَلَابِسَةُ لِأَجْزَاءِ النَّارِ، وَلِقْوَةَ حَرَكَةِ
النَّارِ وَطَلِبَهَا التَّلَادَ الْعُلُويَّ، كَانَ ذَلِكَ، فَمَتَى وَجَدَ مِنْ لَا عِلْمَ لَهُ
فِي أَسْفَلِ الْقَمَقَمِ كَالجِبْسِ، أَوْ وَجَدَ الْبَاقِيَ مِنَ الْمَاءِ مَالِحاً عِنْدَ
تَصْعُدِ لَطَائِفِهِ، عَلَى مِثَالِ مَا يَعْتَرِي مَاءَ الْبَحْرِ ظَنَّ أَنَّ النَّارَ الَّتِي
أَعْطَتْهُ الْيُبْسَ.

وإن زعموا أن النار هي الميبّسة - على معنى ما قد فسرنا -
فقد أصابوا، فإن ذهبوا إلى غير المجازِ أخطئوا.
وكذلك الحرارة، إذا مُكِنْتَ فِي الْأَجْسَادِ بَعَثْتَ الرُّطُوبَاتِ
وَلَابَسَتْهَا، فَمَتَى قَوِيَتْ عَلَى الْخُرُوجِ أَخْرَجْتَهَا مِنْهُ، فَعِنْدَ خُرُوجِ
الرُّطُوبَاتِ تَوْجِدُ الْأَبْدَانَ يَابِسَةً، لَيْسَ أَنَّ الْحَرَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ
عَمَلٌ إِلَّا التَّسْخِيْنَ وَالصُّعُودَ؛ وَالتَّقَلُّبُ إِلَى الصُّعُودِ مِنَ الصُّعُودِ،
كَمَا أَنَّ الْإِعْتِزَالَ مِنْ شَكْلِ الزَّوَالِ.

وكذلك الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرضين
وبطونها، إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة، فالماء غسَّال
مصَّاص، والأرض تقذف إليه ما فيها من الملوحة.
وحرارة الشمس والذي يخرج إليه من الأرض، من أجزاء
النيران المخالطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما، وتبخيرهما،

فإذا رَفَعَا اللطائفَ، فصار منهما مطرٌ وما يشبه المطر، وكان ذلك دأبهما، عادَ ذلك الماء ملحاً لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة، والنيران تخرجُ منه العذوبة واللطافة - كان واجباً أن يعود إلى الملوحة، ولذلك يكون ماء البحرِ أبداً على كيلٍ واحدٍ، ووزن واحد؛ لأن الحرارة تطلب القرارَ وتجري في أعماق الأرض، وترفع اللطائف؛ فيصير مطراً، وبرداً، وثلجاً، وطلاً، ثم تعود تلك الأمواه سيولاً تطلب الحَدورَ، وتطلب القرارَ، وتجري في أعماق الأرض، حتى تصير إلى ذلك الهواء، فليس يضيع من ذلك الماء شيء، ولا يبطلُ منه شيء، والأعيانُ قائمة، فكأنه مَنجُونٌ عُرف من بحر، وصبَّ في جدول يفيضُ إلى ذلك النهر.

فهو عملُ الحرارة إذا كانت في أجواف الحطب، أو في أجواف الأرضين، أو في أجواف الحيوان.

والحر إذا صار في البدن، فإنما هو شيء مُكره، والمكره لا يألو يتخلصُ وهو لا يتلخص إلا وقد حمل معه كلَّ ما قوي عليه، مما لم يشتد، فمتى خرج خرج معه ذلك الشيء.

قال: فمن هاهنا غلط القوم.

قول الدهرية في أركان العالم قال أبو إسحاق: قالت الدهرية في عالمنا هذا بأقاول: فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة

أركان: حرّ، وبرد، ويبس، وبِلَّة، وسائر الأشياء نتائج،
وتركيب، وتوليد، وجعلوا هذه الأربعة أجساماً.
ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان: من أرض،
وهواء، وماء، ونار، وجعلوا الحر، والبرد، واليُبس، والبِلَّة
أعراضاً في هذه الجواهر، ثم قالوا في سائر الأرييح،
والألوان، والأصوات: ثمارُ هذه الأربعة، على قدر الأخلاط، في
القلة والكثرة، والرقّة والكثافة.

فقدّموا ذكر نصيب حاسّة اللمس فقط، وأضربوا عن أنصباء
الحواسّ الأربع.

قالوا: ونحن نجد الطُّعومَ غاذيةً وقاتلةً، وكذلك الأرييح، ونجد
الأصوات مُلذّة ومؤلّمة، وهي مع ذلك قاتلة وناقصة للقوى
مُتلفة، ونجد للألوان في المضار والمنافع، واللذّادة والألم،
المواقع التي لا تجهل، كما وجدنا مثل ذلك في الحر والبر،
واليُبس والبِلَّة، ونجن لم نجد الأرض باردة يابسة، غير أنا
نجدها مالحة، أي ذات مذاقة ولون كما وجدناها ذات رائحة،
وذات صوتٍ متى قرع بعضها بعضاً.

فبردُ هذه الأجرام وحرها، ويُبسها ورطوبتها، لم تكن فيها لعة
كون الطُّعوم والأرييح والألوان فيها، وكذلك طعومها،
وأرييحها وألوانها، لم تكن فيها لمكانٍ كمون البرد، واليُبس،

والحر، والبلّة فيها.

ووجدنا كلّ ذلك إما ضارّاً وإما نافعاً، وإما غانياً وإما قاتلاً،
وإما مؤلماً وإما مُلداً. وليس يكون كون الأرض مالحة أو
عذبة، ومنتنةً أو طيبة أحقّ بأن يكون علة لكون اليُبس والبرد،
والحر والرطوبة، من أن يكون كون الرطوبة واليُبس، والحر
والبرد- علة لكون اللون والطعم والرائحة.

وقد هجم الناسُ على هذه الأعراض الملازمة، والأجسام
المشاركة هجوماً واحداً، على هذه الحلية والصورة ألفاها الأولُ
والآخرُ.

قال: فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسة وحدها
ونحن لم نر من البلّة، أو من اليُبس نفعاً ولا ضرراً، تنفرد به
دون هذه الأمور؟.

قال: والهواء يختلف على قدرِ العوامل فيه من تحت ومن فوق،
ومن الأجرام المشتملة عليه والمخالطة له، وهو جسم رقيق،
وهو في ذلك محصورٌ، وهو خوارٌ سريع القبول، وهو مع رفته
يقبل ذلك الحصر؛ مثل عمل الريح والزقّ، فإنها تدفعه من
جوانبه، وذلك لعلة الحصر ولقُطعه عن شكله.

والهواء ليس بالجسم الصعاد، والجسم النّزال، ولكنه جسم به
تعرف المنازل والمصاعد.

والأمور ثلاثة: شيء يصعدُ في الهواء، وشيء ينزل في
الهواء، وشيء مع الهواء، فكما أن الصاعد فيه، والمنحدر - لا
يكونان إلا مخالفين، فالواقع معه لا يكون إلا موافقاً.
ولو أنّ إنساناً أرسل من يده - وهو في قعر الماء - زِقاً
منفوخاً، فارتفع الزقُّ لدفع الريح التي فيه، لم يكن لقائل أن
يقول: ذلك الهواء شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول: ذلك
الهواء من شأنه أن يصير إلى جوهره، ولا يقيم في غير
جوهره؛ إلا أن يقول: من شأنه أن يصعد في الماء، كما أن من
شأن الماء أن ينزل في الهواء، وكما أن الماء يطلبُ تلادَ
الماء، والهواء يطلبُ تلادَ الهواء.

قالوا: والنار أجناسٌ كثيرةٌ مختلفة، وكذلك الصاعد، ولا بدّ إذا
كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض، أو يكون
بعضها إذا خرج من عالم الهواء، وصار إلى نهاية، إلى حيث
لا منفذ - ألا يزال فوق الآخر الذي صعد معه، وإن وجد مذهباً
لم يقيم عليه.

ويدلُّ على ذلك أنا نجد الضياء صَعَاداً، والصوت صَعَاداً، ونجد
الظلام رابداً، وكذلك البرد والرطوبة، فإذا صح أن هذه الأجناس
مختلفة، فإذا أخذت في جهة، علمنا أن الجهة لا تخالف بين
الأجناس ولا توافق، وأن الذي يوافق بينهما ويخالف اختلافٌ

الأعمال.

ولا يكون القطعان متفقين، إلا بأن يكون سرورهما سواء، وإذا صارا إلى الغاية، صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه، كاتصال بعضه ببعض، ثم لا يوجد أبداً، إلا إما أعلى، وإما أسفل. قال أبو إسحاق: فيستدل على أن الضياء أخف من الحر بزواله، وقد يذهب ضوء الآتون، وتبقى سخونته. قال أبو إسحاق: لأمر ما حُصر الهواء في جوف هذا الفلك، ولا بد لكل محصور من أن يكون تقلبه وضغطه على قدر شدة الحصار، وكذلك الماء إذا اختنق.

قال: والريح هواء نزل لا غير، فلم قضوا على طبع الهواء في جوهريته بالدونة، والهواء الذي يكون بقرب الشمس، والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك؟ ولولا أن قوى البرد غريزية فيه، لما كان مروحاً عن النفوس، ومنقساً عن جميع الحيوان إذا اختنق في أجوافها البخار والوهج المؤذي، حتى فرغت إليه واستغاثت به، وصارت تجتلب من روجه وبرد نسيمه، في وزن ما خرَج من البخار الغليظ، والحرارة المستكنة.

قال: وقد علموا ما في اليُبس من الخصومة والاختلاف، وقد زعم قوم أن اليُبس إنما هو عدم البلّة، قالوا: وعلى قدر البلّة

قد تتحول عليه الأسماء، حتى قال خصومهم: فقولوا أيضاً إنما نجدُ الجسم بارداً على قدر قلة الحرِّ فيه.

وكذلك قالوا في الكلام: إن الهواء إنما يقع عندنا أنه مُظلم لفقدان الضياء، ولأن الضياء قرصٌ قائم، وشعاع ساطعٌ فاصل، وليس للظلام قرص، ولو كان في هذا العالم شيء يقال له ظلامٌ، لما قام إلا في قرص، فكيف تكون الأرض قُرْصَةً، والأرض غبراء، ولا ينبغي أن يكون شعاع الشيء أسبغ منه. قال: والأول لا يشبه القول في اليُبس والبلة، والقول في الحر والبرد، والقول في اليُبس والرطوبة، والقول في الخشونة واللين، لأن التراب لو كان كله يابساً، وكان اليُبس في جميع أجزائه شائعاً، لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبرد والتهافت، من الجزء الذي نجده متمسكاً. قال خصمه: ولو كان أيضاً التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدم البلة، وكله قد عدم البلة، لكان ينبغي للكل أن يكون متهافتاً، ولا نجد منه جزأين متلازقين.

فإن زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليُبس، فينبغي لكم أن تجعلوا اليُبس طبقات، كما يجعل ذلك للخضرة والصفرة.

وقال إبراهيم: أريت لو اشتمل اليُبس الذي هو غاية التراب

كله كما عرض لنصفه، أما كان واجباً أن يكون الافتراق داخلياً على الجميع؟ وفي ذلك القولُ بالجزء الذي لا يتجزأ. وأبو إسحاق، وإن كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليبس، فإنَّ المسألة عليه في ذلك أشد.

وكان أبو إسحاق يقول: من الدليل على أن الضياء أخفُّ من الحرِّ أنَّ النارَ تكون منها على قاب غلوة فيأتيك ضوءها ولا يأتيك حرها، ولو أن شمعة في بيت غير ذي سقف، لارتفع الضوء في الهواء حتى لا تجد منه على الأرض إلا الشيء الضعيف، وكان الحرُّ على شبيهه بحاله الأول.

رد النظام على الديصانية وقال أبو إسحاق: زعمت الديصانية أن أصلَ العالمِ إنما هو من ضياءٍ وظلام، وأن الحرَّ والبرد، واللون والطعم والصوت والرائحة، إنما هي نتائج على قدر امتزاجهما.

ف قيل لهم: وجدنا الحبر إذا اختلط باللبن صار جسماً أغبر، وإذا خلطت الصِّبرَ بالعسل صار جسماً مرَّ الطعم على حساب ما زدنا، وكذلك نجد جميع المركبت، فما لنا إذا مزجنا بين شيئين من ذوات المناظر، خرجنا إلى ذوات الملامس، وإلى ذوات المدآقة والمشمة؟ وهذا نفسه داخلٌ على من زعم أن الأشياء كلها تولدت من تلك الأشياء الأربعة، التي هي نصيب حاسةٍ

واحدة.

نقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة وقال أبو إسحاق: إن زعم قوم أن ههنا جنساً هو روح، وهو ركن خامس - لم نخالفهم. وإن زعموا أن الأشياء يحدث لها جنس إذا امتزجت بضرب من المزاج، فكيف صار المزاج يحدث لها جنساً وكل واحد منه إذا انفرد لم يكن ذا جنس، وكان مفسداً للجسم، وإن فصل عنها أفسد جنسها؟ وهل حكم قليل ذلك إلا كحكم كثيره؟ ولم لا يجوز أن يجمع بين ضياء وضياء فيحدث لهما منع الإدراك؟. فإن اعتل القوم بالزواج والعفص والماء، وقالوا: قد نجد كل واحد من هذه الثلاثة ليس بأسود، وإذا اختلطت صارت جسماً واحداً أشد سواداً من الليل، ومن السج، ومن الغراب - قال أبو إسحاق: بيني وبينكم في ذلك فرق، أنا أزعم أن السواد قد يكون كامناً ويكون ممنوع المنظرة، فإذا زال مانعه ظهر، كما أقول في النار والحجر وغير ذلك من الأمور الكامنة، فإن قلت بذلك فقد تركتم قولكم، وإن أبيتم فلا بد من القول، قال أبو إسحاق: وقد خلط أيضاً كثير منهم فزعموا أن طباع الشيخ البلغم. ولو كان طباعه البلغم، والبلغم لين رطب أبيض، لما ازداد

عَظْمُهُ نَحَوْلًا، وَلَوْنُهُ سَوَادًا، وَجِلْدُهُ تَقْبُضًا.
وَقَالَ النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ:

صَنَاعِ عَلَتْ مِئِّي بِهِ الْجِلْدُ مِنْ عِلِّ

ك

أَنَّ مِحَطًّا فِي يَدَيَّ حَارِثِيَّةٍ

وَقَالَ الرَّاجِزُ:

وَكثرت فواضل الإهاب

قال: ولكنهم لما رأوا بدنه يتعصن، ويظهر من ذلك التعصن
رطوبات بدنية كالبلعن من الفم، والمخاط السائل من الأنف،
والرَّمَص والدمع من العين، ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من
أجزاء الرطوبات، وأرادوا أن يقسموا الصِّبَا والشباب،
والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما تهيأ لهم ذلك في
غير باب.

وإذا ظهرت تلك الرطوبات، فإنما هي لنفي اليُبس لها، ولعصره
قوى البدن، ولو كان الذي ذكروا لكان دمع الصِّبَا أكثرَ ومخاطه
أغزرَ، ورطوباته أظهرَ، وفي البقول والرياحين والأغصان
والأشجار ذلك؛ إذ كانت في الحداثة أرطبَ، وعلى مرور السنين

والأيام أيبس.
قال الرَّاجز:

نوم العشي وسعال بالسحر

اس

مع أنبئك بآيات الكبر

وقلة الطعم إذا الزاد حضر

وقل

ة النوم إذا الليل اعتكر

وتركي الحسنة في قبل الظهر

وس

رعة الطرف وضعف في النظر

والناس يبيلون كما يبلى الشجر

وح

ذر أزداده إلى حذر

وكان يتعجب من القول بالهيولى. وكان يقول: قد عرفنا مقدار
رزانة البلة، وسنعطيكم أن للبرد وزناً، أليس الذي لا تشكون
فيه أن الحر خفيف ولا وزن له، وأنه إذا دخل في جرم له وزن

صار أخفّ، وإنكم لا تستطيعون أن تثبتوا لليبس من الوزن مثل ما تثبتون للبلّة، وعلى أنّ كثيراً منكم يزعم أن البرد المجمّد للماء هو أيبس.

وزعم بعضهم أن البرد كثيراً ما يصاحب اليبس، وأن اليبس وحده لو حلّ بالماء لم يُجمد، وأن البرد وحده لو حلّ بالماء لم يجمد، وأن الماء أيضاً يجمد لاجتماعهما عليه، وفي هذا القول أن شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الإجماد، فما تنكرون أن يجتمع شيان على الإذابة؟.

وإن جاز لليبس أن يُجمد جاز للبلّة أن تُذيب.

قال أبو إسحاق: فإن كان بعض هذه الجواهر صعباً وبعضها نزلاً، ونحن نجد الذهب أثقل من مثله من هذه الأشياء النزّالة، فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء صعبة؟.

فإن زعموا أن الخفة إنما تكون من التخلُّل والسُّخف، وكثرة أجزاء الهواء في الجرم، فقد ينبغي أن يكون الهواء أخفّ من النار، وأن النار في الحجر، كما أن فيه هواءً، والنار أقوى رفع الحجر من الهواء الذي فيه.

وكان يقول: من الدليل على أن النار كامنة في الحطب، أن الحطب يُحرق بمقدار من الإحراق، ويمنع الحطب أن يخرج جميع ما فيه من النيران، فيجعل فحماً، فمتى أحببت أن

تستخرج الباقي من النار استخرجته، فترى النار عند ذلك يكون لها لهبٌ دون الضرام، فمتى أخرجت تلك النار الباقية، ثم أوقدت عليها ألف عام لم تستوقد، وتأويل: لم تستوقد إنما هو ظهور النار التي كانت فيه، فإذا لم يكن فيه شيء فكيف يستوقد؟ .

وكان يُكثر التعجب من ناس كانوا ينافسون في الرأسة، إذا رآهم يجهلون جهل صغار العلماء، وقد ارتفعوا في أنفسهم إلى مرتبة كبار العلماء .

وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فينقيه فيقول: أين تلك النار الكامنة؟ ما لي لا أراها، وقد ميّزت العود قشراً بعد قشر؟ .

استخراج الأشياء الكامنة

فكان يقول في الأشياء الكامنة: إن لكل نوع منها نوعاً من الاستخراج، وضرباً من العلاج، فالعيدان تُخرج نيرانها بالاحتكاك، واللبن يُخرج زبده بالمخض، وجبنة يُجمع بأنفحة، وبضروب من علاجه .

ولو أن إنساناً أراد أن يخرج القطران من الصنوبر، والزفت من الأرز؛ لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدقه ويقشره، بل يوقد له ناراً بقربه، فإذا أصابه الحرُّ عرق وسال، في ضروب

من العلاج.

ولو أن إنساناً مزَج بين الفضة والذهب، وسبكهما سبيكة واحدة، ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يُمكنه ذلك بالفَرَضِ والدَّق، وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصَّاعَةِ، وأرباب الحُمْلانات.

رد النظام على أرسطاطاليس وزعم أبو إسحاق أن أرسطاطاليس كان يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضاً، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماءً، وكذلك ما كان من الماء في الحجر، ومن النار في الأرض والهواء، وأن الأجرام إنما يخفُّ وزنها وتسخفُّ، على قدر ما فيها من التخلخلُ ومن أجزاء الهواء، وأنها ترزُّن وتصلب وتمتُن على قدر قَلَّةِ ذلك فيها.

ومن قال هذا القول في الأرض والماء والنار والهواء، وفيما تركب منها من الأشجار وغير ذلك - لم يوصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضاً يحدث، وبالحرِّ أن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض والنار عرضاً.

وإذا قال في تلك الأشجار بتلك القالة، قال في الطول والعرض، والعُمق، وفي التربيع والتثليث والتدوير، بجواب أصحاب الأجسام، وكما يلزم أصحاب الأعراضُ أصحاب الأجسام

بقولهم في تثبيت السكون والحركة أن القول في حراك الحجر كالحقول في سكونه - كذلك أصحاب الأجسام يلزمون كل من زعم أن شيئاً من الأعراض لا يُنقض أن الجسم يتغير في المداقة والملمسة والمنظرة والمشمة من غير لون الماء، وفي برودة نفس الأرض وتثبيتها كذلك.

ومتى وجدنا طينة مربعة صارت مدورة، فليس ذلك بحدوث تدوير لم يكن، فكان عنده تغيره في العين أولى من تغير الطينة في العين من البياض إلى السواد، وسبيل الصلابة والرخاوة؛ والثقل والخفة، سبيل الحلاوة والملوحة، والحرارة والبرودة. أصحاب القول بالاستحالة وليس يقيس القول في الأعراض إلا من قال بالاستحالة، وليس في الاستحالة شيء أقرب من قولهم في استحالة الجبل الصخير إلى مقدار خردلة، من غير أن يدخل أجزاءه شيء على حال، فهو على قول من زعم أن الخردلة تنتصفُ أولاً أحسن، فأما إذا قال بالجزء الذي لا يتجزأ، وزعم أن أقلّ الأجسام، الذي تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ، أو ستة أجزاء لا تتجزأ، يستحيل جسماً على قدر طول العالم وعرضه وعمقه - فإنا لو وجدناه كذلك لم نجد بداً من أن نقول: إنا لو رفعنا من أوهامنا من ذلك شبراً من الجميع، فإن كان مقدار ذلك الشبر جزءاً واحداً فقد وجدناه جسماً أقلّ من ثمانية

أجزاء ومن ستة أجزاء، وهذا نقض الأصل، مع أن الشبر الذي رفعناه من أو هامنا، فلا بدّ إن كان جسماً أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء، وهذا كله فاسد.

الأضواء والألوان

والنار حرّ وضياء، ولكلّ ضياء بياضٌ ونور، وليس لكلّ بياض نورٌ وضياء، وقد غلط في هذا المقام عالمٌ من المتكلمين. والضياء ليس بلون، لأن الألوان تتفاسد، وذلك شائعٌ في كلها، وعامٌ في جميعها؛ فاللبن والحبر يتفاسدان، ويتمازج التراب اليابس والماء السائل، كما يتمازج الحارّ والبارد، والحلو والحامض، فصنيع البياض في السواد، كصنيع السواد في البياض، والتفاسد الذي يقع بين الخضرة والحمرة، فبذلك الوزن يقع بين البياض وجميع الألوان.

وقد رأينا أن البياض مَيّاعٌ مفسدٌ لسائر الألوان، فأنت قد ترى الضياء على خلاف ذلك؛ لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها عملاً واحداً، وهو التفصيل بين أجناسها، وتمييز بعضها من بعض، فيبين عن جميعها إبانة واحدة، ولا تراه يخصّ البياض إلا بما يخص بمثله السواد، ولا يعمل في الخضرة إلا مثل عمله في الحمرة، فدلّ ذلك على أن جنسه

خلافُ أجناسِ الألوان، وجوهره خلافُ جواهرها، وإنما يدل
على اختلافِ الجواهرِ اختلافُ الأعمال؛ فباختلافِ الأعمالِ
واتفاقها تعرفُ اختلافَ الأجسامِ واتفاقها.

جملة القول في الضد والخلاف والوافق

قالوا: الألوان كلها متضادة، وكذلك الطعوم، وكذلك الأرايح،
وكذلك الأصوات، وكذلك الملامس: من الحرارة والبرودة،
واليبس والرطوبة، والرخاوة والصلابة، والملاسة والخشونة،
وهذه جميع الملامس.

وزعموا أن التضاد إنما يقع بين نصيب الحاسة الواحدة فقط،
فإذا اختلفت الحواس صار نصيب هذه الحاسة الواحدة من
المحسوسات، خلاف نصيب تلك الحاسة، ولم يضادها بالضدّ
كاللون واللون؛ لمكان التفسد، والطعم والرائحة؛ لمكان
التفسد.

ولا يكون الطعم ضدّ اللون، ولا اللون ضدّ الطعم، بل يكون
خلافاً، ولا يكون ضدّاً ولا وفاقاً، لأنه من غير جنسه، ولا يكون
ضدّاً، لأنه لا يفسده.

وزعم من لا علم له من أصحاب الأعراض، أن السواد إنما
ضادّ البياض، لأنهما لا يتعاقبان، ولا يتناوبان، ولأنهما

يتنافيان.

قال القوم: لو كان ذلك من العلة، كان ينبغي لذهاب الجسم قُدماً أن يكون بعضه يصاد بعضاً، لأن كونه في المكان الثاني لا يوجد مع كونه في المكان الثالث، وكذلك التربيع: كطينة لو رُبعت بعد تثليثها، ثم رُبعت بعد ذلك، ففي قياسهم أن هذين التربيعيين ينبغي لهما أن يكونا متضادين، إذ كانا متنافيين، لأن الجسم لا يحتمل في وقت واحد طولين، وأن الضدَّ يكون على ضدين: يكون أحدهما أن يخالف الشيء الشيء من وجوه عدة، والآخر أن يخالفه من وجهين أو وجهٍ فقط.

قالوا: والبياض يخالف الحمرة ويضادها، لأنه يُفاسدُها ولا يفسدُ الطعم؛ وكذلك البياض للصفرة والحوة والخضرة، فأما السواد خاصة فإن البياض يضاده بالتفاسد، وكذلك التفاسد، وكذلك السواد.

وبقي لهما خاصة من الفصول في أبواب المضادة: أن البياض ينصبغ ولا يصبغ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ، وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ.

قالوا: فهذا باب يساق.

إن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة

ومتى اشتدت الحمرةُ صارت سواداً، وكذلك الخضرةُ متى
اشتدت صارت سواداً.

والسواد يضاد البياضَ مضادة تامة، وصارت الألوان الأخر
فيما بينها تتضاد عادة، وصارت الطُّعوم والأرايح والملامس
تخالفها ولا تضادها.

أصل الألوان جميعها وقد جعل بعض من يقول بالأجسام هذا
المذهب دليلاً على أن الألوان كلها إنما هي من السواد
والبياض، وإنما تختلفان على قدر المزاج، وزعموا أن اللونَ
في الحقيقة إنما هو البياض والسواد، وحكموا في المقالة
الأولى بالقوة للسواد على البياض؛ إذ كانت الألوان كلها كلما
اشتدت قربت من السواد، وبَعُدت من البياض، فلا تزال كذلك
إلى أن تصيرَ سواداً.

وقد ذكرنا قبل هذا قولَ من جعل الضياء والبياض جنسين
مختلفين، وزَعَم أن كلَّ ضياءٍ بياضٌ وليس كلُّ بياضٍ ضياءً.
عَظَم شأن المتكلمين وما كان أَحْوَجَنَا وأحوجَ جميعِ المرضى
أن يكون جميعُ الأطباء متكلمين، وإلى أن يكون المتكلمون
علماء؛ فإن الطبَّ لو كان من نتائج حُذاق المتكلمين ومن
تلقيحهم له، لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخَلِّ ما

نجدُ.

ألوان النَّيران والأضواء وزعموا أن النار حمراء، وذهبوا إلى ما ترى العينُ، والنار في الحقيقة بيضاء، ثم قاسوا على خلاف الحقيقة المِرَّة الحمراء، وشبَّهوها بالنار، ثم زعموا أن المرة الحمراء مُرَّة، وأخْلَقَ بالدخان أن يكون مرّاً، وليس الدخان من النار في شيء.

وكل نور وضياء هو أبيض، وإنما يحمرُّ في العين بالعرض الذي يعرض للعين، فإذا سلِّمَتْ من ذلك، وأفضت إليه العين رآته أبيضَ، وكذلك نار العود تنفصل من العود، وكذلك انفصال النار من الدهن ومعها الدخان 0. لأجزائها، فإذا وقعت الحاسة على سوادٍ أو بياض في مكان واحد، كان نتاجهما في العين منظرَةَ الحمرة.

ولو أن دخاناً عرض بينك وبينه قرص الشمس أو القمر لرأيته أحمر، وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر، للبخار والغبار المعترض بينك وبينه، والبخار والدخان أخوان. ومتى تحلَّقَ القرص في كبد السماء، فصار على قمة رأسك؛ ولم يكن بين عينيك وبينه إلا بقدر ما تمكن البخار من الارتفاع في الهواء صُعداً - وذلك يسيراً قليلاً - فلا تراه حينئذٍ إلا في غاية البياض.

وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شيء بين عينيك وبين
قرصها من الهواء، ملابساً للغبار والدخان والبخار، وضروب
الضباب والأنداء فتراها إما صفراء، وإما حمراء.
ومن زعم أن النار حمراء فلم يكذب إن ذهب إلى ما ترى
العين، ومن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم في الجوهريّة، فزعم
أنها حمراء، ثم قاس على ذلك جهلاً وأخطأ.
وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النّفط الأزرق، والأسود،
والأبيض، وذلك كله يدور في العين مع كثرة الدخان وقلته.
ونجد النار تتغير في ألوانها في العين، على قدر جفوف الحطب
ورطوبته، وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان، فنجدها شقراء،
ونجدها خضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر.
علة تلون السحاب ونجد لون السحاب مختلفاً في الحمرة
والبياض، على قدر المقابلات والأعراض، ونجد السحابة
بيضاء، فإذا قابلت الشمس بعض المقابلة، فإن كانت السحابة
غربية أفقية والشمس منحطة، رأيتها صفراء، ثم سوداء،
تعرض للعين لبعض ما يدخل عليها.
شعر في ألوان النار وقال الصلّتان الفهميّ في النار:

لِيَعْشُو إِلَيْهَا كُلُّ بَاغٍ وَجَارِعِ

وَتُوقِدَ

هَا شِقْرَاءَ فِي رَأْسِ هَضْبَةٍ

وقال مزرد بن ضرار:

بَعْلِيَاءَ نَشَزٍ لِلْعَيُونِ النَّوَاطِرِ

فَأَبْصَرَ

نَارِي وَهِيَ شِقْرَاءُ أُوقِدَتْ

وقال آخر:

مَعَ اللَّيْلِ هَبَّتْ الرِّيحَ الصَّوَارِدُ

وَنَا

رَ كَسَحَرَ الْعُودَ يَرْفَعُ ضَوْءَهَا

والغبار يناسب بعض الدخان، ولذلك قال طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ:

إِذَا

بِجَانِبِهَا الْأَقْصَى دَوَاخِنُ تَنْضُبِ

هَبَطَتْ سَهْلًا كَأَنَّ غِبَارَهُ

لأن دخانه يكون أبيض يشبه الغبار، وناره شقراء.
والعرب تجمع الدخان دواخن، وقال الأزرق الهمداني:

وَاللَّكُمْتُ أَرْوَى لِلنِّزَالِ وَأَشْبَعُ

ونوقد

ها شقراء من فرع تنضب

وذلك أن النار إذا أُلقيَ عليها اللحمُ فصار لها دخان، اصنَهَابَتْ
بدخان ماء اللحم وسوادِ القُتَارِ، وهذا يدل أيضاً على ما قلنا.
وفي ذلك يقول الهَيَّيَانُ الفَهْمِيُّ:

له فوق

ونار لا تضرم للصلاء

النجاد جفان شيزى

ولكن

طليح الهم مستلب الفراء

للطبيخ، وقد عراها

وما

كمرتكم الغمامة ذي العفاء

غذيت بغير لظى، فنارى

وقال سحر العود:

لكلِّ مُرْعَبِلِ الأهدام
بالي

له نارٌ تُشَبُّ على
يَفَاعِ

ونار فوقها بَجْرٌ
رِحَابٌ

مُبَجَّلَةٌ تَقَادِفُ بِالْمَحَالِ

علة اختلاف ألوان النار ويدلُّ أيضاً على ما قلنا: أن النار
يختلف لونها على قدر اختلاف جنس الدُّهن والحطب والدخان،
وعَلَى قدر كثرة ذلك وقلَّته، وَعَلَى قدر يُبسِّه ورطوبته - قولُ
الراعي حين أراد أن يصف لونَ ذئبٍ فقال:

ورأى بعقوته أزل نسولا
الربيع وقد تقارب خطوه
وقع

هش اليدين تخاله مشكولا

متوضح

الأقرب فيه شهبة

كدخان

غر ثان ضرم عرفجاً مبلولا

مرتجل بأعلى تلعة

المرتجل: الذي أصاب رجلاً من جرادٍ، فهو يشويه، وجعله
عَرْثَان لكون العَرِث لا يختار الحطب اليابس عَلَى رطبه، فهو

يشويه بما حضره، وأدار هذا الكلام، ليكون لون الدخان بلون
الذئب الأطل متفقين.

تعظيم زرادشت لشأن النار

وزرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها، ونهى عن
إطفائها، ونهى الحيض عن مسها والدنو منها، وزعم أن
العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والزمهرير والدمق.
علة تخويف زرادشت أصحابه بالبرد والثلج وزعم أصحاب
الكلام أن زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ،
وادعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان، وأنه حين دعا
سكان تلك الناحية الباردة، الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد،
ولا يضربون المثل إلا به؛ حتى يقول الرجل لعبده: لئن عدت
إلى هذا لأنزعن ثيابك، ولأقيمك في الريح، ولأوقفك في الثلج
فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع، جعل الوعد بتضاعفه،
وظن أن ذلك أزجر لهم عما يكره.
وزرادشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار، مقر بأنه لم
يُبعث إلا إلى أهل تلك الجبال، وكأنه إذا قيل له: أنت رسول إلى
من؟ قال لأهل البلاد الباردة، الذين لا بد لهم من وعيد، ولا
وعيد لهم إلا بالثلج.

وهذا جهلٌ منه، ومن استجاب له أجهلٌ منه.
ردُّ على زرادشت في التخويف بالثلج والثلج لا يكْمُل لمضادَّة
النار، فكيف يبلغ مبلغها؟ والثلج يُوكَلُ ويشرب، ويُقضم قضمًا،
ويمزج بالأشربة، ويدفن فيه الماء وكثير من الفواكه.
وربما أخذ بعض المترفين القطعة منه كهامة الثور، فيضعها
على رأسه ساعة من نهار، ويتبرّد بذلك.
ولو أقام إنسان على قطعة من الثلج مقدار صخرة في حمدان
ريح ساعة من نهار، لما خيفَ عليه المرض قطُّ.
فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد، وإليه قصد؛ لذكر ما
هو في الحقيقة عند الأمم أشدُّ، والوعيد بما هو أشد، وبما يعم
بالخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه، إذا كان المبالغة
يريد.

والثلج قد يداوى به بعض المرضى، ويتولد فيه الدود،
وتخوضه الحوافر، والأظلاف، والأخفاف، والأقدام، بالليل
والنهار، في الأسفار.
وفي أيام الصيد يهون على من شرب خمسة أرطال نبيذ أن
يعدو عليه خمسة أشواط.
معارضة بعض المجوس في عذاب النار وقد عارضني بعض
المجوس وقال: فلعلَّ أيضاً صاحبكم إنما توعد أصحابه بالنار،

لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَقَ، وإنما هي ناحية الحرور
والوهج والسَّموم، لأن ذلك المكروه أضر لهم، فرأى هذا
المجوسي أنه قد عارضني فقلت له: إن أكثر بلاد العرب
موصوفة بشدة الحر في الصيف، وشدة البرد في الشتاء؛ لأنها
بلاد صخور وجبال، والصخر يقبل الحر والبرد ولذلك سمت
الفرس بالفارسية، العرب والأعراب: كَهَيَّانَ، والكه بالفارسية
هو الجبل، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء
وحرّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قَسَمُوا ذلك،
وكيف وضعوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة.
القول في البرودة والثلج والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة
الثلج، فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل، والماء ليس يجمد للبرد
فقط، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر، حكمنا أن نصيبها من
البرد أوفر.

وقد تكون الليلة باردة جداً، وتكون صَبْرَةً فلا يجمد الماء،
ويجمد فيما هو أقلُّ منها برداً، وقد يختلف جمود الماء في
الليلة ذات الريح، على خلاف ما يقدِّرون ويظنون.
وقد خبرني من لا أرتاب بخبره، أنهم كانوا في موضع من
الجبل، يستَغْشُونَ به بلبس المبطّانات، ومتى صبوا ماءً في إناء
زجاج، ووضعوه تحت السماء، جَمَدَ من ساعته.

فليس جُمُود الماء بالبرد فقط، ولا بد من شروطٍ ومقادير،
واختلافِ جواهر، ومقابلات أحوال، كسرعة البرد في بعض
الأدهان، وإبطائه عن بعض وكاختلاف عمله في الماء المغلّى،
وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء
والنبيذ، وكما يعتري البؤل من الخُثورة والجمود، على قدر
طبائع الطعام والقلة.

والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار، فيستحيل من
الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ.
ردُّ آخر على المجوس وحجةٌ أخرى على المجوس، وذلك أن
محمدًا صلى الله عليه وسلم، لو كان قال: لم أبعث إلا إلى أهل
مكة - لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة، فأما وأصل
نبوته، والذي عليه مخرجُ أمره وابتداءً مبعثه إلى ساعة
وفاته، أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود، وإلى الناس كافة،
وقد قال الله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعاً" وقد قال تعالى: "نذيراً للبشر" فلم يبق أن يكون مع
ذلك قولهم معارضة، وأن يُعدَّ في باب الموازنة.
مما قيل في البرد ومما قالوا في البرد قول الكميت:

وَوَحْوَحَ ذُو الْفَرَوَةِ

إِذَا التَّفَّ دُونَ الْفَتَاةِ

الضَّجِيعُ

وراح الفَنِيْقُ مع
الرائحاتِ

المُرْمِلُ

كإحدى أوائلها
المرسلِ

وقال الكميت أيضاً في مثل ذلك:

وَضَنَّ من قِدره ذُو القِدرِ بِالْعُقْبِ وجاءت الريح من تلقاء
مَغْرِبِها

واستدفاً الكلب في المأسور ذي الذئب وكهكَّة المذليج المقرور
في يَدِه

وقال في مثله جَرانُ العودِ:

ومشبوح الأشاجع
أريحي

بعيد السمع، كالقمر
المنير

رفيع الناظرين إلى
المعالي

على العلاتِ في الخلق
اليسير

يكاد المجدُ ينضحُ

إذا دُفعَ اليتيمُ عن

من يديه
والجأتِ الكلابِ صباً
بليلاً
والجزورِ
وآلِ نباهتِ إلى
الهريرِ
وقد جعلتُ فتاةَ الحي
تدنو
مع الهلاكِ من عَرَنِ
القدورِ

وقال في مثل ذلك ابن قميئة:

ليس طعمي طعم الأنامل إذ قلَّص درُّ اللقاح في الصنبرِ
لي عكوفاً على قرارة قدر

ورأيتَ الإمامَ كالجعثنِ البا
جنِ ينباع من وراء السترِ

ورأيتَ الدخانَ كالودع الأه
رُ خروسٍ من الأرانبِ بكرِ

حاضر شركم وخيركم د

وقال في مثل ذلك:

وإذا

واستعجلت نَصَبَ القَدورِ فمَلَّتِ
العَذاري بالذُّخانِ تَقَنَّعتْ

بيديَّ من قَمَعِ العِشارِ الجِلَّةِ

دَرَّتْ

بأرزاقِ العيالِ مَغالِقُ

وقال الهذلي:

يختصُّ بالنَّقَرى المَثْرينَ دَاعيها

ولي

لَه يصطلي بالفِرتِ جازرُها

لا

من الشِّتاءِ ولا تَسْري أفاعيها
ينبح الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ

وفي الجَمَدِ والبرَدِ والأزماتِ يقول الكميّ:

وفي هذه القصيدة يقول في شدة الحر:

وَحَرَّقِ تَعْرِفِ الْجِنَانُ
فِيهِ
لَأَفْنِدَةَ الْكَمَاةِ لَهَا
وَجِيبٌ

قَطَعْتُ ظِلَامَ لَيْلَتِهِ
وَيَوْمًا
يَكَادُ حَصَى الْإِكَامِ بِهِ
يَذُوبُ

وقال آخر لمعشوقته:

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَفْتَنِي
الْبُرْدَ شَاتِيًا
وَأُورِدْتَنِيهِ فَاَنْظُرِي أَيَّ
مُورِدٍ

فما ظنك ببرد يؤدِّي هذا العاشق إلى أن يجعل شدَّته عذراً له
في تركه الإمام بها، وذلك قوله في هذه القصيدة:

تَرْوِّحُ فُشِيْعِنَا إِلَى ضَحْوَةِ الْعَدِ

ف

يا حسنها إذ لم أعجُ أن يقال لي

سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

فأ

صبحثُ مما كان بيني وبينها

ومما يقع في الباب قبل هذا، ولم نجد له باباً قول مسكين
الدارمي:

وإني لا أقومُ على
قناتي
أسبُّ الناسَ كالكلب
العقور

وإني لا أحلُّ ببطن
وإدٍ
ولا آوي إلى البيتِ
القصيرِ

وإني لا أحاوصُ عقدَ
نادٍ
ولا أدعو دعائي
بالصغيرِ

ولستُ بقائلٌ للعبدِ أو
قدٍ
إذا أوقدتَ بالعودِ
الصغيرِ

ولو تأملتَ دخانَ أثونِ واحدٍ، من ابتدائه إلى انقضائه، لرأيتَ
فيه الأسودَ الفاحمَ، والأبيضَ الناصعَ.
والسوادُ والبياضُ، هما الغايةُ في المضادَّةِ، وذلك على قدر

البخار والرطوبات، وفيما بينهما ضروب من الألوان.
وكذلك الرماد، منه الأسود، ومنه الأبيض، ومنه الأصهب،
ومنه الخفيف، وذلك كله على قدر اختلاف حالات المحترق
وجواهره.

فهذا بعض ما قالوا في البرد.

بعض ما قيل في صفة الحر

وسنذكر بعض ما قالوا في صفة الحر، قال مضرّس بن زُرارة
بن لقيط:

من الحر يرمى بالسكينة نُورُها

تدلّ

ت عليها الشمس حتى كأنه

علاها صداغٌ أو فَوَالٍ يَصُورُها

سج

وداً لَدَى الأَرْضَى كأن رؤوسها

وقال القطاميُّ:

والريخ ساكنة والظل
معتدل

فهن معترضات
والحصى رمض

كاد الملاء من الكتان
يشتعل

حتى وردن ركيات
الغوير وقد

وقال الشماخ بن ضرار:

من الحقب لاحته الجداد الغوارز

كأ

ن فتودي فوق جاب مطرد

جرت في عنان الشعريين الأماعز

ط

وى ظمأها في بيضة القيظ بعد ما

إلى الشمس هلا تدنو، ركي نواكز

و

ظلتت بيموود كأن عيونها

ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية
التقديم.
وقال الراعي:

من الشعرى نصبت لها
الجبينا

جنادبها وكان العيس
جونا

ونار وديقة في
يوم هيح

إذا معزاً هاجرة
أوتت

وقال مسكين الدارمي:

إذا ما اتقتها
بالقرون سجود

كما لأد من حر
السنان طريد

وهاجرة ظلت كأن
ظباءها

تلوذ لشؤبوب من
الشمس فوقها

وقال جرير:

وللنوم أحلى عنده من جنى النحلِ

و

هاجد موماةٍ بعثتُ إلى السرى

غشاشاً ولا يدنون رحلا إلى رحل

ي

كون نزولُ الركب فيها كلاً ولا

وظلّ المها صوراً جماجمها تغلي

لي

وم أتت دون الظلال سمومه

وفيها يقول جرير:

وما زاد عن أحسابهم
ذائداً مثلي

تمنى رجال من تميمٍ
لي الردى

احتجاج النظام للكمون

وقال أبو إسحاق: أخطأ من زعم أن النار تصعدُ في أول العود،
وتنحدر وتغوص فيه، وتظهر عليه، وتأخذ منه عَرَضاً.
وقال: العود، النار في جميعه كامنة، وفيه سائحة، وهي أحد

أخلاطه، والجزء الذي يُرى منها في الطرف الأول، غير الجزء الذي في الوسط والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر، فإذا احتكَّ الطرف فحمي زال مانعه، وظهرت النار التي فيه، وإذا ظهرت حمي لشدة حرها الموضع الذي يليها، وتنحى أيضاً مانعه، وكذلك الذي في الطرف الآخر ولكن الإنسان إذا رأى النار قد اتصلت في العود كله، وظهرت أولاً فأولاً، ظن أن الجزء الذي كان في المكان الأول قد سرى إلى المكان الثاني، ثم إلى المكان الثالث، فيخبر عن ظاهر ما يرى ولا يعرف حقيقة ما بطن من شأنها. وقال أبو إسحاق: ولو كانت العيدان كلها لا نار فيها، لم يكن سرعة ظهورها من العراجين، ومن المرخ والعفار، أحقّ منها بعود العناب والبردي وما أشبه ذلك، لكنها لما كانت في بعض العيدان أكثر، وكان مانعها أضعف، كان ظهورها أسرع، وأجزاؤها إذا ظهرت أعظم، وكذلك ما كمن منها في الحجارة، ولو كانت أجناس الحجارة مستوية في الاستسرار فيها، لما كان حجر المرّو أحقّ بالقدح إذا صُكَّ بالقدّاحة، من غيره من الحجارة، ولو طال مكثه في النار ونُفِخَ عليه بالكبير.

ولم صار لبعض العيدان جَمْرًا باقٍ، ولبعضها جمر سريع الانحلال، وبعضها لا يصير جمرًا؟ ولم صار البردي مع

هَشَاشَتِهِ وَيَبْسُهُ وَرَخَاوَتِهِ، لَا تَعْمَلُ فِيهِ النَّيْرَانُ؟ وَلِذَلِكَ إِذَا وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي السُّوقِ سَلِمَ كُلُّ مَكَانٍ يَكُونُ بَيْنَ أَعْصَافِ الْبَرْدِيِّ، وَلِذَلِكَ تَرَى النَّارَ سَرِيعَةَ الْإِنْتِفَاعِ فِي أَعْصَافِ الْبَرْدِيِّ، وَمَوَاضِعِ جَمِيعِ اللَّيْفِ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: فَلِمَ اخْتَلَفَتْ فِي ذَلِكَ؟ إِلَّا عَلَى قَدْرِ مَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ النَّارِ، وَعَلَى قَدْرِ قُوَّةِ الْمَوَانِعِ وَضَعْفِهَا.

وَلَمْ صَارَتْ تَقْدَحُ عَلَى الْإِحْتِكَافِ حَتَّى تَلْهَبَتْ، كَالسَّاجِ فِي السَّفِينِ إِذَا اخْتَلَطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ عِنْدَ تَحْرِيكِ الْأَمْوَاجِ لَهَا؟ وَلِذَلِكَ أُعْذُوا لَهَا الرِّجَالُ لِتَصُبَّ مِنَ الْمَاءِ صَبًّا دَائِمًا، وَتَدْوَمَ الرِّيحُ فَتَحْتَكُ عِيدَانَ الْأَغْصَانِ فِي الْغِيَاضِ، فَتَلْتَهَبُ نَارًا فَتَحْدُثُ نَيْرَانًا.

وَلِمَ صَارَ الْعُودُ يَحْمَى إِذَا احْتَكَّ بغيره؟ وَلِمَ صَارَ الطَّلَقُ لَا يَحْمَى؟ فَإِنْ قُلْتَ لِطَبِيعَةِ هُنَاكَ، فَهَلْ دَلَلْتُمُونَا إِلَّا عَلَى اسْمِ عُلْقَتْمُوهُ عَلَى غَيْرِ مَعْنَى وَجَدْتُمُوهُ؟ أَوْ لَسْنَا قَدْ وَجَدْنَا عَيُونَ مَاءٍ حَارَةً وَعَيُونَ مَاءٍ بَارِدٍ، بَعْضُهَا يَبْرِصُ وَيُنْفِطُ الْجِلْدَ، وَبَعْضُهَا يُجَمِّدُ الدَّمَ وَيُورِثُ الْكُرَازَ؛ أَوْ لَسْنَا قَدْ وَجَدْنَا عَيُونَ رِيحٍ وَعَيُونَ نَارٍ؟ فَلِمَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الرِّيحَ وَالْمَاءَ كَانَا مَخْتَلِقَيْنِ فِي بَطُونِ الْأَرْضِ وَ لَمْ تَجُوزُوا لَنَا مِثْلَ ذَلِكَ فِي النَّارِ؟ وَهَلْ بَيْنَ اخْتِنَاقِ الرِّيحِ وَالْمَاءِ فَرْقٌ؟ وَهَلْ الرِّيحُ إِلَّا هَوَاءٌ تَحْرَكُ؟ وَهَلْ بَيْنَ الْمَخْتَنِقِ وَالْكَامِنِ فَرْقٌ؟.

وزعم أبو إسحاق: أنه رمى بردائه في بئر النبي صلى الله عليه وسلم التي من طريق مكة، فردته الريح عليه.

وحدّثني رجل من بني هاشم قال: كنت برامةً، من طريق مكة فرميت في بئرها ببعة فرجعت إليّ، ثم أعدتها فرجعت، فرميت بحصاة فسمعت لها حريقاً وحفيفاً شديداً وشبيهاً بالجولان، إلى أن بلغت قرار الماء.

وزعم أبو إسحاق أنه رأى عين نار في بعض الجبال، يكون دخانها نهراً وليلاً، أو ليس الأصل الذي بُني عليه أمرهم: أن جميع الأبدان من الأخلاط الأربعة: من النار، والماء، والأرض، والهواء؟ فإذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه ماءً قلنا: هذا أحد الأركان؛ فما بالنار إذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه نارٌ لم نقل مثل ذلك فيه؟.

ولم نقول في حجر النار إنه متى وجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرصاص والزئبق، إنما هو لما خالطه من أجزاء الهواء الرافعة له؟ وإذا وجدناه أغلَكَ علوكه، وأمتن متانة، وأبعد من التهافت جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء، وإذا وجدناه ينقض الشرر، ويظهر النار جعلنا لك للذي خالطه من الهواء؟ ولم جعلناه إذا خف عن شيء بمقدار جسمه، لما خالطه من أجزاء الهواء، ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء

النار؟ ولا سيما إذا كانت العينُ تجده يقَدَح بالشرر، ولم تجر أجزاء الهواء فيه عندنا عياناً، فلم أنكروا ذلك، وهذه القصة توافقُ الأصل الذي بنّوا عليه أمرهم؟.

قال: أو ليس من قوله أنه لولا النيران المتحركة في جوف الأرض، التي منها يكون البخار - الذي بعضه أرضيٌ وبعضه مائيٌ - لم يرتفع ضبابٌ، ولم يكن صواعق ولا مطرٌ ولا أنداء.

الصواعق وما قيل فيها

ومتى كان البخار حاراً يابساً قَدَح وقَدَف بالنار التي تسمى الصاعقة، إذا اجتمعت تلك القوى في موضع منه، فإن كانت القوى ريحاً كان لها صوتٌ، وإن كانت ناراً كانت لها صواعقٌ، حتى زعم كثير من الناس أن بعض السيوف من خبث نيران الصواعق، وذلك شائع على أفواه الأعراب والشعراء، قال أبو الهول الحميري:

حاز صمصامةً الزبيديّ من بين جميع الأنام موسى الأمين

خير ما أطبقت عليه الجفون

سيفُ عمرو، وكان فيما سَمَعنا
ثم ساطت به الزعافَ المنون

أوفدتُ فوقهُ لاصواعقُ ناراً

وقال منهم آخر:

يكفيك من قَلَعِ السماء
عقيقةٌ
فوق الذراع ودون بُوَع
البائعِ

قال الأصمعيّ: الانعقاق: تشقُّق البرق، ومنه وصف السيف
بالعقيقة، وأنشد:

وسيفي كالعقيقة وهو كَمعي

وقال الأخطل:

وأرَّقني من بعد ما
نَمْتُ نَوْمَةً
وعَضْبُ إباضي
كالعقيقِ يَماني

ونذكرُ بَعونِ اللَّهِ وتأييده جُملةً مِنَ القَوْلِ في الماءِ ثمَّ نصيرُ إلى ذكرِ ما ابتدأنا به، من القَوْلِ في النارِ.

ذكرُوا أن الماءَ لا يَغْدُو، وإنما هو مَرَكَبٌ وَمِعْبَرٌ وَمَوْصِلٌ لِلغِذاءِ، واستدلُّوا لذلكُ بأنَّ كلَّ رقيقٍ سَيَّالٍ فَإِنَّكَ متى طَبَخْتَهُ انعَقَدَ، إلا الماءَ، وقالوا في القياسِ: إنه لا ينعقدُ في الجوفِ عند طَبخِ الكَبِدِ له، فإذا لم ينعقدِ لم يَجِئْ منه لحمٌ ولا عظمٌ، ولأننا لم نرِ إنساناً قطُّ اغتذاه وثبت عليه روحُه وإن السمكِ الذي يموت عند فقده لَيَغْدُوهُ سِوَاهُ مما يكون فيه دونه.

قال خصمهم: إنما صار الماءُ لا ينعقدُ؛ لأنه ليس فيه قُوَى مستفادَةٌ مأخوذةٌ من قُوَى الجواهرِ، والماءُ هو الجوهرُ القابلُ لجميعِ القُوَى، فبضربِ من القُوَى والقبولِ يصيرُ دُهْنًا، وبضربِ آخرِ يصيرُ خَلًّا، وبضربِ آخرِ يصيرُ دَمًا، وبضربِ آخرِ يصيرُ لَبْنًا، وهذه الأمورُ كلها إِنَّمَا اختلفتْ بالقُوَى العارضةِ فيها، فالجوهرُ المنقلبُ في جميعِ الأجرامِ السَّيَّالَةِ، إنما هو الماءُ، فيصيرُ عند ضربِ من القبولِ دُهْنًا، وعند ضربِ من القبولِ لَبْنًا.

وعصيرُ كلِّ شيءٍ ماؤُهُ والقابلُ لِقُوَى ما فيه، فإذا طَبَخْتَ الماءَ صِرْفًا، سالمًا على وجهه، ولا قُوَى فيه، لم ينعقدِ وانحلَّ بُخَارًا حتى يتفانى؛ وإنما ينعقدُ الكامنُ من الملابسِ له، فإذا صار

الماء في البدن وحده ولم يكن فيه قوَى لم ينعقد، وانعقاده إنما هو انعقاد ما فيه.

والماء لا يخلو من بعض القَبُول ولكنَّ البعض لا ينعقد ما لم يكثر.

وزعم أصحاب الأعراض أن الهواء سريع الاستحالة إلى الماء، وكذلك الماء إلى الهواء، للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقّة، وإنما هما غير سيّارين، ويدل على ذلك اجتذابُ الهواء للماء وملابسته له، عند مَصِّ الإنسان بفيه فم الشَّرَابَةِ، ولذلك سَرَى الماء وجرى في جوف قَصَبِ الخيزُرَانِ، إذا وضعت طرفه في الماء.

وكذلك الهواء، فيه ظلامُ الليل وضياء النهار وما كان فيه من الأشباح، والحدقة لا ترى من الضياء العارض في الهواء ما تباعد منها.

ألوان الماء

والماء يرقّ فيكون له لون، ويكون عمقه مقداراً عدلاً فيكون له لون، فإن بعد غَوْرُهُ وأفرط عمقه رأيته أسوداً. وكذلك يحكون عن الدُّرْدُورِ. ويزعمون أن عين حوارا ترمى بمثل الزنوج.

فتجد الماء جنساً واحداً، ثم تجد ذلك الجنس أبيض إذا قلَّ عمقه، وأخضر إذا كان وسطاً، وأسود إذا بُعدَ عَوْرُه. تحقيق في لون الماء ويختلف منظره على قدر اختلاف إنائه وأرضه، وما يقابله، فدلّ ذلك على أنه ليس بذِي لون، وإنما يعتريه في التخييل لونٌ ما يقابله ويحيط به، ولعلّ هذه الأمور إذا تقابلت أن تصنع في العين أموراً، فيظنّ الإنسان مع قُرب المجاورة والالتباس، أن هذه الألوان المختلفة إنما هي لهذا الماء الرائق الخالص، الذي لم ينقلب في نفسه، ولا عَرَضَ له ما يقلبه، وكيف يعرض له ويقبله وعينٌ كل واحد منهما غيرُ عين صاحبه؟ وهو يرى الماء أسوداً كالبحر، متى أخذ منه أحدٌ عُرفَةً رآه كهيئته إذا رآه قليل العمق.

تشابه الماء والهواء ويتشابهان أيضاً لسُرعة قبولهما للحر والبرد، والطيب والنتن؛ والفساد والصلاح. حجة للنظام في الكمون قال أبو إسحاق: قال الله عزّ وجلّ عند ذكر إنعامه على عباده وامتنانه على خلقه، فذكر ما أعانهم به من الماعون: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ"، وكيف قال شَجَرَتَهَا وليس في تلك الشجرة شيء، وجوفها وجوفُ الطَّلَقِ في ذلك سواء، وقدرة الله على أن يخلق النار عند مسّ الطَّلَقِ، كقدرته على أن يخلقها عند

حكّ العود وهو، تعالى وعز، لم يُرد في هذا الموضع إلا
التعجيب من اجتماع النار والماء.

وهل بين قولكم في ذلك وبين من زعم أن البئر الجيد
والرديء والماء العذب والملح، والسبخة والخبرة الرخوة،
والزمان المخالف والموافق، سواءً، وليس بينها من الفرق إلا
أن الله شاء أن يخلق عند اجتماع هذه "حباً، وعنباً وقضباً،
وزيتوناً ونخلًا" دون تلك الأضداد.

ومن قال بذلك وقاسه في جميع ما يلزم من ذلك، قال كقول
الجهمية في جميع المقالات، وصار إلى الجهالات، وقال بإنكار
الطبائع والحقائق.

وقال الله عز وجل: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً
فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ".

ولو كان الأمر في ذلك على أن يخلقها ابتداءً لم يكن بين خلقها
عند أخضر الشجر وعند اليابس الهشيم فرق، ولم يكن لذكر
الخشرة الدالة على الرطوبة معنى.

وقد ذكرنا جملة من قولهم في النار، وفي ذلك بلاغ لمن أراد
معرفة هذا الباب، وهو مقدار قصد، لا طويل ولا قصير.

فأما القول في نار جهنم، وفي شواظها ودوامها وتسعورها
وخبوها والقول في خلق السماء من دُخان والجنان من نار

السّموم، وفي مَفْخَرِ النارِ على الطين، وفي احتجاج إبليس
بذلك - فإننا سنذكر من ذلك جملة في موضعه إن شاء الله
تعالى.

ما قيل في حسن النار

ونحن راجعون في القول في النار إلى مثل ما كنا ابتدأنا به
القول في صدر هذا الكلام، حتى نأتي من أصناف النيران على
ما يحضرنا، إن شاء الله تعالى.
قالوا: وليس في العالم جسمٌ صِرْفًا غير ممزوج، ومرسلٌ غير
مركب، ومُطلق القُوَى، غير محصور ولا مقصور، أحسن من
النار.

قال: والنار سماوية عُلوية؛ لأن النار فوق الأرض، والهواء
فوق الماء، والنار فوق الهواء، ويقولون: شراب كأنه النار، و
كأن لونَ وجهها النار، وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: ما هو إلا نار
وإذا وصفوا حمرة القِرْمز وحمرة الذهب قالوا: ما هو إلا نار.
قال: وقالت هند: كنتُ والله في أيام شبابي أحسنَ من النار
الموقّدة.

وأنا أقول: لم يكن بها حاجةٌ إلى ذكر الموقّدة وكان قولها:
أحسنَ من النار يكفيها، وكذلك اتهمتُ هذه الرواية.

وقال قدامة حكيم المشرق في وصف الدهن: شعاعٌ مركوم،
ونسَمٌ معقود، ونورٌ بصَّاص، وهو النار الخامدة، والكبريت
الأحمر.

ومما قال العتَّابي: وجمالُ كلِّ مجلسٍ بأن يكون سَقْفُهُ أحمرَ،
وبساطُهُ أحمرَ.
وقال بشرُّ بن بُرْد:

تُرُوقُ بِهَا الْعَيْنَيْنِ
وَالْحَسَنُ أَحْمَرُ

هَجَانٌ عَلَيْهَا حُمْرَةٌ
فِي بِيَاضِهَا

وقال أعرابيُّ:

وَلَا لَوْنٌ أَدْنَى لِلْهَجَانِ
مِنَ الْحُمْرِ

هَجَانٌ عَلَيْهَا حُمْرَةٌ
فِي بِيَاضِهَا

تعظيم الله شأن النار

قال: ومما عظم الله به شأن النار أنها تنتقم في الآخرة من
جميع أعدائه، وليس يستوجبها بشريٌّ من بشريٍّ، ولا جنِّيٌّ من
جنِّيٍّ بضعفٍ ولا ظلم، ولا جنائيةٍ ولا عُذْوَان، ولا يَسْتَوْجِبُ
النارَ إلا بعداوةَ الله عزَّ وجلَّ وحده، وبها يَشْفِي صدورَ أوليائه

من أعدائهم في الآخرة.
عظم شأن ما أضيف إلى الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه
فقد عظم شأنه، وشدد أمره، وقد فعل ذلك بالنار، فقالوا
بأجمعهم: دَعُهُ فِي نَارِ اللَّهِ وَسَقَرِهِ، وَفِي غَضَبِ اللَّهِ وَلِعْنَتِهِ،
وَسَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، هَمَا نَارُهُ أَوْ الْوَعِيدُ بِنَارِهِ، كَمَا يُقَالُ: بَيْتُ
اللَّهِ، وَرُؤُوسِ اللَّهِ، وَسَمَاءُ اللَّهِ، وَعَرْشُ اللَّهِ.

المنة الأولى بالنار ثم ذكرها فامتت بها على أهل الأرض من
وجهين: أحدهما قوله عز وجل: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ" فَجَعَلَهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَاعُونِ
مَعُونَةً، وَأَخْفَهَا مَوْئِنَةً.
استطرد لغوي والماعون الأكبر: الماء والنار، ثم الكأ والمُح.
قال الشاعر في الماعون بيتاً جامعاً، أحسن فيه التأييد حيث
قال:

وَسَطَ الْفَلَاةِ بِأَصْحَابِ
الْمُحَلَّاتِ

لَا تَعْدِلْنَ أَتَاوِيِينَ قَدْ
نَزَلُوا

والمُحَلَّات هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين حَلُّوا حيثُ
شَاءُوا، وهي الفداحة، والقربة، والمسحاة، فقال: إياك أن
تَعْدِلَ، إِذَا أَرَدْتَ النَّزُولَ، مِنْ مَعَهُ أَصْنَافُ الْمَاعُونِ بِأَتَاوِيِينَ،

يعني واحداً أتى من هاهنا، وآخر أتى من هاهنا، كأنهم جماعة
التقوا من غير تعريف بنسب ولا بلد، وإذا تجمعوا أفاذاً لم
يكمل كل واحدٍ منهم خصال المحلات.
قال أبو النجم:

مُعْتَرِضَاتٍ غَيْرَ
عُرْضِيَّاتٍ

يَضَعْنَ بِالْفَقْرِ
أَتَاوِيَّاتٍ

وقالت امرأة من الكفار، وهي تحرّض الأوس والخزرج، حين
نزل فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه:

فَلَا مِنْ مُرَادٍ وَلَا
مُدْحَجٍ

أَطْعَمْتُمْ أَتَاوِيَّ مِنْ
غَيْرِكُمْ

ولم تردّ أنهما أشرف من قريش، ومن الحيين كعب وعامر،
ولكنها أرادت أن تؤلّب وتُدكي العصبية.
اختيار ما تبني عليه المدن وقالوا: لا تُبَنِّي المدن إلا على
الماء والكلأ والمحتطب، فدخلت النار في المحتطب؛ إذ كان كلُّ
عود يوري.

المنة الثانية بالنار وأما الوجه الآخر من الإمتنان بها، فكقوله
تعالى: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ" ثم

قال على صلّة الكلام: "فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان"، وليس يريد أنّ إحراق الله عز وجلّ العبد بالنار من آلائه ونعمائه، ولكنه رأى أن الوعيد الصادق إذا كان في غاية الزجر عما يُطغيه ويُردّيه فهو من النعم السابغة والآلاء العظام.

وكذلك نقول في خلق جهنم: إنها نعمة عظيمة، ومِنَّة جليئة، إذا كان زاجراً عن نفسه ناهياً، وإلى الجنة داعياً، فأما الوقوع فيها فما يُشكُّ أنه البلاء العظيم.

وكيف تكونُ النقمُ نِعماً ولو كانت النعمة نعمةً لكانت رحمة، ولكان السخط رضا وليس يهلكُ على البينة إلا هالك، وقال الله عز وجلّ: "لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ".

عظمت للحسن البصري وقال الحسن: والله يا ابن آدم، ما توبّقك إلا خطاياك قد أريد بك النجاة فأبيت إلا أن توقع نفسك. وشهد الحسنُ بعضَ الأمراء، وقد تعدّى إقامة الحدّ، وزاد في عددِ الضرب، فكلّمه في ذلك، فلما رآه لا يقبلُ النصح قال: أمّا إنك لا تضربُ إلا نفسك، فإن شئتَ فقلّ، وإن شئتَ فكثر.

وكان كثيراً ما يتلو عند ذلك: "فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ".

عقاب الآخرة وعقاب الأولى والعقاب عقابان: فعقاب آخرة، وعقابُ دنيا، فجميعُ عقاب الدنيا بليّةٌ من وجه، ونعمةٌ من وجه، إذ كان يودّي إلى النعمة وإن كان مؤلماً، فهو عن

المعاصي زاجرٌ، وإن كان داخلاً في باب الامتحان والتعبُد، مع دخوله في باب العقاب والنعمة؛ إذ كان زجراً، وتكليلاً لغيره، وقد كَلَّفْنَا الصبرَ عليه، والرضا به، والتسليم لأمر الله فيه. وعقاب الآخرة بلاءٌ صِرْف، وخزِيٌّ بَحْت، لأنه ليس بِمُخْرَجٍ منه، ولا يحتملُ وجهين.

معارف في النار

وقال أبو إسحاق: الجمرُ في الشمس أصهب، وفي الفياء أشكلٌ، وفي ظلِّ الأرض - الذي هو الليل - أحمر، وأيُّ صوتٍ خالطته النار فهو أشد الأصوات، كالصاعقة، والإعصار الذي يخرج من شقِّ البحر، وكصوت الموم، والجذوة من العود إذا كان في طرفه نارٌ ثم غمسته في إناءٍ فيه ماءٌ نوى مُنْقَع. ثم بالنار يعيشُ أهلُ الأرض من وجوه: فمن ذلك صنعُ الشمس في بردِ الماء والأرض؛ لأنها صِلاءٌ لجميعِ الحيوان، عند حاجتها إلى دفعِ عاديةِ البرد، ثم سراجهم الذي يستصبحون به، والذي يميزون بضيائه بين الأمور. وكلُّ بخارٍ يرتفع من البحار والمياهِ وأصولِ الجبال، وكلُّ ضبابٍ يعلو، وندى يرتفع ثم يعود بركةً ممدودةً على جميعِ النبات والحيوان - فالماء الذي يحلُّه ويلطفه، ويفتحُ له الأبواب،

ويأخذُ بضَبْعِهِ من قَعْرِ البَحْرِ والأَرْضِ النَّارِ المَخالِطَةَ لهُما من
تَحْتِ، وَالشَّمْسُ من فَوْقِ.

عِيونُ الأَرْضِ وفي الأَرْضِ عِيونُ نارِ، وَعِيونُ قَطْرانِ،
وعِيونُ نَفْطِ وكِبَارِيتِ وَأصْنَافِ جَمِيعِ الفِلْزِ من الذَّهَبِ والفضَّةِ
والرَّصاصِ والنُّحاسِ، فلولا ما في بَطونِها من أَجزاءِ النارِ لَمَا
ذَابَ في قَعْرِها جامِداً، ولَما انسَبَكَ في أضعافِها شَيْءٌ من
الجِواهرِ، ولَما كانَ لمتقاربِها جِامِعٌ، ولمخْتَلِفِها مُفَرِّقٌ.

ما قالت العرب في الشمس

قال: وتقول العرب الشمس أرحم بنا.
وقيل لبعض العرب: أي يوم أنفع؟ قال: يوم شمال وشمس.
وقال بعضهم لامراته:

بِعِيشٍ مِثْلِ مَشْرِقَةِ
الشَّمَالِ

تَمَنِّينَ الطَّلَاقِ وَأَنْتِ
عِنْدِي

وقال عُمَرُ: الشَّمْسُ صِلاءُ العَرَبِ، قال عُمَرُ: العَرَبِيُّ كالبَعِيرِ،
حيثما دارت الشَّمْسُ اسْتَقْبَلَهَا بِهاْمَتِهِ.
ووصف الرَّاجِزُ إبلاً فقال:

تستقبل الشمس بجمماتها

وقال فطران العبيسي:

فنواره ميل إلى
الشمس زاهرة

بمستأسد القرين حو
تلاعه

الخيري والخيري ينضم ورقه بالليل، وينفتح بالنهار.
ولإسماعيل بن غزوان في هذا نادرة، وهو أن سائلاً سألنا من
غير أهل الكلام، فقال: ما بال ورق الخيري ينضم بالليل
وينتشر بالنهار؟ فانبهرى له إسماعيل بن غزوان فقال: لأن برد
الليل وثقله، من طباعهما الضم والقبض والتنويم، وحرّ شمس
النهار من طباعه الإذابة، والنشر، والبسط، والخفة، والإيقاظ،
قال السائل: فيما قلت دليل، ولكنه قال إسماعيل: وما عليك أن
يكون هذا في يدك، إلى أن تصيب شيئاً هو خير منه.
تسرع الحمر الألوان، وفالج ذوي البدانة وكان إسماعيل أحمر
حليماً، وكذلك كان الحرامي، وكنت أظن بالحمر الألوان التسرع
والحدّة، فوجدت الحلم فيهم أعم، وكنت أظن بالسمان الخدال
العظام أن الفالج إليهم أسرع، فوجدته في الذين يخالفون هذه
الصفة أعم.

أثر الشمس والحركة والجوّ في الأبدان وقال إياس بن معاوية:
صِحَّة الأبدان مع الشمس، ذهب إلى أهل العمَد والوبر.
وقال مثنى بن بشير: الحركة خيرٌ من الظل والسُّكون.
وقد رأينا لمن مدح خلاف ذلك كَلَاماً، وهو قليل.
وقيل لابنة الخسِّ: أَيَّمَا أَشَدُّ: الشتاء أم الصيف؟ قالت: ومن
يجعل الأذى كالزمانة؟.

وقال أعرابيٌّ: لا تَسُبُّوا الشَّمالَ فإنها تَضَعُ أنفَ الأفعى، وترفع
أنفَ الرِّفَّةِ.

وقال خاقانُ بن صبيح، وذكر نُبْلَ الشتاء وفضله على نُبْلِ
الصيف فقال: تغيب فيه الهوام، وتنجر فيه الحشرات، وتظهر
الفِرْشَةَ والبزَّةَ، ويكثر فيه الدَّجَنُ؛ وتطيب فيه خِمرة البيت،
ويموت فيه الذُّبان والبَعوض، ويبرد الماء، ويسخن الجوفُ،
ويطيب فيه العِناق.

وإذا ذكرت العربُ بَرْدَ الماء وسخونة الجوفِ قالت: حرَّةٌ تحت
قِرَّةِ.

ويجود فيه الاستمراء؛ لطول الليل، لتفصِّي الحرِّ.
وقال بعضهم: لا تُسَرِّنَنَّ بكثرة الإخوان، ما لم يكونوا أختياراً؛
فإن الإخوان غير الخيارِ بمنزلة النار، قليلها متاعٌ، وكثيرها
بوار.

نار الزحفتين

قال: ومن النيران نار الزحفتين، وهي نار أبي سريع، وأبو سريع هو العرفج.
وقال قتيبة بن مسلم، لعمر بن عباد بن حصين: والله للسؤدد أسرع إليك من النار في يبيس العرفج.
وإنما قيل لنار العرفج: نار الزحفتين؛ لأن العرفج إذا التهب في فيه النار أسرع فيه وعظمت، وشاعت واستفاضت، في أسرع من كل شيء، فمن كان في قربها يزحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها، في مثل تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحف إليها من ساعته؛ فلا تزال للمصطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها كذلك، فمن أجل ذلك قيل: نار الزحفتين، قال: وقيل لبعض الأعراب: ما بال نساكم رُسحاً؟ قال: أرسحن عرفج الهلباء.
صورة عقد بين الراعي والمسترعي وهذا شرط الراعي فيما بينه وبين من استرعاه ماشيته في القار والحار، وذلك أن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعي: إن عليك أن ترد ضالّتها، وتنها جرباها، وتلوط حوضها، ويذك مبسوطة في الرسل ما لم تُنهك حلباً، أو تضرّ بنسل.

قال: فيقول عند ذلك الراعي لرب الماشية، بعد هذا الشرط:
ليس لك أن تَذُكَّرَ أُمِّي بخيرٍ ولا شرٍّ ولكِ حُدُفَةٌ بالعصا عند
غَضَبِكَ، أخطأت أو أصببت، ولي مقعدي من النار وموضع يدي
من الحارِّ والقارِّ.

شبهه ما بين النار والإنسان

قال: ووَصَفَ بعض الأوائِلِ شِبْهَ ما بين النار والإنسان، فجعل
ذلك قرابة ومشاكلة، قال: وليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا
بين الإنسان، والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثل قرابة ما
بينه وبين النار؛ لأن الأرض إنما هي أمُّ للنبات، وليس للماء إلا
أنه مَرَكَّب، وهو لا يَغْدُو؛ إلا ما يَعْقِدُهُ الطبخ وليس للهواء فيه
إلا النسيم والمتقلَّب، وهذه الأمور وإن كانت زائدة، وكانت
النفوسُ تَتَلَفُ مع فُقْدِ بعضها، فطريق المشاكلةِ والقرابةِ غير
طريق إدخال المَرَفَقِ وجرِّ المنفعة، ودفعِ المضرَّةِ.

قال: وإنما قضيتُ لها بالقرابة، لأنني وجدت الإنسان يَحْيَا
ويعيشُ في حيثُ تحيا النار وتعيشُ، وتموتُ وتَتَلَفُ حيثُ يموت
الإنسانُ ويتلف.

وقد تدخل نار في بعض المطامير والجباب، والمغارات،
والمعادن، فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار

في ذلك الموضع مات، ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذا
صارت فيها ماتت، ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا
هجموا على فَتَق في بطن الأرض أو مغارة في أعماقها أو
أضعافها، قَدَمُوا شَمْعَةً في طَرَفِهَا أو في رأسها ناراً، فإن ثبتت
النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك،
وإلا لم يتعرَّضوا له، وإنما يكون دخولهم بحياة النار،
وامتناعهم بموت النار.

وكذلك إذا وقعوا على رأس الجُبِّ الذي فيه الطعام، لم يجسروا
على النزول فيه، حتى يُرسلوا في ذلك الجبِّ قِنْدِيلًا فيه مصباحٌ
أو شيئاً يقومُ مقامَ القِنْدِيلِ، فإن مات لم يتعرَّضوا له، وحرَّكوا
في جوفه أكسِية وغيرها من أجزاء الهواء.

قال: ومما يُشَبَّه النارُ فيه بالإنسان، أنك ترى للمصباح قبل
انطفائه ونفاذِ دهنه، اضطراباً وضياءً ساطعاً، وشُعاعاً طائراً،
وحركة سريعةً وترقُّضاً شديداً، وصوتاً متداركاً، فعندها يخمدُ
المصباح.

وكذلك الإنسان، له قبلَ حالِ الموتِ، ودُويْنِ انقضاءِ مُدَّتِه
بأقربِ الحالات، حالٌ مُطْمَعَةٌ تزيد في القوة على حاله قبلَ ذلك
أضعافاً، وهي التي يسمونها راحة الموت، وليس له بعد تلك
الحال لُبْث.

قول أحد المتكلمين في النفس وكان رئيساً من المتكلمين، وأحد
الجلّة المتقدمين، يقول في النفس قولاً بليغاً عجيباً، لولا شُنْعته
لأظْهَرْتُ اسمه، وكان يقول: الهواء اسم لكل فتق، وكذلك
الحَيِّز، والفتق لا يكون إلا بين الأجرام الغلاظ، وإلا فإنما هو
الذي يسميه أصحاب الفلك اللُّجّ، وإذا هم سألوهم عن خُضرة
الماء قالوا: هذا لُجّ الهواء، وقالوا: لولا أنك في ذلك المكان
لرأيت في اللُّجّ الذي فوق ذلك مثل هذه الخضرة، وليس شيء
إلا وهو أرقُّ من كَتِيفِه أو من الأجرام الحاصرة له، وهو اسمٌ
لكل متحرِّك ومُتَقَلَّب لكل شيء فيه من الأجرام المركبة، ولا
يستقيم أن يكون من جنس النسيم، حتى يكون محصوراً، إما
بحصر كَتِيفِيٍّ كالسفينة لما فيها من الهواء الذي به حَمَلَتْ مثل
وزنِ جِرمها الأضعاف الكثيرة، وإما أن يكون محصوراً في
شيء كهينة البيضة المشتملة على ما فيها، كالذي يقولون في
الفلك الذي هو عندنا: سماء.

قال: وللنسيم الذي هو فيه معنى آخر، وهو الذي يجعله بعضُ
الناس ترويحاً عن النفس، يعطيها البردَ والرِّقَّةَ والطَّيبَ، ويدفَعُ
النَّفْسَ، ويُخرج إليه البخارَ والغَلْظَ، والحراراتِ الفاضلة، وكلُّ
ما لا تقوى النَّفْسُ على نَفْيِه واطِّرادِه.

قال: وليس الأمر كذلك، بل أزعُمُ أنَّ النفس من جنس النسيم

وهذه النفس القائمة في الهواء المحصور، عرضٌ لهذه النفس المتفرقة في أجرام جميع الحيوان، وهذه الأجزاء التي في هذه الأبدان، هي من النسيم في موضع الشعاع والأكتاف، والفروع التي تكون من الأصول.

قال: وضياء النفس كضياء دخلَ من كوة فلما سدَّت الكوة انقطع بالطرفة إلى عنصره من قرص الشمس وشعاعها المشرق فيها، ولم يُقَم في البيت مع خلاف شكله من الجُرم، ومتى عمَّ السدُّ لم تُقَم النفس في الجرم فوق لا.

وحكم النفس عند السدِّ - إذ كنا لا نجدُه بعد ذلك - كحكم الضياء بعد السدِّ، إذ كنا لا نجدُه بعد ذلك.

فالنفس من جنس النسيم، وبفساده تفسدُ الأبدان، وبصلاحه تصلحُ، وكان يعتمدُ على أن الهواء نفسَه هو النفس والنسيم، وأن الحرّ واللدونة وغير ذلك من الخلاف، إنما هو من الفساد العارض.

قيل له: فقد يفسدُ الماء فتفسدُ الأجرام من الحيوان بفساده، ويصلحُ فتصلحُ بصلاحه، وتمنعُ الماء وهي تنازعُ إليه فلا تحلُّ بعد المنازعة إذا تمَّ المنع، وتوصلُ بجرم الماء فتقيمُ في مكانها، فعمل النفس عند بطلانها في جسمها قد انقطعت إلى عنصر الماء بالطرفة.

وبعدُ فما عَلَّمَكَ؟ لعلَّ الخنقَ هَيَّجَ عَلَى النفسِ أصداداً لها
كثيرةً، غمرتها حتى غرقت فيها، وصارت مغمورةً بها.
وكان هذا الرئيس يقول: لولا أن تحت كلَّ شعرةٍ ورَعْبَةٍ مجرى
نَفْسٍ لكان المخنوقُ يموتُ مع أوَّلِ حالاتِ الخنقِ، ولكن النفسَ
قد كان لها اتصالٌ بالنسريم من تلك المجاري على قدرٍ من
الأقدار، فكان نُوطُها جوف الإنسان فالرَّيحَ والبُخارَ لَمَّا طَلَبَ
المنفذ فلم يجده، دارَ وكثُفَ وقوي؛ فامتدَّ له الجلدُ فسدَّ له
المجاري، فعند ذلك ينقطع النفسُ، ولولا اعتصامها بهذا السبب
لقد كانت انقطعت إلى أصلها من القُرْصِ، مع أولِ حالاتِ
الخنقِ.

وكان يقول: إن لم تكن النفسُ غُمِرَت بما هَيَّجَ عليها من
الآفاتِ، ولم تنقطع للطَّفرِ إلى أصلها جاز أن يكون الضياءُ
الساقطُ على أرض البيت عند سدِّ الكُوَّةِ أن يكون لم ينقطع إلى
أصله. ولكن السدَّ هَيَّجَ عليه من الظلام القائم في الهواء ما
غمره، وقطعه عن أصله، ولا فرق بين هُديين.
وكان يعظّم شأنَ الهواءِ، ويُخبر عن إحاطته بالأمور ودخوله
فيها، وتفضُّل قوِّته عليها.
وكان يزعمُ أن الذي في الزَّقِّ من الهواءِ، لو لم يكن له مَجَارٍ
ومناسفُ، ومُنْع من كلِّ وجهةٍ لأقلَّ الجَمَلِ الضخمِ.

وكان يقول: وما ظنك بالرطل من الحديد أو بالزبرة منه، أنه متى أرسل في الماء حرقه، كما يخرق الهواء قال: والحديد يسرع إلى الأرض إذا أرسلته في الهواء، بطبعه وقوته، ولطلبه الأرض المشاكلة له، ودفع الهواء له، وتبريه منه، ونفيه له بالمضادة، واطرايه له بالعداوة.

قال: ثم تأخذ تلك الزبرة فتبسطها بالمطارق، فتنزل نزولاً دون ذلك؛ لأنها كلما اجتمعت فكان الذي يلاقيها من الماء أصغر جرماً، كانت أقوى عليه.

ومتى ما أشخصت هذه الزبرة المفطوحة المبسوطة المسطوحة، بنتق الحيطان في مقدار غلظ الإصبع، حمل مثل زنته المرار الكثيرة وليس إلا لما حصرت تلك الإصبع من الهواء، وكلما كان نتو الحيطان أرفع كان للأثقال حمل، وكان الهواء أشد انحصاراً.

قال: ولولا أن ذلك الهواء المحصور متصلّ بالهواء المحصور في جرم الحديد، وفي جرم الخشب والقار، فرفع بذلك الاتصال السفينة علواً - لما كان يبلغ من حصر ارتفاع إصبع للهواء ما يحمله البغل.

ويدل على ذلك شأن السكابة؛ فإنك تضع رأس السكابة الذي يلي الماء في الماء، ثم تمصه من الطرف الآخر، فلو كان

الهواء المحصورُ في تلك الأنبوبة إنما هو مجاورٌ لوجهِ الماء، ولم يكن متصلاً بما لايس جِرم الماء من الهواء، ثم مصصته بأضعاف ذلك الجذبِ إلى ما لا يتناهى لَمَا ارتفع إليك من الماء شيءٌ رأساً.

وكان يقول في السَّبِيكة التي تُطيل عليها الإيقاد، كيف لا تتلوى، فما هو إلا أن يُنفخ عليها بالكبير حتى تدخل النيرانُ في تلك المداخل، وتعاونها الأجزاء التي فيها من الهواء. وبمثل ذلك قام الماءُ في جوف كوزِ المسقاة المنكس، ولعلمهم بصنيع الهواء إذا احتصر وإذا حُصر، جعلوا سمك الصينية مثل طولها، أعني المركب الصيني.

وكان يخبر عن صنيع الهواء بأعاجيب.

وكان يزعم أن الرجل إذا ضربت عنقه سقط على وجهه، فإذا انتفخ انتفخ عُرْموله وقام وعظم، فقلبه عند ذلك على القفا، فإذا جاءت الضبُع لتأكله فرأته على تلك الحال، ورأت عُرْموله على تلك الهيئة، استدخلته وقضت وطرها من تلك الجهة، ثم أكلت الرجل، بعد أن يقوم ذلك عندك أكثر من سِفاذ الدَّيخ. والدَّيخ: ذكر الضبَاع العرقاء. وذكر بعض الأعراب أنه عاينها عند ذلك، وعند سِفاذ الضبُع لها، فوجد لها عند تلك الحال حركةً وصياحاً، لم يجده عندها في وقت سِفاذ الدَّيخ لها.

ولذلك قال أبو إسحاق لإسماعيل بن عَزَّوان: أشهد بالله إنك لَضَبْعٌ، لأن إسماعيل شدَّ جاريةً له على سُلْمٍ وحَلَفَ ليضربَها مائة سَوَاطِدٍ دونَ الإزار - ليلتزقَ جلدُ السَّوِطِ بجلدها، فيكون أوجعَ لها - فلما كشفَ عنها رَطْبَةً بَضَّةً خَدَلَةً، وقعَ عليها، فلما قضى حاجته منها وفرَّغَ، ضربها مائة سوط، فعند ذلك قال أبو إسحاق ما قال.

اختلاف أحوال الغرقى وإذا غرقت المرأة رسبت، فإذا انتفخت وصارت في بطنها ريح وصارت في معنى الزق، طفا بدنُّها وارتفع، إلا أنها تكون مُنْكَبَّةً، ويكونُ الرَّجُلُ مستلقياً. وإذا ضُربتُ عُنُقُ الرَّجُلِ وأُلْقِيَ في الماء لم يرسُب، وقام في جوف الماء وانتصب، ولم يغرُق، ولم يلزم القعر، ولم يظهر، كذلك يكونُ إذا كان مضروبَ العنق، كان الماء جارياً أو كان ساكناً، حتى إذا خفَّ وصار فيه الهواء، وصار كالزَّقِّ المنفوخ، انقلبَ وظهرَ بدنه كله، وصار مستلقياً، كان الماء جارياً أو كان قائماً، فوقوفه وهو مضروب العنق، شبيهة بالذي عليه طباعُ العقربِ التي فيها الحياة، إذا ألقيتها في ماء عَمُر، لم تطفأ ولم ترسب، وبقيت في وسط عَمَقِ الماء، لا يتحرَّك منها شيء.

ما يسبح من الحيوان والعقرب من الحيوان الذي لا يسبح، فأما الحية فإنها تكونُ جيِّدةً السباحة، إذا كانت من اللواتي تنساب

وتزحف، فأما أجناس الأفاعي التي تسير على جنب فليس عندها في السباحة طائل.

والسباحة المنعوتة، إنما هي للإوزة والبقرة والكلب، فأما السمكة فهي الأصل في السباحة، وهي المثل، وإليها جميع النسبة.

والمضروب العنق يكون في عمق الماء قائماً، والعقرب يكون على خلاف ذلك.

ثم رجع بنا القول إلى ذكر النار

قال: وللنار من الخصال المحمودية أنّ الطفل لا يُناغي شيئاً كما يُناغي المصباح، وتلك المناغاة نافعة له في تحريك النفس، وتهيج الهمة، والبعث على الخواطر، وفتق اللهاة، وتسديد اللسان، وفي السرور الذي له في النفس أكرم أثر.

قول الأديان في النار قال: وكانت النار معظمة عند بني إسرائيل، حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان، وتدل على إخلاص المتقرب، وفساد نية المدغل، وحيث قال الله لهم: لا تُطْفئُوا النَّارَ مِنْ بُيُوتِي، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع أبداً إلا وفيها المصابيح تزهر، ليلاً ونهاراً، حتى نسخ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النيران، إلا بقدر الحاجة.

فَذَكَرَ ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزَّبِيرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِذَا رَقَدْتَ فَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَخَمِّرْ إِنْءَاكَ، وَأُوَكِّ سِقَاءَكَ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلْقًا وَلَا يَكْشِفُ إِنْءَاءً، وَلَا يَحِلُّ وَكَاءً، وَإِنَّ الْفَأْرَةَ الْفُؤَيْسِقَةَ تَحْرِقُ أَهْلَ الْبَيْتِ.

وَفَطَّرَ بَنُ خَلِيفَةَ عَنِ أَبِي الزَّبِيرِ؛ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ، وَأُوَكِّوْا أَسْقِيَتَكُمْ وَخَمِّرُوا أَنْبِيَتَكُمْ، وَأَطْفِئُوا سُرُجَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلْقًا، وَلَا يُحِلُّ وَكَاءً، وَلَا يَكْشِفُ غِطَاءً، وَإِنَّ الْفُؤَيْسِقَةَ تَضُرُّمُ الْبَيْتَ عَلَى أَهْلِهِ، وَكُفُّوا مَوَاشِيَكُمْ وَأَهْلِيَكُمْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ، حَتَّى تَذَهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ".

قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْمُرْ بِحِفْظِهَا إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَيَأْمُرُ بِإِطْفَاءِهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهَا - مَا حَدَّثَ بِهِ عَبَادُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَحْبَسُوا صَبِيَانَكُمْ عِنْدَ فَحْمَةِ الْعِشَاءِ، وَأَنْ تُطْفِئُوا الْمِصَابِيحَ، وَأَنْ تُوَكِّئُوا الْأَسْقِيَةَ، وَأَنْ تَخَمِّرُوا الْإِنْيَةَ، وَأَنْ تَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَا بَدَّ لَنَا مِنَ الْمِصَابِيحِ، لِلْمَرْأَةِ النَّفْسَاءِ، وَالْمَرِيضِ، وَالْحَاجَةِ تَكُونُ، قَالَ: فَلَا بَأْسَ إِذَا، فَإِنَّ

المصباح مطردة للشيطان، مذبة للهوام، مدلة على اللصوص.
نار الغول قال: وناز أخرى، وهي التي تذكر الأعراب أن الغول
توقدها بالليل، للعبث والتخليل، وإضلال السابلة.
قال أبو المطراب عبید بن أيوب العنبري:

لصاحب قفر خائف
مقتتر

فلله در الغول أي
رفيقة

حوالي نيراناً تبوخ
وتزهو

أرنت بلحن بعد لحن
وأوقدت

جمرات العرب قال: وجمرات العرب: عس، وضبة، ونمير،
يقال لكل واحد منهم: جمرة.
وقد ذكر أبو حية النُميري قومه خاصة فقال:

توقد لا تطفأ لريب
النواب

وهم جمرة لا يصطلي
الناس نارهم

ويروى: الدواير.

ثم ذكر هذه القبائل فعمهم بذلك، لأنها كلها مضرية، فقال:

ثَلَاثَ فَقَدْ جُرِّبَنَ كُلَّ
التَّجَارِبِ

وَضَبَّةَ قَوْمٍ بِأَسْهُمٍ
غَيْرِ كَادِبٍ

لَنَا جَمَرَاتٌ لَيْسَ لِلنَّاسِ
مِثْلَهُمْ

نَمِيرٌ وَعَبَسٌ تَتَّقَى
صَقْرَاتُهَا

يعني شدتها.

لَهَا عَارِضٌ جَوْنٌ قَوِيٌّ
الْمَنَاكِبِ

إِلَى كُلِّ قَوْمٍ قَدْ دَلَفْنَا
بِجَمْرَةٍ

سقوط الجمرة

وعلى ذلك المعنى قيل: قد سقطت الجمرة، إذا كان في استقبال
زمان الدَّفَاءِ، ويقولون: قد سقطت الجمرة الأولى، والثانية،
والثالثة.

استطراد لغوي

والجمار: الحصى الذي يُرْمَى به، والرَّمَى: التجمير، قال
الشاعر:

وَلَا كَلَيْالِي الْحَجِّ أَفْتَنَ
ذَا هَوَى

وَلَمْ أَرَ كَالْتَجْمِيرِ
مَنْظَرَ نَاطِرٍ

والتجمير أيضاً: أن يُرمى بالجُند في ثغر من الثُّغور، ثم لا يُؤدّن لهم في الرجوع.
وقال حُمَيْدُ الأَرْقَطُ:

وَلَا لِعَازٍ إِنْ عَزَا
تَجْمِيرُ

فَالْيَوْمَ لَا ظَلَمَ وَلَا
تَتَّبِيرُ

وقال بعض مَنْ جُمِرَ من الشعراء في بعض الأجناد:

إِلَيْنَا وَإِمَا أَنْ نُوُوبَ
مُعَاوِيَا

مُعَاوِيَ إِمَا أَنْ تُجَهَّزَ
أَهْلُنَا

وَمَنْئِينَا حَتَّى مَلِينَا
الْأَمَانِيَا

أَجْمَرْتَنَا تَجْمِيرَ كِسْرَى
جُنُودَهُ

وقال الجعديُّ:

طَ بَجُنْدٍ مُجَمَّرٍ

كَالْخَلَايَا أَنْشَانَ مِنْ أَهْلِ

سابا

بأوال

ويقال قد أجمر الرجل: إذا أسرع أو أعجلَ مركبه.
وقال لبيد:

وَإِذَا حَرَّكَتْ غَزْرِي
أَجْمَرْتُ

أَوْ قِرَابِي عَدُوَّ جَوْنٍ
قَدْ أَبْلَى

وقال الراجز:

أَجْمَرَ إِجْمَاراً لَهُ تَطْمِيمٌ

التَّطْمِيمُ: الارتفاع والعلو، ويقال: أجمَرَ ثوبه، إذا دخَّنه.
والمِجْمرة والمِجْمَر: الذي يكون فيه الدُّخنة، وهو مأخوذٌ من
الجَمْر.

ويقال: قد جَمَّرت المرأة شَعْرَهَا إِذَا ضَفَّرَتْه، والضَّفْر يقال له
الجمير، قال: ويسمى الهلالُ قبل ليلةِ السَّرارِ بليِّلةٍ: ابن جَمير
قال أبو حَرْدَبَةَ:

فهل الإله يُشيعني
بفوارسٍ

لبنى أمية في سرار
جمير

وَأَنْشَدَنِي الْأَصْمَعِيُّ:

مَضْفُورُهَا يُطَوَّى عَلَى جَمِيرِهَا

ويقال: قد تجمّر القوم، إذا هم اجتمعوا حتى يصير لهم بأسٌ، ويكونوا كالنارِ على أعدائهم فكأنهم جمرةٌ، أو كأنهم جميرٌ من شعر مضافٍ، أو حبل مُرَصَّع القَوَى. وبه سمّيت تلك القبائلُ والبطونُ من تميم: الجمار. والمجمّر مشدّد الميم: حيثُ يقع حصى الجمار، وقال الهذلي:

لَأَدْرِكَهُمْ شَعَثٌ
النَّوَاصِي كَأَنَّهُمْ
سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تَوَافِي
المَجْمَرَا

ويقال خُفٌّ مجمّر: إذا كان مجتمعاً شديداً. ويقال: عدّ فلانٌ إبله أو خيله أو رجاله جَمَاراً: إذا كان ذلك جُملةً واحدة، وقال الأعشى:

فَمَنْ مَبْلَغٌ وَاثِلًا
قَوْمَنَا
وَأَعْنِي بِذَلِكَ بَكَرًا
جَمَارَا

قال: ويقال في النار وما يسقط من الزند: السَّقَط، والسَّقَط، والسَّقَط، ويقال: هذا مَسْقَطُ الرمل، أي مُنْقَطَعُ الرمل، ويقال:

أَتَانَا مَسْقِطَ النَّجْمِ، إِذَا جَاءَ حِينَ غَابِ.
وَيُقَالُ رَفَعَ الطَّائِرُ سِقْطِيهِ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

عَنْهُ نِعَامَةٌ ذِي
سِقْطَيْنِ مُعْتَكِرِ

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ
الصُّبْحُ وَانْبَعَثَتْ

أَرَادَ نَاحِيَتِي اللَّيْلِ.

وَيُقَالُ: شَبَّتِ النَّارُ وَالْحَرْبُ تَشَبَّ شَبًّا، وَشَبَّبْتُهَا أَنَا أَشَبُّهَا شَبًّا، وَهُوَ رَجُلٌ شَبُوبٌ لِلْحَرْبِ. وَيُقَالُ: حَسَبْتُ ثَاقِبًا، أَي مَضِيًّا مُتَوَقِّدًا، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْعِلْمِ، وَيُقَالُ: هَبْ لِي ثُقُوبًا، وَهُوَ مَا أَثَقَبْتَ بِهِ النَّارَ، مِنْ عُطْبَةٍ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا وَيُقَالُ: أَثَقَبْتُ النَّارَ إِذَا فَتَحْتُ عَيْنَهَا لِتَشْتَعَلَ، وَهُوَ لثُقُوبٌ، وَيُقَالُ: ثَقَبْتُ الزُّنْدَ ثُقُوبًا، إِذَا ظَهَرَتْ نَارُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ، وَالزُّنْدُ الثَّاقِبُ الَّذِي إِذَا قَدِحَ ظَهَرَتْ النَّارُ مِنْهُ.

وَيُقَالُ: ذَكَرْتُ النَّارَ تَذُكُو ذُكُوءًا، إِذَا اشْتَعَلَتْ، وَيُقَالُ ذُكَّهَا إِذَا أُرِيدَ اشْتِعَالُهَا، وَذُكَاءٌ اسْمٌ لِلشَّمْسِ، مَضْمُومٌ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ، وَابْنُ ذُكَاءٍ: الصُّبْحُ، مَمْدُودٌ مَضْمُومٌ الذَّالِ، وَقَالَ الْعَجَّاجُ:

ابْنُ ذُكَاءٍ كَامِنٌ فِي كَفْرِ

وَقَالَ ثَعْلَبَةُ بْنُ صُعَيْرِ الْمَازِنِيِّ، وَذَكَرَ ظَلِيمًا وَنِعَامَةً:

تَذَكَّرًا ثَقَلًا رَثِيداً بَعْدَ

مَا

لَقَّتْ ذُكَاءً يَمِينَهَا فِي

كَافِرٍ

وأما الذكاء مفتوح الذال ممدود فحدّه الفؤاد، وسُرْعَةُ اللَّقْنِ.
وقالوا: أَضْرَمْتُ النَّارَ حَتَّى اضْطَرَمْتُ وَأَلْهَبْتُهَا حَتَّى التَّهَبْتُ،
وهما واحد، والضَّرامُ من الحطب: ما ضَعُفَ مِنْهُ وَلَانَ،
وَالجَزْلُ: ما غُلِظَ وَاشْتَدَّ، فَالرَّمْتُ وما فَوْقَهُ جَزْلٌ، وَالعَرْفَجُ وما
دُونَهُ ضِرَامٌ، وَالقَصْبُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ لَهُ جَمْرٌ فَهُوَ ضِرَامٌ،
وَكُلُّ ما لَهُ جَمْرٌ فَهُوَ جَزْلٌ.

ويقال: ما فيها نافع ضَرَمَةٌ، أي ما فيها أَحَدٌ يَنْفِخُ ناراً.
ويقال: صَلَّيْتُ الشَّاةَ فَأَنَا أَصْلِيها صَلِيًّا أذا شَوَّيْتُها، فَهِيَ
مَصْلِيَّةٌ، وَيقالُ: صَلَّي الرَّجُلُ النَّارَ يَصْلِها، وَأَصْلاهُ اللهُ حَرٌّ
النَّارِ إِصْلَاءً، وَتقولُ: هُوَ صالٍ حَرِّ النَّارِ، فِي قومٍ صالينٍ
وَصَلَّى.

ويقال: هَمَدَتِ النَّارَ تَهْمُدُ هُمُوداً، وَطَفِنَتْ تَطْفَأُ طُفُوعاً، إِذا
ماتت، وَخَمَدَتْ تَخْمَدُ خُمُوداً، إِذا سَكَنَ لَهْبُها وَبَقِيَ جَمِراً
حارّاً.

وَشَبَّتِ النَّارُ تَشِبُّ شَبُوباً إِذا هاجتُ وَالتَّهَبْتُ، وَشَبَّ الفرسُ
بِيدِهِ فَهُوَ يَشِبُّ شَباباً، وَشَبَّ الصَّبِيُّ يَشِبُّ شَباباً، وَيقالُ: لَيْسَ

لك عَضَّاصٌ وَلَا شَبَّابٍ.
ويقال: عَشَا إِلَى النَّارِ فَهُوَ يَعِشُو إِلَيْهَا عَشْوًا وَعُشُوا، وَذَلِكَ
يَكُونُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، يَرَى نَارًا فَيَعِشُو إِلَيْهَا يَسْتَضِيءُ بِهَا، قَالَ
الْحَطِيبَةُ:

تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا
خَيْرُ مَوْقِدٍ

مَتَى تَأْتِيهِ تَعِشُو إِلَى
ضَوْءِ نَارِهِ

وقال الأعشى:

وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمَحْلَقُ

ويقال: عَشِيَ الرَّجُلُ يَعِشَى عَشَاوَةً، وَهُوَ رَجُلٌ أَعَشَى، وَهُوَ
الَّذِي لَا يَبْصُرُ بِاللَّيْلِ، وَعَشِيَ الرَّجُلُ عَلَى صَاحِبِهِ يَعِشَى عَشَاً
شَدِيداً.

نَارُ الْحَرْبِ وَيَذْكُرُونَ نَاراً أُخْرَى، وَهِيَ عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ
وَالِاسْتِعَارَةِ، لَا عَلَى طَرِيقِ الْحَقِيقَةِ، كَقَوْلِهِمْ فِي نَارِ الْحَرْبِ، قَالَ
ابْنُ مِيَادَةَ:

وَأُخْرَى شَدِيدٌ بِالْأَعَادِي

يَدَاهُ: يَدٌ تَنْهَلُ

بالخير والنّدا

وناراه : نار نار
كلّ مدّفعٍ

وقال ابن كُناسة:

خَلَفَهَا عَارِضٌ يَمُدُّ
عَلَى الْآ

نارُ حربٍ يشبُّها الحدُّ
والجِ

وقال الرَّاعي:

وَغَارَتْنَا أَوْدَتُمْ بِبَهْرَاءِ
إِنهَا

وكانت لنا ناران : نارٌ
بجاسِمٍ

ضَرِيرُهَا

وأخرى يُصِيبُ
المجرمينَ سَعِيرُهَا

فاقِ سِتْرَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ
ونار

دَ وَتُعْشِي نِوَأْفَدُ
الأبصارِ

تصِيبُ الصَّرِيحَ مَرَّةً
والمواليا

ونارٌ بدمخٍ يُحْرِقَانِ
الأعاديَا

جاسم: بالشام، ودمخ: جبَلٌ بالعالية.
نار القري ونار أخرى، وهي مذكورةٌ عَلَى الحقيقة لا على
المثل، وهي من أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي ترفع
للسفر، ولمن يلتمس القري، فكلما كان موضعها أرفع كان
أفخر.

وقال أمية بن أبي الصلت:

في ذرى مشرف
القصور ثواكا

لا الغيابات منتواك
ولكن

وقال الطائي:

رفيع المباءة
والمسرح

وبوات بيتك في
معلم

ونبح الكلاب
لمستنبح

كيفت العفاة طلاب
القري

ي أحاديذ كالقلم
الأفيح

تري دعس آثار تلك
المط

لكنت على الشرك
الأوضح

ولو كنت في نفق
رائع

وأنشدني أبو الزبرقان:

إذا الظلماء جَلَّتِ
البقاعا

له نارٌ تُشَبُّ بكلِّ ريع

ولكن كان أرحبهم
ذراعا

وما إن كان أكثرهم
سواماً

ويروى: ولم يك أكثر الفتيان مالاً.
وفي نار القرى يقول الآخر:

تُبَكِّي البَوَاكِي أَوْ لِبِشْرِ بْنِ عَامٍ عَلَى مِثْلِ هَمَامٍ وَلَمْ أَرْ مِثْلَهُ
مِنَ الْمَجْدِ ثُمَّ اسْتَوْسَعَا فِي الْمَصَادِرِ غَلَامَانِ كَانَ اسْتَوْرَدَا كُلٌّ
مَوْرِدٍ

سَنَا الْفَجْرِ يَبْدُو لِلْعُيُونِ النَّوَاطِرِ كَأَنَّ سَنَا نَارِيهِمَا كُلَّ شَتْوَةٍ
وفي ذلك يقول عوف بن الأحوص:

من الليلِ بابًا ظلمةً وستورها

و

مستنبحٍ يخشي القواءِ ودونهُ

زجرتُ كلابي أن يهرَّ عقورها

رف

عتُّ له ناري فلما اهتدى بها

إذا رَدَّ عافي القدرِ من يستعيرها

فلا

تسأليني واسألي عن خليقتي

لذي الفروة المقرور أم يزورها

تر

ي أن قدري لاتزال كأنها

إذا أحمد النيرانُ لاح بشيرها

مب

رزة لا يجعلُ الستر دونها

بألبانها ذاقَ السنانَ عقيرها

إذا

الشولُ راحتْ ثم لمْ تفدِ لحمها

خبر وشعر في الماء أما إن ذكرنا جُملةً من القول في الماء من طريق الكلام وما يدخل في الطب، فستذكر من ذلك جملة في باب آخر: قالوا: مدَّ الشعبي يدهُ وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشرابَ، فلم يدرِ صاحبُ الشرابِ اللبن، أم العسل، أم بعضَ الأَشربة؟ فقال له: أي الأَشربة أحبُّ إليك؟ قال: أعزُّها مفقوداً، وأهونها موجوداً قال قُتيبة: اسقه ماءً.

وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك، إذ شرب رجلٌ منهم ماء، ثم قال: برَدَ الماءُ وطابَ فقال أبو العتاهية: اجعله شِعراً، ثم قال: مَنْ يجيز هذا البيت؟ فأطرق القومُ مفكرين، فقال أبو العتاهية: سبحان الله وما هذا الإطراق؟ ثم قال:

بَرَدَ الماءُ

وطابا

حَبَدًا الماءُ شرابا

وقال الله عز وجل: "أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ" ثم لم يذكره
بأكثر من السلامة من التغيّر، إذ كان الماء متى كان خالصاً
سالماً لم يحتج إلى أن يُشرب بشيء غير ما في خلقته من
الصّفاء والعذوبة، والبرّد والطيب، والحسن، والسّلس في
الحلق، وقد قال عديّ بن زيد:

كُنْتُ كَالْغَصَانِ بِالمَاءِ
اعتصاري

لَوْ بَغَيْرِ المَاءِ
حَلَقِي شَرِقٌ

قال أبو المطراب عبيد بن أيّوب الغنبريُّ:

وَأَوَّلُ خُبْتِ النَّجْلِ خُبْتُ
الحلائل

وَأَوَّلُ خُبْتِ المَاءِ
خُبْتُ تَرَابَهُ

وأوصى رجلٌ من العرب ابنته ليلةً زفافها بوصايا، فكان مما
قال لها: احذري مَوَاقِعَ أَنْفِهِ، واغتسلي بالماء القَرَّاح، حتى
كأنك شَنٌّ ممطور.

وأوصت امرأةً ابنتها بوصايا، فكان منها: وليكن أطيبَ طيبك
الماء.

وزعموا أنها القائلةُ لبنتها:

بُنَيْتِي إِنْ نَامَ نَامِي
قَبْلَهُ

وَأَكْرَمِي تَابِعَهُ
وَأَهْلَهُ

وَلَا تَكُونِي فِي الْخِصَامِ
مِثْلَهُ

فَتَخْصِمِيهِ فَتَكُونِي
بَعْلَهُ

ومن الأمثال:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ
بَيْنِي وَبَيْنَهَا

سِوَى ذِكْرِهَا كَالْقَابِضِ
الْمَاءَ بِالْيَدِ

وأخذ المسيح عليه السلام في يده اليمنى ماءً، وفي يده اليسرى خُبْزاً فقال: هذا أبي، وهذا أمي، فجعل الماء أباً، لأن الماء من الأرض يقوم مقام النطفة من المرأة. وإذا طبخ الماء ثم برد لم تَلْفَحْ عليه الأشجار، وكذلك قُضبان الشجر، والحبوب والبذور لو طُبِخت طبخةً ثم بُدِرَتْ لم تَعْلَق. وقالوا في النظر إلى الماء الدائم الجريان ما قالوا. وجاء في الأثر: من كان به برصٌ قديمٌ فليأخذ دِرْهماً حلالاً، فليشتر به عَسلاً، ثم يشربه بماء سماء، فإنه يبرأ بإذن الله. والنزيف هو الماء عند العرب.

وما ظنكم بشرابٍ حَبُثٍ ومَلَحٍ فصار مِلْحاً زُعاقاً، وبحراً أُجاجاً،
 وُلْدَ العنبرِ الوَرْدِ، وأنسل الدَّرَّ النفيس، فهل سِمَعَتَ بِنَجْلِ أكرم
 ممن نَجَلَه، ومن نِتاجِ أشرفِ ممن نَسَلَه.
 وما أحسن ما قال أبو عَبَّادِ كاتِبُ ابنِ أبي خالِدٍ حيثُ يقول: ما
 جَلَسَ بين يديَّ رَجُلٍ قَطُّ، إلا تَمَثَّلَ لي أني سأجِلسُ بين يديه،
 وما سَرَّني دهرٌ قَطُّ، إلا شغَلني عنه تذكُرُ ما يليقُ بالدهورِ من
 الغَيْرِ. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
 حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا"، لأن الزجاج أكثر ما يُمدحُ به
 أن يقال: كأنه الماء في الفيافي.
 وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: "هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ".
 وقال القُطامي:

مواقِعُ الماءِ من ذي
 الغُلَّةِ الصَّادي

وهنَّ يَنْبِذَنَ من قولٍ
 يُصِبْنَ به

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: "واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَاءٍ".
 فيقال: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خُلِقَ
 من ماء، والنُّطفة ماء، والماء يسمى نُطفة، وقال اللهُ تعالى:
 "وَكَانَ عَرْشُهُ على الماءِ"، قال ابن عباس: موج مكفوف.
 وقال عزَّ وجلَّ: "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارِكاً".

التسمية بماء السماء وحين اجتهدوا في تسمية امرأة بالجمال،
والبركة، والحسن، والصفاء، والبياض قالوا: ماء السماء،
وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

استطراد لغوي

ويقال: صَبَغَ له ماء، ولَوَّنَ له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء،
ورَدَّنِي فلانٌ ووجهي بمائه، قال الشاعر:

ماءُ الحياءِ يجولُ في وجناتِهِ

شعر في صفة الماء وقالت أم فروة في صفة الماء:

تحدّر من غر طِوالِ الذوائبِ

و

ما ماءُ مزنٍ أيُّ ماءٍ تقوله

عليه رياحُ المزنِ من كلِّ جانبِ

ب

منعرج أو بطنٍ وادٍ تحدبت

فما إن به عيب تراه لشارب

ن

في نسْم لارِيح القذا عن متونه

تقى الله واستحياء بعض العواقب

بأ

طيبَ ممن يقصرُ الطرفَ دونه

ما يحبه الحيوان من الماء والإبل لا تحبُّ من الماء إلا الغليظ،
والحوافر لا تحبُّ العذوبة وتكره الماء الصافي، حتى ربّما
ضربَ الفرسُ بيده الشريعة ليثورَ الماء ثم يشربه.
والبقرة تعافُ الماءَ الكدرَ، ولا تشرب إلا الصافي.
والظباء تَكَرَّع في ماء البحرِ الأجاج، وتخصمُ الحنظل.

استطراد لغوي

والأبيضان: الماء، واللبن، والأسودان: الماء، والتمر.
وسواد العراق: ماؤه الكثير، والماء إن كان له عمق اشتدَّ
سواده في العين.
شعر في صفة الماء وقال العكلي في صفة الماء:

عاد من ذكرِ سلمى
عوده

والليلِ داجٍ مطلقمَّ
أسوده

فبتَّ ليلي ساهراً ما
أرقده

حتى إذا الليل تولى
كبده

وانكبَّ للغورِ انكبابا
فرقده

وحثه حادٍ كميشنَّ
يطرده

أغرَّ أجلي مغربً
مجرده

أصبح بالقلبِ جوى
ما يبرده

ماء غمامٍ في الرصاف
مقلده

زل به عن رأس نيقٍ
صدده

عن ظهر صفوانٍ مزل
مجسده

حتى إذا السيل تناهى
مدده

وشكد الماء الذي
يشكده

بين نعامي ودبورٍ
تلهذه

كأنما يشهده أو
يفقده

كلُّ نسيمٍ من صَباً
تستورده

فهو شِفَاءُ الصَادِ مَا يَعْمِدُهُ وَقَالَ آخِرُ فِي الْمَاءِ:

نزلِ أصابَّ عراصها
شؤبوب

يا كأس ما ثغبُّ برأس
شظيةٍ

نديان، يقصر دونه
اليعقوب

ضحيانُ شاهقةٍ يرف
بشامه

عشانَ داغش ثم عاد
يلوبُ

بالدُ منكِ مذاقة
لمحلا

وقال جرير:

تَدَعُ الحوائِمَ لا يَجْدُنُ
غليلا

لو شئتِ قد نَقَعَ الفَوَادُ
بشربةٍ

قضُّ الأباطح لا يزالُ
ظليلا

بالعَدَبِ من رَصَفِ
القِلاتِ مَقِيلُهُ

فضل الماء قال: وفي الماء أنّ أطيّب شراب عُمل وَرُكِّب، مثل
السَّكَنْجَبِين، والجُلَّاب، والبنَّفَسَج وغير ذلك مما يُشْرَبُ من
الأشربة، فإنّ لَذ وطاب، فإنّ تمام لذّته إن يجرع شاربُه بعد
شُرْبِه له جُرْعاً من الماء، يغسل بها فمه، ويطيّب بها نفسه،
وهو في هذا الموضع كالحُلَّة والحَمض جميعاً وهو لتسويغ
الطعام في المريء، والمركب والمِعْبَر، والمتوصّل به إلى
الأعضاء.

فالماء يُشْرَبُ صِرْفاً وممزوجاً، والأشربة لا تُشْرَبُ صِرْفاً، ولا
يُنْتَفَعُ بها إلا بممازجة الماء، وهو بعدُ طهورُ الأبدان، وغسولُ
الأدران. وقالوا: هو كالماء الذي يطهر كل شيء، ولا
ينجّسه شيء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة: "الماء لا
ينجّسه شيء".

ومنه ما يكون منه المِلْح، والبَرْد، والثَّلج، فيجتمع الحُسن في
العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.
وبالماء يكون القَسَم، كقول الشاعر:

لا أشربُ الباردَ أو
ترضى

عُضْبِي ولا واللهِ يا
أهلها

ويقولون: لو علم فلان أن شربَ الباردِ يَضَعُ من مروءتِه لما ذاقه، وسمَّى الله عز وجل أصلَ الماءِ عَيْثاً بعد أن قال: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

ومن الماءِ ماءُ زمزم، وهو لما شربَ له، ومنه ما يكون دواءً وشفاءً بنفسه، كالماءِ للحمى.

علة ذكر النار في كتاب الحيوان

قد ذكرنا جملة من القَوْل في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القَوْل في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعة الذكر، باعثة على الفكر، وقد يعرض من القَوْل ما عسى أن يكون أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القَوْل في الفيل، والزَّنْبِيل، والقرد والخنزير، وفي الدُّب والذئب، والضَّبِّ والضَّبَع، وفي السَّمْعِ والعسبار.

وعلى أن الحكمة ربما كانت في الذُّبابة مع لطافة شخصها، ونذالة قدرها، وخساسة حالها أظهرَ منها في الفرس الرَّائع، وإن كان الفرسُ أنفع في باب الجهاد، وفي الجاموس مع عظم شخصه، وفي دودة القَرِّ، وفي العنكبوت أظهرَ منها في الليثِ الهصور، والعقَابِ الشَّغْوَاءِ.

وربما كان ذكرُ العظيمِ الجُثةِ الوثيقِ البدنِ، الذي يجمعُ حِدَّةَ

الناب وصولة الخلق أكثر فائدةً، وأظهر حكمة من الصَّغير الحقير، ومن القليل القمي، كالبعير والصَّوابة، والجاموس والثعلب والقملة.

وشأن الأَرْضَةِ أعجبُ من شأن البَبْرِ مع مسالمة الأسد له، ومحاربتة للنمر.

وشأن الكُرْكِيِّ أعجبُ من شأن العَنْدَلِيْبِ، فإن الكركيَّ من أعظم الطَّير، والعندليب أصغر من ابن تَمْرَةٍ.

ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطةِ الرُّوَاةِ فقال: يضربُ ما بين الكُرْكِيِّ إلى العَنْدَلِيْبِ، يقول: لا يدع رجلاً ولا صبيّاً إلا عَفَجَه. ويشبه ذلك هجاءُ خلفِ الأحمرِ أبا عبيدة، حيثُ يقول:

لا عانساً يبقى ولا
مُخْتَلِمٌ

ويضربُ الكُرْكِيُّ إلى
القُنْبَرِ

والعانس من الرجال مثله من النساء. فلسنا نُنْطَبُ في ذكر العظيم الجثة لعظم جُثَّتِه، ولا نَرْعَبُ عن ذكر الصَّغير الجثة، لصغر جُثَّتِه، وإنما نلتمس ما كان أكثرَ أعجوبةً، وأبلغَ في الحكمة، وأدلَّ عند العامة على حكمة الرَّبِّ، وعلى إنعام هذا السَّيِّدِ.

وَرُبَّ شَيْءٍ الأَعْجُوبَةُ فِيهِ إِنَّمَا هِيَ فِي صُورَتِهِ، وَصَنَعَتِهِ،

وتركيب أعضائه، وتأليف أجزائه، كالطاووس في تعاريج ريشه، وتهاويل ألوانه، وكالزرافة في عجيب تركيبها، ومواضع أعضائها، والقولُ فيهما شبيهةً بالقول في التدرج والنَّعامة.

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعةِ البدن، ثم لا يُذكرُ بعدَ حُسن الخلقِ بخلقِ كريم، ولا حِسِّ ثاقبٍ، ولا معرفةِ عجيبة، ولا صنعةِ لطيفة، ومنه ما يكون كالبيغاء، والنخلة، والحمامة، والثعلب، والذرة، ولا تكون الأعجوبةُ في تصويره، وتركيب أعضائه، وتنضيد ألوانِ ريشه في وزن تلك الأشياء التي ذكرناها، أو يكون العَجَبُ فيما أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبة، والأصوات الشجيّة المطربة، والمخارج الحسنة مثل العجب فيما أُعطي من الأخلاق الكريمة، أو في صنعة الكفّ اللطيفة، والهداية الغريبة، أو المرفق النافع، أو المضرة التي تدعو إلى شدة الاحتراس، ودقة الاحتيال، فيقدّم في الذكر لذلك. وأيُّ شيء أعجب من العقق وصدق حسّه، وشدة حدره، وحسن معرفته، ثم ليس في الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه، والخبّاري مع أنها أحقّ الطير، تحوط بيضها أو فراخها أشدّ الحياطة، وبأعمّ ض معرفة، حتى قال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: كلُّ شيء يحب والدّه حتى الخباري،

يَضْرَبُ بِهَا الْمَثَلَ فِي الْمَوْقِ.
العقّوق ثم العقّوق مع حدّقه بالاستلاب، وبسرعة الخطف، لا
يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَم من عقْدِ ثمين حَطِير،
ومن قُرْطِ شريف نفيس، قد اختطف من بين أيدي قوم، فإمّا
رَمَى به بعد تَحَلُّقه في الهواء، وإما أحرزه ولم يلتفت إليه أبداً.
وقالوا: هو كالماء الذي يطهر كلّ شيء، ولا ينجِّسُه شيء.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة: "الماءُ لا
ينجِّسُه شيء".

ومنه ما يكون منه المِلْح، والبَرْد، والثَّلج، فيجتمع الحُسن في
العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.
وبالماء يكون القَسَم، كقول الشاعر:

لا أشربُ الباردَ أو
ترضى

غضبي ولا والله يا
أهلها

ويقولون: لو علمَ فلانٌ أنّ شُرْبَ الباردِ يَضَعُ من مروءتِه لما
ذاقه، وسمّى الله عز وجل أصلَ الماء غَيْثاً بعد أن قال: "وَكَانَ
عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

ومن الماء ماء زمزم، وهو لما شرب له، ومنه ما يكون دواءً
وشفاءً بنفسه، كالماء للحمى.

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

قد ذكرنا جملة من القول في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعة الذكر، باعثة على الفكر، وقد يعرض من القول ما عسى أن يكون أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والزنبيل، والقرد والخنزير، وفي الذب والذئب، والضب والضبع، وفي السمع والعسهار.

وعلى أن الحكمة ربما كانت في الذبابة مع لطافة شخصها، ونذالة قدرها، وخساسة حالها أظهر منها في الفرس الرّائع، وإن كان الفرس أنفع في باب الجهاد، وفي الجاموس مع عظم شخصه، وفي دودة القز، وفي العنكبوت أظهر منها في الليث الهصور، والعقاب الشّغواء.

وربما كان ذكر العظيم الجثة الوثيق البدن، الذي يجمع حدة الناب وصولّة الخلق أكثر فائدة، وأظهر حكمة من الصّغير الحقير، ومن القليل القمي، كالبعير والصّوابة، والجاموس والثعلب والقملة.

وشأن الأَرْضِ أعجب من شأن الببر مع مسالمة الأسد له، ومحاربتة للنمر.

وشأن الكركيَّ أعجبُ من شأن العنْديبِ، فإن الكركيَّ من أعظم الطير، والعنْديبَ أصغر من ابن تَمرة. ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطةِ الرواة فقال: يضربُ ما بين الكركيِّ إلى العنْديبِ، يقول: لا يدع رجلاً ولا صبيّاً إلا عَفَجَه. ويشبه ذلك هجاءُ خلفِ الأحمر أبا عبدة، حيثُ يقول:

ويضربُ الكركيُّ إلى القنبرِ
لا عانساً يبقى ولا مُحْتَلِمِ

والعانس من الرجال مثله من النساء. فلسنا نُنْطَبُ في ذكر العظيم الجثة لعظم جُثته، ولا نرْعَبُ عن ذكر الصّغير الجثة، لصغر جُثته، وإنما نلتمس ما كان أكثرَ أعجوبة، وأبلغ في الحكمة، وأدلّ عند العامة على حكمة الرّبِّ، وعلى إنعام هذا السّيّد. ورُبَّ شيءٍ الأعجوبةُ فيه إنما هي في صورته، وصنّعته، وتركيب أعضائه، وتأليف أجزائه، كالطاووس في تعاريج ريشه، وتهاويل ألوانه، وكالزّرافة في عجيب تركيبها، ومواضع أعضائها، والقولُ فيهما شبيهةُ بالقول في التدرُّج والنّعمة.

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعةِ البدن، ثم لا يُذكرُ بعدَ حُسن

الْخَلْقُ بِخُلُقٍ كَرِيمٍ، وَلَا حِسِّ ثَاقِبٍ، وَلَا مَعْرِفَةِ عَجِيبَةٍ، وَلَا
صِنْعَةِ لَطِيفَةٍ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ كَالْبَيْغَاءِ، وَالنَّخْلَةِ، وَالْحَمَامَةِ،
وَالثَعْلَبِ، وَالذَّرَّةِ، وَلَا تَكُونُ الْأَعْجُوبَةُ فِي تَصْوِيرِهِ، وَتَرْكِيبِ
أَعْضَائِهِ، وَتَنْضِيدِ أَلْوَانِ رِيْشِهِ فِي وَزْنِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
ذَكَرْنَاهَا، أَوْ يَكُونُ الْعَجَبُ فِيمَا أُعْطِيَ فِي حَنْجَرَتِهِ مِنَ الْأَغَانِي
العجيبية، والأصوات الشجيرة المطربة، والمخارج الحسنة مثل
العجب فيما أُعْطِيَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، أَوْ فِي صِنْعَةِ الْكَفِّ
اللطيفة، والهداية الغريبة، أَوْ الْمِرْفَقِ النَّافِعِ، أَوْ الْمَضْرَّةِ الَّتِي
تَدْعُو إِلَى شِدَّةِ الْإِحْتِرَاسِ، وَدِقَّةِ الْإِحْتِيَالِ، فَيَقْدَمُ فِي الذِّكْرِ لِذَلِكَ.
وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنَ الْعَقَقِ وَصِدْقِ حِسِّهِ، وَشِدَّةِ حَذَرِهِ،
وَحُسْنِ مَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ طَائِرٌ أَشَدُّ تَضْيِيعًا لَبِيْضُهُ
وَفِرَاحُهُ مِنْهُ، وَالْحُبَارَى مَعَ أَنَّهَا أَحْمَقُ الطَّيْرِ، تَحْوِطُ بَبَيْضِهَا أَوْ
فِرَاحِهَا أَشَدَّ الْحَيَاطَةِ، وَبِأَعْمَاضِ مَعْرِفَةٍ، حَتَّى قَالَ عَثْمَانُ بْنُ
عَفَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ شَيْءٍ يَحِبُّ وَالِدَهُ حَتَّى الْحُبَارَى،
يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلَ فِي الْمَوْقِ.

العققق ثم العققق مع حدقه بالاستلاب، وبسرعة الخطف، لا
يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَمَ من عقْدِ ثمين خَطِيرِ،
ومن قُرْطِ شريف نفيس، قد اختطف من بين أيدي قوم، فإمَّا
رَمَى بِهِ بَعْدَ تَحَلُّقِهِ فِي الْهَوَاءِ، وَإِمَّا أَحْرَزَهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَبَدًا.

وزعم الأصمعيُّ أنَّ عَقْعَقاً مرَّةً اسْتَلَبَ سِخَاباً كريماً لِقَوْمٍ، فأخَذَ
أهلُ السَّخَابِ أعرابِيَّةً كانت عندهم، فبينما هي تُضْرَبُ، وتُسْحَبُ
وتسبُّ إذ مرَّ العَقْعَقُ والسَّخَابُ في منقاره، فصاحوا به فرمى
به، فقالت الأعرابية وتذكرتِ السلامة بعد أن كانت قد ابتليت
ببليَّةٍ أخرى فقالت:

كما أنه من بِلْدَةٍ
السَّوَاءِ نَجَّانِي

وَيَوْمِ السَّخَابِ مَنْ
تَعَاجِبِ رَبَّنَا

تَعْنِي الَّذِينَ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ.
كَلَامٌ فِي الْإِسْتِطْرَادِ وَلَا بِأَسْ بِذِكْرِ مَا يُعْرَضُ، مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ
الْأَبْوَابِ الطَّوَالِ، الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْمَقَائِيسُ الْمَجْرَدَةُ،
وَالْكَلَامِيَّةُ الْمُحَضَّةُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْفَى سَمَاعَهُ وَلَا تَهَشُّ
النَّفُوسُ لِقِرَائَتِهِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ صَاحِبُ الصَّنَاعَةِ، وَمَلْتَمَسُ
الثَّوَابِ وَالْحَسْبَةِ، إِذَا كَانَ حَلِيفَ فِكْرٍ، أَلَيْفَ عِبْرٍ، فَمَتَى وَجَدْنَا
مِنْ ذَلِكَ بَاباً يَحْتَمِلُ أَنْ يَوْشَحَ بِالْأَشْعَارِ الظَّرِيفَةَ الْبَلِيغَةَ،
وَالْأَخْبَارِ الظَّرِيفَةَ الْعَجِيبَةَ، تَكَلَّفْنَا ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاهُ أَجْمَعَ لِمَا يَنْتَفِعُ
بِهِ الْقَارِئُ.

وَلِذَلِكَ اسْتَجَزْنَا أَنْ نَقُولَ فِي بَابِ النَّارِ مَا قَلْنَا.
وَأَنَا كَاتِبٌ لَكَ بَعْدَ هَذَا؛ إِذْ كُنْتُ قَدْ أَمْلَلْتُكَ بِالتَّطْوِيلِ، وَحَمَلْتُكَ

على أصعب المراكب، وأوعر الطُّرق، إذ قد ذكرنا فيه جملةً
صالحةً من كلام المتكلمين، ولا أرى أن أزيد في سأمتك،
وأحمكَّ استفراغ طاقتك، بأن أبتدئ القول في الإبل، والبقر،
والغنم، والأسد، والذئب، والحمير، والطباء، وأشباه ذلك، مما
أنا كاتبُهُ لك.

ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ومُحَقَّراتها، ومِلاحها،
لئلا تخرج من الباب الأول، إلا وأنت نشيط للباب الثاني، وكذلك
الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك، إن شاء الله.

سرد منهج سائر الكتاب

ونبدأ بذكر ما في العصفور، ثم نأخذ في ذكر ما في الفأر
والعقرب، والذي بينهما من العداوة، مع سائر خصالهما.
ثم القول في العقرب والخنفساء، وفي الصداقة بينهما، مع
سائر خصالهما.

ثم القول في السنَّور، وبعضُ القول في العقرب.
ثم القول في البعوض والبراغيث، ثم القول في القمل
والصنَّبان، ثم القول في الورل والضَّب، ثم القول في اليربوع
والقنفذ، ثم القول في النسور والرَّخم.
ثم القول في العقاب، وفي الأرنب، ثم القول في القردان

والضفادع، ثم القول في الحُبارى وما أشبه ذلك، وإن كنا قد
استعملنا في هذا الكتاب جملاً من أخبار ما سمينا بذلك.
وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة، تصلح
للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه وتُسْتَحَفَّ معه قراءة ما طال
من الكتب الطوال.

ولولا سوء ظني بمن يُظهِر التماس العلم في هذا الزمان،
ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر - لَمَا احتجْتُ في مداراتهم
واستمالتهم، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد
هذا الكتاب - إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا
الاعتذار، حتى كأنَّ الذي أُفيدُه إياهم أستفيدُه منهم، وحتى كأنَّ
رغبتني في صلاحهم، رغبةً من يرغَبُ في دنياهم، ويتضرَّعُ إلى
ما حوته أيديهم.

هذا، ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئاً، ولوا قد صرت إلى
ذكر فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة
والأنبياء، وفرق ما بين الأنثى والذكر، وفرق ما بينهما وبين
ما ليس بأنثى ولا ذكر، حتى يمتدَّ بنا القول في فضيلة الإنسان
على جميع أصناف الحيوان، وفي ذكر الأمم والأعصار، وفي
ذكر القسم والأعمار، وفي ذكر مقادير العقول والعلوم
والصناعات، ثم القول في طباع الإنسان منذ كان نطفة إلى أن

يُفْنِيهِ الْهَرَمَ، وكيف حقيقة ذلك الردّ إلى أرذل العمر، فإن مَلِيتَ
الكتابَ واستنقَلتَ القراءةَ، فأنت حينئذٍ أَعْدَرُ، ولحظ نفسك
أَبْحَسُ، وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لك في أحسن
صورة، وأقلبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من
الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من
الحديث إلا إلى الشّعر الصحيح، ولا تخرج من الشّعر الصحيح
الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع، ولا تخرج من المثل السائر
الواقع إلا إلى القول في طرف الفلسفة، والغرائب التي
صَحَّحَتْهَا التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشَفَ قِنَاعَهَا البُرْهَانُ،
والأعاجيب التي للنفوس بها كَلْفٌ شديدٌ وللعقول الصحيحة
إليها النزاع القوي. ولذلك كتبتُه لك، وسُقِّتُه إليك، واحتسبتُ
الأجرَ فيك.

فانظر فيه نظرَ المنصِفِ من الأكفاء والعلماء، أو نظرَ
المسترشدِ من المتعلمين والأتباع، فإن وجدتَ الكتابَ الذي
كتبته لك يخالف ما وصفتُ فانقِصني من نشاطك له على قدر ما
رَقَّصْتُكَ مما ينشطك لقراءته، وإن أنت وجدتني - إذا صحَّ عقلك
وإنصافك - قد وقَّيتُكَ ما ضمنت لك فوجدتَ نشاطك بعد ذلك
مدخولاً، وحدَّكَ مفلولاً فاعلم أنا لم نُوتَ إلا من فُسولتِكَ، و من
فسادِ طبعك، ومن إيثارك لما هو أضرُّ بك.

مديح النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس

من ذلك ما هو مديحُ رغبة، ومنه ما هو إحماد.
أنشدنا أبو صالح مسعود بن قُند الفزاريّ، في ناسٍ خالطهم من
اليهود:

وجدنا في اليهودِ رجالَ
صدقٍ
على ما كانَ من دينِ
يريبُ

لعمركَ إنني وابنِي
عريضُ
لمثلُ الماءِ خالطُهُ
الحليبُ

خيLAN اكتسبتُهُمات
وإني
لخِلَّةٍ ماجدِ أبدأ
كسوبُ

وقال أبو الطَّمَحانِ الأَسديّ، وكان نديماً لِناسٍ من بني الحَدَّاءِ
وكانوا نَصارى، فأحمدَ نِدَامهم فقال:

وزورةٌ ظلُّ ناعمٌ وصديق

كأ

نُ لم يكنُ قصرِ مقاتلِ

بخرم من البر! وقتين عتيق

ول

م أرد البطاء أمزج ماءها

إذا ما جرى فيه المدام فنيق

مع

ي كل فضاظ لاقميص كأنه

له في العروق الصالحات عروق

ه

و الصلت والحداء كل سَمِيدِعِ

ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

وا

ني وإن كانوا نصارى أحبهم

وقال ابن عبدل، أو غيره، في مجوسيّ ساق عنه صفاقاً فقال:

ش وأنك بحر جواد
خضم

شهدت عليك بطيب
المشا

إذا ما ترديتَ فيمن
ظلم

وأنتَ سيدُ أهلِ
الجحيمِ

وفرعونَ والمكتنَى
بالحكمِ

نظيراً لهامانَ في
قعرها

بِ، فدى للمجوسيّ
خالي وعمِّ

كفاني المجدوسيّ
مَهْرَ الربا

فقال له المجوسيّ: جعلتني في النار؟ أما ترضى أن تكون مع
من سميت؟ قال: بلى، قال: فمن تعني بالحكم؟ قال: أبا جهل
بن هشام.

وأنشدني أبو الرُّدَينِي العُكَلِيّ، لبعض العُكَلِيّين، وكان قينٌ لهم
أحدٌ جلماً له، فقال يمدحه:

يا سودُ يا أكرمَ قينٍ في مضرٍ

لك المساعي كلها والمفتخرُ

على قيون الناس، و الوجهة الأغرّ

كَانَ أَبُوكَ رَجُلًا لَا يُقْتَسِرُ
ثَبْتًا إِذَا مَا هُوَ بِالْكَبِيرِ ازْبَارًا
زَادَكَ نَفْحًا تَلْتِظِي مِنْهُ سَقْرُ
حَتَّى يَطِيرَ حَوْلَهُ مِنْهَا شَرَرُ
قَدْ عَطَفَ الْكَتِيفَ حَتَّى قَدْ مَهَرُ
بِالشَّعْبِ إِنْ شَاءَ وَإِنْ شَاءَ سَمَرُ
مَا زَالَ مُدًّا كَانَ غَلَامًا يَشْتَبِرُ
لَهُ عَلَى الْعَيْرِ إِكَافٌ وَثَعْرُ
وَالْكَلْبَتَانِ وَالْعَلَاءُ وَالْوَتْرُ
فَانظُرْ ثَوَابِي، وَالثَّوَابُ يَنْتَظِرُ
فِي جَلَمِيَّ وَالْأَحَادِيثَ عِبَرُ

من أراد أن يمدح فهجا

قال سعيد بن سَلم: لما قال الأخطلُ بالكوفة: أخطأ الفرزدقُ حين قال:

أبني عُدانة إنني
فوهبتكم لعطيّة بن
حررتكم
جعال

لولا عطيّة لاجتدعتُ
من بين الأم أعين
أنوفكم
وسبال

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم بمثل هذا الهجاء؟ قال:
فانبرى له فتى من بني تميم فقال له: وأنت الذي قلت في سويد
بن منجوف:

وما جدع سوء رقق
السوس جوفه
لما حملته وائل
بمطيق

أردت هجاءه فزعمت أنّ وائلاً تعصبُ به الحاجات، وقدّر
وسويد لا يبلغ ذلك عندهم، فأعطيته الكثيرَ ومنعته القليلَ.
وأردت أن تهجو حاتمَ بن النعمانِ الباهليّ، وأن تصغر شأنه،
وتضع منه، فقلت:

إِذَا مَا أَوْقَدَ النَّيْرَانُ
نَارُ

وَسَوَدَ حَاتِماً أَنْ لَيْسَ
فِيهَا

فَأَعْطَيْتَهُ السُّودَدَ مِنْ قَيْسٍ وَمَنْعْتَهُ مَا لَا يَضُرُّهُ.
وَأَرَدْتُ أَنْ تَمْدَحَ سِمَاكَ بِنَ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ فَهَجَوْتَهُ فَقُلْتُ:

بِالطَّفِّ إِذْ قَتَلْتَ جِيرَانَهَا مُضْرُ

قَد

فَالْيَوْمَ طَيْرَ عَنْ أَثْوَابِهِ الشَّرْرُ
كَنتُ أَحْسِبُهُ قَيْنَاً وَأُنْبُوهُ

وَقُلْتُ فِي زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ:

فَلَا يَبِيْتَنَّ فِيكُمْ آمِنَاً
زُفَرُ

بَنِي أُمَيَّةَ إِنِّي نَاصِحٌ
لَكُمْ

لَوْ قَعَا كَائِنٌ فِيهَا لَكُمْ
جَزْرُ

مُقْتَرِشاً كَافْتِرَاشِ اللَّيْثِ
كُكَلَّةُ

فَأَرَدْتُ أَنْ تُعْرِيَ بِهِ بَنِي أُمَيَّةَ فَوَهَّنتَ أَمْرَهُمْ، وَتَرَكْتَهُمْ ضُعْفَاءَ
مَمْتَهِنِينَ، وَأَعْطَيْتَ زُفَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ.
قَالَ: وَرَجَعَ أَبُو الْعَطَافِ مِنْ عِنْدِ عَمْرِو بْنِ هَدَّابٍ، فِي يَوْمَيْنِ

كانا لعمرو، وأبو العطف يضحك، فسئل عن ذلك فقال: أما أحد
اليومين فإنه جلس للشعراء، فكان أول من أنشده المديح فيه
طريف بن سواده، فما زال يُنشده أرجوزة له طويلة، حتى
انتهى إلى قوله:

وَأَبْرَصُ أَنْدَى بِاللَّهِ
وَأَعْرَفُ

أَبْرَصُ فَيَاضُ الْيَدَيْنِ
أَكْلَفُ

مَجْلُودٌ فِي الرَّحَفَاتِ
مِرْحَفُ

المجلود: السريع.

وكان عمرو أبرص فصاح به ناس: ما لك؟ قطع الله لسانك:
قال عمرو: مه، البرص من مفاخر العرب، أما سمعتم ابن
حبناء يقول:

لَا مِلَّ عَتِيكَ وَلَا أَخْوَالِي
الْعَوْقُ

إِنِّي أَمْرٌ حَنْظَلِي حِينِ
تَنْسُبُنِي

إِنَّ اللَّهَامِيمَ فِي

لَا تَحْسِبَنَّ بِيَاضًا فِيَّ

مَنْقَصَةٌ

أَقْرَابَهَا بَلَقُ

أَوْ مَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْآخِرِ:

يَا كَأْسُ لَا تَسْتَكْرِي
نُحُولِي

وَوَضَحًا أَوْفَى عَلَيَّ
خَصِيلِي

فَإِنَّ نَعْتَ الْفَرَسِ
الرَّجِيلِ

يَكْمُلُ بِالغَرَّةِ
وَالْتَّحْجِيلِ

أَوْ مَا سَمِعْتُمْ بِقَوْلِ أَبِي مَسْهَرٍ:

يَشْتُمْنِي زَيْدٌ بِأَنْ كُنْتُ
أَبْرَصًا

فَكَلُّ كَرِيمٍ لَا أَبَالَكَ
أَبْرَصُ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّاجِزِ فَقَالَ: مَا تَحْفَظُ فِي هَذَا؟ قَالَ: أَحْفَظُ وَاللَّهِ
قَوْلَهُ:

يَا أُخْتِ سَعْدٍ لَا تَعْرِي
بِالرَّوْقِ

لَيْسَ يَضُرُّ الطَّرْفَ
تَوَلِيْعُ الْبَلَقِ

إِذَا جَرَى فِي حَلْبَةِ

الخيَلِ سَبَقُ

ومحمد بنُ سلام يزعمُ أنه لم يرَ سابقاً قطّ أبلقَ ولا بُلُقَاءَ.
وقد سبق للمامون فرسٌ، إمّا أبلقُ وإمّا بُلُقَاءَ.
وأُنشدني أبو نواسٍ لبعضِ بني نهشل:

صَلَعَ الرَّأْسَ وَفِي الْجَدِ
وَصَحَّ

نَفَرْتُ سَوْدَةَ عَنِّي
أَنْ رَأْتُ

يَفْرِجُ الْكُرْبَةَ مِنَّا
وَالكَلْحُ

قَلْتُ يَا سَوْدَةَ هَذَا
وَالذِي

زَيْنَ الطَّرْفِ تَحَاسِينُ
الْقَرَحِ

هُوَ زَيْنٌ لِي فِي
الْوَجْهِ كَمَا

وزعم أبو نواس أنهم كانوا يتبركون به، وأن جديمة الوضاح
كان يفخرُ بذلك.

وزعم أصحابنا أن بلعاء بن قيس، لما شاع في جلدِه البرص
قال له قائل: ما هذا يا بلعاء؟ فقال: هذا سيف الله جلّاه، وكنانة
تقول: سيف الله حلّاه.

ثم رجع الحديثُ إلى أبي العَطّاف وضحكّه، قال: وأما اليوم

الآخِرِ فَإِنَّ عَمْرًا لَمَّا ذَهَبَ بَصْرَهُ، ودخلَ عليه الناسُ يُعزُّونَهُ،
دخلَ عليه إبراهيمُ بنُ جامع، وهو أبو عتَّابٍ من آلِ أبي مَصاد،
وكان كالجملِ المحجوم، فقام بين يديَّ عمرو فقال: يا أبا أُسَيْدٍ
لا تجزَعَنَّ مِنْ ذهابِ عَيْنَيْكَ وإنِ كانتا كَرِيمَتَيْكَ؛ فَإِنَّكَ لو رأيتَ
ثوابهما في ميزانِكَ تمنيتَ أن يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد قطعَ يَدَيْكَ
ورِجْلَيْكَ، ودَقَّ ظَهْرَكَ، وأدَمَى ضِلَعَكَ.

قال: فصاحَ به القومُ وضحك بعضهم، فقال عمرو: معناه
صحيحٌ، ونيته حسنة، وإن كان قد أخطأ في اللفظ.
وقلتُ لأبي عتَّابٍ: بلغني أن عبدَ العزيزِ الغزالي قال: ليتَ أن اللهُ
لم يكن خَلَقني، وأنى الساعةَ أُعور، قال أبو عتَّابٍ: بئسَ ما
قال؛ وددتُ والله أن اللهُ لم يكن خَلَقني وأنى الساعةَ أعمى
مقطوعُ اليدينِ والرجلين.

وأتى بعضُ الشعراءِ أبا الواسعِ وبنوهُ حَوْلَهُ، فاستعفاه أبو
الواسعِ من إنشادِ مديحه، فلم يزلْ به حتى أذِنَ له، فلما انتهى
إلى قوله:

فكيف تُنْفَى وَأَنْتَ الْيَوْمَ رَأْسُهُمْ حَوْلَكَ الْغُرُّ مِنْ أَبْنَائِكَ الصِّيدِ

قال أبو الواسع: لَيْتَكَ تَرَكْتَهُمْ رَأْساً بِرَأْسٍ.
ومدح الممزق أبو عباد بن الممزق، بِشْرَ بْنَ أَبِي عَمْرٍو وَوَلَيْسَ
هُوَ بِشْرَ بْنَ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ فَقَالَ:

فَاللَّهِ يَجْزِيهِ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ

وَتَشَادِقُ فِيهِ وَلَوْ أَنَّ أَسْحَمَ

تنب

يَكْ قَامَتَهُ وَقَلَّةُ لَحْمِهِ

وَالعَرَقُ مُنْكَشَفٌ لِمَنْ يَتَوَسَّمُ

أَنَّ

الصَّرِيحَ الْمُحَضَّ فِيهِ دَلَالَةٌ

فَزُرَّارَةُ العُدْسِيِّ عِنْدَكَ أَعْجَمُ

أَمَا

لِسَانَكَ وَاحْتِبَاؤُكَ فِي المَلَأِ

زُوراً، وَشَانِنُكَ الحَسُودُ المَرَعْمُ

إِنِّي

لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَقَالَهُمْ

خطأ الكميت في المديح

ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه، قول الكميت بن زيد وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعييبهم بذلك بعض بني هاشم، أو لو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن يعترض عليه بعض بني أمية، أو لو مدح أبا بلال الخارجي لجاز أن تعييبه العامة، أو لو مدح عمرو بن عبدي لجاز أن يعييبه المخالف، أو لو مدح المهلب لجاز أن يعييبه أصحاب الأحنف.

فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم، فمن هذا الذي يسوءه ذلك حيث قال:

رُ إلى من إليه معتتب

فاعت

تب الشوق من فوادي ولاشع

إلى

يعدلني رغبة ولا رهب

السراج المنير أحمد لا

عنه

س إلى العيون توارتقبوا

إلى تغيره، ولو رفع النا

عَنفَنِي الْقَائِلُونَ أَوْ تَلْبُؤَا

وقيل

:أَفَرَطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ

إِلَيْكَ

ضُ وَلَوْ عَابَ قَوْلِي الْعُيْبُ
يَا خَيْرٍ مِنْ تَضَمَّنْتَ الْأَرْ

لَج

أَكْثَرَ فَيْكَ الضَّجَاجِ وَاللُّجْبُ
بِتَفْضِيلِكَ اللِّسَانِ وَلَوْ

أَنْتَ

نَسَبَةٍ إِنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسَبُ
الْمَصْفَى الْمُحَضُّ الْمَهْدَبُ فِي الْ

وَلَوْ كَانَ لَمْ يَقُلْ فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا مِثْلَ قَوْلِهِ:

بِهِ وَلَهُ أَهْلٌ بِذَلِكَ
يَشْرَبُ

وَبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ
وَبُورِكَتُ

عَشِيَّةً وَارَاكَ الصَّفِيحُ
الْمَنْصَبُ

لَقَدْ عَيَّبُوا بَرًّا وَحَزْمًا
وَنَائِلًا

فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح
في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود، فكيف مع الذي حكينا
قبل هذا؟.

غلط بعض الشعراء في المديح والفخر

ومن الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر - وهي الأشعار التي لو
ظننت الشعراء أن مَصْرَّتْهَا تَعُودُ بِعُشْرٍ ما عادتْ به، وكان
الخرسُ أَهْوَنَ عَلَيْهَا من ذلك القول - فمن ذلك قولُ لبيدِ بنِ
ربيعةَ:

وبنو ضَبْنِيَّةَ حَاضِرُ
والأجبابِ

أبني كلابٍ كَيْفَ تُنْفِي
جَعْفَرُ

حتى تحاكمتم إلى
جوابِ

قتلوا ابنَ عروَةَ ثمَّ
لَطُوا دُونَهُ

في العزِّ أَسْرَةَ حَاجِبِ
وشهابِ

يرعونَ منخَرِقَ القَديدِ
كأنهم

كبني زرارة أو بني

متاظهرٌ حلقُ الحديدِ

عليهم

عتاب

قومٌ لهم عَرَفَتْ مقعدٌ
فضلها

والحقَّ يعرفهُ ذوو
الألبابِ

ومن هذا الباب قولُ منظور بن زبَّان بن سيَّار بن عمرو بن
جابر الفرَّازي، وهو أحدُ سادةِ عَطْفان:

فجاؤوا بجمع
مُخزِلٍ كأنهم

بنو دارم إذا كان في
الناسِ دارمٌ

وذلك أن تميمًا لما طال افتخارُ قيس عليها بأن شعراء تميم
كانت تضربُ المثلَ بقبائل قيس ورجالها، فَعَبَرَتْ تميمٌ زماناً لا
ترفعُ رؤوسها حتى أصابتْ هذين الشعريين من هذين الشَّاعرينِ
العظيمي القدر، فزال عنها الدُّلُّ وانتصفت، فلو علم هذان
الشاعران الكريمان ماذا يصنعان بعشائرهما لكانَ الحَرسُ أحبَّ
إليهما.

قال أبو عبيدة: ومن ذلك قولُ الحارث بن حِزَّة، وأنشدَها الملكُ
وكان به وضخٌ وأنشدَه من وراء سِترٍ فبلغ من استحسانه
القصيدة إلى أن أمرَ برفعِ السِّتر.

ولكراهتم لدُنُو الأبرص منهم قال لبيدُ بن ربيعة، للنُّعمان بن المنذر، في الربيع بن زياد:

إِنَّ اسْتَه مِنْ بَرَصٍ
مُلْمَعَهُ

مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا
تَأْكُلُ مَعَهُ

يُدْخِلُهَا حَتَّى يُوَارِي
أَشْجَعَهُ

وَإِنَّهُ يُدْخِلُ فِيهَا
إِصْبَعَهُ

كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئًا
ضَيَّعَهُ

قال ابن الأعرابي: فلما أنشدَ الملكَ لبيدُ في الربيع بن زيادٍ ما أنشدَ قال الربيعُ: أبَيْتَ اللَّعْنَ، وَاللَّهِ لَقَدْ نَكْتُ أُمَّه، قَالَ: فَقَالَ لبيدُ: قَد كَانَتْ لَعْمَرِي يَتِيمَةً فِي حَجْرِكَ، وَأَنْتَ رَبِيتَهَا، فَهَذَا بِذَلِكَ، وَإِلَّا تَكُنْ فَعَلْتِ مَا قُلْتِ فَمَا أَوْلَاكَ بِالْكَذْبِ وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْفَاعِلَةُ فَإِنَّهَا مِنْ نِسْوَةٍ لَذَلِكَ فُئِلَ، يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ نِسَاءَ عَبَسَ فَوَاجِرُ، لِأَنَّ أُمَّه كَانَتْ عَبْسِيَّةً.

والعربيُّ يعافُ الشيءَ ويهجو به غيره، فَإِنْ ابْتَلَى بِذَلِكَ فَخَرَّ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْخَرُ بِهِ لِنَفْسِهِ مِنْ جِهَةٍ مَا هَجَا بِهِ صَاحِبَهُ، فَافْهَمْ هَذِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَغْلُطُونَ عَلَى الْعَرَبِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ قَد

يَمْدَحُونَ الشَّيْءَ الَّذِي قَدْ يَهْجُونَ بِهِ، وَهَذَا بَاطِلٌ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ وَطَرَفَانِ وَطَرِيقَانِ، فَإِذَا مَدَحُوا ذَكَرُوا أَحْسَنَ الْوَجْهَيْنِ، وَإِذَا ذَمُّوا ذَكَرُوا أَقْبَحَ الْوَجْهَيْنِ. وَالْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ فَخَرَ بِبِكْرِ بْنِ وَائِلٍ عَلَى تَغْلِبٍ، ثُمَّ عَاتَبَهُمْ عِتَابًا دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَنْتَصِفُونَ مِنْهُمْ، فَقَالَ:

وَأَتَانَا عَنِ الْأَرَاقِمِ
أَنْبَاءً وَخَطْبٌ نَعْنَى بِهِ
وَنِسَاءً

يَخْلُطُونَ الْبَرِيءَ مِنَّا
بِذِي الذَّنِّ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ
الْخَلَاءُ

زَعَمُوا أَنْ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ
رَمَآلِ لَنَا وَأَنَا
الْعِي

إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ
يَغْلُو
نَ عَلَيْنَا فِي قَوْلِهِمْ
إِحْفَاءً

ثُمَّ قَالَ:

تَتَعَاشَوْا فَفِي

وَأَتْرَكُوا الطَّيْحَ

والتعاشي وإما

واذكروا حلفَ ذي
المجازِ وما ق

حذرَ الجورِ والتعدي
وهل ين

واعلموا أننا وإياكم
في

أم علينا جنأ كندة
أن يغ

أم علينا جراً حنيفة
أم ما

أم علينا جراً قضاة
أم لي

ليس منا المضربون،

التعاشي الداءُ

دَمَ فيه، العهدُ
والكفلاءُ

قَضُ ما في المهارقِ
الأهواءُ

ما اشترطنا يومَ
اختلفنا سواءُ

نَمَ غازيهمُ ومنا
الجزاءُ

جمعتُ من محاربِ
غبراءُ

س علينا فيما جنوا
أنداءُ

س، ولا جنْدل، ولا

ولا قي

الحداءُ

أم جنايا بني عتيق.
فمن يغ

در فإنا من غدرهم
برأء

عنتاً باطلاً شذوخاً
كمتاع

تر عن حجرة
لأربيض الظباءُ

ومن المديح الذي يقُبَح، قولُ أبي الحلال في مرثيةِ يزيدَ بن
مُعاويةَ، حيث يقول:

يا أيُّها الميتُ
بحُورينا

إنَّك خيرُ الناسِ
أجمعينا

وقال الآخر:

مدحتُ خير العالمين
عَنْقَشَا

يشبُّ زهراءَ تقود
الأعمشا

وقال الآخر:

إنَّ الذي أمسى يُسمَى

اسماً نبيهاً لم يكن

كُورَا

تَنْبِيزَا

لَمَا ابْتَدَرْنَا الْقَصَبَ

وَجَدْتَنِي ذَا وَثْبَةٍ

الْمَرْكُورَا

أُبُورَا

ودخل بعضُ أَعْيَانِ شعراءِ البَصْرِيِّينَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِ
الْوَجُوهِ يُقَالُ فِي نَسَبِهِ، فَقَالَ: إِنِّي مَدَحْتُكَ بِشَعْرٍ لَمْ تُمْدَحْ قَطُّ
بِشَعْرٍ هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُ، قَالَ: مَا أَحْوَجَنِي إِلَى الْمَنْفَعَةِ، وَلَا سِيَّمَا
كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ يَخْلُدُ عَلَى الْأَيَّامِ، فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ فَقَالَ:

سَأَلْتُ عَنْ أَصْلِكَ فِيمَا

أَبْنَاءَ تِسْعِينَ وَقَدْ

مَضَى

نَيَّفُوا

فَكُلُّهُمْ يَخْبِرُنِي أَنَّهُ

مُهَذَّبٌ جَوْهَرُهُ

يُعْرَفُ

فَقَالَ لَهُ: قُمْ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ فَلَعَنَكَ اللَّهُ وَلَعَنَ مَنْ سَأَلْتَ
وَلَعَنَ مِنْ أَجَابِكَ.

فِي السُّخْفِ وَالْبَاطِلِ

وسنذكر لك باباً من السُّخْف، وما نتسَخَّفُ به لك، إذ كان الحق
يَثْقُلُ ولا يَخْفُ إلا ببعضِ الباطل.
أَنشدنا أبو نُؤاسٍ في التديك:

إِنْ تَبَخَّلِي بِالرَّكَبِ
المحلوق
فإنَّ عندي رَاحتي
ورِيقِي

وهذا الشعرُ مما يقالُ إنَّ أبا نُؤاسٍ ولَدَهُ.
ومما يُظنُّ أَنه ولَدَهُ قولُه:

لم أرَ كالتَّيْلَةِ في
التوفيقِ
حِراً على قارِعَةِ
الطريقِ

كَأَنَّ فِيهِ لَهَبَ الحريقِ

وَأَنشدني ابنُ الخارِكي لبعضِ الأعرَبِ في التديك:

لا بارِكَ الإله في
الأحراجِ
فإنَّ فيها عَدَمَ
المُلاحِ

لا خَيْرَ في السفاحِ
إلا مُناجاةَ بطونِ

واللِّقَاحِ

الرَّاحِ

وَأُنشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبَّادٍ:

تَسْأَلُنِي مَا عِنْدِي

فَاتْنِي يَا بِنْتَ آلِ

وَعِنْدِي

مَرْزُودِ

رَاحِلَتِي رِجَالِي اسْرَاتِي

يَدِي

وَأُنشِدُنِي بَعْضَ أَصْحَابِنَا لِبَعْضِ الْمَدَنِيِّينَ:

أَصْفِي هَوَى النَّفْسِ

حَلِيلَةَ لَا تَسْؤُمُنِي

غَيْرَ مُتَّيِّبِ

نَفَقَهُ

تَكُونُ عَوْنِي عَلَى

كَسْبِ إِذَا مَا أَخْفَقْتُ

الزَّمَانِ لِيْلَ

مُرْتَفَقَهُ

وَشِعْرٌ فِي ذَلِكَ سَمَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

إِذَا نَزَلَتْ بَوَادٍ لَا

فَاجِدُ عُمَيْرَةَ لَا عَارٌ وَلَا

أَنْيَسَ بِهِ

حَرْجٌ

وَأَنشَدْنَا أَبُو خَالِدِ النَّمِيرِيُّ:

لَكِنَّ جِلْدَتَهَا تُرْبِي
عَلَى السَّفَنِ

لَوْ أَنَّهَا رَخِصَةٌ قَضَيْتُ
مِنْ وَطْرِي

وَمَا أَلَاقِي مِنَ الْإِمْلَاقِ
وَالْحَزَنِ

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ نَعْظًا قَدْ
بُلِّيتُ بِهِ

وَقَالَ الذُّكْوَانِيُّ يَرُدُّ عَلَى الْأَوَّلِ قَوْلَهُ:

وَالعَجْزُ مُطْرَحٌ
وَالفُحْشُ مَسْبُوبٌ

جِلْدِي عُمَيْرَةٌ فِيهِ
الْعَارُ وَالْحُوبُ

بِأَرْخِصِ السَّوْمِ
خَدَلَاتٌ مَنَاجِبُ

وَبِالْعِرَاقِ نِسَاءً كَالْمَهَا
قُطِفَتْ

كَالْعَاجِ صَفْرَاهَا
الْأَكْنَانُ وَالطَّيْبُ

وَمَا عُمَيْرَةٌ مِنْ ثَدْيَاءٍ
حَالِيَةٍ

قَالَ: مَثَلُ هَذَا الشَّعْرِ كَمَثَلِ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ: أَبُوكَ ذَاكَ الَّذِي مَاتَ
جُوعًا؟ قَالَ: فَوَجَدَ شَيْئًا فَلَمْ يَأْكُلْهُ؟ وَقَالَ الْحَرَامِيُّ:

عِيَالٌ عَالَةٌ وَكِسَادٌ سُوقٍ

وَأَيْرٌ لَا يِنَامُ وَلَا يُنِيمُ

مما قالوا في السرّ

قال ابن ميادة:

أُتْظَهَرُ مَا فِي الصَّدْرِ أَمْ
أَنْتَ كَاتِمَةٌ

وَكِتْمَانُهُ دَاءٌ لِمَنْ هُوَ
كَاتِمُهُ

وَإِضْمَارُهُ فِي الصَّدْرِ
دَاءٌ وَعِلَّةٌ

وَإِظْهَارُهُ شَنْعٌ لِمَنْ
هُوَ عَالِمُهُ

وتقول العرب: من ارتاد لسرّه موضعاً فقد أشاعه.
وأرى الأول قد أُذِنَ في واحدٍ وهو قوله:

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ
أَمْرِي

وَسِرُّ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ
الْخَفِيِّ

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثل الأول:

فَلَا تُفَشِّ سِرُّكَ إِلَّا
إِلَيْكَ

فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

ل لا يتركون أديماً
صحيحاً

فإني رأيتُ غواة
الرجا

وقال مسكينٌ الذَّارِمِيّ:

فذاك وداعيه وذاك وداعها

إ

ذا ما خليلي خاني وائتمنته

مطلقةً لا يُستطاع رجاعها

رَدَدْتُ عَلَيْهِ وَدَّهْ وَتَرَكْتُهَا

أَعِيشُ بِأَخْلَاقِ قَلِيلِ خِدَاعِهَا

وَإِنِّي أَمْرُؤٌ مَنِي الْحِيَاءُ الَّذِي تَرَى

عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَيْرِ أَنِّي جِمَاعِهَا

أ

وَإِخِي رِجَالاً لَسْتُ أُطَلِّعُ بَعْضَهُمْ

إلى صخرة أعياء الرجال انصداؤها

ي

ظُلُونٌ شَتَّى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ

وقال أبو محجن الثَّقَفِيُّ:

وَأَكْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبَةً
الْعُنُقِ

وقد أجود وما مالي
بذي فنع

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَ
الْخِيَارَ فِي يَدِهِ.

وقال بعضُ الحكماء: لَا تُطْلَعُ وَاحِدًا مِنْ سِرِّكَ، إِلَّا بِقَدْرِ مَا لَا
تَجِدُ فِيهِ بَدَأً مِنْ مَعَاوِنَتِكَ، وَقَالَ آخَرُ: إِنَّ سِرَّكَ مِنْ دَمِكَ، فَانظُرْ
أَيْنَ تُرِيقُهُ.
وقال الشاعر:

مَنِ الضُّلُوعُ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَبِيرِ

وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى نَسِيَانٍ مَا اشْتَمَلْتُ

إذ كنت من نشرها يوماً على حَظِرِ

لكنت أولَ من ينسى سرائره

وقال الآخر:

فقد استودعت بالسرِّ
دَمَكُ

فإذا استودعت سِرّاً
أَحَداً

وقال قيس بن الخطيم:

كَتُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ
أَمِينُ

وإن ضيَّعَ الإخوانُ سِرّاً
فإنني

مَكَانٌ بِسَوْدَاءِ الْفَوَادِ
مَكِينُ

يكونُ له عندي إذا ما
انْتُمِنْتُهُ

وقيل لمزبّد: يا مُزبّد، ما هذا الذي تحت حُضنك؟ فقال: يا
أحمق، فلمْ خبأته؟ وقال أبو الشَّيْص:

صَلُودٍ كَمَا عَايَنْتَ مِنْ سَائِرِ الصَّخْرِ

يَرَى ضَيْعَةَ الْأَسْرَارِ هَتْرًا مِنَ الْهَتْرِ

وَيَبْلَىٰ وَمَا يَبْلَىٰ نَثَاهُ عَلَى الدَّهْرِ

يموتُ وما ماتَ

وقال سُحَيْمُ الفُقَعَسِيُّ، في نشر ما يُودَعُ من السَّرِّ:

وَلَا أَكْتَمُ الْأَسْرَارَ لَكِنُّ
أُذِيعُهَا
وَلَا أَدْعُ الْأَسْرَارَ تَغْلِي
عَلَى قَلْبِي

وإن قَلِيلَ العَقْلِ من
بَاتَ لَيْلَهُ
تَقَلَّبَهُ الْأَسْرَارُ جَنْباً إِلَى
جَنْبِ

وقال الفَرَّار السُّلَمِيُّ - وهذا الشعر في طريقِ شعرِ سُحَيْمٍ، وإن
لم يكن في معنى السَّرِّ - وهو قوله:

وَكَتَيْبَةٌ لِبَسْتِهَا
بَكْتَيْبَةٌ
حَتَّى إِذَا التَّبَسَّتْ
نَفَضْتُ بِهَايَدِي

وَتَرَكْتَهُمْ تَقْصُ الرِّمَاحُ
ظُهُورَهُمْ
مِن بَيْنِ مَنْجَدِلٍ وَآخِرِ
مَسْنَدِ

مَا كَانَ يَنْفَعُنِي مَقَالُ
نَسَائِهِمْ
وَقَتَلْتُ دُونَ رِجَالِهِمْ:
لَا تَبْعَدِ

تخاذل أسلم بن زرعة وقيل لأسلم بن زرعة إنك إن انهزمت
من أصحاب مرداس بن أدية غضب عليك الأمير عبيد الله بن
زياد قال: يغضب علي وأنا حي؛ أحب إلي من أن يرضى عني
وأنا ميت.

قال: وولي دستبى فخرج إليها في أصحابه، فلما شارفها
عرضت له الخوارج، وكان أكثر منهم عدداً وعدة، فقال: والله
لأصافنهم، ولأعبين أصحابين فلعلهم إذا رأوا كثرتهم انصرفوا،
ولا أزال بذلك قوياً في عملي هذا، فلما رأت الخوارج كثرة
القوم نزلوا عن خيولهم فعزقوها وقطعوا أجفان سيوفهم،
ونبذوا كل دقيق كان معهم، وصبوا أسقيتهم، فلما رأى ذلك
رأى الموت الأحمر.

فأقبل عليهم فقال: عرقتم دوابكم وقطعتم أجفان سيوفكم،
ونبذتم دقيقكم؟ خار الله لنا ولكم ثم ضرب وجوه أصحابه
وانصرف عنهم.

ضيق النظم بحمل السر وكان أبو إسحاق إبراهيم بن سيار
النظم، أضيق الناس صدرًا بحمل سر وكان شرًا ما يكون إذا
يؤكد عليه صاحب السر وكان إذا لم يؤكد عليه ربما نسي
القصة، فيسلم صاحب السر.

وقال له مرة قاسم التمار: سبحان الله ما في الأرض أعجب

منك، أودعتك سراً فلم تصبر عن نشره يوماً واحداً، والله
لأشكوئك للناس.

فقال: يا هؤلاء، سلوه نَمَمْتُ عليه مرةً واحدةً، أو مرتين، أو
ثلاثاً، أو أربعاً، فلِمَن الذنبُ الآن؟ لم يرضَ بأن يشاركه في
الذنب، حتى صَيَّرَ الذنبَ كله لصاحب السرِّ.

شعر في حفظ السرِّ

وقال بعضُ الشعراء:

كَذَاكَ الصَّحِيفَةُ
بِالْخَاتِمِ

هُوِيَ الْفَرَاشَةَ
لِلْجَاحِمِ

حَتَمْتُ الْفَوَادَ عَلَى
سِرِّهَا

هُوِيَ بِي إِلَى حُبِّهَا
نَظْرَةً

وقال البعيث:

فلا وأبي ليلى إذا لا
أخونها

ولا يحفظ الأسرار إلا

فإن تك ليلى حمَلتني
لُبانةً

حَفِظْتُ لَهَا السِّرَّ الَّذِي

كان بيننا

وقال رجلٌ من بني سعد:

إذا ما ضاق صدرك

عن حديثٍ

إذا عاتبْتُ من أفضى

حديثي

وإني حين أسأَمَ حملَ

سرى

ولستُ محدثاً سرى

خليلاً

وأطوي السر دونَ

الناس، إني

اعتذار شيخ

أميئها

فأفشتهُ الرجالُ فمنْ

تلومُ

وسري عنده فأنا

الظلومُ

وقد ضمنتُهُ صدري

سؤومُ

ولا عرسي، إذا

خطرُ همومُ

لمكا استودعتُ من

سرٍ كتومُ

قال: وقيل لشيخ: ويحك هاهنا ناسٌ يسرق أحدهم خمسين سنة، ويُرني خمسين سنةً، ويصنع العظام خمسين سنة، وهو في ذلك كله مستور جميل الأمر، وأنت إنما لُطت منذ خمسة أشهر، وقد شُهرتَ به في الآفاق قال: بأبي أنت، ومن يكون سرُّه عند الصَّبيان أيُّ شيء تكون حاله.

وصية العباس لابنه أبو الحسن، عن محمد بن القاسم الهاشمي قال: قال العباسُ بن عبد المطلب لعبد الله ابنه: يا بُنيَّ أنتَ أعلمُ مِنِّي، وأنا أفقهُ منك إن هذا الرجلُ يُدنيك - يعني عُمر بن الخطاب - فاحفظ عني ثلاثاً: لا تُفش له سرّاً، ولا تَغتابَنَّ عنده أحداً، ولا يَطلِعَنَّ منك على كِذبة.

الكتاب الرابع عشر

في ذكر المني

أمانيّ بعض الخوارج

خبر وشعر في نهري دجلة والفرات

القول في العصافير

دعوى الإحاطة بالعلم

القول في: "عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

أجناس الطير التي تألفُ دورَ الناس

ضروب الطير

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

الأجناس الفاضلة من الحيوان

حب العصافير فراخها

1892

شدة وطء العصفور

سفاد العصفور

تيس بني حَمَّان

القول في الجناح واليد والرجل

نفع العصافير وضررها

عمر العصفور

بعض خصال العصفور

صياح العصافير ونحوها

أحلام العصافير

قولهم صريم سحر

العصفور والضب

عصافير النعمان

عصفور القواس

شعر في العصفور

مثل الشيخ والعصفور

العصافير الهبيرة

شعر في نطق العصفور

صيد العصافير

في العقارب والفأر والسنانير والجرذان

قتال الجرذان

قتال العقارب والجرذان

تدبير في الجرذ

فأرة سيل العرم

حديث ثمامة عن الفأر

لعب السنور بالفأر

أكل الجرذان واليرابيع والضباب والضفادع

مثل وشعر في الجرذ

طلب كثرة الجرذان

علة نتن الحيات

رجز في الفأر

التشبيه بالجرذان

أنواع الفأر

شعر وخبر في الفأر

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

أحاديث في الفأرة والهرة

وصف السنور بصفة الأسد

السنور في الهجاء

الرجم بالسنانير

احتيال اليربوع

للسنور فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان

نفع الفأر

استطراد لغوي

ميسم الشعراء

استطراد لغوي

شعر ابن عبدل في الفأرة والسنور

ضروب الفأر

باب آخر يدعونه للفأر

فأرة المسك

بيت الفأر

فأرة البيش والسمندل

مساوي السنائير

مقارنة بين السنور والكلب

اختلاف أثمان السنور

أكل الهرة أولادها

أحوال إناث السنائير وذكورها

دفاع صاحب السنور

معارف في السنور

مقارنة بين السنور والكلب

التجارة في السنائير

أكل السنائير

زعم بعض المفسرين في السنابير والخنابير

في العقرب

نفع العقرب

بعض أعاجيب العقرب

رؤية الخرق الذي في إبرة العقرب

موت العقرب بعد الولادة

العقارب القاتلة

لغز في العقرب

استخراج العقارب بالجراد والكرّاث

أعاجيب لسع العقرب

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

قستان في من لسعته العقرب

في القمّل والصُّوَاب

أثر لون الشعر في لون القملة

تولد القمل

خروج القمل من جسم الإنسان

قمل الحيوان

شعر في هجو القملين

أحاديث وأخبار في القمل

معارف وخبر في القمل

في ذكر المُنَى

قال: سئل ابن أبي بكرة: أيُّ شيء أدوم إمتاعاً؟ قال: المُنَى.

قال: وقال يزيد بن معاوية على منبره: ثلاثٌ يُخلَقَنَّ العقلُ،

وفيه دليل على الضعف: سرعة الجواب، وطول التمني
والاستغراق في الضحك.
وقال عباية الجعفي: ما سرني بنصيبي من المنى حمر النعم.
وقال الأصمعي: قال ابن أبي الزناد: المنى والحلم أخوان.
وقال معمر بن عباد: الأمانى للنفس، مثل الثرّهات للسان.
وقال الشاعر:

وجلُّ هذي المنى في
الصدور وسواس

الله أصدق
والآمال كاذبة

وقال الآخر:

إن المنى روس أموال
المفالس

إذا تمنيت مالا بت
مغتباً

إذا تذكرت ما في
داخل الكيس

لولا المنى مت من هم
ومن حزن

وقال بعض الأعراب:

والأفقد عشنا به

منى إن تكن حقائق

أَحْسَنَ الْمُنَى

زَمَنًا رَعْدًا

أَمَانِيٍّ مِنْ سَلْمَى

سَقْتَنِي بِهَا سَلْمَى

حَسَانٌ كَأَمَّا

عَلَى ظَمًا بَرْدًا

وقال بشار:

كَرَرْنَا أَحَادِيثَ الزَّمَانِ

فَلَذَّةَ لَنَا مَحْمُودَهَا

الَّذِي مَضَى

وَذَمِيمَهَا

وَرَوَى الْأَصْمَعِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: الْإِحْتِلَامُ أَطِيبُ مِنَ الْغَشْيَانِ.

وَتَمَنِّيكَ لَشَيْءٍ أَوْفَرُ حِظًّا فِي اللَّذَّةِ مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَيْهِ.

قَالَ: كَأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ إِذَا مَلَكَ وَجَبَتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْمَلِكِ حَقُوقٌ، وَخَافَ الزُّوَالَ وَاحْتِجَاجَ إِلَى الْحِفْظِ.

وَقَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ: مَا عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَظُمَتْ مَوْوَنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ.

قَالَ: وَقِيلَ لِمَزِيدٍ: أَيْسَرُكَ أَنْ عِنْدَكَ قَنِينَةٌ شَرَّابٍ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أُمَّ، مِنْ يَسْرُهُ دُخُولُ النَّارِ بِالْمَجَازِ؟.

قَالَ: وَقَدَّمُوا إِلَى أَبِي الْحَارِثِ جُمَيْرِ جَامٍ خَبِيصٍ وَقَالُوا لَهُ: أَهَذَا

أَطِيبُ أَمْ الْفَالْوُدُجُ؟ قَالَ: لَا أَقْضِي عَلَى غَائِبٍ.
قَالَ: وَقَالَ مَدِينِيٌّ لِرَجُلٍ: أَيَسْرُكُ أَنْ هَذِهِ الدَّارُ لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ،
قَالَ: وَلَيْسَ إِلَّا نَعَمْ فَقَطُّ؟ قَالَ: فَمَا أَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ: نَعَمْ،
وَأَحْمَ سَنَةَ قَالَ: نَعَمْ، وَأَنَا أُعَوِّرُ.
قَالَ: وَقِيلَ لِمَزِيدٍ: أَيَسْرُكُ أَنْ هَذِهِ الْجُبَّةُ لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأُضْرَبُ
عَشْرِينَ سَوْطًا، قَالَ: وَلَمْ تَقُولْ هَذَا؟ قَالَ: لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ
إِلَّا بِشَيْءٍ.

قَالَ: وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ: مَنْ تَمَنَّى طَوْلَ الْعَمْرِ
فَلْيُؤَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ.
يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ مَوْتِ أَخٍ، أَوْ عَمٍّ، أَوْ ابْنِ عَمٍّ، أَوْ صَدِيقٍ،
أَوْ حَمِيمٍ وَقَالَ الْمَجْنُونُ:

بِذِي سَلَمٍ لَا جَادَكَنَّ
رَبِيعُ

أَيَا حَرَجَاتِ الْحَيِّ حَيْثُ
تَحْمَلُوا

بَلِينِ بَلَى لَمْ تَبْلِهَنَّ
رَبِوعُ

وَخِيَمَاتِكِ اللَّاتِي بِمَنْعَرَجِ
اللَّوَى

نَهَيْتَكَ عَنْ هَذَا

فَقَدْتِكَ مِنْ قَلْبِ شِعَاعٍ،

قطالما

وانت جميع

فقربت لي غير القريب،
وأشرفت

مناك ثنايا ما لهن
طلوع

أمانى بعض الخوارج

قال: وقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: لولا أربع خصال ما أعطيت عربياً طاعة: أو ماتت أم عمرو - يعني أمه - ولو نسبت، ولو قرأت القرآن، ولو لم يكن رأسي صغيراً.
قال: وقدم عبد الملك، وكان يحب الشعر فبعثت إلى الرواة، فما أتت علي سنة حتى رويت الشاهد والمثل، وفضولاً بعد ذلك، وقدم مصعب وكان يحب النسب، فدعوت النسابين فتعلمته في سنة، ثم قدم الحجاج، وكان يذني على القرآن، فحفظته في سنة.

قال: وقال يزيد بن المهلب: لا أخرج حتى أحج، وأحفظ القرآن، وتموت أمي، فخرج قبل ذلك كله.
وقال عبيد الله بن يحيى: كان من أصحابنا بمرؤ جماعة، فجلسنا ذات يوم نتمنى، فتمنيت أن أصير إلى العراق من أيامي

سالماً، وأن أقدّم فأتزوّج سَمَاع، ألي كَسُكِر.
قال: فقدمتُ سالماً، وتزوجتُ سَمَاع، ووليتُ كَسُكِر.

خبر وشعر في نهري دجلة والفرات

قال: ووقف هشامُ بنُ عبد الملك على الفرات، ومعه عبدُ
الرحمن بنُ رستم، فقال هشام: ما في الأرض نهرٌ خيرٌ من
الفرات فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نهرٌ شرٌّ من الفرات،
أولُه للمُشركين، وآخرُه للمنافقين.
وقال أبو الحسن: الفرات ودجلة رائدان لأهل العراق لا يكذبان.
قال الأصمعي وأبو الحسن: فهما الرائدان، وهما الرافدان.
وقال الفرزدق:

كريم لسرت بالوالي
الحريص

فزارياً أحد يد
القَميص

ليأمنه على وركي
قلوص

أمير المؤمنين وأنت
عَفٌّ

بعثت إلى العراق
ورافديه

ولم يك قبلها راعي
مخاض

تَفْيَهَقَ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمَثْنَى

وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ الْخَبِيصِ

قال: وبيننا غيلان بن خرشة، يسيرُ معبد الله بن عامر، إذ وردا على نهر أمّ عبد الله فقال ابنُ عامر: ما أنفعَ هذا النهرَ لأهل هذا المصر قال غيلان: أجلُّ أيها الأمير، والله إنهم ليستغذّبون منه، وتفيضُ مياههم إليه، ويتعلّم صبيانهم فيه العوم، وتأتيهم ميرتهم فيه.

فلما أن كان بعد ذلك سائرَ ذاتَ يوم زياداً - وكان زيادٌ عدوّاً لابن عامر - فقال زياد: ما أضرَّ هذا النهرَ بأهل هذا المصر فقال: أجلُّ والله أيها الأمير تنزُّ منه دُورهم، ويغرقُ فيه صبيانهم، ويُبعضون ويُبزرُ عُثُون.

القول في العصافير

وسنقول باسم الله وعونه في العصفور بجملة من القول. وعلى أننا قد ذكرنا من شأنه أطرافاً ومقطعاتٍ من القول تفرقت في تضاعيف تلك الأصناف، وإذا طال الكلامُ وكثرت فنونه، صار الباب القصيرُ من القول في غماره مُستهلكاً، وفي حومته عرقاً، فلا بأس أن تكون تلك الفقرُ مجموعاتٍ، وتلك المقطعاتُ

موصولاتٍ، وتلك الأطراف مستقصياتٍ مع الباقي من ذكرنا فيه؛ ليكون الباب مجتمعاً في مكان واحد، فبالاجتماع تجتمع القوة، ومن الأبعاض يلتئم الكلُّ، وبالنظام تظهر المحاسن.

دعوى الإحاطة بالعلم

ولست أدعي في شيء من هذه الأشكال الإحاطة به، والجمع لكل شيء فيه، ومن عجز عن نظم الكثير، وعن وضعه في مواضعه - كان عن بلوغ آخره، وعن استخراج كل شيء فيه أعجز، والمتح أهون من الاستنباط، والحصد أيسر من الحرث. وهذا الباب لو ضمَّنه على كتابه من هو أكثر مني رواية أضعافاً، وأجود مني حفظاً بعيداً، وكان أوسع مني علماً وأتمَّ عزمًا، وأطفَ نظراً وأصدق حساً، وأغوصَ على البعيد الغامض، وأفهمَ للعويص الممتنع، وأكثرَ خاطراً وأصحَّ قريحةً، وأقلَّ سامةً، وأتمَّ عنايةً، وأحسنَ عادةً مع إفراط الشهوة، وفراغ البال، وبُعدِ الأمل، وقوة الطمع في تمامه، والانتفاع بثمرته، ثم مدَّ له في العمر، ومكَّنته المقدرة - لكان قد ادَّعى مُعْضِلةً، وضمَّنَ أمراً معجزاً، وقال قولاً مرغوباً عنه، متعجباً منه؛ ولكان لغواً ساقطاً، وحارصاً بهرجاً؛ ولكان ممن يفضلُّ قوله على فعله، ووَعَدَه على مقدار إنجازهِ؛ لأن الإنسان، وإن

أُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ وَعُرِفَ بِالْبِرَاعَةِ، وَعَمَرَ الْعُلَمَاءُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكْمُلُ أَنْ يُحِيطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَا فِي جَنَاحِ بَعُوضَةٍ، أَيَّامَ الدُّنْيَا، وَلَوْ اسْتَمَدَّ بِقُوَّةِ كُلِّ نَظَّارٍ حَكِيمٍ؛ وَاسْتَعَارَ حِفْظَ كُلِّ بَحَّاثٍ وَاعٍ؛ وَكُلَّ نَقَّابٍ فِي الْبِلَادِ، وَدَرَّاسَةَ لِلْكَتَبِ.

وَمَا أَشْكَ أَنْ عِنْدَ الْوُزَرَاءِ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ عِنْدَ الرَّعِيَّةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَعِنْدَ الْخُلَفَاءِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْوُزَرَاءِ، وَعِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْخُلَفَاءِ، وَعِنْدَ الْمَلَائِكَةِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالَّذِي عِنْدَ اللَّهِ أَكْثَرُ، وَالْخَلْقُ عَنِ بُلُوغِهِ أَعْجَزُ، وَإِنَّمَا عَلَّمَ اللَّهُ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ خَلْقِهِ بِقَدْرِ احْتِمَالِ فِطْرِهِمْ، وَمَقْدَارِ مَصْلَحَتِهِمْ.

القول في: "عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا - وَلَا يَجُوزُ تَعْرِيفُ الْأَسْمَاءِ بِغَيْرِ الْمَعْنَى - وَقُلْتَ: وَلَوْلَا حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى الْمَعْنَى، وَإِلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّرَافُدِ، لَمَا احْتَجَّوْا إِلَى الْأَسْمَاءِ، وَعَلَى أَنْ الْمَعْنَى تَفْضُلُ عَنِ الْأَسْمَاءِ، وَالْحَاجَاتِ تَجُوزُ مَقَادِيرَ السَّمَاتِ، وَتَفُوتُ ذُرْعَ الْعَلَامَاتِ فَمِمَّا لَا اسْمَ لَهُ خَاصُّ الْخَاصِّ، وَالْخَاصِّيَّاتُ كُلُّهَا لَيْسَتْ لَهَا أَسْمَاءٌ قَائِمَةٌ.

وكَذَلِكَ تَرَائِبُ الْأَلْوَانِ، وَالْأَرَايِحِ، وَالطَّعُومِ، وَنَتَائِجِهَا. وَجَوَابِي فِي ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْبِرْنَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَّمَ آدَمَ

كلّ شيء يعلمه تعالى، كما لا يجوز أن يُقدِرَه على كلّ شيء
يقدرُ عليه.

وإذا كان العبدُ المحدودُ الجسم، المحدود القوي، لا يبلغُ صِفَةً
ربِّه الذي اخترعه، ولا صِفَةً خالقه الذي ابتدعه - فمعلومٌ أنه
إنما عَنَى بقوله: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) عِلْمَ مصلحته في
دُنياه وآخِرته.

وقال الله عزّ وجلّ: "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"، وقال الله عزّ
وجلّ: "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ
بَعْدِ سَبْعَةِ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ"، وقال الله تعالى: "يَعْلَمُونَ
ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، وقال تقدّست أسماؤه: "وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ"، وقال الله عزّ وجلّ: "وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ".

وهذا الباب من المعلوم، غيرُ بابِ عِلْمِ ما يكونُ قبلَ أن يكون؛
لأن بابَ كَانِ قد يُعْلَمُ بعضُه، وبابُ يكون لا سبيل إلى معرفة
شيء منه، والمخاطبةُ وَقَعَتْ على جميع المتعبّدين، واشتملت
على جميع أصناف الممتحنين، ولم تقع على أهلِ عَصْرِ دُونَ
عصر، ولا على أهلِ بِلَدٍ دُونَ بِلَدٍ، ولا على جنسٍ دُونَ جنس،
ولا على تابعٍ دُونَ متبوعٍ ولا على آخرٍ دُونَ أوَّلٍ

أجناس الطير التي تألف دور الناس

العصافير، والخطاطيف، والزرّازير، والخفافيش، فبين هذه وبين الناس مناسبة ومُشاكلة، وألف ومحبّة. والخطاطيف تقطع إليهم وتعزّب عنهم، والعصافير لا تفارقهم، وإن وجدت داراً مبنية لم تسكنها حتى يسكنها إنسان، ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان، فبفراقه تُفارق، وبسكنه تسكن، وهذه فضيلة لها على الخطاطيف. الحمام لا يقيم معهم في دورهم إلا بعد أن يثبتوه ويعلموه، ويرتّبوا حاله ويدرجوه، ومنها ما هو وحشيّ طورانيّ، وربما توحش بعد الأُنس والعصافير على خلاف ذلك، فلها بذلك فضيلة على الحمام، وعلى الخُطّاف. وقد يدرب العصفور ويثبّت فيستجيب من المكان البعيد، ويثبّت ويدجن، فهو مما يثبّت ويُعايش الناس، من تلقاء نفسه مرّةً، وبالتثبّت مرّةً، وليس كذلك شيء مما يأوي إلى الناس من الطير. وقد بلغني أن بعض ما يستجيب منها قد دُرّب فرجع من ميل، فأما الهداية من تلقاء نفسه فمن الفراسخ الكثيرة. وحدثني حمّويه الخريبيّ وأبو جرّاد الهزاردريّ قالا: إذا كان

زمان البيادر لم يبق بالبصرة عُصفورٌ إلا صارَ إلى البساتين،
إلا ما أقام على بيضه وفراخه، وكذلك العصافير إذا خَرَجَ أهلُ
الدار من الدار، فإنه لا يقيمُ في تلك الدار عُصفورٌ إلا على
بيض أو فراخ، فإذا لم يكن لها استَوْحِشَتْ، والتمستْ لأنفسها
الأوكارَ في الدور المعمورة، ولذلك قال أبو يعقوب إسحاق
الخرَيمي:

وَحِشَّةٌ فِي دُورِهَا
عَصَافِرُهَا

فَتِكَ بَغْدَادُ مَا تَبَنَّى
مِنْ أَل

قالا: فعلى قدرِ قُربِ القبائل من البساتين سبقُ العصافير إليها،
فإذا جاءت العصافيرُ التي تلي أقرب القبائل منها إلى أوائل
البساتين فوجدت عصافير ما هو أقربُ إليها منها قد سبقت
إليها تعدّتها إلى البساتين التي تليها وكذلك صنيعُ ما بقي من
عصافير القبائل الباقية حتى تصير عصافير آخر البصرة إلى
آخر البساتين، وذلك شبيهةً بعشرين فرسخاً، فإذا قضت حاجتها،
وانقضى أمرُ البيادر أقبلت من هناك، على أماراتٍ لها معروفة،
وعلامات قائمة، حتى تصير إلى أوكارها.

ضروب الطير

والطيرُ كله على ثلاثة أضرب: فضربٌ من بهائم الطير، وضربٌ كسباع الطير، وضربٌ كالمشترَك المركَّب منها جميعاً. فالبهيمة كالحمام وأشباه الحمام، مما يَغْتَذِي الحبوبَ والبزورَ والنبات، ولا يَغْتَذِي غير ذلك، والسبع: الذي لا يَغْتَذِي إلا اللحم. وقد يأكل الأسدُ الملح، ليس على طريق التغذية، ولكن على طريق التَّمْلُح والتحمُّض.

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

فمما يُشارك فيه العصفور بهائم الطير، أنه ليس بذئ مخلبٍ ولا منسَر، أو هو مما إذا سقط على عودٍ قَدَّمَ أصابعه الثلاث، وأخَّر الدَّابرة، وسباع الطير تقدَّم إصبعين، وتوخَّر إصبعين. ومما شارك فيه السَّبْع أنَّ بهائم الطير تزقُّ فراخها، والسَّبَاع تُلْقِمُ فِرَاحها. والفراخ على ثلاثة أضرب: ففرخٌ كالفرُّوج لا يُزقُّ ولا يُلقَم؛ وهو يظهر كاسباً، وفرخٌ كفرخ الحمام وأشباه الحمام، فهو يُزقُّ ولا يُلقَم، وفرخٌ كفرخ العقاب والبازي، والزرَّق، والشاهين والصقر، وأشباهها من السَّبَاع فهو يُلقَم ولا يُزقُّ، فأشبهها العصفورُ من هذا الوجه.

وفيه من أخلاق السَّبَاع: أنه يصيد الجرادة، والنملَ الطيَّار، ويأكل اللحم، ويُلقِمُ فراخه اللحم، وليس في الأرض رأسٌ أشبههُ

برأس حَيَّةٍ من رأس عصفور الأجناس التي تعيش الناس
والأجناس التي تعيش الناس: الكلب، والسَّنور، والفرس،
والبعير، والحصان، والبغل، والحمام، والخُطَّاف، والزَّرزور،
والخُفَّاش، والعصفور.

أطول الحيوان عمراً وأقصره قالوا: وليس في جميعها أطولُ
عُمراً من البغل، ولا أقصرُ عمراً من العصفور
قالوا: ونظن ذلك إنما كان لقلَّةِ سِفادِ البغل، وكثرةِ سِفادِ
العصفور.

ويزعمون أن محمدَ بنَ سليمان أنزى البغالَ على البغلات، كما
أنزى العتاقَ على الحُجور، والبراذينَ على الرِّمَّاءِ، والحمير
على الأتن، فوجد تلك الفُحولة من البغالِ بأعيانها، أقصرَ
أعماراً من سائر الحافر، حين سَوَّى بينها في السِّفاد، ووجد
البغالَ تلقحَ إلقاحاً فاسداً لا يتمُّ ولا يعيش.

وذكروا أن قِصرَ العُمُر لم يعرض لإناثها كما عَرَضَ لذكورتها.
وهذا شبيهة بما ذكر صاحبُ المنطق في العصافير، فإنه ذكر أن
إناثها أطولُ أعماراً، وأن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً واحدةً.
أثر السمن في الحمل والمرأة تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع
الرجلُ عن الإحبال بدَّهر، وتُفرط في السمن فتصيرُ عاقراً،
ويكونُ الرجلُ أسْمَنَ منها فلا يصيرُ عاقراً، وكذلك الحجر،

والرَّمَكَة، والأَتان، وكذلك النخلة المطعمَة، ويسمَّنُ لبُّ الفَحَّال
فيكون أجود لإلقاحه، وهما يختلفان كما ترى.

الأجناس الفاضلة من الحيوان

وللعصفور فضيلة أخرى، وذلك أنَّ من فضل الجنس أن تتميز
ذكورته في العين من إنثاه، كالرجل والمرأة، والديك والدجاجة،
والفحال والمطعمَة، والتَّيسِ والصفية، والطاوس، والتُّدْرُج،
والذَّراج وإنثائها.

وليس ذلك كالحجر والفرس، والرَّمَكَة والبردون، والناقة
والجمل، والعيير والأتان، والأسد واللَّبَّوة، فإن هذه الأجناس
تقبلُ نحوك فلا ينفصل في العين الأنثى من الذكر، حتى تتفقد
مواضع القرب والأطباء، وموضع الضرع والثَّيل، وموضع نَفْر
الكلبة من القضيب.

لأنَّ للعُصفور الذَّكرَ لحيَّةً سوداء، وليس للحيَّة إلا للرجل
والجمل، والتَّيسِ، والديك، وأشباه ذلك، فهذه أيضاً فضيلة
للعُصفور، وذكر ابن الأعرابي أن للناقة عُثُوناً كعثون الجمل،
وأنه متى كان عُثُونها أطول كان فيها أحمد.

حب العصافير فراخها

وليس في الأرض طائرٌ، ولا سبغٌ ولا بهيمةٌ، أحنى على ولدٍ،
ولا أشدَّ به شعفاً، وعليه إشفاقاً من العصافير، فإذا أصيبت
بأولادها، أو خافت عليها العطب، فليس بين شيء من الأجناسِ
من المساعدة، مثل الذي مع العصافير، لأن العصفور يرى
الحيَّة قد أقبلت نحو جُحره وعُشِّه ووكره، لتأكل بيضه أو
فراخه، فيصيح ويُرثق فلا يسمع صوته عصفوراً إلا أقبل إليه
وصنع مثل صنيعه، بتحرُّق ولوعة، وقلقٍ، واستغاثةٍ وصراخٍ،
وربما أفلت الفرخ وسقط إلى الأرض - وقد ذهبت الحيَّة -
فيجتمعن عليه، إذا كان قد نبت ريشه أدنى نبات، فلا يزلن
يُهيِّجنه، ويطرُن حوله، لعلمها أن ذلك يحدث للفرخ قوةً على
النُّهوض فإذا نهض طرُن حواليه ودونه، حتى يحتثنه بذلك
العمل.

وكان الخريمي ينشد:

حتى رفعن سيرة
اللجون

واختت كل بازل
دقون

وينشد:

واخْتَتَّ مُحْتَتَّتْهَا الْخُدُورَا

وتقول العرب: العاشية تهيج الآبية، ولو أن إنساناً أخذ فرخي
عُصفورٍ من وكره، ووضعهما بحيثُ يراهما أبواهما في منزله،
لوجدَ العصفور يتقحّم في ذلك المنزل، حتى يدخل في ذلك
القفس، فلا يزال في تعهده بما يعيشه حتى يستغني عنه، ثم
يحتملان في ذلك غاية التغرير والخطر؛ وذلك من فرط الرقة
على أولادهما.

ما لا يسمح بالمشي من الحيوان وأجناس الحيوان التي لا
تستطيع أن تُسمح بالمشي ضروب: منها الضبع، لأنها خلقت
عرجاء، فهي أبدأ تخمّع، قال الشاعر:

أَحْمُ الْمَاقِيَيْنِ بِهِ
خُمَاعُ

وجاءتْ جِيَالٌ وَأَبُو
بَنِيهَا

وقال مدرك بن حصن:

بِهَا الظَّلْعُ إِمَّا هَرَوَلَتْ
أَمْ يَمِينُهَا

مِنَ العَثْرِ مَا تَدْرِي
أَرْجُلُ شِمَالِهَا

والذئب أقل شنج النساء، وإن أُحِتَّ إلى المشي فكأنه يتوجَّى.
وكذلك الطَّبِيُّ، شَنْجُ النَّسَاءِ، فهو لا يُسْمَحُ بالمشي، قال الشاعر:

وقصرى شنج
الأنسا
ء نباح من الشعب

ظبيُّ أشعب: إذا كان بعيد ما بين القرنين، ولا يسمع له نباح،
وإذا أراد العدو، فإنما هو النَّقْرُ والوثب، ورفع القوائم معاً.
ومن ذلك الأسد فإنه يمشي كأنه رهيص، وإذا مشى تخلَّع.
قال أبو زبيد:

إذا تبهنس يمشي
خلته وعثا
وعت سواعد منه بعد
تكسير

ومن ذلك الفرس، لا يُسْمَحُ بالمشي، وهو يوصف بشنج النساء.
وقال الشاعر:

شنج الأنساء من غير فحج

ومن ذلك الغراب، فإنه يحجل كأنه مقيد، قال الشاعر:

لأخرى ففاتته فأصبح
يحلُّ

كتارك يوماً مشيةً من
سجية

وقال الطرمّاح:

في الدار بعد الظاعنين
مقيّد

شنج النسا أذى
الجناح كأنه

والسنور، والفهد، وأشباههما في طريق الأسد.
والحية تمشي، ومنها ما يثب، ومنها ما ينتصب ويقوم على
ذنبه.

والأفعى إذا نهشت أو انباعت للنهش، لم تستقلّ ببدنها كلّها
ولكنها تستقلّ ببدنها الذي يلي الرأس، بحركةٍ ونشطٍ أسرع من
اللمح.

والجرادة تطير وتمشي وتطمر، فإذا صرّت إلى العصفور ذهب
المشي البتّة، وأكثر ما عند البرغوث الطمور والوثوب.
وقال الحسن بن هانئ يصف رجلاً يفلي القمل والبرغوث
بأنامله:

لم يُنجه منه وثابه

أو طامريّ واثب

لأن البرغوث مشاء وثَّاب.

قال: وقول الناس: طامر بن طامر، إنما يريدون البرغوث.
والعصفور ليس يعرف إلا أن يجمعَ رجليه ثم يثب، فيضعهما
معاً ويرفعهما معاً، فليس عنده إلا النَّقْرَانُ، ولذلك سُمِّيَ
العصفورُ نَقَّازاً.

وهو العصفور والجمع عسافير، ونَقَّاز والجمع نقاقيز، وهو
الصَّعُو، ويزعمون أن العرب تجعلُ الخرقَ والقنبر، والحمر،
وأشباه ذلك كله، من العسافير، والعصفور طَيْرَانُهُ نَقْرَانٌ أيضاً،
فهو لا يُسَمِّحُ بالطيران كما لا يسمح بالمشي.

شدة وطء العصفور

وليسَ لشيءٍ جسمُه مثلُ جسمِ العُصفورِ مراراً كثيرةً، من شِدَّةِ
الوطء، وصلابةِ الوَقْعِ عَلَى الأرض، إذا مشى، أو عَلَى السطح،
- ما للعصفور، فإنك إذا كنتَ تحتَ السَّطحِ الذي يمشي عليه
العصفور حَسِبْتَ وَقَعَهُ عَلَيْهِ وَقَعَ حَجَرٍ.
والكلبُ منعوْتُ بشدَّةِ الوطء، وكذلك الخِصْيَانُ من كل شيء،
والعصفور يأخذُ بنصيبه من ذلك أكثرَ من قِسْطِ جِسْمِهِ من تلك
الأجسام بالأضعاف الكثيرة.
ما يجيد المشي من الحيوان والدُّبَابِ من الطير الذي يجيدُ

المشي، ويمشي مشياً سَبَطاً حَثِيثاً، وحسناً مستويّاً.
والقطة مَلِيحَةٌ المَشْيِيَّة، مقارِبَةٌ الخَطْوِ.
وقد توصف مِشْيَةً المِراةِ بِمِشْيَةِ القَطَاة، وقال الكُمَيْت:

قَبَّ البُطُونِ رَوَاجِحَ
الأَكْفَالِ

يَمشِينَ مَشْيَ قَطَا
البُطَاحِ تَأوُداً

وقال الشاعر:

شي قطا أو بقراتُ

يتمشين كما تم

لأن البقرة تتبخترُ في مِشْيَتِها.
وقلت لابن دُبُوقَاء: أي شيء أول التَّشَاجِي؟ قال: التباهرُ
والقَرْمَطَةُ في المِشي، وقال:

تمشي القطة إلى الغدير

دفعتها فتدافعت

وكلُّ حيوان من ذوات الرجلين والأربع، إذا انكسرت لها قائمة
تحاملت بالصحيحة، إلا النعامة فإنها تسقط البتّة،

سفاد العصفور

قال: وكثرة عدد السّفاد، والمبالغة في الإبطاء، والدّوام في كثرة العدد لضروب من الحيوان - فالإنسان يغلب هذه الأجناس بأن ذلك دائم منه في جميع الأزمنة، فأما الإبطاء في حال السّفاد فللجمل والورل والذّبان والخنازير، فهذه فضيلة لذة لهذه الأجناس والأصناف، فأما كثرة العدد فللعصافير. سفاد التيس

وقد زعم أبو عبد الله العتبيّ الأبرص، وكان قاطع الشهادة عند أصحابنا البصريين - أن الذي يقال له المشرطيّ قرع في يوم واحد نيفاً وثمانين قرعة. إلا أن ذلك منه ومن مثله ينمحق؛ حتى يعود جافراً في الأيام القليلة.

تيس بني حمّان

وبنو حمّان يزعمون أن تيس بني حمّان قرع وألقح بعد أن دُبِح، وفخروا بذلك، فقال بعض من يهجوهم:

عن المجد حتى
أحرزته الأكارم

ألهي بني حمّان عسب
عتودهم

زعم لصاحب المنطق وزعم صاحب المنطق، في كتاب الحيوان، أن ثوراً فيما سلف من الدهر سفد وألقح من ساعته بعد أن حُصي.

فإذا أفرط المديحُ وخرج من المقدار، أو أفرط التعجيبُ وخرج من المقدار - احتاج صاحبه إلى أن يثبتَه بالعيان، أو بالخبر الذي لا يكذبُ مثله، وإلا فقد تعرَّض للتكذيب.

ولو جعلوا حركتهم خيراً وحكاية، وتبرؤوا عن عينه - ما ضرَّهم ذلك، وكان ذلك أصون لأقدارهم، وأتمَّ لمروعات كتبهم.

القول في الجناح واليد والرجل

وقالوا: وكلُّ طائر جيّد الجناح، يكون ضعيفَ الرجلين، كالزُرُور والخُطّاف؛ وجناحاهما أجود من جناح العصفور، ورجل العصفور قويّة.

والجناحان هما يدا الطائر؛ لأنهم يجعلون كلَّ طائر وإنسان ذا أربع: فجناحا الطائر يداه، ويذا الإنسان جناحاه، ولذلك إن قُطعت يدُ الإنسان لم يُجدِ العدو، وكذلك إن قُطعت رجلُ الطائر لم يُجدِ الطَّيران.

والدابة قد تقوم على رجلين دون يديها، والإنسان قد يمشي على أربع، قالوا: فهُم في عدد الأيدي والأرجل سواء، وفي

الآلات الأربع؛ إلا أن الآلة تكون في مكان ببعض الأعمال أليق،
وهو عليها أسهل، فتجذبها طبائعها إلى ما فيها من ذلك،
كمشي الدابة على يديها، وثقل ذلك على الإنسان.
والحمام يضربُ بجناحه الحمامَ، ويقائله به، ويدفع به عن
نفسه، فقوادمه هي أصابعه، وجناحه هو يده ورجله كالقدم،
وهي رجلٌ وإن سمّوها كفاً، حين وجدوها تكفُّ به، كما يصنع
الإنسان بكفه.

وكلُّ مقطوع اليدين، وكل من لم يُخلق له يدان فهو يصنعُ
برجليه عامّة ما يصنعه الوافر الخلق بيديه.
وكل سبُع يكون شديد اليدين فإنه يكون ضعيف الرجلين.
وكل شيء من ذوات الأربع، من البراثن والحوافر، فإن أيديها
أكبر من أرجلها، والناس أرجلهم أكبر من أيديهم، وأقدامهم
أكبر من أكفهم.
وجعلوا ركبهم في أرجلهم، وجعلوا ركب الدواب في أيديها.

نفع العصافير وضررها

وللعصافير طباهجات وقلايا تُدعى العصافيريّة، ولها حشاوي
يطعمها العوامّ المفلوج، والعوامّ تأكلها للقوّة على الجماع،
وعظام سُوقها وأفخاذها أحدُّ وأدرب من الإبر، وهي مخوفةٌ

على المعدة والأمعاء.

وهي تخرب السُّقف تخريباً فاحشاً، وتجتلبُ الحياتِ إلى منازل الناس؛ لحرصِ الحياتِ على ابتلاعِ العصافيرِ وفراخها وبيضها.

عمر العصفور

والذين زعموا أن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً، يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك، وكيف يستطيعون تعريفهم؟ وقد تكون القرى بقرب المزارع والبيادر مملوءة عصافير، ومملوءة من بيضها وفراخها، وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً. والذين يزعمون أن الذباب لا يعيش أكثر من أربعين يوماً، وكانوا لا يكادون يرون ذبابة ميتة أعذر، لأنهم ذهبوا إلى الحديث، وأصحاب الحديث لا يواخذون بما يواخذ به الفلاسفة. والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السِّفاد، والعصفور إنما قصرَ عمره لكثرة السِّفاد وغلتمته - لو قالوا بذلك على جهة الظنِّ والتقريب، لم يلُمهم أحد من العلماء، والأمور المقربة غيرُ الأمور الموجبة، فينبغي أن يعرفوا فصل ما بين الموجب والمقرب، وفصل ما بين الدليل وشبه الدليل ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا، ولشيء آخر. وليس ينبغي لنا أن نجزم على هذه العلة فقط، إلا بعد أن يحيط

علمنا بأن عمره لم يفضل على أعمار تلك الأجناس إلا لهذه العلة.

بعض خصال العصفور

والعصفور لا يستقر ما كان خارجاً من وكوره، حتى كأنه في دوام الحركة صبي، له صوت حديد مؤذ.
وزعموا أن البلبل لا يستقر أبداً وهذا غلط، لأن البلبل إنما يفتق لأنه محصور في قفص، والذين عاينوا البلابل والعصافير في أوكارها، وغير محصورة في الأقفاص - يعلمون فضل العصفور على البلبل في الحركة.
فأما صدق الحس، وشدة الحذر، والإزكان الذي ليس عند خبيث الطير، ولا عند الغراب إن عند العصفور منه ما ليس عند جميع ما ذكرنا، لو اجتمعت قوهم، ورُكبوا في نصاب واحد.
من ذلك أنه يغم بحدة صوته بعض من يقرب منه، فيصيح به ويهوي بيديه إلى الأرض كأنه يريد أن يرمي بحجر فلا يراه يحفل بذلك، فإن وقعت يده على حصاة طار من قبل أن يتمكن من أخذها.

وزعم صاحب المنطق أن بين الحمار وعصفور الشوك عداوة، وقال: لأن الحمار يدخل الشجر والشوك، فربما زاحم الموضع

الذي فيه وَكُرُّهُ فَيَبْدُدُ عُشَّهُ، وربما نهق الحِمَارُ فسَقَطَ فرحُ
العُصْفُورِ أو بيضه من جوفِ وَكُرِّه، قال: ولذلك إذا رآه
العصفورَ رَنَّقَ فوقَ رأسه، وعلى عينيه، وآذاه بطيرانه
وصياحه.

وربما كان العصفورُ أبلق، ويصابُ فيه الأصبغ، والجرادِيّ،
والأسود، والفيق، والأغبس، فإذا أصابوه كذلك باعوه بالثمن
الكثير.

وقال أبو بدر الأسيديّ: قيل لعبد الأعلى القاصّ: لم سمّي
العصفورُ عُصفوراً؟ قال: لأنه عَصَى وقرّ، وقيل: ولم سمّي
الطَّفْشِيلُ طفشيلاً؟ قال: لأنه طفا وشال، وقيل له: لم سمّي
الكلبُ القَلْطِيّ قَلْطِيّاً؟ قال: لأنه قَلَّ وَلَطِيّ، وقيل له: لم سمّي
الكلبُ السَّلُوقِيّ سَلُوقِيّاً؟ قال: لأنه يَسْتَلُّ وَيَلْقَى، قال: وحدثنا
سُفْيَانُ بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن صُهَيْبِ مولى ابن
عامر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسولُ الله
صلى الله عليه وسلم: ما مِنْ إنسانٍ يقتلُ عصفوراً أو ما فوقها
بغيرِ حقها إلا سأله الله عنها، قيل: يا رسولَ الله: وما حقها؟
قال: أن تذبّحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي بها.

صياح العصافير ونحوها

ويقال: قد صرَّ العصفورُ يصرُّ صريراً، قال: ويقال للعصافير
والمكايي والقنابر، وأخرق، والحمر: قد صفرَ يصفِرُ صفيراً،
وقال طرفة بن العبد:

خَلَا لِكَ الْجَوِّ فَبِيضِي
وَاصْفِرِي

يَا لِكَ مِنْ قَبْرَةٍ
بِمَعْمَرٍ

وَنَقْرِي مَا شَيْتِ أَنْ
تُنْقَرِي

ويقال: قد نطق العصفور، وقال كثير:

وَهَبَّتْ عَصَافِيرُ
الصَّرِيمِ النُّوَاطِقُ

سَوَى ذِكْرَةٍ مِنْهَا إِذَا
الرَّكْبُ عَرَّسُوا

ولذكر العصفور موضع آخر: وذلك أنَّ العصافير تصيح مع
الصبح، وقال كلثوم بن عمرو:

حَتَّى تَكَلِّمَ فِي الصَّبْحِ
العَصَافِيرَ

يَا لَيْلَةَ لِي بِحُورَيْنِ
سَاهِرَةً

وقال خلف الأحمر:

ولاحت تَبَاشِيرُ أَرْوَاقِهِ

وَيَلْتَسُّ نَاصِرَ أَوْرَاقِهِ

بِأَصْوَاتِ الْعَصَافِيرِ

فَمَا أَصَاتَتْ عَصَافِيرُهُ

عَدَا يَقْتَرِي أَنْفَاءً عَازِباً

وقال الوليد بن يزيد:

فلما أن دنا الصبحُ

أحلام العصافير

ولها موضع آخر، وذلك أنهم يضربون المثل بأحلام العصافير
لأحلام السُّخَفَاءِ، وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

أنتم كثير وفي أحلامِ
عُصْفُورِ

يا آلَ سُفْيَانَ ما بالي
وبالكم

وقال حسان بن ثابت:

جسْمُ البَغَالِ وَأَحْلَامُ
العَصَافِيرِ

لا بأسَ بالقومِ من طولِ
ومن عِظَمِ

ومن هذا الباب في معنى التَّصْغِيرِ والتَّحْقِيرِ، قولُ لُبَيْدِ:

عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ
وَالْمَسْحَرِ

فَإِنْ تَسَأَلِينَا فِيهِ
نَحْنُ فَإِنَّا

المخدَّع، على قوله:

وَنَسَحَرَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

وقال لبيد:

وَأَجْرًا مِنْ مَجَلْحَةٍ
الدَّنَابِ

عَصَافِيرٌ وَذَبَابٌ
وَدُودٌ

فكأنه يخبر عن ضَعْفِ طِبَاعِ الْإِنْسَانِ.
وقال قوم: الْمَسْحَرُ، يَعْنِي كُلَّ ذِي سَحَرٍ، يَذْهَبُ إِلَى الرَّئِثَةِ؛
لقوله:

وَنَسَحَرَ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

قولهم صريم سحر

ولذكر السَّحَرِ مَوْضِعٌ آخَرَ، يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ: صَرَمْتَ
سَحْرِي مِنْكَ، أَي لَسْتُ مِنْكَ، وَقَالَ خُفَّافُ بْنُ نُذْبَةَ:

وَأَنِّي مِنْكَ غَيْرُ صَرِيمٍ
سَحْرٍ

ولولا ابنا تماضر أن
يُساؤوا

فكأنه قال: لستُ كذلك منك.
وقال قيسُ بنُ الخطيم:

أَتَرَكُ مَا جَمَعْتَ صَرِيمَ
سَحْرٍ

تَقُولُ ظَعِينَتِي لِمَا
اسْتَقَلَّتْ

أي قد تركته آيساً منه.
وأنشد الآخر:

ظَلِيْفًا أَنْ ذَا لِهَوِ
العَجِيبُ

أَيْدَهُبُ مَا جَمَعْتُ
صَرِيمَ سَحْرٍ

وَلَمَّا يُخْضَبُ الْأَسْلُ
الخَضِيبُ

كَذَبْتُمْ وَالَّذِي رَفَعَ
المَعَالِي

العصفور والضب

وإذا وصفوا شدة الحرّ، وصفوا كيف يُوفي الحِرباءُ على العود
والجدل، وكيف تلجأ العصافيرُ إلى جِرة الضباب من شدة

الحرّ.
وقال أبو زُبَيْد:

حين لاحت للصباح الجوزاء
واستكنّ العصفورُ كزهاً مع الضبِّ وأوفى في عوده الحرباءُ
ه وأذكتُ نيرانها المعزاءُ
صقرتها الهجيرةُ الغراءُ
وأنشدوا:

مع الضبِّ والشَّقْدَانُ تسمو صدورها
قال: الشَّقْدَانُ: الحَرَابِيُّ، قوله: تسمو أي ترتفع على رأس
العُود، والواحد من الشَّقْدَانِ شَقْدَانٌ، بتحريك القاف وفتح
الشين.

عصافير النعمان

وأكرم فحلٍ كان للعرب من الإبل كان يسمى عصفوراً، وتسمى
أولاده عصافير النُّعمان.
وكانوا يقولون: صنع به الملكُ كذا وكذا، وحبّاه بكذا وكذا،

ووهب له مائة من عصافيره.
وعصفور، ودَاعِر، وشَاغِر، وذو الكِبْلَيْن: فحولة إبل
النعمان.
وعصافير الرَّحْل واحدها عصفور.

عصفور القواس

وعصفور القَوَّاس إليه تضاف القِسيُّ العُصفورية، وقد ذكره
ابن يَسِير حين دعا على حمام له بالشَّواهين، والصَّقورة،
والسَّنَانير والبنادق، فقال:

فغدا بغدوةٍ ساغب
ممطور

من كلِّ أكلفٍ باتَ
يدجنُ ليلهُ

شيئاً فكنَّ له من
التقديرُ

ضرم يقلب طرفه
متأنساً

صكاً بكلِّ مذلق
مطورٍ

يأتي لهنَّ ميامناً
ومياسراً

شيءٌ فصار بجانبات

لا ينجُ منه شريدهنَّ،

الدور	فإن بحا
عنها بكلّ رشيقةٍ التوتير	لمشمرين عن السواعدِ خُسر
فيهم بمعتذر ولا معدور	ليس الذي تشوي يداه رمية
في كل معطية الجذاب نتور	ينبوعون مع الشروق غديّة
تعزى إذا نسبت إلى عصفور	عطف السيات موانع في بذلها
متشابهاتِ صغن بالتدوير	ينفتن عن جذب الأكفّ سواسياً
لنواصل سلب من التحسير	تجري لها مهج النفوس وإنها
في الجو يحسر طرف	ما إن ينى متباين

متباعداً

كل بصير

عن سمتهنّ إذا قصدنّ

متقطراص متضمخاً

لجمعه

بعبير

فيؤوب ناجيهنّ بين

دام ومخلوب إلى

مجلهق

منسور

عاري الجناح من

كاس عليه بصائر

القوادم والقرا

التامور

شعر في العصفور

وقال أبو السّريّ، وهو معدّانُ الأعمى المديبريّ، وهو يذكر
ظهوراً للإمام، وأشرطَ خُروجه، فقال:

في زمانٍ تبيض فيه

شُ وتُسقى سُلّافة

الخفاف

الجزيال

ويقيم العُصفورُ سلماً

م وتحمي الدّابُّ لحم

مع الأيّ

السّخال

يقول: إذا ظهر الإمام فأية ذلك أن تبيض الخفافيش - وهي اليوم تلد - وتحلُّ لنا الخمر، وتسالم الحيات العصافير، والذئاب السخال.

سجود عيسى بن عقبة ورَوُوا في طولِ سجودِ عيسى بنِ عُقبة، أنه كان يطيل ذلك حتى يظنَّ العصفورُ أنه كالشيء الذي لا يُخافُ جانبه، وحتى يظنَّ العصفورُ أنه سارية، فيسقط عليه. وذكر عُمرُ بن الفضل، عن الأعمش، عن يزيد بن حيان قال: كان عيسى بن عقبة إذا سجد وقعت العصافيرُ على ظهره؛ من طولِ سجوده.

وكان محمدُ بنُ طلحةَ يسجدُ حتى إن العصافيرَ لَيَسْقُطْنَ على ظهره ما يحسبُنه إلا حائطاً.

مثل الشيخ والعصفور

وفي المثل: أنَّ شيخاً نصَّبَ للعصافيرَ فحاً، فارتبَّنَ به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخِّ وقد انضمَّ على عصفور، فقبض عليه ودقَّ جناحه، وألقاه في وعائه، دَمَعَتْ عَيْنُهُ مِمَّا كَانَ يَصُكُّ وَجْهَهُ مِنْ بَرْدِ الشَّمَالِ، قَالَ: فَتَوَامَرَتِ الْعَصَافِيرُ بِأَمْرِهِ وَقَلْنَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكِنَّ، فَإِنَّهُ شَيْخٌ صَالِحٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الدَّمْعَةُ قَالَ: فَقَالَ عَصْفُورٌ مِنْهَا: لَا تَنْظُرُوا إِلَى دُمُوعِ عَيْنَيْهِ،

ولئن انظروا إلى عمل يديه .
استطراد ومن أمثال العامة للشيء تتعرّفه بغير مؤونة: الحجرُ
مجان، والعصفور مجان.
قال: ويقال عصفور وعصفورة، وأنشد قوله:

ولو أنها عصفورة
لحسبتها
مُسومة تدعو عبداً
وأزماً

شعر فيما يصوره الفرع وقال في هذا المعنى جريراً، وإن لم
يكن ذكر العصفور، حيث يقول:

مازلت تحسب كل شيء
بعدهم
خيلاً تشدّ عليكم
ورجالاً

قال يونس: أخذ هذا المعنى من قول الله: "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ".
وقال الشاعر:

كأن بلاد الله
وهي عرية
على الخائف المطلوب
كفة حابل

يُودَى إِلَيْهِ أَنْ كُلَّ
ثَنِيَّةٍ

تَيَمَّمَهَا تَرْمِي إِلَيْهِ
بِقَاتِل

وقال بشارٌ في شبيهه ذلك:

كَأَنَّ فَوَادِهِ كَرَّةٌ تَنْزَى

حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ
الْحِذَارُ

جَفْتُ عَيْنِي عَنْ
التَّغْمِيضِ حَتَّى

كَأَنَّ جَفُونَهَا عَنْهُ
قِصَارُ

يُرْوَعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ
أَمْرٍ

مَخَافَةٌ أَنْ يَكُونَ بِهِ
السَّرَارُ

وقال عُبيدُ بنُ أيُّوبَ: وقال أبانُ اللَّاحِقِيُّ:

أَخْفِضِ الصَّوْتِ إِنَّ
نَطَقْتَ بَلِيلٍ

والتَّفَتُّ بِالنَّهَارِ قَبْلَ
الكَلَامِ

حديث الغاصري ومن ملح أحاديث الأصمعي، قال: حدّثني شيخٌ
من أهل المدينة وكان عالي السنّ قال: قال الغاصري: كانت
هذه الأرضُ لقومٍ ابتدؤوها وشقّوها، وكانت الثمرة إذا أدركتُ

قال قائلهم لقيمه: ائلم الحائط، ليصيب المار مما فيه والمعتفي،
ثم يقول: أرسل إلى آل فلان بكذا وكذا، وإلى آل فلان بكذا وكذا،
فإذا بيعت الثمرة قال: أرسل إلى فلان بكذا وكذا ودينار، وإلى
فلان بكذا وكذا، فيضج الوكيل، فيقول: ما أنت وهذا؟ لا أم لك
فلما عمرت الأرضون وأعنت أقطعها قوم سواهم، فإن أحدهم
ليس حائطه، ويصغر بابه، ثم يدلج فيمر فيقول: ما هذه
الثمة؟ ويستطيف من وراء الحائط، فهو أطول من معقل أبي
كريز.

وإذا دخل حائطه دخل معه بقذافة، فإذا رأى العصفور على القنا
رماه، فيقع العصفور مشوياً على قرص، والقرص كالعصفور.

العصافير الهبيرية

وبحمص العصافير الهبيرية، وهي تطعم على رفوف، وتكون
أسمن من السمائي، وأطيب من كل طير، وهي تُهدى إلى
ملوكنا، وهي قليلة هناك.

شعر في نطق العصفور

وقال الراعي:

حتى استتار سفاة
دونها النأد

ما زال يركب روقيه
وكلّله

عماية الليل عنه
وهو معتمد

حتى إذا نطق العصفور
وانكشفت

وقال الراعي:

يلاث بعينها فيلوى
ويطلق

وأصفر مجدول من
القد مارن

أنيخت قليلاً
والعصافير تنطق

لدى ساعدي مهريّة
شذنيّة

صيد العصافير

قال: وتُصاد العصافير بأهون حيلة، وذلك أنهم يعملون لها مصيدةً، ويجعلون لها سلّة في صورة المحبرة التي يقال لها: اليهودية، المنكوسة الأنبوبة؛ ثم يُنزل في جوفها عصفور واحد، فتقض عليه العصافير ويدخلن عليه، وما دخل منها فإنه لا يجد سبيلاً إلى الخروج منها، فيصيد الرجل منها في اليوم الواحد المئين وهو وادع، وهنّ أسرع إلى ذلك العصفور

من الطير إلى البوم إذا جُعِن في المصائد.
ومتى أخذ رجلٌ فراخ العصافير من أوكارها، فوضعها في قفص
بحيث تراها الآباء والأمّهات، فإنها تأتيها بالطعم على الخطر
الشديد، والخوف من الناس والسنانير، مع شدة حذرهما، ودقّة
حسّهما، ليس ذلك إلا لبرّها بأولادها، وشدة حبّها لها.

في العقارب والفأر والسنانير والجرذان

نقول في العقارب والفأر والجرذان بما أمكن من القول، وإنما
ذكرنا العقارب مع ذكرنا للفأر، للعداوة التي بين الفأر
والعقارب، كما رأينا أن نذكر السنانير في باب ذكر الفأر،
للعداوة التي بينهما.

فإن قلت: قد عرفنا عداوة الفأر للعقرب، فكيف تُعادي الفأرةُ
السّور، والفأرة لا تقاوم السّور؟ قيل: لعمري إن جرذان
أنطاكية لتُساجلُ السنانير في الحرب التي بينهما، وما يقوم لها
ولا يقوى عليها إلا الواحد بعد الواحد، وهي بخراسان قويّة
جداً، وربما قطعتُ أذنَ النائم.

وفي الفأر ما إذا عضّ قتل، أخبرني أبو يونس الشريطي أنه
عاين ذلك.

وأنا رأيتُ سّوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب، فأفلتت

الجُرْدُ منه وقد فقأ عينَ السَّنَّورِ.
قتال الحيوان والقتالُ يكونُ بينَ الدَّيْكَةِ، وبين الكباشِ والكلابِ
والسَّمائى والقَبْجِ، وضروبٍ مما يقبل التَّحْرِيشَ، ويوائبُ عند
الإغراءِ.

قتال الجرذان

ويزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطُ بينَ بهيمتين ولا سبعين أشدَّ
من قتال يكونُ بينَ جُرذَينِ، فإذا ربطَ أحدهما بطرفِ خيطٍ، وشدَّ
رجلَ الآخرِ بالطَّرَفِ الآخرِ من الخيطِ، فلهما عند ذلك من الخلبِ
والْحَمْسِ والعضِّ، والتَّنْيِيبِ والعفاسِ، ما لا يوجد بين شينيين
من ذوات العِقارِ والهراشِ، إلا أن ذلك ما دامَا في الرِّباطِ، فإذا
انحلَّ أو انقطع ولَّى كلُّ واحدٍ منهما عن صاحبه، وهربَ في
الأرضِ، وأخذ في خلافِ جهته الآخرِ.
وإن جُعلا في إناء من قواريرِ، أعني الجُرْدَ والعقربَ، وإنما
ذكرت القواريرِ، لأنها لا تستر عن أعين الناس صَنِيعَهما، ولا
يستطيعان الخُروجَ؛ لملاسة الحيطان - فالفأرة عند ذلك تختلُّ
العقربَ، فإن قبضتْ على إبرتها قرصتها، وإن ضربها العقربُ
ضرباً كثيراً فاستنفدتْ سمَّها كان ذلك من أسبابِ حتفها.

قتال العقارب والجرذان

ودخلت مرة أنا وحمّدان بن الصباح على عبيد بن الشؤنيزي فإذا عنده برنيّة زجاج، فيها عشرون عقرباً وعشرون فأرةً، فإذا هي تقتتل، فخيّل لي أن تلك الفأر قد اعترها ورمّ من شدة وقع اللسع، ورأيت العقارب قد كلّت عنها وتاركتها، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت.

وحدثنا عنها عبيدٌ بأعاجيب، ولو كان عبيدٌ إسناداً لخبرت عنه، ولكنّ موضعَ البياض من هذا الكتاب خيرٌ من جميع ما كان لعبيد.

تدبير في الجرذ

وللجرذ تدبير في الشيء يأكله أو يحسّوه، فإنه ليأتي القارورة الضيقة الرأس، فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه في عنقها، فكلماً ابتلّ بالدهن أخرجته فطعته، ثم أعاده، حتى لا يدع في القارورة شيئاً.

ورأيت من الجرذان أعجوبةً، وذلك أن الصيادة لما سقطت على جردٍ منها ضخم، اجتمعن لإخراجه وسلّ عنقه من الصيادة، فلما أعجزهنّ ذلك قرضنّ الموضع المنضمّ عليه من جميع

الجوانب، ليتسع الخرق فيجذبُه، فهجمتُ على نحاةٍ لو
اعتمدتُ بسكين على ذلك الموضع لظننتُ أنه لم يكن يمكنني إلا
شبيةً بذلك.

وزعم بعضُ الأطباء أن السنورَ إنما يدفنُ خُراه ثم يعودُ إلى
موضعه فيشتمه فإن كان يجدُ من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من
التراب، لأنَّ الفأرةَ لطيفة الحسِّ، جيِّدة الشَّم، فإذا وجدتُ تلك
الرائحة عرفتها فأمعنتُ في الهرب، فلذلك يصنعُ السنورُ ما
يصنع.

فأرة سيل العرم

ولا يشكُّ الناسُ في أن أرضَ سبأ وجنَّتِيها إنما خربتا حين
دخلهما سيلُ العرم - والعرم: المسناة - وأن الذي فجرَ المسناة،
وسببَ لدخول الماءِ الفأرة.

والسيلُ إذا دخلَ أُخربَ بقدرِ قوَّته، وقوَّته من ثلاثة أوجه: إمَّا
أن تدفعه ريحٌ في مكانٍ يفحشُ فيه الريح، وإمَّا أن يكون وراءه
وفوقه ماءٌ كثير، وإمَّا أن يُصيبَ حُدوراً عميقاً.

حديث ثمامة عن الفار

وأما حديث ثمامة فإنه قال: لم أر قط أعجب من قتال الفأر، كنتُ في الحبس وحدي، وكان في البيت الذي أنا فيه جُحر فأر، يقابله جُحر آخر، فكان الجرذ يخرج من أحد الجُحرين فيرقص ويتوعد، ويضرب بذنبه، ثم يرفع صدره ويهزُّ رأسه، فلا يزال كذلك حتى يخرج الجرذ الذي يقابله، فيصنع كصنيعه، فبينما هما إذ عدا أحدهما فدخل جُحره، ثم صنع الآخرُ مثلَ ذلك، فلم يزل ذلك دأبهما في الوعيد وفي الفرار، وفي التعاَجُز وفي ترك التلاقي، إلا أني في كل مرةٍ أظنُّ للذي يظهرُ لي من جدهما واجتهادهما، وشدة توعدِّهما، أنهما سيلتقيان بشيء أهونهُ العَضِّ والخمَش، ولا والله إن التقيا قطُّ؟ فعجبتُ من وعيدِ دائمٍ لا إيقاعَ معه، ومن فرارِ دائمٍ لا ثباتَ معه، ومن هربٍ لا يمنعُ من العودة، ومن إقدامٍ لا يوجبُ الالتقاء، كيف يتوعدُّ صاحبه ويتوعدُّه الآخرُ؟ وبأيِّ شيءٍ يتوعدُّه، وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبداً؟ فإن كان قتالهما ليس هو إلا الصَّخْب والتَّئيب فلم يفرُّ كلٌّ واحدٍ منهما حتى يدخل جُحره؟ وإن كان غير ذلك فأَيُّ شيءٍ يمنعهما من الصَّدمة؟ وهذا أعجبُ.

أطول الحيوان نَماءً وأقصره وتقول العرب: الضبُّ أطولُ شيءٍ نَماءً.

ولا أعلم في الأرض شيئاً أقصر دُماً، ولا أضعف مُنة ولا
أجدر أن يقتله اليسير من الفأر.

لعب السنور بالفأر

وبلغ من تحرُّزه واحتياطه، أنه يسكن السقوف، فربما فلجأه
السَّنور وهو يريد أن يعبر إلى بيته والسَّنور في الأرض
والفأرة في السقف، ولو شاءت أن تدخل بيتها لم يكن للسَّنور
عليها سبيل، فتتحير، فيقول السَّنور بيده كالمشير بيساره:
ارجع، فإذا رجعت أشار بيمينه: أن عُدْ فيعود، وإنما يطلب أن
تعي أو تزلق أو يُدارَ بها، ولا يفعل ذلك بها ثلاث مرّات، حتى
تسقط إلى الأرض، فيثب عليها، فإذا وثب عليها لعبَ بها ساعةً
ثم أكلها، وربما خلى سبيلها، وأظهر التغافل عنها فتمعن في
الهرب، فإذا ظنّت أنها نجت وثب عليها وثبة فأخذها، فلا يزال
كذلك كالذي يحبُّ أن يسخرَ من صاحبه، وأن يخدعه، وأن
يأخذهُ أقوى ما يكون طمعاً في السّلامة، وأن يُورثه الحسرة
والأسفَ، وأن يلدَّ بتنغيصه وتعذيبه.
وقد يفعل مثل ذلك العقابُ بالأرنب، ويفعل مثل ذلك السَّنورُ
بالعقرب.

أكل الجردان واليرابيع والضباب والضفادع

وقال أبو زيد: دخلت على رُوبةً هو يملُّ جرداناً، فإذا نضجت أخرجها من الجمر فأكلها، فقلت له: أأكل الجردان؟ قال: هي خيرٌ من اليرابيع والضباب، إنها عندكم تأكل التمر والجبن والسويق والخبز، وتحسو الزيت والسمن. وقد كان ناسٌ من أهل سيف البحر من شقّ فارس يأكلون الفأر والضفادع، ممقورةً ومملوحةً، وكانوا يسمونها: جَنك جَنك ووال ووال. وقال أوسُ بنُ حجر:

إلى سَنَة جِردانها لم
تَحَلَّم

لحينهم لَحَى العَصَا
فطردنهم

يقال: تَحَلَّم الصَّبِيُّ: إذا بدأ في السَّمَن؛ فإذا زاد على المقدار قيل قد ضَبَّبَ، أي سَمِنَ سِمناً متناهيًا.

مثل وشعر في الجرد

ويقال: أسرق من زبابة، والزبابة: الفأرة، ويقال: أسرق من جُرذ.

وقال أنس بن أبي إياس لحارثة بن بدر حين ولي أرض سرق:

فكن جرداً فيها تخونُ
وتسرقُ

أحار بن بدر قد وليت
تولايَةً

لساناً به المرء
الهيوبَةُ ينطق

وباه تميماً بالغنى إنَّ
للغنى

يقول بما تهوى وإما
مصدقُ

فإنَّ جميعَ الناسِ إما
مكذبُ

وإن قيلَ هاتوا حققوا
لم يحققوا

يقولون أقوالاً ولا
يعلمونها

فحظك من ملك
العراقين سرقُ

فلا تحقرنْ يا حارِ
شيئاً أصبته

فلما بلغت حارثة بن بدر قال: لا يعمى عليك الرشد.

طلب كثرة الجردان

قال: ووقفت عجوزٌ على قيس بن سعد، فقالت: أشكو إليك قلة
الجردان، قال: ما أطف ما سألت لأملأن بيتك جرداناً، تذكر
أن بيتها قفرٌ من الأدم والمأدوم، فأكثر لها يا غلام من ذلك،
قال: وسمعت قاصاً مدينيّاً يقول في دعائه: اللهم أكثر جرداننا
وأقل صبياننا. فزرع بعض الناس من الفأر

وبين الفأر وبين طباع كثير من الناس منافرةً، حتى إن بعضهم
لو وطئ على ثعبان، أو رمي بثعبان - لكان الذي يدخله من
المكروه والوخشة والفرع، أيسر مما يدخله من الفأرة لو رمي
بها، أو وطئ عليها.

وخبرني رجالٌ من آل زائدة بن مقسم، أن سليمان الأزرق دعي
لحيّة شنعاء قد صارت في دارهم، فدخلت في جحر، وأنه
اغتصبها نفسها حتى قبض على ما ألقى منها، ثم أدارها على
رأسه كما يصنع بالمخراق، وأهوى بها إلى الأرض ليضربها
بها، فابتدرت من حلقتها فأرة كانت ازدردتها، فلما رأى الفأرة
هرب وصرخ صرخة، قالوا: فأخذ مشايخنا الغلمان بإخراج
الفأرة وتلك الحية الشنعاء إلى مجلس الحيّ ليعجبوهم من
إنسان قتل هذه وفر من هذه.

علة نتن الحيات

وسألت بعض الحوائين ممن يأكلُ الأفاعيَ فما دونها، فقلت: ما
بالُ الحيات مُنتنة الجلود والجروم؟ قال: أمّا الأفاعي فإنّها
ليست بمننتة، لأنّها لا تأكل الفأر، وأمّا الحيات عامة فإنّها
تطلبُ الفأر طلباً شديداً، وربما رأيتُ الحيّة وما يكونُ غلظها إلا
مثل غلظ إبهام الكبير، ثم أجدها قد ابتلعت الجرّدَ أغلظ من
الدراع، فأنكرتُ نتن الحيات إلا من هذا الوجه، ولم أر الذي قال
قولاً.

رجز في الفأر

ودخل أعرابيُّ بعضَ الأمصار، فلقيَ من الجرذان جهداً، فرجز
بها ودعا عليها، فقال:

لعامراتِ البيت
بالخراب

يعجلُ الرحمنُ
بالعقاب

كحلُّ العيونِ وقصِ
الرقاب

حتى يُعجّلنَ إلى
الثياب

مثل مداري الحصن
السلاب

مستتبعاتِ خلفه
الأذنب

ثم دعا عليهنَّ بالسَّنور فقال:

منهتُ الشَّدقِ حديدُ
النَّابِ

أهوى لهنَّ أنمرُ
الإهابِ

كأنما بُرثنَ بالحِرابِ

التشبيه بالجرذان

وتوصف عضلُ الحفار والماتح والذي يعمل في المعادن، فتشبهه بالجرذان، إذا تفلَّق لحمه عن صلابة، وصار زيماً، قال الرَّاجز:

عزباً جروراً وجلاًلاً
خُزخُزُ

أعددتُ للوردِ إذا الورْدُ
حَفَزُ

كأنَّ جوفَ جلده إذا
احتَفَزُ

وماتِحاً لا يئنثي إذا
احتَجَزُ

في كلِّ عضوِ جُرْدَيْنِ أو
خُزْزُ

والخُزْزُ: ذكر الأرانب و اليرابيع.

أنواع الفأر

والزَّبَابُ، والخُدُّ، واليرابيع، والجردان، كله فأر، ويقال لولد
اليرابيع دِرص وأدراص، والخُدُّ أَعْمَى، لا يزال كذلك، والزَّبَابُ
أَصْمٌ، لا يزال كذلك، وأنشد:

لَا تَسْمَعُ الْآدَانُ رَعْدًا

وَهُمْ زَبَابٌ حَائِرٌ

هكذا أنشدونا.

شعر وخبر في الفأر

وأنشد الأصمعي لمزرد بن ضرار، في تشبيه الجرع في حُلوق
الإبل بجثمان الزَّبَابِ - وهو الشكل الذي وصفناه - فقال في
وصف ضيف له سقاه، فوصف جرعه:

طَوَالَ الذَّرِي مَنْ

مَفْرَهَاتٍ خَنَاجِرٍ

لَمِثْلَكَ يَأْتِي لِلْقَرَى

غَيْرِ عَادِرٍ

فَقَلْتُ لَهُ اشْرَبْ لَوْ

وَجَدْتَ بِهَازِرًا

وَلَكِنَّمَا صَادَفْتَ نَوْدًا

مَنِحَةً

فأهوى له الكفين
وامتد حلقة

بجرع كأثباج الزباب
لازنابر

وقال أعرابيٌّ وهو يطنزُ بغريم له، ويذكر قرصَ الفأر الصَّكَّاك،
عند فراره منه: الزم الصَّكَّ لا يقرضه الفأر تهزَّؤوا به:

إذا جعلتُ ضراراً دون سيار

في السوق بين قطينٍ غيرِ أبرار

يشقى إراتهم أنْ غابَ أنصاري

أجمعتُ مكرأً بهم في غير إنكارِ

وإن موعدكم دار ابن هبارِ

عني فيخرجنِي نقضي وإمراري

تخدي برحلي وسيفٍ جفنه عاري

فاطو الصحيفة واحفظها من الفارِ

وقعتُ فيها وقوع الكلب في النار

وصفقةٍ لا يق

والعربُ تعيبُ الإنسانَ إذا كان ضيقَ الفمِ، أو كان دقيقَ الخطمِ،
يشبّهون ذلك بفمِ الفأرة، وقال عبدة بن الطبيب: يشبهون ذلك
بفهمِ الفأرة. وقال عبدة بن الطبيب:

ضخّمُ الجزارة بالسلمينِ وكارُ	ما معَ أنكِ يومَ الوردِ ذو لَغَطِ
فاحلبِ فإنكِ حلابٌ وصرارُ	تكفي الواليدة في النادي مؤتزرأ
غيثٌ فأمرع واسترخت به الدارُ	ما كنتِ أولَ ضبِّ صاب تلعتهُ
جلد الندى، وغداة الروعِ خوارُ	أنتَ الذي لا نرجي نيلهُ أبداً
فا فأرة شجها في الجُحرِ محفأرُ	تدعو بنييكِ عباداً وحزيمةً

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

وقا لأبو الشمقمق في الفأر والسنور:

من جراب الدقيق والفخاره ولقد قلت حين أقفر
بيتي

مخصباً خيره كثير العماره ولقد كان آخلاً غير
قفر

عائذاتٍ منه بدار الإمارة فأرى الفأر قد تحنبن
بيتي

بين مقصوفةٍ إلى طياره ودعا بالرحيل ذبان
بيتي

ع وعيش فيه أذى ومراره وأقام السنورُ منه من
شدة الجو

س كئيباً، في الجوف منه حرار قلت لما رأيتُهُ
ناكس الرأس

ورأته عيناي قطُّ بحاره ويك صبراً فأنت من
خير سن

ببيوت قفر كجوف الحماره قال: لا صبر لي، وكيف
مقامي

1953

مخصب رحله عظيم التجاره قلت :سر راشداً إلى
بيت جارٍ

وإذا العنكبوت تغزل في دنى وحبّي الكوز والقرقاره
بين كلب. وكلبة عياره وأصاب الجحام كلبى فأضحى
وقال أيضاً:

دُ كما تجحر الكلابُ ثعاله ولقد قلتُ حين أجحرنى
البر

ليس فيه إلا النوى والمخاله في بيتٍ من
الغضارةى قفر

وطار الذبابُ نحو زُباله عطلتُهُ الجرذان من قلة
الخير

جيدة لم يرتجين منه بلاله هار بات منه إلى كلِّ
خصبٍ

يسأل الله ذا العلا والجلاله وأقام السنورُ فقيهه
بشرٍ

ناكساً رأسه لظول الملأ أن يرى فأرة، فلم ير
شيئاً

س كئيباً يمشي على شرّ حاله قلت لما رأيتَه ناكس
الرأس

نير، وعلته بحسن مقاله قلتُ صبراً يا نازُ رأسِ
السنا

في قفار كمثل بيد تباله قال : لا صبر لي، وكيف
مقامي

س ومشي في البيت مشي خيال لا أرى فيه فأرة
أنغض الرأ

ولا تعدُ كربج البقاله قلت : سر راشداً فخار لك
الله

في نعيم من عيشةٍ ومناله فإذا ما سمعت أنا
بخير

إن منْ جازَ رحلنا في ضلالهفانتنا راشداً ولا
تعدونا

قال لي قولة: عليك سلامٌ غير لعب منه ولا ببطاله
أخرجوه من محبس بكفالههم ولي كأنه شيخُ سوء
وقال أيضاً:

نزل رفقةً من بعد رفاقه
الفأرُ ببיתי
حلقاً نزلوا بالببيت صفاقه
بعد قطارٍ
ابن صاعداً في رأس نبقه
عرس رأس بيتي
شقه من ضلع سلقه
سيفه سيفٌ جديدٌ
جاءنا فدق الباب دقه
يطرق بالليل

لم يدع في البيت فئقهُ
دخل البيت جهاراً
وصفق نأزويه صفقه

وتت

رسن برغيف
صفقة أبصرتُ منها في سوادِ العين زرقه

أغبشُ تعلوه بلقه
زرقه مثل ابنِ عرس

وقال أيضاً:

أخذ الفأرُ برجلي	جفلوا منها خفافي
وسراويلاتٍ سوء	وتبابين ضعافٍ
درجوا حولي بزفن	وبضربٍ بالدفافِ
ساعةٍ ثمتَ جازوا	عن هوايَ في خلافِ

دون أهلي في لحافي

ريح مسك بسلاف

استهلت بالرعاف

نقروا استي وباتوا

لعقوا استي وقالوا

صفعوا نازويه حتى

أحاديث في الفأرة والهرة

يُرَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **خمسٌ يُورِثَنَّ النسيان: أكلُ التفاح، وسُورُ الفأرة، والحِجَامَةُ في النقرة، ونبذُ القملة، والبولُ في الماء الراكد.**

وابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"إِذَا رَقَدْتَ فَأَعْلِقْ بَابَكَ، وَحَمِّرْ إِنَاءَكَ، وَأُوكِ سِقَاءَكَ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ عُلْقًا وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، وَلَا يَحِلُّ وَكَاءً، وَإِنَّ الْفَأْرَةَ الْفُؤَيْسِقَةَ تَحْرَقُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ"**.

قالوا: **في قول النبي صلى الله عليه وسلم في السنائير: "إنهنَّ من الطَّوَافَاتِ عَلَيْكُمْ"**، وفي تفريقه بين سُورِ السَّنُورِ وَسُورِ الْكَلْبِ - دليلٌ عَلَى حُبِّهِ لِاتِّخَاذِهِنَّ، وَلَيْسَ لِاتِّخَاذِهِنَّ وَجْهٌ إِلَّا إِفْتَاءَ الْفَأْرِ وَقَتْلَ الْجُرْدَانِ، فَكَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَحَبَّ اسْتِحْيَاءَ السَّنَائِيرِ، فَقَدْ أَحَبَّ إِهْلَاكَ الْفَأْرِ.

وعن نافع، عن ابن عُمر، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: عُدْبَتِ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا - وَيُقَالُ: رَبَطْتُهَا - فَلَمْ تَطْعَمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تُرْسِلْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ.
وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ رَبَطْتَهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تُصِيبُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ فَأَدْخَلَتْ النَّارَ، كَلِمَا أَقْبَلْتَ نَهَشْتَهَا، وَكَلِمَا أَدْبَرْتَ نَهَشْتَهَا.

قال: وَذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجْرُ قُصْبِهِ فِي النَّارِ حَتَّى قَالَ: وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطْتَهَا، فَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ.

وصف السنور بصفة الأسد

قال ابن يسير في صفة السنور - فوصفه بصفة الأسد، إلا ما وصفه به من التتمير، فإن السنور يوصف بصفة الأسد، إذا أرادوا به الصورة والأعضاء، والوثوب والتخلُّع في المشي، إلا إن في السنانير السود والنمر والبُلُق، والخلنجية، وليس في ألوان الأسد من ذلك شيء، إلا كما ترون في النواذر: من الفأرة البيضاء، والفاخنة البيضاء، والورشان الأبيض،

والفَرَسُ الأَبْيَضُ - فقال ابن يسير في دعائه على حمام ذلك
الجار حين انتهى إلى ذكر السنور:

وَخُبُعْتَنِ فِي مَشْيِهِ
مَتْبَهْنَسٍ
خَطَفَ الْمُؤَخَّرَ كَامِلِ
التَّصْدِيرِ

مِمَّا أُعِيرَ مَفْرَ أَعْضَفِ
ضَيْغَمِ
عَنْ كُلِّ أَعْصَلِ
كُلِّ السَّنَانِ هُصُورِ

مَتَسَرَّبِلِ ثَوْبِ الدَّجِيِّ
أَوْ غَبْشَةَ
شَبَّتْ عَلَى مَتْنِيهِ
بِالتَّنْمِيرِ

يَخْتَصُّ كُلَّ سَلِيلِ
سَابِقِ غَايَةِ
مَحْضِ النِّجَارِ مَهْدَبِ
مَخْبُورِ

فَزِعَ النَّاقَةَ مِنَ الْهَرِّ وَإِذَا وَصَفُوا النَّاقَةَ بِأَنَّهَا رُوعٌ شَدِيدَةٌ
التَّفْرُوعُ، لَفَرَطُ نَشَاطِهَا وَمَرَحِهَا، وَصَفُوهَا بِأَنَّ هِرًّا قَدْ نَيَّبَ فِي
دَفِّهَا، وَأَكْثَرُ مَا يَذْكُرُونَ فِي ذَلِكَ الْهَرِّ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ الْعَضَّ بِالنَّابِ،
وَالْخَمَشَ بِالمَخَالِبِ، وَليْسَ كُلُّ سَبْعٍ كَذَلِكَ.
وقال ضابئ بن الحارث:

بأدماءٍ حُرْجُوجٍ تَرَى
تَحْتَ عَرْزِهَا

وقد أوس بن حجر:

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيبًا تَحْتَ
مَغْرَضِهَا

وقال عنتره:

وَكأَئِمَّا يَنأى بِجَانِبِ
دَقِّهَا ال

هَرٌّ جَنِيْبٍ كَلِمَا
عَطَفَتْ لَهُ

تَهَاوِيلَ هَرًّا وَ
تَهَاوِيلَ أَحْيَالًا

وَالتَّفَّ دِيكٌ بِرَجْلَيْهَا
وَخَنْزِيرُ

وَخَشِيٍّ مِنْ هَزَجِ
العَشِيِّ مُؤَوِّمِ

عُضْبَى اتَّقَاهَا بِالْيَدَيْنِ
وَبِالْفَمِ

والفيلُ يَفْرَعُ مِنَ السَّنُورِ فِرْعًا شَدِيدًا.

السنور في الهجاء

ومما يقع في باب الهجاء، للسنور، قول عبد الله بن عمرو بن الوليد، في أم سعيد بنت خالد:

لِغَزْلَانِ الْخَمَائِلِ
وَالْبِرَاقِ

وَلَوْ أُعْطِيتَ هِنْدًا فِي
الصَّدَاقِ

وَمَا السَّنَوْرُ فِي
نَفْسِي بِأَهْلٍ

فَطَلَقَهَا فَأَسْتَتْ لَهَا
بِأَهْلٍ

الرجم بالسنانير

قال صاحب الكلب: قالوا: ولما مات القصبى - وكان من موالى
بني ربيعة بن حنظلة، وهو عمرو القصبى، ومات بالبصرة -
رُجم بالسنانير الميَّتة، قال: وقد صنعوا شبيهاً بذلك بخالد بن
طليق، حين زعم أهله أن ذلك كان عن تدبير محمد بن سليمان.
وقالوا: ولم نر الناس رَمَوْا أحداً بالكلاب الميَّتة، والكلابُ أكثر
من السنانير حيَّة وميَّتة، فليس ذلك إلا لأن السنانير أحقرُ
عندهم وأنتن.

استطرد لغوي قال: ويقال للجرذان العِضلان، وأولاد الفأر
أدراص، والواحد دِرْص، وكذلك أولاد اليرابيع، يقال: أدراص
وُدروص، وقال أوسُ بن حَجْر:

بمنعرج السُّوبان لو

وودَّ أبو ليلى طفيل

بن مالك

يتقصّع

قال: واليرابيع ضربٌ من الفأر، قال: ويقال: نفّق اليربوع ينفّق تنفيقاً إذا عمل النافق، وهي إحدى مجاهره، ومحافره، وهي النافق، والقاصع، والدّاماء، والراهطاء، وقال الشاعر:

بعالمةٍ بأخلاقِ
الكِرامِ

فَمَا أُمُّ الرَّدِّينِ وَإِنْ
أَدَلَّتْ

تتفقّناه بالحَبْلِ
التُّوَامِ

إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي
قَفَّاهَا

فإذا طُلب من إحدى هذه الحفائر نافع، أي فخرج النافق، وإن طُلب من النافق قصّع، ويقال: أنفقته إنفاقاً: إذا صاح به حتى يخرج، ونفق هو: إذا خرّج من النافق.

احتيال اليربوع

وفي احتيال اليرابيع بالنافق، والقاصع، والدّاماء والراهطاء، وفي جمّعها التراب على نفس باب الجحر، وفي تقدمها بالحيلة والحراسة، وفي تغليطها لمن أرادها، والتورية بشيء عن شيء، وفي معرفتها بباب الخديعة، وكيف توهم

عَدُوها خلاف ما هي عليه، ثم في وطنها على زمعاتها، في
السهولة وفي الأرض اللينة، كي لا يعرف أثرها الذي يقتصه،
وفي استعمالها واستعمال بعض ما يقاربها في الحيلة التوبير -
والتوبير: الوطاء على ماخير أكفها - العجب العجيب.
أنفاق الزباء وزعم أبو عقيل بن دُرست، وشداد الحارثي،
وحسين الزهري أن الزباء الرومية إنما عملت تلك الأنفاق التي
ذكرها الشاعر فقال:

ولم تشعُر بأن لها
كمينا

أقام لها على الأنفاق
عمرو

على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارجها التي أعدتها
ومداخلها، وعلى قدر ما يفجؤها من الأمر.
وأن أهل ثبَّت والرُّوم، إنما استخرجوا الاحتيال بالأنفاق
والمطامير والمخارق على تدبير اليرابيع.
اشتقاق المنافق وإنما سمى الله عز وجل الكافر في باطنه
المورِّي بالإيمان، والمستتر بخلاف ما يُسرّ - بالمنافق، على
النافقاء والقاصعاء، وعلى تدبير اليربوع في النورية بشيء
عن شيء، قال الشاعر:

إذا الشيطانُ قَصَّعَ في
قَفَّاهَا

تتفَنَّاهُ بِالْحَبْلِ
التُّوَامِ

وهذا الاسمُ لم يكن في الجاهلية لمن عمل بهذا العمل، ولكن الله عزَّ وجلَّ اشتق لهم هذا الاسم من هذا الأصل.
كلمات إسلامية وقد علمنا أن قولهم لمن لم يُحجَّ: صَرُورَة،
ولمن أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم، قولهم وتسميتهم
لكتاب الله: قرآناً فرقاناً، وتسميتهم للتمسُّح بالتراب: التيمُّم،
وتسميتهم للقاذف ب فاسق - أن ذلك لم يكن في الجاهلية.
وإذا كان للنابعة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل
اللغة، كقوله:

والرَّفِيُّ كالحَوْضِ بالمظلومة الجَدِّ

وحتى اجتمعت العرب على تصويبه، وعلى اتباع أثره، وعلى
أنها لغة عربية - فالله الذي له أصلُ اللغة أحقُّ بذلك.
شعر شَمَّاح في الزَّموع وذكر شَمَّاحُ بنُ ضرارِ الزَّموع، وكيف
تطأ الأرنبُ على زَمعاتها لتغالط الكلاب وجميع ما يطالبها -
فذكر بديناً شأن العيرِ والعانة، فقال:

إِذَا مَا اسْتَفْهَنَ
ضَرَبَنَ مِنْهُ

مَكَانَ الرَّمْحِ مِنْ أَنْفِ
الْقُدُوعِ

وَقَدْ جَعَلَتْ ضَعَائِنَهُنَّ
تَبْدُو

بِمَا قَدْ كَانَ نَالَ بِلَا
شَفِيعِ

مُدَلَّاتٍ يُرِدْنَ النَّأْيَ
مِنْهُ

وَهُنَّ بَعِينَ مُرْتَقِبٍ
تَبُوعِ

ثم أخذ في صفة العُقاب، وصار إلى صفة الأرنب فقال:

عَصِيٌّ جَنَاحِ طَالِبَةٍ لَمُوعِ

غَرِيضَ اللَّحْمِ عَنِ ضَرْمِ جَزُوعِ

قلي

لَا مَا تَرِيثُ إِذَا اسْتَفَادَتْ

ثم قال:

فَمَا تَنْفَكُ بَيْنَ
عَوِيرَضَاتِ

تَجْرُ بِرَأْسِ عَكَرِشَةٍ
زَمُوعِ

على خزانِ قارتاتن
الجوعِ

تطارِدُ سيدِ صاراتِ،
ويوماً

كما لاذَ الغريمُ من
التبِيعِ

تلوذُ ثعالِبُ الشرفينِ
منها

إلى فرخينِ في وكرِ
رَفِيعِ

نماها الغزَّ في قطنِ،
نماها

جماجمهنَّ كالخشلِ
النزِيعِ

ترى قطعاً من الأناشِ
فيها

والزَّموعِ: التي تمشي على زَمعاتها: مآخِرِ رِجْلِها قال أبو
المفضل: توَبَّرَ بيديها، وتمشي عَلَيَ زَمعاتها عَلَيَ رِجْلِها،
وهي مواضع النُّننِ من الدوابِّ، والزَّمَعِ المَعْلَقِ خَلْفَ الظِّلْفِ
من الشاةِ والظبي والثورِ، قال: وكل ذلك تَوْبِيرٌ، وهو أن تطأ
عَلَيَ مآخِرِ قوائمها، كي لا يعرفَ أثرها إنسانٌ ولا كلبِ.
وذكر أنها تطاردُ ذنباً مرّةً، وخُزْراً مرّةً، وهو الذُّكْرُ من
الأرانبِ؛ والعَرِشَةُ: الأنثى، والخَرْنِقُ: ولدها، فإذا قلتَ أرنبٌ،
أو عُقابٌ فليس إلا التأنِيثُ، هذه العُقَابُ، وهذه الأرانبُ، إلا أن

تقول: خرز.

وقطن: جبل معروف، والأحناش: الحيات، وأحناش الأرض: الضب، والقنفذ، واليربوع، وهي أيضاً حشرات الأرض، فجعل الحية حنثاً على قولهم: قد أدتني دوابُّ رأسي: يعنون القمل؛ وعلى قوله تعالى: "مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتَهُ".

قال أبو المفضل العنبري: ما أراد إلا الحيات بأعيانها في هذا الموضع، فإن العقبان أسرع إلى أكل الحيات، من الحيات إلى أكل الفأر.

ويدلُّ على أنه إنما أراد رؤوس الحيات بأعيانها، قوله:

جَمَاجِمُهُنَّ كَالْخَشَلِ
النزيع

تَرَى قِطْعاً مِنَ الْأَحْنَاشِ
فيها

لأن رؤوس الحيات سخيفة، قليلة اللحم والعظام، فلذلك شبَّهها بالخشل النزيع، والخشل: المقل السخيف اليابس الخفيف. شعر فيه ذكر المقل والحتي قال خلف الأحمر:

على ما كان من مطل
وبخل

سقى حجاجنا نوء
الثريا

هم جمعوا النعال
فأحرزوها

وسدوا دونها باباً
بقفلٍ

إذا أهديت فاكهة
وشاةً

وعشر دجاجٍ بعثوا
بنعلٍ

ومسواكينٍ طولهما
ذراعٌ

وعشر من رديّ المقلِ
خشلٍ

فإن أهديتَ ذاك
ليحملوني

على نعلٍ فدقَّ الله
رجلي

أناسٌ تائهونَ، لهم
رواءٌ

تغيّمُ سماؤهم من غير
وبلٍ

إذا انتسبوا ففرعٌ من
قُرَيْشٍ

ولكنّ الفعّالَ فعّالُ
عكلٍ

والحتيّ، المقلُّ على وجهه، وقال أبو ذؤيب:

لا درّ درّي إن

قِرْفَ الحتّيّ وعندي

أطعمت نازلهم

البر مكنوز

للسنور فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان

وإذا قال القائل: فلان وضع كتاباً في أصناف الحيوان - فليس يدخل فيها الملائكة والجن، وعلى هذا كلام الناس. وللحيوان موضع آخر، وهو قول الله عز وجل في كتابه: "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان".

قد علمنا أن العجم من السباع والبهائم، كلما قربت من مُشاكلة الناس كان أشرف لها والإنسان هو الفصيح وهو الناطق. إطلاق الناطق على الحيوان وقد يشتقون لسان الحيوان الذي يُصوّت ويصيح، اسم الناطق إذا قرنوه في الذكر إلي الصامت، ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة، وهذا الاشتقاق، فإذا تهيأ من لسان بعضها من الحروف مقداراً يفضّل به على مقادير الأصناف الباقية، كان أولى بهذا الاسم عندهم، فلما تهيأ للقطة ثلاثة أحرف قاف، وطاء، وألف، وكان ذلك هو صوتها، سمّوها بصوتها، ثم زعموا أنها صادقة في تسميتها نفسها قطة، قال الكميّ:

كالناطقات
الصادقا

تِ الواسقاتِ مِنَ الدُّخَانِ

وقال الآخر وذكر القطاة:

طُرُوقاً وَبَاقِي اللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ مُسَدِّفٌ

وصادقةٍ قد

فجعلها مُخْبِرَةً، وجعل خبرها صدقاً، حين زعمت أنها قَطَاً؛ وإنه
كانت القطاة لم تَرْمِ ذلكِ.
والعرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهم الناسُ فهو بيانٌ،
إلا أن بعضه أحسنُ من بعض، والذي تهيأ للشاة قولها: ما،
ولذلك قال ذو الرُّمة:

داع يناية باسم الماء
مبغومٌ

لا يرفع الصَّوتَ إلا ما
تخونه

وقال أبو عبَّاد النميريّ لخربق العُميري، وكان يتعشقه وراه قد
اشترى أضحبةً، فقال:

فعلتَ فعل الجفاه

يا ذابح الماء ماه

أما رَحِمْتَ مِنَ المَو

تِ يا خَرِيْبِقِ شاه

والصبيان هم الذين يسمون الشاة: ماه، كأنهم سموها بالذي سمعوه منها، حين جهلوا اسمها.
وقيل لصبي يلعب على بابهم: من أبوك يا غلام؟ وكان اسم أبيه كلباً. فقال: وَوُ وَوُ.
وزعم صاحبُ المنطق، أن كل طائر عريض اللسان، والإفصاح بحروف الكلام منه أوجد.
ولابن آوى صياح يشبهُ صياحَ الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيأ للكلب مثل: عَفْ عَفْ، وَوُ وَوُ، وأشباه ذلك، وتهيأ للغراب القاف، وقد تهيأ للهازاردستان - وهو العندليب - ألوانٌ أخر، وقد تهيأ للبيغاء من الحروف أكثر، فإذا صرّت إلى السنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروفِ العددُ الكثير، ومتى أحببت أن تعرفَ ذلك فتسمِّع تجاوبَ السنانير، وتوعدّ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احص ما تسمعه وتتبعه، وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات؛ ثم ألفتها لكانت لغةً صالحةً الموضع، متوسطّة الحال، العلة في صعوبة بعض اللغات واللغات إنما تشتدّ وتعسرُ على المتكلم بها؛ على قدر جهله بأماكنها التي

وَوَضَعَتْ فِيهَا، وَعَلَى قَدْرٍ كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَقَلَّتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ
مَخَارِجِهَا، وَخَفَّتِهَا وَسَلَسَهَا، وَثَقَلَهَا وَتَعَقَّدَهَا فِي أَنْفُسِهَا، كَفَرَقَ
مَا بَيْنَ الزَّنْجِيِّ وَالْحُوزِيِّ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتَنَحَّسُ فِي بَيْعِ الزَّنْجِ
وَإِبْتِئَاعِهِمْ شَهْرًا وَاحِدًا فَيَتَكَلَّمُ بِعَامَّةِ كَلَامِهِمْ، وَيَبَايِعُ الْحُوزَ،
وَيَجَاوِرُهُمْ زَمَانًا فَلَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُمْ بِطَائِلٍ.
وَالجَمَلَةُ: أَنَّ مِنْ أَعْوَانِ الْأَسْبَابِ عَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ فَرَطُ الْحَاجَةِ
إِلَى ذَلِكَ، وَعَلَى قَدْرِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهَا فِي الْمَعَامَلَةِ يَكُونُ الْبُلُوغُ
فِيهَا، وَالتَّقْصِيرُ عَنْهَا.

مُنَاسِبَةُ الْهَرِّ لِلْإِنْسَانِ وَالسَّنُورِ يَنَاسِبُ الْإِنْسَانَ فِي أُمُورٍ: مِنْهَا
أَنَّهُ يَعْطِسُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَتَنَاءَبُ، وَمِنْهَا أَنَّهُ يَتَمَطَّى وَيَغْسِلُ وَجْهَهُ
وَعَيْنَيْهِ بِلُعَابِهِ، وَتَلْطَعُ الْهَرَّةُ وَبَرَ جِلْدٍ وَلِدَهَا بَعْدَ الْكِبَرِ، وَفِي
الصَّغَرِ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّ الدَّهَانَ تَجْرِي فِي جِلْدِهِ.
مَا يَتَهَيَّأُ لِلْغُرْبَانِ مِنَ الْحُرُوفِ وَيَتَهَيَّأُ لِبَعْضِ الْغُرْبَانِ مِنَ
الْحُرُوفِ وَالْحِكَايَةِ مَا لَا يَعْشِرُهُ الْبِغَاءُ.

نفع الفأر

وَزَعَمَتِ الْأَطْبَاءُ أَنَّ خُرْعَ الْفَأْرِ يُسْقَاهُ صَاحِبُ الْأَسْرِ فَيُطْلَقَ عَنْ
بَوْلِهِ، وَالْأَسْرُ هُوَ حُصْرُ الْبَوْلِ وَلَكِنْ لَا يُسَمَّى بِذَلِكَ، وَهُوَ الْأَسْرُ
بِالْأَلْفِ، دُونَ الْيَاءِ.

ويصيب الصبيَّ الحُصرَ فيحتمل من خُرءِ الفأرِ فيُطلق عنه، فقد
تهياً في خُرءِ الفأرِ دواعان لداعين قاتلين مُجهزين، ولذلك قيل
لأعرابيِّ قد اجتمعتُ فيه أوجاعُ شداد: أيّ شيءٍ تشتكى؟ قال:
أما الذي يعمدني فحُصرٌ وأُسْر.

استطراد لغوي

يقال: حَثَى الثور يَحْثِي حَثِيًا، وواحد الأختاء حِثِيٌّ كما ترى.
ويقال: حَزَق الطائر، وَذَرَق، وَمَزَق، وَزَرَق.
قال ابنُ الأعرابيِّ: لا يكون النَّجْوُ جَعرًا حتى يكون يابسًا.
ويقال: وَنَمَ الدُّبابُ، واسم نجوه: الونيم، وقال الشاعر:

كَأَنَّ وَنِيمَهُ نَقَطُ
الْمِدَادِ

وقد وَنَمَ الدُّبابُ عليه
حتى

وهو ونيم الدُّباب، وعُرَّة الطائر، وصوم النعام، وروث الحمار
وبعر البعير والشاة والظبي، وخثي البقر.
وقال الزُّبير: مَنْ أهدى لَنَا مِكتلاً من عُرَّةٍ أهدِيَا لَهُ مِكتلاً من
تمر.

قال: العُرَّة اسمٌ لجميع ما يكون من جميع الحيوان، ولذا قال
الزُّبير ما قال.

قال: ويقال: رَمَصَت الدجاجة، وذرقت، وسَلَحَت، فرذا صراروا
إلى الإنسان والفأرة قالوا: خرء الإنسان وخرء الفأرة، ويقال
خروءة الفأرة أدخلوا الهاء، فيه، كما قالوا ذكورة للذكران، وقد
يُستعار ذلك لغير الإنسان والفأرة، قالت دَخْتُوس بنتُ لقيط بن
زُرارة، في يوم شعب جبلة:

فَرَّتْ بَنُو أَسَدٍ خَرَوْ
عَ الطَّيْرِ عَن أَرْبَابِهَا

فلذلك يقال لبني أسد: خروء الطير، وقيل لهم: عبید العَصَا.
ببيت قاله صاحبهم بشر بن أبي خازم، قالها لأوس بن حارثة:

عَبِيدُ الْعَصَا لَمْ
يَتَّقُواكَ بِذِمَّةٍ
سَوَى سَيِّبِ سَعْدَى إِنَّ
سَيِّبَكَ وَاسِعٌ

ميسم الشعراء

فيحبُّ على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعْر مَضْرَّتَهُ، أن يتَّقِي
لسانَ أخصَّ الشعراء وأجهلهم شعراً بشطْر ماله؛ بل بما أمكن
من ذلك، فأما العربيُّ أو المولى الراوية، فلو خرج إلى الشعراء

من جميع ملكه لما عَنَّفْتَهُ.
والذي لا يكثرث لوقع نِبَالِ الشعر، كما قال البَاخْرَزِيّ:

نَ وَيَسْتَمْتَعُونَ
بِالنَّشَبِ

مَا لِي أَرَى النَّاسَ
يَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ

تَشْكُو جِرَاحَاتِ أَلْسِنِ
العَرَبِ

وَأَنْتَ مِثْلُ الحِمَارِ
أَبَهُمْ لَا

ولأمر ما قال حذيفة لأخيه، والرماح شوارع في صدره: إياك
والكلام المأثور.
وهذا مذهب فرعت فيه العرب جميع الأمم، وهو مذهب جامع
لأسباب الخير.

استطراد لغوي

قال: ويقال لموضع الغائط: الخلاء، والمذهب، والمخرج،
والكنيف والحش، والمرحاض، والمرفق.
وكل ذلك كناية واشتقاق، وهذا أيضاً يدلك على شدة هربهم من
الدناءة والفسولة، والفحش والقذع.
قال: وعن اليزيدي: رجع الرجل، من الرجيع.

وخبرنى أبو العاص عن يونس، قال: ليس الرجيع إلا رجيع
القول والسفر والجرّة، قال الله تعالى: "والسماء ذات الرجع"
وقال الهذلي وهو المتنخل:

ما تاخ في مُحْتَفَلٍ
يَحْتَلِي

أبيض كالرجع رسوبٍ
إذا

وفي الحديث: فلما قدمنا الشام وجدنا مرافقهم قد استقبل بها
القبلة، فكنا ننحرف ونستغفر الله،

شعر ابن عبدل في الفأرة والسنور

وقال ابن عبدل في الفأرة والسنور:

بسجالي من سيبك
المقسوم

يا أبا طلحة الجواد
أعثنى

مفلس قد علمت ذاك
عديم

أحي نفسي فديك
نفسى فإني

أجره إن فعلت ذاك
عظيم

أو تطوع لنا بسلف
دقيق

ما قضى الله في طعام
اليتيم

قد علمتم فلا تعامس
عني

أراد: لا تعامسوا، فاكتفى بالضمّة من الواو، وأنشد:

وكان مع الأطباء الأساءة

وكتاب منمنم كالوشوم

قد رقعنا خروقه بأديم

هو لحاف لكلّ ضيف كريم

يذر الشيخ رحمة ما يقوم

ولحافي حتى يغور النجوم

ذاك قسم عليهم معلوم

ولقد كان ساكناً ما يريم

لا تليحوا شيوخكم في السّموم

أهو الحقّ كلّ يوم تصوّم

ناسِ بِإِذْنِ وَأَنْتَ فِينَا نَمِيمٌ
وَقِرَادٍ مَخِيسٍ مَزْمُومٌ
عَلِمُوهُ بَعْدَ الْفَارِ الرَّسِيمِ
يَا لِقَوْمِي لِأَنْفِهِ الْمَخْطُومِ
يَا لِقَوْمِي لِبَيْتِي الْمَهْدُومِ
قَائِمٌ فَوْقَ بَيْتِنَا بِقُدُومِ
كَانَ قَدَمًا لَجْمَعِكُمْ مَعْلُومِ
مَسْكِنًا تَحْتَ تَمْرِهِ الْمَرْكُومِ
تَذْرَانَا وَجَمْعُنَا كَالْهَزِيمِ
إِنْ ذَا مِنْ رَزِيَّتِي لِعَظِيمِ
أَبْصَرَ الْعَنْكَبُوتَ فِيهِ يَعُومِ
زَبْدٌ فَوْقَ رَأْسِهِ مَرْكُومِ
أَنْ أُغْثِي فَأَنْتِي مَظْلُومِ

مخرجاً

كفه ينادي ذباباً

1979

قال

من نبیذ یشمه المزكوم
ذرنی فلن أطق دنواً

وقال فی الفأر والسنور:

قد كان عضباً مقوهاً
لسنا

قد قتال سنورنا
وأعهدُ

لحنطت واشترى لها
كفناً

لو أصبحت عندنا
جنازتها

فيهم كريبٌ بيكي
وقام لنا

ثم جمعنا صحابتي
وغدوا

كانت لجرذانِ بيتنا
شحنا

كلُّ عجوزٍ حلو
شمائلها

أو جردٍ ذي شوارب
أرنا

من كلِّ حدباءِ ذاتِ
خشخشةٍ

كانت لميثاءِ حقبةً

سقياً لسنورةٍ فجعتُ

ضروب الفأر

قال: والفأر ضروب: فمنها الجرذان والفأر المعروفان، وهما كالجواميس والبقر، وكالبُخت والعِراب، ومنها الزباب، ومنها الخُذ، واليرابيع شكلٌ من الفأر، اسم ولد اليربوع درص، مثل ولد الفأر.

ومن الفأر فأرة المسك، وهي دويبةٌ تكونُ في ناحية تُبَّت، تصادُ لنوافجها وسُررِها، فإذا اصطادها صائدٌ عصب سُرَّتْها بعصاب شديد، وسُرَّتْها مدلاة، فيجتمع فيها دمها فإذا أحكم ذل ذبحها. وما أكثر من يأكلها - فإذا ماتت قور السرة التي كان عصبها له والفأرة حية، ثم دفنها في الشعير حتى يستحيل ذلك الدم المحتقن هناك، الجامد بعد موتها، مسكاً ذكياً، بعد أن كان ذلك الدم لا يُرام نَتناً.

قال: وفي البيوت أيضاً قد يوجد فأرٌ مما يقال له: فأر المسك، وهي جرذانٌ سودٌ ليس عندها إلا تلك الوائحة اللازمة له. قال: وفي الجرذان جنسٌ لها عبتٌ بالعقود والشنوف، والدرهم والدنانير، على شبيهه بالذي عليه خُلق العققق؛ إلا أن هذه الجرذان تفرح بالدنانير والدرهم، وبخشخاش الحلي، وذلك

أنها تخرجها من حجورها في بعض الزمان، فتلعب عليها
وحواليها، ثم ترقلها واحداً واحداً، حتى تُعيدها عن آخرها إلى
موضعها.

فزعم الشَّرْقِيُّ بِنِ الْقُطَامِيِّ - وَقَدْ رَوَّهُ عَنْ شَوَكَرٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ
أَهْلِ الشَّامِ اطَّلَعَ عَلَى جُرْذٍ يُخْرِجُ مِنْ جُحْرِهِ دِينَارًا دِينَارًا، فَلَمَّا
رَأَاهُ قَدْ أَخْرَجَ مَالًا صَالِحًا اسْتَخْفَهُ الْحَرِصُ، فَهَمَّ أَنْ يَأْخُذَهُ، ثُمَّ
أَدْرَكَهُ الْحَزْمُ، وَفَتَحَ لَهُ الرِّزْقَ الْمَقْسُومَ بَابًا مِنَ الْفِطْنَةِ، فَقَالَ:
الرَّأْيُ أَنْ أَمْسِكَ عَنْ أَخْذِهِ مَا دَامَ يَخْرُجُ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ يُدْخِلُ فَعِنْدَ
أَوَّلِ دِينَارٍ يَغِيْبُهُ وَيُعِيدُهُ إِلَى مَكَانِهِ أَثْبُ عَلَيْهِ، فَأَجْتَرَفُ الْمَالَ.
قَالَ: فَفَعَلْتُ وَعَدْتُ إِلَى مَوْضِعِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ مِنْهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ
يُخْرِجُ إِذْ تَوَكَّأَ الْإِخْرَاجَ، ثُمَّ جَعَلَ يَرْقُصُ وَيَثْبُ إِلَى الْهَوَاءِ،
وَيَذْهَبُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً سَاعَةً، ثُمَّ أَخَذَ دِينَارًا فَوَلَّى بِهِ، فَأَدْخَلَهُ
الْجُحْرَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قَمْتُ إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذْتُهَا، فَلَمَّا عَادَ
لِيَأْخُذَ دِينَارًا آخَرَ فَلَمْ يَجِدِ الدَّنَانِيرَ أَقْبَلَ يَثْبُ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ
يَضْرِبُ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ، حَتَّى مَاتَ.
وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ النِّسَاءِ وَأَشْبَاهِ النِّسَاءِ.

باب آخر يدعونه للفأر

وهو الذي ينظر فيه أصحاب الفِرَاسَة في قرض الفأر، كما ينظر بعضهم في الخيلان، وفي الأكتاف، وفي أسرار الكفّ:
ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزلَ في بعض القرى، فقرض الفأر مسحاً له كان يجلسُ عليه، فبعث به ليرفأً، فقال لهم الرفاء: إنّ هنا أهل بيتٍ يعرفون بقرضِ الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير أو شر، فلا عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه، فبعث المنصورُ إلى شيخهم، فلما وقعت عينه على موضعِ القرضِ وثب وقام قائماً ثم قال: من صاحبُ هذا المسح؟ فقال المنصور: أنا، فقام ثم قال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةَ الله وبركاته والله لتليّنَ الخِلافةَ أو أكون جاهلاً أو كذاباً.
ذكر هذا الحديث عمرو بن مجّع السّكوني الصّرّيمي وقد قضى على بعض البلدان.

فأرة المسك

وسألت بعضَ العطارين من أصحابنا المعتزلة عن فأرة المسك فقال: ليس بالفأرة، وهو بالخِشْف أشبهه، ثم قصّ عليّ شأن المسك وكيف يُصطنع، وقال، لولا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد تطيّبَ بالمسكِ لَمَا تطيّبتُ به، فأما الزبادُ فليس

مما يقرب ثيابي منه شيء. قلت له: وكيف يرتضع الجدي من لبن خنزيرة فلا يحرم لحمه؟ قال: لأن ذلك اللبن استحال لحمًا، وخرج من تلك الطبيعة، ومن تلك الصورة، ومن ذلك الاسم، وكذلك لحوم الجلالة، فالمسك غير الدم، والخل غير الخمر، والجوهر ليس يحرم بعينه، وإنما يحرم للأعراض والعلة، فلا تقزز منه عند تذكر الدم الحقيق؛ فإنه ليس به، وقد تتحول النار هواءً، والهواء ماءً، فيصير الشبه الذي بين الماء والنار بعيداً جداً.

بيت الفار

والجرذان لا تحفر بيوتها على قارعة طريق، وتجتنب الخفض؛
لمكان المطر، وتجتنب الجواد؛ لأن الحوافر تهدم عليها بيوتها،
فإذا أخرجها وقع حافر فرس، مع هذا الصنيع، دل ذلك على
شدة الجري والوقع، وقال امرؤ القيس يصف فرسه:

وللزر منه وقع أهوج منعب

فل

لسوط الهوب وللرجل درة

يدُرُّ كحُذْرُوفِ الوليدِ المثقُبِ

فأ

درك، لَمْ يعرق مناطُ عذاره

إلى جَدَدِ الصحراءِ من شدِّ مُركبِ

تر

ي الفأر في مستعدك الأرضِ لاجئاً

خفاهنَّ: أظهرهنَّ، وقرأ بعضهم: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ
أَخْفِيهَا"، بفتح الألف؛ أي أظهرها، وقال امرؤ القيس:

وإن تبعثوا الحربَ لا
نقُعدُ

فإن تدفنوا الداءَ لا
نخُفه

وقال أعرابي: إن بني عامرٍ جعلتني على حنديرة أعينها، تريد
أن تختفي دمي.

استطرد لغوي وقال أبو عبيدة: أربعة أحرف تهمزها عُقيل من
بين جميع العرب، تقول: فأرة، ومُؤسَى، وجُونَة، وحُوت.
فأصناف ما يقع عليه اسمُ الفأرة: فأرة البيش، وفأرة البيت،
وفأرة المسك، وفأرة الإبل، وفي فأرة المسك يقول حميدٌ
الأرقط:

ذَا أَرَجَ شَقَقَ عَنْهُ
الْفَأْرُ

مَمْطُورَةٌ خَالَطَ مِنْهَا
النَّشْرُ

وفي فارة الإبل قال الشاعر:

إِذَا بَدَأَ مِنْ ضِيَاءِ الصُّبْحِ
تَبْشِيرُ

كَأَنَّ فَاِرَةً مِسْكَ فِي
مَبَاءَتِهَا

وهذا شبيهة بالذي قال الراعي - وليس به -:

بِأَحْقَفَ مِنْ أَنْقَاءِ
تُوضِحُ هَائِلِ

تَبَيَّتْ بَنَاتُ الْفَقْرِ عِنْدَ
لَبَائِهِ

جَدِيَّةٌ مِسْكِ فِي مَعْرَسِ
قَافِلِ

كَأَنَّ الْقِطَارَ حَرَّكَتْ
فِي مَبِيئِهِ

الأصمعي وأبو مهدية قال الأصمعيّ: قلت لأبي مهدية: كيف تقول: لا طيب إلا المسك؟ قال: فأين أنت من العنبر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك والعنبر، قال: فأين البان؟ فقلت: لا طيب إلا المسك والعنبر والبان، قال: فأين أنت عن أدهان بحجر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك، والعنبر، والبان، قال:

فأين أنت عن أدهان بحجر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا السك،
والعنبر، والبان، وأدهان بحجر، قال: فأين فأرة الإبل صادرة؟
قال الأصمعي: وفأرة الإبل.

فأرة البيش والسمندل

وفأرة البيش دويبة تغذي السموم فلا تضرها، والبيش سم،
وحكمه حكم الطائر الذي يقال له: سمندل؛ فإنه يسقط في النار
فلا يحترق ريشه.
ما لا يقبل الاحتراق ونُبتت عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال:
لو أخذ الطُحلب فجفف في الظل، ثم أسقط في النيران لم
يحترق.
ولولا ما عاينوا من شأن الطلق والعود الذي يُجاء به من كحر
لاشتد إنكارهم.
وزعم ابن أبي حرب أن قيساً راهن على أن الصليب الذي في
عُنقه من خشب، أنه لا يحترق؛ لأنه من العود الذي كان صلب
عليه المسيح، وأنه كان يفتن ناساً من أهل النظر، حتى
فطن له بعض المتكلمين، فأتاهم بقطعة عود يكون بكرمان،
فكان أبقى على النار من صليبه.

مساوي السنائير

قال صاحب الكلب: والسنور لصّ لئيم، وشره خؤون، فمن ذلك أن صاحب المنزل يرمي إليه ببعض الطعام، فيحتمله احتمال المريب، واللصّ المغير، حتى يولج به خلف حُبّ أو راقود، أو عدلٍ أو حطب، ثم لا يأكله إلا وهو يتلفت يميناً وشمالاً، كالذي يخاف أن يسلب ما أعطي، أو يُعثر على سرّفته فيعاقب، ثم ليس في الأرض خبثة إلا وهو يأكلها، مثل الخنافس والجعلان، وبنات وردان، والأوزاغ، والحيات، والعقارب، والفأر، وكلّ نتن وكل خبثة، وكلّ مستقذر. وهذه الأنعام تدخل الغيض، فتجتنب مواضع السموم بطبائعها، وتتخطاها ولا تلتفت لفتها، وربما أشكل الشيء على البعير، فيمتحنه بالشمة الواحدة، فلا تغلط الإبل إلا في البيش وحده، ولا تغلط الخيل إلا في الدفلى وحده.

والسنائير تموت عن أكل الأوزاغ والحيات والعقارب، وما لا يحصى عدده من هذه الحشرات، فهذا يدلُّ على جهل بمصلحة المعاش، وعلى حسّ غليظ وشره شديد.

هَيْجَ الحَيوانِ قالوا: وكل أنثى من جميع الحيوان، ما خلا المرأة، فلا بدّ لها من هيج في زمان معلوم، ثم لا يُعرف ذلك

منها وفيها إلا بالدلائل والآثار، أو ببعض المعاينة.
وإناتُ السنانير، إذا هجن للسَّفاد، أدَّين بصياحهنَّ أهلَ القبائل
ليلاً ونهاراً، بشيءٍ ظاهرٍ قاهرٍ عليّ، لا يعتريهن فترةٌ ولا مَلالةٌ
ولا سامةٌ، فربَّ رجلٍ حُرٍّ شديدٍ الغيرة، وهو جالسٌ مع نسائه
وهنَّ يتردَّدنَ على مثل هذه الهيئة، ويصرُخُن في طلب السَّفاد،
فكم من حرةٍ قد خجلت، وحرٌّ قد انتقضت طبيعته.

وليس لشيءٍ من فحولتها مثلُ ذلك، فكل جنسٍ في العالم من
الحيوان فذكورته أظهر هيجاً، إلا السنانير.
وليس لشيءٍ من فحولة الأجناس مثلُ الذي للجمل من الإزباد،
وهجران الرِّعي، وترك الماء، حتى تنضمَّ أياضه، ويتورَّم
رأسه، ويكون كذلك الأيام الكثيرة، وهو في ذلك الوقت لو حمَّل
على ظهره - مع امتناعه شهراً من الطعام - ثلاثة أضعافٍ
حمِّله لحملاًها.

المكي وإسماعيل بن عَزَّوان ونظر المكيِّ إلى جملٍ قد أزدبَ
وتلَّغَم، وطار على رأسه من كَشَقِّ البرسِ، وقد زَمَّ بأنفه، وهو
يهدر ويقيب، لا يعقل شيئاً إلا ما هو فيه، فقال لإسماعيل بن
عزَّوان: والله لو دِدت أن أهل البصرة رأوني يوماً واحداً إلى
الليل على هذه الصفة، وأنِّي خرجتُ من قليلٍ مالي وكثيره فقال
له إسماعيل: وأي شيء لك في ذلك؟ قال: كنت والله لا أصبح

حتى يوافي داري جميع نساء أهل البصرة، وجواريك فيهنّ فلا
أبدأ إلا بهنّ قال إسماعيل: إنك والله ما سبقتنني إلا إلى القول،
وأما النية والأمنيّة فأنا والله أتمنّى هذا منذ أنا صبيّ.
حال بعض الحيوان عند معاينة الأنثى وللحمار والفرس عند
معاينة الحِجْر والأتان هَيْجٌ وصياحٌ، وقلق وطلب، والجملُ يقيم
على تلك الصّفّة عاين أو لم يعاين، ثم يُدنى من هذه الذكورة
إنائها فلا تسمح بالإمكان إلا بعد أن تسوى وتُدَارَى.

مقارنة بين السنور والكلب

قالوا: والسنانير إذا انتقل أربابها من دارٍ إلى دارٍ، كان وطنها
أحبّ إليها منهم، وإن أثبتت أعيانهم، فإنّ هم حولوها فأنكرت
الدار لم تقمّ على معرفتهم، فربما هربت من دارهم الحادثة ولم
تعرف دارهم الأولى، فتبقى متردّدة: إما وحشية، وإما مأخوذة،
وإما مقتولة.

والكلب يخلّي الدار، ويذهب مع أهل الدار، والحمام في ذلك
كالسنور.

اختلاف أثمان السنور

قال صاحب الكلب: السنور يسوى في صغره درهماً، فإذا كبر
لم يسو شيئاً، وقال العمي:

سَفاهاً وما قد رَدَّتْ فِيهِ
بِأفراطِ

فإنَّكَ فيما قد أتَيْتَ
من الحَنَّا

صغيراً فلما شَبَّ بِبِعِ
بِقيراطِ

كسَنورِ عبدِ الله بِبِعِ
بِدرهمِ

وصاحب هذا الشعر، لو عَبَرَ مع امرئِ القيسِ بنِ حُجرٍ والنابغةِ
الدُّبَيَّاني، وزهيرِ ابنِ أبي سُلَمَى، ثم مع جريرِ والفرزدقِ،
والراعي والأخطلِ، ثم مع بشارِ وابنِ هَرَمَةَ، وابنِ أبي عُيَينةِ،
ويحيى بنِ نوفلِ وأبي يعقوبِ الأعورِ، ألف سنة - لما قال بيتاً
واحداً مرضياً أبداً.

وقد يضاف هذا الشعر إلى بشارِ، وهو باطل.
حُلاقِ الحيوانِ وزعم لي مَنْ لا أَرُدُّ خِبرَهُ، أن الحُلاقَ قد يَعْرِضُ
للسنانيرِ، كما يَعْرِضُ للخنازيرِ والحميرِ.

وزعم لي بعضُ أهلِ النظرِ، أنَّ الزَّنجَ أشبهوا الحميرَ في كلِّ
شيءٍ، حتى في الحُلاقِ؛ فإنه ليس على ظهرها زنجيٌّ إلا وهو
حَلَقِيٌّ.

وقد غلط، ليس عليها زنجي عليه مؤونة من أن يُنَاك، وليس هذا تأويلَ الحُلاق، وتأويلُ الحُلاق أن يكون هو الطالب. والنبذ يهتك ستر الحَلقي، وينقضُ عزم المتجمل، وهم يشربون النبيذ أبداً، وسوءُ الاحتفال له، وسرعة السكر إليهم عامٌ فيهم. وعندنا منهم أمم، فلو كان هذا المعنى حقاً لكان علمه ظاهراً، فخبّرني صاحبنا هذا أن في منزل أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي هرين ذكرين عظيمين، يكوم أحدهما الآخر، وذلك كثيراً ما يكون، وأن المنكوح لا يمانع الفاحح، ولا يلتمسُ منه مثل الذي يبذله له.

أكل الهرة أولادها

قالوا: والهرة تأكل أولادها، فكفاك بهذه الخصلة لئوماً وشراً، وعقوقاً وغلظ قلب! وقال السيد الحميري - وذكر مسير عائشة، رضي الله تعالى عنها، إلى البصرة مع طلحة والزبير، حين شهدت ما لم يشهدا، وأقدمت على ما نكصا عنه:

تُرْجِي إِلَى الْبَصْرَةِ
أَجْنَادَهَا

جَاءتْ مَعَ الْأَشْقِينِ فِي
هُودِجٍ

كَأَنَّهَا فِي فِعْلِهَا هِرَّةٌ

تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ
أَوْلَادَهَا

ولبئس ما قال في أمّ المؤمنين و بنت الصديق وقد كان قادراً
على أن يوفّر على عليّ - رضي الله عنه - فضله، من غير أن
يشتم الحواريين، وأمّهات المؤمنين، ولو أراد الحقّ لسار فيها
وفي ذكرها سيرة علي بن أبي طالب، فلا هو جعل عليّاً قدوة،
ولا هو رعى للنبيّ صلى الله عليه وسلم حرمة.

وذكورة سنانير الجيران تأكلُ أولاد الهرة، ما دُمن صغاراً أو
فوق الصغار شيئاً، وتقتلها وتطلبها أشدّ الطلب، والأمهات
تحرسها منها وتقاتلُ دونها، مع عجزها عن الذكورة.
الألوان الأصيلة في الحيوان قال أبو إسحاق: السنور الذي هو
السنور، هو المنمر، وهو الأنمر، وهو الذي يُقال له: البقاليّ،
وذلك لكثرة اتخاذ البقالين لها، من بين سائر السنانير، لأنها
أصيد للفأر.

قال: وجميع ألوان السنانير إنما هي كالثّيات الداخلة على
اللون.

قال: وكذلك الحمار، إنما هو الأخضر، والألوان الأخرُ داخلةٌ
عليه.

قال: فأما الأسدُ فليستْ بذاتِ شياتٍ، ولا تعدو لوناً واحداً،
ويكونُ ذلك اللونُ متقارباً غير متفاوِتٍ.

أحوال إناث السنائير وذكورها

قال: ومن فضيلةٍ ما في السنائير، أنها تضعُ في السنّةِ مرتين
وكذلك الماعزة في القرى، إلا ما داس الحَبَّ.
قال: ويحدثُ لإناث السنائير من القوة والشجاعة إذا كامها
الفحل وهرب منها عند الفراغ فلو لِحَقَّتْهُ قَطَّعَتْهُ.
ويحدثُ للذكر استخذاءً، كما يحدثُ للذئب القوي إذا ناله الخدشُ
اليسير، ويحدث للضعيف من الجرأة عليه حتى يثبَ عليه
فيأكله؛ فلا يمتنع منه، كما قال الشاعر:

بصاحبه يوماً أحالَ
على الدمِ

وكنْتَ كذئب السَّوءِ لما
رأى دماً

ويحدث مثلُ ذلك للجرذ إذا خُصِيَ، من الحَرْدِ على سائر
الجرذان، حتى يثب فيقطِّعها، وتهرب منه ضعفاً عنه.
وسائرُ الحيوانِ إنما يعتريه الضَّعْفُ عن أمثاله إذا خُصِيَ وترك
أمثاله على حالها.
قول زَرَادِشْتِ في الفأر والرَّدُّ عليه ثم رجَعنا إلى قول زَرَادِشْتِ

في الفأر.

زعم زَرَادُشْتُ أَنَّ الْفَأْرَةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَنَّ السَّنَّورَ مِنْ خَلْقِ الشَّيْطَانِ، فَقِيلَ لِلْمَجُوسِ: يَنْبَغِي عَلَى أَصْلِ قَوْلِكُمْ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ خَيْرًا كُلَّهُ وَنَفْعًا كُلَّهُ، وَمَرْفَقًا كُلَّهُ، وَيَكُونَ مَا خَلَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَنَحْنُ نَجِدُ عَيَانًا أَنَّ الَّذِي قَلْتُمْ بِهِ خَطَأً، رَأَيْنَا النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ الْفَأْرَ بِلَاءٌ ابْتَلَوْا بِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا بَدَأً مِنَ الْاِحْتِيَالِ لَصَرْفِ مَضْرَّتِهِ، كَالدَّاءِ النَّازِلِ الَّذِي يَلْتَمِسُ لَهُ الشِّفَاءَ، ثُمَّ وَجَدْنَاهُمْ قَدْ أَقَامُوا السَّنَانِيرَ مَقَامَ التَّدَاوِيِّ وَالتَّعَالُجِ، وَأَقَامُوا الْفَأْرَ مَقَامَ الدَّاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَأَمَرَ بِالتَّدَاوِيِّ مِنْهُ، فَاجْتَلَبُوا لِذَلِكَ السَّنَانِيرَ وَبَنَاتِ عَرَسٍ، ثُمَّ نَصَبُوا لَهَا أَلْوَانَ الصِّيَادَاتِ، وَصَنَعُوا لَهَا أَلْوَانَ السُّمُومِ وَالمَعْجُونَاتِ الَّتِي إِذَا أَكَلَتْ مِنْهَا مَاتَتْ، وَاسْتَفْرَهُوا السَّنَانِيرَ وَاخْتَارُوا الصِّيَادَاتِ.

وَاجْتَبَوْا السَّنَّورَ دُونَ ابْنِ عَرَسٍ، لِأَنَّ ابْنَ عَرَسٍ يَعْمَلُ فِي الْفَأْرِ وَالطَّيْرَ كَعَمَلِ الذَّنْبِ بِالْغَنَمِ، فَأَوَّلُ مَا يَصْنَعُ بِالْفَرِيْسَةِ أَنْ يَذْبَحَهَا، ثُمَّ لَا يَأْكُلُهَا إِلَّا فِي الْفَرَطِ، وَالسَّنَّورُ يَقْتُلُ نَحْمًا يَأْكُلُ، فَالْفَأْرُ مِنَ السَّنَّورِ أَشَدُّ فَرَعًا، وَهُوَ الَّذِي قُوبِلَ بِهِ طِبَاعُهَا وَطِبَاعُهُ. وَكَمَا أَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ الدَّجَاجَ كَثِيرٌ، وَأَنَّ الَّذِي جُعِلَ بِإِزَائِهِ ابْنُ آوَى، وَكَمَا أَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ الْغَنَمَ كَثِيرٌ، وَالَّذِي جُعِلَ بِإِزَائِهَا الذَّنْبُ.

والأسد أقوى منه على النعجة، والنعجة من الذئب أشد فرقل
والحيات تُطالبُ الفأرَ والجُرذانَ، وهي من السنور أشد فرعاً.
وإن كان في الجُرذان ما يُساوي السنور فإنها منه أشد فرعاً.
فإن كنتم إنما جعلتموه من خلق الشيطان لأكله صنفاً واحداً من
خلق الله - فالأصناف التي يأكلها من خلق الشيطان أكثر.
وزعم زرادشت أن السنور لو بال في البحر، لقتل عشرة آلاف
سمكة.

فإن كان إنما استبصر في ذمه في قتل السمك فالسمك أحق بأن
يكون من خلق الشيطان؛ لأن السمك يأكل بعضه بعضاً، والذكر
يتبع الأنثى في زمان طرح البيض، فكلما قذفت به التهمة، وإن
غرق إنسان في الماء، بحراً كان أو وادياً، أو بعض ذوات
الأربع - فالسمك أسرع إلى أكله من الضباع والنسور إلى
الجيف.

وعلى أن اعتلاله على السنور، وقوله: لو بال في البحر قتل
عشرة آلاف سمكة، فما يقول فيمن زعم أن الجرد لو بال في
البحر قتل مائة ألف سمكة؟ وبأي شيء يبين منه؟ وهل ينبغي
لمن كسر هذا القول الظاهر الكسر، المكشوف الموق أن
يفرح؟ وهل تقر الجماعة والأمم بأن في الفأر شيئاً من
المرافق؟ وهل يُمازج مضرتها شيء من الخير وإن قل؟ أو

ليست الفأر والجردان هي التي تأكل كُتَبَ الله تعالى، وكتب العلم، وكتب الحساب؛ وتقرض الثياب الثمينة، وتطلب سرَّ نوى القطن، وتُفسد بذلك اللُّحْفَ والدَّواويج والجباب، والأقبية والخفاتين، وتحسُّ الأدهان، فإن عجزت أفواؤها أخرجتها بأذنانها؟ أو ليست التي تنقب السلال وتقرض الأوكية وتأكل الجُرب حتى يُعلِّقَ المتاع في الهواء إذا أمكن تعليقه؟. وتجلبُ إلى البيوت الحيات؛ للعداوة التي بينها وبين الحيات، وحرص الحيات على أكلها، فتكون سبباً في اجتماعها في منازلهم، وإذا كثرن قتلن النفوس.

وقال ابن أبي العجوز: لولا مكان الفأر لما أقامت الحيات في بيوت الناس، إلا ما لا بال به من الإقامة.

وتقتل الفسيل والنخل، وتهلك العلف والزرع، وربما أهلكن القَرَّاح كله وحملن شعير الكدس وبره.

أو ليس معلوماً من أخلاقها اجتذاب فتائل المصاييح رغبةً في تلك الأدهان، حتى ربما جذبتها جهلاً وفي أطرافها الآخر السرج تستوقد فتحرق بذلك القبائل الكثيرة، بما فيها من الناس والأموال والحيوان؟.

وهي بعد أكل للبيض وأصناف الفِراخ من الحيات لها.

فكيف لم تكن من هذه الجهة من خَلْق الشيطان؟.

هذا، وبين طباعها وطباع الإنسان مُنافرةً شديدةً، ووَحْشَةً
مفْرِطَةً، وهي لاتَأْسُ بالناس وإن طالتْ معاشَتُها لهم والسَّنُورُ
أَنَسُ الخلق بهم.

وكيف تأنس بهم وهم لا يُقلعون عن قتلها ما لم تقلع هي عن
مَسَاءَتهم؟ فلو كنَّ مما يوكل لكان في ذلك بعض المرفق،
فكيف وإنما لتلقى في الطريق مَيِّتَةً، فما يعرض لها الكلبُ
الجائع.

فالأمم كلها على التفادي منها واتخاذ السنانير لها.
وزرَّادُشت بهذا العقل دعا الناس إلى نكاح الأمهات، وإلى
التوضؤ بالبول، وإلى التوكيل في نيك المُغيبات، وإلى إقامة
سُور للسُّنْبِ، وصاحب الحائض والنفساء.
علة نجاح زرادشت ولولا أنه صادف دهرًا في غاية الفساد،
وأُمَّةً في غاية الهُعد من الحرية ومن الغيرة والألفة، ومن
التقرُّز والتنظف، لما تمَّ له هذا الأمر.

وقد زعم ناسٌ أن ذلك إنما كان وإنما تمَّ لأنه بدأ بالملك؛ فدعاه
على قدر ما عرَف من طباعه وشهوته وخُلُقهِ، فكان الملكُ هو
الذي حَمَلَ على ذلك رعيَّته.

والذي قال هذا القول ليس يعرف من الأمور إلا بقدر ما باين به
العامَّة؛ لأنه لا يجوز أن يكون الملكُ حملَ العامَّة على ذلك، إلا

بعد أن يكون زَرَادِشْتُ أُلْفَى على ذلك الفسادِ أَجْنَادَ الْمَلِكِ، ولم يكن الملك ليقوى على العامة بأجناده، وبعشرة أضعاف أجناده، إلا أن يكون في العامة عالمٌ من الناس، يكونون أعواناً للأجناد على سائر الرعية. وعلى أن الملوك ليس لها في مثل هذه الأمور عِلَّةٌ تدعو إلى المخاطرة بملكها، وإنما غاية الملوك كل شيء لا بد للملوك منه، فأما ما فضل عن ذلك فإنها لا تخاطر بأصول الملك تطب الفضول، إلا من كان مُلكه في نصاب إمامة، وإمامته في نصاب نبوة، فإنه يتبع كل شيء توجبه الشريعة، وإن كان ذلك سبيل الرأي؛ لأن الذي شرع الشريعة أعلم بغيب تلك المصلحة، وقد ينبغي أن يكون ذلك الزمان كان أفسد زمان، وأولئك الأهل كانوا شرراً أهل، ولذلك لم تر قط ذا دين تحوّل إلى المجوسية عن دينه، ولم يكن ذلك المذهب إلا في شقهم وصقّعهم من فارس والجبّالِ وخراسان، وهذه كلها فارسية.

أثر البيئة في العقيدة فإن تعجّبت من استسقاطي لعقل كِسْرَى أبرويز وآبائه، وأحبائه وقرايينه وكتّابه وأطبائه، وحكمائه وأساورته - فإني أقول في ذلك قولاً تتعرف به أني ليس إلى العصبية ذهبت.

اعلم أني لم أعن بذلك القول الذين ولدوا بعد على هذه المقالة،

ونشئوا على هذه الديانة، وعُدوا بهذه النحلة، ورُبوا جميعاً
على هذه الملة؛ فقد علمنا جميعاً أن عقول اليونانية فوق
الديانة بالدهرية والاستبصار في عبادة البروج والكواكب؛
وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البدن. وعبادة البِدَّة، وعقول
العرب فوق الديانة بعبادة الأصنام والخشب المنجور، والحجر
المنسوب، والصخرة المنحوتة.

فداء المنشأ والتقليد، داءٌ لا يُحسِنُ علاجَه جالينوس ولا غيره
من الأطباء، وتعظيم الكبراء، وتقليد الأسلاف، وإلف دين
الآباء، والأنس بما لا يعرفون غيره، يحتاج إلى علاج شديد،
والكلام في هذا يطول.

فإن آثرت أن تتعجب، حتى دعاك التعجب إلى ذكر أبرويز -
فاذكر سادات قريش، فإنهم فوق كسرى وآل كسرى.

دفاع صاحب السنور

وقال المحتج للسناني: قد قالوا: أبر من هرة وأعق من ضب،
وهذا قول الذين عاينوها تأكلُ أولادها، وزعموا أن ذلك من
شدة الحب لها، وقال بعضهم: إنما يعترئها ذلك من جنون
يعترئها عند الولادة، وجوع يذهبُ معه علمها بفرق ما بين
جرائها وجرء غيرها من الأجناس، ولأنها متى أُشْرِعتْ أو

أطعمت شِطْرَ شِبَعِهَا لم تعرض لأولادها، والرد على الأمم
أمثالها عملٌ مسخوط، والعربُ لا تتعصب للسنور على الضبِّ؛
فَيُتَوَهَّمُ عليها في ذلك خلافُ الحقِّ، وإنما هذا منكم على جهة
قولكم في السنور إذا نَجَتْ لنَجْوِهِ ثم ستره، ثم عاودَ ذلك المكانَ
فشمَّه فإذا وجد رائحةً زاد عليه من التراب، فقلتم: ليس الكرمَ
وستر القبيح أراد، وإنما أراد تأنيس الفأر، فنحن لا ندعُ ظاهر
صنيعه الذي لا حكم له إلا الجميل لما يدعي مدع من تصاريفِ
الضمير، وعلى أن الذي قَلْتُمُوهُ إن كان حقاً فالذي أعطيتموه
من فضيلة التدبير أكثر مما سلَبْتُمُوهُ من فضيلة الحياء.

العيون التي تسرج بالليل قال: والعيون التي تُسرج باللي: عيون
الأسد، والأفاعي؛ والسنانير، والنُّمور.

والأسدُ سُجْرُ العيون، وعيون السنانير منها زُرْق، ومنها
ذهبية، كعيون أحرار الطير وعِناقِها، وعيون الأفاعي بين
الزُرْق والذهبية، وقال حسان بنُ ثابت:

نُجُومُ الثَّرِيَّا أَوْ عُيُونِ
الضِّيَاوِنِ

ثَرِيدٌ كَأَنَّ السَّمْنَ فِي
حَجْرَاتِهِ

الضِّيُونِ: السَّنُور.

تحقيق في الألوان وإذا قال الناس: ثوب أزرق فإنهم يذهبون

إلى لون واحد، وإذا وصفوا بذلك العينَ وَقَعَ على لونين؛ لأن
البازي يسمى أزرق وكذلك العقاب، والزُّرْقُ، وكل شيء ذهبيُّ
العين، فإذا قالوا: سنور أزرق لم يُدْرَ، أذهبوا إلى ألوان الثياب
أم إلى ألوان عيون البزاة.
وقد قال صُحَارُ العبدِيُّ حين قال له معاوية: يا أزرق قال:
البازي أزرق، وأنشد:

ولا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ كَذَاكَ عِتَاقُ الطَيْرِ شَكْلُ
شُكْلَةِ عَيْنِهَا عيونها

والذهب قد يقال له أصفر، ويقال له أحمر.
وقال بعض بني مَرْوَانَ لبعض ولد متمم بن نويرة: يا أحمر
قال: الذهب أحمر، فلذلك زعم أن عِتَاقَ الطيرِ شَكْلُ عيونها.
وقال الأخطل:

وما زالت القَتْلَى تَمُورُ بِدِجْلَةٍ حَتَّى مَاءِ دِجْلَةٍ
دماؤهم أَشْكَلُ

فالشُّكْلَةُ عندهم تقع على الصُّفْرَةِ والحمرة إذا خالطا غيرهما.
الزرق العيون من العرب فمن الزرق من الناس صُحَارُ
العبدِيُّ، وعبدُ الرحمن ابنُه، وداؤد بن متمم بن نويرة،

والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ومرون بن محمد بن مروان، وسعيد بن قيس الهمداني، وزرقاء اليمامة، وهي عَنز، من بنات لُقمان بن عاديا.

ومن الزُّرق ممن كانوا يتشاءمون به: قيس بن زهير، وكان أزرق وكان بكَراً وابن بَكْرين، وكانت البسوسُ زَرْقَاءَ وبَكَراً بنتَ بَكْرين، ولها حديث لا أحقّه. وكانت الزَّبَاءُ زرقاء، والزُّرقُ العيون، من بني قيس بن ثعلبة، منهم المرقشان، وغيرهما.

الحر الحماليق من العرب والحرُّ الحماليق، من بني شيبان، وكان النعمان أزرق، أقشَر، أحمر العينين، أحمر الحماليق، وفيه يقول أبو قُرْدودة حين نهى ابن عمار عن منادمته:

لا تَأْمَنَنَّ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ
وَالشَّعْرَةَ

تطر بنارك من
نيرانهم شرره

ومنطقاً مثل وشي

إني نهيتُ ابنَ عمار
وقلتُ له

إن الملوك متى تنزل
بساحتهم

يا جفنةً كإزاء الحوض

اليمنة الحبرة

قد هدموا

شعر في الزرق وقال عبد الله بن همام السلولي:

لِكُلِّ أَرْقٍ مِنْ هَمْدَانَ
مَكْتَحِلٍ

وَلَا يَكُونَنَّ مَالُ اللَّهِ
مَأْكَلَةً

وقال آخر:

كَمَا كُلُّ صَبِيٍّ مِنْ
اللَّوْمِ أَرْقٍ

لَقَدْ زَرَقْتُ عَيْنَاكَ يَا
ابْنَ مَكْعَبِ

وفي باب آخر يقول زهير:

وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ
الْمَتَحِيمِ

فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا
جِمَامُهُ

معارف في حمرة العين وقال يونس: لم أر قرشيًّا قطُّ أحمرَ عروقِ العينين إلا كان سيِّدًا شجاعاً. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان أشكلَ العينين ضليع الفم.

شعر في الدعاء على الفأر

قال: ونزل أبو الرّغل الجرميّ بعض قرى أنطاكيّة فلقي من
جرذاتها شراً، فدعا عليها بالسنانير فقال:

يا رب شَعْتِ بري	ومُنْزَلَ الحُكْمِ في طه
الإسَادِ أوجهم	وحاميم
أتخ لشيخ ثوي بالشام	نائي النصير بعيد
مُغْتَرِباً	الدار مهموم
تَكَنَفْتُهُ قريباتُ الخطة	وقصُ الرقابِ لطيفاتُ
دُكُنُّ	الخراطيم
حجنُ المخالب	غلبُ الرقابِ رحيباتُ
والأنيابُ شابةٌ	الحيازيمِ
ثاروا لهنَّ فما تنفكَّ	لكَ ذِيالَةٍ مقاءَ
من قنصِ	عُلجومِ
حتى أبيتَ وزادي غير	على النزِيلِ ولا كرزِي

منعك

بمعكوم

وأنشدني ابنُ أبي كريمة، ليزيدَ بنِ ناجية السَّعدي: سعدِ بنِ بكر، وكان لقيَ من الفأرجهداً، فدعا عليهنَّ بالسنانير، فقال:

أزهير مالك لا يهملك
ما بي

أخزى إله محمد
أصحابي

كحلُ العيون، صغيرة
آذانها

جُح الحنادس
يعتورنَ جرابي

شَمُّ الأنوفِ لريح كلِّ
قفيةٍ

يلحظنَ لحظِ مروعٍ
مرتابٍ

دُكُنُ الجباب تدرعتُ
أبدانها

صُعْلُ الرُّوسِ
طويلةُ الأذنانِ

شُخَّتْ المخالب
والأنايِبِ والشوى

ثَجَلُ الخصورِ رَحِيبة
الأقرابِ

أسقى الإلهُ بلادهنَّ

عُرَّ النَّشَاصِ بعيدةً

سحائباً

الأطنابِ

تَرْمِي بَعْسٍ كَاللِّيُوثِ
تَسْرَبَلْتُ

منها الجلودُ مدارعُ
السِّنْجَابِ

عَلْبِ الرَّقَابِ لَطِيفَةِ
أَعْجَازِهَا

فُطْحِ الْجَبَاهِ رَهِيْفَةِ
الْأَنْيَابِ

مُتَبَهِّسَاتٍ لِلطَّرَادِ
كَأَنَّهَا

آسَادُ بَيْشَةِ أَدْمَجَتْ
بِخَضَابِ

ونحن نظنُّ أنّ هذه القصيدة من توليد ابنِ أبي كريمة،

معارف في السنور

والسنور ثاقبُ البصر بالليل، وكذلك الفأرة سوداءُ العينين،
وهي في ذلك ثاقبةُ البصر.
والسنورُ ضعيفُ الهامة، وهامته من مقاتله، ولا يستطيعُ أنْ
يذوقَ الطعامَ الحارَّ والحامضَ.

مقارنة بين السنور والكلب

قال: وللسنور فضيلةٌ أخرى: أنه كثيرُ الأسماء القائمةِ بأنفسها، غير المشتقات، ولا أنها تجمع الصفاتِ والأعمال، بل هي أسماءٌ قائمةٌ، من ذلك: القط، والهرُّ، والضَيَّون، والسنُّور. وليس للكلب اسمٌ سوى الكلب، ولا للذِّيك اسمٌ إلا الذيك. وليس للأسد اسمٌ إلا الأسد اللَّيث، وأمَّا الضيغم، والخنايس، والرَّئبال، وغيرها - فليست بمقطوعة، والباقي ليست بأسماءٍ مقطوعةٍ؛ ولا تصلح في كل مكان.

وكذلك الخمر، فإذا قالوا: قهوة، ومدامةٌ، وسُلاف، وخندريسٌ وأشباه ذلك، فإنما تلك أسماءٌ مشتركة، وكذلك السيف، وليس هذه الأسماءُ عند العامة كذلك.

قال: وعلى السنور من المحبة، ولا سيما من محبة النساء، ومعه من الإلف والأنس والدنوُّ، والمضاجعة والنوم في اللِّحاف الواحد - ما ليس مع الكلب، ولا مع الحمام، ولا مع الدَّجاج، ولا مع شيء مما يعايش الناس.

هذا، ومنها الوحشي والأهليُّ فلولا قُوَّة حبه للناس لما كان في هذا المعنى أكثر من الكلاب، والكلاب كلها أهلية.

قالوا: وليس بعجيبٍ إن يكون الكلبُ طيبَ الفم؛ لكثرة ريقه، ولُبعد قرابته ومشاكلته للأسد، وإنما العجبُ في طيبِ فم السنُّور، وكأنه في الشَّبه من أشبال الأسد.

ومن يُقَبَّلُ أفواه السنانير وأجراءها من الخرائد وربّات الحِجال،
والمخدّرات، والمطهّمات، والقينات أكثر من أن يُحصى لهنّ
عدد، وكلهنّ يخبرنّ عن أفواهاها بالطيب والسلامة مما عليه
أفواه السباع، وأفواه ذوات الجرّة من الأنعام.
وما رأينا وضيفة قطّ ولا رفيعة، قَبَلت فَمَ كلبٍ أو ديكٍ، وما كان
ذلك من حارس قطّ، ولا من كلابٍ، ولا من مكّلبٍ، ولا من
مُهارشٍ.

والسنور يُخَضَّب، وتُصاغُ له الشنوف والأقرطة، ويُتحف
ويدلّل.

ومن رأى السنور كيف يَحْتَلُّ العُصفورَ، مع حَذَرِ العُصفورِ،
وسُرعة طيرانه - على أن جهته في الصيدِ جهة الفهد والأسد،
ومن رآه كيف يرتفعُ بوَثْبته إلى الجرادة في حال طيرانها - علم
أنه أَسْرَعُ من الجرادة.

وله إهابٌ فضفاضٌ، وقميصٌ من جلده واسعٌ، يَموجُ فيه بدنُه،
وهو مما يَضْبَعُ لسعة إبطيه، ولو شاء إنسان أن يعقدَ صُنْبَهُ،
ويُثْنِي أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، كما يُثْنِي المِخْرَاقَ، وكما يثني قضيبُ
الخيْزُرانِ لَفَعَلٍ.

ويوصفُ الفرسُ بأنه رَهْلُ اللَّبانِ، رحيبُ الإهابِ، واسعُ الآباطِ،

وعيب الحمار للكَزَاة التي في يديه، وفي منكبيه، وانضمامهم
إلى إبطيه، وضيق جلده، وإنما يعدُّو بعُنقه.

التجارة في السنانير

قالوا: وللسنور تجارٌ وباعة، ودلالون، وناسٌ يعرفون بذلك،
ولها راضة.
وقال السنديُّ بن شاهك: ما أعياني أحدٌ من أهل الأسواق: من
التجار، ومن الباعة والصنّاع، كما أعياني أصحابُ السنانير،
يأخذون السنور الذي يأكل الفراخ والحمام، ويوثب أفاص
الفواخت والوراشين والدباسي والشفانين، يودخلونه في دَنٍّ،
ويشدُّون رأسه، ثم يدخرجونه على الأرض حتى يشغله
الدَّوَار، ثم يدخلونه في قفص فيه الفراخ والحمام، فإذا رآه
المشتري رأى شيئاً عجباً، وظنَّ أنه قد ظفر بحاجته، فإذا
مضى به إلى البيت مضى بشيطان، فيجمع عليه بليتين إحداهما
أكلُ طيوره وطيور الجيران، والثانية أنه إذا ضري عليها لم
يطلب سواها.

ومررت يوماً وأنا أريدُ منزلَ المكي بالأساورة وإذا امرأة قد
تعلقت برجل وهي تقول: بيني وبينك صاحبُ المسلحة فإنك
دللتني على سنور، وزعمت أنه لا يقربُ الفراخ، ولا يكشفُ

القُدُور، ولا يدنو من الحيوان، وزعمت أنك أبصر الناس
بسُنور، فأعطيتك على بصرك و دلالتك دانقاً؛ فلما مضيتُ به
إلى البيت مضيتُ بشيطانٍ قد والله أهلكَ الجيرانَ بعد أن فرغَ
منا، ونحنُ منذ خمسةِ أيامٍ نحتال في أخذه، وها هو ذا قد جنتك
به فرْدَ عَلَيَّ دانقي، وحُذُّ ثمنه من الذي باعني، ولا والله إن
تُبصِرُ من السنانير قليلاً ولا كثيراً.

قال الدلال: انظروا بأيِّ شيء تستقيلني؟ ولا والله إن في
ناحيتنا فتى هو أبصرُ بسُنور منِّي، وذلك من مَنْ سيدي
ومولاي.

فقلتُ للدلال: ولا والله إن في هذه الناحية فتى هو أشكر لله
منك.

أكل السنانير

وناس يأكلون السنانير ويستطيونها، وليس يأكل الكلبَ أحدٌ إلا
في الفرط.

والعامّة تزعم أن من أكل السنَّور الأسود لم يَعْمَلْ في السحر،
والكلبُ لا يوكل.

أكل الديك والديك خبيث اللحم عَضِلَه، إلا أن يُخْصَى، وتلك حيلة
لأهل حِمص وليست عندنا فيه حيلة، وقال جَحْشويه:

كَيْفَ صَبْرِي عَنِ مِثْلِ جُمُوعَةِ الْهَرِّ تَنْتَنِي بِمُسْبَطِرِّ مَتِينٍ
أَنْهَا عُدَّةً لِدَاءٍ دَفِينٍ

لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ حِينَ تَرَاهَا

سكينة التابوت قالوا: وزعم بعض أهل الكتاب، وبعض أصحاب التفسير، أن السكينة التي كانت في تابوت موسى كانت رأس هِرٍّ.

استطرد لغوي قالوا: وقلتم في الاشتقاق من اسم الكلب: كَلَيْبٌ، وکلاب، ومكَلَبَةٌ، ومكالب، وأصاب القوم كُلبَةَ الزمان، مثل هُلبية، وهي الشدة.

والکلابُ واحِدُها كَلَبٌ، وتجمع على كلاب وأكلب وكليب، كما يجمع البُخْتُ بَخِيْتاً وأبْحُتاً.

والکَلَابُ بتثقیل اللام: صاحب الكلاب، والمُكَلَّبُ، بتثقیل اللام وضم الميم: الذي يعَلِّم الكلابَ الصَّيْدَ، وقال طُفَيْلُ العَنُويِّ:

ضِرَاءٌ أَحَسَّتْ نَبَأَهُ مِنْ
مَكَلَّبٍ

تُبَارِي مَرَاحِيهَا
الزَّجَاجَ كَأَنَّهَا

وقال الآخر:

فِعْلَ الضَّرَاءِ تَرَاخُ
لِلْكَأَبِ

خُوصٌ تَرَاخُ إِلَى الصَّدَاحِ
إِذَا عَدَّتْ

وَالْكَأَبُ: دَاءٌ يَقَعُ فِي الْإِبِلِ، فَيَقَالُ كَلِبْتُ الْإِبِلُ تَكْلَبُ كَلْبًا، وَأَكْلَبُ الْقَوْمَ: إِذَا وَقَعَ فِي إِبِلِهِمُ الْكَأَبُ، وَيَقَالُ كَلِبْتُ الْكَلْبُ وَاسْتَكَلَبْتُ: إِذَا ضَرَيْتَ وَتَعَوَّدَ أَكَلَ النَّاسَ، وَيَقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا عَضَّه الْكَلْبُ الْكَلِبُ: قَدْ كَلِبَ الرَّجُلُ.

وَيَقَالُ: إِنْ الرَّجُلَ الْكَلِبَ يَعْضُ إِنْسَانًا آخَرَ، فَيَأْتُونَ رَجُلًا شَرِيفًا، فَيَقْطُرُ لَهُمْ مِنْ دَمٍ إِصْبَعَهُ، فَيَسْقُونَ ذَلِكَ الْكَلْبَ فَيَبْرَأُ، وَقَالَ الْكُمَيْتُ:

لَمَّا دِمَاؤُكُمْ يُشْفَى بِهَا
الْكَأَبُ

أَحْلَامُكُمْ لِسِقَامِ الْجَهْلِ
شَافِيَةٌ

قَالُوا: فَقَدْ يَقُولُونَ لِلسُّنُورِ هِرٌّ، وَلِلْأَنْثَى هِرَّةٌ، وَيَقَالُ مِنْ ذَلِكَ هِرٌّ الْكَلْبُ يَهْرُ هَرِيرًا، وَتَسْمَى الْمَرْأَةُ بِهَرَّةٍ، وَيَكْنَى الرَّجُلُ أَبَا هِرٍّ، وَأَبَا هَرِيرَةَ، وَقَالَ الْأَعَشَى:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ
مُرْتَجِلٌ

وهل تطيق وداعاً أيها
الرجلُ

وقال امرؤ القيس:

دارٌ لهرٍّ والربابِ
وفرتني

ولميس قبلَ تفرُّقِ
الأيامِ

وقال ابن أحرمر:

إنَّ امرأ القيسِ على
عهده

في إرثٍ ما كان بناه
حُجْرٌ

بنتٌ عليه الملك
أطابها

كأسٌ رنوناةٌ وطرفٌ
طمرٌ

يلهو بهندٍ فوقَ
أنماطها

وفرتني تسعى عليه
وهراً

أطباء الهرة وحملها قال: وللهرة ثمانية أطباء: أربعة تقابل
أربعة، أولهنَّ بين الإبط والصَّدر، وآخرهنَّ عد الرُّفْع، وتحملُ
خمسین يوماً، وتضع جراها عُمياً، وليس بين تفقيحها وتفقيح

جِراءِ الكلابِ إِلا اليَسِيرِ.

إِثَارُ الهِرَّةِ والديكِ والهِرَّةُ مِنَ الخُلُقِ الَّذِي يُوَثِّرُ عَلى نَفسِهِ،
ولِها فَضيلَةٌ في ذلكَ عَلى الدِّيكِ الَّذِي لَهِ الفَضيْلَةُ في ذلكَ عَلى
جَميعِ الحَيوانِ، إِلا أَن الدِّيكِ لا يَفْعَلُ ذلكَ بِالدِّجاجةِ إِلا ما دامَ
شابًّا، ولا يَفْعَلُ ذلكَ بِأولادِهِ، ولا يَعرِفُهُم؛ وإِنما يَفْعَلُ ذلكَ
بِالدِّجاجةِ عَلى غيرِ الزَّواجِ، وَعَلى غيرِ القَصدِ إِلى واحِدَةٍ يَقدِرُ
إِليها بِالهُوى.

والهِرَّةُ يُلقَى إِليها الشَّيْءُ الطَّيبُ وَهي جاعَةٌ، فَتَدْعُو أولادها،
وقَد اسْتَغْنينَ عَنِ اللَّبنِ، وَأَطَقْنَ الأَكْلَ والتَّقَمُّمَ والتَّكسُّبَ، نَعَم
حَتى رَبا ما فَعَلتُ ذلكَ بَهنَّ وَهِنَّ في العَينِ شَبِيباتٍ بِها في
العِظَمِ؛ فلا تَزالُ مَمسُكَةً عَنِ تلكِ الشَّحْمَةِ عَلى جُوعِها، وَمَعَ
شَرِّهِ السَّنائيرِ، حَتى يُقبَلِ ولَدُها فيأَكَلُهُ.

ورَجُلٌ مِنَ أَصحابِنا ائْتَمَنوا عَلى مالِ، فَشَدَّ عَليه فَأَخذَهُ، فلَما
لَماهُ بَعْضُ نَصحائِهِ قالَ: يَطْرَحونَ اللِّحْمَ قُدَّامَ السَّنورِ فَإِذا أَكَلَهُ
ضَرَبواهُ.

فَضَرَبَ شَرَّهُ السَّنورِ مِثْلاً لِنَفسِهِ.

والهِرَّةُ رَبا ما رَموا إِليها بِقِطْعةِ اللِّحْمِ، فَتَقصِدُ نَحوها حَتى تَقفَ
عَليها، فَإِذا أَقبَلَ ولَدُها تَجافَتُ عَنها، وَرَبا ما قَبِضتُ عَليها
بِأَسنانِها فَرَمَتُ بِها إِليه بَعدَ شَمِّ الرائِحَةِ، وَذُوقَ الطَّعْمِ.

نقل الهرة أولادها والهرّة تنقل أولادها في المواضع، من الخوف عليها، ولا سبيل لها في حملها إلا بفيها، وهي تعرف دِقَّةَ أطْرَافِ أنيابها، وذَرْبَ أسنانها، فلها بتلك الأنياب الحِدَادُ ضربٌ من القبض عليها، والعَضُّ لها، بمقدار تبلغُ به الحاجة، ولا تؤثر فيها ولا تؤذيها.

مخالب الهرة والأسد فأما كَفُّها والمخالبُ المعقَّفة الحِدَادُ التي فيها، فإنها مصونة في أكمامها، فمتى وقعت كَفُّها على وجه الأرض صارت في صَوْنٍ، ومتى أرادت استعمالها نَشَرَتْها وافرّة، غير مكلومةٍ ولا مثلومة، كما وصف أبو زبيد كَفَّ الأسد فقال:

يَقِيهَا قِصَّةُ الْأَرْضِ
الدَّخِيسُ

بِحُجْنٍ كَالْمَحَاغِنِ فِي
قُنُوبِ

أنياب الأفاعي كذلك مخالبها ومخالب الأسد، وأنياب الأفاعي، وقد قال الرَّاجِزُ، وهو جاهليّ:

فَخَاضَهُ بَيْنَ الشَّرَاكِ
وَالْقَدَمِ

حَتَّى دَنَا مِنْ رَأْسِ
نَضْنَاضِ أَصَمِّ

بِمَذْرَبٍ أَخْرَجَهُ مِنْ جَوْفِ كُمْ

زعم بعض المفسرين في السنائير والخنازير

وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل؛ لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تَأَذُّوا بكثرة الفأر وشكوا إلى نوح ذلك سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنائير: ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفياهم مؤونة الجرذان، ولما تَأَذُّوا بري نجوهما شكوا ذلك إلى نوح، وشكا ذلك إلى ربه، فأمره أن يأمر الفيل فليسلح، فسلح زوج خنازير فكفياهم مؤونة رائحة النجو.

وهذا الحديث نافع عند العوام، وعند بعض القصاص. إنكار تخلق الحيوان من غير الحيوان فقد أنكر ناس أن يكون الفأر تخلق في أرحام إناثها من أصلاب ذكورتها ومن أرحام بعض الأرضين كطينة القاطول؛ فإن أهلها زعموا أنهم ربما رأوا الفأرة لم يتم خلقها بعد، وإن عينيها لتبصان، ثم لا يريمون حتى يتم خلقها وتشتد حركتها.

وقالوا: لا يجوز لشيء خُلِقَ من الحيوان أن يُخلق من غير الحيوان، ولا يجوز أن يكونَ شيءٌ له في العالم أصلٌ أن يؤلَّفَ الناسُ أشياءً تستحيل إلى مثل هذا الأصل، فأنكروا من هذا الوجه تحويل الشبه ذهباً، والزئبق فضة.

وقد علمنا أن للنُّوشادر في العالم أصلاً موجوداً، وقد يصعدون الشَّعر ويدبُّرونه حتى يستحيل كحجر النوشادر، ولا يغادر منه شيئاً في عمَلٍ ولا بَدَنٍ.

وقد يدبُّرون الرَّماد والقلي فيستحيل حجارة سوداً إذا عمَل منها أرحاءٌ كان لها في الرِّيع فضيلة.

قالوا: وللمرداسنج في العالم أصلٌ قائم، والرصاص يُدبَّر فيستحيل مُرداسنجا، وللرصاص في العالم أصل قائم، فيدبُّرون المرداسنج فيستحيل رصاصاً.

وللتوتياء أصل قائم، فيدبُّرون أقليميا النحاس فتستحيل توتياء. وكذلك المينا، له أصل قائم، وقد عمَله الناس.

وكذلك الحجارة السُّود للطحين وغير ذلك.

فأما قولهم: لا يجوز أن يكون شيء من الحيوان يُخلق من ذكر وأنثى - فيجيء من غير ذكر وأنثى - فقد قلنا في جميع ذلك في صدر كتابنا هذا بما أمكننا.

معارف في الحيات وقال: الحيات كلها تعوم، إلا الأفاعي، فإنها

لايعومُ منها إلا الجَبَلِيَّاتِ.

قال: والحَيَّةُ إن رأت حَيَّةً مَيِّتَةً لم تَأْكُلْهَا، ولا تَأْكُلُ الْفَأْرُ ولا الْجُرْذَانُ الْمَيِّتَةَ، ولا الْعَصَافِيرَ الْمَيِّتَةَ، مع حِرْصِ الْحَيَّةِ عَلَيْهَا، ولا تَأْكُلُ إِلَّا لَحْمَ الشَّيْءِ الْحَيِّ، إِلَّا أَنْ يُدْخَلَ الْحَوَاءُ فِي حَلْوَقِهَا اللَّحْمَ إِدْخَالًا، فَأَمَّا مَنْ تَلَقَّاهُ نَفْسَهَا فَإِنْ وَجَدَتْهُ، وَهِيَ جَائِعَةٌ لَمْ تَأْكُلْهُ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ إِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِهِ: أَخْبَثُ مَا تَكُونُ ذَوَاتُ السَّمُومِ إِذَا أَكَلَتْ بَعْضُهَا بَعْضًا لِابْتِلَاعِ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهَمْ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي الْحَيَّاتِ إِلَّا لِلْأَسْوَدِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَ مَعَ الْأَفَاعِي فِي جُؤْنَةٍ، فَيَجُوعُ فَيَبْتَلِعُهَا، وَذَلِكَ إِذَا أَخَذَهَا مِنْ قَبْلِ رُؤُوسِهَا، وَإِنْ رَامَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الرَّأْسِ فَعَضَّتْهُ الْأَفْعَى قَتَلَتْهُ.

وَزَعَمُوا أَنَّ الْحَيَّةَ لَا تَصَّاعِدُ فِي الْحَائِطِ الْأَمْلَسِ وَلَا فِي غَيْرِ الْأَمْلَسِ، فَإِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ أَصْحَابُ الْمَخَارِيقِ وَالَّذِينَ يَسْتَخْرِجُونَ الْحَيَّاتِ بَزْعَمِهِمْ مِنَ السَّقُوفِ، وَيَشْمُونَ أَرَايِحَ أَبْدَانِهَا مِنْ أَطْرَافِ الْقَصَبِ، إِذَا مَسَّحَوْهَا فِي تَرَابِيعِ الْبُيُوتِ.
قَالُوا: وَقَدْ تَصْعَدُ الْحَيَّاتُ فِي الدَّرَجِ وَأَشْبَاهِ الدَّرَجِ؛ لِتَطْلُبَ بُيُوتَ الْعَصَافِيرِ، وَالْفَأْرِ، وَالخَطَّاطِيْفِ، وَالزَّرَّازِيرِ، وَالخَفَافِيْشِ، وَتَتَحَامَى فِي السَّقْفِ.

في العقرب

وسنذكر تمامَ القول في العقرب؛ إذ كنا قد ذكرنا من شأنها شيئاً في باب القول في الفأر. ولَمَّا قيل ليحيى بن خالد، النازل في مُرْبَعَةِ الأحنف - وزعموا أنهم لم يروا رجلاً لم يختلف إلى البيمارستانات ولا رجلاً مسلماً ليس بنصراني ولا رجلاً لم ينصب نفسه للتكسب بالطب كان أطبَّ منه - فلما قيل له: إن القيني قال: أنا مثلُ العقرب أضرُّ ولا أنفع قال: ما أقلَّ علمه بالله عزَّ وجلَّ؛ لعمري إنها لتتفع إذا شقَّ بطنها ثم شدَّ على موضع اللسعة، فإنها حينئذٍ تنفع منفعَةً بينةً.

نفع العقرب

والعقربُ تُجعل في جوف فخَّارٍ مشدودِ الرَّأس مطينِ الجوانبِ، ثم يوضع الفخَّارُ في تنور، فإذا صارت العقربُ رماداً سقي من ذلك الرمادِ مَنْ به الحصاة مقدارَ نصفِ دانقٍ. وقال حنين: وقد يُسقى منه الدانق وأكثُر، فيفتتُ الحصاة من غير أن يضرَّ بشيء من الأعضاء والأخلاق، وخيرُ الدواء ما قصد إلى العضو السقيم، وسلِّمت عليه الأعضاء الصحيحة. وقال يحيى: وقد تَلَسَّع أصحابُ ضروبٍ من الحُميات العقاربُ

فِيْفِيْقُون، وتلسع الأفاعيَ فتموت، ومنها مايلسع بعضها بعضاً
فيموت الملسوع، فهي من هذا الوجه تكفي الناس مؤونةً
عظيمة، وتُلقي العقربُ في الدُّهن وتُتْرِكُ فيه، حتى يأخذ الدهن
منها ويمتصّ ويجتذب قواها كلها بعد الموت، فيكون ذلك
الدهن يُفرِّق الأورام الغلاط، وقد عَرَفَ ذلك حُنِين.

بعض أعاجيب العقرب

ومن أعاجيبها أنها لا تسبِّحُ، ولا تتحركُ إذا أُلقيت في الماء
كيف كان الماء: ساكناً أو جارياً، والعقرب تطلبُ الإنسان
وتقصدُ نحوه، فإذا قصدَ نحوها فرَّتْ وهربت وتقصّدُ أيضاً نحو
الإنسان، فإذا ضربتهُ هربت، هربَ مَنْ قد أساء، وتعلم أنها
مطلوبة.

والزنابير تطالبُ من تعرّض لها وتقصدُ لِعَيْنِه، ولا تكادُ تعرض
للكاف عنها.

فصل ما بين المودّة والمسالمة في الحيوان وبين العقارب وبين
الخنافس مودة، والمودّة غيرُ المسالمة.

والمسالمة: أن يكون كل واحد من الجنسين لا يعرض لآخر
بخير ولا شر، بعد أن يكون كل واحد منهما مقرباً لصاحبه.
والعداوة أن يعرض كل واحد منهما لصاحبه بالشرّ والأذى

والقتل، ليس من جهة أن أحدهما طعامٌ لصاحبه.
والأسدُ ليس يثبُ على الإنسان والحمار والبقرة والشاة من
جهة العداوة، وإنما يثبُ عليه من طريق طلبِ الطعام، ولو مرَّ
به وهو غيرُ جائعٍ لم يعرض له الأسد، والنمر على غير ذلك،
ولكن قد يقال: إن بين البَيرِ والأسدِ مُسالمةً.
والمودة: كما يكون بين العقارب والخنافس، فإنَّ بعضها يتألفُ
بعضاً، وليست تلك بمسالمة، وكما بين الحيات والوزغ، فإنها
تساقى السَّم وتزاقُ، وكما بين ضروب من العقارب وأسودٍ
سالخ.

والأسودُ ربَّما جاع في جُونة الحوَّاء فأكل الأفعى وربما عَضَّتْهُ
الأفعى فقتلته.

علاقة الرائحة بالطعم وريح العقارب إذا شويت مثل ريح
الجراد.

وما زلتُ أظنُّ أن الطعم أبداً يتبع الرائحة، حتى حقَّق ذلك عندي
بعضُ من يألؤها مشوية ونيَّة، أنه ليس بينها وبين الجراد
الأعرابي السمين فرق.

رؤية الخرق الذي في إبرة العقرب

وزعم لي بختيشوع بن جبريل، أنه عاين الخرق الذي في إبرة
العقرب، وإن كان صادقاً كما قال، فما في الأرض أحدٌ بصراً
منه، وإنه لبعيدٌ، وما هو بمستنكر.
من أعاجيب العقرب وفي العقارب أعجوبةٌ أخرى؛ لأنه يقال:
إنها مائة الطِّباع، وإنها من ذوات الدُّرِّ والانسال وكثرة
الولد، كما يعترى ذلك السمك والضَّبّ والخنزيرة، في كثرة
الخنائيس.

موت العقرب بعد الولادة

قال: ومع ذلك إن حَتَفها في أولادها، وإن أولادها إذا بلغن
وَحانَ وقتُ الولادة، أكلن جلدَ بطنها من داخل، حتى إذا حَرَقَنَّهُ
حَرَجَنَ منه وماتت الأمُّ.
وقد يطأ الإنسانُ على العقرب وهي ميتة، فتغترز إبرتها في
رجله، فيلقى الجهدَ الجاهدَ؛ وربما أمْرَضَتْ، وربما قتلت.
قال: وفي أشعار اللُّغز قيلَ في أكل أولاد العقرب بطنَ الأمِّ، وأنَّ
عَطَبَها في أولادها:

تموتُ ويبقى حملها
حينَ تَعَطَّبُ

وحاملة لا يكملُ
الدَّهرَ حملها

وليس هذا شيئاً.

خبرني من أتق بعقله، وأسكن إلى خبره، أنه أرى العقرب
عياناً وأولادها يخرجن من فيها، وذكر عدداً كثيراً، وأنها صغارٌ
بيضٌ على ظهورها نقط سودٌ، وأنها تحمل أولادها على
ظهرها، وأنه عاين ذلك مرةً أخرى، فقلت: إن كانت العقرب تلد
من فيها فأخلق بها أن يكون تلاقحها من حيث تلد أولادها.

العقارب القاتلة

والعقاربُ القاتلةُ تكون في موضعين: بشَهْرَ زُور، وقرى
الأهواز، إلا أن القوائِلَ التي بالأهواز جرّارات، لم نذكر عقاربَ
نصيبين، لأن أصلها - فيما لا يشكُّون فيه - من شَهْرَ زُور حين
حُوصِرَ أهلها ورُموا بالمجانيق، وبكيزان محشوة من عقارب
شَهْرَ زُور، حتّى توالدت هناك، فأعطى القومُ بأيديهم.

لغز في العقرب

ومن اللُّغز فيها في غير هذا الجنس:

مسرةٌ كبرٍ أن تُنال
فتمرضاً

وما بكرةٌ مضبورة
مقمطرة

لتقتل نفساً أو تصيب
فتمرضاً

بأشوسَ منها حين
جاءت مُدلةً

ديراً إذا نال الغريفة
أو قَصاً

فلما دنا نادي أو ابا
بنعم غيرها

استخراج العقارب بالجراد والكراث

قال: والعقارب تُسْتَخْرَجُ من بيوتها بالجراد: تُشَدُّ الجرادَةُ في طرف عود، ثم تُدْخَلُ الجُحْرَ، فإذا عاينتها تعلقت بها، فإذا أُخرج العودُ خرجت العقربُ وهي متعلقة بالجرادة. فأما إبراهيم بن هانئ فأخبرني أنه كان يُدْخِلُ في جُحْرِها خُوط كراث، فلا يبقى منها عقربٌ إلا تبعته. ألسنة الحيات والأفاعي ألسنة الحيات كلها سودّ، وألسنة الأفاعي حُمْرٌ، إلا أنها مشقوقة. جرّارات الأهواز وسنذكر عقارب الشتاء وعُقيرب الحرّ، وكلّ شيء من هذا الباب، ولكننا نبدأ بذكر جرّارات الأهواز. ذكروا أنّ أقتلها عقاربُ عَسْكَرٍ مُكْرَمٍ، وأنها متى ضَرَبَتْ رَجُلًا فظنّ أن تلك العضة عضة نملة، أو وخزة شوكة، فنال من اللحم تضاعف ما به.

وربما باتت مع الرجل في إزاره فلم تضربه.
وهي لا تدبُّ على كل شيء له عَفْرٌ، ولا تدبُّ على المُسوح،
وما أكثر ما تأوي في أصول الآجر الذي قد أُخرج من الأتاتين
ونضد في الأنابير.

وكان أهل العسكر يرون أن من أصلح ما يُعالج به موضع
اللسعة أن يُحجم، وكان الحجام لا يرضى إلا بدنانير ودنانير،
لأن ثنياه ربما نصّلت، وجلد وجهه ربما تبطّط من السم الذي
يرتفع إلى فيه، بمصّته وجذبتة من أذنان المحاجم، حتى عمدوا
بعد ذلك إلى شيء من قُطن، فحشّوا به تلك الأنبوبة، فإذا جذب
بمصّته فارتفع إليه من بخار الدّم أجزاءً من ذلك السم، تعلقت
بالقطن، ولم تنفد إلى فيه، والقطن ليس مما يدفع قوّة المص،
ثم وقعوا بعد ذلك على حشيشة فوجدوا فيها الشفاء.

من أعاجيب العقرب ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدنا
عقارب القاطول يموت بعضها عن لسع بعض، ثم لا يموت عن
لسعها شيء غير العقارب.

ونجد العقرب تلسع إنساناً فيموت الإنسان، وتسلع آخر فتموت
هي، فدلّ ذلك على أنها كما تعطي تأخذ، وأن للناس
أيضاً سُموماً عجيبة، ولذلك صار بعضهم إذا عضّ قتل.
ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقم فتخرقه، وربما

ضربته فتثبَّت فيه إبرتها ثم تنصل حتى تبين منها.
العنبر وأثره في الطيور والبال والعنبر يقذفه البحر إلى عبريه،
فلا يأكل منه شيء إلا مات، ولا ينقره طائرٌ بمنقار إلا نصل فيه
منقاره، فإذا وضع رجله نصلت أظفاره، فإن كان قد أكل منه
قتله ما أكل، وإن لم يكن أكل فإنه ميت لا محالة، لأنه إذا بقي
بغير منقار، ولم يكن للطائر شيء يأكل به مات.
والبحريون والعطَّارون يُخبروننا أنهم ربما وجدوا فيه المنقار
والظفر، وإنَّ البال ليأكلُ منه اليسير فيموت.
والبال: سمكة ربما كان طولها أكثر من خمسين ذراعاً.

أعاجيب لسع العقرب

ومن أعاجيب العقارب أنها تلسع الأفعى فتموت الأفعى ولا
تموت هي، وتلسع بعض الناس، فتموت هي، ولا ينال الملسوع
منها من المكروه قليل ولا كثير، ويزعم العوامُّ أن ذلك إنما
يكون لمن لسعت أمه عقربٌ وهو حملٌ في بطنها.
وقد لسعت عقربٌ رجلاً مفلوجاً، فذهب عنه الفالج، وقصة هذا
المفلوج معروفة، وقد عرفها صليبا وغيره من الأطباء.
ومن العقارب طياراتٌ وجراراتٌ، ومعققات، وخضرٌ، وحمزٌ.
اختلاف السموم، واختلاف علاجها وتختلف سمومُ العقارب

بأسباب: منها اختلاف أجناسها، كالجرّارة وغيرها، ومنها اختلاف التُّرب كفرق ما بين جرّارات عقارب شهرزور وعسكر مُكْرَم.

وتختلف مَضْرَّة سمومها على قدر طباع الملسوع، ويختلف قدر سمومها على قَدْر مواضع اللسعة، وعلى قدر اختلاف ما بين النهار والليل وعلى قدر ما صادفت عليه الملسوع من غذائه، ومن تفتُح منافسه، وعلى قَدْر ما تُصادف عليه العقرب من الحَبَل وغير الحَبَل وعلى قدر لَسَعَتِهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ عِنْد خُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا بَعْدَ أَقَامَتِ فِيهِ شَتَوَتِهَا، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَلْسَعَ أَوَّلَ مَا تَخْرُجُ مِنْ جُحْرِهَا بَعْدَ أَنْ أَقَامَتْ فِيهِ يَوْمَهَا. قال ماسرّجويه: فذلّك اختلفت وجوه العلاج، فصار ضَرْبٌ مِنَ الْعِلَاجِ يَفِيقُ عَنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا يُصَلِحُ أَمْرَ الْآخِرِ.

لسعة الزنبور وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال: قال لي بختيشوع ابن جبريل وسلّمويّه، وابن ماسويّه: إن الذباب إذا ذلّك به موضع لسعة الزنبور سكن فلسعني زنبور فحككتُ على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن إلا في قَدْرِ الزَّمانِ الَّذِي كان يسكن فيه من غير علاج، فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا: كان هذا الزنبور حَتْفًا قَاضِيًا، ولولا هذا الْعِلَاجُ لَقَتَلْتَكِ.

حُجِّجُ الأَطْبَاءِ وكذلك هم إذا سقوا دواءً فضرّ، أو قطعوا
عِرْقاً فضرّ، قالوا: أنت مع هذا العلاج الصّواب تجد ما تجد فلولا
ذلك العلاج كنت الساعة في نار جهنم.

وقيل لي - وقرأت في كتاب الحيوان - إنّ رِيحَ السَّدَابِ يشتدّ
على الحيات، فألقيتُ على وجوه الأفاعي جُرَزَ السَّدَابِ فما كان
عندها إلا كسائر البَقْلِ.

فلو قلت لهم في هذا شيئاً قالوا: الحيات غير الأفاعي، وهذا
باطلٌ، الأفاعي نوع من الحيات، وكلهم قد عمّ ولم يخص.
ما يدّخر من الحيوان وجميع الحشرات والأحناش، وجميع
العقارب وهذه الدّبابات التي تعضّ وتلسع، التي تكمن في
الشتاء لا تكلُّ شيئاً في تلك الأشهر ولا تشرب، وكذا كل شيء
من الهمج والحشرات مما لا يتحرّك في الشتاء إلا النمل والذّرّ
والنحل، فإنها قد ادخرت ما يكفيها، وليست كغيرها مما تثبت
حياته مع ترك الطعم.

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

وللعقرب ثماني أرجل وهي حريصة على أكل الجراد، وكذلك
الحيات، وما أكثر ما تلدغ وتنهش صاحب الجراد.
أثر المُرَضِعِ في الرضيع ومن عجيب سمّ الأفاعي ما خبرني به

بعض من يخبر شأن الأفاعي قال: كنت بالبادية ورأيت ناقة
ترتع، وفصيلها يرتضع من أخلافها، إذ نهشت الناقة على
مشافرها أفعى، فبقيت واقفة سادرة، والفصيل يرتضع، فبينما
هو يرتضع إذ خر ميتاً.
فكان موته قبل موت أمه من العجب، وكان مرور السم في تلك
الساعة القصيرة أعجب، وكان ما صار من فضول سمها في
لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً آخر.
والمرأة المرضع تشرب النبيذ فيسكر عن لبنها الرضيع
وتشرب دواء المشي فيعتري الرضيع الخلفة فلذلك يختار
الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدوية: في عقلها، وفي
بدنها.

وتوهموا أن اللبن إنما جع في الفصيل لقراة اللبن والدم، فصار
ذلك السم أسرع إليه منه إلى أمه، ولعل ضعف الفصيل قل أعان
أيضاً على ذلك.

قصتان في من لسعته العقرب

قال أبو عبيدة: لسعت أعرابياً عقرباً بالبصرة، فخيف عليه
فاشتد جزعه، فقال بعض الناس: ليس شيء خيراً له من أن
تغسل له خصية زنجي عرق - وكانت ليلة عمقة - فلما سقوه

قَطَبَ، فقيل له: طعم ماذا تجد؟ قال: طعمُ قِرْبَةٍ جديدة. وخبّرني محمد وعليّ ابنا بشير، أن ظنراً لسليمان بن رياش لسعتها عقربٌ فملأت الدنيا صُراخاً، فقال سليمان: اطلبوا لها هذه العقرب، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان، فقالت العجوز: قد برئت، وقد سكن وجعي، ولا حاجة لي إلى هذا العلاج، قال: فأتوه بعقرب لا والله إن يُدرى: أهي تلك أم غيرها؟ فأمرَ بها فأمسكت فقالت: أنشدك بالله واللين فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها فُعْشِيَّ عليها ومرضتُ زماناً وتساقط شعر رأسها، فقيل لسليمان في ذلك فقال: يا مجانيين لا والله إن ردّ عليّ رُوحه إلا اللسعةُ الثانية، ولولا هي لقد كانت ماتت.

في القمل والصُّوَاب

وسنقول في القمل والصُّوَاب ما وجدنا تمكيناً من القول، إن شاء الله تعالى.

ذكروا عن إياس بن معاوية، أنه زعم أن الصنّبان ذكورة القمل والقمل إناتها، وأن القمل من الشكل الذي تكون إناته أعظم من ذكورته.

وذكروا عنه أنه قال: وكذلك الزرّارقة والبزّارة، فجعل البزّارة في

الإناث.

وليس فيما قال شيء من الصواب التّسديد، وقد خبرناكم عن حكايته في الشّبوط، حين جعله كالبغل، وجعله مخلوقاً من بين البنيّ والزّجر.

والقمل يعتري من العرق والوسخ، إذا علاهما ثوب، أو ريش، أو شعر، حتى يكون لذلك المكان عفن وخموم.

أثر لون الشعر في لون القملة

والقملة تكون في رأس الأسود سوداء، ورأس الأبيض الشعر بيضاء، وتكون خفيفة اللون، وكالحبل الأبرق إذا كانت في رأس الأشمط، وإذا كانت في رأس الخاضب بالحمرة كانت حمراء، وإن كان الخاضب ناصلاً الخضاب كان في ولونها سُكْلة، إلا أن يستولي على الشعر النُّصول فتعود بيضاء. وهذا شيءٌ يعتري القمل، كما تعتري الخضرة دود البقل، وجراده وذبابه، وكلّ شيءٍ يعيش فيه، أثر البيئته في الحيوان وليس ذلك بلعجب من حرّة بن سليم، فإن من طباع تلك الحرّة أن تُسودّ كل شيء يكون فيها: من إنسان، أو فرس، أو حمار، أو شاة، أو بعير، أو طائر، أو حية.

ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك، فإنها
تصوّر إبّاهم خيلهم، وجميع ما يعيش فيها، على صورة التُّرك.

تولد القمل

والقمل يعرضُ لثياب كلِّ الناس إذا عرض لها الوسخُ والعرق،
والخمود، إلا ثيابَ المجدِّمين فإنهم لا يَقمَلون.
وإذا قَمِلَ إنسانٌ وأفرط عليه ذلك، زأَبَقَ رأسه إن كَنَّ في رأسه
أو جسده، وإن كَنَّ في ثيابه، فمَوَّتَنَ.

وقال أبو قطفة لأصحابه: أتدرون ما يذراً القمل قالوا: لا، قال:
ذاك والله من قلة عنايةكم بما يصلح أبدانكم يذراً القمل الفُساء.
فأما ثمامة فحدثني عن يحيى بن خالد البرمكي، أن شينين
يُورثان القمل: أحدهما الإكثار من التَّين اليابس، والآخر بخار
اللُّبان إذا أُلقي على المجرمة.

وربما كان الإنسان قَمِلَ الطباع، وإن تنظَّفَ وتعطَّرَ وبدَّلَ
الثياب، كما عَرَضَ لعبد الرحمن بن عوف، والزيبير بن العوام،
استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، في لباس الحرير فأذن
لهما فيه؛ ولولا أنهم كانا في حدِّ ضرورة لَمَا أذِنَ لهما فيه، مع
ما قد جاء في ذلك من التشديد.

فلما كان في خلافة عمر، رأى عمر على بعض بني المغيرة من

أخواله، قميصَ حريرٍ، فعَلَاهُ بِالذَّرَّةِ، فقال المغيرِيُّ: أو ليس
عبد الرحمن بنُ عوفٍ يلبسُ الحريرَ؟ قال: وأنت مثل عبد
الرحمن؛ لا أمَّ لك.

الاحتيال للبراغيث واحتاج أصحابنا إلى التسلم من عضِّ
البراغيث، أيامَ كُنَّا بدمشق، ودخلنا أنطاكيةَ، فاحتالوا لبراغيثها
بالأسيرة فلم ينتفعوا بذلك؛ لأن براغيثهم تمشي.

وبراغيثهم نوعان: الأَبْجَلُ البَقَّ، إنما سمّوا ذلك الجنس على
شبيهه بما حكى لي ثمامةٌ عن يحيى بن خالدِ البرمكيِّ، فإن
يحيى زعمَ أن البراغيثَ من الخلقِ الذي يعرضُ له الطيران
فيستحيل بقاً، كما يعرض الطيرانُ للنمل، وكما يعرض الطيرانُ
للدعاميص؛ فإن الدعاميصَ إذا انسلخت صارت فرأشاً. فكان
أصحابنا قد لَقُوا من تلك البراغيث جَهْدًا، وكانت لها بليَّة
أخرى: وذلك أن الذي تُسهرُهُ البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها
بالعزك والقتل، وإلى أن يقبضَ عليها فيرمي بها إلى الأرض
من فوق سريره فيرى أنها إذا صرَّنتَ عشرينَ كان أهونَ عليه
من أن يكُنَّ إحدى وعشرين، فكان الرجلُ إذا رام ذلك من واحدة
منها نُنَّتْ يده وكانوا مُلوَكًا، ومثل هذا شديدٌ على مثلهم، فما
زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمصَ الحريرِ الصَّينيِّ،
وجعلوها طويِّلة الأردان والأبدان فناموا مستريحين.

خروج القمل من جسم الإنسان

وخبّرني كم شئت من أطباء الناس وأصحاب التجارب، منهم من يقشعر من الكذب، ويتقرّز منه أنهم رأوا القمل عياناً وهو يخرج من جلد الإنسان، فإذا لُكّن الإنسان قملاً كان قمله مستطيلاً، في شبيهه بخلقة الديدان الصغار البيض. ويُذكر أن مثل ذلك قد كان عرضَ لأَيُوبَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حين كان امتحنَ بتلك الأوجاع حتى سُمّي: المبتلى. وخبّرني شيخٌ من بني ليث، أنه اعتراه جربٌ، وأنه تطلّى بالمرّتكَ والدهن، ثم دخل الحمامَ فرأى قملاً كثيراً، يخرج من تلك الجُلب والقروح. وخبّرني أبو موسى العباسيُّ صديقنا أنه كان له غلامٌ بمصر، وكان الغلام ربما أخذَه إبرة ففتحَ بها فتحةً في بعض جسده، في الجُد، فلا يلبثُ أن يطلع من تحت الجلد في القيح قملة.

قمل الحيوان

والقمل يُسرُع إلى الدجاج والحمام، إذا لم يغتسلْ يَكُنْ نظيف البيت، وهو يعرض للقرَد، ويتولّد من وسخ جلد الأسير وما في رأسه من الوسخ، ولذلك كانوا يضجّون ويقولون: أكلنا القُدَّ

والقمل.

تلييد الشعر وكانوا يلبدون شعورهم، وذلك العمل هو التلييد،
والحاج الملبد هو هذا، وقال الشاعر:

بالقوم بين منى
وبين ثبير

يا ربَّ ربِّ الراقصاتِ
عشيَّةً

يحملن كلَّ ملبد
مأجور

زحف الرواح قد
انقضت مناتهم

وقال عبد الله بن العجلان النهدي:

قرقر بالجلهتين من
سرب

إني وما مارَ بالفريقِ
وما

جماعة من القطا وغيره، واحدتها سربة وعبر بها هاهنا عن
الحجاج.

قمل وما مار من دم
سرب

من شعر كالغليل يلبد
بال

والعتر عتر النسيك
يخفر بال

بُذْن لِحْلِ الإِحْرَامِ
وَالنُّصْبِ

وقال أمية بن أبي الصلت:

شاحينَ آباطهم لم
ينزِعُوا تَفْتًا

ولم يسَلُوا لهم قملًا
وصنبانًا

ويروى: لم يقربوا تفتًا قال الله عز وجل: "ثم ليقتضوا تفتهم"
وما أقل ما ذكروا التفت في الأشعار.
والتلبيد: أن يأخذ شيئاً من خِطْمِيٍّ وآسٍ وَسِدْرٍ، وشيئاً من
صَمْعٍ فيجعلُه في أصول شعره وعلي رأسه، كي يتلبد شعره ولا
يعرق ويدخله الغبار، ويخَمَّ فيقمل.
وكانوا يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل، فكان ذلك العمل يقلُّ
معه القمل.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرَةَ: هل آذاك
هَوَامٌّ رأسِك؟ تعبير هَوَازِنٌ وَأَسَدٌ بِأَكْلِ القُرَّةِ وقال ابنُ
الكلبي: عُبِّرَتْ هَوَازِنٌ وَسَدٌّ بِأَكْلِ القُرَّةِ، وهما بنو القملة، وذلك
أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمِنَى وضع كل رجل
منه على رأسه قُبْضَةً من دقيق، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك

الشَّعْرُ مع ذلك الدقيق، ويجعلون الدقيق صدقةً، فكان ناسٌ من
الضُّرَكَاء وفيهم ناسٌ من قيس وأسد، يأخذون ذلك الشعر
بدقيقه، فيرمون بالشعر، وينتفعون بالدقيق.
وأشد لمعاوية بن أبي معاوية الجرْمِيّ، في هجائهم:

ألم تر جرماً أنجَدتُ مع الشعر في قصِّ
وأبوكم الملبِّدِ شارِعُ

إذا قرّةٌ جاءت يقولُ سوى القملِ إني من
أصبُّ بها هَوَازِنَ ضارِعُ

شعر في هجو القملين

وقال بعض العُقيليين، ومرّ بأبي العلاء العُقيليّ وهو يتفلّى،
فقال:

متصيِّدٌ في شَرَقَةٍ مَقْرورِ
مِنْ بَيْنِ مَقْتولٍ وَبَيْنِ عَقِيرِ

فَدُّ وَتَوَامٌ سَمْسِمٌ مَقْشُورٌ

وكانه

نَّ لَدِي حُبُونٌ قَمِيصُهُ

حَنِقَ عَلَى أُخْرَى الْعَدُوِّ مَعِيرٍ

ضَرَجِ

الأنامل من دماء قتلها

وقال الحسن بن هانئ، في أيوب، وقد ذهب عني نسبه،
وطالما رأيتَه في المسجد:

فمصادُ أيوبِ ثيابه

مَنْ يَبَأُ عَنْهُ مَصَادُهُ

فَتَعَلُّ مِنْ عَلَقِ
حِرَابِهِ

تَكْفِيهِ فِيهَا نَظْرَةٌ

نِ الدَرَزِ تَكْنَفُهُ
صَوَابُهُ

يَا رَبِّ مُحْتَرَسٌ بِخَبِ

مِ إِذَا دَبَّ انْسِيَابُهُ

فَاشِي النِّكَايَةِ غَيْرِ
مَعْلُومِ

لم ينجِه عنه وثأبه

أو طامري واثب

الطامريّ: البرغوث، ثم قال:

أهوى له بمذلقِ الغرّبينِ إصبَعُه نِصابُه

قنص أصابعه كِلابُه

لله درك من أخي

أحاديث وأخبار في القمل

وفي الحديث أن أكل التفاح، وسُورَ الفأر، ونَبَذَ القملة يورث النسيان.

وفي حديث آخر أن الذي ينبذ القملة لا يُكفى الهمّ.
والعامّة تزعم أن لبس النعال السود يورث الِغمّ والنسيان
وتناول أعرابي قملة دبّت على عنقه، ففدَعها ثم قتلها بين
باطن إبهامه وسبّابته، ف قيل له: ما تصنع ويك بحضرة
الأمير؟ فقال: بأبي أنت وأميّ: وهل بقي منها إلا خِرشاؤها؟
يعني جلدتها وقشرتها وكل وعاءٍ فهو خِرشاء.
المأمون وسعيد بن جابر وحدثني إبراهيم بن هانيء، قال:

حدّثني سعيدُ بنُ جابر، قال: لما كادت الأجناد تحيط ببغداد من جوانبها، قال لنا المخلوع: لو خرجنا هكذا قَطْرَبُلٌ على دوابنا، ثم رجعنا من فورنا، كان لنا في ذلك نُشْرَة، قال: فلما صرنا هناك هجمنا على موضعِ حَمَّارَيْن، فرأى أناسًا قد تطافروا من بعض تلك الحانات، فسأل عنهم، فإذا هم أصحابُ قِمارٍ ونَرْدٍ ونبِيذٍ، فبعث في آثارهم فرُؤُوا وقال لنا: أشتي أن أسمع حديثهم، وأرى مجلسهم وقِمارهم، قال: فدخلنا إلى موضعهم، فإذا تحت النرد قطعة لَبْدٍ، وإذا فصوص النرد من طين، بعضه مسوّد وبعضه متروك، وإذا الكعبان من عُرْوَة كوز محكّكة، وإذا بعضهم يتكئ على دَنٍّ خالٍ وتحتهم بَوَارٍ قد تنسّرت، قال: فبينا هو يضحك منهم إذ رأيت قملة تدب على ذيله، فتغفّلتُه وأخذتها فرآني وقد تناولت شيئًا، فقال لي: أي شيء تناولت؟ فقلت: دُوَيْبَّةٌ دبت على ذيلك من ثياب هؤلاء، قال: وأي دابة هي؟ قلت: قملة، قال: أرنبيها؛ فقد والله سمعت بها. قال: فتعجبت يومئذ من المقادير كيف ترفع رجالاً في السماء، وتحطّ آخرين في الثرى.

معارف وخبر في القمل

قال: والقرد يتفلى، فإذا أصاب قملةً رمى بها إلى فيه.
ونساء العوامَّ يعجبهنَّ صوتُ قصع القمل على الأظفار.
ورأيت مرةً أنا وجعفر بن سعيد، بقالا في العتيقة وإذا امرأته
جالسةٌ بين يديه، وزوجها يحدثها وهي تفلي جيبها وقد جمعت
بين باطن إبهامها وسبابتها عدّة قمل، فوضعتها على ظفر
إبهامها الأيسر، ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن فشدختها به،
فسمعتُ لها فرقةً، فقلت لجعفر: فما منعها أن تضعها بين
حجرين؟ قال: لها لذةٌ في هذه الفرقة، والمباشرةُ أبلغُ عندها
في اللذة، فقلت: فما تكرهُ مكانَ زوجها؟ قال: لولا أن زوجها
يُعجبُ بذلك لنهاها.
شعر لابن ميادة وقال ابن ميادة:

وسقتني سقاة المجد	بأرشية أطرافها في
من آل ظالمٍ	الكواكب
وإنَّ بأعلى ذي	يسيرون أعياراً شداد
النخيل نسية	المناكب
يشلنَ بأستاهِ عليهنَّ	كما شال بالأذنان

سمرُ العقارب

دسمة



الكتاب الخامس عشر

في البرغوث

شعر في البرغوث

م عارف في البرغوث

ألم عضة البرغوث والقملة

في البقّ والجرجس والشّرّان والفراش والأدي

شعر ورجز في البعوض

شعر ورجز في البعوض

في العنكبوت

شعر في العنكبوت

أجناس العنكبوت ونسجها

العنكبوت الذي يسمى الليث

2044

ضروب العناكب

في النحل

نظام النحل

طعن ناس من الملحدين في آية النَّحْلِ

دعوى ابن حائط في نبوة النحل

أحاديث في العسل

في القراد

القراد في الهجو

شعر ومثل في القراد

استطراد لغوي

تخلق القراد والقمل

أمثال وأخبار في القراد

في الحبارى

ما قيل من المثل في الحبارى

سلاح الحبارى وغيرها من الحيوان

شعر في الحبارى

خير فيه ذكر الحبارى

القول في الضأن والمعز

فضل الضأن على المعز

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

ما قيل من الأمثال في العنز

ضرر لحم الماعز

اشتقاق الأسماء من الكبش

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

التيس في الهجاء

نتن التُّيوس

نتن العنز

مثالب العنز

تيس بني حمان

أعجوبة الضأن

فضل الضأن على الماعز

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

التشبيه بالكباش والتفاؤل بها

شعر في ذم العنز

باب في الماعز

لحم الماعز والضأن

أمثال في المعز والضأن

فضل الماعز

أمارات حمل الشاة

المِرْعَزِيَّ وقراية الماعزة من الناس

الماعز التي لا ترد

جلود الماعز

الفخر بالماعز

ضرر الضأن ونفع الماعز

كرم الماعز

رَجَز في الغنز

أقط الماعز

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

في الضفادع

زعم في الضفادع

أعجوبة في الضفادع

معارف في الضفدع

معارف في الضفدع

قول مسيلمة في الضفدع

معيشة الضفادع مع السمك

طلب الحيات والضفادع

شعر في الضفادع

سمع الضفدع

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

فضل الإنسان على سائر الحيوان

عَجَزُ الْإِنْسَانِ وَصِغَرُ قَدْرِهِ

معارف في الجراد

ذنب الجرادة وإبرة العقرب

مراتب الجراد

مثل في الجراد

شعر في الجندب والجراد

تشبيه الفرس بالجرادة

تشبيه مسامير الدرع بحدق الجرادة

تشبيه وسط الفرس بوسط الجرادة

تشبيه الحباب بحدق الجراد

لعب الجندب

طيب الجراد الأعرابي

طرفة في الجراد

تشبيه الجيش بالدبا

قول أبي إسحاق في آية الضفادع

شعر في تشبيه بالجراد

في القطا

تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة

شعر في التشبيه بالقطاة

شعر في صدق القطاة

أجود قصيدة في القطا

شعر البعيث في القطا

في البرغوث

والبرغوث أسودٌ أهدبٌ نَزَّاءٌ، من الخلق الذي لا يمشي صِرْفاً.
وبما قال بعضهم: دببها من تحتي أشدُّ عليَّ من عَضِّها.
وليس ذلك بدبيب، وكيف يمكنه الدَّبِيبُ وهو مُلَزَقٌ عَلَى النَّطْعِ
بجلد جنب النائم؟ ولكنَّ البرغوثَ خبيثٌ، فمتى أرادَ الإنسانُ أن
ينقلبَ من جنب إلى جنب، انقلب البرغوثُ واستلقى عَلَى
ظهره، ورفع قوائمه فدغدغه بها، فيظنُّ من لا علم عنده أنه
إنما يمشي تحت جنبه. وقد ذكرنا من شأنه في مواضع، ولو
كان الباب يكبر حتى يكون لك مجموعاً ولم تعرفه تكلفت لك
جمعه.

شعر في البرغوث

وقال بعضُ الأعراب:

لا باركَ اللهُ في ليلِ
البراغيثِ

ليلُ البراغيثِ عَنائي
وأنصَبني

أيتامُ سَوءٍ أغاروا في
الموارِيثِ

كأنهنَّ وجلدي إِذْ
خَلونَ به

وقال محبوب بن أبي العَشَنَّةِ النهشليّ:

من القرية جرد غير محروث

ل

روضة من رياض الحزن أو طرف

يشفي الصداغ ويشفي كل ممغوث

ل

لنور فيه إذا مجّ الندى أرج

من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث

أ

ملا وأحلى لعيني إن مررتُ به

أقضى الرقاد، ونصف للبراغيث

ا

لليل نصفان: نصف للهموم فما

أنزو وأخلط تسبيحاً بتغويث

أ

بيت حين تُساميني أوائلها

وليس ملتمسٌ منها بمسبوٓثٍ

سُود مَدَالِيحُ فِي الظُّلْمَاءِ مُؤَدِيَةٌ

وقد جعل التوثُ بالثناء، ووجه الكلام بالثناء، وتعجيمها نقطتان
من فوقها.
وقال آخر:

ببغدادَ إني بالبلاد
غريبُ

لقد عَلِمَ البرُغوثِحين
يَعَضُّنِي

وقال آخر:

ويُخرِجُهُ من بيته
لذليلُ

وَإِنَّ امرأَ تُوذِي
البراعِثُ جِلْدَهُ

بأبيض ماضي
الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلِ

أَلَا رُبَّ برغوثٍ تَرَكَتُ
مَجْدَلًا

وقال آخر:

لِقَيْتُ مِنَ البُرُغُوثِ

أَمِيرًا عَلَى البرغوثِ يَقْضِي وَلَا يُعْدي

وتصبح آثارٌ تبينُ في جُندي

وقال آخر:

إذا ظهرت في الأرض
شدَّ مُغِيرُهَا

ولا ذو سلاحٍ من معدٍّ
يَضِيرُهَا

ألا يا عبادَ الله مَنْ
لقبيلةٍ

فلا الدِّينُ ينهاها ولا
هي تنتهي

وقال يزيد بن نُبَيْه الكلابي:

مَصَّتْ لِيَةَ مَنِي وَقَلَّ
رُقُودُهَا

قيلٌ بها أو باشها
وسنيذها

تَطَالِعُ بِالرَّكْبَانِ صُعْرًا
خُدُودُهَا

بنفسي وأهلي أرضها

أصبحتُ سالمَتُ
البراغيثَ بعدما

فيا ليت شعري هل
أزورنَ بلدةَ

وهل أسمعن الدهرَ
أصواتِ ضُمَرٍ

وهل أرينَ الدهرَ ناراً

بأرضها

تراطنُ حولي كما ذرَّ
شارقُ

وقال آخر:

لا بارك الله في
البرغوٲ، إن له

أقولُ والنجمُ قد غارت
أوائله

لبرقة من براقِ الحزنِ
أعمرها

أشفى لدائي من دربِ
به نبطُ

من ينحرُ الشول لا
يُخطى قوائمها

ووفودها

ببغداد أنباطِ القري
وعبيدُها

لذعاً شديداً كلذعِ
الكيِّ بالنارِ

وعَلَسَ المدلجُ
الساري بأسحارِ

فيها الظباءُ تراعي
غَبَّ أمطارِ

ومنزلِ بينِ حَجامِ
وجزارِ

بمُدية كشرارِ النارِ
بتارِ

وقال آخر:

هو من بعد صلبه مبعوثُ

ا

نَّ هَذَا الْمَصْلُوبَ لَا شَكَّ فِيهِ

حَلٌّ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ يَأْكُلُهُ الْبَقُّ وَلَا يَهْتَدِي لَهُ الْبِرْعَوْتُ

سَائِقَاهَا فَذَاكَ سَيْرٌ مَكِيثٌ

ب

يَنْ حِنُوءٍ مَطِيَّةٍ إِنْ يَسْقَاهَا

قَلْتُ مَنْ ذَا فَقَالَ لَصٌّ خَبِيثٌ

ف

عَلَيْهِ الدِّبَارُ وَالْخِزْيُ لِمَا

وقال أبو الرماح الأسدِّي:

بِحَنُوءِ الْعُضَى لَيْلٌ

عَلَيَّ يَطْوُلُ

تَطَاوَلَ بِالْفَسْطَاطِ لَيْلِي

وَلَمْ يَكُنْ

وَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِنُهُ

يُورِّقُنِي حُدْبٌ صَغَارٌ

أذلة

إِذَا جُلْتُ بِعُضِّ اللَّيْلِ
مِنْهُمْ جَوْلَةً

إِذَا مَا قَتَلْنَا هُنَّ أضعَفَنَ
كَثْرَةً

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ
أَبَيَّتَنَ لَيْلَةً

وقال أبو الشَّمقمق:

يَا طَوَّلَ يَوْمِي وَطَوَّلَ
لَيْلَتِي

فِيهِنَّ بُرْعُوثةُ
مُجَوَّعةُ

وقال آخر:

هَنِيناً لَاهِلِ الرَّيِّ طَيْبُ

لذليل

تَعَلَّقَنَ بِي أَوْ جُلَّنَ
حَيْثُ أَجُولُ

عَلَيْنَا وَلَا يُنْعَى لِهِنَّ
قَتِيلُ

وَلَيْسَ لِبُرْعُوثِ عَلَيَّ
سَبِيلُ

إِنَّ الْبِرَاعِيثَ قَدْ عَبَثَنَ
بِي

قَدْ عَقَدْتُ بِنْدَاهَا
بِفَقْحَتِي

وَأَنَّ أَمِيرَ الرَّيِّ يَحْيَى

بلادهم

بن خالد

تطاولَ في بغدادَ ليلي
ومن يَكُنْ

ببغدادَ يلبثَ ليله غيرَ
راقِدِ

بلادٌ إذا جنَّ الظلامُ
تقافرتُ

براغيثها من بين
مثنى وواحدِ

ديازجة سود الجلود
كانها

بغالُ بريدُ أرسلت في
مداودِ

وقال آخر:

أرَّقني الأسيودُ
الأسكُ

ليلةَ حاكَّ ليس فيها شكُّ

أحكَّ حتى ماله مَحَكَّ

أحلُّ حتى مِرْفقي مُنَقَّكَّ

وقال آخر:

يا أمَّ مَثْواي عَدِمْتُ
وَجْهَكَ

أنقذني ربُّ العُلا من
مِصْرِكَ

أبيبُ ليلى دائمٌ
التحكُّكُ

ولذعِ برغوثةٍ أراهُ
مُهَلِكِي

تحكُّكُ الأجرِبِ عند
المبرَكِ

وقال آخر:

أحييكَ الجَدِ لا سمعٌ ولا
بصرُ

الحمد لله برغوثةٍ
يُورِّقني

وقال آخر:

لم يُطبِّقوا عيناً لهم
بُعْمَضِها

قبيلةٌ في طولها
وعَرْضِها

كأنَّ في جلودها من
مَضَّها

خُوفَ البِراغيثِ
وخُوفَ عَضِّها

إن دام هذا هربت من
أرضِها

عقارباً ترفضُّ من
مُرْفَضِّها

يا ربّ فاقتل بعضَهَا ببعضِهَا

معارف في البرغوث

قال: والبرغوث في صورة الفيل، وزعموا أنها تبيض وتفرخ، وأنهم رأوا بيضها رؤية العين، والبراغيث تنأخ وهي مستدبرة ومتعازلة، وهي من الجنس الذي تطول ساعة كوميها. استقدار القمل وليس الناسُ لشيء مما يعضُّهم ويؤذيهم، من الجرجس، والبق، والبراغيث والدِّبان - أشد استقدارًا منهم للقمل، ومن العجب أن قرابته أمس، فأما قملة النسر، وهي التي يقال لها بالفارسية: دَدَه، وهي تكون بالجبل، فإنها إذا عضت قتلت.

القول في البعوض حدّثني إبراهيم بن السّنديّ قال: لما كان أبي بالشام والياً، أحبّ أن يسوّي بين القحطانيّ والعدنانيّ، وقال: لسنا نقدّمكم إلا على الطاعة لله عزّ وجلّ، وللخلفاء، وكلّكم إخوة، وليس للرزّاريّ عندي شيءٌ ليس لليمانيّ مثله. قال: وكان يتعدّى مع جملة من جلة الفريقيين، ويسوّي بينهم في الإذن والمجلس، وكان شيخ اليمانية يدخل عليه معتمًا، وقد جذب كورَ عمامته حتى غطى بها حاجبه وكان لا ينزعها في

حر ولا برد، فأراد فتى من قيس - وقد كان أبي يستخليه
ويقربُه - أن يُسقطه من عين أبي ويوحِشَه منه، فقال له ذات
يوم ووجدَ المجلس خالياً: إني أريدُ أن أقول شيئاً ليس يخرجَه
مني إلا الشكر والحُرِيَّة، وإلا المودة والنصيحة، ولولا ما
أعرفُ من تفرُّزك وتنطُّسِك؛ وأنتك متى انتبَهت على ما أنا مُلقِيه
إليك لم آمنُ أن تستغشني، وإن لم تُظهِرَه لي، إن هذا اليماني
إنما يعتم أبدأً، ويمدُّ طُرَّةَ العمامة حتى يغطِّي بها حاجِبِيه؛ لأن
به داءً لو علِمَت به لم تؤاكلهُ.

قال: فقال أبي: فرماني والله بمعنى كاد ينقضُ عليَّ جميع ما
بيدي، وقلتُ: والله لئن أكلت معه وبه الذي به إنَّ هذا لهو
البلاء، ولئن منعت الجميع مؤاكلتي لأوحِشَنهم جميعاً بعد
المباشطة والمباثة والملابسة والمؤاكلة، ولئن خصصتُه بالمنع
أو أقعدتُه على غير مائدتي، ليغضبَن، ولئن غضب ليغضبَن
معه كل قحطاني بالشام، فبتُّ بليلةً طويلةً، فلما كان العَدُو
جلست، ودخلوا للسلام، جرى شيءٌ من ذكر السمومِ وخرائبِ
أعمالها، فأقبل عليَّ ذلك الشيخُ فقال: عندي من هذا بالمعائنة
ما ليس عند أحد، خرجت مع ابن أخي هذا، ومع ابن عمِّي هذا،
ومع ابني هذا، أريدُ قريتي الفلانية، فإذا بقُرب الجادَّةِ بعيرٍ قد
نهشته أفعى، وإذا هو وافرٌ اللحم، وكل شيءٍ حَوالَيه من

الطير والسباع ميت، فقمنا منه على قابٍ أرماحٍ نتعجب، وإذا عليه بعوض كثيرة، فبينما أنا أقول لأصحابي: يا هؤلاء، إنكم لترون العجب: أولُ ذلك أن بعيراً مثل هذا يتفسخ من عضة شيء لعله أن لا يكون في جسم عرقٍ من عروقه، أو عصية من عصبه، فما هذا الذي مَجَّه فيه، وقذفه إليه؟ ثم لم يرضَ بأن قتله حتى قتلَ كلَّ طائر ذاق منه، وكلَّ سبُعٍ عضَّ عليه، وأعجب من هذا قتله لأكابر السباع والطيور، وتركه قتلَ البعوضة، مع ضعفها ومهانتها.

فبينما نحن كذلك إذ هبَّت ريحٌ من تلقاء الجفة، فطيرت البعوض إلى شِقِّنا، وتسقط بعوضة على جبهتي، فما هو إلا أن عضتني إذ اسمأد وجهي تورم رأسي، فكنت لا أضربُ بيدي إلى شيء أحكُّه من رأسي وحاجبي، إلا انتثر في يدي، فحُمِلت إلى منزلي في محملٍ وعولجت بأنواع العلاج، فبرأت بعد دهر طويل، على أنه أبقى عليَّ من الشين أنه تركني أقرع الرأس، أمرط الحاجبين.

قال: والقومُ يخوضون معه في ذلك الحديث، خوضَ قوم قد قتلوا تلك القصة يقيناً.

قال: فتبسمت، ونكس الفتى القيسي رأسه، فظن الشيخ أنه قد جرى بيننا في ذلك دُرء من القول، فقال: إن هذا القيسي

خبِيث، ولعله أن يكون قد احتال لك بحيلة قال إبراهيم: فلم أسمع
في السموم بأعجب من هذا الحديث.
طلسمات البعوض ويزعم أهل أنطاكية أنهم لا يُبعضون لِطَلْسَمٍ
هناك، ولو ادعى أهلُ عقر الدَّير، المتوسطة لأجمة ما بين
البصرة وكَسْرَ لكان طَلْسَمُهُمْ أعجب.
ويزعم أهلُ حِمص أن فيها طَلْسَمًا من أجله لا تعيش فيها
العقارب، وإن طُرِحَتْ فيها عَقْرَبٌ غريبة ماتت من ساعتها.
وَلَعَمْرِي إنه ليجوزُ أن تكون بلدة تضادُّ ضرباً من الحيوان فلا
يعيش فيها ذلك الجنس، فيدعي كذابو أهلها أن ذلك برُقِيَّة، أو
دعوة، أو طَلْسَم.

ألم عضه البرغوث والقملة

والبرغوث إذا عض، وكذلك القملة، فيس هناك من الحُرقة
والألم ما له مدة قصيرة ولا طويلة.
وأما البعوضُ فأشهد أن بعوضةً عضتْ ظهرَ قلمي، وأنا بقرب
كاذة والعوجاء، وذلك بعد أن صلى الناسُ المغرب، فلم أزل
منها في أكالٍ وحُرقة، وأنا أسير في السفينة، إلى أن سِمتُ
أذانَ العشاء.
ولذلك يقال: إن البعوضة لو ألحقت بمقدار جرم الجرارة - فإنها

أصغرُ العقارب ثم زيدت مم تضاعيف ما معها من السَّمِّ عَلَى
حَسَبِ ذَلِكَ لكَانَتْ شَرًّا مِنَ الدَّوَيْبَةِ الَّتِي تَسْمَى بِالْفَارَسِيَّةِ: دَدَهُ
وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْقَمَلَةِ شَيْئًا، وَتَكُونُ بِمَهْرَجَانِ قُذُقٍ، فَإِنِهَا مَعَ
صِغَرِ جِسْمِهَا تَفْسَخُ الْإِنْسَانَ فِي أَسْرَعِ مِنَ الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، وَهِيَ
تَعْضُ وَلَا تَلْسَعُ، وَهِيَ مِنْ ذَوَاتِ الْأَفْوَاهِ، وَهِيَ الَّتِي يَزْعَمُهُمْ
يُقَالُ لَهَا قَمَلَةُ النَّسْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّسْرَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ، إِذَا
سَقَطَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ سَقَطَتْ مِنْهُ قَمَلَةٌ تَسْتَحِيلُ هَذِهِ الدَّابَّةَ الْخَبِيثَةَ
وَالْبَعُوضَةَ مِنْ ذَوَاتِ الْخِرَاطِيمِ.

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ هَاشِمِ السَّدْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ بِالزُّطِّ، فَكُنْتُ وَاللَّهِ
أَرَى الْبَعُوضَةَ تَطِيرُ عَنْ ظَهْرِ الثَّوْرِ فَتَسْقُطُ عَلَى الْغُصْنِ مِنَ
الْأَغْصَانِ، فَتَقْلِسُ مَا فِي بَطْنِهَا، ثُمَّ تَعُودُ.
وَالْبَعُوضَةُ تَغْمِسُ خِرطُومَهَا فِي جِلْدِ الْجَامُوسِ، كَمَا يَغْمِسُ
الرَّجُلُ أَصْرَابِعَهُ فِي الثَّرِيدِ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوِاسِطِ شَطْرَيْنِ، فَالْشَّطْرُ الَّذِي يَلِي
الطَّفَّ وَبَابِ طَنْجِ يَبِيْتِ أَهْلِهِ فِي عَافِيَةٍ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ
الْبَعُوضِ مَا يَذْكَرُ، وَالشَّطْرُ الَّذِي يَلِي زِقَاقَ الْهَفَّةِ لَا يَنَامُ أَهْلُهُ
مِنَ الْبَعُوضِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا بِيَلَادِ الشَّامِ أَوْ بِلَادِ مِصْرَ لَأَدَّعَا
الطَّلَّاسِمُ. وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ قَالَ: وَرَدْنَا فَمِ زِقَاقِ الْهَفَّةِ، فِي
أَجْمَةِ الْبَصْرَةِ، فَأَرَدْنَا النِّفُوزَ فَمَنْعَنَا صَاحِبُ الْمَسْلُحَةِ، فَأَرَدْنَا

التأخر إلى الهور الذي خرجنا منه، فأبى علينا، ووردنا عليه وهو سكران وأصحابه سُكاري، فغضب عَلى مَلاح نَبطيّ، فشده قِماطاً، ثم رمى به في الأجمة، على موضع أرض تتصل بموضع أكواخ صاحب المسلحة، فصاح الملاح: اقتلني أيّ قتلة شئت وأرخني فأبى وطرحه، فصاح، ثم عاد صياحه إلى الأئين، ثم خفت وناموا في كليلهم وهم سكارى، فجئت إلى المقموط، وما جاوز وقت عتمة، فإذا هو ميتٌ، وإذا هو أشد سواداً من الزنجي، وأشد انتفاخاً من الزق المنفوخ، وذلك كله بقدر ما بين العشاء والمغرب، فقلت: إنها لما لسبته ولسعته من كل جانب لسعا على لسع إن اجتماع سمومها فيه أربت على نهشة أفعى بعيداً، فهي ضررٌ ومحنة، ليس فيها شيءٌ من المرافق. نفع العقرب والعقارب بأكلها مشويةً من بعينه ريح السبل، فيجدها صالحة، ويرمى بها في الزيت، حتى إذا تفسخت وامتصّ الزيت ما فيها من قواها فطلوا بذلك الدهن الخصى التي فيها النفخ - فرّق تلك الريح حتى تخمّص الجلدة، ويذهب الوجع.

فإذا سمعت بذهن العقارب فإنما يعنون هذا الدهن.

في البقّ والجرجس والشّرّان والفرّاش والأدي

وقال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۖ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً
فَمَا فَوْقَهَا"، قال: يريد فما دونها.

وهو قول القائل للرجل يقول: فلان أسفل الناس وأندلهم فيقول:
هو فوق ذلك يضع قوله فوق، في موضع: هو شر من ذلك.
قال: وضروب من الطير لا تلتمس أرزاقها إلا بالليل، منها
الخفّاش، والبومة، والصدى، والضّوع، وعراب الليل.
وللبعوض بالنهار تؤذي بعض الأذى، وإنما سلطانها بالليل،
وكذلك البراغيث.

وأما القمل فأمره في الحالات مستو، وليس للدّبان بالليل عمل،
إلا أنّي متى بيّت معتي في القبة ما صار إليها، وسكن فيها من
الدّبان، ولم أطردّها بالعشيّ وبعد العصر، فإني لا أجد فيها
بعوضة واحدة.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرّاجز في خرطوم البعوضة:

رُكِّبَ فِي خَرْطُومِهَا
سِرِّيْنَهَا

مِثْلَ السَّفَاةِ دَائِمٍ
طَنِيْنَهَا

وقال الهذلي:

كَأَنَّ وَعَى الْخَمُوشِ
بجانبِيه

وَعَى رَكْبِ أَمِيمٍ ذَوِي
هِيَاطِ

والخמוש: أصناف البعوض، والوعى: أصوات الملتفة التي لا يُبين واحدُها عن معنى، وهو كما تسمع من الأصوات الجيئين إذا التقيا على الحرب، وكما تسمع من ضجة السوق. وقال الكُميت وهو يذكر قانصاً وصاحب قُترة - لأنه لا يبتني بيته إلا عند شريعةٍ ينتابها الوحش - فقال وهو يصف البعوض:

به حاضرٌ من غير جنٍّ
ترُوعه

ولا أنسٌ ذو أرنانٍ
ودُو زجلٍ

والحاضر: الذي لا يبرحه البعوض، لأن البعوض من الماء يتخلق فكيف يفارقه، والماء الراكد لا يزال يولده؟ فإن صار نطافاً أو ضحضحاً استحال دعاميص، وانسلخت الدعاميص فصارت فراشاً وبعوضاً، وقال ذو الرمة:

وأيقن أن القينع صارت
نطافه

فراشاً وأن البقل ذاوٍ
و يابسُ

وصفَ الصَّيْف، وقال أبو وجْزَة، وهو يَصِفُ القَانِصَ والشَّرِيعَةَ
والْبَعُوضَ:

رُمِدَ بِهِ عَاذِرٌ مِنْهِنَّ
كَالْجَرَبِ

تَبَيَّتْ جَارَتَهُ الْأَفْعَى
وَسَامِرُهُ

رُمِدَ فِي لَوْنِهَا، يَعْنِي الْبَعُوضَ، وَهِيَ الَّتِي تَسَامِرُ الْقَانِصَ
وَتُسْهِرُهُ، وَالْعَاذِرُ: الْأَثَرُ، يَقُولُ: فِي جِلْدِهِ عَوَاذِيرٌ وَأَثَارٌ كَأَثَارِ
الْجَرَبِ مِنْ لَسَعِ الْبَعُوضِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَسَطُ الْأَفْعَى.
وَقَالَ الرَّاجِزُ يَصِفُ الْبَعُوضَ:

أَمَارِسُ الْبَعُوضِ فِي
دُجَاهَا

وَأَيْلَةٌ لَمْ أَدْرِ مَا
كَرَاهَا

سِتٌّ لَدَى إِيْفَانِهَا
شَوَاهَا

كُلُّ رَجُولٍ خَفِيَ
حَشَاهَا

حَنَانَةٌ أَعْظَمُهَا أَذَاهَا

لَا يَطْرَبُ السَّامِعُ مِنْ
غَنَاهَا

أَرْجُلُ الْجَرَادَةِ وَالْعَقْرَبِ وَالنَّمْلَةِ وَالسَّرَطَانِ وَكَذَلِكَ قَوَائِمُ
الْجَرَادَةِ، هِيَ سِتٌّ: يَدَانِ، وَرِجْلَانِ، وَالْمِيْشَارَانِ وَبِهِمَا تَعْتَمِدُ إِذَا

نَزَتْ.

فأما العقرب فلها ثمان أرجل، وللنملة ست أرجل. وللسرطان ثمان أرجل، وهو في ذلك يستعين بأسنانه، فكأنه يمشي على عشر، وعيناه في ظهره، وما أكثر من يشويه ويأكله للشهوة، لا للحاجة ولا للعلاج.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجز، ووصفَ حالَهُ وحَالَ البَعُوضِ:

أطولَ من ليلي بنهرٍ
بَطُّ

لم أرَ كاليوم ولا مُدَّ
قَطُّ

أبيتُ بينَ خُطَي
مَشَّتْ

كأنما نجومُه في
رُبط

إذا تَغَنَّيَ غِنَاءَ الزُّطِّ

من البَعُوضِ ومن
التَغَطِّي

فثِقَ بوقِعِ مِثْلِ وَقِعِ
الشَّرِطِ

وهنَّ مَنِّي بِمَكَانِ
الْقَرِطِ

وقال أيضاً:

وأخذ اللحن
مغنياتها

كلُّ زجولٍ تتقى
شذاتها

تنقص عن بُغيثها
بُغاتها

رامحة خرطومها
قناتها

إذا البعوضُ زجَلتْ
أصواتها

لم تطرب السامعَ
خافضاتها

صغيرةٌ عظيمةٌ
أذاتها

ولا تصيبُ أبداً
رُماتها

وأنشدني جعفر بن سعيد:

وفي براغيثَ أذاها
فاشي

يرفع جنبيّ عن
الفراش

ظَلَلْتُ بالبصرة في
تَهْوَاشِ

من نافر منها وذي
اهتماش

فأنا في حَكِّ وفي
تخراش

تترك في جنبِي
كالخراش

وزوجةٍ دائمةٍ
الهراش

تغلي كغلي المرَجَلِ
التَّشَّاشِ

تأكلُ ماجمعت من
تهباش

بل أمُّ معروفٍ خموشٌ
ناشِ

وقال رجل من بني حِمَّانَ، وقع في جُندِ الثغور:

أَنْصُرُ أَهْلَ الشَّامِ مِمَّنْ
يَكِيدُهُمْ

وأهلي بَنَجِدِ سَاءَ ذَلِكَ
من نصرِ

بِرَاغِيثٍ تُرْدِينِي إِذَا
النَّاسُ نَوَّمُوا

وَبَقَّ أَقَاسِيهِ عَلَى
سَاحِلِ الْبَحْرِ

فَإِنْ يَكُ فَرَضٌ بَعْدَهَا لَا
أَعْدُ لَهُ

وَإِنْ بَذَلُوا حُمْرَ
الدَّنَانِيرِ كَالْجَمْرِ

?

في العنكبوت

قال الله عز وجل: "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"، ثم قال على إثر ذلك: "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" يريد ذكره بالوهن، وكذلك هو، ولم يُردِّ إحكام الصنعة في الرِّقَّة والصَّفَاقَة، واستواء الرقعة، وطول البقاء، إذا كان لا يعمل فيه تعاوُر الأيام، وسلَم من جنایات الأيدي.

شعر في العنكبوت

وقال الحداني:

غَذَّتْهُ بِأَطْبَاءٍ مُلْعَنَةٍ
عُكِّلُ

قفا عنكبوت سلّ من
دُبْرَهَا عَزْلُ

وليس على هارون خفٌّ

يزهّذي في ودِّ
هارون أنه

كأنّ قفا هارون إذ
قام مُدْبِرًا

ألا ليت هاروناً

يسافرُ جائعاً

ولا نعلُ

وقال مزرد بن ضرار:

على رأسه من شاملِ الشَّيبِ قَوْسُ

إذا مَسَّه يَدْمِي مِرَاراً وَيَضْرَسُ

نواشِيَّ حَتَّى شِبْنِ أَوْ هُنَّ عُنْسُ

إذا كَشَّ ثَوْرٌ مِنْ كَرِيصٍ مُنَمَّسُ

أجناس العنكبوت ونسجها

قال: ومن أجناس العنكبوت جنس رديء التدبير، لأنه ينسج ستره على وجه الأرض، والصخور، ويجعله على ظهر الأرض خارجاً، وتكون الأطراف داخلة، فإذا وقع عليه شيء مما يَغْتَدِيهِ من شكل الذبَّان وما أشبه ذلك أخذه.

وأما الدقيق الصنعة فإنه يصعد بيته ويمد الشعرة ناحية القرون والأوتاد، ثم يسدي من الوسط، ثم يهيئ اللحمة، ويهيئ مصيدته في الوسط، فإذا وقع عليها ذباب تحرك ما هناك ارتبط ونشبت به، فيتركه على حاله حتى إذا وثق بوهنه وضعفه، غلّه وأدخله إلى خزانته، وإن كان جائعاً مصّ من رطوبته

ورمى به، فإذا فرغ رم ما تشعث من نسجه.
وأكثر ما يقع على تلك المصيدة من الصيد عند غيبوبة
الشمس.

وإنما تنسج الأنثى، فأما الذكر فإنه ينقض ويفسد. وولد
العنكبوت أعجب من الفروج، الذي يظهر إلى الدنيا كاسباً
محتالاً مكتفياً.

قال: وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد.
قال: والذي ينسج به لا يخرج من جوفه، بل من خارج جسده.
وقال الحداني:

قفا عنكبوت سلّ من
دبرها غزل

كان قفا هارون إذ
قام مُدبراً

فالنحل، العنكبوت، ودود القز، تختلف من جهات ما يقال إنه
يخرج منها.

العنكبوت الذي يسمى الليث

ومن العناكب جنسٌ يصيد الدبابَ صيد الفهود، وهو الذي
يسمى: الليث وله ستُّ عيون، وإذا رأى الدبابَ لطى بالأرض،
وسكن أطرافه، وإذا وثب لم يخطئ، وهو من آفات الدبان، ولا

يصيدُ إلا ذبَّانِ الناسِ.

ذبَّانِ الأسدِ والكلابِ وذبَّانِ الأسدِ على حِدَّة، وذبَّانِ الكلابِ على حِدَّة، وليس يقوم لها شيءٌ، وهي أشدُّ من الزنابير، وأضرُّ من العقارب الطيَّارة، وفيها من الأعاجيب أنها تعضُّ الأسدَ، كما يعضُّ الكلبُ ذبَّانِ الكلبِ.

وكذلك ذبَّانِ الكلابِ، لما يغشى الكلابُ من بعير وغير ذلك، ولها عضٌّ مُنكرٌ، ولا يبلغ مبلغ ذبَّانِ الأسدِ. فمن أعاجيبها سوى شدةِ عضِّها وسَمِّها، وأنها مقصورة على الأسدِ، وأنها متى رأت بأسدٍ دماً من جراح أو رمي، ولو في مقدار الخديش الصغير فإنها تستجمع عليه، فلا تقلع عنه حتى تقتله.

وهذا شبيهة بما يُروى ويُخبر عن الذرِّ، فإن الذرَّ متى رأت بحية خدشاً لم تقلع عنه حتى تقتله، وحتى تأكله.

ولوع النمل بالأراك ولقد أردتُ أن أُغرسَ في داري أراكةً، فقالوا لي: إن الأراكة إنما تنبت من حبِّ الأراك، وفي نباتها عسراً، وذلك أن حبَّ الأراك يغرس في جوف طين، وفي قواصر، ويُسقى الماءَ أياماً، فإذا نبت الحبُّ وظهر نباته فوق الطين، وُضعت القوَصرة كما هي في جوف الأرض، ولكنها إلى أن تصير في جوف الأرض، فإن الذرَّ يطالبها مطالبة شديدة،

وإن لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها.
فعمدتُ إلى منارات من صُفر من هذه المسارج، وهي في غاية
الملاسة واللين، فكنْتُ أَضَعُ القوصرةَ عَلَى الترسِ الذي فوق
العمود الأملس، فأجد فيها الذرَّ الكثير، فكنْتُ أنقلُ المنارةَ من
مكان إلى مكان، فما أفلحَ ذلك الحَبُّ.

ضروب العناكب

قال: والعناكب ضروبٌ: منها هذا الذي يقال له الليث، وهو
الذي يصيد الذبان صيد الفهد، وقد ذكرنا في صدر هذا الكلام
حذقه ورفقه، وتأتيه وحيلته.
ومنها أجناس طَوَالُ الأرجل، والواحدةُ منها إذا مشت على جُدِّ
الإنسان تبثّر، ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل، إنما اتخذت
بيتاً وأعدت فيه المصايد والحبائل، والخيوط التي تلتفُّ على ما
يدخل بيتها من أصناف الذبان وصغار الزنابير لأنها حين علِمَتْ
أنها لا بد لها من قوت، وعرفت ضعف قوائمها، وأنها تعجزُ
عما يقوى عليه الليث، احتالت بتلك الحيل.
فالعنكبوتُ، والفأر، والنحل، والذرّ، والنمل، من الأجناس التي
تتقدم في إحكام شأن المعيشة، ومنها جنس رديء، مشنوء
الصورة، غليظ الأرجل، كثيراً ما يكون في المكان التراب من

الصناديق والقماطر والأسفاط، وقد قيل: إِنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَّةِ،
كما بين الخنفساء والعقرب.

وإنَّ العنكب هي العوامل: تغزل وتنسج، والدَّكْرُ أخرقٍ ينقضُ
ولا يُنْسِجُ، وإن كان ما قال صاحب المنطق حَقًّا فما أَعْرَبَ
الأعجوبة في ذلك، وذلك أنه زعم أن العنكبوت تقوى على
النَّسِجِ، وعلى التقدّم في إحكام شأن المعاش حين تولد.
الكاسب من أولاد الحيوان وقالوا: وأشياء من أولاد الحيوان
تكون عالمةً بصناعتها، عارفة بما يعيشها ويصلحها، حتى
تكون في ذلك كأمهاتها وآبائها، حين تخرج إلى الدنيا،
وكالفرّوج من وَالدجاج، والحسل من ولد الضبّاب، وفرخ
العنكبوت.

وهذه الأجناسُ، مع الفأر والجرذان، هي التي من بين جميع
الخلق تدخرُ لنفسها ما تعيش به من الطعام.

في النحل

زعم صاحب المنطق أن خليةً من خلايا النحل فيما سلف من
الزمان، اعتلتُ ومَرِض ما كان فيها من النحل، وجاء نحلٌّ من
خَلِيَّةٍ أُخْرَى يقاتلُ هذا النحل حتى أخرجت العسل، وأقبل القيم
على الخلايا يقتل بذلك النحل الذي جاء إلى خليته.

قال: فخرج النحل من الخلية يقاتل النحل الغريب، والرجل
بينها يطرد الغريب، فلم تلسعه نحل الخلية التي هو حافظها،
لدفعه المكروه عنها.
قال: وأجود العسل ما كان لونه لون الذهب.

نظام النحل

قال: والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضها يعمل الشمع،
وبعضها يعمل العسل، وبعضها يبني البيوت، وبعضها يسنقي
الماء ويصبه في الثقب، ويلطخه بالعسل.
ومنه ما يبكر إلى العمل، ومن النحل ما يكفه؛ حتى إذا نهضت
واحدة طارت كلها، يقال: بكر بكور اليعسوب، يريد أمير النحل
لأنها تتبعه غدوة إلى عملها، ومنها ما ينقل العسل من أطراف
الشجر، ومنها ما ينقل الشمع الذي تبني به، فلا تزال في
عمله حتى إذا كان الليل آبت إلى مآبها.
قال: والأري: عمل العسل، يقال: أرت تأري أرياً، والأري في
غير هذا الموضع: القيء، وقال أبو ذؤيب:

إذا اصفرَّ ليط الشمس
حان انقلابها

بأري التي تأري إلى
كل مغرب

ومغارب: جمع مغرب، وكل شيء وارك من شيء فهو مغرب،
كما جعله أبو ذؤيب، والأصل مغرب الشمس، وقال أبو ذؤيب:

فأصبح رَاداً يبتغي
المزجَ بالسَّحْلِ

فباتَ بجمَعٍ ثمَّ تمَّ
إلى مِنى

المزجُ: العسل، والسَّحْلُ: النقد.

ما له رئيس من الحيوان ومن الحيوان ما يكون لكل جماعة
منها رأس وأمير، ومنها ما لا يكون ذلك له، فأما الحيوان الذي
لا يجد بدأً ولا مصلحة لشأنه إلا في اتخاذ رئيس ورقيب فمثل
ما يصنع الناس، ومثل ما تتخذ النحلُ والغرائق، والكرائي.
فأما الإبل والحمير والبقر، فإن الرياسة لفحل الهجمة، ولغير
العانة، ولثور الرِّبْرَب، وذكورتها لاتتخذ تخذ الرُّقْبَلِ من
الذُّكُورِ.

وقد زعم ناس أن الكراكي لا تُرى أبداً إلا فرادى فكأن الذي
يجمعها الذكر، ولا يجمعها إلا أزواجاً.

ولا أدري كيف هذا القول؟ والنحل أيضاً تسير بسيرة الإبل
والبقر والحمير، لأن الرئيس هو الذي يوردها ويصدرها،
وتنهضُ بنهوضه، وتقع بوقوعه، واليعسوب هو فحلها، فتري
كما تري، سائر الحيوان الذي يتخذ رئيساً إنما هي إناث

الأجناس، إلا الناس؛ فإنهم يعلمون أن صلاحهم في اتخاذ أمير
وسيد، ورئيس.

وزعم بعضهم أن رياسة اليعسوب، وفحل الهجمة، والثور،
والعير، لأحد أمرين: أحدهما لاقتدار الذكر على الإناث، والآخر
لما في طباع الإناث من حب ذكورتها.

ولو لم تتأمر عليها الفحول لكانت هي لحبها الفحول تغدو
بغدوها، وتروح برواحها.

قالوا: وكذلك الغرائيق والكراكي، فأما ما ذكروا من رؤساء
الإبل والبقر والجواميس والحمير، فما أبعدهم في ذلك عن
الصواب.

وأما إلحاقهم الغرائيق والكراكي بهذه المنزلة فليس على ما
قالوا.

وعلى أنا لا نجد بداً من أن يعلم أن ذكورتها أقوى على قسر
الإناث وجمعها إليها من الإناث وعلى أنه لا بد من أن يكون
بعض طاعة الإناث لها من جهة ما في طباعها من حب
ذكورتها، ولو كان اتخاذ الغرائيق والكراكي الرؤساء والرُقباء
إنما علته المعرفة لم يكن للغرائيق والكراكي في المعرفة فضلٌ
على الدرّ والنمل، وعلى الدّئب والفيل، وعلى الثعلب والحمّام.
أما الغنم فهي أَعثُرٌ وأَمَوقٌ من أن تجري في باب هذا القول.

وقد تخضع الحياتُ للحية، والكلاب للكلب، والدُّيوك للديك، حتى لا تروِّمَه ولا تحاول مدافعتَه، قصة في خنوع الكلب ولقد خرجت في بعض الأسفار في طلب الحديث، فلما صرتُ في مربَّعة المحلَّة، ثار إليَّ عدَّة من الكلاب، من ضَّخامها، ومما يختاره الحُرَّاس، فبينما أنا في الاحتيال لهنَّ وقد غشَّيْنِي إذ سَكَنْتْ سركتةً واحدة معاً، ثم أخذ كل واحد في شقِّ كالخائف المستخفي، وسمعت نعمة إنسان، فانتَهزتُ تلك الفرصة من إمساكهنَّ عن النَّباح، فقلتُ: إِنَّ هَهُنَا لَعِلَّةٌ إذ أقبلَ رجلانِ ومعها كلبٌ أزبٌ ضخمٌ دوسر، وهو في ساجور، ولم أرَ كلباً قط أضخم منه، فقلتُ: إنهنَّ إنما أمسكن عن النَّباح وتسترن، من الهيبة له وهي مع ذلك لا تتخذ رئيساً.

سادة الحيوان ورؤي عن عباد بن صهيب، عن عوف بن أبي جميلة، عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى: إن لكل شيء سادة حتى إن للنمل سادة، فقال بعضهم: سادة النمل: المتقدِّمات.

وهذا تخريج، ولا ندري ما معنى ما قال أبو موسى في هذا. ولو كان اتخاذاً الرئيس من النحل، والكرائي، والغرائيق، والإبل، والحمير، والثيران، لكثرة ما معها من المعرفة - لكانت القرود، والفيلة والذر، والثعالب، أولى بذلك، فلا بد من معرفة،

ولا بد من طباع وصنعة.
والحمام يُزجَلْنَ من لؤلؤة، وهنَّ بصريّات وبعغاديّات، وهنَّ
جُماعٌ من هاهنا و هاهنا، فلا تتخذ رئيساً.

طعن ناس من الملحدين في آية النحل

وقد طعن ناسٌ من الملحدين، وبعضٌ من لا علم له بوجود اللّغة
وتوسّع العرب في لغتها، وفهم بعضها عن بعض، بالإشارة
والوحي فقالوا: قد علمنا أن الشمع شيءٌ تنقله النحل، مما
يسقط على الشجر، فتبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من
الأشجار العسل الساقط عليها، كما يسقط الترنجبين، والمنّ،
وغير ذلك، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيّ، وكذلك العسل
أخفى وأقلّ، فليس العسل بقيء ولا رجع، ولا دخل للنحلة في
بطن قط.

وفي القرآن قول الله عز وجل: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ
اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ".

ولو كان إنما ذهب إلى أنه شيءٌ يلتقط من الأشجار، كالصموغ

وما يتولد من طبع الأنداء والأجواء والأشجار إذا تمازجت -
لما كان كما في ذلك عجباً إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة.

دعوى ابن حائط في نبوة النحل

قلنا: قد زعم ابن حائط وناسٌ من جهال الصوفية، أن في
النحل أنبياء، لقوله عز وجل: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"،
وزعموا أن الحواريين كانوا أنبياء لقوله عز وجل: "وَأُوحِيَ
إِلَى الْحَوَارِيِّينَ".

قلنا: وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟ بل يجب أن
تكون النحل كلها أنبياء، لقوله عز وجل على المخرج العام:
"وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، ولم يخص الأمهات والملوك
واليعاسيب، بل أطلق القول إطلاقاً.

وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين، وإلا
تكونوا مسلمين فلم تجعلون الحجة علي نبوة النحل كلاماً هو
عندكم باطل؟ قول في المجاز وأما قوله عز وجل: "يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا شَرَابٌ" فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول
بالماء شراباً، أو بالماء نبياً، فسماه كما ترى شراباً، إذ كان
يجيء منه الشراب.

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر

عظيم.
وقد قال الشاعر:

رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا
غَضَابًا

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ
قَوْمٍ

فزعوا أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط.
ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في
اللغة من بطونها وأجوافها.
ومن حمل اللغة علي هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلاً ولا
كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه
اتسعت، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة، وهذيل، وضواحي
كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صنعة
سائلة، وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو
طعن عليه من هذه الحجة؟

أحاديث في العسل

حُدِّثَ عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو طُعْمَةَ عَنْ بَكْرِ بْنِ
مَاعِزٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُنَيْمٍ قَالَ: لَيْسَ لِلْمَرِيضِ عِنْدِي دَوَاءٌ إِلَّا
العسل.

وعن هشام بن حسان، عن الحسن أنه كان يعجبه إذا استمشي الرجل أن يشربَ اللبنَ والعسل، إبراهيمُ بنُ أبي يحيى، قال: بلغني عن ابن عباس: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أبيضُ الشراب أفضل؟ قال: الحلو البارد.

وسفيان الثوري عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل.

شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: مضى رجل إلى ابن مسعود فقال: إن أخي يشتكى بطنه، وقد نُعِتَ له الخمر، فقال: سبحان الله ما كان الله ليجعلَ شفاءهُ في رجس، وإنما جعلَ الشفاءَ في اثنين: في القرآن والعسل.

سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أخي يشتكى بطنه، فقال عليه السلام: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: قد فعلت، قال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال قد فعلت، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الرابعة، فقال: صدق الله وكذنب بطن أخيك، اسقه عسلاً فسقاه فبرأ الرجل.

قال: والذي يدلُّ على صحة تأويلنا لقول الله عز وجل: "يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ"، أن تكون المعجونات كلها إنما بالعسل، وكذلك الأنبيجات.

نفع العسل وإذا ألقى في العسل اللحم الغريض فاحتاج صاحبه إليه بعد شهر أخرجه طرياً لم يتغير.

وإذا قطرت منه قطرة علي وجه الأرض، فإن استدار كما يستدير الزئبق، ولم يتفش، ولم يختلط بالأرض والتراب فهو الصحيح، وأجوده الذهبي.

ويزعم أصحاب الشراب أنهم لم يروا شراباً قط ألد ولا أحسن ولا أجمع لما يريدون، من شراب العسل الذي يُنتَبذ بمصر، وليس في الأرض تجار شراب ولا غير ذلك أيسر ومنهم. وفيه أعجوبة: وذلك أنهم لا يعملونه إلا بماء النيل أكر ما يكون، وكلما كان أكر كان أصفى، وإن عملوه بالصابي فسد. وقد يلقى العسل على الزبيب، وعلى عصير الكرم فيجودهم التشبيه بالعسل وهو المثل في الأمور المرتفعة، فيقولون: ماء كأنه العسل، ويصفون كل شيء حلو، فيقولون: كأنه العسل، ويقال: هو معسول اللسان، وقال الشاعر:

ودون الثرياً من
صديقك مالكا

لسانك معسول
ونفسك شحة

التنويه بالعسل في القرآن وقال الله عز وجل في كتابه، وذكر أنهار الجنة، فقال: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار

مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرِ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٍ مِنْ
خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى"، فاستفتح الكلام
بذكر الماء، وختمه بذكر العسل، وذكر الماء واللبن فلم
يذكرهما في نعتهما ووصفهما إلا بالسلامة من الأسن والتغير
وذكر الخمر والعسل فقال: "مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ" و"مِنْ
عَسَلٍ مُصَفًّى"، فكان هذا ضرباً من التفضيل، وذكرها في
مواضع أخر فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، فقال عز وجل
اسمه: "لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ"، فكان هذا القول الأول
أظهر دليل على التفضيل.

في القراد

يقال: أسمع من قُرادٍ وألزق من قُرادٍ وماهو إلا قراد تُفر، وقال
الشاعر:

وهم يمنعون جارهم
أن يُقرّدا

هم السمنُ بالسنوتِ لا
السَ فيهم

السنوت، عند أهل مكة: العسل، وعند آخرين: الكمون.
وقال الحطيئة:

لَعَمْرُكَ مَا قَرَّادُ
بَنِيكَ لَيْبُ

إِذَا نَزَعَ الْقَرَّادُ
بِمَسْتِطَاعٍ

قال: وذلك أن الفحلَ يَمْنَعُ أن يُخْطَمَ، فإذا نزعوا من قَرَّادَاتِهِ شيئاً لَدَّ لذلك، وسكَنَ إليه، ولأنَ لصاحبه، فعند ذلك يلقي الخَطَامَ في رأسه.

قال: وأخبرني فراس بنُ خَنْدَقٍ، وأبو بَرْزَةَ قال: كان جحدرٌ إذا نزلت رُفْقَةً قريباً منه، أخذَ شَنْتَةً فجعل فيها قِرْدَاناً، ثم نثرها بقرب الإبلِ فإذا وجدتِ الإبلُ مَسَّهَا نهضتْ، وشدَّ الشَّنَّةَ في ذنب بعضِ الإبلِ، فإذا سمعتْ صوتَ الشَّنَّةِ، وعمِلتْ فيها القردانُ نفرت، ثم كان يثبُّ في ذرِوة ما نَدَّ منها، ويقول: ارحم الغارَةَ الضَّعَافِ يعني القِرْدَانَ.
قال أبو بَرْزَةَ: ولم تكن هِمَّتُهُ تجاوزُ بعيراً.

القراد في الهجو

قال رُشيد بن رُمَيْض:

وَمَوْلَى لَا يَدِبُّ مَعَ
الْقَرَّادِ

لَنَا عَزٌّ وَمَأْوَانَا
قَرِيبٌ

وهجاهم الأعشى فقال:

فلسنا لباعي المهملاتِ
بِقِرْفَةٍ

إذا ما طَمًا بالليلِ
مُنْتَشِرَاتِهَا

أبا مِسْمَعٍ أَقْصِرْ فَإِنْ
قَصِيدَةً

متى تَأْتِكُمْ تُلْحَقُ بِهَا
أَخْوَاتِهَا

وهجاهم حُضَيْنِ بْنِ الْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَنَازَعَنِي ضُبَيْعَةٌ أَمْرٌ
قَوْمِي

وما كَانَتْ ضُبَيْعَةٌ
لِلْأُمُورِ

وَهَلْ كَانَتْ ضُبَيْعَةٌ غَيْرَ
عَبْدِ

ضَمَمْنَاهُ إِلَى نَسَبِ
شَطِيرِ

وَأَوْصَانِي أَبِي، فَحَفِظْتُ
عَنْهُ

بِفِكَ الْعَلِّ عَنْ عُنُقِ
الْأَسِيرِ

وَأَوْصَى جَحْدَرٌ فَوْقِي
بَنِيهِ

بِإِرْسَالِ الْقَرَادِ عَلَى
الْبَعِيرِ

قال: وفي القردان يقول الآخر قال: وبعضهم يجعلها في
البراغيث؛ وهذا باطلٌ:

ألا يا عبادَ اللَّهِ مَنْ
لِقَبِيلَةٍ
إذا ظَهَرَتْ في الأَرْضِ
شَدَّ مُغِيرُهَا

فلا الدِّينُ ينهاها ولا
هي تنتهي
ولا ذو سلاحٍ من مَعَدٍّ
يَضِيرُهَا

فمن أصناف القردان: الحَمَّان، والحَلَم، والقَرشام، والعلُّ،
والطُّنح.

شعر ومثل في القراد

وقال الطَّرْمَاح:

صيرة دفن الإزاء ملتبده

ثم استمرت في طامسٍ تخده

طلح قراشيمٍ شاحبٍ جسده

علُّ طويلُ الطوى كبالية السفع متى يلق العلو يصطعده

وفي لزوق القُرَادِ يقولُ الراعي:

لا يستطيعُ بها القُرَادُ
مَقِيلًا

نَبَتَتْ مرافقُهُنَّ فَوْقَ
مَزِلَّةٍ

والعربُ تقولُ: أَلْزَقُ من البرَامِ كما تقول: أَلْزَقُ من القُرَادِ،
وهما واحدٌ.

شعر لأمية في الأرض والسماء وذكر أمية بن أبي الصلتِ،
خلق السماء، وإنه ذكر من مَلَأَتْهَا أن القُرَادِ لا يعلُقُ بها،
فقال:

فيها معاقلنا وفيها
نولدُ

والأرضُ معقلنا
وكانتُ أمنا

حبسوا قياماً فالفرائصُ
ترعدُ

فيها تلاميذُ على
قذفاتِها

خلقاء لا تبلى ولا
تأودُ

فبنى الإله عليهم
مخسوفة

زلَّ البرامُ عن التي لا

فلو أنه تحدو البرامُ

استنطراد لغوي

قال: القُرَادُ أولُ ما يكون - وهو الذي لا يكاد يُرى من صِغَر -
 قَمَقَمَة، ثم يصير حَمَّانَة، ثم يصير قراداً، ثم يصير حَلَمَة.
 قال: ويقال للقُرَاد: العَلّ، والطَّح، والقَتِّين، والبُرَام، والقِرْشَام.
 قال: والقَمَل واحدتها قَمَلَة، وهي من جنس القِرْدان، وهي
 أصغر منها.

تخلق القراد والقمل

قال: والقِرْدان يتخلَّق من عرق البعير، ومن الوسخ والتلُّخ
 بالتُّلُوط والأبوال، كما يتخلَّق من جلد الكلب، وكما يتخلق القملُ
 من عرق الإنسان ووسخه، إذا انطبق عليه ثوبٌ أو شعرٌ أو
 ريش.

والحَلَم يعرض لأذني الكلب أكثر ذلك.

أمثال وأخبار في القراد

قال: ويقال أَقْطَفُ مِنْ حَلَمَة، وَأَنْزَقُ مِنْ بُرَام، وَأَنْذَلُّ مِنْ قُرَاد،
 وقال الشاعر:

يَكَادُ خَلِيلِي مِنْ تَقَارُبِ
شَخْصِهِ

يَعِضُّ الْقِرَادُ بِاسْتِهِ
وَهُوَ قَائِمٌ

وقال أبو حنّس لقيس بن زهير: والله لأنّيت بها أدلّ من قُرَاد،
فقدّمه وضرب عنقه.
وقال الراجز:

قِرْدَانُهُ فِي الْعَطَنِ
الْحَوْلِيِّ

بِيضٌ كَحَبِّ الْحَنْظَلِ
المقلي

من الخلاء ومن الخويّ.

ويقال كلمة الثدي: القراد، وقال عديّ بن الرّقاع:

كَأَنَّ قِرَادِيَّ صَدْرِهِ
طَبَعْتُهُمَا

بَطِينٍ مِنَ الْجَوْلَانِ كِتَابُ
أَعْجَمٍ

والقُرَادُ يَعْرِضُ لِاسْتِ الْجَمَلِ، وَالنَّمْلُ يَعْرِضُ لِلْخُصْيِ، وَقَالَ
الشاعر:

وَأَنْتَ مَكَائِكَ مِنْ
وَائِلٍ

مَكَانِ الْقِرَادِ مِنْ اسْتِ
الْجَمَلِ

قال الممّزق:

ولو ظلي في أوصالها
العلُّ يرتقي

تَنَاحٌ طليحاً ما تَرَاعُ
من الشَّدَا

ويروى: فباتت ثلاثاً لا تُراع، يصف شدة جزعها من القردان.
وقال بشار بن بُرد:

عَلَى كَبِدِي كَمَا لَزِقَ
الْقُرَادُ

أَعَادِي الِهَمِّ مَنفَرِدًا
بشوق

وكانوا إذا خافوا الجَدَبَ والأزمة تقدموا في عمل العِلْهَزِ،
والعِلْهَزِ.

قِرْدَانٌ يُعَالِجُ بَدَمَ الْفِصْدِ مَعَ شَيْءٍ مِنْ وَبَرٍ، فَيَذْخِرُونَ ذَلِكَ كَمَا
يَذْخِرُ مَنْ خَافَ الْحِصَارَ الْأَكَارِعَ وَالْجَاوِرِسَ.
وَالشُّعُوبِيَّةُ تَهْجُو الْعَرَبَ بِأَكْلِ الْعِلْهَزِ، وَالْفَتْ، وَالذُّعَاعِ،
وَالهَبِيدِ، وَالْمَغَافِيرِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، وَقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ:

غَ وَلَا شَرِي حَنْظَلِ
الْخُطْبَانِ

لَمْ يُعَلَّنْ بِالْمَغَافِيرِ
وَالصَّمِّ

وقال الطَّرِمَّاحُ:

لم تأكلِ الفثَ والدعاعَ
ولم

تنقف هَيْباً يَجْنِيهِ
مُهْتَبِدهُ

وقال الأصمعيُّ: قال رجلٌ من أهل المدينة لرجل: أيسرُّك أن تعيشَ حتى تجيءَ حَلْمَةً من إفريقيةَ مشياً؟ قال: فأنت يسرُّك ذلك؟ قال: أخافُ أن يقولَ إنسانٌ: إنها بمخيض، فيُعْشى عليَّ ومخيض على رأسِ بريدٍ من المدينة.
ويقولون: أمّ القراد، للواحدةِ الكبيرة منها، ويتسمَّونَ بقراد، ويكتنون بأبي قراد، وقد ذكر ذلك أبو النجم فقال:

للأرض من أمِّ القرادِ الأطلِ

وفي العرب بنو قراد.

في الحبارى

وَنُقولُ في الحُبارى بقول مُوجز، إن شاء الله تعالى.
قال ابنُ الأعرابي: قال أعرابيٌّ إنه ليقْتلُ الحُبارى هزلاً ظلمُ الناس بعضهم لبعض، قال يقول: إذا كثرت الخطايا منع الله عز وجل دَرَ السحاب، وإنما تصيب الطيرُ من الحبِّ ومن الثمرِ على

قَدْرَ الْمَطَرِ.
وقال الشاعر:

بُِّ وَتَغَشَى مَنَازِلُ
الْكُرْمَاءِ

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ
يُنْتَثِرُ الْحَـ

وهذا مثل قوله:

وَالأَذْرَعُ الوَاسِعَةُ
السَّبَاطَا

أَمَّا رَأَيْتَ الأَلْسُنَ
السَّلَاطَا

إِن النَّدَى حَيْثُ تَرَى
الضَّغَاطَا

ما قيل من المثل في الحبارى

وقالوا في المثل: مات فلان كَمَدَ الحُبَارَى: وقال أبو الأسود
الدولي:

إِذَا ظَعْنَتْ هُنَيْدَةً أَوْ
تَلَّمَّ

وَزَيْدٌ مَيِّتٌ كَمَدَ
الحُبَارَى

ويروى: ملّم وهو اسم امرأة.

وذلك أن الطير تتحسّر وتتحرّسّر معها الحُبّارى، والحُبّارى إذا نُتِفَت أو تحسّرت أبطأ نبات ريشها، فإذا طار صُوِيحِبَاتِهَا ماتت كمدأ.

وأما قوله: أو تلمّ يقول: أو تقارب أن تظعن.
وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: كلُّ شيء يحبُّ ولده حتى الحُبّارى، يضرب بها المثل في الموق.

سلاح الحبارى وغيرها من الحيوان

قال: وللحبارى خزانة بين ذُبره وأمعانه، له فيها أبدأ سلخ رقيق لزج، فمتى ألح عليها الصقرُ وقد علمت أن سلاحها من أجود سلاحها، وأنها إذا ذرقتُه بقي كالمكتوف، أو المدبّق المقيد فعند ذلك تجتمع الحباريات على الصقر فينتفن ريشه كلّه طاقةً طاقةً وفي ذلك هلاك الصقر.

قال: وإنما الحُبّارى في سلاحها كالظرابيّ في فُسائِها، وكالثعلب في سلاحه، وكالعقرب في إبرتها، والزنبور في شعرته، والثور في قرنه، والدّيك في صيصيته، والأفعى في نابها، والعقاب في كفها، والتمساح في ذنبه.

وكلُّ شيء معه سلاحٌ فهو أعلم بمكانه، وإذا عدم السلاح كان

أبعصرَ بوجوه الهرب؛ كالأرنب في إيثارها للصَّعداء، لقصر
يديها، وكاستعمال الأرنب للتوبير والوطء على الزَّمعات،
واتخاذ اليرابيع، القاصعاء والنَّافقاء، والدَّامَاء، والراهطاء.

شعر في الحبارى

وقال الشاعر:

وهم تركوك أسلح من
حُبَارَى
رأت صقراً وأشرد
من نَعَام

يريد: نعامة، وقال قيسُ بن زهير:

متى تتحرّم بالمناطق
ظالماً
لتجري إلى شأوٍ بعيد
وتسبح
تكن كالحُبَارَى إن
أصيبت فمئُثها
أصيبَ وإن تفلت من
الصَّفْر تسلح

وقال ابن أبي فَنن، يصفُ ناساً من الكُتَّابِ، في قصيدة له ذكرَ
فيها خيانتهم، فقال:

وقالوا الدّينُ دينُ بني
صَهاري

رَأَوْا مَالَ الْإِمَامِ لَهُمْ
حَلَالًا

لَقَدْ سَلَّحُوا كَمَا سَلَّحَ
الْحُبَارَى

ولو كانوا يحاسبُهم
أَمِينٌ

الخرّب والنهار والخرّب: ذكّر الحُبَارَى، والنهار: فرخ
الحُبَارَى، وفرخها حارص ساقطٌ لا خير فيه، وقال متمّم بن
نويرة:

وعانِ ثوى في القِدِّ
حتى تكنَّعا

وضيفٍ إذا أرغى
طُروقاً بغيره

كفرخ الحُبَارَى رأسه
قد تصوّعا

وأرمله تمشي بأشعث
مُحْتَل

وقال أعرابي:

وخرّباً يرعى ربيعاً
أرملًا

أحبُّ أنْ أصدادَ ضبّاً
سَحْبَلًا

فجعل الخرب أرملاً، لأن ريشه يكون أكثر، وقد ذكرنا ما في هذا الباب فيما قد سلف من كتابنا.

خبر فيه ذكر الحبارى

وقال أبو الحسن المدائني: قال سعيد النّوّاء: قدّمت المدينة فلقيت عليّ بن الحسين، فقلت: يا ابن رسول الله، متى يُبعث أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب؟ قال: إذا بعث الناس. قال: ثم تذاكرنا أيام الجمل فقال: ليته كان ممنوعاً قبل ذلك بعشرين سنة أو كلمة غير هذه قال: فأتيت حسن بن حسن، فذكرت له ما قال، فقال: لوددت والله أنه كان يقاتلهم إلى اليوم قال: فخرجت من فوري ذلك إلى عليّ بن الحسين، فأخبرته بما قال، فقال: إنه لقليل الإبقاء على أبيه.

قال: وبلغ الخبر المختار فقال: أضرّب بين ابني رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لأقتلنه فتواريت ما شاء الله، ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه، فقال: الحمد لله الذي أمكنني منقال فقلت: أنت استمكنت مني؟ أما والله لولا رؤيا رأيته لما قدرت عليّ قال: وما رأيته؟ فقلت: رأيته عثمان بن عفان، فقالت: أنت عثمان بن عفان؟ فقال: أنا حبارى، تركت أصحابي حيارى، لا يهود ولا نصارى.

فقال: يا أهل الكوفة انظروا إلى ما أرى الله عدوكم ثم خلى سبيلي، وقد روي هذا الكلام عن شُنَيْرِ بْنِ شَكَلٍ، أنه رأى معاوية في النوم فقال الكلام الذي روي عن عثمان. ووجهُ كلامِ عليِّ بن الحسين الذي رواه عنه سعيدُ النواءُ، إن كان صادقاً فإنه للذي كان يسمَعُ من الغالية، من الإفراطِ والغلوِّ والفحشِ.

فكانه إنما أراد كسرهم، وأن يحطَّهم عن الغلوِّ إلى القصد؛ فإن دين الله عزَّ وجلَّ بيِّنُ التقصيرِ والغلوِّ، وإلا فعليُّ بن الحسين أَّفَقُّه في الدين، وأَعْلَمُ بمواضع الإمامة، من أن يخفى عليه فضلُ ما بين عليٍّ بين طلحة والزبير. شعر ومعرفة في الحبارى وقال الكميت:

لأزرق مغلول الأظافر
بالخضب

وعيد الحبارى من
بعيد تنفَّست

والحبارى طائرٌ حسن، وقد يتخذُ في الدور. وناسٌ كثيرٌ من العرب وقريش يستطيبون محسبي الحبارى جداً. قال: والحبارى من أشد الطير طيراناً، وأبعدها مسقياً طاً وأطولها شوطاً، وأقلها عُرْجَةً، وذلك أنها تُصطاد بظهر البصرة عندنا، فيشقق عن حواصلها، فيوجد فيه الحبة الخضراء

عَضَّةً، لم تتغير ولم تفسد.
وأشجار البطم وهي الحبة الخضراء بعيدة المنابت منّا وهي
علوية أو ثغرية، أو جبليّة، فقال الشاعر:

ترتعي الضّرّو من براقش
أو هيلاً
نّ أو يانعا من
العُتم

شجر الزيتون، والضّرّو شجر البطم، وهي الحبة الخضراء
بالجبال شجرتها.
وقال الكوّدن العجليّ، ويروى العُكلي: البطم لا يعرفه أهل
الجنس، وبلاد نجد هي الجنس، وهو ما ارتفع، والغور هو ما
انخفض.
وبراقش: واد باليمن، كان لقوم عاد، وبراقش: كلبّة كانت
تتشاءم بها العرب، وقال حمزة بن بيض:

بل جناها أخ عليّ
كريم
وعلى أهلها براقش
تجني

القول في الضأن والمعز

قال صاحب الضأن: قال الله تبارك وتعالى: "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ"، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الضَّأْنِ. وقال عز وجل: "وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ"، وقد أجمعوا على أنه كبشٌ، ولا شيء أعظم مما عظم الله عز وجل، ومن شيء فُدي به نبيٌّ.

وقال تعالى: "إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ" ولم يقل إن هذا أخي له تسع وتسعون عَنزاً ولي عنزٌ واحدة؛ لأن الناس يقولون: كيف النعجة؟ يريدون الزوجة. وتسمى المها من بقر الوحش نعاجاً ولم تسم بعُنوز، وجعله الله عز وجل السنّة في الأضاحي، والكبش للعقيقة وهدية العرس وجعل الجذع من الضأن كالثني من المعز في الأضحية. وهذا ما فضّل الله به الضأن في الكتاب والسنّة.

فضل الضأن على المعز

تولّد الضأن مرة في السنّة، وتُفرد ولا تُتَمِّم، والماعزة قد تولّد مرتين، وقد تضع الثلاث وأكثر وأقل. والبركة والنماء والعدد في الضأن، والخنزيرة كثيرة الخنايص، يقال إنها تلد عشرين خنوصاً، ولا نماء فيها. قال: وفضل الضأن على المعز أن الصوف أغلى وأثمن وأكثر قدراً

من الشعر، والمثلُ السائر: إنما فلانٌ كبشٌ من الكباش، وإذا هجوه قالوا: إنما هو تيسٌ من التيوس إذا أرادوا النتن أيضاً، فإذا أرادوا الغاية في الغباة قالوا: ما هو إلا تيسٌ في سفينة. والحُمْلانُ يلعبُ بها الصبيان، والجداءُ لا يلعبُ بها، ولبنُ الضأنِ أطيبُ وأخثرُ وأدسم، وزُبده أكثر، ورؤوس الضأن المشويّة هي الطيبة المفضلة، ورؤوس المعز ليس عندها طائل.

ويقال رؤوس الحُمْلان، ولا يقال رؤوس العرضان. ويقال لِلُّوطِيّ الذي يلعب بالحُدْر من أولاد الناس: هو يأكل رؤوس الحُمْلان؛ لِمكان ألية الحَمَل، ولأنه أخذل وأرطب، ولم يقولوا في الكناية والتعريض: هو يأكل رؤوس العرضان. والشواءُ المنعوتُ شِواءُ الضأن، وشحمُه يصير كَلَّهُ إهالةً أوّله وآخرُه، والمعزُّ يبقى شحمُه على حاله، وكذلك لحمه، ولذلك صار الخبّازون الحُدّاقُ قد ترائوا الضأن؛ لأن المعزُّ يبقى شحمه ولحمه، فيصلح لأن يسخَّن مراتٍ، فيكون أربح لأصحاب العرس.

والكباشُ للهدايا وللنطاح، فتلك فضيلةٌ في النجدة وفي الثقافة، ومن الملوك من يَراهنُ عليها، ويضع السَبَقَ عليها، كما يراهن على الخيل.

والكبشُ الكراز يحمل الراعيَ وأداةَ الراعي، وهو له كالحمار
في الوقير، ويعيش الكرازُ عشرين سنةً.
وإذا شَبِقَ الراعي وَاعْتَلَمَ اختارَ النعجةَ على العنز، وإذا نعتوا
شكلاً من أشكال مشي البراذين الفرّه قالوا: هو يمشي مشي
النَّعاج.

وقال الله عزّ وجلّ: "وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا" فقدم
الصُّوف.

والْبُخْتُ هي ضأن الإبل، منها الجمّازات، والجواميس هي ضأن
البقر، يقال للجاموس الفارسية: كاوماش.
ولا يُذكرُ الماعزُ بفضيلةٍ إلا ارتفاعَ ثمن جلدِه، وعزارةُ لبنِه،
فإذا صرّت إلى عددٍ كثرةِ النَّعاجِ وجلودِ النعاج والضأن كلّها
أربى ذلك على ما يفضّلُ به الماعزُ الضأن في ثمنِ الجلدِ،
والعزْر في اللبنِ.

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

وقيل لابنة الخسّ: ما تقولين في مائة من الماعز؟ قالت: قنّي!
قيل: فمائة من الضأن؟ قالت: غنّي، قيل: فمائة من الإبل؟
قالت: منّي! وسئل دغفل بن حنظلة عن بني مخزوم، فقال:

مِعْزَى مَطِيرَةٍ، عَلَيْهَا قَشَعْرِيرَةٌ، إِلَّا بَنِي الْمَغِيرَةِ؛ فَإِنْ فِيهِمْ
تَشَادِقَ الْكَلَامِ، وَمَصَاهِرَةَ الْكِرَامِ.

مَا قِيلَ مِنَ الْأَمْثَالِ فِي الْعَنْزِ

وَتَقُولُ الْعَرَبُ: لَهْوُ أَصْرَدُ مِنْ عَنْزِ جَرْبَاءَ وَتَقُولُ الْعَرَبُ: الْعَنْزُ
تُبْهِي وَلَا تُبْنِي لِأَنَّ الْعَنْزَ تَصْعَدُ عَلَى ظُهُورِ الْأَخْبِيَةِ فَتَقْطَعُهَا
بِأَظْلَافِهَا، وَالنَّعْجَةُ لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ.
هَذَا، وَبَيْوتُ الْأَعْرَابِ إِنَّمَا تُعْمَلُ مِنَ الصَّوْفِ وَالْوَبْرِ، فَلَيْسَ
لِلْمَاعِزِ فِيهَا مَعُونَةٌ، وَهِيَ تَحْرَقُهَا، وَقَالَ الْأَوَّلُ:

كَانَتْ لَهُ قَبَّةٌ سَحَقَ
بِجَادٍ

لَوْ نَزَلَ الْغَيْثُ لِأَبْنَيْنِ
امْرَأً

أَبْنَاهُ: إِذَا جَعَلَ لَهُ بِنَاءً، وَأَبْنِيَّةُ الْعَرَبِ: خِيَامُهُمْ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ:
بَنَى فُلَانٌ عَلَى امْرَأَتِهِ الْبَارِحَةَ،

ضُررَ لَحْمِ الْمَاعِزِ

وَقَالَ لِي شَمُؤُونُ الطَّبِيبِ: يَا أَبَا عَثْمَانَ، إِيَّاكَ وَلَحْمُ الْمَاعِزِ؛
فَإِنَّهُ يَوْرَثُ الْهَمَّ، وَيَحْرِكُ السَّوْدَاءَ، وَيَوْرَثُ النَّسْيَانَ، وَيُفْسِدُ
الدَّمَ وَهُوَ وَاللَّهُ يَخْبِلُ الْأَوْلَادَ.

وقال الكلابيُّ: العُنُوقُ بعد النُّوقِ، ولم يقل: الحملُ بعد الجَمَلِ.
وقال عمروُ ابنُ العاصِ للشيخِ الجُهنيِّ المعترضِ عليه في شأنِ
الحَكَمين: وما أنتَ والكلامُ يا تيسَ جُهينة؟ ولم يقلْ يا كبشَ
جُهينة؛ لأنَّ الكبشَ مدحٌ والتَّيسَ ذمٌّ.
وأما قوله: إنَّ الظَّلْفَ لا يُرى مع الخُفِّ فالبقرُ والجواميسُ
والضَّانُّ والمُعزُّ في ذلكِ سواءِ.
قال: وأتَى عبدُ الملكِ بنُ مروانٍ في دخوله الكوفةَ على موائدِ
بالجداءِ، فقال: فأينَ أنتم عن العماريسِ؟ ف قيلَ له: عماريسُ
الشَّامِ أَطيبُ.
وفي المثل: لهو أدلُّ من النِّقدِ، النِّقدُ هو المعزُّ، وقال الكذابُ
الحِرْمازيُّ:

لو كنتم قولاً لكنتم
فَنَدًا
أو كنتم ماءً لكنتم زَبَدًا

أو كنتم شاءً لكنتم
نَقَدًا
أو كنتم عوداً لكنتم
عُقَدًا

اشتقاق الأسماء من الكبش

قال: والمرأة تسمى كَبِشَةً، وكُبَيْشَةً، والرجل يكنى أبا كَبِشَةَ،
وقال أبو قردودة:

يَنْ يَسْتَبِقُ الدَّمْعُ مِنِّي اسْتِباقًا

وقامت

كشحا لطيفاً وفخذاً وساقا

تريكَ غداة الفراقِ

ل توسعه زنبقاً أو خلاقا

ومسدلاً

كمثاني الحبا

وأول هذه القصيدة:

وتسألني بعدَ وَهْنٍ
فِرَاقًا

كبيشة عِزسي تريدُ
الطَّلَاقًا

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

وقال بعض القصاص: ومما فضل الله عز وجل به الكبش أن
جعله مستور العورة من قبل ومن دبر، ومما أهان الله تعالى به
التيس أن جعله مهتوك الستر، مكشوف القبل والدبر.

التيس في الهجاء

وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

بنو عامر شاهت	سألت قريشاً كلها
وجوه الأعبد	فشرارها
تجاوب عتدان الربيع	إذا جلسوا وسط
السوافد	الندي تجاوبوا

وقال آخر:

عتوُّ في مفارقة	أعثمان بن حيان بن
يبول	أدم
نعامتة ويعلم ما أقول	ولو أني أشاء قد
	أرفأنت

وقال الشاعر:

فعاد لك المسمي	سُميت زيدا كي تزيد
فسماك بالقخر	فلم تُزد

عليه ويمني في اللبان
وفي النحر

وما القحْرُ إلا التَّيسُ
يعتك بَوْلُهُ

نتن التَّيوس

فالتَّيس كالكلب؛ لأنه يقرح ببوله، فيريدُ به حاقَّ خيشومه،
وبول التَّيس من أخثر البولِ وأنته، وريحُ أبدانِ التَّيوس إليها
ينتهي المثل، ولو كان هذا العرضُ في الكبش لكان أَعذرَ له؛
لأنَّ الخُموم واللَّخَن، والعَفَن والنَّتَن، لو عرض لجلدِ ذي
الصُّوفِ المتراكم، الصَّفِيقِ الدَّقِيقِ، والملتَفِّ المستكثِف؛ لأنَّ
الرَّيح لا تتخلَّله، والنسيم لا يتخرِّقه - لكأنَّ ذلك أشبه.
فقد علمنا الآن أن للتَّيس مع تخلخلِ شعره، وبروزِ جلده
وجفوفِ عرقه، وتقطعِ بخارِ بدنه - فضلاً ليس لشيءٍ سواه،
والكلبُ يُوصَفُ بالنَّتَن إذا بلَّه المطرُ، والحيَّاتُ توصَفُ بالنَّتَن،
ولعلَّ ذلك أن يجده من وضعِ أنفه على جلودها.
وبولُ التَّيس يخالطُ خيشومَه، وليس لشيءٍ من الحيوان ما
يشبهُ هذا، إلا ما ذكرنا من الكلب، على أن صاحبِ الكلب قد
أنكرَ هذا.

وجلودُ التَّيوس، وجلودُ آباطِ الزَّنج، مُنتنةُ العرقِ، وسائر ذلك
سليم، والتَّيس إبْطُّ كله، وننته في الشتاء كنته في الصيف،

وإنا لندخل السكّة وفي أقصاها تيّاس، فنجد ننتها من أدناها، حتى لا يكاد أحدنا يقطع تلك السكة إلا وهو مخمّر الأنف، إلا ما كان مما طبع الله عزّ وجلّ عليه البلويّ وعلياً الأسواري؛ فإن بعضهما صادق بعضاً على استطابة ريح التيوس، وكان ربما جلسا على باب التيّاس؛ ليستنشقا تلك الرائحة، فإذا مرّ بهما من يعرفهما وأنكر مكانهما، ادّعى أنهما ينتظران بعض من يخرج إليهما من بعض تلك الدّور.

المكيّ وجاريتته فأما المكي فإنه تعشّق جاريةً يقال لها سنّدره، ثم تزوجها نهاريةً وقد دعاني إلى منزلها غير مرّة، وخبرني أنها كانت ذات صنّان، وأنه كان معجباً بذلك منها، وأنها كانت تعالجه بالمرتك، وأنه نهاها مراراً حتى غضب عليها في ذلك، قال: فلما عرفت شهوتي كانت إذا سألتني حاجة ولم أقضها قالت: والله لأتمرّتكّن، ثم والله لأتمرتكّن، ثم والله لأتمرتكّن فلا أجدُ بدءاً من أن أقضي حاجتها كائناً ما كان.

اشتفاء ريح الكرياس وحدثني مويس بن عمران، وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق، ولم يكن عليه في الصدق مؤونة، لإيثاره له حتى كان يستوي عنده ما يضرّ وما لا يضر - قال: كان عندنا رجل يشتهي ريح الكرياس لا يشفيه دونه شيء، فكان قد أعدّ مجوّباً أو سكة حديد في صورة المبرد، فيأتي

الكرايبس التي تكون في الأزقة القليلة المارة، فيخرق الكرياس ولا يبالي، أكان من خزف أو من خشب، ثم يضع منخريه عليه، حتى يقضي وطره.

قال: فلقي الناس من سيلان كرايبسهم شراً حتى عثروا عليه فما منعهم من حبسه إلا الرحمة له من تلك البلية، مع الذي رأوا من حسن هيئته، فقال لهم: يا هؤلاء، لو مررتم بي إلى السلطان كان يبلغ من عقابي أكثر مما أبلغ من نفسي؟ قالوا: لا والله وتركوه.

نتن العنز

قالوا: وهذا شأن التيس، وهو أبو العنز، ولا تلد الحية إلا حية، ولا بد لذلك النتن عن ميراث في ظاهر أو باطن، وأنشدوا لابن أحرر:

كالعنز تعطف روقها
فترتضع

إني وجدت بني أعيا
وجاملهم

وهذا عيب لا يكون في النعاج.

مثالب العنز

والعنز هي التي ترتضع من خلفها وهي مُحَقَّلَةٌ، حتى تأتي على
أقصى لبنها، وهي التي تنزع الودد وتقلب المغلف، وتنثر ما
فيه.

وإذا ارتعت الضائنة والماعزة في قصيل، نبت ما تأكله
الضائنة، ولا ينبت ما تأكله الماعزة، لأن الضائنة تقرض
بأسنانها وتقطع، والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه، وهي
في ذلك تأكله، ويضرب بها المثل بالموق في جلبها حنقها على
نفسها، وقال الفرزدق:

إلى مُدِيَةٍ تَحْتَ
الْتُّرَابِ تُثِيرُهَا

فَكَانَتْ كَعَنْزِ السَّوِّءِ
قَامَتْ بِظُلْفِهَا

تيس بنى حمان

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي فَوَارِسُ مِئْقَرَأِي الرَّأْسِ أَمْ فِي الْإِسْتِ تُلْقَى
الشَّكَاؤُ

عن المجد حتى أحرزته الأكارم

والهـى بنى حمان عسب عتودهم

وذلك أن بنى حمان تزعم أن تيسهم قرع شاة بعد أن ذبح وأنه ألقها.

أعجوبة الضأن

قالوا: في الضأن أعجوبة؛ وذلك أن النعجة ربما عظمت أليتها حتى تسقط على الأرض، ويمنعها ذلك من المشي، فعند الكباش رفق في السفاد، وحذق لم يسمع بأعجب منه، وذلك أنه يدنو منها ويقف منها موقفاً يعرفه، ثم يصك أحد جانبي الألية بصدرة، بمقدار من الصك يعرفه، فيفرج عن حياها المقدار الذي لا يعرفه غيره، ثم يسفدها في أسرع من الملح.

فضل الضأن على الماعز

وقالوا: والضأن أحمل للبرد والجمد وللريح والمطر. قالوا: ومن مفاخر الضأن على المعز أن التمثيل الذي كان عند كسرى والتخيير، إنما كان بين النعجة والنخلة، ولم يكن هناك للعنز ذكر وعلى ذلك الناس إلى اليوم. والموت إلى المعزي أسرع، وأمراضها أكثر، وإنما معادن الغنم الكثير الذي عليه يعتمد الناس الجبال، والمعز لا تعيش هناك،

وأصوافُ الكِبَاشِ أَمْنَعُ للكِبَاشِ مِنْ غَلْظِ جُلُودِ المَعزِ، ولولا أن
أجوافَ الماعزِ أبردُ وكذلك كُلاهما، لَمَا احتَثَّتْ مِنَ الشَّحْمِ كما
تحتشي.

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

وذكورة كلِّ جنسٍ أتمُّ حُسناً مِنْ إناثها، وربما لم يكنْ للإناثِ
شيءٌ مِنَ الحُسْنِ، وتكون الذكورةُ فِي غايةِ الحُسْنِ؛
كالطواويسِ والتَّدرِجِ، وإناثها لا تدانِيها فِي الحُسْنِ، ولها مِنَ
الحُسْنِ مقدارٌ، وربما كُنَّ دُونَ الذُّكُورَةِ، ولهنَّ مِنَ الحُسْنِ
مقدارٌ، كإناثِ الدَّراريجِ والقَبَجِ والدجاجِ والحمامِ، والوراشينِ،
وأشباه ذلكِ.

وإذا قالَ الناسُ: تَيَّاسٌ، عُرِفَ مَعناه واستقَدِرَتْ صناعتُه، وإذا
قالوا: كَبَّاشٌ، فإنما يَعْنُونَ ببيعِ الكِبَاشِ واتخاذها لِلنَّطاحِ.
والتُّيُوسُ قبيحةٌ جدًّا، وزادَ فِي قبحها حُسْنُ الصِّفايا.

التشبيه بالكباش والتفاؤل بها

وإذا وصفوا أَعْذاقَ النخْلِ العِظامِ قالوا: كأنَّها كِبَاشٌ.
وقال الشاعر:

دُوِينَ الْخَوَافِي أَوْ
غَرَائِرَ تَاجِرٍ

كَأَنَّ كِبَاشَ السَّاجِسِيَّةِ
عُلِّقَتْ

وَصَوَّرَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فِي زَقَاقِ قَصْرِهِ، أَسْدَاءً، وَكِلْبَاءً، وَكِبْشَاءً
فَقَرَنَهُ مَعَ سَبْعِينَ عَظِيمِي الشَّانِ: وَحَشِيٍّ، وَأَهْلِيٍّ؛ تَفَاوُلًا بِهِ.

شعر في ذم العنز

ومما ذمُّوا فيه العنز دون النعجة قولُ أبي الأسودِ الدُّوَلِيِّ:

يَعْبَسُ كَالْغَضْبَانِ
حِينَ يَقُولُ

وَلَسْتُ بِمَعْرَاضٍ إِذَا مَا
لَقَيْتَهُ

وَرِئْمَانِهَا يَوْمَانِ ثُمَّ
يَزُولُ

وَلَا بِسَبْسِ كَالْعَنْزِ أَطُولُ
رِسْلَهَا

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ أَيْضًا:

نَصِيحَةُ ذِي الرَّأْيِ
لِلْمَجْتَبِيهَا

وَمَنْ خَيْرٌ مَا يَتَعَاطِي
الرِّجَالُ

بِأُظْلَافِهَا مَدِيَّةٌ أَوْ

فَلَا تَكُ مِثْلَ التِّي

استخرجتُ

فقام إليها بها ذابح

فظلتُ بأوصالها

قدرها

وقال مسكين الدارمي:

إذا صبَّحتني من أناسٍ

تَعَالَبُ

فكانوا كعنزِ السَّوءِ

تتَعُو لِحَيْنِهَا

وقال الفرزدق:

وكان يُجِيرُ الناسَ من

سيفِ مالكٍ

بفيها

ومن تدع يوماً شعوبُ

يجيها

تحشُّ الوليدةَ أو

تشتويها

لترفع ما قالوا مَنْحَتَهُمْ

حَقْرًا

وتحفرُ بالأظلافِ عن

حتفها حَقْرًا

فأصبح يبغي نفسه

من يُجِيرُها

وكان كعنز السوء
قامت بظلفها

إلى مُذية تحت
التراب تثيرها

أمنية أبي شعيب القلال وقال رمضان لأبي شعيب القلال - وأبو
الهدّيل حاضر - : أي شيء تشتهي؟ وذلك نصف النهار، وفي
يومٍ من صيف البصرة، قال أبو شعيب: أشتي أن أجيء إلى
باب صاحب سَقَط، وله على باب حانوته ألية معلقة، من تلك
المبزرّة المشرّجة، وقد اصفرّت، وودكها يقطر من حاقّ
السّمّن، فأخذ بحضنها ثم أفتح لها فمي، فلا أزال كدماً كدماً،
ونهبشاً نهبشاً، وودكها يسيلُ على شدقي، حتى أبلغ عجب الدّنب
قال أبو الهدّيل: ويلك قتلتنني قتلتنني يعني من الشهوة.

باب في الماعز

قال صاحب الماعز: في أسماء الماعز وصفاتها، ومنافعها
وأعمالها، دليلٌ على فضلها، فمن ذلك أن الصّفة أحسن من
النعجة، وفي اسمها دليل على تفضيلها، ولبنها أكثر أضعافاً،
وأولادها أكثر أضعافاً، ورُبُّدُها أكثر وأطيب.

وزعم أبو عبد الله العتبي أن التيس المشراطي قرع في يومٍ
واحد نيّفاً وثمانين قرعة، وكان قاطع الشهادة، وقد بيع من

نسل المِشْراطِيّ وغيره الجديُّ بثمانين درهماً، والشاةُ بنحوٍ من ذلك، وتحلب خمسة مَكاكِك وأكثر، وربما بيع الجلد جلد الماعز فيشترّيه الباضوركي بثمانين درهماً وأكثر.

والشاةُ إذا كانت كذلك فلها عِلَّةٌ نافعةٌ تقوم بأهل البيت.

والنهال البقرية من السَّبْت وغير السَّبْت مقسومٌ نفعها بين الماعز والبقر، لأنَّ للشُّرْكَ من جلودها خطراً، وكذلك القِبال والشَّسْع.

ووصفَ حُميد بن ثورٍ جلدًا من جلودها، فقال:

وأقبلَ عامٌّ أصلحَ
الناسَ واحدُ

تتابعَ أعوامٌ علينا
أطبَّنْها

تعمَّرَ حتى قيل هل
ماتَ خالدُ

وجاءتْ بذِي أونين
مازالَ شاتُه

وقال راشد بن سِهَابُ:

كمِعْزَى الحجازِ
أعوزَتْها الزَّرائبُ

تري رائداتِ الخيلِ
حول بيوتنا

لحم الماعز والضأن

ومن منافعها الإنتفاع بشحم الثُرب والكلية، وهما فوق شحم الألية، وإذا مدحوا اللحم قالوا: لحم الماعز الخصي الثني وقال الشاعر:

فَهُمْ نَعِجُونَ قَد مَالَتْ
طُلَاهُمْ

كَانَ الْقَوْمَ عَشَّوْا لَحْمَ
ضَانٍ

والممرورون الذين يصرعون، إذا أكلوا لحم الضأن اشتد ما بهم، حتى يصرعهم ذلك في غير أوان الصرع. وأوان الصرع الأهلة وأنصاف الشهور، وهذان الوقتان هما وقت مد البحر وزيادة الماء، ولزيادة القمر إلى أن يصير بداراً أثر بيّن في زيادة الدماء والأدمغة، وزيادة جميع الرطوبات.

أمثال في المعز والضأن

ويقال: فلان ماعز من الرجال، وفلان أمعز من فلان، والعِتاق مَعَزُ الخَيْلِ، والبراذين ضائها، وإذا وصفوا الرَّجُلَ بالضعف والموق قالوا: ماهو إلا نعجة من النعاج، ويقولون في التقديم والتأخير: ما له سبب ولا لبّد. وقال الشاعر:

وحيثُ من سبَدَ ومن
بَلَدِ

فنزَعن من بَلَدِ إلى
بَلَدِ

سَبَبَ المطامع من غَدِ
وغَدِ

لم يمسِ محتاجاً إلى
أحدِ

نشبى وما جمعتُ من
صَفَدَ

هم تقاذفت الهموم
بها

يا رُوحَ من حَسَمَتِ
قَنَاعَتُهُ

من لم يكنُ لله
متهماً

وهذا شعر رويته على وجه الدهر.
وزعم لي حُسين بن الضَّحَّاك أنه له، وما كان لِيِدَّعي ما ليس
له.

وقال لي سعدانُ المكفوف: لا يكون: فنَزَعَن من بلد إلى بلد بل
كان ينبغي أن يقول: فنازعن.

فضل الماعز

وقال: والماعزة قد تُؤلِّد في السنة مرتين، إلا ما ألقى منها في
الدَّيَّاس، ولها في الدَّيَّاس نفعٌ موقعه كبير، وربما باعوا عندنا

بطن الماعز بثمن شاة من الضأن.
قال: والأقط للمعز، وقرونها هي المنتفع بها.
قال: والجدي أطيب من الحمل وأكرم، وربما قدموا على المائدة
الحمل مقطوع الألية من أصل الذئب؛ ليوهموا أنه جدي. وقال
عمر بن الخطاب، رضي الله عنه - وعقول الخلفاء فوق عقول
الرعية، وهم أبصر بالعيش، استعملوا ذلك أو تركوه - فقال:
أترؤن أني لا أعرف الطيبات؟ لباب البر بصغار المعزى.
وملوكننا يحمل معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل،
المعروفات أزمان الحمل والوضع، ليكون لهم في كل منزل
جداً معدة، وهم يقدرون على الحملان السمان بلا مؤونة.
والعناق الحمراء والجدا، هي المثل في المعز والطيب،
ويقولون: جداء البصرة، وجداء كسكر.
وسلخ الماعز على القصاب أهون، والنجار يذكر في خصال
الساج سلسه تحت القدوم والمثقب والميشار.

أمارات حمل الشاة

وقيل لأعرابي: بأي شيء تعرف حمل شاتك؟ قال: إذا تورم
حيها ودجت شعرتها واستفاضت خاصرتها.

وللداجي يقال: قد كان ذلك وقد دَجَا ثوبُ الإسلام، وكان ذلك
وثوبُ الإسلامِ داجٍ.

المِرْعَزِيّ وقِرابَةُ الماعِزَةِ مِنَ النّاسِ

قال: وللماعزِ المِرْعَزِيّ؛ وليس للضأنِ إلا الصوفُ.
والكِسَاءُ كلها صوفٌ ووبرٌ وريشٌ وشعرٌ، وليس الصوفُ إلا
للضأنِ، وذوات الوبرِ كالإبلِ والثعالبِ، والخُرْزُ والأرنبِ، وكلابِ
الماءِ، والسَّمُورِ، والفَنَكِ، والقاقمِ، والسَّنْجَابِ، والدَّبَابِ.
والتي لها شعرٌ كالبقرةِ والجواميسِ، والماعِزِ، والظبَاءِ، والأسدِ،
والنمورِ، والذئبِ، والبُبورِ، والكلابِ، والفهودِ، والضباعِ،
والعِتاقي، والبراذينِ، والبغالِ، والحميرِ، وما أشبه ذلكِ.
والإنسانُ الذي جعله اللهُ تعالى فوقَ جميعِ الحيوانِ في الجمالِ
والاعتدالِ، وفي العقلِ والكرمِ، ذو شعرٍ.
فالماعِزَةُ بقِرابَتِها مِنَ النّاسِ بهذا المعنى أفرحُ وأكرمُ.

الماعِزُ التي لا تتود

وزعم الأَصمعيُّ أن لبني عُقَيْلٍ ماعِزاً لا تَرِدُ؛ فأحَسَبُ واديهم
أخصبَ وادٍ وأرطبهُ، أليس هذا من أعجب العَجَبِ؟.

جلود الماعِزِ

ومن جلودها تكون القرب، والزقاق، وآلة المشاعل، وكلُّ نتحي
وسغن، ووطب، وشكّية وسقاء، ومزادة، مسطوحة كانت أو
مثلثة، ومنها مايكون الخون، وعكم السنف، والبطائن
والجرب، ومن الماعزة تكون أنطاع البسط، وجلال الأثقال في
الأسفار، وجلال قباب الملوك، وبقباب الأدم تتفاخر العرب،
وللقباب الحمر قالوا: مضر الحمراء، وقال عبّيد بن الأبرص:

أهل القباب وأهل الجرد
والنّدي

فاذهب إليك فإني من
بني أسدٍ

الفخر بالماعر

وقالوا: وفخرتم بكبشة وكبيشة وأبي كبشة، فمنّا عنز اليمامة
وعنز وائل، ومنا ماعز بن مالك، صاحب التوبة النصوح.
وقال صاحب الماعز: وطعنتم على الماعزة بحفرها عن حتفها،
فقد قيل ذلك للضان. من ذلك البكري للغبيرية، وهي قبيلة وصار
معها إلى النبي فسأله الدهناء، فاعترضت عنه قبيلة، فقال لها
البكري: إني وإياك كما قال القائل: عن حتفها تبحث ضان
بأظلافها؟ فقالت له الغبيرية: مهلاً، فإنك ما علمت: جواداً بذي

الرجل، هادياً في الليلة الظلماء، عفيفاً عن الرفيقة؟؟! فقال:
لا زلت مصاحباً بعد أن أثبت علي بحضرة الرسول بهذا!

ضرر الضأن ونفع الماعز

وقالوا: والنعجة حرب، واتخاذها خسران، إلا أن تكون في
نعاج سائمة، لأنها لا ترفع رأسها من الأكل. والنعجة آكلٌ من
الكبش، والحجر آكل من الفحل، والرمكة آكل من البرذون.
والنعجة لا يقوم نفعها بمؤونتها. والعنز تمنع الحيّ الجلاء،
فإن العرب تقول: إن العنوق تمنع الحيّ الجلاء.
والصفية من العراب أغرر من بختية بعيداً.
ويقال: أحقق من راعي ضأن ثمانين!.

كرم الماعز

وأصناف أجناس الأظلاف وكرامها بالمعز أشبه، لأن الظباء
والبقر من ذوات الأذنان والشعر، وليست من ذوات الألأيا
والصوف. والشمل، والتعاويد والقلائد، إنما تتخذ للصفايا، ولا
تتخذ للنعاج، ولا يخاف على ضروعها العين والنفس.
والأشعار التي قيلت فلي الشاء إذا تأملتها وجدت أكثرها في
المعز: في صفاياها وفي حوها، وفي تيوسها وفي عنوقها

وجدائها. وقال مخارق ابن شهاب المازني - وكان سيداً كريماً،
وكان شاعراً - فقال يصف تيس غنمه:

دلاء وفيها واتد القرن لبلب

شديخ ولون كالوذيلة مذهب

ثنى وصلها دان من الظلف مكثب

عطاها كما يعوذرى الضال قرهَب

فصردان نعم النجر منه وأشعب

من الحسن في الأعناق جزع مثقب

عقائل في الأعناق منها تحلب

وضيف ابن قيس جائع يتحوب

قال: فوفد ابن قيس هذا، على النعمان، فقال له: كيف المخارق

فيكم؟ قال: سيد شريف، من رجل يمدح تيسه، ويهجو ابن

عمه! وقال الراجز:

أنعت ضاناً أمجرت غثائاً

والمَجْر: أن تشربَ فلا تروى. وذلك من مثالبها.
وقال رجل لبعض ولد سليمان بن عبد الملك: "ماتت أمك بغراً،
وأبوك بشماً!".
وقال أعرابي:

مولى بني تميم
فإنك لو أديت
لها شعر داجٍ
ولو أشليت فرس
لجاءت أمامك
وويلُ أمها كان

منيحتنا كما تؤدى المنائح
بعلياء عندي، ما ابتغى الريح راجح
وخلق زخاريٍّ وضرعٌ مجالحُ
لأرواقها هطلٌ من الماء سافحُ
أمام صفاقِها مبدُّ مضارحُ
ترامى بها بيدُ الإكام القراوح

أصناف الظلف وأصناف الحافر ليس سبيلُ الظلفي التشابه
سبيلَ أصناف الحافر، والخفة. واسم النعم يشتمل على الإبل
والبقر والغنم. وبعد بعض الظلف من بعض، كبعده من الحافر
والخف؛ لأن الظلف للضأن والمعز والبقر والجواميس والظباء
والخنازير وبقر الوحش، وليس بين هذه الأجناس تسافد ولا
تلاقح، لا الغنم في الغنم من الضأن والماعز، ولا الغنم في سائر

الظلف ولا شيء من سائر تلك الأجناس تسافد غيرها أو
تُلاقِحها. فهي تختلف في الصوف والشعر، وفي الأُنس
والوحشة، وفي عدم التلاقح والتسافد وليس كذلك الحافر
والخف.

رَجَزٌ فِي الْعَنْزِ

وقال الراجز:

كَأَنَّ ظِلَّ حَجَرٍ
صُغْرَاهُمَا

لَهْفِي عَلَى عَنزِينَ لَا
أُنْسَاهُمَا

وَصَالِحٌ مُعْطِرَةٌ كِبْرَاهُمَا

قوله: صالحٌ، يريد انتهاء السنِّ، والمعطرة: الحمراء؛ مأخوذة
من العطر، وقوله: كأنَّ ظلَّ حجرٍ صُغْرَاهُمَا يريد أنها كانت
سوداء، لأنَّ ظلَّ الحجر يكون أسوداً، وكلما كان الساتر أشدَّ
اكتنازاً كان الظلُّ أشدَّ سواداً.
قولهم أظل من حجرٍ وتقول العرب: ليس شيءٌ أظلَّ من حجرٍ،
ولا أدفاً من شجرٍ، وليس يكون ظلُّ أبردَ ولا أشدَّ سواداً من ظلِّ
جبلٍ، وكلما كان أرفعَ سمكاً، وكان مَسْقِطَ الشمسِ أبعدَ، وكان

أكثر عرضاً وأشدَّ اكتنازاً، كان أشدَّ لسواد ظله.
ويزعم المنجمون أن الليل ظلُّ الأرض، وإنما اشتدَّ جداً لأنه ظلُّ
كُرّة الأرض، وبقدر ما زاد بدنها في العظم ازداد سواد ظلّها.
وقال حميد بن ثور:

رواهبُ أحرَمَنَ الشرابِ
عُدُوبُ

إلى شَجَرِ أَلْمَى
الظلالَ كأنها

والشفة الحماء يقال لها لمياء، يصفون بذلك اللثة، فجعل ظلَّ
الأشجار الملتفة ألقى.

أقط الماعز

وقال امرؤ القيس بن حُجر:

كأنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا
العِصِيُّ

لنا عَنَمٌ نُسَوِّقُهَا
غِزَارُنَا

فدلّ بصفة القرون على أنها كانت ماعزة، ثم قال:

وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شِبَعٍ
وَرِيٌّ

فَتَمَلُّا بَيْنَنَا أَقْطَاً
وَسَمْنَاً

فَدَلَّ عَلَيَّ أَنَّ الْأَقْطَ مِنْهَا يَكُونُ.

استطرد لغوي وقال: ويقال لذوات الأظلاف: قد وُلِّدَت الشاة والبقرة، مضمومة الواو مكسورة اللام مشدودة، يقال هذه شاة تُحَلَّبُ قَفِيْزاً، ولا يقال تحلب، والصواب ضم التاء وفتح اللام. ويقال أيضاً: وضعت، في موضع وُلِّدَت، وهي شاة رُبِّي، من حين تضع إلى خمسة عشر يوماً - وقال أبو زيد: إلى شهرين - مِنْ غَنَمِ رُبَابٍ، مضمومة الرَّاءِ عَلَيَّ فُعال، كما قالوا: رَجُلٌ وَرُجال، وظئر وظوار وهي رُبِّي بَيْنَةَ الرَّبابِ والرَّبَّةِ بكسر الرَّاءِ، ويقال هي في ربابها، وأنشد:

حَنِينَ أُمَّ الْبَوِّ فِي رَبَابِهَا

والرَّبَابِ مصدر، وفي الرُّبِّي حديث عمر: دَعِ الرَّبِّيَّ وَالْمَاخِضَ وَالْأَكُولَةَ، وقال أبو زيد: ومثل الرُّبِّي من الضَّانِ الرَّغَوْتُ، قال طَرْفَةٌ:

رَغَوْتُاً حَوْلَ قَبْتِنَا
تُحُورُ

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ
عَمْرُو

وقالوا: إذا وضعت العنز ما في بطنها قيل سَلِيلٌ وَمَلِيْطٌ، وقال أبو زيد: هي ساعة تضعه من الضَّانِ والمعز جميعاً، ذكراً كان

أو أنثى: سخلةٌ، وجمعها سَخَلٌ وسِخَالٌ، فلا يزال ذلك اسمه ما
رضع اللبن، ثم هي البهمة للذكر والأنثى، وجمعها بهم، وقال
الشاعر:

والبهم يزجرها
الراعي فتزجرُ

وليس يزجركم ما
توعظون به

ويروى: يُزَجَّرُ أحياناً، وإذا بلغت أربعة أشهر وفُصِلَتْ عن
أمهاتها، وأكلت من البقل واجترت، فما كان من أولاد المعز
فهو جَفْرٌ، والأنثى جَفْرَةٌ، والجمع جِفَارٌ، ومنه حديث عمر
رضي الله عنه، حين قضى في الأرنبِ يُصِيبُهَا الْمَحْرَمُ بِجَفْرٍ.
فإذا رَعَى وقويَ وأتى عليه حولٌ فهو عريضٌ، وجمعه
عِرْضَانٌ، والعَتُودُ نحوُّ منه، وجمعه أَعْتَدَةٌ وَعِتْدَانٌ، وقال
يونس: جمعه أَعْتَدَةٌ وَعَتْدٌ، وهو في ذلك كَلَّهُ جَدْيٌ، والأنثى
عَنَاقٌ، وقال الأخطل:

من الحبلى يُبْنَى حولها
الصَّيْرُ

وَأَذْكَرُ عَدَانَةٌ عِتْدَانًا
مُزَنَّمَةٌ

ويقال له إذا تبع أمه وفطم: تَلَوَّ، والأنثى: تِلْوَةٌ؛ لأنه يتلو أمه.
ويقال للجدي: إِمْرٌ والأنثى أَمْرَةٌ، وقالوا: هَلَعٌ وهَلَعَةٌ، والبدرية:

العناق أيضاً، والعُطْطُ: الجدِي، فإذا أتى عليه الحولُ فالذكر تيس والأنثى عُنْز، ثم يكون جذعاً في السنّة الثانية، والأنثى جَدْعَة، ثم ثنِيّاً في الثالثة، والأنثى ثنِيَّة، ثم يكون رباعياً في الرابعة، والأنثى رباعية، ثم يكون سدّيساً، والأنثى سدّيس أيضاً مثل الذكر بغير هاء، ثم يكون صالحاً والأنثى صالحاً، والصالحُ بمنزلة البازل من الإبل، والقارح من الخيل، ويقال: قد صلَّغَ يَصْلُغُ صلُوغاً، والجمع الصلَّغ، وقال رؤبة:

والحربُ شهباءُ الكباشِ الصلَّغ

وليس بعد الصالغ شيءٌ.
وقال الأصمعيّ: الحُلام والحُلان من أولاد المعز خاصة، وجاء في الحديث: في الأرنب يصيبها المحرمُ حُلام، قال ابن أحمر:

إمّا ذكياً وإمّا كان
حُلاناً

تُهدي إليه ذراعَ البكر
تكرمةً

ويروى: ذراع الجدِي ويروى: ذُبِيحا، والذبيح هو الذي أدرك أن يضحى به، وقال مهلهل بن ربيعة:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كَلِيبٍ
حُلَامٌ

حَتَّى يِنَالَ الْقَتْلُ آلُ
هَمَامٌ

وقالوا في الضأن كما قالوا في المعز، إلا في مواضع، قال الكسائي: هو خروف، في موضع العريض، والأنثى خروفة، ويقال له حَمَلٌ، والأنثى من الحِمْلان رِخْلٌ والجمع رُخَالٌ، كما يقال ظئر وظوَارٌ وتَوَامٌ وتَوَامٌ، والبَهْمَةُ: الضأن والمعز جميعاً، فلا يزال كذلك حتى يَصِيفُ، فإذا أكل واجترَّ فهو فَرِيرٌ وفُرارةٌ وفُرْفورٌ، وعمرُوسٌ، وهذا كله حينَ يَسْمَنُ ويجترُ، والجِلَامُ، بكسر الجيم وتعجيم نقطة من تحت الجيم، قال الأعشى:

سَوَاهِمُ جِدْعَانِهَا
كَالْجِلَامِ

وَأَقْرَحَ مِنْهَا الْقِيَادُ
النسورا

يعني الحوافر.

والْيَعْرُ: الجدِي، بإسكان العين، وقال البريقُ الهذليُّ: مُقِيمًا
بأُمْلَاحٍ كَمَا رُبِطَ الْيَعْرُ وَالْبَدْجُ: من أولاد الضأن خاصة، وقال
الراجز:

قَدْ هَلَكْتُ جَارْتُنَا مِنْ

فَإِنْ تَجُعْتُ تَأْكُلُ عَتُودًا

والجمع بَدَجَان.

دعاء أعرابي وقال أعرابي: اللَّهُمَّ مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ
قالوا: وما مِيتة أبي خَارِجَةَ؟ قال: أَكَلُ بَدَجًا، وَشَرِبُ مِشْعَلًا،
وَنَامُ فِي الشَّمْسِ، فَأَتَتْهُ الْمَنِيَّةُ شُبْعَانَ رِيَانَ دَفَانَ.

تيس بني حمان وفي المثل: أَغْلَمُ مِنْ تَيْسِ بَنِي حِمَانَ، وَبَنُو
حِمَانَ تَزْعَمُ أَنَّهُ قَفَّطُ سَبْعِينَ عَنزًا وَقَدْ فُرِيتَ أَوْدَاجُهُ.

فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة.

?زعم لصاحب المنطق وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب
الحيوان، أنه قد ظهر ثورٌ وثب بعد أن حُصي، فنزا على بقرةٍ
فأحلبها.

ولم يحك هذا عن مُعَايِنَةٍ، وَالصَّدُورُ تَضِيقُ بِالرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ
النظر وتضيق بتصديق هذا الشكّل.

أحاديث وآثار في الغنم قال: وَحَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ طَرِيقٍ، عَنِ
الأصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: مَا أَهْلُ بَيْتِ لِهْمٍ شَاءَ
إِلَّا يُقَدِّسُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ.

وقال: حَدَّثَنَا عَنبَسَةُ الْقَطَّانُ، قَالَ حَدَّثَنَا السَّكْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَبْدِ الأَعْلَى الْقَرَشِيِّ، عَنِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

صلى الله عليه وسلم قال: امسحوا رُعامَ الشَّاءِ، ونُقِّوا
مرايضها مِنَ الشُّوكِ والحِجَارَةِ، فَإِنَّهَا فِي الْجَنَّةِ.
وقال: ما مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ شَاةٌ إِلَّا قَدَّسَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ
شَاتَانِ قُدَّسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، قال: وحدثنا عنبسة القطان،
بهذا الإسناد، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "أوصيكمُ
بالشَّاءِ خَيْرًا، فَنُقُّوا مَرَايِضَهَا مِنَ الحِجَارَةِ والشُّوكِ فَإِنَّهَا فِي
الْجَنَّةِ".

وعن محمد بن عجلان، عن وهب بن كيسان، عن محمد بن
عمرو بن عطاء العامريّ من بني عامر بن لوَيّ، أن رجلاً مرَّ
على أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وهو بالعقيق، فقال: أين
تريد؟ قال: أريد غُنيمة لي، قال: امسح رُعامها، وأطبِّ
مُراحها، وصلِّ في جانبِ مُراحها؛ فإنها من دوابِّ الجنة.
وعن فرج بن فضالة، عن معاوية بن صالح، عن رجل من
أصحاب أبي الدرداء، أنه عمِلَ طعاماً اجتهد فيه، ثم دَعاه فأكل،
فلما أكل قال: الحمد لله الذي أطعمنا الخميرَ، وألبسنا الحَبِيرَ،
بعد الأسودين: الماء والتمر، قال: وعند صاحبه ضائنة له،
فقال: هذه لك؟ قال: نعم، قال: أطبِّ مُراحها واغسِلْ رُعامها،
فإنها من دوابِّ الجنة، وهي صفوة الله من البهائم.
قال: وحدثنا إبراهيم بن يحيى، عن رجل، عن عطاء بن أبي

رباح، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ
قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجَنَّةَ بِيضَاءً، وَخَيْرَ الزَّيِّ الْبِيضُ،
قَالَ: وَبَعَثَ إِلَى الرَّعِيَانِ: مَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ سُودٌ فَلْيَخْلُطْهَا بِعُفْرٍ،
فَإِنَّ دَمَ عَفْرَاءٍ أَزْكَى مِنْ دَمِ سَوْدَاوِينَ.

وحدثنا أبو المقدم قال: حدثنا عبد الرحمن بن حبيب، عن
عطاء، عن ابن عباس، أن رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا
بالرُّعاة فجمعوا له، فقال: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرَعَى غَنَمًا سُودًا
فَلْيَخْلُطْ فِيهَا بِيضًا".

قال: وجاءته امرأةٌ فقالت: يا رسولَ الله، إني اتخذت غنماً
رجوت نسلها ورسلها وإني لا أراها تنمو، قال: فما ألوانها؟
قالت: سود، قال: "عفري"، أي اخلطي فيها ببيضاً.
قال: وحدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي، عن عطاء، أن رسولَ
الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "الغنمُ بركةٌ موضوعةٌ، والإبلُ
جمالٌ لأهلها، والخيرُ معقودٌ في نواصي الخيلِ إلى يومِ
القيامةِ"، حنظلة بن أبي سفيان المكي قال: سمعت طاووساً
يقول: من هاهنا أطلع الشيطان قرنيه، من مطلع الشمس،
والجفاء والكبر في أهل الخيل والإبل، في الفدادين أهل الوبر،
والسكينة في أهل الغنم.

قال وحدثنا بكر بن حنيس، عن يحيى بن عبيد الله بن عبد الله

بن مَوْهَب، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رَأْسُ الْكُفْرِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ، وَالْفَخْرُ وَالْخِيَلُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ أَهْلُ الْوَبْرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَالْإِيمَانُ يَمَانٌ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ." وعن عوف بن أبي جَمِيلَةَ، عن الحسن، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الْفَخْرُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ، وَالْجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْإِبِلِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ." وعن عثمان بن مَقْسَمٍ، عن نافع، أن ابنَ عمرَ حدثه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ. وَالْفَدَّادُ: الْجَافِي الصَّوْتِ وَالْكَلامِ، وَأَنشَدَنَا أَبُو الرَّدِّينِيِّ الْعُكَلِيُّ: جَاءَتْ سُلَيْمٌ وَلَهَا فَدِيدٌ. أخبار ونصوص في الغنم وكان من الأنبياء عليهم السلام من رعى الغنم، ولم يرع أحدٌ منهم الإبل، وكان منهم شعيب، وداود، وموسى، ومحمد؛ عليهم السلام، قال الله جلَّ وعزَّ: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى." وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرعى غَنِيمَاتٍ خَدِيجَةَ. والمُعزَّبون بنزولهم البُعد من الناس، في طباع الوحش وجاء في الحديث: من بَدَأَ جَفَا.

ورِعاؤُ الغنم وأربابها أرقُّ قلوباً، وأبعد من الفظاظة والغلظة.
وراعى الغنم إنما يرهاها بقرب الناس، ولا يُعزِّبُ، ولا يبُدو،
ولا ينتجع، قالوا: والغنم في النوم عُنْمٌ.
وقالوا في الغنم: إذا أقبَلْتُ أقبَلْتُ، وإذا أدبرت أقبَلْتُ.
الحامي والسائبة والوصيلة وكان لأصحاب الإبل مما يحرّمونه
على أنفسه: الحامي والسائبة، ولأصحاب الشاء الوصيلة.
العتيرة والرجيبة والغدوى والعتيرة أيضاً من الشاء، وكان
أحدهم إذا نذر أن يذبح من العتائر والرجيبة كذا وكذا شاة، فبلغ
الذي كان يتمنى في نذره، وشحّ على الشاء قال: والظباء أيضاً
شاء، وهي تُجزي إذا كانت شاء: فيجعل عتائره من صيد
الظباء، وقال الحارث بن حلزة:

تتَرُّ عن حَجْرَةِ الرَّبِيضِ
الظَّبَاءُ

عَنَّا باطلاً وظلماً
كما تُع

وقال الطَّرِمَّاح:

عَتَائِرُ مَظْلُومِ الْهَدْيِ
الْمَذْبَحِ

كَلَوْنِ الْغَرِيِّ الْفَرْدِ
أَجْسَدَ رَأْسِهِ

ومنها الغدوي والغدوي جميعاً، وقال الفرزدق:

ومهورُ نسوتِهِم إذا ما
أنكحُوا

عَدُوِّي كُلِّ هَبْنَقِ
تَنْبَالِ

ميل الحيوان على شقه الأيسر وقال أبو عتَّاب: ليس في
الأرض شاة ولا بعيرٌ ولا أسدٌ ولا كلبٌ يريدُ الرُّبوض إلا مال
على شِقِّه الأيسر، إبقاءً على ناحية كبدِه.
قال: ومتى تفقدتم الصفايا التي في البيوت، والنعاج، والجداء،
والحُمْلان وجدتموها كذلك.

معالجة العقاب الفريسة قال: والعقاب تستعمل كفها اليمنى إذا
أصعدت بالأرانب والثعالب في الهواء، وإذا ضربت بمخالبها في
بطون الطِّباء والذئاب، فإذا اشتكت كبدِها أحست بذلك، فلا تزال
إذا اصطادت شيئاً تأكلُ من كبدِه، حتى تبرأ، وإن لم تُعَين
فريسةً فربما جلت على الحمار الوحشي فتقضُّ عليه انقضاضَ
الصخرة، فتقُدُّ بدابرتها ما بين عَجْب ذنبه إلى منسِجه، وقد
ذكرنا من شأنها في باب القول فيها ما فيه كفاية.
أخذ الحيوان على يساره حين يهرب قال: وليس في الأرض
هاربٌ من حربٍ أو غيرها استعمل الحُضْر إلا أخذ على يساره،
إذا ترك عَزْمَه وسَمَّ طبيعته، وأنشد:

وفي الجوف نارٌ ليس يخبو ضرامُها

وأُنشد الأصمعي للأعشى:

أَمِينُ الْقَوَى فِي ضَالَةِ
الْمِترَمِ

وَيَسَّرَ سَهْمًا ذَا غِرَارٍ
يَسوقُهُ

وَحَالَ عَلَى وَحْشِيَّهِ لَمْ
يَعْتَمِ

فَمَرَّ نَضِيَّ السَّهْمِ
تَحْتَ لِبَانِهِ

قال: ووضع: على موضع: عن.
ميل شقشقة الجمل ولسان الثور وفي باب آخر يقول أوس بن
حجر:

إِذِ الشَّقَاشِقِ مَعْدُولٌ
بِهَا الحَنَكُ

أَوْ سَرَكَمِ فِي جُمَادَى أَنْ
نِصَالِحِكُمْ

وذلك أنه ليس في الأرض جملٌ هاج وأخرج شِقْشِقَتَهُ إِلا عَدَلَ
بِهَا إِلَى أَحَدِ شِقَيِ حَنَكِهِ، وَالثَّورُ إِذَا عَدَا عَدَلَ بِلِسَانِهِ عَنِ شِقِّ
شِمَالِهِ إِلَى يَمِينِهِ، وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ:

لِسَانَهُ عَنِ شِمَالِ
الشَّدَقِ مَعْدُولٌ

مُسْتَقْبِلَ الرِّيحِ يَهْفُو
وَهُوَ مُبْتَرِكٌ

حال الثور عند الكر والفر قال: وإذا كَرَّ الكلبُ أو الثور فهو
يَصْنَعُ خلاف صَنِيعِهِ عند الفرِّ، وقال الأعشى:

فلما أضاء الص

وحان انطلاقُ الشاةِ من حيثُ يمما

فصبحهُ عندَ

كلابُ الفتى البكري عوف بن أرقما

فأطلقَ عن مج

كما هَيَّجَ السامي المعسلُ خَشْرَما

فأنحى على ش

بأظماً من فرع الذؤابة أسحماً

ثم قال:

يُوَاعِسُ من حُرِّ
الصَّرِيمةُ مُعْظَما

وَأدَبَرُ كَالشَّعْرَى
وُضُوحاً وَنُقْبَةً

علة غزو العرب أعداءهم من شق اليمن قال: ولعلم العرب
بأن طبع الإنسان داعيةٌ إلى الهرب من شِقِّ الشمال، يحبُّون أن
يأتوا أعداءهم من شِقِّ اليمن، قال: ولذلك قال شُتَيْم بن حُوَيْلِد:

فجنناهم من

ويأتي الشَّقِّي الحَيْن من حيث لا يدري

وأما رواية أصحابنا فهي: فجنناهم من أيمن الشق عندهم.
الأعسر من الناس واليسر وإذا كان أكثر عمل الرجل بيساره

كان أعسر، فإذا استوى عملاً بهما قيل أعسر يسر، فإذا كان
أعسر مُصمّماً فليس بمستوى الخلق، وهو عندهم إذا كان كذلك
فليس بميمون الخلق، ويشتقون من اليد العسرى العسر
والعسرة، فلما سمّوها الشّمال أجروها في الشؤم وفي المشؤوم
على ذلك المعنى، وسموها اليد اليسار واليد اليسرى على نفي
العسر والنكد، كما قالوا: سليم، ومفازة، ثم أفصحوا بها في
موضع فقالوا اليد الشؤمى.
مما قيل من الشعر في الشمال ومما قالوا في الشمال قول أبي
ذؤيب:

جَرَى بَيْنَنَا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ
رِكَابُهَا

هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى
يُصِيبُكَ اجْتِنَابُهَا

إِنَّكَ لَمْ تَأْسُ أَسْوَأَ
رَفِيقَا

أَ بِالصَّرْمِ مِنْ أَسْمَاءِ
جَدَّ بَكَ الَّذِي

زَجَرَتْ لَهَا طَيْرَ
الشَّمَالِ فَإِنْ يَكُنْ

وقال شتيم بن خويلد:

وَقَلْتُ لَسَيِّدِنَا يَا
حَلِيمَ

فَجِئْتُ بِهَا مُؤَيِّدًا
خَنْفَقِيمَا

تُعَادِي فَرِيقًا وَتَبْقِي
فَرِيقَا

تَنْحِي لِحِدِّ الْمَوَاسِي
الْحُلُوقَا

زَجَرَتْ بِهَا لَيْلَةٌ
كَلْهَا

أَعْنَتْ عَدِيًّا عَلَى
شَأْوَهَا

أَطَعَتْ غَرِيبَ إِبْطِ
الشَّمَالِ

وقال آخر:

غَرَابَ شِمَالٍ يَنْفِضُ
الرِّيشَ حَاتِمَا

وَهَوَّنَ وَجْدِي أَنِّي لَمْ
أَكُنْ لَهُمْ

وإذا مال شقّة قالوا: أحولّ شقّه، وقال الأشر بن عمارة:

أخوكم أخوكم أحولّ
الشَّقَّ مَائِلُهُ

عَشِيَّةٌ يَدْعُو مِعْتَرًّا
يَالِ جَعْفَرِ

وقال آخر:

أشفق من والدٍ على

أيّ أخ كان لي

وكنت له

ولد

حتى إذا قارب
الحوادث من

خَطَوِي وحلَّ الزمانُ
من عَقْدِي

احولَ عني وكان
ينظر من

عيني ويرمي بساعدي
ويدي

الوقت الجيد في الحمل على الشاء قال الأصمعيّ: الوقت الجيّد في الحمل على الشاء أن تخلّى سبعة أشهر بعد ولادها، ويكون حملها خمسة أشهر، فتولّد في كل سنة مرة، فإن حمل عليها في كل سنة مرتين فذلك الإمغال، يقال: أمغل بنو فلان فهم مُمغلون، والشاة ممغل.

وإذا وُلدت الشاة ومضى لها أربعة أشهر فهي لجة، والجميع اللّجاب واللّجبات، وذلك حين يأخذ لبنها في النقصان.

استطراد لغوي قال: والأير من البعير: المقلّم، ومن الحافر الجرّدان، ومن الظلف كله: القضيب، ومن الفرس العتيق: النّصيّ، زعم ذلك أبو عبيدة.

وما أراد من الحافر الفحلّ فهو الوداق، وهو من الإبل الضبّعة، ومن الضأن الحنوّ، ويقال: حنت تحنو حنوّاً، وهي نعجة حانٍ

لثما ترى، وما كان من المعز فهو الحرمة، ويقال: عنز حرمة،
وأنكر بعضهم قولهم: شاة صارف وزعم أنه مولد.

قال: وهو من السباع الإجمال، يقال: كلبة مجعل، فإذا عظم
بطنها قيل أجمت فهي مجح.

وما كان من الخف فهو مشفر، وما كان من الغنم فهو مرمة،
وما كان من الحافر فهو جحفلة.

وإذا قلت لكل ذات حمل وضعت، جاز، فإذا ميزت قلت للخف:
نتجت، وللظلف: ولدت، والبقرة تجري هذا المجرى، وقلت
للحافر: نتجت.

ويقال للحافر من بين هذا كله إذا كان في بطنها ولد: نتوج،
وإذا عظم بطن الحافر قيل قد أعقت فهي عقوق، والجماع
عقق، وبعضهم يقول: عقاق.

ويقال للبقرة الوحشية نعجة، والبقرة تجري مجرى الضائنة في
حالتها.

وما كان من الخف فصوته بغام، فإذا ضجت فهو الرغاء، فإذا
طربت في إثر ولدها قبل حنت، فإذا مدت الحنين قيل سجرت.
قال: والإلماع في السباع وفي الخيل، دون البهائم، وهو أن
تشرق ضروعها.

قال: والخروف في الخيل والضأن، دون البهائم كلها.

قال: ويقال للطير: قد قمطها يقمطها، ويقال للتيس والكلب: قد سَفَدَ يُسَفِدُ سِفَاداً، ويقال في الخيل: كامها يَكُومُهَا كَوَماً، وكذلك في الحافر كَلَّهُ، وفي في الحمار وحده: باكها يَبُوكُهَا بَوَكاً. قولهم: ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ وتقول العرب: ما له عندي سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، فقدموا السَّبَدَ، ففي هذا المعنى أنهم قدموا الشَّعْرَ على الصوف.

فإن قال قائل: فقد قَدَّمُوا في مواضع كثيرةٍ ذَكَرَ ما هو أَحْسَنُ فقالوا: ما له عندي قليلٌ ولا كثيرٌ، والعير والنَّفير حتى قالوا: الخَلَّ والزيت، وقالوا: ربيعةٌ ومُضَرٌ، وسُلَيْمٌ وعامرٌ، والأوس والخزرج، وقال الله: "لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا". والذي يدلُّ على أن ذلك الذي قلنا كما قلنا قولُ الراعي:

عنه سلاسل رَمَلٍ
بينها عَقْدُ

إثر الأوابد ما يَنمي
له سَبَدٌ

حتى إذا هبَّ الغِيْطَانُ
وانقطعت

لاقي أطيَّلسَ مَشَاءً
بأكلْبِهِ

فَقَدَّمَ السَّبَدَ، ثم قال:

يُشْلِي سَلَوِيَّةَ زَلَا
جَوَاعِرُهَا

مِثْلَ الْيَعْسِيبِ فِي
أَصْلَابِهَا أَوْدُ

وقال الراعي:

أما الفقيرُ الذي كانت
حَلُوبَتُهُ

وَفَقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ
لَهُ سَبْدُ

وهو لو قال: لم يُترك له لَبَدٌ، ولو قال: ما ينمي له لَبَدٌ لقام
الوزنُ، وكان له معنى، فدلَّ ذلك على أنه إنما أراد تقديم
المقدّم.

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

قال صاحب الضأن: فخرتم على الضأن بأن الإنسان ذو شعر،
وأنه بالماعز أشبه، فالإنسان ذو ألية، وليس بذي ذنب، فهو
من هذا الوجه بالضأن أشبه.

قال صاحب الماعز: كما فخرتم بقوله: "ثمانية أزواج من
الضأن اثنين" وقلتم: فقد قدمها، فقال الله: "يا معشر الجن
والإنس".

فإن وجب لضانك التقديم على الماعز بتقديم هذه الآية وجب
للجنّ التقديم بتلك الآية.

في الضفادع

علّمك الله علماً نافعاً، وجعل لك من نفسك سامعاً، وأعادك من
العُجب، وعرفك لباس التقوى، وجعلك من الفائزين.
اعلم، رحمك الله تعالى، أن الله جل وعز قد أضاف ست سور
من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة، منها مما
يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة، وسورة الأنعام،
وسورة الفيل، وثلاثة منها مما يعدون اثنتين منها من الهمج،
وواحدة من الحشرات.

فلو كان موقع ذكر هذه البهائم، وهذه الحشرات والهمج، من
الحكمة والتدبير، موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا
يفكرون، ولا يميزون، ولا يحصلون الأمور، ولا يفهمون
الأقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة، و الشريفة
الجليلة، إلى هذه الأمور المحقّرة المسخّفة، والمغمورة
المقهورة.

ولأمر ما وضعها في هذا المكان، ونوّه بأسمائها هذا التنويه،
فافهم، فإن الأديب الفهم، لا يعود قلبه الاسترسال، وخد نفسك

بالفكرة، وقلبك بالعبرة.

وأنا ذاكراً من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي، وهو قليلٌ في جنب ما عند علمائنا، والذي عند علمائنا لا يحسُّ في جنب ما عند غيرهم من العلماء، والذي عند العلماء قليل في جنب ما عند الأنبياء، والذي عند الأنبياء قليل في جنب ما عند الله تبارك وتعالى.

من ذلك الضفدع، لا يصيحُ ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكه الأسفل في الماء، فإذا صار في فمه بعض الماء صاح، ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقاً إذا كنَّ خارجاتٍ من الماء. والضفدعُ من الحيوان الذي يعيشُ في الماء، ويبيضُ في الشط، مثل الرق والسُّلحفاة، وأشباه ذلك. والضفادعُ تنق، فإذا أبصرت النار أمسكت.

زعم في الضفادع

والضفادع من الحيوان الذي يُخلق في أرحام الحيوان، وفي أرحام الأرضيين، إذا ألقتها المياه، لأن اليخَّ يخراسان يُّبس في الأزاج، ويحالُ بينه وبين الرِّيح والهواء والشمس، بأحكام ما يقدرون عليه وأوثقه، ومتى أنخرق في تلك الخزانة خرقٌ في مقدار منخر الثور حتى تدخله الريح، استحال ذلك اليخُّ كله

ضفادع.

ولم نعرف حقَّ هذا وصدقَه من طريق حديث الرجل والرجلين، بل نجدُ الخبرَ عنه كالإطباق، وكالخبر المستفيض الذي لا معارضَ له.

أعجوبة في الضفادع

وفيها أعجوبة أخرى: وذلك أنا نجد، من كبارها وصغارها، الذي لا يحصى في غبِّ المطر، إذا كان المطر ديمة، ثم نجدُها في المواضع التي ليس بقربها بحرٌ ولا نهرٌ، ولا حوضٌ، ولا غديرٌ، ولا وادٍ، ولا بئرٌ، ونجدُها في الصَّاحح الأماليس، وفوق ظهورِ مساجد الجماعة، حتى زعم كثيرٌ من المتكلمين، ومن أهل الخسارة وممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء، ولا يكثرث للشكّ - أنها كانت في السحاب.

ولذلك طمع بعضُ الكذَّابين ممن نكَّره اسمه، فذكر أن أهل أيذج مُطِّروا مرةً أكبر شبَّابيطَ في الأرض، وأسمَّنها وأعدبها وأعظمها، وأنهم اشتَوَّوا، وملَّحوا، وقرَّسوا، وتزوَّد منه مسافرهم، وإنما تلك الضفادع شيءٌ يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان، وتلك المطرة، وتلك الأرض، وذلك الهواء.

معارف في الضفدع

والضفادعُ من الخلق الذي لا عظامَ له.
ويزعم أصحاب الغرائب أن العلاجيمَ منها الذكورة السود.
ويقال: أرسح من ضفدع.
وتزعم الأعرابُ أن الضفدع كان ذا ذنب، وأن الضبَّ سلبه إياه
وذلك في خرافة من خرافات الأعراب، ويقول آخرون: إن
الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذنب، فإذا خرجت له يدان أو
رجلان سقط.

جملة من الأمثال وتقول العرب: لا يكون ذلك حتى يُجمع بين
الأرؤى والنعام وحتى يُجمع بين الماء والنار، وحتى يشيب
الغراب، وحتى يبيض القار، وحتى تقع السماء على الأرض.
ومن حديث الأمثال: حتى يجيء نسيط من مرو، وهو لأهل
البصرة، وحتى يجيء مصقلة من طبرستان، وهو لأهل الكوفة.
وقال الله عز وجل: "وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْخِيَاطِ".

وتقول العرب: لا يكون ذلك حتى يُجمع بين الضب والنون،
وحتى يُجمع بين الضفدع والضب، وقال الكميت:

يُوَافُّ بَيْنَ ضِفْدَعَةٍ
وَضَبٍّ

وَيَعْجَبُ أَنْ نَبَرَ بَنِي
أَبِينَا

وقال في النون والضب:

ولو أنهم جاؤوا
بشيءٍ مقارب

لشيءٍ وبالشكل
الموافق للشكل

ولكنهم جاءوا
بحيتانٍ لُجَّةٍ

قواميسٍ والمكنيِّ فينا
أبا الحسلي

معارف في الضفدع

وهو من الخلق الذي لا يصاب له عَظْمٌ، والضفدعُ أَجْحَظُ الخلقِ
عيناً، والأسدُ تَنْتَابُهَا فِي الشَّرَائِعِ، وَفِي مَنَاقِعِ المِيَاهِ، وَالْأَجَامِ
وَالغِيَاضِ، فَتَأْكُلُهَا أَكْلًا شَدِيدًا.

وهي من الخلق المائي الذي يصبرُ عن الماءِ أَياماً صَالِحَةً،
وَالضَفَادِعُ تَعْظُمُ وَلَا تَسْمَنُ، كَالدُّرَّاجِ وَالْأَرْنَبِ، فَإِنَّ سِمَنَهُمَا أَنْ
يَحْتَمِلَا اللَّحْمَ.

وفي سواحل فارس ناسٌ يَأْكُلُونَهَا.

قول مسيلمة في الضفدع

ولا أدري ما هَيِّجَ مسيلمةً على ذكْرِها، ولمَ ساءَ رأيه فيها،
حيثُ جعلَ بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدعُ نقي كَمْ
تَنقِيَنِ نصفك في الماء ونصفك في الطين لا الماء تُكَدِّرِينِ، ولا
الشارب تمنعِينِ.

معيشة الضفادع مع السمك

والضفادعُ من الخلق الذي يعيشُ مع السمك في الماء، وليس
كل شيء يعيشُ في الماء فهو سمك، وقد قال الصلّتان العبديّ،
في القضاء الذي قضى بين جرير والفرزدق، و الفصل الذي
بينهما:

فما تستوي حيتانه
والضفادعُ

فإن يك بحرُ
الحنظليين زاحراً

طلب الحيات والضفادع

والحيات تأتي مناقع الماء، تطلب الضفادع، والفأر تكون بقرب
المياه كثيرةً، فلذلك تأتي الحيات تلك المواضع، ولأن صيدها
من أسهل الصيد عليها، وهي تعرف صيدها، ألا تراها تحيدُ عن
ابن عُرْسٍ، وإن رأت جُرَداً أكبر منه لم تنههه دون أن

تبتلعها وترى الـورل فتفر منه، وترى الـوحره فتشد عليها،
وترى القنفذ وإن صغر - فلا تجترئ أن تمر به خاطفة، وترى
الـويرة، وهي مثل ذلك القنفذ مرتين فتأكلها.
ولطلبها الضفادع بالليل في الشرائع يقول الأخطل:

فدلّ عليها صوتها
حياة البحر

ضفادع في ظلماء ليل
تجاوبت

وقد سرق معناه بعض الشعراء، فقال وهو يذكر الضفدع، وأنه
لا ينيق حتى يدخل حنكه الماء:

كيما ينيق والنقيق
يُتلفه

يُدخل في الأشداق ماءً
ينصفه

شعر في الضفادع

وقال زهير:

على العراقي يداه قائماً دققاً

حَبُّ الْجَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقًا

يُ

حَيْلٌ فِي جَدُولٍ تَحْبُو ضَفَادِعُهُ

عَلَى الْجُدُوعِ يَخْفَنَ الْعَمَّ وَالْغَرَقَا

ي

خُرْجَنٌ مِنْ شَرَبَاتٍ مَاؤُهَا طَحْلٌ

وقال أوسُ بن حجر:

مَجَالِسُ عَرْقِي لَا يُحَلَا
نَاهِلُهُ

فَبَاكَرَنَ جَوْنًا لِلْعَلَاجِيمِ
فَوْقَهُ

جون قال: يريد غديراً كثيراً الماء، قال: وإذا كثر الماء وكثر
عُمُقُهُ اسودَّ في العين، والعلاجيم: الضفادع السود؛ وجعلها
عرقى، يقول: هي فيما شاءت من الماء، كقولك: فلان في خير
غامر من قبيل فلان، وجعل لها مجالس حول الماء وفوقه، لأن
هذه الأجناس - التي تعيش مع السمك في الماء وليست بسمك
- أكثر حالاتهن إذ لم تكن سمكا خالصاً أن تظهر على شطوط
المياه، وفي المواضع التي تبيض فيها من الدَّغْل، وذلك
كالسرطان والسُّلْحَفَاة، والرَّق، والصفدع، وکلب الماء، وأشباه

ذلك.

استطرد لغوي ويُقال: نقّ الضفدع ينقُّ نقيقاً، وأنقض ينقضُ
إنقاضاً ، وقال رُوبَةُ:

في الماء والساحلُ
خضخاضُ البَثْقِ

إذا دنا منهن
إنقاضُ النُقُقِ

سمع الضفدع

وقد زعم ناسٌ أن أبا الأخرز الحِمَاني حيث قال:

تسمَعُ القنقِنِ صوتَ القنقِنِ

إنما أراد الضفدع، قالوا: وكذلك الطَّرمَاحُ حيث يقول:

ويُنصِتَنَ للصوتِ انتصاتَ القنَاقِنِ

ي

خافِتَنَ بعضَ المضغِ من خشيةِ الرَدَى

قالوا: لأن الضفدع جيّد السمع إذا ترك النقيق وكان خارجاً من
الماء، وهو في ذلك الوقتٍ أحذر من الغراب والعصفور

والعَفَقُ، وأسمعُ من فرَس، وأسمع من قراد، وأسمع من عُقاب، وبكل هذا جاء الشعر.

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

إبراهيم بن أبي يحيى، عن سعيد بن أبي خالد بن فارض، عن سعيد بن لمسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الضفدع. قال: وحدثنا سعيد عن قتادة قال: سمعتُ زُرارةَ يحدثُ أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: لا تسبُّوا الضفادع فإنَّ أصواتها تسبيح.

قال: وحدثنا هشامُ صاحبُ الدِّستوائي، عن قتادة عن زُرارةَ بنِ أوفى، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا تقتلوا الضفادع، فإن نقيهنَّ تسبيح، ولا تقتلوا الخفاش، فإنه إذا خرب بيت المقدس قال: يا ربَّ سلِّطني على البحر حتى أغرقهم.

وعن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن زُرارة، قال: قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الخفاش، فإنه استأذن البحر أن يأخذ من مائه فيطفيء بيت المقدس حيث حرق، ولا تقتلوا الضفادع، فإن نقيها تسبيح.

وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب، وفي إسناد له: أن

طبيباً ذكر الضَّفدِعَ عن النبي صلى الله عليه وسلم، لِيُجْعَلَ فِي
دَوَاءٍ، فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ الضَّفَدَعِ.
مَا يُوَصَّفُ بِجُودَةِ الْحِرَاسَةِ وَشِدَّةِ الْحَذَرِ وَالْعَرَبُ تَصِفُ هَذِهِ
الْأَصْنَافَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا بِجُودَةِ الْحِرَاسَةِ، وَبَشِدَّةِ الْحَذَرِ، وَأَعْطَوْا
الثَّلَبَ وَالذَّبَّ أُمُوراً لَا يَبْلُغُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.
قَوْلُ صَاحِبِ الْمَنْطِقِ فِي الْغُرَانِيقِ وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ فِي
الْغُرَانِيقِ قَوْلاً عَجِيباً، فَزَعَمَ أَنَّ الْغُرَانِيقَ مِنَ الطُّيُورِ الْقَوَاطِعِ،
وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَوَابِدِ، وَأَنَّهَا إِذَا أَحْسَتْ بِتَغْيِيرِ الزَّمَانِ اعْتَزَمَتْ عَلَى
الرَّجُوعِ إِلَى بِلَادِهَا وَأَوْكَارِهَا، وَذَكَرَ أَنَّهَا بَعِيدَةٌ سَحِيقَةٌ، قَالَ:
فَعِنْدَ ذَلِكَ تَتَخَذُ قَائِداً وَحَارِساً، ثُمَّ تَنْهَضُ مَعاً، فَإِذَا طَارَتْ تَرَفَعَتْ
فِي الْجَوَاءِ جِداً، كَيْ لَا يَعْضُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ سَبَاعِ الطُّيْرِ، أَوْ
يَبْلُغُهَا سَهْمٌ أَوْ بُنْدُقٌ، وَإِنْ عَايَنْتْ غَيْمًا أَوْ مَطْراً، أَوْ خَافَتْ
مَطْراً، أَوْ سَقَطَتْ لَطْلِبٍ مَا لَا بَدَّ لَهَا مِنْهُ مِنْ طَعْمٍ، أَوْ هَجَمَ
عَلَيْهَا اللَّيْلُ أَمْسَكَتْ عَنِ الصِّيَاحِ، وَضَمَّتْ إِلَيْهَا أَجْنِحَتَهَا، فَإِذَا
أَرَادَتْ النَّوْمَ أَدْخَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ، لِأَنَّهُ يَرَى
أَنَّ الْجَنَاحَ أَحْمَلٌ لَمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ رَأْسِهِ، أَوْ بَعْضُ مَا فِي
رَأْسِهِ: مِنَ الْعَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ ذَهَابِ الرَّأْسِ
حَيَاةً، ثُمَّ يَنَامُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رِجْلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَظُنُّ
أَنَّهُ إِنْ مَكَّنَّهُمَا نَامَ إِنْ كَانَ لَا يَحِبُّ النَّوْمَ، أَوْ نَامَ ثَقِيلاً إِنْ كَانَ

يحب أن يكون نومّه غراراً، فأما قائدها وسائقها وحارسُها، فإنه لا ينامُ إلا وهو مكشوفُ الرأس، وإن نام فإن نومّه يكون أقلُّ من الغشاش، وينظرُ في جميع النواحي، فإن أحسَّ شيئاً صاحَ بأعلى صوته.

صيد طير الماء وسألتُ بعضَ من اصطادَ في يوم واحد مائة طائر من طير الماء، فقلتُ له: كيف تصنعون؟ قال: إن هذا الذي تراه ليس من صيدِ يوم واحد، وإن كلّه صيدَ في ساعة واحدة، قلتُ له: وكيف ذاك؟ قال: وذلك أنا نأتي مناقع الماء ومواضع الطير، فنأخذُ قرعةً يابسةً صحيحةً، فنرمي بها في ذلك الماء، فإذا أبصرها الطير تدنو منه بدفع الرّيح لها في جهته، مرة أو مرتين فِرْع، فإذا كثر ذلك عليه أنس، وإنما ذلك الطير طير الماء والسّمك، فهي أبدأً على وجه الماء، فلا تزالُ الرّيح تقربها وتباعدها، وتزداد هي بها أنساً، حتى ربما سقط الطائرُ عليها، والقرعة في ذلك إما واقفةً في مكان، وإما ذاهبةً وجائية، فإذا لم نرها تنفرُ منها أخذنا قرعةً أخرى، أو أخذناها بعينها، وقطعنا موضعَ الإبريق منها، وخرقنا فيها موضعَ عينين، ثم أخذها أخذنا فأدخلَ رأسه فيها، ثم دخل الماء ومشى فيه إليها مشياً رويداً، فكلما دنا من طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء، ودقَّ جناحه وخَلَّاهُ، فبقي طافياً فوق الماء

يسبُحُ برجليه، ولا يطيقُ الطيران، وسائرُ الطير لا ينكر انغماسه، ولا يزال كذلك حتى يَأْتِيَ على آخر الطير، فإذا لم يبق منها شيء رَمَى بالقرعة عن رأسه، ثم نلقتها ونجمها ونحملها.

علاج الملسوع قال: ومن جيّد ما يُعالجُ به الملسوعُ، أن يُشَقَّ بطنُ الضفدع، ثم يرفدُ به موضع اللسعة، ولسنا نعني لدغة الحية، وإنما نعني لسعة العقرب.

والضفدع إذا رأى النار أمسك عن النقيق، وإذا رأى الفجر والأسرُ إذا رأت النار أحجمت عن الإقدام، وإذا اشتد الأصوات استطراد لغويّ قال: ويقال للضفدع: نقّ ينقّ، وهدر يهدر، وقال الراعي:

فأوردهُنَّ قبيلَ الصباح
عيناً ضفادعُها تَهْدِرُ

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

وأما قولُ صاحبِ المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى تُدخَلَ فكها الأسفل في الماء، لزن الصوت لا يجيئها حتى يكون في فكها ماء فقد قال ذلك، وقد، وافقه عليه ناسٌ من العلماء، وادعوا في ذلك العيان.

فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام إلا ببعض الماء،
فأيُّ عيانٍ دلَّ على هذا؟ وهذا عَسِرٌ.
أحضِرني على اسم الله ذهنك، وفرِّغ لما ألقىه إليك قلبك، فربَّ
حرفٍ من حروف الحكم الشريفة، والأمثال الكريمة - قد عفا
أثره، ودثر ذكره، ونبا الطرف عنه، ولم يُشغَلِ ذهنُ بالوقوف
عليه، وربَّ بيتٍ هذا سبيله، وخطبةٍ هذه حالها.
ومدارُ الأمرِ على فهم المعاني لا الألفاظ، والحقائق لا العبارات،
فكم من دارسٍ كتاباً خرَّجَ عُفلاً كما دخل، وكم من متفهمٍ لم
يفهم؟ ولن يستطيع الفهم إلا من فرَّع قلبه للتفهم، كما لا
يستطيع الإفهام إلا من صحت نيته في التعليم.

فضل الإنسان على سائر الحيوان

فأقول: إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة، والإنسان والسَّبُع
والحشرة، والذي صَبَّرَ الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل:
"وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ" ليس
هو الصورة، وأنه خُلِقَ من نطفة وأن أباه خلق من تراب، ولا
أنه يمشي على رجليه، ويتناول حوائجه بيديه، لأن هذه
الخصال كلها مجموعة في البُله والمجانين، والأطفال
والمنقوصين.

والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين، وفي
وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة، وليس يوجب
وجودهما وجود الاستطاعة.

وقد شَرَّفَ اللهُ تعالى الجانَّ وفضَّله على السَّبُعِ والبهيمة، بالذي
أعطاه من الاستطاعة الدالة على وجود العقل والمعرفة.
وقد شَرَّفَ اللهُ الملائكةَ وفضلهم على الجانِّ، وقدمهم على
الإنسان وألزمهم من التكليف على حسب ما حوَّلهم من النعمة،
وليست لهم صورة الإنسان ولم يخلُقوا من النُّطْفِ، ولا خلُق
أبوهم من التراب، وإنما الشأنُ في العقل، والمعرفة،
والاستطاعة.

أفتظنُّ أن الله عز وجل يخصُّ بهذه الخصال بعض خلقه دون
بعض، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك،
وأغراه منه؟ فلم أعطاه العقل، إلا للاعتبار والتفكير؟ ولم
أعطاه المعرفة، إلا ليوثر الحقَّ على هواه؟ ولم أعطاه
الاستطاعة، إلا لإلزام الحجة؟. فهل فكَّرتَ قطُّ في فصل ما بينك
وبين الخلق المسخَّر لك، وبين الخلق الذي جعل لك والخلق
المسلط عليك؟ وهل فكَّرتَ قطُّ في فصل ما بين ما جعله عليك
عادياً؟ وبين ما جعله لك غانياً؟ وهل فكَّرتَ قطُّ في فصل ما
بين الخلق الذي جعل لك عذاباً، والخلق الذي جعل لك قاتلاً،

وبين ما آنسه بك وبين ما أوحشهُ منك، وبين ما صغّره في عينك وعظّمه في نفسك، وبين ما عظّمه في عينك وصغّره في نفسك؟.

بل هل فكرت في النحلة والعنكبوت والنملة، أنت ترى الله تقدّس وعزّ كيف نوّه بذكره ورفع من قدرها، وأضاف إليها السُّور العظام، والآياتِ الجسام، وكيف جعل الإخبارَ عنها قرآناً وفرقانا، حيث يقول: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"، فقَفَّ عَلَى صغر النحلة وضعف أيديها، ثم اِرْم بعقلك إلى قول الله: "ثُمَّ كَلِمَ مِّنْ كُلِّ النَّمَلِ فَأَسْلَمِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا" فإنك تجدّها أكبر من الطّود، وأوسع من الفضاء، ثم انظر إلى قوله: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ"، فما ترى في مقدار النملة في عقل الغبيّ، وغير الذّكيّ؟ فانظر كيف أضاف الوادي إليها، وخبر عن حذرها ونصحها لأصحابها، وخوفها ممن قد مُكِّنَ، فإنك تجدّها عظيمة القدر، رفيعة الذكر، قد عظّمها في عقلك، بعد أن صغرها في عينك.

عَجَزُ الْإِنْسَانِ وَصِغَرُ قَدْرِهِ

وخبّرني عن الله تعالى، أمّا كان قادراً أن يعدّب الكنعانيين، والجبابرة، والفراعنة، وأبناء العمالقة: من نسل عاد وثمود،

وأهل العتوّ والعُنُود بالشيّاطين ثم بالمرّدة، ثم بالعفاريت، ثم
بالملائكة الذين وكلهم الله تعالى بسوق السحاب، وبالمدّ
والجزر، وبقبض أرواح الخلق، وبقلب الأرضين، وبالماء
والريح، وبالكواكب والنيران، وبالأسد والنمور والبُور
وبالفيلة والإبل والجواميس، وبالأفاعي والثعابين وبالعقارب
والجرارات، وبالعقبان والنسور، وبالتماسيح، وباللُحْم
والدّلفين.

فلمَ عدّ بهم بالجراد والقمل والضفادع؟ وهل يتلقّى عقلك قبل
التفكير إلا أنه أراد أن يعرفهم عجزهم، ويذكّرهم صغر
أقدارهم، ويذلّهم على ذلك بأذلّ خلقه، ويعرفهم أن له في كل
شيء جنّداً، وأن القويّ من قوّاه وأعانه، والضعيف من ضعّفه،
والمنصور من نصره، والمخدول من خلاه وخذله، وأنه متى
شاء أن يقتل بالعسل المادي والماء الزّلال كما يقتل بالسمّ
الساري، والسيف الماضي قتل؟.

ولمَ كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى على جسده البثرة
ابتهل في الدعاء وقال: إن الله تعالى إذا أراد أن يعظّم صغيراً
عظّمه؟.

ولم قال لنا: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ". فافهم عنه تعالى ذكره،

وتقدست أسماؤه قوله: "آيات" ثم قال: "مُفَصَّلَاتٍ"، فهل
وقفت قطُّ على هذه الآياتِ؟ وهل توهمت تأويلَ قوله: هذا آية
وغير آية؟ وهل وقفت على فصل ما بين الآية وغير الآية،
وإذا كانت مفصَّلَاتٍ كان ماذا، وإذا لم تكن مفصَّلَاتٍ كان ماذا.
فافهم قوله: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ"، وما في الأرض أنقصُ معرفة
وعلماً، ولا أضعفُ قوة وبطشاً، ولا أوهنُ رُكناً وَعَظْماً من
ضِيفِيع، فقد قال - كما ترى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ
وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ"، فقد جعله - كما ترى - أفضل آياته
والعذاب الذي أرسله على أعدائه.

وقد قال جل وعز: "فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ" فأظهر الماء
جلّ ثناؤه من أبعء مواضع الماء من ظنونهم، وخبرنا بذلك كي
لا نخلي أنفسنا من الحذر والإشفاق، ولنكون علماء بالعلم الذي
أعطانا، ولنكون راجين خائفين، ليصح الاختيار، ويحسن
الاختبار: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"، ما أحسن ما قدر،
وأتقن ما برأ. وكان السبب الذي سلطه الله تعالى على العرم،
وهو مُسِنَّةٌ جَنَّتِي بِلَادِ سِبَا، جُرْدًا، فهو الذي خرّقه، وبدل
نعمتهم بؤساً، وملكهم يباباً وعزهم ذلاً، إلى أن عادوا فقراء،
فقال الله: "وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتِيهِمْ جَنَّتَيْنِ دَوَاتِي أَكَلِ خَمَطٍ وَأَثَلِ
وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ"، هذا بعد أن قال: "لَقَدْ كَانَ لِسِبَا فِي

مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرِمِ".
شعر في سد مأرب وقال الأعشى:

ومأربُ قفى عليه
العِرمُ

ففي ذاك للمؤتسي
أسوة

إذا جاء مأوهُمُ لم يرمِ

رُخامٌ بنته لهم حميرٌ

وأنشد أبو عمرو بن العلاء:

يبتنون من دون سيله
العِرمَا

من سبأ الحاضرين
مأرب إد

معارف في الجراد

ثم انظر إلى الجراد وهذا باب القول فيه.
قال: فأول ما يبدو الجراد إذا باض سرءً، وسرؤه: بيضه.
يقال: سرأت تسراً سرءاً.
فانظر الآن، فكم ترى فيه من أعجوبة، ومن آية بليغة، فأول

ذلك التماسُّها لبيضها الموضع الصَّد، والصخور الصَّمَّ المُسَّ،
ثقةً بأنَّها إذا ضربتْ بأذنانها فيها انفرجت لها.

ذنب الجرادة وإبرة العقرب

ومعلومٌ أن ذنب الجرادة ليس في خلقة المسمارِ، ولا طرف،
ذنبها كحدِّ السنَّان، ولا لها من قوة الأسر، ولذنبها من الصَّلابة
ما إذا اعتمدتْ به على الكُدِيَّة والكَدَّانة جرح فيهما فكيف وهي
تتعدى إلى ما هو أصلبُ من ذلك، وليس في طرف ذنبها كإبرة
العقرب؟.

وعلى أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأيد وقوة البدن،
بل إنما ينفرجُ بطبعٍ مجعولٍ هناك، وكذلك انفرجُ الصخورِ
لأذنان الجرادة.

ولو أن عُقاباً أرادتْ أن تخرق في جلد الجاموس لما انخرق لها
إلا بالتكُّفِّ الشديد، والعُقابُ هي التي تَنكدرُ على الذئب الأطلس
فتقدِّ بدابرتها ما بين صلاه إلى موضع الكاهل.

فإذا غرزتْ الجرادة وألقت بيضها، وانضمتْ عليها تلك الأخاديد
التي أحدثتها، وصارت كالأفاحيص لها، وصارت حافظةً لها
ومربيَّة، وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقتُ دبيبِ الرُّوح فيها
أحدث اللهُ في أمرها عجباً آخر، فسبحان من استخزنها حكمته،

وحشاها بالأدلة عليه، وأنطقها بأنها مدبرة، ومُذَلَّةٌ ميسرة،
ليفكر مفكر، ويعتبر معتبر ذلكم الله ربُّ العالمين، وتبارك الله
ربُّ العالمين.

مراتب الجراد

وقال الأصمعي: يقال: قد سرأت الجرادة تسراً سرَّءاً، فإذا خرج
من بيضه فهو دَباً والواحدة دَبَاة، ويخرج أصهَبَ إلى البياض،
فإذا اصفرَّ وتلَوَّنت فيه خطوطٌ واسودَّ فهو بُرْقَان، يقال رأيت
دَباً بُرْقَاناً، والواحدة بُرْقَانَةٌ، فإذا بدت فيه خطوطٌ سَوْدٌ وبيضٌ
وصُفر فهو المَسِيح، فإذا بدا حُجْمُ جناحه فذلك الكُتْفَان، لأنه
حينئذٍ يكتف المشي واحدة كتفانة، قال ابن كنانة:

طنباً أو يشكَّ
كالمتماذي

يكتفُ المشي كالذي
يتخطَّى

يصف فرساً، فإذا ظهرت أجنحته وصار أحمرَ إلى الغبرة فهو
العَوْغَاءُ والواحدة عَوْغَاءَةٌ، وذلك حين يستقلُّ ويموجُ بعضه
في بعضه ولا يتوجَّهُ جهةً، ولذلك قيل لرعاع الناس عَوْغَاءُ،
فإذا بدت في لونه الحمرة والصفرة، وبقي بعضُ الحمرة،
واختلف في ألوانه، فهو الخيفان، والواحدة خيفانة، ومن ثَمَّة

قيل للفرس حَيْفَانَةٌ.
فإذا اصفرت الذكورُ واسودت الإناثُ ذهبَ عنه أسماء غير
الجراد، فإذا باض قيل عَرَزَ الجرادُ، وقد رَزَّ.
فإذا كثر الجرادُ في السماء وكثفَ فذلك السُّدُّ، ويقال: رأيتُ سُدًّا
مِنْ جَرَادٍ، ورأيتُ رَجُلًا مِنْ جَرَادٍ، للكثير منه، وقال العجاج:

سَيْرَ الجرادِ السُّدَّ يَرتادِ الخَضِرُ

مثل في الجراد

و مما تقول العرب: أصرد من جرادة، وإنما يُصطاد الجراد
بالسحر، إذا وقع عليه الندى طلباً مكاناً أرفع من موضعه.
فإن كان مع الندى بردٌ لبدَّ في موضعه، ولذلك قال الشاعر:

كالثائر الحيران أشرفَ
للندى

وكتيبة لبستها
بكتيبة

الثائر: الجراد، أشرف: أتى على شرف، للندى: أي من أجل
الندى.

استطرد لغوي ويقال: سخت الجرادة تسخُّ سخاً، ورزت
وأرزت، وجرادة رزأ وراز ومُرَز: إذا غمزت ذنبها في

الأرض، وإذا أَلَقَتْ بيضها قيل: سَرَات تَسْرَأ سَرَعًا.
ويقال: قد بَشَرَ الجرادُ الأرضَ فهو يبشرها بشرًا: إذا حَلَقَهَا
فأكل ما عليها، ويقال: جَرَدَ الجرادُ: إذا وقع على شيء فجرده،
وأنشدني ابن الأعرابي:

كما جَرَدَ الجارودُ بكرَ بِنِّ وائل

ولهذا البيت سُمِّي الجارود.
وأنشدني آخر:

فقد جَرَدَت بيتي وبيتِ
عِيالِيا

يقول أميرٌ: ها جَرَادٌ
وضبَّةٌ

وهذا من الاشتقاق.
ومنه قيلُ ثوبُ جَرْدٍ، بإسكان الراء، إذا كان قد انجرد وأخْلَقَ،
قالت سَعْدَى بنت الشَّمْرَدَانِ:

ومُقَاتِلٌ بطلٌ وليثٌ
مِسلَعٌ

سَبَاءٌ عاديةٌ وهادي
سُرْبَةٌ

هَبِلْتَكِ أُمَّكَ أَيَّ جَرْدٍ

أَجَعَلْتَ أَسْعَدَ للرِّمَاحِ

درية

ترقُع

تطيرُ النابغة ويدخلُ في هذا الباب ما حدّثنا به الأصمعيّ، قال:
تجهز النابغة الذبيانيُّ مع زَبَّان بن سيَّار الفزاريّ، للغزو، فلما
أراد الرحيلَ نظرَ إلى جرادة قد سقطت عليه، فقال: جرادة تجرُد،
وذات لونين، غيري من خرج في هذا الوجه: ولم يلتفت زَبَّانُ
إلى طيرته وزجره، ونفذ لوجهه، فلما رجع إلى موضعه الذي
كان النابغة فارقه فيه، وذكر ما نال من السلامة والغنيمة، أنشأ
يذكر شأن النابغة فقال:

لَتُخْبِرَهُ وَمَا فِيهَا
حَبِيرُ

تُخْبِرُ طِيرَهُ فِيهَا زِيَادُ

أَشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ
مَشِيرُ

أَقَامَ كَأَنَّ لَقْمَانَ بِنَّ
عَادِ

عَلَى مَنَطِيرٍ وَهُوَ
النُّبُورُ

تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا

أَحَايِنَاً وَبَاطِلَهُ

بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ

شيء

كثير

واسم النابغة زياد بن عمرو، وكنيته أبو ثمامة، وأنشدني أبو
عبدة:

وقائلةٍ: مَنْ أَمَّهَا
واهتدى لها؟

زيادُ بنُ عمرو أمَّها
واهتدى لها

استطرد لغوي قال: ويقال أبشرت الأرض إِبْشَاراً: إذا بُدِرَتْ
فخرج منها بذرها، فعند ذلك يقال: ما أَحْسَنَ بَشْرَةَ الأَرْضِ.
وقال الكميث - وكنية الجراد عندهم: أمُّ عوف، وجناحها:
بُرْدَاها - ولذا قال:

تَنْفَضُ بُرْدِيَّ أُمَّ عَوْفٍ
ولم تَطْرُ

لنا بارقٌ بَخٌّ للوعيدِ
وللرَّهْبِ

وأنشدنا أبو زيد:

كَأَنَّ رِجْلِيهِ رِجْلَا
مُقْطَفٍ عَجَلٍ

إِذَا تَجَاوَبَ مِنْ بُرْدِيهِ
تَرْنِيمٌ

يقول: كأنَّ رجليَّ الجندب، حين يضربُ بهما الأرض من شدة
الحرِّ والرَّمضاء، رجلاً رجل مُقْطَف، والمقْطَف: الذي تحته دابَّةٌ
قُطوف، فهو يهَمْزُها برجليه.

شعر في الجندب والجراد

وقال أبو زبيد الطائي، يصف الحرَّ وشدته، وعملَ الجندب
بكراعيه:

أَيُّ سَاعٍ سَعَى لِيَقْطَعِ شَرْبِي	حِينَ لَاحَتْ لِلصَّابِحِ الجوزاءُ
وَاسْتَكَنَّ العُصْفُورُ كَرْهًا مَعَ الضَّ	بُ أَوْفَى فِي عَوْدِهِ الحرباءُ
وَنَفَى الجَنْدَبُ الحَصَى بُكَرَاعِ	يهِ وَأَدَكْتَ نِيرَانَهَا المعزاءُ

وأنشد أبو زيد، لعوف بن زُرّوة، في صفة الجراد:

قَدْ خَفْتُ أَنْ يَحْدَرَنَا لِلْمِصْرَيْنِ	وَيَتْرَكَ الدِّينَ عَلَيْنَا وَالدِّينُ
--	---

زَخَفٌ مِنَ الْخَيْفَانِ بَعْدَ
الرَّحْفَيْنِ

مَلْعُونَةٌ تَسْلَخُ لَوْنًا عَنِ
لَوْنٍ

تُنْحِي عَلَى الشَّمْرَاحِ
مِثْلَ الْفَاسِيْنِ

أَنْصَبَهُ مُنْصِبُهُ فِي
قِحْفَيْنِ

وَعَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:

تُنْحِي عَلَى الشَّمْرَاحِ
مِثْلَ الْفَاسِيْنِ

قَالَ حَمَادٌ لِأَبِي عَطَاءٍ:

فَمَا صَفْرَاءُ تُكْنَى أُمَّ
عَوْفٍ

مِنْ كُلِّ سَفْعَاءِ الْقَفَا
وَالْخَدَّيْنِ

كَأَنَّهَا مُلْتَفَةٌ فِي
بُرْدَيْنِ

أَوْ مِثْلَ مِشَارٍ غَلِيظٍ
الْحَرْفَيْنِ

أَوْ مِثْلَ مِشَارٍ غَلِيظٍ
الْحَرْفَيْنِ

كَأَنَّ رُجَيْلَتَيْهَا
مِنْجَلَانِ

تشبيه الفرس بالجرادة

ويُوصَفُ الفرسُ فيشبهه بالجرادة، ولذا قال الشاعر:

إِنَّ الرِّدَافَ عَنِ الأَحْبَةِ يَشْغَلُ

وَإِذَا وَضَعْتَ عِنَانَهَا لَا تَفْشَلُ

فإذا

رَفَعْتَ عِنَانَهَا فَجَرَادَةٌ

ولم يرض بشرُّ بن أبي خازم بأن يشبَّهه بالجرادة حتى جعله
ذكراً، حيث يقول:

أَضَرَ بِهَا المَسَالِحَ
وَالعَوَارُ

بِكَلِّ قِيَادِ مُسْنِفَةٍ
عَنُودِ

جَرَادَةٌ هَبُوءٌ فِيهَا
اصْفِرَارُ

مُهَارِشَةِ العِنَانِ كَأَنَّ
فِيهَا

فوصفها بالصفرة، لأنَّ الصفرة هي الذكورة، وهي أخفُّ أبداناً،
وتكونُ لخفة الأبدان أشدُّ طيراناً.

تشبيه مسامير الدرع بحديق الجرادة

ويوصف قَتِيرُ الدَّرْعِ ومساميرُها فيشَبَّه بِحَدَقِ الجرادِ، وقال
قيس بن الخطيم:

لبست مع البردَيْنِ ثوبَ
المحاربِ

ولما رأيتُ الحربَ
حرباً تجرَّدتُ

كأنَّ قَتِيرِيها عيونُ
الجنادِ

مضاعفة يغشى
الأناملَ فضلها

وقال المقنَّع الكندي:

ولي نثرة ما
تلاحم منها

كصنَعِ لها صنَعاً ولا سرِّدها سرِّداً
عيونُ الدِّبَا في الأرضِ تجرِّدها جرِّداً

وقال عمرو بن معد يكرب:

وددتُ وأين ما مني
ودادي

تمناني ليقاني
أبي

خوس الحسِّ
محكمة السرادِ

تمناني وسابغتي
دلاصُّ

كَأَنَّ سِكَامَهَا حَدَقُ
الجرادِ

مضاعفة تخيرها
سُلَيْمٌ

تشبيهه وسط الفرس بوسط الجرادة

ويوصفُ وسطَ الفرسِ بوسطِ الجرادة، قال رجلٌ من عبد القيس
يصف فرساً:

تَنَفِّي سَنَابِكُهَا رَضِيضَ
الْجَنْدَلِ

أَمَّا إِذَا مَا اسْتَدْبَرْتِ
فَنَعَامَةٌ

تشبيهه الحباب بحدق الجراد

ويوصفُ حَبَابَ الشرابِ بحدقِ الجراد، قال المثلّمس:

وَحَتْ بِهِمْ وَرَاءَ الْبَيْدِ
حَادِي

كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ
اسْتَبَدُّوا

كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقُ
الجرادِ

عُقَارًا عَتَقَتْ فِي الدَّنِّ
حَتَّى

لعاب الجندب

وإذا صفا الشَّرابُ وراقَ شَبَّهوه بلُعبابِ الجُنْدبِ، ولذا قال
الشاعر:

ماءُ المفاصلِ أو لُعبابُ
الجُنْدبِ

صفراءُ من حَلَبِ
الكرومِ كأنَّها

ولُعبابِ الجُنْدبِ سَمٌّ عَلى الأشجارِ، لا يقع على شيء إلا أحرقه.
زعم في الدُّبَا ولا يزالُ بعضُ من يدَّعي العِلْمَ يزعمُ أن الدُّبَا
بُرِيدُ الخُضرةِ، ودونها النهرُ الجاري، فيصيرُ بعضه جسراً
لبعضِ، وحتى يعبرُ إلى الخُضرةِ، وأن تلك حيلة منها.
وليس ذلك كما قال: ولكنَّ الزَّحْفَ الأولُ من الدُّبَا يريدُ الخُضرةِ،
فلا يستطيعها إلا بالعبورِ إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق
الماء طافيةً صارت تلك لعمرى أَرْضاً للزحفِ الثاني الذي يريدُ
الخُضرةِ، فإن سمَّوا ذلك جسراً استقام، فأما أن يكون الزحفُ
الأولُ مَهْدً للثاني وَمَكْنَ له، وآثره بالكفاية فهذا ما لا يُعرفُ.
ولو أن الزحفين جميعاً أشرفا على النهرِ، وأمستك أحدهما عن
تكلُّفِ العبورِ إلى أن يمهدَّ له الآخر - كان ذلك قولاً.
استطرد لغوي ويقال في الجراد: خرقه من جراد، والجميع
خَرَقَ، وقال الشاعر:

وكأنها خِرْقُ الجَرَادِ

يثورُ يومَ غُبارِ

ويقال للقطعة الكثيرة منها رَجُلُ جراد، ورجلةٌ من جراد،
والنَّوْلُ: القطعة من النحل.

وتوصف كثرة النَّبْلِ، ومرورها، وسرعة ذلك بالجراد، وقال أبو
النجم:

كأنما المَعْرَاءُ من

رجلُ جرادٍ طار عن

نِضالها

حِدالها

وإذا جاء منه ما يسدُّ الأفق قالوا: رأينا سُدًّا من جراد، وقال
المفضل النُّكري:

كأنَّ النَّبْلَ بينهمُ جرادٌ

تُهَيِّجُه شَامِيَةٌ حَرِيْقُ

والمرتجل: الذي قد أصابَ رَجُلَ جرادٍ، فهو يشويه.

وقال بعضُ الرُّجَّاز، وهو يصف خيلاً قد أقبلت إلى الحي:

حتى رأينا كُدْخانِ

أو شَبَةَ الحَفانِ في سفحِ

المرتجلِ

الجَبَلِ

ولأن الحفانَ أتمُّها أبداناً، قال ابنُ الزُّبَيْرِ:

جَزَعِ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلَمِ

وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَشْلَمِ

رَقَصَ الْحَفَّانِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ

وقبلنا

وعدلنا ميلَ بدرٍ فاعتدل

الضعف من ساداتهم

طيب الجراد الأعرابي

والجرادُ الأعرابيُّ لا يتقدمه في الطيب شيء، وما أُحصي كم سمعتُ من الأعرابِ مَنْ يقول: ما شبتُ منه قطُّ وما أدعُهُ إلا خوفاً من عاقبته؛ أو لأنِّي أعيأ فأتركه.

أكل الجراد والجرادُ يطيب حاراً وبارداً، ومشوياً ومطبوخاً، ومنظوماً في خيط، ومجعولاً في الملة.

والبيض الذي يتقدَّم في الطيب ثلاثة أجناس: بيض الأسبور وبيض الدجاج، وبيضُ الجراد فوق بيض الأسبور في الطيب، وبيضُ الأسبور فوق بيض الدجاج.

وجاء في الأثر، أن الجراد ذكرَ عندَ عمر فقال: ليت لنا منه قفعةٌ أو قفعتين.

وهو يؤكل يابساً وغير يابس، ويجعلُ أذماً ونقلاً.

والجرادُ المأكولُ ضروبٌ، فمنه الأهوازيّ، ومنه المذنبُ،
وأطيبُهِ الأعرابيّ، وأهلُ خُراسان لا يأكلونه.
قصة في الولوع بأكل الجراد وحدثني رتبيل بن عمرو بن رتبيل
قال: والله إني لجالس على باب داري في بني صبير، إذ أقبلت
امرأة لم أر قط أتم حسناً ومِلحاً وجسماً منها، ورأيت في مشيها
تأوداً، ورأيتها تتلقتُ، فلم ألبث أن طلعتُ أخرى لا أدري أيتها
أقدم، إذ قالت التي رأيتها بدياً للأخرى: ما لك لا تلحقيني؟
قالت: أنا منذ أيام كثيرة أكثرُ أكلَ هذا الجراد، فقد أضعفني
فقلت: وإنك لتحببنيهِ حُباً تحتملين له مثلَ ما أرى بكِ من
الضعف؟ قالت: والله إنه لأحبُّ إليّ من الحبل.

طرفة في الجراد

وقال الأصمعي: قال رجلٌ من أهل المدينة لامرأته: لاجزأك الله
خيراً، فإنك غيرُ مُرعيةٍ ولا مبقيةٍ قالت: لأنا والله أرعى وأبقى
من التي كانت قبلي قال: فأنت طالقٌ إن لم أكنُ كنتُ آتيتها
بجرادةٍ فتطبخ منها أربعة ألوان، وتَشوي جنبِها فرفعتهُ إلى
القاضي فجعل القاضي يفكر ويطلبُ له المخرج، فقال للقاضي:
أصلحك الله أشكلتُ عليك المسألة؟ هي طالقٌ عشرين.

تشبيه الجيش بالدبا

ووصف الراجز حرباً، فوصف دنو الرّجالة من الرّجالة، فقال:

أو كالدّبا دبّ ضحى إلى الدّبا

قول أبي إسحاق في آية الضفادع

وقرأ بعض أصحابنا بحضرة أبي إسحاق: "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ" فقال رجلٌ لأبي إسحاق: انظر كيف قرّن الضفادع مع ضعفها إلى الطوفان، مع قوة الطوفان وغلبته، قال أبو إسحاق: الضفادعُ أعجبُ في هذا الموضع من الطوفان، وإذا أراد الله تعالى أن يصير الضفادع أضراً من الطوفان فعل.

شعر في تشبيهه بالجراد

وقال أبو الهندي:

وتوسّط النّسرانِ بطنَ العقربِ

ل

مَا سَمِعْتُ الدَّيْكَ صَاحَ بِسُحْرَةٍ

عُفْرُ الظُّبَاءِ عَلَى فُرُوعِ المَرْقَبِ

وَتَتَابَعَتْ عُصَبَ النُّجُومِ كَأَنَّهَا

ثُورٌ وَعَارِضَةٌ هِجَانُ الرَّبْرِبِ

وَبَدَأَ سُهَيْلٌ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ

يَا ابْنَ الكِرَامِ مِنَ الشَّرَابِ الأَصْهَبِ

نَبَّهْتُ نَدْمَانِي فَقُلْتُ لَهُ: اصْطَبِّحْ

عَيْنُ الجِرَادَةِ أَوْ لَعَابُ الجُنْدُبِ

صَفْرَاءُ تَنْزُؤُ فِي الإِنَاءِ كَأَنَّهَا

وَقَادَةَ حِرْبَاؤُهَا يَتَقَلَّبُ

نَزُؤَ الدَّبَا مِنْ حَرِّ كُلِّ ظَهِيرَةٍ

وَقَالَ أَبُو الهِنْدِيِّ أَيْضاً:

في ظاهر الأمر وفي
الغامض

صفراء مثل المَهْرَة
الناهض

نَزَوْ جَرَادِ الْبَلَدِ
الرَّامِضِ

زَهْرٌ قَبِيلَ تَرْجَلِ
الشَّمْسِ

بالبطن في دِرْعِ وَفِي
تُرْسِ

حَطَّتْ إِلَى إِجْلِ مِنْ
الْخُنْسِ

فَإِنَّ هَذَا الْوَطْبَ لِي
ضَائِرٌ

إِنْ كُنْتَ تَسْقِينِي فَمِنْ
قَهْوَةٍ

تَنْزُو الْفَقَاقِيعُ إِذَا
شُعْشِعَتْ

وقال الأَفْوَهُ:

بِمَنَايِبِ بِيضٍ كَأَنَّ
وَجُوهَهُمْ

دَبُّوا كَمَنْتَشِرِ الْجَرَادِ
هَوَتْ

وكانها آجالٌ عادية

أقوال فيما يضر من الأشياء وروى الأصمعي، وأبو الحسن،
عن بعض المشايخ، قال: ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت

عن آخرهم: أكلُ الجراد، ولحوم الإبل، والفُطْر من الكمأة.
وقال غيرُهما: شربُ الماء في الليل يورث الخبل، والنظر إلى
المختصر يُورث ضعف القلب، والاطلاع في الآبار العاديّة
ينقض التركيب، ويُسوّل مصارع السوء، فأما الفُطْر الذي يُخلق
في ظلّ شجر الزيتون فإنما هو حتفٌ قاض، وسمٌّ ناقع، وكل
شيء يخلق تحت ظلال الشجر يكون رديئاً، وأردؤه شجر
الزيتون، وربما قتل، وإن كان مما اجتنبوه من أوساط
الصحارى، قالوا: ومما يقتل: الحمّام على المِلاة، والجماع على
البِطنة، والإكثار من القديد اليابس.

وقال الآخر: شربُ الماء البارد على الظم الشديد إذا عجل
الكرع، وعظم الجرع، ولم يقطع النفس يقتل.
قالوا: وثلاثُ تورث الهُزال: شرب الماء على الرّيق، والنوم
على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.
والجماعُ على الامتلاء من الطعام ودخوله، وربما خيف عليه
أن يكون قاتل نفسه.

وقالوا: وأربعةُ أشياء تسرعُ إلى العقل بالإفساد: الإكثار من
البِصل، والباقلَى والجماع، والخُمَار.

وأما ما يذكرون في الباب من الهمّ والوحدة والفكرة، فجميع
الناس يعرفون ذلك، وأما الذي لا يعرفه إلا الخاصة فالكفاية

التامة، والتعظيم الدائم، وإهمال الفكر، والأنف من التعلم، هذا قول أبي إسحاق.

وقال أبو إسحاق: ثلاثة أشياء تخلق العقل، وتفسد الذهن: طول النظر في المرأة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر إلى البحر.

وقال مُعَمَّر: قُطعت في ثلاثة مجالس، ولم أجدَ لذلك علةً؛ إلا أني أكثرْتُ في أحد تلك الأيام من أكل البانجان، وفي اليوم الآخر من أكل الزيتون، وفي اليوم الثالث من الباقلِي. وزعم أنه كلم رجلاً من الملحدين في بعض العشايا، وأنه علاه غلواً ظاهراً قاهراً، وأنه بكرَّ على بقية ما في مسألته من التخريج، فأجبلَ وأصفى، فقال له خصمه: ما أحدثت بعدي؟ قال: قلت: ما أتهم إلا إكثاري البارحة من البانجان فقال لي - وماخالف إلى التهمة: ما أشكُّ أنك لم تُوتَ إلا منه. وقال لي من أثقُ به: ما أخذت قط شيئاً من البلاذر فنازعت أحداً إلا ظهرت عليه.

وقال أبو ناضرة: ما أعرف وجه انتفاع الناس بالبلاذر إلا أن يؤخذ للعصب، قلت: فأبي شيء بقي بعد صلاح العصب، وأنتم بأجمعكم تزعمون أن الحس للعصب خاصة؟.

في القطا

تقول العرب: أصدق من قطة وأهدى من قطة.
وفي القطا أعجوبةً، وذلك أنها لا تضع بيضها أبداً إلا أفراداً،
ولا يكون بيضها أزواجاً أبداً، وقال أبو وجزة:

وَهِنَّ يَنْسُبْنَ وَهْنًا كُلَّ
صَادِقَةٍ
بَاتَتْ تَبَاشِرُ عُرْمًا غَيْرِ
أَزْوَاجِ

والعُرم التي عني: بيض القطا، لأنها منقطة، وقال الأخطل:
ولم يشفها قتلى عني ولا جسر

شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ
كَبَيْضِ الْقَطَا لَيْسُوا بَسْوِدٍ وَلَا حُمْرٍ

وَلَا جُشَمٍ شَرِّ الْقَبَائِلِ إِنْهُمْ

وقال معقل بن خويلد:

أَبَا مَعْقِلٍ لَا تُوَطِّنْكُمْ
رُؤُوسَ الْأَفَاعِي فِي

بَغَاضَتِي

مَرَاصِدِهَا الْعُرْمِ

يريد: الأفاعي العُرْمِ في مراصدها، وهي منقطة الظهر، وما أكثر ما تبيض العقاب ثلاث بيضات، إلا أنها لا تلحم ثلاثة، بل تخرج منهن واحدة، وربما باضت الحمامة ثلاث بيضات، إلا أن واحدة تفسد لا محالة، وقال الآخر في صفة البيض:

وبيضاء لا تتحاش منّا
وأمها
إذا ما رأتنا زال منها
زويلها

نتوج ولم تُقرِف لِمَا
يُمتنى له
إذا أنتجت ماتت وحي
سليها

يعني البيضة، نتوج، حامل: ولم تُقرِف: لم تُدان، لما يُمتنى: أي للضراب، والامتناء: انتظارك الناقة إذا ضربت الأقرح هي أم لا.

وقال ابن أحرر:

بتيها قفر
والمطي كأنها
قطا الحزن قد كانت
فراخاً بيوضها

وذلك أنها قد كانت قبل ذلك الوقت تشرب من العُدر، فلما
أفرخت صافت، فاحتاجت إلى طلب الماء من مكان بعيد، فذلك
أسرع لها.

تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة

ويشبه مشي المرأة إذا كانت سمينة غير خراجة طوافة بمشي
القطاة في القرمطة والدلّ، وقال ابن ميادة:

قامت تريك قواماً
غير ذي أودِ

إذا الطوال سدّونَ
المشي في خطلٍ

تهدي سُروب قطاً
يشربن بالثمدِ

تمشي ككدرية في
الجوّ فاردة

وقال جرّان العود:

فلما رأين الصُّبحِ بادرنَ ضوءَ هُرْسِيمِ قُطا البطحاءِ أو هُنَّ
أَقْطَفُ

وقال الكميّ:

قَبُّ البُطُونِ رَوَاجِحُ
الأَكْفَالِ

يَمْشِينَ مَشْيَ قَطَا
البِطَاحِ تَأُوداً

شعر في التشبيه بالقطة

وقال الآخر في غير هذا المعنى:

بَلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ
يُرَاحُ

كَأَنَّ القَلْبَ أَيْلَةَ قِيلَ
يُغْدَى

تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ
الجَنَاحُ

قَطَاةً عَرَّهَا شَرَكَ
فَبَاتَتْ

وقال آخر:

لَدَى حَفْصِ عَيْشٍ وَنِقِ
مُورِقِ رَعْدِ

وَكَأَنَّ كَزُوجٍ مِنْ قَطَاً
بِمَفَازَةٍ

وَلَمْ تَرَ عَيْنِي قَطَّ أَقْبَحَ
مِنْ فَرْدِ

فَحَانَهُمَا رَيْبُ
الزَّمَنِ فَأَفْرِدَا

شعر في صدق القطة

وفي صدق القطاة يقولُ الشاعر:

طُروِقاً وِباقي الليل في الأرض مُسَدِّفِ

أدى من قِلاص كالحنيِّ المُعَطَّفِ

وتقول العرب: لو تُرِكَ القِطَا لنام، ويقال: أَعَشَشْتُ القوم إِعشاشاً: إِذا نزلتَ بهم وهم كارهون لك فتحولوا عن منزلهم. وقال الكميّ:

إِذْ كُلُّ ذِي نِسْبَةٍ لَا
بَدَّ يَنْتَحِلُ

لَا تَكْذِبُ القَوْلَ إِذْ قَالَتْ
قَطَا صَدَقَتْ

وقال مُزاحِمُ العُقَيْلِيِّ في تجاوب القِطَا وفرخِها:

بِمِثْلِ الذِي قَالَتْ لَهُ
لَمْ يُبَدَّلِ

فَنَادَتْ وَنَادَاهَا وَمَا
أَعْوَجَّ صَدْرُهَا

والقطاة لم تُرد اسمَ نَفْسِها، ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها، وزاد في ذلك أنها على أبنية كلام العرب، فجعلوها صادقةً ومُخبرةً، ومُريدةً وقاصدةً. استطراد لغوي ويقال سِرْبُ نساءٍ، وسِرْبُ قِطَا، وسِرْبُ ظباءٍ،

كل ذلك بكسر السين وإسكان الراء، فإذا كان من الطريق
والمذهب قالوا: حَلَّ سَرَبُهُ، و: فلانٌ حَلِيَّ السَّرْبِ؛ بفتح السين
وإسكان الراء، وهذا عن يونس بن حبيب، وقال الشاعر:

نعتاً يوافقُ نَعْتِي
بعضَ ما فيها

أما القِطَاةُ فَإِنِّي سَوْفَ
أُنْعَتُهَا

سُوْدٌ قوادِمها صُهْبٌ
خِواْفِها

سَكاءٌ مَخْطُوفَةٌ فِي
رِيشِها طَرَقٌ

ويقال في ريشها فَتَحَ، وهو اللَّيْنُ، ويقال في جناحه طَرَقَ: إذا
غَطَى الرِّيشُ الأَعْلَى الأَسْفَلَ، وقال ذو الرُّمَّة:

نَدَى لَيْلِها فِي رِيشِها
يَتَرَفَّرَقُ

طِراقُ الخِواْفِ واقِعٌ
فِوقَ رِيعَةٍ

ويقال: اطَّرَقَتِ الأَرْضُ: إذا رَكِبَ التِّرابُ بَعْضُهُ بَعْضاً، ولزِمَ
بَعْضُهُ بَعْضاً، فَصار كَطِراقِ النِّعالِ طَبَقاً، وقال العجاج:

فاطَّرَقَتْ إِلا ثَلاتاً دُخَسا

والطَّرْق، بإسكان الراء: الضرب بالحصى، وهو من فعال
الحزاة والعائفين: وقال لبيد، أو البعيث:

ولا زاجرات الطير ما
الله صانع

لعمرك ما تدري
الطوارق بالحصى

قال: ويقال طرقت القطة ببيضها: إذا حان خروجه وتعصت به
شيئاً، قال أبو عبيد ولا يقال ذلك في غير القطة، وعره قول
العبدى:

نسيماً كأفحوص
القطة المطرق

وقد تخذت رجلي لدى
جنب غرزها

وهذا الشاعر لم يقل إن التطريق لا يكون إلا للقطة، بل يكون
لكل بياضة، ولكل ذات ولد، وكيف يقول ذلك وهم يرؤون عن
قابلة البادية أنها قالت لجارية تسمى سحابة، وقد ضربها
المخاض وهي تطلق على يدها:

وطرقي بخصية وأير

أيا سحاب طرقي بخير

ولا ترينا طرف البظير

وقال أوسُ بنُ حجر:

مولية، ربها مسبطرُ بكلِّ مكان تری شطبةً

رُ وفي ضبته ثعلبٌ منكسرٌ وأحمرٌ جعداً عليه النسو

ة تشهق حيناً وحيناً تَهْرُوفي صدره مثلُ جيب الفتا

على مثلِ ما بيننا ناتمرُ

فإننا

وإخوتنا عامراً

كما طرقتُ بنفاسِ بكَرٍ

لنا

صرخةٌ ثم إسكاته

فهذا كما ترى يردُّ عليه.

ولادة البكر وإنما ذكر أوسُ بن حجرٍ البكرَ دون غيرها، لأن

الولاد على البكر أشدَّ، وخروج الولدٍ أعسر، والمخرج أكرَّ

وأضيق، ولولا أن البكر أكثر ما تلدُ أصغرُ جثةً وألطفُ جسماً،

إلى أن تتسع الرحم بتمطّي الأولاد فيها لكان أعسر وأشقّ.

أجود قصيدة في القطا

وقال المرّار، أو العكبُّ التغلبي، وهي أجود قصيدة قيلت في
القطا:

ترى الفرخ في حافاتها يتحرقُ

ب

لأدّ مروراً يحارُّ بها القطا

يتيمُّ جفا عنه مواليه مُطرقُ

ي

ظلُّ بها فرخ القطاة كأنه

على موته تغضى مراراً وثرمقُ

ب

ديمومة قد مات فيها وعينه

يواريه قيضٌ حوله متفلقُ

شبيهة بلا شيء هنالك شخصه

وشدقٌ بمثل الزعفرانِ مخلقُ

ل

ه محجّر ناب وعينٌ مريضةٌ

لها ذنبٌ وحفٌ وجيدٌ مطوقٌ

ت

عاجيه كحلأء المدامع حرة

سُكاكيةٌ غبراءُ سمراءُ عسلقُ

سِماكيةٌ كدريةٌ عُرْغريةٌ

كفاها رداياها النجاء الهبنقُ

إ

ا غادرته تبتغي ما يُعيشه

مَسيرةٌ شَهْرٌ للقطا، متعلِّقُ

ع

دت تستقي من منهل ليس دونه

تلظى سَمُوماً قيظه، فهو أوركُ

أ

زَعَبٌ مطروحٌ، بجوزِ تَنُوفةِ

من الحرّ عن أوصاله يتمزقُ

ت

راه إذا أمسى وقد كاد جلده

بها حين يزهاها الجناحانِ أولقُ

غ

دت فاستقلّت ثم ولّت مُغيرةً

دعاميصه فالماء أطحلُ أوركُ

ت

يممُ ضحاضاحاً من الماء قد بدتُ

تغوّثَ مخنوقٍ فيطفو ويغرقُ

فل

ما أتته مقذ حراً تغوّثتُ

من الحنظلِ العاميّ جرّو مُقلّقُ

ت

حيرُ وتلقِي في سقاء كأنه

أناةٌ وقد كادتُ من الري تبصقُ

فل

ما ارتوتُ من مائه لم يكُن لها

وطارت كما طار السحابُ المحلقُ

ط

مت طموة صُعداً ومدَّت جرائها

شعر البعيث في القطا

وقال البعيث:

هُوي القطا تعرُّ المناهلَ جُونها

ن

جت بطوات كأنَّ نجاءها

لوردِ المياهِ واستتبت قرونها

طوين سقاءِ الخمسِ ثُمَّت قلصت

بَلَّنْ أَدَاوِي لَيْسَ خَرَزُ يَشِينُهَا

إ

ذَا مَا وَرَدَنَّ الْمَاءَ فِي غَلَسِ الضُّحَى

إِلَى تُغْرِ اللَّبَاتِ مِنْهَا حَصِينَهَا

أ

دَاوِي خَفِيفَاتِ الْمَحَامِلِ أَشْنَقْتُ

إِلَى عُصِصٍ قَدْ ضَاقَ عَنْهَا وَتِينَهَا

جَعَلَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ حَمَلْنَهُ

هَذَا لَيْلُهُ وَالرِّيحُ تَجْرِي فُنُونُهَا

إ

ذَا شَنَّ أَنْ يَسْمَعَنَّ وَاللَّيْلُ وَاضِعٌ

وَمِيَّةُ الْخَرِشَاءِ حَيٌّ جَنِينُهَا

ت

نَاوَمَ سَرَبٌ فِي أَفَاحِيصِهِ السِّفَا

بقايا أفاني الصيف، حُمراً بطونها

ي

رَوِّين زغباً بالفلاة كأنها

يروِّين من قولك: روَّيت: أي حملت في رواية.

فلا تُعكِّم الأخرى ولا
تستعينها

إذا ملأت منها قطة
سقاءها

ذكر نوادر وأحاديث وأشعار وكلام يتمُّ بها هذا الجزء قالوا:
خرف النَّمْرُ بن تولب، فكان هَجِّيراه: اصْبَحُوا الرُّكْب، اغْبِقُوا
الرُّكْب.

وخرِفت امرأةٌ من العرب فكان هَجِّيراه: زَوَّجوني، زَوَّجوني
فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لَمَّا لهج به أخو عُكْل
خيرٌ مما لهجت به صاحبتكم.

وحدثني عبد الله بن إبراهيم بن قدامة الجمحي قال: كان عمر
بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى رجلاً يَضْرِبُ في كلامه قال:
أشهد أن الذي خَلَقَكَ وخلقَ عمرو بن العاص واحد.
وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه لصعصعة بن صُوحان
في المنذر بن الجارود: ما وجدنا عند صاحبك شيئاً قال: إن

قلتَ ذاكَ إنه لنظَّارٌ في عِطْفِيهِ، تَقَالُ في شِرَاكِيهِ، تُعْجِبُهُ حُمْرَةُ
بِرْدِيهِ. قال: وحدَّثنا جَرِيرُ بنُ حازِمِ القَطْعِيِّ قال: قال الحسن:
لو كان الرُّجُلُ كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن، لأوشك أن
يُجَنَّ من العُجْبِ.

عن أبان بن عثمان قال: سمعتُ أبا بلال في جنازةٍ وهو يقول:
كلُّ مَيْتَةٍ ظَنُونٌ إلا مَيْتَةَ الشَّرِّجَاءِ قالوا: وما مَيْتَةُ الشَّرِّجَاءِ؟ قال:
أخذها زيادٌ فقطع يديها ورجليها، فقيل لها: كيف تَرَيْنَ يا
شَرِّجَاءِ؟ فقالت: قد شغلني هَوْلُ المَطَّلَعِ عن بَرْدِ حَدِيدِكُمْ هذا.
قال: وقيل لرابعة القيسيَّة: لو أدنيتِ لنا كلَّ مَنَّا قومك فجمَعوا لك
ثمن خادم، وكان لك في ذلك مَرَقْفَقٌ وكفَّتِكِ الخدْمَةُ وتفرَّغت
للعبادة، فقالت والله ّ إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملك
الدنيا، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكها؟.

والناسكات المتزهديات من النساء المذكورات في الزُّهد
والرياسة، من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن نساء
الجماعة: أمُّ الدرداء، ومُعَاذَةُ العَدْوِيَّة، ورابعة القيسيَّة.
ومن نساء الخوارج: الشَّجَاءِ، وحمادة الصُّفْريَّة وغازلة
الشَّيبانيَّة قُتِلْنَ جميعاً، وصُلِبَتِ الشَّجَاءِ وحمادة، قتل خالد بن
عَتَّابِ عَزَّالَةَ، وكانت امرأةَ صالح بن مُسَرِّحِ.
ومن نساء الغالية: الميلاء، وحميدة، وليلى الناعظية.

محمد بن سلام عن ابن جُعدبة قال: ما أبرم عُمر بن الخطاب
أمراً قط إلا تمثّل ببيت شعر.

وعن أبان بن عثمان، قال عبد الملك: لقد كنت أمشي في الزَّرْع
فأتّقي الجُنْدَبَ أن أقتله، وإن الحجاج ليكتب إليّ في قتل فئامٍ من
الناس؛ فما أحفلُ بذلك.

وقيل له وقد أمر بضرب أعناق الأسراء: أقتك الخلافة يا أمير
المؤمنين، وقد كنت رؤوفاً قال: كلا، ما أقتني، ولكن أقتني
احتمال الضغن على الضغن.

قالوا: ومات يونسُ النحويُّ سنة اثنتين وثمانين ومائة هو ابن
ثمان وثمانين سنة، وقال يونس: ما أكلت شيئاً قط في الشتاء
إلا وقد برّد، ولا في الصيف إلا وقد سخن.

وحدثني محمد بن يسير قال: قال أبو عمرو المدايني: لو كانت
البلايا بالحصص ما ناني كل ما ناني: اختلفت جاريتي بالشاة
إلى التّياس وبي إلى حملها حاجة، فرجعت جاريتي حاملاً،
والشاة حائلاً.

محمد بن القاسم قال: قال جرير: أنا لا أبتدي، ولكني أعتدي.
وقال القيني: أنا مثل العقرب، أضرب ولا أنفع.
وقال القيني: أنا أصدق في صغار ما يضرّني، لأكذب في كبار
ما ينفعني.

قال أبو إسحاق: استراح فلانٌ من حيث تعبَ الكرامِ.
وقال الحجاج: أنا حديدٌ حقودٌ حسودٌ.
وحدثني نُفيع قال: قال لي القيني: أنا لا أصدق مادام كذبي
يخفي.
قال: وذكر شبيب بن شيبَةَ عند خالد بن صفوان فقال خالد:
ليس له صديق في السر، ولا عدوٌّ في العلانية.
وقال أبو نخيلة في شبيب بن شيبَةَ:

على فتاها وعلى
خطيبها

إذا غَدَتْ سعدٌ على
شبيبها

عجبتَ من كثرتها
وطيبها

من مطلع الشمس إلى
مغيبها

وقال يحيى بن أبي علي الكرخي: أنا إنسان لا أبالي ما استقبلت
به الأحرار.

وقال عمرو بن القاسم: إنما قويت على خصمي بأني لم أتستز
قطُّ عن شيء من القبيح فقال أبو إسحاق: نلت اللذة، وهتكت
المروءة، وغلبتك النفس الدنية، فأرتك مكروهَ عمك محجوباً
وشيء قولك حسناً، ومن كان على هذا السبيل لم يتلفت إلى

خير يكون منه، ولم يكثرثُ بشرٍ يفعله.
وقال الفرزدق:

وكان يُجِيرُ الناسَ من
سيفِ مالكٍ
فأصبح يبغِي نفسه
من يُجِيرُها

ومن هذا الباب قول التوت اليماني:

عَلَى أَيِّ بابٍ أَطْلُبُ
الإذنَ بعد ما
حُجِبْتُ عن البابِ الذي
أنا حاجِبُه

ومن هذا الشكل قولُ عديِّ بن زيد:

لو بغيرِ الماءِ
حَلَقِي شَرِقُ
كنتُ كَالغَصَّانِ بالماءِ
اعتصاري

وقال زهير:

فلما وَرَدَنَ الماءَ زُرْقاً
جمامه
وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ
المتخيم

وكتب سُويد بن منجوف إلى مُصعب بن الزبير:

وهل يُلقى النصيح بكل
وادٍ

فأبلغ مُصعباً عني
رسولاً

وإن ضحكوا إليك هم
الأعداي

تعلم أن أكثر من
تواخي

وحدثني إبراهيم بن عبد الوهاب، قال: كتب شيخٌ من أهل الريّ
على باب داره: جزي الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً، فأما
أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهمُ الله خيراً، فإننا لم نُؤت قطّ إلا منهم
وأنشدني النهشليُّ لأعرابي يصف نخلاً:

كأن جاني بيض النخل
جانيها

تري مخارفها ثنيي
جوانبها

ووصف آخر نخلاً فقال:

إذا علا قمتها الراقي أهلّ

وقال الشاعر:

عن الأعداء يغبهُ

ومن تقلل حلوبته

وَيَنْكُلُ

الْقَرَاخُ

رَأَيْتُ مَعَاشِرًا يُنْتَى
عَلَيْهِمْ

إِذَا شَبِعُوا وَأَوْجَهُهُمْ
قَبَاحُ

ظَلُّ الْمَصْرُمُونَ لَهُمْ
سُجُوداً

وَإِنْ لَمْ يُسَقَّ عِنْدَهُمْ
ضَيَاحُ

وقال الشاعر:

البائتين قريباً من
بيوتهم

ولو يشاؤون آيبوا الحيّ
أو طرّقوا

يقول: لَرَغْبَتِهِ فِي الْقَرَى، وَفِي طَعَامِ النَّاسِ، يَبِيتُ بِهِمْ، وَيَدْعُ
أَهْلَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَبِيتَ عِنْدَهُمْ لَفَعَلَ.
وقال آخر، يمدحُ ضدَّ هؤلاء:

تَقْرِي قَدُورَهُمْ سُرَاءً
لِيْلَهُمْ

ولا يبيتون دون الحيّ
أضيافاً

وقال جرير:

عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا
يَرَى لِيَا

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي أَخِي
أَنْ أَرَى لَهُ

قال: أستحيي أن يكون له عندي يدٌ ولا يرى لي عنده مثلها.
وقال امرؤ القيس:

قَلِيلُ الْهَمُومِ مَا يَبِيتُ
بِأَوْجَالِ

وَهَلْ يَنْعَمَنَّ إِلَّا خَلِيٌّ
مَنْعَمٌ

قال: وهو كقوله: استراح من لا عقل له، وأنشد مع هذا البيت
قول عمر بن أبي ربيعة، ويحكى أن المنصور كان يعجبه
النصف الأخير من البيت الثاني جداً، ويتمثل به كثيراً، حتي
انتقده بعض من قضى به عليه أن المعنى قدّمه دهرًا، وكان
استحسانه عن فضل معرفته بإحقاقه فيه، وصواب قوله:

وَرِيَانٌ مُلْتَفٌّ الْحَدَائِقِ
أَحْضَرُ

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا
ظِلُّ عُرْفَةٍ

فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرُ
الدَّهْرِ تَسْهَرُ

وَوَالِ كَفَاها كُلَّ شَيْءٍ
يَهْمُهَا

وأنشد:

وقوفاً بأيديهم مسوكُ
الأرانب

إذا ابتدرَ الناسُ
المعالي رأيتهم

هجاهم بأنهم إنما يعيشون من الصيد، وأنشد:

أقاموا رُتوباً في
النُّهوجِ المهاجمِ

إذا ابتدرَ الناسُ
المكارمَ والعُلا

يُخبر أنهم يسألون الناس، والنهج واللهجم: الطريق الواسع.
وقال الآخر:

ثلاثٌ وإن يكثرنَ يوماً
فأربُعُ

لنا إبلٌ يروين يوماً
عِيالنا

ولكنْ إذا ما قلَّ شيءٌ
يوسَعُ

نمدهمُ بالماءِ لا مِنْ
هوائِهِمُ

وقال الآخر:

رمى بالمقادي كلُّ

من المُهدياتِ الماءَ

بالماء بعدما

قَادٍ وَمُعْتَمٍ

وقال الآخر:

وداع دعا والليلُ مُرَخٍ
سُدُوْلَهُ

رجاءَ القَرَى يا مُسَلِّمَ
بنِ حِمَارِ

دَعَا جُعَلًا لَا يَهْتَدِي
لِمَبِيْتِهِ

من اللوم حتى يهتدي
ابنُوبارِ

وقال الحسن بن هانئ:

أضمرتُ للنَّيْلِ هَجْراناً
ومَقْلِيَّةً

إذ قيل لي إنما
التَّمْساحُ في النَّيْلِ

فمن رأى النَّيْلَ رَأَى
العَيْنِ من كَثَبِ

فما أرى النَّيْلَ إلا في
البواقيلِ

وقال ابن ميادة:

أتيتُ ابنَ قَشْرَاءِ
العِجانِ فلم أَجِدْ

لدى بابِهِ إِذْنا يَسِيرًا
ولا نُزْلاً

فإن الذي ولّاك أمرَ
جماعةٍ

ومن هذا الباب قوله:

إني رأيت أبا العوراء
مُرتفقاً

كثيرة الخيل تبقى
عند مدودها

هذي مساعيك في
آثارِ سادتنا

ومن هذا الباب قوله:

ورثنا المجدَ عن آباء
صدق

إذا المجدُ الرفيعُ
تعاورته

لأنقصُ من يمشي
على قدمِ عقلا

بشطِ دجلةٍ يشري التمر
والسمكا

والموتُ أعلمُ إذ قفى
بمن تركا

ومن تكنُ أنتِ ساعيه
فقد هلكا

أسأنا في ديارهم
الصنيعا

وُلَاةُ السُّوءِ أوشكُ أن
يضيعا

وقال جِران العَوْدِ:

إذا ما بَدَا في دُجِيَةِ الليلِ
يَطرِفُ

أراقِبُ لِمَحاً من
سُهَيْلِ كَأَنه

وقال:

إذا لم يرَعِه الماءُ
ساعةً يُنضَحُ

ولم أجدِ الموقودُ
تُرَجى حَيَاتُه

وكان أبو عبادِ النُّميريُّ أتى باب بعض العمال، يسأله شيئاً من عمل السلطان، فبعثه إلى أُسْتَقَانَا فسرقوا كل شيء في البَيْدر وهو لا يشعر، فعاتبه في ذلك، فكتب إليه أبو عباد:

كَيِّ والطيرِ العظاما

كنتُ بازاً أُضربُ
الكَرَّ

عَو فأوهنتَ القَدَامِي

فتقتصتَ بي الصَّ

زِي عَلى الصَّغو تَعَامِي

وإذا ما أرسلَ البَا

أراد قول أبي النجم في الراعي:

يمرُّ بين الغانيات
الجهلِّ

كالصقر يجفو عن طرادِ
الدُّخْلِ

وبات أبو عبّادٍ مع أبي بكر الغفاريّ، في ليالي شهر رمضان،
في المسجد الأعظم، فدبّ إليه، وأنشأ يقول:

يا ليلة لي بتّ ألهُو
بها

مع الغفاريّ أبي بكرِ

قمتُ إليه بعد ما قد
مضى

تَلَّثَّ من الليل على
قَدْرِ

في للة القدرِ فيا مَنْ
رأى

أدبَّ منِّي ليلة القَدْرِ

ما قام حَمْدانُ أبو بكرِ

إلا وقد أفزَعَهُ
نَخْرِي

وقال في قلبانِ صديقته:

لشِقائِي وقد طَعَّتْ

إنَّ قلبانَ قد بَعَّتْ

وَإِذَا لَمْ تُنَكِّ بِأَيِّ

رِ عَظِيمِ الْقَوَى بَكَتْ

وَقَالَ مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
رَحَلْتُهَا

تَثِيرُ الْقَطَا لَيْلًا وَهَنَّ
هُجُودُ

لَدَى كُلِّ قَرْمُوصٍ كَأَنَّ
فِرَاحَةَ

كُلِّي غَيْرِ أَنْ كَانَتْ لَهَنَّ
جُلُودُ

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ، وَاسْمُهُ ظَالِمُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ سَفْيَانَ:

أَمِنْتَ عَلَى السَّرِّ امْرَأً
غَيْرَ كَاتِمٍ

وَلَكِنَّهُ فِي النَّصِيحِ
غَيْرُ مُرِيبٍ

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى
كَانَهُ

بَعْلِيَاءَ نَارًا أَوْقَدْتَ
بِثَقُوبٍ

وَكُنْتَ مَتَى لَمْ تَرَعْ
سِرَّكَ تَنْتَشِرُ

قَوَارِعُهُ مِنْ مَخْطِئِ
وَمُصِيبِ

وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمَوْتِكَ

وَمَا كُلُّ مَوْتٍ نَصَحَهُ

نُصَحَهُ

بِبَابِ

ولكن إذا ما استَجْمعا
عند واحدٍ

فحقّ له مِنْ طاعةٍ
بِنَصِيبِ

وقال أيضاً:

عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذَ النِّصْفَ وَاغْضَبِ

مَقَالَتَهُمْ وَأَشْغِبْ بِهِمْ كُلَّ مَشْغَبِ

جَلُوبٍ عَلَيْكَ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ مَجْلَبِ

لَيْسْتُمْ سَكُونُ مِمَّا وَرَاءَكَ فَاحْدَبِ

بِهَا كُنْتُ أَقْضِي لِلْبَعِيدِ عَلَى أَبِي

مَعَادِي وَقَدْ جَرَّبْتُ مَا لَمْ تَجْرِبِ

وقال مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ:

إِنِّي إِذَا الْأَصْوَاتُ فِي

الْقَوْمِ عَلَّتْ

فِي مَوْطِنٍ يَخْشَى بِهِ

الْقَوْمُ الْعَنْتُ

مُوطِنٌ نَفْسِي عَلَى مَا
خَيَّلْتُ

بِالصَّبْرِ حَتَّى تَنْجَلِي
عَمَّا انْجَلَتْ

وقال الكميت:

وَبِيضِ رِقَاقٍ خَفَافِ
الْمُتُونِ

تَسْمَعُ لِلْبَيْضِ مِنْهَا
صَرِيرًا

تُشَبَّهُ فِي الْهَامِ
آثَارُهَا

مَشَافِرِ قَرْحَى أَكْلَنِ
الْبَرِيرَا

وَأُنشِدُنِي أَبُو عبيدة:

نُصِبِحُهَا قَيْسًا بِلَا
اسْتِبْقَائِهَا

صَفَائِحًا فِيهَا فُضُولُ
مَائِهَا

مَنْ كُلَّ عَضْبٍ عَلَّ مِنْ
دِمَائِهَا

إِذَا عَلَا الْبَيْضَةُ فِي
اسْتَوَائِهَا

رَوْنَقَهُ أَوْقَدَ فِي
حِرْبَائِهَا

نَارًا وَقَدْ أَمْخَضَ مِنْ
وَرَائِهَا

وأنشدني لرَجُلٍ من طيئ:

منهم إذا كان الرماحُ
كسراً

لم أرَ فتیانَ صباحٍ
أصبراً

لا يشتهون الأجل
المؤخراً

سفعَ الحدودِ دُرْعاً
وحُسراً

وقال ابن مفرّج:

إن حادتِ الأبطالُ لا
تحيدُ

قُبُّ البطونِ والهوادي
قودُ

كأنما يعلمن ما نُريدُ

إذا رجعناهُنَّ قالت
عودوا

ومن المجهولات:

عليك سلام

عهدتك من

فقد هجّت لي شوقاً قديماً وما تدري

صُرُوفَ النَّوَى تُبلي مغانيك في شهر

الخريمي أبو يعقوب:

لعمرك ما أخلقتُ وجهاً
بذلتُه

أي لا أعيرُ لقصديك.

إليك ولا عرّضته
للمعايرِ

فتى وفرتُ أيدي
المحامدِ عرضَه

عليه وختتُ ماله
غيرَ وافرِ

وقال مطيعُ بنُ إياسٍ:

قد كَلَفْتَنِي طَوِيلَةَ
العُنُقِ

وَحُبُّ طَوْلِ الأَعْنَاقِ مِنْ
خُلُقِي

أَقْلَقُ مِنْ بَعْدِهَا فَإِنْ
قَرَبْتُ

فالقَرَبُ أيضاً يَزِيدُ فِي
قَلْقِي

وقال سهلُ بنُ هارونَ:

إذا امرؤُ ضاقَ عَنِّي لم
يَضِقْ خُلُقِي

مَنْ أَنْ يَرَانِي عَنِيّاً
عنه بالياسِ

ولا يراني إذا لم يَزَعْ

مُسْتَمْرِيّاً دِرَراً مِنْهُ

أَصْرَتِي

لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أَغْنِي
بِفَضْلَتِهِ

وقال ليحيى بن خالد:

عَدَّ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا
يُنُوبُهُ

فَسَيَّانَ حَالَاهُ لَهُ فَضْلُ
مَنْعِهِ

مِثْلُ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ
غَيْرَ أَنْ تَرَى

وقال أبو الأسود لزياد:

لَعَمْرُكَ مَا حَشَاكَ اللَّهُ
رُوحاً

وَلَكِنَّ أَنْتَ لَا شَرِسٌ

بِإِسْأَسِ

مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا
إِلَى النَّاسِ

مَنْوعٌ إِذَا مَا مَنْعُهُ كَانَ
أَحْزَمًا

كَمَا يَسْتَحِقُّ الْفَضْلَ إِنْ
هُوَ أَنْعَمًا

مَكَارَهُ مَا تَأْتِي مِنْ
الْحَقِّ مَغْنَمًا

بِهِ جَشَعٌ وَلَا نَفْسًا
شَرِيرَةً

وَلَا هَشٌّ تَنَازَعُهُ

غليظ

خؤوره

كانا إذ أتيناها نزلنا

بجانِبِ رَوْضَةٍ رِيًّا
مَطِيرَةً

الكتاب السادس عشر

الخطوط ومرافقها

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

مقياس قدر الحيوان

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

شواهد هذا الكتاب

العلة في عدم أفراد باب للسمك

فصيحة الضب

الحشرات

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

ما هو أهلي صرف أو وحشي صرف من الحيوانات

معرفة العرب للآثار والأنواء والنجوم

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

ما يجب في التعليم

الدساس وعلة اختصاصه بالذكر

الشك واليقين

الضب

جر الضب وما قيل فيه من الشعر

الموضع الذي يختاره الضب لجره

شعر في حزم الضب واليربوع

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

شعر في أكل الضبّ ولدّه

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الضبة أولادها

في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

مثل في الحية

حُتوف الحيات

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

فيمين استطاب لحم الضب ومن عافه

في حل الضب واستطابته

شعر في الضب

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

مفاخرة العث للضب

القول في سن الضب وعُمره

بيض الضب

سنّ الضب

قصة في عمر الضب

مكن الضبة

عداوة الضبة للحية

ذكر الشعراء للضب في وصف الصيف

أسطورة الضب والضفدع

قول العرب أروى من الضب

إخراج الضب من جحره

الضب والضفدع والسمة

الضب وشدة الحر

أمثال في الضب

حديث أبي عمرة الأنصاري

دية الضب واليربوع

مسح الضبّ وسهيل

الخطوط ومرافقها

بسم الله والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اللهم جنبنا فضول القول، بما عندنا، ولا تجعلنا من المتكافين. قد قلنا في الخطوط ومرافقها، وفي عموم منافعها، وكيف كانت الحاجة إلى استخراجها، وكيف اختلفت صورها على قدر اختلاف طبائع أهلها، وكيف كانت ضرورتهم إلى وضعها، وكيف كانت تكون الهلة عند فقدها.

وقلنا في العقد ولم تكلفوه، وفي الإشارة ولم اجتلبوها، ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان، حتى سموه بالبيان. ولم قالوا: القلم أحد اللسانين، والعين أنم من اللسان. وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه، وشدة الحاجة إليه، وكيف صار أعم نفعاً، ولجميع هذه الأشكال أصلاً، وصار هو المشتق منه، والمحمول عليه، وكيف جعلنا

الأجسام الصامتة نطقاً والبرهان الذي في الأجرام
الجامدة بياناً.

وذكرنا جملة القول في الكلب والديك في الجزأين
الأوليين، وذكرنا جملة القول في الحمام، وفي الدبّان، و
في الغربان، وفي الخنافس، وفي الجعلان، إلا ما بقي من
فضل القول فيهما، فإننا قد أحرنا ذلك، لدخوله في باب
الحشرات، وصواب موقعهما في باب القول في الهمج -
في الجزء الثالث.

وإذا سمعت ما أودعها الله تعالى من عظيم الصنعة، وما
فطرها الله تعالى عليه من غريب المعرفة، وما أجرى
بأسبابها من المنافع الكثيرة، والمحن العظيمة، وما جعل
فيها من الداء والدواء - أجلتها أن تسميها همجاً،
وأكبرت الصنف الآخر أن تسميه حشرة، وعلمت أن
أقدار الحيوان ليست على قدر الاستحسان، ولا على
أقدار الأثمان.

وذكرنا جملة القول في الدرة والنملة، وفي القرد
والخنزير، وفي الحيات والنعام، وبعض القول في النار
في الجزء الرابع.

والنار - حفظك الله - وإن لم تكن من الحيوان، فقد كان

جرى من السَّبب المتَّصل بذكرها، ومن القول المضمَر
بما فيها، ما أوجِبَ ذِكْرُها والإخبار عن جملة القول فيها.
وقد ذكرنا بقيَّة القول في النَّارِ، ثمَّ جملة القول في
العصافير، ثمَّ جملة القول في الجرذان والسَّنائير
والعقارب، ولجَمع هذه الأجناس في باب واحد سببٌ
سيعرفه من قرأه، ويتبيَّن من رآه.

ثمَّ القول في القمل والبراغيث والبعوض، ثمَّ القول في
العنكبوت والنَّحل، ثمَّ القول في الحُبَّارى. ثمَّ القول في
الضَّانِّ والمعز، ثمَّ القول في الضفادع والجراد، ثمَّ القول
في القطا. الإطناب والإيجاز

وقد بقيت - أبقاك الله تعالى - أبوابٌ توجب الإطالة،
وتُحوج إلى الإطناب، وليس بإطالةٍ ما لم يُجاوزَ مقدَّارَ
الحاجة، ووقف عند منتهى البغية.
وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرُها لكثيرها،
وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها،
والمعاني المفردة، البائنة بصُورها ووجهاتها، تحتاج
من الألفاظ إلى أقلِّ مما تحتاج إليه المعاني المشتركة،
والجهاتُ الملتبسة.

ولو جَهِدَ جميعُ أهلِ البلاغةِ أن يُخبروا من دونهم عن هذه المعاني، بكلامٍ وجيزٍ يُغني عن التفسير باللسان، والإشارة باليد والرأس - لما قَدَرُوا عليه، وقد قال الأول: إذا لم يكن ما تُريدُ فأردُ ما يكون، وليس ينبغي للعاقل أن يسُوم اللُّغاتِ ما ليس في طاقتها، ويسومَ النفوسَ ما ليس في جبَّتِها، ولذلك صار يحتاجُ صاحبُ كتاب المنطق إلى أن يفسِّره لِمَنْ طُلبَ مِنْ قَبْلِهِ علم المنطق، وإن كان المتكلمُ رفيق اللِّسان، حسن البيان، إلاَّ أَنِّي لا أشكُّ على حالٍ أَنَّ النفوسَ إِذْ كانتْ إِلى الطَّرائفِ أَحَنَّ، وبالنفوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أميل، وبها أصبَّ - أَنَّها خليقةٌ لاستئصال الكثير، وإن استحققت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطَّويلُ أنفع، وذلك الكثيرُ أرد.

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

وسنبداً بعون الله تعالى وتأييده، بالقول في الحشرات والهمج، وصغار السباع، والمجهولات الخاملة الذكر من البهائم، ونجعل ذلك كله باباً واحداً، ونتكل، بعد صنْع الله تعالى، على أن ذلك الباب إِذْ كان أبواباً كثيرة، وأسماء مختلفة - أن القارئ لها لا يملُّ باباً حتَّى يخرجهُ الثَّاني

إلى خلافه، وكذلك يكون مقامُ الثالث من الرَّابع، والرَّابع من الخامس، والخامس من السَّادس،

مقياس قدر الحيوان

وليس الذي يُعتمد عليه من شأن الحيوان عِظم الجثة، ولا كثرة العدد، ولا ثقل الوزن! والغاية التي يُجرى إليها، والغرض الذي نرمي إليه غير ذلك، لأن خلق البعوضة وما فيها من عجب التركيب، ومن غريب العمل، كخلق الدَّرة وما فيها من عجب التركيب، ومن الأحاسيس الصَّادقة، والتدابير الحسنة، ومن الروية والنظر في العاقبة، والاختيار لكلِّ ما فيه صلاح المعيشة، ومع ما فيها من البرهانات النيرة، والحجج الظاهرة. وكذلك خلق السُّرفة وعجب تركيبها، وصنعة كفِّها، ونظرها في عواقب أمرها.

وكذا خلق النَّحلة مع ما فيها من غريب الحكم، وعجب التدبير، ومن التَّدبُّم فيما يُعيشها، والادخار ليوم العجز عن كسبها، وشمِّها ما لا يُشمُّ، ورويتها لما لا يرى، وحسن هدايتها، والتدبير في التأمير عليها، وطاعة ساداتها، وتقسيط أجناس الأعمال بينها، على أقدار

معارفها وقوة أبدانها.

فهذه النحلة، وإن كانت ذبابة، فانظر قبل كل شيء في ضروب انتفاع ضروب الناس فيها، فإنك تجدّها أكبر من الجبل الشامخ، والفضاء الواسع.

وكلُّ شيء وإن كان فيه من العجب العاجب، ومن البرهان النَّاصع، ما يوسِّع فكر العاقل، ويملاً صدر المفكّر، فإن بعض الأمور أكثرُ أعجوبة، وأظهر علامة، وكما تختلف برهاناتها في الغموض والظهور، فكذلك تختلف في طبقات الكثرة، وإن شملتها الكثرة، ووقع عليها اسم البرهان.

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

ولعلّ هذا الجزء الذي نبتدئ فيه بذكر ما في الحشرات والهمج، أن يفضل من ورقه شيء، فنرفعه ونتمّه بجملته القول في الظباء والذئاب، فإنهما بابان يقصران عن الطوال، ويزيدان على القصار.

وقد بقي من الأبواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة، التي قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظّ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظّ وهو القول في البقر،

والقولُ في الحمير، والقولُ في كِبَارِ السَّبَاعِ وأَشْرَافِهَا،
ورؤسائها، وذوي النَّبَاهَةِ منها، كالأسد والنمر، والببر
وأشباه ذلك، مما يجمعُ قوَّةَ أصل النَّابِ، والدَّربِ، وشَحْوِ
الفمِّ، والسَّبْعِيَّةِ وحِدَّةَ البرثنِ، وتمكُّنُهُ في العصبِ، وشِدَّةَ
القلبِ وصرامته عند الحاجة، ووثاقة خُلُقِ البدنِ، وقوَّته
على الوثبِ. وسنذكر تسالماً المتسالمَةِ منها، وتعادي
المتعادية منها، وما الذي أصلح بينها على السَّبْعِيَّةِ
الصَّرفِ، واستواءِ حالها في اقتياتِ اللُّحمانِ، حتَّى ربَّما
استوت فريستها في الجنسِ.

وقد شاهدنا غير هذه الأجناس يكون تعاديا من قبل هذه
الأمور التي ذكرناها، وليس فيما بين هذه السَّبَاعِ
بأعيانها تفاوتٌ في الشِدَّةِ، فتكون كالأسد الذي يطلب
الفهد ليأكله، والفهد لا يطعم فيه ولا يأكله، فوجدنا
التَّكافؤَ في القوَّةِ والآلةِ من أسباب التَّفاسُدِ، وإنَّ ذلك
ليعملُ في طباعِ عقلاءِ الإنسِ حتَّى يُخرجوا إلى تهاوُّشِ
السَّبَاعِ، فما بالها لم تعمل هذا العمل في أنفسِ السَّبَاعِ؟
وسنذكر علَّةَ التسالمِ وعلَّةَ التعادي، ولم تُطبعت رؤساءُ
السَّبَاعِ على الغفلةِ وبعض ما يدخلُ في بابِ الكرمِ، دون

صغار السَّبَاع وسفَلتِها، وحاشيتِها وحشُوها، وكذلك
أوساطِها، والمعدلة الآلة والأسر منها.

شواهد هذا الكتاب

ولم نذكر، بحمد الله تعالى، شيئاً من هذه الغرائب،
وطريقة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب
مُنزَل، أو حديثٍ مَأثور، أو خبرٍ مستفيض، أو شعرٍ
معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك ممّا يشهد عليه
الطبيب، ومن قد أكثر قراءة الكتب، أو بعض من قد
مارَس الأسفار، وركب البحار، وسكَن الصَّحاري
واستَدْرَى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في
بطون الأودية.

وقد رأينا أقواماً يدَّعون في كتبهم الغرائب الكثيرة،
والأمور البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءاتهم،
ويُعَرِّضون أقدارهم، ويسلِّطون السُّفهاء على أعراضهم،
ويجترون سوء الظنِّ إلى أخبارهم، ويحكِّمون حُساد
النَّعم في كتبهم، ويمكنون لهم من مقالاتهم، وبعضهم
يتكل على حُسن الظنِّ بهم، أو على التسليم لهم، والتقليد
لدعواهم، وأحسنهم حالاً من يُجبُّ أن يُتفضَّل عليه ببسط

العُدْر له، ويُتكَف الاحتجاجُ عنه، ولا يبالي أن يُمنَّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كُتبه.

ونحن حفظك الله تعالى، إذا استنطقنا الشَّاهد، وأحلنا على المثل، فالخصومة حينئذٍ إنما هي بينهم وبينها، إذ كُنَّا نحنُ لم نستشهد إلا بما ذكرنا، وفيما ذكرنا مقتع عند علمائنا، إلا أن يكون شيءٌ يثبت بالقياس، أو يبطل بالقياس، فواضع الكتاب ضامنٌ لتخليصه وتلخيصه، ولتشبيته وإظهار حجته.

فأمَّا الأبوابُ الكبارُ فمثلُ القولِ في الإبل، والقولِ في فضيلة الإنسان على جميع الحيوان، كفضل الحيوان على جميع النامي، وفضل النَّامي على جميع الجماد. وليس يدخلُ في هذا الباب القولُ فيما قسم الله، عزَّ وجلَّ، لبعض البقاع من التعظيم دون بعض، ولا فيما قسم من الساعات والليالي، والأيام والشهور وأشباه ذلك، لأنه معنًى يرجع إلى المختبرين بذلك، من الملائكة والجنِّ والأدميين.

فمن أبواب الكبار القول في فصل ما بين الذُّكورة والإناث، وفي فصل ما بين الرَّجُل والمرأة خاصة.

وقد يدخل في القول في الإنسان ذكر اختلاف الناس في الأعمار، وفي طول الأجسام، وفي مقادير العقول، وفي تفاضل الصناعات، وكيف قال من قال في تقديم الأول، وكيف قال من قال في تقديم الآخر.

فأما الأبوابُ الأخرى، كفضل الملك على الإنسان، وفضل الإنسان على الجان، وهي جملة القول في اختلاف جواهرهم، وفي أيّ موضع يتشاكلون، وفي أيّ موضع يختلفون؛ فإن هذه من الأبواب المعتدلة في القصر والطول. وليس من الأبواب باب إلا وقد يدخله نطف من أبوابٍ أُخرى على قدر ما يتعلّق بها من الأسباب، ويعرض فيه من التضمين، ولعلك أن تكون بها أشدّ انتفاعاً. وعلى أيّ ربما وشّخت هذا الكتاب وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام، وطرف أخبار، وغرر أشعار، مع طرف مضاحيك، ولولا الذي نحاول من استعطاف على استتمام انتفاعكم لقد كنّا تسخّفنا وسخّفنا شأن كتابنا هذا.

وإذا علم الله تعالى موقع النية، وجهة القصد، أعان على السلامة من كلّ مخوف.

العلة في عدم إفراد باب للسّمك

ولم نجعل لما يسكن المِلْحَ والعذوبة، والأنهارَ والأدوية،
والمناقع والمياه الجارية، من السّمك وممّا يخالف
السّمك، ممّا يعيش مع السمك - باباً مجرداً، لأنّي لم أجد
في أكثره شعراً يجمع الشّاهد ويوثق منه بحسنِ
الوصف، وينشّط بما فيه من غير ذلك للقراءة، ولم يكن
الشّاهد عليه إلاّ أخبار البحرّيين، وهم قومٌ لا يعدّون
القول في باب الفِعْل، وكلّما كان الخبرُ أغرب كانوا به
أشدّ عجباً، مع عبارة غثّة، ومخارج سَمِجَة.
وفيه عيبٌ آخر: وهو أنّ معه من الطّول والكثرة ما لا
تحتملونه، ولو غنّاكم بجميعه مُخارق، وضرب عليه
زُزل، وزمر به برصوماً، فلذلك لم أتعرض له.
وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس، ولم أجد في كتابه
على ذلك من الشّاهد إلاّ دغواه.

ولقد قلت لرجل من البحرّيين: زعم أرسطاطاليس أنّ
السّمكة لا تبتلع الطّعم أبداً إلاّ ومعه شيءٌ من ماء، مع
سعة المدخل، وشرّ النفس، فكان من جوابه أن قال لي:
ما يعلم هذا إلاّ مَنْ كان سمكة مرّة، أو أخبرته به سمكة،
أو حدّثه بذلك الحواريّون أصحاب عيسى، فإنهم كانوا

صيادين، وكانوا تلامذة المسيح.
وهذا البحريُّ صاحبُ كلام، وهو يتكلّف معرفة العِلل،
وهذا كان جوابه، ولكني لن أدع ذِكْرَ بعض ما وجدته في
الأشعار والأخبار، أو كان مشهوراً عند من ينزل
الأسيافَ وشطوط الأودية والأنهار، ويعرفه السّمّاكون،
ويُقَرُّ به الأطباء - بقدر ما أمكن من القول.

زعم إياس بن معاوية في الشَّبُوط وقد روى لنا غير
واحد من أصحاب الأخبار، أنّ إياسَ بن معاوية زعم أنّ
الشَّبُوطَ كالبُغْل، وأنّ أمّها بُنيّة، وأباها زَجْرٌ، وأنّ من
الدليل على ذلك أنّ الناس لم يجدوا في بطن شَبُوطَة قطُّ
بيضاً.

وأنا أخبرك أنّي قد وجدته فيها مراراً، ولكنّي وجدتهُ
أصغر جُثَّةً، وأبعد من الطّيب، ولم أجده عامّاً كما أجده
في بطون جميع السمك.

فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه
القاضي، وصاحب الإزكان، وأقوف من كرز بن علقمة،
داهية مُضر في زمانه، ومفخرٌ من مفاخر العرب.
الشك في أخبار البحريين والسّمّاكين والمترجمين فكيف
أسكن بعد هذا إلى أخبلر البحريين، وأحاديث السّمّاكين،

وإلى ما في كتاب رَجُلٍ لَعَلَّهُ أَنْ لَوْ وَجَدَ هَذَا الْمَتْرَجِمَ أَنْ يُقِيمَهُ عَلَى الْمِصْطَبَةِ، وَيَبْرَأَ إِلَى النَّاسِ مِنْ كَذِبِهِ عَلَيْهِ، وَمِنْ إِفْسَادِ مَعَانِيهِ بِسُوءِ تَرْجِمَتِهِ.

فصيلة الضب

والذي حضرني من أسماء الحشرات، ممّا يرجع عمود صورها إلى قالب واحد، وإن اختلفت بعد ذلك في أمور، فأول ما نذكر من ذلك الضبّ.

والأجناسُ التي ترجع إلى صورة الضبّ: الورل، والحرباء، والوحرة، والحلّكة، وشحمة الأرض، وكذلك العطاء، والوزغ، والحرذون، وقال أبو زيد: وذكر العظاية هو العَضْرَفُوط، ويقال في أمّ حُبَيْن حُبَيْنَة وأشباهها مما يسكن الماء: الرّق، والسُّلْحَفَاة، والغيلم، والتّمساح، وما أشبه ذلك.

الحشرات

وممّا نحن قائلون في شأنه من الحشرات: الظربان، والعُتّ والحُقّات والعربد، والعَضْرَفُوط، والوَبْر، وأمّ حُبَيْن، والجعل، والقرنبي والدسّاس، والخنفساء، والحياة، والعقرب، والشبث والرّثيلاء، والطّبوع،

والحرقوص، والدّلم، وقمّلة النّسر، والمثل، والنّب، وهي
دويّبة إذا دبّت على جلد البعير تورّم، ولذلك يقول
الشاعر، وهو يصف إبله بالسّمّن:

دَبَّتْ عَلَيْهَا
ذُرْبَاتُ الْأَنْبَارِ

كَأَنَّهَا مِنْ بُدْنٍ
وَاسْتِيقَارُ

وقال الآخر :

بجلودهن
مدارجُ الأنبارِ

حمر تحقّنت
النّجيلَ كأنما

والضّمج، والقنفذ، والنّمّل، والذّرّ، والدّساس، ومنها ما
تتشاكل في وجوه، وتختلف من وجوه: كالفأر والجرذان
والزباب، والخلد واليربوع، وابن عرس، وابن مقرض
ومنها العنكبوت الذي يقال له منونة، وهي شرٌّ من
الجرّارة والضّمج.

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

وسنقول في الأجناس التي يكون في الجنس منها
الوحشي والأهليّ، كالفيلة، والخنازير، والبقر، والحمير،

والسنانير.
والظباء قد تَدْجُن وتُوَلِّد على صُعوبةٍ فيها، وليس في
أجناس الإبل جنس وحشيٍّ، إلا في قول الأعراب.

ما هو أهلي صرف أو وحشي صرف من الحيوانات
وممّا يكون أهلياً ولا يكون وحشياً وهو سبعٌ - الكلاب
وليس يتوحّش منها إلا الكلب الكلب، فأما الضباع
والذئب، والأسد، والنمور، والبُور، والثعالب، وبنات
أوى، فوحشيّة كلها، وقد يقلم الأسد وتُنزع أنيابه،
ويطول ثواؤه مع الناس حتى يهرم مع ذلك، ويحسّ
بعجزه عن الصّيد، ثمّ هو في ذلك لا يُؤتمن عَرامه ولا
شروده، إذا انفرد عن سَواسه، وأبصر غيضة قدامها
صحراء.

قصة الأعرابي والذئب وقد كان بعض الأعراب ربي جرو
ذئب صغيراً، حتّى شبّ، وظنّ أنه يكون أغنى غناءً من
الكلب، وأقوى على الذبّ عن الماشية، فلمّا قوي شيئاً
وثب على شاة فذبحها - وكذلك يصنع الذئب - ثمّ أكل
منها فلمّا أبصر الرّجل أمره قال:

أَكَلَتْ شَوِيهَتِي
وَرَبِيتَ فِينَا

فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنْ
أَبَاكَ ذَيْبُ

وقد أنكر ناسٌ من أصحابنا هذا الحديث، وقالوا: لم يكن ليألفه ويقوم معه بعد أن اشتدَّ عظمه ولمْ لَمْ يذهب مع الذئاب والضباع، ولم تكن البادية أحبَّ إليه من الحاضرة، والقفار أحبَّ إليه من المواضع المأنوسة. كيف يصير الوحشيُّ من الحيوان أهلياً وليس يصير السبعُ من هذه الأجناس أو الوحشيُّ من البهائم أهلياً بالمقام فيهم، وهو لا يقدر على الصَّحاري، وإنما يصير أهلياً إذا ترك منازل الوحش وهي له مُعرضة. ما يعتري الوحشي إذا صار إلى الناس وقد تتسافد وتتوالد في الدُّور وهي بعد وحشيَّة، وليس ذلك فيها بعامٍّ، ومن الوحش ما إذا صار إلى النَّاس وفي دُورهم ترك السَّفاد، ومنها ما لا يطعم ولا يشربُ البتَّة بوجهٍ من الوجوه، ومنها ما يُكره على الطَّعم ويدخل في حلقة كالحية، ومنها ما لا يسفد ولا يدجن، ولا يطعم ولا يشرب، ولا يصيحُ حتى يموت وهذا المعنى في وحشيِّ الطَّير أكثر.

السوراني ورياضته للوحوش والذي يحكى عن
السوراني القنّاص الجبليّ ليس بناقضٍ لما قلنا، لأنّ
الشّيء الغريب، والنادر الخارجيّ، لا يقاس عليه، وقد
زعموا أنّه بلغ من حدّقه بتدريب الجوارح وتضريتها أنّه
ضرى ذنباً حتّى اصطاد به الطّباء وما دونها، صيداً
ذريعاً، وأنه ألفه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخاً، وقد
كان بعضُ العمّال سرقه منه، وقد ذكروا أنّ هذا الذّئب قد
صار إلى العسكر، وأن هذا السّوراني ضرى أسداً حتى
اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً، وأنه ضرى
الزّنابير فاصطاد بها الذّبان، وكلُّ هذا عجب، وهو غريبٌ
نادرٌ، بديعٌ خارجيّ وذكروا أنّه من قيس عيلان، وأن
حليمة ظئر النبي صلى الله عليه وسلم قد ولدته.
الحيوانات العجيبة وليس عندي في الحمار الهنديّ
شيء، وقد ذكره صاحب المنطق، فأما الذّباب، وفأرة
المسك، والفنك، والقاقم، والسّنجاب، والسّمور، وهذه
الدوابّ نوات الفراء والوبر الكثيف الناعم، والمرغوب
فيه، والمنافع به، فهي عجيبة.

وإنّما نذكر ما يعرفه أصحابنا وعلماؤنا، وأهلُ باديتنا، ألا
ترى أنّي لم أذكر لك الحريش، والدّخس، ولا هذه السّباع

المشتركة الخلق، المتولدة فيما بين السباع المختلفة
الأعضاء، المتشابهة الأرحام، التي إذا صار بعضها في
أيدي القرّادين والمتكسّبين و الطوّافين، وضعوا لها
أسماء، فقالوا: مقلّاس، وكيلاس، وشلقطير، وخلقطير
وأشباه ذلك، حين لم تكُن من السباع الأصلية
والمشهوره النسب، والمعروفة بالنفع والضّرر.
وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضبع، والسّمع، والعسبار،
إذ كانت معروفةً عند الأعراب، مشهورة في الأخبار،
منوّهاً بها في الأشعار.

الاعتماد على معارف الأعراب في الوحش وإنما اعتمد
في مثل هذا على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يعرفوا
شكل ما احتيج إليه منها من جهة العناية والفلاية، ولا
من جهة التذاكر والتكسّب، ولكن هذه الأجناس الكثيرة،
ما كان منها سبعاً أو بهيمةً أو مشترك الخلق، فإنما هي
مبثوثة في بلاد الوحش: من صحراء، أو وادٍ، أو غائط،
أو غيضة، أو رملة، أو رأس جبل، وهي في منازلهم
ومنازلهم، فقد نزلوا كما ترى بينها، وأقاموا معها، وهم
أيضاً من بين النّاس وحشّ، أو أشباه الوحش. وربّما؛ بل
كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب، وباللدغ والسّع،

والعضّ والأكل، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرّف حال الجاني والجرح والقاتل، وحال المجنيّ عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلّب والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء،

معرفة العرب للآثار والأنواء والنجوم

ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرمل، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء، لأنّ كلّ من كان بالصّحاح الأماليس - حيث لا أمانة ولا هادي، مع حاجته إلى بعد الشّقة - مضطّرّ إلى التماس ما ينجيه ويؤديه.

ولحاجته إلى الغيث، وفواره من الجذب، وضنّه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرّف شأن الغيث.

ولأنه في كلّ حال يرى السّماء، وما يجري فيها من كوكب، ويرى التّعاقب بينها، والنّجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فardاً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً.

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

وسئلت أعرابية فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت:
سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليّ كلَّ ليلة.
وقال اليقطري: وصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة
نجوم الأنواء، ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات الليل
والسُّعُودِ والنُّحُوسِ، فقال قائلٌ لشيخٍ عبلديّ كان حاضراً:
أما ترى هذا الأعرابيّ يعرف من النُّجُوم ما لا نعرف قال:
ويل أمّك، مَنْ لا يعرف أجذاع بيته؟ قال: وقلت لشيخ
من الأعراب قد خرف، وكان من دُهاتهم: إني لا أراك
عارفاً بالنُّجوم قال: أما إنها لو كانت أكثر لكنتُ بشأنها
أبصر، ولو كانت أقلّ لكنتُ لها أذكر.
وأكثرُ سببِ ذلك كلّهُ - بعد فَرطِ الحاجة، وطولِ المدرسة
- دِقَّةُ الأذهان، وجودة الحفظ، ولذلك قال مجنونٌ من
الأعراب - لَمَّا قال له أبو الأصْبَغِ بنِ رَبِيعٍ: أما تعرف
النجوم؟ قال: وما لي أعرفُ من لا يعرفني؟ فلو كان
لهذا الأعرابيّ المجنون مثلُ عُقول أصحابه، لعرف مثل
ما عرفوا.

ما يجب في التعليم

ولو كان عندي في أبدان السمور، والفنك، والقاقم، ما
عندي في أبدان الأرانب والثعالب، دون فرائها، لذكرتها
بما قلّ أو كثر، لكنّه لا ينبغي لمن قلّ علمه أن يدعّ تعليم
من هو أقلّ منه علماً،

الدساس وعلة اختصاصه بالذكر

ولو كانت الدساس من أصناف الحيات لم نخصّها من
بينها بالذكر، ولكنها وإن كانت على قالب الحيات
وخرطها، وأفرغت كإفراغها وعلى عمود صورها،
فخصائصها دون خصائصها، كما يناسبها في ذلك
الحفّات والعربد، وليس من الحيات، كما أن هذا ليس من
الحيات، لأنّ الدساس ممسوحة الأذن، وهي مع ذلك ممّا
يلد ولا يبيض، والمعروف في ذلك أنّ الولادة هي في
الأشرف، والبيض في الممسوح.
وقد زعم ناس أنّ الولادة لا تُخرج الدساس من اسم
الحيّة، كما أن الولادة لا تُخرج الخفّاش من اسم الطير.
وكلّ ولد يخرج من بيضه فهو فرخ، إلا ولد بيض الدجاج
فإنّه فرّوج.
والأصناف التي ذكرناها مع ذكر الضبّ تبيض كلّها،

ويسمى ولدها بالاسم الأعم فرخاً.
وزعم لي ابنُ أبي العجوز، أنّ الدّسّاس تلد، وكذلك
خبّرني به محمد بنُ أيوبَ ابن جعفر عن أبيه، وخبّرني
به الفضل بنُ إسحاق بن سليمان فإن كان خبرهما عن
إسحاق فقد كان إسحاق من معادن العلم.
وقد زعموا بهذا الإسناد أنّ الأروية تَضَعُ مع كلِّ ولد
وضَعَتْه أفعى في مشيمةٍ واحدة.
وقال الآخرون: الأروية لا تعرف بهذا المعنى، ولكنه
ليس في الأرض نمرة إلا وهي تَضَعُ ولدها وفي عنقه
أفعى في مكان الطّوق، وذكروا أنّها تنهش وتعضّ، ولا
تقتل.

ولم أكتب هذا لتقرّ به، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها،
ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار
له، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل.

الشك واليقين

وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ، وحالاتها الموجبة له،
لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم
الشكّ في المشكوك فيه تعلّماً، فلو لم يكن في ذلك إلاّ

تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.
ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا
على أن اليقين طبقات في القوة والضعف.
أقوال لبعض المتكلمين في الشك ولما قال ابن الجهم
للمكي: أنا لا أكاد أشك قال المكي: وأنا لا أكاد أوقن
ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك، كما فخر
عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين.
وقال أبو إسحاق: نازعت من الملحدين الشاك والجاحد
فوجدت الشك أك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود.
وقال أبو إسحاق: الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن
يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد
إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك.
وقال ابن الجهم: ما أطمعني في أوبة المتعير لأن كل من
اقتطعت عن اليقين الحيرة فضالته التبين، ومن وجد
ضالته فرح بها.
وقال عمرو بن عبيد: تقرير لسان الجاحد أشد من
تعريف قلب الجاهل.
وقال أبو إسحاق: إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل
العالم، وفي أي طبقة هو، وأردت أن تدخله الكور وتنفخ

عليه، ليظهر لك فيه الصِّحَّةُ من الفساد، أو مقداره من الصِّحَّةِ والفساد، فكن عالماً في صورة متعلِّم، ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه.

فصل ما بين العوام والخواص في الشك والعوام أقلُّ شكوكاً من الخواص، لأنَّهم لا يتوقَّفون في التصديق والتكذيب ولا يرتبون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظنِّ وحسن الظنِّ بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلِبِ.

حرمة المتكلمين وسمع رجلٍ، ممَّن قد نظر بعض النظر، تصويب العلماء لبعض الشكِّ، فأجرى ذلك في جميع الأمور، حتَّى زعم أن الأمور كلها يُعرف حقها وباطلها بالأغلِبِ.

وقد مات ولم يخلف عَقِباً، ولا واحداً يدينُ بدينه، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكنُ أسأت، ولكني على حالٍ أكره التَّنويه بذكر من قد تحرَّم بحرمة الكلام، وشارك المتكلمين في اسم الصَّناعة، ولا سيِّما إن كان ممَّن ينتحل تقديم الاستطاعة.

الأوعال والثياتل والأيايل فأما القولُ في الأوعال،
والثياتل، والأيايل وأشباه ذلك، فلم يحضرنا فيها ما إن
نجعل لذكرها باباً مبوباً، ولكننا سنذكرها في مواضع
نذكرها من تضاعيف هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

الضَب

وأنا مبتدئٌ على اسم الله تعالى في القول في الضَبِّ، على
أني أدّم هذا الكتاب في الجملة، لأنّ الشواهد على كلِّ
شيء بعينه وقعت متفرقة غير مجتمعة، ولو قدرتُ على
جمعها لكان ذلك أبلغ في تزكية الشاهد، وأنور للبرهان،
وأماً للنفس، وأمتع لها، بحسن الرّصف، وأحمده، لأنّ
جملة الكتاب على حالٍ مشتملةٍ على جميع تلك الحجج،
ومحيطة بجميع تلك البرهانات، وإن وقع بعضه في مكان
بعض، تأخر متقدّم، وتقدّم متأخر.

جر الضب وما قيل فيه من الشعر

وقالوا: و من كئيس الضبّ أنّه لا يتخذ جُحره إلّا في كُذية
وهو الموضع الصُّلب - أو في ارتفاع عن المسيل
والبسيط، ولذلك توجدُ برائته ناقصةً قليلة، لأنّه يحفر في
الصّلابة، ويعمّق الحفر، ولذلك قال خالد بن الطّيفان:

وَمَوْلَى كَمَوْلَى
الزَّبْرَقَانِ
دَمَلْتَهُ

كَمَا دُمِلْتَ سَاقٌ
تَهَاضُ بِهَا كَسْرُ

إِذَا مَا أَحَالَتْ
وَالْجَبَائِرُ
فَوْقَهَا

مَضَى الْحَوْلُ لَا
بُرْءَ مُبِينٍ وَلَا
جَبْرُ

تَرَاهُ كَأَنَّ اللَّهَ
يَجْدَعُ أَنْفَهُ

وَأَدْنِيهِ إِنْ مَوْلَاهُ
ثَابَ لَهُ وَفَرُّ

تَرَى الشَّرَّ قَدْ
أَفْنَى دَوَائِرَ
وَجْهِهِ

كَضَبِّ الْكُدَى
أَفْنَى بَرَائِثِهِ
الْحَفْرِ

وَقَالَ كَثِيرٌ:

فَإِنْ شِئْتَ قَلْتَ
لَهُ صَادِقًا

وَجَدْتِكَ بِالْقَفِّ
ضَبًّا جَحُولًا

مِنَ الْإِلَاءِ يَحْفِرُنْ

وَلَا يَبْتَغِينَ

تحت الكدى

الدماء
السُّهولا

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

وَجَدْنَا أَبَا الْجَبَّارِ
ضَبًّا مَوْرَشًا

لَهُ فِي الصَّفَاةِ
بُرْثَنٌ وَمَعَاوِلٌ

لَهُ كَدِيَّةٌ أُعِيَتْ
عَلَى كُلِّ قَانِصٍ

وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ
حَارِشَانُ
وَحَابِلٌ

ظَلَلْتُ أَرَاعِي
الشَّمْسَ لَوْلَا
مَلَائِي

تَزَلَعُ جُلْدِي
عِنْدَهُ وَهُوَ
قَائِلٌ

وَأَنشَدَ لِدُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ:

بِسَالِمَةِ الْعَيْنِينَ طَالِبَةِ عُدْرَا

وَأَكْثَرَ مِنْهَا أَوْرَثَتْ بَيْنَنَا عُمْرَا

إِذْ قَالَهَا قَلْتُ مِثْلَهَا

ولو أنني

وعور

لَعَلَّ غَدًا يُبَدِي لِمُنْتَظِرٍ أَمْرًا

فَأَعْرَضْتُ

عنها وانتظرت به غداً

وَأَقْلِمَ أَظْفَاراً أَطَالَ بِهَا الْحَفْرَا

لأُخْرِجَ

ضباً كَانَ تَحْتَ ضُلُوعِهِ

وقال أوسُ بنُ حَجْرٍ، في أكلِ الصَّخْرِ لِلأظفارِ:

فَأَشْرَطَ فِيهَا

وَأَلْقَى بِأَسْبَابِ

نَفْسَهُ وَهُوَ

لَهُ وَتَوَكَّلَا

مُعْصِمٌ

وقد أكلت

تَعَايَا عَلَيْهِ طَوْلُ

أظْفَارَهُ الصَّخْرِ

مَرَقَّى تَوَصَّلَا

كُلَّمَا

فقد وصفوا الضَّبَّ كما ترى، بأنه لا يحفرُ إلا في كدية،
ويطيلُ الحفْرَ حتَّى تفنى برائته، ويتوَحَّى به الارتفاع عن
مجري السَّيلِ و المياهِ، وعن مدق الحوافر، لكيلا يَنْهَارَ
عليه بيته.

الموضع الذي يختاره الضب لجره

ولما علم أنه نَسَاءٌ سيئ الهداية، لم يحفر وجاره إلاّ عند أكمة، أو صخرة، أو شجرة، ليكون متى تباعد من جُجره لطلب الطعم، أو لبعض الخوف فالتفت وراه؛ أحسن الهداية إلى ججره، ولأنه إذا لم يُقَمَّ عَلَماً فلعله أن يلج على ظربانٍ أو ورل، فلا يكون دون أكله له شيءٌ.

فقالت العرب: خبُّ ضبِّ؛ و: أخبُّ من ضبِّ؛ و أخذع من ضبِّ؛ و: كلُّ ضبِّ عند مردياته.

وإذا خَدع في زوايا حفيرته فقد توثق لنفسه عند نفسه. حذر بعض الحيوان ولهذه العلة اتخذ اليربوع القاصعاء، والنافعاء، والدَّامَاء، والرَّاهطاء، وهي أبوابٌ قد اتخذها لحفيرته، فمتى أحسَّ بشرٌّ خالف تلك الجهة إلى الباب.

ولهذا وشبهه من الحذر كان التوبير من الأرانب وأشباهها، والتوبير: أن تطأ على زمعاتها فلا يعرف الكلبُ والقائفُ من أصحاب القنص آثار قوائمه.

ولما أشبه هذا التدبير صار الظبي لا يدخل كناسه إلاّ وهو مستدبر، يستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه.

شعر في حزم الضب واليربوع

وقد جمع يحيى بن منصور الأدهليّ أبواباً من حزم الضب، وخبثه وتدبيره، إلاّ أنّه لم يرد تفضيل الضب في ذلك، ولكنه بعد أن قدّمه على حمقى الرّجال، قال: فكيف لو فكّرتم في حزم اليربوع والضبّ. وأنشدني فقال:

من اليربوع
والضبّ المكون

ويأمن سَيْلَ
بارقة هَتُونِ

ويجعل مَكْوَهُ
رأس الوجين

رواغ الفهد من
أسدٍ كمين

وبعضُ النَّاسِ
أنقصُ رأيِ
حَزْمِ

يرى مِرْدَاتَهُ
من رأسِ مِيلِ

ويخفرُ في
الكُدَى خَوْفِ
انهيارِ

ويخدعُ إنَّ
أردتَ له

احتيالاً

ويعملُ كيدِ ذي
خدعِ طبينِ

ويدخلُ عَقْرَباً
تحتِ الذَّنَابِي

حريمِ مع
اليربوعِ والذَّئبِ
اللَّعِينِ

فهذا الضَّبُّ
ليس بذِي

وقد ذكر يحيى جميع ما ذكرنا، إلا احتياله بإعداد العقرب
لكفّ المحترش، فإنه لم يذكر هذه الحيلة من عمله،
وسنذكر ذلك في موضعه، والشعر الذي يُثبتُ له ذلك
كثير.

فهذا شأنُ الضَّبِّ في الحفر، وإحكام شأن منزله.
الورل وعدم اتخاذه بيتاً ومن كلام العرب أنّ الورل إنّما
يمنعه من اتّخاذ البيوت أنّ اتخاذاها لا يكونُ إلاّ بالحفر،
والورل يُبقي على برائته، ويعلم أنّها سلاحه الذي به
يقوى على ما هو أشدُّ بدناً منه، وله ذنبٌ يوكل
ويُستطاب، كثيرُ الشَّحم.

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

والأعراب لا يصيدون يربوعاً، ولا قُنْفُذاً، ولا ورلاً من أول الليل، وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن، كالنعام والظباء.

ولا تكون الأرنبُ والضَّبُع من مراكب الجن، لأن الأرنب تحيض ولا تغتسل من الحيض، والضَّبَاع تتركبُ أيور القتلى والموتى إذا جِيَفَتْ أبدانهم وانتفخوا وأنعظوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة، ولا حنابة إلا ما كان للإنسان فيه شِرْك، ولا تمتطي القروذ، لأن القرد زان، ولا يغتسل من جنابة.

فإن قتل أعرابي قُنْفُذاً أو ورلاً، من أول الليل، أو بعض هذه المراكب، لم يأمن على فحل إبله، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم. قالوا: ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعي، وبضروب الوعيد.

قول الأعراب في قتل الجن من الحيات وكذلك يقولون في الجن من الحيات، وقتل الجن عندهم عظيم، ولذلك رأى رجل منهم جانا في قعر بئر، لا يستطيع الخروج منها، فنزل على خطر شديد حتى أخرجها، ثم أرسلها من يده فانسابت، وغمض عينيها لكيلا يرى مدخلها كأنه يريد

الإخلاص في التقرب إلى الجن.
قال المازني: فأقبل عليه رجلٌ فقال له: كيف يقدر على
أذاك مَنْ لم ينقذه من الأذى غيرك؟

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

وقال: ثلاثة أشياء لا يتمُّ لها التدبير إذا دخلت الأسراب،
والأنفاق، والمكامن والتوالج حتى يغص بها الخرق.
- فمن ذلك: أن الظربان إذا أراد أن يأكل حيلة الضب أو
الضب نفسه؛ اقتحم جحر الضب مستدبراً، ثم التمس
أضيق موضع فيه، فإذا وجده قد غصَّ به، وأيقن أنه قد
حال بينه وبين النسيم، فسا عليه، فليس يجاوز ثلاث
فسوات حتى يُغشى على الضب فيأكله كيف شاء.
والآخر: أن الرجل إذا دخل وجار الضبع ومعه حبل، فإن
لم يسدَّ ببدنه وبثوبه جميع المخارق والمنافذ ثم وصل
إلى الضبع من الضياء بمقدار سمِّ الإبرة، وثبتَّ عليه،
فقطَّعته، ولو كان أشدَّ من الأسد.
- والثالث: أن الضب إذا أراد أن يأكل حُسوله وقف لها
من جحرها في أضيق موضع من منفذه إلى خارج، فإذا
أحكم ذلك بدأ فأكل منها، فإذا امتلأ جوفه انحطَّ عن ذلك

المكان شيئاً قليلاً، فلا يُفْلِتُ منه شيءٌ من ولده إلا بعد
أن يشبع ويزولَ عن موضعه، فيجد منفذاً.
وقال بعض الأعراب:

يُنشَبُ في
المسلكِ عِنْدَ
سَلْتِهِ
تراحمَ الضبِّ
عصى في كُدَيْتِهِ

شعر في أكل الضبِّ ولده

وقال: الدَّليل على أن الضبَّ يأكلُ ولده قول عمّس بن
عقيل بن عَفَّة لأبيه:

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكْلَ
الضَّبِّ حَتَّى
وَجَدْتَ مَرَارَةَ
الكَأِ الوَبِيلِ
فَلَوْ أَنَّ الْأَوْلَى
كَانُوا شُهُوداً
مَنْعَتْ فِنَاءَ
بَيْتِكَ مِنْ بَجِيلِ
وَأَنشَدَ لغيره:

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكْلَ
تَرَكْتَ بَنِيكَ

الضَّبِّ حَتَّى

لَيْسَ لَهُمْ عَدِيدُ

وقال عمرو بن مسافر: عتبت على أبي يوماً في بعض
الأمر، فقلت:

كَيْفَ أَلُومُ أَبِي
طَيْشاً لِيَرْحَمَنِي

وَجَدَّهُ الضَّبُّ لَمْ
يَتْرِكْ لَهُ وَدَا

وقال خدّاش بن زهير:

فَإِنْ سَمِعْتُمْ
بِجَيْشٍ سَالِكاً
سَرِفاً

أَوْ بَطْنٍ قَوٍّ
فَأَخْفُوا الْجَرْسَ
وَاکْتَتِمُوا

ثُمَّ ارْجِعُوا
فَأَكْبُوا فِي
بُيُوتِكُمْ

كَمَا أَكَبَّ عَلَى ذِي
بَطْنِهِ الْهَرَمُ

جعله هَرماً لظول عمره، وذِي بطنه: ولده.
وقال أبو بكر بن أبي قحافة لعائشة، رضي الله عنهما:
إِنِّي كُنْتُ نَحَلْتُكَ سَبْعِينَ وَسَقاً مِنْ مَالِي بِالْعَالِيَةِ، وَإِنَّكَ لَمْ

تُحْزِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ الْوَارِثِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَخْوَاكِ
وَأَخْتَاكِ، قَالَتْ: مَا أَعْرِفُ لِي أَخْتًا غَيْرَ أَسْمَاءَ، قَالَ: إِنَّهُ
قَدْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي أَنْ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ جَارِيَةٌ.
قَالَ آخَرُونَ: لَمْ يَعْنِ بِذِي بَطْنِهِ وَلَدَهُ، وَلَكِنَّ الضَّبَّ يَرْمِي
مَا أَكَلَ، أَيِ يَقِيءُ؛ ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَأْكُلُهُ، فَذَلِكَ هُوَ ذُو بَطْنِهِ،
فَشَبَّهُوهُ فِي ذَلِكَ بِالْكَلبِ وَالسَّنَّورِ.
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَسَافِرٍ: مَا عَنَى إِلَّا أَوْلَادَهُ، فَكَأَنَّ خَدَاشًا
قَالَ: ارْجِعُوا عَنِ الْحَرْبِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُونَهَا، إِلَى أَكْلِ
الدَّرِيحِ وَالْعِيَالِ.

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الضبة أولادها

قال: وقال أبو سليمان الغنوي: أبرأ إلى الله تعالى من أن
تكون الضبة تأكل أولادها ولكنها تدفنهن وتطم عليهن
الثراب، وتتعهدهن في كل يوم حتى يُخرجن، وذلك في
ثلاثة أسابيع، غير أن الثعالب والظربان والطيور، تحفر
عنهن فتأكلهن، ولو أفلتت منهن كل فراخ الضباب لملأن
الأرض جميعاً.

ولو أن إنساناً نحل أم الدرداء، أو مُعَاذَةَ الْعَدُوِيَّةِ، أَوْ
رَابِعَةَ الْقَيْسِيَّةِ، أَنَّهُنَّ يَأْكُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ، لَمَا كَانَ عِنْدَ أَحَدٍ

من النَّاسِ من إنكار ذلك، ومن التَّكْذِيبِ عَنْهُمْ، ومن
استعظام هذا القول، أكثر مما قاله أبو سليمان في
التَّكْذِيبِ على الضَّبَابِ أن تكون تأكل أولادها.
قال أبو سليمان: ولكن الضَّبُّ يأكلُ بَعْرَهُ، وهو طيِّبٌ
عنده، وأنشد:

فَإِنْ أَسَنَّ تَغْدَى
نَجْوَهُ كَلِيفًا

يَعُودُ فِي تَيْعِهِ
حَدَثَانَ مَوْلِدِهِ

قال: وقال أْفَارُ بن لقيط: التَّيْعُ: القيء، ولكننا روينا
هكذا، إنما قال: يَعودُ في رَجْعِهِ، وكذلك الضَّبُّ، يأكلُ
رَجْعَهُ.

وزعم أصحابنا أنَّ أبا المنجوف السدوسيَّ روى عن أبي
الوجيه العُكَلِيِّ قوله:

أَعَدَّ لَهُ عِنْدَ
التَّلْمُسِ
عَقْرَبًا

وَأَفْطَنَ مِنْ ضَبِّ
إِذَا خَافَ حَارِشًا

في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

أَوَّلُ ذَلِكَ طَوْلُ الدَّمَاءِ، وَهُوَ بَقِيَّةُ النَّفْسِ وَشِدَّةُ انْعِقَادِ
الْحَيَاةِ وَالرُّوحِ بَعْدَ الذَّبْحِ وَهَشْمِ الرَّأْسِ، وَالطَّعْنِ الْجَائِفِ
الْنافِذِ، حَتَّى يَكُونَ فِي ذَلِكَ أَعْجَبُ مِنَ الْخَنْزِيرِ، وَمِنَ
الْكَلْبِ، وَمِنَ الْخَنْفَسَاءِ، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي قَدْ تَفَرَّدَتْ
بَطَوْلِ الدَّمَاءِ.

ثُمَّ شَارَكَ الضَّبُّ الْوَزْغَةَ وَالْحَيَّةَ، فَإِنَّ الْحَيَّةَ تُقَطِّعُ مِنْ
ثَلَاثِ جَسْمِهَا، فَتَعِيشُ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الذَّرِّ، فَجَمَعَ الضَّبُّ
الْخَصَلَتَيْنِ جَمِيعاً، إِلَّا مَا رَأَيْتُ فِي دَخَالِ الْأَذْنِ مِنْ هَذِهِ
الْخَصَلَةِ الْوَاحِدَةِ، فَإِنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ بِنِصْفَيْنِ، فَيَمِضِي أَحَدُ
نِصْفَيْهِ يَمَنَةً وَالْآخَرَ يَسْرَةً، إِلَّا أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِقْدَارَ
بِقَائِهِمَا بَعْدَ أَنْ فَاتَا بَصْرِي.

وَمِنَ أَعْجَابِهِ طَوْلُ الْعَمْرِ، وَذَلِكَ مَشْهُورٌ فِي الْأَشْعَارِ
وَالْأَخْبَارِ، وَمَضْرُوبٌ بِهِ الْمَثَلُ، فَشَارَكَ الْحَيَّاتُ فِي هَذِهِ
الْفَضِيلَةِ، وَشَارَكَ الْأَفْعَى الرَّمْلِيَّةَ وَالصَّخْرِيَّةَ فِي أَنَّهَا لَا
تَمُوتُ حَتَّى تَمُوتَ أَنْفِهَا، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ أَوْ تَصْطَادَ، فَتَبْقَى
فِي جُودِ الْحَوَائِينِ، تَذِيلُهَا الْأَيْدِي، وَتُكْرَهُ عَلَى الطَّعْمِ فِي
غَيْرِ أَرْضِهَا وَهَوَائِهَا، حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَحْتَمِلُهَا السَّيُولُ
فِي الشِّتَاءِ وَزَمَانَ الزَّمْهِرِيرِ، فَمَا أَسْرَعَ مَوْتُهَا حِينَئِذٍ،
لِأَنَّهَا صَرْدَةٌ.

مثل في الحية

وتقول العرب: أصرد من حية؛ كما تقول: أعرى من حية، وقال القشيري: والله لهي أصرد من عنز جرباء.

خُتوف الحيات

وحُتوفها التي تُسرِع إليها ثلاثة أشياء: أحدها مُرور أقاطيع الإبل والشَّاء، وهي منبسطة على وجه الأرض، إما للتشرق نهاراً في أوائل البرد، وإما للتبرد ليلاً في ليالي الصيف، وإما لخروجها في طلب الطعم. والخصلة الثانية ما يسلِّط عليها من القنافذ والأوعال والورل، فإنها تطالبها مطالبة شديدة، وتقوى عليها قوَّة ظاهرة، والخنازير تأكلها. وقد ذكرنا ذلك في باب القول في الحيات.

والخصلة الثالثة: تكسب الحوائين بصيدها، وهي تموت عندهم سهياً.

ما يشارك الضب فيه الحية والضَّبُّ يشاركها في طول العمر، ثمَّ الاكتفاء بالنسيم والتَّعيشِ ببرد الهواء، وذلك عند الهرم وفناء الرُّطوبات، ونقص الحرارة، وهذه كلها عجب.

عود إلى أعاجيب الضب ثم اتخذه الجحر في الصلابة،
وفي بعض الارتفاع، خوفاً من الانهدام، ومسيل المياه،
ثم لا يكون ذلك إلا عند عِلْمٍ يرجع إليه إن هو أضلَّ
جُحره، ولو رأى بالقرب تراباً متراكباً بقدر تلك المرداة
والصخرة، لم يحفلُ بذلك، فهذا كله كَيْسٌ وحزم، وقال
الشاعر:

عَذِيَّةٌ بَطْنِ الْقَاعِ
طَيِّبَةٌ الْبَقْلِ

وكل امرئٍ في
حَرْفَةِ الْعَيْشِ ذُو
عَقْلٍ

الضَّبُّ كَالثُّونِ
وَالْإِنْسَانُ كَالسَّبْعِ

سَقَى اللَّهُ
أَرْضاً يَعْلمُ
الضَّبُّ أَنَّهَا

يُرودُ بِهَا بَيْتاً
عَلَى رَأْسِ
كُذِيَّةٍ

وقال البُطَيْنُ:

وكلُّ شَيْءٍ
مُصِيبٌ فِي
تَعْيِشِهِ

ومن أعاجيبه أنّ له أيرين، وللضبة حرين، وهذا شيء
لا يُعرف إلاّ لهما، فهذا قول الأعراب، وأمّا قول كثير من
العلماء، ومن نقب في البلاد، وقرأ الكتب، فإنهم يزعمون
أنّ للسقنقور أيرين، وهو الذي يتداوى به العاجز عن
النكاح، ليورثه ذلك القوة.

قالو: و إن للحرذون أيضاً أيرين، وإنهم عاينوا ذلك
معينة، وآخر من زعم لي ذلك موسى بن إبراهيم.
والحرذون دويبة تشبه الحرباء، تكون بناحية مصر وما
والاها، وهي دويبة مليحة موشاة بألوان ونقط.
وقال جالينوس: الضبّ الذي له لسانان يصلح لحمه لكذا
وكذا، فهذه أيضاً أعجوبة أخرى في الضبّ: أن يكون
بعضه ذا لسانين وذا أيرين.

ومن أعاجيب الضبّة أنّها تأكل أولادها، وتجاوز في ذلك
خلق الهرة، حتى قالت الأعراب: أعق من ضبّ.
احتيال الضب بالعقرب وزعمت العرب أنّه يُعدّ العقرب
في جحره، فإذا سمع صوت الحرش استتفرها، فألصقها
بأصل عَجَب الذئب من تحت، وضمّ عليها، فإذا أدخل
الحارثُ يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب. وقال
علمائهم: بل يهيئ العقارب في جحره، لتلسع المحترش

إذا أدخل يده.

وقال أبو المنجد بن رويشد: رأيت الضب أخور دابة في الأرض على الحر، تراه أبداً في شهر ناجر بباب جحره، متدخلاً يخاف أن يقبض قابضٌ بذنبه، فربما أتاه الجاهلُ ليستخرجه، وقد أتى بعقرب فوضَعها تحت ذنبه بينه وبين الأرض، يحبسها بعَجْب الذنب، فإذا قبض الجاهلُ على أصلِ ذنبه لسَعْتَه، فَشَغِلَ بنفسه. فأما ذو المعرفة فإنَّ معه عُوَيْداً يحركه هُنَاكَ، فإذا زالت العقرب قبض عليه.

وقال أبو الوجيه: كذب والله من زعم أنَّ الضبَّ تستتفر عقرباً، ولكنَّ العقارب مسالمة للضبّاب، لأنها لا تعرض لبيضها وفراخها، والضبُّ يأكل الجراد ولا يأكلُ العقارب، وأنشد قول التميمي الذي كان ينزل به الأزديُّ: إنه ليس إلى الطعام يقصد، وليس به إلا أنه قد صار به ألفاً وأنيساً، فقال:

كما بين
العقارب
والضبّاب

أتأسُّ بي
ونجرك غير
نجري

وأنشد:

تَجَمَّعْنَ عِنْدَ
الصَّبِّ حَتَّى
كَانَهُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ
أَسْوَدُ الْجِلْدِ
خُنْفَسُ

لأن العقارب تألف الخنافس، وأنشدوا للحكم بن عمرو
البهراني:

وَالْوَزَعُ الرَّقْطُ
عَلَى ذُلِّهَا
وَالْخُنْفَسُ
الْأَسْوَدُ مِنْ
نَجْرِهِ
تُطَاعِمُ الْحَيَاتِ
فِي الْجَحْرِ
مَوَدَّةُ الْعَقْرَبِ
فِي السَّرِّ

لأنك لا تراهما أبداً إلا ظاهرتين، يطاعمان أو يتسايران،
ومتى رأيت مكنة أو اطلعت على جحر فرأيت إحداهما
رأيت الأخرى.

قال: ومما يؤكد القول الأول قوله:

وَمُسْتَتْفِرٌ دُونَ
السَّوِيَّةِ
عَقْرَبًا

لَقَدْ جِئْتُ بِجَرِيًّا
مِنَ الدَّهْرِ أَعْوَجَا

يقول: حين لم تَرْضَ من الدهاء والنكر إلا بما تخالف
عنده النَّاس وتجاوزهم.

إعجاب الضب والعقرب بالتمر وأنشدني ابن داحة لحذيفة
بن دأب عم عيسى بن يزيد، الذي يقال له ابن دأب في
حديث طويل من أحاديث العشاق:

لِنَّنْ خُدِعْتُ
حُبِّي بِسَبِّ
مُزَعْفَرٍ

فَقَدْ يُخَدَعُ الضَّبُّ
المخادع بالتمر

لأن الضب شديد العُجْب بالتمر، فضرب الضب مثلاً في
الحُبِّ والخديعة.

والذي يدلُّ على أن الضب والعقرب يُعجبان بالتمر عجباً
شديداً، ما جاء من الأشعار في ذلك، وأنشدني ابن
الأعرابي، لابن دَعْمَاء العجلي:

على دُرْبَةٍ
والضَّبُّ يُخْبَلُ
بالتَّمْرِ

سوى أنكم
دُرَّبْتُمْ
فجرئتم

فجعل صيده بالتَّمْرِ كصيده بالحِبَالَةِ، وأنشدني القُشَيْرِيُّ:

ولا أنا ممن
يزدهيه
وَعِيدُ

وما كنت ضباً
يُخرج التَّمْرَ
ضِغْنَهُ

وقال بشر بن المعتمر، في قصيدته التي ذكر فيها آيات
الله عز ذكره، في صنوف خلقه، مع ذكر الإباضية،
والرافضة والحشوية والناطقة فقال فيها:

لها عرارٌ ولها
زَمْرُ

وهقلةٌ ترتاعُ
من ظلِّها

وَحَبُّ شَيْءٍ
عِنْدَهَا الْجَمْرُ

تلتهمُ المَرُو
على شهوةٍ

وَعُتْرَفَانٌ بَطْنُهُ

وضبةٌ تأكلُ

أولادها

صِفْرُ

يُوْثِرُ بِالطَّعْمِ
وَتَأْدِينُهُ

مُنَجَّمٌ لَيْسَ لَهُ
فِكْرُ

وِظْبِيَّةٌ تَخْضَمُ
فِي حَنْظَلٍ

وَعَقْرَبٌ يُعْجِبُهَا
الْتَمْرُ

وقال أيضاً بشرّ، في قصيدة له أخرى:

أما ترى الهَقْلَ
وأمعاءَهُ

يجمعُ بين
الصَّخْرِ والجَمْرِ

وفأرة البَيْشِ
على بَيْشِهَا

أخرصُ مِنْ
ضَبٍّ على تَمْرِ

وقال أبو دارة - وقد رأيتُهُ أنا، وكان صاحب قَنَصٍ:

وما التَّمْرُ إلا
آفَةٌ وبليَّةٌ

على جُلِّ هذا
الخَلْقِ من ساكنِ
البَحْرِ

وثرملة تسعى
وخنفسة
تسري

عذيرك إنَّ
الضَّبَّ يُحْبَلُ
بالتمرِ

وفي البرِّ من
ذئب وسمع
وعقربِ

وقد قيل في
الأمثال إن كنت
واعياً

وسنفسر معاني هذه الأبيات إذا كتبنا القصيدتين على
وجوههما بما يشتملان عليه من ذكر الغرائب والحكم،
والتدبير والأعاجيب التي أودع الله تعالى أصناف هذا
الخلق، ليعتبر مُعتبر، ويفكر مفكر، فيصير بذلك عاقلاً
عالمًا، وموحدًا مخلصًا.

طول نماء الضب والدليل على ما ذكرنا من تفسير
قولهم: الضَّبُّ أطولُ شيءٍ نماء، قولهم: إنَّه لأحيا من
ضَبِّ، لأنَّ حارشه ربّما ذبجه فاستقصى فرِّي الأوداج، ثم
يدعُه، فربما تحرك بعد ثلاثة أيام.
وقال أبو ذؤيب الهذلي:

ذکر الورود بها
وشاقى أمره

شوماً وأقبل
حينه يتتبع

فأبدهن حثوفهن
فهارب

بذمائه أو
ساقط
متجعجع

وكان الناس يروون: فهاربٌ بدمائه يريدون من الدم،
وكانوا يكسرون الدال، حتى قال الأصمعيّ: بدمائه
معجمة الدال مفتوحة وقال كثير:

ولقد شهدت
الخيّل يحمل
شكّتي

متلمّظ خذم
العنان بهيم

باقي الذمّاء إذا
ملكت مناقل

وإذا جمعتُ به
أجش هزيم

خبث الضب والضّب إذا خدع في جحره وُصف عند ذلك
بالخبث والمكر، ولذلك قال الشاعر:

يرى الخيانة مثل
الماء بالعسل

إنا مُنينا بَضْبٍ
من بني جُمحٍ

وأنشد أبو عصام:

غَنِيَّينِ لا يَجْدِي
عَلَيْنَا غِنَاهُمَا

إِنَّ لَنَا شَيْخِينَ
لا يَنْفَعَانَا

كبيران غِنِداقَانِ
صُفْرٌ كُشَاهُمَا

كأَنَّهُمَا ضَبَّانِ
ضَبًّا مَغَارَةً

وإن يُرصدَا يوماً
يخبُّ راصِدَاهُمَا

فإن يُحَبِّلا لا
يوجدَا في
حِبَالَةٍ

ولذلك شَبَّهُوا الحِقْدَ الكَامِنَ في القَلْبِ، الذي يسري
ضرُّه، وتدبُّ عقاربُه بالضَّبِّ، فسمَّوا ذلك الحِقْدَ ضَبًّا،
قال مَعْنُ بنُ أوس:

صَفَاً فِيهِ صَدْعٌ
لا يُدَانِيهِ شَاعِبٌ

ألا مَنْ لَمَوَى لا
يَزَالُ كَأَنَّهُ

لأهل الندى من
قومه بالعقارب

تدبُّ ضبابُ
الغشِّ تحت
ضلوعه

وقال أبو دَهبلَ الجمحيّ:

ضبّاً وإنّي
عليك اليوم
مَحْسُودٌ

فاعلمْ بأنّي لِمَنْ
عاديتَ مضطغناً

وأنشد ابن الأعرابيّ:

عليّ ذي ضغنٍ
وضبّ فارضٍ

يا رَبِّ مولى
حاسدٍ مُباغضٍ

له قُرُوءٌ
كقُرُوءِ
الحائضِ

كأنه ذهب إلى أن حقه يخبو تارة ثم يستعر، ثم يخبو ثم يستعر.

وقال ابن ميادة، وضرب المثل بنفخ الضب وتوثبه:

إذا أسد كشت
لفخر ضباؤها

فإن لقيس من
بغيض أقاصيا

وقال الآخر:

حجاجي منيع
بالقنا من دم
سجلا

فلا يقطع الله
اليمين التي
كست

إذا ظلّ يمطو
من حبالكم حبالا

ولو ضبّ أعلى
ذي دميث
حبلتما

والضب يُوصف بشدة الكبر، ولا سيّما إذا أخصب وأمن وصار، كما قال عبدة بن الطبيب، فإنه ضرب الضب مثلاً حيث يقول ليحيى بن هزال:

لأعرفنك يوم
الوردِ ذا لَغَطِ

ضخم الجُزارةِ
بالسَلَمينِ وَكَارُ

تكفي الوليدة
والرُعَيانِ
مؤتزرأ

فاحلبُ فائِك
حلابٌ وصرارُ

ما كُنْتَ أول
ضب صاب
تَلَعَتْهُ

غيث فأمرع
واسترخت به
الدارُ

وقال ابن ميادة:

تري الضبَّ أن لم
يرهبِ الضبُّ
غيره

يكشُّ له
مُسْتَكْبِراً
ويُطاوَلُهُ

وقال دَعْلَجُ عبدُ المنجاب:

إذا كان بيتُ
الضبِّ وسَطُ

تطاول للشخص
الذي هو حابله

مَضْبَةٌ

المضْبَةُ: مكان ذو ضباب كثيرة، ولا تكثر إلا وبقرها
حَيَّة أَوْرَل، أو ظَرْبان، ولا يكون ذلك إلا في موضع
بعيد من النَّاس، فإذا أَمِنَ وخلا لَهُ جَوْه، وأُخْصِب، نفخ
وكشَّ نحو كل شيء يُريده.

ما يوصف بالكِبْر من الحيوان ومما يوصف بالكِبْر النَّوْرُ
في حال تشرُّقه، وفي حال مشيته الخِيلاء في الرِّياض،
عند غَبِّ ديمة، ولذلك قال الكُميت:

دَة لا يَبْتَغِي
عَلَيْهَا ظَهِيرًا

كشْبوبٍ ذِي
كَبْرِيَاءٍ مِنَ الْوَحْخِ

وهذا كثيرٌ، وسيقع في موضعه من القول في البقر.
ومما يُوصف بالكِبْر الجملُ الفَحْلُ، إذا طافت به نوق
الهِجْمَة، ومرَّ نحو ماءٍ أو كلاً فتبعنه، وقال الرَّاجز:

قَالَ بَ حِمْلَاقِيهِ
فِي مِثْلِ الْجَرْفِ

فَإِنْ تَشَرَّدَنْ
حَوَالِيهِ وَقَفْ

لو رُضَّ لحدُّ
عَيْنِهِ لَمَا
طَرَفَ

كِبْرًا وَإِعْجَابًا
وَعِزًّا وَتَرْفَ

وَالنَّاقَةُ يَشْتَدُّ كِبْرُهَا إِذَا لَقِحَتْ، وَتَزُمُّ بِأَنْفِهَا وَتَنْفِرُ عَنْ
صَحَابَاتِهَا، وَأَنْشُدُ الْأَصْمَعِيَّ:

وهو إذا أراد
منها عِرْسًا

دَهْمَاءَ مِرْبَاعِ
الْقَاحِ جُنْسًا

عَينِهَا بَعْدَ
السَّنَانِ أَنْسَا

حَتَّى تَلْقَتْهُ
مَخَاضًا قُعْسَا

حَتَّى احْتَشَتْ فِي
كُلِّ نَفْسٍ نَفْسًا

عَلَى الدَّوَامِ
ضَامِرَاتٍ
خُرْسَا

خُوصًا مُسِرَّاتٍ
لِقَاحًا مُنْسَا

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّمَّاحِ:

على حدّه
لاستكبرت أن
تضوّرا

جُماليّة لو يُجعل
السيفُ عرضها

فليس من الأوّل في شيء.

المذكورون من الناس بالكبر والمذكورون من النَّاسِ
بالكِبَر، ثمّ من قريشٍ: بنو محزوم، وبنو أميّة، ومن
العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدس
خاصّة.

فأمّا الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يُعدُّون النَّاسِ إلّا
عبيداً، وأنفسهم إلّا أرباباً.

ولسنا نُخبر إلا عن دهماء النَّاسِ وجمهورهم كيف كانوا،
من ملوك وسوقة.

الكبر في الأجناس الذليلة والكبر في الأجناس الذليلة من
النَّاسِ أرسخ وأعمّ، ولكنّ الذلة والقلّة مانعتان من ظهور
كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلّا أهلُ المعرفة، كعبيدنا من
السُّنْدِ، وذيَمَتنا من اليهود.

والجملة أنّ كلّ من قدر من السّفلة والوُضعاء والمحقرين
أدنى قدرة، ظهر من كبره على من تحت قدرته، على

مراتب القدرة، ما لا خفاء به، فإن كان ذمياً وحسنَ بما
لَهُ في صدور النَّاسِ، تزيّد في ذلك، واستظهرت طبيعته
بما يظنُّ أنّ فيه رَقْع ذلك الخرق، وحيّاص ذلك الفتق،
وسد تلك الثُّلثة، فتفقّد ما أقول لك، فإنك ستجده فاشياً.
وعلى هذا الحساب من هذه الجهة، صار المملوك أسوأ
ملكةً من الحرّ.

وشيءٌ قد قتلتَه علماً، وهو أنّي لم أرَ ذا كِبَرٍ قطُّ على من
دونه إلا وهو يذلُّ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووزنه.
كبر قبائل من العرب فأما بنو مخزوم، وبنو أمّية، وبنو
جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدس، فأبْطَرهم ما
وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوَى عقولهم
وديانتهم فضلٌ على قوَى دواعي الحمية فيهم، لكانوا
كبنِي هاشم في تواضعهم، وفي إنصافهم لمن دونهم.
وقد قال في شبيهه بهذا المعنى عبدة بن الطبيب، حيث
يقول:

يَشْفِي صُدَاع
رؤوسهم أن
تُصرعوا

إن الدين
تروئهم
خلانكم

وأبت ضبابُ
صُدورهم لا
تنزُعُ

فضلت
عداوتهم على
أحلامهم

من عجائب الضب فأما ما ذكروا أنّ للضبّ أيرين،
وللضبّة حرين، فهذا من العجب العجيب، ولم نجدهم
يشكّون، وقد يختلفون ثمّ يرجعون إلى هذا العمود، وقال
الفزاريّ:

مُحذفة الأذنان
صُفْرُ الشّواكلِ

جبي المالَ عمّالُ
الخِراجِ وجِبوتي

كسَاهنَ سُلطانُ
ثيابِ المِراجِلِ

رَعينَ الدّبا
والبَقْلَ حتّى
كأنما

على كُلِّ حافٍ
في البلادِ
وناعلِ

سِبْخِلُ له نِزكانِ
كانا فِضيلَةً

سما بين
عِزَّ سَيْهِ سُمُو
المخايل

ترى كلَّ ذِيَّالِ إِذَا
الشمسُ
عارضتُ

واسم أيره النَّزْكُ، معجمة الزَّاي والنون من فوق
بواحدة، وساكنة الزاي، فهذا قول الفزاري، وأنشد
الكسائي:

تفرَّقَ أَيْرِ الضَّبِّ
والأصل واحدٌ

تفرَّقتمْ لا
زِلْتُمْ قِرْنَ
واحدٍ

فهذا يؤكد ما رواه أبو خالد النميري، عن أبي حية
النميري، قال أبو خالد: سئل أبو حية عن ذلك، فزعم أن
أير الضبِّ كلسان الحية: الأصل واحدٌ، والفرع اثنان.

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

- وبعض أهل التفسير يزعم أن الله عز وجلّ عقاب الحية -
 - حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم على لسانها -
 - بعشر خصال، منها شقُّ اللسان.
- قالوا: فلذلك ترى الحية أبدأً إذا ضربت لتقتل كيف تخرجُ

لسانها، تلويه كما يصنع المسترحم من الناس بإصبعه
إذا ترحم أو دعا، لتري الظالم عقوبة الله تعالى لها.
قول بعض العلماء في تناسل الضب قال أبو خالد: قال
أبو حية: الأصل واحد، والفرع اثنان، وللأثر مدخلان،
وأشده لحي المدنيّة:

كضبة كذبة
وجدت خلاء

وَدِدْتُ بَأْتَهُ
ضَبُّ وَأَنِي

قال: قالت هذا البيت لابنها، حين عدلها، لأنَّها
تزوجت ابن أمّ كلاب، وهو فتى حدث، وكانت هي قد
زادت على النصف، فتمنت أن يكون لها حِران ولزوجها
أيران.

وقال ابن الأعرابي: للأثر سبيلان، ولرحمها قرنتان،
وهما زاويتا الرحم، فإذا امتلأت الزاويتان أتامت، وإذا لم
تمتلئ أفردت.

وقال غيره من العلماء: هذا لا يكون لذوات البيض
والفراخ، وإنما هذا من صفة أرحام اللواتي يحبلن

بالأولاد، ويضن خلقاً كخلقهنَّ ويضعن، وكيف تُفرد
الضبة وهي لم تنم قط، وهي تبيض سبعين بيضةً في
كلّ بيضةٍ حسل.

قال: ولهذه الحشرات أيورٌ معروفة، إلا أنّ بعضها أحقر
من بعض، فأما الخصى فشيءٌ ظاهرٌ لمن شقَّ عنها.
تناسل الذباب وجسر أبو خالد، فزعم أنه قد أبصر أير
ذباب وهو يكوم ذبابة وزعم أن اسم أيره المتك، وأنشد
لعبد الله بن همام السلولي:

وتعلقت همدانُ
بالأسبابِ

لما رأيتُ القصرَ
عُلِقَ بابُه

لم يبقَ منها
قيسُ أيرِ ذبابِ

أيقنتُ أنّ إمارةَ
ابنِ مضاربِ

وهذا شعرٌ لا يدلُّ على ما قال.
وقال أصحابنا: إنّما المتك البظر، ولذلك يقال للعلاج: يابن
المتكاء كما يقال له: يابن البظراء.

فيمين استطاب لحم الضب ومن عافه

روى أنه أتى به على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله، وقال: ليس من طعام قومي، وأكله خالد بن الوليد فلم يُنكر عليه.

وروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أكله ولا أحرّمه، وأنكر ذلك ابنُ عباس وقال: ما بعثه الله تعالى إلا ليُحلّ ويحرّم.

وحرّمه قومٌ، ورووا أنّ أمّتين مُسختا، أخذت إحداهما في البرّ، فهي الضباب، وأخذت الأخرى في طريق البحر، فهي الجرّي.

وروّوا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضبّ، فقال: اعلم أنّك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني إسرائيل. وقال بعض من يعافه: الذي يدلُّ على أنه مسخ شبه كفه بكفّ الإنسان.

وقال العُدار الأبرص، نديم أيّوب بن جعفر، وكان أيّوب لا يرغب أكل الضباب، في زمانها، ولها في المربد سوقٌ تقوم في ظلّ دار جعفر، ولذلك قال أبو فرعون، في كلمة له طويلة:

سُوقُ الضبابِ خير سوقٍ في العربِ

وكان أبو إسحاق إبراهيم النظام والعدار، إذا كان عند
أيوب قاما عن خوانه، إذا وضع له عليه ضبّ، ومما قال
فيه العُدار قوله:

له كَفَّ
إنسان
وخلق
عظاية
وكالقرد والخنزير
في المسخ
والغضب

قول العوام في المسخ والعوام تقول ذلك، وناس
يزعمون أن الحية مسخ، والضب مسخ، والكلب مسخ،
والإربيان مسخ، والفأر مسخ.
قول أهل الكتاب في المسخ ولم أر أهل الكتاب يُقرُّون بأنَّ
الله تعالى مسخ إنساناً قط خنزيراً ولا قرداً، إلا أنهم قد
أجمعوا أنَّ الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوط حَجْرًا،
حين التفتت.

وتزعم الأعراب: أنَّ الله عزَّ ذكره قد مسخ كلَّ صاحب
مكس وجابي خراج وإتاوة، إذا كان ظالماً، وأنه مسخ
ماكسين، أحدهما ذنباً والآخر ضبعاً.
شعر الحكم بن عمرو في غرائب الخلق وأنشد محمَّد بن

السَّكَنَ المَعْلَمَ النُّحُوِيَّ، لِلْحَكَمِ بْنِ عَمْرٍو البَهْرَانِي، فِي
ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ شِعْرًا عَجِيبًا، وَقَدْ ذَكَرَ فِيهِ ضَرْوِبًا كُلَّهَا
طَرِيفَ غَرِيبٍ، وَكُلَّهَا بَاطِلٌ، وَالْأَعْرَابُ تَوَافِقُ بِهَا أَجْمَعُ.
وَكَانَ الْحَكَمُ هَذَا أَتَى بَنِي الْعَنْبَرِ بِالْبَادِيَةِ، عَلَى أَنَّ الْعَنْبَرَ
مِنْ بَهْرَاءَ، فَنفوه من البادية إلى الحاضرة، وكان يتفقه
ويفتي فُتَيَا الْأَعْرَابِ، وَكَانَ مَكْفُوفًا وَدَهْرِيًّا عُدْمَلِيًّا، وَهُوَ
الَّذِي يَقُولُ:

مَا لَشَيْءٍ أَرَادَهُ مِنْ مَفْرٍّ

فَلِهَذَا تَتَاجَلَا أُمَّ عَمْرٍو

بِنَجِيعِ الرَّعَافِ فِي حَيِّ بَكْرِ

عَرْمًا مُحْكَمَ الْأَسَاسِ بِصَخْرِ

عَاجِزًا لَوْ يَرُومُهُ بَعْدَ دَهْرٍ

وَسَهِيلَ السَّمَاءِ عَمْدًا بِصَغْرِ

جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ شَرًّا قَبْرِ

كَانَ يَكْتَنِي بِرِغَالٍ

والذي

ومكوسٍ وكلُّ صاحبٍ عشرٍ وكذا
كلُّ ذى سفينٍ وخرجٍ

وعريفٌ جزاؤه حرٌّ جمرٍ
كافرٌ وأشرأطُ سوءٍ

بغزالٍ وصدقتي زقُّ خمري
ونزوجتُ

في الشببيةِ غولا

ومتى شئتُ لم أجدُ غيرَ بكرٍ
إن هويتُ ذلكَ منها

ر وخالي هميمٌ صاحبُ عمرو
عمرو وخالها مسحلُ الخي

مسحوها فكان لي نصفٌ شطرٍ
خطةٌ بأرضٍ وبارٍ

وعروج من المؤبَّل دثرٍ
حوشٍ وجاملٍ عكنانٍ

سادة	نَّ تاجرٍ وَاخرَ مكرٍ
	الجنّ ليس فيها من الج
ونفوا	يسرقُ السمعَ كل ليلةٍ بدرٍ
	عن حريمها كلّ عفرٍ
في فتوٍ	ونساءٍ من الزوابع زهرٍ
	من الشنقناقِ غرٍ
تأكل	بعد روثِ الحمار في كل فجرٍ
	القولُ ذا البساطةِ مسياً
جعل	من أنوقٍ ومن طروقةٍ نسرٍ
	اللهُ ذلك الروثَ بيضا
ضربت	في محاقِ القميرِ آخرَ شهرٍ
	فردةً فصارتُ هباءً
تركتُ	وأخوه مزاحم كان بكرى
	عبدلاً ثمالاً اليتامى

من نساء في أهلها غير نزرٍ

وضعتُ

تسعةً وكانت نزورا

غلبتني

بعد ما طار في النجابهِ ذكرى
على النجابهِ عرسي

وأرى

غيرَ أن النجار صورةُ عفرٍ
فيهمُ شمائلَ إنسٍ

وبها

ملجماً قنفذاً ومسرَجَ وبرٍ
كنتُ راكباً حشراتٍ

كنت لا

ض ولا الضبع أنها ذاتُ نكرٍ
أركبُ الأرانب للحي

تركبُ

ظ وتدعو الضباع من كلِّ جحرٍ
المقصَ المجيف ذا النع

جائباً

فلألا مجتئى وهضمة عطرٍ
للبحار أهدى لعرسي

رِ وَأَسْقَى الْعِيَالَ مِنْ نَيْلِ مِصْرٍ
وَأَحْلَى هَرِيرَ مَنْ صَدَفِ الْبَحِّ

ثُمَّ بَخَفَى عَلَى السَّوَاخِرِ سَحْرِي
الْمَعْقُودَ نَفْثِي وَحَلَى
ضَاكِكُ سَنَهُ كَثِيرُ التَّمْرِ

وَأَجُوبُ

الْبِلَادِ تَحْتَى ظَبِيَّ

وَهُوَ بِاللَّيْلِ فِي الْعَفَارِيتِ يَسْرِي
دَبْرَهُ خَوَايَةَ مَكْوِ

ذَاكَرُ عَشَهُ بِضَفَةِ نَهْرٍ
النَّاظِرُونَ أَنِّي ابْنُ مَاءِ

ثَ وَأَعْقَبْتُ بَيْنَ ذَنْبٍ وَنَمْرٍ
يَوْمَ أَكَلْتُ مِنْ كَبِدِ الْيَاسَنِ

مِنْ شَوَاءٍ وَمَنْ قَلِيَّةِ جَزْرِ
ذَا كَمْ كَمَنْ يَبِيْتُ بِطِينًا

بينَ عيني وعينها السَّمُّ يجرى
لاحظتُ خَلَّتِي في غدوِّ

ثم

مدنفاً مفرداً محالفاً عسرِ
أصبحتُ بعد خفضٍ ولهوِّ

ثم

كُ وعاديتُ من أهَابَ بصقرِ
مقتُّ من ذبحِ الذي

أتراني

لِ فجاوبته بسرٍ وجهرِ

وسمعتُ

النقيقَ في ظلمِ اللي

ثم

في خمير وفي دراهمِ قمرِ
يرمى بي الجحيمُ جهاراً

فلعلُّ

ويرى كبرتي ويقبلُ عذرى
الإله يرحمُ ضعفي

في حل الضب واستطابته

وسنقول في الذين استحلوه واستطابوه وقدموه.
قالوا: الشيء لا يحرم إلا من جهة كتاب، أو إجماع، أو

حجة عقل، أو من جهة القياس على أصل في كتاب الله عز وجل، أو إجماع، ولم نجد في تحريمه شيئاً من هذه الخصال، وإن كان إنما يُترك من قبل التقزز؛ فقد أكل الناس الدجاج، والشبابيط؛ ولحوم الجلالة، وأكلوا السراطين، والعقصور، وفراخ الزنابير، والصحناء والرَبِيثا فكان التقزز مما يغتذي العذرة رطبةً ويابسة، أولى وأحقّ من كلّ شيء يأكل الضروب التي قد ذكرناها وذكرها الرَّاجز حيث يقول:

رعى المرار والكَبَاث والدِّبَا

وأجفنت في الأرض أعراف السِّفَا

وهو بعيني قانصٍ بالمرتبَا
ظَلَّ يباري هُبَّصاً وَسَطَ المَلَا

رازم بالأكباد منها والكُشَى
كان إذا أَحْفَقَ مِنْ غير الرعا

فإن عفتموه لأكل الدِّبَا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا بيضه.

وقد قال أبو حجين المنقريُّ:

بأسفل وادٍ
ليس فيه أذانٌ

وعرفجُ أكماع
المديدِ خواني

بَكَفَيَّ لَمْ
أَغْسِلُهُمَا
بِشْنَانٍ

على عطشٍ
من سورِ أمِّ
أبانٍ

تضحى عَرَاداً
فهو يَنْفَخُ كَالْقَرْمِ

من السَّمَكِ البُئِيِّ

ألا لَيْتَ شِعْرِي
هل أبيتنَّ لَيْلَةً

وهل آكلنَّ ضَبًّا
بأسفلَ تَلْعَةٍ

أقومُ إلى وقتِ
الصَّلَاةِ وريحه

وهل أشربنُ مِنْ
ماءِ لَيْنَةٍ شَرْبَةً

وقال آخر:

لَعَمْرِي لَضَبٌّ
بِالْعُنَيْزَةِ
صَائِفٌ

أحبُّ إلينا أنْ

يجاور أرضنا

والسَّجَمِ الوَحْمِ

وقال آخرُ في تفضيل أكل الضَّبِّ:

أقولُ له يوماً

وبالله أبغي

وقد راح

صَيْدَهُ

صُحْبَتِي

وأخَاتِلُهُ

فلَمَّا التَقْتُ كَفِّي

وشالت شمالي

على فضل دَيْلِهِ

زَايِلَ الضَّبِّ

باطلُهُ

فأصبح محنوداً

تَمْشَى على

نُضِيجاً

القِيْزَانَ حَوْلًا

وأصْبَحْتُ

حَلَائِلُهُ

شديد اصفرار

تَطَّلَى بَوْرَسَ

الكُشَيْتَيْنِ

بَطْنُهُ وشواكِلُهُ

كأَمَّا

فذلك أشهى

لَحَى اللهُ شَارِيَهُ

وَقَبَّحَ آكِلَهُ

عِنْدَنَا مِنْ
بِيَا حِكْمٍ

وقال أبو الهندي، من ولد شَبَثِ بْنِ رَبِيعٍ:

وَإِنِّي لِأَهْوَى
قَدِيدَ الْغَنَمِ

أَكَلْتُ الضَّبَابَ فَمَا
عَفَّتْهَا

فَنِعْمَ الطَّعَامُ
وَنِعْمَ الْأُدْمُ

وَرَكِبْتُ زُبْدًا
عَلَى تَمْرَةٍ

وَزِينُ السَّدِيفِ
كَبُودُ النَّعَمِ

وَسَمْنُ السَّلَاءِ
وَكَمَاءُ الْقَصِيصِ

أَتَيْتُ بِهِ فَائِرًا
فِي الشَّبَبِ

وَلَحْمَ الْخُرُوفِ
حَنْيِذًا وَقَدْ

فَمَا زَلْتُ مِنْهَا
كَثِيرَ السَّقَمِ

فَأَمَّا الْبَهْطُ
وَحَيْتَانُكُمْ

فَلَمْ أَرَ فِيهَا

وَقَدْ نَلْتُ ذَاكَ

كَمَا نِلْتُمْ

كَضَبِّ هَرَمٍ

وَمَا فِي الْبَيْوِضِ

وَبَيْضِ الْجَرَادِ

كَبَيْضِ الدَّجَاجِ

شِفَاءِ الْقَرَمِ

وَمَكْنُ الضَّبَابِ

وَلَا تَشْتَهِيهِ

طَعَامُ الْعُرَيْبِ

نُفُوسُ الْعَجَمِ

وإلى هذا المعنى ذهب جرّان العود، حين أطعم ضيفه ضبّاً، فهجاه ابن عمّ له كان يُغمزُ في نسبه، فلما قال في كلمة له:

وَتَطْعِمُ ضَيْفَكَ

وَتَأْكُلُ دُونَهُ

الْجَوْعَانَ ضَبّاً

تَمْرًا بَزْبِدًا

وقال في كلمة له أخرى:

وَتَطْعِمُ ضَيْفَكَ

كَأَنَّ الضَّبَّ

الْجَوْعَانَ ضَبّاً

عِنْدَهُمْ عَرِيبٌ

قال جرّان العود:

لَمَّا عَبَتَ
الضَّبَابَ وَمَنْ
قَرَاها

فلولا أَنَّ أَصْلَكَ
فارسيٌّ

وَأَيُّ لَوِيَّةٍ إِلَّا
كُشَاها

قريتُ الضيفَ
من حُبِّي كُشَاها

واللّوية: الطَّعِيمُ الطَّيِّبُ، واللَّطْفُ يرفعُ للشَّيخِ والصَّبِي،
وقد قال الأخطل:

وإنْ كانَ قد لاقى
لَبوساً ومَطْعِماً

فقلتُ لَهُمْ
هاتوا لَوِيَّةَ
مالِكِ

بزماورد الزَّنابير وقال مُويس بن عمران: كان بشر بن
المعتمر خاصّاً بالفضل بن يحيى، فقدم عليه رجلٌ من
مواليه، وهو أحد بني هلال بن عامر، فمضى به يوماً
إلى الفضل؛ ليكرمه بذلك، وحضرت المائدة، فذكروا
الضب ومن يأكله، فأفرط الفضلُ في ذمّه، وتابَعَهُ القوم
بذلك ونظر الهلاليُّ فلم ير على المائدة عربياً غيره،

وغاظه كلامهم، فلم يلبث الفضل أن أتى بصحفة ملآنة
من فراخ الزنابير، ليتخذ له منها بزماورد - والدبر
والنحل عند العرب أجناس من الذبان - فلم يشك الهلالي
أن الذي رأى من ذبان البيوت والحشوش، وكان الفضل
حين ولي خراسان استظرف بها بزماورد الزنابير، فلما
قدم العراق كان يتشهاها فتطلب له من كل مكان، فسمت
الهلالي به وبأصحابه، وخرج وهو يقول:

ظَلَّ يَبَارِي
هُبَّصاً وَسَطَ
الْمَلَا
وهو بعيني
قانس بالمرتبأ

كان إذا أخفق
من غير الرعا
رازم بالأكباد
منها والكشأ

فإن عفتموه لأكل الدبا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا
بيضه.
وقد قال أبو حجين المنقري:

ألا ليت شعري
بأسفل وادٍ

هل أبيتنَّ ليلة

وهل آكلنَّ ضبًّا
بأسفل تلعة

أقومُ إلى وقتِ
الصلاةِ وريحه

وهل أشربنَّ من
ماءِ لينة شربة

وقال آخر:

لعمري لضبِّ
بالعيزة
صائف

أحبُّ إلينا أن
يجاور أرضنا

ليس فيه أذانُ

وعرفجُ أكماع
المديدِ خواني

بكفي لم
أغسلهما
بشنان

على عطش
من سور أم
أبان

تضحى عراداً
فهو ينفخ كالقرم

من السمكِ البني
والسلجمِ الوخم

وقال آخرُ في تفضيل أكل الضَّبِّ:

وبالله أبغي
صَيْدَهُ
وأخَاتِلُهُ

أقولُ له يوماً
وقد راح
صُحْبَتِي

وشالت شمالي
زايِلَ الضَّبِّ
باطلُهُ

فلَمَّا التَقْتُ كَفِي
على فضلِ ذَيْلِهِ

تَمَشَّى على
القِيزانِ حَوْلًا
حلانُهُ

فأصبحَ محنودًا
نضيجًا
وأصبحتُ

تَطَلَّى بَوْرَسَ
بَطْنُهُ وشواكِلُهُ

شديدِ اصفرارِ
الكُشَيَّينِ
كأنما

لَحَى اللهُ شاريه
وقُبِحَ آكِلُهُ

فذلكَ أشهى
عندنا من

بِيَا حِكْمَ

وقال أبو الهندي، من ولد شَبَثِ بْنِ رَبِيعٍ:

وَأِنِّي لِأَهْوَى	أَكَلْتُ الضَّبَابَ فَمَا
قَدِيدَ الْغَنَمِ	عَفْتَهَا
فَنِعْمَ الطَّعَامِ	وَرَكِبْتُ زَبْدًا
وَنِعْمَ الْأُذْمِ	عَلَى تَمْرَةٍ
وَزِينُ السَّدِيفِ	وَسَمْنُ السَّلَاءِ
كَبُودُ النَّعَمِ	وَكَمَاءُ الْقَصِيصِ
أَتَيْتُ بِهِ فَائِرًا	وَلَحْمَ الْخُرُوفِ
فِي الشَّبَمِ	حَنِيذًا وَقَدْ
فَمَا زَلْتُ مِنْهَا	فَأَمَّا الْبَهْطُ
كَثِيرَ السَّقَمِ	وَحَيْتَانُكُمْ
فَلَمْ أَرَ فِيهَا	وَقَدْ نَلْتُ ذَاكَ
كَضَبٌ هَرَمٌ	كَمَا نَلْتُمْ

وَبَيْضُ الْجِرَادِ
شِفَاءُ الْقَرْمِ

وَلَا تَشْتَهِيهِ
نُفُوسُ الْعَجَمِ

وَمَا فِي الْبُيُوضِ
كَبَيْضِ الدَّجَاجِ

وَمَكَنُ الضَّبَابِ
طَعَامُ الْعَرِيبِ

وإلى هذا المعنى ذهب جران العود، حين أطمع ضيفه
ضبباً، فهجاه ابن عم له كان يُغمز في نسبه، فلما قال في
كلمة له:

وَتَأْكُلُ دُونَهُ
تَمْرًا بَزْبِدًا

وَتَطْعَمُ ضَيْفَكَ
الْجَوْعَانَ ضَبًّا

وقال في كلمة له أخرى:

كَأَنَّ الضَّبَّ
عِنْدَهُمْ عَرِيبٌ

وَتَطْعَمُ ضَيْفَكَ
الْجَوْعَانَ ضَبًّا

قال جران العود:

لَمَّا عَبْتِ
الضَّبَّابَ وَمَنْ

فَلَوْلَا أَنَّ أَصْلَكَ

فَارِسِيٌّ

قَرَاهَا

قَرِيتُ الضَّيْفِ
مِنْ حُبِّي كُشَاهَا

وَأَيُّ لَوِيَّةٍ إِلَّا
كُشَاهَا

وَاللَّوِيَّةُ: الطَّعِيمُ الطَّيِّبُ، وَاللَّطْفُ يَرْفَعُ لِلشَّيْخِ وَالصَّبِي،
وَقَدْ قَالَ الْأَخْطَلُ:

فَقَلْتُ لَهُمْ

هَاتُوا لَوِيَّةَ

مَالِكِ

وَإِنْ كَانَ قَدْ لَاقَى
أَبُوسًا وَمَطْعَمًا

بِزَمَاوَرْدِ الزَّنَابِيرِ وَقَالَ مُوَيْسُ بْنُ عِمْرَانَ: كَانَ بَشْرُ بْنُ
الْمَعْتَمِرِ خَاصًّا بِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى، فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ
مَوَالِيهِ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي هَلَالَ بْنِ عَامِرٍ، فَمَضَى بِهِ يَوْمًا
إِلَى الْفَضْلِ؛ لِيَكْرَمَهُ بِذَلِكَ، وَحَضَرَتِ الْمَائِدَةُ، فَذَكَرُوا
النَّضْبَ وَمَنْ يَأْكُلُهُ، فَأَفْرَطَ الْفَضْلُ فِي ذَمِّهِ، وَتَابَعَهُ الْقَوْمُ
بِذَلِكَ وَنَظَرَ الْهَلَالِيُّ فَلَمْ يَرِ عَلَى الْمَائِدَةِ عَرَبِيًّا غَيْرَهُ،
وَغَازَطَهُ كَلَامُهُمْ، فَلَمْ يَلْبَثِ الْفَضْلُ أَنْ أَتَى بِصَحْفَةٍ مَلَانَةٍ
مِنْ فَرَاحِ الزَّنَابِيرِ، لِيَتَّخِذَ لَهُ مِنْهَا بِزَمَاوَرْدًا - وَالذَّبْرُ

والنَّحْلُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَجْنَاسٌ مِنَ الذَّبَّانِ - فَلَمْ يَشْكُ الْهَلَالِيُّ
أَنَّ الَّذِي رَأَى مِنْ ذِبَّانِ الْبَيْوتِ وَالْحَشْرُوشِ، وَكَانَ الْفَضْلُ
حِينَ وَلِيَ خُرَاسَانَ اسْتَظَرَ بِهَا بِزِمَاوَرْدِ الزَّنَابِيرِ، فَلَمَّا
قَدِمَ الْعِرَاقَ كَانَ يَتَشَّهَرُهَا فَتَطْلُبُ لَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَسُمِّتِ
الْهَلَالِيُّ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ، وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَبَعْضُ إِدَامٍ
الْعِجْ هَامٌ
ذُبَابٌ

وَعِجْ يَعَافُ
الضَّبُّ لَوْمًا
وَبَطْنَةٌ

لِقَالُوا لَقَدْ
أُوتِيَتْ فَصْلٌ
خَطَابٌ

وَلَوْ أَنَّ مَلَكًا فِي
الْمَلَا نَاكَ أُمَّه

شَعَرَ أَبِي الطَّرِيقِ فِي مَهْرِ امْرَأَةٍ لَمَا قَالَ أَبُو الطَّرِيقِ
الضَّبِّي:

فَقَدْ جَرَدَتْ بَيْتِي
وَبَيْتَ عِيَالِيَا

يَقُولُونَ
أَصْدِقُهَا جَرَادًا

وَضَبَّةٌ

وَأَبْقَتْ ضِبَاباً
فِي الصُّدُورِ
جَوَاثِمًا

فِيَا لَكَ مِنْ
دَعْوَى تُصِمُّ
الْمُنَادِيَا

وَعَادِيْتُ
أَعْمَامِي وَهَمْ
شَرُّ جِيرَةٍ

يُدْبُونُ شَطْرَ
اللَّيْلِ نَحْوِي
الْأَفَاعِيَا

وَقَدْ كَانَ فِي
قَعْبٍ وَقَوْسٍ
وَإِنْ أَشَأْ

مِنَ الْأَقْطَمَا
بَلَّغْنِي فِي الْمَهْرِ
حَاجِيَا

فَقَالَ أَبُوهَا:

فَلَوْ كَانَ قَعْبًا
رَضَّ قَعْبِكَ
جَنْدَلٌ

وَلَوْ كَانَ قَوْسًا
كَانَ لِلنَّبْلِ أَدْكُرَا

فَقَالَ عَمَّهَا: دَعُونِي وَالْعَبْدَ.

شعر في الضبّ

وأنشد للدُّبيري:

كَعَرَفَجَةِ الضَّبِّ
الذي يتذللُّ

أعمرَ عبدِ الله
إني وجدتكم

قال: هي لينة، وعودها لين، فهو يعلوها إذا حضروا
بالقيظ، ويتشوّف عليها، ولست ترى الضب إلا وهي
سامية برأسها، تنظر وترقب، وأنشد:

إذا حضروا بالقيظِ
والضبُّ نونها

بلاد يكون
الخيّم أطلال
أهلها

وقال عمرو بن خويلد:

وناقة عمرو ما
يحلُّ لها رحلُ

ركاب حُسَيْلٍ
أشهر الصَّيفِ
بُدْنٍ

يُعودُ لما نبني

إذا ما ابتنينا

بَيْتَنَا لِمَعِيشَةٍ

فِيهِدُمُهُ حِسْلُ

وَيَزَعِمُ حِسْلُ
أَنَّهُ فَرَعُ قَوْمِهِ

وَمَا أَنْتَ فَرَعُ
يَا حُسَيْلُ وَلَا
أَصْلُ

وُلِدْتُ بِحَادِي
النَّجْمِ تَسْعَى
بِسَعِيهِ

كَمَا وُلِدْتُ
بِالنَّحْسِ دَيَّانَهَا
عُكْلُ

استطرد لغوي وهم يسمون بحسل وحسيل: وضبّ
وضبّة، فمنهم ضبّة بن أدّ، وضبة بن محض، وزيد بن
ضبّ، ويقال: حفرة ضب، وفي قريش بنو حسل، ومن
ذلك ضبّة الباب، ويسمى حلب الناقة بخمس أصابع ضبّاً،
يقال ضبّها يضبّها ضبّاً: إذا حلبها كذلك، وضبّ الجرح
وبضّ: إذا سال دماً، مثل ما تقول: جذب وجبذ، وإنه
لخبّ ضبّ، وإنه لأخدع من ضبّ، والضبّ: الحقد إذا
تمكّن وسرّت عقاربُه، وأخفى مكانه، والضبّ: ورمّ في
خفّ البعير، وقال الرّاجز:

ليس بذى عرك ولا ذى ضبّ

ويقال ضَبُّ خَدْعٍ، أي مراوغ، ولذلك سموا الخزانة
المخدع، وقال راشد بن شهاب:

ووالله ما دَهْرِي
بعشق ولا سَقَم

أرقتُ فلم
تَخْدَعُ بعيني
نعسة

وقال ذو الرُّمّة:

روؤس الضباب
استخرجتها
الظواهرُ

مناسمها
خُثْمٌ صِلابٌ
كأنها

شعر فيه ذكر الضبّ ويدلُّ على كثرة تصریفهم لهذا
الاسم ما أنشدناه أبو الرُّدَينِيّ:

ولا يُداوي من
صَمِيمِ الحُبِّ

لا يعقر التقبيل
إلا زُبِّي

والضَّبُّ فِي
صَوَانِهِ مُجَبَّبٌ

وَأُنشَدْنَا أَبُو الرَّدِينِيِّ الْعُكْلِيَّ، لَطَارِقَ وَكُنْيَتَهُ أَبُو السَّمَّالِ:

أَنْيَ عَلِيٌّ
مَيَّاسِرِي
وَعَسْرِي

يَا أُمَّ سَمَّالٍ
أَلَمَّا تَدْرِي

صَخْمُ الْمَثَالِيثِ
صَغِيرِ الْأَيْرِ

يَكْفِيكَ رِفْدِي
رَجُلًا دَا وَفُرِّ

كَأَنَّهُ بَيْنَ الذَّرَى
وَالْكَسْرِ

إِذَا تَعَدَّى قَالَ
تَمْرِي تَمْرِي

ضَبُّ تَضَحَى
بِمَكَانِ قَفْرِ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:

لِيُصْطَادَ ضَبُّ

قَدْ اصْطَدْتُ يَا
يَقْظَانَ ضَبًّا وَلَمْ

يَكُنْ

يَظَلُّ رِعَاءُ
الشَّاءِ
يَرْتَمِضُونَهُ

عَظِيمُ الكَشَى
مِثْلُ الصَّبِيِّ إِذَا
عَدَا

وقال العماني:

إِنِّي لِأَرْجُو مِنْ
عَطَايَا رَبِّي

رُومِيَّةٌ أَوْلَجُ
فِيهَا ضَبِّي

مُسْتَحْصِفٌ نَعَم

مِثْلَهُ بِالْحَبَائِلِ

حَنِيذًا وَيُجْنِي
بَعْضُهُ
لِلْحَلَائِلِ

يَفُوتُ الضَّبَابِ
حِسْلُهُ فِي
السَّحَابِ

وَمِنْ وَلِيٍّ
العَهْدِ بَعْدَ
العِبِّ

لَهَا حَرْ
مُسْتَهْدِفٌ
كَالقَبِّ

قَرَابُ الزَّبِّ

وقال الآخر:

وفي أجوافهم
منه ضبابٌ

إذا اصْطَلَحُوا
على أمرٍ تَوَلَّوْا

وقال الزُّبْرُقَانُ بْنُ بَدْرِ:

زَمِرُ المَرِوَعَةِ
نَاقِصُ الشَّبْرِ

ومن الموالِي
ضَبُّ جَنْدَلَةٍ

فالأول جعل أيره ضَبًّا، والثاني جعل الحقد ضَبًّا.
وقال الخليل بن أحمد، في ظهر البصرة مما يلي قَصْرِ
أَنَسٍ:

لا بُدَّ مِنْ زُورَةٍ
عَنْ غَيْرِ
مِيعَادِ

زُرُّ وادِي الْقَصْرِ
نِعْمَ الْقَصْرُ
والوادي

والضَّبُّ
والنُّونُ

تَرَى بِهِ السَّفْنَ
كَالظُّمَانِ

واقفة

والملاح
والحادي

وقال في مثل ذلك ابن أبي عيينة:

يا جنة فأتت
الجنان فما

يبلغها قيمة
ولا تمن

ألفتها فاتخذتها
وطناً

إن فوادي
لأهلها وطن

زوج حياتها
الضباب بها

فهذه كنة وذا
ختن

فانظر وفكر فيما
تطيف به

إن الأريب
المفكر الفطن

من سفن كالنعام
مقبلة

ومن نعام
كانها سفن

وقال عقبة بن مكرم في صفة الفرس:

وَلَهَا مَنْخَرٌ
إِذَا رَفَعْتَهُ

فِي الْمَجَارَةِ مِثْلُ
وَجْرِ الضَّبَابِ

وَأَنشَدُ:

وَأَنْتَ لَوْ دَقْتِ
الْكُشَى بِالْأَكْبَادِ

لَمَا تَرَكَتِ الضَّبَّ
يَسْعَى بِالْوَادِ

وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ النَّمِيرِي:

وَقَرَّبُوا كُلَّ
قِنْعَاسٍ فُرَاسِيَّةٍ

أَبَدًا لَيْسَ بِهِ
ضَبٌّ وَلَا سَرْرٌ

وَقَالَ كَثِيرٌ:

وَمَحْتَرَشُ
ضَبِّ الْعَدَاوَةِ
مِنْهُمْ

بِحُلُوِّ الرَّقِيِّ
حَرَشُ الضَّبَابِ
الْخَوَادِعِ

وَقَالَ كَثِيرٌ أَيْضًا:

وَمَا زِلْتُ رُقَاكَ

وَتُخْرِجُ مِنْ

تَسَلُّ ضِغْنِي

مضائبها ضبابي

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

فأما الذين ذموا الضب وأكله، وضربوا المثل به
وبأعضائه وأخلاقه وأعماله، فكما قال التميمي:

لِيَالِي فَرَّ مِنْ
أَرْضِ الضَّبَابِ

وأشجارٍ
وأنهارٍ عذابِ

وصرنا نحنُ
أمثالَ الكلابِ

فقد أزرى بنا
في كلِّ بابِ

فقلْ عَدَّ عَنْ دَا

لِكِسْرِي كَانَ
أَعْقَلَ مِنْ تَمِيمِ

فَأَنْزَلَ أَهْلَهُ
بِبِلَادِ رَيْفِ

وصار بنو بنيهِ
بها ملوكاً

فلا رَحِمَ الإلهُ
صَدَى تَمِيمِ

وقال أبو نواس:

إذا ما تميميُّ

كَيْفَ أَكَلَكِ لِلضَّبِّ

وَبَوْلِكَ يَجْرِي
فُوقَ سَاقِكَ
وَالكَعْبِ

مِنْ كُلِّ مُنْهَمِرٍ
الْأَحْشَاءِ ذِي
بَرَدٍ

بِبَطْنِ فُلْجٍ عَلَى
الْيَنْسُوعِ فَالْعُقْدِ

أَهْلِ الْجَفَاءِ
وَعَيْشِ الْبُؤْسِ
وَالصَّرَدِ

أَتَاكِ

مُفَاخِرًا

تُفَاخِرُ أَبْنَاءَ
الْمُلُوكِ
سَفَاهَةً

وقال الآخر:

فَحَبِّدَا هُمْ
وَرَوَى اللَّهُ
أَرْضَهُمْ

وَلَا سَقَى اللَّهُ
أَيَّامًا غَنِيَّتُ
بِهَا

مَوَاطِنٌ مِنْ
تَمِيمٍ غَيْرِ
مَعْجِبَةٍ

هَمُّ الْكِرَامِ كَرِيمٌ
الْأَمْرُ تَفَعُّلُهُ

أَصْحَابُ ضَبٍّ
وَيَرْبُوعٌ
وَحَنْظَلَةٌ

إِنْ يَأْكُلُوا
الضَّبَّ بَاتُوا
مُخَصِّبِينَ بِهِ

لَوْ أَنَّ سَعْدًا لَهَا
رَيْفٌ لَقَدْ
دُفِعَتْ

مَنْ ذَا يَقَارِعُ
سَعْدًا عَنْ
مَفَازَتِهَا

وَهُمْ سَعْدٌ بِمَا
تُلْقِي إِلَى الْمَعِدِ

وَعَيْشَةٌ سَكَنُوا
مِنْهَا عَلَى
ضَمِّدٍ

وَزَادَهَا الْجُوعُ
إِنْ بَاتَتْ وَلَمْ
تَصِدْ

عَنْهُ كَمَا دُفِعَتْ
عَنْ صَالِحِ الْبَلَدِ

وَمَنْ يُنَافِسُهَا
فِي عَيْشِهَا
النَّكَدِ

وقال في مثل ذلك عمرو بن الأهتم:

وَتَرَكْنَا عُمَيْرَهُمْ
رَهْنَ ضَبْعٍ

مُسْلِحِيًّا وَرَهْنَ
طُؤْسِ الدُّنَابِ

نَزَلُوا مَنْزِلَ
الضِّيَافَةِ مِنَّا

فَقَرَى الْقَوْمَ
عِلْمَةَ الْأَعْرَابِ

وَرَدَدْنَاهُمْ إِلَى
حَرَّتَيْهِمْ

حَيْثُ لَا يَأْكُلُونَ
غَيْرَ الضَّبَابِ

وقالت المريّة:

جاؤوا بحارشة
الضباب كأنما

جاؤوا ببنت
الحارث بن عباد

وقائلة هذا الشعر امرأة من بني مرة بن عباد.
وقال الحارث الكندي:

ولا جننا حُسيناً يابن أنسٍ

مُضِبّاً في مضابئها يُفسي

بحاجتنا تَلَوْنَ لَوْنَ وَرَسِ

فلما أن أتيناهُ

وقلنا

لعمرك ما إلى
ولكنّ ضبّ جـ

يُرِينَا أَنَّهُ وَجَعَ بِضُرْسِ
وَأَصَّ بِكَفِّهِ
يَحْتَكُ ضِرْسًا

وَقَلْتُ أُسِرُّهُ أَتْرَاهِ يُمْسِي
فَقَلْتُ
لصاحبي أبعه كزاز

نَحَاذِرُ أَنْ نَزْنَ بِقَتْلِ نَفْسِ
وَقَمْنَا هَارِبِينَ
مَعًا جَمِيعًا

وقالت عائشة ابنة عثمان، في أبان بن سعيد بن العاص،
حين خطبها، وكان نزل أيلة وترك المدينة:

نَزَلَتْ بَبَيْتِ
الضَّبِّ لَا أَنْتِ
ضَائِرٌ
عَدُوًّا وَلَا
مُسْتَنْفَعًا أَنْتِ
نَافِعٌ

وقال جرير:

وَجَدْنَا بَيْتَ
ضَبَّةَ فِي تَمِيمِ
كَبَيْتِ الضَّبِّ لَيْسَ
لَهُ سَوَارِي

وقال آخر - وهذا الشعر يقع أيضاً في الضَّبَاع كما يقع
في الضَّبَاب :-

والوثب للعنز
وغير الوثب

يا ضبُع الأكهافِ
ذاتِ الشَّعبِ

فلستُ بالطَّبِّ
ولا ابن الطَّبِّ

عِثِّي ولا
تَحشِينِ إِلَّا
سَبِّي

يضيق عند ذي
القرَدِ المكبِّ

إنْ لم أَدعِ بَيْتَكَ
بَيْتَ الضَّبِّ

وقال الفرزدق:

قفا ضبَّةً عند
الصَّفَاةِ مَكُونِ

لحي الله ماءً
حنبلٌ خيرُ أهله

يمِينُك ماءً
مُسْلماً بِيَمِينِ

فلو عَلِمَ الحَجَّاجُ
عِلْمَكَ لم تَبِعْ

وأنشد:

بأعمى ولكن
فات وهو
بصير

زعمت بأن
الضب أعمى ولم
يقت

إليك بصحراء
البياض
غريز

بل الضب أعمى
يوم يخنسُ باسته

وقالت امرأة في ولدها وتهجو أباه:

يقلبُ عيناً مثل
عين الضبِّ

وهبته من ذي
تُقالِ حَبِّ

ليس بمعشوق
ولا مُحَبِّ

وقال رجلٌ من فزارة:

كأسنانِ حِسلٍ لا
وفاءً ولا عَدْرُ

وجدناكم راباً
بين أمِّ قِرْفَةٍ

وأنشد:

يقاتلنا بالقرنِ
ألف مقنّع

ثلاثون راباً أو
تزيد ثلاثة

والرأب: السواء، والمعنى الأول يشبه قوله:

لذي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ
عَلَى نَاشِيٍّ فَضْلاً

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ
الْحَمَارِ فَلَا
تَرَى

وأنشد ابن الأعرابي:

كَأَنَّهَا كَشْيَةٌ
ضَبٌّ فِي صُفْعٍ

قَبَّحَتْ مِنْ سَالِفَةٍ
وَمِنْ صُدْعٍ

أراد صُفْعٌ بِالْعَيْنِ فِقْلَبٌ، وَقَالَ الْآخَرُ:

أَعَقَّ مِنْ ضَبٍّ وَأَفْسَى مِنْ ظَرْبٍ

وأنشد:

وَلَا سَلْفِعٍ يَلْقَى
مِرَاساً زَمِيئُهَا

فَجَاءَتْ تَهَابُ
الدَّمِّ لَيْسَتْ بِضَبَّةٍ

يقول: لا تخدع كما يخدع الضَّبُّ في جُحره.
وأنشد ابن الأعرابي لحيان بن عبيد الربيعي جد أبي
محضة:

إذ هو يسعى
يستجير
للسور

يا سهل لو رأيتَه
يوم الجفر

لازددت منه
قدراً على
قدر

يرمي عن الصفو
ويرضى بالكدر

ولثة كائها
سير حور

يضحك عن ثغر
ذميم المكتشر

وعارض
كعارض الضب
الذكر

وأنشد السدري:

وخصيتنا
صرصراني
من الإبل

هو القرني
ومشي الضب
تعرفه

وعاتق يتعق
مأبض الرجل

والخال ذو قح
في الجري
صادقة

واعلم، حفظك الله تعالى، أنه قد أكتفي بالشاهد، وتبقى في
الشعر فضلة، مما يصلح لمذاكرة، ولبعض ما بك إلى
معرفة حاجته، فأصله به، ولا أقطعه عنه.
وأنشد لابن لجأ:

يلصق بالصخر
لصوق الأرقم

وعنوي
يرتمي
بأسهم

لو سئم الضب
بها لم يسأم

وقال أعرابي من بني تميم:

تَسْخَرُ مِنِّي أَنْ
رَأَيْتِي أَحْتَرِشُ

وَلَوْ حَرَشْتِ
لَكَشَفْتِ عَنْ
حِرْشِ

يريد عن حرك.
قال: وقال أبو سعدة:

قَلَّهْزَمَانِ جَعْدَةٌ
لِحَاهِمَا

عَادَاهُمَا اللَّهُ
وَقَدْ عَادَاهُمَا

ضَبًّا كُدِّي قَدْ
غَمَّرَتْ كَشَاهِمَا

وَأَنْشُدِ الْأَصْمَعِي:

إِنِّي وَجَدْتُكَ
يَا جُرْثُومُ مِنْ
نَفْرِ

جُرْثُومَةُ اللَّؤْمِ لَا
جُرْثُومَةَ الْكِرْمِ

إِنَّا وَجَدْنَا بَنِي
جَلَانَ كُلَّهُمْ

كَسَاعِدِ الضَّبِّ لَا
طَوْلَ وَلَا عِظْمَ

وقال ابن ميادة:

إذا أسد كشتت
لفخر ضباؤها

فإن لقيس من
بغيض لناصراً

وفي هذه القصيدة يقول:

على الشمس لم
يطلع عليك
حجابها

ولو أن قيساً
قيس عيلان
أقسمت

وهذا من شكل قول بشار:

هتكنا حجاب
الشمس أو
مطرت دما

إذا ما غضبنا
غضبة
مضرية

وأشده لأبي الطمّاح:

منا بثغر ثنية
لم تستر

مهلاً نَميرُ
فإنكم

أَمْسَيْتُمْ

مُطِرَ الْبِلَادُ
وَحِرْمُهَا لَمْ
يُمَطِّرِ

سُوداً كَأَنَّكُمْ
ذُنَابُ خَطِيئَةٍ

حَبَّو الضَّبَابِ إِلَى
أَصُولِ السَّخْبِرِ

يَحْبُون بَيْنَ أَجَا
وَبُرْقَةٍ عَالِجٍ

تَهْوِي تَنِيَّتُهُ
كَعَيْنِ الْأَعُورِ

وَتَرَكَتُمْ قِصَبِ
الشَّرِيفِ
طَوَامِيًّا

مفخرة العُثِّ للضبِّ

وقال العُثِّ، واسمه زيد بن معروف، للضبِّ غلام رُتْبِيلِ
بن غَلَّاقٍ: وقد رأيت من سمى عَنزاً وثوراً، وكلباً،
ويربوعاً، فلم نر منهم أحداً أشبه العنز ولا الثور، ولا
الكلب، ولا اليربوع، وأنت قد ثقَّيْتِ الضَّبَّ حتى لم تغادِرْ
منه شيئاً، فاحتمَلْ ذلك عنه، فلمَّا قال:

من كان يدعى
باسمٍ لا يناسبه

فقال ضبُّ لعثَّ:

فأنتَ والاسمُ
شَنُّ فوقه طبقُ

إِنْ كُنْتُ ضَبًّا
فإِنَّ الضَّبَّ
مُحْتَبَلٌ

والضَّبُّ ذو ثَمَنٍ
فِي السُّوقِ
مَعْلُومٌ

وَلَيْسَ لِلْعُثِّ
حَبَالٌ
يُرَاوِعُهُ

وَلَسْتُ شَيْئاً
سِوَى قَرْضٍ
وَتَقْلِيمٍ

وما أكثر ما يجيء الأعرابي بقربة من ماء، حتى يفرغها في جحره، ليخرج فيصطاده، ولذلك قال الكميت في صفة المطر الشديد الذي يستخرج الضباب من جحرتها، وإن كانت لاتتخذها إلا في الارتفاع - فقال:

وعلته بتركها
تحفش الأكُ

مَ وَيَكْفِي
المضَبِّبَ التَّفْجِيرُ

والمضّيب هو الذي يصيد الضباب.

القول في سن الضب وعمره

أنشد الأصمعي وغيره:

تعلقت	خطبي وهزّت
واتصلت	رأسها تستبلي
بعكل	
تسألني من	فقلت لو عمّرت
السنين كم	عمر الحسل
لي	
أو عمر نوح	والصخر مبتل
زمن الفطحل	كطين الوحل
صرت رهين	
هرم أو قتل	

وهذا الشعر يدلُّ على طول عمر الحسل؛ لأنه لم يكن
ليقول:

أَوْ عُمَرَ نَوْحٍ
زَمَنَ الْفِطْحِ

وَالصَّخْرُ مَبْتَلٌ
كَطِينِ الْوَحْلِ

إِلَّا وَعَمَرَ الْحِجْلَ عِنْدَهُ مِنْ أَطْوَلِ الْأَعْمَارِ.
وَرَوَى ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ أَنَّ سِنَّ الضَّبِّ
وَاحِدَةٌ أَبَدًا، وَعَلَى حَالِ أَبَدًا، قَالَ فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَا أَفْعَلُهُ مَا
دَامَ سِنُّهَا كَذَلِكَ، لَا يَنْقُصُ وَلَا يَزِيدُ.
وَقَالَ زَيْدُ بْنُ كَثُوفَةَ: سِنَّ الْحِجْلِ ثَلَاثَةٌ أَعْوَامٌ، وَزَعَمَ أَنَّ
قَوْلَهُ ثَمَّةٌ: لَا أَفْعَلُهُ سِنَّ الْحِجْلِ غَلَطَ، وَلَكِنَّ الضَّبَّ طَوِيلُ
الْعُمُرِ إِذَا لَمْ يَعْرِضْ لَهُ أَمْرٌ.
وَسِنَّ الْحِجْلِ مِثْلُ سِنَّ الْقُلُوصِ، ثَلَاثٌ سِنِينَ، حَتَّى يَلْقَحَ؛
وَلَوْ كَانَتْ سِنَّ الْحِجْلِ عَلَى حَالِ وَاحِدَةٍ أَبَدًا لَمْ تَعْرِفْ
الْأَعْرَابُ الْفِتْيَ مِنَ الْمُدَّكِيِّ.
وَقَدْ يَكُونُ الضَّبُّ أَعْظَمَ مِنَ الضَّبِّ وَلَيْسَ بِأَكْبَرَ مِنْهُ سِنًّا.
قَالَ: وَلَقَدْ نَظَرْتُ يَوْمًا إِلَى شَيْخٍ لَنَا يَفْرُ ضَبًّا جَحَلًا سَبْحَلًا
قَدْ اصْطَادَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ
يَكُونَ هَرْمًا.

بيض الضب

قال: وزعم عمرو بن مسافر أن الضبّة تبيض ستّين بيضة، فإذا كان ذلك سدّت عليهن باب الجحر، ثم تدعهن أربعين يوماً فيتفقّص البيض، ويظهر ما فيه، فتحفر عنهنّ عند ذلك، فإذا كشفت عنهن أحضرن وأحضرت في أثرهن تأكلهن، فيحفر المنفلت منها لنفسه جُحراً ويرعى من البقل.

قال: وبيض الضبّ شبيهٌ ببيض الحمام، قال: وفرخه حين يخرج يخرج كَيْساً كاسياً، خبيثاً، مُطيقاً للكسب، وكذلك ولد العقرب، وفراخ البطّ، وفراريج الدجاج، وولد العناكب.

سنّ الضب

وقال زيد بن كَثُوة، مرّةً بعد ذلك: إنّ الضب ينبت سنّه معه وتكبر مع كبر بدنه، فلا يزال أبداً كذلك إلى أن ينتهي بدنه منتهاه قال: فلا يُدعى حسلاً إلا ثلاث ليالٍ فقط.

وهذا القول يخالف القول الأوّل، وأنشد:

مِنَ الضَّبَابِ

مَهْرُتُهَا بَعْدَ

المِطَالِ ضَبَّيْنُ

سَخْبَلَيْنِ سَبْطَيْنِ

نِعْمَ لِعَمْرِ اللَّهِ
مَهْرُ الْعَرَسَيْنِ

أنشدني ابن فضال: أمهرتها وزعم أنه كذلك سِمعها من
أعرابي.

وقد يكون أن يكون الحسل لا يُثني ولا يُرْبِع، فتكون
أسنانه أبدأً على أمر واحد، ويكون قول روبة بن العجاج
في طول عمره حقاً.
ويدلُّ على أن أسنانه على ما ذكروا قولُ الفزاري:

كأسنانِ حِسلٍ لا
وَفَاءٌ وَلَا غَدْرُ

وجدناكم راباً
بني أم قِرْفَةَ

يقول: لا زيادة ولا نقصان.

قصة في عمر الضب

وقال زيد بن كَثُوة المزني: قال العنبري، وهو أبو يحيى:
مكثتُ في عنقوان شَبِيبَتِي، ورِيعانٍ من ذلك، أُرِيعُ ضَبًّا،
وكان ببعض بلادنا في وشاز من الأرض، وكان عظيماً

منها مُنْكَرًا، ما رأيتُ مثله، فمكثتُ دهرًا أريغه ما أقدر عليه، ثم إنني هبطتُ إلى البصرة، فأقمتُ بها ثلاثين سنةً، ثم إنني والله كررتُ راجعاً إلى بلادي، فمررتُ في طريقي بموضع الضَّبِّ، معتمداً لذلك، فقلت: والله لأعلمنَّ اليومَ علمه، وما دهرِي إلا أن أجعل من جلده عُكَّةً؛ للذي كان عليه من إفراطِ العِظْمِ، فوجَّهتُ الرِّواحلَ نحوه، فإذا أنا به والله مُحْرَبُناً على تلعة؛ فلما سمعَ حسَّ الرِّواحلِ، ورأى سواداً مقبلاً نحوه، مرَّ مسرعاً نحو جحره، وفاتني والله الذي لا إله إلا هو.

مكن الضبّة

وقال ابن الأعرابي: أخبرني ابن فارس بن ضبعان الكلبِي، أنَّ الضبّةَ يكون بيضُها في بطنها، وهو مكنها، ويكون بيضُها متسِقاً، فإذا أرادتُ أن تبيضه حفرتُ في الأرض أدحياً مثل أدحِي النعامِ، ثم ترمي بمكنها في ذلك الأدحِي ثمانين مكنة، وتدفنه بالتراب، وتدعه أربعين يوماً، ثم تجيءُ بعد الأربعين فتبحثُ عن مكنها، فإذا حسلته يتعادين منها، فتأكلُ ما قدرتُ عليه، ولو قدرتُ على جميعهن لأكلتهن، قال: ومكنها جلدٌ لين، فإذا يبست

فهي جلد، فإذا شويتها أو طبختها وجدت لها مَحاً كَمَحِ
بيض الدجاج.

عداوة الضبّة للحية

قال: والضبّة تقاتل الحية وتضربها بذنبها، وهو أحسن
من السّفن وهو سلاحها، وقد أعطيت فيه من القوّة مثل
ما أعطيت العقاب في أصابعها، فربما قطعها بضربة، أو
قتلتها، أو قذّتها، وذلك إذا كان الضبّ ذيّالاً مذنباً وإذا
كان مرانساً قتلته الحية.

والتذنيب: أنّ الضبّ إذا أرادت الحية الدّخول عليه في
جُحره أخرج الضبّ ذنبه إلى فم جُحره، ثم يضرب به
كالمخراق يميناً وشمالاً، فإذا أصاب الحية قطعها، والحية
عند ذلك تهربُ منه، والمرأسة: أن يُخرج الرّأس ويدع
الدّنب ويكون عُمرأ فتعضّه الحية فتقتله.

استطرد لغوي قال: وتقول: أمكنت الضبّة والجرادة فهي
تمكن إمكاناً: إذا جمعت البيض في جوفها، واسم البيض
المكن، والضبّة مَكُون، فإذا باضت الضبّة والجرادة قيل
قد سرأت، والمكن والسّرء: البيض، كان في بطنها أو
بعد أن تبيضه، وضبّة سرؤء، وكذلك الجرادة تسراً

سرعاً، حين تُلقى بيضها، وهي حينئذٍ سلُقةٍ.
وتقول: رزّت الجرادة ذنبها في الأرض فهي ترزُّ رزّاً،
وضربت بذنبها الأرض ضرباً، وذلك إذا أرادت أن تلقي
بيضها.

المضافات من الحيوان ويقولون: ذئب الخمر، وشيطان
الحماطة، وأرنب الخُلة، وتيس الرّبل، وضبّ السّحا،
والسّحا: بقلة تحسُن حاله عنها.
ويقال: هو قنفذ بُرقة، إذا أراد أن يصفه بالخُبث.

ذكر الشعراء للضب في وصف الصيف

وما أكثر ما يذكرون الضبّ إذا ذكروا الصيف مثل قول
الشاعر:

والضبُّ في
الجُحر والعُصفورُ
مُجتمعُ

سار أبو مسلمٍ
عنها
بصرمتهِ

وكما قال أبو زبيد:

حين لاحت

أيُّ ساعٍ سعى

ليقطع شربي

للصَّابِحِ
الجوزاءُ

واستكنَّ

بَّ وأوفى في

العُصفور كَرهاً

عُودِه

مع الض

الحِرباءُ

وأنشد الأصمعيّ:

تجاوَزْتُ

مع الضَّبِّ

والعصفور في

والشَّقْدَانُ تَسْمُو

الجُر لاجئُ

صَدورُها

قال: والشَّقْدَانُ: الحِرابيِّ، قوله: تسمو: أي تَرْتَفِعُ في رؤوس العيدان، الواحد من الشَّقْدَانِ، بكسر الشين وإسكان القاف، شَقْدٌ بتحريك القاف.

أسطورة الضب والضفدع

وتقول الأعراب: خاصم الضبُّ الضفدعَ في الظُّمأ أيهما أصبر، وكان للضفدع ذنَّب، وكان الضبُّ ممسوحَ الذنَّب، فلَمَّا غلبها الضبُّ أخذ ذنَّبها فخرجا في الكلاء، فصَبِرت

الضفدع يوماً ويوماً، فنادت: يا ضَبُّ، ورداً ورداً فقال
الضَبُّ:

أصَبَحَ قَلْبِي
صِرْدَا
لَا يَشْتَهِي أَنْ
يَرِدَا

إِلَّا عَرَاداً عَرِدَا
وَصِلْيَاناً بَرِدَا

فلما كان في اليوم الثالث نادت: يا ضَبُّ، ورداً ورداً قال:
فلَمَّا لم يُجِبْهَا بَادَرْتُ إِلَى الْمَاءِ، وَأَتْبَعَهَا الضَّبُّ، فَأَخَذَ
ذَنْبَهَا، فَقَالَ: فِي تَصْدَاقِ ذَلِكَ ابْنِ هَرْمَةَ:

أَلَمْ تَأْرَقْ
لِضَوْءِ الْبَرِّ
قِي فِي أَسْحَمِ
لَمَّاحِ

كَأَعْنَاقِ نِسَاءِ
الْهِنِّ
دِ قَدْ شَيَّبَتْ
بِأَوْضَاحِ

تَوَّامِ الْوَدْقِ
كَالزَّاحِ
فِ يُزْجِي خَلْفَ
أَطْلَاحِ

يَّ أو أصوات
أَنْوَا حِ

تَهْدِيَّهَا
بِمُصْبَاحِ

عِ فِي بَيِّدَاءِ
قِرْوَا حِ

مَ مِنْ كَرْبِ
وَتَطْوَا حِ

وَمَا أَنْتَ
بِسَبَّاحِ

نِ أَبْدَى خَيْرِ
إِرْوَا حِ

لَبِّ بِالْمَاءِ
سَحَّاحِ

كَأَنَّ الْعَا زِفَ
الْجَنِّ

عَلَى أَرْجَائِهَا
الْعُرِّ

فَقَالَ الضَّبُّ
لِلضَّفْدِ

تَأَمَّلْ كَيْفَ
تَنْجُوُ الْيَوْمَ

فَأِنِّي سَابِحٌ
نَاجٍ

فَلَمَّا دَقَّ أَنْفُ
الْمُرِّ

وَسَخَّ الْمَاءُ مِنْ
مُسْتَحٍ

عِ عَوْمًا غَيْرِ
مِنْجَاحٍ

رَأَى الضَّبُّ مِنْ
الضَّفْدِ

ثَجُوجٌ غَيْرِ
نَشَّاحٍ

وَحَطَّ العُصْمَ
يُهْوِيهَا

نِ يَمْشِي خَلْفَهُ
الصَّاحِي

ثَقَّالُ المَشْيِ
كَالسَّكْرَا

ثم قال في شأن الضفدع والضب، الكميثُ بن ثعلبة:

وعند الحكومة
أَدْنَابَهَا

عَلَى أَخْذِهَا يَوْمَ
غَبِّ الوُرُودِ

وقال عبيد بن أيوب:

كَفَرَّخِ الضَّبَّ لَا
يَبْغِي وَرُودَا

ظَلَلْتُ وَنَاقَتِي
نِضْوِي فَلَآءِ

وقال أبو زياد: قال الضبُّ لصاحبه:

وزعموا أنك

أَهْدَمُوا بَيْتَكَ لَا

أبالكا

لا أخالكا

وأنا أمشي

الحَيْكى حوالكا

قول العرب أروى من الضب

وتقول العرب: أَرَوَى من ضَبٍّ؛ لأن الضب عندهم لا يحتاج إلى شرب الماء، وإذا هَرِمَ اكتفى ببُرد النَّسيم، وعند ذلك تفنى رطوبته فلا يبقى فيه شيء من الدَّم، ولا مما يُشبه الدَّم، وكذلك الحيَّة، فإذا صارت كذلك لم تقتل بلعاب، ولا بمجاج، ولا بمخالطة ريق؛ وليس إلا مخالطة عظم السنِّ لدماء الحيوان، وأنشدوا:

لَمِيْمَةٌ من

حَنْشٍ أَعْمَى

أَصَمِّ

فكَلَّمَا أَقْصَدَا

منه الجوعُ

شَمُّ

قد عاشَ حتَّى

هو لا يمشي بدم

وأما صاحبُ المنطق فإنه قال: باضطرار إنه لا يعيش
حيوانٌ إلا وفيه دمٌ أو شيء يشاكل الدم،

إخراج الضب من جحره

والضبُّ تذلقه من جُحره أمور، منها السَّيلُ، وربما صبُّوا
في جحره قربةً من ماءٍ فأذلقوه به، وأنشد أبو عبيدة:

يُذَلِّقُ السَّيْلُ
يَرَابِيعَ النَّفْقِ

يُذَلِّقُ الضَّبَّ
وَيَخْفِيهِ كَمَا

يَخْفِيهِ مَفْتُوحَةَ الْيَاءِ، وتذلقه وقع حوافر الخيل، ولذلك
قال امرؤ القيس بن حُجر:

خَفَاهُنَّ وَذَقَّ مِنْ
سَحَابِ مُرْكَبٍ

خَفَاهُنَّ مِنْ
أَنْفَاقِهِنَّ
كَأَنَّمَا

تقول: خَفَيْتَهُ أَخْفِيهِ خَفِيًّا: إذا أظهرته، وأخْفَيْتَهُ إِخْفَاءً:
إذا سترته، وقال ابن أحرمر:

وإن تبعثوا

فإن تدفئوا

الدَّاءُ لَا نَخْفِيهِ

الحَرْبَ لَا نَقْعُدِ

وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَقَعُ الْحَوَافِرِ هَدَمَ عَلَيْهَا، أَوْ يَكُونَ
أَفْرَعَهَا فَخَرَجَتْ، وَأَهْلُ الْحِجَازِ يَسْمُونَ النَّبَّاشَ الْمُخْتَفِي؛
لَأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ الْكَفْنَ مِنَ الْقَبْرِ وَيُظْهِرُهُ.

وَحَكَوْا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ بَنِي عَامِرٍ قَدْ
جَعَلُونِي عَلَى حَنْدِيرَةٍ أَعْيْنَهَا، تَرِيدُ أَنْ تَخْتْفِيَ دَمِي أَيْ
تَظْهِرُهُ وَتَسْتَخْرِجُهُ، كَأَنَّهَا إِذَا سَفَحَتْهُ وَأَرَاقَتْهُ فَقَدْ
أَظْهَرْتُهُ.

قول أبي عبيدة في تفضيل أبيات لامرئ القيس وأنشد أبو
عبيدة:

دِيمَةٌ هَظْلَاءُ

طَبَقُ الْأَرْضِ

فِيهَا وَطْفٌ

تَحَرَّى وَتَدْرُ

تَخْرُجُ الضَّبُّ إِذَا

وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا

مَا أَشْجَذَتْ

تَعْتَكِرُ

وَتَرَى الضَّبَّ

ثَانِيًا بُرْثَنَهُ مَا

ذَفِيفًا مَاهِرًا

يَنْعَفِرُ

وكان أبو عبيدة يقدّم هذه القصيدة في الغيث، على
قصيدة عبيد بن الأبرص، أو أوس بن حجر، التي يقول
فيها أحدهما:

يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ
قَامَ بِالرَّاحِ

دَانِ مُسِيفًا فَوْيَقَ
الْأَرْضِ هَيْدَبَهُ

وَالْمُسْتَكَنَّ كَمَنْ
يَمْشِي بِقِرْوَاكِ

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ
كَمَنْ بَعْقَوْتِهِ

وأنا أتعجب من هذا الحكم.

قولهم: هذا أجلُّ من الحرش ومما يضيفون إلى هذه
الضباب من الكلام، ما رواه الأصمعيّ في تفسير المثل،
وهو قولهم: هذا أجلُّ من الحرش - أن الضبَّ قال لابنه:
إذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجنّ قال: والحرش:
تحريك اليد عند جحر الضب؛ ليخرج ويرى أنه حيّة،
قال: فسمع الحسل صوت الحفر، فقال للضبّ: يا أبت هذا
الحرش؟ قال: يا بُنيّ، هذا أجلُّ من الحرش فأرسلها
مثلاً.

الضب والصفدع والسمكة

وقال الكميت:

وَيَعَجَبُ أَنْ نَبَرَ
بني أبينا

يُؤَلَّفُ بَيْنَ
ضِفْدَعَةٍ وَضَبِّ

وقال في الضَّبِّ والنُّون:

لِشَيْءٍ وَبِالشَّكْلِ
المقارِبِ للشَّكْلِ

وَلَوْ أَنَّهُمْ جَاؤُوا
بشْيءٍ مُقَارِبِ

قوامسَ والمكنيِّ
فينا أبا حِسلِ

وَلَكِنَّهُمْ جَاؤُوا
بِحِيتانِ لُجَّةِ

وقال الكميت:

على الحيتانِ مِنْ
شَبَهِ الحسولِ

وما خَلْتُ
الضَّبَابَ
مُعْطَفَاتِ

وقال آخر: والعَرَبُ تقولُ في الشَّيْءِ المُمْتَنِعِ: لا يكونُ
ذلك حتى يَرِدَ الضَّبُّ، وفي تبعيدِ ما بينَ الجَنَسَيْنِ: حتى
يؤَلَّفَ بينَ الضَّبِّ والنُّونِ.

استطرد لغوي قال: ويقال أُضِبَّت أرض بني فلان: إذا
كَثُرَتْ ضِبَابُهَا، وهذه أرضٌ مَضِبَّةٌ، وأرضُ بني فلان
مَضِبَّةٌ، مثل فَيْرَة من الفَار، وَجَرْدَة من الجُرْدَان، وَمَحْوَاة
وَمَحْيَاة من الحَيَات، وَجَرْدَة من الجَرَاد، وَسِرْفَة من
السَّرْفَة، وَمَأْسَدَة من الأَسْوَد، وَمَثْعَلَة من الثَّعَالِب؛ لأنَّ
الثَّعْلِبَ يَسْمَى ثَعَالَة، وَالدُّبُّ دُؤَالَة.
ويقال أرضٌ مَذْبَة من الدُّبَاب، مَذَابَة من الدُّنَابِ.
ويقال في الضَّبِّ: وَقَعْنَا فِي مَضَابِّ مَنكَرَة، وهي قِطْعٌ من
الأرض تكثر ضِبَابُهَا.

قال: ويقال أرضٌ مَرْبَعَة، كما يقال مَضِبَّةٌ، إذا كانت ذات
يرابيع وضيباب، واسمُ بِيضِهَا المَكْن، والواحدة مَكْنَة.
ويقال لفرخه إذا خرج حِسْل، والجميعُ حَسَلَة، وأحسال،
وحُسُول، وهو حِسْل، ثم مُطْبَخٌ ثم غِيدَاق، ثمَّ جَحْل،
وَالسَّخْبَلُ: ما عَظُمَ مِنْهَا، وهو في ذلك كُلُّهُ ضَبٌّ.
وبعضُهم يقول: يكون غِيدَاقاً، ثم يكون مطْبَخاً، ثمَّ يكون
جَحْلاً، وهو العَظِيم، ثمَّ هو خُضْرَمٌ، ثمَّ يكون ضِباً، وهذا
خطأ، وهو ضَبٌّ قَبْلَ ذلك، وقال الرَّاجِزُ:

قَلَّصَ عَنْهُ

يَنْفِي الْغِيَادِيقَ

عن الطريقِ

بيضةً في نيق

ما يوصف بسوء الهداية من الحيوان ويقال: أضلُّ من ضبِّ، والضلال وسوء الهداية يكونُ في الضبِّ، والورل، والدَّيكِ.

الضب وشدة الحر

وإذا غيّر الحرُّ لون جلدِ الضبِّ فذلك أشدُّ ما يكون من الحر، وقال الشاعر:

قَطَعْتُ حَشَاهَا
بِالْعُرَيْرِيَّةِ
الصُّهْبِ

وَهَاجِرَةٌ تَنْجِي
عَنِ الضُّبِّ
جِلْدَهُ

أمثال في الضب

وفي المثل: خلَّ دَرَجِ الضبِّ، وفي المثل: تَعْلِمَنِي بِضَبِّ
أَنَا حَرَشْتُهُ؛ و: هَذَا أَجَلُّ مِنَ الْحَرَشِ، و: أَضَلُّ مِنْ ضَبِّ
و: أَخْبُّ مِنْ ضَبِّ، و: أَرَوَى مِنْ ضَبِّ، و: أَعَقُّ مِنْ
ضَبِّ، و: أَحْيَا مِنْ ضَبِّ، و: أَطْوَلُ لَمَاءً مِنْ ضَبِّ، و: يَكُلُّ

ضَبٌّ عِنْدَ مِرْدَاتِهِ، وَيُقَالُ: أَقْصِرُ مِنْ إِبْهَامِ الضَّبِّ كَمَا
يُقَالُ: أَقْصِرُ مِنْ إِبْهَامِ القَطَاةِ، وَقَالَ ابْنُ الطُّرَيْيَةِ:

وَيَوْمِ كَابِهَامِ القَطَاةِ

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: لَا آتِيكَ سِنَّ الحِسلِ، وَقَالَ العَجَاجُ:

ثُمَّتْ لَا آتِيهِ سِنَّ الحِسلِ

كَأَنَّهُ قَالَ، حَتَّى يَكُونَ مَا لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ الحِسلَ لَا يَسْتَبْدِلُ
بِأَسْنَانِهِ أُسْنَانًا.
أَسْنَانِ الذَّنْبِ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ أُسْنَانَ الذَّنْبِ مَمْطُولَةٌ فِي
فُكْيِهِ، وَأَنْشَدَ:

أَنْيَابُهُ مَمْطُولَةٌ فِي فُكْيَيْهِ

وَلَيْسَ فِي هَذَا الشَّعْرِ دَلِيلٌ عَلَى مَا قَالَ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يُشْبِعُ
الصِّفَةَ إِذَا مَدَحَ أَوْ هَجَا، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ حَقًّا.
مَا قِيلَ فِي عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَلِيٍّ فَأَمَّا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ عَلِيٍّ
فَإِنَّهُ لَمْ يُثَغَّرْ، وَدَخَلَ القَبْرَ بِأَسْنَانِ الصَّبَا.
اسْتَطْرَادَ لَعْوِي وَقَدْ يُقَالُ لِلضَّبِّ وَالْحَيَّةِ وَالوَرَلِ، وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ: فَحٌّ يَفْحُ فَحِيحًا، وَالْفَحِيحُ: صَوْتُ الحَيَّةِ مِنْ

جَوْفَهَا، والكشيش والقشيش: صَوْت جُلْدِهَا إِذَا حَكَّتْ
بَعْضَهَا بِبَعْضٍ.

وليس كما قال، ليس يُسْمَعُ صَوْتُ احْتِكَائِ الْجِلْدِ بِالْجِلْدِ
إِلَّا لِلْأَفْعَى فَقَطْ، وَقَالَ رُوَيْبَةَ:

وَأَنْ تَرْحَى
كَرْحَى الْمَرْحَى

فَحَى فَلَا أَفْرَقُ
أَنْ تَفْحَى

وقال ابنُ ميادة:

يَكِشُّ لَهُ
مُسْتَكْبِرًا
وَيَطَاوُلُهُ

تَرَى الضَّبَّ إِنْ لَمْ
يَرْهَبِ الضَّبُّ
غَيْرَهُ

حديث أبي عمرة الأنصاري

وَيُكْتَبُ فِي بَابِ حَبِّ الضَّبِّ لِلتَّمْرِ حَدِيثُ أَبِي عَمْرَةَ
الْأَنْصَارِيِّ رَوَاهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ،
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ: الْحُبْلَةُ أَفْضَلُ
أَمْ النَّخْلَةُ؟ قَالَ: بَلِ الْحُبْلَةُ، أَتَرْبِيهَا وَأَشْمَسَهَا، وَأَسْتَظِلُّ
فِي ظِلِّهَا، وَأَصْلِحَ بُرْمَتِي مِنْهَا، قَالَ عَمْرٌ: تَأْبَى ذَاكَ عَلَيْكَ

الأنصار.

ودخل أبو عمرة عبد الرحمن بن مخصن النجاري فقال له عمر: الحبة أفضل أم النخلة؟ قال: الزبيب إن آكله أضرس، وإن أتركه أعرت ليس كالصقر في رؤوس الرقل، الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل، خُرْفَة الصائم وتُحْفَة الكبير، وصُمَّتَة الصغير وخُرْسَة مريم، ويُحْتَرَشُ به الضَّبّاب من الصَّلعاء يعني الصحراء.

دية الضب واليربوع

قال: ويقالُ في الضب حُلَامٌ، وفي اليربوع جُفْرَة، والجفرة: التي قد انتفخ جنبها وشدنت، والحلّام فوق الجدي وقد صلح أن يُذبح للنُّسك، والحلّان، بالنون: الجدي الصغير الذي لا يصلح للنُّسك. وقال ابن أحرر:

إِمَّا دُبِيحًا وَإِمَّا
كَان حُلَانًا

تَهْدِي إِلَيْهِ ذِرَاعُ
الْجَدْيِ تَكْرِمَةً

والحلّان والحُلوان جميعاً: رشوة الكاهن، وقد نُهي عن زَبْدِ المشركين، وحُلوان الكاهن، وقال مهلهل:

كُلُّ قَتِيلٍ فِي
كُلَيْبِ حُلَامٍ

حَتَّى يِنَالَ الْقَتْلُ
آلَ هَمَامٍ

أقوال لبعض الأعراب وقال الأصمعي: قال أعرابيٌّ يَهْزَأُ بصاحبه: اشتر لي شاةً قَفْعَاءَ، كأنَّها تَضْحَكُ: مندلقةٌ خاصرتهاها، كأنَّها في مَحْمِلٍ، لها ضَرْعٌ أَرْقَطٌ، كأنَّه ضَبٌّ، قال: فكيف العَقْلُ؟ قال: أو لهذه عَقْلٌ؟! قال: وسأل مدنيٌّ أعرابياً قال: أتأكلون الضَّبَّ؟ قال: نعم، قال: فاليربوع؟ قال: نعم، قال: فالورل؟ قال: نعم، قال: أفأكلون أم حُبَيْن؟ قال: لا، قال: فليهنِ أم حُبَيْنِ العافية. شعر في الضب وقال فراس بن عبد الله الكلابي:

لَمَّا حَشِيَّتْ

الجُوعِ وَالْإِرْمَالِ

وَلَمْ أَجِدْ

بَشَوْلِهَا بِلَالِ

أَبْصَرْتُ ضَبًّا

دَجِنًا مُخْتَالًا

أَوْفَدَ فَوْقَ

جُحْرِهِ وَذَالًا

فَدَبَّ لِي يَخْتَلِنِي

اِخْتِيَالًا

حَتَّى رَأَيْتُ

دُونِي الْقَذَالَا

فَدِهَشَتْ كَفَايَ
فَاسْتَطَالَ

فَحَاجَزَا وَبَرًّا
الْأَوْصَالَ

لَمَّا رَأَتْ عَيْنِي
كُشِيَ خِدَالَا

وَرُحْتُ مِنْهُ
دَحْنًا دَالَا

وَمَيْلَةَ مَا مَلْتُ
حِينَ مَالَا

مِنِي فَلَا نَزَعَ
وَلَا إِرْسَالَ

مَنِّي وَلَمْ أَرْفَعُ
بِذَاكَ بِالَا

مِنْهُ وَتَثَيْتُ لَهُ
الْأَكْبَالَ

أَسْمَاءُ لَعِبِ الْأَعْرَابِ الْبُقَيْرِ، وَعُظِيمُ وَضَاحٍ، وَالْخَطْرَةَ،
وَالدَّارَةَ، وَالشَّحْمَةَ وَالْحَلْقَ، وَلُعبَةُ الضَّبِّ.
فَالْبُقَيْرَ: أَنْ يَجْمَعُ يَدَيْهِ عَلَى التَّرَابِ فِي الْأَرْضِ إِلَى
أَسْفَلِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: اشْتَهَ فِي نَفْسِكَ، فَيَصِيبُ
وَيَخْطِئُ.

وَعُظِيمُ وَضَاحٍ: أَنْ يَأْخُذَ بِاللَّيْلِ عَظْمًا أَبْيَضَ، ثُمَّ يَرْمِي بِهِ
وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَإِنْ وَجَدَهُ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ رَكِبَ
أَصْحَابَهُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهِ إِلَى

الموضع الذي رموا به منه.
والخطرة: أن يعملوا مخرأقا، ثم يرمي به واحد منهم من
خلفه إلى الفريق الآخر، فإن عجزوا عن أخذه رموا به
إليهم، فإن أخذوه ركبوهم.
والدارة، هي التي يقال لها الخراج.
والشحمة: أن يمضي واحد من أحد الفريقين بسلام
فيتنحون ناحية ثم يقبلون، ويستقبلهم الآخرون؛ فإن
منعوا الغلام حتى يصيروا إلى الموضع الآخر فقد
غلبوه عليه، ويدفع الغلام إليهم، وإن هم لم يمنعه
ركبوهم، وهذا كله يكون في ليالي الصيف، عن غب
ربيع مخصب، ولعبة الضب: أن يصوروا الضب في
الأرض، ثم يحول واحد من الفريقين وجهه، ثم
يضع بعضهم يده على شيء من الضب، فيقول الذي
يحول وجهه: أنف الضب، أو عين الضب، أو ذنب
الضب، أو كذا وكذا من الضب، على الولاة، حتى يفرغ؛
فإن أخطأ ما وضع عليه يده ركب وركب أصحابه، وإن
أصاب حول وجهه الذي كان وضع يده على الضب، ثم
يصير هو السائل.
ويقول: الأطباء: إن خرق الضب صالح للبياض الذي

يصير في العين.

والأعرابُ ربّما تداووا به من وجع الظهر.

وناسٌ يزعمون أنّ أكل لحمان الحيوان المذكور بطول

العمر، يزيد في العمر، فصدّق بذلك ابن الخاركي وقال:

هذا كما يزعمون أنّ أكل الكُلية جيّد للكُلية، وكذلك الكبُد،

والطّحال، والرّئة، واللّحم ينبت اللّحم، والشّحم ينبت

الشّحم، فغبر سنةً وليس يأكلُ إلاّ قديد لحوم الحمر

الوحشية، وإلا الورشان والضّباب، وكلّ شيء قدر عليه

مما يقضي له بطول العُمر، فانتقض بدنه، وكاد يموت،

فعاد بعدُ إلى غذائه الأوّل.

تفسير قصيدة البهراني نقول في تفسير قصيدة البهراني،

فإذا فرغنا منها ذكرنا ما في الحشرات من المنافع

والأعاجيب والروايات، ثم ذكرنا قصيدتي أبي سهل بشر

بن المعتمر في ذلك، وفسرناهما وما فيهما من أعاجيب

ما أودع الله تعالى هذا الخلق وركبهُ فيهم، إن شاء الله

تعالى، وبالله تبارك وتعالى أستعين.

أما قوله:

فلهذا تناجلا

مَسَخَ الماكِسِينَ

ضَبْعاً وَذُبَا

أَمْ عَمْرٍو

فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التُّجَّار في البرِّ والبحر،
وفي أسواقهم، المكس، وهو ضريبةٌ كانت تؤخذ منهم،
وكانوا يظلمونهم في ذلك، ولذلك قال التَّغَلبي، وهو يشكو
ذاك في الجاهلية ويتوعد وهو قوله:

أَلَا تَسْتَحِي مَنَا
مُلُوكٌ وَتَتَّقِي

حَارِمَنَا لَا يَبُوءُوا
الدَّمُ بِالْدمِ

في كُلِّ أسواقِ
العراقِ إِتَاوَةٌ

ي كلِّ ما باعَ
امرؤُ مَكْسُ
دِرْهَمِ

والإتاوة والأربان والخزج كله شيءٌ واحد، وقال الآخر:

لَا ابْنَ الْمُعَلَى
خَلَّتْنَا أَمْ
حَسِبْتْنَا

صراري نعطي
الماكسينَ
مُكُوسَا

وقال الأصمعيّ، في ذكر المكسِ والسُّفن التي كان تُعشر،
في قصيدته التي ذكر فيها من أهلك الله عز ذكره، من
الملوك، وقصم من الجبابرة، وأباد من الأمم الخالية -
فقال:

وانتحت بعده
على ذي جُدونِ

سَ وعادتُ من
بعدُ للسَّاطِرونِ

لة شرقاً فالطور
من عبدينِ

فله مكسُهُ
ومكسُ السُّفينِ

أغلتُ تَبَعاً
حبالُ المنونِ

وأصابتُ منِ
بعدهم آل
هرما

ملكُ الحضر
والفراتِ إلى
دج

كل حِمْلٍ يمرُّ
فوق بعير

والأعراب يزعمون أن الله تعالى عزّ وجلّ لم يدع ماكساً
ظالماً إلا أنزل به بليّةً، وأنّه مسح منهم ضبُعاً وذنباً،

فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا، وإن اختلفا في سوى ذلك،
فمن ولدهما السّمع والعسبار، وإنما اختلفا لأنّ الأمّ ربما
كانت ضبعاً والأب ذنباً، وربما كانت الأمّ ذنباً والأب
ذيخاً، والذّيح: ذكر الضّباع.
ذكر من أهلك الله من الأمم وأمّا قوله:

بنجيع الرّعاف
في حيّ بكرٍ

بَعَثَ الذَّرَّ
والجراد
وقفّى

فإنّ الإعراب تزعم أنّ الله تعالى قد أهلك بالذّرّ أمما، وقد
قال أميّة بن أبي الصلت:

وسنيناً
فأهلكتهم
ومُورا

أرسل الذّرَّ
والجراد عليهم

رّ وإنّ الجراد
كان ثُبورا

ذَكَرَ الذَّرَّ إِنَّهُ
يَفْعَلُ الشُّ

وأما قوله: وقفي بنجيع الرُّعاف في حيِّ بكر فإنّه يريد
بكر بن عبد مناة، لأنّ كنانة بنزولها مكّة كانوا لا يزالون
يصيبهم من الرُّعاف ما يصير شبيهاً بالموتان، ويجارف
الطاعون، وكان آخر من مات بالرُّعاف من سادة قريش
هشام بن المغيرة.

وكان الرُّعاف من منايا جرهم أيام جرهم، ولذلك قال
شاعرٌ في الجاهلية، من إياد:

ورهُط مُنَاجِيهِ
فِي سُلْمِ

وَنَحْنُ إِيَادُ
عِبَادُ الْإِلَهِ

زَمَانَ الرَّعَافِ
عَلَى جُرْهِمِ

وَنَحْنُ وِلَاةُ
حِجَابِ الْعَتِيقِ

ولهذا المناجي الذي كان يناجي الله، عز وجل، في
الجاهلية على سُلْم - حديث.
سيل العرم فأما قوله:

عَرِمًا مُحَكَّمِ
الْأَسَاسِ بِصَخْرِ

خَرَقَتْ فَاةً
بِأَنْفِ ضَنْبِلِ

فقد قال الله عز وجل: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ"
والعَرِم: المسناة التي كانوا أحكموا عملها لتكون حجازاً
بين ضياعهم وبين السيل، ففجرت ه فارة، فكان ذلك
أعجب وأظهر في الأعجوبة كما أفر الله تعالى عز وجل
ماء الطوفان من جوف تنور، ليكون ذلك أثبت في
العبرة، وأعجب في الآية.
ولذلك قال خالد بن صفوان لليمانى الذي فخر عليه عند
المهدى وهو ساكت، فقال المهدي: وما لك لا تقول؟
قال: وما أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد، وناسج برّد،
وسائس قرد، وراكب عرد، غرقتهم فارة، وملكتهم
امرأة، ودلّ عليهم هدهد.
وأما قوله:

فَجَرَّتْهُ وَكَانَ
جِيلَانِ عَنْهُ
عَاجِزاً لَوْ يَرُومُهُ
بَعْدَ دَهْرٍ

فإن جيلان فعلة الملوك، وكانوا من أهل الجبل، وأنشد
الأصمعي:

ساتيدما بالحديد
فانصدعا

أرسلَ جيلان
ينحتون له

وأنشد:

قصوراً تعالی
بالصَّفیح
وتُكَلْسُ

وتبني له جيلان
من نحتها الصفا

وأنشد لامرئ القيس:

وردد فيه
الطرف حتى
تحيراً

أتيح له جيلان
عند جدأه

يقول: فجرتَه فارةٌ، ولو أن جيلان أرادت ذلك لامتنع
عليها، لأنَّ الفارة إنما خرقتَه لما سخر الله عز ذكره لها
من ذلك العرم وأنشدوا:

يبنون من دون
سيله العرما

من سبأ
الحاضرين

مَأْرِبُ إِدْ

ومأرب: اسمٌ لقصر ذلك الملك، ثم صار اسماً لذلك البلد،
ويدلُّ على ذلك قول أبي الطَّمْحان القيني:

وما حَوَالِيهِ مِنْ
سُورٍ وَبُنْيَانٍ

أَلَا تَرَى مَأْرِباً
مَا كَانَ أَحْصَنَهُ

وَلَمْ يَهَبْ رَبِّبَ
دَهْرٍ حَقَّ حَوَّانٍ

ظَلَّ الْعِبَادِيَّ
يُسْقَى فَوْقَ
قُلَّتِهِ

يَرْقَى إِلَيْهِ عَلَى
أَسْبَابِ كَتَّانٍ

حَتَّى تَنَاوَلَهُ مِنْ
بَعْدِ مَا هَجَعُوا

وَقَالَ الْأَعَشَى:

وَمَأْرِبُ قَفَى
عَلَيْهِ الْعَرِمُ

فَفِي ذَاكَ
لِلْمُؤْتَسِي
أُسْوَةٌ

رَخَامٌ بَنَتْهُ لَهُ
حَمِيرٌ

إِذَا جَاءَ مَاؤُهُمْ
لَمْ يَرِمْ

فَأَرَوَى الْحُرُوثَ
وَأَعْنَابَهَا

عَلَى سَاعَةٍ
مَاؤُهُمْ إِذْ قَسِمَ

فَطَارَ الْفَيْوَلُ
وَفَيَّالَهَا

بَيْنَهُمَا فِيهَا
سَرَابٌ يَطْمَمُ

فَكَانُوا بِذَلِكَ
حَقِيبَةً

فَمَالَ بِهِمْ جَارِفٌ
مُنْهَدِمٌ

فَطَارُوا سِرَاعاً
وَمَا يَقْدِرُوا

نَ مِنْهُ لَشَرِبَ
صَبِيٌّ فُطْمٌ

مسخ الضبّ وسهيل

وأما قوله:

مَسَخَ الضَّبَّ فِي
الْجَدَالَةِ قَدَمًا

وَسُهِيلَ السَّمَاءِ
عَمْدًا بَصُغْرٍ

فإنهم يزعمون أنّ الضَّبَّ وسُهَيْلاً كانا مأكسَيْنِ عَشَّارَيْنِ،
فمسخ الله عز وجل أحدهما في الأرض، والآخر في
السماء، والجدالة: الأرض، ولذلك يقال: ضربه فجذَّله
أي ألقاه بالأرض، أي بالجدالة، وكذلك قول عنترَةَ:

تَمَكُّو فَرِيصَتَهُ
كشِدْقِ الأَعْلَمِ

وحليل غانيةٍ
تركتُ مجدلاً

وأنشد أبو زيدٍ سعيدُ بن أوسٍ الأنصاري:

وأتركُ العاجِزِ
بالجداله

قد أركب الحالة
بعد الحالة

أبو رغال وأما قوله:

جَعَلَ اللهُ قَبْرَهُ
شَرَّ قَبْرِ

والذي كان
يكتني برغال

ومكوسٍ وكلِّ
صاحبِ عُشْرٍ

وكذا كلُّ ذي
سُفِينٍ وَخَرْجٍ

فإنما ذكر أبا رِغَال، وهو الذي يرمم الناس قبره إذا أتوا
مكة، وكان وجهه صالحُ النبي صلى الله عليه وسلم، فيما
يزعمون، على صدقات الأموال، فخالف أمره، وأساء
السيرة، فوثب عليه ثقيف، وهو قسيُّ بن مُنَّبِه، فقتله
قتلاً شنيعاً، وإنما ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم فقال
غيلان بن سلمة، وذكر قسوة أبيه على أبي رغال:

نحنُ قسيٌّ وقسا أبونا

وقال أمية بن أبي الصلت:

وكانوا للقبائل
قاهرينا

نفوا عن أرضهم
عدنان طراً

بنخلة إذ يسوق
بها الظعينا

وهم قتلوا
الرئيس أبا
رغال

وقال عمرو بن دَرَّاءِ العدي، وذكر فُجور أبي رغال
وخُبثه، فقال:

وإني إن
قطعت جبال
قيسٍ

وحالفتُ المزونَ
على تميمٍ

لأعظمَ فجرةً
من أبي رغالٍ

وأجورُ في
الحكومةِ من
سدومٍ

وقال مسكينُ الدارميَّ:

وأرجمُ قَبْرَهُ
في كلِّ عامٍ

كرجمِ النَّاسِ قَبْرَ
أبي رغالٍ

وقال عُمرُ بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، لغيلان بن سلمة، حين أعتق عبده، وجعل ماله في رِتاغ الكعبة: لئن لم تَرَجِعْ في مالكِ ثمَّ مُتَّ لأرجمَنَّ قبرك، كما رُجم قبرُ أبي رغال، وكلاماً غير هذا قد كلّمه به المنكب والعريف وأما قوله:

مَنكِبٌ كافرٌ

وعريفٌ جزاؤه

وَأَشْرَاطُ سَوْءٍ

حَرَ جَمْرٍ

فإنما ذهب إلى أحكام الإسلام، كأنه قد كان لقي من
الْمُنْكَبِ وَالْعَرِيفِ جَهْدًا، وهم ثلاثة: مَنْكِبٌ، وَنَقِيبٌ،
وَعَرِيفٌ، وَقَالَ جُبَيْهَاءُ الْأَشْجَعِيُّ:

رَعَاعٌ عَاوَنْتُ
بَكَرًا عَلَيْهِ

كَمَا جُعِلَ الْعَرِيفُ
عَلَى النَّقِيبِ

الغول والسعلاة وأما قوله:

وَتَرَوَّجْتُ فِي
الشَّبِيبَةِ عُولًا

بِغَزَالٍ وَصَدَقْتِي
زَقُّ حَمْرٍ

فَالْعَوْلُ اسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْجِنِّ يَعْضُ لِلسُّقَارِ، وَيَتَلَوَّنُ
فِي ضُرُوبِ الصُّورِ وَالنِّيَابِ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى، إِلَّا أَنَّ
أَكْثَرَ كَلَامِهِمْ عَلَى أَنَّهُ أُنْثَى.
وَقَدْ قَالَ أَبُو الْمَطْرَابِ عُبَيْدُ بْنُ أَيُّوبَ الْعَنْبَرِيُّ:

وَحَالَفَتْ
الْوَحُوشَ

بِقَرَبِ
عُهُودِهِنَّ

وحالفتني

وبالبعادِ

وأَمَسَى الذَّنْبُ

لخفةِ ضربتي

يرصدني مِخْشاً

ولضعف آدي

وعُولاَ قفرةٍ ذكراً

كأنَّ عليهما

وأُنثى

قَطَعَ البِجَادِ

فجعل في الغيلان الذَّكَرَ والأُنثى، وقد قال الشاعر في
تلونها:

فما تدوم على

كما تَلَوْنَ في

حالٍ تكون بها

أثوابها الغولُ

فالغول ما كان كذلك، والسَّعلاة اسم الواحدة من نساء
الجن إذا لم تتغول لتفتن السُّفَّار.

قالو: وإنما هذا منها على العَبث، أو لعلها أن تفرَّع

إنساناً جميلاً فتغيَّر عقله، فتداخَله عند ذلك، لأنهم لم

يُسلِّطوا على الصَّحيح العقل، ولو كان ذلك إليهم لبدؤوا

بعلي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب وبأبي بكر

وعُمر في زَمَانهم وبغيلان والحسن في دهرهما وبواصل

وعمرو في أيامهما.
وقد فرّق بين الغول والسّعلاة عبّيدُ بن أُيُوبَ، حيث
يقول:

وساخرة منّي	رأت ما الأقيه
ولو أنّ عينيها	من الهول جنت
أزلّ وسعلاة	إذا الليل وارى
وغول بقفرة	الجنّ فيه أرنت

وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والدّهْن، سريعة
الحركة، ممشوقة مُمحصّة قالوا: سعلاة وقال الأعشى:

ورجال قتلى	ونساء كأنهنّ
بجنبي أريك	السّعلي

الكتاب السابع عشر

تزاوج الجن والإنس

تزيد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

مذاهب الأعراب وشعرانهم في الجن

أخبار وطرف تتعلق بالجن

رؤية الغيلان وسماع عذيف الجن
من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عذيف الجن

لطيم الشيطان

التشبيه بالجن

جبل الجن

شعر فيه ذكر الجن

من المثل والتشبيه بالجن

ما يزعمون أنه من عمل الجن

مواضع الجن

مراتب الجن والملائكة

مراتب الشجعان

استطراد لغوي

زواج الأعراب للجن

رؤية الجن

إيمان الأعراب بالهواتف

من له رأي من الجن

ظهور الشق للمسافرين

ذكر من قتلته الجن أو استهوته

طعام الجن

رؤوس الشياطين

سكنى الجن أرض وبار

التحصن من الجن

أثر عشق الجن في الصرع

تصور الجن والغيلان والملائكة والناس

أحاديث في إثبات الشيطان

شياطين الشعراء

كلاب الجن

أرض الجن

استراق السمع

شياطين الشام والهند

مناكحة الجن ومحالفتهم

مراكب الجن

شعر فيه ذكر الغول

جنون الجن وصرعهم

تعليق ما يتخيله الأعراب من عذيف الجنان وتغول الغيلان

مُلح ونوادر

باب الجِدِّ من أمر الجنِّ

قولهم: أروى من ضبِّ

قصيِّدا بشر بن المعتمر

القصيدة الأولى

القصيدة الثانية

تفسير القصيدة الأولى

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

ستطراد لغوي

التوبيير

تزاوج الجن والإنس

ويقولون: تزَّوج عمرو بن يربوعِ السَّعلاة، وقال الرَّاجز:

عمرو بن يربوعِ
شِرَارَ النَّاتِ

يا قاتلَ الله
بني السَّعلاةِ

وفي تلُّونِ الغولِ يقول عَبَّاسُ بنُ مرداسِ السُّلَميِّ:

وَسنَطَ البُيوتِ
ولونُ الغولِ
ألوانُ

أصابَت العامِ
رعلاً غولُ
قومهم

وهم يتأولون قوله عز ذكره: "وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ".

وقوله عز وجل: "لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ"،
قالوا: فلو كان الجانُّ لم يُصَبْ مِنْهُنَّ قَطُّ، ولم يأتِهِنَّ، ولا

كان ذلك مما يجوز بين الجن وبين النساء الآدميات - لم يقل ذلك.

وتأولوا قوله عز وجل: "وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ" فجعل منهن النساء، إذ قد جعل منهم الرجال، وقوله تبارك وتعالى: "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي".

وزعم ابن الأعرابي قال: دعا أعرابي ربه فقال: اللهم إني أعودُ بك من عفاريت الجن اللهم لا تُشركهم في ولدي، ولا جسدي، ولا دمي، ولا مالي، ولا تدخلهم في بيتي، ولا تجعلهم لي شركاء في شيء من أمر الدنيا والآخرة.

وقالوا: ودعا زهير بن هنيذة فقال: اللهم لا تسلطهم على نطفتي ولا جسدي. قال أبو عبيدة: فقيل له: لم تدعو بهذا الدعاء قال: وكيف لا أدعو به وأنا أسمع أيوب النبي والله تعالى يخبر عنه ويقول: "واذكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ" حتى قيل له: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"، وكيف لا أستعيز بالله منه وأنا أسمع الله يقول: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ

الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ"، وأسمعه يقول: "وإذ زين لهم الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ"، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، كما قال الله عز ذكره: "فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ"، وقد جاءهم في صورة الشيخ التجدي، وكيف لا أستعذ بالله منه، وأنا أسمع الله عز ذكره يقول: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ"، وكيف لا أستعذ بالله منه وأنا أسمع الله تعالى يقول: "وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ" ثم قال: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلَ وَجفان كالجواب وقُدور راسيات"، وكيف لا أدعو بذلك وأنا أسمع الله تعالى يقول: "قال عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ".

وكيف لا أقول ذلك وأنا أسمع الله عز وجل يقول: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ
أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ، وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ".

تزيد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

والأعراب يتزيدون في هذا الباب، وأشباه الأعراب
يغلطون فيه، وبعض أصحاب التأويل يجوز في هذا الباب
ما لا يجوز فيه، وقد قلنا في ذلك في كتاب النبوات بما
هو كافٍ إن شاء الله تعالى.

مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن

وسيقع هذا الباب والجواب فيه تاماً إذا صرنا إلى القول
في الملائكة، وفي فرق ما بين الجن والإنس، وأما هذا
الموضع فإنما مغزانا فيه الإخبار عن مذاهب الأعراب،
وشعراء العرب، ولولا العلم بالكلام، وبما يجوز مما لا
يجوز، لكان في دون إطباقهم على هذه الأحاديث ما يغلط
فيه العاقل.

قال عبيد بن أيوب، وقد كان جَوَّالاً في مجهول الأرض،
لَمَّا اشْتَدَّ خَوْفُهُ وَطَالَ تَرُدُّدُهُ، وَأَبْعَدَ فِي الْهَرَبِ:

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى
لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ

لَقَلْتُ عَدُوَّ أَوْ
طَلِيْعَةَ مَعْشَرٍ

فَإِنْ قِيلَ أَمَنْ
قَلْتُ هَذِي
خُدَيْعَةٌ

وَإِنْ قِيلَ خَوْفٌ
قَلْتُ حَقًّا فَشَمَّرٍ

وَخِفْتُ خَلِيلِي ذَا
الصَّفَاءِ وَرَأْبِي

وَقِيلَ فَلَانَ أَوْ
فَلَانَةَ فَاحْذَرِ

فَلَلَهُ دَرُّ الْعَوْلِ
أَيُّ رَفِيقَةٍ

لصَاحِبِ قَفَرٍ
خَائِفٍ مَتَقَتِّرٍ

أَرَنْتَ بِلْحْنٍ بَعْدَ
لِحْنٍ وَأَوْقَدْتَ

حَوَالِي نَيْرَانًا
تَلُوحُ وَتَزْهَرُ

وَأَصْبَحْتُ

كَالْوَحْشِيِّ يَتَّبَعُ
مَا خَلَا

وَيَتْرِكُ مَا بُوَسَّ
الْبِلَادِ الْمَدْعَثَرِ

وقال في هذا الباب في كلمة له، وهذا أولها:

عَلِيَّ فَإِنْ قَامَتْ فَفَصِّلْ بِنَانِيَا

تِرَامِي بِي الْبَيْدُ الْقِفَارُ تِرَامِيَا

لَنَا نَسَبٌ نَرَعَاهُ أَصْبَحَ دَانِيَا

وَيُخْفِي مَرَاراً ضَامِرَ الْجِسْمِ عَارِيَا

قَلِيلُ الْأَذَى أَمْسَى لَكُنَّ مُصَافِيَا

وَأُخْفِينِنِي إِذْ كُنْتُ فَيَكُنْ خَافِيَا

أَكَلْتُ

بَحَلْقِي نَوْرُ الْقَفْرِ حَتَّى وَرَانِيَا

عُرُوقُ الشَّرِّي مَعْكُنَّ وَالتَّوَى

وَقَدْ

وَقَدْ لَاقَتْ الْغِيْلَانُ مِنِّي الدَّوَاهِيَا

لَقَيْتُ مِنِّي السَّبَاعُ بَلِيَّةً

دَجْبَانَا إِذَا هَوُلُ الْجَبَانِ اعْتَرَانِيَا

وَمِنْهُنَّ

قَدْ لَاقَيْتُ ذَاكَ فَلَمْ أَكُنْ

أَدَقْتُ

وَقَدَّدَنْ لِحْمِي وَامْتَشَقَنْ رِدَائِيَا

الْمَنَايَا بَعْضَهُنَّ بِأَسْهَمِي

كثيراً وأثناء الحشاش وسادياً

أبيتُ

ضجيع الأسودِ الجونِ في الهوى

إذا

فليت سُليمانَ بنَ وَبرِ يرانيا

هَجَنَ بي في جُحرهنَّ اکتفتني

فما

أخا الحربِ مَجْنياً عليَّ وجانيا

زلتُ مُدُّ كُنْتُ ابنَ عشرينَ حِجَةً

ومما ذكر فيه الغيلان قوله:

مُخَضَّبَةٌ
الأطرافِ خُرسُ
الخلاخلِ

نقول وقد
ألمتُ بالإنسِ
لَمَّةً

يهيمُ برَبَّاتِ
الحِجالِ
الكواهلِ

أهذا خليلُ
الغُولِ والدَّبِّ
والذي

على الجذبِ
بَسَّاماً كَرِيمَ

رَأَتْ خَلَقَ
الأدراسِ أشعَّتْ

شاحباً

الشّمائلِ

تَعَوَّدَ مِنْ آبَائِهِ
فَتَكَاتِهِمْ

وَإِطْعَامَهُمْ فِي
كُلِّ غُبْرَاءٍ
شَامِلٍ

إِذَا صَادَ صَيْدًا
لَفَّهَ بِضِرَامِهِ

وَشِيكًا وَلَمْ يَنْظُرِ
لِنَصْبِ الْمِرَاجِلِ

وَنَهَسًا كَنَهَسَ
الصَّقْرُ ثُمَّ
مِرَاسُهُ

بِكَفِيهِ رَأْسَ
الشَّيْخَةِ
الْمَتَمَايِلِ

فَلَمْ يَسْحَبِ
الْمِنْدِيلَ بَيْنَ
جَمَاعَةٍ

وَلَا فَارِدًا مَذًى
صَاحَ بَيْنَ
القَوَابِلِ

ومما قال في هذا المعنى:

أخا قفّراتٍ كان بالذئب يأنسُ

علا

م تُرَى ليلي تعدّب بالمُنَى

وصار خليل الغول بعد عداوة صَفِيّاً وربّته القفارُ
البسابسُ

وقال في هذا المعنى:

لهم خُلِقَ عند
الجوار حَمِيدُ

لها ذنبٌ لم
تدرُكوه بعيدُ

على من يثير
الجنّ وهي هجودُ

فلولا رجالٌ يا
مَنِيغُ رأيتهم

لنالكم مني
نكالٌ وغارةٌ

أقلّ بنو
الإنسان حتّى
أغرتمُ

أخبار وطرف تتعلق بالجن

وقال ابن الأعرابي: وَعدت أعرابيةً أعرابياً أن يأتيها،
فكمن في عُشْرَةٍ كانت بقربهم، فنظر الزَّوجُ فرأى شَبْحاً
في العُشْرَةِ، فقال لامرأته: يا هَنْتَاهُ إِنَّ إنساناً لِيُطالِعنا من
العُشْرَةِ قالت: مَهْ يا شيخُ، ذاك جانُّ العُشْرَةِ إليك عني
وعن ولدي قال الشيخ: وعني يرحمك الله قالت: وعن
أبيهم إن هو غطَّى رأسه ورقد، قال: ونام الشَّيْخُ، وجاء
الأعرابي فسَفَعَ برجليها ثمَّ أعطاها حتى رضيت.

وروى عن محمد بن الحسن، عن مُجالِدٍ أو عن غيره
وقال: كُنّا عند الشَّعبي جُلوساً، فمرَّ حَمالٌ على ظهره دَنٌّ
خَلٌّ، فلما رأى الشَّعبيّ وضع الدَّنَّ وقال للشَّعبي: ما كان
اسمُ امرأة إبليس؟ قال: ذاك نكاحُ ما شهدناه .

وأبو الحسن عن أبي إسحاق المالكي قال: قال الحجاج
ليحيى بن سعيد بن العاص: أخبرني عبدُ الله بن هلال
صديق إبليس، أنّك تشبه إبليس قال: وما ينكر أن يكون
سيد الإنس يُشبهه سيد الجنِّ وروى الهيثم عن داود بن
أبي هند، قال: سئل الشَّعبي عن لحم الفيل، فتلا قوله عزَّ
ذكره: "قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحى إليّ مُحَرَّماً على طاعِمٍ
يُطعمُهُ إلاَّ أنْ يُكونَ مَيْتَةً أو دَمًا مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزِيرٍ"
إلى آخر الآية، وسئل عن لحم الشَّيْطان فقال: نحن

نرضى منه بالكفّاف، فقال له قائل: ما تقولُ في الدّبان؟
قال: إن اشتهيته فكلّه.
وأنشدوا قول أعرابي لامرأته:

ألا تموتين إنا نبتغي بدلا إن اللواتي يموتن الميامين
كما يُعمّر إبليسُ الشّياطين

أم أنت لازلتِ في الدنيا معمرة

وقال أبو الحسن وغيره: كان سعيد بن خالد بن عبد الله
بن أسيد تصيبه مَوْتة نصف سنة، ونصف سنة يصح،
فيحبو ويُعطي، ويكسو ويحمل، فأراد أهله أن يعالجوه،
فتكلّمت امرأة على لسانه فقالت، أنا رُقِيّة بنت ملحان
سيّد الجنّ، والله أن لو علمتُ مكانَ رجلٍ أشرف منه
لعلّفته والله لئن عالجتموه لأقتلنّه فتركوا علاجه.
وتقول العرب: شيطان الحمّاطة، وغول القفّرة، وجانّ
العُشيرة، وأنشد:

فانصَلَّتْ لِي مِثْلَ
سَعَلَةِ الْعُشْرِ

تروح بالوَيْلِ
وتَغْدُو بِالْغَيْرِ

وأنشد:

يا أَيُّها الضاعِبُ
بالْغُمْلُولِ

إِنَّكَ عَوْلٌ
وَلَدْتُكَ عَوْلٌ

الْغُمْلُولُ: الخمرَ من الأرضِ اختبأ فيه هذا الرجل، وضغِبَ
ضغْبَةَ الأرنَبِ، ليفزعه ويوهمه أَنه عامرٌ لذلك الخمرِ.

رؤية الغيلان وسماع عزيف الجان

من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان
ويسمعون عزيف الجان

وما يشبهون بالجن والشياطين، وبأعضائهم وبأخلاقهم
وأعمالهم.

وأنشد:

كَأَنَّهُ لَمَّا تَدَانِي
مَقْرِبُهُ

وانقطعت أودامه
وكرْبُهُ

شيطان جنّ في
هواء يرقُبُهُ

وجاءت الخيلُ
جميعاً تَذنِبُهُ

أذنب فانقضَّ
عليه كوكبُهُ

وأنشد:

ولو صَبَرْتَ
لتلقاه على
العيسِ

إِنَّ الْعُقَيْلِيَّ لَا
تَلْقَى لَهُ شَبَهًا

إِذْ مَرَّ يَهْدَجُ فِي
خَيْشِ الْكِرَابِيِّسِ

بَيْنَا تَرَاهُ عَلَيْهِ
الْخَزُّ مَتَّكِنًا

أشباهُ جنِّ
عكوفِ حَوْلِ
إبليسِ

وقد تَكَنَّفَهُ
عُرَامُهُ زَمَانًا

تري العُقَيْلِيَّ
منهم في

إذا المفاليسُ
يوماً حاربُوا

مَلِكاً

كَرَادِيسٍ

وهو الذي يقول:

أَصْبَحْتَ مَا لَكَ
غَيْرُ جُدِّكَ تَلْبَسُ

قَطَرَ السَّمَاءِ
وَأَنْتَ عَارٍ
مُفْلِسٌ

وقال الخطفى:

يَرْفَعَنَّ بِاللَّيْلِ إِذَا
مَا أَسْدَفَا

أَعْنَاقَ جِنَّانٍ
وَهَاماً رُجْفَاً

وَعَنْقاً بَعْدَ
الرَّسِيمِ خَيْطَفَا

وأنشد ابن الأعرابي:

غَنَاءَ كَلِيبِيَا
تَرَى الْجَنِّ
تَبْتَغِي

صَدَاهُ إِذَا مَا أَبِ
لِلْجَشَنِ آيِبُ

وقال الحارث بن حلزة:

شي ومَنْ دُونَ
ما لَدِيهِ النَّئَاءُ

رَبُّنا وابننا
وأفضل مَنْ
يَمُ

نَ فآبَتْ لخصمها
الأجلاء

إرْمِيَّ بمثله
جالتِ الحج

وقال الأعشى:

ليعلم من أمسى
أعقَّ وأحوبا

فأني وما
كَلَفْتُمُونِي
وربكم

وما ذنبه أن
عافتِ الماء
مَشْرَباً

لكالثور
والجنيُّ يضربُ
ظَهْرَهُ

وقال الزَّفيان العُوافيُّ واسمه عطاء بن أسيد أحد بني
عُوافَةَ بن سعد:

بَيْنَ اللَّهَا مِنْهُ
إِذَا مَا مَدَّا

وقال ذو الرُّمَّة:

قَدْ أَعْسِفُ
النَّازِحَ الْمَجْهُولَ
مَعْسِفُهُ

لِلجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي
حَافَاتِهَا زَجَلٌ

دَاوِيَّةٍ وَدُجَى
لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا

وقال:

وَكَمْ عَرَّسْتُ بَعْدَ
السُّرَى مِنْ
مُعَرَّسٍ

وقال:

مِثْلُ عَزِيفِ الْجِنِّ
هَدَّتْ هَذَا

فِي ظِلِّ أَعْصَفِ
يَدْعُو هَامَهُ
الْبُومُ

كَمَا تَنَآوَحَ يَوْمَ
الرِّيحِ عَيْشُومُ

يَمُّ تَرَاطُنُ فِي
حَافَاتِهِ الرُّومُ

بِهِ مِنْ كَلَامِ
الْجِنِّ أَصْوَاتُ
سَامِرِ

تِيهِ إِذَا مَا
مُعْنَى جِنَّةٍ
سَمَرَا

كَمْ جُبْتُ دُونَكَ
مَنْ يَهْمَاءِ مُظْلَمَةٍ

وقال:

هَزِيْرٌ كَتَضْرَابِ
الْمُعْنَى بِالطَّبْلِ

وَرَمَلٌ عَزِيْفٌ
الْجَنِّ فِي
عَقْدَاتِهِ

وقال:

أَبُو الْبَعْدِ مِنْ
أَرْجَائِهَا
الْمُتَطَاوِخُ

وَتِيهِ خَبَطْنَا
عَوْلَهَا وَارْتَمَى
بِنَا

هَزِيْرٌ
وَلِأَبْوَامِ
فِيهَا نَوَائِحُ

فَلَاةٌ لِصَوْتِ الْجَنِّ
فِي مُنْكَرَاتِهَا

مَنْ اللَّيْلِ

وَطَوْلُ اغْتِمَاسِي

أصداءُ المِتَانِ
الصوائِحُ

بها ومن
الأصداءِ والجنِّ
سامرُ

بها خِلفَةٌ من
عازفٍ وبُغامٍ

عزيفٌ وبُومٌ آخرَ
الليلِ صائِحُ

وماضي الحسام

في الدَّجى كلما
دعت

وقال ذو الرّمة:

بلاداً يبيتُ
البومُ يدعُو
بناته

وقال ذو الرمة:

وللوحشِ
والجنانِ كُلِّ
عشيةٍ

وقال الراعي:

وداويةٍ غبراءِ
أكثرُ أهلها

أقرّ بها
جأشي تأوّل

لطيم الشيطان

ويقال لمن به لقوة أو شتر، إذا سُبَّ: يا لطيَم الشيطان.
وكذلك قال عبيد الله بن زياد، لعمر بن سعيد، حين
أهوى بسيفه ليطعن في خاصرة عبد الله بن معاوية،
وكان مستضعفاً، وكان مع الضحَّاك فأسر، فلما أهوى له
السيِّف وقد استردفه عبيدُ الله، واستغاث بعبيد الله، قال
عبيد الله لعمر بن يزيد: يا لطيَم الشيطان. قولهم: ظل
النعامة، وظل الشيطان ويقال للرجل المفرط الطول: يا
ظَلَّ النِّعامة وللمتكبر الضخم: يا ظَلَّ الشيطان كما قال
الحجاج لمحمد بن سعد بن أبي وقاص: بينا أنت، يا ظَلَّ
الشيطان، أشدُّ النَّاس كِبْراً إذ صرْتَ مؤدِّناً لفلان.
وقال جرير في هجائه شبَّة بن عقال، وكان مفرط الطول:

ظَلَّ النِّعامةِ
شِبَّةُ بِنِ عِقالِ

فَضَحَ المنايِرُ يَوْمَ
يَسْلُحُ قائِماً

قولهم: ظل الرمح فأما قولهم: مُنينا بيوم كظلَّ الرمح
فإنهم ليس يريدون به الطول فقط، ولكنهم يريدون أنه

مع الطول ضيق غير واسع.
وقال ابن الطَّثرية:

دَمُ الزَّقِّ عَنَّا
وَاصْطَفَاقُ
المَزَاهِرِ

وَيَوْمِ كَظَلِّ
الرَّمْحِ قَصَّرَ
طُولُهُ

قال: وليس يوجد لظلّ الشخص نهاية مع طلوع الشمس.

التشبيه بالجن

قال: وكان عمر بن عبد العزيز أول من نهى الناس عن حمل الصبيان على ظهور الخيل يوم الحلبّة، وقال:
تَحْمِلُونَ الصَّبِيَانَ عَلَى الْجِنِّانِ؟
وَأَنشَدَ فِي تَشْبِيهِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ لِأَبِي الْجَوَيْرِيَةِ الْعَبْدِيِّ:

مُرْزُؤُونَ
بِهَالِيلٍ إِذَا
حَشَدُوا

إِنْسٌ إِذَا أَمَنُوا
جِنَّ إِذَا فَرَعُوا

وَأَنشَدُوا:

وَقَلْتُ وَاللَّهِ
لَنَرَحَلْنَا

قَلَائِصاً تَحْسِبُهُنَّ
جَنَا

وقال ابن ذي الزوائد:

وَحَوْلِي الشَّوْلُ
رُزْحًا شُسْبًا

بَكِيَّةُ الدَّرِّ حِينُ
تُمْتَصِرُ

وَلَأَدُّ بِي الْكَلْبُ لَا
نُبَاحَ لَهُ

يَهْرُ مُخْرُجِماً
وَيَنْجَحِرُ

بُحُورُ خَفْضِ
لَمَنْ أَلَمَّ بِهِمْ

جَنَّ بِأَرْمَاحِهِمْ
إِذَا خَطَرُوا

وأنشدوا:

إِنِّي أَمْرٌ
تَابَعَنِي
شَيْطَانِيهِ

أَخِيَّتُهُ عُمْرِي
وَقَدْ آخَانِيهِ

يَشْرَبُ فِي
قَعْبِي وَقَدْ

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

أَعطَانِيَه

تَرَبَّعْتُ فِي عُقْدِ
فَالْمَاوِيَه

حَتَّى إِذَا مَا
الشَّمْسُ مَرَّتْ
مَاضِيَه

فَتَوَّروا كَلَّ
مَرِيٍّ سَاجِيَه

سَقَانِيَه

قَرَمًا وَخُرْقًا
فِي خُدُودِ
وَاضِيَه

بِقَلًا نَصِيدًا
فِي تِلَاعِ
حَالِيَه

قَامَ إِلَيْهَا
فَتِيَّةٌ ثَمَانِيَه

أَخْلَافَهَا لِذِي
الْأَكْفِ مَالِيَه

جبل الجن

وقال ابن الأعرابي: قال لي أعرابي مرّة من غنيّ وقد
نزلت به، قال: وهو أخفّ ما نزلتُ به و أطيبُه، فقلت: ما
أطيب ماءكم هذا، وأغذى منزلكم قال: نعم وهو بعيدٌ من
الخير كله، بعيد من العراق واليَمامة والحجاز، كثير

الحيات، كثير الجنان فقلت: أترَوْنَ الجن؟ قال: نعم
مكأنهم في هذا الجبل - وأشار بيده إلى جبل يقال له
سُواج قال: ثمَّ حَدَّثني بأشياء.

شعر فيه ذكر الجن

وقال عبيد بن أوس الطائي في أخت عدي بن أوس:

ومقامُ أوسٍ في
الخِباءِ
المُشْرِجِ

هلْ جاءَ أوساً
ليُلتِي ونعيمها

حَتَّى دَفَعْتُ إلى
رَبِيبَةِ هودِجِ

ما زِلْتُ أطوي
الجِنَّ أسمع
حِسَّهُمْ

فَتَنَفَّسْتُ بُهْرًا
ولمَّا تنهَجِ

فوضعت كفي
عند مقطع
خَصْرِها

بمخضِبِ
الأطرافِ غيرِ

فتناولت رأسي

لِتَعْرِفَ مَسَّهُ

قَالَتْ بَعِيثِ أَخِي
وَحُرْمَةَ وَالِدِي

فَخَرَجْتُ خِيْفَةً
قَوْمَهَا فَتَبَسَّمَتْ

فَلْتَمْتُ فَاهَا

قَابِضاً

بِقُرُونِهَا

وَأَنْشِدُنِي آخِرَ:

دَهَبْتُمْ فَعُدْتُمْ

بِالْأَمِيرِ

وَقُلْتُمْ

فَمَا زَادَنِي

إِلَّا سِنَاءً

مُشْتَجِ

لَأَنْبَهَنَّ الْحَيَّ
إِنْ لَمْ تَخْرُجِ

فَعَلِمْتُ أَنَّ
يَمِينَهَا لَمْ
تَلْجِجِ

شَرِبَ النَّزِيفِ

بِبُرْدِ مَاءِ

الْحَشْرَجِ

تَرْكُنَا أَحَادِيثاً

وَلِحْمَاءَ مُوَضِعاً

وَلَا زَادَكُمْ فِي

الْقَوْمِ إِلَّا تَخَشُّعاً

ورِفعة

وما أصبحت
طيري من الخوفِ
وُقَعَا

فما نفرتُ
جِنِّي ولا فُلًّا
مِبردي

وقال حسّان بن ثابت، في معنى قوله: والله لأضربنه حتى
أنزع من رأسه شيطانه، فقال:

مِنَ البِيدِ تَعْرِفُ
جَنَانُهَا

وداويةٍ سَبَسِيبِ
سَمَلِقِ

قِي يَمْرَحُ فِي الآلِ
شَيْطَانُهَا

قَطَعْتُ بَعِيرَانَةَ
كَالْفَنِيِّ

فجمع في هذا البيت تثبيت عريف الجن، وأن المراح
والنشاط والأخلاء والغرب هو شيطانها، وأبين من ذلك
قول منظور بن رواحة:

مَسَبُّ عَوِيفِ
اللَّوْمِ حَيِّ بَنِي

أتاني وأهلي
بالدَّمَاحِ

فغمرة

بدر

فلما أتاني ما

شياطين رأسي

يقول

وانتئين من

ترققت

الخمر

من المثل والتشبيه بالجن

ومن المثل والتشبيه قول أبي النجم:

وقام جنّي

وامتهد الغارب

السنام الأميل

فعل الدمل

وقال ابن أحرر:

بهجل من قساً

تداعى الجرباء

ذفر الخزامي

به الحينا

تكسر فوقه

وجن الخازباز

القلع السواري

به جنونا

وقال الأعشى:

حَ وَجُنَّ التَّلَاغُ
وَالْأَفَاقُ

وَإِذَا الْغَيْثُ
صَوَّبُهُ وَضَعُ
الْقَدِّ

رِ وَلَا الْلَهُوُ
بَيْنَهُمُ وَالسَّبَّاقُ

لَمْ يَزِدْهُمْ سَفَاهَةً
شُرْبُ الْخَمِّ

وقال النابغة:

يَبْنُونَ تَدْمُرَ
بِالصَّفَّاحِ
وَالْعَمَدِ

وَخَيْسَ الْجِنِّ
إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ

ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهلُ تدمُرٍ يزعمون أنّ ذلك البناء بُنيَ قبلَ زمنِ
سليمانَ، عليه السلام، بأكثرَ مما بيننا اليومَ وبين
سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلامَ قالوا: ولكنكم إذا رأيتم
بنياناً عجيباً، وجهلتم موضعَ الحيلةِ فيه، أضفتموه إلى
الجنِّ، ولم تعانوه بالفكر.
وقال العرّجيُّ:

سَدَّتْ مَسَامِعَهَا
بِفَرْجِ مَرَاوِجِ

مِنْ نَسَجِ جِنَّ
مِثْلَهُ لَا يُنْسَجُ

وقال الأصمعيّ: السيوف المأثورة هي التي يقال إنها من عمل الجن والشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام، فأما القوارير والحمامات، فذلك ما لا شك فيه، وقال البعيث:

بَنَى زِيَادٌ لِدِكْرِ
اللَّهِ مَصْنَعَةً

مِنَ الْحِجَارَةِ لَمْ
تُعْمَلْ مِنَ الطِّينِ

كَأَنَّهَا غَيْرُ أَنْ
الْإِنْسَ تَرْفَعُهَا

مِمَّا بَنَتْ لِسُلَيْمَانَ
الشَّيَاطِينُ

وقال المقتع الكندي:

وَفِي الظُّعَانِ
وَالْأَحْدَاجِ أَمْحُ
مِنْ

حَلَّ الْعِرَاقَ
وَحَلَّ الشَّامَ
وَالْيَمْنَ

جَنِّيَّةٌ مِنْ نِسَاءِ

شَمْسِ النَّهَارِ

الإنسِ أَحْسَنُ
مِنْ

وَبَدْرِ اللَّيْلِ لَوْ
قُرْنَا

مَكْتُومَةِ الذِّكْرِ
عِنْدِي مَا حَيِّتُ
لَهُ

قَدْ لَعَمْرِي مَلَّتْ
الصَّرْمَ وَالْحَزْنَ

وقال أبو النّجم:

أدرك عقلاً
والرهان عمله

كأنّ تَرَبَّ القاع
حين تَسَحَّله

صيقُ شياطينَ
زَفْتُهُ شَمَالُهُ

وقال الأعشى في المعنى الأول، من بناء الشياطين
لسليمان بن داود عليهما السلام:

أرى عَادِيَا لَمْ
يَمْنَعِ المَوْتَ رَبُّهُ

وَوَرَدُ بَتِيمَاءِ
اليهوديِّ أبلقُ

بناه سُلَيْمَانُ بْنُ
دَاوُدَ حِقْبَةَ

له جَنْدَلٌ صُمٌّ
وطني مَوْتَقٌ

مواضع الجن

وكما يقولون: قنْفُذُ بُرْقَةٍ، وَضَبُّ سَحَاءٍ، وَأَرْنَبُ الْخَلَّةِ،
وَدَنْبُ خَمْرٍ فَيُفْرَقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ إِمَّا فِي
السَّمَنِ، وَإِمَّا فِي الْخُبْثِ، وَإِمَّا فِي الْقُوَّةِ - فَكَذَلِكَ أَيْضاً
يُفْرَقُونَ بَيْنَ مَوَاضِعِ الْجِنِّ، فَإِذَا نَسَبُوا الشَّكْلَ مِنْهَا إِلَى
مَوْضِعٍ مَعْرُوفٍ، فَقَدْ خَصَّوهُ مِنَ الْخُبْثِ وَالْقُوَّةِ وَالْعَرَامَةِ
بِمَا لَيْسَ لِحَمَلَتِهِمْ وَجَمُورِهِمْ، قَالَ لُبَيْدٌ:

عَلَبَ تَشَدَّرُ
بِالدُّحُولِ كَأَنَّهَا

جِنَّ الْبَدِيِّ
رَوَاسِيًّا أَقْدَامُهَا

وقال النابغة:

سَهْكِينَ مِنْ صَدَا
الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ

تَحْتَ السَّنَوْرِ
جِنَّةَ الْبِقَارِ

وقال زهير:

عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ
كَجَنَّةِ عَبْقَرٍ

جديرون يوماً أن
يُنِيفُوا فَيَسْتَعْلُوا

وقال حاتم:

عليهنّ فتيان
كجنة عبقر

يهزون بالأيدي
الوشيح المقوما

ولذلك قيل لكلّ شيء فائق، أو شديد: عبقرى.
وفي الحديث، في صفة عمر رضي الله عنه فلم أر
عبقرياً يفري فرّيه، قال أعرابي: ظلمني والله ظلماً
عبقرياً.

مراتب الجن والملائكة

ثمّ ينزلون الجن في مراتب، فإذا ذكروا الجنيّ سالماً
قالوا: جني، فإذا أرادوا أنّه ممن سكن مع الناس قالوا:
عامر، والجميع عمار، وإنّ كان ممن يعرض للصبيان
فهّم أرواح، فإن خبث أحدهم وتعرّم فهو شيطان، فإذا
زاد على ذلك فهو مارد، قال الله عزّ ذكره: "وَحِفْظاً مِنْ
كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ" فإن زاد على ذلك في القوّة فهو
عفريت، والجميع عفاريت، قال الله تعالى: "قال عفريتّ

مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ".
وهم في الجملة جنٌ وخوافي، قال الشاعر:

ولا يُحَسُّ سِوَى الْخَافِي بِهَا أَثْرُ

فإن طَهَرَ الجني وَنَظَّفَ وَنَقَّى وَصَارَ خَيْرًا كُلُّهُ فَهُوَ مَلَكٌ،
في قول من تأول قوله عز ذكره: "كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" على أَنَّ الْجِنَّ في هذا الموضع الملائكة.
وقال آخرون: كان منهم على الإضافة إلى الدار والديانة،
لا على أنه كان من جنسهم، وإنما ذلك على قولهم
سليمان بن يزيد العدوي، وسليمان بن طرخان التيمي،
وأبو علي الحرمازي، وعمرو بن فائد الأسواري،
أضافوهم إلى المحال، وتركوا أنسابهم في الحقيقة.
استطرد لغوي وقال آخرون: كلُّ مُسْتَجِنٍّ فَهُوَ جِنِّيٌّ،
وجانٌّ، وجنين، وكذلك الولدُ قيل له جرينٌ لكونه في
البطن واستجنانه، وقالوا للميت الذي في القبر جنين،
وقال عمرو بن كلثوم:

لها من تسعةٍ

ولا شمطاء لم

تَدْعُ الْمَنِيَا

إِلَّا جَنِينَا

يُخْبِرُ أَنَّهَا قَدْ دَفَنَتْهُمْ كُلَّهُمْ.

قَالُوا: وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ، مِنَ الْحَفَظَةِ، وَالْحَمَلَةِ،
وَالكُرُوبِيِّينَ، فَلَا بَدَّ مِنْ طَبَقَاتٍ، وَرَبُّمَا فُرِّقَ بَيْنَهُمْ
بِالْأَعْمَالِ، وَاشْتَقَّ لَهُمُ الْاسْمُ مِنَ السَّبَبِ كَمَا قَالُوا لَوَاحِدٍ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: خَلِيلَ اللَّهِ، وَقَالُوا لِآخَرَ: كَلِيمَ اللَّهِ، وَقَالُوا
لِآخَرَ: رُوحَ اللَّهِ.

مَرَاتِبُ الشُّجْعَانِ

وَالعَرَبُ تُنْزِلُ الشُّجْعَانَ فِي الْمَرَاتِبِ، وَالاسْمُ الْعَامُّ شُجَاعٍ،
ثُمَّ بَطْلٍ، ثُمَّ بُهْمَةٍ، ثُمَّ أَلَيْسَ، هَذَا قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ.
فَأَمَّا قَوْلُهُمْ: شَيْطَانُ الْحَمَاطَةِ، فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ الْحَيَّةَ، وَأَنْشَدَ
الْأَصْمَعِيُّ:

تَلَاعِبُ مَثْنَى

تَعَمَّجُ شَيْطَانُ بِذِي خِرْوَعٍ قَفْرٍ

حَضْرَمِيٌّ كَأَنَّهُ

وَقَدْ يُسَمُّونَ الْكَبِيرَ وَالطَّغْيَانَ، وَالخُنْزُرَانَةَ، وَالغَضْبَ
الشَّدِيدَ شَيْطَانًا، عَلَى التَّشْبِيهِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،
رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: وَاللَّهُ لِأَنْزَعِنَ نُعْرَتَهُ، وَلِأَضْرِبَنَّهُ

حتى أنزع شيطانه من نخرته.
مراتب الجن والأعراب تجعل الخوافي والمستجنات، من
قبل أن ترتب المراتب، جنسين، يقولون جنّ وحنّ،
بالجيم والحاء، وأنشدوا:

مختلف
نجواهم جنّ
وجنّ

أبيت أهوي في
شياطين ترنّ

ويجعلون الجنّ فوق الحنّ، وقال أعشى سليم:

ولست من
النّسناس في
عنصر البشر

فما أنا من
جنّ إذا كنت
خافياً

ذهب إلى قول من قال: البشر ناسٌ ونسناس، والخوافي
حنّ وجنّ، يقول: أنا من أكرم الجنسين حيثما كنت.
شيطان ضعفة النّسّاك والعباد وضعفة النّسّاك وأغبياء
العُباد، يزعمون أنّ لهم خاصّة شيطانا قد وُكِّلَ بهم،
ويقال له المذهب يُسْرِجُ لهم النّيران، ويُضِيءُ لهم
الظّلْمَة ليفتنهم وليريهم العجب إذا ظنّوا أنّ ذلك من قبيل

اللّٰه تعالٰى.

شيطان حفظة القرآن وفي الحديث أنّ الشيطان الذي قد
تفرّد بحفظة القرآن يُسَيِّمهم القرآن، يسمى حَنْزَب، وهو
صاحب عثمان بن أبي العاص.

الخابل والخبل قال: وأما الخابل والخَبَل، فإنما ذلك اسم
للجنّ الذين يخبلون الناس بأعيانهم، دون غيرهم، وقال

تناوح جنان بهنّ وخبَلُ

كأنّه أخرج الذين يخبلون ويتعرّضون، ممّن ليس عنده
إلاّ العزيف والنّوح، وفصل أيضاً لبيدّ بينهم فقال:

ولكنّ أتانا كلّ
جنّ وخابلٍ

أعادلُ لو كان
النّداد لقوتلوا

وقد زعم ناسٌ أنّ الخبلَ والخابل ناس، قالوا: فإذا كان
ذلك كذلك، فكيف يقول أوس بن حجر:

تناوح جنان بهنّ وخبَلُ

استطراد لغوي

قالوا: وإذا تعرّضت الجنّية وتلوّنت وعبّثت فهي شيطانة،
ثم عُول، والعُول في كلام العرب الدّاهية، ويقال: لقد
غالته عُول، وقال الشاعر:

تقول بيت

فقد صدقت ولكن أنت مدخول

تنبني وتهدمه هدّاً له عُولٌ
بالبيت إلا ما صنعت به
لا بأس

وقال الرّاجز:

تُزَفُّ
بالرّايات
والطُّبول

والحربُ عُولٌ أو
كشبه العُولِ

حِمالقَ عَيْنِ
ليس بالمكحولِ

تَقَلِبُ للأوتارِ
والدُّحولِ

زواج الأعراب للجن

ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم، ويكلمونهم،
ويناكحونهم، ولذلك قال شمر بن الحارث الضّبي:

ونار قد حضأتُ
بُعِيدَ هَذِهِ

بدار لا أريدُ بها
مُقَامًا

سوى تَحْلِيلِ
راحلةٍ وعينٍ

أكائنها مخافة
أنّ تناما

أتوا ناري فقلتُ
منونَ قالوا

سراةَ الجنّ قلتُ
عموا ظلما

فقلتُ إلى
الطَّعامِ فقالَ
منهُم

زعيماً نحسد
الإنسَ الطَّعاما

وذكر أبو زيدٍ عنهم أن رجلاً منهم تزوج السَّعلاةَ، وأنها
كانت عنده زماناً، وولدت مِنْهُ، حتَّى رأت ذات ليلةٍ بَرَقاً
على بلاد السَّعالي، فطارَتْ إليهنّ، فقال:

رأى بَرَقاً
فأَوْضَعَ فوقَ
بَكْرِ

فلا بكِ ما أسأل
وما أَعَامًا

فمن هذا النَّتاج المشترك، وهذا الخلق المركَّب عندهم،
بنو السَّعلاة، من بين عمرو بن يربوع، وبلقيس ملكة
سبأ، وتأولوا قول الشاعر:

النَّاس طَرْفٌ
وَهُمْ تِلَادُكَا

لَاهُمْ إِنَّ جُرْهُمًا
عِبَادُكَا

فَزَعَمُوا أَنْ أبا جُرْهم من الملائكة الذين كانوا إذا عصوا
في السَّماء أنزلوا إلى الأرض، كما قيل في هاروت
وماروت، فجعلوا سُهيلاً عَشَّاراً مُسِيخَ نجماً، وجعلوا
الزُّهرة امرأةً بغياً مُسِيخَ نجماً، وكان اسمها أناهيد.
وتقول الهند في الكوكب الذي يسمَّى عَطاردَ شبيهاً بهذا.
المخدومون ويقول الناس: فلانٌ مخدومٌ يذهبون إلى أنّه
إذا عَزَمَ على الشَّيَاطِين والأرواح والعَمَّار أجابوه
وأطاعوه، منهم عبد الله بن هلال الحميريّ، الذي كان
يقال له صديق إبليس، ومنهم كرباش الهنديّ، وصالح
المدبيريّ.

شروط إجابة العامر للعزيمة وقد كان عبيّ مَجَّ يقول: إن
العامر حريصٌ على إجابة العزيمة، ولكنّ البدن إذا لم
يصلُح أن يكون له هيكلًا لم يستطع دخوله، والحيلة في

ذلك أن يتبخَّرَ باللبان الذَّكر، ويراعي سَيْرَ المشتري،
ويغتسلَ بالماء القراح، ويدعُ الجماعَ وأكلَ الزُّهومات،
ويتوحَّش في الفيافي، ويكثر دخول الخرابات، حتى يرقَّ
ويلطف ويصفو ويصير فيه مشابهُه من الجنِّ، فإن عزم
عند ذلك فلم يُجب فلا يعودنَّ لمثلها فإنه ممَّن لا يصلح
أن يكون بدنه هيكلًا لها، ومتى عاد خُبط فربما جنِّ،
وربما مات.

قال: فلو كنت ممَّن يصلح أن يكون لهم هيكلًا لكنت فوق
عبد الله بن هلال.

رؤية الجن

قال الأعراب: وربما نزلنا بجمع كثير، ورأينا خياماً
وقباباً، وناساً، ثم فقدناهم من ساعتنا.
والعوام ترى أن ابن مسعود، رضي الله عنه، رأى رجالاً
من الزُّط فقال: هؤلاء أشبهه من رأيت بالجن ليلة الجن.
قال: وقد روي عنه خلاف ذلك.
وتأولوا قوله تعالى: "وأنه كان رجالاً من الإنس يعُودون
برجالٍ من الجن فزادوهم رهقاً"، ولم يهلك الناس

كالتأويل.

ومما يدلُّ على ما قلنا قولُ أبي النَّجم، حيث يقول:

بِحَيْثُ تَسْتَنُّ مَعَ الْجَنِّ الْعَوْلُ

فأخرج الغول من الجنِّ، للذي بانَّتْ به من الجنِّ.
وهكذا عادتهم: أن يُخرجوا الشيء من الجملة بعد أن
دخَلَ ذلك الشيء في الجملة، فيظهر لأمر خاصٍ.
وفي بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من
أجواف الأوثان همهمةً، وأن خالد بن الوليد حين هدم
العُزَّى رمته بالشرر حتى احترق عامَّةً فخذُه، حتى عادُه
النبي صلى الله عليه وسلم.
وهذه فتنةٌ لم يكن الله تعالى ليتمحنَ بها الأعراب وأشباه
الأعراب من العوامِّ، وما أشك أنه قد كانت للسدنة حيلٌ
والطاف لمكان التكسب.

ولو سمعت أو رأيت بعض ما قد أعدَّ الهنْد من هذه
المخاريق في بيوت عباداتهم، لعلمت أن الله تعالى قد منَّ
على جملة الناس بالمتكلمين، الذين قد نشؤوا فيهم.
افتتان بعض النصارى بمصايح كنيسة قمامة وقد
تعرِّف ما في عجائز النصارى وأعمارهم، من الافتتان

بمصايح كنيسة قمامة، فأما علماءهم وعقلاؤهم فليسوا
بمتحاشين من الكذب الصّرف، والجرأة على البهتان
البحت، وقد تعودوا المكايرة حتى درّبوا بها الدّرب الذي
لا يفتن له إلا ذو الفراسة الثّابتة، والمعرفة الثّاقبة.

إيمان الأعراب بالهواتف

والأعرابُ وأشباهُ الأعراب لا يتحاشون من الإيمان
بالهاتف، بل يتعجّبون ممن ردّ ذلك، فمن ذلك حديث
الأعشى بن نباش بن زرارة الأسدي، أنه سمع هاتفاً
يقول:

وَدُوّ الباعِ والمجدِ
الرّفيعِ ودُوّ الفخرِ

لقد هلك
الفياضُ غيثُ
بني فهِرِ

قال: فقلتُ مجيباً له:

مَنْ المرءُ تتعاهُ
لنا من بين فهِرِ

ألا أيّها الناعي
أخا الجود
والندى

فقال:

نَعَيْتَ ابْنَ
جُدْعَانَ بْنِ
عَمْرِوِ أَخَا
النَّدَى
وَذَا الْحَسْبِ
الْقُدْمُوسِ
وَالْحَسْبِ الْقَهْرِ

وهذا الباب كثير.

قالوا: ولنقل الجنّ الأخبارَ علمَ الناسِ بوفاةِ الملوكِ،
والأمورِ المهمةِ، كما تسامعُوا بموتِ المنصورِ بالبصرةِ
في اليومِ الذي تُوفي فيه بقربِ مكة، وهذا البابُ أيضاً
كثير.

من له رأيٌّ من الجن

وكانوا يقولون: إذا أَلَفَ الجَنِّي إنساناً وتعطفَ عليه،
وخبّره ببعضِ الأخبارِ، وجد حسّه ورأى خياله، فإذا كان
عندهم كذلك قالوا: مع فلان رأيٌّ من الجن، وممن
يقولون ذلك فيه عمرو بن لُحيّ بن قَمعة، والمأمور
الحارثي، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، في ناسٍ
معروفين من ذوي الأقدار، من بين فارسِ رئيس، وسيّد

مُطاع.

فأما الكهّان: فمثل حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وعزّى
سلمة، ومثل شقّ، وسطيح، وأشباههم، وأما العرّاف،
وهو دون الكاهن، فمثل الأبلق الأسدي، والأجلح
الزهري، وعروة ابن زيد الأسدي، وعرّاف اليمامة رباح
بن كحّلة، وهو صاحب بنت المستنير البلتعي، وقد قال
الشاعر:

فَاتِّكِ إِنَّ
أَبْرَأْتَنِي
لَطِيبُ

فقلت لعراف
اليمامة داوئي

وقال جُبَيْهَاءُ الْأَشْجَعِيُّ:

وقد سَيَّرْتُ كُلَّ
هُوَى حَبِيبِ

أَقَامَ هَوَى
صَفِيَّةَ فِي
فَوَادِي

وما أَنَا مِنْ
هُوَائِكَ بَدِي

لَكَ الْخَيْرَاتُ
كَيْفَ مُنِحَتْ

وُدِّي

أقول وعروة
الأسدي يرقى

لَعَمْرُكَ مَا
التَّائِبُ يَا ابْنَ
زَيْدٍ

لَسِيرُ النَّاعِجَاتِ
أظنُّ أشفى

نَصِيبِ

أتاك برقية
الملق الكذوب

بشافٍ من رُقاك
ولا مُجيبِ

لما بي من
طبيب بني
الذَّهوبِ

وليس البابُ الذي يدّعيه هؤلاء من جنس العيافة
والزّجر، والخطوط، والنّظر في أسرار الكفّ، وفي
مواضع قرص الفار، وفي الخيلان في الجسد، وفي النظر
في الأكتاف، والقضاء بالنجوم، والعلاج بالفكر.
وقد كان مُسيلمة يدّعي أن معه رنباً في أوّل زمانه،
ولذلك قال الشّاعر، حين وصّفَ مخاريقه وخُدّعه:

وخلّة جنّي
وتوصيل طائرٍ

ببيضة قارورٍ
وراية شادنٍ

ألا تراه ذكر خلّة الجنّي.

ظهور الشق للمسافرين

ويقولون: ومن الجنّ جنسٌ صورةُ الواحدٍ منهم على نصف صورة الإنسان، واسمه شِقٌّ، وإنّه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر إذا كان وحده، فربما أهلكه فزعاً، وربما أهلكه ضرباً وقتلاً.

قالوا: فمن ذلك حديثُ علقمة بن صفوان بن أمية بن محرث الكناني، جدّ مروان بن الحكم، خرج في الجاهلية، وهو يريد مالاً له بمكة، وهو على حمار، وعليه إزارٌ ورداء، ومعه مقرعة، في ليلةٍ إضحيانة، حتى انتهى إلى موضعٍ يقال له حائط حزمان، فإذا هو بشقّ له يدٌ ورجل، وعينٌ، ومعه سيف، وهو يقول:

وإن لحمي
مأكولٌ

عَلَقْمُ إِنِّي
مَقْتُولٌ

ضربَ غلامٍ
شْمُولٍ

أضربُهُم
بالهُدُولِ

رحبِ الذَّرَاعِ
بُهلُولِ

فقال علقمة:

اغمدَ عني
مُنْصُك

يا شِقِّها مالي
ولك

تَقْتُلُ مَنْ لا
يَقْتُلُكَ

فقال شِقِّ:

كيما أتِيحَ
مَقْتَلُكَ

عَبِيْتُ لَكَ عَبِيْتُ
لَكَ

فاصبر لما قد حُمَّ
لَكَ

قال: فضرب كل واحدٍ منهما صاحبه، فخرًا ميتين، فممن قتل الجن علقمة ابن صفوان هذا، وحرب بن أمية. قالوا: وقالت الجن:

وليس قَرَبَ قَبْرِ
حَرَبِ قَبْرِ

وقَبْرُ حَرَبٍ
بِمَكَانِ قَفْرِ

قالوا: ومن الدليل على ذلك، وعلى أن هذين البيتين من أشعار الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدهما ثلاث مرات متصلة، لا يتتبع فيها، وهو يستطيع أن ينشد أثقل شعر في الأرض وأشقّه عشر مرات ولا يتتبع.

ذكر من قتلته الجن أو استهوته

قال: وقتلت مرداس بن أبي عامر، أبا عباس بن مرداس، وقتلت الغريض خنقاً بعد أن غنى بالغناء الذي كانوا نهوه عنه، وقتلت الجن سعد بن عبادة بن دليم، وسمعوا الهاتف يقول:

ج سَعْدِ بْنِ
عُبَادَةَ

نحن قَتَلْنَا سَيِّدَ
الْخَزْرِ

رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ

فَلَمْ نَخْطِ فُؤَادَهُ

واستهووا سِنَانَ بن أَبِي حارثة ليستفحلوه، فمات فيهم،
واستهووا طالب بن أَبِي طالب، فلم يوجد له أثرٌ إلى
يوماً هذا.

واستهووا عمرو بن عَدِيِّ اللَّخْمِيِّ الملك، الذي يقال فيه:
شَبَّ عَمْرُو عن الطُّوقِ، ثُمَّ رُدُّوه على خاله جَذِيمَةَ
الأبرش، بعد سنين وسنين.

واستهووا عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونفخوا في
إحليله فصار مع الوحش.

ويروون عن عبد الله بن فائد بإسنادٍ له يرفعه، أَنَّ النبي
صلى الله عليه وسلم قال: خُرَافَةٌ رَجُلٌ من عُدْرَةٍ
استهوته الشَّيَاطِينُ، وَأَنَّهُ تَحَدَّثَ يوماً بِحَدِيثٍ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ
من نِسَائِهِ: هَذَا من حَدِيثِ خُرَافَةٍ قال: لا، وَخُرَافَةٌ حَقٌّ.

طعام الجن

وروا عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّهُ سَأَلَ
المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال:
الفول، قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف.

وروا أن طعامهم الرّمة وما لم يذكر اسمُ الله عليه.
وروا عن النبي صلى الله عليه وسلم - والحديث صحيح
- أنه قال: حَمَّرُوا آبَيْتِكُمْ، وَأَوْكِنُوا أَسْقِيَتِكُمْ وَأَجِيفُوا
الْأَبْوَابَ، وَأَطْفِنُوا الْمَصَابِيحَ، وَاكْفُفُوا صَبِيَانِكُمْ، فَإِنَّ
لِلشَّيَاطِينِ انْتِشَاراً وَخَطْفَةً،

رؤوس الشياطين

وقد قال الناس في قوله تعالى: "إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ"، فزعم ناس
أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن، لها
منظر كرية.

والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عنى إلا
رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم، من فسقة الجن
ومردتهم، فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن
يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصفت لنا
صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق، ومخرج الكلام
يدلُّ على التخويف بتلك الصورة، والتفريع منها، وعلى
أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف
يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل

شنيع، قد عاينوه، أو صوّره لهم واصفًا صدوقُ اللسان،
بليغٌ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صوّرها لنا
صادق، وعلى أنّ أكثر الناس من هذه الأمم التي لم
تعاش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين، ولم
تسمع الاختلاف لا يتوهّمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا
يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟.

قلنا: وإن كنا نحن لم نر شيطانا قطّ ولا صوّر رؤوسها
لنا صادقٌ بيده، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح
الشيطان، حتّى صاروا يضعون ذلك في مكانين: أحدهما
أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن
يسمّى الجميلُ شيطانا، على جهة التطيّر له، كما تسمّى
الفرسُ الكريمةُ شوهاء، والمرأة الجميلة صماء،
وقرناء، وخنساء، وجرباء وأشباه ذلك، على جهة
التطيّر له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكلّ من لقيناهُ
على ضرب المثل بقبح الشيطان، دليلٌ على أنه في
الحقيقة أقبح من كل قبيح.

والكتابُ إنّما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم
بغاية التثبيت.

وكما يقولون: لهو أقبح من السحر، فكذا يقولون، كما

قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته - هذا والله السحر الحلال.
وكذلك أيضاً ربّما قالوا: ما فلانُ إلا شيطان على معنى الشّهامة والنّفاذ وأشباه ذلك.
صفة الغول والشيطان والعامّة تزعم أنّ الغول تتصوّر في أحسن صورة إلا أنه لا بدّ أن تكون رجُلها رجلَ حمار.
وخبّروا عن الخليل بن أحمد، أنّ أعرابياً أنشده:

وجفنِ عينٍ
خلافِ الإنسِ في
الطولِ

وحافرِ العيرِ
في ساقِ
خَدَجَةٍ

وذكروا أنّ العامّة تزعم أنّ شقّ عين الشيطان بالطول، وما أظنّهم أخذوا هذين المعنيين إلاّ عن الأعراب.
ردّ على أهل الطعن في الكتاب وأما إخبارهم عن هذه الأمم، وعن جهلها بهذا الإجماع والاتّفاق والإطباق، فما القول في ذلك إلاّ كالقول في الزبانية وخرنة جهنّم، وصوّر الملائكة الذين يتصوّرون في أقبح الصوّر إذا حضروا لقبض أرواح الكفار، وكذلك في صور مُنكر

ونكير، تكون للمؤمن على مثال، وللكافر على مثال.
ونحن نعلم أنّ الكفار يزعمون أنهم لا يتوهّمون الكلام
والمحاجة من إنسان ألقى في جاحم أتون فكيف بأن يُلقى
في نار جهنّم؟ فالحجّة على جميع هؤلاء، في جميع هذه
الأبواب، من جهةٍ واحدة، وهذا الجواب قريب، والحمد
لله.

وشقُّ فم العنكبوت بالطول، وله ثماني أرجل.

سكنى الجن أرض وبار

وتزعم الأعراب أنّ الله عزّ ذكره حين أهلك الأمة التي
كانت تسمّى وبار، كما أهلك طسماً، وجديساً، وأميماً،
وجاسماً، وعملاقاً، وشموداً وعاداً - أنّ الجن سكنت في
منازلها وحمتها من كلّ من أرادها، وأنها أخصبُ بلاد
الله، وأكثرها شجراً، وأطيبها ثمراً، وأكثرها حبّاً وعنباً،
وأكثرها نخلاً وموزاً، فإن دنا اليوم إنسانٌ من تلك البلاد،
متعدياً، أو غالطاً، حثوا في وجهه التراب، فإن أبى
الرجوع خبلوه، وربما قتلوه.

والموضع نفسه باطل، فإذا قيل لهم: دلُّونا على جهته،
ووقفونا على حدّه وخطاكم ذمّ - زعموا أنّ من أراد ألقى

على قلبه الصَّرْفَة، حتَّى كأنهم أصحابُ موسى في التَّيِّه،
وقال الشاعر:

وداع دعا
واللَّيْلُ مرخٍ
سُدوله
رجاء القري يا
مُسْلِمَ بن حمارِ

دعا جُعلاً لا
يهتدي لمقبله
من اللؤم حتَّى
يهتدي لوبارِ

فهذا الشاعرُ الأعرابيُّ جعل أرض وبارٍ مثلاً في الضلال،
والأعراب يتحدَّثون عنها كما يتحدَّثون عمَّا يجدونه بالدَّوِّ
والصَّمَان، والدهناء، ورمل يبرين، وما أكثر ما يذكرون
أرض وبارٍ في الشَّعر، على معنى هذا الشاعر.
قالوا: فليس اليومَ في تلك البلاد إلاَّ الجنُّ، والإبلُ
الحوشية.

الحوشية من الإبل والحوشُ من الإبل عندهم هي التي
ضربتُ فيها فحولُ إبل الجن، فالحوشية من نسلِ إبل
الجن، والعيدية، والمهريَّة، والعسجدية، والعمانية، قد
ضربتُ فيها الحوش، وقال رُوبة:

جَرَّت رَحَانَا مِنْ بِلَادِ الْحَوْشِ

وقال ابن هريم:

كَأَنِّي عَلَى
حُوشِيَّةٍ أَوْ
نَعَامَةٍ
لَهَا نَسَبٌ فِي
الطَّيْرِ وَهُوَ ظَلِيمٌ

وإنما سمّوا صاحبة يزيد بن الطّرية حُوشِيَّةً عَلَى هَذَا
المعنى.

التحصن من الجنّ

وقال بعضُ أصحاب التفسير في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالًا مِنْ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا": "إنّ جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه
من الأرض، وتوسّطوا بلاد الحُوش، خافوا عبث الجنّانِ
والسّعالِي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع
صوته: إنا عانذرن بسيدّ هذا الوادي فلا يؤذيهنّ أحدّ،
وتصير لهم بذلك خفارة.

أثر عشق الجن في الصرع

وهم يزعمون أن المجنون إذا صرَعته الجنِّيَّة، وأنَّ
المجنونة إذا صرَعها الجنِّي - أن ذلك إنما هو على
طريق العشق والهوى، وشهوة النِّكاح، وأن الشيطان
يعشق المرأة منَّا، وأنَّ نظرته إليها من طريق العُجب بها
أشدُّ عليها من حُمى أيام، وأنَّ عين الجنِّ أشدُّ من عين
الإنسان.

قال: وسمع عمرو بن عبَّيد، رضي الله عنه، ناساً من
المتكلمين يُنكرون صرَّع الإنسان للإنسان، واستهواء
الجنِّ للإنس، فقال وما ينكرون من ذلك وقد سمعوا قول
الله عزَّ ذكره في أكلة الرِّبَا، وما يصيبهم يوم القيامة،
حيث قال: "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ"، ولو كان الشَّيْطَانُ لم
يَخْبِطُ أحداً لما ذكر الله تعالى به أكلة الرِّبَا، فقيل له:
ولعلَّ ذلك كان مرَّةً فذهب، قال: ولعله قد كثر فازداد
أضعافاً، قال: وما يُنكرون من الاستهواء بعد قوله تعالى:
"كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ".
زعم العرب أن الطاعون طعن من الشيطان قال: والعرب
تزعم أن الطاعون طعن من الشيطان، ويسمُّون الطَّاعون
رماح الجنِّ، قال الأسدِيُّ للحارث الملك الغساني:

رِمَاحِ بَنِي
مَقِيدَةَ الْحَمَارِ

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ
عَلَى أَبِيٍّ

رِمَاحِ الْجَنِّ أَوْ
إِيَّاكَ حَارِ

وَلَكِنِّي خَشِيتُ
عَلَى أَبِيٍّ

يقول: لم أكن أخاف على أبي مع منعه وصرامته، أن يقتله الأندال، ومن يرتبط العير دون الفرس، ولكني إنما كنت أخافك عليه، فتكون أنت الذي تطعنه أو يطعنه طاعون الشام.

وقال العُماني يذكر دولة بني العباس:

وَأَذْهَبَ الْعَذَابَ
وَالْتَجَنِّي

قَدْ دَفَعَ اللَّهُ
رِمَاحَ الْجَنِّ

وقال زيد بن جندب الإيادي:

رِمَاحِ الْأَعَادِي
مَنْ فَصِيحٌ
وَأَعْجَمٌ

وَلَوْلَا رِمَاحُ
الْجَنِّ مَا كَانَ
هَزْهَمٌ

ذهب إلى قول أبي دؤاد:

فلهم في صدى
المقابر هام

سُلط الموتُ
والمنونُ عليهم

يعني الطاعون الذي كان أصاب إياداً.
وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر
الطَّاعون فقال: "هو وَخْزٌ من عَدُوِّكم": وأنَّ عَمْرُو بن
العاص قام في النَّاسِ في طاعون عَمَواس فقال: إنَّ هذا
الطاعون قد ظهر، وإنما هو وَخْزٌ من الشَّيْطان، ففِرُّوا
منه في هذه الشُّعاب.
وبلغ مُعاذ بن جبَلٍ، فأنكر ذلك القول عليه.

تصور الجنِّ والغيلان والملائكة والناس

وتزعم العامَّة أنَّ الله تعالى قد مَلَّك الجن والشياطين
والعُمَّار والغيلان أن يتحوَّلوا في أيِّ صورة شاءوا، إلاَّ
الغول، فإنَّها تتحوَّل في جميع صُورة المرأة ولباسها، إلاَّ
رجليها، فلا بُدَّ من أن تكون رجلي حمار.
وإنما قاسوا تصوُّر الجن على تصوُّر جبريل عليه السلام
في صورة دَحْيَةَ بن خليفة الكلبى، وعلى تصوُّر الملائكة

الذين أتوا مريم، وإبراهيم، ولوطاً، وداود عليهم السلام في صورة الآدميين، وعلى ما جاء في الأثر من تصوّر إبليس في صورة سُراقَة بن مالك بن جَعشم، وعلى تصوّره في صورة الشيخ النجدي، وقاسوه على تصوّر مَلَك الموت إذا حضر لقبض أرواح بني آدم، فإنه عند ذلك يتصوّر على قدر الأعمال الصالحة والطالحة. قالوا: وقد جاء في الخبر أنّ من الملائكة من هو في صورة الرّجال، ومنهم من هو في صورة الثيران، ومنهم من هو في صورة النسور، ويدلُّ على ذلك تصديقُ النبي صلى الله عليه وسلم لأميّة بن أبي الصلت، حين أنشد:

وَالنَّسْرُ لِلأُخْرَى
وَلَيْتَ مُرْصِدُ

رَجُلٌ وَثُورٌ
تَحْتَ رِجْلِ
يَمِينِهِ

قالوا: فإذا قد استقام أن تختلف صورهم وأخلاق أبدانهم، وتتفق عقولهم وبياناتهم واستطاعتهم، جاز أيضاً أن يكون إبليس والشيطان والغول أن يتبدلوا في الصور من غير أن يتبدلوا في العقل والبيان والاستطاعة. قالوا: وقد حوّل الله تعالى جعفر بن أبي طالب طائراً، حتى

سماه المسلمون الطَّيَّار، ولم يخرجْه ذلك من أن نراه غداً
في الجنة، وله مثلُ عقل أخيه علي رضي الله عنهما،
ومثل عقل عمه حمزة رضي الله تعالى عنه، مع
المساواة بالبيان والخلق.

أحاديث في إثبات الشيطان

قالوا: وقد جاء في الأثر النهي عن الصَّلَاة في أعطان
الإبل، لأنَّها خلقت من أعنان الشياطين.
وجاء أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ
عند طلوع الشَّمْسِ حتى طلوعها، فإنَّها بين قرني
شيطان.
وجاء أنَّ الشياطين تُغَلِّ في رمضان.
فكيف تنكر ذلك مع قوله تعالى في القرآن: "وَالشَّيَاطِينِ
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَّاصٍ، وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ".
ولشهرة ذلك في العرب، في بقايا ما ثبتوا عليه من دين
إبراهيم عليه السَّلَام، قال النابغة الذبياني:

قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ
فأحدها عن

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ
قَالَ الْإِلَهُ لَهُ

الفند

يَبْنُونَ تَدْمُرُ
بِالصَّفَاحِ
وَالْعَمَدِ

وَحَيْسَ الْجَنِّ
إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ
لَهُمْ

تنهى الظلوم ولا
تقعد على ضميد

فمن عصاك
فعاقبه معاقبه

وجاء في قتل الأسود البهيم من الكلاب، وفي ذي
النُّكْتَيْنِ، وفي الحية ذات الطُّفَيْتَيْنِ، وفي الجانِّ.
وجاء: لا تشربوا من ثلثة الإناء، فإنه كِفْلُ الشَّيْطَانِ،
وفي العاقد شعره في الصلاة: إِنَّهُ كِفْلُ الشَّيْطَانِ، وأن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: تراصُّوا بينكم في
الصلاة، لا تتخللكم الشَّيَاطِينُ كأنها بنات حذف، وأنه نهى
عن ذبائح الجن.

وروا: أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال: إن ابني هذا، به جنونٌ يصيبه عند الغداء
والعشاء قال: فمسح النبي صلى الله عليه وسلم صدره،
فنعث ثعة فخرج من جوفه جرؤ أسود يسعى.

قالوا: وقد قضى ابن عُلاثة القاضي بين الجنّ، في دم
كان بينهم بحكم أقنعهم.
رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القول إلى
تفسير قصيدة البهراني: أما قوله:

بغزال وصدقتي
زقّ خمر

وتزوجت في
الشبيبة غولاً

فزعم أنه جعل صداقها غزلاً وزقّ خمر، فالخمر لطيب
الرائحة، والغزال لتجعله مركباً، فإنّ الطباء من مراكب
الجن.
وأما قوله:

ومتى شئت لم
أجد غير بكر

ثيب إن هويت
ذلك منها

كانه قال: هي تتصوّر في أيّ صورة شاءت.

شياطين الشعراء

وأما قوله:

بنت عمرو
وخالها مسحل
الخي

ر وخالي هميم
صاحب عمرو

فإنهم يزعمون أنّ مع كلّ فحلّ من الشعراء شيطاناً يقول
ذلك الفحلّ على لسانه الشعر، فزعم البهراني أنّ هذه
الجنّية بنت عمرو صاحب المخبّل، وأنّ خالها مسحل
شيطان الأعشى، وذكر أنّ خاله هميم، وهو همّام، وهمّام
هو الفرزدق، وكان غالبُ بن صعصعة إذا دعا الفرزدق
قال: يا هميم.

وأما قوله: صاحب عمرو فكذلك أيضاً يقال إن اسم
شيطان الفرزدق عمرو، وقد ذكر الأعشى مسحلاً حين
هجاه جُهّام فقال:

جُهّامَ جَدْعاً
للّهجين
المدّم

دَعَوْتُ خَلِيلِي
مِسْحَلاً وَدَعَا لَهُ

وذكره الأعشى فقال:

بَأْفِيحَ جَيَّاشٍ
العَشِيَّاتِ
مِرْجَمٍ

حَبَانِي أَخِي
الجَنِّيُّ نَفْسِي
فِدَاؤُهُ

وقال أعشى سليم:

وما كان فيهم
مِثْلُ فَحْلٍ
المُخَبَّلِ

وما كان جَنِّيُّ
الفرزدقِ قَدْوَةً

ولا بعدَ عمرو
شاعراً مِثْلَ
مِسْحَلِ

وما في الخوافي
مِثْلَ عَمْرُو
وَشِيخِهِ

وقال الفرزدق، في مديح أسد بن عبد الله:

مَنْ كَانَ بِالْغُورِ أَوْ
مَرْوِي خُرَاسَانَا

لِيُبَلِّغَنَّ أَبَا
الأشبالِ
مِدْحَتَنَا

لسانُ أشعرِ خَلْقِ

كأنَّها الدَّهَبُ

الله شيطاننا

العقيان

حبرها

وقال:

بيوم دهنتي
جنه وأخابله

فلو كنت عندي
يوم قو عذرتي

فمن أجل هذا البيت، ومن أجل قول الآخر:

خبال الله من
إنس وجن

إذا ما راع
جارته فلاقى

زعموا أن الخابل الناس.
ولما قال بشار الأعمى:

فقلت: اتركني
فالتفرد أحمد

دعاني شينقناق
إلى خلف بكرة

يقول: أحمد في الشعر أن لا يكون لي عليه معين - فقال
أعشى سليم يرد عليه:

إِذَا أَلِفَ الْجَنِّيَّ
قِرْدًا مُشَنَّفًا

فَقُلْ لَخَنَازِيرِ
الْجَزِيرَةِ أَبْشَرِي

فَجَزِعَ بَشَارًا مِنْ ذَلِكَ جَزَعًا شَدِيدًا، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ مَعَ
تَغَزُّلِهِ أَنَّ وَجْهَهُ وَجْهَ قِرْدٍ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا عُرِفَ مِنْ جَزَعِهِ
مِنْ ذِكْرِ الْقِرْدِ، الَّذِي رَأَوْا مِنْهُ حِينَ أَنْشَدُوهُ بَيْتَ حَمَّادٍ:

وَيَا أَقْبَحَ مِنْ
قِرْدٍ

إِذَا مَا عَمِي
الْقِرْدُ

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَلَهَا خِطَّةٌ
بِأَرْضِ وَبَارٍ

مَسَحُوهَا فَكَانَ لِي
نَصْفُ شَطْرِ

فَإِنَّمَا ادَّعَى الرَّبْعَ مِنْ مِيرَاثِهَا، لِأَنَّهُ قَالَ:

تَرَكْتُ عَبْدَلًا
ثَمَالَ الْيَتَامَى

وَأَخُوهُ مَزَاحِمٌ
كَانَ بَكْرٌ

وَضَعَتْ تِسْعَةً

مِنْ نِسَاءٍ فِي

وكانت نَزوراً

أهلها غير نَزْرٍ

وفي أن مع كلِّ شاعرٍ شيطاناً يقول معه، قول أبي النجم:

إني وكلّ شاعرٍ

شيطانه أنثى

من البَشْرِ

وشيطاني ذكر

وقال آخر:

إني وإن كنتُ

وكان في العين

صغير السنِّ

نُبُو عني

فإنّ شيطاني

كبير الجنِّ

كلاب الجن

وأما قول عمرو بن كلثوم:

وقد هَرَّتْ كلابُ

وشدّبتنا قتادة

الجنِّ منا

من يلينا

فإنهم يزعمون أنّ كلاب الجنّ هم الشعراء.

أرض الجن

وأما قوله:

وعُروج من
المؤبِّلِ دَثْر

أرض حُوشٍ
وجاملٍ عَكَّانٍ

فأرض الحوش هي أرض وبار، وقد فسّرنا تأويل الحوش، والعكّان: الكثير الذي لا يكون فوقه عدد، قوله: عروج جمع عَرَج، والعَرَج: ألف من الإبل نقص شيئاً أو زاد شيئاً، والمؤبِّل من الإبل، يقال إبل مؤبِّلة، ودرهم مُدْرَهمة، وبدَر مبدّرة، مثل قوله تعالى: "وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ" وأما قوله: "دثر" فإنهم يقولون: مال دَثْر، ومالٌ دَبْر، ومال حَوْم: إذا كان كثيراً.

استراق السمع

وأما قوله:

يسرقُ السَّمْعَ
كلَّ ليلةٍ بَدْرٍ

ونَفَّوْا عَن
حريمها كلَّ عِفْرِ

فالعِفْرُ هو العفريت، وجعله لا يسرق السمع إلا جهاراً في
أضوا ما يكون البدر، من شدة معاندته، وفرط قوته.
الشنقناق والشيصبان وأما قوله:

ونساء من
الزوابع زهر

في فتو من
الشنقناق عر

الزوابع: بنو زبيعة الجنّي، وهم أصحاب الرّهج والقّتام
والتنوير وقال راجزهم:

في غبش الليل
وفيهم زوبعه

إنّ الشياطين
أتوني أربعة

فأما شينقناق وشييصبان، فقد ذكرهما أبو النجم:

لابن شنقناق وشييصبان

فهذان رئيسان ومن آباء القبائل، وقد قال شاعرهم:

فليس يقال له
من هوه

إذا ما ترعرع
فينا الغلام

إذا لم يَسُدْ قبل
شُدَّ الإزار

فذلك فينا
الذي لا هُوَه

ولي صاحبٌ من
بني الشَّيْبَا

ن فطوراً أقولُ
وطوراً هُوَه

وهذا البيت أيضاً يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون: إن مع كلِّ شاعر شيطاناً، ومن ذلك قولُ بشار الأعمى:

دعاني شِنِقْتَاقُ
إلى خَلْفِ بَكْرَةَ

فقلت: اترُكْنِي
فالتَّفَرُّدُ أَحْمَدُ

شياطين الشام والهند

قال: وأصحاب الرُّقى والأخذ والعزائم، والسَّحر، والشَّعبذة، يزعمون أنّ العدد والقوة في الجنِّ والشياطين نازلة الشام والهند، وأنَّ عظيم شياطين الهند يقال له: تنكوير، وعظيم شياطين الشام يقال له: دركاذاب. وقد ذكرهما أبو إسحاق في هجائه محمد بن يسير، حين ادّعى هذه الصناعة فقال:

قد لعمرى
جمعت مل
أصفيًا

ت ومن سفر آدم
والجراب

وتفردت
بالطوالق
والهي

كل والرهنبات
من كل باب

وعلمت
الأسماء كيما
تُلاقى

زُحلاً والمريخ
فوق السحاب

واستثرت
الأرواح
بالبحر يأت

ين لصرع
الصحيح بعد
المصاب

جامعاً من
لطائف
الدنهيًا

ت كبوسا نمقتها
في كتاب

ت وفعل
الناريس
والنجاب

مة والاحتفاء
بالطلاب

ي بتكوير
ودركاذب

ثمَّ أحكمت
متقن
الكرويا

ثمَّ لم تعيك
الشعابيد
والخد

بالخواتيم
والمناديل
والسع

قتل الغول بضربة واحدة وأما قوله:

في مُحاقِ القمير
آخر شهرٍ

ضربتُ فردةً
فصارت هباءً

فإنَّ الأعرابَ والعامَّةَ تزعمُ أن الغول إذا ضربت ضربةً ماتت، إلاَّ أن يُعيد عليها الضَّارب قبل أن تقضي ضربةً أخرى، فإنَّه إن فعل ذلك لم تمُتْ، وقال شاعرهم:

فَتَنَيْتُ وَالْمِقْدَارُ
يَحْرُسُ أَهْلَهُ

فَلَيْتَ يَمِينِي
قَبْلَ ذَلِكَ شَلَّتِ

وَأُنشِدُ لِأَبِي الْبِلَادِ الطُّهَوِيِّ:

لَهَانَ عَلَيَّ
جَهِينَةً مَا
أُلَاقِي

مِنَ الرُّوعَاتِ
يَوْمَ رَحَى بَطَانَ

لَقَيْتُ الْغَوْلَ
تَسْرِي فِي
ظِلَامٍ

بَسْهَبٍ كَالْعَبَايَةِ
صَحْحَانَ

فَقَلْتُ لَهَا كَلَانَا
نَقْضَ أَرْضِ

أَخُو سَفْرٍ
فَصَدَّى عَنِ
مَكَانِي

فَصَدْتُ
وَأَنْتَحَيْتُ لَهَا
بَعْضَ

حَسَامٍ غَيْرِ
مُؤْتَشِبِ يَمَانِي

فخرت لليدين
وللجران

على أمثالها
ثبت الجنان

لأنظر غدوة
ماذا دهاني

كوجه الهر
مشقوق اللسان

وجلذمن فراء
أو سنان

فقد سراتها

والبرك منها

فقلت زد فقلت
رويد إني

شدت عقالها
وحطت عنها

إذا عينان في
وجه قبيح

ورجلا مخدج
ولسان كلب

وأبو البلاد هذا الطهوي كان من شياطين الأعراب، وهو
كما ترى يكذب وهو يعلم، ويُطيل الكذب ويُحبره، وقد قال
كما ترى:

على أمثالها
ثبت الجنان

فقلت زد فقلت
رويد إني

لأنهم هكذا يقولون، يزعمون أنّ الغول تستزيد بعد
الضربة الأولى لأنها تموت من ضربةٍ، وتعيشُ من ألف
ضربةٍ.

مناكحة الجنِّ ومخالفتهم

وأما قوله:

غلبتني على
النَّجَابَةِ
عِرسِي
بعد أن طالَ في
النَّجَابَةِ ذِكْرِي

وأرى فيهم
شَمَائِلَ إِنْسٍ
غَيْرَ أَنَّ التَّجَارَ
صُورَةَ عِفْرِ

فإنه يقول: لما تركب الولدُ مني ومنها كان شبهها فيه
أكثر.

وقال عبيد بن أيوب:

أخو قفراتٍ
حَالَفَ الْجِنَّ
مِنَ الْإِنْسِ حَتَّى
قَدْ تَقَضَّتْ

وانتفى

وسائله

له نسب

الإنسي يعرف

نجله

والجن منه خلقه
وشمائله

وقال:

وصار خليل

الغول بعد

عداوة

صفيًا وربته

القفار البسابس

ولا أنسي

تحتويه

المجالس

فليس بجني

فيعرف نجله

ولكنه يباع

والليل دمس

يظل ولا يبدو

لشيء نهاره

قال: وقال القعقاع بن معبد بن زرارة، في ابنه عوف بن
القعقاع: والله لما أرى من شمائل الجن في عوف أكثر

مِمَّا أَرَى فِيهِ مِنْ شَمَائِلِ الْإِنْسِ.

وَقَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ مَحَارِبٍ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِنَا قَالَ:
خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ وَمَعَنَا رَجُلٌ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى وَادٍ، فَدَعَوْنَا
بِالْعَدَاءِ، فَمَدَّ رَجُلٌ يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ - وَهُوَ
قَبْلَ ذَلِكَ يَأْكُلُ مَعَنَا فِي كُلِّ مَنْزِلٍ - فَاشْتَدَّ اغْتِمَامُنَا لِذَلِكَ،
فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ حَالِهِ، فَتَلَقَّانَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَا لَكُمْ؟
فَأَخْبَرْنَاهُ خَبَرَ الرَّجُلِ، فَقَالَ: مَا اسْمُ صَاحِبِكُمْ؟ قُلْنَا: أَسَدُ
قَالَ: هَذَا وَادٍ قَدْ أَخَذَتْ سِبَاعَهُ فَارْحَلُوا، فَلَوْ قَدْ جَاوَزْتُمْ
الْوَادِيَّ اسْتَمَرَى الرَّجُلُ وَأَكَلَ.

مراكب الجن

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَبِهَا كُنْتُ

رَاكِبًا

حَشْرَاتٍ

مُلْجَمًا قُنْفُذًا

وَمُسْرَجٍ وَبُرٍ

ضَاكِكُ سَنَّهُ كَثِيرٌ

الْتَمَرِي

وَأَجُوبُ الْبِلَادِ

تَحْتِي ظَبْيِي

مُولَجٌ دُبْرَهُ
خَوَايَةَ مَكْوٍ

وهو بالليل في
العفاريت يسري

فقد أخبرنا في صدر هذا الكتاب بقول الأعراب في مطايا
الجن من الحشرات والوحش.
وأنشد ابن الأعرابي لبعض الأعراب:

كلَّ المطايا قد
ركبنا فلم
نجد

ألذَّ وأشهى من
مذاكي الثعالبِ

ومن عنظوان
صعبةٍ
شمريّة

تخبُّ برجليها
أمام الرّكائبِ

ومن جرْدٍ
سُرْحِ اليدين
مفرّج

يعوم برّحلي بين
أيدي المراكبِ

ومن فارةٍ
تزداد عتقاً

تبرّح بالخصوصِ

وحدّة

العِتاقِ النَّجائبِ

ومن كلّ فتلاء
الدّراعين
حرّة

مدربة من
عافيات الأرانب

ومن ورل
يغتال فضل
زمامه

أضرب به طول
السرى في
السباب

قال ابن الأعرابي: فقلت له: أترى الجن كانت تركبها،
فقال: أحلف بالله لقد كنت أجد بالطباء التّوقيع في
ظهورها؟ والسّمة في الآذان، وأنشد:

كلّ المطايا قد
ركبنا فلم
نجد

الدّ وأشهى من
رُكوب الجنادب

ومن
عُضرفوط حطّ

يبادرُ ورداً من
عطاء قوارب

بي فأقمته

وذئبُ الغضا
أوقَّ على كلِّ
صاحب

وشرُّ مطايا
الجنِّ أرنبُ
خُلَّةٍ

يَقُودَ قِطَاراً مِنْ
عِظَامِ الْعِنَاكِبِ

ولم أر فيها
مِثْلَ قُنْفُذٍ
بُرْقَةٍ

وقد فسّرنا قولهم في الأرناب، لم لا تركب، وفي أرنب
الخُلَّة، وقنفذ البرقة.

وحدثني أبو نواس قال: بكرتُ إلى المرَبَد، ومعي
ألواحِي أَطْلُبُ أَعْرَابِيًّا فَصِيحًا، فَإِذَا فِي ظِلِّ دَارِ جَعْفَرِ
أَعْرَابِيٍّ لَمْ أَسْمَعْ بِشَيْطَانٍ أَقْبَحَ مِنْهُ وَجْهًا، وَلَا بِنَاسَانٍ
أَحْسَنَ مِنْهُ عَقْلًا، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ لَمْ أَرْ كَبْرَدَهُ بَرْدًا، فَقُلْتُ
لَهُ: هَلَّا قَعَدْتَ فِي الشَّمْسِ فَقَالَ: الْخَلْوَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ فَقُلْتُ
لَهُ مَا زَحَاً: أَرَأَيْتَ الْقَنْفُذَ إِذَا امْتَطَاهُ الْجِنِّيُّ وَعَلَا بِهِ فِي
الْهَوَاءِ، هَلِ الْقَنْفُذُ يَحْمِلُ الْجِنِّيَّ أَمْ الْجِنِّيُّ يَحْمِلُ الْقَنْفُذَ؟
قَالَ: هَذَا مِنْ أَكَاذِيبِ الْأَعْرَابِ، وَقَدْ قُلْتُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا،

قلت فأنشدنيهِ، فأنشدني بعد أن كان قال لي: قلت هذا
الشعر وقد رأيت ليلة قنفذاً ويربوعاً يلتماسان بعض
الرزق:

وفي الأسد
أفراسٌ لهم
ونجائبٌ

فما يُعجبُ
الجنَّانَ منك
عَدِمَتَهُم

لقد أعوزتَهُم ما
علمت المراكبُ

أُسرَجَ يربوعٌ
وتُلجَمُ قنفذاً

ولا ذنَبَ للأقدارِ
واللهُ غالبٌ

فإن كانت
الجنَّانُ جُنَّت
فبالحرى

وصاحبُ إسهابٍ
وآخرُ كاذبٍ

وما الناسُ إلا
خادعٌ ومخدعٌ

قال: فقلت له: قد كان ينبغي أن يكون البيت الثالث
والرابع بيت آخر، قال: كانت والله أربعين بيتاً، ولكنَّ
الحطمة والله حطمتها، قال: فقلت: فهل قلت في هذا

الباب غير هذا؟ قال: نعم، شيءٌ قَلْتُهُ لزوجتي، وهو
والله عندها أصدقُ شيءٍ قَلْتُهُ لها:

لقد ضاع سِرُّ الله
يا أمَّ مَعْبِدِ

أراه سَمِيْعاً
للسَّرارِ كقَنْفِذِ

قال: فلم أصبر أن ضحكتُ، فغضب وذهب.

شعر فيه ذكر الغول

ويكتب مع شعر أبي البلاد الطُّهوي:

على غِرَّةِ أَلْقَت
عطافاً ومنزراً

فمن لامني فيها
فَوَاجِهَ مِثْلَهَا

ورأسٌ كمنسحة
اليهوديِّ أزعراً

لها ساعداً غولٍ
ورجلاً نعاميةً

جوانبه أَعكَّاه
وتكسراً

وبطنٌ كائتاء
المزادة رَفَعَتْ

إلى جُوجُؤِ
جاني الترائبِ

وثديان
كالخُرَجينِ

نِيْطَتْ عُرَاهُمَا

أَزْوَرَا

قال: كان أبو شيطان، واسمه إسحاق بن رزين، أحد بني السَّمطِ سِمَطُ جعدة ابن كعب، فأتاهم أميرٌ فجعل يَنْكُبُ عليهم جَوْرًا، وجعل آخر من أهل بلده ينقب عليهم: أي يكون عليهم نقيباً. فجعل يقول:

يا ذا الذي نَكَبْنَا

زَوْجَهُ الرَّحْمَنُ

وَنَقَبَا

عُوْلًا عَقْرَبَا

جَمَعَ فِيهَا مَالَهُ

لِبَالِبِ التَّيْسِ

وَلِبَلْبَا

إِذَا تَهَبَّهَبَا

حَتَّى إِذَا مَا

عَايَنَ أَشْنَا

اسْتَطْرَبَتْ

خَلَقَ

وَاسْتَطْرَبَا

رَبَّيْزْرَنَبَا

ذَاتِ نَوَاتِينِ

وَسَلَعِ أُسْقَبَا

يعني فرجها ونواتها، يقول، لم تُخْتَنِ.

جنون الجن وصرعهم

وأما قوله:

فإن كانت الجنان جنت فبالحرى

فإنهم قد يقولون في مثل هذا، وقد قال دعلج بن الحكم:

وكيف يفيق

الدهر كعب بن

ناشب

وشيطانه عند
الأهله يصرع

شعر فيه ذكر الجنون وأنشدني عبد الرحمن بن منصور
الأسدي قبل أن يجن:

جنونك

مجنونٌ ولست

بواجد

طبيباً يداوي

من جنون

جنون

وأنشدني يومئذ:

أتوني

بمجنون يسيل

وما صاحبي إلا

لَعَابُهُ

الصَّحِيحُ الْمَسْتَمُّ

وفيما يشبهه الأول يقول ابن ميادة:

فلما أتاني ما

تَغَنَّتْ شَيْطَانِي

تَقُولُ

وَجُنَّ جُنُونُهَا

مَحَارِبٌ

وحاكت لها

تَرَامَتْ بِهَا صُهْبُ

مِمَّا أَقُولُ

الْمَهَارِي وَجُونُهَا

قَصَائِدًا

وقال في التمثيل:

وَدَّ مَا لَمْ

إِنَّ شَرَّ الشَّبَابِ

يُعَاصَ كَانَ

وَالشَّعْرَ الْأَسَّ

جُنُونًا

وقال الآخر:

إِنَّ الشَّبَابَ

قَالَتْ عَهْدُكَ

جُنُونٌ بَرُّهُ

مجنوناً فقلتُ لها

الكَبِيرُ

وما أحسنَ ما قال الشّاعر حيث يقول:

فدقتُ وجئتُ

واسبكرتُ

وأكملتُ

فلو جنَّ إنسانٌ
من الحُسنِ جنَّتِ

وما أحسن ما قال الآخر:

حمراء تامكة

السّنام كأنها

جاءتُ بها عند

الغداة يمين

كلتا يدي عمرو
الغداة يمين

ما إن وجودُ

بمثلها في مثلها

إلا كريمُ الخيمِ
أو مجنونُ

وقال الجميع:

لو أنّي لم أنلُ

إلا السّنانَ لذاقَ

مِنْكُمْ مُعَاقِبَةٌ

الْمَوْتِ مَظْعُونُ

أَوْ لَأَخْتَبْتُ
فَإِنِّي قَدْ هَمَمْتُ
بِهِ

بِالسَّيْفِ إِنَّ
خَطِيبَ السَّيْفِ
مَجْنُونُ

وَأَنشُدُ:

هُمُ أَحْمَوَا حِمِي
الْوَقْبَى بِضَرْبِ

يُؤَلَّفُ بَيْنَ
أَشْتَاتِ
الْمُنُونِ

فَنَكَّبَ عَنْهُمْ
دَرَعَ الْأَعَادِي

وَدَاوَوَا
بِالْجُنُونِ مِنْ
الْجُنُونِ

وَأَنشُدُنِي جَعْفَرُ بْنُ سَعِيدٍ:

إِنَّ الْجُنُونَ
سِهَامٌ بَيْنَ
أَرْبَعَةٍ

الرَّيْحِ وَالْبَحْرِ
وَالْإِنْسَانِ
وَالْجَمَلِ

وأنشدني أيضاً:

إِنَّ الْمَغِيْظَ جَهْوُلُ
السَّيْفِ مَجْنُونُ

أَحْذَرُ مَغَايِظَ
أَقْوَامِ ذَوِي
حَسَبِ

وأنشدني أبو تمام الطائي:

كَأَنَّهُ مِنْ حِذَارِ
الضَّيْمِ مَجْنُونُ

مَنْ كُلَّ أَصْلَعٍ قَدْ
مَالَتْ عَمَامَتُهُ

وقال القطامي:

مَجْنُونَةٌ أَوْ تُرَى
مَا لَا تُرَى الْإِبْلُ

يَتَّبَعْنَ سَامِيَةَ
الْعَيْنِينَ
تَحْسَبُهَا

وقال في المعنى الأول الزّفيانُ العوافي:

أَذَقْتَهُ بَوَادِرِ
الهُوَانِ

أَنَا الْعَوَافِيُّ فَمَنْ
عَادَانِي

حَتَّى تَرَاهُ مُطْرِقَ
الشَّيْطَانِ

وقال مروان بن محمد:

أَسْعَطَّتْهُ بِمَرَارَةِ
الشَّيْطَانِ

وَإِذَا تَجَنَّنَ
شَاعِرٌ أَوْ مُفَحِّمٌ

وقال ابن مقبل:

فَتُصْعِدُ لَمْ تَعْدَمِ
مِنَ الْجِنِّ حَادِيَا

وَعِنْدِي الدَّهِيمِ
لَوْ أَحَلُّ عِقَالَهَا

وقد صغر الدهيم ليس على التحقير، ولكن هذا مثل قولهم: دبَّت إليهم دويهيّة الدهر. أحاديث الفلاة وقال أبو إسحاق: وأما قول ذي الرمة:

أَحَادِيثُهَا مِثْلُ
اصْطِخَابِ
الصَّرَائِرِ

إِذَا حَثُّهُنَّ
الرَّكْبُ فِي
مُذْلِمَةٍ

قال أبو إسحاق: يكون في النهار ساعات ترى الشَّخص الصَّغِيرَ في تلك المهامه عظيمًا، ويوجد الصَّوت الخافضُ رفيعًا، ويُسمع الصَّوتُ الذي ليس بالرَّفِيع مع انبساط الشَّمس غدوة من المكان البعيد؛ ويوجد لأوساط الفَيافي والقفار والرَّمال والحرار، في أنصاف الزَّهار، مثلُ الدَّويِّ من طبع ذلك الوقت وذلك المكان، عند ما يعرض له، ولذلك قال ذو الرَّمَّة:

صَه لِم يَكُنْ إِلا
دويُّ المِسامع

إذا قال حادينا
لتشبيهه نَبأة

قالوا: وبالذَّويِّ سمَّيت دويَّة وداوية، وبه سمِّي الدَّو دَوًّا.

تعليل ما يتخيله الأعراب من عزيف الجنان وتغول الغيلان

وكان أبو إسحاق يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجنان، وتغول الغيلان: أصلُ هذا الأمر وابتدأؤه، أنَّ القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملت فيهم الوحشة، ومن انفراد وطال مقامه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس - استوحش، ولا سيَّما مع قلة الأشغال والمذاكرين.

والوَحدةُ لا تقطع أيامهم إلا بالمُنَى أو بالتفكير، والفكرُ
ربما كان من أسباب الوَسوسة، وقد ابتلى بذلك غيرُ
حاسب، كأبي يس ومُثَنِّيّ ولد القنافر.
وخبَّرني الأعمش أنه فكَّر في مسألة، فأنكر أهله عقله،
حتى حَمَّوه وداووه.

وقد عرض ذلك لكثير من الهند.

وإذا استوحشَ الإنسانُ تمثَّل له الشَّيء الصغيرُ في
صورة الكبير، وارتاب، وتفرَّق ذهنه، وانتقضت أخلاطه،
فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يُسمع، وتوهم على الشَّيء
اليسير الحقيق، أنه عظيمٌ جليل.

ثمَّ جعلوا ما تصوَّر لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث
توارثوها فزادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشئ، وربِّي
به الطِّفل، فصار أحدهم حين يتوسَّطُ الفياضي، وتشتملُ
عليه الغيظان في اللَّيالي الحنادس - فعند أوَّل وحشةٍ
وفزعة، وعند صياح بُوم ومجاوبة صدَى، وقد رأى كلَّ
باطل، وتوهم كلَّ زور، وربما كان في أصل الخلق
والطبيعة كذاباً نفاقاً، وصاحبَ تشنيع وتهويل، فيقولُ في
ذلك من الشَّعر على حسب هذه الصِّفة، فعند ذلك يقولُ:
رأيتُ الغيلان وكلمت السَّعلاة ثمَّ يتجاوزُ ذلك إلى أن يقول

قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجته.
قال عبيد بن أيوب:

لصاحبِ قفرٍ
خائفٍ متقترٍ

فللهِ دَرُّ الْعَوْلِ
أَيُّ رَفِيقَةٍ

وقال:

يهيمُ برَبَّاتِ
الحِجَالِ
الهِرَاجِلِ

أهَذَا خَلِيلُ الْغَوْلِ
وَالذَّنْبِ وَالذِّي

وقال:

من الْإِنْسِ حَتَّى
قَدْ تَقَضَّتْ
وَسَائِلُهُ

أَخُو قَفْرَاتٍ
حَالَفَ الْجِنَّ
وَأَنْتَفَى

وَالجِنَّ مِنْهُ خَلَقَهُ
وَشَمَائِلُهُ

لَهُ نَسَبُ
الْإِنْسِيِّ يُعْرِفُ

نجله

وممّا زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومدّ لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم، وإلا عامياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التّكذيب والتّصديق، أو الشّكّ، ولم يسلك سبيل التوقف والتّثبت في هذه الأجناس قطّ، وإمّا أن يلقوا رَاوِيَةَ شعر، أو صاحب خبر، فالرّواية كلّما كان الأعرابيُّ أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر فلذلك صار بعضهم يدّعي رؤية الغول، أو قتلها، أو مرافقتها، أو تزويجها؛ وآخر يزعم أنّه رافق في مفازة نمرأ، فكان يطاعمه ويؤاكله، فمن هؤلاء خاصّة القتال الكلابي؛ فاتّه الذي يقول:

لآتيه إني إذاً
لمصلل

ولكنني من
خوف مروان

أيرسل مروان
الأمير رسالة

وما بي عصيان
ولا بعد منزل

أوجلُ

أو الأدمى من
رَهْبَةِ الموتِ
مَوئِلُ

هو الجَوْنُ إلَّا
أنه لا يعلّل

صُمَاتٌ وطَرْفٌ
كالمعَابِلِ أطْحَلُ

كلانا له منها
نَصيبٌ ومأكَلُ

أميط الأذى
عنه ولا
يتأمَلُ

وفي باحة
العَنْقَاءِ أو في
عَمَايَةٍ

ولي صاحبٌ في
الغارِ هَدَّكَ
صاحباً

إذا ما التقينا
كان جُلٌّ
حديثنا

تَضَمَّتِ الأزوى
لنا بطعامنا

فأغلبه في
صُنْعَةِ الرّادِ
إنني

شريعتنا لأينا
جاءَ أوَّلُ

مَحْزَأً وَكَلَّ فِي
الْعِدَاوَةِ مُجْمِلُ

يُسَائِرُنِي مِنْ
نُطْفَةٍ وَأَسَائِرُهُ

وَكَانَتْ لَنَا قَلْتُ
بَارِضَ مَضَلَّةٍ

كَلَانَا عَدُوُّ لَوْ
يَرَى فِي عَدُوِّهِ

وَأَنْشُدُ الْأَصْمَعِيَّ:

ظَلَلْنَا مَعًا جَارَيْنُ
نَحْتَرِسُ الثَّأِيَّ

ذَكَرَ سَبْعًا وَرَجُلًا، قَدْ تَرَاوَعَا، فَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْعُ
فَضْلًا مِنْ سُورِهِ لِيَشْرَبَ صَاحِبَهُ، الثَّأِيَّ: الْفَسَادُ، وَخَبِرَ
أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَحْتَرِسُ مِنْ صَاحِبِهِ.
وَقَدْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ شَعْرُ النَّابِغَةِ فِي الْحَيَةِ، وَفِي الْقَتِيلِ
صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَفِي أَخِيهِ الْمَصَالِحِ لِلْحَيَةِ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا
جَعَلَ ذَلِكَ مِثْلًا، وَقَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي بَابِ الْحَيَاتِ، فَلِذَلِكَ كَرِهْنَا
إِعَادَتَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَأَمَّا جَمِيعُ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُمْ فَإِنَّمَا
يَخْبِرُونَ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَعَايِنَةِ وَالتَّحْقِيقِ، وَإِنَّمَا الْمِثْلُ
فِي هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ:

قد كان شيطانك
من خطّابها

وكان شيطاني
من طُلابها

حيناً فلما اعتركا
ألوى بها

الاشتباه في الأصوات والإنسان يجوع فيسمع في أذنه
مثل الدويّ، وقال الشاعر:

دويّ الفَيّافي
رأبه فكأنه

أميمّ وساري الليل
للضّرّ مُعورُ

مُعور: أي مُصْحِر.

وربما قال الغلام لمولاه: أدعوتني؟ فيقول له: لا، وإنما
اعترى مسامعه ذلك لعرض، لا أنه سمع صوتاً.
ومن هذا الباب قول تأبّط شراً، أو قول قائل فيه في كلمة
له:

يَظَلُّ بِمَوْمَةٍ
وَيُمْسِي بِقَفْرَةٍ

جَحِيشاً
وَيَعْرُورِي

ظهورَ المهالكِ

بمنخرقٍ من
شدّه المتداركِ

له كالىّ من
قلبِ شِيحانٍ
فاتكِ

إلى سلةٍ من حدّ
أخضرٍ باتكِ

نواجذُ أفواهِ
المنايا
الضّواحكِ

بحيث اهتدت أمّ
النجومِ
الشّوابكِ

ويسبقُ وقد
الريّح من حيث
ينتهي

إذا خاطَ عينيّه
كرى النّوم لم
يزلّ

ويجعلُ عينيّه
ربيّةً قلبه

إذا هزه في
عظم قرنٍ
تهلّلتُ

يرى الإنس
وحشيّ الفلاة
ويهتدي

نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع ويدلُّ على
ما قال أبو إسحاق، من نزولهم في بلاد الوحش وبين
الحشرات والسباع، ما رواه لنا أبو مُسهر، عن أعرابيٍّ
من بني تميم نزل ناحية الشام، فكان لا يَعِدُّهُ في كلِّ ليلة
أن يعضَّه أو يعضَّ ولدَه أو بعضَ حاشيته سبعٌ من
السباع، أو دابةً من دوابِّ الأرض فقال:

ومَرَّقَ جلدي
نابُ سبعٍ
ومِخْلَبُ

تعاورني دينٌ
وذُلٌّ وغُرْبَةٌ

ونحن أسارى
وسَطْهَا
نتقلبُ

وفي الأرض
أحناشٌ وسبعٌ
وحاربٌ

وأرْقَطُ
حُرْقُوصٌ
وضمَجٌ
وعَقْرُبُ

رُتَيْلا وطَبُوعٌ
وشبثان ظُلْمَةٌ

وَأُرْسَالُ جَعْلَانٍ
وَهَزْلَى تَسْرَبُ

وَذُرٌّ وَدَحَّاسٌ
وَقَارٌّ وَعَقْرَبٌ

وَتَرْمُلَةٌ تَجْرِي
وَسَيْدٌ وَتَعْلَبُ

وَلَيْثٌ يَجُوسُ
الْأَلْفَ لَا
يَتَهَيَّبُ

وَلَا الدَّبَّ إِنَّ
الدَّبَّ لَا
يَتَنَسَّبُ

وَنَمْلٌ كَأَشْخَاصِ
الْخَنَافِسِ قُطْبٌ

وَعُتٌّ وَحُقَاتٌ
وَضَبٌّ وَعَرِبِدٌ

وَهَرٌّ وَظَرِبَانٌ
وَسِمْعٌ وَدَوْبَلٌ

وَنَمْرٌ وَفَهْدٌ ثُمَّ
ضَبْعٌ وَجَيَالٌ

وَلَمْ أَرَ آوَى
حَيْثُ أَسْمَعُ
ذِكْرَهُ

فَأَمَّا الرُّتَيْلَا وَالطَّبُّوعُ، وَالشَّبَبْتُ، وَالْحُرْقُوقُ، وَالضَّمَجُ
وَالْعَنْكَبُوتُ، وَالْخَنْفُسَاءُ، وَالْجَعْلُ، وَالْعُتُّ، وَالْحُقَاتُ،
وَالدَّحَّاسُ وَالظَّرِبَانُ، وَالدَّبُّ، وَالتَّعْلَبُ، وَالنَّمْرُ، وَالْفَهْدُ،
وَالضَّبْعُ، وَالْأَسَدُ - فَسَنَقُولُ فِي ذَلِكَ إِذَا صَرْنَا إِلَى ذِكْرِ

هذه الأبواب، وقبل ذلك عند ذكر الحشرات، فأما الضبُّ
والورل، والعقرب، والجعل، والخنفساء، والسَّمع فقد
ذكرنا ذلك في أول الكتاب، وأما قوله: وهزلي تسرب
فالهزلي هي الحيات، كما قال جرير:

مَزَاحِفْ هَزَلِي بَيْنَهَا مَتَبَاعِدُ

وكما قال الآخر:

خَدُودُ رِصَائِعِ
جُدَيْتُ تُوَامَاً

كَأَنَّ مَزَاحِفَ
الهِزَلِي عَلَيْهَا

وأما قوله:

وَلَمْ أَرِ آوَى حَيْثُ أَسْمَعُ ذِكْرَهُ

فإن ابن آوى لا ينزل القفار، وإنما يكون حيث يكون
الريف.

وينبغي أن يكون حيث قال هذا الشعر توهم أنه ببياض
نجد.

وأما قوله:

ولا الدبَّ إنَّ الدبَّ لا يتنسَّبُ

فإنَّ الدبَّ عندهم عجميٌّ، والعجميُّ لا يقيمُ نسبه.

مُلح ونوادِر

ورَوَوْا فِي المُلحِ أَنَّ فَتَى قالَ لِجاريةِ لَهُ، أو لصدِيقَةٍ لَهُ:
ليسَ فِي الأَرْضِ أَحسَنُ مِنِّي: ولا أَمَلُحُ مِنِّي، فَصارَ
عِنْدَها كَذَلِكِ، فبَينا هُوَ عِنْدَها عَلى هَذِهِ الصِّفَةِ إِذْ قَرعَ
عَليها البابُ إِنسانٌ يَريدُهُ، فَاطَّلَعَتِ عَليه مِن خَرَقِ البابِ،
فَراَتِ فَتَى أَحسَنَ النَّاسِ وَأَمَلِحَهُم، وَأَنبَلَهُم وَأَتَمَّهُم، فَلَمَّا
عادَ صاحِبُها إِلى المَنزَلِ قالَتِ لَهُ: أو ما أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ
أَمَلُحُ الخَلْقِ وَأَحسَنُهُم؟ قالَ: بلى وَكَذلِكَ أَنَا فَقالَتِ: فَقدَ
أَرادَكَ اليَومَ فَلانَّ، وَرأيتُهُ مِن خَرَقِ البابِ، فَرايتُهُ أَحسَنَ
مَنكَ وَأَمَلِحَ قالَ: لَعَمري إِنَّهُ لَحَسَنٌ مَلِيحٌ، وَلَكِنَّ لَهُ جَنَّةَ
تَصرَعُهُ فِي كُلِّ شَهرٍ مَرَّتَينِ - وَهُوَ يَريدُ بِذلِكَ أَن يَسقُطَهُ
مِن عَينِها - قالَتِ: أو ما تَصرَعُهُ فِي الشَّهرِ إِلا مَرَّتَينِ؟
أما وَاللَّهِ لو أَنِّي جَنِّيَّةٌ لَصَرَغْتُهُ فِي اليَومِ أَلْفَينِ.
وَهذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ صَرَعَ الشَّيطانِ لِلإنسانِ ليسَ هُوَ عِنْدَ
العَواِمِّ إِلا عَلى جَهةٍ ما يَعرِفونَ مِنَ الجِماعِ.
وَمن هَذا الضَّرْبِ مِنَ الحَدِيثِ ما حَدَّثنا بِهِ المازَنيُّ، قالَ:

ابتاع فتى صلفاً بذاخ جاريةً حسناءً بديعةً ظريفةً، فلما وقع عليها قال لها مراراً ويلاً، ما أوسع حرك فلما أكثر عليها قالت: أنت الفداء لمن كان يملؤه.

فقد سمع هذا كما ترى من المكروه مثل ما سمع الأول. وزعموا أنّ رجلاً نظراً إلى امرأةٍ حسناءٍ ظريفةٍ، فالح عليها، فقالت: ما تنظر؟ قرّة عينك، وشيء غيرك.

وزعم أبو الحسن المدائني أنّ رجلاً تبع جاريةً لقوم، فراوغته فلم ينقطع عنها، فحثت في المشي فلم ينقطع عنها، فلما جازت بمجلس قوم قالت: يا هؤلاء، لي طريقٌ ولهذا طريق، ومولاي ينيكني؛ فسئلوا هذا ما يريد مني؟ وزعم أيضاً أنّ سياراً البرقي قال: مرّت بنا جاريةً، فرأينا فيها الكبر والتجبر، فقال بعضنا: ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية ينيكها قالت: كما يكون.

فلم أسمع بكلمة عامية أشنع ولا أدلّ على ما أرادت، ولا أقصر من كلمتها هذه.

وقد قال جحشويه في شعر شبيهاً بهذا القول، حيث يقول:

ولكن يا مشؤم

تواعدني

لَتُنَكِّحَنِي ثَلَاثًا

بَأَيِّ أَيْرٍ

فَلَوْ خُطِبَتْ فِي صَفَةِ أَيْرٍ خُطْبَةٌ أَطْوَلُ مِنْ خُطْبَةِ قَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ بْنِ سَنَانَ فِي شَأْنِ الْحِمَالَةِ - لَمَا بَلَغَ مَبْلَغَ قَوْلِ جَحْشَوِيهِ: وَلَكِنْ يَا مَشُومَ بَأَيِّ أَيْرٍ، وَقَوْلِ الْخَادِمِ: كَمَا يَكُونُ. وَزَعَمُوا أَنْ فَتَى جَلَسَ إِلَى أَعْرَابِيَّةٍ، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا إِنَّمَا جَلَسَ لِيَنْظُرَ إِلَى مُحَاسِنِ ابْنَتِهَا، فَضْرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى جَنْبِهَا، ثُمَّ قَالَتْ:

عَلَّادَةُ يَنْطُ

أَطِيطُ الْعَرَزِ فِي

الْأَيْرِ فِيهَا

الرَّحْلِ الْجَدِيدِ

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى الْفَتَى فَقَالَتْ:

وَمَا لَكَ مِنْ

بَعِينِكَ عَيْنِهَا

غَيْرَ أَنَّكَ نَاكِحٌ

فَهَلْ ذَاكَ نَافِعٌ

وَدَخَلَ قَاسِمُ مَنْزِلِ الْخَوَارِزْمِيِّ النَّخَّاسِ، فَرَأَى عِنْدَهُ جَارِيَةً كَانَتْهَا جَانٌّ، وَكَانَتْهَا حُوطُ بَانَ، وَكَانَتْهَا جَدَلُ عِنَانَ، وَكَانَهُ الْيَاسْمِينِ؛ نَعْمَةً وَبِيَاضًا؛ فَقَالَ لَهَا: أَشْتَرِيكَ يَا جَارِيَةً؟ فَقَالَتْ: افْتَحْ كَيْسَكَ تَسِرَّ نَفْسَكَ وَدَخَلْتَ الْجَارِيَةَ

منزل النّخّاس، فاشتراها وهي لا تعلم ومضى إلى المنزل
ودفعها الخوارزمي إلى غلامه، فلم تشعر الجارية إلا
وهي معه في جوف بيت، فلما نظرت إليه وعرفت ما
وقعت فيه قالت له: ويلك إنك والله لن تصل إلي إلا بعد
أن أموت فإن كنت تجسرُ على نيك من قد أدرجوه في
الأكفان فدونك والله! إن زلت منذ رأيتك، ودخلت إلى
الجواري، أصف لهنّ قبحك وبليةً امرأتك بك فأقبل عليها
يكلّمها بكلام المتكلمين، فلم تقبل منه، فقال: فلم قلت لي:
افتح كيسك تسرّ نفسك؟ وقد فتحت كيسي فدعيني أسرّ
نفسي وهو يكلّمها وعينُ الجارية إلى الباب، ونفسها في
توهم الطريق إلى منزل النّخّاس، فلم يشعر قاسمٌ حتى
وثبت وثبةً إلى الباب كأنها غزال، ولم يشعر الخوارزمي
إلا والجارية بين يديه مغشيً عليها، فكرّ قاسمٌ إليه راجعاً
وقال: ادفعها إلي أشفي نفسي منها، فطلبوا إليه فصفح
عنها، واشتراها في ذلك المجلس غلامٌ أملحٌ منها،
فقامت إليه فقالت فاه، وقاسمٌ ينظرُ، والقومُ يتعجبون ممّا
تهيا له وتهياً لها.

وأما عيسى بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك بن
أبي حمزة فإنه كان شديد التغرّل والتّصنّدل، حتّى شرب

لذلك النبيذ وتظرف بتقطيع ثيابه وتغنى أصواتاً، وحفظ
أحاديث من أحاديث العشاق ومن الأحاديث التي تشتهيها
النساء وتفهم معانيها، وكان أقبح خلق الله تعالى أنفاً،
حتى كان أقبح من الأحنس، ومن الأفطس، والأجدع،
فإما أن يكون صادقاً ظريفةً، وإما أن يكون تزوّجها فلما
خلأ معها في بيتٍ وأرادها على ما يريد الرجل من
المرأة، امتنعت، فوهب لها، ومناها، وأظهر تعشقها،
وأراعها بكل حيلة، فلما لم تُجب قال لها: خبريني، ما
الذي يمنحك؟ قالت: قبح أنفك وهو يستقبل عيني وقت
الحاجة، فلو كان أنفك في قفاك لكان أهون عليّ قال لها:
جعلت فداك؟ الذي بأنفي ليس هو خلقة وإنما هو ضربة
ضربتُها في سبيل الله تعالى، فقالت واستغربت ضحكاً:
أنا ما أبالي، في سبيل الله كائنت أو في سبيل الشيطان،
إنما بي قبحة، فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله أما
أنا فلا.

باب الجد من أمر الجن

ليس هذا، حفظك الله تعالى، من الباب الذي كنا فيه،
ولكنه كان مستراحاً وجماماً، وسنقول في باب من ذكر

الجنّ، لتنتفع في دينك أشد الانتفاع، وهو جدُّ كلّه.
والكلام الأوّل وما يتلوه من ذكر الحشرات، ليس فيه جدُّ
إلاّ وفيه خلطٌ من هزل، وليس فيه كلامٌ صحيح إلاّ وإلى
جنبه خرافة، لأنّ هذا الباب هكذا يقع.

وقد طعن قومٌ في استراق الشياطين السمعَ بوجوهٍ من
الطّعن، فأدّ قد جرى لها من الذكر في باب الهزل ما قد
جرى، فالواجبُ علينا أن نقول في باب الجدّ، وفيما يرد
على أهل الدّين بجملة، وإن كان هذا الكتاب لم يقصد به
إلى هذا الباب حيث ابتدئ، وإن نحن استقصيناها كنّا قد
خرجنا من حدّ القول في الحيوان، ولكننا نقول بجملةٍ
كافية، والله تعالى المعين على ذلك.

رد على المحتجّين لإنكار استراق السمع بالقرآن قال
قوم: قد علمنا أن الشياطين أطف لطفاً، وأقلّ آفةً،
وأحدّ أذهاناً، وأقلّ فضولاً، وأخفّ أبداناً، وأكثر معرفةً
وأدقّ فطنةً منا، والدليل على ذلك إجماعهم على أنّه ليس
في الأرض بدعةٌ بدیعة، دقيقةٌ ولا جليّة، ولا في الأرض
معصيةٌ من طريق الهوى والشهوة، خفيةٌ كانت أو
ظاهرة، إلاّ والشيطان هو الدّاعي لها، والمزيّن لها،
والذي يفتح باب كلّ بلاء، وينصب كلّ حباله وخدعة،

ولم تكن لتعرف أصناف جميع الشرور والمعاصي حتى
تعرف جميع أصناف الخير والطاعات.

ونحن قد نجد الرجل إذا كان معه عقل، ثم علم أنه إذا
نقب حائطاً قُطعت يده، أو أسمع إنساناً لثاماً قطع لسانه،
أو يكون متى رام ذلك حيلَ دونه ودون ما رام منه - أنه
لا يتكلف ذلك ولا يرومه، ولا يحاول أمراً قد أيقن أنه لا
يبلغه.

وأنتم تزعمون أنّ الشياطين الذين هم على هذه الصفة
كلما صعد منهم شيطانٌ ليسترق السمع قُذِف بشهاب نار،
وليس له خواطئ، فإما أن يكون يصيبه، وإما أن يكون
نذيراً صادقاً أو وعيداً إنَّ يقدم عليه رمى به، وهذه
الرجوم لا تكون إلا لهذه الأمور، ومتى كانت فقد ظهر
للشيطان إحراق المستمع والمسترق، والموانع دون
الوصول ثم لا نرى الأوّل ينهي الثاني، ولا الثاني ينهي
الثالث، ولا الثالث ينهي الرابع عجب، وإن كان الذي
يعود غيره فكيف خفي عليه شأنهم، وهو ظاهر
مكشوف؟.

وعلى أنهم لم يكونوا أعلم منا حتى ميزوا جميع
المعاصي من جميع الطاعات، ولولا ذلك لدعوا إلى

الطّاعة بحساب المعصية، وزيّنوا لها الصّلاح وهم يريدون الفساد، فإذا كانوا ليسوا كذلك فأدنى حالاتهم أن يكونوا قد عرفوا أخبار القرآن وصدقوها، وأنّ الله تعالى محقّق ما أوعد كما يُنجز ما وعد، وقد قال الله عزّ وجلّ:

"وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ"، وقال تعالى: "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ" وقال تعالى: "إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ" وقال تعالى: "هَلْ أُنبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ" مع قول الجنّ: "أَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا" وقولهم: "أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا".

فكيف يسترق السّمع الذين شاهدوا الحاليتين جميعاً، وأظهروا اليقين بصحة الخير بأنّ للمستمع بعد ذلك القذف بالشهب، والإحراق بالنار، وقوله تعالى: "إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ" وقوله تعالى: "وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ مَّارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ" في آي غير هذا
كثير، فكيف يعودون إلى استراق السَّمع، مع تيقنهم بأنه
قد حُصِّن بالشَّهْب، ولو لم يكونوا مُوقِنين من جهة
حقائق الكِتَاب، ولا من جهة أَنهم بَعْدَ قَعُودِهِم مَقَاعِدَ
السَّمع لَمَسُوا السَّمَاءَ فَوَجَدُوا الأَمْرَ قد تَغَيَّرَ - لكانَ في
طول التَّجْرِبَةِ والعِيَانِ الظَّاهِرِ، وفي إخبار بعضهم
لبعض، ما يكونُ حائلاً دُونَ الطَّمعِ وقاطعاً دُونَ التماسِ
الصُّعُودِ، وبعدَ فأيِّ عاقلٍ يُسَرُّ بأن يسمعَ خَبِراً وتُقَطَّعَ
يدُهُ فضلاً عن أن تحرقه النَّارُ؟ وبعدَ فأيِّ خبيرٍ في ذلك
اليوم؟ وهل يصلون إلى النَّاسِ حتَّى يجعلوا ذلك الخَبْرَ
سبباً إلى صرْفِ الدَّعْوَى؟ قيل لهم: فَإِنَّا نَقُولُ بالصرْفَةِ
في عامَّةِ هذه الأَصُولِ، وفي هذه الأبوابِ، كَنَحْوِ ما أُلْقِيَ
على قلوبِ بني إِسْرَائِيلَ وهم يَجُولُونَ في التِّيهِ، وهم في
العددِ وفي كثرةِ الأَدِلَّةِ والتَّجَارِ وأصحابِ الأَسْفَارِ،
والحَمَّارِينَ والمُكَّارِينَ، من الكَثْرَةِ على ما قد سمعتم به
وعرَفْتُمُوهُ؛ وهم مع هذا يمشون حتَّى يُصْبِحُوا، مع شدَّةِ
الاجْتِهَادِ في الِذَّهْرِ الطَّوِيلِ، ومع قُرْبِ ما بينَ طرفي
التِّيهِ، وقد كانَ طريقاً مَسْلُوكاً، وإِنَّمَا سَمَّوهُ التِّيهِ حينَ

تأهوا فيه، لأنَّ الله تعالى حين أرادَ أن يمتحنهم ويبتليهم
صَرَفَ أَوْهَامَهُمْ.
ومثل ذلك صنيعه في أوهام الأمة التي كان سليمان ملكها
ونبيها، مع تسخير الريح والأعاجيب التي أُعطيها،
وليس بينهم وبين ملكهم ومملكتهم وبين مُلك سبأ
ومملكة بلقيس ملكتهم بحاراً لا تُركب، وجبالاً لا تُرام،
ولم يتسامع أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكان هذه
الملكة.

وقد قلنا في باب القول في الهدد ما قلنا، حين ذكرنا
الصرفة، وذكرنا حال يعقوب ويوسف وحال سليمان وهو
معتمد على عصاه، وهو ميّت والجنُّ مُطيفة به وهم لا
يشعرون بموته، وذكرنا من صَرَفَ أَوْهَامَ الْعَرَبِ عَنْ
مُحَاوَلَةِ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ، ولم يأتوا به مضطرباً ولا مُلْفَقاً
ولا مُسْتَكْرَهاً؛ إذا كان في ذلك لأهل الشَّعْبِ متعلّق، مع
غير ذلك، ممّا يُخالف فيه طريقُ الدَّهْرِيَّةِ، لأنَّ الدَّهْرِيَّ لا
يُقرُّ إلاّ بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب.
ولعمري ما يستطيع الدَّهْرِيُّ أن يقول بهذا القول ويحتجّ
بهذه الحجّة، ما دام لا يقول بالتوحيد، وما دام لا يعرف
إلاّ الفلك وعمّله، وما دام يرى أن إرسال الرسل يستحيل،

وَأَنَّ الأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَى غَيْرِ مَا نَقُولُ،
وَأَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ مِنْ جِهَةِ الْاِخْتِبَارِ إِلَّا مِنْ
جِهَةِ الْحُزْمِ.

وَكذَلِكَ نَقُولُ وَنَزْعِمُ أَنْ أَوْهَامَ هَذِهِ الْعِفَارِيْتِ تُصَرِّفُ عَنِ
الذِّكْرِ لِتَقَعِ الْمَحْنَةُ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَنْ لَوْ كَانَ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الْهَزَاهِزِ مَنْ يَذْكُرُ قَوْلَهُ
تَعَالَى: "وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" لَسَقَطَ عَنْهُ مِنَ الْمَحْنَةِ
أَغْلَظُهَا، وَإِذَا سَقَطَتِ الْمَحْنَةُ لَمْ تَكُنِ الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ،
وَكَذَلِكَ عَظِيمُ الطَّاعَةِ مَقْرُونٌ بِعَظِيمِ الثَّوَابِ.

وَمَا يَصْنَعُ الدَّهْرِيُّ وَغَيْرُ الدَّهْرِيِّ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَبِهَذَا
التَّسْطِيرِ؟ وَنَحْنُ نَقُولُ: لَوْ كَانَ إِبْلِيسُ يَذْكُرُ فِي كُلِّ حَالٍ
قَوْلَهُ تَعَالَى: "وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ" وَعَلِمَ فِي
كُلِّ حَالٍ أَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ لَوْجَبَ أَنْ الْمَحْنَةُ كَانَتْ تَسْقُطُ عَنْهُ،
لَأَنَّ مَنْ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُ لَا يَمْضِي غَداً إِلَى السُّوقِ وَلَا يَقْبُضُ
دِرَاهِمَهُ مِنْ فُلَانٍ، لَمْ يَطْمَعْ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَطْمَعْ فِي
الشَّيْءِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ
كَذَلِكَ فَمُحَالٌّ أَنْ يَأْتِيَ السُّوقَ.

فَنَقُولُ فِي إِبْلِيسَ: إِنَّهُ يَنْسَى لِيَكُونَ مُخْتَبِراً مَمْتَحِناً
فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ قَوْلَنَا فِي مَسْتَرْقِي السَّمْعِ كَقَوْلِنَا فِي إِبْلِيسَ،

وفي جميع هذه الأمور التي أوجب علينا الدين أن نقول فيها بهذا القول. 0 وليس له أن يدفع هذا القول على أصل ديننا، فإن أحب أن يسأل عن الدين الذي أوجب هذا القول علينا فيلعل، والله تعالى المعين والموفق. وأما قولهم: من يُخاطر بذهاب نفسه لخبر يستفيده فقد علمنا أن أصحاب الرياسات وإن كان متبيناً كيف كان اعتراضهم على أن أيسر ما يحتملون في جنب تلك الرياسات القتل.

ولعل بعض الشياطين أن يكون معه من النفخ وحب الرياسة ما يهون عليه أن يبلغ دوين المواضع التي إن دنا منها أصابه الرجم، والرجم إنما ضمن أنه مانع من الوصول، ويعلم أنه إذا كان شهاباً أنه يحرقه ولم يضمن أنه يتلف عنه، فما أكثر من تخترقه الرماح في الحرب ثم يعاود ذلك المكان ورزقه ثمانون ديناراً ولا يأخذ إلا نصفه، ولا يأخذه إلا قمحاً، فلولا أن مع قدم هذا الجنديّ ضروباً مما يهزه وينجده ويدعو إليه ويغريه - ما كان يعود إلى موضع قد قطعت فيه إحدى يديه، أو فقتت إحدى عينيه. ولم وقع عليه إذاً اسم شيطان، ومارد، وعفريت، وأشباه ذلك؟ ولم صار الإنسان يُسمى بهذه

الأسماء، ويوصف بهذه الصفات إذا كان فيه الجزء الواحد من كل ما هم عليه؟.

وقالوا في باب آخر من الطعن غير هذا، قالوا في قوله تعالى: "وَأَنَا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً" فقالوا: قد دلَّ هذا الكلام على أن الأخبار هناك كانت مُضَيَّعَةً حَتَّى حُصِّنَتْ بعد، فقد وصفتُم الله تعالى بالتضييع والاستدراك.

قلنا: ليس في هذا الكلام دليلٌ على أنهم سمعوا سراً قط أو هجموا على خبر إن أشاعوه فسد به شيءٌ من الدين، وللملائكة في السماء تسبيحٌ وتهليلٌ، وتكبيرٌ وتلاوةٌ، فكان لا يبلغُ الموضع الذي يُسمعُ ذلك منه إلا عفاريتهم. وقد يستقيم أن يكون العفريتُ يكذب ويقول: سمعت ما لم يسمع ومتى لم يكن على قوله برهانٌ يدلُّ على صدقه فإنما هو في كذبه من جنس كلِّ متنبئٍ وكاهنٍ، فإن صدقه مصدقٌ بلا حُجَّةٍ فليس ذلك بحُجَّةٍ على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

المحتجون بالشعر لرجم الشياطين قبل الإسلام وذهب بعضهم في الطعن إلي غير هذه الحُجَّة، قالوا: زعمتم أن الله تعالى جعل هذه الرجومَ للخوافي حُجَّةً للنبي صلى الله

عليه وسلم، فكيف يكون ذلك رَجْمًا، وقد كان قبل الإسلام
ظاهرًا مرئيًا، وذلك موجودٌ في الأشعار، وقد قال بشر بن
أبي خازم في ذلك:

وَلَمَّا يَسْكَنُهُ مِنْ
الْأَرْضِ مَرْتَعُ

فجأها من
أول الرِّيِّ
عُدوة

خطاطيفُ من
طول الطريدة
تلمعُ

بأكلبةٍ زُرقي
ضوارٍ كأنها

وقد حالَ دُونِ
النَّقْعِ والنَّقْعِ
يسنطعُ

فجال على نَفْرِ
تعرضَ كوكبِ

فوصف شَوَظَ الثَّورِ هارِبًا مِنَ الْكَلابِ بِانْقِضاضِ الْكَوْكَبِ
فِي سُرْعَتِهِ، وَحُسْنِهِ، وَبَرِيقِ جِلْدِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الطَّرِمَاحُ:

سيفٌ على شَرَفِ

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ

البلاد كأنه

يُسلُّ ويُعَمِّدُ

وأنشد أيضاً قولَ بشر بن أبي خازم:

وتشجُّ بالعرير

فتخاء كاسرة

الفلاة كأنها

هوت من مرقب

والعرير يُزهِقها

ينقضُّ خلفها

الخبار

أنقضاض

وجحشها

الكوكب

قالوا: وقال الضبِّي:

ينالها مهتك

بذي غروب فيه

أشجارها

تحريبُ

كأنه حينَ نحا

أو قبسُ بالكفِّ

كوكبُ

مشبوبُ

وقال أوس بن حجر:

فانقضَّ

نقع يثورُ تخاله

كَالدَّرِيِّ يَتَّبَعُهُ

طَنْبَا

يَخْفَى وَأَحْيَانًا

رَفَعَ الْمَشِيرُ

يَلُوحُ كَمَا

بَكَفَهُ لَهَا

وَرَوَا قَوْلَهُ:

فَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ

لَمَعَ الْعَقِيقَةُ

مِنْ مُتَحَدِّرٍ

جُنْحَ لَيْلٍ مُظْلِمٍ

وَقَالَ عَوْفُ بْنُ الْخَرَعِ:

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ

أَوْ النَّوْرَ

كَالدَّرِيِّ يَتَّبَعُهُ

مِنْ دُونَ أَنْفِهِ

الدَّمُ

وَقَالَ الْأَفْوَهُ الْأَوْدِي:

كَشِبْهَابِ الْقَذْفِ

فَارَسٌ فِي كَفِّهِ

يَرْمِيكُمْ بِهِ

لِلْحَرْبِ نَارُ

وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

وترى شياطيناً
ترُوعُ مُضَافَةً

ورَوَّاعَهَا شَتَّى
إِذَا مَا تُطْرَدُ

يُلْقَى عَلَيْهَا فِي
السَّمَاءِ مَذَلَّةً

وكوَاكِبٍ تُرْمَى
بِهَا فَتَعْرَدُ

قلنا لهؤلاء القوم: إن قدرتم على شعر جاهليٍّ لم يُدركْ
مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا مولده فهو بعض ما
يتعلَّقُ به مثلكم، وإن كان الجوابُ في ذلك سيأتيكم إن
شاء الله تعالى، فأما أشعار المخضرمين والإسلاميين
فليس لكم في ذلك حُجَّةٌ، والجاهليُّ ما لم يكن أدرك
المولد، فإنَّ ذلك ممَّا ليس ينبغي لكم أن تتعلَّقوا به،
وبِشْرُ بنِ أبي خازم فقد أدرك الفجار، والنبي صلى الله
عليه وسلم شهد الفجار، وقال: شهدت الفجار فكنتُ أنبل
على عمومتي وأنا غلام. والأعلام ضروب، فمنها ما
يكون كالبشارات في الكتب، لكون الصِّفَّةِ إذا واقفت
الصِّفَّةِ التي لا يقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزمَتْ فيه الحجة،
وضروبٌ آخرٌ كالإرهاص للأمر، والتأسيس له، وكالتعبيد
والترشيح، فإنَّه قلَّ نبيٌّ إلا وقد حدثت عند مولده، أو
قبيل مولده، أو بعد مولده أشياء لم يكن يحدث مثلها،

وعند ذلك يقول الناس: إنَّ هذا لأمرٌ، وإنَّ هذا ليراد به أمرٌ وقع، أو سيكون لهذا نبأ، كما تراهم يقولون عند الذوائب التي تحدث لبعض الكواكب في بعض الزمان، فمن الترشيح والتأسيس والتفخيم شأنُ عبد المطلب عند القرعة، وحين خروج الماء من تحت رُكبة جملة، وما كان من شأن الفيل والطيور الأبايل وغير ذلك، مما إذا تقدم للرجل زاد في نُبله وفي فخامة أمره، والمتوقَّع أبداً معظماً.

فإن كانت هذه الشهب في هذه الأيام أبداً مرئية فإنما كانت من التأسيس والإرهاص، إلا أن يُنشِدونا مثل شعر الشعراء الذين لم يدركوا المولد ولا بعد ذلك، فإنَّ عددهم كثير، وشعرهم معروف.

وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام، وأولئكم عندكم أشعرُ ممن كان بعدهم.

وكان أحدهم لا يدع عظماً منبوذاً بالياً، ولا حجراً مطروحاً، ولا خنفساء، ولا جُعلاً، ولا دودة، ولا حية، إلا قال فيها، فكيف لم يتهياً من واحدٍ منهم أن يذكر الكواكب المنقضة مع حُسْنها وسُرعتها والأعجوبة فيها، وكيف

أَمْسِكُوا بِأَجْمَعِهِمْ عَنْ ذِكْرِهَا إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي يَحْتَجُّ فِيهِ
خِصْمُكُمْ.

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ذُكِرَ لَهُ يَوْمَ
ذِي قَارٍ قَالَ: هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انْتَصَفَتْ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ الْعَجَمِ،
وَبِي نُصِرُوا.

وَلَمْ يَكُنْ قَالَ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ إِنَّ وَقْعَةً سَتَكُونُ، مِنْ صِفَتِهَا
كَذَا، وَمِنْ شَأْنِهَا كَذَا، وَتُنْصَرُونَ عَلَى الْعَجَمِ، وَبِي
تَنْصَرُونَ.

فَإِنْ كَانَ بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ وَهَوَّلَاءُ الَّذِينَ ذَكَرْتُمْ قَدْ
عَايَنُوا انْقِضَاضَ الْكَوَاكِبِ فَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ
إِرْهَاصاً لِمَنْ لَمْ يُخْبَرَ عَنْهَا وَيَحْتَجُّ بِهَا لِنَفْسِهِ، فَكَيْفَ
وَبَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ حَيٌّ فِي أَيَّامِ الْفِجَارِ، الَّتِي شَهِدَهَا
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ، وَأَنَّ كِنَانَةَ وَقُرَيْشاً بِهِ
نُصِرُوا.

وَسَنَقُولُ فِي هَذِهِ الْأَشْعَارِ الَّتِي أَنْشَدْتُمُوهَا، وَنُخْبِرُ عَنْ
مَقَادِيرِهَا وَطَبَقَاتِهَا، فَأَمَّا قَوْلُهُ:

لَمَعَ الْعَقِيقَةُ
جُنْحَ لَيْلٍ مُظْلَمِ

فَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ
مِنْ مِتْحَدِّرٍ

فخبرني أبو إسحاق أن هذا البيت في أبياتٍ آخر كان
أسامة صاحب رَوْح بن أبي هَمَّام، هو الذي كان ولدها،
فإن اتَّهمت خبر أبي إسحاق فسمَّ الشَّاعرَ، وهات
القصيدة، فإنه لا يُقبل في مثل هذا إلا بيتٌ صحيح صحيح
الجوهرِ، من قصيدةٍ، صحيحة لشاعر معروف، وإلا فإن
كلَّ من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل
بيتٍ منها أجودُ من هذا البيتِ.
وأسامة هذا هو الذي قال له رَوْحُ:

مِنْ رَحِيقٍ
مُدَامَهُ

اسْقِنِي يَا
أُسَامَةَ

كَافِرٌ بِالْقِيَامَةِ

اسْقِنِيهَا فَإِنِّي

وهذا الشعر هو الذي قتله، وأمَّا ما أنشدتم من قول أوس
بن حجر:

نَقَعَ يَثُورُ
تَخَالَهُ طُنْبًا

فَانْقَضَ كَالدَّرِيِّ
يَتْبَعُهُ

وهذا الشعر ليس يرويه لأوسٍ إلا من لا يفصل بين شعر
أوس بن حجر، وشريح ابن أوس، وقد طعنت الرواة في
هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم، من
قوله:

ينقضُّ خلفهما
انقضاض
الكوكب

والعير يرهقها
الخبارُ
وجحشها

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عَذُو الحمار
بانقضاض الكوكب، ولا بدن الحمار ببدن الكوكب،
وقالوا: في شعر بشر مصنوعٌ كثير، مما قد احتملته كثيرٌ
من الرواة على أنه من صحيح شعره، فمن ذلك قصيدته
التي يقول فيها:

إذا ما القارظ
العنزِيُّ آبا

فرجِّي الخيرِ
وانتظري إياي

وأما ما ذكرتم من شعر هذا الضبِّي، فإنَّ الضبِّيَّ
مخضرم. وزعمتم أنكم وجدتم ذكر الشَّهْب في كتب
القدماء من الفلاسفة، وأنه في الآثار العلوية

لأرسطاطاليس، حين ذكر القول في الشَّهْب، مع القول
في الكواكب ذوات الذوائب، ومع القول في القوس،
والطُّوق الذي يكون حول القَمَر بالليل، فإن كنتم بمثل هذا
تَسْتَعِينُونَ، وإليه تفرعون، فإننا نوجدكم من كذب
التَّراجمة وزيادتهم، ومن فساد الكتاب، من جهة تأويل
الكلام، ومن جهة جهل المترجم بنقل لغةٍ إلى لغة، ومن
جهة فساد النَّسخ، ومن أنه قد تقادم فاعترضتْ دونه
الدُّهورُ والأحقاب، فصار لا يؤمن عليه ضروبُ التَّبديل
والفساد، وهذا الكلام معروفٌ صحيح.

وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأوديِّ فلعمري إنه
لجاهليٌّ، وما وجدنا أحداً من الرُّواة يشكُّ في أن القصيدة
مصنوعةٌ، وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشَّهْب التي
يراها إنما هي قذْفٌ ورجمٌ، وهو جاهليٌّ، ولم يدع هذا
أحدٌ قطُّ إلا المسلمون؟ فهذا دليلٌ آخر على أن القصيدة
مصنوعةٌ رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا
القول إلى تفسير قصيدة البهراني: وأما قوله:

فَلَفْلَأَ مَجْتَنِي
وَهَضْمَةَ عِطْرِ

جَائِباً لِلْبَحَارِ
أَهْدِي لِعِرْسِي

وأحلي هُرَيْرَ
من صدف
البح

ر وأسقي العيال
من نيل مصر

فإن الناس يقولون: إن السَّاحر لا يكون ماهراً حتَّى يأتي
بالفُلُّ الرُّطب من سرنديب، وهُريرة: اسم امرأته
الجنِّيَّة.
وذكر الطَّبِّي الذي جعله مَرَكبه إلى بلاد الهند، فقال:

وأجوبُ البلاد
تحتي ظبي

ضاحكُ سنِّه كثيرُ
التَّمَرِّي

مُولج دَبْرَهُ
حَوَايَة مَكُو

وهو بالليل في
العفاريت يسري

يقول: هذا الطَّبِّي الذي من جُبْنِه وحذره، من بين جميع
الوَحْش، لا يدخل حَراه إلا مستدبراً، لتكون عيناه تلقاء
ما يخاف أن يغشاه هو الذي يسري مع العفاريت بالليل
ضاحكاً بي هازئاً إذا كان تحتي.
وأما قوله:

يَحْسَبُ النَّاطِرُونَ
أَنِي ابْنُ مَاءٍ

ذَاكَرَ عُشَّهُ
بِضَفَّةِ نَهْرٍ

فَإِنِ الْجَنِّيَّ إِذَا طَارَ بِهِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ظَنَّ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ أَنَّهُ
طَائِرُ مَاءٍ.

قولهم: أروى من ضب

وأما قولهم في المثل: أروى من ضب فإني لا أعرفه،
لأنَّ كلَّ شيءٍ بالدوِّ والدَّهْناءِ والصَّمَانِ، وأوساط هذه
المهامه والصحاصح فإن جميع ما يسكنها من الحشرات
والسَّبَاع لا يردُّ الماء ولا يريده، لأنه ليس في أوساط
هذه الفيافي في الصَّيف كله وفي القَيْظ جميعاً مَنْقَع ماء،
ولا غدِير، ولا شريعة، ولا وَشَلَّ، فإذا استقام أن يمرَّ
بظبائها وأرانبها وطحالبها وغير ذلك منها الصَّيفة كلَّها،
والقَيْظ كله، ولم تذق فيها قطرة ماء، فهي له في الشتاء
أترك، لأنَّ من اقتات اليبس إذا لم يشرب الماء فهو إذا
اقتات الرُّطْب أترك.

وليس العجب في هذا، ولكنَّ العجب في إبلٍ لا ترد الماء.
وزعم الأصمعيُّ أنَّ لبني عقيل ماعزاً لم يرد الماء قطَّ،
فينبغي على ذلك أن يكون واديهم لا يزالُ يكونُ فيه من

البقل والورق ما يُعِيشُها بتلك الرطوبة التي فيها. ولو كانت ثعالب الدهناء وظباؤها وأرانبها ووحشها تحتاج إلى الماء لطلبته أشدّ الطلب، فإن الحيوان كلّه يهتدي إلى ما يُعِيشه، وذلك في طبعه وإنما سلب هذه المعارف الذين أعطوا العقل والاستطاعة فوكلوا إليهما. فأما من سلب الآلة التي بها تكون الروية والأداة التي يكون بها التصرف، وتخرج أفعاله من حد الإيجاب إلى حد الإمكان، وعوض التمكين، فإن سبيله غير سبيل من منح ذلك، فقسم الله تعالى لتلك الكفاية، وقسم لهؤلاء الابتلاء والاختيار.

قصيدتا بشر بن المعتمر

أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعري بشر بن المعتمر، فإن له في هذا الباب قصيدتين، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة، وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ما تتسع له الرواية، من غير أن نكتبهما في هذا الكتاب، ولكنهما يجمعان أموراً كثيرة.

أما أول ذلك فإن حفظ الشعر أهون على النفس، وإذا
حفظ كان أعلق وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى
ضرب المثل كان مثلاً.

وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف، على بيوت هذين
الشعريين، وقع ذكرهما مصنفاً فيصير حينئذٍ آتق في
الأسماع، وأشدّ في الحفظ.

القصيدة الأولى

قال بشر بن المعتمر:

وكلهم من شأنه الخت الناس دأباً في طلاب الغنى

لها عواءٌ ولها زفر كأدوبٍ تنهشها أدوبٌ

كلُّ له في نفثه سحر تراهم فوضى وأيدي سبا

بين يديه النفع والضرُّ تبارك الله وسبحانه

الذيخ والثيتل والغفر من خلقه في روقه كلهم

فيه ومن مسكنه القفروساكن الجوّ إذا ما علا

وجأبة مسكنها الوعر والصدع الأعصم في شاهقٍ

والتفّلُ الرائغُ والذروالحيةُ الصماءُ في جحرها
والسهلُ والنوفلُ والنضروإلقةُ ترغت رباحها
لها عرارٌ ولها زمروهقلةُ ترتاغُ من ظلها
أحبُّ شيءٍ عندها الجمرتلتهم المروَ على شهوةٍ
وعترفانٌ بطنهُ صفروضبةُ تأكلُ أولادها
منجمٌ ليس له فكريؤثرُ بالطعمِ وتأذينهُ
حشوتهُ التأييسُ والدغروكيف لا أعجبُ من عالمٍ
ليس لها من دونها سترُوحكمةُ يبصرها عاقلٌ
وأبعثُ يصطادهُ صقرجرادةُ تخرقُ متنَ الصفا
وقد عراه دونه الذعرسلاحه رمحٌ فما عذره
والفيلُ والكلبةُ واليعروالدبُّ والقردُ إذا علما
وعن مدى غاياتها السحريحجم عن فرطِ أعاجيبها
وعقربٌ يعجبها التمرُوظيبةُ تخضمُ في حنظلٍ

يقوتها الأرواثُ والبعرُ وخنفسُ يسعى بجعلانه
ضمَّ إليها الروثُ والجعرُ يقتلها الوردُ وتحيا إذا
والخلدُ فيه عجبٌ هتروفاةُ البيشِ إمامٌ لها
وحيةٌ يخلى له الجحرُ وقتفدُ يسرى إلى حيةٍ
وهدهدٌ يكفره بكرُ وعصرُ فوطُ ماله قبلةٌ
تخبرُ أن ليسَ لها عذروفرةُ العقربِ من لسعها
إذا تلاقى الليثُ والببرُ والبيرُ فيه عجبٌ عجبٌ
وطائرٌ ليسَ لها وكروطائرُ أشرفُ ذو جردة
وعسكرٌ يتبعه النسروثرملٌ تأوى إلى دويل
أبرمها في الرحمِ العمرُ يسالمُ الضبعَ بذى مرة
وسابحٌ ليسَ لها سحرُ وتمسحُ خللةُ طائرُ
وخرنقٌ يسفدهُ وبرو العثُ والحفاتُ ذو فحفحِ
ليسَ لها نابٌ ولا ظفرُ وغائصُ في الرملِ ذو حدة

حتى يوافي وقته العصر حرباؤها في قيظها شامسٌ

يميلُ في روضته الزهر يميل بالشقِّ إليها كما

حبُّ الكشي والوحر الحمر والظربانُ الوردُ قد شفهُ

ولو نجا أهلكهُ الذعر يلوذُ منه الضربُ مذلولياً

شيءٌ ولو أحرزه قصرٌ وليس ينجيه إذا ما فسا

وسمِعُ ذنبِ همهُ الحضر وهيشنة تاكلها سرفةٌ

لكنما يعجبها الخمرُ لا تردُّ الماءَ أفاعي النقا

إذا غلا واحتدم الهجرُ وفي ذرى الحرملِ ظلُّ لها

أعطى سهامَ الميسرِ القمرُ فبعضها طعمُ لبعض كما

والليثُ رأسٌ وله الأسرُ وتمسحُ

النيل عقابُ الهوا

إلا بما ينتقضُ الدهرُ ثلاثةٌ ليس

لها غالبٌ

فَاللّٰهُ يَقْضِيْ وَهٗ اَمْرُ
اِنِّيْ وَاِنْ
كُنْتُ ضَعِيْفَ الْقُوٰى

كِرَافِضِيْ غَرَّهُ الْجَفْرُ
لَسْتُ
اِبَاضِيًّا عَبِيًّا وَلَا

سَفْرًا فَاُوْدِيْ عِنْدَهُ السَّفْرُ
كَمَا يَغْرُ
الْاَلُ فِيْ سَبَسِبِ

فَعَالَهُ عِنْدَهُمَا كَفْرُ
كِلَاهُمَا
وَسِعَ فِيْ جَهْلٍ مَا

عَابُوا الَّذِيْ عَابُوا وَلَمْ يَدْرُوْا
لَسْنَا مِنْ
الْحَشْوِ الْجَفَاةِ الْاَوْلٰى

وَاِنْ رَنَّا فَلَحْظُهُ شَزْرُ
اَنْ غَبْتِ لَمْ
يَسْلَمُكَ مِنْ تَهْمَةٍ

كَأَنَّمَا يَلْسَبُهُ الدَّبْرُ
يَعْرَضُ اِنْ
سَالَمْتَهُ مَدْبِرًا

لَهُ اِحْتِيَالٌ وَهٗ مَكْرُ
اَبْلُهُ خَبُّ
ضَغْنٌ قَلْبِهِ

وفارقوها فهمُ اليعر
جماعةً باسمها
وانتحلوا

ليس له رأى ولا قدر
أعوجُ ذو لوثةٍ
وأهوجُ

وغيرهم أيضاً كما غروا
نفسه مثله
قد غره في

ينبو عن الجرولة القطرُ
الحكمةُ فيهم كما
لا تنجع

ثلاثةٌ يجمعهم أمرُ
شتى فما منهم
قلوبهم

وأنهم أعينهم خزرُ
أو بهتَ أهلُ التقى
إلا الأذى

أعيا لديه الصابُ والمقر
العضالُ الذي
أولئك الداءُ

حسنُ عزاءِ النفسِ والصبرِ
ليست له حيلةٌ
حيلة من

القصيدة الثانية

قال: وأنشدني أيضاً:

يقصر عنها عدد القطر ما ترى العالم ذا حشوةٍ
وكلُّ سبعٍ وافرٍ الظفرِ أو ابدِ الوحشِ وأحناشها
فيه اعتبارٌ لذوي الفكرِ وبعضه ذو همجٍ هامجٍ
تطاعمُ الحياتِ في الجحرِ والوزغُ الرقط على ذلها
مودة العقبِ في السرِّ والخنفسُ الأسودُ في طبعه
بين الوريِّ والبلدِ القفرِ والحشراتُ الغبرُ منبثَّةُ
خيرٌ كثيرٌ عند من يدرى وكلها شرٌّ وفي شرها
مدةٌ هذا الخلقِ في العمرِ لو فكرَ العاقلُ في نفسه
أو حجةً تنقشُ في الصخرِ لم ير إلا عجباً شاملاً
خفيةً الجسمانِ في قعرِكم ترى في الخلقِ من آيةٍ
يحارُّ فيها وضحُ الفجرِ أبرزها الفكرَ على فكرةٍ
وصاحبِ في العسرِ واليسرِ لله درُّ العقلِ من رائدٍ

قضية الشاهد للأمر وحاكم يقضى على غائب
أن يفصل الخير من الشر وإن شيئاً بعض أفعاله
بخالص التقديس والظهربذى قوى قد خصه ربّه
ومخرج الخيشوم والنحريل أنت كالعين وإنسانها
كالذئب والثعلب والذرفشرهم أكثرهم حيلةً
بما حوى من شدة الأسر والليث قد جلده علمه
وتارة يثنيه بالهصرفتارة يحطمه خابطاً
مواضع الفرّ من الكروالضعف قد عرف أربابه
في الأسر والإلاح والصبر تعرف بالإحساس أقدارها
بصاحب الحاجة والفقروالبخت مقرون فلاتجهلن
أهون منها سكرة الخمر وذنو الكفريات إلى سكرة
شرّ من اللبوة والنمر والضبغ الغثراء مع ذئبها
والنمر أو قد جىء بالبيرلو خلى الليث ببطن الورى

ما بين قرنيه إلى الصدر كان لها أرجى ولو قضقت
فبعد أن أبلغ في العذ والذئب إن أفلت من شره
وعنصر أعرافه تسرى وكل جنس
فله قالب

مثل صنيع الأرض والبذر وتصنع
السرفة فيهم على

يحتال للأكبر بالفكر والأضعف
الأصغر أخرى بأن

أحوجه ذاك إلى المكر متى يرى
عدوه قاهراً

صاح فجاءت رسلاً تجرى كما ترى
الذئب إذا لم يطق

يحجم أو يقدم أو يجرى وكل شيء
فعلى قدره

والعندليب الفرخ كالنسر
والكيس في المكسب شمل لهم

والفيل والأعلم كالوبر
والخذ كالذئب على خبثه

والأبعث الأغر كالصقر
والعبد كالحر وإن ساءه

لكنهم في تفاوتوا في الرأي والقدر
الدين أيدي سبا

قد غمر فناصبوا القياس ذا السبر
التقليد أحلامهم

فاقهم فإنما النجح مع الصبر
كلامى واصطبر ساعة

وانظر إلى يكره أن يجري ولا يدري
الدنيا بعين امرىء

أما ترى يجمع بين الصخر والجمر
الهقل وأمعاه

وفارة	طيبة فائقة العطر البيش على بيشها
وطائر	كماهر يسبح في غمر يسبح في جام
ولطعة	وصنعة السرفة والدبر الذئب على حسوه
ومسمع	أعجب مما قيل في الحجر القردان في منهل
وظبية	مؤخرها من شدة الذعر تدخل في تولج
تأخذ	يريغها من قبل الدبر بالحزم على قانص
والمقرم	مرارة تسمع في الذكر المعلم ما إن له
وخصية	عند حدوث الموت والنحر تتصل من جوفه

شَقَشَقَةً مَائِلَةً الْهَدْر
وَلَا يَرَى
مَنْ بَعْدَهَا جَازِرٌ
أَشَاعَهُ الْعَالَمُ بِالْأَمْرِ
وَلَيْسَ
لِلطَّرْفِ طَحَالٌ وَقَدْ
يَعْرِفُهُ الْجَازِرُ ذُو الْخَبْرِ
وَفِي فَوَادٍ
الثَّورِ عَظْمٌ وَقَدْ
مَا كَانَ مِنْهَا عَاشَ فِي الْبَحْرِ
وَأَكْثَرُ
الْحَيْتَانَ أَعْجُوبَةً
وَلَا دِمَاعُ السَّمَكِ النَّهْرِي
إِذْ لَا لِسَانَ
سَقَى مَلْحَهُ
كَفَعَلَ ذِي النَّقْلَةِ إِلَى الْبَرِّ
يَدْخُلُ فِي
الْعَذْبِ إِلَى جَمِهِ
عَلَى مِثَالِ الْفَلَكَ الْمَجْرِي
تَدِيرُ
أَوْقَاتًا بِأَعْيَانِهَا
تَعَاقَبَ الْأَنْوَاءِ فِي الشَّهْرِ
وَكُلُّ
جَنْسٍ فَلَهُ مَدَّةٌ

وأكبُّ

ثمَّ تواری آخرَ الدهرِ
تظهرُ في ليلها

ولا يسبغ

مزاجه ماءً على قدر
الطعم ما لم يكن

ليس له

سوى جرابٍ واسع الشجر
شيءٍ لإزلاقه

والتتفل

فشطر أنبوب على شطر
الرائغ إما نضا

متى رأى

تجده ذا فشيٍّ وذا جزر
الليث أذا حافر

وإن رأى

أطعمه ذلك في النمر
النمر طعاماً له

وإن رأى

ونابه يجرح في الصخر
مخلبه وافياً

منهت

فالنمر مأكولٌ إلى الحشر
الشدق إلى غلصم

زئيره أصبر من نمر
وما يعادي
النمرُ في ضيغمٍ
من شدة الأضلاع والظهر
لولا الذي
في أصل تركيبه
ما يسحر المختال ذا الكبر
يبغ
بالجسر على طبعه
ومنشر الميت من القبر
سبحان
ربّ الخلق والأمر
ما أقرب الأجر من الوزر
فاصبر
على التفكير فيما ترى

تفسير القصيدة الأولى

نقول بعون الله تعالى وقوته في تفسير قصيدة أبي سهل
بشر بن المعتمر، ونبدأ بالأولى المرفوعة، التي ذكر في
آخرها الإباضية، والرافضة، والنابئة، فإذا قلنا في ذلك
بما حضرنا قلنا في قصيدته الثانية إن شاء الله تعالى.
ما قيل في الذئب أمّا قوله:

لها عَوَاءٌ ولها
زَفْرُ

كَأَدْوَبٍ تنهَشُها
أَدْوَبٌ

فإنَّها قد تتهاشُنُ على الفريسة، ولا تبلغ القتل، فإذا
أدْمى بعضها بعضاً وثَبَّتْ عليه فمَرَّقته وأكلته، وقال
الراجز:

ورقاء دَمِي
ذئبها المدمي

فلا تكوني يا
ابنة الأشمِّ

وقال الفرزدق:

بصاحبه يوماً
أحالَ على الدِّمِ

وكنتَ كذئبٍ
السَّوءِ لَمَّا رأى
دماً

نعم حتَّى رُبما أقبلا على الإنسان إقبالاً واحداً، وهما
سواءٌ على عداوته والجزم على أكله، فإذا أدْمى أحدهما
وثب على صاحبه المدمي فمَرَّقَه وأكله، وترك الإنسان
وإن كان أحدهما قد أدماه.
ولا أعلم في الأرض خلقاً ألامَّ من هذا الخلق، ولا شراً

منه، ويحدث عند رؤيته الدّم له في صاحبه الطمع، ويحدث له في ذلك الطمع فضلُ قوة، ويحدث للمدَمَى جِبْنٌ وخوف، ويحدث عنهما ضعف واستخذاء، فإذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دونَ أكله شيء، والله أعلم حيث لم يُعط الذئب قُوّة الأسد، ولم يعط الأسد جُبْن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف، مثل ما يعتري الهر والهرة بعد الفراغ من السّفاد، فإن الهر قبل أن يفرغ من سفاد الهرة أقوى منها كثيراً، فإذا سفّدها ولّى عنها هارباً واتبعته طالبةً له، فإنها في تلك الحال إن لحقته كانت أقوى منه كثيراً، فلذلك يقطع الأرض في الهرب، وربّما رمى بنفسه من حالق، وهذا شيء لا يعدمانه في تلك الحال.

ولم أرهم يقفون على حدّ العلة في ذلك، وهذا بابٌ سيقع في موضعه من القول في الذئب تاماً، بما فيه من الرواية وغير ذلك.
الذيخ والثيتل والغفر وأما قوله:

الذيخ والثيتل
والغفر

من خلقه في
رزقه كلهم

الدَّيْخُ: ذكر الضَّبْع، والثَّيْتَلُ شَبِيهٌ بِالْوَعْلِ، وَهُوَ مِمَّا
يَسْكُنُ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَلَا يَكُونُ فِي الْقُرَى، وَكَذَلِكَ
الْأَوْعَالُ، وَلَيْسَ لَهَا حُضْرٌ وَلَا عَمَلٌ مَحْمُودٌ عَلَى الْبَسِيطِ،
وَكَذَلِكَ لَيْسَ لِلظَّبَاءِ حُضْرٌ وَلَا عَمَلٌ مَحْمُودٌ فِي رُؤُوسِ
الْجِبَالِ.

وقال الشاعر:

كَمْشِي الْوُعُولِ
عَلَى الظَّاهِرَةِ

وَخَيْلٍ تَكْرِدِسُ
بِالْدَارِ عَيْنَ

وقال أيضاً:

عِنْدَ الهَضَابِ
مُقَيِّدًا مَشْكُولًا

وَالظَّبِيُّ فِي رَأْسِ
الْيَفَاعِ تَخَالُهُ

وَالغُفْرُ: وَلد الأروية: واحد الأروى، والأروى: جماعة
من إناث الأوعال.
الصَّدْعُ وَالْجَابُ وَأما قوله:

وَجَابَةٌ
مَسْكُنُهَا

وَالصَّدْعُ الْأَعْصَمُ

في شاهق

الوعرُ

فالصدع: الشّاب من الأوعال، والأعصم: الذي في
عصمته بياضٌ، وفي المعصم منه سوادٌ ولونٌ يخالفُ
لونَ جسده، والأنثى عصماء، والجأب: الحمار الغليظ
الشديد، والجأبة: الأتان الغليظة، والجأب أيضاً، مهموز:
المغرة، وقال عنتره:

فنجأ أمام

فوت الأسنه

رماجهن كانه

حافر الجأب

شبهه بما عليه من أطوخ الدماء برجل يحفر في معدن
المغرة، والمغرة أيضاً المكر، ولذلك قال أبو زبيد في
صفة الأسد المخمر بالدماء:

يعاجيهم للشر

عنايته كأنما

ثاني عطفه

بات يمكر

الحية والثعلب والذر وأما قوله:

والحياة الصماء

والثفل

في جُحرها

الرائع والذُرُّ

فالتتفل هو الثعلب، وهو موصوفٌ بالرَّوغان والخبث،
ويضرب به المثل في النَّدالة والدنائة، كما يضرب به
المثلُ في الخبث والرَّوغان.
وقال طرفة:

وصاحبٍ قد كنتُ
صاحبتهُ

لا ترك الله له
واضحه

كلهم أروغ من
ثعلبٍ

ما أشبه الليلة
بالبارحة

وقال دُرَيْدُ بن الصَّمَّة:

ومرّة قد
أدركتهم
فتركتهم

يروغون بالغراء
روغ الثعالبِ

وقال أيضاً:

يُدسُّ برأسه في
كُلِّ جُحْرٍ

ولستُ بثعلبٍ
إن كان كونٌ

ولمَّا قال أبو محجنِ الثَّقفي لأصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم، من حائط الطائف ما قال: قال له عمر بن الخطاب
رضي الله عنه: إنما أنت ثعلبٌ في جُحْرٍ، فابرز من
الحصن إن كنت رجلاً.
ومما قيل في ذلة الثعلب، قال بعض السلف، حين وجد
الثُّعلبان بال على رأس صنمه:

لقد دَلَّ مَنْ بَالَتْ
عليه الثُّعالبُ

إله يبول
الثُّعلبانُ
برأسه

فأرسلها مثلاً، وقال دُرَيْدٌ في مثل ذلك:

وأنت امرؤ لا
تحتويك
المقانبُ

تمنيتني قيسَ
بن سعدٍ سفاهةً

من الأقط
الحوليّ شبعان
كاتب

وأنت امرؤ جعد
القفا متعكس

إليهم ومن شرّ
السباع الثعالب

إذا انتسبوا لم
يعرفوا غير
ثعلب

وأنشدوا في مثل ذلك:

والدَّهْرُ لا
تنقضي
عجائبه

ما أعجبَ الدَّهْرَ
في تصرّفه

آمالنا
نوائبه

يبسط آمالنا
فنبسطها ودون

بالتّ على
رأسه ثعالبه

وكم رأينا في
الدَّهْرِ من أسدٍ

ففي الثَّعلبِ جلدُهُ، وهو كريم الوبر، وليس في الوبر
أغلى من الثَّعلبِ الأسود، وهو ضروبٌ، ومنه الأبيضُ
الذي لا يُفصل بينه وبين الفَنك، ومنه الخُلنجي، وهو
الأعمّ.

ومن أعاجيبه أن نَضِيَّه، وهو قضيبه في خلقة الأنبوبة،
أحد شِطْرِيه عَظْمٌ في صورة المثقب، والآخر عصبٌ
ولحم، ولذلك قال بشرُ بنُ المعتمر:

فشَطْرُ أنبوبي
على شَطْرٍ

والتتفل الرائعُ
إمّا نضاً

وهو سَبْعُ جبانٍ جدًّا، ولكنَّه لفرط الخبث والحيلة يجري
مع كبار السَّباع.
وزعم أعرابيٌّ ممن يُسمعُ منه، أنَّه طاردهُ مرّةً بكلابٍ له،
فراوغه حتّى صار في خمر، ومرَّ بمكانه فرأى ثعلباً
ميتاً، وإذا هو قد زَكَر بطنه ونفخه، فوهمه أنَّه قد مات
من يوم أو يومين، قال: فتعدّيته وشمّ رائحة الكلاب
فوثب وثبّةً فصار في صحراء.
وفي حديث العامّة أنَّه لما كثرت البراغيثُ في فروته،
تناول بفيه إمّا صُوفَةً وإمّا ليقة، ثم أدخل رجله في

الماء، فترقعت عن ذلك الموضع، فما زال يغمسُ بدنه
أولاً فأولاً حتى اجتمعن في حَظْمه، فلَمَّا غمسَ حَظْمه
أولاً فأولاً اجتمعن في الصُّوفَة، فإذا علم أن الصُّوفَة قد
اشتملت عليهن تركها في الماء ووثب، فإذا هو خارجُ
عن جميعها.

فإن كان هذا الحديثُ حَقًّا فما أعجبه، وإن كان باطلاً
فإنهم لم يجعلوه له إلا للفضيلة التي فيه، من الخبثِ
والكيسِ.

وإذا مشى الفرسُ مشياً شبيهاً بمشي الثعلب قالوا: مشى
الثعلبية قال الراعي:

ثعلبٌ مَوْتِي
جلدها قد تسلعا

وَعَمَلِي نَصِيٍّ
بالمِتانِ كأنها

وقال الأصمعيُّ: سرق هذا المعنى من طفيلِ الغنويِّ ولم
يُجد السَّرْق.

وفي تشبيهه بعض مشيته قال المرار بن مُنقذ:

وإذا يُركضُ

صِفَةُ الثَّعْلِبِ

أدنى جزيه

يعفور أشر

وقال امرؤ القيس:

له أَيْطَلَا ظَنِي

وإِرْخَاءُ سِرْحَانِ

وَسَاقَا نَعَامَةٍ

وَتَقْرِيْبٍ تَتْفُلُ

والبيت الذي ذكره الأصمعيُّ لطفيل الغنوي، أن الراعي سرق معناه هو قوله:

وَعَمَلِي نَصِيٌّ

ثَعَالِبُ مَوْتِي

بِالْمَتَانِ كَأَنَّهَا

جُدُّهَا لَمْ يَنْزِعْ

وأنشدوا في جُبْنِهِ قَوْلَ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ:

وَبَلَدَةٍ لَا تُرَامُ

زُورَاءَ مُعْبِرَةٍ

خَائِفَةٍ

جَوَانِبُهَا

تَسْمَعُ لِلْحِنِّ

تَصِيْحُ مِنْ

عَازِفِينَ بِهَا

رَهْبَةٍ ثَعَالِبُهَا

كَفَقْتُهَا عَرْمَسًا

ذَاتَ هِبَابٍ فُعْمًا

عُدَايِرَةٌ

مَنَاكِبُهَا

تُرَاقِبُ الْمُحْصَدَ

هَاجِرَةٌ لَمْ تَقْلُ

الْمَمْرَ إِذَا

جَنَادِبُهَا

والذي عندي أنّ زهيراً قد وصف الثعلب بشدّة القلب،
لأنهم إذا هَوُّوا بذكر الظُّلْمَةِ الوحشيّة والغيلان، لم
يذكروا إلاّ فزع من لا يكاد يفزع، لأنّ الشاعر قد وصف
نفسه بالجرأة على قطع هذه الأرض في هذه الحال.
وفي استنذاله وجبته قالت أمّ سالم لابنها مَعْمَرُ:

أرى مَعْمَرًا لَا

وَلَا زَانَهُ مِنْ

زَيْنَ اللَّهِ مَعْمَرًا

زَائِرٍ يَتَقَرَّبُ

أَعَادَيْتَنَا

كَأَنَّكَ فِي

عَادَاكَ عَزُّ

السَّرْبَالِ إِذْ جِئْتَ

وَذَلَّةٌ

تَعْلُبُ

فَلَمْ تَرَ عَيْنِي

أَحَقَّ بِأَنْ يُجْنَى

زَائِرًا مِثْلَ

عَلَيْهِ وَيُضْرَبُ

مَعْمَر

وقال عقيل بن عُلفة:

فَاتِّكَ عَبْدُ يَا
زُمَيْلُ دَلِيلُ

تَأْمَلْ لِمَا قَدْ نَالَ
أَمَّكَ هِجْرَسُ

أَصْبَحَ بَنِي
عَمْرُو وَأَنْتَ
قَتِيلُ

وَإِنِّي مَتَى
أَضْرَبُكَ بِالسَّيْفِ
ضَرْبَةَ

الهجرس: ولد الثعلب، قال: وكيف يصطاد وهو على هذه
الصفة؟ فأنشد شعر ابن ميادة:

وَيُخْدَعُ أَحْيَاناً
فِيصْطَادِ نُورِهَا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْوَحْشَ يَخْدَعُ
مَرَّةً

وَإِنْ فَرِهَتْ
عَقْبَانُهَا
وَأُسُورُهَا

بَلَى وَضَوَارِي
الصَّيْدِ تُخْفِقُ
مَرَّةً

قال: وسألت عنه بعض الفقهاء فقال: قيل لابن عباس: كيف تزعمون أنّ سليمان بن داود عليهما السلام كان إذا صار في البراري، حيث لا ماء ولا شجر، فاحتاج إلى الماء، دلّه على مكانه الهدد، ونحن نغطّي له الفخّ بالتراب الرقيق، ونُرز له الطعم، فيقع فيه جهلاً بما تحت ذلك التراب، وهو يدلُّ على الماء في قعر الأرض الذي لا يوصل إليه إلاّ بأن يحفر عليه القيم الكيس؟. قال: فقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إذا جاء القدرُ لم ينفع الحذر. وأنشدوا:

وكذاك شرُّهم
الميون الأكذبُ

بالوعدِ راغٍ
كما يروغُ
التعلبُ

خير الصديق هو
الصدوق مقالةً

فإذا غدوت له
تريد نجازهُ

وقال حسن بن ثابت رضي الله عنه:

بِطَاءٍ عَنِ
المَعْرُوفِ يَوْمِ
التَّزَايُدِ

فَقَا ثَعْلَبِ أَعْيَا
بِبَعْضِ المَرَاصِدِ

سَجَا جَا كَأَقْرَابِ
الثَّعْلَابِ أَوْرَقَا

لَا تَلْعَبَنَّ لِعِبَاةَ
المَغْتَرِّ

أَوْ تَعْلَبِ أَضِيْعَ
بَعْدَ حُرِّ

بَنِي عَابِدِ
شَاهَتْ وَجُوهُ
الأَعَابِدِ

فَمَا كَانَ صَيْفِيَّ
يَفِي بِأَمَانَةِ

وَيَشْرَبُهُ مَدَقًا
وَيَسْقِي عِيَالَهُ

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ مِرْدَاسٍ:

يَا أَيُّهَا ذَا
المَوْعِدِ
بِالضَّرِّ

أَخَافُ أَنْ تَكُونَ
مِثْلَ هَرِّ

عسراء في يوم
شمال قرّ

بصردي ليس
بذي محجر

تنفض منها
نابها بشزر

هاجت به مخيلة
الأظفر

يجول منها لثق
الذعر

تنفض أعلى
فروه المغبرّ

نفضاً كلون
الشره المخمر

المخيلة: العقاب الذكر الأشبث، صرد: مكان مطمئن.
وقال اليقطري: كان اسم أبي الضريس ديناراً فقال له
مولاه: يا دنيير فقال: أتصغرنى وأنت من بني مخيلة،
والعقاب الذكر بدرهم، والأنثى بنصف درهم، وأنا ثماني
عشرة دراهم.

سلاح الثعلب ومن أشدّ سلاح الثعلب عندكم الروغان
والتماوت، وسلاحه أنتن والزج وأكثر من سلاح
الخبارى.

وقالت العرب: أدهى من ثعلب، وأنتن من سلاح الثعلب.
وله عجيبة في طلب مقتل القنفذ، وذلك إذا لقيه فأمكنه
من ظهره بال عليه، فإذا فعل ذلك به ينبسط فعند ذلك
يقبض على مرقّ بطنه.

أرزاق الحيوان ومن العجب في قسمة الأرزاق أنّ الذئب
يصيد الثعلب فيأكله، ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله، ويرى
القنفذ الأفعى فيأكلها، وكذلك صنيعة في الحيات ما لم
تعظم الحية، والحية تصيد العصفور فتأكله، والعصفور
يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتهم فراخ الزنابير وكلّ
شيء يكون أفحوصه على المستوي، والزنبور يصيد
النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة
تصيد البعوضة فتأكلها.
الإلقة والسهل والنوفل والنضر وأما قوله:

والسهل والنوفل
والنضر

والقة تُرغث
رُبّاحها

فالإلقة هاهنا القردة، تُرغث: ترضع، والرّبّاح: ولد
القردة، والسهل: الغراب، والنوفل: البحر، والنضر:

الذهب، وكلُّ جَرِيَّةٍ من النَّساءِ وغيرِ ذلكِ فهي إقَّةٌ،
وأنشدني بشرُ بن المعتمر لرؤية:

جَدَّ وَجَدَّتْ إقَّةٌ مِنَ الإلْقِ

وقد ذكرنا الهَقْلَ وشأنه في الجمرِ والصَّخْرِ، وأكلَ الضَّبِّ
أولاده، في موضعه من هذا الكتابِ وكذلك قوله في
العُتْرُفَانِ، وهو الديك الذي يُوثر الدَّجَاجُ بالحبِّ، وكأَنه
منجَّمٌ أو صاحبُ أسطُرلاب، وذكرنا أيضاً ما في الجرادِ
في موضعه، ولسنا نُعيدُ ذكر ذلك، وإن كان مذكوراً في
شعرِ بشرٍ.

الأبغثُ وأما قوله:

وَأبغثُ يَصطادُه صقْرٌ

ثم قال:

وقد عَراه دُونُه
الذَعْرُ

سِلاحُه رُمحٌ فما
عُدْرُه

يقول: بدنُّ الأبغثِ أعظمُ من بدنِ الصقرِ، وهو أشدُّ منه
شِدَّةً، ومنقارُه كسنانِ الرُّمَحِ في الطولِ والدَّربِ، وربَّما

تجلى له الصقر والشاهين فعلق الشجر والعرار، وهتك
كل شيء، يقول: فقد اجتمعت فيه خصال في الظاهر
معينة له عليه، ولولا أنه على حال يعلم أن الصقر إنما
يأتيه قبلاً ودبراً، واعتراضاً، ومن عل، وأنه قد أعطى
في سلاحه وكفه فضل قوة لما استخذى له، ولما أطمعه
بهربه، حتى صارت جراته عليه بأضعاف ما كانت.
قال بعض بني مروان في قتل عبد الملك عمرو بن
سعيد:

بغات من الطير
اجتمعن على
صقر

كأن بني
مروان إذ
يقتلونه

ما يقبل التعليم من الحيوان وأما قوله:

والفيل والكلبة
واليعر

والدب والقرد
إذا علما

فإن الحيوان الذي يلقن ويحكي ويكيس ويعلم فيزداد
بالتعليم في هذه التي ذكرنا، وهي الدب والقرد، والفيل،
والكلب.

وقوله: اليعر، يعني صغار الغنم، ولعمري أنّ في المكيّة
والحبشيّة لعباً.
حب الطّبي للحنظل والعقرب للتمر وأما قوله:

وظبية تخضم في حنظل
وعقرب يعجبها التمر

ففي الطّبي أعاجيب من هذا الضرب، وذلك أنّه ربّما
رعى الحنظل، فتراه يقبض ويعضّ على نصف حنظلة
فيقدّها قد الخسفة فيمضغ ذلك النصف وماؤه يسيل من
شذقيه، وأنت ترى فيه الاستلذاذ له، والاستحلاء لطعمه.
وخبّرني أبو محجن العزبيّ، خال أبي العميث الرّاجز،
قال: كنت أرى بأنطاكية الطّبي يُرد البحر، ويشرب
المالح الأجاج.
والعقرب ترمي بنفسها في التمر، وإنّما تطلب النوى
المنقع في قعر الإناء.
فأيّ شيء أعجب من حيوانٍ يستعذب ملوحة البحر،
ويستحلي مرارة الحنظل.
وسنذكر خصال الطّبي في الباب الذي يقع فيه ذكره إن
شاء الله تعالى، ولسنا نذكر شأن الضبّ والنمل، والجعل

والرَّوْثُ والوَرْدُ لِأَنَّا قَدْ ذَكَرْنَاهُ مَرَّةً.
فَأَرَاةُ الْبَيْشِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَالْخَلْدُ فِيهِ
عَجَبٌ هَتْرُ

وَأَرَاةُ الْبَيْشِ
إِمَامٌ لَهَا

فَإِنَّ فَرَاةَ الْبَيْشِ دُوَيْبَةٌ تُشَبَّهُةُ الْفَأَرَةَ، وَلَيْسَتْ بِفَأَرَةٍ، وَلَكِنْ هَكَذَا تُسَمَّى، وَهِيَ تَكُونُ فِي الْعِيَاضِ وَالرِّيَاضِ وَمَنَابِتِ الْأَهْضَامِ، وَفِيهَا سُمُومٌ كَثِيرَةٌ، كَقَرُونِ السُّنْبُلِ، وَمَا فِي الْقُسْطِ، فَهِيَ تَتَخَلَّلُ تِلْكَ الْأَهْضَامِ، وَتَطْلُبُ السُّمُومَ وَتَعْتَذِيهَا، وَالْبَيْشُ: اسْمٌ لِبَعْضِ السُّمُومِ، وَهَذَا مِمَّا يُعْجَبُ مِنْهُ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا شَأْنَ الْقَنْقَذِ وَالْحَيَّةِ فِي بَابِ الْقَوْلِ فِي الْحَيَّاتِ. الْعَضْرَفُوطُ وَالْهَدَّهْدُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَعَضْرَفُوطٌ مَا لَهُ قِبْلَةٌ فَهُوَ أَيْضاً عَنْدهم مِّنْ مَطَايَا الْجَنِّ، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمٍ فَقَالَ:

تَجُوبُ الْعِرَاقُ
وَتَجْبِي النَّبِيْطُ

وَخَيْلُ غَزَالَةَ
تَنْتَابُهُمْ

كَمَا أَجَحَرَ الْحَيَّةَ
الْعَضْرَفُوطَا

تَكَرَّرَ وَتَجَحَّرَ
فُرْسَانَهُمْ

لأن العَضْرَفُوط دويبة صغيرة ضعيفة، والحيات تأكلها
وتغصبها أنفسها.
وأنشدوا على السنة الجن:

يَبَادِرُ وَرِدَاً مِنْ
عِظَاءِ قَوَارِبِ

وَمِنْ عَضْرَفُوطٍ
حَطَّ بِي فَأَقَمْتَهُ

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَهَدَهُدٌ يُكْفِرُهُ بَكَرٌ

فإنما ذلك لأنه كان حاجج بكر ابن أخت عبد الواحد صاحب
البكرية، فقال له: أتخبر عن حال الهدهد بخبر؟ إنه كان
يعرف طاعة الله عز وجل من معصيته، وقد ترك موضعه
وسار إلى بلاد سبأ، وهو وإن أطرف سليمان بذلك الخبر
وقبله منه فإن ذنبه في ترك موضعه الذي وكل به،
وجولانه في البلدان على حاله، ولا يكون ذلك مما يجعل
ذنبه السابق إحساناً، والمعصية لا تنقلب طاعة، فلم لا

تشهد عليه بالنفاق؟ قال: فإني أفعل قال: فحكى ذلك عنه فقال: أمّا هو فقد كان سلم على سليمان وقد كان قال: "لَأَعَذِّبَنَّه عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ"، فلَمَّا أتاه بذلك الخبر، رأى أَنه قد أدلى بحجّة، فلم يعذِّبه، ولم يذبّحه، فإن كان ذنبه على حاله، فكيف يكون ما هجم عليه ممّا لم يُرسل فيه ولم يقصد له حُجّة؟ وكيف يُبقي هذا عليه. وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تأثم، ولا يجوز أن يُؤثم الله تعالى إلاّ المسيئين، فقال بشرٌ لبكر: بأيّ شيء تستدلُّ على أنّ المسيء يعلم أنه مسيء؟ قال: بخجله، واعتذاره بتوبته، قال: فإنّ العقرب متى لسعت فرّت من خوف القتل، وهذا يدلُّ على أنّها جانية، وأنت تزعم أنّ كلّ شيءٍ عاصٍ كافرٌ، فينبغي للعقرب أن تكون كافرة، إذا لم يكن لها عذرٌ في الإساءة. الببر والنمر وأمّا قوله:

إذا تلاقى الليث
والنمرُّ

والببرُ فيه عجبٌ
عاجبٌ

لأنَّ البير مسالمٌ للأسد، والنَّمر يطالبه، فإذا التقيا أعان
البير الأسد.

الخفاش والطائر الذي ليس له وكر وأما قوله:

وطائرٌ ليس له
وكرُ

وطائرٌ أشرفُ ذو
جُرْدَة

فإنَّ الأشرفَ من الطَّير الخُفاش، لأنَّ لآذانها حجماً
ظاهراً، وهو متجرّدٌ من الرِّغب والرِّيش، وهو يلد.
والطَّائر الذي ليس له وكرٌ، هو طائرٌ يخبر عنه
البحريُّون أنَّه لا يسقط إلا ريثما يجعلُ لبيضه أدحياً من
تراب، ويغطيُّ عليه، ويطير في الهواء أبداً حتَّى يموت،
وإن لقي ذكرٌ أنثى تسافدا في الهواء، وبيضه يتفقص من
نفسه عند انتهاء مُدَّته، فإذا أطاق فرخه الطَّيران كان
كأبويه في عاداتهما.

الثعالب والنسور والضباع وأما قوله:

وعسكُرٌ يتبعه
النسرُ

وثرملٌ تأوي
إلى دُوبَلٍ

أبرمها في
الرحم العُمُرُ

يُسالم الضَّبَعُ
بذي مرّةٍ

فالتزّملة: أنثى الثعالب، وهي مسالمة للدّوبل، وأمّا قوله:

وعسكر يتبعه النّسر

فإن النّسور تتبع العساكر، وتتبع الرّفاق ذوات الإبل، وقد
تفعل ذلك العقبان، وتفعله الرّخم، وقد قال النّابغة:

كتائب من
غسان غير
أشائب

وثقت بالنصر
إذ قيل له قد
عدت

أولئك قوم
بأسهم غير
كاذب

بنو عمّه دنيا
وعمر بن
عامر

عصائب طير
تهتدى بعصائب

إذا ما غزوا
بالجيش حلق
فوقهم

إذا ما التقى
الجمعانِ أوّل
غالب

جوانحُ قد
أيقنَ أن
قبيله

جلوسَ الشيوخِ
في مسوكِ
الأرانبِ

تراهنَّ خلفَ
القومِ خزرًا
عيونها

والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخِ في ثياب المرانبِ.
وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من
الطمع في القتلى، وفي الرّذايا والحسرى، أو في
الجهيـض وما يُجرح.
وقد قال النّابغة:

لَهْنٌ رذَايا
بالطَّريقِ
ودائِعُ

سَمَاماً تُباري
الرَّيْحَ حُصوماً
عُيُونُها

وقال الشاعر:

يشقّ سماحيقَ
السّلا عن
جَنيها

أخو قفّرةٍ بادي
السّغابةِ أطحلُ

وقال حميد بن ثور في صفة ذئب:

إذا ما بدا
يوماً رأيتَ
غيايةً

من الطير ينظرن
الذي هو صانعُ

لأنّه لا محالة حين يسعى وهو جاع، سوف يقع على
سبع أضعف منه أو على بهيمةٍ ليس دونها مانع.
وقد أكثر الشعراءُ في هذا الباب حتّى أطنب بعضُ
المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسو السيوف
نفوس الناكثين
به

ويجعلُ الهامَ
تيجان القنا
الدُّبُل

فهنَّ يتبعنه في

قد عوّد الطيرَ

عاداتٍ وثِقنَ بها

كلَّ مُرْتَحِلٍ

ولا نعلم أحداً منهم أسرفَ في هذا القول وقال قولاً
يُرغبُ عنه إلا النابغة، فإنَّه قال:

جوانحُ قد
أيقنَّ أن
قبيلهُ

إذا ما التقى
الجمعانِ أوَّلُ
غالبِ

وهذا لا نُثبتهُ. وليس عند الطَّير والسَّبَّاع في اتِّباع
الجموع إلا ما يسقط من ركبهم ودوابِّهم وتوقع القتل، إذ
كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرَّةً أو مراراً، فأما أن
تُقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله
أحدٌ.

نسر لقمان وقد أكثر الشعراءُ في ذكر النسور، وأكثر ذلك
قالوا في بُدٍ.
قال النابغة:

أضحتُ خلاءً
وأمسى أهلها

أخنى عليَّها
الذي أخنى

احتملوا

على لبيد

فضربه مثلاً في طول السّلامة، وقال لبيد:

لما رأى صبح

من بين قائم

سواد خليله

سيفه والمحمل

وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تأثم، ولا يجوز أن
يؤثم الله تعالى إلاّ المسيئين، فقال بشرٌ لبكر: بأيّ شيء
تستدلُّ على أنّ المسيء يعلم أنه مسيء؟ قال: بخجله،
واعذاره بتوبته، قال: فإنّ العقرب متى لسعت فرّت من
خوف القتل، وهذا يدلُّ على أنّها جانية، وأنت تزعم أنّ
كلّ شيءٍ عاصٍ كافرٌ، فينبغي للعقرب أن تكون كافرة، إذا
لم يكن لها عذرٌ في الإساءة.
البيبر والنمر وأما قوله:

والبيبر فيه عجبٌ

إذا تلاقى الليث

عاجبٌ

والنمرُ

لأنَّ البير مسالمٌ للأسد، والنَّمر يطالبه، فإذا التقيا أعان
البير الأسد.

الخفاش والطائر الذي ليس له وكر وأما قوله:

وطائرٌ ليس له
وكرُ

وطائرٌ أشرفُ ذو
جُرْدَة

فإنَّ الأشرفَ من الطَّير الخُفاش، لأنَّ لآذانها حجماً
ظاهراً، وهو متجرّدٌ من الرِّغب والرِّيش، وهو يلد.
والطَّائر الذي ليس له وكرٌ، هو طائرٌ يخبر عنه
البحريُّون أنَّه لا يسقط إلا ريثما يجعلُ لبيضه أدحياً من
تراب، ويغطيُّ عليه، ويطير في الهواء أبداً حتَّى يموت،
وإن لقي ذكرٌ أنثى تسافدا في الهواء، وبيضه يتفقص من
نفسه عند انتهاء مُدَّته، فإذا أطاق فرخه الطَّيران كان
كأبويه في عاداتهما.

الثعالب والنسور والضباع وأما قوله:

وعسكراً يتبعه
النسرُ

وثرملٌ تأوي
إلى دُوبلٍ

أبرمها في
الرحم العُمُرُ

يُسالم الضَّبَعُ
بذي مرّةٍ

فالتزّملة: أنثى الثعالب، وهي مسالمة للدّوبل، وأمّا قوله:

وعسكر يتبعه النّسر

فإن النّسور تتبع العساكر، وتتبع الرّفاق ذوات الإبل، وقد
تفعل ذلك العقبان، وتفعله الرّخم، وقد قال النّابغة:

كتائب من
غسان غير
أشائب

وثقتّ بالنصر
إذ قيل له قد
غدت

أولئك قوم
بأسهم غير
كاذب

بنو عمّه دنيا
وعمر بن
عامر

عصائب طير
تهتدى بعصائب

إذا ما غزوا
بالجيش حلق
فوقهم

إذا ما التقى
الجمعانِ أوّل
غالب

جوانحُ قد
أيقنَ أن
قبيله

جلوسَ الشيوخِ
في مسوكِ
الأرانبِ

تراهنَّ خلفَ
القومِ خزرًا
عيونها

والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المرانبِ.
وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من
الطمع في القتلى، وفي الرّذايا والحسرى، أو في
الجهيـض وما يُجرح.
وقد قال النّابغة:

لَهْنٌ رذَايا
بالطَّرِيقِ
وَدَائِعُ

سَمَاماً تُبَارِي
الرَّيْحَ حُصوماً
عُيُونُهَا

وقال الشاعر:

يشقّ سماحيقَ
السّلا عن
جَنيها

أخو قفّرةٍ بادي
السّغابةِ أطحلُ

وقال حميد بن ثور في صفة ذئب:

إذا ما بدا
يوماً رأيتَ
غيايةً

من الطير ينظرن
الذي هو صانعُ

لأنّه لا محالة حين يسعى وهو جاع، سوف يقع على
سبع أضعف منه أو على بهيمةٍ ليس دونها مانع.
وقد أكثر الشعراءُ في هذا الباب حتّى أطنب بعضُ
المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسو السيوف
نفوس الناكثين
به

ويجعلُ الهامَ
تيجان القنا
الدُّبُل

قد عوّد الطيرَ

فهنَّ يتبعنه في

عاداتٍ وثِقَنَ بها

كلَّ مُرْتَحِلٍ

ولا نعلم أحداً منهم أسرفَ في هذا القول وقال قولاً
يُرغَبُ عنه إلا النابغة، فإنَّه قال:

جوانحُ قد
أيقنَّ أن
قبيلهُ

إذا ما التقى
الجمعانِ أوَّلُ
غالبِ

وهذا لا نُثبته. وليس عند الطَّير والسَّبَّاع في اتِّباع
الجموع إلا ما يسقط من ركابهم ودوابِّهم وتوقع القتل، إذ
كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرَّةً أو مراراً، فأما أن
تُقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقله
أحدٌ.

نسر لقمان وقد أكثر الشعراءُ في ذكر النسور، وأكثر ذلك
قالوا في بُدٍ.
قال النابغة:

أضحتُ خلاءً
وأمسى أهلها

أخنى عليَّها
الذي أخنى

احتملوا

على لبّد

فضربه مثلاً في طول السّلامة، وقال لبّيد:

من بين قائم سيفه والمحمل

لما رأى

فأصاب صباحاً قائماً لم يعقل

صبحنّ

صبحاً يوم حقّ حذاره

بين التراب وبين حنو الكلكل

فالتفتّ

منقصفاً وأضحى نجمةً

ريبُ الزمانِ وكان غير مثقلٍ

ولقد

جرى لبّداً فأدرك جريه

رفعَ القوادمَ كالفقير الأعزل

لما رأى

لبد النسور تطايرت

ولقد رأى لقمانُ أن لم يأتل

من تحته

لقمانُ يرجو نفعه

وإن أحسنت الأوائل في ذلك فقد أحسن بعض المحدثين

وهو الخزرجي في ذكر النّسر وضرب المثل به وبلبد

وصحّة بدنِ الغراب، حيثَ ذكَرَ طوْلَ عمرِ مُعَاذِ بنِ مُسْلِمِ
بنِ رَجَاءِ، مولى القَعْقَاعِ بنِ شُورِ وكان من المَعْمَرينِ،
طعن في السن مائةً وعشرين سنةً، وهو قوله:

قد ضجَّ من
طوْلِ عمره
الأبدُ

إن معاذَ بنَ
مسلمٍ رجلٌ

دهرٌ وأثوابُ
عمرٍ جدد

قد شابَ رأسُ
الزمانِ واختضب
ال

تلبسُ ثوبَ
الحياةِ يا
لبد

يا نسرَ لقمانَ كم
تعيشُ وكم

وأنتَ فيه
كأنك الوند

قد أصبحتَ دارُ
أدمٍ خربتُ

كيفَ يكونُ
الصداعُ

تسألُ عربانها

إذا حجلت

والرمد

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

وما تعلق بالسحاب من الغيم يشبه بالنعام، وما تراكب
عليه يشبه بالنسور، قال الشاعر:

خليلى لا

تستلما وادعوا

الذي

له كلُّ أمر أن

يصوبَ ربيعُ

حياً لبلادٍ أنفذ

المحلُّ عودها

وجبرُّ لعظمٍ في

شظاه صدوغُ

بمنتصرِ غرِّ

النشاصِ كأنها

جبالٌ عليهنَّ

النسورُ وقوغُ

وعلَّ النوى

بالظاعنينَ

تريعُ

عسى أن يحلَّ

جزعاً وإنها

وشبّه العُجَيْر السُّلُوِيّ شُيُوخاً عَلَي بَابِ بَعْضِ الْمُلُوكِ
بِالنُّسُورِ، فَقَالَ:

فَمِنْهُمْ إِسَادِي
عَلَى ضَوْءِ
كُوكَبِ
لَهُ مِنْ عَمَانِيّ
النُّجُومِ نَظِيرُ

وَمِنْهُمْ قَرَعِي
كُلَّ بَابٍ كَأَنَّمَا
بِهِ الْقَوْمُ
يَرْجُونَ الْأَدِينُ
نُسُورُ

إِلَى فُطْنِ
يَسْتَخْرِجُ الْقَلْبَ
طَرَفُهُ
لَهُ فَوْقَ أَعْوَادِ
السَّرِيرِ زُنَيْرُ

وَذَكَرَتْ امْرَأَةٌ مِنْ هُدَيْلٍ قَتِيلًا فَقَالَتْ:

تَمْشِي النُّسُورُ
إِلَيْهِ وَهِيَ لِأَهْيَةِ
مَشْيِ الْعَذَارَى
عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيْبُ

تَقُولُ: هِيَ أَمْنَةٌ أَنْ تُدْعَرَ.

وَمَدَحَ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ زُرَّارَةَ الْكَلَابِيَّ فَقَالَ:

بجَوْ شَخَابٍ
ماضِرٌّ وَصَبُوحُ

وعند الكلابيِّ
الذي حلَّ بيُّته

نُسورٌ إلى جَنبِ
الخوانِ جُنُوحُ

ومكسورةٌ
حَمْرٌ كَأَنَّ
مُتونها

مكسورة: يعني وسائد مثنوية، وقال ابن ميادة:

شيخاً أزبَّ
كأنه نَسْرُ

وَرَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ
الشَّبَابِ وَعَصْرِهِ

وقال طرفة:

مران إذ منع
النسور

فلاَ مَنَعَنَّ مَنَابِتَ
الضِّ

وفي كتاب كليلة ودمنة: وكُنْ كَالنَّسْرِ حَوْلَهُ الْجِيفُ، ولا
تكنْ كالجيفِ حولها النسور، فاعترض على ترجمة ابن
المقفع بعض المتكلفين من فتيان الكتاب فقال: إنما كان
ينبغي أن يقول: كُنْ كَالضَّرْسِ حُفًّا بِالتُّحْفِ، ولا تكنْ

كالهبرة تطيف بها الأكلة أطنه أراد الضروس فقال
الضرس، وهذا من الاعتراض عجب.
ويوصف النسر بشدة الارتفاع، حتى الحقوه بالأنوق،
وهي الرخمة.
وقال عدي بن زيد:

يَلْعَبُ النَّسْرُ
دُونَهَا وَالْأَنُوقُ

فَوْقَ عَلِيَاءَ لَا
يُنَالُ ذُرَاهَا

وَأَنشَدُوا فِي ذَلِكَ:

الطَّيْشِ
وَالعُورَاءِ
وَالهَذْرِ

أهل الدّناءة في
مجالسهم

فَهُمْ مَعَ العَيُّوقِ
وَالنَّسْرِ

يَذْنُونَ مَا سَأَلُوا
وَإِنْ سَأَلُوا

وقال زيد بن بشر التغلبي، في قتل عمير بن الحباب:

بِخَفِيرٍ وَلَا بَغِيرِ

لَا يَجُوزَنَّ

أَرْضَنَا مُضَرِّي

خَفِيرِ

طَحَنَتْ تَغْلِبُ

وَأَلَحَّتْ عَلَيَّ

هُوَازِنَ طَحْنًا

بَنِي مَنصُورِ

يَوْمَ تَرُدِي

حَجَلَانَ النُّسُورِ

الْكَمَاءُ حَوْلَ

حَوْلَ جَزُورِ

عَمِيرِ

وقال جميل:

يُدُّ وَمَمْرُ الْعَقْدَتَيْنِ وَثِيقُ

وما صائت

له من

وَنَصْلُ كَنْصَلِ الزَّاعِبِيِّ رَفِيقُ

خَوَافِي النَّسْرِ حَمَّ نِظَائِرُ

على نبيعة

فَمَتْنٌ وَأَمَّا عَوْدُهَا فَعَتِيقُ

زُورَاءٌ أَمَّا خَطَامُهَا

بأوشك قتلاً

نَوَافِدٌ لَمْ تَظْهَرْ لِهِنَّ خُرُوقُ

مِنْكَ يَوْمَ رَمَيْتَنِي

تكشفُ غماها وأنتِ صديقُ
حرباً يا بئيينَ كحربنا

مسالمة النسر للضبع وأما قوله:

يُسالم الضَّبْعُ
بذي مرّةٍ
رَمها في الرَّحِمِ
العُمُرُ

لأنَّ النَّسْرَ طَيْرٌ ثَقِيلٌ، عَظِيمٌ شَرِيحٌ رَغِيبٌ نَهْمٌ، فَإِذَا سَقَطَ
عَلَى الْجِيْفَةِ وَتَمَلَأَ لَمْ يَسْتَطِعِ الطَّيْرانُ حَتَّى يَثْبُ وَيَثْبَاتِ،
ثُمَّ يَدُورُ حَوْلَ مَسْقَطِهِ مَراراً، وَيَسْقُطُ فِي ذَلِكَ، فَلَا يَزَالُ
يَرْفَعُ نَفْسَهُ طَبَقَةً طَبَقَةً فِي الْهَوَاءِ حَتَّى يُدْخَلَ تَحْتَهُ
الرَّيْحُ، فَكُلُّ مَنْ صَادَفَهُ وَقَدْ بَطِنَ وَتَمَلَأَ، ضَرَبَهُ إِنْ شَاءَ
بَعْصاً، وَإِنْ شَاءَ بِحَجْرٍ، حَتَّى رُبَّمَا اصْطَادَهُ الضَّعِيفُ مِنَ
النَّاسِ.

وهو مع ذلك يشارك الضبع في فريسة الضبع، ولا يثبُ
عليه، مع معرفته بعجزه عن الطيران، وزعم أن ثقته
بطول العمر هو الذي جرّاه على ذلك.

ستطراد لغوي

ويقال: هوت العُقاب تهوي هُويّاً: إذا انقضت على صيدٍ أو غيره ما لم ترغّه، فإذا أراغته قيل أهوت له إهواءً، والإهواء أيضاً التناول باليد، والإراغة أن يذهب بالصيد هكذا وهكذا.

ويقال دوّم الطائر في جوّ السّماء، وهو يدوّم تدويماً: إذا دار في السماء ولا يحرك جناحيه.
ويقال نسرته بالمنسّر، وقال العجاج:

كعابِرِ الرؤوس
منها أو نسرَ

شاكِي الكلابِ
إذا أهوى ظفراً

والنسر ذو منسر، وليس بذئ مخلب، وإنما له أظفارٌ كأظفار الدجاج.
وليس له سلاحٌ، إنّما يقوى بقوّة بدنه وعظمه، وهو سبعٌ لئيمٌ عديم السّلاح، وليس من أحرار الطير وعِتاقها.

ولوع عتاق الطير بالحمرة

ويقال إنّ عتاق الطير تنقضُّ على عُمود الرّحل وعلى الطّنفسة والنمرق فتحسبه لحرته لحماءً، وهم مع ذلك

يصفونها بحدّة البصر ولا أدري كيف ذلك.
وقال غيلان بن سلمة:

في الآل يخفيها
ويرفعها
رَيْعٌ كَأَنَّ مَتُونَهُ
السَّحْلُ

عَقْلًا وَرَقْمًا ثَمَّ
أردفه
كِلَلٌ عَلَى
ألوانها الحَمْلُ

كدم الرُّعافِ
على مآزرها
وكأَنَّ
ضوامراً إجْلُ

وهذا الشعر عندنا للمسَيِّبِ بنِ عَلسٍ وقال علقمة بن
عَبْدَةَ:

رَدَّ الإِمَاءُ جَمَالَ
الْحَيِّ فَاحْتَمَلُوا
وكلَّهَا
بِالتَّزْيِيدِيَاتِ
مَعْكُومٌ

عَقْلًا وَرَقْمًا يَظَلُّ
الطَّيْرُ يَتَّبِعُهُ
كأنه من دَمِ
الأجوافِ

مَذْمُومٌ

شعر في العقاب وقال الهذلي:

تحت الرِّداء
بصيرةً
بالمشرفِ

ولقد عَدَوْتُ
وصاحبي
وحشيَّةً

سوداءَ، روثة
أنفها كالمِخْصَفِ

حتَّى أتيتُ إلى
فراشِ عَزِيْزَةٍ

يعني عقاباً، وقوله: بصيرةً بالمشرف يريد الريح من
أشرف لها أصابته.
وقال الآخر في شبيهه بهذا:

إنَّ الرِّمَّاحِ
بصيرةً بالحاسِرِ

فإذا أتتكم هذه
فتلبسوا

وقال آخر:

مِنَ الْعِقَابِ

كأنِّي إِذْ عَدَوْتُ

ضَمَّنتُ بَزِي

جَرِيمة نَاهِضٍ
فِي رَأْسِ نَيْقٍ

وَقَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ:

تَبَيْتُ كَعَقْبَانَ
الشُّرَيْفِ
رَجَالِهِ

أَيُّ أَهْلُوا، وَقَالَ دُرَيْدٌ:

تَعَلَّتْ بِالشُّطَاءِ
إِدْبَانَ
صَاحِبِي

كَأَنِّي وَبَزِي
فَوْقَ فَتْحَاءِ
لِقْوَةٍ

خَائِنَةَ طَلُوبَا

تَرَى لِعِظَامِ مَا
جَمَعْتَ صَلِيْبَا

إِذَا مَا نَوَّوَا
إِحْدَاثَ أَمْرِ
مُعْطَبِ

وَكُلُّ أَمْرِي إِقْدَا
بَانَ إِدْبَانَ
صَاحِبِهِ

لَهَا نَاهِضٌ فِي
وَكْرَهَا لَا تَجَانِبُهُ

فباتت عليه
ينفضُ الطلَّ
ريشها

تراقبُ ليلاً ما
تغورُ كواكبه

فلما تجلى
الليلُ عنها
وأسفرت

تنفضُ حسرى
عن أحصِ
مناكبه

رأت ثعلباً من
حرةٍ فهوتُ
لهُ

إلى حرةٍ والموتُ
عجلانُ كاربهِ

فخرَّ قتيلاً
واستمر
بسحره

وبالقلب يدمى
أنفه وترائبهِ

جفاء العقاب زعم صاحبُ المنطق أنه ليس شيءٌ في
الطَّير أجفى لفراخه من العقاب وأنه لا بدّ من أن يُخرجَ
واحدًا، وربما طردَهُنَّ جميعاً حتَّى يجيء طائرٌ يسمَّى

كاسر العظام فيتكفل به.
ودريدُ بن الصَّمّة يقول:

كأني وبزّي
فوق فتحاء
لقوةٍ
لها ناهضٌ في
وكرها لا تجانبه

ما يعتري العقاب عند الشبع وقد يعتري العُقاب، عند
شبعها من لحم الصّيد، شبيهةً بالذي ذكرنا في النسر،
وأُشدُّ أبو صالحٍ مسعود بن قنْد، لبعض القيسيّين:

قرى الطير بعد
اليأس زيْدُ
فأصبحتُ
بوخفاء قفراً ما
يدبُّ عُقابُها

وما يتخطى
الفحلَ زيْدُ
بسيفه
ولا العرْمسَ
الوجناء قد شقَّ
نابها

وإن قيل مهلاً
يقطع أقران
الجبال

إنه شديّة

جذابها

خبر أنه يعتري العقاب من الثقل عند الطيران، من
البطنة، ما يعتري النسر.
شعر في العقاب وقال امرؤ القيس - إن كان قاله :-

كانها حين

فتخاء لآح لها

فاض الماء

بالقفرة الذيب

واحتملت

فأبصرت

ودون موقعها

شخصه من

منه شناخيب

فوق مرقبة

فأقبلت نحوه

يحثها من هوى

في الجو

اللوح تصويب

كاسرة

صبت عليه ولم

إن الشقاء على

تنصب من

الأشقين

أمم

كالدلو بتت
عراها وهي
مثقلة

لا كالتى في
هواء الجو
طالبة

كالبرق والريح
مرآتهما
عجب

فأدرسته فنالته
مخالبا

يلوذ بالصخر
منها بعد ما
فترت

مصبوب

إد خانها وذم
منها وتكريب

ولا كهذا الذي
في الأرض
مطلوب

ما في اجتهاد
على الإصرار
تغيب

فانسل من تحتها
والدف مثقوب

منها ومنه على
الصخر الشايب

ثم استغاثت
بمئن الأرض
تعفره

وباللسان
وبالشدقين
تتريب

ما أخطأته
المنايا قيس
أنملة

ولا تحرز إلا
وهو مكتوب

يظل منجراً
منها يراقبها

ويرقب الليل إن
الليل محبوب

وقال زهير:

تنبأ أفلاذها
في كل منزلة

تنخ أعينها
العقبان والرحم

تنخ: أي تنزع وتستخرج، والعرب تسمي المنقاش
المنتاخ.

ويقال: نقت الرحم تنق نقيقا، وأنشد أبو الجراح:

حديثاً من سماع

كان نقيقهن

الدَّلَّ وعر

نقيق رُخْم

والنقيق مشترك، يقال: نقّ الضفدع ينقُّ نقيقاً.
ويقال: أعزُّ من الأبلق العفوق، و: أبعُد من بيض الأنوق.
فأما بيض الأنوق فربما رئي، وذلك أنَّ الرِّخْم تختارُ
أعاليَ الجبال، وصدُوعَ الصَّخْر، والمواضعَ الوحشيَّة،
وأما الأبلق فلا يكون عقوقاً، وأما العفوق البلقاء فهو
مَثَلٌ، وقال:

ذكرناكِ أن مرَّتْ
أمامَ ركابنا

من الأدمِ
مخماص
العشيِّ سلوبُ

تدلَّتْ عليها
تنفُضُ الرِّيش
تحتها

برائثها
وراحهنَّ
حَضيبُ

خداريَّة صقعاء
دُون فراخها

من الطودِ فأوُّ
بينها ولهوبُ

إذا القانص
المحروم أب ولم
يُصب

فمطعمه جُح
الظلام نصيب

فأصبحت بعد
الطير ما دون
فارة

كما قام فوق
المنصتين
خطيب

وقال بشر بن أبي خازم:

فما صدغ بخية
أو بشرق

على زلق زمالق
ذي كهاف

تزل اللقوة
الشغواء عنها

مخالبها كأطراف
الأسافي

وقال بشر أيضاً:

مع النسرفتحاء الجناح قبوض

فإن تجعل النعماء منك تمامة ونعماك نعمى لا تزال تفيض

وأيدي الندى في الصالحين قروض

تدارك لحمي بـ

تكن لك في قومي

وعلى شبيهِ بهذا البيت الآخر، قال الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ
لَا يَعْدَمُ
جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ
بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وقال عقيل بن العرنيس:

حَبِيبٌ لِقِرطاسٍ
يُوَدِّي رِسَالَةَ
وَكُنْتُ كَفَرخِ
النَّسْرِ مُهَدِّ
وَكُرْهَ
فِيالِكَ نَفْساً كَيْفَ
حَانَ دُهولها
بِمَلْتَفَةِ الْأَفنانِ
حَيْلٌ مَقْبِلُها

التمساح والسماك وأما قوله:

وَتِمَسَحُ خَلَّه
طَائِرٌ
وَسابِحٌ لَيْسَ لَهُ
سَحْرٌ

فالتمساح مختلف الأسنان، فينشب فيه اللحم، فيغمه
فيئتن عليه، وقد جعل في طبعه أن يخرج عند ذلك إلى

الشط، ويشحا فاه لطائر يعرفه بعينه، يقال إنه طائرٌ صغير أرقط مليح، فيجىء من بين الطير حتى يسقط بين لحبيه ثم ينقره بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم، فيكون غذاءً له ومعاشاً، ويكون تخفيفاً عن التماسح وترفيهاً، فالطائر الصغير يأتي ما هنالك يلتمس ذلك الطعم، والتمساح يتعرّض له، لمعرفته بذلك منه. وأما قوله: وسابح ليس له سحر، فإن السمك كله لا رئة له، قالوا: وإنما تكون الرئة لمن يتنفس، هذا، وهم يرون منخري السمك، والخرق النافذ في مكان الأنف منه، ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء أن ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين، ولكنه تنفس جميع البدن. العث والحفّات وأما قوله:

وخرنقٌ
يسفده وبرٌ

والعث والحفّات
ذو نفخةٍ

فإنّ الحفّات دابة تشبه الحية وليست بحية، وله وعيدٌ شديد، ونفخ وتوثب، ومن لم يعرفه كان له أشدّ هيبه

منه للأفاعي والثعابين، وهو لا يضرُّ بقليل ولا كثير،
والحيات تقتله، وأنشد:

أيفايشون وقد
رأوا حفّاتهم
قدّ عضّه فقضى
عليه الأسود

والعثّ: دويبة تقرض كلّ شيء، وليس له خطرٌ ولا قوّة
ولا بدن.
قال الرّاجز:

يحثني وردان
أيّ حتّ
وما يحثّ من
كبيرٍ عتّ

إهابه مثل
إهاب العتّ

وأنشد:

وعتّ قدّ وكتت
إليه أهلي
فطاح الأهل
واجتبح الحريم

ولا صَكَ إِذَا ذَكَرَ
القَضِيمَ

وما لاهى به
طرفاً فيوحى

وأنشد آخر:

فقد يقرض العثَّ
مُلسَ الأديمِ

فإن تَشْتَمُونَا
على لُؤْمِكُمْ

وقالوا في الحُقَاتِ، هجا الكروبي أخاه فقال:

وحُقَاتِ إِذَا
اجتمع الفريقُ

حُبَارِي فِي
اللقاء إِذَا التَقِينَا

وقال أعرابي:

وينفخُ نَفْحَ
الكيرِ وهو
لَنِيمٌ

ولستُ بِحُقَاتِ
يُطَاوِلُ شَخْصَهُ

وقع بين رجلٍ من العرب ورجلٍ من الموالي كلامٌ، فأرَبِي
عليه المولى، وكان المولى فيه مَشَابَهُ من العرب
والأعراب، فلم يشكَّ ذلك العربيُّ أن ذلك المولى عربيٌّ،

وأَنَّهُ وَسَطَ عَشِيرَتِهِ، فَاخْزَلَ عَنْهُ فَلَمْ يَكَلِّمْهُ، فَلَمَّا فَارَقَهُ
وَصَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ عَلم أَنَّهُ مَوْلَى، فَبَكَرَ عَلَيْهِ عُذُوءَةً، فَلَمَّا
رَأَى خِذْلَانَ جَلِيسَانِهِ لَهُ ذَلٌّ وَاعْتَذَرَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْعَرَبِيُّ
فِي كَلِمَةٍ لَهُ:

وَلَا نَفْضَ
لِلْأَشْخَاصِ حَتَّى
تَكْتَشِفَا

وَلَمْ أَدْرِ مَا
الْحَفَاثُ حَتَّى
بَلَوْتُهُ

وَقَدْ أَدْرَكْتُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَكَانَتْ فِي الْبَحْرَيْنِ، عِنْدَ مَسْحَرِ
بَنِ السَّكَنِ عِنْدَنَا بِالْبَصْرَةِ، فَهُوَ قَوْلُهُ: وَالْعَثُّ وَالْحَفَاثُ ذُو
نَفْخَةٍ لِأَنَّ الْحَفَاثَ لَهُ نَفْخٌ وَتَوَثُّبٌ، وَهُوَ ضَخْمٌ شَنِيعٌ
الْمَنْظَرُ، فَهُوَ يَهُولُ مِنْ لَا يَعْرِفُهُ. وَكَانَ أَبُو دِيْجُونَةَ مَوْلَى
سَلِيمَانَ، يَدَّعِي غَايَةَ الْإِقْدَامِ وَالشَّجَاعَةَ وَالصَّرَامَةَ، فَرَأَى
حَفَاثًا وَهُوَ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَوَجَدَهُ وَقَدْ قَتَلَهُ أَعْرَابِيٌّ،
وَرَأَهُ أَبُو دِيْجُونَةَ كَيْفَ يَنْفِخُ وَيَتَوَعَّدُ، فَلَمْ يَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ
أَخْبَتُ مِنَ الْأَفْعَى وَمِنَ الثَّعْبَانِ، وَأَنَّهُ إِذَا أَتَى بِهِ أَبَاهُ
وَادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ سَيَقْضِي لَهُ بِقَتْلِ الْأَسَدِ وَالْبَيْرِ وَالنَّمْرِ فِي
نِقَابٍ، فَحَمَلَهُ وَجَاءَ بِهِ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَقَالَ:
مَا أَنَا الْيَوْمَ إِلَّا ذَيْخٌ وَمَا يَنْبَغِي لِمَنْ أَحْسَنَ بِنَفْسِهِ مِثْلَ

الذي أحس أن يُرمى في المهالك والمعائب، وينبغي أن
يستبقها لجهادٍ أو دفعٍ عن حُرمةٍ وحريمٍ يذُبُّ عنه وذلك
أني هجمت على هذه الحيّة، وقد منعت الرِّفاق من
السُّلوك، وهربت منها الإبل، وأمعن في الهرب عنه كلُّ
جمالٍ ضخم الجزارة، فهزنتني إليه طبيعة الأبطال،
فراوغتها حتى وهب الله الظفر، وكان من البلاء أنها
كانت بأرضٍ ملساء ما فيها حصاة، وبصرتُ بفهر على
قاب غلوة، فسعيت إليه - وأنا أسوارٌ كما تعلمون - فو
الله ما أخطأتُ حاقَّ لهزمته حتى رزق الله عليه الظفر،
وأبوه والقومُ ينظرون في وجهه، وهم أعلم الناس
بضعف الحقائق، وأنه لم يؤذَ أحداً قط، فقال له أبوه: ارم
بهذا من يدك، لعنك الله ولعنه معك، ولعن تصديقي لك ما
كنت تدّعيه من الشجاعة والجرأة فكبروا عليه وسمّوه
قاتل الأسد.

ومما هجوا به حين يشبهون الرّجل بالعث، في لومه
وصغر قدره قول مُخارق الطائي، حيث يقول:
??? نقض صفحـة 349 من الكتاب الوبر والخرنق
وأما قوله:

وخرنق يسفده وبر

فإنَّ الأعراب يزعمون أنَّ الوبر يشتهي سِفاد العِرشَة -
وهي أنثى الأرانب - ولكنّه يعجز عنها، فإذا قدر على
ولدها وثبَّ عليه، والأنثى تسمى العِرشَة، والدَّكر هو
الخُزر، والخرنق ولدهما، قال الشاعر:

في جَحْجَحان
إلى أسافلِ
نقتق

لمحرَّبِ دَكرِ
الحديدِ مُعَرِّقِ

مُتَشَبِّثينِ
بزاحفِ
متعلِّقِ

خرعاءِ
مَكسِرُها كعودِ

قَبَحِ الإلهِ
عِصَابَة
نادمُهم

أخذوا العِتاقِ
وعرَّضوا
أحسابهم

ولقد قرعتِ
صَفاتكم
فوجدتكم

ولقد عَمَزتُ
قناتكم

فوجدتها

محرَقِ

ولقد قَبِضْتُ

قَبْضَ الْعُقَابِ

بِقَلْبِ سَلْمَةَ

عَلَى فُؤَادِ

قَبِضَةً

الْخَرْنِقِ

ثُمَّ اقْتَحَمْتُ

فِي وَكْرِ مَرْتَفِعِ

لِلْحَمَةِ فَأَكَلْتَهُ

الْجَنَابِ مَعْلَقِ

قالوا: إنه قالها أبو حبيب بعد أن قال جُشَمُ ما قال، وقد
قَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامَهُ.

ما يشبه الخرز ووصف أعرابيُّ خُلِقَ أعرابيُّ فقال: كَأَنَّ
فِي عَضَّةِ خُزْرَاءَ، وَكَأَنَّ فِي عَضَّةِ جُرْدَاءَ.
وأنشدوا لماتحٍ ووصفَ ماتحاً، ورآه يستقي على بئرِهِ،
فقال:

أَعَدَدْتُ لِلْوَرْدِ إِذْ

دَلَوُا جَرُوراً

الْوَرْدُ حَفْزُ

وَجَلالاً خُزْخُزُ

وَمَاتِحاً لَا يَنْثِي

كَأَنَّ تَحْتَ جُدِهِ

إذا احتجَزَ

إذا احتفَزَ

في كلِّ عضوٍ
جُرْدِينِ أو خُزْرُ

وسنقول في الأرنب بما يحضرنا إن شاء الله تعالى.
القول في الأرنب قال الشاعر:

زَعَمَتْ عُدَانَةٌ أَنْ
فِيهَا سَيِّدًا

ضخماً يوازنه
جَنَاحُ الْجَنْدَبِ

يُرويه ما يُروِي
الدُّبَابَ فَيَنْتَشِي

سُكْرًا وَيُشْبِعُهُ
كِرَاعُ الأَرْنَبِ

وإنما ذَكَرَ كِرَاعَ الأَرْنَبِ من بين جميع الكراعات لأنَّ
الأرنب هي الموصوفة بقصر الذراع وقصر اليد، ولم يُرد
الكراع فقط، وإنما أراد اليد بأسرها، وإنما جعل ذلك لها
بسبب نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.
والفرس يُوصف بقصر الذراع فقط.

التوبيير

والتَّوْبِيرُ لِكُلِّ مَحْتَالٍ مِنْ صِغَارِ السَّبَاعِ، إِذَا طَمِعَ فِي
الصَّيْدِ أَوْ خَافَ أَنْ يُصَادَ، كَالثُّغْلَبِ، وَعِنَاقُ الْأَرْضِ هِيَ
الَّتِي يُقَالُ لَهَا التُّفَّةُ، وَهِيَ دَابَّةٌ نَحْوِ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ، تَصِيدُ
صَيْدًا حَسَنًا، وَرَبَّمَا وَاثَبَ الْإِنْسَانُ فَعَقَرَهُ، وَهُوَ أَحْسَنُ
صَيْدًا مِنَ الْكَلْبِ.

وَفِي أَمْثَالِهِمْ: لَأَنْتَ أَغْنَى مِنَ التُّفَّةِ عَنِ الرَّفَّةِ، وَهُوَ التَّبْنُ
الَّذِي تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَالْمَاشِيَةُ مِنْ جَمِيعِ الْبِهَائِمِ، وَالتُّفَّةُ
سَبْعٌ خَالِصٌ لَا يَأْكُلُ إِلَّا اللَّحْمَ.

والتَّوْبِيرُ: أَنْ تَضُمَّ بَرَائِثَهَا فَلَا تَطَأَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِبَطْنِ
الْكَفِّ، حَتَّى لَا يُرَى لَهَا أَثَرُ بَرَائِثِ وَأَصَابِعِ، وَبَعْضُهَا يَطَأُ
عَلَى زَمْعَاتِهِ، وَبَعْضُهَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي السَّهْلِ،
فَإِذَا أَخَذَتْ فِي الْحُزُونَةِ وَالصَّلَابَةِ، وَارْتَفَعَتْ عَنِ السَّهْلِ
حَيْثُ لَا تُرَى لَهَا آثَارٌ - قَالُوا: ظَلَفَتْ الْأَثَرَ تَظْلِفُهُ ظَلْفًا،
وَقَالَ النَّمِيرِيُّ: أَظْلَفَتْ الْأَثَرَ إِظْلَافًا.

بَعْضُ مَا قِيلَ فِي الْأَرْنَبِ وَعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ، عَنْ
قَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ: مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَنْفُجَةِ أَرْنَبٍ.
وَيُقَالُ حَذَفْتَهُ بِالْعَصَا كَمَا تُحْدَفُ الْأَرْنَبُ.

وَقَالَ أَبُو الْوَجِيهِ الْعُكْلِيُّ: لَوْ كَانَتْ وَاللَّهِ الضَّبَّةُ دَجَاجَةً
كَانَتْ الْأَرْنَبُ دُرَّاجَةً، ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْأَرْنَابَ وَالذَّرَّاجَ لَا

تستحيل لحومها ولا تنقلبُ شحوماً، وإنَّما سَمِنها بكثرة
اللَّحْم، وذهب إلى ما يقول المعجبون منهم بلحم الضَّبِّ؛
فإنهم يزعمون أنَّ الطعمين متشابهان، وأنشد:

لما تَرَكَتَ الضَّبَّ
يَسْعَى بِالوَادِّ

وَأنتَ لَوْ ذُقْتَ
الْكشَى بِالْأَكْبَادِ

قال: والضَّبُّ يعرض لبيض الظلِّيم؛ ولذلك قال الحجاج
لأهل الشام: إنَّما أنا لكم كالظلِّيم الرَّامِح عن فراخه، ينفي
عنها المَدْر، ويباعدُ عنها الحَجْر، ويكُنُّها من المطر،
ويحميها من الضَّبَّاب، ويحرسُها من الذناب، يا أهلَ
الشَّام أنتم الجُنَّة والرِّداء، وأنتم العُدَّة والحذاء.

الكتاب الثامن عشر

ما يشبه بالأرنب

طول عمر الأغضف والأرنب

لبن الأرنب

قصر يدي الأرنب

من أعاجيب الأرنب

تعليق في كعب الأرنب

تعشير الخائف

نفع الأرنب

تفسير القصيدة الثانية

القواطع في السمك

الضبع

2573

جلد الضبع

تسمية السنة الجذبة بالضبع

مما قيل من الشعر في الضباع

إعجابُ الضَّبَاع بالقتلى

حديث امرأة وزوجها

حديث معاوية وجارسته الخراسانية

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

شعر فيه ذكر الضبع

بقية الكلام في الضبع

الحرقوق

الورل

زعم المجوس في العظاءة

شعر فيه ذكر للورل

فروة القنفذ

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

خصال الفهد

أرجوزة في صفة الفهد

نعت ابن أبي كريمة للفهد

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

زعم المجوس في لبس أعوان سومين

جوارح الملوك

نوادِرَ وأشعار وأحاديث

القول في العُرجان

عصا الحكم بن عبدل

عرجان الشعراء

البدء والتُّنْيَان

أحاديث من أعاجيب الممالك

أشعار حَسَان

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

أخبار في المرض والموت

شعر في الرثاء

بعض المجون

ما يشبه بالأرنب

ثم رجع بنا القول إلى الأرنب، فمما في الخيل مما يُشبهه
الأرنب قول الأعشى:

جِدْعُ سَمَا فَوْقَ
النَّخِيلِ مَشْدَبُ

أَمَّا إِذَا
اسْتَقْبَلْتَهُ

فكأته

وإذا تصفحه
الفوارس
مُعْرَضاً

فتقول سِرْحَانُ
الغضا المتنصبُ

ساقٌ يُقْمَصُّهَا
وظيفُ أَحَدَبُ

أَمَّا إِذَا
استدبرته
فتسوقه

كشطت مكان
الجلِّ عنها أرنبُ

منه وجاعرة
كأنَّ حَمَاتِهَا

وقال عبد الرحمن بن حسان:

ن غيضا خيفة
الأجدل

كأنَّ حَمَاتَيْهِمَا
أرنباً

طول عمر الأعضف والأرنب

وأنشد الأثرم:

بِأَعْضَفِ الْأَذْنِ
الطَّوِيلِ الْعَمْرِ

وَأَرْنبِ الْخَلَّةِ
تَلْوُ الدَّهْرِ

قد سمعتُ من يذكر أنّ كِبَرَ أذنِ الإنسانِ دليلٌ على طُولِ
عمره، حتّى زعموا أنّ شيخاً من الزنادقة، لعنهم الله
تعالى، قدّموه لتضرب عنقه فعدا إليه غلامٌ سعديٌّ كان
له، فقال: أليسَ قد زعمتَ يا مولاي أنّ من طالت أذنه
طال عمره؟ قال: بلى قال: فهاهم يقتلونك قال: إنما
قلت: إن تركوه.

وأنا لا أعرف ما قال الأثرم، ولا سمعتُ شعراً حديثاً ولا
قديماً يُخبرُ عن طولِ عُمرِ الأرنبِ، قال الشاعر:

مِغْبَلَةٌ فِي قِدْحِ
نَبْعِ حَادِرِ

تَسْقَى دَمَ الْجَوْفِ
لُظْفَرِ قَاصِرِ

إِذْ لَا تَزَالُ
أَرْنَبٌ أَوْ فَايِرٌ

أَوْ كِرْوَانٌ أَوْ
حُبَارِي حَاسِرِ

إِلَى حِمَارٍ أَوْ
أَتَانٍ عَاقِرِ

لبن الأرنب

قال: ويزعمون أنه ليس شيء من الوحش، في مثل جسم الأرنب أقلّ لبناً ودُروراً على ولدٍ منها، ولذلك يُضربُ بدرّها المثل، فممن قال في ذلك عمرو بن قميئة، حيث يقول:

ص دَرُّ اللَّقَاحِ
في الصَّنْبَرِ

ليس بالمطعم
الأرنب إذ قلّ

لي عُكُوفاً على
قُرارةٍ قَدْرِ

ورأيت الإماء
كالجعثن البا

جنّ ينباع من
وراء السّترِ

ورأيت الدّخانَ
كالودع الأه

رُّ خريسي من
الأرنب بكرِ

حاضرٌ شرُّكم
وخيُّكم د

قصر يدي الأرنب

والأرنب قصير اليدين، فلذلك يخفُّ عليه الصّعداء والتوقُّل في الجبال، وعرف أنّ ذلك سهلٌ عليه، فصرفُ

بعض حيله إلى ذلك، عند إرهاق الكلاب إيَّاه، ولذلك
يعجبون بكلِّ كلبٍ قصير اليدين، لأنه إذا كان كذلك كان
أجدر أن يلحقها.

من أعاجيب الأرنب

وفي الأرانب من العجب أنها تحيض، وأنها لا تسمن،
وأن قضيب الخُزْرِ ربَّما كان من عظمٍ، على صورة
قضيب الثَّعلب.

ومن أعاجيبها أنها تنام مفتوحةً العَيْن، فربَّما جاء
الأعرابيُّ حتَّى يأخذها من تلقاء وجهها، ثقةً منه بأنَّها لا
تبصر.

وتقول العرب: هذه أرنبٌ، كما يقولون: هذه عُقاب
ولا يذكرون، وفيها التَّوبير الذي ليس لشيءٍ من الدوابِّ
التي تحتال بذلك، صائدةً كانت أو مصيدةً، وهو الوطءُ
على مؤخر القوائم، كي لا تعرف الكلابُ آثارها، وليس
يعرفُ ذلك من الكلابِ إلَّا الماهر، وإنَّما تفعل ذلك في
الأرض اللَّيِّنة، وإذا فعلت ذلك لم تسرع في الهرب، وإن
خافت أن تدرك انحرفت إلى الخُزونة والصَّلابة، وإنَّما
تستعمل التَّوبير قبل دنو الكلاب.

وليسَ لشيءٍ من الوَحْشِ، ممَّا يُوصَفُ بِقَصْرِ اليَدَيْنِ ما
للأرنبِ من السرعةِ، والفرسِ يوصفُ بقصر الكُراعِ فقط.

تعليق في كعب الأرنب

وكانت العربُ في الجاهليَّةِ تقول: مَنْ عُلِقَ عليه كعبُ
أرنبٍ لم تصبهُ عينٌ ولا نفسٌ ولا سِحْرٌ، وكانت عليه
واقيةٌ؛ لأنَّ الجنَّ تهرب منها، وليست من مطاياها لمكان
الحيضِ.

وقد قال في ذلك امرؤ القيس:

عليه عَقِيقَتُهُ
أَحْسَبَا

يا هِنْدُ لا تَنكحي
بُوَهَةَ

به عَسَمٌ يبتغي
أرنبَا

مُرْسَعَةٌ بين
أرْساعِهِ

حِذَارِ المَنِيَّةِ أَنْ
يَعْطَبَا

ليَجْعَلَ في يَدِهِ
كَعْبَهَا

وفي الحديث: بكى حتَّى رسعت عينه مشدَّدة وغير
مشدَّدة، أي قد تغيَّرت، ورجلٌ مرسَّعٌ وامرأةٌ مرسَّعةٌ.

تعشير الخائف

وكانوا إذا دخل أحدهم قريةً من جنّ أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشدّ الخوف، إلا أن يقف على باب القرية فيعشّر كما يعشّر الحمار في نهيقه، ويعلق عليه كعب أرنب، ولذلك قال قائلهم:

ينفع التعشيرُ
في جنب
جرمة

ولا ددع يغني
ولا كعب أرنب

الجرمة: القطعة من النخل، وقوله: ددع كلمة كانوا يقولونها عند العثار، وقد قال الحادرة:

ومطية كفت
رخل مطية

حرج تئم من
العثار بددع

وقالت امرأة من اليهود:

وليس لوالدة
نقها

ولا قولها لابنها
ددع

وربُّك أَعْلَمُ
بالمصرَعِ

تداري غراء
أحواله

وقد قال عورة بن الورد، في التّعشير، حين دخل المدينة
فقال له: إن لم تعشُرْ هلكت فقال:

لَعَمْرِي لئنْ عَشَرْتُ من خيفةِ نُهَاقِ الحَمِيرِ إِنني
لَجَزوعٌ

نفع الأرنب

وللأرنب جلدٌ وَوَبْرٌ يُنْتَفَعُ به، ولحمه طيبٌ؛ ولا سيِّما إنْ
جُعِلَ مَحْشِيًّا؛ لأنَّه يجمعُ حُسْنَ المنظر، واستفادة العلم
مما يرون من تدبيرها وتدبير الكلاب، والانتفاع بالجلد
ويأكل اللحم، وما أقلَّ ما تجتمع هذه الأمورُ في شيءٍ من
الطَّيرِ.

وأما قوله:

قياماً بأيديهم
مسوكُ الأرنابِ

إذا ابتَدَرَ النَّاسُ
المعالي رأيتهم

فإنه هجاهم بأنهم لا كسب لهم إلا صيد الأرانب وبيع
جلودها.
الحلكاء وأما قوله:

ليس له نابٌ
ولا ظفرٌ

وغائصٌ في
الرمل ذو حدةٍ

فهذا الغائص هو الحلكاء، والحلكاء: دويبة تغوص في
الرمل، كما يصنع الطائر الذي يسمّى الغمّاس في الماء،
وقال ابن سحيم في قصيدته التي قصد فيها للغرائب:

والحلكاء التي تبعج في الرمل

شحمة الرمل ومما يغوص في الرّمْل، ويسبح فيه سباحة
السّمكة في الماء، شحمة الرّمْل، وهي شحمة الأرض،
بيضاء حسنة يشبه بها كف المرأة، وقال ذو الرّمّة في
تشبيه البنان بها:

بنات النقا تخفي
مراراً وتظهر

خرايب أمثال
كأن بنائها

وقال أبو سليمان العنوي: هي أعرض من العظاءة
بيضاء حسنة منقطة بحمرة وصفرة، وهي أحسن دواب
الأرض.

وتشبهه أيضاً أطراف البنان بالأساريع وبالغنم، إذا كانت
مُطَرَّفَة، وقال مرقش:

نيرُ وأطراف
الأكف عَنَمُ

النَّشْرُ مِسْكٌ
والوَجْوهُ دنا

وصاحب البلاغة من العامة يقول: كأن بنانها البياح
والدُّواج، ولها ذراع كأنها شَبُّوطَة.
ويشبهه أيضاً بالدمقس.
شعر فيه خرافة ومن خرافات أشعار الأعراب، يقول
شاعره:

عشائراً مثل
فراخ السرهد

أشكو إلى الله
العليّ الأمجد

قد ساقهم خبث
الزمان الأنكد

عشائراً قد
نَبَفُوا بَفَدْفِدِ

وكلّ رامٍ في
الرّمال يهتدي

ينصبُّ رجليه
حذار المعتدي

والفأر
واليربوع ما لم
يسفد

شواء أحناشٍ
ولم تفرّد

يبيتُ يسري ما
دنا بفدقد

حتّى ينالوه
بعود أو يد

وكلّ حرباءٍ
وكل جُذجدٍ

وكلّ نفاضٍ
القفا ملهد

وشحمة الأرض
وفرخ الهدد

فناهم ثاقبة لم
تخمد

من الحبين
والعطاء الأجرد

وكلّ مقطوعٍ
العرا مكلد

يغدون بالجهد
وبالتشرد

منها وأبصار
سَعَالٍ جُهْدٍ

زَخْفًا وَحَبْوًا مِثْلَ
حَبْوِ الْمُقْعَدِ

الحرباء وأما قوله:

حَتَّى يُوَافِيَ
وَقْتَهُ الْعَصْرُ

حِرْبَاوَهَا فِي
قَيْظِهَا شَامِسٌ

يَمِيلُ فِي
رَوْضَتِهِ الزَّهْرُ

يَمِيلُ بِالشَّقِّ
إِلَيْهَا كَمَا

قال: والحرباء دويبة أعظم من العظاءة أغبر ما كان
فرخاً، ثم يصفر، وإنما حياته الحر، فتراه أبداً إذا بدت
جونة يعني الشمس، قد لجأ بظهره إلى جذيل، فإن
رمضت الأرض ارتفع، ثم هو يقرب بوجهه أبداً مع
الشمس حيث دارت، حتى تغرب، إلا أن يخاف شيئاً، ثم
تراه شابحاً بيديه، كما رأيت من المصلوب، وكلما حميت

عليه الشَّمْسُ رأيتَ جلده قد يخضِرُ، وقد ذكره ذو الرُّمَّة
بذلك فقال:

يظلُّ بها
الحِرباءُ
للشَّمْسِ
ماتلاً
على الجِذْلِ إلاَّ
أنَّه لا يكبِّرُ

إذا حَوَّلَ الظِّلَّ
العِشِيَّ
رأيتَه
حَنِيفاً وفي قَرْنِ
الضُّحَى يَنْتَصِرُ

عَدَا أَصْفَرَ
الأَعْلَى وَرَاحَ
كَأَنَّ
من الضُّحِ
واستقباله
الشَّمْسَ أَخْضَرَ

خضوع بعض الأحياء للشمس وكذا الجمل أيضاً يستقبل
بهامته الشَّمْسَ، إلاَّ أنه لا يدور معها كيف دارت كما
يفعل الحِرباءُ، وشقائق النُّعمان والخيريُّ يصنع ذلك،
ويتفتَّحُ بالنهار، وينضمُّ بالليل، والنَّيْلُوفَرُ الذي ينبت في
الماء يغيب الليل كلَّه ويظهر بالنهار، والسَّرْمَكُ الذي يقال

له الكَوْسَج، في جوفه شحمة طيّبة، وهم يسمّونها الكَبِد،
فإن اصطادوا هذه السمكة ليلاً وجدوا هذه الشحمة فيها
وافرة، وإن اصطادوها نهاراً لم تُوجد، وقد ذكر الحطيئة
دوران النبات مع الشمس حيث يقول:

فَنَوَّارُهُ مِيلٌ إِلَى
الشَّمْسِ زَاهِرُهُ

بمُسْتَأْسَدِ
الْقُرْيَانِ حُوٌّ
تِلَاعُهُ

وقال ذو الرُّمَّة:

ويخضِرُّ من لَفْحِ
الهَجِيرِ غَابِغُهُ

إِذَا جَعَلَ
الْحَرْبَاءُ يَغْبِرُ
لَوْنُهُ

أخو فجرةٍ عالى
به الجذع صالبه

ويشْبَحُ
بالكفّين
شَبْحاً كَأَنَّهُ

وقال ذو الرُّمَّة أيضاً:

قلوصي بها
والجندبُ الجونُ
يرمُحُ

من الحرِّ يلوي
رأسه ويرنُّحُ

يَدَا مُجْرِمٍ
يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
تائب

أخو حَرَبَاتٍ بُرٌّ
تُوبِيهِ شَابِحُ

وهاجرةٍ من
دُونِ مَيَّةٍ لم
يَقِلْ

إذا جعل
الحرباءُ ممَّا
أصابه

وقال آخر:

كَأَنَّ يَدَيَّ
حَرَبَاءُهَا
مَتَشَمَّسًا

وقال آخر:

لظي يلفحُ
الحرباءَ حتَّى
كانه

وأنشدوا:

أَبْلُجُ مَا
لشَّمْسِهِ مِنْ
جَلْبَابٍ

شَالَ الْحَرَابِيُّ
لَهُ بِالْأَذْنَابِ

تَخَالَ بِهِ
الْحَرِبَاءُ أَنْشَطَ
جَالِسًا

الصَّبِّ
وَالشَّقْدَانُ
تَسْمُو
صُدُورُهَا

قَدْ لَاحَهَا يَوْمَ
شَمُوسٍ مِلْهَابٍ

يَرْمِي الْإِكَامَ مِنْ
حِصَاةِ طَبْطَابٍ

عَلَى قُلُوبٍ يَعْلُو
بِهَا كُلَّ سَبَسَبٍ

وقال الشاعر:

تَجَاوَزْتُ
وَالعُصْفُورُ فِي
الحَجْرِ لَاجئِ

وقال أبو زُبَيْدٍ:

بَّ وَأَوْفَى فِي
عُودِهِ
الْحَرْبَاءُ

وَاسْتَكَنَّ
الْعُصْفُورُ كَرْهًا
مَعَ الضَّ

والشَّقْدَان: الحرابي، وقوله: تسمو أي ترتفع في الشجرة
وعلى رأس العود، والواحد من الشَّقْدَان بِإِسْكَانِ الْقَافِ
وكسر الشَّيْنِ شَقْدًا بِتَحْرِيكِ الْقَافِ.
وأنشد:

قَامَ مَثِيلَ
الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ

فَفِيهَا إِذَا
الْحَرْبَاءُ مَدَّ بِكَفِّهِ

وذلك أَنَّ الْحَرْبَاءَ إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارَ فَعَلَا فِي رَأْسِ شَجَرَةٍ
صَارَ كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَتِهِ.
وقال آخر:

لَا يَتْرُكُ السَّاقَ
إِلَّا مُمَسَّكًا سَاقًا

أَنَّى أُتِيحَ لَكُمْ
حَرْبَاءُ تَنْضِبَةٌ

التشبهه بالعرب قال: وكان مولى لأبي بكر الشيباني،
فادعى إلى العرب من ليلته فأصبح إلى الجلوس في

الشمس، قال: قال لي محمد بن منصور: مررتُ به فإذا هو في ضاحيةٍ، وإذا هويحكُ جلده بأظفاره خمُشاً وهو يقول: إنما نحن إبل.

وقد كان قيل له مرّة: إنَّك تتشبه بالعرب، فقال: ألي يقال هذا؟ أنا والله حرباء تنضبة، يشهدُ لي سوادُ لوني، وشعائتي، وغور عينيّ وحبي للشمس.

نفخ الحرباء والورل قال: والحرباء ربّما رأى الإنسان فتوغّده، ونفخ وتطاول له حتّى ربّما فزع منه من لم يعرفه، وليس عنده شرٌّ ولا خير.

وأما الذي سمعناه من أصحابنا فإنّ الورل السّامد هو الذي يفعل ذلك، ولم أسمع بهذا في الحرباء إلا من هذا الرجل.

قال: والحرباء أيضاً: المسمار الذي يكون في حلقة الدّرع؛ وجمعه حرابي.

استدراك لما فات من ذكر الوبر وقد كنا غفلنا أن نذكر الوبر في البيت الأول، قال رجلٌ من بني تغلب:

جاءت به أسود
مثل الوبر

إذا رجونا ولداً
من ظهر

من بارد الأدنى
بعيد القعر

وقال مُخارقُ بنِ شهاب:

بني فالج حيثُ
استقرَّ قرارُها

فيا راكباً إمّا
عرَضتَ فبلَّغن

بلاقعُ أرضِ
طار عنه
وبارُها

هلمُّوا إلينا لا
تكونوا كأنكم

كثيرٌ بها
أوعالُها
ومدارُها

وأرضُ التي
أنتم لقيتم
بجوِّها

فهجا هؤلاء بكثرة الوبار في أرضهم، ومدح هؤلاء بكثرة
الوعول في جبلهم، وقال آخر:

دنسُ الثيابِ
كطابخِ القدرِ

هل يشتمني لا
أبا لكم

زَمْرُ المروءةِ
ناقص الشَّبْرِ

والعاجز التَّدبيرِ
كالوَبْرِ

جُعَلَ تَمَطَّى
في عَيايتهِ

لِزبابةِ سَوْداءَ
حَنُظَلَةٍ

ويَضْرِبُ المثلُ بِنْتِ الوَبْرِ؛ ولذلك يقول الشاعر:

بوضر الوَبْرِ
تحسَبُ بِهِ مَلابًا

تَطَلَّى وَهِيَ
سَيِّئَةُ المَعْرَى

ونتَن الوَبْرِ هو بَوَلٌ مما يَتمازح به الأعرابُ ومما
تتمازح به الأعرابُ، فمن ذلك قول الشاعر:

فجاء الرُّبِيَّةِ
والوِبَارَةُ

قد هَدَمَ الضَّفدُعُ
بيتَ الفارهِ

وحلَمَ يَشَدُّ
بالحِجارهِ

وهذا مثلُ قولهم:

اختلط النّقد على
الجعلان

وقد بقي دريهم
وثلاثان

الظربان وأما قوله:

والظربان
الوردُ قد شفه

حُبّ الكشي
والوحرُ الحمرُ

يلوذ منه
الضبُّ
مذولياً

ولو نجا أهلكه
الدّعْرُ

وليس يُنجيه
إذا ما فسأ

شيءٌ ولو
أحرزه قصرُ

قال أبو سليمان الغويّ: الظربان أخبثُ دابةٍ في الأرض
وأهلكه لفراخ الضبّة.
قال: فسألت زيد بن كثوة عن ذلك فقال: إي والله وللضبّ
الكبير.

والظربان دابةٌ فسّاءه لا يقوم لشرّ فسوها شيءٌ، قلت:
فكيف يأخذها؟ قال: يأتي جحر الضبّ، وهو ببابه

يَسْتَرَوِح، فَإِذَا وَجَدَ الضَّبُّ رِيحَ فُسُوهِ دَخَلَ هَارِباً فِي
جُحْرِهِ، وَمَرَّ هُوَ مَعَهُ مِنْ فَوْقِ الْجُحْرِ مُسْتَمِعاً حَرِشَهُ،
وَقَدْ أَصْغَى بِإِحْدَى أُذُنَيْهِ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ نَحْوَ صَوْتِهِ -
وَهُوَ أَسْمَعُ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ - فَإِذَا بَلَغَ الضَّبُّ مَنْتَهَاهُ،
وَصَارَ إِلَى أَقْصَى جُحْرِهِ وَكَفَّ حَرِشَهُ اسْتَدْبَرَ جُحْرَهُ، ثُمَّ
يَفْسُو عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ - وَهُوَ مَتَى شَمَّهُ غُشْيَ
عَلَيْهِ - فَيَأْخُذُهُ.

قال: وَالظَّرْبَانِ وَاحِدٌ، وَالظَّرْبَانُ: الْجَمِيعُ، مِثْلُ الْكَرَوَانِ
لِلْوَاحِدِ وَالْكَرَوَانِ لِلْجَمِيعِ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ ذِي الرُّمَّةِ:

كَأَنَّهُمُ الْكَرَوَانُ
أَبْصَرْنَ
بِأَزْيَا

مِنْ آلِ أَبِي مُوسَى
تَرَى الْقَوْمَ حَوْلَهُ

وَالْعَامَّةُ لَا تَشْكُ فِي أَنَّ الْكَرَوَانَ ابْنُ الْحُبَارِيِّ؛ لِقَوْلِ
الشَّاعِرِ:

وَأَنَّ الْحُبَارِيَّ
خَالَةَ الْكَرَوَانَ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الزَّبْدَ
بِالْتَّمْرِ طَيِّبٌ

وقال غيره: الظَّربان يكونُ على خَلقة هذا الكلب الصَّيْنِيّ،
وهو منتنٌ جدًّا، يدخلُ في جُحر الضبِّ فيفسو عليه،
فينتن عليه بيته، حتى يُذلق الضبَّ من بيته، فيصيده.
والضَّبَّاب الدلالي أيضاً، التي يدخلُ عليها السَّيْلُ
فيخرجها، وأنشد:

رَأَى الْعُقَابَ
فَوْقَهُ فَخَبًّا

فَرُّوجَتَانِ
تَطْلُبَانِ حَبًّا

يَا ظَرْبَانَا يَتَعَشَّى
ضَبًّا

كَأَنَّ حُصْيِيَّه إِذَا
أَكْبَا

أَوْ تُعْلَبَانِ
يَحْفِرَانِ ضَبًّا

وأنشد الفرزدق:

وَأَنْتَ بَجِيرِيَّ
قَصِيرٌ
قَوَائِمُهُ

أَبُوكَ سَلِيمٌ قَدْ
عَرَفْنَا مَكَانَهُ

ومن يجعل
الظَّربى القصار
ظهورها

كمن رَفَعْتَهُ فِي
السماء
دعائمهُ

سلاح بعض الحيوان قال: والظَّربان يعلم أن سلاحه في
فسائه، ليس شيءٌ عنده سواه، والحبّارى تعلم أن
سلاحها في سَلْحها ليس لها شيءٌ سواه، قال: ولها في
جوفها خزانةٌ لها فيها أبداً رَجْعٌ مُعَدٌّ فإذا احتاجت إليه
وأمكنها الاستعمال استعملته، وهي تعلم أن ذلك وقايةٌ
لها، وتعرف مع ذلك شِدَّةَ لَزَجِهِ، وخبث نُنْيِهِ، وتعلم أنها
تساور بذلك الزَّرَقَ، وأنها تُثْقَلُه فلا يصيد.
ويعلم الدَّيْكَ أن سلاحه في صيبيته، ويعلم أن له
سلاحاً، ويعلم أنه تلك الشوكة، ويدري لأيِّ مكانٍ يعتلج،
وأَيِّ موضعٍ يطعن به.
والقنafd تعلم أن فروتها جنّةٌ وأن شوك جلدِها وقايةٌ، فما
كان منها مثل الدُّلدل ذوات المداري فإنها ترمي فلا
تُخْطِى، حتى يمرَّ مُرُورَ السهم المُسَدَّد، وإن كانت من
صغارها قبضت على الأفعى وهي واثقةٌ بأنّه ليس في
طاقة الأفعى لها من المكروه شيءٌ، ومتى قبضت على

رأس الأفعى فالخطب فيها يسير، وإن قبضت على الذئب
أدخلت رأسها فقرضتها وأكلتها أكلاً، وأمكنتها من
جسمها، تصنع ما شاءت؛ ثقةً منها بأنه لا يصل إليها
بوجه من الوجوه.

والأجناس التي تأكل الحيات: القنأذ، والخنازير،
والعقبان، والسنانير، والشاهمرك، على أن النسور
والشاهمرك لا يتعرضان للكبار.

ويعلم الزنبور أن سلاحه في شعرته فقط، كما تعلم
العقرب أن سلاحها في إبرتها فقط، وتعلم الذبان
والبعوض والقملة، أن سلاحها في خراطيمها، وتعلم
جوارح الطير أن سلاحها في مخالبها، ويعلم الذئب
والكلب أن سلاحهما في أشداقهما فقط، ويعلم الخنزير
والأفعى أن سلاحهما في أنيابهما فقط.
ويعلم الثور أن سلاحه قرنه، لا سلاح له غيره، فإن لم
يجد الثور والكبش والتيس قروناً، وكانت جمّاً، استعملت
باضطراب مواضع القرون.

والبردون يستعمل فمه وحافر رجله.
ويعلم التمساح أن أحد أسلحته وأغونها ذنبه، ولذلك
لا يعرض إلا لمن وجدّه على الشريعة؛ فإنه يضربه

ويجمعه إليه حتى يُلقِيه في الماء.

وذئب الضبّ أنفع من برائته.

لُجوء بعض الحيوان إلى الخبث وإنما تفرع هذه الأجناس

إلى الخُبث، وإلى ما في طبعها من شِدَّة الحُضْر إذا

عَدِمَت السِّلَاح؛ فعند ذلك تستعمل الحيلة: مثل القُنْفُذ في

إمكان عَدْوِهِ من فَرَوْتِهِ، ومثَل الطَّبِي واستعمال الحُضْر

في المستوي، ومثَل الأرنب واستعماله الحُضْر في

الصَّعْدَاء.

وإذا كان ممن لا يرجع إلى سلاحه ولا إلى خبثه كان إمّا

أن يكون أشدَّ حُضْرًا ساعة الهرب من غيره، وإمّا أن

يكون ممّن لا يمكنه الحُضْر ويقطّعه الجبن، فلا يبرح

حتّى يؤخذ.

ما يقطّعه الجبن من الحيوان وإنما تتقرّب الشاة بالمتابعة

والانقياد للسبع، تظنُّ أن ذلك ممّا ينفعها؛ فإن الأسد إذا

أخذ الشاة ولم تتابعه، ولم تعنه على نفسها، فربما

اضطرَّ الأسد إلى أن يجرّها إلى عرينه، وإذا أخذها الذئب

عدت معه حتّى لا يكون عليه فيها مؤونة، وهو إنما يريد

أن ينحّيها عن الراعي والكلب، وإن لم يكن في ذلك

الوقت هناك كلب ولا راع، فيرى أن يجري على عادته.

وكذلك الدجاج إذا كُنَّ وَقَعًا على أغصان الشجر، أو على
الرُفوف، فلو مرَّ تحتها كلُّ كلبٍ، وكلُّ سنور، وكلُّ ثعلب،
وكلُّ شيءٍ يطالبها، فإذا مرَّ ابن آوى بقربها لم يبق منها
واحدةٌ إلا رمت بنفسها إليه، لأنَّ الذئب هو المقصود به
إلى طباع الشاة، وكذلك شأنُ ابن آوى والدجاج، يخيلُ
إليها أن ذلك مما ينفع عنده، وللجبن تفعل كلَّ هذا.

ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد؛ ليُحضر
ببدنه، يظنُّ اجتهاده أنجى له، وأنه إذا كان على ظهر
الفرس أقلُّ كدًا، وأنَّ ذلك أقرب له إلى الهلاك. ولمثل
هذه العلة يتشبَّثُ الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يُغرِّقه
نفسه، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم،
وأنهما إنما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجَّب
ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به، فإن أصابته
شقيقة، أو لسعة عقرب، أو اشتكى خاصرته، أو أصابه
حُصر أو أسر شرب الدواء من يد أجهل الخليقة، أو جمع
بين دواعين متضادتين.

فالأشياء التي تعلم أنَّ سلاحها في أذناها وماخرها
الزُّنبور والثعلب والعقرب والحبارى، والظربان، وسيقع
هذا الباب في موضعه إن شاء الله تعالى.

وليس شيءٌ من صنف الحيوان أردأ حيلةً عند معاينة
العدوّ من الغنم؛ لأنها في الأصل موصولةٌ بكفايات
النّاس، فأسندت إليهم في كل أمرٍ يصيبها، ولولا ذلك
لخرّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها، فإذا
لم يكن لها سلاحٌ ولا حيلة، ولم تكن ممن يستطيع
الانسياب إلى جُحره أو صدع صخرة، أو في ذروة جبل،
كانت مثل الدّجاجة، فإنّ أكثر ما عندها من الحيلة إذا
كانت على الأرض أن ترتفع إلى رَفٍّ، وربّما كانت في
الأرض، فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك.
ما له ضروب من السلاح وربّما كان عند الجنس من
الآلات ضروبٌ، كنحو زبرة الأسد ولبدته، فإنّه حمولٌ
للسّلاح إلّا في مرقّ بطنه فإنّه من هناك ضعيفٌ جدّاً،
وقال التغلبي:

ترى النّاسُ مِنّا
جلدُ أسودٍ
سالخٍ
وزُبرةٌ ضِرغامٍ
من الأسدِ ضيغمٍ

وله مع ذلك بعدُ الوثبة واللُّزوقُ بالأرض، وله الحبس
باليد، وله الطّعن بالمخلب، حتى ربّما حبسَ العيرَ بيمينه

وطعن بِمِخْلَبٍ يساره لَبَّتَه وقد ألقاه على مؤخره، فیتلقَى
دمه شاحياً فاه وكأنه ینصبُّ من فَوَّارَةٍ، حتى إذا شربه
واستفرغه صار إلى شقِّ بطنه، وله العَضُّ بِأَنْيَابِ صلابِ
حداد، وفكُّ شديد، ومنخرٌ واسع، وله مع البُرْثَنُ والشكُّ
بأظفاره دقُّ الأعناق، وحطم الأَصلاب، وله أنه أسرع
حُضْرًا من كلِّ شيءٍ أَعْمَلَ الحُضْرَ في الهرب منه، وله
من الصَّبْرِ على الجوع ومن قَلَّةِ الحاجة إلى الماء مع
غيره، وربما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم
وليلة، ولو لم يكن له سلاحٌ إِلَّا زئيره وتوقُّد عينيه، وما
في صدور النَّاسِ له لَكْفَاهُ.
وربما كان كالبعير الذي يعلم أنَّ سلاحه في نابيه وفي
كِرْكِرَتِهِ.

والإنسان يستعملُ في القتال كَفَّيَهُ في ضروبٍ، ومرفقيه
ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدْرُه، كلُّ ذلك له سلاحٌ
ويعلم مكانه، يستوي في ذلك العاقلُ والمجنونُ، كما
يستويان في الهداية في الطَّعامِ والشرابِ إلى الفمِ.
سلاح المرأة والمرأة إذا ضَعُفت عن كلِّ شيءٍ فزعت إلى
الصُّراخِ والولولة؛ التماساً للرَّحمة، واستجلاباً للغياثِ
من حُمَاتِهَا وكُفَّاتِهَا، أو من أهلِ الحسبة في أمرها.

باب أسماء أولاد الحيوان قال: ويقال لولد السَّبُع
الهَجْرِس والجمع هجارس، ولولد الضبع الفرْعُل والجمع
فراعل، قال ابن حبناء:

إذا ما رآها
فُرْعُلُ الضَّبَعِ
كَفَّرَا

سلاحين منها
بالرَّكوب
وغيرها

قال: والدَّيسم ولد الذئب من الكلبة.
وسألت عن ذلك أبا الفتح صاحب قطرب فأنكر ذلك وزعم
أنَّ الدَّيسمة الدَّرة، واسم أبي الفتح هذا ديسم.
ويقال إنَّه دويبة غير ما قالوا.
ويقال لولد اليربوع والفأرِ درص، والجمع أدراص،
ويقال لولد الأرنب خرنق، والجمع خرانق، قال طرفة:

خرانقٌ تُوفي
بالضَّغيبِ لها
نُدْرَا

إذا جَلَسُوا
خَيْلَتَ تحت
ثيابهم

أشعارٌ فيها أخلاط من السباع والوحش والحشرات.
قال مسعود بن كبير الجرمي، من طيئ، يقولها في حمارٍ
اشتراه فوجدَهُ على خلاف ما وصفهُ به النخاس:

معجَّبٌ ما يحتويه العُجْبُ

واعتر القوم صحارِ رحبُ

أهانك الله فبئسَ النَّجْبُ

بلى ولكن ضاع ثمَّ اللَّبُّ

أخبرني أنك غيرُ نَدْبُ

صَبَّ عليه ضبَعٌ وذئبُ

ذبيحُ عدته رَمْلَةٌ وهضبُ

سرحـ

إِنَّهُ وَجَيْالٌ قِرْشَبٌ

كأنه تحت الظلام سَقْبُ يأخذ منه من رآه الرَّعْبُ

أبو

حَتَّى يُقال حيث أفضى السحبُ

جراهِ مَسَّهِنَّ السَّعْبُ

وَصَبَحَ الرَّاعِي مُجَرَّأً وَغَبُّ

وَأَنْتَ

نَفَّاقٌ هُنَاكَ ضَبُّ

وَأَكْرَعُ الْعَيْرِ وَفَرْتُ رَطْبُ

وَرِخْمٌ

أَتَاتِ بَيْنَهُنَّ كَعْبُ

يقول: أدنوني إلى شرائه، ويقال ثرية لقيق لغة طائفة.
وقال قرواش بن حوط:

بنعافِ ذي
عَدَمٍ وَأَنَّ
الأَعْلَمَا

نَبَّتُ أَنْ عَقَالاً
بَنَ خَوِيلِدِ

وَتَعِيلِبَا خَمْرٍ
إِذَا مَاءٌ أَظْلَمَا

ضَبُعًا مَجَاهِرَةً
وَلَيْثًا هُدْنَةً

أَبْدَأُ فَلَسْتُ
بِسَائِمٍ إِنْ
تَسَامَا

لَا تَسَامَانِي مِنْ
رَسِيسِ عِدَاوَةٍ

عُضًا الوَعِيدَ فَمَا
أَكُونُ لِمَوْعِدِي

فِيئًا وَلَا أَكْلًا
لَهُ مَتَخَضَّمًا

فَمَتَى الْأَقِيمَا
الْبِرَازَ تُلَاقِيَا

عَرِكَا يَفْلُ الْحَدَّ
شَاكَا مُعْلِمَا

الوحر قال: وقال العَدَبَسُ الكِنَانِيّ: وَالْوَحْرَةَ دَوِيْبَةَ
كَالْعِظَاءَةِ حَمْرَاءَ إِذَا اجْتَمَعَتْ تَلْصِقُ بِالْأَرْضِ، وَجَمْعُ
وَحْرَةٍ وَحْرٌ، مَفْتُوحَةٌ الْحَاءِ، وَمِنْهُ قِيلَ وَحْرُ الصَّدْرِ، كَمَا
قِيلَ لِلْحَقْدِ ضَبٌّ؛ ذَهَبُوا إِلَى لُزُوقِهِ بِالصَّدْرِ كَالْتِرَاقِ
الْوَحْرَةَ بِالْأَرْضِ، وَأَنْشَدَ:

بئسَ عَمَرَ اللهُ
قَوْمٌ طُرِقُوا

فَقَرَوْا أَضْيَافَهُمْ
لَحْمًا وَحِرَّ

وَسَقَوْهُمْ فِي
إِنَاءٍ مَقْرَفٍ

لَبِنًا مِنْ دَرٍّ
مِخْرَاطٍ فَنَرٍ

يَقَالُ لَحْمٌ وَحِرٌّ: إِذَا دَبَّتْ عَلَيْهِ الْوَحْرَةُ، مَقْرَفٌ: مُوبِئٌ،
وَيَقَالُ فَنِرٌ: إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ فَارَةٌ، وَقَالَ الْحَكَمِيُّ:

نُ عَنْهَا الطَّلْحُ
وَالْعُشْرَا

يَرَابِيعاً وَلَا
وَحْرَا

بَارِضٍ بَاعِدَ
الرَّحْمَ

وَلَمْ يَجْعَلْ
مَصَايِدَهَا

لهَيْشَةَ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَسَمِعُ ذَنْبٍ هَمُّهُ
الْحُضْرُ

وَهَيْشَةَ
تَأْكُلُهَا سُرْفَةٌ

فالهَيْشَةُ أُمُّ حَبِيبٍ، وَأَنْشُدُ:

كَمَا تَعْرِقُ رَأْسَ
الْهَيْشَةَ الدَّيْبُ

أَشْكُو إِلَيْكَ
زَمَاناً قَدْ
تَعْرِقَنَ

وَأُمُّ جُبَيْنٍ وَأُمُّ حُبَيْنَةَ سِوَاءٌ، وَقَدْ ذَكَرْنَا شَأْنَهَا فِي صَدْرِ
هَذَا الْكِتَابِ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَا تَقِيمُ بِمَكَانٍ تَكُونُ فِيهِ هَذِهِ
الدُّودَةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا السُّرْفَةُ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي الْمَثَلُ فِي
الصَّنْعَةِ، وَيُقَالُ: أَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةٍ، وَيُقَالُ إِنَّهَا تَقُومُ مِنْ أُمَّ

حُبَيْنَ مَقَامَ الْقِرَادِ مِنَ الْبَعِيرِ، إِذَا كَانَتْ أُمَّ حُبَيْنٍ فِي
الْأَرْضِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا هَذِهِ الدُّودَةُ.

ذَكَرَ مَنْ يَأْكُلُ أُمَّ حُبَيْنٍ وَالْقَرْنَبِيَّ وَالْجُرْدَانَ قَالَ: وَقَالَ
مَدَنِيٌّ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتَأْكُلُونَ الضَّبَّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

فَالْيَرْبُوعُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَالْوَحْرَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى عَدَّ
أَجْنَاساً كَثِيراً مِنْ هَذِهِ الْحَشْرَاتِ، قَالَ أَفَتَأْكُلُونَ أُمَّ حُبَيْنٍ؟
قَالَ: لَا، قَالَ: فَلْتَهْنِ أُمَّ حُبَيْنٍ الْعَافِيَةَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي كَرِيمَةَ: سَأَلَ عَمْرُو بْنُ كَرِيمَةَ أَعْرَابِيًّا - وَأَنَا
عِنْدَهُ - فَقَالَ: أَتَأْكُلُونَ الْقَرْنَبِيَّ؟ قَالَ: طَالَ وَاللَّهِ مَا سَأَلَ
مَأْوَهُ عَلَى شَدَقِي.

وَزَعَمَ أَبُو زَيْدٍ النَّحْوِيُّ سَعِيدُ بْنُ أَوْسِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ:
دَخَلْتُ عَلَى رُوبَةَ وَإِذَا قُدَّامَهُ كَانُونٌ، وَهُوَ يَمْلُ عَلَى جَمْرِهِ
جُرْدًا مِنْ جُرْدَانَ الْبَيْتِ، يَخْرُجُ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فَيَأْكُلُهُ،
وَيَقُولُ: هَذَا أَطِيبُ مِنَ الْيَرْبُوعِ يَأْكُلُ التَّمْرَ وَالْجُبْنَ،
وَيَحْسُو الزَّيْتَ وَالسَّمْنَ.
وَأَنْشَدَ:

إِلَى تَيْمِيَّةٍ
كَقَفَا الْقَدُومِ

تَرَى التَّيْمِيَّ
يَزْحَفُ كَالْقَرْنَبِيَّ

وقال آخر:

يَدِبُّ عَلَى
أَحْسَائِهَا كُلَّ
لَيْلَةٍ

دَبِيبَ الْقَرْنَبِيِّ بَاتَ
يَعْلُو نَقَا سَهْلًا

اليربوع قال: واليربوع دابة كالجُرذ، مُكَبٌّ على صدره؛
لِقِصْرِ يَدَيْهِ طَوِيلِ الرَّجْلَيْنِ، لَهُ ذَنْبٌ كَذَنْبِ الْجُرذِ يَرْفَعُهُ
فِي الصَّعْدَاءِ إِذَا هَرُؤَلْ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ كَذَلِكَ رَأَيْتَ فِيهِ
اضْطِرَابًا وَعَجَبًا، وَالْأَعْرَابُ تَأْكُلُهُ فِي الْجَهْدِ وَفِي
الْخِصْبِ.

أخْبَثَ الْحَيَوَانَ قَالَ: وَكُلُّ دَابَّةٍ حَشَاهَا اللَّهُ تَعَالَى خُبْنًا فَهُوَ
قَصِيرُ الْيَدَيْنِ، فَإِذَا خَافَتْ شَيْئًا لَأَذَتْ بِالصَّعْدَاءِ فَلَا يَكَادُ
يَلْحَقُهَا شَيْءٌ.

أَكَلَ الْمَسِيبُ بْنُ شَرِيكَ لِلْيَرْبُوعِ قَالَ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي
نُجَيْحٍ وَكَانَ حَجَّ مَعَ الْمَسِيبِ بْنِ شَرِيكَ عَامَ حَجِّ الْمَهْدِيِّ
مَعَ سَلْسَبِيلٍ، قَالَ: زَامَتِ الْمَسِيبَ فِي حَجَّتِهِ تِلْكَ، فَبِينَا
نَحْنُ نَسِيرُ إِذْ نَظَرْنَا إِلَى يَرْبُوعٍ يَتَخَلَّلُ فَرَاسِنَ الْإِبِلِ،
فَصَاحَ بَغْلْمَانَهُ: دُونَكُمْ الْيَرْبُوعُ فَأَحْضَرُوا فِي إِثْرِهِ
فَأَخَذُوهُ، فَلَمَّا حَطَطْنَا قَالَ: أَدْبَحُوهُ، ثُمَّ قَالَ: اسْلُخُوهُ

واشؤوه وائتوني به في عُدائي، قال: فأتي به في آخر
الغداء، على رغيّف قد رَعَبوه فهو أشدُّ حمرة من
الزّهوة، - يريد البُسرة - فعطف عليه فتنى الرّغيّف ثم
غمزه بين راحتيه ثم فرّج الرغيّف، فإذا هو قد أخذ من
دسمه، فوضعه بين يديه، ثم تناول اليربوع فنزع فخذاً
منه، فتناولها ثم قال: كل يا أبا محمد فقلت: ما لي به
حاجة فضحك ثم جعل يأتي عليه عضواً عضواً.
أم حبين قال: وأما أم حُبين فهي الهيشة، وهي أم
الحبين، وهي دويبةٌ تأكلها الأعراب مثل الحرباء، إلا أنّها
أصغر منها، وهي كدرَاءٍ لِسوادٍ بيضاء البطن، وهو
خلاف قول الأعرابي للمدني.

وصاة أعرابي لسهل بن هارون وقال أعرابي لسهل بن
هارون، في تواري سهل من عُرمانه وطلبهم له طلباً
شديداً؛ فأوصاه الأعرابي بالحزم وتدبير اليربوع، فقال:

تزيغ إلى سهلٍ
كثير السلائق

ودع عنك إني

انزل أبا عمرو
على حدّ قريةٍ

وخذ نفق

اليربوع واسلِّك
سبيلَه

ناطقٌ وابنُ
ناطق

وكنْ كَأبي قُطْنِ
على كلِّ زائغ

له منزلٌ في
ضيق العَرَضِ
شاهق

وإنما قال ذلك لاحتيال اليربوع بأبوابه التي يخرج من بعضها، إذا ارتاب بالبعض الآخر، وكذا كانت دار أبي قطنة الخناق بالكوفة في كندة، ويزعمون أنه كان مولى لهم، وأنشد أبو عبيدة قال: أنشدني سفيان بن عيينة:

إذ ما سرَّكَ
العيشُ

فلا تمرُّرُ على
كندَه

وقد قُتل أبو قُطنة وصُلب.
الخناقون وممن كان يخنق النَّاسَ بالمدينة عديَّة المدنيَّة
الصَّفراءُ، وبالبصرة، رادويَه، والمرميُّون بالخنق من
القبائل وأصحاب النَّحل والتأويلات هم الذين ذكَرَهم
أعشى همدان في قوله:

وَكِنْدَةَ فَاحْذَرِهَا
حِدَارِكَ
لِلخَسْفِ

وَقَشْبٍ وَإِعْمَالِ
لِجَنْدَلَةٍ
الْقَذْفِ

حَمِيدَةٍ
وَالْمِيلَاءِ
حَاضِنَةٍ
الْكَسْفِ

فَإِنَّ لَهَا قِصْفًا
يَدُلُّ عَلَى
حَتْفِ

تَدَاعَوْا عَلَيْهِ
بِالنَّبَاحِ
وَبِالْعَرْفِ

إِذَا سِرْتَ فِي
عَجَلٍ فَسِرْ فِي
صَحَابَةٍ

وَفِي شَيْعَةٍ
الْأَعْمَى خِنَاقٌ
وَعِيلَةٌ

وَكُلُّهُمْ شَرٌّ
عَلَى أَنْ
رَأْسَهُمْ

مَتَى كُنْتَ فِي
حَيٍّ بِجِيلَةٍ
فَاسْتَمِعْ

إِذَا اعْتَرَمُوا يَوْمًا
عَلَى قَتْلِ زَائِرٍ

وذلك أن الخناقين لا يسيرون إلاّ معاً، ولا يقيمون في
الأمصار إلاّ كذلك، فإذا عزم أهلُ دارٍ على خنقِ إنسانٍ
كانت العلامةُ بينهم الضرب على دُفٍّ أو طبلٍ، على ما
يكون في دُورِ الناس، وعندهم كلابٌ مُرتبطةٌ فإذا
تجاوَبوا بالعزف ليختفي الصَّوت ضربوا تلك الكلاب
فنبحت، وربّما كان منهم معلّمٌ يؤدّب في الدّرب، فإذا
سمع تلك الأصوات أمرَ الصّبيانَ برفع الهجاء والقراءة
والحساب.

المغيرية والغالية والمنصورية وأما الأعمى فهو المغيرة
بن سعيدٍ صاحبُ المغيرية، مولى بجيلة والخارج على
خالد بن عبد اللّهِ القسري، ومن أجل خروجه عليه
قال: أطمعوني ماء حتى نعى عليه ذلك يحيى بن نوفل،
فقال:

شرباً ثمّ بُلّت
على السّريِرِ

تقول من
النّواكّة
أطمعوني

كَلِيلِ الحَدّ ذِي

لأعلاجِ ثمانيةٍ

وشیخ

بصر ضریر

وأما حميدة، فكانت من أصحاب لیلی الناعظية، ولها
رياسة في الغالية، والميلاء حاضنة أبي منصور صاحب
المنصورية، وهو الكسف، قالت الغالية: إياه عنى الله:
"وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ
مركومٌ" وإياه عنى معدان الأعمى حيث يقول:

إنَّ ذا الكِسْفِ

وكميلٌ رَدَلٌ

صدَّ آلُ كُميلٍ

من الأردالِ

تركا بالعِراقِ

ضلَّ فيه تَلَطَّفِ

داءً دويًّا

المحتالِ

تفسير بيت وأما قوله:

انزل أبا عمرو

تزيغ إلى سهل

على حدِّ قريةٍ

كثيرِ السلائقِ

فأراد الهرب؛ لأنه متى كان في ظهرِ فظٍّ كثيرِ الجِوَادِ
والطرائق، كان أمكراً وأخفى، وما أحسن ما قال النابغةُ
في صفة الطَّريق إذا كان يتشعَّب، حيث يقول:

كَسَحَلِ الْيَمَانِي
قَاصِداً لِلْمَنَاهِلِ

وَنَاجِيَةً عَدَيْتُ
فِي ظَهْرِ لَاحِبٍ

إِلَى كُلِّ ذِي
نَيْرَيْنِ بَادِي
الشَّوَاكِلِ

لَهُ خَلْجٌ تَهْوِي
فُرَادِي
وَتَرَعْوِي

وهذا موضع اليربوع في تدبيره ومكره.
أرجوزة في اليربوع وأكل الحشرات والحيات وقال الآخر
في صفة اليربوع، وفي حيلته، وفي خلقه، وفي أكل
الحشرات والحيات:

يَا رَبِّ
وَشَاخِصِ الْعَجَبِ ذَلِيلِ الصَّدْرِ
يَرْبُوعِ قَاصِرِ الظَّهْرِ

يَرْعَى أَصُولَ سَلَمٍ وَسِذْرٍ

وَمُحْكَمٍ

الْبَيْتِ جَمِيعِ الْأَمْرِ

بَاكِرْتُهُ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ حَتَّى

تَرَاهُ كَمِدَادِ الْعَكْرِ

وَكُلَّ قَنَاصٍ قَلِيلِ الْوَفْرِ بِكُلِّ

فِيَاضِ الْيَدَيْنِ عَمْرٍ

مُرْتَفِعٍ فَعَادَ مَنِّي بِبَعِيدِ الْقَعْرِ

النَّجْمِ كَرِيمِ النَّجْرِ

وَتَدْمُرِي قَاصِعٌ فِي جُحْرِ

الْبَطْنِ عَجِيبِ الظَّهْرِ

أَطِيبِ عِنْدِي مِنْ جَنِّي التَّمْرِ فِي

الْعُسْرِ إِنْ كَانَ وَبَعْدَ الْعُسْرِ

وَكُلَّ جَبَارِ بَعِيدِ الذُّكْرِ

وَشَحْمِ

ةُ الْأَرْضِ طَعَامِ الْمُثْرِيِّ

وهَيْشَة أرفعها لفظي ليوم حفل وليوم فخرٍ

من عَقْرَبٍ أو قُنْفُذٍ أو وَبَرٍ
وكلُّ شيءٍ في الظلام يَسْرِي

فتلك هَمِّي وإليها أجري
أو حِيَّةٍ أُمَّلَّها في الجَمْر

وكلُّ شيءٍ لِقَضَاءٍ يجري
في كلِّ حالٍ من غنى وفَقْرٍ

وكلُّ يَعْسُوبٍ وكلُّ دَبْرٍ
طيرٍ جاثمٍ في وَكْرٍ

والكلبُ والتَّنْفَلُ بعد الهَرِّ
والسَّمْعُ وذئبُ القَفْرِ

والأعورُ النَّاطِقُ يومَ الزَّجْرِ

والضَّبُّ

والحوتُ وطيْرُ البَحْرِ

أو جُعَلٌ صَلَّى صلاةَ العَصْرِ
أكلُهُ غيرَ الحرابي الخُضْرِ

يا ويله من شاكِرِ ذي كُفْرِ
إن نالَ قِرَى من جَعْرِ

أفسدَ واللّه عليّ شُكْرِي

فزعَم أَنه يستطِيبُ كلَّ شيءٍ إلاَّ الحِرْباءَ الذي قد اخضَرَ
من حرِّ الشَّمسِ وإلاَّ الجُعْلَ الذي يَصَلِّي العَصْرَ، وزَعَمَ
أَنه إنما جعلَ ذلك شكراً على ما أطمعَ من العَدْرَةِ، وأنَّ
ذلك الشُّكْر هو اللُّؤم والكفر.

ولا أعرِفُ معنى صلاة الجعل، وقد روى ابن الأعرابي
عن زاهر قال: يا بُنَيَّ لا تصلِّ فإنما يَصَلِّي الجُعْل، ولا
تَصُومُ فإنما يصوم الحِمَار، وما فهمتُه بعد.

وأراه قد قدّم الهَيْشَةَ، وهي أمُّ حَبِين، وهذا خلافُ ما
رووا عن الأعرابي والمدني.

اليرابيع وأما قوله: وتَدْمُرِي قاصعٌ في جحرٍ فقد قال
الشاعر:

شَفَارِيهَا
والتَّدْمُرِي
المَقْصَعَا

وإني لأصطاد
اليرابيعَ كُلِّهَا

واليرابيع ضربان: الشُّفاريُّ والتَّدْمُريُّ ، مثل الفَتِّي
والمذَكِّي.

وقال جريرٌ حينَ شَبَّهَ أشياءَ من المرأةِ بأشياءَ من
الحشراتِ وغيرها وذكرَ فيها الجُعَلَ فقال:

تَرَى التَّيْمِيَّ
يَزْحَفُ
كالقَرْنَبِيِّ
إلى تَيْمِيَّةٍ كَعَصَا
المَلِيلِ

تَشِينُ الزَّعْفَرانَ
عَرُوسُ تَيْمِ
وَتَمْشِي مِشْيَةَ
الجُعَلِ الدَّحُولِ

يَقُولُ المَجْتَلونَ
عَرُوسَ تَيْمِ
شَوَى أَمِّ الحُبَيْنِ
ورَأْسُ فَيْلِ

شعر فيه ذكر اليربوع وقال عُبَيْدُ بنِ أَيُّوبِ العَنْبَرِيُّ ، في
ذكر اليربوع:

حَمَلْتُ عَلَيْهَا
ما لَوْ أَنَّ
تَحَمَّلَهُ طَارَتْ بِهِ
في الخَفَافِ

حمامة

نطوعاً

وأنساعاً

وأشلاء

مُدْنَفٍ

بَرَى جَسْمَهُ طَوْلاً

السُّرَى فِي

المخاوفِ

فَرُخْنَا كَمَا

رَاحَتْ قَطَاةٌ

تَنَوَّرَتْ

لأزْعَبَ مُلْقَى بَيْنَ

عُجْرٍ صَفَاصِفٍ

ترى الطير

واليربوع

يبحثن وطأها

وينقرنَ وطء

المنسم

المتقائفِ

وقال ابن الأعرابي، وهو الذي أنشدنيهِ: ترى الطير
واليربوع يعني أنهما يبحثان في أثر خُفِّها ملجأ يلجآن
إليه، إمَّا لشدَّة الحر، وإمَّا لغير ذلك، وأنشد أصحابنا عن
بعض الأعراب وشعرائهم أنَّه قال في أمه:

فما أمّ الرّدين
وإن أدلتّ

بعالمةٍ بأخلاقِ
الكرامِ

إذا الشّيطان قصّع
في قفاها

تنفّقتاه
بالحبّل
التّوامِ

يقول: إذا دخل الشّيطان في قاصعاء قفاها تنفقتاه، أي
أخرجناه من النافقاء، بالحبّل المنثّى، وقد مثّل وقد أحسن
في نعت الشّعْر وإن لم يكن أحسن في العُقوق، وأنشد في
قوس:

لا كزّة السّهم
ولا قلوغ

يدرُج تحت
عجسها اليربوعُ

القلوع من القسي: التي إذا نُزِع فيها انقلبت على كفّ
النازع، وأما قوله: وأما قوله:

تخالُ به السّمع الأزلّ
كأنّه

إذا ما
عدا

قيام الذئب بشأن جراء الضبع ويقولون: إن الضبع إذا
هلكت قام بشأن جرائها الذئب وقال الكُميت:

كما خامرت في
حضانها أم
عامر
لذي الحبل حتى
عال أوس
عياها

وأنشد أبو عبيدة في ذلك شعراً فسّر به المعنى، وهو
قوله:

والذئب يغذو
بنات الديخ
نافلة
بل يحسب الذئب
أن النجل للذئب

يقول: لكثرة ما بين الذئب والضباع من التسافد يظن
الذئب أن أولاد الضبع أولاده.
أكل الأعراب للضباع والحشرات والأمر في الأعراب
عجب في أكل السباع والحشرات، فمنهم من يظهر
استطابتها، ومنهم من يفخر بأكلها، كالذي يقول:

جَوَارَ عَدِيٍّ
يَأْكُلُ
الْحَشْرَاتِ

أَيَا أُمَّ عَمْرٍو وَمَنْ
يَكُنْ عَقْرُ دَارِهِ

ما تحبه الأفاعي وما تبغضه وأما قوله:

لَكِنَّمَا يُعْجِبُهَا
الْخَمْرُ

لَا تَرُدُّ الْمَاءَ
أَفَاعِي النَّقَا

إِذَا عَلَا وَاخْتَدَمَ
الْهَجْرُ

وَفِي دُرَى
الْحَرْمَلِ ظِلٌّ

فإن من العجب أن الأفعى لا ترد الماء ولا تريده، وهي مع هذا إذا وجدت الخمر شربت حتى تسكر حتى ربما كان ذلك سبب حتفها.

والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح، وتستريح إلى نبات الحرمل، وأما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلاً. أكل بعض الحيوان لبعض وأما قوله:

وبعضها طَعْمٌ
لبعض كما

أعطى سهام
الميسر القمر

فإن الجرد يخرج يلتمس الطعم، فهو يحتال لطعمه، وهو يأكل ما دونه في القوة، كنعو صغار الدواب والطيور، وبيضها وفراخها، ومما لا يسكن في جحر، أو تكون أفاحيصه على وجه الأرض، فهو يحتال لذلك، ويحتال لمنع نفسه من الحيات ومن سباع الطير. والحية تريغ الجرد لتأكله، وتحتال أيضاً للامتناع من الورل والقنفذ، وهما عليه أقوى منه عليهما، والورل إنما يحتال للحية، ويحتال للثعلب، والثعلب يحتال لما دونه.

قال: وتخرج البعوضة لطلب الطعم، والبعوضة تعرف بطبعها أن الذي يعيشها الدم، ومتى أبصرت الفيل والجاموس وما دونهما، علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاءً، فتسقط عليهما وتطعن بخرطومها، ثقةً منها بنفوذ سلاحها، وبهجومها على الدم. وتخرج الذبابة ولها ضروب من المطعم، والبعوض من أكبرها صيدها وأحب غذائها إليها، ولولا الذبان لكان

ضررُ البعوضِ نهاراً أكثر.
وتُخرجُ الوَزْعَةَ والعنكبوت الذي يقال له الليث فيصيدان
الدُّبابَ بِالطَّفِ حَيْلَةً، وأجود تدبير، ثم تذهب تلك أيضاً
كشأن غيرهما.
كأنه يقول: هذا مذهبٌ في أكل الطيبات بعضها لبعض،
وليس لجميعها بُدٌّ من الطعم، ولا بدّ للصائد أن يصطاد،
وكلُّ ضعيفٍ فهو يأكلُ أضعف منه، وكلُّ قويٍّ فلا بدّ أن
يأكله من هو أقوى منه، والنَّاسُ بعضهم على بعض
شبيهة بذلك، وإن قصرُوا عن دَرَكِ المقدار، فجعل الله عزَّ
وجلَّ بعضها حياةً لبعض، وبعضها موتاً لبعض.
شعر للمنهال في أكل بعض الحيوان لبعض وقال
المنهال:

وخرقٍ يلعبُ فوقَ التُّرابِ

مُخلوئِكَ البقَّة مثل الحباب

وظالم

قد ضجَّ منه حشراتُ الشَّعَابِ

يَعْدُو على ظالمٍ

ووثبة من

وَعَضَرَ فُ

وهذان الظَّالمان اللذان عنى: الأسود، والأفعى، فإنَّ
الأسود إذا جاع ابتلع الأفعى.
أكل الأسود للأفاعي وشكا إليَّ حَوَاءً مرةً فقال: أفقرني
هذا الأسود، ومنعني الكسب، وذلك أن امرأتي جهلت
فرمت به في جُونةٍ فيها أفاعي ثلاثٌ أو أربعٌ، فابتلعهنَّ
كلهن، وأراني حيَّةً مُنكرةً، ولا يبعد ما قال.
والعرب تقول للمسيء: أظلم من حيَّة، وقد ذكرنا ذلك في
موضعه من هذا الكتاب.
ولا يستطيع أن يروم ذلك من الأفعى إلا بأن يغتالها،
فيقبض على رأسها وقفاها، فإنَّ الأفعى تنفذ في الأسود،
لكثرة دمه.
وصف سم الحية وإذا وصفوا سمَّ الحية بالشدة والإجهاز
خبروا عنها أنه لم يبقَ في بدنِها دمٌ ولا بِلَّة، ولذلك قال
الشاعر:

ولو تَكَنَّفَهُ
الراقون ما
سَمِعَا

لو حُزَّ ما
أُخرجت منه يدٌ
بِلاَّ

وقال آخر:

لَمِيمَةٌ مِنْ
حَنْشٍ أَعْمَى
أَصَمِّ

قَدْ عَاشَ حَتَّى
هُوَ مَا يَمْشِي بِدَمِّ

سلاح الحيوان والشأن في السلاح أنه كلما كان أقلّ كان
أبلغ، وكلما كان أكثر عدداً وأشدّ ضرراً كان أشجع وأخذ
لكلّ من عرف أنه دونه، وأنشد أبو عبيدة:

لَهُ سِلَاحَانِ
أَنْيَابٌ
وَأظْفَارُ

مَشَى السَّبَبَتَى إِلَى
هَيْجَاءٍ مُفْطَعَةٍ

كالأسد له فم الذئب - وحسبك بغم الذئب - وله فضل قوة
المخالب، وللنسر منسر وقوة بدن يكون بهما فوق
العقاب، ولذلك قال ابن منذر:

نُيُوباً وَأظْفَاراً
وَعِرْساً وَأشْبُلًا
وَلَمْ يَتَّخِذْ عِرْساً

أَتَجْعَلُ لَيْثاً ذَا
عَرِينٍ تَرَى لَهُ
كَآخِرِ ذَا نَابٍ

حديِدٍ ومِخْلَبٍ

ولم يَحْمِ مَعْقِلًا

وذلك أن فتيةن تواجنا بالخناجر، أحدهما صُبيريّ والآخر كلبِيّ، فحُملا إلى الأمير، فضرب الصُّبيريّ مائة سوط، فلم يحمدوا صبره، وشغل عن الكلبِي فضربه يوم العَرَضِ خمسمائة سوط، فصبر صبراً حَمِدوه، ففخر الكلبِيّ بذلك على الصُّبيريّ.

وابن منذر مولى سُليمان بن عبيد بن علان بن شماس الصُّبيريّ، فقال هذا الشعر، ومعناه أن شجاعاً لو لقي الأسد وهو مسلّح، بأرضٍ هو بها غريبٌ وليس هو بقرب غيضةٍ وأشباله، لما كان معه، مما يتخذه، مثل الذي يكون معه في الحال الآخريّ، يقول: وإنما صبرَ صاحبكم لأنّه إنما ضُربَ بحضرة الأكفاء والأصدقاء والأعداء، فكان هذا مما أعانه على الصُّبر، وضُربَ صاحبنا في الخلاء، وقد وُكل إلى مقدار جودة نفسه، وقطعت المادةُ بحضور البطالة.

حمدان وغلّامه وسمعتُ حمدانَ أبا العقب، وهو يقولُ لِعِلام له، وكيف لا تستطيل عليّ وقد ضربوك بين الناسِ خمسِينَ سوطاً فلم تنطق؟ فقلت: إذا ضربه السَّجانُ مائة

قناة في مكانٍ ليس فيه أحدٌ فصبرَ فهو أصبرُ الناسِ.
تفسير بيت الخنساء وأما قوله: مشي السبنتي، فإن
السبنتي هو النمر، ثم صار اسماً لكلِّ سبعٍ جريءٍ، ثم
صاروا يسمُّون الناقةَ القويةَ سبنتاةً، قال الشاعرُ:

مَشْيِ السَّبْنَتِي وَجِدِ السَّبْنَتِي

رؤساء الحيوان وأما قوله:

والليث رأسٌ
وله الأسرُ

وتمسح النبل
عقاب الهوا

إلا بما ينتقضُ
الدَّهْرُ

ثلاثة ليسَ لهمُ
غالبٌ

فإنهم يزعمون أنَّ الهواءَ للعقاب، والأرضُ للأسد،
والماءُ للتمساح، وليس للنَّارِ حظٌّ في شيءٍ من أجناس
الحيوان: فكأنَّه سلَّم الرياسةَ على جميع الدُّنيا للعقاب
والأسد والتمساح؛ ولم يمدَّ الهواءَ، وقصُر الممدود
أحسنُ من مدِّ المقصورِ.
رواية المعتزلة للشعر وروت المعتزلة المذكورون كلُّهم

رواية عامّة الأشعار، وكان بشرُّ أرواهم للشعر خاصّة.
الهوائي والمائي والأرضي من الحيوان وقولهم: الطائر
هوائي، والسمك مائي، مجازُ كلام، وكلُّ حيوان في
الأرض فهو أرضيُّ قبل أن يكون مائياً أو هوائياً؛ لأنَّ
الطائر وإن طار في الهواء فإنَّ طيرانه فيه كسباحة
الإنسان في الماء، وإنما ذلك على التكلف والحيلة، ومتى
صار في الأرض ودلّى نفسه لم يجد بُدّاً من الأرض.
بقية قصيدة بشر الأولى وأما بقية القصيدة التي فيها
ذكر الرافضة والإباضية والنّابتة فليس هذا موضع
تفسيره.

وسنقول في قصيدته الأخرى، بما أمكننا من القول إن
شاء الله تعالى.
انقضت قصيدة بشر بن المعتمر الأولى.

تفسير القصيدة الثانية

وأما قوله:

أوابد الوحش وأحناشها

فإن الأوابد المقيمة، والأحناشُ الحيات، ثم صار بعدُ
الضبُّ والورلُّ والحرباءُ والوحرةُ وأشباه ذلك - من
الأحناشِ.
وأما قوله:

خيرٌ كثيرٌ عند
مَنْ يدري

وكَلَّها شرٌّ
وفي شرِّها

يقولُ: هي وإن كانت مؤذيةً وفيها قوائل فإن فيها دواءً،
وفيها عبرةٌ لمن فكَّر، وأذاها محنةٌ واختبارٌ، فبالاختبار
يطيع الناسُ، وبالطاعة يدخلون الجنةَ.
وسئلَ علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، غير مرَّةٍ في
عللِ نالته فقيل له: كيف أصبحت؟ فقال: بشرٌّ، ذهبَ إلى
قوله عزَّ وجلَّ: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ".
وأما قوله:

كالدُّبِّ والثَّعَلْبِ
والدَّرِّ

فَشَرُّهُمْ أَكْثَرُهُمْ
حِيلَةً

فقد فسره لك في قوله:

والليث قد بلّده
علمه

بما حوى من
شدة الأسر

وهكذا كلُّ من وثق بنفسه، وقلّت حاجته.
ويزعم أصحاب القنص أنّ العقاب لا تكادُ تراوغ الصيّد
ولا تعاني ذلك، وأنّها لا تزال تكونُ على المرقبِ العالي،
فإذا اصطاد بعضُ سباع الطير شيئاً انقضّت عليه فإذا
أبصرها ذلك الطائرُ لم يكن همه إلا الهرب وترك صيده
في يدها، ولكنها إذا جاعت فلم تجدُ كافياً لم يمتنع عليها
الدئبُ فما دونه، وقد قال الشاعرُ:

مُهَبِّلٌ ذئبها
يوماً إذا قَلَبَتْ

إليه من مُسْتَكَفِّ
الجوّ حملاقا

وقال آخر:

كأثها حين
فاض الماءُ
واحتملت

صقعاءً لآح لها
بالقفرة الدئبُ

إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى
الْأَشْقَيْنِ
مَصِيبٌ

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ
تَنْصَبْ مِنْ أُمَّم

وَأَمَّا قَوْلُهُ:

فِي الْأَسْرِ
وَالْإِلْحَاحِ
وَالصَّبْرِ

تَعْرِفُ
بِالْإِحْسَاسِ
أَقْدَارَهَا

يقول: لا يخفى على كلِّ سبعٍ ضعفه وتجلده وقوته،
وكذلك البهيمة الوحشية لا يخفى عليها مقدار قوة بدنها
وسلاحها، ولا مقدار عدوها في الكرِّ والفرِّ، وعلى أقدار
هذه الطبقات تظهر أعمالها.
وَأَمَّا قَوْلُهُ:

شَرٌّ مِنَ اللَّبْوَةِ
وَالنَّمْرِ

وَالضَّبُعِ الْغَثَاءِ
مَعَ نَيْخِهَا

صَاحِ فَجَاءَتْ

كَمَا تَرَى الذَّبَّ

إِذَا لَمْ يُطَقْ

رَسَلًا تَجْرِي

وَكُلُّ شَيْءٍ

يُحْجَمُ أَوْ يُقَدِّمُ

فَعَلَى قَدْرِهِ

أَوْ يَجْرِي

فَإِنَّ هَذِهِ السَّبَاعَ الْقَوِيَّةَ الشَّرِيفَةَ ذَوَاتِ الرِّيَاسَةِ: الْأُسْدَ
وَالنَّمُورَ وَالْبُبُورَ - لَا تَعْرِضُ لِلنَّاسِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَهْرَمَ
فَتَعْجِزَ عَنِ صَيْدِ الْوَحْشِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَا جَوْعٌ شَدِيدٌ
فَمَرَّ بِهَا إِنْسَانٌ لَمْ تَعْرِضْ لَهُ، وَلَيْسَ الدَّنْبُ كَذَلِكَ، لِأَنَّ
الدَّنْبَ أَشَدَّ مَطَالِبَةً، فَإِنْ خَافَ الْعِجْزَ عَوَى عَوَاءَ اسْتِغَاثَةٍ
فَتَسَامَعْتَ الدَّنَابَ وَأَقْبَلْتِ، فَلَيْسَ دُونَ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ
شَيْءٌ.

وَقَسَمَ الْأَشْيَاءَ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ نَكُوصٌ وَتَأَخَّرٌ، وَفِرَارٌ،
وَإِحْجَامٌ وَلَيْسَ بِفِرَارٍ وَلَا إِقْدَامٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَالْعَنْدَلِيلُ

الْفَرْخُ

كَالنَّسْرِ

وَالكَيْسُ فِي

المَكْسَبِ شَمْلٌ لَهُمْ

فَالْعَنْدَلِيلُ طَائِرٌ أَصْغَرُ مِنْ ابْنِ تَمْرَةٍ، وَابْنُ تَمْرَةٍ هُوَ الَّذِي
يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي صِغَرِ الْجِسْمِ، وَالنَّسْرُ أَعْظَمُ سَبَاعٍ

الطَّيرِ وَأَقْوَاهَا بَدْنًا.
وقال يونسُ النحويُّ وذكر خلفاً الأحمر فقال: يضربُ ما
بين العنديلِ إلى الكركيِّ، وقد قال فيه الشَّاعر:

لا عانساً يبقى
ولا مُحْتَلِمٌ

ويضربُ الكركي
إلى القنبرِ

وقال:

إيهاً إليك
تَحَذَرُنْ خَلْفُ

وبما أقولُ
لصاحبي
خلفِ

من دُونِ قَلَّةِ
رأسِهِ شَعْفُ

فلو أنّ بيتك
في ذرى عِلْمِ

إن لم يكن لي
عنه مُنْصَرَفُ

لخشيتُ قدرك
أن يبيتها

وفي المثل: كلُّ طائرٍ يصيدُ على قَدْرِهِ.
كسب الذئب وخبثه وأمَّا قوله:

والفيلُ والأعلمُ
كالوَبْرِ

والخُد كالدُّبِ
على كَسْبِهِ

فإنَّه يقالُ: أَعْدِرُ من ذَنْبٍ وَأُخْبِثُ من ذَنْبٍ، وأَكْسِبُ من
ذَنْبٍ، على قول الآخر:

أَكْسِبُ لِلْخَيْرِ مِنَ الذَّنْبِ الْأَزَلِّ

والخير عنده في هذا الموضع ما يُعِيش وَيُقَوِّت، والخير
في مكانٍ آخر: المالُ بِعَيْنِهِ على قوله عَزَّ وَجَلَّ: "إِنْ تَرَكَ
خَيْراً الْوَصِيَّةَ"، وعلى قوله: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ"،
أي إنَّه من أَجْلِ حُبِّ المالِ لِبُخِيلٍ عَلَيْهِ، ضنين به، متشدّد
فيه.

والخير في موضعٍ آخر: الخصب وكثرة المأكول
والمشروب، تقول: ما أَكْثَرَ خَيْرِ بَيْتِ فلان، والخير
المحض: الطَّاعَةُ وسلامة الصدر.
وأما قولهم: أُخْبِثُ من ذَنْبٍ حَمَرَ فَعَلَى قول الرَّاجِزِ:

إِذْ أَنَا بِالْغَائِظِ
أَسْتَعِيثُ

أَمَا أَتَاكَ عَنِّي
الْحَدِيثُ

والذئبُ وسط
أعزري يعيثُ

وصحْتُ
بالغائطِ يا
خبِيثَ

وقالوا في المثل: مُستودع الذئب أظلم.
الخد والخُد دويبةٌ عمياءُ صماءُ، لا تعرف ما يدنو منها
إلا بالشَّمِّ، تخرُج من جُحرها، وهي تعلم أن لا سمع ولا
بصر لها، وإنما تشحها فاهها، وتقفُ على باب جُحرها
فيجيء الذُّباب فيسقط على شدقها ويمرُّ بين لحييه فتسدُّ
فمها عليها وتستدخلها بجذبة النفس، وتعلم أن ذلك هو
رزقها وقسمها، فهي تعرض لها نهاراً دون الليل، وفي
الساعات من النهار التي يكون فيها الذباب أكثر، لا تفرط
في الطلب، ولا تقصر في الطلب، ولا تخطئ الوقت، ولا
تغلط في المقدار.

وللخد أيضاً ترابٌ حوالي جُحره، هو الذي أخرج من
الجر، يزعمون أنه يصلح لصاحب النُّقرس إذا بلَّ
بالماء وطلّي به ذلك المكان.
الأعلم وأما قوله:

والفيل والأعلم كالوبر

فالفيل معروف، والأعلم: البعير، وبذلك يسمّى، لأنّه أبداً مشقوق الشّفة العليا، ويسمّى الإنسان إذا كان كذلك به. ويدلُّ على أن الأعلم والبعير سواء قولُ الراجز:

إني لمن أنكر
أو توسّما
أخو خناثير أقود
الأعلما

وقال عنتره:

وحليل غانية
تركتُ مجدلاً
تمكّو فريصته
كشدق الأعلم

يريد شدق البعير في السعة، وقال الآخر:

كم ضربة لك
تحكي فاقراسية
من المصاعب
في أشداقه علم

بعض ما قيل من الشعر في صفة الضرب والطعن وقال
الكميت:

مَشَايِرَ قَرْحَى أَكْلَنَ الْبَرِيرَا

وقال آخر:

طُرُوقَتَهُ
وَيَأْتِنْفُ
السَّفَادَا

بِضَرْبٍ يُلْقَحُ
الصَّبْعَانُ مِنْهُ

وقال الشاعر الباهلي:

وِطْعَنٍ كَايِزَاغٍ
الْمَخَاضِ تَبُورُهَا

بِضَرْبِ كَأَذَانَ
الْفِرَاءِ فُضُوئُهُ

كأنه ضرب به بالسيف، فعلق عليه من اللحم كأمثال آذان الحمير.

وقال بعض المحدثين، وهو ذو اليمينين:

قَدْ بَانَ عَنِ
مَنْكِبِهِ الْكَاهِلُ

وَمَقْعَصِ
تَشَخَّبُ أَوْدَاجُهُ

يمشي بها

فصار ما

الرَّامِحُ وَالنَّابِلُ

بينهما هُوَّةٌ

وفي صفات الطَّعنة والضَّرْبَة أنشدني ابنُ الأعرابيِّ:

فسهَّلْ مأوى
ليُلبَّها بالكلِّ

تمنَّى أبو
اليقظانِ عندي
هَجْمَةً

وضربِ كاشداقِ
الفِصالِ الهوازِلِ

ولا عَقْلَ عندي
غيرِ طعنِ
نوافذِ

كوقعِ الهضابِ
صدَّعتْ
بالمعاوِلِ

وسبَّ يود
المرءُ لو ماتَ
دُونَهُ

وقل الآخر:

تري قائماً من
خلفها ما وراءها

جمعتُ بها كفي
فأنهزتُ فنقها

وقال البعيث:

تَلَاعاً مِنْ
الْمَرْوَاتِ أَخْوَى
جَمِيمِهَا

عَلَى الرَّأْسِ
يَكْبُو لِلْيَدَيْنِ
أَمِيمِهَا

أَنَامِلُ آسِيهَا
وَجَاشَتْ
هُزُومِهَا

تَنْوُحُ وَقَدْ وَقَعَ
الْمِهْدَمُ

وَقَدْ غَابَتِ الْكَفُّ
وَالْمَعْصَمُ

أَنْ أَمْرَعْتُ
مِعْزَى عَطِيَّةٍ
وَارْتَعْتُ

تَعَرَّضْتُ لِي حَتَّى
ضَرَبْتُكَ ضَرْبَةً

إِذَا قَاسَهَا الْآسِي
النَّطَاسِيَّ
أُرْعِشْتُ

وقال الآخر:

وَنَائِحَةٌ رَافِعٍ
صَوْتُهَا

تَنْوُحُ
وَتُسْبِيرُ
فَلَّاسَةٌ

وقال آخر:

فِ قَدْ قَطَعَ
الْحَبْلَ بِالْمِرْوَدِ

وَمُسْتَنَّةٍ كَاسْتِنَانِ
الْخُرُو

سِ نَجْلَاءَ
مُؤَيَّسَةَ الْعُودِ

دَفُوعِ الْأَصَابِعِ
ضَرْحِ الشَّمُو

وقال محمد بن يسير:

أَفْرِعَ مِنْ
ثَعْبِ الْحَاجِرِ

وَطَعَنَ خَلِيصِ
كَفْرَعِ النَّضِيحِ

تَرَدُّ السَّبَّارِ
عَلَى السَّابِرِ

تَهَالُ الْعَوَائِدُ مِنْ
فَتْقِهَا

وأنشدوا لرجلٍ من أزدِ شنوءة:

يَقْطَعُ أَحْشَاءَ
الْجَبَانِ شَهيقَهَا

وَطَعَنَ خَلِيصِ قَدْ
طَعْنَتْ مُرِشَّةً

تَقْطَعُ أُمَّ السُّكْرِ

إِذَا بَاشَرُوهَا

بِالسَّبَّارِ تَقَطَّعَتْ

شَيْبَ عَقُوقِهَا

وَرَوَى لِلْفِنْدِ الزَّمَانِي وَلَا أَظُنُّهُ لَهُ:

كَفَفْنَا عَنْ بَنِي

وَقَلْنَا الْقَوْمَ

هِنْدٍ

إِخْوَانُ

عَسَى الْأَيَّامُ

جَمِيعاً كَالَّذِي

تَرْجِعُهُمْ

كَانُوا

فَلَمَّا صَرَخَ

وَأَضْحَى وَهُوَ

الشَّرُّ

عَرِيَانُ

شَدَدْنَا شِدَّةَ

عَدَا وَاللَّيْثِ

اللَّيْثِ

غَضْبَانُ

بِضَرْبٍ فِيهِ

وَتَوْهِينٌ

تَفْجِيعٌ

وَإِرْنَانُ

وَطَعَنَ كَفَمَ

وَهِيَ وَالزَّقَّ

الزَّقَّ

مَلَانُ

وأنشد السُّدِّيُّ لرجل من بلحارث:

أُتيت المحرم في رحله	فشمرَ رحلي بعنسٍ خبوبٍ
تذكر مني خطوباً مضت	ويومَ الأباءِ ويومَ الكثيبِ
ويومَ خزازٍ وقد أجموا	وأشرطت نفسي بأن لا أثوب
ففرجتُ عنهم بنفاحةٍ	لها عائدٌ مثلُ ماءِ الشعيبِ
إذا سبروها عوى كلبها	وجاشتُ إليهم بأنٍ صبيبٍ

وقال آخر:

طعنة ما طعنتُ في جمحِ الدِّ	مَ هلالٍ وأين منِّي هلالٌ
--------------------------------	------------------------------

نجم الرمحُ
خلفه كالخلال

طعنة الثائر
المصمم حتى

وقال الحارث بن حنّزة:

ل ولا ينفعُ
الذليلَ النجاءُ

لا يقيم العزيز
بالبلدِ السه

قرظيٌّ كأنه
عبلاءُ

حولَ قيسٍ
مستلّمين
بكبشٍ

رجُ من خربة
المزادِ الماءُ

فرددناهم
بضربِ كما يخ

وما إن
للحائنين دماءُ

وفعلنا بهم كما
علم الله

وقال ابن هرّمة:

يَوْمَ اللّقاءِ وكلّ

بالمشرفيّة
والمظاهر

نَسْجُهَا

وَرَدٍ صَاهِلٍ

وبكلّ أَرْوَعٍ
كالحرّيقِ مُطَاعِنٍ

فمسايفٍ
فمعانقٍ
فمُنَازِلٍ

ويروى: فمعاذل.

الإفراط في صفة الضرب والظعن وإدّ قد ذكرنا شيئاً من
الشّعْر في صفة الضرب والظعن فقد ينبغي أن نذكر
بعض ما يشاكل هذا الباب من إسرافٍ من أسْرَفٍ،
واقْتِصَادٍ من اقتصد، فأما من أفرط فقول مُهْلَهْل:

فلولا الرِّيحُ
أُسْمِعُ مَنْ بحجْرٍ

صليلَ البيضِ
تُفْرَعُ بالدُّكُورِ

وقال الهذلي:

والظعن
شَعْشَعَةٌ
والضَّرْبُ

ضَرْبَ المعوّلِ
تحت الدَّيْمَةِ
العضدا

هَيْقَعَةٌ

حِسَّ الْجَنُوبِ
سُوقِ الْمَاءِ
وَالْقَرْدَا

وَالْقَسِيَّ
أَزَامِيلُ
وَعَمْعَمَةٌ

ومن ذلك قول عنترَةَ:

بِاللَّيْلِ مُعْتَسِّ
السَّبَاعِ الضَّرَمِ

بِرَحِيبةِ الْفَرَّغِينَ
يَهْدِي جَرَسُهَا

وقال أبو قيس بن الأسلت:

أَطَعَمُ نَوْمًا
غَيْرَ تَهْجَاعِ

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ
رَأْسِي فَمَا

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

رُكُوبِي فِي
الصَّرِيخِ إِلَى
الْمَنَادِي

أَعَاذِلُ إِنَّمَا
أَفْنَى شِبَابِي

مع الفتيان
حتى خلّ
جسّمي

وأفرح عاتقي
حمل النّجادِ

ومّا يدخلُ في هذا الباب قولُ عنترَةَ:

رُعْناهم والخيلُ
ترْدي بالقنا

وبكلّ أبيضِ
صارمِ قصّالِ

وأنا المنيّة في
المواطنِ كلّها

والطّعنُ منّي
سابقُ الآجالِ

وأما قوله:

إنّ المنيّة لو
تُمتلّ مُتلتّ

متلّي إذا نزلوا
بِضنكِ المنزلِ

وقال نهشل بن حرّيّ:

وما زال رُكني
يرتقي من

وفارسُ هيجا
ينفض الصدرِ

ورائه

واقف

فوصف نفسه بأنه مجتمع القلب، مرير لا يبرح.
وقد كان حميد بن عبد الحميد يوصف بذلك، لأنه كان لا
يرمي بسهم، ولا يطعن برمح، ولا يضرب بسيف، ولكن
التصبير والتَّحريض والثَّبات، إذا انهزم كلُّ شجاع من
نذر في حمية المقتول نذراً فبلغ في طلب تأره الشفاء.
قال العبسي:

لَنَلْقَى مِنْقَرًا أَوْ

عَبْدَ عَمْرٍو

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ

أَدْرَكَتُ وَتِرِي

دَعَوْتُ اللَّهَ إِذْ

قَدْنَا إِلَيْهِمْ

وَكَانَتْ حَلْفَةً

حُلِفْتُ لِوَتْرٍ

بِقُرَوشِ بْنِ
حَارِثَةَ بْنِ صَخْرِ

وَإِنِّي قَدْ سَقَمْتُ
فَكَانَ بُرْنِي

والأعرابُ تعدُّ القتلَ سُقماً وداءً لا يبرئه أخذُ ثأره دون
أخٍ أو ابنِ عمٍّ، فذلك الثأرُ المنيم.
وممن قال في ذلك صبار بن التوعم اليشكري، في طلب
الطائفة وأن ذلك داءٌ ليس له بُرء، وكانوا قتلوا أخاه
إساف بن عباد، فلما أدرك ثأره قال:

شفاني من الداءِ
المُخامرِ شافِ

صحيح الأديم
بَعْد داءِ إسافِ

كشفتُ قناعي
واعتطفتُ
عطافي

ألم يأتها أني
صحوْتُ
وأني

فأصبحتُ طبيباً
مطلقاً من
حِبالةِ

وكنتُ مغطى
في قناعي
حِقبةً

وفي شبيهه بهذا المذهب من ذكر الداءِ والبُرء قال الآخر:

إِن الشَّبَابَ
جُنُونٌ بُرْؤُهُ
الكِبَرُ

قَالَتْ عَهْدَتِكَ
مَجْنُونًا فَقُلْتُ لَهَا

وفي شبيهه بالأول قول الشيخ الباهليّ، حين خرج إلى
المبارزة على فرسٍ أعجميّ، فقالوا: بالٍ على بالٍ، فقال
الشيخ:

على بالٍ ولم
يعرف بلاني

رَأَيْتِ الأَشْعَرِيَّ
فَقَالَ بَالٍ

فآبَ بدائه
وشقيتُ دائي

ومثلك قد كسرتُ
الرُّمَحَ فيه

وقالت بنت المنذر بن ماء السماء:

فكان قسيمُها
خيرَ القسيم

بعين أباغ
قاسمنا المنايا

كذاك الرُّمَحُ
يَكْلَفُ بالكريم

وقالوا فارس
الهيّجاء قلنا

وقال الأسدي:

رفعنا طريفاً
بأرماحنا

وبالراح منا فلم
يدفعونا

فطاح الوشيظ
ومال الجموح

ولا تأكل الحرب
إلا السميننا

وقال الخريمي:

وأعدته دُخراً
لكلِّ مُلِمَّةٍ

وسهّم المنايا
بالذخائر مولع

وقال السموعل بن عاديا:

يقرب حُب الموتِ
أجالنا لنا

وتكرهه
آجالهم فتطول

لأنا أناس لا نرى
القتل سبباً

إذا ما
رأته عامراً
وسلولاً

وقال أبو العيزار:

شَلْوٌ تَنْشَبَ فِي
مخَالِبِ ضَارِي

يَدْنُو وَتَرْفَعُهُ
الرَّمَا حُ كَأَنَّهُ

إِنَّ الشَّرَاةَ
قَصِيرَةٌ الْأَعْمَارِ

فَتَوَى صَرِيحاً
وَالرَّمَا حُ تَنْوِشُهُ

وقال آخر وهو يُوصِي بِئُبُسِ السَّلَاحِ:

إِنَّ الرَّمَا حَ
بصِيرَةٌ بِالْحَاسِرِ

فَإِذَا أَتَيْتَكُمْ هَذِهِ
فَتَلَبَّسُوا

وقال الآخر:

كَلْنَا الْيَدَيْنِ
كَرُوراً عَيْرَ
وَقَافِ

يَا فَارِسَ النَّاسِ
فِي الْهَيْجَا إِذَا
شُعِلَتْ

قوله شُعِلَتْ يريد بالسيف والثرس، وأنشد أبو اليقظان:
وكان ضروباً باليدين وباليدِ أمَّا قوله: ضروباً باليدين،
فإنه يريد القِدَاحَ، وأمَّا قوله: باليد فإنه يريد السيف.

وأما قول حسّان لقائده حين قرّبوا الطّعام لبعض الملوك:
أطعام يدين أم يد؟ فإنه قال هذا الكلام يومئذ وهو
مكفوفٌ.

وإن كان الطّعام حَيْساً أو ثريداً أو حريرة فهو طعام يدٍ،
وإن كان شواءً فهو طعام يدين.
من أشعار المقتصدين في الشعر ومن أشعار المقتصدين
في الشّعْر أنشدني قطرب:

ذُتْ نَفْسِي عَلَى
ابن الصَّعِقِ

تَرَكْتُ الرِّكَابَ
لأربابها فَأَجَّةَ

وبعضُ
الفوارس لا
يعتنق

جَعَلْتُ يَدَيَّ
وَشاحاً لَهُ

وممن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابة، حيثُ يقول:

وضرّبي هامة
البطل المشيخ

وإقْدامي على
المكروهِ نَفْسِي

مَكَاتِكَ تُجْمَدِي
أَوْ تَسْتَرِيحِي

وقولي كَلِّمَا
جَشَأْتُ
وَجَاشَتْ

وقل آخر:

فَلَا تَرَهَّبِيه
وَانظُرِي كَيْفَ
يَرْكَبُ

وقلت لِنَفْسِي
إِنَّمَا هُوَ
عَامِرٌ

وقال عمرو بن مَعْدِ يَكْرِبُ:

جَدَاوِلُ زَرْعٍ
أُرْسِلَتْ
فَاسْتَبَطَّرَتْ

ولما رأيتُ
الْخَيْلَ زُورًا
كَانَهَا

فَرُدَّتْ عَلَيَّ
مَكْرُوهَهَا
فَاسْتَقَرَّتْ

فَجَاشَتْ إِلَيَّ
النَّفْسُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ

وقال الطائي:

أَمَكْنَ الضَّرْبُ
فَمَنْ شَاءَ ضَرْبُ

لَهْدُمَيَّاتٍ وَبَيْضُ
كَالشُّهُبِ

غَمْرَاتِ الْمَوْتِ
وَاخْتَارُوا الْهَرْبِ

نَهَزَ قَنَاءُ
سَمَهْرِيًّا طَوَالًا

أَحَبُّوا الْحَيَاةَ
فَوَلَّوْا شِلَالًا

وَدَنَوْنَا
وَدَنَوْا حَتَّى
إِذَا

رَكَضَتْ فِينَا
وَفِيهِمْ
سَاعَةٌ

تَرَوْا الْقَاعَ
لَنَا إِذْ
كَرَّهُوا

وَقَالَ النَّمْرُ بْنُ تَوْلَبٍ:

سَمَوْنَا لِيَشْكُرَ
يَوْمَ النَّهَابِ

فَلَمَّا التَّقِينَا
وَكَانَ الْجَلَادُ

وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ:

إِذَا أبيضَ من
هَوَلِ الطَّعَانِ
المسَالِحِ

عنها ولكني
تضايقَ مُقَدِّمِي

من الأبطالِ
ويحكِ لا تُراعي

سوى الأجلِ الذي
لكِ لم تُطاعي

هُم المَقْدِمُونَ
الْخَيْلَ تَدْمِي
نُحُورَهَا

وقال عنتره:

إِذْ يَتَّقُونَ بي
الأسِنَّةَ لم أحمِ

وقال قَطْرِيُّ بنُ الفُجاءة:

وقولي كلما
جشأتُ
لنفسي

فإنكِ لو
سألتِ حياةَ
يومٍ

وقالت الخنساء:

غداة الكريهة
أبقى لها

يُهينُ النفوس
وهون النفوس

وقال عامر بن الطفيل:

أقلى المراح
إنني غيرُ مُقصر

أقولُ لنفسي لا
يجادُ بمثلها

وقال جرير:

أو نازلوا
عانقوا الأبطال
فاهتصروا

إن طارذوا
الخيال لم يشؤوا
فوارسها

وقال ابن مقروم الضبي:

أعطاك ثائبة
ولم يتعلل

وإذا تعلل
بالسياط جياذها

وعلام أركبة
إذا لم أنزل

فدعوا نزال
فكنت أول نازل

وقال كعب الأشقري:

وللكرب فيهم
والخصاصة
فاسحُ

إذا انفرجت من
بعدهنّ
الجوانح

أشاطينُ بئرٍ
هيجتها
المواتحُ

هنالك في جمع
الفريقين رانحُ

ودارت على
هامِ الرجالِ

إليهم وفيه
منتهى الحزم
والندی

ترى علقاً تغشى
النقوش
رشاشه

كأن القتا الخطى
فينا وفيهم

هناك قذفنا
بالرماح
فمائلٌ

ودرنا كما دارت
على قطبها

الرحى

الصفائح

وقال مهلهل:

ودلّفنا بجمعنا

بان إن الخليل

لبني شَيّ

يبغي الخليلاً

لم يُطيقوا أن

وأخو الحرب من

ينزلوا ونزلنا

أطاق النزولا

وقال عبدة، وهو رجلٌ من عبد شمس:

ولما زجرنا

كما خاضت

الخيْلَ خاضتْ

البُزْلُ النَّهَاءَ

بنا القنا

الطّواميا

رمّونا برشق

ورَدْن فأنكرن

ثمَّ إنَّ سيوفنا

القبيل المراميا

ولم يكُ يثني

إذا ما عقدنا

النَّبلُ وقعُ

للجلادِ

سُيُوفِنَا

النَّوَاصِيَا

في ذكر الجبن ووهل الجبان قال الله عزَّ وجلَّ: "يَحْسَبُونَ
كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ"، ويقال إن جريراً من هذا أخذ قوله:

ما زلتَ تحسبُ كُلَّ
شيءٍ بعدَهُمُ

خيلاً تكرُّ
عليكم
ورجالاً

وإلى هذا ذهب الأول:

ولو أنّها
عصفورةٌ
لحسبتها

مُسَوِّمَةٌ تدعو
عبيداً وأزناً

وقال جرّان العود:

يومَ ارتحلت
برحلي قبل
برذعتي

والقلبُ مُستَوهِلٌ
للبيّنِ مشغولٌ

إِثْرُ الْحُمُولِ
الغَوَادِي وَهُوَ
مَعْقُولٌ

ثُمَّ اغْتَرَزْتُ
عَلَى نِضْوَى
لِيَحْمَنِي

وهذا صفة وهل الجبان، وليس هذا من قوله:

وَقَادَ الْجِيَادَ
بَأَذْنَابِهَا

كَمَلَقِي الْأَعْنَةَ
مِنْ كَفِّهِ

وقال الذكواني أو زمرة الأهوازي، ففسر ذلك حيث
يقول:

عَادِيًا فَوْقَ
طَرْفِهِ الْمَشْكُولِ

يَجْعَلُ الْخَيْلَ
كَالسِّفِينِ وَيَرْقَى

لأنهم ربّما تتادوا في العسكر: قد جاؤوا، ولا بأس
فيُسرج الفارس فرسه وهو مشكولٌ ثم يركبه ويحثُّه
بالسَّوط، ويضربه بالرَّجل، فإذا رآه لا يُعْطيه ما يريدُ نزل
فأحضر على رجليه، ومن وهل الجبان أن يُذهل عن
موضع الشَّكال في قوائم فرسه، وربما مضى باللَّجام إلى
عَجَب ذنبه، وهو قوله: يجعل الخيل كالسفين لأنَّ لجام

السفينة الذي يغمزها به والشكال هو في الذنب.
وقال سهل بن هارون الكاتب في المنهزمة من أصحاب
ابن نهيك بالنهروان من خيل هرثمة بن أعين:

بأن ظهور الخيل
أدنى من العطب

يُخِيلُ
للمهزوم
إفراط روعه

لأن الجبن يريه أن عدوه على رجليه أنجي له، كأنه يرى
أن النجاة إنما تكون على قدر الحمل للبدن. وقال آخر
حين اغتلت عليه قومه في القتال بالورع:

سواهم من جميع
الناس إنسانا

كأن ربك لم
يخلق
لخشيته

وقال آخر:

على الخائف
المطلوب كفة

كأن بلاد الله
وهي

عريضة

حَابِلِ

وقال الشاعر:

يروّعه السّرارُ

مخافة أن يكون

بكلّ أرضٍ

به السّرارُ

وأنشدني ابن رُحيم القراطيسي الشاعر ورمى شاطراً
بالجبين، فقال:

رأى في النّوم

فوارى نفسه

إنساناً

أشهز

ويقولون في صفة الحديد إذا أرادوا أنّه خالص، فمن ذلك
قول هميان:

يمشون في ماء الحديد تنكّبا

وقال ابن لجأ:

أخضر من ماء الحديد جُمجُم

وقال الأعشى في غير هذا:

وإذا ما الأَكْسُ
شبه بالأرُّ

وقال الأعشى:

وق عند الهيجا
وقلَّ البُصاقُ

إذ لا نقاتل
بالعصيِّ

وقال الأخطل:

ولا نرامي
بالحجاره

وما تركتُ
أسيافنا حينَ
جُرِّدَتِ

لأعدائنا قيس بن
عيلان من عُذر

وأنشد الأصمعيُّ للجعديّ:

وبنو فزارة
إنها

لا تُتَبِّثُ الحلبَ
الحلائبُ

يقول: لا تُتَبِّثُ الحلائبَ حلباً حتى تَهْزِمَهُمْ.
السندل وأماً قوله:

وطائر يسبح في جاحم

كماهر يسبح في عمّر

فهذا طائرٌ يسمّى سَنَدَل، وهو هِنْدِيّ، يدخل في أتون النَّار
ويخرج ولا يحترق له ريشة.

ذكر ما لا يحترق وزعم ثُمَامَة أن المأمون قال: لو أخذ
إنسانٌ هذا الطُّحلب الذي يكون على وجه الماء، في
مناقع المياه، فجفّفه في الظلّ وألقاه في النَّار لما كان
يحترق.

وزعموا أنّ الفلفل لا يضرّه الحرق، ولا الغرق، والطلق
لا يصير جمرًا أبداً، قال: وكذلك المَعْرَة.

فكانَ هذا الطَّائِرُ في طباعه وفي طباع ريشه مزاجٌ من
طلاء النَّفَاطِين، وأظنُّ هذا من طلق وخطميٍّ ومَعْرَة.
وقد رأيتُ عوداً يُؤْتى به من ناحية كِرْمان لا يحترق،
وكان عندنا نصرانيٌّ في عنقه صليبٌ منه، وكان يقول
لضعفاء الناس: هذا العود من الخشبة التي صلّب عليها
المسيح، والنَّار لا تعمل فيها، فكان يكتسب بذلك، حتّى
فُطن له وعورض بهذا العود.
الماهر وأما قوله:

كماهرٍ يسبحُ في عُمُرٍ

فالماهر هو السَّابِح الماهر وقال الأَعشى:

يَقْدِفُ بِالْبُوصِيِّ
والماهرِ

مِثْلَ الْفِرَاتِيِّ
إِذَا مَا طَمَا

وقال الربيع بن قَعْنَب:

ثَلَّ كَلْبِ الْمَاءِ فِي
يَوْمِ مَطْرٍ

وَتَرَى الْمَاهِرَ
فِي عُمُرَتِهِ

لِطَعَةِ الذَّنْبِ صَوْنَةَ السَّرْفَةِ وَالذَّبْرِ وَأَمَّا قَوْلُهُ:

وَصَنَعَةَ
السَّرْفَةِ وَالذَّبْرِ

وَلِطَعَةِ الذَّنْبِ
عَلَى حَسْنِهِ

قال: فَإِنَّ الذَّنْبَ يَأْتِي الْجَمْلَ الْمَيِّتَ فَيَفْضِي بِغَمْغَمَتِهِ،
فَيَعْتَمِدُ عَلَى حِجَاجِ عَيْنِهِ فَيُلْحَسُ عَيْنَهُ بِلِسَانِهِ حَسْنِيًّا،
فَكَأَنَّمَا قُوَّتْ عَيْنُهُ تَقْوِيرًا، لِمَا أُعْطِيَ مِنْ قُوَّةِ الرَّدَّةِ،
وَرَدُّهُ لِسَانَهُ أَشَدُّ مَرًّا فِي اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ مِنْ لِسَانِ الْبَقْرِ
فِي الْخَلْيِ.

فَأَمَّا عَضَّتُهُ وَمَصَّتُهُ فَلَيْسَ يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ عَظْمًا كَانَ أَوْ
غَيْرَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ بِالْغَا بِلَا مَعَانَاةٍ، مِنْ شِدَّةِ فَكِيهِ.
وَيَقَالُ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ سَبْعُ يَعْضُ عَلَى عَظْمٍ إِلَّا
وَلِ كَسْرَتِهِ صَوْتٌ بَيْنَ لِحْيَيْهِ، إِلَّا الذَّنْبُ، فَإِنَّ أَسْنَانَهُ
تُوصَفُ بِأَنَّهَا تَبْرِي الْعَظْمَ بِرِي السَّيْفِ الْمَنْعُوتِ بِأَنَّ
ضَرْبَتَهُ مِنْ شِدَّةِ مُرُورِهَا فِي الْعَظْمِ، وَمِنْ قَلَّةِ ثَبَاتِ الْعَظْمِ
لَهُ، لَا يَكُونُ لَهُ صَوْتٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ:

غَمُوضُ الصَّوْتِ
ضَرْبَتُهُ صَمُوتٌ

وَيُنْبِي نَخْوَةً
الْمَحْتَالِ
عَنِّي

وَلِذَلِكَ قَالُوا فِي الْمَثَلِ: ضَرْبُهُ ضَرْبَةٌ فَكَأَنَّمَا أَخْطَاهُ،
لِسُرْعَةِ الْمَرِّ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَوْتٌ.
وَقَالَ الرَّاجِزُ فِي صِفَةِ الذَّنْبِ:

فِي شِدْقِهِ
شَفْرَتُهُ وَنَارُهُ

أَطْلَسَ يَخْفِي
شَخْصَهُ غُبَارُهُ

وَسَنَاتِي عَلَى صِفَةِ الذَّنْبِ، فِي غَيْرِ هَذَا الْبَابِ مِنْ أَمْرِهِ
فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وأما ذكر صنعة السُرْفَةِ والدَّبْرِ، فإنه يعني حكمتها في
صنعة بيوتها، فإنَّ فيها صنعةً عجيبةً.
سمع القُرَاد والحِجْر وأما قوله:

أعجبُ ممَّا قيل
في الحِجْرِ

ومَسْمَع
القِرْدَانِ في
مَنْهَلٍ

فإنهم يقولون: أسمعُ مِنْ فَرَسٍ، ويجعلون الحِجْرَ فرساً
بلا هاء، وإنما يعنون بذلك الحِجْرَ، لأنها أسمع.
قال: والحِجْرُ وإن ضُرِبَ بها المثل، فالقُرَادُ أعجبُ منها،
لأنها تكون في المنهل فتُموج ليلة الوِرد، في وقت يكون
بينها وبين الإبل التي تريد الورود أميالاً، فتزعُم الأعراب
أنها تسمعُ رغاءها وأصوات أخفافها، قبل أن يسمعها
شيء.

والعرب تقول: أسمعُ مِنْ فُرَادٍ، وقال الرَّاجز:

أسمعُ مِنْ فَرْخِ العُقَابِ الأَسْحَمِ

ما في الجمَل من الأعاجيب وأما قوله:

مَرارة تُسَمِّعُ في
الدُّكْرِ

والمقرم المعلم
ما إن له

عِنْدَ حُدُوثِ
الموتِ والنَّحْرِ

وحصية تتصلُّ
من جوفه

شَقَشَقَةٌ مائِلة
الهذِرِ

ولا يرى
بعدهما جازراً

فهذا بابٌ قد غلط فيه من هو أغنى بتعرُّفِ أعاجيب ما
في العالم من بشرٍ.

ولقد تنازع بالبصرة ناسٌ، وفيهم رجلٌ ليس عندنا
بالبصرة أطيّبُ منه، فأطبّقوا جميعاً على أنّ الجمل إذا
نُحِرَ ومات فالتُّمست خُصِيته وشَقَشَقْتُهُ أنهما لا توجدان،
فقال ذلك الطيّب: فلعلّ مرارة الجمل أيضاً كذلك، ولعلّه

أن تكون له مرارةٌ ما دام حيّاً، ثمّ تبطل عند الموت
والنَّحر، وإنّما صرنا نقول: لا مرارة له، لأنّا لا نصلُّ إلى
رؤية المرارة إلّا بعد أن تفارقه الحياة، فلم أجد ذلك عمل
في قلبي، مع إجماعهم على ذلك، فبعثت إلى شيخ من
جزّاري باب المغيرة فسألته عن ذلك، فقال: بلى لعمري

إنهما لتوجدان إن أرادهما مريد، وإنما سمعت العامة
كلمة، وربما مزحنا بها، فيقول أحدهما: حُصية الجمل لا
توجد عند منحره أجلّ والله ما توجد عند منحره، وإنما
توجد في موضعها، وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق
خصيتاه بكلتيه، فلا توجدان لهذه العلة، فبعثت إليه
رسولاً: إنه ليس يشفيني إلا المعينة، فبعث إليّ بعد ذلك
بيوم أو يومين مع خادمي نَفيِس، بشقشقةٍ وحُصيةٍ.
ومثل هذا كثيرٌ قد يغلط فيه من يشتدُّ حرصه على حكاية
الغرائب.

ما في الفرس والثور من الأعاجيب وأما قوله:

أشاعهُ العالمُ
بالأمرِ

وليس للطرفِ
طحالٌ وقد

يعرفهُ الجازرُ
دُو الخبِرِ

وفي فؤادِ الثورِ
عَظْمٌ وقد

وليس عندي في الفرس أنه لا طحال له، إلا ما أرى في
كتاب الخيل لأبي عبيدة والنوادر لأبي الحسن، وفي
الشعر لبشر، فإن كان جوف الفرس كجوف البرذون،

فأهلُ خراسان من أهل هذا العسكر، يذبحون في كلِّ أسبوع عدَّة برادين.
وأما العظم الذي يوجد في قلب الثور فقد سمعنا بعضهم يقول ذلك، ورأيتُه في كتاب الحيوان لصاحب المنطق.
أعجوبة السمك وأما قوله:

وأكثرُ الحيتان أعجوبةً	ما كان منها عاشَ في البَحْرِ
إذ لا لسانٌ سُقي ملحُه	ولا دماغ السمك النهري

فهو كما قال: لأنَّ سمك البحر كلُّه ليس له لسانٌ ولا دماغ.

القواطع في السمك

وأصنافٌ من حيتان البحر تجيء في كلِّ عام، في أوقاتٍ معلومةٍ حتى تدخل دجلة، ثم تجوز إلى البطاح، فمنها الأسبور، ومنها البرستوك ووقته ومنها الجواف ووقته، وإنما عرِّفتُ هذه الأصناف بأعيانها وأزمانها لأنها أطيَّبُ

ذلك السمك، وما أشك أنّ معها أصنافاً آخر يعلم منها أهلُ
الأبلة مثل الذي أعلم أنا من هذه الأصناف الثلاثة.
كبد الكوسج وأما قوله:

وأكبّد تَظْهر في
ليها
ثمّ تواری آخر
الدَّهرِ

ولا يُسيعُ الطَّعمَ
ما لم يكنْ
مِزاجُه ماءً
على قدرِ

ليس له شيءٌ
لإزلاقه
سوى جِرابِ
واسعِ الشَّجْرِ

فإنّ سمكاً يقال له الكوسج غليظ الجلد، أجرد، يشبه
الجريّ، وليس بالجريّ، في جوفها شحمة طيبة، فإن
اصطادوها ليلاً وجدوها وإن اصطادوها نهاراً لم
يجدوها.

وهذا الخبر شائع في الأبلة، وعند جميع البحرّيين، وهم
يسمّون تلك الشحمة الكبد.

وأما قولهم: السمكة لا تسيع طعمها إلا مع الماء، فما
عند بشرٍ ولا عندي إلا ما ذكر صاحب المنطق، وقد

عَجِبَ بَشَرٌ مِنْ امْتِنَاعِهَا مِنْ بُلْعِ الطَّعْمِ، وَهِيَ مُسْتَنْقَعَةٌ
فِي الْمَاءِ، مَعَ سَعَةِ جِرَابِ فِيهَا.
وَالْعَرَبُ تَسْمِي جَوْفَ الْبَيْرِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى قَعْرِهِ جِرَابَ
الْبَيْرِ.

وَأَمَّا مَا سِوَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا مَا يَعْرِفُ، وَقَدْ
ذَكَرْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا مِنْ هَذَا الْجِزْءِ خَاصَّةً.

الضبع

وَسَنَقُولُ فِي بَابِ الضَّبَعِ وَالْقَتْفِ وَالْحَرْقُوصِ وَالْوَرْلِ
وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مَا أَمَكْنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.
قَالَ أَبُو زِيَادٍ الْكَلَابِيِّ: أَكَلْتُ الضَّبْعَ شَاةَ رَجُلٍ مِنْ
الْأَعْرَابِ، فَجَعَلَ يَخَاطِبُهَا وَيَقُولُ:

عَلَيَّ دَقَّ الْعُصْلِ
مِنْ أَنْيَابِكَ

مَا أَنَا يَا جَعَارٍ
مِنْ خُطَابِكَ

عَلَى حَذَا
جُحْرِكَ لَا أَهَابِكَ

جَعَارٍ: اسْمُ الضَّبْعِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّاجِزُ:

هزلى تجرهم
ضباع جعار

ملأت منها
البطن ثم جئت

وأرسل الله عليك
الحمى

قد طال ما
أمسيت في
اكترات

يا أيها الجفر
السّمين وقومه

ثم قال الأعرابي:

ما صنعت
شاتي التي
أكلت

وخبنتي وبئس
ما فعلت

قالت له: لا
زلت تلقى الهما

لقد رأيت رجلاً
معتماً

قال لها: كذبت
يا خباث

أَكَلتِ شَاةَ

صَبِيَّةٍ غِرَاثِ

قَالَتْ لَهُ وَالْقَوْلُ

ذُو شُجُونٍ:

أَمَا وَرَبِّ

الْمُرْسَلِ

الْأَمِينِ

وَأُمَّه

وَجَحْشِهِ

الْقَرِينِ

قَالَ لَهَا وَيْحَكَ

حَذَّرِينِي

وَبِالْأَمَانِيِّ

فَعَلَّلِينِي

مِنْكَ وَأَسْفِي

أَسْهَبْتَ فِي قَوْلِكَ

كَالْمَجْنُونِ

لَأَفْجَعَنَّ بِعَيْرِكَ

السَّمِينِ

حَتَّى تَكُونَ

عُقْلَةَ الْعُيُونِ

وَاجْتَهْدِي الْجَهْدَ

وَوَاعِدِينِي

لَأَقْطَعَنَّ مُتَقَى

الْوَتِينِ

فَصَدِّقِينِي أَوْ

فكذبيني

إذا فشئت
عندها يميني

وأنت شيخ
مُهترّ مفنّد

منك وأنت كالذي
قد أعهد

إذا تجردت
لشأني فاصبري

أحلفُ بالله
العليّ الأكبر

الهمّ من
دفيني

أو اتركي حقي
وما يليني

تعرفي ذلك
باليقين

قالت: أبالقتل
لنا تهدد

قولك بالجبن
عليك يشهد

قال لها:
فأبشري
وأبشري

أنت زعمتِ قد
أمنتِ منكري

يمين ذي ثرية
لم يكفر

برمية من
نازع مدكر

فأقبلت للقدر
المقدر

مكبوبة لوجهها
والمنخر

ثم اشتوى من
أحمر وأصفر

جلد الضبع

وقال الآخر:

يا ليت لي نعلين
من جلد الضبع

لأخضبن منك
جنب المنخر

أو تتركين
أحمري وبقرى

فأصبحت في
الشرك المزعر

والشيخ قد مال
بغرب مجزر

منها ومقدور
وما لم يقدر

وشركاً من
استها لا

يَنْقَطِعُ

كُلَّ الحِذَاءِ يَحْتَذِي
الحَافِي الوَقْعَ

وهذا يدلُّ على أنَّ جلدها جلدُ سوءٍ.
وإذا كانت السنَّةُ جدبةً تَأْكُلُ المالَ، سمَّتها العربُ الضَّبْعَ،
قال الشاعر:

فإنَّ قَوْمِي لم
تَأْكُلْهُمُ الضَّبْعُ

أبا خِرَاشَةَ أَمَا
كُنْتُ ذَا نَفْرٍ

تسمية السنَّة الجذبة بالضبع
وقال عُمير بن الحباب:

يشبَعُ أولادَ
الضَّبَاعِ العُرْجِ

فبشَّرِي القَيْنَ
بَطْعِنِ شَرَجِ

حَتَّى اتَّقُونِي
بظُهُورِ ثُبُجِ

ما زال إِسدائي
لَهُمُ ونَسْجِي

أرَيْنَا يَوْمًا كِيَوْمَ
الْمَرْجِ

مما قيل من الشعر في الضباع
وقال رجلٌ من بني ضبّة:

ففي البطون وقد
راحت قراقير

دسمُ المرافق
أنذالٌ عواويرُ

تنكى عدوكم
منكم أظافير

منكك على
الأقرب الأدنى
زنابير

يا ضبعاً أكلت
آيارَ أحمرّةٍ

ما منكم غير
جعلانٍ ممددةٍ

وغيرُ همزٍ
ولمزٍ للصدیق
ولا

وإتكم ما
بطنتم لم يزل
أبدأً

وأنشد:

فمنهم الذئب
ومنهم
النمر

القوم أمثال
السباع فانشمر

والضبع العرجاء
والليث الهصر

وقال العلام:

كالذئخ أفنى سنه
طول الهرم

معاور حليباته
الشخص أعم

وأنشد:

لسابغ المشفر رحب بلعمه

كالذئخ في يوم مرش رهمه
ذفاريه وشاب غلصمه

يقول: وبر لحبيها كثير كانه شعر ذئخ قد بله المطر،

وأنشد:

تَخَلَّجَتْ
أَشْدَاقُهَا
لِلشُّرْبِ

لَمَا رَأَى مَاتِحاً
بِالْغُرْبِ

تَخْلِيحِ أَشْدَاقِ
الضَّبَاعِ الْغُلبِ

يعني من الحرص والشره، وتمثل ابنُ الزبير:

بَلْخَمِ امْرِئٍ لَمْ
يَشْهَدْ الْيَوْمَ
نَاصِرُهُ

خُذِنِي فَجُرِّينِي
جَعَارِ
وَأَبْشِرِي

وإنما خصَّ الضَّبَاعَ، لأنها تنبش القبور، وذلك من فرط طلبها للحوم النَّاسِ إذا لم تجدْها ظاهرة، وقال تَابُطُ شَرَّاءَ:

عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ
خَامِرِي أُمَّ
عَامِرِ

فَلَا تَقْبُرُونِي إِنَّ
قَبْرِي مُحَرَّمٌ

عُودِرِ عِنْدِ

إِذَا ضَرَبُوا رَأْسِي

وفي الرأس
أكثرني

الملتقى ثم
سائري

هنالك لا أبغي
حياةً تسرّني

سميرَ الليالي
مُبتلاً
بالجرائر

إعجابُ الضَّبَاعِ بالقتلى

قال اليعقوبي: وإذا بقي القتلُ بالعراء انتفخ أيره، لأنه إذا ضربت عنقه يكون منبطحاً على وجهه، فإذا انتفخ انقلب، فعند ذلك تجيء الضبَع فتركبُه فتقضي حاجتها ثم تأكله.

وكانت مع عبد الملك جاريةً شهدت معه حربَ مُصعب، فنظرت إلى مصعبٍ وقد انقلبَ وانتفخ أيره وورم وغلظ، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أغلظ أيور المنافقين. فلطمها عبد الملك

حديث امرأة وزوجها

ابن الأعرابي: قالت امرأةٌ لزوجها، وكانت صغيرة الركب، وكان زوجها صغير الأير: ما للرجل في عظم

الرَّكَبَ مَنْفَعَةً، وَإِنَّمَا الشَّانُ فِي ضَيْقِ الْمَدخَلِ، وَفِي
المَصِّ وَالْحَرَارَةِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى مَا لَيْسَ مِنْ
هَذَا فِي شَيْءٍ، وَكَذَلِكَ الْأَيْرُ، إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْظُرَ الْمَرْأَةَ
إِلَى حَرِّ جِلْدَتِهِ، وَطِيبِ عُسَيْلَتِهِ، وَلَا تَلْتَفِتَ إِلَى كِبَرِهِ
وَصِغَرِهِ، وَأَنْعِظِ الرَّجُلَ عَلَى حَدِيثِهَا إِنْعَاطًا شَدِيدًا، فَطَمَعُ
أَنْ تَرَى أَيْرَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ عَظِيمًا، فَأَرَاهَا إِيَّاهُ، وَفِي
الْبَيْتِ سِرَاجٌ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَشِيرُ إِلَى أَيْرِهِ، وَعَيْنُهَا
طَامِحَةٌ إِلَى ظِلِّ أَيْرِهِ فِي أَصْلِ الْحَائِطِ، فَقَالَ: يَا كَذَّابَةٌ،
لَشِدَّةِ شَهْوَتِكَ فِي عَظْمِ ظِلِّ الْأَيْرِ لَمْ تَفْهَمِي عَنِّي شَيْئًا،
قَالَتْ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ جَاهِلًا كَانَ أَنْعَمَ لِبَالِكَ يَا مَائِقُ، لَوْ
كَانَ مَنْفَعَةٌ عِظْمِ الْأَيْرِ كَمَنْفَعَةِ عِظْمِ الرَّكَبِ لَمَا طَمَحَتْ
عَيْنِي إِلَيْهِ، قَالَ الرَّجُلُ: فَإِنَّ لِلرَّكَبِ الْعَظِيمِ حَظًّا فِي الْعَيْنِ،
وَعَلَى ذَلِكَ تَتَحَرَّكُ لَهُ الشَّهْوَةُ، قَالَتْ: وَمَا تَصْنَعُ بِالْحَرِكَةِ،
وَشَكُّكَ يُوَدِّي إِلَى شَكِّكَ؟ الْأَيْرُ إِنْ عَظِمَ فَقَدْ نَاكَ جَمِيعُ الْحَرِّ،
وَدَخَلَ فِي تِلْكَ الزَّوَايَا الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَنْتَظِمُ مِنْ بَعِيدٍ،
وغيرها المنتظم دونها، وَإِذَا صَغُرَ بَيْنُكَ ثَلَاثُ الْحَرِّ
وَنَصْفُهُ وَثَلَاثِيهِ، فَمَنْ يَسْرُهُ أَنْ يَأْكُلَ بِثُلْثِ بَطْنِهِ، أَوْ يَشْرَبَ
بِثُلْثِ بَطْنِهِ؟ قَالَ الْيَقْطَرِيُّ: أَمَكْنَهَا وَاللَّهِ مِنَ الْقَوْلِ مَا لَمْ
يَمَكْنَهُ.

حديث معاوية وجاريته الخراسانية

وقال: وخلا معاوية بجارية له خراسانية، فما همَّ بها نظر إلى وصيفة في الدار، فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثمَّ خرج فقال للخراسانية: ما اسم الأسد بالفارسية؟ قال: كفتار، فخرج وهو يقول: ما الكفتار؟ ف قيل له: الكفتار الضبع، فقال: ما لها قاتلها الله، أدركتُ بثأرها والفرسُ إذا استقبحت وجه الإنسان قالت: روي كفتار، أي وجه الضبع.

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

قال: وكتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة بن مسلم، حين عزل وكيع بن سُودٍ عن رياسة بني تميم، وولَّاهَا ضِرار بن حسين الضُّبي: عزلت السَّبَاعَ وولَّيت الضَّبَاعَ.

شعر فيه ذكر الضبع

وأنشد لعَبَّاس بن مِرْدَاسِ السُّلَمِيِّ:

ضباعٌ بأكناف
الأراك

فلو مات منهم
من جرحنا

لأصْبَحْتُ

عراسا

وقال جريبة بن أشيم:

فمن مبلغ عني
يساراً ورافعاً

وأسلم إنَّ
الأوهنين
الأقاربُ

فلا تدفنتني في
ضراً وادفنتني

بديمومة تنزو
على الجنادبُ

وإن أنت لم
تعقر عني
مطيتي

فلا قام في مالٍ
لك الدهر حالبُ

فلا يأكلني
الذئبُ فيما
دفنتني

ولا فرعلٌ مثل
الصريمة حاربُ

أزلُّ هليباً لا
يزال مآبطاً

إذا ذربت أنيابه
والمخالب

وأنشد:

ضبُع الوادي
وترميه الشجر

تركوا
جارهم
تأكله

يقول: خذلوه حتّى أكله أُم السَّبَاع، وأضعفها، وقوله:
وترميه الشَّجَر، يقول: حتّى صار يرميه من لا يرمي
أحدًا.

بقية الكلام في الضبع

وقد بقي من القول في الضَّبُع ما سنكتبه في باب القول
في الذئب.

الحرقوص

وأما الحرقوص فزعموا أنّه دويبة أكبر من البرغوث،
وأكثر ما ينبت له جناحان بعد حين، وذلك له خير.
وهذا المعنى يعتري النمل - وعند ذلك يكون هلاكه -
ويعتري الدعاميص إذا صارت فراشاً، ويعتري الجعلان.
والحرقوص دويبة عضها أشد من عضّ البراغيث، وما

أكثر ما يَعَضُّ أحرَاحَ النساءِ والخُصَى، وقد سميَّ
بحرقوص من مازنِ أبو كابية بن حرقوص، قال الشاعر:

أنتم بني كابية بن حرقوص
كلهم هامة كالأفحوص

وقال بشر بن المعتمر، في شعره المزاج، حين ذكر
فضل عليّ على الخوارج، وهو قوله: ??? نق صفحة
455 من الكتاب قال: والحرقوص يسمى بالنهيك،
وعضّ النهيك ذلك الموضع من امرأة أعرابي فقال:

وما أنا للحرقوص إن
عضّ عضّة
لها بين رجليها بجدّ
عقور

تطيب بنفسي بعد ما تستفزني
مقاتتها إن النهيك صغير

والذين ذهبوا إلى أنه البرغوث نفسه قالوا: الدليل على
ذلك قول الطرمّاح:

يَكْرُّ عَلَى
صَفِيٍّ تَمِيمٍ
لَوَلَّتْ

وَلَوْ أَنَّ حُرْقُوصًا
عَلَى ظَهْرِ قَمَلَةٍ

قالوا: ولو كان له جناحان لما أركبه ظَهْرُ القملة، وليس في قول الطَّرْمَاحِ دليلٌ على ما قال، وقال بعضُ الأعراب، وعض الحرقوص خُصِيَّتَهُ:

فَلَا لَيْلًا نَقَرُّ وَلَا
نَهَارًا

لَقَدْ مَنَعَ
الْحِرَاقِيصُ
الْقَرَارَا

وَفِي الْأَحْرَاحِ
دَسًّا وَانْحِجَارًا

يُغَالِبِنَ الرَّجَالَ
عَلَى خُصَاهِمِ

وقالت امرأةٌ تَعْنِي زَوْجَهَا:

بِفَخْذِي مِنْهَا
مَا يَجْدُ
غِيورُ

يَغَارُ مِنْ
الْحِرْقُوصِ أَنْ
عَضَّ عَضَةً

أرى لَذَّةَ
الدُّنْيَا إِلَيْهِ
تَصِيرُ

لَقَدْ وَقَعَ
الْحُرْقُوصُ مِنِّي
مَوْقِعاً

وأنشدوا لآخر:

يَقْرُضُ أَحْيَاناً
وَحِيناً يَنْهَسُ

بَرَّحَ بِي دُو
النُّقْطَتَيْنِ
الْأَمْلَسُ

فقد وصفه هذا كما ترى، وهذا يصدق قول الآخر، ويردُّ
على من جعل الحراقيص من البراغيث، قال الآخر:

ماذا هُنالك من
عَضِّ الحراقِيسِ

يَبِيتُ بِاللَّيْلِ
جَوَاباً عَلَى
دَمِثٍ

الورل

وسنقول في الورل بما أمكن من القول إن شاء الله
تعالى، وعلى أننا قد فرّقنا القول فيه على أبواب قد
كتبناها قبل هذا.

قالوا: الورل يقتل الضَّبَّ، وهو أشدُّ منه، وأجودُ سلاحاً
والطفُ بدنأً، قالوا: والسَّافِدُ منها يكون مهزولاً، وهو
الذي يزيِّف إلى الإنسان وينفخ ويتوعَّد.
قال: واصطدت منها واحداً فكسرت حجراً، وأخذت مَرْوَةً
فذبحت بها، حتَّى قلت قد نخعته، فاسبطراً لحينه فأردت
أن أصغي إليه وأشرتُ بإبهامي في فيه، فعضَّ عليها
عضةً اختلعت أنيابه، فلم يخلها حتى عضت على
رأسه.

قال: فأتيت أهلي فشقتُ بطنه، فإذا فيها حيتان عظيمتان
إلا الرأس.

قال: وهو يشدخ رأس الحية ثم يبتلعها فلا يضره سمها،
وهذا عنده أعجب ما فيه، فكيف لو رأى الحوائن عندنا،
وأحدهم يُعطى الشيء اليسير، فإن شاء أكل الأفعى نياً،
وإن شاء شواءً، وإن شاء قديداً فلا يضره ذلك بقليل ولا
كثير.

وفي الورل أنه ليس شيء من الحيوان أقوى على أكل
الحيات وقتلها منه، ولا أكثر سفاداً، حتى لقد طم في ذلك
على التيس، وعلى الجمل، وعلى العصفور، وعلى
الخنزير، وعلى الذبان في العدد، وفي طول المكث، وفيه

أنه لا يحتفر لنفسه بيتاً، ويغتصب كلَّ شيء بيته؛ لأنها
أيَّ جحر دخلته هربَ منه صاحبه، فالورل يغتصب الحية
بيتها كما تغتصب الحية بيوت سائر الأحناش والطيور
والضَّب.

وهو أيضاً من المراكب، وهو أيضاً مما يُستطاب، وله
شحمة، ويستطيبون لحم ذنبه، والورل دابة خفيف
الحركة ذاهباً وجائياً، ويميناً وشمالاً، وليس شيء بعد
العظاءة أثير تلفتاً منه وتوقفاً.

زعم المجوس في العظاءة

وتزعم المجوس أنّ أهرمن، وهو إبليس، لما جلس في
مجلسه في أول الدهر ليقسم الشرّ والسُّوم - فيكون ذلك
عدّة على مناهضة صاحب الخير إذا انقضى الأجل
بينهما، ولأنّ من طباعه أيضاً فعل الشر على كلّ حال -
كانت العظاءة آخر من حصر، فحضرت وقد قسم السمّ
كلّه، فتدخلها الحسرة والأسف، فتراها إذا اشتدت وقفت
وففة تذكر لما فاتها من نصيبها من السمّ، ولتفريطها في
الإبطاء حتى صارت لا تسكن إلا في الخرابات
والحشوش؛ لأنها حين لم يكن فيها من السمّ شيء لم

تطلب مواضع الناس كالوزغة التي تسكن معهم البيوت،
وتكرع في آنيتهم الماء وتمجّه، وتزاق الحيات وتهيجها
عليهم، ولذلك نفرت طباع الناس من الوزغة، فقتلوا
تحت كل حجر، وسلمت منهم العظاءة تسليماً منهم.
ولم أر قولاً أشدّ تناقضاً، ولا أَموق من قولهم هذا؛ لأنّ
العظاءة لم يكن ليعتريها من الأسف على فوت السمّ على
ما ذكروا أولاً إلا وفي طبعها من الشرارة الغريزية أكثر
مما في طبع الأفعى.

شعر فيه ذكر للورل

قال الرّاجز في معنى الأوّل:

أكانَ هذا أول
الثّواب

يا ورلاً رقرق
في سراب

قال: وورقرقته: سرعته ذاهباً وجائياً ويميناً وشمالاً.
قال أبو دؤاد الإيادي، في صفة لسان فرسه:

مرّ مَجّ الثرى
عليه العرا

عن لسان كجثة
الورل الأخ

وقال خالد بن عَجْرَة:

بِدَارِ مَصْنَةِ مَجِّ
العرارِ

كأنَّ لسانه ورلٌ
عليه

ووصف الأصمعيُّ حمرة في بعض أراجيزه، فقال:

يعرجُ منه بعد
ضيقِ ضنكٍ

في مَعْرِ ذِي
أُصْرُسٍ وَصَكِّ

فروة القنفذ

قد قلنا في القنفذ، وصنّيعه في الحيات وفي الأفاعي خاصة، وفي أنه من المراكب، وفي غير ذلك من أمره، فيما تقدم هذا المكان من هذا الكتاب. ويقول من نزع فروته بأنها مملوءة شحيمة، والأعراب تستطيب أكله، وهو طيب للأرواح. شعر فيه ذكر للقنفذ والقنفذ لا يظهر إلا بالليل، كالمستخفي، فذلك شبه به، قال أيمن بن خريم:

خبُّ إذا نام عنه

كقنفذ الرَّمْلِ لا

تخفى مدارجُه

النَّاسُ لَمْ يَنِمَّ

وقال عَبْدَةُ بنِ الطَّيِّبِ:

قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ

حَدَجُوا قَنَافِدُ

الظَّلَامَ عَلَيْهِمُ

بِالنَّمِيمَةِ تَمْرَعُ

وقال:

شَرَيْتُ الْأُمُورَ

فَأَوْلَى لَكُمْ يَا بَنِي

وَعَالِيَتُهَا

الْأَعْرَجِ

تَدْبُونُ حَوْلَ

دَبِيبِ الْقَنَافِدِ فِي

رَكِيَّاتِكُمْ

الْعَرْفَجِ

وقال الآخر في غير هذا الباب:

كَأَنَّ قَيْرًا أَوْ

يَنْحَطُّ مِنْ قَنْفَذِ

كُحَيْلًا يَنْعَصِرُ

ذِفْرَاهِ الدَّفِيرِ

وقال عَبَّاسُ بنِ مِرْدَاسِ السُّلَمِيِّ، يَضْرِبُ الْمَثَلَ بِهِ

وَبِأُذُنَيْهِ فِي الْقَلَّةِ وَالصَّعْرِ:

فَاتَّكَ لَمْ تَكْ كَابِن
الشَّرِيدِ

وَلَكِنْ أَبُوكَ أَبُو
سَالِمِ

حَمَلَتْ الْمَيْنِ
وَأَثَالَهَا

عَلَى أذْنِي قَتْفِ
رَازِمِ

وَأَشْبَهْتَ جَدَّكَ
شَرَّ الْجُدُودِ

وَالْعِرْقُ يَسْرِي
إِلَى النَّائِمِ

وَأَنْشَدَنِي الدَّهْمُ بْنُ شَهَابٍ، أَحَدَ بَنِي عَوْفِ بْنِ كِنَانَةَ، مِنْ
عُكْلٍ، قَالَ: أَنْشَدَنِيهِ نَفِيعُ بْنُ طَارِقٍ فِي تَشْبِيهِهِ رَكَبَ الْمَرْأَةَ
إِذَا جَمَّمَ بَجْدَ الْقَتْفِ:

عَلِقَ مِنْ عَنَائِهِ
وَشَقُوتِهِ

وَقَدْ رَأَيْتَ هَدَجًا
فِي مَشِيئِهِ

وَقَدْ جَلَا الشَّيْبُ
عِذَارَ لِحْيَتِهِ

بِنْتِ ثَمَانِي
عَشْرَةَ مِنْ
حِجَّتِهِ

يُظْنَهَا ظَنًّا

تَمْشِي بِجَهْمِ

ضيقه من همته

جمم بعد حلقه
ونورته

لا يبلغ الأير
بنزع رهوته

كان فيه وهجا
من ملته

بغير رؤيته

لم يخزه الله
برحب سعة

كقنفذ القف
اختفى في
فروته

ولا يكر راجعا
بكرته

من تسمى بقنفذ ويتسمون بالقنafd، وذو البرة الذي ذكره
عمرو بن كلثوم هو الذي يقال له: بُرة القنفذ، وهو كعب
بن زهير، وهو قوله:

به نحمي
ونشفي
المُجنيبا

وذو البرة
الذي حدثت
عنه

كبار القنافذ ومن القنافذ جنس وهو أعظم من هذه
القنافذ؛ وذلك أنّ لها شوكة كصياصي الحاكة، وإنّما هي
مدارى قد سُخِّرَتْ لها وذُلَّت تلك المغارز والمنابت،
ويكون متى شاء أن ينصل منها رمى به الشخص الذي
يخافه، فعلاحتى كآته السهم الذي يخرجهُ الوتر.
ولم أر أشبه به في الحذف من شجر الخروع؛ فإنّ الحبّ
إذا جفّ في أكمامه، وتصدّع عنه بعض الصّدع، حذف به
بعض الغصون، فربّما وقع على قاب الرّمح الطويل
وأكثر من ذلك،

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

والبردون يسقط على جلده ذبابةً فيحرّك ذلك الموضع،
فهذا عامٌّ في الخيل، فأما النّاس فإنّ المخنث ربما حرّك
شيئاً من جسده، وأيّ موضع شاء من بدنه.
والكاعاني، وهو اسم الذي يتجنّن أو يتفالج فالج الرّعدة
والارتعاش، فإنّه يحكي من صرع الشّيطان، ومن
الإزباد، ومن النّفضة، ما ليس يصدرُ عنهما، وربّما
جمعهما في رقابٍ واحد، فأراك الله تعالى منه مجنوناً
مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً بما لا يجيء من طباع

المجنون.

حكاية الإنسان للأصوات وغيرها والإنسان العاقل وإن كان لا يحسن يبني كهينة وكر الزنبور، ونسج العنكبوت، فإنه إذا صار إلى حكاية أصوات البهائم وجميع الدواب وحكاية العُميان والعُرجان؛ والفأفاء، وإلى أن يصوّر أصنافَ الحيوان بيده، بلغ من حكايته الصُّورة والصوت والحركة ما لا يبلغه المحكيّ.

الحركات العجيبة وفي النَّاس من يحرك أذنيه من بين سائر جسده، وربّما حرّك إحداها قبل الأخرى، ومنهم من يحرك شعر رأسه، كما أن منهم من يبكي إذا شاء، ويضحك إذا شاء.

وخبّرني بعضهم أنه رأى من يبكي بإحدى عينيه، وبالتالي يقترحها عليه الغير.

وحكى المكي عن جوار باليمن، لهنّ قرونٌ مضمفورةٌ من شعر رؤوسهن، وأنّ إحداهنّ تلعب وترقص على إيقاع موزون، ثمّ تُشخص قرناً من تلك القرون، ثمّ تلعب وترقص، ثمّ تُشخص من تلك الضفائر المرصعة واحدة بعد أخرى، حتّى تنتصب كأنها قرونٌ أوأبد في رأسها، فقلت له: فلعلّ التّصفير والترصيع أن يكون شديد الفتل

ببعض الغسل والتليد، فإذا أخرجته بالحركة التي تُثبِتُها
في أصل تلك الضفيرة شخّصت، فلم أره ذهبَ إلى ذلك،
ورأيته يحقّقه ويستشهد بأخيه.
نوم الذئب وتزعمُ الأعراب أنّ الذئب ينامُ بإحدى عينيه،
ويزعمون أنّ ذلك من حاقّ الحذر، وينشد شعر حميد بن
ثور الهلالي، وهو قوله:

مَنَايَا بِأُخْرَى
فَهُوَ يَقْظَانُ
هَاجِعُ

يَنَامُ بِإِحْدَى
مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي
ال

وأنا أظنُّ هذا الحديث في معنى ما مُدح به تَأَبَّطُ شَرًّا:

لَهُ كَالِيٍّ مِنْ
قَلْبِ شَيْحَانَ
فَاتِكِ

إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ
كَرَى النَّوْمَ لَمْ
يَزَلْ

إِلَى سَلَّةٍ مِنْ
حَدِّ أَخْضَرِ
بَاتِكِ

وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ
رَبِيئَةً قَلْبِهِ

قولهم: أسمع من قنفذ ومن دلدل ويقال: أسمع من قنفذ،
وقد ينبغي أن يكون قولهم: أسمع من الدلدل من الأمثال
المولدة.

المتقاربات من الحيوان وفرق ما بين القنفذ والدلدل،
كفرق ما بين الفأر والجُرذان، والبقر والجواميس،
والبخاتي والعراب، والضأن والمعز، والذر والنمل،
والجواف والأسبور، وأجناس من الحيات، وغير ذلك؛
فإن هذه الأجناس منها ما يتسافد ويتلاقح، ومنها ما لا
يكون ذلك فيها.

قولهم: افحش من فاسية ويقال: إنه لأفحش من فاسية
وهي الخنفساء؛ لأنها تفسو في يد من مسها، وقال
بعضهم: إنه عنى الظربان؛ لأن الظربان يفسو في وسط
الهيئة، فتتفرق الإبل فلا تجتمع إلا بالجهد الشديد،
ويقال: ألج من الخنفساء، وقال خلف الأحمر وهو يهجو
رجلاً:

وأزهي إذا ما
مشى من عراب

ألج لجاجاً من
الخنفساء

رجز في الضبع وأنشد أبو الرديني، عن عبد الله بن كراع، أخي سويد بن كراع، في الضبع:

مُرْدًا أَوْلَهُ
شُمَطًا

مَنْ يَجِنُ أَوْلَادَ
طَرِيفِ رَهْطًا

كَأَضْبَعِ مُرْطِ
هَبْطَنْ هَبْطًا

رَأَى عَضَارِيطَ
طَوَالًا تُطَّا

إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي
هِنَاءً لُعْطًا

ثُمَّ يَفْسَيْنَ هَزِيلًا
مَرْطًا

خَطْمًا عَلَى أَنْفِكُمْ
وَعَلْطًا

قصة أبي مجيب وحكى أبو مجيب، ما أصابه من أهله، ثم قال: وقد رأيت رؤيا عبّرتها: رأيت كائي طردت أرنباً فأنجحرت، فحفرت عنها حتى استخرجتها، فرجوت أن يكون ذلك ولداً أرزقه، وإنه كانت لي ابنة عمّ هاهنا، فأردت أن أتزوجها؛ فما ترى؟ قلت: تزوّجها على بركة الله تعالى، ففعل؛ ثم استأذني أن يقيم عندنا أياماً؛ فأقام

ثم أتاني فقلت: لاتخبرني بشيءٍ حتى أنشدك، ثم أنشدته
هذه الأبيات:

يا لَيْتَ شِعْرِي
عَنْ أَبِي مَجِيبٍ
مُعَانِقًا لِلرَّشَاءِ
الرَّبِيبِ
أَمْ كَانَ رَحْوًا
يَابَسَ الْقَضِيبِ
إِذْ بَاتَ فِي
مَجَاسِدِ وَطِيبِ
أَأَقْحَمَ الْحِفَارَ
فِي الْقَلِيبِ

قال: بلى كان والله رحواً يابسَ القضيب، والله لكأنك كنت
معنا ومُشاهدنا.

خصال الفهد

فأمَّا الفهد؛ فالذي يحضرننا من خصاله أنَّه يقال إن
عظام السَّبَاعِ تشتهي ريحه، وتستدلُّ برائحته على مكانه
وتُعَجَّبُ بلحمه أشدَّ العجب.

وقد يصاد بضروبٍ، منها الصَّوت الحسن؛ فإنه يُصْغِي
إليه إصغاءً حسناً، وإذا اصطادوا المسنَّ كان أنفعَ لأهله

في الصَّيد من الجرو الذي يربُّونه؛ لأنَّ الجرو يخرج
حَبًّا، ويخرج المسنُّ على التأديب صيوداً غيرَ خبِّ ولا
مُواكِلٍ في صيده، وهو أنفع من صيد كلِّ صائد، وأحسن
في العين، وله فيه تدبيرٌ عجيب.
وليس شيءٌ في مثل جسم الفهد إلاَّ والفهد أثقلُ منه،
وأحطُّ لظهر الدابة التي يرقى على مؤخرها.
والفهد أنوم الخلق، وليس نومه كنوم الكلب؛ لأن الكلب
نومه نعاس واختلاس، والفهد نومه مُصمَّت: قال أبو
حيَّة النَّميري:

عَنَّا وعنك وعنها
نومة الفهد

بعذاريتها أناساً
نام حلمهم

وقال حميد بن ثور الهلالي:

أكلت طعاماً
دونه وهو
جائع

ونمت كنوم الفهد
عن ذي حفيظة

أرجوزة في صفة الفهد

وقال الرقاشيُّ في صفة الفهد:

والصبحُ في الظلماءِ ذو تهدى	قد أعتدى والليلُ أحوى السدَّ
بأهرتِ الشدقينِ ملتند	مثل اهتزازِ العصبِ ذي الفرندِ
طاوى الحشا في طىَّ جشمِ معدِ	أربدَ مضبورِ القرا علكدِ
برامزِ ذي نكتِ مسودَّ	كزَّ البراجيمِ هصورِ الجدِّ
شربثِ أغلبِ مصعدَّ	وسحرِ اللجينِ سحرِ وردِ
على قطة الردفِ ردفِ	كالثيثِ إلّا عائِنِ بعدَ

الجهد

سر سرعتنا

بحس صلد

في ملهب مه

وختل إد

العبد

وانقضّ يادو

غير مجرهد

مثل انسياب

الحية العربد

وقوله: مثل انسياب الحية العربد، هذه الحية عين الدابة التي يقال لها العربد، وقد ذكرها مالك بن حريم في قوله لعمر بن معد يكرب:

يا عمرو لو

أبصرتني

والبيض تلمع

بينهم

فالقيت مني

عربداً

لرفوتني ف

يالخيّل رفوا

تعصو بها

الفرسان عصوا

يقطو أمام الخيل

قطوا

يدخلنَ تحت
البيتِ حبوا
جوفِ الظلامِ هبى
وهبوا
تسطو على
الخبراتِ سطوا

لما رأيتُ
نساءهم
وسمعتُ زجرَ
الخيَلِ في
في فيلقِ
ملمومةٍ

وقال الرَّقَاشِي أيضاً في الفهد:

رَهْطَ رَسولِ اللَّهِ
أهلُ المَفْعَرِ
وكاهلِ بادِ
وعنقِ أزهَرِ
منها إلى شِدْقِ
رُحابِ المَفْعَرِ

لما غدا للصَّيْدِ
آلُ جَعْفَرِ
بفَهْدَةٍ ذاتِ قَرَأٍ
مُضَبَّرِ
ومُقَلَّةِ سَالِ
سَوادِ
المحجرِ

وَأَيْطَلِ مُسْتَأْسِدِ
غَضَنْفَرِ

فَطَسَاءَ فِيهَا
رَحَبٌ فِي الْمَنْخَرِ

أَرْتَهَا إِسْحَاقَ
فِي التَّعْذُرِ

وَذَنْبِ طَالِ
وَجُنْدِ أَنْمَرِ

وَأَذِنِ مَكْسُورَةٍ
لَمْ تَجْبِرِ

مِثْلَ وَجَارِ
التَّتْفَلِ الْمَقْوَرِ

مِنْهَا عَلَى
الْخَدَّيْنِ
وَالْمُعَدَّرِ

نعت ابن أبي كريمة للفهد

وقال ابنُ أبي كريمة في صفة الفهد:

غَدَوْتُ عَلَيْهَا
بِالْمَنَائِيَا الشَّوَاعِبِ

كَأَنَّ بَنَاتِ
الْقَفْرِ حِينَ
تَشَعَّبَتْ

بمُخْطَفة
الأحشاء رُحِبِ
التَّرايبِ

مخْطَطة الأماق
غلبِ الغَوَّارِبِ

تخالُ على
أشداقها خطَّ
كاتبِ

إذا آنستَ بالبيدِ
شُهبَ الكتائبِ

عيونٌ لدى
الصِّراتِ غيرِ
كوادِبِ

مُرْمَلة تخكي

بذلك نبغي
الصيد طوراً
وتارة

مُوقَفة الأذئاب
نُمرِ ظهورها

مُولَعة فطَحِ
الجِبَاهِ
عوابِسِ

فوارسُ ما لم
تلقَ حرباً
ورجلة

تضاعَلُ حتَّى ما
تكاد تُبيِّنُها

توسدُ أجيادَ
الفرائسِ

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

قال: والصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهوديِّ وقد عرفنا مقالهم في الجرِّيِّ.

والعامَّة تزعم أن الفأرة كانت يهوديَّة سحّارة، والأرضة يهودية أيضاً عندهم؛ ولذلك يلطّخون الأجداع بشحم الجزور.

والضبّ يهوديِّ؛ ولذلك قال بعضُ القصّاص لرجل أكل ضبّاً: اعلم أنّك أكلت شيخاً من بني إسرائيل. ولا أراهم يضيفون إلى النصرانية شيئاً من السّباع والحشرات.

ولذلك قال أبو علقمة: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون، ف قيل له: فإنّ يوسف لم يأكله الذئب، وإنما كذبوا على الذئب؛ ولذلك قال الله عزَّ وجلّ: "وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ"، قال: فهذا اسمٌ للذئب الذي لم يأكل يوسف.

فينبغي أن يكون ذلك الاسمُ لجميع الذئاب، لأنّ الذئاب كلها لم تأكله.

زعم المجوس في لبس أعوان سومين

وتزعمُ المجوس أنّ بشوتنَ الذي ينتظرون خروجه،
ويزعمون أنّ الملك يصيرُ إليه، يخرج على بقرة ذات
قرون، ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود، لا يعرفُ
هراً ولا براً حتى يأخذ جميع الدنيا.
الهَرّ والبرّ وكذلك إلغازهم في الهَرّ والبرّ، وابن الكلبي
يزعم عن الشرقي بن القطاميّ، أنّ الهَرّ السنور، والبرّ
الفارة.

جوارح الملوك

والباز والفهد من جوارح الملوك، والشاهين، والصقّر،
والزُّرَق، واليُويؤ.
وليس ترى شريفاً يستحسنُ حملَ البازي - لأنّ ذلك من
عمل البازيار - ويستهجّن حمل الصقور والشواهين
وغيرها من الجوارح، وما أدري علّة ذلك إلا أنّ البازَ
عندهم أعجميّ، والصقّر عربيّ.
ومن الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس وينصح
العقّق، فإنّه يستجيبُ من حيثُ تستجيبُ الصقور،
ويُزجر فيعرف ما يُراد منه ويخبأ الحلي فيُسال عنه

ويُصاح به فيمضي حتى يقفَ بصاحبه على المكان الذي
خبَّأه فيه، ولكن لا يلزم البحث عنه.
وهو مع ذلك كثيراً ما يُضيع بيضه وفراخه.
مخبئات الدراهم والحلي وثلاثة أشياء تُخبي الدراهم
والحلي، وتَفْرَحُ بذلك من غير انتفاع به، منها: العَقَقُ؛
ومنها ابن مِقْرَضٍ: دويبةٌ ألقُ من ابن عِرْسٍ؛ وهو
صعبٌ وحشيٌّ، يحبُّ الدراهم، ويفرَحُ بأخذها، ويخبيها،
وهو مع ذلك يصيد العصافير صيداً كثيراً، وذلك أنه يُؤخَذُ
فِيرَبَطُ بخيطٍ شديد الفتل، ويُقابلُ به بيت العُصفور، فيدخلُ
عليه فيأخذه وفراخه، ولا يقتلها حتى يقتلها الرجل، فلا
يزال كذلك ولو طاف به على ألف جُحر، فإذا حلَّ خيطه
ذهبَ ولم يَقم.

وضرب من الفار يسرق الدراهمَ والدنانير والحلي ويفرح
به ويُظهِره ويغيِّبه في الجُحر وينظرُ إليه ويتقلبُ عليه.
دَنَبُ الوزغة قال: وخطب الأشعث فقال: أيها الناسُ إنه
مابقي من عدوكم إلا كما بقي من دَنَبِ الوزغة تضرب به
يميناً وشمالاً ثم لاتلبث أن تموت فمر به رجلٌ من قشير
فسمع كلامه فقال: قَبَّحَ اللهُ تعالى هذا ورأيه، يأمر
أصحابه بقلَّة الاحتراس، وترك الاستعداد.

وقد يُقَطَّعُ ذَنْبُ الْوَزَغَةِ مِنْ ثَلَاثِهَا الْأَسْفَلَ، فَتَعِيشُ إِنْ
أَفَلَّتْ مِنَ الذَّرِّ.

أشدُّ الْحَيَوَانَ احْتِمَالاً لِلطَّعْنِ وَالْبِتْرِ وَقَدْ تَحْتَمِلُ الْخَنَافِسُ
وَالكَلَابُ مِنَ الطَّعْنِ الْجَائِفِ، وَالسَّهْمِ النَّافِذِ؛ مَا لَا يَحْتَمِلُ
مِثْلَهُ شَيْءٌ، وَالْخُنْفَسَاءُ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ وَكِفَاكُ بِالضَّبِّ.
وَالجَمَلُ يَكُونُ سَنَامُهُ كَالهَدَفِ، فَيُكشَفُ عَنْهُ جِلْدُهُ فِي
الْمَجْهَدَةِ؛ ثُمَّ يُجْتَثُّ مِنْ أَصْلِهِ بِالشَّفَارِ، ثُمَّ تَعَادُ عَلَيْهِ
الْجِلْدَةُ وَيُدَاوَى فَيَبْرَأُ، وَيَحْتَمِلُ ذَلِكَ، وَهُوَ أَعْجَبُ فِي ذَلِكَ
مِنَ الْكَبْشِ فِي قَطْعِ أَلْيَتِهِ مِنْ أَصْلِ عَجَبِ ذَنْبِهِ، وَهِيَ
كَالثَّرْسِ، وَرَبْمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُلَّ أَلْيَتَهُ
إِلَّا بِأَدَاةٍ تَتَّخَذُ، وَلَكِنَّ الْأَلْيَةَ عَلَى كُلِّ حَالٍ طَرَفٌ زَائِدٌ،
وَالسَّنَامُ قَدْ طَبَّقَ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْجَوْفِ.

ذَكَاءُ إِيَّاسٍ وَنَظَرُ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ فِي الرَّحْبَةِ بِوِاسِطِ إِلَى
أَجْرَةَ، فَقَالَ: تَحْتَ هَذِهِ الْأَجْرَةَ دَابَّةٌ: فَنَزَعُوا الْأَجْرَةَ فَإِذَا
تَحْتَهَا حَيَّةٌ مَطْوُوقَةٌ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِأَنِّي رَأَيْتُ مَا
بَيْنَ الْأَجْرَتَيْنِ نَدِيًّا مِنْ جَمِيعِ تِلْكَ الرَّحْبَةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ
تَحْتَهَا شَيْئاً يَتَنَفَّسُ.

هُدَايَةُ الْكَلَابِ فِي التَّلُوجِ وَإِذَا سَقَطَ التَّلْجُ فِي الصَّحَارَى
صَارَ كُلُّهُ طَبَقاً وَاحِداً، إِلَّا مَا كَانَ مُقَابِلاً لِأَفْوَاهِ جِوَاهِرِ

الوَحْش والحشرات؛ فَإِنَّ التَّلْج في ذلك المكان يَنْحَسِر
ويرقُّ لأنفاسها من أفواهاها ومناخِرها ووهج أبدانها،
فالكلابُ في تلك الحال يعتادها الاسترواح حتى تقفَ
بالكلابين على رؤوس المواضع التي تنبت الإجرِدُ
والقَصِيص، وهي التربة التي تُنبتُ الكَمأة وتربِّيها.
تعرّف مواضع الكمأة وربما كانت الواحدة كالرُّمانة
الفخمة، ثم تتخلّق من غير بزر، وليس لها عرقٌ تمصُّ
به من قوَى تلك الأرض، ولكنها قوَى اجتمعت من طريق
الاستحالات، كما ينطبخُ في أعماق الأرض، من جميع
الجواهر وليس لها بدّ من تربة ذلك من جوهرها، ولا بدّ
لها من سُمِّي، فإذا صار جانيها إلى تلك المواضع - ولا
سيما إن كان اليومُ يوماً لشمسه وَقَع - فإنه إذا أبصر
الإجرِدُ والقَصِيص استدلَّ على مواضعها بانتفاخ الأرض
وانصداعها.

وإذا نظر الأعرابيُّ إلى موضع الانتفاخ يتصدّع في مكانه
فكان تفتُّحه في الحالات مستويًا، علم أنه كمأة؛ وإن خلطَ
في الحركة والتصدّع علم أنه دابة، فاتقى مكانها.

نوادِرَ وأشعارَ وأحاديثَ

قال الشاعر:

وعصيت أمر
ذوي النهي
فاحتلت حين
صرمتني
والعبد يقرع
بالعصا
وأطعت رأي
ذوي الجهالة
والمرء يعجز لا
المحالة
والحر تكفيه
المقالة

وقال بشار:

وصاحب
كالدمل الممد
الحر يلحى
والعصا للعبد
حملته في رقة
من جلدي
وليس للملحف
مثل الرد

وقال خليفة الأقطع:

العبد يُقرع
والحر تكفيه

بالعصا

المَلَامَةُ

القول في العُرْجان

قال رجلٌ من بني عِجْلٍ:

وشى بي واشٍ
عند ليلى
سفاهة

فقال له ليلى
مقالة ذي عقلٍ

وخبَّرها أني
عرجت فم
تكنن

كورهاء تجتر
الملامة للبعل

وما بي من
عيب الفتى غير
أنني

جعلت العصا
رجلاً أقيم بها
رجلي

وقال أبو حية في مثل ذلك:

وقد جعلت إذ
ما قمت

ظهري فقامت
قيام الشارب

يُجْعِنِي

السَّكْرِ

وَكُنْتُ أَمْشِي

فَصَرْتُ أَمْشِي

عَلَى رِجْلَيْنِ

عَلَى أُخْرَى مِنْ

مُعْتَدِلًا

الشَّجَرِ

وقال أعرابيُّ من بني تميم:

وما بي من

أَلْفَتْ قَنَاتِي حِينَ

عَيْبِ الْفَتَى غَيْرَ

أَوْجَعَنِي ظَهْرِي

أَنْبِي

وكان بنو الحَدَّاءِ عُرْجَانًا كُلِّهِمْ، فهجاهم بعض الشعراء

فقال:

لِلَّهِ دَرٌّ بَنِي

وَكُلُّ جَارٍ عَلَيَّ

الْحَدَّاءِ مِنْ

جِيرَانِهِ كَلْبُ

نَفَرٍ

كَمَا تُتَصَّبُ

إِذَا عَدَوْا

وَسَطَ الْبَيْعَةِ

وَعَصِيَّ الطَّلْحِ

أرجلهم

الصُّلبُ

وإنما شبه أرجلهم بعصيّ الطّلع؛ لأنّ أغصان الطّلع
تثبت معوجّة، لذلك قال مَعْدَانِ الأعمى:

والذي طَفَفَ

الجدار من الدُّع

ر وقد بات

قاسِمَ الأنفالِ

فغدا خامعاً

بأيدي هَشِيمِ

وبساقِ كُعودِ

طَلحِ بالِ

وله حديثٌ.

عصا الحكم بن عبدل

وكان الحكمُ بن عبدل أعرج، وكان بعد هجائه لمحمد بن
حسّان بن سعد لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها
وكتبَ عليها حاجّته إلّا قضاها كيف كانت، فدخل على
عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو
أمير الكوفة، وكان أعرج، وكان صاحبُ شُرطته أعرج
فقال ابن عبّدل:

عملاً فهذي
دولةُ
العُرجانِ

يا قومنا
لكليهما
رجلانِ

وأنا فإنَّ
الرَّابعَ
الشيطانُ

ألقِ العَصَا ودَعِ
التَّعَارِجَ والتَّمِسْنَ

فأميرنا وأميرُ
شُرطتنا معاً

فإذا يكونُ
أميرنا ووزيرُه

وقال آخر ووصف ضَعْفَه وكَبَرِ سنَّه:

وأقوُدُ للشرفِ
الرفيعِ حمارياً

آتي الندىَّ فلا
يُقربُ مجلسي

عرجان الشعراء

وكان من العُرجان والشعراء أبو ثعلب، وهو كليب بن
أبي الغول، ومنهم أبو مالك الأعرج، وفي أحدهما يقول
اليزيدي:

على خبثه
والناطقي
غيور

وصاحبنا ماضي
الجان جسور

وما الناس إلا
أيرٌ ومئير

وبدؤهم إن
أتانا كان ثنيانا

فالبدء أضخم السادات؛ يقال ثنى وثنيان، وهو اسم
واحد، وهو تأويل قول الشاعر:

أبو ثعلب
للناطقي
موازر

وبالبعلة
الشهباء رقة
حافر

ولا عزو أن
كان الأعيرج
أرها

البدء والثنيان
وقال الشاعر:

تلقي ثنانا إذا ما
جاء بداهم

صُدُودَ الْبَكْرِ عَنْ
قَرْمِ هِجَانَ

يَصُدُّ الشَّاعِرُ
الثَّنِيَانَ عَنِّي

لم يمدح نفسه بأن لا يغلب الفحل وإنما يغلب الثنيان،
وإنما أراد أن يصغر بالذي هجَاه، بأنه ثنيان، وإن كان
عند نفسه فحلاً وأما قول الشاعر:

يَجِيءُ قَبْلَ
السَّوَابِقِ وَهُوَ
ثَانٍ

وَمَنْ يَفْخَرُ
بِمِثْلِ أَبِي
وَجَدِّي

فالمعنى ثانٍ عنانه.

أحاديث من أعاجيب المماليك

- أتيتُ باب السَّعداني، فإذا غلامٌ له مَليحٌ بالباب كان يتَّبَعُ
دَابَّتَهُ، فقلتُ له: قلْ لمولايك، إن شئتَ بَكَرتَ إليَّ، وإن
شئتَ بَكَرتُ إليك، قال: أنا ليسَ أكلمُ مولاي - ومعِيَ أبو
القنَافذ - فقال أبو القنَافذ: ما نحتاجُ مع هذا الخُبَرِ إلى
معايَنةٍ.

وقال أبو البصير المنجّم، وهو عند قثم بن جعفر، لغلام
له مَليحٌ صَغيرِ السنِّ: ما حَبَسَكَ يا حَلَقِي؟

والحلقي: المخنث - ثم قال: أما والله لئن قمت إليك يا حلقي لتعلمنفلماً أكثر عليه من هذا الكلام بكى و قال: ادعو الله على من جعلني حلقياً.

حدثني الحسن بن المرزبان قال: كنت مع أصحاب لنا، إذ أتينا بسلام سندي يباع، فقلت له: اشتريك يا غلام؟ فقال: حتى أسأل عنك قال المكي: وأتي المثنى بن بشر بسندي ليشتره على أنه طبّاح، فقال له المثنى: كم تحسن يا غلام من لون؟ فلم يجبه؛ فأعاد عليه، وقال: يا غلام كم تحسن من لون؟ فكلم غيره وتركه؛ فقال المثنى في الثالثة: ما له لا يتكلم؟ يا غلام، كم تحسن من لون؟ فقال السندي: كم تحسن من لون كم تحسن من لون وأنت لا تحسن ما يكفيك أنت؟ قال: حسبك الآن: ثم قال المثنى للدلال: امض بهذا، عليه لعنة الله

وحدثني ثمامة قال: جاءنا رجل بسلام سندي يزعم أنه طبّاح حادق، فاشتريته منه، فلما أمرت له بالمال قال الرجل: إنه قد غاب عنا غيبة، فإن اشتريته على هذا الشرط، وإلا فاتركه، فقلت للسندي: أكنت أبقت قط قال: والله ما أبقت قط فقلت: أنت الآن قد جمعت مع الإباق الكذب قال: كيف ذلك؟ قلت: لأن هذا الموضع لا يجوز

أَنْ يَكْذِبَ فِيهِ الْبَائِعُ، قَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِدَاكَ أَنَا وَاللَّهِ
أَخْبِرَكَ عَنْ قِصَّتِي: كُنْتُ أَدْنَبْتُ ذَنْبًا كَمَا يُدْنِبُ هَذَا وَهَذَا،
جَمِيعُ غُلَامِ النَّاسِ فَحَلَفَ بِكُلِّ يَمِينٍ لِيُضْرِبَنِي أَرْبَعِمِائَةَ
سُوطٍ، فَكُنْتُ تَرَى لِي أَنْ أَقِيمَ؟ قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ قَالَ: فَهَذَا
الْآنَ إِبَاقٌ؟ قُلْتُ لَا، قَالَ: فَاشْتَرَيْتَهُ فَإِذَا هُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ
خَبْرًا وَأَطْيَبُهُمْ طَبْخًا.

وَخَبَّرَنِي رَجُلٌ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لَغُلَامٍ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: يَا فَاجِرُ
قَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ.
وَزَعَمَ رُوحُ بْنُ الطَّائِفِيِّ - وَكَانَ رُوحٌ عَبْدًا لِأَخْتِ أَنْسِ
بْنِ أَبِي شَيْخٍ، وَكَانَتْ قَدْ فَوَّضَتْ إِلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهَا
- قَالَ: دَخَلْتُ السُّوقَ أُرِيدُ شِرَاءَ غُلَامٍ طَبَّاحٍ، فَبَيْنَا أَنَا
وَاقِفٌ إِذْ جِيَءَ بَغُلَامٍ يُعْرَضُ بَعَشْرَةَ دِنَانِيرٍ، وَيَسَاوِي عَلَى
حُسْنِ وَجْهِهِ وَجُودَةِ قَدِّهِ، وَحِدَاثَةِ سَنِّهِ، دُونَ صِنَاعَتِهِ -
مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ لَمْ أَتَمَّالِكْ أَنْ دَنُوتُ مِنْهُ فَقُلْتُ:
وَيْحَكَ أَقَلُّ ثَمَنِكَ عَلَى وَجْهِكَ مِائَةَ دِينَارٍ، وَاللَّهِ مَا يَبِيعُكَ
مَوْلَاكَ بَعَشْرَةَ دِنَانِيرٍ إِلَّا وَأَنْتِ شَرُّ النَّاسِ فَقَالَ: أَمَّا لَهُمْ
فَأَنَا شَرُّ النَّاسِ، وَأَمَّا لغيرهم فَأَنَا أَسَاوِي مِائَةَ وَمِائَةَ،
قَالَ: فَقُلْتُ: التَّرْتِيبُ بِجَمَالِ هَذَا وَطَيْبِ طَبْخِهِ يَوْمًا وَاحِدًا
عِنْدَ أَصْحَابِي خَيْرٌ مِنْ عَشْرَةِ دِنَانِيرٍ، فَابْتَعْتَهُ وَمَضَيْتُ بِهِ

إلى المنزل، فرأيت من حذقه وخدمته، وَقَلَّةَ تزيُّده ما إن بعثته إلى الصيرفي ليأتيني من قبله بعشرين ديناراً، فأخذها ومضى على وجهه فو الله ما شعرت إلا والنَّاشد قد جاءني وهو يطلب جُعْله، فقلت: لهذا وشبهه باعك القومُ بعشرة دنانير قال: لولا أنني أعلم أنك لا تصدق يميني و كيف طرَّت الدنانير من ثوبي، ولكني أقول لك واحدة: احتبسني واحترس مني، واستمتع بخدمتي، واحتسب أنك كنت اشتريتنى بثلاثين ديناراً، قال: فاحتبسته لهوايَ فيه، وقلت لعلَّه أن يكون صادقاً، ثم رأيتُ والله من صلاحه وإنابته وحسن خدمته ما دعاني إلى نسيان جميع قصَّته، حتى دفعتُ إليه يوماً ثلاثين ديناراً ليوصلها إلى أهلي، فلما صارت إلى يده ذهبَ على وجهه، فلم ألبثُ إلا أياماً حتى رده النَّاشد، فقلت له: زعمت أن الدنانير الأولى طرَّت منك، فما قولك في هذه الثانية؟ قال: أنا، والله أعلم أنك لا تقبل لي عُذراً، فدعني خارجَ الدار، ولا تجاوزُ بي خدمةَ المطبخ؛ ولو كان الضَّربُ يردُّ عليك شيئاً من مالك لأشرتُ عليك به، ولكن قد ذهبَ مالك، والضَّربُ ينقص من أجرك؛ ولعلي أيضاً أموتُ تحت الضَّرب فتندم وتائم وتفتضح ويطلبك

السلطان، ولكن اقتصر بي على المطبخ فإني سأسرك فيه، وأوفره عليك، وأستجيد ما أشتريه وأستصلحه لك، وعدّ أنك اشتريتني بستين ديناراً فقلت له: أنت لا تفلح بعد هذا اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى فقال لي: أنت عبد فكيف يجوز عتقك، قلت فأبيعك بما عَزَّ أو هَانَ فقال: لا تبغني حتى تعدّ طبأخاً، فإنك إن بعثني لم تتغدّ غداءً إلاّ بخبز وبقلاء، قال: فتركته ومرّت بعد ذلك أيام فبينما أنا جالسٌ يوماً إذ مرّت عليّ شاةٌ لبونٌ كريمة، غزيرة الدّرّ كنا فرّقنا بينها وبين عناقها فأكثرث في الثّغاء، فقلت كما يقول النّاس، وكما يقول الضّجر: اللهمّ العنّ هذه الشاة ليت أنّ الله بعث إنساناً يذبحها أو سرّقها، حتى نستريح من صياحها قال: فلم ألبث إلاّ بقدر ما غاب عن عيني، ثمّ عاد فإذا في يده سكين وساطور وعليه قميصُ العمل، ثمّ أقبل عليّ فقال: هذا اللّحم ما نصنع به وأيُّ شيءٍ تأمرني به؟ فقلت: وأيُّ لحم؟ قال: لحم هذه الشاة، قلت: وأيُّما شاة؟ قال: التي أمرت بذبّحها، قلت: وأي شاةٍ أمرت بذبّحها؟ قال: سبحان الله أليس قد قلت الساعة: ليت أنّ الله تعالى قد بعث إليها من يذبحها أو يسرقها، فلما أعطاك الله تعالى سؤالك صرت تتجاهل قال

روح: فَبَقِيْتُ وَاللَّهِ لَا أَقْدِرُ عَلَى حَبْسِهِ وَلَا عَلَى بَيْعِهِ وَلَا
عَلَى عِتْقِهِ.

أشعارُ حِسَانٍ

وقال مسكينُ الدَّارِمِيُّ:

وَحَوَاءُ قَرَمٌ ذُو
عِثَانِينَ شَارِفٍ

مِنَ الْقَطَنِ
هَاجَتَهُ الْأَكْفُ
النَّوَادِفُ

مِنَ الْمِسْكِ دَافَتَهُ
الْأَكْفُ الدَّوَائِفُ

إِذَا جَاءَ يَوْمٌ
مُظْلَمُ اللَّوْنِ
كَاسِفٌ

وَمَا بَيْنَهَا

إِنَّ أَبَانَ بِحُرِّ
آدَمٍ فَاعْلَمُوا

كَأَنَّ عَلَى
خُرْطُومِهِ
مَتَهَا فِتَاءً

وَاللَّصْدَاءُ الْمُسَوَّدُ
أَطِيبُ عِنْدَنَا

وَيَصْبِحُ عِرْفَانُ
الدُّرُوعِ
جَلُودَنَا

تَعْلُقُ فِي مِثْلِ

والكعب مِنَّا
تنائفُ

قطاً سابقُ
مستوردُ الماءِ
صائفُ

جلا الغيمَ عنه
والقتامَ
الحراجِفُ

ومثلُ القدامى
ساقها متناصفُ

فهناكمُ وأفقَ
الشَّنِّ الطَّبَقُ

السَّواري
سُيوفنا

وكلُّ رُدَيْنِيَّ
كأنَّ كُعبَه

كأنَّ هِلالاً لاحَ
فوقَ فَناتِه

له مثلُ حُلُومِ
النَّعامِ حلة

وقال أيضاً مسكينُ الدَّارِمِيّ:

وإذا الفاحشُ
لاقى فاحشاً

إِنَّمَا الْفَحْشُ
وَمَنْ يَعْتَادُهُ

كَغَرَابِ الْبَيْنِ مَا
شَاءَ نَعَقُ

أَوْ حَمَارِ
السَّوِّءِ إِنْ
أَشْبَعْتَهُ

رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ
جَاعَ نَهَقَ

أَوْ غَلَامِ السَّوِّءِ
إِنْ جَوَّعْتَهُ

سَرَقَ الْجَارَ وَإِنْ
يَشْبَعُ فَسَقَ

وقال ابن قيس الرقيات:

مَعْقِلُ الْقَوْمِ مِنْ
قُرَيْشٍ إِذَا مَا

فَازَ بِالْجَهْلِ
مَعَشَرَ آخِرُونَا

لَا يُؤْمُونَ فِي
الْعَشِيرَةِ بِالسُّوِّ

ءَوْ لَا يُفْسِدُونَ
مَا يَصْنَعُونَا

وقال ابن قيس أيضاً، واسمه عبد الله:

لَوْ كَانَ حَوْلِي

يَنْطِقُ رَجَالٌ إِذَا

بنو أمية لم

هم نطقوا

إن جلسوا لم
تضق
مجالسهم

أو ركبوا ضاق
عنهم الأفق

كم فيهم من
فتى أخي ثقة

عن منكبیه
القميص
منخرق

تحبهم عود
النساء إذا

ما احمر تحت
القوانس الحدق

وأنكر الكلب
أهله ورأى
الشر

وطاح المروع
الفرق

وقال النابغة:

سهكين من صدا
الحديد كأنهم

تحت السنور
جنه البقار

وقال بشار بن برد:

على أنها ريح
الدِّماء تَضُوع

يطيَّبُ ريحُ
الخيْرَآنةِ
بيْنَهُم

سنقول في الشهب وفي استراق السمع وإنما تركنا جمعه في مكان واحد، لأن ذلك كان يطول على القارئ، ولو قد قرأ فضل الإنسان على الجان، والحجة على من أنكر الجان - لم يستثقله، لأنه حينئذ يقصد إليه على أنه مقصور على هذا الباب، فإذا أدخلناه في باب القول في صغار الوحش، والسباع، والهَمَج، والحشرات، فإذا ابتداء القراءة على ذلك استطال كل قصير إذا كان من غير هذا المعنى.

قالوا: زعمتم أن الله تعالى قال: "وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ"، وقال تعالى: "وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ"، وقال تعالى: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ" ونحن لم نجد قط كوكباً خلا مكانه، فما ينبغي أن يكون واحداً من جميع هذا الخلق، من سكان الصحارى، والبحار، ومن يراعي

النُّجُوم للاهتداء، أو يفكّر في خلق السموات أن يكون يرى كوكباً واحداً زائلاً، مع قوله: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ".

قيل لهم: قد يحرك الإنسان يده أو حاجبه أو إصبعه، فتضاف تلك الحركة إلى كفه، فلا يشكُّون أنّ الكلَّ هو العامل لتلك الحركة، ومتى فصل شهابٌ من كوكب، فأحرق وأضاء في جميع البلاد، فقد حكّم كلُّ إنسان بإضافة ذلك الإحراق إلى الكوكب، وهذا جواب قريب سهل، والحمد لله.

ولم يقل أحد: إنه يجب في قوله: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ" أنه يعني الجميع، فإذا كان قد صحَّ أنه إنما عني البعض فقد عني نُجُوم المجرّة، والنجوم التي تظهر في ليالي الحنّاس؛ لأنه محال أن تقع عينٌ على ذلك الكوكب بعينه في وقت زواله حتّى يكون الله عزّ وجلّ لو أفنى ذلك الكوكب من بين جميع الكواكب الملتفة، لعرف هذا المتأمل مكانه، ولو جدّ مسّ فقده، ومن ظنّ بجهله أنّه يستطيع الإحاطة بعدد النجوم فإنه متى تأملها في الحنّاس، وتأمّل المجرّة وما حولها، لم يضرب المثل في كثرة العدد إلاّ بها، دون الرّمْل والتراب وقطر السحاب.

وقال بعضهم: يدنو الشَّهاب قريباً، ونراه يجيء عَرَضاً
 لا مُنْقِضاً ولو كان الكوكب هو الذي ينقضُّ لم يُر كالخيط
 الدَّقِيق، ولأضواء جميع الدُّنيا، ولأحرق كلَّ شيء مما على
 وجه الأرض، قيل له: قد تكون الكواكب أفقيّة ولا تكون
 علوية؛ فإذا كانت كذلك فصلَّ الشَّهابُ منها عَرَضاً،
 وكذلك قال الله تعالى: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ
 شِهَابٌ ثَاقِبٌ" وقال الله عزَّ وجلَّ: "أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ
 قَبَسٍ" فليس لكم أن تقضوا بأنَّ المباشر لبدن الشيطان
 هو الكوكب حتى لا يكون غير ذلك، وأنتم تسمعون الله
 تعالى يقول: "فَاتَّبِعْهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" والشَّهاب معروف في
 اللغة، وإذا لم يُوجِبْ عليها ظاهر لفظ القرآن لم ينكر أن
 يكون الشَّهاب كالخطِّ أو كالسهم لا يضيءُ إلا بمقدار، ولا
 يقوى على إحراق هذا العالم، وهذا قريبٌ والحمد لله.
 وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال: زعمتم أن الله تبارك
 وتعالى قال: "وَحَفِظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ
 إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، نُحُورًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ وَاصِبٌ" وقال على سنن الكلام: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ
 الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" قال: فكيف تكون الخطفة
 من المكان الممنوع؟ قيل له: ليس بممنوعٍ من الخطفة،

إذ كان لا محالة مرمياً بالشَّهاب، ومقتولاً، على أنه لو
كان سلمَ بالخطفة لما كان استفاد شيئاً للتكاذيب
والرياسة، وليس كلُّ من كذب على الله وادَّعى النبوة كان
على الله تعالى أن يُظهر تكذيبه، بأن يخسفَ به الأرض،
أو ينطقَ بتكذيبه في تلك السَّاعة، وإذا وجبت في العقول
السَّليمة ألاَّ يصدق في الأخبار لم يكن معه بُرهان، فكفى
بذلك.

ولو كان ذلك لكانَ جائزاً، ولكنَّه ليس بالواجب، وعلى أن
ناساً من النحويين لم يدخلوا قوله تعالى: "إلاَّ من خطف
الخطفة"، في الاستثناء، وقال: إنما هو كقوله:

وابني قبيصة أن
أغيبَ ويشهدا

إلاَّ كخارجة
المكف
نفسه

وقوله أيضاً:

كالغصن في
غلوئه المتنبت

إلا كناشرة
الذي كلفتُم

وقال الشاعر في باب آخر مما يكون موعظةً له من
الفكر والاعتبار، فمن ذلك قوله:

أرى قمر الليل
المعذر كالفتي

مهما يكن ريبُ
المُنون
فإنني

ويرجع حتى قيلَ
قد مات وانقضى

يكونُ صغيراً
ثمَّ يعظم
دائماً

وتكراره في إثره
بعد ما مضى

كذلك زيدُ
المرءِ ثمَّ
انتقاصُه

وقال آخر:

وما إن تلاقي
ما به الشفتانِ

ومستنبتٍ لا
بالأيالي نبأته

ويُجهد في سبغِ

وآخر في خمسٍ

وتسعٍ تمامه

معاً وثمانٍ

الأول الطريق والثاني القمر.

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

وقال أبو العتاهية:

أسرع في نقض امرئٍ تمامه

وقال عبدُ هند:

فإنَّ السَّنَان

يركبُ المرءُ

حَدَّهُ

من العارِ أو يعدو
على الأسدِ الوَرْدِ

وإنَّ الذي

ينهاكُمُ عن

طَلابِها

يُنَاغِي نِساءَ
الحيِّ في طَرَّةِ
البُرْدِ

يُعَلِّلُ والأَيَّامُ

تَنْقِصُ

كما تَنْقِصُ
النَّيرانُ من طَرَفِ

عمره

الزند

وفي أمثال العرب: كلُّ ما أقامَ شَخَصَ، وكلُّ ما ازداد
نقص؛ ولو كان يُميتُ النَّاسَ الدَّاءَ، لأعاشهم الدَّواءُ.
وقال حميد بن ثور:

أرى بصري قد

رأبني بعد صحّة

وحسبك داءً أن
تصحّ وتسلما

وقال النمر بن توبل:

يُحِبُّ الْفَتَى طُولَ

السَّلَامَةِ وَالْبِقَا

فكَيْفَ تَرَى
طُولَ السَّلَامَةِ
يَفْعَلُ

أخبار في المرض والموت

وقيل للمؤبذ: متى أبئك يعني أبئك قال: يوم ولد.
وقال الشاعر:

تصرّفتُ أطواراً

أرى كلَّ عِبْرَةٍ

وكان الصّبَا
مَنِي جديداً

فأخلاقا

وما اجتمع
الإلفان إلا
تفرقا

وما زاد شيء
قط إلا نقصه

وقيل لأعرابي في مرضه الذي مات فيه: أي شيء تشتهي؟ قال: تمام العدة وانقضاء المدة. وقيل لأعرابي، في شكاته التي مات فيها: كيف تجدك؟ قال: أجدني أجد ما لا أشتهي، وأشتهي ما لا أجد.

وقيل لعمر بن العاص في مرضته التي مات فيها: كيف تجدك؟ قال: أجدني أنوب ولا أثوب، وقال معمر: قلت لرجل كان معي في الحبس، وكان مات بالبطن: كيف تجدك؟ قال: أجد روعي قد خرجت من نصفي الأسفل، وأجد السماء، مطبقة علي، ولو شئت أن ألمسها بيدي لفعلت، ومهما شككت فيه فلا أشك أن الموت برد ويابس، وأن الحياة حرارة ورطوبة.

شعر في الرثاء

وقال يعقوب بن الربيع في مرثية جارية كانت له:

حَتَّى إِذَا فُتِرَ
اللِّسَانُ
وَأَصْبَحَتْ

لِلْمَوْتِ قَدْ دَبَّتْ
دُبُولُ النَّرْجِسِ

رَجَعَ الْيَقِينُ
مَطَامِعِي يَأْسًا
كَمَا

رَجَعَ الْيَقِينُ
مَطَامِعِ الْمَتَلَمِّسِ

وقال يعقوبُ بن الربيعُ:

لئن كان قَرْبِكَ
لي نافعاً

لُبُعْدِكَ قد كان لي
أنفعا

لأنني أمنتُ
رَزَايَا الدُّهُورِ

وإنَّ جَلَّ خُطْبُ
فَلنَّ أَجْزَعَا

وقال أبو العتاهية:

وكانتُ في
حياتِكَ لي عِظَاتُ

فأنتَ اليوم
أوعظُ منك حيًّا

وقال التيميُّ:

لقد عزى ربيعة
أن يوماً

عليها مثل
يومك لا يعود

ومن عجب
قصدن له المنيا

على عمد
وهن له جنود

وقال صالح بن عبد القدوس:

إن يكن ما أصبت
فيه جليلاً

فذهب العزاء
فيه أجلاً

ونظر بعض الحكماء إلى جنازة الإسكندر، فقال: إن الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أو عظم منه أمس.

وقال غسان:

ابيض مني
الرأس بعد
سواده

ودعا المشيب
حليتي لبعاد

وكفى بذلك

واستنفد القرن

الذي أنا مِنْهُمْ

علامة
لحصادي

وقال أعرابي:

إذا الرِّجالُ
ولدتْ أولادها

واضطربتْ من
كَبِرَ أعضاؤها

وَجعلتْ
أسقامها
تعتادها

فهي زُرُوعٌ قد
دنا حصادها

وقال ضِرارُ بنُ عمرو: مَنْ سرَّه بَنُوهُ ساءتْه نَفْسُهُ.
وقال عبدُ الرحمن بن أبي بكرة، مَنْ أَحَبَّ طُولَ العُمُرِ
فلْيُوطِنْ نَفْسَهُ على المصائبِ.
وقال أخو ذي الرِّمَّة:

ولم يُنسني
أوفى المِلَمَاتِ
بعده

ولكنَّ نَكْءَ
القرحِ بالقرحِ
أوجعُ

بعض المجون

وقال بعض المُجَّان:

نُرَقِعُ دُنْيَانَا فلا دِينَنَا يَبْقَى
بتمزيقِ دِينَا ولا ما نرَقِّعُ

وسئل بعضُ المُجَّان: كيف أنتَ في دينك؟ قال: أخرَّقه
بالمعاصي، وأرَقَّعه بالاستغفار.
شعر في معنى الموت وأنشدوا لِعُرْوَةَ بنِ أُدِينَةَ:

نُراَعِ إِذَا ويحزُننا بُكاءُ
الجَنائِزُ قابِلَتْنَا الباكياتِ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ فلما غابَ عادتُ
لَمغازِ سَبْعِ راتِعاتِ

وقال أبو العتاهية:

إِذَا ما رأيتُم وإن لم تَرُوا ملتم
مَيِّتِينَ إلى صَبواتِها
جزعتُم

وقالت الخنساء:

فَاتِمَا هِي
إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

تَرْتَعُ مَا عَفَلْتُ
حَتَّى إِذَا أَدَّكَرْتُ

وكان الحسن لا يتمثل إلا بهذين البيتين، وهما:

إِذَا عَرَفَ الدَّاءَ
الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ

يَسِرُّ الْفَتَى مَا
كَانَ قَدَمٌ مِنْ
تُقَى

والبیت الآخر:

إِنَّمَا الْمَيِّتُ
مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

لَيْسَ مَنْ مَاتَ
فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ

وكان صالح المريّ يتمثل في قصصه بقوله:

فَعَاشَ الْفَسِيلُ
وَمَاتَ الرَّجُلُ

فَبَاتَ يُرَوِّي
أُصُولَ الْفَسِيلِ

وكان أبو عبد الحميد المكفوف، يتمثل في قصصه بقوله:

يا راقِدَ النَّيْلِ
مسروراً
بأوله

إنَّ الحوادثِ قد
يَطْرُقْنَ أسحاراً

ونظر بكرُ بن عبد الله المُرَنيّ إلى مُورِقِ العِجليّ، فقال:

عندَ الصَّبَاحِ
يَحْمَدُ القَوْمُ
السُّرَى

وتتجلي عنهم
غِيابات الكَرَى

وقال أبو النجم:

كلنا يأملُ مدّاً
في الأجلِ

والمنايا هي
آفاتُ الأملِ

فأمّا أبو النجم فإنّه ذهب في الموت مذهبَ زهير حيث
يقول:

إنَّ الفتى
يُصْبِحُ
للأسقامِ

كالغَرَضِ
المُنصُوبِ
للسَّهامِ

أخطأه رامٍ
وأصاب
رامٍ

وقال زهير:

تُمْتَهُومَن
تَخْطِي يُعَمَّرُ
فِيهِرَمِ

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبِطَ
عَشْوَاءَ مَنْ تُصَبُّ

مقطعات شتى وقال الآخر:

بِيَدَيْنِ لَيْسَ
نَدَاهُمَا بِمَكْدَرِ

وَإِذَا صَنَعْتَ
صَنِيعَةً
أَتَمَّتْهَا

فَسَوَاكَ بِأَنْعُهَا
وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي

وَإِذَا تَبَاغُ
كَرِيمَةً أَوْ
تُشْتَرَى

وقال الشاعر:

قَصِيرُ يَدِ
السَّرْبَالِ يَمْشِي
مَعْرَدًا

وقال الآخر:

بعثت إلى
العراق ورافديه

تفهيق بالعراق
أبو المثنى

وقال الآخر:

حَبَّذا رَجَعُهَا
إِلَى يَدَيْهَا

وأنشد:

طَوَّتُهُ الْمَنَايَا
وَهُوَ عَنْهِنَّ

وَشَرُّ قَرِيشٍ
فِي قَرِيشٍ
مُرَكَّبًا

فَزَارِيًّا أَحَدًا يَدِ
الْقَمِيصِ

وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ
الْخَبِيصِ

بِيَدَيْ دِرْعِهَا
تَحُلُّ الْإِزَارَا

بِمَنْخَرِقِ
السَّرْبَالِ عَارِي

غافلٌ

جريءٌ على
الأهوالِ يَعْدِلُ
دَرءَها

وقال جرير:

تركتُ لكم
بالشَّامِ حَبْلَ
جماعةٍ

وجدتُ رُقَى
الشَّيْطانِ لا
تستفزه

وقال الأسيدي:

كثير
المناقبِ والمكر
مات

المناكبِ

بأبيضَ سَقَّاطِ
وراءَ الضَّرائبِ

مَتينَ القوى
مُسْتَحْصِدِ الْفَتْلِ
باقياً

وقد كان
شَيْطاني من
الجِنِّ راقياً

يجود مجداً
وأصلاً أثيلاً

تباله بعد نصال
نصولاً

وضلاً وقد كان
قديماً ضلّوا

فما إن وجدت
لقلبي محيلاً

ترى بيديه
وراء الكميّ

تمنى السفاه
ورأى الخنا

فإن أنت تنزع
عن وُدنا

الكتاب التاسع عشر

في إحساس أجناس الحيوان

قتل المكاء للثعبان

قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

حزم فرخ العقاب

اختلاف عادات صغار الحيوان

الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

قدم ختان العرب

ختان الأنبياء

أثر الختان في اللذة

أثر الختان في العفاف والفجور

ظماً الأيّل إذا أكل الحيات

نصول قرن الوعل

بيوت الزنابير

معرفة الحقنة من الطير

ما يتعالج به الحيوان

رغبة الثعلب في القنفذ

صيد الظربان للضب

ما قيل في بلاهة الحمام

حيلة الفأرة للعقرب

علم الذرة

معرفة الدب

أمنيّة بشر أخي بشر

المحمق من الحيوان

ما قيل في حمق الأجناس المائية وفطنتها

حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

ما يغوص من السمك في الطين

جِـرَة الوحش

حيلة الضب واليربوع

أوقات اختفاء الفهد والأيل

معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

ما يطراً عليه الطيران

ما جاء في الشعر من إحساس الطير.. وغير ذلك من الحيوان

اختلاف طبائع الحيوان وما يعترئها من الأخلاق

ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله

مواضع الفراخ والبيض

أكثر الحيوان بيضاً وأقله

أثر الإلقام والزق في الحيوان

ما يزواج من الحيوان

عجائب البيض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في إحساس أجناس الحيوان

اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ونسألك الهداية
إلى صراطك المستقيم، وصلى الله على سيدنا محمد
خاصة وعلى أنبيائه عامة، ونعوذ بالله أن تدعونا المحببة
لإتمام هذا الكتاب إلى أن نصل الصدق بالكذب ونُدخل
الباطل في تضاعيف الحق، وأن نتكثَّر بقول الزور
ونلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبحه
بالتأليف المونق، أو نستعين على إيضاح الحق إلا
بالحق، وعلى الإفصاح بالحجة إلا بالحجة، ونستميل إلى
دراسته واجتباؤه، ونستدعي إلى تفضيله والإشادة
بذكره، بالأشعار المولدة، والأحاديث المصنوعة،

والأسانيد المدخولة، بما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله،
ولا مصدق له إلا من لا يُوثق بمعرفته، ونعوذ بالله من
فِتنة القول وخطئه، ومن الإسهاب وتقحم أهله،
والاعتماد فيما بيننا وبين كثير من أهل هذا الزمان على
حسن الظن، والاتكال فيهم على العذر؛ فإن كثيراً ممن
يتكلف قراءة الكتب، ومدارسة العلم، يقفون من جميع
الكتب على الكلمة الضعيفة، واللفظة السخيفة، وعلى
موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه، أو
ناله بعض اضطراب، أو كما يعرض في الكتب من
سقطات الوهم، وفلتات الضجر، ومن خطأ الراسخ،
وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقلٍ
غير مفسدٍ، ونظر غير مدخول، وتصفحه وهو محترسٌ
من عوارض الحسد، ومن عادة التسرع، ومن أخلاق من
عسى أن يتسع في القول بمقدار ضيق صدره، ويرسل
لسانه إرسالَ الجاهل بكُنه ما يكون منه، ولو جعل بدلَ
شُغله بقليل ما يرى من المذموم شُغلهُ بكثير ما يرى
من المحمود - كان ذلك أشبه بالأدب المرضي والخيم
الصالح، وأشدَّ مشاكلةً للحكمة، وأبعد من سلطان
الطيش، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين، وأجدر

أَنْ يَهَبَ اللَّهُ لَهُ السَّلَامَةَ فِي كِتَابِهِ، وَالذَّفَاعَ عَنْ حُجَّتِهِ يَوْمَ
مَنَاظِلَةِ خُصُومِهِ وَمَقَارَعَةِ أَعْدَائِهِ. وَلَيْسَ هَذَا الْكِتَابُ -
يُرْحَمُكَ اللَّهُ - فِي إِجَابِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَيُعْتَرِضُ عَلَيْهِ
الْمَرْجِيُّ، وَلَا فِي تَفْضِيلِ عَلِيٍّ فَيُنْصَبُ لَهُ الْعُثْمَانِيُّ، وَلَا
هُوَ فِي تَصْوِيبِ الْحَكَمِيِّينَ، فَيَتَسَخَّطُهُ الْخَارِجِيُّ، وَلَا هُوَ
فِي تَقْدِيمِ الْإِسْتِطَاعَةِ فِي عَارِضِهِ مَنْ يُخَالِفُ التَّقْدِيمَ، وَلَا
هُوَ فِي تَثْبِيتِ الْأَعْرَاضِ فَيُخَالِفُهُ صَاحِبُ الْأَجْسَامِ، وَلَا هُوَ
فِي تَفْضِيلِ الْبَصْرَةِ عَلَى الْكُوفَةِ، وَمَكَّةَ عَلَى الْمَدِينَةِ،
وَالشَّامَ عَلَى الْجَزِيرَةِ، وَلَا فِي تَفْضِيلِ الْعَجَمِ عَلَى الْعَرَبِ،
وَعَدْنَانَ عَلَى قَحْطَانَ، وَعَمْرٍو عَلَى وَاصِلٍ فَيُرَدُّ بِذَلِكَ
الْهَذِيلِيُّ عَلَى النَّظَامِيِّ، وَلَا هُوَ فِي تَفْضِيلِ مَالِكٍ عَلَى أَبِي
حَنِيفَةَ؛ وَلَا هُوَ فِي تَفْضِيلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ عَلَى النَّابِغَةِ،
وَعَامِرِ ابْنِ الطَّفِيلِ عَلَى عَمْرٍو بْنِ مَعَدٍ يَكْرِبُ، وَعَبَادِ بْنِ
الْحَصِينِ عَلَى عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْحُرِّ، وَلَا فِي تَفْضِيلِ ابْنِ
سُرَيْجٍ عَلَى الْغَرِيضِ، وَلَا فِي تَفْضِيلِ سَيَّبُوِيهِ عَلَى
الْكَسَائِيِّ، وَلَا فِي تَفْضِيلِ الْجَعْفَرِيِّ عَلَى الْعَقِيلِيِّ، وَلَا فِي
تَفْضِيلِ حِلْمِ الْأَحْنَفِ عَلَى حِلْمِ مَعَاوِيَةَ، وَتَفْضِيلِ قَتَادَةَ
عَلَى الزَّهْرِيِّ، فَإِنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ شَيْعَةً،
وَلِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ جُنْدٌ، وَعَدَدًا يُخَاصِمُونَ

عنهم، وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وأنصاف علمائهم أقلّ.
ولا تنكر هذا - حفظك الله - أنا رأيت رجلين بالبصرة على باب موسى بن عمران، تنازعا في العنب النّيروزيّ والرازقيّ، فجرى بينهما اللعين حتى توثبا، فقطع الكوفيّ إصبع البصريّ، وفقاً البصريّ عين الكوفيّ، ثم لم ألبث إلاّ يسيراً حتى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقعا قطّ على مقدار ما يُغضب من مقدار ما يُرضي، فكيف يقعان على مقادير طبقات الغضب والرضا؟ والله المستعان.

وقد ترك هذا الجمهور الأكبر، والسّواد الأعظم، التوقف عند الشبهة، والتثبّت عند الحكومة جانباً، وأضربوا عنه صفاً، فليس إلاّ لا أو نعم، إلاّ أنّ قولهم لا موصول منهم بالغضب، وقولهم نعم موصول منهم بالرضا، وقد عُزلت الحرّية جانباً، ومات ذكر الحلال والحرام، ورُفض ذكر القبيح والحسن.

قال عمرو بن الحارث: كُنّا نُبغض من الرّجال ذا الرياء والنّفخ، ونحن اليوم نتمناه.
قد كتبنا من كتاب الحيوان ستّة أجزاء، وهذا الكتاب

السابع هو الذي ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا من جُملة القول في شأنه، وفي جملة أسبابه، والله الموفق.

وإنما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عمّا في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة، وعلى الأدلة المترادفة، وعلى التنبيه على ما جلّ لها الله تعالى من البرهانات التي لا تعرف حقائقها إلا بالفكرة، وغشّاها من العلامات التي لا تنال منافعها إلا بالعبرة، وكيف فرّق فيها من الحكم العجيبة، والأحاسيس الدقيقة، والصنعة اللطيفة، وما ألهمها من المعرفة وحشاها من الجبن والجرأة، وبصرها بما يقبئها ويُعيشها، وأشعرها من الفطنة لما يحاول منها عدوّها، ليكون ذلك سبباً للحذر، ويكون حذرُها سبباً للحراسة، وحراستها سبباً للسلامة، حتى تجاوزت في ذلك مقدار حراسة المجرب من الناس، والخائف المطلوب من أهل الاستطاعة والروية، كالذي يروى من تحارس الغرائيق والكراكي، وأشكالٍ من ذلك كثيرة، حتى صار الناس لا يضربون المثل إلا بها، ولا يذمّون ولا يمدحون إلا بما يجدون في أصناف الوَحْش من الطير وغير ذلك، فقالوا: أحذر من عَفَق، وأحذر من غراب، وأحذر من عصفور، وأسمع من فَرخ العقاب، وأسمع من

قُرَاد، وَأَسْمَعُ مِنْ فَرَسٍ، وَأَجْبِنُ مِنْ صِفْرِدٍ، وَأَسْحَى مِنْ
لَا فِظَةَ، وَأَصْنَعُ مِنْ تَنْوِطٍ، وَأَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةِ، وَأَصْنَعُ مِنْ
دَبْرٍ، وَأَهْدَى مِنْ قَطَاةٍ، وَأَهْدَى مِنْ حَمَامٍ، وَأَهْدَى مِنْ
جَمَلٍ، وَأَزْهَى مِنْ غَرَابٍ، وَأَزْهَى مِنْ ذَبَابٍ، وَأَجْرَأُ مِنْ
اللَّيْثِ، وَأَكْسَبُ مِنَ الذَّنْبِ، وَأَخْدَعُ مِنْ ضَبِّ، وَأَرْوَعُ مِنْ
ثَعْلَبٍ، وَأَعَقَّ مِنْ ضَبِّ، وَأَبْرَّ مِنْ هِرَّةٍ، وَأَسْرَعُ مِنْ سِمْعٍ،
وَأَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ، وَأَظْلَمُ مِنْ وَرَلٍ، وَأَكْذِبُ مِنْ فَاخْتَةٍ،
وَأَصْدُقُ مِنْ قَطَاةٍ، وَأَمْوِقُ مِنْ رَحْمَةٍ، وَأَحْزَمُ مِنْ فَرْخِ
العُقَابِ.

وَنَبَّهْنَا تَعَالَى وَعَزَّ عَلَى هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، وَعَلَى هَذِهِ
الْمَشَارِكَةِ، وَامْتَحَنَ مَا عِنْدَنَا بِتَقْدِيمِهَا عَلَيْنَا فِي بَعْضِ
الْأُمُورِ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَيْهَا فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَلَّا
يُخْلِينَا مِنْ حُجَّةٍ، وَمِنَ النَّظَرِ إِلَى عِبْرَةٍ، وَإِلَى مَا يَعُودُ
عِنْدَ الْفِكْرَةِ مَوْعِظَةً، وَكَمَا كَرِهَ لَنَا مِنَ السَّهْوِ وَالْإِغْفَالِ،
وَمِنَ الْبَطَالَةِ وَالْإِهْمَالِ، فِي كُلِّ أَحْوَالِنَا لَا تُفْتَحُ أَبْصَارُنَا
إِلَّا وَهِيَ وَاقِعَةٌ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَعَلَى شَكْلِ مِنْ
أَشْكَالِ الْبُرْهَانَاتِ، وَجَعَلَ ظَاهِرَ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ دَاعِيًا
إِلَى التَّفَكِيرِ فِيهَا، وَجَعَلَ مَا اسْتَخْرَجْنَا مِنْ أَصْنَافِ
الْأَعَاجِبِ يُعْرَفُ بِالتَّكْشِيفِ عَنْهَا، فَمِنْهَا ظَاهِرٌ يَدْعُوكَ

إلى نفسه، ويشير إلى ما فيه، ومنها باطنٌ يزيدك
بالأمور ثقةً إذا أفضيتَ إلى حقيقته، لتعلم أنك مع فضيلة
عقلك، وتصرف استطاعتك إذا ظهر عجزك عن عمل ما
هو أعجز منك - أن الذي فضلك عليه بالاستطاعة
والمنطق، هو الذي فضله عليك بضروبٍ آخر، وأنكما
ميسران لما خلقتما له، ومصرفان لما سُخرتما له، وأن
الذي يعجز عن صنعة السرفة، وعن تدبير العنكبوت في
قتلها ومهانتها وضعفها وصغر جرمها، لا ينبغي أن
يتكبر في الأرض ولا يمشي الخيلاء، ولا يتهكم في
القول، ولا يتألى ولا يستامر، وليعلم أن عقله منيحة من
ربه، وأن استطاعته عارية عنده، وأنه إنما يستبقي
النعمة بإدامة الشكر، والتعرض لسلبها بإضاعة الشكر.
ثم حَبَّب إليها طلب الذرء والسفاد الذي يكون مجلبةً
للذرء، وحبَّب إليها أولادها ونجلها وذرءها ونسلها،
حتى قالوا: أكرم الإبل أشدّها حنيناً، وأكرم الصفايا أشدّها
حباً لأولادها، وزاوج بين أكثرها وجعل تألفها مع بعضها
من الطروقة إذا لم يكن الزواج لها خلقاً، وجعل إلف
العزس لها عادة، وقواها على المسافدة، لتتمّ النعمة،
وتعظم المنة، وألهمها المبالغة في التربية، وحسن

التعبد، وشدة التفقد، وسوى في ذلك بين الجنس الذي يُلقم أولاده تلقياً، وبين الذي يُرضعها إرضاعاً، وبين الذي يزيقها زقاً، وبين ما يحضن وما لا يحضن، ومنها ما أخرجها من أرحام البيض وأرحام البطون كاسيةً، ومها ما أخرجها كاسيةً كاسيةً، وأمتعها وأذها، وجعلها نعمةً على عباده، وامتحاناً لشكرهم، وزيادةً في معرفتهم، وجلاءً لما يتراكم من الجهل على قلوبهم، فليس لهذا الكتاب ضدٌّ من جميع من يشهد الشهادة، ويصلي إلى القبلة، ويأكل الذبيحة ولا ضدٌّ من جميع الملحدين ممن لا يقرُّ بالبعث، وينتحل الشرائع وإن ألدَّ في ذلك وزاد ونقص، إلا الدهري، فإن الذي ينفي الربوبية، ويحيل الأمر والنهي، وينكر جواز الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويجحد الثواب والعقاب، ولا يعرف الحلال والحرام، ولا يقرُّ بأن في جميع العالم برهاناً يدلّ على صانع ومصنوع، وخالق ومخلوق، ويجعل الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادة في حركته، ولا النقصان من دورانه، ولا معاينة للسكون بالحركة، ولا الوقوف طرفةً عين، ولا الانحراف عن

الجهة - هو الذي يكون به جميع الإبرام والنقض، ودقيق
الأمور وجليلها، وهذه الحكمة العجيبة، والتدابير المتقنة،
والتأليف البديع، والتركيب الحكيم، على حساب معلوم،
ونسق معروف، على غاية من دقائق الحكمة وإحكام
الصنعة.

ولا ينبغي لهذا الدهري أيضاً أن يعرض لكتابنا هذا وإن
دلَّ على خلاف مذهبه، ودعا إلى خلاف اعتقاده، لأن
الدهري ليس يرى أن في الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة
أو ملة، ولا يرى للحلال حُرمةً ولا يعرفه ولا للحرام
نهايةً ولا يعرفه، ولا يتوقع العقاب على الإساءة، ولا
يترجى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده
والحق في حكمه، أنه والبهيمة سيان، وأنه والسبع
سيان، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه وليس الحسن
عنده إلا ما وافق هواه، وأن مدار الأمر على الإخفاق
والدرك، وعلى اللذة والألم، وإنما الصواب فيما نال من
المنفعة، وإن قتل ألف إنسان صالح لمنالة درهم رديء،
فهذا الدهري لا يخاف إن ترك الطعن على جميع الكتب
عقاباً ولا لائمة، ولا عذاباً دائماً ولا منقطعاً ولا يرجو إن
نمَّها ونصب لها ثواباً في عاجل ولا أجل.

فالواجبُ أن يسلم هذا الكتابُ على جميع البرية، إذا كان موضِعُه على هذه الصِّفة، ومُجراه إلى هذه الغاية، والله تعالى الكافي الموفِّق بلطفه وتأييده، إنه سميع قريب، فعال لما يريد.

ثم رجع بنا القولُ إلى الإخبار عن الحيوان، بأيِّ شيء تفاضلتُ وبأيِّ شيء خُصت، وبماذا أُبينت، وقد عَرَفنا ما أُعطيت في الشَّمِّ والاستِرواح، قال الرَّاجز وذكر الذئب:

بمِثْلِ مِقْرَاعِ
الصِّفَا المَوْقِعِ

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ
إِذَا لَمْ يَسْمَعِ

وقد عرفنا كيف شَمَّ السَّنَانِيرُ والسَّبَاعُ والذئاب، وأعجبُ من ذلك وجدانُ الذَّرَّةِ لرائحةِ شيءٍ لو وضَعته على أنفك لَمَا وَجَدتَ له رائحةً، كرجل جرادةٍ يابسةٍ منبوذةٍ، كيف تجدُ رائحتها من جوف جُحرها حتى تخرج إليها، فإذا تكَلَّفَت حملها فأعجزتُها كيف تستدعي إليها سائر الذرِّ، وتستعينُ بكلِّ ما كان منها في الجُحر.

ونحو شَمِّ الفرسِ رائحةَ الجُحر من مسيرة ميل، والفرس يسير قُدماً والحجر خلفه بذلك المقدار، من غير تَلَفُّتٍ ولا معاينةٍ من جهة من الجهات، وهذا كثيرٌ، وقد ذكرناه في

غير هذا الموضوع، فأما السَّمع فدعنا من قولهم: أسمع
من فرس،: أسمع من فرخ العقاب وأسمع من كذا،
وأسمع من كذا، ولكننا نقصد إلى الصَّغير الحقيقير في
اسمه وخطره؛ والقليل في جسمه وفي قدره.
وتقول العرب: أسمع من فراد، ويستدلون بالقردان التي
تكون حَوْل الماء والبنر، فإذا كان ليلة ورود القرب، وقد
بعث القوم من يصلح لإبلهم الأرشية وأداة السقي، وباتت
الرجال عند الماء تنتظر مجيء الإبل، فإنها تعرف قربها
منهم في جوف الليل بانتفاش القردان وسرعة حركتها
وخشختها، ومرورها نحو الرعاء، وزجر الرعاء،
ووقع الأخفاف على الأرض، من غير أن يُحسَّ أولئك
الرجال حساً أو يشعروا بشيء من أمرها، فإذا استدلوا
بذلك من القردان نهضوا فتلبَّبوا واتزروا وتهيؤوا للعمل.
فأما إدراك البصر فقد قالوا: أبصر من غراب وأبصر من
فرس؛ وأبصر من هدهد وأبصر من عقاب.
والسنانير والفأر والجردان والسَّبَاع تُبصر بالليل كما
تبصر بالنهار؛ فأما الطَّعم فيظنُّ أنها بفرط الشَّره
والشَّهوة وبفرط الاستمراء وبفرط الحرص والنَّهم، أن
لذتها تكون على قدر شرَّها وشهوتها، تكون على قدر

ما ترى من حركتها، وظاهر حرصها. ونحن قد نرى
الحمار إذا عاين الأتان، والفرس إذا عاين الحِجْر
والومكة، والبغلَ والبغلةَ، والتيسَ والعنز فنظن أن اللذة
على قدر الشهوة، والشهوة على قدر الحركة، وأن
الصَّيَاحَ على قدر غلبة الإرادة. ونجد الرجال إذا اعتراهم
ذلك لا يكونون كذلك إلا في الوقت الذي هم فيه أشدَّ
عُلمةً وأفرط شهوةً.

فإن قال قائل: إن الإنسان يَغشى النساء في كلِّ حالٍ من
الفصلين والصَّمِيمين، وإنما هَيَجُ السَّبَاعَ والبهائم في أيام
من السنة ثم يسكن هيج التَّيسَ والجمل، فالإنسان
المدام أحسن حالاً.

قلنا: إننا لم نكن في ذكر المخايرة بين نصيب الإنسان في
ذلك مجموعاً ومفرقاً، وبين نصيب كلِّ جنسٍ من هذه
الأجناس مجموعاً ومفرقاً، وإنما ذكرنا نفس المخالطة
فقط، وما يدريكم أيضاً لعلها أن تَسْتَوْفِي في هذه الأيام
اليسيرة أضعافاً ما يأتي الإنسان في تلك الأيام الكثيرة.
وعلى أننا قد نرى ممَّا يعترى الحمارَ والفرسَ والبغلَ
وضروباً كثيرة إذا عاينوا الإناث في غير أيام الهيج،
وهاهنا أصنافٌ تُديم ذلك كما يُديمه الإنسان، مثل الحمام

والدِّيَكَةِ وغير ذلك.

وقد علمنا أنّ السَّنَانِيرَ وأشباة السنانير لها وقتٌ هيج،
ولكنّ ذلك يكون مراراً في السنة على أشدّ من هيج
الإنسان، فليس الأمر على ما يظنون.

فإن كان الإنسان موضعَ ذهنه من قلبه أو دماغه يكونُ
أدقَّ وأرقَّ وأنفَذَ، وأبصر، فإنّ حواسَّ هذه الأشكال أدقَّ
وأرقَّ وأبصر وأنفَذَ، وإن كان الإنسان يبلغُ بالرويةِ
والتصفح، والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيءٌ من
السَّبَاعِ والبهائم، فإنّ لها أموراً تدركها، وصنعةً تحذقها
تبلغُ منها بالطباع سهواً وهويّاً ما لا يبلغ الإنسان في ما
هو بسبيله إلا أن يُكره نفسه على التفكير، وعلى إدامة
التنكير والتكشيف والمقاييس فهو يستثقله.

ولكلّ شيءٍ ضربٌ من الفضيلة وشكلٌ من الأمور
المحمودة، لينفي تعالى وعز عن الإنسان العُجْبَ، ويقبَح
عنده البَطْرَ، ويعرّفه أقدار القسم.

وسنذكر من فطن البهائم وأحاساس الوَحْشِ وضروب
الطير أموراً تعرفون بها كثرةً ما أودعها الله تعالى من
المعارف، وسخر لها من الصنعة، ثم لا نذكر من ذلك في
هذا الموضع إلا كلّ طائر منسوبٍ إلى الموق، وإلا كلّ

بهيمةٍ معروفةٍ بالعثاة، بعدةٍ ما فيه أشكالها من المعرفة
والفطنة، ولو أردنا الأجناسَ المعروفةً بالمعارف الكثيرة،
والأحساسِ اللطيفة، لذكرنا الفيلَ والبعير، والذرة
والنملة، والذئب، والثعلب، والغرنوق، والنحلة،
والعنكبوت، والحمام، والكلب، وسنذكر على اسم الله
تعالى بعضَ ما في البهائم والسباع والطيور من المعرفة،
ثم نخصُّ في هذا الكتابِ المنسوباتِ إلى الموق،
والمعروفاتِ بالغباوةِ وقلةِ المعرفة، كالرَّخمة والزنبور،
والرَّبَّع من أولاد الإبل، والنَّسر من عظام الطير.
وقال المفضَّل الضبيّ: قلت لمحمد بن سهل راوية
الكميت: ما معنى قول الكميت في الرَّخمة:

تَحَمَّقُ وَهِيَ
كَيْسَةُ الْحَوِيلِ

وَذَاتِ اسْمَيْنِ
وَالْأَلْوَانُ شَتَّى

بِضَائِعَةِ الْجَنِينِ
وَلَا مَذُولِ

لَهَا حَبٌّ تَلَوْدُ بِهِ
وَلَيْسَتْ

قال: كأنَّ معناه عندي حفظُ فراخها، أو موضع بيضها،
وطلب طعمها، واختيارها من المساكن ما لا يَطُوره سبع

طائر ولا ذو أربع، قال: فقلتُ: فأَيُّ كَيْسٍ عِنْدَ الرَّخْمَةِ إِلَّا
مَا ذَكَرْتَ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ طَائِرًا أَلَامَ لَوْمًا وَلَا أَقْدَرَ
طُعْمَةً، وَلَا أَظْهَرَ مُوقًا مِنْهَا، حَتَّى صَارَتْ فِي ذَلِكَ مِثْلًا؟
فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ: وَمَا حَمَقُهَا وَهِيَ تَحْضَنُ بَيْضَهَا،
وَتَحْمِي فِرَاخَهَا، وَتَحَبُّ وِلْدَهَا، وَلَا تَمَكَّنُ إِلَّا زَوْجَهَا،
وَتَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْقَوَاطِعِ وَتَرْجِعُ فِي أَوَّلِ الرِّوَاجِعِ، وَلَا
تَطِيرُ فِي التَّحْسِيرِ، وَلَا تَغْتَرُّ بِالشَّكِيرِ، وَلَا تُرَبُّ بِالوُكُورِ
وَلَا تَسْقُطُ عَلَى الجَفِيرِ.

أَمَّا قَوْلُهُ: تَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْقَوَاطِعِ وَتَرْجِعُ فِي أَوَّلِ الرِّوَاجِعِ
فَإِنَّ الرُّمَامَةَ وَأَصْحَابَ الحَبَائِلِ وَالقُنَّاصِ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ الطَّيْرَ
بَعْدَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْقَوَاطِعَ قَدْ قَطَعَتْ، فَيَقْطَعُ الرَّخْمَةَ
يَسْتَدَلُّونَ، فَلَا بَدَّ لِلرَّخْمَةِ مِنْ أَنْ تَنْجُو سَالِمَةً إِذَا كَانَتْ
أَوَّلَ طَالِعِ عَلَيْهِمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَا تُرَبُّ بِالوُكُورِ فَإِنَّهُ يَقُولُ: الْوُكُورُ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي غُرُضِ الجَبَلِ، وَهِيَ لَا تَرْضَى إِلَّا بِأَعَالِي الهَضَابِ،
ثُمَّ مَوَاضِعِ الصَّدُوعِ وَخِلَالِ الصَّخُورِ، وَحَيْثُ يَمْتَنِعُ عَلَى
جَمِيعِ الخَلْقِ المَصِيرُ إِلَى فِرَاخِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ الكَمِيتُ:

كِرَاجٍ عَلَى بَيْضِ

وَلَا تَجْعَلُونِي

فِي رَجَائِي
وَدَّكُمْ

الأنوق احتبالها

والأنوقُ هي الرَّخمة، وقال ابن نوفل:

وَأَنْتَ كَسَاقِطٍ
بَيْنَ الْحَشَايَا

يَصِيرُ إِلَى
الْخَبِيثِ مِنْ
الْمَصِيرِ

وَمِثْلُ نَعَامَةٍ
تُدْعَى بَعِيرًا

تَعَاظَمِهَا إِذَا مَا
قِيلَ طِيرِي

وَإِنْ قِيلَ
أَحْمَلِي قَالَتْ
فَأَنِّي

مِنَ الطَّيْرِ الْمُرْبَةِ
فِي الْوَكُورِ

وأما قوله: ولا تطير في التَّحْسِيرِ، ولا تغترُّ بالشَّكْرِ
فإنها تدعُ الطيرانَ أيامَ التحسيرِ، فإذا نبت الشَّكْرُ - وهو
أول ما ينبت من الريش - فإنها لا تنهض حتى يصير
الشَّكْرُ قَصَبًا، وأمَّا قوله: ولا تسقط على الجَفِيرِ، فإنما
يعني جعبة السَّهَامِ، يقول: إذا رأته علمت أن هناك

سهماً، فهي لا تسقط في موضع تخاف فيه وقع السّهام.
اتباع الرّخم والنسور والعقبان للجيوش

والرّخم والنسور والعقبان تتبع الجيوش لتوقع القتال وما
يكون لها من الجيف، وتتبع أيضا الجيوش والحجاج لما
يسقط من كسير الدّواب، وتتبعها أيضاً في الأزمنة التي
تكون فيها الأنعام والحجور حوامل، لما تؤمل من
الإجهاض والإخداج، قال النابغة:

كتائبُ من
عَسَّانٍ غيرِ
أَشَائِبِ

أولئك قومٌ
بأسهم غيرِ
كاذِبِ

عصائب طيرِ
تهتدي بعصائبِ

وَوَثِقَتْ لَهُ
بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ
قَدْ عَدَّتْ

بنو عمّه دنيا
وعمر بن
عامر

إذا ما غزوا
بالجيش حلق
فوقهم

إذا ما التقى
الجمعان أولُ
غالب

جُلوس شيوخٍ
في مُسوكٍ
الأرانب

جوانح قد
أيقنَ أن
قبيله

تراهنَّ خَلَفَ
القَوْمُ خُزْرًا
عيونها

فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي فقال:

من الطَّير ينظُرُنْ
الذي هو صانعُ

ويجعل الرُّوسَ
تيجانَ القنا
الذُّبْلِ

فهنَّ يتبعنه في

إذا ما غزا
يوماً رأيتَ
عصابه

وقال آخر:

يكسُو السيوفاً
نفوس النَّاكثين
به

قد عَوَدَ الطَّيْرَ

عاداتٍ وَثِقَنَ
بها

كُلَّ مُرْتَحَلٍ

فقال الكميت كما ترى:

تحمق وهي كَيْسَة الحَوِيلِ

فزعم أن النَّاسَ يحمقونها وهي كَيْسَة.
قول بعض الأعراب وقال بعض أصحابنا: قيل لأعرابي:
أتحسن أن تأكلُ الرَّأسَ؟ قال: نعم، قيل: وكيف تصنع
به؟ قال: أبخسُ عينيهِ، وأسحَى خَدَيْهِ، وأعفصُ أذنيهِ،
وأفكُ لَحْيَيْهِ، وأرْمِي بِالْمَخِّ إِلَى مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنِّي إِلَيْهِ،
قيل له: إنك لأحمق من رُبْع، قال: وما حمق الرُّبْع؟ والله
إنه لِيَجْتَنِبُ العَدَاوَةَ وَيَتَّبِعُ أُمَّه فِي المَرَعَى، وَيُرَاوِحُ بَيْنَ
الأطْبَاءِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ حَنِينَهَا رُغَاءٌ، فَأَيْنَ حَمَقُهُ.

قتل المكاء للشعبان

وحدث ابنُ الأعرابيِّ عن هشام بن سالم، وكان هشام من
رَهْطِ ذِي الرِّمَّةِ، قال: أَكَلْتُ حَيَّةً بَيْضَ مَكَّاءَ فَجَعَلَ المَكَّاءُ
يَشْرِشِرُ عَلَيَّ رَأْسَهَا وَيَدْنُو مِنِّي، حَتَّى إِذَا فَتَحَتْ فَاها
تَرِيدُهُ وَهَمَّتْ بِهِ أَلْقَى فِيهِ حَسَكَةً، فَلَمْ يَزَلْ يُلْقِي فِيهِ

حسكةً بعد حسكة، فأخذتُ بحلقها حتى ماتت.
وأنشد ابن الأعرابي عند هذا الحديث قولَ الشاعر:

يُرِيدُ بِتَخْرِيقِ
الْأَدِيمِ اسْتِلَالَهَا

كَأَنَّ لِكَلِّ عِنْدَ
كُلِّ سَخِيمَةٍ

وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر، وهو هذا المعنى
بعينه، وهو قول الأسدِي الدُّبَيْرِي:

فَرُبَّمَا قَتَلَ
الْمُكَّاءُ
تُعْبَانَا

إِنْ كُنْتَ أَبْصَرْتَنِي
فَدَاً وَمُصْطَلَمًا

يقول: قد يظفر القليل بالكثير، والقليلُ الأعوانِ بالكثير
الأعوان؛ والمُكَّاءُ من أصغر الطير وأضعفهِ، وقد احتال
للتُّعبانِ حتَّى قتله.

قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

وقال جالينوس في الإخبار عن معارف البهائم والطيور،
وفي التعجُّب من ذلك وتعجب الناس منه: قولوا لي: مَنْ
عَلَّمَ النسرَ الأنثى إذا خافت على بيضها وفراخها

الخفافيش أن تفرش ذلك الوكر بورق الدُّب حتى لا
تقربه الخفافيش، وهذا أعجب، والأطباء والعلماء لا
يتدافعونه، والنُّسور هي المنسوبة إلى قلة المعرفة
والكيس والفتنة.

حزم فرخ العقاب

وقال ابن الأعرابي وأبو الحسن المدائني: قال رجلٌ من
الأعراب: كان سرفان بن أبي حارثة أحزم من فرخ
العقاب، وذلك أنّ جوارح الطير تتخذ أوكارها في عُرُض
الجبال، فربما كان الجبلُ عموداً، فلو تحرَّك الفرخ إذا
طلب الطعم وقد أقبل إليه أبواه أو أحدهما وزاد في
حركته شيئاً من موضع مجثمه لهوى من رأس الجبل
إلى الحضيض، وهو يعرف مع صغره وضعفه وقلة
تجربته، أنّ الصواب في ترك الحركة.

اختلاف عادات صغار الحيوان

ولو وُضع في أوكار الوحشيات فرخٌ من فراخ الأهلبيات
لتهافتن تهافتاً كفراخ القطا والحجل والقبج والدُّراج
والدجاج؛ لأنّ هذه تدرج على البسيط، وذلك لها عادة،
وفراخ الوحشية لا تجاوز الأوكار؛ لأنها تعرف وتعلم أنّ

الهلكة في المجاوزة، وأولاد الملاحين الذين وُلدوا في
السفن الكبار، والمنشآت العظام لا يخاف الآباء والأمهات
عليهم إذا درجوا ومشوا أن يقعوا في الماء، ولو أن
أولاد سُكان القصور والدور صاروا مكان أولادِ أرباب
السفن لتهافتوا، ولكلِّ شيء قَدْر، وله موضعٌ وزمانٌ
وجهةٌ وعادةٌ.

فإذا استوى قصب ريش فرخ العقاب، وأحسَّ بالقوة طار.
وأبوا فرخ الخُطاف يعلمانه الطيران تعليماً.

الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

وزعم ناسٌ من أطباء النصارى وهم أعداء اليهود، أن
اليهود يختنون أولادهم في اليوم الثامن، وأن ذلك يقع،
ويوافق أن يكون في الصِّممين، كما يوافق الفصلين،
وأنهم لم يروا قطَّ يهودياً أصابه مكروه من قبل الختان،
وأنهم قد رأوا من أولاد المسلمين والنصارى ما لا
يُحصى ممن لقي المكروه في ختنه إذا كان ذلك في
الصِّممين من ريح الحمرة، ومن قطع طرف الكمرة،
ومن أن تكون الموسى حديثاً العهد بالإحداد وسقى
الماء، فتشيط عند ذلك الكمرة ويعترها برص، والصبى

ابن ثمانية أيام أعسرُ ختاناً من الغُلام الذي قد شَبَّ
وشدن وقوي؛ إلاَّ أنَّ ذلك الهرصَ لا يتفشى ولا يعدو
مكانه، وهو في ذلك كُنحو البرص الذي يكون من الكيِّ
وإحراق النار، فإنهما يفحشان ولا يتسعان.

ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

ويختن من أولاد السفلة والفقراء الجماعة الكثيرة فيؤمَّن
عليهم خطأ الخاتن، وذلك غير مأمونٍ على أولاد الملوك
وأشباه الملوك، لفرط الاجتهاد، وشدة الاحتياط، ومع ذلك
يَزْمَعُ، ومع الزَّمَع والرَّعدة يقعُ الخطأ، وعلى قدر رعدة
اليد ينال القلب من الاضطراب على حسب ذلك.
وليس من التدبير أن يحضُر الصبيِّ والخاتن إلاَّ سفلة
الخدم، ولا يحضره من يهاب.

قدم ختان العرب

وهذا الختان في العرب في النساء والرجال من لُدُن
إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا، ثم لم يُولد صبيِّ مختونٍ
قط؛ أو في صورة مختون.

ختان الأنبياء

وناسٌ يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم وُلداً مختونين، والسَّبِيلُ في مثل هذا الرَّجُوعُ إلى الرواية الصحيحة، والأثر القائم.

أثر الختان في اللذة

قال: والبطراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة، فإن كانت مُستأصلةً مستوعبةً كان على قدر ذلك، وأصل ختان النساء لم يُحاول به الحسنُ دونَ التماس نُقصان الشهوة، فيكون العفاف عليهنَّ مقصوراً.

قال: ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للخاتنة: يا أم عطية أسمىه ولا تنهكيه، فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند البعل، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردّها إلى الاعتدال؛ فإن شهوتها إذا قلتُ ذهبَ التمتع، ونقصَ حُبُّ الأزواج، وحُبُّ الزوج قيئٌ دون الفجور، والمرأة لا تكونُ في حالٍ من حالات الجماع أشدَّ شهوةً منها للكوم الذي لقت منه. وقد كان رجلٌ من كبار الأشراف عندنا يقول للخاتنة: لا تقرضي إلا ما يظهر فقط.

أثر الختان في العفاف والفجور

وزعم جَناب بن الخَشْخاش القاضي، أنه أحصى في قرية واحدة النساء المختونات والمُعْبِرَات، فوجد أكثر العفائف مستوعبات وأكثر الفواجر مُعْبِرَات.

وأن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنا وطلب الرجال فيهنَّ أعم، لأنَّ شهوتهنَّ للرجال أكثر، ولذلك اتخذ الهند دوراً للزواني، قالوا: وليس لذلك علة إلا وفارة البظر والقلفة.

والهند توافق العرب في كلِّ شيء إلا في ختان النساء والرجال، ودعاهم إلى ذلك تعمُّقهم في توفير حظ الباه، قالوا: ولذلك اتخذوا الأدوية، وكتبوا في صناعة الباه كتاباً ودرَسوها الأولاد، السحق قالوا: ومن أكبر ما يدعو النساء إلى السحق أنهنَّ إذا أُلصقن موضع محزِّ الختان وجَدْنَ هناك لذَّةً عجيبة، وكلما كان ذلك منها أوفر كان السحقُ ألدَّ، قال: ولذلك صار حُذاق الرجال يضعون أطراف الكمر ويعتمدون بها على محزِّ الختان، لأنَّ هناك مجتمع الشهوة.

ظماً الأيِّل إذا أكل الحيات

ومن هذا الباب الذي ذكرنا فيه صدقَ إحساس الحيوان؛
ثم اللاتي يضاف منها إلى الموق وينسب إلى الغثارة،
قال داود النبي عليه السلام في الزبور: شوقي إلى
المسيح مثل الأيّل إذا أكل الحيات، والأيّل إذا أكل الحيات
فاعتراه العطش الشديد تراه كيف يدور حول الماء
ويحجزه من الشرب منه علمه بأنّ ذلك عطبه، لأن
السموم حينئذٍ تجري مع هذا الماء، وتدخل مداخل لم يكن
ليبلغها الطعام بنفسه، وليس علم الأيّل بهذا كان عن
تجربة متقدمة، بل هذا يوجد في أول ما يأكل الحيات
وفي آخره.

تعلق رؤوس الحيات في بدن الأيّل وربما اصطيد الأيّل
فيجد القنّاص رؤوس الأفاعي وسائر الحيات ناشبة
الأسنان في عنقه وجلد وجهه، لأنه يريد أكلها فربما
بدرته الأفعى والأسود وغيرهما من الحيات فتعضّه، وهو
يأكلها ويأكل ما ينال منها ويفوته ما تعلق به منها
بالعضّ، فتبقى الرؤوس مع الأعناق معلّقة عليه إلى أن
تنقطع.

نصول قرن الوعل

قالوا: وليس شيء من ذوات القرون ينصل قرنه في كل عام إلا الوعل، فإذا علم أنه غير ذي قرن، وأنه عديم السلاح، لم يظهر من مخافة السباع، فإذا طال مكثه في موضعه سمن، فإذا سمن علم أن حركته تفقد وتبطل، فزاد ذلك في استخفائه وقلة تعرّضه، واحتال بالأى يكون أبداً على علاوة الريح، فإذا نجم قرنه لم يجد بداً من أن يمظّعه ويعرّضه للشمس والريح، حتى إذا أيقن أنه قد اشتد أكثر المجيء والذهاب التماساً أن يذهب شحمه، ويشتد لحمه، وعند ذلك يحتال في البعد من السباع، حتى إذا أمكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما، والوثوب من جهتهما، رجّع إلى حاله من مراعيه وعاداته، ولذلك قال عصام بن زفر:

قد مصّه الدهر
فما فيه بلل

فلانئذ منك
بشعب من
جبل

ترجو الثواب من
صبيح يا حمل

إن صبيحاً ظاعن
فمحمّل

كما يلود من
أعاديهِ الوَعِلُ

فضرب به المثل كما ترى في الاحتيال والهرب من
أعدائه: وقال الراجز:

لما رأيتُ
البرقَ قد
تبسَّما
وأخرج القَطْرُ
القَرُوعَ الأعصَمَا

قال ابن الأعرابي: إنما سمّوا الوعلَ القروع لأنه يقرع
عُجْبَ ذنبه من الناحيتين جميعاً.

بيوت الزنابير

وقال ابن الكلبي: قال الشرقي بن القطامي ذات يوم:
أرأيتم لو فكَّرَ رجلٌ منكم عُمرَه الأطولَ في أن يتعرَّفَ
الشيء الذي تتَّخذُ الزنابيرُ بيوتها المخرَّقة بمثل
المجاوب، المستوية في الأقدار، المتحاذية بالحيطان،
السخيفة في المنظر، الخفيفة في الحمل، المستديرة
المضمرة بعضها ببعض، المتقاربة الأجزاء، وهي البيوت
التي تعلم أنها بُنيت من جوهرٍ واحدٍ وكأنها من ورق

أطباق صِغار الكاغد المزرّرة، قولوا لي: كيف جمعته؟
ومن أي شيء أخذته، وهو لا يشبه البناء ولا النّسج ولا
الخيطة.

ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً، فلم يصِرْ
في أيدينا منهما إلا التعجّب والتعجيب، فسألت بعد ذلك
مشايخ الأكرّة فزعموا أنها تلتقطه من زَبَد المُدود، فلا
يدري أمِن نَفْس الزَّبَد تأخذ، أم مِن شيء يكون في الزَّبَد.
والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء، ودلها على
ذلك الجوهر هو الذي علّم العرّكوت ذلك النّسج، وقد قال
الشاعر:

قفا عنكبوتٍ سلّ
من دبرها عَزْلُ

كأنّ قفا
هارون إذ
يَعْتَلُونَهُ

وقد قال بلا علم.
وأما دودة القزّ فلا نشك أنها تخرجه من جوفها.

معرفة الحقنة من الطير

وتزعم الأطباء أنهم استفادوا معرفة الحُقنة من قبل الطائر الذي إذا أصابه الحُصْر أتى البحرَ فأخَذَ بمنقاره من الماء المالح، ثم استدخَلَه فمَجَّه في جوفه، وأمكَنَه ذلك بطول العنق والمنقار، فإذا فعل ذلك، ذرَق فاستراح.

ما يتعالج به الحيوان

والقنفذ وابن عرس إذا ناهشا الأفاعي والحيات الكبار تعالجا بأكل الصعتر البري.
والعقاب إذا اشتكت كبدها من رفعها الأرنب والثعلب في الهواء وحطها لهما مراراً فإنها لا تأكل إلا من الأكباد حتى تبرأ من وجع كبدها.

رغبة الثعلب في القنفذ

قال: وسألت القُناص: ما رغبة الثعلب في أكل القنفذ وإن كان حشو إهابه شحماً سميناً، وفي ظاهر جلده شوك صلاب حداد متقارب كتقارب الشعر في الجسد؟ فزعموا أن الثعلب إذا أصابه قلبه لظهره ثم بال على بطنه فيما بين مغرز عَجْبِه إلى فكيه، فإذا أصابه ذلك البولُ اعتراه

الأسنُّ فأسبَطَ وتمدَّد، فينقر عن بطنه، فمن تلك الجهة يأكل جميع بدنه ومسلوخه الذي يشتمل عليه جلده.

صيد الظربان للضب

وقالوا: وبشبيه هذه العلة يصيد الظربان الضب في جوف جُحره حتى يغتصبه نفسه؛ وذلك أنه يعلم أنه أنتن خلق الله قسوة، فإذا دخل عليه جُحره سدَّ خصاصه وفروجه ببدنه، وهو في ذلك مستدبرٌ له، فلا يفسو عليه ثلاث فسواتٍ حتى يُعطي بيده فيأكله كيف شاء.

قالوا: وربما فسا وهو بقرب الهجمة وهي باركة فتفرق في الصحراء فلا يجمعها راعيها إلا بجهد شديد، ولذلك قال الشاعر:

أنت آل صقرٍ من ثوابٍ ولا شكرٍ

لا تمنحوا صقراً فما لمنيحةٍ

بالأم لوماً قد علمناه من صقرٍ

فما ظَرْبانٌ يُؤْبَسُ الضَّبَّ فَسُوهُ

ولذلك قال الراجز، وهو يذكر تكسب الظربان بفسوه
لِطُعْمِهِ وَقُوْتِهِ، كما يتكسب الناس بالصناعات والتجارات،
فقال:

مستمسكين بالبطانِ والحقب

باتا يُحْكَنُ عراصيفَ القتب

وابن يزيدَ حربٌ من الحرب

كما يحكُّ القينُ أطرافَ الخشب

كالظربانِ بالفساءِ يكتسب

لا ينفعُ صاحبَ إلا أن يسب

ما قيل في بلاهة الحمام

قال ابن الأعرابي: قلت لشيخ من قريش: مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا،
وإنما يُحسِن من هذا أصحابُ التجارات والتكسُّب، وأنتَ
رجلٌ مكفيٌّ مودّع؟ قال: عَلَّمَنِي الَّذِي عَلَّمَ الْحَمَامَةَ عَلَى
بَلْهَها تَقْلِيْبَ بِيضِها كِي تَعْطِي الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً نَصِيْبَهُما
مِنَ الْحَضْنِ، وَلِخَوْفِ طِبَاعِ الْأَرْضِ إِذَا دَامَ عَلَى الشَّقِّ
الواحد.

والحمام أبله؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقولون: كونوا بلها كالحمام، ألا ترى أن
الحمام في الوجه الذي ألهمه الله مصالح ما يعيشه،
ويُصلِح به شأنَ ذُرئِهِ ونسلِهِ - ليس بدون الإنسان في
ذُرئِهِ ونسلِهِ، مع ما حوَّل من المنطق، وألهم من العقل،
وأعطى من التصريف في الوجوه؟،

حيلة الفأرة للعقرب

وإذا جَمَعَ بعضُ أهل العَبَثِ وبعضُ أهل التَّجْرِبةِ بين
العقرب وبين الفأرة في إناءٍ زجاج، فليس عندَ الفأرة
حيلةٌ أبلغ من قرضِ إبرة العقرب فإمّا أن تموتَ من
ساعتها، وإمّا أن تتعجل السَّلامَةَ منها، ثم تقتلها كيف
شاءت، وتأكلها كيف أحبَّت.

علم الذرة

قال: وَمَنْ عَلَّمَ الذَّرَّةَ أَنْ تَفْلِقَ الحَبَّةَ فتأكل موضع
القطمير لئلاً تنبتَ فتنفسد، فإذا كانت الحَبَّة من حب
الكزبرة ففلقتها أنصافاً لم ترض حتى تفلقها أرباعاً؛ لأن
الكزبرة من بين جميع الحب تنبت وإن كانت أنصافاً،
وهذا علمٌ غامضٌ.

إذا عرفه الشيخُ الفلاح المجرب، والفاشكار الرئيس
والأكار الحاذق، فقد بلغوا النهاية في الرياسة.

معرفة الدب

وقال جالينوس: ومن علم الدب الأنتى إذا وضعت ولدها
أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الدب والنمل،
لأنها تضعه كفدرة من لحم، غير متميز الجوارح، فهي
تخاف عليه الدب، وذلك له حتفٌ، فلا تزال رافعة له
وراصدة، ومُتفقدة ومحوّلة له من موضع إلى موضع،
حتى يشتد وتنفرج أعضاؤه.
شعر لبشار وقال بشار الأعمى:

وفي المعيشة أبلأء مناكيرُ

أما الحَيَاة فكلُّ النَّاسِ يحفظُها
والحظُّ شيءٌ عليه الدهرُ مقصورٌ

وكلُّ قسمٍ فالعقبانِ أكثرُهُ

أمنيَّةُ بشرٍ أحيٍ بشارٍ

وقال بشرٌ أخو بشارٍ - وكانوا ثلاثةً، واحدٌ حنفيٌّ، وواحدٌ
سدوسيٌّ، وبشارٌ عُقيليٌّ، وإنما نزل في بني سدوسٍ
لسببِ أخيه - وقد كان قيل لأخيه: لو خيرك الله أن تكون
شيئاً من الحيوانِ أيَّ شيءٍ كنتَ تتمنى أن تكون؟ قال:
عُقاب، قيل: ولمَ تمنيت ذلك؟ قال: لأنَّها تَبِيْتُ حيثُ لا
ينالها سَبْعٌ ذو أربعٍ، وتَحِيدُ عنها سباعُ الطَّيرِ.
وهي لا تعاني الصَّيدَ إلا في الفَرَطِ، ولكنها تسلُبُ كلَّ
صَيُودٍ صَيَّده، وإذا جامع صاحبُ الصقرِ وصاحبُ
الشَّاهينِ وصاحبُ البازي صاحبَ العقابِ، لم يرسلوا

أطيارهم خوفاً من العُقاب، وهي طويلة العمر، عاقّة
بولدها، وهي لا تحمِل على نفسها في الكسْب، وهي إن
شاءت كانت فوق كلِّ شيءٍ، وإن شاءت كانت بقرب كلِّ
شيءٍ، وتتغذى بالعِراق وتتعشّى باليمن، وريشها الذي
عليها هو فرؤها في الشتاء، وحيثُها في الصيف، وهي
أبصرُ خلق الله.

هذا قولُ صاحب المنطق في عُقوق العقاب وجفائها
بأولادها، فأما أشعار العرب فهي تدلُّ على خلاف ذلك،
قال دريد بن الصَّمّة:

إذا اغتمست في
الماءِ فَنَحَاءُ
كاسِرُ

وكلُّ لَجُوجٍ في
العِنانِ كأنَّها

كما مَهَدَتْ لِلْبَعْلِ
حسناً عاقرُ

لها ناهض في
الوكرِ قد مَهَدَتْ
له

المحمق من الحيوان

والحيوان المحمَّق الرَّخْمَة والحُبَارَى، قال عثمان بن عفَّان رضي الله عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتَّى الحبارَى. وأنثى الذناب، وهي التي تسمَّى جَهِيْزَة، والضبع، والنَّعْجَة، والغنز، هذه من الموصوفات بالمُوقِ جدًّا. قال: ومن الحيوان ما ليس عنده إلا الجمالُ والحسن كالطاوس؛ وهو من الطير المحمَّق، وكذلك التُّرْجُ مع جماله وحُسنه وعجيب وشيْه، والزرافة، وهي أيضاً موصوفة بالمُوقِ، وليس عندها إلا طَرَاْفَة الصُّورَة وخرابة النَّتَّاجِ، وهي من الخَلْقِ العجيبِ مَوَاضِعِ الأَعْضَاءِ، ويتنازعها أشباه كثيرة. والفيل عجيب ظريف، ولكنه قَبِيحٌ مَسِيخٌ، وهو في ذلك بهيِّ نبيلٌ، والعين لا تكرهه، والخنزير قبيح مَسِيخٌ، والعين تكرهه، والقرد قَبِيحٌ مليح. وعند الببغاء والمُكَّاءِ والعندليب وابن تَمْرَة مع صغر أجرامها ولطافة شُخُوصها، وضعف أسرها، من المعرفة والكيس والفطنة والخُبث ما ليس عند الزرافة والطاوس والببغاء عجيب الأمر، ويقولون: عندليب وعندبيل، وهو من أصغر الطير.

ما قيل في حمق الأجناس المائية وفطنتها

فأما الأجناس المائية من أصناف السمك، والأجناس التي
تُعاش السَّمَك، فإنَّ جماعتها موصوفةٌ بالجهل والموق
وقلة المعرفة، وليس فيها خُلُقٌ مذكور، ولا خصلة من
خِصال الفِطْن، إلا كنعو ما يروى من صيد الجرِّيِّ
للجرذان، وحمل تلك الدابة للغرقى حتى تؤدِّيهم إلى
الساحل.

شدة بدن السمكة والحية والسمكة شديدة البدن، وكذلك
الحية، وكلُّ شيء لا يستعينُ بيدي ولا رجلٍ ولا جناح،
وإنما يستعمل أجزاء بدنه معاً فإنه يكون شديد البدن.

حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

وخبَّرني بعضُ الصيادين أنَّ الشبوة تنتهي في النهر
إلى الشبكة فلا تستطيع النفوذ منها، فتعلم أنها لا يُنجيها
إلا الوثوب فتتأخَّر قدرَ قابِ رُمح، ثم تتأخَّر جامعةً
لجراميزها حتَّى تثب، فربَّما كان ارتفاعُ وثبِّها في
الهواء أكثرَ من عَشْرِ أذرع، وإنما اعتمدت على ما
وصفنا، وهذا العملُ أكثرُ ما رَوَّه من معرفتها، وليس
لها في المعرفة نصيبٌ مذكور.

ما يغوص من السمك في الطين

وأنواع من السمك يغوص في الطين، وذلك أنها تنخر وتتفّس في جوفه، وتلزم أصول النبات إذا لم يرتفع، وتلتمس الطعم والسّفاد.

ونحن لم نر قط في بطن دجلة والفرات وجميع الأودية والأنهار، عند نضوب الماء، وانكشاف الأرض، وظهور وجه الطين، وعند الجزر والنقصان في الماء في مَوَاحِر الصَّيْفِ وأيام مجاورة الأهلة والأنصاف جُحراً قط، فضلاً على ما يقولون، أنّ لها في بطون الأنهار بيوتاً.

جِحرَة الوحش

ورأيتُ عجباً آخر، وهو أتى في طول ما دخلت البراري، ودخلت البلدان، في صحارى جزيرة العرب والرُّوم والشام والجزيرة وغير ذلك، ما أعلمُ أنّي رأيتُ على لقم طريقٍ أو جادة، أو شريكٍ مُصَاقِبٍ ذلك أو إذا جانبت الطُّرُق، وأمعنتُ في البراري، وضربت إلى الموضع الوحشي - جُحراً واحداً يجوز أن يدخله ضبع أو تيس ظباء، أو بعض هذه الأجناس الوحشية، وما أكثر ما أرى الجِحرَة، ولكني لم أر شيئاً يتسع للثعلب وابن آوى،

فضلاً على هذه الوحوش الكبار مما هو مذكور بالتَّوَلَجِ
والوَجَارِ، وبالكِنَاسِ والعَرِينِ.
وَجُحْرُ الضَّبِّ يسمَّى عَرِيناً، وهو غير العَرِينِ الذي
يُضَافُ إلى الشَّجَرِ.

حيلة الضب واليربوع

وَأَمَّا حَفْظُ الْحَيَاةِ وَالْبَصَرِ بِالْكَسْبِ، وَالِاحْتِرَاسُ مِنَ الْعَدُوِّ
وَالِاسْتِعْدَاءُ بِالْحَيْلِ، فَكَمَا أَعَدَّ الضَّبُّ وَالْيَرْبُوعُ.

أوقات اختفاء الفهد والأيل

والفهد إذا سَمِنَ عَرَفَ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ، وَأَنَّ حَرَكَتَهُ قَدْ ثَقَلَتْ،
فَهُوَ يُخْفِي نَفْسَهُ بِجَهْدِهِ حَتَّى يَنْقُضِي ذَلِكَ الزَّمَانَ الَّذِي
تَسْمَنُ فِيهِ الْفُهُودُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ رَائِحَةَ بَدَنِهِ شَهِيَّةٌ إِلَى الْأَسَدِ
وَالنَّمْرِ، وَهُوَ أَلْطَفُ شَمًّا لِأَرَايِيحِ السَّبَاعِ الْقَوِيَّةِ مِنْ شَمِّ
السَّبَاعِ لِلرَّائِحَةِ الشَّهِيَّةِ، فَهِيَ لَا تَكَادُ تَكُونُ إِلَّا عَلَى
عُلَاوَةِ الرِّيحِ.

وَالْأَيْلُ يَنْصُلُ قَرْنَهُ فِي كُلِّ عَامٍ، فَيَصِيرُ كَالْأَجَمِّ، فَإِذَا كَانَ
ذَلِكَ الزَّمَانُ اسْتَخْفَى وَهَرَبَ وَكَمَنَ، فَإِذَا نَبَتَ قَرْنُهُ عَرَّضَهُ
لِلرِّيحِ وَالشَّمْسِ فِي الْمَوْضِعِ الْمَمْتَنِعِ، وَلَا يَظْهَرُ حَتَّى
يَصْلُبَ قَرْنَهُ وَيَصِيرَ سَلَاحاً يَمْتَنِعُ بِهِ، وَقَرْنُهُ مُصَمَّتٌ،

وليس في جوفه تجويفٌ، ولا هو مصمتٌ الأعلى أجوف
الأسفل.

معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

والبعير يدخل الرّوضة و الغيضة، وفي النبات ما هو
غذاءً، ومنه ما هو سمٌّ عليه خاصة، ومنه ما يخرج من
الحالين جميعاً، ومن الغداء ما يريده في حالٍ ولا يريده
في حالٍ أخرى، كالحمض و الخلة، ومنه ما يغتذيه غيرُ
جنسه فهو لا يقربُه وإن كان ليس بقاتل ولا مُعطب، فمن
تلك الأجناس ما يعرفه برؤية العين دون الشمّ، ومنها ما
لا يعرفه حتى يشمه، وقد تغلّط في البيش فتأكله، كصنع
الحافر في الدفلى.

معرفة الإبل بالزجر والناقة تعرف قولهم: حل، والجمل
يعرف قولهم: جاه، قال الراجز وهو يحمق رجلاً هجاه:

يقولُ جاهٍ يثنيه
بحلٍ

يقولُ للناقة قولاً
للجمل

قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

وممّا فضلت به السَّبَاعُ على بني آدمَ أنّ الله جعلَ في
طَباعِ إناثِ السباعِ والبهائمِ، من الوحشيّةِ والأهليّةِ، رَفَعَ
اللَّبَنَ وإرساله عند حضور الولدِ، والمرأة لا تقدر أن تدرّ
على ولدها وترفَعَ لبنها في صدرها إذا كان ذلك المُقَرَّبُ
منها غيرُ ولدها.

والذي أعطى الله البهائم من ذلك مثل ما تعرف به المعنى
وتتوهّمه.

اعلم أنّ الله تعالى قد أقدر الإنسانَ على أن يحبس بولهُ
وغائطه إلى مقدارٍ، وأن يخرجهما، ما لم تكن هناك عِلَّةٌ
من حُصْرٍ وأُسْرٍ، وإنما يخرج منه بولهُ ورَجِيعه بالإرادة
والتوجيه والتهيؤ لذلك، وقد جعل الله حبسه وإخراجه
وتأخيرَه وتقديمه على ما فسّرنا، فعلى هذا الطريق طَوْقُ
إناثِ السَّبَاعِ والبهائمِ، في رَفَعِ اللَّبَنِ.

حشر الحيوان في اليوم الآخر وقد قال الله جل ثناؤه:
"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ"، فالكلمة في الحشر مطلقة عامّة، ومرسلةٌ
غيرُ مستثنى منها، فأوجب في عموم الخبرِ على الطَّيْرِ

الحَشْرَ، والطير أكثر الخلق، والحديث: إِنَّ أَكْثَرَ الْخَلْقِ
الجراد.

ما يطراً عليه الطيران

ومن العقارب طيَّارة قاتلة، وزعم صاحب المنطق أنّ
بالحبشة حياتٍ لها أجنحةٌ.
وأشياء كثيرةٌ تطيرُ بعد أن لم تكن طيَّارة، مثل
الدعاميص، والنَّمْلِ، والأرَضَةِ، والجعلانِ.
والجرادُ تنقلُ في حالاتٍ قبلَ نبات الأجنحةِ.
جعفر الطيار قالوا: وحين عَظَّمَ اللهُ شأنَ جعفر بن أبي
طالب، خلق له جناحين يطير بهما في الجنة، كأنه تعالى
أَحَقُّه بشبه الملائكة في بعض الوجوه.
ما يطير ولا يسمى طيراً وذكر الله الملائكة فقال: "أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا". ولا يقال للملائكة طير، ولا
يقال إنها من الطير، رفعاً لأقذارها.
ولا يقال للنمل والدعاميص والجعلان والأرَضَةِ إذا
طارت: من الطير، كذلك لا يقال للجرس والبَعُوضِ
وأجناس الهَمَجِ إنها من الطير، وضعاً لأقذارها عن أقذار
ما يسمّى طيراً، فالملائكة تطير ولا يسمونها طيراً لرفع

أقدارها عن الطير، والهمج يطير ولا يسمّى طيراً لوضع
أقدارها عن الطير.

ملائكة العرش وفي الرواية أنّ النبي صلى الله عليه
وسلم أنشد قول أمية بن أبي الصلت:

والتسرُّ للأخرى
وليث مُرْصِدُ

رَجُلٌ وَثُورٌ
تَحْتَ رِجْلِ
يَمِينِهِ

فقال: صدق، وقوله نسر يعني في صورة نسر، لأنّ
المك لا يقال له نسر ولا صقر ولا عُقاب ولا باز.
ما جاء فيه الأثر من الطير وذكروا غراب نوح، وحمامة
نوح، وهدهد سليمان، والنحل والدراج، وما جاء من
الأثر في ذلك الديك الذي يكون في السماء.
وقال الناس: غراب نوح، وهدهد سليمان، وحمامة نوح،
وروا في الخطاف والسرّاد.
أشرف الخيل والطير ولا نعرف شيئاً من الحيوان أشرف
اسماً من الخيل والطير، لأنهم يقولون: فرس جواد،
وفرس كريم، وفرس وسيم، وفرس عتيق، وفرس رائع.
وقالوا في الطير لذوات المخالب المعقّفة، والمناسر

المحدّبة: أحرار، ومَضْرِحِيَّات، وعتاق؛ وكواسب،
وجوارح، وقال لبيدُ بن ربيعة:

كَعْتِيقِ الطَّيْرِ
يُغْضِي وَيُجَلِّ

فَانْتَضَلْنَا وَابْنَ
سَلْمَى قَاعِدٌ

وقال الشاعر:

عَمَلَ الرِّفِيقَةِ
وَاسْتَلَابَ الْأَخْرَقِ

حُرٌّ صَنَعَاهُ
لِتُحْسِنَ كَفُّهُ

ولولا أنا قد ذكرنا شأن الهدد والغراب والنمل وما
ذكرها به القرآن، والخصال التي فيها من المعارف ومن
القول والعمل، لذكرناه في هذا الموضوع.

ما جاء في ذكر الطير قال الله جل ثناؤه: "وَرَسُولًا إِلَى
بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ"،
وقال الله: "وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ
فِيهَا فَتَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي
وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي"، وقال: "وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيِّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"، وقال الله: "أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ"، وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ"، وقال الله: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ".

ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات. وقال الله: "فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ"; لأنك حينما تجد المنطقَ تجد الروح والعقل والاستطاعة.

وقالوا: الإنسان هو الحي الناطق، وقال الله: "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى"، وقال: "أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا"، ثم قال: "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ" ولم يذكر شيئاً من جميع الخلق، وقد كان الله سخر له جميع ذلك، ثم قال: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ".

ولم يتفقد شيئاً مما سخر له، ولا دلَّ سليمان على ملكة سبأ إلا طائر. وقال الله: "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ"، وقال الله: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"، فلما ذكر داود قال: "وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَلَ يُسَبِّحُنَا وَالطَّيْرَ"، وقال الله: "يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وقال: "وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ".

وقالوا: منطِق الطير، على التشبيه بمنطق الناس، ثم قالوا بعد: الصامت والناطق، ثم قالوا بعد للدار: تنطق. وقال الله: "يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"، قالوا اطيروا بك وبمن معك قال طائرركم عند الله بل انتم قوم تفتنون".

وقال الله: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ".

وكان عبد الله بن عباس يقول: ليس يعني بقوله:

"تُكَلِّمُهُمْ" من الكلام، وإنما هو من الكلم والجراح،

وجمع الكلم كلوم، ولم يكن يجعله من المنطق، بل يجعله من الخطوط والوسم، كالكتاب والعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق.

وقال الآخرون: لا ندع ظاهر اللفظ والعادة الدالة في

ظاهر الكلام، إلى المجازات، قالوا: فقد ذكر الله الدابة

بالمنطق، كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن
أوس، وقول الهدهد مسطوراً في الكتاب بأطول
الأقاصيص، وكذلك شأن الغراب.

وقال الله: "وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا
اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وجعل الله مقالة النملة قرآناً،
وقال: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، وقال في
مكان آخر: "وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ"، وقال: "وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ"، وذكر الملائكة فقال: "أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ".

وأنشدوا النبي صلى الله عليه وسلم قول أمية بن أبي
الصلت:

وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى
وَلَيْتَ مَرَّصِدُ

رَجُلٌ وَثُورٌ
تَحْتَ رِجْلِ
يَمِينِهِ

فقال: صدق.

وخلق الله لجعفر جناحين في الجنة، عوضاً من يديه
المقطوعتين في سبيل الله، قالوا: ولو كانت في الأرض

يُدُّ تَفْضِلَ الْجَنَاحَ لَجَعْلِهَا لِلَّهِ بَدَلَ الْجَنَاحِ، وَسَمَّاهُ
الْمُسْلِمُونَ الطَّيَّارَ.

ويقال: ما هو إلا طائر، إذا أرادوا مديح الإنسان في
السُّرْعَةِ، وقال الفرزدق:

وَحَلَفُوا فِي
جُؤَاثَا سَيِّدِي
مُضْرًا

جَاءُوا مَعَ الرَّيْحِ
أَوْ طَارُوا
بِأَجْنِحَةٍ

والأُمُّ كُلُّهَا تَضْرِبُ الْمَثَلَ بَعْنَاقِ مُغْرِبٍ، وَقَدْ جَاءَ فِي
نَسْرِ لِقْمَانَ مَا قَدْ جَاءَ مِنَ الْآثَارِ وَالْأَخْبَارِ، وَقَالَ
الْخَزْرَجِيُّ:

قَدْ ضَجَّ مِنْ
طُولِ عُمُرِهِ
الْأَبْدُ

إِنَّ مُعَاذَ بْنَ
مُسْلِمٍ رَجُلٌ

دَهْرٌ وَأَثْوَابُ
عُمُرِهِ جُدْدُ

قَدْ شَابَ رَأْسُ
الزَّمانِ وَاخْتَضَبَ
ال

تَسَحَّبُ دَيْلَ
الْحَيَاةِ يَا
لُبْدُ

وَأَنْتَ فِيهَا
كَأَنَّكَ الْوَتِدُ

كَيْفَ يَكُونُ
الصُّدَاعُ وَ
الرَّمْدُ

أَخْنَى عَلَيْهَا
الَّذِي أَخْنَى
عَلَى لُبْدِ

يَا نَسْرَ لِقْمَانَ كَمْ
تَعِيشُ وَكَمْ

قَدْ أَصْبَحْتَ دَارًا
أَدَمٍ خَرِبَتْ

تَسْأَلُ غَرْبَانَهَا
إِذَا حَجَلَتْ

وقال النابغة:

أَضَحَتْ خَلَاءً
وَأَضْحَى أَهْلَهَا
اِحْتَمَلُوا

وقال الله: "وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا" لأن ذلك الصنم
كان على صورة النسر.

وقالوا: أحرار فارس، وأحرار الرّياحين، وأحرار البقول،
وأحرار الطير، وهي الأحرار، والعتاق، والكواسب،

والجوارح، والمضرحيات.

بعض ما قيل في العقل وقيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت، فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أما أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الثدى حين احتجت، وسكت حين أعطيت، يقول هذه مقادير حاجاتي، ومن عرف مقادير حاجاته إذا منعهما، وإذا أعطيهما، فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثر من ذلك العقل، ولذلك قال الأعرابي:

بَعِيدٌ مِنَ الْآفَاتِ
طَيِّبَةُ الْبَقْلِ

سَقَى اللَّهُ
أَرْضاً يَعْلَمُ
الضَّبُّ أَنَّهَا

وَكُلُّ أَمْرٍ فِي
حَرْفَةِ الْعَيْشِ دُو
عَقْلٍ

بَنِي بَيْتِهِ مِنْهَا
عَلَى رَأْسِ
كُدْيَةٍ

منطق الطير وعقله فإن قال قائل: ليس هذا بمنطق، قيل له: أما القرآن فقد نطق بأنه منطق، والأشعار قد جعلته منطقاً، وكذلك كلام العرب، فإن كنت إنما أخرجته من حدّ

البيان، وزعمت أنه ليس بمنطقٍ لأنك لم تفهم عنه، فأنت أيضاً لا تفهم كلامَ عامّةِ الأمم؛ وأنت إن سميتَ كلامهم رطانةً وطمطمّةً فإتكَ لا تمتنعُ من أن تزعم أن ذلك كلامهم ومنطقهم، وعامّةِ الأمم أيضاً لا يفهمون كلامك ومنطقك، فجانزٌ لهم أن يُخرجوا كلامك من البيان والمنطق، وهل صار ذلك الكلام منهم بياناً ومنطقاً إلا لتفاهمهم حاجةٌ بعضهم إلى بعض، ولأنّ ذلك كان صوتاً مؤلفاً خرج من لسانٍ وفم، فهلاً كانت أصواتُ أجناس الطير والوحش والبهائم بياناً ومنطقاً إذ قد علمت أنها مقطعة مصوّرة، ومؤلفة منظمة، وبها تفاهموا الحاجات، وخرجت من فمٍ ولسان، فإن كنت لا تفهم من ذلك إلا البعض، فذلك تلك الأجناس لا تفهم من كلامك إلا البعض.

وتلك الأقدارُ من الأصوات المؤلفة هي نهايةُ حاجاتها والبيان عنها، وكذلك أصواتك المؤلفة هي نهايةُ حاجاتك وبيانتك عنها، وعلى أنّك قد تعلم الطير الأصوات فتتعلم، وكذلك يعلم الإنسان الكلام فيتكلم، كتعليم الصبي والأعجمي، والفرق بين الإنسان والطير أنّ ذلك المعنى معنىً يسمى منطقاً وكلاماً على التشبيه بالناس، وعلى

السبب الذي يجري، والنَّاسُ ذلك لهم على كلِّ حال.
وكذلك قال الشاعر الذي وصفها بالعقل، وإنما قال ذلك
على التَّشْبِيهِ، فليس للشاعر إطلاق هذا الكلام لها، وليس
لك أن تمنعها ذلك من كلِّ جهةٍ وفي كلِّ حال، فافهم فَهَمَّكَ
الله، فَإِنَّ الله قد أمرك بالتفكر والاعتبار، وبالتعرُّف
والإتعاظ.

وقد قال الله عزَّ وجلَّ مخبراً عن سليمان: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ
عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ" فجعل ذلك منطوقاً، وخصَّ الله
سليمانَ بأنَّ فَهَمَّهُ معاني ذلك المنطق، وأقامه فيه مقامَ
الطَّيْرِ؛ وكذلك لو قال عَلَّمْنَا منطِقَ البهائم والسَّباع، لكان
ذلك آيةً وعلامةً.

وقد علَّم الله إسماعيلَ منطِقَ العَرَبِ بعد أن كان ابنَ أربع
عشرة سنة، فلما كان ذلك على غير التلقين والتأديب
والاعتیاد والترتيب والمنشأ، صار ذلك برهاناً ودلالةً
وأعجوبةً وآيةً.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ - وذكر عمرَ بن الخطاب فقال -: كان
كالطائر الحذر؛ فشبهه عزَمَ عمرَ وتخوَّفَه من الخطأ،
وحذَّره من الخُدع بالطائر.

ما قيل في تجاوب الأصداء والديكة وقال ابن مقبل:

فلا أقومُ على
المولى فأشتمه

ولا يخرقه نابي
ولا ظفري

ولا تهيبني
المؤماة أركبها

إذا تجاوبت
الأصداءُ
بالسحرِ

فجعلها تتجاوب، وقال الطرمّاح بن حكيم - وذكر تجاوب
الدّيكَة كما ذكر ابنُ مقبلٍ تجاوبَ الأصداء - فقال:

فيا صُبْحُ
كَمْشَ عُبرَ
اللَّيْلِ مُصْعِداً

ببمّ ونبّه ذا
العفاء
الموشحِ

إذا صاح لم
يُخْذَلْ وجاوبَ
صوتهُ

حِماشُ الشّوى
يصدحن من كلِّ
مصدحِ

ما قيل في ضبحة الثعلب وقبعة القنفذ والقرنبي وحدث
أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال: خطب ابن
الزبير خطبة فاعترض له رجلٌ فأذاه بكلمة، ثم طأطأ

الرَّجُلُ رَأْسَهُ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: أَيْنَ الْمَتَكَلِمُ؟ فَلَمْ يَجِبْهُ
فَقَالَ: قَاتِلَهُ اللَّهُ، ضَبِحَ ضَبْحَةَ الثَّعْلَبِ وَقَبَعَ قِبْعَةَ الْقَنْفَذِ،
وَقَالَ ابْنُ مَقْبِلٍ:

قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ
أَخْلَفْتُهُ مَجَاعِرُهُ

وَلَا أَتْبَعُ
الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ
قَابِعًا

ما جاء في الشعر من إحساس الطير.. وغير ذلك من
الحيوان

قال أبو عبيدة: تسلح الحُبَارَى على الصَّقْر، وذلك من
أحد سلاحها، وهي تعلم أنها تدبّق جناحيه وتكتفه، حتى
تجتمع عليه الحُبَارِيَّاتُ فينتفن ريشه طاقةً طاقةً، فيموت
الصَّقْرُ.

والحُبَارَى إذا تحسّرت فأبطأ نبت ريشها، وهي لا تنهض
بالشَّكْرِيرِ، فربّما طار صويحباتها إذا تقدّم نبت ريشها قيل
نبت ريش تلك الحُبَارَى، فعند ذلك تكمد حزناً حتى تموت
كمدًا؛ ولذلك قال أبو الأسود الدّوَيْليّ:

إِذَا ظَعَنْتَ مَلِيحَةً
أَوْ تُلْمُ

وَزَيْدٌ مَيِّتٌ كَمَدَ
الْحُبَارَى

وليس في الطَّيْرِ أَسْرَعُ طَيْرَاناً مِنْهَا، لِأَنَّهَا تَصَادُ عِنْدَنَا
بِظَهْرِ الْبَصْرَةِ، فَيُوجَدُ فِي حَوَاصِلِهَا حَبَّةُ الْخَضِرَاءِ غَضَّةً
طَرِيَّةً، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مَوَاضِعِ ذَلِكَ الْحَبِّ بِلَادٌ وَبِلَادٌ، وَلِذَلِكَ
قَالَ بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ، فِي قَتْلِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ:

بُغَاثٌ مِنَ الطَّيْرِ
اجْتَمَعْنَ عَلَى
صَقْرٍ

كَأَنَّ بَنِي
مَرْوَانَ إِذْ
يَقْتُلُونَهُ

وَبُغَاثُ الطَّيْرِ ضِعَافُ الطَّيْرِ وَسَفَلَتُهَا مِنَ الْعِظَامِ الْأَبْدَانِ،
وَالْخَشَاشُ مِثْلُ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ صَغَارِ الطَّيْرِ، وَأَنْشَدَ أَبُو
عَبِيدَةَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

بِأَنْدَلَسٍ
وَأَنْدَلَسٌ بَعِيدٌ

سَأَلْتُ النَّاسَ عَنِ
أَنْسٍ فَقَالُوا

أَصَابَ جَنَاحَهُ

كَأَنِّي بَعْدَ سَكْنِ

مَضْرِحِيٌّ

عَنْتٌ شَدِيدٌ

فَقَدْ طَمِعَتْ عِتَاقُ

وَكَانَتْ عَنِ

الطَّيْرِ فِيهِ

عَقِيرَتِهِ تَحِيدُ

وَقَالَ الذُّكْوَانِيُّ:

بِفَاتِ الطَّيْرِ تَعْرِفُ

وَكَلَّ مَكْبَدٌ

قَانِصِيهَا

مِنْهَا لَهِيدٌ

يقول: لكلِّ جنسٍ من الجوارح ضربٌ من الصيد، وضربٌ من الطلب، فالمصيد منها يعرف ذكر، فيجعل المهرب من الآخر، ثم ذلك أنها تعرف الصائد المعتلّ من الصحيح، وهو معنى الخريمي حيث يقول:

ويعلم ما يأتي

ويعلم أقدارَ

وإن كان طائراً

الجوارح

والبُعْثُ

وقوله البُعْثُ يريد به جمع أبغث، وقال الأوّل:

بُغَاثِ الطَّيْرِ
أَكْثَرُهَا فِرْوَخًا

وَأُمُّ الْبَازِ
مِقْلَاتٌ نَزْرُورٌ

وَأَنشَدَنِي ابْنُ يَسِيرٍ:

بِالْجَدِّ طَوْرًا
ثُمَّ بِالْجَدِّ
تَارَةً

كَذَاكَ جَمِيعُ النَّاسِ
فِي الْجَدِّ وَالطَّلَبِ

وَالْجَدُّ مَفْتُوحُ الْجَيْمِ، يَقُولُ: الطَّيْرُ كَالنَّاسِ، فَمَرَّةٌ تَصِيدُ
بِالْحِظِّ وَبِمَا يَتَّفِقُ لَهَا، وَمَرَّةٌ بِالْحَيْلَةِ وَالطَّلَبِ، وَقَالَ بَشَّارُ
بْنُ بَرْدٍ:

وَبَجْدِهِ يَتَقَلَّبُ الْعَصْفُورُ

قَالَ: وَقَالَ زَاهِرٌ لَصَبِيَانِهِ: يَرْزُقُكَمُ الَّذِي يَرْزُقُ عَصَافِيرَ
الدَّوِّ، وَقَالَ صَالِحُ الْمُرِّيِّ: تَعْدُو الطَّيْرُ خِمَاصًا وَتَرُوحُ
شِبَاعًا، وَاثِقَةٌ بَأَنَّ لَهَا فِي كُلِّ غَدْوَةٍ رِزْقًا لَا يَفُوتُهَا،
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ غَدَوْتُمْ عَلَى أَسْوَاقِكُمْ عَلَى مِثْلِ
إِخْلَاصِهَا، لَرُحْتُمْ وَبَطُونُكُمْ أَبْطُنُ مِنْ بَطُونِ الْحَوَامِلِ.
وَقَالَ أَعَشَى هَمْدَانَ:

قالت تعاتبني
عَرْسِي
وتسألني

أين الدَّراهم عَنَّا
والدَّنَانِيرُ

فقلتُ أَنْفَقْتُهَا
واللَّهِ يُخْلِفُهَا

والدَّهْرُ ذُو مَرَّةٍ
عَسْرٌ وَمَيْسُورٌ

إِنْ يَرْزُقِ اللهُ
أَعْدَائِي فَقَدْ
رُزِقْتُ

من قبلهم في
مَراعيها
الخنازيرُ

قالت: فرزقك
رزقٌ غيرُ
متَّسعٍ

وما لَدَيْكَ من
الخبراتِ قِطْمِيرُ

وقد رضيتَ بأن
تحيا على رَمَقٍ

يوماً فيوماً كما
تحيا العصافيرُ

وإنما خصَّ العصافيرُ بقِلَّةِ الرِّزْقِ، لأنها لا تتباعد في
طلبِ الطَّعمِ؛ وإلا فإنَّ السَّبَّاعَ ووحشَ الطَّيرِ كلُّها تغدو

خِمْصاً وتروح بطاناً.
وقال ليبيد:

عصافيرُ من هذا
الأنامِ المُسحَرِ

فإنَّ تسألينا
فيم نحنُ
فإننا

وقال:

وأجراً من
مجلحة الذئب

عصافيرُ
وذبانٌ ودودٌ

ولولا أنَّ تفسير هذا قد مرَّ في باب القول في العصافير
في كتاب الحيوان لقلنا في ذلك.

اختلاف طبائع الحيوان وما يعترئها من الأخلاق

الذئب لا يطمع فيه صاحبه، فإذا دَمِيَ وثب عليه صاحبه
فأكله، وإذا عضَّ الذئبُ شاةً فأفلتت منه بضربٍ من
الضروب، فإنَّ عادة الغنم إذا وجدت ریحَ الدَّم أن تشمَّ
موضع أنياب الذئب، وليس عندها عند ذلك إلا أن ينضمَّ

بعضها إلى بعض؛ ولذلك قال جريرٌ لعمر بن لُجأ التيمي:

وَتَيْمٌ يَشْمُونَ
الْفَرِيسَ الْمَنِيَّابَا

فَلَا يَضْغَمَنَّ
الْلَيْثُ تَيْمًا بَعْرَةً

فذكر أنهم كالغنم في العجز والجبن، وإذا دَمِيَ الحمارُ
ألقى نفسه إلى الأرض وامتنع ممن يريدُه بالعضِّ وبكلِّ
ما قدر عليه، غير أنه لا ينهض ولا يبرحُ مكانه، وإذا
أصاب الأسدُ خَدَشَ أو شَحَطَةَ بعد أن يَدْمَى مكانه فَإِنَّ
ذَبَّانَ الأسدِ تلحُّ عليه، ولا تُقْلَعُ عنه أبداً حتى تقتله.
وللأسودِ ذَبَّانٌ على حدة، وكذلك الكلاب، وكذلك الحمير،
وكذلك الإبل، وكذلك الناس.

وإذا دَمِيَ الإنسانُ وشَمَّ الذئبُ منه ريحَ الدَّمِ فما أَقَلَّ من
يَنْجُو منه؛ وإن كان أشدَّ الناسِ بدناً وقلباً، وأتمَّهم
سِلاحاً، وأثقفهم ثقافة.

وإذا دَمِيَ الببرُ استكلب فخافه كلُّ شيءٍ كان يسالمة من
كبار السباع كالأسود والنُّمور، والببر على خلاف جميع
ما حكينا.

وإذا أصاب الحية خَدَشٌ فَإِنَّ الذرَّ يطالبه أشدَّ الطلب، فلا

يكاد ينجو، ولا يعرف ذلك إلا في الفَرْطِ.
وإذا عضَّ الإنسانَ الكلبُ الكلبُ فإنَّ الفأرَ يطالبه ليبولَ
عليه، وفيه هَلَكْتُهُ، فهو يحتال له بكلِّ حيلةٍ.
وربما أَعَدَّ البعيرُ فلا يعرف ذلك الجمالُ حتى يرى الدَّبَّانَ
يطالبه.

وإذا وضعت الدَّنبَةُ جَرَوْها فإنه يكون حينئذ ملتزقَ
الأعضاءِ أَمْعَطَ كأنه قطعة لحم، وتعلم الدَّنبَةُ أنَّ الذرَّ
يطالبه، فلا تزال رافعة له بيديها، ومحوّلة له من مكانٍ
إلى مكانٍ، حتى تفرج الأعضاء، ويشتدَّ اللحم.
وإذا وضعت الهرة جَرَوْها فإنَّ طرْحُوا لها لحماً من
ساعتها أو رُوبة أو بعض ما يشبه ذلك فأكلته، لم تكد
تأكل أجراءها، لأنَّ الهرة يعترئها عند ذلك جُوعٌ وجُرْهُنَ
وخفّة.

والأجناس التي تحدث لها قوّة على غير سبب يعرف في
تقدير الرأي منها الدَّنبُ الضعيف الواثبُ على الدَّنبِ
القويّ إذا رأى عليه دماً، والهرّة إذا سفدها الهرُّ، فإنها
عند ذلك تشدُّ عليه وهي واثقةٌ باستخذائه لها، وفضل
قوتها عليه، والجُرْدُ إذا خصرى فإنه يأكل الجرذان أكلًا
ذريعاً ولا يقوم له شيءٌ منها.

فَأَمَّا الْفِيلَ وَالكَرْكَدْنَ وَالْجَمَلَ، عِنْدَ الْإِغْتِلَامِ وَطَلَبِ
الضَّرَابِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ تَرَكْتَ الشَّرْبَ وَالْأَكْلَ الْإِيَّامَ الْكَثِيرَةَ
فِيَّهِ لَا يَقُومُ لِشَيْءٍ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ وَإِنْ كَانَ
قَوِيًّا شَابًا أَكَلًا شَارِبًا.

وَأَمَّا الْغَيْرَانُ وَالْغَضْبَانُ وَالسَّكْرَانُ وَالْمُعَايِنُ لِلْحَرْبِ، فَهَمْ
يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى عِلَلٍ قَدْ ذَكَرْنَاهَا فِي الْقَوْلِ فِي
فَضِيلَةِ الْمَلِكِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَالْإِنْسَانِ عَلَى الْجَانِّ، فَإِنَّ
أَرْدَتَهُ فَالْتَمَسَهُ هُنَاكَ، فَإِنَّ إِعَادَةَ الْأَحَادِيثِ الطَّوَالَ وَالْكَلامِ
الْكَثِيرِ مِمَّا يُهْجَرُ فِي السَّمَاعِ، وَيُهْجَنُ الْكُتُبِ.

ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله

وإحكام تدبيره، وأن الأمور موزونة مقدره، قالوا:
الأشياء البياضة طائر، ومشترك، وذو أربع، ومُنْسَاح،
فمنها ما يبيض في صدوع الصخر وأعالي الهضاب،
ومنها ما يعيش في الجحرة كسائر الحيات.
وأما الدَّسَّاسُ مِنْهَا فَإِنَّهَا تَلِدُ وَلَا تَبْيِضُ، وَهِيَ لَا تُرْضِعُ
وَلَا تُلْقِمُ، وَالْخَفَّاشُ تَلِدُ وَلَا تَبْيِضُ وَتُرْضِعُ، وَهَذَا مُخْتَلَفٌ.
وَالدَّجَاجُ وَالْحَجَلُ وَالْقَطَا وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الدَّرَارِيحِ
وغيرها أفاحيصها في الأرض.

والحمام منها طُورائي جبليّ، ومنها ألوفاً أهليّ، فالجبليّ
تبيض في أوكارٍ لها في عُرْضٍ مقاطع الجبال، والأهليّ
منها يبيض في البيوت، والعصافير بيوتها في أصول
أجذاع السُقْف، والخطاطيف تتخذ بيوتها، في باطن
السقف في أوثق ذلك وأمنعه، والرّحْم لا ترضى من
الجبال إلا بالوحشيّ منها، ومن البعيد في أسحَقها
وأبعدها عن مواضع أعدائها، ثم من الجبال إلا في
رؤوس هضابها، ثم من الهضاب إلا في صدوع
صخورها، ولذلك يُضرب بامتناع بيضها المثل.
وأما الرّقّ والضفدع والسُّلحفاة والتمساح، وهذه الدوابّ
المائية، فإنها تبيض في الأرض وتحضن، وأما
السُّراطين فإنّ لها بيوتاً في عُرْض شُطوط الأنهار
والسّواقي، تمتلئ مرةً ماءً وتخلو مرةً.
ومن الحيوان ما لا يجثم، كالضبّة فإنها لا تجثم على
بيضها، ولكن تغطّيها بالتراب وتتنظر أيام انصداعها.

مواضع الفراخ والبيض

فإذا كان مواضع الفراخ والبيض من القطا وأشباه القطا
فهو أفحوصة، وإذا كان من الطير الذي يهيئ ذلك

المجثَم من العيدان والرَّيش والحشيش فهو عُشٌّ،
وإذا كان من الظَّليم فهو أُدْحِيّ، ذكر ذلك أبو عبيدة
والأصمعي، وكلُّها وُكور ووكون، ووُكنات ووكرات.

أكثر الحيوان بيضاً وأقله

فالذي يبيض الكثير من البيض الذي لا يجوزه شيء في
الكثرة السَّمَك، ثم الجراد، ثم العقارب، ثم الضَّبَّة، لأن
السَّمَك لا تزُق ولا تلقم ولا تلحم ولا تحضن ولا تُرضع،
فحين كانت كذلك كثر الله تعالى ذرءها وعدد نسلها، فكان
ذلك على خلاف شأن الحمام الذي يُزاوج أصناف الحمام
ومثل العصافير والنعام، فإنها لا تزواج.
فأما الحمام فلما جعله الله يزق ويحضن، ويحتاج إلى ما
يغذيه ويغذو به ولده، ويحتاج إلى الزَّق، وهو ضربٌ
من القيء، وفيه عليها وهنٌ وشدة، ولذلك لا يُزجل إذا
كان زاقاً، فلما أن كان كذلك لم يحمل عليها أكثر من
فرخين وبيضتين.

ولما كانت الدَّجاجة تحضن ولا تزُق، وهي تأكل الحبَّ
وكلَّ ما دبَّ ودرَج، زاد الله في بيضها، وعدد فراريجه،
ولم يجعل ذلك في عدد أولاد السَّمَك والعقارب والضَّباب

التي لا تحضن البتة ولا تزق ولا تلقم.
ولما جعل الله أولاد الضب لها معاشاً، زاد في عدد بيضها
وفراخها، وصار ما يسلم كثيراً غير متجاوز للقدر.
وكذلك الظليم، لما كان لا يزق ولا يحضن اتسع عليه
مطلب الرزق من الحبوب وأصول الشجر.
وجعلها تبيض ثلاثين بيضة وأكثر، وقال ذو الرمة:

أبو ثلاثين
أمسى فهو
منقلب

أذاك أم خاضب
بالسي مرتعه

وبيضها كباراً، وليس في طاقتها أن تشتمل وتجنم إلا
على القليل منها، وكذلك الحية تضع ثلاثين بيضة، ولها
ثلاثون ضلعاً، وبيضها وأضلاعها عدد أيام الشهر،
ولذلك قويّت أصلابها لكثرة عدد الأضلاع، وحمل عليها
في الحضن بعض الحمل إذ كانت لا ترضع.

أثر الإلقام والرزق في الحيوان

والطائر الذي يلقم فرخه يكون أقوى من الطائر الزاق،
وكذلك من البهائم المرضعة.

ولما كانت العصافير تصيد الجراد والنمل والأرضة إذا طارت، وتأكل الحبَّ واللَّحْمَ، وكانت مع هذا تُلقم، لم تكثُر من البيض كتكثير الدجاج ولم تقلَّ كتقليل الحمام.

ما يزاوج من الحيوان

وللعصافير فيها زَوَاجٌ، وكذلك النَّعَامُ، وليس في شيء من ذوات الأربع زِوَاجٍ، وإنما الزَّوَاجُ في اللاتي تمشي على رِجْلين، كالإنسان والطَّير والنَّعَامُ، وليس هو في الطير بالعامِّ، وهو في الحمام وأصناف الحمام من هذه المغنيات والنوائح عامِّ، وسيل الحجل والقَبَج سبيلُ الدِّيكة والدَّجاج.

والدَّجاجة تمكن كلَّ ديكٍ، والديك يثبُّ على كلِّ دجاجة، وربما غبر الحمام الذَّكر حياته كلَّها لا يقمط غير أنثاه، وكذلك الأنثى لا تدعو إلا زوجها، وربما أمكنت غيره، وفي الحمام في هذا الباب من الاختلاف ما في النساء والرجال.

فأما الشَّفنين فإنه لا يقمط غير أنثاه، وإن هلك الأنثى لم يزاوج أبداً، وكذلك الأنثى للذكر.

عجائب البيض

فأمّا العلة في وضع القطا بيضها أفراداً، وخروج البضة من جهة أوسع الرّأسين، واستدارة بيض الرّق، واستطالة بيض الحيات، وما يكون منها أرقط وأخضر وأصفر وأبيض وأكدر وأسود، فإنّي لم أرض لهم في ذلك جواباً فأحكّيه لك.

معارف في البيض قالوا: وإنما يعظم البيض على قدر جُثّة البياضة، وبيض الأبقار أصغر، فأمّا كثرة العدد فقالوا إنه كلما كان أكثر سفاداً كان أكثر عدداً، وليس الأمر كذلك، لأنّ العصفور أكثر سفاداً من أجناس كثيرة هي أقلّ بيضاً منه.

والجراد والسّمك لا حضن ولا زق ولا رضاع ولا تلقيم عليهن، فحين جعل الفراخ كثيرة العدد، وكانت الأمّهات والآباء عاجزة عنها، لم يجعلها محتاجة إلى الأمّهات والآباء.

فتفهّم هذا التدبير اللطيف، والحكمة البالغة. أقلّ الحيوان نسلأ وأكثره قالوا: والأقلّ في ذلك البازي، والأكثر في ذلك الدّر والسّمك. قال الشاعر:

بغاث الطير
أكثرها فروخاً

وأُمّ الباز
مقلات نرور

وقال صاحب المنطق: نسل الأسد أقل لأنه يجرح الرحم فيُعقم.

قالوا: والفيلة تضع في سبع سنين، وأقل الخلق عدداً ودرءاً الكركدن، لأن الأنثى تكون نروراً، وأيام حملها كثيرة جداً، وهي من الحيوان الذي لا يلد إلا واحداً، وكذلك عظام الحيوان، وهي مع ذلك تأكل أولادها، ولا يكاد يسلم منها إلا القليل، لأن الولد يخرج سويّاً نابت الأسنان والقرن، شديد الحافر.

الكتاب العشرون

ما جاء في الفيلة

احتيال هارون بالهر لهزيمة الفيل

ما يدخل في ذكر الفيل..

طرائف من اللغات والأخبار في الفيل

حمل الفيل وعمره

مروج الفيلة

فهم الفيلة

فائدة نجو الفيل

شعر في الفيل

ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كلية ودمنة

الفيلة في الحروب

الفيلة المستأنسة

التكاثر بالفيلة

الفيل في الشعر

لسان الفيل

ضخم الفيل وظرفه

تعصب غانم الهندي على الفيل

قوة الفيل

طول مدة حمل الفيلة

صولة الفيل

تأديب الهند الفيلة

شعر هارون في الفيل

نابا الفيل

خرطوم الفيل

سباحة الفيل والجاموس والبعير

ولد الفيل

مغالبة الفيل للأسد

خوف الفيل من السنور

قول صاحب الفيل

شعر في الفيل

خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

الزندبيل

هياج الفيل

أهلي الفيلة ووحشيها

أكثر خلفاء المسلمين فيلة

شرف الفيل

ذكاء الفيل

فضله في الحرب

عمر الفيل

الأسد والفيل

ما جاء في الفيلة

من عجيب التركيب، وغريب التأليف، والمعارف
الصحيحة، والأحاسيس اللطيفة، وفي قبولها التثقيف
والتأديب، وسرعتها إلى التلقين والتقويم، وما في أبدانها
من أعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على
سيدنا محمد خاصة وعلى أنبيائه عامة، ونسأله التأييد

والعصمة، ونعوذ به من كلِّ سببِ جانِبِ الطَّاعةِ، ودعا
إلى المعصية، إنه قريبٌ مجيبٌ، فعَالَ لما يريد.
قد قلنا في أول هذا الجزء، وهو الجزء السابع، من
القول في الحيوان في إحساس أجناسها المجعولة فيها،
وفي معارفها المطبوعة عليها، وفي أعاجيب ما رُكِّبَتْ
عليه من الدَّفْعِ عن أنفسها، والتقدُّم فيما يُحْيِيها وفي
تحسُّسها عواقبَ أمورِها وكلِّ ما خوِّفت من حوادث
المكروه عليها بقدر ما ينوبها من الآفات، ويعتريها من
الحدائث وأنها تدرك ذلك بالطَّبع من غير رَوِيَّةٍ، وبحسِّ
النَّفْسِ من غير فِكْرَةٍ، ليعتبرَ مُعْتَبِرٌ، ويفكرُ مفكِّرٌ، ولينفي
عن نفسه العُجْبَ، ويعرفَ مقداره من العجز، ونهاية
قوَّته، ومبلغَ نفاذِ بصرِه، وأنه مخلوق مدبَّر ومصرَّف
وميسَّر، وأنَّ الأعجمَ من أجناس الحيوان، والأخرسَ من
تلك الأشكال، يبلغ في تدبير معيشتِه، ومصلحة شأنِه،
وفي كلِّ ما هو بسبيلِه، ما لا يبلغه ذو الرَوِيَّةِ التامَّةِ،
والمنطقِ البليغِ، وأنَّ منها ما يكون أطفَ مدخلًا، وأدقَّ
مسلكًا، وأصنَعَ كَفًّا، وأجودَ حنجرَةً، وأطبعَ على
الأصوات الموزونة، وأفوم في حفظ ما يُعِيشُه طريقةً، إلَّا
أنَّ ذلك منها مفرَّق غيرُ مجموع، ومنقطع غيرُ منظوم.

والإنسان ذو العقل والاستطاعة، والتصرف والروية، إذا علم علماً غامضاً، وأدرك معنى خفياً، لم يكذّ يمتنع عليه ما دونه إذا قاس بعض أمره على بعض.

وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها علماً، ويصنع بكفه صنعةً يفوق بها الناس، ولا يهتدي إلى ما هو دون ذلك بطبع ولا روية، وعلى أن الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قدر عليه.

وأنا ذاكراً إن شاء الله، ما جاء في الفيلة من عجيب التركيب، وغريب التأليف، والمعارف الصريحة، والأحاسيس اللطيفة، وفي قبولها التثقيف والتأديب، وسرعتها إلى التلقين والتقويم، وما في أبدانها من الأعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة، وكم مقدار منافعها، ومبلغ مضارها، وبكم فضلت أجناس الحيوان، وفاقّت تلك الأجناس.

وما جعل الله تعالى فيها من الآيات والبرهانات، والعلامات النيرات، التي جلاها لعيون خلقه وعرف بينها وبين عقول عباده، وقيدها عليهم، وحفظها لهم ليكثر لهم من الأدلة، ويزيدهم في وضوح الحجة، ويسخرهم لتمام النعمة، والذي ذكرها الله به في الكتاب الناطق،

والخبر الصادق، وما في الآثار المعروفة، والأمثال
المضروبة، والتجارب الصحيحة.
وما قالت فيها الشعراء، ونطقت به الخطباء، وميزته
العلماء، وعجبت منه الحكماء، وحالها عند الملوك
وموضع نفعها في الحروب، ومهابتها في العيون،
وجلالتها في الصدور، وفي طول أعمارها، وقوة أبدانها،
وفي اعتزامها وتصميمها، وأحقادها، وشدة اكتراثها،
وطلبها بطوائفها، وارتفاعها عن ملك السقاط والحشوة،
وعن اقتناء الأندال والسفلة، وعن ارتخاسها في الثمن
وارتباطها على الخسف، وابتذالها وإذالتها، وعن امتناع
طبائعها، وتمنع غرائزها أن تصلح أبدانها، وتنبت
أنيابها، وتعظم جوارحها، وتتسافد وتتلاقح إلا في
معادنها وبلادها، وفي منابقتها ومغارس أعراقها، مع
التماس الملوك ذلك منها، حتى أعجزت الحيل، وخرجت
من حدّ الطمع، وعن الإخبار عن حملها ووضعها،
ومواضع أعضائها، والذي خالفت فيه الأشكال الأربعة
التي تحيط بالجميع مما ينساح أو يعوم، أو يمشي أو
يطير، وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه، وما يبقى على
الطبائع الأول من صورته وعمّا يتنازع من شبه

الحيوان، أو ما يخالف فيه جميع الحيوان، وعن القول
في شدة قلبه وأسره، وفي جرأته، على ما هو أعظم بدنًا
وأشدُّ كلبًا، وأحدُّ أظفارًا، وأدربُ أنيابًا، وهربه ممًا هو
أصغرُ منه جرماً وأكلٌ حدًّا، وأضعفُ أسراً، وأخملُ ذكراً.
وعن الإخبار عن خصاله المذمومة، وأموره المحمودة
وعن القول في لونه وجلده وشعره، ولحمه وشحمه
وعظمه، وبؤله ونجوه، وعن لسانه وفمه، وعن أذنه
وعينه، وعن خرطوميه وغرموله، وعن مقاتله وموضع
سلاحه، وعن أدوائه ودوائه، وعن القول في أنيابه
وسائر أسنانه، وسائر عظامه، وفرق ما بين عظامه
وعظام غيره، وعن مواضع عجزه وقوته، والقول في
ألبانه وضروعها، وعدد أخلافها وأماكن ذلك منها،
وعن سياحتها ومشيتها وحضرها وسرعتها، وخفة
وطئها ولين ظهورها، وإذاذ ركبها، وعن ثبات خفها
في الوحل والرمل، وفي الحذر والصعداء، وعن أمن
راكبها من العثار.

وكيف حالها عند احتياجها واغتيالها، وعن سلونها
وانقضاء هيجانها عند حملها، وعن طربها وطاعتها
لسؤاسها، وفهمها لما يُراد منها، وكيف حدة نظرها

والفهم الذي يرى في طرفها، مع الوقار والنبل،
والإطراق والسكون، ولم اجتمعت الملوك عربها وعجمها
وأحمرها وأسودها على اقتنائها والثوين بها، والفخر
بكثره ما تهيأ لهم منها، حتى صارت عندهم من أكرم
الهدايا، وأشرف الألفاف، وحتى صار اتخاذها مروءة
وعتاداً وعدة، ودليلاً على أن مقتنيها صاحب حرب.
وفي تفضيل خصال الفيل على خصال البعير، وفي أي
مكان يكون أنفع في الحرب من الفوس، وأصبر عند
القتال من النمر، وأقتل للأسد من الجاموس، وأكلب من
البيبر إذا تعرّم، وأشدّ من الكركدن إذا اغتلم، حتى لا يبلغه
مقدار ما يكون من تماسيح الخُلجان، وخيل النبل،
وعقبان الهواء، وأسد الغياض.

قصيدة هاورن مولى الأزدي في الفيل وقد جمع هاورن
مولى الأزدي الذي كان يرُدُّ على الكميت ويفخر بقحطان،
وكان شاعر أهل المولتان، ولا أعرف من شأنه أكثر من
اسمه وصناعته، وقد قال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة،
ذكر فيها كثيراً مما قدّمنا ذكره، فمن ذلك قوله:

له فِطْنُ الْإِنْسِ

أليس عجباً

بأن خِلقة

في جِرم فيلٍ

وأنشدني هذا البيت صفوانُ بن صفوانَ الأنصاريّ، وكان
من رُواة داود بن مزيد:

له فِطْنُ الْإِنْسِ فِي جِرمِ فيلٍ

ألي

س عَجيباً بَأْنِ خِلقةً

بِحِلْمِ يَجِلُّ عَنِ الْخَنشَلِيلِ

وأظ

رِفْ مِنْ قِشَّةِ زَوَلَةٍ

طَوِيلُ النُّيُوبِ قَصِيرُ النَّصِيلِ

وأو

قِصُّ مَخْتَلَفِ خَلْقُهُ

وَجَوْفِ رَحِيبِ وَصَوْتِ ضَنْبِيلِ

ويل

قِي الْعُدُوِّ بِنَابِ عَظِيمِ

بِخَنْزِيرٍ بَرٍّ وَجَامُوسٍ غَيْلٍ

وَأُ

شَبَهُ شَيْءٍ إِذَا قَسَّتَهُ

فَمَا فِي الْأَنَامِ لَهُ مِنْ عَدِيلٍ

تَنَا

زَعَهُ كُلُّ ذِي أَرْبَعٍ

بِأَنْ نَاسَبَ الْهَرَّ مِنْ رَأْسِ مَيْلٍ

وَي

خَضَعُ لِلْيَيْثِ لَيْثِ الْعَرِينِ

كَمَا تَعْصِفُ الرِّيحُ بِالْعَنْدَبِيلِ

وَيَع

صِيفُ بِالْبَبْرِ بَعْدَ النُّمُورِ

فَإِنْ وَصَلُوهُ بِسَيْفٍ صَقِيلِ

وَش

خَصُّ تُرَيٍّ يَدُهُ أَنْفَهُ

بِهَوْلٍ شَدِيدٍ أَمَامَ الرَّعِيلِ
وَأَقِ
بَلَّ كَالطَّوْدِ هَادِيِ الْخَمِيسِ
بَخْطُو خَفِيفٍ وَجِرْمِ ثَقِيلِ
وَم
رَّ يَسِيلُ كَسَيْلِ الْآتِيِّ
فَإِنْ
شِنَاعَةُ أُذُنَيْنِ فِي رَأْسِ غَوْلِ
شِمْتَهُ زَادَ فِي هَوْلِهِ
وَقَدْ
قَلِيلَ التَّهْيِيبِ لِلزَّنْدَبِيلِ
كَنْتُ أَعَدَدْتُ هِرًّا لَهُ
فَلَمَّا
أَتَانَا الْإِلَهَ بِفَتْحٍ جَمِيلِ
أَحْسَنَ بِهِ فِي الْعَجَاحِ
بِقَلْبِ نَجِيبٍ وَجَسْمِ نَبِيلِ
فَط
أَرَّ وَرَاعَمَ فَيَّالَهُ

فَسَبْحَانَ خَالِقِهِ

إِلَهُ الْأَنْامِ وَرَبُّ الْفُيُولِ

وَحَدَهُ

احتيال هارون بالهر لهزيمة الفيل

وذكر صفوان بن صفوان أنّ هارون هذا خبأ معه هراً
تحت حِصْنِهِ، ومشى بسيفه إلى الفيل، وفي خرطومه
السَّيْفُ، والفيالون يذمُّونه، فلما دنا منه رمى بالهرّ في
وجهه، فأدبر هارباً، وتساقط كلُّ مَنْ كان فوقه، وكبّر
المسلمون، وكان ذلك سببَ الهزيمةِ.
وسنذكر الهرّ في هذا الشُّعر كما كتبتَه لكِ.
استطرد لغوي وأما قوله:

بحلم يجلُّ عن الخنثليل

فقد قال الأنصاريُّ في صفة النَّخل:

وفي مدر
الأرض عنها
فُضُولُ

تُليصُ العِشَاءُ
بأذنبها

إِذَا جَاعَتِ الشَّاةُ
وَالخُنْشَلِيُّ

وَيَشْبَعُهَا
المَصُّ مَصٌّ
الثَّرَى

وهذا غير قوله:

أَنِّي بَنَصْلُ
السِّيفِ خُنْشَلِيُّ

قَدْ عَلِمْتُ
جَارِيَةً عَطْبُولُ

العندبيل وأما العندبيل فهو طائرٌ صغيرٌ جدًّا، ولذلك قال
الشاعر:

يَرُوحُ كَرُوحِ
العَنْدَبِيلِ إِلَى
الوَكْرِ

وما كان يَوْمَ
الرَّيْحِ أَوَّلَ
طَائِرِ

لأنَّ الرِّيحَ تعصفُ به من صِغْرِهِ، فهو يَعْرِفُ ذلك من
نَفْسِهِ، فإذا قَوِيَتِ الرِّيحُ دَخَلَ جُحْرَهُ، ويقولون عندليب
وعندبيل وكلُّ صواب، ولذلك قال هارون:

كما تعصِفُ

ويعصِفُ بالبَّيْرِ

بَعْدَ النَّمُورِ

الرَّيْحِ بِالْعَنْدَبِيلِ

وسنخبر عن تقرير ما في هذه القصيدة مفرقاً، إذ لم نقدرُ عليه مجموعاً متصلاً، ولو أمكن ذلك لكان أحسن للكتاب، وأصحَّ لمعناه، وأفهم لمن قرأه.

ما يدخل في ذكر الفيل..

قال رؤبة في صفة الفيل:

أَجْرَدُ كَالْحِصْنِ

طَوِيلُ النَّابِئِ

عَلَيْهِ أَدْنَانُ

كَفَضْلِ الثَّوْبَيْنِ

وأنشد ابن الأعرابي:

هو البعوضة

إِنْ كَلَّفْتَهُ كَرَمًا

والفيل في كلِّ

أمرٍ أصله لومٌ

وقال أعرابيٌّ وَوَصَفَ امْرَأَةً لَهُ:

لو أَكَلْتُ فَيْلِينَ لَمْ تَخْشَ الْبِشْمَ

وقال أعرابيٌ يصف الأكرياء:

لو تركبُ
البُخْتِيَّ مَيْلاً
لأنحطم
أو تركبُ الفَيْلَ
بها الفَيْلُ رَزَمٌ

وحمل ناسٌ أبا الحلال الهُدادي على الفَيْلِ أَنَامَ الْحَجَّاجَ،
فتمنَّع وأنشأ يقول:

أرْكَبُ شَيْطَاناً
وَمِسْحاً وَهَضْبَةً
إِلا إِنِّ رَأَيْي
قَبْلَ ذَاكَ مُضَلُّ

فقالوا له: لو علوته ما كانَ عندك إلا كالبُغْلِ فلما علاه
صاح: الأَرْضَ الأَرْضَ فلما خافوا أن يرمي بنفسه وهو
شيخٌ كبير، أنزلوه، فقال بعد ذلك في كلمة له:

وما كان تحتي
يومَ ذلك بَعْلَةٌ
ولكنَّ جُلْباً مِنْ
رَفِيعِ السَّحَابِ

وقال بعض المتحدِّثين والمملِّحين في بعض النساء:

أرادت مرّةً بيتاً

لها فيه
تماثيلُ

فلما أبصرتْ
سِتْراً

لوجهيه
تهاويلُ

وفيه الفيلُ
منقوشاً

وفي مشفرِه
طُولُ

قالت : إنزِعُوا
الستر

فلا يأكلني
الفيلُ

وقال خَلْفُ بنِ خَلِيفَةَ الأَقْطَعِ، حينَ ذَكَرَ الأَشْرَافَ الَّذِينَ
يَدْخُلُونَ عَلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ:

وقامتْ قريشُ
قريشُ البِطَاحِ

مع العُصْبِ
الأوَّلِ الدَّاخِلِهُ

يقودهم الفيلُ
والرَّذْبِيلُ

وَذُو الضَّرْسِ
والشَّفَةِ المائِلِهُ

الفيل والزُنْدَبِيل: أبان والحكم، ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان، وذو الضَّرْس: خالد بن سَلْمَة المخزومي الخطيب، وهو ذو الشَّفَّة، قتل مع يزيد بن عَمْر ابن هبيرة فيمن قتل.

وقد فَصَلَ خلف بن خليفة الفيلَ من الزُّنْدَبِيل، ولم يفسِّر، وقد اختلفوا في ذلك، وسنذكره إذا جرَّ سببه إن شاء الله تعالى.

طرائف من اللغات والأخبار في الفيل

الفيلُ، المعروف بهذا الاسم، ويقال رجلٌ فيلٌ إذا كان في رأيه فيالة، والفيالة: الخطأ والفساد، ويسمُّون أيضاً الرَّجُلَ بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد وحاجبُه، وفي أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان وموضعٌ آخر يقال له فيلان.

وقد يعرض بقدم الإنسان ورم جاسٍ حتى تعظم له قدمه وساقه، وصاحبُه لا يبرأ منه، ويسمِّي ذلك الورم داءَ الفيل.

ويسمِّي الرَّجُلُ بدَعْفَلٍ، وهو ولد الفيل، ولا يسمُّونَ بزُنْدَبِيل، وبعض العرب يقول للذكر من الفيلة فيل

وللأنثى فيلة، كما يقولون أسد وأسدة، وذنب وذنبه، ولا
يقولون مثل ذلك في ثعلب وضبع، وأمورٍ غير ذلك، إلا
أن يكون اسماً لإنسان.
وبعث رجلٌ من العرب بديلاً مكانه في بعض البعوث،
وأنشأ يقول:

فهانَ عَلَيَّ ما
لَقِيَ البَدِيلُ

قليلٌ علمه
بالخيلِ فيلٌ

إذا ما اخْتَبَّتْ
الشَّقْرَاءُ مِيلاً

يشنّفها ويحسبُها
بعيراً

وأنشدنا الأصمعيّ:

أرَبُّ حَصِيٍّ
نَفَرْتُهُ القَعاقُعُ

يفرّون والفيل
الجبان كأنّه

قال سَلَمَةُ بن عَيَّاش: قال لي روبة: ما كنت أحب أن أرى
في رأيك فيالة.
وبالكوفة باب الفيل، وبواسط باب الفيل.
ومنهم فيلويه، وهو أبو حاتم بن فيلويه، وكان أبو مسلم

رَبِّي أَبَا حَاتِمٍ حَتَّى اِكْتَهَلَ، وَهُمَا سَقِيَا أَبَا مُسْلِمٍ السَّمَّ حَتَّى
عُولَجَ بِالتَّرِيَّاقِ فَأَفَاقَ، فَقَتَلَهُمَا أَبُو مُسْلِمٍ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَا
عَلَى شَبِيهِهِ بَدِينِ الحُرَمِيَّةِ.

وَيَقُولُونَ عَنبَسَةَ الفَيْلِ، وَهُوَ النُّحُويُّ، وَهُوَ أَحَدُ قَدَمَاءِ
النُّحُويِّينَ الحَدَّاقِ، وَهُوَ عَنبَسَةُ بْنُ مَعْدَانَ، وَكَانَ مَعْدَانُ
يَرُوضُ فَيْلًا لَزِيَادَ، فَلَمَّا أُنشِدَ عَنبَسَةُ بْنُ مَعْدَانَ هَجَاءً
جَرِيرٍ لِلْفَرَزْدَقِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

لَقَدْ كَانَ فِي
مَعْدَانَ وَالْفَيْلِ
زَاجِرٌ
لِعَنبَسَةَ الرَّأوِي
عَلَى الْقَصَائِدَا

فَلَمَّا تَنَاشَدَ النَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ هَذَا الشَّعْرَ قَالَ عَنبَسَةُ: إِنَّمَا
قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

لَقَدْ كَانَ فِي مَعْدَانَ وَاللُّؤْمِ زَاجِرٌ

فَقَالُوا: إِنَّ شَيْئًا فَرَرَتْ مِنْهُ إِلَى اللُّؤْمِ لَنَاهِيكَ بِهِ قُبْحًا فَعِنْدَ
ذَلِكَ سُمِّيَ عَنبَسَةَ الفَيْلِ.

وَغِيْلَانُ الرَّاجِزِ كَانَ يُقَالُ لَهُ غِيْلَانٌ رَاكِبُ الفَيْلِ كَانَ
الحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ رَبَّمَا حَمَلَهُ عَلَى الفَيْلِ، وَسَعَدُوِيَه

الطُّنْبُورِيّ، وكان يقال له: سعدويه عين الفيل.
قال أبو عبيدة: حدّثني يونس قال: لما بنى فيلٌ مولى
زيادٍ داره وحمّامه بالسَّبَّابِجَةِ، عمل طعاماً لأصحاب زياد،
ودعاهم إلى داره، وأدخلهم حمّامه، فلمّا خرجوا منه
غدّاهم، ثم ركب وعَبَّرَ في وجوههم، فقال أبو الأسود
الدُّوْلِيّ:

على الثَّلاثينِ من
حمّامِ فيلٍ

لَعَمْرُ أَيْبِكَ مَا
حمّامُ كِسْرَى

وقال الجارود بن أبي سبرة:

كَسُنَّتِنَا عَلَى
عهدِ الرّسولِ

وما إرقاصنا
خَلْفَ الموالِي

وأنشد الأصمعي وغيره:

كما قيل قبلَ اليومِ
خالفٌ فَتُذْكَرُ

خِلافاً عَلَيْنَا
من فَيَالَةَ
رأيه

ويقال للرجل إذا عُنْف عند الرأي يراه: لِمَ تَفَيْلُ رَأْيَكَ؟
وقد قال رأي فلان.

وحدَّثنا عبد الله بن بكر، عن حميد، عن أنس قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَمَّا انْتَهَيْتَ إِلَى السَّدْرَةِ
إِذَا وَرَقُهَا أَمْثَالُ آذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا أَمْثَالُ الْقِلَالِ،
فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَحَوَّلَتْ يَاقوتاً.
وقال صاحب الكيمياء في جرير بن يزيد:

مهلاً أبا
العبّاس رفقاً
ولا
تكنْ خَصِيمَ
المَعَشِرِ الخُونِ

هيهات هيهات
لما رُمَتْهُ
أو يُولَدَ الفَيْلُ
من النُّونِ

أنت إذا ما عُدَّ
أهلُ الحِجَا
والحِمْ كالأحنف
في سينِ

الفرخ والفروج وكلُّ طائرٍ يخرج من البيض وكلُّ ولدٍ
يخرج من البيض وإن لم يكن طائراً، فإنما يسمّى فرخاً،
كفرخ الحمام والوزغة والعظاءة والرقُّ والسُّلحفاءِ

والْحُكَّاءَ، وبنات النَّقَا، وشحمة الأرض، والضَّب،
والْحِرْدُون، والورل، والحرباء، إلا ما يخرج من بيض
الدجاج فإنه يقال له فَرُوج ولا يقال له فرخ، إلا أن
الشعراء يتوسَّعون في ذلك، قال شَمَّاخ بن أبي شداد:

تَأَمَّلْ حِينَ
يُضْرِبُكَ الشِّتَاءُ

وَمَنْ شَيْخٍ أَضَرَ
بِهِ الْفَنَاءُ

يَلْدُنْ بِهِ إِذَا
حَمَسَ الْوَعَاءُ

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ
خَاقَانَ عَنَّا

أَتَجْعَلُ فِي عِيَالِكَ
مَنْ صَغِيرٍ

فِرَاحَ دِجَاجَةٍ
يَتْبَعَنَّ دِيكَأً

وقال الآخر:

وَمَنْ دِيكَ أَنْبَاطُ
تَنُوسُ عِبَاغِبُهُ

أَحَبُّ إِلَيْنَا مَنْ
فِرَاحَ دِجَاجَةٍ

وإذا سَمِّيَ أهل البصرة إنساناً بغيل فأرادوا تصغيره قالوا
فيلويه، كما يجعلون عمراً عمرويه، ومحمداً حمدويه.
وكان محمد بن إبراهيم الرافقي الفارسُ النجيد قتيلاً نصر

بن شَبَث، مولى بني نصر بن معاوية، له كنيستان: أبو الفيل وأبو جعفر، ولم يكن بالجزيرة أفرسُ من داود بن عيسى، وأبي الفيل وعيسى بن منصور من ساكني الرافقة.

حمل الفيل وعمره

وذكرَ بعضُ الفيّالين أنّ الفِيلةَ تضعُ لسبعِ سنينَ ولداً مستويَ الأسنان، وأنهم يرصدون ذلك الوقتَ من الوحشيةِ منها، ويحتالون في أخذِ الولد، وأن ذلك الولدُ يعيش في أيديهم ما بين الثمانين سنةً إلى المائة، وأنَّ عُمر الوحشيةِ أطولُ.

وأنَّ كلَّ شيءٍ منها اليومَ بالعسكرِ إناث، وأنَّ الموتَ بالعراقِ إلى الذُّكورةِ أسرعُ، وأنَّ نابه لا يطول عندنا، وأنَّهم يَعْمَلون من جلودها التَّرْسَةَ أجودَ من جلود الجواميس، ومن الخيزران، ومن الدَّرَقِ والحَجَفِ التي تتخذ من جلود الإبل، ومن هذه المعقبةِ المطليةِ، ومن جميع ما يؤلّف من أنواع الخشبِ والجلودِ التي قد أُطيل إنقاعها في اللبن، ومن كلِّ ثَبَّتِي وصيني.

مروج الفيلة

وذكر أن لها مُروجاً، وأن المروج أصلح لها من القرى،
ومواضعها من الوحش أصلح لها من المروج.

فهم الفيلة

وذكر رسولٌ لي إلى سائسها أنه قد اتبعها إلى دجلة،
وأنّ بعض الغوغاء صاح بها: يا حجّام بابك وهذا الكلام
اليوم ظاهرٌ على السنة الجهّال، وأن فيلاً منها ركّله
برجله ركلةً صكّ بها الحائط حتّى خيف عليه منها، وأنه
رأى منها الإنكارَ لذلك القول، وأنّ الفيالَ كان يحثّها على
الانتقامَ لمّا صاح بها.

وإذا عرفَ الكلبُ اسمه، وكذلك السنور، وكذلك الشاة
والفرس، والطفل والمجنون المصمت الجنون، وعرفت
الناقةُ فصل ما بين حلّ وجاه، وعرفَ الحمارُ الصّوتَ
الذي يُتمسُّ به وقوفه، والذي يلتمس به سيره، وعرف
الكلبُ مخاطبةَ الكلاب، والبيغاءِ مناغاةَ المُكلم له، فجائزٌ
أن يكون الفيلُ بفضلِ فطنته أن يفهم أضعافَ ذلك، فإذا
أمروه بضرب إنسانٍ عند ضربٍ من الكلام استعاد ذلك
وأدامه، لم ينكر أن يعرفه على طول الترداد.

فائدة نجو الفيل

قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد أن
يُخْلَطَ به شيءٌ من عسل فإنها لا تحبل أبداً.
قالوا: ومما يؤكّد ذلك أنك لو علقت على شجرة من نجوه
شيئاً، إن تلك الشجرة لا تحمل في تلك السنة.
قالوا: وزواني الهند يفعلن ذلك استبقاءً للطراء
وللسباب، ولأنها إذا كانت موقوفة على جميع الأجناس
من الرجال كانت أسرع إلى الحبل لأنها لا تعدم موافقاً
لطبعها، وإذا حملت ووضعت مراراً بطلت.
ضروب من الدواء وليس هذا بعجيب، لأنهم يزعمون أن
صاحب الحصاة إذا أخذ روث الحمار حين يرؤثه حاراً
فعصره وشرب ماءه أنه كثيراً ما يبول تلك الحصاة، وفي
ماء روث الحمار أيضاً دواءً للضرس المأكول.
وقال الأصمعي: سألت بعض الأكلة ممن كان يقدم على
ميسرة التراس: كيف تصنع إذا جهدتك الكظة؟ والعرب
تقول: إذا كنت بطيناً فعدل نفسك زمناً، فقال: أخذ روث
حمار حاراً فأعصره وأشرب ماءه فأختلف عنه مراراً،
فلا أثبت أن يلحق بطني بصُلبي، فأشتهي الطعام.
والمرأة من نساننا اليوم إذا استحيضت استفتت مثقالاً من
الإثمد، لأنها عندهن إذا فعلت ذلك لم تلد.

وأنا رأيتُ امرأةً قد فعلتُ ذلك ثم ولدت.
وخرء الكلب إذا كان الجعرُ أبيضَ اللّون، وكان غذاءُ
الكلب العظامَ دون اللحم، فهو عجيبٌ لصاحب الدُّبحة،
وكذلك رَجِيع الإنسان.
وخرء الفار يكون شيفافاً للصّبيان، يحملونه إذا استوكى
بطنُ أحدهم وإن كان من خرء الجرذان وكان عظيماً كان
الواحد منه هو الشّيفاف.
ويصلح أيضاً خرء الفار لداء الثعلب، وهو القرع الذي
يعرض لشعر الرّأس.
وخرء الحمام الأحمر يصلح، من المَبُولات للرّمْل
والحصى، يُقْمَحُ منه وزن درهم مع مثله من الدّارصيني.

شعر في الفيل

وقال بعض المُحدّثين:

كانها لحيّة
جبريل

يا لحيّة طالت
على نوّكها

نَهراً إذا طمّ

لو كان ما ينصبُّ

من مائها
على النَّيلِ
أو كان ما يقطر
كَيْلاً لَوْفَى أَلْفَ
من دهنها
قِنْدِيلِ

فلو تراها وهي
قد سُرَّحَتْ
حسبتُها بِنْدًا
على فيلِ

وأنشد أبو عمرو الشيبانيّ لبعض المولّدين:

إذا تلاقى
الفُيُولُ
فكيفَ حالُ
الْبَعُوضِ في
وَأَزْدَحَمَتْ
الْوَسْطِ

وأنشد علي بن محمد:

وما الفيلُ
أحمِلُهُ مُوقِراً
رِصَاصاً بِأَثْقَلِ
من مَعْبَدِ
ولا قِرْمَلِيٌّ عليه
ينوءُ بِعِدْلَيْنِ من

الغَيْطُ

وجاموسةٍ
أوقرت زنبقاً

إثمد

بأثقل منه ولا
أنكد

وقال آخر:

باب يرى ليس
له داخل

إلا خراً جمّع
في الزاوية

إن جئت فالفيئ
على هامتي

ومثله نيئ
بأوصاليه

ووصف مرة بن محكان قديراً فقال:

ترمي الصلاة
بنبل غير
طائشة

وفقاً إذا آنت
من تحتها لهبا

زيافة مثل
جوف الفيل

لو يُقذف الرأل
في حيزومها

مُجْفَرَةٌ

دُهَبًا

وقال بعض الأكرياء في امرأة كان حملها:

بيضاء من رُفْقَةٍ
عِمْرَانَ الْأَصَمِّ

لا تَعْلُ فِي
سِنِّهَا وَلَا
قَصَمَ

بِهَكْنَةٍ لَوْ تَرَكَبَ
الْفَيْلَ رَزَمَ

كأَنَّهَا يَوْمَ
تُؤَافِي
بِالْحَرَمِ

غَمَامَةٌ غَرَاءُ عَنْ
غَبِّ رَهْمٍ

وقال ربيعة بن العجاج:

إِنَّ الرِّدَافِيَّ
وَالكُرِّيَّ الْأَرْقَبَا

يَكْفِيكَ دَرَعُ الْفَيْلِ
حَتَّى تَرُكَبَا

ثم قال:

يشقى بي
الغيران حتى
أحسبا

سيداً مُغيراً أو
لياحاً مُغرباً

ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كليله ودمنة

ومما قرأه الناس من الأمثال في شأن الفيل التي وجدوها في كتاب كليله ودمنة، فمن ذلك قوله: أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُبْصَبُ بِذَنْبِهِ مِرَاراً حَتَّى تُلْقَى لَهُ الْكِسْرَةُ، وَإِنَّ الْفَيْلَ الْمَغْتَلَمَ لَيَعْرِفُ قَوَّتَهُ وَفَضْلَهُ، فَإِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَافَهُ مُكْرَماً لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُمَسَّحَ وَيُتَمَلَّقَ.

قال: وقيل في أعماله ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة، وعظيم خطر، منها عملُ السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدو، وقالت العلماء في الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَى إِلَّا فِي مَكَائِنَ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُمَا إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَماً، وَإِمَّا مَعَ النَّسَاكِ مَتَبَتِّلاً، كَالْفَيْلِ إِنَّمَا بِهَاوِهِ وَجَمَالِهِ فِي مَكَائِنَ: إِمَّا فِي بَرِّيَّةٍ وَحَشِيَّةٍ، وَإِمَّا مَرْكَباً لِلْمُلُوكِ.

قال: وقد قيل في أشياء ثلاثةٍ فضَّلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتل على المُقاتل، وفضل الفيل على الفيل،

وفضل العالم على العالم.

وقال في كلام آخر: فإن لم تنجح الحيلة فهو إذاً القدرُ الذي لا يُدفع، فإنَّ القدرَ هو الذي يسلب الأسدَ قوّته حتى يُدخِله التَّأبوت، وهو الذي يحْمِل الرَّجُل الضَّعيف على ظهر الفيل المغتلم، وهو الذي يسلِّط الحوَّاء على الحيَّة ذات الحُمَّة فينزِعُ حمتها ويلعبُ بها.

قال: ومَن لم يرضَ من الدُّنيا بالكفَّاف الذي يُغنيه،

وظمحت عيناه إلى ما فوق ذلك، ولم ينظر إلى ما

يتخوَّف أمامه، كان مثله مثل الذباب الذي ليس يرضى

بالشجر والرياحين حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن

الفيل المغتلم، فيضربه بأذنه فيهلك.

وقال: فأقام الجملُ مع الأسد حتى إذا كان ذات يوم توجّه

الأسد نحو الصيد، فلقبه فيلٌ فقاتله قتالاً شديداً، وأفلت

الأسد مُثَقلاً يسيل دماً، قد جرحه الفيل بأنيابه، فكان

لايستطيع أن يطلبَ صيداً، فلبث الذئبُ والغرابُ وابن

أوى أليماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول الأسد.

وقال: وكيف يرجو إخوانك عندك وفاءً وكرماً وأنت قد

صنعت بملكك الذي كرمك وشرَّفك ما صنعت، بل مثلك

في ذلك كما قال التاجر: إنَّ أرضاً يأكلُ جُرذانها مائة

مَنْ مِنْ حديد، غيرُ مستنكر أن تخطف بُزاتها الفيلة.
قال: وقال الجرذ للغراب: أشد العداوة عداوة الجواهر،
وعداوة الجواهر عداوتان، منها عداوة متجازية كعداوة
الفيل والأسد، فإنه ربّما قتل الفيل الأسد، وربّما قتل
الأسد الفيل، ومنها عداوة إنما ضررُها من أحد الجانبين
على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور، فإن العداوة
بيننا ليست لضرٍّ مني عليه، ولكن لضرٍّ منه عليّ. وقال:
إن الكريم إذا عثر لم يستعن إلا بالكريم، كالفيل إذا وحل
لم يستخرجه إلا الفيلة.

ضروب العداوات وسنذكرُ عداوة الشيطان للإنسان،
والإنسان للشيطان، وهما عداوتان مختلفتان وعداوة الله
للكافر، وعداوة الكافر لله، وهاتان العداوتان غير تينك،
وهما في أنفسهما مختلفتان، وهما والتي قبلها مخالفة
لعداوة العقرب للإنسان، وعداوة العقرب مخالفة لعداوة
الحيّة، وعداوة الإنسان لهما مخالفة لعداوة كلٍّ منهما
للإنسان، وعداوة الذئب والأسد، والأسد والإنسان خلاف
عداوة العقرب والحيّة، وعداوة النمر للأسد والأسد للنمر
مخالفة لجميع ما وصفنا، ومسالمة البير للأسد غير
مسالمة الخنفساء والعقرب، وشأن الحيات والوزغ

خلافُ شأنِ الخنافسِ والعقاربِ، وعداوةِ الإنسانِ خلافُ
عداوةِ ذلكِ كَلِّه، وابنِ عِرْسٍ أشدُّ عداوةً للجُرْدَانِ من
السَّنُورِ، وعداوةُ البعيرِ للبعيرِ، والبرذونُ للبرذونِ،
والحمارُ للحمارِ شكلٍ واحدٍ، وعداوةُ الذئبِ خلافُ ذلكِ،
والشَّاةُ أشدُّ فَرَقاً منه منها من الأسدِ والنمرِ والبيبرِ، وهي
أقوى عليها من الذئبِ، وفَرَقَ الدَّجَاجِ من ابنِ آوى أشدُّ
من فَرَقِها من الثَّعلبِ، والحمامُ أشدُّ فَرَقاً من الشاهينِ
منه من الصَّقرِ والبازيِ.

عداواتِ الناسِ وأسبابِ عداواتِ النَّاسِ ضروبٌ: منها
المشاكلَةُ في الصَّناعةِ، ومنها التَّقارُبُ في الجِوارِ، ومنها
التَّقارُبُ في النَّسبِ، والكثرةُ من أسبابِ التَّقاطعِ في
العشيرةِ والقبيلةِ، والسَّاكنِ عدوُّ المُسْكِنِ، والفقيرُ عدوُّ
للغنيِّ وكذلكِ الماشيِّ والراكبِ، وكذلكِ الفحلُ والخصيِّ،
وَبَغْضَاءِ السُّوقِ موصولَةً بالملوكِ، وكذلكِ المعتقدِ عن
دُبُرِ، والموصيِّ له بالمالِ الرغيبِ، وكذلكِ الوارثِ
والموروثِ، ولجميعِ هذا تفسيرٌ ولكنه يطولُ.
عداواتِ الحيوانِ وذكرِ صاحبِ المنطقِ عداوةَ الغرابِ
للحمارِ، والنَّحويونِ ينشدونِ في ذلكِ قولَ الشَّاعرِ:

عَادِيْتَنَا لَا زِلَّتْ فِي تَبَابٍ

عَدَاوَةُ الْحِمَارِ لِلْغُرَابِ

ولا أدري من أين وقع هذا إليهم.
وذكر أيضاً عداوة البوم للغراب، وكذلك عصفور الشوك
للحمار، وفي هذا كلام كثير قد ذكرنا بعضه في أول كتابنا
هذا من الحيوان.

رجع إلى الأمثال في كليلة ودمنة ثم رجعنا إلى الإخبار
عن الأمثال.

قال: وأكيس الأقوام من لا يلتمس الأمر بالقتال ما وجد
عن القتال مذهباً؛ فإن القتال إنما النفقة فيه من الأنفس،
وسائر الأشياء إنما النفقة فيها من الأموال، فلا يكون
قتال البوم من رأيك، فإن من يراكل الفيل يراكل الحين.
قال: فأجابه الجرذ فقال: إنه رب عداوة باطنة ظاهرها
صداقة، وهي أشد ضرراً من العداوة الظاهرة، ومن لم
يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل
المعتلم ثم يغلبه النعاس.

قال: واعلم أن كثيراً من العدو لا يستطيع بالشدة
والمكابرة حتى يُصاد بالرفق والملاينة، كما يصاد الفيل

الوحشيُّ بالفيل الأهليّ.

وقال: إِنَّ العُشبَ كما رأيتَ في اللَّينِ والضَّعْفِ، وقد يُجمَعُ منه الكثيرُ فيصنعُ منه الحبلُ القويُّ الذي يوثقُ به الفيلُ المغتلم.

قال: وقالوا: نريدُ أحبَّ بَنيكَ إليك، وأكرمهم عليك، ونريدُ كالَ الكاتبِ صاحبِ سرِّك، والسيفِ الذي لا يوجدُ مثله، والفيلَ الأبيضَ الذي لا تلحقه الخيلُ الذي هو مَرَكَبُك في القتالِ، ونريدُ الفيلينَ العظيمين اللذين يكونان مع الفيلِ الذَّكَرِ.

الفيلة في الحروب

وقد سمعنا في هذا الحديثِ والإخبارِ عن أيامِ القادسيَّةِ ويومِ جسرِ مِهْرانَ، وقُسِّ النَّاطِفِ، وجَلولاءَ، ويومِ نَهاوندَ، بالفيلِ الأبقعِ، والفيلِ الأسودِ، والفيلِ الأبيضِ، والناسِ لم يَرَوْا بالعراقِ فيلاً أوبرَ، ولا فيلاً أشعَرَ.

الفيلة المستأنسة

والفيلة التي كانت مع الفرسِ، حُكْمُها حكمُ الفِيلةِ التي كانت عندَ أميرِ المؤمنين المنصورِ، وعند سائرِ الخلفاءِ من بَعْدِهِ، وكلها جُرْدٌ مُعْضَبَةٌ، ولم نلقَ أحداً رآها وحشيَّةً

قبل أن تصير في القرى والمواضع التي يذكرها.
تبدل حال الحيوان إذا أخرج من موطنه وقد علمنا أن
الطائر الصيود من الجوارح، لو أقام في بلاده مائة عام
لم يحدث لمنسره زوائد، وعير العانة إذا أقام في غير
بلاذه احتاج إلى الأخذ من حافره، و إلى أن يُخْتَلَفَ به
إلى البيطار، والطائر الوحشي من هذه المغنّيات
والنوائح، لو أقام عندنا دهرًا طويلًا لم يُصَوِّتَ إذا أخذناه
وقد كُرِّز، وكذلك المزوجة والتعشيش والتفريخ.

التكاثر بالفيلة

قال: وكلُّ مَلِكٍ كان يصلُ إلى أن تكون عنده فِئلة فاتّه
كان لا يدعُ الاستكثار منها والتجمل بها، والتَّهويل
بمكانها عنده، ولا يدعُ ركوبها في الحروب، وفي
الأعياد، وفي يوم الزينة.

الفيل في الشعر

وقد كانت عند حمير والتبابعة والمقاول والعباهلة من
ملوكهم، وأبي اليكسوم من ملوك الحبشة، وعند ملوك
سبأ، مقرّبة مكرّمة، يدلّ على ذلك الأشعارُ المعروفة،

والأخبار الصحيحة، ألا ترى أن الأعشى ذكر مأرب
وملوك سبأ وسيل العرم، فقال:

ومأرب عفى
عليها العرم

ففي ذاك
للموتسي
أسوة

إذا جاء مأوهم
لم يرم

رخام بنته له
حمير

على ساعة
ماوهم قد قسم

فأروى
الحروث
وأعابها

بنيهاً فيها
سراب يطم

وطار الفيول
وفيالها

وكان الأقبيل القيني مع الحجاج يقاتل ابن الزبير، فلما
رأى البيت يرمى بالمنجنيق أنشأ يقول:

ولم أر جيشاً

ولم أر جيشاً

عُرَّ بِالْحَجِّ
قَبَلْنَا

مِثْلَنَا كَلِّهِمْ
خَرَسُ

دَلَفْنَا لِبَيْتِ اللَّهِ
نَرْمِي سُنُورَهُ

بِأَحْجَارِنَا نَهَبِ
الْوَلَادِ لِلْعُرْسِ

دَلَفْنَا لَهُمْ يَوْمَ
الثَّلَاثِ مِنْ
مِنِّي

بِجَيْشِ كَصَدْرِ
الْفِيلِ لَيْسَ لَهُ
رَأْسُ

فلما فرغ وعاد بقبر مروان، وكتب له عبد الملك كتاباً
إلى الحجاج يخبره فيه، وفوض الأمر إليه، قال:

وقد علمتُ لو
أَنَّ الْعِلْمَ يُفْعَلِي

أَنَّ انْطِلَاقِي إِلَى
الْحَجَّاجِ تَغْرِيرُ

مُسْتَحْقِباً صُحُفًا
تَدْمَى طَوَابِعُهَا

وفي الصَّحَائِفِ
حَيَاتٌ مَنَاقِيرُ

لئن رَحَلْتُ إِلَى
الْحَجَّاجِ مَعْتَذِرًا

إِنِّي لِأَحْمَقُ مَنْ
تَخَذِي بِهِ الْعِيرُ

لسان الفيل

وكلُّ حيوانٍ في الأرض ذو لسانٍ فأصلُّ لسانِهِ إلى داخل،
وطرفه إلى خارج؛ إلاَّ الفيل، فإنَّ طَرَفَ لسانه إلى داخل،
وأصله إلى خارج.

بعض خصائص الحيوان وتقول الهند: إنَّ لسان الفيل
مقلوب، ولولا أنَّه مقلوب ثمَّ لَقِنَ الكلامَ لتكلم.
وكلُّ سمكٍ يكون في الماء العذب فإنَّ له لساناً وِدماغاً،
إلاَّ ما كان منها في الماء الملح، فإنَّه ليس لسمك البحر
لسانٌ ولا دِماغ.

وكلُّ شيءٍ يأكل بالمضغ دون الابتلاع فإنَّه إنما يحرك
فكه الأسفل، إلاَّ التمساح فإنَّه إنما يحرك فكه الأعلى.
وكلُّ ذي عينٍ من ذوات الأربع من السباع والبهائم
الوحشية والأهلية، فإنما الأشفار لجفونها الأعلى إلاَّ
الإنسان، فإنَّ الأشفار للأعلى والأسفل.
وكلُّ حيوانٍ ذي صدرٍ فإنَّه ضيق الصدر، إلاَّ الإنسان فإنَّه
واسع الصدر وليس لشيءٍ من ذكورة جميع الحيوان
وإناتها ثديٌّ في صدره إلاَّ الإنسان والفيل، وقال ابن
مُقبل:

وليلةٍ مثل
ظَهَرَ الفيل
غَيْرَهَا

طَلَسُ النُّجُومِ إِذَا
اغْبَرَ الدِّيَامِيمُ

ضخم الفيل وظرفه

والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضِخْمه أَمْلَحُ وَأظْرَفُ
وَأَحْكَى وهو يفوق في ذلك كلَّ خفيفِ الجسم، رشيق
الطبيعة.

وإنما الحكاية من جميع الحيوان في الكلب والقرد والدب
والشاة المكئية، وليس عند الببغاء إلا حكاية صور
الأصوات، فصار مع غلظه وضِخْمه وفخامته أرشق
مذهباً، وأدقَّ ظرفاً، وأظهرَ طرفاً، وهذا من أعجب
العجب، وما ظنُّكم بعِظَمِ خَلْقِ رَبِّمَا كان في نَابِيهِ أكثر من
ثلاثمائة منّ،

أعظم الحيوان في قول المتعصبين على الفيل

فقال من يعارضهم: قد أجمعوا على أنّ أعظم الحيوان
خَلْقاً السمكة والسرطان، وحكوا عن عِظَمِ بعض
الحيات، حتى الحقوه بهما، وأكثروا في تعظيم شأن

التَّئِينِ؛ فليس لكم أن تَدْعُوا لِلْفِيلِ ما ادَّعَيْتُمْ. رد صاحب
الفيل على خصمه

قال صاحبُ الهند والمعبرُ عن خصال الفيل: أمَّا الفيل
وعَلْوُ سَمَكِهِ، وَعِظْمُ جُفَوْتِهِ، وَأَتَّسَاعُ صَهْوَتِهِ، وَطَوَّلُ
خُرْطُومِهِ، وَسَعَةُ أُذُنِهِ، وَكِبَرُ غُرْمُولِهِ، مَعَ خِفَّةِ وَطْنِهِ،
وَطَوَّلُ عُمُرِهِ، وَثِقَلُ حَمَلِهِ، وَقِلَّةُ اكْتِرَائِهِ لِمَا وُضِعَ عَلَى
ظَهْرِهِ، فَقَدْ عَايَنَ ذَلِكَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّدَّ
عَلَيْهَا إِلَّا جَاهِلًا أَوْ مُعَانِدًا، وَأَمَّا مَا ادَّعَيْتُمْ مِنْ عِظْمِ الْحَيَّةِ
وَأَنَّ مَتَى مَسَخْنَا طَوْلَهَا وَثَخْنَهَا، وَأَخَذْنَا وَزْنَهَا كَانَتْ أَكْثَرَ
مِنَ الْفِيلِ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ هَذَا إِلَّا فِي أَحَادِيثِ الرَّقَائِينِ،
وَأَكَاذِيبِ الْحَوَائِينِ، وَتَزْيِيدِ الْبَحْرِيِّينَ.

وأما التَّئِينِ فَإِنَّمَا سَبِيلُ الْإِيمَانِ بِهِ سَبِيلُ الْإِيمَانِ بِعَنْقَاءِ
مُغْرِبِ، وَمَا رَأَيْتُمْ مَجْلِسًا قَطُّ جَرَى فِيهِ ذِكْرُ التَّئِينِ إِلَّا
وَهُمْ يَنْكُرُونَهُ وَيَكْذِبُونَ الْمُخْبِرَ عَنْهُ، إِلَّا أَنَا فِي الْفَرْطِ
رَبَّمَا رَأَيْنَا بَعْضَ الشَّامِيِّينَ يَزْعُمُ أَنَّ التَّئِينِ إِعْصَارٌ فِيهِ
نَارٌ يَخْرُجُ مِنْ قَبْلِ الْبَحْرِ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ، فَلَا يَمُرُّ
بشَيْءٍ إِلَّا أَحْرَقَهُ، فَسَمَّى ذَلِكَ نَاسُ التَّئِينِ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي
صُورَةِ حَيَّةٍ.

وأما السَّرَطَان فلم نرَ أحداً قط ذكرَ أَنَّهُ عَينَهُ، فَإِنْ كُنَّا
إلى قول بعض البحرِيِّين نرجع، فقد زَعَم هؤلاء أَنَّهُم
ربما قُربوا إلى بعض جزائر البحر، وفيها الغياض
والأودية واللَّحَاقِيق، وأنَّهُم في بعض ذلك أوقدوا ناراً
عظيمة، فلما وصلتْ إلى ظهر السرطان هَاجَ بهم وبكلِّ
ما عليه من النَّبات، حتَّى لم يُنَجَّ منهم إلا الشريد.
وهذا الحديث قد طمَّ على الخرافات والتُّرَّهات وحديث
الخلوة.

وأما السَّمَك فلعمري إِنَّ السمكة التي يقال لها البالُ
لفاحشة العظم، وقد عاينوا ذلك عياناً، وقتلوه يقيناً،
ولكن أَحسبوا أَنَّ الشَّانَ في البال على ما ذكرتم، فهل
علمتم أن فيه من الحسِّ والمعرفة، واللِّقْن والحكاية،
والطَّرَب وحسن المَواتاة وشدَّة القتال، والتمهُّد تحت
الملوك، وغير ذلك من الخصال، كما وجدنا ذلك وأكثر
منه في الفيل.

وهل رغبْت في صيده الملوكُ واحتالت له التجار، أو
تمنَّى الظَّفَر بأجزائه بعض الأطباء، وهل يصلح لدواءٍ أو
غذاءٍ أو لبس، إنَّما غاية البحرِيِّين أن يسلمُوا من عبثه
إن هجموا عليه نائماً أو غافلاً، حتَّى ينفر ويفزع وينبّه

بِقَرَعِ الْعَصَا، وَاصْطِكَاكِ الْخَشْبِ.
وَإِنَّمَا قَدَّمْنَا خِصَالَ الْفِيلِ عَلَى خِصَالِ الْحَيَوَانِ الَّذِي فِي
كَفِّهِ وَمِنْقَارِهِ الصَّنْعَةُ الْعَجِيبَةُ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ مِنْ طَرِيفِ
الْمَعْرِفَةِ، وَغَرِيبِ الْحَسِّ، وَثُقُوبِ الْبَصْرِ، أَوْ بَعْضُ مَا فِيهِ
مِنَ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ، وَمِنَ التَّفَارِيحِ وَمِنَ التَّحَاسِينِ،
وَالْوَشِيِّ وَالتَّلَاوِينِ، بِالتَّأْلِيفِ الْعَجِيبِ، وَالتَّنْضِيدِ الْغَرِيبِ،
أَوْ بَعْضُ مَا فِي حَنْجَرَتِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمَلْحَنَةِ،
وَالْمَخَارِجِ الْمَوْزُونَةِ، وَالْأَغَانِي الدَّاخِلَةِ فِي الْإِيْقَاعِ،
الْخَارِجَةِ مِنْ سَبِيلِ الْخَطِّاءِ، مِمَّا يَجْمَعُ الطَّرْبَ وَالشَّجَا،
وَمِمَّا يَفُوقُ النُّوَائِحَ وَيُرُوقُ كُلَّ مَغْنَى، حَتَّى يُضْرَبَ بِحَسَنِ
تَخْرِيجِهِ وَصَفَاءِ صَوْتِهِ وَشَجَا مَخْرَجِهِ الْمَثَلِ، حَتَّى يَشَبَّهُ
بِهِ صَوْتُ الْمَزْمَارِ وَالْوَتْرِ.
وَأَمَّا بَعْضُ مَا يُعْرَفُ بِالْمَكْرِ وَالْحَيْلِ، وَالْكَيْسِ وَالرَّوْعَانِ،
وَبِالْفِطْنَةِ وَبِالْخَدِيعَةِ، وَالرَّفْقِ وَالتَّكْسُّبِ، وَالْعِلْمِ بِمَا يُعِيشُهُ
وَالْحَدْرِ مِمَّا يُعْطِبُهُ، وَتَأْتِيهِ لِدُنْكَ وَحِدْقِهِ بِهِ؛ وَأَمَّا بَعْضُ مَا
يَكُونُ فِي طَرِيقِ الثَّقَافَةِ يَوْمَ الثَّقَافَةِ وَالبَصْرِ بِالمِشَاوِلَةِ،
وَالصَّبْرِ عَلَى المِطَاوِلَةِ، وَالْعِزْمِ وَالرَّوْعَانِ، وَالكَرِّ
وَالجَوْلَانِ، وَوَضْعِ تِلْكَ التَّدَابِيرِ فِي مَوَاضِعِهَا حَتَّى لَا تَرُدُّ
لَهُ طَعْنَةً وَلَا تَخْطِئُ لَهُ وَثْبَةً، وَأَمَّا بَعْضُ مَا يُعْرَفُ بِالنَّظَرِ

في العاقبة وبإحكام شأن المعيشة والأخذ لنفسه بالثقة،
وبالتقدم في حال المهلة والادّخار ليوم الحاجة،
والأجناس التي تدخر لأنفسها ليوم العجز عن الطلب
والتكسّب - فَمِثْلُ الدَّرَّةِ، والنملة، والجُرَذِ والفأرة، وكنحو
العنكبوت والنحل. فإذا كان ليس للفيل إلا عِظْمُه وإن كان
العِظْمُ قد يدخل في باب من أبواب المفاخرة، فلا ينبغي
لأحد أن يُناهد به الأبدان التي لها الخصال الشريفة،
ويناضل به نواتِ المفاخر العظيمة، فما ظنك ببدن قد
جمع مع العِظْم من الخصال الشريفة ما يُفني الطواميرَ
الكثيرة، ويستغرق الأجلاد الواسعة، وقد علمت أنّ من
جَهْلٍ هذه السمكة بما يُعِيشُها ويُصَلِّحُها أنّها شديدة
الطلب والشهوة لأكل العنبر، والعنبرُ أقتلُّ للهِال من
الدَّفْلَى للدواب، فإذا أصابوه ميّتاً استخرجوا من جوفه
عنبراً كثيراً فاسداً.
وما فيه من النفع إلا أنّ دهنه يصلح لتمرير سفن
البحريين.

تعصب غانم الهندي على الفيل

فسمِعني غانمُ العبدِ يوماً وأنا أحكي هذا الكلامَ، وكان منْ
أَمْوَقِ الناسِ وأَرْقَعِهِم رَقاعَةً، مع تِيهِ شَدِيدٍ وَعُجْبٍ
ورِضاً عن نفسه، وسُخِطَ على النَّاسِ، فَمِنْ حُمْقِهِ أَنَّهُ
هِنْدِيٌّ وهو يَتَعَصَّبُ على الفيلِ، فقال لي: ما تقول الهند
في الحوت الذي يحمل الأرضَ، أليس أعمَّ نفعاً وأعلى
أمراً؟ قلت له: يا هالكُ، إنَّ مدارَ هذا الكلامِ إنما يقع على
الأقسامِ الأربعة من بين جميع الحيوانِ المذكورة في
الماءِ وفي الأرضِ وفي الهواءِ، كالذي ينساح من أجناسِ
الحياتِ والذَّيدانِ، والذَّي يمشي من الدوابِّ والنَّاسِ،
والذي يَطِيرُ من أحرارِ الطيرِ وبغائِها وخَشاشِها
وهمَجِها، والذَّي يعوم كالسَّمكِ وكلِّ ما يعايش السَّمكِ.
فأمَّا الحوت الذي تكون الأرضُ على ظهره فقد علمنا أنَّ
في الملائكةِ مَنْ هو أعظمُ من هذا الحوتِ مراراً، ولولا
مكانُ مَنْ قد حَضَرنا لكان ممن لا يستأهلُ الجوابَ، وهذا
مقدارُ معرفته.

قوة الفيل

قالوا: والفيل أقوى من جميع الحيوانِ إنْ حُمِّلَ الأثقالَ،
ومن قوة عظمه وعصبه أنه يمرُّ خلفَ القاعدِ مع عِظَمِ

بَدَنه، فلا يشعر بوطنه، ولا يُحسُّ بممرِّه لاحتمال بعض
بَدَنه لبعض، وهذه أعجوبةٌ أخرى.

طول مدة حمل الفيلة

وليس في حوامل إناث الحيوان أطولُ مدَّة حبلٍ من الفيل،
والكركدن، فإنه مذكورٌ في هذا الباب، والفيلُ يزيد عليه
في قول بعضهم.

فأما الهنْدُ ففتنتهم بالكركدن أشدُّ من فتنتهم بالفيل.
فأما ما كان دون ذلك من أجناس الحيوان فأطولها حملاً
الحافر والخف، ولا يزيدان على السنَّة إلا أن تُسحب
الأنثى وتجرَّ أياماً، فأما الظلف فعلى ضربين، فما كان
منها من البقر فإنَّ مدَّة حملها وحمل النساء تسعة أشهر،
وما كان من الغنم فإنَّ حملها خمسة أشهر.
وقد ذكرنا حال أجناس الحيوان في ذلك فيما سلف من
كتابنا هذا.

صولة الفيل

قالوا: والفيلة هَوْلُها في العين، فأحذر أن تتخذ ظهورها
كالمناظر والمسالح والأرصاد.
وللفيل قتالٌ وضربٌ بخرطومه، وخبْطٌ بقوائمه، وكانت

الأكاسرة ربما قتلت الرَّجْلَ بَوَظْءِ الفيلة، وكانت قد درّبت
على ذلك وعُلِّمَتْه، فإذا ألقوا إليها الرَّجْلَ تركت العلف
وقصدتْ نحوه فداستْه، ولذلك أنشد العباس بن يعقوب
العامريّ، لناهض بن ثومة العامري قوله:

وذو الضَّغْمِ إِذْ
بعضُ المحامِينِ
ناهشُ

أَمِيمًا بِهِ
مُسْتَدْمِيَاتُ
مَقَارِشُ

أنا الشَّاعِرُ
الخطَّارُ مِنْ
دونِ عامِرٍ

بخبِطٍ كَخَبِطِ
الفيلِ حتَّى
تركته

وأنشد الأصمعي وأبو عمرو لتميم بن مقبل:

تَخَيَّرَ آيَاتِ
الكتابِ هِجَائِيَا

أرى الشَّعبِ
فيما بيننا

بني عامرٍ ما
تأمرون بشاعرٍ

أأعفو كما يعفو
الكريمُ فإني

متدانيا

بِجَرْدٍ فَلَا أُبْقِي
مِنَ الرَّأْسِ بَاقِيَا

أَمْ أَخْبِطُ خَبِطُ
الْفِيلِ هَامَةً
رَأْسِهِ

بعض من رمي تحت أرجل الفيلة وكانت الأكَاسرة - وهي الكُسُور - تؤدبها وتعودها وطعمَ الناس وخبطهم إذا أُلقيَ تحت قوائمها بعض أهل الجنایات، فكان ممن رُميَ به تحت أرجل الفيلة النُّعمان بن المنذر، وقال في ذلك الشاعر:

وَدَرَى بَيْتِهِ
بِجَوْرِ الْفُهِلِ

إِنَّ ذَا التَّاجِ لَا أَبَا
لَكَ أَضْحَى

مَانَ حَتَّى
سَقَاهُ أُمَّ
الْبَلِيلِ

إِنَّ كِسْرَى عَدَا
عَلَى الْمَلِكِ النَّعْ

كتاب ملك الصين وذكر الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب النُّقْفِي، عن عبد الملك بن عمير قال: رأيت في ديوان

معاوية بعد موته كتاباً مِنْ ملك الصين فيه: من ملك
الصَّين الذي على مَرَبطه ألف فيل، وبُنيت داره بلبن
الذهب والفضة، والذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي له
نهران يسقيان الألوّة، إلى معاوية.
قالوا: ولمّا أراد كسرى قتلَ زيوشت المغني، لقتله فهلبذ
المغني، وأمر أن يرمى به تحت الفيلة وقال: قتلْت أحسن
الناس غِنَاءً، وأجودهم إمتاعاً للملك؛ حسداً له، فلمّا
سحبوه نحو الفيلة التفت إلى كسرى وقال: إذا قتلتُ
زيوشت المغني، وقد قتل زيوشت فهلبذ فمن يُطربك؟
فقال كسرى: المدة التي بقيت لك هي التي أنطقك، خلّوا
سبيله.

تأديب الهند الفيلة

وقال صفوان بن صفوان الأنصاري، وكان عند داود بن
يزيد بالمولتان: الهند تؤدّب الفيلة بأنواع من التأديب،
وبضروب من التقويم، فمنها آداب الحروب، حتى ربّما
رَبَطُوا السَّيفَ الهُدَامَ الرَّغِيبَ، الشَّدِيدَ المتن، الحديد
العَرَبَ، التّامَ الطول، الطَّويلَ السَّيلان، في طرف خُرطوم
الفيل، وعلموه كيف يضرب به قُدماً، يميناً وشمالاً،

وكيف يرفعه بخرطومه حتى يكون فوق رؤوس الفيالين
القعود على ظهره.

شعر هارون في الفيل

قال: وأنشدني هارون بن فلان المولى، مولى الأزدي،
قصيدته التي ذكر فيها خروجه في الحرب إلى فيل في
هذه الصفة، فمشى إليه، فلما كان حيث يناله السيفُ
وثب وثبةً أعجله بها عن الضربة، ولصق بصدر الفيل،
وتعلق بأصول نابيه - وهما عندهم قرناه - فجال به الفيلُ
جولةً كاد يحطمه من شدة ما جال به، وكان رجلاً شديد
الخلق، رابط الجأش، قال: فاعتمدتُ وأن في تلك الحال -
وأصول الأنياب جوف - فانقلعا من أصلهما، وأدبر الفيلُ،
وصار القرنان في يدي، وكانت الهزيمة وغنم المسلمون
غنائم كثيرة، وقلت في ذلك:

وقد وصلوا
خرطومَه
بحسام

مشيتُ إليه
وادعاً متمهلاً

فقلتَ لِنَفْسِي: إِنَّهُ
الْقَيْلُ ضَارِبٌ

بَأَبْيَضٍ مِنْ
مَاءِ الْحَدِيدِ
هُدَامٍ

فَإِنْ تَتَكَلَّى عَنْهُ
فَعَدْرُكَ وَاضِحٌ

لَدَى كُلِّ
مِنْخُوبٍ
الْفُؤَادِ عِبَامٍ

وَعِنْدَ شَجَاعِ
الْقَوْمِ أَكْلَفُ
فَاحِمٍ

كَظَلْمَةِ لَيْلٍ
جُلَّلتِ
بِقَتَامٍ

وَلَمَّا رَأَيْتُ
السِّيفَ فِي رَأْسِ
هَضْبَةٍ

كَمَا لَاحَ بَرْقٌ
مِنْ خِلَالِ
غَمَامٍ

فَنَاهَشْتُهُ حَتَّى
لَصِقْتُ بِصَدْرِهِ

فَلَمَّا هَوَى
لَا زَمْتُ أَيَّ
لِزَامٍ

وَذَلِكَ مِنْ
عَادَاتِ كُلِّ
مَحَامِي

وَأَبْتُ بَقْرَنِي
يَذْبُلُ وَشَمَامِ

بِقَاتِمِ سَيْفِ فَاضِلِ
الطُّولِ وَالْعَرْضِ

إِذَا كَانَ أَنْفُ الْفِيلِ
فِي عَقْرِ الْأَرْضِ

وَيَلْمَعُ لَمَعُ الصُّبْحِ
بِالْبَلَدِ الْمَفْضِيِّ

وَعَدْتُ بِقَرْنِيهِ
أُرِيدُ لَبَانَهُ

فَجَالَ وَهَجَّيرَاهُ
صَوْتُ مَخْضَرَمٍ

وقال هارون:

ولمَّا أتاني
أنهم
يعقدونه

مررتُ ولم
أحفلُ بذلك
منهم

وحيثُ رأيتُ
السَّيفَ يهْتَزُّ
قائماً

يُصَرِّفُهُ فِي الرَّفْعِ
طَوْرًا وَفِي
الْخَفْضِ ِ

وَصَرْتُ كَأَنِّي
فَوْقَ مَزْلَقَةٍ
دَخِضِ

فَلَادَ بَقْرَنِيهِ أَخُو
ثِقَةَ مَحْضِ

كَثِيرِ مِرَاسِ
الْحَرْبِ مَجْتَبِ
الْخَفْضِ

رَطَانَةَ هِنْدِيٍّ
بَرْفَعِ وَلَا
خَفِضِ

وَصَارَ
كَمِخْرَاقِ
بِكْفٍ حَزْوَرٍ

فَأَقْبَلَ يَفْرِي
كُلَّ شَيْءٍ
سَمَاءَهُ

وَأَهْوَى
لِجَارِي
فَاغْتَمَّتْ
ذُهُولَهُ

فَجَالَ وَجَالَ
الْقَرْنَ فِي
كَفِّ مَاجِدِ

فَطَاحَ وَوَلَّى
هَارِبًا لَا
يَهِيدُهُ

نابا الفيل

والهندُ تزعمُ أنّ نابي الفيل يخرجان مستبطين حتى
يخرقا الحنك ويخرجا أعقفين، وإنما يجعلهما نابين من لا
يفهمُ الأمور، قالوا: والدليل على ذلك أنّ لهما أصلين في
موضع مخارج القرون، يُوجد ذلك عند سلخ جلده، ولأنّ
القرن لا يكون إلا مصمت الأعلى مجوّف الأسفل وكذلك
صفةُ هذا الذي يسمّيه من لا علم له ناباً، ومع ذلك إنّنا لا
نجد الفيل يعضّ كعضّ الأسد للأكل، ولا كعضّ الجمل
الصوّول للقتل، ولا كعضّ الأفعى لإخراج السمّ، ولا تراه
يصنع به ويستعمله إلا على شبيهه بما تستعمله ذوات
القرن عند القتال والغضب.

فقال لهم بعض من يردّ عليهم: أمّا قولكم إنّ القرن لا
يكون إلا مجوّف الأصل، فهذا قرن الأيّل مُصمت من أوّله
إلى آخره، وهو ينصل في كلّ سنة، فإذا نبت حديثاً لم
يظهر حتى يستحكم في يئسه وصلابته، وإذا علم أنه قد
بلغ ذلك ظهر، وأكثر القرون الجوف يكون في أجوافها
قرون، وليس ذلك لقرن الفيل.

قالوا: ولم نجد هذا القرن في لون القرون، ووجدناه
بسائر أسنانه وأضراسه أشبه، للبياض واليبس، وليس

كذلك صفةُ القرون.

وتقول الهند: فم الأيل صغير، وهو أفقم، ولا يجوز أن يكون مثل ذلك اللَّحي والفكَّ يَنْبُتُ فيه ومنه نابان يكون فيهما ثلاثمائة مَنْ، وقد رأيتُ قروناً كثيرة الأجناس، بيضاً، وبُرْشاً، وصُهْباً، وهذه أيضاً من أعاجيب الفيل. وقرن الكركدن أغلظ من مقدار ذراع، وليس طوله على قدر غلظه، وهو أصلب وأكرم من قرني الفيل. أعضاء التناسل لدى الحيوان ويقال: إنَّ أكبر أيور الحيوان أير الفيل، وأصغرها قضيبُ الطبي، وقضيب البط لا يذكر مع هذه الأشكال، وليس شيءٌ على قدره ومقدار جسمه أعظم أيراً من البغل. وقد علمنا أنَّ للضب أيرين، وكذلك الحردون والسقنقور، وعرفنا مقدار ذلك، ولكنَّه لا يدخل في هذا الباب لضعف لا يخفى.

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلا خرطومُه الذي هو أنفه وهو يده، وبه يوصل الطعامَ والشرابَ إلى جوفه، وهو شيءٌ بين العُضروف واللحم والعصب، وبه يقايل

ويضرب، ومنه يصيح، وليس صياحه في مقدار جرم بدنه، ويضربُ به الأرضَ ويرفعه في السماء ويصرفه كيف شاء، وهو مَقْتَلٌ من مقاتله، والهند تربط في طرفه سيفاً شديداً المثنى فيقاتلُ به، مع ما في ذلك من التهويل على من عينه.

سباحة الفيل والجاموس والبعير

وهو مع عظم بدنه جيّد السّباحة إلا أنه يخرج خرطومه ويرفعه في الهواء صُعداً لأنّه أنفه، ألا ترى أنّ الجاموسَ يغيب جميع بدنه في الماء إلا منخريه.

والبعير قبيح السّباحة: لأنه لا يسبح إلا على جنبه فهو في ذلك بطيءٌ ثقيل، والبعير مما يُخاير بينه وبين الفيل، فلذلك ذكرناه.

ما يغرق من الحيوان وقد علمنا أنّ الإنسان يغرق في الماء ما لم يتعلّم السّباحة، فأما الفرس الأعسرُ والقرد فإنهما يغرقان البتّة، والعقرب تقوّم وسط الماء لا طافيةً ولا لازقة بالأرض.

أشراف السباع وساداتها وأشراف السّباع وساداتها وكبارها ورؤساؤها ثلاثة: الكركدن والفيل والجاموس،

قال: ولعلَّ بعضَ مَنْ اعتاد الاعتراض على الكتب يقول:
وأين الخيل والإبل، وفيها من خصال الشَّرَفِ والمنافع
والعَناءِ في السَّفَرِ والحَضَرِ، وفي الحَرْبِ والسَّلْمِ، وفي
الزَّيْنَةِ والبهاءِ، وفي العُدَّةِ والعتادِ، ما ليس عند الكركدنِ
ولا عندَ الفيلِ ولا عندَ الجاموسِ.

قال القوم: ليس إلى هذا الباب ذُهْبُنَا، ولا إليه قصدْنَا، ولا
ذلك البابُ ممَّا يجوزُ أَنْ نُدخله في هذا البابِ، ولكنَّا ذُهْبُنَا
إلى المحاماةِ والدَّفْعِ عن الأنفسِ والقتالِ دون الأولادِ،
وإلى الامتناعِ من الأضدادِ بالحيلةِ اللطيفةِ، وبالبطشِ
الشديدِ، وليس عند الخيلِ والإبلِ إذا صافت الأسدُ
والثَّمُورِ والبُبُورِ، ما عندَ الجاموسِ والفيلِ، فأما الكركدنُ
فإنَّ كلَّ شيءٍ من الحيوانِ يقصِّرُ عن غايتهِ التقصيرَ
الفاحشِ.

إنكار الكركدن والعنقاء وما أثير من ينكر أن يكون في
الدنيا حيوانٌ يسمَّى الكركدنُ، ويزعمون أنَّ هذا وعنقاء
مُعْرِبٍ سِوَاءِ، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصوَّرةً
في بُسْطِ الملوكِ، واسمها عندهم بالفارسيَّةِ سيمركُ كأنه
قال: هو وحده ثلاثون طائراً، لأنَّ قولهم بالفارسية سي
هو ثلاثون بالعربية، ومرغ بالفارسيَّةِ هو الطائر

بالعربية، والعرب إذا أُخبرت عن هلاك شيءٍ وبطلانه
قالت: حَلَّقَتْ به في الجوّ عنقاءً مغرب، وفي بعض
الحديث: أنّ بعضَ الأمم سألوا نبيَّهم وقالوا: لن نؤمن لك
حتى تفعل كذا وتفعل كذا، أو تلقي في فم العنقاء اللّجام،
وتردّ اليومَ أمسٍ.
شعر في العنقاء قال أبو السّريّ الشّميّطي، وهو معدان
المكفوف المديبريّ:

دِ وَجَدَّ الصَّبِيِّ
ذِي الْخَلْخَالِ

بَعْدَ حَرَسِ
مَثَابِ اللَّالِ

رُبَّ مَهْدٍ يَكُونُ
فَوْقَ الْهَالِ

شُ طَرًّا لِشِدَّةِ
الزَّلْزَالِ

يَا سَمِيَّ النَّبِيِّ
وَالصَّادِقِ الْوَعِ

صَاحِبِ التُّومَةِ
الَّتِي لَمْ يَشْنُهَا

مَهْدَتَهُ الْعَنْقَاءُ
وَهِيَ عَقِيمٌ

يَوْمَ تُصْغِي لَهُ
النَّعَامَةُ وَالْأَحْنَا

فأهل هذه النحلة يثبتون العنقاء، ويزعمون أنها عقيم.
وقال زرارة بن أعين، مولى بني أسعد بن همام، وهو
رئيس الشميطة وذكر هذا الصبي الذي تكفله العنقاء،
فقال:

ولو شاءَ أحيا
ربها وهو مذنبُ

وقال سيكفيني
الشقيقُ المقربُ

والجامه العنقاء
في العين أعجبُ

وذلك سرُّ لو
علمناه معجب

وملكه الأبراج
والشمسُ تجنبُ

وأولُ ما يحيا
نعاجُ وأكبشُ

ولكنه ساعى
بأمِّ وجدّةٍ

وآخرُ برهاناته
قلبُ يومكم

يَصِيفُ بساباطِ
ويشتُو بآمد

أماع له
الكبريت
والبحرُ جامدُ

فيومئذٍ قامت

شماط

بقدرها

وقام صبيّ

دَرَدَقٌ في

قِمَاطِهِ

وقام عسيب

القفر يُثني

وَيُخْطَبُ

عليهم بأصناف

اللِّسَانَيْنِ مُعْرَبُ

فثبت زرارة بن أعين قول أبي السريّ في العنقاء، وزادنا تثبيت الكبريت الأحمر ولا أعلم في الأرض قوماً يُثبتون العنقاء على الحقيقة غيرهم.

الركدن قال: والذي يثبت الـركدّن أن داود النبي صلى الله عليه وسلم ذكره في الزبور حتى سمّاه.

وقد ذكره صاحب المنطق في كتاب الحيوان إلا أنه سمّاه بالحمار الهنديّ، وجعل له قرناً واحداً في وسط جبهته، وكذلك أجمع عليه أهل الهند كبيرهم وصغيرهم.

وإنما صار الشكُّ يعرضُ في أمره من قبل أن الأنثى منها تكون نروراً، وأيام حملها ليست بأقل من أيام حمل الفيلة فلذلك قلَّ عددُ هذا الجنس.

وتزعم الهند أن الـركدّن إذا كانت ببلاد، لم يرع شيءٌ

من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد، حتى يكونَ بينه وبينها مائة فرسخ من جميع جهات الأرض؛ هيبَةً له، وخضوعاً له، وهرباً منه.

وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولاً لولا أنه ظاهرٌ على ألسنة الهند لكان أكثرُ النَّاسِ، بل كثيرٌ من العلماء، يُدخلونه في باب الخرافة وذلك أنهم يزعمون أن أيامَ حَمَلِها إذا كادت أن تتم، وإذا نضجت وسُحِبَتْ وجرت وجرى وقت الولادة، فربما أخرج الولدُ رأسَه من ظَبَّتِها فأكل من أطراف الشجر، فإذا شبع أدخلَ رأسَه، حتَّى إذا تمَّت أيامُه وضاق به مكانه وأنكرته الرَّحِمُ، وضَعَتْهُ مُطِيقاً قوياً على الكسب والحُضْرُ والدفع عن نفسه، بل لا يَعْرِضُ له شيءٌ من الحيوان والسَّبَاعِ.

ولد الفيل

وقد زعم صاحبُ المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان، لطول لبثه في بطنها.

وهذا جائزٌ في ولد الفيل غير مُنكر، لأن جماعة نساءٍ معروفاتِ الآباء والأبناء، قد ولدن أولادهنَّ ولهنَّ أسنانٌ نابتة، كالذي رووا في شأن مالك بن أنس، ومحمد بن

عَجَلان وغيرهما، أعاجيب الولادة وقد زعم ناسٌ من
أهل البصرة أن خاقانَ بنَ عبد الله بن الأَهم استوفى في
بطن أمّه ثلاثة عشر شهراً، وقد مُدِحَ بذلك وهُجِيَ،
وليس هذا بالمستكر، وإن كنت لم أرَ قطَّ قابِلَةً تُقرَّر
بشيء من هذا الباب وكذلك الأَطباء، وقد روَّه كما
علمت، ولكنَّ العَجَبَ كلَّ العَجَب ما ذكروا من إخراج ولد
الكركدن رأسه واعتلافه، ثم إدخاله رأسه بعد الشَّبع
والبطننة، ولا بدَّ - أكرمك الله - لِمَا أَكَلَ مِنْ نَجْوٍ فَإِن كَانَ
بقي ذلك الولد يأكل ولا يروث فهذا عَجَبٌ، وإن كان
يروث في جَوْفها فهذا أعجب.
وإنما جعلناه يروث حيث سمَّوه حماراً، وهذا ممَّا ينبغي
لنا أن نذكره في خصال الحمير إذا بلغنا ذلك الباب.
ولا أقرُّ أن الولد يُخرج رأسه من فرج أمّه حتى يأكل
شبعه، ثمَّ يدخل رأسه من فرج أمّه، ولست أراه مُحالاً
ولا ممتنعاً في القدرة، ولا ممتنعاً في الطبيعة، وأرى
جوازَه مَوْهُوماً غير مستحيل، إلا أن قلبي ليس يقبله،
وليس في كونه ظُلْمٌ ولا عَبَثٌ ولا خطأ ولا تقصير في
شيء من الصفات المحمودة، ولم نجد القرآن يُنكره، ولا
الإجماع يدفعه، والله هو القادر دون خَلْقه، ولست أبتُّ

بإنكاره وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس، ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر، والخبر المتظاهر.

عجيبه الدسّاس وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدسّاس التي تلد ولا تبيض، وإنما أنكر ذلك ناساً لأنّ الدسّاس ليس بأشرف كالحفّاش، بل هو من الممسوح كسائر الطير، وكالواتي يبيضن من ذوات الأربع من المائيّات والأرضيّات.

عجائب الدلفين واللّحم والكوسج وليس الخبر عن الكركدن أيضاً كالخبر عن الدلفين أنّها تلد وعن اللّحم مثل ذلك، وأنّ الكوسج يتولّد من بين اللّحم وسمكة أخرى، وهذا كلّه غير مستحيل، إلا أنّي لا أجعل الشيء الجائر كونه كالشيء الذي تثبته الأدلّة ويخرجه البرهان من باب الإنكار، والواجب في مثل هذا الوقف، وإن كان القلب إلى نقض ذلك أميل.

والميل أيضاً يكون في طبقات، وكذلك الظن قد يكون داخلاً في باب الإيجاب، وربما قصر عن ذلك شيئاً. زعم ولادة السمك وقد زعم ناسٌ من أهل العلم أنّ السمك كلّه يلد، وأنهم إنما سمّوا ذلك الحبّ بيضاً على التشبيه

والتمثيل، لأنه لا قشر له هناك ولا مَحَّ ولا بَيَاضَ، ولا
عَرَقِيٌّ؛ وأنَّ السمكة لا تخرج أبداً إلا فارغة البطن أو
محشوة، ولم نر الحب الذي بقرب مبالها أعظم، ولم نرها
ألقت إحدى تلك الطوامير وبقت الأخرى، وإنما غلط في
ذلك ناسٌ من قِبَل ضيق السبيل والمسلك، فظنوا أن خرق
المبال يضيق عن عِظَم ذلك الجسم العظيم المجتمع من
الحبِّ الصغار، قالوا: فإنما تُخرج تلك الطوامير واحداً
فواحداً، وأولاً فأولاً.

عجائب الولادة وما ذلك بأعجب ولا أضيق من حياء
الناقة والسَّقْبُ والحائلُ يخرجان منه خروجاً سلساً إذا
أذن الله بذلك، وكذلك المرأة وولدها، والفيلة،
والجاموسة، والرَّمَكَةُ، والحِجْرُ والأتان، والشاة في ذلك
كلُّه مثل السمكة.

وقالوا: لا بُدَّ للبيض من حَضْنٍ، ومتى حَضَنْت السمكة
بيضها لا تلتفت إلى بيضها وفياخها.
زعم العوام في الكركدن والعوامُ تضربُ المثلَ في الشدة
والقوة بالكركدن، وتزعم أنه ربما شطح الفيل فرفعه
بقرنيه الواثد في وسط جبهته، فلا يشعر بمكانه ولا يحسّ
به حتى ينقطع على الأيام.

وهذا القولُ بالخرافة أشبه.

مزاعم في ضروب من الحيوان وأعجبُ من القول في
ولد الكركدن ما يخبرنا به ناسٌ من أهل النظر والطب
وقراءة الكتب، وذلك أنهم يزعمون أنّ النمرة لا تَضَعُ
ولدها أبداً إلاّ وهو متطوّق بأفعى، وأنها تعيش وتنهش،
إلاّ أنها لا تقتل، ولو كنتُ أجسُرُ في كتبي على تكذيب
العلماء وَدَرَّاسِي الكتب، لبدأت بصاحب هذا الخبر.
وليس هذا عندي كزعمهم أنّ الأفعى تلد وتبيض، لأنّ
تأويل ذلك أنّ الأفعى تتعضّلُ ببيضها، فإذا طرّقتُ بالبيض
تلوّت فحطّمته في جوفها، ثم ترمي بتلك القشور
والخراشيّ أَوْلاً فأولاً، كما لا بدّ لكلّ ذات حملٍ أن تُلقِي
مشيمتها.

ويزعم كثيرٌ من الأعراب أنّ الكمأة تتعفن، ويتخلّق منها
أفاعي، فهذا الخبرُ وإن كنت لا أتسرّع إلى رده فإنّي على
أصحابه ألّين كنفاً.

قرن الكركدن وأما قرن الكركدن فخبّرني من رآه ممّن
أثق بعقله، وأسكن إلى خبره، أنّ غلظ أصله وسعة
جسمه يكونُ نحواً من شبرين، وليس طوله على قدر
ثخنه، وهو محدّد الرأس، شديد الملاسة، ملموم الأجزاء

مُدْمَج، نُو لدونَة وعلوكة في صلابَة، لا يمتنع عليه شيءٌ، ويُجهز من عندنا بالبصرة إلى الصين؛ لأنَّه يقع إلينا قبلهم، فإذا قطعوه ظهرت في مقاطعه صورٌ عجيبة، وفيه خصال غير ذلك، لها يطلب.

خيل النهر وقد كنا نزعُ من الهواء للعقاب، والماء للتمساح، والغياض للأسد حتى زعم أصحابنا أن في نيل مصر خيولاً تأكل التماسيح أكلاً ذريعاً وتقوى عليها قوة ظاهرة، وتغتصبها أنفسها فلا تمتنع عليها، وعارضوا من أنثر خيل الماء، بخنازير الماء وبكلاب الماء، وبدخس الماء.

إنقاذ بعض حيوان البحر للغريق ولم أجدهم يشكُّون أن بعض الحيوان الذي يكون في البحر ممَّا ليس بسمك وهو يعايش السمك - وقد ذهب عني اسمه - أنه متى أبصر غريقاً عرض له وصار تحت بطنه وصدَّره، فلا يزال كالحامل له والمزجي والمعين، حتى يقذف به إلى جزيرة، أو ساحلٍ، أو جبل.

وأصنافُ سمك البحر، وأجناسُ ما يعايش سمك البحر لا تكون في أوساط اللُّجج وفي تلك الأهواز العظام، مثل لجة سقوِّطرا، وهركند، وصنجي، وكذلك أهل البحر إذا

عائِنُوا نَبَاتاً أَوْ طَيْراً، أَيَقْتُوا بِقَرَبِ الْأَرْضِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ
الْقَرِيبُ قَدْ سَمِيَ بَعِيداً، فَلذَلِكَ سَلِمَ ذَلِكَ الْغَرِيقُ بِمَعُونَةِ
ذَلِكَ الْحَيَوَانِ.

مَسَالِمَةُ الْأَسَدِ لِلْبَبْرِ وَمَعَادَاتِهِ لِلنَّمْرِ فَأَمَّا الْأَسَدُ وَالْبَبْرُ
فَمُتَسَالِمَانِ، وَأَمَّا الْأَسَدُ وَالنَّمْرُ فَمُتَعَادِيَانِ وَالظَّفَرُ بَيْنَهُمَا
سِجَالٌ، وَالنَّمْرُ وَإِنْ كَانَ يَنْتَصِفُ مِنَ الْأَسَدِ فَإِنَّ قُوَّتَهُ عَلَى
سَائِرِ الْحَيَوَانِ دُونَ قُوَّتِهِ عَلَى الْأَسَدِ، وَبَدَنُهُ فِي ذَلِكَ
أَحْمَلٌ لَوْعِ السَّلَاحِ، وَلَا يَعْرِضُ لَهُ الْبَبْرُ، وَقَدْ أَيَقْنَا أَنَّهُمَا
لَيْسَا مِنْ بَابَتِهِ، فَلَا يَعْرِضُ لَهُمَا، لِسَلَامَةِ نَاحِيَتِهِ وَقَلَّةِ
شَرِّهِ، وَهُمَا لَا يَعْرِضَانِ لَهُ لَمَا يَعْرِفَانِ مِنْ أَنْفُسِهِمَا مِنْ
الْعَجْزِ عَنْهُ، وَأَمَّا الْبَهَائِمُ الثَّلَاثُ اللَّوَاتِي ذَكَرْنَاهَا فَإِنَّهَا
فَوْقَ الْأَسَدِ وَالنَّمْرِ.

وَالْبَبْرُ هِنْدِيٌّ أَيْضاً مِثْلَ الْفِيلِ، وَأَمَّا الْكَرْكَدَنْ فَلَا يَقُومُ لَهُ
سَبْعٌ وَلَا بَهِيمَةٌ، وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ، وَلَا يَرُومُ ذَلِكَ مِنْهُ.
مُبَارَزَةُ الْجَامُوسِ لِلْأَسَدِ وَأَمَّا الْجَامُوسُ وَالْأَسَدُ فَخَبَّرَنِي
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَصِمَ بِاللَّهِ،
أَبْرَزَ لِلْأَسَدِ جَامُوسَيْنِ فغَلَبَاهُ، ثُمَّ أَبْرَزَ لَهُ جَامُوسَةً وَمَعَهَا
وَلَدُهَا فغَلَبْتَهُ وَحَمَتْ وَلَدَهَا مِنْهُ، وَحَصَّنْتَهُ، ثُمَّ أَبْرَزَ لَهُ
جَامُوساً وَحَدَّهُ فَوَاتَبَهُ ثُمَّ أَدْبَرَ عَنْهُ.

هذا وفي طبع الأسد الجرأة عليه، لأنّه يعدّ الجاموسَ من طعامه، والجاموسُ يعرف نفسه بذلك، فمع الأسد من الجرأة عليه على حسب ذلك ومع الجاموس من الخوف على قدر ذلك، وفي معرفة الأسد أنّ له في فمه من السّلاح ما ليس لشيء سواه، وفي معرفة الجاموس بعدم ذلك السّلاح منه، فمعه من الجرأة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيّب له، فيعلم أنّه قد أعطي في لُفّه ومخالبه من السّلاح ما ليس لشيء سواه، ويعلم الأسد والجاموسُ جميعاً أنّه ليس في فم الجاموس ويده وظلّفه من السّلاح قليلٌ ولا كثير، فمع الأسد من الجرأة عليه، ومع الجاموس من الخوف منه، على حسب ذلك، ويعلم الأسد أنّ بدنه يمّوج في إهابه، وأنّ له من القوّة على الوثوب والضّبر والحُضْر، والطّلب والهَرَب، ما ليس في الجاموس، بل ليس ذلك عند الفهد في وثوبه، ولا عند السّمع في سرعة مرّه، ولا عند الأرنب في صعداء ولا هبوط، ولا يبلغه نقران الظبي إذا جمّع جراميزه، ولا ركض الخيل العتاق إذا أُجيد إضمارها، والجاموسُ يعرف كلّ ذلك منه.

ومع الجاموس من النّكوص عنه بقدر ما مع الأسد من

الإقدام عليه، ويعلم أنّه ليس له إلاّ قرنه وأنّ قرنه ليس
في حدّة قرون بقر الوحش، فضلاً عن حدّة أطراف
مخالب الأسد وأنيابه وأنّ قرنه مُبْتَدَلٌ، لا يسان عن
شيءٍ، ومخالب الأسد في أكمّام وصوان.
وإذا قوي الجاموسُ مع هذه الأسباب المجبّنة على
الأسد مع تلك الأسباب المشجّعة حتى يقتله أو يعرّد عنه،
كان قد تقدّمه تقدّماً فاحشاً، وقد علاه علواً ظاهراً، فلذلك
قدّمنا الجاموسَ وهو بهيمة، وقدّمنا رؤساء البهائم على
رؤساء السباع، هذا سيوى ما فيها من المرافق والمنافع
والمعاون.
والجاموس أجزَعُ خلق الله من عَضِّ جرجسةٍ وبعوضةٍ،
وأشدُّه هرباً مِنْهُمَا إلى الماء، وهو يمشي إلى الأسد
رَخِيَّ البال، رابط الجأش، ثابت الجنان، فأما الفيل فلم
يولد الناسُ عليه وعلى الكركدن ما ولّدوا من إفراط
القوّة والنّجدة والشّهامة، إلاّ والأمرُ بينهما متقاربٌ
عندهم.

مغالبة الفيل للأسد

والهند أصحاب البُيور والفيول، كما أنّ النّوبة أصحاب
الزّرافات دون غيرهم من الأمم، وأهل غانة إنما صار
لبأسهم جلود النّمر لكثرة النّمر بها، إلا أنّها على حالٍ
موجودةٍ في كثيرٍ من البلدان.

وقد ذكروا بأجمعهم قوّة الفيل الوحشيّ على الأسد،
وقالوا في الفيلة الأهلية إذا لقيت عندنا بالعراق الأسد
وجمعنا بينهما، قالوا: أما واحدة فإنّ ذكور الفيلة لا تكاد
تعيش عندكم، وأنيابها التي هي أكبر سلاحها لا تنبت في
بلادكم، ولا تعظم ولا تزيد على ما كانت عليه ما أقامت
في أرضكم، وهي أيضاً لا تتناج عندكم، وذلك من شدة
مخالفة البلدة لطبائعها ونقضها لقواها، وإنما أسرع إليها
الموت عندكم للذي يعتريها من الآفات والأعراض في
دوركم، فاجتمعت عليها خصال، أول ذلك أنها مع الوحش
وفي صميم بلادها أجراً وأقوى، وأشهم نفساً وأمضى،
فلما اصطدناها بالحيل، وصيرناها مقصورة أهلية بعد أن
كانت وحشيةً وفي غير غذائها، لأنّها كانت تشرب إذا
احتاجت، وتأكل إذا احتاجت وتأخذ من ذلك على مقادير
ما تعرف من موقع الحاجة، فلما صارت إلى قيام العبيد
عليها، والأجراء بشائها، والوكلاء بما يصلحها دخل ذلك

من النقص والخور، والخطأ والتقصير، على حسب ما
تجد في سائر الأشياء، ثم لم نرض بذلك حتى نقلناها من
تلك البلدة على إنكارها لتلك اللدة، فصيرناها إلى الضد
بعد أن كانت في الخلاف.

وقد علمنا أن سبيلها سبيل سائر الحيوان، فإن الإبل
تموت ببلاد الروم وتهلك وتسوء حالها، والعقارب تموت
في مدينة حمص، والتماسيح تموت إن نُقلت إلى دجلة
والفرات، والناس يصيبهم الجلاء فيموتون ويتهافتون،
وقد علمنا أن الزنج إذا أخرجوا من بلادهم فما يحصل
بالبصرة عندنا منهم إلا اليسير، وكذلك لو نقلوا إليكم
بزر الفلفل والساج والصندل والعود، وجميع تلك
الأهضام، فما امتناع نبات العاج ببلادكم إلا كامتناع نبات
الآبنوس، وإن كان ينبت في حيوان والآخر في أرض.
فلا يفتخرن مفتخر في الأسد في هذه البلدة إذا قاوم
الفيل، والأسد هاهنا في بلاده وفي الموضع الذي تتوقر
أموره عليه، لأن أسد العراق هي الغاية، وأقواها أسد
السواد ثم أسد الكوفة، ولأن الفيئة عندكم أيضاً ترى
عندكم السنائير، وقد جعل الله في طبع الفيل الهرب من
السنور والوحشة منه، كما أن بعض شجعانكم يمشي إلى

الأسد، ويقبض على الثعبان، ولا يستطيع النَّظْرَ إلى الفأر
والجرذان، حتى يهرُب منها كلَّ الهرب، ويعتريه من
النَّفْضة واصفرار اللّون ما لا يعترى المصبور على
السَّيف وهو يلاحظُ بريقه عند قفاه.

خوف عبد الله بن خازم من الجرذ وذكر عليّ بن محمد
السميري قال: بينما عبد الله بن خازم السُّلَميّ عند عبيد
الله بن زياد، إذ أُدْخِلَ على عبد الله جرذ أبيض لِيُعْجَبَ
منه، فأقبل عبيدُ الله على عبد الله فقال: هل رأيتَ يا أبا
صالحٍ أعجب من هذا الجرذ قط؟ وإذا عبد الله قد تضاءل
حتى صار كأنه فرخ، واصفراً حتى صار كأنه جرادة ذُكْرٌ،
فقال عبيدُ الله: أبو صالحٍ يَعْصِي الرَّحْمَنَ، ويتهاون
بالشيطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد،
ويلقى الرِّماح بوجهه، وقد اعتراه من جُرْدٍ ما ترون؟
أشهدُ أنّ الله على كلِّ شيءٍ قدير.

خوف الفيل من السنور

وإذا عاين الفيلُ الأسدَ رأى فيه شَبَهَ السَّنور، فيظنُّ أنه
سنور عظيمٌ فلا يبلغ منه مقدارَ تلك المناسبة، وذلك
الشَّبه، ومقدارَ ذلك الظنِّ ما يبلغ رؤيةَ السَّنور نفسه،

وليس هربُه منه من جهةِ أَنه طعامٌ له، وأَنه إن ساوَرَه خافه على نفسه، وإن كان في المعنى يرجع إلى أَنه طعامٌ لصغار السَّبَاع وكبارها، وهَلْ قَتَلَ أَسَدٌ قَطُ فَيْلًا، ومتى أَكله؟ وإِنَّه مع ذلك لربَّما رَكَلَه الرَّكْلَةَ، فإِذَا أَن يَقْتُلُه، وإِذَا أَن يَذْهَبَ عنه هارِبًا في الأَرْضِ، وإِذَا أَن يَحْلِيَه. وإيَّة حُجَّة على الفيل في أَن يرى سنورًا فينفر منه؟ فالأَسَدُ يُشار إليه بِشُعْلَةٍ من نار، أو يُضْرَبُ له بِالطَّسْتِ فيهربُ منه، فإِنما هذا كَنحو تَفْرَعِ الفَرَسِ من كلِّ شَيْءٍ يراه في الماء وهو عطشانٌ فيأباه.

ويزعم ناسٌ من أصحاب الخيل أَنَّ الفَرَسَ ليس يضرب بيديه في الماء الصافي ليثوره، لأنَّ الماء الكدرَ أَحَبُّ إليه، وما هو إلا كالثور الذي يحبُّ الصافي ويختاره، ولكنه إذا وقف على الماء الصافي رأى فيه ظِلَّهُ وظلَّ غيره من الأشخاص، فيفزعه ذلك، فلمعرفته بأنَّ الماء الكدرَ لا تتصوَّر فيه الصُّور يضرب بيديه، هذا قول هؤلاء، وأمَّا صاحبُ المنطق وغيره ممَّن يدَّعي معرفة شأن الحيوان فإِنَّه يزعم أَنَّ الفرسَ بالماء الكدرِ أَشدُّ عُجْبًا منه بالماء الصافي، كما أَنَّ الإبلَ لا يُعجِبها الماءُ إلاَّ أَن يكونَ غليظًا، وذلك هو الماء النَّمير عندهم، وإِنما

تصلح الإبل عندهم على الماء الذي تصلح عليه الخيل.
تداوي الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعفاجها
ويزعم من أقام ببلاد السودان أن الذين يسكنون شاطئ
النيل من الحبشة والنوبة، أنهم يشربون الماء الكدر،
ويأكلون السمك النيء فيعتريهم طحال شديد، فإذا شدوا
على بطونهم ضرساً من أضراس خيل الماء وجدوه
صالحاً لبعض ما يعرض من ذلك، ويزعمون أن أعفاج
هذا الفرس تبرى من الصرع الذي يكون في الأهلة.
دفاع صاحب الأسد وقال بعض من ينصر الأسد: إن
الأسد في الهند أضعف، بل هي ضعيفة جداً، والفيل في
بلادهم أقوى، والوحشي منها أجراً، والمغتم لا يقوم له
إلا الكركدن؛ وإنه ليهجم عليه فيحجم عنه حتى تذهب
عنه سكرة الغلطة، فيرجع إلى معرفة حال الكركدن فلا
يطور طواره، ولا يحل بأداني أرضه.
وأما الفيل فإذا كان غير هائج والأسد في غير أيام هياجه
ثم يكون الأسد عراقياً ويكون سوادياً ويكون من أجمه
أنزيقيا فإن الفيل لا يقوم له.

قول صاحب الفيل

وقال صاحب الفيل: الفيل لا يُعاينُ أسداً أبزيقياً حتى
تفسخه البُدة، وتهدمه الوحشة، ويُمرضه الغداء،
ويُفسده الماء، وهو لا يصل إلى ذلك المكان حتى يجمع
بينه وبين ذلك الأسد، وحتى يسمع تجاوب السنانير
وتصاغيها - وهو أسمع من قراد - فيغيب ذلك في صدره،
وتتزايد تلك الوحشة في نفسه، فمتى رأى أسداً قائماً
فربما دعت الوحشة منه، والبغض المجعول فيه، إلى
الصدود والذهاب عنه، فيظن كثير من الناس أن ذهابه
هرب، وأن صدوده جبن، وإنما هو من الوحشة منه،
والكراهة لمنظرته، وربما اضطره الأسد بخرقه حتى
ينقض حلمه، ويغلب وقاره، فيخبطه خبطة لا يفلح بعدها
أبداً.

فخر صاحب فرس الماء قال صاحب الفرس: زعمتم أن
الأسد في الأرض كالعقاب في الهواء، وكالتمساح في
الماء، وأن تمساحاً وأسداً اعتلجا على شريعة فقتل كل
واحد منهما صاحبه، وكأن التمساح ضرب الأسد بذنبه
في الشريعة، وضغم الأسد رأسه فماتا جميعاً.
قال: والفرس المائي بالنيل يقتل التماسيح ويقهرها
ويأكلها ولا يساجلها الحرب، ولا تقع بينهما مغالبة

ومجاذبة، وتكون الأيام بينهما دُولاً، فهذه فضيلة ظاهرة
على الأسد، وشرف فرس الماء راجع إلى فرس الأرض،
فإن كان فرس الأرض لا يقوى على الأسد ولا على النمر
ولا على الببر، فإن ابن عمه وشكله في الجنس قد قوي
على التماسح وهو رئيس سكان الماء.

قالوا: أمّا واحدة فإن التماسح ليس برئيس سكان الماء
إلا أن تريد بعض سكان الأودية والأنهار والخُلجان
والبَحِيرَات في بعض المياه العذبة، والكوسج واللحم
والسَّرَطَان والدُّلْفِين وضُرُوبٌ من السباع مما يعيش
السَّمَك ليس التماسح من بابه، وعلى أن التماسح إنما
يأكله ذلك الفرس وهو في الماء، وليس للتمساح في
جوف الماء كبير عملٍ إلا أن يحتمل شيئاً بذنبه ويحتجئه
إليه، ويدخله الماء، وربما خرج إلى الأرض للسَّفاد
ولحُضْن البيض، فلا يكون على ظهر الأرض شيء أدلُّ
منه، ودلُّه على ظهر الأرض شبيهةً بدُلِّ الأسد في وسط
الماء الغمر، ولعمري أن لو عَرَض له هذا الفرس في
الشرائع فغلبه لقد كان ذلك من مفاخره، فلذلك لم تُدكر
الخيل في باب الغلبة، والقتال والمساجلة، والانتصاف
من الأعداء.

والفرس قد يُقاتل الفرسَ في المُرُوج إذا أراد أن يحميَ
الحُجُور، كما يحمي العيرُ العانة ويقاتل دونها كلَّ عير
يريد مشاركتَه فيها، وهذا شيءٌ يعرض لجميع الفُحولة
في زمن الهيج.

وقد يصولُ الجملُ الجملَ فرَبِّما قتلَ أحدهما صاحبه،
ولكنَّ هذه الفُحولة لا تعرضُ لشيءٍ من الحيوان في غير
هذا الباب.

وإن أرادَ الفرسَ أسدً، فليس عنده من إحراز نفسه وقتل
عدوّه ما عند الجاموس، فإنَّ فضلَه الجاموسُ بقرنيه،
فإن السِّلَاح الذي في فمِّ الفرس لو استعمله لكان سِلَاحاً،
ولو استدبَّرَ الأسدُ فركله ورَمَحَه وعضَّه بفيه، لكان ذلك
مما يدفع عنه ويحمي لحمه.

وليس للجاموس في أظلافه وفي يديه ورجليه وفي فمه
سلاح، فقد دلتَّ الحالُ على أنَّ مدارَ الأمرِ إنما هو في
شجاعة القلب.

وفي هذا القياس أنَّ الصَّقرَ إنما يواثِبُ الكُرُكيَّ لمكان
سلاحه دون شجاعة القلب التي يقوى بها الضَّعيف،
وبخلافها يضعفُ القويُّ.

وسأقرب ذلك عندك ببعض ما تعرفه، لا نَشكُّ أنَّ الهَرَّ

أقوى من الهرة في كلِّ الحالات، حتى إذا سفدها فحدثت
بينهما بغضاء ومطالبة حدثت للهرة شجاعةٌ وللهرَّ
ضعف، فصارت الهرة في هذه الحال أقوى منه، وصار
الهرُّ أضعف، ولولا أنَّه يُمعن في الهرب غاية الإمعان ثمَّ
لحقته، لقطَّته وهو مستخذي.

ومثل ذلك أنَّ الجرذ يُخصي ويرمي به في أنابير التَّجَار
وفي الأقرحة والبيادر، فلا يدعُ جرذاً ضخماً قد أعيا الهرَّ
وابن عرس إلا قتلَه، وإن كان أعظم منه وأشدَّ.
والخصيُّ من كلِّ شيءٍ أضعفُ قوَّةً من الفحل إلا الجرذ،
فإنه إذا خصي أحدث له الخصاء شجاعةً وجراءة،
وأحدثت له الشجاعة قوَّة وأحدث علم الجرذان بحال
الخصاء لها جُبناً، وأحدث الجُبْنَ لها ضعفاً.
والرَّجلُ الشَّدِيدُ الأسر قد يفرغُ فتنحلُّ قِوَاهُ، ويسترخي
عصبُه حتى يضربه الصبيُّ، والدَّئبُ القويُّ من ذئب
الخمير يكون معه الدَّئبُ الضعيف من ذئب البراري،
فيصيب القويُّ خدشٌ يسيرٌ، فحين يَشَمُّ ذلك الدَّئبُ
الضعيف رائحةَ الدَّمِ وثب عليه، فيعتري ذلك القويُّ عند
ذلك من الضَّعف بمقدار ما يعتري الضعيف من القوَّة
حتى يأكله كيف شاء.

والأسد الذي يعتريه الضعف في الماء العمر حتى يركب
ظهره الصبي ثم يقبض على أذنيه فيغطه كيف شاء.
وقد يفعل به ذلك غلمان السواد وشاطئ الفرات، إذا
احتملت المدود الأسد لا تملك من أنفسها شيئاً، وهو مع
ذلك يشد على العسكر حتى يفرقه فرق الشعر، ويطويه
طي السجل؛ ويهارش النمر عامّة يومه لا يقتل أحدهما
صاحبه، وإن كان الجمل الهائج باركاً أتاه فضرب جنبه
ليثني إليه عنقه، كأنه يريد عضه فيضرب بيساره إلى
مشفره فيجذبه جذبةً يفصل بها بين دأيات عنقه، وإن
ألفاه قائماً وثب وثبة فإذا هو في ذروة سنامه، فعند ذلك
يصرّفه كيف شاء، ويتلعب به كيف أحب. ونحن لا نشك
أن للفرس تحت الفارس غناءً في الحرب لا يشبهه
غناء، ولذلك فضّل في القسم، وإنما ذلك بتصريف راحبه
له، وقتاله عليه، فأما هو نفسه فإنه إذ كان أوفر سلاحاً
من الجاموس وخام عن قرنه، واستسلم لعدوه؛ فإنه من
ها هنا لا يقدم على غيره، ولم يكن الله ليجعل انحصار
جميع أقسام الخير في شخص واحد، ولكن لما أن كان
الفرس عليه تقاتل الأنبياء وأتباع الأنبياء، ملوك الكفار
وأتباع ملوك الكفار حتى يقمع الله الباطل ويظهر الحق؛

فذلك قَدَّمناه على جميع البهائم والسَّبَّاع، وإنما نُقَدِّمه
على الوجه الذي قَدَّمه الله فيه.

الرد على صاحب فرس الماء واعتراضَ على أصحاب
فَرَسِ الماء معترضون فقالوا: الفرسُ لا يكون إلاَّ بهيمة،
والبهائم لا تصيد وتأكل صَيْدَهَا، وإنما طعامُ الفرسِ
النَّبَاتُ وليس اللَّحْمُ لها بطعام، وقال النمر بن توبل:

نُطْعِمُهَا اللَّحْمَ
إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ

والخَيْلُ فِي
إِطْعَامِهَا اللَّحْمَ
ضَرَرُ

في كلمته التي يقول فيها:

اللهُ من آياته هذا القمَرُ

وقد تُعَلِّفُ في تلك الحالاتِ اللَّحْمَ اليابسَ وهسيسَ
السَّمَكِ، فأما الهسيسُ فلخَيْولُ أهلِ الأسيافِ خاصَّةً.
الرد على صاحب فرس الماء قيل لهؤلاء المعترضين
على فَرَسِ الماء: وقد يكون في الخُلُقِ المشتركِ وغير
المشتركِ ما يأكلُ اللَّحْمَ والحَبَّ، فالمشتركِ مثلُ الإنسانِ
الذي يأكلُ الحيوانَ والنباتَ، وهذا العصفور من الخلقِ

المشترك لأنه يأكل الحَبَّ، ويصطاد النمل الطَّيار والأرضة فيأكلها، ويأكل اللَّحْم، والدَّجَاجُ تأكل اللَّحْمَ والدَّيدانَ، وتحسُّو الدَّمَّ وتلقط الحَبَّ، والغراب لا يدع شيئاً إلا أكله.

وما خرج من حدِّ المشترك وهو كنعو الذئب والضَّبَّ، وكنحو الشَّاهين والصَّقر، فإنَّ هذه وأشباهها لا تعرف إلا اللَّحْمَ، والحمامُ وضروبُ من الطير لا تعرف إلا الحَبَّ والنَّبات، والمشتركُ أجمعُ مما هو غير مشترك. والسَّمكة تأكل الطَّين والنَّبات، وتأكل الجيف التي تصيب في الماء، وتُصَاد بضروبٍ من الحيوان تُجعل لها في الشُّصوص، ثم ينصبون لكلِّ ضربٍ من السَّمك بضربٍ من الطَّعم

والجرِّيُّ يأكل الجرذانَ ويصيدها، وهو آكل لها من السَّنابير والحيات والكلابِ السَّلوقية، ويأكلُ الجرِّيُّ جميعَ جيفِ الموتى، والسَّمك يأكل السَّمك ويأكلُ من كلِّ حَبِّ ونبات يسقط في الماء.

وإن استفهمَ مستفهمٌ، أو اعترض معترضٌ فقال: وكيف يأكلُ الجرِّيُّ الجرذانَ، والجرذانُ أرضيةٌ بيوتيةٌ، والجرِّيُّ مائي؟ قيل له: يخبرنا جميعُ من يبيتُ في السُّفن وفي

المشارع، في فيض البصرة عندنا، أن جردان الأنابير
تخرج أرسالاً بالليل كأنها بنات عرس، والجري قد كمن
لهن وهو فاتح فاه، فإذا دنا الجرد من الماء فعب فيه
التهمة ليس دون ذلك شيء، بشجر فم واسع يدخل في
مثله الضب الهرم، وإنما يضع بخطمه على الشريعة.
وسنذكر شيئاً من الطرف والحكم والأشعار، إذ كنا قد
ذكرنا من الكلام في الحيوان صدراً صالحاً، وأبوياً
جامعاً، ثم نعود في ذكر الفيل إن شاء الله، والله الموفق.
شيء من الطرف والحكم والأشعار قال الشاعر:

مع الغيث ما
نلقى ومن هو
غالب

خطانا إلى
أعدائنا
فنضارب

وتقصر عمّا
يبلغون

ونحن أناس لا
حجاز بأرضنا

وإن قصرت
أسيافنا كان
وصلها

ترى كل قوم
ينظرون

إليهم

مثل قول الآخر:

لكلّ أناسٍ سلّمٌ
يُرتقى به

ومنزلنا الأعلى
حجازٌ لمن به

وينفر منا كلُّ
وحشٍ وينتمي

وقال حسان بن ثابت:

ونذمانِ صدقٍ
تقطر الخيرَ
كفّه

وصلتُ به كفي
وخالطُ

الدوابُّ

وليس إلينا في
السلايمِ مطلعٌ

وكلُّ حجازٍ إن
هبطناهُ بلقُعُ

إلى وحشنا
وحشُ البلادِ
فيربُعُ

إذا راح فضفاضَ
العشيّاتِ خضرمَا

ولم أكُ عِضًّا في

الندامى مُلوما

شماريخُ رَضوى
عِزَّةً وتكرُّماً

فأكرمُ بنا خالاً
وأكرم بنا
ابنما

وأسيافنا
يقطرُن من
نجدةٍ دما

ببعض الأذى لم
يذر كيف يجيبُ

شيمتي

لنا حاضرٌ
فعمَّ وبادٍ
كأنه

ولذنا بني العنقاء
وابني محرقٍ

لنا الجفئاتُ العرُّ
يلمعن في
الضحى

وقال أعرابيٌّ غزليٌّ:

بنفسي وأهلي
من إذا عرضوا
له

ولم يعتذر عُذْرُ
البريء ولم تزلْ

به سَكْتة حَتَّى
يُقَالُ مُرِيبُ

وقال أعرابيٌّ من هُذيل:

رَعَاكَ ضَمَانُ
اللَّهِ يَا أُمَّ مَالِكِ

وللَّهِ أَنْ يَسْقِيكَ
أَوْلَى وَأَوْسَعُ

يُذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرُ
وَالشَّرُّ وَالَّذِي

أَخَافُ وَأَرْجُو
وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ

قطعة من
أشعار الاتعاظ

قال الشاعر:

عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِكَ
مَا تَسْتَطِيعُ

وما لَيْسَ يُغْنِيكَ
عَنْهُ فَذَرُ

وَاللَّصَمْتُ أَجْمَلُ
فِي حِينِهِ

مِنَ الْقَوْلِ فِي
خَطَلٍ أَوْ هَدْرُ

فَعَادَ وَأَوْدَى
الذِي فِي الْحَضِرِ

نَ مَالٍ إِلَى
عَطْفِهِ فَانْقَعَرَ

فَإِنَّ الْفَنَاءَ شَأْنُهُ
وَالْكَبِيرُ

تَعَلَّقَهُ الدَّهْرُ
حَتَّى عَثَرَ

تَأْتِي لَهُ الدَّهْرُ
حَتَّى انْجَبَرَ

عَرِيفَهُمْ بِأَثَافِي
الشَّرِّ مَرْجُومُ

وَكَمْ غَائِبٍ كَانَ
يَخْشَى الرَّدَى

وَبَيْنَا الْفَتَى
يُعْجَبُ النَّظْرِي

وَبَعْضُ
الْحَوَادِثِ إِنْ
يُبْقِيهِ

وَكَمْ مِنْ أَخِي
نَجْدَةٌ مَاهِرٍ

وَكَمْ مِنْ أَخِي
عَثْرَةٌ مُقْتَرٍ

وقال علقمة بن عبدة:

وَكُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ
عَزُّوا وَإِنْ كَثُرُوا

والحمدُ لا

يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ

ثَمَنٌ

مِمَّا يَصِنُّ بِهِ

الْأَقْوَامُ مَعْلُومٌ

وَالْجَهْلُ مَنْقَصَةٌ

شَيْنٌ لِصَاحِبِهِ

وَالْحِلْمُ آوَنَةٌ فِي

النَّاسِ مَعْدُومٌ

وَكَلُّ حِصْنٍ وَإِنْ

طَالَتْ سَلَامَتُهُ

عَلَى دَعَائِمِهِ لَا

بَدَّ مَهْدُومٌ

وَمَنْ تَعَرَّضَ

لِلْغُرَبَانِ يَزْجُرْهَا

عَلَى سَلَامَتِهِ لَا

بَدَّ مَشْوُومٌ

وَمُطْعَمُ الْغَنَمِ

يَوْمَ الْغَنَمِ

مُطْعَمُهُ

أَنَّى تَوَجَّهَ

وَالْمَحْرُومُ

مَحْرُومٌ

وقال عديُّ بن زيد العبادي، وهو أحد من قد حُمِلَ عَلَى

شعره الحَمْلُ الكثير، ولأهل الحيرة بشعره عناية، وقال

أبو زيد النحوي: لو تمنيت أن أقول الشعر ما قلت إلا

شعرَ عديِّ بن زيد:

تروح له
بالواعظاتِ
وتغتدي

متى تُغْوِها تُغْوِ
الذي بكِ يَقتدي

فمثلاً بها فاجزِ
المُطالب أو زدِ

فإنَّ القرينَ
بالمقارِنِ
مُقتدي

بحلمك في رفقِ
ولمَّا تشدَّدِ

كفَى زاجراً
للمرءِ أيامُ
عمره

فنفسكِ
فاحفظها من
الغيِّ والرَّدى

فإنَّ كانتِ
النَّعماءُ عندكِ
لامرئِ

عن المرءِ لا
تَسألُ وأبصرِ
قرينَه

ستُدركِ من ذي
الجهلِ حقَّكِ
كله

على المرء من
وَقَعَ الحُسام
المهْدُ

وظلم نوي
القربى أشدَّ
عداوةً

إذا خَطَرَتْ أيدي
الرِّجالِ بمشهدِ

وفي كثرة
الأيدي عن
الظُّلمِ زاجرٌ

قال المهلب بن أبي صفرة: عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي المَمَالِيكَ
بِمَالِهِ كَيْفَ لَا يَشْتَرِي الأَحْرَارَ بِمَعْرُوفِهِ.
وقال عبد الله بن جعفر لرجلٍ يُوصِيهِ: عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ مَنْ
إِنْ صَحِبْتَهُ زَانِكًا، وَإِنْ تَرَكَتَهُ شَانِكًا؛ إِنْ سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ،
وَإِنْ تَرَكَتَهُ ابْتِدَاكَ؛ إِنْ رَأَى مِنْكَ سَيِّئَةً سَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى
حَسَنَةً عَدَّهَا؛ وَإِنْ وَعَدَكَ لَمْ يُجْرِضْكَ وَإِنْ أَلْجَأْتَ إِلَيْهِ لَمْ
يَرْفُضْكَ.

وسأل يزيد بن المهلب رجلاً من أصحابه حاجةً وذكَّرَ له
خَلَّةً، فقال: أَوْجَّهْ بِهَا إِلَيْكَ، ثُمَّ حَمَلَ إِلَيْهِ خَمْسِينَ أَلْفَ
دِرْهَمٍ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ: قَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ،
لَمْ أُنْكَرْهَا تَمَنُّنًا، وَلَمْ أَدْعُ ذِكْرَهَا تَجْبُرًا، وَلَمْ أَقْطَعْ بِهَا لَكَ
رِجَاءً، وَلَمْ أُرِدْ بِهَا مِنْكَ جِزَاءً.

وقيل ليزيد: ما أحسن ما مُدحتَ به؟ قال: قول زياد
الأعجم:

إذا عَيَّرَ
السلطانُ كلَّ
خليلٍ

فتى زاده السلطان
في الحمد رغبةً

شبيهة بقول الآخر:

وكلَّ عزيزٍ عنده
متواضع

فتى زاده عزَّ
المهابة ذلَّةً

وقال الآخر، وهو يدخل في باب الشكر:

طيرَ ما أبليتني
نُعاسي

شوقي إليك يا
أبا العباس

والشكرُ قدماً في
خيار الناسِ

إني لمعروفك
غير ناس

أبيات لبعض الشعراء العميان أنشدني ابن الأعرابي
لرجلٍ من بني قُريع يرثي عينه ويذكر طبيباً:

فَأَعْيَا عَلِيَّ
الطَّبَّ
وَالْمَتَطَبِّبُ

وما خير عَيْنٍ
بعد ثَقْبٍ بِمَثَقِبٍ

وما ماءُ عَيْنٍ
خَانَ عَيْنًا بِطَيْبٍ

بِعَيْنِي قَطَامِيَّ
عَلَا فَوْقَ مَرْقَبٍ

على ماء
إِنْسَانِيهِمَا مَاءً
طُحْلَبٍ

لَقَدْ طُفْتُ شَرْقِيَّ
الْبِلَادِ وَعَرْبَهَا

يقولون
إِسْمَاعِيلُ نَقَّابُ
أَعْيُنٍ

يقولون ماءً
طَيْبٍ خَانَ
عَيْنَهُ

ولكنه أَيَّامَ
أَنْظَرُ طَيْبٍ

كَأَنَّ ابْنَ حَجَلٍ
مَدَّ فَضْلُ جَنَاحِهِ

وقال الخُرَيْمِيُّ:

من القربِ إلا
بالتكفِّ
والجهدِ

ليعدلني قبل
الإجابة في
الردِّ

بي النفسِ حتى
ما أحيِرَ وما
أبدي

فإن لم يحولوا
عن وفاءِ ولا
عهدِ

من الناسِ إلا
كلُّ ذي مرّةٍ
جلدِ

كفى حزناً أن لا
أزورَ أحبّتي

وأني إذا حُييت
ناجيتُ قاندي

إذا ما أفاضوا
في الحديثِ
تقاصرتُ

كأني غريبٌ
بينهم لستُ
منهمُ

أقاسي خطوباً لا
يقوم بثقلها

باب في الحاجة قال ابن الأعرابي: قيل للأحنف: أتيناك في حاجة، لا تَرزُوكَ ولا تنكوك، فقال: ليس مثلي يُوتى في حاجةٍ لا تَرزَأُ ولا تنكأ.
وقال أعرابيٌّ لرجل: إني لم أصُنْ وجْهِي عن الطَّلبِ إليك، فصُنْ وجهك عن رَدِّي، وأنزِلني من كرمك بحيثُ وجْهِي من رجائك.

وقال أبو عقيل بن دُرُسْت: لم يقضِ ذِمَامَ التَّامِيلِ، ولم يَقْمَ بحُرْمَةِ الرَّجَاءِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهَا حَقَّهَا، وَوَقَّاهَا حَظَّهَا، وَعَرَفَ قَدْرَهَا، وَكَيْفَ يَسْتَبْقِي النِّعْمَةَ فِيهَا، وَكَيْفَ الشُّكْرُ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهَا، بِالْبِشْرِ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ، وَقَلَّةِ التَّضَجُّرِ عِنْدَ الْمَعَاوِدَةِ، وَتَوْكِيدِ الضَّمَانِ عِنْدَ الْعِدَّةِ، وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَيَكُونُ النُّجْحُ الْمَعْجَلُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عُدْرِ الْمَصْدَقِ، وَحَتَّى يَرَى أَنَّ حَقَّكَ عَلَيْهِ فِي بَدَلِ وَجْهِكَ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْكَ فِي تَحْقِيقِ أَمْلِكِ فِيهِ، ثُمَّ إِجَابِ سِتْرَهَا، فَإِنَّ سِتْرَهَا هُوَ الْمَخْبَرُ عَنْهَا، وَالِدَالُّ عَلَيْهَا، وَالزَّائِدُ فِي قَدْرَهَا، وَالْمَتَوَلَّى لِنِسْرَهَا.
وقال الشاعر:

وَإِنَّ مَنَا بِهَا

فَإِنَّ إِحْيَاءَهَا

إماتتها

يكدرها

باب في الوعد والوفاء به والخلف له قال عمرو بن الحارث: كنتُ متى شئتُ أن أجدَ صفةً من يعدُّ ويُجزُّ وجدته، فقد أعياني من يعدُّ ولا ينجز. وقال أبو إسحاق النُّظام: كُنَّا نلهو بالأمانِي، ونطيب أنفساً بالمواعيد، فذهبَ مَنْ يَعدُّ، وقطعتنا الهمومُ عن فضول الأمانِي. وقال الشاعر:

قد بلوناك بحمد

فإذا جُلُّ

الله إن أغنى

مواعيدك

البلاء

والجدُّ سواءُ

وقال أعرابيٌّ: وعدُّ الكريمِ نقدٌ وتعجيل، ووعده اللئيمِ مَطْلٌ وتعطيل.

وذمَّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: إذا أوعدَ صدق، وإذا وعدَ كذب، ويغضبُ قبل أن يُشتم، ويجزِمَ قبل أن يَعْلَم. وقال عبدُ الله بنُ قيسِ الرقيّات:

واللهُ للمرءِ خيرٌ من قَسَمَا

اخترتُ عبداً

مِنَ الْبِهَالِيَّةِ
جَاءَتْ بِهِ
هُنَّ الْعَرَانِيَّةُ
تُكْنُهُ خِرْقَةٌ
يُقَوِّتُ شِبْلَهُ
لَمْ يَأْتِ يَوْمَهُ
فَذَاكَ أَشْبَهُهُ

دَادُ إِذَا مَا مَدَّخْتَهُ كَرَمًا
كَلْبِيَّةٌ كَانَ بَيْتُهَا دِعْمًا
ثَالُ بَنِيهِنَّ تَمْنَعُ الدَّمَمَا
سِ كَلْبِيَّةٌ يُفَرِّجُ الْأَجْمَا
قَدْ نَاهَزَا لِلْفِطَامِ أَوْ فُطْمَا
لَحْمُ رِجَالٍ أَوْ يَوْلَغانِ دَمَا
كَنَّ ابْنٌ لَيْلَى يَفُوقُهُ شِيْمَا

مَنْ يَهَبُ

غِزْلَانٍ وَالْخَيْلَ تَعْلُكَ اللَّجْمَا
الْبُحْتِ وَالْوَلَانِدِ كَالِ

يُنْكَرُ لَا إِنْ لَا

مِنْ فِيهِ إِلَّا مُحَالِفًا نَعْمَا
لْمَنْكَرَةِ

وقال زيادة بن زيد:

فَأَنْتَ مُلَاقٍ لَا
مَحَالَةَ مَدُّهُبَا

إِذَا فَرَجَةَ سَدَّتْ
عَلَيْكَ فَرُوجَهَا

فلم يجعلِ اللهُ
الأُمُورَ إِذَا
اغتدت

عليك رتاجاً لا
يُرامُ مُضَبِّباً

كفأك العِنى يوماً
إِذَا مَا تَقَلَّبْتُ

به صِيرْفِيَّاتُ
الأُمُورِ تَقَلَّبَا

وَإِنِّي لَمَرْوَرٌ
قَلِيلٌ تَقَلُّبِي

لوجه امرئ
يوماً إِذَا مَا
تَجَنَّبَا

قَلِيلٌ لِيَوْمِ الشَّرِّ
وَإِنَّكَ تَعَرَّضِي

فإنَّ حَلََّ يَوْمًا
قَلْتُ لِلشَّرِّ
مَرَحَبًا

مَلَكْنَا وَلَمْ نُمَلِّكْ
وَقَدْنَا وَلَمْ نُقَدِّ

وكان لنا حقاً
على الناس
تُرْتَبَا

وقال هُذَيْبَةُ العُدْرِيَّةِ:

فأب بي إلى
خير فقد فانتى
الصبا

وصيح بريعان
الشباب فنقرا

أمور وأوان
وحال تقلبت

بنا وزمان
عزفه قد
تنكرا

أصبنا بما لو أن
سلمى أصابه

لسهل من
أركانه ما
توعرا

فإن ننج من
أهوال ما خاف
قومنا

علينا فإن الله
ما شاء يسرا

وإن غالنا دهر
فقد غال قبلنا

ملوك بني نصر
وكسرى
وقيصرا

وذي نَيْرٍ قَد
عَابَنِي لِينَالْنِي

فَأَعْيَا مَدَاهُ عَن
مَدَائِي فَقَصَّرَا

فَإِن يَكُ دَهْرٌ
نَالْنِي
فَأَصَابَنِي

بَرِيْبٍ فَإِن
تُشْوِي الْحَوَادِثُ
مَعْشَرَا

فَلَسْتُ إِذَا
الضَّرَاءُ نَابَتْ
بِجُبًّا

وَلَا جَزَعِ إِن
كَانَ دَهْرٌ تَغْيِرَا

وكان هُدْبَةٌ هذا من شياطين عُذْرَة، وهذا شعرة كما ترى،
وقد أَمَرَ بضرب عنقه وشدَّ خِناقَه، وقليلًا ما ترى مثلَ
هذا الشَّعر عند مثل هذه الحال؛ وإنَّ امرأً مجتمَعَ القلب،
صحيحَ الفكر، كثيرَ الرين، عَضَبَ اللِّسان في مثل هذه
الحال، لَنَاهِيكَ به مطلقاً غير موثَّق، وادِعاً غير خائف،
ونعوذ بالله من امتحان الأَخيار.
وهو القائلُ في تلك الحال:

فلا تعذِّليني لا

إذا ما مضى

يومٌ ولا اللوم
مرجعا

ولاقى المنايا
مصعدا
ومفرعا

نصيب الفتى
من ماله ما
تمتعا

أغم القفا
والوجه ليس
بأنزعا

إذا القوم هشوا
للفعال تقنعا

زيالك يوماً كان

أرى الدهر
معتباً

ولكن أرى أن
الفتى عرضة
الردى

وإن التقى خير
المتاع وإنما

فلا تنكحي إن
فرق الدهر
بيننا

ضروبا للحية
على عظم
زوره

وأخرى إذا ما

كالدهر أجمعا

ومجداً قديماً
طالما قد
ترفعا

ولا قاطعاً عرقاً
سنونا وأخدعا

ولا حين جد
الشر ممن
تخشعا

إذا ما رأني
فاتر الطرف
أخشعا

زار بيتك زائرٌ

سأذكر من
نفسي خلانق
جمّة

فلم أر مثلي
كاوياً لدوائه

وما كنت ممن
أرث الشر
بينهم

وكنت أرى ذا
الضعف ممن
يكيدني

وما قرأت في الشعر كشعر عبد يغوث بن صلّاءة
الحارثيّ، وطرفة بن العبد، وهدبة هذا، فإنّ شعرهم في
الخوف لا يقصر عن شعرهم في الأمن، وهذا قليلٌ جدّاً.
من أشعار الأعراب أنشدني ابنُ الأعرابيِّ في معنى قوله:

كَمْخُضٍ

الْمَاءِ لَيْسَ

لَهُ إِنَاءٌ

وَمَا كَانَ مِثْلِي

يَعْتَرِيكَ

رَجَاؤُهُ

وَلَكِنْ أَسَاءَتْ هِمَّةٌ

مِنْ فَتَى مَخْضٍ

لِكَا الْمَرْتَجِي زُبْدًا

مِنَ الْمَاءِ

بِالْمَخْضِ

وَإِنِّي

وَإِشْرَافِي

إِلَيْكَ بِهَمَّتِي

وقال الآخر في مثل قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

تَسِيرُ مَعَ

الرُّكْبَانَ أَبْرَدُهَا

يَعْلِي

فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ

قَلْتُ مَقَالَه

كَمِثْلِكَ إِنِّي مُبْتَعٌ

صَاحِبًا مِثْلِي

ابْنُ لِي فَكُنْ

مِثْلِي أَوْ ابْتَعْ

صاحباً

إذا لم يؤتف
رُوح شكلي إلى
شكل

ولا يلبث
الأصحاب أن
يتفرقوا

فقال:

وقرّة عين
الفسل أن يتبع
الفسلا

لكلّ امرئ شكل
يقرّ بعينه

ويندل أن تلقى
أخا أمه ندلاً

وتعرف في جود
امرئ جود خاله

وفي غير هذا الباب يقول الجرّنفس اللص:

فقد أنى لك من
نيء بأنصاج

أبلغ بني ثعل
عني
مغلغلة

واللَّيْلَ فِي جَوْفِ
مَنْحُوتٍ مِنْ
السَّاجِ

أَمَّا النَّهَارَ
فَفِي قَيْدِ
وَسِلْسَلَةٍ

وقال بعضُ اللصوصِ:

وَهَجْرُ حَبِيبٍ إِنَّ
ذَا لَعَظِيمٌ

أَقِيدُ وَحَبَسُ
وَاعْتَرَابٌ وَفِرْقَةٌ

عَلَى عَشْرِ مَا
بِي إِنَّهُ لَكَرِيمٌ

وَإِنْ امْرَأٌ دَامَتْ
مَوَائِقُ وَدَّهٍ

ومن المرثي المستحسنة قولُ حارثة بن بدر الغداني،
يرثي زياداً ابنَ أبيه:

وَإِنَّ مَنْ عَرَّتْ
الدُّنْيَا لَمَعْرُورٌ

أَبَا المَغِيرَةَ
وَالدُّنْيَا مَغِيرَةٌ

وكان عندك
للنكراء تنكيرٌ

قَدْ كَانَ عِنْدَكَ
لِلْمَعْرُوفِ
مَعْرِفَةٌ

وَكُنْتَ تُؤْتِي
فَتُؤْتِي الْخَيْرَ
مِنْ سَعَةٍ

إِنْ كَانَ قَبْرُكَ
أَمْسَى وَهُوَ
مَهْجُورٌ

صَلَّى إِلَهَ عَلَى
قَبْرِ بِمَحْنِيَةٍ

دُونَ الثَّوِيَّةِ
يَسْفِي فَوْقَهُ
الْمُورُ

وَأَنشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

وَمَا حَسَبُ
الْأَقْوَامِ إِلَّا
فِعَالِهِمْ

وَرُبَّ حَسِيبٍ
الْأَصْلِ غَيْرُ
حَسِيبٍ

وَقَالَ الْآخَرُ فِي مِثْلِهِ:

لَيْسَ الْكَرِيمُ
بِمَنْ يَدْنُسُ
عِرْضَهُ

وَيَرَى مُرْوَعَتَهُ
تَكُونُ بِمَنْ مَضَى

وَيَزِينُ صَالِحَ مَا

حَتَّى يَشِيدَ

أَتَوْهُ بِمَا أَتَى

بِنَاءَهُمْ
بِبِنَائِهِ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

يَوْمًا عَلَى
الْأَحْسَابِ نَتَكَلُّ

لَسْنَا وَإِنْ
كُرِمَتْ أَوْ أَيْنُنَا

تَبْنِي وَنَفَعَلُ مِثْلُ
مَا فَعَلُوا

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ
أَوْ أَيْنُنَا

وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء عيباً أن تكون فيه
خَلَّةٌ من ثلاث: أن يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من
نفسه، أو يعيب شيئاً ثم يأتي مثله، أو يؤذي جلسه فيما
لا يعنيه.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: آخَذُ النَّاسِ بِمَا بِهِ أَمْرٌ،
وَأَتْرَكُهُمْ لَمَّا عَنْهُ زَجْرٌ.
من هجا امرأته قديم أعرابي فحلف بطلاق امرأته على
شيء فحنت ثم هرب فقال:

ما خَوَّفوني
بالطَّلَاقِ العَاجِلِ

عَجْفاءُ مَرِضِعةٍ
وأُخْرَى حَامِلُ

لو يَعْلَمُ الغَرَماءُ
مَنْزَلَتَيْهِمَا

قَدْ مَلَّتْنا وَمَلَّتْ
مَنْ وَجَّهَيْهِمَا

وقال الأقرع بن مُعاذ القُشَيْرِيّ:

إِلَيَّ وَإِنْ
ضَاجَعْتُهَا
لَبَغِيضُ

عَلَى الثَّوبِ نَمْلٌ
عَازِمٌ وَبَعُوضٌ

لَعَمْرُكَ إِنْ
الْمَسَّ مِنْ أُمَّ
خَالِدٍ

إِذَا بُرِّعَ عَنْهَا
ثَوْبُهَا فَكَأَنَّمَا

وقال أعرابيٌّ يَتَأَلَّه، لامرأته، وما الأعرابُ وهذا المذهبُ،
ولكن كذا وَقَعَ، والله أعلمُ بكثيرٍ من الرواية:

وَأَنَّهَا عِدَّةٌ
تُقْضَى
وَأُوتَارُ

لَوْلَا مَخَافَةُ رَبِّي
أَنْ يُعَاقِبَنِي

لقد جعلتُ مكانَ
الطَّوقِ ذا شُطْبِ

وثبتُّ بعدُ فإنَّ
اللَّهَ غَفَّارُ

وقال بعض المولدين:

تجهّزي
للطلاق
وانصرفي

ذاك جزاءُ
الجوامحِ الشَّمْسِ

للليّتي حين
بتُّ طالقةً

ألدَّ عِندي منْ
ليلةِ العُرسِ

وأنشدني ابنُ الأعرابيِّ لأعرابي:

قد قرنوني
بعجوز
جحمرش

ناتية الناب
كزوم قنفرش

كأنا دلاها
على الفرش

من آخر الليل
كلاب تهترش

وجلدها من
حكها القمل
برش

كأن طي
بطنها كرش

فقماء في حزن
الضجيع تهتمش

تخشخش
الضب دنا
للمحترش

وقال رجلٌ من بني نُميرٍ لامراته، وكانت حَضْرِيَّة:

لعمري
لأعرابية
بدوية

تظللُ بروقي
ببيتها الرِّيحُ
تخفقُ

أحبُّ إلينا من
ضناكِ ضِفْنَةٍ

إذا رُفَعَتْ عنها
المراويحُ تعرقُ

كبطيخة
البُستانِ ظاهرُ
جلدها

صحيحٌ ويبدو
داؤها حين
تُفتقُ

وأنشدني محمد بن يسير في امرأته أو في غيرها:

عُرْقوبُهَا مِثْلُ
شَهْرِ الصَّوْمِ فِي
الطَّوْلِ

أُنْبِتُ أَنْ فَتَاةً
كُنْتُ
أَخْطُبُهَا

كَأَنَّهَا حِينَ يَبْدُو
وَجْهَهَا عُورٌ

أَسْنَانُهَا
مِائَةٌ أَوْ زِدْنِ
وَاحِدَةً

وإنما أكتب لك من كلِّ بابٍ طَرْفًا، لأنَّ إخراجك من بابٍ إلى بابٍ أبقى لنشاطك، ولو كتبته بكماله لكان أكملَ وأنبِلَ، ولكن أخاف التَّطْوِيلَ، وأنتَ جديرٌ أن تعرفَ بالجملةِ التَّفْصِيلَ، والآخِرُ بالأوَّلِ. مَنْ هَجَّتْهُ زَوْجَتُهُ قَالَتْ عَصِيمَةُ الْحَنْظَلِيَّةُ:

عَلَيْنَا حُفْرَةٌ
مُلِنْتُ دُخَانًا

كَأَنَّ الدَّارَ حِينَ
تَكُونُ فِيهَا

فَتَصْبِحَ لَا نَرَاكَ

فَلَيْتَكَ فِي سَفِينِ

ولا ترانا

لقد أعطيتها
مائة هجانا

بني عبادٍ

فلو أنَّ البُـدور
قَبْلُنَ يوماً

وقالت امرأةٌ من بني ضبة لزوجها:

يمشي على مثل
معوَجِّ العراجينِ

إِلَّا وَآخِرُ يَتْلُوهُ
بِأَمِينِ

وَأَنْنِي قَبْلَهُ
صُيِّرْتُ بِالصَّيْنِ

تراهُ أَهْوَجَ
ملعوناً
خَلِيقَتُهُ

وما دعوتُ
عليه قَطُّ
ألعنه

فليته كان
أرضُ الرُّومِ
مَنْزَلَهُ

وقالت جمرة الأزدية لزوجها أبي وائل:

إِذَا ذَكَرَ الْقَوْمُ
بِالطَّائِلِ
وَعُوجِلْتُ
بِالْحَدِثِ الْعَاجِلِ

لِعَمْرِكَ مَا إِنَّ
أَبُو وَائِلٍ
فِيَا لَيْتَنِي لَمْ
أَكُنْ عَرَسَهُ

وقالت امرأة من بني زياد الحارثي:

أُرِيدُ كِرَامَ
النَّاسِ أَوْ
أَتَبَتَّلُ

فَلَا تَأْمُرُونِي
بِالتَزْوِجِ إِنِّي

يُرِيحُ عَلَيْهِ
حَلْمُهُ حِينَ
يَجْهَلُ

أُرِيدُ فَتًى لَا يَمْلَأُ
الْهَوْلُ صَدْرَهُ

كعالية الرَّمْحِ
الطَّوِيلِ أَوْ
أَطْوَلُ

كمثل الفتى
الجعد الطَّوِيلِ إِذَا
عَدَا

وقالت امرأة من باهلة:

أحبُّ الفتى ينفى
الفواحشَ سمعُه

كانَ به كلُّ
فاحشةٍ وقراً

سليمٌ دواعي
الصِّدرِ لا باسطٌ
أدى

ولا مانع خيراً
ولا قائلٌ هُجراً

كَمَثَلِ الْفَتَى
الذُّهْلِيِّ تَحْسِبُ
وَجْهَهُ

إذا ما بدا في
ظلمةٍ طالعاً
بَدراً

وقال لبيد بن ربيعة:

إنما يحفظُ التقى
الأبرارُ

وإلى الله
يستقرُّ
القرارُ

اللهِ ورُدُّ
الأمورِ
والإصدارُ

وإلى الله
تُرْجَعُونَ وَعِنْدَ

إِنْ يَكُنْ فِي الْحَيَاةِ
خَيْرٌ فَقَدْ أَنْ

ظَرْتُ لَوْ كَانَ
يَنْفَعُ الْإِنظَارُ

عَشْتُ دَهْرًا فَلَنْ
يَدُومَ عَلَى الْأَيَّامِ

إِلَّا يَرَمَرَمَ
وَتَعَارُ

وَأَنْشَدَنِي الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: أَنْشَدَنِي رَجُلٌ، وَلَمْ يُسَمِّهِ:

إِذَا مَا بَدَأَ عَمْرُو
بَدَتْ مِنْهُ صُورَةٌ

تَدُلُّ عَلَى
مَكْنُونِهِ
يُقْبَلُ

بِيَاضُ خُرَّاسَانَ
وَأُكْنَةُ فَارِسِ

وَجُتَّةُ رُومِيٍّ
وَشَعْرٌ مُقْلَقُ

لَقَدْ أَلْفَتُ أَعْضَاءُ
عَمْرُو عَصَابَةً

يَدُلُّ عَلَيْهَا
آخِرُ الْقَوْمِ
أَوَّلُ

وَقَالَتْ أُخْتُ ذِي الرُّمَّةِ تَرثِيهِ:

عِزَاءٌ وَجَفْنُ
الْعَيْنِ مَلَانُ
مُتْرَعُ

وَلَكِنَّ نَكْءَ
الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ
أَوْجَعُ

تَعَزَّيْتُ عَنْ
أَوْفَى بَغِيلَانَ
بَعْدَهُ

وَلَمْ تَنْسِنِي
أَوْفَى الْمَصِيبَاتِ
بَعْدَهُ

وذو الرِّمَّةِ القائل: إِذَا قَلتَ كَأَنَّ فِلمَ أَجِدُ مَخْرَجاً فَقَطَعَ اللهُ
لِسَانِي.
وَأَنشُد:

فَعَلَ الدَّلِيلُ وَلَوْ
بَقِيْتُ وَحِيداً

حَتَّى أَدَوَايَ
بِالْحُقُودِ حُقُوداً

تَشْفِي السَّقِيمَ
وَتُبْرِئُ الْمُنْجُوداً

لَا أَتَّقِي حَسَكَ
الضَّغَائِنِ بِالرُّقَى

لَكِنِ أَعَدَّ لَهَا
ضَغَائِنَ مِثْلَهَا

كَالْخَمْرِ حَيْرُ
دَوَائِهَا مِنْهَا

بها

فأخذ الحَكَمِيُّ هذا فقال:

وأخرى تداوَيْتُ
منها بها

وكأس شَرِبْتُ
على لُدَّةٍ

وقال ابن هَرَمَةَ:

جَلَّتْ عن الوَصْفِ
والإحصاءِ والعددِ

إِنَّ أَيْدِيكَ
عندي غَيْرُ
واحدةٍ

مُسْتَوْجِبُ الشُّكْرِ
مَنِّي آخِرَ الأَبَدِ

وليس منها
يَدٌ إِلاَّ وَأَنْتَ
بها

وقال الآخر:

كشكري ولا يَدْرِي عَلَيَّ بن ثابتِ

حَمَلْتُ

وَحَمَلَنِي مِنْ شُكْرِهِ فَوْقَ طَاقَتِي
عَلَيْهِ مُثْقَلًا فَأَطَاقَهُ

ورأى رجلٌ من النبيط الحجاج بعد موته في منامه فقال:
يا حجاج، إلام صيرك ربك؟ فقال: وماذا عليك يا ابن
الزانية، فقال: ما سلّمنا من قولك مَيْتاً، ولا من فعلك حياً.
وقال الأشهب رجلٌ من أهل الكوفة يهجو نُوح بن
دَرَّاج:

إذ صار حاكماً
نوحُ بنُ درّاجِ

صحيحة يده
من نقش
حجاج

إنّ القيامة فيما
أحسب اقتربت

لو كان حياً له
الحجاج ما
سلّمته

وكان الحجاج يشمُّ أيدي النَّبَطِ علامةً يُعرفون بها.
وقال رجلٌ من طيِّ لرجلٍ من فزارة، وكان الرجل
يتوعده:

لنخشى فما
نرتاع للجلباب

فإن كان هذا يا
فزار تجلباً

الآن لما أن علا
الشيب مفرقي

وصارت نيوب
العود مختلفات

فو أن سافي
الريح يحملكم
قذى

لأعيننا ما
كنتم بقذاة

أست فزارياً
تبين لؤمه

إذ قام بين
الأنف
والسبلات

ترى الخيل
تستحي إذا ما
ركبتم

عليها حياء
البدن
الخفرات

وقال أبو عبيدة: ما ينبغي أن يكون في الدنيا مثل النظام:
سألته وهو صبي عن عيب الزجاج، فقال: سريع الكسر،
بطيء الجبر.

ومدحوا النخلة عنده، فقال: صعبة المرتقى، بعيدة
المهوى، خشنة المس، قليلة الظل.

وذكر النظم الخليل بن أحمد فقال: توحَّد به العُجْبُ
فأهلَكه، وصَوَّر له الاستبدادُ صوابَ رأيه فتعاطى ما لا
يحسنُه، ورامَ ما لا يناله، وفتنته دوائره التي لا يحتاجه
إليها غيره.

وكان أبو إسحاق إذا ذكر الوهم لم يشكَّ في جنونه، وفي
اختلاط عقله، وهكذا كان الخليل، وإن كان قد أحسنَ في
شيء.

وكان النظم كثيراً ما ينشد:

به الخامل
الجنائم في
الخفض قانع

فلو كنت أرضى
لا أبالك بالذي

عليّ وعندي
للرجال
صنائع

قصرتُ على
أدنى الهموم
وأصبحتُ

وقال المريسي لأبي الهذيل بحضرة المأمون، بعد كلام
جرى: كيف ترى هذه السَّهام؟ قال: ليِّنة كالزُّبد، حُلوة
كالشَّهد، فكيف ترى سهامنا؟ قال: ما أحسستُ بها، قال:

لأنَّها صادفتُ جَماداً.
وأنشدَ أبو الهذيل:

ترَكَ التَّوَهُّمَ
وَجَهَّهَا مَكْلُوماً

فإِذا تَوَهَّمتُ أَنْ
يَراها نَاطِرٌ

فقال: هَذِهِ تُنَاكُ بِأَيرٍ مِنْ خَاطِرٍ وَأُنشِدُنِي أَبُو الهذيلِ بَعْدَ
أَنْ أَنشَدَ هَذَا البَيتَ:

وَلَا تُسائِلِ عَن
خَبِيءِ شَأِنِهِ

اسجُدْ لِقَرْدِ
السَّوِّءِ فِي
زَمَانِهِ

وقال آخر:

وَكَمْ مِنْ لَئيمٍ
أَصَبَحَ اليَومَ
صاعِداً

كَمْ مِنْ كَريمٍ
ضَعُضَعَ الدَّهْرُ
حالَهُ

بِتَجرِبَةٍ أَهَدَى
النَّصيحَةَ

وَقَد قالَ فِي
الأَمثالِ فِي

النَّاسِ وَاَعْظَ

جَاهِدَا

إِذَا دَوْلَةٌ لِلْقِرْدِ
جَاءَتْ فَكُنْ لَهُ

وَذَلِكَ مِنْ حُسْنِ
الْمَدَارَةِ
سَاجِدَا

بِذَلِكَ تَدَارِيهِ
وَيُوشِكُ بَعْدَهَا

تَرَاهُ إِلَى
تُبَّانِهِ الرَّثِّ
عَائِدَا

وَأَنْشَدَنِي الْأَصْمَعِيُّ فِي مَعْنَى قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ:

بِهِ لَا بَظْبِي بِالصَّرِيمَةِ أَعْفَرَا

لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي الْقَيْنِ:

أَقُولُ لِصَالِحٍ لَمَّا
دَهْتَهُ

بَنَاتِ الدَّهْرِ
وَيَحْكُ مَا دَهَاكَ

شَجَاكَ الْعِزْلَ لَا
بِأَخِي نَوَالٍ

مِنَ الْفَتْيَانِ
كَرْبَةَ مَا شَجَاكَ

كذاك تكون
أوبة من أتاك

وإن كنت امرأ
بخلت يداك

فإن العرف من
به سواك

سألتُ ومن يسألُ
عن العلمِ يعلمُ

وما العالم
الواعي الأحاديثِ
كالعمي

أتيتك زائراً
فرجعت صفراً

أحب لك السلامة
يا ابن أمي

حفاظاً للعشيرة
لا بعرفٍ

وقال الفرزدق:

ألا خبروني
أيها الناس
إنني

سؤالٍ امرئٍ لم
يُغفل العلمَ
صدره

وقال أيضاً:

ألم تعلموا يا آل
طَوْعَةَ أَنمَّا

تَهِيحُ جَلِيلَاتِ
الْأُمُورِ دَقِيقُهَا

سَأْتَنِي عَلَى
سَعْدٍ بِمَا قَدْ
عَلِمْتَهُ

وخيِرَ أَحَادِيثِ
الرِّجَالِ صَدُوقُهَا

قال أبو عثمان: ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كلُّ وَقَّاحِ أخبارِ بعضِ العلماءِ وبعضِ من يولِّفُ الكُتُبَ ويقرؤها ويُدَارِسُ أهلَ العبرِ ويتحقَّقُهَا. زعموا أنَّ الضبعَ تكونُ عاماً ذكراً وعاماً أنثى، وسمعتُ هذا من جماعةٍ منهم ممَّنْ لا أستجيزُ تسميته.

قال الفضل بن إسحاق: أنا رأيتُ العَفْصَ والبَلُوطَ في غصنٍ واحدٍ.

قال: ومن العَفْصِ ما يكونُ مثلَ الأُكْر، وقد خَبَّرني بذلك غيره، وهو يشبه تحوُّلَ الأنثى ذكراً والذكرُ أنثى.

وقد ذكرتُ العربُ في أشعارها الضَّبَاعَ والدَّنَابَ والسَّمْعَ والعِسْبَارَ، وجميعَ الوحوشِ والحشراتِ، وهم أَخْبَرُ الخلقِ بشأنِ الضَّبْعِ، فكيف تركتُ ما هو أعجبُ وأطرفُ.

وقد ذكرتُ العلماءَ الضَّبَاعَ في مواضعٍ من الفُتْيَا لم نرَ

أحداً ذَكَرَ ذلك، وأولئك بأعيانهم هم الذين زعموا أن النمر الأنثى تضع في مشيمةٍ واحدةٍ جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوّقت به، وإذا لم يأتنا في تحقيق هذه الأخبار شعرٌ شائع، أو خبرٌ مستفيض، لم نلتفت لِفَتّهِ، وقد أقرّرنا أن للسَّقَنْقُورِ أيرين، وكذلك الحِرْدُونُ والضبّ، حين وجدناه ظاهراً على السنة الشعراء وحكاية الأطباء.

خرطوم الفيل والخرطوم للفيل هو أنفه، ويقوم مقام يده ومقام عنقه، والخرق الذي هو فيه لا ينفذ، وإنما هو وعاءٌ إذا ملأه الفيل من طعام أو ماء أولجه في فيه، لآته قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى، وإنما صار ولدُ البُخْتِيّ من البُخْتِيّةِ جُزور لحمٍ لقصر عنقه، ولعجزه عن تناول الماء والمرعى.

خرطوم البعوضة والبعوضة خرطومٌ، وهي تُشَبَّه بالفيل إلا أن خرطومها أجوفٌ فإذا طَعَنَ به في جوف الإنسان والبهيمة فاستقى به الدّمَ من جوفه قذفت به إلى جوفها، فهو لها كالبلعوم والحلقوم.

وللذبابية خرطومٌ تخرجه إذا أرادت الدّمَ، وتُدخِله إذا رَوَيْتْ، فأمّا مَنْ سَمَّى خَطَمَ الخنزيرِ والكلبِ والدّئبِ خرطوماً فإنما ذلك على التشبيه، وكذلك يقولون لكلِّ

طويل الخطم قصير اللّحيين.
وقد يقال للخَطْمِ خرطوم على قوله: "سَنَسِمُهُ عَلَى
الْخُرْطُومِ".
وأنشدنا ابن الأعرابي لفتى من بني عامر:

ولا أمرٌ على
تلك الخراطيم

ولا أقومٌ على
شيخي فأشتُمهُ

جعل سادةَ عشيرته في النَّادي والمجالس كالخراطيم
والمقاديم والهوادي، وعلى ذلك قالوا: بنو فلان أنفُ بني
فلان ورؤوسُهم وخراطيمُهم، ومعنى العامريّ الذي ذهب
إليه في شعره كأنه عَظَم المشيخة أن يمرَّ بهم، وقد قال
الشاعر:

هم الأنفُ المقدم والسَّنامُ

والفيلُ والبيبرُ، والطَّاوسُ والبيبغا، والدجاج السنديّ،
والكركدن، مما خص الله به الهند، وقد عدّد ذلك مطيعُ
بن إياس، حين خاطب جاريةً له كانت تسمى رُوقةً،
فقال:

سادسنا دوني
وأرمائل

ن وبين الحبيب
قنابيل

ببلادٍ معروفها
مجهول

س وفيها يزواج
الزندبيل

د له في ذرى
الأراك مقيل

رن والليث في
الغياض النسول

روق أي روق
كيف فيك أقول

وبعيدٌ من بينه
حيثما كا

روق يا روق
لو ترين محلى

ببلاد بها
تبيض
الطواوي

وبها الببغاء
والصفر والعو

والخموع
العرجاء والأيل
الأق

وقال أبو الأصلع الهنديُّ، يفخر بالهند وما أخرجت بلاد
الهند:

وما ذلك بالأمثل	لقد يعذني صحبي
وسهم الهند في المقتل	وفي مدحتي الهند
وفيه الفيل والدغفل	وفيه الساج والعاج
كمثل الجبل الأطول	وإن التوتيا فيه
وفيه ينبت الفلفل	وفيه الدار صيني

والمتشابه عندهم من الحيوان الفيل، والخنزير،
والبعوضة، والجاموس، وقال روبة:

والأففة بين الفيل
والجاموسا

ليث يدق
الأسد
الهموسا

هجاأ أبي الطروق لامراته ولما هجا أبو الطروق الضبي
امراته، وكان اسمها شغفر بالقبح والشناعة فقال:

وكلهن في
الجمال شغفر

جاموسة وفيلة
وخنزرو

جعل الخنزير خنزراً، فجمعها كما ترى للتشابه، وقال
الآخر:

جحافل عير أو
مشافر فيل

كان الذي يبذو
لنا من لثامها

شعر في الفيل

والفيل يوصف بالفقم، ولذلك قال الأعرابي:

ولم أكن أخدع
فيما أعلم

قد قادني أصحبي
المعمم

وأدنى الفيل
لنا وترجموا

خبعتنَّ قد تم
منه المحزم

يجر أرحاءً
ثقلاً تحطم

وحنكٌ حين
يمد أفقم

يرده في
الجوف حين
يطعم

نجيت نفسي
جاهداً لا أظلم

إذا صفق الباب
العريض الأعظم

وقيل إن الفيل
فيلٌ مرجم

أجرد أعلى
الجسم منه
أصحم

ما تحتها من
قرضها وتهشم

ومشفرٌ حين
يمد سرطم

لو كان عندي
سببٌ أو سلم

وقال آخر:

إِنَّ الَّذِي يَرْكَبُهُ
مَحْمُولٌ

كَالطَّوْدِ إِلَّا أَنَّهُ
يَجُولُ

مَنْ يَرْكَبِ الْفَيْلَ
فَهَذَا الْفَيْلُ

عَلَى تَهَاوِيلَ لَهَا
تَهْوِيلُ

وَأَذُنُ كَأَنَّهَا
مِنْدِيلٌ

وقال عمارة بن عقيل يضرب المثل بقوة الفيل:

هَيْدًا وَجَالَتْ
بِنَا مِنْهُ
الْأَحَابِيلُ

مِنْ الْمِظَالِمِ مَا
لَا يَحْمِلُ الْفَيْلُ

إِذَا أَتَانَا أَمِيرٌ لَمْ
يَقُلْ لَهُمْ

وَعَضَّ مَجْهُودَنَا
الْأَقْصَى وَحَمَلَهُ

وقال أبو دَهَبٍ يمدح أبا الفيل الأشعري:

قَدْ عَمَّ بِالْعُرْفِ
كُلَّ الْعُجْمِ

إِنَّ أَبَا الْفَيْلِ لَا
تَحْصِي

فضائله

والعرب

ونظر ابن شهلة المدنيّ إلى خرطوم الفيل وإلى عُرموله
فقال:

قد اعتدلاً في
مَشْرَبِ
ومَبَالِ

ولم أرَ خرطومينِ
في جسمٍ واحدٍ

فقد غلظ لأنّ الفيلَ لا يشربُ بخرطومه ولكن به يُوصِلُ
الماءَ إلى فمه، فشَبَّه عُرموله بالخرطوم، وعُرموله
يشبَّه بالجعبة والقنديل والبربخ.
وقال المخبِّل في تعظيم شأن الفيل:

نهاراً وليلاً
بلياني فأسرَعَا

أتهزأ مني أم
عمرة أن رأت

فقد أفنيا النُّعْمان
قبلي وتُبَّعا

فإن أكُ لاقيتُ
الدهاريسَ
منهما

ولا يلبث الدهرُ
المفرّق بينه

على الفيل حتى
يستدير فيصراً

وقال مروان بن محمد وهو أبو الشَّمَقْمَقِ وحدثني صديقٌ
لي قال سألتُ أبا الشَّمَقْمَقِ عن اسمه ونسبه، فقال: أنا
مَرْوَانُ بن محمد، مولى مروان بن محمد:

يا قوم إني
رأيتُ الفيلَ
بعدكم

فبارك الله لي في
رؤية الفيلِ

رأيت بيتاً له
شيءٌ
يحرّكه

فكدتُ أصنعُ
شيئاً في
السراويلِ

وقالت دودة لأُمّها:

يا أمّ إني رأيتُ
الفيلَ من كُتُبِ

لا بارك الله لي
في رؤية الفيلِ

لما بصرتُ بأيرِ

عن الحميرِ

خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

وقال الأصمعي: جنى قومٌ من أهل اليمامة جناية فأرسل إليهم السلطانُ جنداً من بخارية ابن زياد، فقام رجلٌ من أهل البادية يُدَمِّرُ أصحابه فقال: يا معشر العرب، ويا بني المحصنات، قاتلوا عن أحسابكم ونسائكم، والله لئن ظهر هؤلاء القومُ عليكم لا يدعون بها لينةً حمراء، ولا نخلة خضراء، إلا وضعوها بالأرض، ولا أعركم من نشابٍ معهم، في جعاب كأنها أيور الفيئة، ينزعون في قسي كأنها العتل تنط إحداهن أطيط الزرنوق، يمغطُ أحدهم فيها حتى يتفرق شعرُ إبطيه، ثم يرسل نشابةً كأنها رشاء منقطع، فما بين أحدكم وبين أن تفضخ عينه، أو يصدع قلبه منزلةً.

قال: فخلع قلوبهم فطاروا رُعباً.

الزندبيل

قالوا: الفيلة ضربان: فيلٌ وزندبيل، وقد اختلفوا في
أشعارهم وأخبارهم، فبعضهم يقول كالبُحْت والعراب،
والجواميس والبقر، والبراذين والخيل، والفأر
والجرذان، والذرّ والنمل، وبعضهم يقول: إنما ذهبوا إلى
الذكَر والأنثى.
قال خالدُ القنّاص، وفي قصيدته تلك المزاوِجةِ
والمخمّسة، التي ذكر فيها الصّيد فأطنبَ فيها، فقال حينَ
صار إلى ذِكر الفيل:

وهو من الأفيال
زَنْدَبِيلُ

ذاك الذي
مِشْفَرُهُ طَوِيلُ

فذهب إلى العِظَم، وقال الذُّكْوانِي:

وفيلة كالطُودِ زَنْدَبِيلُ

وقال الآخر:

مِن بَيْنِ فِيلَاتٍ وَزَنْدَبِيلِ

فجعل الزَّنْدَبِيلُ هو الذكور، وقال أبو اليقظان سحيمُ بنُ
حفص: إِنَّ الزَّنْدَبِيلَ هو الأنثى، فلم يَقِفُوا مِن ذَا عَلَى

شيء.

الجنّ والحنّ وبعض الناس يقسم الجنّ على قسمين
فيقول: هم جنّ وحنّ، ويجعل التي بالحاء أضعفها، وأما
الراجز فقال:

مختلف
نجرأهم جنّ
وحنّ

أبيت أهوي في
شياطين ترنّ

ففرق هذا بين الجنسين.

الناس والنسناس وسمع بعض الجهال قول الحسن: ذهب
الناس وبقيت في النسناس فجعل النسناس جنساً على
حدة، وسمع آخرون هم أجهل من هؤلاء قول فجعل
النسناس جنساً على حدة، وسمع آخرون هم أجهل من
هؤلاء قول الكمي:

نسناسهم والنسناسا

فرعموا أنهم ثلاثة أجناس: ناس، ونسناس، ونسناس،
هذا سوى القول في الشق، وواق واق، وذوال باي، وفي
العدار، وفي أولاد السعالي من الناس، وفي غير ذلك مما

ذكرناه في موضعه من ذكر الجن والإنس.
وقد علم أهل العقل أنّ النّسناس إنما وقّع على السّفلة
والأوغاد والعوّغاء، كما سمّوا الغوغاء الجراد إذا ألقى
البيض وسخّف وخفّ وطار.

هياج الفيل

قال: وإذا اغتلمّ الفيل قتلَ الفيلةَ والفيالين وكلَّ مَنْ لقيه
من سائر النّاس، ولم يقدّم له شيءٌ، حتى لا يكون
لسوّاسيه همٌّ إلاّ الهربُ، وإلاّ الاحتيالُ لأنفسهم.
وتزعّم الفرّس أنّ فيلاً من فيلة كسرى اغتلمّ، فأقبل نحو
النّاس فلم يقدّم له شيءٌ، حتى دنا من مجلس كسرى
فأقشع عنه جُنْدَه، وأسلمته صنائعه، وقصد إلى كسرى
ولم يبق معه إلاّ رجلٌ واحدٌ من فرسانه كان أخصّهم به
حالا، وأرفعهم مكاناً، فلما رأى قُرْبَه من الملك شدَّ عليه
بطبرزينٍ كان في يده فضربَ به جبهته ضربةً غاب لها
جميعُ الحديدة في جبهته، فصدف عنها وارتدع، وأبى
كسرى أن يزولَ من مكانه، فلما أيقنَ بالسلامة قال لذلك
الرجل: ما أنا بما وهبَ الله لي من الحياة على يدك بأشدّ
سروراً منّي بالذي رأيت من هذا الجلد والوفاء والصبر

في رجل من صنائعي، وحين لم تخطئُ فِرَاسَتِي، ولم يَفِلْ
رأيي فهل رأيت أحداً قطَّ أشدَّ منك؟ قال: نعم، قال:
فحدّثني عنه، قال: على أن تؤمّني، فأمنه فحدّث
عنبُ هرام جُوبين بحديثٍ شقَّ على الملك وكرهه، إذ
كان عدوّه على تلك الصّفة.
قال: إذا اغتلمَ الفيلُ وصالَ وِعْضَبٍ وِخْمَطِ خِلاَهُ الفَيَالون
والرَّوِاضُ، فربَّ ما عاد وحشياً.

أهليّ الفيلة ووحشيتها

والفيلة من الأجناس التي يكون فيها الأهلِيّ والوحشيّ،
كالسنانير والطّباء والحمير وما أشبه ذلك، وأنشد
الكرمانيّ لشاعر المولتان قوله:

كراكب الفيل
وَحْشِيّاً وَمُعْتَلِّماً

فكنتُ في طلبي
مِنْ عِنْدِهِ فَرَجاً

وهذه القصيدة هي التي يقول فيها:

حتى لقيت بها
حِلْفَ النَّدى

قد كنت صعدتُ
عن بُغْبُورُ

مغترِباً

حَكَمَا

قَرَّمْ كَأَنَّ
ضِيَاءَ الشَّمْسِ
سُنَّتُهُ

لَوْ نَاطَقَ الشَّمْسُ
أَلَقْتُ نَحْوَهُ الْكَلِمَا

خصال كسرى وتقول الفُرس: أُعْطِيَ كسرى أَبُويزَ ثمان
عَشْرَةَ خَصْلَةً لَمْ يُعْطِهَا مَلِكٌ قَطُّ وَلَا يُعْطَاهَا أَحَدٌ أَبَدًا، مِنْ
ذَلِكَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ لَهُ تِسْعُمَائَةٌ وَخَمْسُونَ فَيْلًا، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ
يَجْتَمِعْ عِنْدَ مَلِكٍ قَطُّ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَنْزَى الذُّكُورَةَ عَلَى
الإِنَاثِ، وَأَنَّ فَيْلَةً مِنْهَا وَضَعَتْ عِنْدَهُ، وَهِيَ لَا تَتَلَقَّحُ
بِالعِرَاقِ، فَكَانَتْ أَوَّلَ فَيْلَةٍ بِالعِرَاقِ وَآخِرَ فَيْلَةٍ تَضَعُ.
قالو: ولقي رُسْتَمُ الأَزْرِيّ المسلمِين يوم القادسيّة ومعه
من الفيلة عشرون ومائة فيل، وكنّ من بقايا فَيْلَةٍ كِسْرَى
أَبُويزَ.

قالوا: ومن خصاله أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَرَوْا قَطُّ أَمَدًا قَامَةً، وَلَا
أَتَمَّ أَلْوَاحًا، وَلَا أَبْرَعَ جَمَالًا مِنْهُ، فَلَمَّا مَاتَ فَرَسُهُ الشَّبْدِيزِ
كَانَ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا فَيْلٌ مِنْ فَيْلَتِهِ، وَكَانَ يَجْمَعُ وَطَاءَةَ ظَهْرِ
الفَيْلِ وَثَبَاتَ قَوَائِمِهِ، وَلَيْنَ مَشِيَّتِهِ، وَبُعْدَ خَطْوِهِ، وَكَانَ
الطَّفْهَا بَدْنًا، وَأَعْدَلَهَا جَسْمًا.

أكثر خلفاء المسلمين فيلة

قالوا: ولم يجتمع لأحد من ملوك المسلمين من الفيلة ما اجتمع عند أمير المؤمنين المنصور، اجتمع عنده أربعون فيلاً، فيها عشرون فحلاً.

شرف الفيل

قالوا: والفيل أشرفُ مراكب الملوك، وأكثرها تصرفاً، ولذلك سأل وَهْرَزُ الأَسْوَارُ عن صاحب الحبشة، حين صافهم في الحرب، فقيل له: ها هو ذاك على الفيل، فقال: لا أرميه وهو على مركب الملوك، ثم سأل عنه فقيل له: قد نزل عنه وركب الفرس، قال: لا أرميه وهو على مركب الحماة، قيل: قد نزل عنه وركب الحمار، قال: قد نزل عن مركبه لحمار فدعا بعصابة رَفَع بها حاجبيه وكان قد أسنَّ حتى سقط جاجباه على عينيه ثم رماه فقتله.

ذكاء الفيل

وكان سهلُ بنُ هارونَ يتعجبُ منَ نظرِ الفيلِ إلى الإنسان، وإلى كلِّ شيءٍ يمرُّ به، وهو الذي يقول:

ولمَّا رأيتُ
الفيلَ ينظُرُ
قاصداً

ظننتُ بأنَّ الفيلَ
يلزمُه الفرضُ

قال أبو عثمان: وقد رأيتُ أنا في عَيْنِ الفيلِ من صحّةِ
الفهمِ والتأمّلِ إذا نظرَ بها، وما شبّهتَ نظره إلى الإنسانِ
إلاّ بنظرِ ملكٍ عظيمِ الكبرِ راجحِ الحِلمِ، وإذا أردتَ أن
تري من الفيلِ ما يُضحِكُ، وتراه في أسخفِ حالاته
وأجهله فائق إليه جوزه، فإنّه يريد أن يأخذ بطرفِ
خُرطومِه، فإذا دنا منها تنفّسَ، فإذا تنفّسَ طارت الجوزة
من بين يديه، ثم يدنو ثانيةً ليأخذها فيتنفّسُ أخرى،
فتبعد عنه، فلا يزال ذلك دأبه.

فضله في الحرب

قالوا: ويفضّلُ الفيلُ الفرسَ في الحربِ أنّ الفيلَ يحمي
الجماعةَ كلهم، ويقاتلُ ويرمي ويزجّ بالمزاريق، وله من
الهول ما ليس للفرسِ، وهو أحسن مطاوعةً، ولا يُعرفُ
بجماح ولا طُمّاح ولا حِران.
والخيولُ العِتاقُ ربّما قتلتُ الفرسانَ بالحِرانِ مرّةً
وبالإقدامِ مرّةً، وبسوءِ الطّاعةِ وشدّةِ الجزعِ، وربّما شبّ

الفرسُ بفارسه حتى يلقىَه بين الحوافر والسُّيوف، لئسَّهم
يصيبه والحجر يقع به، وما يشبه ظهرُ الفرسِ من
ظهره، وظهرُ الفيل منظرَةٌ من المناظر ومسلحةٌ من
المسالح.

عمر الفيل

وفي الفيلة عجبٌ آخرٌ، وذلك أنَّ قصر الأعمارِ مقرونٌ
بالإبل والبراذين وبكلِّ خلقٍ عظيم، وكلُّ شيءٍ يعايشُ
النَّاسَ في دُورهم وقُراهم ومنازلهم فالناسُ أطولُ أعماراً
منها، كالجمل، والفرسُ والبرذون، والبغل والحمار،
والثور والشاة، والكلب والدجاج، وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، إلا
الفيل فإنه أطولُ عمراً.
والفيلُ أعظم من جميع الحيوان جسماً وأكثرُ أكلاً، وهو
يعيشُ مائةَ السنة ومائتي السَّنة.
وزعم صاحبُ المنطق في كتاب الحيوان أنه قد ظهرَ فيلٌ
عاشُ أربعمئةَ سنة، فالفيل في هذا الوجه يشارك
الضَّبَّاب والحَيَّات والنُّسُور، وإذا كان كذلك فهو فوق
الوَرشَان وغير العانة وهو من المعمرين وفوق

المعمّرين وهو مع ذلك أعظم الحيوان بدنًا، وأطولها
عمرًا.

الأسد والفيل

وقال بعض من يستفهم ويحب التّعلم: ما بال الأسد إذا
رأى الفيلَ عَلمَ أنّه طعام له، وإذا رأى النّمرَ والببرَ لم
يكونا عنده كذلك؟ وكيف وهو أعظم وأضخم وأشنع
وأهول؟ فإن كانَ الأسدُ إنما اجترأ عليه لأنّه من لحم
ودمٍ، واللّحمُ طعامُهُ والدّمُ شرايِبُهُ، فالببر والنّمر من لحمٍ
ودمٍ، وهما أقلُّ من هؤلاء وأقماً جسمًا.

قال القوم: ومتى قدّر الأسدُ في الفيل أنه إذا قتله
غلبه، وإذا غلبه قتله، وإذا قتله أكله؟ وقد نجدُ الببرَ
فوق الأسد وهو لا يعرض له، والأسد فوق الكلب وهو
يشتهي لحمه، ويشتهي لحم الفهد بأكثر ممّا يشتهي
لحم الضبع والذئب، وليست علته الموائبة التي ذهبت
إليها.

معرفة الحيوان فأما عَلمَ جميع الحيوان بمواضع ما
يُعيشها، فمن عَلمَ البعوضة أنّ من وراء ظاهر جلد
الجاموس دمًا، وإنّ ذلك الدمَ غذاءٌ لها، وأنّها متى

طَعَنْتُ فِي ذَلِكَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ الشَّثْنِ، الشَّدِيدِ الصُّلْبِ، أَنْ
خَرَطُومَهَا يَنْفِذُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ مُعَانَاةٍ.
وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مَنَّا طَعَنَ جِلْدَهُ بِشَوْكَةٍ لَانْكَسَرَتْ الشَّوْكَةُ
قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى مَوْضِعِ الدَّمِ، وَهَذَا بَابٌ يُدْرِكُ بِالْحَسِّ
وَبِالطَّبْعِ وَبِالشَّبهِ وَبِالْخُلُقَةِ، وَالَّذِي سَخَّرَ لْخَرَطُومِ
الْبَعُوضَةِ جِلْدَ الْجَامُوسِ، هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الصَّخْرَةَ لَذَنْبِ
الْجَرَادَةِ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ قَمُومَ النُّحَاسِ لِإِبْرَةِ الْعَقْرَبِ.
عَلَّةٌ عَدِمَ تَلَاقِحَ الْفَيْلَةِ بِالْعِرَاقِ

وَقَالَ بَعْضُ خِصْمَاءِ الْهِنْدِ: لَوْ كَانَتْ الْفَيْلَةُ لَا تَتَلَاقِحُ عِنْدَنَا
بِالْعِرَاقِ لِأَنَّهَا هِنْدِيَّةٌ لِتَغْيِيرِ الْهَوَاءِ وَالْأَرْضِ، فَعَقَرَ ذَلِكَ
أَرْحَامَهَا، وَأَعْقَمَ أَصْلَابَهَا لِكَانِ يَنْبَغِي لِلطَّوَاوِيسِ أَنْ لَا
تَتَزَاوَجَ عِنْدَنَا وَلَا تَبْيِضُ وَلَا تُفْرَخُ، وَنَحْنُ قَدْ نَصِيدُ
الْبِلَابِلَ وَالِدَبَاسِيَّ، وَالْوَرَّاشِينَ، وَالْفَوَاحْتَ وَالْقَمَارِيَّ
وَالْقَبَجَ وَالذُّرَّاجَ، فَلَا تَتَسَافِدُ عِنْدَنَا فِي الْبَيْوتِ، وَهِيَ مِنْ
أَطْيَارِ بَسَاتِينِنَا وَضِيَاعِنَا، وَلَا تَتَلَاقِحُ إِذَا اصْطَدْنَاهَا
كَرَارِزَةً، بَلْ لَا تَصَوِّتُ وَلَا تَغْنِي وَلَا تَنْوَحُ، وَتَبْقَى عِنْدَنَا
وَحَشِيَّةً كَمِدَّةً مَا عَاشَتْ، فَإِنْ أَخَذْنَاهَا فِرَاحًا زَاوَجَتَ
وَعَشَّشَتْ وَبَاضَتْ وَفَرَّخَتْ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَوْ أَهْدَيْتُمْ

إلينا أولادها صغاراً فنشأت عندنا وذهب عنها وحشة
الخلاء، وجدت أنس الأهلِيّ، فإنّ الوحشة هي التي
أكمدتها، ونقضت قوتها، وأفنت شهوتها.

الكتاب الحادي والعشرون

وفاء الشفنين

مثالب الفيل

رؤيا الفيل

حكم أكل لحمه

خرطوم الفيل

بعض صفة الفيل

قدرته على حمل الأثقال

مناقب الفيل

2965

ما يحث به الفيل

قصة الفيل

جسامة الفيل

سجود الفيل للملك

ما قيل في تعظيم شأن الفيل

تناول الفيل والقرد طعامه

قلة تصرف يدي الفيل

شعر في وصف جلد الفيل والجاموس

طيب عرق الفيل

الآية في الفيل

كلام الفيل والذئب

فهم الفيل الهندية

عضو الفيل

الفيل في كتاب الحيوان

خصائص القبلة

أثر المدن في روائح الأشياء

أثر بعض التمر في العرق

قصة فيل مولى زياد

العيثوم

باب الظلف

في الزرافة

تسافد الأجناس المختلفة

شواذ السفاد

المخايرة بين ذوات القرون والجم

ذوات القرون

ما يسمى بروق

استطراد لغوي

علاقة القرون واللحى بالذكر

فرس الماء

التداوي بفرس الماء وبنات عرس

صيد الذئب للإنسان

تعليم الذئب وتأليفه

مصارعة كلبة لثعلب

من خصائص الكبار والفلاسفة

قول بكر المزني في الأَرْضَة

طول ذماء الضب

الورل والضب

علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ

نوادير من الشعر والخبر

وفاء الشفنين

وقد نجد الشفنين الذكر تهلك أنثاه فلا يُزاوج غيرها أبداً،
في بلادها كان ذلك أو في غير بلادها، ونحن لو جننا
بالأسد والذئب والثمور والببور فأقامت عندنا الدهر
الطويل لم تتلاقح، قصة الذئب والأعرابي وقد أصاب
أعرابي جرو ذئب فرباه ورجا حراسته وأن يألفه، فيكون
خيراً له من الكلب، فلما قوي وثب على شاة له فأكلها،
فقال الأعرابي:

فما أدراك أن
أباك ذيب

أكلت شويهي
وربيت فينا

تسافد حمير الوحش وقد تتسافد عندنا حمير الوحش،
وقد تلاقحت عند بعض الملوك.

تلاقح الطِّبَاءِ فِي الْبُيُوتِ وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَحْضَرَ
عَلَى مَائِدَتِهِ بِالْبَصْرَةِ يَوْمَ زَارَهُ الرَّشِيدُ أَلْبَانَ الطِّبَاءِ
وَزُبْدَهَا وَسِلاَهَا وَلِبَاَهَا، فَاسْتَطَابَ الرَّشِيدُ جَمِيعَ طَعُومِهَا،
فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ وَغَمَزَ جَعْفَرَ بَعْضَ الْغِلْمَانِ فَأَطْلَقَ عَنْ
الطِّبَاءِ وَمَعَهَا خَشْفَانُهَا، وَعَلَيْهَا شُمْلُهَا، حَتَّى مَرَّتْ فِي
عَرْصَةٍ تُجَاهَ عَيْنِ الرَّشِيدِ، فَلَمَّا رَأَاهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ وَهِيَ
مَقْرَطَةٌ مَخْضَبَةٌ اسْتَخْفَهُ الْفَرَحُ وَالتَّعَجُّبُ حَتَّى قَالَ: مَا
هَذِهِ الْأَلْبَانُ؟ وَمَا هَذِهِ السُّمْنَانُ وَاللُّبَاءُ وَالرَّائِبُ وَالزُّبْدُ
الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا؟ قَالَ: مِنْ حَلْبِ هَذِهِ الطِّبَاءِ أُلْفَتْ وَهِيَ
خَشْفَانٌ فَتَلَاقَحَتْ وَتَلَاقَحَتْ.

اسْتَنْتَاجُ الذَّنَابِ وَالْأَسَدِ بِالْعِرَاقِ وَلَوْ أُطْلِقُوا الذَّنَابَ
وَالْأَسَدَ فِي مَرْوَجِ الْعِرَاقِ، وَأَقَامُوا لَهَا حَاجَاتَهَا لَتَسَافَدَتْ
وَتَلَاقَحَتْ، فَلَعَلَّهُمْ لَوْ تَقَدَّمُوا فِي اصْطِنَاعِ أَوْلَادِ الْفَيْلَةِ
وَاقْتِنَائِهَا صَغَاراً أَنْ تَأْسَ حَتَّى تَتَسَافَدَ وَتَتَلَاقَحَ، وَقَدْ
زَعَمْتُ أَنَّ كَسْرَى أَبْرُويزَ اسْتَنْتَجَ دَعُفَلاً وَاحِداً.
اِحْتِجَاجُ الْهِنْدِيِّ قَالَ الْهِنْدِيُّ: تَكْفِينَا هَذِهِ الْحُجَّةَ، وَهِيَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَوْ لَيْسَ قَدْ جَهَدَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الْمُلُوكِ مِنْ
جَمِيعِ الْأُمَمِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، فَلَمْ يَسْتَنْتَجُوا إِلَّا وَاحِداً،
وَعَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مِنْ أَحَادِيثِ الْفَرَسِ، وَهَمَّ

أصحاب نَفْجٍ وتزويد ولا سِيِّمًا في كلِّ شيءٍ مما ييخُلُ في
باب العصبِيَّةِ، ويزيد في أقدار الأكاسرة، وإن كانوا كذلك
فهم أظنَّاء، والمتهم لا شهادة له، ولكن هل رأيتُم قطُّ
هندياً أقرَّ بذلك، أو هل أقرَّت بقايا سائر الأمم للفرسِ
بهذا الأمر للفيلِ المعروفِ بهذا الاسم.
استطرد لغوي ويقال رجل فيلٌ إذا كان في رأيه فيالة،
والفيالة، الخطأ والفساد، وهم يسمُّون الرَّجُلَ بفيل، منهم
فيلٌ مولى زياد، ويكنون بأبي الفيل، منهم أبو الفيل
الأشعريُّ الذي امتدحه أبو دَهْبَلٍ.
وقال: الرَّاجزُ غَيْلانُ يقال له راکبُ الفيلِ: ومنهم عَنبَسَةُ
الفيل، وكذلك يقال لابنه معدان وله حديث، وقال
الفرزدق:

لَعْنَسَةُ الرَّاوي
عَلِيَّ القِصائِدا

لقد كان في
معدان والفيل
زاجرٌ

وقال الأصمعيُّ: إذا كان الرجلُ نبيلاً جباناً قيلَ هذا فيلٌ،
وأنشد:

يقولون للفيل
الجبان كأنه

أزبٌ خَصِيٌّ
نَفَرَتُهُ الْقَعَاقِعُ

وقال سلمة بن عَيَّاش: قال لي روبة: ما كنتُ أُحِبُّ أَنْ
أَرَى فِي رَأْيِكَ فَيَالَةَ.
ويقول الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ: لَمْ يَفِلْ رَأْيُكَ، وَهُوَ رَأْيٌ فَائِلٌ،
وَرَجُلٌ فَيْلٌ، وَبِالْكَوْفَةِ بَابُ الْفَيْلِ، وَدَارُ الْفَيْلِ فِي
السَّبَابِجَةِ، وَكَذَلِكَ حَمَّامٌ فَيْلٌ، وَفِي حَمَّامٍ فَيْلٌ يَقُولُ بَعْضُ
السَّلَفِ:

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا
حَمَّامٌ كِسْرَى

على الثلثين من
حَمَّامٍ فَيْلٍ

وقال الجارود بن أبي سبرة:

وما إِرْقَاصُنَا
خَلْفَ الْمَوَالِي

كسنتنا على
عهد الرسول

وأبو الفيل محمد بن إبراهيم الرافقي كان فارس أهل
العراق.
وفيلويه السَّقَطِي هو الذي كان يُجْرِي لِأَمِّهِ كُلَّ أَضْحَى

درهماً، فحدثني امرأة قالت قلت لأمّ فيلويّه: أو ما كان يجري فيلويّه في كلّ أضْحَى إلا درهماً؟ قالت: إي والله، وربما أدخل أضْحَى في أضْحَى!

مثالب الفيل

وقال بعض من يخالف الهند: الفيل لا يُنتفع بلحمه ولا بلبنه، ولا بسمنه ولا يزيده، ولا بشعره ولا بوبره ولا بصوفه، عظيم المؤونة في النفقة، شديد التشنن على الرّواض، وإن اغتلم لم تف جميع منافعه في جميع دهره بمضرة ساعة واحدة، وهو مرتفع في الثمن، وإن أخطوا في تدبير مطمه ومشربه، وتعلمه وتلقنه هلك سريعاً، ولا يتصرف كتصرف الدواب، ولا يُركب في الحوائج والأسواق وفي الجنائز والزيارات، ولو أن إنساناً عاد مريضاً أو أتبع جنازة على فيل لصار شهرةً، وترك الميت آية.

رؤيا الفيل

وسئل ابن سيرين عن رجل رأى فيما يرى النائم كأنه راكب على فيل، فقال: أمرٌ جسيمٌ لا منفعة له. قالوا: وقال رجلٌ للحجاج بن يوسف: رأيت في المنام

رجلاً من عمالك قدّم فيلاً فضرب عنقه، فقال: إن صدقت
رؤياك هلك داهر بن بصبري.

حكم أكل لحمه

وسئل الشعبي عن أكل لحم الفيل، فقال: ليس هو من
بهيمة الأنعام.

خرطوم الفيل

وخرطومه، الذي هو سلاحه والذي به يبطن وبه
يعيش، من مقاتله.

وقال زهرة بن جوية يوم القادسية: أمّا لهذه الدابة
مقتل؟ قالوا: بلى، خرطومه، فشدّ عليهم حتى خالطهم،
ودنا من الفيل، فحمل كل واحد منهما على صاحبه
فضرب خرطومه فبرك وأدبر القوم.

بعض صفة الفيل

قال: والفيل أرقم قصير العنق، مقلوب اللسان، مشوه
الخلق، فاحش القبح، ولم يفلح ذو أربع قط قصير العنق
في طلب ولا هرب، ولولا أن مسلوخ النور يجول في
إهابه، ولولا سعته وغيبه، لما خطأ مع قصر عنقه،

ولذلك قال الأعرابي: ومن جعل الأوقص كالأعناق
والمطبّق كالضابع، وقال الشاعر في عَيبِ الثَّور، وهو
إسحاق بن حسان الخريمي:

يُدافع عَنبَعَهُ
بالوظيف

وأغلبَ فضفاض
جلد اللبّانِ

وليس يُوتى البعيرُ في حُضْرِهِ مع طول عنقه إلاّ من
ضيق جلده، والفيلُ ضئيلُ الصَّوت، وذلك من أشدّ
عيوبه، والفيل إذا بلغَ في الغلْمة أشدّ المبالغِ أشبهَ الجملَ
في تركِ الماءِ والعلفِ حتى تنضمَّ أَيْطَلاه ويتورّم رأسه،
وقد وصف الرَّاجزُ الجملَ الهائجَ فقال:

إذ ضمَّ إظْليه
هياجَ وقْطَمِ

سام كأنَّ رأسه
فيه ورَمِ

وأضَ بعد البُدنِ
ذَا لحمِ زِيمِ

ولو لم يكن في الفيلة من العيب إلا أن عدة أيام حملها
كعمر بعض البهائم، لكان ذلك عيباً، وقد ترك أهل المدينة
غراس العجوة، لما كانت لا تطعم إلا بعد أربعين سنة.

قدرته على حمل الأثقال

قال: وليس شيء يحمل من عدد الأبطال ما يحمل الفيل،
لأن الذي يفضل فيما بين حمل الفيل وحمل البختي أكثر
من قدر ما يفضل بين جسم الفيل على جسم البختي.
وقد قال الأعرابي الذي أدخل على كسرى ليُعجب من
جفائه وجهله، حين قال له: أي شيء أبعد صوتاً؟ قال:
الجمال، قال: فأَيُّ شيءٍ أطيب لحمًا؟ قال: الجمال، قال:
فأَيُّ شيءٍ أنهض بالحمل؟ قال: الجمال، قال كسرى:
كيف يكون الجمال أبعد صوتاً ونحن نسمع صوت الكركي
من كذا وكذا ميلاً؟ قال الأعرابي: ضَعِ الكركي في مكان
الجمال، وضَعِ الجمال في مكان الكركي حتى يُعرف أيُّهما
أبعد صوتاً، قال: وكيف يكون لحم الجمال أطيب من لحم
البط والدجاج والفراخ والذجاج والنواهض والجداء؟ قال
الأعرابي: يُطبخ لحم الدجاج بماء وملح، ويُطبخ لحم
الجمال بماء وملح، حتى يُعرف فضل ما بين اللّحمين، قال

كسرى: فكيف تزعم أن الجمل أحمَلُ للثقل من الفيل
والفيلُ يحملُ كذا وكذا رطلاً؟ قال الأعرابي: ليبركِ الفيلُ
ويبركِ الجمل، وليُحمَلِ على الفيلِ حمْلُ الجمل، فإن
نهض به فهو أحمَلُ للثقال. قال القوم: ليس في
استطاعة الأجمال النهوضَ بالأحمال ما يوجب لها فضيلةً
على حمْلِ ما هو أثقل، ولعمري، إنَّ للجملِ بلينِ أرساغه
وطولِ عنقه لفضيلةً في النهوضِ بعد البروك، فأما نفس
الثقل فالذي بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار.
قالوا: وبفارسٍ ثيرانٌ تحمِلُ حمْلَ الجملِ باركةً ثم تنهض
به، فهذا باب الذم.

مناقب الفيل

فأما باب الحمد فقد حدثنا عن شريك، عن جابر الجعفي،
قال: رأيت الشعبيَّ خارجاً فقلت له: إلى أين؟ قال: أنظرُ
إلى الفيل.
قال: وسألتُ أبا عبيدةً فقلتُ: ما لونُ الفيل؟ قال: جَوْن.

ما يحث به الفيل

ومن أعاجيب الفيل أن سَوَطَهُ الذي به يُحْتُّ ويصْرَفُ،
مَحَجَّنُ حديدٍ طَرَفُهُ في جِبْهَتِهِ، وَالطَّرْفُ الآخَرُ في يدِ
راكِبِهِ، فإذا راد منه شيئاً غَمَزَ تلكَ الحديديةَ في لحمه،
على قَدَرِ إرادته لوجوهِ التصرُّفِ.

قصة الفيل

وقد ذكر ذلك أبو قيس بن الأسلت في الجاهلية، وهذا
الشعر حجة في صَرْفِ اللَّهِ الفيلَ والطيرَ الأبابيلَ، وصدَّ
أبي يكسوم عن البيت، وسنذكر من ذلك طرفاً إن شاء الله
تعالى، قال أبو قيس:

وَمِنْ صُنْعِهِ يَوْمُ فَيْلِ الْحُبُو	ش إِذْ كَلَّمَا بَعَثُوهُ رَزَمَ
مَحَاجِبُهُمْ تَحْتَ أَقْرَابِهِ	وَقَدْ كَلَّمُوا أَنْفَهُ فَانْحَرَمَ
وَقَدْ جَعَلُوا سَوَطَهُ مِعْوَلًا	إِذَا يَمَّمُوهُ قَفَاهُ كَلَّمَ

فَأرْسَلَ مِنْ
فَوْقَهُمْ حَاصِباً

يَلْفَهُمْ مِثْلَ نَفِّ
الْقَرْمِ

وقال أيضاً صَيْفِيُّ بْنُ عَامِرٍ، وهو أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ،
وهو رَجُلٌ يَمَانٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَلَيْسَ بِمَكِّيٍّ وَلَا تَهَامِيٍّ وَلَا
قُرَشِيٍّ وَلَا حَلِيفِ قُرَشِيٍّ، وهو جَاهِلِيٌّ:

قَوْمُوا فَصَلُّوا
رَبِّكُمْ وَتَعَوِّذُوا

بِأَرْكَانِ هَذَا
الْبَيْتِ بَيْنَ
الْأَخَاشِبِ

فَعِنْدَكُمْ مِنْهُ
بَلَاءٌ مُصَدِّقٌ

غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومٍ
هَادِيِ الْكُتَائِبِ

فَلَمَّا أَجَازُوا
بَطْنَ نَعْمَانَ
رَدَّهُمْ

جُنُودِ الْإِلَهِ بَيْنَ
سَافِ وَحَاصِبِ

فَوَلُّوا سِرَاعاً
نَادِمِينَ وَلَمْ

إِلَى أَهْلِهِ
مَلْحَبِشِ غَيْرِ

يُوب

عَصَاب

ويدلُّ على صحَّة هذا الخبرِ قولُ طُفَيْلِ الغَنَوِيِّ، وهو جاهليٌّ، وهذه الأشعارُ صحيحةٌ معروفةٌ لا يرتابُ بها أحدٌ من الرُّواة، وإنما قال ذلك طُفَيْلٌ لأنَّ غَنِيًّا كانت تنزل تهامةً، فأخرجتها كِنَانَةٌ فِيمَن أُخْرِجَتْ، فهو قوله:

تَرَعَى مَدَانِبَ

وَسَمِيَّ اطَّاع

لَهُ

بِالْجَزَعِ حَيْثُ

عَصَى أَصْحَابَهُ

الْفَيْلُ

قال أبو الصَّلْتِ، واسمه ربيعة، وهو أبو أمية بن أبي الصَّلْتِ، وهو ثَقَفِيٌّ طائفيٌّ، وهو جاهليٌّ، وثَقِيفٌ يومئذٍ أزداد بالبلدة وبالمال وبالحدائق والجنان، ولهم اللات والغَبَّعُ، وبيتٌ له سدنة يضاهنون بذلك قريشاً، فقال مع اجتماع هذه الأسباب التي توجب الحسد والمنافسة:

إِنَّ آيَاتِ رَبَّنَا

بَيِّنَاتٌ

مَا يَمَارِي فِيهِنَّ

إِلَّا الْكُفُورُ

حَبَسَ الْفَيْلَ
بِالْمَغْمَسِ حَتَّى

ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ
مَعْقُورٌ

وَاضِعًا حَلْقَةً
الْجِرَانَ كَمَا قُطِّ

رَ صَخْرٌ مِنْ
كَبْكَبٍ مَحْدُورٌ

وقال بعضهم لأبرهة الأشرم:

أَيْنَ الْمَفْرُ
وَإِلَه
الطَّالِبِ

وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ
غَيْرُ الْغَالِبِ

وقال عبد المطلب يوم الفيل وهو على حراء:

لَاهُمْ إِنْ
المرء يم

نَع رَحْلَهُ فَاْمَنْعُ
حِلَالِكُ

لا يغلبنَّ
صليبيهم

وَمِحَالَهُمْ أَبَدًا
مِحَالِكُ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ

لَتَنَا فَاْمُرْ مَا بَدَا

وَقَبْ

لَكَ

وقال نُفَيْلُ بن حَبِيبِ الخَثَمِيِّ، وهو جاهليٌّ شهدَ الفيلَ
وصُنِعَ اللهُ في ذلكَ اليومِ:

أَلَا رُدِّي

جَمَالِكَ يَا

رُدِّيْنَا

نَعْمَانَا
مَعَ
الإصْبَاحِ عَيْنَا

فَأَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ

وَلَنْ تَرِيَهُ

لَدَى جَنْبِ
المَحْصَبِ مَا
رَأَيْنَا

أَكَلُ النَّاسِ

يَسْأَلُ عَنِ

نُفَيْلِ

كَأَنَّ عَلِيَّ
لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

حَمِدْتُ اللهُ أَنْ

عَايَنْتُ طَيْرًا

وَحَصَبَ حَجَارَةٍ
تُلْقَى عَلَيْنَا

وقال المغيرة بن عبد الله المخرومي:

أَنْتَ حَبَسْتَ الْفِيلَ
بِالْمَغْمَسِ

حَبَسْتَهُ كَأَنَّهُ
مُكَرَّدَسٌ

مُحْتَبَسٌ تَزْهَقُ
فِيهِ الْأَنْفُسُ

قال الله تبارك وتعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ
الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَأْكُولٍ"، وأنزل هذه السورة وقريشٌ يومئذٍ مُجْلِبُونَ فِي
الرَّدِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا شَيْءٌ أَحَبُّ
إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَرَوْا لَهُ سَقَطَةً أَوْ عَثْرَةً أَوْ كِذْبَةً، أَوْ بَعْضَ
مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِثْلَهُمْ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ أَذْكَرَهُمْ أَمْرًا لَا
يَتَدَافَعُونَهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَدُوُّ إِنْكَارَهُ، لِلَّذِي يُرَى مِنْ إِطْبَاقِ
الْجَمِيعِ عَلَيْهِ، لَوْجَدُوا أَكْبَرَ الْمَقَالِ، فَهَذَا بَابٌ يَكْثُرُ الْكَلَامُ
فِيهِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهِ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ.

وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ"، مِثْلَ قَوْلِهِ: "أَلَمْ تَرَ
إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ"، وَقَالَ: "وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"، وَهَذَا كُلُّهُ
لَيْسَ مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ لَنَا.

استطرد لغوي وباب آخر من هذا، وهو قوله: "وَتَرَاهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، ويقول الرجل: رأيتُ
الرجلَ قال كذا وكذا، وسمعتُ اللهَ قال كذا، وفلانٌ يرى
السيفَ، وفلانٌ يرى رأيَ أبي حنيفة، وقد رأيتُ عقلَهُ
حسناً، وقال ابن مُقبل:

بَحَيْثَ يَرَى
هَضْبَ الْقَلِيبِ
الْمُضِيحُ

سَلِ الدَّارَ مِنْ
جَنْبِي حَبْرٍ
فَوَاهِبِ

وإذا قابلَ الجبلُ الجبلَ فهو يراه، إذ قام منه مقام الناظر
الذي ينظر إليه.

وتقول العرب: دارُ فلانٍ تَنْظُرُ إلى دارِ فلانٍ، ودورُ بني
فلانٍ تتناظر.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ
مع مشركٍ قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: لا تتراءى
ناراها.

ويقولون: إذا استقمت تلقاءَ وجهك فنظَرَ إليك الجبلُ فَخُدُّ
عن يمينك، وقال الكميت:

خَطَافٍ
وَسَرَحَةً
وَالْأَحْدَلُ

وَفِي ضَبْنٍ حِقْفٍ
يَرَى حِقْفَهُ

جسامة الفيل

قال أبو عثمان: خرجت يومَ عيدٍ، فلما صرت بعيساباذ إذا أنا بتلٍّ مُجَلَّلٍ بقطوع ومقطّعات، وإذا رجالٌ جلوسٌ، عليهم أسلحتهم فسألت بعضَ مَنْ يشهدُ العيدَ فقلت: ما بال هذه المسلّحة في هذا المكان وقد أحاطَ النَّاسُ بذلك التلِّ؟ فقال لي: هذا الفيلُ فقصدتُ نحوَه وما لي همٌّ إلاّ النّظرُ إلى أذنيه فرجعتُ عنه بعد طول تأمّل وأنا أتوهمُ عامّةَ أعضائه بل جميعَ أعضائه إلاّ أذنيه، وما كانت لي في ذلك عِلَّةٌ إلاّ شغْلَ قلبي بكلِّ شيءٍ هجمتُ عليه منه، وكلُّه كان شاغلاً لي عن أذنه التي إليها كان قَصْدِي، فذاكرتُ في ذلك سهلَ بنَ هارونَ، فذكر لي أنّه ابتليَ بمثلها، وأنشدني في ذلك بيتين من شعره، وهما قوله:

لأُبصِرَ أذنه

أتيتُ الفيلَ

محتسباً بقصدي

ويطول فكري

فلم أر أدنه
ورأيت خلقاً

يقرب بين
نسياني وذكري

أعجب الأشياء قال: وقال رجل مرة: أخزى الله الفيل فما أقبحه، فقال بكر بن عبد الله المزني: لا تشتم شيئاً جعله الله آية في الجاهلية، وإرهاصاً للنبوة.
وقال سعدان الأعمى النحوي: قلت للأصمعي: أي شيء رأيت أعجب؟ قال: الفيل.

وقيل لابن الجهم: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: الشر.
وقيل لإبراهيم النظام: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال:
الروح.

وقيل لأبي عقيل بن دُرست: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال:
النوم واليقظة.

وقيل لأبي شمر: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: النسيان
والذكر.

وقيل لسلم الخلال: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: النار.
وقيل لبطليموس: أي أمور الدنيا أعجب؟ قال: بدن
الفلك، وقال مرة أخرى: الضياء.

وقيل لأبي عليٍّ عمرُ بنُ فائدِ الأُسُورِيِّ: أيُّ شيءٍ ممَّا رأيتَ أعجب؟ قال: الآجالُ والأرزاقُ، وكان إبراهيمُ بنُ سيَّارِ النَّظَامِ شديدَ التعجُّبِ من الفيلِ.

وكانَ مَ عَبدُ بنُ عَمرَ يقولُ: إنَّ السرطانَ والنعامةَ أكثرَ عجائبَ من الفيلِ، وهذا كله تفسير قول الخضر في بعض الدواب أبو عقيل السَّوَّاقِ، عن مُقاتلِ بنِ سليمانَ، قال: قال موسى للخضر: أي الدوابِّ أحبُّ إليك، وأيُّها أبغضُ؟ قال: أحبُّ الفرسَ والحمارَ والبعيرَ؛ لأنَّها من مراكب الأنبياءِ، وأبغضُ الفيلَ والجاموسَ والثورَ.

فأمَّا البعيرُ فمركبُ هُودٍ وصالحٍ وشعيبٍ والنبيِّينَ عليهم السلامِ، وأمَّا الفرسُ فمركبُ أولي العزمِ من الرُّسلِ وكلِّ من أمره اللهُ بحملِ السِّلاحِ وقتالِ الكفارِ، وأمَّا الحمارُ فمركبُ عيسى بنِ مريمَ وعُزَيْرِ وبلعَمَ، وكيف لا أحبُّ شيئاً أحياه اللهُ بعدَ موته قبل الحشرِ.

قال: ولَمَّا نظرَ الفضلُ بنُ عيسى الرَّقَاشِيُّ إلى سَلَمِ بنِ قُتَيْبَةَ على حمارٍ يريدُ المسجدَ قال: قَعْدَةُ نَبِيٍِّّ وبُدْلَةٌ جَبَّارٍ. وأبغضُ الفيلِ لأنَّه أبو الخنزيرِ، وأبغضُ الثورِ لأنَّه يشبهه الجاموسُ، وأبغضُ الجاموسَ لأنَّه يشبهه الفيلَ.

وأنشدني في هذا المعنى جَعْفَرُ ابْنُ أُخْتِ واصل، في
منزل الفضل بن عاصم البأخرزيّ:

أحب عيراً وذا كم غاية الكذب	ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا
وكان في الفلك فراجاً من الكرب	وكيف يبغض شيئاً فيه معتبرٌ
حاجاتِ نفسكِ من جدٍ ومن لعبِ	والفيلُ أقبُلُ شيءٍ لو تلقنهُ
زيّ الملوكِ لقد أوفى على الركبِ	ولو تتوجّ فينا واحدٌ فرأى
وليس يعد له النشوانُ في	يغضى ويركعُ

تعظيماً لهيبته

الطرب

وليس يجذل إلا

حر ومنبته من

كلُّ ذي فخرٍ

خالص الذهب

مثل الزنوج فإنَّ

بالجود

والتطويل في

الله فضلهم

الخطب

قال: أنشدنيها يونس لابن رباح الشارزنجي، فمدح الفيل
كما ترى بالطرب والحكاية، وأنه قد أدب وعلم السجود
للملوك.

سجود الفيل للملك

وزعموا أن أول شيء يؤدّبونه به السجود للملك؛ قالوا:
خرج كسرى أبرويز ذات يوم لبعض الأعياد، وقد صفوا
له ألف فيل، وقد أحرق به وبها ثلاثون ألف فارس، فلما
بصرت به الفيلة سجدت له، فما رفعت رأسها حتى جذبت
بالمحاجن وراطنها الفيالون.
وقد شهد ذلك المشهد جميع أصناف الدواب: الخيل فما

دونها، وليس فيها شيءٌ يفصل بين الملوك والرعيّة،
فلما رأى ذلك كسرى قال: ليت أنّ الفيل كان فارسياً ولم
يكن هندياً، انظروا إليها وإلى سائر الدوابّ، وفضلوها
بقدر ما ترون من فهمها وأدبها.
وأما ما ذكر به الزنج من طول الخطب فكذلك هم في
بلادهم وعند نوابهم، ولكنّ معانيهم لا ترتفع عن أقدار
الدوابّ إلا بما لا يذكر.

ما قيل في تعظيم شأن الفيل

وأنشدوا في تعظيم شأن الفيل وصحة نظره وجودة
تحديقته وتأمله، وسكون طرفه، والشعر لبعض
المتكلمين:

ظننت بأنّ الفيلَ
يلزمه الفرضُ

إذا ما رأيت
الفيل ينظر
قاصداً

وقد قيل إن الشعر لسهل بن هارون.
مثل النون والضب وقال عبد الأعلى القاصّ: يقال في
المثل: إنّ النون قال للضبّ حين رأى إنساناً في الأرض:

إني قد رأيتُ عجباً، قال: وما هو؟ قال: رأيتُ خُلُقاً
يمشي على رجليه، ويتناول الطعام بيديه فيُهوي به إلى
فيه، قال: إن كان ما تقولُ حقاً فإنه سيُخرجني من قعر
البحر ويُنزلك من وَكْرِكَ من رأس الجبل.

تناول الفيل والقرد طعامه

والفيل أعجبُ منه، لأنَّ يده أنفه، وأيدي البهائم والسباع
على حال عاملة شيئاً، والقرد يأكل بيديه وَيَنقِي الجوزة
ويتفلى ويفلي أنثاه، وليس شيءٌ يكرع بأنفه ويوصلُ
الطعامَ إلى فيه بأنفه غير الفيل.
إطعام الدب ولدها والدب الأنثى تُقيم أولادها تحت شجرة
الجوز، ثم تصعد الشجرة فتجمع الجوز في كفها، ثم
تضرب باليمنى على اليسرى فتحطم ذلك الجوز فترمي
به إلى أولادها، فلا تزال كذلك حتى إذا شبعن نزلت.
وربما قطع الدبُّ من الشجرة العُصن العُبل الضخم الذي
لا يقطعه صاحب الفأس إلا بالجهد الشديد، ثم يشد به
على الفارس قابضاً عليه في موضع مقبض العصا فلا
يصيب شيئاً إلا هتكه.

قلة تصرف يدي الفيل

قال صاحب المنطق: ليس شيءٌ من ذوات الأربع إلاّ
وتصرّف يديه في الجهات أقلّ من تصرّف يدي الفيل.

شعر في وصف جلد الفيل والجاموس

وقال أبو عثمان: ويوصف جلدُ الفيل، وجلدُ الجاموس
بالقوّة، قال جميل:

كما امتدّ نهيُ
الأصْلَفِ
المترقِرِ

إذا ما علّتْ
نَشْرًا تَمُدُّ
زَمَامَهَا

ومن جلدِ
جاموسٍ سمينِ
مطرَقِ

وما يبتغي مني
العداءُ تفاقدوا

له بعد إخلاص
الضريبة رَوْنَقُ

وأبيضَ من ماءِ
الحديدِ
اصطفيتهُ

شعر فيه ذكر الفيل وقال كعبُ بن زهير في اعتذاره إلى
النبيِّ صلى الله عليه وسلم:

أرى وأسمع ما	لقد أقومُ مقاماً
لو يسمعُ الفيلُ	لو يقوم به
من الرّسولِ بأمر	لظلاً يرعدُ إلاّ
الله تنويلُ	أن يكون له

وذكر أمية بن أبي الصلت سفينة نوح فقال:

مَع قوَيِّ	تصرخ الطَّيرُ
السَّبَاعِ	والبرية فيها
والأفِيالِ	
بين ظهريِّ	حينَ فيها من كلِّ
غواربِ	ما عاشَ زوجٌ
كالجبالِ	

وقال أمية أيضاً:

خَلَقَ النَّخْلَ
مُعْصِرَاتٍ
تَرَاهَا

تَعَصِفُ الْيَابِسَاتِ
وَالْمَخْضُورَا

وَالْتَمَاسِيحِ
وَالثِّيَاتِلِ
وَالْأَيِّ

لَ شَتَّى وَالرَّيْمِ
وَالْيَعْفُورَا

وَصُوراً مِنْ
النَّوَاشِطِ عَيْنَاً

وَنَعَاماً خَوَاضِبَاً
وَحَمِيرَا

وَأَسْوَدَاً
عَوَادِيَاً
وَفِيُولَاً

وَسِبَاعَاً وَالتَّمْرَ
وَالْخَنْزِيرَا

طيب عرق الفيل

وتزعم الهند أنّ جبهة الفيل في بعض الزمان تعرق عرقاً غليظاً غير سائل، يكون أطيّب رائحة من المسك، وهذا شيءٌ يعتريه كلّ عامٍ، وموضع ذلك ينبوع في جبهته.

فأرة المسك والإبل والنَّاسُ يَجِدُونَ رِيحَ الْمَسْكِ فِي
بيوتهم في بعض الأحيان، وهي رِيحُ فَأَرَةٍ يُقَالُ لَهَا فَأَرَةٌ
الْمَسْكِ، وَالَّذِي يَكُونُ فِي نَاحِيَةِ خِرَاسَانَ الَّذِي لَهُ فَأَرُ
الْمَسْكِ لَيْسَ بِالْفَأْرِ، وَهُوَ بِالْخِشْفِ حِينَ تَضَعُهُ الطَّبِيبَةُ
أَشْبَهُهُ.

وتقول العرب في فأرة الإبل صادرةً: إِنَّ أَرْجَ ذَلِكَ الْعَرَقِ
أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ الْأَدْفَرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ
مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.
قال الراعي:

كَمَا فَتَقَ الْكَافُورَ
بِالْمَسْكِ فَاتَقَهُ

لَهَا فَأَرَةٌ
ذَفْرَاءُ كُلِّ
عَشِيَّةٍ

قال الأصمعيّ قلت لأبي مَهْدِيَةَ، أَوْ قِيلَ لِأَبِي مَهْدِيَةَ: كَيْفَ
تَقُولُ لَا طِيبَ إِلَّا الْمَسْكِ؟ قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَانِ، قَالَ:
فَقِيلَ لَهُ: فَقُلْ: لَا طِيبَ إِلَّا الْمَسْكِ وَالْبَانِ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ
عَنِ أَذْهَانِ بَحْجَرٍ، قَالُوا لَهُ: فَقُلْ: لَا طِيبَ إِلَّا الْمَسْكِ
وَالْبَانُ وَأَذْهَانُ بَحْجَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتُمْ عَنِ فَأَرَةِ الْإِبْلِ
صَادِرَةٌ؟.

قالوا: وربّما وجدَ النَّاسُ في بيوتهم الجُرْدُ يضرب إلى السَّوَادِ، يجدونَ من بدنه إذا عدا إلى جُحره رائحةً تشبه رائحةَ المسك، وبعضُ النَّاسِ يزعم أن هذا الجنسَ هو الذي يَحْبَأُ الدَّنَانِيرَ والدرَاهِمَ والحُلِيَّ، كما يصنع العَقْعَقُ والغُرَابُ.

وهذا الجردُ غير فارة المسك التي تكون بخراسان، وتلك بالخِشْفِ الصَّغِيرِ أشبهه، وإنما يأخذون سُرَّتَه وهي مَلَأَى من دمٍ عَبِيطٍ.

الآية في الفيل

قالوا: وقد جعل الله الفيلَ من أكبر الآيات وأعظم البرهانات للبيت الحرام ولِقَبْلَةِ الإسلام، وتأسيساً لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً لشأنه ولما أجرى من ذلك على يدي جدّه عبد المطلب، حين غدت الحبشة لتهدم البيت الحرام وتُذِلَّ العرب، فلم يذكر الله منهم ملكاً ولا سوقةً باسم ولا نسب ولا لقب وذكر الفيلَ باسمه المعروف، وأضاف السورة التي ذكر فيها الفيل إلى الفيل، وجعل فيه من الآية أنهم كانوا إذا قصدوا به نحو البيت تعاصى وبرك، وإذا خلّوه وسومَه صدَّ عنه

وَصَدَفَ، وَفِي أضعاف ذلك التَقَمَ أذَنَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ،
 وَقَالَ: اِبْرُكُ مُحَمَّدًا، وَكَانَ ذَلِكَ اسْمَهُ.
 الطعن في قصة الفيل وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا: قد
 يستقيم أن ينصرف عنه وَيَحْرَدَ دُونَهُ، كَلَّ ذَلِكَ بِتَصْرِيفِ
 اللَّهِ لَهُ، وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَفْهَمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَيَعْرِفَ مَعْنَى
 قَوْلِ نُفَيْلٍ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: قَدْ يَفْهَمُ الْفِيلُ عَنِ الْفِيَالِ جَمِيعَ
 الْأَدَبِ وَالتَّقْوِيمِ، وَجَمِيعَ مَا يَرِيدُ مِنْهُ عِنْدَ الْحَطِّ وَالرَّحِيلِ
 وَالْمُقَامِ وَالْمَسِيرِ، قُلْنَا: قَدْ يَفْهَمُ بِالْهِنْدِيَّةِ كَمَا يَعْرِفُ الْكَلْبُ
 اسْمَهُ، وَيَعْرِفُ قَوْلَهُمْ اخْسَأْ، وَقَدْ يَعْرِفُ السَّنُورُ اسْمَهُ
 وَيَعْرِفُ الدُّعَاءَ وَالرَّجْرَ، وَكَذَلِكَ الطُّفْلُ وَالْمَجْنُونُ، وَكَذَلِكَ
 الْحِمَارُ وَالْفَرَسُ إِذَا كَنَّ قَدْ عُوِّدُنَ تِلْكَ الْإِشَارَةَ، وَسَمَاعُ
 تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، فَأَمَّا الْفِيلُ وَهُوَ هِنْدِيٌّ جَلَبَهُ إِلَى تِلْكَ الْبَلَدَةِ
 حَبَشِيٌّ، فَخَرَجَ مِنْ عَجْمَةَ إِلَى عَجْمَةَ، كَيْفَ يَفْهَمُ مَعَ ذَلِكَ
 لِسَانَ الْعَرَبِ وَسِرَارَ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ بِالْعَرَبِيَّةِ؟ قُلْنَا: قَدْ
 يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُ كَلَامًا بِالْهِنْدِيَّةِ كَانَ قَدْ تَعُوِّدَ
 سَمَاعَهُ مِنَ الْفِيَالِينَ، فَيَكُونُ تَرْجَمَتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ هَذَا الْكَلَامَ
 الَّذِي حَكَوْهُ، وَقَدْ يَكُونُ الَّذِي أَنْطَقَ الدُّبَّ لِأَهْبَانَ بْنِ
 أَوْسٍ؛ وَجَعَلَ عَوْدَ الْمُنْبَرِ يَحِنُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ، أَنْ يَصَوِّرَ لَوْهَمَ الْفِيلِ إِرَادَةَ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ، وَقَدْ

يستقيم مع لَقْن الفيل وذَكَانِه وحكايته ومُؤاتاته، أن يعرف ذلك كَلَّه وأكثرَ منه، لطول مُقامِه في أرض الحَبْشَة واليمن، وليس يبُعد أن يكون بأرض الحَبْشَة جماعةً كثيرةً من العرب من وافد وباغ وتاجر، وغير ذلك من الأصناف، فيسمع ذلك منهم الفيلُ فيُعرفه، وليس هذا المقدار بمستنكر من الفيل، مع الذي قد أجمَعُوا عليه من فهم الفيل ومَعرفته.

وكان منكه المتطبب الهنديّ صحيح الإسلام، وكان إسلامه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبُّت، قالوا: فسمع مرّةً من رجل وهو يقرأ: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"، وسمع بعض الجهال يقول: فكيف لو رأى الفيل؟ فعذله قوم، فقال منكه: لا تَعذِّلوه فَإِنَّه لا شكَّ أنَّ خَلَقَ الفيلَ أَعْجَبُ، فقل له: فكيف لم يضرب به الله تعالى المثلَ دون البعير؟ فقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، فقلت له: ليس الفيلُ بأعجبَ من البعير، واجعله يعجب من البعير، وهو إنما خاطب العرب، وهم الحجة على جميع أهل اللغات، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الأمم بعد الترجمة على السنة هؤلاء العرب، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الأمم، وكيف يجوز أن يعجب

جماعة الأمم من شيءٍ لم يروه قطّ، ولا كانَ على ظهرها
يوم نزلت هذه السورة رجلٌ واحد كان قد شهد الفيلَ
والحبشة، وعلى أنّ الفيلَ وافى مكةَ وما بها أحدٌ إلا عبدُ
المطلب في نفي من بقية الناس، ولا كانوا حيث يتأملون
الفيل.

وقد قال ناسٌ: كان الناسُ رجلين، رجلٌ قد سمع بهذا
الخبر من رجال قريش الذين يجترّون إلى أنفسهم بذلك
التعظيم، كما كانت السدنة تكذب للأوثان والأصنام
والأنصاب، لتجترّ بذلك المنافع، ورجلٌ لم يكن عنده علمٌ
بأن هذا الخبر باطل فلم يتقدّم على إنكار ذلك الخبر،
وجميع قريش تثبته.

قيل لهم: إنّ مكةَ لم تزل دارَ خِزاعةٍ وبقايا جرهم وبقايا
الأمم البائدة، وكانت كنانة منها النساء، وكانت مرّ بن أدّ
من رهط صوفة والرّبيط منها أصحاب المزدلفة، وإيهم
كانت السدانة، وكانت عدوان وأبو سيارة عميلة بن
أعزل، تدفع بالناس، وقد كان بين خِزاعة وبقايا جرهم
ما كان حتى انتزعوا البيت منهم، وقد كان بين ثقيف
وقريش لقرب الدار والمصاهرة، والتشابه في الثروة
والمشاكل في المجاورة تحاسدٌ وتنافر، وقد كان هناك

فيهم المولى والخلفاء والقطن والنازلة، ومن يحج في كل عام، وكان البيت مزوراً على وجه الدهر، يأتونه رجالاً وركباناً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، وبشق الأنفس، كما قال الله تعالى: "فَجَعَلَ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ"، وكانوا يقرب سوق عكاظ وذو المجاز، وهما سوقان معروفان، وما زالتا قائمين حتى جاء الإسلام، فلا يجوز أن يكون السائب والمسلوب، والمفتخر به والمفتخر عليه، والحاسد والمحسود، والمتدين به والمنكر له، مع اختلاف الطبائع وكثرة العلل، يُجمعون كلهم على قبول هذه الآية وتصديق هذه السورة، وكلهم مُطبق على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، والكفر به. والمحطون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حُرمةً: طيئ كلها، وخنعم كلها، وكثير من أحياء قضاة ويشكر والحارث بن كعب، وهؤلاء كلهم أعداء في الدين والنسب، هذا مع ما كان في العرب من النصارى الذين يخالفون دين مشركي العرب كل الخلفاء، كتغلب، وشيبان، وعبد القيس، وقضاة، وعسان، وسليح، والعباد، وتنوخ، وعاملة، ولخم، وجدام، وكثير من بلحارث بن كعب، وهم

خُلْطَاءٌ وَأَعْدَاءٌ، يُغَاوِرُونَ وَيَسْتَبُونَ، وَيُسَبِّى مَنْهُمْ، وَفِيهِم
النُّوُورُ وَالْأَوْتَارُ وَالطَّوَائِلُ، وَهِيَ الْعَرَبُ وَالسَّنْتَةُ الْجِدَادُ،
وَأَشْعَارُهَا الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَيَاسِمٌ، وَهَمَمُّهَا الْبَعِيدَةُ، وَطَلْبُهَا
لِلطَّوَائِلِ، وَذَمُّهَا لِكُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ مِنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ،
فِي الْأَشْعَارِ وَالْأَرْجَازِ وَالْأَسْجَاعِ، وَالْمَزْدَوِجِ وَالْمَنْثُورِ،
فَهَلْ سَمِعْنَا بِأَحَدٍ مِنْ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنْكَرَ شَأْنٍ
الْفَيْلِ، أَوْ عَرَضَ فِيهِ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ.

كلام الفيل والذئب

وَرَزِيْنُ الْعَرُوضِيِّ - وَهُوَ أَبُو زَهْرٍ - لَمْ أَرِ قَطُّ أَطِيبَ مِنْهُ
اِحْتِجَاجًا، وَلَا أَطِيبَ عِبَارَةً قَالَ فِي شِعْرٍ لَهُ يَهْجُو
وَلَدَ عَقْبَةَ بْنِ جَعْفَرٍ، فَكَانَ فِي احْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعِهِ
لَهُمْ أَنْ قَالَ:

فَقَدْ لَعِمْرِي
أَبُوكُمْ كَلَّمُ
الذَّيْبَا

تَهْتَمُّ عَلَيْنَا بَانَ
الذَّيْبَ كَلَّمَكُمْ

تَرَكَتُمْ النَّاسَ

فَكَيْفَ لَوْ كَلَّمُ

الآيُثُ الهُصُورُ
إِذَا

مَأْكُولاً
وَمَشْرُوباً

هَذَا السُّنْدِيُّ لَا
أَصْلَ وَلَا ظَرْفَ

يَكَلِّمُ الْفِيلَ
تَصْعِيداً
وَتَصْوِيباً

ولو كان ولد أهبان بن أوس ادَّعوا أَنَّ أباهم كَلَّمَ الذَّنْبَ،
كانوا مجانين وإنما ادَّعوا أَنَّ الذَّنْبَ كَلَّمَ أباهم، وأَنَّهُ ذُكِرَ
ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ صَدَّقَهُ.
والفيلُ ليس يكَلِّمُ السُّنْدِيَّ، ولم يَدَّعِ ذَلِكَ السُّنْدِيُّ قَطُّ،
وربَّما كان السُّنْدِيُّ هو المَكَلَّمُ لَهُ، والفيلُ هو الْفَهْمُ عَنْهُ،
فذهب رَزِينُ الْعَرُوضِيِّ مِنَ الْعَلَطِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ.
ما يَكَلِّمُ مِنْ ضُرُوبِ الْحَيَوانِ وَالنَّاسِ قَدْ يَكَلِّمُونَ الطَّيْرَ
وَالهَيْائِمَ وَالْكَلابَ وَالسَّنَانِيرَ وَالْمَرَابِ، وَكُلَّ ما كانَ
تَحْتَهُمْ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوانِ الَّتِي قَدْ خَوَّلُوهَا وَسُخَّرَتْ
لَهُمْ، وَربَّما رَأَيْتَ الْقَرَّادَ يَكَلِّمُ الْقَرْدَ بِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ الْكَلَامِ،
وَيُطِيعُهُ الْقَرْدُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ رَبَّما رَأَيْتَهُ يَلْقَنُ
الْبَبْغَاءَ ضُرُوباً مِنَ الْكَلَامِ، وَالْبَبْغَاءَ تَحْكِيهَ، وَإِنَّ فِي
غَرابِ الْبَيْنِ لَعَجَباً، وَكَذَلِكَ كَلَامُهُمُ لِلدَّبِّ وَالْكَلبِ وَالشَّاةِ

المكّيّة، وهذه الأصناف التي تَلَقَن وتَحْكِي.
تكليم الأنبياء للحيوان وقد رَوَى الناسُ عن النبي صلى
الله عليه وسلم في كلام السَّبَّاع والإبل ضروباً، ولم
يذهبوا إلى أنها نطقت بحروف مقطعة، ولكن النبي صلى
الله عليه وسلم إما أن يكون الله أوحى إليه بحاجاتها،
وإما أن تكون فراسته وحسّه وتثبُّته في الأمور، مع ما
يُخْضِرُهُ اللهُ من التوفيق، بَيَّنَّ له معانيها وجلالها له،
واستدلَّ بظاهر على باطن، وبهيئة وحركة على موضع
الحاجة، وإمّا أن يكون الله ألهمه ذلك إلهاماً.
وأما جهة سليمان بن داود، صلى الله عليه وسلم، على نبينا وعليه،
في المعرفة بمنطق الطير ومنطق كلِّ شيء، فلا ينبغي
أن يكون ذلك إلا أن يقوم منها في الفهم عنها مقام
بعضها من بعض، إذا كان الله قد خصّه بهذا الاسم،
وأبانه بهذه الدلالة، وأعلام الرُّسُل لا يكثر عددها، ولا
تعظم أقدارها على أقدار فضائل الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء
فوق سليمان بن داود، وأدنى ذلك أن داود فَوْقَهُ، لأن
الحكم في الوارث والمورث، والخليفة والذي استخلفه،
أن يكون الموروث أعلى، والمستخلف أرفع، كذلك ظاهر
هذا الحكم حتى يخصّ ذلك برهان حادث.

وإنما تكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان،
وعلى قدر الأسباب التي تتفق وتتهيا لقوم دون قوم،
وهو أن يكونوا جبابرة عتاة، أو أغياء منقوصين، أو
علماء معاندين، أو فلاسفة محتالين، أو قوماً قد شملهم
من العادات السيئة وتراكم على قلوبهم من الإلف للأمور
المردية، مع طول لبث ذلك في قلوبهم، أو تكون نخلتهم
وملتهم ودعوتهم تحتل من الأسباب والاحتمالات أكثر
مما يحتمل غيرها من ذلك، فإن من الكفر ما يكون عند
المسألة، والجواب أسرع انتشاراً وأظهر انتقاضاً، ومنه
ما يكون أمتن شيئاً، وإن كان مصير الجميع إلى
الانتقاض وإلى الفساد، ومنه شيء يحتاج من المعالجة
إلى أكثر وأطول، وإنما يتفاضل العلماء عند هذه الحال،
وقد يكون أن ينقدح في قلوب الناس عداوات وأضغان
سببها التحاسد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في
الصناعة، وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن
عامّة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي
الشعوبية والتمادي فيه، وطول الجدل المؤدي إلى
القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك
اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب

مَنْ أَبْغَضَ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ، فَلَا تَزَالُ الْحَالَاتُ تَنْتَقِلُ بِهِ حَتَّى
يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِسْلَامِ، إِذْ كَانَتْ الْعَرَبُ هِيَ الَّتِي جَاءَتْ بِهِ،
وَكَانُوا السَّلْفَ وَالْقَدْوَةَ.

أثر العُلْمَةِ في الجسم والعمر وتزعم الهندُ أَنَّ شِدَّةَ عُلْمَةِ
الْفَيْلِ وَطَوْلَ أَيَّامِهِ فِيهَا وَهَجْرَانَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَبَقِيَّةَ
تِلْكَ الطَّبِيعَةِ، وَعَمَلَ ذَلِكَ الْعَرَقِ السَّارِي، هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ
الْفَيْلَ أَنْ يَصِيرَ فِي جِسْمِهِ مَرَّتَيْنِ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَمْتِنِ
أَسْبَابِ الْهُزَالِ، وَإِذَا تَقَادَمَ ذَلِكَ فِي بَدَنِ وَغَبَّ فِيهِ، عَمِلَ
فِي الْعِظْمِ وَالْعَصَبِ، بَعْدَ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ، وَإِذَا كَانَ رَفْعُ
الصَّوْتِ وَالصِّيَاحُ وَكثُوثُ الْكَلَامِ وَالغَضَبُ وَالْحَدَّةُ، إِنَّمَا
صَارَ يُوْرثُ الْهُزَالَ لِأَنَّ الْبَدْنَ يَسْخُنُ عَنِ ذَلِكَ، وَ إِذَا
شَاعَتْ فِيهِ الْحَرَارَةُ أَحْرَقَتْ وَأَكَلَتْ وَشَرِبَتْ، وَلِذَلِكَ صَارَ
الْخَصِيُّ مِنَ الدِّيُوكِ وَالْأَنْعَامِ أَسْمَنَ.

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا يَعَايِشُ النَّاسَ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ
أَقْصَرُ عَمراً مِنَ الْعَصْفُورِ، وَلَا أَطْوَلُ عَمراً مِنَ الْبِغْلِ،
وَلِلْأُمُورِ أَسْبَابٌ، فَلَيْسَ يَقَعُ الظَّنُّ إِلَّا عَلَى قَلَّةِ سِفَادِ الْبِغْلِ
وَكَثْرَةِ سِفَادِ الْعَصْفُورِ.

قالوا: وَنَجِدُ الْعَمَرَ الطَّوِيلَ أَمْراً خَاصاً فِي الرُّهْبَانِ، فَظَنَّ
أَيْضاً أَنَّ تَرْكَهَا الْجِمَاعَ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ.

قالوا: وإذا اغتلم الذكْرُ من الحيوان فهو أخبث ما يكون
لحماً، وإذا كثر سِفادهُ تضاعَفَ فيه ذلك، وصار لحمه
أبيسَ ودُمهُ أقلَّ.
قال الشاعر:

أَوْ جُرْدًا يَرعى
رَبِيعاً أَرْمَلًا

أَحِبُّ أَنْ أَصْطادَ
ضَبًّا سَحْبَلًا

فجعله أَرْمَلًا لا زوجةَ له ليكون أَسْمَنَ له؛ لأنَّ كثرةَ
السفادِ مما يورث الهزال، ولا يكثر سفاده إلا من شدَّة
غُلْمته.
وهجا أعرابيُّ صاحبه حين أكل لحمَ سَوْءٍ عَثَّ فقال:

كالوَرلِ السافدِ
يَغْنى بالنَّسَمِ

أكلته من عَرَثِ
ومن قَرَمِ

لأنَّ لَحْمَ الوَرلِ لا يشبه لحم الضبِّ، وهم لا يرغبون في
أكله لأنه عَضِلٌ مَسِيخٌ، ولأنهم كثيراً ما يجدون في جوفه
الحيَّاتِ والأفاعي، وله ذنَبٌ سمينٌ، وذلك عامٌّ في
الأذنان، وإن رأيتها في العين كأنها عضلٌ، فإذا كان
لحمها كذلك، ثم كان في زمن هيجه وسفاده كان شراً له.

وللورل في السَّفاد ما يجوز به حَدّ الجملِ والخنزيرِ.
قال: والنسم هو النَّسيم في هذا المكان.
وقالت أمُّ فَرْوة القرنية:

فما إنْ به
عيبٌ تراه
لشارب

نفي نَسَمُ الرِّيحِ
القَدَى عن مُتُونِهِ

وأنا أعلمُ أني لو فسَّرْتُ لك معانيَ هذه الأشعارِ وغريبِها،
لكانَ أتمَّ للكتابِ وأنفعَ لمن قرأَ هذه الأبوابِ، ولكني
أعرفُ مِلاةَ الناسِ للكتابِ إذا طال، قال الشاعر يهجو
من قرأه لحمَ كلب:

كَرَاديسُ من
أوصالِ أَعْقَدِ
سافِدِ

فجاءَ
بخرِشاوِي
شعيرِ عليهما

فلم يرضَ أنْ جعله كلباً حتى جعله سافداً، فأما ابنُ
الأعرابيِّ فزعمَ أنَّه إنما عَنَى تيساً، وقد أَبطلَ، وعلى أنَّ
المعنى فيهما سواءُ.
أثر الخصاء في اللحم قالوا: وإنما صار الخصيُّ من كلِّ

جنسِ أَسْمَنَ لِأَنَّهُ لَا يَسْفَدُ وَلَا يَهِيْجُ.
السَّقْتَقُورُ قَالُوا: وَالسَّقْتَقُورُ إِنَّمَا يَنْفَعُ أَكْلَهُ إِذَا اصْطَادُوهُ
فِي أَيَّامِ هَيْجِهِ وَسِفَادِهِ؛ لِأَنَّ الْعَاجِزَ عَنِ النَّسَاءِ يَتَعَاجَلُ
بِأَكْلِ لَحْمِهِ، فَصَارَ لَحْمُ الْهَائِجِ أَهْيَجَ لَهُ.
أَبُو نُوَاسٍ وَالْحَرَامِيُّ أَقْبَلَ أَبُو نُوَاسٍ وَمَعَهُ الْحَرَامِيُّ
الْكَاتِبُ، وَكَانَ أَطْيَبَ الْخَلْقِ، وَقَدْ كَانَا قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ نَظَرَا إِلَى
الْفَيْلَةِ فَأَبْصَرَا غُرْمُولَ فَيْلٍ مِنْهَا، وَعَلِمَ الْحَرَامِيُّ أَنَّ
غُرْمُولَ الْفَيْلِ يُوصَفُ بِالْجَعْبَةِ، فَوَصَفَ لَنَا غُرْمُولَهُ،
وَأَنشَدْنَا فِيهِ شِعْرًا لِنَفْسِهِ:

جَعْبَةٌ تُرْكِيٌّ
عَلَيْهَا لِبْدُ

كَأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ
لِلسَّفْدِ

قُلْنَا لَهُ: أَقْوَيْتَ وَاجْتَلَبْتَ ذِكْرَ اللَّبْدِ عَنِ غَيْرِ حَاجَةٍ، قَالَ:
فَإِنِّي قَدْ قَلْتُ غَيْرَ هَذَا، قُلْنَا: فَأَنشِدْنَا، فَقَالَ:

شَمْعَةٌ قَيْلٍ لَفَقْتُ
فِي لِبْدِ

كَأَنَّهُ لَمَّا دَنَا
لِلشَّدِّ

قُلْنَا: فَلَا نَرَى لَكَ بُدْأً مِنَ اللَّبْدِ عَلَى حَالٍ؟ قَالَ: قَالَ أَبُو
نُوَاسٍ: فَإِنِّي أَقُولُ عَنْكَ بَيْتَيْنِ، قَالَ: فَهَاتِيهِمَا، فَقَالَ:

كَأَنَّهُ لَمَّا دَنَا
لِلوُثْبَةِ

أَيُورُ أَعْيَارٍ جَمْعِن
ضَرْبَهُ

قال الحَرَامِي لِأَبِي نَوَاسٍ: هَبْهُمَا لِي عَلَيَّ أَنْ لَا تَدَّعِيَهُمَا،
فَعَسَى أَنْ أَنْتَحِلَهُمَا، قُلْتَ لَهُ: وَمَا تَرْجُو مِنْ هَذَا الضَّرْبِ
مِنَ الْأَشْعَارِ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ عُرْمُوْلَهُ، فَمَا عُذْرِي عِنْدَ
الْفَيْلِ إِنْ لَمْ أَقُلْ فِيهِ شَيْئاً.

فهم الفيل الهندية

وَحَدَّثَنِي صَدِيقٌ لِي قَالَ: رَأَيْتُ الْفِيَالَيْنِ عَلَى ظَهْرِ فَيْلٍ مِنْ
هَذِهِ الْفَيْلَةِ، وَأَقْبَلَ صَبِيٌّ يَرِيدُ السَّنْدِيَّ الرَّكَّابَ، فَكَلَّمَ الْفَيْلَ
بِالْهِنْدِيَّةِ فَوَقَّفَ، ثُمَّ كَلَّمَهُ فَمَدَّ يَدَهُ رَافِعَهَا فِي الْهَوَاءِ حَتَّى
رَكَّبَهَا الْغَلَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى مَدَّ السَّنْدِيَّ يَدَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِ
الصَّبِيِّ.

أَخْلَافُ الْحَيَوَانِ وَأَطْبَاؤُهُ وَلِلْبَقَرِ وَالْجَوَامِيسِ أَرْبَعَةٌ
أَخْلَافٍ فِي مَوْخَرِ بَطُونِهَا، وَلِلشَّاةِ خِلْفَانِ، وَلِلنَّاقَةِ أَرْبَعَةٌ
فِي مَوْخَرِ الْبَطْنِ، وَلِلْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ وَالْفَيْلِ ثَدْيَانِ فِي
الصَّدْرِ، وَتَدْيُ الْفَيْلِ يَصْغُرُ جَدًّا إِذَا قَرْنَتْهُ إِلَى بَدْنِهِ،
وَلِلسَّنَّورِ ثَمَانِيَةٌ أَطْبَاءٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلْبَةُ فِي جَمِيعِ بَطُونِهَا،

والخنزيرة كثيرة الأطباء، وللفهدة في بطنها أربعة
أطباء، وللبوة طبيان لا يصغران عن مقدار بدنهما،
والبقرة والأتان والرمكة والحجر في ذلك سواء، إلا أنها
من الحافر أطباء، ومن الظلف أخلاف، والسباع في ذلك
والحافر سواء.

عضو الفيل

وقال صاحب المنطق: غرمول الفيل يصغر عن مقدار
بدنه، وخصيته لاحقة بكليته لا ترى، ولذلك يكون سريع
السفاد.

وزعم الهندي صاحب كتاب الباه أن أعظم الأيور أير
الفيل، وأصغرها أير الظبي.

الفيل في كتاب الحيوان

وما أعجب ما قرأت في كتاب الحيوان لصاحب المنطق،
وجدته قد ذكر رأس الفيل وقصر عنقه، ولم يذكر انقلاب
لسانه، وذلك أعجب ما فيه، ولم يذكر في كم يضع، ولا
مقدار وزن أعظم الأنياب وكيف يخرج من بطن أمه نابت
الأسنان.

خصائص الفيلة

والفيلة لا تلد التوام، قال: وهي تفد وتُفرد، قال: وقال بعض العلماء: لا يقال أفدت ولا أفردت إلا لما يجوز أن يُنتم.

قال: وأمراضها أقل من أمراض غيرها، إلا أن النَّفخ والرياح يعرض لها كثيراً ويؤذيها أذى شديداً، وعامة أمراضها من ذلك، حتى ربما منعه البول وغير ذلك، قال: وإذا أكلت التراب ضررها ذلك، ولا سيما إذا أكثرته منه فعاودته.

علاج الفيلة قال: وربما ابتلعت منه الحجارة، قال: وإذا أصابها استطلاق سقيت الماء الحار وعلفت الحشيش المغسول، وإذا أتعبوها اعتراها السهر، فتعالج عند ذلك بأن تُدلك أكتافها بزيت وماءٍ حار، قال: وبعضها يشرب الزيت شرباً دريعاً.

تذليل الفيل قال: وإذا تصعب الفيل وكان في حِذنان ما اقتطعوه من الوحش فإنهم يُنزون عليه فيلاً مثله، ويحتالون له في ذلك؛ فما أكثر ما يجدونه بعد ذلك قد لأن.

قال: وهو مادام ركبته عليه فهو ألين من كل ذي أربع،
وأحسن طاعة، ولكن لبعضها صعوبة عند نزوله عنه،
فإذا شدوا مقادير قوائمها بالحبال شداً قوياً لانت.
قال: وهي على صعوبتها تأسُّ سريعاً وتلقنُ سريعاً،
فأول ما يعلم السجود للملك، فإذا عرفه فلما رآه سجد
له.

صدق حس الفيل فأما صدق الحس فهو يفوق في ذلك
جميع الحيوان، وهو والجمل سواء إذا علما، لأن الأنثى
إذا لقحت لم يعاوداها للضراب، فهذه فضيلة مذكورة في
حس الجمل، وقد شاركه الفيل فيها وباينه في خصال
أخر.

بعض خصائص الفيل وإناث الفيلة وذكرها متقاربة في
السن، وكذلك النساء والرجال، وهو بحري الطباع، ونشأ
في الدفاء، وهو أجرد الجلد، فلذلك يشتد جزعه من
البرد، فإن كان أجرد الجلد، فما قولهم في أحاديثهم:
طلبوا من الملك الفيل الأبيض والفيل الأبقع، وجاء فلان
على الفيل الأسود.

حقد الفيل قال: وأخبرني رجل من البحرين لم أر فيهم
أقصد ولا أسد ولا أقل تكلفاً منه، قال: لم أجدهم يشكون

أَنَّ فَيْلًا ضَرَبَ فَيْلًا فَأَوْجَعَهُ فَأَلَحَّ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ
نَهَوْهُ وَخَوَّفُوهُ وَقَالُوا: لَا تَنَمْ حَيْثُ يِنَالُكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ
الْحَيَوَانَاتِ الَّذِي يَحْقِدُ وَيُطَالِبُ، وَلَمَّا أَرَادَ ذَلِكَ السَّائِسُ
الْقَائِلَةَ شَدَّهُ إِلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ وَأَحْكَمَ وَثَاقَهُ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنْهُ
بِمَقْدَارِ ذِرَاعٍ وَنَامَ، وَلِذَلِكَ السَّائِسُ جُمَّةً، قَالَ: فَتَنَاولَ
الْفَيْلُ بِخُرْطُومِهِ غَصَنًا كَانَ مَطْرُوحًا، فَوَطِئَ عَلَى طَرْفِهِ
حَتَّى تَشَعَّتْ، ثُمَّ أَخَذَهُ بِخُرْطُومِهِ، فَوَضَعَ ذَلِكَ الطَّرْفَ عَلَى
جُمَّةِ الْهِنْدِيِّ، ثُمَّ لَوَاهَا بِخُرْطُومِهِ، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّهَا قَدْ
تَشَبَّكَتْ بِهِ وَانْعَقَدَتْ، جَذَبَ الْعُودَ جَذْبَةً فَإِذَا الْهِنْدِيُّ تَحْتَ
قَوَائِمِهِ، فَخَبَطَهُ خَبْطَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا.

فَإِنَّ كَانَ الْحَدِيثَ حَقًّا فِي أَصْلِ مَخْرَجِهِ فَكِفَاكُ بِالْفَيْلِ
مَعْرِفَةٌ وَمَكِيدَةٌ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْحَلُوا الْفَيْلَ هَذِهِ
النَّحْلَةَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الدَّوَابِّ إِلَّا وَفِيهِ عِنْدَهُمْ مَا يَحْتَمَلُ
ذَلِكَ وَيُلِيقُ بِهِ.

طِيبُ عِرْقِ الْفَيْلِ قَالَ: وَالْعِرْقُ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ جَبْهَتِهِ فِي
زَمَنِ مِنَ الزَّمَانِ يُضَارِعُ الْمِسْكَ فِي طِيبِهِ، وَلَا يُعْرِضُ لَهُ
وَهُوَ فِي غَيْرِ بِلَادِهِ.

أثر المدن في روائح الأشياء

وقد علمنا أنّ لرائحة الطيب فضيلةً إذا كان بالمدينة،
وأنّ الناسَ إذا وجدوا ريحَ النّوى المنقَع بالعِراق هَرَبوا
منه، وأشرف أهل المدينة ينتابون المواضع التي يكون
فيها ذلك، التماساً لطيب تلك الرائحة.
ويزعم تجار التُّبْتِ ممن قد دَخَلَ الصِّينَ والزَّابِجَ، وقَلَبَ
تلك الجزائر، ونَقَبَ في البلاد، أنّ كلَّ من أقام بقصبة تُبَّت
اعتراه سُورٌ لا يدري ما سببُه، ولا يزال مبتسماً ضاحكاً
من غير عَجَب حتى يخرج منها.
ويزعمون أنّ شيرازَ من بين قُرى فارس، لها فِعْمَةٌ
طَيِّبَةٌ، ومَنْ مَشَى واختلف في طُرقات مدينة الرّسول
صلى الله عليه وسلم، وجدَ منها عَرَفاً طَيِّباً وَبَنَةً عَجِيبَةً
لا تخفى على أحدٍ، ولا يستطيع أن يسمّيها.
ولو أدخلت كلَّ غالية وكلَّ عطر، من المِعْجونات وغير
المِعْجونات، قَصْبَةَ الأهواز أو قَصْبَةَ أنطاكية لوجدته قد
تغيّر وفَسَد، إذا أقام فيها الشَّهْرَيْنِ والثَّلَاثَةَ.

أثر بعض التمر في العرق

وأجمَعَ أهلُ البَحْرَيْنِ أنّ لهم تمرّاً يسمى النَّابِجِيّ، وأنّ
مَنْ فَضَّخَهُ وجَعَلَهُ نَبِيذاً ثمَّ شربه وعليه ثوبٌ أبيض،

صَبَغَهُ عِرْقَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ ثَوْبٌ أُتْحَمِيٌّ
اسْتَعْمَلَ الْفَيْلَةَ وَزَعَمَ لِي بَعْضُ الْبَحْرِيِّينَ أَنَّهَا بِالْهِنْدِ
تَكُونُ نَقَالَةً وَعَوَامِلَ كَعَوَامِلِ الْبَقْرِ وَالْإِبِلِ، وَالنَّقَالَةَ الَّتِي
تَكُونُ فِي الْكَلَاءِ وَالسُّوقِ، وَأَنَّهَا تَذَلُّ لَذِكُ وَتُسَامِحُ
وَتُطَاوِعُ، وَأَنَّ لَهَا غَلَاتٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
وَزَعَمَ لِي أَنَّ أَحَدَ هَذِهِ الْفَيْلَةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا بِسُرٍّ مِنْ رَأْيِ،
أَنَّهُ كَانَ لِقَصَّارٍ بِأَرْضِ سَنْدَانَ، يَحْمِلُ عَلَيْهِ الثِّيَابَ إِلَى
الْمَوْضِعِ الَّذِي يَغْسِلُهَا فِيهِ، وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا الْفَيْلَ الَّذِي بَعَثَ
بِهِ مَاهَانُ أَوْ زَكْرِيَا بْنُ عَطِيَّةٍ.
الْعَاجُ قَالُوا: وَعِظَامُ الْفَيْلِ كُلُّهَا عَاجٌ، إِلَّا أَنَّ جَوْهَرَ النَّابِ
أَثْمُنُ وَأَكْرَمُ، وَأَكْثَرُ مَا تَرَى مِنَ الْعَاجِ الَّذِي فِي الْقِيَابِ
وَالْحِجَالِ وَالْفُلْكِ وَالْمَدَاهِنِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِظَامِ الْفَيْلِ،
يَعْرِفُ ذَلِكَ بِالرَّرْزَانَةِ وَالْمَلَّاسَةِ.
وَالْعَاجُ مَتَجَرٌ كَبِيرٌ، وَيَتَصَرَّفُ فِي وَجُوهِ كَثِيرَةٍ، وَلَوْلَا
قَدْرُهُ لَمَا فَخِرَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فِيمَا فَخِرَ بِهِ عَلَى أَهْلِ
الْكُوفَةِ، حَيْثُ قَالَ: نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْكُمْ عَاجًا وَسَاجًا، وَدِيْبَاجًا،
وَخِرَاجًا، وَيُقَالُ إِنَّهُ مِنْ كَلَامِ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ، وَيُقَالُ إِنَّهُ
مِنْ كَلَامِ أَبِي بَكْرِ الْهَذَلِيِّ.
مَوْتُ الذِّبَابِ وَإِذَا خَفِقَ بِأُذُنِهِ الْفَيْلُ فَأَصَابَ دُبَابًا أَوْ

يعسوباً أو زنبوراً لم يفلح، والفرسُ الكريم تقَعُ الذبابة
على موقِي عِينِهِ، فيصْفقُ بِأَحَدِ جَفْنَيْهِ، فتخْرُ الذبابة
مَيْتَةً، وقال ابن مَقْبِل:

صِفَاقُ أَدِيمٍ
بِالْأَدِيمِ يُقَابِلُهُ

كَأَنَّ اصْطِفَاقَ
مَأَقْيَبِهِ بِطَرْفِهِ

ويصيح الحمار فتصعق منه الذبابة فتموت، قال
العَبْشَمِيُّ:

بِكَلِّ مَيْثَاءٍ
كَتَغْرِيدِ الْمَعْنِ

مِنْ الْحَمِيرِ
صَعِقًا ذِبَانُهُ

وقال عُقْبَةُ بْنُ مَكْدَمِ التَّغْلِبِيِّ:

أَعْوَجِيًّا يَطْنُ
رَأْسَ الذُّبَابِ

وَتَرَى طَرْفَهَا
حَدِيدًا بَعِيدًا

وقال ابن مَقْبِل:

فَرَادَى وَشَتَى
أَصَعَقَتْهَا

تَرَى النَّعْرَاتِ
الْخُضْرَ تَحْتَ

لَبَانِهِ

صَوَاهِلُهُ

وَأَنشُدْ فِي غَيْرِ هَذَا الْبَابِ:

وَإِنِّي لِقَاضٍ بَيْنَ
شِيْبَانَ وَائِلِ

وَيَشْكُرُ إِنِّي
بِالْقَضَاءِ
بَصِيرٌ

وَجَدْنَا بَنِي شِيْبَانَ
خُرُطُومَ وَائِلِ

وَيَشْكُرُ خَنْزِيرٌ
أَدْنُ قَصِيرٌ

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، وَأَنشُدْ:

أَمْسَى الْمَضَاءُ
وَرَهْطُهُ فِي
غَبِطَةٍ

لَيْسُوا كَمَا كَانَ
الْمَضَاءُ يَقُولُ

لَا تَخْرَأُ الدَّبَانُ
فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ

فَالْيَوْمَ تَخْرَأُ
فَوْقَهَا
وَتَبُولُ

قول زياد في بناء داره أبو الحسن قال: قال زياد ودخل داره، وكان بناها له فيلٌ مؤلاه، فلم يرضَ بناءها، فقال: ادعوا لي فيلاً، فلم يجدوه، فقال: ليتها في بطن فيل، وفيلٌ في البحر.

قصة فيل مولى زياد

وكان فيلٌ مولى زيادٍ شديد اللُّكنة، وأهدى بعضهم إلى زيادٍ حمارٍ وحش، فقال فيل: أصلح الله الأمير، قد أهدوا لنا همارَ وهش فقال: أيّ شيء تقول ويملك؟ قال: أهدوا لنا أيراً، يريد عيراً فقال زياد: الأوّل أمثل.

العيثوم

وكان أبو مالكٍ يقول: العيثوم الفيلُ الأنثى، وذهب إلى قول الشاعر:

وطنيّ عليك بخفها العيثومُ

ويدلّ قولُ علقمة بن عبدة على أنّ العيثومَ من صفات الفيل العظيم الضخم، وقال:

تَتَّبِعُ جُونًا إِذَا
مَا هَيَّجَتْ
زَجَلَتْ

كَأَنَّ دُقًّا عَلَى
الْعَلْيَاءِ مَهْزُومٌ

إِذَا تَزَعَّمْ مِنْ
حَافَاتِهَا رُبْعٌ

حَنَّتْ شَعَامِيمٌ
مِنْ أَوْسَاطِهَا
كُومٌ

يَهْدِي بِهَا
أَسْجَحُ الْخَدَّيْنِ
مُخْتَبِرٌ

مِنْ الْجَمَالِ
شَدِيدُ الْخَلْقِ
عَيْثُومٌ

ضرب المثل ببعده ما بين الجنسين وقد أكثروا في ضرب
المثل ببعده ما بين الجنسين، وقال عبد الرحمن بن الحكم:

أَتَغَضَبُ أَنْ
يَقَالَ أَبُوكَ عَفٌّ

وَتَرَضَى أَنْ يُقَالَ
أَبُوكَ زَانِي

وَأَشْهَدُ أَنْ
رَحِمَكَ مِنْ

كَرْحَمِ الْفِيلِ مِنْ
وَلَدِ الْأَتَانِ

زياد

فجعل معاويةً من نسل الفيل لشرفه، وجعل زياداً من
نسل الحمار لضعته ولعمري لقد باعد؛ لأنّ الغنم وإن
كانت من النعم من ذوات الجرّة والكروش فإنّ ما بين
الغنم والإبل بعيد.
وكذلك قول الكميت:

على الحيتان من
شبه الحسول

وما خلّت
الضباب
معطفات

قال: فهذا أبعد وأبعد، لأنه وإن ذهب إلى أنّ ولد نزار
عربٌ فهم في معنى الضباب وساكني الصحارى، وأولئك
عجم، فجعلهم كالسمك الذي يعيش في الماء، ألا ترى أنّ
معاوية بنّ أبي سفيان بن يزيد بن معاوية، لما قتلته
ضبةً دسّت في استه سمكة.
قال جرير:

إلا قرابة بين

ما بين تيم

الزنج والرّوم

وإسماعيل من
نسب

فقال قطرب: الصّقالبة أبعد، قيل له: إنّ جريراً لا يفصل
بين الصّقالبة والرّوم.

وعلى معنى الكميت قال الآخر: حتى يؤلف بين الضّب
والنّون وتقول العرب: لا يكون ذاك حتى يجمع بين
الأروى والنّعام لأنّ الأروى جبليّة والنّعام سهلية، وقد
قال الكميت:

ويعجب أن نبرّ
بني أبينا

يؤلف بين
ضفدعة وضبّ

وهذا هو معناه الأوّل، وأبعد من هذا قول الشاعر:

حتّى يؤلف بين الثلج والنّار

قصة الجارية وأمها وقال أبو الحسن المدائني: قال أبو
دهمان الغلابي عن الوقاصي، قال وحدثني بذلك الغيداقيّ
عن الوقاصي قال: قالت جارية لأمّها ليلة زفافها: يا أمّة،
إن كان أير زوجي مثل أير الفيل كيف أحتال حتى أنتفع

به؟ قال: فقالت الأم: أي بُنيّة قد سألت عن هذه المسألة
أمي فذكرت أنّها سألت عنها أمّها فقالت: لا يجوز إلا أن
يجعلك الله مثل امرأة الفيل، قال: فسكتت حولاً ثم قالت
لأمّها يا أمّه، فإنّي إن سألت ربّي أن يجعلني مثل امرأة
الفيل أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: يا بُنيّة، قد سألت
عن هذه المسألة أمّي فذكرت أنّها سألت عنها أمّها
فقالت: لا يجوز ذلك إلا أن يجعل الله جميع نساء الرّجال
مثل نساء الفيلة، قال: فسكتت عنها حولاً ثم قالت: فإن
سألت ربّي أن يجعل نساء جميع الرّجال مثل نساء الفيلة
أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قالت: يا بُنيّة، قد سألت عن مثل
هذه أمّي فذكرت أنّها سألت أمّها عنها فقالت: لا يجوز
ذلك إلا أن يجعل الله جميع رجال النساء مثل رجال نساء
الفيلة، قال: فسكتت عنها حولاً ثم قالت فإن سألت ربّي
أن يجعل جميع رجال النساء مثل جميع رجال نساء
الفيلة أتطمعين أن يفعل ذلك؟ قال: يا بُنيّة، قد سألت عن
هذه المسألة أمّي فذكرت أنّها قد سألت أمّها عنها، وأنّها
قالت: يا بُنيّة، إنّ الله إنّ جعل جميع النّاس فيلّة لم تجد
امرأة الفيل مع عظم بدنّها من اللدّة إلا مثل ما تجد
أنت اليوم مع زوجك من اللدّة، ثم تذهب عنك لدّة الشّمّ

والتَّقْبِيلِ وَالضَّمِّ وَالتَّقْلِيْبِ، وَالْعَطْرِ وَالصَّبْنِ، وَالْحَلْيِ
وَالْمِشْطَةِ وَالْعِتَابِ وَالتَّفْدِيَةِ وَجَمِيعِ مَا لِكَ الْيَوْمِ، قَالَ:
فَسَكَتَتْ حَوْلًا ثُمَّ قَالَتْ: يَا أُمَّه، إِنَّ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ
أَيْرَ الْفَيْلِ أَعْظَمَ أَتَطْمَعِينَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ الْأُمُّ: أَيُّ
بُنْيَةٍ، قَدْ سَأَلْتُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أُمِّي فَذَكَرَتْ أَنَّهَا سَأَلَتْ
عَنْهَا أُمَّهَا، وَأَنَّهَا قَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ، إِنَّ اللَّهَ إِنْ جَعَلَ أَيْرَ
الْفَيْلِ أَعْظَمَ، جَعَلَ حِرَّ امْرَأَةِ الْفَيْلِ أَوْسَعَ وَأَعْظَمَ، فَيَعُودُ
الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ، قَالَ: فَسَكَتَتْ عَنْهَا حَوْلًا ثُمَّ
قَالَتْ: يَا أُمَّه، فَإِنْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ أَيْرَ الْفَيْلِ أَشَدَّ
عُلْمَةً فَيَصِيرُ عَدْدُ أَكْوَامِهِ أَكْثَرَ أَتَطْمَعِينَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؟
قَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ، قَدْ سَأَلْتُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أُمِّي فَذَكَرَتْ
أَنَّهَا سَأَلَتْ أُمَّهَا عَنْهَا، وَأَنَّهَا قَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ سَلَى اللَّهُ أَنْ
يَجْعَلَ زَوْجَكَ أَشَدَّ عُلْمَةً مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لَا تَسْأَلِيهِ
ذَلِكَ حَتَّى تَسْأَلِيهِ أَنْ يَزِيدَكَ فِي عِلْمَتِكَ، قَالَتْ: يَا أُمَّه، فَإِنْ
سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ فِي عُلْمَةِ التَّيْسِ أَتَطْمَعِينَ أَنْ يَفْعَلَ
ذَلِكَ؟ قَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ، قَدْ سَأَلْتُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ
أُمِّي فَذَكَرَتْ أَنَّهَا سَأَلَتْ عَنْهَا أُمَّهَا، وَأَنَّهَا قَالَتْ: لَا يَجُوزُ
أَنْ يَجْعَلَ فِي عُلْمَةِ التَّيْسِ حَتَّى يَجْعَلَ تَيْسًا، قَالَتْ: يَا أُمَّه
فَإِنْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ تَيْسًا أَتَطْمَعِينَ فِي ذَلِكَ، قَالَتْ:

أَيُّ بُنْيَةٍ، إِنَّهُ لَا يَجْعَلُهُ تَيْسًا حَتَّى يَجْعَلَكَ عَنزًا، قَالَ: أَيُّ
أُمِّهِ، فَإِنْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ تَيْسًا وَيَجْعَلَنِي عَنزًا أَتَطْمَعِينَ
أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ قَدْ سَأَلْتُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ
أُمِّي فَذَكَرْتُ أَنَّهَا زَارَتْ أُمَّهَا لِتَسْأَلَهَا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ
فَوَجَدَتْهَا فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْآخِرَةِ،
وَمَا أَشْكُ أَنْ يَوْمِي قَدْ دَنَا.
فَلَمْ تَلْبَثِ الْأُمَّ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى مَاتَتْ.

باب الظلف

وَهِيَ الظَّبَاءُ وَهِيَ مَعَزٌ، وَالْمَعَزُ أَجْنَسٌ، وَالْبَقْرُ الْوَحْشِيُّ
ذَاتُ أَظْلَافٍ وَهِيَ بِالْمَعَزِ أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْبَقْرِ الْأَهْلِيِّ، وَهِيَ
فِي ذَلِكَ تَسْمَى نَعَاجًا، وَلَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الظَّبَاءِ، وَإِنْ
كَانَتْ ذَوَاتِ جَرَّةٍ وَكُرُوشٍ وَقُرُونٍ وَأَظْلَافٍ تَسَافِدٌ وَلَا
تَلَاقِحَ، وَهِيَ تُشَبِّهُهَا فِي الشَّعْرِ، وَفِي عَدَمِ السِّنَامِ.
وَمِنَ الظَّلْفِ الْوَعِلُ، وَالثَّيْتَلُ، وَالتَّامُورُ، وَالْأَيْلُ، جَبَلِيَّاتٌ
كُلُّهَا، لَا أُدْرِي كَيْفَ التَّسَافِدِ وَالتَّلَاقِحِ مِنْهَا.
وَمِنَ الظَّلْفِ الْخَنَازِيرُ وَهِيَ بِلَا كَرَشٍ وَلَا جَرَّةٍ وَلَا قَرْنٍ،
وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مَوَافِقَةٌ إِلَّا فِي الظَّلْفِ، وَفِي الْخَنَازِيرِ مَا
لَيْسَ ظِلْفُهُ بِمَنْشَقٍّ، فَذَلِكَ هُوَ الْمَخَالِفُ بِالنَّابِ وَبَعْدَمِ هَذِهِ

الأشياء كلها، وتُشاكل المعزَ والبقرةَ والظباءَ بالشعرِ
وقصر الذنَب، وتُخالف البقرَ والجواميسَ في طول الذنَب،
وفي عدد أيام الحمل. ومن الظلف الضأنُ والمعز، وقد
يكون بينهما تسافدٌ وتلاقحٌ إلا أنها تُلقيه مَليطاً قبل أن
يُشعر، وذلك أقلُّ من القليل.

ومن الظلف البقر الأهلِي، والجواميس، وهي أهليةٌ أبدأً،
وهي موافقةٌ للضأن في القرن وفي عدم النَّاب، وفي
الجرّة والكُرش، وتُخالف الضأن في الصّوف والسنام
وتوافق المعز في الشعر وتُخالف في السنام، وتُخالف
جميعَ الغنم في الحمل؛ لأن الغنمَ تضعُ لخمسة أشهر،
والبقر تضعُ كما تضعُ المرأةُ في تسعة أشهر، وليس
تُشبه المرأةُ في غير ذلك، إلا ما يذكرون من الغبِّ ونُتوُّ
الكاهل، فإنهما ربما كانا في بعض النساء، وأكثر ذلك في
نساء الدهاقين.

في الزرافة

قالوا: والزرافة تكون في أرض النوبة فقط، قالوا: وهي
تسمّى بالفارسية أشتُرْكاوُ بَلنكُ كأنه قال: بعير، بقرة،
نمر، لأن كاو هو البقرة، وأشتُر هو الجمل، وبلنك هو

النَّمر.

فزعموا أنّ الزرافة ولدُ النمرة من الجمل، فلو زعمتم أنّ
الجملَ يكوم الضَّبُعَ ويكوم بعض ما له ظلْفٌ ما كان إلا
كذلك، والمسافدةُ في أجناس المِخلب والخفّ والحافر
أعمّ، فلو جعلوا الفحلَ هو النمر، والأنثى هي الناقة، كان
ذلك أقربُ في الوهم.

وليس كلُّ ذكر يكومُ أنثى يُلقِحُها، وقد يكومُ الإنسانُ
الدابةَ بشهوةٍ منهما جميعاً ولا يكون تلاقحٌ كما اتَّفقا في
المسافدة، وإنّ الرّاعي يكومُ الغنمَ وغير الغنم.
وانظر، كم مِنْ ضَرْبٍ ادَّعَوْا ممّا لا يُعرَف: فواحدة أنّ
بهيمةَ ذكراً اشتهى سبعاً أنثى، وهو من أصعب السِّباع،
ثم الثانية أنه ألقح، والثالثة أنّ أرحامَ النمر لا تتسع
لأولاد الإبل.

قالوا: نمورُهم عظامٌ وإبلُهم لطف، وقد تتسع أرحامُ
القِلاص العربيّة لفوالج كِرمان، فتجيء بهذه الجَمَازات،
ولولا أنه فسّرَ لجازَ أن يكون النَّمْرُ يكومُ النّاقةَ فتتسع
أرحامُها لذلك.

قالوا: وفي أعالي بلاد النُّوبة تجتمع سباعٌ ووحوشٌ
ودوابٌ كثيرة، في حَمارةِ القَيْظِ إلى شِرائعِ المياه،

فتتسأفدُ هناك فيلقح منها ما يلقح، ويمتنع ما يمتنع،
فيجيءُ من ذلك خلقٌ كثيرٌ مختلفُ الصُّورة والشكل
والقَدْر، منها الزَّرَافَةُ.

وللزَّرَافَةُ حَظْمُ الجَمَلِ، والجِلْدُ للنَّمِرِ، والأظلاف والقرن
للأَيْلِ، والدَّنَبُ للظَّبْيِ، والأسنان للبقَرِ، فإن كانت أمُّها
ناقة فقد كامها نمِرٌ وظبْيٌ وأيْلٌ في تلك الشرائع، وهذا
القولُ يدلُّ على جهْلٍ شديدٍ.

والزَّرَافَةُ طويلةُ الرَّجْلينِ، منحنيةٌ إلى مآخِرها، وليس
لرجليها ركبتان، وإنما الرُّكبتانِ ليديها؛ وكذلك البهائم
كلُّها، وعَسَاهُ إنما أراد الثَّفِنَاتِ، والإنسانُ ركبته في
رجليه.

ويقولون: أُشْتَرُ مُرْكٌ للنَّعامةِ، على التَّشبيهِ بالبعيرِ
والطَّائرِ، يريدون تشابُهَ الخلقِ، لا على الولادة.
ويقولون للجاموسِ كاوماشٍ على أن الجاموسَ يُشَبَّه
الكبشَ والنَّوْرَ، لا على الولادة، لأنَّ كاو بقرة، وماشٍ
اسمٌ للضَّانِ.

وقال آخر: تضع أمُّ الزَّرَافَةُ ولدَها من بعض السَّبَاعِ، ولا
يشعرُ النَّاسُ بذلك الذَّكرِ، قالوا: كاوماشٍ على شَبَّه
الجواميسِ بالضَّانِ، لأنَّ البقرَ والضَّانَ لا يقع بينهما

تلاقح، والتفليس الذي في الزرافة لا يُشبهه الذي في النمر، وهو بالببر أشبهه، وما النمر بأحقّ به من هذا الوجه من الفهد.

تسافد الأجناس المختلفة

وقد يمكن أن تُسمَح الضَّبُع للذئب، والذئبة للذئخ، والكلبة للذئب وكذلك الثعلب والهرة، وكذلك الطير وأجناس الحمام كالورداني والورشان والحمام، وكالشهري من بين الحجر والبرذون، والرمكة والفرس، والبغل من بين الرمكة والحمار.

فأما برك الجمل على النمرة، والجمل لا بد أن تكون طروفته باركة، فكيف تبرك النمرة للجمل، والسباع إنما تتسافد وتتلاقح قائمة، وكذلك الظلف والحافر، والمخلب، والخف، والإنسان والتمساح يتبطنان الأنثى، والطيور كلّه إنما يتسافد ويتلاقح بالأستاه من خلف وهي قائمة.

شواذ السفاد

وعموا أن الغراب يُزاق، والحمر والقبج ربما ألقا الإناث إذا كانا على غلاوة الريح، ولا تكون الولادة إلا

في موضع إلقاء النُّطفة والشَّيء الذي يلحق منه. وأما السَّمكة فقد عاين قومٌ مُعارضَةَ الذَّكر للأُنثى، فإذا سَبَحَ الذَّكرُ إلى جنب الأُنثى عَقَفَ ذَنبَهُ وعَقَفَتْ ذَنبُهَا، فإلتقي المبالان فتكونُ الولادة من حيث يكون التلقيح، لا يجوزُ غير ذلك.

والذين يزعمون أن الحَجَلَةَ تَلْقَحُ من الحَجَلِ إذا كانت في سَفَالَةِ الرِّيحِ، من شيءٍ ينفصل من الذَّكر، فإنما شَبَّهوا الحَجَلَ بالنَّخْلِ، فإن النخلةَ ربما لَقِحَتْ من رِيحِ كافورِ الفُحَّالِ إذا كانت تحت الرِّيحِ.

المخايرة بين ذوات القرون والجَم

قال: وسئل الشَّرْقِيُّ عن مخايرة ما بين ذوات القرون والجَمِّ فقال: الإبل والخيل من الخَفِّ والحافر، والبرثن والمِخْلَبِ والقَدَمِ التي هي للإنسان، قال: فمن خصال ذي القرن أن منه وإليه ينسب ذو القرنين الملكُ المذكورُ في القرآن، ويزعم بعضهم أنه الإسكندر، وقال أمية بن أبي الصَّلت:

رَجُلٌ وَثُورٌ
تَحْتَ رَجُلٍ
يَمِينِهِ

وَالنَّسْرُ لِلأُخْرَى
وَلَيْتَ مُرْصَدَ

استطرد لغوي وَيَقَالُ ضَرَبَهُ عَلَى قَرْنِهِ، وَقَرْنٌ مِنْ دَمٍ،
كَمَا يَقَالُ قَرْنٌ مِنْ عَرَقٍ، وَالقَرْنُ: أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَالقَرْنُ:
شَيْءٌ يَصِيبُ فُرُوجَ النِّسَاءِ يُشْبِهُ العَقْلَةَ.

ذوات القرون

والفيل من ذوات القرون، وفي الحيات والأفاعي ما لها
قرون، وإنما ذلك الذي تسمع أنه قرن إنما هو شيءٌ
يقولونه على التشبيه، لأنه من جنس الجُدِّ والغضروف،
ولو كان من جنس القرون لكانت الحية صلبة الرأس،
والحياة أضعفُ خلق الله رأساً، ورأسه هو مَقْتَلُهُ؛ لأنَّ كُلَّ
شَيْءٍ لَهُ قَرْنٌ فَرَأْسُهُ أَصْلَبُ وَسِلَاحُهُ أتمّ، والقَرْنُ سِلَاحٌ
عَتِيدٌ غَيْرٌ مُجْتَلَبٍ وَلَا مَصْنُوعٌ، وهو لذوات القرون في
الروؤوس، وللكركدن قرنٌ في جبهته، والجاموس أوثق
بقَرْنِهِ مِنَ الأَسَدِ بِمُخْلَبِهِ وَنَابِهِ.
وتقول المجوس: يجيء بشوتن على بقرة ذات قرون.

وظهرت الآية في شأن داود وطالوت في القرن، وشبُّور
اليهود من قرن.

والبوق في الحروب مذ كانت الحرب إنما كان قرناً.
وبوق الرّحى قرن، والأيل ينصل قرنه في كل عام، وكان
سنان رُمح الفارس في الجاهلية روق ثور.

ما يسمى بروق

ويسمى الرجل بروق، والروق كالشيء يعاقب الشيء
وقال بشار في التعاقب:

أَعَقَبْتَهُ الْجَنُوبُ رَوْقاً مِنَ الْأَزْيَبِ

وفي العرب روق وأبو روق، وقال ابن ميادة:

وَقَبْلَهُ دَانَتْ لَهُ
حَمِيرٌ

دَانَ لَهُ الرَّوْقَانِ
مِنْ وَائِلٍ

الرّوقان: بكرٌ وتغلب.

استطراد لغوي

ويقال قَرْنُ الضَّحَى، وَقَرْنُ الشَّمْسِ، وَقُرُونُ الشَّعْرِ،
وَقَرْنُ الكَلَاءِ، وَقُرُونُ السُّنْبِلِ، وَأَطْرَافُ عَذُوقِ النَّخْلِ
وَأَطَافُ عُرُوقِ الحَلْفَاءِ وإِبْرَةُ العَقْرِبِ كُلُّهَا قُرُونٌ.

علاقة القرون واللحي بالذكور

والأجناس التي تكون لها القرون تكون قُرُونُهَا فِي
الدُّكُورِ مِنْهَا، وَقَدْ يَكُونُ الفَحْلُ أَجَمًّا، كَمَا أَنَّ اللَّحَى عَامٌّ
فِي الرِّجَالِ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِمُ السَّنَاطُ.

أنواع القرون وقد تَنَشَّعَ قُرُونُ الطَّبَاءِ إِذَا أُسْنَتِ.
وقرُونُ الطَّبَّاءِ وَبَقَرِ الوَحْشِ شِدَادٌ جَدًّا، وَإِنَّمَا تَعْتَمِدُ
الأَوْعَالُ فِي الوُثُوبِ وَفِي القُدْفِ بِأَنْفُسِهَا مِنْ أَعَالِي
الجبال على القُرُونِ، والأغلب على القُرُونِ أَنْ تَكُونَ
اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَقَدْ يَكُونُ لِبَعْضِ الغنمِ قُرُونٌ عِدَّةٌ.

استخدام القرون والجواميس تمنع أنفسها وأولادها من
الأسد بالقرون، وبقرة الوحش تمنع أنفسها وأولادها من
كلاب القنّاص ومن السباع التي تُطِيفُ بِهَا، بِالقُرُونِ، قَالَ
الطَّرِمَّاحُ:

أَكَلَ السَّبْعُ
ظَلَاهَا فَمَا

تَسْأَلُ الْأَشْبَاحَ
غَيْرَ انْهَزَامٍ

قصة في سفاد الخنزير وقال ابن النوشجاني: أقبلت من خراسان في بعض طُرُق الجبال فرأيت أكثر من مِئتين متّصلين في مواضع كثيرة من الأرض، أثر ستّ أرجل، فقلت في نفسي: ما أعرف دابة لها ستّ أرجل فاضطرّني الأمر إلى أن سألت المُكاري، فزعم أن الخنزير الذكّر في زمان الهيج يركب الخنزيرة وهي ترتع أو تذهب نحو مبيتها، فلا يقطع سفاده أميالاً، ويداه على ظهرها ورجلاه خلف رجليها، فمن رأى تلك الآثار، رأى ستّ أرجل، لا يدري كيف ذلك.

ما يعرف بطول السفاد قال: فالخنزير في ذلك على شبيه بحال الذباب الذكر إذا سقط على ظهر الأنثى، في طول السفاد.

وإنّ الجمل في ذلك لعجيب الشان، فأما العدد فالعصفور، ويحكى أنّ للورل في ذلك ما ليس لشيء، يعني في القوة، وأنشد أبو عبيدة:

في عَظْمِ أَيْرِ
الفيلِ في رَهْزِ
الفرسِ

وطولِ عَيْسِ
جَمَلِ إِذَا
دَحَسَ

فرس الماء

قال عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ: فرس الماء يأكل التماسيح، قال:
ويكون في النَّيْلِ خُيُولٌ، وفي تلك البحور - يعني تلك
الخُلْجان - مثلُ خيول البرِّ، وهي تأكل التماسيح أكلاً
شديداً، وليس للتماسيح في وسط الماءِ سلطان شديد إلاّ
على ما احتملّه بذنبه من الشريعة.
قال: وفرس الماء يُؤذِن بطلوع النَّيْلِ، بأثر وطء حافرِه،
فحيث وجدَ أهلُ مِصرَ أثرَ تلك الأرجل عرَفُوا أنّ ماء
النيل سينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان.
وهذا الفرس ربّما رعى الزُّروع، وليس يبدأ إذا رعى في
أدنى الزُّرع إليه، ولكنّه يحزُرُ منه قدرَ ما يأكل، فيبدأ
بأكله من أقصاه، فيرعى مُقبِلاً إلى النَّيْلِ، وربّما شرب
هذا الفرس من الماء، بعد المرعى ثم قاءه في المكان
الذي رعى فيه، فينبت أيضاً.

والطير عندنا يأكلُ التوت ويذُرِّقه، فينبت من ذرقه
شجر التوت.

قالوا: وإذا أصابوا من هذه الخيل فلواً صغيراً ربوه مع
نساءهم وصبيانهم في البيوت، ولم يزد على هذا الكلام
شيئاً.

قال: وفي سنن من أسنانه شفاءً من وجع المعدة.

التداوي بفرس الماء وبنات عرس

قال: والثوبَةُ وناسٌ من الحبشة يأكلون الحيتان نيئةً بغير
نار، ويشربون الماء العكر فيمرضون، فإذا علّقوا سنن
هذا الفرس أفاقوا، قال: وأعفاج هذا الفرس تُبرئ من
الجنون والصرع الذي يعتري مع الأهلّة.
قال: وكذلك لحومُ بنات عرسٍ سالحةٍ لمن به هذه العلة.

صيد الذئب للإنسان

قال: وإنما يكونُ الإنسان من مصايد الذئب إذا لقيه
والأرض تلجأ، فاتّه عند ذلك يحفش وجه الأرض
ويجمعه، ويضرب وجه الرجل فارساً كان أو راجلاً، قال:
ودُقاق الثلج وغباره إذا صكَّ وجه الفارس سدر

وَاسْتَرْخَى وَتَحَيَّرَ بَصْرَهُ، فَإِذَا رَأَى مَا قَدْ حَلَّ بِهِ فَرَبَّمَا
بَعَجَ بطنَ الدَّابَّةِ، وَرَبَّمَا عَضَّهَا، فَيَقْبِضُ عَلَى الْفَارِسِ
فَيَصْرَعُهُ وَلَا حَرَكَ بِهِ، فَيَأْكُلُهُ كَيْفَ شَاءَ، وَإِلَّا أَنْ يَكُونَ
الْفَارِسُ مَجْرِبًا مَاهِرًا، فَيَشُدُّ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ بِالسَّلَاحِ،
وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسِيرٌ وَيَقْطَعُ الْمَفَازَةَ، وَلَا يَدَعُهُ حِينئذٍ
يَتِمَّكَنُ مِنَ النِّفْرِ عَلَيْهِ.

تعليم الذئب وتأليفه

وَزَعَمَ عُبُويهِ أَنَّ الْخَصِيَّ الْعَبْدِيَّ الْفَقِيهَ مِنْ أَهْلِ هَمْدَانَ،
السُّودَانِيَّ الْجَبَلِيَّ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ وَلَدَتْهُ حَلِيمَةٌ
ظَنَرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ
بَكْرِ، فَزَعَمَ أَنَّ السُّودَانِيَّ أَشْبَهَهُ خَلَقَ اللَّهُ بِجَارِحَةٍ وَأَحْكَمَهُمْ
بِتَدْبِيرِ ذئبٍ وَكَلْبٍ وَأَسَدٍ وَنَمْرٍ، وَتَعْلِيمِ وَتَثْقِيفِ، وَأَنَّهُ بَلَغَ
مِنْ حَذَقِهِ وَرَفَقِهِ أَنَّهُ ضَرَى ذئبًا وَعَلَّمَهُ، حَتَّى اصْطَادَ لَهُ
الطَّبَّاءُ وَالتَّعَالِبُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْوَحُوشِ، وَأَنَّ هَذَا الذئبَ
بَعَيْنُهُ سَرَّحَهُ فَرَجَعَ إِلَيْهِ مِنْ ثَلَاثِينَ فَرَسَخًا، وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا
الذئبَ الْيَوْمَ بِالْعَسْكَرِ، وَحَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فِي الْأَيَّامِ
الَّتِي قَامَ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ
ضَرَى أَسَدًا حَتَّى أَلْفَ وَصَارَ أَهْلِيًّا صَيُودًا، حَتَّى اصْطَادَ

الحميرَ والبقرَ وعِظَامَ الوحشِ صيداً ذريعاً، إلا أنّ الأسدَ
بعد هذا كله وثب على ولدٍ له فأكله، فقتله السوداني.
والذي عندنا في الدُّب أنه يألف، ولو أخذَ إنسانٌ جرواً
صغيراً من جرائه ثم ربّاه، لما نزعَ إلا وحشياً عُدوراً
مُفسداً، ولذلك قال الأعرابي:

فمن أنباك أنّ
أباك ذيبٌ

أكلت شويهي
ونشأت فينا

فالذي حكى عبويه من شأن هذا الدُّب والأسد من غريب
الغريب.

مصارعة كلبة لتعلب

وأخبرني عبويه صاحب ياسر الخادم قال: أرسلتُ كلبة
لي فحاصرتُ ثعلباً، فوالله إن زالا كذلك حتى خرا ميتين،
قال: فقلت: أكرم بهما صيداً ومصيداً، وطالباً ومطلوباً.

من خصائص الكبار والفلاسفة

قال: وإذا أسنَّ القرشيَّ رَحَلَ إلى الحجاز. وقال: ما احتنك رجلٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوة، وقالوا: ما فكَرَ فيلسوفٌ قطُّ إلا رأى العُربةَ أجمَعَ لهمَّه وأجودَ لخواطره.

قول بكر المزني في الأَرْضَة

قال: وشتم رجلٌ الأَرْضَة فقال بكر بن عبد الله المُزني: مَه، فهي التي أكلتُ جميع الصَّحيفةِ التي تعاقَدَ المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا ذكَّر رسول الله، وبها تبيَّنت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين، وبها تكشَّف أمرها عند العوَّام بعد الفتنة العظيمة عندهم، وكان على الخاصة من ذلك أعظم المحن.

طول ذماء الضب

وخبَّرني رجلٌ من بني هاشم كان منهوماً بالصَّيدِ لهجاً به، أنه ضَرَبَ وَسَطَ ضَبِّ بالسَّيفِ فقطعه نِصْفَيْنِ، فتحرَّك كلُّ واحدٍ منهما على حيالِهِ ساعةً من نهار ثمَّ سَكَنَا.

الورل والضب

وأخبرني أنهم كانوا يُهَارِشُونَ بَيْنَ الضَّبِّ وَالْوَرَلِ، فَيُلْعَبُهُ
الْوَرَلُ حَتَّى يَقْتُلَهُ.

وَحَكَى أَنَّ الْوَرَلَ يَقْتُلُ الضَّبَّ عَلَى مَعْنَى الصَّائِدِ وَالطَّالِبِ،
وَأَنَّ الضَّبَّ يَقَاتِلُ عَلَى مَعْنَى الْمُحْرَجِ، وَأَنَّهُ هَارَشَ بَيْنَ
الْوَرَلِ وَالْحَيَّةِ فَوَجَدَ الْوَرَلَ يَقْتُلُ الْحَيَّةَ وَيَأْكُلُهَا، وَيَقْتُلُ
الضَّبَّ وَلَا يَأْكُلُهُ وَلَكِنْ حُسُولُهُ.

علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ

وَزَعِمَ أَنَّهُ وَجَدَ مَشَايخَ الْأَعْرَابِ لَا يَقْتُلُونَ وَرَلًا وَلَا قَنْفُذًا
وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَصْطَادُهُمَا، لِأَنَّهُمَا يَقْتُلَانِ الْأَفَاعِيَّ،
وَيُرِيحَانِ النَّاسَ مِنْهَا.

نوادِر من الشعر والخبر

وَأَنشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِأَبِي ذُوَيْبٍ:

كَلُونِ النَّوُورِ
وَهِيَ بِيضَاءُ
سَارُهَا

وَسَوْدَ مَاءِ
الْمَرْدِ فَاهًا
فَلَوْنُهُ

وَأَنشَدَ شَبِيهًا بِهِ لِلنَّبَاغَةِ:

يَتَحَلَّبُ اليَعْيُودِ
من أَشْدَاقِهَا

صَفْرًا مَنَاقِرُهَا
من الجَرَجَارِ

وَأَنشُدُ شَبِيهَا بِذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرْمَةَ:

كَأَنَّهَا إِذْ
خُضِبَتْ
حِنًّا وَدَمًّا

وَالْحُرْضِ وَالْعَسَنِ
وَالهَرَمِ الْعَصْمِ

وَأَنشُدُ أَيضًا:

تُعَلِّمُ الأَكْلَ أَوْلَادُ
الظَبَاءِ بِهَا

فَمَا يَحْسُ بِهَا
سَيِّدٌ وَلَا أَسَدٌ

وَأَنشُدُ:

ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةً
فَاصْطَدْتُ ظَبِيًّا

وَكُنْتُ إِذَا
ذَكَرْتُكَ لَا أَحْيَبُ

مَنْحَتُكُمْ المَوَدَّةَ
مِنْ فَوَادِي

وَمَا لِي فِي
مَوَدَّتِكُمْ نَصِيبُ

وقال ابن مَقبل:

بأَسْمَرَ عَسَّالٍ
إِذَا هُرَّ عَامِلُهُ

وكم من عَدُوٍّ قَد
شَقَقْنَا قَمِيصَهُ

وقال أيضاً:

بأَكْدَرَ من ماء
اللَّهَابَةِ
وَالعَجَبِ

ولم أَصْطَبِحْ
صُهْبَاءَ صَافِيَةً
القَدَى

عَطَارِفَةٍ شَمِّ
العَرَائِينِ من
كَلْبِ

ولم أَسْرِ في قَوْمِ
كِرَامِ أَعْرَءَةٍ

اللَّهَابَةِ وَالعَجَبِ: ماء ان من مياه كلب موصفانِ بِالْعُدُوبَةِ،
وهي في ذلك كَدِرَةٌ، وأنشد ابن مَزْرُوع لعدِيِّ بنِ عَطِيفِ
الكلبيِّ، وكان جاهليّاً:

والدَّهْرُ يَعْدُو
عَلَى الفَتَى

أَهْلَكْنَا اللَّيْلُ
وَالنَّهَارُ مَعَا

جَدَعَا

رَفَعَهَا فِي
السَّمَاءِ مِنْ
رَفَعَا

وَالنَّاسِ فِي
الأَرْضِ فُرَّقُوا
شِيَعَا

رَ وَأَرْكَى لَتُبَّعِ
تَبَعَا

إِنْ كُنْتَ شَيْبَاً
أَنْكَرْتُ أَوْ صَلَعَا

وَالشَّمْسُ فِي
رَأْسِ فُلْكِةٍ
نُصِبَتْ

أَمْرٌ بَلِيْطٍ
السَّمَاءِ
مُكْتَمٌ

كَمَا سَطَا
بِالأَرَامِ عَادٌ
وَبِالْحِجِّ

فَلَيْسَ مِمَّا
أَصَابَنِي
عَجَبٌ

قال: هو عاد بن عوص بن إرم، وسطاً بالحجر، أي بأهل
الحجر، وأركى أي أخر، والإركاء: التأخير.
وقال كعب بن زهير:

فِي خَلْقِهَا عَنْ
بَنَاتِ الْفَحْلِ
تَفْضِيلُ

فَعَمِّ مَقْلَدُهَا
عَبْلُ
مَقْيَدُهَا

وَعَمُّهَا خَالُهَا
قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ

حَرْفٍ أُخُوها
أَبُوها مِنْ
مُهَجَّنَةٍ

وكما قال ذو الرِّمَّة:

أخوها أبوها والضَّوَى لا يضيرُها

وقال سالم بن دارة:

مِنَ السَّيْرِ فِي
الظُّلْمَاءِ خِيْطَانِ
خَرْوَعِ

حَدَوْتُ بِهِمْ
حَتَّى كَأَنَّ
رِقَابَهُمْ

وقال بعض المحدثين:

مِنَ اللَّيْنِ لَمْ

وَقَدْ شَرِبُوا
حَتَّى كَأَنَّ

رِقَابَهُمْ

تَخْلُقْ لَهُنَّ عِظَامًا

وقال آخر:

كَأَنَّ هَامَهُمْ

عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ

وَالنَّوْمُ

تُعَمَدُ بِأَعْنَاقِ

وَاضِعُهَا

وقال الكميت:

وَفِي اللَّزْبَاتِ إِذَا

نَ الْقِيَّ مِنْ

مَا السُّنُو

بَرَكَهَا كَلْكُلُ

لِعَامٍ يَقُولُ لَهُ

نَ هَذَا الْمُقِيمُ

المُؤَلَّفُو

لَنَا المُرْجِلُ

وقال أيضاً:

الطَّيِّبُ تُرَبِّ

سِ وَالْمَنَابِتِ

المَعَارِ

وَالْمَكَاسِرُ

وَالسَّاحِبُونَ

نَ الأَرْضِ هُدَابَ

اللاحقو

أنتم معادين
للخلاف

بالشعة
المتابعي

وقال أيضاً:

ولا يكن
قوله إلا
لرائدها

ذهب إلى قوله:

مُسْتَأْسَدٌ ذِبَابُهُ
فِي عَيْطَلٍ

ولكن انظر كم بين الدَّيْبِاجَتَيْنِ، وفي الأوَّلِ ذَهَبَ إِلَى قَوْلِ
الأعشى:

المآزر

ة كابرأ من بعد
كابر

ن خلائفاً وبخير
عاشر

أعشبت فانزل إلى
مغشوشب العشب

يقلن للرائد
أعشبت انزل

إِذَا الْحَبْرَاتُ
تَلَوَّتْ بِهِمْ

وَجَرُّوا أَسَافِلَ
هُدَّابِهَا

قال: كان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولون:
كونوا بُلْهًا كالحمام ولقد كان الرَّجُلُ منهم يدْعُو لصاحبه
يقول: أَقَلَّ اللهُ فِطْنَتَكَ.
قال: وهذا يخالف قولَ عمرَ رضي الله عنه، حين قيل له:
إنَّ فلانًا لا يعرف الشرَّ، قال: ذلك أَجْدَرُ أن يَقَعَ فيه.
وقال النابغة الذبياني:

وَلَا يَحْسَبُونَ
الْخَيْرَ لَا شَرًّا
بَعْدَهُ

وَلَا يَحْسَبُونَ
الْشَّرَّ ضَرْبَةَ
لَا زِب

وقال الآخر:

وَلَا تَعْذِرَانِي
فِي الْإِسَاءَةِ
إِنَّهُ

شِرَارُ الرِّجَالِ
مَنْ يَسِيءُ فَيُعْذِرُ

وقالت امرأة ترثي عُميرَ بنَ مَعْبَدَ بنِ زُرارة:

وكان ضروباً
باليدين وباليدين

أعینُ ألا فابكي
عُميرَ بن مَعبدِ

تقول: بالسيف وبالقداح، لأنَّ القداح تُضربُ باليدين
جميعاً، وقال ابن مقبل:

لُدَمَ الوليدِ وراءَ
الغيبِ بالحجرِ

وللفؤادِ وجيبِ
عند أبهرِه

وقال ابن أحرر:

وفؤادُهُ زَجَلٌ كعزفِ الهدُّدِ

وكان حسّان يقول لقائده إذا شهد طعاماً: أطيحُ يدِ أم طعام
يديني؟، طعام يدين: الشوّاءُ وما أشبه ذلك، وطعام اليد:
الثرائد وما أشبهها.

وقال بعض السلاطين لغلام من غلمانه وبين يديه أسير:
اضرب، قال: بيدٍ أو يدين؟ قال: بيد، فضربه بالسّيّاط،
قال: اذهب فانت حرّ، وزوّجه وأعطاه مالاً.

وسارَّ رجلاً من الملوك بعضُ السّعاةِ بابنٍ له ذكر أنّه
بموضع كذا وكذا يشرب الخمر مع أصحاب له، فبعث

غلاماً له يتعرّف حاله في الشراب، فلما رجع وجدّ عنده ناساً فكره التفسير، فقال له: مهيم، قال: كان نقله جنباً، قال: أنت حرّ، لأنّ معاقرى الخمر يتنقلون بالجبن لأسباب كثيرة.

وكان فرجُ الحجاج مملوك جعفر بن سليمان، إذا حجه أو أخذ من شعره لم يتكلم ولم يتحرك، ولم يأخذ في شيء من الفضول، فقال جعفر ذات يوم: والله لأمتحنه، فإن كان الذي هو فيه من عقلٍ لاينته، وإن كان كالطبيعة والخلقة لأحمدن الله على ذلك، فقال له يوماً: ما اسمك يا غلام؟ قال: فرج، قال: وماكُنيتك؟ قال: لا أكتني بحضرة الأمير، قال: فهل تحتجم؟ قال نعم، قال: متى؟ قال: عند هيجه، قال: وهل تعرف وقت الهيج؟ قال: في أكثر ذلك، قال: فأبي شيءٍ تأكلُ على الحجامه؟ قال: أما في الصيف فسكباجة محمّضة عذبة، وأمّا في الشتاء فديجيراة خاترة حلوّة، فأعتقه وزوّجه، ووهب له مالاً.

وكان قاطع الشهادة، ولم يكن أحدٌ من مواليه يطمع أن يشهده إلا على شيء لا يختلف فيه الفقهاء، وهو الذي ذكره أبو فرعون فقال:

أنا حميمٌ فرجِ
الحجّام

خَلّوا الطّريق
زَوْجتي أمامي

وكان أهل المربد يقولون: لا نرى الإنصاف إلا في
حانوتِ فرجِ الحجّام، لأنّه كان لا يلتفت إلى مَنْ أعطاه
الكثيرَ دونَ مَنْ أعطاه القليل، ويقدمُ الأوّل ثمّ الثاني ثمّ
الثالثَ أبداً حتى يأتي على آخرهم، على ذلك يأتيه من
يأتيه، فكان المؤخّر لا يغيض ولا يشكو.
وقال ابن مَقرّوم الضّبي:

أعطاك ثابئة

وإذا تُعلّ بالسّيّاط جيادنا

ولم يتعلل

وعلام أركبه إذا

فدعوا نزالٍ فكنتُ أوّل نازل

لم أنزل

وظلّفت

ولقد أفدّتُ المالَ من جَمعِ امرئٍ

نفسِي عن لئيمِ المأكلِ

ولشر قول

ودخلتُ أبنيةَ الملوكِ عليهمُ

المرء ما لم يفعل

أبناء فارس

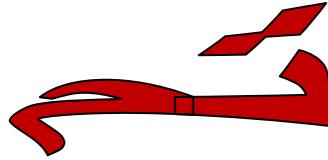
وشهدتُ مَعْرَكَةَ الْفُيُولِ وَحَوْلَهَا

بِيضَهَا كَالْأَعْبَلِ

جرب مقارفة

مَتَسْرِبِلِي حَلَقِ الْحَدِيدِ كَأَنَّ هُمْ

عَنِيَةٌ مَهْمَلٌ



الْقِرَاءَةُ زَادَ الْمَعْرِفَةَ ، وَالتَّفْكِيرُ - لِتَسْخِيرِ الْمَعْرِفَةِ

عَلِي مَوْلَا

فهرس المحتويات

تعريف بكتاب الحيوان ..	ص .. 2
تعريف بالجاحظ ..	ص .. 4
خطبة الكتاب ..	ص .. 24
الكتاب الأول	ص .. 37

أخذ البريء بذب المذب

قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته

عناية العلماء بالملح والفكاهات

أقسام الكائنات

تقسيم النامي

تقسيم الطير

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

وسائل البين

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

مزج الهزل بالجذ في الكتاب

مدح الكتب

كون الاجتماع ضرورياً

البيان ضروري للاجتماع

خطوط الهند

نفع الحساب

فضل الكتابة

فضل القلم

فضل اليد

فضل الكتاب

السماع والكتابة

فضل التعلم

جمع الكتب وفضلها

منفعة الخط

أقوال الشعراء في الخط

الكتابات القديمة

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات

الرقوم والخطوط

الخط والحضارة

تاريخ الشعر العربي

صعوبة ترجمة الشعر العربي

قيمة الترجمة

ترجمة كتب الدين

مشقة تصحيح الكتب

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

الجمازات

الترغيب في اصطناع الكتاب

الكتاب قد يفضل صاحبه

أفضل الكتب

مواصلة السير في خدمة العلم

كتب أبي حنيفة

تداعي المعاني في التأليف

مقايسة بين الولد والكتاب

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

قول صحار العبدي في الإيجاز

حقيقة الإيجاز

مواضع الإسهاب

ما يعتري الإنسان بعد الخصاء
وكيف ما كان قبل الخصاء

من طرانف عبد الأعلى القاصّ

طلب النسل

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

صوت الخصي

شعر الخصي

ذوات اللحي والشوارب

مشي الخصي

أثر الخصاء في الذكاء

خصيان السند

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

علقمة الفحل وعلقمة الخصي

نسل منزوع البيضة اليسرى

خصاء الروم

خصاء الصابنة

استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء

خصاء الجلب وقسوته

خصاء البهائم

خصاء الناس

خصاء البهائم والديكة

خصاء العرب لفحولة الإبل

خصاء العرب للخيل

.. ص 175

الكتاب الثاني :

النتاج المركب

الحمرة الوحشية

لهج ملوك فارس بالصيد

الحكمة في تخالف النزعات والميول

خضوع النتاج المركب للطبيعة

زعم في الزرافة

النتاج المركب في الطيور

زعم بعض الأعراب في الحرياء

ولد الثعلب من الهرة الوحشية

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

شده سعد القرقرة

زواج الأجناس المتباينة من الناس

مما زعموا في الخلق المركب

مطر الضفادع والشبابيط

غرور أبي وائلة والخليل بن أحمد

بيض الشبوط وتناسله

رد على ما زعموا في الزرافة

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

زعم في الإبل

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

الإبل الوحشية

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

امتناع التلاحح بين بعض الأجناس المتقاربة

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

بعض ما يعرض للخصيان

منع خصاء الإنسان وإباحته

ذكر محاسن الخصي ومساويه

أثر التكرار في خلق الإنسان

زهة الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

عقيل بن علفة وبناته

بعض ميول الخصيان

نسك طوائف من الناس

أقوال في النتاج المركب

حوار في الكلب والديك

التين والزيتون

التأمل في جناح البعوضة

كلمات الله

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ وتعدد أصناف معانيها

ما قيل من الشعر في الجُعَل

ثروة المحلول من الشعر

عصبيّة سلمويه وابن ماسويه

ما قيل في الظربان

أشعار العرب في هجاء الكلب

الفلحس والأرشم

بين جرير والراعي

قتيل الكبش وقتيل العنز

أكل لحوم الناس وما قيل في ذلك من شعر

قتيل الكلاب

أمثال أخرى في الكلب

رؤيا الكلب وتأويلها

شعر في وصف الناقة

لؤم الكلب

جبن الكلب

مما حدث للنظام

الكتاب الثالث : .. ص 359

إفساد الإعراب لنوادير المولدين

سبب اختيار الليل للنوم

نوم الملوك

تلهي المحزون بالسماع

نوادير ديسيموس اليوناني

أمثال أخرى في الكلب

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

طائفة من المسائل

أصناف الكلاب

ما اشتق من اسم الكلب

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

ما قيل من الشعر في كليب

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

ألفاظ القرآن الكريم

ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه

الشرف والخمول في القبائل

بكل واد بنو سعد

الجُفُ عند العرب

أثر الشعر في نباهة القبيلة

قصص تتعلق بالكلاب

جنايات الديك

نفع الكلب

العواء وما قيل من الشعر فيه

ما قالوا في أنس الكلب وإفنه

هجو الناس بهجو كلابهم

.. ص 492 **الكتاب الرابع :**

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

طباع الكلب العجيبة

أسرة تتوارث دواء الكلب

أعراض الكلب

رد على ما زعموا من أعراض الكلب

مما قيل في الكلب الكلب

مسألة كلامية

كرم الكلاب

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب والبقر في شعرهم

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

أحرص الكلاب

تخريق الكلب أذنيه

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

طرديات أبي نواس

أمارات البلوغ في الجواري والغلمان

شعر في نعت سرعة القوم

صفة أبي نواس لثعلب أفلت منه مراراً

صفة ما يستدلُّ به على فراهية الكلاب

وشياتها وسياستها

خير غذاء للكلب

تذليل الفيل والبعير

الفيل والسنور

الشاة والذئب

الحمام والشاهين

أعداء الفأرة

الثعلب والدجاجة

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

ما أشبه الكلب الأسود والأنسان

عظال الكلاب

إسماعيل بن غزوان وجارية موسى بن عمران

من أعاجيب الكلاب

تأويل الظالع في شعر الحطينة

طردية ثامنة لأبي نواس

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

ريح الكلاب السحاب

قول أبي حية النميري في الكلب

تعصّب فهد الأحزم للكلب

مما قيل في نباح الكلاب

فراصة إياس بن معاوية في الكلاب

خير الكلاب والسنانير

مما قيل من الشعر في نفع الكلاب

من دلائل كرم الكلب

حكم الأسباب في همم الناس

سلطان الحظ في نباهة القبيلة

سلطان الحظ على الآثار الأدبية

أثر الحظ في نباهة الفرسان

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

جود حاتم وكعب بن مامة

كلف العامة بمآثر الجاهلية

دلالة الخلق على الخالق

تأويل الآية الكريمة: "ويخلق ما لا تعلمون".

ديدان الخل والملح

فأرة البيش والسهندل

الجعل والورد

حصول الخلد على رزقه

الطانران العجيبان

اختلاف بين الحيوان في الطباع

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

خبرة الكلب في الصيد

ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

الانتباه الغريزي في الكلب

قصة في وفاء الكلب

طلب الأسد للكلب

سلاح الكلب وسلاح الدّيك

دفاع عن الكلب

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

قصة في وفاء كلب

أدب الكلب

العين التي أصابت سهل بن حنيف

الكتاب الخامس : .. ص 605

كلام في العين والحسد

القول في إصابة العين ونحوها

من أثر العين الحاسدة

دفاع عن الكلب

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العاقلين

الإلهام في الحيوان

أسمح من لافظة

دفاع عن الكلب

رضيعةٌ مُلهم

أنفة الكلب

تقدير مطرف للكلب

هراش الكلاب

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

باب ما يُشَبَّه بالكَلْبِ وليس هو منه

جواب صبي

ما يستحبّ في ذنب كلب الصيد

طيب لحم أجراء الكلاب

كرم الكلاب

نوم الكلب

لاقيت مَطْلاً كُنْعَاسِ الكُلبِ

علاج الكلب واحتماله

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قوة فكّ الكلب وأنيابه

إلف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

الحاجة إلى الكلاب

الكلب الزيّنيّ

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

حديث أكلك كلب الله

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

التسمية بمشتقات الكلب

دفاع عن الكلب

أطباء الكلبة والخنزيرة والفهدة

واقية الكلاب

بعض من كني بالكلاب

صفة عيون الكلاب

رجيع الكلاب

دفاع عن الكلب

ما يقال له: جرو

من قول الكلب

قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب

مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد

لقاح الكلاب والخنزير

تناسل الكلاب

أعمار الكلاب

أمراض الكلاب

بين عروة بن مرثد وكلب حسبه لصاً

بعض خصال الديك

استطراد لغوي

بعض من تقتل عضته

استطراد لغوي

بعض مزايا الديك

تفضيل الديك على الثعلب

قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

لحم الدجاج

حوار في صياح الديكة

تفضيل صاحب الكلب الحمار على الديك

أحاديث في الديك

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

ذبح الديك الأفرق

كيف تعرف الديك من الدجاجة إذا كان صغيراً

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

طعن صاحب الكلب في الديك

الكتاب السادس : .. ص 719

سلاح الديك

استخدام الخناقين للكلب

بعض الخبر والشعر في الخناقين

باب ما يحتاج إلى معرفته

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

بدء الإبصار عند أولاد السباع

خبث الثعلب

مقايسة بين الثعلب والكلب

قتل الحيات والكلاب

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

هديل الحمام

ما يصيح من الطير مع الفجر

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

طيور الليل

شعر في الدجاج

شعر في هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها

كلب الرفقة

احتقار العرب للصيد

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

فرار الكلب الكلب من الماء

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

ألوان الغربان

أنواع الغربان

التشاوم بالغرابة

التعابير بأكل لحم الغراب

فسق الغراب وتأويل رؤياه

غراب نوح

قبح فرخ الغراب وفرخ العقاب

دهاء أمية بن أبي الصلت

حديث العرب في الغراب

والديك وطوق الحمام

شعر أمية في الديك والغراب والحمامة

ما يلقم فراخه وما يزقها

ما له طبيعة مشتركة من الطير

هداية العصفور

سبعية الرّخم والنسر

القول في سماجة صوت الديك

صغر قدر الدجاج

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريجها

رعي الدجاج في مصر

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

شرط أبي عباد في الخمر

الونام

استطراد لغوي

السفاد والضراب ونحوهما

خصى ذكور الطير

شعر في صفة الديك

بيض الطاوس

ستطراد لغوي

ريش جناح الطائر

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

أسنان الإنسان

..ص 826

الكتاب السابع :

استنشاق القارئ ببعض الهزل

ادعاء عبد الله الكرخي الفقه

جواب أبي عبد الله المروزي

جواب شيخ كندي

جواب ختن أبي بكر بن بريرة

جواب هشام بن الحكم

سؤال ممرور لأبي يوسف القاضي

جواب الحجاج العبسي

جواب نوفل عريف الكناسين

احتجاج مدني وكوفي

جواب رجل من وجوه أهل الشام

احتجاج رجل من أهل الجاهلية

الأعمش وجليسه

رأي حفص بن غياث في فقه أبي حنيفة

علة خشنام بن هند

حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة

حيلَة أبي كعب القاص

احتجاج كوفي للتسمية بمحمد

جواب أحمد بن رباح الجوهري

جواب حارس يكنى أبا خزيمة

جواب الزبيديّ

أمنية أبي عتاب الجرّار

تعزية طريفة لأبي عتاب الجرّار

داود بن المعتمر وبعض النساء

تناسب الألفاظ مع الأغراض

الورع الزائف

تسمُّح بعض الأئمة في ذكر ألقاب

لكلّ مقام مقال

صورة من الوقار المتكلف

بعض نوادر الشعر
صدق الظنّ وجودة الفراسة

من مختار الشعر

أبيات للمحدثين حسناً

شعر لبنت عدي بن الرقاع

أشعار في معانٍ مختلفة

من شعر الإيجاز

شعر في الاتعاض والزهد

شعر في العزّو

شعر في السيادة

شعر في هجاء السادة

شعر في المجد والسيادة

أبو الحارث جمين والبرذون

بين العقل والحظ

هجو الخُف

عبد العين

من إيجاز القرآن

رأي أعرابي في تثمير المال

شعر في الهجاء

شعر حكيم

مرثية في محمد المخلوع

من نعت النساء

شعر رثاء

المديح بالجمال وغيره

خير قصار القصائد

شعر مختار

شعر في قوله يريد أن يعربه فيعجمه

بكل وادِ بنو سعد

الغضب والجنون في المواضع التي يكون فيها محموداً

إبراهيم بن هانئ والشعر

جواب أعرابي

مقطعات شتى

شعر في الخصب والجذب

أقوال مأثورة

السواد والبياض في البادية

وقل في أثر الريح في المطر

شعر في الخصب

الفطن وفهم الرطانات..

والكنايات والفهم والإفهام

حديث المرأة التي طرقها اللصوص

قصة الممهورة الشياه والخمر

قصة العنبري الأسير

قصة العطاردي

شعر في صفة الخيل والجيش

مقطعات شتى

شعر العرب والمولدين

القول في المعنى واللفظ

شعر ابن المقفع

خصال الحرم

خصال المدينة

بعضُ البلدان الرديئة

.. ص 960

الكتاب الثامن :

ذكر الحمام

أجناسه

مناقب الحمام

شرب الحمام

صدق رغبة الحمام في النسل

3081

حالات الطُّعم الذي يصير في أجواف الحيوان

زَقَّ الحمام

القوة التناسلية لدى الحمام

من عجيب أمر الحمام

مما أشبه فيه الحمام الناس

خبرة مثني بن زهير بالحمام

المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج

هديل الحمام

ما يعتري الحمام والإوز بعد السفاد

احتباس بيض الحمامة

تقبيل الحمام

تكوُّن الفرخ في البيضة

صيد البُرَّة للحمام

بلاهة الحمام وخرقه

رغبة عثمان في ذبح الحمام

أمن حمام مكة وعزلاتها

حمامة نوح

شعر في طوق الحمامة

ما وصف به الحمام من الإسعاد..

وحسن الغناء والنوح

أنساب الحمام

مما أشبه فيه الحمام الناس

مبلغ ثمن الحمام وغيره

عناية الناس بالحمام

خصائص الحمام

الغمر والمجرب من الحمام

سرعة طيران الحمام

غايات الحمام

كرم الحمام..

الإلف والأُنس والنِّزاع والشَّوق

قص جناح الحمام

أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان

تشبيهه رماد الأثافي بالحمام

شعر في نوح الحمام وفي بيوتها

شِّيات الحمام

نظافة الحمام ونَّفَع دُرِّقه

الحمام طائرٌ لننيم قاسي القلب

التلهي بالحمام

مشابهة هداية الحمام لهداية الرخم

هداية السمك والحمام

حمام النساء وحمام الفراخ

انتخاب الحمام

أدواء الحمام وعلاجها

تعليم الحمام وتدريبه

حوار مع نجار

قص الحمام ونتفه

زجل الحمام

حديث أفليمون عن نفع الحمام

الخوف على النساء من الحمام

عقاب خصي

أجناس الذبَّان

دلالة الدقيق من الخلق على الله

أمثال في الفراش والذبَّاب

احتيال الجمالين على السلطان

نفور الذبَّان من الكمأة

الخوف على المكلوب من الذبَّان

ضروب الذَّبَّان

شعر ومثل في طنين الذباب

سفاد الذباب وأعمارها

علة شدة عض الذباب

نوات الخراطيم

أمثال من الشعر في الذباب

خصلتان محمودتان في الذباب

الحكمة في الذباب

قصة في عمر الذباب

معارف في الذباب

الأصوات المكروهة

تقليد الحيوان للحيوان

تعليم البراذين والطير

ما يخترع الأصوات واللحون من الطير

اللجوج من الحيوان

لجاج الخنفساء واعتقاد المفاليس فيها

حديث أبي سيف حول حلاوة الخراء

تخلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

استطراد لغوي بشواهد من الشعر

ما تستنكره العامة من القول

حُظوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس

.. ص 1134 : الكتاب التاسع :

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام

خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ضعف أطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية

ضروب التخيل

شعر فيه هجاء بالذباب

شعر في أصوات الذباب وغنائها

ألوان الذَّبَّان

ما يسمَّى بالذَّبَّان

جهل الذبان وما قيل فيها من الشعر

قصة في الهرب من الذباب

قصة في سفاد الذباب

قصة آكل الذبان

تحقير شأن الذبابة

أعجوبة في ذبان البصرة

العجوبة في نوم الذبان

الغربان

الاستثناء في الحلف

تسمية الغراب ابن دأية

غربان الإبل

أمثال في الغراب

أمثال من الشعر والنثر في الغراب

استطراد لغوي

غراب البين

الوليد بن عقبة وعبد الله بن الزبير

القواطع والأوابد

صوت الغراب

أسماء الغراب

مراعاة التفاؤل في التسمية

ضروب من الطيرة

قاعدة في الطيرة

التشاؤم بالغراب

منقار الغراب

حوار في نفور الغربان من النخل

ما يتفانل به من الطير والنبات

عداوة الحمار للغراب

أمثال في الغراب

معرفة في الغراب

حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان

نوادير وبلاغات

شعر في الزهد والحكمة
من يهجي ويذكر بالشؤم

شعر في مديح وهجاء

عين الرضا وعين السخط

شعر وخبر

من هام على وجهه فلم يوجد
مديح الصالحين والفقهاء

شعر مختار

الجعلان والخنافس

استطراد لغوي

طلب الحيات البيض

عداوة الحمار للغراب

أمثال

طول ذماء الخنفساء

أعاجيب الجعل

تطور الدعاميص

عادة الجعل

معرفة في الجعل

أبو الخنافس وأبو العقارب

طول ذماء الخنفساء

الهدهد

معرفة الهدهد بمواضع المياه

سؤال ومثل في الهدهد

بيت الهدهد

وفاء الشفنين

من عجائب الطير

قول أبي الشيص في الهدد

الرخم

أسطورة الرخم

الغراب والرخمة

ما يطلب العذرة

الخفاش

من أعاجيب الخفاش

علاقة الأذن بنتاج الحيوان

ما يحيض من الحيوان

معارف في الخفاش

من أعاجيب الخفافيش

طول عمر الخفاش

القدرة التناسلية لدى بعض الحيوان

قول النساء في أشباهن في الخفافيش

ضعف البصر لدى بعض الحيوان

لغز في الخفاش

النهي عن قتل الضفادع والخفافيش

.. ص 1292

الكتاب العاشر :

خصائص النملة

كلام النمل

شعر فيه ذكر النمل

شعر في التعذيب بالنمل

النبي سليمان والنملة

أمثال في النمل

أحاديث وأثار في النمل

سادة الزهمل

التسمية بالنمل

أشعار في صفة السيف

بعض ما قيل في النمل

لغز في النمل

ما يدخر قوته من الحيوان

أكل الدرّ والضباع للنمل

أكل النمل للأرضة

مثل في النمل

أجنحة النمل

وسيلة لقتل النمل

جملة القول في القرد والخنزير

هوان شأن القرد والخنزير

الخنزير

زعم المجوس في المنخقة ونحوها

القرد

شنعة الخنزير والقرد

القول في الحيات

احتيال الحيات للصيد

رضاع الحية وإعجابها باللبن

ما تعجب به الحيات

قوة بدن الحية

الاحتيال لناب الأفعى

خصائص الأفعى

النمس والثعابين

القواتل من الحيات

الترياق وانقلاب الأفعى

شرب المسموم للَبْن

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

الحيات المائية

ما أشبه الحيات من السمك

شمّ الظليم

بعض ضروب الحيات

عيون الحيات والخطاطيف

نادرة تتعلق بالحيات

عداوة الورل والحية

شعر في ظلم الحية

فم الأفعى

شراة الحية والأسد

.. ص 1417

الكتاب الحادي عشر :

قول الأعراب في الأصلة

الأجدهاني

الحية ذات الرأسين

فزع الناس من الحية

طول عمر الحية

ضروب الحيات

علة الفزع من الحية

لسان الحية

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

أسماء ما يأكل الحيات

أكل القنفذ للحية

بيض الحيات

سفاد الحيات

آثار الحيات والعطاء في الرمال

روعة جلد الحية

صمم النعام والأفعى

رقى الحيات

ريح الأفعى

تأثير الأصوات

قول لأبي الوجيه العكلي

دعابة لجعفر بن سعيد

أثر الصوت في الحية

شعر في الروح وهيكلها

قول في شعر لأمية بن أبي الصلت

عقاب حواء وآدم والحية

ظلم الحية وكذبها

مرويات كعب الأحبار

نطق الحية

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

مسالمة الأفعى للقانص والراعي

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

أصل الأسروع

انسلاخ البرغوث

انسلاخ الجراد

أصوات خشاش الأرض

ضرب المثل للرَّجُلِ الداهية وللحَيِّ الممتنع بالحَيَّة

قولهم جاء بأم الربيق على أريق

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

شعر للأخطل في ذكر الحية

حَيَّة الماء

علة وجود الحيات في بعض البيوت

معرفة في الحية

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

جلد الحية

ما يشبه بلسان الحية

نفع الحية

استطراد لغوي

شعر في الحيات الأفاعي

ضرب المثل بسمّ الأسود

حيات الجبل

خبران في الحيات

شعر في سلخ الحية

تأويل رؤيا الحية

ما جاء في الحيات من الحديث

زعم زرادشت في العظايا وسوامَ أبرص

أكل الأعراب للحيات

جملة القول في الظليم

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة

إذابة جوف الظليم للحجارة

الكتاب الثاني عشر : .. ص 1572

القول في الخاصّيات والمقابلات والغرائز

باب آخر وهو أعجب من الأول

شبه النعمة بالبعير وبالطائر

قصة أذني النعمة

عظام النعمة

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

تشبيه القدر الضخمة بالنعامة

الذنب والنعام

جُبن الظليم ونفاره

ضرر النعمة

شعر في تشبيه الفرس بالظليم

الحصول على بيض النعام

تشبيهه الغيوم بالنعام

مسكن النعام

النعامه فرس خالد بن نضلة

النعامه فرس الحارث بن عباد

شعر في النعامه

رؤيا النعامه

الصم من الحيوان

شاهد من الشعر لسمع الناقة

ذكر الصم في القرآن الكريم

شعر في معنى الصمم

مثل وحديث في الصمم

صمت السيف

شعر في مجاز الصمم

قول منكر صمم النعام

قول المتكلمين في صمم الأخرس

السحابة الخرساء

الصخرة الصماء

الزبابة

شعر لحامد عجرد

حامد عجرد وبشار

القول في النيران وأقسامها

نار القربان

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

نار الاستمطار

نار التحالف والحلف

نار الحرب

نار الحرّتين

عبادة النار وتعظيمها

نار السعالى والجن والغلان

نار الاحتيال

نار الصىء والبلبىض

نار الءاباب

نار البرق

نار اللىراعة

نار الءلاءاء والمهراب

نار الوشم

.. ص 1733

الءاب الءالء عشر :

نيران العرب والءبم

الءلام على النار

قول النءام فى النار

رد على منكرى الكمون

المءاز والءشببه الأكل

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

باب آخر في مجاز الذوق

تأويل النظام لقولهم النار يابسة

استخراج الأشياء الكامنة

الأضواء والألوان

جملة القول في الضد والخلاف والوفاق

إن الصفرة متى اشتدت صارت حُمْرة

تعظيم زرادشت لشأن النهار

بعض ما قيل في صفة الحر

احتجاج النظام للكمون

الصواعق وما قيل فيها

ألوان الماء

ما قيل في حسن النار

تعظيم الله شأن النار

معارف في النار

ما قالت العرب في الشمس

نار الزحفتين

شبه ما بين النار والإنسان

ثمّ رجع بنا القول إلى ذكر النار

سقوط الجمرّة

استطراد لغوي

استطراد لغوي

استطراد لغوي

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

سرد من هج سائر الكتاب

مديح النصارى واليهود والمجوس والأندال وصغار الناس

من أراد أن يمدح فهجا

خطأ الكميت في المديح

غلط بعض الشعراء في المديح والفخر

في السُّخف والباطل

مما قالوا في السرّ

شعر في حفظ السرّ

اعتذار شيخ

.. ص 1892

الكتاب الرابع عشر :

في ذكر المنى

أمانيّ بعض الخوارج

خبر وشعر في نهري دجلة والفرات

القول في العصافير

دعوى الإحاطة بالعلم

القول في: "عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا"

أجناس الطير التي تألف دورَ الناس

ضروب الطير

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

الأجناس الفاضلة من الحيوان

حب العصافير فراخها

شدة وطء العصفور

سفاد العصفور

تيس بني جمآن

القول في الجناح واليد والرجل

نفع العصافير وضررها

عمر العصفور

بعض خصال العصفور

صياح العصافير ونحوها

أحلام العصافير

قولهم صريم سحر

العصفور والضب

عصافير النعمان

عصفور القواس

شعر في العصفور

مثل الشيخ والعصفور

العصافير الهبيرية

شعر في نطق العصفور

صيد العصافير

في العقارب والفأر والسنائير والجرذان

قتال الجرذان

قتال العقارب والجرذان

تدبير في الجرذ

فأرة سيل العرم

حديث ثمامة عن الفأر

لعب السنور بالفأر

أكل الجرذان واليرابيع والضباب والضفادع

مثل وشعر في الجرذ

طلب كثرة الجرذان

علة نتن الحيات

رجز في الفأر

التشبيه بالجرذان

أنواع الفأر

شعر وخبر في الفأر

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

أحاديث في الفأرة والهرة

وصف السنور بصفة الأسد

السنور في الهجاء

الرجم بالسنانير

احتيال اليربوع

للسنور فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان

نفع الفأر

استطراد لغوي

ميسم الشعراء

استطراد لغوي

شعر ابن عبدل في الفأرة والسنور

ضروب الفأر

باب آخر يدعونه للفأر

فأرة المسك

بيت الفأر

فأرة البيش والسمندل

مساوي السنانير

مقارنة بين السنور والكلب

اختلاف أثمان السنور

أكل الهرة أولادها

أحوال إناث السنائير وذكورها

دفاع صاحب السنور

معارف في السنور

مقارنة بين السنور والكلب

التجارة في السنائير

أكل السنائير

زعم بعض المفسرين في السنائير والخنازير

في العقرب

نفع العقرب

بعض أعاجيب العقرب

روية الخرق الذي في إبرة العقرب

موت العقرب بعد الولادة

العقارب القاتلة

لغز في العقرب

استخراج العقارب بالجراد والكرّاث

أعاجيب لسع العقرب

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

قصتان في من لسعته العقرب

في القمل والصُّوَاب

أثر لون الشَّعر في لون القملة

تولد القمل

خروج القمل من جسم الإنسان

قمل الحيوان

شعر في هجو القملين

أحاديث وأخبار في القمل

معارف وخبر في القمل

في البرغوث

شعر في البرغوث

معارف في البرغوث

ألم عضة البرغوث والقملة

في البقّ والجرجس والشّرّان والفَرّاش والأدي

شعر ورجز في البعوض

شعر ورجز في البعوض

في العنكبوت

شعر في العنكبوت

أجناس العنكبوت ونسجها

العنكبوت الذي يسمى الليث

ضروب العناكب

في النحل

نظام النحل

طعن ناس من الملحدین فی آیه النحل

دعوی ابن حانط فی نبوة النحل

أحادیث فی العسل

فی القراد

القراد فی الهجو

شعر ومثل فی القراد

استطراد لغوی

تخلق القراد والقمل

أمثال وأخبار فی القراد

فی الحباری

ما قبل من المثل فی الحباری

سلاح الحباری و غیرها من حیوان

شعر فی الحباری

خبر فيه ذكر الحبارى
القول في الضأن والمعز

فضل الضأن على المعز

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

ما قيل من الأمثال في العنز

ضرر لحم الماعز

اشتقاق الأسماء من الكبش

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

التيس في الهجاء

نتن التُّيوس

نتن العنز

مثالب العنز

تيس بني حمان

أعجوبة الضأن

فضل الضأن على الماعز

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

التشبيه بالكباش والتفاؤل بها

شعر في ذم العنز

باب في الماعز

لحم الماعز والضأن

أمثال في المعز والضأن

فضل الماعز

أمارات حمل الشاة

المِرْعَزِيّ وقراية الماعزة من الناس

الماعز التي لا ترد

جلود الماعز

الفخر بالماعز

ضهر الضأن ونفع الماعز

كرم الماعز

رجز في العنز

أقط الماعز

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

في الضفادع

زعم في الضفادع

أعجوبة في الضفادع

معارف في الضفدع

معارف في الضفدع

قول مسيلمة في الضفدع

معيشة الضفادع مع السمك

طلب الحيات والضفادع

شعر في الضفادع

سمع الضفدع

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

فضل الإنسان على سائر الحيوان

عجز الإنسان وصغر قدره

معارف في الجراد

ذنب الجرادة وإبرة العقرب

مراتب الجراد

مثل في الجراد

شعر في الجندب والجراد

تشبيه الفرس بالجرادة

تشبيه مسامير الدرع بحدق الجرادة

تشبيه وسط الفرس بوسط الجرادة

تشبيه الحباب بحدق الجراد

لعاب الجندب

طيب الجراد الأعرابي

طرفة في الجراد

تشبيه الجيش بالدبا

قول أبي إسحاق في آية الضفادع

شعر في تشبيه بالجراد

في القطا

تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة

شعر في التشبيه بالقطاة

شعر في صدق القطاة

أجود قصيدة في القطا

شعر البعيث في القطا

الكتاب السادس عشر : .. ص 2218

الخطوط ومرافقها

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

مقياس قدر الحيوان

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

شواهد هذا الكتاب

العلة في عدم إفراد باب للسّمك

فصيلة الضب

الحشرات

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

ما هو أهلي صرف أو وحشي صرف من الحيوانات

معرفة العرب للآثار والأنواع والنجوم

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

ما يجب في التعليم

الدساس وعلة اختصاصه بالذكر

الشك واليقين

الضب

جر الضب وما قيل فيه من الشعر

الموضع الذي يختاره الضب لجره

شعر في حزم الضب واليربوع

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

شعر في أكل الضب ولده

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الضبة أولادها

في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

مثل في الحية

حُتوف الحيات

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

فيمن استطاب لحم الضب ومن عافه

في حل الضب واستطابته

شعر في الضب

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

مفاخرة العُتِّ للضبِّ

القول في سن الضب وعمره

بيض الضب

سنّ الضب

قصة في عمر الضب

مكن الضبّة

عداوة الضبّة للحية

ذكر الشعراء للضب في وصف الصيف

أسطورة الضب والضفدع

قول العرب أروى من الضب

إخراج الضب من جحره

الضب والضفدع والسمكة

الضب وشدة الحر

أمثال في الضب

حديث أبي عمرة الأنصاري

دية الضب واليربوع

مسخ الضبّ وسهيل

الكتاب السابع عشر : .. ص 2365

تزاوج الجن والإنس

تزيد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

مذاهب الأعراب وشعرانهم في الجن

أخبار وطرف تتعلق بالجن

روية الغيلان وسماع عزيف الجان
من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجان

لطيم الشيطان

التشبيه بالجن

جبل الجن

شعر فيه ذكر الجن

من المثل والتشبيه بالجن

ما يزعمون أنه من عمل الجن

مواضع الجن

مراتب الجن والملائكة

مراتب الشجعان

استطراد لغوي

زواج الأعراب للجن

رؤية الجن

إيمان الأعراب بالهواتف

من له رأي من الجن

ظهور الشق للمسافرين

ذكر من قتلته الجن أو استهوته

طعام الجن

رؤوس الشياطين

سكنى الجن أرض وبارٍ

التحصن من الجنّ

أثر عشق الجن في الصرع

تصور الجنّ والغيلان والملائكة والناس

أحاديث في إثبات الشيطان

شياطين الشعراء

كلاب الجن

أرض الجن

استراق السمع

شياطين الشام والهند

مناكحة الجنّ ومحالفتهم

مراكب الجن

شعر فيه ذكر الغول

جنون الجن وصرعهم

تعليل ما يتخيله الأعراب من عريف الجنان وتغول الغيلان

مُلح ونوادر

باب الجدِّ من أمر الجنِّ

قولهم: أروى من ضبِّ

قصيدتا بشر بن المعتمر

القصيدة الأولى

القصيدة الثانية

تفسير القصيدة الأولى

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

ستطراد لغوي

التوير

.. ص 2572

الكتاب الثامن عشر :

ما يشبه بالأرنب

طول عمر الأغضف والأرنب

لبن الأرنب

قصر يدي الأرنب

من أعاجيب الأرنب

تعليق في كعب الأرنب

تعشير الخائف

نفع الأرنب

تفسير القصيدة الثانية

القواطع في السمك

الضبع

جلد الضبع

تسمية السنة الجدية بالضبع

مما قيل من الشعر في الضباع

إعجاب الضَّبَاع بالقتلى

حديث امرأة وزوجها

حديث معاوية وجارسته الخراسانية

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

شعر فيه ذكر الضبع

بقية الكلام في الضبع
الحرقوص

الورل

زعم المجوس في العظاءة

شعر فيه ذكر للورل

فروة القنفذ

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

خصال الفهد

أرجوزة في صفة الفهد

نعت ابن أبي كريمة للفهد

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

زعم المجوس في لبس أعوان سومين

جوارح الملوك

نوادِرَ وأشعارَ وأحاديث

القول في العُرجان

عصا الحكم بن عبدل

عرجان الشعراء

البدء والتُّبيان

أحاديث من أعاجيب المماليك

أشعارٌ حسَّان

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

أخبار في المرض والموت

شعر في الرثاء

بعض المجون

.. ص 2749

الكتاب التاسع عشر :

في إحساس أجناس الحيوان

قتل المكاء للثعبان

قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

حزم فرخ العقاب

اختلاف عادات صغار الحيوان

الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

قدم ختان العرب

ختان الأنبياء

أثر الختان في اللذة

أثر الختان في العفاف والفجور

ظماً الأيّل إذا أكل الحيات

نصول قرن الوعل

بيوت الزنابير

معرفة الحقنة من الطير

ما يتعالج به الحيوان

رغبة الثعلب في القنفذ

صيد الظربان للضب

ما قيل في بلاهة الحمام

حيلة الفأرة للعقرب

علم الذرة

معرفة الدب

أمنيّة بشر أخي بشار

المحقق من الحيوان

ما قيل في حمق الأجناس المائية وفطنتها

حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

ما يغوص من السمك في الطين

جحرّة الوحش

حيلة الضب والبربوع

أوقات اختفاء الفهد والأيل

معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

ما يطراً عليه الطيران

ما جاء في الشعر من إحساس الطير.. وغير ذلك من الحيوان

اختلاف طبائع الحيوان وما يعترئها من الأخلاق

ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله

مواضع الفراخ والبيض

أكثر الحيوان بيضاً وأقله

أثر الإلقاء والزق في الحيوان

ما يزواج من الحيوان

عجائب البيض

.. ص 2822

الكتاب العشرون :

ما جاء في الفيلة

احتيال هارون بالهر لهزيمة الفيل

ما يدخل في ذكر الفيل..

طرائف من اللغات والأخبار في الفيل

حمل الفيل وعمره

مروج الفيلة

فهم الفيلة

فائدة نجو الفيل

شعر في الفيل

ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كلية ودمنة

الفيلة في الحروب

الفيلة المستأنسة

التكاثر بالفيلة

الفيل في الشعر

لسان الفيل

ضخم الفيل وظرفه

تعصب غانم الهندي على الفيل

قوة الفيل

طول مدة حمل الفيلة

صولة الفيل

تأديب الهند الفيلة

شعر هارون في الفيل

نابا الفيل

خرطوم الفيل

سباحة الفيل والجاموس والبعير

ولد الفيل

مغالبة الفيل للأسد

خوف الفيل من السنور

قول صاحب الفيل

شعر في الفيل

خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

الزندبيل

هياج الفيل

أهليّ القبلة ووحشيّتها

أكثر خلفاء المسلمين فيلة

شرف الفيل

نكاء الفيل

فضله في الحرب

عمر الفيل

الأسد والفيل

.. ص 2965

الكتاب الحادي والعشرون :

وفاء الشفنين

مثالب الفيل

رؤيا الفيل

حكم أكل لحمه

خرطوم الفيل

بعض صفة الفيل

قدرته على حمل الأثقال

مناقب الفيل

ما يحدث به الفيل

قصة الفيل

جسامة الفيل

سجود الفيل للملك

ما قيل في تعظيم شأن الفيل

تناول الفيل والقرد طعامه

قلة تصرف يدي الفيل

شعر في وصف جلد الفيل والجاموس

طيب عرق الفيل

الآية في الفيل

كلام الفيل والذئب

فهم الفيل الهندية

عضو الفيل

الفيل في كتاب الحيوان

خصائص الفيلة

أثر المدن في روائح الأشياء

أثر بعض التمر في العرق

قصة فيل مولى زياد

العيثوم

باب الظلف

في الزرافة

تسافد الأجناس المختلفة

شواذ السفاد

المخايرة بين ذوات القرون والجم

ذوات القرون

ما يسمى بروق

استطراد لغوي

علاقة القرون والحي بالذكور

فرس الماء

التداوي بفرس الماء وبنات عرس

صيد الذئب للإنسان

تعليم الذئب وتأليفه

مصارعة كلبية لشعب

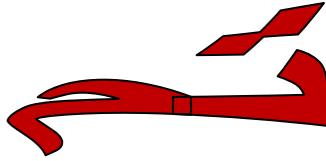
من خصائص الكبار والفلاسفة

قول بكر المزني في الأرضة

طول نماء الضب

الورل والضب

علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ
نوادير من الشعر والخير



القراءة زاد المعرفة ، والتفكير . لتسخير المعرفة

علي مولا